

تيسير الكبير الحديث

في تفسير كلام المصنفين

تأليف
العلامة الشيخ
عبد الرحمن بن ناصر السعدي
وقدم له

فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل فضيلة الشيخ محمد صالح المنجد

اعتنى به تحقيقاً ومقابلة
عبد الرحمن بن معلى اللوحى

طبعة جديدة ومنقحة عن نسخ خطية مع زيادات
تطبع لأول مرة

مكتبة العبيكان

تفسير الكبريل الحبيب

في تفسير كلام المثنان

تأليف

العلامة الشيخ

عبد الرحمن بن ناصر السعدي

١٣٧٦ هـ - ١٣٧٦ هـ رحمه الله تعالى

قدم له

فضيلة الشيخ محمد صالح العثيمين

فضيلة الشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل

اعتنى به تحقيقاً ومقابلة

عبد الرحمن بن معاذ اللويحي

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

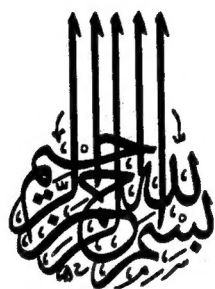
حقوق الطبع محفوظة للناسر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩



المقدمات

مقدمة فضيلة الشيخ: عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل.

مقدمة فضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين.

مقدمة المحقق.

مقدمة

صاحب الفضيلة الشيخ: عبد الله بن عبد العزيز بن عجيل

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد:

فإن الله بحكمته ورحمته أنزل كتابه تبياناً لكل شيء، وجعله هدى وبرهاناً لهذه الأمة، ويسره للذكر والتلاوة والهداية بجميع أنواعها ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أنزله بلسان عربي مبين، وتكفل بحفظه وإبلاغه لجميع البشر، وقبض له من العلماء من يفسرونه، ويبلغونه للناس ألفاظه ومعانيه، لتتم بذلك الهداية وتقوم به الحجة. وقد أكثر العلماء من التأليف في تفسير القرآن العظيم كل بما أوتي من علم، فمنهم من يفسر القرآن بالقرآن، ومنهم من يفسره بالأخبار والآثار، ومنهم من يفسره من حيث اللغة العربية بأنواعها، ومنهم من يعتني بآيات الأحكام إلى غير ذلك.

وقد كان لشيخنا العلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي - رحمه الله - من ذلك حظ وافر وذلك بتفسيره المسمى: (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) حيث جاء هذا التفسير سهل العبارة، واضح الإشارة، وصاغه على نمط بديع بعبارات قريبة لا خفاء فيها ولا غموض، فهو يعتني بإيضاح المعنى المقصود من الآية بكلام مختصر مفيد، مستوعب لجميع ما تضمنته الآية من معنى أو حكم سواء من منطوقها أو مفهومها، دون إطالة أو استطراد أو ذكر قصص أو إسرائيليّات، أو حكاية أقوال تخرج عن المقصود، أو ذكر أنواع الإعراب إلا في النادر الذي يتوقف عليه المعنى، بل يركز على المعنى المقصود من الآية بعبارة واضحة يفهمها كل من يقرأها مهما كان مستواه العلمي فهو في الحقيقة سهل ممتنع يفهم معناه من مجرد تلاوة لفظه، وقد اهتم بترسيخ العقيدة السلفية، والتوجه إلى الله، واستنباط الأحكام الشرعية، والقواعد الأصولية، والفوائد الفقهية إلى غير ذلك من الفوائد الأخرى التي لا توجد في غير تفسيره مع اهتمامه بتفسير آيات الصفات بمقتضى عقيدة السلف خلافاً لما يؤولها بعض المفسرين.

وقد منّ الله عليّ فسمعت منه بعض تفسيره شفهيّاً في حلقات الدروس في مسجد الجامع بعنيزة، كما أنني ممن أشار عليه بطبعه فطبع الجزء الخامس فقط في حياته عام ١٣٧٥هـ في المطبعة السلفية بمصر، وبعد ذلك تشاورنا في طبع بقيته، وساهمت في ذلك أيام كنت قاضياً في عنيزة فطبع باقيه بعد وفاته في عامي ٧٦ و ٧٧، وبعد تمام طبعه تداوله الناس بالقراءة والتدريس، ودرسه لإخواننا وأبنائنا الطلاب وحصل بذلك خير كثير وقرأه أئمة المساجد على جماعاتهم لوضوح عباراته. وقد طبع بعد ذلك طبعات أخرى لا يخلو كل منها من ملاحظة أو مواخذة.

ولما صارت طبعاته بهذه المثابة مع حاجة الناس إليه سمت همة ابننا الشيخ الفاضل: عبد الرحمن بن معلا اللويحق الأستاذ بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية إلى طبعه على هامش المصحف الموجه كل جزء (٢٠) صفحة مراعيّاً في كل صفحة وضع ما يتعلق بتفسيرها. وقد عرض عليّ النماذج الأولى لهذه الطبعة فأعجبني، وسررت بها جداً مؤملاً أن تكون هذه الطبعة خير معين على فهم كتاب الله تعالى، والاعتناء به تلاوة وحفظاً وفهماً، لأنه بهذا الصنيع يقرب الاستفادة لتالي القرآن لسهولة

التناول وسرعة الرجوع إلى تفسير الآية من نفس الصفحة بدلاً من الرجوع إليها من كتب التفسير البعيدة. كما أنه سيعتني بتصحيح الأصل وجودة الطبع، فأسال الله أن يشكر للابن الشيخ عبد الرحمن بن معلا اللويحق هذا الصنيع المبارك وأن يجزيه أفضل الجزاء وأن ينفع بهذه الطبعة كما نفع بسابقاتها وأن يجزي كل من ساهم في إخراج هذا المشروع النافع أفضل الجزاء وأن يتغمد الجميع ومؤلف التفسير برحمته إنه جواد كريم صلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

حرر في ٢٧/٩/١٤١٦ هـ

وكتبه الفقير إلى الله

عبد الله بن عبد العزيز بن عقيب

رئيس الهيئة الدائمة بمجلس القضاء الأعلى سابقاً

وعضو بمجلس القضاء الأعلى (متقاعد)

مقدمة

صاحب الفضيلة الشيخ: محمد بن صالح العثيمين

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن تفسير شيخنا عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله تعالى المسمى (تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان) من أحسن التفاسير حيث كان له ميزات كثيرة:

منها سهولة العبارة ووضوحها حيث يفهما الراسخ في العلم ومن دونه.

ومنها تجنب الحشو والتطويل الذي لا فائدة منه إلا إضاعة وقت القارئ وتبليبل فكره.

ومنها تجنب ذكر الخلاف إلا أن يكون الخلاف قوياً تدعو الحاجة إلى ذكره وهذه ميزة مهمة بالنسبة للقارئ حتى يثبت فهمه على شيء واحد.

ومنها السير على منهج السلف في آيات الصفات فلا تحريف ولا تأويل يخالف مراد الله بكلامه فهو عمدة في تقرير العقيدة.

ومنها دقة الاستنباط فيما تدل عليه الآيات من الفوائد والأحكام والحكم وهذا يظهر جلياً في بعض الآيات كآية الوضوء في سورة المائدة حيث استنبط منها خمسين حكماً وكما في قصة داود وسليمان في سورة ص.

ومنها أنه كتاب تفسير وتربية على الأخلاق الفاضلة كما يتبين في تفسير قوله تعالى في سورة الأعراف ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین﴾

ومن أجل هذا أشير على كل مرید لاقتناء كتب التفسير أن لا تخلو مكتبته من هذا التفسير القيم.

وأسأل الله تعالى أن ينفع به مؤلفه وقارئه إنه كريم جواد وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

كتبه محمد الصالح العثيمين

في ١٥ / رمضان ١٤١٦ هـ

مقدمة المحقق

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد:

فإن إنزال القرآن الكريم على هذه الأمة منة عظيمة؛ لأنه سبيل الهداية، وطريق السلامة من الضلال والغواية: ﴿فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً﴾.

ولكن الاستفادة الحقة من هذا الكتاب الكريم تكون بدوام الصلة به علماً وعملاً، تلاوة وتدبراً، وفهماً: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾ ومن سبل ذلك التدبر، والفهم: النظر فيما كتب أهل العلم في تفسير القرآن العظيم؛ فإن من كمال حفظ الله عز وجل لهذا الذكر الحكيم أن قيض له جهابذة فهموا مراد الله عن الله وعن رسوله ﷺ فألفوا في ذلك كتباً بسطوا فيها ألفاظ القرآن، وأبانوا ما يعسر فهمه، وفصلوا ما جاء فيه من القواعد والكليات، ودفعوا التعارضات المتوهمه، وبيّنوا مراجع الضمائر، وغينوا المعاني المرادة إذا احتمل الكلام أوجهاً متعددة وكانوا طرائق قدداً في عنايتهم بهذا الكتاب العظيم حتى جاء شيخ مشايخنا العلامة: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي رحمه الله فجعل جل عنايته بالمعاني التي هي المراد الأعظم، فكان كتابه فتحاً في هذا العلم؛ إذ أوقف القارئ على المراد، وأعانته على تدبر التنزيل، دون أن يقف به على المشغلات الصارفات عن ذلك كالبحوث اللغوية الصرفة، والإسرائيليات ونحوها، وليس ذلك عن قصور إذ لا يبلغ هذا المبلغ من القدرة على تسهيل المعاني، وبيان المراد إلا من ملك من علوم الآلة، وسعة الاطلاع على كتب التفسير ما يؤهله للقيام بهذه المهمة العظيمة.

ولقد منّ الله عليّ بالعناية بهذا التفسير، ومحبة صاحبه رحمه الله وقراءة التفسير وإقرائه، والنصح بقراءته، ومنّ الله عليّ بالعناية بطبعه في مجلد واحد يهدم الحواجز النفسية الصادة عن قراءته في مجلداته السبعة التي كان عليها في أشهر طبعاته السابقة، وكان الهم منصرفاً إلى ذلك، ولم يكن الذهن ملتفتاً إلى طبعات الكتاب وما فيها من أخطاء حتى هاتفتني بعض أفاضل طلبة العلم من المشايخ الكرام كان منهم: فضيلة الدكتور: عبد الرزاق بن الشيخ عبد المحسن العباد البدر، وفضيلة الدكتور: خالد بن عثمان السبت، حيث جرت مهاتفات معهما ومقابلة للشيخ: عبد الرزاق كانت فاتحة خير للاهتمام بالتفسير وينسخه المخطوطة، وطبعاته فبين أن في الطبعات عواراً كثيراً، وأن التفسير لم يخرج حتى الآن على الصورة التي تركها الشيخ - رحمه الله - وبيان ذلك يحتاج إلى تفصيل تاريخي لكتابة الشيخ لهذا التفسير، وما وقع من طباعته، فرأيت أن أعرض الأمر مفصلاً في هذه المقدمة حتى يستبين الأمر للقارئ الكريم، ويرى ما يمكن أن يفعله الكتبيون والناشرون في الكتب.

تأليف الشيخ للتفسير:

بدأ الشيخ - رحمه الله - تأليفه لهذا التفسير المبارك في عام ١٣٤٢هـ وأنه في عام ١٣٤٤هـ.

وبهذا يظهر أنه قد بدأه وله من العمر خمسة وثلاثون عاماً وأتمه وله من العمر سبعة وثلاثون عاماً.

والذي يقرأ التفسير يحسب أنه لا يمكن لمن كان في هذا السن أن يكتبه إذ يمثل كتابة عالمٍ ناضج متمكن من العلم وآلاته، واسع الاطلاع ﴿وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾.

وقد كتب نسخة واحدة ثم أمر من ينسخ له نسخة أخرى، وبالتتبع والسؤال يبدو لي أنه لم يُنسخ من التفسير إلا هاتان النسختان: نسخة الشيخ - رحمه الله - والنسخة التي أمر النساخ بنسخها.

وابتغاء توضيح الأمر أبين تفاصيل متعلقة بهاتين النسختين مع وصف لهما:

النسخة الأولى:

هذه النسخة هي التي كانت في حوزة الشيخ وملكه، وهي في جملتها كما سيظهر بخط الشيخ - رحمه الله - وهذا وصف لها:

تتكون هذه النسخة من تسعة أجزاء، جعلها الشيخ رحمه الله في تسعة مجلدات:

المجلد الأول:

وقد كتب على غلافه (المجلد الأول من تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، من منن الله على عبده، وابن عبده، وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي)^(١) وفوقها بخط الشيخ - رحمه الله - وبحرف صغير (هذه التسمية مأخوذة من قوله: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ وقوله: ﴿ولا تأتونك بمثل إلا جنتك بالحق وأحسن تفسيراً﴾ وفي وسط الصفحة وبخط الشيخ أيضاً: «شرعت في هذا التفسير المبارك غرة شهر () سنة ١٣٤٢هـ أرجو الله أن يتمه بنعمته».

وهذا المجلد بخط الشيخ - رحمه الله - وعليه هوامش وتعديلات بخطه أيضاً، ويقع في (١٥٠) صفحة، في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً أوله المقدمة، ثم تفسير الفاتحة إلى تفسير قوله تعالى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾ الآية (١٢٩) من سورة آل عمران.

المجلد الثاني:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٩٢) صفحة في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً، أوله تفسير الآية (١٣٠) من سورة آل عمران وهي قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعكم تفلحون﴾ وآخره: آخر تفسير سورة الأنعام.

المجلد الثالث:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٢١٤) صفحة في كل صفحة (٢٥) سطراً تقريباً أوله أول تفسير سورة الأعراف، وآخره آخر تفسير سورة هود.

المجلد الرابع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٢٩) صفحة في كل صفحة (٢٦) سطراً تقريباً أوله أول تفسير سورة يوسف، وآخره آخر تفسير سورة الإسراء.

(١) يلاحظ أن هذه العبارة كتبت على طرة كل مجلد بعد ذكر رقمه، مع اختلاف يسير في بعض الألفاظ، ففي طرة المجلد الثاني جاءت العبارة هكذا: (المجلد الثاني من تيسير الكريم المنان في تفسير كلام الرحمن لجامعه: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين.. آمين) وفي المجلد الثالث: (المجلد الثالث من تيسير الرحمن في تفسير القرآن لجامعة الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن سعدي).

(٢) الكلمة غير واضحة في الأصل والذي يبدو أنه شهر صفر أو محرم لأن الشيخ أتم هذا الجزء في نهاية شهر ربيع الأول.

المجلد الخامس:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٢٢٩) صفحة في كل صفحة (٢٨) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة الكهف وآخره آخر تفسير سورة النمل.

المجلد السادس:

وهذا المجلد بخط الشيخ: محمد بن منصور بن إبراهيم بن زامل - رحمه الله - أتم كتابته في ٢٤ رجب سنة (١٣٤٥هـ) وهو خط جميل، ولكنه كثير الأخطاء، ويفصل بين جزئي الكلمة في سطرين، ويكثر هذا منه مما يربك القارى.

وعلى هذا الجزء هوامش وتعديلات بخط الشيخ عبد الرحمن بن سعدي - رحمه الله - ويقع في (١٤٢) صفحة في كل صفحة (٢٩) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة القصص، وآخره آخر تفسير سورة الصافات.

المجلد السابع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٥٣) صفحة في كل صفحة (٢٨) سطراً تقريباً، أوله: تفسير سورة (ص) وآخره: آخر تفسير سورة الفتح.

المجلد الثامن:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (١٤٦) صفحة في كل صفحة (٢٩) سطراً، أوله أول تفسير سورة الحجرات، وآخره آخر تفسير سورة القيامة.

المجلد التاسع:

وهو بخط الشيخ - رحمه الله - ويقع في (٥٠) صفحة في كل صفحة (٣٠) سطراً تقريباً، أوله تفسير سورة الإنسان، وآخره آخر تفسير سورة الناس.

النسخة الثانية:**المجلد الأول:**

وقد كتب عليه: (المجلد الأول من تيسير الكريم المنان في تفسير القرآن لمعلقه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين) وهكذا كتبت هذه العبارة أو قريباً منها باختلاف يسير على طرة كل مجلد.

وفي وسط الصفحة ما يلي: (تنبيه: اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما يتعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة؛ لأن الله وصف هذا الكتاب أنه «مثنى» تشنى فيه الأخبار، والقصص، والأحكام، وجميع المواضيع النافعة، لحكم عظيمة، وأمر بتدبره جميعه؛ لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف، وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها).

وكثير من هذا المجلد بخط الشيخ - رحمه الله - إلا الصفحات ما بين الصفحة (٣٦) والصفحة (٩٦) فهي بخط مغاير لخط الشيخ - رحمه الله - وبداية المجلد ونهايته كالنسخة الأولى.

المجلد الثاني:

وهو بخط الشيخ علي الحسن العلي الحسن البريكاني، وبداية المجلد ونهايته مثل النسخة الأولى، وللشيخ

عبد الرحمن السعدي رحمه الله عليه تصويبات مما يدل على أنه قرأه ويقع في (١٧٧) صفحة في كل صفحة (٣١) سطراً تقريباً.

المجلد الثالث:

وقد نسخ هذا المجلد ناسخان بدأ الأول بنسخ اثني عشرة صفحة ولكن خطه سقيم، وأخطاه كثيرة ولذلك كتب الشيخ رحمه الله بخطه على الصفحة الثانية: (الصحائف الأولى من هذا الجزء خطها سقيم، الأمل الثاني فيها عند تصحيحها) ثم نسخت الصحائف التالية إلى آخر الجزء بخط مغاير أمثل من الخط الأول، ولم يكتب على هذا الجزء اسماً للناسخين.

ويقع هذا الجزء في (١٥٢) صفحة كل صفحة (٣١) سطراً. وبداية المجلد ونهايته كمثيله في النسخة الأولى.

المجلد الرابع:

وهذا الجزء بخط الشيخ سليمان الحمد البسام وللشيخ عبد الرحمن السعدي عليه بعض تصويبات بخط يده رحمه الله ويقع في (١٠٣) صفحات في كل صفحة (٢٨) سطراً وبداية المجلد ونهايته كما في النسخة الأولى.

المجلد الخامس:

وهذا المجلد هو الذي بعث به الشيخ رحمه الله للطباعة أول الأمر.

وكتب الشيخ بخط يده المقدمة التي طبعت مع هذا الجزء أول ما طبع، وهي مقدمة أثبتتها في هامش هذه الطبعة عند أول تفسير سورة الكهف، وهذا المجلد نقل عن خط الشيخ المؤلف رحمه الله وليس عليه اسم كاتبه، وقد ألحق الشيخ رحمه الله به أصول من أصول التفسير، وتفسير ألفاظ عامة يكثر في القرآن ورودها ويحتاج إلى معرفتها) وهي بخط الشيخ رحمه الله وقد جعلتها ملحقة بهذه الطبعة في آخر التفسير.

وفي آخر الجزء فهرس لمحتوياته، ثم نقل للخطاب الموجه من الشيخ رحمه الله إلى الشيخ محمد نصيف رحمه الله وقد أرخ في ١٣٧٤هـ / ٢ / ٣١ ونص الخطاب تجده في هذه المقدمة وعدد صفحات هذا المجلد (٢١٤) صفحة في كل صفحة من صفحات هذا الجزء (٣٠) سطراً، أوله تفسير سورة الكهف، وآخره آخر تفسير سورة النمل ثم بعدها أصول من أصول التفسير وتفسير الأسماء الحسنى.

المجلد السادس:

وهذا المجلد بخط الشيخ رحمه الله وبدايته من أول سورة القصص ونهايته بنهاية تفسير سورة الصافات. وعدد صفحات هذا الجزء (١٥٤) صفحة في كل صفحة ما بين (٢٨. ٢٥) سطراً وبدايته ونهايته كمثيله في النسخة الأخرى.

المجلد السابع:

وهو بخط الشيخ: سليمان بن حمد العبد الله البسام رحمه الله وعدد صفحات هذا الجزء (١٢٢) صفحة في كل صفحة (٢٢) سطراً، وبداية الجزء ونهايته كمثيله في النسخة الأخرى.

المجلد الثامن:

وهو بخط الشيخ رحمه الله وعدد صفحات هذا الجزء (٢٠١) صفحة.

ويبدأ من أول تفسير سورة الحجرات وينتهي بتفسير سورة الناس.

وبهذا فإن هذه النسخة تحتوي على ثمانية أجزاء بينما النسخة الأخرى على تسعة أجزاء.

هذا عن نسخ التفسير المخطوطة وأما طباعته فقد كانت فاتحتها طباعة الجزء الخامس منه، إذ بعث الشيخ رحمه الله إلى الشيخ محمد نصيف رحمه الله برسالة مدونة في خاتمة المجلد الخامس من النسخة (ب) مؤرخة في ٣٠/٢/ ١٣٧٤هـ. وقد نقلت من خط الشيخ بخط مغاير هذا نصها: بسم الله الرحمن الرحيم، حضرة محترم المقام الشيخ محمد نصيف حفظه الله آمين.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. سبق جواب كتابكم الآمل وصوله، ثم إننا نكلفكم حيث أرسلت لكم تفسيرنا الكبير المجلد الخامس منه وقع النظر على الاختصار على طبعه فجعلنا له مقدمة وختمناه بأصول وكمالات من أصول وكمالات التفسير، ونريد أن يطبع منه خمسة آلاف نسخة، وأحببت أن يكون الاختيار لجنابكم في اختيار من يتولى طبعه، إما محب الدين الخطيب أو الشيخ حامد أو من ترجح وتحثه على العناية التامة فيه، ولو زاد علينا المصرف، وقد وصيت الشيخ: عبد الله المحمد العوهلي يسلم لكم كل الذي تطلبون لأجل طبعه وأرجو الله أن يثيبكم الثواب الجزيل، ويشكر مساعيكم ويجزيك عنا أفضل الجزاء فأنت طال عمرك عوض النفس في كل شيء والله الموفق والسلام.

محبك^(١) عبد الرحمن الناصر السعدي

وتنبه الطابع على طبع خاتمة

الأصول وكمالات التفسير للحاجة الشديدة إليها

وقد أبان الشيخ - رحمه الله - عن مقصوده من أفراد هذا الجزء بالطباعة في المقدمة التي كتبها لهذا الجزء^(٢) فقال: وقد تكرر علي السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه وألحوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً؛ لأنه مبسوط، وأيضاً في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة، لذلك أحببت إجابتهم لنشر بعض ما طلبوا وهو الاختصار على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه). وقد طبع هذا المجلد عام ١٣٧٥هـ، ثم بعث الشيخ - رحمه الله - ببقية أجزاء الكتاب للشيخ محب الدين الخطيب - رحمه الله - فأتم طباعة الكتاب كله، فطبع الكتاب في عام ١٣٧٦هـ، وقبل وفاته بشهر تقريباً بعث إلى شيخنا عبد الله بن عقيل رسالة قال فيها: (التفسير مثل ما ذكرت لك، وصلني منه الجزء الأول عدة ملازم من زمان، وبعد ذلك ما جاءنا عنه خبر)^(٣) وبعدها بعشرة أيام بعث برسالة أخرى قال فيها: (أفيدكم وصلني ملازم أيضاً من الجزء الثاني، وبقية الجزء الأول من التفسير، ويذكر الشيخ نصيف أنهم إن شاء الله مجتهدون في إنجازه، يسر الله ذلك وسهله)^(٤). وبهذا يتبين أن الشيخ رحمه الله لم ير الكتاب كاملاً ويبدو أنه لم يبد ملاحظات على ما طبع منه، إذ توفي بعد رسالته السابقة بشهر تقريباً.

* * *

وتتميز هذه الطبعة أولاً بالسبق الزمني فإنها أول الطباعات، وهي أصل جميع الطباعات السابقة فليس هناك طبعة إلا وكان أصلها عائداً إلى هذه الطبعة. وهي بذلك أسلم من غيرها، وأقل في الأخطاء والتصحيحات والتحريفات، وهذا لا يعني جودتها، وموافقتها للأصل، إذ ثم ملاحظ لا بد من بيانها:

(١) تصحفت الكلمة في النسخة إلى: (محمد)، لأن الخطاب فيما يظهر منقول عن كتابة الشيخ - رحمه الله - فهو بخط مغاير لخط .

(٢) انظر نص المقدمة عند أول تفسير سورة الكهف من هذه الطبعة.

(٣) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٢٩٦).

(٤) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٢٩٨).

الملحظ الأول:

التصرف في طريقة الشيخ في تفسير الآيات، حيث يعتمد الشيخ - رحمه الله - إلى ذكر الآيات أحياناً، وأحياناً يقول إلخ القصة، إذا كانت قصة من القصص وأحياناً يورد كلاماً في سياق التفسير لا يقصد به ذكر الآية فغير المصححون ذلك فيقومون بإيراد الآيات كاملة، ويغيرون كلامه ويشطبون في المخطوطة، ويضعون الآية أو الآيات بدلاً منه.

ومن أمثلة ذلك:

إن الشيخ رحمه الله أورد قصة قارون هكذا: (إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم) إلى آخر القصة فشطب المصححون على قوله: (إلى آخر القصة)، وأوردوا الآيات كاملة، وهي في هامش النسخة بخط المصحح.

وكذا عند إيراد قصة لوط في سورة العنكبوت حيث أورد الآيات من قوله تعالى: ﴿ولوطاً إذ قال لقومه﴾ إلى قوله: ﴿قال رب انصرني على القوم المفسدين﴾ فأتوا الآيات إلى قوله: ﴿ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون﴾ وهي في هامش النسخة بخط المصحح.

الملحظ الثاني:

التصرف في تقسيم الكتاب، حيث قسم الشيخ التفسير إلى ثمانية أجزاء في إحدى النسخ وتسعة في الأخرى، وكانت النسخة التي اعتمدت عليها المطبعة السلفية في ثمانية أجزاء ينتهي الأول منها بنهاية تفسير قوله تعالى: ﴿ولله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾ في سورة آل عمران (١٢٩) فجعلوا نهاية الجزء بنهاية تفسير سورة آل عمران، وكتبوا في نهاية الجزء (تم المجلد الأول من تيسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن عن نسخة مؤلفه العلامة الجليل الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ويليهِ المجلد الثاني وأوله تفسير سورة النساء، والحمد لله رب العالمين)^(١) وليس الأمر كما قالوا بل تقسيم النسخة التي اعتمدها على خلاف ما ذكروا.

الملحظ الثالث:

الزيادات، لقد زاد القائمون على هذه الطبعة في التفسير زيادات وإن كانت يسيرة إلا أنه لم يتم الإشارة إليها لا في المقدمة، ولا في مواضع الزيادات فمن ذلك:

١- زيادة رقم الجزء من أجزاء القرآن الكريم قبل بدايته فقبل بداية الجزء الثالث كتبوا عنواناً في وسط الصفحة (الجزء الثالث)^(٢) وكذا عند الجزء الرابع وليس في النسخة المخطوطة شيء من ذلك، ولم يسيروا إلى كونها ليست من كلام الشيخ رحمه الله.

٢- زيادة جملة: (قوله تعالى) أو: (قال تعالى) في مواضع كثيرة ومن أمثلة ذلك زيادتها في أول سورة النساء مع أن عادة الشيخ - رحمه الله - أن يبدأ الكلام بذكر الآيات المفسرة بعد البسملة^(٣).

٣- زيادة قوله من ديارهم، وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم﴾ الآية، حيث قال الشيخ: (فقرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه) فزادوا جملة من ديارهم فصار النص

(١) (١/٢٨٨).

(٢) (١/١٤٩).

(٣) المخطوطة ب (٢/٢٣) وطبعة السلفية (٢/٣).

هكذا: (ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم).

٤- ومن أمثلة ذلك قال رحمه الله: (أي (و) أرسلنا (إلى مدين) القبيلة المعروفة المشهورة (شعياً) فأمرهم). فعدل النص حتى صار بزياداته هكذا: (أي: (و): أرسلنا (إلى مدين) القبيلة المعروفة المشهورة أخاهم شعياً الذي أمرهم).

وبعدها بقليل قال الشيخ (فكذبوه) فأخذهم عذاب الله فعدلت فصارت (فكذبوه فأخذتهم الرجفة) أي: عذاب الله^(١).

وهذا كثيراً جداً، وبعض التصرف تصرف مقبول في الأصل؛ للحاجة إليه، أو لخطأ في سياق الكلام، إما يعود الضمير المذكور على مؤنث أو نحو ذلك، وإما ينقص أو نحوه، ولكن هذا التصرف وإن كان مقبولاً في الأصل إلا إنه لم ينبه عليه، ولم يشر المصحح إلى شيء من التغيير.

الملحظ الرابع:

التصحيح في بعض الجمل تصحيحاً خاطئاً - بل ظاهر الخطأ - ومن ذلك:

١- قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾: ﴿لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام﴾ بأن كان عنه مسافة قصر فأكثر، أو بعيداً عنه عرفاً، فهذا الذي يجب عليه الهدى).

وقد جاء التعديل عجباً من العجب حيث غيرت عنه إلى عند أو كلمة (عرفاً) إلى (عرفات) فجاء النص هكذا: (بأن كان عند مسافة قصر فأكثر أو بعيداً عند عرفات فهذا الذي يجب عليه الهدى)^(٢).

وقد تابعت كل الطباعات مقلدة هذا الخطأ.

٢- ومن التعديل ما يكون بدون مسوغ ظاهر أو بمسوغ من وجهة نظر المصحح دون إشارة للتعديل ومثال ذلك:

قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا﴾ الآية، (وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ فاتاكم بكتاب زعم أنه من عند الله). غيرت كلمة زعم إلى: (أخبركم أنه من عند الله)^(٣).

الملحظ الخامس:

بعض الأخطاء الظاهرة مثل:

قال الشيخ رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾.

(فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة) هكذا في المخطوطتين وجاء في طبعة السلفية (فالشرك لا يغفره الله بالتوبة)^(٤) وهذا خطأ شنيع، وعلى ذلك تابعت الطباعات^(٥).



وبعد ظهور هذه الطبعة بسنين طبع التفسير طبعة أخرى عن طريق المؤسسة السعيدية، التي كلفت الأستاذ

(١) ينظر الطبعة السلفية (٤٣/٦)، والمخطوطة ب (٣٣/٦).

(٢) المخطوطة ب (٨٢)، طبعة السلفية، (١١٧/١).

(٣) انظر ص ٢٨ من المخطوط (ب) من الطبعة السلفية (٢٧/١).

(٤) (١٣٨/١).

(٥) ينظر طبعة النجار (٢٨٧/١).

محمد زهري النجار بتصحيح الكتاب، والنجار يوصف بأنه من علماء الأزهر، وله بعض الأعمال الأخرى كتصحيحه لكتاب الأم للشافعي، وهذه الطبعة طبعة تميزت بأنها أضحت الطبعة المعتمدة لسائر طبعات التفسير بعدها بل اعتمدت طبعها الرئاسة العامة للإفتاء والدعوة والإرشاد في المملكة العربية السعودية، وقد كان ذلك لإحسانهم الظن في المؤسسة ومصححها، ولقد تبين لي جملة من الملاحظ تظهر عوار تلك الطبعة أذكر هنا جملة منها:

الملحظ الأول:

اعتماد هذه الطبعة اعتماداً كلياً على الطبعة السلفية، دون الإشارة إلى ذلك في مقدمة الطبعة، وهذا الاعتماد جعل الملاحظ المذكورة سابقاً على الطبعة السلفية تصدق على هذه الطبعة أيضاً، بل قد زادت طبعة النجار الأمر فجمعت إلى ذلك ملاحظ أخرى أشد وأخطر، ولو أن الطبعة السلفية صورت بدل أن يعهد بتصحيحها إلى النجار لكان الأمر أهون.

الملحظ الثاني:

التصرف في مواقع الآيات من التفسير:

لقد جرت عادة الشيخ - رحمه الله - أن يبدأ فيذكر الآيات التي يريد تفسيرها كاملة ثم يشرع في تفسيرها مجزأة عقب ذلك، وفي بعض الأحيان يقوم رحمه الله بذكر الآيات إذا كانت قصصاً للأنبياء فيقول إلى آخر القصة، وفي أحيان قليلة يغفل ذكر الآيات كاملة فيشرع في تفسيرها مباشرة، وعلى ذلك يجري سياق التفسير، ولكن النجار عمد إلى جعل الآيات في أعلى الصفحة، وجعل بينها وبين التفسير خطأ ثم حذف الآيات في التفسير، ومن هنا يأتي اضطراب السياق في بعض الأحيان فيضطر إلى حذف بعض الكلمات أو الإضافة أو نحو ذلك.

الملحظ الثالث:

التصرف بالزيادة:

إن من أعجب ما عمل النجار أن زاد في التفسير ففي بعض المواضع ترك الشيخ - رحمه الله - تفسير بعض الآيات سهواً، فيقوم النجار بتفسيرها من عنده.

وفي مواضع أخرى تكون النسخة التي اعتمدت عليها الطبعة السلفية ناقصة؛ لأن الناسخ تجاوز الآيات فيقوم النجار من قبله بتفسير هذه الآيات. وهذه المواضع كثيرة جداً تصل في بعض المواقع إلى صفحات، وفي بعضها إلى أسطر، وفي أخرى إلى كلمات، وهذه أمثلة لها:

١- سقط من النسخة الخطية (ب) تفسير الآية (٢٠٧) من سورة البقرة وهي قول الله عز وجل: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رؤوف بالعباد﴾ وبناء على سقوطها من النسخة سقطت من الطبعة السلفية فجاء النجار ففسر الآية من عنده، وبدأ بمعاني المفردات، ورجع إلى جملة مراجع؛ كالقاموس والصحاح، وتفسير ابن كثير، ولم يشر إلى أن الكلام من كلامه، وليس من كلام الشيخ - رحمه الله - وقد وقع هذا في صفحتين ونصف من طبعته ابتداء من منتصف الصفحة (٢٥٢) من المجلد الأول إلى نهاية ص (٢٥٤)، والقارى للكلام يعلم أنه ليس من كلام الشيخ - رحمه الله - لأن الشيخ لا ينقل من مصادر، وإنما يفسر بما فتح الله عليه كما قرر ذلك في أول الكتاب.

٢- ومن الزيادات الطويلة التي زادها النجار زيادته في تفسير الآيات رقم (١٠٥-١٠٧) من سورة الأنعام حيث تجاوزها الشيخ فلم يفسرها ففسرها النجار في الصفحات ذوات الأرقام (٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢) من

الجزء الثاني، ولم يشر إلى التصرف، وظاهر من أسلوبه أنه ليس أسلوب الشيخ حيث أتى ببعض الإعرابات والمعاني اللفظية ثم ذكر المعنى الإجمالي. ومن عجيب أمره أنه في الصفحة (٤٤٩) تصرف تصرفاً يسيراً بأن قدم كلمة على أخرى، وأشار في الهامش إلى ذلك التصرف، ولم يشر إلى تصرفه بزيادة ثلاث صفحات.

٣- في تفسير الآيتين (٥٠، ٥١) من سورة الحج سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى الآية رقم ٥٦ فجمع بينهما وبين هذه الآية فكتب ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك أصحاب الجحيم﴾، ثم فسر الآية على وفق ما كتب، فعمد النجار إلى تغيير التفسير والزيادة زيادة طويلة يصل مجموعها إلى صفحة ونصف الصفحة تقريباً^(١) ولم يشر إلى شيء من التعديل.

٤- ومن الزيادات العجيبة أن الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - أورد قوله سبحانه: ﴿فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين﴾ من الآية رقم (٢٩) من سورة الدخان، في سياق تفسيره للآية رقم (٤١) من سورة المؤمنون، مستشهداً بها، ولكن يبدو أن النجار ظنها من السورة نفسها ففسرها تفسيراً من عند نفسه ونسبها إلى الشيخ، ولم يعلق، ولم يبين أنه من كلامه، وهذه الزيادة تقع في صفحة تقريباً^(٢).

ومن عجيب حاله أنه يعلق أحياناً في الهامش على زياداته وكأنها تعليق على كلام الشيخ رحمه الله^(٣).

الملحظ الرابع:

الحواشي والتعقبات:

لقد قام النجار بتعقب الشيخ رحمه الله في مواضع كثيرة من التفسير ووضع هامش لتلك التعقبات فتعدى مهمته، وتجاوز طوره، فراح يعلق على هذا التفسير القيم بآراء بعدت عن الصواب، وجانب الحق في أجلى معانيه مما شوه به هذا الكتاب، وأساء إلى المؤلف، وغش القراء، وأضل الناشئة كما أنه اعترض على المؤلف، ورد أقواله بآراء من عنده لم يوفق فيها إلى الحق والصواب، مع أنه ليس من حقه ذلك، ولا من مهمته أن يعترض على المؤلف فيما اختاره، وإنما مهمته هي تحقيق النص وتصحيحه^(٤).

(والذي في أول الكتاب من هذه التعقبات اعتراضات بسيطة على عبارة، أو لفظة أو نحوها، أما الذي في وسطه وآخره فهي اعتراضات وخيمة تحريف لكلام الله، وغلو في الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وتنقص للعلماء وكذب عليهم)^(٥).

ولقد كان في معظم تعليقاته متهماً للشيخ وأسلوبه وهذه بعض تعبيراته التي تظهر ذلك قال: (والعبارة قلقة كما ترى)^(٦)، (العبارة مهمة تحتاج إلى إيضاح)^(٧)، (العبارة فيها شيء من الاضطراب فالأوضح أن يقال)^(٨)، (وفي العبارة غموض كما ترى)^(٩).

(١) انظر طبعة النجار ٣٠٨/٥، ٣٠٩، وقارنه بما في هذه الطبعة.

(٢) ينظر طبعة النجار (٣٥٠/٥).

(٣) ينظر طبعة النجار (٢٥٤/١).

(٤) الشيخ محمد سليمان البسام: كشف الستار عن تلفيق وتعليق النجار على تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي (٧).

(٥) المصدر السابق (٩).

(٦) (١٠٤/١).

(٧) (١٥٩/١).

(٨) (٢٤٠/١).

(٩) (٣٤٦/١).

ولقد أبان الشيخ محمد بن سليمان البسام عوار تلك التعقبات بياناً شافياً في رسالة مستقلة عنوانها: (كشف الستار عن تليف وتعليق النجار على تفسير الشيخ عبد الرحمن السعدي).

وذكر أمثلة كثيرة دالة على أخطاء النجار فيما زعمه من أخطاء وقع فيها الشيخ - رحمه الله - وأكثرني بالإحالة على تلك الرسالة الماتعة، ففيها نقد علمي قوي لأخطاء ظاهرة وقع فيها النجار وأشير هنا إلى ثلاث تعقبات فقط أبين من خلالها شيئاً يسيراً من سوء صنيع النجار، وأما التعقبات التي تحتاج إلى نقد علمي فأحيل فيها إلى رسالة الشيخ محمد البسام.

١ - وقوع النجار في الخطأ ثم تخطئة الشيخ رحمه الله به:

قال الشيخ - رحمه الله - في تفسيره قوله تعالى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾ «أي نكاحاً صحيحاً ويطأها؛ لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق) هكذا في النسختين وفي الطبعة السلفية التي اعتمد عليها النجار، ولكنه أسقط (إلا) فصارت العبارة: «لأن النكاح الشرعي لا يكون صحيحاً» وهذا فعله، وليس فعل الشيخ - رحمه الله - ثم قال النجار في الهامش قوله: «لأن النكاح الشرعي الخ» في العبارة اضطراب، والصواب أن يقال: «لأن النكاح الشرعي الصحيح، يدخل فيه العقد والوطء بإجماع العلماء» فأخطأ النجار ثم خطأ الشيخ، وعدل خطأ الشيخ بزعمه.

٢ - إقحام تعليقات لا محل لها فمن ذلك. قال الشيخ - رحمه الله - «والظلم الذي بين العبد وربّه فيما دون الشرك تحت المشيئة والحكمة». قال النجار: (وفي هذا المعنى قال صاحب جوهرة التوحيد: ومن يمت ولم يتب من ذنبه فأمره مفوض لربه»

٣ - الاستدراك في غير محله: قال الشيخ - رحمه الله - «فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة وزيادة في النعم المفقودة». قال في الهامش قوله: «فالشكر فيه بقاء النعم.. الخ» عبر العلماء عن هذا المعنى بقولهم: «الشكر قيد للموجود، وصيد للمفقود»^(١) فكانه خطأ الشيخ في اختيار اللفظ وليس هذا بخطأ بل الأمر واسع في اختيار اللفظ المناسب.

الملحظ الخامس:

سوء توزيع النص

حيث قام بإعادة توزيع النص إلى فقرات وعمد إلى أن تكون تلك الفقرات قصيرة جداً وعليه فقد فرق أجزاء الجملة بين الأسطر، وقطع الكلام عن سياقه إذ نجد فعل الشرط في سطر وجوابه في آخر، والمعلول في سطر وتعليقه في آخر، ولذلك تضخم التفسير جداً مع أن صفحاته يمكن أن تكون أقل من ذلك بكثير، والله أعلم بالهدف من وراء ذلك التضخيم.

إن هذه الملاحظ ليست إلا أمثلة دالة على أن عمل النجار لم يكن عملاً أميناً على هذا التفسير.

وبمجممل هذا العرض يتضح أن التفسير لم يخرج بصورته التي كتبها الشيخ - رحمه الله - إذ جميع الطبعات كانت نسخاً مكرورة عن طبعة النجار، التي اعتمد فيها صاحبها على الطبعة السلفية، والطبعة السلفية اعتمدت على النسخة الثانية التي لم تكن بخط الشيخ وكان فيها بعض النقص وبعض التحريف من النسخ.

ولما كان الأمر بهذه الصورة التي تظهر الحاجة الماسة إلى إخراج هذا التفسير المبارك إخراجاً علمياً مصححاً كما أراده الشيخ رحمه الله فقد عمدت إلى العمل ثلاث سنين في هذا الكتاب راجياً أن يكون العمل

ساداً للثلثة ومبرئاً للذمة.

العمل الذي قمت به :

لقد منّ الله علي بأمر لم يتوفر لمن اعتنى بهذا التفسير من قبل وهو الحصول على النسخة (أ) التي كانت بحوزة الشيخ - رحمه الله - وتحت نظره ومحل عنايته إلى أن توفي، وهي في الجملة أسلم من النسخة (ب) التي كانت أصل جميع الطبعات، ولما بدأت في العمل كان الهدف الذي سعيت إليه جاهداً هو : إخراج التفسير كما كتبه الشيخ - رحمه الله - دون تعديل أو تبديل، أو زيادة أو نقص، وعلى ذلك قمت بما يلي :

أولاً: نسخ التفسير كما هو ويتضمن ذلك : إثبات الآيات المفسرة كما كتبها الشيخ - رحمه الله - فحين يورد الآيات كاملة، أورها كاملة كما فعل، وحين يورد جزءاً منها ويقول : إلخ القصة، أثبتها على هذا الوجه، وحين تفتقر النسختان أطبق قواعد المقابلة التي سأبينها لاحقاً بحول الله، وقد راعيت في النسخ ما يلي :

١- توزيع النص توزيعاً جيداً، بحيث يكون تقسيم فقرات الكلام وأجزائه متصلاً بمعانية، واجتهدت ألا أقطع السياق الواحد بين فقرتين مختلفتين، وأن أبدأ تفسير الآية أو الآيات من أول السطر.

٢- ترقيم الآيات المفسرة في بداية تفسيرها، وهذا لم يكن من عمل الشيخ - رحمه الله - ولكن وجدته مهماً لأجل سهولة معرفة مواضع الآيات.

٣- تصحيح بعض الأخطاء الإملائية الظاهرة التي لا تخفى على الشيخ - رحمه الله - ولكنها سبق قلم.

ولقد حرصت على عدم التدخل في التفسير والتعديل فيه بأي وجه من الوجوه إلا في ثلاث حالات :

الأولى : أن يكون الخطأ في الآيات فهنا أثبت الصواب ولا التفت إلى الخطأ، ولكن في بعض الأحيان يحدث أن يكون قلم الشيخ سبق إلى آيات في غير السورة، أو في السورة نفسها، وليست في ذلك الموضع، ثم يفسر الآيات التي كتب، فأنبت الصواب في الآيات، وأبقي التفسير كما هو، وأشير إلى ما عملت في الهامش.

الثانية : أن يكون الخطأ ظاهراً، ولا يمكن أن يقبل به المؤلف - رحمه الله - فهنا أثبت التعديل الذي أراه صواباً، وأشير في الهامش إلى ما في الأصل من خطأ، أو سبق قلم.

الثالثة : أن يكون التعديل طفيفاً كأن يكون تعديلاً في ضمير فيقول : (خالقهما) والصواب (خالقها) أو العكس أو يقول (التي) والصواب (الذي) ونحو ذلك، فهنا أصوب الكلام، وأشير في أحيان يسيرة إلى ما عملت، خاصة وأن الشيخ - رحمه الله - : (كان سريع الكتابة، ويكتب بخط دقيق، وبدون نظارة، لكنه على قاعدة صحيحة)^(١) وكانت جل عنايته بالمعاني، ولذلك قال في رسالة للشيخ عبد الله بن عقيل - حفظه الله - (فحسن الإملاء والجري مع المعاني أولى من اعتبار حسن الخط، فذاك أهميته بالنسبة لحسن الإنشاء قليلة).^(٢)

ثانياً - المقابلة :

وابتغاء توضيح الأمر أبين ما قمت به في نقاط :

أولاً: اعتمدت النسخة (أ) وجعلتها أصلاً لأمر :

الأول: أن معظمها بخط الشيخ - رحمه الله -.

والثاني: أنها النسخة التي كانت بيد الشيخ - رحمه الله - إلى حين وفاته.

(١) الشيخ عبد الله بن عقيل : الأجوبة النافعة (المقدمة) (٧).

(٢) الأجوبة النافعة عن المسائل الواقعة (٦٧).

الثالث: أنها سالمة من التعديل والشطب للذين وقعا من النساخ أو الطابعين أو المصححين بعكس النسخة (ب) فإن هذه النسخة سلمت للمطبعة السلفية، فكان المصححون للطبعة يعدلون عليها ويشطبون، بل تجد على هوامشها أسماء (عمال الصف) فنجد اسم (محمود) أو فلان منهم وذلك لتوزيع العمل عليهم، بينما النسخة (أ) لم تمسها الأيدي بشطب أو تعديل.

الرابع: سلامة هذه النسخة من الخروم والنقص لأن معظمها بخط الشيخ - رحمه الله - بينما النسخة (ب) كتب معظمها بخطوط النساخ فوقع فيها بعض النقص والخروم.

الخامس: أنها أجود كثيراً من النسخة الأخرى في إملاتها بينما تجد في النسخة (ب) أخطاء ظاهرة.

ثانياً: يلاحظ أنني ذكرت في وصف النسختين أن معظم النسخة الأولى كان بخط الشيخ - رحمه الله - وأن النسخة الثانية في جملتها بخطوط النساخ وهذا توضيح تفاوت الكتابة على التفصيل مع بيان ما قمت به حيال ذلك التفاوت:

١- أجزاء كانت في النسختين بخط الشيخ - رحمه الله - وذلك مثل كثير من المجلد الأول، والمجلد الثامن، والتاسع، وفي هذه الأجزاء يلاحظ وجود الاشكالات الآتية:

(أ) أن الشيخ - رحمه الله - في المجلد فسر الآيات من قوله تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ سورة البقرة، الآية: ٢٣٨، إلى نهاية تفسير قوله تعالى: ﴿والله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم﴾ سورة آل عمران، الآية: ١٢٩ تفسيراً جديداً فليس ما في النسختين متوافقاً بل هو متغاير من حيث الألفاظ والصياغة والأسلوب وكان الشيخ - رحمه الله - كتب ذلك مرتين، ولم يكن هناك احتمال لأن يكون الكلام ليس بكلامه، لأن ما في النسختين بخطه - رحمه الله - وروح الكلام وأسلوبه هو ذات أسلوب الشيخ - رحمه الله - وقد قلبت النظر بين خيارات عدة، وكان ما استقر الرأي عليه أن أجعل في صلب التفسير ما كان في النسخة (أ) وهي النسخة التي توفي الشيخ - رحمه الله - وهي في بيته، وأما ما في النسخة (ب) وهو المطبوع في طبعات الكتاب السابقة فقد جعلته في ملحق في آخر التفسير.

(ب) أن الشيخ - رحمه الله - في المجلد الثامن من بداية سورة الحجرات وحتى نهاية التفسير نسخ التفسير بخطه نسخة ثانية، ولكنه كان يعدل في الألفاظ ويزيد في الكلمات وينقص منها، ولذلك تفاوت حجم المقابلة بين بعض أجزاء الكتاب بشكل واضح، حيث تجد فروقاً كبيرة بين النسختين في أجزاء ولا تجد إلا اليسير من الفروق في أجزاء أخرى.

(ج) أن بعض الأجزاء كانت في النسخة (أ) بغير خط الشيخ - رحمه الله - وفي النسخة (ب) بخط الشيخ - رحمه الله - كما في المجلد السادس وهنا كثرت الأخطاء في النسخة (أ) وقلت في (ب) فاستفدت من (ب) في المقابلة وجعلت جل اعتمادي عليها إذ هي أصح لولا ما عابها من تعديلات مصححي المطبعة السلفية عليها.

ثالثاً: الزيادات: جاءت زيادات في إحدى النسختين عن الأخرى وقد جعلت الزيادات بين قوسين مركنين [] وهي على ثلاثة أنواع:

الأول: الزيادات التي في الأصل على (ب) وقد جعلتها بين قوسين مركنين، دون إشارة في الهامش إلى شيء.

الثاني: الزيادات التي في (ب) وقد جعلتها بين قوسين مركنين، وأشارت إلى الزيادة في الهامش بقولي: زيادة في ب، وهذا النوع من الزيادات يكثر في الأجزاء التي كانت بخط الشيخ - رحمه الله - في النسختين كليهما.

الثالث: الزيادات التي جعلتها لاقتضاء السياق وعدم استقامته بدونها فقد جعلتها بين قوسين مركنين وأشرت إلى الزيادة في الهامش بقولي: (زيادة يقتضيها السياق).

وبعد، فيلاحظ إنني لم أثبت تخريج الأحاديث في الكتاب، لأن ما في الكتاب من الأحاديث ليس بالكثير، ومعظم ما نقل - رحمه الله - هو من صحيح البخاري ومسلم، كما لم أفهرس فهرسة تفصيلية، لأن الفهرسة التي يمكن أن يستفاد منها هي الفهرسة الموضوعية للفوائد الإيمانية، والتربوية، والسلوكية، والعلمية، ونحوها التي في الكتاب، وإذا نظرنا إلى الفهرسة بهذا الاعتبار فإن الكتاب يحتاج إلى فهرسة كبيرة وطويلة جداً يمكن الاستغناء عنها بقراءة الكتاب لمريد الاستفادة، وأما الفهارس التفصيلية للآيات والأحاديث والاعلام أو القبائل.. ونحوها، فإن طبيعة التفسير لا تدل على الحاجة لذلك، وإن عمل على هذا التفسير فإنما هذا العمل نوع من التزيد والتكثُر لا حاجة له.

* * *

وبعد فهذا الجهد الذي بذلت وهو جهد استغرق ثلاثة أعوام قرأت فيها التفسير قراءة مقابلة ثلاث مرات واجتهدت في إخراج التفسير على أتم الوجوه - قدر الإمكان - وما كان لي أن أصل إلى هذا لولا فضل الله عز وجل فله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً.

ثم الشكر من بعد لمن كان عوناً لي في إخراج هذا التفسير بأي وجه من أوجه العون وأخص بالذكر صاحبي الفضيلة العالمين الجليلين الشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ عبد الله بن عبد العزيز بن عقيل. وفضيلة والدي الكريم الشيخ معلا اللويحق، والمشايخ الفضلاء الدكتور عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر الذي أعانني على الحصول على النسخة الثانية (ب) لمخطوط التفسير، وأبدى من جميل الملحوظات ما كان عوناً لي على ضبط العمل، والدكتور خالد السبت، الذي كانت مهاتفاته بداية حفز لإعادة العمل في التفسير، والشيخ صالح الهبدان، والشيخ عبد الرحمن الراجحي، والشيخ محمد الخضير، والأخوة الذين عملوا معي في المقابلة فأمضوا وقتاً طويلاً في سبيل ذلك، وبذلوا جهداً لا أنساه في إعانتني الشيخ إدريس حامد محمد، والشيخ تراوري مامادوا، والأخ فيصل بن طلع المطيري فللجميع مني الشكر والعرفان والدعاء بالتوفيق والتسديد.

وأسأل الله المغفرة عما وقع من تقصير، واستمد منه العون فهو وحده المستعان.

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتب

عبد الرحمن بن معلا اللويحق المطيري

بعد عشاء ليلة الثامن والعشرين

من شهر ذي القعدة عام ١٤١٩هـ

تنبيه

اعلم أن طريقتي في هذا التفسير أني أذكر عند كل آية ما يحضرني من معانيها، ولا أكتفي بذكر ما تعلق بالمواضع السابقة عن ذكر ما تعلق بالمواضع اللاحقة، لأن الله وصف هذا الكتاب أنه (مثنى) تثنى فيه الأخبار والقصص والأحكام، وجميع المواضع النافعة لحكم عظيمة، وأمر بتلبيه جميعه، لما في ذلك من زيادة العلوم والمعارف وصلاح الظاهر والباطن، وإصلاح الأمور كلها^(١).

(١) هذا التنبيه جعله الشيخ - رحمه الله - على غلاف المجلد الأول فصدرت به التفسير كما فعل - رحمه الله - .

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الفرقان الفارق بين الحلال والحرام، والسعداء والأشقياء، والحق والباطل.

وجعله برحمته هدىً للناس عموماً، وللمتقين خصوصاً، من ضلال الكفر والمعاصي والجهل، إلى نور الإيمان والتقوى والعلم، وأنزله شفاء للصدور من أمراض الشبهات والشهوات، ويحصل به اليقين والعلم في المطالب العاليات، وشفاء للأبدان من أمراضها وعللها وآلامها وسقمها^(١). وأخبر أنه لا ريب فيه ولا شك بوجه من الوجوه، وذلك لاشتماله على الحق العظيم في أخباره، وأوامره، ونواهيه، وأنزله مباركاً، فيه الخير الكثير، والعلم الغزير، والأسرار البديعة، والمطالب الرفيعة، فكل بركة وسعادة تنال في الدنيا والآخرة، فسببها الاهتداء به واتباعه، وأخبر أنه مصدق ومهيمن على الكتب السابقة، فما يشهد له فهو الحق، وما رده فهو المردود، لأنه تضمنها وزاد عليها، وقال تعالى فيه: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾، فهو هادٍ لدار السلام، مبينٌ لطريق الوصول إليها، وحاثٌ عليها، كاشف عن الطريق الموصلة إلى دار الآلام ومحذّر عنها، وقال تعالى مخبراً عنه: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتَ آيَاتِهِ ثُمَّ فَصَّلْتَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ فبين آياته أكمل تبیین، وأتقنها أي إتقان، وفصلها بتبيين^(٢) الحق من الباطل والرشد من الضلال، تفصيلاً كاشفاً للبس، لكونه صادراً من حكيم خبير، فلا يخبر إلا بالصدق والحق واليقين، ولا يأمر إلا بالعدل والإحسان والبر، ولا ينهى إلا عن المضار الدينية والدنيوية.

وأقسم تعالى بالقرآن ووصفه بأنه «مجيد»، والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وذلك لسعة معاني القرآن وعظمتها، ووصفه بأنه «ذو الذكر» أي: يُتذكر به العلوم الإلهية والأخلاق الجميلة والأعمال الصالحة، ويتعظ به من يخشى.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فأنزله^(٣) بهذا اللسان لتعقله وتفهمه، وأمرنا بتدبره، والتفكير فيه، والاستنباط لعلومه، وما ذاك إلا لأن تدبره مفتاح كل خير، محصل للعلوم والأسرار. فله الحمد والشكر والثناء، الذي جعل كتابه هدى وشفاء ورحمة ونوراً، وتبصرة وتذكرة، وبركة، وهدى وبشرى للمسلمين.

فإذا علم هذا، علم افتقار كل مكلف لمعرفة معانيه والاهتداء بها.

وكان حقيقاً بالعبد أن يبذل جهده، ويستفرغ وسعه في تعلمه وتفهمه بأقرب الطرق الموصلة إلى ذلك.

وقد كثرت تفاسير الأئمة رحمهم الله لكتاب الله، فمن مطوّل خارج في أكثر بحوثه عن المقصود، ومن مُقْصِرٍ، يقتصر على حل بعض الألفاظ اللغوية. [بقطع النظر عن المراءد]^(٤).

(١) في ب: وأسقامها.

(٢) في ب: وأنزله.

(٣) في ب: بتميز.

(٤) زيادة من هامش ب، مشطوبة من أ.

وكان الذي ينبغي في ذلك، أن يجعل المعنى هو المقصود، واللفظ وسيلة إليه. فينظر في سياق الكلام، وما سيق لأجله، ويقابل بينه وبين نظيره في موضع آخر؛ ويعرف أنه سيق لهداية الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، حضريهم وبدويهم، فالنظر لسياق الآيات مع العلم بأحوال الرسول وسيرته مع أصحابه وأعدائه وقت نزوله، من أعظم ما يُعين على معرفته وفهم المراد منه، خصوصاً إذا انضم إلى ذلك معرفة علوم العربية على اختلاف أنواعها.

فمن وفق لذلك، لم يبق عليه إلا الإقبال على تدبره وتفهمه وكثرة التفكير في ألفاظه ومعانيه ولوازمها، وما تتضمنه، وما تدل عليه منطوقاً ومفهوماً، فإذا بذل وسعه في ذلك، فالرب أكرم من عبده، فلا بد أن يفتح عليه من علومه أموراً لا تدخل تحت كسبه.

ولما منَّ الباري عليّ وعلى إخواني بالاشتغال بكتابه العزيز بحسب الحال اللائقة [بنا] أحببت أن أرسم من تفسير كتاب الله ما تيسر، وما منَّ به الله علينا، ليكون تذكراً للمحصلين، وآلة للمستبصرين، ومعوذة للسالكين، ولأقيده خوف الضياع، ولم يكن قصدي في ذلك إلا أن يكون المعنى هو المقصود، ولم أشتغل في حل الألفاظ والعقود، للمعنى الذي ذكرت، ولأن المفسرين قد كفوا من بعدهم، فجزاهم الله عن المسلمين خيراً.

والله أرجو، وعليه أعتد، أن يسر ما قصدت، ويذلّل ما أردت، فإنه إن لم يسره الله، فلا نسيل إلى حصوله، وإن لم يعن عليه، فلا طريق إلى نيل العبد مأموله.

وأسأله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به النفع العميم، إنه جواد كريم. اللهم صل على محمد وآله وصحبه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

**فوائد مهمة تتعلق بتفسير القرآن من
بدائع الفوائد
لابن القيم رحمه الله تعالى^(١)**

[قال: فصل] الثَّكْرَةُ في سياق النفي تَعْمُ، مستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾، وفي الاستفهام من قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾، وفي الشرط من قوله: ﴿فَإِذَا تَرَيْتُمْ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾، ﴿وَأَنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ وفي النهي من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَمِسْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾.

وفي سياق الإثبات، بعموم العلة والمقتضى كقوله: ﴿عَلِمْتَ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرْتَ﴾. وإذا أضيف إليها «كل» نحو ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾، ومن عمومها بعموم المقتضى ﴿وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا﴾.

فصل

ويستفاد عموم المفرد المحلَّى باللام من قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خَسْرٍ﴾ وقوله: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ﴾ وعموم المفرد المضاف من قوله: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكِتَابِهِ﴾ (وكتابه)^(٢).

وقوله: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطَلِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ والمراد جميع الكتب التي أحصيت فيها أعمالهم، وعموم الجمع المحلَّى باللام من قوله: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ إلى آخرها. والمضاف من قوله: ﴿كُلُّ آمَنٍ بِاللَّهِ وَمِلَاتُكُنَّ وَكِتَابُهُ وَرَسُولُهُ﴾.

وعموم أدوات الشرط من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظِلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾، وقوله: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾، [وقال] ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾، وقوله ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ﴾، وقوله: ﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلَوْا وَجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ هذا إذا كان الجواب طلباً مثل هاتين الآيتين.

فإن كان خبراً ماضياً، لم يلزم العموم، كقوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾.

وإن كان مستقبلاً، فالتزمو ردَّ العموم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

وقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

وقد لا يعم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾.

(١) جاءت هذه الفوائد في: أ بعد تفسير سورة الفاتحة، وقد كتب الشيخ - رحمه الله - في هامش النسخة: (حق هذه المقدمة أن تقدم على الفاتحة).

(٢) كتبت الكلمة مرتين مرة بالإنفراد، ومرة بالجمع، وجاء في هامش ما نصه: (قرأ أهل البصرة وحفص وكتبه). وقرأ الآخرون (وكتابه) على التوحيد).

فصل

ويستفاد كون الأمر المطلق للوجوب، من ذمّه لمن خالفه، وتسميته إياه عاصياً، وترتيبه عليه العقاب بالعاجل أو الآجل.

ويستفاد كون النهي للتحريم، من ذمّه لمن ارتكبه، وتسميته عاصياً، وترتيبه العقاب على فعله.

ويستفاد الوجوب بالأمر تارة، وبالتصريح بالإيجاب والفرض والكتّيب، ولفظة «على»، ولفظة: حق على العباد وعلى المؤمنين.

ويستفاد التحريم من النهي، والتصريح بالتحريم والحظر، والوعيد على الفعل، وذم الفاعل، وإيجاب الكفارة بالفعل.

وقوله: «لا ينبغي» فإنها في لغة القرآن والرسول للممتنع عقلاً وشرعاً.

ولفظة «ما كان لهم كذا وكذا» و«لم يكن لهم»، وترتيب الحدّ على الفعل، ولفظة «لا يحل» و«لا يصلح»، ووصف الفعل بأنه فساد، وأنه من تزيين الشيطان وعمله، وأن الله تعالى لا يحبه ولا يرضاه لعباده، ولا يزيكي فاعله ولا يكلمه ولا ينظر إليه ونحو ذلك.

وتستفاد الإباحة من الإذن والتخيير، والأمر بعد الحظر، ونفي الجُنَاح والحرَج والاثم والمؤاخَذة، والإخبار بأنه يعفو عنه، والإقرار على فعله في زمن الوحي، وبالإلّكار على من حرّم الشيء، والإخبار بأنه خلق لنا كذا وجعله لنا، وامتنانه علينا به، وإخباره عن فعل مَنْ قبلنا، غير ذام لهم عليه.

فإن اقترن بإخباره مدح، دلّ على رجحانه استحباباً أو وجوباً.

فصل

وكل فعل عظمه الله ورسوله، أو مدحه، أو مدح فاعله لأجله، أو فرح به، أو أحبه، أو أحبّ فاعله، أو رضي به، أو رضي عن فاعله، أو وصفه بالطيب، أو البركة، أو الحُسن، أو نصبه سبباً لمحبه أو لثواب عاجل أو آجل^(١)، أو نصبه سبباً لذكره لعبده، أو لشكره له، أو لهدايته إياه، أو لإرضاء فاعله، أو وصف فاعله^(٢) بالطيب، أو وصف الفعل بأنه معروف، أو نفى الحُزن والخوف عن فاعله، أو وعده بالأمن، أو نصبه سبباً لولايته، أو أخبر عن دعاء الرسل بحصوله، أو وصفه بكونه قربة، أو أقسم به أو بفاعله، كالقسم بخيل المجاهدين وإغارتها^(٣)، أو ضحك الرب جل جلاله من فاعله، أو عجب به، فهو دليل على مشروعيته المشتركة بين الوجوب والندب.

فصل

وكل فعل طلب الشارع تركه، أو ذم فاعله، أو عيب عليه، أو مقت فاعله، أو لعنه، أو نفى محبته إياه، أو محبة فاعله، أو نفى الرضا به، أو الرضا عن فاعله، أو شبه فاعله بالبهائم أو الشياطين، أو جعله مانعاً من الهدى، أو وصفه بسوء أو كراهة، أو استعاذ الأنبياء منه أو أبغضوه، أو جعل سبباً لنفي الفلاح، أو لعذاب عاجل أو آجل، أو لزم أو لوم، أو ضلالة أو معصية، أو وصفه بخبيث^(٤)، أو رجس، أو نجس، أو بكونه فسقاً أو إثماً، أو سبباً لإثم أو رجس، أو لعن أو غضب، أو زوال نعمة، أو حلول نعمة، أو حد من الحدود، أو قسوة، أو خزي، أو ارتهان نفس، أو لعداوة الله أو محاربتة، أو الاستهزاء به وسخريته، أو جعله سبباً لنسيانه لفاعله، أو وصف نفسه بالصبر عليه، أو الصفع أو الحلم عنه، أو دعا إلى التوبة منه، أو وصف فاعله بخيث أو احتقار، أو نسه إلى الشيطان وتزيينه، أو تولي الشيطان لفاعله، أو وصفه بصفة ذم، مثل كونه ظلماً أو بغياً، أو عدواناً أو إثماً، أو تبرأ الأنبياء منه أو من فاعله، أو شكوا

(١) في ب: أو لثواب عاجلاً أو آجلاً.

(٣) في ب: وإثارتها.

(٢) في ب: فاعليه.

(٤) في ب: بالخبيث.

إلى الله من فاعله، أو جاهروا فاعله بالعداوة، أو نصب سبباً لخبيّة فاعله عاجلاً أو آجلاً، أو رتب عليه حرمان الجنة، أو وصف فاعله بأنه عدو لله أو الله عدوه، أو أعلم فاعله بحرب من الله ورسوله، أو حمل فاعله إثم غيره، أو قيل فيه «لا ينبغي هذا» أو «لا يصلح» أو أمر بالتقوى عند السؤال عنه، أو أمر بفعل يضاده، أو هجر فاعله، أو تلاعن فاعلوه في الآخرة، أو تبرأ بعضهم من بعض، أو وصف فاعله بالضلالة، أو أنه «ليس من الله في شيء» أو أنه ليس من الرسول وأصحابه، أو قرّن بمحرم ظاهر التحريم في الحكم والخبر عنهما^(١) بخبر واحد، أو جعل اجتنابه سبباً للفلاح، أو جعل سبباً لإيقاع العداوة والبقضاء بين المسلمين، أو قيل لفاعله «هل أنت متّيه» أو نهى الأنبياء عن الدعاء لفاعله، أو رتب عليه إبعاد، أو طرد، أو لفظة «قُتل من فعله»، أو «قاتل الله من فعله»، أو أخبر أن فاعله «لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليه، ولا يزيّكه»، أو أن الله لا يصلح عمله، ولا يهدي كيده، أو أن فاعله لا يفلح، ولا يكون يوم القيامة من الشهداء ولا من الشفعاء، أو أن الله يغار من فعله، أو نبّه على وجه المفسدة فيه، أو أخبر أنه لا يقبل من فاعله صرفاً ولا عدلاً، أو أخبر أن من فعله فيض له الشيطان فهو له قرين، أو جعل الفعل سبباً لإزاعة الله قلب فاعله، أو صرفه عن آياته وفهم آياته، أو سؤال الله سبحانه عن علة الفعل «لم فعل» نحو: «لم تصدقون عن سبيل الله من آمن»، «لم تلبسون الحق بالباطل»، «ما منعك أن تسجد»، «لم تقولون ما لا تفعلون» ما لم يقترن به جواب من المسؤول^(٢) فإذا قرن به جواب، كان بحسب جوابه.

فهذا ونحوه، يدل على المنع من الفعل، ودلالته على التحريم أطرد من دلالته على مجرد الكراهة. وأما لفظة يكرهه الله ورسوله، أو مكروهه، فأكثر ما يستعمل في المحرّم، وقد يستعمل في كراهة التنزيه.

وأما لفظة «وأما أنا فلا أفعل» فالتحقق^(٣) منه الكراهة كقوله: «أما أنا فلا أكل مكتناً». وأما لفظة «ما يكون لك» و «ما يكون لنا» فاطرد استعمالها في المحرّم، نحو «ما يكون لك أن تكبر فيها»، «ما يكون لنا أن نعود فيها»، «ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق».

فصل

وتستفاد الإباحة من لفظ الإحلال، ورفع الجناح، والإذن، والعفو، و «إن شئت فافعل» و «إن شئت فلا تفعل»، ومن الامتنان بما في الأعيان من المنافع، وما يتعلق بها من الأفعال، نحو: «ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين» ونحو «وبالنجم هم يهتدون». ومن السكوت عن التحريم، ومن الإقرار على الفعل في زمن الوحي.

فائدة

التعجب كما يدل على محبة الله تعالى للفعل نحو «عَجِبَ رُبُّكَ مَنْ شَابَ لَيْسَ لَهُ صَبُوءٌ» ونحوه، قد يدل على بغض الفعل كقوله: «وَأَنْ تَعْجِبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ» وقوله: «بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ». وقوله: «وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله». وقد يدل على امتناع الحكم، وعدم حسنه، كقوله: «كيف يكون للمشركين عهد عند الله». ويدل على حسن المنع منه قدرأً، وأنه لا يليق به فعله، كقوله تعالى: «كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم».

(١) في ب: عنه.

(٣) في ب: فالتحقق.

(٢) في ب: من السؤال.

(٤) كذا في ب، وفي أ: بعد.

فائدة

نفي التساوي في كتاب الله، قد يأتي بين الفعلين، كقوله تعالى: ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر﴾ الآية.

وقد يأتي بين الفاعلين كقوله: ﴿لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾.

وقد يأتي بين الجزائين كقوله: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾.

وقد جمع الله بين الثلاثة في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور﴾ الآيات.

فائدة

في ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور:

التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وتقريب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للعقل، كنسبة المحسوس إلى الحس.

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر، وإبطال أمر.

فائدة

السياق يرشد إلى بيان المجل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم^(١) احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله: ﴿ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير.

فائدة

إخبار الرب عن المحسوس الواقع له عدة فوائد:

منها: أن يكون توطئةً وتقدمةً لإبطال ما بعده.

ومنها: أن يكون موعظةً وتذكرةً.

ومنها: أن يكون شاهداً على ما أخبر به من توحيده، وصدق رسوله، وإحياء الموتى.

ومنها: أن يذكر في معرض الامتنان.

ومنها: أن يذكر في معرض اللوم والتوبيخ.

ومنها: أن يذكر في معرض المدح والذم.

ومنها: أن يذكر في معرض الإخبار عن اطلاع الرب عليه. وغير ذلك من الفوائد.

انتهى كلامه رحمه الله، وهو في غاية النفاسة، والاشتغال على كثير من القواعد والضوابط المتعلقة بتفسير القرآن، فجزاه الله خيراً.

قلت: وقد اشتمل القرآن على عدة علوم قد ثبتت فيه وأعيدت:

فمنها: ضرب الأمثال، وقد ذكر ابن القيم فيما تقدم فوائدها.

ومنها ذكر صفات أهل السعادة والشقاوة، وفي ذلك فوائد عديدة:

(١) في ب: نظر إلى.

منها: أن الأوصاف التي يوصف بها أهل الخير، تدل على محبة الله ورضاه وأنها محمودة، والصفات التي يوصف بها أهل الشر، تدل على بغض الله لها وأنها مذمومة.

ومنها: ما يكرم الله به أوليائه من الثناء الحسن بين عباده، فهو ثواب معجل، ويهين به أعداءه من الأوصاف القبيحة، فيكون عقاباً معجلاً.

ومنها: أن فيه حثاً للنفوس على الاقتداء بأهل الخير ومنافستهم، وتنشيط العمال على الأعمال ببيان من عملها من أولياء الله.

وفيه الترهيب من أفعال أهل الشر، وتبغيض المعاصي التي أثرت مع عاملها ما أثرت.

ومنها: الاعتبار بصفات أهل الخير والشر، وأن مَنْ فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم.

وقد حثَّ تعالى على الاعتبار، في غير موضع من كتابه. وحقيقته: العبور من شيء إلى شيء، وقياس الشيء على نظيره.

ومنها: أن العبد إذا رأى^(١) أعمال أهل الخير وعجزه عن القيام بها، أوجب له ذلك الإزراء على نفسه واحتقارها، وهذا هو عين صلاحه، كما أن رؤيته نفسه بعين الإعجاب والتكبر هو عين فساد، إلى غير ذلك من الفوائد.

ومنها: ذكر صفات الله وأسمائه وأفعاله، وتقديسه عن النقائص، وفي ذلك فوائد عظيمة:

منها: أن هذا العلم - وهو العلم المتعلق بالله تعالى - أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق.

فالاشتغال بفهمه والبحث التام عنه، اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب.

ومنها: أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته، وخوفه ورجائه، وإخلاص العمل له، وهذا عين سعادة العبد، ولا سبيل إلى معرفة الله، إلا بمعرفة أسمائه وصفاته، والتفقه في فهم معانيها.

وقد اشتمل القرآن من ذلك على ما لم يشتمل عليه غيره، من تفاصيل ذلك وتوضيحها، والتعرف بها إلى عباده، وتعريفهم لنفسه كي يعرفوه.

ومنها: أن الله خلق الخلق ليعبدوه ويعرفوه، فهذا هو الغاية المطلوبة منهم، فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضييعه إهمال لما خلق له. وقبيح بعبد، لم تَزَلْ نعم الله عليه متواترة، وفضله عليه عظيم من كل وجه، أن يكون جاهلاً بربه معرضاً عن معرفته.

ومنها: أن أحد أركان الإيمان، بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله، وليس الإيمان بمجرد قوله: «آمنت بالله» من غير معرفة بربه.

بل حقيقة الإيمان، أن يعرف الرب الذي يؤمن به، ويبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته، حتى يبلغ درجة اليقين، وبحسب معرفته بربه يكون إيمانه، فكلما ازداد معرفة بربه ازداد إيمانه وكلما نقص، نقص.

وأقرب طريق يوصله إلى ذلك، تدبر صفاته وأسمائه من القرآن.

والطريق في ذلك، إذا مر به اسم من أسماء الله، أثبت^(٢) له ذلك المعنى وكماله وعمومه، ونزهه^(٣) عما يضاد ذلك.

ومنها: أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها، حتى إن العارف به حقيقة المعرفة، يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله، وعلى ما يشرعه من الأحكام، لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته، فأفعاله دائرة

(١) في ب: أن يثبت.

(٢) في ب: وينزه.

بين العدل والفضل والحكمة.

وكذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام، إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله.

فأخباره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة.

وهذا العلم أعظم وأشهر من أن ينه عليه لوضوحه:

وكيف يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ومنها: ذكر الأنبياء والمرسلين، وما أرسلوا به، وما جرى لهم مع أمهم. وفي ذلك عدة فوائد:

منها: أن من تمام الإيمان بهم معرفتهم بصفاتهم وسيرهم وأحوالهم. وكلما كان المؤمن بذلك أعرف، كان أعظم إيماناً بهم، ومحبة لهم، وتعظيماً لهم، وتعزيراً وتوقيراً.

ومنها: أن من بعض حقوقهم علينا - خصوصاً النبي محمد ﷺ - معرفتهم ومحبتهم محبة صادقة، ولا سبيل لذلك إلا بمعرفة أحوالهم.

ومنها: أن معرفة الأنبياء موجبة لشكر الله تعالى على ما من به على المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولاً منهم يزيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، بعد أن كانوا في ضلال مبين.

ومنها: أن الرسل هم المربون للمؤمنين، الذين ما نال المؤمنون^(١) مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على أيديهم ويسبيهم.

فقيح بالمؤمن أن يجهل حالة مربيّه ومزكيه ومعلمه.

وإذا كان من المستنكر جهل الإنسان بحال أبيه ومباعدته لذلك، فكيف بحالة الرسول، الذي هو أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أبوهم الحقيقي، الذي حقه مقدم على سائر الحقوق بعد حق الله تعالى!!؟

ومنها: أن في معرفة ما جرى لهم وجرى عليهم، تحصيل للمؤمن^(٢) الأسوة والقدوة، وتخف عنه كثير من المقلقات والمزعجات، لأنها مهما بلغت من الثقل والشدة، فلا تصل إلى بعض ما جرى على الأنبياء. قال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾.

ومن أعظم الاقتداء بهم، الاقتداء بتعليماتهم، وكيفية إلقاء العلم على حسب مراتب الخلق، والصبر على التعليم، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، وبهذا وأمثاله كان العلماء ورثة الأنبياء.

ومن فوائد معرفة الرسول ﷺ، معرفة الآيات القرآنية المنزلّة عليه وفهم المعنى. والمراد منها موقوف على معرفة أحوال الرسول، وسيرته مع قومه وأصحابه وغيرهم من الناس، فإن الأزمنة والأمكنة والأشخاص تختلف اختلافاً كثيراً.

فلو أراد إنسان^(٣) أن يصرف همه لمعرفة معاني القرآن من دون معرفة منه لذلك، لحصل من الغلط على الله وعلى رسوله، وعلى مراد الله من كلامه، شيء كثير.

وهذا إنما يعرفه من عرف ما في أكثر التفاسير من الأغلاط القبيحة التي ينزه عنها كلام الله^(٤)، وغير

(١) كذا في ب، وفي أ: المؤمن.

(٢) في ب: للمؤمنين.

(٣) في ب: الإنسان.

(٤) في ب جاءت الجملة هكذا (ما في كثير من التفاسير من الأغلاط التي ينزه عنها كلام الله) وقد شطبت هذه الجملة، وكتب الشيخ - رحمه الله - في الهامش بدلاً عنها ما يلي (كيف كثر حمل مراد الله ورسوله على العرف الحادث فوق الخلل الكثير).

ذلك من الفوائد المفيدة والنتائج السديدة.

ومن علوم القرآن: الأمر والنهي الموجه لهذه الأمة وغيرها، وهذا هو المقصود منهم، وفي معرفة ذلك عدة فوائد:

منها: أن الله تعالى حث على معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وذم من لم يعرف ذلك. ومن أعظم ما يجب معرفة حدوده؛ الأوامر والنواهي التي كلفنا بها، وألزمنا بالقيام بها وتعليمها وتعليمها.

ولا سبيل إلى امتثالها، [أو اجتنابها،^(١)] إلا بمعرفتها، ليتأتى فعلها [أو تركها]^(٢) وذلك أن المكلف إذا أمر بأمر، وجب عليه أولاً معرفة ما هو الذي أمر به، وما يدخل به وما لا يدخل.

فإذا عرف ذلك استعان بالله، واجتهد في امتثاله بحسب القدرة والإمكان.

وكذلك إذا نهي عن أمر من الأمور، وجب عليه معرفة ذلك النهي وحقيقته، ثم يبذل جهده مستعيناً بربه على تركه، امتثالاً لأمر الله، واجتناباً لنهيه، وامتثال الأمر، واجتناب النهي، كل منهما واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فعرفت أن العلم بها قبل العمل، ومتقدم عليه.

ومنها: أن الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يمكن حصولها وتحصيلها إلا بعد معرفة الخير ليدعوه، ومعرفة المعروف ليأمر به، ومعرفة المنكر لينهى عنه، والقرآن مشتمل على ذلك أعظم اشتمال، ومتضمن له أكمل تضمن.

ومن علوم القرآن أحوال اليوم الآخر، وهو ما يكون بعد الموت مما أخبر به الله في كتابه، أو أخبر به رسوله من أحوال الموت، والقبر والموقف، والجنة والنار، وفي العلم بذلك فوائد كثيرة:

منها: أن الإيمان باليوم الآخر، أحد أركان الإيمان الستة، التي لا يصح الإيمان بدونها، وكلما ازدادت معرفته بتفاصيله، ازداد إيمانه^(٣).

ومنها: أن العلم بذلك^(٤) حقيقة المعرفة، يفتح للإنسان باب الخوف والرجاء، اللذين إن خلا القلب منهما خرب كل الخراب، وإن عمر بهما أوجب له الخوف الانكفاف عن المعاصي، والرجاء تيسير الطاعة وتسهيلها، ولا يتم ذلك إلا بمعرفة تفاصيل الأمور التي يخاف منها وتحذر؛ كأحوال القبر وشدته، وأحوال الموقف الهائلة، وصفات النار المفضلة.

وبمعرفة تفاصيل الجنة وما فيها من النعيم المقيم، والحبرة والسرور، ونعيم القلب والروح والبدن، فيحدث بسبب ذلك الاشتياق الداعي للاجتهاد في السعي للمحبوب المطلوب، بكل ما يقدر عليه.

ومنها: أنه يعرف بذلك فضل الله وعدله، في المجازاة على الأعمال الصالحة، والسيئة، الموجب لكمال حمده والثناء عليه بما هو أهله.

وعلى قدر علم العبد بتفاصيل الثواب والعقاب، يعرف بذلك فضل الله وعدله وحكمته.

ومن علوم القرآن: مجادلة المبطلين، ودفع شبه الظالمين، وإقامة البراهين العقلية الموافقة للأدلة النقلية.

وهذا الفن من علوم القرآن من خواص العلماء الربانيين، والجهابذة الراسخين، والعقلاء المستبصرين، وقد اشتمل القرآن من الأدلة العقلية، والقواطع البرهانية، ما لو جمع ما عند جميع

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب: إيمان العبد به.

(٤) في ب: أن معرفة ذلك.

المتكلمين من حق، لكان بالنسبة إليه كنقرة عصفور بالنسبة لماء البحر؛ ذلك بأن القرآن هو الحق، وقد اشتمل على الحق والصدق والعدل والميزان العادل والقسط والصلاح والفلاح، فإن ذكر التوحيد والشرك، وأمر بالأول ونهى عن الثاني، أقام من البراهين القاطعة على صحة التوحيد وحسنه وتعينه طريقاً للنجاة، وقبح الشرك وبطلانه، وكونه هو الطريق للهلاك، ما يجعل ذلك للبصيرة كالشمس في نحر الظهيرة.

وإن أمر بالأوامر الشرعية، وحث على الآداب ومكارم الأخلاق، رأيته ينبه العقول النبيرة على ما اشتملت عليه من المصالح الضرورية، التي يحتاجونها في معاشهم ومعادهم، ما يجزم بأنه^(١) لا أحسن منها، وأن حكمته تقتضي الأمر بها أشد اقتضاء.

وإن نهى عن المحارم والقبائح والخبائث، أخبر بما في ضمنها من الفساد والضرر، والشر الحاصل بتناولها، وأن نعمة الله عليهم بتحريمها عليهم وتنزيههم عنها، وتكريمهم وتعليه أقدارهم عن التلبس بها فوق كل نعمة، فالمأمورات مشتملات^(٢) على الصلاح، والمحرمات مشتملات^(٣) على المفساد.

وإن شرع في الحجاج للمبطلين، وتزييف شبه المشبهين، وبطلان مذاهب الضالين، فقل ما شئت من إحقاق حق، ودمغ باطل، وإرشاد ضال، وإقامة الحجة على المعاند، وبيان أن الباطل لا يقوم لأقل شيء من الحق، بل هو على اسمه باطل لا حقيقة له، إن هي إلا أسماء يسمون بها الباطل إذا جردت، تبينت هباء منثوراً.

ورأيته يسوق البراهين العقلية، بأوضح عبارة وأجزها وأسلمها من الاعتراض والنقض والخفاء، فيجمع بين الدليل العقلي والنقلي في كلمة واحدة، إيجازاً غير مخل بالمطلوب، وتارة يفصل ذلك، ويسرد من البراهين ما يكفي بعضه بالبيان. فله الحمد والشكر.

فهذه مقدمة نافعة، إن شاء الله، ينبغي استقراؤها في [كل] موارد، والتنبيه لكل ما يرد من هذه المطالب على وجه التفصيل، فمن استعملها في كل ما يرد عليه من الآيات، انتفع بها نفعاً عظيماً. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(٣) في ب: مشتملة.

(١) كذا في ب، وفي أ: به أنه.

(٢) في ب: مشتملة.

تفسير الفاتحة وهي مكية

﴿١﴾ - ﴿٧﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ * وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أي: أبتدئ بـ كل اسم لله تعالى، لأن لفظ «اسم» مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء [الحسنی]، ﴿الله﴾: هو المألوه المعبود، المستحق لإفراده بالعبادة لما اتصف به من صفات الألوهية، وهي صفات الكمال، ﴿الرحمن الرحيم﴾: اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمت كل حي، وكتبها للمؤمنين المتبعين لأنبيائه ورسله، فهو لا لهم الرحمة المطلقة، ومن عداهم فلهم نصيب منها.

واعلم أن من القواعد المتفق عليها بين سلف الأمة وأئمتها، الإيمان بأسماء الله وصفاته، وأحكام الصفات، فيؤمنون مثلاً بأنه رحمن رحيم، ذو الرحمة التي اتصف بها، المتعلقة بالرحوم، فالنعم كلها أثر من آثار رحمته، وهكذا في سائر الأسماء. يقال في العليم: إنه عليم ذو علم يعلم [به] كل شيء، قدير ذو قدرة يقدر على كل شيء.

﴿الحمد لله﴾: [هو] الشناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل بجميع الوجوه. ﴿رب العالمين﴾ الرب: هو المربي جميع العالمين - وهم من سوى الله - يخلقه لهم، وإعداده لهم الآلات، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها لم يمكن لهم البقاء، فما بهم من نعمة فمنه تعالى. وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

والخاصة: تربيته لأوليائه، فيربيهم بالإيمان، ويوفقه لهم، ويكملهم لهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر، ولعل هذا [المعنى] هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب، فإن مطالبهم كلها داخلية تحت ربوبيته الخاصة.

فدل قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ على انفراده بالخلق والتدبير والنعم، وكمال غناه، وتمازى فقر العالمين إليه، بكل وجه واعتبار.

﴿مالك يوم الدين﴾: المالك: هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى، ويشيب ويعاقب، ويتصرف بمماليكه بجميع أنواع التصرفات، وأضاف الملك ليوم الدين، وهو يوم القيامة، يوم يُدان الناس فيه بأعمالهم خيرا وشرها، لأن في ذلك اليوم يظهر للخلق تمام الظهور كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق، حتى [إنه] يستوي في ذلك اليوم الملوك والرعايا والعبيد والأحرار، كلهم مذعنون لعظمته خاضعون لعزته، منتظرون لمجازاته، راجون ثوابه، خائفون من عقابه، فلذلك خصّه بالذكر، وإلا فهو المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نخضعُ وحدك بالعبادة والاستعانة، لأن تقديم الممول يفيد الحصر، وهو إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، فكأنه يقول: نعبدك، ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك.

وقدّم (٢) العبادة على الاستعانة، من باب تقديم العام على الخاص، واهتماماً بتقديم حقه تعالى على حق عبده،

و «العبادة»: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، و «الاستعانة»: هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك.

والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما، وإنما تكون العبادة عبادة إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ مقصوداً بها وجه الله، فيهدين الأمرين تكون عبادة، وذكر «الاستعانة» بعد «العبادة» مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى، فإنه إن لم يعنه الله، لم يحصل له ما يريد من فعل الأوامر واجتناب النواهي.

ثم قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: دُلَّنَا وأرشدنا ووفقنا للصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط واهدنا في الصراط، فالهداية إلى الصراط: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علماً وعملاً. فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك.

وهذا الصراط المستقيم هو: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ﴿غير﴾ صراط ﴿المغضوب عليهم﴾ الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم، وغير صراط ﴿الضالين﴾ الذين تركوا الحق على جهل وضلال، كالنصارى ونحوهم.

فهذه السورة على إيجازها، قد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ۝ الرَّحِيمُ ۝ مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ ۝ إِلَٰهًا
تَعْبُدُ ۝ إِلَٰهًا تَشْتَعِبُ ۝ هَدَيْنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ
الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝

وَالَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ

الهدايان، وغيرهم لم تحصل لهم هداية التوفيق، وهداية البيان بدون توفيق للعمل بها ليست هداية حقيقية [تامة].

ثم وصف المتقين بالعقائد والأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، لتضمن التقوى لذلك، فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾، حقيقة الإيمان: هو التصديق الثام بما أخبر به الرسل، المتضمن لانقياد الجوارح، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحواس، فإنه لا يتميز بها المسلم من الكافر، إنما الشأن في الإيمان بالغيب، الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به بخبر الله وخبر رسوله، فهذا الإيمان الذي يُمَيِّز به المسلم من الكافر، لأنه تصديق مجرد لله ورسله، فالؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به، أو أخبر به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه وعقله أو لم يتد إلى عقله وفهمه، بخلاف الزنادقة المكذبين للأمور الغيبية؛ لأن عقولهم القاصرة المقصرة لم تتد إليها، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه، ففسدت عقولهم، ومَرَجَتْ أحلامهم، وزكت عقول المؤمنين المصدقين المهتدين بهدى الله.

ويدخل في الإيمان بالغيب [الإيمان بـ] جميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلية، وأحوال الآخرة، وحقائق أوصاف الله وكيفيةها، [وما أخبر به الرسل من

وقوله: ﴿ذلك الكتاب﴾ أي: هذا الكتاب العظيم الذي هو الكتاب على الحقيقة، المشتمل على ما لم تشتمل عليه كتب المتقدمين والمتأخرين من العلم العظيم، والحق المبين، ف﴿لا ريب فيه﴾ ولا شك بوجه من الوجوه، ونفي الريب عنه يستلزم ضده، إذ ضد الريب والشك اليقين، فهذا الكتاب مشتمل على علم اليقين المزيل للشك والريب، وهذه قاعدة مفيدة أن النفي المقصود به المدح لا بد أن يكون متضمناً لضده، وهو الكمال، لأن النفي عدم، والعدم المحض لا مدح فيه.

فلما اشتمل على اليقين وكانت الهداية لا تحصل إلا باليقين قال: ﴿هَدَى لِلْمُتَّقِينَ﴾، والهدى: ما تحصل به الهداية من الضلالة والشبه، وما به الهداية إلى سلوك الطرق النافعة، وقال: ﴿هَدَى﴾ وحذف المفعول، فلم يقل هدى للمصلحة الفلانية، ولا للشيء الفلاني، لإرادة العموم، وأنه هدى لجميع مصالح الدارين، فهو مرشد للعباد في المسائل الأصولية والفروعية، ومُيِّنَ لِلْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، والصحيح من الضعيف، ومبين لهم كيف يسلكون الطرق النافعة لهم في دنياهم وآخرهم.

وقال في موضع آخر: ﴿هَدَى لِلنَّاسِ﴾، فعمم، وفي هذا الموضع وغيره ﴿هَدَى لِلْمُتَّقِينَ﴾ لأنه في نفسه هدى لجميع الخلق، فالأشقياء لم يرفعوا به رأساً، ولم يقبلوا هدى الله، فقامت عليهم به الحجة، ولم ينتفعوا به لشقايتهم، وأما المتقون الذين أتوا بالسبب الأكبر لحصول الهداية وهو التقوى، التي حقيقتها: اتخاذ ما بقي سخط الله وعذابه بامتنال أوامره واجتناب النواهي، فاهتدوا به، وانتفعوا غاية الانتفاع، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فِرْقَانًا﴾، فالمتقون هم المنتفعون بالآيات القرآنية والآيات الكونية.

ولأن الهداية نوعان: هداية البيان، وهداية التوفيق، فالمتقون حصلت لهم

احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: ﴿رب العالمين﴾، وتوحيد الإلهية، وهو أفراد الله بالعبادة، يؤخذ من لفظ: ﴿الله﴾ ومن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى، التي أثبتنا لنفسه، وأثبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ ﴿الحمد﴾ كما تقدم. وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ لأن ذلك محتج بدون الرسالة.

وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: ﴿مالك يوم الدين﴾، وأن الجزاء يكون بالعدل، لأن الدين معناه الجزاء بالعدل.

وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافاً للقدرة والجبرية. بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع [والضلال] في قوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ لأنه معرفة الحق والعمل به، وكل مبتدع [وضال] فهو مخالف لذلك.

وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى عبادة واستعانة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة البقرة وهي مدنية

﴿١-٥﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون * تقدم الكلام على البسملة، وأما الحروف المقطعة في أوائل السور، فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها، [من غير مستند شرعي] مع الجزم بأن الله تعالى لم يُنزلها عبثاً بل لحكمة لا نعلمها.



ذلك [فيؤمنون بصفات الله ووجودها، ويتيقنونها وإن لم يفهموا كيفيتها].

ثم قال: «ويقيمون الصلاة» لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقامة الصلاة، إقامتها ظاهراً بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطناً^(١) بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها، فهذه الصلاة هي التي قال الله فيها: «إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» وهي التي يترتب عليها الثواب، فلا ثواب للإنسان^(٢) من صلاته إلا ما عقل منها، ويدخل في الصلاة فرائضها ونوافلها.

ثم قال: «وما رزقناهم ينفقون»، يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب والماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير، ولم يذكر المنفق عليه، لكثرة أسبابه وتنوع أهله، ولأن النفقة من حيث هي قرينة إلى الله، وأتى بـ «من» الدالة على التبعية، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءاً يسيراً من أموالهم، غير ضار لهم ولا مُثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به

(١) كذا في ب، وفي أ: واطنهما.

(٢) في ب: للعبد.

إخوانهم. وفي قوله: «ورزقناهم» إشارة إلى أن هذه الأموال التي بين أيديكم، ليست حاصلة بقوتكم وملكتكم، وإنما هي رزق الله الذي حوّل لكم، وأنعم به عليكم، فكما أنعم عليكم وفَضَّلَكُم على كثير من عباده، فاشكروه بإخراج بعض ما أنعم به عليكم، وواسوا إخوانكم المعدمين.

وكثيراً ما يجمع تعالى بين الصلاة والزكاة في القرآن، لأن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة والنفقة متضمنة للإحسان على عبده، فنون سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق، كما أن عنوان شقاوة العبد عدم هذين الأمرين منه، فلا إخلاص ولا إحسان.

ثم قال: «والذين يؤمنون بما أنزل إليك» وهو القرآن والسنة، قال تعالى: «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة» فالتقون يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول، ولا يفرقون بين بعض ما أنزل إليه، فيؤمنون ببعضه، ولا يؤمنون ببعضه، إما بجحده أو تأويله على غير مراد الله ورسوله، كما يفعل ذلك من يفعله من البدعة، الذين يؤولون النصوص الدالة على خلاف قولهم، بما حاصله عدم التصديق بمعناها، وإن صدقوا بلفظها، فلم يؤمنوا بها إيماناً حقيقياً.

وقوله: «وما أنزل من قبلك» يشمل الإيمان بالكتب^(٣) السابقة، ويتضمن الإيمان بالكتب الإيمان بالرسول وبما اشتملت عليه، خصوصاً التوراة والإنجيل والزيور، وهذه خاصية المؤمنين يؤمنون بجميع الكتب السماوية^(٤)، وبجميع الرسل فلا يفرقون بين أحد منهم.

ثم قال: «وبالآخرة هم يوقنون»، و«الآخرة»: اسم لما يكون بعد الموت، وخَصَّهُ [بالذكر] بعد العموم، لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان

الإيمان؛ ولأنه أعظم باعث على الرُغبة والرغبة والعمل، و«اليقين»: هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل.

«أولئك» أي: الموصوفون بتلك الصفات الحميدة «على هدى من ربهم» أي: على هدى عظيم، لأن التنكير للتعظيم، وأي هداية أعظم من تلك الصفات المذكورة المتضمنة للعقيدة الصحيحة والأعمال المستقيمة، وهل الهداية [الحقيقية] إلا هدايتهم، وما سواها [عما خالفها]، فهو^(٥) ضلالة.

وأتى بـ «على» في هذا الموضع، الدالة على الاستعلاء، وفي الضلالة يأتي بـ «في» كما في قوله: «وإننا أو إياكم لعللى هدى أو في ضلال مبين» لأن صاحب الهدى مستعمل بالهدى، مرتفع به، وصاحب الضلال منغمس فيه محقر.

ثم قال: «وأولئك هم المفلحون» والفلاح [هو] الفوز المطلوب والنجاة من المهروب، حَصَرَ الفلاح فيهم؛ لأنه لا سبيل إلى الفلاح إلا بسلوك سبيلهم، وما عدا تلك السبيل فهي سبل الشقاء والهلاك والخسار التي تفضي بسالكها إلى الهلاك، فلهذا لما ذَكَرَ صفات المؤمنين حقاً، ذَكَرَ صفات الكفار المظهرين لكفرهم، المعاندين للرسول، فقال:

«٦٦-٧» «إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون * ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم»، يخبر تعالى أن الذين كفروا، أي: اتصفوا بالكفر، وانصحبوا به، وصار وصفاً لهم لازماً لا يزُدُّهم عنه رادع، ولا ينجع فيهم وعظ، إنهم مستمرون على كفرهم، فسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون، وحقيقة الكفر: هو الجحود لما جاء به الرسول، أو جحد بعضه، فهو لاء الكفار لا تفيدهم

(٥) في ب: فهي ضلالة.

(٣) في ب: بجميع الكتب.

(٤) في ب: بالكتب السماوية كلها.

يضر المؤمنين أن أظهر المنافقون الإيمان، فسلمت بذلك أموالهم وحقت دماؤهم، وصار كيدهم في نحورهم، وحصل لهم بذلك الخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة.

ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم الموجه الفجع، بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم، والحال أنهم من جهلهم وهاقهم لا يشعرون بذلك.

وقوله: ﴿ففي قلوبهم مرض﴾ والمراد بالمرض هنا: مرض الشك والشبهات والنفاق، لأن^(١) القلب يعرض له مرضان يُجرّجانه عن صحته واعتداله: مرض الشبهات الباطلة، ومرض الشهوات المردية، فالكفر والنفاق والشكوك والبدع، كلها من مرض الشبهات، والزنا ومحبة الفواحش [والمعاصي وفعلها من مرض الشهوات، كما قال تعالى: ﴿فقطم الذي في قلبه مرض﴾ وهي شهوة الزنا، والمعافى من عوفي من هذين المرضين، فحصل له اليقين والإيمان، والصبر عن كل معصية، فَرَقَل في أثواب العافية.

وفي قوله عن المنافقين: ﴿ففي قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً﴾ بيان لحكمته تعالى في تقدير المعاصي على العاصين، وأنه بسبب ذنوبهم السابقة، يبتليهم بالمعاصي اللاحقة الموجبة لعقوباتها كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وقال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ وقال تعالى: ﴿وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم﴾ فعقوبة المعصية المعصية بعدها، كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها، قال تعالى: ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾.

خاصم فَجَرَّ.

وأما النفاق الاعتقادي المخرج عن دائرة الإسلام، فهو الذي وصف الله به المنافقين في هذه السورة وغيرها، ولم يكن النفاق موجوداً قبل هجرة الرسول ﷺ [من مكة] إلى المدينة، وبعد أن هاجر، فلما كانت وقعة بدر^(١) وأظهر الله المؤمنين وأعزهم، ذلّ^(٢) من في المدينة عن لم يسلم، فأظهر بعضهم الإسلام خوفاً وخداعة، ولتحقق دماؤهم، وتسلم أموالهم، فكانوا بين أظهر المسلمين في الظاهر أنهم منهم، وفي الحقيقة ليسوا منهم.

فمن لطف الله بالمؤمنين أن جلاّ أحوالهم ووصفهم بأوصاف يمتيزون بها، لثلا يترجم المؤمنون، ولينقموا أيضاً عن كثير من فجورهم [قال تعالى]: ﴿يخذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم﴾ فوصفهم الله بأصل النفاق، فقال: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ فإنهم يقولون بالسنتهم ما ليس في قلوبهم، فأكذبهم الله بقوله: ﴿وما هم بمؤمنين﴾ لأن الإيمان الحقيقي ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما هذا خداعة لله ولعباده المؤمنين.

والمخادعة: أن يظهر المخادع لمن يخادعه شيئاً ويُبطن خلافه، لكي يتمكن من مقصوده من مخادع، فهؤلاء المنافقون سلكوا مع الله وعباده هذا المسلك، فعاد خداعهم على أنفسهم، فإن^(٣) هذا من العجائب؛ لأن المخادع إما أن يُتج خداعه ويحصل ما يريد^(٤)، أو يسلم لا لهُ ولا عليه، وهؤلاء عاد خداعهم عليهم، وكأنهم^(٥) يعملون ما يعملون من المكر لإهلاك أنفسهم وإضرارها وكيدها؛ لأن الله تعالى لا يتضرر بخداعهم، [شيئاً] وعباده المؤمنون لا يضرهم كيدهم شيئاً، فلا

الدعوة إلا إقامة الحجة عليهم، وكان في هذا قطعاً لطمع الرسول ﷺ في إيمانهم، وأنت لا تأس عليهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات.

ثم ذكر الموانع المانعة لهم من الإيمان، فقال: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ أي: طبع عليها بطابع لا يدخلها الإيمان، ولا ينفذ فيها، فلا يُعَوّن ما ينفعهم، ولا يسمعون ما يفيدهم.

﴿وعلى أبصارهم غشاوة﴾ أي: غشاء وغطاء وأكثت تمنعها عن النظر الذي ينفعهم، وهذه طرق العلم والخير قد سدت عليهم، فلا مطمع فيهم، ولا خير يُرجى عندهم، وإنما منعوا ذلك، وسدّت عنهم أبواب الإيمان بسبب كفرهم وجحودهم ومعاندتهم بعدما تبين لهم الحق، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ وهذا عقاب عاجل.

ثم ذكر العقاب الآجل، فقال: ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ وهو عذاب النار، وسخط الجبار المستمر الدائم.

ثم قال تعالى في وصف المنافقين الذين ظاهرهم الإسلام وباطنهم الكفر، فقال:

﴿٨٠ - ١٠﴾ ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين﴾ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون﴾ واعلم أن النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، ويدخل في هذا التعريف النفاق الاعتقادي والنفاق العملي، فالنفاق العملي كالذي ذكر النبي ﷺ في قوله: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان»، وفي رواية: «وإذا

(٦) في ب: وذلك أن.

(٤) في ب: ويحصل له مقصوده.

(٥) في ب: عاد خداعهم على أنفسهم

فكانهم.

(١) في ب: ولا بعد الهجرة حتى كانت

وقعة بدر.

(٢) في ب: فذل.

(٣) في ب: وهذا.

﴿١١-١٢﴾ «وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون* ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون* أي: إذا نهي هؤلاء المنافقون عن الإفساد في الأرض، وهو العمل بالكفر والمعاصي، ومنه إظهار سرائر المؤمنين لعدوهم ومواليتهم للكافرين» قالوا إنما نحن مصلحون» فجمعوا بين العمل بالفساد في الأرض، وإظهارهم أنه ليس بإفساد بل هو إصلاح، قلباً للحقائق وجمعاً بين فعل الباطل واعتقاده حقاً، وهذا أعظم جناية ممن يعمل بالمعصية، مع اعتقاد أنها معصية^(١)، فهذا أقرب للسلامة، وأرجى لرجوعه.

ولما كان في قولهم: «إنما نحن مصلحون» حصراً للإصلاح في جانبهم. وفي ضمنه أن المؤمنين ليسوا من أهل الإصلاح - قلب الله عليهم دعواهم بقوله: «ألا إنهم هم المفسدون» فإنه لا أعظم فساداً^(٢) من كفر بآيات الله، وصّد عن سبيل الله، وخذل داع الله وأوليائه، ووالى المحاربين لله ورسوله، وزعم مع ذلك أن هذا إصلاح، فهل بعد هذا الفساد فساداً؟! ولكن لا يعلمون علماً ينفعهم، وإن كانوا قد علموا بذلك علماً تقوم به عليهم حجة الله، وإنما كان العمل بالمعاصي في الأرض إفساداً، لأنه يتضمن فساداً^(٣) ما على وجه الأرض من الحبوب والشمار والأشجار والنبات، بما^(٤) يحصل فيها من الآفات بسبب^(٥) المعاصي، ولأن الإصلاح في الأرض أن تعمّر بطاعة الله والإيمان به، لهذا خلق الله الخلق، وأسكنهم في الأرض، وأدّر لهم^(٦) الأزراق، ليستعينوا بها على طاعته [وعبادته]، فإذا عمل فيها بضده، كان سعيّاً بالفساد فيها،

وإخراً لها عما خلقت له.

﴿١٣﴾ «وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء إلا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون* أي: إذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس، أي: كإيمان الصحابة رضي الله عنهم، وهو الإيمان بالقلب واللسان، قالوا بزعهم الباطل: أنؤمن كما آمن السفهاء؟ يعنون - قبحهم الله - الصحابة رضي الله عنهم، بزعهم أن سفهم أوجب لهم الإيمان، وترك الأوطان، ومعادة الكفار، والعقل عندهم يقتضي ضد ذلك، فنسبوه إلى السفه؛ وفي ضمنه^(٨) أنهم هم العقلاء أرباب الحجى والنهى.

فردّ الله ذلك عليهم، وأخبر أنهم هم السفهاء على الحقيقة، لأن حقيقة السفه^(٩): جهل الإنسان بمصالح نفسه، وسعيه فيما يضرها، وهذه الصفة منطبقة عليهم وصادقة عليهم، كما أن العقل والحجاء، مُعرّفة الإنسان بمصالح نفسه، والسعي فيما ينفعه [وفي] دفع ما يضره، وهذه الصفة منطبقة على [الصحابة و] المؤمنين وصادقة عليهم، فالعبرة بالأوصاف والبرهان، لا بالدعاوى المجردة والأقوال الفارغة.

ثم قال تعالى: ﴿١٤-١٥﴾ «وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤون* الله يستهزيهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون» هذا من قولهم بالسنتهم ما ليس في قلوبهم، [وذلك] أنهم إذا اجتمعوا بالمؤمنين أظهروا أنهم على طريقتهم وأنهم معهم، فإذا خلوا إلى شياطينهم - أي: رؤسائهم وكبرائهم في الشر - قالوا: إنا معكم في الحقيقة، وإنما نحن

مستهزؤون بالمؤمنين بإظهارنا لهم أننا على طريقتهم، فهذه حالهم الباطنة والظاهرة، ولا يحق المكر السيء إلا بأهله.

قال تعالى: «الله يستهزيهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون» وهذا جزاء لهم على استهزائهم بعباده، فمن استهزائه بهم أن زين لهم ما كانوا فيه من الشقاء والحالة الخبيثة، حتى ظنوا أنهم مع المؤمنين لما لم يُسلط الله المؤمنين عليهم، ومن استهزائه بهم يوم القيامة أنه يعطيهم مع المؤمنين نوراً ظاهراً، فإذا مشى المؤمنون بنورهم ظني نور المنافقين، ويقفوا في الظلمة بعد النور متحيرين، فما أعظم اليأس بعد الطمع، «ينادونهم ألم نكن معكم، قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم» الآية.

قوله: «ويمدهم» أي: يزيدهم «في طغيانهم» أي: فجورهم وكفرهم، «يعمهون» أي: حاثرون مترددون، وهذا من استهزائه تعالى بهم.

ثم قال تعالى كاشفاً عن حقيقة أحوالهم:

﴿١٦﴾ «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين» أولئك، أي: المنافقون الموصوفون بتلك الصفات «الذين اشتروا الضلالة بالهدى» أي: رغبوا في الضلالة رغبة المشتري بالسلعة، التي من رغبته فيها يبذل فيها الأثمان^(١٠) النفيسة، وهذا من أحسن الأمثلة، فإنه جعل الضلالة التي هي غاية الشر كالسلعة، وجعل الهدى الذي هو غاية الصلاح بمنزلة الثمن، فبذلوا الهدى رغبةً عنه بالضلالة، رغبة فيها، فهذه تجارتهم، فبش التجارة، وبش الصفقة صفقتهم^(١١).

(٩) كذا في ب، وفي أ: الفسقة.

(١٠) في ب: الأموال.

(١١) في ب: وهذه صفقتهم فبش الصفقة.

(٥) في ب: التي سبها.

(٦) في ب: عليهم.

(٧) في ب: لزعمهم.

(٨) في ب: وفي ضمن ذلك.

(١) ممن يعمل بالمعاصي مع اعتقاد تحريمها.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فساداً.

(٣) في ب: لأنه سبب فساد.

(٤) في ب: لما.

الإحراق، فبقي في ظلمات متعددة: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، والظلمة الحاصلة بعد النور، فكيف يكون حال هذا الموصوف؟ فكذاك هؤلاء المنافقون، استوقدوا نار الإيمان من المؤمنين ولم تكن صفة لهم، فانتفعوا بها^(٣) وحقت بذلك دماؤهم، وسلمت أموالهم، وحصل لهم نوع من الأمن في الدنيا، فبينما هم على ذلك^(٤) إذ هجم عليهم الموت، فسلبهم الانتفاع بذلك النور، وحصل لهم كل هم وغم وعذاب، وحصل لهم ظلمة القبر وظلمة الكفر وظلمة النفاق، وظلم^(٥) المعاصي على اختلاف أنواعها، وبعد ذلك ظلمة النار [أوبس

القرار] فلهذا قال تعالى [عنهم]: ﴿صَمٌّ﴾ أي: عن سماع الخير، ﴿بُكْمٌ﴾ [أي]: عن النطق به، ﴿غُمٌّ﴾ عن رؤية الحق، ﴿فهم لا يرجعون﴾ لأنهم تركوا الحق بعد أن عرفوه، فلا يرجعون إليه، بخلاف من ترك الحق عن جهل وضلال، فإنه لا يعقل، وهو أقرب رجوعاً منهم.

ثم قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني: أو مثلهم كصيب، أي: كصاحب صيب من السماء، وهو المطو الذي يصوب، أي: ينزل بكثرة، ﴿ففيه ظلمات﴾: ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، ﴿ورعد﴾ وهو الصوت الذي يسمع من السحاب، ﴿وبرق﴾: وهو الضوء [اللامع] المشاهد مع^(٦) السحاب، ﴿كلما أضاء لهم﴾ البرق في تلك الظلمات ﴿مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا﴾ أي: وقفوا.

فهكذا حال^(٧) المنافقين، إذا سمعوا القرآن وأوامره ونواهيه ووعده ووعيده، جعلوا أصابعهم في آذانهم، وأعرضوا عن أمره ونهيه ووعده ووعيده، فبرعهم وعيده وترعجهم

وإذا كان من يذل^(١) ديناراً في مقابلة درهم خاسراً، فكيف من يذل جوهرة وأخذ عنها درهماً؟! فكيف من يذل الهدى في مقابلة الضلالة، واختار الشقاء على السعادة، ورغب في سافل الأمور عن أعاليها^(٢)؟! فما ربححت تجارتها، بل خسر فيها أعظم خسارة. ﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين﴾.

وقوله: ﴿وما كانوا مهتدين﴾ تحقيق لضلالتهم، وأنهم لم يحصل لهم من الهداية شيء، فهذه أوصافهم القبيحة. ثم ذكر مثلهم الكاشف لها غاية الكشف، فقال:

﴿١٧ - ٢٠﴾ استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صَمٌّ بكم عمي فهم لا يرجعون * أو كصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فيه ظلمات ورعد وبرق يعملون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم، إن الله على كل شيء قدير * أي: مثلهم المطابق لما كانوا عليه كمثل الذي استوقد ناراً، أي: كان في ظلمة عظيمة وحاجة إلى النار شديدة فاستوقدها من غيره، ولم تكن عنده معدة، بل هي خارجة عنه، فلما أضاءت النار ما حوله، ونظر المحل الذي هو فيه، وما فيه من المخاوف وأمنها، وانتفع بتلك النار، وقرت بها عينه، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك إذ ذهب الله بنوره، فذهب عنه النور وذهب معه السرور، وبقي في الظلمة العظيمة والنار المحرقة، فذهب ما فيها من الإشراق، وبقي ما فيها من

﴿١٧ - ٢٠﴾ استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون * صَمٌّ بكم عمي فهم لا يرجعون * أو كصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فيه ظلمات ورعد وبرق يعملون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه، وإذا أظلم عليهم قاموا، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم، إن الله على كل شيء قدير * أي: مثلهم المطابق لما كانوا عليه كمثل الذي استوقد ناراً، أي: كان في ظلمة عظيمة وحاجة إلى النار شديدة فاستوقدها من غيره، ولم تكن عنده معدة، بل هي خارجة عنه، فلما أضاءت النار ما حوله، ونظر المحل الذي هو فيه، وما فيه من المخاوف وأمنها، وانتفع بتلك النار، وقرت بها عينه، وظن أنه قادر عليها، فبينما هو كذلك إذ ذهب الله بنوره، فذهب عنه النور وذهب معه السرور، وبقي في الظلمة العظيمة والنار المحرقة، فذهب ما فيها من الإشراق، وبقي ما فيها من

وعوده، فهم يعرضون عنها غاية ما يمكنهم، ويكرهونها كراهة صاحب الصيب الذي يسمع الرعد، ويجعل^(٨) أصابعه في آذنيه^(٩) خشية الموت، فهذا تمكن له^(١٠) السلامة. وأما المنافقون فأنى لهم السلامة، وهو تعالى محيط بهم، قدرةً وعلماً، فلا يفوتونه ولا يعجزونه، بل يحفظ عليهم أعمالهم، ويمازيهم عليها أتم الجزاء.

ولما كانوا مبتلين بالصمم والبكم والعمى المعنوي، ومسدودة عليهم طرق الإيمان، قال تعالى: ﴿ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم﴾ أي: الحسنة، ففيه تحذير لهم وتخويف بالعقوبة الدنيوية ليحذروا، فيرتدعوا عن بعض شرهم ونفاقهم، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فلا يعجزه شيء، ومن قدرته أنه إذا شاء شيئاً فعله من غير مناع ولا معارض.

وفي هذه الآية وما أشبهها رد على القدرية القائلين بأن أفعالهم غير داخلية في قدرة الله تعالى، لأن أفعالهم من جملة الأشياء الداخلية في قوله: ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾.

﴿٢١ - ٢٢﴾ ﴿يا أيها الناس اعبدوا

(٨) في ب: فيجعل.

(٩) كذا في ب، وفي أ: آذنه.

(١٠) في ب: ربما حصلت له.

(٤) في ب: هم كذلك.

(٥) في ب: وظلمة.

(٦) في ب: من.

(٧) في ب: حالة.

(١) في ب: يذل.

(٢) في ب: وترك عاليها.

(٣) في ب: ما سئذوا بها مؤقتاً

وانتفعوا فحقت.



صحيح، وهما متلازمان، فمن أتى بالعبادة كاملة كان من المتقين ومن كان من المتقين، حصلت له النجاة من عذاب الله وسخطه ثم قال تعالى :

﴿٢٣ - ٢٤﴾ «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين * فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين» وهذا دليل عقلي على صدق رسول الله ﷺ وصحة ما جاء به، فقال :

﴿وإن كنتم﴾ معشر المعاندين للرسول، الرادين دعوته، الزاعمين كذبه في شك واشتباه مما نزلنا على عبدنا، هل هو حق أو غيره؟ فهأنا أمر نصف، فيه الفصلة بينكم وبينه، وهو أنه بشر مثلكم، ليس بأفصحكم ولا بأعلمكم^(١)، وأنتم تعرفونه منذ نشأ بينكم لا يكتب ولا يقرأ، فأتاكم بكتاب زعم أنه من عند الله، وقلتم أنتم أنه تقوله وافتراه، فإن كان الأمر كما تقولون، فأتوا بسورة من مثله، واستعينوا بمن تقدرون عليه من أعوانكم وشهادتكم، فإن هذا أمر يسير عليكم، خصوصاً وأنتم أهل الفصاحة والخطابة والعداوة العظيمة للرسول، فإن جئتم بسورة من مثله، فهو كما زعمتم، وإن لم تأتوا بسورة من مثله وعجزتم غاية العجز، ولن تأتوا بسورة من مثله، ولكن هذا التقييم^(٢) على وجه الإنصاف والتنزل معكم، فهذا آية كبرى ودليل واضح [جلي] على صدقه وصدق ما جاء به، فيتعين عليكم اتباعه، وإتقاء النار التي بلغت في الحرارة العظيمة [والشدة]، أن كانت وقودها الناس والحجارة، ليست كنار الدنيا التي إنما تتقد

﴿ وأنزل من السماء ماء﴾ والسماء [هو] كل ما علا فوقك فهو سماء، ولهذا قال المفسرون: المراد بالسماء هاهنا: السحاب، فأنزل منه تعالى ماء، ﴿ فأخرج به من الثمرات﴾ كالحبوب والثمار من نخيل وفواكه [وزروع] وغيرها، ﴿ رزقاً لكم﴾ به ترتزقون وتقوتون، وتعيشون وتفكهنون.

﴿ فلا تجعلوا لله أنداداً﴾ أي: نظراء وأشباهاً من المخلوقين، فتعبدوهم كما تعبدون الله، وتحبسونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم مخلوقون مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضرون، ﴿ وأنتم تعلمون﴾ أن الله ليس له شريك، ولا نظير، لا في الخلق والرزق والتدبير، ولا في العبادة^(٣)، فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأسفه السفه.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه، وهو [ذكر] توحيد الربوبية المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقراً بأنه ليس له شريك في ذلك، فكذلك فليكن إقراره بأن [الله] لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري، وبطلان الشرك.

وقوله تعالى: ﴿لعلكم تتقون﴾ يحتمل أن المعنى: أنكم إذا عبدتم الله وحده، اتقيتم بذلك سخطه وعذابه، لأنكم أنتم بالسبب الدافع لذلك، ويحتمل أن يكون المعنى: أنكم إذا عبدتم الله، صرتم من المتقين الموصوفين بالتقوى، وكلا المعنيين

ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴿ هذا أمر عام لكل^(١) الناس، بأمر عام، وهو العبادة الجامعة لامثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وتصديق خبره، فأمرهم تعالى بما خلقهم له، قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

ثم استدلل على وجوب عبادته وحده، بأنه ربكم الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فراشاً تستقرون عليها، وتنتفعون بالأنينة والزراعة والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من أنواع^(٢) الانتفاع بها، وجعل السماء بناء لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم كالشمس والقمر والنجوم.

(١) في ب: لجميع.

(٢) في ب: وجوه.

(٣) في ب: ولا في الألوهية والكمال.

(٤) هكذا في أ، وفي ب: شطب قوله (بأفصحكم ولا بأعلمكم) وفي هامش النسخة بخط المؤلف جملة أخرى هي (من جنس آخر) فتكون الجملة هكذا (ليس من جنس آخر).

(٥) هكذا وردت الكلمة في هامش أ، وهي ليست في ب، ويبدو أن المراد وهذا العرض.

بأفضل الأسباب .

ويتحiron، فيزدادون كفراً إلى كفرهم، كما ازداد المؤمنون إيماناً على إيمانهم، ولهذا قال: ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً﴾ فهذه حال المؤمنين والكافرين عند نزول الآيات القرآنية . قال تعالى: ﴿وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أياكم زادته هذه إيماناً فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون﴾ فلا أعظم نعمة على العباد من نزول الآيات القرآنية، ومع هذا تكون لقوم محنة وحيرة [وضلالة] وزيادة شر إلى شرهم، ولقوم منحة [ورحمة] وزيادة خير إلى خيرهم، فسبحان من فاوت بين عباده، وانفرد بالهداية والإضلال .

ثم ذكر حكمته في إضلال من يضلهم وأن ذلك عدل منه تعالى^(٢) فقال: ﴿وما يضل به إلا الفاسقين﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله؛ المعاندين لرسل الله؛ الذين صار الفسق وصفهم، فلا ييغون به بدلاً، فاقترض حكمته تعالى إضلالهم لعدم صلاحيتهم للهدى، كما اقتضت حكمته وفضله هداية من اتصف بالإيمان وتحلى بالأعمال الصالحة .

والفسق نوعان: نوع يخرج من الدين، وهو الفسق المقتضي للخروج من الإيمان، كالمذكور في هذه الآية ونحوها، ونوع غير يخرج عن الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا﴾ [الآية] .

ثم وصف الفاسقين، فقال: ﴿الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ وهذا يعم العهد الذي بينهم وبينه^(٣)؛ والذي بينهم وبين عباده^(٤)؛ الذي أكده عليهم بالمواثيق الثقيلة والإنذارات، فلا يبالون بتلك المواثيق، بل ينقضونها ويتركون أوامره، ويرتكبون نواهيه، وينقضون العهد التي بينهم وبين الخلق .

وفيه استحباب بشارة المؤمنين وتنشيطهم على الأعمال بذكر جزائها [وثمراتها]، فإنها بذلك تخف وتسهل، وأعظم بشرى حاصلة للإنسان توفيقه للإيمان والعمل الصالح، فذلك أول البشارة وأصلها، ومن بعده البشرى عند الموت، ومن بعده الوصول إلى هذا النعيم المقيم، نسأل الله أن يجعلنا منهم^(٥) .

﴿٢٦ - ٢٧﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا فَأما الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأما الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا﴾ أي: أي مثل كان [بعوضة فما فوقها] لاشتمال الأمثال على الحكمة، وإيضاح الحق، والله لا يستحيي من الحق، وكان في هذا جواباً لمن أنكر ضرب الأمثال في الأشياء الخفية، واعترض على الله في ذلك، فليس في ذلك محل اعتراض، بل هو من تعليم الله لعباده ورحمته بهم، فيجب أن تتلقى بالقبول والشكر، ولهذا قال: ﴿فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم﴾ فيفهمونها، ويفكرون فيها .

فإن علموا ما اشتملت عليه على وجه التفصيل، ازداد بذلك علمهم وإيمانهم، وإلا علموا أنها حق، وما اشتملت عليه حق، وإن خفي عليهم وجه الحق فيها لعلمهم بأن الله لم يضرها عبثاً، بل لحكمة بالغة ونعمة سابعة .

﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا﴾ فيعترضون



العيب الفلاني؛ ليشمل جميع أنواع التطهير، فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، فأخلاقهن أنهن عُرِبَ متحجبات إلى أزواجهن بالخلق الحسن، وحسن التبعيل والأدب القولي والفعل، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والمني، والبول والغائط، والمخاط والبصاق، والرائحة الكريهة، ومطهرات الخلق أيضاً بكمال الجمال، فليس فيهن عيب، ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات ألستهن عن كل كلام قبيح .

ففي هذه الآية الكريمة، ذكر المبشر والمبشر والمبشّره، والسبب الموصل لهذه البشارة، فالمبشّر: هو الرسول ﷺ ومن قام مقامه من أمته، والمبشّر: هم المؤمنون العاملون بالصالحات، والمبشّره: هي الجنات الموصوفات بتلك الصفات، والسبب الموصل لذلك هو الإيمان والعمل الصالح، فلا سبيل إلى الوصول إلى هذه البشارة إلا بهما، وهذا أعظم بشارة حاصلة على يد أفضل الخلق،

(٣) في ب: وبين ربهم .

(٤) في ب: الخلق .

(١) في ب: نسأل الله من فضله .

(٢) في ب: ثم ذكر حكمته وعدله في إضلال من يضل .

وأخفى.

وكثيراً ما يقرن بين خلقه للخلق وإثبات علمه كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَهُ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ لأن خلقه للمخلوقات أدل دليل على علمه وحكمته وقدرته.

﴿٣٠ - ٣٤﴾ وإذ قال ربك

للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون * وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبذرون وما كنتم تكتمون * وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان

من الكافرين ﴿هذا شروع في ذكر فضل آدم عليه السلام أبي البشر^(٥)﴾، أن الله حين أراد خلقه أخبر الملائكة بذلك، وأن الله مستخلفه في الأرض، فقالت الملائكة عليهم السلام: ﴿اتجعل فيها من يفسد فيها﴾ بالمعاصي ﴿ويسفك الدماء﴾ [و] هذا تخصيص بعد تعميم، لبيان [شدة] مفسدة القتل، وهذا بحسب ظنهم أن الخليفة المجعل في الأرض سيحدث منه ذلك، فنزهوا الباري عن ذلك، وعظموه، وأخبروا أنهم قائمون بعبادة الله على وجه خال من المفسدة، فقالوا: ﴿ونحن نسبح بحمدك﴾ أي: ننزهك التنزيه اللائق بحمدك وجلالك، ﴿ونقدس لك﴾، يحتمل أن معناها: ونقدسك، فتكون اللام مفيدة للتخصيص والإخلاص، ويحتمل أن يكون: ونقدس لك أنفسنا، أي:

فيجازيكم الجزاء الأوفى، فإذا كنتم في تصرفه وتدبيره وبزّه، وتحت أوامره الدينية، ومن بعد ذلك تحت دينه الجزائي، أفيليق بكم أن تكفروا به، وهل هذا إلا جهل عظيم وسفه وحماسة؟^(٦) بل الذي يليق بكم أن تؤمنوا به وتتقوه وتشكروه، وتحافوا عذابه وترجوا ثوابه.

﴿٢٩﴾ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً أي: خلق لكم برأبكم ورحمة، جميع ما على الأرض، للارتفاع والاستمتاع والاعتبار.

وفي هذه الآية العظيمة^(٧) دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة والطهارة، لأنها سبقت في معرض الامتنان، يخرج بذلك الخباثات، فإن [تحريمها أيضاً] يؤخذ من فحوى الآية، ومعرفة المقصود منها، وأنه خلقها لنفعنا، فما فيه ضرر فهو خارج من ذلك، ومن تمام نعمته منعنا من الخباثات تنزيهاً لنا.

وقوله: ﴿ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات﴾ وهو بكل شيء عليم.

﴿استوى﴾: ترد في القرآن على ثلاثة معاني: فتارة لا تعدى بالحرف، فيكون معناها الكمال والتمام، كما في قوله عن موسى: ﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾ وتارة تكون بمعنى «علا» و «ارتفع»، وذلك إذا عدت بـ «على» كما في قوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش^(٨)﴾، «لنستووا على ظهوره» وتارة تكون بمعنى «قصد» كما إذا عدت بـ «إلى» كما في هذه الآية، أي: لما خلق تعالى الأرض قصد إلى خلق السماوات ﴿فسواهن سبع سموات﴾ فخلقها وأحكمها وأتقنها، ﴿وهو بكل شيء عليم﴾. فـ «يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها»، و «يعلم ما تسرون وما تعلنون» يعلم السرّ

﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وهذا يدخل فيه أشياء كثيرة، فإن الله أمرنا أن نصل ما بيننا وبينه بالإيمان به والقيام بعبوديته، وما بيننا وبين رسوله بالإيمان به ومحبة وتعزيره والقيام بحقوقه، وما بيننا وبين الوالدين والأقارب والأصحاب، وسائر الخلق بالقيام بتلك الحقوق^(٩) التي أمر الله أن نصلها.

فأما المؤمنون فوصلوا ما أمر الله به أن يوصل من هذه الحقوق؛ وقاموا بها أتم القيام، وأما الفاسقون فقطعوها ونبذوها وراء ظهورهم معتاضين عنها بالفسق والقطيعة، والعمل بالمعاصي، وهو: الإسفاف في الأرض.

فـ ﴿أولئك﴾ أي: من هذه صفته ﴿هم الخاسرون﴾ في الدنيا والآخرة، فحصر الخسارة فيهم، لأن خسارتهم عام في كل أحوالهم، ليس لهم نوع من الربح؛ لأن كل عمل صالح شرطه الإيمان، فمن لا إيمان له لا عمل له، وهذا الخسار هو خسار الكفر، وأما الخسار الذي قد يكون كفراً، وقد يكون معصية، وقد يكون تفریطاً في ترك مستحب، المذكور في قوله تعالى: ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ فهذا عام لكل مخلوق، إلا من اتصف بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وحقيقته فوات الخير الذي [كان] العبد بصدد تحصيله وهو تحت إمكانه.

﴿٢٨﴾ ثم قال تعالى: ﴿كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميّتكم ثم يجيئكم ثم إليه ترجعون﴾ هذا استفهام بمعنى التعجب والتوبيخ والإنكار، أي: كيف يحصل منكم الكفر بالله الذي خلقكم من العدم؛ وأنعم عليكم بأصناف النعم، ثم يميّتكم عند استكمال آجالكم، ويجازيكم في القبور، ثم يجيئكم بعد البعث والنشور، ثم إليه ترجعون،

(٥) في ب: هذا شروع في ابتداء خلق آدم عليه السلام أبي البشر وفضله.

(٦) في ب: أورد آية أخرى هي: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾.

(١) في ب: بحقوقهم.

(٢) في ب: وسفه كبير، بل.

(٣) في ب: الكريمة.

جهلوا، وتنبههم على ما لم يعلموه.
وفيه فضيلة العلم من وجوه:

منها: أن الله تعرف للملائكة بعلمه وحكمته، ومنها: أن الله عزّهم فضل العبد، ومنها: أن الله أمرهم بالسجود لآدم إكراماً له لما بان فضل علمه، ومنها: أن الامتحان للغير، إذا عجزوا عما امتحنوا به، ثم عرفه صاحب الفضيلة، فهو أكمل مما عرفه ابتداء، ومنها: الاعتبار بحال أبوي الإنس والجن، وبيان فضل آدم، وإفضال الله عليه، وعداوة إبليس له، إلى غير ذلك من العبر.

﴿٣٥-٣٦﴾ ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ * فآللهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كان فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * لما خلق الله آدم وفضله، أتم نعمته عليه بأن خلق منه زوجة ليسكن إليها ويستأنس بها، وأمرهما بسكنى الجنة والأكل منها رَغَدًا * أي: واسعاً هنيئاً، * حيث شئتما * أي: من أي أصناف الثمار والفواكه، وقال الله له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجْمُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرِى﴾ * وأنك لا نظماً فيها ولا تضحى *.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ نوع من أنواع شجر الجنة الله أعلم بها، وإنما نهاهما عنها امتحاناً وإبتلاءً أو لحكمة غير معلومة لنا^(٢)، ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ دل على أن النهي للتحريم، لأنه رتب عليه الظلم.

فلم يزل عدوهما يوسوس لهما، ويزين لهما تناول ما نهايا عنه، حتى أزلهما، أي: حملهما على الزلل بتزيينه، ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ بالله ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ فآغتربا به وأطاعاه، فأخرجهما مما كانا فيه من النعيم والرغد، وأهبطوا إلى دار التعب والنصب والمجاهدة.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ العليم الذي أحاط علماً بكل شيء، فلا يغيب عنه ولا يعزب مثقال ذرة في السموات والأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر. الحكيم: من له الحكمة التامة التي لا يخرج عنها مخلوق، ولا يشذ عنها مأمور، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا أمر بشيء إلا لحكمة، والحكمة: وضع الشيء في موضعه اللائق به، فأقروا واعترفوا بعلم الله وحكمته، وقصورهم عن معرفة أدنى شيء، واعترفاهم بفضل الله عليهم، وتعليمه إياهم ما لا يعلمون.

فحيث قال الله: ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ أي: أسماء المسميات التي عرضها الله على الملائكة فعجزوا عنها. ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾ تبيين للملائكة فضل آدم عليهم، وحكمة الباري وعلمه في استخلاف هذا الخليفة، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهو ما غاب عنا فلم نشاهده، فإذا كان عالماً بالغيب، فالشهادة من باب أولى، ﴿وَأَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ﴾ أي: تظهرون ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

ثم أمرهم تعالى بالسجود لآدم، إكراماً له وتعظيماً، وعبودية لله تعالى، فامتثلوا أمر الله وبادروا كلهم بالسجود، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ امتنع عن السجود، واستكبر عن أمر الله وعلى آدم، قال: ﴿أَسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ وهذا الإباء منه والاستكبار نتيجة الكفر الذي هو منطوق عليه، فتبينت حيث شذذ عداوته لله ولآدم، وكفره واستكباره.

وفي هذه الآيات من العبر والآيات إثبات الكلام لله تعالى، وأنه لم يزل متكلاً يقول ما شاء ويتكلم بما شاء، وأنه عليم حكيم، وفيه أن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات والأمورات فالواجب عليه التسليم، وإتباع عقله، والإقرار لله بالحكمة، وفيه اعتناء الله بشأن الملائكة، وإحسانه بهم، بتعليمهم ما

نظهرها بالأخلاق الجميلة، كمحبة الله وخشيته وتعظيمه، ونظهرها من الأخلاق الرذيلة.

قال الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ من هذا الخليفة ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾؛ لأن كلامكم بحسب ما ظننتم، وأنا عالم بالظواهر والسرائر، وأعلم أن الخير الحاصل بخلق هذا الخليفة أضعاف أضعاف ما في ضمن ذلك من الشر، فلو لم يكن في ذلك إلا أن الله تعالى أراد أن يجتبي منهم الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ولتظهر آياته خلقه، ويحصل من العبوديات التي لم تكن تحصل بدون خلق هذا الخليفة كالجهاد وغيره، وليظهر ما كمن في غرائز بني آدم^(١) من الخير والشر بالامتحان، وليبين عده من وليه، وحزبه من حربه، وليظهر ما كمن في نفس إبليس من الشر الذي انطوى عليه واتصف به، فهذه حكم عظيمة يكفي بعضها في ذلك.

ثم لما كان قول الملائكة عليهم السلام، فيه إشارة إلى فضلهم على الخليفة الذي يجعله الله في الأرض، أراد الله تعالى أن يبين لهم من فضل آدم ما يعرفون به فضله، وكمال حكمة الله وعلمه، ف ﴿عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أي: أسماء الأشياء، ومن هو مسمى بها، فعلمه الاسم والمسمى، أي: الألفاظ والمعاني، حتى المكبر من الأسماء كالقصعة، والمصغر كالقصعة.

﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أي: عرض المسميات ﴿عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ امتحاناً لهم، هل يعرفونها أم لا؟

﴿فَنَقَلَ أَتَّبَعِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في قولكم وظنكم، أنكم أفضل من هذا الخليفة.

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي: نَزَّهَكَ عن الاعتراض منا عليك ومخالفة أمرك، ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ بوجه من الوجوه، ﴿إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ إياه، فضلاً منك وجوداً،

أتى من بعدهم، فأمرهم بأمر عام، فقال: ﴿اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم﴾ وهو يشمل سائر النعم التي سيذكر في هذه السورة بعضها، والمراد بذكرها بالقلب اعتراهاً، وباللسان ثناءً، وبالجوارح باستعمالها فيما يحبه ويرضيه.

﴿وأوفوا بعهدي﴾ وهو ما عهده إليهم من الإيمان به وبرسوله وإقامة شرعه، ﴿أوف بعهدكم﴾ وهو المجازاة على ذلك.

والمراد بذلك: ما ذكره الله في قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نبياً، وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة [وآتيتم الزكاة وأمنتم برسلي] إلى قوله: ﴿فقد ضل سواء السبيل﴾.

ثم أمرهم بالسبب الحامل لهم على الوفاء بعهده، وهو الرهبة منه تعالى، وخشيته وحده، فإن من خشية أوجبت له خشية امتثال أمره واجتناب نهي.

ثم أمرهم بالأمر الخاص الذي لا يتم إيمانهم، ولا يصح إلا به، فقال: ﴿وآمنوا بما أنزلت﴾ وهو القرآن الذي أنزله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فأمرهم بالإيمان به واتباعه، ويستلزم ذلك الإيمان بمن أنزل عليه، وذكر الداعي لإيمانهم به، فقال: ﴿مصدقاً لما معكم﴾ أي: موافقاً له لا مخالفاً ولا مناقضاً، فإذا كان موافقاً لما معكم من الكتب غير مخالف لها، فلا مانع لكم من الإيمان به، لأنه جاء بما جاء به المرسلون، فأنتم أولى من آمن به وصدق به، لكونكم أهل الكتب والعلم.

وأيضاً فإن في قوله: ﴿مصدقاً لما معكم﴾ إشارة إلى أنك إن لم تؤمنوا به، عاد ذلك عليكم بتكذيب ما معكم، لأن ما جاء به هو الذي جاء به موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء، فتكذيبكم له تكذيب لما معكم.

وأيضاً فإن في الكتب التي بأيديكم صفة هذا النبي الذي جاء بهذا القرآن والبشارة به، فإن لم تؤمنوا به كذبتم ببعض ما أنزل إليكم، ومن كذب

والاجتناب للنهي، ﴿فلا خوف عليكم ولا هم يحزنون﴾.

وفي الآية الأخرى: ﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾.

فرتب على اتباع هذه أربعة أشياء:

نفي الخوف والحزن، والفرق بينهما أن المكروه إن كان قد مضى أحدث الحزن، وإن كان منتظراً أحدث الخوف، ففهما عن اتباع هداي، وإذا انتفيا حصل ضدهما وهو الأمن التام، وكذلك نفي الضلال والشقاء عمن اتبع هداي وإذا انتفيا ثبت ضدهما، وهو الهدى والسعادة، فمن اتبع هداي، حصل له الأمن والسعادة الدنيوية والأخروية والهدى، وانتفى عنه كل مكروه من الخوف والحزن والضلال والشقاء، فحصل له المرغوب واندفع عنه المرهوب، وهذا عكس من لم يتبع هداي فكفر به وكذب بآياته.

ف: ﴿أولئك أصحاب النار﴾ أي: الملامون لها ملازمة صاحب لصاحبه، والغريم لغريمه، ﴿هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها، ولا يفتر عنهم العذاب ولا هم ينصرون.

وفي هذه الآيات وما أشبهها، انقسام الخلق من الجن والإنس إلى أهل السعادة وأهل الشقاوة، وفيها صفات الفريقين والأعمال الموجبة لذلك، وأن الجن كالإنس في الشواب والعقاب، كما أنهم مثلهم في الأمر والنهي.

ثم شرع تعالى يذكر بني إسرائيل نعمة عليهم وإحسانه، فقال:

﴿٤٠ - ٤٣﴾ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون * وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشكروا بآياتي ثمناً قليلاً وإياي فاتقون * ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون * وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين * يا بني إسرائيل المراد بإسرائيل: يعقوب عليه السلام، والخطاب مع فرق بني إسرائيل، الذين بالمدينة وما حولها، ويدخل فيهم من

بعضكم لبعض عدو﴾ أي: آدم وذريته أعداء لإبليس وذريته، ومن المعلوم أن العدو يجتد ويجتهد في ضرر عدوه وإيصال الشر إليه بكل طريق، وحرماته الخير بكل طريق، ففي ضمن هذا، تحذير بني آدم من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ أفنتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بش للظالمين بدلاً.

ثم ذكر منتهى الإهباط إلى الأرض، فقال: ﴿ولكم في الأرض مستقر﴾ أي: مسكن وقرار، ﴿ومتاع إلى حين﴾ انقضاء آجالكم، ثم تنتقلون منها للدار التي خلقت لها، وخلقت لكم، ففيها أن مدة هذه الحياة مؤقتة عارضة، ليست مسكناً حقيقياً، وإنما هي معبر يتزود منها لتلك الدار، ولا تعمر للاستقرار.

﴿٣٧﴾ فتلقى آدم﴾ أي: تلقف وتلقن، وألهم الله﴾ من ربه كلمات وهي قوله: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا﴾ الآية، فاعترف بذنبه وسأل الله مغفرته ﴿فتاب﴾ الله عليه ورحمه ﴿إنه هو التواب﴾ لمن تاب إليه وأتاب.

وتوبته نوعان: توفيقه أولاً، ثم قبوله للتوبة إذا اجتمعت شروطها ثانياً.

﴿الرحيم﴾ بعباده، ومن رحمته بهم أن وفقهم للتوبة وعفا عنهم وصفح.

﴿٣٨ - ٣٩﴾ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * كرر الإهباط ليرتب عليه ما ذكر وهو قوله: ﴿فإما يأتينكم مني هدى﴾ أي: أي وقت وزمان جاءكم مني - يا معشر الثقلين - هدى، أي: رسول وكتاب يهديكم لما يقربكم مني، ويدنيكم من رضائي، ﴿فمن تبع هداي﴾ منكم، بأن آمن برسلي وكتبي واهتدى بهم، وذلك بتصديق جميع أخبار الرسل والكتب، والامتثال للأمر

بعض ما أنزل إليه فقد كذب بجميعة، كما أن من كفر برسولٍ، فقد كذب الرسل جميعهم.

فلما أمرهم بالإيمان به، نهاهم وحذرهم من ضده وهو الكفر به، فقال: ﴿ولا تكونوا أول كافر به﴾ أي: بالرسول والقرآن.

وفي قوله: ﴿أول كافر به﴾ أبلغ من قوله: ﴿ولا تكفروا به﴾ لأنهم إذا كانوا أول كافر به، كان فيه مبادرتهم إلى الكفر به، عكس ما ينبغي منهم، وصار عليهم إثمهم وإثم من اقتدى بهم من بعدهم.

ثم ذكر المانع لهم من الإيمان، وهو اختيار العرض الأدنى على السعادة الأبدية، فقال: ﴿ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ وهو ما يحصل لهم من المناصب والمآكل، التي يتوهمون انقطاعها إن آمنوا بالله ورسوله، فاشتروها بآيات الله واستجوبوها وأثروها.

﴿وإياي﴾ أي: لا غيري ﴿فأتقون﴾ فإنكم إذا اتقيتم الله وحده، أوجب لكم تقواه تقديم الإيمان بآياته على الثمن القليل، كما أنكم إذا اخترتم الثمن القليل، فهو دليل على ترحل التقوى من قلوبكم.

ثم قال: ﴿ولا تلبسوا﴾ أي: تخلطوا ﴿الحق بالباطل وتكتموا الحق﴾ فنهاهم عن شيئين، عن خلط الحق بالباطل وتكتمان بيان الحق؛ لأن المقصود من أهل الكتب والعلم، تمييز الحق من الباطل وإظهار الحق، ليهتدي بذلك المهتدون، ويرجع الضالون، وتقوم الحجة على المعاندين؛ لأن الله فصل آياته وأوضح بيناته، ليميز الحق من الباطل، ولتستبين سبيل المهتدين من سبيل المجرمين، فمن عمل بهذا من أهل العلم فهو من خلفاء الرسل وهداة الأمم.

ومن لبس الحق بالباطل، فلم يميز هذا من هذا مع علمه بذلك، وكتم الحق الذي يعلمه، وأمر بإظهاره، فهو

من دعا جهنم، لأن الناس لا يقتدون في أمر دينهم بغير علمائهم، فاختاروا لأنفسكم إحدى الحالتين.

ثم قال: ﴿واقموا الصلاة﴾ أي: ظاهراً وباطناً ﴿وآتوا الزكاة﴾ مستحقها، ﴿واركعوا مع الرাকعين﴾ أي: صلوا مع المصلين، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسول الله وآيات الله، فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود والإحسان إلى عبيده، وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية.

وقوله: ﴿واركعوا مع الرাকعين﴾ أي: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها، وفيه أن الركوع ركن من أركان الصلاة لأنه عبّر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته فيها.

﴿٤٤﴾ ﴿أتأمرون الناس بالبر﴾ أي: بالإيمان والخير ﴿وتنسون أنفسكم﴾ أي: تتركونها عن أمرها بذلك، والحال: ﴿وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ وأسئ العقول^(١) عقلاً لأنه يعقل به ما ينفعه من الخير، وينعقل به عما يضره، وذلك أن العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهاه عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله، خصوصاً إذا كان عالماً بذلك، قد قامت عليه الحجة.

وهذه الآية وإن كانت نزلت في سبب بني إسرائيل، فهي عامة لكل أحد، لقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لم تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون. وليس في الآية أن الإنسان إذا لم يقم بما أمر به أنه يترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لأنها دلت على التوبيخ بالنسبة إلى الواجبين، وإلا فمن المعلوم أن على الإنسان واجبين: أمر غيره ونهيه، وأمر نفسه ونهيه، فترك

أحدهما لا يكون رخصة في ترك الآخر، فإن الكمال أن يقوم الإنسان بالواجبين، والنقص الكامل أن يتركهما، وأما قيامه بأحدهما دون الآخر، فليس في رتبة الأول، وهو دون الآخر، وأيضاً فإن النفوس مجبولة على عدم الانقياد لمن يخالف قوله فعلة، فاقتداؤهم بالأفعال أبلغ من اقتنائهم بالأقوال المجردة.

﴿٤٥ - ٤٨﴾ ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين﴾ الذين يظنون أنهم ملقوا ربهم وأنهم إليه راجعون * يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين * واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعَةٌ ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون * أمرهم الله أن يستعينوا في أمورهم كلها بالصبر بجميع أنواعه، وهو الصبر على طاعة الله حتى يؤديها، والصبر عن معصية الله حتى يتركها، والصبر على أقدار الله المؤلمة فلا يتسخطها، فبالصبر وحبس النفس على ما أمر الله بالصبر عليه معونة عظيمة على كل أمر من الأمور، ومن يتصبر يصبره الله، وكذلك الصلاة التي هي ميزان الإيمان، وتنتهي عن الفحشاء والمنكر، يستعان بها على كل أمر من الأمور ﴿وإنها﴾ أي: الصلاة ﴿لكبيرة﴾ أي: شاقة ﴿إلا على الخاشعين﴾ فإنها سهلة عليهم خفيفة؛ لأن الخشوع وخشية الله ورجاء ما عنده يوجب له فعلها، منشرحاً صدره لثواب، وخشيته من العقاب، بخلاف من لم يكن كذلك، فإنه لا داعي له بدعوه إليها، وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه.

والخشوع هو: خضوع القلب وطمأنينته وسكونه لله تعالى، وانكساره بين يديه ذلاً وافتقاراً، وإيماناً به وبلقائه.

لا شريك له، ويستعينه على عبادته. ﴿٤٩﴾ - ﴿٥٧﴾ * وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك لعلكم عظيم * وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون * وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم أخذتم العجل بعده وأنتم ظالمون * ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون * وإذ أتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون * وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاتقوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم * وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون * وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلّمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * هذا شروع في تعداد نعمه على بني إسرائيل على وجه التفصيل، فقال: ﴿ وإذ نجّيناكم من آل فرعون ﴾ أي: من فرعون وملئه وجنوده، وكانوا قبل ذلك ﴿ يسومونكم ﴾ أي: يولونهم ويستعملونهم، ﴿ سوء العذاب ﴾ أي: أشدّه بأن كانوا يذبحون أبناءكم، خشية نموكم ﴿ ويستحيون نساءكم ﴾ أي: فلا يقتلوهن، فأنتم بين قتل ومذلّ بالأعمال الشاقة، مستحيّ على وجه المنة عليه والاستعلاء عليه فهذا غاية الإهانة، فمنّ الله عليهم بالنجاة التامة وإغراق عدوهم وهم ينظرون لتقرّ أعينهم. ﴿ وفي ذلكم ﴾ أي: الإنجاء ﴿ بلاء ﴾ أي: إحسان ﴿ من ربكم عظيم ﴾ فهذا مما يوجب عليكم الشكر والقيام بأوامره.

﴿ولا يقبل منها شفاعة، ولا يؤخذ منها عدل﴾ هذا نفى للنفع الذي يطلب ممن يملكه بعوض كالعدل، أو بغيره كالشفاعة، فهذا يوجب للعبد أن ينقطع قلبه من التعلق بالمخلوقين، لعلمه أنهم لا يملكون له متقال ذرة من النفع، وأن يعلقه بالله الذي يجلب المنافع ويدفع المضار، فيعبد وحده

(١) في ب: المستقبل.

فَلَمَّا اعْلَمُوا أَنَّهَا حَيَّةٌ تَوَاتَوْا بِنَاءَ كَيْفٍ مِّنْ هَدَىٰ مَن سَبَّحَ
هَدًى تَلَاوُفٍ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ جُزُوعٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بَيْنَنَا أَنُؤْتِيكَ أَتَاكُمُهَا خَالِدِينَ ﴿٦﴾
بَيْتًا مِّنْهُ لِيَذَّبَ أَتَاكُمُ الْإِنْسِ إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلِيَذَّبَ أَتَاكُمُ
أُولَىٰ هَيْدُكُمْ وَإِنِّي قَاهِرٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّمَا تَأْكُلُ مُسْتَقِيمًا
لِّمَا تَكْمَلُ وَلِتَكُونُوا أَقْلَ كَاهِرٍ ﴿٨﴾ وَلَا تَسْتَوُوا بَيْنِي يَوْمَ تَمَازِيكُ
وَإِنِّي تَأْتِيهِمْ ﴿٩﴾ وَلَا تَكْفُرُ الْخَلْقَ بِالْغَيْلِ وَتَكْفُرُ الْخَلْقَ
وَلَمْ تَكْفُرْ ﴿١٠﴾ وَأُولُوا الصَّلَاةِ وَالْأُولَىٰ الْكُفْرَةِ وَأَرْكَعُوا
مَعَ الْكُفْرَةِ ﴿١١﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْإِيمَانِ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ
وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَأَسْمِعُوا بِالْأَمْرِ
وَالْمَعْلُومِ وَأَمَّا الْكُفْرَةُ الْأَعْلَىٰ لِلْمُذْمُومِ ﴿١٣﴾ الَّذِينَ يَتْلُونَ
أَنَّهُ تَعْلَمُوا رَيْبَهُمْ وَأَنَّهُمْ يَلْعَنُونَ ﴿١٤﴾ بَيْتًا مِّنْهُ لِي
أَذْكُرَ أَتَاكُمُ الْإِنْسِ أَنْفُسَهُمْ عَلَيْكَ وَأَنِّي فَتَلْكَ عَلَى الْعَالَمِينَ
﴿١٥﴾ وَأَتْلُوا بَيْنًا لِّتَجْعَلَ نَفْسٍ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا تَكْفُرُ
نَفْسَهُ وَلَا تَكْفُرُ نَفْسَهُ وَلَا تَكْفُرُ نَفْسَهُ ﴿١٦﴾

لنعم العظيمة والمصالح العظيمة، ثم إنهم لم يصبروا قبل استكمال الميعاد حتى عبدوا العجل من بعده، أي: ذهابه.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ عالمون بظلمكم،
قد قامت عليكم الحجة، فهو أعظم
جرماً وأكبر إثماً.

ثم إنه أمركم بالتوبة على لسان نبيه موسى بأن يقتل بعضكم بعضاً، فعبأ الله عنكم بسبب ذلك ﴿اعلمكم تشكرون﴾ الله.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ وهذا غاية الظلم والجرأة على الله وعلى رسوله، ﴿فَأَخَذْتُمُ الصَّاعِقَةَ﴾: إما الموت، أو الغشية العظيمة، ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ وقوع ذلك، كل ينظر إلى صاحبه ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

ثم ذكر نعمته عليهم في التيه والبرية الخالية من الظلال وسعة الأرزاق، فقال: ﴿وَوَضَّلْنَا عَلَيْنَا الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمُنَّ﴾ وهو اسم جامع لكل رزق حسن يحصل بلا تعب، ومنه الزنجبيل والكمأة والخبز وغير ذلك، ﴿وَالسَّلْوَى﴾ طائر صغير يقال له السمانى، طيب اللحم، فكان ينزل عليهم من المن والسلوى ما يكفيهم

لنا مما تنبت الأرض من بقلها: أي: نباتها الذي ليس بشجر يقوم على ساقه، ﴿وقثانها﴾ وهو الخيار ﴿وفومها﴾ أي: ثومها، والعدس والبصل معروف، قال لهم موسى ﴿أتستبدلون الذي هو أدنى﴾ وهو الأطعمة المذكورة، ﴿بالذي هو خير﴾ وهو المن والسلوى، فهذا غير لائق بكم، فإن هذه الأطعمة التي طلبتم، أي مصر هي بطموه وجدتموها، وأما طعامكم الذي من الله به عليكم، فهو خير الأطعمة وأشرفها، فكيف تطلبون به بدلاً؟

ولما كان الذي جرى منهم فيه أكبر دليل على قلة صبرهم واحتقارهم لأوامر الله ونعمه، جازاهم من جنس عملهم، فقال: ﴿وضربت عليهم الذلة﴾ التي تشاهد على ظاهر أبدانهم ﴿والمسكنة﴾ بقلوبهم، فلم تكن أنفسهم عزيزة، ولا لهم همم عالية، بل أنفسهم أنفُس مهينة، ومهمهم أردأ الهمم، ﴿وبأؤوا بغضب من الله﴾ أي: لم تكن غنيمتهم التي رجعوا بها وفازوا، إلا أن رجعوا بسخطه عليهم، فينشت الغنيمة غنيمتهم، وينشت الحالة حالتهم.

﴿ذلك﴾ الذي استحقوا به غضبه ﴿بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾ الدالات على الحق الموضحة لهم، فلما كفروا بها عاقبهم بغضبه عليهم، وبما كانوا ﴿يقتلون النبيين بغير الحق﴾

وقوله: ﴿بغير الحق﴾ زيادة شناعة، وإلا فمن العلوم أن قتل النبي لا يكون بحق، لكن لثلا يظن جهلهم وعدم علمهم.

﴿ذلك بما عصوا﴾ بأن ارتكبوا معاصي الله ﴿وكانوا يعتدون﴾ على عباد الله، فإن المعاصي يجر بعضها بعضاً، فالغفلة ينشأ عنها الذنب الصغير، ثم ينشأ عنه الذنب الكبير، ثم ينشأ عنها أنواع البدع والكفر وغير ذلك، فنسأل الله العافية من كل بلاء.

واعلم أن الخطاب في هذه الآيات لأمة بني إسرائيل الذين كانوا موجودين وقت نزول القرآن، وهذه الأفعال

فبدلوا لأنهم لم يكونوا كلهم بدلو ﴿قولاً غير الذي قيل لهم﴾ فقالوا بدل حبة في حنطة، استهانة بأمر الله واستهزاء، وإذا بدلوا القول مع خفته فتبديلهم للفعل من باب أولى وأحرى، ولهذا دخلوا يزحفون على أديارهم، ولما كان هذا الطغيان أكبر سبب لوقوع عقوبة الله بهم، قال: ﴿فأنزلنا على الذين ظلموا﴾ منهم ﴿رجزاً﴾ أي: عذاباً ﴿من السماء﴾ بسبب فسقهم وبغيهم.

﴿٦٠﴾ ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ استسقى أي: طلب لهم ماء يشربون منه، ﴿فقلنا اضرب بعصاك الحجر﴾ إما حجر مخصوص معلوم عنده، وإما اسم جنس، ﴿فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا﴾ وقبائل بني إسرائيل اثنتا عشرة قبيلة، ﴿قد علم كل أناس﴾ منهم ﴿مشربهم﴾ أي: محلهم الذي يشربون عليه من هذه الأعين، فلا يزاحم بعضهم بعضاً، بل يشربونه متهئين لا متكدرين، ولهذا قال: ﴿كلوا واشربوا من رزق الله﴾ أي: الذي آتاكم من غير سعي ولا تعب، ﴿ولا تعثوا في الأرض﴾ أي: تخربوا على وجه الإفساد.

﴿٦١﴾ ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثانها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير أمهبطوا مصرأ فإن لكم ما سألتم وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ أي: واذكروا، إذ قلتم لموسى على وجه التمثل لنعم الله والاحتقار لها: ﴿لن نصبر على طعام واحد﴾ أي: جنس من الطعام، وإن كان كما تقدم أنواعاً، لكننا لا نتغير، ﴿فادع لنا ربك يخرج



ويقبئهم﴾ كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي: رزقاً لا يحصل نظيره لأهل المدن المترفين، فلم يشكروا هذه النعم، واستمروا على قساوة القلوب وكثرة الذنوب.

﴿وما ظلمونا﴾ يعني بتلك الأفعال المخالفة لأوامرنا لأن الله لا تضره معصية العاصين، كما لا تنفع طاعات الطائعين، ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ فيعود ضرره عليهم.

﴿٥٨ - ٥٩﴾ ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين﴾ فبدل الذين ظلموا قولاً غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون، وهذا أيضاً من نعمته عليهم بعد معصيتهم إياه، فأمرهم بدخول قرية تكون لهم عزاً ووطناً وسكناً، ويحصل لهم فيها الرزق الرغد، وأن يكون دخولهم على وجه خاضعين لله فيه بالفعل، وهو دخول الباب ﴿سجداً﴾ أي: خاضعين ذليلاً، وبالقول وهو أن يقولوا: ﴿حطة﴾ أي: أن يحيط عنهم خطاياهم بسؤالهم إياه مغفرة.

﴿نغفر لكم خطاياكم﴾ بسؤالكم المغفرة، ﴿وسنزيد المحسنين﴾ بأعمالهم، أي: جزاء عاجلاً وآجلاً، ﴿فبدل الذين ظلموا﴾ منهم، ولم يقل

وَأَذِّنَا أَخْلَاكُمُوهَ الْفَرِيقَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا حَبْتُمْ يَنْشُرْ
رَعْدًا وَأَذَلُّوا الْيَابِسَ سَجْدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ
ظَلَمَكُمْ وَسَيَّرَ إِلَيْنَا الْغَنِيَّةَ ٦٥ • قَدْ أَلَيْتُمْ ظَلَمُوا
قَوْلَ عَزَى الَّذِي يَدْعُو قَوْلًا عَلَى الْيَوْمِ ظَلَمُوا وَيُزَكِّرُونَ
الْكَذِبَ مَا كَانُوا يَسْمَعُونَ ٦٦ • وَإِذْ اسْتَفْتَى
مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا أَصْبِرْ بِمَا كَانَ لِقَوْمِكَ فَاصْبِرْ وَتَكُنْ
مِنْهُ أَلْفًا عَشْرًا عَيْنًا قَدْ عَلِمْتَ كُلُّ أُنْثَىٰ تُشْرِكُ مِثْلَهُ
كَلَّمُوا وَأَشْرَكُوا بَيْنَ رُؤُوسِهِمْ وَلَا تَقْرَأُ فِي الْأَرْضِ مُبِينًا
٦٧ • وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَى أَنْ صَبِرْ عَلَىٰ مَا لَكَ بِرَبِّكَ فَاصْبِرْ
رَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ إِنَّ إِلَهَنَا يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَزُولَ
وَهُوَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ٦٨ • وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ
هَؤُلَاءِ بِلَا إِلَهِ وَرَبِّهِمْ أَهْلُ طُغْيَانٍ ٦٩ • وَإِذْ لَكَ آيَاتُنَا
وَصَرَّتْ عَيْنُكَ مِنَ الْإِلَهِ وَالْكَذِبُ وَكَانَ يُنْقَضُ رِيبُكَ
أَنَّكَ إِلَهُكَ يَا مُوسَى كَذَبْتَ وَأَقْبَلَتْ إِلَهُكَ وَتَقُولُ
الْبَشَرُ يَسْخَرُونَ مِنْكَ يَا مُوسَى وَكَانُوا يَهْتَكُونَ ٧٠

أهل التقوى .

فيعد هذا التأكيد البليغ ﴿توليتكم﴾ وأعرضتم، وكان ذلك موجباً لأن يحل بكم أعظم العقوبات، ولكن ﴿لولا﴾ فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴿

٦٥ - ٦٦﴾ «ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين * فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقين﴾ الذين أي : ولقد تقرر عندكم حالة ﴿الذين اعتدوا منكم في السبت﴾ وهم الذين ذكر الله قصتهم مبسطة في سورة الأعراف في قوله : ﴿واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت﴾ الآيات .

فأوجب لهم هذا الذنب العظيم، أن غضب الله عليهم وجعلهم ﴿قردة خاسئين﴾ حقيرين ذليلين .

وجعل الله هذه العقوبة ﴿نكالا﴾ لما بين يديها ﴿أي : لمن حضرها من الأمم، وبلغه خبرها عن هو في وقتهم، ﴿وما خلفها﴾ أي : من بعدهم، فتقوم على العباد حجة الله، وليرتدعوا عن معاصيه، ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين، وأما من عداها فلا يتفنعون بالآيات .

الأجر العظيم والأمن، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأما من كفر منهم بالله ورسله واليوم الآخر، فهو بضد هذه الحال، فعليه الخوف والحزن .

والصحيح أن هذا الحكم بين هذه الطوائف من حيث هم، لا بالنسبة إلى الإيمان بمحمد، فإن هذا إخبار عنهم قبل بعثة محمد ﷺ، وأن هذا مضمون أحوالهم، وهذه طريقة القرآن إذا وقع في بعض النفوس عند سياق الآيات بعض الأوهام، فلا بد أن نجد ما يزيل ذلك الوهم، لأنه تنزيل من يعلم الأشياء قبل وجودها، ومن رحمته وسعت كل شيء .

وذلك والله أعلم - أنه لما ذكر بني إسرائيل وذمهم، وذكر معاصيهم وقبائحهم، ربما وقع في بعض النفوس أنهم كلهم يشملهم الذم، فأراد الباري تعالى أن يبين من لم يلحقه الذم منهم بوصفه، ولما كان أيضاً ذكر بني إسرائيل خاصة يوهي الاختصاص بهم . ذكر تعالى حكماً عاماً يشمل الطوائف كلها، ليوضح الحق، ويزول التوهم والإشكال، فسبحان من أودع في كتابه ما يبهق عقول العالمين .

ثم عاد تبارك وتعالى يُؤنِّخ بني إسرائيل بما فعل سلفهم .

﴿٦٣ - ٦٤﴾ «وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطورَ خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا ما فيه لعلكم تتقون * ثم توليتهم من بعد ذلك فلولاً فضل الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين﴾ أي : واذكروا ﴿إذ أخذنا ميثاقكم﴾ وهو العهد الثقيل المؤكد بالتحذير لهم، برفع الطور فوقهم^(١)، وقيل لهم : ﴿خذوا ما آتيناكم﴾ من التوراة ﴿بقوة﴾ أي : بجهد واجتهاد، وصبر على أوامر الله، ﴿واذكروا ما فيه﴾ أي : ما في كتابكم بأن تتلوه وتعلموه، ﴿لعلكم تتقون﴾ عذاب الله وسخطه، أو لتكونوا من

الذكورة خوطبوا بها وهي فعل اسلافهم، ونسبت إليهم لفوائد عديدة، منها : أنهم كانوا يتمدحون ويزكون أنفسهم، ويزعمون فضلهم على محمد ومن آمن به، فبيّن الله من أحوال سلفهم التي قد تقرر عندهم، ما يبين به لكل أحد [منهم] أنهم ليسوا من أهل الصبر ومكارم الأخلاق ومعالي الأعمال، فإذا كانت هذه حالة سلفهم، مع أن المظنة أنهم أولى وأرفع حالة ممن بعدهم فكيف الظن بالمخاطبين !!

ومنها : أن نعمة الله على المتقدمين منهم نعمة واصله إلى المتأخرين، والنعمة على الآباء نعمة على الأبناء، فخطبوا بها، لأنها نعم تشملهم وتعمهم .

ومنها : أن الخطاب لهم بأفعال غيرهم، مما يدل على أن الأمة المجتمعة على دين تتكافل وتتساعد على مصالحتها، حتى كان متقدمهم ومتأخرهم في وقت واحد، وكان الحادث من بعضهم حادثاً من الجميع؛ لأن ما يعمل به بعضهم من الخير يعود بمصلحة الجميع، وما يعمل من الشر يعود بضرر الجميع .

ومنها : أن أفعالهم أكثرها لم ينكروها، والراضي بالمعصية شريك للعاصي، إلى غير ذلك من الحكم التي لا يعلمها إلا الله .

﴿٦٢﴾ ثم قال تعالى حاكماً بين الفرق الكتابية : ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنجاري والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وهذا الحكم على أهل الكتاب خاصة، لأن الصابئين، الصحيح أنهم من جملة فرق النصارى، فأخبر الله أن المؤمنين من هذه الأمة، واليهود والنصارى والصابئين، من آمن منهم بالله واليوم الآخر، وصدّقوا رسلهم، فإن لهم

(١) كذا في ب، وفي أ : برفع الطور



القتيل ببعضها، أي: بعضو منها، إما معين أو أي: عضو منها، فليس في تعيينه فائدة، فضربوه ببعضها فأحياء الله، وأخرج ما كانوا يكتمون، فأخبر بقاتله، وكان في إحيائه وهم يشاهدون ما يدل على إحياء الله الموتى، ﴿لعلكم تعقلون﴾ فتزجرون عن ما يضركم.

﴿ثم قست قلوبكم﴾ أي: اشتدت وغلظت فلم تؤثر فيها الموعظة، ﴿من بعد ذلك﴾ أي: من بعد ما أنعم عليكم بالنعمة العظيمة وأراكم الآيات، ولم يكن ينبغي أن تقسو قلوبكم لأن ما شاهدتم مما يوجب رقة القلب وانقياده، ثم وصف قسوتها بأنها ﴿كالهجارة﴾ التي هي أشد قسوة من الحديد، لأن الحديد والرصاص إذا أذيب في النار ذاب بخلاف الأحجار.

وقوله: ﴿أو أشد قسوة﴾ أي: إنها لا تقصر عن قسوة الأحجار، وليست «أو» بمعنى «بل». ثم ذكر فضيلة الأحجار على قلوبهم، فقال: ﴿وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾. فبهذه الأمور فضلت قلوبكم، ثم توعدهم تعالى أشد الوعيد، فقال: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل هو عالم بها حافظ لصغيرها وكبيرها، وسيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

واعلم أن كثيراً من المفسرين رحمهم الله قد أكثروا في حشو تفاسيرهم من قصص بني إسرائيل، ونزلوا عليها الآيات القرآنية، وجعلوها تفسيراً لكتاب الله، محتجين بقوله ﷺ: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج».

والذي أرى أنه وإن جاز نقل أحاديثهم على وجه تكون مفردة غير مقرونة، ولا منزلة على كتاب الله، فإنه لا يجوز جعلها تفسيراً لكتاب الله قطعاً إذا لم تصح عن رسول الله ﷺ، وذلك أن مرتبتها كما قال ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب

وكان من الواجب المبادرة إلى امتثال أمره وعدم الاعتراض عليه، ولكنهم أبوا إلا الاعتراض، فقالوا: ﴿أتخذنا هزواً﴾ فقال نبي الله: ﴿أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين﴾. فإن الجاهل هو الذي يتكلم بالكلام الذي لا فائدة فيه، وهو الذي يستهزئ بالناس، وأما العاقل فيرى أن من أكبر العيوب المزرية بالدين والعقل، استهزائه بمن هو آدمي مثله، وإن كان قد فضل عليه، تفضيله يقتضي منه الشكر لربه والرحمة لعباده. فلما قال لهم موسى ذلك، علموا أن ذلك صدق، فقالوا: ﴿ادع لنا ربك يبين لنا ما هي﴾ أي: ما سنها؟ قال إنه يقول: إنها بقرة لا فارض﴾ أي: كبيرة ﴿ولا بكر﴾ صغيرة ﴿عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون﴾ واتركوا التشديد والتعنت.

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها﴾، قال إنه يقول: إنها بقرة صفراء فاقع لونها﴾ أي: شديد ﴿تسر الناظرين﴾ من حسنها.

﴿قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا﴾ فلم تهتد إلى ما تريد ﴿وإننا إن شاء الله لمهتدون﴾ قال إنه يقول: إنها بقرة لا ذلول﴾ أي: مذلة بالعمل، ﴿تشير الأرض﴾ بالحرثة، ﴿ولا تسقي الحرث﴾ أي: ليست بساقية، ﴿مسلمة﴾ من العيوب أو من العمل ﴿لاشية فيها﴾ أي: لا لون فيها غير لونها الموصوف المتقدم.

﴿قالوا الآن جئت بالحق﴾ أي: بالبيان الواضح، وهذا من جهلهم، وإلا فقد جاءهم بالحق أول مرة، فلو أنهم اعترضوا أي: بقرة لحصل المقصود، ولكنهم شددوا بكثرة الأسئلة فشدد الله عليهم، ولو لم يقولوا «إن شاء الله» لم يهتدوا أيضاً إليها، ﴿فذبوها﴾ أي: البقرة التي وصفت بتلك الصفات ﴿وما كادوا يفعلون﴾ بسبب التعنت الذي جرى منهم.

فلما ذبحوها، قلنا لهم اضربوا

﴿٦٧ - ٧٤﴾ واذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي إن البقر تشابه علينا وإننا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول تشير الأرض ولا تسقي الحرث مسلمة لا شية فيها قالوا الآن جئت بالحق فذبوها وما كادوا يفعلون * واذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريك آياته لعلكم تعقلون * ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون * أي: واذكروا ما جرى لكم مع موسى، حين قتلتم قتيلاً وادارأتم فيه، أي: تدافعتم واختلقتم في قاتله، حتى تقامق الأمر بينكم وكاد - لولا تبين الله لكم - يحدث بينكم شر كبير، فقال لكم موسى في تبين القاتل: اذبحوا بقرة،

﴿٧٥-٧٨﴾ ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ
يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ
يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ
مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ * وَإِذَا لَقُوا
الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَا بِضَعْهُمْ
إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ
عَلَيْكُمْ لِيُحَاوِرَكُمْ بِهِ عِنْدَ رَيْبِكُمْ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ﴾ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا
يَسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ * وَمِنْهُمْ أُمَيُّونٌ
لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يُظَنُّونَ﴾ هَذَا قَطْعٌ لِأَطْمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ
إِيمَانِ أَهْلِ الْكِتَابِ، أَي: فَلَا تَطْمَعُوا
فِي إِيمَانِهِمْ وَحَالَتِهِمْ ^(١) لَا تَقْتَضِي
الطَّمَعُ فِيهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُحَرِّفُونَ
كَلَامَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَعَلِمُوهُ،
فَيَضَعُونَ لَهُ مَعَانِي مَا أَرَادَهَا اللَّهُ،
لِيُوهِمُوا النَّاسَ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَمَا
هِيَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَإِذَا كَانَتْ هَذِهِ
حَالُهُمْ فِي كِتَابِهِمُ الَّذِي يَرُونَهُ شَرَفُهُمْ
وَدِينُهُمْ، يَصْدُونَ بِهِ النَّاسَ عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ، فَكَيْفَ يَرْجَى مِنْهُمْ إِيْمَانُ
لَكُمْ؟! فَهَذَا مِنْ أَبْعَدِ الْأَشْيَاءِ.

ثم ذكر حال منافقي أهل الكتاب فقال: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا فَأَظْهَرُوا لَهُمُ الْإِيمَانَ قَوْلًا بِالسُّنْتِمْ، مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ،﴾ ﴿وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ، فَلَمْ يَكُنْ عَنْدهُمْ أَحَدٌ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ دِينِهِمْ، قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:﴾ ﴿تَعْتَدُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: انتظرون لهم الإيمان وتغيرونهم أنكم مثلهم، فيكون

(١) في ب: وأخلاقهم.

ذلك حجة لهم عليكم؟
يقولون: انهم قد أقروا بأن ما نحن
عليه حق، وما هم عليه باطل،
فيحتاجون عليكم بذلك عند ربكم
﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفلا يكون لكم
عقل فتتركوا ما هو حجة عليكم؟ هذا
يقوله بعضهم لبعض.

﴿أُولَٰئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا
يُسرُونَ وَمَا يَعلَنُونَ﴾ فهم وإن أسروا ما
يعتقدونه فيما بينهم، وزعموا أنهم
بإسرارهم لا يتطرق عليهم حجة
للمؤمنين، فإن هذا غلط منهم وجهل
كبير، فإن الله يعلم سرهم وعلنهم،
فظهر لإمامه ما أنتم عليه.

﴿ومنه﴾ أي: من أهل الكتاب
﴿أميئون﴾ أي: عوام، ليسوا من أهل
العلم، ﴿لا يعلمون الكتاب إلا
أماي﴾ أي: ليس لهم حظ من
كتاب الله إلا التلاوة فقط، وليس
عندهم خبر بما عند الأولين الذين
يعلمون حق المعرفة حالهم، وهؤلاء
إنما معهم ظنون وتقاليد لأهل العلم
منهم.

فذكر في هذه الآيات علماءهم وعوائهم، ومنافقيهم ومن لم ينافق منهم، فالعلماء منهم متمسكون بما هم عليه من الضلال، والعوام مقلدون لهم لا بصيرة عندهم، فلا مطمع لكم في الطائفتين.

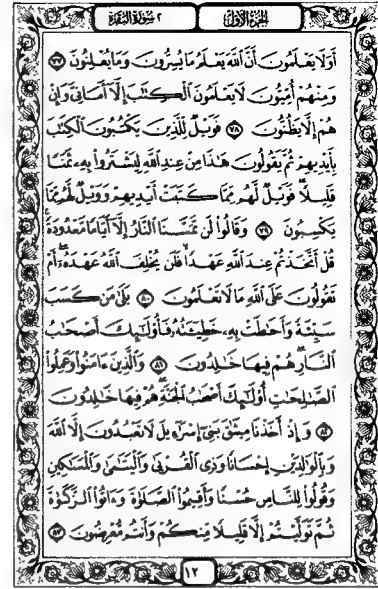
﴿٧٩﴾ فويل للذين يكذبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كتبت بأيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴿توعد تعالى المحرفين للكتاب، الذين يقولون لتحريفهم وما يكتبون﴾: ﴿هذا من عند الله﴾ وهذا فيه إظهار الباطل وكتّم الحق، وإنما فعلوا ذلك مع علمهم ﴿ليشتروا به ثمناً قليلاً﴾ والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل، فجعلوا باطلهم شركاً يصطادون به ما في أيدي الناس، فظلّموا من وجهين: من جهة تلييس دينهم عليهم، ومن جهة أخذ أموالهم

[illegible]

بغير حق، بل بأبطل الباطل، أعظم
 ممن يأخذها غصباً وسرقة ونحوهما،
 ولهذا توعدهم بهذين الأمرين، فقال:
 ﴿وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: من
 التخريف والباطل، ﴿وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا
 يَكْسِبُونَ﴾ من الأموال، والويل: شدة
 العذاب والحسرة، وفي ضمنها الوعيد
 الشديد.

قال شيخ الإسلام لما ذكر هذه الآيات من قوله: ﴿أَتَنْتَبِهُونَ﴾ إلى ﴿يَكْسِبُونَ﴾: فإن الله ذم الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، وهو متناول لمن حل الكتاب والسنة، على ما أصله من البدع الباطلة.

وذم الذين لا يعلمون الكتاب إلا
أمانى، وهو متناول لمن ترك تدبر القرآن
ولم يعلم إلا مجرد تلاوة حروفه،
ومتناول لمن كتب كتاباً بيده مخالفاً
لكتاب الله ليئال به دنيا، وقال: إنه من
عند الله، مثل أن يقول: هذا هو
الشرع والدين، وهذا معنى الكتاب
والسنة، وهذا معقول السلف والأئمة،
وهذا هو أصول الدين الذي يجب
اعتقاده على الأعيان والكفاية، ومتناول
لمن كتم ما عنده من الكتاب والسنة،
لئلا يحتج به مخالفه في الحق الذي
يقوله.



وهذه الأمور كثيرة جداً في أهل الأهواء جملة كالرافضة، وتفصيلاً مثل كثير من المنتسبين إلى الفقهاء.

﴿٨٠ - ٨٢﴾ وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة قل اتخذتم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون * بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون. ذكر أفعالهم القبيحة، ثم ذكر مع هذا أنهم يزكون أنفسهم، ويشهدون لها بالنجاة من عذاب الله والفوز بثوابه، وأنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودة، أي: قليلة تعد بالأصابع، فجمعوا بين الإساءة والأمن.

ولما كان هذا مجرد دعوى، رد الله تعالى عليهم، فقال: ﴿قل﴾ لهم يا أيها الرسول ﴿اتخذتم عند الله عهداً﴾ أي: بالإيمان به وبرسوله ويطاعته، فهذا الوعد الموجب لنجاة صاحبه الذي لا يتغير ولا يتبدل، ﴿أم تقولون على الله ما لا تعلمون﴾؟ فأخبر تعالى أن صدق دعواهم متوقفة على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما: إما أن يكونوا قد اتخذوا عند الله عهداً، فتكون دعواهم صحيحة.

وإما أن يكونوا متقولين عليه فتكون

كاذبة، فيكون أبلغ لحزيم وعذابهم، وقد علم من حالهم أنهم لم يتخذوا عند الله عهداً لتكذيبهم كثيراً من الأنبياء، حتى وصلت بهم الحال إلى أن قتلوا طائفة منهم، ولتكولهم عن طاعة الله ونقضهم المواثيق، فتعين بذلك أنهم متقولون مختلقون، قائلون عليه ما لا يعلمون، والقول عليه بلا علم من أعظم المحرمات وأشنع الفجائح.

ثم ذكر تعالى حكماً عاماً لكل أحد، يدخل به بنو إسرائيل وغيرهم، وهو الحكم الذي لا حكم غيره، لا أمانيتهم ودعاويهم بصفة الهالكين والتاجين، فقال: ﴿بلى﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم، فإنه قول لا حقيقة له، ولكن ﴿من كسب سيئة﴾ وهو نكرة في سياق الشرط، فيعم الشرك فما دونه، والمراد به هنا الشرك، بدليل قوله: ﴿وأحاطت به خطيئته﴾ أي: أحاطت بعامليها، فلم تدع له منفذاً، وهذا لا يكون إلا الشرك، فإن من معه الإيمان لا تحيط به خطيئته.

﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ وقد احتج بها الخوارج على كفر صاحب المعصية، وهي حجة عليهم كما ترى، فإنها ظاهرة في الشرك، وهكذا كل مبطّل يحتاج بآية أو حديث صحيح على قوله الباطل، فلا بد أن يكون فيما احتج به حجة عليه.

﴿والذين آمنوا﴾ بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، ﴿وعملوا الصالحات﴾ ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متبعاً بها سنة رسوله.

فحاصل هاتين الآيتين أن أهل النجاة والفوز أهل الإيمان والعمل الصالح، والهالكون أهل النار المشركون بالله، الكافرون به.

﴿٨٣﴾ ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة

وآتوا الزكاة ثم توليتهم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون﴾ وهذه الشرائع من أصول الدين التي أمر الله بها في كل شريعة، لاشتغالها على المصالح العامة في كل زمان ومكان، فلا يدخلها نسخ، كأصل الدين، ولهذا أمرنا الله بها في قوله: ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً﴾ إلى آخر الآية.

فقوله: ﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به، استعصوا؛ فلا يقبلونه إلا بالآيمان الغليظة والعهود الموثقة ﴿لا تعبدون إلا الله﴾ هذا أمرٌ بعبادة الله وحده، ونهي عن الشرك به، وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله تعالى على عباده، ثم قال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي: أحسنوا بالوالدين إحساناً، وهذا يعنى كل إحسان قولي وفعلي مما هو إحسان إليهم، وفيه النهي عن الإساءة إلى الوالدين، أو عدم الإحسان والإساءة، لأن الواجب الإحسان، والأمر بالشيء نهي عن ضده.

وللإحسان ضدان: الإساءة، وهي أعظم جرمًا، وترك الإحسان بدون إساءة، وهذا محرم، لكن لا يجب أن يلحق بالأول، وكذا يقال في صلة الأقارب واليتامى والمساكين، وتفصيل الإحسان لا تنحصر بالعد، بل تكون بالحد، كما تقدم.

ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموماً، فقال: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة، وغير ذلك من كل كلام طيب.

ولما كان الإنسان لا يسع الناس بماله، أمر بأمر يقدر به على الإحسان إلى كل مخلوق، وهو الإحسان بالقول، فيكون في ضمن ذلك النهي عن الكلام القبيح للناس حتى للكفار، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾.

ومن أدب الإنسان الذي أدب الله به

عباده، أن يكون الإنسان نزيهاً في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذي ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون حسن الخلق، واسع الحلم، مجاملاً لكل أحد، صبوراً على ما يناله من أذى الخلق، امتثالاً لأمر الله ورجاء لثوابه.

ثم أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، لما تقدم أن الصلاة متضمنة للإخلاص للمعبود، والزكاة متضمنة للإحسان إلى العبيد.

﴿ثم﴾ بعد هذا الأمر لكم بهذه الأوامر الحسنة التي إذا نظر إليها البصير العاقل، عرف أن من إحسان الله إلى عباده أن أمرهم بها، وتفضل بها عليهم، وأخذ المواسيق عليكم ﴿توليتهم﴾ على وجه الإعراض، لأن المتولي قد يتولى وله نية رجوع إلى ما تولى عنه، وهؤلاء ليس لهم رغبة ولا رجوع في هذه الأوامر، فنعوذ بالله من الخذلان.

وقوله: ﴿إلا قليلاً منكم﴾ هذا استثناء لثلاث يومهم أنهم تولوا كلهم، فأخبر أن قليلاً منهم عصمهم الله وثبتهم.

﴿٨٤ - ٨٦﴾ ﴿وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون﴾ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون * أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون﴾ وهذا الفعل المذكور في هذه الآية فعل للذين كانوا في زمن الرuchi بالمدينة، وذلك أن الأوس والخزرج - وهم الأنصار - كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مشركين، وكانوا

يقتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود: بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة.

فكانوا إذا اقتتلوا أعان اليهودي حليفه على مقاتليه الذين تعينهم^(١) الفرقة الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرج من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، وكان قد حصل أسارى بين الطائفتين فدى بعضهم بعضاً.

والأمور الثلاثة كلها قد فرضت عليهم، ففرض عليهم أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يخرج بعضهم بعضاً، وإذا وجدوا أسيراً منهم وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالآخر وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم ذلك، فقال: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب﴾ وهو فداء الأسير، ﴿وتكفرون ببعض﴾ وهو القتل والإخراج.

وفيها أكبر دليل على أن الإيمان يقتضي فعل الأوامر واجتناب النواهي، وأن المأمورات من الإيمان، قال تعالى: ﴿فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا﴾ وقد وقع ذلك فأخزاهم الله، وسلط رسوله عليهم، فقتل من قتل، وسب من سب منهم، وأجل من أجل.

﴿ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب﴾ أي: أعظمه ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾

ثم أخبر تعالى عن السبب الذي أوجب لهم الكفر ببعض الكتاب والإيمان ببعضه، فقال: ﴿أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة﴾ توهموا أنهم إن لم يعينوا حلفاءهم حصل لهم عار، فاختاروا النار على العار، فلماذا قال: ﴿فلا يخفف عنهم العذاب﴾ بل هو باق على شدته، ولا يحصل لهم راحة بوقت من الأوقات، ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي:

يدفع عنهم مكروه.

﴿٨٧﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وقفيناً من بعده بالرسول وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ يمتن تعالى على بني إسرائيل أن أرسل إليهم كلمه موسى وآتاه التوراة، ثم تابع من بعده بالرسول الذين يحكمون بالتوراة، إلى أن ختم أنبياءهم بعيسى ابن مريم عليهم السلام، وآتاه من الآيات البينات ما يؤمن على مثله البشر، ﴿وأيدناه بروح القدس﴾ أي: قواه الله بروح القدس.

قال أكثر المفسرين: إنه جبريل عليه السلام، وقيل: إنه الإيمان الذي يؤيد الله به عباده.

ثم مع هذه النعم التي لا يقدر قدرها، لما أتوكم ﴿بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم﴾ عن الإيمان بهم، ﴿ففريقاً﴾ منهم ﴿كذبتم وفريقاً تقتلون﴾ فقدمتم الهوى على الهدى، وأترتم الدنيا على الآخرة، وفيها من التوبيخ والتشديد ما لا يخفى.

﴿٨٨﴾ ﴿وقالوا قلوبنا غُلْفٌ بل لعنهم الله بكفرهم فقليلاً ما يؤمنون﴾ أي: اعتذروا عن الإيمان لما دعوتهم إليه، يا أيها الرسول، بأن قلوبهم غُلْفٌ، أي: عليها غلاف وأغطية، فلا تفقه ما تقول، يعني فيكون لهم - بزعمهم - عذر لعدم العلم، وهذا كذب منهم، فلماذا قال تعالى: ﴿بل لعنهم الله بكفرهم﴾ أي: أنهم مطرودون ملعونون بسبب كفرهم، فقليلاً المؤمن منهم، أو قليلاً إيمانهم، وكفرهم هو الكثير.

﴿٨٩ - ٩٠﴾ ﴿ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾ بشما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا

واستجابة، ﴿قَالُوا: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ أي: صارت هذه حالتهم ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ أي: صبغ حب العجل وحب عبادته في قلوبهم، وتشربها^(٢) بسبب كفرهم.

﴿قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: أنتم تدعون الإيمان وتتمدحون بالدين الحق، وأنتم قتلتم أنبياء الله، واتخذتم العجل إلها من دون الله لما غاب عنكم موسى، نبي الله، ولم تقبلوا أوامره ونواهيه إلا بعد التهديد ورفع الطور فوقكم، فالتزمت بالقول ونقضتم بالفعل، فما هذا الإيمان الذي ادعيت، وما هذا الدين؟

فإن كان هذا إيماناً على زعمكم، فينس الإيمان الداعي صاحبه إلى الطغيان والكفر برسل الله، وكثرة العصيان، وقد عهد أن الإيمان الصحيح يأمر صاحبه بكل خير، وينهاه عن كل شر، فوضح بهذا كذبهم، وتبين تناقضهم.

﴿٩٤-٩٦﴾ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمْنُوا الْوُتَّ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحِّزَةٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ لهم على وجه تصحيح دعواهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ يعني الجنة ﴿خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ كما زعمتم أنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، وأن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة، فإن كنتم صادقين بهذه الدعوى ﴿فَتَمْنُوا الْوُتَّ﴾ وهذا نوع مباهلة بينهم وبين رسول الله ﷺ

وليس بعد هذا الإلجاء والمضايقه لهم بعد العناد منهم، إلا أحد أمرين: إما أن يؤمنوا بالله ورسوله، وإما أن يباهلوا على ما هم عليه بأمر يسير

وَزَعَمَ الْإِيْمَانُ بِبَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ، فَهَذَا لَيْسَ بِإِيْمَانٍ، بَلْ هُوَ الْكُفْرُ بَعِيْنَهُ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيْلًا، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾.

ولهذا رد عليهم تبارك وتعالى هنا رداً شافياً، وألزمهم إلزاماً لا يحيد لهم عنه، فرد عليهم بكفرهم بالقرآن بأمرين، فقال: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ﴾ فإذا كان هو الحق في جميع ما اشتمل عليه من الإخبارات والأوامر والنواهي، وهو من عند ربهم، فالكفر به بعد ذلك كفر بالله، وكفر بالحق الذي أنزله.

ثم قال: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي: موافقاً له في كل ما دل عليه من الحق ومهيئاً عليه.

فلم تؤمنون بما أنزل عليكم، وتكفرون بنظيره؟ هل هذا إلا تعصّب واتباع للهوى لا للهدي؟

وأيضاً فإن كون القرآن مصدقاً لما معهم، يقتضي أنه حجة لهم على صدق ما في أيديهم من الكتب، فلا سبيل لهم إلى إثباتها إلا به، فإذا كفروا به وجحدوه، صاروا بمنزلة من ادعى دعوى بحجة وبينه ليس له غيرها، ولا تتم دعواه إلا بسلامة بيته، ثم يأتي هو لبيته وحجته فيقده فيها ويكذب بها، أليس هذا من الحماقة والجنون؟ فكان كفرهم بالقرآن كُفْراً بما في أيديهم ونقضاً له.

ثم نقض عليهم تعالى دعواهم الإيمان بما أنزل إليهم بقوله: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوا أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالأدلة الواضحات المبينة للحق ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: بعد حجته ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ في ذلك ليس لكم عذر.

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ، خَلَاوَمَا أَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا﴾ أي: سماع قبول وطاعة

بغضب على غضب وللكاافرين عذاب مهين﴾ أي: ولما جاءهم كتاب من عند الله على يد أفضل الخلق وخاتم الأنبياء، المشتمل على تصديق ما معهم من التوراة، وقد علموا به وتيقنوه، حتى إنهم كانوا إذا وقع^(١) بينهم وبين المشركين في الجاهلية حروب، استنصروا بهذا النبي، وتوعدوهم بخروجه، وأنهم يقاتلون المشركين معه، فلما جاءهم هذا الكتاب والنبي الذي عَرَفُوا كفروا به، بغياً وحسداً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، فلعنهم الله وغضب عليهم غضباً بعد غضب، لكثرة كفرهم وتوالي شكهم وشركهم.

ولهم في الآخرة عذاب مهين، أي: مؤلم موجه، وهو صلي الحميم، وفوت النعيم المقيم، فبئس الحال حالهم، وبئس ما استعاضوا واستبدلوا من الإيمان بالله وكتبه ورسله، الكفر به وكتبه ورسله، مع علمهم وتيقنهم، فيكون أعظم لعذابهم.

﴿٩١-٩٣﴾ ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمَنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَأْمِنُوا بِمَا نَأْمِنُ وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خَلَاوَمَا أَتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِسْمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيْمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: وإذا أمر اليهود بالإيمان بما أنزل الله على رسوله وهو القرآن، استكبروا وعتوا، و ﴿قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنزَلَ عَلَيْنَا، وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ أي: بما سواه من الكتب، مع أن الواجب أن يؤمن بما أنزل الله مطلقاً، سواء أنزل عليهم أو على غيرهم، وهذا هو الإيمان النافع، الإيمان بما أنزل الله على جميع رسل الله. وأما التفريق بين الرسل والكتب،

بذلك كفر بالله وآياته، وعداوة الله ولرسله وملائكته، فإن عداوتهم لجبريل لا لذاته، بل لما ينزل به من عند الله من الحق على رسل الله.

فَيَتَضَمَّنُ الْكُفْرَ وَالْعِدَاوَةَ لِلَّذِي أَنْزَلَهُ
وَأَرْسَلَهُ، وَالَّذِي أَرْسَلَ بِهِ، وَالَّذِي
أَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَهَذَا وَجْهٌ ذَلِكَ.

﴿٩٩﴾ ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيْنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾
 يقول لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيْنَاتٍ﴾ تحصل بها الهداية لمن استهدى، وإقامة الحجة على من عاند، وهي في الوضوح والدلالة على الحق،

قد بلغت مبلغاً عظيماً، ووصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها إلا من فسق عن أمر الله، وخرج عن طاعة الله، واستكبر غاية التكبر.

﴿١٠٠﴾ ﴿أَوَكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا
نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا فيه التعجيب ^(١) من
كثرة معاهداتهم، وعدم صبرهم على
الوفاء بها.

ف «كَلِمًا» تفيد التكرار ، فكلما وجد العهد ترتب عليه النقص ، ما السبب في ذلك؟ السبب أن أكثرهم لا يؤمنون ، فعدم إيمانهم هو الذي أوجب لهم نقض العهود ، ولو صدق إيمانهم لكانوا مثل من قال الله فيهم : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ .

[illegible]

تبين بهذا أن هذا الفريق من أهل الكتاب لم يبق في أيديهم شيء حيث لم يؤمنوا بهذا الرسول، فصار كفرهم به ككفرًا بكتابتهم من حيث لا يشعرون. ولما كان من العوائد القدرية والحكمة الإلهية أن من ترك ما ينفعه، وأوامرته الانتفاع به فلم ينتفع، ابتلي بالاشتغال بما يضره، فمن ترك عبادة الرحمن، ابتلي بعبادة الأوثان، ومن ترك محبة الله وخوفه ورجاءه، ابتلي بمحبة غير الله وخوفه ورجائه، ومن لم ينفق ماله في طاعة الله، أنفق في طاعة الشيطان، ومن ترك الذل لربه، ابتلي

حجة .

استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة .

﴿ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾ علماً يثمر العمل ما فعلوه .

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ ﴿يا أيها الذين

آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا

واسمعوا وللكافرين عذاب أليم * ما

يود الذين كفروا من أهل الكتاب

ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير

من ربكم والله يختص برحمته من يشاء

والله ذو الفضل العظيم﴾ كان المسلمون

يقولون حين خطابهم للرسول عند

تعليمهم أمر الدين : ﴿راعنا﴾ أي : راع

أحوالنا ، فيقصدون بها معنى صحيحاً ،

وكان اليهود يريدون بها معنى فاسداً ،

فانتهزوا الفرصة ، فصاروا يخاطبون

الرسول بذلك ، ويقصدون المعنى

الفاسد ، فنهى الله المؤمنين عن هذه

الكلمة سداً لهذا الباب ، ففيه النهي عن

الجانز إذا كان وسيلة إلى محرم ، وفيه

الأدب واستعمال الألفاظ ، التي

لا تحتمل إلا الحسن ، وعدم الفحش ،

وترك الألفاظ القبيحة ، أو التي فيها

نوع تشويش أو احتمال لأمر غير

لائق ، فأمرهم بلفظة لا تحتمل إلا

الحسن ، فقال : ﴿وقولوا انظرنا﴾ فإنها

كافية يحصل بها المقصود من غير

عذور ، ﴿واسمعوا﴾ لم يذكر المسموع

ليعلم ما أمر باستماعه ، فيدخل فيه

سماع القرآن ، وسماع السنة التي هي

الحكمة لفظاً ومعنى واستجابة ، ففيه

الأدب والطاعة .

ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم

الموجع ، وأخبر عن عداوة اليهود

والمشركين للمؤمنين ، أنهم ما يودون

﴿أن ينزل عليكم من خير﴾ أي : لا قليلاً ولا كثيراً ﴿من ربكم﴾ حسداً

منهم ، وبغضاً لكم أن يختصم

بفضله ، فإنه ﴿ذو الفضل العظيم﴾

ومن فضله عليكم إنزال الكتاب على

رسولكم ، ليزكيكم ويعلمكم الكتاب

والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا

تعلمون ، فله الحمد والمنة .

فهؤلاء اليهود يتبعون السحر الذي

تعلمه الشياطين ، والسحر الذي يعلمه

الملكان ، فتركوا علم الأنبياء والرسلين

واقبلوا على علم الشياطين ، وكل يصبو

إلى ما يناسبه .

ثم ذكر مفساد السحر ، فقال :

﴿فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين

المرء وزوجه﴾ ومع أن محبة الزوجين

لا تقاس بمحبة غيرهما ، لأن الله قال

في حقهما : ﴿وجعل بينكم مودة

ورحمة﴾ وفي هذا دليل على أن السحر

له حقيقة ، وأنه يضر بإذن الله ، أي :

بإرادة الله ، والإذن نعوّان : إذن

قدري ، وهو المتعلق بمشيئة الله ، كما

في هذه الآية ، وإذن شرعي كما في

قوله تعالى في الآية السابقة : ﴿فإنه نزله

على قلبك بإذن الله﴾ وفي هذه الآية

وما أشبهها أن الأسباب مهما بلغت في

قوة التأثير ، فإنها تابعة للقضاء والقدر

ليست مستقلة في التأثير ، ولم يخالف

في هذا الأصل أحد من فرق الأمة غير

القدرية في أفعال العباد ، زعموا أنها

مستقلة غير تابعة للمشيئة ، فأخرجوها

عن قدرة الله ، فخالفوا كتاب الله

وسنة رسوله وإجماع الصحابة

والتابعين .

ثم ذكر أن علم السحر مضرة

محضة ، ليس فيه منفعة لا دينية ولا

دنيوية كما يوجد بعض المنافع الدنيوية

في بعض المعاصي ، كما قال تعالى في

الخمر والميسر : ﴿قل فيهما إثم كبير

ومنافع للناس وإثمهما أكبر من

نفعهما﴾ فهذا السحر مضرة محضة ،

فليس له داع أصلاً ، فالنهيات كلها إما

مضرة محضة ، أو شرها أكبر من

خيرها .

كما أن المأمورات إما مصلحة

محضة ، أو خيرها أكثر من شرها .

﴿ولقد علموا﴾ أي : اليهود ﴿لمن

اشتراه﴾ أي : أي : رغب في السحر رغبة

المشتري في السلعة .

﴿ماله في الآخرة من خلاق﴾

نصيب ، بل هو موجب للعقوبة ، فلم

يكن فعلهم إياه جهلاً ، ولكنهم



بالذل للعبيد ، ومن ترك الحق ابتلي بالباطل .

كذلك هؤلاء اليهود لما نبذوا

كتاب الله اتبعوا ما تتلو الشياطين

وتحتلق من السحر على ملك سليمان

حيث أخرجت الشياطين للناس

السحر ، وزعموا أن سليمان عليه

السلام كان يستعمله ، وبه حصل له

الملك العظيم .

وهم كذبة في ذلك ، فلم يستعمله

سليمان ، بل نزهه الصادق في قوله :

﴿وما كفر سليمان﴾ أي : بتعلم

السحر ، فلم يتعلمه ، ﴿ولكن

الشياطين كفروا﴾ بذلك .

﴿يعلمون الناس السحر﴾ من

إضلالهم وحرصهم على إغواء بني

آدم ، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي

أنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل

من أرض العراق ، أنزل عليهما السحر

امتحاناً وابتلاء من الله لعباده فيعلمانهم

السحر .

﴿وما يعلمان من أحد حتى﴾

ينصحاء ، و ﴿يقولا إنما نحن فتنة فلا

تكفر﴾ أي : لا تتعلم السحر فإنه

كفر ، فينهياه عن السحر ، ويخبرانه عن

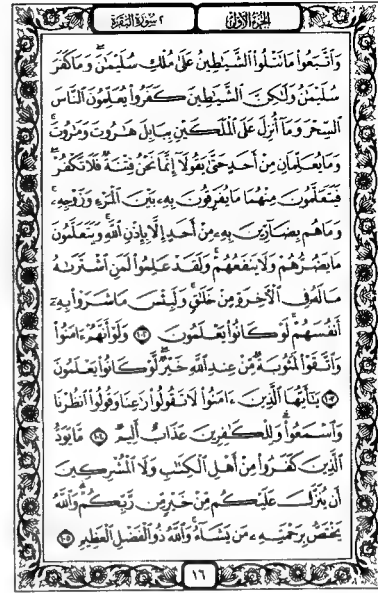
مرتبته ، فتعليم الشياطين للسحر على

وجه التدليس والإضلال ، ونسبته

وتروجه إلى من برأه الله منه وهو

سليمان عليه السلام . وتعليم الملكين

امتحاناً مع نصحهما لئلا يكون لهم



لكان لا فرق بينهما، فالبرهان هو الذي يصدق الدعاوى أو يكذبها، ولما لم يكن بأيديهم برهان عليم كذبهم بتلك الدعاوى.

ثم ذكر تعالى البرهان الجلي العام لكل أحد، فقال: ﴿بلى﴾ أي: ليس بأمانيتكم ودعاويكم، ولكن ﴿من أسلم وجهه لله﴾ أي: أخلص لله أعماله، متوجهاً إليه بقلبه، ﴿وهو﴾ مع إخلاصه ﴿محسن﴾ في عبادة ربه، بأن عبده بشره، فأولئك هم أهل الجنة وحدهم.

فلهم أجرهم عند ربهم وهو الجنة بما اشتملت عليه من النعيم، ﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ فحصل لهم المرغوب، ونجوا من المرهوب. ويفهم منها أن من ليس كذلك، فهو من أهل النار الهالكين، فلا نجاة إلا لأهل الإخلاص للمعبود، والمتابعة للرسول.

﴿١١٣﴾ وقالت اليهود ليست النصراني على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴿وذلك أنه بلغ بأهل الكتاب الهوى والحسد إلى أن بعضهم ضلل بعضاً، وكفر بعضهم

بعضاً، كما فعل الأميون من مشركي العرب وغيرهم.

فكل فرقة تضلل الفرقة الأخرى، ويحكم الله في الآخرة بين المختلفين بحكمه العدل، الذي أخبر به عباده، فإنه ^(١) لا فوز ولا نجاة إلا لمن صدق جميع الأنبياء والمرسلين، وامثل أوامر ربه واجتنب نواهيه، ومن عداهم فهو هالك.

﴿١١٤﴾ ﴿ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾ أي: لا أحد أظلم وأشد جرمًا، ممن منع مساجد الله عن ذكر الله فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من أنواع الطاعات.

﴿وسعى﴾ أي: اجتهد وبذل وسعه ﴿في خرابها﴾ الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها وتقديرها، والخراب المعنوي: منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام لكل من اتصف بهذه الصفة، فيدخل في ذلك أصحاب الفيل وقريش حين صدوا رسول الله عنها عام الحديبية، والنصارى حين أخربوا بيت المقدس، وغيرهم من أنواع الظلمة الساعين في خرابها، محادة لله، ومشاقة. فجازاهم الله، بأن منعهم دخولها شرعاً وقدرًا، إلا خائفين ذليلين، فلما أخافوا عباد الله، أخافهم الله، فالمشركون الذين صدوا رسوله، لم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيراً، حتى أذن الله له في فتح مكة ومنع المشركين من قربان بيته، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾.

وأصحاب الفيل، قد ذكر الله ما جرى عليهم، والنصارى، سلط الله عليهم المؤمنين فأجلوهم عته. وهكذا كل من اتصف بوصفهم،

فلا بد أن يناله قسطه، وهذا من الآيات العظيمة، أخبر بها الباري قبل وقوعها، فوقعت كما أخبر.

واستدل العلماء بالآية الكريمة، على أنه لا يجوز تمكين الكفار من دخول المساجد.

لهم خزي في الدنيا أي: فضيحة كما تقدم، ﴿ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾.

وإذا كان لا أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه، فلا أعظم إيماناً ممن سعى في عمارة المساجد بالعمارة الحسية والمعنوية، كما قال تعالى: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر﴾.

بل قد أمر الله تعالى برفع بيوته وتعظيمها وتكريمها، فقال تعالى: ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه﴾.

وللمساجد أحكام كثيرة، يرجع حاصلها إلى مضمون هذه الآيات الكريمة.

﴿١١٥﴾ ﴿و الله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم﴾ أي: ﴿و الله المشرق والمغرب﴾، خصصهما بالذكر، لأنهما محل الآيات العظيمة، فهما مطالع الأنوار ومغاريها، فإذا كان مالكا لها، كان مالكا لكل الجهات.

﴿فأينما تولوا﴾ وجوهكم من الجهات، إذا كان توليكم إياها بأمره، إما أن يأمركم باستقبال الكعبة بعد أن كنتم مأمورين باستقبال بيت المقدس، أو تؤمرون بالصلاة في السفر على الراحلة ونحوها، فإن القبلة حيثما توجه العبد أو تشبه القبلة، فيتحرى الصلاة إليها، ثم يتبين له الخطأ، أو يكون معذوراً بصلب أو مرض ونحو ذلك، فهذه الأمور، إما أن يكون العبد فيها معذوراً أو مأموراً.

وبكل حال، فما استقبل جهة من الجهات، خارجة عن ملك ربه ﴿فثم وجه الله﴾ إن الله واسع عليم، فيه

الأول: في نفس إرساله، والثاني: في سيرته، وهديه ودله، والثالث: في معرفة ما جاء به من القرآن والسنة. فالأول والثاني قد دخلا في قوله: ﴿إنا أرسلناك﴾، والثالث دخل في قوله: ﴿بالحق﴾.

وبيان الأمر الأول وهو - نفس إرساله - أنه قد علم حالة أهل الأرض قبل بعثته ﷺ، وما كانوا عليه من عبادة الأوثان والنيران، والصليبان، وتبديلهم للأديان، حتى كانوا في ظلمة من الكفر، قد عمتهم وشملتهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، قد انقروا قبيل البعثة.

وقد علم أن الله تعالى لم يخلق خلقه سدى، ولم يتركهم هملًا، لأنه حكيم عليم، قدير رحيم، فمن حكمته ورحمته بعباده أن أرسل إليهم هذا الرسول العظيم، يأمرهم بعبادة الرحمن وحده لا شريك له، فيمجدد رسالته يعرف العاقل صدقه، وهو آية كبيرة على أنه رسول الله وأما الثاني: فمن عرف النبي ﷺ معرفة تامة، وعرف سيرته وهديه قبل البعثة، ونشؤه على أكمل الخصال، ثم من بعد ذلك قد ازدادت مكارمه وأخلاقه العظيمة الباهرة للنظارين، فمن عرفها وسبر أحواله، عَرَفَ أنها لا تكون إلا أخلاق الأنبياء الكاملين، لأن الله تعالى جعل الأوصاف أكبر دليل على معرفة أصحابها وصدقهم وكذبهم.

وأما الثالث: فهو معرفة ما جاء به ﷺ من الشرع العظيم، والقرآن الكريم المشتمل على الإخبارات الصادقة، والأوامر الحسنة، والنهي عن كل قبيح، والمعجزات الباهرة، فجميع الآيات تدخل في هذه الثلاثة.

قوله: ﴿بشيراً﴾ أي: لمن أطاعك بالسعادة الدنيوية والأخروية، ونذيراً﴾ لمن عصاك بالشقاوة والهلاك الدنيوي والأخروي.

﴿ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ أي: لست مسؤولاً عنهم، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب.

﴿١٢٠﴾ ﴿ولن ترضى عنك اليهود

﴿وقوموا لله قانتين﴾.

ثم قال: ﴿بديع السماوات والأرض﴾، أي: خالقهما على وجه قد أتقنهما وأحسنهما على غير مثال سبق.

﴿وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، فلا يستعصى عليه، ولا يمتنع منه.

﴿١١٨ - ١١٩﴾ ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون * إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾، أي: قال الجهلة من أهل الكتاب وغيرهم: هلا يكلمنا، كما كلم الرسل. ﴿أو تأتينا آية﴾، يعنون آيات الاقتراح، التي يقترحونها بقولهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة، التي تجرأوا بها على الخالق، واستكبروا على رسله كقولهم: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾، ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك﴾ الآية وقالوا: ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً، أو يلقى إليه كنز، أو تكون له جنة﴾، الآيات وقوله: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾، الآيات.

فهذا دأبهم مع رسلهم، يطلبون آيات التعنت، لا آيات الاسترشاد، ولم يكن قصدهم تبين الحق، فإن الرسل قد جاؤوا من الآيات، بما يؤمن بمثله البشر، ولهذا قال تعالى: ﴿قد بينا الآيات لقوم يوقنون﴾.

فكل موقن، فقد عرف من آيات الله الباهرة، وبراهينه الظاهرة، ما حصل له به اليقين، واندفع عنه كل شك وريب.

ثم ذكر تعالى بعض آية موجزة مختصرة جامعة للآيات الدالة على صدقه ﷺ، وصحة ما جاء به، فقال: ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً﴾، فهذا مشتمل على الآيات التي جاء بها، وهي ترجع إلى ثلاثة أمور:

إثبات الوجه لله تعالى، على الوجه اللائق به تعالى، وأن لله وجهاً لا تشبهه الوجوه، وهو - تعالى - واسع الفضل والصفات عظيمها، عليم بسر أركم ونياتكم.

فمن سعته وعلمه، وسع لكم الأمر، وقبل منكم المأمور، فله الحمد والشكر.

﴿١١٦ - ١١٧﴾ ﴿وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون * بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾، ﴿وقالوا﴾ أي: اليهود والنصارى والمشركون، وكل من قال ذلك: ﴿اتخذ الله ولداً﴾، فنسبوه إلى ما لا يليق بجلاله، وأسأوا كل الإساءة، وظلموا أنفسهم.

وهو - تعالى - صابر على ذلك منهم، قد حلم عليهم، وعافاهم، ورزقهم مع تقصصهم إياه.

﴿سبحانه﴾، أي: تنزه وتقدس عن كل ما وصفه به المشركون والظالمون مما لا يليق بجلاله. فسبحان من له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه.

ومع رده لقولهم، أقام الحجة والبرهان على تنزيهه عن ذلك، فقال: ﴿بل له ما في السماوات والأرض﴾، أي: جميعهم ملكه وعبيده، يتصرف فيهم تصرف المالك بالممالك، وهم قانتون له مسخرون تحت تدبيره، فإذا كانوا كلهم عبده، مفتقرين إليه، وهو غني عنهم، فكيف يكون منهم أحد، يكون له ولداً، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، لأنه جزء منه.

والله تعالى المالك القاهر، وأنتم المملوكون المقهورون، وهو الغني وأنتم الفقراء، فكيف مع هذا، يكون له ولد؟ هذا من أبطل الباطل وأسمجه.

والقنوت نوعان: قنوت عام: وهو قنوت الخلق كله، تحت تدبير الخالق، وخاص: وهو قنوت العبادة.

فالنوع الأول كما في هذه الآية، والنوع الثاني: كما في قوله تعالى:

جانب عظيم من الإيمان والأعمال الصالحة، والأخلاق الجميلة، والشمائل السديدة، والمحبة التامة، والخشية والإنابة، فأين الظلم وهذا المقام؟

ودلّ مفهوم الآية أن غير الظالم سينال الإمامة، ولكن مع إتيانه بأسبابها.

ثم ذكر تعالى، نموذجاً باقياً دالاً على إمامة إبراهيم، وهو هذا البيت الحرام الذي جعل قصده ركناً من أركان الإسلام، حاطاً للذنوب والآثام.

وفيه من آثار الخليل وذريته، ما عرف به إمامته، وتذكرت به حالته، فقال: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ ۖ أَيْ: مرجعاً يشربون إليه، لحصول منافعهم الدينية والدنيوية، يترددون إليه ولا يقضون منه وطراً، ﴿و﴾ جعله ﴿أَنْسَاءً﴾ يأمن به كل أحد، حتى الوحش، وحتى الجمادات كالأشجار.

ولهذا كانوا في الجاهلية - على شركهم - يحترمونه أشد الاحترام، ويعد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيجه، فلما جاء الإسلام زاده حرمة وتعظيماً وتشريفاً وتكريماً.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَقَامًا ۖ أَيْ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَصْلاً﴾ يحتمل أن يكون المراد بذلك المقام المعروف الذي قد جعل الآن مقابل باب الكعبة، وأن المراد بهذا ركعتنا الطواف، يستحب أن تكونا خلف مقام إبراهيم، وعليه جمهور المفسرين، ويحتمل أن يكون المقام مفرداً مضافاً، فيعم جميع مقامات إبراهيم في الحج، وهي المشاعر كلها: من الطواف والسعي، والوقوف بعرفة ومزدلفة، ورمي الجمار، والنحر، وغير ذلك من أفعال الحج.

فيكون معنى قوله: ﴿فَنُصِّلَ﴾ أي: معبداً، أي: اقتدوا به في شعائر الحج، ولعل هذا المعنى أولى، لدخول المعنى الأول فيه، واحتمال اللفظ له.

﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ أي: أوحينا إليهما، وأمرناهما بتطهير بيت الله من الشرك، والكفر والمعاصي، ومن الرجز والتجاسات

إبراهيم وبه بكلمات فأتتهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين * وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأماناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود ﴿يُخْبِرُ تَعَالَىٰ عَنْ عَبْدِهِ وَخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، الْمُتَّفَقُ عَلَىٰ إِمَامَتِهِ وَجَلَالَتِهِ، الَّذِي كُلُّ مَنْ طَوَّافٌ أَهْلُ الْكِتَابِ تَدْعِيهِ، بَلْ وَكَذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ: أَنَّ اللَّهَ ابْتَلَاهُ وَامْتَحَنَهُ بِكَلِمَاتٍ، أَيْ: بِأَوْامِرٍ وَنَوَاهِي، كَمَا هِيَ عَادَةُ اللَّهِ فِي ابْتِلَائِهِ لِعِبَادِهِ، لِيَتَبَيَّنَ الْكَاذِبُ الَّذِي لَا يَثْبُتُ عِنْدَ الْابْتِلَاءِ وَالْامْتِحَانِ، مِنْ الصَّادِقِ الَّذِي تَرْتَفِعُ دَرَجَتُهُ، وَيَزِيدُ قَدْرُهُ وَيَزْكُو عَمَلُهُ، وَيُخْلِصُ ذَهَبُهُ، وَكَانَ مِنْ أَجْلِهِمْ فِي هَذَا الْمَقَامِ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فَأَتَمَّ مَا ابْتَلَاهُ اللَّهُ بِهِ وَأَكْمَلَهُ وَوَفَّاهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَزَلِ اللَّهُ شُكْرًا، فَقَالَ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ أَيْ: يَقْتَدُونَ بِكَ فِي الْهُدَى، وَيَعْمَشُونَ خَلْقَكَ إِلَىٰ سَعَادَتِهِمُ الْأَبَدِيَّةِ، وَيَحْصُلُ لَكَ الشُّعْنَاءُ الدَّائِمُ وَالْأَجْرُ الْجَزِيلُ، وَالتَّعْظِيمُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ.

وهذه - لَعَمْرُ اللَّهِ - أَفْضَلُ دَرَجَةٍ تَنَافَسَ فِيهَا الْمُتَنَاقِسُونَ، وَأَعْلَىٰ مَقَامٍ شَمَّرَ إِلَيْهِ الْعَامِلُونَ، وَأَكْمَلُ حَالَةٍ حَصَلَهَا أُولُو الْعِزِّ مِنَ الْمُرْسَلِينَ وَأَتْبَاعِهِمْ، مِنْ كُلِّ صَدِيقٍ مُّتَّبِعٍ لَهُمْ، دَاعٍ إِلَىٰ اللَّهِ وَإِلَىٰ سَبِيلِهِ.

فلما اغتبط إبراهيم بهذا المقام وأدرك هذا، طلب ذلك لذريته لتعلو درجته ودرجة ذريته، وهذا أيضاً من إمامته ونصحه لعباد الله، ومحبتة أن يُكثَّرَ فِيهِمُ الْمُرْشِدُونَ، فَلِلَّهِ عَظَمَةُ هَذِهِ الْمَهْمِ الْعَالِيَةِ وَالْمَقَامَاتِ السَّامِيَةِ.

فأجابه الرحيم اللطيف، وأخبر بالمانع من نيل هذا المقام، فقال: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ: لَا يَنَالُ الْإِمَامَةَ فِي الدِّينِ مَنْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَضَرَّهَا، وَحَطَّ قَدْرَهَا، لِمَنَافَةِ الظُّلْمِ لِهَذَا الْمَقَامِ، فَإِنَّهُ مَقَامُ أَلْتَّه الصَّبْرِ وَالْيَقِينِ، وَتَتَبَّعَتْهُ أَنْ يَكُونَ صَاحِبَهُ عَلَى

ولا النصرارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير ﴿يُخْبِرُ تَعَالَىٰ رَسُولَهُ أَنَّهُ لَا يَرْضَىٰ مِنْهُ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ إِلَّا بِاتِّبَاعِهِ دِينَهُمْ، لِأَنَّهُمْ دَعَا إِلَى الدِّينِ الَّذِي هُم عَلَيْهِ، وَيَزْعَمُونَ أَنَّهُ الْهُدَى، فَقُلْ لَهُمْ: ﴿إِن هُدَى اللَّهُ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ﴾ هُوَ الْهُدَى

وأما ما أنتم عليه فهو الهوى، بدليل قوله: ﴿وَلِئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

فهذا فيه النهي العظيم عن اتباع أهواء اليهود والنصارى، والتشبه بهم فيما يختص به دينهم، والخطاب وإن كان لرسول الله ﷺ فَإِنَّ أُمَّتَهُ دَاخِلَةٌ فِي ذَلِكَ، لِأَنَّ الْإِعْتِبَارَ بِعُمُومِ الْمَعْنَى لَا بِخُصُوصِ الْمَخَاطَبِ، كَمَا أَنَّ الْعِبْرَةَ بِعُمُومِ اللَّفْظِ لَا بِخُصُوصِ السَّبَبِ.

ثم قال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾.

يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّ الَّذِينَ آتَاهُمُ الْكِتَابَ وَمَنْ عَلَيْهِمْ بِهِ مَنَةٌ مُّطْلَقَةٌ، أَنَّهُمْ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ، أَيْ: يَتَّبِعُونَهُ حَقَّ اتِّبَاعِهِ، وَالتِّلَاوَةُ: الْإِتِّبَاعُ، فَيَحْلُوتُ حِلَالَهُ، وَيُحَرِّمُونَ حَرَامَهُ، وَيَعْمَلُونَ بِمَحْكَمِهِ، وَيُؤْمِنُونَ بِمُتَشَابِهِهِ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ السَّعْدَاءُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، الَّذِينَ عَرَفُوا نِعْمَةَ اللَّهِ وَشَكَرُوهَا، وَأَمَّنُوا بِكُلِّ الرِّسْلِ، وَلَمْ يَفْرُقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ.

فهؤلاء هم المؤمنون حقاً، لا من قال منهم: ﴿نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾.

ولهذا توعدهم بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وقد تقدم تفسير الآية التي بعدها.

﴿١٢٤ - ١٢٥﴾ ﴿وَإِذْ ابْتَلَىٰ



المصطفين الأخيار.

«وإنه في الآخرة لمن الصالحين» الذين لهم أعلى الدرجات.

«إذ قال له ربه أسلم قال: امتثالاً لربه» أسلمت لرب العالمين» إخلاصاً وتوحيداً، ومحبة وإنابة، فكان التوحيد لله نعته.

ثم ورثه في ذريته ووصاهم به، وجعلها كلمة باقية في عقبه وتوارث فيهم، حتى وصلت ليعقوب فوصى بها بنيه، فأنتم - يا بني يعقوب - قد وصاكم أبوكم بالخصوص، فيجب عليكم كمال الانقياد واتباع خاتم الأنبياء، قال: «يا بني إن الله اصطفى لكم الدين» أي: اختاره وتخير لكم رحمة بكم، وإحساناً إليكم، فقوموا به واتصفوا بسرائعه، وانصبغوا بأخلاقه، حتى تستمروا على ذلك فلا يأتاكم الموت إلا وأنتم عليه، لأن من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه.

ولما كان اليهود يزعمون أنهم على ملة إبراهيم، ومن بعده يعقوب، قال تعالى منكراً عليهم: «أم كنتم شهداء» أي: حضروا» إذ حضر يعقوب الموت» أي: مقدماته وأسبابه، فقال لبنيه على وجه الاختيار، ولتقر عينه في حياته بامتثالهم ما وصاهم به: «ما

تعبدون من بعدي؟ فأجابوه بما قرأت به عنه، فقالوا: «نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً» فلا تشرك به شيئاً، ولا تعدل به أحداً، «ونحن له مسلمون» فجمعوا بين التوحيد والعمل.

ومن المعلوم أنهم لم يحضروا يعقوب، لأنهم لم يوجدوا بعد، فإذا لم يحضروا، فقد أخبر الله عنه أنه وصى بنه بالحنيفية لا باليهودية.

ثم قال تعالى: «تلك أمة قد خلت» أي: مضت «لها ما كسبت ولكم ما كسبتم» أي: كل له عمله، وكل سيجازي بما فعله، لا يؤخذ^(١) أحد بذنب أحد، ولا ينفع أحد إلا إيمانه وتقواه فاشتغالكم بهم وادعائكم أنكم على ملتهم، والرضا بمجرد القول، أمر فارغ لا حقيقة له، بل الواجب عليكم أن تنظروا حالتكم التي أنتم عليها، هل تصلح للنجاة أم لا؟

«١٣٥» «وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» أي: دعا كل من اليهود والنصارى المسلمين إلى الدخول في دينهم، زاعمين أنهم هم المهتدون وغيرهم ضال.

قل له^(٢) جيباً جواباً شافياً: «بل» نتبع «ملة إبراهيم حنيفاً» أي: مقبلاً على الله، معرضاً عما سواه، قائماً بالتوحيد، تاركاً للمشرك والتنديد.

فهذا الذي في اتباعه الهداية، وفي الإعراض عن ملته الكفر والغواية.

«١٣٦» «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» هذه الآية الكريمة قد اشتملت على جميع ما يجب الإيمان به.

واعلم أن الإيمان الذي هو تصديق القلب التام بهذه الأصول، وإقراره المتضمن لأعمال القلوب والجوارح، وهو بهذا الاعتبار يدخل فيه الإسلام،

وتدخل فيه الأعمال الصالحة كلها، فهي من الإيمان وأثر من آثاره، فحيث أطلق الإيمان دخل فيه ما ذكر، وكذلك الإسلام، إذا أطلق دخل فيه الإيمان، فإذا قرن بينهما، كان الإيمان اسماً لما في القلب من الإقرار والتصديق، والإسلام اسماً للأعمال الظاهرة وكذلك إذا جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة. فقلوه تعالى: «قولوا» أي: بالاستتكم متواظفة عليها قلوبكم، وهذا هو القول التام المترتب عليه الثواب والجزاء، فكما أن النطق باللسان بدون اعتقاد القلب، نفاق وكفر، فالقول الخالي من العمل عمل القلب عديم التأثير، قليل الفائدة، وإن كان العبد يؤجر عليه، إذا كان خيراً ومعه أصل الإيمان، لكن فرق بين القول المجرد والمقترن به عمل القلب.

وفي قوله: «قولوا» إشارة إلى الإعلان بالعقيدة، والصدع بها والدعوة لها، إذ هي أصل الدين وأساسه.

وفي قوله: «آمناً» ونحوه مما فيه صدور الفعل منسوباً إلى جميع الأمة إشارة إلى أنه يجب على الأمة، الاعتصام بحبل الله جميعاً والحث على الائتلاف، حتى يكون داعيهم واحداً، وعملهم متحداً، وفي ضمنه النهي عن الافتراق، وفيه أن المؤمنين كالجسد الواحد.

وفي قوله: «قولوا آمنا بالله» الخ، دلالة على جواز إضافة الإنسان إلى نفسه الإيمان على وجه التقييد، بل على وجوب ذلك، بخلاف قوله: «أنا مؤمن» ونحوه، فإنه لا يقال إلا مقروناً بالاستثناء بالمشيئة لما فيه من تزكية النفس، والشهادة على نفسه بالإيمان.

فقوله: «آمنا بالله» أي: بأنه موجود، واحد أحد، متصف بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص وعيب، مستحق لإفراده بالعبادة كلها، وعدم الإشراك به في شيء منها، بوجه من الوجوه.

شفاق فيسكفيهم الله وهو السميع العليم» أي: فإن آمن أهل الكتاب «بمثل ما آمنتم به» - يا معشر

المؤمنين - من جميع الرسل وجميع الكتب، الذين أول من دخل فيهم، وأولى خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ والقرآن، وأسلموا لله وحده، ولم يفرقوا بين أحد من رسل الله «فقد اهتدوا» للصراط المستقيم، الموصل لجنات النعيم، أي: فلا سبيل لهم إلى الهداية إلا بهذا الإيمان، لا كما زعموا بقولهم: «كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا» فزعموا أن الهداية خاصة بما كانوا عليه، والهدى هو العلم بالحق والعمل به، وضده الضلال عن العلم والضلال عن العمل بعد العلم، وهو الشقاق الذي كانوا عليه، لما تولوا وأعرضوا، فالمشاق: هو الذي يكون في شق، والله ورسوله في شق، ويلزم من المشاقعة المحادة، والعداوة البليغة، التي من لوازمها بذل ما يقدر على من أذية الرسول، فلهذا وعد الله رسوله أن يكفيه إياهم، لأنه السميع لجميع الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، العليم بما بين أيديهم وما خلفهم، بالغيب والشهادة، بالظواهر والبواطن، فإذا كان كذلك، فكفك الله شرهم.

وقد أنجز الله لرسوله وعده، وسلطه عليهم حتى قتل بعضهم، وسبى بعضهم، وأجل بعضهم، وشردهم كل مشرد.

ففيه معجزة من معجزات القرآن، وهو الإخبار بالشيء قبل وقوعه، فوق طبق ما أخبر.

﴿١٣٨﴾ «صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون» أي: الزموا صبغة الله، وهو دينه، وقوموا به قياماً تاماً بجميع أعماله الظاهرة والباطنة، وجميع عقائده في جميع الأوقات، حتى يكون لكم صبغة صفة من صفاتكم، فإذا كان صفة من صفاتكم، أوجب ذلك لكم الانقياد لأوامره، طوعاً واختياراً ومحبة، وصار الدين طبيعة لكم بمنزلة الصبغ التام

عليهم الكتب، ويرسل إليهم الرسل، فلا تقتضي ربوبيته تركهم سدى ولا هملًا.

وإذا كان ما أوتي النبيون إنما هو من ربهم، ففيه الفرق بين الأنبياء وبين من يدعي النبوة، وأنه يحصل الفرق بينهم بمجرد معرفة ما يدعون إليه، فالرسل لا يدعون إلا للخير، ولا ينهون إلا عن كل شر، وكل واحد منهم يصدق الآخر ويشهد له بالحق، من غير تحالف ولا تناقض لكونه من عند ربهم «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً».

وهذا بخلاف من ادعى النبوة، فلا بد أن يتناقضوا في أخبارهم وأوامرهم ونواهيهم، كما يعلم ذلك من سير أحوال الجميع وعرف ما يدعون إليه.

فلما بين تعالى جميع ما يؤمن به، عموماً وخصوصاً، وكان القول لا يفني عن العمل، قال: «ونحن له مسلمون» أي: خاضعون لعظمته، متقادون لعبادته بباطننا وظاهرنا، مخلصون له العبادة بدليل تقديم المعمول، وهو «له» على العامل، وهو «مسلمون».

فقد اشتملت هذه الآية الكريمة - على إيجازها واختصارها - على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، واشتملت على الإيمان بجميع الرسل وجميع الكتب، وعلى التخصيص الدال على الفضل بعد التعميم، وعلى التصديق بالقلب واللسان والجوارح والإخلاص لله في ذلك، وعلى الفرق بين الرسل الصادقين، ومن ادعى النبوة من الكاذبين، وعلى تعليم الباري عباده كيف يقولون، ورحمته وإحسانه عليهم بالنعم الدينية المتصلة بسعادة الدنيا والآخرة، فسبحان من جعل كتابه تبياناً لكل شيء، وهدياً ورحمة لقوم يؤمنون.

﴿١٣٧﴾ «فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في

«وما أنزل إلينا» يشمل القرآن والسنة لقوله تعالى: «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة» فدخل فيه الإيمان بما تضمنته كتاب الله وستة رسوله، من صفات الباري، وصفات رسله، واليوم الآخر، والغيوب الماضية والمستقبل، والإيمان بما تضمنته ذلك من الأحكام الشرعية الأمرية، وأحكام الجزاء وغير ذلك.

«وما أنزل إلى إبراهيم» إلى آخر الآية، فيه الإيمان بجميع الكتب المنزلة على جميع الأنبياء، والإيمان بالأنبياء عموماً، وخصوصاً ما نص عليه في الآية لشرافهم، ولإتيانهم بالشرائع الكبار فالواجب في الإيمان بالأنبياء والكتب أن يؤمن بهم على وجه العموم والشمول، ثم ما عرف منهم بالتفصيل، وجب الإيمان به مفصلاً.

وقوله: «لا نفرق بين أحد منهم» أي: بل نؤمن بهم كلهم، هذه خاصية المسلمين التي انفردوا بها عن كل من يدعي أنه على دين.

فاليهود والنصارى والصابئون وغيرهم - وإن زعموا أنهم يؤمنون بما يؤمنون به من الرسل والكتب - فإنهم يكفرون بغيره، فيفرقون بين الرسل والكتب، بعضها يؤمنون به، وبعضها يكفرون به، وينقض تكذيبهم تصديقهم، فإن الرسول الذي زعموا أنهم قد آمنوا به، قد صدق سائر الرسل وخصوصاً محمد ﷺ، فإذا كذبوا محمداً، فقد كذبوا رسولهم فيما أخبرهم به، فيكون كفراً برسولهم.

وفي قوله: «وما أوتي النبيون من ربهم» دلالة على أن عطية الدين هي العطية الحقيقية المتصلة بالسعادة الدنيوية والأخروية. لم يأمرنا أن نؤمن بما أوتي الأنبياء من الملك والمال ونحو ذلك، بل أمرنا أن نؤمن بما أعطوا من الكتب والشرائع.

وفيه أن الأنبياء مبلغون عن الله، ووسائط بين الله وبين خلقه في تبليغ دينه، ليس لهم من الأمر شيء.

وفي قوله: «من ربهم» إشارة إلى أنه من كمال ربوبيته لعباده أن ينزل

للثوب الذي صار له صفة، فحصلت لكم السعادة الدنيوية والأخروية، لحت الدين على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال ومعالي الأمور، فلهذا قال - على سبيل التعجيب المقرر للعقول الزكية -: ﴿ومن أحسن من الله صبغة﴾ أي: لا أحسن صبغة من صَبِغته^(١).

وإذا أردت أن تعرف نموذجاً يبين لك الفرق بين صبغة الله وبين غيرها من الصبغ، فقس الشيء بضده، فكيف ترى في عبد آمن بربه إيماناً صحيحاً، أثر معه خضوع القلب وانقياد الجوارح، فلم يزل يتحلّى بكل وصف حسن، وفعل جميل، وخلق كامل، ونعت جليل، ويتخلّى من كل وصف قبيح، ورذيلة وعيب، فَوَصَفَهُ: الصدق في قوله وفعله، والصبر والحلم، والعفة، والشجاعة، والإحسان القولي والفعل، ومحبة الله وخشيته، وخوفه ورجاؤه، فحاله الإخلاص للمعبود، والإحسان لعبه، ففسه بعبد كفر بربه وشرده عنه، وأقبل على غيره من المخلوقين فاتصف بالصفات القبيحة، من الكفر، والشرك، والكذب، والخيانة، والمكر، والخداع، وعدم العفة، والإساءة إلى الخلق في أقواله وأفعاله، فلا إخلاص للمعبود، ولا إحسان إلى عبده.

فإنه يظهر لك الفرق العظيم بينهما، ويتبين لك أنه لا أحسن صبغة من صبغة الله، وفي ضمنه أنه لا أقبح صبغة ممن انصبغ بغير دينه.

وفي قوله: ﴿ونحن له عابدون﴾ بيان لهذه الصبغة، وهي القيام بهذين الأصلين: الإخلاص والمتابعة، لأن «العبادة»: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، ولا تكون كذلك حتى يشرعها الله على لسان رسوله، والإخلاص: أن يقصد العبد وجه الله وحده في تلك الأعمال، فتقديم المعمول يؤذن بالحرص.

وقال: ﴿ونحن له عابدون﴾ فوصفهم باسم الفاعل الدال على الثبوت والاستقرار ليدل على اتصافهم بذلك وكونه صار صبغة لهم ملازماً.

﴿١٣٩﴾ ﴿قل أتُحاجوننا في الله وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون﴾ المحاجة: هي المجادلة بين اثنين فأكثر، تتعلق في المسائل الخلافية، حتى يكون كل من الخصمين يريد نصرة قوله وإبطال قول خصمه، فكل واحد منهما يجتهد في إقامة الحجة على ذلك، والمطلوب منها أن تكون بالتي هي أحسن، بأقرب طريق يرد الضال إلى الحق، ويقيم الحجة على المعاند، ويوضح الحق ويبين الباطل، فإن خرجت عن هذه الأمور، كانت عماراة ومخاصمة لا خير فيها، وأحدثت من الشر ما أحدثت، فكان أهل الكتاب يزعمون أنهم أولى بالله من المسلمين، وهذا مجرد دعوى تفتقر إلى برهان ودليل. فإذا كان رب الجميع واحداً، ليس رباً لكم دوننا، وكل منا ومنكم له عمله، فاستوتنا نحن وإياكم بذلك، فهذا لا يوجب أن يكون أحد الفريقين أولى بالله من غيره؛ لأن التفريق مع الاشتراك في الشيء من غير فرق مؤثر دعوى باطلة، وتفریق بين متمثلين، ومكابرة ظاهرة، وإنما يحصل التفضيل بإخلاص الأعمال الصالحة لله وحده، وهذه الحالة وصف المؤمنين وحدهم، فتعين أنهم أولى بالله من غيرهم؛ لأن الإخلاص هو الطريق إلى الخلاص، فهذا هو الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، بالأوصاف الحقيقية التي يسلمها أهل العقول، ولا يتنازع فيها إلا كل مكابر جهول، ففي هذه الآية إرشاد لطيف لطريق المحاجة، وأن الأمور مبنية على الجمع بين المتمثلين، والفرق بين المختلفين.

﴿١٤٠﴾ ﴿أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قل

أنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون﴾ وهذه دعوى أخرى منهم، ومحاجة في رسل الله، زعموا أنهم أولى بهؤلاء الرسل المذكورين من المسلمين.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿أنتم أعلم أم الله﴾ فإله يقول: ﴿ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين﴾ وهم يقولون: بل كان يهودياً أو نصرانياً.

فإما أن يكونوا هم الصادقين العالمين، أو يكون الله تعالى هو الصادق العالم بذلك، فأحد الأمرين متعين لا محالة، وصورة الجواب مبهم، وهو في غاية الوضوح والبيان، حتى إنه من وضوحه لم يحتاج أن يقول بل الله أعلم وهو أصدق، ونحو ذلك، لانجلائه لكل أحد، كما إذا قيل: الليل أنور، أم النهار؟ والنار أحر أم الماء؟ والشرك أحسن أم التوحيد؟ ونحو ذلك.

وهذا يعرفه كل من له أدنى عقل، حتى إنهم بأنفسهم يعرفون ذلك، ويعرفون أن إبراهيم وغيره من الأنبياء لم يكونوا هوداً ولا نصارى، فكتموا هذا العلم وهذه الشهادة، فلهذا كان ظلمهم أعظم الظلم. ولهذا قال تعالى: ﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله﴾ فهي شهادة عندهم، مودعة من الله، لا من الخلق، فيقتضي الاهتمام بإقامتها، فكتموها وأظهروا ضدها، جمعوا بين كتم الحق وعدم النطق به، وإظهار الباطل والدعوة إليه، أليس هذا أعظم الظلم؟ بلى والله، وسيعاقبهم عليه أشد العقوبة، فلهذا قال: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل قد أحصى أعمالهم وعدّها وأذخر لهم جزاءها، فبئس الجزاء جزاؤهم، وبئست النار مثوى للظالمين، وهذه طريقة القرآن في ذكر العلم والقدرة، عقب الآيات المتضمنة للأعمال التي يجازى عليها.

فيفيد ذلك الوعد والوعيد،

﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً﴾ أي: عدلاً خياراً، وما عدا الوسط فأطراف داخلية تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة وسطاً في كل أمور الدين، وسطاً في الأنبياء، بين من غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود، بأن آمنوا بهم كلهم على الوجه اللائق بذلك، ووسطاً في الشريعة لا تشديدات اليهود وأصارهم، ولا تهاون النصارى.

وفي باب الطهارة والمطاعم، لا كاليهود الذين لا تصح لهم صلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، ولا يطهرهم الماء من النجاسات، وقد حرمت عليهم طيبات عقوبة لهم، ولا كالنصارى الذين لا ينجسون شيئاً، ولا يجرمون شيئاً، بل أباحوا ما دب ودرج.

بل طهارتهم أكمل طهارة وأتمها، وأباح الله لهم الطيبات من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح، وحرّم عليهم الخبائث من ذلك، فلهذه الأمة من الدين أكمله، ومن الأخلاق أجملها، ومن الأعمال أفضلها.

وهبهم الله من العلم والحلم والعدل والإحسان، ما لم يهبه لأمة سواهم، فلذلك كانوا «أمة وسطاً» [كاملين] ليكونوا «شهداء على الناس» بسبب عدالتهم وحكمهم بالقسط، يحكمون على الناس من سائر أهل الأديان، ولا يحكم عليهم غيرهم، فما شهدت له هذه الأمة بالقبول فهو مقبول، وما شهدت له بالرد فهو مردود، فإن قيل: كيف يقبل حكمهم على غيرهم، والحال أن كل مختصم غير مقبول قول بعضهم على بعض؟ قيل: إنما لم يقبل قول أحد المتخاصمين لوجود التهمة، فأما إذا انتفت التهمة، وحصلت العدالة التامة كما في هذه الأمة، فإنما المقصود الحكم بالعدل والحق، وشرط ذلك العلم والعدل، وهما موجودان في هذه الأمة، فقبل قولها.

فإن شكك في فضلها، وطلب مزكياً لها فهو أكمل الخلق نبياً ﷺ، فلهذا قال تعالى: ﴿ويكونون أرمولاً﴾

مصدر هذا الكلام، فالعاقل لا يبالي باعتراض السفه، ولا يلقى له ذهنه. ودلت الآية على أنه لا يعترض على أحكام الله إلا سفیه جاهل معاند، وأما الرشيد المؤمن العاقل، فيتلقى أحكام ربه بالقبول والانقياد والتسليم، كما قال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ﴿الآية﴾، إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴿وقد كان في قوله «السفهاء» ما يغني عن رد قولهم وعدم الجلالة به.﴾

ولكنه تعالى مع هذا لم يترك هذه الشبهة، حتى أزالها وكشفها عما سيعرض لبعض القلوب من الاعتراض، فقال تعالى: ﴿قل﴾ لهم مجيباً: ﴿الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي: فإذا كان المشرق والمغرب ملكاً لله، ليس جهة من الجهات خارجة عن ملكه، ومع هذا يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، ومنه هدايتكم إلى هذه القبلة التي هي من ملة أبيكم إبراهيم، فلأي شيء يعترض المعارض بتوليتكم قبلة داخلية تحت ملك الله، لم تستقبلوا جهة ليست ملكاً له؟ فهذا يوجب التسليم لأمره بمجرد ذلك، فكيف وهو من فضل الله عليكم، وهدايته وإحسانه أن هداكم لذلك، فالمعارض عليكم، معترض على فضل الله حسداً لكم وبغياً.

ولما كان قوله: ﴿يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ والمطلق يحمل على المقيد، فإن الهداية والضلال لهما أسباب أوجبتها حكمه الله وعدله، وقد أخبر في غير موضع من كتابه بأسباب الهداية، التي إذا أتى بها العبد حصل له الهدى، كما قال تعالى: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام﴾ ذكر في هذه الآية السبب الموجب لهداية هذه الأمة مطلقاً بجميع أنواع الهداية، ومنه الله عليها، فقال:

والترغيب والترهيب، ويفيد أيضاً ذكر الأسماء الحسنی بعد الأحكام، أن الأمر الديني والجزائي أثر من آثارها، وموجب من موجباتها، وهي مقتضية له.

﴿١٤١﴾ ثم قال تعالى: ﴿تلك أمة قد خلت لهما ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون﴾ تقدم تفسيرها، وكررها لقطع التعلق بالملخوقين، وأن الممول عليه ما اتصف به الإنسان، لا عمل أسلافه وآبائه، فالنفع الحقيقي بالأعمال، لا بالانتساب المجرد للرجال.

﴿١٤٢ - ١٤٣﴾ ﴿سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل الله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴿قد اشتملت الآية الأولى على: معجزة، وتسليّة، وتطمين قلوب المؤمنين، واعتراض، وجوابه من ثلاثة أوجه، وصفة المعارض، وصفة المسلم لحكم الله ودينه.﴾

فأخبر تعالى أنه سيعترض السفهاء من الناس وهم الذين لا يعرفون مصالح أنفسهم، بل يضيعونها ويبيعونها بأبخس ثمن، وهم اليهود والنصارى، ومن أشبههم من المعارضين على أحكام الله وشرائعه، وذلك أن المسلمين كانوا مأمورين باستقبال بيت المقدس مدة مقامهم بمكة، ثم بعد الهجرة إلى المدينة، نحو سنة ونصف - لما لله تعالى في ذلك من الحكم التي سيشير إلى بعضها، وكانت حكمته تقتضي أمرهم باستقبال الكعبة، فأخبرهم أنه لا بد أن يقول السفهاء من الناس: ﴿ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها﴾ وهي استقبال بيت المقدس، أي: أي شيء صرفهم عنه؟ وفي ذلك الاعتراض على حكم الله وشرعه وفضله وإحسانه، فسلاهم وأخبر بوقوعه، وأنه إنما يقع ممن اتصف بالسفه قليل العقل والحلم والديانة، فلا تبالوا بهم، إذ قد علم

عليكم شهيداً

ومن شهادة هذه الأمة على غيرهم أنه إذا كان يوم القيامة وسأل الله المرسلين عن تبليغهم، والأمم المكذبة عن ذلك، وأنكروا أن الأنبياء بلغتهم، استشهدت الأنبياء بهذه الأمة، وزكاهما نبيها.

وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله: ﴿وسطاً﴾ فلو قدر اتفاقهم على الخطأ لم يكونوا وسطاً إلا في بعض الأمور، ولقوله: ﴿ولتكونوا شهداء على الناس﴾ يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه، فإنها معصومة في ذلك. وفيها اشتراط العدالة في الحكم والشهادة والفتيا، ونحو ذلك.

﴿١٤٣﴾ يقول تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ يقول تعالى: ﴿وما جعلنا القبلة التي كتبت عليها﴾ وهي استقبال بيت المقدس أولاً ﴿إلا لنعلم﴾ أي: علماً يتعلق به الثواب والعقاب، وإلا فهو تعالى عالم بكل الأمور قبل وجودها.

ولكن هذا العلم لا يعلق عليه ثواباً ولا عقاباً، لتمام عدله وإقامة الحجة على عباده، بل إذا وجدت أعمالهم ترتب عليها الثواب والعقاب، أي: شرعنا تلك القبلة لنعلم ونمتحن من يتبع الرسول ويؤمن به، فيتبعه على كل حال، لأنه عبد مأمور بمدير، ولأنه قد أخبرت الكتب المتقدمة أنه يستقبل الكعبة، فالنصف الذي مقصوده الحق، مما يزيده ذلك إيماناً وطاعة للرسول.

وأما من انقلب على عقبيه، وأعرض عن الحق واتبع هواه، فإنه يزداد كفراً إلى كفره، وحيرة إلى حيرته، ويلبي بالحجة الباطلة، المبنية على شبهة لا حقيقة لها.

﴿وإن كانت﴾ أي: صرفك عنها

﴿لكبيرة﴾ أي: شاقة ﴿إلا على الذين هدى الله﴾ فعرفوا بذلك نعمة الله عليهم، وشكروا وأقروا له بالإحسان حيث وجههم إلى هذا البيت العظيم، الذي فضله على سائر الأرض، وجعل قصده ركناً من أركان الإسلام، وهادماً للذنوب والآثام، فلهذا خف عليهم ذلك، وشق على من سواه.

ثم قال تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أي: ما ينبغي له ولا يليق به تعالى، بل هي من الممتنعات عليه، فأخبر أنه تمتع عليه ومستحيل أن يضيع إيمانكم، وفي هذا بشارة عظيمة لمن آمن بالله عليهم بالإسلام والإيمان، بأن الله سيحفظ عليهم إيمانهم فلا يضيعه، وحفظه نوعان:

حفظ عن الضياع والبطلان بعصمته لهم عن كل مفسد ومزيل له ومنقص من المحن المقلقة، والأهواء الصادة، وحفظ له بتنميته لهم، وتوفيقهم لما يزداد به إيمانهم، ويتم به إيقانهم، فكما ابتدأكم بأن هداكم للإيمان، فسيحفظه لكم، ويتم نعمته بتنميته وتنمية أجره وثوابه، وحفظه من كل مكدر، بل إذا وجدت المحن التي المقصود منها تبيين المؤمن الصادق من الكاذب، فإنها تمحص المؤمنين وتظهر صدقهم، وكأن في هذا احترازاً عما يقال إن قوله: ﴿وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه﴾ قد يكون سبباً لترك بعض المؤمنين إيمانهم، فدفع هذا الوهم بقوله: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ بتقديره لهذه المحنة أو غيرها.

ودخل في ذلك من مات من المؤمنين قبل تحويل الكعبة، فإن الله لا يضيع إيمانهم، لكونهم امتثلوا أمر الله وطاعة رسوله في وقتها، وطاعة الله امتثال أمره في كل وقت بحسب ذلك، وفي هذه الآية دليل للذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان تدخل فيه أعمال الجوارح.

وقوله: ﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أي: شديد الرحمة بهم

عظيمها، فمن رأفته ورحمته بهم أن يتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها، وأن ميز عنهم من دخل في الإيمان بلسانه دون قلبه، وأن امتحنهم امتحاناً زاد به إيمانهم، وارتفعت به درجاتهم، وأن وجههم إلى أشرف البيوت، وأجلها.

﴿١٤٤﴾ ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون﴾ يقول الله لنبيه: ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء﴾ أي: كثرة تردده في جميع جهاته، شوقاً وانتظاراً لنزول الوحي باستقبال الكعبة، وقال: ﴿وجهك﴾ ولم يقل: «بصرك» لزيادة اهتمامه، ولأن تقلب الوجه مستلزم لتقلب البصر.

﴿فلنولينك﴾ أي: نوجهك لولايتنا إياك، ﴿قبلة ترضاها﴾ أي: تحبها وهي الكعبة، وفي هذا بيان لفضله وشرفه ﷺ، حيث إن الله تعالى يسارع في رضاه، ثم صرح له باستقبالها فقال: ﴿فول وجهك شطر المسجد الحرام﴾ والوجه: ما أقبل من بدن الإنسان، ﴿وحيثما كنتم﴾ أي: من بر وبحر، شرق وغرب، جنوب وشمال ﴿فولوا وجوهكم شطره﴾ أي: جهته.

ففيها اشتراط استقبال الكعبة للصلوات كلها، فرضها ونفلها، وأنه إن أمكن استقبال عينها، وإلا فيكفي شطرها وجهتها، وأن الالتفات بالبدن مبطل للصلاة، لأن الأمر بالشئ نهي عن ضده، ولما ذكر تعالى فيما تقدم المعارضين على ذلك من أهل الكتاب وغيرهم، وذكر جوابهم، ذكر هنا أن أهل الكتاب والعلم منهم يعلمون أنك في ذلك على حق وأمر، لما يجدونه في كتبهم، فيعترضون عناداً وبغياً، فإذا كانوا يعلمون بخطئهم فلا تبالوا بذلك، فإن الإنسان إنما يغمه اعتراض من اعترض عليه، إذا كان الأمر مشتبهاً، وكان ممكناً أن يكون معه صواب.

ذلك منه، ولم يقل: «ولو أتوا بكل آية» لأنهم لا دليل لهم على قولهم.
وكذلك إذا تبين الحق بأدلة يقينية، لم يلزم الإتيان بأجوبة الشبه الواردة عليه، لأنه لا حد لها، ولأنه يعلم بطلانها، للعلم بأن كل ما نافي الحق الواضح فهو باطل، فيكون حل الشبه من باب التبرع.

«أهواءهم» ولم يقل «دينهم» لأن ما هم عليه مجرد أهوية^(١) نفس، حتى هم في قلوبهم يعلمون أنه ليس بدين، ومن ترك الدين اتبع الهوى ولا محالة، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾.

﴿من بعد ما جاءك من العلم﴾ بأنك على الحق، وهم على الباطل، ﴿إنك إذا﴾ أي: إن اتبعتهم، فهذا احتراز لئلا تنفصل هذه الجملة عما قبلها، ولو في الأفهام، ﴿لمن الظالمين﴾ أي: داخل فيهم، ومندرج في جملتهم، وأي: ظلم أعظم من ظلم من علم الحق والباطل، فأتى الباطل على الحق، وهذا وإن كان الخطاب له ﷺ، فإن أمته داخله في ذلك، وأيضاً فإذا كان هو ﷺ لو فعل ذلك - وحاشاه - صار ظالماً مع علو مرتبته، وكثرة حسناته^(٢)، فغيره من باب أولى وأحرى.

﴿١٤٦-١٤٧﴾ ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ * الحق من ربك فلا تكونن من الممترين.

ينبغي تعالى أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم وعرفوا أن محمداً رسول الله،

وَأَن مَّا جَاءَهُ حَقٌّ وَصَدَقُوا، وَتَقْنُوا
ذَلِكَ كَمَا تَقْنُوا أَبْنَاءَهُمْ بَحِثْ
لَا يَشْتَهُونَ عَلَيْهِمْ بَغِيرَهُمْ، فَعَرَفْتَهُمْ
بِمُحَمَّدٍ ﷺ، وَصَلْتُ إِلَى حَدِّ
لَا يَشْكُونُ فِيهِ وَلَا يَمْتَرُونَ، لَكِنْ
فَرِيقًا مِنْهُمْ - وَهُمْ أَكْثَرُهُمْ - الَّذِينَ
كَفَرُوا بِهِ، كَتَمُوا هَذِهِ الشَّهَادَةَ مَعَ
تَقْنِهَا، وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ

(١) في ب: أهواء.

وَلَنْ تَصَاحِبَ عَنْكَ الْيَهُودَ وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَتَّبِعَ بِرَأْسِهِمْ قُلَّ إِنَّ
هَذِهِ أُمَّةُكُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا وَلَكِنْ أَتَيْتَ أَهْلَهُمْ هَذَا قَوْلَ جَدِّكَ
مِنَ الْعِلْمِ مَا تَكُنَّ مِنَ الْعَالَمِينَ وَلَوْ لَا النَّصِيرُ ﴿٥﴾ أَلَيْسَ أَتَيْتَهُمْ
الْكِتَابَ بِشَرِّ مَنْ مَعِيَ وَأَدْوَابَهُ أَوْلَيْتَ كَيْفَ تَتَّبِعُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦﴾ بَلَّغْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ أَذْكَرَ أَوْ غَيْرِي أَلَمْ
أَنْتُمْ بَلَّغْتُمْ كَرَامَةَ مَنْ تَصَلَّحُوا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٧﴾ وَأَنْشَأُوا مَا
لَمْ يَخْلُقْ تَقْدِيرَ مَنْ خَلَقَ رَبَّنَا وَلا لَجَلَّ بِهَا عَدْلُ مَا تَتَّبِعُوا
شَعْبَهُ لَأَمَّ النَّصِيرُونَ ﴿٨﴾ وَإِذْ أَنْزَلْنَا إِلَهُكُمْ رَسُولًا لَكُنَّ
فَاتِحَةً قَالُوا إِنَّا نَبِيُّ إِبْرَاهِيمَ قَالُوا قَالُوا وَمَنْ ذُوْنِي قَالَ
لَأَنْبَأَنَّكَ عَهْدِي بِالْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَكَّةَ لِلْعَالَمِينَ
وَأَنشَأْنَا فِيهِ مَقَامَ إِلَهِكُمْ مَقَامَ مَنْ تَعْبُدُونَ وَتَأْتِيهِ الْبُشُورُ
وَأَنْتُمْ لَهَا رَاضُونَ لِلْعَالَمِينَ وَالْمُكَذِّبِينَ وَالَّذِينَ اشْتَدُّ
﴿١٠﴾ وَإِذْ قَالَ إِلَهُكُمْ رَبَّنَا اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آيَةً وَارْزُقْ أَهْلَهُ
مِنَ الشَّجَرِ مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ وَالْقَوْمَ الْآخِرَ أَقْبَرُ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ
فَأَتَيْنَهُمْ فَلَا كَمَالَ لَهُمْ وَالْأَعْدَاءُ لِلَّذِينَ يَفْسِدُ الْعُورُ ﴿١١﴾

﴿الحق من ربك﴾ أي: هذا الحق الذي هو أحق أن يسمى حقاً من كل شيء، لما اشتمل عليه من المطالب العالية والأوامر الحسنة، وتزكية النفوس وحثها على تحصيل مصالحها ودفع مفاسدها، لصدوره من ربك، الذي من جملة تربيته لك أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية العقول والنفوس، وجميع المصالح.

﴿فلا تكونن من الممتريين﴾ أي: فلا يحصل لك أدنى شك وريبة فيه، بل تفكر فيه وتأمل حتى تصل بذلك إلى اليقين، لأن التفكير فيه لا محالة دافع للشك، موصل لليقين.

﴿١٤٨﴾ ﴿ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت

﴿١٤٨﴾ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيهَا
فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ



بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير. أي: كل أهل دين وملة له وجهه يتوجه إليها في عبادته، وليس الشأن في استقبال القبلة، فإنه من الشرائع التي تتغير بها الأزمنة والأحوال، ويدخلها النسخ والنقل من جهة إلى جهة، ولكن الشأن كل الشأن في امتثال طاعة الله والتقرب إليه، وطلب الزلفى عنده، فهذا هو عنوان السعادة ومنشور الولاية، وهو الذي إذا لم تتصف به النفوس، حصلت لها خسارة الدنيا والآخرة، كما أنها إذا اتصفت به فهي الراححة على الحقيقة، وهذا أمر متفق عليه في جميع الشرائع، وهو الذي خلق الله له الخلق وأمرهم به.

والأمر بالاستباق إلى الخيرات قدر زائد على الأمر بفعل الخيرات، فإن الاستباق إليها يتضمن فعلها وتكميلها، وإيقاعها على أكمل الأحوال، والمبادرة إليها، ومن سبق في الدنيا إلى الخيرات، فهو السابق في الآخرة إلى الجنات، فالسابقون أعلى الخلق درجة، والخيرات تشمل جميع الغرائض والنوافل، من صلاة وصيام وزكوات^(١) وحج وعمرة وجهاد، ونفع متعد وقاصر.

ولما كان أقوى ما يحث النفوس على

المسارعة إلى الخير وينشطها، ما رتب الله عليها من الثواب، قال: «أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً إن الله على كل شيء قدير» فيجمعكم ليوم القيامة بقدرته، فيجازي كل عامل بعمله «ليجزى الذين أسأوا بما عملوا، ويجزى الذين أحسنوا بالحسن».

ويستدل بهذه الآية الشريفة على الإتيان بكل فضيلة يتصف بها العمل، كالصلاة في أول وقتها، والمبادرة إلى إبراء الذمة من الصيام والحج، والعمرة، وإخراج الزكاة، والإتيان بسنن العبادات وآدابها، فله ما أجمعها وأنفعها من آية!!

﴿١٤٩ - ١٥٠﴾ «ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون * ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم فلا تحشوهم واخشوني ولا تمشي عليكم ولعلكم تهتدون» أي: «ومن حيث خرجت» في أسفارك وغيرها، وهذا للعموم «فول وجهك شطر المسجد الحرام» أي: جهته.

ثم خاطب الأمة عموماً، فقال: «وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره» وقال: «وإنه للحق من ربك» أكده بـ «إن» واللام، لئلا يقع لأحد فيه أدنى شبهة، ولئلا يظن أنه على سبيل الشهي لا الامتثال.

«وما الله بغافل عما تعملون» بل هو مطلع عليكم في جميع أحوالكم، فتأدبوا معه، وراقبوه بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن أعمالكم غير مغفول عنها، بل مجازون عليها أتم الجزاء، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وقال هنا: «لئلا يكون للناس عليكم حجة» أي: شرعنا لكم استقبال الكعبة المشرفة، لينقطع عنكم

احتجاج الناس من أهل الكتاب والمشركون، فإنه لو بقي مستقبلاً بيت المقدس لتوجهت عليه الحجة، فإن أهل الكتاب يجدون في كتابهم أن قبلته المستقرة هي الكعبة البنية الحرام، والمشركون يرون أن من مفاخرهم هذا البيت العظيم وأنه من ملة إبراهيم وأنه إذا لم يستقبله محمد ﷺ، توجهت نحوه حججهم، وقالوا: كيف يدعي أنه على ملة إبراهيم، وهو من ذريته، وقد ترك استقبال قبلته؟

فباستقبال الكعبة^(٢) قامت الحجة على أهل الكتاب والمشركون، وانقطعت حججهم عليه.

إلا من ظلم منهم، أي: من احتج منهم بحجة هو ظالم فيها، وليس لها مستند إلا اتباع الهوى والظلم، فهذا لا سبيل إلى إقناعه والاحتجاج عليه، وكذلك لا معنى لجعل الشبهة التي يوردونها على سبيل الاحتجاج محلاً يؤبه لها، ولا يلقي لها بال، فلهاذا قال تعالى: «فلا تحشوهم» لأن حججهم باطلة، والباطل كاسمه مخذول، مخذول صاحبه، وهذا بخلاف صاحب الحق، فإن للحق صولة وعزاً، يوجب خشية من هو معه، وأمر تعالى بخشيته التي هي أصل^(٣) كل خير، فمن لم يخش الله لم يتفك عن معصيته، ولم يمثل أمره.

وكان صرف المسلمين إلى الكعبة مما حصلت فيها فتنة كبيرة، أشاعها أهل الكتاب والمنافقون والمشركون، وأكثرها فيها من الكلام والشبه، فلهاذا بسطها الله تعالى وبينها أكمل بيان، وأكدها بأنواع من التأكيدات التي تضمنتها هذه الآيات.

منها: الأمر بها ثلاث مرات مع كفاية المرة الواحدة، ومنها: أن المعهود، أن الأمر إما أن يكون للرسول، فتدخل فيه الأمة تبعاً، أو للأمة عموماً، وفي هذه الآية أمر فيها الرسول بالخصوص في قوله: «فول وجهك» والأمة عموماً في قوله: «فولوا وجوهكم»

ومنها: أنه رد فيه جميع الاحتجاجات الباطلة التي أوردها أهل العناد، وأبطلها شبهة شبهة كما تقدم توضيحها، ومنها: أنه قطع الأطماع من اتباع الرسول قبلة أهل الكتاب، ومنها قوله: ﴿وإنه للحق من ربك﴾ فمجرد إخبار الصادق العظيم كاف شاف، ولكن مع هذا قال: ﴿وإنه للحق من ربك﴾.

ومنها: أنه أخبر - وهو العالم بالخفيات - أن أهل الكتاب متقرر عندهم صحة هذا الأمر، ولكنهم يكتُمون هذه الشهادة مع العلم.

ولما كان توليته لنا إلى استقبال القبلة نعمة عظيمة، وكان لطفه بهذه الأمة ورحمته لم يزل يتزايد، وكلما شرع لهم شريعة فهي نعمة عظيمة، قال: ﴿ولأنتم نعمتي عليكم﴾.

فأصل النعمة الهداية لدينه، بإرسال رسوله وإنزال كتابه، ثم بعد ذلك، النعم المتممات لهذا الأصل، لا تعد كثرة ولا تحصر، منذ بعث الله رسوله إلى أن قرب رحيله من الدنيا، وقد أعطاه الله من الأحوال والنعم، وأعطى أمته، ما أتم به نعمته عليه وعليهم، وأنزل الله عليه: ﴿اليوم أكملت لكم دينكم، وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾.

فلله الحمد على فضله، الذي لا نبلي له عدداً، فضلاً عن القيام بشكره، ﴿ولعلكم تهتدون﴾ أي: تعلمون الحق وتعملون به، فالحمد تبارك وتعالى - من رحمته - بالعباد، قد يسر لهم أسباب الهداية غاية التيسير، ونبههم على سلوك طرقها، وبينها لهم أتم تبين حتى إن من جملة ذلك أنه يقيض للحق المعاندين له فيجادلون فيه، فيتضح بذلك الحق، وتظهر آياته وأعلامه، ويتضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحق، لربما لم يتبين حاله لأكثر الخلق، وبضدها تبين الأشياء، فلولا الليل ما عرف فضل النهار، ولولا القبيح ما عرف فضل الحسن، ولولا الظلمة ما عرف منفعة النور، ولولا الباطل ما

اتضح الحق اتضاحاً ظاهراً، فلله الحمد على ذلك.

﴿١٥١ - ١٥٢﴾ ﴿كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ * فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ يقول تعالى: إن إنعامنا عليكم باستقبال الكعبة وإتمامها بالشرائع والنعم المتممة، ليس ذلك بدع من إحساننا، ولا بأوله، بل أنعمنا عليكم بأصول النعم ومتمماتها، فأبلغها إرسالنا إليكم هذا الرسول الكريم منكم، تعرفون نسبه وصدقه وأمانته وكماله ونصحه.

﴿يتلو عليكم آياتنا﴾ وهذا يعم الآيات القرآنية وغيرها، فهو يتلو عليكم الآيات المبينة للحق من الباطل، والهدى من الضلال، التي دلتكم أولاً على توحيد الله وكماله، ثم على صدق رسوله ووجوب الإيمان به، ثم على جميع ما أخبر به من المعاد والغيوب، حتى حصل لكم الهداية التامة والعلم اليقيني.

﴿ويزكيكم﴾ أي: يطهر أخلاقكم ونفوسكم، بتربيتها على الأخلاق الجميلة، وتنزيهاها عن الأخلاق الرذيلة، وذلك كتزكيتهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الخيانة إلى الأمانة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن التباغض والتهاجر والتقاطع إلى التحاب والتواصل والتوادد، وغير ذلك من أنواع التزكية.

﴿ويعلمكم الكتاب﴾ أي: القرآن، ألفاظه ومعانيه، ﴿والحكمة﴾ قيل: هي السنة، وقيل: الحكمة: معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وتنزيل الأمور منازلها.

فيكون - على هذا - تعليم السنة داخلياً في تعليم الكتاب، لأن السنة تبين القرآن وتفسره، وتعتبر عنه، ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ لأنهم كانوا قبل بعثته في ضلال مبين،

لا علم ولا عمل، فكل علم أو عمل نالته هذه الأمة فعل يده ﷺ وبسببه كان، فهذه النعم هي أصول النعم على الإطلاق، ولهي أكبر نعم ينعم بها على عباده، فوظيفتهم شكر الله عليها والقيام بها، فلهذا قال تعالى: ﴿فاذكروني أذكركم﴾ فأمر تعالى بذكره، ووعد عليه أفضل جزاء، وهو ذكره لمن ذكره، كما قال تعالى على لسان رسوله: «من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم».

وذكر الله تعالى أفضل ما توطأ عليه القلب واللسان، وهو الذكر الذي يثمر معرفة الله ومحبته وكثرة ثوابه، والذكر هو رأس الشكر، فلهذا أمر به خصوصاً، ثم من بعده أمر بالشكر عموماً، فقال: ﴿واشكروا لي﴾ أي: على ما أنعمت عليكم بهذه النعم، ودفعت عنكم صنوف النقم، والشكر يكون بالقلب إقراراً بالنعم واعتراضاً، وباللسان ذكراً وثناءً، وبالجوارح طاعة لله وانقياداً لأمره واجتناباً لنهيهِ، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة، قال تعالى: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ وفي الإتيان بالأمر بالشكر، بعد النعم الدينية، من العلم وتزكية الأخلاق والتوفيق للأعمال، بيان أنها أكبر النعم، بل هي النعم الحقيقية التي تدوم إذا زال غيرها، وأنه ينبغي لمن وفقوا لعلم أو عمل، أن يشكروا الله على ذلك، ليزيدهم من فضله، وليندفع عنهم الإعجاب، فيشتغلوا بالشكر.

ولما كان الشكر ضده الكفر، نهى عن ضده، فقال: ﴿ولا تكفرون﴾ المراد بالكفر هاهنا ما يقابل الشكر، فهو كفر النعم وجحدها وعدم القيام بها، ويحتمل أن يكون المعنى عاماً، فيكون الكفر أنواعاً كثيرة، أعظمه الكفر بالله، ثم أنواع المعاصي على اختلاف أنواعها وأجناسها من الشرك فما دونه.

﴿١٥٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع

يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين.

فهل أعظم من هذه الحياة المتضمنة للقرب من الله تعالى، وتمتعهم برزقه البدني من المأكولات والمشروبات اللذيذة، والرزق الروحي، وهو الفرح والاستبشار^(٣)، وزوال كل خوف وحزن، وهذه حياة برزخية أكمل من الحياة الدنيا، بل قد أخبر النبي ﷺ أن أرواح الشهداء في أجواف طيور خضر ترد أنهار الجنة، وتأكُل من ثمارها، وتأتي إلى قناديل معلقة بالعرش. وفي هذه الآية أعظم حث على الجهاد في سبيل الله وملازمة الصبر عليه، فلو شعر العباد بما للمقتولين في سبيل الله من الثواب لم يتخلف عنه أحد، ولكن عدم العلم اليقيني التام هو الذي فتر العزائم، وزاد نوم النائم، وأفات الأجور العظيمة والغنائم، لا يكون كذلك والله تعالى قد: «اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون».

فوالله لو كان للإنسان ألف نفس تذهب نفساً فنفساً في سبيل الله، لم يكن عظيماً في جانب هذا الأجر العظيم، ولهذا لا يتمنى الشهداء بعدما عاينوا من ثواب الله وحسن جزائه إلا أن يردوا إلى الدنيا حتى يقتلوا في سبيله مرة بعد مرة.

وفي الآية دليل على نعيم البرزخ وعذابه، كما تكاثرت بذلك النصوص.

﴿١٥٥ - ١٥٧﴾ «ولنبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والشمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون * أولئك

في قوله تعالى: ﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ وهذه عامة للخلق.

وأمر تعالى بالاستعانة بالصلاة لأن الصلاة هي عماد الدين ونور المؤمنين، وهي الصلة بين العبد وبين ربه، فإذا كانت صلاة العبد صلاة كاملة، مجتمعاً فيها ما يلزم فيها وما يسن، وحصل فيها حضور القلب الذي هو لبها، فصار العبد إذا دخل فيها استشعر دخوله على ربه، ووقوفه بين يديه موقف العبد الخادم التأدب، مستحضراً لكل ما يقوله وما يفعله، مستغرقاً بمناجاة ربه ودعائه لا جرم أن هذه الصلاة، من أكبر المعونة على جميع الأمور، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، ولأن هذا الحضور الذي يكون في الصلاة، يوجب للعبد في قلبه صفاءً وداعياً يدعو إلى امتثال أوامر ربه واجتناب نواهيه، هذه هي الصلاة التي أمر الله أن نستعين بها على كل شيء.

﴿١٥٤﴾ «ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون» لما ذكر تبارك وتعالى الأمر بالاستعانة بالصبر على جميع الأمور^(٢)، ذكر نموذجاً مما يستعان بالصبر عليه، وهو الجهاد في سبيله، وهو أفضل الطاعات البدنية وأشقها على النفوس لمشقتها في نفسه، ولكونه مؤدياً للقتل وعدم الحياة، التي إنما يرغب الراغبون في هذه الدنيا لحصول الحياة ولوازمها، فكل ما يتصرفون به فإنه سعي لها، ودفع لما يضاهاها.

ومن المعلوم أن المحبوب لا يتركه العاقل إلا لمحبوب أعلى منه وأعظم، فأخبر تعالى: أن من قتل في سبيله، بأن قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، ودينه الظاهر، لا لغير ذلك من الأغراض، فإنه لم تفت الحياة المحبوبة، بل حصل له حياة أعظم وأكمل مما تظنون وتحسبون.

فالشهداء «أحياء عند ربهم

الصابرين» أمر الله تعالى المؤمنين بالاستعانة على أمورهم الدينية والدنيوية «بالصبر والصلاة» فالصبر هو: حبس النفس وكفها على ما تكره، فهو ثلاثة أقسام: صبرها على طاعة الله حتى توديها، وعن معصية الله حتى تتركها، وعلى أقدار الله المؤلمة فلا تتسخطها، فالصبر هو المعونة العظيمة على كل أمر، فلا سبيل لغير الصابر أن يدرك مطلوبه، خصوصاً الطاعات الشاقة المستمرة، فإنها مفتقرة أشد الافتقار إلى تحمل الصبر، وتجزع المرارة الشاقة، فإذا لازم صاحبها الصبر فاز بالنجاح، وإن رده المكروه والمشقة عن الصبر والملازمة عليها، لم يدرك شيئاً وحصل على الحرمان، وكذلك المعصية التي تشتد دواعي النفس ونوازعها إليها وهي في محل قدرة العبد، فهذه لا يمكن تركها إلا بصبر عظيم وكف لدواعي قلبه ونوازعها لله تعالى، واستعانة بالله على العصمة منها، فإنها من الفتن الكبار. وكذلك البلاء الشاق خصوصاً إن استمر، فهذا تضعف معه القوى النفسانية والجسدية، ويوجد مفتضاها وهو التسخط، إن لم يقاومها صاحبها بالصبر لله والتوكل عليه، واللجأ إليه والافتقار على الدوام.

فعلمت أن الصبر محتاج إليه العبد، بل مضطر في كل حالة من أحواله، فلهذا أمر الله تعالى به، وأخبر أنه «مع الصابرين» أي: مع من كان الصبر لهم خلقاً وصفة، وملكة بمعونته وتوفيقه وتسديده، فهانت عليهم بذلك المشاق والمكاره، وسهل عليهم كل عظيم، وزالت عنهم كل صعوبة، وهذه معية خاصة تقتضي محبته ومعونته ونصره وقربه، وهذه «منقبة عظيمة»^(١) للصابرين، فلو لم يكن للصابرين فضيلة إلا أنهم فازوا بهذه المعية من الله لكفى بها فضلاً وشرافاً، وأما المعية العامة فهي معية العلم والقدرة، كما

(٣) في ب: وهو الاستبشار.

(٤) في ب: طير.

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: الأحوال.

من الله والعقوبة والفضلال والخسار، فما أعظم الفرق بين الفريقين وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين، فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها، لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر بضد حال الصابر.

وأن هذا الابتلاء والامتحان سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، وبيان أنواع المصائب.

﴿١٥٨﴾ «إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكراً عليم» يخبر تعالى أن الصفا والمروة وهما معروفان «من شعائر الله» أي: أعلام دينه الظاهرة، التي تعبد الله بها عباده، وإذا كانا من شعائر الله، فقد أمر الله بتعظيم شعائره فقال: «ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب» فدل مجموع النصين أنهما من شعائر الله، وأن تعظيم شعائره من تقوى القلوب.

والتقوى واجبة على كل مكلف، وذلك يدل على أن السعي بهما فرض لازم للحج والعمرة كما عليه الجمهور، ودلت عليه الأحاديث النبوية وفعله النبي ﷺ، وقال: «خذوا عني مناسككم».

«فمن حج البيت أو اعتمر، فلا جناح عليه أن يطوف بهما» هذا دفع لوهم من توهم وتخرج من المسلمين عن الطواف بينهما، لكونهما في الجاهلية تعبد عندهما الأصنام، فنفي تعالى الجناح لدفع هذا الوهم، لا لأنه غير لازم.

ودل تقيد نفي الجناح فيمن تطوف بهما في الحج والعمرة، أنه لا يتطوع بالسعي مقروداً إلا مع انضمامه لحج أو

التسخط قولاً وفعلًا، واحتسب أجرهما عند الله، وعلم أن ما يدركه من الأجر بصيره أعظم من المصيبة التي حصلت له، بل المصيبة تكون نعمة في حقه، لأنها صارت طريقاً لحصول ما هو خير له وأنفع منها، فقد امثل أمر الله وفاز بالشواب، فلهذا قال تعالى: «وبشّر الصابرين» أي: بشّرهم بأنهم يوفون أجرهم بغير حساب، فالصابرون هم الذين فازوا بالبشارة العظيمة والمنحة الجسيمة، ثم وصفهم بقوله: «الذين إذا أصابهم مصيبة» وهي كل ما يؤلم القلب أو البدن أو كليهما عما تقدم ذكره.

«قالوا إنا لله» أي: مملوكون لله، مدبرون تحت أمره وتصريفه، فليس لنا من أنفسنا وأموالنا شيء، فإذا ابتلانا بشيء منها فقد تصرف أرحم الراحمين بمماليكه وأموالهم، فلا اعتراض عليه، بل من كمال عبودية العبد علمه بأن وقوع البلية من المالك الحكيم الذي أرحم عبده من نفسه، فيوجب له ذلك الرضا عن الله، والشكر له على تدبيره، لما هو خير لعبده وإن لم يشعر بذلك، ومع أننا مملوكون لله، فإننا إليه راجعون يوم المعداد، فمجاز كل عامل بعمله، فإن صبرنا واحتسبنا وجدنا أجرنا موفراً عنده، وإن جزعنا وسخطنا لم يكن حظنا إلا السخط وفوات الأجر، فكون العبد لله وراجع إليه من أقوى أسباب الصبر.

«أولئك» الموصوفون بالصبر المذكور «عليهم صلوات من ربهم» أي: ثناء وتنويه بحالهم «ورحمة» عظيمة، ومن رحمته إياهم أن وفقهم للصبر الذي ينالون به كمال الأجر، «وأولئك هم المتهتدون» الذين عرفوا الحق، وهو في هذا الموضع علمهم بأنهم لله وأنهم إليه راجعون، وعملوا به وهو هنا صبرهم لله.

ودلت هذه الآية على أن من لم يصبر فله ضد ما لهم، فحصل له الذم

عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المتهتدون» أخبر تعالى أنه لا بد أن يبطل عبادته بالحن، ليتبين الصادق من الكاذب، والجازع من الصابر، وهذه سنته تعالى في عبادته؛ لأن السراء لو استمرت لأهل الإيمان ولم يحصل معها عنة لحصل الاختلاط الذي هو فساد، وحكمة الله تقتضي تمييز أهل الخير من أهل الشر. هذه فائدة المحن، لا إزالة ما مع المؤمنين من الإيمان، ولا ردهم عن دينهم، فما كان الله ليضيع إيمان المؤمنين، فأخبر في هذه الآية أنه سيبتلي عبادته «بشيء من الخوف» من الأعداء «والجوع» أي: بشيء يسير منهما؛ لأنه لو ابتلاهم بالخوف كله أو الجوع لهلكوا، والمحن تمحص لا تهلك.

«ونقص من الأموال» وهذا يشمل جميع النقص المعتري للأموال من جوائح سماوية، وغرق وضياع، وأخذ الظلمة للأموال، من الملوك الظلمة وقطاع الطريق، وغير ذلك.

«والأنفس» أي: ذهاب الأحباب من الأولاد والأقارب والأصحاب، ومن أنواع الأمراض في بدن العبد، أو بدن من يحبه، «والشمرات» أي: الحبوب، وثمار النخيل، والأشجار كلها، والخضر؛ ببرد أو بتر، أو حرق، أو آفة سماوية من جراد^(١) ونحوه.

فهذه الأمور لا بد أن تقع، لأن العليم الخبير أخبر بها، فوقعت كما أخبر، فإذا وقعت انقسم الناس قسمين: جازعين وصابرين، فالجازع حصلت له المصيبة، فوات المحبوب وهو وجود هذه المصيبة، وفوات ما هو أعظم منها، وهو الأجر بامثال أمر الله بالصبر، ففاز بالخسارة والحرمان، ونقص ما معه من الإيمان، وفاته الصبر والرضا والشكران، وحصل له [السخط الدال على شدة نقصان.

وأما من وفقه الله للصبر عند وجود هذه المصائب، فحبس نفسه عن

(١) كذا في ب، معدلة في الهامش وفي

مشاق لله، يبين الله الآيات للناس ويوضحها وهذا يطمسها ويعميها^(١)، فهذا عليه هذا الوعيد الشديد.

﴿إلا الذين تابوا﴾ أي: رجعوا عما هم عليه من الذنوب ندماً وإقلاعاً، وعزماً على عدم المعاودة، ﴿وأصلحوا﴾ ما فسد من أعمالهم، فلا يكفي ترك القبيح حتى يحصل فعل الحسن.

ولا يكفي ذلك في الكاتم أيضاً، حتى يبين ما كتمه، ويبيد ضد ما أخفى، فهذا يتوب الله عليه، لأن توبة الله غير محبوب عنها، فمن أتى بسبب التوبة تاب الله عليه، لأنه ﴿التواب﴾ أي: الرجاء على عباده بالعفو والصفح بعد الذنب إذا تابوا، وبالإحسان والنعم بعد المنع إذا رجعوا، ﴿الرحيم﴾ الذي اتصف بالرحمة العظيمة التي وسعت كل شيء، ومن رحمته أن وفقهم للتوبة والإنابة فتابوا وأتابوا، ثم رحمهم بأن قبل ذلك منهم لطفاً وكرماً، هذا حكم الثابت من الذنب.

وأما من كفر واستمر على كفره حتى مات ولم يرجع إلى ربه، ولم ينب إليه ولم يتب عن قريب، فأولئك ﴿عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ لأنه لما صار كفرهم وصفاً ثابتاً، صارت اللعنة عليهم وصفاً ثابتاً لا تزول، لأن الحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً، ﴿خالدين فيها﴾ أي: في اللعنة أو في العذاب والمعتان^(٢) متلازمان.

﴿لا يخفف عنهم العذاب﴾ بل عذابهم دائم شديد مستمر، ﴿ولا هم ينظرون﴾ أي: يمهلون، لأن وقت الإهمال وهو الدنيا قد مضى، ولم يبق لهم عثر فيعتدرون.

﴿١٦٣﴾ ﴿والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾ يخبر تعالى - وهو أصدق القائلين - أنه ﴿إله واحد﴾ أي: متوحد منفرد في ذاته، وأسمائه وصفاته وأفعاله، فليس له

ومع أنه شاكر فهو عليم بمن يستحق الثواب الكامل، بحسب نيته وإيمانه وتقواه، من ليس كذلك، عليم بأعمال العباد فلا يضيعها، بل يجدونها أوفر ما كانت، على حسب نياتهم التي اطلع عليها العليم الحكيم.

﴿١٥٩ - ١٦٢﴾ ﴿إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون﴾ * إلا الذين تابوا وأصلحوا ويتنوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم * إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون﴾ هذه الآية وإن كانت نازلة في أهل الكتاب، وما كتُموا من شأن الرسول ﷺ وصفاته، فإن حكمها عام لكل من اتصف بكتمان ما أنزل الله ﴿من البينات﴾ الدالات على الحق المظهرات له، ﴿والهدى﴾ وهو العلم الذي تحصل به الهداية إلى الصراط المستقيم، ويتبين به طريق أهل النعيم من طريق أهل الجحيم، فإن الله أخذ الميثاق على أهل العلم بأن يبينوا للناس ما من الله به عليهم من علم الكتاب ولا يكتُمونه، فمن نبذ ذلك وجمع بين المفسدين: كتم ما أنزل الله، والغش لعباد الله، فأولئك ﴿يلعنهم الله﴾ أي: يبعدهم ويطردهم عن قربه ورحمته.

﴿ويلعنهم اللاعنون﴾ وهم جميع الخليقة، فتقع عليهم اللعنة من جميع الخليقة، لسعيهم في غش الخلق وفساد أديانهم، وإبعادهم من رحمة الله، فجوزوا من جنس عملهم، كما أن معلم الناس الخير يصلي الله عليه وملائكته، حتى الحوت في جوف الماء، لسعيه في مصلحة الخلق وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجوزي من جنس عمله، فالكاتم لما أنزله الله، مضاد لأمر الله

عمره، بخلاف الطواف بالبيت فإنه يشرع مع العمرة والحج، وهو عبادة مفردة.

فأما السعي والوقوف بعرفة ومزدلفة ورمي الجمار، فإنها تتبع النسك، فلو فعلت غير تابعة للنسك كانت بدعة، لأن البدعة نوعان: نوع يتعبد لله بعبادة لم يشرعها أصلاً، ونوع يتعبد له بعبادة قد شرعها على صفة مخصوصة، فتفعل على غير تلك الصفة وهذا منه.

وقوله: ﴿ومن تطوع﴾ أي: فعل طاعة مخلصاً بها الله تعالى ﴿خيراً﴾ من حج، وعمرة، وطواف، وصلاة، وصوم وغير ذلك ﴿فهو خير له﴾ فدل هذا على أنه كلما ازداد العبد من طاعة الله، ازداد خيره وكماله ودرجته عند الله، لزيادة إيمانه.

ودل تقييد التطوع بالخير، أن من تطوع بالبدع التي لم يشرعها الله ولا رسوله، أنه لا يحصل له إلا العناء، وليس بخير له، بل قد يكون شرأ له إن كان متعمداً عالماً بعدم مشروعية العمل.

﴿فإن الله شاكر عليم﴾ الشاكر والشكور من أسماء الله تعالى، الذي يقبل من عباده اليسير من العمل، ويمأزيم عليه العظيم من الأجر، الذي إذا قام عبده بأوامره وامتنل طاعته، أعانه على ذلك، وأثنى عليه ومدحه، وجازاه في قلبه نوراً وإيماناً وسعة، وفي بدنه قوة ونشاطاً، وفي جميع أحواله زيادة بركة ونماء، وفي أعماله زيادة توفيق.

ثم بعد ذلك يقدم على الثواب الآجل عند ربه كاملاً موفراً، لم تنقصه هذه الأمور.

ومن شكره لعبده، أن من ترك شيئاً لله أعاضه خيراً منه، ومن تقرب منه شبراً تقرب منه ذراعاً، ومن تقرب منه ذراعاً تقرب منه باعاً، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة، ومن عامله ربح عليه أضعافاً مضاعفة.

(٢) في ب: وهما متلازمان.

(١) في ب. وهذا يسعى في طمسها وإخفائها.

شريك في ذاته، ولا سمي له ولا كفو، ولا مثل ولا نظير، ولا خالق ولا مدبر غيره، فإذا كان كذلك فهو المستحق لأن يؤله ويعبد بجميع أنواع العبادة، ولا يشرك به أحد من خلقه، لأنه الرّحمن الرحيم المتصف بالرحمة العظيمة التي لا يمانلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء، وعمت كل حي، فبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته حصلت لها أنواع الكمالات، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة، وبرحمته عزف عباده نفسه بصفاته وآلئه، وبين لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب.

فإذا علم أن ما بالعباد من نعمة فمن الله، وأن أحداً من المخلوقين لا ينفع أحداً، علم أن الله هو المستحق لجميع أنواع العبادة، وأن يفرد بالمحبة والخوف والرجاء والتعظيم والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاعات.

وأن من أظلم الظلم وأقبح القبيح، أن يعدل عن عبادته إلى عبادة العبيد، وأن يشرك المخلوق^(١) من تراب برب الأرباب، أو يعبد المخلوق المدبر العاجز من جميع الوجوه مع الخالق المدبر القادر القوي، الذي قد قهر كل شيء ودان له كل شيء.

ففي هذه الآية إثبات وحدانية الباري والهيته، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين، وبين أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم، واندفاع [جميع] النقم، فهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى.

﴿١٦٤﴾ ثم ذكر الأدلة التفصيلية فقال: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب

المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون﴾.

أخبر تعالى أن في هذه المخلوقات العظيمة آيات، أي: أدلة على وحدانية الباري والهيته، وعظيم سلطانه ورحمته، وسائر صفاته، ولكنها لقوم يعقلون: أي: لمن لهم عقول يعملونها فيما خلقت له، فعل حسب ما من الله على عبده من العقل، ينتفع بالآيات ويعرفها بعقله وفكره وتدبره، ففي خلق السموات في ارتفاعها واتساعها، وإحكامها وإتقانها، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر والنجوم، وتنظيمها لمصالح العباد.

وفي خلق الأرض مهاداً للخلق يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها، والاعتبار. ما يدل ذلك على انفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، وبين قدرته العظيمة التي بها خلقها، وحكمته التي بها أنقنها وأحسنها ونظمها، وعلمه ورحمته التي بها أودع ما أودع، من منافع الخلق ومصالحهم، وضروراتهم وحاجاتهم. وفي ذلك أبلغ الدليل على كماله واستحقاقه أن يفرد بالعبادة، لانفراده بالخلق والتدبير، والقيام بشؤون عباده، ﴿و﴾ في اختلاف الليل والنهار وهو تعاقبهما على الدوام، إذا ذهب أحدهما خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر والبرد والتوسط، وفي الطول والقصر والتوسط، وما ينشأ عن ذلك من الفصول التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض من أشجار ونوابت. كل ذلك بانتظام وتدبير، وتسخير تنبهر له العقول، وتعجز عن إدراكه من الرجال الفحول، ما يدل ذلك على قدرة مصرفها وعلمه وحكمته ورحمته الواسعة ولطفه الشامل، وتصريفه وتدبيره الذي تفرد به، وعظمته وعظمة ملكه وسلطانه، مما يوجب أن يؤله ويُعبد، ويفرد بالمحبة والتعظيم،

والخوف والرجاء، وبذل الجهد في محابه ومراضيه.

﴿و﴾ في الفلك التي تجري في البحر، وهي السفن والمراكب ونحوها، مما ألهم الله عباده صنعتها، وخلق لهم من الآلات الداخلية والخارجية ما أقدرهم عليها.

ثم سخر لها هذا البحر العظيم، والرياح التي تحملها بما فيها من الركاب والأموال، والبضائع التي هي من منافع الناس، وبما تقوم مصالحهم وتنظم معاشهم.

فمن الذي ألهمهم صنعتها وأقدرهم عليها، وخلق لهم من الآلات ما به يعملونها؟ أم من الذي سخر لها البحر تجري فيه بأذنه وتسخيره والرياح؟ أم من الذي خلق للمراكب البرية والبحرية النار والمعادن المعينة على حملها وحمل ما فيها من الأموال؟ فهل هذه الأمور حصلت اتفاقاً، أم استقل بعملها هذا المخلوق الضعيف العاجز، الذي خرج من بطن أمه لا علم له ولا قدرة، ثم خلق له ربه القدرة وعلمه ما يشاء تعليمه، أم المسخر لذلك رب واحد حكيم عليم، لا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه شيء؟ بل الأشياء قد دانت لربوبيته، واستكانت لعظمته،

هذه المخلوقات، وتخلخل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة، علم بذلك أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات وكتب دلالات، على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبر به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها.

فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.

﴿١٦٥ - ١٦٧﴾ ثم قال تعالى: ﴿ومن الناس من يتخذ من دونه أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب * إذ تبرزوا الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرزوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾.

ما أحسن اتصال هذه الآية بما قبلها، فإنه تعالى لما بين وحدانيته وأدلتها القاطعة، وبراهينها الساطعة الموصلة إلى علم اليقين، المزيلة لكل شك، ذكر هنا أن ﴿من الناس﴾ مع هذا البيان التام من يتخذ من المخلوقين أنداداً لله، أي: نظراء ومثلاء، يساووهم في الله بالعبادة والمحبة، والتعظيم والطاعة.

ومن كان بهذه الحالة - بعد إقامة الحجة، وبيان التوحيد - علم أنه معاند لله مشاق له، أو معرض عن تدبر آياته، والتفكر في مخلوقاته، فليس له أدنى عذر في ذلك، بل قد حققت عليه كلمة العذاب.

وهؤلاء الذين يتخذون الأنداد

فمنها: ما يأكلون من لحمة، ويشربون من دمه، ومنها: ما يركبون، ومنها: ما هو ساع في مصالحهم وحراستهم، ومنها: ما يعتبر به، ومع^(١) أنه بث فيها من كل دابة، فإنه سبحانه هو القائم بأرزاقهم التكفل بأقواتهم، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها.

وفي ﴿تصريف الرياح﴾ باردة وحارة، وجنوباً وشمالاً، وشرقاً ودبوراً، وبين ذلك، وتارة تشير السحاب، وتارة تؤلف بينه، وتارة تلتحقه، وتارة تندره، وتارة تمزقه، وتزيل ضرره، وتارة تكون رحمة، وتارة ترسل بالعذاب.

فمن الذي صرفها هذا التصريف، وأودع فيها من منافع العباد ما لا يستغنون عنه؟ وسخرها ليعيش فيها جميع الحيوانات، وتصلح الأبدان والأشجار، والحبوب والنواب، إلا العزيز الحكيم الرحيم، اللطيف بعباده، المستحق لكل ذل وخضوع وعبادة وإناابة وعبادة؟

وفي تسخير السحاب بين السماء والأرض على خفته ولطافته يحمل الماء الكثير، فيسوقه الله إلى حيث شاء، فيحيي به البلاد والعباد، ويروي التلول والوهاد، وينزله على الخلق وقت حاجتهم إليه، فإذا كان يضرهم كثرته أمسكه عنهم، فينزله رحمة ولطفاً، ويصرفه عناية وعطفاً، فما أعظم سلطانه وأغزر إحسانه، والطف امتنانه!!

أليس من القبيح بالعباد أن يتمتعوا برزقه، ويعيشوا ببره، وهم يستعينون بذلك على مساخطه ومعاصيه؟ أليس ذلك دليلاً على حلمه وصبره وعفوه وصفحه، وعميم لطفه؟

فله الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

والحاصل أنه كلما تدبر العاقل في



وخضعت لجبروته.

وغاية العبد الضعيف، أن جعله الله جزءاً من أجزاء الأسباب، التي بها وجدت هذه الأمور العظام، فهذا يدل على رحمة الله وعنايته بخلقه، وذلك يوجب أن تكون المحبة كلها له، والخوف والرجاء، وجميع الطاعة، والذل والتعظيم.

﴿وما أنزل الله من السماء من ماء﴾ وهو المطر النازل من السحاب.

﴿فأحيا به الأرض بعد موتها﴾ فأظهرت من أنواع الأقوات وأصناف النبات، ما هو من ضرورات الخلائق التي لا يعيشون بدونها.

أليس ذلك دليلاً على قدرة من أنزله وأخرج به ما أخرج، ورحمته ولطفه بعباده، وقيامه بمصالحهم، وشدة افتقارهم وضرورتهم إليه من كل وجه؟ أما يوجب ذلك أن يكون هو معبودهم وإلههم؟ أليس ذلك دليلاً على إحياء الموتى ومجازاتهم بأعمالهم؟ ﴿وبث فيها﴾ أي: في الأرض ﴿من كل دابة﴾ أي: نشر في أقطار الأرض من الدواب المتنوعة، ما هو دليل على قدرته وعظمته، ووحدانيته وسلطانه العظيم، وسخرها للناس، ينتفعون بها بجميع وجوه الانتفاع.

يتمنونها، حقاً وغيظاً على المتبوعين لما تبرؤوا منهم والذنب ذنبهم، فرأس المتبوعين على الشر إبليس، ومع هذا يقول لأتباعه لما قُضي الأمر. ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعِدْكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعِدَتَكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تُلْوَ مُنِي وَلَوْ أَنِّي لَأَفْلَحْتُ﴾.

﴿١٦٨ - ١٧٠﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالاً طَيِّباً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَفْقَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ هذا خطاب للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض، من حبوب وثمار وفواكه وحيوانات، حالة كونها ﴿حلالاً﴾ أي: محرراً لكم تناوله، ليس بغصب ولا سرقة، ولا محصلاً بمعاملة محرمة أو على وجه محرم، أو معيناً على محرم.

﴿طيباً﴾ أي: ليس بخبيث كالميتة والدم ولحم الخنزير، والخبائث كلها، ففي هذه الآية دليل على أن الأصل في الأعيان الإباحة، أكلاً وانتفاعاً، وأن المحرم نوعان: إما محرم لذاته، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب، وإما محرم لما عرض له، وهو المحرم لتعلق حق الله، أو حق عباده به، وهو ضد الحلال.

وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب، يأثم تاركه لظاهر الأمر، ولما أمرهم باتباع ما أمرهم به - إذ هو عين صلاحهم - نهاهم عن اتباع ﴿خطوات الشيطان﴾ أي: طرقه التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي من كفر وفسق وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السوائب والحام، ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضاً تناول المأكولات المحرمة، ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ أي: ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم إلا غشكم،

ضعفها وعجزها، لا كما اشتبه عليهم في الدنيا وظنوا أن لها من الأمر شيئاً، وأنها تقرهم إليه وتوصلهم إليه، فخاب ظنهم وبطل سعيهم، وحق عليهم شدة العذاب، ولم تدفع عنهم أندادهم شيئاً، ولم تغن عنهم مثقال ذرة من النفع، بل يحصل لهم الضرر منها من حيث ظنوا نفعها.

وتبرأ المتبوعون من التابعين، وتقطعت بينهم الوُصل التي كانت في الدنيا، لأنها كانت لغير الله، وعلى غير أمر الله، ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له، فاضمحلت أعمالهم وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين، وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها انقلبت عليهم حسرة وتندامة، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبداً، فهل بعد هذا الخسران خسران؟ ذلك بأنهم اتبعوا الباطل، فعملوا العمل الباطل ورجوا غير مرجو، وتعلقوا بغير متعلق، فبطلت الأعمال ببطلان متعلقها، ولما بطلت وقعت الحسرة بما فاتهم من الأمل فيها، فضررتهم غاية الضرر، وهذا بخلاف من تعلق بالله الملك الحق المبين، وأخلص العمل لوجهه ورجا نفعه، فهذا قد وضع الحق في موضعه، فكانت أعماله حقاً لتعلقها بالحق، ففاز بنتيجة عمله، ووجد جزاءه عند ربّه غير منقطع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نَزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ بَانَ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾.

وحينئذ يتمنى التابعون أن يردوا إلى الدنيا فيتبرؤوا من متبوعيهم، بأن يتركوا الشرك بالله ويقبلوا على إخلاص العمل لله، وهيهات، فات الأمر، وليس الوقت وقت إسهال وإنظار، ومع هذا فهم كذبة، فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه وأما

مع الله، لا يسوونهم بالله في الخلق والرزق والتدبير، وإنما يسوونهم به في العبادة، فيعبدونهم ليقربوهم إليه، وفي قوله: ﴿اتَّخَذُوا﴾ دليل على أنه ليس لله ند وإنما المشركون جعلوا بعض المخلوقات أنداداً له، تسمية مجردة، ولفظاً فارغاً من المعنى، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا غَلِيظَةً لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمَّ يَبْظَاهِرُ مِنَ الْقَوْلِ﴾.

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ أَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ فالخلق ليس ندأ لله لأن الله هو الخالق وغيره مخلوق، والرب الرازق ومن عداه مرزوق، والله هو الغني وأنتم الفقراء، وهو الكامل من كل الوجوه، والعبيد ناقصون من جميع الوجوه، والله هو النافع الضار، والمخلوق ليس له من النفع والضرر والأمر شيء، فعلم علماً يقيناً بطلان قول من اتخذ من دون الله آلهة وأنداداً، سواء كان ملكاً أو نبياً أو صالحاً أو صتماً أو غير ذلك، وأن الله هو المستحق للمحبة الكاملة والذل التام، فلهذا مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ أي: من أهل الأنداد لأندادهم، لأنهم أخلصوا محبتهم له، وهؤلاء أشركوا بها، ولأنهم أحبوا من يستحق المحبة على الحقيقة، الذي محبته هي عين صلاح العبد وسعادته وفوزه، والمشركون أحبوا من لا يستحق من الحب شيئاً، ومحبتهم عين شقاء العبد وقباده، وتشتت أمره.

فلهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْتُمْ بَاتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ وَالْإِنْقِيَادَ لِغَيْرِ رَبِّ الْعِبَادِ وَظَلَمُوا الْخَلْقَ بِصُدْهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، وَسَعِيهِمْ فِيمَا يُضْرِبُهُمْ﴾.

﴿إِذْ يَرْوُونَ الْعَذَابَ﴾ أي: يوم القيامة عياناً بأبصارهم، ﴿أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ أي: لعلوا علماً جازماً أن القوة والقدرة لله كلها، وأن أندادهم ليس فيها من القوة شيء، فيتبين لهم في ذلك اليوم

وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتف ربنا بنهينا عن اتباع خطواته، حتى أخبرنا - وهو أصدق القائلين - بعداوتة الداعية للحذر منه، ثم لم يكتف بذلك، حتى أخبرنا بتفصيل ما يأمر به، وأنه أقبح الأشياء وأعظمها مفسدة، فقال: ﴿إنما يأمركم بالسوء﴾ أي: الشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك جميع المعاصي، فيكون قوله: ﴿والفحشاء﴾ من باب عطف الخاص على العام، لأن الفحشاء من المعاصي، ما تناهى قبحه، كالزنا وشرب الخمر، والقتل، والقذف، والبخل، ونحو ذلك مما يستفحشه من له عقل، ﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ فيدخل في ذلك القول على الله بلا علم، في شرعه وقدره، فمن وصف الله بغير ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو نفى عنه ما أثبت له نفسه، أو أثبت له ما نفاه عن نفسه، فقد قال على الله بلا علم، ومن زعم أن الله نداء، وأوثاناً تقرب من عبدها من الله، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله أحل كذا أو حرم كذا، أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بغير بصيرة، فقد قال على الله بلا علم، ومن قال: إن الله خلق هذا الصنف من المخلوقات للعلّة الفلانية بلا برهان له بذلك، فقد قال على الله بلا علم، ومن أعظم القول على الله بلا علم، أن يتأول المتأول كلامه أو كلام رسوله على معانٍ اصطلاح عليها طائفة من طوائف الضلال، ثم يقول: إن الله أرادها، فالقول على الله بلا علم من أكبر المحرمات وأشمّلها وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها، فهذه طرق الشيطان التي يدعو إليها هو وجنوده، ويبدلون مكرهم وخداعهم على إغواء الخلق بما يقدرون عليه.

وأما الله تعالى فإنه يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، فلينظر العبد نفسه مع أي: الداعين هو، ومن أي: الحزبين؟ أتتبع داعي الله الذي يريد لك الخير والسعادة الدنيوية

والآخورية، الذي كل الفلاح بطاعته، وكل الفوز في خدمته، وجميع الأرباح في معاملته المنعم بالنعم الظاهرة والباطنة، الذي لا يأمر إلا بالخير، ولا ينهى إلا عن الشر، أم تتبع داعي الشيطان الذي هو عدو الإنسان، الذي يريد لك الشر، ويسعى بجهد على إهلاكك في الدنيا والآخرة؟ الذي كل الشر في طاعته، وكل الخسران في ولايته، الذي لا يأمر إلا بشر، ولا ينهى إلا عن خير. ثم أخبر تعالى عن حال المشركين؛ إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله - مما تقدم وصفه - رغبوا عن ذلك، وقالوا: ﴿بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا﴾ فاكثفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا قايأهم أجهل الناس وأشدّهم ضللاً، وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدهم وحسن قصدهم، لكان الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعاً، واتبعه إن كان منصفاً.

ثم قال [تعالى]: ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾.

لما بين تعالى عدم انقيادهم لما جاء به الرسل، وردهم لذلك بالتقليد، علم من ذلك أنهم غير قابلين للحق ولا مستجيبين له، بل كان معلوماً لكل أحد أنهم لن يزولوا عن عنادهم، أخبر تعالى أن مثلهم عند دعاء الداعي لهم إلى الإيمان كمثل البهائم التي ينعق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول داعيها ومنادياها، فهم يسمعون مجرد الصوت الذي تقوم به عليهم الحجة، ولكنهم لا يفقهونه فقهاً ينفهم، فلماذا كانوا صمّاً لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عمياً لا ينظرون نظر اعتبار، بكماً فلا ينطقون بما فيه خير لهم.

والسبب الموجب لذلك كله أنه ليس لهم عقل صحيح، بل هم أسفه السفهاء، وأجهل الجاهل.

فهل يستريب العاقل أن من دعي إلى الرشاد، وزيد عن الفساد، ونهى عن اقتحام العذاب، وأمر بما فيه صلاحه وفلاحه وفوزه ونعيمه، فعصى الناصح وتولى عن أمر ربه، واقتحم النار على بصيرة، واتباع الباطل ونبد الحق. أن هذا ليس له مسكة من عقل، وأنه لو اتصف بالمكر والخديعة والدهاء أنه من أسفه السفهاء.

﴿١٧٢ - ١٧٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ هذا أمر للمؤمنين خاصة بعد الأمر العام، وذلك أنهم هم المتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه باستعمالها بطاعته، والتقوي بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به المرسلين في قوله: ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ فالشكر في هذه الآية هو العمل الصالح، وهنا لم يقل «حلالاً» لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له.

وقوله: ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ أي: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر الله فلم يعبه وحده، كما أن من شكره فقد عبده وأتى بما أمر به، ويدل أيضاً على أن أكل الطيب سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة، كما أن الكفر ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة.

ولما ذكر تعالى إباحة الطيبات ذكر تحريم الخبائث، فقال: ﴿إنما حرم

والعذاب على المغفرة، فهو لا يصلح لهم إلا النار، فكيف يصبرون عليها، وأنتى لهم الجلد عليها؟! **﴿ذلك﴾** المذكور، وهو مجازاته بالعدل ومنعه أسباب الهداية، عن أبائها واختار سواها.

﴿بأن الله نزل الكتاب بالحق﴾ ومن الحق مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

وأيضاً ففي قوله: **﴿نزل الكتاب بالحق﴾** ما يدل على أن الله أنزله لهداية خلقه، وتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، فمن صرفه عن مقصوده فهو حقيق بأن يجازى بأعظم العقوبة.

﴿وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد﴾ أي: وإن الذين اختلفوا في الكتاب، فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه، أو الذين حرفوه وصرفوه على أهوائهم ومراداتهم **﴿لفي شقاق﴾** أي: محادة، **﴿بعيد﴾** عن الحق لأنهم قد خالفوا الكتاب الذي جاء بالحق الموجب للاتفاق وعدم التناقض، فمرج أمرهم، وكثر شقاقهم، وترتب على ذلك افتراقهم، بخلاف أهل الكتاب الذين آمنوا به وحكموه في كل شيء، فإنهم اتفقوا وارتفقوا بالمحبة والاجتماع عليه.

وقد تضمنت هذه الآيات الوعيد للكافرين لما أنزل الله، المؤثرين عليه عرض الدنيا بالعذاب والسخط، وأن الله لا يطهرهم بالتوفيق ولا بالمغفرة، وذكر السبب في ذلك بإيثارهم الضلالة على الهدى، فترتب على ذلك اختيار العذاب على المغفرة. ثم توجع لهم بشدة صبرهم على النار، لعملهم بالأسباب التي يعلمون أنها موصلة لها، وأن الكتاب مشتمل على الحق الموجب للاتفاق عليه وعدم الافتراق، وأن كل من خالفه فهو في غاية البعد عن الحق، والمنازعة

ربما لا يستقصي تمام الاستقصاء في تحقيقها. أخبر تعالى أنه غفور، فيغفر له ما أخطأ فيه في هذه الحال، خصوصاً وقد غلبته الضرورة، وأذهبت حواسه المشقة.

وفي هذه الآية دليل على القاعدة المشهورة: «الضرورات تبيح المحظورات»، فكل محذور اضطر له الإنسان، فقد أباحه له الملك الرحمن [فله الحمد والشكر أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً].

﴿١٧٤ - ١٧٦﴾ **﴿إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾** أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة فما أصبرهم على النار * ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد * هذا وعيد شديد لمن كتم ما أنزل الله على رسله، من العلم الذي أخذ الله الميثاق على أهله، أن يبينوه للناس ولا يكتُموه، فمن تعرض عنه بالخطام الديني ونبذ أمر الله، فأولئك: **﴿ما يأكلون في بطونهم إلا النار﴾** لأن هذا الثمن الذي اكتسبوه، إنما حصل لهم بأقبح المكاسب وأعظم المحرمات، فكان جزاؤهم من جنس عملهم، **﴿ولا يكلمهم الله يوم القيامة﴾** بل قد سخط عليهم وأعرض عنهم، فهذا أعظم عليهم من عذاب النار، **﴿ولا يزكيهم﴾** أي: لا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة، وليس لهم أعمال تصلح للمدح والرضا والجزاء عليها، وإنما لم يزكهم لأنهم فعلوا أسباب عدم التزكية التي أعظم أسبابها العمل بكتاب الله، والاهتداء به، والدعوة إليه، فهو لا نبذوا كتاب الله وأعرضوا عنه، واختاروا الضلالة على الهدى،

عليكم الميتة * وهي ما مات بغير تذكية شرعية، لأن الميتة خبيثة مفسدة لردائها في نفسها، ولأن الأغلب أن تكون عن مرض، فيكون زيادة ضرر^(١)، واستثنى الشارع من هذا العموم ميتة الجراد وسمك البحر، فإنه حلال طيب.

﴿والدم﴾ أي: المسفوح كما قيد في الآية الأخرى.

﴿وما أهل به لغير الله﴾ أي: ذبح لغير الله، كالذي يذبح للأصنام والأوثان من الأحجار، والقبور ونحوها، وهذا المذكور غير حاصر للمحرمات، جيء به لبيان أجناس الخبائث المدلول عليها بمفهوم قوله: **﴿طيبات﴾** فعموم المحرمات تستفاد من الآية السابقة، من قوله: **﴿حلالاً طيباً﴾** كما تقدم.

وإنما حرّم علينا هذه الخبائث ونحوها، لطفاً بنا وتنزيهاً عن المضر، ومع هذا **﴿فمن اضطر﴾** أي: ألجئ إلى المحرّم بجوع وعدم، أو إكراه، **﴿غير باغ﴾** أي: غير طالب للمحرّم مع قدرته على الحلال، أو مع عدم جوعه، **﴿ولا عاد﴾** أي: متجاوز الحد في تناول ما أبيح له اضطراراً، فمن اضطر وهو غير قادر على الحلال، وأكل بقدر الضرورة فلا يزيد عليها، فلا إثم [أي: جناح] عليه، وإذا ارتفع الجناح^(٢) رجع الأمر إلى ما كان عليه، والإنسان بهذه الحالة مأمور بالأكل، بل منهى أن يلقي بيده إلى التهلكة، وأن يقتل نفسه.

فيجب إذاً عليه الأكل، ويأثم إن ترك الأكل حتى مات، فيكون قاتلاً لنفسه، وهذه الإباحة والتوسعة من رحمته تعالى بعباده، فلهاذا ختمها بهذين الاسمين الكريمين المناسبين غاية المناسبة، فقال: **﴿إن الله غفور رحيم﴾**.

ولما كان الحل مشروطاً بهذين الشرطين، وكان الإنسان في هذه الحالة

(١) في ب: مرض.

(٢) في أ: (وإذا ارتفع الجناح) وفوق كلمة الجناح كلمة (الإثم) وفي ب، وردت الجملة هكذا (وإذا ارتفع الإثم).

والمخاصمة، والله أعلم.

﴿١٧٧﴾ ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون﴾ يقول تعالى: ﴿ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب﴾ أي: ليس هذا هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف، وهذا نظير قوله ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» ونحو ذلك.

﴿ولكن البر من آمن بالله﴾ أي: بأنه إله واحد، موصوف بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص.

﴿واليوم الآخر﴾ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه أو أخبر به الرسول مما يكون بعد الموت.

﴿والملائكة﴾ الذين وصفهم الله لنا في كتابه، ووصفهم رسوله ﷺ، ﴿والكتاب﴾ أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على رسله، وأعظمها القرآن، فيؤمن بما تضمنه من الأخبار والأحكام، ﴿والنبيين﴾ عموماً، خصوصاً خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ.

﴿وآتى المال﴾ وهو كل ما يتموله الإنسان من مال، قليلاً كان أو كثيراً، أي: أعطى المال ﴿على حبه﴾ أي: حب المال، بئّن به أن المال محبوب للنفس، فلا يكاد يخرج العبد.

فمن أخرجه مع حبه له تقريباً إلى الله تعالى، كان هذا برهاناً لإيمانه، ومن إيتاء المال على حبه أن يتصدق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنى، ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة كانت أفضل، لأنه في هذه الحال

يجب إمساكه، لما يتوهمه من العدم والفقر.

وكذلك إخراج النفيس من المال، وما يحبه من ماله كما قال تعالى: ﴿لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون﴾ فكل هؤلاء ممن آتى المال على حبه.

ثم ذكر المنفق عليهم، وهم أولى الناس ببرك وإحسانك. من الأقارب الذين تتوجع لمصائبهم، وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاضدون، فمن أحسن البر وأوفقه تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي، على حسب قربهم وحاجتهم.

ومن اليتامى الذين لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمته [تعالى] بالعباد، الدالة على أنه تعالى أرحم بعباده من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد، وفرض عليهم في أموالهم الإحسان إلى من فُقِدَ آبأؤهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه، ولأن الجزء من جنس العمل، فمن رحم يتيم غيره رُحِمَ يتيمه.

﴿والمساكين﴾: وهم الذين أسكتهم الحاجة وأذلهم الفقر، فلم يحق على الأغنياء بما يدفع مسكتهم أو يخففها، بما يقدرون عليه وبما يتيسر، ﴿وابن السبيل﴾: وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فحثّ الله عباده على إعطائه من المال ما يعينه على سفره، لكونه مظنة الحاجة، وكثرة المصارف، فعلى من أنعم الله عليه بوطنه وراحته وخوله من نعمته، أن يرحم أخاه الغريب الذي بهذه الصفة على حسب استطاعته، ولو بتزويده أو إعطائه آلة لسفره، أو دفع ما ينوبه من المظالم وغيرها.

﴿والسائلين﴾ أي: الذين تعرض لهم حاجة من الحوائج توجب السؤال، كمن ابتلي بأرض جانية، أو ضريبة عليه من ولاة الأمور، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة، كالمساجد والمدارس والقناطر، ونحو ذلك، فهذا له حق وإن كان غنياً ﴿وفي الرقاب﴾ فيدخل فيه العتق والإعانة

عليه، وبذل مال للمكاتب ليوفي سيده، وفداء الأسرى عند الكفار أو عند الظلمة.

﴿وأقام الصلاة وآتى الزكاة﴾ قد تقدم مراراً أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة، لكونهما أفضل العبادات وأكمل القربات، عبادات قلبية وبدنية ومالية، وبهما يوزن الإيمان، ويعرف ما مع صاحبه من الإيقان.

﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾ والعهد: هو الالتزام بالزام أو إلزام العبد لنفسه. فدخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ودخلوا تحت عهدها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد التي أوجهاها الله عليهم، والحقوق التي التزمها العبد كالإيمان والنذور، ونحو ذلك.

﴿والصابرين في البأساء﴾ أي: الفقر؛ لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة، لكونه يحصل له من الآلام القلبية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره.

فإن تنعم الأغنياء بما لا يقدر عليه تألم، وإن جاع أو جاعت عياله تألم، وإن أكل طعاماً غير موافق لهواه تألم، وإن عري أو كاد تألم، وإن نظر إلى ما بين يديه وما يتوهمه من المستقبل الذي يستعد له تألم، وإن أصابه البرد الذي لا يقدر على دفعه تألم.

فكل هذه ونحوها مصائب يؤمر بالصبر عليها والاحتساب، ورجاء الثواب من الله عليها.

﴿والضراء﴾ أي: المرض على اختلاف أنواعه، من حمى وقروح ورياح ووجع عضو، حتى الضرر والإصبع ونحو ذلك، فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك؛ لأن النفس تضعف والبدن يألم، وذلك في غاية المشقة على النفوس، خصوصاً مع تطاول ذلك، فإنه يؤمر بالصبر احتساباً لثواب الله [تعالى].

فيه دليل على أنه يجب عليهم كلهم، حتى أولياء القاتل، حتى القاتل نفسه، إعانة ولي المقتول إذا طلب القصاص، وتمكينه^(١) من القاتل، وأنه لا يجوز لهم أن يحملوا بين هذا الحد ويمنعوا الولي من الاقتصاص، كما عليه عادة الجاهلية ومن أشبههم من إيواء المحدثين.

ثم بين تفصيل ذلك، فقال: «الحر بالحر» يدخل بمنطوقها الذكر بالذكر، والأنثى بالأنثى، والذكر بالذكر، والأنثى بالأنثى، فيكون منطوقها مقدماً على مفهوم قوله: «الأنثى بالأنثى» مع دلالة السنة، على أن الذكر يقتل بالأنثى، وإن علوا، فلا يقتلان بالولد، لورود السنة بذلك، مع أن في قوله: «القصاص» ما يدل على أنه ليس من العدل أن يقتل الوالد بولده، ولأن ما في قلب الوالد من الشفقة والرحمة، ما يمنعه من القتل لولده إلا بسبب اختلال في عقله، أو أذية شديدة جداً من الولد له.

وخرج من العموم أيضاً الكافر بالسنّة، مع أن الآية في خطاب المؤمنين خاصة.

وأيضاً فليس من العدل أن يقتل ولي الله بعدوه، والعبد بالعبد، ذكراً كان أو أنثى، تساوت قيمتهما أو اختلفت، ودلّ بمفهومها على أن الحر لا يقتل بالعبد، لكونه غير مساوٍ له، والأنثى بالأنثى، أخذ بمفهومها بعض أهل العلم، فلم يميز قتل الرجل بالمرأة، وتقدم وجه ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أن الأصل وجوب القود في القتل، وأن الدية بدل عنه، فلماذا قال: «فمن عفي له من أخيه شيء» أي: عفا ولي المقتول عن القاتل إلى الدية، أو عفا بعض الأولياء، فإنه يسقط القصاص وتجب الدية، وتكون الخيرة في القود واختيار

«وحيث البأس» أي: وقت القتال للأعداء المأمور بقتالهم، لأن الجلاّد يشق غاية المشقة على النفس، ويجزع الإنسان من القتل أو الجراح أو الأسر، فاحتجج إلى الصبر في ذلك احتساباً، ورجاء لشواب الله [تعالى] الذي منه النصر والمعونة التي وعدّها الصابرين.

«أولئك» أي: المتصفون بما ذكر من العقائد الحسنة، والأعمال التي هي آثار الإيمان وبرهانه ونوره، والأخلاق التي هي جمال الإنسان وحقيقته الإنسانية، فأولئك هم «الذين صدقوا» في إيمانهم، لأن أعمالهم صدقت إيمانهم، «وأولئك هم المتقون»؛ لأنهم تركوا المحظور وفعلوا المأمور؛ لأن هذه الأمور مشتملة على كل خصال الخير تضمناً ولزوماً، لأن الوفاء بالعهد يدخل فيه الدين كله، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات، ومن قام بها كان بما سواها أقوم، فهؤلاء هم الأبرار الصادقون المتقون.

وقد علم ما رتب الله على هذه الأمور الثلاثة من الثواب الدنيوي والأخروي، مما لا يمكن تفصيله في [مثل] هذا الموضع.

﴿١٧٨ - ١٧٩﴾ «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتل الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم * ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون» يمتن تعالى على عباده المؤمنين بأنه فرض عليهم «القصاص في القتل» أي: المساواة فيه، وأن يقتل القاتل على الصفة التي قتل عليها المقتول، إقامة للعدل والقسط بين العباد.

وتوجيه الخطاب للعموم المؤمنين،

(٢) في ب: بالإحسان.

(١) في ب: ويمكنه.



الدية إلى الولي.

فإذا عفا عنه وجب على الولي [أي: ولي المقتول] أن يتبع القاتل «بالمعروف» من غير أن يشق عليه، ولا يحمله ما لا يطيق، بل يحسن الاقتضاء والطلب، ولا يخرج.

وعلى القاتل «أداء» إليه بإحسان من غير مطلق ولا نقص ولا إساءة فعلية أو قولية، فهل جزاء الإحسان إليه بالعفو إلا الإحسان بحسن القضاء، وهذا مأمور به في كل ما ثبت في ذمم الناس للإنسان، مأمور من له الحق بالاتباع بالمعروف، ومن عليه الحق بالأداء بإحسان^(٢).

وفي قوله: «فمن عفي له من أخيه» ترفيق وحث على العفو إلى الدية، وأحسن من ذلك العفو مجاناً.

وفي قوله: «أخيه» دليل على أن القاتل لا يكفر، لأن المراد بالأخوة هنا أخوة الإيمان، فلم يخرج بالقتل منها، ومن باب أولى أن سائر المعاصي التي هي دون الكفر لا يكفر بها فاعلها، وإنما ينقص بذلك إيمانه.

وإذا عفا أولياء المقتول، أو عفا بعضهم، احتقن دم القاتل، وصار معصوماً منهم ومن غيرهم، ولهذا قال: «فمن اعتدى بعد ذلك» أي:



بعد العفو ﴿فله عذاب أليم﴾ أي: في الآخرة، وأما قتله وعدمه فيؤخذ مما تقدم، لأنه قتل مكافئاً له، فيجب قتله بذلك.

وأما من فسر العذاب الأليم بالقتل، فإن الآية تدل على أنه يتعين قتله، ولا يجوز العفو عنه، وبذلك قال بعض العلماء والصحيح الأول، لأن جنايته لا تزيد على جناية غيره.

ثم بين تعالى حكمته العظيمة في مشروعية القصاص، فقال: ﴿ولكم في القصاص حياة﴾ أي: تتحقق بذلك الدماء، وتنقمع به الأشقياء، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا روي القاتل مقتولاً اندعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يحصل انكفاف الشر الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكاية والانزجار ما يدل على حكمة الحكيم الغفار، ونكر الحياة لإفادة التعظيم والتكثير.

ولما كان هذا الحكم لا يعرف حقيقته إلا أهل العقول الكاملة، والألباب الثقيلة، خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل على أن الله تعالى يحب من عباده أن يعملوا أفكارهم

وعقولهم، في تدبر ما في أحكامه من الحكم، والمصالح الدالة على كماله، وكمال حكمته وحده، وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من ذوي الألباب الذين وجه إليهم الخطاب، وناداهم رب الأرباب، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً لقوم يقولون.

وقوله: ﴿لعلكم تتقون﴾ وذلك أن من عرف ربه وعرف ما في دينه وشرعه من الأسرار العظيمة والحكم البديعة والآيات الرفيعة، أوجب له ذلك أن ينقاد لأمر الله، ويعظم معاصيه فيتركها، فيستحق بذلك أن يكون من المتقين.

﴿١٨٠ - ١٨٢﴾ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين﴾ فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم * فمن خاف من موص جناً أو إثمياً فأصلح بينهم فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾ أي: فرض الله عليكم يا معشر المؤمنين ﴿إذا حضر أحدكم الموت﴾ أي: أسبابه، كالمرض المشرف على الهلاك، وحضور أسباب المهالك، وكان قد ﴿ترك خيراً﴾ [أي: مالاً] وهو المال الكثير عرفاً، فعليه أن يوصي لوالديه وأقرب الناس إليه بالمعروف، على قدر حاله من غير سرف ولا اقتصار على الأبعد دون الأقرب، بل يرتبهم على القرب والحاجة، ولهذا أتى فيه بأفعل التفضيل.

وقوله: ﴿حقاً على المتقين﴾ دل على وجوب ذلك، لأن الحق هو الثابت، وقد جعله الله من موجبات التقوى.

واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية الموارث وبعضهم يرى أنها في الوالدين والأقربين غير الوارثين، مع أنه لم يدل على التخصيص بذلك دليل، والأحسن

ففي هذا أن يقال: إن هذه الوصية للوالدين والأقربين مجملة، ردها الله تعالى إلى العرف الجاري. ثم إن الله تعالى قدر للوالدين الوارثين وغيرهما من الأقارب الوارثين هذا المعروف في آيات الموارث بعد أن كان مجملاً، وبقي الحكم فيمن لم يرثوا من الوالدين المتنوعين من الإرث وغيرهما ممن حجب بشخص أو وصف، فإن الإنسان مأمور بالوصية لهؤلاء، وهم أحق الناس ببره، وهذا القول تتفق عليه الأمة، ويحصل به الجمع بين القولين المتقدمين، لأن كلا من القائلين بهما كل منهما لحظ ملحظاً، واختلف المورد.

فهذا الجمع يحصل بالاتفاق والجمع بين الآيات، لأنه ^(١) مهما أمكن الجمع كان أحسن من ادعاء النسخ، الذي لم يدل عليه دليل صحيح. ولما كان الموصي قد يمتنع من الوصية، لما يتوهم أن من بعده قد يبدل ما وصى به، قال تعالى: ﴿فمن بدله﴾ أي: الإيصاء للمذكورين أو غيرهم ﴿بعدما سمعه﴾ [أي: بعدما عقله، وعرف طريقه وتنفيذه، فإنما إثمه على الذين يبدلونه] وإلا فالموصي وقع أجره على الله، وإنما الإثم على المبدل المتغير.

﴿إن الله سميع﴾ يسمع سائر الأصوات، ومنه سماعه لقالة الموصي ووصيته، فينبغي له أن يراقب من يسمعه ويراه، وأن لا يجوز في وصيته، ﴿عليم﴾ بنيته، وعليم بعمل الموصى إليه، فإذا اجتهد الموصي وعلم الله من نيته ذلك، أثابه ولو أخطأ، وفيه التحذير للموصى إليه من التبديل، فإن الله عليم به، مطلع على ما فعله، فليحذر من الله، هذا حكم الوصية العادلة، وأما الوصية التي فيها حيف وجنح وإثم، فينبغي لمن حضر الموصي وقت الوصية بها، أن ينصحه بما هو الأحسن والأعدل، وأن ينهائه

عن الجور والجنف، وهو الميل بها عن خطاً، من غير تعمد، والإثم: وهو التعمد لذلك.

فإن لم يفعل ذلك، فينبغي له أن يصلح بين الموصى إليهم، ويتوصل إلى العدل بينهم على وجه التراضي والمصالحة، ووعظهم بترثة ذمة ميتهم، فهذا قد فعل معروفًا عظيمًا، وليس عليه إثم، كما على مبدل الوصية الجائزة، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ أَيْ: يغفر جميع الزلات، ويصفح عن التبعات لمن تاب إليه، ومنه مغفرته لمن غَضَّ من نفسه وترك بعض حقه لأخيه، لأن من سامح ساعه الله، غفور لميتهم الجائر في وصيته إذا احتسبوا بمساعحة بعضهم بعضاً لأجل براءة ذمته، رحيم بعباده، حيث شرع لهم كل أمر به يتراحمون ويتعاطفون، فدللت هذه الآيات على الحث على الوصية، وعلى بيان من هي له، وعلى وعيد المبدل للوصية العادلة، والترغيب في الإصلاح في الوصية الجائزة.

﴿١٨٣ - ١٨٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على هداكم ولعلكم تشكرون * يخبر تعالى بما من به على عباده، بأنه فرض عليهم الصيام، كما فرضه على الأمم السابقة، لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان.

وفيه تنشيط لهذه الأمة بأنه ينبغي

لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال، والمصارعة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة التي اختصتكم بها.

ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام، فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى، لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه.

فكما اشتمل عليه من التقوى: أن الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع ونحوها، التي تميل إليها نفسه، متقرباً بذلك إلى الله، راجياً بتركها ثوابه، فهذا من التقوى.

ومنها: أن الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله تعالى، فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع الله عليه، ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الشيطان، فإنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي، ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعته، والطاعات من خصال التقوى، ومنها: أن الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوى.

ولما ذكر أنه فرض عليهم الصيام، أخبر أنه أيام معدودات، أي: قليلة في غاية السهولة.

ثم سهل تسهيلاً آخر، فقال: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ وذلك للمشقة في الغالب، رخص الله لهما في الفطر.

ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن، أمرهما أن يقضياه في أيام أخر إذا زال المرض، وانقضى السفر، وحصلت الراحة.

وفي قوله: ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ﴾ فيه دليل على أنه يقضي عدد أيام رمضان، كاملاً كان أو ناقصاً وعلى أنه يجوز أن يقضي أياماً قصيرة باردة، عن أيام طويلة حارة كالعكس.

وقوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾

أي: يطيقون الصيام «فدية» عن كل يوم يفطرونه «طعام مسكين» وهذا في ابتداء فرض الصيام، لما كانوا غير معتادين للصيام، وكان فرضه حتماً فيه مشقة عليهم، درجهم الرب الحكيم بأسهل طريق، وخير المطيق للصوم بين أن يصوم وهو أفضل أو يطعم، ولهذا قال: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾

ثم بعد ذلك جعل الصيام حتماً على المطيق، وغير المطيق يفطر ويقضيه في أيام أخر [وقيل: «وعلى الذين يطيقونه» أي: يتكلفونه، ويشق عليهم مشقة غير محتملة كالشيخ الكبير فدية عن كل يوم مسكين^(١)، وهذا هو الصحيح^(٢)].

«شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن» أي: الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان، الشهر العظيم الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم، وهو القرآن الكريم، المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية، وتبيين الحق بأوضح بيان، والفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأهل السعادة وأهل الشقاوة.

فحقيق بشهر هذا فضله، وهذا إحسان الله عليكم فيه أن يكون موسماً للعباد مفروضاً فيه الصيام.

فلما قرره وبين فضيلته، وحكمة الله تعالى في تخصيصه، قال: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ هذا فيه تعيين الصيام على القادر الصحيح الحاضر.

ولما كان النسخ للتخيير بين الصيام والفداء خاصة، أعاد الرخصة للمريض والمسافر، لئلا يتوهم أن الرخصة أيضاً منسوخة، [فقال] «يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر» أي: يريد الله تعالى أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير، ويسهلها أشد^(٣) تسهيل، ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية

(٣) في ب: أبلغ تسهيل.

(٢) زيادة من هامش ب.

(١) ظاهر أن المراد عن كل يوم طعام

مسكين.

السهولة في أصله .

وإذا حصلت بعض العوارض المرجية لثقله سهّله تسهيلاً آخر، إما بإسقاطه، أو تخفيفه بأنواع التخفيفات . وهذه جملة لا يمكن تفصيلها لأن تفاصيلها جميع الشرعيات، ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات .

﴿ولتكمّلوا العدة﴾ وهذا - والله أعلم - لثلاث يتوهم متوهم أن صيام رمضان يحصل المقصود منه ببعضه، رفع هذا الوهم بالأمر بتكميل عدته، ويشكر الله [تعالى] عند إتمامه على توفيقه وتسهيله وتبيينه لعباده، وبالتكبير عند انقضائه، ويدخل في ذلك التكبير عند رؤية هلال شوال إلى فراغ خطبة العيد .

﴿١٨٦﴾ ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ هذا جواب سؤال، سأل النبي ﷺ بعض أصحابه فقالوا: يا رسول الله، أقرب ربنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟ فنزل: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ لأنه تعالى الرقيب الشهيد، المطلع على السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، فهو قريب أيضاً ما داعيه بالإجابة، ولهذا قال: ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ والدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة .

والقرب نوعان: قرب بعلمه من كل خلقه، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق .

فمن دعا ربه بقلب حاضر ودعاء مشروع، ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء، كأكل الحرام ونحوه، فإن الله قد وعده بالإجابة، وخصوصاً إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء، وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيه القولية والفعلية، والإيمان به الموجب للاستجابة، فلهذا قال: ﴿فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾ أي: يحصل لهم الرشـد

الذي هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة، ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة . ولأن الإيمان بالله والاستجابة لأمره سبب لحصول العلم، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾ .

﴿١٨٧﴾ ﴿أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد تلك حدود الله فلا تقربوها كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ كان في أول فرض الصيام، يحرم على المسلمين في الليل بعد النوم الأكل والشرب والجماع، فحصلت المشقة لبعضهم، فخفف الله تعالى عنهم ذلك، وأباح في ليالي الصيام كلها الأكل والشرب والجماع، سواء نام أو لم ينام، لكونهم يختانون أنفسهم بترك بعض ما أمروا به .

﴿فتاب﴾ الله ﴿عليكم﴾ بأن وسع لكم أمراً كان - لولا توسعته - موجباً للآثم ﴿وعفا عنكم﴾ ما سلف من التخون .

﴿فالآن﴾ بعد هذه الرخصة والسعة من الله ﴿باشروهن﴾ وطأ وقبلة ولمساً وغير ذلك .

﴿وابتغوا ما كتب الله لكم﴾ أي: اتوا في مباشرتكم لزوجاتكم التقرب إلى الله تعالى والمقصود الأعظم من الوطء، وهو حصول الذرية وإعفاف فرجه وفرج زوجته، وحصول مقاصد النكاح .

ومما كتب الله لكم ليلة القدر، الموافقة لليالي صيام رمضان، فلا ينبغي لكم أن تشتغلوا بهذه اللذة عنها

وتضيعوها، فاللذة مدركة، وليلة القدر إذا فاتت لم تدرك .

﴿وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر﴾ هذا غاية للأكل والشرب والجماع، وفيه أنه إذا أكل ونحوه شاكاً في طلوع الفجر فلا بأس عليه .

وفيه: دليل على استحباب السحور للأمر، وأنه يستحب تأخيره أخذاً من معنى رخصة الله وتسهيله على العباد . وفيه: أيضاً دليل على أنه يجوز أن يدركه الفجر وهو جنب من الجماع قبل أن يقتسل، ويصح صيامه، لأن لازم إباحة الجماع إلى طلوع الفجر، أن يدركه الفجر وهو جنب، ولازم الحق .

﴿ثم﴾ إذا طلع الفجر ﴿أتموا الصيام﴾ أي: الإمساك عن المفطرات ﴿إلى الليل﴾ وهو غروب الشمس ولما كان إباحة الوطء في ليالي الصيام ليست بإباحته^(١) عامة لكل أحد، فإن المعتكف لا يحل له ذلك، استثنائه بقوله: ﴿ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد﴾ أي: وأنتم متصفون بذلك، ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف، وهو لزوم المسجد لطاعة الله [تعالى]، وانقطاعاً إليه، وأن الاعتكاف لا يصح إلا في مسجد .

ويستفاد من تعريف المساجد، أنها المساجد المعروفة عندهم، وهي التي تقام فيها الصلوات الخمس .

وفيه أن الوطء من مفسدات الاعتكاف .

﴿تلك﴾ المذكورات - وهو تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات في الصيام، وتحريم الفطر على غير المعذور، وتحريم الوطء على المعتكف، ونحو ذلك من المحرمات ﴿حدود الله﴾ التي حدّها لعباده، ونهاهم عنها، فقال: ﴿فلا تقربوها﴾ أبلغ من قوله: ﴿فلا تفعلوها﴾ لأن القربان، يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة

إليه .

والعبد مأمور بترك المحرمات،
والبعد منها غاية ما يمكنه، وترك كل
سبب يدعو إليها، وأما الأوامر
فيقول الله فيها: ﴿تلك حدود الله
فلا تعتدوها﴾ فينهاه عن مجاوزتها.

﴿كذلك﴾ أي: بين [الله] لعباده الأحكام السابقة أتم تبين، وأوضحها لهم أكمل إيضاح.

﴿يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون﴾ فإنهم إذا بان لهم الحق اتبعوه، وإذا تبين لهم الباطل اجتنبوه، فإن الإنسان قد يفعل المحرم على وجه الجهل بأنه محرم، ولو علم تحريمه لم يفعله، فإذا بين الله للناس آياته، لم يبق لهم عذر ولا حجة، فكان ذلك سبباً للتقوى.

﴿١٨٨﴾ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: ولا تأخذوا أموالكم، أي: أموال غيركم، أضافها إليهم؛ لأنه ينبغي للمسلم أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، ويحترم ماله كما يحترم ماله؛ ولأن أكله مال غيره يجرىء غيره على أكل ماله عند القدرة.

ولما كان أكلها نوعين : نوعاً باطلاً، ونوعاً بباطل، وكان المحرم إنما هو أكلها بالباطل، قيده تعالى بذلك، ويدخل في ذلك أكلها على وجه الغصب والسرقة والخيانة في وديعة أو عارية، أو نحو ذلك، ويدخل فيه أيضاً أخذها على وجه المعاوضة، بمعاوضة محرمة، كعقود الربا والقمار كلها، فإنها من أكل المال بالباطل، لأنه ليس في مقابلة عوض مباح، ويدخل في ذلك أخذها بسبب غش في البيع والشراء والإجارة، ونحوها، ويدخل في ذلك استعمال الأجراء وأكل أجرتهم، وكذلك أخذهم أجره على عمل لم يقوموا بواجبه، ويدخل في ذلك أخذ الأجرة على العبادات والقربات التي لا تصح، حتى يقصد بها وجه الله

تعالى، ويدخل في ذلك الأخذ من الزكوات والصدقات والأوقاف، والوصايا لمن ليس له حق منها، أو فوق حقه.

فكل هذا ونحوه من أكل المال بالباطل، فلا يحل ذلك بوجه من الوجوه حتى ولو حصل فيه النزاع وحصل الارتفاع إلى حاكم الشرع، وأولى من يريد أكلها بالباطل بحجة غلبت حجة الحق، وحكم له الحاكم بذلك. فإن حكم الحاكم لا يبيح محرماً ولا يحلل حراماً، إنما يحكم على نحو مما يسمع، وإلا فحقائق الأمور باقية، فليس في حكم الحاكم للمبطل راحة ولا شبهة، ولا استراحة.

فمن أهل إلى الحاكم بحجة باطلة
وحكم له بذلك، فإنه لا يحل له،
ويكون أكلاً مال غيره بالباطل والإثم
وهو عالم بذلك. فيكون أبلغ في
عقوبته وأشد في نكاله.

وعلى هذا فالوكيل إذا علم أن موكله يبطل في دعواه، لم يحل له أن يخاصم عن الخائن، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾.

﴿١٨٩﴾ ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ يقول (١) تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلة﴾: جمع هلال، ما فائدتها وحكمتها؟ أو عن أنهارها، قل هي مواقيت للناس أي: جعلها الله تعالى بلفظه ورحمته على هذا لتدبير يبدو الهلال ضعيفاً في أول الشهر، ثم يتزايد إلى نصفه، ثم يشرع في النقص إلى كماله، وهكذا يعرف الناس بذلك مواقيت عباداتهم من صيام، وأوقات الزكاة، والكفارات، وأوقات الحج.

ولما كان الحج يقع في أشهر
علومات، ويستغرق أوقاتاً كثيرة،
قال: ﴿والحج﴾ وكذلك تعرف بذلك
أوقات الديون المؤجلات، ومدة

(٢) في ب: ليس من البر.

(۱) فی ب : فقوله .

الإجازات، ومدة العدد والحمل، وغير ذلك مما هو من حاجات الخلق، فجعله تعالى حساباً يعرفه كل أحد من صغير وكبير، وعالم وجاهل، فلو كان الحسب بالسنة الشمسية لم يعرفه إلا النادر من الناس.

﴿وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها﴾ وهذا كما كان الأنصار وغيرهم من العرب إذا أحرموا لم يدخلوا البيوت من أبوابها، تعبدوا بذلك، وظن أنه بر، فأخبر الله أنه ليس ببر^(٢)، لأن الله تعالى لم يشرعه لهم، وكل من تعبد بعبادة لم يشرعها الله ولا رسوله، فهو متعبد ببدعة، وأمرهم أن يأتوا البيوت من أبوابها لما فيه من السهولة عليهم، التي هي قاعدة من قواعد الشرع.

ويستفاد من إشارة الآية أنه ينبغي في كل أمر من الأمور أن يأتيه الإنسان من الطريق السهل القريب، الذي قد جعل له موصلاً، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ينبغي أن ينظر في حالة المأمور، ويستعمل معه الرفق والسياسة التي بها يحصل المقصود أو بعضه، والمتعلم والمعلم ينبغي أن يسلك أقرب طريق وأسهله، يحصل به المقصود، وهكذا كل من حاول أمراً من الأمور وأتاه من أبوابه وثابر عليه،

فقال :

﴿١٩٦﴾ ﴿وَأَتُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفَدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ فَإِذَا أَمْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ يستدل بقوله [تعالى]: ﴿وَأَتُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ﴾ على أمور: أحدها: وجوب الحج والعمرة، وفرضيتهما.

الثاني: وجوب إتمامهما بأركانهما وواجباتهما التي قد دل عليها فعل النبي ﷺ وقوله: «خذوا عني مناسككم».

الثالث: أن فيه حجة لمن قال بوجوب العمرة.

الرابع: أن الحج والعمرة يجب إتمامهما بالشروع فيهما، ولو كانا نفلًا.

الخامس: الأمر بإتقانهما وإحسانهما، وهذا قدر زائد على فعل ما يلزم لهما.

السادس: وفيه الأمر بإخلاصهما لله تعالى.

السابع: أنه لا يخرج المحرم بهما بشيء من الأشياء حتى يكملهما، إلا بما استثناه الله وهو الحصر، فلهذا قال: ﴿فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ﴾ أي: منعت من الوصول إلى البيت لتكملهما، بمرض أو ضلالة أو عدو، ونحو ذلك من أنواع الحصر، الذي هو المنع.

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فاذبحوا ما استيسر من الهدي، وهو سبع بدنة، أو سبع بقرة، أو شاة يذبحها المحصر، ويحلق ويحل من إحرامه بسبب الحصر، كما فعل النبي ﷺ وأصحابه لما صددهم

لهلاك البدن أو الروح، وفعل ما هو سبب موصل إلى تلف النفس أو الروح، فيدخل تحت ذلك أمور كثيرة، فمن ذلك ترك الجهاد في سبيل الله أو النفقة فيه، الموجب لتسلط الأعداء، ومن ذلك تغريب الإنسان بنفسه في مقاتلة أو سفر مخوف، أو محل مسببة أو حيات، أو يصعد شجرة أو بنياناً خطراً، أو يدخل تحت شيء فيه خطر، ونحو ذلك، فهذا ونحوه ممن ألقى بيده إلى التهلكة.

ومن الإلقاء باليد إلى التهلكة^(١) الإقامة على معاصي الله، واليأس من التوبة، ومنها ترك ما أمر الله به من الفرائض، التي تركها هلاك للروح والدين.

ولما كانت النفقة في سبيل الله نوعاً من أنواع الإحسان، أمر بالإحسان عموماً، فقال: ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ إن الله يحب المحسنين، وهذا يشمل جميع أنواع الإحسان، لأنه لم يقيد بشيء دون شيء، فيدخل فيه الإحسان بالمال كما تقدم.

ويدخل فيه الإحسان بالجاه بالشفاعات ونحو ذلك، ويدخل في ذلك الإحسان بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم العلم النافع، ويدخل في ذلك قضاء حوائج الناس من تفريج كرباتهم وإزالة شداتهم، وعيادة مرضاهم، وتشجيع جنائزهم، وإرشاد ضالهم، وإعانة من يعمل عملاً، والعمل لمن لا يحسن العمل، ونحو ذلك مما هو من الإحسان الذي أمر الله به، ويدخل في الإحسان أيضاً الإحسان في عبادة الله تعالى، وهو كما ذكر النبي ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ».

فمن اتصف بهذه الصفات، كان من الذين قال الله فيهم: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وكان الله معه يسدده ويرشده ويعينه على كل أموره.

ولما فرغ تعالى من [ذكر] أحكام الصيام فالجهاد، ذكر أحكام الحج

وإن كان السبب خفياً كمن جحد دين غيره، أو خانه في ودعية، أو سرق منه ونحو ذلك، فإنه لا يجوز له أن يأخذ من ماله مقابلة له، جمعاً بين الأدلة، ولهذا قال تعالى تأكيداً وتقوية لما تقدم: ﴿فَمَنْ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ هذا تفسير لصفة المقاصة، وأنها هي المائلة في مقابلة المعتدي.

ولما كانت النفوس في الغالب لا تقف على حدها إذا رخص لها في المعاقبة لطلبها للتشفي، أمر تعالى بلزوم تقواه، التي هي الوقوف عند حدوده وعدم تجاوزها، وأخبر تعالى أنه «مع المتقين» أي: بالعون، والنصر، والتأييد، والتوفيق.

ومن كان الله معه حصل له السعادة الأبدية، ومن لم يلزم التقوى تخلى عنه وليه وخذله، فوكله إلى نفسه، فصار هلاكه أقرب إليه من حبل الوريد.

﴿١٩٥﴾ ﴿وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا﴾ إن الله يحب المحسنين، يأمر تعالى عباده بالنفقة في سبيله، وهو إخراج الأموال في الطرق الموصلة إلى الله، وهي كل طرق الخير من صدقة على مسكين، أو قريب، أو إنفاق على من تحب مؤنته.

وأعظم ذلك وأول ما دخل في ذلك الإنفاق في الجهاد في سبيل الله، فإن النفقة فيه جهاد بالمال، وهو فرض كالجهاد بالبدن، وفيها من المصالح العظيمة الإعانة على تقوية المسلمين، وعلى تروية الشرك وأهله، وعلى إقامة دين الله وإعرازه، فالجهاد في سبيل الله لا يقوم إلا على ساق النفقة، فالنفقة له كالروح، لا يمكن وجوده بدونها، وفي ترك الإنفاق في سبيل الله إبطال للجهاد، وتسلط للأعداء، وشدة تكاليفهم، فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ كالتعليل لذلك، والإلقاء باليد إلى التهلكة يرجع إلى أمرين: ترك ما أمر به العبد، إذا كان تركه موجباً أو مقارباً

المشركون عام الحديبية، فإن لم يجد الهدي، فليصم بدله عشرة أيام كما في التمتع، ثم يحل.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ﴾ وهذا من محظورات الإحرام، إزالة الشعر بخلق أو غيره، لأن المعنى واحد، من الرأس أو من البدن، لأن المقصود من ذلك حصول الشعث والمنع من الترفه بإزالته، وهو موجود في بقية الشعر.

وقاس كثير من العلماء على إزالة الشعر تقليد الأظفار بجامع الترفه، ويستمر المنع مما ذكر حتى يبلغ الهدي محله، وهو يوم النحر، والأفضل أن يكون الحلق بعد النحر، كما تدل عليه الآية.

ويستدل بهذه الآية على أن التمتع إذا ساق الهدي لم يتحلل من عمرته قبل يوم النحر، فإذا طاف وسعى للعمرة أحرم بالحج، ولم يكن له إحلال بسبب سوق الهدي، وإنما منع تبارك وتعالى من ذلك لما فيه من الذل والخضوع لله والانكسار له، والتواضع الذي هو عين مصلحة العبد، وليس عليه في ذلك من ضرر، فإذا حصل الضرر بأن كان به أذى من مرض ينتفع بخلق رأسه له، أو قروح، أو قمل ونحو ذلك، فإنه يحل له أن يخلق رأسه، ولكن يكون عليه فدية من صيام ثلاثة أيام، أو صدقة على ستة مساكين^(١)، أو نسك ما يجزئ في أضحية، فهو غير، والنسك أفضل، فالصدقة، فالصيام.

ومثل هذا كل ما كان في معنى ذلك من تقليد الأظفار، أو تغطية الرأس، أو لبس المخيط، أو التطيب، فإنه يجوز عند الضرورة، مع وجوب الفدية المذكورة لأن القصد من الجميع إزالة ما به يترفع.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَمْتَمْتُمْ﴾ أي: بأن قدرتم على البيت من غير مانع عدو وغيره ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعِمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ﴾ بأن توصل بها إليه، وانتفع بتمتعته بعد الفراغ منها.

﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾ أي: فعليه ما تيسر من الهدي، وهو ما يجزئ في أضحية، وهذا دم نسك، مقابلة لحصول النسكين له في سفرة واحدة، ولإنعام الله عليه بحصول الانتفاع بالتمتع بعد فراغ العمرة وقبل الشروع في الحج، ومثلها القران لحصول النسكين له.

وبدل مفهوم الآية على أن المفرد للحج ليس عليه هدي، ودلت الآية على جواز بل فضيلة التمتع، وعلى جواز فعلها في أشهر الحج.

﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ أي: الهدي أو ثمنه ﴿فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ﴾ أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار، والبيت بـ «منى» ولكن الأفضل منها أن يصوم السابع والثامن والتاسع، «وسبعة إذا رجعتكم» أي: فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله.

﴿ذَلِكَ﴾ المذكور من وجوب الهدي على التمتع «لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام» بأن كان عنه مسافة قصر فأكثر، أو بعيداً عنه عرفاً، فهذا الذي يجب عليه الهدي لحصول النسكين له في سفر واحد، وأما من كان أهله من حاضري المسجد الحرام، فليس عليه هدي لعدم الموجب لذلك.

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي: في جميع أموركم، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك امتثالكم لهذه الأمور، واجتناب هذه المحظورات المذكورة في هذه الآية.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ أي: لمن عصاه، وهذا هو الموجب للتقوى، فإن من خاف عقاب الله، انكف عما يوجب العقاب، كما أن من رجا ثواب الله عمل لما يوصله إلى الثواب، وأما من لم يخف العقاب ولم يرج الثواب، اقتحم المحارم وتجراً على ترك الواجبات.

﴿١٩٧﴾ ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزِدُوا بِأُولَى الْآلِيَابِ﴾ يخبر تعالى أن ﴿الحج﴾ واقع في «أشهر معلومات» عند المخاطبين، مشهورات بحيث لا تحتاج إلى تخصيص، كما احتاج الصيام إلى تعيين شهره، وكما بين تعالى أوقات الصلوات الخمس.

وأما الحج فقد كان من ملة إبراهيم التي لم تزل مستمرة في ذريته، معروفة بينهم.

والمراد بالأشهر المعلومات عند جمهور العلماء: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، فهي التي يقع فيها الإحرام بالحج غالباً.

﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ أي: أحرم به، لأن الشروع فيه يصيره فرضاً ولو كان نفلاً.

واستدل بهذه الآية الشافعي ومن تابعه على أنه لا يجوز الإحرام بالحج قبل أشهره، قلت: لو قيل: إن فيها دلالة لقول الجمهور بصحة الإحرام [بالحج] قبل أشهره لكان قريباً، فإن قوله: ﴿فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ﴾ دليل على أن الفرض قد يقع في الأشهر المذكورة، وقد لا يقع فيها، وإلا لم يقيد.

وقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أي: يجب أن تعظموا الإحرام بالحج، وخصوصاً الواقع في أشهره، وتصونوه عن كل ما يفسده أو ينقصه من الرفث، وهو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية، خصوصاً عند النساء بحضرتن.

والفسوق وهو: جميع المعاصي، ومنها محظورات الإحرام.

والجدال وهو: المماارة والمنازعة والمخاصمة، لكونها تثير الشر، وتوقع العداوة.

والمقصود من الحج: الذل

والانكسار لله، والتقرب إليه بما أمكن من القربات، والتشبهه عن مقارفة السيئات، فإنه بذلك يكون مبروراً، والمبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وهذه الأشياء وإن كانت ممنوعة في كل مكان وزمان، فإنها^(١) يتغلظ المنع عنها في الحج.

واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله بترك المعاصي حتى يفعل الأوامر، ولهذا قال تعالى: ﴿وما تفعلوا من خير يعلمه الله﴾ أي بـ «من» لتنصيص العموم، فكل خير وقرية وعبادة، داخل في ذلك، أي: فإن الله به عليم، وهذا يتضمن غاية الحث على أفعال الخير، وخصوصاً في تلك البقاع الشريفة والحرمات المنيفة، فإنه ينبغي تدارك ما أمكن تداركه فيها، من صلاة وصيام وصدقة وطواف وإحسان قولي وفعلي.

ثم أمر تعالى بالتزود لهذا السفر المبارك، فإن التزود فيه الاستغناء عن المخلوقين، والكف عن أموالهم سؤالا واستشرافاً، وفي الإكثار منه نفع وإعانة للمسافرين، وزيادة قربية لرب العالمين، وهذا الزاد الذي المراد منه إقامة البنية بلبغة ومتاع.

وأما الزاد الحقيقي المستمر نفعه لصاحبه في دنياه وآخره، فهو زاد التقوى الذي هو زاد إلى دار القرار، وهو الموصل لأكمل لذة، وأجل نعيم دائم أبداً، ومن ترك هذا الزاد، فهو المنقطع به الذي هو عرضة لكل شر، ومنع من الوصول إلى دار المتقين، فهذا مدح للتقوى.

ثم أمر بها أولي الألباب فقال: ﴿واقفون يا أولي الألباب﴾ أي: يا أهل العقول الرزينة، اتقوا ربكم الذي تقواه أعظم ما تأمر به العقول، وتركها دليل على الجهل وفساد الرأي.

﴿١٩٨ - ٢٠٢﴾ ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم فإذا أفضت من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن

كنتم من قبله لمن الضالين * ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم * فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وما له في الآخرة من خلاق * ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار * أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب * لما أمر تعالى بالتقوى، أخبر تعالى أن ابتغاء فضل الله بالتكسب في مواسم الحج وغيره ليس فيه حرج إذا لم يشغل عما يجب إذا كان المقصود هو الحج، وكان الكسب حلالاً منسوباً إلى فضل الله، لا منسوباً إلى حقد العبد، والوقوف مع السبب ونسيان المسبب، فإن هذا هو الحرج بعينه.

وفي قوله: ﴿فإذا أفضت من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام﴾ دلالة على أمور:

أحدها: الوقوف بعرفة، وأنه كان معروفاً أنه ركن من أركان الحج، فالإفاضة من عرفات لا تكون إلا بعد الوقوف.

الثاني: الأمر بذكر الله عند المشعر الحرام وهو المزدلفة، وذلك أيضاً معروفاً، يكون ليلة النحر باثناً بها، وبعد صلاة الفجر يقف في المزدلفة داعياً حتى يسفر جداً، ويدخل في ذكر الله عنده، إيقاع الفرائض والنوافل فيه.

الثالث: أن الوقوف بمزدلفة متأخر عن الوقوف بعرفة، كما تدل عليه الفاء والترتيب.

الرابع والخامس: أن عرفات ومزدلفة كلاهما من مشاعر الحج المقصود فعلها وإظهارها.

السادس: أن مزدلفة في الحرم كما قيده بالحرام.

السابع: أن عرفة في الحل كما هو مفهوم التقييد بـ «مزدلفة».

﴿واذكروه كما هداكم وإن كنتم من

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَوْمِ الْأَخِيرِ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرِي وَلَا تَعْصُوا أَمْرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخَالِفُونَ عَلَيْهِ أَمْرًا ذَرْبًا فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا لَكُمْ رُجُوعًا ﴿١٩٨﴾ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرِي وَلَا تَعْصُوا أَمْرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخَالِفُونَ عَلَيْهِ أَمْرًا ذَرْبًا فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا لَكُمْ رُجُوعًا ﴿١٩٩﴾ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرِي وَلَا تَعْصُوا أَمْرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخَالِفُونَ عَلَيْهِ أَمْرًا ذَرْبًا فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا لَكُمْ رُجُوعًا ﴿٢٠٠﴾ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرِي وَلَا تَعْصُوا أَمْرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخَالِفُونَ عَلَيْهِ أَمْرًا ذَرْبًا فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا لَكُمْ رُجُوعًا ﴿٢٠١﴾ وَلَئِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُوا أَمْرِي وَلَا تَعْصُوا أَمْرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخَالِفُونَ عَلَيْهِ أَمْرًا ذَرْبًا فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا لَكُمْ رُجُوعًا ﴿٢٠٢﴾

قبله لمن الضالين﴾ أي: اذكروا الله تعالى كما من عليكم بالهداية بعد الضلال، وكما علمكم ما لم تكونوا تعلمون، فهذه من أكبر النعم التي يجب شكرها ومقابلتها بذكر المنعم في القلب واللسان.

﴿ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس﴾ أي: ثم أفيضوا من مزدلفة من حيث أفاض الناس، من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن، والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفاً عندهم، وهو رمي الجمار، وذبح الهدايا، والطواف، والسعي، والمبيت بـ «منى» ليالي التشريق، وتكميل باقي المناسك.

ولما كانت [هذه] الإفاضة بقصد بها ما ذكر، والمذكورات آخر المناسك، أمر تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذكر الله شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والملة الجسيمة.

وهكذا ينبغي للعبد كلما فرغ من عبادة، أن يستغفر الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمن يرى أنه قد أكمل العبادة، ومن بها على ربه، وجعلت له عللاً ومنزلة رفيعة، فهذا حقيق بالمقت ورد العمل، كما أن

ومن لم يتقه عاقبه أشد العقوبة، فالعلم بالجزاء من أعظم الدواعي لتقوى الله، فلماذا حث تعالى على العلم بذلك.

﴿٢٠٤-٢٠٦﴾ «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وليس المهاد».

لما أمر تعالى بالإكثار من ذكره، وخصوصاً في الأوقات الفاضلة الذي هو خير ومصلحة وبر، أخبر تعالى بحال من يتكلم بلسانه ويخالف فعله قوله، فالكلام إما أن يرفع الإنسان أو ينخفضه، فقال: «ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا» أي: إذا تكلم راق كلامه السامع، وإذا نطق ظننته يتكلم بكلام نافع، ويؤكد ما يقول بأنه «يشهد الله على ما في قلبه» بأن يخبر أن الله يعلم أن ما في قلبه موافق لما نطق به، وهو كاذب في ذلك، لأنه يخالف قوله فعله.

فلو كان صادقاً لتوافق القول والفعل، كحال المؤمن غير المنافق، فلماذا قال: «وهو ألد الخصام» أي: إذا خاصمته، وجدت فيه من اللدد والصعوبة والتعصب، وما يترتب على ذلك ما هو من مقابح الصفات، ليس كأخلاق المؤمنين الذين جعلوا السهولة مركبهم، والانقياد للحق وظيفتهم، والساحة سجيتهم.

﴿وإذا تولى﴾ هذا الذي يعجبك قوله إذا حضر عندك «سعى في الأرض ليفسد فيها» أي: يمتد على أعمال المعاصي التي هي إفساد في الأرض «ويهلك الحرث والنسل» فالزروع والشمار والواشي تلتف وتنقص وتقل بركتها، بسبب العمل في المعاصي، «والله لا يحب الفساد» وإذا كان لا يحب الفساد فهو يبغض العبد المفسد في الأرض غاية البغض، وإن قال بلسانه قولاً حسناً.

وحصول رضا الله، والفوز بالنعيم المقيم، والقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء أجمع دعاء وأكمل، وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به، ويحث عليه.

﴿٢٠٣﴾ «واذكروا الله في أيام معدودات فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون» يأمر تعالى بذكره في الأيام المعدودات، وهي أيام التشريق الثلاثة بعد العيد، لمزيتها وشرفها، وكون بقية أحكام المناسك تفعل بها، ولكون الناس أضيافاً لله فيها، ولهذا حرم صيامها، فللذكر فيها مزية ليست لغيرها، ولهذا قال النبي ﷺ: «أيام التشريق، أيام أكل وشرب، وذكر الله».

ويدخل في ذكر الله فيها ذكره عند رمي الجمار، وعند الذبح، والذكر المقيد عقب الفرائض، بل قال بعض العلماء: إنه يستحب فيها التكبير المطلق كالعشر، وليس بيبعد.

﴿فمن تعجل في يومين﴾ أي: خرج من «منى» ونفر منها قبل غروب شمس اليوم الثاني «فلا إثم عليه، ومن تأخر» بأن بات بها ليلة الثالث ورمى من الغد «فلا إثم عليه» وهذا تخفيف من الله [تعالى] على عباده في إباحة كلا الأمرين، ولكن من المعلوم أنه إذا أبيع كلا الأمرين، فالتأخر أفضل لأنه أكثر عبادة.

ولما كان نفي الحرج قد يفهم منه نفي الحرج في ذلك المذكور وفي غيره، والحاصل أن الحرج منفي عن المتقدم والمتأخر فقط بقوله: «لمن اتقى» أي: اتقى الله في جميع أموره وأحواله، فمن اتقى الله في كل شيء، حصل له نفي الحرج في كل شيء، ومن اتقاه في شيء دون شيء، كان الجزاء من جنس العمل.

﴿واتقوا الله﴾ بامتثال أوامره واجتناب معاصيه، «واعلموا أنكم إليه تحشرون» فمجازيكم بأعمالكم، فمن اتقاه وجد جزاء التقوى عنده،



الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال آخر.

ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، فمنهم: «من يقول ربنا آتنا في الدنيا» أي: يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهوراته، وليس له في الآخرة من نصيب لرغبته عنها، وقصر همته على الدنيا، ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه، وكل من هؤلاء هؤلاء لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم وهماهم ونياتهم، جزاء دائراً بين العدل والفضل، يحمد عليه أكمل حمد وأتمه، وفي هذه الآية دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع، مسلماً أو كافراً أو فاسقاً، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه دليلاً على محبته له وقربه منه، إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين.

والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها كل ما يحسن وقعه عند العبد، من رزق هنيء واسع حلال، وزوجة صالحة، وولد تقربه العين، وراحة، وعلم نافع، وعمل صالح، ونحو ذلك من المطالب المحبوبة والمباحة.

وحسنة الآخرة هي السلامة من العقوبات في القبر والموقف، والنار،

وذلك أن الله تعالى يطوي السموات والأرض، وتنتثر الكواكب، وتكور الشمس والقمر، وتنزل الملائكة الكرام فتحيط بالخلائق، وينزل الباري [تبارك] تعالى: ﴿في ظلل من الغمام﴾ ليفصل بين عباده بالقضاء العدل.

فتوضع الموازين، وتنتشر الدواوين، وتبيض وجوه أهل السعادة، وتسود وجوه أهل الشقاوة، ويتميز أهل الخير من أهل الشر، وكل يجازى بعمله، فهناك بعض الظالم على يديه إذا علم حقيقة ما هو عليه.

وهذه الآية وما أشبهها دليل للمذهب أهل السنة والجماعة، المثبتين للصفات الاختيارية، كالاستواء والنزول والمجيء، ونحو ذلك من الصفات التي أخبر بها تعالى عن نفسه، أو أخبر بها عنه رسوله ﷺ، فيثبتونها على وجه يليق بجلال الله وعظمته، من غير تشبيه ولا تحريف، خلافاً للمعطلة على اختلاف أنواعهم، من الجهمية والمعتزلة والأشعرية، ونحوهم، ممن ينفي هذه الصفات، ويتأول لأجلها الآيات بتأويلات ما أنزل الله عليها من سلطان، بل حقيقتها القدر في بيان الله وبيان رسوله، والزعم بأن كلامهم هو الذي تحصل به الهداية في هذا الباب، فهؤلاء ليس معهم دليل نقلي، بل ولا دليل عقلي، أما النقلي فقد اعترفوا أن النصوص الواردة في الكتاب والسنة، ظاهرها بل صريحها، دال على مذهب أهل السنة والجماعة، وأنها تحتاج لدلالاتها على مذهبهم الباطل، أن تخرج عن ظاهرها، ويزاد فيها وينقص، وهذا كما ترى لا يرتضيه من في قلبه مثقال ذرة من إيمان.

وأما العقل فليس في العقل ما يدل على نفي هذه الصفات، بل العقل دلّ على أن الفاعل أكمل من الذي لا يقدر

فإن زلتم من بعد ما جاء تكلم البيئات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴿هذا أمر من الله تعالى للمؤمنين أن يدخلوا﴾ في السلم كافة ﴿أي: في جميع شرائع الدين، ولا يتركوا منها شيئاً، وأن لا يكونوا ممن اتخذوا إلهه هواه، وإن خالفه الأمر المشروع هواه فعله، وإن خالفه تركه، بل الواجب أن يكون الهوى تبعاً للدين، وأن يفعل كل ما يقدر عليه من أفعال الخير، وما يعجز عنه، يلتزمه وينويه، فيدركه نيته.

ولما كان الدخول في السلم كافة لا يمكن ولا يتصور إلا بمخالفة طرق الشيطان، قال: ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي: في العمل بمعاصي الله ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ والعدو المبين لا يأمّر إلا بالسوء والفحشاء وما به الضرر عليكم.

ولما كان العبد لا بد أن يقع منه خلل وزلل، قال تعالى: ﴿فإن زلتم من بعد ما جاء تكلم البيئات﴾ أي: على علم ويقين ﴿فاعلموا أن الله عزيز حكيم﴾.

وفيه من الوعيد الشديد والتخويف ما يوجب ترك الزلل، فإن العزيز القاهر^(٣) الحكيم إذا عصاه العاصي قهره بقوته، وعذبه بمقتضى حكمته، فإن من حكمته تعذيب العصاة والجنّة.

﴿٢١٠﴾ ﴿هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور﴾ وهذا فيه من الوعيد الشديد والتهديد ما تنخلع له القلوب. ، يقول تعالى: هل ينتظر الساعون في الفساد في الأرض، المتبعون لخطوات الشيطان، النابذون لأمر الله، إلا يوم الجزاء بالأعمال، الذي قد حشي من الأهوال والشدائد والفظائع ما يقلقل قلوب الظالمين، ويحوق به الجزاء السيئ على المفسدين،

ففي هذه الآية دليل على أن الأقوال التي تصدر من الأشخاص ليست دليلاً على صدق ولا كذب، ولا بسر ولا فجور، حتى يوجد العمل المصدق لها المزكي لها، وأنه ينبغي اختبار أحوال الشهود، والمحقق والمبطل من الناس بسير أعمالهم، والنظر لقرائن أحوالهم، وأن لا يغتر بتمويههم وتزكيتهم أنفسهم.

ثم ذكر أن هذا المفسد في الأرض بمعاصي الله، إذا أمر بتقوى الله تكبر وأنف، و﴿أخذته العزة بالإثم﴾ فيجمع بين العمل بالمعاصي والكبر^(١) على الناصحين.

﴿فحسبه جهنم﴾ التي هي دار العاصين والتكبرين، و﴿لبئس المهاد﴾ أي: المستقر والسكن عذاب دائم، وهم لا ينقطع، ويأس مستمر، لا يخفف عنهم العذاب ولا يرجون الشواب، جزاء لجناياتهم ومقابلة لأعمالهم، فعياداً بالله من أحوالهم.

﴿٢٠٧﴾ ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤوف بالعباد﴾ هؤلاء هم الموفقون الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوا طلباً لمرضاة الله ورجاء لشوابه، فهم بذلوا الثمن للمليء الوفي الرؤوف بالعباد، الذي من رافته ورحمته أن وفقهم لذلك، وقد وعد الوفاء بذلك، فقال:

﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ إلى آخر الآية. وفي هذه الآية أخبر أنهم اشتروا أنفسهم وبذلوا، وأخبر برأفته الموجهة لتحصيل ما طلبوا، وبذل ما به رغبوا، فلا تسأل بعد هذا عن ما يحصل لهم من الكريم، وما ينالهم من الفوز والتكريم^(٢).

﴿٢٠٨ - ٢٠٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين *

(١) في ب: والتكبر.

(٢) من أول الآية إلى هنا ساقط من: ب، وقد قام التجار بتفسير الآية من عند نفسه انظر طبعة التجار (١/ ٢٥٢ - ٢٥٤) ولم يبين أن هذا ليس من كلام الشيخ - رحمه الله -.

(٣) في ب: العزيز المقام.

حساب ﴿فالرزق الدنيوي يحصل للمؤمن والكافر، وأما رزق القلوب من العلم والإيمان، ومحبة الله وخشيته ورجائه، ونحو ذلك، فلا يعطيها إلا من يحب.﴾

﴿٢١٣﴾ ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ (أي: كان الناس) [أي: كانوا مجتمعين على الهدى، وذلك عشرة قرون بعد نوح عليه السلام، فلما اختلفوا في الدين فكفر فريق منهم وبقي الفريق الآخر على الدين، وحصل النزاع وبعث الله الرسل ليفصلوا بين الخلائق ويقيموا الحجة عليهم، وقيل بل كانوا^(١) مجتمعين على الكفر والضلال والشقاء، ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله تعالى بإرسال الرسل إليهم مبشرين ﴿من أطاع الله بشمرات الطاعات، من الرزق والقوة في البدن والقلب والحياة الطيبة، وأعلى ذلك الفوز برضوان الله والجنة.﴾ ومنذرين ﴿من عصى الله بشمرات المعصية، من حرمان الرزق، والضعف والإهانة، والحياة الضيقة، وأشد ذلك سخط الله والنار.﴾

﴿وأنزل معهم الكتاب بالحق﴾ وهو الإخبارات الصادقة والأوامر العادلة، فكل ما اشتملت عليه الكتب، فهو حق يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع، أن يرد الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وسنة رسوله فصل النزاع لما أمر بالرد إليهما.

ولما ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا

تعالى كفر النعمة تبديلاً لها، لأن من أنعم الله عليه بنعمة دينية أو دنيوية فلم يشكرها ولم يقر بواجبها، اضمحلت عنه وذهبت، وتبدلت بالكفر والمعاصي، فصار الكفر بدل النعمة، وأما من شكر الله تعالى وقام بحقوقها، فإنها تثبت وتستمر، ويزيده الله منها.

﴿٢١٢﴾ ﴿زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ يجز تعالى أن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله ولم يتقادوا لشعره، أنهم زين لهم الحياة الدنيا، فزينت في أعينهم وقلوبهم، فرضوا بها واطمأنوا بها، وصارت أهواؤهم وإراداتهم وأعمالهم كلها لها، فأقبلوا عليها، وأكبوا على تحصيلها، وعظموها وعظموا من شاركهم في صنيعهم، واحتقروا المؤمنين واستهزأوا بهم، وقالوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا؟

وهذا من ضعف عقولهم ونظرهم القاصر، فإن الدنيا دار ابتلاء وامتحان، وسيحصل الشقاء فيها لأهل الإيمان والكفران، بل المؤمن في الدنيا وإن ناله مكروه، فإنه يصبر ويحتسب، فيخفف الله عنه بإيمانه وصبره ما لا يكون لغيره.

وإنما الشأن كل الشأن والتفضيل الحقيقي في الدار الباقية، فلهذا قال تعالى: ﴿والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة﴾ فيكون المتقون في أعلى الدرجات، متمتعين بأنواع النعيم والسرور والبهجة والحبور.

والكفار تحتهم في أسفل الدركات، معذبين بأنواع العذاب والإهانة والشقاء السرمدي الذي لا ينتهي له، ففي هذه الآية تسلية للمؤمنين، ونعي على الكافرين. ولما كانت الأرزاق الدنيوية والأخروية لا تحصل إلا بتقدير الله، ولن تنال إلا بمشيئة الله، قال تعالى: ﴿والله يرزق من يشاء بغير

على الفعل، وأن فعله تعالى المتعلق بنفسه والمتعلق بخلقه هو كمال، فإن زعموا أن إثباتها يدل على التشبيه بخلقه، قيل لهم: الكلام على الصفات يتبع الكلام على الذات، فكما أن الله ذاتاً لا تشبهها الذات، فله صفات لا تشبهها الصفات، فصفاته تبع لذاته، وصفات خلقه تبع لذواتهم، فليس في إثباتها ما يقتضي التشبيه بوجه.

ويقال أيضاً لمن أثبت بعض الصفات ونفى بعضاً، أو أثبت الأسماء دون الصفات: إما أن تثبت الجميع كما أثبت الله لنفسه وأثبت رسوله، وإما أن تنفي الجميع وتكون منكراً لرب العالمين، وأما إثباتك بعض ذلك ونفيك لبعضه، فهذا تناقض، ففرق بين ما أثبت وما نفيت، ولن تجد إلى الفرق سبيلاً، فإن قلت: ما أثبتته لا يقتضي تشبيهاً، قال لك أهل السنة: والإثبات لما نفيت لا يقتضي تشبيهاً، فإن قلت: لا أعقل من الذي نفيت إلا التشبيه، قال لك النفاة: ونحن لا نعقل من الذي أثبتته إلا التشبيه، فما أجبت به النفاة، أجابك به أهل السنة، لما نفيت.

والحاصل أن من نفى شيئاً وأثبت شيئاً بما دل الكتاب والسنة على إثباته، فهو متناقض، لا يثبت له دليل شرعي ولا عقلي، بل قد خالف المعقول والمنقول.

﴿٢١١﴾ ﴿سل بني إسرائيل كما آتيناهم من آية بينة ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾ يقول تعالى: ﴿سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة﴾ تدل على الحق وعلى صدق الرسل، فتيقنوها وعرفوها، فلم يقوموا بشكر هذه النعمة التي تقتضي القيام بها.

بل كفروا بها وبدلوا نعمة الله كفرةً، فلهذا استحقوا أن ينزل الله عليهم عقابه ويحرمهم من ثوابه، وسمى الله

(١) زيادة في هامش ب، لم يحدد محلها، وبالنظر إلى السياق يظهر أن هذا محلها، ولهذا وليتسق الكلام يكون آخره هكذا (وقيل بل كانوا مجتمعين على الكفر) ويكون قوله: (أي كان الناس) مكرراً.

﴿٢١٦﴾ ﴿كتب عليكم القتال وهو
كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو
خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر
لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ هذه
الآية فيها فرض القتال في سبيل الله،
بعدما كان المؤمنون مأمورين بتركه،
لضعفهم وعدم احتمالهم لذلك، فلما
هاجر النبي ﷺ إلى المدينة وكثر



كل أحد بحسبه، من غني وفقير ومتوسط، كل له قدرة على إنفاق ما عفا من ماله، ولو شق قمرة.

ولهذا أمر الله رسوله ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس وصدقاتهم، ولا يكلفهم ما يشق عليهم. ذلك بأن الله تعالى لم يأمرنا بما أمرنا به حاجة منه لنا أو تكليفاً لنا [بما يشق] ^(١)، بل أمرنا بما فيه سعادتنا، وما يسهل علينا، وما به النفع لنا وإخواننا، فيستحق على ذلك أتم الحمد.

ولما بين تعالى هذا البيان الشافي، وأطلع العباد على أسرار شرعه، قال: ﴿كَذَلِكَ يبين الله لكم الآيات﴾ أي: الدالات على الحق، المحصلات للعلم النافع والفرقان، ﴿لعلكم تتفكرون في الدنيا والآخرة﴾ أي: لكي تستعملوا أفكاركم في أسرار شرعه، وتعرفوا أن أوامره فيها مصالح الدنيا والآخرة، وأيضاً لكي تتفكروا في الدنيا وسرعة انقضائها، فترفضوها، وفي الآخرة وبقاتها، وأنها دار الجزاء فتعمروها.

﴿٢٢٠﴾ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ

في بطونهم ناراً، وسيصلون سعيراً﴾ شق ذلك على المسلمين، وعزلوا طعامهم عن طعام اليتامى خوفاً على أنفسهم من تناولها، ولو في هذه الحالة التي جرت العادة بالمشاركة فيها، وسألوا النبي ﷺ عن ذلك، فأخبرهم تعالى أن المقصود إصلاح أموال اليتامى بحفظها وصيانتها والأجار فيها، وأن خلطتهم إياهم في طعام أو غيره جائز على وجه لا يضر باليتامى، لأنهم إخوانكم، ومن شأن الأخ مخالطة أخيه، والرجع في ذلك إلى النية والعمل، فمن علم الله من نيته أنه مصلح لليتامى، وليس له طمع في ماله، فلو دخل عليه شيء من غير قصد لم يكن عليه بأس، ومن علم الله من نيته أن قصده بالمخالطة التوصل إلى أكلها وتناولها، فذلك الذي حَرَجَ وأَيمَ، و«الوسائل لها أحكام المقاصد».

وفي هذه الآية دليل على جواز أنواع المخالطات في المأكَل والمشارب، والعقود وغيرها، وهذه الرخصة لطف من الله [تعالى] وإحسان، وتوسعة على المؤمنين، وإلا فـ ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ أي: شق عليكم بعدم الرخصة بذلك فخرجتم، وشق عليكم وأنتم، ﴿إِنَّ اللَّهَ عزيز﴾ أي: له القوة الكاملة والقهر لكل شيء، ولكنه مع ذلك ﴿حكيم﴾ لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة، فعزته لا تنافي حكمته، فلا يقال: إنه ما شاء فعل، وافق الحكمة أو خالفها، بل يقال: إن أفعاله وكذلك أحكامه تابعة لحكمته، فلا يخلق شيئاً عبثاً، بل لا بد له من حكمة عرفناها أم لم نعرفها، وكذلك لم يشرع لعباده شيئاً مجرداً عن الحكمة، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، لتتام حكمته ورحمته.

﴿٢٢١﴾ ﴿وَلَا تَنْكَحُوا الْمَشْرَكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَامَةُ مُؤْمِنَةٍ خَيْرٌ مِنْ مَشْرَكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكَحُوا الْمَشْرِكِينَ

حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بإذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون﴾ ﴿وَلَا تَنْكَحُوا﴾ النساء ﴿المشركات﴾ ما دمن على شركهن ﴿حتى يؤمن﴾؛ لأن المؤمنة ولو بلغت من الدمامة ما بلغت خير من المشركة ولو بلغت من الحسن ما بلغت، وهذه عامة في جميع النساء المشركات، وخصصتها آية المائدة في إباحة نساء أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾.

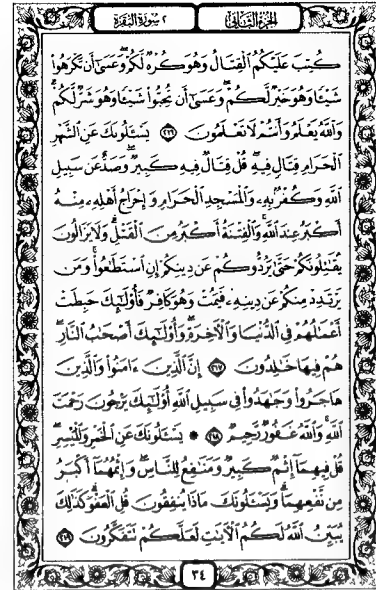
﴿وَلَا تَنْكَحُوا الْمَشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ وهذا عام لا تخصيص فيه. ثم ذكر تعالى الحكمة في تحريم نكاح المسلم أو المسلمة لمن خالفهما في الدين، فقال: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ أي: في أقوالهم أو أفعالهم وأحوالهم، فمخالطتهم على خطر منهم، والخطر ليس من الأخطار الدنيوية، إنما هو الشقاء الأبدي.

ويستفاد من تعليل الآية، النهي عن مخالطة كل مشرك ومبتدع، لأنه إذا لم يجوز التزوج مع ^(١) أن فيه مصالح كثيرة فالخلطة المجردة من باب أولى، وخصوصاً الخلطة التي فيها ارتفاع الشرك ونحوه على المسلم، كالخدمة ونحوها.

وفي قوله: ﴿وَلَا تَنْكَحُوا الْمَشْرِكِينَ﴾ دليل على اعتبار الولي [في النكاح].

﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ﴾ أي: يدعو عباده لتحصيل الجنة والمغفرة التي من آثارها دفع العقوبات، وذلك بالدعوة إلى أسبابها من الأعمال الصالحة، والتوبة النصوح، والعلم النافع، والعمل الصالح.

﴿وَيَبِينُ آيَاتِهِ﴾ أي: أحكامه وحكمها ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيوجب لهم ذلك التذكر لما نسوه، وعلم ما جهلوه، والامثال لما ضيعوه.



والنبيات، ومنه سماعه لأقوال الخالفين، وعلمه بمقاصدهم هل هي خير أم شر، وفي ضمن ذلك التحذير من مجازاته، وأن أعمالكم ونياتكم قد استقر علمها عنده.

﴿٢٢٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿لَا يَأْخُذْكُمْ اللَّهُ بِاللُّغُو فِي أَيْمَانِكُمْ، وَلَكِنْ يَأْخُذْكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أي: لا يؤاخذكم بما يجري على ألسنتكم من الأيمان اللاغية التي يتكلم بها العبد من غير قصد منه ولا كسب قلب، ولكنها جرت على لسانه، كقول الرجل في عرض كلامه: «لا والله»، و «بل والله»، وكحلفه على أمر ماض يظن صدق نفسه، وإنما المؤاخظة على ما قصده القلب.

وفي هذا دليل على اعتبار المقاصد في الأقوال، كما هي معتبرة في الأفعال.

﴿والله غفور﴾ لمن تاب إليه، ﴿حليم﴾ بمن عصاه، حيث لم يعاجله بالعقوبة، بل حلم عنه وستر، وصفح مع قدرته عليه وكونه بين يديه.

﴿٢٢٦-٢٢٧﴾ للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم * وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم * وهذا من الأيمان الخاصة بالزوجة، في أمر خاص، وهو حلف الزوج على ترك

وطء زوجته مطلقاً، أو مقيداً، بأقل من أربعة أشهر أو أكثر.

فمن آلى من زوجته خاصة، فإن كان لدون أربعة أشهر، فهذا مثل سائر الأيمان، إن حنث كفر، وإن أتم يمينه فلا شيء عليه، وليس لزوجته عليه سبيل، لأنه ملكه أربعة أشهر.

وإن كان أبداً أو مدة تزيد على أربعة أشهر، ضربت له مدة أربعة أشهر من يمينه إذا طلبت زوجته ذلك، لأنه حق لها، فإذا تمت أمر بالفيتة وهو الوطء، فإن وطئ فلا شيء عليه إلا كفارة اليمين، وإن امتنع أجبر على الطلاق، فإن امتنع طلق عليه الحاكم.

ولكن الفيتة والرجوع إلى زوجته أحب إلى الله تعالى، ولهذا قال: ﴿فإن فاءوا﴾ أي: رجعوا إلى ما حلفوا على تركه، وهو الوطء. ﴿فإن الله غفور﴾ يغفر لهم ما حصل منهم من الحلف بسبب رجوعهم. ﴿رحيم﴾

جعل لأيمانهم كفارة وتحلة، ولم يجعلها لازمة لهم غير قابلة للانفكاك، ورحيم بهم أيضاً، حيث فاءوا إلى زوجاتهم وحنوا عليهن ورحموهن.

﴿وإن عزموا الطلاق﴾ أي: امتنعوا من الفيتة، فكان ذلك دليلاً على رغبتهم عنهن، وعدم إرادتهم لأزواجهن، وهذا لا يكون إلا عزمًا على الطلاق، فإن حصل هذا الحق الواجب منه مباشرة، وإلا أجبره الحاكم عليه أو قام به.

﴿فإن الله سميع عليم﴾ فيه وعيد وتهديد لمن يخلف هذا الحلف، ويقصد بذلك المضارة والمشاقة.

ويستدل بهذه الآية على أن الإيلاء خاص بالزوجة، لقوله: ﴿من نسائهم﴾ وعلى وجوب الوطء في كل أربعة أشهر مرة، لأنه بعد الأربعة، يجبر إما على الوطء، أو على الطلاق، ولا يكون ذلك إلا لتركه واجباً.

﴿٢٢٨﴾ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر وبعولتهن أحق بردهن في ذلك إن أرادوا إصلاحاً ولهن

مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم * أي:

النساء اللاتي طلقهن أزواجهن يتربصن بأنفسهن * أي: ينتظرن ويعتددن مدة ثلاثة قروء * أي: حيض، أو أطهار، على اختلاف العلماء في المراد بذلك، مع أن الصحيح أن القراء الحيض، ولهذه العدة عدة حكم، منها: العلم ببراءة الرحم، إذا تكررت عليها ثلاثة

الأقراء، علم أنه ليس في رحمها حمل، فلا يفضي إلى اختلاط الأنساب، ولهذا أوجب تعالى عليهن الإخبار عن ما خلق الله في أرحامهن * وحرم عليهن كتمان ذلك من حمل أو حيض، لأن كتمان ذلك يفضي إلى مفساد كثيرة، فكتمان الحمل موجب أن تلحقه بغير من هو له، رغبة فيه واستعجالاً لانقضاء العدة، فإذا ألحقته بغير أبيه، حصل من قطع الرحم والإرث واحتجاب محارمه وأقاربه عنه، وربما تزوج ذوات محارمه، وحصل في مقابلة ذلك إلحاقه بغير أبيه، وثبوت توابع ذلك من الإرث منه وله، ومن جعل أقارب الملحق به أقارب له، وفي ذلك من الشر والفساد ما لا يعلمه إلا رب

العباد، ولو لم يكن في ذلك إلا إقامتها مع من نكاحها باطل في حقه، وفيه الإصرار على الكبيرة العظيمة وهي الزنا، لكفى بذلك شراً.

وأما كتمان الحيض، بأن استعجلت وأخبرت به وهي كاذبة، ففيه من انقطاع حق الزوج عنها وإباحتها لغيره، وما يتفرع عن ذلك من الشر كما ذكرنا، وإن كذبت وأخبرت بعدم وجود الحيض لتطول العدة فتأخذ منه نفقة غير واجبة عليه، بل هي سحت عليها محرمه من جهتين:

من كونها لا تستحقه، ومن كونها نسبتبه إلى حكم الشرع وهي كاذبة، وربما راجعها بعد انقضاء العدة، فيكون ذلك سفاحاً لكونها أجنبية عنه، فلهذا قال تعالى: ﴿ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾

ذلك أبداً، فيحصل عليها من الضرر ما الله به عليم، فأخبر تعالى أن **«الطلاق»** أي: الذي تحصل به الرجعة **«مرتان»** ليتمكن الزوج إن لم يرد المضارة من ارتجاعها، ويراجع رأيه في هذه المدة، وأما ما فوقها فليس محلاً لذلك، لأن من زاد على الثنتين فإما متجرىء على المحرم، أو ليس له رغبة في إمساكها، بل قصده المضارة، فلهذا أمر تعالى الزوج أن يمسك زوجته **«بمعروف»** أي: عشرة حسنة، ويجري مجرى أمثاله مع زوجاتهم، وهذا هو الأرجح، وإلا يسرحها ويفارقها **«بإحسان»** ومن الإحسان أن لا يأخذ على فراقه لها شيئاً من مالها، لأنه ظلم، وأخذ للمال في غير مقابلة بشيء، فلهذا قال: **«ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله»** وهي المخالعة بالمعروف، بأن كرهت الزوجة زوجها لخلقها أو خلقه أو نقص دينه، وخافت أن لا تطيع الله فيه، **«فإن خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما اقتدت به»**؛ لأنه عوض لتحصيل مقصودهما من الفرقة، وفي هذا مشروعية الخلع، إذا وجدت هذه الحكمة.

«تلك» أي: ما تقدم من الأحكام الشرعية **«حدود الله»** أي: أحكامه التي شرعها لكم، وأمر بالوقوف معها، **«ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون»** أي: ظلم أعظم ممن اقتحم الحلال، وتعدى منه إلى الحرام، فلم يسه ما أحل الله؟ والظلم ثلاثة أقسام:

ظلم العبد فيما بينه وبين الله، وظلم العبد الأكبر الذي هو الشرك، وظلم العبد فيما بينه وبين الخلق، فالشرك لا يغفره الله إلا بالتوبة، وحقوق العباد لا يترك الله منها شيئاً، والظلم الذي بين العبد وربه فيما دون الشرك، تحت المشيئة والحكمة.

«٢٣٠ - ٢٣١» **«فإن طلقها فلا**

إلى المعروف، وهو: العادة الجارية في ذلك البلد، وذلك الزمان من مثلها مثله، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة والأمكنة، والأحوال، والأشخاص، والعوائد.

وفي هذا دليل على أن النفقة والكسوة والمعاشرة والمسكن وكذلك الوطء - الكل يرجع إلى المعروف، فهذا موجب العقد المطلق.

وأما مع الشرط، فعلى شرطهما، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرّم حلالاً.

«وللرجال عليهن درجة» أي: رفعة ورياسة، وزيادة حق عليها، كما قال تعالى: **«الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم»**.

ومتنب النبوّة والقضاء، والإمامة الصغرى والكبرى، وسائر الولايات مختص بالرجال، وله ضعف ما لها في كثير من الأمور، كالميراث ونحوه.

«والله عزيز حكيم» أي: له العزة القاهرة والسلطان العظيم، الذي دانت له جميع الأشياء، ولكنه مع عزته حكيم في تصرفه.

ويخرج من عموم هذه الآية الحوامل، فعدتهن وضع الحمل، واللاتي لم يدخل بهن فليس لهن عدة، والإماء فعدتهن حيضتان، كما هو قول الصحابة رضي الله عنهم، وسياق الآيات ^(٢) يدل على أن المراد بها الحرة.

«٢٢٩» **«الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما اقتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون»** كان الطلاق في الجاهلية، واستمر أول الإسلام، يُطلق الرجل زوجته بلا نهاية، فكان إذا أراد مضارتها طلقها، فإذا شارفت انقضاء عدتها راجعها، ثم طلقها، وصنع بها مثل

فصدور الكتمان منهن دليل على عدم إيمانهن بالله واليوم الآخر، وإلا فلو آمن بالله واليوم الآخر، وعرفن أنهن مجزيات عن أعمالهن، لم يصدر منهن شيء من ذلك.

وفي ذلك دليل على قبول خبر المرأة عما تخبر به عن نفسها، من الأمر الذي لا يطلع عليه غيرها، كالحيض والحمل ونحوه ^(١).

ثم قال تعالى: **«وبعولتهن أحق بردهن في ذلك»** أي: لأزواجهن ما دامت متربصة في تلك العدة، أن يردوهن إلى نكاحهن **«إن أرادوا إصلاحاً»** أي: رغبة وألفة ومودة.

ومفهوم الآية أنهم إن لم يريدوا الإصلاح فليسوا بأحق بردهن، فلا يحل لهم أن يراجعوهن لقصد المضارة لها، وتطويل العدة عليها، وهل يملك ذلك مع هذا القصد؟ فيه قولان.

الجمهور على أنه يملك ذلك مع التحريم، والصحيح أنه إذا لم يرد الإصلاح لا يملك ذلك، كما هو ظاهر الآية الكريمة، وهذه حكمة أخرى في هذا التبرص، وهي: أنه ربما أن زوجها ندم على فراقه لها، فجعلت له هذه المدة، ليتروى بها ويقطع نظره.

وهذا يدل على محبته تعالى للألفة بين الزوجين، وكرامته للفراق، كما قال النبي ﷺ: **«أبغض الحلال إلى الله الطلاق»**، وهذا خاص في الطلاق الرجعي، وأما الطلاق البائن فليس البعل بأحق برجعتها، بل إن تراضيا على التراجع فلا بد من عقد جديد مجتمع الشروط.

ثم قال تعالى: **«ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف»** أي: وللنساء على بعولتهن من الحقوق والواجبات مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة.

ومرجع الحقوق بين الزوجين يرجع

نحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظننا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون * وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم * يقول تعالى: ﴿فإن طلقها﴾ أي: الطلقة الثالثة ﴿فلا نحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ أي: نكاحاً صحيحاً ويطؤها، لأن النكاح الشرعي لا يكون إلا صحيحاً، ويدخل فيه العقد والوطء، وهذا بالاتفاق.

ويشترط^(١) أن يكون نكاح الثاني نكاح رغبة، فإن قصد به تحليلها للأول فليس بنكاح، ولا يفيد التحليل، ولا يفيد وطء السيد لأنه ليس بزواج، فإذا تزوجها الثاني رغباً ووطئها ثم فارقها وانقضت عدتها ﴿فلا جناح عليهما﴾ أي: على الزوج الأول والزوجة ﴿أن يتراجعا﴾ أي: يجدا عقداً جديداً بينهما، لإضافته التراجع إليهما، فدل على اعتبار التراضي.

ولكن يشترط في التراجع أن يظننا ﴿أن يقيما حدود الله﴾ بأن يقوم كل منهما بحق صاحبه، وذلك إذا ندما على عسرتهم السابقة الموجبة للفراق، وعزما أن يبدلاها بعشرة حسنة، فهنا لا جناح عليهما في التراجع.

ومفهوم الآية الكريمة أنهما إن لم يظننا أن يقيما حدود الله، بأن غلب على ظنهما أن الحال السابقة باقية، والعشرة السيئة غير زائلة أن عليهما في ذلك جناحاً، لأن جميع الأمور إن لم يقم فيها أمر الله، ويسلك بها طاعته، لم يحل الإقدام عليها.

وفي هذا دلالة على أنه ينبغي للإنسان إذا أراد أن يدخل في أمر من

الأمور، خصوصاً الولايات الصغار والكبار، نظر في نفسه^(٢)، فإن رأى من نفسه قوة على ذلك ووثق بها، أقدم ولا أحجم.

ولما بين الله تعالى هذه الأحكام العظيمة، قال: ﴿وتلك حدود الله﴾ أي: شرائعه التي حددها وبينها ووضحها.

﴿يبينها لقوم يعلمون﴾ لأنهم هم المتفوعون بها، النافعون لغيرهم.

وفي هذا من فضيلة أهل العلم ما لا يخفى، لأن الله تعالى جعل تبيينه لحدوده خاصاً بهم، وأنهم المقصودون بذلك، وفيه أن الله تعالى يحب من عباده، معرفة حدود ما أنزل على رسوله والتفقه بها.

ثم قال تعالى: ﴿وإذا طلقتم النساء﴾ أي: طلاقاً رجعيّاً بواحدة أو نيتين.

﴿فبلغن أجلهن﴾ أي: قارين انقضاء عدتهن.

﴿فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف﴾ أي: إما أن تراجعوهن ونيتكم القيام بحقوقهن، أو تتركوهن بلا رجعة ولا إضرار، ولهذا قال: ﴿ولا تمسكوهن ضراراً﴾ أي: مضارة بهن ﴿لتعتدوا﴾ في فعلكم هذا الحلال، إلى الحرام؛ فالحلال: الإمساك بمعروف^(٣)، والحرام: المضارة، ﴿ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه﴾ ولو كان الحق يعود للمخلوق فالضرر عائد إلى من أراد الضرر.

﴿ولا تتخذوا آيات الله هزواً﴾ لما بين تعالى حدوده غاية التبيين، وكان المقصود العلم بها والعمل، والوقوف معها وعدم مجاوزتها، لأنه تعالى لم ينزلها عبثاً، بل أنزلها بالحق والصدق والجهد، نهى عن اتخاذها هزواً، أي: لعباً بها، وهو التجرؤ عليها، وعدم الامتنال لواجبها، مثل استعمال المضارة في الإمساك أو الفراق، أو كثرة الطلاق، أو جمع الثلاث، والله من رحمته جعل له واحدة بعد واحدة، وفقاً

به وسعياً في مصلحته.

﴿واذكروا نعمة الله عليكم﴾ عموماً، باللسان ثناءً وهداً، وبالقلب اعتقاداً وإقراراً، وبالأركان بصرفها في طاعة الله، ﴿وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة﴾ أي: السنة، اللذين بين لكم بهما طرق الخير ورجبكم فيها، وطرق الشر وحذركم إياها، وعزقكم أنفسه ووقائعه في أوليائه وأعدائه، وعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

وقيل: المراد بالحكمة أسرار الشريعة، فالكتاب فيه الحكم، والحكمة فيها بيان حكمة الله في أوامره ونواهيه، وكلا المعنيين صحيح، ولهذا قال: ﴿يعظكم به﴾ أي: بما أنزل عليكم، وهذا مما يقوي أن المراد بالحكمة أسرار الشريعة، لأن الموعظة ببيان الحكم والحكمة، والترغيب أو التهيب، فالحكم به يزول الجهل. والحكمة مع الترغيب يوجب الرغبة، والحكمة مع التهيب يوجب الرهبة.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أموركم ﴿واعلموا أن الله بكل شيء عليم﴾ فلهذا بين لكم هذه الأحكام بغاية الإتيان والإحكام، التي هي جارية مع المصالح في كل زمان ومكان [فله الحمد والمنة].

﴿٢٣٢﴾ ﴿وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أذكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ هذا خطاب لأولياء المرأة المطلقة دون الثلاث، إذا خرجت من العدة، وأراد زوجها أن ينكحها ورضيت بذلك، فلا يجوز لوليها من أب وغيره أن يعضلها، أي: يمنعها من الزواج به حقناً عليه وغضباً، واشتمزاً لما فعل من الطلاق الأول.

وذكر أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فإيمانه يمنعه من العضل، فإن ذلك أذكى لكم وأطهر وأطيب مما يظن

(٣) في ب: بالمعروف.

(٢) في ب: أن ينظر.

(١) في ب: ويتعين.



جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن
دليل على أن الولي ينظر على المرأة،
ويعنتها عما لا يجوز فعله، ويجبرها على
ما يجب، وأنه مخاطب بذلك، واجب
عليه.

﴿٢٣٥﴾ ولا جناح عليكم فيما
عرضتم به من خطبة النساء أو أكننتم
في أنفسكم علم الله أنكم ستذكرونهن
ولكن لا تواعدوهن سرا إلا أن تقولوا
قولا معروفا ولا تعزموا عقدة النكاح
حتى يبلغ الكتاب أجله واعلموا أن الله
يعلم ما في أنفسكم فاحذروه واعلموا
أن الله غفور حلِيم ﴿٢٣٦﴾ هذا حكم المعتدة
من وفاة، أو البانة في الحياة، فيحرم
على غير مبينها أن يصرح لها في
الخطبة، وهو المراد بقوله: ﴿ولكن
لا تواعدوهن سرا﴾ وأما التعريض فقد
أسقط تعالى فيه الجناح.

والفرق بينهما أن التصريح
لا يحتمل غير النكاح، فلهذا حرم
خوفاً من استعجالها، وكذبها في
انقضاء عدتها رغبة في النكاح، فيه
دلالة على منع وسائل المحرم، وقضاء
لحق زوجها الأول بعدم مواعدها لغيره
مدة عدتها.

وأما التعريض، وهو الذي يحتمل

النكاح وغيره، فهو جائز للبائن، كأن
يقول لها: إني أريد الزوج، وإني أحب
أن تشاوريني عند انقضاء عدتك،
ونحو ذلك، فهذا جائز لأنه ليس
بمنزلة الصريح، وفي النفوس داع قوي
إليه.

وكذلك إضمار الإنسان في نفسه أن
يتزوج من هي في عدتها إذا انقضت،
ولهذا قال: ﴿أو أكننتم في أنفسكم،
علم الله أنكم ستذكرونهن﴾ هذا
التفصيل كله في مقدمات العقد.
وأما عقد النكاح فلا يحمل ﴿حتى
يبلغ الكتاب أجله﴾ أي: تنقضي
العدة.

﴿واعلموا أن الله يعلم ما في
أنفسكم﴾ أي: فانواوا الخير ولا تنواوا
الشر، خوفاً من عقابه ورجاء لثوابه.
﴿واعلموا أن الله غفور﴾ لمن
صدرت منه الذنوب فتاب منها،
ورجع إلى ربه ﴿حلِيم﴾ حيث لم يعاجل
العاصين على معاصيهم، مع قدرته
عليهم.

﴿٢٣٦﴾ ﴿لا جناح عليكم إن
طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو تفرضا
لهن فريضة ومتعهن على الموسع قدره
وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً
على المحسنين﴾ أي: ليس عليكم يا
معشر الأزواج جناح وإثم بتطليق
النساء قبل المسيس وفرض المهر، وإن
كان في ذلك كسر لها، فإنه يتجبر
بالمصلحة، فعليكم أن تمتعهن بأن
تعطوهن شيئاً من المال، جبراً
لخواترهن. ﴿على الموسع قدره وعلى
المقتر﴾ أي: المعسر ﴿قدره﴾.

وهذا يرجع إلى العرف، وأنه يختلف
باختلاف الأحوال، ولهذا قال:
﴿متاعاً بالمعروف﴾ فهذا حق واجب
﴿على المحسنين﴾ ليس لهم أن
يبخسوهن.

فكما تسببوا لتشوفهن واشتياقهن
وتعلق قلوبهن، ثم لم يعطوهن ما رغبين

فيه، فعليهم في مقابلة ذلك المتعة.
فلله ما أحسن هذا الحكم الإلهي،
وأدله على حكمة شارعهِ ورحمته!! ومن
أحسن من الله حكماً ليقوم
بوقوتون!!!، فهذا حكم المطلقات قبل
المسيس وقبل فرض المهر.

ثم ذكر حكم المفروض لهن،
فقال:

﴿٢٣٧﴾ ﴿وإن طلقتموهن من قبل
أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة
فنصف ما فرضتم إلا أن يعفو أو يعفو
الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب
للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله
بما تعملون بصير﴾ أي: إذا طلقتم
النساء قبل المسيس، وبعد فرض المهر،
فللمطلقات من المهر المفروض نصفه،
ولكم نصفه.

هذا هو الواجب ما لم يدخله عفو
ومساحة، بأن تعفو عن نصفها
لزوجها، إذا كان يصح عفوها، ﴿أو
يعفو الذي بيده عقدة النكاح﴾ وهو
الزوج على الصحيح^(١)، لأنه الذي
بيده حل عقدته؛ ولأن الولي لا يصح
أن يعفو عن ما وجب للمرأة، لكونه
غير مالك ولا وكيل.

ثم رغب في العفو، وأن من عفا
كان أقرب لتقواه، لكونه إحساناً موجباً
لشرح الصدر، ولكون الإنسان
لا ينبغي أن يهمل نفسه من الإحسان
 والمعروف، وينسى الفضل الذي هو
أعلى درجات المعاملة، لأن معاملة
الناس فيما بينهم على درجتين: إما
عدل وإنصاف واجب، وهو أخذ
الواجب وإعطاء الواجب، وإما فضل
وإحسان، وهو إعطاء ما ليس بواجب
والتسامح في الحقوق والغض عما في
النفس، فلا ينبغي للإنسان أن ينسى
هذه الدرجة ولو في بعض الأوقات
وخصوصاً لمن بينك وبينه معاملة أو
مخالطة، فإن الله مجاز المحسنين بالفضل

(١) جاء في هامش أ ما نصه: (هذا بحسب ما ظهر لي وقت كتابتي لهذا الموضع، ثم بعد ذلك تبين لي أن القول بأن الذي بيده عقدة
النكاح هو الولي الأقرب، وهو الأب، هو الأصح لمساعدة اللفظ له والمعنى كما هو ظاهر للمتدبر).

وفي هامش ب زيادة بخط المؤلف هي: (وقيل: إنه الأب، وهو الذي يدل عليه لفظ الآية الكريمة).



لِلَّذِينَ يُؤْتُونَ بِكُمْ وَبَدَّوْا أُولَٰئِكَ يَرْضَوْنَ بِأَنْفُسِهِمْ
أَرْبَعَةً أَشْهُرًا وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغَ لَيْلُهُمْ أَجَلَهُمْ فَاصْبِرُوا فِيهَا
مَتَلِّينَ ۚ فَالَّذِينَ هُمْ بِالْفَرْقِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝
وَأَصْحَابُ عِلَقٍ عَلَيْهِمْ فِيمَا هُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ أَلْفَافٌ ۚ أَذْكُرْ
فِي أَنْفُسِهِمْ عَمَلَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُتَعَبِينَ ۚ وَلَكِنْ
لَا يَأْتِيهِمْ سِرٌّ إِلَّا أَنْ تَقُولُوا مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۚ وَأَنْتُمْ
عِنْدَ الْبَيْتِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ إِلَيْكُمْ أَجَلُهُمْ وَأَعْلَمُ أَنْ
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاصْبِرُوا وَأَعْلَمُ أَنْ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ أَصْحَابُ عِلَقٍ عَلَيْهِمْ أَنْ يُلْقُوا إِلَيْكَ
مَا تَشَاءُونَ أَوْ تَفْرَضُوا عَنْ فَرِيضَةٍ وَتُخَوِّفُونَ عَلَى الْوَيْلِ
قَدَرَهُمْ وَعَلَى الْفَقْرِ قَدَرَهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ عَلَى الْفَاسِقِينَ
۝ وَإِنْ لَطَفْتُمْ هَٰؤُلَاءِ قَبْلَ أَنْ يَسْمُومُوا فَقَدْ فُتِنُوا
لَهُمْ فَرِيضَةٌ مِمَّا قُرْءَانُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا مُتَعَبِينَ ۚ وَأَنْتُمْ
الَّذِينَ يَسْمُومُونَ إِلَيْكَ كَلَامًا وَأَنْتُمْ أَقْرَبُ لِلشَّقَوَاتِ
وَلَا تَحْسَبُوا الْفَضْلَ يَنْتَظِرُونَ ۚ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝

اليها، ولما كان الإنسان ربما توهم أنه إذا أنفق افتقر دفع تعالى هذه الوهم بقوله: ﴿والله يقبض ويبسط﴾ أي: يوسع الرزق على من يشاء ويقبضه عن من يشاء، فالتصرف كله بيديه ومدار الأمور راجع إليه، فالإمساك لا يبسط الرزق، والإنفاق لا يقبضه، ومع ذلك فالإنفاق غير ضائع على أهله، بل لهم يوم يجدون ما قدموه كاملاً موفراً مضاعفاً، فلماذا قال ﴿وإليه ترجعون﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

نفسي هذه الآيات دليل على أن الأسباب لا تنفع مع القضاء والقدر، وخصوصاً الأسباب التي تتركها أوامر الله. وفيها: الآية العظيمة بإحياء الموتى أعياناً في هذه الدار. وفيها: الأمر بالقتال والنفقة في سبيل الله، وذكر الأسباب الداعية لذلك الحاشية عليه، من تسميته قرضاً، ومضاعفته، وأن الله يقبض ويبسط وإليه ترجعون.

﴿٢٤٦-٢٤٨﴾ ﴿ألم تدر إلى الملاء

من بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين * وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم * وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيتكم التابوت فيه سَكِينَةٌ من ربكم وبقيّة مما ترك آك موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين * يقص تعالى على نبيه قصة الملاء من بني إسرائيل وهم الأشراف والرؤساء، وخص الملاء بالذكر، لأنهم في العادة هم الذين يبحثون عن مصالحهم ليتفقوا فيقتبهم غيرهم على ما يرونه، وذلك أنهم أتوا إلى نبي لهم بعد موسى عليه السلام

فقالوا له ﴿ابعث لنا ملكاً﴾ أي: عين لنا ملكاً ﴿نقاتل في سبيل الله﴾ ليجتمع متفرقنا ويقاوم بنا عدونا، ولعلهم في ذلك الوقت ليس لهم رئيس يجمعهم، كما جرت عادة القبائل أصحاب البيوت، كل بيت لا يرضى أن يكون من البيت الآخر رئيس، فالتمسوا من نبيهم تعيين ملك يرضى الطرفين ويكون تعيينه خاصاً لموائدهم، وكانت أنبياء بني إسرائيل تسوسهم، كلما مات نبي خلفه نبي آخر، فلما قالوا لنبيهم تلك المقالة ﴿قال لهم نبيهم﴾ هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا؟ أي: لعلكم تطلبون شيئاً وهو إذا كتب عليكم لا تقومون به، فعرض عليهم العافية فلم يقبلوها، واعتمدوا على عزمهم ونيتهم، فقالوا: ﴿وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا﴾ أي: أي شيء يمنعنا من القتال وقد ألجأنا إليه، بأن أخرجنا من أوطاننا وسبيت ذرارينا، فهذا موجب لكوننا نقاتل ولو لم يكتب علينا، فكيف مع أنه فرض علينا وقد حصل ما حصل، ولهذا لما لم تكن نياتهم حسنة ولم يقو تولكلهم على ربهم ﴿فلما كتب عليهم القتال تولوا﴾ فجنبوا عن قتال الأعداء وضعفوا عن المصادمة، وزال ما كانوا عزموا عليه، واستولى على أكثرهم الخور والجبن ﴿إلا قليلاً منهم﴾ فعصمهم الله وثبتهم وقوى قلوبهم فالتزموا أمر الله ووطنوا أنفسهم على مقارعة أعدائه، فحازوا شرف الدنيا والآخرة، وأما أكثرهم فظلموا أنفسهم وتركوا أمر الله، فلماذا قال: ﴿والله عليم بالظالمين﴾ * وقال لهم نبيهم ﴿حجيباً لطلبتهم﴾ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً فكان هذا تعييناً من الله الواجب عليهم فيه القبول والالتقاد وترك الاعتراض، ولكن أبوا إلا أن يعترضوا، فقالوا: ﴿أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال﴾ أي: كيف يكون ملكاً وهو دوننا في الشرف والنسب ونحن أحق بالملك منه. ومع هذا فهو

فقير ليس عنده ما يقوم به الملك من الأموال، وهذا بناء منهم على ظن فاسد، وهو أن الملك ونحوه من الولايات مستلزم لشرف النسب وكثرة المال، ولم يعلموا أن الصفات الحقيقية التي توجب التقديم مقدمة عليها، فهذا قال لهم نبيهم: ﴿إن الله اصطفاه عليكم﴾ فلزمكم الانقياد لذلك ﴿وزاده الله بسطة في العلم والجسم﴾ أي: فضله عليكم بالعلم والجسم، أي: بقوة الرأي: والجسم اللذين بهما تتم أمور الملك، لأنه إذا تم رأيه وقوي على تنفيذ ما يقتضيه الرأي: المصيب، حصل بذلك الكمال، ومتى فاته واحد من الأمرين اختل عليه الأمر، فلو كان قوي البدن مع ضعف الرأي، حصل في الملك خرق وقهر ومخالفة للمشروع، قوة على غير حكمة، ولو كان عالماً بالأمور وليس له قوة على تنفيذها لم يفده الرأي: الذي لا ينفذه شيئاً ﴿والله واسع﴾ الفضل كثير الكرم، لا يخص برحمته وبره العام أحداً عن أحد، ولا شريفاً عن وضع، ولكنه مع ذلك ﴿عليهم﴾ بمن يستحق الفضل فيضعه فيه، فأزال بهذا الكلام ما في قلوبهم من كل ريب وشك وشبهة لتبينه أن أسباب الملك متوفرة فيه، وأن فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، ليس له راد، ولا لإحسانه صاد، ثم ذكر لهم نبيهم أيضاً آية حسية يشاهدونها وهي إتيان التابوت الذي قد فقدوه زماناً طويلاً وفي ذلك التابوت سكينة تسكن بها قلوبهم، وتطمئن لها خواطرها، وفيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون، فأتت به الملائكة حاملة له وهم يرونه عياناً.

﴿٢٤٩-٢٥٢﴾ ﴿فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده فشربو منه إلا قليلاً منهم فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾

[illegible]

لهم بالصبر ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله﴾ أي: بإرادته ومشيئته فالأمر لله تعالى، والعزیز من أعزه الله، والدليل من أذله الله، فلا تغني الكثرة مع خذلانه، ولا تضر القلة مع نصره، ﴿والله مع الصابرين﴾ بالنصر والمعونة والتوفيق، فأعظم جالب لمعونة الله صبر العبد لله، فوقعت موعظته في قلوبهم وأثرت معهم، ولهذا لما برزوا لجالوت وجنوده ﴿قالوا﴾ جميعهم ﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾ أي: قو قلوبنا، وأوزعنا الصبر، وثبت أقدامنا عن التزلزل والقرار، وانصرنا على القوم الكافرين. من هاهنا نعلم أن جالوت وجنوده كانوا كفاراً، فاستجاب الله لهم ذلك الدعاء لإتيانهم بالأسباب الموجبة لذلك، ونصرهم عليهم ﴿فهزموهم﴾ بإذن الله، وقتل داود ﴿عليه السلام، وكان مع جنود طالوت،﴾ ﴿جالوت﴾ أي: باشر قتل ملك الكفار بيده لشجاعته وقوته وصبره ﴿وأتاه الله﴾ أي: أتى الله داود ﴿الملك والحكمة﴾ أي: من عليه بملكه على بني إسرائيل مع الحكمة، وهي النبوة المشتملة على الشرع العظيم والصرط المستقيم، ولهذا قال ﴿وعلمه مما يشاء﴾ من العلوم الشرعية والعلوم السياسية، فجمع الله له الملك والنبوة، وقد كان من قبله من الأنبياء يكون الملك



لغيرهم، فلما نصرهم الله تعالى اطمأنوا في ديارهم وعبدوا الله آمنين مطمئنين لخذلان أعدائهم وتمكينهم من الأرض، وهذا كله من آثار الجهاد في سبيله، فلو لم يكن لم يحصل ذلك فلماذا قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ أي: لولا أنه يدفع بمن يقاتل في سبيله كيد الفجار وتكالب الكفار لفسدت الأرض باستيلاء الكفار عليها وإقامتهم شعائر الكفر ومنعهم من عبادة الله تعالى، وإظهار دينه ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم والمدافعة عنهم ومكنهم من الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها، ثم قال تعالى ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْوِلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق الذي لا ريب فيها المتضمن للاعتبار والاستبصار وبيان حقائق الأمور ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ فهذه شهادة من الله لرسوله برسالة التي من جملة أدلتها ما قصه الله عليه من أخبار الأمم السالفة والأنبياء وأتباعهم وأعدائهم التي لولا خبر الله إياه لما كان عنده بذلك علم بل لم يكن في قومه من عنده شيء من هذه الأمور، فدل أنه رسول الله حقاً ونبية صدقاً الذي بعثه بالحق ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون.

وفي هذه القصة من الآيات والعبر ما يتذكر به أولو الألباب، فمنها: أن اجتماع أهل الكلمة والحل والعقد وبحثهم في الطريق الذي تستقيم به أمورهم وفهمه، ثم العمل به، أكبر سبب لإرتقائهم وحصول مقصودهم، كما وقع لهؤلاء الملاحين راجعوا نبيهم في تعيين ملك تجتمع به كلمتهم ويلم متفرقهم، وتحصل له الطاعة منهم، ومنها: أن الحق كلما عورض وأوردت عليه شبه ازداد وضوحاً وتميز وحصل به اليقين التام كما جرى لهؤلاء، لما اعترضوا على استحقاق طالوت للملك أجابوا بأجوبة حصل بها الإقناع وزوال الشبهة والريب. ومنها: أن العلم والرأي: مع القوة المنفذة بهما كمال الولايات، ويفقد أحدهما أو فقد أحدهما نقصانها وضررها. ومنها: أن الاتكال على النفس سبب الفشل والخذلان، والاستعانة بالله والصبر والالتجاء إليه سبب النصر، فالأول كما في قولهم لنبيهم ﴿وَمَا لَنَا الْأَنْتَاقِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا ﴿فَكَانَ نَتِيجَةُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا، وَالثَّانِي فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَا بَرَزُوا لِمُجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ فهزموهم بإذن الله. ومنها: أن من حكمة الله تعالى تمييز الخبيث من الطيب، والصادق من الكاذب، والصابر من الجبان، وأنه لم يكن ليزر العباد على ما هم عليه من الاختلاط وعدم التمييز. ومنها: أن من رحمة وسنته الجارية أن يدفع ضرر الكفار والمنافقين بالمؤمنين المقاتلين، وأنه لولا ذلك لفسدت الأرض باستيلاء الكفر وشعائره عليها، ثم قال تعالى:

﴿٢٥٣﴾ ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا

بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا مِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ

شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴿يَجِبُ تَعَالَى أَنَّهُ فَضَّلَ بَعْضَ الرُّسُلِ عَلَى بَعْضٍ بِمَا خَصَّهُمْ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ النَّاسِ بِإِيْمَانِهِ وَإِرْسَالِهِمْ إِلَى النَّاسِ، وَدَعَائِهِمُ الْخَلْقَ إِلَى اللَّهِ، ثُمَّ فَضَّلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِمَا أَوْدَعَ فِيهِمْ مِنَ الْأَرْصَافِ الْحَمِيدَةِ وَالْأَفْعَالِ السَّيِّدَةِ وَالنَّفْعِ الْعَامِ، فَمِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَهُ اللَّهُ كَمُوسَى بْنِ عِمْرَانَ خَصَّهُ بِالْكَلامِ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَفَعَهُ عَلَى سَائِرِهِمْ دَرَجَاتٍ كَنَبِيِّنَا ﷺ الَّذِي اجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ مَا تَفَرَّقَ فِي غَيْرِهِ، وَجَمَعَ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْمُنَاقِبِ مَا فَاقَ بِهِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ﴾ ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ الدَّلَالَاتِ عَلَى نَبُوْتِهِ وَأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلَّمْتَهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحَ مِنْهُ ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أَي: بِالْإِيمَانِ وَالْيَقِينِ الَّذِي أَيْدَهُ بِهِ اللَّهُ وَقَوَاهُ عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ، وَقِيلَ أَيْدَهُ بِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَلْزِمُهُ فِي أَحْوَالِهِ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ الْمُوجِبَةِ لِلْاجْتِمَاعِ عَلَى الْإِيمَانِ ﴿وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ فَكَانَ مُوجِبُ هَذَا الْاِخْتِلَافِ التَّفَرُّقُ وَالْمُعَادَاةُ وَالْمُقَاتَلَةُ، وَمَعَ هَذَا فَلَوْ شَاءَ اللَّهُ بَعْدَ هَذَا الْاِخْتِلَافِ مَا أَقْتَلُوا، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ مَشِيئَةَ اللَّهِ نَافِذَةٌ غَالِبَةٌ لِلْأَسْبَابِ، وَإِنَّمَا تَنْفَعُ الْأَسْبَابُ مَعَ عَدَمِ مُعَارَضَةِ الْمَشِيئَةِ، فَإِذَا وَجَدَتْ اِضْمَحْلُ كُلِّ سَبَبٍ، وَزَالَ كُلُّ مُوجِبٍ، فَلِهَذَا قَالَ ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَرِيدُ﴾ فَإِرَادَتُهُ غَالِبَةٌ وَمَشِيئَتُهُ نَافِذَةٌ، وَفِي هَذَا وَنَحْوِهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَزَلْ يَفْعَلُ مَا اقْتَضَتْهُ مَشِيئَتُهُ وَحُكْمَتُهُ، وَمِنْ جَمَلَةٍ مَا يَفْعَلُهُ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَأَخْبَرَ بِهِ عَنْهُ رَسُولُهُ ﷺ مِنْ اِلِسْتَوَاءِ وَالنُّزُولِ وَالْأَفْوَالِ، وَالْأَفْعَالِ الَّتِي يَعْبُرُونَ عَنْهَا بِالْأَفْعَالِ الْاِخْتِيَارِيَةِ. فَائِدَةٌ: كَمَا يَجِبُ عَلَى الْمَكْلُوفِ مَعْرِفَتُهُ بِرَبِّهِ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ مَعْرِفَتُهُ بِرَسُولِهِ، مَا يَجِبُ لَهُمْ وَيُمْتَنَعُ عَلَيْهِمْ وَيَجُوزُ فِي حَقِّهِمْ، وَيُؤْخَذُ بِجَمِيعِ ذَلِكَ مِمَّا وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِهِ فِي آيَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، مِنْهُمْ: أَنَّهُمْ رِجَالٌ لَا نِسَاءَ، مِنْ أَهْلِ

فالشفاعة كلها لله تعالى، ولكنه تعالى إذا أراد أن يرحم من يشاء من عباده أذن لمن أراد أن يكرمه من عباده أن يشفع فيه، لا يبتدىء الشافع قبل الإذن، ثم قال ﴿يعلم ما بين أيديهم﴾ أي: ما مضى من جميع الأمور ﴿وما خلفهم﴾ أي: ما يستقبل منها، فعلمه تعالى محيط بتفاصيل الأمور، متقدمها ومتأخرها، بالظواهر والبواطن، بالغيب والشهادة، والعباد ليس لهم من الأمر شيء ولا من العلم مثقال ذرة إلا ما علمهم تعالى، ولهذا قال: ﴿ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات والأرض﴾ وهذا يدل على كمال عظمتهم وسعة سلطانه، إذا كان هذه حالة الكرسي أنه يسمع السماوات والأرض على عظمتها وعظمتهم فيهما، والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى، بل هنا ما هو أعظم منه وهو العرش، وما لا يعلمه إلا هو، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار وتكل الأبصار، وتقلقل الجبال وتكع عنها فحول الرجال، فكيف بعظمة خالقها ومبدعها، والذي أودع فيها من الحكم والأسرار ما أودع، والذي قد أمسك السماوات والأرض أن تزولا من غير تعب ولا نصب، فهذا قال: ﴿ولا يؤوده﴾ أي: يثقله ﴿حفظهما وهو العلي﴾ بذاته فوق عرشه، العلي بقره لجميع المخلوقات، العلي بقدره لكمال صفاته ﴿العظيم﴾ الذي تتضائل عند عظمتهم جبروت الجبابرة، وتصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة، فسبحان من له العظمة العظيمة والكبرياء الجسيمة والقهر والغلبة لكل شيء، فقد اشتملت هذه الآية على توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وعلى إحاطة ملكه وإحاطة علمه وسعة سلطانه وجلاله ومجده، وعظمتهم وكبريائه وعلوه على جميع مخلوقاته، فهذه الآية بمفردها عقيدة في أسماء الله وصفاته، متضمنة لجميع الأسماء الحسنى والصفات العلى، ثم قال تعالى:

والأرض ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم ﴿هذه الآية الكريمة أعظم آيات القرآن وأفضلها وأجلها، وذلك لما اشتملت عليه من الأمور العظيمة والصفات الكريمة، فلماذا كثرت الأحاديث في الترغيب في قراءتها وجعلها ورداً للإنسان في أوقاته صباحاً ومساءً وعند نومه وأدبار الصلوات المكتوبات، فأخبر تعالى عن نفسه الكريمة بأنه ﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق سواه، فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقاً أن يكون عبداً لربه، ممثلاً لأوامره مجتنباً لنواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة، وقوله: ﴿الحي القيوم﴾ هذان الاسمان الكريمان يدلان على سائر الأسماء الحسنى دلالة مطابقة وتضمناً ولزوماً، فالحي من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الذات، كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك، والقيوم: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري، ولهذا قال بعض المحققين: إنهما الاسم الأعظم الذي إذا دعي الله به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ومن غم حياته وقيوميته أنه ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ والسنة النعاس ﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي: هو المالك وما سواه مملوك وهو الخالق الرازق المدبر وغيره مخلوق مرزوق مدبر لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض فهذا قال: ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ أي: لا أحد يشفع عنده بدون إذنه،

القرى لا من أهل البوادي، وأنهم مصطفون مختارون، جمع الله لهم من الصفات الحميدة ما به الاصطفاء والاختيار، وأنهم سالون من كل ما يقدح في رسالتهم من كذب وخيانة وكتمان وعيوب مزرية، وأنهم لا يقرون على خطأ فيما يتعلق بالرسالة والتكليف، وأن الله تعالى خصهم بوحية، فلماذا وجب الإيمان بهم وطاعتهم ومن لم يؤمن بهم فهو كافر، ومن قدح في واحد منهم أو سبه فهو كافر يتحتم قتله، ودلائل هذه الجمل كثيرة، من تدبر القرآن تبين له الحق، ثم قال تعالى:

﴿٢٥٤﴾ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون ﴿وهذا من لطف الله بعباده أن أمرهم بتقديم شيء مما رزقهم الله، من صدقة واجبة ومستحبة، ليكون لهم ذخراً وأجرأ موفراً في يوم يحتاج فيه العاملون إلى مثقال ذرة من الخير، فلا بيع فيه ولو اقتدى الإنسان نفسه بملء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه، ولم ينفعه خليل ولا صديق لا بوجاهة ولا بشفاعة، وهو اليوم الذي فيه ينخرس المبطون ويحصل الخزي على الظالمين، وهم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه، فتركوا الواجب من حق الله وحق عباده وتعدوا الحلال إلى الحرام، وأعظم أنواع الظلم الكفر بالله الذي هو وضع العبادة التي يتعين أن تكون لله فيصرفها الكافر إلى مخلوق مثله، فلماذا قال تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾ وهذا من باب الحصر، أي: الذين ثبت لهم الظلم التام، كما قال تعالى: ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾. ثم قال تعالى:

﴿٢٥٥﴾ ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السماوات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السماوات

وخص منه الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا والإماتة مبدأ ما يكون في الآخرة، فقال ذلك المحاج: ﴿أنا أحيي وأميت﴾ ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت، لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، فزعم أنه يقتل شخصاً فيكون قد أماته، ويستبقى شخصاً فيكون قد أحياه، فلما رآه إبراهيم يغالط في مجادلته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلاً عن كونه حجة، اطرد معه في الدليل فقال إبراهيم: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق﴾ أي: عياناً يقربه كل أحد حتى ذلك الكافر ﴿فأت بها من المغرب﴾ وهذا الزام له بطرد دليله إن كان صادقاً في دعواه، فلما قال له أمراً لا قوة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحاً يقدح في سبيله ﴿بهت الذي كفر﴾ أي: تحير فلم يرجع إليه جواباً وانقطعت حجته وسقطت شبهته، وهذه حالة المبطل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحق ويغالبه، فإنه مغلوب مقهور، فلذلك قال تعالى: ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ بل يبقهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك، وإلا فلو كان قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه ويسر لهم أسباب الوصول إليه، ففي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال، قال ابن القيم رحمه الله: وفي هذه المناظرة نكتة لطيفة جداً، وهي أن شرك العالم إنما هو مستند إلى عبادة الكواكب والقبور، ثم صورت الأصنام على صورتها، فتضمن الدليلان اللذان استدلت بهما إبراهيم إبطال إلهية تلك جُملة بأن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ولا يصلح الحي الذي يموت للإلهية لا في حال حياته ولا بعد موته، فإن له رباً قادراً قاهراً متصرفاً فيه إحياء وإماتة، ومن كان كذلك فكيف يكون إلهاً حتى يتخذ الصنم على

منهما بحسب ما علمه منهم من الخير والشر، وهذا هو الغاية لمن استمسك بالعروة الوثقى ولمن لم يستمسك بها، ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك فقال: ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾ وهذا يشمل ولايتهم لربهم، بأن تولوه فلا يغيرون عنه بدلاً ولا يشركون به أحداً، قد اتخذوه حبيباً وولياً، ووالوا أوليائه وعادوا أعداءه، فتولاهم بلطفه ومنّ عليهم بإحسانه، فأخرجهم من ظلمات الكفر والمعاصي والجهل إلى نور الإيمان والطاعة والعلم، وكان جزاؤهم على هذا أن سلمهم من ظلمات القبر والحشر والقيامة إلى النعيم المقيم والراحة والفسحة والسرور ﴿والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت﴾ فتولوا الشيطان وحزبه، واتخذوه من دون الله ولياً ووالوه وتركوا ولاية ربهم وسيدهم، فسلطهم عليهم عقوبة لهم فكانوا يؤذونهم إلى المعاصي أژأ، ويزعجونهم إلى الشر لإزعاجاً، فيخرجونهم من نور الإيمان والعلم والطاعة إلى ظلمة الكفر والجهل والمعاصي، فكان جزاؤهم على ذلك أن حرموا الخيرات، وفاتهم النعيم والبهجة والمسرات، وكانوا من حزب الشيطان وأوليائه في دار الحسرة، فلهذا قال تعالى: ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾.

﴿٢٥٨﴾ ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ يقول تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه﴾ أي: إلى جرائته ومجاهلته وعناده ومحاجته فيما لا يقبل التشكيك، وما حمله على ذلك إلا ﴿أن آتاه الله الملك﴾ فطنى وبغى ورأى نفسه مترئساً على رعيته، فحمله ذلك على أن حاج إبراهيم في ربوبية الله فزعم أنه يفعل كما يفعل الله، فقال إبراهيم ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾ أي: هو المنفرد بأنواع التصرف،

﴿٢٥٦-٢٥٧﴾ ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم﴾ الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ يخبر تعالى أنه لا إكراه في الدين لعدم الحاجة إلى الإكراه عليه، لأن الإكراه لا يكون إلا على أمر خفية أعلامه، غامضة آثاره، أو أمر في غاية الكراهة للنفس، وأما هذا الدين القويم والصراط المستقيم فقد تبين أعلامه للعقول، وظهرت طرقه، وتبين أمره، وعرف الرشد من الغي، فالموثق إذا نظر أدنى نظر إليه أثره واختاره، وأما من كان سيئ القصد فاسد الإرادة، خبيث النفس يرى الحق فيختار عليه الباطل، ويبصر الحسن فيميل إلى القبيح، فهذا ليس له حاجة في إكراهه على الدين، لعدم النتيجة والفائدة فيه، والمكروه ليس إيمانه صحيحاً، ولا تدل الآية الكريمة على ترك قتال الكفار المحاربين، وإنما فيها أن حقيقة الدين من حيث هو موجب لقبوله لكل منصف قصده اتباع الحق، وأما القتال وعدمه فلم يتعرض له، وإنما يؤخذ فرض القتال من نصوص أخر، ولكن يستدل في الآية الكريمة على قبول الجزية من غير أهل الكتاب، كما هو قول كثير من العلماء، فمن يكفر بالطاغوت فيترك عبادة ما سوى الله وطاعة الشيطان، ويؤمن بالله إيماناً تاماً أوجب له عبادة ربه وطاعته ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ أي: بالدين القويم الذي ثبتت قواعده ورسخت أركانه، وكان المتمسك به على ثقة من أمره، لكونه استمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها﴾ وأما من عكس القضية فكفر بالله وأمن بالطاغوت، فقد أطلق هذه العروة الوثقى التي بها العصمة والنجاة، واستمسك بكل باطل ماله إلى الجحيم ﴿والله سميع عليم﴾ فيجازي كلا

﴿٢٦١﴾ ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾
هذا بيان للمضاعفة التي ذكرها الله في

﴿٢١٠﴾ ﴿وَأَذَّ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّ
أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ
قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّطَمْسِنُ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ
أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ
عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءً ثُمَّ اذْهَبْ
يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمِ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ
حَكِيمٌ ﴿وَهَذَا فِيهِ أَيْضًا أَكْثَمُ دَلَالَةٍ
حَسْبِيَةِ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ وَإِحْيَائِهِ الْمَوْتَى
لِلْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ خَلِيلِهِ
إِبْرَاهِيمَ أَنَّهُ سَأَلَهُ أَن يَرِيهِ بِبَصَرِهِ كَيْفَ
يُحْيِي الْمَوْتَى، لِأَنَّهُ قَدْ تَيَقَّنَ ذَلِكَ
بِخَبَرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَكِنَّهُ أَحَبَّ أَنْ
يَشَاهِدَهُ عَيْنَانِ لِيَحْصَلَ لَهُ مَرْتَبَةٌ عَيْنِ
الْيَقِينِ، فَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ لَهُ ﴿أُولَئِمُ تُؤْمِنُ
قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّطَمْسِنُ قَلْبِي﴾، وَذَلِكَ أَنَّهُ

﴿٢٥٩﴾ ﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى همارك ولنجعملك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير﴾ وهذا أيضاً دليل آخر على توحيد الله بالخلق والتدبير والإمامة والإحياء، فقال: ﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها﴾ أي: قد باد أهلها وفني سكانها وسقطت حيطانها على عروشها، فلم يبق بها أنيس بل بقيت موحشة من أهلها مقفرة، فوقف عليها ذلك الرجل متعجباً و﴿قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها﴾ استبعاداً لذلك وجهلاً بقدرة الله تعالى، فلما أراد الله به خيراً أراه آية في نفسه وفي هماره، وكان معه طعام وشراب، ﴿فأماته الله مئة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم﴾ استقصاراً لتلك المدة التي مات فيها لكونه قد زالت معرفته وحواسه وكان عهد حاله قبل موته، فقيل له ﴿بل لبثت مئة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾ أي: لم يتغير بل بقي على حاله على تطاول السنين واختلاف الأوقات عليه، ففيه أكبر دليل على قدرته حيث أبقاه وحفظه عن التغير والفساد، مع أن الطعام والشراب من أسرع الأشياء فساداً ﴿وانظر إلى همارك﴾ وكان قد مات وتمزق لحمه وجلده وانتشرت عظامه، فترقت أوصاله ﴿ولنجعملك آية



بالتفكر وحجاً عليه، فقال: ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾.

﴿٢٦٧ - ٢٦٨﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمَا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيْمَمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ الشَّيْطَانُ يَعْصِيكُمْ يَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعْصِيكُمْ يَأْمُرُكُم بِالْعِفَّةِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. يأمر تعالى عباده المؤمنين بالنفقة من طيبات ما يسر لهم من المكاسب، وما أخرج لهم من الأرض فكما من عليكم بتسهيل تحصيله فانفقوا منه شكراً لله وأداء لبعض حقوق إخوانكم عليكم، وتطهيراً لأموالكم، واقصدوا في تلك النفقة الطيب الذي تحبونه لأنفسكم، ولا تيمموا الرديء الذي لا ترغبونه ولا تأخذونه إلا على وجه الإغماض والسماحة ﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾ فهو غني عنكم ونفع صدقاتكم وأعمالكم عائد إليكم، ومع هذا فهو حميد على ما يأمركم به من الأوامر الحميدة والخصال السديدة، فعليكم أن تمثلوا أوامره لأنها قوت القلوب وحياة النفوس ونعيم الأرواح، وإياكم أن تتبعوا عدوكم الشيطان الذي يأمركم بالإمساك، ويخوفكم بالفقر والحاجة إذا أنفقت، وليس هذا نصحاً لكم، بل

هذا غاية الغش ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ بل أطيعوا ربكم الذي يأمركم بالنفقة على وجه يسهل عليكم ولا يضركم، ومع هذا فهو ﴿يعصمكم مغفرة﴾ لذنوبكم وتطهيراً لعيوبكم ﴿وفضلاً﴾ وإحساناً إليكم في الدنيا والآخرة، من الخلف العاجل، وانسراح الصدر ونعيم القلب والروح والقبر، وحصول ثوابها وتوفيقها يوم القيامة، وليس هذا عظيماً عليه لأنه ﴿واسع﴾ الفضل عظيم الإحسان ﴿عليم﴾ بما يصدر منكم من النفقات قليلها وكثيرها، سرها وعلنها، فيجازيكم عليها من سعته وفضله وإحسانه، فلينظر العبد نفسه إلى أي: الداعين يميل، فقد تضمنت هاتان الآيتان أموراً عظيمة منها: الحث على الإنفاق، ومنها: بيان الأسباب الموجبة لذلك، ومنها: وجوب الزكاة من النقيدين وعروض التجارة كلها، لأنها داخلة في قوله: ﴿من طيبات ما كسبتم﴾ ومنها: وجوب الزكاة في الخارج من الأرض من الحبوب والثمار والمعادن، ومنها: أن الزكاة على من له الزرع والثمر لا على صاحب الأرض، لقوله ﴿أخرجنا لكم﴾ فمن أخرجت له وجبت عليه ومنها: أن الأموال المعدة للاقتناء من العقارات والأواني ونحوها ليس فيها زكاة، وكذلك الديون والغضوب ونحوها إذا كانت مجهولة، أو عند من لا يقدر ربحها على استخراجها منه، ليس فيها زكاة، لأن الله أوجب النفقة من الأموال التي يحصل فيها النماء الخارج من الأرض، وأموال التجارة موساة من نمائها، وأما الأموال التي غير معدة لذلك ولا مقدوراً عليها فليس فيها هذا المعنى، ومنها: أن الرديء ينهى عن إخراجه ولا يجزىء في الزكاة ثم قال تعالى:

﴿٢٦٩﴾ ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ لما أمر تعالى بهذه الأوامر العظيمة المشتملة على الأسرار والحكم وكان ذلك لا يحصل لكل أحد، بل لمن شاء وآتاه الله

الحكمة، وهي العلم النافع والعمل الصالح ومعرفة أسرار الشرائع وحكمها، وإن من آتاه الله الحكمة فقد آتاه خيراً كثيراً وأي: خير أعظم من خير فيه سعادة الدارين والنجاة من شقاوتها! وفيه التخصيص بهذا الفضل وكونه من ورثة الأنبياء، فكمال العبد متوقف على الحكمة، إذ كماله بتكميل قوته العلمية والعملية فتكميل قوته العلمية بمعرفة الحق ومعرفة المقصود به، وتكميل قوته العملية بالعمل بالخير وترك الشر، وبذلك يتمكن من الإصابة بالقول والعمل وتنزيل الأمور منازلها في نفسه وفي غيره، وبدون ذلك لا يمكنه ذلك، ولما كان الله تعالى قد فطر عباده على عبادته ومحبة الخير والقصد للحق، فبعث الله الرسل مذكرين لهم بما ركز في فطرتهم وعقولهم، ومفصلين لهم ما لم يعرفوه، انقسم الناس قسمين قسم أجابوا دعوتهم فتذكروا ما ينفعهم ففعلوه، وما يضرهم فتركوه، وهؤلاء هم أولو الألباب الكاملة، والعقول التامة، وقسم لم يستجيبوا لدعوتهم بل أجابوا ما عرض لفطرتهم من الفساد، وتركوا طاعة رب العباد، فهؤلاء ليسوا من أولي الألباب، فلماذا قال تعالى: ﴿وما يذكر إلا أولو الألباب﴾

﴿٢٧٠﴾ ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا وَاللَّظَالِمِينَ أَنْصَارٌ﴾ وهذا فيه المجازاة على النفقات، واجبتها ومستحبها، قليلها وكثيرها، التي أمر الله بها، والنذور التي ألزمها المكلف نفسه، وإن الله تعالى يعلمها فلا يخفى عليه منها شيء، ويعلم ما صدرت عنه، هل هو الإخلاص أو غيره، فإن صدرت عن إخلاص وطلب لمرضاة الله جازى عليها بالفضل العظيم والثواب الجسيم، وإن لم ينفق العبد ما وجب عليه من النفقات ولم يوفى ما أوجبه على نفسه من المنذورات، أو قصد بذلك رضى المخلوقات، فإنه ظالم قد وضع الشيء في غير موضعه، واستحق

الشر، وأن من علم أنه راجع إلى الله فمجازيه على الصغير والكبير والجلي والحفي، وأن الله لا يظلمه مثقال ذرة، أوجب له الرغبة والرغبة، وبدون حلول العلم في ذلك في القلب لا سبيل إلى ذلك.

﴿٢٨٢﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تساموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم ﴿هذه آية الدين﴾ وهي أطول آيات القرآن، وقد اشتملت على أحكام عظيمة جليلة المنفعة والمقدار، أحدها: أنه تجوز جميع أنواع المداينات من سلم وغيره، لأن الله أخبر عن المداينة التي عليها المؤمنون إخبار مقرر لها ذكراً أحكامها، وذلك يدل على الجواز، الثاني والثالث أنه لا بد للسلم من أجل وأنه لا بد أن يكون معينا معلوماً فلا يصح حالاً ولا إلى أجل مجهول، الرابع: الأمر بكتابة جميع عقود المداينات إما وجوباً وإما استحباباً لشدة الحاجة إلى كتابتها، لأنها بدون الكتابة يدخلها من الغلط والنسيان والمنازعة والمشاجرة شر عظيم، الخامس: أمر الكاتب أن يكتب، السادس أن يكون عدلاً في نفسه لأجل

اعتبار كتابته، لأن الفاسق لا يعتبر قوله ولا كتابته، السابع أنه يجب عليه العدل بينهما، فلا يميل لأحدهما لقربة أو صداقة أو غير ذلك، الثامن: أن يكون الكاتب عارفاً بكتابة الوثائق وما يلزم فيها كل واحد منهما، وما يحصل به التوثق، لأنه لا سبيل إلى العدل إلا بذلك، وهذا مأخوذ من قوله: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل﴾ التاسع: أنه إذا وجدت وثيقة بخط المعروف بالعدالة المذكورة يعمل بها، ولو كان هو والشهود قد ماتوا، العاشر قوله: ﴿ولا يأب كاتب أن يكتب﴾ أي: لا يمتنع من من الله عليه بتعليمه الكتابة أن يكتب بين المتدائنين، فكما أحسن الله إليه بتعليمه، فليحسن إلى عباد الله المحتاجين إلى كتابته، ولا يمتنع من الكتابة لهم، الحادي عشر: أمر الكاتب أن لا يكتب إلا ما أملاه من عليه الحق، الثاني عشر: أن الذي يمل من المتعاقدين من عليه الدين، الثالث عشر: أمره أن يبين جميع الحق الذي عليه ولا يبخس منه شيئاً، الرابع عشر: أن إقرار الإنسان على نفسه مقبول، لأن الله أمر من عليه الحق أن يمل على الكاتب، فإذا كتب إقراره بذلك ثبت موجه ومضمونه، وهو ما أقر به على نفسه، ولو ادعى بعد ذلك غلطاً أو سهواً، الخامس عشر: أن من عليه حقاً من الحقوق التي البينة^(١) على مقدارها وصفتها من كثرة وقلة وتعجيل وتأجيل، أن قوله هو المقبول دون قول من له الحق، لأنه تعالى لم ينه عن بخس الحق الذي عليه، إلا أن قوله مقبول على ما يقوله من مقدار الحق وصفته، السادس عشر أنه يحرم على من عليه حق من الحقوق أن يبخس وينقص شيئاً من مقداره، أو طيبه وحسنه، أو أجله أو غير ذلك من توابعه ولواحقه، السابع عشر أن من لا يقدر على إملاء الحق لصغره أو سفهه أو خرسه، أو نحو ذلك، فإنه ينوب وليه مثابه في الإملاء والإقرار، الثامن عشر: أنه

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُونَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْمَوْتُ بَلْ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ الرِّبَا وَلِيُزِيلَ عَنْكُمْ غَمَّهُمْ وَالْعَدْلَ عَلَيْهِمْ جُلُودُهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨٣﴾ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَمْلِكِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيَمْلِكْ وَلِيَّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسَامُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارُ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿هَذِهِ آيَةُ الدِّينِ﴾ وَهِيَ أَطْوَلُ آيَاتِ الْقُرْآنِ، وَقَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَىٰ أَحْكَامٍ عَظِيمَةٍ جَلِيلَةٍ الْمُنْفَعَةِ وَالْمَقْدَارِ، أَحَدُهَا: أَنَّهُ تَجُوزُ جَمِيعُ أَنْوَاعِ الْمَدَايِنَاتِ مِنْ سَلَمٍ وَغَيْرِهِ، لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ عَنِ الْمَدَايِنَةِ الَّتِي عَلَيْهَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْبَارًا مُّقَرَّرًا لَهَا ذِكْرًا أَحْكَامِهَا، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى الْجَوَازِ، الثَّانِي وَالثَّلَاثُ أَنَّهُ لَا بَدَّ لِلْسَلَمِ مِنْ أَجَلٍ وَأَنَّهُ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مُعَيَّنًا مَعْلُومًا فَلَا يَصِحُّ حَالًا وَلَا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّجْهُولٍ، الرَّابِعُ: الْأَمْرُ بِكُتَابَةِ جَمِيعِ عُقُودِ الْمَدَايِنَاتِ إِمَّا وَجُوبًا وَإِمَّا اسْتِحْبَابًا لَشِدَّةِ الْحَاجَةِ إِلَىٰ كُتَابَتِهَا، لِأَنَّهَا بَدُونِ الْكُتَابَةِ يَدْخُلُهَا مِنَ الْغُلْطِ وَالنَّسْيَانِ وَالْمُنَازَعَةِ وَالْمُشَاجَرَةِ شَرٌّ عَظِيمٌ، الْخَامِسُ: أَمْرُ الْكَاتِبِ أَنْ يَكْتُبَ، السَّادِسُ أَنْ يَكُونَ عَدْلًا فِي نَفْسِهِ لِأَجْلِ

يلزم الولي من العدل ما يلزم من عليه الحق من العدل، وعدم البخس لقوله: ﴿بالعدل﴾ التاسع عشر: أنه يشترط عدالة الولي، لأن الإملاء بالعدل المذكور لا يكون من فاسق، العشرون: ثبوت الولاية في الأموال، الحادي والعشرون: أن الحق يكون على الصغير والسفيه والمجنون والضعيف، لا على وليهم، الثاني والعشرون: أن إقرار الصغير والسفيه والسفيه والمجنون والمعته ونحوهم وتصرفهم غير صحيح، لأن الله جعل الإملاء لوليهم، ولم يجعل لهم منه شيئاً لطفاً بهم ورحمة، خوفاً من تلاف أموالهم، الثالث والعشرون: صحة تصرف الولي في مال من ذكر، الرابع والعشرون: فيه مشروعية كون الإنسان يتعلم الأمور التي يتوثق بها المتدائنون كل واحد من صاحبه، لأن المقصود من ذلك التوثق والعدل، وما لا يتم المشروع إلا به فهو مشروع، الخامس والعشرون أن تعلم الكتابة مشروع، بل هو فرض كفاية، لأن الله أمر بكتابة الديون وغيرها، ولا يحصل ذلك إلا بالتعلم، السادس والعشرون: أنه مأمور بالإشهاد على العقود، وذلك على وجه الندب، لأن المقصود من ذلك الإرشاد إلى ما يحفظ الحقوق، فهو عائد لمصلحة المكلفين، نعم إن كان



المتصرف ولي يتيم أو وقف ونحو ذلك مما يجب حفظه تعين أن يكون الإشهاد الذي به يحفظ الحق واجباً، السابع والعشرون: أن نصاب الشهادة في الأموال ونحوها رجلان أو رجل وامرأتان، ودلت السنة أيضاً أنه يقبل الشاهد مع يمين المدعي، الثامن والعشرون: أن شهادة الصبيان غير مقبولة لفهم لفظ الرجل، التاسع والعشرون أن شهادة النساء منفردات في الأموال ونحوها لا تقبل، لأن الله لم يقبلهن إلا مع الرجل، وقد يقال إن الله أقام المراتين مقام رجل للحكمة التي ذكرها وهي موجودة سواء كن مع رجل أو منفردات والله أعلم.

الثلاثون: أن شهادة العبد البالغ مقبولة كشهادة الحر لعموم قوله: ﴿فاستشهدوا شهيدين من رجالكم﴾ والعبد البالغ من رجالنا، الحادي والثلاثون: أن شهادة الكفار ذكوراً كانوا أو نساء غير مقبولة، لأنهم ليسوا منا، ولأن مبنى الشهادة على العدالة وهو غير عدل، الثاني والثلاثون: فيه فضيلة الرجل على المرأة، وأن الواحد في مقابلة المراتين لقوة حفظه ونقص حفظها، الثالث والثلاثون: أن من نسي شهادته ثم ذكرها فذكر فشهادته مقبولة لقوله: ﴿فتذكر إحداها﴾ الأخرى: الرابع والثلاثون: يؤخذ من المعنى أن الشاهد إذا خاف نسيان

الرابع والأربعون والخامس والأربعون. السادس والأربعون أن ارتكاب هذه المحرمات من خصال الفسق لقوله: ﴿وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم﴾ السابع والأربعون أن الأوصاف كالفسق والإيمان والنفاق والعداوة والولاية ونحو ذلك تتجزأ في الإنسان، فتكون فيه مادة فسق وغيرها، وكذلك مادة إيمان وكفر لقوله: ﴿فإنه فسوق بكم﴾ ولم يقل فأنتم فاسقون أو فساق. الثامن والأربعون: - وحقه أن يتقدم على ما هنا لتقدم موضعه - اشتراط العدالة في الشاهد لقوله: ﴿من ترضون من الشهداء﴾. التاسع والأربعون أن العدالة يشترط فيها العرف في كل مكان وزمان، فكل من كان مرضياً معتبراً عند الناس قبلت شهادته، الخمسون: يؤخذ منها عدم قبول شهادة المجهول حتى يزكى، فهذه الأحكام مما يستنبط من هذه الآية الكريمة على حسب الحال الحاضرة والفهم القاصر، والله في كلامه حكيم وأسرار مخص بها من يشاء من عباده. وقوله تعالى:

﴿٢٨٣﴾ ﴿وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كتاباً فإمروا بأحدكم يكتب برهاناً مقبوضاً﴾ فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته ولينق الله ربه ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم. أي: إن كنتم مسافرين ولم تجدوا كتاباً يكتب بينكم ويحصل به التوثق ﴿فرهان مقبوضاً﴾ أي: يقبضها صاحب الحق وتكون وثيقة عنده حتى يأتيه حقه، ودل هذا على أن الرهن غير المقبوض لا يحصل منها التوثق، ودل أيضاً على أن الراهن والمرتهن لو اختلفا في قدر ما رهن به، كان القول قول المرتهن، ووجه ذلك أن الله جعل الرهن عوضاً عن الكتابة في توثق صاحب الحق، فلولا أن قول المرتهن مقبول في قدر الذي رهن به لم يحصل المعنى المقصود، ولما كان المقصود بالرهن التوثق جاز حضراً وسفراً، وإنما نص الله على السفر، لأنه في مظنة الحاجة

شهادته في الحقوق الواجبة وجب عليه كتابتها، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والخامس والثلاثون: أنه يجب على الشاهد إذا دعي للشهادة وهو غير معذور، لا يجوز له أن يأبى لقوله: ﴿ولا ياب الشهداء إذا ما دعوا﴾ السادس والثلاثون: أن من لم يتصف بصفة الشهداء المقبولة شهادتهم، لم يجب عليه الإجابة لعدم الفائدة بها ولأنه ليس من الشهداء، السابع والثلاثون: النهي عن السأمة والضجر من كتابة الديون كلها من صغير وكبير وصفة الأجل وجميع ما احتوى عليه العقد من الشروط والقيود، الثامن والثلاثون بيان الحكمة في مشروعية الكتابة والإشهاد في العقود، وأنه ﴿أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا﴾ فإنها متضمنة للعدل الذي به قوام العباد والبلاد، والشهادة المقرنة بالكتابة تكون أقوم وأكمل وأبعد من الشك والريب والتنازع والتشاجر، التاسع والثلاثون: يؤخذ من ذلك أن من اشتبه وشك في شهادته لم يجوز له الإقدام عليها بل لا بد من اليقين، الأربعون: قوله: ﴿إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها﴾ فيه الرخصة في ترك الكتابة إذا كانت التجارة حاضرة بإحضر، لعدم شدة الحاجة إلى الكتابة، الحادي والأربعون: أنه وإن رخص في ترك الكتابة في التجارة الحاضرة، فإنه يشرع الإشهاد لقوله: ﴿وأشهدوا إذا تباعتم﴾ الثاني والأربعون: النهي عن مضارة الكاتب بأن يدعى وقت اشتغال وحصول مشقة عليه، الثالث والأربعون: النهي عن مضارة الشهيد أيضاً بأن يدعى إلى تحمل الشهادة أو أدائها في مرض أو شغل يشق عليه، أو غير ذلك هذا على جعل قوله: ﴿ولا يضار كاتب ولا شهيد﴾ مبنياً للمجهول، وأما على جعلها مبنياً للفاعل ففيه نهي الشاهد والكاتب أن يضارا صاحب الحق بالامتناع أو طلب أجره شاقة ونحو ذلك، وهذان هما

• وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَوَسِّمُوا
فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَمِنْ الْقَوَامَاتِ وَكَانَ
فِيكُمْ ذِكْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَفْلَحُوا فِي هَذِهِ
الْآيَةِ وَاللَّهُ يَتَذَكَّرُ الْعَبِيدَ • يَتَذَكَّرُ
السَّادَةِ وَمَا لِي الْأَرْضِ وَإِنْ شَاءَ مَا قَدِ امْتَصَحَكُمْ
وَتُخَذُوا عَائِدَةً بِكُمْ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ وَيُعَذِّبُ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ • مَا أَزِيدُ
وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَلَوْ أَنِّي دُرُوسٌ لِّكُلِّ
أَمَةٍ مِّنْكُمْ لَأَعْرِضُ عَنْ كَثِيرٍ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ
وَقَالَوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاللَّهُ يَتَذَكَّرُ الْعَبِيدَ •
لَا يَكُفِّرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا بِإِذْنِهِمَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا
مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا
رَبَّنَا لَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا
رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّمَا لَا مَلَأَتْ قُلُوبُنَا وَأَعِزَّنَا
وَرَبَّنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَاصْبِرْ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ •

مؤاخذون به، فأخبرهم هذه الآية أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها أي: أمرأ تسعه طاقتها، ولا يكلفها ويشق عليها، كما قال تعالى ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ فاصل الأوامر والنواهي ليست من الأمور التي تشق على النفوس، بل هي غذاء للأرواح ودواء للأبدان، وحماية عن الضرر، فالله تعالى أمر العباد بما أمرهم به رحمة وإحساناً، ومع هذا إذا حصل بعض الأعداء التي هي مظنة المشقة حصل التخفيف والتسهيل، إما بإسقاطه عن المكلف، أو إسقاط بعضه كما في التخفيف عن المريض والمسافر وغيرهم، ثم أخبر تعالى أن لكل نفس ما كسبت من الخير، وعليها ما اكتسبت من الشر، فلا تزر وازرة وزر أخرى ولا تذهب حسنات العبد لغيره، وفي الإتيان بـ «كسب» في الخير الدال على أن عمل الخير يحصل للإنسان بأدنى سعي منه بل بمجرد نية القلب وأتى بـ «اكتسب» في عمل الشر للدلالة على أن عمل الشر لا يكتب على الإنسان حتى يعملوه ويحصل سعيه، ولما أخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين، معه وأن كل عامل سيجازى بعمله، وكان الإنسان عرضة للتقصير والخطأ والنسيان، وأخبر أنه لا يكلفنا إلا ما نطيق وتسعه قوتنا، أخبر عن دعاء المؤمنين بذلك، وقد أخبر النبي ﷺ

﴿٢٨٥﴾ «أمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا تفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير» يخبر تعالى عن إيمان الرسول والمؤمنين معه، وانقيادهم وطاعتهم وسؤالهم مع ذلك المغفرة، فأخبر أنهم آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا يتضمن الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله من صفات كماله ونعوت جلاله على وجه الإجمال والتفصيل، وتنزيهه عن التمثيل والتعطيل وعن جميع صفات النقص، ويتضمن الإيمان بالملائكة الذين نصت عليهم الشرائع جملة وتفصيلاً، وعلى الإيمان بجميع الرسل والكتب، أي: بكل ما أخبرت به الرسل وتضمنته الكتب من الأخبار والأوامر والنواهي، وأنهم لا يفرقون بين أحد من رسله، بل يؤمنون بجميعهم، لأنهم وسائط بين الله وبين عبادهم، فالكفر ببعضهم كفر بجميعهم بل كفر بالله ﴿وقالوا سمعنا﴾ ما أمرتنا به ونهيتهنا ﴿وأطعنا﴾ لك في ذلك، ولم يكونوا ممن قالوا سمعنا وعصينا، ولما كان العبد لا بد أن يحصل منه تقصير في حقوق الله تعالى وهو محتاج إلى مغفرته على الدوام، قالوا ﴿غفرانك﴾ أي: نسألك مغفرة لما صدر منا من التقصير والذنوب، وعو ما اتصفنا به من العيوب ﴿وإليك المصير﴾ أي: المرجع لجميع الخلائق فتجنزهم بما عملوا من خير وشر.

﴿٢٨٦﴾ «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» لما نزل قوله تعالى ﴿وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾ شق ذلك على المسلمين لما توهوا أن ما يقع في القلب من الأمور اللازمة والعارضة المستقرة وغيرها

إليه لعدم الكاتب فيه، هذا كله إذا كان صاحب الحق يحب أن يتوثق لحقه، فما كان صاحب الحق آمناً من غريمه وأحب أن يعامله من دون رهن فعلى من عليه الحق أن يؤدي إليه كاملاً غير ظالم له ولا باخس حقه ﴿وليتق الله ربه﴾ في أداء الحق ويجازي من أحسن به الظن بالإحسان ﴿ولا تكتسبوا الشهادة﴾ لأن الحق مبني عليها لا يثبت بدونها، فكتبتهم من أعظم الذنوب، لأنه يترك ما وجب عليه من الخبر الصدق ويخبر بضده وهو الكذب، ويترتب على ذلك فوات حق من له الحق، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يكتسبها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم﴾ وقد اشتملت هذه الأحكام الحسنة التي أرشد الله عباده إليها على حكم عظيمة ومصالح عميمة دلت على أن الخلق لو اهتدوا بإرشاد الله لصلحت دنياهم مع صلاح دينهم، لاشتمالها على العدل والمصلحة، وحفظ الحقوق وقطع المشاجرات والمنازعات، وانتظام أمر المعاش، فله الحمد كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه لا نحصي ثناء عليه.

﴿٢٨٧﴾ «الله ما في السماوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير» هذا إخبار من الله أنه له ما في السماوات وما في الأرض، الجميع خلقهم ورزقهم وديرهم لمصالحهم الدينية والدنيوية، فكانوا ملكاً له وعبيداً، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وهو ربهم ومالكهم الذي يتصرف فيهم بحكمته وعدله وإحسانه، وقد أمرهم ونهاهم وسيحاسبهم على ما أسروه وأعلنوه، ﴿فيغفر لمن يشاء﴾ وهو لمن أتى بأسباب، المغفرة، ويعذب من يشاء بذنبه الذي لم يحصل له ما يكفره ﴿والله على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء، بل كل الخلق طوع قهره ومشيته وتقديره وجزائه.



أن الله قال: قد فعلت. إجابة لهذا الدعاء، فقال ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ والفرق بينهما: أن النسيان: ذهول القلب عن ما أمر به فيتذكره نسياناً، والخطأ: أن يقصد شيئاً يجوز له قصده ثم يقع فعله على ما لا يجوز له فعله: فهذان قد عفا الله عن هذه الأمة ما يقع بهما رحمة بهم وإحساناً، فعلى هذا من صلى في ثوب مغطوب، أو نجس، أو قد نسي نجاسة على بدنه، أو تكلم في الصلاة ناسياً، أو فعل مغطراً ناسياً، أو فعل محظوراً من محظورات الإحرام التي ليس فيها إتلاف ناسياً، فإنه معفو عنه، وكذلك لا يحنث من فعل المحلوف عليه ناسياً، وكذلك لو أخطأ فأتلف نفساً أو مالا فليس عليه إثم، وإنما الضمان مرتب على مجرد الإتلاف، وكذلك المواضع التي تجب فيها التسمية إذا تركها الإنسان ناسياً لم يضر. ﴿ربنا ولا تحمل علينا إصراً﴾ أي: تكاليف مشقة ﴿كما حملته على الذين من قبلنا﴾ وقد فعل تعالى فإن الله خفف عن هذه الأمة في الأوامر من الطهارات وأحوال العبادات ما لم يخففه على غيرها ﴿ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به﴾ وقد فعل وله الحمد ﴿واعف عنا واغفر لنا وارحمنا﴾ فالعفو والمغفرة يحصل بهما دفع المكروه والشرور، والرحمة يحصل بها صلاح الأمور ﴿أنت مولانا﴾ أي:

ربنا ومليكننا وإلهنا الذي لم نزل ولا ينك إيانا منذ أوجدتنا وأنشأتنا فنعمك دارة علينا متصلة عدد الأوقات، ثم أنعمت علينا بالنعمة العظيمة والمنحة الجسيمة، وهي نعمة الإسلام التي جميع النعم تبع لها، فنسألك يا ربنا ومولانا تمام نعمتك بأن تنصرنا على القوم الكافرين، الذين كفروا بك وبرسلك، وقاوموا أهل دينك ونبذوا أمرك، فانصرنا عليهم بالحجة والبيان والسيوف والسنان، بأن تمكن لنا في الأرض وتخلد لهم وترزقنا الإيمان والأعمال التي يحصل بها النصر، والحمد لله رب العالمين. تم تفسير سورة البقرة بعون الله وتوفيقه وصلى الله على محمد وسلم.

تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

نزل صدرها إلى بضع وثمانين آية في خاصمة النصارى وإبطال مذهبهم ودعوتهم إلى الدخول في الدين الحق دين الإسلام كما نزل صدر البقرة في حاجة اليهود كما تقدم.

﴿١ - ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الم * الله لا إله إلا هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام * إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء * هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ افتتحها ببارك وتعالى بالإخبار بالوحيته، وأنه الإله الذي لا إله إلا هو الذي لا ينبغي التأله والتعبد إلا لوجهه، فكل معبود سواه فهو باطل، والله هو الإله الحق المتصف بصفات الألوهية التي مرجعها إلى الحياة والقيومية، فالحي من له الحياة العظيمة الكاملة المستلزمة لجميع الصفات التي لا تتم ولا تكمل الحياة إلا بها كالسمع والبصر والقدرة والقوة والعظمة والبقاء والدوام والعز الذي لا يرام ﴿القيوم﴾ الذي قام بنفسه فاستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بغيره

فاقتقرت إليه جميع مخلوقاته في الإيجاد والإعداد والإمداد، فهو الذي قام بتدبير الخلائق وتصريفهم، تدبير للأجسام وللقلوب والأرواح، ومن قيامه تعالى بعباده ورحمته بهم أن نزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب، الذي هو أجل الكتب وأعظمها المشتمل على الحق في إخباره وأوامره ونواهيه، فما أخبر به صدق، وما حكم به فهو العدل، وأنزله بالحق ليقوم الخلق بعبادة ربهم ويتعلموا كتابه ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ من الكتب السابقة، فهو المزي لها، فما شهد له فهو المقبول، وما رده فهو المردود، وهو المطابق لها في جميع المطالب التي اتفق عليها المرسلون، وهي شاهدة له بالصدق، فأهل الكتاب لا يمكنهم التصديق بكتبهم إن لم يؤمنوا به، فإن كفرهم به ينقض إيمانهم بكتبهم، ثم قال تعالى ﴿وأنزل التوراة﴾ أي: على موسى ﴿والإنجيل﴾ على عيسى ﴿من قبل﴾ إنزال القرآن ﴿هدى للناس﴾ الظاهر أن هذا راجع لكل ما تقدم، أي: أنزل الله القرآن والتوراة والإنجيل هدى للناس من الضلال، فمن قبل هدى الله فهو المهتدي، ومن لم يقبل ذلك بقي على ضلاله ﴿وأنزل الفرقان﴾ أي: الحجج والبيانات والبراهين القاطعات الدالة على جميع المقاصد والمطالب، وكذلك فصل وفسر ما يحتاج إليه الخلق حتى بقيت الأحكام جليلة ظاهرة، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة لمن لم يؤمن به وبآياته، فلماذا قال ﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ أي: بعد ما بينها ووضحها وأزاح العلل ﴿لهم عذاب شديد﴾ لا يُقَدَّر قدره ولا يدرك وصفه ﴿والله عزيز﴾ أي: قوي لا يعجزه شيء ﴿ذو انتقام﴾ ممن عصاه ﴿إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ وهذا فيه تقرير إحاطة علمه بالمعلومات كلها، جليها وخفيها، ظاهرها وباطنها، ومن جملة ذلك الأجنة في البطون التي لا يدركها بصر المخلوقين، ولا ينالها علمهم، وهو تعالى يدبرها بالطف تدبير، ويقدرها بكل تقدير، فلماذا قال

والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فهكذا يقال في سائر الصفات لمن سأل عن كيفيتها أن يقال كما قال الإمام مالك، تلك الصفة معلومة، وكيفيتها مجهولة، والإيمان بها واجب، والسؤال عنها بدعة، وقد أخبرنا الله بها ولم يخبرنا بكيفيتها، فيجب علينا الوقوف على ما حد لنا، فأهل الزيغ يتبعون هذه الأمور المشتبهات تعرضاً لما لا يعني، وتكلفاً لما لا سبيل لهم إلى علمه، لأنه لا يعلمها إلا الله، وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بها ويكفلون المعنى إلى الله فيسلمون ويسلمون، وإن أريد بالتأويل التفسير والكشف والإيضاح، كان الصواب عطف «الراسخون» على «الله» فيكون الله قد أخبر أن تفسير التشابه ورده إلى المحكم وإزالة ما فيه من الشبهة لا يعلمها إلا هو تعالى والراسخون في العلم يعلمون أيضاً، فيؤمنون بها ويردونها للمحكم ويقولون «كل من المحكم والتشابه من عند ربنا» وما كان من عنده فليس فيه تعارض ولا تناقض بل هو متفق يصدق بعضه بعضاً ويشهد بعضه لبعض^(٢)، وفيه تنبيه على الأصل الكبير، وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل التشابه، علموا يقيناً أنه مردود إلى المحكم، وإن لم يفهموا وجه ذلك. ولما رغب تعالى في التسليم والإيمان بأحكامه وزجر عن اتباع التشابه قال «وما يذكر» أي: يتعظ بمواعظ الله ويقبل نصحه وتعليمه إلا «أولوا الألباب» أي: أهل العقول الرزينة لب العالم وخلاصة بني آدم يصل التذكير إلى عقولهم، فيتذكرون ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وأما من عداهم فهم القشور الذي لا حاصل له ولا نتيجة تحته، لا ينفعهم الزجر والتذكير لخلوهم من العقول النافعة.

يلتبس معناها على كثير من الأذهان: لكون دلالتها مجملة، أو يتبادر إلى بعض الأفهام غير المراد منها، فالحاصل أن منها آيات بيّنة واضحة لكل أحد، وهي الأكثر التي يرجع إليها، ومنه آيات تشكل على بعض الناس، فالواجب في هذا أن يرد التشابه إلى المحكم والخفي إلى الجلي، فهذه الطريق يصدق بعضها بعضاً ولا يحصل فيه مناقضة ولا معارضة، ولكن الناس انقسموا إلى فرقتين «فأما الذين في قلوبهم زيغ» أي: ميل عن الاستقامة بأن فسدت مقاصدهم، وصار قصدهم الغي والضلال وانحرفت قلوبهم عن طريق الهدى والرشاد «فيتبعون ما تشابه منه» أي: يتركون المحكم الواضح ويذهبون إلى التشابه، ويعكسون الأمر فيحملون المحكم على التشابه «ابتغاء الفتنة» لمن يدعونهم لقولهم، فإن التشابه تحصل به الفتنة بسبب الاشتباه الواقع فيه، وإلا فالمحكم الصريح ليس محلاً للفتنة، لوضوح الحق فيه لمن قصده اتباعه، وقوله «وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله» للمفسرين في الوقوف على «الله» من قوله «وما يعلم تأويله إلا الله» قولان، جمهورهم يقفون عندها، وبعضهم يعطف عليها «والراسخون في العلم» وذلك كله محتمل، فإن التأويل إن أريد به علم حقيقة الشيء وكنهه كان الصواب الوقوف على «إلا الله» لأن التشابه الذي استأثر الله بعلم كنهه وحقيقته، نحو حقائق صفات الله وكيفيتها، وحقائق أوصاف ما يكون في اليوم الآخر ونحو ذلك، فهذه لا يعلمها إلا الله، ولا يجوز التعرض للوقوف عليها، لأنه تعرض لما لا يمكن معرفته، كما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله «الرحمن على العرش [استوى]^(١)» فقال السائل: كيف استوى؟ فقال مالك: الاستواء معلوم،

هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء» من كامل الخلق ونواقصه، وحسن وقبح، وذكر وأُنثى «لا إله إلا هو العزيز الحكيم» تضمنت هذه الآيات تقرير إلهية الله وتعيينها، وإبطال إلهية ما سواه، وفي ضمن ذلك رد على النصارى الذين يزعمون إلهية عيسى ابن مريم عليه السلام، وتضمنت إثبات حياته الكاملة وقبوميته التامة، المتضمنتين جميع الصفات المقدسة كما تقدم، وإثبات الشرائع الكبار، وأنها رحمة وهداية للناس، وتقسيم الناس إلى مهتد وغيره، وعقوبة من لم يهتد بها، وتقرير سعة علم الباري ونفوذ مشيئته وحكمته.

﴿٧-٩﴾ هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون أماناً به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب * ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب * ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد ﴿القرآن العظيم كله محكم كما قال تعالى ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾ فهو مشتمل على غاية الإتيان والإحكام والعدل والإحسان ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ وكله متشابه في الحسن والبلاغة وتصديق بعضه لبعضه ومطابقته لفظاً ومعنى، وأما الإحكام والتشابه المذكور في هذه الآية فإن القرآن كما ذكره الله «منه آيات محكمات» أي: واضحات الدلالة، ليس فيها شبهة ولا إشكال «هن أم الكتاب» أي: أصله الذي يرجع إليه كل متشابه، وهي معظمه وأكثره، ﴿و﴾ منه آيات «آخر متشابهات» أي:

(١) سقطت كلمة استوى من الأصل وأضفتها؛ لأنها موضع الشاهد.

(٢) في هامش الأصل زيادة نصها: (وفيه تنبيه على الأصل الكبير وهو أنهم إذا علموا أن جميعه من عند الله، وأشكل عليهم مجمل التشابه علموا يقيناً أنه مردود إلى المحكم وإن لم يفهموا وجه ذلك). ولم يبين لي محلها إلا أن الأقرب أنها هنا.

ثم أخبر تعالى عن الراسخين في العلم أنهم يدعون ويقولون ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ أي: لا تمهلنا عن الحق جهلاً وعناداً منا، بل اجعلنا مستقيمين هادين مهتدين، فثبتنا على هدايتك وعافتنا مما^(١) ابتليت به الزائغين ﴿وهب لنا من لدنك رحمة﴾ أي: عظيمة توفقنا بها للخيرات وتعصمنا بها من المنكرات ﴿إنك أنت الوهاب﴾ أي: واسع العطايا والهبات، كثير الإحسان الذي عم جودك جميع البريات.

﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إنك لا تخلف الميعاد﴾ فمجازيهم بأعمالهم حسناتها وسيئها، وقد أثنى الله تعالى على الراسخين في العلم بسبع صفات هي عنوان سعادة العبد: إحداها: العلم الذي هو الطريق الموصل إلى الله، المبين لأحكامه وشرائعه، الثانية: الرسوخ في العلم وهذا قدر زائد على مجرد العلم، فإن الراسخ في العلم يقتضي أن يكون عالماً محققاً، وعارفاً مدققاً، قد علمه الله ظاهر العلم وباطنه، فرسخ قدمه في أسرار الشريعة علماً وحالاً وعملاً، الثالثة: أنه وصفهم بالإيمان بجميع كتابه وردّ لمتشابهه إلى محكمه، بقوله ﴿يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ الرابعة: أنهم سألوا الله العفو والعافية مما ابتلي به الزائغون المنحرفون، الخامسة: اعترافهم بمنة الله عليهم بالهداية وذلك قوله ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا﴾ السادسة: أنهم مع هذا سألوه رحمته المتضمنة حصول كل خير واندفاع كل شر، وتوسلوا إليه باسمه الوهاب، السابعة: أنه أخبر عن إيمانهم وإيقانهم بيوم القيامة وخوفهم منه، وهذا هو الموجب للعمل الرادع عن الزلل، ثم قال تعالى:

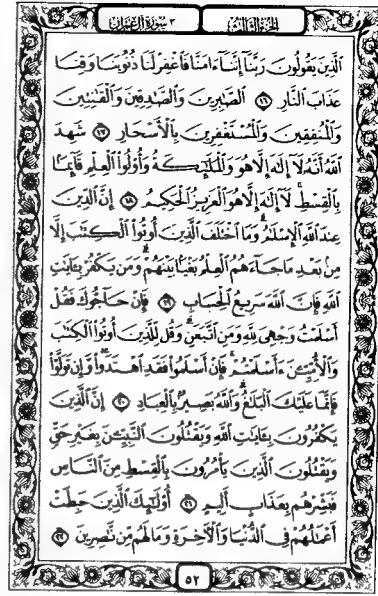
﴿١٠-١٣﴾ ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار﴾ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا

بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب ﴿قل للذين كفروا سفلوبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾ ﴿قد كان لكم آية في فتنتين التقنا فتن قتالاً في سبيل الله وأخرى كافرة يرونها مثلهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء﴾ ﴿إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار﴾ يخبر تعالى أن الكفار به ويرسله، الجاحدين بدينه وكتابه، قد استحقوا العقاب وشدة العذاب بكفرهم وذنوبهم وأنه لا يغني عنهم مالهم ولا أولادهم شيئاً، وإن كانوا في الدنيا يستدفعون بذلك النكبات التي ترد عليهم، ويقولون ﴿نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ فيوم القيامة يبدو لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون ﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن﴾ وليس للأولاد والأموال قدر عند الله، إنما ينفع العبد إيمانه بالله وأعماله الصالحة، كما قال تعالى ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرمكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فاولئك لهم جزء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون﴾ وأخبر هنا أن الكفار هم وقود النار، أي: حطبها، الملازمون لها دائماً أبداً، وهذه الحال التي ذكر الله تعالى أنها لا تغني الأموال وأولاد عن الكفار شيئاً، سنته الجارية في الأمم السابقة، كما جرى لفرعون ومن قبله ومن بعدهم من الفراعنة العتاة الطغاة أرباب الأموال والجنود لما كذبوا بآيات الله وجحدوا ما جاءت به الرسل وعاندوا، أخذهم الله بذنوبهم عدلاً منه لا ظملاً والله شديد العقاب على من أتى بأسباب العقاب وهو الكفر والذنوب على اختلاف أنواعها وتعدد مراتبها، ثم قال تعالى ﴿قل﴾ يا محمد ﴿للذين كفروا سفلوبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد﴾ وفي هذا إشارة للمؤمنين بالنصر والغلبة وتحذير للكفار، وقد وقع كما أخبر تعالى، فنصر الله المؤمنين على أعدائهم من كفار المشركين واليهود

(١) في الأصل: ممن، ولعل الثواب ما أثبت.

والنصارى، وسيفعل هذا تعالى بعباده وجنده المؤمنين إلى يوم القيامة، ففي هذا عبرة وآية من آيات القرآن المشاهدة بالحواس والعيان، وأخبر تعالى أن الكفار مع أنهم مغلوبون في الدار أنهم محشورون ومجموعون يوم القيامة لدار البوار، وهذا هو الذي مهدوه لأنفسهم فبئس المهاد مهادهم، وبئس الجزاء جزاؤهم، ﴿قد كان لكم آية﴾ أي: عبرة عظيمة ﴿في فتنتين التقنا﴾ وهذا يوم بدر ﴿فتنة تقاتل في سبيل الله﴾ وهم الرسول ﷺ وأصحابه ﴿وأخرى كافرة﴾ أي: كفار قريش الذين خرجوا من ديارهم بطراً وفخراً ورتاء الناس، ويصدون عن سبيل الله، فجمع الله بين الطائفتين في بدر، وكان المشركون أضعاف المؤمنين، فلماذا قال ﴿يرونها مثلهم رأي: العين﴾ أي: يرى المؤمنون الكافرين يزيدون عليها زيادة كثيرة، تبلغ المضاعفة وتزيد عليها، وأكد هذا بقوله ﴿رأي العين﴾ فنصر الله المؤمنين وأيدهم بنصره فهزموهم، وقتلوا صناديدهم، وأسروا كثيراً منهم، وما ذاك إلا لأن الله ناصر من نصره، وخاذل من كفر به، ففي هذا عبرة لأولي الأبصار، أي: أصحاب البصائر النافذة والعقول الكاملة، على أن الطائفة المنصورة معها الحق، والأخرى مبطله، وإلا فلو نظر الناظر إلى مجرد الأسباب الظاهرة والعدد والغد لجزم بأن غلبة هذه الفئة القليلة لتلك الفئة الكثيرة من أنواع المحالات، ولكن وراء هذا السبب المشاهد بالأبصار سبب أعظم منه لا يدركه إلا أهل البصائر والإيمان بالله والتوكل على الله والثقة بكفائته، وهو نصره وإعزازه لعباده المؤمنين على أعدائه الكافرين.

﴿١٤-١٧﴾ ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾ ﴿قل أؤنبكم بخير من ذلكم للذين اتقوا﴾



المرجع في جميع الأمور الدينية خصوصاً في أعظم الأمور وأجلها وأشرفها وهو التوحيد، فكلهم من أولهم إلى آخرهم قد اتفقوا على ذلك ودعوا إليه وبنوا للناس الطرق الموصلة إليه، فوجب على الخلق التزام هذا الأمر المشهود عليه والعمل به، وفي هذا دليل على أن أشرف الأمور علم التوحيد لأن الله شهد به بنفسه وأشهد عليه خواص خلقه، والشهادة لا تكون إلا عن علم ويقين، بمنزلة المشاهدة للبصر، ففيه دليل على أن من لم يصل في علم التوحيد إلى هذه الحالة فليس من أولي العلم. وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة، منها: أن الله خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس، ومنها: أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلاً، ومنها: أنه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائمون به المتصفون بصفته، ومنها: أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنها: أن إلهاده تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تركيبتهم وتعديلهم وأنهم أمناء على ما استرعاهم عليه، ولما قرر توحيده قرر عدله، فقال: ﴿قَائِمًا

بالقسط﴾ أي: لم يزل متصفاً بالقسط في أفعاله وتدبيره بين عباده، فهو على صراط مستقيم في ما أمر به ونهى عنه، وفيما خلقه وقدره، ثم أعاد تقرير توحيده فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. واعلم أن هذا الأصل الذي هو توحيد الله وإفراده بالعبودية قد دلت عليه الأدلة النقلية والأدلة العقلية، حتى صار لذوي البصائر أجلى من الشمس، فاما الأدلة النقلية فكل ما في كتاب الله وسنة رسوله، من الأمر به وتقديره، ومحبة أهله وبغض من لم يقم به وعقوباتهم، وذم الشرك وأهله، فهو من الأدلة النقلية على ذلك، حتى كاد القرآن أن يكون كله أدلة عليه، وأما الأدلة العقلية التي تدرك بمجرد فكر العقل وتصوره للأمور فقد أرشد القرآن إليها ونبه على كثير منها، فمن أعظمها: الاعتراف بربوبية الله، فإن من عرف أنه هو الخالق الرازق المدير لجميع الأمور أنتج له ذلك أنه هو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولما كان هذا من أوضح الأشياء وأعظمها أكثر الله تعالى من الاستدلال به في كتابه. ومن الأدلة العقلية على أن الله هو الذي يؤله دون غيره انفراده بالنعم ودفع النقم، فإن من عرف أن النعم الظاهرة والباطنة القليلة والكثيرة كلها من الله، وأنه ما من نعمة ولا شدة ولا كربة إلا وهو الذي ينفرد بدفعها وإن أحداً من الخلق لا يملك لنفسه - فضلاً عن غيره - جلب نعمة ولا دفع نعمة، تيقن أن عبودية ما سوى الله من أبطل الباطل وأن العبودية لا تنبغي إلا لمن انفرد بجلب المصالح ودفع المضار، فلماذا أكثر الله في كتابه من التنبيه على هذا الدليل جداً، ومن الأدلة العقلية أيضاً على ذلك: ما أخبر به تعالى عن المعبودات التي عبدت من دونه، بأنها لا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا تنصر غيرهما ولا تنصر نفسها، وسلبها الأسماع والأبصار، وأنها على فرض سماعها لا تغني شيئاً، وغير ذلك من الصفات الدالة على نقصها غاية النقص، وما أخبر به عن نفسه العظيمة

من الصفات الجليلة والأفعال الجميلة، والقدرة والقهر، وغير ذلك من الصفات التي تعرف بالأدلة السمعية والعقلية، فمن عرف ذلك حق المعرفة عرف أن العبادة لا تليق ولا تحسن إلا بالرب العظيم الذي له الكمال كله، والمجد كله، والحمد كله، والقدرة كلها، والكبرياء كلها، لا بالمخلوقات المذنبات الناقصات الصم البكم الذين لا يعقلون، ومن الأدلة العقلية على ذلك ما شاهده العباد بأبصارهم من قديم الزمان وحديثه، من الإكرام لأهل التوحيد، والإهانة والعقوبة لأهل الشرك، وما ذاك إلا لأن التوحيد جعله الله موصلاً إلى كل خير دافعاً لكل شر ديني ودنيوي، وجعل الشرك به والكفر سبباً للعقوبات الدينية والدنيوية، ولهذا إذا ذكر تعالى قصص الرسل مع أمم الطغيين والعاصين، وأخبر عن عقوبات العاصين ونجاة الرسل ومن تبعهم، قال عقب كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: لعلبة يعتبر بها المعتبرون فيعملون أن توحيده هو الموجب للنجاة، وتركه هو الموجب للهلاك، فهذه من الأدلة الكبار العقلية النقلية الدالة على هذا الأصل العظيم، وقد أكثر الله منها في كتابه وصرفها ونوعها ليحيى من حي عن بينة، ويهلك من هلك عن بينة فله الحمد والشكر والثناء.

ولما قرر أنه الإله الحق المعبود، بين العبادة والدين الذي يتعين أن يعبد به ويدان له، وهو الإسلام الذي هو الاستسلام لله بتوحيده وطاعته التي دعت إليها رسله، وحثت عليها كتبه، وهو الذي لا يقبل من أحد دين سواه، وهو متضمن للإخلاص له في الحب والخوف والرجاء والإنابة والدعاء ومتابعة رسوله في ذلك، وهذا هو دين الرسل كلهم، وكل من تابعهم فهو على طريقهم، وإنما اختلف أهل الكتاب بعد ما جاءتهم كتبهم تحثهم على الاجتماع على دين الله، بغياً بينهم، وظلماً وعدواناً من أنفسهم، وإلا فقد جاءهم السبب الأكبر الموجب أن يتبعوا

[illegible]



أعظم دليل على قدرة الله، وأن جميع الأشياء مسخرة مدبرة لا تملك من التدبير شيئاً، فخلقه تعالى الأضداد، والصد من ضده بيان أنها مقهورة * وترزق من تشاء بغير حساب * أي: ترزق من تشاء رزقاً واسعاً من حيث لا يحتسب ولا يكتسب، ثم قال تعالى:

﴿٢٨ - ٣٠﴾ * لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير * قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير * يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد. وهذا نهى من الله تعالى للمؤمنين عن موالاة الكافرين بالحببة والنصرة والاستعانة بهم على أمر من أمور المسلمين، وتوعد على ذلك فقال: * ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء * أي: فقد انقطع عن الله، وليس له في دين الله نصيب، لأن موالاة الكافرين لا تجتمع مع الإيمان، لأن الإيمان يأمر بموالاة الله وموالاة أوليائه المؤمنين المتعاونين على إقامة دين الله وجهاد أعدائه، قال تعالى: * والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض * فمن وإلى - الكافرين من دون المؤمنين الذين يريدون أن يطفؤا نور الله ويفتقوا أوليائه خرج من حزب المؤمنين، وصار من حزب الكافرين، قال تعالى: * ومن يتولهم منكم فإنه منهم * وفي هذه الآية دليل على الابتعاد عن الكفار وعن معاشرتهم وصدقتهم، والميل إليهم

واتفاقهم، وإعدادهم الآلات التي يقدروا عليها والصبر وعدم التنازع، قال الله تعالى: * وعهد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم * الآية فأخبر أن الإيمان والعمل الصالح سبب للاستخلاف المذكور، وقال تعالى: * هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم * الآية وقال تعالى: * يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين * فأخبر أن ائتلاف قلوب المؤمنين وثباتهم وعدم تنازعهم سبب للنصر على الأعداء، وأنت إذا استقرأت الدول الإسلامية وجدت السبب الأعظم في زوال ملكها ترك الدين والتفرق الذي أطمع فيهم الأعداء وجعل بأسهم بينهم، ثم قال تعالى: * وتزعزع من تشاء * بطاعتك * وتذل من تشاء * بمعصيتك * إنك على كل شيء قدير * لا يمتنع عليك أمر من الأمور بل الأشياء كلها طوع مشيئتكم وقدرتكم * تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل * أي: تدخل هذا على هذا، وهذا على هذا، فينشأ عن ذلك من الفصول والضيء والنور والشمس والظل والسكون والانتشار، ما هو من أكبر الأدلة على قدرة الله وعظمته وحكمته ورحمته * وتخرج الحي من الميت * كالفرخ من البيضة، وكالشجر من النوى، وكالزرع من بذره، وكالمؤمن من الكافر * وتخرج الميت من الحي * كالبيضة من الطائر، وكالنوى من الشجر، وكالحب من الزرع، وكالكافر من المؤمن، وهذا

الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب * يقول الله لنبيه ﷺ: قل اللهم مالك الملك * أي: أنت الملك المالك لجميع الممالك، فصفة الملك المطلق لك، والمملكة كلها علويها وسفليها لك والتصريف والتدبير كله لك، ثم فصل بعض التصاريف التي انفرد الباري تعالى بها، فقال: * تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وفيه الإشارة إلى أن الله تعالى سينزع الملك من الأكاسرة والقيصرية ومن تبعهم ويؤتيه أمة محمد، وقد فعل والله الحمد، فحصول الملك ونزعه تبع لمشیئة الله تعالى، ولا ينافي ذلك ما أجرى الله به سنته من الأسباب الكونية والدينية التي هي سبب بقاء الملك وحصوله وسبب زواله، فإنها كلها بمشيئة الله لا يوجد سبب يستقل بشيء، بل الأسباب كلها تابعة للقضاء والقدر، ومن الأسباب التي جعلها الله سبباً لحصول الملك الإيمان والعمل الصالح، التي منها اجتماع المسلمين

- (١) جاء في هامش النسخة ما يلي: (قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «المنهاج»: وأما قوله: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾ قال مجاهد: لا مصانعة، والتقاة ليست بأن أكذب وأقول بلساني ما ليس في قلبي، فإن هذا نفاق، ولكن أفعل ما أقدر عليه كما في «الصحیح» عن النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً أخط، فالعؤمن إذا كان بين الكفار والفجار لم يكن عليه أن يجاهدكم بيده مع عجزه، ولكن إن أمكنه بلسانه وإلا فقلبه، مع أنه لا يكذب ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، إما أن يظهر دينه وإما أن يكتمه، وهو مع هذا لا يوافقهم على دينهم كله بل غايته أن يكون كمؤمن آل فرعون وامرأة فرعون، وهو لم يكن موافقاً لهم على جميع دينهم، ولا كان يكذب، ولا يقول بلسانه ما ليس في قلبه، بل كان يكتُم إيمانه، وكتمان الدين شيء وإظهار الدين الباطل شيء آخر، فهذا لم يبحه الله إلا لمن أكره الخ.

يكون إيمانهم وحبهم لله، وما نقص من ذلك نقص.

﴿٣٢﴾ ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ وهذا أمر من الله تعالى لعباده بأعم الأوامر، وهو طاعته وطاعة رسوله التي يدخل بها الإيمان والتوحيد، وما هو من فروع ذلك من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة، بل يدخل في طاعته وطاعة رسوله اجتناب ما نهى عنه، لأن اجتنابه امتثالاً لأمر الله هو من طاعته، فمن أطاع الله ورسوله، فأولئك هم المفلحون ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن طاعة الله ورسوله فليس ثم أمر يرجعون إليه إلا الكفر وطاعة كل شيطان مريد ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابٍ السَّعِيرِ﴾ فلماذا قال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ بل يخفضهم ويمقتهم ويعاقبهم أشد العقوبة، وكأن في هذه الآية الكريمة بياناً وتفسيراً لاتباع رسوله، وأن ذلك بطاعة الله وطاعة رسوله، هذا هو الاتباع الحقيقي، ثم قال تعالى:

﴿٣٣-٣٧﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم * إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت لك ما في بطني محرراً فتقبل مني إنك أنت السميع العليم * فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وإني سميتها مريم وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم * فتقبلها ربه بقبول حسن وأنتهت نياتاً حسناً وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنئي لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب * يخبر تعالى باختيار من اختاره من أوليائه وأصفائه وأحبابه، فأخبر أنه اصطفى آدم، أي: اختاره على سائر المخلوقات، فخلق به ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وأسكنه جنته، وأعطاه من العلم

الله ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَدِّعُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصُوا الرَّسُولَ لَوْ تَسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾ ويوم بعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتا ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ فوالله لترك كل شهوة ولذة وإن عسر تركها على النفس في هذه الدار أيسر من معاناة تلك الشدائد واحتمال تلك الفضائح، ولكن العبد من ظلمه وجهله لا ينظر إلا الأمر الحاضر، فليس له عقل كامل يلحظ به عواقب الأمور فيقدم على ما ينفعه عاجلاً وأجلاً، ويحجم عن ما يضره عاجلاً وأجلاً، ثم أعاد تعالى تحذيرنا نفسه رافة بنا ورحمة لثلاث يطول علينا الأمد فتقسو قلوبنا، وليجمع لنا بين التزغيب الموجب للرجاء والعمل الصالح، والترهيب الموجب للخوف وترك الذنوب، فقال ﴿وَيَحْذَرُكَمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ فنسأله أن يمن علينا بالحذر منه على الدوام، حتى لا نفعل ما يسخطه ويغضبه.

﴿٣١﴾ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذه الآية فيها وجوب محبة الله، وعلاماتها، ونتيجتها، وثمراتها، فقال ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ أي: ادعيتم هذه المرتبة العالية، والرتبة التي ليس فوقها رتبة فلا يكفي فيها مجرد الدعوى، بل لابد من الصدق فيها، وعلامة الصدق اتباع رسول الله ﷺ في جميع أحواله، في أقواله وأفعاله، في أصول الدين وفروعه، في الظاهر والباطن، فمن اتبع الرسول دل على صدق دعواه محبة الله تعالى، وأحبه الله وغفر له ذنبه، ورحمه وسدده في جميع حركاته وسكناته، ومن لم يتبع الرسول فليس محباً لله تعالى، لأن محبته لله توجب له اتباع رسوله، فما لم يوجد ذلك دل على عدمها وأنه كاذب إن ادعاه، مع أنها على تقدير وجودها غير نافعة بدون شرطها، وبهذه الآية يوزن جميع الخلق، فعلى حسب حظهم من اتباع الرسول

والركون إليه، وأنه لا يجوز أن يولى كافر ولاية من ولايات المسلمين، ولا يستعان به على الأمور التي هي مصالح لعموم المسلمين. قال الله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أي: تخافوهم على أنفسكم فيحل لكم أن تفعلوا ما تعصمون به دماءكم من التقية باللسان وإظهار ما به تحصل التقية. ثم قال تعالى: ﴿وَيَحْذَرُكَمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: فلا تتعرضوا لسخطه بارتكاب معاصيه فيعاقبكم على ذلك ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ أي: مرجع العباد ليوم التناد، فيحصى أعمالهم ويحاسبهم عليها ويجازيهم، فإياكم أن تفعلوا من الأعمال القباح ما تستحقون به العقوبة، واعملوا ما به يحصل الأجر والثوبة، ثم أخبر عن سعة علمه لما في النفوس خصوصاً، ولما في السماء والأرض عموماً، وعن كمال قدرته، ففيه إرشاد إلى تطهير القلوب واستحضار علم الله كل وقت فيستحي العبد من ربه أن يرى قلبه عملاً لكل فكر رديء، بل يشغل أفكاره فيما يقرب إلى الله من تدبر آية من كتاب، أو سنة من أحاديث رسول الله، أو تصور وبحث في علم ينفعه، أو تفكر في مخلوقات الله ونعمه، أو نصبح لعباد الله، وفي ضمن أخبار الله عن علمه وقدرته الإخبار بما هو لازم ذلك من المجازاة على الأعمال، ومحل ذلك يوم القيامة، فهو الذي توفي به النفوس بأعمالها فلماذا قال ﴿يَوْمَ تُجَدُّ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا﴾ أي: كاملاً موفراً لم ينقص مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ والخير: اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها، كما أن السوء اسم جامع لكل ما يسخط الله من الأعمال السيئة صغيرها وكبيرها ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ أي: مسافة بعيدة، لعظم أسفها وشدّة حزنها، فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بد أن يحزن عليها أشد الحزن، وليتركها وقت الإمكان قبل أن يقول ﴿يَا حَسْرَتًا عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ

والحلم والفضل ما فاق به سائر المخلوقات، ولهذا فضل بنيه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَحْشِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

واصطفى نوحاً فجعله أول رسول إلى أهل الأرض حين عبدت الأوثان، ووقفه من الصبر والاحتمال والشكر والدعوة إلى الله في جميع الأوقات ما أوجب اصطفاؤه واجتباؤه، وأغرق الله أهل الأرض بدعوته، ونجاه ومن^(١) معه في الفلك المشحون، وجعل ذريته هم الباقين، وترك عليه ثناء يذكر في جميع الأحيان والأزمان.

واصطفى آل إبراهيم وهو إبراهيم خليل الرحمن الذي اختصه الله بخلته، وبذل نفسه للنيران وولده للقربان وماله للضيغان، ودعا إلى ربه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، وجعله الله أسوة يقتدي به من بعده، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، ويدخل في آل إبراهيم جميع الأنبياء الذين بعثوا من بعده لأنهم من ذريته، وقد خصهم بأنواع الفضائل ما كانوا به صفوة على العالمين، ومنهم سيد ولد آدم نبينا محمد ﷺ فإن الله تعالى جمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره، وفاق ﷺ الأولين والآخرين، فكان سيد المرسلين المصطفى من ولد إبراهيم.

واصطفى الله آل عمران وهو والد مريم بنت عمران، أو والد موسى بن عمران عليه السلام، فهذه البيوت التي ذكرها الله هي صفوته من العالمين، وتسلسل الصلاح والتوفيق بذرياتهم، فلهمذا قال تعالى ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ أي: حصل التناسب والتشابه بينهم في الخلق والأخلاق الجميلة، كما قال تعالى لما ذكر جملة من الأنبياء الداخلين في ضمن هذه البيوت الكبار ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ

مستقيم﴾ ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يعلم من يستحق الاصطفاء فيصطفيه ومن لا يستحق ذلك فيخذله ويرديه، ودل هذا على أن هؤلاء اختارهم لما علم من أحوالهم الموجبة لذلك فضلاً منه وكرماً، ومن الفائدة والحكمة في قصه علينا أخبار هؤلاء الأصفياء أن نجبههم ونقتدي بهم، ونسأل الله أن يوفقنا لما وفقهم، وأن لا نزال نزرى^(٢) أنفسنا بتأخرنا عنهم وعدم اتصافنا بأوصافهم ومزاياهم الجميلة، وهذا أيضاً من لطفه بهم، وإظهاره الثناء عليهم في الأولين والآخرين، والتنويه بشرفهم، فله ما أعظم جوده وكرمه وأكثر فوائده معاملته، لو لم يكن لهم من الشرف إلا أن أذكاهم مخلدة ومناقبهم مؤيدة لكفى بذلك فضلاً، ولما ذكر فضائل هذه البيوت الكريمة ذكر ما جرى لمريم والدة عيسى وكيف لطف الله بها في تربيته ونشأته، فقال: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أي: جعلت ما في بطني خالصاً لوجهك، محرراً لخدمتك وخدمة بيتك ﴿فَتَقَبَّلَ مِنْي﴾ هذا العمل المبارك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ تسمع دعائي وتعلم نيتي وقصدي، هذا وهي في البطن قبل وضعها ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ كأنها تشوفت أن يكون ذكراً ليكون أقدر على الخدمة وأعظم موقفاً، ففي كلامها [نوع]^(٣) عذر من ربها، فقال الله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ أي: لا يحتاج إلى إعلامها، بل علمه متعلق بها قبل أن تعلم أمها ما هي ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ وإني سميتها مريم ﴿فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى تَفْضِيلِ الذَّكَرِ عَلَى الْأُنْثَى﴾، وعلى التسمية وقت الولادة، وعلى أن للام تسمية الولد إذا لم يكره الأب ﴿وَإِنِّي أَحْبَبْتُهَا بِكَ وَذَرَيْتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ دعت لها ولذريتها أن يعيذهم الله من الشيطان الرجيم

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: جعلها نذيرة مقبولة، وأجارها وذريتها من الشيطان ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي: نبتت نباتاً حسناً في بدنها وخلقها وأخلاقها، لأن الله تعالى قبض لها زكريا عليه السلام ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ إياه، وهذا من رفقه بها ليربها على أكمل الأحوال، فنشأت في عبادة ربها وفاقت النساء، وانقطعت لعبادة ربها، ولزمت محرابها أي: مصلاها فكان ﴿كَلِمًا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ أي: من غير كسب ولا تعب، بل رزق ساقه الله إليها، وكرامة أكرمها الله بها، فيقول لها زكريا ﴿أَنِّي لَكَ هَذَا قَالَتَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فضلاً وإحساناً ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: من غير حسابان من العبد ولا كسب، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وفي هذه الآية دليل على إثبات كرامات الأولياء المخارقة للعادة كما قد تواترت الأخبار بذلك، خلافاً لمن نفى ذلك، فلما رأى زكريا عليه السلام ما من الله به على مريم، وما أكرمها به من رزقه الهنيء الذي أتاها بغير سعي منها ولا كسب، طمعت نفسه بالولد، فلهمذا قال تعالى:

﴿٣٨ - ٤١﴾ ﴿هَئِنَّا دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ * فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقاً بكلمة من الله وسيداً وحسوراً ونبياً من الصالحين * قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأى عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء * قال رب اجعل لي آية قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيراً وستج بالعشي والإيكار * أي: دعا زكريا عليه السلام ربه أن يرزقه ذرية طيبة، أي: طاهرة الأخلاق، طيبة الآداب، لتكمل النعمة الدينية والدنيوية بهم، فاستجاب له

(٣) الكلمة غير واضحة في الأصل ويبدو

- والله أعلم - أنها كما أثبت.

(١) في الأصل: ومن.

(٢) في الأصل: نردي.

دعاه، وبينما هو قائم في محرابه يتعبد لربه ويتضرع نادته الملائكة ﴿أَنْ اللَّهَ يَبْشُرَكَ بِإِحْسَانٍ﴾ أي: بعيسى عليه السلام، لأنه كان بكلمة الله ﴿وسيداً﴾ أي: يحصل له من الصفات الجميلة ما يكون به سيداً يرجع إليه في الأمور ﴿وحضوراً﴾ أي: ممنوعاً من إتيان النساء، فليس في قلبه لهن شهوة، اشتغلاً بخدمة ربه وطاعته ﴿ونبيّاً من الصالحين﴾ فأى: بشارة أعظم من هذا الولد الذي حصلت البشارة بوجوده، وبكمال صفاته، ويكونه نبياً من الصالحين، فقال زكريا من شدة فرحه ﴿رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأى عاقراً﴾ وكل واحد من الأمرين مانع من وجود الولد، فكيف وقد اجتمع، فأخبره الله تعالى أن هذا خارق للعادة، فقال: ﴿كذلك الله يفعل ما يشاء﴾ فكما أنه تعالى قدر وجود الأولاد بالأسباب التي منها التناسل، فإذا أراد أن يوجد لهم من غير ما سبب فعل، لأنه لا يستعصى عليه شيء، فقال زكريا عليه السلام استعجلاً لهذا الأمر، وليحصل له كمال الطمأنينة ﴿رب اجعل لي آية﴾ أي: علامة على وجود الولد قال ﴿آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾ أي: ينحس لسانك عن كلامهم من غير آفة ولا سوء، فلا تقدر إلا على الإشارة والرمز، وهذا آية عظيمة أن لا تقدر على الكلام، وفيه مناسبة عجيبة، وهي أنه كما يمنع نفوذ الأسباب مع وجودها فإنه يوجد بها بدون أسبابها ليدل ذلك أن الأسباب كلها مندرجة في قضائه وقدره، فامتنع من الكلام ثلاثة أيام، وأمره الله أن يشكره ويكثر من ذكره بالعشي والإبكار، حتى إذا خرج على قومه من المحراب ﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا﴾ أي: أول النهار وآخره.

الراكمين * ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴿ينوه تعالى بفضيلة مريم وعلو قدرها، وأن الملائكة خاطبتها بذلك فقالت ﴿يا مريم إن الله اصطفاك﴾ أي: اختارك ﴿وطهرتك﴾ من الآفات المنقصة ﴿واصطفاك على نساء العالمين﴾ الاصطفاء الأول يرجع إلى الصفات الحميدة والأفعال السديدة، والاصطفاء الثاني يرجع إلى تفضيلها على سائر نساء العالمين، إما على عالمي زمانها، أو مطلقاً، وإن شاركها أفراد من النساء في ذلك كخديجة وعائشة وفاطمة، لم يناف الاصطفاء المذكور، فلما أخبرتها الملائكة باصطفاء الله إياها وتطهيرها، كان في هذا من النعمة العظيمة والمنحة الجسيمة ما يوجب لها القيام بشكرها، فلماذا قالت لها الملائكة: ﴿يا مريم اقنتي لربك﴾ القنوت دوام الطاعة في خضوع وخشوع، ﴿واسجدي واركعي مع الراكمين﴾ خص السجود والركوع لفضلهما ودلالتهما على غاية الخضوع لله، ففعلت مريم، ما أمرت به شكراً لله تعالى وطاعة، ولما أخبر الله نبيه بما أخبر به عن مريم، وكيف تنقلت بها الأحوال التي يقضها الله لها، وكان هذا من الأمور الغيبية التي لا تعلم إلا بالوحي، قال ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم﴾ أي: عندهم ﴿إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾ لما ذهبت بها أمها إلى من لهم الأمر على بيت المقدس، فتشاحوا وتخاصموا أيهم يكفل مريم، واقتربوا عليها بأن ألقوا أقلامهم في النهر، فأبهم لم يجر قلمه مع الماء فله كفالتها، فوقع ذلك لزكريا نبيهم وأفضلهم، فلما أخبرتهم يا محمد بهذه الأخبار التي لا علم لك ولا لقومك بها دل على أنك صادق وأنتك رسول الله حقاً، فوجب عليهم الانقياد لك وامتنال أوامرك، كما قال تعالى: ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ الآيات.

هَٰذَا مَثَلٌ ذَكَرْنَاهُ عَلَىٰ نَبْإٍ فِي رَبِّكَ ذِكْرًا لِّعِبَادِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُصِغِرُ أَكْبَارَهُمْ وَيُكَبِّرُ سَغِيرَهُمْ بِمَا كَانُوا فِي الْأَعْيُنِ ۚ وَمَا يَكُونُ لِي عِلْمٌ بِمَا يُكْفَلُ بِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ۖ وَهُوَ يَافِي ۖ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۚ

﴿٤٥ - ٥٨﴾ ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين﴾ * ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين * قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل * ورسولاً إلى بني إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تاكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين * ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون * إن الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم * فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله وأشهد بأننا مسلمون * ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين * ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين * إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إني ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجعكم



والمрад بالحكمة معرفة أسرار الشرع، ووضع الأشياء مواضعها، فيكون ذلك امتناناً على عيسى عليه السلام بتعليمه الكتابة والعلم والحكمة، وهذا هو الكمال للإنسان في نفسه، ثم ذكر له كمالاته وأخره فضلاً زائداً على ما أعطاه الله من الفضائل، فقال ﴿ورسولاً إلى بني إسرائيل﴾ فأرسله الله إلى هذا الشعب الفاضل الذين هم أفضل العالمين في زمانهم يدعوهم إلى الله، وأقام له من الآيات ما دلهم أنه رسول الله حقاً ونبيه صدقاً ولهذا قال ﴿أني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين طيراً﴾ أي: أصوره على شكل الطير ﴿فأنفخ فيه فيكون طيراً﴾ بإذن الله ﴿أي: طيراً له روح تطير بإذن الله وأبرئ الأكمه﴾ وهو الذي يولد أعمى ﴿والأبرص﴾ بإذن الله ﴿وأحيي الموتى﴾ بإذن الله وأنتهكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك آية لكم إن كنتم مؤمنين ﴿أي: آية أعظم من جعل الجماد حيواناً، وإبراء ذوي العاهات التي لا قدرة للأطباء في معالجتها، وإحياء الموتى، والإخبار بالأمور الغيبية، فكل واحدة من هذه الأمور آية عظيمة بمفردها، فكيف بها إذا اجتمعت وصدق بعضها بعضها؟ فإنها موجبة للإيقان وداعية للإيمان ﴿ومصدقاً لما بين يدي من التوراة﴾ أي: أتيت بجنس ما جاءت به التوراة وما جاء به موسى عليه السلام، وعلامة الصادق أن يكون خبره من جنس خبر الصادقين، يخبر بالصدق، ويأمر بالعدل من غير تحالف ولا تناقض، بخلاف من ادعى دعوى كاذبة، خصوصاً أعظم الدعاوى وهي دعوى النبوة، فالكاذب فيها لابد أن يظهر لكل أحد كذب صاحبها وتناقضه ومخالفته لأخبار الصادقين وموافقته لأخبار الكاذبين، هذا موجب السنن الماضية والحكمة الإلهية والرحمة الربانية بعباده، إذ لا يشبه الصادق بالكاذب في دعوى النبوة أبداً، بخلاف بعض الأمور الجزئية، فإنه قد يشبه فيها الصادق بالكاذب، وأما النبوة فإنه

التكليم المعتاد، بل المراد يكلم الناس بما فيه صلاحهم وفلاحهم، وهو تكليم المرسلين، ففي هذا إرساله ودعوته الخلق إلى ربهم، وفي تكليمهم في المهد آية عظيمة من آيات الله ينتفع بها المؤمنون، وتكون حجة على المعاندين، أنه رسول رب العالمين، وأنه عبد الله، وليكون نعمة وبراءة لوالدته مما رميت به ﴿ومن الصالحين﴾ أي: يمن عليه بالصلاح، من من عليهم، ويدخله في جملتهم، وفي هذا عدة بشارات لمريم مع ما تضمن من التنويه بذكر المسيح عليه السلام ﴿قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر﴾ والولد في العادة لا يكون إلا من مس البشر، وهذا استغراب منها، لا شك في قدرة الله تعالى: ﴿قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ فأخبرها أن هذا أمر خارق للعادة، خلقه من يقول لكل أمر أراد: كن فيكون، فمن يقن ذلك زال عنه الاستغراب والتعجب، ومن حكمة الباري تعالى أن تدرج بأخبار العباد من الغريب إلى ما هو أغرب منه، فذكر وجود يحيى بن زكريا بين أبوين أحدهما كبير والآخر عاقر، ثم ذكر أغرب من ذلك وأعجب، وهو وجود عيسى عليه السلام من أم بلا أب ليدل عباده أنه الفعال لما يريد وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ثم أخبر تعالى عن منته العظيمة على عبده ورسوله عيسى عليه السلام، فقال ﴿ويعلمه الكتاب﴾ يحتمل أن يكون المراد جنس الكتاب، فيكون ذكر التوراة والإنجيل تخصيصاً لهما، لشرفهما وفضلهما واحتوائهما على الأحكام والشرائع التي يحكم بها أنبياء بني إسرائيل والتعليم، لذلك يدخل فيه تعليم ألفاظه ومعانيه، ويحتمل أن يكون المراد بقوله ﴿ويعلمه الكتاب﴾ أي: الكتابة، لأن الكتابة من أعظم نعم الله على عباده ولهذا امتن تعالى على عباده بتعليمهم بالقلم في أول سورة أنزلها فقال ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم﴾

فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون * فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين * وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيه أجرهم واصلهم ولا يمحى الظالمين * ذلك نلتوه عليكم من الآيات والذكر الحكيم * يخبر تعالى أن الملائكة بشرت مريم عليها السلام بأعظم بشارة، وهو كلمة الله عبده ورسوله عيسى ابن مريم، سمي كلمة الله لأنه كان بالكلمة من الله، لأن حاله خارجة عن الأسباب، وجعله الله من آياته وعجائب مخلوقاته، فأرسل الله جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ في جيب درعها فولجت فيها تلك النفخة الزكية من ذلك الملك الزكي، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانياً نشأ من مادة روحانية، فلهذا سمي روح الله ﴿وجيهاً في الدنيا والآخرة﴾ أي: له الوجهة العظيمة في الدنيا، جعله الله أحد أولي العزم من المرسلين أصحاب الشرائع الكبار والأئمة، ونشر الله له من الذكر ما ملأ ما بين المشرق والمغرب، وفي الآخرة وجيهاً عند الله يشفع أسوة إخوانه من النبيين والمرسلين، ويظهر فضله على أكثر العالمين، فلهذا كان من المقربين إلى الله، أقرب الخلق إلى ربهم، بل هو عليه السلام من سادات المقربين ﴿ويكلم الناس في المهد وكهلاً﴾ وهذا غير

عيسى من اليهود، حتى بعث الله نبينا محمداً ﷺ فكان المسلمون هم المتبعين لعيسى حقيقة، فأيدهم الله ونصرهم على اليهود والنصارى وسائر الكفار، وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار من النصارى وغيرهم على المسلمين، حكمة من الله وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول ﷺ ثم إلي مرجعكم: أي: مصير الخلائق كلها فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون كل يدعي أن الحق معه وأنه المصيب وغيره مخطئ، وهذا مجرد دعاوى تحتاج إلى برهان، ثم أخبر عن حكمه بينهم بالقسط والعدل، فقال «فأما الذين كفروا»: أي: بالله وآياته ورسله «فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة» أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله به من القوارع والعقوبات المشاهدة والقتل والذل، وغير ذلك مما هو نموذج من عذاب الآخرة، وأما عذاب الآخرة فهو الطامة الكبرى والمصيبة العظمى، ألا وهو عذاب النار وغضب الجبار وحرمانهم ثواب الأبرار «وما لهم من ناصرين» ينصرونهم من عذاب الله، لا من زعموا أنهم شفعاء لهم عند الله، ولا ما اتخذوهم أولياء من دونه، ولا أصدقائهم وأقربائهم، ولا أنفسهم ينصرون، «وأما الذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وغير ذلك مما أمر الله بالإيمان به وعملوا الصالحات» القلبية والقولية والبدنية التي جاءت بشرعها المرسلون، وقصدوا بها رضا رب العالمين «فيوفيه أجورهم» دل ذلك على أنه يحصل لهم في الدنيا ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، وإنما توفية الأجور يوم القيامة، يجدون ما قدموه من الخيرات محضاً موفراً، فيعطي منهم كل عامل أجر عمله ويزيدهم من فضله وكرمه «والله لا يحب الظالمين» بل يبغضهم ويحل عليهم سخطه وعذابه «ذلك نلتوه عليكم من الآيات والذكر الحكيم» وهذا منة عظيمة على رسوله

الأنصار «نحن أنصار الله»: أي: انتدبوا معه وقاموا بذلك، وقالوا: «أما بالله» «فاكتبنا مع الشاهدين» أي: الشهادة النافعة، وهي الشهادة بتوحيد الله وتصديق رسوله مع القيام بذلك، فلما قاموا مع عيسى بنصر دين الله وإقامة شرعه آمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة، فاقتتلت الطائفتان فأيد الله الذين آمنوا بنصره على عدوهم فأصبحوا ظاهرين، فهذا قال تعالى هنا «ومكروا»: أي: الكفار بإرادة قتل نبي الله وإطفاء نوره «ومكر الله» بهم جزاء لهم على مكروهم «والله خير الماكرين» رد الله كيدهم في نحورهم، فانقلبوا خاسرين «إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا» فرفع الله عبده ورسوله عيسى إليه، وألقي شبهه على غيره، فأخذوا من ألقى شبهه عليه فقتلوه وصلبوه، وباؤوا بالإثم العظيم ينتهم أنه رسول الله، قال الله «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم» وفي هذه الآية دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم، وكان الله عزيزاً قوياً قاهراً، ومن عزته أن كف بني إسرائيل بعد عزمهم الجازم وعدم المانع لهم عن قتل عيسى عليه السلام، كما قال تعالى «وإذ كففت بني إسرائيل عنك إذ جنتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين» حكيم يضع الأشياء مواضعها، وله أعظم حكمة في إلقاء الشبه على بني إسرائيل، فوقعوا في الشبه كما قال تعالى «وإن الذين اختلجوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً» ثم قال تعالى: «وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة» وتقدم أن الله أيد المؤمنين منهم على الكافرين، ثم إن النصارى المنتسبين لعيسى عليه السلام لم يزالوا قاهرين لليهود لكون النصارى أقرب إلى اتباع

يترتب عليها هداية الخلق أو ضلالهم وسعادتهم وشقاؤهم، ومعلوم أن الصادق فيها من أكمل الخلق، والكاذب فيها من أخس الخلق وأكذبهم وأظلمهم، فحكمة الله ورحمته بعباده أن يكون بينهما من الفروق ما يتبين لكل من له عقل، ثم أخبر عيسى عليه السلام أن شريعة الإنجيل شريعة فيها سهولة ويسرة فقال «ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم» فدل ذلك على أن أكثر أحكام التوراة لم ينسخها الإنجيل بل كان متمماً لها ومقررأ «وجئتكم بآية من ربكم» تدل على صدقي ووجوب اتباعي، وهي ما تقدم من الآيات، والمقصود من ذلك كله قوله «فاتقوا الله» بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه وأطيعوني فإن طاعة الرسول طاعة لله «إن الله ربي وربكم فاعبدوه» استدل بتوحيد الربوبية الذي يقر به كل أحد على توحيد الإلهية الذي ينكره المشركون، فكما أن الله هو الذي خلقنا ورزقنا وأنعم علينا نعماً ظاهرة وباطنة، فليكن هو معبودنا الذي نأله بالحب والخوف والرجاء والدعاء والاستعانة وجميع أنواع العبادة، وفي هذا رد على النصارى القائلين بأن عيسى إله أو ابن الله، وهذا إقراره عليه السلام بأنه عبد مبدئ مخلوق، كما قال «إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبياً» وقال تعالى: «وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته» إلى قوله «ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم» وقوله «هذا» أي: عبادة الله وتقواه وطاعة رسوله «صراط مستقيم» موصل إلى الله وإلى جنته، وما عدا ذلك فهي طرق موصلة إلى الجحيم، «فلما أحس عيسى منهم الكفر»: أي: رأى منهم عدم الانقياد له، وقالوا هذا سحر مبين، وهو ما يقتله وسعوا في ذلك «قال من أنصاري إلى الله» من يعاونني ويقوم معي بنصرة دين الله «قال الحواريون» وهم

محمد ﷺ وعلى أمته، حيث أنزل عليهم هذا الذكر الحكيم، المحكم المتقن، المفصل للأحكام والحلال والحرام وإخبار الأنبياء الأقدمين، وما أجرى الله على أيديهم من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، فهذا القرآن يقص علينا كل ما يتفنعنا من الأخبار والأحكام، فيحصل فيها العلم والعبرة وتثبيت الفؤاد ما هو من أعظم رحمة رب العباد، ثم قال تعالى:

﴿٥٩ - ٦٠﴾ «إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» يخبر تعالى محتجاً على النصراني الزاعمين بعيسى عليه السلام ما ليس له بحق، بغير برهان ولا شبهة، بل بزعمهم أنه ليس له والد استحق بذلك أن يكون ابن الله أو شريكاً لله في الربوبية، وهذا ليس بشبهة فضلاً أن يكون حجة، لأن خلقه كذلك من آيات الله الدالة على تفرد الله بالخلق والتدبير وأن جميع الأسباب طوع مشيئته وتبع لإرادته، فهو على نقض قولهم أدل، وعلى أن أحداً لا يستحق المشاركة لله بوجه من الوجوه أولى، ومع هذا فآدم عليه السلام خلقه الله من تراب لا من أب ولا أم، فإذا كان ذلك لا يوجب لآدم ما زعمه النصراني في المسيح، فالمسيح المخلوق من أم بلا أب من باب أولى وأحرى، فإن صح ادعاء البنية والإلهية في المسيح، فادعائها في آدم من باب أولى وأحرى، فلماذا قال تعالى ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: هذا الذي أخبرناك به من شأن المسيح عليه السلام هو الحق الذي في أعلى رتب الصدق، لكونه من ربك الذي من جملة تربيته الخاصة لك ولأمتك أن قص عليكم ما قص من أخبار الأنبياء عليهم السلام ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ أي: الشاكين في شيء مما أخبرك به ربك، وفي هذه الآية وما

بعدها دليل على قاعدة شريفة وهو أن ما قامت الأدلة على أنه حق وجزم به العبد من مسائل العقائد وغيرها، فإنه يجب أن يجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل، وكل شبهة تورد عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا، فلا يوجب له عجزه عن حلها القدح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ وبهذه القاعدة الشرعية تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون ويرتبتها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلة ويدعو إليه.

﴿٦١ - ٦٣﴾ «فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ * إِنْ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنْ اللَّهُ لَهْوُ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أي: ﴿فَمَنْ﴾ جادلَكَ ﴿وَحَاجَّكَ﴾ في عيسى عليه السلام وزعم أنه فوق منزلة العبودية، بل رفعه فوق منزلته ﴿مَنْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ بأنه عبد الله ورسوله وبينت لمن جادلَكَ ما عندك من الأدلة الدالة على أنه عبد أنعم الله عليه، دل على عناد من لم يتبعك في هذا العلم اليقيني، فلم يبق في مجادلته فائدة تستفيدها ولا يستفيدها هو، لأن الحق قد تبين، فجذاله فيه جدال معاند مشاق لله ورسوله، قصده اتباع هواه، لا اتباع ما أنزل الله، فهذا ليس فيه حيلة، فأمر الله نبيه أن ينتقل إلى مباحلته وملاعبته، فيدعون الله ويتهللون إليه أن يجعل لعنة وعقوبة على الكاذب من الفريقين، هو وأحب الناس إليه من الأولاد والأبناء والنساء، فدعاهم النبي ﷺ إلى ذلك فتولوا وأعرضوا وتكلموا، وعلموا أنهم إن لاعتوه رجعوا إلى أهلهم وأولادهم فلم يجدوا أهلاً ولا مالا وعوجلوا

بالعقوبة، فرضوا بدينهم مع جزمهم ببطلانه، وهذا غاية الفساد والعناد، فلماذا قال تعالى ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة، وأخبر تعالى ﴿إِنْ هَذَا﴾ الذي قصه الله على عباده هو ﴿الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ وكل قصص يقص عليهم مما يخالفه ويناقضه فهو باطل ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ فهو المألوه المعبود حقاً الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ولا يستحق غيره مثقال ذرة من العبادة ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي قهر كل شيء وخضع له كل شيء ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة التامة في ابتلاء المؤمنين بالكافرين، يقاتلونهم ومجادلونهم ويجهادونهم بالقول والفعل^(١)

﴿٦٤﴾ «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي: قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هلموا نجتمع عليها وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، ولم يخالفها إلا المعاندون والضالون، ليست مختصة بأحدنا دون الآخر، بل مشتركة بيننا وبينكم، وهذا من العدل في المقال والإنصاف في الجدل، ثم فسرها بقوله ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً﴾ فنفرد الله بالعبادة ونخصه بالحب والخوف والرجاء ولا نشرك به نبياً ولا ملكاً ولا ولياً ولا صنماً ولا وثناً ولا حيواناً ولا جماًداً ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بل تكون الطاعة كلها لله ولرسله، فلا تطيع المخلوقين في معصية الخالق، لأن ذلك جعل للمخلوقين في منزلة الربوبية، فإذا دعي أهل الكتاب أو غيرهم إلى ذلك، فإن أجابوا كانوا مثلكم، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم، وإن تولوا فهم معاندون متبعون أهواءهم فاشهدوهم

(١) في تفسير هذه الآيات تقديم وتأخير يسير فقد أخرج تفسير قوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ وقد أقيمتها على ما هي عليه.

الوفاء والخيانة في الأموال، لما ذكر خيانتهم في الدين ومكرهم وكتهم الحق، فأخبر أن منهم الخائن والأمين، وأن منهم *من إن تأمنه بقنطار* وهو المال الكثير *يؤده* وهو على أداء ما دونه من باب أولى، ومنهم *من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك* وهو على عدم أداء ما فوقه من باب أولى وأحرى، والذي أوجب لهم الخيانة وعدم الوفاء إليكم بأنهم زعموا أنه *ليس* عليهم *في الأميين سبيل* أي: ليس عليهم إثم في عدم أداء أموالهم إليهم، لأنهم يزعمهم الفاسد ورأهم الكاسد قد احتقروهم غاية الاحتقار، ورأوا أنفسهم في غاية العظمة، وهم الأذلاء الأحقرون، فلم يجعلوا للأميين حرمة، وأجازوا ذلك فجمعوا بين أكل الحرام واعتقاد حله وكان هذا كذباً على الله، لأن العالم الذي يحلل الأشياء المحرمة قد كان عند الناس معلوم أنه يخبر عن حكم الله ليس يخبر عن نفسه، وذلك هو الكذب، فلماذا قال *ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون* وهذا أعظم إثماً من القول على الله بلا علم، ثم رد عليهم زعمهم الفاسد، فقال *بلى* أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه ليس عليكم في الأميين حرج، بل عليكم في ذلك أعظم الحرج وأشد الإثم.

من أوفى بعهده واتقى والعهد يشمل العهد الذي بين العبد وبين ربه، وهو جميع ما أوجبه الله على العبد من حقه، ويشمل العهد الذي بينه وبين العباد، والتقوى تكون في هذا الموضع، ترجع إلى اتقاء المعاصي التي بين العبد وبين ربه، وبينه وبين الخلق، فمن كان كذلك فإنه من المتقين الذين يحبهم الله تعالى، سواء كانوا من الأميين أو غيرهم، فمن قال ليس علينا في الأميين سبيل، فلم يوف بعهده ولم يتق الله، فلم يكن ممن يحبه الله، بل ممن يبغيضه الله، وإذا كان الأميون قد عرفوا بوفاء العهود ويتقوى الله وعدم

المؤمنين بما معهم من العلم قاطعاً عنهم العلم، لأن العلم بزعمهم لا يكون إلا عندهم وموجباً للحجة عليهم، فرد الله عليهم بأن *الهدى* الهدى من فمادة الهدى من الله تعالى لكل من اهتدى، فإن الهدى إما علم الحق، أو إشارة، ولا علم إلا ما جاءت به رسل الله، ولا موفق إلا من وفقه الله، وأهل الكتاب لم يؤثروا من العلم إلا قليلاً، وأما التوفيق فقد انقطع حظهم منه لخبث نياتهم وسوء مقاصدهم، وأما هذه الأمة فقد حصل لهم والله الحمد من هداية الله من العلوم والمعارف مع العمل بذلك ما فاقوا به وبرزوا على كل أحد، فكانوا هم الهداة الذين يهدون بأمر الله، وهذا من فضل الله عليها وإحسانه العظيم، فلماذا قال تعالى *قل إن الفضل بيد الله* أي: الله هو الذي يحسن على عباده بأنواع الإحسان *يؤتيه من يشاء* ممن أتى بأسبابه *والله واسع* الفضل كثير الإحسان *عليهم* بمن يصلح للإحسان فيعطيه، ومن لا يستحقه فيحرمه إياه *يختص برحمته من يشاء* أي: برحمته المطلقة التي تكون في الدنيا متصلة بالآخرة وهي نعمة الدين ومتمماته *والله ذو الفضل العظيم* الذي لا يصفه الواصفون ولا يخطر بقلب بشر، بل وصل فضله وإحسانه إلى ما وصل إليه علمه، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً.

٧٥ - ٧٧ *ومن أهل الكتاب

من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون * بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين * إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم * يخبر تعالى عن حال أهل الكتاب في

إِنْ هَذَا لَمَوْالِفُصْلُ الْحَقِّ وَمِنْ إِلَهِ اللَّهِ وَلَيْسَ اللَّهُ لَمَوْالِفُ الْحَكِيمِ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ الْمَقْدِرِينَ * قُلْ يَتَأَمَّلُ السَّيِّئَاتِ قَالُوا إِنْ كُنْتُمْ سَوَاءً مِمَّا تَدْعُونَا إِلَى أَنْ تَنْتَهِىَ إِلَّا أَنْتُمْ وَلَا تَنْتَهِىَ بِهِ فِيمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * يَتَأَمَّلُ السَّيِّئَاتِ لِيُخَاسِرُونَ * فِي زِينَتِهِمْ وَمَا أُوتِيَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ * أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * مَا كُنْتُمْ خَلَائِفَ اللَّهِ حَتَّى تُبَيِّنَ الْكُفُوفَ * عِلْمٌ ظَنَّمْتُمْ أَنَّكُمْ عَلِمْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ تَعْلَمُونَ * وَأَنْتُمْ لَا تَتَذَكَّرُونَ * مَا كَانَ لِزَيْبِ بْنِ مَرْثَدَةَ أَنْ يَكُونَ زَيْبًا * وَلَكِنْ كَذَبَ حِينَئِذٍ شَيْئًا وَمَا كَانَ مِنَ التَّائِبِينَ * إِنْ أَوَّلَ النَّاسِ لِزَيْبِ بْنِ مَرْثَدَةَ وَهَذَا الَّذِي تَقُولُونَ * وَأَنْتُمْ لَا تَتَذَكَّرُونَ * وَفَتًى عَلِيمٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَا يُؤْمِنُكُمْ وَلَا يُبَيِّنُكُمْ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَتَنْتَهِرُكُمْ * يَتَأَمَّلُ الْكِتَابَ لِيُزَكِّيَكُمْ وَيُطَهِّرَ قُلُوبَكُمْ وَأَنْتُمْ تَنْتَهِرُكُمْ

ويرجع الضالون وتقوم الحجة على المعاندين قال تعالى *وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليتبينه للناس ولا تكتُمونه فنبذوه وراء ظهورهم* . ثم أخبر تعالى عن ما هممت به هذه الطائفة الخبيثة، وإرادة المكر بالمؤمنين، فقال *وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره* أي: ادخلوا في دينهم على وجه المكر والكيد أول النهار، فإذا كان آخر النهار فاخرجوا منه *لعلهم يرجعون* عن دينهم، فيقولون لو كان صحيحاً لما خرج منه أهل العلم والكتاب، هذا الذي أرادوه عجباً بأنفسهم وظناً أن الناس سيحسنون ظنهم بهم ويتابعونهم على ما يقولونه ويفعلونه، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون *و* قال بعضهم لبعض *لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم* أي: لا تتقوا ولا تطمئنوا ولا تصدقوا إلا من تبع دينكم، واكتموا^(١) أمركم، فإنكم إذا أخبرتم غيركم وغير من هو على دينكم حصل لهم من العلم ما حصل لكم فصاروا مثلكم، أو حاجوكم عند ربكم وشهدوا عليكم أنها قامت عليكم الحجة وتبين لكم الهدى فلم تتبعوه، فالخاصل أنهم جعلوا عدم إخبار

(١) المراد - والله أعلم - : واكتموا أمركم عن غير من تبع دينكم.

الدال على الحق على المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك .

﴿٧٩ - ٨٠﴾ «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيا أمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون» وهذه الآية نزلت رداً لمن قال من أهل الكتاب للنبي ﷺ لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته: أتريد يا محمد أن نعبدك مع الله، فقوله «ما كان لبشر» أي: يمتنع ويستحيل على بشر من الله عليه بإنزال الكتاب وتعليمه ما لم يكن يعلم وإرساله للخلق «أن يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله» فهذا من أعمل المحال صدوره من أحد من الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام، لأن هذا أقيح الأوامر على الإطلاق، والأنبياء أكمل الخلق على الإطلاق، فأوامرهم تكون مناسبة لأحوالهم، فلا يأمرهم إلا بمعالي الأمور وهم أعظم الناس نبياً عن الأمور القبيحة، فلهذا قال «ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون» أي: ولكن يأمرهم بأن يكونوا ربانيين، أي: علماء حكماء حلما معلمين للناس ومربيهم، بصغار العلم قبل كباره، عاملين بذلك، فهم يأمرهم بالعلم والعمل والتعليم التي هي مدار السعادة، وبفوات شيء منها يحصل النقص والخلل، والباء في قوله «بما كنتم تعلمون» الخ، بآء السببية، أي: بسبب تعليمكم لغيركم التضمن لعلمكم ودرسكم لكتاب الله وسنة نبيه، التي بدرسا يرسخ العلم ويبقى، تكونون ربانيين «ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً» وهذا تعميم بعد تخصيص، أي: لا يأمركم بعبادة نفسه ولا بعبادة أحد من الخلق من الملائكة والنبيين وغيرهم «أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون» هذا ما لا يكون ولا يتصور أن يصدر من أحد

التجريء على الأموال المحترمة، كانوا هم المحبوبين لله، المتقين الذين أعدت لهم الجنة، وكانوا أفضل خلق الله وأجلهم، بخلاف الذين يقولون ليس علينا في الأميين سبيل، فإنهم داخلون في قوله: «إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً» ويدخل في ذلك كل من أخذ شيئاً من الدنيا في مقابلة ما تركه من حق الله أو حق عباده، وكذلك من حلف على يمين يقتطع بها مال معصوم فهو داخل في هذه الآية، فهو لا «لا خلاق لهم في الآخرة» أي: لا نصيب لهم من الخير «ولا يكلمهم الله» يوم القيامة غضباً عليهم وسخطاً، لتقديمهم هوى أنفسهم على رضا ربهم «ولا يزكّيهم» أي: يطهرهم من ذنوبهم، ولا يزيل عيوبهم «ولهم عذاب أليم» أي: موجه للقلوب والأبدان، وهو عذاب السخط والحجاب، وعذاب جهنم، نسال الله العافية .

﴿٧٨﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» يخبر تعالى أن من أهل الكتاب فريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب، أي: يميلونه ويحرفونه عن المقصود به، وهذا يشمل اللي والتحريف لألفاظه ومعانيه، وذلك أن المقصود من الكتاب حفظ ألفاظه وعدم تغييرها، وفهم المراد منها وإفهامه، وهؤلاء عكسوا القضية وأفهموا غير المراد من الكتاب، إما تعريضاً وإما تصريحاً، فالتعريض في قوله «لتحسبوه من الكتاب» أي: يلوون ألسنتهم ويوهمونكم أنه هو المراد من كتاب الله، وليس هو المراد، والتصريح في قوله: «ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون» وهذا أعظم جرماً ممن يقول على الله بلا علم، هؤلاء يقولون على الله الكذب فيجمعون بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، وتنزيل اللفظ

يَأْمُرُ السُّكَّانَ بِالسُّلُوكِ الْحَسَنِ وَالْجَلِيلِ وَتَكُونُ الْحَقُّ
وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ عَالِمٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَا يَأْمُرُ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِأَمْرٍ وَأَمْرًا وَهُوَ الشُّكْرُ وَالْكَفَرُ وَالْإِيمَانُ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَا تَقْرَأُوا إِلَّا لِمَنْ يَمُرُّ بِكُمْ عَلَىٰ
الْمَدِينَةِ هَٰذَا الَّذِي يُؤْتِي السُّلُوكَ الْحَسَنَ مَا أَوْفَىٰكُمْ أَوْفَىٰكُمْ
عَدَدَ نَفْسٍ لِّإِن السُّلُوكَ الْحَسَنَ الَّذِي يُؤْتِي مِنَ نَفْسِهِ وَاللَّهُ وَهُوَ
عَلِيمٌ ﴿٨١﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ
﴿٨٢﴾ وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنِ انْتَهَىٰ بِغَيْرِ عِلْمٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ
إِلَيْكَ وَنَهَىٰ مَن انْتَهَىٰ بِغَيْرِ عِلْمٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَيْكَ إِلَّا
مَادَمْتُ عَلَيْكَ قَلْبًا ذَاكَ بِأَمْرٍ قَالُوا لَوْلَا عَلَيْنَا فِي الْأُمَمِ
سَبِيلٌ وَيُؤْتِي عَلَىٰ أَهْلِ الْكِتَابِ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٨٣﴾
﴿٨٤﴾ مَن أَهْلُ الْكِتَابِ يَكْفُرُونَ بِمَا فِي الْأَفْئِدَةِ وَاللَّهُ يَكْفُرُ
أُولَٰئِكَ لَاسْتَخَفُّوا نَفْسَهُمْ وَاللَّهُ يَكْفُرُ عَنْ الْفَاسِقِينَ
وَلَا يَخْلُقُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَكْفُرُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَكْفُرُ
لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَكْفُرُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَكْفُرُ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
﴿٨٥﴾

من الله عليه بالنبوة، فمن قدح في أحد منهم بشيء من ذلك فقد ارتكب إثماً عظيماً وكفراً وخيماً .

﴿٨١ - ٨٢﴾ «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين * فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون» يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق النبيين وعهدهم المؤكد بسبب ما أعطاهم من كتاب الله المنزل، والحكمة الفاصلة بين الحق والباطل والهدى والضلال، إنه إن بعث الله رسولاً مصدقاً لما معهم أن يؤمنوا به ويصدقوه يأخذوا ذلك على أعينهم، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أوجب الله عليهم أن يؤمن بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضاً لأن جميع ما عندهم هو من عند الله، وكل ما من عند الله يجب التصديق به والإيمان، فهم كالشيء الواحد، فعلى هذا قد علم أن محمداً ﷺ هو خاتمهم، فكل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لو أدركوه لوجب عليهم الإيمان به واتباعه ونصرته، وكان هو إمامهم ومقدمهم ومتبوعهم، فهذه الآية الكريمة من أعظم الدلائل على علو مرتبته وجلالة قدره، وأنه أفضل الأنبياء وسيدهم ﷺ لما قرره تعالى

إسرائيل ﴿إلا ما حرم إسرائيل﴾ وهو يعقوب عليه السلام ﴿على نفسه﴾ أي : من غير تحريم من الله تعالى ، بل حرمه على نفسه لما أصابه عرق النسا نذر لئن شفاه الله تعالى ليحرم من أحب الأطعمة عليه ، فحرم فيما يذكرون لحوم الإبل والباننا وتبعه بنوه على ذلك وكان ذلك قبل نزول التوراة ، ثم نزل في التوراة أشياء من المحرمات غير ما حرم إسرائيل مما كان حلالاً لهم طيباً ، كما قال تعالى ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ وأمر الله رسوله إن أنكروا ذلك أن يأمرهم بإحضار التوراة ، فاستمروا بعد هذا على الظلم والعناد ، فلهذا قال تعالى ﴿فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ أي : ظلم أعظم من ظلم من يدعى إلى تحكيم كتابه فيمتنع من ذلك عناداً وتكبيراً وتجبراً ، وهذا من أعظم الأدلة على صحة نبوة نبينا محمد ﷺ وقيام الآيات البيّنات المتنوعات على صدقه وصدق من نبأه وأخبره بما أخبره به من الأمور التي لا يعلمها إلا بإخبار ربه له بها ، فلهذا قال تعالى ﴿قل صدق الله﴾ أي : فيما أخبر به وحكم ، وهذا أمر من الله لرسوله ولمن يتبعه أن يقولوا بالاستسهم : صدق الله ، معتقدين بذلك في قلوبهم عن أدلة يقينية ، مقيمين هذه الشهادة على من أنكرها ، ومن هنا تعلم أن أعظم الناس تصديقاً لله أعظمهم علماً و يقيناً بالأدلة التفصيلية السمعية والعقلية ، ثم أمرهم باتباع ملة أبيهم إبراهيم عليه السلام بالتوحيد وترك الشرك الذي هو مدار السعادة ، وبتركه حصول الشقاوة ، وفي هذا دليل على أن اليهود وغيرهم ممن ليس على ملة إبراهيم مشركون غير موحدن ، ولما أمرهم باتباع ملة إبراهيم في التوحيد وترك الشرك أمرهم باتباعه بتعظيم بيته الحرام بالحج وغيره ، فقال :

[illegible]

للناس للذي ببكة مباركاً وهدي
للعالمين ﴿ في آيات بينات مقام إبراهيم
ومن دخله كان آمناً والله على الناس حج
البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر
فإن الله غني عن العالمين ﴾ يغير تعالى عن
شرف هذا البيت الحرام ، وأنه أول بيت
وضعه الله للناس ، يتعبدون فيه لربه
فتغفر أوزارهم ، وتقال عثارتهم ،
ويحصل لهم به من الطاعات والقربات
ما ينالون به رضى ربه والفوز بثوابه
والنجاة من عقابه ، ولهذا قال :
﴿ مباركاً ﴾ أي : فيه البركة الكثيرة في
المنافع الدينية والدنيوية كما قال تعالى
﴿ ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله
على ما رزقهم من هيمة الأنعام ﴾
﴿ وهدي للعالمين ﴾ والهدى نوعان :
هدى في المعرفة ، وهدي في العمل ،
فالهدى في العمل ظاهر ، وهو ما جعل
الله فيه من أنواع التعبدات المختصة به ،
وأما هدى العلم فبما يحصل لهم بسببه
من العلم بالحق بسبب الآيات البينات
التي ذكر الله تعالى في قوله ﴿ في آيات
بينات ﴾ أي : أدلة واضحة ، وبراهين
قاطعات على أنواع من العلوم الإلهية
والمطالب العالية ، كالأدلة على توحده
ورحمته وحكمته وعظمته وجلاله
وكمال علمه وسعة جوده ، وما من به
على أولياته وأنبيائه ، فمن الآيات

والفائدة الثانية: أن الاسم المجرور من حيث كان اسماً لله سبحانه، وجب الاهتمام بتقديره تعظيماً لحرمه هذا الواجب الذي أوجبه، وتحويلاً من تضييعه، إذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما يوجبه غيره.

وأما قوله: «مَنْ» فهي بدل، وقد استهوى طائفة من الناس القول بأنها فاعل بالمصدر، كأنه قال: أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلاً، وهذا القول يضعف من وجوه، منها: أن الحج فرض عين، ولو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفاية، لأنه إذا حج المستطيعون برئت ذمم غيرهم، لأن المعنى يؤل إلى: والله على الناس حج البيت مستطيعهم، فإذا أدى المستطيعون الواجب لم يبق واجباً على غير المستطيعين، وليس الأمر كذلك، بل الحج فرض عين على كل أحد، حج المستطيعون أو قعدوا، ولكن الله سبحانه عذر غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب، فلا يؤاخذ به ولا يطالبه بأدائه، فإذا حج سقط الفرض عن نفسه، وليس حج المستطيعين بمسقط الفرض عن العاجزين، وإذا أردت زيادة إيضاح، فإذا قلت: واجب على أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المستطيعون للجهاد، فإذا جاهدت تلك الطائفة انقطع تعلق الوجوب في غيرهم، وإذا قلت واجب على الناس كلهم أن يجاهد منهم المستطيع، كان الوجوب متعلقاً بالجميع وعذر العاجز بعجزه، ففي نظم الآية على هذا الوجه دون أن يقال: والله حج البيت على المستطيعين، هذه النكتة البديعة فتأملها.

الوجه الثاني: أن إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد أولى من إضافته إلى المفعول ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل منقول، فلو كان مَنْ هو الفاعل لأضيف المصدر إليه فكان يقال: «والله على الناس حج من استطاع» وحله على

باحترامه وتأمين من دخله، وأن لا يهاج، حتى إن التحريم في ذلك شمل صيودها وأشجارها ونباتها، وقد استدلل بهذه الآية من ذهب من العلماء أن من جنى جناية خارج الحرم ثم لجأ إليه أنه يأمن ولا يقام عليه الحد حتى يخرج منه، وأما تأمينها قدرأ فلأن الله تعالى بقضائه وقدره وضع في النفوس حتى نفوس المشركين به الكافرين بربهم احترامه، حتى إن الواحد منهم مع شدة حمتهم ونعرتهم وعدم احتمالهم للضيم يجد أحدهم قاتل أبيه في الحرم فلا يهيج، ومن جعله حراماً أن كل من أراد به سوء فلا بد أن يعاقبه عقوبة عاجلة، كما فعل بأصحاب القيل وغيرهم، وقد رأيت لابن القيم هاهنا كلاماً حسناً أحببت إيراد لشدته الحاجة إليه قال فائدة: «والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً» «حج البيت» مبتدأ وخبره في أحد المجرورين قبله، والذي يقتضيه المعنى أن يكون في قوله: «على الناس» لأنه وجوب، والوجوب يقتضي «على»، ويجوز أن يكون في قوله: «والله» لأنه متضمن الوجوب والاستحقاق، ويرجح هذا التقدير أن الخبر محط الفائدة وموضعها، وتقديره في هذا الباب في نية التأخير، فكان الأحسن أن يكون «والله على الناس»، ويرجح الوجه الأول بأن يقال قوله: «حج البيت على الناس» أكثر استعمالاً في باب الوجوب من أن يقال: «حج البيت لله» أي: حق واجب لله، فتأمله. وعلى هذا ففي تقديم المجرور الأول وليس بخبر فائدتان: إحداهما: أنه اسم للموجب للحج، فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب، فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع: أحدها: الموجب لهذا الفرض فيبدأ بذكره، والثاني: مؤدي الواجب وهو المقتضى عليه وهم الناس، والثالث: النسبة، والحق المتعلق به بإيجاباً وبهم وجوباً وأداءً، وهو الحج.



«مقام إبراهيم» يحتمل أن المراد به المقام المعروف وهو الحجر الذي كان يقوم عليه الخليل لبنان الكعبة لما ارتفع البنيان، وكان ملصقاً في جدار الكعبة، فلما كان عمر رضي الله عنه وضعه في مكانه الموجود فيه الآن، والآية فيه قيل أثر قدمي إبراهيم، قد أثرت في الصخرة وبقي ذلك الأثر إلى أوائل هذه الأمة، وهذا من خوارق العادات، وقيل إن الآية فيه ما أودعه الله في القلوب من تعظيمه وتكريمه وتشريفه واحترامه، ويحتمل أن المراد بمقام إبراهيم أنه مفرد مضاف يراد به مقاماته في مواضع المناسك كلها، فيكون على هذا جميع أجزاء الحج ومفرداته آيات بينات، كالطواف والسعي ومواضعها، والوقوف بعرفة ومزدلفة، والرمي، وسائر الشعائر، والآية في ذلك ما جعله الله في القلوب من تعظيمها واحترامها وبذل نفائس النفوس والأموال في الوصول إليها وتحمل كل مشقة لأجلها، وما في ضمنها من الأسرار البديعة والعاني الرفيعة، وما في أفعالها من الحكم والمصالح التي يعجز الخلق عن إحصاء بعضها، ومن الآيات البينات فيها أن من دخله كان آمناً شرعاً وقدرأ، فالشرع قد أمر الله ورسوله إبراهيم ثم رسوله محمد

هذا الفرض العظيم .

وتأمل سر البديل في الآية المقتضي لذكر الإسناد مرتين ، مرة بإسناده إلى عموم الناس ، ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين ، وهذا من فوائد البديل تقوية المعنى وتأكيده بتكرار الإسناد ولهذا كان في نية تكرار العامل وإعادته .

ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعد الإجمال والتفصيل بعد الإجمال ، وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وختلن ، اعتناء به وتأكيده لشأنه ، ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما تدعوا النفوس إلى قصده وحجه وإن لم يطلب ذلك منها ، فقال : ﴿إن أول بيت﴾ الخ ، فوصفه بخمس صفات : أحدها كونه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض ، الثاني : أنه مبارك ، والبركة كثرة الخير ودوامه ، وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيراً ولا أدوم ولا أنفع للخلائق ، الثالث : أنه هدى ، ووصفه بالمصدر نفسه مبالغة ، حتى كأنه نفس الهدى ، الرابع ما تضمن من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية ، الخامس : الأمن الحاصل لداخله ، وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه وإن شطت بالزائرين الديار وتناوت بهم الأقطار ، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات ، وهذا يدل على الإعناء منه سبحانه لهذا البيت العظيم ، والتنويه بذكره ، والتعظيم لشأنه ، والرفعة من قدره ، ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله ﴿وطهر بيتي﴾ لكفى بهذه الإضافة فضلاً وشرفاً ، وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه ، وسلبت نفوسهم حباله وشوقاً إلى رؤيته ، فهذه المثابة للمحبين يشوبون إليه ولا يقضون منه وطراً أبداً ، كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا له حباً وإليه اشتياقاً ، فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسليهم ، كما قيل :

يقدمون في كلامهم ما هم به أهم وبيانه أعني هذا تقرير السهلي ، وهذا بعيد جداً بل الصواب في متعلق الجار والمجرور وجه آخر أحسن من هذين ، ولا يليق بالآية سواه ، وهو الوجوب المفهوم من قوله «على الناس» ، أي : يجب لله على الناس الحج ، فهو حق واجب لله ، وأما تعليقه بالسبيل وجعله حالاً منها ، ففي غاية البعد فتأمله ، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية ، وهذا كما تقول : الله عليك الصلاة والزكاة والصيام .

ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي ، وهو الأكثر ، ولفظ الإيجاب والكتابة والتحريم نحو ﴿كتب عليكم الصيام﴾ ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ ﴿قل تعالوا آتوا ما حرم ربكم عليكم﴾ وفي الحج أتى بهذا اللفظ الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه ، أحدها أنه قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص ثم ذكر من أوجه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف على أبداً منه أهل الاستطاعة ، ثم نكر السبيل في سياق الشرط إيذاناً بأنه يجب الحج على أي : سبيل تيسرت ، من قوت أو مال ، فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلاً ، ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال ﴿ومن كفر﴾ أي :

لعدم إلتزامه هذا الواجب وتركه ثم عظم الشأن وأكد الوعيد بإخباره ما يستغنى به عنه ، والله تعالى هو الغني الحميد ، ولا حاجة به إلى حج أحد ، وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو أعظم التهديد وأبلغه ، ثم أكد ذلك بذكر اسم «العالمين» عموماً ، ولم يقل : فإن الله غني عنه ، لأنه إذا كان غنياً عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه بكل اعتبار ، فكان أدل لعظم مقته لتارك حقه الذي أوجه عليه ، ثم أكد هذا المعنى بأداة «إن» الدالة على التأكيد ، فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكد

باب «يعجني ضرب زيد عمراً» وفيما يفصل فيه بين المصدر وفاعله المضاف إليه بالمفعول والظرف حمل على المكتوب المرجوح ، وهي قراءة ابن عامر (قتل أولادهم شركائهم) ، فلا يصار إليه . وإذا ثبت أن «من» بدل بعض من كل وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى «الناس» كأنه قيل : من استطاع منهم ، وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن ، وحسنه هاهنا أمور منها : أن «من» واقعة على من لا يعقل ، كالاسم المبذل منه فارتبطت به ، ومنها : أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول ، ولو كانت الصلة أعم لقيح حذف الضمير العائد ، ومثال ذلك إذا قلت : رأيت إختوك من ذهب إلى السوق منهم ، كان قبيحاً ، لأن الذهاب إلى السوق أعم من الإخوة ، وكذلك لو قلت : البس الثياب ما حسن وجمل ، يريد منها ، ولم يذكر الضمير كان أبعد في الجواز ، لأن لفظ ما حسن أعم من الثياب .

وباب البعض من الكل أن يكون أخص من المبذل منه ، فإذا كان أعم وأضفته إلى ضمير أو قيده بضمير يعود إلى الأول ارتفع العموم وبقي الخصوص ، وبما حسن حذف المضاف في هذه أيضاً مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول .

وأما المجرور من قوله «الله» فيحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون في موضع من سبيل ، كأنه نعت نكرة قدم عليها ، لأنه لو تأخر لكان في موضع النعت لسبيل ، والثاني : أن يكون متعلقاً بسبيل ، فإن قلت : كيف يتعلق به وليس فيه معنى الفعل ؟ قيل : السبيل لما كان عبارة هاهنا عن الموصول إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما ، كان فيه رائحة الفعل ، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق ، فصلح تعلق المجرور به ، واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ تقديم المجرور وإن كان موضعه التأخير ، لأنه ضمير يعود على البيت ، والبيت هو المقصود به الاعتناء ، وهم

أطوف به والنفس بعد مشوقة إليه وهل بعد الطواف تداني وألثم منه الركن أطلب بردما بقلبي من شوق ومن هيمان فوالله ما ازداد إلا أصبابه ولا القلب إلا كثرة الخفقان فياجنة المأوى وبأغاية المنى وبأمنيتي من دون كل أمان أبث غلبات الشوق لإلتقربا إليك فما لي بالبعد يدان وما كان صدى عنك صدمالة ولي شاهد من مقلتي ولسان دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا فلبى البكا والصبر عنك عصاني وقد زعموا أن المحب إذا نأى سبيل هواه بعد طول زمان ولو كان هذا الزعم حقاً لكان ذا دواء الهوى في الناس كل زمان بلى إنه يبلى والهوى على حاله^(١) لم يبسه اللوان^(٢) وهذا محب قاده الشوق والهوى بغير زمام قائد وعنان أتاك على بعد المزار ولو نونت مطيته جاءت به القدمان انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

﴿٩٨ - ١٠١﴾ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون * قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون * يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون بعد إيمانكم كافرين * وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسولاً * أي الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات ربكم كل وقت، وهي الآيات البينات التي توجب القطع بموجها والجزم بمقتضاها وعدم الشك

رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ يوبخ تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى على كفرهم بآيات الله التي أنزلها الله على رسله، التي جعلها رحمة لعباده يبتدون بها إليه، ويستدلون بها على جميع المطالب المهمة والعلوم النافعة، فهؤلاء الكفرة جمعوا بين الكفر بها وصد من آمن بالله عنها وتحريفها وتعييها عما جعلت له، وهم شاهدون بذلك عاملون بأن ما فعلوه أعظم الكفر الموجب لأعظم العقوبة ﴿الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون﴾، فلماذا توعدهم هنا بقوله: ﴿وما الله بغافل عما تعملون﴾ بل يحيط بأعمالكم ونياتكم ومكركم السيء، فمجازيكم عليه أشر الجزاء لما توعدهم ووبخهم عطف برحمته وجوده وإحسانه وحذر عباده المؤمنين منهم لئلا يمكروا بهم من حيث لا يشعرون، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ وذلك لحسدكم وبغيهم عليكم، وشدة حرصهم على ردكم عن دينكم، كما قال تعالى: ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾ ثم ذكر تعالى السبب الأعظم والموجب الأكبر لشيات المؤمنين على إيمانهم، وعدم تزلزلهم عن إيقانهم، وأن ذلك من أبعد الأشياء، فقال: ﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسولاً﴾ أي الرسول بين أظهركم يتلو عليكم آيات ربكم كل وقت، وهي الآيات البينات التي توجب القطع بموجها والجزم بمقتضاها وعدم الشك

فيما دلت عليه بوجه من الوجوه، خصوصاً والمبين لها أفضل الخلق وأعلمهم وأفصحهم وأنصحهم وأرأفهم بالمؤمنين، الحريص على هداية الخلق وإرشادهم بكل طريق يقدر عليه، فصلوات الله وسلامه عليه، فلقد نصح وبلغ البلاغ المبين، فلم يبق في نفوس القائلين مقالاً ولم يترك الجائل في طلب الخير مجالاً، ثم أخبر أن من اعتصم به فتوكل عليه وامتنع بقوته ورحمته عن كل شر، واستعان به على كل خير ﴿فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ موصل له إلى غاية المرغوب، لأنه جمع بين اتباع الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله وبين الاعتصام بالله.

﴿١٠٢ - ١٠٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾ من الله لعباده المؤمنين أن يتقوه حق تقواه، وأن يستمروا على ذلك ويشتوا عليه ويستقيموا إلى الممات، فإن من عاش على شيء مات عليه، فمن كان في حال صحته ونشاطه وإمكانه مداوماً لتقوى ربه وطاعته، منيباً إليه على الدوام، ثبتته الله عند موته ورزقه حسن الخاتمة، وتقوى الله حق تقواه كما قال ابن مسعود: وهو أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وهذه الآية بيان لما يستحقه تعالى من التقوى، وأما ما يجب على العبد منها، فكما قال تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ وتفاصيل التقوى المتعلقة بالقلب والجوارح كثيرة جداً، يجمعها

(١) في الهامش كتب: أي الهوى.

(٢) في الهامش: (لعل صواب هذا البيت قوله:

بلى إنه يُبلى المحب وإنه

وبمراجعة بدائع الفوائد (٤٦/٢) تبين أن البيت كما يلي:

بلى إنه يبلى التصبر والهوى

(٣) في الأصل: بأعمالهم ولعل الصواب ما أثبت.

على حاله لم يبسه اللوان

على حاله لم يبسه اللوان



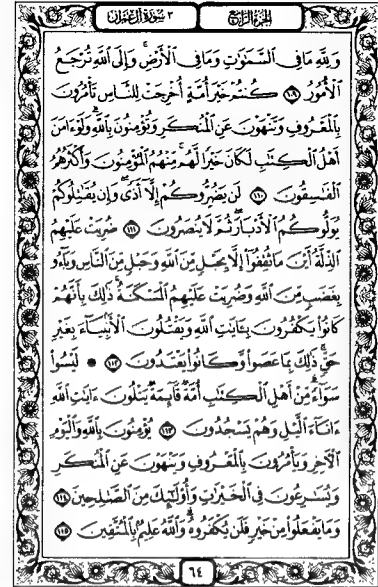
وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون * ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم * أي: ولكن منكم أيها المؤمنون الذين من الله عليهم بالإيمان والاعتصام بحبله * أمة * أي: جماعة * يدعون إلى الخير وهو اسم جامع لكل ما يقرب إلى الله ويبعد من سخطه * ويأمرون بالمعروف وهو ما عرف بالشر والعقل قبحه، والشرع حسنه * وينهون عن المنكر وهو ما عرف بالشر والعقل قبحه، وهذا إرشاد من الله للمؤمنين أن يكون منهم جماعة متصدية للدعوة إلى سبيله وإرشاد الخلق إلى دينه، ويدخل في ذلك العلماء المعلمون للدين، والوعاظ الذين يدعون أهل الأديان إلى الدخول في دين الإسلام، ويدعون المنحرفين إلى الاستقامة، والمجاهدون في سبيل الله، والمتصدون لتفقد أحوال الناس والزمامم بالشرع كالصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج وغير ذلك من شرائع الإسلام، وكشفد المكاييل والموازين وتفقد أهل الأسواق ومنعهم من الغش والمعاملات الباطلة، وكل هذه الأمور من فروض الكفايات كما تدل عليه الآية الكريمة في قوله * ولتكن منكم أمة * الخ أي: لتكن منكم جماعة يحصل المقصود بهم في هذه الأشياء المذكورة، ومن المعلوم المقرر أن الأمر بالشيء أمر به وبما لا يتم إلا به فكل ما تتوقف هذه الأشياء عليه فهو مأمر به، كالاستعداد للجهاد بأنواع العدد التي يحصل بها نكاية الأعداء وعز الإسلام، وتعلم العلم الذي يحصل به الدعوة إلى الخير وسائلها ومقاصدها، وبناء المدارس للإرشاد والعلم، ومساعدة النواب ومعاونتهم على تنفيذ الشرع في الناس بالقول والفعل والمال، وغير ذلك مما تتوقف هذه الأمور عليه، وهذه الطائفة المستعدة للدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم خواص المؤمنين، ولهذا قال تعالى عنهم: * وأولئك هم المفلحون * الفائزون بالمطلوب،

فعل ما أمر الله به وترك كل ما نهى الله عنه، ثم أمرهم تعالى بما يعينهم على التقوى وهو الاجتماع والاعتصام بدين الله، وكون دعوى المؤمنين واحدة مؤتلفين غير مختلفين، فإن في اجتماع المسلمين على دينهم، واتلاف قلوبهم يصلح دينهم وتصلح دنياهم وبالا اجتماع يتمكنون من كل أمر من الأمور، ويحصل لهم من المصالح التي تتوقف على الائتلاف ما لا يمكن عدها، من التعاون على البر والتقوى، كما أن بالافتراق والتعادي يختل نظامهم وتقطع روابطهم ويصير كل واحد يعمل ويسعى في شهوة نفسه، ولو أدى إلى الضرر العام، ثم ذكرهم تعالى نعمته وأمرهم بذكرها فقال: * واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء * يقتل بعضكم بعضاً، ويأخذ بعضكم مال بعض، حتى إن القبيلة يعادي بعضها بعضاً، وأهل البلد الواحد يقع بينهم التعادي والافتتال، وكانوا في شر عظيم، وهذه حالة العرب قبل بعثة النبي ﷺ فلما بعثه الله وأمنوا به واجتمعوا على الإسلام وتآلفت قلوبهم على الإيمان كانوا كالشخص الواحد، من تألف قلوبهم وموالة بعضهم لبعض، ولهذا قال: * فآلف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار * أي: قد استحيتم النار ولم يبق بينكم وبينها إلا أن تموتوا فتدخلوها * فأنقذكم منها * بما من عليكم من الإيمان بمحمد ﷺ * كذلك يبين الله لكم آياته * أي: يوضحها ويفسرها، ويبين لكم الحق من الباطل، والهدى من الضلال * لعلكم تهتدون * بمعرفة الحق والعمل به، وفي هذه الآية ما يدل أن الله يحب من عباده أن يذكروا نعمته بقلوبهم وألسنتهم ليزدادوا شكرياً له وعجبة، وليزيدهم من فضله وإحسانه، وإن من أعظم ما يذكر من نعمه نعمة الهداية إلى الإسلام، واتباع الرسول ﷺ واجتماع كلمة المسلمين وعدم تفرقها.

﴿١٠٤ - ١٠٥﴾ * ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف

الناجون من المهو، ثم نهاهم عن التشبه بأهل الكتاب في تفرقهم واختلافهم، فقال: * ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا * ومن العجائب أن اختلافهم * من بعد ما جاءهم البينات * الموجبة لعدم التفرق والاختلاف، فهم أولى من غيرهم بالاعتصام بالدين، فعكسوا القضية مع علمهم بمخالفتهم أمر الله، ولهذا قال تعالى: * وأولئك لهم عذاب عظيم *.

﴿١٠٦ - ١٠٨﴾ * يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتكم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون * تلك آيات الله تنلوها عليكم بالحق وما الله يريد ظلعاً للعالمين * يخبر تعالى عن حال يوم القيامة وما فيه من آثار الجزاء بالعدل والفضل، ويتضمن ذلك الترغيب والترهيب الموجب للخوف والرجاء فقال: * يوم تبيض وجوه * وهي وجوه أهل السعادة والخير، أهل الائتلاف والاعتصام بحبل الله * وتسود وجوه * وهي وجوه أهل الشقاوة والشر، أهل الفقرة والاختلاف، هؤلاء اسودت وجوههم بما في قلوبهم من الخزي والهوان والذلة والفضيحة، وأولئك ابيضت وجوههم، لما في قلوبهم من البهجة



وَمَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلِلَّهِ تُسَبِّحُ
الْأَمْوُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنْتُمْ شَرِئَاتٌ لِّلنَّاسِ تَاجِرُونَ
يَلْمِزُوكَ فِي الْمَنَافِعِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَهُمْ يَقُولُونَ وَاللَّهِ
أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ فِيهِمْ الْقُرْآنُ وَالْكَافِرُونَ
الْقُرْآنُ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَلَنْ يَفِيدَ لَكُمْ
يُؤْذِيكُمْ إِلَّا ذُبَابٌ مِّنْ بَاطِلٍ يَمُوتُ ﴿١١١﴾ شَرِبْتُمْ عَلَيْهِمْ
الَّذِلَّةَ أَنْتَ الْبَاطِلُ الْإِنجِلُ مِنَ اللَّهِ وَحِجْلٌ مِّنَ النَّاسِ وَاللَّهُ
يَضْضِبُ مَنَ اللَّهُ وَضَرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ
حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا نَاصِبُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسَ
سَوَاءٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَنَّهُ قَائِمَةٌ يَقُولُوا يَأْتِيَ اللَّهُ
بَنَاءٍ أَلَيْسَ لَّهُمْ عَذَابٌ مُّجْتَمِعٌ ﴿١١٣﴾ قُلْ قَدْ كُنْتُ غَافِلًا
الْأَخِيرَ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَنَافِعِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَيَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَعْدَابِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿١١٤﴾
وَمَا تَفْعَلُوا لِي خَيْرًا لَّكَ تَكْفُرُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَفِيٌّ ﴿١١٥﴾

لكان خيراً لهم ﴿١٠٩﴾ وفي هذا من دعوته بلطف الخطاب ما يدعوهم إلى الإيمان، ولكن لم يؤمن منهم إلا قليل، وأكثرهم الفاسقون الخارجون عن طاعة الله المعادون لأوليائه الله بأنواع العداوة، ولكن من لطف الله بعباده المؤمنين أنه رد كيدهم في نحورهم، فليس على المؤمنين منهم ضرر في أديانهم ولا أبدانهم، وإنما غاية ما يصلون إليه من الأذى أذى الكلام التي لا سبيل إلى السلامة منها من كل معادي، فلو قاتلوا المؤمنين لولوا الأديار فراراً ثم تستمر هزيمتهم ويدوم ذلهم ولا هم ينصرون في وقت من الأوقات، ولهذا أخبر تعالى أنه عاقبهم بالذلة في بواطنهم والمسكنة على ظواهرهم، فلا يستقرون ولا يطمنون ﴿١١٠﴾ إلا بحيل ﴿١١١﴾ أي: عهد. من الله وحيل من الناس. فلا يكون اليهود إلا تحت أحكام المسلمين وعهدهم، تؤخذ منهم الجزية ويستذلون، أو تحت أحكام النصارى وقد ﴿بأؤوا﴾ مع ذلك ﴿بغضب من الله﴾ وهذا أعظم العقوبات، والسبب الذي أوصلهم إلى هذه الحال ذكره الله بقوله: ﴿ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله﴾ التي أنزلها الله على رسوله محمد ﷺ الموجبة لليقين والإيمان، فكفروا بها بغياً وعناداً ﴿ويقتلون الأنبياء بغير حق﴾ أي: يقابلون أنبياء الله الذين يحسنون إليهم أعظم إحسان بأشهر مقابلة، وهو القتل، فهل بعد هذه الجراءة والجناية شيء أعظم منها، وذلك كله بسبب عصيانهم واعتدائهم، فهو الذي جراًهم على الكفر بالله وقتل أنبياء الله، ثم قال تعالى:

﴿١١٠ - ١١٢﴾ ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ * لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون * ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وبأؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ﴿يمدح تعالى هذه الأمة ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيهم وعصيانهم، فهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس، لما كانت الآية السابقة وهي قوله: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ أمراً منه تعالى لهذه الأمة، والأمر قد يمثلته المأمور ويقوم به، وقد لا يقوم به، أخبر في هذه الآية أن الأمة قد قامت بما أمرها الله بالقيام به، وامتلئت أمر ربه واستحقت الفضل على سائر الأمم ﴿ولو آمن أهل الكتاب

﴿١١٣ - ١١٥﴾ ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين * وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ لما بين تعالى الفرقة الفاسقة من أهل الكتاب وبين أفعالهم وعقوباتهم،

﴿١١٦ - ١١٧﴾ **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾**

لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرٌ أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فاهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون * يخبر تعالى أن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، أي: لا تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله، ولا تجدي عليهم شيئاً من ثواب الله، كما قال تعالى: ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ بل تكون أموالهم وأولادهم زادا لهم إلى النار، وحجة عليهم في زيادة نعم الله عليهم، تقتضي منهم شكرها، ويعاقبون على عدم القيام بها وعلى كفرها، ولهذا قال: ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾

ثم ضرب مثلاً لا ينفقه الكفار من أموالهم التي يصدون بها عن سبيل الله ويستعينون بها على إطفاء نور الله، بأنها تبطل وتضمحل، كمن زرع زرعاً يرجو نتيجه ويؤمل إدراك ريعه، فبينما هو كذلك إذ أصابته ريح فيها صر، أي: برد شديد محرق، فاهلكت زرع، ولم يحصل له إلا التعب والعناء وزيادة الأسف، فكذلك هؤلاء الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْشِقُوها ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ ﴿وما ظلمهم الله﴾ بإبطال أعمالهم ﴿ولكن﴾ كانوا ﴿أنفسهم يظلمون﴾ حيث كفروا بآيات الله وكذبوا رسوله وحرصوا على إطفاء نور الله، هذه الأمور هي التي أحبطت أعمالهم وذهبت بأموالهم، ثم قال تعالى:

﴿١١٨ - ١٢٠﴾ **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ﴾**

آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَالُونَكُمْ خِيبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون * ها أنتم أولاء تحبونهم

بين هاتنا الأمة المستقيمة، وبين أفعالها وثوابها، فأخبر أنهم لا يستون عنده، بل بينهم من الفرق ما لا يمكن وصفه، فأما تلك الطائفة الفاسقة فقد مضى وصفهم، وأما هؤلاء المؤمنون، فقال تعالى منهم ﴿أمة قائمة﴾ أي: مستقيمة على دين الله، قائمة بما ألزمها الله به من المأمورات، ومن ذلك قيامها بالصلاة ﴿يتسلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ وهذا بيان لصلاتهم في أوقات الليل وطول تهجدهم وتلاوتهم لكتاب ربهم وإيثارهم الخضوع والركوع والسجود له ﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ أي: كإيمان المؤمنين إيماناً يوجب لهم الإيمان بكل نبي أرسله، وكل كتاب أنزله الله، وخص الإيمان باليوم الآخر لأن الإيمان الحقيقي باليوم الآخر بحث المؤمن به على ما يقربه إلى الله، ويثاب عليه في ذلك اليوم، وترك كل ما يعاقب عليه في ذلك اليوم ﴿ويأسرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ فحصل منهم تكميل أنفسهم بالإيمان ولوازمه، وتكميل غيرهم بأمرهم بكل خير، ونهيهم عن كل شر، ومن ذلك حثهم أهل دينهم وغيرهم على الإيمان بمحمد ﷺ، ثم وصفهم بالهمم العالية ﴿و﴾ أنهم ﴿يسارعون في الخيرات﴾ أي: يبادرون إليها فيتهزون الفرصة فيها، ويفعلونها في أول وقت إمكانها، وذلك من شدة رغبتهم في الخير ومعرفتهم بفوائده وحسن عوائده، فهؤلاء الذين وصفهم الله بهذه الصفات الجميلة والأفعال الجليلة ﴿من الصالحين﴾ الذين يدخلهم الله في رحمته ويتمدهم بغفرانه وينيلهم من فضله وإحسانه، وأنهم مهما فعلوا ﴿من خير﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿فلن يكفروا﴾ أي: لن يجرموا ويفوتوا أجره، بل يثيبهم الله على ذلك أكمل ثواب، ولكن الأعمال ثوابها تبع لما يقوم بقلب صاحبها من الإيمان والتقوى، فلماذا قال ﴿والله عليم بالمتقين﴾ كما قال تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَنْفِقَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُمْ وَتَبَا لَظُلْمِهِمْ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ تَبَا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَالُونَكُمْ خِيبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون ﴿١١٨﴾ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ يَحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ بَنَاتِهِمْ وَفِيهِمْ ذُرِّيَّتُكُمْ وَلَا تَحْزَنُوا بِنَفْسِكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالضُّحَى وَالْأَمْسِ وَالْآنَسَاءِ وَالْأَصْبَاحِ وَأَعْيُنُكُمْ أَلْأَيْمَلُ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِحُكْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَسْكُرْوا حَسَنَةً سَوْفَ تَعْلَمُونَ وَإِنْ تَسْكُرْوا سَيِّئَةً تَعْلَمُونَ بِخُبْرِهَا إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضَعَنَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ عَدُوٌّ مِنْ أَهْلِكُمُ يُؤْتِي الْقُرَيْشَ مَعْقِدًا فَقَالَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾

ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور * إن تمسككم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط * ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يتخذوا بطانة من المنافقين من أهل الكتاب وغيرهم يظهرهم على سرائرهم أو يولونهم بعض الأعمال الإسلامية وذلك أنهم هم الأعداء الذين امتلأت قلوبهم من العداوة والبغضاء فظهرت على أفواههم ﴿وما تخفي صدورهم أكبر﴾ مما يسمع منهم فلماذا ﴿لا يالونكم خيبالاً﴾ أي: لا يقصرون في حصول الضرر عليكم والمشقة وعمل الأسباب التي فيها ضرركم ومساعدة الأعداء عليكم قال الله للمؤمنين ﴿قد بينا لكم الآيات﴾ أي: التي فيها مصالحكم الدينية والدنيوية ﴿لعلكم تعقلون﴾ فتعرفونها وتفرقون بين الصديق والعدو، فليس كل أحد يجعل بطانة، وإنما العاقل من إذا ابتلي بمخالطة العدو أن تكون مخالطة في ظاهره ولا يطلع من باطنه على شيء ولو تعلق له وأقسم أنه من أوليائه قال الله مهيباً للمؤمنين على الحذر من هؤلاء المنافقين من أهل الكتاب، ومبيناً شدة عداوتهم ﴿هاأنتم



المؤمنون». هذه الآيات نزلت في وقعة «أحد»، وقصتها مشهورة في السير والتواريخ، ولعل الحكمة في ذكرها في هذا الموضع، وأدخل في أثنائها وقعة «بدر» لما أن الله تعالى قد وعد المؤمنين أنهم إذا صبروا واثقوا نصرهم، ورد كيد الأعداء عنهم، وكان هذا حكماً عاماً ووعداً صادقاً لا يتخلف مع الإتيان بشرطه، فذكر نموذجاً من هذا في هاتين القصتين، وأن الله نصر المؤمنين في «بدر» لما صبروا واثقوا، وأدال عليهم العدو لما صدر من بعضهم من الإخلال بالتقوى ما صدر، ومن حكمة الجمع بين القصتين أن الله يحب من عباده إذا أصابهم ما يكرهون أن يتذكروا ما يحبون، فيخف عنهم البلاء ويشكروا الله على نعمه العظيمة التي إذا قولت بما ينالهم من المكروه الذي هو في الحقيقة خير لهم، كان المكروه بالنسبة إلى المحبوب نزرأ يسيراً، وقد أشار تعالى إلى هذه الحكمة في قوله «وَأَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلِهَا» وحاصل قضية «أحد» وإجمالها أن المشركين لما رجع فُلهم من «بدر» إلى مكة، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة، استعدوا بكل ما يقدرون عليه من العدد بالأموال والرجال والعُدَد، حتى اجتمع عندهم من ذلك ما جزموا بحصول غرضهم وشفاء غيظهم، ثم وجهوا من مكة للمدينة في ثلاثة آلاف مقاتل، حتى نزلوا قرب المدينة، فخرج النبي ﷺ إليهم هو وأصحابه بعد المراجعة والمشاورة حتى استقر رأيهم على الخروج، وخرج في ألف، فلما ساروا قليلاً رجع عبد الله بن أبي المنافق بثلاث الجيش عن هو على مثل طريقته، وهمت طائفتان من المؤمنين أن يرجعوا وهم بنو سلمة وبنو حارثة فثبتهم الله، فلما وصلوا إلى أحد رتبهم النبي ﷺ في مواضعهم وأسندوا ظهورهم إلى أحد، ورتب النبي ﷺ خسين رجلاً من أصحابه في خلة في جبل «أحد» وأمرهم أن يلزموا مكانهم ولا يبرحوا منه ليأمنوا أن يأتيهم أحد من ظهورهم، فلما التقى المسلمون

والمشركون انهزم المشركون هزيمة قبيحة وخلفوا معسكرهم خلف ظهورهم، واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فلما راهم الرماة الذين جعلهم النبي ﷺ في الجبل، قال بعضهم لبعض: الغنمة الغنمة، ما يقعدنا هاهنا والمشركون قد انهزموا، ووعظهم أميرهم عبد الله بن جبير عن المعصية فلم يلتفتوا إليه، فلما أخلوا موضعهم فلم يبق فيه إلا نفر يسير، منهم أميرهم عبد الله بن جبير، جاءت خيل المشركين من ذلك الموضع واستدبرت المسلمين وقاتلت ساقتهم، فجال المسلمون جولة ابتلاهم الله بها وكفر بها عنهم، وأذاقهم فيها عقوبة المخالفة، فحصل ما حصل من قتل من قتل من قتل منهم، ثم إنهم انحازوا إلى رأس جبل «أحد» وكف الله عنهم أيدي المشركين وانكفأوا إلى بلادهم، ودخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة قال الله تعالى «وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ» والغد هاهنا مطلق الخروج، ليس المراد به الخروج في أول النهار، لأن النبي ﷺ وأصحابه لم يخرجوا إلا بعدما صلوا الجمعة «نبؤ» المؤمنين مقاعد للقتال» أي: تنزلهم وترتبهم كل في مقعده اللائق به، وفيها أعظم مدح للنبي ﷺ حيث هو الذي يباشر تدبيرهم وإقامتهم في مقاعد القتال، وما ذاك إلا لكمال علمه ورأيه، وسداد نظره وعلو همته، حيث يباشر هذه الأمور بنفسه وشجاعته الكاملة صلوات الله وسلامه عليه «والله سميع» لجميع السموعات، ومنه أنه يسمع ما يقول المؤمنون والمنافقون كل يتكلم بحسب ما في قلبه «عليهم» بنيات العبيد، فيجازيهم عليها أتم الجزاء، وأيضاً فالله سميع عليهم بكم، يكلؤكم، ويتولى تدبير أموركم، ويؤيدكم بنصره كما قال تعالى لموسى وهارون «إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى» ومن لطفه بهم وإحسانه إليهم أنه، لما «همت طائفتان» من المؤمنين بالفشل وهم بنو سلمة وبنو حارثة كما تقدم ثبتهما الله تعالى نعمة عليهما وعلى سائر المؤمنين، فلماذا قال

أولاً تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله» أي: جنس الكتب التي أنزلها الله على أنبيائه وهم لا يؤمنون بكتابكم، بل إذا لقوكم أظهروا لكم الإيمان «وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ الْإِيمَانَ» وهي أطراف الأصابع من شدة غيظهم عليكم «قُلْ مَاتُوا بَغِظُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» وهذا فيه بشارة للمؤمنين أن هؤلاء الذين قصدوا ضرركم لا يضررون إلا أنفسهم، وإن غيظهم لا يقدررون على تنفيذه، بل لا يزالون معذبين به حتى يموتوا فينتقلوا من عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة.

«إِنْ تَمْسِكُمْ حَسَنَةً» كالنصر على الأعداء وحصول الفتح والغنائم «تَسْؤُمُ» أي: تغمهم وتخزهم «وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضرركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط» فإذا أتيت بالأسباب التي وعد الله عليها النصر - وهي الصبر والتقوى - لم يضرركم مكرهم، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم لأنه محيط بهم علمه وقدرته فلا منفذ لهم عن ذلك ولا يخفى عليهم منهم شيء.

«١٢١ - ١٢٢» «وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ نبؤ» المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليهم * إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل

﴿والله وليهما﴾ أي: بولايته الخاصة، التي هي لطفه بأوليائه، وتوفيقهم لما فيه صلاحهم وعصمتهم عما فيه مضرتهم، فمن توليه لهما أنهما لما هما بهذه العصبة العظيمة وهي الفضل والفرار عن رسول الله عصمهما، لما معهما من الإيمان كما قال تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ ثم قال ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ ففيها الأمر بالتوكل الذي هو اعتماد القلب على الله في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة بالله، وأنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، وأن المؤمنين أولى بالتوكل على الله من غيرهم، وخصوصاً في مواطن الشدة والقتال، فإنهم مضطرون إلى التوكل والاستعانة بربهم والاستنصار له، والتسبري من حولهم وقوتهم، والاعتماد على حول الله وقوته، فبذلك ينصرهم ويدفع عنهم البلايا والمحن، ثم قال تعالى:

﴿١٢٣ - ١٢٦﴾ ﴿ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون﴾ * إذ تقول للمؤمنين ألن يكفِكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين * بلى إن تصبروا وتقا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين * وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ وهذا امتنان منه على عباده المؤمنين، وتذكير لهم بما نصرهم به يوم بدر وهم أذلة في قلة عددهم وعُددهم مع كثرة عدد عدوهم وعُددهم، وكانت وقعة بدر في السنة الثانية من الهجرة، خرج النبي ﷺ من المدينة بثلاث مئة وبضعة عشر من أصحابه، ولم يكن معهم إلا سبعون بعيراً وقرسانٍ لطلب عير لقريش قدمت من الشام، فسمع به المشركون فتجهزوا من مكة لفكّك عيرهم، وخرجوا في زهاء ألف مقاتل مع العدة الكاملة والسلاح العام والخيّل الكثيرة، فالتقوا هم والمسلمون في ماء يقال له «بدر» بين مكة والمدينة

فاقتتلوا، ونصر الله المسلمين نصراً عظيماً، فقتلوا من المشركين سبعين قتيلاً من صناديد المشركين وشجعانهم، وأسروا سبعين، واحتسوا على معسكرهم ستأتي - إن شاء الله - القصة في سورة الأنفال، فإن ذلك موضعها، ولكن الله تعالى هنا أتى بها لتذكر بها المؤمنون ليتقوا ربهم ويشكروه، فلماذا قال ﴿فاتقوا الله لعلكم تذكرون﴾ لأن من اتقى ربه فقد شكره، ومن ترك التقوى فلم يشكره، إذ تقول يا محمد للمؤمنين يوم بدر مبشراً لهم بالنصر ﴿ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين﴾ بل إن تصبروا وتلقوا من أتاكم من فورهم هذا ﴿أي: من مقصدهم هذا، وهو وقعة بدر يمدكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين﴾ أي: معلمين بعلامة الشجعان، فشرط الله لإمدادهم ثلاثة شروط: الصبر، والتقوى، وإتيان المشركين من فورهم هذا، فهذا الوعد بإنزال الملائكة المذكورين وإمدادهم بهم، وأما وعد النصر وقمع كيد الأعداء فشرط الله له الشرطين الأولين كما تقدم في قوله: ﴿وإن تصبروا وتلقوا ليمضركم كيدهم شيئاً﴾ ﴿وما جعله الله﴾ أي: إمداده لكم بالملائكة ﴿إلا بشرى﴾ تستبشرون بها وتفرحون ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله ﴿فلا تعتمدوا على ما معكم من الأسباب، بل الأسباب فيها طمأنينة لقلوبكم، وأما النصر الحقيقي الذي لا معارض له، فهو مشيئة الله لنصر من يشاء من عباده، فإنه إن شاء نصر من معه الأسباب كما هي سنته في خلقه، وإن شاء نصر المستضعفين الأذلين ليعين لعباده أن الأمر كله بيديه، ومرجع الأمور إليه، ولهذا قال ﴿عند الله العزيز﴾ فلا يمتنع عليه خلق، بل خلق كلهم أذلاء مذبذبين تحت تدبيره وقرهه ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وله الحكمة في إدالة الكفار في بعض الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة، قال تعالى: ﴿ذلك ولو

• وَسَارِعُوا إِلَىٰ تَغْفِرَ رَبِّكُمْ رَبَّكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِالسُّورَةِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ۝ وَالَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي السَّكَنِ وَالْعَمَلِ وَالْغَدْرِ وَالْمَأْوِينَ ۝ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْحَسَنِينَ ۝ وَالَّذِينَ إِذَا ۝ صُلُّوا أَدْبَرُوا عَلَىٰ أَعْقَابِهِمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِنُفُوسِهِمْ وَمَن تَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ ۝ وَالَّذِينَ إِذَا ۝ مَاسُوا بِمَن وَهُمْ يَسْتَمِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ وَمَنْ ۝ مِّنْ يَّوْمِهِ جِئَتْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِ الْأَنْهَارُ فَيَكُونُ فِيهَا ۝ وَيَعْمَلُ جَدْرًا مُّصَوِّدًا ۝ تَدْفَعُ مِنْ قِبَلِكُمْ مِّنْ ۝ قِبَلِ رَأْفِ الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ۝ الْمُكَذِّبِينَ ۝ هَٰذَا بَنَاءُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَنُورَةٌ ۝ لِلشَّيْئِينَ ۝ وَلَا تَجْعَلُوا لِحُزْبِكُمْ أَهْلًا يَلْعَنُونَ إِن كُنتُمْ ۝ مُّؤْمِنِينَ ۝ إِن يَسْتَخْرِجُ مِّنْ حُدُودِ الْقَوْمِ رَجْعًا فِيهِ ۝ وَرَبُّكَ الْأَكْبَرُ فَكَانَ النَّاسُ بِرَيْبَةٍ مِنَ اللَّهِ الَّذِينَ ۝ مَاسُوا وَنَجَّيْتُمْ مِّنْهُمْ شُكْرًا وَاللَّهُ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝

يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض.

﴿١٢٧﴾ ﴿ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائئين﴾ يخبر تعالى أن نصرة عباده المؤمنين لأحد أمرين: إما أن يقطع طرفا من الذين كفروا، أي: جانباً منهم وركناً من أركانهم، إما بقتل، أو أسر، أو استيلاء على بلد، أو غنيمة مال، فيفوقى بذلك المؤمنون ويذل الكافرون، وذلك لأن مقاومتهم ومحاربتهم للإسلام تتألف من أشخاصهم ووسائلهم وأموالهم وأرضهم فهذه الأمور تحصل منهم المقاومة والمقاتلة فقط قطع شيء من ذلك ذهاب لبعض قوتهم، الأمر الثاني أن يريد الكفار بقوتهم وكثرتهم، طمعاً في المسلمين، ويؤمنوا أنفسهم ذلك، ويحرصوا عليه بغاية الحرص، ويبدلوا قواهم وأموالهم في ذلك، فينصر الله المؤمنين عليهم ويردهم خائئين لم ينالوا مقصودهم، بل يرجعون بخسارة وغم وحسرة، وإذا تأملت الواقع رأيت نصر الله لعباده المؤمنين دائراً بين هذين الأمرين، غير خارج عنهما إما نصر عليهم أو خذل

﴿١٢٨ - ١٢٩﴾ ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ * والله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب



من يشاء والله غفور رحيم ﴿١﴾ لما جرى يوم «أحد» ما جرى، وجرى على النبي ﷺ مصائب، رفع الله بها درجته، فشح رأسه وكسرت ربايعته، قال «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم» وجعل يدعو على رؤساء من المشركين مثل أبي سفيان بن حرب، وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، أنزل الله تعالى على رسوله نبأاً له عن الدعاء عليهم باللعة والطرده عن رحمة الله ﴿ليس لك من الأمر شيء﴾ إنما عليك البلاغ وإرشاد الخلق والحرص على مصالحهم، وإنما الأمر لله تعالى هو الذي يدير الأمور، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء، فلا تدع عليهم بل أمرهم راجع إلى ربهم، إن اقتضت حكمته ورحمته أن يتوب عليهم ويمن عليهم بالإسلام فعل، وإن اقتضت حكمته إبقاءهم على كفرهم وعدم هدايتهم، فإنهم هم الذين ظلموا أنفسهم وضروها وتسبوا بذلك، فعل، وقد تاب الله على هؤلاء المعينين وغيرهم، فهداهم للإسلام رضي الله عنهم، وفي هذه الآية ما يدل على أن اختيار الله غالب على اختيار العباد، وأن العبد وإن ارتفعت درجته وعلا قدره قد يختار شيئاً وتكون الخيرة والمصلحة في غيره، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء فغيره من باب أولى، ففيها أعظم رد على من تعلق

بالأنبياء أو غيرهم من الصالحين وغيرهم، وأن هذا شرك في العبادة، نقص في العقل، يتركون من الأمر كله له ويدعون من لا يملك من الأمر مشقال ذرة، إن هذا لهو الضلال البعيد، وتأمل كيف لما ذكر تعالى توبته عليهم أسند الفعل إليه، ولم يذكر منهم سبباً موجباً لذلك، ليدل ذلك على أن النعمة محض فضله على عبده، من غير سبق سبب من العبد ولا وسيلة، ولما ذكر العذاب ذكر معه ظلمهم، ورتبه على العذاب بالفاء المفيدة للسببية، فقال ﴿أو يعذبهم فإنهم ظالمون﴾ ليدل ذلك على كمال عدل الله وحكمته، حيث وضع العقوبة موضعها، ولم يظلم عبده بل العبد هو الذي ظلم نفسه، ولما نفى عن رسوله أنه ليس له من الأمر شيء قرر من الأمر له فقال ﴿والله ما في السماوات وما في الأرض﴾ من الملائكة والإنس والجن والحيوانات والأفلاك والجمادات كلها، وجميع ما في السماوات والأرض، الكل ملك لله مخلوقون مدبرون متصرف فيهم تصرف الممالك، فليس لهم مشقال ذرة من الملك، وإذا كانوا كذلك فهم دائرون بين مغفرته وتعذيبه فيغفر لمن يشاء بأن يهديه للإسلام فيغفر شره ويمن عليه بترك العصيان فيغفر له ذنبه، ﴿ويعذب من يشاء﴾ بأن يكله إلى نفسه الجاهلة الظالمة المقتضية لعمل الشر فيعمل الشر ويعذبه على ذلك، ثم ختم الآية باسمين كريمين دالين على سعة رحمته وعموم مغفرته وسعة إحسانه وعميم إحسانه، فقال ﴿والله غفور رحيم﴾ ففيها أعظم بشارة بأن رحمته غلبت غضبه، ومغفرته غلبت مؤاخذته، فالآية فيها الإخبار عن حالة الخلق وأن منهم من يغفر الله له ومنهم من يعذبه، فلم يحتملها باسمين أحدهما دال على الرحمة، والثاني دال على النقمة، بل ختمها باسمين كليهما يدل على الرحمة، فله تعالى رحمة وإحسان سيرحم بها عباده لا تحطرب ببال بشر، ولا يدرك لها وصف، فنسأله تعالى أن يتغمدنا ويدخلنا برحمته في عباده الصالحين. تم

المجلد الثاني من تيسير الكريم الصنان في تفسير كلام الرحمن لجامعه الفقير إلى الله: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه والمسلمين أمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهدهم الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً قال تعالى:

﴿١٣٠ - ١٣٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ * واتقوا النار التي أعدت للكافرين * وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون * وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين * والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾

تقدم في مقدمة هذا التفسير أن العبد ينبغي له مراعاة الأوامر والنواهي

ما اعتاده أهل الجاهلية، ومن لا يبالي بالأوامر الشرعية من أنه إذا حل الدين على المعسر ولم يحصل منه شيء، قالوا له: إما أن تقضي ما عليك من الدين، وإما أن نزيد في المدة، ويزيد ما في ذمتك، فيضطر الفقير ويستدفع غريمه ويلتزم ذلك، اغتناماً لراحته الحاضرة، فيزداد - بذلك - ما في ذمته أضعافاً مضاعفة، من غير نفع وانتفاع.

ففي قوله: ﴿أضعافاً مضاعفة﴾ تنبيه على شدة شناعته بكثرته، وتنبيه لحكمة تحريمه، وأن تحريم الربا حكمته أن الله منع منه لما فيه من الظلم.

وذلك أن الله أوجب إنظار المعسر، وبقاء ما في ذمته من غير زيادة، فللزامة بما فوق ذلك ظلم متضاعف، فيتعين على المؤمن المتقي تركه وعدم قربانه، لأن تركه من موجبات التقوى.

والفلاح متوقف على التقوى، فلهذا قال: ﴿واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ * واتقوا النار التي أعدت للكافرين ﴿ بترك ما يوجب دخولها، من الكفر والمعاصي، على اختلاف درجاتها، فإن المعاصي كلها - وخصوصاً المعاصي الكبار - تجر إلى الكفر، بل هي من خصال الكفر الذي أعد الله النار لأهله، فترك المعاصي ينجي من النار، ويبقي من سخط الجبار، وأفعال الخير والطاعة توجب رضا الرحمن، ودخول الجنان، وحصول الرحمة، ولهذا قال: ﴿وأطيعوا الله والرسول﴾ بفعل الأوامر امتثالاً، واجتناب النواهي ﴿لعلكم ترحمون﴾

فطاعة الله وطاعة رسوله، من أسباب حصول الرحمة كما قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة﴾ الآيات.

ثم أمرهم تعالى بالمسارعة إلى مغفرته وإدراك جنته التي عرضها السماوات والأرض، فكيف بطولها، التي أعدها الله للمتقين، فهم أهلها وأعمال التقوى هي الموصلة إليها، ثم وصف المتقين وأعمالهم، فقال: ﴿الذين ينفقون في السراء والضراء﴾ أي: في

في نفسه وفي غيره، وأن الله تعالى إذا أمره بأمر وجب عليه - أولاً - أن يعرف حده، وما هو الذي أمر به، ليتسكن بذلك من امتثاله، فإذا عرف ذلك اجتهد، واستعان بالله على امتثاله في نفسه وفي غيره، بحسب قدرته وإمكانه، وكذلك إذا نهي عن أمر عرف حده، وما يدخل فيه وما لا يدخل، ثم اجتهد واستعان بربه في تركه، وأن هذا ينبغي مراعاته في جميع الأوامر الإلهية والنواهي، وهذه الآيات الكريمة قد اشتملت على أوامر وخصال من خصال الخير، أمر الله [بها] وحث على فعلها، وأخبر عن جزاء أهلها، وعلى نواهي حث على تركها.

ولعل الحكمة - والله أعلم - في إدخال هذه الآيات أثناء قصة «أحد» أنه قد تقدم أن الله تعالى وعد عباده المؤمنين، أنهم إذا صبروا واثقوا نصرهم على أعدائهم، وخذل الأعداء عنهم، كما في قوله تعالى: ﴿وإن تصبروا وتقا لا يضركم كيدهم شيئاً﴾.

ثم قال: ﴿بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم﴾ الآيات.

فكانت النفوس اشتاقت إلى معرفة خصال التقوى، التي يحصل بها النصر والفلاح والسعادة، فذكر الله في هذه الآيات أهم خصال التقوى التي إذا قام العبد بها فقيامه بغيرها من باب أولى وأحرى، ويدل على ما قلنا أن الله ذكر لفظ «التقوى» في هذه الآيات ثلاث مرات: مرة مطلقة وهي قوله:

﴿أعدت للمتقين﴾ ومرتين مقيدتين، فقال: ﴿واتقوا الله﴾ و﴿واتقوا النار﴾ فقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ كل ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ افعلوا كذا، أو اتركوا كذا، يدل على أن الإيمان هو السبب الداعي والموجب لامتنال ذلك الأمر، واجتناب ذلك النهي؛ لأن الإيمان هو التصديق الكامل بما يجب التصديق به، المستلزم لأعمال الجوارح، فنهاهم عن أكل الربا أضعافاً مضاعفة، وذلك هو

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُلَاحِظُوا أَلْفَ كَفَرٍ
يُرِيدُكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَحْبِرُوا خَيْرَ
بِكَلِّ اللَّهِ تَزِيدُكُمْ وَتُؤَخِّرُكُمْ أَتُصِيبُكُمْ
سَكَنِي فِي قَوْلِي الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّبَّ يَأْتُوا
أَنْفُسَكُمْ وَأَنْفُسُ الَّذِينَ هُمْ أُولَئِكَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ
أَلْفٌ وَفِي شَرِّهِمْ أَكْثَرُ لِيُذِيقَكُمْ
مَذْقَمَ اللَّهِ وَعَذَابَهُ لِيَبْذُلَ اللَّهُ بِلَا
إِذَا قُضِيَتْ مِنْكُمْ أَلْفٌ وَفِي شَرِّهِمْ أَكْثَرُ
بَعْدَ مَا نَزَّلَكُمْ فَأُخْبِرُوا بِكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ
الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَخْبِرُوا
عَنْهُمْ لِيُذِيقَكُمْ وَلَقَدْ عَمَّا عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ إِذْ شَهِدُوا وَلَا تَلَوَّنَا
عَلَى لَكُمُ وَكَانُوا يَدْعُونَكُمْ فَمِنْ أَعْيُنِكُمْ
فَأَنبَأَكُمْ كَمَا بَعَثْنَا لَكُمْ تَحْفِظًا عَلَى مَا
فَأَنبَأَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ جَزِيمٌ أَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

حال عسرهم ويسرهم، إن أسروا أكثروا من النفقة، وإن أعسروا لم يحقروا من المعروف شيئاً ولو قل.

﴿والكاظمين الغيظ﴾ أي: إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم - وهو امتلاء قلوبهم من الحنق، الموجب للانتقام بالقول والفعل -، هؤلاء لا يعملون بمقتضى الطباع البشرية، بل يكظمون ما في القلوب من الغيظ، ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم.

﴿والعافين عن الناس﴾ يدخل في العفو عن الناس، العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل، والعفو أبلغ من الكظم، لأن العفو ترك المؤاخذه مع السامح عن المسيء، وهذا إنما يكون ممن تحلى بالأخلاق الجميلة، وتحلى عن الأخلاق الرذيلة، ومن تاجر مع الله، وعفا عن عباد الله رحمة بهم، وإحساناً إليهم، وكراهة لحصول الشر عليهم، وليعفو الله عنه، ويكون أجره على ربه الكريم، لا على العبد الفقير، كما قال تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾.

ثم ذكر حالة أعم من غيرها، وأحسن وأعلى وأجل، وهي الإحسان، فقال [تعالى]: ﴿والله يحب المحسنين﴾ والإحسان نوعان: الإحسان في عبادة الخالق. [والإحسان إلى المخلوق، فالإحسان في عبادة



الخالق (١)

فسرها النبي ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وأما الإحسان إلى المخلوق، فهو إيصال النفع الديني والدنيوي إليهم، ودفع الشر الديني والدنيوي عنهم، فيدخل في ذلك أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليم جاهلهم، ووعظ غافلهم، والنصيحة لعامتهم وخاصتهم، والسعي في جمع كلمتهم، وإيصال الصدقات والتفقات الواجبة والمستحبة إليهم، على اختلاف أحوالهم وتباين أوصافهم، فيدخل في ذلك بذل السدى وكف الأذى، واحتمال الأذى، كما وصف الله به المتقين في هذه الآيات، فمن قام بهذه الأمور، فقد قام بحق الله وحق عبده.

ثم ذكر اعتذارهم لربهم من جنایاتهم وذنوبهم، فقال: «والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم» أي: صدر منهم أعمال [سيئة] كبيرة، أو ما دون ذلك، بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم، وما تواعد به العصاين ووعده به المتقين، فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها، فلهذا

قال: «ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون»

«أولئك» الموصوفون بتلك الصفات «جزاؤهم مغفرة من ربهم» تزيل عنهم كل محذور، «وجنات تجري من تحتها الأنهار» فيها من النعيم المقيم، والبهجة والسرور والبهاء، والخير والسرور، والقصور والمنازل الأنيفة العاليات، والأشجار المثمرة البهية، والأنهار الجارية في تلك المساكن الطيبات، «خالدين فيها» ولا يغير ما هم فيه من النعيم، «ونعم أجر العاملين» عملوا لله قليلاً فأجروا كثيراً ف «عند الصباح يحمد القوم السري»، وعند الجزاء يجيد العامل أجره كاملاً موفراً.

وهذه الآيات الكريمات من أدلة أهل السنة والجماعة، على أن الأعمال تدخل في الإيمان، خلافاً للمرجئة، ووجه الدلالة إنما يتم بذكر الآية، التي في سورة الحديد، نظير هذه الآيات، وهي قوله تعالى: «سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله» فلم يذكر فيها إلا لفظ الإيمان به وبرسوله، وهنا قال: «أعدت للمتقين». ثم وصف المتقين بهذه الأعمال المالية والبدينية، فدل على أن هؤلاء المتقين الموصوفين بهذه الصفات هم أولئك المؤمنون.

﴿١٣٧ - ١٣٨﴾ ثم قال تعالى: «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين

وهذه الآيات الكريمات، وما بعدها في قصة «أحد» يعزي تعالى عباده المؤمنين ويسليهم، ويخبرهم أنه مضى قبلهم أجيال وأمم كثيرة، امتحنوا، وابتلي المؤمنون منهم بقتال الكافرين، فلم يزلوا في مداولة ومجاوله، حتى جعل الله العاقبة

للمتقين، والنصر لعباده المؤمنين، وآخر الأمر حصلت الدولة على المكذبين، وخذلهم الله بنصر رسله وأتباعهم.

«فسيروا في الأرض» بأبدانكم وقلوبكم «فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» فإنكم لا تجدونهم إلا معذبين بأنواع العقوبات الدنيوية، قد خوت ديارهم، وتبين لكل أحد خسارهم، وذهب عزهم وملكهم، وزال بذخهم وفخرهم، أفليس في هذا أعظم دليل، وأكبر شاهد على صدق ما جاءت به الرسل؟!!

وحكمة الله التي يمتحن بها عباده، ليلوهم ويتبين صادقهم من كاذبهم، ولهذا قال تعالى: «هذا بيان للناس أي: دلالة ظاهرة، تبين للناس الحق من الباطل، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، وهو الإشارة إلى ما أوقع الله بالمكذبين.

«وهدى وموعظة للمتقين» لأنهم هم المتفعلون بالآيات فتهدىهم إلى سبيل الرشاد، وتعظهم وتزجرهم عن طريق الغي، وأما باقي الناس فهي بيان لهم، تقوم [به] عليهم الحجة من الله، ليهلك من هلك عن بينة.

ويحتمل أن الإشارة في قوله: «هذا بيان للناس» للقرآن العظيم، والذكر الحكيم، وأنه بيان للناس عموماً، وهدى وموعظة للمتقين خصوصاً، وكلا المعنيين حق.

﴿١٣٩ - ١٤٣﴾ «ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين * وليمحس الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين * أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين * ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون» يقول تعالى مشجعاً

ثم ويختم تعالى على عدم صبرهم بأمر كانوا يتمنونونه ويودون حصوله، فقال: ﴿وَلَقَدْ كُتِبَ تَمَنُّونَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ وذلك أن كثيراً من الصحابة رضي الله عنهم ممن فاتته بدر يتمنون أن يحضرهم الله مشهداً يبذلون فيه جهدهم، قال الله [تعالى] لهم: ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ أي: رأيتم ما تمنيتم بأعينكم ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ فما بالكم وترك الصبر؟ هذه حالة لا تليق ولا تحسن، خصوصاً لمن تمنى ذلك، وحصل له ما تمنى، فإن الواجب عليه بذل الجهد، واستفراغ الوسع في ذلك.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يكره تمنى الشهادة، ووجه الدلالة أن الله تعالى أقرهم على أمنيتهم، ولم ينكر عليهم، وإنما أنكر عليهم عدم العمل بمقتضاها، والله أعلم.

﴿١٤٤ - ١٤٥﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلاً ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ويستجزي الشاكرين.

يقول تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي: ليس ببدع من الرسل، بل هو من جنس الرسل الذين قبله، وظيفتهم تبليغ رسالات ربهم وتنفيذ أوامره، ليسوا بمخلدلين، وليس بقاؤهم شرطاً في امتثال أوامر الله، بل الواجب على الأمم عبادة ربهم في كل وقت وبكل حال، ولهذا قال: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ بترك ما جاءكم به من إيمان أو جهاد، أو غير ذلك.

قال [الله] تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً﴾ إنما يضر نفسه، وإلا فالله تعالى غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين، فلما وبخ تعالى من انقلب على عقبيه، مدح من ثبت مع رسوله، وامتلأ أمره به، فقال: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ

مَنْ أَرْفَعَ الْمَنَازِلَ، وَلَا سَبِيلَ لِنَيْلِهَا إِلَّا بِمَا يَحْصِلُ مِنْ وَجُودِ أَسْبَابِهَا، فَهَذَا مِنْ رَحْمَةِ عِبَادَةِ الْمُؤْمِنِينَ، أَنْ قَبِضَ لَهُمْ مِنَ الْأَسْبَابِ مَا تَكْرَهُهُ النَّفُوسُ، لِنَيْلِهِمْ مَا يَجِبُونَ مِنَ الْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ، ﴿وَاللَّهُ لَا يَجِبُ الظَّالِمِينَ﴾ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وَتَقَاعَدُوا عَنِ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِهِ، وَكَانَ فِي هَذَا تَعْرِيفُ بَذَمِ الْمُنَافِقِينَ، وَأَنَّهُمْ مَيَّغُضُونَ لِلَّهِ، وَلِهَذَا تُبْطَلُ عَنْ الْقِتَالِ فِي سَبِيلِهِ.

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً، وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

﴿وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا أيضاً من الحكم أن الله يمحص بذلك المؤمنين من ذنوبهم وعيوبهم، يدل ذلك على أن الشهادة والقتال في سبيل الله يكفر الذنوب، ويزيل العيوب، وليمحص الله أيضاً المؤمنين من غيرهم من المنافقين، فيتخلصون منهم، ويعرفون المؤمن من المنافق، ومن الحكم أيضاً أنه يقدر ذلك، ليمحق الكافرين، أي: ليكون سبباً لمحقهم واستئصالهم بالعقوبة، فإنهم إذا انتصروا، بغوا، وازدادوا طغياناً إلى طغيانهم، يستحقون به المعالجة بالعقوبة، رحمة بعباده المؤمنين.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾ استفهام إنكاري، أي: لا تظنوا، ولا يخطر ببالكم أن تدخلوا الجنة من دون مشقة واحتمال المكاره في سبيل الله وابتغاء مرضاته، فإن الجنة أعلى المطالب، وأفضل ما به يتنافس المتنافسون، وكلما عظم المطلوب عظمت وسيلته، والعمل الموصل إليه، فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يدرك النعيم إلا بترك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها، وتغريتها عليها ومعرفة ما تؤول إليه، تنقلب عند أرباب البصائر منحناً يسرون بها، ولا يبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

لعباده المؤمنين، ومقرباً لعزائمهم، ومنهضاً لهممهم: ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي: ولا تنهوا وتضعفوا في أبدانكم، ولا تحزنوا في قلوبكم، عندما أصابتكم المصيبة، وابتليت هذه البلوى، فإن الحزن في القلوب، والوهن على الأبدان، زيادة مصيبة عليكم، وعون لعدوكم عليكم، بل شجعوا قلوبكم وصبروها، وادفعوا عنها الحزن وتصلبوا على قتال عدوكم، وذكر تعالى أنه لا ينبغي ولا يليق بهم الوهن والحزن، وهم الأعلون في الإيمان، ورجاء نصر الله وثوابه، فالؤمن المتيقن ما وعده الله من الثواب الدنيوي والآخروي لا ينبغي منه ذلك، ولهذا قال [تعالى]: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

ثم سلّاهم بما حصل لهم من الهزيمة، وبيّن الحكم العظيمة المترتبة على ذلك، فقال: ﴿إِنْ يَمْسِكُكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ فأنتم وإياهم قد تساوت في القرح، ولكنكم ترجون من الله ما لا يرجون كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَلَهُمْ بَأْسٌ كَمَا تَأْلُمُونَ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.

ومن الحكم في ذلك أن هذه الدار يعطي الله منها المؤمن والكافر، والبر والفاجر، فيداول الله الأيام بين الناس، يوم لهذه الطائفة، ويوم للطائفة الأخرى؛ لأن هذه الدار الدنيا منقضية فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة، فإنها خالصة للذين آمنوا.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا أيضاً من الحكم أنه يتبلي الله عباده بالهزيمة والابتلاء، ليتبين المؤمن من المنافق؛ لأنه لو استمر النصر للمؤمنين في جميع الوقائع لدخل في الإسلام من لا يريد، فإذا حصل في بعض الوقائع بعض أنواع الابتلاء، تبين المؤمن حقيقة الذي يرغب في الإسلام، في الضراء والسرء، واليسر والعسر، ممن ليس كذلك.

﴿وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وهذا أيضاً من بعض الحكم، لأن الشهادة عند الله

والغنيمة، ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ وهو الفوز برضا ربهم، والنعيم المقيم الذي قد سلم من جميع المنكذات، وما ذاك إلا أنهم أحسنوا له الأعمال، فجازاهم بأحسن الجزاء، فلهذا قال: ﴿والله يحب المحسنين﴾ في عبادة الخالق ومعاملة الخلق، ومن الإحسان أن يفعل عند جهاد الأعداء، كفعل هؤلاء الموصفين^(١).

﴿١٤٩ - ١٥١﴾ ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن طغيوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾ بل الله مولاكم وهو خير الناصرين * سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ومأواهم النار وبئس مثوى الظالمين.

وهذا نهي من الله للمؤمنين أن يطيعوا الكافرين من المنافقين والمشركين، فإنهم إن أطاعوهم لم يريدوا لهم إلا الشر، وهم [قصدهم]^(٢) ردهم إلى الكفر الذي عاقبه الخيبة والخسران.

ثم أخبر أنه مولاكم وناصرهم، ففيه إخبار لهم بذلك، وبشارة بأنه سيتولى أمورهم بلطفه، ويعصمهم من أنواع الشرور.

وفي ضمن ذلك الحث لهم على اتخاذه وحده ولياً وناصراً من دون كل أحد، فمن ولايته ونصره لهم أنه وعدمه أنه سيلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب، وهو الخوف العظيم الذي يمنعه من كثير من مقاصدهم، وقد فعل تعالى.

وذلك أن المشركين - بعدما انصرفوا من وقعة «أحد» - تشاوروا بينهم، وقالوا: كيف ننصرف، بعد أن قتلنا منهم من قتلنا، وهزمناهم ولما نستأصلهم؟ فهموا بذلك، فألقى الله الرعب في قلوبهم، فانصرفوا خائبين، ولا شك أن هذا من أعظم النصر، لأنه قد تقدم أن نصر الله لعباده المؤمنين لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن يقطع

﴿١٤٦ - ١٤٨﴾ ﴿وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين﴾ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين * فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين﴾ هذا تسلية للمؤمنين، وحث على الاقتداء بهم، والفعل كفعلهم، وأن هذا أمر قد كان متقدماً، لم تنزل سنة الله جارية بذلك، فقال: ﴿وكأين من نبي﴾ أي: وكم من نبي قاتل معه ربيون كثير﴾ أي: جماعات كثيرون من أتباعهم، الذين قد ربتهم الأنبياء بالإيمان والأعمال الصالحة، فأصابهم قتل وجراح وغير ذلك.

﴿فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا﴾ أي: ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا، أي: ذلوا لعدوهم، بل صبروا وثبتوا، وشجعوا أنفسهم، ولهذا قال: ﴿والله يحب الصابرين﴾.

ثم ذكر قولهم واستنصرهم لربهم، فقال: ﴿وما كان قولهم﴾ أي: في تلك المواطن الصعبة ﴿إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا﴾ والإسراف: هو مجاوزة الحد إلى ما حرم، علموا أن الذنوب والإسراف من أعظم أسباب الخذلان، وأن التخلي منها من أسباب النصر، فسألوا ربهم مغفرتها.

ثم إنهم لم يتكلموا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا على الله، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقاته الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار، والاستنصار بربهم، لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿فاتاهم الله ثواب الدنيا﴾ من النصر والظفر

الشاكرين﴾ والشكر لا يكون إلا بالقيام بعبودية الله تعالى في كل حال. وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يزعزعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه، فقد رئيس ولو عظم، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناس من أهل الكفاءة فيه، إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنين قصدهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم.

وفي هذه الآية أيضاً أعظم دليل على فضيلة الصديق الأكبر أبي بكر، وأصحابه الذين قاتلوا المرتدين بعد رسول الله ﷺ، لأنهم هم سادات الشاكرين.

ثم أخبر تعالى أن النفوس جميعها متعلقة بأجالاتها بإذن الله وقدره وقضائه، فمن حُتم عليه بالقدر أن يموت، مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقاءه، فلو أتى^(٣) من الأسباب كل سبب، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله، وذلك أن الله قضاه وقدره وكتبه إلى أجل مسمى: ﴿إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾.

ثم أخبر تعالى أنه يعطي الناس من ثواب الدنيا والآخرة ما تعلقت به إراداتهم، فقال: ﴿ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها﴾.

قال الله تعالى: ﴿كلأ نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً.

﴿وسنجزي الشاكرين﴾ ولم يذكر جزاءهم ليدل ذلك على كثرتهم وعظمتهم، وليعلم أن الجزاء على قدر الشكر، قلة وكثرة وحسناً.

طرفاً من الذين كفروا، أو يكبتهم
فيقبلوا خائنين، وهذا من الثاني.

﴿منكم من يريد الدنيا﴾ وهم الذين
أوجب لهم ذلك ما أوجب، ﴿ومنكم
من يريد الآخرة﴾ وهم الذين لزموا أمر
رسول الله ﷺ وابتوا حيث أمروا.

﴿ثم صرفكم عنهم﴾ أي: بعدما
وجدت هذه الأمور منكم، صرف الله
وجوهكم عنهم، فصار الوجه
لعدوكم، ابتلاء من الله لكم وامتحاناً،
ليبين المؤمنين من الكافر، والطائع من
العاصي، وليكفر الله عنكم بهذه
المصيبة ما صدر منكم، فلماذا قال:
﴿ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على
المؤمنين﴾ أي: ذو فضل عظيم عليهم،
حيث من عليهم بالإسلام، وهداهم
لشراعتهم، وعفا عنهم سيئاتهم، وأثابهم
على مصيبتهم.

ومن فضله على المؤمنين أنه لا يقدر
عليهم خيراً ولا مصيبة، إلا كان خيراً
لهم. إن أصابتهم سراء فشكروا
جازاهم جزاء الشاكرين، وإن أصابتهم
ضراء فصبروا، جازاهم جزاء
الصابرين.

﴿١٥٣ - ١٥٤﴾ ﴿إذ تصعدون
ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم
في أخراكم فأثابكم غمًا بغم لكيلا
تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم
والله خبير بما تعملون﴾ ثم أنزل
عليكم من بعد الغم أمانة ناعساً يغشى
طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم
يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية
يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل
إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما
لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من
الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم في
بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل
إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في
صدوركم ولیمحص ما في قلوبكم
والله عليم بذات الصدور يذكركم
تعالى حالهم في وقت انهزامهم عن
القتال، ويعاتبهم على ذلك، فقال:
﴿إذ تصعدون﴾ أي: تجذون في الهرب
﴿ولا تلوون على أحد﴾ أي: لا يلوي
أحد منكم على أحد، ولا ينظر إليه،
بل ليس لكم هم إلا الفرار والنجاء عن

ثم ذكر السبب الموجب للإلقاء
الربع في قلوب الكافرين، فقال:
﴿بما أشركوا بالله ما لم ينزل به
سلطاناً﴾ أي: ذلك بسبب ما اتخذوا
من دونه من الأنداد والأصنام، التي
اتخذوها على حسب أهوائهم وإرادتهم
الفسادة، من غير حجة ولا برهان،
وانقطعوا من ولاية الواحد الرحمن،
فمن ثم كان المشرك مرعوباً من
المؤمنين، لا يعتمد على ركن وثيق،
وليس له ملجأ عند كل شدة وضيق،
هذا حاله في الدنيا، وأما في الآخرة
فأشد وأعظم، ولهذا قال: ﴿وماوهم
النار﴾ أي: مستقرهم الذي يأوون إليه
وليس لهم عنها خروج، ﴿ويش مثوى
الظالمين﴾ بسبب ظلمهم وعدوانهم
صارت النار مثواهم.

﴿١٥٢﴾ ﴿ولقد صدقكم الله وعده
إذ تحسبونهم بإذنه حتى إذا فشلتم
وتنازعتم في الأمر وعصيت من بعد ما
أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا
ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم
عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو
فضل على المؤمنين﴾ أي: ﴿ولقد
صدقكم الله وعده﴾ بالنصر، فنصركم
عليهم، حتى ولوكم أكتافهم، وطفقت
فيهم قتلاً، حتى صرتم سبباً
لأنفسكم، وعونا لأعدائكم عليكم،
فلما حصل منكم الفشل وهو الضعف
والخور ﴿وتنازعتم في الأمر﴾ الذي فيه
ترك أمر الله بالائتلاف وعدم
الاختلاف، فاختلتم، فمن قائل نقيم
في مركزنا الذي جعلنا فيه النبي ﷺ
ومن قائل: ما مقامنا فيه وقد انهزم
العدو، ولم يبق محذور، فعصيت
الرسول، وتركت أمره من بعد ما
أراكم الله ما تحبون وهو انخذال
أعدائكم؛ لأن الواجب على من
أنعم الله عليه بما أحب، أعظم من
غيره.

فالواجب في هذه الحال خصوصاً،
وفي غيرها عموماً، امتثال أمر الله

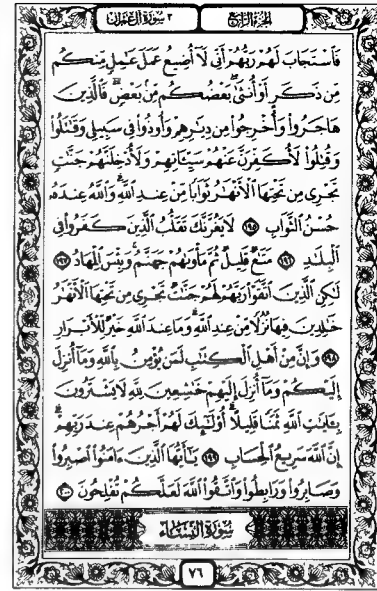
وَلَيْسَ شَرُّ أَوْقَاتٍ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ
أَقُولُ لَكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ قَطَا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَمْسَا
مِنْ حَرْكٍ مَا عَافَ عَنْهُمْ وَاسْتَفْرَغَ وَسَارِقِي الْأَرْضِ
فَأَعَزَّتْ وَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ يُخَوِّضُ الْمُؤْمِنِينَ
يَعْرِضُ عَنْهُ لَعَلَّ لَكُمْ وَانْصَرَفَ لَكُمْ وَالَّذِي يَسْتَرْ
مِنْ بَيْتِهِمْ عَلَى اللَّهِ يَتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ وَمَا كَانَ
لِيَبَى أَنْ يَدُلَّ وَمَنْ يَدُلَّ يَأْتِ بِمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَوَفَّا
نَفْسَ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ أَفَتَى اتَّعَى رَسُولُ
اللَّهِ نَبَاً يَحْطَرُونَ اللَّهُ وَمَا وَدَّ اللَّهُ وَيَسِّرُ الْقَبِيرُ
هُم رَحِمَ عَدُوَّهُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ
لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ
أَنْفُسِهِمْ تَتْلُو آيَاتِهِمْ بِإِذْنِهِمْ وَكَفَّ عَنْهُمْ وَبَقِيَ الْكُفْرُ
وَالْكُفْرَةُ وَإِنْ كُنَّا مِنْ قَوْلٍ مَسْئَلٍ فَيُسَبِّحُ
أَوَّلًا آمَنَ كَرِهِيَةً قَدْ آمَنَ مِنْهَا فَاتَّقُوا اللَّهَ هَذَا
قَدْ مَوَّنَ عِدَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

القتال.

والحال أنه ليس عليكم خطر كبير،
إذ لستم آخر الناس مما يلي الأعداء،
وبياشر الهيجاء، بل ﴿الرسول
يدعوكم في أخراكم﴾ أي: مما يلي
القوم يقول: ﴿إلي عباد الله﴾، فلم
تلتفتوا إليه، ولا عرجتم عليه، فالفرار
نفسه موجب للوم، ودعوة الرسول
الموجة لتقديمه على النفس، أعظم لوماً
بتخلفكم عنها، ﴿فأثابكم﴾ أي:
جازاكم على فعلكم ﴿غمًا بغم﴾ أي:
غمًا يتبع غمًا، غم بفوات النصر
وفوات الغنمة، وغم بانهزامكم، وغم
أنساكم كل غم، وهو سماعكم أن
محمدًا ﷺ قد قتل.

ولكن الله - بلطفه وحسن نظره
لعباده - جعل اجتماع هذه الأمور
لعباده المؤمنين خيراً لهم، فقال:
﴿لكيلا تحزنوا على ما فاتكم﴾ من
النصر والظفر، ﴿ولا ما أصابكم﴾ من
الهزيمة والقتل والجراح، إذا تحققت أن
الرسول ﷺ لم يقتل هانت عليكم تلك
المصيبات، واعتبطتم بوجوده المسلي
عن كل مصيبة ومحنة، فله ما في ضمن
البلايا والمحن من الأسرار والحكم،
وكل هذا صادر عن علمه وكمال خبرته
بأعمالكم، وظواهركم وبواطنكم،
ولهذا قال: ﴿والله خبير بما
تعملون﴾

ويحتمل أن معنى قوله: ﴿لكيلا



حيث من عليهم بالتوفيق للخروج بهذه الحالة والالتكال على ربهم، ثم إنه قد كتب لهم أجر غزاة تامة، فبسبب إحسانهم بطاعة ربهم، وتقواهم عن معصيته، لهم أجر عظيم، وهذا فضل الله عليهم ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخُوفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي: إن ترهيب من رهب من المشركين، وقال: إنهم جمعوا لكم، داع من دعاة الشيطان، يخوف أولياءه الذين غدم إيمانهم، أو ضعف. ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ خَافُوا الشَّرَّكَ أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ، فَإِنْ نَوَّاصِيَهُمْ بِيَدِ اللَّهِ، لَا يَتَصَرَّفُونَ إِلَّا بِقُدْرِهِ، بَلْ خَافُوا اللَّهَ الَّذِي يَنْصُرُ أَوْلِيَاءَهُ الْخَائِفِينَ مِنْهُ﴾ (١) المستجيبين لدعوته.

وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله.

﴿١٧٦ - ١٧٧﴾ ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِظًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرروا الله شيئاً ولهم عذاب اليم كان النبي ﷺ حريصاً على الخلق، مجتهداً في هدايتهم، وكان يحزن إذا لم يهتدوا، قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ من شدة رغبته فيهم، وحرصهم عليه ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ فالله ناصر دينه، ومؤيد رسوله، ومنفذ أمره من دونهم، فلا تبالهم ولا تحفل بهم، إنما يضررون ويسعون في ضرر أنفسهم، بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الآخرة، من هوانهم على الله وسقوطهم من عينه، وإرادته أن لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة من ثوابه. خذلهم فلم يوفقهم لما وفق له

به، وهو: نعمة ربهم، وفضله، وإحسانه، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَضِيعُ أَجْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بل ينميهم ويشكره، ويزيده من فضله، ما لا يصل إليه سعيهم.

وفي هذه الآيات إثبات نعيم البرزخ، وأن الشهداء في أعلى مكان عند ربهم، وفيه تلاقي أرواح أهل الخير، وزيارة بعضهم بعضاً، وتبشير بعضهم بعضاً.

﴿١٧٢ - ١٧٥﴾ ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ﴿فَاتَّقِلُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴿لَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَحَدِ الْمَدِينَةِ، وَسَمِعَ أَنَّ أَبَا سَفْيَانَ وَمِنْ مَعَهُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ هَمُّوا بِالرَّجُوعِ إِلَى الْمَدِينَةِ، نَدَبَ أَصْحَابَهُ إِلَى الْخُرُوجِ، فَخَرَجُوا - عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الْجِرَاحِ - اسْتِجَابَةَ اللَّهِ وَلِرَسُولِهِ، وَطَاعَةَ اللَّهِ وَلِرَسُولِهِ، فَوَصَلُوا إِلَى «مِرَاءِ الْأَسَدِ»، وَجَاءَهُمْ مِنْ جَاءِهِمْ وَقَالَ لَهُمْ: ﴿إِنْ النَّاسُ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ - وَهَمُّوا بِاسْتِصَالِكُمْ، تَخَوُّفًا لَهُمْ وَتَرْهِيبًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا بِاللَّهِ وَاتِّكَالًا عَلَيْهِ.﴾

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ أي: كافينا كل ما أمنا ﴿وَنَعْمَ الْوَكِيلُ﴾ المفوض إليه تدبير عباده، والقائم بمصالحهم. ﴿فَاتَّقِلُوا﴾ أي: رجعوا ﴿بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾. وجاء الخبر المشركين أن الرسول وأصحابه قد خرجوا إليكم، وندم من تخلف منهم، فألقى الله الرعب في قلوبهم، واستمروا راجعين إلى مكة، ورجع المؤمنون بنعمة من الله وفضل،

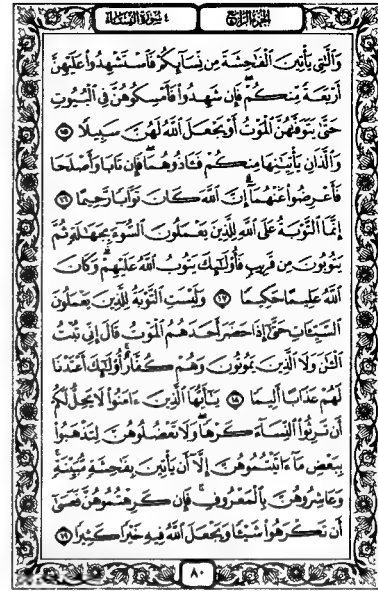
الذي يحذر من فواته، من جبن عن القتال، وزهد في الشهادة. ﴿بَلْ قَدْ حَصَلَ لَهُمْ أَعْظَمُ مِمَّا يَتَنَافَسُ فِيهِ الْمُتَنَافِسُونَ. فَهُمْ «أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» فِي دَارِ كَرَامَتِهِ.

ولفظ: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يقتضي علو درجتهم، وقربهم من ربهم، ﴿يُرْزَقُونَ﴾ من أنواع النعيم الذي لا يعلم وصفه، إلا من أنعم به عليهم، ومع هذا ﴿فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: مغتبطين بذلك، قد قرت به عيونهم، وفرحت به نفوسهم، وذلك لحسنه وكثرته، وعظمتها، وكمال اللذة في الوصول إليه، وعدم المنغص، فجمع الله لهم بين نعيم البدن بالرزق، ونعيم القلب والروح بالفرح بما آتاهم من فضله: فتم لهم (١) النعيم والسرور، وجعلوا يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴿أَي: يَبْشُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، بِوَصُولِ إِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ، وَأَنَّهُمْ سَيَنَالُونَ مَا نَالُوا، «أَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» أَي: يستبشرون بزوال المحذور عنهم وعن إخوانهم المستلزم كمال السرور، ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ أَي: يبنئ بعضهم بعضاً، بأعظم منها

(١) في النسختين: فتم له.

(٢) في النسختين: الخائفين له، ولعل الأقرب ما أثبت.

ويدخل في هذه الآية الكريمة أهل الكتاب الذين فرحوا بما عندهم من العلم، ولم ينقادوا للرسول، وزعموا أنهم هم المحقون في حالهم ومقالتهم، وكذلك كل من ابتدع بدعة قولية أو فعلية، وفرح بها، ودعا إليها، وزعم



أنه حق وغيره مبطل، كما هو الواقع من أهل البدع.

ودلت الآية بمفهومها على أن من أحب أن يحمّد ويثنى عليه بما فعله من الخير واتباع الحق، إذا لم يكن قصده بذلك الرياء والسمعة، أنه غير مذموم، بل هذا من الأمور المطلوبة، التي أخبر الله أنه يجزي بها المحسنين له الأعمال والأقوال، وأنه جازى بها خواص خلقه، وسألوها منه، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ وقال: ﴿سلام على نوح في العالمين﴾، إنا كذلك نجزي المحسنين، وقد قال عباد الرحمن: ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾ وهي من نعم الباري على عبده، ومنه التي تحتاج إلى الشكر.

﴿١٨٩﴾ ولله ملك السماوات والأرض والله على كل شيء قدير. أي: هو المالك للسماوات والأرض وما فيها، من سائر أصناف الخلق، المتصرف فيهم بكمال القدرة، وبديع الصنعة، فلا يمتنع عليه منهم أحد، ولا يعجزه أحد.

﴿١٩٠ - ١٩٤﴾ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آياتٍ لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقتنا

عذاب النار * ربنا إنك من تدخل النار فقد أجزيت به وما للظالمين أن نصار * ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنّا ربنا فافقر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار * ربنا وآتينا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد * يخبر تعالى: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آياتٍ لأولي الألباب﴾ وفي ضمن ذلك حث العباد على التفكير فيها، والتبصر بآياتها، وتدبر خلقها، وأهم قوله: ﴿آيات﴾ ولم يقل: «على المطلب الفلاني» إشارة لكثرتها وعمومها، وذلك لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهّر الناظرين، ويقنع المتفكرين، ويجذب أفئدة الصادقين، وينبه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية، فأما تفصيل ما اشتملت عليه، فلا يمكن لمخلوق أن يحصره، ويحيط ببعضه، وفي الجملة فما فيها من العظمة والسعة، وانتظام السير والحركة، يدل على عظمة خالقها، وعظمة سلطانه وشمول قدرته. وما فيها من الأحكام والإتقان، وبديع الصنع، ولطائف الفعل، يدل على حكمة الله ووضع الأشياء مواضعها، وسعة علمه. وما فيها من المنافع للخلق، يدل على سعة رحمة الله، وعموم فضله، وشمول بره، ووجوب شكره.

وكل ذلك يدل على تعلق القلب بخالقها ومبدعها، وبذل الجهد في مرضاته، وأن لا يشرك به سواه، فمن لا يملك لنفسه ولا لغيره مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

وخص الله بالآيات أولي الألباب، وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المتفكرون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم.

ثم وصف أولي الألباب بأنهم ﴿يذكرون الله﴾ في جميع أحوالهم: قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم. وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، فإن لم

يستطع فعلى جنب، وأنهم ﴿يتفكرون في خلق السماوات والأرض﴾ أي: ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكير عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها، عرفوا أن الله لم يخلقها عبثاً، فيقولون: ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه﴾ عن كل ما لا يليق بجلالك، بل خلقتها بالحق وللحق، مشتملة على الحق.

﴿فقتنا عذاب النار﴾ بأن تعصنا من السيئات، وتوفنا للأعمال الصالحات، لننال بذلك النجاة من النار.

ويتضمن ذلك سؤال الجنة، لأنهم إذا وقاهم الله عذاب النار حصلت لهم الجنة، ولكن لما قام الخوف بقلوبهم، دعوا الله بأهم الأمور عندهم، ﴿ربنا إنك من تدخل النار فقد أجزيت به﴾ أي: لحصوله على السخط من الله، ومن ملأته، وأوليائه، ووقوع الفضيحة التي لا نجاة منها، ولا منقذ منها، ولهذا قال: ﴿وما للظالمين أن نصار﴾ ينقذونهم من عذابه، وفيه دلالة على أنهم دخلوها بظلمهم.

﴿ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان﴾ وهو محمد ﷺ، أي: يدعو الناس إليه، ويرغبهم فيه، في أصوله وفروعه.

﴿فآمنّا﴾ أي: أجبناه بمبادرة، وسارعنا إليه، وفي هذا إخبار منهم بمنة الله عليهم، وتبجح بنعمته، وتوسل إليه بذلك، أن يغفر ذنوبهم ويكفر سيئاتهم، لأن الحسنات يذهبن السيئات، والذي من عليهم بالإيمان، سيمن عليهم بالأمان التام.

﴿وتوفنا مع الأبرار﴾ يتضمن هذا الدعاء التوفيق لفعل الخير، وترك الشر، الذي به يكون العبد من الأبرار، والاستمرار عليه، والثبات إلى المات.

ولما ذكروا توفيق الله إياهم للإيمان، وتوسلهم به إلى تمام النعمة، سألوه الثواب على ذلك، وأن ينجز لهم ما وعدهم به على السنة رسله من النصر، والظهور في الدنيا، ومن الفوز

على ذلك. والزوجات والقيام به، لكون الزوجات

مخلوقات من الأزواج، فبينهم وبينهن أقرب نسب وأشد اتصال، وأقرب^(١) علاقة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾، هذا أول ما أوصى به من حقوق الخلق في هذه السورة. وهم اليتامى الذين فقدوا آباءهم الكافلين^(٢) لهم، وهم صغار ضعاف لا يقومون بمصالحهم.

فأمر الرؤوف الرحيم عباده أن يحسنوا إليهم، وأن لا يقربوا أموالهم إلا بالتي هي أحسن، وأن يؤتوهم أموالهم إذا بلغوا ورشدوا، كاملة موفرة، وأن لا «تتبدلوا الخبيث» الذي هو أكل مال اليتيم بغير حق. «بالطيب» وهو الحلال الذي ما فيه حرج ولا تبعة. «ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم» أي: مع أموالكم، ففيه تنبيه لقبح أكل مالهم بهذه الحالة، التي قد استغنى بها الإنسان بما جعل الله له من الرزق في ماله. فمن تجرأ على هذه الحالة، فقد أتى «حوباً كبيراً» أي: إنمأ عظيماً، ووزراً جسيماً.

ومن استبدال الخبيث بالطيب أن يأخذ الولي من مال اليتيم النفيس، ويجعل بدله من ماله الخسيس. وفيه الولاية على اليتيم، لأن من لازم إيتاء اليتيم ماله، ثبوت ولاية المؤتي على ماله.

وفي الأمر بإصلاح مال اليتيم، لأن تمام إيتائه ماله حفظه، والقيام به بما يصلحه وينمي، وعدم تعريضه للمخاوف والأخطار.

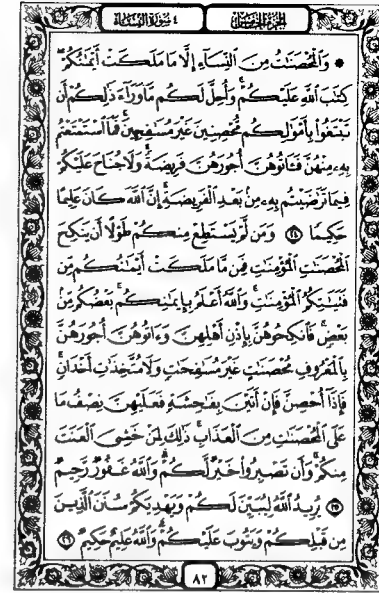
﴿٣-٤﴾ «وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعملوا * وآتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء

وبيّن السبب الداعي الموجب لكل من ذلك، وأن الموجب لتقواه لأنه «ربكم الذي خلقكم» ورزقكم، ورباكم بنعمه العظيمة، التي من جللتها خلقكم «من نفس واحدة» وخلق منها زوجها «ليناسبها، فيسكن إليها، وتتم بذلك النعمة، ويحصل به السرور، وكذلك من الموجب الداعي لتقواه تساؤلكم به وتعظيمكم، حتى إنكم إذا أردتم قضاء حاجاتكم ومآربكم، توسلتم لها بالسؤال بالله. فيقول من يريد ذلك لغيره: أسألك بالله أن تفعل الأمر الفلاني؛ لعلمه بما قام في قلبه من تعظيم الله الداعي أن لا يرد من سألته بالله، فكما عظمتموه بذلك فلتعظموه بعبادته وتقواه.

وكذلك الإخبار بأنه رقيب، أي: مطلع على العباد في حال حركاتهم وسكناتهم، وسرهم وعلنهم، وجميع أحوالهم، مراقباً لهم فيها بما يوجب مراقبته، وشدة الحياء منه، بلزوم تقواه.

وفي الإخبار بأنه خلقهم من نفس واحدة، وأنه بهم في أقطار الأرض، مع رجوعهم إلى أصل واحد - ليعطف بعضهم على بعض، ويرق بعضهم على بعض. وقرن الأمر بتقواه بالأمر ببر الأرحام والنهي عن قطيعتها، ليؤكد هذا الحق، وأنه كما يلزم القيام بحق الله، كذلك يجب القيام بحقوق الخلق، خصوصاً الأقربين منهم، بل القيام بحقوقهم هو من حق الله الذي أمر الله به، وتأمل كيف افتتح هذه السورة بالأمر بالتقوى، وصلة الأرحام والأزواج عموماً، ثم بعد ذلك فصل هذه الأمور أتم تفصيل، من أول السورة إلى آخرها. فكانها مبنية على هذه الأمور المذكورة، مفصلة لما أجل منها، موضحة لما أبهم.

وفي قوله: «وخلق منها زوجها» تنبيه على مراعاة حق الأزواج



الذي يخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم، ويمنعوهم من الوصول إلى مقاصدهم، لعلهم يفلحون: يفوزون بالمحسوب الديني والدنيوي والأخروي، وينجون من المكروه. كذلك.

فعلم من هذا أنه لا سبيل إلى الفلاح بدون الصبر والمصابرة والمراعاة المذكورات، فلم يفلح من أفلح إلا بها، ولم يفت أحداً الفلاح إلا بالإحلال بها أو ببعضها.

والله الموفق ولا حول ولا قوة إلا به.

تم تفسير «سورة آل عمران» والحمد لله على نعمته، ونسأله تمام النعمة.

تفسير سورة النساء وهي مدنية

﴿١﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً» افتتح تعالى هذه السورة بالأمر بتقواه، والحث على عبادته، والأمر بصلة الأرحام، والحث

(١) في ب: وأوتق.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الذين فقدت آباؤهم الكافلون.

ولما كان كثير من الناس يظلمون النساء، ويضمونهن حقوقهن، خصوصاً الصداق الذي يكون شيئاً كثيراً، ودفعة واحدة، يشق دفعه للزوجة، أمرهم وحشهم على إيتاء النساء ﴿صدقاتهن﴾ أي: مهورهن ﴿نحلة﴾ أي: عن طيب نفس، وحال طمأنينة، فلا تظلوهن أو تبخسوا منه شيئاً. وفيه: أن المهر يدفع إلى المرأة إذا كانت مكلفة، وأنها تملكه بالعقد، لأنه أضافه إليها، والإضافة تقتضي التملك.

﴿فَإِنْ طَبِخَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ﴾
 أي: من الصداق ﴿فَنَفْسًا﴾ بأن سمحن
 لكم عن رضا واختيار بإسقاط شيء
 منه، أو تأخيرها أو المعاوضة عنه.
 ﴿فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ أي: لا حرج
 عليكم في ذلك ولا تبعة.

وفيه دليل على أن للمرأة التصرف في مالها - ولو بالتبرع - إذا كانت رشيدة، فإن لم تكن كذلك، فليس لعطيتها حكم، وأنه ليس لوليها من الصداق شيء، غير ما طابت به .

وفي قوله: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ﴾ دليل على أن نكاح الخبيثة غير مأمور به، بل منهي عنه، كالْمُشْرَكَةِ، وكالْفَاجِرَةِ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُ﴾ وقال: ﴿الزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾.

﴿٥٥﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتُوتُوا
لِلسَفِهَاءِ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ
نِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا

منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً ﴿١٠﴾ أي : وإن خفتم ألا تعدلوا في يتامى النساء اللاتي تحت حجبوركم وولايتكم، وخفتم أن لا تقوموا بحقهن لعدم محبتكم إياهن، فاعدلوا إلى غيرهن، وانكحوا ﴿١١﴾ ما طاب لكم من النساء ﴿١٢﴾ أي : ما وقع عليهن اختياركم، من ذوات الدين، والمال، والجمال، والحسب، والنسب، وغير ذلك من الصفات الداعية لنكاحهن، فاختاروا على نظركم، ومن أحسن ما يختار من ذلك صفة الدين، كما قال النبي ﷺ : «نكح المرأة لأربع : لمالها، ولجمالها، ولحسبها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يمينك» .

وفي هذه الآية - أنه ينبغي للإنسان أن يختار قبل النكاح - بل وقد أباح له الشارع النظر إلى مَنْ يريد تزوجها، ليكون على بصيرة من أمره. ثم ذكر العدد الذي أباحه من النساء فقال: ﴿مَنْ ثَلَاثٍ وَرَبَاعٌ﴾ أي: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَأْخُذَ ثَلَاثِينَ فَلْيَفْعَلْ، أَوْ ثَلَاثًا فَلْيَفْعَلْ، أَوْ أَرْبَعًا فَلْيَفْعَلْ، وَلَا يَزِيدْ عَلَيْهَا، لَأَنَّ الْآيَةَ سَبَقَتْ لِبَيَانِ الْإِئْتِمَانِ، فَلَا يَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَى غَيْرِ مَا سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى إِجْمَاعًا.

وذلك لأن الرجل قد لا تندفع شهرته بالواحدة، فأبيع له واحدة بعد واحدة، حتى يبلغ أربعاً، لأن في الأربع غنية لكل أحد، إلا ما ندر، ومع هذا فإنما يباح له ذلك إذا أمن على نفسه الجور والظلم، ووثق بالقيام بحقوقهن.

فإن خاف شيئاً من هذا، فليقتصر على واحدة، أو على ملك يمينه. فإنه لا يجب عليه القسم، في ملك اليمين. **ذلك** أي: الاقتصار على واحدة، أو ما ملكت اليمين **أدنى ألا تعولوا** أي: تظلموا.

وفي هذا أن تعرض العبد للأمر الذي يخاف منه الجور والظلم، وعدم القيام بالواجب - ولو كان مباحاً - أنه لا ينبغي له أن يتعرض له، بل يلزم السعة والعافية، فإن العافية خير ما أعطى العبد.

وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
الشُّرُوكَ أَنْ يَسْلُبُوا عَلَيْكُمْ ۖ وَاللَّهُ أَنْ يَقْبَلُ
تُوبَتَكُمْ وَيُخْلِقَ الْإِنْسَانَ مِثْلَ حَمِئَةٍ ۖ بَلَاءُ الَّذِينَ
آمَنُوا لَا تَأْتِيهِمْ إِلَّا أَمْوَالُهُمْ بِتَنكِهٍ وَأَبْلَاطٍ ۚ
أَنْ يُخَوِّفَ خِزْيَةً عَنْ خَاصِمِينَ فَتَنْكَرُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ
إِذَا تَنَكَّرَ بِكُمْ رِجْسًا ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ ذَلِكَ
عُدُوًّا وَأَعْلَامًا فَسَوْفَ يَصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ
يُسِيرًا ۖ إِنْ عَتَقْتُمْ كَبِيرًا فَتُفْعَلْ عَنْهُ عِتْقُ
عَبْدٍ مِمَّا يَتَرَبَّصُ بِكُمْ وَيُعْطَاكُمْ مِنْهُ ثَمَنًا كَرِيمًا ۖ
وَلَا تَتَّبِعُوا مَا مَاقَلَ اللَّهُ بِهِ بِفَضْلِكُمْ عَلَىٰ بَرٍّ لِقَالٍ
يُنْعِبُ مِمَّا ائْتَسَسُوا وَالنَّاسُ يَنْعِبُونَ مِمَّا آتَيْنَهُمْ
وَسَقَالُوا اللَّهُ يَنْصَلِيهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمًا ۖ وَلَيْسَ لَكُمْ جِلْسَاتُكَ وَمَا تَرَكُوا إِلَّا لِيُقَاسِمَ
الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَامُومُوا
بِمِيثَاقِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَافِظًا ۖ



استمر غير محسن للمتصرف، لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه، ولو بلغ عمراً كثيراً.

فإن تبين رشده وصلاحه في ماله وبلغ النكاح ﴿فادفعوا إليهم أموالهم﴾ كاملة موفرة. ﴿ولا تأكلوها إسرافاً﴾ أي: مجاوزة للحد الحلال الذي أباحه الله لكم من أموالكم، إلى الحرام الذي حرمه الله عليكم من أموالهم.

﴿وبإداراً أن يكبروا﴾ أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم، التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ويمنعكم منها.

وهذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء، الذين ليس عندهم خوف من الله، ولا رحمة ومحبة للمولى عليهم، يرون هذه الحال، حال فرصة، فيغتنمونها ويتعجلون ما حرم الله عليهم، فهى الله تعالى عن هذه الحالة بخصوصها.

﴿٧﴾ ﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً﴾ كان العرب في الجاهلية - من جبروتهم ^(١) وقسوتهم،

لا يورثون الضعفاء، كالنساء والصبيان، ويجعلون الميراث للرجال الأقوياء، لأنهم - بزعمهم - أهل الحرب والقتال، والنهب والسلب، فأراد الرب الرحيم الحكيم أن يشرع لعباده شرعاً، يستوي فيه رجالهم ونسأؤهم، وأقويأؤهم وضعفاؤهم. وقدم بين يدي ذلك أمراً مجملًا، لتوطن على ذلك النفوس.

فيأتي التفصيل بعد الإجمال، قد تشوفت له النفوس، وزالت الوحشة التي منشؤها العادات القبيحة، فقال: ﴿للرجال نصيب﴾ أي: قسط وحصّة ﴿مما ترك﴾ أي: خلف ﴿الوالدان﴾ أي: الأب والأم ﴿والأقربون﴾ عموم بعد خصوص وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون.

فكانه قيل: هل ذلك النصيب راجع إلى العرف والعادة، وأن يرضخوا لهم ما يشاؤون؟ أو شيئاً مقدراً؟ فقال تعالى: ﴿نصيباً مفروضاً﴾ أي: قد قدره العليم الحكيم. وسيأتي - إن شاء الله - تقدير ذلك.

وأيضاً فهنا توهم آخر، لعل أحداً يتوهم أن النساء والولدان ليس لهم نصيب إلا من المال الكثير، فأزال ذلك بقوله: ﴿مما قل منه أو كثر﴾ فتبارك الله أحسن الحاكمين.

﴿٨﴾ ﴿وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً﴾ وهذا من أحكام الله الحسنة الجليلة الجابرة للقلوب، فقال: ﴿وإذا حضر القسمة﴾ أي: قسمة الموارث ﴿أولو القربى﴾ أي: الأقارب غير الوارثين، بقريته قوله: ﴿القسمة﴾ لأن الوارثين من المقسوم عليهم. و﴿اليتامى والمساكين﴾ أي: المستحقون من الفقراء. ﴿فارزقوهم منه﴾ أي: أعطوهم ما تيسر من هذا المال الذي جاءكم بغير كد ولا تعب، ولا عناء ولا نصب، فإن نفوسهم متشوفة إليه، وقلوبهم

متطلعة، فاجبروا خواطرهم بما لا يضرهم وهو نافعهم. ويؤخذ من المعنى أن كل من له تطلع وتشوف إلى ما حضر بين يدي الإنسان، ينبغي له أن يعطيه منه ما تيسر، كما كان النبي ﷺ يقول: «إذا جاء أحدكم خادمه بطعامه فليجلسه معه، فإن لم يجلسه معه، فليناوله لقمه أو لقمتين» أو كما قال.

وكان الصحابة رضي الله عنهم - إذا بدأت باكورة أشجارهم - أتوا بها رسول الله ﷺ، فبرك عليها، ونظر إلى أصغر وليد عنده فأعطاه ذلك، علماً منه بشدة تشوفه لذلك، وهذا كله مع إمكان الإعطاء، فإن لم يمكن ذلك - لكونه حق سفهاء، أو ثم أهم من ذلك - فليقولوا لهم قولاً معروفاً يردوهم ^(٢) رداً جميلاً، بقول حسن غير فاحش ولا قبيح.

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم فلينتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً﴾ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾ قيل: إن هذا خطاب لمن يحضر من حضره الموت وأجف في وصيته، أن يأمره بالعدل في وصيته والمساواة فيها، بدليل قوله: ﴿وليقولوا قولاً سديداً﴾ أي: سداداً، موافقاً للقسط والمعروف. وأنهم يأمرون من يريد الوصية على أولاده، بما يحبون معاملة أولادهم بعدهم.

وقيل: إن المراد بذلك أولياء السفهاء من المجانين والصغار والضعاف، أن يعاملوهم في مصالحهم الدينية والدنيوية بما يحبون أن يعامل به من بعدهم من ذريتهم الضعاف. ﴿فليتقوا الله﴾ في ولايتهم لغيرهم، أي: يعاملونهم بما فيه تقوى الله، من عدم إهانتهم، والقيام عليهم، وإلزامهم لتقوى الله.

ولما أمرهم بذلك، زجرهم عن أكل أموال اليتامى، وتوعد على ذلك أشد

فإنه غير مذكور في ذلك . لكنه قد ثبت في السنن ، عن المغيرة بن شعبة ، ومحمد بن مسلمة أن النبي ﷺ أعطى الجدة السدس ، مع إجماع العلماء على ذلك .

فقله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ أي: أولادكم - يا معشر الوالدين - عندكم ودائع قد وصاكم الله عليهم، لتقوموا بمصالحهم الدينية والدنيوية، فتعلموهم وتؤدّبوهم، وتكفّوهم عن المفسد، وتأمرُوهم بطاعة الله، وملازمة التقوى على الدوام كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ

والحجارة ﴿ فالأولاد عند والدتهم موصى بهم ، فيما أن يقوموا بتلك الوصية ، وإما أن يضعوها ، فيستحقوا بذلك الوعيد والعقاب . وهذا عما يدل على أن الله تعالى أرحم بعباده من الوالدين ، حيث أوصى الوالدين مع كمال شفقتهم ، عليهم .

ثم ذكر كيفية إرثهم فقال : ﴿ للذكر مثل حظ الأنثيين ﴾ أي : الأولاد للصلب ، والأولاد للابن ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، إن لم يكن معهم صاحب فرض ، أو ما أبقت الفروض يقتسمونه كذلك ، وقد أجمع العلماء على ذلك ، وأنه - مع وجود أولاد الصلب - فالميراث لهم . وليس لأولاد الابن شيء ، حيث كان أولاد الصلب ، ذكورا وإناثا ، هذا مع اجتماع الذكور والإناث . وهنا حالتان : انفراد الذكور ، وسيأتي حكمها . وانفراد الإناث ، وقد ذكره بقوله : ﴿ فإن كن نساء فوق اثنتين ﴾ أي : بنات صلب أو بنات ابن ، ثلاثا فأكثر ﴿ فلهن ثلثا ما ترك ، وإن كانت واحدة ﴾ أي : بنتا أو بنت ابن ﴿ فلها النصف ﴾ وهذا إجماع .

بقي أن يقال : من أين يستفاد أن للابنتين الثلثين الثلثين بعد الإجماع على ذلك ؟

فالجواب أنه يستفاد من قوله : ﴿ وإن كانت واحدة فلها النصف ﴾ فمفهوم ذلك أنه إن زادت على الواحدة ، انتقل

الفرض عن النصف، ولا ثم بعده إلا
الثلاثان. وأيضاً فقولهُ: ﴿لِلذَكَرِ مِثْلُ
حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ إذا خَلَّفَ ابناً وَبنتاً، فإن
الابن لَهُ الثَّلاثان، وقد أخبر الله أَنه مِثْلُ
حِظِّ الْأُنثِيَيْنِ، فدلَّ ذلك على أَن لِلبَنَتَيْنِ
الثَّلاثين.

وأيضاً فإن البنت إذا أخذت الثلث مع أخيها - وهو أزيد ضرراً عليها من أخذها، فأخذها له مع أختها من باب أولى وأحرى. وأيضاً فإن قوله تعالى في الأختين: ﴿فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ﴾، فلمهما الثلثان مما ترك ﴿نَصَّ فِي الْأَخْتَيْنِ الثَّلاثِينَ﴾.

فإذا كان الأختان الشنتان - مع
بعدهما - يأخذان الثلثين، فالابتنان -
مع قريهما - من باب أولى وأحرى.
وقد أعطى النبي ﷺ ابنتي سعد الثلثين
كما في الصحيح.

بقي أن يقال : فما الفائدة في قوله : ﴿فوق اثنتين﴾ ؟ قيل : الفائدة في ذلك - والله أعلم - أنه ليعلم أن الفرض الذي هو الثلثان ، لا يزيد بزيادة ثنتين على الثنتين ، بل من الثنتين فصاعداً . ودلت الآية الكريمة أنه إذا وجد بنت صلب واحدة ، وبنت ابن أو بنات ابن ، فإن لبنت الصلب النصف ، وببقي من الثلثين اللذين فرضهما الله للبنات أو بنات الابن السدس ، فيعطى بنت الابن ، أو بنات الابن ، ولهذا يسمى هذا السدس تكملة الثلثين .

بذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه،
وقد حصل على ذلك الاتفاق، والله
الحمد.

﴿فلكل واحد منهما﴾ أي: من الأخ والأخت ﴿السدس﴾ فإن كانوا أكثر من ذلك ﴿أي: من واحد فهم شركاء في الثلث﴾ أي: لا يزيدون على الثلث ولو زادوا عن اثنين. ودل قوله: ﴿فهم شركاء في الثلث﴾ أن ذكرهم وأنشأهم سواء، لأن لفظ «الشريك»^(١) يقتضي التسوية.

ودل لفظ «الكلالة» على أن الفروع وإن نزلوا، والأصول الذكور وإن علوا، يسقطون أولاد الأم، لأن الله لم يورثهم إلا في الكلالة، فلو لم يكن يورث كلالة، لم يرثوا منه شيئاً اتفاقاً.

ودل قوله: ﴿فهم شركاء في الثلث﴾ أن الإخوة الأشقاء يسقطون في المسألة المسماة بالحمارية. وهي: زوج، وأم، وإخوة لأم، وإخوة أشقاء. للزوج النصف. وللأم السدس، وللإخوة لأم الثلث، ويسقط الأشقاء، لأن الله أضاف الثلث للإخوة من الأم، فلو شاركهم الأشقاء لكان جمعاً لما فرق الله حكمه. وأيضاً فإن الإخوة لأم أصحاب فروض، والأشقاء عصباء. وقد قال النبي ﷺ: «الحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فلأولى رجل ذكر». وأهل الفروض هم الذين قدر الله أنصباهم، ففي هذه المسألة لا يبقى بعدهم شيء، فيسقط الأشقاء، وهذا هو الصواب في ذلك.

وأما ميرات الإخوة والأخوات
الأسقاء أو لأب، فمذكور في قوله:
﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي
الْكَلَالَةِ﴾ الآية.

فالأخت الواحدة شقيقة أو لأب لها النصف، والشتان لهما الثلثان، والشقيقة الواحدة مع الأخت للأب، أو الأخوات، تأخذ النصف والباقي

وأما الوصية فإنها تصح من الثلث فأقل، للأجنبي الذي هو غير وارث. وأما غير ذلك فلا ينفذ إلا بإجازة الورثة، قال تعالى: ﴿أبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيْمَنُ لَهُمْ لَكُمْ نَفْعًا﴾.

فلورد تقدير الإرث إلى عقولكم واختياركم لحصل من الضرر ما الله به عليم، لنقص العقول وعدم معرفتها بما هو اللائق الأحسن، في كل زمان ومكان. فلا يدرون أي: الأولاد أو الوالدين أنفع لهم وأقرب، لحصول مقاصدهم الدينية والدنيوية.

﴿فريضة من الله إن الله كان عليماً
حكيماً﴾ أي: فرضها الله الذي قد
أحاط بكل شيء علماً، وأحكم ما
شرعه، وقدر ما قدره على أحسن
تقدير، لا تستطيع العقول أن تقترح
مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان
ومكان وحال.

ثم قال تعالى: ﴿ولكم﴾ أيها الأزواج «نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين، ولهبن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهن الثلثين مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين».

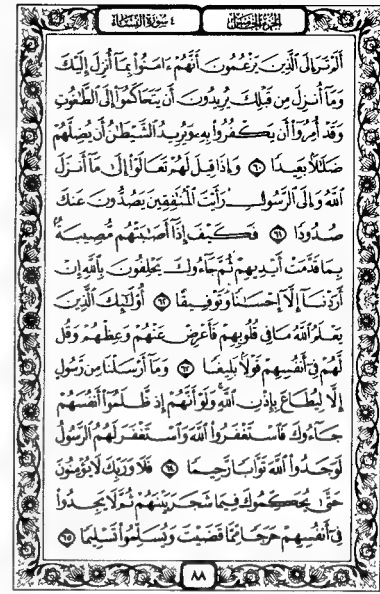
ويدخل في مسمى الولد المشروط وجوده أو عدمه، ولد الصلب أو ولد الابن الذكر والأنثى، الواحد والمتعدد، الذي من الزوج أو من غيره، ويخرج عنه ولد البنات إجماعاً.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ
يُورِثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتُ
أَيُّ: من أم، كما هي في بعض
القراءات. وأجمع العلماء على أن المراد
بالإخوة هنا الإخوة للأُم، فإذا كان
يُورث كَلَالَةً أَي: ليس للميت والد ولا
ولد أَي: لا أب ولا جد ولا ابن ولا
ابن ابن ولا بنت، ولا بنت ابن وإن
نزلوا. وهذه هي الكَلَالَة، كما فسرنا

(١) في ب: الشريك.

(٢) في النسختين أخوات الأب، والصواب - والله أعلم - ما أثبتته، وظاهر أنه سبق قلم.

(٣) في الأصل: لموروثه.



رتب عليه الإرث. فعلم من ذلك أن القتل أكبر مانع يمنع الميراث، ويقطع الرحم الذي قال الله فيه: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾. مع أنه قد استقرت القاعدة الشرعية أن «من استعجل شيئاً قبل أوانه عوقب بحرمانه».

وبهذا ونحوه يعرف أن المخالف لدين الموروث لا إرث له، وذلك أنه قد تعارض الموجب الذي هو اتصال النسب الموجب للإرث، والمانع الذي هو المخالفة في الدين، الموجبة للمباينة من كل وجه، فقوي المانع، ومنع موجب الإرث الذي هو النسب، فلم يعمل الموجب لقيام المانع. يوضح ذلك أن الله تعالى قد جعل حقوق المسلمين أولى من حقوق الأقارب الكفار الدنيوية، فإذا مات المسلم انتقل ماله إلى من هو أولى وأحق به. فيكون قوله تعالى: ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله﴾ إذا تفقت أديانهم، وأما مع تباينهم، فالأخوة الدينية مقدمة على الأخوة النسبية المجردة.

قال ابن القيم في «جلاء الأفهام»: «وتأمل هذا المعنى في آية الموارث، وتعليقه سبحانه التوارث فيها بلفظ الزوجة، دون المرأة، كما في قوله

تعالى: ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم﴾. إيداناً بأن هذا التوارث إنما وقع بالزوجة المقتضية للتشاكل والتناسب، والمؤمن والكافر لا تشاكل بينهما ولا تناسب، فلا يقع بينهما التوارث. وأسرار مفردات القرآن ومركباته فوق عقول العالمين»^(١) [انتهى].

وأما (الرفيق) فإنه لا يرث ولا يرث، أما كونه لا يرث فواضح، لأنه ليس له مال يرث عنه، بل كل ما معه فهو لسيده. وأما كونه لا يرث، فلأنه لا يملك، فإنه لو ملك لكان لسيده، وهو أجنبي من الميت، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿لذكر مثل حظ الأنثيين﴾ - ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم﴾ - ﴿لكل واحد منهما السدس﴾ ونحوها، لمن يتأتى منه التملك، فأما الرفيق فلا يتأتى منه ذلك، فعلم أنه لا ميراث له. وأما من بعضه حر وبعضه رقيق، فإنه تتبعض أحكامه. فما فيه من الحرية يستحق بها مارتبه الله في الموارث، لكون ما فيه من الحرية قابلاً للتملك، وما فيه من الرق فليس يقابل لذلك، فإذا يكون البعض، يرث ويورث، ويجب بقدر ما فيه من الحرية. وإذا كان العبد يكون محموداً مذموماً، مثاباً ومعاقباً، بقدر ما فيه من موجبات ذلك، فهذا كذلك. وأما (الخنثى) فلا يغلو إما أن يكون واضحاً ذكوريته أو أنوثيته، أو مشكلاً. فإن كان واضحاً فالأمر فيه واضح.

إن كان ذكراً فله حكم الذكور، ويشمله النص الوارد فيهم. وإن كان أنثى فله حكم الإناث، ويشملها النص الوارد فيهن. وإن كان مشكلاً، فإن كان الذكر والأنثى لا يختلف إرثهما - كالإخوة للأُم - فالأمر فيه واضح، وإن كان يختلف إرثه بتقدير ذكوريته وبتقدير أنوثيته، ولم يبق لنا طريق إلى العلم بذلك، لم نعطه أكثر التقديرين.

لاحتمال ظلم من معه من الورثة، ولم نعطه الأقل، لاحتمال ظلمنا له. فوجب التوسط بين الأمرين، وسلوك أعدل الطريقتين، قال تعالى: ﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ وليس لنا طريق إلى العدل في مثل هذا أكثر من هذا الطريق المذكور. و﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ فاتفقوا الله ما استطعتم.

وأما (ميراث الجد) مع الإخوة الأشقاء أو لأب، وهل يرثون معه أم لا؟ فقد دل كتاب الله على قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأن الجد يحجب الإخوة أشقاء أو لأب أو لأُم، كما يحجبهم الأب.

وبيان ذلك: أن الجد أب في غير موضع من القرآن، كقوله تعالى: ﴿إذ حضر يعقوب الموت، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسحاق﴾ الآية. وقال يوسف عليه السلام: ﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾. فسمى الله الجد وجد الأب أباً. فدل ذلك على أن الجد بمنزلة الأب، يرث ما يرثه الأب، ويحجب من يحجب.

وإذا كان العلماء قد أجمعوا على أن الجد حكمه حكم الأب عند عدمه في ميراثه مع الأولاد وغيرهم، من بني الإخوة والأعمام وبنينهم، وسائر أحكام^(٢) الموارث، فينبغي أيضاً أن يكون حكمه حكمه في حجب الإخوة لغير أم.

وإذا كان ابن الابن بمنزلة ابن الصلب، فلم لا يكون الجد بمنزلة الأب؟ وإذا كان جد الأب مع ابن الأخ، قد اتفق العلماء على أنه يحجب. فلم لا يحجب جد الميت أخاه؟ فليس مع من يرث الإخوة مع الجد، نص ولا إشارة، ولا تنبيه ولا قياس صحيح.

وأما مسائل (الغول) فإنه يستفاد حكمها من القرآن، وذلك أن الله تعالى قد فرض وقدر لأهل الموارث أنصبا،

(٢) كذا في ب، وفي أ: الأحكام.

(١) في ب: العاقلين.



على حقه، يدخل في هذا التعدي، مع قوله ﷺ: «لا وصية لوارث». ثم ذكر طاعة الله ورسوله ومعصيتهما عموماً، ليدخل في العموم لزوم حدوده في الفرائض، أو ترك ذلك، فقال: «ومَن يطع الله ورسوله» بامثال أمرها الذي أعظمه طاعتها في التوحيد، ثم الأوامر على اختلاف درجاتها، واجتناب نهيمها الذي أعظمه الشرك بالله، ثم المعاصي على اختلاف طبقاتها «يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها». فمن أدى الأوامر، واجتنب النواهي، فلا بد له من دخول الجنة والنجاة من النار. «وذلك الفوز العظيم» الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه، والفوز بشوابه ورضوانه بالتعميم المقيم الذي لا يصفه الواصفون.

«ومَن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين» ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي، فلا يكون فيها شبهة للخوارج القائنين بكفر أهل المعاصي فإن الله تعالى رتب دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله. ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب.

ومَن عصى الله ورسوله معصية تامة، يدخل فيها الشرك فما دونه،

دخل النار وخلد فيها، ومَن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية. وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد، غير مغلدين في النار، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها.

﴿١٥ - ١٦﴾ «واللاتي يأتين الفاحشة من نساءكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً» * واللذان يأتينا منكم فأذوها فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً» أي: النساء «اللاتي يأتين الفاحشة لشانعتها وقبحها.

«فاستشهدوا عليهن أربعة منكم» أي: من رجالكم المؤمنين العدول. «فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت» أي: احبسوهن عن الخروج الموجب للريبة، وأيضاً فإن الحبس من جملة العقوبات «حتى يتوفاهن الموت» أي: هذا منتهى الحبس. «أو يجعل الله لهن سبيلاً» أي: طريقاً غير الحبس في البيوت، وهذه الآية ليست منسوخة، وإنما هي مغلية إلى ذلك الوقت، فكان الأمر في أول الإسلام كذلك، حتى جعل الله لهن سبيلاً، وهو رجم المحصن وجلد غير المحصن.

﴿و﴾ كذلك «اللذان يأتيناها» أي: الفاحشة «منكم» من الرجال والنساء «فأذوها» بالقول والتوبيخ والتعيير، والضرب الرادع عن هذه الفاحشة، فعلى هذا يكون الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون، والنساء يحبسن ويؤذين.

فالحبس غاية به الموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح، ولهذا قال: «فإن تابا» أي: رجعا عن الذنب الذي فعلاه وندما عليه، وعزما على أن لا يعودا «وأصلحا» العمل الدال على صدق التوبة «فأعرضوا عنهما» أي: عن أذاهما «إن الله كان

تواباً رحيماً» أي: كثير التوبة على المذنبين الخطائين، عظيم الرحمة والإحسان، الذي - من إحسانه - وفقههم للتوبة وقبلها منهم، وسامحهم عن ما صدر منهم.

ويؤخذ من هاتين الآيتين أن بينة الزنا، لا بد أن تكون أربعة رجال مؤمنين، ومن باب أولى وأحرى اشتراط عدالتهم؛ لأن الله تعالى شدد في أمر هذه الفاحشة، ستراً لعباده، حتى إنه لا يقبل فيها النساء مفردات، ولا مع الرجال، ولا ما دون أربعة.

ولا بد من التصريح بالشهادة، كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، وتوسمى إليه هذه الآية لما قال: «فاستشهدوا عليهن أربعة منكم». لم يكتف بذلك حتى قال: «فإن شهدوا» أي: لا بد من شهادة صريحة عن أمر يشاهد عياناً، من غير تعريض ولا كناية.

ويؤخذ منهما أن الأذية بالقول والفعل والحبس، قد شرعه الله تعزيراً لجنس المعصية الذي يحصل به الزجر.

﴿١٧ - ١٨﴾ «إنما التوبة على الله للذين يعملون سوءاً بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليماً حكيماً» * وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعندنا لهم عذاباً أليماً» توبة الله على عباده نوعان: توفيق منه للتوبة، وقبول لها بعد وجودها من العبد، فأخبر هنا - أن التوبة المستحقة على الله حق أحقه على نفسه، كرمأ منه وجوداً، لمن عمل سوءاً، أي: المعاصي «بجهالة» أي: جهالة منه بعاقبتها، وإيجابها لسخط الله وعقابه، وجهل منه بنظر الله ومراقبته له، وجهل منه بما تؤول إليه من نقص الإيمان أو إعدامه، فكل عاص لله، فهو جاهل بهذا الاعتبار، وإن كان عالماً بالتحريم. بل العلم بالتحريم شرط لكونها معصية معاقب عليها. «ثم يتوبون من قريب» يحتمل أن يكون المعنى: ثم

ختم الآية الأولى بقوله: ﴿وكان الله عليماً حكيماً﴾.

فمن علمه أنه يعلم صادق التوبة وكاذبها، فيجازي كلاهما بحسب ما يستحق بحكمته، ومن حكمته أن يوفق من اقتضت حكمته ورحمته توفيقه للتوبة، ويخذل من اقتضت حكمته وعدله عدم توفيقه. والله أعلم.

﴿١٩ - ٢١﴾ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فمعي أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً * وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً * كانوا في الجاهلية إذا مات أحدهم عن زوجته، رأى قريبه كاخيه وابن عمه ونحوهما أنه أحق بزوجه من كل أحد، وحماها عن غيره، أحب أو كرهت. فإن أحبها تزوجها على صداق يحبه دونها، وإن لم يرضها عضلها، فلا يزوجه إلا بمن يختاره هو، وربما امتنع من تزويجها حتى تبذل له شيئاً من ميراث قريبه أو من صداقها، وكان الرجل أيضاً يعضل زوجته التي [يكون] يكرهها ليذهب ببعض ما آتاها، فنهى الله المؤمنين عن جميع هذه الأحوال إلا حالتين: إذا رضيت واختارت نكاح قريب زوجها الأول، كما هو مفهوم قوله: ﴿كرهاً﴾. وإذا أتيت بفاحشة مبينة كالزنا والكلام الفاحش وأذيتها لزوجها، فإنه في هذه الحال يجوز له أن يعضلها، عقوبة لها على فعلها، لتفتدي منه إذا كان عضلاً بالعدل.

ثم قال: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ يتوبون قبل معاينة الموت، فإن الله يقبل توبة العبد إذا تاب قبل معاينة الموت والعذاب قطعاً. وأما بعد حضور الموت، فلا يقبل من العاصين توبة، ولا من الكفار رجوع، كما قال تعالى عن فرعون: ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم، لما رأوا بأسنا، سنة الله التي قد خلت في عباده﴾. وقال هنا: ﴿وليست التوبة للذين يعملون السيئات﴾ أي: المعاصي فيما دون الكفر.

﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن، ولا الذين يموتون وهم كفار، أولئك أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ وذلك أن التوبة في هذه الحال توبة اضطرار لا تنفع صاحبها، إنما تنفع توبة الاختيار. ويحتمل^(١) أن يكون معنى قوله: «من قريب» أي: قريب من فعلهم للذنوب الموجب للتوبة، فيكون المعنى: أن من بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب، وأناب إلى الله وندم عليه فإن الله يتوب عليه، بخلاف من استمر على ذنوبه^(٢)، وأصر على عيوبه، حتى صارت فيه صفات راسخة، فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة.

والغالب أنه لا يوفق للتوبة، ولا ييسر لأسبابها، كالذي يعمل السوء على علم تام^(٣) ويقين، وتهاون^(٤) بنظر الله إليه، فإنه سد^(٥) على نفسه باب الرحمة. نعم قد يوفق الله عبده المصير على الذنوب عن عمد ويقين لتوبة^(٦) تامة^(٧)، [التي] يمحوها ما سلف من سيئاته، وما تقدم من جنائياته، ولكن الرحمة والتوفيق للأول أقرب، ولهذا

نعم قد يوفق الله عبده المصير على الذنوب عن عمد ويقين لتوبة تامة^(٧)، [التي] يمحوها ما سلف من سيئاته، وما تقدم من جنائياته، ولكن الرحمة والتوفيق للأول أقرب، ولهذا

نعم قد يوفق الله عبده المصير على الذنوب عن عمد ويقين لتوبة تامة^(٧)، [التي] يمحوها ما سلف من سيئاته، وما تقدم من جنائياته، ولكن الرحمة والتوفيق للأول أقرب، ولهذا

(١) في هامش أ [ويؤيد هذا الاحتمال أن الله قال: ﴿إنما التوبة على الله﴾ الحاضرة ولم يقل: إنما يتوب الله، وبين اللفظين فرق ظاهر].

(٢) في ب: ذنبه.

(٣) في ب: قائم.

(٤) في ب: متهاون.

(٥) في ب: يسد.

(٦) في ب: للتوبة.

(٧) في ب: النافعة.

تَنْ طَلِعَ الرُّسُلَ قَدْ لَمَعَ اللَّهُ مِنْ قَوْلِ مَنْ أَرْسَلَنَّاكَ عَلَيْهِمْ خَيْطاً * وَيُؤْتِيكَ طَاعَةً فَإِذَا بَرَأْتَ مِنْكَ بِتِلْكَ الْهَيْبَةِ عَنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْسِبُ مَا يَشَاءُ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَفَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَدٌ وَأَنزَلْنَا مِنْ عِنْدِغَيْرِ أَفْوَازِكُمْ وَأَفْوَازَكُمْ تِلْكَ الْأَمْثَلُ لَكُمْ أَنْ يَفْقَهُوا مِنِ الْآيَاتِ وَالْخَوَافِ أَظَاهِرٌ لَهُ أَنزَلْنَاهُ عَلَى الرُّسُلِ وَلَهُ الْفَتْحُ الْأَخِيرُ يَنْفَعُهُمْ غَيْرُ الَّذِي تَتَّبِعُونَ مِنْهُمْ لَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَفُتِنْتُمْ لَشَيْطَانٍ لَّا أَقْبَلُ * فَذَلَّلْنَاهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفُفُ إِلَّا تَنَكَّرَ وَتَرْمِزُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اللَّهِ أَنَّهُ يَكْفُفُ عَنْ الرُّسُلِ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَاسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا * تَنْزِيعُ شَقَمَةٍ حَسَنَةً بِكُلِّ نَفْسٍ يَنْفَعُهَا وَتَنْزِيعُ شَقَمَةٍ سَيِّئَةٍ بِكُلِّ لَمْعٍ يَكْفُرُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُبِينًا * وَأَنَّا نُمَتِّعُهُمْ نَجَاتٍ حَتَّى إِذَا أَحْسَرْتُمْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَكِيمًا

وهذا يشمل المعاشرة القولية والفعلية، فعلى الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف، من الصحة الجميلة، وكف الأذى، وبذل الإحسان، وحسن المعاملة، ويدخل في ذلك النفقة والكسوة ونحوهما، فيجب على الزوج لزوجته المعروف من مثله لمثلها في ذلك الزمان والمكان، وهذا يتفاوت بتفاوت الأحوال.

﴿فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ أي: ينبغي لكم - أيها الأزواج - أن تمسكوا زوجاتكم مع الكراهة لهن، فإن في ذلك خيراً كثيراً. من ذلك امتثال أمر الله، وقبول وصيته التي فيها سعادة الدنيا والآخرة.

ومنها أن إجباره نفسه - مع عدم محبة لها - فيه مجاهدة النفس، والتخلق بالأخلاق الجميلة. وربما أن الكراهة تزول وتخلفها المحبة، كما هو الواقع في ذلك. وربما رزق منها ولداً صالحاً، نفع والديه في الدنيا والآخرة. وهذا كله مع الإمكان في الإمساك وعدم المحذور.

فإن كان لا بد من الفراق، وليس

الغالب، لا مفهوم له، فإن الربية تحرم ولولم تكن في حجره، ولكن للتقييد بذلك فائدتان:

إحداهما: فيه التنبيه على الحكمة في تحريم الربية، وأنها كانت بمنزلة البنت فمن المستقبح إباحتها.

والثانية: فيه دلالة على جواز الخلوة بالربية، وأنها بمنزلة مَنْ هي في حجره من بناته ونحوهن. والله أعلم.

وأما المحرمات بالجمع، فقد ذكر الله الجمع بين الأختين وحُرْمَ النبي ﷺ الجمع بين المرأة وعمتها، أو خالتها، فكل امرأتين بينهما رحم محرم، لو قدر إحداهما ذكراً والأخرى أنثى، حرمت عليه، فإنه يحرم الجمع بينهما، وذلك لما في ذلك من أسباب التقاطع بين الأرحام.

ومن المحرمات في النكاح **﴿المحصنات من النساء﴾** أي: ذوات الأزواج. فإنه يحرم نكاحهن ما دمن في ذمة الزوج، حتى تطلق وتنقضي عدتها. **﴿إلا ما ملكت أيمانكم﴾** أي: بالسبي، فإذا سببت الكافرة ذات الزوج حلت للمسلمين، بعد أن تستبرأ. وأما إذا بيعت الأمة المزوجة أو وهبت، فإنه لا يفسخ نكاحها لأن المالك الثاني نزل منزلة الأول، ولقصة بَريرة حين خبتها النبي ﷺ.

وقوله: **﴿كتاب الله عليكم﴾** أي: الزموه واهتدوا به، فإن فيه الشفاء والنور، وفيه تفصيل الحلال من الحرام.

ودخل في قوله: **﴿وأحل لكم ما وراء ذلكم﴾** كل ما لم يذكر في هذه الآية، فإنه حلال طيب. فالحرام محصور، والحلال ليس له حد ولا حصر، لطفاً من الله ورحمة، وتيسيراً للعباد.

وقوله: **﴿أن تبغوا بأموالكم﴾** أي: تطلبوا من وقع عليه نظركم واختياركم، من اللاتي أباحهن الله لكم حالة كونكم **﴿محصنين﴾** أي: مستعفين عن الزنا، ومعفين نساءكم.

﴿غير مسافحين﴾ والسفح: سفح الماء في الحلال والحرام، فإن الفاعل لذلك لا يحصن زوجته، لكونه وضع شهوته في الحرام، فتضعف داعيته للحلال، فلا يبقى محصناً لزوجه. وفيها دلالة على أنه لا يزوج غير العفيف، لقوله تعالى: **﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة، والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك﴾**.

﴿فما استمتعتم به منهن﴾ أي: ممن تزوجتموهما **﴿فآتوهن أجورهن﴾** أي: الأجور في مقابلة الاستمتاع. ولهذا إذا دخل الزوج بزوجه تقرر عليه صداقها، **﴿فريضة﴾** أي: إتيانكم إياهن أجورهن، فرض فرضه الله عليكم، ليس بمنزلة التبرع الذي إن شاء أمضاه وإن شاء رده. أو معنى قوله فريضة: أي: مقدرة قد قدرتموها فوجبت عليكم، فلا تنقصوا منها شيئاً.

﴿ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة﴾ أي: بزيادة من الزوج، أو إسقاط من الزوجة عن رضا وطيب نفس [هذا قول كثير من المفسرين، وقال كثير منهم: إنها نزلت في متعة النساء التي كانت حلالاً في أول الإسلام، ثم حرمها النبي ﷺ، وأنه يؤمر بتوقيتها، وأجرها، ثم إذا انقضى الأمد الذي بينهما فتراضيا بعد الفريضة فلا حرج عليهما، والله أعلم^(١)].

﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ أي: كامل العلم واسع، كامل الحكمة. فمن علمه وحكمته شرع لكم هذه الشرائع، وحد لكم هذه الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام.

﴿٢٥﴾ ثم قال تعالى: **﴿ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض فانكحوهن بإذن أهلهن وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات**

أخذان فإذا أحصن فإن أتيتن بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ذلك لمن خشي العنت منكم وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾ أي: ومن لم يستطع الطول الذي هو المهر لنكاح المحصنات، أي: الحرائر المؤمنات، وخاف على نفسه العنت، أي: الزنا أو المشقة الكثيرة، فيجوز له نكاح الإماء المملوكات المؤمنات. وهذا بحسب ما يظهر، وإلا فالله أعلم بالمؤمن الصادق من غيره، فأمر الدنيا مبنية على ظواهر الأمور، وأحكام الآخرة مبنية على ما في البواطن.

﴿فانكحوهن﴾ أي: المملوكات **﴿بإذن أهلهن﴾** أي: سيدهن، واحداً، أو متعدداً.

﴿وآتوهن أجورهن بالمعروف﴾ أي: ولو كن إماء، فإنه كما يجب المهر للحرّة، فكذلك يجب للأمة. ولكن لا يجوز نكاح الإماء إلا إذا كن **﴿محصنات﴾** أي: عفيفات عن الزنا **﴿غير مسافحات﴾** أي: زانيات علانية **﴿ولا متخذات أخذان﴾** أي: أخلاء في السر.

فالحاصل أنه لا يجوز للحر المسلم نكاح أمة، إلا بأربعة شروط ذكرها الله: الإيمان بهن، والعفة ظاهراً وباطناً، وعدم استطاعة طول الحرية، وخوف العنت، فإذا تمت هذه الشروط جاز له نكاحهن.

ومع هذا فالصبر عن نكاحهن أفضل، لما فيه من تعريض الأولاد للرق، ولما فيه من الدناءة والعيب. وهذا إذا أمكن الصبر، فإن لم يمكن الصبر عن المحرم إلا بنكاحهن وجب ذلك. ولهذا قال: **﴿وأن تصبروا خير لكم والله غفور رحيم﴾**

وقوله: **﴿فإذا أحصن﴾** أي: تزوجن أو أسلمن، أي: الإماء **﴿فعليهن نصف ما على المحصنات﴾** أي: الحرائر **﴿من العذاب﴾**

وذلك الذي يمكن تصفيفه، وهو

وإحسانه الشامل، وعلمه وحكمته يضعف الإنسان من جميع الوجوه، ضعف البنية، وضعف الإرادة وضعف العزيمة، وضعف الإيمان، وضعف الصبر، فناسب ذلك، أن يخفف الله عنه، ما يضعف عنه وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته.

﴿٢٩ - ٣٠﴾ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا» يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيراً» ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وهذا يشمل أكلها بالفصوب والسرقات، وأخذها بالقتار والمكاسب الرديئة. بل لعله يدخل في ذلك أكل مال نفسك على وجه البطر والإسراف، لأن هذا من الباطل وليس من الحق.

ثم إنه - لما حرم أكلها بالباطل - أباح لهم أكلها بالتجارات والمكاسب الخالية من الموانع، المشتملة على الشروط من التراضي وغيره.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا يقتل بعضهم بعضاً، ولا يقتل الإنسان نفسه. ويدخل في ذلك الإلقاء بالنفس إلى التهلكة، وفعل الأخطار المفضية إلى التلف والهلاك. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ ومن رحمته، أن صان نفوسكم وأموالكم، ونهاكم عن إضاعتها وإتلافها، ورتب على ذلك ما رتبته من الحدود.

وتأمل هذا الإيجاز والجمع في قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ «وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ» كيف شمل أموال غيرك ومال نفسك، وقتل نفسك وقتل غيرك، بعبارة أخصر من قوله: «لَا يَأْكُلُ بَعْضُكُمْ مَالَ بَعْضٍ» ولا يقتل بعضهم بعضاً مع قصور هذه العبارة على مال الغير، ونفس الغير فقط.

مع أن إضافة الأموال والأنفس إلى

بسبب ما يسر الله عليكم، فهذا من توبته على عباده.

ومن توبته عليهم أنهم إذا أذنبوا فتح لهم أبواب الرحمة، وأوزع قلوبهم الإنابة إليه، والتذلل بين يديه، ثم يتوب عليهم بقبول ما وفقهم له. فله الحمد والشكر على ذلك.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي: كامل الحكمة، فمن علمه أن علمكم ما لم تكونوا تعلمون، ومنها هذه الأشياء والحدود. ومن حكمته أنه يتوب على مَنْ اقتضت حكمته ورحمته التوبة عليه، ويغزل مَنْ اقتضت حكمته وعدله مَنْ لا يصلح للتوبة.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَسْرِدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: توبة تلم شعثكم، وتجمع متفرقكم، وتقرب بعيدكم.

﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾ أي: يميلون معها حيث مالت، ويقدمونها على ما فيه رضا محبوبهم، ويعبدون أهواءهم، من أصناف الكفرة والعاصين، المقدمين لأهوائهم على طاعة ربهم، فهؤلاء يريدون «أن تميلوا ميلاً عظيماً» أي: [أن] تنحرفوا عن الصراط المستقيم، إلى صراط الغضوب عليهم والضالين.

يريدون أن يصرفوكم عن طاعة الرحمن إلى طاعة الشيطان، وعن التزام حدود من السعادة كلها في امتثال أوامره، إلى من الشقاوة كلها في اتباعه. فإذا عرفتم أن الله تعالى يأمركم بما فيه صلاحكم وفلاحكم وسعادتكم، وأن هؤلاء التبعية لشهواتهم يأمرؤنكم بما فيه غاية الخسار والشقاء، فاختاروا لأنفسكم أولى الداعين، وتخيروا أحسن الطريقتين.

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ أي: بسهولة ما أمركم به و [ما] نهاكم عنه، ثم مع حصول المشقة في بعض الشرائع، أباح لكم ما تقتضيه حاجتكم، كالهيئة والدم ونحوهما للمضطر، وكتزوج الأمة للحر بتلك الشروط السابقة. وذلك لرحمته التامة

الجلد، فيكون عليهن خمسون جلدة. وأما الرجم فليس على الإماء رجم، لأنه لا ينتصف، فعلى القول الأول إذا لم يتزوجن فليس عليهن حد، إنما عليهن تعزير يردعهن عن فعل الفاحشة.

وعلى القول الثاني: إن الإماء غير المسلمات، إذا فعلن فاحشة أيضاً عزرن.

وختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين «الغفور والرحيم» لكون هذه الأحكام رحمة بالعباد، وكرماً وإحساناً إليهم، فلم يضيق عليهم، بل وسع غاية السعة.

ولعل في ذكر المغفرة بعد ذكر الحد إشارة إلى أن الحدود كفارات، يغفر الله بها ذنوب عباده، كما ورد بذلك الحديث. وحكم العبد الذكر في الحد المذكور حكم الأمة لعدم الفارق بينهما.

﴿٢٦ - ٢٨﴾ «يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا» يخبر تعالى بمنته العظيمة، ومنحته الجسيمة، وحسن تربيته لعباده المؤمنين، وسهولة دينه، فقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبينَ لَكُمْ﴾ أي: جميع ما تحتاجون إلى بيانه من الحق والباطل، والحلال والحرام، «ويهديكم سنن الذين من قبلكم» أي: الذين أنعم الله عليهم من النبيين وأتباعهم، في سيرهم الحميدة، وأفعالهم السديدة، وشمالهم الكاملة، وتوفيقهم التام. فلذلك نفذ ما أراده، ووضح لكم، وبين بياناً ما بيّن لمن قبلكم، وهداكم هداية عظيمة في العلم والعمل.

﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: يلطف بكم في أحوالكم وما شرعه لكم، حتى تمكنوا^(١) من الوقوف على ما حده الله، والاكتفاء بما أحله، فتقل ذنوبكم

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ أي: مطلعاً على كل شيء، بعلمه لجميع الأمور، وبصره لحركات عبادِهِ، وسمعه لجميع أصواتهم.



﴿٣٤﴾ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا إن الله كان علياً كبيراً يخبر تعالى أن الرجال قوامون على النساء، أي: قوامون عليهن بالزمامين بحقوق الله تعالى، من المحافظة على فرائضه، وكفهن عن المفاسد، والرجال عليهم أن يلزموهن بذلك، وقوامون عليهن أيضاً بالإنفاق عليهن، والكسوة والمسكن، ثم ذكر السبب الموجب لقيام الرجال على النساء، فقال: ﴿بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم﴾ أي: بسبب فضل الرجال على النساء، وإفضالهم عليهن، فتفضيل الرجال على النساء من وجوه متعددة: من كون الولايات مختصة بالرجال، والنبوة، والرسالة، واختصاصهم بكثير من العبادات كالجهاد والأعياد والجمع. وبما خصهم الله به من العقل والرزانة والصبر والجأء الذي ليس للنساء مثله. وكذلك خصهم بالنفقات على الزوجات، بل وكثير من النفقات

يختص بها الرجال، ويتميزون عن النساء.

ولعل هذا سر قوله: ﴿بما أنفقوا﴾ وحذف المفعول، ليدل على عموم النفقة. فعلم من هذا كله أن الرجل كالوالي والسيد لامرأته، وهي عنده عانية أسيرة خادمة، فوظيفته أن يقوم بما استرعه الله به.

ووظيفتها: القيام بطاعة ربها، وطاعة زوجها، فلهاذا قال: ﴿فالصالحات قانتات﴾ أي: مطيعات لله تعالى «حافظات للغيب» أي: مطيعات لأزواجهن حتى في الغيب، تحفظ بعلها بنفسها وماله، وذلك بحفظ الله لهن، وتوفيقه لهن، لا من أنفسهن، فإن النفس أمانة بالسوء، ولكن من توكل على الله، كفا ما أمه من أمر دينه ودنياه.

ثم قال: ﴿واللاتي تخافون نشوزهن﴾ أي: ارتفاعهن عن طاعة أزواجهن، بأن تعصيه بالقول أو الفعل، فإنه يؤديها بالأسهل فالأسهل، ﴿فعظوهن﴾ أي: ببيان حكم الله في طاعة الزوج ومعصيته، والترغيب في الطاعة، والترهيب من معصيته، فإن انتهت فذلك المطلوب، وإلا فيهجرها الزوج في المضجع، بأن لا يضاجهما، ولا يجامعها بمقدار ما يحصل به المقصود، وإلا ضربها ضرباً غير مبرح، فإن حصل المقصود بواحد من هذه الأمور وأطعنكم ﴿فلا تبغوا عليهن سبيلاً﴾ أي: فقد حصل لكم ما تحبون، فاتركوا معاتبتها على الأمور الماضية، والتنقيب عن العيوب التي يضر ذكرها، ويحدث بسببه الشر.

﴿إن الله كان علياً كبيراً﴾ أي: له العلو المطلق، بجميع الوجوه والاعتبارات، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر، الكبير الذي لا أكبر منه ولا أجل ولا أعظم، كبير الذات والصفات.

﴿٣٥﴾ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من

أهلها إن تريد إصلاحاً يوفق الله بينهما إن الله كان عليماً خبيراً﴾ أي: وإن خفتم الشقاق بين الزوجين، والمباعدة والمجانبة، حتى يكون كل منهما في شق، ﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها﴾ أي: رجلين مكلفين، مسلمين عدلين عاقلين، يعرفان ما بين الزوجين، ويعرفان الجمع والتفريق. وهذا مستفاد من لفظ «الحكم» لأنه لا يصلح حكماً، إلا من اتصف بتلك الصفات. فينظران ما ينقم كل منهما على صاحبه، ثم يلزمان كلا منهما ما يجب، فإن لم يستطع أحدهما ذلك، ففأ الزوج الآخر بالرضا بما تسر من الرزق والخلق، ومهما أمكنهما الجمع والإصلاح فلا يعدلا عنه.

فإن وصلت الحال إلى أنه لا يمكن اجتماعهما وإصلاحهما، إلا على وجه المعادة والمقاطعة، ومعصية الله، ورأياً أن التفريق بينهما أصلح، فرقا بينهما. ولا يشترط رضا الزوج، كما يدل عليه، أن الله سماهما حكيمين، والحكم يحكم، ولو^(١) لم يرض المحكوم عليه، ولهذا قال: ﴿إن يريدوا إصلاً يوفق الله بينهما﴾ أي: بسبب الرأي: الميمون والكلام الذي يجذب القلوب، ويؤلف بين القريتين.

﴿إن الله كان عليماً خبيراً﴾ أي: علماً بجميع الظواهر والبواطن، مطلعاً على خفايا الأمور وأسرارها. فمن علمه وخبره أن شرع لكم هذه الأحكام الجليلة، والشرائع الجميلة.

﴿٣٦-٣٨﴾ ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم﴾ إن الله لا يحب من كان مختلاً فخوراً * الذين يبخلون ويأمررون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً * والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر

قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَجِبُ مَنْ كَانَ مُخْتَلَاً﴾ أي: معجباً بنفسه، متكبراً على الخلق. ﴿فَعُوراً﴾ يثني على نفسه ويمدحها، على وجه الفخر والبطر على عباد الله. فهؤلاء ما بهم من الاختيال والفخر، يمنعونهم من القيام بالحقوق. ولهذا ذمهم بذلك، بقوله: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ أي: يمنعون ما عليهم من الحقوق الواجبة، ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبَخْلِ﴾ بأقوالهم وأفعالهم، ﴿وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: من العلم الذي يتيدي به الضالون ويسترشد به الجاهلون، فيكتمونه عنهم، ويظهرون لهم من الباطل ما يحول بينهم وبين الحق. فجمعوا بين البخل بالمال، والبخل بالعلم، وبين السعي في خسارة أنفسهم وخسارة غيرهم، وهذه هي صفات الكافرين، فلهمذا قال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾ أي: كما تكبروا على عباد الله، ومنعوا حقوقه وتسببوا في منع غيرهم، من البخل وعدم الاهتداء، أهانهم بالعذاب الأليم، والحزني الدائم. فعياًذا بك اللهم من كل سوء.

ثم أخبر عن النفقة الصادرة، عن رياء وسمعة، وعدم إيمان به، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ﴾ أي: ليروهم ويمدحوهم، ويعظموهم، ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ صَادِرًا عَنْ إِيْمَانٍ بِاللَّهِ﴾ ورجاء ثوابه. أي: فهذا من خطوات الشيطان وأعماله التي يدعو حزبه إليها، ليكونوا من أصحاب السعير. وصدرت منهم بسبب مقارنته لهم وأزهم إليها، فلهمذا قال: ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ أي: بشس المقارن والصاحب الذي يريد إهلاك مَنْ قارنه، ويسعى فيه أشد السعي.

فكما أن مَنْ بخل بما آتاه الله،

خلتهم، وبدفع فاقتهم، والحض على ذلك، والقيام بما يمكن منه.

﴿وَالْجَارُ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي: الجار القريب الذي له حقان، حق الجوار وحق القرابة، فله على جاره حق وإحسان راجع إلى العرف. وكذلك ﴿الْجَارُ الْجَنِبِ﴾ أي: الذي ليس له قرابة. وكلما كان الجار أقرب باباً، كان أكد حقاً، فينبغي للجار أن يتعاهد جاره بالهدية والصدقة، والدعوة، واللطفة بالأقوال والأفعال، وعدم أدنيته بقول أو فعل.

﴿وَالصَّاحِبُ بِالْجَنبِ﴾ قيل: الرفيق بالسفر، وقيل: الزوجة، وقيل: الصاحب مطلقاً، ولعله أولى، فإنه يشمل الصاحب في الحضر والسفر، ويشمل الزوجة.

فعل الصاحب لصاحبه، حق زائد على مجرد إسلامه، من مساعدته على أمور دينه ودنياه، والنصح له؛ والوفاء معه في اليسر والعسر، والمنشط والمكره، وأن يجب له ما يجب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وكلما زادت الصحة تأكد الحق وزاد.

﴿وَابْنُ السَّبِيلِ﴾ وهو: الغريب الذي احتاج في بلد الغربة أو لم يحتج، فله حق على المسلمين لشدة حاجته، وكونه في غير وطنه، بتبليغه إلى مقصوده، أو بعض مقصوده [وإيكرامه وتأنيسه]^(٢).

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي: من الأدمين والبهائم، بالقيام بكفائتهم وعدم تحميلهم ما يشق عليهم وإعانتهم على ما يتحملون، وتأديبهم لما فيه مصلحتهم. فَمَنْ قام بهذه المأمورات فهو الخاضع لربه، المتواضع لعباد الله، المنقاد لأمر الله وشرعه، الذي يستحق الثواب الجزيل والثناء الجميل، وَمَنْ لم يقم بذلك فإنه عبد معرض عن ربه، غير منقاد لأوامره، ولا متواضع للخلق، بل هو متكبر على عباد الله، معجب بنفسه، فخور بقوله، ولهذا

ومن يكن الشيطان له قريناً فساء قريناً يأمر تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له، وهو الدخول تحت رق عبوديته، والانقياد لأوامره ونواهيه، محبة وذلاً وإخلاصاً له، في جميع العبادات الظاهرة والباطنة.

وينهى عن الشرك به شيئاً، لا شركاً أصغر ولا أكبر، لا ملكاً ولا نبياً ولا ولياً ولا غيرهم من المخلوقين، الذين لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بل الواجب المتعين إخلاص العبادة لمن له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وله التدبير الكامل الذي لا يشركه ولا يعينه عليه أحد. ثم بعد ما أمر بعبادته والقيام بحقه، أمر بالقيام بحقوق العباد، الأقرب فالأقرب. فقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم، والخطاب اللطيف والفعل الجميل، بطاعة أمرهما، واجتناب نهيهما، والإنفاق عليهما، وإكرام مَنْ له تعلق بهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا بهما. وللإحسان ضدان، الإساءة، وعدم الإحسان. وكلاهما منهي عنه.

﴿وَبِذِي الْقُرْبَى﴾ أيضاً إحساناً، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله.

﴿وَالْيَتَامَى﴾ أي: الذين فقدوا آباءهم^(١) وهم صغار، فلمهم حق على المسلمين، سواء كانوا أقارب أو غيرهم، بكفالتهم، وبرهم، وجبر خواطرهم، وتأديبهم، وتربيتهم أحسن تربية، في مصالح دينهم ودنياهم.

﴿وَالْمَسَاكِينَ﴾ وهم الذين أسكتهم الحاجة والفقر، فلم يحصلوا على كفائتهم، ولا كفاية مَنْ يُمونون. فأمر الله تعالى بالإحسان إليهم، بسد

(١) كذا في ب، وفي أ: الذين فقد آبائهم.

(٢) زيادة من هامش ب.

وكنتم ما مَنَّ به الله عليه عاص آثم مخالف لربه، فكَذَلِكَ مَنْ أَنْفَقَ وَتَعَبَدَ لغير الله، فإنه آثم عاص لربه، مستوجب للعقوبة، لأن الله إنما أمر بطاعته وامتنثال أمره، على وجه الإخلاص، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمَرُوا إِلَّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ فهذا العمل المقبول الذي يستحق صاحبه المدح والثواب، فلماذا حث تعالى عليه بقوله:

﴿٢٩٩﴾ ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لو آمَنوا بالله واليوم الآخر وأنفقوا مما رزقهم الله وكان الله بهم عليماً﴾ أي: أي شيء عليهم، وأي: حرج ومشقة تلحقهم، لو حصل منهم الإيمان بالله، الذي هو الإخلاص، وأنفقوا من أموالهم التي رزقهم الله وأنعم بها عليهم، فجمعوا بين الإخلاص والإنفاق، ولما كان الإخلاص سرّاً بين العبد وبين ربه، لا يطلع عليه إلا الله، أخبر تعالى بعلمه بجميع الأحوال فقال:

﴿٤٠ - ٤٢﴾ ﴿إِنَّ الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة بضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً * يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتُمون الله حديثاً * يخبر تعالى عن كمال عدله وفضله، وتنزهه عما يضاد ذلك من الظلم القليل والكثير، فقال: ﴿إِنَّ الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ أي: ينقصها من حسنات عبده، أو يزيدها في سيئاته، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يره، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يره﴾.

﴿وإن تك حسنة بضاعفها﴾ أي: إلى عشرة أمثالها، إلى أكثر من ذلك، بحسب حالها ونفعها، وحال صاحبها، إخلاصاً ومحبة وكمالاً.

﴿ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾ أي: زيادة على ثواب العمل بنفسه، من التوفيق لأعمال آخر، وإعطاء البر الكثير والخير الغزير.

ثم قال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من

كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ أي: كيف تكون تلك الأحوال، وكيف يكون ذلك الحكم العظيم، الذي جمع أن مَنْ حكم به كامل العلم، كامل العدل، كامل الحكمة، بشهادة أركى الخلق، وهم الرسل على أمهم، مع إقرار المحكوم عليه؟! فهذا - والله - الحكم الذي هو أعم الأحكام وأعدلها وأعظمها.

وهناك يبقى المحكوم عليهم مقربين له لكمال الفضل والعدل، والحمد والشأن. وهناك يسعد أقوام بالفوز والفلاح والعز والنجاح. ويشقى أقوام بالخزي والفضيحة والعذاب المهيّن.

ولهذا قال: ﴿يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول﴾ أي: جمعوا بين الكفر بالله وبرسوله، ومعصية الرسول ﴿لو تسوى بهم الأرض﴾ أي: تبتلعهم ويكونون تراباً وعدماً، كما قال تعالى: ﴿ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾.

﴿ولا يكتُمون الله حديثاً﴾ أي: بل يقرّون له بما عملوا، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون. يومئذ يوفيههم الله جزاءهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين.

فأما ما ورد من أن الكفار يكتُمون كفرهم وجحودهم، فإن ذلك يكون في بعض مواضع القيامة، حين يظنون أن جحودهم مغن عنهم من عذاب الله، فإذا عرفوا الحقائق، وشهدت عليهم جوارحهم، حيث ينجلي الأمر، ولا يبقى للكتمان موضع، ولا نفع ولا فائدة.

﴿٤٢﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنباً إلا عابري سبيل حتى تغسلوا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً فامسحوا بوجوهكم وأيديكم إِنَّ الله كان عفواً غفوراً﴾ ينهى تعالى عباده المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارى، حتى يعلموا ما

يقولون، وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة كاللمسجد، فإنه لا يمكن السكران من دخوله. وشامل لنفس الصلاة، فإنه لا يجوز للسكران صلاة ولا عبادة، لاختلاط عقله، وعدم علمه بما يقول، ولهذا حدّد تعالى ذلك وغياه إلى وجود العلم، بما يقول السكران. وهذه الآية الكريمة منسوخة بتحريم الخمر مطلقاً، فإن الخمر - في أول الأمر - كان غير محرّم، ثم إن الله تعالى عرض لعباده بتحريمه، بقوله: ﴿يسألونك عن الخمر والميسر قل فيها إثم كبير ومنافع للناس، وإثمهما أكبر من نفعهما﴾.

ثم إنه تعالى نهاهم عن الخمر عند حضور الصلاة، كما في هذه الآية، ثم إنه تعالى حرّمه على الإطلاق في جميع الأوقات في قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾ الآية.

ومع هذا فإنه يشتد تحريمه وقت حضور الصلاة، لتضمنه هذه المفسدة العظيمة، بعد حصول مقصود الصلاة الذي هو روحها ولبها، وهو الخشوع وحضور القلب، فإن الخمر يسكر القلب، ويصد عن ذكر الله وعن الصلاة، ويؤخذ من المعنى منع الدخول في الصلاة في حال النعاس المفرط، الذي لا يشعر صاحبه بما يقول ويفعل، بل لعل فيه إشارة إلى أنه ينبغي لمن أراد الصلاة أن يقطع عنه كل شاغل يشغل فكره، كمدافعة الأخبثين، والتوقّي لطعام ونحوه، كما ورد في ذلك الحديث الصحيح.

ثم قال: ﴿ولا جنباً إلا عابري سبيل﴾ أي: لا تقربوا الصلاة حالة كون أحدكم جنباً، إلا في هذه الحال، وهو عابر السبيل، أي: تمرون في المسجد ولا تمكثون فيه، ﴿حتى تغسلوا﴾ أي: فإذا اغتسلتم، فهو غاية المنع من قربان الصلاة للجنب، فيحل للجنب المرور في المسجد فقط.

﴿وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم

وقوله: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾ هذا عمل المسح في التيمم: الوجه جميعه، واليدان إلى الكوعين، كما دلّت على ذلك الأحاديث الصحيحة، ويستحب أن يكون ذلك بضربة واحدة، كما دل على ذلك حديث عمار، وفيه أن تيمم الجنب تيمم غيره، بالوجه واليدين.

فائدة

اعلم أن قواعد الطب تدور على ثلاث قواعد: حفظ الصحة عن المؤذيات، والاستفراغ منها، والحمية عنها. وقد نبه تعالى عليها في كتابه العزيز.

أما حفظ الصحة والحماية عن المؤذي، فقد أمر بالأكل والشرب وعدم الإسراف في ذلك، وأباح للمسافر والمريض الفطر، حفظاً لصحتهما، باستعمال ما يصلح البدن على وجه العدل، وحماية للمريض عما يضره.

وأما استفراغ المؤذي، فقد أباح تعالى للمحرم التأذي برأسه أن يحلّقه لإزالة الأبخرة المحتقنة فيه، ففيه تنبيه على استفراغ ما هو أولى منها، من البول والغائط والقيء والمني والدم، وغير ذلك، نبه على ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى.

وفي الآية وجوب تعميم مسح الوجه واليدين، وأنه يجوز التيمم ولو لم يصفق الوقت، وأنه لا يخاطب بطلب الماء إلا بعد وجود سبب الوجوب والله أعلم.

ثم ختم الآية بقوله: ﴿إِنْ اللَّهُ كَانَ عَفْوَ غَفُورًا أَي: كثير العفو والمغفرة لعباده المؤمنين، بتيسير ما أمرهم به، وتسهيله غاية التسهيل، بحيث لا يشق على العبد امتثاله، فيخرج بذلك.

ومن عفوه ومغفرته أن رحم هذه الأمة بشرع طهارة التراب بدل الماء، عند تعذر استعماله. ومن عفوه ومغفرته أن فتح للمذنبين باب التوبة والإبانة ودعاهم إليه، ووعدهم بمغفرة ذنوبهم. ومن عفوه ومغفرته، أن المؤمن لو أتاه بقراب الأرض خطايا ثم

النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا ﴿ فإباح التيمم للمريض مطلقاً مع وجود الماء وعدمه، والعلّة المرض الذي يشق معه استعمال الماء، وكذلك السفر فإنه مظنة فقد الماء، فإذا فقدّه المسافر أو وجد ما يتعلق بحاجته من شرب ونحوه، جاز له التيمم.

وكذلك إذا أحدث الإنسان ببول أو غائط أو ملامسة النساء، فإنه يُباح له التيمم إذا لم يجد الماء، حضراً وسفراً، كما يدل على ذلك عموم الآية. والحاصل: أن الله تعالى أباح التيمم في حالتين:

حال عدم الماء، وهذا مطلقاً في الحضر والسفر. وحال المشقة باستعماله بمرض ونحوه.

واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ هل المراد بذلك: الجماع، فتكون الآية نصاً في جواز التيمم للجنب، كما تكاثرت بذلك الأحاديث الصحيحة؟ أو المراد بذلك مجرد اللمس باليد، ويقيد ذلك بما إذا كان مظنة خروج المذي، وهو المس الذي يكون لشهوة، فتكون الآية دالة على نقض الرضوء بذلك؟

واستدل الفقهاء بقوله: ﴿فلم تجدوا ماء﴾ بوجوب طلب الماء عند دخول الوقت، قالوا: لأنه لا يقال: لم يجد لمن لم يطلب، بل لا يكون ذلك إلا بعد الطلب، واستدل بذلك أيضاً على أن الماء المتغير بشيء من الطاهرات يجوز بل يتعين التطهر به لدخوله في قوله: ﴿فلم تجدوا ماء﴾ وهذا ماء، ونوزع في ذلك بأنه ماء غير مطلق، وفي ذلك نظر.

وفي هذه الآية الكريمة مشروعية هذا الحكم العظيم الذي امتن به الله على هذه الأمة، وهو مشروعية التيمم، وقد أجمع على ذلك العلماء والله الحمد، وأن التيمم يكون بالصعيد الطيب، وهو كل ما تصاعد على وجه الأرض، سواء كان له غبار أم لا، ويحتمل أن يخص ذلك بذي الغبار، لأن الله قال: ﴿فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه﴾ وما لا غبار له لا يمسح به.



ويسر لهم ما به سعادتهم وفلاحهم. وكفى بالله نصيراً) ينصروهم على أعدائهم، ويبين لهم ما يحذرون منهم ويعينهم عليهم. فولايته تعالى فيها حصول الخير، ونصره فيه زوال الشر. ثم بين كيفية ضلالهم وعنادهم، وإيثارهم الباطل على الحق فقال: «من الذين هادوا أي: اليهود، وهم علماء الضلال منهم.

«يخرفون الكلم عن مواضعه» إما بتغيير اللفظ أو المعنى، أو هما جميعاً. فمن تحريفهم تنزيل الصفات التي ذكرت في كتبهم، التي لا تنطبق ولا تصدق إلا على محمد ﷺ على أنه غير مراد بها، ولا مقصود بها، بل أريد بها غيره، وكتماهم ذلك.

فهذا حالهم في العلم أثر حال، قلبوا فيه الحقائق، ونزلوا الحق على الباطل، وجحدوا لذلك الحق، وأما حالهم في العمل والانقياد فإنهم «يقولون سمعنا وعصينا» أي: سمعنا قولك وعصينا أمرك، وهذا غاية الكفر والعناد، والشرود عن الانقياد، وكذلك يخاطبون الرسول ﷺ بأقبح خطاب وأبعده عن الأدب، فيقولون: «استمع غير مسمع» قصدهم: اسمع منا غير مسمع ما تحب، بل مسمع ما تكره، «وراعنا» قصدهم بذلك

الرعونة، بالعيب القبيح، ويظنون أن اللفظ - لما كان محتملاً لغير ما أرادوا من الأمور - أنه يروج على الله وعلى رسوله، فتوصلوا بذلك اللفظ الذي يلون به ألسنتهم إلى الطعن في الدين، والعيب للرسول، ويصرحون بذلك فيما بينهم، فلهذا قال: «ليأ بالأسنتهم وطعنا في الدين»

ثم أرشدهم إلى ما هو خير لهم من ذلك فقال: «ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظروا لكان خيراً لهم وأقوم». وذلك لما تضمنته هذا الكلام من حسن الخطاب والأدب اللائق في مخاطبة الرسول، والدخول تحت طاعة الله والانقياد لأمره، وحسن التلطف في طلبهم العلم، بسماع سؤالهم، والاعتناء بأمرهم، فهذا هو الذي ينبغي لهم سلوكه. ولكن لما كانت طبائعهم غير زكية، أعرضوا عن ذلك، وطردوهم الله، بكفرهم وعنادهم، ولهذا قال: «ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً»

﴿٤٧﴾ «يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولاً» يأمر تعالى أهل الكتاب من اليهود والنصارى، أن يؤمنوا بالرسول محمد ﷺ وما أنزل الله عليه من القرآن العظيم، المهيمن على غيره من الكتب السابقة الذي قد صدقها، فإنها أخبرت به فلما وقع المخبر به كان تصديقاً لذلك الخبر.

وأيضاً فإنهم إن لم يؤمنوا بهذا القرآن، فإنهم لم يؤمنوا بما في أيديهم من الكتب، لأن كتب الله يصدق بعضها بعضاً، ويوافق بعضها بعضاً. فدعوى الإيمان ببعضها دون بعض، دعوى باطلة، لا يمكن صدقها. وفي قوله: «آمنوا بما نزلنا مصداقاً لما معكم» حث لهم، وأنهم ينبغي أن

يكونوا قبل غيرهم مبادرين إليه، بسبب ما أنعم الله عليهم به من العلم، والكتاب الذي يوجب أن يكون ما عليهم أعظم من غيرهم، ولهذا توعدهم على عدم الإيمان فقال: «من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها» وهذا جزاء من جنس ما عملوا، كما تركوا الحق، وآثروا الباطل، وقلبوا الحقائق، فجعلوا الباطل حقاً والحق باطلاً، جوزوا من جنس ذلك بطمس وجوههم كما طمسوا الحق، وردها على أدبارها، بأن تجعل في أفقائهم، وهذا أشنع ما يكون «أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت» بأن يطردوهم من رحمة، ويعاقبهم بجعلهم قرعة، كما فعل بإخوانهم الذين اعتدوا في السبت، «فقلنا لهم كونوا قرعة خاسئين». «وكان أمر الله مفعولاً» كقولته: «إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون».

﴿٤٨﴾ «إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً» يخبر تعالى: أنه لا يغفر لمن أشرك به أحداً من المخلوقين، ويغفر ما دون الشرك (١) من الذنوب، صفاتها وكبارها، وذلك عند مشيئته مغفرة ذلك، إذا اقتضت حكمته مغفرتة.

فالذنوب التي دون الشرك قد جعل الله لمغفرتها أسباباً كثيرة، كالحسنات الماحية، والمصابب المكفرة في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وكدعاء المؤمنين بعضهم لبعض، وشفاعاة الشافعين. ومن فوق ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد.

وهذا بخلاف الشرك فإن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة، وأغلق دونه أبواب الرحمة، فلا تنفعه الطاعات من دون التوحيد، ولا تفيد المصابب شيئاً وما لهم يوم القيامة شافعين * ولا صديق حميم.

ولهذا قال تعالى: «ومن يشرك بالله

لهم وحدهم - فإنهم كذبة في ذلك، ليس لهم من خصال الزاكين نصيب، بسبب ظلمهم وكفرهم، لا يظلم من الله لهم، ولهذا قال: ﴿ولا يظلمون شيئاً﴾ وهذا لتحقيق العموم، أي: لا يظلمون شيئاً، ولا مقدار القتل الذي في شق التوبة، أو الذي يقتل من وسخ اليد وغيرها.

قال تعالى: ﴿انظر كيف يفترون على الله الكذب﴾ أي: بتزكيتهم أنفسهم، لأن هذا من أعظم الافتراء على الله. لأن مضمون تزكيتهم لأنفسهم، الإخبار بأن الله جعل ما هم عليه حقاً، وما عليه المؤمنون المسلمون باطلاً. وهذا أعظم الكذب، وقلب الحقائق بجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً. ولهذا قال: ﴿وكفى به إثماً مبيناً﴾ أي: ظاهراً بيناً، موجباً للعقوبة البليغة والعذاب الأليم.

﴿٥١ - ٥٧﴾ ﴿ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً * أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نفيراً * أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد اتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً * فممنهم من آمن به وممنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً * إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيماً * والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً * وهذا من قبائح اليهود وحسدكم للنبي ﷺ والمؤمنين، أن أخلاقهم الرذيلة، وطبعهم الخبيث، حملهم على ترك الإيمان بالله ورسوله والتعوض عنه بالإيمان بالجبت والطاغوت، وهو الإيمان بكل عبادة لغير الله، أو حكم بغير شرع الله، فدخل في ذلك السحر والكهانة،

فقد افترى إنماً عظيماً أي: افترى جرماً كبيراً، وأي: ظلم أعظم ممن سوى المخلوق - من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الفقير بذاته من كل وجه، الذي لا يملك لنفسه - فضلاً عن عبده - نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً - بالخالق لكل شيء، الكامل من جميع الوجوه، الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، الذي بيده النفع والضرر، والعطاء والمنع، الذي ما من نعمة بالمخلوقين، إلا فمته تعالى، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟

ولهذا حتم على صاحبه بالخلود بالعذاب وحرمان الثواب ﴿إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وماواه النار﴾. وهذه الآية الكريمة في حق غير التائب وأما التائب، فإنه يغفر له الشرك فما دونه، كما قال تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾ أي: لمن تاب إليه وأناب.

﴿٤٩ - ٥٠﴾ ﴿ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يركي من يشاء ولا يظلمون شيئاً﴾ انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثماً مبيناً هذا تعجيب من الله لعباده، وتوبيخ للذين يزكون أنفسهم من اليهود والنصارى، ومن نحنا نحوهم، من كل من زكى نفسه، بأمر ليس فيه. وذلك أن اليهود والنصارى يقولون: ﴿نحن أبناء الله وأحباءه﴾ ويقولون: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ وهذا مجرد دعوى لا برهان عليها، وإنما البرهان ما أخبر به في القرآن في قوله: ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾. فهو هؤلاء هم الذين زكاهم الله، ولهذا قال هنا: ﴿بل الله يركي من يشاء﴾ أي: بالإيمان والعمل الصالح، بالتخلي عن الأخلاق الرذيلة، والتخلي بالصفات الجميلة.

وأما هؤلاء فهم - وإن زكوا أنفسهم بزعمهم أنهم على شيء، وأن الثواب

﴿٥١﴾ ﴿ألم تر إلى الذين كفروا من بني إسرائيل لما سخط الله عليهم وأمرهم أن يذبحوا نوحاً بنوهم﴾ ﴿٥٢﴾ ﴿ألم تر إلى الذين كفروا من بني إسرائيل لما سخط الله عليهم وأمرهم أن يذبحوا نوحاً بنوهم﴾ ﴿٥٣﴾ ﴿ألم تر إلى الذين كفروا من بني إسرائيل لما سخط الله عليهم وأمرهم أن يذبحوا نوحاً بنوهم﴾ ﴿٥٤﴾ ﴿ألم تر إلى الذين كفروا من بني إسرائيل لما سخط الله عليهم وأمرهم أن يذبحوا نوحاً بنوهم﴾ ﴿٥٥﴾ ﴿ألم تر إلى الذين كفروا من بني إسرائيل لما سخط الله عليهم وأمرهم أن يذبحوا نوحاً بنوهم﴾ ﴿٥٦﴾ ﴿ألم تر إلى الذين كفروا من بني إسرائيل لما سخط الله عليهم وأمرهم أن يذبحوا نوحاً بنوهم﴾ ﴿٥٧﴾ ﴿ألم تر إلى الذين كفروا من بني إسرائيل لما سخط الله عليهم وأمرهم أن يذبحوا نوحاً بنوهم﴾

وعبادة غير الله، وطاعة الشيطان، كل هذا من الجبت والطاغوت، وكذلك حملهم الكفر والحسد على أن فضلوا طريقة الكافرين بالله - عبدة الأصنام - على طريق المؤمنين، فقال: ﴿ويقولون للذين كفروا﴾ أي: لأجلهم، تلقاً لهم ومداينة، وبغضاً للإيمان: ﴿هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً﴾ أي: طريقاً. فما أسمى جهنم وأشد عنادهم، وأقل عقولهم! كيف سلوكوا هذا المسلك الوحشي، والوادي الذميم!! هل ظنوا أن هذا يروج على أحد من العقلاء، أو يدخل عقل أحد من الجهلاء، فهل يفضل دين قام على عبادة الأصنام والأوثان، واستقام على تحريم الطيبات، وإباحة الخبائث، وإحلال كثير من المحرمات، وإقامة الظلم بين الخلق، وتسوية الخالق بالمخلوقين، والكفر بالله ورسله وكتبه، على دين قام على عبادة الرحمن، والإخلاص لله في السر والإعلان، والكفر بما يعبد من دونه من الأوثان والأنثاد والكاذبين، وعلى صلة الأرحام والإحسان إلى جميع الخلق، حتى البهائم، وإقامة العدل والقسط بين الناس، وتحريم كل خبيث وظلم، والصدق في جميع الأقوال والأعمال فهل هذا إلا من الهذيان، وصاحب هذا القول إما من أجهل الناس وأضعفهم عقلاً، وإما من أعظمهم عناداً وعمداً ومراغة للحق،

إلى الطاغوت. وهو كل من حكم بغير شرع الله فهو طاغوت.

والحال أنهم ﴿قد أمروا أن يكفروا به﴾ فكيف يجتمع هذا والإيمان؟ فإن الإيمان يقتضي الانقياد لشرع الله وتحكيمه في كل أمر من الأمور، فمن زعم أنه مؤمن واختار حكم الطاغوت على حكم الله، فهو كاذب في ذلك. وهذا من إضلال الشيطان إياهم، ولهذا قال: ﴿ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾ عن الحق.

﴿فكيف﴾ يكون حال هؤلاء الضالين ﴿إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ من المعاصي، ومنها تحكيم الطاغوت؟! لا

معصية الخالق. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم، وذكره مع طاعة الرسول فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطيعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية.

ثم أمر برد كل ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه، إلى الله وإلى رسوله، أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله؛ فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما، أو عمومهما؛ أو إيماء، أو تنبيه، أو مفهوم أو عموم معنى يقاس عليه ما أشبهه، لأن كتاب الله وسنة رسوله عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما.

فالرد إليهما شرط في الإيمان، فلهذا قال: ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها ﴿ذلك﴾ أي: الرد إلى الله ورسوله ﴿خير وأحسن تأويلاً﴾ فإن حكم الله ورسوله، أحسن الأحكام وأعدلها، وأصلحها للناس، في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم.

﴿٦٠ - ٦٣﴾ ﴿ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً﴾ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴿فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً ﴿يعجب تعالى عباده من حالة المنافقين. الذين يزعمون أنهم مؤمنون بما جاء به الرسول وبما قبله، ومع هذا يريدون أن يتحاكموا

﴿ثم جاؤوك﴾ معتردين^(١) لما صدر منهم، ويقولون: ﴿إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً﴾ أي: ما قصدنا في ذلك إلا الإحسان إلى المتخاصمين والتوفيق بينهم، وهم كذبة في ذلك. فإن الإحسان كل الإحسان تحكيم الله ورسوله ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾.

ولهذا قال: ﴿أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم﴾ أي: من النفاق والقصد السيئ. ﴿فأعرض عنهم﴾ أي: لا تبال بهم ولا تقابلهم على ما فعلوه واقتروه. ﴿وعظهم﴾ أي: بين لهم حكم الله تعالى، مع الترغيب في الانقياد لله، والترهيب من تركه، ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ أي: انصحهم سرّاً بينك وبينهم، فإنه أنجح لحصول المقصود، وبالغ في زجرهم وقمعهم عما كانوا عليه، وفي هذا دليل على أن مقترف المعاصي وإن أعرض عنه، فإنه ينصح سرّاً، وببالغ في وعظه بما يظن حصول المقصود به.

﴿٦٤ - ٦٥﴾ ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً

وإن امرأة عافت من يعلم أنشورا أولئك لا تحسن
عليها أن يصلحها ما صلحنا وألحنا خيراً
أفليس ألعن أن عفاوا وتغفروا لله كان
باعتلوا خيراً. وإن تسطيعوا أن تعلموا بين
السكر والخمر من قدر يسير لكل ليل فتدروا
التملأوا وإن يصلحوا وتغفروا لله كان
عفاوا خيراً. وإن يقرأ القرآن الله لا يقرأ سبيها
وكان الله ورسوله خيراً. وإن يقرأ القرآن
وإن الأرض ولقد وصيتنا الذين أوتوا الكتاب
من قبلكم وأبناؤنا أن الله وإن تكفروا فإن
الله ما في السكتين وما في الأرض وكان الله غنياً
جباراً. وإن يقرأ القرآن وما في الأرض وما في
وكان. إن يقرأ القرآن الله وإن تكفروا فإن
الله وإن يقرأ القرآن الله وإن تكفروا فإن
الله وإن يقرأ القرآن الله وإن تكفروا فإن

رحيماً * فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً. يخبر تعالى خيراً في ضمنه الأمر والحث على طاعة الرسول والانقياد له. وأن الغاية من إرسال الرسل أن يكونوا مطاعين، ينقاد لهم المرسل إليهم في جميع ما أمروا به ونهوا عنه، وأن يكونوا معظمين، تعظيم الطيع^(٢) للمطاع.

وفي هذا إثبات عصمة الرسل فيما يبلغونه عن الله، وفيما يأمرون به وينهون عنه؛ لأن الله أمر بطاعتهم مطلقاً، فلولا أنهم معصومون لا يشعرون ما هو خطأ، لما أمر بذلك مطلقاً.

وقوله: ﴿بإذن الله﴾ أي: الطاعة من الطيع، صادرة بقضاء الله وقدره. ففيه إثبات القضاء والقدر، والحث على الاستماعة بالله، وبيان أنه لا يمكن الإنسان - إن لم يعنه الله - أن يطيع الرسول.

ثم أخبر عن كرمه العظيم وجوده، ودعوته لمن اقتترف السيئات، أن يعترفوا ويتوبوا ويستغفروا الله فقال: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك﴾ أي: معترفين بذنوبهم، باخين بها.

(١) في النسختين: معتردين.

(٢) في النسختين: تعظيم المطاع للطيع، وهو سبق قلم، وقد عدلت في ب عن طريق المطبعة السلفية إلى تعظيم المطاع من الطيع.

تركه، مع التزامه فله حكم أمثاله من العاصين.

﴿٦٦ - ٦٨﴾ ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً * وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً * ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾ يخبر تعالى أنه لو كتب على عباده الأوامر الشاقة على النفوس من قتل النفوس، والخروج من الديار، لم يفعله إلا القليل منهم والنادر، فليحمدوا ربهم وليشكروه على تيسير ما أمرهم به من الأوامر التي تسهل على كل أحد، ولا يشق فعلها، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي أن يلحظ العبد ضد ما هو فيه من المكروهات، لتخفف عليه العبادات، ويزداد حذاً وشكراً لربه.

﴿٦٩ - ٧٠﴾ ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي: في العاجل والأجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿٧١ - ٧٣﴾ ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي: في العاجل والأجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿٧٤ - ٧٦﴾ ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي: في العاجل والأجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿٧٧ - ٧٩﴾ ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي: في العاجل والأجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿٨٠ - ٨٢﴾ ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي: في العاجل والأجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿٨٣ - ٨٥﴾ ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي: في العاجل والأجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿٨٦ - ٨٨﴾ ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي: في العاجل والأجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿٨٩ - ٩١﴾ ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي: في العاجل والأجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿٩٢ - ٩٤﴾ ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي: في العاجل والأجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿٩٥ - ٩٧﴾ ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي: في العاجل والأجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿٩٨ - ١٠٠﴾ ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي: في العاجل والأجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿١٠١ - ١٠٣﴾ ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي: في العاجل والأجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿١٠٤ - ١٠٦﴾ ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي: في العاجل والأجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿١٠٧ - ١٠٩﴾ ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي: في العاجل والأجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿١١٠ - ١١٢﴾ ﴿وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً﴾ أي: في العاجل والأجل، الذي يكون للروح والقلب والبدن، ومن النعيم المقيم بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.



﴿فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾ أي: لتاب عليهم بمغفرتهم ظلمهم، ورحمهم بقبول التوبة والتوفيق لها، والشواب عليها، وهذا المجيء إلى الرسول ﷺ مختص بحياته؛ لأن السياق يدل على ذلك، لكون الاستغفار من الرسول لا يكون إلا في حياته، وأما بعد موته فإنه لا يطلب منه شيء، بل ذلك شرك.

ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله فيما شجر بينهم، أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف، بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي ذلك^(١) حتى يسلموا لحكمه تسليمياً، باتسراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان. فمن استكمل هذه المراتب وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها. فمن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، ومن

ولهذا قال: ﴿فانفروا ثبات﴾ أي: ومقيم متفرقين بأن تنفر سرية أو جيش، ويقيم غيرهم ﴿أو انفروا جميعاً﴾ وكل هذا تبع للمصلحة والنكاح، والراحة للمسلمين في دينهم، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾.

ثم أخبر عن ضعفاء الإيمان المتكاسلين عن الجهاد فقال: ﴿وإن منكم﴾ أي: أيها المؤمنون ﴿المن ليطئتن﴾ أي: يتناقل عن الجهاد في سبيل الله، ضعفاء وخوراء وجبناء، هذا الصحيح.

وقيل معناه: ليطئن غيره، أي: يزدهد عن القتال، وهؤلاء هم المنافقون ولكن الأول أولى، لوجهين:

أحدهما: قوله ﴿منكم﴾ والخطاب للمؤمنين.
والثاني: قوله في آخر الآية: ﴿كان لم تكن بينكم وبينه مودة﴾ فإن الكفار من المشركين، والمنافقين، قد قطع الله بينهم وبين المؤمنين المودة. وأيضاً فإن هذا هو الواقع، فإن المؤمنين على قسمين:

صادقون في إيمانهم، أوجب لهم ذلك كمال التصديق والجهاد. وضعفاء دخلوا في الإسلام، فصار معهم إيمان ضعيف لا يقوى على الجهاد.

كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تَزَلُوا كُفْرًا وَلَكِنْ تَقُولُوا أَرْسَلْنَاكُمْ قِبَلِهِ الْقُرْآنَ وَتَقُولُوا سَاءَ مَا يَحْكُمُ بَيْنَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّهُمْ لَمُنْكَرُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. ثم ذكر غايات هؤلاء المشاقلين، ونهاية مقاصدهم، وأن معظم قصدهم الدنيا وحطامها فقال: ﴿فَإِنْ أَصَابَكُمْ مِصْيبَةٌ أَوْ هَزِيمَةٌ وَقُتِلَ وَظَفِرُ الْأَعْدَاءِ عَلَيْكُمْ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ، لَمَّا لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْحُكْمِ﴾. ﴿قَالَ﴾ ذلك التخلف ﴿قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا﴾ رأى من ضعف عقله وإيمانه أن التقاعد عن الجهاد الذي فيه تلك المصيبة نعمة. ولم يدرك أن النعمة الحقيقية هي التوفيق لهذه

ودعوتهم إلى الله تعالى ﴿والصديقين﴾ وهم: الذين كمل تصديقهم بما جاءت به الرسل، فعلموا الحق وصدقوه بيقينهم، وبالقيام به قولاً وعملاً وحالاً، ودعوة إلى الله، ﴿والشهداء﴾ الذين قاتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، فقتلوا، ﴿والصالحين﴾ الذين صلح ظاهراً وباطناً، فصلحت أعمالهم، فكل مَنْ أطاع الله تعالى كان مع هؤلاء وفي صحبتهم، ﴿وحسن أولئك رفيقاً﴾ بالاجتماع بهم في جنات النعيم، والانس بقربهم في جوار رب العالمين.

﴿ذلك الفضل﴾ الذي نالوه
﴿من الله﴾ فهو الذي وفقهم لذلك،
وأعانهم عليه، وأعطاهم من الثواب،
ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿وكفى بالله عليمًا﴾ يعلم أحوال عباده، ومن يستحق منهم الثواب الجزيل، بما قام به من الأعمال الصالحة، التي تواطأ عليها القلب والجوارح.

﴿٧١-٧٤﴾ يا أيها الذين آمنوا
خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا
جميعاً * وإن منكم لمن ليبطئن فإن
أصابكم مصيبة قال قد أئتم الله على إذ
لم أكن معهم شهيداً * ولئن أصابكم
فضل من الله ليقولن كان لم تكن بينكم
وبينه مودة يا لئني كنت معهم فأفوز
فوزاً عظيماً * فليقاتل في سبيل الله
الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن
يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب
فسوف نؤتيه أجراً عظيماً ﴿٧٤﴾ يأمر تعالى
عباده المؤمنين بأخذ حذرهم من
أعدائهم الكافرين . وهذا يشمل الأخذ
بجميع الأسباب ، التي بها يستعان على
قتالهم ، ويستدفع مكرهم وقوتهم ، من
استعمال الحصون والخنادق ، وتعلم
الرمي والركوب ، وتعلم الصناعات
التي تعين على ذلك ، وما به يعرف
مداخلهم ومخارجهم ، ومكرهم ،
والغفر في سبيل الله .

الطاعة الكبيرة، التي بها يقوى الإيمان، ويسلم بها العبد من العقوبة والخسران، ويحصل له فيها عظيم الثواب، ورضا الكريم الوهاب.

وأما القعود فإنه وإن استراح قليلاً، فإنه يعقبه تعب طويل وآلام عظيمة، ويفوته ما يحصل للمجاهدين.

ثم قال: ﴿ولئن أصابكم فضل من الله﴾ أي: نصر وغنيمة ﴿ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتني كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً﴾ أي: أتمنى أنه حاضر ليئال من الغامث، ليس له رغبة ولا قصد في غير ذلك، كأنه ليس منكم، يا معشر المؤمنين ولا بينكم وبينه المودة الإيمانية، التي^(١) من مقتضاها أن المؤمنين مشتركون في جميع مصالحهم ودفع مضارهم، يفرحون بحصولها ولو على يد غيرهم من إخوانهم المؤمنين^(٢)، ويألمون بفقدها، ويسعون جميعاً في كل أمر يصلحون به دينهم ودنياهم، فهذا الذي يتمنى الدنيا فقط، ليست معه الروح الإيمانية المذكورة.

ومن لطف الله بعباده أن لا يقطع عنهم رحمته ، ولا يخلق عنهم أبواها . بل من حصل منه غير ما يليق ، أمره ودعاه إلى جبر نقصه ، وتكميل نفسه ،

(١) في النسختين: الذي.

(٢) في النسختين: على يد غيره من أخوانه.



فلهذا أمر هؤلاء بالإخلاص، والخروج في سبيله، فقال: ﴿فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾. هذا أحد الأقوال في هذه الآية، وهو أصحها.

وقيل: إن معناه: فليقاتل في سبيل الله المؤمنون الكاملو الإيمان، الصادقون في إيمانهم ﴿الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة﴾ أي: يبيعون الدنيا رغبة عنها، بالآخرة رغبة فيها.

فإن هؤلاء هم الذين يوجه إليهم الخطاب، لأنهم الذين قد أعدوا أنفسهم ووطنوها على جهاد الأعداء، لما معهم من الإيمان التام المقتضي لذلك.

وأما أولئك المتشاقلون، فلا يعبا بهم، خرجوا أو قعدوا، فيكون هذا نظير قوله تعالى: ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا، إن الذين أتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا﴾ إلى آخر الآيات. وقوله: ﴿فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين﴾. وقيل: إن معنى الآية: فليقاتل المقاتل والمجاهد للكفار، الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة، فيكون على هذا الوجه «الذين» في محل نصب على المفعولية.

﴿ومن يقاتل في سبيل الله﴾ بأن يكون جهادا، قد أمر الله به ورسوله، ويكون العبد مخلصا لله فيه قاصدا

وجه الله. ﴿فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾ زيادة في إيمانه ودينه، وغنيمة، وثناء حسنا، وثواب المجاهدين في سبيل الله الذين أعد الله لهم في الجنة ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿٧٥﴾ ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من المؤمنين، ونهيح لهم على القتال في سبيله، وأن ذلك قد تعين عليهم، وتوجه اللوم العظيم عليهم بتركه فقال: ﴿وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله﴾ والحال أن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، ومع هذا فقد نالهم أعظم الظلم من أعدائهم، فهم يدعون الله أن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها لأنفسهم بالكفر والشرك وللمؤمنين بالأذى والصد عن سبيل الله، ومنعهم من الدعوة لدينهم والهجرة.

ويدعون الله أن يجعل لهم وليا ونصيرا، يستنقذهم من هذه القرية الظالم أهلها، فصار جهادكم على هذا الوجه من باب القتال، والذب عن عيلاتكم وأولادكم ومحارمكم، لا من باب الجهاد الذي هو الطمع في الكفار، فإنه وإن كان فيه فضل عظيم، ويلام المتخلف عنه أعظم لوم، فالجهاد الذي فيه استنقاذ المستضعفين منكم أعظم أجرا، وأكبر فائدة بحيث يكون من باب دفع الأعداء.

﴿٧٦﴾ ثم قال: ﴿الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾.

هذا إخبار من الله بأن المؤمنين يقاتلون في سبيله ﴿والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت﴾ الذي هو الشيطان. في ضمن ذلك عدة فوائد:

منها: أنه بحسب إيمان العبد يكون جهاده في سبيل الله، وإخلاصه ومتابعته. فالجهاد في سبيل الله من آثار الإيمان ومقتضياته ولوازمه، كما أن القتال في سبيل الطاغوت من شعب الكفر ومقتضياته.

ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله ينبغي له ويحس منه من الصبر والجلد ما لا يقوم به غيره، فإذا كان أولياء الشيطان يصبرون ويقاتلون وهم على باطل، فأهل الحق أولى بذلك، كما قال تعالى في هذا المعنى: ﴿إن تكونوا تآلمون فإنهم يألمون كما تآلمون، وترجون من الله ما لا يرجون﴾ الآية.

ومنها: أن الذي يقاتل في سبيل الله معتمد على ركن وثيق، وهو الحق، والتوكل على الله. فصاحب القوة والركن الوثيق، يطلب منه من الصبر والثبات والنشاط ما لا يطلب عن يقاتل عن الباطل، الذي لا حقيقة له ولا عاقبة حميدة. فلهذا قال تعالى: ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا﴾.

والكيد: سلوك الطرق الخفية في ضرر العدو، فالشيطان وإن بلغ مكروههما بلغ فإنه في غاية الضعف، الذي لا يقوم لأذى شيء من الحق، ولا لكيد الله لعباده المؤمنين.

﴿٧٧ - ٧٨﴾ ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون شيئا﴾ * أين ما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ كان المسلمون - إذ كانوا بمكة - مأمورين بالصلاة والزكاة، أي: مواساة الفقراء، لا الزكاة المعروفة ذات النصب والشروط، فإنها لم تفرض إلا بالمدينة، ولم يؤمروا بجهاد الأعداء، لعدة فوائد:

منها: أن من حكمة الباري تعالى أن يشرع لعباده الشرائع على وجه لا يشق

عليهم؛ ويبدأ بالأهم فالأهم، والأسهل فالأسهل.

ومنها: أنه لو فرض عليهم القتال - مع قلة عددهم وعُددهم، وكثرة أعدائهم - لأدى ذلك إلى اضمحلال الإسلام، فروعي جانب المصلحة العظمى على ما دونها، ولغير ذلك من الحكم.

وكان بعض المؤمنين يودون أن لو فرض عليهم القتال في تلك الحال، غير اللائق فيها ذلك، وإنما اللائق فيها القيام بما أمروا به في ذلك الوقت من التوحيد والصلاة والزكاة ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ تثبيتاً﴾ فلما هاجروا إلى المدينة، وقوي الإسلام، كُتب عليهم القتال في وقته المناسب لذلك، فقال فريق من الذين يستعجلون القتال قبل ذلك، خوفاً من الناس وضعفاً وخوراً: ﴿ربنا لم كتبت علينا القتال؟﴾ وفي هذا تضجرهم، واعتراضهم على الله، وكان الذي ينبغي لهم ضد هذه الحال، التسليم لأمر الله، والصبر على أوامره، فعكسوا الأمر المطلوب منهم، فقالوا: ﴿لولا أخرتنا إلى أجل قريب﴾ أي: هلا أخرت فرض القتال مدة متأخرة عن الوقت الحاضر، وهذه الحال كثيراً ما تعرض لمن هو غير رزين واستعجل في الأمور قبل وقتها، فالغالب عليه أنه لا يصبر عليها وقت حلولها، ولا ينوء بحملها، بل يكون قليل الصبر. ثم إن الله وعظهم عن هذه الحال، التي فيها التخلف عن القتال فقال: ﴿قل متاع الدنيا قليل والأخرة خير لمن أتقى﴾ أي: التمتع ببلذات الدنيا وراحتها قليل، فتحمل الأثقال في طاعة الله في المدة القصيرة مما يسهل على النفوس ويخف عليها؛ لأنها إذا علمت أن المشقة التي تنالها لا يطول لبثها، هان عليها ذلك، فكيف إذا وازنت بين الدنيا والأخرة، وأن الآخرة خير منها، في ذاتها، ولذاتها، وزمانها، فذاتها - كما ذكر النبي ﷺ في الحديث الثابت عنه - «أن موضع

سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها». ولذاتها صافية عن المكدرات، بل كل ما خطر بالبال، أو دار في الفكر من تصور لذة، فلذة الجنة فوق ذلك كما قال تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾. وقال الله على لسان نبيه: «أعدت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

وأما لذات الدنيا فإنها مشوبة بأنواع التنغيص، الذي لو قبل بين لذاتها وما يقترب بها من أنواع الآلام، والهموم والغوم، لم يكن لذلك نسبة بوجه من الوجوه.

وأما زمانها، فإن الدنيا منقضية، وعمر الإنسان بالنسبة إلى الدنيا شيء يسير، وأما الآخرة، فإنها دائمة النعيم، وأهلها خالدون فيها، فإذا فكر العاقل في هاتين الدارين، وتصور حقيقتهما حق التصور، عرف ما هو أحق بالإيثار، والسعي له، والاجتهاد لطلبه، ولهذا قال: ﴿والآخرة خير لمن اتقى﴾ أي: اتقى الشرك، وسائر المحرمات.

﴿ولا تظلمون قليلاً﴾ أي: فسيحكم للدار الآخرة، ستجدونه كاملاً موفراً، غير منقوص منه شيئاً.

ثم أخبر أنه لا يغني حذر عن قدر، وأن القاعد لا يدفع عنه قعوده شيئاً، فقال: ﴿أين ما تكونوا يدر كرم الموت﴾ أي: في أي زمان، وأي مكان. ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ أي: قصور منيعة، ومنازل رفيعة، وكل هذا حث على الجهاد في سبيل الله تارة بالترغيب في فضله وثوابه، وتارة بالترهيب من عقوبة تركه، وتارة بالإخبار أنه لا ينفع القاعدين قعودهم، وتارة بتسهيل الطريق في ذلك وقصرها.

﴿٧٨ - ٨٠﴾ ثم قال: ﴿وإن تصيبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصيبهم سئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من

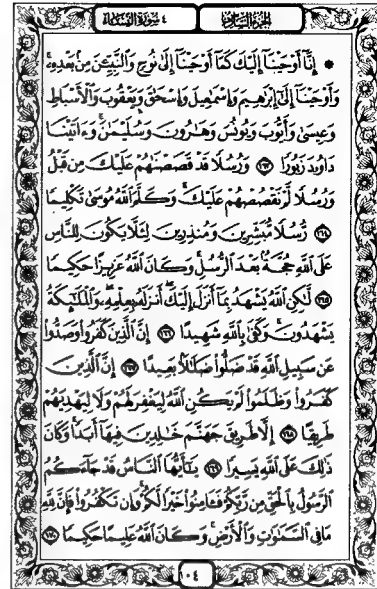
فما أصابهم من سئمة وكفرهم، يكذب الله وقيلهم لا يثبتهم بعديهم وقيلهم قلوب غفلت بل طبع الله عليها كبرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً. ويكفرهم وقيلهم على مريم نعتنا عيسى. وقيلهم إننا قلنا للصبح عيسى بن مريم رسول الله وما قلناه وما صلبوه ولكن شبه لهم ذلك الذين استنزلوا من آل شريك من آلهم به من علم إلا أنشأه الظن وما قلناه يقيناً. بل دفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً. ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته وهم أعلمون﴾ ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾. وقال الله على لسان نبيه: «أعدت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

سئمة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيداً * من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً. يخبر تعالى عن الذين لا يعلمون، المعرضين عما جاءت به الرسل، المعارضين لهم، أنهم إذا جاءتهم حسنة، أي: خصب وكثرة أموال، وتوفر أولاد وصحة، قالوا: ﴿هذه من عند الله﴾ وأنهم إن أصابتهم سئة، أي: جدد، وفقر، ومريض، وموت أولاد وأحباب قالوا: ﴿هذه من عندك﴾ أي: بسبب ما جئتنا به يا محمد، تطيروا برسول الله ﷺ، كما تطير أمثالهم برسول الله، كما أخبر الله عن قوم فرعون أنهم قالوا لموسى: ﴿فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سئة تطيروا بموسى ومن معه﴾.

وقال قوم صالح: ﴿قالوا اطيرنا بك وبمن معك﴾.

وقال قوم ياسين لرسلهم: ﴿إننا تطيرنا بكم لننظروا لنتربصكم﴾ الآية. فلما تشابهت قلوبهم بالكفر، تشابهت أقوالهم وأعمالهم. وهكذا كل من نسب حصول الشر أو زوال الخير لما جاءت به الرسل أو لبعضه، فهو داخل في هذا الذم الخويم.

قال الله في جوابهم: ﴿قل كل﴾ أي: من الحسنة والسئة، والخير والشر. ﴿من عند الله﴾ أي: بقضائه



وقدره وخلقه. ﴿فما لهؤلاء القوم﴾ أي: الصادر منهم تلك المقالة الباطلة. ﴿لا يكادون يفقهون حديثاً﴾ أي: لا يفهمون حديثاً بالكلية، ولا يقربون من فهمه، أو لا يفهمون منه إلا فهماً ضعيفاً، وعلى كل فهو ذم لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن الله وعن رسوله، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم.

وفي ضمن ذلك مدح من يفهم عن الله وعن رسوله، والحث على ذلك، وعلى الأسباب المعينة على ذلك، من الإقبال على كلامهما وتدبره، وسلوك الطرق الموصلة إليه. فلو فقهوا عن الله لعلموا أن الخير والشر والحسنات والسيئات كلها بقضاء الله وقدره، لا يخرج منها شيء عن ذلك.

وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام، لا يكونون سبباً لشر يحدث، هم ولا ما جاؤوا به، لأنهم بعثوا بصلاح الدنيا والآخرة والدين.

ثم قال تعالى: ﴿ما أصابك من حسنة﴾ أي: في الدين والدنيا ﴿فمِنَ اللَّهِ﴾ هو الذي من بها ويسرها بتيسير أسبابها. ﴿وما أصابك من سيئة﴾ أي: في الدين والدنيا ﴿فمن نفسك﴾ أي: بذنوبك وكسبك، وما يعفو الله عنه أكثر.

فإنه تعالى قد فتح لعباده أبواب إحسانه، وأمرهم بالدخول لبره

وفضله، وأخبرهم أن المعاصي مانعة من فضله، فإذا فعلها العبد فلا يلومن إلا نفسه فإنه المانع لنفسه، عن وصول فضل الله وبره.

ثم أخبر عن عموم رسالة رسوله محمد ﷺ فقال: ﴿وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً﴾ على أنك رسول الله حقاً بما أيدك بنصره، والمعجزات الباهرة، والبراهين الساطعة، فهي أكبر شهادة على الإطلاق، كما قال تعالى: ﴿قل أي: شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم﴾ فإذا علم أن الله تعالى، كامل العلم، تام القدرة، عظيم الحكمة، وقد أيد الله رسوله بما أيده، ونصره نصراً عظيماً، تيقن بذلك أنه رسول الله، وإلا فلو تقول عليه بعض الأقاويل، لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين.

﴿٨٠ - ٨١﴾ من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً * ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ أي: كل من أطاع رسول الله في أوامره ونواهيه فقد أطاع الله تعالى، لكونه لا يأمر ولا ينهى إلا بأمر الله، وشرعه، ووحيه وتنزيله، وفي هذا عصمة الرسول ﷺ لأن الله أمر بطاعته مطلقاً، فلولاً أنه معصوم في كل ما يبلغ عن الله، لم يأمر بطاعته مطلقاً، ويمدح على ذلك.

وهذا من الحقوق المشتركة، فإن الحقوق ثلاثة: حق الله تعالى، لا يكون لأحد من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه، وتوابع ذلك. وقسم مختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير والنصرة. وقسم مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله، ومحبتهم وطاعتهم كما جمع الله بين هذه الحقوق في قوله: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾.

حق الله تعالى، لا يكون لأحد من الخلق، وهو عبادة الله والرغبة إليه، وتوابع ذلك.

وقسم مختص بالرسول، وهو التعزير والتوقير والنصرة. وقسم مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله، ومحبتهم وطاعتهم كما جمع الله بين هذه الحقوق في قوله: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾.

وقسم مشترك، وهو الإيمان بالله ورسوله، ومحبتهم وطاعتهم كما جمع الله بين هذه الحقوق في قوله: ﴿لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾.

فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، وله من الثواب والخير، ما رتب على طاعة الله، ﴿ومن تولى﴾ عن طاعة الله ورسوله، فإنه لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ أي: تحفظ أعمالهم وأحوالهم، بل أرسلناك مبلغاً ومبيناً وناصحاً، وقد أديت وظيفتك، ووجب أجرك على الله، سواء اهتموا أم لم يهتموا. كما قال تعالى: ﴿فذکر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر﴾ الآية.

ولا بد أن تكون طاعة الله ورسوله ظاهراً وباطناً، في الحضرة والمغيب. فأما من يظهر في الحضرة الطاعة والالتزام، فإذا خلا بنفسه أو أبناء جنسه، ترك الطاعة وأقبل على ضدها، فإن الطاعة التي أظهرها غير نافعة ولا مفيدة، وقد أشبه من قال الله فيهم: ﴿ويقولون طاعة﴾ أي: يظهرن الطاعة إذا كانوا عندك. ﴿فإذا برزوا من عندك﴾ أي: خرجوا وخلوا في حالة لا يطلع فيها عليهم. ﴿بيت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ أي: بيتوا ودبروا غير طاعتك ولا ثم إلا المعصية.

وفي قوله: ﴿بيت طائفة منهم غير الذي تقول﴾ دليل على أن الأمر الذي استقروا عليه غير الطاعة؛ لأن التبيت تدبير الأمر ليلاً على وجه يستقر عليه الرأي، ثم توعدهم على ما فعلوا فقال: ﴿والله يكتب ما يبيتون﴾ أي: يحفظه عليهم، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء، ففيه وعيد لهم.

ثم أمر رسوله بمقابلتهم بالإعراض، وعدم التعنيف، فإنهم لا يضرونه شيئاً إذا توكل على الله، واستعان به في نصر دينه، وإقامة شرعه. ولهذا قال: ﴿فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾

﴿٨٢﴾ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ يأمر تعالى بتدبر كتابه، وهو التأمل في معانيه، وتحديق الفكر فيه، وفي مبادئه وعواقبه، ولوازم

مصيبة عليهم، أن يثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعة ذلك الخبر، بل يردونه إلى الرسول، وإلى أولى الأمر منهم، أهل الرأي: والعلم والنصح، والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدها.

فإن رأوا في إذاعته مصلحة ونشاطاً للمؤمنين وسروراً لهم وتحزراً من أعدائهم، فعلوا ذلك. وإن رأوا أنه ليس فيه مصلحة^(١)، أو فيه مصلحة ولكن مضرته تزيد على مصلحته، لم يذيعوه، ولهذا قال: «لعلهم الذين يستنبطونه منهم» أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائهم السديدة، وعلومهم الرشيدة.

وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور، ينبغي أن يوثق من هو أهل لذلك، ويجعل إلى أهله، ولا يتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب وأحرى للسلامة من الخطأ. وفيه النهي عن العجلة والتسرع لنشر الأمور من حين سماعها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر فيه، هل هو مصلحة، فيقدم عليه الإنسان، أم لا؟ فيحجم عنه؟

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي: في توفيقكم وتأييدكم، وتعليمكم ما لم تكونوا تعلمون، «لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» لأن الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فلا تأمره نفسه إلا بالشر. فإذا لجأ إلى ربه واعتصم به، واجتهد في ذلك، لطف به ربه ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم.

﴿٨٤﴾ «فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفَلُ إِلَّا نَفْسُكَ وَحِرْضَ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسْ أَلْسِنَتِكَ كَفْرًا» والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً هذه الحالة أفضل أحوال العبد، أن يجتهد في نفسه على امتثال أمر الله من الجهاد وغيره، ويجرض غيره عليه، وقد يعدم في العبد الأمران أو أحدهما، فلماذا قال

ذلك، فإن تدبر كتاب الله مفتاح للعلوم والمعارف، وبه يستنتج كل خير وتستخرج منه جميع العلوم، وبه يزداد الإيمان في القلب، وترسخ شجرته.

فإنه يعرف بالرب المعبود، وما له من صفات الكمال وما ينزه عنه من سمات النقص، ويعرف الطريق الموصلة إليه، وصفة أهلها، وما لهم عند القدوم عليه، ويعرف العدو الذي هو العدو على الحقيقة، والطريق الموصلة إلى العذاب، وصفة أهلها، وما لهم عند وجود أسباب العقاب.

وكلما ازداد العبد تأملاً فيه، ازداد علماً وعملاً وبصيرة، لذلك أمر الله بذلك، وحث عليه، وأخبر أنه [هو] المقصود بإزالة القرآن، كما قال تعالى: ﴿كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالٍهَا﴾.

ومن فوائد التدبر لكتاب الله: أنه بذلك يصل العبد إلى درجة اليقين، والعلم بأنه كلام الله، لأنه يراه يصدق بعضه بعضاً، ويوافق بعضه بعضاً. فترى الحكم والقصة والإخبارات تعاد في القرآن في عدة مواضع، كلها متوافقة متصادقة، لا ينقض بعضها بعضاً، فبذلك يعلم كمال القرآن، وأنه من عند مَنْ أحاط علمه بجميع الأمور، فلذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ أي: فلما كان من عند الله لم يكن فيه اختلاف أصلاً.

﴿٨٣﴾ «وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا» هذا تأديب من الله لعباده عن فعلهم هذا غير اللائق. وأنه ينبغي لهم إذا جاءهم أمر من الأمور المهمة، والمصالح العامة ما يتعلق بالأمن، وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه



لرسوله: «فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفَلُ إِلَّا نَفْسُكَ» أي: ليس لك^(٢) قدرة على غير نفسك، فلن تكلف بفعل غيرك.

«وَحِرْضَ الْمُؤْمِنِينَ» على القتال، وهذا يشمل كل أمر يحصل به نشاط المؤمنين وقوة قلوبهم، من تقويتهم، والإخبار بضعف الأعداء، وفشلهم، وبما أعد الله للمقاتلين من الثواب، وما على المتخلفين من العقاب، فهذا وأمثاله كله يدخل في التحريض على القتال.

«عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكْفِ بِأَسْ الَّذِينَ كَفَرُوا» أي: بقتالكم في سبيل الله، وتحريض بعضكم بعضاً. «والله أشد بأساً» أي: قوة وعزة «وأشد تنكيلاً» بالذنوب في نفسه وتنكيلاً لغيره، فلو شاء تعالى لانتصر من الكفار بقوته ولم يجعل لهم بقية.

ولكن من حكمته يبلو بعض عباده ببعض، ليقوم سوق الجهاد، ويحصل الإيمان النافع، إيمان الاختيار، لا إيمان الاضطرار والقهر الذي لا يفيد شيئاً.

﴿٨٥﴾ «مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا» المراد بالشفاعة هنا:

ويؤخذ من الآية الكريمة الحث على

ابتداء السلام والتحية، من وجهين: أحدهما: أن الله أمر بردها بأحسن منها، أو مثلها، وذلك يستلزم أن التحية مطلوبة شرعاً.

الثاني: ما يستفاد من أفعل التفضيل، وهو «أحسن» الدال على مشاركة التحية وردّها بالحسن، كما هو الأصل في ذلك.

ويستثنى من عموم الآية الكريمة مَنْ حيا بحال غير مأمور بها، كـ «على» مشتغل بقراءة، أو استماع خطبة، أو مصلى ونحو ذلك فإنه لا يطلب إجابة تحيته، وكذلك يستثنى من ذلك من أمر الشارع بهجره، وعدم تحيته، وهو العصاة غير الثابت الذي يرتدع بالهجر، فإنه يهجر ولا يحيا، ولا ترد تحيته، وذلك لمعارضة المصلحة الكبرى.

ويدخل في رد التحية كل تحية اعتادها الناس، وهي غير محظورة شرعاً، فإنه مأمور بردها أو أحسن منها، ثم أوعد تعالى وتوعد على فعل الحسنات والسيئات بقوله: «إِنْ الله كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً» فيحفظ على العباد أعمالهم، حسننها وسيئها، صغيرها وكبيرها، ثم يجازيهم بما اقتضاه فضله وعدله وحكمه المحمود.

﴿٨٧﴾ «الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ومن أصدق من الله حديثاً» يخبر تعالى، عن انفراد بالوحدانية، وأنه لا معبود ولا مألوه إلا هو، لكماله في ذاته وأوصافه، ولكونه المنفرد بالخلق والتدبير، والنعم الظاهرة والباطنة.

وذلك يستلزم الأمر بعبادته، والتقرب إليه بجميع أنواع العبودية. لكونه المستحق لذلك وحده، والمجازي للعباد بما قاموا به من عبوديته أو تركوه منها، ولذلك أقسم على وقوع محل الجزاء وهو يوم القيامة، فقال: «ليجمعنكم» أي: أولكم



المعاونة على أمر من الأمور، فمن شفع غيره وقام معه على أمر من أمور الخير - ومنه الشفاعة للمظلومين لمن ظلمهم - كان له نصيب من شفاعته، بحسب سعيه وعمله ونفعه، ولا ينقص من أجر الأصيل والمباشر شيء، ومن عاون غيره على أمر من الشر، كان عليه كفل من الإثم بحسب ما قام به وعاون عليه. ففي هذا الحث العظيم على التعاون على البر والتقوى، والزجر العظيم عن التعاون على الإثم والعدوان وقرر ذلك بقوله: «وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْبِطاً» أي: شاهداً حفيظاً، حسيباً على هذه الأعمال، فيجازي كلا ما يستحقه.

﴿٨٦﴾ «وَإِذَا حَبِيتُمْ بُحِيهًا فَأَحْسِنُوا مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً» التحية هي اللفظ الصادر من أحد المتلاقيين، على وجه الإكرام والدعاء، وما يقتدر بذلك اللفظ من البشاشة ونحوها.

وأعلى أنواع التحية ما ورد به الشرع، من السلام ابتداء ورداً. فأمر تعالى المؤمنين أنهم إذا حياوا بأي تحية كانت، أن يردوها بأحسن منها لفظاً وبشاشة، أو مثلها في ذلك. ومفهوم ذلك النهي عن عدم الرد بالكلية، أو ردها بدونها.

احتراماً لهم، لا خوفاً على أنفسهم، وأما هذه الفرقة فتركوه خوفاً لا احتراماً، بل لو وجدوا فرصة في قتال المؤمنين، فلأنهم مستعدون^(١) لانتهازها، فهؤلاء إن لم يتبين منهم، ويتضح اتصاحاً عظيماً اعتزال المؤمنين وترك قتالهم، فلأنهم يقاتلون، ولهذا قال: ﴿فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم﴾ أي: المسالة والمواعدة ﴿ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً﴾ أي: حجة بينة واضحة، لكونهم معتدين ظالمين لكم تاركين للمسالة، فلا يلومون إلا أنفسهم.

﴿٩٢﴾ ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله، وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله وكان الله عليماً حكيماً﴾ هذه الصيغة من صيغ الامتناع، أي: يمتنع ويستحيل، أن يصدر من مؤمن قتل مؤمن، أي: متعمداً، وفي هذا الإخبار بشدة تحريمه، وأنه مناف للإيمان أشد منافاة، وإنما يصدر ذلك إما من كافر، أو من فاسق قد نقص إيمانه نقصاً عظيماً، ويخشى عليه ما هو أكبر من ذلك، فإن الإيمان الصحيح يمنع المؤمن من قتل أخيه الذي قد عقد الله بينه وبينه الأخوة الإيمانية، التي من مقتضاها محبته وموالاته، وإزالة ما يعرض لأخيه من الأذى، وأي: أذى أشد من القتل؟

وهذا يصدق قوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب

فرقتين أمر بتركهم وحتم [على] ذلك، إحداهما^(٢) من يصل إلى قوم بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق بترك القتال، فينضم إليهم، فيكون له حكمهم في حقن الدم والمال.

والفرقة الثانية قوم «حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم» أي: بقوا، لا تسمح أنفسهم بقتالكم، ولا بقتال قومهم، وأحبوا ترك قتال الفريقين، فهؤلاء أيضاً أمر بتركهم، وذكر الحكمة بذلك في قوله: ﴿ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم﴾ فإن الأمور الممكنة ثلاثة أقسام:

إما أن يكونوا معكم ويقاتلوا أعداءكم، وهذا متعذر من هؤلاء، فدار الأمر بين قتالكم مع قومهم، وبين ترك قتال الفريقين، وهو أهون الأمرين عليكم، والله قادر على تسليطهم عليكم، فاقبلوا العافية، واحدوا ربكم الذي كف أيديهم عنكم مع التمكن من ذلك.

فهؤلاء «إن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً»

الفرقة الثالثة: قوم يريدون مصلحة أنفسهم، بقطع النظر عن احترامكم، وهم الذين قال الله فيهم: «ستجدون آخرين» أي: من هؤلاء المنافقين. «يريدون أن يأمنوكم» أي: خوفاً منكم «ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها» أي: لا يزالون مقيمين على كفرهم ونفاقهم، وكلما عرض لهم عارض من عوارض الفتن، أعماهم ونكسهم على رؤوسهم، وازداد كفرهم ونفاقهم، وهؤلاء في الصورة كالفرقة الثانية، وفي الحقيقة مخالفة لها.

فإن الفرقة الثانية تركوا قتال المؤمنين

أركسوا فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً» المراد بالمنافقين المذكورين في هذه الآيات: المنافقون المظهرون إسلامهم، ولم يهاجروا مع كفرهم، وكان قد وقع بين الصحابة رضوان الله عليهم فيه اشتباه، فبعضهم تخرج عن قتالهم، وقطع موالاتهم بسبب ما أظهره من الإيمان، وبعضهم علم أحوالهم بقرائن أفعالهم، فحكم بكفرهم، فأخبرهم الله تعالى أنه لا ينبغي لكم أن تشبهوا فيهم ولا تشكوا، بل أمرهم واضح غير مشكل، إنهم منافقون قد تكرر كفرهم، وودوا مع ذلك كفرهم، وأن تكونوا مثلهم. فإذا تحققت ذلك منهم «فلا تتخذوا منهم أولياء» وهذا يستلزم عدم محبتهم، لأن الولاية فرع المحبة.

ويستلزم أيضاً بغضهم وعداوتهم، لأن النهي عن الشيء أمر بضده، وهذا الأمر موقت بهجرتهم، فإذا هاجروا جرى عليهم ما جرى على المسلمين، كما كان النبي ﷺ يجري أحكام الإسلام لكل من كان معه وهاجر إليه، وسواء كان مؤمناً حقيقة أو ظاهر الإيمان.

وأهم إن لم يهاجروا وتولوا عنها «فخذوهم واقتلوهم حيث ثقتموهم» أي: في أي: وقت، وأي: محل كان، وهذا من جملة الأدلة الدالة، على نسخ القتال في الأشهر الحرم، كما هو قول جمهور العلماء، والمنازعون يقولون: هذه نصوص مطلقة، محمولة على تقييد التحريم في الأشهر الحرم.

ثم إن الله استثنى من قتال هؤلاء المنافقين ثلاث فرق:

(١) في هامش أ: (وقد ثبت في الصحيحين من حديث زيد بن أرقم أن رسول الله ﷺ، خرج إلى أحد، فرجع ناس خرجوا معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا فأئز الله: «فما لكم في المنافقين فئتين» فقال رسول الله ﷺ: «إنها طيبة، وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الحديد». وليس هناك علامة تدل على محل هذه الزيادة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أحدها.

(٣) في ب: سيقدّمون.

بعضكم رقاب بعض». فعمل أن القتل من الكفر العملي، وأكبر الكبائر بعد الشرك بالله.

ولما كان قوله: ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً﴾ لفظاً عاماً لجميع الأحوال، وأنه لا يصدر منه قتل أخيه بوجه من الوجوه، استثنى تعالى قتل الخطأ فقال: ﴿إلا خطأ﴾ فإن المخطيء الذي لا يقصد القتل غير آثم، ولا متجربى على محارم الله، ولكنه لما كان قد فعل فعلاً شنيعاً، وصورته كافية في قبحه، وإن لم يقصده أمر تعالى بالكفارة والدية فقال: ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ﴾ سواء كان القاتل ذكراً أو أنثى، حراً أو عبداً، صغيراً أو كبيراً، عاقلاً أو مجنوناً، مسلماً أو كافراً، كما يفيد لفظ «مَنْ» الدالة على العموم، وهذا من أسرار الإتيان بـ «مَنْ» في هذا الموضع، فإن سياق الكلام يقتضي أن يقول: فإن قتله، ولكن هذا لفظ لا يشمل ما تشمله «مَنْ».

وسواء كان المقتول ذكراً أو أنثى، صغيراً أو كبيراً، كما يفيد التثنية في سياق الشرط، فإن على القاتل «تحرير رقبة مؤمنة» كفارة لذلك، تكون في ماله، ويشمل ذلك الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والصحيح والمعيب، في قول بعض العلماء.

ولكن الحكمة تقتضي أن لا يجزى عتق المعيب في الكفارة؛ لأن المقصود بالعتق نفع العتيق، وملكه منافع نفسه، فإذا كان يضيع بعتقه، ويقاؤه في الرق أنفع له، فإنه لا يجزى عتقه، مع أن في قوله: ﴿تحرير رقبة﴾ ما يدل على ذلك؛ فإن التحرير: تخليص مَنْ استحققت منافعه لغيره أن تكون له، فإذا لم يكن فيه منافع، لم يتصور وجود التحرير. فتأمل ذلك، فإنه واضح.

وأما الدية فإنها تجب على عاقلة القاتل في الخطأ وشبه العمد.

﴿مسلمة إلى أهله﴾ جبراً لقلوبهم، والمراد بأهله هنا هم ورثته، فإن الورثة يرثون ما ترك الميت، فالدية داخلة فيما

ترك، وللدية تفاصيل كثيرة مذكورة في كتب الفقه.

وقوله: ﴿إلا أن يصدقوا﴾ أي: يتصدق ورثة القاتل بالعفو عن الدية، فإنها تسقط، وفي ذلك حث لهم على العفو، لأن الله سماها صدقة، والصدقة مطلوبة في كل وقت. ﴿فإن كان المقتول من قوم عدو لكم﴾ أي: من كفار حربيين ﴿وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة﴾ أي: وليس عليكم لأهله دية، لعدم احترامهم في دمائهم وأموالهم.

﴿وإن كان المقتول من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة﴾ وذلك لاحترام أهله بما لهم من العهد والميثاق.

﴿فمن لم يجد الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسراً بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة، فصيام شهرين متتابعين﴾ أي: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر، فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحيف ونحوهما. وإن كان لغير عذر، انقطع التتابع، ووجب عليه استئناف الصوم.

﴿توبة من الله﴾ أي: هذه الكفارة التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده، ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيراً للقاتل خطأ.

﴿وكان الله عليمًا حكيمًا﴾ أي: كامل العلم كامل الحكمة، لا يخفى عليه مشقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، في أي: وقت كان وأي: محل كان.

ولا يخرج عن حكمته من المخلوقات والشرائع شيء، بل كل ما خلقه وشرعه، فهو متضمن لغاية الحكمة، ومن علمه وحكمته أن أوجب على القاتل كفارة مناسبة لما

صدر منه، فإنه تسبب لإعدام نفس محترمة، وأخرجها من الوجود إلى العدم، فناسب أن يعتق رقبة ويخرجها من رق العبودية للخلق إلى الحرية التامة، فإن لم يجد هذه الرقبة صام شهرين متتابعين، فأخرج نفسه من رق الشهوات واللذات الحسية القاطعة للعبد عن سعادته الأبدية إلى التعبد لله تعالى بتركها تقريباً إلى الله.

ومدها تعالى بهذه المدة الكثيرة الشاقة في عددها، ووجوب التتابع فيها، ولم يشترط الإطعام في هذا الموضع لعدم المناسبة. بخلاف الظهار، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

ومن حكمته أن أوجب في القتل الدية، ولو كان خطأ، لتكون رادعة وكافة عن كثير من القتل، باستعمال الأسباب العاصمة عن ذلك.

ومن حكمته أن وجبت على العاقلة في قتل الخطأ، بإجماع العلماء، لكون القاتل لم يذنب فيشق عليه أن يحمل هذه الدية الباهظة، فناسب أن يقوم بذلك من بينه وبينهم المعاونة والمناصرة، والمساعدة على تحصيل المصالح وكف المفساد [ولعل ذلك من أسباب منعهم لمن يعقلون عنه من القتل حذراً من تحميلهم^(١)، ويخف عنهم^(٢) بسبب توزيعه عليهم بقدر أحوالهم وطاقتهم، وخففت أيضاً بتأجيلها عليهم ثلاث سنين.

ومن حكمته وعلمه أن جبر أهل القاتل عن مصيبتهم، بالدية التي أوجبها على أولياء القاتل.

﴿٩٣﴾ ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾ تقدم أن الله أخبر أنه لا يصدر قتل المؤمن من المؤمن، وأن القتل من الكفر العملي، وذكر هنا وعيد القاتل عمداً، وعيداً ترجف له القلوب، وتنصدع له الأفئدة، وتنزع منه أولو العقول.

فلم يرد في أنواع الكبائر أعظم من هذا الوعيد، بل ولا مثله، ألا وهو

مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتيبوا إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴿٩٤﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهاداً في سبيله، وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتبينوا في جميع أمورهم المشتبهة.

فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة.

فالواضحة البينة لا تحتاج إلى تثبت وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل.

وأما الأمور المشككة غير الواضحة، فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟ فإن التثبت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكف لشورٍ عظيمة، ما به يعرف دين العبد وعقله وورثته، بخلاف المستعجل للأمور في بدايتها^(١)، قبل أن يتبين له حكمها، فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي، كما جرى لهؤلاء الذين عاتبهم الله في الآيات، لما يتثبتوا وقتلوا من سلم عليهم، وكان معه غنيمة له أو مال غيره، ظناً أنه يستكفي بذلك قتلهم، وكان هذا خطأ في نفس الأمر، فلهذا عاتبهم بقوله: ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة﴾ أي: فلا يحملنكم العرض الفاني القليل، على ارتكاب ما لا ينبغي فيفوتكم ما عند الله من الثواب الجزيل الباقي، فما عند الله خير وأبقى.

وفي هذا إشارة إلى أن العبد ينبغي له إذا رأى دواعي نفسه مائلة إلى حالة له فيها هوى، وهي مضرة له أن يذكرها ما أعد الله لمن هوى نفسه عن هواها، وقدم مرضاة الله على رضا نفسه، فإن في ذلك ترغيباً للنفس في امتثال أمر الله، وإن شق ذلك عليها.

ثم قال تعالى مذكراً لهم بحالهم الأولى، قبل هدايتهم إلى الإسلام: ﴿كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم﴾ أي: فكما هداكم بعد ضلالكم، فكذلك يهدي غيركم،

وهو مقتضى الحكمة السارية في الوجود، وبه ارتباط الأسباب ومسبباتها، خلقاً وأمرأ، وقد جعل الله سبحانه لكل ضد ضدّاً يدافعه ويقاومه، ويكون الحكم للأغلب منهما.

فالقوة مقتضية للصحة والعافية، وفساد الأخلاط وبغيها مانع من عمل الطبيعة، وفعل القوة، والحكم للغالب منهما، وكذلك قوى الأدوية والأمراض. والعبد يكون فيه مقتض للصحة، ومقتض للعطب، وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر ويقاومه، فإذا ترجح عليه وقهره، كان التأثير له.

ومن هنا يعلم انقسام الخلق إلى مَنْ يدخل الجنة ولا يدخل النار، وعكسه، ومَنْ يدخل النار ثم يخرج منها، ويكون مكثه فيها بحسب ما فيه من مقتضى المكث في سرعة الخروج وبطئه. ومَنْ له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله به في كتابه، من أمر المعاد وتفصيله، حتى كأنه يشاهده رأي: عين.

ويعلم أن هذا هو مقتضى إلهيته سبحانه، وربوبيته، وعزته، وحكمته، وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك، ونسبة ذلك إليه نسبة ما لا يليق به إليه، فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته، كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره.

وهذا يقين الإيمان، وهو الذي يحرق السيئات، كما تحرق النار الحطب، وصاحب هذا المقام من الإيمان يستحيل إصراره على السيئات، وإن وقعت منه وكثرت، فإن ما معه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله في عدد أنفاسه، وهذا من أحب الخلق إلى الله. انتهى كلامه، قدس الله روحه، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيراً.

﴿٩٤﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتيبوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله

الإخبار بأن جزاء جهنم، أي: فهذا الذنب العظيم قد انتهض وحده أن يجازى صاحبه بجهنم، بما فيها من العذاب العظيم، والخزي المهين، وسخط الجبار وفوات الفوز والفلاح، وحصول الخيبة والخسار. فعباداً بالله من كل سبب يبعد عن رحمته.

وهذا الوعيد له حكم أمثاله من نصوص الوعيد، على بعض الكبائر والمعاصي بالخلود في النار، أو حرمان الجنة.

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله في تأويلها، مع اتفاقهم على بطلان قول الخوارج والمعتزلة الذين يخلدونهم في النار ولو كانوا موحدين. والصواب في تأويلها ما قاله الإمام المحقق: شمس الدين بن القيم رحمه الله في «المدارج» فإنه قال - بعدما ذكر تأويلات الأئمة في ذلك وانتقدها فقال:

وقالت فرقة: هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضي للعقوبة، ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده، فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه.

وغاية هذه النصوص الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتض لها، وقد قام الدليل على ذكر الموانع، فبعضها بالإجماع، وبعضها بالنص. فالتوبة مانع بالإجماع، والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التي لا مدفع لها والحسنات العظيمة الماحية مانعة، والمصائب الكبار المكفرة مانعة، وإقامة الحدود في الدنيا مانع بالنص، ولا سبيل إلى تعطيل هذه النصوص، فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين.

ومن هنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات، اعتباراً بمقتضى العقاب ومأنه، وإعمالاً لأرجحها.

قالوا: وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدهما. وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية، والأحكام القدريّة،

وكما أن الهداية حصلت لكم شيئاً فشيئاً، فكذلك غيركم.

فنظر الكامل لحاله الأولى الناقصة، ومعاملته لمن كان على مثلها، بمقتضى ما يعرف من حاله الأولى، ودعاؤه له بالحكمة والموعظة الحسنة - من أكبر الأسباب لنفعه وانتفاعه، ولهذا أعاد الأمر بالتين فقال: ﴿تَبَيَّنُوا﴾.

فإذا كان مَنْ خرج للجهاد في سبيل الله، ومجاهدة أعداء الله، وقد استعد بأنواع الاستعداد للإيقاع بهم، مأموراً بالتبين لمن ألقى إليه السلام، وكانت القرينة قوية، في أنه إنما سلم تعوداً من القتل، وخوفاً على نفسه - فإن ذلك يدل على الأمر بالتين والتثبت في كل الأحوال التي يقع فيها نوع اشتباه، فيثبت فيها العبد، حتى يتضح له الأمر ويبين الرشد والصواب.

﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ فيجازي كلاً ما عمله ونواه، بحسب ما علمه من أحوال عباده ونياتهم.

﴿٩٥ - ٩٦﴾ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيماً * درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفوراً رحيماً * أي: لا يستوي مَنْ جاهد من المؤمنين بنفسه وماله، وَمَنْ لم يخرج للجهاد ولم يقاتل أعداء الله، ففيه الحث على الخروج للجهاد، والترغيب في ذلك، والترهيب من التكاسل والقعود عنه من غير عذر.

وأما أهل الضرر كالمريض والأعمى والأعرج، والذي لا يجد ما يتجهز به، فإنهم ليسوا بمنزلة القاعدين من غير عذر، فَمَنْ كان من أولي الضرر راضياً بقعوده، لا ينوي الخروج في سبيل الله لولا [وجود] المانع، ولا يحدث نفسه بذلك، فإنه بمنزلة القاعد لغير عذر.

وَمَنْ كان عازماً على الخروج في

سبيل الله لولا وجود المانع، يتمنى ذلك ويحدث به نفسه، فإنه بمنزلة مَنْ خرج للجهاد، لأن النية الجازمة إذا اقترنت بها مقدورها من القول أو الفعل ينزل صاحبها منزلة الفاعل.

ثم صرح تعالى بتفضيل المجاهدين على القاعدين بالدرجة، أي: الرفعة، وهذا تفضيل على وجه الإجمال، ثم صرح بذلك على وجه التفصيل، ووعدهم بالمغفرة الصادرة من ربهم، والرحمة التي تشتمل على حصول كل خير، واندفاع كل شر.

والدرجات التي فصلها النبي ﷺ بالحديث الثابت عنه في «الصححين»، أن في الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله.

وهذا الثواب الذي رتبته الله على الجهاد، نظير الذي في سورة الصف في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ. تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ إلى آخر السورة.

وتأمل حسن هذا الانتقال، من حالة إلى أعلى منها، فإنه نفى التسوية أولاً بين المجاهد وغيره، ثم صرح بتفضيل المجاهد على القاعد بدرجة، ثم انتقل إلى تفضيله بالمغفرة والرحمة والدرجات.

وهذا الانتقال من حالة إلى أعلى منها عند التفضيل والمدح، أو النزول من حالة إلى ما دونها، عند القدح والذم - أحسن لفظاً، وأوقع في النفس.

وكذلك إذا فضل تعالى شيئاً على شيء، وكل منهما له فضل، احتترز بذكر الفضل الجامع للأمرين، لئلا يتوهم أحد ذم الفضل عليه كما قال هنا: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾.

وكما [قال تعالى] في الآيات المذكورة في الصف في قوله: ﴿وَبَشِّرِ

الْمُؤْمِنِينَ﴾. وكما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلٌ﴾ أي: مَنْ لم يكن كذلك. ثم قال: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ وكما قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّا آتَيْنَاهَا حُكْماً وَعِلْماً﴾ فينبغي لمن بحث في التفضيل بين الأشخاص والطوائف والأعمال، أن يتفطن لهذه النكتة.

وكذلك لو تكلم في ذم الأشخاص والمقالات، ذكر ما تجتمع فيه عند تفضيل بعضها على بعض، لئلا يتوهم أن المفضل قد حصل له الكمال. كما إذا قيل: النصارى خير من المجوس، فليقل مع ذلك: وكل منهما كافر.

والقتل أشنع من الزنا، وكل منهما معصية كبيرة، حرمها الله ورسوله وزجر عنها.

ولما وعد المجاهدين بالمغفرة والرحمة الصادرين عن اسميه الكريمين ﴿الغفور الرحيم﴾ ختم هذه الآية بهما. فقال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾.

﴿٩٧ - ٩٩﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعِفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا فَاوْلُكُ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوراً﴾ هذا الوعيد الشديد لمن ترك الهجرة مع قدرته عليها حتى مات، فإن الملائكة الذين يقبضون روحه، يوبخونه بهذا التوبيخ العظيم، ويقولون لهم: ﴿فِيمَ كُنْتُمْ﴾ أي: على أي حال كنتم؟ وبأي شيء تميزتم عن المشركين؟ بل كثرتم سوادهم، وربما ظاهروهم على المؤمنين، وفاتكم الخير الكثير والجهاد مع رسوله والكون مع المسلمين ومعاونتهم على أعدائهم.

﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: ضعفاء مقهورين مظلومين، ليس لنا قدرة على الهجرة. وهم غير صادقين في ذلك، لأن الله وبخهم

مضبوط، مرجوع فيه إلى ما تقرر من فعل النبي ﷺ وأصحابه.

الثانية: أن «من» تفيد التبعية، ليعلم بذلك أن القصر لبعض الصلوات المفروضات، لا جميعها، فإن الفجر والغرب لا يقصران، وإنما الذي يقصر الصلاة الرباعية من أربع إلى ركعتين.

فيإذا تقرر أن القصر في السفر رخصة، فاعلم أن المفسرين قد اختلفوا في هذا القيد، وهو قوله: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ الذي يدل ظاهره أن القصر لا يجوز إلا بوجود الأمرين كليهما، السفر مع الخوف.

ويرجع حاصل اختلافهم إلى أنه هل المراد بقوله: ﴿أن تقصروا﴾ قصر العدد فقط؟ أو قصر العدد والصفة؟ فالإشكال إنما يكون على الوجه الأول.

وقد أشكل هذا على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى سأل عنه النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما لنا نقصر الصلاة وقد أمنا؟ أي: والله يقول: ﴿إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا﴾ فقال رسول الله ﷺ: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته» أو كما قال.

فعل هذا يكون هذا القيد آتي به نظراً لغالب الحال التي كان النبي ﷺ وأصحابه عليها، فإن غالب أسفارهم أسفار جهاد.

وفيه فائدة أخرى، وهي بيان الحكمة والمصلحة في مشروعية رخصة القصر، فبين في هذه الآية أنهى ما يتصور من المشقة المناسبة للرخصة، وهي اجتماع السفر والخوف، ولا يستلزم ذلك أن لا يقصر مع السفر وحده، الذي هو مظنة المشقة.

وأما على الوجه الثاني، وهو أن المراد بالقصر: قصر العدد والصفة، فإن القيد على بابه، فإذا وجد السفر والخوف جاز قصر العدد، وقصر الصفة، وإذا وجد السفر وحده جاز

الخوف، يقول تعالى: ﴿وإذا ضربتم في الأرض﴾ أي: في السفر، وظاهر الآية، [أنه] يقتضي الترخص^(١) في أي: سفر كان، ولو كان سفر معصية، كما هو مذهب أبي حنيفة رحمه الله، وخالف في ذلك الجمهور، وهم الأئمة الثلاثة وغيرهم، فلم يجوزوا الترخص^(٢) في سفر المعصية، تخصيصاً للآية بالمعنى والمناسبة، فإن الرخصة سهولة من الله لعباده إذا سافروا أن يقصروا ويفطروا، والعاصي بسفره، لا يناسب حاله التخفيف.

وقوله: ﴿فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة﴾ أي: لا حرج ولا إثم عليكم في ذلك، ولا ينافي ذلك كون القصر هو الأفضل، لأن نفي الحرج إزالة لبعض الوهم الواقع في كثير من النفوس، بل ولا ينافي الوجوب، كما تقدم ذلك في سورة البقرة، في قوله: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ إلى آخر الآية.

وإزالة الوهم في هذا الموضع ظاهرة، لأن الصلاة قد تقرر عند المسلمين وجوبها على هذه الصفة التامة، ولا يزيل هذا عن نفوس أكثرهم إلا بذكر ما ينافيه.

ويدل على أفضلية القصر على الإتمام أمران:

أحدهما: ملازمة النبي ﷺ على القصر في جميع أسفاره.

والثاني: أن هذا من باب التوسعة والترخيص والرحمة بالعباد، والله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يكره أن تؤتى معصيته.

وقوله: ﴿أن تقصروا من الصلاة﴾ ولم يقل أن تقصروا الصلاة، فيه قائلتان:

إحدهما: أنه لو قال أن تقصروا الصلاة، لكان القصر غير منضبط بحد من الحدود، فربما ظن أنه لو قصر معظم الصلاة وجعلها ركعة واحدة، لأجزأ، فإتيانه بقوله: ﴿من الصلاة﴾ ليدل ذلك على أن القصر محدود



﴿رحيماً﴾ بجميع الخلق، رحمة أوجدتهم وعافتهم، ورزقتهم من المال والبنين والقوة، وغير ذلك. رحيماً بالمؤمنين، حيث وفقهم للإيمان، وعلمهم من العلم ما يحصل به الإيقان، ويسر لهم أسباب السعادة والفلاح، وما به يدركون غاية الأرباح، وسيرون من رحمته وكرمه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فنسأل الله أن لا يجرمنا خيره بشر ما عندنا.

﴿١٠١-١٠٢﴾ ﴿وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً﴾ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتنقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم وذ الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾ هاتان الآيتان أصل في رخصة القصر، وصلاة

قصر العدد فقط، أو الخوف وحده جاز لو صلحوا بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم، وعدم قصر الصفة.

ولذلك أتى بصفة صلاة الخوف بعدها بقوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ أي: صليت بهم صلاة تقيمها، وتتم ما يجب فيها ويلزم، فعلمهم ما ينبغي لك ولهم فعله.

ثم فسر ذلك بقوله: ﴿فلتقم طائفة منهم معك﴾ أي: وطائفة قائمة بإزاء العدو، كما يدل على ذلك ما يأتي: ﴿فإذا سجدوا﴾ أي: الذين معك، أي: أكملوا صلاتهم، وعبر عن الصلاة بالسجود، ليدل على فضل السجود، وأنه ركن من أركانها، بل هو أعظم أركانها.

﴿فليكنوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا﴾ وهم الطائفة الذين قاموا إزاء العدو ﴿فليصلوا معك﴾ دل ذلك على أن الإمام يبقى بعد انصراف الطائفة الأولى منتظراً للطائفة الثانية، فإذا حضروا صلى بهم ما بقي من صلاته، ثم جلس ينتظرهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا أحد الوجوه في صلاة الخوف.

فإنها صحت عن النبي ﷺ من
وجوه كثيرة كلها جائزة، وهذه الآية
تدل على أن صلاة الجماعة فرض عين
من وجهين:

أحدهما: أن الله تعالى أمر بها في هذه الحالة الشديدة، وقت اشتداد الخوف من الأعداء وحذر مهاجمتهم، فإذا أوجبها في هذه الحالة الشديدة، فلما جابها في حالة الطمأنينة والأمن من باب أولى وأحرى.

والثاني: أن المصلين صلاة الخوف يتركون فيها كثيراً من الشروط واللوازم، ويعفى فيها عن كثير من الأفعال المبهلة في غيرها، وما ذاك إلا لتأكيد وجوب الجماعة، لأنه لا تعارض بين واجب ومستحب، فلولوا وجوب الجماعة لم تترك هذه الأمور اللازمة لأجلها.

وتدل الآية الكريمة على أن الأولى والأفضل أن يصلوا بإمام واحد. ولو تضمن ذلك الإخلال بشيء، لا يخل به

لو صلّوها بعدة أئمة، وذلك لأجل اجتماع كلمة المسلمين واتفاقهم، وعدم تفرق كلمتهم، ويكون ذلك أوقع هبة في قلوب أعدائهم، وأمر تعالى بأخذ السلاح، والحذر في صلاة الخوف، وهذا وإن كان فيه حركة واشتغال عن بعض أحوال الصلاة، فإن فيه مصلحة راجحة، وهو الجمع بين الصلاة والجهاد، والحذر من الأعداء الحريصين غاية الحرص على الإيقاع بالمسلمين، والميل عليهم وعلى أمّنتهم ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلَاحِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً﴾.

ثم إن الله عذر من له عذر، من
مرض أو مطر، أن يضع سلاحه،
ولكن مع أخذ الحذر فقال: ﴿ولا
جُنَاحَ عَلَيكُم إِن كَانَ بِكُم أَذًى مِنْ
مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا
أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ
أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾

ومن العذاب المهين ما أمر الله به
حزبه المؤمنين وأنصار دينه الموحدين،
من قتلهم وقتالهم حيثما ثقفوهم،
ويأخذوهم ويحصروهم، ويقعدوا لهم
كل مرصد، ويجردوهم في جميع
الأحوال، ولا يغفلوا عنهم، خشية أن
ينال الكفار بعض مطلوبهم فهم .

فلله أعظم حمد وثناء على ما منَّ به
على المؤمنين، وأيدهم بمعونه وتعاليمه
التي لو سلَّكوها على وجه الكمال لم
تهزم لهم راية، ولم يظهر عليهم عدو
في وقت من الأوقات.

وفي قوله: ﴿فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ رَءِائِكُمْ﴾ يدل على أن هذه الطائفة تكمل جميع صلاتها قبل ذهابهم إلى موضع الحارسين. وأن الرسول ﷺ يثبت منتظراً للطائفة الأخرى قبل السلام، لأنه أولاً ذكر أن الطائفة تقوم معه، فأخبر عن مصاحبتهم له. ثم أضاف الفعل بعد إليهم دون الرسول، فدل ذلك على ما ذكرناه.

وفي قوله: ﴿ولتأت طائفة أخرى لم
يصلوا فليصلوا معك﴾ دليل على أن
الطائفة الأولى قد صلوا، وأن جميع

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ
الْجَحِيمِ ﴿٥﴾ يَكُونُ أُولَٰئِكَ مَأْوًى أَنْكَرَ وَأَمَسَ
أَقْوَمُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ أُولَٰئِكَ بِسُوءِ الظَّنِّ مِنْهُمْ
فَكَفَرُوا بِهِمْ فَسَخَّرْنَا اللَّهُ عَنْهُمْ قُلُوبَهُمْ
وَالْمُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ • وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ
وَمَسَّا نِيصًا فَقَالُوا مَعْزِفِيْهِمْ وَأَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ
لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ
بِرُسُلِي وَكَرِهْتُمُ الْمَعْرُوفَ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا
لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ
ذَٰلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَبِيلَ الْكَفَالِ ﴿٧﴾ فَمَا
نَصَبْتُمْ بَيْنَهُمْ وَأَتَيْنَهُمْ وَمَعَكُمْ قُلُوبُهُمْ قَلْبًا
يُخْرِفُونَ السَّكْرَانُ مِنْ مَوَارِيثِهِمْ وَبُؤْسِ حُلَّتَانَا وَكَذَرُوا
بِهِ وَأَكْرَأَ لَطِيفٌ عَلَى عَمَلِهِمْ إِنَّهُمْ لَأُولَٰئِكَ
فَاعَفَ عَنْهُمْ وَاصْبِرْ إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ الْمُصْطَفِينَ ﴿٨﴾

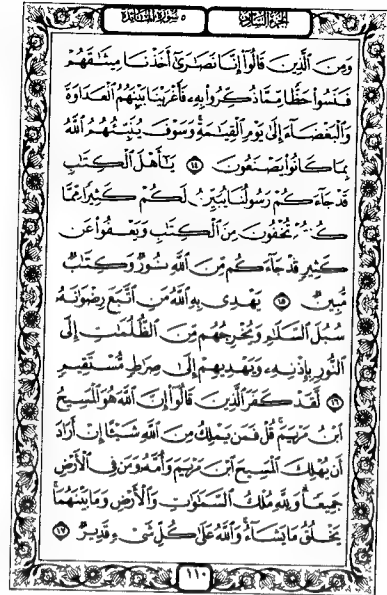
صلاة الطائفة الثانية تكون مع الإمام حقيقة في ركعتهم الأولى، وحكماً في ركعتهم الأخيرة، فيستلزم ذلك انتظار الإمام إياهم حتى يكملوا صلاتهم، ثم يسلم بهم، وهذا ظاهر للمأتمل.

﴿١٠٣﴾ **فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ** إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴿١٠٤﴾ أي: فإذا فرغتم من صلاتكم، صلاة الخوف وغيرها، فاذكروا الله في جميع أحوالكم وهيئاتكم، ولكن خصت صلاة الخوف بذلك لفوائدها: منها: أن القلب صلاحه وفلاحه وسعادته، بالإجابة إلى الله تعالى في المحبة وامتلاء القلب من ذكره والشأن عليه.

وأعظم ما يحصل به هذا المقصود الصلاة، التي حقيقتها أنها صلة بين العبد وبين ربه .

ومنها: أن فيها من حقائق الإيمان ومعارف الإيقان، ما أوجب أن يفرضها الله على عباده كل يوم وليلة. ومن العلوم أن صلاة الخوف لا تحصل فيها هذه المقاصد الحميدة بسبب اشتغال القلب والبدن والخوف فأمر بجبرها بالذكر بعدها.

ومنها: أن الخوف يوجب من قلق القلب وخوفه، ما هو مظنة لضعفه، وإذا ضعف القلب ضعف البدن عن مقاومة العدو، والذكر لله والإكثار منه



من أعظم مقويات القلب .

ومنها : أن الذكر لله تعالى مع الصبر والشبات سبب للفلاح والظفر بالأعداء ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . ﴾ فامر بالاكثار منه في هذه الحال إلى غير ذلك من الحكم .

وقوله : ﴿ فَإِذَا أَطْمَئِنَّتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي : إذا أمنتُم من الخوف ، وأطمأنت قلوبكم وأبدانكم ، فأتوا صلاتكم على الوجه الأكمل ، ظاهراً وباطناً ، بأركانها وشروطها ، وخشوعها ، وسائر مكملاتها .

﴿ إِنْ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ أي : مفروضاً في وقته ، فدل ذلك على فرضيتها ، وأن لها وقتاً لا تصح إلا به ، وهو هذه الأوقات التي قد تقررت عند المسلمين ، صغيرهم وكبيرهم ، عالمهم وجاهلهم ، وأخذوا ذلك عن نبيهم محمد ﷺ بقوله : « صلوا كما رأيتموني أصلي » .

ودل قوله : ﴿ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ على أن الصلاة ميزان الإيمان ، وعلى حسب إيمان العبد تكون صلاته ، وتتم وتكمل ، ويدل ذلك على أن الكفار وإن كانوا ملتزمين لأحكام المسلمين كأهل الذمة - أنهم لا يخاطبون بفروع الدين كالصلاة ، ولا يؤمرون بها ، بل ولا تصح منهم ما داموا على كفرهم ، وإن

كانوا يعاقبون عليها ، وعلى سائر الأحكام في الآخرة .

﴿ ١٠٤ ﴾ ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ أي : لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوكم من الكفار ، أي : في جهادهم والمرابطة على ذلك ، فإن وهن القلب مستعد لو هـن البدن ، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء . بل كونوا أقوياء نشيطين في قتالهم .

ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين ، فذكر شيئين :

الأول : أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك ، فإنه يصيب أعداءكم ، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم ، وأنتم وإياهم قد تساويتُم فيما يوجب ذلك ، لأن العادة الجارية لا يضعف إلا مَنْ توالى عليه الآلام وانتصر عليه الأعداء على الدوام ، لا مَنْ يidal مرة ، ويدال عليه أخرى .

الأمر الثاني : أنكم ترجون من الله ما لا يرجون ، فترجون الفوز بشوابه والنجاة من عقابه ، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية ، وآمال رفيعة ، من نصر دين الله ، وإقامة شرعه ، واتساع دائرة الإسلام ، وهداية الضالين ، وقمع أعداء الدين ، فهذه الأمور تجوب للمؤمن المصدق زيادة القوة ، وتضاعف النشاط والشجاعة التامة ؛ لأن مَنْ يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي إن ناله ، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية ، والفوز برضوان الله وجنته ، فسبحان مَنْ فاوت بين العباد ، وفرق بينهم بعلمه وحكمته ، ولهذا قال : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ كامل العلم ، كامل الحكمة .

﴿ ١٠٥ - ١١٣ ﴾ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنَ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ واستغفر الله إن الله كان غفوراً

رحيماً * ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً * يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً * هاأنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً * ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً * ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً * ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً * ولولا فضل الله عليكم ورحمته لمهت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً * يخبر تعالى ، أنه أنزل على عبده ورسوله الكتاب بالحق ، أي : محفوظاً في إنزاله من الشياطين ، أن يتطرق إليه منهم باطل بل نزل بالحق ، ومشتتلاً أيضاً على الحق فأخبره صدق ، وأوامره ونواهيه عدل * وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً * وأخبر أنه أنزله ليحكم بين الناس .

وفي الآية الأخرى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ . فيحتمل أن هذه الآية في الحكم بين الناس ، في مسائل النزاع والاختلاف ، وتلك في تبين جميع الدين ، وأصوله وفروعه ، ويحتمل أن الآيتين كليهما ، معناه واحد ، فيكون الحكم بين الناس هنا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأعراض والأموال وسائر الحقوق وفي العقائد ، وفي جميع مسائل الأحكام .

وقوله : ﴿ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ أي : لا بهواك ، بل بما علمك الله وألهمك ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ . وفي هذا دليل على عصمته ﷺ فيما يبلغ عن الله من جميع الأحكام

ها أنت تركت أمره كسلاً وتفرطاً، فما النفع الذي انتفعت به؟ وماذا فاتك من ثواب الآخرة؟ وماذا ترتب على هذا الترك من الشقاء والحزن والخيبة والحسرة؟

وكذلك إذا دعت نفسه إلى ما تشتهيه من الشهوات المحرمة، قال لها: هبك فعلت ما اشتيت، فإن لذته تنقضي، ويعقبها من الهموم والغموم والحسرات، وفوات الثواب وحصول العقاب - ما بعضه يكفي العاقل في الإحجام عنها.

وهذا من أعظم ما ينفع العبد تدبره، وهو خاصة العقل الحقيقي. بخلاف الذي^(٤) يدعي العقل، وليس كذلك، فإنه بجهره وظلمه يؤثر اللذة الحاضرة، والراحة الراحنة، ولو ترتب عليها ما ترتب. والله المستعان.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمَ نَفْسَهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ أي: مَنْ تجرأ على المعاصي واقتحم على الإثم، ثم استغفر الله استغفاراً تاماً، يستلزم الإقرار بالذنب والسندم عليه، والإقلاع، والعزم على أن لا يعود. فهذا قد وعده مَنْ لا يخلف الميعاد، بالمغفرة والرحمة.

فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدم من الأعمال الصالحة، ويوفقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلاً عن توفيقه، لأنه قد غفره وإذا غفره، غفر ما يترتب عليه.

واعلم أن عمل السوء عند الإطلاق يشمل سائر المعاصي، الصغيرة والكبيرة، وسمي «سوءاً» لكونه يسوء عامله بعاقبته، ولكونه في نفسه سيئاً غير حسن.

وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق يشمل ظلمها بالشرك فما دونه. ولكن

مخافة الله، فيحرصون بالطرق المباحة والمحرمة على عدم الفضيحة عند الناس، وهم مع ذلك قد بارزوا الله بالعظائم، ولم يبالوا بنظره واطلاعه عليهم.

وهو معهم بالعلم في جميع أحوالهم، خصوصاً في حال تبييتهم ما لا يرضيه من القول، من تبرئة الجاني، ورمي البري بالجناية، والسعي في ذلك للرسول ﷺ، ليفعل ما يتوهم.

فقد جمعوا بين عدة جنایات، ولم يراقبوا رب الأرض والسموات، المطلع على سرائرهم وضمايرهم، ولهذا تروعههم تعالى بقوله: ﴿وكان الله بما يعملون محيطاً﴾ أي: قد أحاط بذلك علماً، ومع هذا لم يعاجلهم بالعقوبة، بل استأثنى بهم، وعرض عليهم التوبة وحذرهم من الإصرار على ذنبهم، الموجب للعقوبة البليغة.

﴿ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلاً﴾ أي: هبكم جادلتم عنهم في هذه الحياة الدنيا، ودفع عنهم جدالكم بعض ما تحذرون^(٢) من العار والفضيحة عند الخلق، فماذا يغني عنهم ويتفهم؟ وَمَنْ يجادل الله عنهم يوم القيامة حين تتوجه عليهم الحجة، وتشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون؟ ﴿يومئذ يوفيه الله دينهم الحق، ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾.

فمَنْ يجادل عنهم، مَنْ يعلم السر وأخفى، وَمَنْ أقام عليهم من الشهود ما لا يمكن معه الإنكار؟ وفي هذه الآية إرشاد^(٣) إلى المقابلة بين ما يتوهم من مصالح الدنيا المترتبة على ترك أوامر الله، أو فعل مناهيه، وبين ما يفوت من ثواب الآخرة، أو يحصل من عقوباتها.

فيقول مَنْ أمرته نفسه بترك أمر الله

وغيرها، وأنه يشترط في الحاكم^(١) العلم والعدل، لقوله: ﴿بما أراك الله﴾ ولم يقل: بما رأيته. ورتب أيضاً الحكم بين الناس على معرفة الكتاب، ولما أمر الله بالحكم بين الناس المتضمن للعدل والقسط، ناه عن الجور والظلم الذي هو ضد العدل، فقال: ﴿ولا تكن للخائنين خصيماً﴾ أي: لا تخاصم عن مَنْ عرفت خيانتها، من مدع ما ليس له، أو منكر حقاً عليه، سواء علم ذلك أو ظنه. ففي هذا دليل على تحريم الخصومة في باطل، والنيابة عن المبطل في الخصومات الدينية والحقوق الدنيوية.

ويدل مفهوم الآية على جواز الدخول في نيابة الخصومة لمن لم يعرف منه ظلم.

﴿واستغفر الله﴾ مما صدر منك، إن صدر.

﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي: يغفر الذنب العظيم لمن استغفره وتاب إليه وأتاب، ويوفقه للعمل الصالح بعد ذلك، الموجب لثوابه وزوال عقابه.

﴿ولا تجادل عن الذين يخاتنون أنفسهم﴾. «الاختيان» و«الخيانة» بمعنى الجناية والظلم والإثم، وهذا يشمل النهي عن المجادلة، عن مَنْ أذنب وتوجه عليه عقوبة، من حد أو تعزير، فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو يدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية. ﴿إن الله لا يحب مَنْ كان خواناً أثيماً﴾ أي: كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفى الحب ثبت ضده، وهو البغض، وهذا كالتعليل، للنهي المتقدم.

ثم ذكر عن هؤلاء الخائنين أنهم ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول﴾ وهذا من ضعف الإيمان، ونقصان اليقين، أن تكون مخافة الخلق عندهم أعظم من

(١) في أ: الحكم.

(٢) في ب: ما يحذرون.

(٣) في ب: الإرشاد.

(٤) في ب: من.

تذكيراً وتبييناً لتلك الواقعة، وتحذيراً للرسول ﷺ من المخاصمة عن الخائنين، فإن المخاصمة عن المبتل من الضلال، فإن الضلال نوعان:

ضلال في العلم، وهو الجهل بالحق، وضلال في العمل، وهو العمل بغير ما يجب. فحفظ الله رسوله عن هذا النوع من الضلال [كما حفظه عن الضلال في الأعمال]^(١).

وأخبر أن كيدهم ومكرهم يعود على أنفسهم، كحالة كل مكر، فقال: «وما يضلون إلا أنفسهم» لكون ذلك المكر، وذلك التحيل، لم يحصل لهم فيه مقصودهم، ولم يحصل لهم^(٢) إلا الخيبة والحزنان والإثم والخسران. وهذه^(٣) نعمة كبيرة على رسوله ﷺ، يتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب، والعصمة له عن كل محرم.

ثم ذكر نعمته عليه بالعلم فقال: «وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة» أي: أنزل عليك هذا القرآن العظيم، والذكر الحكيم، الذي فيه تبيان كل شيء، وعلم الأولين والآخرين.

والحكمة: إما السُنَّة التي قد قال فيها بعض السلف: إن السُنَّة تنزل عليه كما ينزل القرآن.

وإما معرفة أسرار الشريعة الزائدة على معرفة أحكامها، وتنزيل الأشياء منازلها، وترتيب كل شيء بحسبه.

«وعلمك ما لم تكن تعلم» وهذا يشمل جميع ما علمه الله تعالى. فإنه ﷺ كما وصفه الله قبل النبوة بقوله: «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان» «ووجدك ضالاً فهدى».

ثم لم يزل يوحي الله إليه ويعلمه ويكمله، حتى ارتقى مقاماً من العلم يتعذر وصوله على الأولين والآخرين،

له ويوفقه للتوبة. وإن صدر منه بتجرته على المحارم، استخفافاً بنظر ربه، وتهاوناً بعقابه، فإن هذا بعيد من المغفرة، بعيد من التوفيق للتوبة.

ثم قال: «ومن يكسب خطيئة» أي: ذنباً كبيراً «أو إثماً» ما دون ذلك. «ثم يرم به» أن يتهم بذنبه «بريثاً» من ذلك الذنب، وإن كان مذنباً. «فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً» أي: فقد حمل فوق ظهره بهتاناً للبريء وإثماً ظاهراً بيناً، وهذا يدل على أن ذلك من كبائر الذنوب وموبقاتها، فإنه قد جمع عدة مفساد: كسب الخطيئة والإثم، ثم زعم من لم يفعلها بفعلها، ثم الكذب الشنيع، بتبرئة نفسه واتهام البريء، ثم ما يترتب على ذلك، من العقوبة الدنيوية، تندفع عمن وجبت عليه، وتقام على من لا يستحقها.

ثم ما يترتب على ذلك أيضاً من كلام الناس في البريء، إلى غير ذلك من المفساد التي نسأل الله العافية منها، ومن كل شر.

ثم ذكر مثته على رسوله بحفظه وعصمته عن أراد أن يضلّه فقال: «ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك». وذلك أن هذه الآيات الكريمات قد ذكر المفسرون، أن سبب نزولها: أن أهل بيت سرقوا في المدينة، فلما اطلع على سرقتهم خافوا الفضيحة، وأخذوا سرقتهم فرموها ببيت من هو بريء من ذلك.

واستعان السارق بقومه أن يأتوا رسول الله ﷺ، ويطلبوا منه أن يبرئ صاحبهم على رؤوس الناس، وقالوا: إنه لم يسرق، وإنما الذي سرق من وجدنا السرقة ببيته، وهو البريء. فهزم رسول الله ﷺ أن يبرئ صاحبهم، فأنزل الله هذه الآيات

عند اقتران أحدهما بالآخر، قد يفسر كل واحد منهما بما يناسبه، فيفسر عمل السوء هنا بالظلم الذي يسوء الناس، وهو ظلمهم في دماثهم وأموالهم وأعراضهم.

ويفسر ظلم النفس بالظلم والمعاصي التي بين الله وبين عبده، وسمي ظلم النفس «ظلماً» لأن نفس العبد ليست ملكاً له، يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك الله تعالى، قد جعلها أمانة عند العبد، وأمره أن يقيمها على طريق العدل، بالزامها للمصراط المستقيم، علماً وعملاً، فيسعى في تعليمها ما أمر به، ويسعى في العمل بما يجب، فسعيه في غير هذا الطريق ظلم لنفسه وخيانة، وعدول بها عن العدل، الذي ضده الجور والظلم.

ثم قال: «ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه» وهذا يشمل كل ما يؤثم من صغير وكبير، فمن كسب سيئة فإن عقوبتها الدنيوية والأخروية على نفسه، لا تتعداها إلى غيرها، كما قال تعالى: «ولا تزر وازرة وزر أخرى» لكن إذا ظهرت السيئات فلم تنكر، عمت عقوبتها، وشمل إثمها، فلا تخرج أيضاً عن حكم هذه الآية الكريمة، لأن من ترك الإنكار الواجب فقد كسب سيئة.

وفي هذا بيان عدل الله وحكمته، أنه لا يعاقب أحداً بذنب أحد، ولا يعاقب أحداً أكثر من العقوبة الناشئة عن ذنبه، ولهذا قال: «وكان الله عليماً حكيماً» أي: له العلم الكامل، والحكمة التامة.

ومن علمه وحكمته أنه يعلم الذنب وما صدر منه، والسبب الداعي لفعله، والعقوبة المترتبة على فعله، ويعلم حالة المذنب، أنه إن صدر منه الذنب، بغلبة دواعي نفسه الأمارة بالسوء، مع إنابته إلى ربه في كثير من أوقاته، أنه سيغفر

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) في النسختين: له، وقد غيرتها للتوافق مع ما سبق من الضمائر.

(٣) في النسختين: وهذا.

والرسول ﴿ يفهم منها أن ما لم يتنازعا فيه، بل اتفقوا عليه، أنهم غير مأمورين برده إلى الكتاب والسنة، وذلك لا يكون إلا موافقاً للكتاب والسنة، فلا يكون مخالفاً.

فهذه الأدلة ونحوها تفيد القطع، أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة، ولهذا بين الله قبح ضلال المشركين بقوله:

﴿ ١١٧ - ١٢١ ﴾ ﴿ إن يدعون من دونه إلا إنثاء وإن يدعون إلا شيطانياً مريباً ﴾ لعنه الله وقال لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضاً * ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليستكن أذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً * يعدهم ويمنهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * أولئك ماوأهم جهنم لا يجدون عنها محيصاً ﴿

أي: ما يدعو هؤلاء المشركون من دون الله إلا إنثاء، أي: أوثاناً وأصناماً، مسميات بأسماء الإناث، كـ «العزى» و «منةة» ونحوهما، ومن المعلوم أن الاسم دال على المسمى. فإذا كانت أسماءها أسماء مؤنثة ناقصة، دل ذلك على نقص المسميات بتلك الأسماء، وفقدها لصفات الكمال، كما أخبر الله تعالى في غير موضع من كتابه، أنها لا تخلق ولا ترزق، ولا تدفع عن عابديها، بل ولا عن نفسها؛ نفعا ولا ضراً، ولا تنصر أنفسها عن يريدها بسوء، وليس لها أسمع ولا أبصار ولا أفئدة، فكيف يُعبد من هذا وصفه، ويُترك الإخلاص لمن له الأسماء الحسنى والصفات العليا والحمد والكمال، والمجد، والجلال، والعز، والجمال، والرحمة، والبر، والإحسان، والانفراد بالخلق والتدبير، والحكمة العظيمة في الأمر والتقدير؟! هل هذا إلا من أقبح القبيح، الدال على نقص صاحبه وبلوغه من الخسة والدناءة أدنى ما يتصوره متصور، أو يصفه واصف؟!

الغنى، والفقر من جميع الوجوه. وأما ما دون الشرك من الذنوب والمعاصي، فهو تحت المشيئة، إن شاء الله غفره برحمته وحكمته، وإن شاء عذب عليه، وعاقب بعدله وحكمته، وقد استدلل بهذه الآية الكريمة، على أن إجماع هذه الأمة حجة، وأنها معصومة من الخطأ.

ووجه ذلك: أن الله توعد من خالف سبيل المؤمنين بالخذلان والنار، و«سبيل المؤمنين» مفرد مضاف، يشمل سائر ما المؤمنون عليه من العقائد والأعمال.

فإذا اتفقوا على إيجاب شيء، أو استحبابه، أو تحريمه، أو كراهته، أو إباحته - فهذا سبيلهم، فمن خالفهم في شيء من ذلك بعد انعقاد إجماعهم عليه، فقد اتبع غير سبيلهم. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾.

ووجه الدلالة منها: أن الله تعالى أخبر أن المؤمنين من هذه الأمة لا يأمرون إلا بالمعروف، فإذا اتفقوا على إيجاب شيء أو استحبابه، فهو مما أمروا به، فيتعين بنص الآية أن يكون معروفاً، ولا شيء بعد المعروف غير المنكر، وكذلك إذا اتفقوا على النهي عن شيء، فهو مما نهوا عنه، فلا يكون إلا منكراً، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ﴾. فأخبر تعالى أن هذه الأمة جعلها الله وسطاً، أي: عدلاً خياراً، ليكونوا شهداء على الناس، أي: في كل شيء، فإذا شهدوا على حكم بأن الله أمر به أو نهى عنه أو أباحه، فإن شهادتهم معصومة، لكونهم عالمين بما شهدوا به، عادلين في شهادتهم، فلو كان الأمر بخلاف ذلك لم يكونوا عادلين في شهادتهم، ولا عالمين بها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ فإن تنازعتم في شيء، فردوه إلى الله

قَالُوا يَسْمُوْنَ اِنَّكَ تَدْعُهُمْ اَبْسَامًا دُمُوْا فِيْهَا قَالَتْ هَبْ اَنْتَ وَرَبُّكَ تَقْدِرُ لَآ اَهْمًا فَاُفِيْدُوْكَ ﴿ ١١٧ ﴾ قَالَتْ رَبِّ اِنِّىْ لَا اَمْلِكُ لَآ اَقْضِيْ وَاَنْفِىْ فَاَفَرَّقْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْقُوَّةِ الْفَاعِلَةِ ﴿ ١١٨ ﴾ قَالَتْ اَلَا اَمَّا مَعْرِضُهُمْ عَلَيْهِمْ اَرْبَعٌ سَنَةٌ يَمْشُوْنَ فِي الْاَرْضِ فَلَا تَأْسُ عَلَى الْقُوَّةِ الْفَاعِلَةِ ﴿ ١١٩ ﴾ وَاَنْتَ عَلَيْهِمْ يَآ اَبْنَى اَدَمَ بِالْحَقِّ اِنْ قَرَّبَا زَيْنًا فَمَقْبُوْلٌ لِّكَ دِهْنًا وَلَوْ يَتَقَلَّبُ يَرْكَبُ اَفْخَرُ قَالَتْ لَا اَمْلِكُ قَالَتْ اِنَّمَا يَفْعَلُ اللهُ مِمَّا يَشِئُ ﴿ ١٢٠ ﴾ لَآ اَسْطَلَّ اِلَيْكَ لِيُشْفِي مَا اَتَا بِاَسَاطِيْرِ رَبِّكَ وَلَقَدْ اِيْنَّا لَنَافِقُ اَللّٰهُ رَبُّ السَّمٰوٰتِ ﴿ ١٢١ ﴾ اِنِّىْ اُرِيْدُ اَنْ اَتَّوْبَ اِلَيْهِ وَانْفِكَ فَكُنْ مِنْ اَمْحِقِيْ الْاَنْفٰكُ ذٰلِكَ سَبْعُ اَنْفٰكٍ لِّلْعٰلَمِيْنَ ﴿ ١٢٢ ﴾ فَطَوَّعْتُ لِنَفْسِيْ فَاَنصَبْتُ لَهَا مِمَّا مَلَكَتْ يَمِيْنُ مِنَ الْعَشِيْرِ ﴿ ١٢٣ ﴾ فَجَعَلَ اللهُ عَرْبًا يَحْتَفِىْ فِي الْاَرْضِ لِيُشْفِيْ بَوْرِيْ سَوْدَةً اَحْمَرًا قَالَتْ يَوْنٰنُ اَصْبَحْتَ اَنْ اَكُوْتَ وَشَلَّ هَذَا الْغَرْبُ قَالَتْ رَبِّىْ سَوْدَةً اَحْمَرًا فَاصْبَحَ مِنْ السَّوْدِيْنَ ﴿ ١٢٤ ﴾

مخلص، كما يدل عليه عموم التعليل. وقوله: ﴿ ونصله جهنم ﴾ أي: نعذبه فيها عذاباً عظيماً. ﴿ وساءت مصيراً ﴾ أي: مرجعاً له ومالاً.

وهذا الوعيد المرتب^(١) على الشقاق، ومخالفة المؤمنين، مراتب لا يحصيها إلا الله، بحسب حالة الذنب صغراً وكبراً فمنه ما يخلد في النار ويوجب جميع الخذلان. ومنه ما هو دون ذلك، فلعل الآية الثانية كالتفصيل لهذا المطلق.

وهو: أن الشرك لا يغفره الله تعالى، لتضمنه القدح في رب العالمين وفي وحدانيته، وتسوية المخلوق الذي لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، بمن هو مالك النفع والضرر، الذي ما من نعمة إلا منه، ولا يدفع النقم إلا هو، الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، والغنى التام بجميع وجوه الاعتبار.

فمن أعظم الظلم وأبعد الضلال، عدم إخلاص العبادة لمن هذا شأنه وعظمته، وصرف شيء منها للمخلوق، الذي ليس له من صفات الكمال شيء، ولا له من صفات الغنى شيء، بل ليس له إلا العدم. عدم الوجود، وعدم الكمال، وعدم

ومع ذلك^(١) فعبادتهم إنما صورتها فقط لهذه الأوثان الناقصة. وبالحقيقة ما عبدوا غير الشيطان، الذي هو عدوهم، الذي يريد إهلاكهم، ويسعى في ذلك بكل ما يقدر عليه، الذي هو في غاية البعد من الله، لعنه الله وأبعده عن رحمته، فكما أبعده الله من رحمته، يسعى في إبعاد العباد عن رحمة الله. ﴿إنما يدعو حزيه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ولهذا أخبر الله عن سعيه في إغواء العباد، وتزيين الشر لهم والفساد، وأنه قال لربه مقسماً: ﴿لأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً﴾ أي: مقدراً. علم اللعين أنه لا يقدر على إغواء جميع عباد الله، وأن عباد الله المخلصين ليس له عليهم سلطان، وإنما سلطانه على مَنْ تولاه، وأثر طاعته على طاعة مولاه.

وأقسم في موضع آخر ليفوينهم ﴿لأغوينهم أجمعين﴾، إلا عبادك منهم المخلصين. فهذا الذي ظنه الخبيث وجزم به، أخبر الله تعالى بوقوعه بقوله: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين﴾.

وهذا النصيب المفروض الذي أقسم الله إنه يتخذهم^(٢)، ذكر ما يريد بهم، وما يقصده لهم بقوله: ﴿ولأضلنهم﴾ أي: عن الصراط المستقيم، ضلالاً في العلم، وضلالاً في العمل.

﴿ولأمنينهم﴾ أي: مع الإضلال، لأمنينهم أن ينالوا ما ناله المهتدون. وهذا هو الغرور بعينه، فلم يقتصر على مجرد إضلالهم حتى زين لهم ما هم فيه من الضلال. وهذا زيادة شر إلى شرهم، حيث عملوا أعمال أهل النار الموجهة للعقوبة، وحسبوا أنها موجهة للجنة، واعتبر ذلك باليهود والنصارى ونحوهم، فإنهم كما حكى الله عنهم، ﴿وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى، تلك أمانيهم﴾ ﴿وكذلك زيننا لكل أمة عملهم﴾ ﴿قل

هل ننبتكم بالأخسرين أعمالاً. الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ الآية.

وقال تعالى عن المنافقين إنهم يقولون يوم القيامة للمؤمنين: ﴿ألم تكن معكم؟ قالوا: بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور﴾.

وقوله: ﴿ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام﴾ أي: بتقطيع آذانها، وذلك كالبحيرة، والسائبة والوصيلة، والحام، فنبه بعض ذلك على جميعه. وهذا نوع من الإضلال يقتضي تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، ويلتحق بذلك من الاعتقادات الفاسدة والأحكام الجائرة، ما هو من أكبر الضلال. ﴿ولأمرنهم فليغيرن خلق الله﴾ وهذا يتناول تغيير الخلقة الظاهرة بالوشم، والوشر، والتمص، والتفلج للحسن، ونحو ذلك، مما أغواهم به الشيطان فغيروا خلقة الرحمن.

وذلك يتضمن التسخط من خلقته، والقدح في حكمته، واعتقاد أن ما يصنعون بأيديهم أحسن من خلقة الرحمن، وعدم الرضا بتقديره وتدبيره، ويتناول أيضاً تغيير الخلقة الباطنة. فإن الله تعالى خلق عباده حنفاء، مفطورين على قبول الحق وإشاره، فجاءتهم الشياطين فاجتالهم عن هذا الخلق الجميل، وزينت لهم الشر والشرك، والكفر والفسوق والعصيان.

فإن كل مولود يولد على الفطرة، ولكن أبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، ونحو ذلك مما يغيرون به ما فطر الله عليه العباد، من توحيده، ووجه معرفته، فافتستهم الشياطين في هذا الموضع اقتراس السبع والذئاب للغنم المفردة.

لولا لطف الله وكرمه بعباده المخلصين، لجرى عليهم ما جرى على

هؤلاء المفتونين، وهذا الذي جرى عليهم من توليهم عن ربهم وفاطرمهم^(٣)، وتوليهم لعدوهم المريد لهم الشر من كل وجه، فخسروا الدنيا والآخرة، ورجعوا بالخيبة والصفقة الخاسرة، ولهذا قال: ﴿ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً﴾ وأي: خسارة أبين وأعظم ممن خسر دينه ودنياه، وأوبقته معاصيه وخطاياها؟! فصل له الشقاء الأبدي، وفاته النعيم السرمدي.

كما أن مَنْ تولى مولاه وأثر رضاه، ربح كل الربح، وأفلح كل الفلاح، وفاز بسعادة الدارين، وأصبح قدير العين، فلا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، اللهم تولنا فيمن توليت، وعافنا فيمن عافيت.

ثم قال: ﴿يعددهم ويمينهم﴾ أي: يعد الشيطان من يسعى في إضلالهم. والوعد يشمل حتى الوعيد كما قال تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر﴾. فإنه يعددهم إذا أنفقوا في سبيل الله افتقروا، ويخوفهم إذا جاهدوا بالقتل وغيره، كما قال تعالى: ﴿إنما ذلکم الشيطان یخوف أولیاءه﴾ الآية. ويخوفهم عند إيثار مرضاة الله بكل ما يمكن وما لا يمكن، مما يدخله في عقولهم، حتى يكسلوا عن فعل الخير، وكذلك يمينهم الأماني الباطلة التي هي عند التحقيق كالسراب الذي لا حقيقة له، ولهذا قال: ﴿وما یعددهم الشیطان إلا غروراً﴾، أولئك مأوهم جهنم^(٤) أي: مَنْ انقاد للشيطان، وأعرض عن ربه، وصار من أتباع إبليس وحزبه، مستقرهم النار. ﴿ولا یجدون عنها محيصاً﴾ أي: مخلصاً ولا ملجأ، بل هم خالدون فيها أبد الآباد.

﴿١٢٢﴾ ولما بين مآل الأشقياء أولياء الشيطان، ذكر مآل السعداء أوليائه فقال: ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، وعد الله حقاً، ومن صدق من الله

دون توبة جوزي بالخلود في العذاب الأليم.

وَمَنْ كَانَ عَمَلُهُ صَالِحًا، وَهُوَ مُسْتَقِيمٌ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِ، وَإِنَّمَا يُصَدَّرُ مِنْهُ بَعْضُ الْأَحْيَانِ بَعْضَ الذُّنُوبِ الصَّغِيرِ، فَمَا يُصِيبُهُ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ، وَالْأَذَى، وَ [بَعْضُ] ^(٢٣) الْأَلَامِ، فِي بَدَنِهِ، أَوْ قَلْبِهِ، أَوْ حَبِيبِهِ، أَوْ مَالِهِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ - فَإِنَّهَا مَكْفَرَاتٌ لِلذُّنُوبِ، وَهِيَ مِمَّا يُجِزِي بِهِ عَلَى عَمَلِهِ، قِيضُهَا اللَّهُ لَطْفًا بِعِبَادِهِ، وَبَيْنَ هَذَيْنِ الْحَالَيْنِ مَرَاتِبٌ كَثِيرَةٌ.

وهذا الجزاء على عمل السوء العام، مخصوص في غير التائبين، فإن التائب من الذنب كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ، كَمَا دَلَّتْ عَلَى ذَلِكَ النُّصُوصُ.

وقوله: ﴿وَلَا يُجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ لإزالة بعض ما لعله يتوهم أن مَنْ اسْتَحَقَّ الْمَجَازَةَ عَلَى عَمَلِهِ، قَدْ يَكُونُ لَهُ وَلِيٌّ، أَوْ نَاصِرٌ، أَوْ شَافِعٌ، يَدْفَعُ عَنْهُ مَا اسْتَحَقَّهُ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى بِانْتِفَاءِ ذَلِكَ، فَلَيْسَ لَهُ وَلِيٌّ يَحْصُلُ لَهُ الْمَطْلُوبُ، وَلَا نَصِيرٌ يَدْفَعُ عَنْهُ الْمَرْهُوبُ، إِلَّا رَبُّهُ وَمَلِكُهُ.

﴿وَمَنْ يَعْمَلُ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ دَخَلَ فِي ذَلِكَ سَائِرَ الْأَعْمَالِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ، وَدَخَلَ أَيْضًا كُلَّ عَامِلٍ مِنْ إِنْشَاءٍ أَوْ جِنٍّ، صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ، ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى. وَلِهَذَا قَالَ: ﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْشَأَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ وَهَذَا شَرْطُ جَمِيعِ الْأَعْمَالِ، لَا تَكُونُ صَالِحَةً، وَلَا تُقْبَلُ، وَلَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهَا الثَّوَابُ، وَلَا يَنْدَفَعُ بِهَا الْعِقَابُ، إِلَّا بِالْإِيمَانِ.

فَالْأَعْمَالُ بِدُونِ الْإِيمَانِ، كَأَغْصَانِ شَجَرَةٍ قَطَعَ أَصْلُهَا، وَكِبْنَاءِ بَنِي عَلَى مَوْجِ الْمَاءِ، فَالْإِيمَانُ هُوَ الْأَصْلُ وَالْأَسَاسُ وَالْقَاعِدَةُ الَّتِي يُبْنَى عَلَيْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَهَذَا الْقَيْدُ يُبَيِّنُ التَّفْطَنَ لَهُ فِي كُلِّ عَمَلٍ أَطْلُقَ، فَإِنَّهُ مُقَيَّدٌ بِهِ.

﴿فَأُولَئِكَ﴾ أَيُّ: الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ، ﴿يَدْخُلُونَ

وَحْدِيثُهُ فِي الصَّدَقِ أَعْلَى مَا يَكُونُ، وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ كَلَامُهُ صَدَقًا، وَخَبَرَهُ حَقًّا، كَانَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مُطَابَقَةً، وَتَضَمُّنًا، وَمُلَازِمَةً، كُلُّ ذَلِكَ مُرَادٌ مِنْ كَلَامِهِ، وَكَذَلِكَ كَلَامُ رَسُولِهِ ﷺ لِكُونِهِ لَا يُخْبِرُ إِلَّا بِأَمْرِهِ وَلَا يَنْطِقُ إِلَّا عَنْ وَحْيِهِ.

﴿١٢٣ - ١٢٤﴾ ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلُ سُوءًا يُجْزِي بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ أَيُّ: ﴿لَيْسَ﴾ الْأَمْرُ وَالنَّجَاةُ وَالتَّزْكِيَّةُ ﴿بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلَ الْكِتَابِ﴾. وَالْأَمَانِي: أَحَادِيثُ النَّفْسِ الْمُجْرَدَةِ عَنِ الْعَمَلِ، الْمُقْتَرَنُ بِهَا دَعْوَى مُجْرَدَةٌ، لَوْ عَوْرَضَتْ بِمِثْلِهَا لَكَانَتْ مِنْ جَنْسِهَا. وَهَذَا عَامٌ فِي كُلِّ أَمْرٍ، فَكَيْفَ بِأَمْرِ الْإِيمَانِ وَالسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ؟!

فَإِنْ أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ بِهَا، أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ لَيْسَ يَنْتَسِبُ لِكِتَابٍ وَلَا رَسُولٍ مِنْ بَابِ أَوَّلَى وَآخِرَى.

وَكَذَلِكَ أَدْخَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَى الْإِسْلَامِ لِكَمَالِ الْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ، فَإِنْ جَرَّدَ الْإِنْتِسَابَ إِلَى أَيُّ: دِينٍ كَانَ، لَا يَفِيدُ شَيْئًا إِنْ لَمْ يَأْتِ الْإِنْسَانُ بِسِرْهَانٍ عَلَى صِحَّةِ دَعْوَاهُ. فَالْأَعْمَالُ تَصْدُقُ الدَّعْوَى أَوْ تَكْذِبُهَا، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِي بِهِ﴾ وَهَذَا شَامِلٌ لَجَمِيعِ الْعَامِلِينَ، لِأَنَّ السُّوءَ شَامِلٌ، لِأَيُّ: ذَنْبٍ كَانَ ^(٢٤)، مِنْ صَغَائِرِ الذُّنُوبِ وَكِبَائِرِهَا، وَشَامِلٌ أَيْضًا لِكُلِّ جَزَاءٍ، قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، دُنْيَوِيٍّ أَوْ آخِرَوِيٍّ.

وَالنَّاسُ فِي هَذَا الْمَقَامِ دَرَجَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ، فَمُسْتَقْبَلٌ وَمُسْتَكْتَرٌ، فَمَنْ كَانَ عَمَلُهُ كُلُّهُ سُوءًا، وَكَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا كَافِرًا. فَإِذَا مَاتَ مِنْ

قِيْلًا ^(٢٥) أَيُّ: ﴿آمَنُوا﴾ بِأَلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتِبَ، وَرُسِلَ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرُ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَمَرُوا بِهِ، عَلَمًا وَتَصْدِيقًا وَإِقْرَارًا. ﴿وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ النَّاشِئَةُ عَنِ الْإِيمَانِ.

وهذا يشمل سائر المأمورات، من واجب ومستحب، الذي على القلب، والذي على اللسان، والذي على بقية الجوارح. كُلُّ لَهُ مِنَ الثَّوَابِ الْمُرْتَبِ عَلَى ذَلِكَ بِحَسَبِ حَالِهِ وَمَقَامِهِ، وَتَكْمِيلِهِ لِلْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ.

وَيُفَوِّتُهُ مَا رَتَبَ عَلَى ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا أُخِلَّ بِهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ، وَكَذَلِكَ بِحَسَبِ مَا عَلِمَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَكَذَلِكَ وَعَدَهُ الصَّادِقُ الَّذِي يَعْرِفُ مِنْ تَتَبَعُ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ.

ولهذا ذكر الثواب المرتب على ذلك بقوله: ﴿سَنَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فِيهَا مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ، مِنْ أَنْوَاعِ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ اللَّذِيذَةِ، وَالْمَنَاطِرِ الْعَجِيبَةِ، وَالْأَزْوَاجِ الْحَسَنَةِ، وَالْقُصُورِ وَالْغُرُفِ الْمُزْخَرَفَةِ، وَالْأَشْجَارِ الْمُتَنَدِّلَةِ، وَالْفَوَاكِهِ الْمُسْتَفْرِغَةِ، وَالْأَصْوَاتِ الشَّجِيَّةِ، وَالنِّعَمِ السَّابِغَةِ، وَتَزَاوُرِ الْإِخْوَانِ، وَتَذَكُّرِهِمْ مَا كَانَ مِنْهُمْ فِي رِيَاضِ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ وَأَجَلُ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، وَتَمَتُّعِ الْأَرْوَاحِ بِقَرْبِهِ، وَالْعَيُونِ بِرُؤْيَيْهِ، وَالْأَسْمَاعِ بِخُطَابِهِ، الَّذِي يَنْسِيهِمْ كُلَّ نَعِيمٍ وَسُرُورٍ، وَلَوْلَا الثَّبَاتُ مِنَ اللَّهِ لَهُمْ لَطَارَوْا وَمَاتُوا مِنَ الْفَرَحِ وَالْحُبُورِ، فَلِلَّهِ مَا أَحْلَى ذَلِكَ النَّعِيمَ، وَمَا أَعْلَى مَا أَنَالَهُمُ الرَّبُّ الْكَرِيمُ، وَمَاذَا حَصَلَ لَهُمْ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَبَهْجَةٍ لَا يَصِفُهُ الْوَاصفُونَ، وَتَمَامُ ذَلِكَ وَكَمَالُهُ الْخُلُودُ الدَّائِمُ فِي تِلْكَ الْمَنَازِلِ الْعَالِيَةِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾، وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا.

فَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ الَّذِي بَلَغَ قَوْلُهُ

(١) في ب: أورد الآية كاملة، بينما في أ، اقتصر على أولها.

(٢) كذا في ب، وفي أ: لأي سوء كان.

(٣) زيادة من هامش: ب.

الجنة» المشتعلة على ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين «ولا يظلمون فقيراً» أي: لا قليلاً ولا كثيراً بما عملوه من الخير، بل يحدونه كاملاً موفراً، مضاعفاً أضعافاً كثيرة.

﴿١٢٥﴾ «ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن» واتبع ملة إبراهيم حنيفاً واتخذ الله إبراهيم خليلاً* أي: لا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود، وهو إسلام الوجه لله، الدال على استسلام القلب وتوجهه وإنابته وإخلاصه، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله.

«وهو» مع هذا الإخلاص والاستسلام «محسن» أي: متبع لشريعة الله التي أرسل بها رسله، وأنزل كتبه، وجعلها طريقاً لخواص خلقه وأتباعهم.

«واتبع ملة إبراهيم» أي: دينه وشرعه «حنيفاً» أي: مائلاً عن الشرك إلى التوحيد، وعن التوجه للخلق إلى الإقبال على الخالق، «واتخذ الله إبراهيم خليلاً» والخلة أعلى أنواع المحبة، وهذه المرتبة حصلت للخليلين محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأما المحبة من الله، فهي لعموم المؤمنين، وإنما اتخذ الله إبراهيم خليلاً، لأنه وفى بما أمر به وقام بما ابتلي به، فجعله الله إماماً للناس، واتخذ خليلاً، ونوه بذكره في العالمين.

﴿١٢٦﴾ «والله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطاً» وهذه الآية الكريمة فيها بيان إحاطة الله تعالى بجميع الأشياء، فأخبر أن له «ما في السماوات وما في الأرض» أي: الجميع ملكه وعبيده، فهم المملوكون، وهو المالك المتفرد بتدبيرهم، وقد أحاط علمه بجميع المعلومات، وبصره بجميع المبصرات، وسمعه بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، ووسعت رحمته أهل الأرض والسماوات، وقهر بعزه وقهره كل مخلوق، ودانت له جميع الأشياء.

﴿١٢٧﴾ «ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتوهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً» الاستفتاء: طلب السائل من المسؤول بيان الحكم الشرعي في ذلك المسؤول عنه. فأخبر عن المؤمنين أنهم يستفتون الرسول ﷺ، في حكم النساء التعلق بهم فتوى الله هذه الفتوى بنفسه، فقال: «قل الله يفتيكم فيهن» فاعملوا على ما أفتاكم به في جميع شؤون النساء، من القيام بحقوقهن وترك ظلمهن عموماً وخصوصاً.

وهذا أمر عام يشمل جميع ما شرع الله أمراً ونهياً، في حق النساء الزوجات وغيرهن، الصغار والكبار، ثم خص - بعد التعميم - الرخصة بالضعاف من يتامى والولدان، اهتماماً بهم، وزجراً عن التفريط في حقوقهم، فقال: «وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء» أي: ويفتيكم أيضاً بما يتلى عليكم في الكتاب في شأن يتامى من النساء. «اللاتي لا تؤتوهن ما كتب لهن» وهذا إخبار عن الحالة الموجودة الواقعة في ذلك الوقت، فإن اليتيمة إذا كانت تحت ولاية الرجل، بخسها حقها وظلمها، إما بأكل مالها الذي لها أو بعضه، أو منعها من التزوج لينتفع بمالها، خوفاً من استخراجها من يده إن زوجها، أو يأخذ من مهرها الذي تزوج به بشرط أو غيره، هذا إذا كان راغباً عنها، أو يرغب فيها وهي ذات جمال ومال، ولا يقسط في مهرها، بل يعطيها دون ما تستحق، فكل هذا ظلم يدخل تحت هذا النص، ولهذا قال: «وترغبون أن تنكوهن» أي: ترغبون عن نكاحهن، أو في نكاحهن كما ذكرنا تمثيلاً.

«والمستضعفين من الولدان» أي: ويفتيكم في المستضعفين من الولدان الصغار، أن تعطوهم حقهم من الميراث

وغيره، وأن لا تستولوا على أموالهم على وجه الظلم والاستبداد. «وأن تقوموا لليتامى بالقسط» أي: بالعدل التام، وهذا يشمل القيام عليهم بإلزامهم أمر الله وما أوجبه على عباده، فيكون الأولياء مكلفين بذلك، يلزمونهم بما أوجبه الله.

ويشمل القيام عليهم في مصالحهم الدنيوية، بتنمية أموالهم، وطلب الأحظ لهم فيها، وأن لا يقربوها إلا بالتي هي أحسن، وكذلك لا يجابون فيهم صديقاً ولا غيره، في تزوج وغيره، على وجه الهضم لحقوقهم. وهذا من رحمته تعالى بعباده، حيث حث غاية الحث على القيام بمصالح مَنْ لا يقوم بمصلحة نفسه، لضعفه وفقد أبيه.

ثم حث على الإحسان عموماً، فقال: «وما تفعلوا من خير» لليتامى ولغيرهم، سواء كان الخير متعدياً أو لازماً، «فإن الله كان به عليماً» أي: قد أحاط علمه بعمل العاملين للخير، قلة وكثرة، حسناً وضده، فيجازي كلا بحسب عمله.

﴿١٢٨﴾ «وإن امرأة خافت من بعلها نشووزاً أو أعراضاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير» وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً» أي: إذا خافت المرأة نشووز زوجها، أي: ترفعه عنها، وعدم رغبته فيها وإعراضه عنها، فالأحسن في هذه الحالة أن يصلحا بينهما صلحاً، بأن تسمح المرأة عن بعض حقوقها اللازمة لزوجها، على وجه تبقى مع زوجها، إما أن ترضى بأقل من الواجب لها من النفقة، أو الكسوة، أو المسكن، أو القسم، بأن تسقط حقها منه، أو تهب يومها وليتها لزوجها أو لضرتها.

فإذا اتفقا على هذه الحالة، فلا جناح ولا بأس عليهما فيها، لا عليها ولا على الزوج، فيجوز حينئذ لزوجها البقاء معها على هذه الحال، وهي خير من الفرقة، ولهذا قال: «والصلح

تعذر الاتفاق فإنه لا بأس بالفراق، فقال: ﴿وإن يفرقا﴾ أي: بطلاق، أو فسخ، أو خلع، أو غير ذلك ﴿يفرن الله كلا﴾ من الزوجين ﴿من سعت﴾ أي: من فضله وإحسانه الواسع الشامل. فيغني الزوج بزوجة خير له منها، ويغنيها من فضله وإن انقطع نصيبها من زوجها، فإن رزقها على التكفل بأرزاق جميع الخلق، القائم بمصالحهم، ولعل الله يرزقها زوجاً خيراً منه، ﴿وكان الله واسعاً﴾ أي: كثير الفضل، واسع الرحمة، وصلت رحمته وإحسانه إلى حيث وصل إليه علمه.

ولكنه مع ذلك ﴿حكيماً﴾ أي: يعطي بحكمة، ويمنع لحكمة. فإذا اقتضت حكمته منع بعض عباده من إحسانه، بسبب من العبد لا يستحق معه الإحسان حرمة عدلاً وحكمة.

﴿١٣١ - ١٣٢﴾ ﴿والله ما في السماوات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن الله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾ * والله ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴿يخبر تعالى عن عموم ملكه العظيم الواسع، المستلزم تدبيره بجميع أنواع التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف قدراً وشرعاً، فتصرفه الشرعي أن وصى الأولين والآخرين أهل الكتب السابقة واللاحقة بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة لمن قام بهذه الوصية بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بالآلیم العذاب. ولهذا قال: ﴿وإن تكفروا﴾ بأن تركوا تقوى الله، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً، فإنكم لا تضررون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضررون الله شيئاً، ولا تنقصون ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم، وأكثر مطيعون له خاضعون لأمره. ولهذا رتب على ذلك قوله: ﴿وإن تكفروا فإن الله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً﴾ له الجود الكامل والإحسان

المأمور، وتتقوا بترك المحظور ﴿فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ قد أحاط به علماً وخبراً، بظاهرة وباطنه، فيحفظه لكم، ويجازيكم عليه أتم الجزاء.

﴿١٢٩﴾ ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ يخبر تعالى: أن الأزواج لا يستطيعون، وليس في قدرهم العدل التام بين النساء، وذلك لأن العدل يستلزم وجود المحبة على السواء، والداعي على السواء، والميل في القلب إليهن على السواء، ثم العمل بمقتضى ذلك. وهذا متعذر غير ممكن، فلذلك عفا الله عما لا يستطيع، ونهى عما هو ممكن بقوله: ﴿فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة﴾ أي: لا تميلوا ميلاً كثيراً بحيث لا تؤدون حقوقهن الواجبة، بل افعلوا ما هو باستطاعتكم من العدل.

فالنفقة والكسوة والقسم ونحوها، عليكم أن تعدلوا بينهن فيها، بخلاف الحب، والوطء ونحو ذلك، فإن الزوجة إذا ترك زوجها ما يجب لها، صارت كالمعلقة التي لا زوج لها فتستريح وتستعد للزواج، ولا ذات زوج يقوم بحقوقها.

﴿وإن تصلحوا﴾ ما بينكم وبين زوجاتكم، بإجبار أنفسكم على فعل ما لا تنهوا أنفسكم، احتساباً وقياماً بحق الزوجة، وتصلحوا أيضاً فيما بينكم وبين الناس، وتصلحوا أيضاً بين الناس، فيما تنازعوا فيه، وهذا يستلزم الحث على كل طريق يوصل إلى الصلح مطلقاً كما تقدم.

﴿وتتقوا﴾ الله بفعل المأمور وترك المحظور، والصبر على المقدور. ﴿فإن الله كان غفوراً رحيماً﴾ يغفر ما صدر منكم من الذنوب والتقصير في الحق الواجب، ويرحمكم كما عطفتم على أزواجكم ورحمتموهن.

﴿١٣٠﴾ ﴿وإن يفرقا يغن الله كلا من سعت﴾ وكان الله واسعاً حكيماً هذه الحالة الثالثة بين الزوجين، إذا

خير، ويؤخذ من عموم هذا اللفظ والمعنى أن الصلح بين من بينهما حق أو منازعة في جميع الأشياء، أنه خير من استقصاء كل منهما على كل حقه، لما فيها من الإصلاح وبقاء الألفة، والاتصاف بصفة السماح.

وهو جائز في جميع الأشياء، إلا إذا أحل حراماً أو حرم حلالاً، فإنه لا يكون صلحاً، وإنما يكون جوراً. واعلم أن كل حكم من الأحكام لا يتم ولا يكمل، إلا بوجود مقتضيه وانتفاء موانعه، فمن ذلك هذا الحكم الكبير الذي هو الصلح، فذكر تعالى المقتضي لذلك، ونهى على أنه خير، والخير كل عاقل يطلبه ويرغب فيه، فإن كان - مع ذلك - قد أمر الله به وحث عليه ازداد المؤمن طلباً له ورغبة فيه.

وذكر المانع بقوله: ﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ أي: جبلت النفوس على الشح، وهو: عدم الرغبة في بذل ما على الإنسان، والحرص على الحق الذي له، فالنفوس مجبولة على ذلك طبعاً، أي: فينبغي لكم أن تحرصوا على قلع هذا الخلق الدنيء من نفوسكم، وتستبدلوا به ضده، وهو السماحة، وهو بذل الحق الذي عليكم، والاعتناء ببعض الحق الذي لك.

فتمنى وفق الإنسان لهذا الخلق الحسن، سهل حيثئذ عليه الصلح بينه وبين خصمه ومعامله، وتسهلت الطريق للوصول إلى المطلوب. بخلاف من لم يجتهد في إزالة الشح من نفسه، فإنه يعسر عليه الصلح والموافقة، لأنه لا يرضيه إلا جميع ماله، ولا يرضى أن يؤدي ما عليه، فإن كان خصمه مثله اشتد الأمر.

ثم قال: ﴿وإن تحسنوا وتتقوا﴾ أي: تحسنوا في عبادة الخالق، بأن يعبد العبد ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وتحسنوا إلى المخلوقين بجميع طرق الإحسان، من نفع بمال، أو علم، أو جاه، أو غير ذلك. ﴿وتتقوا﴾ الله بفعل جميع المأمورات، وترك جميع المحظورات. أو تحسنوا بفعل

﴿تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ أي: حجة واضحة على عقوبتكم، فإنه قد أنذرنا وحذرننا منها، وأخبرنا بما فيها من الفساد، فسلوكها بعد هذا موجب للعقاب.

وفي هذه الآية دليل على كمال عدل الله، وأن الله لا يعذب أحداً؛ قبل قيام الحجة عليه، وفيها التحذير من المعاصي؛ فإن فاعلها يجعل الله عليه سلطاناً مبيناً.

﴿١٤٥ - ١٤٧﴾ ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ * إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجراً عظيماً * ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليماً * يخبر تعالى عن مآل المنافقين، أنهم في أسفل الدركات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب. فهم تحت سائر الكفار، لأنهم شاركوهم بالكفر بالله ومعاداة رسله، وزادوا عليهم المكر والخديعة، والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يشغره ولا يحس. ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب، وليس لهم منقذ من عذابه، ولا ناصر يدفع عنهم بعض عقابه، وهذا عام لكل منافق، إلا من آمن بالله عليهم بالتوبة من السيئات. ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ له الظواهر والبواطن ﴿واعتصموا بالله﴾ والتجأوا إليه، في جلب منافعهم ودفع المضار عنهم. ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ﴾ الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان ﴿لله﴾.

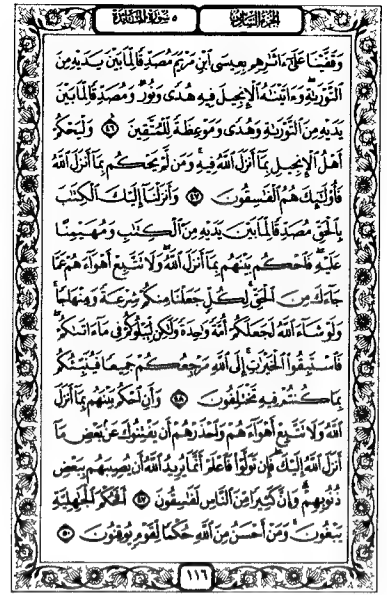
فقصدا وجه الله بأعمالهم الظاهرة والباطنة، وسلموا من الرياء والنفاق، فمن اتصف بهذه الصفات ﴿فأولئك مع المؤمنين﴾ أي: في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة. ﴿وسوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً﴾ لا يعلم كنهه

متشاقلين لها، متبرمين من فعلها، والكسل لا يكون إلا من فقد الرغبة من قلوبهم، فلولا أن قلوبهم فارغة من الرغبة إلى الله وإلى ما عنده، عادة للإيمان، لم يصدر منهم الكسل، ﴿يَرَاوُنَ النَّاسَ﴾ أي: هذا الذي انطوت عليه سرائرهم، وهذا مصدر أعمالهم، مراعاة الناس، يقصدون رؤية الناس وتعظيمهم واحترامهم، ولا يخلصون لله فلهذا ﴿لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ لامتلاء قلوبهم من الرياء، فإن ذكر الله تعالى وملازمته، لا يكون إلا من مؤمن ممتلئ قلبه بمحبة الله وعظمته.

﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ أي: مترددين بين فريق المؤمنين وفريق الكافرين. فلا من المؤمنين ظاهراً وباطناً، ولا من الكافرين ظاهراً وباطناً. أعطوا باطنهم للكافرين، وظاهرهم للمؤمنين، وهذا أعظم ضلال يقدر. ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَضِللِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ أي: لن تجد طريقاً لهديته، ولا وسيلة لترك غوايته، لأنه انغلق عنه باب الرحمة، وصار بدله كل نقمة.

فهذه الأوصاف المذمومة، تدل بتنبئها على أن المؤمنين متصفون بضدها، من الصدق ظاهراً وباطناً والإخلاص، وأنهم لا يجهل ما عندهم، ونشاطهم في صلاتهم وعباداتهم، وكثرة ذكرهم لله تعالى. وأنهم قد هداهم الله ووقفهم للصراف المستقيم. فليعرض العاقل نفسه على هذين الأمرين، وليخترا أيهما أولى به، وبالله^(١) المستعان.

﴿١٤٤﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ لما ذكر أن من صفات المنافقين اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، نهى عباده المؤمنين أن يتصفوا بهذه الحالة القبيحة، وأن يشابهوا المنافقين، فإن ذلك موجب لأن



بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضل الله فلن تجد له سبيلاً * يخبر تعالى عن المنافقين بما كانوا عليه، من قبيح الصفات، وشنائع السمات، وأن طريقتهم مخادعة الله تعالى، أي: بما أظهره من الإيمان، وأبطنوه من الكفران، ظنوا أنه يروج على الله ولا يعلمه ولا يبيده لعباده، والحال أن الله خادعهم، فمجرد وجود هذه الحال منهم، ومشيهم عليها، خداع لأنفسهم. وأي: خداع أعظم ممن يسعى سعيًا يعود عليه بالهوان والذل والحرمان!!

ويدل بمجرده على نقص عقل صاحبه، حيث جمع بين المعصية، ورأها حسنة، وظنها من العقل والمكر، فله ما يصنع الجاهل والخذلان بصاحبه!! ومن خداعه لهم يوم القيامة ما ذكره الله في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنٌ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قَبْلِهِ الْعَذَابُ ينادونهم ألم نكن معكم﴾ إلى آخر الآيات.

ومن صفاتهم أنهم ﴿إِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ﴾ - إن قاموا - التي هي أكبر الطاعات العملية، ﴿قَامُوا كَسَالًا﴾

إليه، فلماذا قال: ﴿فَإِنْ كَانَ عَفْوَاً قَدِيرًا﴾ أي: يعفو عن زلات عباده وذنوبهم العظيمة، فيسدل عليهم ستره، ثم يعاملهم بعفوه التام الصادر عن قدرته.

وفي هذه الآية إرشاد إلى التفقه في معاني أسماء الله وصفاته، وأن الخلق والأمر صادر عنها، وهي مقتضية له، ولهذا يعمل الأحكام بالأسماء الحسنى، كما في هذه الآية.

لما ذكر عمل الخير والعفو عن المسيء رتب على ذلك، بأن أحالنا على معرفة أسمائه، وأن ذلك يغنينا عن ذكر ثوابها الخاص.

﴿١٥٠ - ١٥٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُؤْتَوْنَ أَجْرًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُقُولُونَ تَوْحِيدًا بَعْضُ وَنُكْفَرُ بَعْضٌ وَيُرِيدُونَ أَن يُتَّخَذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يُقْرِئُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَوْلَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

هنا قسمان قد وضحا لكل أحد: مؤمن بالله وبرسوله كلهم وكتبه، وكافر بذلك كله.

وبقي قسم ثالث: وهو الذي يزعم أنه يؤمن ببعض الرسل دون بعض، وأن هذا سبيل ينجي من عذاب الله، إن هذا إلا مجرد أمان. فإن هؤلاء يريدون التفريق بين الله وبين رسوله.

فإن من تولى الله حقيقة تولى جميع رسوله، لأن ذلك من تمام تولى، ومن عادى أحداً من رسوله فقد عادى الله، وعادى جميع رسوله كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ الآيات.

وكذلك من كفر برسول فقد كفر بجميع الرسل، بل بالرسول الذي يزعم أنه به مؤمن، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ وذلك لثلاث يتوهم أن مرتبتهم متوسطة بين الإيمان والكفر.

وجه كونهم كافرين - حتى بما

بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل المطيع لنفسه.

والشكر هو خضوع القلب، واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته، وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه.

﴿١٤٨ - ١٤٩﴾ ﴿لَا يَحْسِبُ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا * إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَخَفَوْهُ أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفْوَاً قَدِيرًا﴾ يخبر تعالى أنه لا يجب الجهر بالسوء من القول، أي: يَغْضُ ذلك ويمقته ويعاقب عليه، ويشمل ذلك جميع الأقوال السيئة التي تسوء وتحزن، كالشتم والقذف والسب ونحو ذلك، فإن ذلك كله من المنهي عنه الذي يَغْضه الله.

ويدل مفهومها أنه يجب الحسن من القول كالذكر والكلام الطيب اللين.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن ظَلَمَ﴾ أي: فإنه يجوز له أن يدعو على من ظلمه، ويتشكى^(٢) منه، ويجهر بالسوء لمن جهر له به، من غير أن يكذب عليه، ولا يزيد على مظلمته، ولا يتعدى بشتمه غير ظالمه، ومع ذلك فعفوه، وعدم مقابله أولى، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ ولما كانت الآية قد اشتملت على الكلام السيء والحسن والمباح، أخبر تعالى أنه سميع، فيسمع أقوالكم، فاحذروا أن تتكلموا بما يغضب ربكم فيعاقبكم على ذلك.

وفيه أيضاً ترغيب على القول الحسن ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم ومصدر أقوالكم. ثم قال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ تَخَفَوْهُ﴾ وهذا يشمل كل خير قول وفعل، ظاهر وباطن، من واجب ومستحب.

﴿أَوْ تَعَفَّوْا عَنْ سُوءٍ﴾ أي: عمن ساءكم في أبدانكم وأموالكم وأعراضكم، فتسمحوا عنه، فإن الجزء من جنس العمل. فَمَنْ عَفَا اللَّهُ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَحْسَنَ أَحْسَنَ اللَّهُ

إِلَّا اللَّهَ، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وتأمل كيف خص الاعتصام والإخلاص بالذكر، مع دخولهما في قوله: ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ لأن الاعتصام والإخلاص من جملة الإصلاح، لشدة الحاجة إليهما، خصوصاً في هذا المقام الحرج الذي تمكن من القلوب النفاق، فلا يزيله إلا شدة الاعتصام بالله، ودوام اللجأ والافتقار إليه في دفعه، وكون الإخلاص منافياً لكل المنافاة للنفاق، فذكرهما لفضلهما وتوقف الأعمال الظاهرة والباطنة عليهما، ولشدة الحاجة في هذا المقام إليهما.

وتأمل كيف لما ذكر أن هؤلاء مع المؤمنين لم يقل: وسوف يؤتيهم أجراً عظيماً، مع أن السياق فيهم. بل قال: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ لأن هذه القاعدة الشريفة - لم يزل الله يبدئ فيها ويعيد، إذا كان السياق في بعض الجزئيات، وأراد أن يرتب^(١) عليه ثواباً أو عقاباً وكان ذلك مشتركاً بينه وبين الجنس الداخل فيه، رتب الثواب في مقابلة الحكم العام الذي تدرج تحته تلك القضية وغيرها، ولثلاث يتوهم اختصاص الحكم بالأمر الجزئي، فهذا من أسرار القرآن البديعة، فالتائب من المنافقين، مع المؤمنين وله ثوابهم.

ثم أخبر تعالى عن كمال غناه، وسعة حلمه، ورحمته وإحسانه، فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ والحال أن الله شاكر عليم. يعطي المتحملين لأجله الأثقال الدائين في الأعمال جزيل الثواب وواسع الإحسان. وَمَنْ تَرَكَ شَيْئاً لِّلَّهِ أَعْطَاهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهُ.

ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم، وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك. وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنبتم إليه، فأني: شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم، ولا ينتفع

زعموا الإيمان به - أن كل دليل دلهم على الإيمان بمن آمنوا به موجود هو أو مثله، أو ما فوقه للنبي الذي كفروا به، وكل شبهة يزعمون أنهم يقدحون بها في النبي الذي كفروا به موجود مثلها أو أعظم منها فيمن آمنوا به.

فلم يبق بعد ذلك إلا التشهي والهوى ومجرد الدعوى التي يمكن كل أحد أن يقابلها بمثلها، ولما ذكر أن هؤلاء هم الكافرون حقاً، ذكر عقاباً شاملاً لهم ولكل كافر، فقال: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً﴾ كما تكبروا عن الإيمان بالله، أهانهم بالعذاب الأليم المخزي.

﴿والذين آمنوا بالله ورسوله﴾ وهذا يتضمن الإيمان بكل ما أخبر الله به عن نفسه، وبكل ما جاءت به الرسل من الأخبار والأحكام. ﴿ولم يفرقوا بين أحدٍ من رسله، بل آمنوا بهم كلهم، فهذا هو الإيمان الحقيقي، واليقين المبني على البرهان.

﴿أولئك سوف يؤتيهم أجورهم﴾ أي: جزاء إيمانهم، وما ترتب عليه من عمل صالح، وقول حسن، وخلق جميل، كل على حسب حاله. ولعل هذا هو السر في إضافة الأجور إليهم، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يغفر السيئات ويتقبل الحسنات.

﴿١٥٣ - ١٦١﴾ ﴿يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرننا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطاناً مبيناً﴾ ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجداً وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً ﴿فيما نقضهم ميثاقهم وكفروهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً﴾ وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً ﴿وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم

وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً﴾ بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً ﴿وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيداً﴾ فظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً ﴿وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾ هذا السؤال الصادر من أهل الكتاب للرسول محمد ﷺ على وجه العناد والاقتراح، وجعلهم هذا السؤال يتوقف عليه تصديقهم أو تكذيبهم. وهو أنهم سألوه أن ينزل عليهم القرآن جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل، وهذا غاية الظلم منهم والجهل، فإن الرسول بشر عبد مدبر، ليس في يده من الأمر شيء، بل الأمر كله لله، وهو الذي يرسل وينزل ما يشاء على عباده، كما قال تعالى عن الرسول، لما ذكر الآيات التي فيها اقتراح المشركين على محمد ﷺ، ﴿قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً﴾.

وكذلك جعلهم الفارق بين الحق والباطل مجرد إنزال الكتاب جملة أو مفرقاً، مجرد دعوى لا دليل عليها، ولا مناسبة، بل ولا شبهة، فمن أين يوجد في نبوة أحد من الأنبياء أن الرسول الذي يأتيكم بكتاب نزل مفرقاً فلا تؤمنوا به ولا تصدقوه؟

بل نزول هذا القرآن مفرقاً بحسب الأحوال، مما يدل على عظمته واعتناء الله بمن أنزل عليه، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً. ولا يأتونك بمثل إلا جشاك بالحق وأحسن تفسيراً﴾.

فلما ذكر اعتراضهم الفاسد أخبر أنه ليس بغريب من أمرهم، بل سبق لهم من المقدمات القبيحة ما هو أعظم مما سلکوه مع الرسول الذي يزعمون أنهم آمنوا به، من سؤالهم له رؤية الله

عيناً، واتخاذهم العجل إلهاً يعبدونه، من بعد ما رأوا من الآيات بأبصارهم ما لم يره غيرهم.

ومن امتناعهم من قبول أحكام كتابهم وهو التوراة، حتى رفع الطور من فوق رؤوسهم، وهددوا أنهم إن لم يؤمنوا أسقط عليهم، فقبلوا ذلك على وجه الإغماض، والإيمان الشبيه بالإيمان الضروري.

ومن امتناعهم من دخول أبواب القرية التي أمروا بدخولها سجداً مستغفرين، فخالفوا القول والفعل. ومن اعتداء من اعتدى منهم في السبت، فعاقبهم الله تلك العقوبة الشنيعة.

وبأخذ الميثاق الغليظ عليهم، فنبذوه وراء ظهورهم، وكفروا بآيات الله، وقتلوا رسله بغير حق. ومن قولهم: أنهم قتلوا المسيح عيسى وصلبوه، والحال أنهم ما قتلوه وما صلبوه، بل شبه لهم غيره، فقتلوا غيره وصلبوه.

وادعائهم أن قلوبهم غلف لا تفقه ما تقول لهم ولا تفهمه، وبصدهم الناس عن سبيل الله، فصدهم عن الحق، ودعوههم إلى ما هم عليه من الضلال والغي. وبأخذهم السحت والربا مع نهي الله لهم عنه، والتشديد فيه.

فالذين فعلوا هذه الأفاعيل، لا يستنكر عليهم أن يسألوا الرسول محمداً أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وهذه الطريقة من أحسن الطرق لمحااجة الخصم المبطل، وهو أنه إذا صدر منه من الاعتراض الباطل ما جعله شبهة له ولغيره في رد الحق، أن يبين من حاله الخبيثة وأفعاله الشنيعة، ما هو من أقبح ما صدر منه، ليعلم كل أحد أن هذا الاعتراض من ذلك الوادي الخسيس، وأن له مقدمات يجعل هذا معها.

وكذلك كل اعتراض يعترضون به على نبوة محمد ﷺ يمكن أن يقابل بمثله، أو ما هو أقوى منه في نبوة من يدعون إيمانهم به، ليكتفى بذلك شرهم، وينقمع باطلهم، وكل حجة سلکوها في تقريرهم لنبوة من آمنوا



طريقاً * إلا طريق جهنم خالدين فيها أبداً وكان ذلك على الله يسيراً* لما أخبر عن رسالة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وأخبر برسالة خاتمهم محمد، وشهد بها وشهدت ملائكته - لزوم من ذلك، ثبوت الأمر المقرر والمشهود به، فوجب تصديقهم، والإيمان بهم واتباعهم.

ثم توعدهم من كفرهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: جمعوا بين الكفر بأنفسهم، وصددهم الناس عن سبيل الله. وهؤلاء هم أئمة الكفر ودعاة الضلال ﴿قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾. أي: ضلال أعظم من ضلال من ضل نفسه وأضل غيره، فباء بالإثمين، ورجع بالخسارتين، وفاته الهدياتن، ولهذا قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا﴾ وهذا الظلم هو زيادة على كفرهم، وإلا فالكفر عند إطلاق الظلم يدخل فيه.

والمراد بالظلم هنا أعمال الكفر والاستغراق فيه، فهؤلاء بعيدون من المغفرة والهداية للصراط المستقيم. ولهذا قال: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾. وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية، لأنهم استمروا في طغيانهم، وازدادوا في كفرانهم^(١)، فطبع على قلوبهم وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ أي: لا يبالي الله بهم ولا يعذب، لأنهم لا يصلحون للخير، ولا يليق بهم إلا الحالة التي اختاروها لأنفسهم.

﴿١٧٠﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرُّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يأمر تعالى جميع الناس أن يؤمنوا بعبده ورسوله محمد ﷺ. وذكر السبب الموجب للإيمان به، والفائدة من الإيمان به، والمضرة من عدم الإيمان به، فالسبب الموجب هو إخباره

الحمد وله الشكر. ونسأله كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم، أن يتمها بالتوفيق لسلك طريقهم، إنه جواد كريم.

﴿١٦٦﴾ ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ لما ذكر أن الله أوحى إلى رسوله محمد ﷺ كما أوحى إلى إخوانه من المرسلين، أخبر هنا بشهادته تعالى على رسالته وصحة ما جاء به، وأنه ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ يحتمل أن يكون المراد أنزله مشتملاً على علمه، أي: فيه من العلوم الإلهية والأحكام الشرعية والأخبار الغيبية، ما هو من علم الله تعالى الذي علم به عباده.

ويحتمل أن يكون المراد: أنزله صادراً عن علمه، ويكون في ذلك إشارة وتنبيه على وجه شهادته، وأن المعنى: إذا كان تعالى أنزل هذا القرآن المشتمل على الأوامر والنواهي، وهو يعلم ذلك، ويعلم حالة الذي أنزله عليه، وأنه دعا الناس إليه، فمن أجابه وصدقته كان وليه، ومن كذبه وعاداه كان عدوه واستباح ماله ودمه، والله تعالى يمكنه، ويوالي نصره، ويجب دعوته، ويغذل أعداءه وينصر أوليائه، فهل توجد شهادة أعظم من هذه الشهادة وأكبر؟! ولا يمكن القدح في هذه الشهادة، إلا بعد القدح بعلم الله وقدرته وحكمته، وإخباره تعالى بشهادة الملائكة على ما أنزل على رسوله، لكمال إيمانهم وجلالة هذا المشهود عليه.

فإن الأمور العظيمة لا يستشهد عليها إلا الخواص، كما قال تعالى في الشهادة على التوحيد: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وكفى بالله شهيداً.

﴿١٦٧ - ١٦٩﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ

الذي خص الله به داود عليه السلام لفضله وشرفه، وأنه كلم موسى تكليماً، أي: مشافهة منه إليه، لا بواسطة، حتى اشتهر بهذا عند العالمين، فيقال: «موسى كلمه الرحمن».

وذكر أن الرسل منهم من قصه الله على رسوله، ومنهم من لم يقصصه عليه، وهذا يدل على كثرتهم وأن الله أرسلهم مبشرين لمن أطاع الله واتبعهم، بالسعادة الدنيوية والأخروية، ومنذرين من عصي الله وخالفهم بشقاوة الدارين، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل فيقولوا: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾. فقد جاءكم بشير ونذير.

فلم يبق للخلق على الله حجة لإرساله الرسل تترى، يبينون لهم أمر دينهم، ومراضي ربهم ومساخطه، وطرق الجنة وطرق النار، فمن كفر منهم بعد ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وهذا من كمال عزته تعالى وحكمته، أن أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضاً من فضله وإحسانه، حيث كان الناس مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورة تقدر، فأزال هذا الاضطراب، فله

فنفع في فرج مريم عليها السلام، فحملت بإذن الله، بعميسى عليه السلام.

فلما بين حقيقة عيسى عليه السلام، أمر أهل الكتاب بالإيمان به وبرسله، ونهاهم أن يجعلوا الله ثالث ثلاثة، أحدهم عيسى، والثاني مريم، فهذه مقالة النصارى قبحهم الله.

فأمرهم أن ينتهوا، وأخبر أن ذلك خير لهم، لأنه الذي يتعين أنه سبيل النجاة، وما سواه فهو طريق الهلاك، ثم نزه نفسه عن الشريك والولد، فقال: ﴿إنما الله إله واحد﴾ أي: هو المنفرد بالالوهية، الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿سبحانه﴾ أي: تنزهه وتقدس ﴿أن يكون له ولد﴾ لأن ﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ فالكل مملوكون له، مفتقرون إليه، فمحال أن يكون له شريك منهم أو ولد.

ولما أخبر أنه المالك للعالم العلوي والسفلي، أخبر أنه قائم بمصالحهم الدنيوية والأخروية وحافظها، ومجازيهم عليها تعالى.

﴿١٧٢ - ١٧٣﴾ ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ فأمّا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيههم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فיעذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً.

لما ذكر تعالى غلو النصارى في عيسى عليه السلام، وذكر أنه عبده ورسوله، ذكر هنا أنه لا يستنكف عن عبادة ربه، أي: لا يمتنع عنها رغبة عنها لا هو ﴿ولا الملائكة المقربون﴾. فترهبهم عن الاستنكاف، وتزبيهم عن الاستكبار من باب أولى، ونفي الشيء فيه إثبات ضده.

أي: فعيسى والملائكة المقربون، قد رغبوا في عبادة ربه، وأحبوها وسعوا فيها بما يليق بأحوالهم، فأوجب لهم ذلك الشرف العظيم، والقوز العظيم،

الهداية والغواية، الحكيم في وضع الهداية والغواية موضعهما.

﴿١٧١﴾ ﴿يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله كيبلاً﴾ ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو في الدين، وهو مجاوزة الحد والقدر المشروع، إلى ما ليس بمشروع. وذلك كقول النصارى في غلوهم بعيسى عليه السلام، ورفعوا عن مقام النبوة والرسالة إلى مقام الربوبية الذي لا يليق بغير الله، فكما أن التقصير والتفريط من المنهيات، فالغلو كذلك، ولهذا قال: ﴿ولا تقولوا على الله إلا الحق﴾ وهذا الكلام يتضمن ثلاثة أشياء:

أمرين منهي عنهما، وهما قول الكذب على الله، والقول بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله، وشرعه ورسله، والثالث: مأموره وهو قول الحق في هذه الأمور.

ولما كانت هذه قاعدة عامة كلية، وكان السياق في شأن عيسى عليه السلام نصّ على قول الحق فيه، المخالف لطريقة اليهودية والنصرانية فقال: ﴿إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله﴾ أي: غاية المسيح عليه السلام ومتتهى ما يصل إليه من مراتب الكمال، أعلى حالة تكون للمخلوقين، وهي درجة الرسالة التي هي أعلى الدرجات، وأجل الثوابات.

وأنه ﴿كلمته﴾ التي ألقاها إلى مريم. أي: كلمة تكلم الله بها فكان بها عيسى، ولم يكن تلك الكلمة، وإنما كان بها، وهذا من باب إضافة التشريف والتكريم.

وكذلك قوله: ﴿وروح منه﴾ أي: من الأرواح التي خلقها، وكمّلها بالصفات الفاضلة والأخلاق الكاملة، أرسل الله روحه جبريل عليه السلام،

بأنه جاءهم بالحق. أي: فمجيئه نفسه حق، وما جاء به من الشرع حق، فإن العاقل يعرف أن بقاء الخلق في جهلهم بعمهم، وفي كفرهم بترددون، والرسالة قد انقطعت عنهم، غير لائق بحكمة الله ورحمته، فمن حكمته ورحمته العظيمة نفس إرسال الرسول إليهم، ليعرفهم الهدى من الضلال، والغي من الرشد، فمجرد النظر في رسالته دليل قاطع على صحة نبوته.

وكذلك النظر إلى ما جاء به من الشرع العظيم والصراط المستقيم. فإن فيه من الإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلية، والخبر عن الله وعن اليوم الآخر - ما لا يعرف إلا بالوحي والرسالة. وما فيه من الأمر بكل خير وصلاح، ورشد، وعدل، وإحسان، وصدق، وبر، وصلة، وحسن خلق، ومن النهي عن الشر والفساد، والبغي والظلم، وسوء الخلق، والكذب والعقوق، مما يقطع به أنه من عند الله.

وكلما ازداد به العبد بصيرة، ازداد إيمانه ويقينه، فهذا السبب الداعي للإيمان.

وأما الفائدة في الإيمان، فأخبر أنه خير لكم والخير ضد الشر. فالإيمان خير للمؤمنين، في أبدانهم وقلوبهم وأرواحهم، ودنياهم وأخراهم. وذلك لما يترتب عليه من المصالح والفوائد، فكل ثواب عاجل وأجل، فمن ثمرات الإيمان، فالنصر والهدى والعلم، والعمل الصالح، والسرور والأفراح، والجنة وما اشتملت عليه، من النعيم كل ذلك مسبب عن الإيمان.

كما أن الشقاء الدنيوي والأخروي من عدم الإيمان أو نقصه. وأما مضرة عدم الإيمان به ﷺ، فيعرف بضد ما يترتب على الإيمان به. وأن العبد لا يضر إلا نفسه، والله تعالى غني عنه، لا تضره معصية العاصين، ولهذا قال: ﴿فإن لله ما في السماوات والأرض﴾ أي: الجميع خلقه وملكه، وتحت تدبيره وتصريفه ﴿وكان الله عليماً﴾ بكل شيء ﴿حكيماً﴾ في خلقه وأمره. فهو العليم بمن يستحق

فلم يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لربوبيته ولا لإلهيته، بل يرون افتقارهم لذلك فوق كل افتقار.

ولا يظن أن رفع عيسى أو غيره من الخلق، فوق مرتبته التي أنزله الله فيها، وترفعه عن العبادة كمالاً، بل هو النقص بعينه، وهو محل الذم والعقاب، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾ أي: فسيحشر الخلق كلهم إليه، المستنكفين والمستكبرين، وعباده المؤمنين، فيحكم بينهم بحكمه العدل، وجزائه الفصل.

ثم فصل حكمه فيهم فقال: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالمأمور به، وعمل الصالحات من واجبات ومستحبات، من حقوق الله وحقوق عباده. ﴿فَيُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ﴾ أي: الأجور التي رتبها على الأعمال، كل بحسب إيمانه وعمله.

﴿وَيُزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ من الثواب الذي لم تنله أعمالهم، ولم تصل إليه أفعالهم، ولم يخطر على قلوبهم. ودخل في ذلك كل ما في الجنة من المأكول والمشرب، والمناسكح، والمناسطر، والسرور، ونعيم القلب والروح، ونعيم البدن، بل يدخل في ذلك كل خير ديني ودنيوي رتب على الإيمان والعمل الصالح.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا﴾ أي: عن عبادة الله تعالى ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ وهو سخط الله وغضبه، والنار الموقدة التي تطلع على الأئنة.

﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾ أي: لا يجدون أحداً من الخلق يتولاهم فيحصل لهم المطلوب، ولا مَنْ ينصرهم فيدفع عنهم المهروب، بل قد تحلى عنهم أرحم الراحمين، وتركهم في عذابهم خالدين، وما حكم به تعالى فلا راد لحكمه، ولا مغير لقضائه.

﴿١٧٤ - ١٧٥﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مبيناً﴾ فأما الذين آمنوا بالله

واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً﴾ يمتن تعالى على سائر الناس بما أوصل إليهم من البراهين القاطعة والأنوار الساطعة، ويقيم عليهم الحجة، ويوضح لهم المحجة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: حجج قاطعة على الحق تبينه وتوضحه، وتبين ضده.

وهذا يشمل الأدلة العقلية والنقلية، الآيات الأفقية والنفسية ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾.

وفي قوله: ﴿مَنْ رَبِّكُمْ﴾ ما يدل على شرف هذا البرهان وعظمته، حيث كان من ربكم الذي رباكم التربية الدينية والدنيوية، فمن تربيته لكم التي يحمد عليها ويشكر، أن أوصل إليكم البينات، ليهديكم بها إلى الصراط المستقيم، والوصول إلى جنات النعيم. ﴿وَأُنْزِلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مبيناً﴾ وهو

هذا القرآن العظيم، الذي قد اشتمل على علوم الأولين والآخرين، والأخبار الصادقة النافعة، والأمر بكل عدل وإحسان وخير، والنهي عن كل ظلم وشر، فالتناس في ظلمة إن لم يستضيئوا بأنواره، وفي شقاء عظيم إن لم يقتبسوا من خيره.

ولكن انقسم الناس - بحسب الإيمان بالقرآن، والانتفاع به - قسمين:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ﴾ أي: اعترفوا بوجوده، واتصافه بكل وصف كامل، وتنزيهه من كل نقص وعيب. ﴿وَاعْتَصَمُوا بِهِ﴾ أي: لجأوا إلى الله واعتمدوا عليه، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، واستعانوا بربهم. ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةِ مِنْهُ وَفَضْلٍ﴾ أي: فسيغمدهم بالرحمة الخاصة، فيوقفهم للخيرات، ويجزل لهم الثوبات، ويدفع عنهم البليات والمكروهات.

﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيماً﴾ أي: يوقفهم للعلم والعمل، معرفة الحق والعمل به.

أي: مَنْ لم يؤمن بالله ويعتصم به ويتمسك بكتابه، منعهم من رحمته، وحرهم من فضله، وخلق بينهم وبين أنفسهم، فلم يهتدوا، بل ضلوا ضلالاً مبيناً، عقوبة لهم على تركهم الإيمان، فحصلت لهم الخيبة والحرمان، نسأله تعالى العفو والعافية والمعافة.

﴿١٧٦﴾ ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلَّذَكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَى بَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أخبر تعالى أن الناس استفتوا رسوله ﷺ أي: في الكلاله بدليل قوله: ﴿قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾ وهي الميت يموت وليس له ولد صلب ولا ولد ابن، ولا أب، ولا جد، ولهذا قال: ﴿إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ أي: لا ذكر ولا أنثى، لا ولد صلب ولا ولد ابن.

وكذلك ليس له والد، بدليل أنه ورث فيه الإخوة، والأخوات بالإجماع لا يرثون مع الوالد، فإذا هلك وليس له ولد، ولا والد ﴿وله أخت﴾ أي: شقيقة أو لأب، لا لأم، فإنه قد تقدم حكمها. ﴿فلها نصف ما ترك﴾ أي: نصف متروكات أخيها، من نقود وعقار وأثاث، وغير ذلك، وذلك من بعد الدين والوصية كما تقدم.

﴿وهو﴾ أي: أخوها الشقيق، أو الذي للأب ﴿يرثها إن لم يكن لها ولد﴾ ولم يقدر له إرثاً لأنه عاصب، فيأخذ مالها كله، إن لم يكن صاحب فرض ولا عاصب يشاركه، أو ما أبقت الفروض.

﴿فَإِنْ كَانَتَا﴾ أي: الأختان ﴿اثنتين﴾ أي: فما فوق ﴿فلهما الثلثان مما ترك، وإن كانوا إخوة رجالاً ونساء﴾ أي: اجتمع الذكور من الإخوة لغير أم مع الإناث ﴿فللذكر مثل حظ الأنثيين﴾ فيسقط فرض الإناث ويعصهن إخوانهن.

﴿يبين الله لكم أن تضلوا﴾ أي:

وفروعه، فكلها داخلة في العقود التي أمر الله بالقيام بها. (١)

ثم قال ممتناً على عباده: ﴿أحلت لكم﴾ أي: لأجلكم، رحمة بكم ﴿بهيمة الأنعام﴾ من الإبل والبقر والغنم، بل ربما دخل في ذلك الوحشي منها، والظباء وحر الوحش، ونحوها من الصيود.

واستدل بعض الصحابة بهذه الآية على إباحة الجنين الذي يموت في بطن أمه بعدما تذبذب.

﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ تحريمه منها في قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ إلى آخر الآية. فإن هذه المذكورات وإن كانت من بهيمة الأنعام فإنها حرمه.

ولما كانت إباحة بهيمة الأنعام عامة في جميع الأحوال والأوقات، استثنى منها الصيد في حال الإحرام فقال: ﴿غير على الصيد وأنتم حرم﴾ أي: أحلت لكم بهيمة الأنعام في كل حال، إلا حيث كنتم متصفين بأنكم غير على الصيد وأنتم حرم، أي: متجروون على قتله في حال الإحرام، وفي الحرم، فإن ذلك لا يحل لكم إذا كان صيدا، كالظباء ونحوه.

والصيد هو الحيوان المأكول المتوحش.

﴿إن الله يحكم ما يريد﴾ أي: ففهما أرادته تعالى حكم به حكماً موافقاً لحكمته، كما أمركم بالوفاء بالعقود لحصول مصالحكم ودفع المضار عنكم. وأحل لكم بهيمة الأنعام رحمة بكم، وحرم عليكم ما استثنى منها من ذوات العوارض، من الميتة ونحوها، صنواً لكم واحتراماً، ومن صيد الإحرام احتراماً للإحرام وإعظاماً.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشعائر الحرام ولا الهدي ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجزمنكم

يبين لكم أحكامه التي تحتاجونها، ويوضحها ويشرحها لكم، فضلاً منه وإحساناً لكي تهتدوا ببيانه، وتعملوا بأحكامه، ولئلا تضلوا عن الصراط المستقيم بسبب جهلكم وعدم علمكم. ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي: عالم بالغيب والشهادة، والأمور الماضية والمستقبل، ويعلم حاجتكم إلى بيانه وتعليمه، فيعلمكم من علمه الذي ينفعكم على الدوام في جميع الأزمنة والأمكنة.

آخر تفسير سورة النساء

فله الحمد والشكر

تفسير سورة المائدة وهي مدنية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم إن الله يحكم ما يريد﴾ هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالوفاء بالعقود، أي: بإكمالها، وإتمامها، وعدم نقضها ونقصها. وهذا شامل للعقود التي بين العبد وبين ربه، من التزام عبوديته، والقيام بها أتم قيام، وعدم الانتقاص من حقوقها شيئاً، والتي بينه وبين الرسول بطاعته وأتباعه، والتي بينه وبين الوالدين والأقارب، ببرهم وصلتهم، وعدم قطيعتهم.

والتي بينه وبين أصحابه من القيام بحقوق الصحبة في الغنى والفقر، والبسر والعسر، والتي بينه وبين الخلق من عقود المعاملات، كالبيع والإجارة، ونحوهما، وعقود التبرعات كالهبة ونحوها، بل والقيام بحقوق المسلمين التي عقدها الله بينهم في قوله: ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ بالتناصر على الحق، والتعاون عليه والتآلف بين المسلمين وعدم التقاطع.

فهذا الأمر شامل لأصول الدين

شأن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله﴾ أي: محرماته التي أمركم بتعظيمها، وعدم فعلها والنهي يشمل النهي عن فعلها، والنهي عن اعتقاد حلها؛ فهو يشمل النهي، عن فعل القبيح، وعن اعتقاده.

ويدخل في ذلك النهي عن محرمات الإحرام، ومحرمات الحرم. ويدخل في ذلك ما نص عليه بقوله: ﴿ولا الشهر الحرام﴾ أي: لا تنتهكوه بالقتال فيه وغيره من أنواع الظلم كما قال تعالى: ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم﴾.

والجمهور من العلماء على أن القتال في الأشهر الحرم منسوخ بقوله تعالى: ﴿فلذا أنسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾ وغير ذلك من العمومات التي فيها الأمر بقتال الكفار مطلقاً، والوعيد في التخلف عن قتالهم مطلقاً.

(١) في هامش أ ما نصه: (ويستدل بهذه الآية أن الأصل في العقود والشروط الإباحة، وأنها تنعقد بما دل عليها من قول أو فعل

لإطلاقتها) وليس هناك علامة تدل على موضع الزيادة. ويبدو أن موضعها هنا - والله أعلم -

أي: لا يحملنكم بغض قوم وعداوتهم واعتداؤهم عليكم، حيث صدوكم عن المسجد على الاعتداء عليهم، طلباً للاشتفاء منهم، فإن العبد عليه أن يلتزم أمر الله، ويسلك طريق العدل، ولو جني عليه أو ظلم واعتدي عليه، فلا يحمل له أن يكذب على من كذب عليه، أو يخون من خانه.

﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾ أي: ليعن بعضكم بعضاً على البر. وهو: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأعمال الظاهرة والباطنة، من حقوق الله وحقوق الآدميين.

والتقوى في هذا الموضع: اسم جامع لترك كل ما يكرهه الله ورسوله، من الأعمال الظاهرة والباطنة. وكل خصلة من خصال الخير المأمور بفعلها، أو خصلة من خصال الشر المأمور بتركها، فإن العبد مأمور بفعلها بنفسه، وبمعاونة غيره من إخوانه المؤمنين عليها، بكل قول يبعث عليها وينشط لها، وبكل فعل كذلك.

﴿ولا تعاونوا على الإثم﴾ وهو التجبرؤ على المعاصي التي يأثم صاحبها، ويخرج. ﴿والعدوان﴾ وهو التعدي على الخلق في دمانهم وأموالهم وأعراضهم، فكل معصية وظلم يجب على العبد، كف نفسه عنه، ثم إعانة غيره على تركه.

﴿واقفوا الله إن الله شديد العقاب﴾ على من عصاه وتجراً على محارمه، فاحذروا المحارم لئلا يحل بكم عقابه العاجل والآجل.

﴿٣﴾ ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيت وما ذبح على النصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق﴾ هذا الذي حولنا الله عليه في قوله: ﴿إلا ما ينشئ عليكم﴾. واعلم أن الله تبارك وتعالى لا يحرم ما يحرم إلا صيانة لعباده، وحماية لهم من الضرر الموجود في المحرمات، وقد بين للعباد ذلك وقد لا يبين.

فأخبر أنه حرم ﴿الميتة﴾ والمراد

﴿ولا القلائد﴾ هذا نوع خاص من أنواع الهدى، وهو الهدى الذي يقتل له قلائد أو عرى، فيجعل في أعناقهم إظهاراً لشعائر الله، وحملًا للناس على الاقتداء، وتعلماً لهم للسنة، وليعرف أنه هدى فيحترم، ولهذا كان تقليد الهدى من السنن والشعائر المسنونة.

﴿ولا أمين البيت الحرام﴾ أي: قاصدين له يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً. أي: من قصد هذا البيت الحرام، وقصده فضل الله بالتجارة والمكاسب المباحة، أو قصده رضوان الله بحجه وعمرته والطواف به، والصلاة، وغيرها من أنواع العبادات، فلا تتعرضوا له بسوء، ولا تهينوه، بل أكرموا، وعظموا الوافدين الزائرين لبيت ربكم.

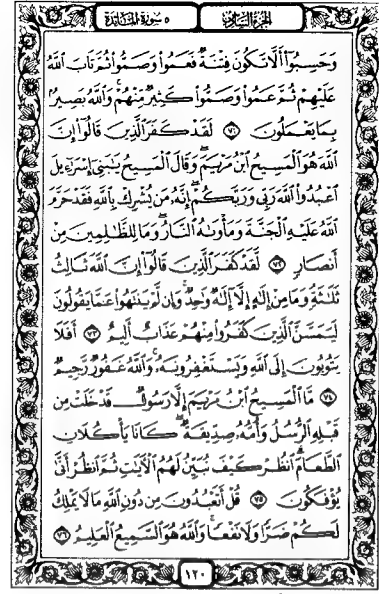
ودخل في هذا الأمر الأمر بتأمين الطرق الموصلة إلى بيت الله، وجعل القاصدين له مطمئنين مستريحين، غير خائفين على أنفسهم من القتل فما دونه، ولا على أموالهم من المكس والنهب ونحو ذلك.

وهذه الآية الكريمة مخصوصة بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ فالمشرك لا يمكن من الدخول إلى الحرم.

وال تخصيص في هذه الآية بالتهدي عن التعرض لمن قصد البيت ابتغاء فضل الله أو رضوانه - يدل على أن من قصده ليلحد فيه بالمعاصي، فإن من تمام احترام الحرم صد من هذه حاله عن الإفساد ببيت الله، كما قال تعالى: ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم﴾.

ولما نهاهم عن الصيد في حال الإحرام قال: ﴿وإذا حللتم فاصطادوا﴾ أي: إذا حللتم من الإحرام بالحج والعمرة، وخرجتم من الحرم حل لكم الاصطياد، وزال ذلك التحريم. والأمر بعد التحريم يرد الأشياء إلى ما كانت عليه من قبل.

﴿ولا يجرم منكم شئنان قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا﴾



وبأن النبي ﷺ قاتل أهل الطائف في ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم.

وقال آخرون: إن النهي عن القتال في الأشهر الحرم غير منسوخ لهذه الآية وغيرها، مما فيه النهي عن ذلك بخصوصه، وحملوا النصوص المطلقة الواردة على ذلك، وقالوا: المطلق يحمل على المقيد.

وفصل بعضهم فقال: لا يجوز ابتداء القتال في الأشهر الحرم، وأما استدامته وتكميله إذا كان أوله في غيرها، فإنه يجوز.

وحملوا قتال النبي ﷺ لأهل الطائف على ذلك، لأن أول قتالهم في «حنين» في «شوال». وكل هذا في القتال الذي ليس المقصود منه الدفع.

فأما قتال الدفع إذا ابتداء الكفار المسلمين بالقتال، فإنه يجوز للمسلمين القتال، دفعاً عن أنفسهم في الشهر الحرام وغيره بإجماع العلماء.

وقوله: ﴿ولا الهدى ولا القلائد﴾ أي: ولا تحلوا الهدى الذي يهدي إلى بيت الله في حج أو عمرة، أو غيرها من نعم وغيرها، فلا تصدوه عن الوصول إلى محله، ولا تأخذوه بسرقة أو غيرها، ولا تقصروا به، أو تحمله ما لا يطيق، خوفاً من تلفه قبل وصوله إلى محله، بل عظموه وعظموا من جاء به.

نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً فمن اضطر في مخمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم ﴿١﴾.

واليوم المشار إليه يوم عرفة، إذ أتم الله دينه، ونصر عبده ورسوله، وانخذل أهل الشرك انخذالاً بليغاً، بعدما كانوا حريصين على رد المؤمنين عن دينهم، طامعين في ذلك.

فلما رأوا عز الإسلام وانتصاره وظهوره، يشسوا كل اليأس من المؤمنين، أن يرجعوا إلى دينهم، وصاروا يخافون منهم ويخشون، ولهذا في هذه السنة التي حج فيها النبي ﷺ سنة عشر حجة الوداع - لم يحج فيها مشرك، ولم يطف بالبيت عريان.

ولهذا قال: ﴿فلا تخشوهم واخشون﴾ أي: فلا تخشوا المشركين، واخشوا الله الذي نصركم عليهم وخذلهم، ورد كيدهم في نحورهم.

﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصول والفروع، ولهذا كان الكتاب والسنة كافيين كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه.

فكل متكلف يزعم أنه لا بد للناس في معرفة عقائدهم وأحكامهم إلى علوم غير علم الكتاب والسنة، من علم الكلام وغيره، فهو جاهل، مبطل في دعواه، قد زعم أن الدين لا يكمل إلا بما قاله ودعا إليه، وهذا من أعظم الظلم والتجهيل لله ولرسوله.

﴿وأتممت عليكم نعمتي﴾ الظاهرة والباطنة ﴿ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ أي: اخترته واصطفيته لكم ديناً، كما ارتضيتكم له، فقوموا به شكراً لربكم، واحمدوا الذي منَّ عليكم بأفضل الأديان وأشرفها وأكملها.

﴿فمن اضطر﴾ أي: ألجأته الضرورة إلى أكل شيء من المحرمات

وقوله: ﴿إلا ما ذكيتكم﴾ راجع لهذه المسائل، من منخقة، وموقودة، ومتردة، ونطيحة، وأكيلة سبع، إذا ذكيت وفيها حياة مستقرة لتتحقق الذكاة فيها، ولهذا قال الفقهاء: «لو أبان السبع أو غيره حشوتها، أو قطع حلقومها، كان وجود حياتها كعدمه، لعدم فائدة الذكاة فيها» [وبعضهم لم يعتبر فيها إلا وجود الحياة فإذا ذكاه وفيها حياة حلت ولو كانت مبانة الحشوة وهو ظاهر الآية الكريمة] (١).

﴿وأن تستقسموا بالأزلام﴾ أي: وحرم عليكم الاستقسام بالأزلام. ومعنى الاستقسام: طلب ما يقسم لكم ويقدر بها، وهي قدام ثلاثة كانت تستعمل في الجاهلية، مكتوب على أحدها «افعل» وعلى الثاني «لا تفعل» والثالث غفل لا كتابة فيه.

فإذا هم أحدهم يسفر أو عرس أو نحوهما، أجال تلك القداح المتساوية في الجرم، ثم أخرج واحداً منها، فإن خرج المكتوب عليه «افعل» مضى في أمره، وإن ظهر المكتوب عليه «لا تفعل» لم يفعل ولم يمض في شأنه، وإن ظهر الآخر الذي لا شيء عليه، أعادها حتى يخرج أحد القدحين فيعمل به.

فحرّمه (٢) الله عليهم الذي في هذه الصورة وما يشبهه، وعوضهم عنه بالاستخارة لربهم في جميع أمورهم.

﴿ذلكم فسق﴾ الإشارة لكل ما تقدم من المحرمات، التي حرّمها الله صيانة لعباده، وأنها فسق، أي: خروج عن طاعته إلى طاعة الشيطان.

ثم امتنَّ على عباده بقوله:

﴿٣﴾ «اليوم ينس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم

بالميتة: ما فقدت حياته بغير ذكاة شرعية، فلإنها تحرم لضررها، وهو احتقان الدم في جوفها ولحمها المضرب بآكلها. وكثيراً ما تموت بعلة تكون سبباً لهلاكها، فتضرب بالآكل. ويستثنى من ذلك ميتة الجراد والسمك، فإنه حلال.

﴿والدم﴾ أي: المسفوح، كما قيد في الآية الأخرى. ﴿ولحم الخنزير﴾ وذلك شامل لجميع أجزائه، وإنما نص الله عليه من بين سائر الخبائث من السباع، لأن طائفة من أهل الكتاب من النصارى يزعمون أن الله أحله لهم. أي: فلا تغتروا بهم، بل هو محرم من جملة الخبائث.

﴿وما أهل لغير الله به﴾ أي: ذكر عليه اسم غير الله تعالى، من الأصنام والأولياء والكواكب وغير ذلك من المخلوقين. فكما أن ذكر الله تعالى يطيب الذبيحة، فذكر اسم غيره عليها، يفيدها خبثاً معنوياً، لأنه شرك بالله تعالى.

﴿والمنخقة﴾ أي: الميتة بختق، بيد أو حبل، أو ادخالها رأسها بشيء ضيق، فتعجز عن إخراجها حتى تموت.

﴿والموقودة﴾ أي: الميتة بسبب الضرب بعضاً أو حصى أو خشبة، أو هدم شيء عليها، بقصد أو بغير قصد.

﴿والمتردية﴾ أي: الساقطة من علو، كجبل أو جدار أو سطح ونحوه، فتموت بذلك.

﴿والنطيحة﴾ وهي التي تنطحها غيرها فتموت.

﴿وما أكل السبع﴾ من ذئب أو أسد أو نمرة، أو من الطيور التي تفترس الصيود، فإنها إذا ماتت بسبب أكل السبع، فإنها لا تحل.

(١) كذا في ب، وفي أ: كعدمه.

(٢) كذا في النسختين، ولعل الأقرب: فحرم.

السابقة، في قوله: ﴿حرمت عليكم الميتة﴾ ﴿في خمسة﴾ أي: جماعة ﴿غير متجانف﴾ أي: مائل ﴿لائم﴾ بأن لا يأكل حتى يضطر، ولا يزيد في الأكل على كفايته ﴿فإن الله غفور رحيم﴾ حيث أباح له الأكل في هذه الحال، ورحمه بما يقيم به بنيته من غير نقص يلحقه في دينه.

﴿٤﴾ ﴿يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات وما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿يسألونك ماذا أحل لهم﴾ من الأطعمة؟ ﴿قل أحل لكم الطيبات﴾ وهي كل ما فيه نفع أو لذة، من غير ضرر بالبدن ولا بالعقل، فدخل في ذلك جميع الحبوب والثمار التي في القرى والبراري، ودخل في ذلك جميع حيوانات البحر وجميع حيوانات البر، إلا ما استثناه الشارع، كالسباع والخبائث منها.

ولهذا دلت الآية بمفهومها على تحريم الخبائث، كما صرح به في قوله تعالى: ﴿ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث﴾.

﴿وما علمتم من الجوارح﴾ أي: أحل لكم ما علمتم من الجوارح إلى آخر الآية. دلت هذه الآية على أمور: أحدها: لطف الله بعباده ورحمته لهم، حيث وسع عليهم طرق الحلال، وأباح لهم ما لم يذكره مما صادته الجوارح، والمراد بالجوارح: الكلاب، والفهود، والصقور، ونحو ذلك، مما يصيد بنابه أو بمخلبه.

الثاني: أنه يشترط أن تكون معلمة، بما يعد في العرف تعليماً، بأن يسترسل إذا أرسل، وينزجر إذا زجر، وإذا أمسك لم يأكل، ولهذا قال: ﴿تعلمونهن مما علمكم الله فكلوا مما أمسكن عليكم﴾ أي: أمسكن من الصيد لأجلكم.

وما أكل منه الجارح فإنه لا يعلم أنه أمسكه على صاحبه، ولعله أن يكون أمسكه على نفسه.

الثالث: اشتراط أن يجرحه الكلب أو الطير ونحوهما، لقوله: ﴿من الجوارح﴾ مع ما تقدم من تحريم المتخنة. فلو خنقه الكلب أو غيره، أو قتله بثقله لم يبح [هذا بناء على أن الجوارح اللاتي يجرحن الصيد بأنبياءها أو مخالبيها، والمشهور أن الجوارح بمعنى الكواشب أي: المحصلات للصيد والمدركات لها فلا يكون فيها على هذا دلالة - والله أعلم -] (١).

الرابع: جواز اقتناء كلب الصيد، كما ورد في الحديث الصحيح، مع أن اقتناء الكلب محرم، لأن من لازم إباحة صيده وتعليمه جواز اقتنائه.

الخامس: طهارة ما أصابه فم الكلب من الصيد، لأن الله أباحه ولم يذكر له غسلاً، فدل على طهارته.

السادس: فيه فضيلة العلم، وأن الجارح المعلم - بسبب العلم - يباح صيده، والجاهل بالتعليم لا يباح صيده.

السابع: أن الاشتغال بتعليم الكلب أو الطير أو نحوهما، ليس مذموماً، وليس من العبث والباطل. بل هو أمر مقصود، لأنه وسيلة لحل صيده والانتفاع به.

الثامن: فيه حجة لمن أباح بيع كلب الصيد، قال: لأنه قد لا يحصل له إلا بذلك.

التاسع: فيه اشتراط التسمية عند إرسال الجارح، وأنه إن لم يسم الله متعمداً، لم يبح ما قتل الجارح.

العاشر: أنه يجوز أكل ما صاده الجارح، سواء قتله الجارح أم لا. وأنه إن أدركه صاحبه، وفيه حياة مستقرة فإنه لا يباح إلا بها.

ثم حث تعالى على تقواه، وحذر من إتيان الحساب في يوم القيامة، وأن ذلك أمر قد دنا واقترب، فقال: ﴿واتقوا الله إن الله سريع الحساب﴾

﴿٥﴾ ﴿اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتهم أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ كرر تعالى إحلل الطيبات لبيان الامتنان، ودعوة للعباد إلى شكره والإكثار من ذكره، حيث أباح لهم ما تدعوهم الحاجة إليه، ويحصل لهم الانتفاع به من الطيبات.

﴿وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم﴾ أي: ذبائح اليهود والنصارى حلال لكم - يا معشر المسلمين - دون باقي الكفار، فإن ذبائحهم لا تحل للمسلمين، وذلك لأن أهل الكتاب يتسبون إلى الأنبياء والكتب.

وقد اتفق الرسل كلهم على تحريم الذبح لغير الله، لأنه شرك، فاليهود والنصارى يتدينون بتحريم الذبح لغير الله، فلذلك أبيحت ذبائحهم دون غيرهم. والدليل على أن المراد بطعامهم ذبائحهم، أن الطعام الذي ليس من الذبائح كالخبوب والثمار ليس لأهل الكتاب فيه خصوصية، بل يباح ذلك ولو كان من طعام غيرهم.

وأيضاً فإنه أضاف الطعام إليهم. فدل ذلك، على أنه كان طعاماً، بسبب ذبحهم. ولا يقال: إن ذلك للتمليك، وأن المراد: الطعام الذي يملكون. لأن هذا، لا يباح على وجه الغصب، ولا من المسلمين.

﴿وطعامكم﴾ أي: أهل المسلمون ﴿حل لكم﴾ أي: يحل لكم أن تطعموهم إياه ﴿و﴾ أحل لكم ﴿المحصنات﴾ أي: الحرائر العفيفات ﴿من المؤمنات﴾ والحرائر العفيفات ﴿من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾ أي: من اليهود والنصارى.

وهذا مخصص لقوله تعالى: ﴿ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن﴾

الثالث والأربعون: أن الآية عامة في جواز التيمم، لجميع الأحداث كلها، الحدث الأكبر والأصغر، بل ولنجاسة البدن، لأن الله جعلها بدلاً عن طهارة الماء، وأطلق في الآية فلم يقيد لوقد يقال أن نجاسة البدن لا تدخل في حكم التيمم لأن السياق في الأحداث وهو قول جمهور العلماء^(١).

الرابع والأربعون: أن محل التيمم في الحدث الأصغر والأكبر واحد، وهو الوجه واليدان.

الخامس والأربعون: أنه لو نوى من عليه حدثان التيمم عنهما، فإنه يجزئ أخذاً من عموم الآية وإطلاقها.

السادس والأربعون: أنه يكفي المسح بأي شيء كان، بيده أو غيرها، لأن الله قال: ﴿فامسحوا﴾ ولم يذكر الممسوح به، فدل على جوازه بكل شيء.

السابع والأربعون: اشتراط الترتيب في طهارة التيمم، كما يشترط ذلك في الوضوء، ولأن الله بدأ بمسح الوجه قبل مسح اليدين.

الثامن والأربعون: أن الله تعالى - فيما شرعه لنا من الأحكام - لم يجعل علينا في ذلك من حرج ولا مشقة ولا عسر، وإنما هو رحمة منه بعباده ليظهرهم، وليتم نعمته عليهم.

وهذا هو التاسع والأربعون: أن طهارة الظاهر بالماء والتراب، تكميل لطهارة الباطن بالتوحيد، والتوبة النصوح.

الخمسون: أن طهارة التيمم، وإن لم يكن فيها نظافة وطهارة تدرك بالחס والملاحظة، فإن فيها طهارة معنوية ناشئة عن امتثال أمر الله تعالى.

الحادي والخمسون: أنه ينبغي للعبد أن يتدبر الحكم والأسرار في شرائع الله، في الطهارة وغيرها ليزداد معرفة وعلماً، ويزداد شكراً لله ومحبة له، على ما شرع من الأحكام التي توصل العبد إلى المنازل العالية الرفيعة.

﴿٧٧﴾ واذكروا نعمة الله عليكم

وميثاقه الذي واثقكم به إذ قلتم سمعنا وأطعنا واتقوا الله إن الله عليم بذات الصدور﴾ يأمر تعالى عباده بذكر نعمه الدينية والدنيوية، بقلوبهم وألسنتهم. فإن في استدامة ذكرها داعياً لشكر الله تعالى ومحبته، وامتلاء القلب من إحسانه.

وفيه زوال للعجب من النفس بالنعم الدينية، وزيادة لفضل الله وإحسانه.

﴿وميثاقه﴾ أي: واذكروا ميثاقه ﴿الذي واثقكم به﴾ أي: عهده الذي أخذه عليكم.

وليس المراد بذلك أنهم لفظوا ونطقوا بالعهد والميثاق، وإنما المراد بذلك أنهم بإيمانهم بالله ورسوله قد التزموا طاعتهم، ولهذا قال: ﴿إذ قلتم سمعنا وأطعنا﴾ أي: سمعنا ما دعوتنا به من آياتك القرآنية والكونية، سمع فهم وإذعان وانقياد. وأطعنا ما أمرتنا به بالامتثال، وما نهيتنا عنه بالاجتناب. وهذا شامل لجميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة.

وأن المؤمنين يذكرون في ذلك عهد الله وميثاقه عليهم، وتكون منهم على بال، ويحرصون على أداء ما أمروا به كاملاً غير ناقص.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أحوالكم ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي: بما تنطوي عليه من الأفكار والأسرار والخواطر. فاحذروا أن يطلع من قلوبكم على أمر لا يرضاه، أو يصدر منكم ما يكرهه، واعمروا قلوبكم بمعرفته ومحبته والنصح لعباده. فإنكم - إن كنتم كذلك - غفر لكم السيئات، وضاعف لكم الحسنات، لعلمه بصلاح قلوبكم.

﴿٨﴾ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ أي: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ بما أمروا بالإيمان به، قوموا بلازم إيمانكم، بأن تكونوا قوامين لله شهداء بالقسط، بأن تنشط للقيام بالقسط حركاتكم الظاهرة

والباطنة

وأن يكون ذلك القيام لله وحده، لا لغرض من الأغراض الدنيوية، وأن تكونوا قاصدين للقسط، الذي هو العدل، لا الإفراط ولا التفريط، في أقوالكم ولا أفعالكم، وقوموا بذلك على القريب والبعيد، والصديق والعدو.

﴿ولا يجرمنكم﴾ أي: يحملنكم بغض ﴿قوم على ألا تعدلوا﴾ كما يفعله من لا عدل عنده ولا قسط، بل كما تشهدون لوليكم، فاشهدوا عليه، وكما تشهدون على عدوكم فاشهدوا له، ولو كان كافراً أو مبتدعاً، فإنه يجب العدل فيه، وقبول ما يأتي به من الحق، لأنه حق لا لأنه قاله، ولا يرد الحق لأجل قوله، فإن هذا ظلم للحق.

﴿اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾ أي: كلما حرصتم على العدل واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى.

﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ فمجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها، صغيرها وكبيرها، جزاء عاجلاً، وأجلاً.

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ أي: ﴿وعد الله﴾ الذي لا يخلف الميعاد وهو أصدق القائلين - المؤمنين به وكتبته ورسله واليوم الآخر، ﴿وعملوا الصالحات﴾ من واجبات ومستحبات - بالمغفرة لذنوبهم، بالعفو عنها وعن عواقبها، وبالأجر العظيم الذي لا يعلم عظمه إلا الله تعالى.

﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾.

﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ الدالة على الحق المبين، فكذبوا بها بعدما أبانت الحقائق. ﴿أولئك أصحاب الجحيم﴾ الملازمون لها ملازمة صاحب لصاحبه.

﴿١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا

هو سببها الأعظم .

الثانية: قوله: ﴿وجعلنا قلوبهم قاسية﴾ أي: غليظة لا تجدي فيها المواعظ، ولا تنفعها الآيات والنذر، فلا يرغبهم تشويق، ولا يزعجهم تخويف، وهذا من أعظم العقوبات على العبد، أن يكون قلبه بهذه الصفة التي لا يفيد الهدى والخير إلا شراً .

الثالثة: أنهم ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه﴾ أي: ابتلوا بالتغيير والتبديل، فيجعلون للكلم الذي أراد الله معنى غير ما أراده الله ولا رسوله .

الرابعة: أنهم ﴿نسوا حظاً مما ذكروا به﴾ فإنهم ذكروا بالتوراة، وبما أنزل الله على موسى، فنسوا حظاً منه، وهذا شامل لنسيان علمه، وأنهم نسوه وضاع عنهم، ولم يوجد كثير مما أساهم الله إياه عقوبة منه لهم .

وشامل لنسيان العمل الذي هو الترك، فلم يوفقوا للقيام بما أمروا به، ويستدل بهذا على أهل الكتاب بإنكارهم بعض الذي قد ذكر في كتابهم، أو وقع في زمانهم، أنه مما نسوه .

الخامسة: الخيانة المستمرة التي ﴿لا تزال تطلع على خائنة منهم﴾ أي: خيانة الله ولعباده المؤمنين .

ومن أعظم الخيانة منهم، كتمهم [عن] مَنْ يعظمهم ويحسن فيهم الظن الحق، وإيقاؤهم على كفرهم، فهذه خيانة عظيمة . وهذه الخصال الذميمة، حاصلة لكل مَنْ اتصف بصفاتهم .

فكل مَنْ لم يرق بما أمر الله به، وأخذ به عليه الالتزام، كان له نصيب من اللعنة وقسوة القلب، والابتلاء بتحريف الكلم، وأنه لا يوفق للصواب، ونسيان حظ ما ذكر به، وأنه لا بد أن يبتلى بالخيانة، نسأل الله العافية .

وسمى الله تعالى ما ذكروا به حظاً، لأنه هو أعظم الحظوظ، وما عداه فإنما هي حظوظ دنيوية، كما قال تعالى: ﴿فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما

يقوموا به، ثم ذكر أنهم ما قاموا به، وذكر ما عاقبهم به، فقال: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل﴾ أي: عهدهم المؤكد الغليظ، ﴿وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ أي: رئيساً وعريفاً على من تحته، ليكون ناظراً عليهم، حاثاً لهم على القيام بما أمروا به، مطالباً بدعوتهم .

﴿وقال الله﴾ للنقباء الذين تحملوا من الأعباء ما تحملوا: ﴿إني معكم﴾ أي: بالعون والنصر، فإن المعونة بقدر المؤنة .

ثم ذكر ما واثقهم عليه فقال: ﴿لئن أقمتم الصلاة﴾ ظاهراً وباطناً، بالإتيان بما يلزم وينبغي فيها، والمداومة على ذلك ﴿وآتيتم الزكاة﴾ لاستحقاقها ﴿وأمستم برسلي﴾ جميعهم، الذين أفضلهم وأكملهم محمد ﷺ، ﴿وعززتموهم﴾ أي: عظمتهم، وأديتم ما يجب لهم من الاحترام والطاعة ﴿وأقرضتم الله قرضاً حسناً﴾ وهو الصدقة والإحسان، الصادر عن الصدق والإخلاص وطيب المكسب، فلذا قمتم بذلك ﴿لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ . فجمع لهم بين حصول المحبوب بالجنة وما فيها من النعيم، واندفاع المكروه بتكفير السيئات، ودفع ما يترتب عليها من العقوبات .

﴿فمَنْ كفر بعد ذلك﴾ العهد والميثاق المؤكد بالإيمان، والالتزامات المقرون بالترغيب بذكر ثوابه .

﴿فقد ضل سواء السبيل﴾ أي: عن عمد وعلم، فيستحق ما يستحقه الضالون من حرمان الثواب، وحصول العقاب . فكأنه قيل: ليت شعري ماذا فعلوا؟ وهل وفوا بما عاهدوا الله عليه، أم نكثوا؟

فبين أنهم نقضوا ذلك فقال: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم﴾ أي: بسببه عاقبناهم بعدة عقوبات:

الأولى: أنا ﴿لعنناهم﴾ أي: طردناهم وأبعدناهم من رحمتنا، حيث أغلقوا على أنفسهم أبواب الرحمة، ولم يقوموا بالعهد الذي أخذ عليهم، الذي

نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ يذكر تعالى عباده المؤمنين بنعمه العظيمة، ويحثهم على تذكرها بالقلب واللسان، وأنهم - كما أنهم يعدون قتلهم لأعدائهم، وأخذ أموالهم وبلادهم وسبيهم نعمة - فليعدوا أيضاً إنعامه عليهم بكف أيديهم عنهم، ورد كيدهم في نحورهم نعمة . فإنهم الأعداء قد هموا بآمر، وظنوا أنهم قادرون عليه .

فإذا لم يدركوا بالمؤمنين مقصودهم، فهو نصر من الله لعباده المؤمنين ينبغي لهم أن يشكروا الله على ذلك، ويعبدوه ويذكروه، وهذا يشمل كل مَنْ هم بالمؤمنين بشر، من كافر ومنافق وباغ، كف الله شره عن المسلمين، فإنه داخل في هذه الآية .

ثم أمرهم بما يستعينون به على الانتصار على عدوهم، وعلى جميع أمورهم، فقال: ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم، ويثقوا بالله تعالى في حصول ما يحبون . وعلى حسب إيمان العبد يكون توكله، وهو من واجبات القلب المتق علىه .

﴿١٢-١٣﴾ ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأمستم برسلي وعززتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين﴾ يجبر تعالى أنه أخذ على بني إسرائيل الميثاق الثقيل المؤكد، وذكر صفة الميثاق وأجرهم إن قاموا به، واثمهم إن لم



من مذهبهم إلا مذهب النصارى في المسيح.

قال الله ردأ عليهم حيث ادعوا بلا برهان: ﴿قل فلم يعذبكم بذنوبكم؟﴾ فلو كنتم أحبابه ما عذبكم [لكون الله لا يجب إلا من قام بمراضيه] (٢٦).

﴿بل أنتم بشر من خلق﴾ تجري عليكم أحكام العدل والفضل ﴿يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء﴾ إذا أتوا بأسباب المغفرة أو أسباب العذاب، ﴿والله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير﴾ أي: فأني شيء خصكم بهذه الفضيلة، وأنتم من جملة الممالك ومن جملة من يرجع إلى الله في الدار الآخرة، فيجازيكم بأعمالكم.

﴿١٩﴾ ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير﴾ يدعو تبارك وتعالى أهل الكتاب - بسبب ما من عليهم من كتابه - أن يؤمنوا برسوله محمد ﷺ، ويشكروا الله تعالى الذي أرسله إليهم على حين ﴿فترة من الرسل﴾ وشدة حاجة إليه.

وهذا مما يدعو إلى الإيمان به، وأنه يبين لهم جميع المطالب الإلهية والأحكام الشرعية.

وقد قطع الله بذلك حجتهم، لئلا يقولوا: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير، فقد جاءكم بشير ونذير﴾. يبشر بالثواب العاجل والآجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها. وينذر بالعقاب العاجل والآجل، وبالأعمال الموجبة لذلك، وصفة العاملين بها.

﴿والله على كل شيء قدير﴾ انتقادات الأشياء طوعاً وإذعاناً لقدرته، فلا يستعصي عليه شيء منها، ومن قدرته أن أرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأنه يشيب من أطاعهم ويعاقب من عصاهم.

﴿٢٠-٢٦﴾ ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة ﴿إلى آخر القصة﴾ (٢٦). لما امتن الله على موسى وقومه بنجاتهم من فرعون وقومه وأسره واستعبادهم، ذهبوا قاصدين المقدس وما حواله، وقاربوا وصول بيت المقدس، وكان الله قد فرض عليهم جهاد عدوهم ليخرجوه من ديارهم. فوعظهم موسى عليه السلام، وذكرهم ليقدموا على الجهاد فقال لهم: ﴿اذكروا نعمة الله عليكم﴾ بقلوبكم وألستكم. فإن ذكرها داع إلى محبته تعالى ومنشط على العبادة، ﴿إذ جعل فيكم أنبياء﴾ يدعونكم إلى الهدى، ويحذرونكم من البردى، ويحثونكم على سعادتكم الأبدية، ويعلمونكم ما لم تكونوا تعلمون ﴿وجعلكم ملوكاً﴾ تملكون أمركم، بحيث إنه زال عنكم استعباد عدوكم لكم، فكنتم تملكون أمركم، وتتمكنون من إقامة دينكم.

﴿وآتاكم﴾ من النعم الدينية والدنيوية ﴿ما لم يؤت أحداً من العالمين﴾ فإنهم في ذلك الزمان خيرة الخلق، وأكرمهم على الله تعالى. وقد أنعم عليهم بنعم ما كانت لغيرهم.

فذكرهم بالنعم الدينية والدنيوية، الداعي ذلك لإيمانهم وثباته، وثباتهم على الجهاد، وإقدامهم عليه، ولهذا قال: ﴿يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة﴾ أي: المطهرة ﴿التي كتب الله لكم﴾.

فأخبرهم خبراً تطمئن به أنفسهم، إن كانوا مؤمنين مصدقين بخبر الله، وأنه قد كتب الله لهم دخولها، وانتصارهم على عدوهم.

﴿ولا ترتدوا﴾ أي: ترجعوا ﴿على أدباركم، فتتقلبوا خاسرين﴾ قد

ولا قدرة لهم على ذلك - دل على بطلان إلهية من لا يمتنع من الإهلاك، ولا في قوته شيء من الفكاك.

ومن الأدلة أن ﴿الله﴾ وحده ﴿ملك السماوات والأرض﴾ يتصرف فيهم بحكمه الكوني والشرعي والجزائي، وهم مملوكون مدبرون، فهل يليق أن يكون المملوك العبد الفقير، إلهاً معبوداً غنياً من كل وجه؟ هذا من أعظم المحال.

ولا وجه لاستغرابهم لخلق المسيح عيسى ابن مريم من غير أب، فإن الله ﴿يخلق ما يشاء﴾. إن شاء من أب وأم، كسائر بني آدم، وإن شاء من أب بلا أم، كحواء. وإن شاء من أم بلا أب، كعيسى. وإن شاء من غير أب ولا أم [كآدم] (٢١).

فتوح خليفته تعالى بمشيئته النافذة، التي لا يستعصي عليها شيء، ولهذا قال: ﴿والله على كل شيء قدير﴾.

ومن مقالات اليهود والنصارى أن كلا منهما ادعى دعوى باطلة، يزكون بها أنفسهم، بأن قال كل منهما: ﴿نحن أبناء الله وأحباؤه﴾.

والابن في لغتهم هو الحبيب، ولم يريدا البنوة الحقيقية، فإن هذا ليس

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في ب: كتب الآيات إلى قوله: ﴿فلا تأس على القوم الفاسقين﴾.

فَأَقْبَلَ بَيْنَهُمَا إِلَى مَا آتَاهُ اللَّهُ قَالَ الرَّسُولُ أَلَا أُحْسِنُ
مَا بَيْنَهُمَا عَلَيْهِمَا عَلَيْهِ مَا بَيْنَهُمَا أَوْ لَوْ كَانَ أَوْ لَوْ كَانَ
شَيْئًا وَلَا يُحْسِنُونَ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ
لَا تَبْذُرُوهُمْ مِنْ دَوْلَةِ اللَّهِ أَنْتُمْ مَعَهُمْ كَمَا
فَتَنُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهِدُوا
بَيْنَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْوَدَّاعَةَ بَيْنَ الْوَدَّاعَةِ
يَنْفَكُوا مِنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ بِبَرَاءَةٍ مِنْكُمْ فَأَقْبَلُوهَا
عَلَيْكُمْ وَلَا تَحْسَبُوا عَفْوَ اللَّهِ أَتَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ بِبَرَاءَةٍ مِنْكُمْ فَأَقْبَلُوهَا
عَلَيْكُمْ وَلَا تَحْسَبُوا عَفْوَ اللَّهِ أَتَعْلَمُونَ ﴿٣١﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ بِبَرَاءَةٍ مِنْكُمْ فَأَقْبَلُوهَا
عَلَيْكُمْ وَلَا تَحْسَبُوا عَفْوَ اللَّهِ أَتَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

المقالة، الصادرة عن قلوب لا صبر فيها ولا ثبات، بل قد ألفت الاستعباد لعدوها، ولم تكن لها همم ترقيا إلى ما فيه ارتقاؤها وعلوها، ولتظهر ناشئة جديدة تتربى عقولهم على طلب قهر الأعداء، وعدم الاستعباد، والذل المانع من السعادة.

ولما علم الله تعالى أن عبده موسى في غاية الرحمة على الخلق، خصوصا قومه، وأنه ربما راق لهم، واحتملته الشفقة على الحزن عليهم في هذه العقوبة، أو الدعاء لهم بزوالها، مع أن الله قد حتمها، قال: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: لا تأسف عليهم ولا تحزن، فإنهم قد فسقوا، وفسقهم اقتضى وقوع ما نزل بهم لا ظلما منا.

﴿٢٧ - ٣١﴾ «واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق» إلى آخر القصة^(١). أي: قص على الناس وأخبرهم بالفضيلة التي جرت على ابني آدم بالحق، تلاوة يعتبر بها المعتبرون، صدقا لا كذبا، وجدا لا لعبا، والظاهر أن ابني آدم هما ابنه لصلبه، كما يدل عليه ظاهر الآية والسياق، وهو قول جمهور المفسرين. أي: اتل عليهم نبأهما في حال تقريبهما للقربان، الذي أداها إلى الحال

ومواجهتهم لنبيهم فيه في هذا المقام الحرج الضيق، الذي قد دعت الحاجة والضرورة إلى نصرة نبيهم، وإعزاز أنفسهم.

وهذا وأمثاله يظهر التفاوت بين سائر الأمم، وأمة محمد ﷺ حيث قال الصحابة لرسول الله ﷺ - حين شاورهم في القتال يوم «بدر» مع أنه لم يحتم عليهم: يا رسول الله، لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ولو بلغت بنا برك الغماد ما تخلف عنك أحد. ولا نقول كما قال قوم موسى لموسى: «أذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون» ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، من بين يدك ومن خلفك، وعن يمينك وعن يسارك.

فلما رأى موسى عليه السلام عتوهم عليه قال: رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي، أي: فلا يدان لنا بقتالهم، ولست بجبار على هؤلاء.

﴿فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين﴾ أي: احكم بيننا وبينهم، بأن تنزل فيهم من العقوبة ما اقتضته حكمتك، ودل ذلك على أن قولهم وفعلهم من الكبائر العظيمة الموجبة للفسق.

﴿قال﴾ الله مجيباً لدعوة موسى: ﴿فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض﴾ أي: إن من عقوبتهم أن نحرم عليهم دخول هذه القرية التي كتبها الله لهم، مدة أربعين سنة، وتلك المدة أيضاً يتيهون في الأرض، لا يستدون إلى طريق ولا يبقون مطمئنين، وهذه عقوبة دنيوية، لعل الله تعالى كفر بها عنهم، ودفع عنهم عقوبة أعظم منها، وفي هذا دليل على أن العقوبة على الذنب قد تكون بزوال نعمة موجودة، أو دفع نعمة قد انعقد سبب وجودها أو تأخرها إلى وقت آخر.

ولعل الحكمة في هذه المدة أن يموت أكثر هؤلاء الذين قالوا هذه

خسرتم دنياكم بما فاتكم من النصر على الأعداء وفتح بلادكم. وأخرتكم بما فاتكم من الثواب، وما استحققتكم - بمعصيتكم - من العقاب، فقالوا قولا يدل على ضعف قلوبهم، وخور نفوسهم، وعدم اهتمامهم بأمر الله ورسوله. ﴿قالوا﴾ يا موسى إن فيها قوما جبارين، شديدي القوة والشجاعة، أي: فهذا من الموانع لنا من دخولها.

﴿وإننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون﴾. وهذا من الجبن وقلة اليقين، وإلا فلو كان معهم رشدهم، لعلموا أنهم كلهم من بني آدم، وأن القوي من أعانه الله بقوة من عنده، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله، ولعلموا أنهم سينصرون عليهم، إذ وعدهم الله بذلك، وعدا خاصا.

﴿قال رجلان من الذين يخافون﴾ الله تعالى، مشجعين لقومهم، منهضين لهم على قتال عدوهم واحتلال بلادهم. ﴿أنعم الله عليهما﴾ بالتوفيق، وكلمة الحق في هذا الموطن المحتاج إلى مثل كلامهم، وأنعم عليهم بالصبر واليقين.

﴿ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون﴾ أي: ليس بينكم وبين نصركم عليهم إلا أن تجزئوا عليهم، وتدخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه عليهم فإنهم سينهزمون، ثم أمرهم بعدة هي أقوى العدد، فقالوا: ﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾. فإن في التوكل على الله - وخصوصا في هذا الموطن - تيسيرا للأمر، ونصرا على الأعداء. ودل هذا على وجوب التوكل، وعلى أنه بحسب إيمان العبد يكون توكله، فلم ينبج فيهم هذا الكلام، ولا نفع فيهم الملام، فقالوا قول الأذلين: ﴿يا موسى، إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها، فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون﴾.

فما أشنع هذا الكلام منهم،

(١) في ب: كتب الآيات إلى قوله تعالى: ﴿فأصبح من النادمين﴾.

وأنه ينبغي لك أن تتقي الله وتحافه. ﴿إني أريد أن تبوء﴾ أي: ترجع ﴿بإثمى وإثمك﴾ أي: إنه إذا دار الأمر بين أن أكون قاتلاً أو تقتلني فإنني أؤثر أن تقتلني، فتبوء بالوزيرين ﴿فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين﴾ دل هذا على أن القتل من كبائر الذنوب، وأنه موجب لدخول النار. فلم يرتدع ذلك الجاني ولم ينزجر، ولم يزل يعزم نفسه ويجزمها، حتى طوعت له قتل أخيه الذي يقتضي الشرع والطبع احترامه. ﴿فقتله فأصبح من الخاسرين﴾ دنياهم وأخرتهم، وأصبح قد سن هذه السنة لكل قاتل. «ومن سنَّ سُنَّةَ سيئة، فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

ولهذا ورد في الحديث الصحيح أنه «ما من نفس تقتل إلا كان على ابن آدم الأول شطر من دمها، لأنه أول من سنَّ القتل». فلما قتل أخاه لم يدر كيف يصنع به؛ لأنه أول ميت مات من بني آدم ﴿فبعث الله غراباً يبحث في الأرض﴾ أي: يثيها ليدفن غراباً آخر ميتاً. ﴿ليريه﴾ بذلك ﴿كيف يوارى سوء أخيه﴾ أي: بدنه، لأن بدن الميت يكون عورة ﴿فأصبح من النادمين﴾ وهكذا عاقبة المعاصي الندامة والخسارة.

﴿٣٢﴾ «من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ولقد جاءهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون﴾ يقول تعالى: ﴿من أجل ذلك﴾ الذي ذكرناه في قصة ابني آدم، وقتل أحدهما أخاه، وسنَّه القتل لمن بعده، وأن القتل عاقبته وخيمة وخسارة في الدنيا والآخرة، ﴿كتبنا على بني إسرائيل﴾ أهل الكتب السماوية ﴿أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض﴾ أي: بغير حق ﴿فكأنما قتل الناس جميعاً﴾؛ لأنه ليس معه داع يدعو إلى التبيين، وأنه لا يقدم على القتل إلا بحق، فلما تجرأ على قتل النفس التي لم تستحق القتل، علم أنه لا فرق عنده بين هذا المقتول وبين غيره، وإنما ذلك بحسب ما تدعوه إليه نفسه الأمارة بالسوء. فتجرؤه على قتله، كأنه قتل الناس جميعاً. وكذلك من أحيا نفساً أي: استبقى أحداً، فلم يقتله مع دعاء نفسه له إلى قتله، فمنعه خوف الله تعالى من قتله، فهذا كأنه أحيا الناس جميعاً، لأن ما معه من الخوف يمنعه من قتل من لا يستحق القتل. ودلت الآية على أن القتل يجوز بأحد أمرين:

إما أن يقتل نفساً بغير حق متعمداً في ذلك، فإنه مجل قتله، إن كان مكلفاً مكافئاً، ليس بوالد للمقتول. وإما أن يكون مفسداً في الأرض، بإفساده لأديان الناس أو أبدانهم أو أموالهم، كالكفار المرتدين والمحاربين، والدعاة إلى البدع الذين لا ينكف شرمهم إلا بالقتل. وكذلك قطاع الطريق ونحوهم، ممن يصلون على الناس لقتلهم، أو أخذ أموالهم.

﴿ولقد جاءهم رسلنا بالبينات﴾ التي لا يبقى معها حجة لأحد. ﴿ثم إن كثيراً منهم﴾ أي: من الناس ﴿بعد ذلك﴾ البيان القاطع للحجة، الموجب للعمل بالمعاصي، ومخالفة الرسل الذين جاءوا بالبينات والحجج.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم * إلا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم فاعلموا أن الله غفور رحيم﴾ المحاربون لله ورسوله، هم الذين بارزوه بالعداوة، وأفسدوا في الأرض



المذكورة.

﴿إذ قربا قرباناً﴾ أي: أخرج كل منهما شيئاً من ماله لقصد التقرب إلى الله، ﴿فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر﴾ بأن علم ذلك بخبر من السماء، أو بالعادة السابقة في الأمم، أن علامة تقبل الله للقربان، أن تنزل نار من السماء فتحرقه.

﴿قال﴾ الابن، الذي لم يتقبل منه للآخر حسداً وبغياً ﴿لاقتلنك﴾. فقال له الآخر - مترفعاً له في ذلك - ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾ فأبى: ذنب لي وجناية توجب لك أن تقتلني؟ إلا أنني اتقيت الله تعالى، الذي تقواه واجبة عليّ وعليك، وعلى كل أحد، وأصح الأقوال في تفسير المتقين هنا، أي: المتقين لله في ذلك العمل، بأن يكون عملهم خالصاً لوجه الله، متبعين فيه لسنة رسول الله ﷺ.

ثم قال له مخبراً أنه لا يريد أن يتعرض لقتله، لا ابتداء ولا مدافعة فقال: ﴿لئن بسطت إلي يدك لتقتلني، ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك﴾ وليس ذلك جيناً مني ولا عجزاً. وإنما ذلك لأني ﴿أخاف الله رب العالمين﴾ والخائف لله لا يقدم^(١) على الذنوب، خصوصاً الذنوب الكبار. وفي هذا تخويف لمن يريد القتل،

للكذب أكالون للمسحت فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئاً وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين * وكيف يحكمونك وعندهم التوراة فيها حكم الله ثم يتولون من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴿

الرسول ﷺ من شدة حرصه على الخلق يشتد حزنه لمن يظهر الإيمان، ثم يرجع إلى الكفر، فأرشدته الله تعالى، إلى أنه لا بأسى ولا يحزن على أمثال هؤلاء. فإن هؤلاء لا في العير ولا في النفير. إن حضروا لم ينفعوا، وإن غابوا لم يفقدوا، ولهذا قال مبيناً للسبب الموجب لعدم الحزن عليهم - فقال: ﴿من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم﴾ فإن الذين يؤسئ ويحزن عليهم، من كان معدوداً من المؤمنين، وهم المؤمنون ظاهراً وباطناً، وحاشا لله أن يرجع هؤلاء عن دينهم ويرتدوا، فإن الإيمان - إذا خالطت بشاشته القلوب - لم يعدل به صاحبه غيره، ولم يغب به بدلاً.

﴿ومن الذين هادوا﴾ أي: اليهود ﴿سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك﴾ أي: مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم، المبني أمرهم على الكذب والضلال والغبي. وهؤلاء الرؤساء المتبعون ﴿لم يأتوك﴾ بل أعرضوا عنك، وفرحوا بما عندهم من الباطل وهو تحريف الكلم عن مواضعه، أي: جلب معانٍ للآفاظ ما أرادها الله ولا قصدوا، لإضلال الخلق ولدفع الحق، فهؤلاء النقادون للدعاة إلى الضلال، المتبعين للمحال، الذين يأتون بكل كذب، لا عقول لهم ولا

منه، وذلك أن يكون المال محرزاً، فلو كان غير محرز لم يكن ذلك سرقة شرعية.

ومن الحكمة أيضاً أن لا تقطع اليد في الشيء النزر، التافه، فلما كان لا بد من التقدير، كان التقدير الشرعي مخصصاً للكتاب.

والحكمة في قطع اليد في السرقة، أن ذلك حفظ للأموال، واحتياط لها، ولقطع العضو الذي صدرت منه الجناية، فإن عاد السارق قطعت رجله اليسرى، فإن عاد، فقيل: تقطع يده اليسرى، ثم رجله اليمنى، وقيل: يجبس حتى يموت.

وقوله: ﴿جزاء بما كسباً﴾ أي: ذلك القطع جزء للسارق بما سرقة من أموال الناس.

﴿نكالا من الله﴾ أي: تنكيلاً وترهيباً للسارق ولغيره، ليرتدع السارق - إذا علموا - أنهم سيقطعون إذا سرقوا.

﴿والله عزيز حكيم﴾ أي: عز وحكم فقطع السارق.

﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح، فإن الله يتوب عليه، إن الله غفور رحيم﴾ فيغفر لمن تاب فترك الذنوب، وأصلح الأعمال والعيوب. وذلك أن الله ﷻ ملك السماوات والأرض، يتصرف فيهما بما شاء من التصاريف القدرية والشرعية، والمغفرة والعقوبة، بحسب ما اقتضته حكمته ورحمته الواسعة ومغفرته.

﴿٤١ - ٤٤﴾ ﴿يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم توتوه فاحذروا ومن يرد الله فتنه فلا تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم في الدنيا خزي ولهم في الآخرة عذاب عظيم * سماعون



فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم * فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم * ألم تعلم أن الله له ملك السماوات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير السارق: هو من أخذ مال غيره المحترم خفية، بغير رضا. وهو من كباثر الذنوب الموجبة لترتب العقوبة الشنيعة، وهو قطع اليد اليمنى، كما هو في قراءة بعض الصحابة.

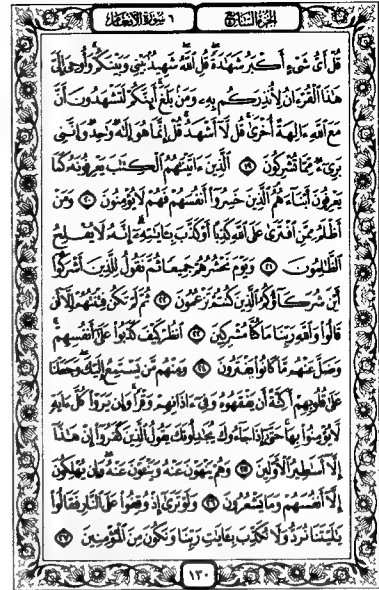
وحد اليد عند الإطلاق من الكوع، فإذا سرق قطعت يده من الكوع، وحسنت في زيت لتتسد العروق فيقف الدم، ولكن السنة قيدت عموم هذه الآية من عدة أوجه:

منها: الحرز، فإنه لا بد أن تكون السرقة من حرز، وحرز كل مال: ما يحفظ به عادة. فلو سرق من غير حرز فلا قطع عليه.

ومنها: أنه لا بد أن يكون المسروق نصاباً، وهو ربع دينار، أو ثلاثة دراهم، أو ما يساوي أحدهما، فلو سرق دون ذلك فلا قطع عليه.

ولعل هذا يؤخذ من لفظ السرقة ومعناها، فإن لفظ «السرقة» أخذ الشيء على وجه لا يمكن الاحتراز

(۱) فی ب: منهم.



هذه ما أشبهها من الأطراف التي يمكن الاقتصاد منها بدون حيف .

﴿والجروح قصاص﴾ والاقتصاد : أن يفعل به كما فعل . فمن جرح غيره عمداً اقتص من الجراح جرحاً مثل جرحه للمجروح ، حداً ، وموضعاً ، وطولاً ، وعرضاً وعمقاً ، وليعلم أن شرع من قبلنا شرع لنا ، ما لم يرد شرعنا بخلافه .

﴿فمن تصدق به﴾ أي : بالقصاص في النفس ، وما دونها من الأطراف والجروح ، بأن عفا عمن جنى ، وثبت له الحق قبله .

﴿فهو كفارة له﴾ أي : كفارة للجاني ، لأن الآدمي عفا عن حقه . والله تعالى أحق وأولى بالعفو عن حقه ، وكفارة أيضاً عن العافي ، فإنه كما عفا عمن جنى عليه ، أو على من يتعلق به ، فإن الله يعفو عن زلاته وجنباياته .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ قال ابن عباس : كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق ، فهو ظلم أكبر ، وعند استحلاله ، وعظيمة كبيرة عند فعله غير مستحل له .

﴿٤٦ - ٤٧﴾ ﴿وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين ﴾ وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾ أي : وأتبعنا هؤلاء الأنبياء والمرسلين ، الذين يحكمون بالتوراة بعبدنا ورسولنا عيسى ابن مريم ، روح الله وكلمته التي ألقاها إلى مريم .

بعثه الله مصدقاً لما بين يديه من التوراة ، فهو شاهد لموسى ولما جاء به من التوراة بالحق والصدق ، ومؤيد لدعوته ، وحاكم بشريعته ، وموافق له في أكثر الأمور الشرعية .

وقد يكون عيسى عليه السلام أخف في بعض الأحكام ، كما قال تعالى عنه

الباطل ، لأجل متاع الدنيا القليل ، وهذه الآفات إذا سلم منها العالم فهو من توفيقه وسعاده ، بأن يكون همه الاجتهاد في العلم والتعليم ، ويعلم أن الله قد استحفظه ما^(١) أودعه من العلم واستشهد به عليه ، وأن يكون خائفاً من ربه ، ولا يمنعه خوف الناس وخشيتهم من القيام بما هو لازم له ، وأن لا يؤثر الدنيا على الدين .

كما أن علامة شقاوة العالم أن يكون غلداً للبطالة ، غير قائم بما أمر به ، ولا مبال بما استحفظ عليه ، قد أهمله وأضاعه ، قد باع الدين بالدنيا ، قد ارتشى في أحكامه ، وأخذ المال على فتاويه ، ولم يعلم عباد الله إلا بأجرة وجعالة .

فهذا قد من الله عليه بمنة عظيمة ، كفرها ودفع حظاً جسيماً ، محرماً منه غيره ، فنسألك اللهم علماً نافعاً ، وعملاً متقبلاً ، وأن ترزقنا العفو والعافية من كل بلاء يا كريم .

﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله﴾ من الحق المبين ، وحكم بالباطل الذي يعلمه ، لغرض من أغراضه الفاسدة ﴿فأولئك هم الكافرون﴾ فالحكم بغير ما أنزل الله من أعمال أهل الكفر ، وقد يكون كفراً ينقل عن الملة ، وذلك إذا اعتقد حله وجوازه . وقد يكون كبيرة من كبائر الذنوب ، ومن أعمال الكفر قد اسحق من فعله العذاب الشديد .

﴿٤٥﴾ ﴿وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص فمن تصدق به فهو كفارة له ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ هذه الأحكام من جملة الأحكام التي في التوراة ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأخبار . إن الله أوجب عليهم فيها أن النفس - إذا قتلت - تقتل بالنفس بشرط العمد والمكافاة ، والعين تقلع بالعين ، والأذن تؤخذ بالأذن ، والسن ينزع بالسن . ومثل

وذلك الحكم الصادر منهم الموافق للحق ﴿بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء﴾ أي : بسبب أن الله استحفظهم على كتابه ، وجعلهم أمناً عليه ، وهو أمانة عندهم ، أوجب عليهم حفظه من الزيادة والنقصان والكتمان ، وتعليمه لمن لا يعلمه .

وهم شهداء عليه ، بحيث إنهم المرجوع إليهم فيه ، وفيما اشبهه على الناس منه ، فأنه تعالى قد حمل أهل العلم ، ما لم يحمله الجهال ، فيجب عليهم القيام بأعباء ما حملوا .

وأن لا يقتدوا بالجهال ، بالإخلاد إلى البطالة والكسل ، وأن لا يقتصروا على مجرد العبادات القاصرة ، من أنواع الذكر ، والصلاة ، والزكاة ، والحج ، والصوم ، ونحو ذلك من الأمور ، التي إذا قام بها غير أهل العلم سلموا ونجوا .

وأما أهل العلم فكما أنهم مطالبون بالقيام بما عليهم أنفسهم ، فإنهم مطالبون أن يعلموا الناس وينبهمهم على ما يحتاجون إليه من أمور دينهم ، خصوصاً الأمور الأصولية والتي يكثر وقوعها وأن لا يخشوا الناس بل يخشون ربهم ، ولهذا قال : ﴿فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً﴾ فتكتمون الحق ، وتظهرون

وقتها، وعلى أنه ينبغي أن لا يقتصر العبد على مجرد ما يجزئ في الصلاة وغيرها من العبادات من الأمور الواجبة، بل ينبغي أن يأتي بالاستحبات، التي يقدر عليها لتتم وتكمل، ويحصل بها سبق.

﴿إلى الله مرجعكم جميعاً﴾ الأمم السابقة واللاحقة، كلهم سيجمعهم الله ليوم لا ريب فيه. ﴿فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ من الشرائع والأعمال، فينبئ أهل الحق والعمل الصالح، ويعاقب أهل الباطل والعمل السيء.

﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله﴾ هذه الآية هي التي قيل: إنها ناسخة لقوله: ﴿فاحكم بينهم﴾ أو أعرض عنهم.

والصحيح: أنها ليست بناسخة، وأن تلك الآية تدل على أنه ﷺ خير بين الحكم بينهم وبين عدمه، وذلك لعدم قصدهم بالتحاكم للحق.

وهذه الآية تدل على أنه إذا حكم، فإنه يحكم بينهم بما أنزل الله من الكتاب والسنة، وهو القسط الذي تقدم أن الله قال: ﴿وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط﴾ ودل هذا على بيان القسط، وأن مادته هو ما شرعه الله من الأحكام، فإنها المشتملة على غاية العدل والقسط، وما خالف ذلك فهو جور وظلم.

﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ كرر النهي عن اتباع أهوائهم لشدة التحذير منها. ولأن ذلك في مقام الحكم والفتوى، وهو أوسع، وهذا في مقام الحكم وحده، وكلاهما يلزم فيه أن لا يتبع أهواءهم المخالفة للحق، ولهذا قال: ﴿واحذروهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليكم﴾ أي: إياك والاعتراض بهم، وأن يفتنوك فيصدوك عن بعض ما أنزل [الله] إليكم، فصار اتباع أهوائهم سبباً موصلاً إلى ترك الحق الواجب، والفرض اتباعه.

﴿فإن تولوا﴾ عن اتباعك واتباع الحق ﴿فاعلم﴾ أن ذلك عقوبة عليهم وأن الله يريد أن يصيبهم ببعض

حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه.

وهو الكتاب الذي فيه نيا السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام الذي عرضت عليه الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند الله، لم يخالف.

﴿فاحكم بينهم بما أنزل الله﴾ من الحكم الشرعي الذي أنزله الله عليك. ﴿ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾ أي: لا تجعل اتباع أهوائهم الفاسدة المعارضة للحق بدلاً عما جاءك من الحق فتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير.

﴿لكل جعلنا منكم﴾ أيها الأمم جعلنا ﴿شرعة ومنهاجاً﴾ أي: سبيلاً وسنة، وهذه الشرائع التي تختلف باختلاف الأمم، هي التي تتغير بحسب تغير الأزمنة والأحوال، وكلها ترجع إلى العدل في وقت شرعتها، وأما الأصول الكبار التي هي مصلحة وحكمة في كل زمان، فإنها لا تختلف، فتشريع في جميع الشرائع. ﴿ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة﴾ تبعاً لشرعية واحدة، لا يختلف متأخراً ولا [و] متقدمها.

﴿ولكن ليلوكم فيما آتاكم﴾ فيختبركم وينظر كيف تعملون، ويتلى كل أمة بحسب ما تقتضيه حكمته، ويؤتي كل أحد ما يليق به، وليحصل التنافس بين الأمم فكل أمة تحرص على سبق غيرها، ولهذا قال: ﴿فاستبقوا الخيرات﴾ أي: بادروا إليها وأكملوها، فإن الخيرات الشاملة لكل فرض ومستحب، من حقوق الله وحقوق عباده، لا يصير فاعلها سابقاً لغيره مسئولياً على الأمر، إلا بامرئ:

المبادرة إليها، وانتهاز الفرصة حين يجيء وقتها ويعرض عارضها، والاجتهاد في أدائها كاملة على الوجه المأمور به. ويستدل بهذه الآية، على المبادرة لأداء الصلاة وغيرها في أول

أنه قال لبني إسرائيل: ﴿ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾.

﴿وآتياء الإنجيل﴾ الكتاب العظيم المتمم للتوراة. ﴿فيه هدى ونور﴾ يهدي إلى الصراط المستقيم، ويبين الحق من الباطل. ﴿ومصدقاً لما بين يديه من التوراة﴾ بتبنيها والشهادة لها والموافقة. ﴿وهدى وموعظة للمتقين﴾ فإنهم الذين يتفنون بالهدى، ويتعظون بالمواعظ، ويرتعدون عما لا يليق.

﴿وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه﴾ أي: يلزمهم التقيد بكتابتهم، ولا يجوز لهم العدول عنه. ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون﴾.

﴿٤٨ - ٥٠﴾ ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون﴾ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذروهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليكم فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أنحكم المجاهلية يبنون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ يقول تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب﴾ الذي هو القرآن العظيم، أفضل الكتب وأجلها.

﴿بالحق﴾ أي: إنزالاً بالحق، ومشتملاً على الحق في أخباره وأوامره ونواهي. ﴿مصدقاً لما بين يديه من الكتاب﴾ لأنه شهد لها ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها، وأخبرت به، فصار وجوده مصداقاً لخبرها.

﴿ومهيمناً عليه﴾ أي: مشتملاً على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية. فهو الكتاب الذي تتبع كل

فبطل كيدهم وبطلت ﴿أعمالهم﴾ في الدنيا ﴿فأصبحوا خاسرين﴾ حيث فاتهم مقصودهم، وحضرهم الشقاء والعذاب.

﴿٥٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعززة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ يخبر تعالى أنه الغني عن العالمين، وأنه من يرتد عن دينه فلن يضر الله شيئاً، وإنما يضر نفسه. وأن الله عبداً مخلصين، ورجالاً صادقين، قد تكفل الرحمن الرحيم بهديتهم، ووعد بالإتيان بهم، وأنهم أكمل الخلق أوصافاً، وأقوامهم نفوساً، وأحسنهم أخلاقاً، أجل صفاتهم أن الله ﴿يحبهم ويحبونه﴾. فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبداً يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد.

ومن لوازم محبة العبد لربه، أنه لا بد أن يتصف بمتابعة الرسول ﷺ ظاهراً وباطناً، في أقواله وأعماله وجميع أحواله، كما قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾. كما أن من لازم^(١) محبة الله للعبد، أن يكثر العبد من التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن الله: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، ولا يزال [عبد] يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه».

بضرهم، بل لا يدخرون من مجهودهم شيئاً على إضلالكم، فلا يتولاهم إلا من هو مثلهم، ولهذا قال: ﴿ومن يتولهم منكم فإنه منهم﴾ لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم. والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً، حتى يكون العبد منهم.

﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، وإليه يرجعون، وعليه يعولون. فلو جتتهم بكل آية ما تبعوك، ولا انقادوا لك. ولما نهى الله المؤمنين عن توليهم، أخبر أن من يدعي الإيمان طائفة توليهم، فقال: ﴿فترى الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك ونفاق، وضعف إيمان، يقولون: إن تولينا إياهم للحاجة، فإننا «نخشى أن تصيبنا دائرة» أي: تكون الدائرة لليهود والنصارى، فإذا كانت الدائرة لهم، فإذا لنا معهم يد يكافؤونا عنها، وهذا سوء ظن منهم بالإسلام، قال تعالى - راداً لظنهم السيئ -: ﴿ففسى الله أن يأتي بالفتح﴾ الذي يعز الله به الإسلام على اليهود والنصارى، ويقهرهم المسلمون ﴿أو أمر من عنده﴾ يأس به المنافقون من ظفر الكافرين من اليهود وغيرهم ﴿فيصبحوا على ما أسروا﴾ أي: أضموهم ﴿في أنفسهم نادمين﴾ على ما كان منهم وضرهم بلا نفع حصل لهم، فحصل الفتح الذي نصر الله به الإسلام والمسلمين، وأذل به الكفر والكافرين، فندموا وحصل لهم من الغم ما الله به عليم.

﴿ويقول الذين آمنوا﴾ متعجبين من حال هؤلاء الذين في قلوبهم مرض: ﴿هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم﴾ أي: حلفوا وأكدوا حلفهم، وغلظوه بأنواع التأكيدات: إنهم لمعكم في الإيمان، وما يلزمه من النصرة والمحبة والموالاة، ظهر ما أضمره، وتبين ما أسروه، وصار كيدهم الذي كادوه، وظنهم الذي ظنوه بالإسلام وأهله - باطلاً،

ذنوبهم﴾ فإن للذنوب عقوبات عاجلة وأجلة، ومن أعظم العقوبات أن يتولى العبد ويزين له ترك اتباع الرسول، وذلك لنفسه.

﴿وإن كثيراً من الناس لفاسقون﴾ أي: طبيعتهم الفسق والخروج عن طاعة الله واتباع رسوله.

﴿أنحكم الجاهلية يبغون﴾ أي: أفيطلبون بتوليهم وإعراضهم عنكم حكم الجاهلية، وهو كل حكم خالف ما أنزل الله على رسوله. فلا ثم إلا حكم الله ورسوله أو حكم الجاهلية. فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل والظلم والغنى، ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم، والعدل والقسط، والنور والهدى.

﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾ فالوقن هو الذي يعرف الفرق بين الحكيمين ويميز - بإيقانه - ما في حكم الله من الحسن والبهاء، وأنه يتعين - عقلاً وشرعاً - اتباعه.

واليقين، هو العلم التام الموجب للعمل.

﴿٥١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ففسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين * ويقول الذين آمنوا هؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين﴾ يرشد تعالى عباده المؤمنين حين بين لهم أحوال اليهود والنصارى وصفاتهم غير الحسنة، أن لا يتخذوهم أولياء. فإن بعضهم أولياء بعض يتناصرون فيما بينهم ويكونون يداً على من سواهم، فأنتم لا تتخذوهم أولياء، فإنهم الأعداء على الحقيقة ولا يبالون

ولما مدحهم تعالى بما منَّ به عليهم من الصفات الجلية والمناقب العالية، المستلزمة لما لم يذكر من أفعال الخير - أخبر أن هذا من فضله عليهم وإحسانه لثلاثا يعجبوا بأنفسهم، وليشكروا الذي منَّ عليهم بذلك ليزيدهم من فضله، وليعلم غيرهم أن فضل الله تعالى ليس عليه حجاب، فقال: ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم﴾ أي: واسع الفضل والإحسان، جزيل المنن، قد عمت رحمته كل شيء، ويوسع على أوليائه من فضله، ما لا يكون لغيرهم، ولكنه عليم بمن يستحق الفضل فيعطيه، فالله أعلم حيث يجعل رسالته أصلاً وفرعاً.

﴿٥٥ - ٥٦﴾ ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴿لما نهى عن ولاية الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم، وذكر مآل توليهم أنه الخسران المبين، أخبر تعالى من يجب ويتعين توليه، وذكر فائدة ذلك ومصلحته فقال: ﴿إنما وليكم الله ورسوله﴾. فولاية الله تدرك بالإيمان والتقوى. فكل من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً، ومن كان ولياً لله فهو ولي لرسوله، ومن تولى الله ورسوله كان تمام ذلك تولي من تولاه، وهم المؤمنون الذين قاموا بالإيمان ظاهراً وباطناً، وأخلصوا للمعبود، بإقامتهم الصلاة بشروطها وفروضها ومكملاتها، وأحسنوا للخلق، وبذلوا الزكاة من أموالهم لمستحقها منهم. وقوله: ﴿وهم راكعون﴾ أي: خاضعون لله ذليلون. فإداة الحصر في قوله: ﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا﴾ تدل على أنه يجب قصر الولاية على المذكورين، والتبري من ولاية غيرهم. ثم ذكر فائدة هذه الولاية فقال: ﴿ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا﴾

ومن لوازم محبة الله معرفته تعالى، والإكثار من ذكره، فإن المحبة بدون معرفة بالله ناقصة جداً، بل غير موجودة وإن وجدت دعواها، ومن أحب الله أكثر من ذكره، وإذا أحب الله عبداً قبل منه السير من العمل، وغفر له الكثير من الزلل.

ومن صفاتهم أنهم ﴿أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين﴾ فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم وراقتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسوله - أعزة قد اجتمعت مهمهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم، قال تعالى: ﴿ورأدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ وقال تعالى: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ فالغلظة والشدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله، ويوافق العبد ربه في سخطه عليهم، ولا تمنع الغلظة عليهم والشدة دعوتهم إلى الدين الإسلامي التي هي أحسن. فتجتمع الغلظة عليهم، واللين في دعوتهم، وكلا الأمرين من مصلحتهم ونفعه عائد إليهم.

﴿يجاهدون في سبيل الله﴾ بأموالهم وأنفسهم، بأقوالهم وأفعالهم. ﴿ولا يخافون لومة لائم﴾ بل يقدمون رضا ربهم والخوف من لومه على لوم المخلوقين، وهذا يدل على قوة مهمهم وعزائمهم، فإن ضعيف القلب ضعيف الهمة، تنتقص عزيمته عند لوم اللائمين، وتفترق قوته عند عذل العاذلين. وفي قلوبهم تعبد لغير الله، بحسب ما فيها من مراعاة الخلق وتقديم رضاهم ولومهم على أمر الله، فلا يسلم القلب من التعبد لغير الله، حتى لا يخاف في الله لومة لائم.

(١) كذا في ب، وفي أ: ويبدون إليهم.

بَلْ يَسْأَلُ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا عَنْكَ قُلُوبُهُمْ عَنْ مَا كُنْتُمْ تُدْعَوْنَ إِلَيْهِ لَمَا كُنْتَ غَالِبًا عَلَيْهِمْ وَمَا تَنْتَظِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْبُحْرِ عَلِمُوا أَنَّ الْقَارُونَ هَذَا إِلَهُهم قَالُوا لَوْ أَنَّ هَذَا إِلَهُهم لَمَدُّوا إِلَيْهِ يَدَهُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٥٦﴾ فَخَسِرَ الْيَوْمَ الْكَافِرُونَ لِمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٥٧﴾ بَلْ يَسْأَلُ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا عَنْكَ قُلُوبُهُمْ عَنْ مَا كُنْتُمْ تُدْعَوْنَ إِلَيْهِ لَمَا كُنْتَ غَالِبًا عَلَيْهِمْ وَمَا تَنْتَظِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْبُحْرِ عَلِمُوا أَنَّ الْقَارُونَ هَذَا إِلَهُهم قَالُوا لَوْ أَنَّ هَذَا إِلَهُهم لَمَدُّوا إِلَيْهِ يَدَهُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٥٦﴾ فَخَسِرَ الْيَوْمَ الْكَافِرُونَ لِمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٥٧﴾ بَلْ يَسْأَلُ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رَدُّوا عَنْكَ قُلُوبُهُمْ عَنْ مَا كُنْتُمْ تُدْعَوْنَ إِلَيْهِ لَمَا كُنْتَ غَالِبًا عَلَيْهِمْ وَمَا تَنْتَظِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْبُحْرِ عَلِمُوا أَنَّ الْقَارُونَ هَذَا إِلَهُهم قَالُوا لَوْ أَنَّ هَذَا إِلَهُهم لَمَدُّوا إِلَيْهِ يَدَهُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٥٦﴾ فَخَسِرَ الْيَوْمَ الْكَافِرُونَ لِمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٥٧﴾

فإن حزب الله هم الغالبون ﴿أي: فإنه من الحزب المضافين إلى الله إضافة عبودية وولاية، وحزبه هم الغالبون الذين لهم العاقبة في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾.

وهذه بشارة عظيمة لمن قام بأمر الله وصار من حزبه وجنده، أن له الغلبة، وإن أديب عليه في بعض الأحيان لحكمة يريد بها الله تعالى، فأخر أمره، الغلبة والانتصار، ومن أصدق من الله قيلاً.

﴿٥٧ - ٥٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزواً ولعباً من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾ وإذا ناديتكم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون ﴿ينهى عباده المؤمنين عن اتخاذ أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن سائر الكفار أولياء يحبسونهم ويتولونهم، ويبدون لهم أسرار المؤمنين، ويعاونونهم على بعض أمورهم التي تضر الإسلام والمسلمين، وأن ما معهم من الإيمان يوجب عليهم ترك موالاتهم، ومحبتهم على معاداتهم، وكذلك التزامهم لتقوى الله التي هي امتثال أوامره واجتناب زواجره مما

وهذا النوع من باب استعمال أفعل التفضيل في غير بابه وكذلك قوله: ﴿وأضل عن سواء السبيل﴾ أي: وأبعد عن قصد السبيل.

﴿وإذا جاؤكم قالوا آمنا﴾ نفاقاً ومكراً ﴿و﴾ هم ﴿قد دخلوا﴾ مشتملين على الكفر ﴿وهم قد خرجوا به﴾ فمدخلهم ومخرجهم بالكفر - وهم يزعمون أنهم مؤمنون، فهل أشر من هؤلاء وأقبح حالا منهم!!؟

﴿والله أعلم بما كانوا يكتمون﴾ فيجازيم بأعمالهم خيرا وشرها.

ثم استمر تعالى يعدد معائبهم، انتصاراً لقدحهم في عباده المؤمنين، فقال: ﴿وترى كثيراً منهم﴾ أي: من اليهود ﴿يسارعون في الإثم والعدوان﴾ أي: يحرصون، ويبادرون المعاصي المتعلقة في حق الخالق والعدوان على المخلوقين.

﴿وأكلهم السحت﴾ الذي هو الحرام. فلم يكتف بمجرد الإخبار أنهم يفعلون ذلك، حتى أخبر أنهم يسارعون فيه، وهذا يدل على خبثهم وشرهم، وأن أنفسهم مجبولة على حب المعاصي والظلم. هذا وهم يدعون لأنفسهم المقامات العالية. ﴿لبئس ما كانوا يعملون﴾ وهذا في غاية الذم لهم والقبح فيهم.

﴿لولا ينهاهم الربايون والأخبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت﴾ أي: هلا ينهاهم العلماء المتصدون لنفع الناس، الذين مَنَّ الله عليهم بالعلم والحكمة - عن المعاصي التي تصدر منهم، ليزول ما عندهم من الجهل، وتقوم حجة الله عليهم، فإن العلماء عليهم أمر الناس ونهيهم، وأن يبينوا لهم الطريق الشرعي، ويرغبونهم في الخير ويرهبونهم من الشر ﴿لبئس ما كانوا يصنعون﴾

﴿٦٤ - ٦٦﴾ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة كلما

عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل * وإذا جاؤكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون * وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون * لولا ينهاهم الربايون والأخبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون * أي: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول: ﴿يا أهل الكتاب﴾ ملزماً لهم، إن دين الإسلام هو الدين الحق، وإن قدحهم فيه قدح يأمر ينبغي المدح عليه: ﴿هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون﴾ أي: هل لنا عندكم من العيب إلا إيماننا بالله، وبكتبه السابقة واللاحقة، وبأنبيائه المتقدمين والمتأخرين، وبأننا نجمز أن مَنْ لم يؤمن كهذا الإيمان فإنه كافر فاسق؟

فهل تنقمون منا بهذا الذي هو أوجب الواجبات على جميع المكلفين!!؟ ومع هذا فأكثرهم فاسقون، أي: خارجون عن طاعة الله، متجرئون على معاصيه، فأولى لكم - أيها الفاسقون - السكوت، فلو كان عيبكم وأنتم سالون من الفسق، وهيئات ذلك - لكان الشر أخف من قدحكم فينا مع فسقكم.

ولما كان قدحهم في المؤمنين يقتضي أنهم يعتقدون أنهم على شر، قال تعالى: ﴿قل﴾ لهم مغبراً عن شناعة ما كانوا عليه: ﴿هل أنبئكم بشر من ذلك﴾ الذي نقمتم فيه علينا، مع التنزل معكم. ﴿مَنْ لعنة الله﴾ أي: أبعده عن رحمته ﴿وغضب عليه﴾ وعاقبه في الدنيا والآخرة ﴿وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت﴾ وهو الشيطان، وكل ما عُبدَ من دون الله فهو طاغوت. ﴿أولئك﴾ المذكورون بهذه الخصال القبيحة ﴿شر مكاناً﴾ من المؤمنين الذين رحمة الله قريب منهم، ورضي الله عنهم وأثابهم في الدنيا والآخرة، لأنهم أخلصوا له الدين.



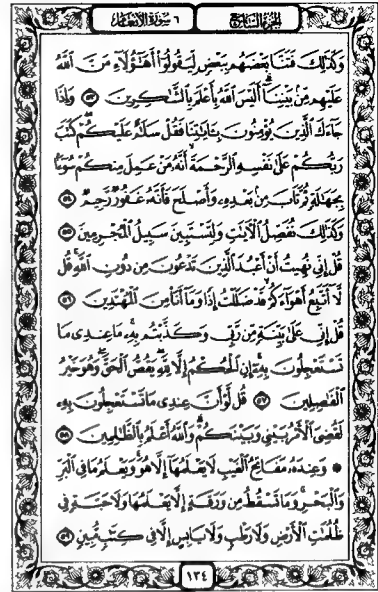
تدعوهم إلى معاداتهم، وكذلك ما كان عليه المشركون والكفار المخالفون للمسلمين، من قدحهم في دين المسلمين، واتخاذهم إياه هزواً ولعباً، واحتقاره واستصغار، خصوصاً الصلاة التي هي أظهر شعائر المسلمين، وأجل عباداتهم، إنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هزواً ولعباً، وذلك لعدم عقلهم ولجهلهم العظيم، وإلا فلو كان لهم عقول لخصعوا لها، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تصف بها النفوس.

فإذا علمتم - أيها المؤمنون - حال الكفار وشدة معاداتهم لكم ولديكنم، فمن لم يعادهم بعد هذا دل على أن الإسلام عنده رخيص، وأنه لا يبالي بمن قدح فيه أو قدح بالكفر والضلال، وأنه ليس عنده من المروءة والإنسانية شيء.

فكيف تدعي لنفسك ديناً قيماً، وأنه الدين الحق وما سواه باطل، وترضى بموالاته مَنْ اتخذ هزواً ولعباً، وسخر به وبأهله، من أهل الجهل والحقد!!؟

وهذا فيه من التهيج على عداوتهم ما هو معلوم لكل مَنْ له أدنى مفهوم.

﴿٥٩ - ٦٣﴾ ﴿قل﴾ يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون * قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنة الله وغضبه



﴿وان لم تفعل﴾ أي: لم تبلغ ما أنزل إليك من ربك ﴿فما بلغت رسالته﴾ أي: فما امتثل أمره.

﴿والله يعصمك من الناس﴾ هذه حاية وعصمة من الله لرسوله من الناس، وأنه ينبغي أن يكون حرصك على التعليم والتبليغ، ولا يشيك عنه خوف من المخلوقين فإن نواصيههم بيد الله وقد تكفل بعصمتك، فأنت إنما عليك البلاغ المبين، فمن اهتدى فلنفسه، وأما الكافرون الذين لا قصد لهم إلا اتباع أهوائهم فإن الله لا يهديهم ولا يوفقهم للخير، بسبب كفرهم.

﴿٦٨﴾ ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم وليزيد كثيراً﴾ منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً فلا تأس على القوم الكافرين ﴿أي: قل لأهل الكتاب، منادياً على ضلالهم، ومعلنأً بباطلهم: ﴿لستم على شيء﴾ من الأمور الدينية، فإنكم لا بالقرآن ومحمد أمتم، ولا بنبيكم وكتابكم صدقتم، ولا بحق نبيكم، ولا على أصل اعتمادكم ﴿حتى تقيموا التوراة والإنجيل﴾ أي: تجمعلوهما قائمين بالإيمان بهما واتباعهما، والتمسك بكل ما يدعوان إليه.

﴿و﴾ تقيموا ﴿ما أنزل إليكم من ربكم﴾ الذي رباكم، وأنعم عليكم، وجعل أجل إنعامه، إنزال الكتب إليكم. فالواجب عليكم، أن تقوموا بشكر الله، وتلتزموا أحكام الله، وتقوموا بما حملتم من أمانة الله وعهده.

﴿وليزيد كثيراً﴾ منهم ما أنزل إليك من ربك طغياناً وكفراً، فلا تأس على القوم الكافرين ﴿

﴿٦٩﴾ ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ يخبر تعالى عن أهل الكتب^(١)، من أهل

القرآن والتوراة والإنجيل، أن سعادتهم ونجاتهم في طريق واحد، وأصل واحد، وهو الإيمان بالله واليوم الآخر [والعمل الصالح]^(٢). فمن آمن منهم بالله واليوم الآخر، فله النجاة، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه من الأمور المخوفة، ولا هم يحزنون على ما خلفوا منها. وهذا الحكم المذكور يشمل سائر الأئمة.

﴿٧٠ - ٧١﴾ ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلاً كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون * وحسبوا ألا تكون فتنة فعموا وطمأنا ثم تاب الله عليهم ثم عموا وطمأنا كثير منهم والله بصير بما يعملون﴾ يقول تعالى: ﴿لقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل﴾ أي: عهدهم الثقيل بالإيمان بالله، والقيام بواجباته التي تقدم الكلام عليها في قوله: ﴿ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً﴾ إلى آخر الآيات ﴿وأرسلنا إليهم رسلاً﴾ يتوالون عليهم بالدعوة، ويتعاهدونهم بالإرشاد، ولكن ذلك لم ينفع فيهم، ولم يفد ﴿كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم﴾ من الحق كذبوه وعاندوه، وعاملوه أقبح المعاملة ﴿فريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون، وحسبوا أن لا تكون فتنة﴾ أي: ظنوا أن معصيتهم وتكذيبهم لا يجز عليهم عذاباً ولا عقوبة، فاستمروا على باطلهم. ﴿فعموا وطمأنا﴾ عن الحق ﴿ثم﴾ نعتشهم و ﴿تاب الله عليهم﴾ حين تابوا إليه وأنابوا ﴿ثم﴾ لم يستمروا على ذلك حتى انقلب أكثرهم إلى الحال القبيحة. ﴿فعموا وطمأنا كثير منهم﴾ بهذا الوصف، والقليل استمروا على توبتهم وإيمانهم. ﴿والله بصير بما يعملون﴾ فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

﴿٧٢ - ٧٥﴾ ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي

الرزق، ولا مطر عليهم السماء، وأنت لهم الأرض كما قال تعالى: ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾.

﴿منهم﴾ أي: من أهل الكتاب ﴿أمة مقتصدة﴾ أي: عاملة بالتوراة والإنجيل، عملاً غير قوي ولا نشيط، وكثير منهم ساء ما يعملون ﴿أي: والمسيح منهم الكثير. وأما السابقون منهم فقليل ما هم.

﴿٦٧﴾ ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ هذا أمر من الله لرسوله محمد ﷺ بأعظم الأوامر وأجلها، وهو التبليغ لما أنزل الله إليه، ويدخل في هذا كل أمر تلقته الأمة عنه ﷺ من العقائد والأعمال والأقوال، والأحكام الشرعية والمطالب الإلهية. فبلغ ﷺ أكمل تبليغ، ودعا وأنذر وبشر، وبشر، وعلم الجاهال الأميين حتى صاروا من العلماء الربانيين، وبلغ بقوله وفعله وكتبه ورسله. فلم يبق خيراً إلا دل أمته عليه، ولا شر إلا حذرهما عنه، وشهد له بالتبليغ أفاضل الأمة من الصحابة، فمن بعدهم من أئمة الدين ورجال المسلمين.

وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وأما النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفورٌ رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقةٌ كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون* يخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم: ﴿إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ بشبهة أنه خرج من أم بلا أب، وخالف اليهود من الخلقة الإلهية، والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى، وقال لهم: ﴿يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾ فأثبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق.

وقوله: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران، محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب، فلو كانا إلهين لاستغنيا عن الطعام والشراب، ولم يحتاجا إلى شيء، فإن الإله هو الغني الحميد.

ولما بين تعالى البرهان قال: ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات﴾ الموضحة للحق، الكاشفة لليقين، ومع هذا لا تفيد فيهم شيئاً، بل لا يزالون على إفكهم وكذبهم وإفترائهم، وذلك ظلم وعناد منهم.

﴿٧٦﴾ ﴿قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم﴾ أي: ﴿قل﴾ لهم أيها الرسول: ﴿أتعبدون من دون الله﴾ من المخلوقين الفقراء المحتاجين، ﴿من لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً﴾ وتدعون من انفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع، ﴿والله هو السميع﴾ لجميع الأصوات باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات.

﴿العليم﴾ بالظواهر والبواطن، والغيب والشهادة، والأمور الماضية والمستقبل، فالكامل تعالى الذي هذه أوصافه هو الذي يستحق أن يفرد بجميع أنواع العبادة، ويخلص له الدين.

﴿٧٧ - ٨١﴾ ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغفلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل * لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون * ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن

بكل صفة كمال، منزّه عن كل نقص، منفرد بالخلق والتدبير، ما بالخلق من نعمة إلا منه. فكيف يجعل معه إله غيره؟! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

ثم توعدهم بقوله: ﴿وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم﴾ ثم دعاهم إلى التوبة عما صدر منهم، وبين أنه يقبل التوبة عن عباده فقال: ﴿أفلا يتوبون إلى الله﴾ أي: يرجعون إلى ما يحبه ويرضاه من الإقرار لله بالتوحيد، وبأن عيسى عبد الله ورسوله، عما كانوا يقولونه ﴿يستغفرونه﴾ عن ما صدر منهم ﴿والله غفور رحيم﴾ أي: يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء، ويرحمهم بقبول توبتهم، وتبديل سيئاتهم حسنات.

وصدر دعوتهم إلى التوبة بالعرض الذي هو في غاية اللطف واللين في قوله: ﴿أفلا يتوبون إلى الله﴾.

ثم ذكر حقيقة المسيح وأمه، الذي هو الحق، فقال: ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ أي: هذا غايته ومنتهاى أمره، أنه من عباد الله المرسلين، الذين ليس لهم من الأمر ولا من التشريع، إلا ما أرسلهم به الله، وهو من جنس الرسل قبله، لا مزية له عليهم، تخرجه عن البشرية إلى مرتبة الربوبية.

﴿وأمه﴾ مريم ﴿صديقة﴾ أي: هذا أيضاً غايتها، أن كانت من الصديقين الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء. والصديقة، هي العلم النافع المثمر لليقين، والعمل الصالح. وهذا دليل على أن مريم لم تكن نبيه، بل أعلى أحوالها الصديقة، وكفى بذلك فضلاً وشرفاً. وكذلك سائر النساء لم يكن منهن نبيه، لأن الله تعالى جعل النبوة في أكمل الصنفين، في الرجال كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا

وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة وأما النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفورٌ رحيم * ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقةٌ كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون* يخبر تعالى عن كفر النصارى بقولهم: ﴿إن الله هو المسيح ابن مريم﴾ بشبهة أنه خرج من أم بلا أب، وخالف اليهود من الخلقة الإلهية، والحال أنه عليه الصلاة والسلام قد كذبهم في هذه الدعوى، وقال لهم: ﴿يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم﴾ فأثبت لنفسه العبودية التامة، ولربه الربوبية الشاملة لكل مخلوق.

﴿إنه من يشرك بالله﴾ أحداً من المخلوقين، لا عيسى ولا غيره. ﴿فقد حرم الله عليه الجنة وأما النار﴾ وذلك لأنه سوى الخلق بالخالق، وصرف ما خلقه الله له - وهو العبادة الخالصة - لغير من هي له، فاستحق أن يخلد في النار.

﴿وما للظالمين من أنصار﴾ ينقدونهم من عذاب الله، أو يدفعون عنهم بعض ما نزل بهم.

﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة﴾ وهذا من أقوال النصارى المنصورة عندهم، زعموا أن الله ثالث ثلاثة: الله، وعيسى، ومريم، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

وهذا أكبر دليل على قلة عقول النصارى، كيف قبلوا هذه المقالة الشنعاء، والعقيدة القبيحة؟! كيف اشتبه عليهم الخالق بالمخلوقين^(١)؟! كيف خفي عليهم رب العالمين؟! قال تعالى - راداً عليهم وعلى أشباههم -: ﴿وما من إله إلا إله واحد﴾ متصف

سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون * ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون ﴿١٠٠﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق﴾ أي: لا تتجاوزوا وتتعدوا الحق إلى الباطل، وذلك كقولهم في المسيح، ما تقدم حكايته عنهم.

وكغلوهم في بعض المشايخ، اتباعاً لـ ﴿أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾ أي: تقدم ضلالهم.

﴿وأضلوا كثيراً﴾ من الناس بدعوتهم إياهم إلى الدين، الذين هم عليه. ﴿وضلوا عن سواء السبيل﴾ أي: قصد الطريق، فجمعوا بين الضلال والإضلال، وهؤلاء هم أئمة الضلال الذين حذر الله عنهم وعن اتباع أهوائهم المردية، وآرائهم المضلة، ثم قال تعالى: ﴿لن الذين كفروا من بني إسرائيل﴾ أي: طردوا وأبعدوا عن رحمة الله ﴿على لسان داود وعيسى ابن مريم﴾ أي: بشهادتهما وإقرارهما، بأن الحجة قد قامت عليهم، وعاندوها. ﴿ذلك﴾ الكفر واللعن ﴿بما عصوا﴾ وكانوا يعتدون ﴿أي: بعصيانهم لله، وظلمهم لعباد الله، صار سبباً لكفرهم وبعدهم عن رحمة الله، فإن للذنوب والظلم عقوبات.

ومن معاصيهم التي أحلت بهم المثالات، وأوقعت بهم العقوبات أنهم: ﴿كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه﴾ أي: كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهى بعضهم بعضاً، فيشترك بذلك المباشر وغيره، الذي سكنت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك.

وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لغاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر - مع القدرة - موجباً للعقوبة، لما فيه من المفاصد العظيمة: منها: أن مجرد السكوت، فعل

معصية، وإن لم يباشرها الساكت. فإنه - كما يجب اجتناب المعصية - فإنه يجب الإنكار على من فعل المعصية. ومنها: ما تقدم أنه يدل على التهاون بالمعاصي، وقلة الاكتراث بها.

ومنها: أن ذلك يجريء العصاة والفسقة على الإكثار من المعاصي إذا لم يردعوا عنها، فيزداد الشر، وتعظم المصيبة الدينية والدنيوية، ويكون لهم الشوكة والظهور، ثم بعد ذلك يضعف أهل الخير عن مقاومة أهل الشر، حتى لا يقدرون على ما كانوا يقدرون عليه أولاً.

ومنها: أن - في ترك^(١) الإنكار للمنكر - يندرس العلم، ويكثر الجهل، فإن المعصية - مع تكررها وصدورها من كثير من الأشخاص، وعدم إنكار أهل الدين والعلم لها - يظن أنها ليست بمعصية، وربما ظن الجاهل أنها عبادة مستحسنة، وأي: مفسدة أعظم من اعتقاد ما حرم الله، حاللاً؟ وانقلاب الحقائق على النفوس ورؤية الباطل حقاً؟!!

ومنها: أن السكوت^(٢) على معصية العاصين، ربما تزينت المعصية في صدور الناس، واقتدى بعضهم ببعض، فالإنسان مولع بالاقتداء بأضراجه وبني جنسه، ومنها ومنها.

فلما كان السكوت عن الإنكار بهذه المثابة، نص الله تعالى أن بني إسرائيل الكفار منهم لعنهم بمعاصيهم واعتدائهم، وخص من ذلك هذا المنكر العظيم.

﴿لبئس ما كانوا يفعلون﴾ * ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ﴿بالحبة والموالاة والنصرة.

﴿لبئس ما قدمت لهم أنفسهم﴾ هذه البضاعة الكاسدة، والصفة الخاسرة، وهي سخط الله الذي يسخط لسخطه كل شيء، والخلود الدائم في العذاب العظيم، فقد ظلمتهم أنفسهم حيث قدمت لهم هذا النزول غير الكريم، وقد ظلموا أنفسهم إذ فوتوا

النعيم المقيم.

﴿ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء﴾. فإن الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه، يوجب على العبد موالاة ربه، وموالاة أوليائه، ومعاداة من كفر به وعاداه، وأوضع في معاصيه، فشرط ولاية الله والإيمان به، أن لا يتخذ أعداء الله أولياء، وهؤلاء لم يوجد منهم الشرط، فدل على انتفاء المشروط. ﴿ولكن كثيراً منهم فاسقون﴾ أي: خارجون عن طاعة الله والإيمان به وبالنبي. ومن فسقهم موالاة أعداء الله.

ثم قال تعالى:

﴿٨٢-٨٦﴾ ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ * وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنّا فاكبتنا مع الشاهدين * وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونقطع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين * فأتاهم الله بما قالوا جناناً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾.

يقول تعالى في بيان أقرب الطائفتين إلى المسلمين، وإلى ولايتهم ومحبتهم، وأبعدهم من ذلك: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا﴾. فهؤلاء الطائفتان على الإطلاق أعظم الناس معاداة للإسلام والمسلمين، وأكثرهم سعيًا في إيصال الضرر إليهم، وذلك لشدة بغضهم لهم، بغياً وحسداً وعناداً وكفراً.

﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى﴾ وذكر تعالى لذلك عدة أسباب:

منها: أن ﴿منهم قسيسين ورهباناً﴾ أي: علماء متزهدين، وعُباداً في

(١) كذا في ب، وفي أ: أن في ترك.

(٢) كذا في ب، وفي أ: السكوت.

الصوامع متعبدين . والعلم مع الزهد وكذلك العبادة مما يلطف القلب ويرققه ، ويزيل عنه ما فيه من الجفاء والغلظة ، فلذلك لا يوجد فيهم غلظة اليهود ، وشدة المشركين .

ومنها : ﴿أنهم لا يستكبرون﴾ أي : ليس فيهم تكبر ولا عتو عن الانقياد للحق ، وذلك موجب لقرههم من المسلمين ومن محبتهم ، فإن المتواضع أقرب إلى الخير من المستكبر .

ومنها : أنهم ﴿إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول﴾ محمد ﷺ ، أثروا ذلك في قلوبهم وخشعوا له ، وقاضت أعينهم بسبب ما سمعوا من الحق الذي تيقنوه ، فلذلك آمنوا وأقروا به فقالوا : ﴿ربنا آمنا فاكبتنا مع الشاهدين﴾ وهم أمة محمد ﷺ ، يشهدون لله بالتوحيد ، ولرسله بالرسالة وصحة ما جاؤوا به ، ويشهدون على الأمم السابقة بالتصديق والتكذيب .

وهم عدول ، شهادتهم مقبولة ، كما قال تعالى : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾ . فكانهم لبموا على إيمانهم ومسارعهم فيه ، فقالوا : ﴿وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين﴾ أي : وما الذي يمنعنا من الإيمان بالله ، والحال أنه قد جاءنا الحق من ربنا ، الذي لا يقبل الشك والريب ، ونحن إذا آمنا واتبعنا الحق طمعنا أن يدخلنا الله الجنة مع القوم الصالحين ، فأبي : مانع يمنعنا؟ ليس ذلك موجباً للمسارعة والانقياد للإيمان وعدم التخلف عنه .

قال الله تعالى : ﴿فأناهم الله بما قالوا﴾ أي : بما تفوهوا به من الإيمان ونطقوا به من التصديق بالحق ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، وذلك جزاء المحسنين﴾ . وهذه الآيات نزلت في النصاري الذين آمنوا بمحمد ﷺ ، كالنجاشي وغيره ممن آمن منهم . وكذلك لا يزال يوجد فيهم

من يختار دين الإسلام ، ويتبين له بطلان ما كانوا عليه ، وهم أقرب من اليهود والمشركون إلى دين الإسلام .

ولما ذكر ثواب المحسنين ، ذكر عقاب المسيئين قال : ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾ لأنهم ^(١) كفروا بالله ، وكذبوا بآياته المبينة للحق .

﴿٨٧ - ٨٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ * وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ يقول تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾ من المطاعم والمشارب ، فإنها نعم أنعم الله بها عليكم ، فاحمدوه إذ أحلها لكم ، واشكروه ولا تردوا نعمته بكفرها أو عدم قبولها ، أو اعتقاد تحريمها ، فتجمعون بذلك بين القول على الله الكذب ، وكفر النعمة ، واعتقاد الحلال الطيب حراماً خبيثاً ، فإن هذا من الاعتداء .

والله قد نهى عن الاعتداء فقال : ﴿ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ بل يبغضهم ويمقتهم ويعاقبهم على ذلك .

ثم أمر بضد ما عليه المشركون ، الذين يحرمون ما أحل الله فقال : ﴿وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً﴾ أي : كلوا من رزقه الذي ساقه إليكم ، بما يسره من الأسباب ، إذا كان حلالاً لا سرقة ولا غصباً ولا غير ذلك من أنواع الأموال التي تؤخذ بغير حق ، وكان أيضاً طيباً ، وهو الذي لا خبث فيه ، فخرج بذلك الخبيث من السباع والخبائث .

﴿واتقوا الله﴾ في امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه . ﴿الذي أنتم به مؤمنون﴾ فإن إيمانكم بالله يوجب عليكم تقواه ومراعاة حقه ، فإنه لا يتم إلا بذلك . ودلت الآية الكريمة على أنه إذا حرم حلالاً عليه ، من طعام

وشراب ، وسرية وأمة ، ونحو ذلك ، فإنه لا يكون حراماً بتحريمه ، لكن لو فعله فعليه كفارة يمين ، كما قال تعالى : ﴿يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك﴾ الآية . إلا أن تحريم الزوجة فيه كفارة ظهار ، ويدخل في هذه الآية أنه لا ينبغي للإنسان أن يتجنب الطيبات ويحرمها نفسه ، بل يتناولها مستعيناً بها على طاعة ربه .

﴿٨٩﴾ ﴿لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم﴾ ^(٢) أي : في أيمانكم التي صدرت على وجه اللغو ، وهي الأيمان التي حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد ، أو عقدها يظن صدق نفسه ، فإن بخلاف ذلك . ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ أي : بما عزمتم عليه ، وعقدت عليه قلوبكم . كما قال في الآية الأخرى : ﴿ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم﴾ ﴿فكفارتهم﴾ أي : كفارة اليمين الذي عقدتموها بقصدكم ﴿إطعام عشرة مساكين﴾ .

وذلك الإطعام ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم﴾ أي : كسوة عشرة مساكين ، والكسوة هي التي تجزئ في الصلاة . ﴿أو تحرير رقبة﴾ أي : عتق رقبة مؤمنة كما قيدت في غير هذا الموضع ، فمتى فعل واحداً من هذه الثلاثة فقد انحلت يمينه . ﴿فمن لم يجد﴾ واحداً من هذه الثلاثة ﴿فصيام ثلاثة أيام ذلك﴾ المذكور ﴿كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾ تكفرها وتحملها وتمنع من الإثم .

﴿واحفظوا أيمانكم﴾ عن الحلف بالله كاذباً ، وعن كثرة الأيمان ، واحفظوها إذا حلفتم عن الحنث فيها ، إلا إذا كان الحنث خيراً ، فتمام الحفظ : أن يفعل الخير ، ولا يكون يمينه عرضة لذلك الخير .

﴿كذلك يبين الله لكم آياته﴾ المبينة للحلال من الحرام ، الموضحة للأحكام . ﴿لعلكم تشكرون﴾ الله حيث علمكم ما لم تكونوا تعلمون . فعلى العباد شكر الله تعالى على ما من به

عليهم، من معرفة الأحكام الشرعية وتبيينها.

﴿٩٠ - ٩١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴿يَذُمُّ تَعَالَى هَذِهِ الْأَشْيَاءَ الْقَبِيحَةَ، وَيُخْبِرُ أَنَّهَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَأَنَّهَا رَجَسٌ. فَاجْتَنِبُوهُ﴾ أي: اتركوه ﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ فإن الفلاح لا يتم إلا بترك ما حرم الله، خصوصاً هذه الفواحش المذكورة وهي الخمر وهي: كل ما خامر العقل أي: غطاه بسكره والميسر، وهو: جميع المغالبات التي فيها عوض من الجانبين، كالمراهنة ونحوها، والأنصاب، التي هي: الأصنام والأنداد ونحوها، مما ينصب ويعبد من دون الله، والأزلام التي يستقسمون بها، فهذه الأربعة نهى الله عنها وزجر، وأخبر عن مفسادها الداعية إلى تركها واجتنابها. فمنها: أنها رجس، أي: خبث، نجس معنى، وإن لم تكن نجسة حساً.

والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها وعذم التدنس بأوضاعها.

ومنها: أنها من عمل الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان.

ومن المعلوم أن العدو يحذر منه، وتحذر مصايدته وأعماله، خصوصاً الأعمال التي يعملها ليقع فيها عدوه، فإنها فيها هلاكه، فالخمر كل الخمر البعد عن عمل العدو المبين، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها.

ومنها: أنه لا يمكن الفلاح للعبد إلا باجتنابها، فإن الفلاح هو: الفوز بالمطلوب المحبوب، والنجاة من المرهوب، وهذه الأمور مانعة من الفلاح ومعوقة له.

ومنها: أن هذه موجبة للعداوة والبغضاء بين الناس، والشيطان حريص على بثها، خصوصاً الخمر

والميسر، ليقع بين المؤمنين العداوة والبغضاء.

فإن في الخمر من انغلاب العقل وذهاب حجاء، ما يدعو إلى البغضاء بينه وبين إخوانه المؤمنين، خصوصاً إذا اقترن بذلك من السباب ما هو من لوازم شارب الخمر، فإنه ربما أوصل إلى القتل. وما في الميسر من غلبة أحدهما للآخر، وأخذ ماله الكثير في غير مقابلة، ما هو من أكبر الأسباب للعداوة والبغضاء.

ومنها: أن هذه الأشياء تصد القلب، ويتبعه البدن عن ذكر الله وعن الصلاة، اللذين خلق لهما العبد، وبهما سعادته، فالخمر والميسر، يصدانه عن ذلك أعظم صد، ويشغل قلبه، ويذهل له في الاشتغال بهما، حتى يمضي عليه مدة طويلة وهو لا يدري أين هو.

فأي: معصية أعظم وأقبح من معصية تدنس صاحبها، وتجعله من أهل الخبث، وتوقعه في أعمال الشيطان وشبابه، فينقاد له كما تنقاد البهيمة الذليلة لراعيها، وتحول بين العبد وبين فلاحه، وتوقع العداوة والبغضاء بين المؤمنين، وتصد عن ذكر الله وعن الصلاة؟! فهل فوق هذه المفاصد شيء أكبر منها؟!!

ولهذا عرض تعالى على العقول السليمة النهي عنها، عرضاً بقوله: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. لأن العاقل - إذا نظر إلى بعض تلك المفاصد - انزجر عنها وكفت نفسه، ولم يحتج إلى وعظ كثير ولا زجر بليغ.

﴿٩٢﴾ ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنَّ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ طاعة الله وطاعة رسوله واحدة، فمن أطاع الله فقد أطاع الرسول، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله. وذلك شامل للقيام بما أمر الله به ورسوله من الأعمال، والأقوال الظاهرة والباطنة، الواجبة والمستحبة، المتعلقة بحقوق الله وحقوق خلقه، والانتهاه عما نهى الله ورسوله عنه كذلك.

وهذا الأمر أعم الأوامر، فإنه كما ترى يدخل فيه كل أمر ونهي، ظاهر وباطن، وقوله: ﴿وَاحْذَرُوا﴾ أي: من معصية الله ومعصية رسوله، فإن في ذلك الشر والخسران المبين. ﴿فإن تولَّيْتُمْ﴾ عما أمرتم به ونهيت عنه. ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ وقد أدى ذلك. فإن اهتديتم فلأنفسكم، وإن أسأتم فعليها، والله هو الذي يحاسبكم، والرسول قد أدى ما عليه وما حمل به.

﴿٩٣﴾ ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ لما نزل تحريم الخمر والنهي الأكيد والتشديد فيه، تمنى أناس من المؤمنين أن يعلموا حال إخوانهم الذين ماتوا على الإسلام قبل تحريم الخمر وهم يشربونها.

فأنزل الله هذه الآية، وأخبر تعالى أنه ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ أي: حرج وإثم ﴿فِيمَا طَعَمُوا﴾ من الخمر والميسر قبل تحريمهما.

ولما كان نفي الجناح يشمل المذكورات وغيرها، قيد ذلك بقوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: بشرط أنهم تاركون للمعاصي، مؤمنون بالله إيماناً صحيحاً، موجباً لهم عمل الصالحات، ثم استمروا على ذلك. وإلا فقد يتصف العبد بذلك في وقت دون آخر. فلا يكفي حتى يكون كذلك حتى يأتيه أجله، ويدوم على إحسانه، فإن الله يحب المحسنين في نفع العبيد، الخالق، المحسنين في نفع العبيد، ويدخل في هذه الآية الكريمة، من طعم المحرم، أو فعل غيره بعد التحريم، ثم اعترف بذنبه وتاب إلى الله، واتقى وآمن وعمل صالحاً، فإن الله يغفر له، ويرتفع عنه الإثم في ذلك.

﴿٩٤ - ٩٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَلْبِسْكُمْ اللَّهُ بَشِيرًا مِنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ

لأجل مخافة الناس، فلا يثاب على ذلك.

ثم صرح بالنهي عن قتل الصيد،
 في حال الإحرام، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ
 حُرُمٌ﴾ أي: محرمون في الحج
 والعمرة، والنهي عن قتله يشمل النهي
 عن مقدمات القتل، وعن المشاركة في
 القتل، والدلالة عليه، والإعانة على
 قتله، حتى إن من تمام ذلك أنه ينهى
 المحرم عن أكل ما قتل أو صيد لأجله،
 وهذا كله تعظيم لهذا النسك العظيم،
 أنه يحرم على المحرم قتل وصيد ما كان
 حلالاً له قبل الإحرام.

وقوله: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمَّداً﴾
أي: قتل صيداً عمداً ﴿ف﴾ عليه
جزاء مثل ما قتل من النعم ﴿أي:﴾
الإبل، أو البقر، أو الغنم، فينظر ما
يشبه شيئاً من ذلك، فيجب عليه مثله،
يذبحه ويتصدق به. والاعتبار بالمائلة
أن ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ أي:
عدلان يعرفان الحكم، ووجه الشبه،
كما فعل الصحابة رضي الله عنهم،
حيث قضوا بالحمامة شاة، وفي النعامة
بدنة، وفي بقر الوحش - على اختلاف
أنواعه - بقرة، وهكذا كل ما يشبه شيئاً
من النعم، ففيه مثله، فإن لم يشبه شيئاً
ففيه قيمته، كما هو القاعدة في
المتلفات، وذلك الهدى لا بد أن يكون
﴿هدياً بالغ الكعبة﴾ أي: يذبح في
الحرم.

﴿أو كفارة طعام مساكين﴾ أي :
كفارة ذلك الجزءء طعام مساكين ، أي :
يجعل مقابلة المثل من النعم ، طعام
بطعم المساكين .

قال كثير من العلماء: يقوم الجزء، فيشتري بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مدُّ بُرٍّ أو نصف صاع من غيره. (أو عدل ذلك) الطعام (صياماً) أي: يصوم عن إطفاع كل مسكين يوماً. (ليذوق) بإيجاب الجزء المذكور عليه (وبالأمرة) ومن عاد بعد

أَيُدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ يَخَافُ
بِالْغَيْبِ فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ
أَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا
الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ
مَتَعَمَّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قُتِلَ مِنَ النِّعَمِ
يُحْكَمُ بِهِ ذُو عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدِيًّا بِأَلْفِ
الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةَ طَعَامٍ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلَ
ذَلِكَ صَيَامًا لِيُذَوَّقَ وَهَلْ أَمَرَ اللَّهُ
عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ
عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ * أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ
وَطَعَامَهُ مُتَعَدًّا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ
عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرَمًا
وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٠٠﴾ هَذَا مِنْ
مَنْنِ اللَّهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، أَنْ أَخْبَرَهُمْ بِمَا
سَيَفْعَلُ قَضَاءً وَقَدَرًا، لِيُطِيعُوهُ وَيَقْدُمُوا
عَلَىٰ بَصِيرَةٍ، وَيَهْلِكُ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيْتِهِ،
وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيْتِهِ، فَقَالَ تَعَالَى:
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لَا بَدَ أَنْ يُخْتَبَرَ اللَّهُ
إِيمَانَكُمْ.

﴿لِيلُونَكُمْ اللَّهُ بَشِيءَ مِنَ الصَّيْدِ﴾
 أي: بشيء غير كثير، فتكون حنة
 سيرة، تخفيفاً منه تعالى ولطفاً، وذلك
 الصيد الذي يتليكم الله به ﴿تَنَالَهُ
 أَيْدِيكُمْ وَرَمَحَكُمْ﴾ أي: تتمكنون من
 صيده، لئتم بذلك الابتلاء، لا غير
 مقدور عليه بيد ولا رمح، فلا يبقى
 للابتلاء فائدة.

ثم ذكر الحكمة في ذلك الابتلاء، فقال: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ علماً ظاهراً للخلق يترتب عليه الثواب والعقاب ﴿مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ فيكيف عما نهى الله عنه مع قدرته عليه وعمكنه، فيثيبه الثواب الجزيل عن لا يخافه بالغيب، فلا يردنغ عن معصية تعرض له فيصطاد ما تمكن منه ﴿فَمَنْ اعْتَدَى﴾ منكم ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ البيان، الذي قطع الحجج، وأوضح السبيل. ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم موجه، لا يقدر على وصفه إلا الله، لأنه لا عذر لذلك المعتدي، والاعتبار بمن يخافه بالغيب، وعدم حضور الناس عنده. وأما إظهار مخافة الله عند الناس، فقد يكون ذلك،

ذلك ﴿فَیَسْتَقِمْ﴾ اللهُ منه ، والله عزیز ذو انتقام ﴿﴾ .

وإنما نص الله على المتعمد لقتل الصيد، مع أن الجزء يلزم المتعمد والمخطئ، كما هو القاعدة الشرعية - أن التلطف للنفوس والأموال المحترمة، فإنه يضمنها على أي حال كان، إذا كان إتلافه بغير حق، لأن الله رتب عليه الجزاء والعقوبة والانتقام، وهذا للمتعمد. وأما المخطئ فليس عليه عقوبة، إنما عليه الجزاء، [هذا جواب الجمهور من هذا القيد الذي ذكره الله. وطائفة من أهل العلم يرون تخصيص الجزء بالمتعمد وهو ظاهر الآية. والفرق بين هذا وبين التضمنين في الخطأ في النفوس والأموال في هذا الموضع الحق فيه الله، فكما لا إثم لا جزاء لإتلافه نفوس الأدميين وأموالهم] ^(١).

ولما كان الصيد يشمل الصيد البري والبحري، استثنى تعالى الصيد البحري فقال: ﴿أحل لكم صيد البحر وطعامه﴾ أي: أحل لكم - في حال إحرامكم - صيد البحر، وهو الحي من حيواناته وطعامه، وهو الميت منها، فدل ذلك على حل ميتة البحر. ﴿متاعاً لكم وللسيارة﴾ أي: الفائدة في إباحتها

(١) ما بين القوسين زيادة من هامش أ، وجاء في هامش ب بدلاً منها بخط المؤلف: (هذا قول جمهور العلماء، والصحيح ما صرح به الآية أنه لا جزاء على غير المعتمد كما لا إثم عليه).

﴿١٠٠﴾ ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ أي: ﴿قُلْ﴾ للناس محذراً عن الشر ومرغباً في الخير: ﴿لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ من كل شيء، فلا يستوي الإيمان والكفر، ولا الطاعة والمعصية، ولا أهل الجنة وأهل النار، ولا الأعمال الطيبة، ولا المال الحرام بالمال الحلال.

﴿ولو أعجبك كثرة الخبيث﴾ فإنه لا ينفع صاحبه شيئاً، بل يضره في دينه ودنياه.

﴿فاتقوا الله يا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾ فأمر أُولِي الْأَلْبَابِ، أي: أهل العقول الوافية، والآراء الكاملة، فإن الله تعالى يوجه إليهم الخطاب. وهم الذين يؤبه لهم، ويرجى أن يكون فيهم خير.

ثم أخبر أن الفلاح متوقف على التقوى التي هي موافقة الله في أمره ونهيه، فمن اتقاه أفلح كل الفلاح، ومن ترك تقواه حصل له الخسران وفاته الأرباح.

﴿١٠١-١٠٢﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءٍ إِنْ تَبَدَّلَ لَكُمْ الْقُرْآنُ تَبَدَّلَ لَكُمْ عَقَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ قد سألتهم قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين* ينهى عباده المؤمنين عن سؤال الأشياء التي إذا بينت لهم ساءتهم وأحزنتهم، وذلك كسؤال بعض المسلمين لرسول الله ﷺ عن آياتهم، وعن حالهم في الجنة أو النار، فهذا ربما أنه لو بين للسائل لم يكن له فيه خير، وكسؤالهم للأمور غير الواقعة.

وكالسؤال الذي يترتب عليه تشديدات في الشرع ربما أخرجت الأمة، وكالسؤال عما لا يعني، فهذه الأسئلة، وما أشبهها هي المنهي عنها، وأما السؤال الذي لا يترتب عليه شيء

ويجتمع فيه من كل فج عميق جميع أجناس المسلمين، فيتعارفون ويستعين بعضهم ببعض، ويتشاورون على المصالح العامة، وتنعقد بينهم الروابط في مصالحهم الدينية والدنيوية.

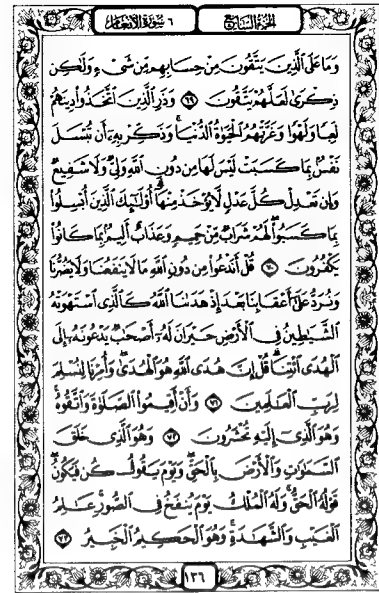
قال تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ ومن أجل كون البيت قياماً للناس قال من قال من العلماء: إن حج بيت الله فرض كفاية في كل سنة. فلو ترك الناس حجه لأنهم كل قادر، بل لو ترك الناس حجه لزال ما به قوامهم، وقامت القيامة.

وقوله: ﴿والهدي والقلائد﴾ أي: وكذلك جعل الهدي والقلائد - التي هي أشرف أنواع الهدي - قياماً للناس، ينتفعون بها ويثابون عليها. ﴿ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض، وأن الله بكل شيء عليم﴾.

فمن علمه أن جعل لكم هذا البيت الحرام، لما يعلمه من مصالحكم الدينية والدنيوية.

﴿اعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم﴾ أي: ليكون هذان العلمان موجودين في قلوبكم على وجه الجزم واليقين، تعلمون أنه شديد العقاب العاجل والآجل على من عصاه، وأنه غفور رحيم لمن تاب إليه وأطاعه. فيثمر لكم هذا العلم الخوف من عقابه، والرجاء لمغفرته وثوابه، وتعملون على ما يقتضيه الخوف والرجاء.

ثم قال تعالى: ﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾ وقد بلغ كما أمر، وقام بوظيفته وما سوى ذلك، فليس له من الأمر شيء. ﴿والله يعلم ما تبدون وما تكتمون﴾ فيجازيكم بما يعلمه تعالى منكم.



لكم أنه لأجل انتفاعكم وانتفاع رفقتكم الذين يسرون معكم. ﴿وحرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً﴾. ويؤخذ من لفظ «الصيد» أنه لا بد أن يكون وحشياً، لأن الإنسي ليس بصيد. ومأكولاً، فإن غير المأكول لا يصاد ولا يطلق عليه اسم الصيد. ﴿واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ أي: اتقوه بفعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، واستعينوا على تقواه بعلمكم أنكم إليه تحشرون. فيجازيكم، هل قمتم بتقواه فيثيبكم الثواب الجزيل، أم لم تقوموا بها فيعاقبكم؟

﴿٩٧-٩٩﴾ ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقُلَائِدَ ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ * أعلموا أن الله شديد العقاب وأن الله غفور رحيم * ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون* يجر تعالى أنه جعل ﴿الكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾. يقوم بالقيام بتعظيمه دينهم ودنياهم، فبذلك يتم إسلامهم، وبه تحط أوزارهم، وتحصل لهم - بقصده - العطايا الجزيلة، والإحسان الكثير، وبسببه تنفق الأموال، وتتقحم^(١) - من أجله - الأهوال.



يكتب وصيته، ويشهد عليها اثنين ذوي عدل عن اعتبار شهادتهما.

﴿أو آخران من غيركم﴾ أي: من غير أهل دينكم، من اليهود أو النصارى أو غيرهم، وذلك عند الحاجة والضرورة وعدم غيرهما من المسلمين.

﴿إن أنتم ضربتم في الأرض﴾ أي: سافرتم فيها ﴿فأصابتكم مصيبة الموت﴾ أي: فأشهدوهم، ولم يأمر بشهادتهما إلا لأن قولهما في تلك الحال مقبول، ويؤكد عليهما، بأن يحبسا ﴿من بعد الصلاة﴾ التي يعظمونها.

﴿فيقسمان بالله﴾ أي: صدقا، وما غيرا ولا بدلا، هذا ﴿إن ارتبتم﴾ في شهادتهما، فإن صدقتموهما، فلا حاجة إلى القسم بذلك.

ويقولان: ﴿لا نشترى به﴾ أي: بأيماننا ﴿ثمنا﴾ بأن نكذب فيها، لأجل عرض من الدنيا. ﴿ولو كان ذا قربي﴾ فلا نراعيه لأجل قربه منا ﴿ولا نكتم شهادة الله﴾ بل نؤديها على ما سمعناها ﴿إننا إذا﴾ أي: إن كتمناها ﴿لمن الآثمين﴾.

﴿فلن عشر على أنفسنا﴾ أي: الشاهدين ﴿استحقا ثمنا﴾ بأن وجد من القرائن ما يدل على كذبهما وأنهما

خانا ﴿فأخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان﴾.

أي: فليقسم رجلان من أولياء الميت، وليكونا من أقرب الأولياء إليه. ﴿فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما﴾ أي: أنهما كذبا، وغيرا وخانا. ﴿وما اعتدينا إننا إذا لم الظالمين﴾ أي: إن ظلمنا واعتدنا، وشهدنا بغير الحق.

قال الله تعالى في بيان حكمة تلك الشهادة وتأكيدها، وردها على أولياء الميت حين تظهر من الشاهدين الخيانة: ﴿ذلك أدنى﴾ أي: أقرب ﴿أن يأتوا بالشهادة على وجهها﴾ حين تؤكد عليهما تلك التأكيدات. ﴿أو يخافوا أن ترد أيمان بعد أيمانهم﴾ أي: أن لا تقبل أيمانهم، ثم ترد على أولياء الميت.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين وصفهم الفسق، فلا يريدون الهدى والقصد إلى الصراط المستقيم.

وحاصل هذا، أن الميت - إذا حضره الموت في سفر ونحوه، مما هو مظنة قلة الشهود المعتبرين - أنه ينبغي أن يوصي شاهدين مسلمين عدلين. فإن لم يجد إلا شاهدين كافرين، جاز أن يوصي إليهما، ولكن لأجل كفرهما فإن الأولياء إذا ارتابوا بهما فليأمنهم يحلفونهما^(١) بعد الصلاة، أنهما ما خانا، ولا كذبا، ولا غيرا، ولا بدلا، فيبرآن بذلك من حق يتوجه إليهما.

فإن لم يصدقهما ووجدوا قرينة تدل على كذب الشاهدين، فإن شاء أولياء الميت، فليقم منهم اثنان، فيقسمان بالله: لشهادتهما أحق من شهادة الشاهدين الأولين، وأنهما خانا وكذبا، فيستحقون منهما ما يدعون.

وهذه الآيات الكريمة نزلت في قصة «تميم الداري» و«عدي بن بداء» المشهورة حين أوصى لهما العدوي، والله أعلم.

ويستدل بالآيات الكريمتا على

عدة أحكام:

منها: أن الوصية مشروعة، وأنه ينبغي لمن حضره الموت أن يوصي. ومنها: أنها معتبرة، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته، ما دام عقله ثابتا. ومنها: أن شهادة الوصية لا بد فيها من اثنين عدلين.

ومنها: أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة، وهذا مذهب الإمام أحمد. وزعم كثير من أهل العلم: أن هذا الحكم منسوخ، وهذه دعوى لا دليل عليها.

ومنها: أنه ربما استفيد من تلميح الحكم ومعناه، أن شهادة الكفار - عند عدم غيرهم، حتى في غير هذه المسألة - مقبولة، كما ذهب إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومنها: جواز سفر المسلم مع الكافر إذا لم يكن محذور.

ومنها: جواز السفر للتجارة. ومنها: أن الشاهدين - إذا ارتبب منهما، ولم تبد قرينة تدل على خيانتهم، وأراد الأولياء - أن يؤكدوا عليهم اليمين، ويحبسوهما من بعد الصلاة، فيقسمان بصفة ما ذكر الله تعالى.

ومنها: أنه إذا لم تحصل تهمة ولا ريب لم يكن حاجة إلى حبسهما، وتأكيده اليمين عليهما.

ومنها: تعظيم أمر الشهادة حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط.

ومنها: أنه يجوز امتحان الشاهدين عند الرية منهما، وتفريقهما لينظر عن شهادتهما.

ومنها: أنه إذا وجدت القرائن الدالة على كذب الوصيين في هذه المسألة - قام اثنان من أولياء الميت فأقسما بالله: أن أيماننا أصدق من أيمانهما، ولقد خانا وكذبا.

ثم يدفع إليهما ما ادعياه، فتكون

فيقول الله هذا الكلام لعيسى . فيتبرأ عيسى ويقول : «سبحانك» عن هذا الكلام القبيح ، وعمّا لا يليق بك .

«ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق» أي : ما ينبغي لي ، ولا يليق أن أقول شيئاً ليس من أوصافي ولا من حقوقي ، فإنه ليس أحد من المخلوقين ، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لقام الإلهية وإنما الجميع عباد ، مدبرون ، وخلق مسخرون ، وفقراء عاجزون «إن كنت قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك» فأنت أعلم بما صدر مني و «أنت علام الغيوب» وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام : في خطابه لربه ، فلم يقل عليه السلام : «لم أقل شيئاً من ذلك» ، وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف ، وأن هذا من الأمور المحالة ، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيهه ، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة .

ثم صرح بذكر ما أمر به بني إسرائيل ، فقال : «ما قلت لهم إلا ما أمرتني به» فأنا عبد متبع لأمر ، لا متجرب على عظمتك ، «أن اعبدا الله ربي وربكم» أي : ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له ، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله ، وبيان أنني عبد مربوب ، فكما أنه ربكم فهو ربي .

«وكنتم عليهم شهوداً ما دمت فيهم» أشهد على من قام بهذا الأمر ، ممن لم يقم به . «فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم» أي : المطلع على سرائرهم وضمائرهم . «وأنت على كل شيء شهيد» علماً وسمعاً وبصراً ، فعلمك قد أحاط بأحوال بالعلومات ، وسمعك بالسموعات ، وبصرك بالمبصرات ، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر .

«اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا آية منك» أي : يكون وقت نزولها عيداً وموسماً ، يتذكر به هذه الآية العظيمة ، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات وتكرر السنين .

كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكراً لآياته ، ومنبهاً على سنن المرسلين وطرقهم القويمة ، وفضله وإحسانه عليهم . «وارزقنا وأنت خير الرازقين» أي : اجعلها لنا رزقاً ، فسأل عيسى عليه السلام نزولها وأن تكون لهاتين المصلحتين ، ومصلحة الدين بأن تكون آية باقية ، ومصلحة الدنيا ، وهي أن تكون رزقاً .

«قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم ، فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين» لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر عناداً وظلماً ، فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد . واعلم أن الله تعالى وعد أنه سينزلها ، وتوعدهم - إن كفروا - بهذا الوعيد ، ولم يذكر أنه أنزلها ، فيحتمل أنه لم ينزلها بسبب أنهم لم يختاروا ذلك ، ويدل على ذلك ، أنه لم يذكر في الإنجيل الذي بأيدي النصارى ، ولا له وجود . ويحتمل أنها نزلت كما وعد الله ، والله لا يخلف الميعاد ، ويكون عدم ذكرها في الإنجيل التي بأيديهم من الحظ الذي ذكروا به فسوه .

أو أنه لم يذكر في الإنجيل أصلاً ، وإنما ذلك كان متوارثاً بينهم ، ينقله الخلف عن السلف ، فاكفى الله بذلك عن ذكره في الإنجيل ، ويدل على هذا المعنى قوله : «ونكون عليها من الشاهدين» والله أعلم بحقيقة الحال .

«وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله» . وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ،



«اتقوا الله إن كنتم مؤمنين» فإن المؤمن يحمله ما معه من الإيمان على ملازمة التقوى ، وأن ينقاد لأمر الله ، ولا يطلب من آيات الاقتراح التي لا يدري ما يكون بعدها شيئاً .

فأخبر الحواريون أنهم ليس مقصودهم هذا المعنى ، وإنما لهم مقاصد صالحة ، ولأجل الحاجة إلى ذلك ف «قالوا نريد أن نأكل منها» وهذا دليل على أنهم محتاجون لها ، «ونطمئن قلوبنا» بالإيمان حين نرى الآيات العيانة ، فيكون ^(١) الإيمان عين اليقين ، كما كان قبل ذلك علم اليقين . كما سأل الخليل عليه الصلاة والسلام ربه أن يريه كيف يحيي الموتى «قال أولم تؤمن؟ قال : بلى ولكن ليطمئن قلبي» . فالعبد محتاج إلى زيادة العلم واليقين والإيمان كل وقت ، ولهذا قال : «ونعلم أن قد صدقتنا» أي : نعلم صدق ما جئت به ، أنه حق وصدق ، «ونكون عليها من الشاهدين» فتكون مصلحة لمن بعدنا ، نشهدها لك ، فنقوم الحجة ، ويحصل زيادة البرهان بذلك .

فلما سمع عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك ، وعلم مقصودهم ، أجابهم إلى طلبهم في ذلك ، فقال :

ويعلم ما تكسبون ﴿أي: وهو المألوه المعبود في السماوات وفي الأرض، فأهل السماء والأرض، متعبدون لربهم خاضعون لعظمته، مستكينون لعزه وجلاله، الملائكة المقربون، والأنبياء والمرسلون، والصادقون والشهداء والصالحون.

وهو تعالى يعلم سرهم وجهركم ويعلم ما تكسبون، فاحذروا معاصيه وارغبوا في الأعمال التي تقربكم منه، وتدينكم من رحمة، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمة.

﴿٤ - ٦﴾ ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين * فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أبناء ما كانوا به يستهزؤون * ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين * هذا إخبار منه تعالى عن إعراض المشركين، وشدة تكذيبهم وعداوتهم، وأنهم لا تنفع فيهم الآيات حتى تحمل بهم الملائكة، فقال: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم﴾ الدالة على الحق دلالة قاطعة، الداعية لهم إلى اتباعه وقبوله ﴿إلا كانوا عنها معرضين﴾ لا يلقون لها بالاً، ولا يصغون لها سمعاً، قد انصرفت قلوبهم إلى غيرها، ولولها أديارهم.

﴿فقد كذبوا بالحق لما جاءهم﴾ والحق حقه أن يتبع، ويشكر الله على تيسيره لهم، وإتيانهم به، فقابلوه بضد ما يجب مقابلته به فاستحقوا العقاب الشديد ﴿فسوف يأتيهم أبناء ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: فسوف يرون ما استهزؤوا به، أنه الحق والصدق، وبين الله للمكذبين كذبهم واقتراءهم، وكانوا يستهزؤون بالبعث والجنة والنار، فإذا كان يوم القيامة قيل للمكذبين: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾.

وقال تعالى: ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى

والجلال عموماً، وعلى هذه المذكورات خصوصاً. فحمد نفسه على خلقه السماوات والأرض، الدالة على كمال قدرته، وسعة علمه ورحمته، وعموم حكمته، وانفراده بالخلق والتدبير، وعلى جعله الظلمات والنور، وذلك شامل للحسي من ذلك كالليل والنهار والشمس والقمر. والمعنوي كظلمات الجهل والشك، والشرك والمعصية، والغفلة، ونور العلم والإيمان واليقين والطاعة، وهذا كله يدل دلالة قاطعة أنه تعالى هو المستحق للعبادة وإخلاص الدين له، ومع هذا الدليل ووضوح البرهان ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ أي يعدلون به سواء، يسوونهم به في العبادة والتعظيم، مع أنهم لم يساواوا الله في شيء من الكمال، وهم فقراء عاجزون ناقصون من كل وجه.

﴿هو الذي خلقكم من طين﴾ وذلك بخلق مادتهم وأبيكم آدم عليه السلام. ﴿ثم قضى أجلاً﴾ أي: ضرب لمدة إقامةكم في هذه الدار أجلاً، تتمتعون به وتمتحنون، وتبتلون بما يرسل إليهم به رسله.

﴿ليلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ ويعمركم ما يتذكر فيه من تذكر. ﴿وأجل مسمى عنده﴾ وهي: الدار الآخرة، التي ينتقل العباد إليها من هذه الدار، فيجازيهم بأعمالهم من خير وشر.

﴿ثم﴾ مع هذا البيان التام وقطع الحجة ﴿أنتم تموتون﴾ أي: تشكون في وعد الله ووعيده، ووقوع الجزاء يوم القيامة.

وذكر الله الظلمات بالجمع، لكثرة موادها وتنوع طرقها. ووحد النور لكون الصراط الموصلة إلى الله واحدة لا تعدد فيها، وهي: الصراط المتضمنة للعلم بالحق والعمل به، كما قال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾.

﴿٣﴾ ﴿وهو الله في السماوات وفي الأرض يعلم سرهم وجهركم

﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك﴾ وأنت أرحم بهم من أنفسهم وأعلم بأحوالهم، فلولا أنهم عباد متمردون لم تعذبهم. ﴿وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾ أي: فمغفرتك صادرة عن تمام عزة وقدر، لا كمن يغفر ويعفو عن عجز وعدم قدرة.

الحكيم حيث كان من مقتضى حكمتك أن تغفر لمن أتى بأسباب المغفرة.

﴿قال الله﴾ مبيناً لحال عباده يوم القيامة، ومن الفائز منهم ومن الهالك، ومن الشقي ومن السعيد، ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدي القويم، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق، إذا أحلهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ولهذا قال: ﴿لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم﴾ والكاذبون بضدهم، سيجدون ضرر كذبهم واقترائهم، وثمره أعمالهم الفاسدة.

﴿الله ملك السماوات والأرض﴾ لأنه الخالق لهما والمدير لذلك بحكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي، ولهذا قال: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ فلا يعجزه شيء، بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته، ومسخرة بأمره.

ثم تفسير سورة المائدة بفضل من الله وإحسان، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الأنعام وهي مكية

﴿١ - ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون * هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تموتون﴾ هذا إخبار عن حده والثناء عليه بصفات الكمال، ونعوت العظمة

وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون * لبيّن لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين * ثم أمرهم أن يعتبروا بالأمم السالفة فقال :

﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن * أي : كم تتابع إهلاكنا للأمم المكذبين، وأمهلتناهم قبل ذلك الإهلاك، بأن * مكناهم في الأرض ما لم نمكن * لهؤلاء من الأموال والبنين والرفاهية .

﴿وأرسلنا السماء عليهم مدراراً، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم * فينبت لهم بذلك ما شاء الله من زروع وثمار، يتمتعون بها، ويتناولون منها ما يشتهون، فلم يشكروا الله على نعمه، بل أقبلوا على الشهوات، وألتهتهم أنواع اللذات، فجاءتهم رسلهم بالبينات فلم يصدقوها، بل ردوها وكذبوها فأهلكهم الله بذنوبهم وأنشأ * من بعدهم قرناً آخرين * .

فهذه سُنَّة الله ودأبه في الأمم السابقين واللاحقين، فاعتبروا بمن قص الله عليكم نبأهم .

﴿٧-٩﴾ * ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين * وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون * ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جنتهم به، ولا لجهل منهم بذلك، وإنما ذلك ظلم وبغي، لا حيلة لكم فيه، فقال : ﴿ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم * وتيقنوه﴾ لقال الذين كفروا﴾ ظلماً وعلواً ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ .

فأي : بينة أعظم من هذه البينة، وهذا قولهم الشنيع فيها، حيث كابروا المحسوس الذي لا يمكن من له أدنى مسكة من عقله دفعه؟! :

﴿وقالوا﴾ أيضاً تعنتاً مبيناً على الجهل، وعدم العلم بالعقول . ﴿لولا

أنزل عليه ملك﴾ أي : هلا أنزل مع محمد ملك، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمتهم أنه بشر، وأن رسالة الله، لا تكون إلا على أيدي الملائكة .

قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده، حيث أرسل إليهم بشراً منهم يكون الإيمان بما جاء به عن علم وبصيرة وغيب . ﴿ولو أنزلنا ملكاً برسالتنا، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق، ولكان إيماناً بالشهادة الذي لا ينفع شيئاً وحده، هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا قضي الأمر بتعجيل الهلاك عليهم وعدم إنظارهم، لأن هذه سُنَّة الله فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها، فأرسل الرسول البشري إليهم بالآيات البينات، التي يعلم الله أنها أصلح للعباد وأرفق بهم، مع إمهال الله للكافرين والمكذبين، خير لهم وأنفع، فطلبهم لإنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون، ومع ذلك فالملك لو أنزل عليهم، وأرسل، لم يطيقوا التلقي عنه، ولا احتملوا ذلك، ولا أطاقتهم قواهم الغانية .

﴿ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً﴾ لأن الحكمة لا تقتضي سوى ذلك . ﴿وللبسنا عليهم ما يلبسون﴾ أي : ولكان الأمر مختلطاً عليهم وملبوساً وذلك بسبب ما لبسوه على أنفسهم، فإنهم بنوا أمرهم على هذه القاعدة التي فيها اللبس، وبها عدم بيان الحق .

فلما جاءهم الحق بطرقه الصحيحة، وقواعده التي هي قواعده، لم يكن ذلك هداية لهم، إذا اعتدى بذلك غيرهم، والذنب ذنبهم، حيث أغلقوا على أنفسهم باب الهدى، وفتحوا أبواب الضلال .

﴿١٠-١١﴾ * ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون * قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ يقول تعالى - مسلياً لرسوله، ومصبراً ومتهدداً أعداءه

ومتوعداً . ﴿ولقد استهزىء برسل من قبلك﴾ لما جاؤوا أمهم بالبينات كذبوهم واستهزؤوا بهم وبما جاؤوا به . فأهلكهم الله بذلك الكفر والتكذيب، ووفى لهم من العذاب أكمل نصيب . ﴿فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون﴾ فاحذروا - أيها المكذبون - أن تستمروا على تكذبيكم، فيصيحكم ما أصابهم .

فإن شككتهم في ذلك أو ارتبتم، فسيروا في الأرض ثم انظروا، كيف كان عاقبة المكذبين، فلن تجدوا إلا قوماً مهلكين، وأما في الثلاث تالفين، قد أوحشت منهم المنازل، وعدم من تلك الربوع كل متمتع بالسرور نازل، أبادهم الملك الجبار، وكان بناؤهم عبدة لأولي الأبصار . وهذا السير المأمور به سير القلوب والأبدان، الذي يتولد منه الاعتبار . وأما مجرد النظر من غير اعتبار، فإن ذلك لا يفيد شيئاً .

﴿قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله كتب على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ : ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين بالله، مقررراً لهم وملزماً بالتوحيد : ﴿لمن ما في السماوات والأرض﴾ أي : من الخالق لذلك، المالك له التصرف فيه ؟

﴿قل﴾ لهم : ﴿الله﴾ وهم مقرون بذلك لا ينكرونه، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير، أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد!! :

وقوله : ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾ أي : العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتدبيره، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتاباً أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من النع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم، ودعاهم إليها إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعبوبهم، وقوله : ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾ وهذا قسم منه،

ظلماً وعناداً ممن كان فيه أحد الوصفين، فكيف لو اجتماعا افتراء الكذب على الله، أو التكذيب بآياته، التي جاءت بها المرسلون، فإن هذا أظلم الناس، والظالم لا يفلح أبداً.

ويدخل في هذا كل من كذب على الله، بادعاء^(٢) الشريك له والعوين، أو [زعم] أنه ينبغي أن يعبد غيره أو اتخذه صاحبه أو ولداً، وكل من رد الحق الذي جاءت به الرسل أو من قام مقامهم.

﴿٢٢ - ٢٤﴾ «ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون * ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين * انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون» يخبر تعالى عن مآل أهل الشرك يوم القيامة، وأنهم يسألون ويوبخون فيقال لهم: «أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون» أي: إن الله ليس له شريك، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء «ثم لم تكن فتنتهم» أي: لم يكن جوابهم حين يفتنون ويختبرون بذلك السؤال، إلا إنكارهم لشركهم وحلفهم أنهم ما كانوا مشركين «انظر» متعجباً منهم ومن أحوالهم «كيف كذبوا على أنفسهم» أي: كذبوا كذباً عاد بالخسار على أنفسهم وضرهم - والله - غاية الضر «وضل عنهم ما كانوا يفترون» من الشركاء الذين زعموهم مع الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

﴿٢٥﴾ «ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاؤوك بمجادلونك يقولون الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين» أي: ومن هؤلاء المشركين قوم يحملهم بعض الأوقات، بعض الدواعي إلى الاستماع لما تقول، ولكنه استماع خال من قصد الحق واتباعه، ولهذا لا يتفنون بذلك الاستماع لعدم

الذين مرجت عقولهم وأديانهم، وفسدت آراؤهم وأخلاقهم، وأضحكوا على أنفسهم العقلاء.

بل خالفوا بشهادة فطرتهم، وتناقضت أقوالهم على إثبات أن مع الله آلهة أخرى، مع أنه لا يقوم على ما قالوه^(١) أدنى شبهة فضلاً عن الحجج، واختار لنفسك أي: الشهادتين إن كنت تعقل، ونحن نختار لأنفسنا ما اختاره الله لنبيه، الذي أمرنا الله بالاعتداء به، فقال: «قل إنما هو إله واحد» أي: منفرد لا يستحق العبودية والإلهية سواه، كما أنه المنفرد بالخلق والتدبير.

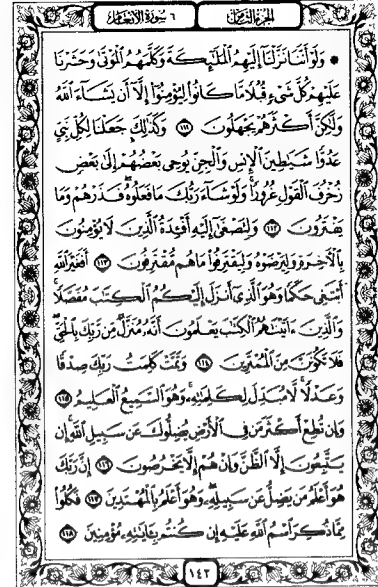
«وانني بريء مما تشركون» به من الأوثان والأنداد، وكل ما أشرك به مع الله. فهذا حقيقة التوحيد، إثبات الإلهية لله ونفيها عما عداه.

لما بين شهادته وشهادة رسوله على التوحيد، وشهادة المشركين الذين لا علم لديهم على ضده، ذكر أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى «يعرفونه» أي: يعرفون صحة التوحيد «كما يعرفون أبناءهم» أي: لا شك عندهم فيه بوجه، كما أنهم لا يشتبهون بأولادهم، خصوصاً البنين الملازمين في الغالب لأبائهم.

ويجتمل أن الضمير عائد إلى الرسول محمد ﷺ، وأن أهل الكتاب لا يشتبهون بصحة رسالته ولا يعترفون بها، لما عندهم من البشارات به، ونعوته التي تنطبق عليه ولا تصلح لغيره، والمعتبان متلازمان.

قوله: «الذين خسروا أنفسهم» أي: فوتوها ما خلقت له من الإيمان والتوحيد، وحرموها الفضل من الملك المجيد «فهم لا يؤمنون» فإذا لم يوجد الإيمان منهم، فلا تسأل عن الخسار والشر، الذي يحصل لهم.

﴿٢١﴾ «ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون» أي: لا أعظم



قال بالمعجزات الباهرة والآيات الظاهرة، وينصره ويخذل من خالفه وعاداه، فأبي: شهادة أكبر من هذه الشهادة!!

وقوله: «وأوحى إلي هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ» أي: وأوحى الله إلي هذا القرآن الكريم لمنفعتكم ومصلحتكم، لأنذركم به من العقاب الأليم. والندارة إنما تكون بذكر ما ينذرهم به من الترغيب، والترهيب، وبيان الأعمال والأقوال، الظاهرة والباطنة، التي من قام بها فقد قبل الندارة، فهذا القرآن فيه الندارة لكم أيها المخاطبون، وكل من بلغه القرآن إلى يوم القيامة، فإن فيه بيان كل ما يحتاج إليه من المطالب الإلهية.

لما بين تعالى شهادته التي هي أكبر الشهادات على توحيد، قال: قل لهؤلاء المعارضين لخبر الله، والمكذبين لرسله: «أنتم كنتم تشهدون أن مع الله آلهة أخرى، قل لا أشهد» أي: إن شهدوا، فلا تشهد معهم.

فوازن بين شهادة أصدق القائلين ورب العالمين، وشهادة أركى الخلق المؤيدة بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة على توحيد الله وحده لا شريك له، وشهادة أهل الشرك

إرادتهم للخير ﴿وجعلنا على قلوبهم
أكنة﴾ أي: أغطية وأغشية، لئلا يفقهوا
كلام الله، فصان كلامه عن أمثال
هؤلاء. ﴿وفي آذانهم﴾ جعلنا ﴿وقرأ﴾
أي: صمما، فلا يستمعون ما
ينفقههم.

﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾
وهذا غاية الظلم والعناد، أن الآيات
البيّنات الدالة على الحق، لا ينقادون
لها، ولا يصدقونها، بل يجادلون
بالباطل الحقّ ليدحضوه.

ولهذا قال: ﴿حتى إذا جاؤك ينادونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي: مأخوذ من صحف الأولين المسطورة، التي ليست عن الله ولا عن رسله. وهذا من كفرهم، وإلا فكيف يكون هذا الكتاب الحاوي لأنباء السابقين واللاحقين، والحقائق التي جاءت بها الأنبياء والمرسلون، والحق، والقسط، والعدل التام من كل وجه، أساطير الأولين؟

﴿٢٦﴾ ﴿وَمَنْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ
عَنْهُ إِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا
يَشْعُرُونَ﴾ وهم : أي : المشركون بالله ،
المكذبون لرسوله ، يجمعون بين الضلال
والإضلال ، ينهون الناس عن اتباع
الحق ، ويحذرونهم منه ، ويبعدون
بأنفسهم عنه ، ولن يضرُوا الله
ولا عباده المؤمنين بفعلهم هذا شيئاً .
﴿إِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾
بذلك .

﴿٢٧-٢٩﴾ ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين﴾ بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون ﴿وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين﴾ يقول تعالى - خيراً عن حال المشركين يوم القيامة، وإحضارهم النار: ﴿ولو ترى إذ وقفوا على النار﴾ ليوبخوا ويقرعوا، لرأيت أمراً هائلاً وحالاً مفضلة. ولرأيتهم كيف أقروا على أنفسهم بالكفر والفسوق، وتمنوا أن لو يردوا إلى الدنيا. ﴿فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من

﴿وقالوا﴾ منكرين للبعث ﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا﴾ أي : ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيجادنا ، إلا الحياة الدنيا وحدها . ﴿وما نحن بمبعوثين﴾

﴿٣٠﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ الكافرين ﴿إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ لَرَأَيْتُمْ أُمُرًا عَظِيمًا، وَهُوَ لَا حَسِيمًا، ﴿قَالَ﴾ لَهُمْ مَوْبِخًا وَمَقْرَعًا: ﴿أَلَيْسَ هَذَا﴾ الَّذِي تَرُونَ مِنَ الْعَذَابِ ﴿بِالْحَقِّ قَالُوا﴾ بَلَىٰ وَرَبِّنَا، فَافْتَرَوْا وَاعْتَرَفُوا حَيْثُ لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، ﴿قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

﴿٣١﴾ قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءهم الساعة بفتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون ﴿٣٢﴾ أي: قد خاب وخسر وحرم الخير كله، مَنْ كَذَبَ بِلِقَاءِ اللَّهِ، فأوجب له هذا التكذيب، الاجترأ على المحرمات، واقتراف الموبقات ﴿٣٣﴾ حتى إذا جاءهم الساعة ﴿٣٤﴾ وهم على أبح حال وأسوأ، فأظهروا غاية الندم. و ﴿٣٥﴾ قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها ﴿٣٦﴾ ولكن هذا تحسر ذهب وقته، ﴿٣٧﴾ وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون. ﴿٣٨﴾ فإن وزرهم وزر يثقلهم ولا يقدرّون على التخلص منه، ولهذا خلدوا في النار، واستحقوا التأبيد في غضب الجبار.

﴿٣٢﴾ ﴿وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون﴾

[illegible]

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ هذه حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، أما حقيقة الدنيا فإنها لعب ولهو، لعب في الأبدان، ولهو في القلوب، فالقلوب لها والهة، والنفوس لها عاشقة، والهموم فيها متعلقة، والاشتغال بها كلعب الصبيان.

وأما الآخرة فإنها ﴿خير للذين يتقون﴾ في ذاتها وصفاتها، وبقائتها ودوامها، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، من نعيم القلوب والأرواح، وكثرة السرور والأفراح، ولكنها ليست لكل أحد، وإنما هي للمتقين الذين يفعلون أوامر الله، ويتركون نواهيه وزواجره ﴿أفلا تعقلون﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول، بها تدركون، أي: الدارين أحق بالإشارة.

﴿٣٣-٣٥﴾ ﴿قد نعلم إنه
ليحزنك الذي يقولون فإنهم
لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله
يحدثون ﴾ ولقد كذبت رسل من
قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى
أناهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله
ولقد جاءك من نبي المرسلين ﴾ وإن كان
كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن
تبتغي نفقا في الأرض أو سلما في
السما فأتيتهم بآية ولو شاء الله
لجمعهم على الهدى فلا تكونن من
الجاهلين ﴿أي: قد نعلم أن الذي يقول
المكذبون فيك يحزنك ويسؤك، ولم

فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً، أو تأتي باله والملائكة قبلاً ﴿الآيات﴾.

﴿قل﴾ مجيباً لقولهم: ﴿إن الله قادر على أن ينزل آية﴾ فليس في قدرته قصور عن ذلك، كيف وجميع الأشياء مقادة لعزته، مدعنة لسلطانه؟!

ولكن أكثر الناس لا يعلمون فهم لجهلهم وعدم علمهم يطلبون ما هو شر لهم من الآيات، التي لو جاءتهم فلم يؤمنوا بها، لعوجلوا بالعقاب، كما هي سنة الله التي لا تبدل لها، ومع هذا فإن كان قصدهم الآيات التي تبين لهم الحق، وتوضح السبيل، فقد أتى محمد ﷺ بكل آية قاطعة، وحجة ساطعة، دالة على ما جاء به من الحق، بحيث يتمكن العبد في كل مسألة من مسائل الدين، أن يجد فيما جاء به عدة أدلة عقلية ونقلية، بحيث لا تبقي في القلوب أدنى شك وارتياب، فتبارك الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، وأيده بالآيات البينات ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة، وإن الله لسميع عليم.

﴿٣٨﴾ ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ أي: جميع الحيوانات الأرضية والهوائية، من البهائم والوحوش والطيور، كلها أمم أمثالكم خلقناها كما خلقناكم، ورزقناها كما رزقناكم، ونفذت فيها مشيئتنا وقدرتنا كما كانت نافذة فيكم.

﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ أي: ما أهملنا ولا أغفلنا في اللوح المحفوظ شيئاً من الأشياء، بل جميع الأشياء، صغيرها وكبيرها، مثبتة في اللوح المحفوظ على ما هي عليه، فتقع جميع الحوادث طبق ما جرى به القلم. وفي هذه الآية دليل على أن الكتاب الأول قد حوى جميع الكائنات، وهذا أحد مراتب القضاء والقدر، فإنها أربع مراتب:

الهدى، ولكن حكمته تعالى اقتضت أنهم يبقون على الضلال. ﴿فلا تكونن من الجاهلين﴾ الذين لا يعرفون حقائق الأمور، ولا ينزلونها على منازلها.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾ وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إنما يستجيب لدعوتك ويولي رسالتك وينقاد لأمرك ونهيك الذين يسمعون﴾ بقلوبهم ما ينفعهم، وهم أولو الألباب والأسماع.

والمراد بالسمع هنا: سماع القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن، يشترك فيه البر والفاجر. فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى باستماع آياته، فلم يبق لهم عذر في عدم القبول.

﴿والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون﴾ يحتمل أن المعنى مقابل للمعنى المذكور. أي: إنما يستجيب لك أحياء القلوب، وأما أموات القلوب الذين لا يشعرون بسعادتهم، ولا يحسون بما ينجيهم، فإنهم لا يستجيبون لك ولا ينقادون، وموعدهم القيامة، يبعثهم الله ثم إليه يرجعون، ويحتمل أن المراد بالآية على ظاهرها، وأن الله تعالى يقرر المعاد، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينبتهم بما كانوا يعملون.

ويكون هذا متضمناً للترغيب في الاستجابة لله ورسوله، والترهيب من عدم ذلك.

﴿وقالوا﴾ أي: المكذبون بالرسول تعنتاً وعناداً: ﴿لولا نزل عليه آية من ربه﴾ يعنون بذلك آيات الاقتراح، التي يقرحونها بعقولهم الفاسدة وأرائهم الكاسدة.

كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً أو تكون لك جنة من نخيل وعنب،



تأمرك بما أمرك به من الصبر إلا لتحصل لك المنازل العالية والأحوال الغالية. فلا تظن أن قولهم صادر عن اشتباه في أمرك وشك فيك ﴿فإنهم لا يكذبونك﴾ لأنهم يعرفون صدقك ومدخلك ومخرجك، وجميع أحوالك، حتى إنهم كانوا يسمونه قبل البعثة الأمين. ﴿ولكن الظالمين بأيات الله يحسدون﴾ أي: فإن تكذيبهم لأيات الله التي جعلها الله على يديك^(١).

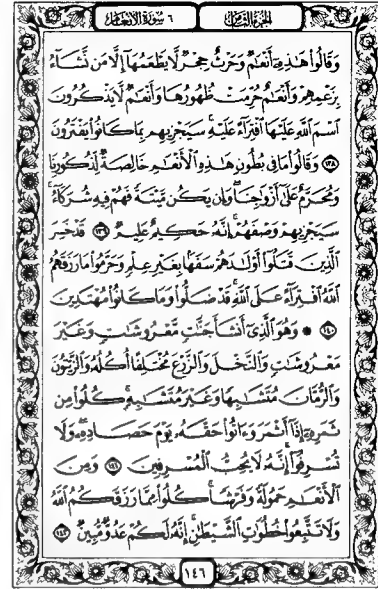
﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ فاصبر كما صبروا، تظفر كما تظفروا، ﴿ولقد جاءك من نبي المرسلين﴾ ما به يثبت فؤادك، ويطمئن به قلبك.

﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم﴾ أي: شق عليك من حرصك عليهم وعيبتك لإيمانهم، فابذل وسعك في ذلك، فليس في مقدورك أن تهدي من لم يرد الله هدايته.

﴿فإن استطعت أن تبغني نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية﴾ أي: فافعل ذلك، فإنه لا يفدهم شيئاً، وهذا قطع لطمعه في هدايته أشباه هؤلاء المعاندين.

﴿ولو شاء الله لجمعهم على

(١) السياق يقتضي أن يأتي بخبر إن ومقصود الشيخ - رحمه الله - فإن تكذيبهم... جحوداً منهم لما علموه حقاً.



نصرف الآيات: أي: ننوعها، ونأتي بها من كل فن، ولتنير الحق، وتبين سبيل المجرمين. ثم هم مع هذا البيان التام يصدفون عن آيات الله ويعرضون عنها.

قل أرايتكم: أي: أخبروني إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة: أي: مفاجأة أو قد تقدم أمامه مقدمات، تعلمون بها وقوعه هل يهلك إلا القوم الظالمون الذين صاروا سبباً لوقوع العذاب بهم، يظلمهم وعنادهم. فاحذروا أن تقيموا على الظلم، فإنه الهلاك الأبدى، والشقاء السرمدي.

٤٨ - ٤٩: وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * والذين كذبوا بآياتنا يمسه العذاب بما كانوا يفسقون. يذكر تعالى زبدة ما أرسل به المرسلين، أنه البشارة والنذارة، وذلك مستلزم لبیان المبشر والمبشر به، والأعمال التي إذا عملها العبد حصلت له البشارة. والمثذر والمثذر به، والأعمال التي من عملها حقت عليه النذارة.

ولكن الناس انقسموا - بحسب إجابتهم لدعوتهم وعدمها - إلى قسمين:

فمن آمن وأصلح: أي: آمن

بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وأصلح إيمانه وأعماله ونيتة فلا خوف عليهم، فيما يستقبلونهم يحزنون على ما مضى. والذين كذبوا بآياتنا يمسه العذاب: أي: ينالهم ويذوقونه بما كانوا يفسقون.

٥٠: قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إلا ما يوحى إلي قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون؟ يقول تعالى لنبيه ﷺ: المقترحين^(١) عليه الآيات، أو القائلين له: إنما تدعوننا لتخذك إلهاً مع الله: لا أقول لكم عندي خزائن الله: أي: مفاتيح رزقه ورحمته. ولا أعلم الغيب: وإنما ذلك كله عند الله فهو الذي ما يفتح للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو وحده عالم الغيب والشهادة. فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول.

ولا أقول لكم إنى ملك: فأكون نافذ التصرف قوياً، فلست أدعي فوق منزلي التي أنزلني الله بها. إن أتبع إلا ما يوحى إلي: أي: هذا غاييتي ومتنهي أمرى وأعلاه، إن أتبع إلا ما يوحى إلي، فأعمل به في نفسي، وأدعو الخلق كله إلى ذلك.

فإذا عرفت منزلي، فلاي: شيء يبحث الباحث معي، أو يطلب مني أمراً لست أدعيه، وهل يلزم الإنسان بغير ما هو بصدده؟

ولأي: شيء إذا دعوتكم، بما أوحى إلي أن تلزموني أني أدعي لنفسي غير مرتبتي، وهل هذا، إلا ظلم منكم وعناد وتمرد؟ قل لهم في بيان الفرق بين من قبل دعوتي وانقاد لما أوحى إلي، وبين من لم يكن كذلك: قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون؟ فتتزلون الأشياء منازلها، وتختارون ما هو أولى بالاختيار والإيثار؟

٥١ - ٥٥: وأنذر به الذين الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلمهم يتقون * ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين * وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين * وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفورٌ رحيم * وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين: هذا القرآن نذارة للخلق كله، ولكن إنما ينتفع به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم: فهم متيقنون للانتقال من هذه الدار إلى دار القرار، فلذلك يستصحبون ما ينفعهم ويدعون ما يضرهم. ليس لهم من دونه: أي: من دون الله ولي ولا شفيع: أي: لا من يتولى أمرهم فيحصل لهم المطلوب ويدفع عنهم المحذور، ولا من يشفع لهم، لأن الخلق كله ليس لهم من الأمر شيء. لعلمهم يتقون: الله بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، فإن الإنذار موجب لذلك، وسبب من أسبابه.

ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه: أي: لا تطرد عنك وعن مجالستك أهل العبادة والإخلاص، رغبة في مجالسة غيرهم، من الملازمين لدعاء ربهم، دعاء العبادة بالذكر والصلاة ونحوها، ودعاء المسألة في أول النهار وآخره، وهم قاصدون بذلك وجه الله، ليس لهم من الأغراض سوى ذلك الغرض الجليل، فهؤلاء ليسوا مستحقين للطرد والإعراض عنهم، بل هم مستحقون لمواالاتهم ومحبتهم، وإدنائهم وتقريبهم، لأنهم الصفوة من الخلق وإن كانوا فقراء، الأعداء في الحقيقة وإن كانوا

عند الناس أذلاء.

﴿ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء﴾ أي: كل له حساب، وله عمله الحسن وعمله القبيح. ﴿فتطردهم فتكون من الظالمين﴾ وقد امتثل ﷺ هذا الأمر أشد امتثال، فكان إذا جلس الفقراء المؤمنين صبر نفسه معهم، وأحسن معاملتهم، وألأن لهم جانبه، وحسن خلقه، وقربهم منه، بل كانوا هم أكثر أهل مجلسه رضي الله عنهم.

وكان سبب نزول هذه الآيات، أن أناساً [من قريش، أو] من أجلاف العرب قالوا للنبي ﷺ: إن أردت أن نؤمن لك ونتبعك، فاطرد فلاناً وفلاناً، أناساً من فقراء الصحابة، فإننا نستحي أن ترانا العرب جالسين مع هؤلاء الفقراء، فحمله حبه لإسلامهم واتباعهم له، فحدثته نفسه بذلك. فعاتبه الله بهذه الآيات ونحوها.

﴿وكذلك فتننا بعضهم ببعض، ليقولوا أهولاء ممن الله عليهم من بيننا﴾ أي: هذا من ابتلاء الله لعباده، حيث جعل بعضهم غنياً، وبعضهم فقيراً، وبعضهم شريفاً، وبعضهم وضيعاً، فإذا ممن الله بالإيمان على الفقير أو الوضيع؛ كان ذلك محل عنة للغني والشريف فإن كان قصده الحق واتباعه آمن وأسلم، ولم يمنعه من ذلك مشاركة الذي يراه دونه بالغنى أو الشرف، وإن لم يكن صادقاً في طلب الحق، كانت هذه عقبة ترد عنه اتباع الحق.

وقالوا محتقرين لمن يرونهم دونهم: ﴿أهولاء ممن الله عليهم من بيننا﴾. فمنعهم هذا من اتباع الحق، لعدم زكائهم، قال الله مجيباً لكلامهم المتضمن الاعتراض على الله في هداية هؤلاء، وعدم هدايتهم هم. ﴿أليس الله بأعلم بالشاكرين﴾ الذين يعرفون النعمة، ويقرون بها، ويقضون بما تقتضيه من العمل الصالح، فيضع فضله ومنته عليهم، دون ممن ليس

بشاكر، فإن الله تعالى حكيم لا يضع فضله عند من ليس له بأهل، وهؤلاء المعترضون بهذا الوصف، بخلاف ممن ممن الله عليهم بالإيمان من الفقراء وغيرهم فإنهم هم الشاكرون. ولما نهى الله رسوله عن طرد المؤمنين القانتين، أمره بمقابلتهم بالإكرام والإعظام، والتبجيل والاحترام، فقال: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم﴾ أي: وإذا جاءك المؤمنون، فحيهم ورحب بهم ولقهم منك تحية وسلام، وبشرهم بما ينشط عزائمهم ومهمهم، من رحمة الله وسعة جوده وإحسانه، وحنهم على كل سبب وطريق يوصل لذلك.

ورهبهم من الإقامة على الذنوب، وأمرهم بالتوبة من المعاصي لينالوا مغفرة ربهم وجوده، ولهذا قال: ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه ممن عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح﴾ أي: فلا بد مع ترك الذنوب والإقلاع والندم عليها، من إصلاح العمل وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة.

فإذا وجد ذلك كله ﴿فأنه غفور رحيم﴾ أي: صب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به مما أمرهم به.

﴿وكذلك نفصل الآيات﴾ أي: نوضحها ونبينها، ونميز بين طريق الهدى من الضلال، والغى والرشاد، ليهتدي بذلك المهتدون، وتبين الحق الذي ينبغي سلوكه. ﴿ولتستبين سبيل المجرمين﴾ الموصلة إلى سخط الله وعذابه، فإن سبيل المجرمين إذا استبان وتوضحت أمكن اجتنابها والبعد منها، بخلاف ما لو كانت مشبهة ملتبسة، فإنه لا يحصل هذا المقصود الجليل.

﴿٥٦ - ٥٨﴾ ﴿قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا

من المهتدين﴾ * قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين﴾ * قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضي الأمر بين وبينكم والله أعلم بالظالمين﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء المشركين الذين يدعون مع الله آلهة أخرى: ﴿إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله﴾ من الأنداد والأوثان التي لا تملك نفعا ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فإن هذا باطل، وليس لكم فيه حجة بل ولا شبهة، إلا اتباع الهوى الذي اتبعه أعظم الضلال، ولهذا قال: ﴿قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا﴾ أي: إن اتبعت أهواءكم ﴿وما أنا من المهتدين﴾ بوجه من الوجوه، وأما ما أنا عليه من توحيد الله وإخلاص العمل له، فإنه هو الحق الذي تقوم عليه البراهين والأدلة القاطعة.

وأنا ﴿على بينة من ربي﴾ أي: على يقين مبين، بصحته وبطلان ما عداه، وهذه شهادة من الرسول جازمة لا تقبل التردد، وهو أعدل الشهود من الخلق على الإطلاق. فصدق بها المؤمنون، وتبين لهم من صحتها وصدقها، بحسب ما ممن الله به عليهم.

﴿و﴾ لكنكم أيها المشركون - كذبتم به﴾ وهو لا يستحق هذا منكم، ولا يليق به إلا التصديق، وإذا استمررتكم^(١) على تكذيبكم، فاعلموا أن العذاب واقع بكم لا محالة، وهو عند الله، هو الذي ينزله عليكم إذا شاء وكيف شاء، وإن استعجلتم به فليس بيدي من الأمر شيء﴾ إن الحكم إلا لله﴾ فكما أنه هو الذي حكم بالحكم الشرعي، فأمر ونهى، فإنه سيحكم بالحكم الجزائي، فيثيب ويعاقب، بحسب ما تقتضيه حكمته. فالاعتراض على حكمه مطلقاً مدفوع، وقد أوضح السبيل وقصص على عباده

العامه، فليسوا يملكون من الأمر شيئاً، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه، ومع ذلك فقد وكل بالعباد حفظة من الملائكة، يحفظون العبد ويحفظون عليه ما عمل، كما قال تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين. كراماً كاتبين. يعلمون ما تفعلون﴾. ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ فهذا حفظه لهم في حال الحياة.

﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا﴾ أي: الملائكة الموكلون بقبض الأرواح ﴿وهم لا يفرطون﴾ في ذلك، فلا يزيدون ساعة عما قدر الله وقضاه ولا ينقصون، ولا يتفدون من ذلك إلا بحسب المراسيم الإلهية والتقادير الربانية.

﴿ثم﴾ بعد الموت والحياة البرزخية وما فيها من الخير والشر ﴿ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾ أي: الذي تولاهم بحكمه القدرى، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير، ثم تولاهم بأمره ونهيه، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء، ويشيهم على ما عملوا من الخيرات، ويعاقبهم على الشرور والسيئات، ولهذا قال: ﴿إلا له الحكم﴾ وحده لا شريك له ﴿وهو أسرع الحاسبين﴾ لكمال علمه وحفظه لأعمالهم، بما أثبتته في اللوح المحفوظ، ثم أثبتته ملائكته في الكتاب الذي بأيديهم، فإذا كان تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير، وهو القاهر فوق عباده، وقد اعتنى بهم كل الاعتناء في جميع أحوالهم، وهو الذي له الحكم القدرى، والحكم الشرعى، والحكم الجزائى، فأين للمشركين العدول عن من هذا وصفه ونعته، إلى عبادة من ليس له من الأمر شيء، ولا عنده مثقال ذرة من النفع، ولا له قدرة وإرادة؟!

أما والله لو علموا حلم الله عليهم وعفوه ورحمته بهم، وهم يبارزونهم بالشرك والكفران، ويتجرون على عظمتهم بالإفك والبهتان، وهو يعافهم

عليها، وبعض هذا المذكور يبهز عقول العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته في أوصافه كلها.

وأن الخلق - من أولهم إلى آخرهم - لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته، لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك، فتبارك الرب العظيم، الواسع، العليم، الحميد المجيد، الشهيد، المحيط.

وجل من إله لا يحصى أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، فهذه الآية، دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث.

﴿٦٠ - ٦٢﴾ ﴿وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضى أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ * وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون * ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين﴾ هذا كله تقرير لآلوهميته، واحتجاج على المشركين به، وبيان أنه تعالى المستحق للحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، فأخبر أنه وحده المتفرد بتدبير عباده، في يقظتهم ومنامهم، وأنه يتوفاهم بالليل وفاة النوم، فتهدأ حركاتهم، وتستريح أبدانهم، ويبعثهم في البقطة من نومهم، ليتصرفوا في مصالحهم الدينية والدنيوية وهو - تعالى - يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال.

ثم لا يزال تعالى هكذا يتصرف فيهم، حتى يستوفوا أجالهم. فيقضى بهذا التدبير أجل مسمى، وهو: أجل الحياة، وأجل آخر فيما بعد ذلك، وهو البعث بعد الموت، ولهذا قال: ﴿ثم إليه مرجعكم﴾ لا إلى غيره ﴿ثم ينبئكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر.

﴿وهو﴾ تعالى ﴿القاهر فوق عباده﴾ ينفذ فيهم إرادته الشاملة ومشيتته

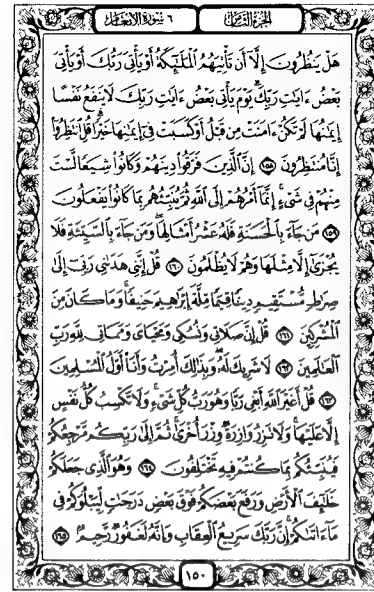
الحق قصاً، قطع به معاذيرهم، وانقطعت له حججهم، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة ﴿وهو خير الفاصلين﴾ بين عباده في الدنيا والآخرة، فيفصل بينهم فصلاً يحمد به عليه، حتى من قضى عليه، ووجه الحق نحوه.

﴿قل﴾ للمستعجلين بالعذاب، جهلاً وعناداً وظلماً، ﴿لو أن عندي ما تستعجلون به لقضى الأمر بيني وبينكم﴾ فأوقفته بكم ولا خير لكم في ذلك، ولكن الأمر عند الخليم الصبور، الذي يعصيه العاصون، ويتجرأ عليه المتجرون، وهو يعافهم ويرزقهم ويسدي عليهم نعمه الظاهرة والباطنة. ﴿والله أعلم بالظالمين﴾ لا يخفى عليه من أحوالهم شيء، فيمهلهم ولا يمهلهم.

﴿٥٩﴾ ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ هذه الآية العظيمة من أعظم الآيات تفصيلاً لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه. وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلاً عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار من الحيوانات والأشجار، والرمال والخصى والتراب، وما في البحار من حيواناتها ومعادنها وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها.

﴿وما تسقط من ورقة من أشجار البر والبحر، والبلدان والقفر، والدنيا والآخرة، إلا يعلمها﴾. ﴿ولا حبة في ظلمات الأرض﴾ من حبوب الثمار والزرور، وحبوب البذور التي يبذر الخلق؛ وبذور النوايت البرية التي ينشئ منها أصناف النباتات.

﴿ولا رطب ولا يابس﴾ هذا عموم بعد خصوص ﴿إلا في كتاب مبين﴾ وهو اللوح المحفوظ قد حواها واشتمل



تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً. أي: إلا بمجرد اتباع الهوى. ﴿فأي: الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون﴾.

قال الله تعالى فاصلاً بين الفريقين ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا﴾ أي: لم يخلطوا ﴿إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ الأمن من المخاوف والعذاب والشقاء، والهداية إلى الصراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقاً، لا بشرك ولا بمعاصي، حصل لهم الأمن التام والهداية التامة. وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها. ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمان، لم يحصل لهم هداية ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء.

ولما حكم لإبراهيم عليه السلام، بما بين به من البراهين القاطعة قال: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه﴾ أي: علا بها عليهم، وفلجهم بها.

﴿نرفع درجات من نشاء﴾ كما رفعنا درجات إبراهيم عليه السلام في الدنيا والآخرة، فإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات. خصوصاً

العالم العامل المعلم، فإنه يجعله الله إماماً للناس بحسب حاله، ترمق أفعاله، وتقتفى آثاره، ويستضاء بنوره، ويمشي بعلمه في ظلمة ديجوزه.

قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾.

﴿إن ربك حكيم عليم﴾ فلا يضع العلم والحكمة، إلا في المحل اللائق بها، وهو أعلم بذلك المحل وبما ينبغي له.

﴿٨٤ - ٩٠﴾ ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك

نجزي المحسنين﴾ وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من الصالحين ﴿وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا على العالمين﴾ ومن آياتهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبتيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾ لما دحر الله تعالى عبده وخليله إبراهيم عليه السلام، وذكر ما من الله عليه به من العلم والدعوة والصبر، ذكر ما أكرمه الله به من الذرية الصالحة، والنسل الطيب. وأن الله جعل صفوة الخلق من نسله، وأعظم هذه المنقبة والكرامة الجسيمة، التي لا يدرك لها نظير فقال: ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب﴾ ابنه، الذي هو إسرائيل، أبو الشعب الذي فضله الله على العالمين.

﴿كلاً﴾ منهما ﴿هدينا﴾ الصراط المستقيم في علمه وعمله.

﴿ونوحاً هدينا﴾ ﴿من قبل﴾

وهديته^(١) من أنواع الهدايا الخاصة التي لم تحصل إلا لأفراد من العالم؛ وهم أولو العزم من الرسل الذي هو أحدهم.

﴿ومن ذريته﴾ يحتمل أن الضمير عائد إلى نوح، لأنه أقرب مذكور، ولأن الله ذكر مع من ذكر لوطاً، وهو من ذرية نوح، لا من ذرية إبراهيم لأنه ابن أخيه.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى إبراهيم، لأن السياق في مدحه والثناء عليه، ولوط - وإن لم يكن من ذريته - فإنه ممن آمن على يده، فكان منقبة الخليل وفضيلته بذلك، أبلغ من كونه مجرد ابن له.

﴿داود وسليمان﴾ بن داود ﴿وأيوب ويوسف﴾ بن يعقوب. ﴿وموسى وهارون﴾ ابني عمران، ﴿وكذلك﴾ كما أصلحنا ذرية إبراهيم الخليل، لأنه أحسن في عبادة ربه، وأحسن في نفع الخلق ﴿كذلك نجزي المحسنين﴾ بأن نجعل لهم من الثناء الصدق، والذرية الصالحة بحسب إحسانهم.

﴿وزكريا ويحيى﴾ ابنه ﴿وعيسى﴾ ابن مريم. ﴿وإلياس كل﴾ من هؤلاء ﴿من الصالحين﴾ في أخلاقهم وأعمالهم وعلومهم، بل هم سادة الصالحين وقادتهم وأمتهم.

﴿وإسماعيل﴾ بن إبراهيم أبو الشعب الذي هو أفضل الشعوب، وهو الشعب العربي، ووالد سيد ولد آدم محمد ﷺ. ﴿ويونس﴾ بن متى ﴿ولوطاً﴾ بن هاران، أخي إبراهيم. ﴿وكلاً﴾ من هؤلاء الأنبياء والمرسلين ﴿فضلنا على العالمين﴾ لأن درجات الفضائل أربع - وهي التي ذكرها الله بقوله: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ فهؤلاء من الدرجة العليا، بل هم أفضل الرسل على الإطلاق، فالرسل الذين قصهم الله

في كتابه، أفضل ممن لم يقص علينا بناهم بلا شك.

﴿ومن آبائهم﴾ أي: آباء هؤلاء المذكورين ﴿وذرياتهم وإخوانهم﴾ أي: وهدينا من آباء هؤلاء وذرياتهم وإخوانهم. ﴿واجتسبناهم﴾ أي: اخترناهم. وهديناهم إلى صراط مستقيم.

﴿ذلك﴾ الهدى المذكور ﴿هدى الله﴾ الذي لا هدى إلا هداة. ﴿يهدي به من يشاء من عباده﴾ فاطلبوا منه الهدى فإنه إن لم يهدهم فلا هادي لكم غيره، ومن شاء هدايته هؤلاء المذكورون. ﴿ولو أشركوا﴾ على الفرض والتقدير ﴿لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾ فإن الشرك عبط للعمل، موجب للخلود في النار. فإذا كان هؤلاء الصفوة الأخيار، لو أشركوا - وحاشاهم - لحبطت أعمالهم، فغيرهم أولى.

﴿وأولئك﴾ المذكورون ﴿الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾ أي: امش - أيها الرسول الكريم - خلف هؤلاء الأنبياء الأخيار، واتبع ملتهم وقد امتثل ﷺ، فاهتدى بهدي الرسل قبله، وجمع كل كمال فيهم. فاجتمعت لديه فضائل وخصائص فاق بها جميع العالمين، وكان سيد المرسلين وإمام المتقين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين، وبهذا الملحظ استدل بهذه من استدل من الصحابة، أن رسول الله ﷺ أفضل الرسل كلهم.

﴿قل﴾ للذين أعرضوا عن دعوتك: ﴿لا أسألكم عليه أجراً﴾ أي: لا أطلب منكم مغرمًا ومالًا جزاء عن إبلاغي إياكم، ودعوتي لكم فيكون من أسباب امتناعكم، إن أجري إلا على الله.

﴿إن هو إلا ذكرى للعالمين﴾ يتذكرون به ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيذرونه ويتذكرون به معرفة ربهم بأسمائه وأوصافه. ويتذكرون به الأخلاق الحميدة، والطرق الموصلة

إليها، والأخلاق الرذيلة، والطرق المفضية إليها، فإذا كان ذكرى للعالمين، كان أعظم نعمة أنعم الله بها عليهم فعليهم قبولها والشكر عليها.

﴿٩١﴾ ﴿وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ هذا تشنيع على من نفى الرسالة، [من اليهود والمشركون] ^(١) وزعم أن الله ما أنزل على بشر من شيء، فمن قال هذا، فما قدر الله حق قدره، ولا عظمه حق عظمته، إذ هذا قدح في حكمته، وزعم أنه يترك عباده هملاً، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ونفى لأعظم منة امتن الله بها على عباده، وهي الرسالة التي لا طريق للعباد إلى نيل السعادة، والكرامة، والفلاح، إلا بها، فأي: قدح في الله أعظم من هذا!!

﴿قل﴾ لهم - ملزماً بفساد قولهم وقرّهم، بما به يقرون -: ﴿من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾ وهو التوراة العظيمة ﴿نوراً﴾ في ظلمات الجهل ﴿وهدى﴾ من الضلالة، وهادياً إلى الصراط المستقيم علماً وعملاً، وهو الكتاب الذي شاع وذاع، وملاً ذكره القلوب والأسماع. حتى إنهم جعلوا يتناسخونه في القراطيس، ويتصرفون فيه بما شاؤوا، فما وافق أهواءهم منه أبدوه وأظهروه، وما خالف ذلك أخفوه وكنتموه، وذلك كثير.

﴿وعلمتم﴾ من العلوم التي بسبب ذلك الكتاب الجليل ﴿ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم﴾ فإذا سألتهم عن من أنزل هذا الكتاب الموصوف بتلك الصفات، فأجب عن هذا السؤال. و ﴿قل الله﴾ الذي أنزله، فحينئذ يتضح الحق وينجلي مثل الشمس، وتقرم عليهم الحجة، ثم إذا ألزمتهم بهذا الإلزام ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ أي:

سورة النمل

بسم الله الرحمن الرحيم

الْقَمَرِ ﴿كَذَّبُوا إِلَهَ بَدْلَ مَا كُنُوا فِي سَكْنَةٍ مِنْهُمْ لَا يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَكْفُرُونَ بِوَاعْدِهِمْ وَلَا يَشْعُورُونَ ﴿١﴾ وَإِنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَيَكْفُرُونَ بِوَاعْدِهِمْ وَلَا يَشْعُورُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّمَا إِلَهُ الْكَافِرِينَ ﴿٤﴾ وَكَرِهْنَاهُمْ آلَ هَارُونَ إِذْ هَارُونَ عَاسَى إِتَانَا أَتَيْنَاهُ بِذِكْرِهِ وَلَكِنْ كَرِهَ الْغَافِلُونَ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْمَاءُ إِنَّكَ مُنُكَّرٌ وَمَا تَكْنُزِينَ ﴿٦﴾ فَلَتَوَلَّى الْيَهُودَ الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ نُورٌ وَمِنْ آيَاتِهِ الْكِتَابُ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قُرَاطِيسَ يَبْدُوهَا وَيُخْفُونَهَا كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٧﴾ هَذَا تَشْنِيعٌ عَلَى مَنْ نَفَى الرِّسَالَةَ، [مِنَ الْيَهُودِ وَالْمُشْرِكِينَ] ^(١) وَزَعَمَ أَنَّ اللَّهَ مَا أَنْزَلَ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، فَمَنْ قَالَ هَذَا، فَمَا قَدَرَ اللَّهُ حَقَّ قَدْرِهِ، وَلَا عَظَمَهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ، إِذْ هَذَا قَدْحٌ فِي حُكْمَتِهِ، وَزَعَمَ أَنَّهُ يَتْرَكُ عِبَادَهُ هَمَلًا، لَا يَأْمُرُهُمْ وَلَا يَنْهَاهُمْ، وَنَفَى لِأَعْظَمِ مَنَّةٍ أَمَّنَ اللَّهُ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ، وَهِيَ الرِّسَالَةُ الَّتِي لَا طَرِيقَ لِلْعِبَادِ إِلَى نَيْلِ السَّعَادَةِ، وَالْكَرَامَةِ، وَالْفَلَاحِ، إِلَّا بِهَا، فَأَيُّ: قَدْحٍ فِي اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا!!

اتركهم يخوضوا في الباطل، ويلعبوا بما لا فائدة فيه، حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

﴿٩٢﴾ ﴿وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذي بين يديه ولننذر أم القرى ومن حولها والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم يحافظون﴾ أي: ﴿وهذا﴾ القرآن الذي ﴿أنزلناه﴾ إليك ﴿مبارك﴾ أي: وصفه البركة، وذلك لكثرة خيراته وسعة مبراته. ﴿مصدق الذي بين يديه﴾ أي: موافق للكتب السابقة، وشاهد لها بالصدق. ﴿ولتنذر أم القرى ومن حولها﴾

أي: وأنزلناه أيضاً لتنذر أم القرى، وهي: مكة المكرمة، ومن حولها من ديار العرب، بل ومن سائر البلدان. فتحذر الناس عقوبة الله، وأخذة الأمم، وتحذره مما يوجب ذلك. ﴿والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به﴾ لأن الخوف إذا كان في القلب عمرت أركانه، وانقاد لمراضى الله.

﴿وهم على صلاتهم يحافظون﴾ أي: يداومون عليها، ويحفظون أركانها وحدودها وشروطها وآدابها، ومكملاتها. جعلنا الله منهم.

﴿٩٣ - ٩٤﴾ ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء ومن قال سأنزل مثل



ما أنزل الله ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم يمزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون * ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم تزعمون * يقول تعالى: لا أحد أعظم ظلماً ولا أكبر جرماً ممن كَذَّبَ [على] الله، بأن نسب إلى الله قولاً أو حكماً وهو تعالى بريء منه، وإنما كان هذا أظلم الخلق، لأن فيه من الكذب وتغيير الأديان أصولها وفروعها، ونسبة ذلك إلى الله - ما هو من أكبر المفاسد.

ويدخل في ذلك ادعاء النبوة، وأن الله يوحى إليه وهو كاذب في ذلك، فإنه - مع كذبه على الله، وجرائته على عظمتهم وسلطانهم - يوجب على الخلق أن يتبعوه، ويجاهدهم على ذلك، ويستحل دماء من خالفه وأموالهم.

ويدخل في هذه الآية كل من ادعى النبوة، كمسيح الكذاب والأسود العنسي والمختار، وغيرهم ممن اتصف بهذا الوصف.

«ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله» أي: ومن أظلم ممن زعم،

أنه يقدر على ما يقدر الله عليه، ويجاري الله في أحكامه، ويشرع من الشرائع كما شرعه الله، ويدخل في هذا كل من يزعم أنه يقدر على معارضة القرآن، وأنه في إمكانه أن يأتي بمثله.

وأي: ظلم أعظم من دعوى الفقير العاجز بالذات، الناقص من كل وجه، مشاركة القوي الغني الذي له الكمال المطلق، من جميع الوجوه، في ذاته وأسمائه وصفاته؟!!

ولما ذم الظالمين ذكر ما أعد لهم من العقوبة في حال الاحتضار، ويوم القيامة، فقال: «ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت» أي: شدائده واهواله الفظيعة، وكرهه الشنيعة - لرأيت أمراً هائلاً، وحالة لا يقدر الوصف أن يصفها.

«والملائكة باسطو أيديهم» إلى أولئك الظالمين المحتضرين بالضرب والعذاب، يقولون لهم عند منازعة أرواحهم وقلقها، وتعصيا للخروج من الأبدان: «أخرجوا أنفسكم اليوم تخرجون عذاب الهون» أي: العذاب الشديد الذي يبينكم ويدلكم، والجزاء من جنس العمل، فإن هذا العذاب «بما كنتم تقولون على الله غير الحق» من كذبكم عليه، وردكم للحق، الذي جاءت به الرسل. «وكنتم عن آياته تستكبرون» أي: تترفعون عن الانقياد لها، والاستسلام لأحكامها. وفي هذا دليل على عذاب البرزخ ونعيمه، فإن هذا الخطاب والعذاب الموجه إليهم، إنما هو عند الاحتضار وقبيل الموت وبعده.

وفيه دليل على أن الروح جسم يدخل ويخرج، ويخاطب، ويساكن الجسد ويفارقه، فهذه حالهم في البرزخ.

وأما يوم القيامة فإنهم إذا وردوها وردوها مفلسين فرادى بلا أهل ولا مال ولا أولاد ولا جنود ولا أنصار، كما خلقهم الله أول مرة، عارين من كل شيء.

فإن الأشياء، إنما تتمول وتحصل بعد ذلك بأسبابها التي هي أسبابها،

وفي ذلك اليوم تقطع جميع الأمور التي كانت مع العبد في الدنيا، سوى العمل الصالح والعمل السيئ، الذي هو مادة الدار الآخرة، الذي تنشأ عنه، ويكون حسناتها وقبحها، وسرورها وغمومها، وعذابها ونعيمها، بحسب الأعمال. فهي التي تنفع أو تضر، وتسوء أو تسر، وما سواها من الأهل والولد، والمال والأنصار، فعواري خارجية، وأوصاف زائلة، وأحوال حائلة، ولهذا قال تعالى:

«ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم» أي: أعطيناكم وأنعمنا به عليكم «وراء ظهوركم» لا يغنون عنكم شيئاً «وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء»

فإن المشركين يشركون بالله، ويعبدون معه الملائكة والأنبياء والصالحين، وغيرهم، وهم كلهم لله، ولكنهم يجعلون لهذه المخلوقات نصيباً من أنفسهم، وشركة في عبادتهم، وهذا زعم منهم وظلم، فإن الجميع عبيد لله، والله مالكهم، والمستحق لعبادتهم. فشركتهم في العبادة، وصرفها لبعض العبيد، تنزيل لهم منزلة الخالق المالك، فيوبخون يوم القيامة ويقال لهم هذه المقالة.

«وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء، لقد تقطع بينكم» أي: تقطعت الروصل والاسباب بينكم وبين شركائكم، من الشفاعة وغيرها، فلم تنفع ولم تجد شيئاً. «وضل عنكم ما كنتم تزعمون» من الريح والأمن، والسعادة والنجاة، التي زينها لكم الشيطان وحسنها في قلوبكم، فنطقت بها ألسنتكم. واغتررتكم بهذا الزعم الباطل الذي لا حقيقة له، حين تبين لكم نقيض ما كنتم تزعمون، وظهر أنكم الخاسرون لأنفسكم وأهلكم وأموالكم.

«٩٥ - ٩٨» «إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحي من الميت ومخرج الميت من الحي ذللكم الله فأنى

﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ حين تشبه عليكم المسالك، ويتحير في سيره السالك، فجعل الله النجوم هداية للخلق إلى السبل، التي يحتاجون إلى سلوكها لمصالحهم وتجاراتهم وأسفارهم.

منها: نجوم لا تزال ثرى، ولا تسير عن محلها، ومنها ما هو مستمر السير، يعرف سيره أهل المعرفة بذلك، ويعرفون به الجهات والأوقات.

ودلت هذه الآية ونحوها على مشروعية تعلم سير الكواكب ومحالها الذي يسمى علم التسيير، فإنه لا تتم الهداية ولا تمكن إلا بذلك.

﴿قد فصلنا الآيات﴾ أي: بينها، ووضحناها، وميزنا كل جنس ونوع منها عن الآخر، بحيث صارت آيات الله بادية ظاهرة. ﴿لقوم يعلمون﴾ أي: لأهل العلم والمعرفة، فإنهم الذين يوجه إليهم الخطاب، ويطلب منهم الجواب، بخلاف أهل الجهل والجفاء، المعرضين عن آيات الله وعن العلم الذي جاءت به الرسل، فإن البيان لا يفيدهم شيئاً، والتفصيل لا يزيل عنهم ملتبساً، والإيضاح لا يكشف لهم مشكلاً.

﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾ وهو آدم عليه السلام. أنشأ الله منه هذا العنصر الآدمي؛ الذي قد ملأ الأرض. ولم يزل في زيادة ونمو، الذي قد تفاوتت في أخلاقه وخلقه وأوصافه تفاوتاً لا يمكن ضبطه، ولا يدرك وصفه، وجعل الله لهم مستقراً، أي: منتهى ينتهون إليه، وغاية يساقون إليها، وهي دار القرار التي لا مستقر وراءها، ولا نهاية فوقها، فهذه الدار هي التي خلق الخلق لسكنائها، وأوجدوا في الدنيا ليسعوا في أسبابها، التي تنشأ عليها وتعمربها، وأودعهم الله في أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، ثم في دار الدنيا، ثم في البرزخ، كل ذلك على وجه الودعة، التي لا تستقر

ولما ذكر تعالى، مادة خلق الأقوات، ذكر منته بتهيئة المساكن، وخلق كل ما يحتاج إليه العباد، من الضياء والظلمة، وما يترتب على ذلك من أنواع المنافع والمصالح فقال: ﴿فالق الإصباح﴾ أي: كما أنه فلق الحب والنوى، كذلك هو فلق ظلمة الليل الداجي، الشامل لما على وجه الأرض، بضياء الصبح الذي يفلقه شيئاً فشيئاً، حتى تذهب ظلمة الليل كلها، ويخلفها الضياء والنور العام، الذي يتصرف به الخلق في مصالحهم ومتعاشيهم، ومنافع دينهم ودنياهم.

ولما كان الخلق محتاجين إلى السكون والاستقرار والراحة، التي لا تتم بوجود النهار والنور ﴿جعل﴾ الله ﴿الليل سكناً﴾ يسكن فيه الآدميون إلى دورهم ومنامهم، والأنعام إلى مأواها، والطيور إلى أوكارها، فتأخذ نصيبها من الراحة، ثم يزيل الله ذلك، بالضياء، وهكذا أبدأ إلى يوم القيامة ﴿و﴾ جعل تعالى ﴿الشمس والقمر حسباناً﴾ بهما تعرف الأزمنة والأوقات، فتنضبط بذلك أوقات العبادات، وأجال المعاملات، ويعرف بها مدة ما مضى من الأوقات التي لولا وجود الشمس والقمر وتناوبهما واختلافهما - لما عرف ذلك عامة الناس، واشتركوا في علمه، بل كان لا يعرفه إلا أفراد من الناس بعد الاجتهاد، وبذلك يفوت من المصالح الضرورية ما يفوت.

﴿ذلك﴾ التقدير المذكور ﴿تقدير العزيز العليم﴾ الذي من عزته انقادت له هذه المخلوقات العظيمة، فجرت مذلة مسخرة بأمره، بحيث لا تتعدى ما حده الله لها، ولا تتقدم عنه ولا تتأخر ﴿العليم﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأوائل والأواخر.

ومن الأدلة العقلية على إحاطة علمه، تسخير هذه المخلوقات العظيمة، على تقدير نظام بديع، تحير العقول في حسنه وكماله وموافقته للمصالح والحكم.

تؤفكون * فلق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم * وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون * وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون * يخبر تعالى عن كماله، وعظمة سلطانه، وقوة اقتداره، وسعة رحمته، وعموم كرمه، وشدة عنايته بخلقه، فقال: ﴿إن الله فلق الحب﴾ شامل لسائر الحبوب التي يباشر الناس زرعها، والتي لا يباشرونها، كالحبوب التي يثبها الله في البراري والقفار، فيفلق الحبوب عن الزروع والنوابت، على اختلاف أنواعها وأشكالها ومنافعها، ويفلق النوى عن الأشجار من النخيل والفواكه، وغير ذلك. فيتفع الخلق من الآدميين والأنعام والدواب. ويرتعون فيما فلق الله من الحب والنوى، ويقتاتون وينتفعون بجميع أنواع المنافع التي جعلها الله في ذلك. ويربهم الله من بره وإحسانه ما يبهر العقول، ويذهل الفحول، ويربهم من بدائع صنعته وكمال حكمته، ما به يعرفونه ويوحدونه، ويعلمون أنه هو الحق، وأن عبادة ما سواه باطلة.

﴿يخرج الحي من الميت﴾ كما يخرج من المتي حيواناً، ومن البیضة فرخاً، ومن الحب والنوى زرعاً وشجراً.

﴿ويخرج الميت﴾ وهو الذي لا نمو فيه، أو لا روح ﴿من الحي﴾ كما يخرج من الأشجار والزروع، النوى والحب، ويخرج من الطائر بيضاً، ونحو ذلك.

﴿ذلكم﴾ الذي فعل ما فعل، وانفرد بخلق هذه الأشياء وتدبيرها ﴿الله﴾ ربكم أي: الذي له الألوهية والعبادة على خلقه أجمعين، وهو الذي ربى جميع العالمين بنعمه، وغذاهم بكرمه. ﴿فأني تؤفكون﴾ أي: فأني تصرفون، وتصدون عن عبادة من هذا شأنه، إلى عبادة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً!!!

خالق كل شيء فاعبدوه وهو على كل شيء وكيل * لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير * قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكم بحفيظ * يخبر تعالى : أنه مع إحسانه لعباده وتعرفه إليهم بآياته البينات، وحججه الواضحات - أن المشركين به من قریش وغيرهم، جعلوا له شركاء يدعونهم ويعبدونهم من الجن والملائكة، الذين هم خلق من خلق الله، ليس فيهم من خصائص الربوبية والألوهية شيء، فجعلوها شركاء لمن له الخلق والأمر، وهو المنعم بسائر أصناف النعم، الدافع لجميع النقم، وكذلك «خرق المشركون» أي : اثتفكوا وافترؤا من تلقاء أنفسهم لله، بنين وبنات بغير علم منهم، ومن أظلم ممن قال على الله بلا علم، وافترى عليه أشنع النقص، الذي يجب تنزيه الله عنه!!

ولهذا نزه نفسه عما افتراه عليه المشركون، فقال : «سبحانه وتعالى عما يصفون» فإنه تعالى الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل نقص وآفة وعيب.

«بديع السماوات والأرض» أي : خالقهما، ومقتن صنعتهما، على غير مثال سبق، بأحسن خلق ونظام وبهاء، لا تقترح عقول أولي الأبواب مثله، وليس له في خلقهما مشارك.

«أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة» أي : كيف يكون لله الولد، وهو الإله السيد الصمد، الذي لا صاحبة له، أي : لا زوجة، وهو الغني عن مخلوقاته، وكلها فقيرة إليه، مضطرة في جميع أحوالها إليه، والولد لا بد أن يكون من جنس والده، والله خالق كل شيء وليس شيء من المخلوقات مشابهاً لله بوجه من الوجوه.

ولما ذكر عموم خلقه للأشياء، ذكر إحاطة علمه بها، فقال : «وهو بكل شيء عليم» وفي ذكر العلم بعد الخلق، إشارة إلى الدليل العقلي إلى

التناول، متدلية على مَنْ أرادها، بحيث لا يعسر التناول من النخل وإن طالت، فإنه يوجد فيها كَرَبٌ ومراقى يسهل صعودها.

«و» أخرج تعالى بالماء «جنات من أعناب والزيتون والرمان» فهذه من الأشجار الكثيرة النفع، العظيمة الوقع، فلذلك خصصها الله بالذكر بعد أن عمَّ جميع الأشجار والنواب.

وقوله : «مشتبهاً وغير متشابه» يحتمل أن يرجع إلى الرمان والزيتون، أي : مشتبهاً في شجره وورقه، غير متشابه في ثمره.

ويحتمل أن يرجع ذلك إلى سائر الأشجار والفواكه، وأن بعضها مشتبهاً، يشبه بعضه بعضاً، ويتقارب في بعض أوصافه، وبعضها لا مشابة بينه وبين غيره، والكل ينتفع به العباد، ويتفكهون، ويقتاتون ويعتبرون، ولهذا أمر تعالى بالاعتبار به، فقال : «انظروا» نظر فكر واعتبار «إلى ثمره» أي : الأشجار كلها، خصوصاً : النخل إذا أثمر.

«وينعه» أي : انظروا إليه وقت إطلاعه، ووقت نضجه وإيناعه، فإن في ذلك عبراً وآيات يستدل بها على رحمة الله، وسعة إحسانه وجوده وكمال اقتداره وعنايته بعباده.

ولكن ليس كل أحد يعتبر ويتفكر، وليس كل مَنْ تفكر أدرك المعنى المقصود، ولهذا قيد تعالى الانتفاع بالآيات بالمؤمنين، فقال : «إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون» فإن المؤمنين يحملهم ما معهم من الإيمان، على العمل بمقتضياته ولوازمه، التي منها التفكر في آيات الله، والاستنتاج منها ما يراد منها، وما تدل عليه عقلاً وفطرة وشرعاً.

«١٠٠-١٠٤» «وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم سبحانه وتعالى عما يصفون * بديع السماوات والأرض أتى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم * ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو

ولا تثبت، بل ينتقل منها حتى يوصل إلى الدار، التي هي المستقر، وأما هذه الدار فإنها مستودع وعمر * قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون» عن الله آياته، ويفهمون عنه حججه وبيئاته.

«٩٩» «وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون» وهذا من أعظم منن العظيمة، التي يضطر إليها الخلق من الآدميين وغيرهم، وهو أنه أنزل من السماء ماء متتابعاً وقت حاجة الناس إليه، فأنبت الله به كل شيء مما يأكل الناس والأنعام، فرتع الخلق بفضل الله، وانبسطوا برزقه، وفرحوا بإحسانه، وزال عنهم الجذب واليأس والقحط، وفرحت القلوب، وأسفرت الوجوه، وحصل للعباد من رحمة الرحمن الرحيم، ما به يتمتعون وبه يرتعون، ما يوجب لهم أن يبذلوا جهدهم في شكر مَنْ أسدى النعم، وعبادته والإجابة إليه، والمحبة له.

ولما ذكر عموم ما ينبت بالماء، من أنواع الأشجار والنبات، ذكر الزرع والنخل، لكثرة نفعهما وكونهما قوتاً لأكثر الناس فقال : «فأخرجنا منه خضراً نخرج منه» أي : من ذلك النبات الخضِر، «حباً متراكباً» بعضه فوق بعض، من بر وشعير، وذرة، وأرز، وغير ذلك من أصناف الزروع، وفي وصفه بأنه متراكب، إشارة إلى أن حبوبه متعددة، وجميعها تستمد من مادة واحدة، وهي لا تختلط، بل هي متفرقة الحبوب، مجتمعة الأصول، وإشارة أيضاً إلى كثرتها، وشمول ريعها وغلتها، ليبقى أصل البذر، ويبقى بقية كثيرة للأكل والادخار.

«ومن النخل» أخرج الله «من طلعها» وهو الكفري، والوعاء قبل ظهور القنو منه، فيخرج من ذلك الوعاء «قنوان دانية» أي : قريبة سهلة



لهم الباب فلم يدخلوا، وبئس لهم الطريق فلم يسلكوا، فبعد ذلك إذا حرموا التوفيق كان مناسباً لأحوالهم.

وكذلك تعليقهم الإيمان بإرادتهم ومشيتهم وحدهم، وعدم الاعتماد على الله من أكبر الغلط، فإنهم لو جاءتهم الآيات العظيمة، من تنزيل الملائكة إليهم يشهدون للرسول بالرسالة، وتكليم الموتى، وبعثهم بعد موتهم، وحشر كل شيء إليهم حتى يكلمهم^(١) «قبلاً» ومشاهدة ومباشرة، بصدق ما جاء به الرسول ما حصل منهم الإيمان، إذا لم يشأ الله إيمانهم ولكن أكثرهم يجهلون. فلذلك رتبوا إيمانهم، على مجرد إتيان الآيات، وإنما العقل والعلم أن يكون العبد مقصوده اتباع الحق، ويطلبه بالطرق التي بينها الله، ويعمل بذلك، ويستعين ربه في اتباعه، ولا يتكل على نفسه وحوله وقوته، ولا يطلب من الآيات الاقتراحية ما لا فائدة فيه.

﴿١١٢ - ١١٣﴾ «وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون * ولتصغي إليه أئمة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون» يقول تعالى - مسلياً لرسوله محمد ﷺ - «وكما جعلنا لك أعداء يردون دعوتك، ويحاربونك ويحسدونك، فهذه سنتنا، أن نجعل لكل نبي نرسله إلى الخلق أعداء، من شياطين الإنس والجن، يقومون بضد ما جاءت به الرسل».

«يؤحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً» أي: يزين بعضهم لبعض الأمر الذي يدعون إليه من الباطل، ويزخرفون له العبارات حتى يجعلوه في أحسن صورة، ليغتر به السفهاء، وينقاد له الأغبياء الذين لا يفهمون الحقائق، ولا يفقهون المعاني، بل تعجبهم الألفاظ المزخرفة، والعبارات المموهة، فيعتقدون الحق

ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا يؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون» أي: وأقسم المشركون الكاذبون للرسول محمد ﷺ. «بالله جهد إيمانهم» أي: قسماً اجتهدوا فيه وأكدوه. «لئن جاءتهم آية» تدل على صدق محمد ﷺ «ليؤمنن بها». وهذا الكلام الذي صدر منهم لم يكن قصدهم فيه الرشاد، وإنما قصدهم، دفع الاعتراض عليهم، ورد ما جاء به الرسول قطعاً، فإن الله أيد رسوله ﷺ بالآيات البينات، والأدلة الواضحات، التي - عند الالتفات لها - لا تبقى أدنى شبهة ولا إشكال في صحة ما جاء به، فطلبهم - بعد ذلك - للآيات من باب التعتن، الذي لا يلزم إجابته، بل قد يكون المنع من إجابتهم أصلح لهم، فإن الله جرت سنته في عبادته، أن المقترحين للآيات على رسلهم، إذا جاءتهم فلم يؤمنوا بها - أنه يعاجلهم بالعقوبة، ولهذا قال: «قل إنما الآيات عند الله» أي: هو الذي يرسلها إذا شاء، ويمنعها إذا شاء، ليس لي من الأمر شيء، فطلبكم مني الآيات ظلم، وطلب لما لا أملك، وإنما توجهون إلي توضيح ما جئتكم به وتصديقه، وقد حصل، ومع ذلك فليس معلوماً، أنهم إذا جاءتهم الآيات يؤمنون ويصدقون، بل الغالب عن هذه حاله أنه لا يؤمن، ولهذا قال:

«وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون»

«ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون» أي: ونعاقبهم إذا لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيه الداعي، وتقوم عليهم الحجة، بتقليب القلوب، والحيلولة بينهم وبين الإيمان، وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم.

وهذا من عدل الله وحكمته بعباده، فإنهم الذين جنوا على أنفسهم، وفتح

مع الله، التي يتقرب إلى الله بإهانتها وسبها.

ولكن لما كان هذا السب طريقاً إلى سب المشركين لرب العالمين، الذي يجب تنزيه جنابه العظيم عن كل عيب، وأفة، وسب، وقدح - نهى الله عن سب آلهة المشركين، لأنهم يحمون لدينهم، ويتعصبون له. لأن كل أمة زين الله لهم عملهم، فرأوه حسناً وذبوا عنه، ودافعوا بكل طريق، حتى إنهم ليسبون الله رب العالمين، الذي رسخت عظمتهم في قلوب الأبرار والفجار، إذا سب المسلمون آلهتهم.

ولكن الخلق كلهم مرجعهم ومآلهم إلى الله يوم القيامة، يعرضون عليه، وتعرض أعمالهم، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر.

وفي هذه الآية الكريمة دليل للقاعدة الشرعية وهي أن الوسائل تعتبر بالأمر التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم ولو كانت جائزة تكون محرمة، إذا كانت تقضي إلى الشر.

﴿١٠٩ - ١١١﴾ «وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون * ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون *

عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ محذراً عن طاعة أكثر الناس: ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله﴾ فإن أكثرهم قد انحرفوا في أديانهم وأعمالهم وعلومهم. فأديانهم فاسدة، وأعمالهم تبع لأهوائهم، وعلومهم ليس فيها تحقيق، ولا إيصال لسواء الطريق.

بل غايتهم أنهم يتبعون الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً، ويتخصصون في القول على الله ما لا يعلمون، ومن كان بهذه المثابة، فحري أن يحذر الله منه عباده، ويصف لهم أحوالهم؛ لأن هذا - وإن كان خطاباً للنبي ﷺ - فإن أمتة أسوة له في سائر الأحكام التي ليست من خصائصه.

والله تعالى أصدق قتيلاً، وأصدق حديثاً، و﴿هو أعلم من يضل عن سبيله﴾ وأعلم بمن يهتدي ويهدي. فيجب عليكم - أيها المؤمنون - أن تتبعوا نصائحه وأوامره ونواهيه لأنه أعلم بمصالحكم، وأرحم بكم من أنفسكم.

ودلت هذه الآية على أنه لا يستدل على الحق بكثرة أهله، ولا يدل قلة السالكين لأمر من الأمور أن يكون غير حق، بل الواقع بخلاف ذلك، فإن أهل الحق هم الأقلون عدداً، الأعظمون - عند الله - قدراً وأجرأ، بل الواجب أن يستدل على الحق والباطل، بالطرق الموصلة إليه.

﴿١١٨ - ١١٩﴾ ﴿فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين﴾ وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فضل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين. يأمر تعالى عباده المؤمنين بمقتضى الإيمان، وأنهم، إن كانوا مؤمنين، فليأكلوا مما ذكر اسم الله عليه من بهيمة الأنعام، وغيرها من الحيوانات المحللة، ويعتقدوا حلها،

حكماً وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً والذين آتيناكم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين * وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم. أي: قل يا أيها الرسول ﴿أفغير الله أبغي حكماً﴾ أحاكم إليه، وأتقيد بأوامره ونواهيه. فإن غير الله محكوم عليه، لا حاكم. وكل تدبير وحكم للمخلوق فإنه مشتمل على النقص والعيب والجور، وإنما الذي يجب أن يتخذ حاكماً، فهو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر.

﴿الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً﴾ أي: موضحاً فيه الحلال والحرام، والأحكام الشرعية، وأصول الدين وفروعه، الذي لا بيان فوق بيانه، ولا برهان أجل من برهانه، ولا أحسن منه حكماً، ولا أقوم قتيلاً، لأن أحكامه مشتملة على الحكمة والرحمة.

وأهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى، يعترفون بذلك ﴿ويعلمون أنه منزل من ربك بالحق﴾ ولهذا تواطأت الإخبارات ﴿فلا﴾ تشكن في ذلك ولا ﴿تكونن من الممترين﴾.

ثم وصف تفصيلها فقال: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأمر والنهي. فلا أصدق من أخبار الله التي أودعها هذا الكتاب العزيز، ولا أعدل من أوامره ونواهيه ﴿لا مبدل لكلماته﴾ [حيث حفظها وأحكمها بأعلى أنواع الصدق وبغاية الحق، فلا يمكن تغييرها ولا اقتراح أحسن منها]^(١).

﴿وهو السميع﴾ لسائر الأصوات، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات. ﴿العليم﴾ الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والماضي والمستقبل.

﴿١١٦ - ١١٧﴾ ﴿وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ إن ربك هو أعلم من يضل

باطلاً وبالباطل حقاً، ولهذا قال تعالى: ﴿ولتصغى إليه﴾ أي: ولنميل إلى ذلك الكلام المزخرف ﴿أنفذة الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ لأن عدم إيمانهم باليوم الآخر وعدم عقولهم النافعة، يحلهم على ذلك، ﴿وليرضوه﴾ بعد أن يصفوا إليه فيصفون إليه أولاً، فإذا مالوا إليه ورأوا تلك العبارات المستحسنة رضوه، وزين في قلوبهم، وصار عقيدة راسخة، وصفة لازمة، ثم ينتج من ذلك، أن يقترفوا من الأعمال والأقوال ما هم مقترفون، أي: يأتون من الكذب بالقول والفعل، ما هو من لوازم تلك العقائد القبيحة، فهذه حال المغترين، بشياطين الإنس والجن، المستجيبين لدعوتهم، وأما أهل الإيمان بالآخرة، وأولو العقول الوافية والألباب الرزينة، فإنهم لا يغترون بتلك العبارات، ولا تخلبهم تلك التموهيات، بل همته مصروفة إلى معرفة الحقائق، فينظرون إلى المعاني التي يدعو إليها الدعاة، فإن كانت حقاً قبلوها وانقادوا لها، ولو كسبت عبارات ردية، وألفاظاً غير وافية، وإن كانت باطلاً، ردوها على من قالها، كائناً من كان، ولو ألبست من العبارات المستحسنة، ما هو أرق من الحرير.

ومن حكمة الله تعالى في جعله للأنبياء أعداء، وللباطل أنصاراً قائمين بالدعوة إليه، أن يحصل لعباده الابتلاء والامتحان، لتمييز الصادق من الكاذب، والعاقل من الجاهل، والبصير من الأعمى.

ومن حكمته أن في ذلك بياناً للحق، وتوضيحاً له، فإن الحق يستنير ويتضح إذا قام الباطل يصارعه ويقاومه. فإنه - حيث - يتبين من أدلة الحق، وشواهد الدالة على صدقه وحقيقته، ومن فساد الباطل وبطلانه، ما هو من أكبر المطالب التي يتنافس فيه المتنافسون.

﴿١١٤ - ١١٥﴾ ﴿أفغير الله أبغي

فإن المشركين - حين سمعوا تحريم الله ورسوله الميتة، وتحليله للمذكاة، وكانوا يستحلون أكل الميتة - قالوا - معاندة لله ورسوله، ومجادلة بغير حجة وبرهان - تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله؟ يعنون بذلك: الميتة.

وهذا رأي: فاسد، لا يستند على حجة ولا دليل، بل يستند إلى آرائهم الفاسدة التي لو كان الحق تبعاً لها لفسدت السماوات والأرض، ومن فيهن.

فتباً لمن قدم هذه العقول على شرع الله وأحكامه، الموافقة للمصالح العامة والمنافع الخاصة. ولا يستغرب هذا منهم، فإن هذه الآراء وأشباهها صادرة عن وحي أوليائهم من الشياطين، الذين يريدون أن يضلوا الخلق عن دينهم، ويدعوهم ليكونوا من أصحاب السعير.

﴿وإن أطعتموهم﴾ في شركهم وتحليلهم الحرام، وتحريمهم الحلال ﴿إنكم لمشركون﴾ لأنكم اتخذتموهم أولياء من دون الله، ووافقتموهم على ما به فارقوا المسلمين، فلذلك كان طريقكم طريقهم.

ودلت هذه الآية الكريمة على أن ما يقع في القلوب من الإلهامات والكشوف، التي يكثر وقوعها عند الصوفية ونحوهم، لا تدل - بمجرد ما على أنها حق، ولا تصدق حتى تعرض على كتاب الله وسنة رسوله.

فإن شهدا لها بالقبول قبلت، وإن ناقضتهما ردت، وإن لم يعلم شيء من ذلك، توقف فيها ولم تصدق ولم تكذب، لأن الوحي والإلهام يكون من الرحمن، ويكون من الشيطان، فلا بد من التمييز بينهما والفرقان، وعدم التفريق بين الأمرين حصل من الغلط والضلال، ما لا يحصى إلا الله.

﴿١٢٢ - ١٢٤﴾ ﴿أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما

الأمور المتعلقة بحقوق الله وحقوق عباده. فنهى الله عباده عن اقتراح الإثم الظاهر والباطن، أي: السر والعلانية، المتعلقة بالبدن والجوارح، والمتعلقة بالقلب، ولا يتم للعبد ترك المعاصي الظاهرة والباطنة إلا بعد معرفتها والبحث عنها، فيكون البحث عنها، ومعرفة معاصي القلب والبدن، والعلم بذلك واجباً متعيناً على المكلف.

وكثير من الناس، تخفى عليه كثير من المعاصي، خصوصاً معاصي القلب، كالكبر والعجب والرياء، ونحو ذلك، حتى إنه يكون به كثير منها، وهو لا يحس به ولا يشعر، وهذا من الإعراض عن العلم وعدم البصيرة.

ثم أخبر تعالى أن الذين يكسبون الإثم الظاهر والباطن، سيجزون على حسب كسبهم، وعلى قدر ذنوبهم، قلت أو كثرت، وهذا الجزء يكون في الآخرة، وقد يكون في الدنيا، يعاقب العبد، فيخفف عنه بذلك من سيئاته.

﴿١٢١﴾ ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ ويدخل تحت هذا المنهي عنه ما ذكر عليه اسم غير الله، كالذي يذبح للأصنام وألئهم، فإن هذا مما أهل لغير الله به، المحرم بالنص عليه خصوصاً.

ويدخل في ذلك متروك التسمية عما ذبح لله، كالضحايا والهدايا، أو للحم والأكل، إذا كان الذابح متعمداً ترك التسمية عند كثير من العلماء.

ويخرج من هذا العموم الناسي بالنصوص الآخر، الدالة على رفع الحرج عنه، ويدخل في هذه الآية ما مات بغير ذكاة من الميتات، فإنها مما لم يذكر اسم الله عليه.

ونص الله عليها بخصوصها في قوله: ﴿حرمتم عليكم الميتة﴾ ولعلمنا سبب نزول الآية، لقوله: ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ بغير علم.

ولا يفعلوا كما تفعله الجاهلية، من تحريم كثير من الحلال، ابتداءً من عند أنفسهم، وإضلالاً من شياطينهم، فذكر الله أن علامة المؤمن مخالفة أهل الجاهلية، في هذه العادة الذميمة، المتضمنة لتغيير شرع الله، وأنه أي شيء يمنعهم من أكل ما ذكر اسم الله عليه، وقد فضل الله لعباده ما حرم عليهم، وبينه ووضحه؟ فلم يبق فيه إشكال ولا شبهة توجب أن يمتنع من أكل بعض الحلال، خوفاً من الوقوع في الحرام، ودلت الآية الكريمة على أن الأصل في الأشياء والأطعمة، الإباحة، وأنه إذا لم يرد الشرع بتحريم شيء منها، فإنه باق على الإباحة، فما سكنت الله عنه فهو حلال، لأن الحرام قد فصله الله فما لم يفصله الله، فليس بحرام.

ومع ذلك فالحرام الذي قد فصله الله وأوضحه، قد أباحه عند الضرورة والمصلحة، كما قال تعالى: ﴿حرمتم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ إلى أن قال: ﴿فمن اضطر في غمصة غير متجانف لإثم فإن الله غفور رحيم﴾.

ثم حذر عن كثير من الناس، فقال: ﴿وإن كثيراً يضلون بأهوائهم﴾ أي: بمجرد ما تهوى أنفسهم ﴿بغير علم﴾ ولا حجة. فليحذر العبد من أمثال هؤلاء، وعلامتهم - كما وصفهم الله لعباده - أن دعوتهم غير مبنية على برهان، ولا لهم حجة شرعية، وإنما يوجد لهم شبه، بحسب أهوائهم الفاسدة، وآرائهم القاصرة، فهؤلاء معتدون على شرع الله وعلى عباد الله، والله لا يحب المعتدين، بخلاف الهادين المهتدين، فلئنهم يدعون إلى الحق والهدى، ويؤيدون دعوتهم بالحجج العقلية والنقلية، ولا يتبعون في دعوتهم إلا رضا ربهم والقرب منه.

﴿١٢٠﴾ ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون﴾ المراد بالإثم: جميع المعاصي التي تؤثم العبد، أي: توقعه في الإثم والحرج، من

لهم اعتذاراً، وأما أولياؤهم من الإنس فأبدوا عذراً غير مقبول، فقالوا: ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ أي: تمتع كل من الجنّي والإنسي بصاحبه، وانتفع به.

فالجنّي يستمتع بطاعة الإنسي له، وعبادته وتعظيمه، واستعاذته به. والإنسي يستمتع بنيل أغراضه، وبلوغه بسبب خدمة الجنّي له بعض شهواته، فإن الإنسي يعبد الجنّي، فيخدمه الجنّي، ويحصل له منه بعض الخواص الدنيوية، أي: حصل منا من الذنوب ما حصل، ولا يمكن رد ذلك، ﴿وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا﴾ أي: وقد وصلنا المحل الذي تجازي فيه بالأعمال، فافعل بنا الآن ما تشاء، واحكم فينا بما تريد، فقد انقطعت حاجتنا ولم يبق لنا عذر، والأمر أمرك، والحكم حكمك. وكان في هذا الكلام منهم نوع تضريع وترقق، ولكن في غير أوانه. ولهذا حكم فيهم بحكمه العادل، الذي لا جور فيه، فقال: ﴿النار مثواكم خالدين فيها﴾.

ولما كان هذا الحكم من مقتضى حكمته وعلمه، ختم الآية بقوله: ﴿إن ربك حكيم عليم﴾ فكما أن علمه وسع الأشياء كلها وعمّها، فحكمته الغاية شملت الأشياء وعمتها ووسعتها.

﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ أي: وكما ولينا الجن المردة وسلطانهم على إضلال أولياؤهم من الإنس وعقدنا بينهم عقد الموالاة والمواقفة، بسبب كسبهم وسعيهم بذلك.

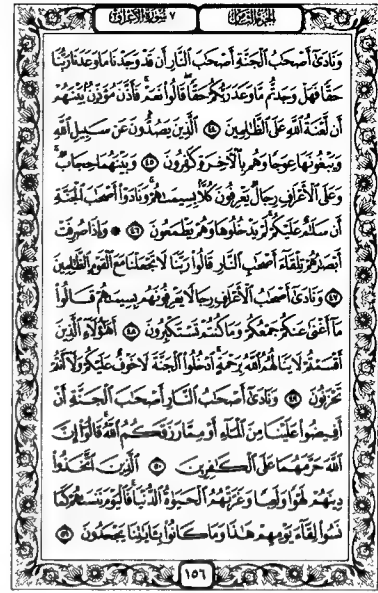
كذلك من سنتنا أن نولي كل ظالم ظالماً مثله، يؤزه إلى الشر ويحبه عليه، ويژهده في الخير وينفره عنه، وذلك من عقوبات الله العظيمة الشنيع أثرها، البالغ خطرها.

والذنب ذنب الظالم، فهو الذي أدخل الضرر على نفسه، وعلى نفسه جنى ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾. ومن ذلك أن العباد إذا كثر ظلمهم وفسادهم، ومنعهم الحقوق الواجبة، ولّى عليهم ظلمة يسومونهم سوء

مولاه واتبع هواه، فإنه سلط عليه الشيطان فتولاه، فأفسد عليه دينه ودنياه.

﴿١٢٨ - ١٣٥﴾ ﴿ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم﴾ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون * يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين * ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون * ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون * وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين * إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين * قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون﴾ يقول تعالى: ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ أي: جميع الثقلين، من الإنس والجن، من ضل منهم، ومن أضل غيره، فيقول موبخاً للجن الذين أضلوا الإنس، وزينوا لهم الشر، وأزروهم إلى المعاصي: ﴿يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس﴾ أي: من إضلالهم وصددهم عن سبيل الله، فكيف أقدمتم على محارمي، وتجرأتم على معاندة رسلِي؟ وقمتم محاريين لله، ساعين في صد عباد الله عن سبيله إلى سبيل الجحيم؟

فالיום حقت عليكم لعنتي، ووجبت لكم نقمتي، وسنزيدكم من العذاب بحسب كفركم، وإضلالكم لغيركم. وليس لكم عذر به تعتذرون، ولا ملجأ إليه تلجأون، ولا شافع يشفع ولا دعاء يسمع، فلا تسأل حينئذ، عما يحل بهم من النكال والحزى والوبال، ولهذا لم يذكر الله



فيسيره للعسرى

﴿١٢٦ - ١٢٧﴾ ﴿وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون﴾ لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون * أي: معتدلاً، موثقاً إلى الله وإلى دار كرامته، قد بينت أحكامه، وفضلت شرائعه، وميز الخير من الشر. ولكن هذا التفصيل والبيان ليس لكل أحد، إنما هو ﴿لقوم يذكرون﴾ فإنهم الذين علموا، فانتفعوا بعلمهم، وأعد الله لهم الجزء الجزيل، والأجر الجميل، فلماذا قال: ﴿لهم دار السلام عند ربهم﴾ وسميت الجنة دار السلام، لسلامتها من كل عيب وآفة وكدر، وهم وهم، وغير ذلك من المنغصات، ويلزم من ذلك أن يكون نعيمها في غاية الكمال، ونهاية التمام، بحيث لا يقدر على وصفه الواصفون، ولا يتمنى فوقه المتمنون، من نعيم الروح والقلب والبدن، ولهم فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

﴿وهو وليهم﴾ الذي تولى تدبيرهم وتربيته، ولطف بهم في جميع أمورهم، وأعانهم على طاعته، ويسر لهم كل سبب موصل إلى محبته، وإنما تولاهم بسبب أعمالهم الصالحة، ومقدماتهم التي قصدوا بها رضا مولاهم، بخلاف من أعرض عن

فقال: ﴿وهو الذي أنشأ جنات﴾ أي: بساتين، فيها أنواع الأشجار المتنوعة، والنباتات المختلفة.

﴿معروشات وغير معروشات﴾ أي: بعض تلك الجنات، معمول له عرش، تنتشر عليه الأشجار، ويعاونها في النهوض عن الأرض. وبعضها خال من العروش، تنبت على ساق، أو تنفرض في الأرض، وفي هذا تنبيه على كثرة منافعها وخيراتها، وأنه تعالى علم العباد كيف يعرشونها وينموها.

﴿وأنشأ تعالى النخل والزرع﴾ مختلفاً أكله: أي: كله في محل واحد، ويشرب من ماء واحد، ويفضل الله بعضه على بعض في الأكل.

وخص تعالى النخل والزرع على اختلاف أنواعه لكثرة منافعها، ولكونها هي القوت لأكثر الخلق. ﴿وأنشأ تعالى الزيتون والرمان متشابهاً﴾ في شجره ﴿وغير متشابه﴾ في ثمره وطعمه. كأنه قيل: لأي شيء أنشأ الله هذه الجنات، وما عطف عليها؟ فأخبر أنه أنشأها لمنافع العباد فقال: ﴿كلوا من ثمره﴾ أي: النخل والزرع ﴿إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده﴾ أي: أعطوا حق الزرع، وهو الزكاة ذات الأنصباء المقدرة في الشرع، أمرهم أن يعطوها يوم حصادها، وذلك لأن حصاد الزرع بمنزلة حوالان الحول، لأنه الوقت الذي تتشوف إليه نفوس الفقراء، ويسهل حينئذ إخراجه على أهل الزرع، ويكون الأمر فيها ظاهراً لمن أخرجهما، حتى يتميز المخرج ممن لا يخرج.

وقوله: ﴿ولا تسرفوا﴾ يعم النهي عن الإسراف في الأكل، وهو مجاوزة الحد والعادة، وأن يأكل صاحب الزرع أكلاً يضر بالزكاة، والإسراف في إخراج حق الزرع بحيث يخرج فوق الواجب عليه، ويضر نفسه أو عائلته أو غرماءه، فكل هذا من الإسراف الذي نهى الله عنه، الذي لا يحبه الله بل يبغضه ويعقت عليه.

وفي هذه الآية دليل على وجوب

بعض الأنعام ويعينوها - محرماً ما في بطنها على الإناث دون الذكور، فيقولون: ﴿ما في بطن هذه الأنعام خالصة لذكورنا﴾ أي: حلال لهم، لا يشاركون فيها النساء، ﴿ومحرم على أزواجنا﴾ أي: نسائنا، هذا إذا ولد حياً، وإن يكن ما [في] بطنها يولد ميتاً، فهم فيه شركاء، أي: فهو حلال للذكور والإناث.

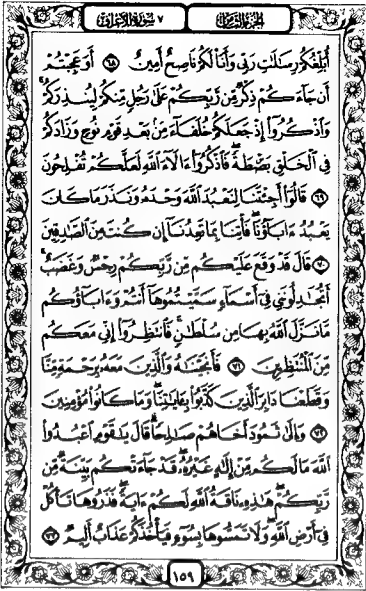
﴿سيجزيهم﴾ الله ﴿وصفهم﴾ حيث وصفوا ما أحله الله بأنه حرام، ووصفوا الحرام بالحلال، فناقضوا شرع الله وخالفوه، ونسبوا ذلك إلى الله: ﴿إنه حكيم﴾ حيث أمهل لهم، ومكنهم مما هم فيه من الضلال. ﴿عليهم﴾ بهم، لا تخفى عليه خافية، وهو تعالى يعلم بهم وبما قالوه عليه وافتروه، وهو يعافهم ويرزقهم جل جلاله.

﴿١٤٠﴾ ثم بين خسارتهم وسفاهة عقولهم فقال: ﴿قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم﴾ أي: خسروا دينهم وأولادهم وعقولهم، وصار وصفهم - بعد العقول الرزينة - السفه المردي والضلال.

﴿وحرّموا ما رزقهم الله﴾ أي: ما جعله رحمة لهم، وساقه رزقاً لهم. فردوا كرامة ربهم، ولم يكتفوا بذلك، بل وصفوها بأنها حرام، وهي من أجل الحلال.

وكل هذا ﴿افتراء على الله﴾ أي: كذباً يكذب به كل معاند كفار. ﴿قد ضلوا وما كانوا مهتدين﴾ أي: قد ضلوا ضلالاً بعيداً، ولم يكونوا مهتدين في شيء من أمورهم.

﴿١٤١﴾ ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفاً أكله والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه﴾ كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴿لما ذكر تعالى تصرف المشركين في كثير مما أحله الله لهم من الحروث والأنعام، ذكر تبارك وتعالى نعمته عليهم بذلك، ووظيفتهم اللازمة عليهم في الحروث والأنعام﴾

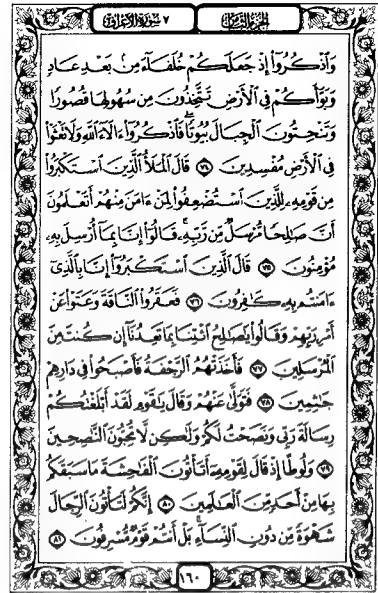


الزكاة في الثمار، وأنه لا حول لها، بل حولها حصادها في الزرع، وجذاذ النخل، وأنه لا تتكرر فيها الزكاة، لو مكثت عند العبد أحوالاً كثيرة، إذا كانت لغير التجارة، لأن الله لم يأمر بالإخراج منه إلا وقت حصاده.

وأنه لو أصابها آفة قبل ذلك بغير تفريط من صاحب الزرع والثمر، أنه لا يضمناها، وأنه يجوز الأكل من النخل والزرع قبل إخراج الزكاة منه، وأنه لا يحسب ذلك من الزكاة، بل يزكى المال الذي يبقى بعده.

وقد كان النبي ﷺ يبعث خالصاً يخرص للناس ثمارهم، ويأمره أن يدع لأهلها الثلث، أو الربع، بحسب ما يعثرها من الأكل وغيره من أهلها وغيرهم.

﴿١٤٢﴾ ﴿ومن الأنعام حولة وفرساً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾ ثمانية أزواج من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل الذكركين حزم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين نبؤوني بعلم إن كنتم صادقين * ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكركين حزم أم الأنثيين أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضلل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم



ولا الإناث الخالص من الصنفين .

بقي إذا كان الرحم مشتملاً على ذكر وأنثى ، أو على مجهول فقال : ﴿ أَمْ تَحْرِمُونَ ﴾ ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ﴿ أي : أنثى الضأن وأنثى المعز ، من غير فرق بين ذكر وأنثى ، فليست تقولون أيضاً بهذا القول .

فإذا كنتم لا تقولون بأحد هذه الأقوال الثلاثة ، التي حصرت الأقسام الممكنة في ذلك ، فإلى أي شيء تذهبون ؟

﴿ نبؤوني بعلم إن كنتم صادقين ﴾ في قولكم ودعواكم ، ومن المعلوم أنهم لا يمكنهم أن يقولوا قولاً سائغاً في العقل ، إلا واحداً من هذه الأمور الثلاثة . وهم لا يقولون بشيء منها . إنما يقولون : إن بعض الأنعام التي يصطلحون عليها اصطلاحات من عند أنفسهم ، حرام على الإنثاء دون الذكور ، أو محرمة في وقت من الأوقات ، أو نحو ذلك من الأقوال ، التي يعلم علماً لا شك فيه أن مصدرها من الجهل المركب ، والعقول المختلة المنحرفة ، والآراء الفاسدة ، وأن الله ما أنزل - بما قالوه - من سلطان ، ولا لهم عليه حجة ولا برهان .

ثم ذكر في الإبل والبقر مثل ذلك . فلما بين بطلان قولهم وفساده ، قال لهم قولاً لا حيلة لهم في الخروج من تبعته ، إلا في اتباع شرع الله . ﴿ أَمْ يَبْقَى عَلَيْكُمْ إِلا دَعْوَى ﴾ أي : لم يبق عليكم إلا دعوى ، لا سبيل لكم إلى صدقها وصحتها . وهي أن تقولوا : إن الله وضأننا بذلك ، وأوحى إلينا كما أوحى إلى رسله ، بل أوحى إلينا وحياً مخالفاً لما دعت إليه الرسل ونزلت به الكتب ، وهذا افتراء لا يجمله أحد ، ولهذا قال : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ أي : مع كذبه وافتراءه على الله ، قصده بذلك ، إضلال عباد الله عن سبيل الله ، بغير بيّنة منه ولا برهان ، ولا عقل ولا نقل . ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ الذين لا إرادة لهم في

الظالمين ﴿ أي : هو ﴾ خلق وأنشأ ﴿ من الأنعام حولة وفرشاً ﴾ أي : بعضها تحملون عليه وتركبونه ، وبعضها لا تصلح للحمل والركوب عليها لصغرها كالفصلان ونحوها ، وهي الفرس ، فهي من جهة الحمل والركوب تنقسم إلى هذين القسمين .

وأما من جهة الأكل وأنواع الانتفاع ، فإنها كلها تؤكل وينتفع بها . ولهذا قال : ﴿ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ ﴾ أي : طرقه وأعماله التي من جملتها أن تحرموا بعض ما رزقكم الله . ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ فلا يأمركم إلا بما فيه مضرركم وشقاؤكم الأبدي .

وهذه الأنعام التي امتنَّ الله بها على عباده ، وجعلها كلها حلالاً طيباً ، فصلها بأنها : ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ذكر وأنثى ﴿ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾ كذلك ، فهذه أربعة ، كلها داخلة فيما أحل الله ، لا فرق بين شيء منها ، فقل لهؤلاء المتكلفين ، الذين يحرمون منها شيئاً دون شيء ، أو يحرمون بعضها على الإنثاء دون الذكور ، ملزماً لهم بعدم وجود الفرق بين ما أباحوا منها وحرموا ﴿ الذَّكَرَيْنِ ﴾ من الضأن والمعز ﴿ حَرَمٌ ﴾ الله ، فليست تقولون بذلك وتطردونه ، ﴿ أَمْ الْأَنْثِيُّينِ ﴾ حرم الله من الضأن والمعز ، فليس هذا قولكم ، لا تحريم الذكور الخالص ،

غير الظلم والجور والافتراء على الله . ﴿ ١٤٥ - ١٤٦ ﴾ ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا يُكُونُ مِيتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمِ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أَوْ لَغِيرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطَرَّ بِغَيْرِ رِجْسٍ أَوْ لَغِيرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ وعلى الذين هادوا حرماً كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرماً عليهم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ذلك جزيناهم ببغيتهم وإننا لصادقون ﴿ لما ذكر تعالى ذم المشركين على ما حرموا من الحلال ونسبوه إلى الله ، وأبطل قولهم . أمر تعالى رسوله أن يبين للناس ما حرمه الله عليهم ، ليعلموا أن ما عدا ذلك حلال ، من نسب تحريمه إلى الله فهو كاذب مبطل ، لأن التحريم لا يكون إلا من عند الله على لسان رسوله ، وقد قال لرسوله : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ ﴾ أي : محرماً أكله ، بقطع النظر عن تحريم الانتفاع بغير الأكل وعدمه . ﴿ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِيتَةً ﴾ والميتة : ما مات بغير ذكاة شرعية ، فإن ذلك لا يحل . كما قال تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكَ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنْزِيرِ ﴾ . ﴿ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا ﴾ وهو الدم الذي يخرج من الذبيحة عند ذكائها ، فإنه الدم الذي يضر احتباسه في البدن ، فإذا خرج من البدن زال الضرر بأكل اللحم ، ومفهوم هذا اللفظ ، أن الدم الذي يبقى في اللحم والعروق بعد الذبح ، أنه حلال طاهر . ﴿ أَوْ لَحْمِ خَنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ ﴾ أي : فإن هذه الأشياء الثلاثة رجس ، أي : خبث نجس مضر ، حرمه الله لطفاً بكم ، ونزاهة لكم عن مقاربة الخبائث . ﴿ أَوْ ﴾ إلا أن يكون ﴿ فِسْقًا ﴾ أهل لغير الله به ﴿ أي : إلا أن تكون الذبيحة مذبوحة لغير الله ، من الأوثان والآلهة التي يعبدونها المشركون ، فإن هذا من الفسق الذي هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته ، أي : ومع هذا ، فهذه الأشياء المحرمة ، من اضطر إليها ، أي : حملته الحاجة والضرورة إلى أكل

شيء منها، بأن لم يكن عنده شيء وخاف على نفسه التلف ﴿غير باغ ولا عاد﴾ أي: ﴿غير باغ﴾ أي: مريد لأكلها، من غير اضطراب ولا متعبد، أي: متجاوز للحد، بأن يأكل زيادة عن حاجته. ﴿فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم﴾ أي: قاله قد سامح من كان بهذه الحال.

واختلف العلماء رحمهم الله في هذا الحصر المذكور في هذه الآية، مع أن ثم محرمات لم تذكر فيها، كالسباع وكل ذي غلب من الطير ونحو ذلك، فقال بعضهم: إن هذه الآية نازلة قبل تحريم ما زاد على ما ذكر فيها، فلا ينافي هذا الحصر المذكور فيها التحريم المتأخر بعد ذلك؛ لأنه لم يجده فيما أوحى إليه في ذلك الوقت، وقال بعضهم: إن هذه الآية مشتملة على سائر المحرمات، بعضها صريحاً، وبعضها يؤخذ من المعنى وعموم العلة.

فإن قوله تعالى في تعليل الميتة والدم ولحم الخنزير، أو الأخير منها فقط: ﴿فإنه رجس﴾ وصف شامل لكل محرم، فإن المحرمات كلها رجس وخبث، وهي من الخبائث المستقرة التي حرّمها الله على عباده، صيانة لهم وتكرمة عن مباشرة الخبيث الرجس.

ويؤخذ تفاصيل الرجس المحرم من السنة، فإنها تفسر القرآن، وتبين المقصود منه، فإذا كان الله تعالى لم يحرم من المطاعم إلا ما ذكر، والتحريم لا يكون مصدره إلا شرع الله - دل ذلك على أن المشركين، الذين حرموا ما رزقهم الله مفترّون على الله، متقولون عليه ما لم يقل.

وفي الآية احتمال قوي، لولا أن الله ذكر فيها الخنزير، وهو أن السياق في نقض أقوال المشركين المتقدمة، في تحريمهم لما أحله الله وخوضهم بذلك، بحسب ما سولت لهم أنفسهم، وذلك في بهيمة الأنعام خاصة، وليس منها محرم إلا ما ذكر في الآية: الميتة منها، وما أهل لغير الله

به، وما سوى ذلك فحلال.

ولعل مناسبة ذكر الخنزير هنا على هذا الاحتمال، أن بعض الجهال قد يدخله في بهيمة الأنعام، وأنه نوع من أنواع الغنم، كما قد يتوهمه جهلة النصارى وأشباههم، فيمنونها كما ينمون المواشي، ويستحلونها، ولا يفرقون بينها وبين الأنعام، فهذا المحرم على هذه الأمة كله^(١) من باب التنزيه لهم والصيانة.

وأما ما حرم على أهل الكتاب، فبعضه طيب ولكنه حرم عليهم عقوبة لهم ولهذا، قال: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر﴾ وذلك كالإبل وما أشبهها وحرمنا عليهم.

﴿من البقر والغنم﴾ بعض أجزائها، وهو: ﴿شحومهما﴾ وليس المحرم جميع الشحوم منها، بل شحم الألية والشرب، ولهذا استثنى الشحم الحلال من ذلك، فقال: ﴿إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا﴾ أي: الشحم المخالط للأعضاء ﴿أو ما اختلط بعظم﴾.

﴿ذلك﴾ التحريم على اليهود ﴿جزيناهم ببغيهم﴾ أي: ظلمهم وتعديهم في حقوق الله وحقوق عباده، فحرم الله عليهم هذه الأشياء عقوبة لهم ونكالاً. ﴿وإننا لصادقون﴾ في كل ما نقول ونفعل ونحكم به، ومن أصدق من الله حديثاً، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون.

﴿١٤٧﴾ ﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ أي: فإن كذبك هؤلاء المشركون، فاستمر على دعوتهم، بالترغيب والترهيب، وأخبرهم بأن الله ﴿ذو رحمة واسعة﴾ أي: عامة شاملة [لجميع] للمخلوقات كلها، فسارعوا إلى رحمة بأسبابها، التي رأسها وأسها ومادتها تصديق محمد ﷺ فيما جاء به.

﴿ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾ أي: الذين كثر إجرامهم

وذنبهم، فاحذروا الجرائم الموصلة لبأس الله، التي أعظمها ورأسها تكذيب محمد ﷺ

﴿١٤٨ - ١٤٩﴾ ﴿سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تحرصون * قل فله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين﴾ هذا إخبار من الله أن المشركين سيحتجون على شركهم وتحريمهم ما أحل الله بالقضاء والقدر، ويجعلون مشيئة الله الشاملة لكل شيء من الخير والشر، حجة لهم في دفع اللوم عنهم.

وقد قالوا ما أخبر الله أنهم سيقولونه، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء﴾ الآية.

فأخبر تعالى أن هذه الحجة لم تزل الأمم المكذبة تدفع بها عنهم دعوة الرسل ويحتجون بها، فلم تجد فيهم شيئاً ولم تنفعهم، فلم يزل هذا ذأبهم حتى أهلكهم الله وأذاقهم بأسه.

فلو كانت حجة صحيحة، لدفعت عنهم العقاب، ولما أحل الله بهم العذاب، لأنه لا يحل بأسه إلا بمن استحقه، فعلم أنها حجة فاسدة، وشبهة كاسدة من عدة أوجه:

منها: ما ذكر الله من أنها لو كانت صحيحة لم تحل بهم العقوبة.

ومنها: أن الحجة لا بد أن تكون حجة مستندة إلى العلم والبرهان، فأما إذ كانت مستندة إلى مجرد الظن والخرص الذي لا يُغني عن الحق شيئاً، فإنها باطلة، ولهذا قال: ﴿قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا﴾

كان لهم علم - وهم خصوم الأداء - لأخبروه، فلما لم يخرجوه علم أنه لا علم عندهم. ﴿إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تحرصون﴾ ومن بنى حججه على الخرص والظن، فهو مبطل

خاسر، فكيف إذا بناها على البغي والعناد والشر والفساد؟

ومنها: أن الحجة لله البالغة، التي لم تبق لأحد عذراً، التي اتفقت عليها الأنبياء والمرسلون، والكتب الإلهية، والآثار النبوية، والعقول الصحيحة، والفطر المستقيمة، والأخلاق القويمة، فعلم بذلك أن كل ما خالف هذه الأدلة^(١) القاطعة باطل، لأن نقیض الحق لا يكون إلا باطلاً.

ومنها: أن الله تعالى أعطى كل مخلوق قدرة وإرادة يتمكن بها من فعل ما كُلف به، فلا أوجب الله على أحد ما لا يقدر على فعله، ولا حرم على أحد ما لا يتمكن على تركه، فالاحتجاج بعد هذا بالقضاء والقدر، ظلم محض وعناد صرف.

ومنها: أن الله تعالى لم يجبر العباد على أفعالهم، بل جعل أفعالهم تبعاً لاختيارهم، فإن شأوا ففعلوا، وإن شأوا كفوا. وهذا أمر مشاهد لا ينكره إلا من كابر وأنكر المحسوسات، فإن كل أحد يفرق بين الحركة الاختيارية والحركة القسرية، وإن كان الجميع داخلاً في مشيئة الله، ومندرجاً تحت إرادته.

ومنها: أن المحتجين على المعاصي بالقضاء والقدر يتناقضون في ذلك. فإنهم لا يمكنهم أن يطردوا ذلك، بل لو أساء إليهم مسيء بضرب أو أخذ مال أو نحو ذلك، واحتج بالقضاء والقدرة، لما قبلوا منه هذا الاحتجاج، ولغضبوا من ذلك أشد الغضب.

فيا عجباً كيف يحتجون به على معاصي الله ومساخطه، ولا يرضون من أحد أن يحتج به في مقابلة مساخطهم؟!!

ومنها: أن احتجاجهم بالقضاء والقدرة ليس مقصوداً، ويعلمون أنه ليس بحجة، وإنما المقصود منه دفع الحق، ويرون أن الحق بمنزلة الصائل، فهم يدفعونه بكل ما يخطر ببالهم من

الكلام وإن كانوا يعتقدونه خطأ^(٢).

﴿١٥٠﴾ ﴿قل هللم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾ أي: قل لمن حرم ما أحل الله، ونسب ذلك إلى الله: أحضروا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا، فإذا قيل لهم هذا الكلام، فهم بين أمرين:

إما: أن لا يحضروا أحداً يشهد بهذا، فتكون دعواهم إذاً باطلة، خلية من الشهود والبرهان.

وإما: أن يحضروا أحداً يشهد لهم بذلك، ولا يمكن أن يشهد بهذا إلا كل أفاك أثيم غير مقبول الشهادة، وليس هذا من الأمور التي يصح أن يشهد بها العدول؛ ولهذا قال تعالى - ناهياً نبيه وأتباعه عن هذه الشهادة -: ﴿فإن شهدوا فلا تشهد معهم ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾ أي: يسوون به غيره من الأنداد والأوثان.

فإذا كانوا كافرين باليوم الآخر غير موحدين لله، كانت أهويتهم مناسبة لعقيدتهم، وكانت دائرة بين الشرك والتكذيب بالحق، فحري بهوى هذا شأنه، أن ينهى الله خيار خلقه عن اتباعه، وعن الشهادة مع أربابه، وعلم حينئذ أن تحریمهم لما أحل الله صادر عن تلك الأهواء المضلة.

﴿١٥١-١٥٣﴾ ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا تكلف

نفساً إلا وسمها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون﴾ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل﴾ لهؤلاء الذين حرموا ما أحل الله: ﴿تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم﴾ تحريماً عاماً شاملاً لكل أحد، محتوياً على سائر المحرمات، من المأكول والمشرب والأقوال والأفعال. ﴿ألا تشركوا به شيئاً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً.

وحقيقة الشرك بالله: أن يعبد المخلوق كما يعبد الله، أو يعظم كما يعظم الله، أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والإلهية، وإذا ترك العبد الشرك كله صار موحداً، مخلصاً لله في جميع أحواله، فهذا حق الله على عباده، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

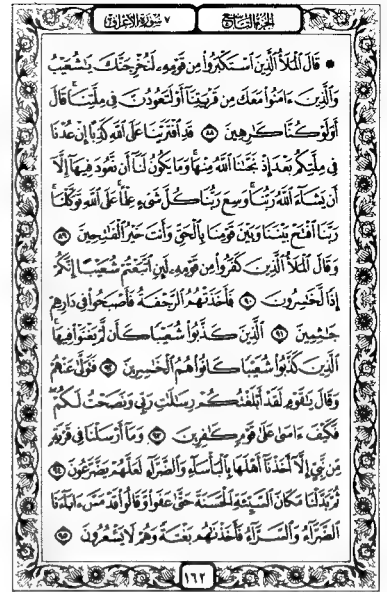
ثم بدأ يؤكد الحقوق بعد حقه فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ من الأقوال الكريمة الحسنة، والأفعال الجميلة المستحسنة، فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما، فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان انتفى العقوق.

﴿ولا تقتلوا أولادكم﴾ من ذكور وإناث ﴿من إملاق﴾ أي: بسبب الفقر وضيقكم من رزقهم، كما كان ذلك موجوداً في الجاهلية القاسية الظالمة، وإذا كانوا متهيين عن قتلهم في هذه الحال وهم أولادهم، فنهيمهم عن قتلهم لغير موجب، أو قتل أولاد غيرهم من باب أولى وأحرى.

﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ أي: قد تكفلنا برزق الجميع، فلستم الذين ترزقون أولادكم، بل ولا أنفسكم، فليس عليكم منهم ضيق. ﴿ولا تقربوا الفواحش﴾ وهي: الذنوب العظام المستفحشة، ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾

(١) في ب: الآية.

(٢) في ب: من الكلام المصيب عندهم والمخطيء.



من أمة موسى، فإن الله أنعم على المحسنين منهم بنعم لا تحصى. من جعلتها وتماها إنزال التوراة عليهم. فتمت عليهم نعمة الله، ووجب عليهم القيام بشكرها.

«وتفصيلاً لكل شيء» يحتاجون إلى تفصيله، من الحلال والحرام، والأمر والنهي، والعقائد ونحوها. «وهدى ورحمة» أي: يهديهم إلى الخير، ويعرفهم بالشر، في الأصول والفروع. «ورحمة» يحصل به لهم السعادة والرحمة والخير الكثير. «لعلهم» بسبب إنزالنا الكتاب والبيانات عليهم «بلقاء ربهم يؤمنون» فإنه اشتمل من الأدلة القاطعة على البعث والجزاء بالأعمال، ما يوجب لهم الإيمان بقاء ربهم والاستعداد له.

«وهذا» القرآن العظيم، والذكر الحكيم. «كتاب أنزلناه مبارك» أي: فيه الخير الكثير والعلم العزيز، وهو الذي تستمد منه سائر العلوم، وتستخرج منه البركات، فما من خير إلا وقد دعا إليه ورغب فيه، وذكر الحكم والمصالح التي تحت عليه، وما من شر، إلا وقد نهى عنه وحذر منه، وذكر الأسباب المنفرة عن فعله وعواقبها الوحشية «فاتبعوه» فيما يأمر به وينهى، وابتوا أصول دينكم وفروعه عليه «واتقوا» الله تعالى أن تحالفوا له أمراً «لعلكم» إن اتبعتموه «ترحمون»

فأكبر سبب لنيل رحمة الله اتباع هذا الكتاب علماً وعملاً.

«أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين» أي: أنزلنا إليكم هذا الكتاب المبارك قطعاً لحجتكم، وخشية أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا، أي: اليهود والنصارى.

«وإن كنا عن دراستهم لغافلين» أي: تقولون لم تنزل علينا كتاباً، والكتب التي أنزلتها على الطائفتين ليس لنا بها علم ولا معرفة، فأنزلنا إليكم كتاباً، لم ينزل من السماء كتاب أجمع ولا أوضح ولا أبين منه.

«أو تقولوا لو أننا أنزل علينا الكتاب لكننا أهدى منهم» أي: إما أن تعتذروا بعدم وصول أصل الهداية إليكم، وإما أن تعتذروا، [بعدم] بكمالها وتماها، فحصل لكم بكتابتكم أصل الهداية وكمالها، ولهذا قال: «فقد جاءكم بينة من ربكم» وهذا اسم جنس يدخل فيه كل ما يبين الحق «وهدى» من الضلالة «ورحمة» أي: سعادة لكم في دينكم ودنياكم، فهذا يوجب لكم الانقياد لأحكامه والإيمان بأخباره، وأن من لم يرفع به رأساً وكذب به، فإنه أظلم الظالمين، ولهذا قال: «فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها» أي: أعرض ونأى بجانبيه.

«ستجزي الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب» أي: العذاب الذي يسوء صاحبه ويشق عليه. «بما كانوا يصدفون» لأنفسهم ولغيرهم، جزاء لهم على عملهم السيئ «وما ربك بظلام للعبيد».

وفي هذه الآيات دليل على أن علم القرآن أجل العلوم وأبركها وأوسعها، وأنه به تحصل الهداية إلى الصراط المستقيم، هداية تامة لا يحتاج معها إلى تحريض المتكلمين، ولا إلى أفكار المتفلسفين، ولا لغير ذلك من علوم الأولين والآخرين.

وأن المعروف أنه لم ينزل جنس الكتاب إلا على الطائفتين، [من] اليهود والنصارى، فهم أهل الكتاب عند

الإطلاق، لا يدخل فيهم سائر الطوائف، لا المجوس ولا غيرهم.

وفيه: ما كان عليه الجاهلية قبل نزول القرآن، من الجهل العظيم وعدم العلم بما عند أهل الكتاب، الذين عندهم مادة العلم وغفلتهم عن دراسة كتبهم.

«هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربكم يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون» يقول تعالى: هل ينظر هؤلاء الذين استمر ظلمهم وعنادهم، «إلا أن تأتيهم» مقدمات العذاب، ومقدمات الآخرة بأن تأتيهم «الملائكة» لقبض أرواحهم، فإنهم إذا وصلوا إلى تلك الحال لم ينفعهم الإيمان ولا صالح الأعمال. «أو يأتي ربك» لفصل القضاء بين العباد، ومجازاة المحسنين والمسيئين. «أو يأتي بعض آيات ربك» الدالة على قرب الساعة.

«يوم يأتي بعض آيات ربك» الخارقة للعادة، التي يعلم بها أن الساعة قد دنت، وأن القيامة قد اقتربت. «لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً» أي: إذا وجد بعض آيات الله لم ينفع الكافر إيمانه أن آمن، ولا المؤمن المقصر أن يزداد خيره بعد ذلك، بل ينفعه ما كان معه من الإيمان قبل ذلك، وما كان له من الخير المرجو قبل أن يأتي بعض الآيات.

والحكمة في هذا ظاهرة، فإنه إنما كان الإيمان ينفع إذا كان إيماناً بالغيب، وكان اختياراً من العبد، فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة، لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت أقبل عماً هو فيه، كما قال تعالى: «فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده، وكفرنا بما كنا به مشركين. فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا، سنة الله التي قد خلت في عباده».

أديان أهل الانحراف، كاليهود والنصارى والمشرىين .

وهذا عموم، ثم خصص من ذلك أشرف العبادات فقال: ﴿قل إن صلاتي ونسكي﴾ أي: ذبىي، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على عجة الله تعالى، وإخلاص الدين له، والتقرب إليه بالقلب واللسان والجوارح، وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله تعالى .

ومن أخلص في صلاته ونسكه، استلزم ذلك إخلاصه لله في سائر أعماله . وقوله: ﴿وعماي وعماي﴾ أي: ما أتى في حياتي، وما يجريه الله علي، وما يقدر علي في مماتي الجميع ﴿الله رب العالمين لا شريك له﴾ في العبادة، كما أنه ليس له شريك في الملك والتدبير، وليس هذا الإخلاص لله ابتداءً مني، وبدعاً أتيت من تلقاء نفسي، بل ﴿بذلك أمرت﴾ أمراً حتماً، لا أخرج من التبعة إلا بامتثاله ﴿وأنا أول المسلمين﴾ من هذه الأمة .

﴿قل أغير الله﴾ من المخلوقين ﴿أبغى رباً﴾ أي: أيحسن ذلك ويليق بي، أن أأخذ غيره مريباً ومدبراً والله رب كل شيء، فالحق كلهم داخلون تحت ربوبيته، متقادون لأمره؟!!

فتعين علي وعلى غيري، أن يتخذ الله رباً، ويرضى به، وألا يتعلق بأحد من المربوبين الفقراء العاجزين .

ثم رغب ورهب بذكر^(١) الجزاء فقال: ﴿ولا تكسب كل نفس﴾ من خير وشر ﴿إلا عليها﴾ كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾ .

﴿ولا تزر وزر أخرى﴾ بل كل عليه وزر نفسه، وإن كان أحد قد تسبب في ضلال غيره ووزره، فإن عليه وزر التسبب من غير أن ينقص من وزر المباشري شيء .

﴿ثم إلى ربكم مرجعكم﴾ يوم

بالاجتماع والائتلاف، وينهى عن التفرق والاختلاف في أهل الدين، وفي سائر مسائله الأصولية والفروعية . وأمره أن يتبرأ عن فرقوا دينهم فقال: ﴿لست منهم في شيء﴾ أي: لست منهم وليسوا منك، لأنهم خالفوك وعاندوك ﴿إنما أمرهم إلى الله﴾ يردون إليه فيجازيهم بأعمالهم ﴿ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾ .

ثم ذكر صفة الجزاء، فقال: ﴿من جاء بالحسنة﴾ القولية والفعلية، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله أو حق خلقه ﴿فله عشر أمثالها﴾ هذا أقل ما يكون من التضعيف .

﴿ومن جاء بالسيسة فلا يجزى إلا مثلها﴾ وهذا من تمام عدله تعالى وإحسانه، وأنه لا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وهم لا يظلمون﴾ .

﴿١٦١ - ١٦٥﴾ ﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشرىين﴾ قل إن صلاتي ونسكي وعماي وعماي لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين * قل أغير الله أبغى رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون * وهو الذي جعلكم خلأفف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾

تعالى نبيه ﷺ أن يقول ويعلم بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم: الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة والأعمال الصالحة، والأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصاً إمام الخنفاء، ووالد من بعث من بعد موته من الأنبياء، خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو الدين الخفيف المائل عن كل دين غير مستقيم، من

وقد تكاثرت الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ أن المراد ببعض آيات الله، طلوع الشمس من مغربها، وأن الناس إذا رأوها آمنوا، فلم ينفعهم إيمانهم، ويغلق حيثذ باب التوبة . ولما كان هذا وعيداً للمكذبين بالرسول ﷺ منتظراً، وهم ينتظرون بالنبي ﷺ وأتباعه قوارع الدهر ومصائب الأمور، قال: ﴿قل انتظروا إنا منتظرون﴾ فستعلمون أينأ أحق بالأمن .

وفي هذه الآية دليل لمذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الأفعال الاختيارية لله تعالى، كالاستواء والنزول، والإتيان لله تبارك وتعالى، من غير تشبيه له بصفات المخلوقين .

وفي الكتاب والسنة من هذا شيء كثير، وفيه أن من جملة أشرط الساعة طلوع الشمس من مغربها . وأن الله تعالى حكيم قد جرت عادته وسنته، أن الإيمان إنما ينفع إذا كان اختيارياً لا اضطرارياً، كما تقدم .

وأن الإنسان يكتسب الخير بإيمانه . فالطاعة والبر والتقوى إنما تنفع وتنمو إذا كان مع العبد الإيمان . فإذا خلا القلب من الإيمان لم ينفعه شيء من ذلك .

﴿١٥٩ - ١٦٠﴾ ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون﴾ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيسة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾ يتوعد تعالى الذين فرقوا دينهم، أي: شتتوه وتفرقوا فيه، وكل أخذ لنفسه نصيباً من الأسماء التي لا تفيد الإنسان في دينه شيئاً، كاليهودية والنصرانية والمجوسية . أو لا يكمل بها إيمانه، بأن يأخذ من الشريعة شيئاً ويجعله دينه، ويدع مثله، أو ما هو أولى منه، كما هو حال أهل الفرقة من أهل البدع والضلال والمفرقين للأمة . ودلت الآية الكريمة أن الدين يأمر

القيامة ﴿فَيُنْثِقُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من خير وشر، ويمجازكم على ذلك، أوفى الجزاء.

﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾ أي: يخلف بعضكم بعضاً، واستخلفكم الله في الأرض، وسخر لكم جميع ما فيها، وابتلاككم، لينظر كيف تعملون.

﴿ورفع بعضكم فوق بعض درجات﴾ في القوة والعافية، والرزق والخلق والخلق. ﴿ليبلوكم فيما آتاكم﴾ فتفاوتت أعمالكم. ﴿إن ريك سريع العقاب﴾ لمن عصاه وكذب بآياته ﴿وإنه لغفور رحيم﴾ لمن آمن به وعمل صالحاً، وتاب من الموبقات.

آخر تفسير سورة الأنعام، فله الحمد والثناء وصلى الله وسلم على نبينا محمد [وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين] (١).

المجلد الثالث من تفسير الرحمن في تفسير القرآن لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السدي.

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة الأعراف مكية

﴿٧-١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون ﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين ﴿فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين﴾ يقول تعالى لرسوله

محمد ﷺ مبيناً له عظمة القرآن: ﴿كتاب أنزل إليك﴾ أي: كتاب جليل حوى كل ما يحتاج إليه العباد، وجميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، محكماً مفصلاً ﴿فلا يكن في صدرك حرج منه﴾ أي: ضيق وشك واشتباه، بل لتعلم أنه تنزيل من حكيم حميد ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ وأنه أصدق الكلام فلينشرح له صدرك، ولتطمئن به نفسك، ولتصدع بأوامره ونواهيه، ولا تحش لائماً ومعارضاً.

﴿لتنذره﴾ الخلق، فتعظهم وتذكرهم، فتقوم الحجة على المعاندين. ﴿و﴾ ليكون ﴿ذكرى للمؤمنين﴾ كما قال تعالى: ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ يتذكرون به الصراط المستقيم، وأعماله الظاهرة والباطنة، وما يحول بين العبد وبين سلوكه.

ثم خاطب الله العباد، وألفتهم إلى الكتاب فقال: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم﴾ أي: الكتاب الذي أريد إنزاله لأجلكم، وهو ﴿من ربكم﴾ الذي يريد أن يتم تربيته لكم، فأنزل عليكم هذا الكتاب الذي، إن اتبعتموه كملت تربيتكم، وقمت عليكم النعمة، وهديتم لأحسن الأعمال والأخلاق ومعاليها ﴿ولا تتبعوا من دونه أولياء﴾ أي: تتولونهم وتتبعون أهواءهم، وتتركون لأجلها الحق.

﴿قليلاً ما تذكرون﴾ فلو تذكروا وعرفتكم المصلحة، لما أثرت الضار على النافع، والعدو على الولي. ثم حذرهم عقوباته للأمم الذين كذبوا ما جاءهم به رسلهم، لثلاً يشابهوهم (٢) فقال: ﴿وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا﴾ أي: عذابنا الشديد ﴿بياتاً أو هم قائلون﴾ أي: في

حين غفلتهم، وعلى غرتهم غافلون، لم يخطر الهلاك على قلوبهم. فحين جاءهم العذاب لم يدفعوه عن أنفسهم، ولا أغنت عنهم آلهتهم التي كانوا يرجونهم، ولا أنكروا ما كانوا يفعلونه من الظلم والمعاصي.

﴿فما كان دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين﴾ كما قال تعالى: ﴿وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين﴾ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أنترفتم فيه ومساکنکم لعلکم تسألون﴾ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴿فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾.

وقوله: ﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ أي: لنسألن الأمم الذين أرسل الله إليهم المرسلين، عما أجابوا به رسلهم ﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبت المرسلين﴾ الآيات.

﴿ولنسألن المرسلين﴾ عن تبليغهم لرسالات ربهم، وعما أجابتهم به أمهم.

﴿فلنقصن عليهم﴾ أي: على الخلق كلهم ما عملوا ﴿بعلم﴾ منه تعالى لأعمالهم ﴿وما كنا غائبين﴾ في وقت من الأوقات، كما قال تعالى: ﴿أحصاه الله ونسوه﴾ وقال تعالى: ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين﴾.

﴿٨-٩﴾ ثم ذكر الجزاء على الأعمال، فقال: ﴿والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون﴾ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴿أي: والوزن يوم القيامة يكون بالعدل والقسط، الذي لا جور

(١) زيادة من ب، وقد جاء بعدها قول الناسخ: (وكان الفراغ من كتابته في يوم الجمعة الموافق خمس وعشرين من جمادى الآخرة، سنة ١٣٤٥هـ، بقلم الفقير إلى ربه المتان: علي الحسن العلي الحسن البريكان، وقد نسخه على نسخة المؤلف غفر الله له وأثابه على ذلك الثواب الجزيل، وجزاه الله عتاً وعن جميع المسلمين أفضل الجزاء في دار الجزاء، وأدخله الله برحمته فسيح الجنان، ووقانا وإياه عذاب النيران بفضلته وكرمه، إنه قريب مجيب، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آمين ثم آمين يا رب العالمين).

(٢) في ب: فلا يشابهوهم.

عوراتهما، ولما ظهرت عوراتهما خجلا وجعلا يخلصان على عوراتهما من أوراق شجر الجنة، ليستترا بذلك. ﴿وناداهما ربهما﴾ وهما بتلك الحال موبخاً ومعاتباً: ﴿ألم أنهيكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين﴾ فلم اقتربتما المنهي، وأطعتما عدوكما؟ فحينئذ من الله عليهما بالتوبة وقبولها، فاعترفا بالذنب، وسألا من الله مغفرته فقالا: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي: قد فعلنا الذنب، الذي نهيتنا عنه، وضرينا أنفسنا باقتراف الذنب، وقد فعلنا سبب الخسار إن لم تغفر لنا، بمحو أثر الذنب وعقوبته، وترحمنا بقبول التوبة والمعافة من أمثال هذه الخطايا. فغفر الله لهما ذلك ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾. ثم اجتبه ربه قتاب عليه وهدى.

هذا وإبليس مستمر على طغيانه، غير مقلع من عصيانه، فمن أشبه آدم بالاعتراف وسؤال المغفرة والندم والإقلاع - إذا صدرت منه الذنوب - اجتبه الله وهداه.

ومن أشبه إبليس - إذا صدر منه الذنب، لا يزال يزداد من المعاصي - فإنه لا يزداد من الله إلا بعداً.

﴿٢٥ - ٢٦﴾ ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون﴾ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوآتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون﴾ أي: لما أهبط الله آدم وزوجته وذريتهما إلى الأرض، أخبرهما بحال إقامتهم فيها، وأنه جعل لهم فيها حياة يتلوها الموت، مشحونة بالامتحان والابتلاء، وأنهم لا يزالون فيها، يرسل إليهم رسله، وينزل عليهم كتبه، حتى يأتهم الموت، فيدفنون فيها، ثم إذا استكملوا بعثهم الله وأخرجهم منها إلى الدار التي هي الدار حقيقة، التي هي دار المقامة.

ثم امتن عليهم بما يسر لهم من اللباس الضروري، واللباس الذي

﴿١٩ - ٢٣﴾ ﴿ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين﴾ فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما ووري عنهما من سواتهما وقال ما ناكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين * فدلها بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخلصان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهيكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين * قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ أي:

أمر الله تعالى آدم وزوجته حواء، التي أنعم الله بها عليه ليسكن إليها، أن يأكلا من الجنة حيث شاءا ويتمتعاً فيها بما أَرادَا، إلا أنه عين لهما شجرة، ونهاهما عن أكلها، والله أعلم ما هي، وليس في تعيينها فائدة لنا. وحزم عليهما أكلها، بدليل قوله: ﴿فتكونا من الظالمين﴾ فلم يزالا محتشلين لأمر الله، حتى تغلغل إليهما عدوهما إبليس بمكره، فوسوس لهما وسوسة خدعهما بها، وموه عليهما وقال: ﴿ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين﴾ أي: من جنس الملائكة ﴿أو تكونا من الخالدين﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾ ومع قوله هذا أقسم لهما بالله ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ أي: من جملة الناصحين حيث قلت لكما ما قلت، فاغترا بذلك، وغلبت الشهوة في تلك الحال على العقل.

﴿فدلها﴾ أي: نزلها عن رتبتهما العالية، التي هي البعد عن الذنوب والمعاصي إلى التلوث بأوضارها، فأقدا على أكلها.

﴿فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما﴾ أي: ظهرت عورة كل منهما بعدما كانت مستورة، فصار العري الباطن من التقوى في هذه الحال أثر في اللباس الظاهر، حتى انخلع فظهرت



ولما علم الخبيث أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم، وكان جازماً ببذل مجهوده على إغوائهم، ظن وصدق ظنه فقال: ﴿ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾ فإن القيام بالشكر من سلوك الصراط المستقيم، وهو يريد صدهم عنه، وعدم قيامهم به، قال تعالى: ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾.

وإنما نبهنا الله على ما قال وعزم على فعله، لناخذ منه حذرنا ونستعد لعدونا، ونحترز منه بعلمنا، بالطرق التي يأتي منها، ومداخله التي ينفذ منها، فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة.

﴿١٨﴾ ﴿قال اخرج منها مذموماً مدحوراً لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾ أي: قال الله لإبليس لما قال ما قال: ﴿اخرج منها﴾ خروج صغار واحتقار، لا خروج إكرام بل ﴿مذموماً﴾ أي: مذموماً ﴿مدحوراً﴾ مبعداً عن الله وعن رحمته وعن كل خير.

﴿لأملأن جهنم﴾ منك ومن تبعك منهم ﴿أجمعين﴾ وهذا قسم منه تعالى أن النار دار العصاة، لا بد أن يملأها من إبليس وأتباعه من الجن والإنس.

ثم حذر آدم شره وفتنته فقال:



بالعدل والإخلاص، وفيه دليل على أن الهداية بفضل الله ومته، وأن الضلالة بخذلانه للعبد، إذا تولى - بجعله وظلمه - الشيطان، وتسبب لنفسه بالضلال، وأن من حسب أنه مهتد وهو ضال، أنه لا عذر له، لأنه متمكن من الهدى، وإنما أناه حسباناً من ظلمه بترك الطريق الموصل إلى الهدى.

﴿٣١﴾ يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴿٣٢﴾ يقول تعالى - بعدما أنزل على بني آدم لباساً يوارى سواهم وريشاً: ﴿يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ أي: استروا عورتكم عند الصلاة كلها، فرضها ونفلها، فإن سترها زينة للبدن، كما أن كشفها يدع البدن قبيحاً مشوهاً.

ويحتمل أن المراد بالزينة هنا ما فوق ذلك من اللباس التنظيف الحسن، ففي هذا الأمر بستر العورة في الصلاة، وبإستعمال التجميل فيها، ونظافة السترة من الأذناس والأنجاس.

ثم قال: ﴿وكلوا واشربوا﴾ أي: مما رزقكم الله من الطيبات ﴿ولا تسرفوا﴾ في ذلك، والإسراف إما أن يكون بالزيادة على القدر الكافي والشره في المأكولات الذي يضر بالجسم، وإما أن يكون بزيادة الترفه والتنوق في المآكل والمشرب واللباس، وإما بتجاوز

الحلال إلى الحرام.

﴿إنه لا يحب المسرفين﴾ فإن السرف يبغضه الله، ويضر بدن الإنسان ومعيشته، حتى إنه ربما أدت به الحال إلى أن يعجز عما يجب عليه من النفقات، ففي هذه الآية الكريمة الأمر بتناول الأكل والشرب، والنهي عن تركهما، وعن الإسراف فيهما.

﴿٣٢-٣٣﴾ ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون﴾ قل إنما حرم رب الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعملون ﴿يقول تعالى منكراً على من تعنت، وحرم ما أحل الله من الطيبات﴾ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده ﴿من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه، والطيبات من الرزق، من مأكّل ومشرب بجميع أنواعه، أي: من هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله بها على العباد، ومن ذا الذي يضيق عليهم ما وسعه الله!!

وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات، جعله لهم ليستعينوا به على عبادته، فلم يبيحه إلا لعباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ أي: لا تبعة عليهم فيها.

ومفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله، بل استعان بها على معاصيه، فإنها غير خالصة له ولا مباحة، بل يعاقب عليها وعلى التمتع بها، ويسأل عن النعيم يوم القيامة.

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ أي: نوضحها ونبينها ﴿للقوم يعلمون﴾ لأنهم الذين ينتفعون بما فصله الله من الآيات، ويعلمون أنها من عند الله، فيعقلونها ويفهمونها.

ثم ذكر المحرمات التي حرّمها الله في كل شريعة من الشرائع فقال: ﴿قل إنما حرم رب الفواحش﴾ أي: الذنوب

الكبار التي تستفحش وتستقبح لشناعتها وقبحها، وذلك كالزنا واللواط ونحوهما.

وقوله: ﴿ما ظهر منها وما بطن﴾ أي: الفواحش التي تتعلق بحركات البدن، والتي تتعلق بحركات القلوب، كالكبر والعجب والرياء والنفاق، ونحو ذلك، ﴿والإثم والبغي بغير الحق﴾ أي: الذنوب التي تؤثم وتوجب العقوبة في حقوق الله، والبغي على الناس في دمانهم وأموالهم وأعراضهم، فدخل في هذا الذنوب المتعلقة بحق الله، والمتعلقة بحق العباد.

﴿وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً﴾ أي: حجة، بل أنزل الحجة والبرهان على التوحيد. والشرك هو أن يشرك مع الله في عبادته أحد من الخلق، وربما دخل في هذا الشرك الأصغر كالرياء، والحلف بغير الله، ونحو ذلك.

﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾ في أسمائه وصفاته وأفعاله وشرعه، فكل هذه قد حرّمها الله، ونهى العباد عن تعاطيها، لما فيها من المفساد الخاصة والعامة، ولما فيها من الظلم والتجري على الله، والاستطالة على عباد الله، وتغيير دين الله وشرعه.

﴿٣٤﴾ ﴿ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ أي: وقد أخرج الله بني آدم إلى الأرض، وأسكنهم فيها، وجعل لهم أجلاً مسمى لا تتقدم أمة من الأمم على وقتها المسمى، ولا تتأخر، لا الأمم المجتمعة ولا أفرادها.

﴿٣٥-٣٦﴾ ﴿يا بني آدم إنا يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿لما أخرج الله بني آدم من الجنة، ابتلاهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب عليهم يقصون عليهم آيات الله ويبينون لهم

أحكامه، ثم ذكر فضل من استجاب لهم، وخسار من لم يستجب لهم فقال: ﴿فمن اتقى﴾ ما حرم الله، من الشرك والكبائر، والصغائر، ﴿وأصلح﴾ أعماله الظاهرة والباطنة ﴿فلا خوف عليهم﴾ من الشر الذي قد يخافه غيرهم ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما مضى، وإذا انتفى الخوف والحزن حصل الأمن التام، والسعادة، والفلاح الأبدي.

﴿والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها﴾ أي: لا آمنت بها قلوبهم، ولا انقادت لها جوارحهم، ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ كما استهانوا بآياته، ولازموا التكذيب بها أهينوا بالعذاب الدائم الملازم.

﴿٣٧﴾ «فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أينما كنتم ندعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين» أي: لا أحد أظلم «ممن افترى على الله كذباً» بنسبة الشريك له، أو النقص له، أو التقول عليه ما لم يقل، «أو كذب بآياته» الواضحة البينة للحق المبين، الهادية إلى الصراط المستقيم، فهؤلاء وإن تمتعوا بالدنيا، ونالهم نصيبهم مما كان مكتوباً لهم في اللوح المحفوظ، فليس ذلك بمغنى عنهم شيئاً، يتمتعون قليلاً، ثم يعذبون طويلاً، «حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم» أي: الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم واستيفاء آجالهم. «قالوا» لهم في تلك الحالة توبيخاً وعتاباً «أين ما كنتم تدعون من دون الله» من الأصنام والأوثان، فقد جاء وقت الحاجة إن كان فيها منفعة لكم أو دفع مضرة. «قالوا ضلوا عنا» أي: اضمحلوا وبطلوا، وليسوا مغنين عنا من عذاب الله من شيء.

﴿وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين﴾
مستحقين للعذاب المهيمن الدائم.

فَقَالَتْ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ﴿ادْخُلُوا فِي﴾
 أُمَمٍ ﴿أَيَ﴾: فِي جَمَلَةٍ أُمَمٍ ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ﴾
 قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ﴿أَيَ﴾: مَضَوْا

على ما مضيتم عليه من الكفر والاستكبار، فاستحق الجميع الخزي والبوار، كلما دخلت أمة من الأمم العاتية النار ﴿لَعنت أختها﴾ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعْلَنَ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ ﴿حتى إذا أداركوا فيها جميعاً﴾ أي: اجتمع في النار جميع أهلها، من الأولين والآخرين، والقادة والرؤساء، والمقلدين الأتباع.

﴿قَالَتْ أَخْرِاهُمْ أَي: متأخروهم، المتبعون للرؤساء
﴿لأولاهم﴾ أَي: لرؤسائهم، شاكين
إلى الله إضلالهم إياهم: ﴿ربنا هؤلاء
أضلونا فأتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾
أَي: عذبهم عذاباً مضاعفاً لأنهم
أضلونا، وزينوا لنا الأعمال الحثيثة.

﴿٣٩﴾ **وَقَالَتِ الْوُحَاةُ لِأَخَرَاهُمْ** : أَي: الرؤساء قالوا لاتباعهم: **﴿فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾** أَي: قد اشرطنا جميعاً في الغي والضلال، وفي فعل أسباب العذاب، فأي: فضل لكم علينا؟ **﴿قَالَ اللَّهُ لِكُلِّ مِنْكُمْ دُعَاءٌ﴾** وَنُصِيبُ مِنَ الْعَذَابِ.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ ولكنه من المعلوم أن عذاب الرؤساء وأئمة الضلال، أبلغ وأشنع من عذاب الأنبياء، كما أن نعيم أئمة الهدى ورؤسائه أعظم من ثواب الأنبياء، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زَنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ فهذه الآيات ونحوها، دلت على أن سائر أنواع المكذبين بآيات الله، يخلدون في العذاب، مشتركون فيه وفي أصله، وإن كانوا متفاوتين في مقداره، بحسب أعمالهم وعنادهم وظلمهم وافتراءهم، وأن مودتهم التي كانت بينهم في الدنيا تنقلب يوم القيامة عداوة وملاعة.

﴿٤٠ - ٤١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا
بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تَفْتَحْ لَهُمْ
أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى
يَلْبِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ

[illegible]



ومأواه النار. وقال هنا ﴿وكذلك نجزي المجرمين﴾ أي: الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم.

﴿لهم من جهنم مهاد﴾ أي: فراش من تحتهم ﴿ومن فوقهم غواش﴾ أي: ظلل من العذاب، تغشاهم. ﴿وكذلك نجزي الظالمين﴾ لأنفسهم، جزاء وفاقا، وماربك بظلام للعبيد.

﴿٤٢ - ٤٣﴾ ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفساً إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ ونزعنا ما في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلکم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون ﴿لما ذكر الله تعالى عقاب العاصين الظالمين، ذكر ثواب المطيعين فقال: ﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم ﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم، فجمعوا بين الإيمان والعمل، بين الأعمال الظاهرة والأعمال الباطنة، بين فعل الواجبات وترك المحرمات، ولما كان قوله: ﴿وعملوا الصالحات﴾ لفظاً عاماً يشمل جميع الصالحات الواجبة والمستحبة، وقد يكون بعضها غير مقدور للعبد، قال تعالى: ﴿لا نكلف نفساً إلا وسعها﴾ أي: بمقدار ما تسعه طاقتها، ولا يعسر على قدرتها، فعليها في هذه

الحال أن تتقي الله بحسب استطاعتها، وإذا عجزت عن بعض الواجبات التي يقدر عليها غيرها سقطت عنها، كما قال تعالى: ﴿لا يكلف الله نفساً إلا وسعها﴾ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاه ﴿ما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ فاتقوا الله ما استطعتم ﴿فلا واجب مع العجز، ولا محرم مع الضرورة.

﴿أولئك﴾ أي: المتصفون بالإيمان والعمل الصالح ﴿أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ أي: لا يحولون عنها ولا يبغون بها بدلاً، لأنهم يرون فيها من أنواع اللذات وأصناف المشتيات ما تقف عنده الغايات، ولا يطلب أعلى منه.

﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ وهذا من كرمه وإحسانه على أهل الجنة، أن الغل الذي كان موجوداً في قلوبهم، والتنافس الذي بينهم، أن الله يقلعه ويزيله حتى يكونوا إخواناً متحابين، وأخلاء متصافين.

قال تعالى: ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين﴾ ويخلق الله لهم من الكرامة ما به يحصل لكل واحد منهم الغبطة والسرور، ويرى أنه لا فوق ما هو فيه من النعيم نعيم، فهذا يأمنون من التحاسد والتباغض، لأنه قد فقدت أسبابه.

وقوله: ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي: يفجرونها تفجيراً، حيث شاؤوا، وأيسن أرادوا، إن شاءوا في خلال القصور، أو في تلك الغرف العاليات، أو في رياض الجنات، من تحت تلك الحدائق الزاهرات أنهار تجري في غير أخدود، وخيرات ليس لها حد محدود ﴿و﴾ لهذا لما رأوا ما أنعم الله عليهم وأكرمهم به ﴿قالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا﴾ بأن من علينا وأوحى إلى قلوبنا، فآمنت به، وانتادت للأعمال الموصلة إلى هذه الدار، وحفظ الله علينا إيماننا وأعمالنا، حتى أوصلنا بها إلى هذه الدار، فنعم الرب الكريم، الذي ابتدأنا بالنعيم، وأسدى من النعم

الظاهرة والباطنة مالا يحصىه المحصون، ولا يعده العادون، ﴿وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله﴾ أي: ليس في نفوسنا قابلية للهدى، لولا أنه تعالى من بهديته واتباع رسله.

﴿لقد جاءت رسل ربنا بالحق﴾ أي: حين كانوا يتمتعون بالنعيم الذي أخبرت به الرسل، وصار حق يقين لهم بعد أن كان علم يقين ﴿لهم﴾، قالوا لقد تحققنا، ورأينا ما وعدتنا به الرسل، وأن جميع ما جاؤوا به حق اليقين، لا مرية فيه ولا إشكال، ﴿ونودوا﴾ تنهتة لهم وإكراماً، وتحية واحتراماً، ﴿أن تلکم الجنة أورثتموها﴾ أي: كنتم الوارثين لها، وصارت إقطاعاً لكم، إذ كان إقطاع الكفار النار، أورثتموها ﴿بما كنتم تعملون﴾.

قال بعض السلف: أهل الجنة نجوا من النار بعفو الله، وأدخلوا الجنة برحمة الله، واقتسموا المنازل وورثوها بالأعمال الصالحة، وهي من رحمته، بل من أعلى أنواع رحمته.

﴿٤٤ - ٤٥﴾ ﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين﴾ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة كافرون ﴿يقول تعالى لما ذكر استقرار كل من الفريقين في الدارين، ووجدوا ما أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب، من الثواب والعقاب، أن أهل الجنة نادوا أصحاب النار بأن قالوا: ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً﴾ حين وعدنا على الإيمان والعمل الصالح الجنة، فأدخلناها، وأرانا ما وصفه لنا ﴿فهل وجدتم ما وعد ربكم﴾ على الكفر والمعاصي ﴿حقاً قالوا نعم﴾ قد وجدناه حقاً، فتبين للخلق كلهم، بياناً لا شك فيه، صدق وعد الله، ومن أصدق من الله قليلاً، وذهبت عنهم الشكوك والشبه، وصار الأمر حق اليقين، وفرح المؤمنون بوعده الله واغتبطوا، وأيس الكفار من الخير، وأقروا على

أنفسهم بأنهم مستحقون للعذاب .

﴿فَأَذِنَ مَوْذَنٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي : بين أهل النار وأهل الجنة ، بأن قال ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ أي : بعده وإقصاؤه عن كل خير ﴿عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ إذ فتح الله لهم أبواب رحمته ، فصدفوا أنفسهم عنها ظلماً ، وصدوا عن سبيل الله بأنفسهم ، وصدوا غيرهم ، فضلوا وأضلوا .

والله تعالى يريد أن تكون مستقيمة ، ويعتدل سير السالكين إليه ، ﴿و﴾ هؤلاء يريدونها ﴿عُوجًا﴾ منحرفة صادة عن سواء السبيل ، ﴿وهم بالآخرة كافرون﴾ وهذا الذي أوجب لهم الانحراف عن الصراط ، والإقبال على شهوات النفوس المحرمة ، عدم إيمانهم بالبعث ، وعدم خوفهم من العقاب ورجائهم للثواب ، ومفهوم هذا النداء أن رحمة الله على المؤمنين وبره شامل لهم ، وإحسانه متواتر عليهم .

﴿٤٦ - ٤٩﴾ ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾ وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين * ونادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون * أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون * أي : وبين أصحاب الجنة وأصحاب النار حجاب يقال له : ﴿الأعراف﴾ لا من الجنة ولا من النار ، يشرف على الدارين ، وينظر من عليه حال الفريقين ، وعلى هذا الحجاب رجال يعرفون كلًّا من أهل الجنة والنار بسيماهم ، أي : علاماتهم ، التي بها يعرفون ويميزون ، فإذا نظروا إلى أهل الجنة نادوهم ﴿أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي : لا تخفوا ، ولا تحزنوا ، ولكنهم

يطمعون في دخولها ، ولم يجعل الله الطمع في قلوبهم إلا لما يريد بهم من كرامته .

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ورأوا منظراً شنيعاً ، وهولاً فظيماً ﴿قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ فأهل الجنة إذا رأهم أهل الأعراف^(١) يطمعون أن يكونوا معهم في الجنة ، ويحيونهم ويسلمون عليهم ، وعند انصراف أبصارهم بغير اختيارهم لأهل النار ، يستجيرون بالله من حالهم هذا على وجه العموم .

ثم ذكر الخصوص بعد العموم فقال : ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ وهم من أهل النار ، وقد كانوا في الدنيا لهم أبهة وشرف ، وأموال وأولاد ، فقال لهم أصحاب الأعراف ، حين رأوهم منفردين في العذاب ، بلا ناصر ولا مغيث : ﴿مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ الذي تستدفعون به المكارة ، وتتوسلون به إلى مطالبكم في الدنيا ، فالיום اضمحل ، ولا أغنى عنكم شيئاً ، وكذلك ، أي شيء نفعمكم استكباركم على الحق وعلى من جاء به وعلى من اتبعه ، ثم أشاروا لهم إلى أناس من أهل الجنة كانوا في الدنيا فقراء ضعفاء يستهزئ بهم أهل النار ، فقالوا لأهل النار : ﴿أَهْؤَلاءَ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ﴾ الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة احتقاراً لهم وازدراء وإعجاباً بأنفسكم ، قد حنثتم في أيمانكم ، وبدا لكم من الله ما لم يكن لكم في حساب ، ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون ، أي : قيل لهؤلاء الضعفاء إكراماً واحتراماً ادخلوا الجنة بأعمالكم الصالحة لا خوف عليكم فيما يستقبل من المكارة ﴿وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ على ما مضى ، بل آمنون مطمئنون فرحون بكل خير .

وهذا كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ وإذا مروا بهم يتغامزون

إلى أن قال : ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ على الأرائك ينظرون ﴿واختلف أهل العلم والمفسرون ، من هم أصحاب الأعراف ، وما أعمالهم ؟

والصحيح في ذلك ، أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فلا رجحت سيئاتهم فدخلوا النار ، ولا رجحت حسناتهم فدخلوا الجنة ، فصاروا في الأعراف ما شاء الله ، ثم إن الله تعالى يدخلهم برحمته الجنة ، فإن رحمته تسبق وتغلب غضبه ، ورحمته وسعت كل شيء .

﴿٥٠ - ٥٣﴾ ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الذين اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرّتهم الحياة الدنيا فالיום ننسأهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يمحذون * ولقد جئناهم بكتاب فضّلناه على علم هدي ورحمة لقوم يؤمنون * هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضلّ عنهم ما كانوا يفترون * أي : ينادي أصحاب النار أصحاب الجنة ، حين يبلغ منهم العذاب كل مبلغ ، وحين يمسه الجوع المفرط والظما الموجه ، يستغيثون بهم ، فيقولون : ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من الطعام ، فأجابهم أهل الجنة بقولهم : ﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا﴾ أي : ماء الجنة وطعامها ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وذلك جزاء لهم على كفرهم بآيات الله ، واتخاذهم دينهم الذي أمروا أن يستقيموا عليه ، ووعدوا بالجزاء الجزيل عليه .

﴿لَهُوَ وَلَعْبًا﴾ أي : لهت قلوبهم وأعرضت عنه ، ولعبوا واتخذوه سخرى ، أو أنهم جعلوا بدل دينهم اللهو واللعب ، واستعاضوا بذلك عن

الدين القيم .

﴿وَعَزَّيْتُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ بزيئتها وزخرفها وكثرة دعائها، فاطمأنوا إليها ورضوا بها وفرحوا، وأعرضوا عن الآخرة ونسوها .

﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ﴾ أي : نتركهم في العذاب ﴿كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ فكأنهم لم يخلقوا إلا للدنيا، وليس أمامهم عرض ولا جزاء .

﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ والحال أن جحودهم هذا لا عن قصور في آيات الله وبيناته، بل قد ﴿جَنَنَاهُمْ﴾ بكتاب فصلناه ﴿أَي:﴾ بينا فيه جميع المطالب التي يحتاج إليها الخلق ﴿عَلَى عِلْمٍ﴾ من الله بأحوال العباد في كل زمان ومكان، وما يصلح لهم وما لا يصلح، ليس تفصيله تفصيل غير عالم بالأمور، فتجهله بعض الأحوال، فيحكم حكماً غير مناسب، بل تفصيل من أحاط علمه بكل شيء، ووسعت رحمته كل شيء .

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي : تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغنى والرشد، ويحصل أيضاً لهم به الرحمة، وهي : الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفي عنهم بذلك الضلال والشقاء .

وهؤلاء الذين حق عليهم العذاب، لم يؤمنوا بهذا الكتاب العظيم، ولا انقادوا لأوامره ونواهيه، فلم يبق فيهم حيلة إلا استحقاقهم أن يحل بهم ما أخبر به القرآن .

ولهذا قال : ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي : وقوع ما أخبر به، كما قال يوسف عليه السلام حين وقعت رؤياه : ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ .

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسَوْهُ مِنْ قَبْلُ﴾ متندمين متأسفين على ما مضى منهم، متشفعين في مغفرة ذنوبهم . مقررين بما أخبرت به الرسل : ﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ بَرِينَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفْعَةٍ فَيشفعوا لنا أو نرد؟﴾ إلى الدنيا ﴿فَنَعْمَلُ الْغَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وقد فات الوقت عن الرجوع إلى الدنيا .

﴿فَمَا تَتَغَمَّدُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ .

وسؤالهم الرجوع إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم كذب منهم، مقصودهم به دفع ما حل بهم، قال تعالى : ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَمَا نَهَوْنَا عَنْهُ وَانْهَمُ لَكَاذِبُونَ﴾ .

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حين فوتوها الأرباح، وسلكوا بها سبيل الهلاك، وليس ذلك كخسران الأموال والأثاث أو الأولاد، إنما هذا خسران لا جبران لمصابه، ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ في الدنيا عما تمنىهم أنفسهم به، ويعدهم به الشيطان، قدموا على ما لم يكن لهم في حساب، وتبين لهم باطلهم وضلالهم، وصدق ما جاءتهم به الرسل .

﴿٥٤﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْخَرَاتُ بَأْسِهِ إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ يقول تعالى مبيناً أنه الرب المعبود وحده لا شريك له : ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ وما فيهما على عظمتهما وسعتهما، وإحكامهما وإتقانها، وبديع خلقهما .

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة، فلما قضاهما وأودع فيهما من أمره ما أودع ﴿اسْتَوَىٰ﴾ تبارك وتعالى ﴿عَلَى الْعَرْشِ﴾ العظيم الذي يسع السماوات والأرض وما فيهما وما بينهما، استوى استواء يليق بجلاله وعظمته وسلطانه، فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، ودبر الممالك، وأجرى عليهم أحكامه الكونية، وأحكامه الدينية، ولهذا قال : ﴿يَغْشَى اللَّيْلَ الْمَظْلُمَ النَّهَارَ الْمُنِيرَ﴾، فيظلم ما على وجه الأرض، ويسكن الآدميون، وتأوي المخلوقات إلى مساكنها، ويستريحون من التعب والذهاب والإياب الذي حصل لهم في النهار .

﴿يَطْلُبُهُ حَثِيثًا﴾ كلما جاء الليل ذهب النهار، وكلما جاء النهار ذهب

الليل، وهكذا أبداً على الدوام، حتى يطوي الله هذا العالم، وينتقل العباد إلى دار غير هذه الدار .

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْخَرَاتُ بَأْسِهِ﴾ أي : بتسخيره وتدبيره، الدال على ماله من أوصاف الكمال، فخلقها وعظمها دال على كمال قدرته، وما فيها من الإحكام والانتظام والإتقان دال على كمال حكمته، وما فيها من المنافع والمصالح الضرورية وما دونها دال على سعة رحمته وذلك دال على سعة علمه، وأنه الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له .

﴿إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ أي : له الخلق الذي صدرت عنه جميع المخلوقات علويها وسفليها، أعياها وأوصافها وأفعالها، والأمر المتضمن للشرائع والنبوات، فالخلق : يتضمن أحكامه الكونية القدريّة، والأمر : يتضمن أحكامه الدينية الشرعية، وثم أحكام الجزاء، وذلك يكون في دار البقاء، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ﴾ أي : عظم وتعالى وكثر خيره وإحسانه، فتبارك في نفسه لعظمة أوصافه وكمالها، وبارك في غيره بإحلال الخير الجزيل والبر الكثير، فكل بركة في الكون، فمن آثار رحمته، ولهذا قال : ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ .

ولما ذكر من عظمته وجلاله ما يدل ذوي الأبواب على أنه وحده، المعبود المقصود في الخواج كلها، أمر بما يترتب على ذلك، فقال :

﴿٥٥ - ٥٦﴾ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ * ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين ﴿الدَّعَاءُ﴾ يدخل فيه دعاء المسألة، ودعاء العبادة، فأمر بدعائه ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي : إلحاحاً في المسألة، ودعواً في العبادة، ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي : لا جهرًا وعلانية يخاف منها الرياء، بل خفية وإخلاصاً لله تعالى .

﴿إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ أي : المتجاوزين للحد في كل الأمور، ومن الاعتداء كون العبد يسأل الله مسائل

لا تصلح له، أو يتنطع في السؤال، أو يبالغ في رفع صوته بالدعاء، فكل هذا داخل في الاعتداء المنهى عنه.

﴿وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بعمل المعاصي ﴿بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ بالطاعات، فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ كما أن الطاعات تصلح بها الأخلاق، والأعمال، والأرزاق، وأحوال الدنيا والآخرة.

﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ اي : خوفاً
من عقابه، وطمعاً في ثوابه، طمعاً في
قبولها، وخوفاً من ردّها، لا دعاء عبد
مدل على ربه قد أعجبته نفسه، ونزل
نفسه فوق منزلته، أو دعاء من هو
غافل لاه.

وحاصل ما ذكر الله من آداب الدعاء: الإخلاص فيه لله وحده، لأن ذلك يتضمنه الخفية، وإخفاؤه وإسراره، وأن يكون القلب خائفاً طامعاً لا غافلاً، ولا آمناً ولا غير مبال بالإجابة، وهذا من إحسان الدعاء، فإن الإحسان في كل عبادة بذل الجهد فيها، وأداؤها كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله، فكلما كان العبد أكثر إحساناً، كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريباً منه برحمته، وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى.

﴿٥٧ - ٥٨﴾ وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقاه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون * والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون ﴿٥٩﴾ يبين تعالى أثراً من آثار قدرته، ونفحة من نفحات رحمته فقال: ﴿وهو الذي يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾

أي: الرياح المبشرات بالغيث، التي
تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر
الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم
قبل نزوله.

﴿حتى إذا أقلت﴾ الرياح ﴿سحاباً ثقالاً﴾ قد أثاره بعضها، وألفه ريح أخرى، والقحه ريح أخرى ﴿سقناه لبلد ميت﴾ قد كادت تهلك حيواناته، وكاد أهله أن ييأسوا من رحمة الله، ﴿فأنزلنا به﴾ أي: بذلك البلد الميت ﴿الماء﴾ الغزير من ذلك السحاب وسخر الله له ريحاً تدره وتفرقه بإذن الله.

﴿فأخرجنا به من كل الثمرات﴾
فأصبحوا مستبشرين برحمة الله، راتعين
بخير الله، وقوله: ﴿كذلك نخرج
الموتى لعلكم تذكرون﴾ أي: كما
أحيينا الأرض بعد موتها بالنبات،
كذلك نخرج الموتى من قبورهم،
بعدما كانوا أرقاء متمزقين، وهذا
استدلال واضح، فإنه لا فرق بين
الأمريين، فمفكر البعث استبعاد له -
مع أنه يرى ما هو نظيره - من باب
الغناد، وإنكار المحسوسات.

وفي هذا الحث على التذكر والتفكير
في آلاء الله، والنظر إليها بعين الاعتبار
والاستدلال، لا بعين الغفلة
والإهمال.

﴿٥٨﴾ ثم ذكر تفاوت الأراضي، التي ينزل عليها المطر، فقال: ﴿والبلد الطيب﴾ أي: طيب التربة والمادة، إذا نزل عليه مطر ﴿يخرج نباته﴾ الذي هو مستعد له ﴿يأذن ربه﴾ أي: بإرادة الله ومشيئته، فليست الأسباب مستقلة بوجود الأشياء، حتى يأذن الله بذلك. ﴿والذي خبث﴾ من الأراضي ﴿لا يخرج إلا تكدا﴾ أي: إلا نباتاً خاسلاً نفع فيه ولا بركة.

«كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون» أي: ننوعها ونبينها ونضرب فيها الأمثال ونسوقها لقوم يشكرون الله بالاعتراف بنعمه، والإقرار بها، وصرفها في مرضاة الله،

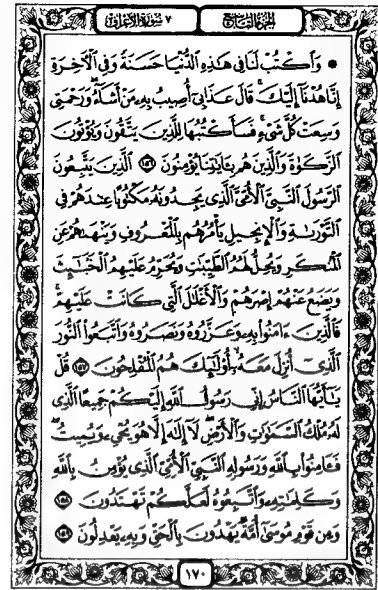
[illegible]

فهم الذين ينتفعون بما فصل الله في كتابه من الأحكام والمطالب الإلهية، لأنهم يرونها من أكبر النعم الواصلة إليهم من ربه، فيتلقونها مفتقرين إليها فرحين بها، فيتدبرونها ويتأملونها، فيبين لهم من معانيها بحسب استعدادهم، وهذا مثال للقلوب حين ينزل عليها الوحي الذي هو مادة الحياة، كما أن الغيث مادة الحياة، فإن القلوب الطيبة حين يجيئها الوحي، تقبله وتعلمه وتثبت بحسب طيب أصلها، وحسن عصرها.

وأما القلوب الخبيثة التي لا خير فيها، فإذا جاءها الوحي لم يجد محلاً قابلاً، بل يجدها غافلة معرضة، أو معارضة، فيكون كالمطر الذي يمر على السباخ والرمال والصخور، فلا يؤثر فيها شيئاً، وهذا كقوله تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً﴾ الآيات.

﴿٥٩ - ٦٤﴾ ولقد أرسلنا نوحا
إلى قومه ﴿٥٩﴾ إلى آخر القصة^(١) لما ذكر
تعالى من أدلة توحيده جملة صالحة، أيد
ذلك بذكر ما جرى للأنبياء الداعين إلى
توحيده مع أممهم المنكرين لذلك،
وكيف أيد الله أهل التوحيد، وأهلك
من عاندهم ولم ينقد لهم، وكيف
اتفقت دعوة المرسلين على دين واحد

(١) في ب: ذكر الآيات كاملة.



ومعتقد واحد، فقال عن نوح - أول المرسلين - «لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه» يدعوهم إلى عبادة الله وحده، حين كانوا يعبدون الأوثان «فقال لهم: يا قوم اعبدوا الله» أي: وحده «مالك من إله غيره» لأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، وما سواه مخلوق مدبر، ليس له من الأمر شيء، ثم خوفهم إن لم يطيعوه عذاب الله، فقال: «إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم». وهذا من نصحه عليه الصلاة والسلام وشفقته عليهم، حيث خاف عليهم العذاب الأبدي، والشقاء سرمدي، كإخوانه من المرسلين الذين يشفقون على الخلق أعظم من شفقة آبائهم وأمهاتهم، فلما قال لهم هذه المقالة، ردوا عليه أقبح رد.

﴿٦٠﴾ قال الملأ من قومه: أي: الرؤساء الأغنياء المتبوعون الذين قد جرت العادة باستكبارهم على الحق، وعدم انقيادهم للرسول، «إنا نراك في ضلال مبين» فلم يفهمهم - قبحهم الله - أنهم لم ينقادوا له، بل استكبروا عن الانقياد له، وقدحوا فيه أعظم قدح، ونسبوه إلى الضلال، ولم يكتفوا بمجرد الضلال حتى جعلوه ضلالاً مبنياً، واضحاً لكل أحد. وهذا من أعظم أنواع المكابرة، التي

لا تروج على أضعف الناس عقلاً، وإنما هذا الوصف منطبق على قوم نوح، الذين جاؤوا إلى أصنام قد صوروها ونحتوها بأيديهم، من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنهم شيئاً، فنزلوها منزلة فاطر السماوات، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القربات، فلولا أن لهم أذهاناً تقوم بها حجة الله عليهم لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم، بل هم أهدى منهم وأ عقل، فرد نوح عليهم رداً لطيفاً، وترقق لهم لعلمهم ينقادون له فقال: «يا قوم ليس بي ضلالة» أي: لست ضالاً في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايات وأكملها وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة، ولهذا قال: «ولكني رسول من رب العالمين» أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربي جميع الخلق بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلاً تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة وتنهاتهم عن أضدادها، ولهذا قال: «أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم» أي: وظيفتي تبليغكم، ببيان توحيده وأوامره ونواهيه، على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم، «وأعلم من الله ما لا تعلمون» فالذي يتعين أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمون، «أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم» أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها، وهو أنه جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة، على يد رجل منكم، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله!!

فهذه الحال من عناية الله بكم وبره وإحسانه الذي يتلقى بالقبول والشكر، وقوله: «لينذركم ولتتقوا، ولعلكم ترحون» أي: لينذركم العذاب لا تروج على أضعف الناس عقلاً، وإنما هذا الوصف منطبق على قوم نوح، الذين جاؤوا إلى أصنام قد صوروها ونحتوها بأيديهم، من الجمادات التي لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنهم شيئاً، فنزلوها منزلة فاطر السماوات، وصرفوا لها ما أمكنهم من أنواع القربات، فلولا أن لهم أذهاناً تقوم بها حجة الله عليهم لحكم عليهم بأن المجانين أهدى منهم، بل هم أهدى منهم وأ عقل، فرد نوح عليهم رداً لطيفاً، وترقق لهم لعلمهم ينقادون له فقال: «يا قوم ليس بي ضلالة» أي: لست ضالاً في مسألة من المسائل بوجه من الوجوه، وإنما أنا هاد مهتد، بل هدايته عليه الصلاة والسلام من جنس هداية إخوانه أولي العزم من المرسلين، أعلى أنواع الهدايات وأكملها وأتمها، وهي هداية الرسالة التامة الكاملة، ولهذا قال: «ولكني رسول من رب العالمين» أي: ربي وربكم ورب جميع الخلق، الذي ربي جميع الخلق بأنواع التربية، الذي من أعظم تربيته أن أرسل إلى عباده رسلاً تأمرهم بالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة والعقائد الحسنة وتنهاتهم عن أضدادها، ولهذا قال: «أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم» أي: وظيفتي تبليغكم، ببيان توحيده وأوامره ونواهيه، على وجه النصيحة لكم والشفقة عليكم، «وأعلم من الله ما لا تعلمون» فالذي يتعين أن تطيعوني وتنقادوا لأمري إن كنتم تعلمون، «أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم» أي: كيف تعجبون من حالة لا ينبغي العجب منها، وهو أنه جاءكم التذكير والموعظة والنصيحة، على يد رجل منكم، تعرفون حقيقته وصدقه وحاله!!

فأني سفة أعظم ممن قابل أحق الحق بالرد والإنكار، وتكبر عن الانقياد للمرشدين والنصحاء، وانقاد قلبه وقاليه لكل شيطان مريد، ووضع العبادة في غير موضعها، فعبد من

وحرصت على هدايتكم، واجتهدت في سلوككم الصراط المستقيم والدين القويم. ﴿ولكن لا تحبون الناصحين﴾ بل رددتم قول النصحاء، وأطعتم كل شيطان رجيم.

واعلم أن كثيراً من المفسرين يذكرون في هذه القصة أن الناقة قد خرجت من صخرة صماء ملساء اقترحوها على صالح، وأنها تمخضت تمخض الحامل، فخرجت الناقة وهم ينظرون، وأن لها فصيلاً حين عقروها، رعى ثلاث رغيات، وانفلق له الجبل ودخل فيه، وأن صالحاً عليه السلام قال لهم: آية نزل العذاب بكم، أن تصبحوا في اليوم الأول من الأيام الثلاثة ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني: محمرة، والثالث: مسودة، فكان كما قال.

وكل هذا من الإسرائيليات التي لا ينبغي نقلها في تفسير كتاب الله، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها بوجه من الوجوه، بل لو كانت صحيحة لذكرها الله تعالى، لأن فيها من العجائب والعبث والآيات ما لا يهمله تعالى ويدع ذكره، حتى يأتي من طريق من لا يوثق بنقله، بل القرآن يكذب بعض هذه المذكورات، فإن صالحاً قال لهم: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ أي: تنعموا وتلذذوا بهذا الوقت القصير جداً، فإنه ليس لكم من المتاع واللذة سوى هذا، وأي: لذة وتمتع لمن وعدهم نبيهم وقوع العذاب، وذكر لهم وقوع مقدماته، ف وقعت يوماً فيوماً على وجه يعمهم ويشملهم [احمرار وجوههم، واصفرارهم واسودادها من العذاب] ^(١).

هل هذا إلا مناقض للقرآن، ومضاد له؟! فالقرآن فيه الكفاية والهداية عن ما سواه.

نعم لو صح شيء عن رسول الله ﷺ لا يناقض كتاب الله، فعلى الرأس والعين، وهو مما أمر القرآن بتابعه ﴿وما أتاكم

أي: نعمه، وما خولكم من الفضل والرزق والقوة، ﴿ولا تعشوا في الأرض مفسدين﴾ أي: لا تخربوا الأرض بالفساد والمعاصي، فإن المعاصي تدع الديار العامرة بلاقع، وقد أخلت ديارهم منهم، وأبقت مساكنهم موحشة بعدهم.

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ أي: الرؤساء والأشراف الذين تكبروا عن الحق، ﴿للذين استضعفوا﴾ ولما كان المستضعفون ليسوا كلهم مؤمنين، قالوا ﴿لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه﴾ أي: أهو صادق أم كاذب؟

فقال المستضعفون: ﴿إنا بما أرسل به مؤمنون﴾ من توحيد الله والخير عنه وأمره ونهيه.

﴿قال الذين استكبروا: إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾ حملهم الكبر أن لا ينقادوا للحق الذي انقاد له الضعفاء.

﴿فعقروا الناقة﴾ التي توعدهم إن مسوها بسوء أن يصيبهم عذاب اليم، ﴿وعتوا عن أمر ربهم﴾ أي: قسوا عنه، واستكبروا عن أمره الذي من عتاه عنه أذاقه العذاب الشديد. لا جرم أحل الله بهم من النكال ما لم يحل بغيرهم ﴿وقالوا﴾ مع هذه الأفعال متجرين على الله، مُعْجِزِينَ له، غير مباينين بما فعلوا، بل مفتخرين بها: ﴿يا صالح اثنا بما تعدنا﴾ إن كنت من الصادقين من العذاب، فقال: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام﴾ ذلك وعد غير مكذوب.

﴿فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ على ركبهم، قد أبادهم الله، وقطع دابرهم، ﴿فتولى عنهم﴾ صالح عليه السلام حين أحل الله بهم العذاب، ﴿وقال﴾ غاطباً لهم توبيخاً وعتاباً، بعدما أهلكهم الله: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم﴾ أي: جميع ما أرسلني الله به إليكم، قد أبلغتكم به



إلى الله تعالى إضافة تشريف، لكم فيها آية عظيمة. وقد ذكر وجه الآية في قوله: ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾. وكان عندهم بشر كبيرة، وهي المعروفة ببشر الناقة، يتناولونها هم والناقة، للناقة يوم تشربها ويشربون اللبن من ضرعها، ولهم يوم يردونها، وتصدر الناقة عنهم.

وقال لهم نبيهم صالح عليه السلام: ﴿فذروها تاكل في أرض الله﴾ فلا عليكم من مؤنتها شيء، ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ أي: بعقر أو غيره، ﴿فياخذكم عذاب اليم﴾.

﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء في الأرض تتمتعون بها وتدركون مطالبكم من بعد عاد﴾ الذين أهلكهم الله، وجعلكم خلفاء من بعدهم، ﴿وبوأكم في الأرض﴾ أي: مكن لكم فيها، وسهل لكم الأسباب الموصلة إلى ما تريدون وتبتغون ﴿تتخذون من سهولها قصوراً﴾ أي: الأراضي السهلة التي ليست بجبال، تتخذون فيها القصور العالية والأبنية الحصينة، وتنتحون الجبال بيوتاً كما هو مشاهد إلى الآن من أعمالهم التي في الجبال، من المساكن والحجر ونحوها، وهي باقية ما بقيت الجبال، ﴿فاذكروا آلاء الله﴾

سلط عليكم عدواً يمتاحكم ولا فرقكم في الأرض، بل أنعم عليكم باجتماعكم، وإدراك الأرزاق وكثرة النسل.

﴿وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين﴾ فإنكم لا تجدون في جموعهم إلا الشنات، ولا في ربوعهم إلا الوحشة والانبثات ولم يورثوا ذكراً حسناً، بل أتبعوا في هذه الدنيا لعنة، ويوم القيامة أشد خزيًا وفضيحة.

﴿وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا﴾ وهم الجمهور منهم. ﴿فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين﴾ فينصر المحق، ويوقع العقوبة على المبطل.

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه﴾ وهم الأشراف والكبراء منهم الذين اتبعوا أهواءهم ولهاو بلذاتهم، فلما أتاهم الحق ورأوه غير موافق لأهوائهم الرديئة، ردوه واستكبروا عنه، فقالوا لنبيهم شعيب ومن معه من المؤمنين المستضعفين: ﴿لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا﴾ استعملوا قوتهم السبعية، في مقابلة الحق، ولم يراعوا ديناً ولا ذمة ولا حقاً، وإنما راعوا واتبعوا أهواءهم وعقولهم السفية التي دلتهم على هذا القول الفاسد، فقالوا: إما أن ترجع أنت ومن معك إلى ديننا أو لنخرجنكم من قريتنا.

ف «شعيب» عليه الصلاة والسلام كان يدعوهم طامعاً في إيمانهم، والآن لم يسلم من شرهم، حتى توعده إن لم يتابعهم - بالجلأ عن وطنه، الذي هو ومن معه أحق به منهم.

ف «قال» لهم شعيب عليه الصلاة والسلام متعجباً من قولهم: ﴿أو لو كنا كارهين﴾ أي: أنتابعكم على دينكم وملتكم الباطلة، ولو كنا كارهين لها لعلنا بطلانها، فإنما يدعى إليها من له نوع رغبة فيها، أما من يعلن بالنهي عنها، والتشنيع على من اتبعها فكيف

﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ أي: حجارة حارة شديدة، من سجيل، وجعل الله عاليها سافلها، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المجرمين﴾ الهلاك والحزي الدائم.

﴿٨٥ - ٩٣﴾ ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾... إلى آخر القصة^(٢) أي: ﴿و﴾ أرسلنا إلى القبيلة المعروفة بمدين «أخاهم» في النسب «شعيباً» يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ويأمرهم بإيفاء المكيال والميزان، وأن لا يبغسوا الناس أشياءهم، وأن لا يعثوا في الأرض مفسدين، بالأكثار من عمل المعاصي، ولهذا قال: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها﴾ ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴿فإن ترك المعاصي امتهالاً لأمر الله وتقرباً إليه خير، وأنفع للعبد من ارتكابها الموجب لسخط الجبار، وعذاب النار.

﴿ولا تقعدوا﴾ للناس «بكل صراط» أي: طريق من الطرق التي يكثر سلوكها، تحذرون الناس منها و «توعدون» من سلوكها «وتصدون عن سبيل الله» من أراد الاهتداء به «وتبغونها عوجاً» أي: تبغون سبيل الله تكون موجة، وتميلونها اتباعاً لأهوائكم، وقد كان الواجب عليكم وعلى غيركم الاحترام والتعظيم للسبيل التي نصبها الله لعباده ليسلكوها إلى مرضاته ودار كرامته، ورحمهم بها أعظم رحمة، وتصدون لنصرتها والدعوة إليها، والذب عنها، لا أن تكونوا أنتم قطاع طريقها، الصادين الناس عنها، فإن هذا كفر لنعمة الله ومحاددة الله، وجعل أقوم الطرق وأعدلها مائلة، وتشنعون على من سلكها.

﴿واذكروا﴾ نعمة الله عليكم ﴿إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾ أي: نماكم بما أنعم عليكم من الزوجات والنسل، والصحة، وأنه ما ابتلاكُم بوباء أو أمراض من الأمراض المقللة لكم، ولا

الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا. وقد تقدم أنه لا يجوز تفسير كتاب الله بالأخبار الإسرائيلية، ولو على تجويز الرواية عنهم بالأمر التي لا يجوز بكذبها، فإن معاني كتاب الله يقينية، وتلك أمور لا تصدق ولا تكذب، فلا يمكن اتفاقهما.

﴿٨٠ - ٨٤﴾ ﴿ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ إلى آخر القصة^(١) أي: ﴿و﴾ اذكر عبدنا «لوطاً» عليه الصلاة والسلام، إذ أرسلناه إلى قومه يأمرهم بعبادة الله وحده، وينهاهم عن الفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فقال: ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي: الخصلة التي بلغت - في العظم والشناعة - إلى أن استغرقت أنواع الفحش، «ما سبقكم بها من أحد من العالمين» فكونها فاحشة من أشنع الأشياء، وكونهم ابتدعوها وابتكروها، وسنوها لمن بعدهم، من أشنع ما يكون أيضاً.

ثم بينها بقوله: ﴿إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ أي: كيف تذرون النساء اللاتي خلقهن الله لكم، وفيهن المستمتع الموافق للشهوة والفطرة، وتقبلون على أديار الرجال، التي هي غاية ما يكون في الشناعة والخبث، محلٌ تخرج منه الأنثان والأخبار، التي يستحي من ذكرها فضلاً عن ملامستها وقربها، ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي: متجاوزون لما حده الله متجربون على محارمه.

﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتنا﴾ إنهم أناس يتطهرون ﴿أي: يتزهدون عن فعل الفاحشة.﴾ ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾.

﴿فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي: الباقين المذنبين، أمره الله أن يسري بأهله ليلاً، فإن العذاب مصيب قومه فسرى بهم، إلا امرأته أصابها ما أصابهم.

يدعى إليها؟!!

﴿قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها﴾ أي: أشهدوا علينا أننا إن عدنا فيها بعدما نجانا الله منها وأنقذنا من شرها، أننا كاذبون مفترون على الله الكذب، فإننا نعلم أنه لا أعظم افتراء من جعل الله شريكاً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ ولداً ولا صاحبة، ولا شريكاً في الملك. ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها﴾ أي: يمتنع على مثلنا أن نعود فيها، فإن هذا من المحال، فأيسهم عليه الصلاة والسلام من كونه يوافقهم من وجوه متعددة، من جهة أنهم كارهون لها مغيضون لما هم عليه من الشرك. ومن جهة أنه جعل ما هم عليه كذباً، وأشهدهم أنه إن اتبعهم ومن معه فإنهم كاذبون.

ومنها: اعترافهم بمنة الله عليهم إذ أنقذهم الله منها.

ومنها: أن عودهم فيها - بعدما هداهم الله - من المحالات، بالنظر إلى حالتهم الراهنة، وما في قلوبهم من تعظيم الله تعالى والاعتراف له بالعبودية، وأنه الإله وحده الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، وأن الكهنة المشركين أبطل الباطل، وأحل المحال.

وحيث إن الله من عليهم بعقول يعرفون بها الحق والباطل، والهدى والضلال.

وأما من حيث النظر إلى مشيئة الله وإرادته النافذة في خلقه، التي لا خروج لأحد عنها، ولو تواترت الأسباب وتوافقت القوى، فإنهم لا يحكمون على أنفسهم أنهم سيفعلون شيئاً أو يتركونه، ولهذا استثنى ﴿وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا﴾ أي: فلا يمكننا ولا غيرنا الخروج عن مشيئته التابعة لعلمه وحكمته، وقد ﴿وسع ربنا كل شيء علماً﴾ فيعلم ما يصلح للعباد وما

يدبرهم عليه. ﴿على الله توكلنا﴾ أي: اعتمدنا أنه سيثبتنا على الصراط المستقيم، وأن يعصمنا من جميع طرق الجحيم، فإن من توكل على الله كفاه، ويسر له أمر دينه ودنياه.

﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾ أي: انصر المظلوم وصاحب الحق، على الظالم المعاند للحق ﴿وأنت خير الفاتحين﴾ وفتحته تعالى لعباده نوعان: فتح العلم، بتبيين الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ومن هو من المستقيمين على الصراط، ممن هو منحرف عنه.

والنوع الثاني: فتحه بالجزاء وإيقاع العقوبة على الظالمين، والنجاة والإكرام للصلحين، فسألوا الله أن يفتح بينهم وبين قومهم بالحق والعدل، وأن يريهم من آياته وعبره، ما يكون فاصلاً بين الفريقين.

﴿وقال الملأ الذين كفروا من قومه﴾ محذرين عن اتباع شعيب، ﴿لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون﴾ هذا ما سولت لهم أنفسهم أن الخسارة والشقاء في اتباع الرشد والهدى، ولم يدروا أن الخسارة كل الخسارة في لزوم ما هم عليه من الضلال والإضلال، وقد علموا ذلك حين وقع بهم النكال.

﴿فأخذتهم الرجفة﴾ أي: الزلزلة الشديدة ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ أي: صرعى ميتين هامدين، قال تعالى ناعياً حالهم ﴿الذين كذبوا شعيباً كأن لم يغنوا فيها﴾ أي: كأنهم ما أقاموا في ديارهم، وكأنهم ما تمتعوا في عرصاتها، ولا تفيثوا في ظلالها، ولا غنوا في مسارع أنهارها، ولا أكلوا من ثمار أشجارها، حين فاجأهم العذاب، فنقلهم من مورد اللهو واللعب واللذات، إلى مستقر الحزن والشقاء والعقاب والدركات ولهذا قال: ﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ أي: الخسار محصور فيهم، لأنهم خسروا دينهم وأنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران

المبين، لا من قالوا لهم: ﴿لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذا لخاسرون﴾،

فحين هلكوا تولى عنهم نبيهم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿وقال﴾ معاتباً وموبخاً ومخاطباً بعد موته: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي﴾ أي: أوصلتها إليكم، وبينتها حتى بلغت منكم أقصى ما يمكن أن تصل إليه، وخالطت أفئدتكم ﴿ورنصحت لكم﴾ فلم تقبلوا نصحي، ولا انقذتم لإرشادي، بل فسقتم وطغيتم.

﴿فكيف آسى على قوم كافرين﴾ أي: فكيف أحزن على قوم لا خير فيهم، أتاهم الخير فردوه ولم يقبلوه، ولا يليق بهم إلا الشر، فهؤلاء غير حقيقين أن يحزن عليهم، بل يفرح بإهلاكهم وعقوبتهم، فعياًذاً بك اللهم من الخزي والفضيحة، وأي: شقاء وعقوبة أبلغ من أن يصلوا إلى حالة يتبرأ منهم أنصح الخلق لهم!!!

﴿٩٤ - ٩٥﴾ ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون﴾ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا وقالوا قد مس أباءنا الضراء والسراء فأخذناهم بفتنة وهم لا يشعرون﴾ يقول تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نبي﴾ يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن ما هم فيه من الشر، فلم ينقادوا له: إلا ابتلاهم الله ﴿بالبأساء والضراء﴾ أي: بالفقر والمرض وأنواع البلاء. ﴿لعلهم﴾ إذا أصابتهم، أخضعت نفوسهم فتضرعوا إلى الله واستكانوا للحق. ﴿ثم﴾ إذا لم ينفذ فيهم، واستمر استكبارهم، وازداد طغيانهم. ﴿بدلنا مكان السيئة الحسنة﴾ فأدّر عليهم الأرزاق، وعاق أبائهم، ورفع عنهم البلاء ﴿حتى عفوا﴾ أي: كثرُوا، وكثرت أرزاقهم وانبسطوا في نعمة الله وفضله، ونسوا ما مر عليهم من البلاء. ﴿وقالوا قد مس أباءنا الضراء والسراء﴾ أي: هذه عادة جارية لم تزل موجودة في الأولين واللاحقين، تارة

يكونون في سراء وتارة في ضراء، وتارة في فرح، ومرة في ترح، على حسب تقلبات الزمان وتداول الأيام، وحسبوا أنها ليست للموعظة والتذكير، ولا للاستندراج والنكير حتى إذا اغتبطوا، وفرحوا بما أوتوا، وكانت الدنيا، أسر ما كانت إليهم، أخذناهم بالعذاب، بفتنة وهم لا يشعرون. أي: لم يخطر لهم الهلاك على بال، وظنوا أنهم قادرون على ما آتاهم الله، وأنهم غير زائلين ولا متقلبين عنه.

﴿٩٦ - ٩٩﴾ «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون * فأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتاً وهم نائمون * أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون * فأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون» لما ذكر تعالى أن المكذبين للرسول يبتلون بالضراء موعظة وإنذاراً، وبالسراء استدراجاً ومكراً، ذكر أن أهل القرى، لو آمنوا بقلوبهم إيماناً صادقاً صدقته الأعمال، واستعملوا تقوى الله تعالى ظاهراً وباطناً، بترك جميع ما حرم الله، لفتح عليهم بركات السماء والأرض، فأرسل السماء عليهم مدراراً، وأنبئت لهم من الأرض ما به يعيشون وتعيش بهائمهم، في أخصب عيش وأغزر رزق، من غير عناء ولا تعب، ولا كد ولا نصب، ولكنهم لم يؤمنوا ويتقوا «فأخذناهم بما كانوا يكسبون» بالعقوبات والبلايا ونزع البركات، وكثرة الآفات، وهي بعض جزاء أعمالهم، وإلا فلو أخذهم بجميع ما كسبوا، ما ترك عليها من دابة. «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليذيقهم بعض الذي عملوا، لعلهم يرجعون».

«فأمن أهل القرى» أي: المكذبة، بقرينة السياق «أن يأتيهم بأسنا» أي:

عذابنا الشديد «بياتاً وهم نائمون» أي: في غفلتهم، وغرهم وراحتهم. «أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون» أي: أي: شيء يؤمنهم من ذلك، وهم قد فعلوا أسبابه، وارتكبوا من الجرائم العظيمة، ما يوجب بعضه الهلاك!

«فأمنوا مكر الله» حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويعلي لهم، إن كيدهم متين، «فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون» فإن من آمن من عذاب الله، فهو^(١) لم يصدق بالجزء على الأعمال، ولا آمن بالرسول حقيقة الإيمان.

وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البالغ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمناً على ما معه من الإيمان.

بل لا يزال خائفاً وجلالاً أن يبتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعياً بقوله: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، وأن يعمل ويسعى، في كل سبب يخلصه من الشر عند وقوع الفتن، فإن العبد - ولو بلغت به الحال ما بلغت - فليس على يقين من السلامة.

﴿١٠٠ - ١٠٢﴾ «أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون * تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين * وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين» يقول تعالى منبهاً للأمم الغابرين بعد هلاك الأمم الغابرين^(٢): «أولم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم» أي: أو لم يتبين ويتضح للأمم الذين ورثوا الأرض، بعد إهلاك من قبلهم بذنوبهم، ثم عملوا كأعمال أولئك

المهلكين؟

أو لم يهتدوا أن الله لو شاء لأصابهم بذنوبهم، فإن هذه سنته في الأولين والآخرين.

وقوله: «ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون» أي: إذا نبههم الله فلم ينتبهوا، وذكرهم فلم يتذكروا، وهدهم بالآيات والعبر فلم يهتدوا، فإن الله تعالى يعاقبهم وينطبع على قلوبهم، فيعلوها الران والدنس، حتى يختم عليها، فلا يدخلها حق، ولا يصل إليها خير، ولا يسمعون ما به تقوم الحجة عليهم.

«تلك القرى» الذين تقدم ذكرهم «نقص عليك من أنبائها» ما يحصل به عبرة للمعتبرين، وازدجار للغالين، وموعظة للمتقين.

«ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات» أي: ولقد جاءت هؤلاء المكذبين رسلهم تدعوهم إلى ما فيه سعادتهم، وأيدهم الله بالمعجزات الظاهرة، والبينات المبينات للحق بياناً كاملاً، ولكنهم لم يفهموا هذا، ولا أغنى عنهم شيئاً، «فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل» أي: بسبب تكذيبهم وردهم الحق أول مرة، ما كان الله ليهديهم

(١) في ب: فإنه.

(٢) في هامش ب في بيان معنى كلمة الغابرين المتكررة ما يلي: الغابرين: الباقين، الغابرين: الماضين.



المبالاة بما جاء به موسى: ﴿يا موسى إنا أن تلقى﴾ ما معك ﴿وإما أن نكون نحن الملقين﴾ ف ﴿قال﴾ موسى: ﴿ألقوا﴾ لأجل أن يرى الناس ما معهم وما مع موسى.

﴿فلما ألقوا﴾ حبالهم وعصيهم، إذا هي من سحرهم كأنها حيات تسعى، ف ﴿سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤوا بسحر عظيم﴾ لم يوجد له نظير من السحر.

﴿وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك﴾ فألقاها ﴿فإذا هي﴾ حية تسعى، ف ﴿تلقف﴾ جميع ﴿ما يافكون﴾ أي: يكذبون به ويموهون.

﴿فوقع الحق﴾ أي: تبين وظهر، واستعلن في ذلك المجمع، ﴿وبطل ما كانوا يعملون﴾ فغلبوا هنالك ﴿أي: في ذلك المقام﴾ واثقلوا صاغرين ﴿أي: حقيرين قد اضمحل باطلهم، وتلاشى سحرهم، ولم يحصل لهم المقصود الذي ظنوا حصوله.

وأعظم من تبين له الحق العظيم أهل الصنف والسحر، الذين يعرفون من أنواع السحر وجزيئاته ما لا يعرفه غيرهم، فعرفوا أن هذه آية عظيمة من آيات الله لا يدان لأحد بها.

﴿وألقي السحرة ساجدين﴾ قالوا آمنا برب العالمين ﴿رب موسى وهارون﴾ أي: وصدقنا بما بعث به موسى من الآيات البينات.

ف ﴿قال﴾ لهم ﴿فرعون﴾ متهدداً على الإيمان: ﴿أنتم به قبل أن أذن لكم﴾ كان الخبيث حاكماً مستبداً على الأبدان والأقوال، قد تقرر عنده وعندهم أن قوله هو المطاع، وأمره نافذ فيهم، ولا خروج لأحد عن قوله وحكمه، وبهذه الحالة تنحط الأمم، وتضعف عقولها ونفوذها، وتمجز عن المدافعة عن حقوقها، ولهذا قال الله عنه: ﴿فاستخف قومه فأطاعوه﴾ وقال هنا: ﴿أنتم به قبل أن أذن لكم﴾ أي: فهذا سوء أدب منكم وتجروء علي.

ثم موه على قومه وقال: ﴿إن هذا لمكر مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها﴾ أي: إن موسى كبيركم الذي علمكم السحر، فتواطأتم أنتم وهو على أن تغلبوا له، فيظهر فتتبعوه، ثم يتبعكم الناس أو جمهورهم، فتخرجوا منها أهلها.

وهذا كذب يعلم هو ومن سبر الأحوال، أن موسى عليه الصلاة والسلام لم يجتمع بأحد منهم، وأنهم جمعوا على نظر فرعون ورسله، وأن ما جاء به موسى آية إلهية، وأن السحرة قد بذلوا مجهودهم في مغالبة موسى، حتى عجزوا وتبين لهم الحق، فاتبعوه. ثم توعدهم فرعون بقوله:

﴿فسوف تعلمون﴾ ما أحل بكم من العقوبة، ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ زعم الخبيث أنهم مفسدون في الأرض، وسيصنع بهم ما يصنع بالفسدين، من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف، أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى. ﴿ثم لأصلبنكم﴾ في جذوع النخل، لتختزوا بزعمه ﴿أجمعين﴾ أي: لأفعل هذا الفعل بأحد دون أحد، بل كلكم سيدوق هذا العذاب، فقال السحرة الذين آمنوا لفرعون حين تهددهم: ﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾ أي: فلا نبالي بعقوبتك، فالله خير وأبقى، فاقض ما أنت قاض. ﴿وما تنقم منا﴾ أي: وما تعيب منا

على إنكارك علينا وتوعدك لنا؟ فليس لنا ذنب ﴿إلا أن آمنا﴾ [آيات] ربنا ﴿لما جاءتنا﴾^(١) فإن كان هذا ذنباً يعاب عليه، ويستحق صاحبه العقوبة، فهو ذنباً.

ثم دعوا الله أن يثبتهم ويصبرهم فقالوا: ﴿ربنا أفرغ﴾ أي: أفض ﴿علينا صبراً﴾ أي: عظيماً، كما يدل عليه التنكير، لأن هذهحنة عظيمة، تؤدي إلى ذهاب النفس، فيحتاج فيها من الصبر إلى شيء كثير، ليثبت الفؤاد، ويطمئن المؤمن على إيمانه،

ويزول عنه الانزعاج الكثير. ﴿وتوفنا مسلمين﴾ أي: منقادين لأمرك، متبعين لرسولك، والظاهر أنه أوقع بهم ما توعدهم عليه، وأن الله تعالى ثبتهم على الإيمان.

هذا وفرعون وملاؤه وعامتهم المتبعون للملأ، قد استكبروا عن آيات الله، وجحدوا بها ظلماً وعلواً، وقالوا لفرعون مهيجين له على الإيقاع بموسى، وزاعمين أن ما جاء باطل وفساد: ﴿أتأمر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض﴾ بالدعوة إلى الله، وإلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، التي هي الصلاح في الأرض، وما هم عليه هو الفساد، ولكن الظالمين لا يبالون بما يقولون.

﴿ويذرك وآلهتك﴾ أي: يدعك أنت وآلهتك، وينهى عنك، ويصد الناس عن اتباعك.

ف ﴿قال﴾ فرعون مجبياً لهم، بأنه سيدع بني إسرائيل مع موسى بحالة لا يضمنون فيها، ويأمن^(٢) فرعون وقومه - بزعمه - من ضررهم: ﴿سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم﴾ أي: نستبيقهن فلا نقتلن، فإذا فعلنا ذلك أمنا من كثرتهم، وكنا مستخدمين لباقهم، ومسخرين لهم على ما نشاء من الأعمال ﴿وإننا فوقهم قاهرون﴾ لا خروج لهم عن حكمنا ولا قدرة، وهذا نهاية الجبروت من فرعون والعتو والقسوة.

ف ﴿قال موسى لقومه﴾ موصياً لهم في هذه الحالة، - التي لا يقدرון معها على شيء، ولا مقاومة - بالمقاومة الإلهية، والاستعانة الربانية: ﴿استعينوا بالله﴾ أي: اعتمدوا عليه في جلب ما ينفعكم، ودفع ما يضركم، وثقوا بالله أنه سيم أمركم ﴿واصبروا﴾ أي: الزموا الصبر على ما يحل بكم، منتظرين للفرج.

﴿إن الأرض لله﴾ ليست لفرعون ولا لقومه حتى يتحكموا فيها ﴿يورثها

(١) زيادة من هامش ب، وهي في أ: آمنا ربنا.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ويؤمن.

من يشاء من عباده ﴿أي: يداولها بين الناس على حسب مشيئته وحكمته، ولكن العاقبة للمتقين، فإنهم - وإن امتحنوا مدة ابتلاء من الله وحكمة، فإن النصر لهم، والعاقبة الحميدة لهم على قومهم وهذه وظيفة العبد، أنه عند القدرة، أن يفعل من الأسباب الدافعة عنه أذى الغير، ما يقدر عليه، وعند العجز، أن يصبر ويستعين الله، ويتنظر الفرج.

﴿قالوا﴾ لموسى متضجرين من طول ما مكثوا في عذاب فرعون، وأذيته: ﴿أوذيئنا من قبل أن تأتينا﴾ فإنهم يسومونا سوء العذاب، يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا ﴿ومن بعد ما جئتنا﴾ كذلك ﴿قال﴾ لهم موسى مرجياً ﴿لهم﴾^(١) الفرج والخلاص من شرهم: ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض﴾ أي: يمكنكم فيها، ويجعل لكم التدبير فيها ﴿فينظر كيف تعملون﴾ هل تشكرون أم تكفرون؟ وهذا وعد أنجزه الله لما جاء الوقت الذي أرادته الله.

﴿١٣٠﴾ قال الله تعالى في بيان ما عامل به آل فرعون في هذه المدة الأخيرة، أنها على عادته وسنته في الأمم، أن يأخذهم بالبأساء والضراء، لعلهم يضرعون. الآيات:

﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين﴾ أي: بالدهور والجذب، ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون ﴿أي: يتعظون أن ما حل بهم وأصابهم معاتبة من الله لهم، لعلهم يرجعون عن كفرهم، فلم ينجع فيهم ولا أفاد، بل استمروا على الظلم والفساد.

﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ أي: الخصب وإدراك الرزق ﴿قالوا لنا هذه﴾ أي: نحن مستحقون لها، فلم يشكروا الله عليها ﴿وإن نصيبهم سيئة﴾ أي: قحط وجذب ﴿يطيروا بموسى ومن معه﴾ أي: يقولوا: إنما جاءنا بسبب مجي موسى، واتباع بني إسرائيل له.

قال الله تعالى: ﴿ألا إنما طائرهم عند الله﴾ أي: بقضائه وقدرته، ليس كما قالوا، بل إن ذنوبهم وكفرهم هو السبب في ذلك، بل ﴿أكثرهم لا يعلمون﴾ أي: فلذلك قالوا ما قالوا.

﴿وقالوا﴾ مبينين لموسى أنهم لا يزالون، ولا يزولون عن باطلهم: ﴿مهما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين﴾ أي: قد تقرر عندنا أنك ساحر، فمهما جئت بآية جزمنا أنها سحر، فلا نؤمن لك ولا نصدق، وهذا غاية ما يكون من العناد، أن يبلغ بالكافرين إلى أن تستوي عندهم الحالات، سواء نزلت عليهم الآيات أم لم تنزل.

﴿فأرسلنا عليهم الطوفان﴾ أي: الماء الكثير الذي أغرق أشجارهم وزروعهم، وأضر بهم ضرراً كثيراً ﴿والجراد﴾ فآكل ثمارهم، وزروعهم، ونباتهم ﴿والقمل﴾ قيل: إنه الدبابة، أي: صغار الجراد، والظاهر أنه القمل المعروف ﴿والضفادع﴾ فملأت أوعيتهم، وأقلقتهم، وأذتهم أذية شديدة ﴿والدم﴾ إما أن يكون الرعاف، أو كما قال كثير من المفسرين، أن ماءهم الذي يشربون انقلب دماً، فكانوا لا يشربون إلا دماً، ولا يطبخون إلا بدم.

﴿آيات مفصلات﴾ أي: أدلة وبيئات على أنهم كانوا كاذبين ظالمين، وعلى أن ما جاء به موسى حق وصدق ﴿فاستكبروا﴾ لما رأوا الآيات ﴿وكانوا﴾ في سابق أمرهم ﴿قوماً مجرمين﴾ فلذلك عاقبهم الله تعالى، بأن أبغاهم على الغي والضلال.

﴿ولما وقع عليهم الرجز﴾ أي: العذاب، يحتمل أن المراد به: الطاعون، كما قاله كثير من المفسرين، ويحتمل أن يراد به ما تقدم من الآيات: الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، فإنها رجز وعذاب، وأنهم كلما أصابهم واحد منها ﴿قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما

عهد عندك﴾ أي: تشفعوا بموسى بما عهد الله عنده من الوحي والشرع، ﴿لئن كشفت عنا الرجز، لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل﴾ وهم في ذلك كذبة، لا قصد لهم إلا زوال ما حل بهم من العذاب، وظنوا إذا رفع لا يصيبهم غيره.

﴿فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغو﴾ أي: إلى مدة قدر الله بقاءهم إليها، وليس كشفاً مؤبداً، وإنما هو مؤقت، ﴿إذا هم ينكتون﴾ العهد الذي عاهدوا عليه موسى، ووعدوه بالإيمان به، وإرسال بني إسرائيل، فلا آمنوا به ولا أرسلوا معه بني إسرائيل، بل استمروا على كفرهم يعمهون، وعلى تعذيب بني إسرائيل دائنين.

﴿فانتقمنا منهم﴾ أي: حين جاء الوقت الموقت لهلاكهم، أمر الله موسى أن يسري ببني إسرائيل ليلاً، وأخبره أن فرعون سيتبعهم هو وجنوده ﴿فأرسل فرعون في الملائن حاشرين﴾ يجمعون الناس ليتبعوا بني إسرائيل، وقالوا لهم: ﴿إن هؤلاء لشرذمة قليلون﴾ وأنهم لنا لغاظلون * وإنا لجميع حاذرون * فأخرجناهم من جنات وعيون * وكنوز ومقام كريم * كذلك وأورثناها بني إسرائيل * فاتبعوهم مشرقين * فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون * قال كلا إن معي ربي سيهدين * فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم * وأزلفنا ثم الآخرين * وأنجينا موسى ومن معه أجمعين * ثم أغرقنا الآخرين.

وقال هنا: ﴿فأغرقتناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين﴾ أي: بسبب تكذيبهم بآيات الله وإعراضهم عما دلت عليه من الحق.

﴿وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون﴾ في الأرض، أي: بني إسرائيل الذين كانوا خدماً لآل

فرعون، يسومونهم سوء العذاب أورثهم الله ﴿مشارك الأرض ومغارها﴾ والمراد بالأرض هاهنا، أرض مصر التي كانوا فيها مستضعفين، أذلين، أي: ملكهم الله جميعها، ومكنهم فيها التي باركنا فيها ﴿وتمت كلمة ربك الحسنی على بني إسرائيل بما صبروا﴾ حين قال لهم موسى: ﴿استعينوا بالله واصبروا، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾.

﴿ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه﴾ من الأبنية الهائلة، والمساكن المزخرفة ﴿وما كانوا يعرشون﴾ فنتك بيوتهم خاوية بما ظلموا، إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾

﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر﴾ بعدما أنجاهم الله من عدوهم فرعون وقومه، وأهلكهم الله، وبني إسرائيل ينظرون.

﴿فأتوا﴾ أي: مروا ﴿على قوم يعكفون على أصنام لهم﴾ أي: يقيمون عندها ويتبركون بها، ويعبدونها. ف ﴿قالوا﴾ من جهلهم وسفهمهم لنبيهم موسى بعدما أراههم الله من الآيات ما أراههم ﴿يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة﴾ أي: اشرع لنا أن نتخذ أصناماً آلهة كما اتخذها هؤلاء.

ف ﴿قال﴾ لهم موسى: ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ وأي جهل أعظم من جهل من جهل ربه وخالفه وأراد أن يسوي به غيره، ممن لا يملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً!! ولهذا قال لهم موسى: ﴿إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون﴾ لأن دعاءهم إياها باطل، وهي باطلة بنفسها، فالعمل باطل وغايته باطلة.

﴿قال أخير الله أنبيكم إلهاً﴾ أي: أطلب لكم إلهاً غير الله المألوه، الكامل في ذاته وصفاته وأفعاله. ﴿وهو فضلكم على العالمين﴾ أن تقابلوا فضله وتفضيله بالشكر، وذلك بإفراده وحده بالعبادة، والكفر

بما يدعى من دونه.

ثم ذكرهم ما امتن الله به عليهم فقال: ﴿ولذا أنجيناكم من آل فرعون﴾ أي: من فرعون وآله ﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ أي: يوجهون إليكم من العذاب أسوأه، وهو أنهم كانوا يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم النجاة من عذابهم ﴿بلاء من ربكم عظيم﴾ أي: نعمة جليلة، ومنحة جزيلة، أو: وفي ذلك العذاب الصادر منهم لكم بلاء من ربكم عليكم عظيم، فلما ذكرهم موسى وعظهم انتهوا عن ذلك. ولما أتم الله نعمته عليهم بالنجاة من عدوهم، وعكبتهم في الأرض، أراد تبارك وتعالى أن يتم نعمته عليهم، بإنزال الكتاب الذي فيه الأحكام الشرعية، والعقائد المرضية، فواعد موسى ثلاثين ليلة، وأتمها بعشر، فصارت أربعين ليلة، ليستعد موسى، وينتهي لوعده الله، ويكون لنزولها موقع كبير لديهم، وتشوق إلى إنزالها.

ولما ذهب موسى إلى ميقات ربه قال لهارون موصياً له على بني إسرائيل من حرصه عليهم وشفقته: ﴿اخلفني في قومي﴾ أي: كن خليفتي فيهم، واعمل فيهم بما كنت أعمل، ﴿وأصلح﴾ أي: اتبع طريق الصلاح ﴿ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ وهم الذين يعملون بالمعاصي.

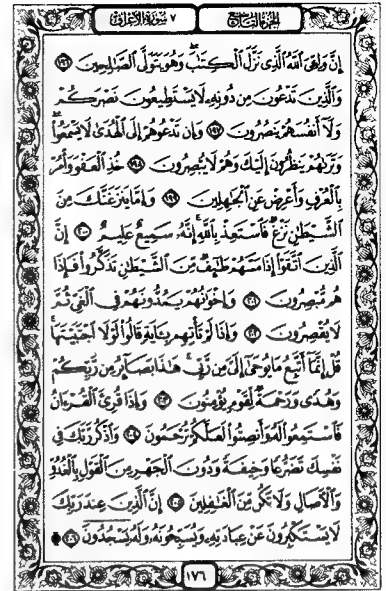
﴿ولما جاء موسى لميقاتنا﴾ الذي وقتناه له لإنزال الكتاب ﴿وكلمه ربه﴾ بما كلمه من وحيه وأمره ونبيه، تشوق إلى رؤية الله، ونزعت نفسه لذلك، حباً لربه ومودةً لرؤيته.

ف ﴿قال رب أرني أنظر إليك قال﴾ الله ﴿لن تراني﴾ أي: لن تقدر الآن على رؤيتي، فإن الله تبارك وتعالى أنشأ الخلق في هذه الدار على نشأة لا يقدرون بها، ولا يشبتون لرؤية الله، وليس في هذا دليل على أنهم لا يرونه في الجنة، فإنه قد دلت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية على أن أهل

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ لَقَدْ خَلَقْنَاكَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتَ أَغْفِرُ الْفَاحِشِينَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَمَا سَأَلْتُ السَّمَوَاتِ لَأَنْزِلَ عَلَيْهِنَّ رِجْسًا مِمَّا فِيهَا مِنْ قَبْلِ هَذَا وَبَدَّلْتُ إِلَهُكَ بِالَّذِي سَأَلْتَ عَنْهُمْ جَنَّاتٍ خائِضًا فَتْرَتْ مِنْهَا أَنْهَارٌ ذُرُوءًا غَدَاةً وَهِيَ مِنَ الْغُلَّةِ خَالِيَةً أَلَيْسَ لَكَ عِلْمٌ أَلَيْسَ لَكَ عِلْمٌ﴾ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ لَقَدْ خَلَقْنَاكَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتَ أَغْفِرُ الْفَاحِشِينَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَمَا سَأَلْتُ السَّمَوَاتِ لَأَنْزِلَ عَلَيْهِنَّ رِجْسًا مِمَّا فِيهَا مِنْ قَبْلِ هَذَا وَبَدَّلْتُ إِلَهُكَ بِالَّذِي سَأَلْتَ عَنْهُمْ جَنَّاتٍ خائِضًا فَتْرَتْ مِنْهَا أَنْهَارٌ ذُرُوءًا غَدَاةً وَهِيَ مِنَ الْغُلَّةِ خَالِيَةً أَلَيْسَ لَكَ عِلْمٌ أَلَيْسَ لَكَ عِلْمٌ﴾ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ لَقَدْ خَلَقْنَاكَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتَ أَغْفِرُ الْفَاحِشِينَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَمَا سَأَلْتُ السَّمَوَاتِ لَأَنْزِلَ عَلَيْهِنَّ رِجْسًا مِمَّا فِيهَا مِنْ قَبْلِ هَذَا وَبَدَّلْتُ إِلَهُكَ بِالَّذِي سَأَلْتَ عَنْهُمْ جَنَّاتٍ خائِضًا فَتْرَتْ مِنْهَا أَنْهَارٌ ذُرُوءًا غَدَاةً وَهِيَ مِنَ الْغُلَّةِ خَالِيَةً أَلَيْسَ لَكَ عِلْمٌ أَلَيْسَ لَكَ عِلْمٌ﴾

الجنة يرون ربهم تبارك وتعالى، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنه ينشئهم نشأة كاملة، يقدرون معها على رؤية الله تعالى، ولهذا رتب الله الرؤية في هذه الآية على ثبوت الجبل، فقال - مقنناً لموسى في عدم إجابته للرؤية - ﴿ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه﴾ إذا تجلى الله له ﴿فسوف تراني﴾.

﴿فلما تجلى ربه للجبل﴾ الأصم الغليظ ﴿جعلته دكا﴾ أي: انهال مثل الرمل، انزعاجاً من رؤية الله وعدم ثبوته لها^(١)، ﴿وخز موسى﴾ حين رأى ما رأى ﴿صعقاً﴾ فقتين له حيثئذ أنه إذا لم يشب الجبل لرؤية الله، فموسى أولى أن لا يشب لذلك، واستغفر ربه لما صدر منه من السؤال، الذي لم يوافق موضعاً [ولذلك]^(٢) ﴿قال سبحانه﴾ أي: تنزيهاً لك، وتعظيماً عما لا يليق بجلالك ﴿تبت إليك﴾ من جميع الذنوب، وسوء الأدب معك ﴿وأنا أول المؤمنين﴾ أي: جدد عليه الصلاة والسلام إيمانه، بما كمل الله له بما كان يحمله قبل ذلك، فلما منعه الله من رؤيته - بعدما كان متشوقاً إليها - أعطاه خيراً كثيراً فقال: ﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس﴾ أي: اخترتك واجتبتك وفضلتك



في الأرض بغير الحق ﴿١﴾ أي: يتكبرون على عباد الله وعلى الحق، وعلى من جاء به، فمن كان بهذه الصفة، حرمه الله خيراً كثيراً وخذله، ولم يفقه من آيات الله ما ينتفع به، بل ربما انقلبت عليه الحقائق، واستحسن القبيح.

﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها﴾ لإعراضهم واعتراضهم، ومعادتهم لله ورسوله، ﴿وإن يروا سبيل الرشـد﴾ أي: الهدى والاستقامة، وهو الصراط الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته. ﴿لا يتخذوه﴾ أي: لا يسلكوه ولا يرغبوا فيه ﴿وإن يروا سبيل النغي﴾ أي: الغواية الموصل لصاحبه إلى دار الشقاء. يتخذوه سبيلاً والسبب في انحرافهم هذا الانحراف ﴿ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا غافلين﴾ فردهم لآيات الله، وغفلتهم عما يراد بها واحتقارهم لها - هو الذي أوجب لهم من سلوك طريق النغي، وترك طريق الرشاد ما أوجب.

﴿والذين كذبوا بآياتنا﴾ العظيمة الدالة على صحة ما أرسلنا به رسلنا. ﴿ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم﴾ لأنها على غير أساس، وقد فقد شرطها وهو الإيمان بآيات الله، والتصديق بجزائه ﴿هل يميزون﴾ في بطلان أعمالهم وحصول ضد مقصودهم ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ فإن أعمالهم لا يؤمن باليوم الآخر، لا يرجو فيها ثواباً، وليس لها غاية تنتهي إليه، فلذلك اضمحلت وبطلت ﴿واخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلًا جسداً﴾ صاغه السامري وألقى عليه قبضة من أثر الرسول فصار ﴿له خوار﴾ وصوت، فعبده واتخذوه إلهاً.

وقال ﴿هذا إلهكم وإله موسى فنسي﴾ موسى، وذهب يطلبه، وهذا من سفههم، وقلة بصيرتهم، كيف اشتبه عليهم رب الأرض والسموات، بعجل من أنقص المخلوقات؟! ولهذا قال مبيناً أنه ليس فيه من الصفات الذاتية ولا الفعلية، ما يوجب أن يكون إلهاً ﴿أم يروا أنه

لا يكلمهم﴾ أي: وعدم الكلام نقص عظيم، فهم أكمل حالة من هذا الحيوان أو الجماد، الذي لا يتكلم ﴿ولا يهديهم سبيلاً﴾ أي: لا يدلهم طريقاً دينياً، ولا يحصل لهم مصلحة دنيوية، لأن من التقرر في العقول والفطر، أن اتخذاً إله لا يتكلم ولا ينفع ولا يضر من أبطل الباطل، وأسمج السفه، ولهذا قال: ﴿اتخذوه وكانوا ظالمين﴾ حيث وضعوا العبادة في غير موضعها، وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وفيها دليل على أن من أنكر كلام الله، فقد أنكر خصائص إلهية الله تعالى، لأن الله ذكر أن عدم الكلام دليل على عدم صلاحية الذي لا يتكلم للإلهية.

﴿ولما﴾ رجع موسى إلى قومه، فوجدهم على هذه الحال، وأخبرهم بضاللتهم ندموا و ﴿سقط في أيديهم﴾ أي: من الهم والندم على فعلهم، ﴿ورأوا أنهم قد ضلوا﴾ فتنصلبوا، إلى الله وتضرعوا و ﴿قالوا: لئن لم يرحمنا ربنا﴾ فبدلنا عليه، ويرزقنا عبادته، ويوفقنا لصالح الأعمال، ﴿ويغفر لنا﴾ ما صدر منا من عبادة العجل ﴿لنكونن من الخاسرين﴾ الذين خسروا الدنيا والآخرة.

﴿ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً﴾ أي: تمتلئاً غضباً وغيظاً عليهم، لتمام غيرته عليه الصلاة والسلام، وكمال نصحه وشفقته، ﴿قال بشما خلقتُموني من عدي﴾ أي: بش الحالة التي خلقتُموني بها من بعد ذهابي عنكم، فإنها حالة تفضي إلى الهلاك الأبدي، والشقاء السرمدى.

﴿أعجلتُم أمر ربكم﴾ حيث وعدكم بإنزال الكتاب. فبادرتم - برأيكم الفساد - إلى هذه الخصلة القبيحة ﴿والقى الألواح﴾ أي: رماها من الغضب ﴿وأخذ برأس أخيه﴾ هارون ولحيته ﴿يجره إليه﴾ وقال له: ﴿ما منعك إذ رأيتهم ضلوا، أن لا تتبعن أفعصيت أمري﴾ لك بقولي: ﴿اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ ف ﴿قال يا ابن أم لا

وخصصتك بفضائل عظيمة، ومناقب جليلة، ﴿برسالاتي﴾ التي لا أجعلها، ولا أخص بها إلا أفضل الخلق.

﴿وبكلامي﴾ إياك من غير واسطة، وهذه فضيلة اختص بها موسى الكليم، وعرف بها من بين إخوانه من المرسلين، ﴿فخذ ما آتيتك﴾ من النعم، وخذ ما آتيتك من الأمر والنهي بانسراح صدر، وتلقه بالقبول والانقياد، ﴿وكن من الشاكرين﴾ لله على ما خصك وفضلك.

﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء﴾ يحتاج إليه العباد ﴿موعظة﴾ ترغب النفوس في أفعال الخير، وترهبهم من أفعال الشر، ﴿وتفصيلاً لكل شيء﴾ من الأحكام الشرعية، والعقائد والأخلاق والآداب ﴿فخذها بقوة﴾ أي: بجهد واجتهاد على إقامتها، ﴿وأمر قومك﴾ يأخذوا بأحسنها، وهي الأوامر الواجبة والمستحبة، فلما أحسنها، وفي هذا دليل على أن أوامر الله - في كل شريعة كاملة - عادلة حسنة.

﴿سأريكم دار الفاسقين﴾ بعدما أهلكهم الله، وأبقى ديارهم عبرة بعدهم، يعتبر بها المؤمنون الموفقون المتواضعون، وأما غيرهم، فقال عنهم: ﴿سأصرف عن آياتي﴾ أي: عن الاعتبار في الآيات الأفقية والنفسية، والفهم لآيات الكتاب ﴿الذين يتكبرون

والناجون من شرهما، لأنهم أتوا بأكبر أسباب الفلاح.

وأما من لم يؤمن بهذا النبي الأمي، ويعززه وينصره، ولم يتبع النور الذي أنزل معه، فأولئك هم الخاسرون.

ولما دعا أهل التوراة من بني إسرائيل إلى اتباعه، وكان ربما توهم متوهم أن الحكم مقصور عليهم، أتى بما يدل على العموم فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ أي: عريكم، وعجميكم، أهل الكتاب منكم، وغيرهم.

﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ يتصرف فيهما بأحكامه الكونية والتدابير السلطانية، وبأحكامه الشرعية الدينية التي من جللتها: أن أرسل إليكم رسولا عظيماً يدعوكم إلى الله وإلى دار كرامته، ويحذركم من كل ما يباعدكم منه، ومن دار كرامته.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق إلا الله وحده لا شريك له، ولا تعرف عبادته إلا من طريق رسله، ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: من جملة تدابير: الإحياء والإماتة، التي لا يشاركه فيها أحد، الذي جعل الموت جسراً ومعبراً يعبر منه إلى دار البقاء، التي من آمن بها صدق الرسول محمداً ﷺ قطعاً.

﴿فَأَمَّا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ﴾ إيماناً في القلب، متضمناً لأعمال القلوب والجوارح ﴿الذي يؤمن بالله وكلماته﴾ أي: آمنوا بهذا الرسول المستقيم في عقائده وأعماله، ﴿وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ في مصالحكم الدينية والدنيوية، فإنكم إذا لم تتبعوه ضللتهم ضلالاً بعيداً.

﴿١٥٩﴾ ﴿وَمَنْ قَوْمُ مُوسَىٰ أُمَّةٍ﴾ أي: جماعة ﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يهدون به الناس في تعليمهم إياهم وفتواهم لهم، ويعدلون به بينهم في الحكم بينهم، بقضايهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ وفي هذا فضيلة لأمة موسى عليه الصلاة والسلام، وأن الله تعالى

وأن الإيمان بالنبي محمد ﷺ شرط في دخولهم في الإيمان، وأن المؤمنين به المتبعين، هم أهل الرحمة المطلقة، التي كتبها الله لهم، ووصفه بالأمي لأنه من العرب الأمة الأمية، التي لا تقرأ ولا تكتب، وليس عندها قبل القرآن كتاب.

﴿الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ باسمه وصفته، التي من أعظمها وأجلها، ما يدعو إليه وينهى عنه. وأنه ﴿بِأَمْرِهِمُ الْمَعْرُوفُ﴾ وهو كل ما عرف حسنه وصلاحه ونفعه.

﴿وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وهو: كل ما عرف قبحه في العقول والفطر، فيأمرهم بالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الجار والمملوك، وبذل النفع لسائر الخلق، والصدق، والعفاف، والبر، والنصيحة، وما أشبه ذلك، وينهى عن الشرك بالله، وقتل النفوس بغير حق، والزنا، وشرب ما يسكر العقل، والظلم لسائر الخلق، والكذب، والفجور، ونحو ذلك.

فأعظم دليل يدل على أنه رسول الله، ما دعا إليه وأمر به، ونهى عنه، وأحلّه وحرمه، فإنه ﴿يَجْعَلُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ، وَالْمَنَاجِكِ﴾.

﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ من المطاعم والمشارب والمنافع، والأفعال.

﴿وَيُضَعُّ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ومن وصفه أن دينه سهل سمح ميسر، لا إصر فيه ولا أغلال، ولا مشقات ولا تكاليف يقال.

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ﴾ أي: عظموه وبجلوه ﴿وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ وهو القرآن، الذي يستضاء به في ظلمات الشك والجهالات، ويقتهدي به إذا تعارضت المقالات، ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الظافرون بخير الدنيا والآخرة،



ذنوبهم، وقال موسى في تمام دعائه: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة﴾ من علم نافع، ورزق واسع، وعمل صالح.

﴿وفي الآخرة﴾ حسنة وهي ما أعد الله لأوليائه الصالحين من الثواب.

﴿إِنَّا هَدَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: رجعنا مفرقين بتقصيرنا، منبين في جميع أمورنا ﴿قال﴾ الله تعالى: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ ممن كان شقياً، متعرضاً لأسبابه، ﴿وورحمتي وسعت كل شيء﴾ من العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فَسَاكِنَتِهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ المعاصي، صغارها وكبارها.

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الواجبة مستحقيها ﴿والذين هم بآياتنا يؤمنون﴾ ومن تمام الإيمان بآيات الله معرفة معناها، والعمل بمقتضاها، ومن ذلك اتباع النبي ﷺ ظاهراً وباطناً، في أصول الدين وفروعه.

﴿١٥٧﴾ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ احتراز عن سائر الأنبياء، فإن المقصود بهذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ

والسياق في أحوال بني إسرائيل

جعل منهم هداة يهدون بأمره .

وكان الإتيان بهذه الآية الكريمة فيه نوع احتراز مما تقدم، فإنه تعالى ذكر فيما تقدم جملة من معاييب بني إسرائيل، المنافية للكمال المناقضة للهداية، فربما توهم متوهم أن هذا يعم جميعهم، فذكر تعالى أن منهم طائفة مستقيمة هادية مهتدية .

﴿١٦٥﴾ «وقطعناهم» أي: قسمناهم «النتي عشرة أسباطاً أمماً» أي: اثنتي عشرة قبيلة متعارفة متوالة، كل بني رجل من أولاد يعقوب قبيلة . «وأوحينا إلى موسى إذ استسفاه قومه» أي: طلبوا منه أن يدعو الله تعالى، أن يسقيهم ماء يشربون منه وتشرب منه مواشيهم، وذلك لأنهم - والله أعلم - في محل قليل الماء .

فأوحى الله لموسى إجابة لطلبتهم «أن اضرب بعصاك الحجر» يحتمل أنه حجر معين، ويحتمل أنه اسم جنس، يشمل أي حجر كان، فضربه «فانجست» أي: انفجرت من ذلك الحجر «اثنتا عشرة عينا» جارية سارحة .

«قد علم كل أناس مشربهم» أي: قد قسم على كل قبيلة من تلك القبائل الاثنتي عشرة، وجعل لكل منهم عينا، فعلموها وأطمأنوا، واستراحوا من التعب والمزاحمة، والمخاصمة، وهذا من تمام نعمة الله عليهم .

«وظللنا عليهم الغمام» فكان يستريحون من حر الشمس «وأنزلنا عليهم المن» وهو الخلولى، «والسلوى» وهو لحم طير من أحسن أنواع الطيور والأدها، فجمع الله لهم بين الظلال، والشراب، والطعام الطيب، من الخلولى واللحوم، على وجه الراحة والطمأنينة .

وقيل لهم: «كلوا من طبيبات ما رزقناكم وما ظلمونا» حين لم يشكروا الله، ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم . «ولكن كانوا أنفسهم يظلمون»

حيث فوتوها كل خير، وعرضوها للشر والنقمة، وهذا كان مدة لبثهم في التيه .

﴿١٦٦﴾ «وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية» أي: ادخلوها لتكونوطناً لكم ومسكناً، وهي «إيلياء» وكلا منها حيث شئتم» أي: قرية كانت كثيرة الأشجار، غزيرة الثمار، رغيدة العيش، فلذلك أمرهم الله أن يأكلوا منها حيث شاؤوا .

«وقولوا» حين تدخلون الباب: «حطة» أي: احطط عنا خطايانا، واعف عنا .

«وادخلوا الباب سجداً» أي:

خاضعين لربكم مستكينين لعزته، شاكرين لنعمته، فأمرهم بالخضوع وسؤال المغفرة، ووعدهم على ذلك مغفرة ذنوبهم والثواب العاجل والأجل فقال: «نغفر لكم خطيאתكم سنزید المحسنين» من خير الدنيا والآخرة، فلم يمثلوا هذا الأمر الإلهي، بل «بدل الذين ظلموا منهم» أي: عصوا الله واستهانوا بأمره «قولاً غير الذي قيل لهم» فقالوا بدل طلب المغفرة، وقولهم: «حطة»، (حبة في شعيرة)، وإذا بدلوا القول - مع يسره وسهولته - فتبدلهم للفعل من باب أولي، ولهذا دخلوا وهم يزحفون على أستاههم .

«فأرسلنا عليهم» حين خالفوا أمر الله وعصوه «رجزاً من السماء» أي: عذاباً شديداً، إما الطاعون وإما غيره من العقوبات السماوية .

وما ظلمهم الله بعقابه وإنما كان ذلك «بما كانوا يظلمون» أي: يخرجون من طاعة الله إلى معصيته، من غير ضرورة الجأئهم ولا داع دعاهم سوى الخبث والشر الذي كان كامناً في نفوسهم .

﴿١٦٧﴾ «واسألهم» أي: اسأل بني إسرائيل «عن القرية التي كانت حاضرة البحر» أي: على ساحله في حال تعديهم وعقاب الله إياهم .

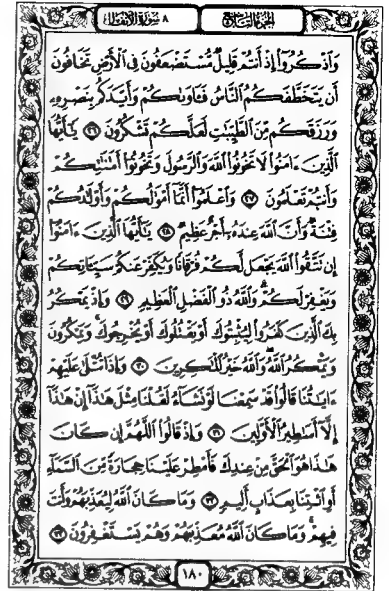
فَدَرَسُوا لَهُ وَالْحَكِيمَ اللَّهُ تَعَالَى وَمَا زَيْتٌ إِذْ رَسَيْتَ
وَالْحَكِيمَ اللَّهُ تَعَالَى وَالْحَكِيمَ اللَّهُ تَعَالَى
اللَّهُ سَمِعَ عَلَيْهِ ٥ لَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُؤْمِنٌ كَذِبُ
الْكُفْرِيَّةِ ٥ إِنْ تَسْتَفِيدُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ النَّصِيحُ
وَأَنْ تَسْتَفِيدُوا فَتُؤْمِنُوا وَأَنْ تَسْتَفِيدُوا فَتُؤْمِنُوا
وَتَسْتَفِيدُوا فَتُؤْمِنُوا وَأَنْ تَسْتَفِيدُوا فَتُؤْمِنُوا
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلْبَسُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَقُولُوا لَهُ
تَسْتَفِيدُوا ٥ وَلَا تَقُولُوا كَذِبٌ قَالُوا أَلْبَسُوا
لَا تَسْتَفِيدُوا ٥ إِنْ تَسْتَفِيدُوا فَتُؤْمِنُوا وَأَنْ تَسْتَفِيدُوا
الَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ ٥ وَلَا تَقُولُوا لَهُ فِيهِمْ كَذِبٌ لَا تَسْتَفِيدُوا
وَأَنْ تَسْتَفِيدُوا فَتُؤْمِنُوا وَأَنْ تَسْتَفِيدُوا فَتُؤْمِنُوا
مَأْمُورٌ أَنْ يَسْتَفِيدُوا فَتُؤْمِنُوا وَأَنْ تَسْتَفِيدُوا فَتُؤْمِنُوا
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ وَلَهُمْ وَاللَّهُ يَحْكُمُ
عَشْرُونَ ٥ وَأَلْبَسُوا لَهُ أَهْلِيَّةً لَا تَسْتَفِيدُوا
يَسْتَفِيدُوا وَأَلْبَسُوا لَهُ أَهْلِيَّةً لَا تَسْتَفِيدُوا

«إذ يعدون في السبت» وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه ولا يصيدوا فيه صيداً، فابتلاههم الله وامتحانهم، فكانت الحيتان تأتيهم «يوم سبتهم شرعاً» أي: كثيرة طافية على وجه البحر .

«ويوم لا يسمتون» أي: إذا ذهب يوم السبت «لا تأتيهم» أي: تذهب في البحر فلا يرون منها شيئاً «كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون» ففسقهم هو الذي أوجب أن يبتليهم^(١) الله، وأن تكون لهم هذه المحنة، وإلا فلو لم يفسقوا، لعافاهم الله، ولما عرضهم للبلاء والشر، فتحيلوا على الصيد، فكانوا يخفون لها حقراً، وينصبون لها الشباك، فإذا جاء يوم السبت ووقعت في تلك الحفرة والشباك، لم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها، وكثر فيهم ذلك، وانقسموا ثلاث فرق:

﴿١٦٨﴾ «معظمهم اعتدوا وتحيروا، وأعلنوا بذلك، وفرقة أعلنت بنهيهم والإنكار عليهم .

وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم، ونهيهم لهم، وقالوا لهم: «لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً» كأنهم يقولون: لا فائدة في



بالظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون، فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، فافتكروا بإنكار أولئك، ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لَمْ تَعْظُونَنَا قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فأبدوا من غضبهم عليهم، ما يقتضي أنهم كارهون أشد الكراهة لفعلهم، وأن الله سيعاقبهم أشد العقوبة.

﴿١٦٦﴾ ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نَهَوْا عَنْهُ﴾ أي: قسوا فلم يلبثوا ولا تعظوا، ﴿فَلَمَّا لَّهُمْ﴾ قولا قديرا: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِثِينَ﴾ فانقلبوا بإذن الله قردة، وأبعدهم الله من رحمته، ثم ذكر ضرب الذلة والصغار على من بقي منهم فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾ أي: أعلم إعلاما صريحا: ﴿لِيُعَذِّبَ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يسومهم سوء العذاب: أي: يبيتهم ويذلهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ لمن عصاه، حتى إنه يجعل له العقوبة في الدنيا. ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لمن تاب إليه وأناب، يغفر له الذنوب، ويستر عليه العيوب، ويرحمه بأن يتقبل منه الطاعات، ويشبهه عليها بأنواع الثواب، وقد فعل الله بهم ما أوعدهم به، فلا يزالون في ذل وهانة تحت حكم غيرهم، لا تقوم لهم راية، ولا ينصر لهم علم.

﴿١٦٨﴾ ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمْثًا﴾ أي: فرقناهم ومزقناهم في الأرض بعدما كانوا مجتمعين، ﴿مَنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾ القاسمون بحقوق الله وحقوق عباده، ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: دون الصلاح، إما مقتصدون، وإما ظالمون لأنفسهم، ﴿وَبِلُونَاهُمْ﴾ على عادتنا وسنتنا، ﴿بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي: بالسر واليسر.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه مقيمون من الردى، يراجعون ما خلقوا له من الهدى، فلم يزالوا بين صالح وطالح ومقتصد، حتى خلف من

بعدهم خلف. زاد شرهم ﴿وَوَرَوْا﴾ بعدهم ﴿الْكِتَابَ﴾ وصار الرجوع فيه إليهم، وصاروا يتصرفون فيه بأهوائهم، وتبذل لهم الأموال، ليفتوا ويحكموا بغير الحق، وفشت فيهم الرشوة.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ﴾ مقرين بأنه ذنب وأنهم ظلمة: ﴿سَيَغْفِرَ لَنَا﴾ وهذا قول خال من الحقيقة، فإنه ليس استغفاراً وطلباً للمغفرة على الحقيقة.

فلو كان ذلك لندموا على ما فعلوا، وعزموا على أن لا يعودوا، ولكنهم - إذا أتاهم عرض آخر، ورشوة أخرى - يأخذوه.

فاشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، واستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، قال الله تعالى: ﴿فِي الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ، وَبَيَانِ جِرَائِهِمْ﴾: ﴿لَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ فما بالهم يقولون عليه غير الحق اتباعاً لأهوائهم، وميلاً مع مطامعهم. ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ هُمْ يَدْرُسُونَ﴾ فليس عليهم فيه إشكال، بل قد أتوا أمرهم متعمدين، وكانوا في أمرهم مستبصرين، وهذا أعظم للذنوب، وأشد للوم، وأشنع للعقوبة، وهذا من تنص عقولهم، وسفاهة رأيهم، بإيثار الحياة الدنيا على الآخرة، ولهذا قال: ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ ما حرم الله عليهم، من المأكَل التي تصاب، وتؤكل رشوة على الحكم بغير ما أنزل الله، وغير ذلك من أنواع المحرمات.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إيثاره، وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه، والتقديم له على غيره، فخاصية العقل النظر للعواقب.

وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع، يفوت نعيماً عظيماً باقياً فأنى له العقل والرأي؟!!!

وإنما العقلاء حقيقة من وصفهم الله بقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَمْسُكُونَ

وعظ من اقتحم محارم الله، ولم يصغ للنصيح، بل استمر على اعتدائه وطغيانه، فإنه لا بد أن يعاقبهم الله، إما بهلاك أو عذاب شديد.

فقال الواعظون: نعظهم وننهاهم ﴿مَعذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ أي: لنعذر فيهم. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتقون ما هم فيه من العصية، فلا نياس من هدايتهم، فربما نجح فيهم الوعظ، وأثر فيهم اللوم.

وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر ليكون معذرة، وإقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: تركوا ما ذُكِّرُوا به، واستمروا على غيهم واعتدائهم.

﴿أَنجَبْنَاهُ﴾ من العذاب ﴿الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ وهكذا سنة الله في عباده، أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم الذين اعتدوا في السبت ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي: شديد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

وأما الفرقة الأخرى التي قالت للناجين: ﴿لَمْ تَعْظُونَنَا قَوْمًا اللَّهُ مَهْلِكُهُمْ﴾ فاختلف المفسرون في نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من الناجين، لأن الله خص الهلاك

بالكتاب ﴿أي: يتمسكون به علماً وعملاً، فيعلمون ما فيه من الأحكام والأخبار التي علمها أشرف العلوم. ويعملون بما فيها من الأوامر التي هي قرة العيون وسرور القلوب، وأفراح الأرواح، وصلاح الدنيا والآخرة.﴾

ومن أعظم ما يجب التمسك به من الأمور إقامة الصلاة، ظاهراً وباطناً، ولهذا خصها الله بالذكر لفضلها وشرفها، وكونها ميزان الإيمان، وإقامتها داعية لإقامة غيرها من العبادات.

ولما كان عملهم كله إصلاحاً، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ في أموالهم وأعمالهم ونياتهم، مصليين لأنفسهم ولغيرهم.

وهذه الآية وما أشبهها دلّت على أن الله بعث رسله عليهم الصلاة والسلام بالصلاح لا بالفساد، وبالنافع لا بالمضار، وأنهم بعثوا بصلاح الدارين، فكل من كان أصح، كان أقرب إلى اتباعهم.

﴿١٧١﴾ ثم قال تعالى: ﴿وإذ نتقنا
الجبيل فوقهم﴾ حين امتنعوا من قبول ما
في التوراة.

فألزمهم الله العمل ونتق فوق
رؤوسهم الجبل، فصار فوقهم ﴿كأنه
ظلة وظنوا أنه واقع بهم﴾ وقيل لهم:
﴿خذوا ما آتيناكم بقوة﴾ أي: بجد
واجتهاد.

﴿واذكروا ما فيه﴾ دراسة ومباحثة ،
واتصافاً بالعمل به ﴿لعلكم تتقون﴾ إذا
فعلتم ذلك .

﴿١٧٢﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي
آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى
أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا
أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا
غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ
قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَتَهْلِكُنَا بِمَا
فَعَلَ الْبَاطِلُونَ وَكَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ
وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَإِذْ
أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ
ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: أخرج من أصلابهم
ذُرِّيَّتَهُمْ، وجعلهم يتناسلون ويتوالدون

قرناً بعد قرن .

﴿و﴾ حين أخرجهم من بطون أمهاتهم وأصلاب آبائهم ﴿أشهدهم على أنفسهم ألاست بربكم﴾ أي: قررهم بإثبات ربوبيته، بما أودعه في قلوبهم من الإقرار، بأنه ربهم وخالقهم ومليكهم.

قالوا: بلى قد أقررنا بذلك، فإن الله تعالى فطر عباده على الدين الحنيف القيم.

فكل أحد فهو مفسطور على ذلك، ولكن الفطرة قد تغير وتبدل بما يطرأ عليها من العقائد الفاسدة، ولهذا **﴿قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين﴾**

أي : إنما امتحناكم حتى أقربتم بما
يقرر عندكم، من أن الله تعالى ربكم،
خشية أن تنكروا يوم القيامة، فلا تقروا
بشيء من ذلك، وتزعمون أن
حجة الله ما قامت عليكم،
ولا عندكم بها علم، بل أنتم غافلون
عنها لاهون.

فاليوم قد انقطعت حجّتكم، وثبتت
 لحجة البالغه لله عليكم، أو تحتجون
 أيضاً بحجة أخرى، فتقولون: ﴿إنما
 أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية من
 بعدهم﴾ فخذونا حذوهم، وتبعناهم
 في باطلهم.

﴿أنتهكنا بما فعل المبطلون﴾ فقد
ودع الله في فطركم ما يدلکم على أن
سما مع آبائکم باطل، وأن الحق ما
جاءت به الرسل، وهذا يقاوم ما
وجدتم عليه آبائکم، ويعلو عليه.

نعم قد يعرض للعبد من أقوال آبائه
فضالين ومذاهبهم الفاسدة ما يظنه هو
الحق، وما ذاك إلا لإعراضه، عن
حجج الله وبيناته وآياته الأفقية
النفسية، فإعراضه عن ذلك، وإقباله
على ما قاله المبطلون، ربما صيره بحالة
مفضل بها الباطل على الحق، هذا هو
الصواب في تفسير هذه الآيات.

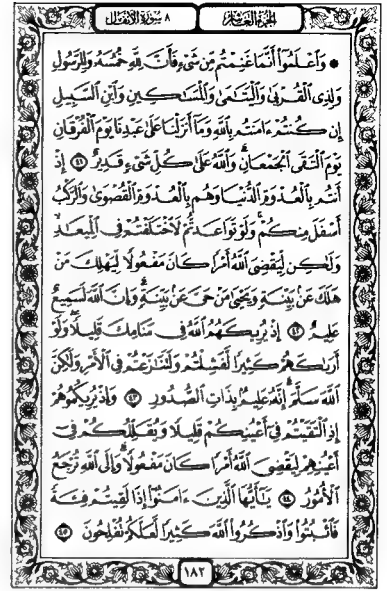
وقد قيل: إن هذا يوم أخذ الله
ليثاق على ذرية آدم، حين استخرجهم
من ظهره وأشهدهم على أنفسهم،
شهدوا بذلك، فاحتج عليهم بما أقروا

وَمَا لَهُمْ آلَافُ يَوْمَئِذٍ أَنَّهُمْ مُصَدِّقُونَ عَنِ النَّبِيِّينَ
الَّذِينَ كَانُوا أَكْثَرُ آلِ آدَمَ ۝ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ
سَاقِطًا يَنظُرُونَ ۝ وَكَانَ عِندَ اللَّهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝
عِندَ الْبَيْتِ الْأَيْمَنِ ۝ وَصَدِيدُهُ ذَهَبًا عَالِقًا خَمَامًا
يَخْتَلِفُ أَلْوَانُهُ ۝ إِذَا الْفُجَاءُ فَجَرُوا ۝
أَنزَلْنَاهُمْ لِيُصْطَفَىٰ مَنِ ابْتَغَىٰ وَفِيهِمْ أَنفُسٌ أَنفُسُكَ أَفَإِنَّكَ لَا تَعْلَمُ
مَنْ هُوَ خَسَفَ سَمْعُكَ فَتُحَدِّثُ ۝ وَأَلْوَيْنَ كَذَبًا ۝ إِلَهِكُمْ
يُخَيِّرُونَ ۝ لِيُخَيِّرَ اللَّهُ الْفَاقِينَ ۝ مِنَ الْكَلْبِ وَالْجَحَلِ
الْحَمِي ۝ يَصْعَقُ مَعَهُ خَيْضٌ فَزَعَمَهُ جَمِيعًا فَيَمْنَعُهُ
فِي حِفْظِهِ ۝ أُولَئِكَ هُمُ الْخَائِرُونَ ۝ قُلْ لِلَّهِ
كَرَّةٌ ۝ كَرَّةٌ ۝ يَكْتُمُونَ قَوْلَهُ فَانْفُتِلَ ۝ وَكَانَ
يُؤْخَذُ فَتَنْتَضَحْنَ سَمْتَ الْأَخْلَافِ ۝ وَيَقُولُونَ
هَٰذَا كَذِبٌ ۝ فَتَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ ۝ فَتُزِيلُ
أَنفُسَهُمْ ۝ فَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَصْنَعُونَ بَصِيرًا ۝ وَكَانَ
قَالَ لَهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ يَزِيلُهُ ۝

به في ذلك الوقت على ظلمهم في كفرهم، وعنادهم في الدنيا والآخرة، ولكن ليس في الآية ما يدل على هذا، ولا له مناسبة، ولا تقتضيه حكمة الله تعالى، والواقع شاهد بذلك.

فلان هذا العهد والميثاق، الذي
 ذكروا، أنه حين أخرج الله ذرية آدم من
 ظهره، حين كانوا في عالم كالذر،
 لا يذكره أحد، ولا يخطر ببال آدمي،
 فكيف يحتج الله عليهم بأمر ليس
 عندهم به خبر، ولا له عين
 ولا أثر؟؟ ولهذا لما كان هذا أمراً
 واضحاً جلياً، قال تعالى: ﴿وكذلك
 نفضل الآيات﴾ أي: نبينها
 ونوضحها، ﴿ولعلمهم يرجعون﴾ إلى ما
 أودع الله في فطرهم، وإلى ما
 عاهدوا الله عليه، فيرتدعون عن
 القبايح.

﴿١٧٥﴾ ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض وأتبع هواه فعنثه كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾



أي: علمناه علم كتاب الله، فصار العالم الكبير والحبر النحرير.

﴿فانسلك منها، فاتبعه الشيطان﴾
أي: انسلخ من الاتصاف الحقيقي بالعلم بآيات الله، فإن العلم بذلك، يصير صاحبه متصفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويرقى إلى أعلى الدرجات وأرفع المقامات، فترك هذا كتاب الله وراء ظهره، ونبذ الأخلاق التي يأمر بها الكتاب، وخلعها كما يخلع اللباس.

فلما انسلخ منها أتبعه الشيطان، أي: تسلط عليه حين خرج من الحصن الحصين، وصار إلى أسفل سافلين، فأنزله إلى المعاصي أزا. ﴿فكان من الغاوين﴾ بعد أن كان من البراشدين المرشدين، وهذا لأن الله تعالى خذله ووكله إلى نفسه، فلهذا قال تعالى: ﴿ولو شئنا لرفعناه بها﴾ بأن نوقفه للعمل بها، فيرتفع في الدنيا والآخرة، فيتحصن من أعدائه.

﴿ولكنه﴾ فعل ما يقتضي الخذلان، فأخذ إلى الأرض، أي: إلى الشهوات السفلية، والمقاصد الدنيوية، ﴿وأتبع هواه﴾ وترك طاعة مولاه، ﴿فمثله﴾ في شدة حرصه على الدنيا وانقطاع قلبه إليها، ﴿كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث﴾ أي: لا يزال لاهثاً في كل حال، وهذا لا يزال

حريصاً حرصاً قاطعاً قلبه، لا يسد فاقته شيء من الدنيا.

﴿ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ بعد أن ساقها الله إليهم، فلم ينقادوا لها، بل كذبوا بها وردوها، لهوائهم على الله، واتباعهم لأهوائهم، بغير هدى من الله.

﴿فانقص القصص لعلمهم يتفكرون﴾ في ضرب الأمثال، وفي العبر والآيات، فإذا تفكروا علموا، وإذا علموا عملوا.

﴿١٧٧﴾ ﴿ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون﴾ أي: ساء وقبح، مثل من كذب بآيات الله، وظلم نفسه بأنواع المعاصي، فإن مثلهم مثل السوء، وهذا الذي أتاه الله آياته، يحتمل أن المراد به شخص معين، قد كان منه ما ذكره الله، فقص الله قصته تنبيهاً للعباد. ويحتمل أن المراد بذلك أنه اسم جنس، وأنه شامل لكل من أتاه الله آياته فانسلك منها.

وفي هذه الآيات الترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه، وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين، وتسليط للشيطان عليه، وفيه أن اتباع الهوى، وإخلاق العبد إلى الشهوات، يكون سبباً للخذلان.

﴿١٧٨﴾ ثم قال تعالى مبيناً أنه المنفرد بالهداية والإضلال: ﴿من يهد الله﴾ بأن يوفقه للخيرات، ويعصمه من المكروهات، ويعلمه ما لم يكن يعلم ﴿فهو المهتدي﴾ حقاً لأنه أثر هدايته تعالى، ﴿ومن يضل﴾ فيخذه ولا يوفقه للخير ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ لأنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المين.

﴿١٧٩﴾ ﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ تعالى مبيناً كثرة الغاوين الضالين،

المتبعين إبليس اللعين: ﴿ولقد ذرأنا﴾ أي: أنشأنا وبثنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، صارت البهائم أحسن حالة منهم.

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾ أي: لا يصل إليها فقه ولا علم، إلا مجرد قيام الحجة.

﴿ولهم أعين لا يبصرون بها﴾ ما ينفعهم، بل فقدوا منفعتها وفائدتها.

﴿ولهم أذان لا يسمعون بها﴾ سماعاً يصل معناه إلى قلوبهم.

﴿أولئك﴾ الذين بهذه الأوصاف القبيحة ﴿كالأنعام﴾ أي: البهائم، التي فقدت العقول، وهؤلاء أتروا ما يفنى على ما يبقى، فسلبوا خاصية العقل.

﴿بل هم أضل﴾ من البهائم، فإن الأنعام مستعملة فيما خلقت له، ولها أذهان تدرك بها، مضرتها من منفعتها، فلذلك كانت أحسن حالاً منهم. ﴿أولئك هم الغافلون﴾ الذين غفلوا عن أنفع الأشياء، غفلوا عن الإيمان بالله وطاعته وذكره.

خلقت لهم الأفئدة والأسماع والأبصار، لتكون عوناً لهم على القيام بأوامر الله وحقوقه، فاستعانوا بها على ضد هذا المقصود.

فهؤلاء حقيقون بأن يكونوا من ذرأ الله لجهنم وخلقهم لها، فخلقهم للنار، وبأعمال أهلها يعملون.

وأما من استعمل هذه الجوارح في عبادة الله، وانصبغ قلبه بالإيمان بالله ومحبه، ولم يغفل عن الله، فهؤلاء أهل الجنة، وبأعمال أهل الجنة يعملون.

﴿١٨٠﴾ ﴿والله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾ هذا بيان لعظيم جلاله وسعة أوصافه، بأن له الأسماء الحسنى، أي: له كل اسم حسن، وضابطه: أنه كل اسم دال على صفة كمال عظيمة، وبذلك كانت حسنى، فإنها لو دلت على غير صفة، بل كانت علماً محضاً لم تكن حسنى، وكذلك لو دلت على صفة ليست بصفة كمال، بل إما صفة نقص أو صفة

أتمها، ولا من العقل والرأي: إلا ما فاق به العالمين، ولا يدعو إلا لكل خير، ولا ينهى إلا عن كل شر.

أفبهذا يا أولي الألباب من جنة؟! أم هو الإمام العظيم والناصح المبين، والمجاد الكريم، والرؤوف الرحيم؟! ولهذا قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مِّمَّنْ﴾ أي: يدعو الخلق إلى ما ينجيهم من العذاب، ويحصل لهم الثواب.

﴿١٨٥﴾ ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فإنهم إذا نظروا إليها وجدوها أدلة دالة على توحيد ربها، وعلى ماله من صفات الكمال.

﴿و﴾ كذلك لينظروا إلى جميع ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ فإن جميع أجزاء العالم يدل أعظم دلالة على علم الله وقدرته وحكمته وسعة رحمته، وإحسانه، ونفوذ مشيئته، وغير ذلك من صفاته العظيمة، الدالة على تفرد بالخلق والتدبير، الموجبة لأن يكون هو المعبود المحمود، المسبح الموحد المجدوب.

وقوله: ﴿وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾ أي: لينظروا في خصوص حالهم، وينظروا لأنفسهم قبل أن يقترب أجلهم، ويفجأهم الموت وهم في غفلة معرضون، فلا يتمكنون حينئذ من استدراك الفارط.

﴿فَبَأَيِّ﴾ حديث بعده يؤمنون؟ أي: إذا لم يؤمنوا بهذا الكتاب الجليل، فبأي: حديث يؤمنون به؟! أبكتب الكذب والضلال؟ أم بحديث كل مفتر دجال؟

ولكن الضال لا حيلة فيه، ولا سبيل إلى هدايته، ولهذا قال تعالى: ﴿مَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: متحيرين^(١) يترددون، لا يخرجون منه ولا يبتدون إلى حق.

﴿١٨٧﴾ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾ أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يحليها لوقتها إلا هو ثقلت في

﴿وبه يعدلون﴾ بين الناس في أحكامهم إذا حكموا في الأموال والدماء والحقوق والمقاتلات، وغير ذلك، وهؤلاء هم أئمة الهدى، ومصابيح الدجا، وهم الذين أنعم الله عليهم بالإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهم الصديقون الذين مرتبتهم تلي مرتبة الرسالة، وهم في أنفسهم مراتب متفاوتة كل بحسب حاله وعلو منزلته، فسبحان من يختص برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

﴿١٨٢﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِّنٌ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جُنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مِّمَّنْ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدْ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبَأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ * مَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: والذين كذبوا بآيات الله الدالة على صحة ما جاء به محمد ﷺ من الهدى فردوها ولم يقبلوها. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بأن يدر لهم الأرزاق. ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ أي: أمهلهم حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون ولا يعاقبون، فيزدادون كفرًا وطغيانًا، وشرًا إلى شرهم، وبذلك تزيد عقوبتهم، ويتضاعف عذابهم، فيضرون أنفسهم من حيث لا يشعرون، ولهذا قال: ﴿إِنْ كَيْدِي مَتِّنٌ﴾ أي: قوي بليغ.

﴿١٨٤﴾ ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ محمد ﷺ ﴿مِنْ جُنَّةٍ﴾ أي: أو لم يعملوا أفكارهم، وينظروا هل في صاحبهم الذي يعرفونه ولا يخفى عليهم من حاله شيء، هل هو مجنون؟ فلينظروا في أخلاقه وهديه، ودلته وصفاته، وينظروا في ما دعا إليه، فلا يجدون فيه من الصفات إلا أكملها، ولا من الأخلاق إلا

منقسمة إلى المدح والقدح، لم تكن حسنى، فكل اسم من أسمائه دال على جميع الصفة التي اشتق منها، مستغرق لجميع معناها.

وذلك نحو «العليم» الدال على أن له علماً محيطاً عاماً لجميع الأشياء، فلا يخرج عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء.

«الرحيم» الدال على أن له رحمة عظيمة واسعة لكل شيء.

«القدير» الدال على أن له قدرة عامة، لا يعجزها شيء، ونحو ذلك.

ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوا بِهَا﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، فيدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلاً: اللهم اغفر لي وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب علي يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي أَسْمَائِهِمْ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: عقوبة وعذاباً على إلحادهم في أسمائهم، وحقيقة الإلحاد الميل بها عما جعلت له، إما بأن يسمى بها من لا يستحقها، كتسمية المشركين بها لأللهتهم، وإما بتفي معانيها وتحريفها، وأن يجعل لها معنى ما أراده الله ولا رسوله، وإما أن يشبه بها غيرها، فالواجب أن يحذر الإلحاد فيها، ويحذر الملحدون فيها، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ «أَنَّ اللَّهَ تَسْعَةُ وَتَسْعِينَ اسْمًا، مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».

﴿١٨١﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ أي: ومن جملة من خلقنا أمة فاضلة كاملة في نفسها، مكملة لغيرها، يهدون أنفسهم وغيرهم بالحق، فيعلمون الحق ويعملون به، ويعلمونه، ويدعون إليه وإلى العمل به.

نفعه ﷺ، الذي فاق نفع الآباء والأمهات، والأخلاء والإخوان بما حث العباد على كل خير، وحذرهم عن كل شر، وبينه لهم غاية البيان والإيضاح.

﴿١٨٩﴾ ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين * فلما آتاها صالحاً جعل له شركاء فيما آتاها فتعالى الله عما يشركون * أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون * ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون * وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أدعوتهم أم أنتم صامتون﴾ أي: ﴿هو الذي خلقكم﴾ أيها الرجال والنساء، المنتشرون في الأرض على كثرتكم وتفرقكم. ﴿من نفس واحدة﴾ وهو آدم أبو البشر ﷺ

﴿وجعل منها زوجها﴾ أي: خلق من آدم زوجته حواء لأجل أن يسكن إليها لأنها إذا كانت منه حصل بينهما من المناسبة والموافقة ما يقتضي سكون أحدهما إلى الآخر، فانقاد كل منهما إلى صاحبه بزمam الشهوة.

﴿فلما تغشاها﴾ أي: تجللها مجامعاً لها قدر الباري أن يوجد من تلك الشهوة وذلك الجماع النسل، [وحينئذ^(١)] حملت حملاً خفيفاً، وذلك في ابتداء الحمل، لا تحس به الأنثى، ولا يتقلها.

﴿فلما﴾ استمرت به و ﴿أثقلت﴾ به حين كبر في بطنها، فحينئذ صار في قلوبهما الشفقة على الولد، وعلى خروجه حياً صحيحاً، سالماً لا آفة فيه^(٢) [كذلك]، فدعوا الله ربهما لئن آتيتنا ولدأ صالحاً﴾ أي: صالح

ويدعون ما يجب عليهم من العلم، ثم يذهبون إلى ما لا سبيل لأحد أن يدركه، ولا هم مطالبون بعلمه.

﴿١٨٨﴾ ﴿قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا﴾ فلإني فقير مدبر، لا يأتيني خير إلا من الله، ولا يدفع عني الشر إلا هو، وليس لي من العلم إلا ما علمني الله تعالى.

﴿ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾ أي: لفعلت الأسباب التي أعلم أنها تنتج لي المصالح والمنافع، ولحذرت من كل ما يفضي إلى سوء ومكره، لعلمي بالاشياء قبل كونها، وعلمي بما تقضي إليه.

ولكني - لعدم علمي - قد ينالني ما ينالني من السوء، وقد يفوتني ما يفوتني من مصالح الدنيا ومنافعها، فهذا أدل دليل على أني لا علم لي بالغيب.

﴿إن أنا إلا نذير﴾ أنذر العقوبات الدينية والدنيوية والأخروية، وأبين الأعمال المفضية إلى ذلك، وأحذر منها.

﴿وبشير﴾ بالشواب العاجل والآجل، ببيان الأعمال الموصلة إليه والترغيب فيها، ولكن ليس كل أحد يقبل هذه البشارة والنذارة، وإنما يتنفع بذلك ويقبله المؤمنون، وهذه الآيات الكريمات، مبنية جهل من يقصد النبي ﷺ ويدعوه لحصول نفع أو دفع ضرر.

فإنه ليس بيده شيء من الأمر، ولا ينفع من لم ينفعه الله، ولا يدفع الضرر عن من لم يدفعه الله عنه، ولا له من العلم إلا ما علمه الله تعالى، وإنما ينفع من قبل ما أرسل به من البشارة والنذارة، وعمل بذلك، فهذا

السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون * قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿يسألونك﴾ أي: المكذبون لك، المتعنون ﴿عن الساعة﴾ أيان مرساها﴾ أي: متى وقتها الذي تحيي به، ومتى تحل بالخلق؟

﴿قل إنما علمها عند ربي﴾ أي: إنه تعالى يختص بعلمها، ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ أي: لا يظهرها لوقتها الذي قدر أن تقوم فيه إلا هو.

﴿نقلت في السماوات والأرض﴾ أي: خفي علمها على أهل السماوات والأرض، واشتد أمرها أيضاً عليهم، فهم من الساعة مشفقون.

﴿لا تأتيكم إلا بغتة﴾ أي: فجأة من حيث لا تشعرون، لم يستعدوا لها، ولم يتهيؤوا لقيامها.

﴿يسألونك كأنك حفي عنها﴾ أي: هم حريصون على سؤالك عن الساعة، كأنك مستحف عن السؤال عنها، ولم يعلموا أنك - لكمال علمك بربك، وما ينفع السؤال عنه - غير مبال بالسؤال عنها، ولا حريص على ذلك، فلم لا يقتدون بك، ويكفون عن الاستحفاء عن هذا السؤال الخالي من المصلحة المتعذر علمه، فإنه لا يعلمها نبي مرسل، ولا ملك مقرب. وهي من الأمور التي أخفاها الله عن الخلق، لكمال حكمته وسعة علمه.

﴿قل إنما علمها عند الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ فلذلك حرصوا على ما لا ينبغي الحرص عليه، وخصوصاً مثل حال هؤلاء الذين يتركون السؤال عن الأهم،

الحلقة تامها، لا نقص فيه ﴿لنكونن من الشاكرين﴾

﴿فلما أتاهما صالحاً﴾ على وفق ما طلبا، وتمت عليهما النعمة فيه ﴿جعلاً له شركاء فيما آتاهما﴾ أي: جعلاً له شركاء في ذلك الولد الذي انفرد الله بإيجاده والنعمة به، وأقر به أعين والديه، فعبّاه لغير الله. إما أن يسمياه بعبد غير الله كـ «عبد الحارث» و«عبد العزيز»^(١) و«عبد الكعبة» ونحو ذلك، أو يشركا بالله في العبادة، بعدما منّ الله عليهما بما منّ من النعم التي لا يحصيها أحد من العباد.

وهذا انتقال من النوع إلى الجنس، فإن أول الكلام في آدم وحواء، ثم انتقل إلى الكلام في الجنس، ولا شك أن هذا موجود في الذرية كثيراً، فلذلك قرّره الله على بطلان الشرك، وأنهم في ذلك ظالمون أشد الظلم، سواء كان الشرك في الأقوال، أم في الأفعال، فإن الخالق لهم من نفس واحدة، الذي خلق منها زوجها وجعل لهم من أنفسهم أزواجاً، ثم جعل بينهم من المودة والرحمة ما يسكن بعضهم إلى بعض، ويألفه، ويلتذ به، ثم هداهم إلى ما به تحصل الشهوة واللذة، والأولاد والنسل.

ثم أوجد الذرية في بطون الأمهات، وقتاً موقتاً، تشوف إليه نفوسهم، ويدعون الله أن يخرجهم سوياً صحيحاً، فأنم الله عليهم النعمة وأنالهم مطلوبهم.

أفلا يستحق أن يعبدوه، ولا يشركوا به في عبادته أحداً، ويخلصوا له الدين، ولكن الأمر جاء على العكس، فأشركوا بالله من «يخلق شيئاً وهم يخلقون» * ولا يستطيعون لهم ﴿أي: لعبادها نصراً ولا أنفسهم ينصرون﴾

فإذا كانت لا تخلق شيئاً، ولا مثقال ذرة، بل هي مخلوقة،

ولا تستطيع أن تدفع المكروه عن من يعبدها، بل ولا عن أنفسها، فكيف تتخذ مع الله آلهة؟! إن هذا إلا أظلم الظلم، وأسفه السفه.

وإن تدعوا، أيها المشركون هذه الأصنام، التي عبدتم من دون الله ﴿إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أَدْعَوْهُمْ أَمْ أَلَمْ تَدْعُوهُمْ﴾ أم أنتم صامتون ﴿فصار الإنسان أحسن حالة منها، لأنها لا تسمع ولا تبصر، ولا تهدي ولا تهدى، وكل هذا إذا تصوّره اللبيب العاقل تصوراً مجرداً، جزم ببطلان إلهيتها، وسفاها من عبدها.

﴿١٩٤ - ١٩٦﴾ ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾ ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم أذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيّدون فلا تنظرون إن ولّني الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾ وهذا من نوع التحدي للمشركين العابدين للأوثان، يقول تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ أي: لا فرق بينكم وبينهم، فكلكم عبيد لله مخلوكون، فإن كنتم كما تزعمون صادقين في أنها تستحق من العبادة شيئاً ﴿فادعوهم فليستجيبوا لكم﴾ فإن استجابوا لكم وحصلوا مطلوبكم، وإلا تبين أنكم كاذبون في هذه الدعوى، مفترون على الله أعظم الفرية، وهذا لا يحتاج إلى التبين فيه، فإنكم إذا نظرتهم إليها وجدتم صورتها دالة على أنه ليس لديها من النفع شيء، فليس لها أرجل تمشي بها، ولا أيد تبطش بها، ولا أعين تبصر بها، ولا أذان تسمع بها، فهي عادمة لجميع الآلات والقوى الموجودة في الإنسان.

فإذا كانت لا تحييكهم إذا دعتموها، وهي عباد أمثالكم، بل أنتم أكمل منها وأقوى على كثير من الأشياء، فلاي:



شيء عبدتموها.

﴿قل ادعوا شركاءكم ثم كيّدون فلا تنظرون﴾ أي: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم على إيقاع السوء والمكروه بي، من غير إمهال ولا إنظار^(٢)، فإنكم غير بالغين لشيء من المكروه بي، لأن ولّني الله الذي يتولاني فيجلب لي المنافع ويدفع عني المضار.

﴿الذي نزل الكتاب﴾ الذي فيه الهدى والشفاء والنور، وهو من توليته وتربيته لعباده الخاصة الدينية.

﴿وهو يتولى الصالحين﴾ الذين صلحت نياتهم وأعمالهم وأقوالهم، كما قال تعالى: ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ فالؤمنون الصالحون - لما تولوا ربهم بالإيمان والتقوى، ولم يتولوا غيره ممن لا ينفع ولا يضر - تولاهم الله ولطف بهم وأعانهم على ما فيه الخير والمصلحة لهم، في دينهم ودنياهم، ودفع عنهم بليائهم كل مكروه، كما قال تعالى: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾.

﴿١٩٧﴾ ﴿والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون وإن تدعوهم إلى الهدى

الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون * وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون ﴿١٩٨﴾

أي: أي وقت، وفي أي حال ﴿ينزعنك من الشيطان نزغ﴾ أي: تحس منه بوسوسة وتشتيط عن الخير، أو حث على الشر وإعاز إليه. ﴿فاستعد بالله﴾ أي: التجئ واعتمد بالله، واحتم بحماه فإنه ﴿سميع﴾ لما تقول. ﴿عليهم﴾ بنيتك وضعفك، وقوة التجانك له، فسيحملك من فتنته، ويقيك من وسوسته، كما قال تعالى ﴿قل أعوذ برب الناس﴾ إلى آخر السورة.

ولما كان العبد لا بد أن يغفل وينال منه الشيطان، الذي لا يزال مرابطاً ينتظر غرته وغفلته، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأن المتقي إذا أحس بذهنب، ومسه طائف من الشيطان، فأذنب بفعل محرم أو ترك واجب - تذكر من أي: باب أي، ومن أي: مدخل دخل الشيطان عليه، وتذكر ما أوجب الله عليه، وما عليه من لوازم الإيمان، فأبصر واستغفر الله تعالى، واستدرك ما فرط منه بالتوبة النصوح والحسنات الكثيرة، فرد شيطانه خاسئاً حسيراً، قد أفسد عليه كل ما أدركه منه.

وأما إخوان الشياطين وأولياؤهم، فإنهم إذا وقعوا في الذنوب، لا يزالون يمدونهم في الغي ذنباً بعد ذنب، ولا يقصرون عن ذلك، فالشياطين لا تقصر عنهم بالإغواء، لأنها طمعت فيهم حين رأتهم سلسي القياد لها، وهم لا يقصرون عن فعل الشر.

﴿٢٠٣﴾ ﴿وإذا لم تأتكم بآية قالوا لولا اجتنبتنا قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ أي: لا يزال هؤلاء المكذبون لك في تعنت وعناد،

لرسول الله ﷺ، فتحبسهم ينظرون إليك يا رسول الله نظر اعتبار يتبين به الصادق من الكاذب، ولكنهم لا يبصرون حقيقتك وما يتوسمه المتوسمون فيك من الجمال والكمال والصدق.

﴿١٩٩﴾ ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس، أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما قبله به، من قول وفعل جميل، أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتشرح له صدورهم.

﴿وأمر بالعرف﴾ أي: بكل قول حسن وفعل جميل، وخلق كامل للقريب والبعيد، فاجعل ما يأتي إلى الناس منك، إما تعليم علم، أو حث على خير، من صلة رحم، أو بر والدین، أو إصلاح بين الناس، أو نصيحة نافعة، أو رأي: مصيب، أو معاون على بر وتقوى، أو زجر عن قبيح، أو إرشاد إلى تحصيل مصلحة دينية أو دنيوية، ولما كان لا بد من أذية الجاهل، أمر الله تعالى أن يقابل الجاهل، بالإعراض عنه وعدم مقابله بجهله، فمن أذاك بقوله أو فعله لا تؤذه، ومن حرمك لا تحرمه، ومن قطعك فصله، ومن ظلمك فاعدل فيه.

وأما ما ينبغي أن يعامل به العبد شياطين الإنس والجن، فقال تعالى: ﴿٢٠٠﴾ ﴿وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعد بالله إنه سميع عليم﴾ إن



لا يسمعون وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون ﴿ وهذا أيضاً في بيان عدم استحقاق هذه الأصنام التي يعبدونها من دون الله لشيء من العبادة، لأنها ليس لها استطاعة ولا اقتدار في نصر أنفسهم، ولا في نصر عابديها، وليس لها قوة العقل والاستجابة، فلو دعوتها إلى الهدى لم تتد، وهي صور لا حياة فيها، فتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون حقيقة، لأنهم صوروها على صور الحيوانات من آدميين أو غيرهم، وجعلوا لها أبصاراً وأعضاء، فإذا رأيتها قلت: هذه حية، فإذا تأملت أيتها عرفت أنها جمادات لا حراك بها، ولا حياة، فبأي: رأي اتخذها المشركون آلهة مع الله؟ ولأي: مصلحة أو نفع عكفوا عندها وتقربوا لها بأنواع العبادات؟

فإذا عرف هذا، عرف أن المشركين وآلهتهم التي عبدوها، ولو اجتمعوا وأرادوا أن يكيدوا من تولاه فاطر الأرض والسموات، متولي أحوال عباده الصالحين، لم يقدرُوا على كيدهم بمثقال ذرة من الشر، لكمال عجزهم وعجزها، وكمال قوة الله واقتداره، وقوة من احتجى بجلاله وتوكل عليه.

وقيل: إن معنى قوله: ﴿وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون﴾ أن الضمير يعود إلى المشركين المكذبين

ولو جاءتهم الآيات الدالة على الهدى والرشاد، فإذا جنتهم بشيء من الآيات الدالة على صدقك لم يقادوا.

﴿وإذا لم تأتهم بآية﴾ من آيات الاقتراح التي يعينونها ﴿قالوا لولا اجتبتنا﴾ أي: هلا اخترت الآية، فصارت الآية الفلانية، أو المعجزة الفلانية كأنك أنت المنزل للآيات، المدير لجميع المخلوقات، ولم يعلموا أنه ليس لك من الأمر شيء، أو أن المعنى: لولا اخترعتها من نفسك.

﴿قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي﴾ فإنا عبد متبع مديّر، والله تعالى هو الذي ينزل الآيات ويرسلها على حسب ما اقتضاه حمده وطلبته حكمته البالغة، فإن أردت آية لا تضمحل على تعاقب الأوقات، وحجة لا تبطل في جميع الآتات، فهذا القرآن العظيم والذكر الحكيم ﴿بصائر من ربكم﴾ يستبصر به في جميع المطالب الإلهية والمقاصد الإنسانية، وهو الدليل والمدلول فمن تفكر فيه وتدبره، علم أنه تنزيل من حكيم حميد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبه قامت الحجة على كل من بلغه، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون، وإلا فمن آمن، فهو ﴿هدى﴾ له من الضلال و﴿ورحمة﴾ له من الشقاء، فالؤمن مهتد بالقرآن، متبع له، سعيد في دنياه وأخراه.

وأما من لم يؤمن به، فإنه ضال شقي في الدنيا والآخرة.

﴿٢٠٤﴾ ﴿وإذا قرء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

وأما الاستماع له، فهو أن يلقي سمعه، ويحضر قلبه ويتدبر ما يستمع، فإن من لازم على هذين الأمرين حين

يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيراً كثيراً وعلماً غزيراً، وإيماناً مستمراً متجدداً، وهدى متزايداً، وبصيرة في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما، فدل ذلك على أن من تلى عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير.

ومن أوكد ما يؤمر به مستمع القرآن، أن يستمع له وينصت في الصلاة الجهرية إذا قرأ إمامه، فإنه مأمور بالإنصات، حتى إن أكثر العلماء يقولون: إن اشتغاله بالإنصات، أولى من قراءته الفاتحة وغيرها.

﴿٢٠٥ - ٢٠٦﴾ ﴿واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين﴾ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون ﴿الذكر﴾ الله تعالى يكون بالقلب، ويكون باللسان، ويكون بهما، وهو أكمل أنواع الذكر وأحواله، فأمر الله عبده ورسوله محمداً أصلاً، وغيره تبعاً بذكر ربه، في نفسه، أي: مخلصاً خالياً.

﴿تضرعاً﴾ أي: متضرعاً بلسانك، مكرراً لأنواع الذكر، ﴿وخيفة﴾ في قلبك بأن تكون خائفاً من الله، وجل القلب منه، خوفاً أن يكون عملك غير مقبول، وعلامة الخوف أن يسعى ويجتهد في تكميل العمل وإصلاحه، والنصح به.

﴿ودون الجهر من القول﴾ أي: كن متوسطاً، لا تجهر بصلاتك، ولا تخافت بها، وابتغ بين ذلك سبيلاً ﴿بالغدو﴾ أول النهار ﴿والآصال﴾ آخره، وهذان الوقتان لذكر الله فيهما مزية وفضيلة على غيرها.

﴿ولا تكن من الغافلين﴾ الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فإنهم حرموا خير الدنيا والآخرة، وأعرضوا عن كل السعادة والفوز في ذكره وعبوديته، وأقبلوا على من كل الشقاوة

﴿٢٠٧﴾ ﴿وإذا قرء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون﴾ هذا الأمر عام في كل من سمع كتاب الله يتلى، فإنه مأمور بالاستماع له والإنصات، والفرق بين الاستماع والإنصات، أن الإنصات في الظاهر بترك التحدث أو الاشتغال بما يشغل عن استماعه.

والخيبة في الاشتغال به، وهذه من الآداب التي ينبغي للعبد أن يراعيها حق رعايتها، وهي الإكثار من ذكر الله أثناء الليل والنهار، خصوصاً طرقي النهار، مخلصاً خاشعاً متضرعاً، متذللاً، ساكناً، وتواطئ عليه قلبه ولسانه، بأدب ووقار، وإقبال على الدعاء والذكر، وإحضار له بقلبه وعدم غفلة، فإن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه.

ثم ذكر تعالى أن له عبداً مستديمين لعبادته، ملازمين لخدمته وهم الملائكة، فلتعلموا أن الله لا يريد أن يتكثر لعبادته من قلة، ولا ليتعزز بها من ذلة، وإنما يريد نفع أنفسكم، وأن تريحوا عليه أضعاف أضعاف ما عملتم، فقال: ﴿إن الذين عند ربك﴾ من الملائكة المقربين، وحلة العرش والكروبيين ﴿لا يستكبرون عن عبادته﴾ بل يذعنون لها وينقادون لأوامرهم ﴿ويسبحونه﴾ الليل والنهار لا يفترون.

﴿وله﴾ وحده لا شريك له ﴿يسجدون﴾ فليقتد العباد بهؤلاء الملائكة الكرام، وليداوموا [على] عبادة الملك العلام.

تم تفسير سورة الأعراف

والله الحمد والشكر والثناء

وصلّى الله على محمد وآله وصحبه وسلم

فرائض ونوافل، بأعمالها الظاهرة والباطنة، كحضور القلب فيها، الذي هو روح الصلاة ولبها، ﴿وما رزقناهم ينفقون﴾ النفقات الواجبة، كالزكوات، والكفارات، والنفقة على الزوجات والأقارب، وما ملكت أيماهم، والمستحبة كالصدقة في جميع طرق الخير.

﴿أولئك﴾ الذي اتصفوا بتلك الصفات ﴿هم المؤمنون حقاً﴾ لأنهم جمعوا بين الإسلام والإيمان، بين الأعمال الباطنة والأعمال الظاهرة، بين العلم والعمل، بين أداء حقوق الله وحقوق عباده.

وقدم تعالى أعمال القلوب، لأنها أصل لأعمال الجوارح وأفضل منها، وفيها دليل على أن الإيمان، يزداد وينقص، فيزيد بفعل الطاعة وينقص بضدها.

وأنه ينبغي للعبد أن يتعاهد إيمانه وينمي، وإن أولى ما يحصل به ذلك تدبر كتاب الله تعالى والتأمل لمعانيه. ثم ذكر ثواب المؤمنين حقاً فقال: ﴿لهم درجات عند ربهم﴾ أي: عالية بحسب علو أعمالهم ﴿ومغفرة﴾ لذنوبهم ﴿ورزق كريم﴾ وهو ما أعد الله لهم في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ودل هذا على أن من لم يصل إلى درجتهم في الإيمان - وإن دخل الجنة - فلن ينال ما نالوا من كرامة الله التامة.

﴿هـ - ٨﴾ ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون﴾ يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون * وإذ يمدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين * ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون * قدم تعالى - أمام هذه الغزوة الكبرى المباركة - الصفات التي على المؤمنين أن يقوموا بها، لأن من قام

أصلحوا ما بينكم من التشاحن والتقاطع والتدابير، بالتوادد والتحاب والتواصل. فبذلك تجتمع كلمتكم، ويؤول ما يحصل - بسبب التقاطع - من التخاصم، والتشاجر والتنازع.

ويدخل في إصلاح ذات البين تحسين الخلق لهم، والعفو عن المسيئين منهم فإنه بذلك يزول كثير مما يكون في القلوب من البغضاء والتدابير، والأمر الجامع لذلك كله قوله: ﴿وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ فإن الإيمان يدعو إلى طاعة الله ورسوله، كما أن من لم يطع الله ورسوله فليس بمؤمن.

ومن نقصت طاعته لله ورسوله، فذلك لنقص إيمانه، ولما كان الإيمان قسماً: إيماناً كاملاً يترتب عليه المدح والثناء، والفوز التام، وإيماناً دون ذلك ذكر الإيمان الكامل فقال: ﴿إنما المؤمنون﴾ الألف واللام للاستغراق لشرائع الإيمان.

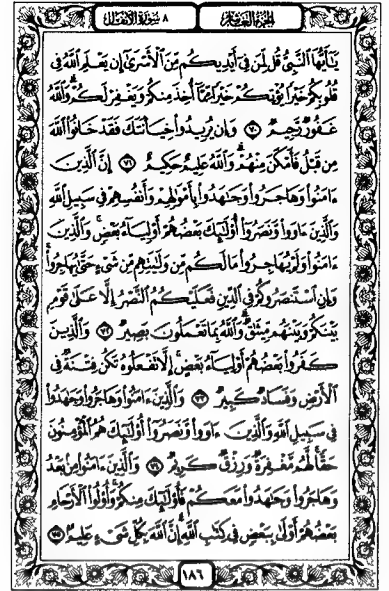
﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي: خافت ورهبت، فأوجب لهم خشية الله تعالى الانكفاف عن المحارم، فإن خوف الله تعالى أكبر علاماته أن يحجز صاحبه عن الذنوب.

﴿وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾ ووجه ذلك أنهم يلقون له السمع ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزداد إيمانهم، لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنى كانوا يجهلون، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقاً إلى كرامة ربهم، أو جلاً من العقوبات، وازدجاراً عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان.

﴿وعلى ربهم﴾ وحده لا شريك له ﴿يتوكلون﴾ أي: يعتمدون في قلوبهم على ربهم في جلب مصالحهم ودفع مضارهم الدينية والدنيوية، ويتقنون بأن الله تعالى سيفعل ذلك.

والتوكل هو الحامل للأعمال كلها، فلا توجد ولا تكمل إلا به.

﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ من



تفسير سورة الأنفال وهي مدنية

﴿١ - ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين﴾ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون * أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم * الأنفال هي الغنائم التي ينفلها الله لهذه الأمة من أموال الكفار، وكانت هذه الآيات في هذه السورة قد نزلت في قصة «بدر» أول غنيمة كبيرة غنمها المسلمون من المشركين، فحصل بين بعض المسلمين فيها نزاع، فسألوا رسول الله ﷺ عنها، فأنزل الله: ﴿يسألونك عن الأنفال﴾ كيف تقسم وعلى من تقسم؟

﴿قل﴾ لهم: الأنفال لله ورسوله يضعانها حيث شاء، فلا اعتراض لكم على حكم الله ورسوله، بل عليكم إذا حكم الله ورسوله أن ترضوا بحكمهما، وتسلموا الأمر لهما، وذلك داخل في قوله: ﴿فاتقوا الله﴾ بامثال أوامره واجتنب نواهيه.

﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ أي:

بها استقامت أحواله وصلحت أعماله، التي من أكبرها الجهاد في سبيله.

فكما أن إيمانهم هو الإيمان الحقيقي، وجزاءهم هو الحق الذي وعدهم الله به، كذلك أخرج الله رسوله ﷺ من بيته إلى لقاء المشركين في «بدر» بالحق الذي يحبه الله تعالى، وقد قدره وقضاه.

وإن كان المؤمنون لم يخطر ببالهم في ذلك الخروج أنه يكون بينهم وبين عدوهم قتال.

فحين تبين لهم أن ذلك واقع، جعل فريق من المؤمنين يجادلون النبي ﷺ في ذلك، ويكرهون لقاء عدوهم، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون.

والحال أن هذا لا ينبغي منهم، خصوصاً بعدما تبين لهم أن خروجهم بالحق، ومما أمر الله به ورضيه، فهذه الحال ليس للجدال محل [فيها] ^(١)، لأن الجدال محله وفائدته عند اشتباه الحق والتباس الأمر، فأما إذا وضح وبان، فليس إلا الانقياد والإذعان.

هذا وكثير من المؤمنين لم يجر منهم من هذه المجادلة شيء، ولا كرهوا لقاء عدوهم، وكذلك الذين عاتبهم الله، انقادوا للجهاد أشد الانقياد، وثبتهم الله، وقبض لهم من الأسباب ما تطمئن به قلوبهم كما سيأتي ذكر بعضها.

وكان أصل خروجهم يتعرضون لغير خرجت مع أبي سفيان بن حرب لقريش إلى الشام، قافلة كبيرة، فلما سمعوا بروجوعها من الشام، ندب النبي ﷺ الناس، فخرج معه ثلاث مئة، وبضعة عشر رجلاً، معهم سبعون بعيراً، يعتقبون عليها، ويحملون عليها متاعهم، فسمعت بخبرهم قريش، فخرجوا لمنع غيرهم، في عدد كثير وعدة وافرة من السلاح والخيل والرجال، يبلغ عددهم قريباً من الألف.

فوعدهم الله المؤمنين إحدى الطائفتين، إما أن يظفروا بالغير، أو

بالنفير، فأحبوا العير لقلة ذات يد المسلمين، ولأنها غير ذات شوك، ولكن الله تعالى أحب لهم وأراد أمراً أعلى مما أحبوا.

أراد أن يظفروا بالنفير الذي خرج فيه كبراء المشركين وصناديدهم، «ويريد الله أن يحق الحق بكلماته» فينصر أهله «ويقطع دابر الكافرين» أي: يستأصل أهل الباطل، ويرى عباده من نصره للحق أمراً لم يكن يخطر ببالهم.

«ليحق الحق» بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه، «ويبطل الباطل» بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه «ولو كره المجرمون» فلا يبالي الله بهم.

﴿٩ - ١٤﴾ «إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين * وما جعله الله إلا بشراً لتطمئن به قلوبكم وما النصر يغشيكم النعاس أمانة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام * إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان * ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب * ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار» أي: اذكروا نعمة الله عليكم، لما قارب التقاؤكم بعدوكم، استغثتم بربكم، وطلبت منه أن يعينكم وينصركم «فاستجاب لكم» وأعانكم بعدة أمور:

منها: أن الله أمدكم «بألف من الملائكة مردفين» أي: يردف بعضهم بعضاً، «وما جعله الله» أي: إنزال الملائكة «إلا بشراً» أي: لتستبشر بذلك نفوسكم، «ولتطمئن به قلوبكم» وإلا فالنصر بيد الله، ليس بكثرة عدد ولا عُدو.

«إن الله عزيز» لا يغالبه مغالب، بل هو القهار، الذي يخذل من بلغوا من الكثرة وقوة العدد والآلات ما بلغوا. «حكيم» حيث قدر الأمور بأسبابها، ووضع الأشياء مواضعها.

ومن نصره واستجابته لدعائكم أن أنزل عليكم نعاساً «يفغشيكم» [أي] فيذهب ما في قلوبكم من الخوف والوجل، ويكون «أمانة» لكم وعلامة على النصر والطمأنينة.

ومن ذلك: أنه أنزل عليكم من السماء مطراً ليطهركم به من الحدث والخبث، ويطهركم به من وساوس الشيطان ورجزه.

«وليربط على قلوبكم» أي: يشبثها فإن ثبات القلب، أصل ثبات البدن، «ويثبت به الأقدام» فإن الأرض كانت سهلة دهسة فلما نزل عليها المطر تلبت، وثبتت به الأقدام.

ومن ذلك: أن الله أوحى إلى الملائكة «أني معكم» بالعون والنصر والتأييد، «فثبتوا الذين آمنوا» أي: ألقوا في قلوبهم، وألهمهم الجرأة على عدوهم، ورغبوهم في الجهاد وفضله.

«سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب» الذي هو أعظم جند لكم عليهم، فإن الله إذا ثبت المؤمنين وألقى الرعب في قلوب الكافرين، لم يقدر الكافرون على الثبات لهم، ومنحهم الله أكتافهم.

«فاضربوا فوق الأعناق» أي: على الرقاب «واضربوا منهم كل بنان» أي: مفصل.

وهذا خطاب، إما للملائكة الذين أوحى الله إليهم أن يشبثوا الذين آمنوا، فيكون في ذلك دليل أنهم باشروا القتال يوم بدر، أو للمؤمنين يشجعهم الله، ويعلمهم كيف يقتلون المشركين، وأنهم لا يرحمونه، وذلك لأنهم شاقوا الله ورسوله أي: حاربوها وبارزوها بالعداوة. «ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب» ومن عقابه

تسليط أوليائه على أعدائه وتقتيلهم.
﴿ذَلِكُمْ﴾ الحذاب المذكور
﴿فَذَوْقُوهُ﴾ أي المشاققون لله ورسوله
 عذاباً معجلاً، **﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾**.

وفي هذه القصة من آيات الله العظيمة ما يدل على أن ما جاء به محمد ﷺ رسول الله حقاً.
 منها: أن الله وعدهم وعداً، فأنجزهموه.

ومنها: ما قال الله تعالى: **﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾** الآية.

ومنها: إجابة دعوة الله للمؤمنين لما استغاثوه بما ذكره من الأسباب، وفيها الاعتناء العظيم بحال عباده المؤمنين، وتقييض الأسباب التي بها ثبت إيمانهم، وثبتت أقدامهم، وزال عنهم المكروه والوساوس الشيطانية.

ومنها: أن من لطف الله بعبده أن يسهل عليه طاعته، ويسرها بأسباب داخلية وخارجية.

﴿١٥-١٦﴾ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار * ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير * يأمر تعالى عباده المؤمنين بالشجاعة الإيمانية، والقوة في أمره، والسعي في جلب الأسباب المقوية للقلوب والأبدان، ونهاهم عن الفرار إذا التقى الزحفان، فقال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾** أي: في صف القتال، وتزاحف الرجال، واقترب بعضهم من بعض، **﴿فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾** بل اثبتوا لقتالهم، واصبروا على جلادهم، فإن في ذلك نصرة لدين الله، وقوة لقلوب المؤمنين، وإرهاقاً للكافرين.

﴿وَمَنْ يُولِهِمْ يَوْمَئِذٍ دَرَبَهُ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مَتَحِيزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ﴾ أي: رجع **﴿بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ﴾** أي: مقره **﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾** وهذا يدل على أن الفرار من الزحف

من غير عذر من أكبر الكبائر، كما وردت بذلك الأحاديث الصحيحة وكما نص هنا على وعيده بهذا الوعيد الشديد.

ومفهوم الآية: أن المتحرف للقتال، وهو الذي ينحرف من جهة إلى أخرى، ليكون أمكن له في القتال، وأنكى لعدوه، فإنه لا بأس بذلك، لأنه لم يول دبره فاراً، وإنما ولى دبره ليستعلي على عدوه، أو يأتيه من محل يصيب فيه غرته، أو ليخدعه بذلك، أو غير ذلك من مقاصد المحاربين، وأن التحيز إلى فئة تمنعه وتعينه على قتال الكفار، فإن ذلك جائز، فإن كانت الفتنة في العسكر، فالأمر في هذا واضح، وإن كانت الفتنة في غير محل المعركة كانهزام المسلمين بين يدي الكافرين والتجائهم إلى بلد من بلدان المسلمين أو إلى عسكر آخر من عسكر المسلمين، فقد ورد من آثار الصحابة ما يدل على أن هذا جائز، ولعل هذا يقيد بما إذا ظن المسلمون أن الانهزام أحمق عاقبة، وأبقى عليهم.

أما إذا ظنوا غلبتهم للكفار في ثباتهم لقتالهم، فيبعد - في هذه الحال - أن تكون من الأحوال المرخص فيها، لأنه - على هذا - لا يتصور الفرار المنهي عنه، وهذه الآية مطلقة، وسيأتي في آخر السورة تقييدها بالعدد.

﴿١٧-١٩﴾ **﴿فَلَمْ يَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾** إن الله سميع عليم * **﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مَوْهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾** * إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فتكتكم شيئاً ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين * يقول تعالى - لما انهزم المشركون يوم بدر، وقتلهم المسلمون - **﴿فَلَمْ يَقْتُلُوهُمْ﴾** بحولكم وقوتكم **﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾** حيث أعانكم على ذلك بما تقدم ذكره.

﴿وَمَا رَمَيْتُ إِذْ رَمَيْتُ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ وذلك أن النبي ﷺ وقت القتال دخل العريش وجعل يدعو الله، ويناشده في نصرته، ثم خرج منه،

فأخذ حفنة من تراب، فرماها في وجوه المشركين، فأوصلها الله إلى وجوههم، فما بقي منهم واحد إلا وقد أصاب وجهه، وفمه وعينه منها، فحينئذ انكسر حدهم، وفتر زندهم، وبان فيهم الفشل والضعف، فانهمزوا. يقول تعالى لنبيه: **﴿لَسْتُ بِقَوْتِكَ - حِينَ رَمَيْتُ التَّرَابَ - أَوْصَلْتَهُ إِلَى أَعْيُنِهِمْ، وَإِنَّمَا أَوْصَلَنَاهُ إِلَيْهِمْ بِقُوَّتِنَا﴾** واقتدارنا، **﴿وَلِيْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾** أي: إن الله تعالى قادر على انتصار المؤمنين من الكافرين، من دون مباشرة قتال، ولكن الله أراد أن يمتحن المؤمنين، ويوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، وأرفع المقامات، ويعطيهم أجراً حسناً وثواباً جزيلاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع تعالى ما أسر به العبد وما أعلن، ويعلم ما في قلبه من النيات الصالحة وضدها، فيقدر على العباد أقداراً موافقة لعلمه وحكمته ومصالحة عباده، ويميزي كلا بحسب نيته وعمله.

﴿١٨﴾ **﴿ذَلِكُمْ﴾** النصر من الله لكم **﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَوْهِنٌ كَيْدَ الْكَافِرِينَ﴾** أي: مضعف كل مكر وكيد يكيّدون به الإسلام وأهله، وجاعل مكرهم محققاً بهم.

﴿١٩﴾ **﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾** أيها المشركون، أي: تطلبوا من الله أن يوقع بأسه وعذابه على المعتدين الظالمين.

﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ حين أوقع الله بكم من عقابه، ما كان نكالاً لكم وعبرة للمتقين **﴿وَأِنْ تَنْتَهُوا﴾** عن الاستفتاح **﴿فَهُوَ خَيْرٌ﴾** لأنه ربما أمهلتهم، ولم يجعل لكم النعمة. **﴿وَأِنْ تَعُودُوا﴾** إلى الاستفتاح وقتال حزب الله المؤمنين **﴿نَعُدُّ﴾** في نصرهم عليكم.

﴿وَلَنْ تَغْنِيَّ عَنْكُمْ فَتُكْتَمَ﴾ أي: أعوانكم وأنصاركم، الذين تحاربون وتقاتلون، معتمدين عليهم، شيئاً وأن الله مع المؤمنين.

ومن كان الله معه فهو المنصور وإن كان ضعيفاً قليلاً عدده، وهذه المعية

الرابع: الأجر العظيم والثواب الجزيل لمن اتقاه وأثر رضاه على هوى نفسه. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾

﴿٣٠﴾ «وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين» أي: ﴿و﴾ اذكر أيها الرسول، ما من الله به^(٢) عليك. «إذ يمكر بك الذين كفروا» حين تشاور المشركون في دار الندوة فيما يصنعون بالنبي ﷺ، إما أن يشبثوه عندهم بالحبس ويوثقوه.

«وإما أن يقتلوه فيستريحوا - بزعمهم - من شره».

«وإما أن يخرجوه ويحلبوه من ديارهم».

فكل أحدى من هذه الآراء رأياً رآه، فاتفق رأيهم على رأي: رآه شريهم أبو جهل لعنه الله، وهو أن يأخذوا من كل قبيلة من قبائل قريش فتى ويعطوه سيفاً صارماً، ويقتله الجميع قتلة رجل واحد، ليتفرق دمه في القبائل فيرضى بنو هاشم [ثُمَّ] بديته، فلا يقدرون على مقاومة سائر^(٣) قريش، فترصدوا للنبي ﷺ في الليل ليقوموا به إذا قام من فراشه.

فجاءه الوحي من السماء، وخرج عليهم، فذُرَّ على رؤوسهم التراب وخرج، وأعمى الله أبصارهم عنه، حتى إذا استبطؤوه جاءهم آت وقال: خيبكم الله، قد خرج محمد وذُرَّ على رؤوسكم التراب.

فنفذ كل منهم التراب عن رأسه، ومنع الله رسوله منهم، وأذن له في الهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها، وأيده الله بأصحابه المهاجرين والأنصار، ولم يزل أمره يعلو حتى دخل مكة عنوة، وقهر أهلها، فأذعنوا له وصاروا تحت حكمه، بعد أن خرج

الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً، فمن أدى الأمانة استحق من الله الثواب الجزيل، ومن لم يؤدها بل خانها استحق العقاب الوبيل، وصار خائناً لله وللرسول ولأمانته، منقصاً لنفسه بكونه اتصفت نفسه بأخس الصفات، وأقبح الشيات، وهي الخيانة مفوتاً لها أكمل الصفات وأتمها، وهي الأمانة.

ولما كان العبد محتجناً بأمواله وأولاده، فربما حمله حجة^(١) ذلك على تقديم هوى نفسه على أداء أمانته، أخبر الله تعالى أن الأموال والأولاد فتنة يتبلى الله بها عباده، وأنها عارية ستزوى لمن أعطهاها، وترد لمن استودعها ﴿وأن الله عنده أجر عظيم﴾

فإن كان لكم عقل ورأي، فأثروا فضله العظيم على لذة صغيرة فانية مضمحلة، فالعقل يوازن بين الأشياء، ويؤثر أولاها بالإيثار، وأحقها بالتقديم.

﴿٢٩﴾ «يا أيها الذين آمنوا إن تنقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم» امتثال العبد لتقوى ربه عنوان السعادة، وعلامة الفلاح، وقد رتب الله على التقوى من خير الدنيا والآخرة شيئاً كثيراً، فذكر هنا أن من اتقى الله حصل له أربعة أشياء، كل واحد منها خير من الدنيا وما فيها:

الأول: الفرقان: وهو العلم والهدى الذي يفرق به صاحبه بين الهدى والضلال، والحق والباطل، والحلال والحرام، وأهل السعادة من أهل الشقاوة.

الثاني والثالث: تكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وكل واحد منهما داخل في الآخر عند الإطلاق وعند الاجتماع. يفسر تكفير السيئات بالذنوب الصغائر، ومغفرة الذنوب بتكفير الكبائر.



يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون» يقول تعالى ممثلاً على عباده في نصرهم بعد الذلة، وتكثيرهم بعد القلة، وإغنائهم بعد العيلة.

﴿واذكروا إذا أنتم قليل مستضعفون في الأرض﴾ أي: مقهورون تحت حكم غيركم «تخافون أن يتخطفكم الناس» أي: يأخذونكم.

﴿فأواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات﴾ فجعل لكم بلداً تآرون إليه، وانتصر من أعدائكم على أيديكم، وغنمتم من أموالهم ما كنتم به أغنياء.

﴿لعلكم تشكرون﴾ الله على منته العظيمة وإحسانه التام، بأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

﴿٢٧- ٢٨﴾ «يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون * واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم» يأمر تعالى عباده المؤمنين أن يؤدوا ما اتهمهم الله عليه من أوامره ونواهيه، فإن الأمانة قد عرضها الله على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها

(١) في ب: محبة.

(٢) في النسختين: ما من الله بك عليك.

(٣) في ب: جميع.

مستخفياً منهم، خائفاً على نفسه. فسبحان اللطيف بعبده الذي لا يغالبه مغالب.

﴿٣١-٣٤﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ * وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم * وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون * وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصذبون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون* يقول تعالى في بيان عناد المكذبين للرسول ﷺ: ﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا الدَّالَّةُ عَلَى صَدْقِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ﴾.

فمذ قالوا: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك﴾ الآية، علم بمجرد قولهم أنهم السفهاء الأغبياء، الجهلة الظالمون، فلو عاجلهم الله بالعقاب لما أبقى منهم باقية، ولكنه تعالى دفع عنهم العذاب بسبب وجود الرسول بين أظهرهم، فقال: ﴿وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم﴾ فوجوده ﷺ بين أظهرهم أمنة لهم من العذاب.

وكانوا مع قولهم هذه المقالة التي يظهرونها على رؤوس الأشهاد، يدرون بقبحها، فكانوا يخافون من وقوعها فيهم، فيستغفرون الله [تعالى فلهاذا] قال تعالى: ﴿وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون﴾.

فهذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم، بعدما انعقدت أسبابه، ثم قال: ﴿وما لهم ألا يعذبهم الله﴾ أي: أي شيء يمنعه من عذاب الله، وقد فعلوا ما يوجب ذلك، وهو صد الناس عن المسجد الحرام، خصوصاً صدمهم النبي ﷺ وأصحابه، الذين هم أولى به منهم، ولهذا قال: ﴿وما كانوا﴾ أي: المشركون ﴿أولياءه﴾، يحتمل أن الضمير يعود إلى الله، أي: أولياء الله. ويحتمل أن يعود إلى المسجد الحرام، أي: وما كانوا أولى به من غيرهم. إن أولياؤه إلا المتقون * وهم الذين آمنوا بالله ورسوله، وأفردوا الله بالتوحيد والعبادة، وأخلصوا له الدين، ولكن أكثرهم لا يعلمون * فلذلك ادَّعَوْا لأنفسهم أمراً غيرهم أولى به.

﴿٣٥﴾ ﴿وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ يعني أن الله تعالى إنما جعل بيته الحرام ليقام فيه دينه، وتخلص له فيه العبادة، فالمؤمنون هم الذين قاموا بهذا الأمر، وأما هؤلاء المشركون الذي يصدون عنه، فما كان صلاتهم فيه التي هي أكبر أنواع العبادات ﴿إلا مكاء وتصدية﴾ أي: صفيراً وتصفيقاً، فعل الجهلة الأغبياء، الذين ليس في قلوبهم تعظيم لربهم، ولا معرفة بحقوقه، ولا احترام

﴿قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ وهذا من عنادهم وظلمهم، وإلا فقد تحداهم الله أن يأتوا بسورة من مثله، ويدعوا من استطاعوا من دون الله، فلم يقدروا على ذلك، وتبين عجزهم.

فهذا القول الصادر من هذا القائل مجرد دعوى، كذبه الواقع، وقد علم أنه ﷺ أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولا رحل ليدرس من أخبار الأولين، فأتى بهذا الكتاب الجليل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

﴿وَإِذَا قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَدْعُو إِلَيْهِ مُحَمَّدٌ عِنْدَكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حَجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ قالوه على وجه الجزم منهم بباطلهم، والجهل بما ينبغي من الخطاب.

فلو أنهم إذ أقاموا على باطلهم من الشبه والتمويهات ما أوجب لهم أن يكونوا على بصيرة ويقين منه، قالوا لمن ناظرهم وادعى أن الحق معه: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له، لكان أولى لهم وأستر لظلمهم.

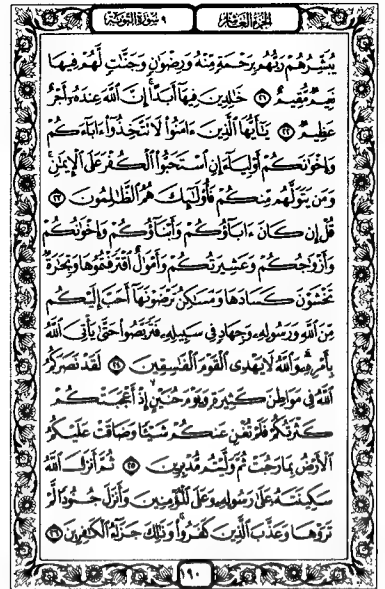


لأفضل البقاع وأشرفها، فإذا كانت هذه صلاتهم فيه، فكيف ببقية العبادات!!

فبأي شيء كانوا أولى بهذا البيت من المؤمنين الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، إلى آخر ما وصفهم الله به من الصفات الحميدة، والأفعال السديدة.

لا جرم أورثهم الله بيته الحرام، ومكنهم منه، وقال لهم بعدما مكن لهم فيه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ وقال هنا: ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾

﴿٣٦-٣٧﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَفْشِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلِبُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ * ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون. يقول تعالى مبيناً لعداوة المشركين وكيدهم ومكرهم، ومبارزتهم لله ورسوله، وسعيهم في إطفاء نوره وإخماد كلمته، وأن وبال مكرهم سيعود عليهم، ولا ينجي المكر السيئ إلا بأهله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ



مولاكم نعم المولى ونعم النصير ﴿ هذا من لطفه تعالى بعباده لا يمنعه كفر العباد ولا استمرارهم في العناد، من أن يدعوهم إلى طريق الرشاد والهدى، وينهاهم عما يهلكهم من أسباب الغي والردى، فقال: ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا عَنْ كُفْرِهِمْ، وَذَلِكَ بِالْإِسْلَامِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.﴾

﴿ يغفر لهم ما قد سلف ﴾ منهم من الجرائم ﴿ وَإِنْ يَمُودُوا ﴾ إلى كفرهم وعنادهم ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ بإهلاك الأمم المكذبة، فلينتظروا ما حل بالمعاندن، فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون، فهذا خطابه للمكذبين، وأما خطابه للمؤمنين عندما أمرهم بمعاملة الكافرين، فقال: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ أي: شرك وصد عن سبيل الله، ويدعوا لأحكام الإسلام، ﴿ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ ﴾ فهذا المقصود من القتال والجهاد لأعداء الدين، أن يدفع شرهم عن الدين، وأن يذب عن دين الله الذي خلق الخلق له، حتى يكون هو العالي على سائر الأديان.

﴿ فَإِنْ أَنْتَهُوا ﴾ عن ما هم عليه من الظلم ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ لا تخفى عليه منهم خافية.

﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ عن الطاعة وأوضاعوا في الإضاعة ﴿ فاعلموا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى ﴾ الذي يتولى عباده المؤمنين، ويوصل إليهم مصالحهم، ويبسر (١) لهم منافعهم الدينية والدنيوية، ﴿ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ الذي ينصرهم، فيدفع عنهم كيد الفجار، وتكالب الأشرار.

ومن كان الله مولاه وناصره فلا خوف عليه، ومن كان الله عليه فلا عز له ولا قائمة له.

﴿ ٤١ - ٤٢ ﴾ ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ خَسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَإِنَّ سَبِيلَ اللَّهِ كُنْتُمْ أَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا

يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير * إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلقتهم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة وإن الله لسميع عليم ﴿ يقول تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ أي: أخذتم من مال الكفار قهراً بحق، قليلاً كان أو كثيراً، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ خَسَهُ ﴾ أي: وباقية لكم أيها الغانمون، لأنه أضاف الغنيمة إليهم، وأخرج منها خمسها، فدل على أن الباقي لهم، يقسم على ما قسمه رسول الله ﷺ: للرجل سهم، وللفراس سهمان لفرسه، وسهم له.

وأما هذا الخمس، فيقسم خمسة أسهم، سهم لله ولرسوله، يصرف في مصالح المسلمين العامة، من غير تعيين لمصلحة، لأن الله جعله له ولرسوله، والله ورسوله غنيان عنه، فعلم أنه لعباد الله، فإذا لم يعين الله له مصرفاً، دل على أن مصرفه للمصالح العامة.

والخمس الثاني: لذي القربى، وهم قرابة النبي ﷺ من بني هاشم وبني المطلب، وأضافه الله إلى القرابة دليلاً على أن العلة فيه مجرد القرابة، فيستوي فيه غنيهم وفقيرهم، ذكرهم وأنثاهم.

والخمس الثالث لليتامى، وهم الذين فقدت آباؤهم وهم صغار، جعل الله لهم خمس الخمس رحمة بهم، حيث كانوا عاجزين عن القيام بمصالحهم، وقد فقد من يقوم بمصالحهم.

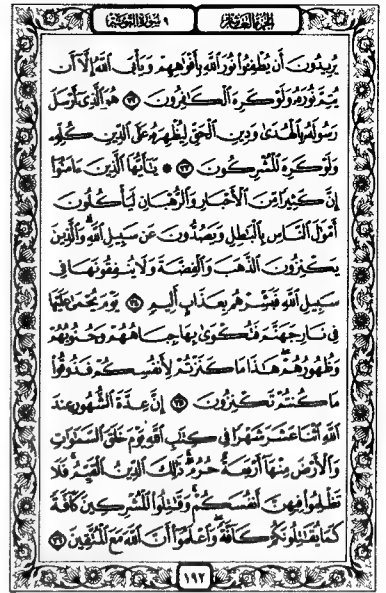
والخمس الرابع للمساكين، أي: المحتاجين الفقراء من صغار وكبار، ذكور وإناث.

والخمس الخامس لابن السبيل، وهو (٢): الغريب المنقطع به في غير بلده، أو بعض المفسرين يقول إن خمس الغنيمة لا يخرج عن هذه الأصناف ولا يلزم أن يكونوا فيه على السواء بل ذلك

سبيل الله ﴿ أي: ليطلوا الحق وينصروا الباطل، ويبطل توحيد الرحمن، ويقوم دين عبادة الأوثان.

﴿ فسيصفونها ﴾ أي: فسيصدرون هذه النفقة، وتخف عليهم لتمسكهم بالباطل، وشدة بغضهم للحق، ولكنها ستكون عليهم حسرة، أي: ندامة وخزياً وذللاً، ويغلبون فتذهب أموالهم وما أملوا، ويعذبون في الآخرة أشد العذاب، ولهذا قال: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ أي: يجمعون إليها، ليدوقوا عذابها، وذلك لأنها دار الخبث والخبثاء، والله تعالى يريد أن يميز الخبيث من الطيب، ويجعل كل واحدة على حدة، وفي دار تحصه، فيجعل الخبيث بعضه على بعض، من الأعمال والأموال والأشخاص. ﴿ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين.

﴿ ٣٨ - ٤٠ ﴾ ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير * وإن تولوا فاعلموا أَنَّ اللَّهَ



حسنها في قلوبهم وخدعهم. «وقال لا غالب لكم اليوم من الناس» فإنكم في عدو وعدو هيئة لا يقاومكم فيها محمد ومن معه.

«وإني جار لكم» من أن يأتيكم أحد من تخشون غائلته، لأن إبليس قد تبدى لقريش في صورة سراقه بن مالك بن جعشم المدلجي، وكانوا يخافون من بني مدلج لعداوة كانت بينهم.

فقال لهم الشيطان: أنا جار لكم، فاطمأنت نفوسهم وأتوا على حرد قادرين.

«فلما تراءت الفئتان» المسلمون والكافرون، فرأى الشيطان جبريل عليه السلام ينزع الملائكة خاف خوفا شديدا و «نكص على عقبيه» أي: ولى مديرا، «وقال» لمن خدعهم وغرهم: «إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون» أي: أرى الملائكة الذين لا يدان لأحد بقتالهم.

«إني أخاف الله» أي: أخاف أن يعاجلني بالعقوبة في الدنيا «والله شديد العقاب».

ومن المحتمل أن يكون الشيطان، قد سول لهم، ووسوس في صدورهم أنه لا غالب لهم اليوم من الناس، وأنه جار لهم، فلما أوردتهم مواردهم، نكص عنهم، وتبرأ منهم، كما قال تعالى: «كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر، فلما كفر قال: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين» فكان عاقبتهم أنهما في النار خالدين فيها وذلك جزاء الظالمين.

«إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض» أي: شك وشبهة، من ضعفاء الإيمان، للمؤمنين حين أقدموا - مع قلتهم - على قتال المشركين مع كثرتهم.

«غَرَّ هؤلاء دينهم» أي: أوردتهم الدين الذي هم عليه هذه الموارد التي لا يدان لهم بها، ولا استطاعة لهم بها، يقولونه احتقارا لهم واستخفافا لعقولهم، وهم - والله - الأخفَاء عقولا، الضعفاء أحلاما.

فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة التي لا يقدم عليها الجيوش العظام، فإن المؤمن المتوكل على الله، الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة لأحد إلا بالله تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم على نفع شخص بمثقال ذرة لم ينفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضره لم يضره إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وعلم أنه على الحق، وأن الله تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من قوة وكثرة، وكان واثقا بربه، مطمئن القلب لا فرعا ولا جباناً، ولهذا قال: «ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز» لا يغالب قوته قوة، «حكيم» فيما قضاه وأجره.

«٥٠-٥٢» «ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأديارهم وذوقوا عذاب الحريق» * ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد * كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب» يقول تعالى: ولو ترى الذين كفروا بآيات الله حين توفاهم الملائكة الموكلون يقبض أرواحهم وقد اشتد بهم القلق وعظم كربهم، و «الملائكة يضربون وجوههم وأديارهم» يقولون لهم: أخرجوا أنفسكم، ونفوسهم متمنعة مستعصية على الخروج، لعلمها ما أمامها من العذاب الأليم.

ولهذا قال: «وذوقوا عذاب الحريق» أي: العذاب الشديد المحرق، ذلك العذاب حصل لكم، غير ظلم ولا جور من ربكم، وإنما هو بما قدمت أيديكم من المعاصي التي أثرت لكم ما أثرت، وهذه سنة الله في الأولين والآخرين، فإن دأب هؤلاء المكذبين أي: سنتهم وما أجرى الله عليهم من الهلاك بذنوبهم.

«كذاب آل فرعون والذين من قبلهم» من الأمم المكذبة «كفروا بآيات الله فأخذهم الله» بالعقاب «بذنوبهم، إن الله قوي شديد العقاب» لا يعجزه أحد يريد أخذه

«ولا تنازعوا» تنازعا يوجب تشتت القلوب وتفرقها، «فتفشلوا» أي: تمجنوا «وتذهب بريحكم» أي: تنحل عزائمكم، وتفرق قوتكم، ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة الله ورسوله.

«واصبروا» نفوسكم على طاعة الله «إن الله مع الصابرين» بالعون والنصر والتأييد، واخشعوا لربكم واخضعوا له.

«ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورثاء الناس ويصدون عن سبيل الله» أي: هذا مقصدهم الذي خرجوا إليه، وهذا الذي أبرزهم من ديارهم لقصد الأشر والبطر في الأرض، وليراهم الناس ويفخروا لديهم.

والمقصود الأعظم أنهم خرجوا ليصدوا عن سبيل الله من أراد سلوكه، «والله بما يعملون محيط» فلذلك أخبركم بمقاصدهم، وحذرهم أن تشبهوا بهم، فإنه سيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

فليكن قصدكم في خروجكم وجه الله تعالى وإعلاء دين الله، والصد عن الطرق الموصلة إلى سخط الله وعقابه، وجذب الناس إلى سبيل الله القويم الموصول لجنت النعيم.

«وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم»

﴿ما من دابة إلا هو آخذ ناصيتها﴾.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾ * كذاب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقتنا آل فرعون وكل كانوا ظالمين ﴿ذلك﴾ العذاب الذي أوقعه الله بالأسم المكذبين^(١)، وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والتعظيم، بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم، فإن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم من نعم الدين والدنيا، بل يبقئها ويزيدهم منها، إن ازدادوا له شكراً، ﴿حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ من الطاعة إلى العصية فيكفروا نعمة الله ويبدلوها كفرًا، فيسلبهم إياها ويغيرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم.

والله الحكمة في ذلك والعدل والإحسان إلى^(٢) عباده، حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم، وحيث جذب قلوب أوليائه إليه، بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره.

﴿وأن الله سميع عليم﴾ يسمع جميع ما نطق به الناطقون، سواء من أسر القول ومن جهر به، ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر، وتحفيه السرائر، فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه وجرت به مشيئته.

﴿كذاب آل فرعون﴾ أي: فرعون وقومه ﴿والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم﴾ حين جاءتهم ﴿فأهلكناهم بذنوبهم﴾ كل بحسب جرمه.

﴿وأغرقتنا آل فرعون وكل﴾ من المهلكين المعذبين ﴿كانوا ظالمين﴾ لأنفسهم، ساعين في هلاكها، لم يظلمهم الله، ولا أخذهم بغير جرم اقترفوه، فليحذر المخاطبون أن يشابهوهم في الظلم، فيحل الله بهم من عقابه ما أحل بأولئك الفاسقين.

﴿٥٥ - ٥٧﴾ ﴿إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ * الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون * فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون ﴿هؤلاء الذين جمعوا هذه الخصال الثلاث: الكفر، وعدم الإيمان، والخيانة، بحيث لا يثبتون على عهد عاهدوه ولا قول قالوه، هم شر الدواب عند الله فهم شر من الحمير والكلاب وغيرها، لأن الخير معدوم منهم، والشر متوقع فيهم، فإذا هاب هؤلاء وحققهم هو المتعين، لئلا يسري داؤهم لغيرهم، ولهذا قال:

﴿فإما تثقفنهم في الحرب﴾ أي: تجددنهم في حال المحاربة، بحيث لا يكون لهم عهد وميثاق.

﴿فشرد بهم من خلفهم﴾ أي: نكل بهم غيرهم، وأوقع بهم من العقوبة ما يصيرون [به]^(٣) عبرة لمن بعدهم ﴿لعلهم﴾ أي: من خلفهم ﴿يذكرون﴾ صنيعهم، لئلا يصيبهم ما أصابهم، وهذه من فوائد العقوبات والحدود المرتبة على المعاصي، أنها سبب لازدجار من لم يعمل المعاصي، بل وزجرًا لمن عملها أن لا يعاودها. ودل تقييد هذه العقوبة في الحرب أن الكافر - ولو كان كثير الخيانة سريع الغدر - أنه إذا أعطي عهدًا لا يجوز خيانه وعقوبته.

﴿٥٨﴾ ﴿وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين﴾ أي: وإذا كان بينك وبين قوم عهد وميثاق على ترك القتال فخفت منهم خيانة، بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة.

﴿فانبذ إليهم﴾ عهدهم، أي: ارمه عليهم، وأخبرهم أنه لا عهد بينك

وبينهم ﴿على سواء﴾ أي: حتى يستوي علمك وعلمهم بذلك، ولا يحل لك أن تغدرهم، أو تسعى في شيء مما منعه موجب العهد، حتى تخبرهم بذلك.

﴿إن الله لا يحب الخائنين﴾ بل يبعضهم أشد البغض، فلا بد من أمر بين يبرئكم من الخيانة.

ودلت الآية على أنه إذا وجدت الخيانة المحققة^(٤) منهم لم يجز أن ينبذ إليهم عهدهم، لأنه لم يخف منهم، بل علم ذلك، ولعدم الفائدة ولقوله: ﴿على سواء﴾ وهنا قد كان معلومًا عند الجميع غدرهم.

ودل مفهومها أيضاً أنه إذا لم يخف منهم خيانة، بأن لم يوجد منهم ما يدل على ذلك، أنه لا يجوز نبذ العهد إليهم، بل يجب الوفاء إلى أن تتم مدته.

﴿٥٩﴾ ﴿ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون﴾ أي: لا يحسب الكافرون برهبهم المكذبون بآياته، أنهم سبقوا الله وفاتوه، فلأنهم لا يعجزونه، والله لهم بالمرصاد.

وله تعالى الحكمة البالغة في إمهالهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة، التي من جللتها ابتلاء عباده المؤمنين وامتحانهم، وتزودهم من طاعته ومراضيه، ما يصلون به إلى المنازل العالية، واتصافهم بأخلاق وصفات لم يكونوا بغيره بالغها، فلماذا قال لعباده المؤمنين:

﴿٦٠﴾ ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أي: ﴿وأعدوا﴾ لأعدائكم الكفار الساعين في هلاككم وإبطال دينكم، ﴿ما استطعتم من قوة﴾ أي: كل ما تقدرُونَ عليه من القوة العقلية والبدنية وأنواع الأسلحة

(١) في ب: المكذبة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: على.

(٣) زيادة يقتضيه السياق ليست في النسخين.

(٤) في ب: المحققة.

سماوية، وهو النصر منه الذي لا يقاومه شيء، ومعونة بالمؤمنين بأن قيصهم لنصرك.

﴿وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ فاجتمعوا واتصلفوا، وازدادت قوتهم بسبب اجتماعهم، ولم يكن هذا بسعي أحد، ولا بقوة غير قوة الله، فلو أنفقت ما في الأرض جميعاً من ذهب وفضة وغيرهما لتأليفهم بعد تلك النفرة والفرقة الشديدة ﴿مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ لأنه لا يقدر على تقليب القلوب إلا الله تعالى.

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ومن عزته أن ألف بين قلوبهم، وجمعها بعد الفرقة كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا، وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك ﴿وَمَنْ أَتَّبِعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وكافي أتباعك من المؤمنين، وهذا وعد من الله لعباده المؤمنين المتبعين لرسوله، بالكفاية والنصرة على الأعداء.

فإذا أتوا بالسبب الذي هو الإيمان والاتباع، فلا بد أن يكفيهم ما أهمهم من أمور الدين والدنيا، وإنما تتخلف الكفاية بتخلف شرطها.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِثَّتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِثَّةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ * الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مِثَّتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: حثهم وأنهمضهم إليه بكل ما يقوي عزاتهم ويشطهمهمهم، من الترغيب في الجهاد ومقارعة الأعداء، والترهيب من ضد ذلك، وذكر فضائل

فاجتنب لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم * وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين * وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم * يا أيها النبي حسبك الله ومن أتبعك من المؤمنين﴾ يقول تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا بِأَيْ: الكفار المحاربون، أي: مالوا﴾ * أي: الصلح وترك القتال.

﴿فَاجْتَنِبْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي: أجهم إلى ما طلبوا متوكلاً على ربك، فإن في ذلك فوائد كثيرة.

منها: أن طلب العافية مطلوب كل وقت، فإذا كانوا هم المبتدئين في ذلك، كان أولى لإجابتهم.

ومنها: أن في ذلك إجماعاً لقواكم، واستعداداً منكم لقتالهم في وقت آخر، إن احتيج لذلك.

ومنها: أنكم إذا أصلحتهم وأمن بعضهم بعضاً، وتمكن كل من معرفة ما عليه الآخر، فإن الإسلام يعلو ولا يعلى عليه، فكل من له عقل وبصيرة إذا كان معه إنصاف فلا بد أن يؤثره على غيره من الأديان، لحسنه في أوامره ونواهيه، وحسنه في معاملته للخلق والعدل فيهم، وأنه لا جور فيه ولا ظلم بوجه، فحينئذ يكثر الراغبون فيه والمتبعون له، فصار هذا السلم عوناً للمسلمين على الكافرين، ولا يخاف من السلم إلا خصلة واحدة، وهي أن يكون الكفار قصدهم بذلك خدع المسلمين، وانتهاز الفرصة فيهم، فأخبرهم الله أنه حسبهم وكافيتهم خداعهم، وأن ذلك يعود عليهم ضرره، فقال: ﴿وَإِنْ يَرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ أي: كافيك ما يؤذيك، وهو القائم بمصالحك ومهماتك، فقد سبق [لك] من كفايته لك ونصره ما يطمئن به قلبك.

فله ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أعانك بمعونة

ونحو ذلك، مما يعين على قتالهم، فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات من المدافع والرشاشات، والبنادق، والطائرات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والحصون والقلاع والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي: والسياسة التي بها يتقدم المسلمون ويندفع عنهم به شر أعدائهم، وتعلم الرُّمي، والشجاعة والتدبير.

ولهذا قال النبي ﷺ: «ألا إن القوة الرُّمي» ومن ذلك: الاستعداد بالمراكب المحتاج إليها عند القتال، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ وهذه العلة موجودة فيها في ذلك الزمان، وهي إرهاب الأعداء، والحكم يدور مع علته.

فإذا كان شيء موجوداً^(١) أكثر إرهاباً منها، كالسيارات البرية والهوائية، المعدة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد، كانت مأموراً بالاستعداد بها، والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة، وجب ذلك، لأن ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب.

وقوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ من تعلمون أنهم أعداؤكم. ﴿وَأَخْرَجِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ﴾ من سيقاتلونكم بعد هذا الوقت الذي يخاطبهم الله به ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ فلذلك أمرهم بالاستعداد لهم، ومن أعظم ما يعين على قتالهم بذل النفقات المالية في جهاد الكفار.

ولهذا قال تعالى مرغباً في ذلك: ﴿وَمَا تَنْفَقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قليلاً كان أو كثيراً ﴿يُوفِ إِلَيْكُمْ أَجْرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِضَاعاً أَضَاعاً كَثِيرَةً، حَتَّى إِنْ تَنَفَقَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، تَضَاعَفَ إِلَى سَبْعِ مِثَّةٍ ضَعْفَ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. ﴿وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ أي: لا تقصون من أجرها وثوابها شيئاً. ﴿٦٤ - ٦٥﴾ ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلْسَّلَامِ

(١) في النسختين: إذا كان موجوداً شيئاً.

الشجاعة والصبر، وما يترتب على ذلك من خير الدنيا والآخرة، وذكر مضار الجبن، وأنه من الأخلاق الرذيلة المنقصة للدين والمروءة، وأن الشجاعة بالمؤمنين أولى من غيرهم ﴿إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾.

﴿إن يكن منكم﴾ أيها المؤمنون ﴿عشرون صابرون يغلبوا مئتين وإن يكن منكم مئة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا﴾ يكون الواحد بنسبة عشرة من الكفار، وذلك بأن الكفار ﴿قوم لا يفقهون﴾ أي: لا علم عندهم بما أعد الله للمجاهدين في سبيله، فهم يقاتلون لأجل العلو في الأرض والفساد فيها، وأنتم تفقهون المقصود من القتال، أنه لإعلاء كلمة الله وإظهار دينه، والذب عن كتاب الله، وحصول الفوز الأكبر عند الله، وهذه كلها دواعٍ للشجاعة والصبر والإقدام على القتال.

ثم إن هذا الحكم خففه الله على العباد، فقال: ﴿الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً﴾، فلذلك اقتضت رحمته وحكمته التخفيف، ﴿فإن يكن منكم مئة صابرة يغلبوا مئتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين﴾ بعونه وتأييده.

وهذه الآيات صورتها صورة الإخبار عن المؤمنين، بأنهم إذا بلغوا هذا المقدار المعين يغلبون ذلك المقدار المعين في مقابلته من الكفار، وأن الله يمتن عليهم بما جعل فيهم من الشجاعة الإيمانية.

ولكن معناها وحقيقتها الأمر وأن الله أمر المؤمنين - في أول الأمر - أن الواحد لا يجوز له أن يفر من العشرة، والعشرة من المئة، والمئة من الألف.

ثم إن الله خفف ذلك، فصار لا يجوز فرار المسلمين من مثلهم من الكفار، فإن زادوا على مثلهم جاز لهم الفرار، ولكن يرد على هذا أمران:

أحدهما أنها بصورة الخبر، والأصل في الخبر أن يكون على بابه، وأن المقصود بذلك الامتنان والإخبار بالواقع.

والثاني: تقييد ذلك العدد أن يكونوا صابرين بأن يكونوا متدربين على الصبر.

ومفهوم هذا أنهم إذا لم يكونوا صابرين، فإنه يجوز لهم الفرار، ولو أقل من مثلهم [إذا غلب على ظنهم الضرر]^(١)، كما تقتضيه الحكمة الإلهية.

ويجاء عن الأول بأن قوله: ﴿الآن خفف الله عنكم﴾ إلى آخرها، دليل على أن هذا أمر^(٢) لازم وأمر محتم، ثم إن الله خففه إلى ذلك العدد، فهذا ظاهر في أنه أمر، وإن كان في صيغة الخبر.

وقد يقال: إن في إتيانه بلفظ الخبر، نكتة بدعية لا توجد فيه إذا كان بلفظ الأمر، وهي تقوية قلوب المؤمنين، والبشارة بأنهم سيغلبون الكافرين.

ويجاء عن الثاني: أن المقصود بتقييد ذلك بالصابرين، أنه حث على الصبر، وأنه ينبغي منكم أن تفعلوا الأسباب الموجبة لذلك [فإذا فعلوها صارت الأسباب الإيمانية والأسباب المادية مبشرة بحصول ما أخبر الله به من النصر لهذا العدد القليل]^(٣).

﴿٦٧ - ٦٩﴾ ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم﴾ * لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم * فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم﴾ هذه معاتبة من الله لرسوله وللمؤمنين يوم «بدر» إذ أسروا المشركين وأبقوهم لأجل الفداء، وكان رأي: أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في هذه الحال، قتلهم واستصالحهم.

فقال تعالى: ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض﴾ أي:

إِنَّمَا النَّبِيُّ رَسُولٌ وَمَا يَكُنُّ مِنَ الْكُفْرِ يُضِلُّ بِهِ الْبَرَّ كَمَا يُضِلُّهُ عَمَّا وَصَّيْتُمْ بِهِ عَمَّا يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَكُونُ عَلَى بَابِهِ وَأَنَّ الْمَقْصُودَ بِذَلِكَ الْإِمْتِنَانُ وَالْإِخْبَارُ بِالْوَقْعِ. وَالثَّانِي: تَقْيِيدُ ذَلِكَ الْعَدَدِ أَنْ يَكُونُوا صَابِرِينَ بِأَنْ يَكُونُوا مُتَدَرِّبِينَ عَلَى الصَّبْرِ. وَمُفْهُومُ هَذَا أَنَّهُمْ إِذَا لَمْ يَكُونُوا صَابِرِينَ، فَإِنَّهُ يُجُوزُ لَهُمْ الْفِرَارُ، وَلَوْ أَقَلَّ مِنْ مِثْلِهِمْ [إِذَا غَلَبَ عَلَى ظَنِّهِمُ الضَّرَرُ]^(١)، كَمَا تَقْتَضِيهِ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ. وَيُجَاءُ عَنِ الْأَوَّلِ بِأَنْ قَوْلُهُ: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إِلَى آخِرِهَا، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذَا أَمْرٌ^(٢) لَازِمٌ وَأَمْرٌ مُحْتَمٌّ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ خَفَّفَهُ إِلَى ذَلِكَ الْعَدَدِ، فَهَذَا ظَاهِرٌ فِي أَنَّهُ أَمْرٌ، وَإِنْ كَانَ فِي صِيغَةِ الْخَبَرِ. وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّ فِي إِتْيَانِهِ بِلَفْظِ الْخَبَرِ، نَكْتَةً بَدْعِيَّةً لَا تَوْجُدُ فِيهِ إِذَا كَانَ بِلَفْظِ الْأَمْرِ، وَهِيَ تَقْوِيَّةُ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالبَّشَارَةُ بِأَنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ الْكَافِرِينَ. وَيُجَاءُ عَنِ الثَّانِي: أَنَّ الْمَقْصُودَ بِتَقْيِيدِ ذَلِكَ بِالصَّابِرِينَ، أَنَّهُ حَثٌّ عَلَى الصَّبْرِ، وَأَنَّهُ يَنْبَغِي مِنْكُمْ أَنْ تَفْعَلُوا السَّبَبَاتِ الْمَوْجِبَةَ لِذَلِكَ [فَإِذَا فَعَلُوهَا صَارَتِ السَّبَبَاتُ الْإِيمَانِيَّةُ وَالسَّبَبَاتُ الْمَادِيَّةُ مَبْشُرَةً بِحُصُولِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ النَّصْرِ لِهَذَا الْعَدَدِ الْقَلِيلِ]^(٣).

ما ينبغي ولا يليق به إذا قاتل الكفار الذين يريدون أن يطفئوا نور الله ويسعوا لإخماد دينه، وأن لا يبقى على وجه الأرض من يعبد الله، أن يتسرع إلى أسرهم وإبائهم لأجل الفداء الذي يحصل منهم، وهو عرض قليل بالنسبة إلى المصلحة المقتضية لإبادتهم وإبطال شرهم، فما دام لهم شر وصوله، فالأوفق أن لا يؤسروا.

فإذا أئخنوا: وبطل شرهم، واضمحل أمرهم، فحينئذ لا بأس بأخذ الأسرى منهم وإبائهم.

يقول تعالى: ﴿تريدون﴾ بأخذكم الفداء وإبائهم ﴿عرض الحياة الدنيا﴾ أي: لا لمصلحة تعود إلى دينكم.

﴿والله يريد الآخرة﴾ بإعزاز دينه، ونصر أوليائه، وجعل كلمتهم عالية فوق غيرهم، فيأمركم بما يوصل إلى ذلك.

﴿والله عزيز حكيم﴾ أي: كامل العزة، لو شاء أن ينتصر من الكفار من دون قتال لفعل، لكنه حكيم، يبتلي بعضكم ببعض.

﴿لولا كتاب من الله سبق﴾ به القضاء والقدر، أنه قد أحل لكم الغنائم، وأن الله رفع عنكم - أيها الأمة - العذاب ﴿لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم﴾ وفي الحديث: «لو نزل

المال، بأن ييسر لكم من فضله، خيراً وأكثر^(١) مما أخذ منكم.

﴿ويغفر لكم﴾ ذنوبكم، ويدخلكم

الجنة

أنجز الله وعده للعباس وغيره، فحصل له - بعد ذلك - من المال شيء كثير، حتى إنه مرة لما قدم على النبي ﷺ مال كثير، أتاه العباس فأمره أن يأخذ منه بثوبه ما يطيق حمله، فأخذ منه ما كاد أن يعجز عن حمله.

﴿وإن يريدوا خيانتك﴾ في السعي لحربك ومناذرتك، ﴿فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم﴾ فليحذروا خيانتك، فإنه تعالى قادر عليهم وهم تحت قبضته، ﴿والله عليم حكيم﴾ أي:

عليم بكل شيء، حكيم يضع الأشياء مواضعها، ومن علمه وحكمته أن شرع لكم هذه الأحكام الجلييلة الجميلة، وأن تكفل^(٢) بكفائتكم شأن الأسرى وشرهم إن أرادوا خيانة.

﴿٧٢﴾ ﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير﴾ هذا عقد مولاة وعبة، عقدها الله بين المهاجرين الذين آمنوا وهاجروا في سبيل الله، وتركوا أوطانهم لله لأجل الجهاد في سبيل الله، وبين الأنصار الذين آووا رسول الله ﷺ وأصحابه وأعانوه في ديارهم وأموالهم وأنفسهم، فهؤلاء بعضهم أولياء بعض، لكمال إيمانهم وتعام اتصال بعضهم ببعض.

﴿والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا﴾ فإنهم قطعوا ولايتكم بانفصالهم عنكم في وقت شدة الحاجة إلى الرجال، فلما

وقوله تعالى: ﴿إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق﴾ أي: عهد بترك القتال، فإنهم إذا أراد المؤمنون المتميزون الذين لم يهاجروا قتالهم، فلا تعينوهم عليهم، لأجل ما بينكم وبينهم من الميثاق.

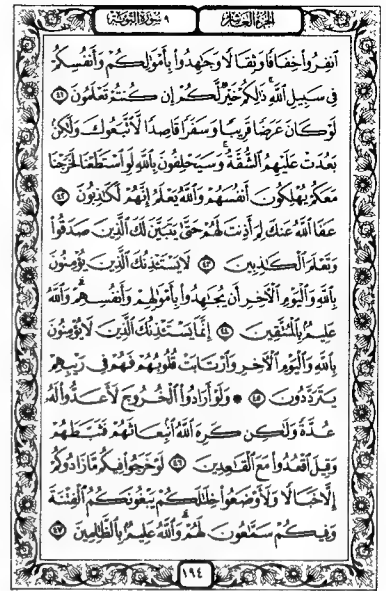
﴿والله بما تعملون بصير﴾ يعلم ما أنتم عليه من الأحوال، فيشرع لكم من الأحكام ما يليق بكم.

﴿٧٣﴾ ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنه في الأرض وفساد كبير﴾ لما عقد الولاية بين المؤمنين، أخبر أن الكفار حيث جمعهم الكفر فبعضهم أولياء لبعض^(٣)، فلا يوالىهم إلا كافر مثلهم.

وقوله: ﴿إلا تفعلوه﴾ أي: مولاة المؤمنين ومعاداة الكافرين، بأن واليتموهم كلهم أو عاديتهم كلهم، أو واليتهم الكافرين وعاديتهم المؤمنين.

﴿تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ فإنه يحصل بذلك من الشر ما لا ينحصر من اختلاط الحق بالباطل، والمؤمن بالكافر، وعدم كثير من العبادات الكبار، كالجهاد والهجرة، وغير ذلك من مقاصد الشرع والدين التي تقوت إذا لم يتخذ المؤمنون وحدهم أولياء بعضهم لبعض.

﴿٧٤-٧٥﴾ ﴿والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم﴾ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل



عذاب يوم بدر، ما نجا منه إلا عمر.

﴿فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً﴾ وهذا من لطفه تعالى بهذه الأمة، أن أحل لها الغنائم ولم يجلها لأمة قبلها.

﴿واتقوا الله﴾ في جميع أموركم ولازموها، شكراً لنعم الله عليكم، ﴿إن الله غفور﴾ يغفر لمن تاب إليه جميع الذنوب، ويغفر لمن لم يشرك به شيئاً جميع المعاصي.

﴿رحيم﴾ بكم، حيث أباح لكم الغنائم وجعلها حلالاً طيباً.

﴿٧٠-٧١﴾ ﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم﴾ وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم والله عليم حكيم، وهذه نزلت في أسارى يوم بدر، وكان في جملتهم العباس عم رسول الله ﷺ، فلما طلب منه الفداء، ادعى أنه مسلم قبل ذلك، فلم يسقطوا عنه الفداء، فأنزل الله تعالى جبراً لحاظه ومن كان على مثل حاله.

﴿يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم﴾ أي: من

(٣) في ب: بعض.

(٢) في ب: وقد تكفل.

(١) في ب: كثيراً.

تفسير سورة براءة ويقال: سورة التوبة، وهي مدنية

شيء عليهم الآيات السابقة في ذكر عقد الموالاة بين المؤمنين من المهاجرين والأنصار.

وهذه الآيات في بيان مدحهم وثوابهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ صُدِّقُوا بِإِيمَانِهِمْ بِمَا قَامُوا بِهِ مِنَ الْهَجَرَةِ وَالنَّصْرَةِ وَالْمَوَالَاةِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ وَجَاهِدُهُمْ لَأَعْدَانِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ.

﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ من الله تحى بها سيئاتهم، وتضمحل بها زلاتهم، ﴿وَرَزَقَ كَرِيمٌ﴾ أي: خير كثير من الرب الكريم في جنات النعيم.

وربما حصل لهم من الثواب المعجل ما تقر به أعينهم، وتطمئن به قلوبهم، وكذلك من جاء بعد هؤلاء المهاجرين والأنصار، ممن اتبعهم بإحسان فأمن وهاجر وجاهد في سبيل الله. ﴿فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ لهم ما لكم وعليهم ما عليكم^(١).

فهذه الموالاة الإيمانية - وقد كانت في أول الإسلام - لها وقع كبير وشأن عظيم، حتى إن النبي ﷺ أخى بين المهاجرين والأنصار أخوة خاصة، غير الأخوة الإيمانية العامة، وحتى كانوا يتوارثون بها، فأنزل الله ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ فلا يرثه إلا أقاربه من العصبات وأصحاب الفروض، فإن لم يكونوا، فأقرب قربائهم من ذوي الأرحام، كما دل عليه عموم هذه الآية الكريمة، وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: في حكمه وشرعه.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَمَنْعَهُ مَا يَعْلَمُهُ مِنْ أحوالكم التي يجري من شرائعها الدينية عليكم ما يناسبها.

تم تفسير سورة الأنفال والله الحمد

﴿٢-﴾ ﴿بِرَاءةٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُحْزِي السَّكَافِرِينَ﴾ أي: هذه براءة من الله ومن رسوله إلى جميع المشركين المعاهدين، أن لهم أربعة أشهر يسبحون في الأرض على اختيارهم، آمنين من المؤمنين، وبعد الأربعة الأشهر فلا عهد لهم ولا ميثاق.

وهذا لمن كان له عهد مطلق غير مقدر، أو مقدر بأربعة أشهر فأقل، أما من كان له عهد مقدر بزيادة على أربعة أشهر، فإنه يتعين أن يتم له عهده إذا لم يخف منه خيانة، ولم يبدأ بنقض العهد.

ثم أنذر المعاهدين في مدة عهدهم، أنهم وإن كانوا آمنين، فإنهم لن يعجزوا الله ولن يفوتوه، وأنه من استمر منهم على شركه فإن الله لا بد أن يخزيه، فكان هذا مما يجلبهم إلى الدخول في الإسلام، إلا من عاند وأصر ولم يبال بوعد الله له.

﴿٣﴾ ﴿وَإِذَا ن مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هذا ما وعد الله به المؤمنين، من نصر دينه وإعلاء كلمته، وخذلان أعدائهم من المشركين الذين أخرجوا الرسول ومن معه من مكة، من بيت الله الحرام، وأجلوهم، مما لهم السلط عليه من أرض الحجاز.

نصر الله رسوله والمؤمنين حتى افتتح مكة، وأذل المشركين، وصار للمؤمنين الحكم والغلبة على تلك الديار.

فأمر النبي^(٢) مؤذنه أن يؤذن يوم الحج الأكبر، وهو يوم النحر، وقت اجتماع الناس مسلمهم وكافرهم، من جميع جزيرة العرب، أن يؤذن بأن الله بريء ورسوله من المشركين، فليس لهم عنده عهد وميثاق، فأيضا وجدوا قتلوا، وقيل لهم: لا تقربوا المسجد الحرام بعد عامكم هذا، وكان ذلك سنة تسع من الهجرة.

وحج بالناس أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وأذن ببراءة - يوم النحر - ابن عم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثم رغب تعالى المشركين بالتوبة، ورهبهم من الاستمرار على الشرك فقال: ﴿فَإِنْ تَبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾.

أي: فائتيه، بل أنتم في قبضته، قادر أن يسلط عليكم عباده المؤمنين. ﴿وبشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: مؤلم مقطع في الدنيا بالقتل والأسر والجلاء، وفي الآخرة بالنار وبش القرار.

﴿٤﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ

(١) كذا في ب، وفي أ: له ما لكم وعليه ما عليكم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الله.

مفقود، والأعمال منهم باطلة!!؟
ولهذا قال: ﴿أولئك حبطت أعمالهم﴾ أي: بطلت وضلت ﴿وفي النار هم خالدون﴾

ثم ذكر من هم عمار مساجد الله فقال: ﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة الواجبة والمستحبة، بالقيام بالظاهر منها والباطن.

﴿وأتى الزكاة﴾ لأهلها ﴿ولم يخش إلا الله﴾ أي: قصر خشيته على ربه، فكف عما حرم الله، ولم يقصر بحقوق الله الواجبة.

فوصفهم بالإيمان النافع، وبالقيام بالأعمال الصالحة التي أمها الصلاة والزكاة، وبخشية الله التي هي أصل كل خير، فهؤلاء عمار المساجد على الحقيقة وأهلها الذين هم أهلها.

﴿فمعى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ و﴿عسى﴾ من الله واجبة. وأما من لم يؤمن بالله ولا باليوم الآخر، ولا عنده خشية لله، فهذا ليس من عمار مساجد الله، ولا من أهلها الذين هم أهلها، وإن زعم ذلك وادعاه.

﴿١٩ - ٢٢﴾ ﴿أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستتون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون * يشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم * لما اختلف بعض المسلمين، أو بعض المسلمين وبعض المشركين، في تفضيل عمارة المسجد الحرام، بالبناء والصلاة والعبادة فيه وسقاية الحاج، على الإيمان بالله والجهاد في سبيله، أخبر الله تعالى بالتفاوت بينهما، فقال: ﴿أجعلتم سقاية الحاج﴾ أي: سقيهم الماء من زمزم كما هو المعروف إذا أطلق هذا الاسم، أنه المراد ﴿وعمارة المسجد

يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة والله خير بما تعملون﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين بعدما أمرهم بالجهاد: ﴿أم حسبتم أن تتركوا﴾ من دون ابتلاء وامتحان، وأمر بما يبين به الصادق والكاذب.

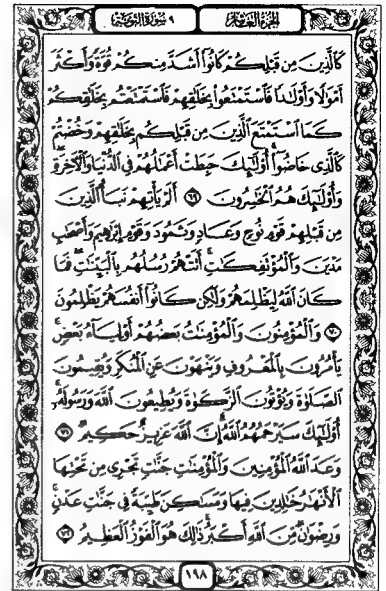
﴿ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم﴾ أي: علماً يظهر عما في القوة إلى الخارج، ليرتب عليه الثواب والعقاب، فيعلم الذين يجاهدون في سبيله لإعلاء كلمته ﴿ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة﴾ أي: ولياً من الكافرين، بل يتخذون الله ورسوله والمؤمنين أولياء.

فشرح الله الجهاد ليحصل به هذا المقصود الأعظم، وهو أن يتميز الصادقون الذين لا يتحيزون إلا لدين الله، من الكاذبين الذين يزعمون الإيمان وهم يتخذون الولاة والأولياء من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين.

﴿والله خير بما تعملون﴾ أي: يعلم ما يصير منكم ويصدر، فينتلكم بما يظهر به حقيقة ما أنتم عليه، ويميزكم على أعمالكم خيراً وشراً.

﴿١٧ - ١٨﴾ ﴿ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون﴾ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وأتى الزكاة ولم يخش إلا الله فمعى أولئك أن يكونوا من المهتدين يقول تعالى: ﴿ما كان﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق * للمشركين أن يعمروا مساجد الله * بالعبادة والصلاة، وغيرها من أنواع الطاعات، والحال أنهم شاهدون ومقرون على أنفسهم بالكفر بشهادة حالهم وفطرتهم، وعلم كثير منهم أنهم على الكفر والباطل.

فيذا كانوا ﴿شاهدين على أنفسهم بالكفر﴾ وعدم الإيمان الذي هو شرط لقبول الأعمال، فكيف يزعمون أنهم عمار مساجد الله، والأصل منهم



الفوائد، وكل هذا حث وإنهاض للمؤمنين على قتالهم، فقال: ﴿قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم﴾ بالقتل ﴿ويخزهم﴾ إذا نصركم الله عليهم، وهم الأعداء الذين يطلب خزيهم ويحرص عليه، وينصركم عليهم ﴿هذا وعد من الله وبشارة قد أنجزها.

﴿ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم﴾ فإن في قلوبهم من الحق والغيظ عليهم ما يكون قتالهم وقتلهم شفاء لما في قلوب المؤمنين من الغم والههم، إذ يرون هؤلاء الأعداء محاربين لله ولرسوله، ساعين في إطفاء نور الله، وزوالاً للغيظ الذي في قلوبهم، وهذا يدل على عجة الله لعباده المؤمنين، واعتنائه بأحوالهم، حتى إنه جعل - من جملة المقاصد الشرعية - شفاء ما في صدورهم وذهاب غيظهم.

ثم قال: ﴿ويشوب الله على من يشاء﴾ من هؤلاء المحاربين، بأن يوفقهم للدخول في الإسلام، ويزينه في قلوبهم، ويكره إليهم الكفر والفسق والعصيان.

﴿والله عليم حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، ويعلم من يصلح للإيمان فيهديه، ومن لا يصلح فيبقيه في غيه وطغيانه.

﴿١٦﴾ ﴿أم حسبتم أن تتركوا وما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم

الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله.

فالجهاد والإيمان بالله أفضل من سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام بدرجات كثيرة، لأن الإيمان أصل الدين، وبه تقبل الأعمال وتزكو الخصال.

وأما الجهاد في سبيل الله فهو ذروة سنام الدين، الذي به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق ويخذل الباطل.

وأما عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج، فهي وإن كانت أعمالاً صالحة، فهي متوقفة على الإيمان، وليس فيها من المصالح ما في الإيمان والجهاد، فلذلك قال: ﴿لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: الذين وصفهم الظلم، الذين لا يصلحون لقبول شيء من الخير، بل لا يليق بهم إلا الشر.

ثم صرح بالفضل فقال: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم﴾ بالنفقة في الجهاد وتجهيز الغزاة ﴿وأنفسم﴾ بالخروج بالنفس ﴿أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾ أي: لا يفوز بالمطلوب ولا ينجو من المهروب، إلا من اتصف بصفاتهم، وتخلق بأخلاقهم.

﴿يشهرهم ربهم﴾ جوداً منه، وكرماً وبراً بهم، واعتناء ومحبة لهم، ﴿برحمة منه﴾ أزال بها عنهم الشرور، وأوصل إليهم [بها] كل خير. ﴿ورضوان﴾ منه تعالى عليهم، الذي هو أكبر نعيم الجنة وأجله، فيحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً.

﴿وجنات لهم فيها نعيم مقيم﴾ من كل ما اشتته الأنفس، وتلذ الأعين، مما لا يعلم وصفه ومقداره إلا الله تعالى، الذي منه أن الله أعد للمجاهدين في سبيله مئة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، ولو اجتمع الخلق في درجة

واحدة منها لوسعتم. ﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا ينتقلون عنها، ولا يبغون عنها جواً، ﴿إن الله عنده أجر عظيم﴾ لا تستغرب كثرتة على فضل الله، ولا يتعجب من عظمه وحسنه على من يقول للشيء كن فيكون.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ * قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم أقرقتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ اعملوا بمقتضى الإيمان، بأن توالوا من قام به، وتعادوا من لم يقم به.

و ﴿لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم﴾ الذين هم أقرب الناس إليكم، وغيرهم من باب أولى وأحرى، فلا تتخذوهم ﴿أولياء إن استحبوا﴾ أي: اختاروا على وجه الرضا والمحبة ﴿الكفر على الإيمان﴾.

﴿ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾ لأنهم تجرؤوا على معاصي الله، واتخذوا أعداء الله أولياء، وأصل الولاية: المحبة والنصرة، وذلك أن اتخاذهم أولياء موجب لتقديم طاعتهم على طاعة الله، ومحبتهم على محبة الله ورسوله.

ولهذا ذكر السبب الموجب لذلك، وهو أن محبة الله ورسوله، يتعين تقديمهما على محبة كل شيء، وجعل جميع الأشياء تابعة لهما، فقال: ﴿قل إن كان آباؤكم﴾ ومثلهم الأمهات ﴿وأبناؤكم وإخوانكم﴾ في النسب والعشرة^(١) ﴿وأزواجكم وعشيرتكم﴾ أي: قربائكم عموماً ﴿وأموال﴾ اقرقتموها أي: اكتسبتموها وتعتب

في تحصيلها، خصها بالذكر، لأنها أرغب عند أهلها، وصاحبها أشد حرصاً عليها ممن تأتيه الأموال من غير تعب ولا كد.

﴿وتجارة تخشون كسادها﴾ أي: رخصها ونقصها، وهذا شامل لجميع أنواع التجارات والمكاسب من عروض التجارات، من الأثمان، والأواني، والأسلحة، والأمتعة، والحبوب، والحرث، والأنعام، وغير ذلك.

﴿ومساكن ترضونها﴾ من حسنها وزخرفتها وموافقتها لأهوائكم، فإن كانت هذه الأشياء ﴿أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله﴾ فأنتم فسقة ظلمة.

﴿فتربصوا﴾ أي: انتظروا ما يحل بكم من العقاب ﴿حتى يأتي الله بأمره﴾ الذي لا مرد له.

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الخارجين عن طاعة الله، المقدمين على محبة الله شيئاً من المذكورات.

وهذه الآية الكريمة أعظم دليل على وجوب محبة الله ورسوله، وعلى تقديمهما على محبة كل شيء، وعلى الوعيد الشديد والمقت الأكيد، على من كان شيء من هذه المذكورات أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله.

وعلمة ذلك أنه إذا عرض عليه أمران، أحدهما يحبه الله ورسوله، وليس لنفسه فيه هوى، والآخر تحبه نفسه وتشتهيه، ولكنه يُفَوِّت عليه محبوباً لله ورسوله، أو ينقصه، فإنه إن قدم ما تهواه نفسه، على ما يحبه الله، دل ذلك على أنه ظالم تارك لما يجب عليه.

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضائق عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين﴾ * ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين * ثم يتوب الله من بعد ذلك

لا في الصلاح، فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم.

﴿فلا يقرّبوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا﴾ وهو سنة تسع من الهجرة، حين حج بالناس أبو بكر الصديق، وبعث النبي ﷺ ابن عمه علياً، أن يؤذن يوم الحج الأكبر بـ «براءة»، فنادى أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وليس المراد هنا نجاسة البدن، فإن الكافر كغيره طاهر البدن، بدليل أن الله تعالى أباح وطء الكتابية ومباشرتها، ولم يأمر بغسل ما أصاب^(١) منها.

والمسلمون ما زالوا يباشرون أبدان الكفار، ولم ينقل عنهم أنهم تقدروا منها، تَقَدَّرَهم من النجاسات، وإنما المراد كما تقدم نجاستهم المعنوية، بالشرك، فكما أن التوحيد والإيمان، طهارة، فالشرك نجاسة.

وقوله: ﴿وإن خفتهم﴾

﴿عيلة﴾ أي: فقراً وحاجة، من منع المشركين من قربان المسجد الحرام، بأن تنقطع الأسباب التي بينكم وبينهم من الأمور الدنيوية، ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ فليس الرزق مقصوراً على باب واحد، ومحل واحد، بل لا ينفلق باب إلا وفتح غيره أبواب كثيرة، فإن فضل الله واسع، وجوده عظيم، خصوصاً لمن ترك شيئاً لوجهه الكريم، فإن الله أكرم الأكرمين.

وقد أنجز الله وعده، فإن الله أغنى المسلمين من فضله، وبسط لهم من الأرزاق ما كانوا من أكبر الأغنياء والملوك.

وقوله: ﴿إن شاء﴾ تعليق للإغناء بالمشيئة، لأن الغنى في الدنيا ليس من لوازم الإيمان، ولا يدل على محبة الله، فلهذا علقه الله بالمشيئة، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين إلا من يحب.

﴿إن الله عليم حكيم﴾ أي: علمه

وسعتها، ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ أي: منزهين.

﴿ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ والسكينة ما يجعله الله في القلوب وقت القلاقل والزلازل والمفطعات، مما يثبتها ويسكنها ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة على العباد.

﴿وأنزل جنوداً لم تروها﴾ وهم الملائكة، أنزلهم الله معونة للمسلمين يوم حنين، يشبّونهم ويبشرونهم بالنصر.

﴿وعذب الذين كفروا﴾ بالهزيمة والقتل، واستيلاء المسلمين على نساءهم وأولادهم وأموالهم.

﴿وذلك جزاء الكافرين﴾ يعذبهم الله في الدنيا، ثم يردهم في الآخرة إلى عذاب غليظ.

﴿ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء﴾ فتاب الله على كثير ممن كانت الرقعة عليهم، وأتوا إلى النبي ﷺ مسلمين تائبين، فرد عليهم نساءهم وأولادهم.

﴿والله غفور رحيم﴾ أي: ذو مغفرة واسعة، ورحمة عامة، يعفو عن الذنوب العظيمة للتائبين، ويرحمهم بتوفيقهم للتوبة والطاعة، والصفح عن جرائمهم وقبول توباتهم، فلا يأسئ أحد من مغفرته ورحمته، ولو فعل من الذنوب والإجرام ما فعل.

﴿٢٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون﴾ بالله الذين عبدوا معه غيره ﴿نجس﴾ أي: خبيثاء في عقائدهم وأعمالهم، وأي: نجاسة أبغ من كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنه شيئاً!!!

وأعمالهم ما بين محاربة الله، وصد عن سبيل الله، ونصر للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض

على من يشاء والله غفور رحيم﴾ يمتن تعالى على عباده المؤمنين، بنصره إياهم في مواطن كثيرة من مواطن اللقاء، ومواضع الحروب والهيجه، حتى في يوم «حنين» الذي اشتدت عليهم فيه الأزمة، ورأوا من التخاذل والفرار، ما ضاقت عليهم به الأرض على رحبتها وسعتها.

وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة، سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار إليهم ﷺ في أصحابه الذين فتحوا مكة، وبمن أسلم من الطلقاء أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفاً، والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: لن تغلب اليوم من قلة.

فلما التقوا هم وهوازن، حملوا على المسلمين حملة واحدة، فانهزموا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع رسول الله ﷺ إلا نحو مئة رجل، ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ يركض بغلته نحو المشركين ويقول: «أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب».

ولما رأى من المسلمين ما رأى، أمر العباس بن عبد المطلب أن ينادي في الأنصار وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السمرة، يا أهل سورة البقرة.

فلما سمعوا صوته، عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم الله المشركين هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم ونساءهم وأموالهم.

وذلك قوله تعالى: ﴿لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين﴾ وهو اسم للمكان الذي كانت فيه الرقعة بين مكة والطائف.

﴿إذ أصحبتكم كثرتم فلم تغن عنكم شيئاً﴾ أي: لم تفدكم شيئاً، قليلاً ولا كثيراً ﴿وضاقت عليكم الأرض﴾ بما أصابكم من الهم والغم حين انهزمتم ﴿بما رحبت﴾ أي: على رحبتها

(١) الجملة غير واضحة في أ، وأقرب ما تكون أنها: (ولم يأمر أن يغتسل مما أصاب).

وإبطاله، فإن سعيهم لا يضر الحق شيئاً.

ثم بين تعالى هذا النور الذي قد تكفل بإتمامه وحفظه فقال: ﴿هو الذي أرسل رسوله بالهدى﴾ الذي هو العلم النافع ﴿ودين الحق﴾ الذي هو العمل الصالح فكان ما بعث الله به محمداً ﷺ مشتملاً على بيان الحق من الباطل في أسماء الله وأوصافه وأفعاله، وفي أحكامه وأخباره، والأمر بكل مصلحة نافعة للقلوب، والأرواح والأبدان من إخلاص الدين لله وحده، ومحبة الله وعبادته، والأمر بمكارم الأخلاق وعحسن الشيم، والأعمال الصالحة والآداب النافعة، والنهي عن كل ما يصاد ذلك ويناقضه من الأخلاق والأعمال السيئة المضرة للقلوب والأبدان والدنيا والآخرة.

فأرسله الله بالهدى ودين الحق ﴿ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون﴾ أي: ليعليه على سائر الأديان بالحجة والبرهان، والسيف والسنان، وإن كره المشركون ذلك، وبغواله الغوائل، ومكروا مكرمهم، فإن المكر السيئ لا يضر إلا صاحبه، فوعده الله لا بد أن ينجزه، وما ضمنه لا بد أن يقوم به.

﴿٣٤ - ٣٥﴾ يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب آليم * يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴿هذا تحذير من الله تعالى لعباده المؤمنين عن كثير من الأحبار والرهبان، أي: العلماء والعباد الذين يأكلون أموال الناس بالباطل، أي: بغير حق، ويصدون عن سبيل الله، فإنهم إذا كانت لهم رواتب من أموال الناس، أو بذل الناس لهم من أموالهم، فإنه لأجل علمهم وعبادتهم، ولأجل هدايتهم، وهؤلاء يأخذونها

حرم الله فيحلونه، ويحرمون لهم ما أحل الله فيحرمونه، ويشرعون لهم من الشرائع والأقوال المنافية لدين الرسل فيتبعونهم عليها.

وكانوا أيضاً يغفلون في مشايخهم وعبادهم ويعظمونهم، ويتخذون قبورهم أوثاناً تعبد من دون الله، وتقصد بالذبايح والدعاء والاستغاثة.

﴿والمسيح ابن مريم﴾ اتخذوه الهياً من دون الله، والحال أنهم خالفوا في ذلك أمر الله لهم على السنة رسله فما ﴿أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو﴾ فيخلصون له العبادة والطاعة، ويخصونه بالمحبة والدعاء، فنبذوا أمر الله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطاناً.

﴿سبحانه﴾ وتعالى ﴿عما يشركون﴾ أي: تنزه وتقدس، وتعالى عظمته عن شركهم واقترائهم، فإنهم ينتقصونه في ذلك، ويصفونه بما لا يليق بجلاله، والله تعالى العلي في أوصافه وأفعاله عن كل ما نسب إليه، بما ينافي كماله المقدس.

فلما تبين أنه لا حجة لهم على ما قالوه، ولا برهان لما أصّلوه، وإنما هو مجرد قول قالوه واقتراء افتروه، أخبر أنهم ﴿يريدون﴾ بهذا ﴿أن يطفئوا نور الله بأفواههم﴾.

ونور الله: دينه الذي أرسل به الرسل، وأنزل به الكتب، وسماه الله نوراً، لأنه يستنار به في ظلمات الجهل والأديان الباطلة، فإنه علم بالحق، وعمل بالحق، وما عداه فإنه بضده، فهؤلاء اليهود والنصارى ومن ضاهوه من المشركين، يريدون أن يطفئوا نور الله بمجرد أقوالهم، التي ليس عليها دليل أصلاً.

﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره﴾ لأنه النور الباهر، الذي لا يمكن لجميع الخلق لو اجتمعوا على إطفائه أن يطفئوه، والذي أنزله جميع نواصي العباد بيده، وقد تكفل بحفظه من كل من يريد به سوء، ولهذا قال: ﴿ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون﴾ وسعوا ما أمكنهم في رده



عزيراً بعد ذلك حافظاً لها أو لأكثرها، فأملأها عليهم من حفظه، واستنسجوها، فادعوا فيه هذه الدعوى الشنيعة.

﴿وقالت النصارى المسيح عيسى ابن مريم﴾ ابن الله ﴿قال الله تعالى ذلك﴾ القول الذي قالوه ﴿قولهم بأفواههم﴾ لم يقيموا عليه حجة ولا برهاناً.

ومن كان لا يبالي بما يقول، لا يستغرب عليه أي: قول يقوله، فإنه لا دين ولا عقل يحجزه عما يريد من الكلام.

ولهذا قال: ﴿يضاهئون﴾ أي: يشابهون في قولهم هذا ﴿قول الذين كفروا من قبل﴾ أي: قول المشركين الذين يقولون: ﴿الملائكة بنات الله﴾ تشابهت قلوبهم، فتشابهت أقوالهم في البطلان.

﴿قاتلهم الله أتى يؤفكون﴾ أي: كيف يصرفون عن الحق الصرف الواضح المبين، إلى القول الباطل المبين. وهذا - وإن كان يستغرب على أمة كبيرة كثيرة أن تتفق على قول - يدل على بطلانه أدنى تفكر وتسلط للعقل عليه، فإن لذلك سبباً وهو أنهم ﴿اتخذوا أحبارهم﴾ وهم علماءهم ﴿ورهبانهم﴾ أي: العباد المتجردين للعبادة.

﴿أرباباً من دون الله﴾ يحلون لهم ما

ويصدون الناس عن سبيل الله، فيكون أخذهم لها على هذا الوجه سحتاً وظلماً، فإن الناس ما بذلوا لهم من أموالهم إلا ليدلوهم إلى الطريق المستقيم.

ومن أخذهم لأموال الناس بغير حق، أن يعطوهم ليفتوهم أو يحكموا لهم بغير ما أنزل الله، فهؤلاء الأخبار والرهبان، ليحذر منهم هاتان الحالتان: أخذهم لأموال الناس بغير حق، وصدّهم الناس عن سبيل الله.

والذين يكتزون الذهب والفضة أي: يمسكونها ولا ينفقونها في سبيل الله أي: طرق الخير الموصلة إلى الله، وهذا هو الكنز المحرم، أن يمسكها عن النفقة الواجبة، كان يمنع منها الزكاة أو النفقات الواجبة للزوجات أو الأقارب، أو النفقة في سبيل الله إذا وجبت.

فبشرهم بعذاب اليم ثم فسره بقوله: «يوم يحمى عليها» أي: على أموالهم، «في نار جهنم» فيحمى كل دينار أو درهم على حدته.

فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم في يوم القيامة كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ويقال لهم توبيخاً ولوماً: «هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون» فما ظلمكم ولكنكم ظلمتم أنفسكم وعذبتموها بهذا الكنز.

وذكر الله في هاتين الآيتين انحراف الإنسان في ماله، وذلك بأحد أمرين:

إما أن ينفقه في الباطل الذي لا يجدي عليه نفعاً، بل لا يناله منه إلا الضرر المحض، وذلك كإخراج الأموال في المعاصي والشهوات التي لا تعين على طاعة الله، وإخراجها للصد عن سبيل الله.

وإما أن يمسك ماله عن إخراجها في

الواجبات و «النهي عن الشيء» أمر بضده.

٣٦ وقوله: «إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين» يقول تعالى: «إن عدة الشهور عند الله» أي: في قضائه وقدره «اثنا عشر شهراً» وهي هذه الشهور المعروفة «في كتاب الله» أي: في حكمه القدري، «يوم خلق الله السماوات والأرض» وأجرى ليلها ونهارها، وقدر أوقاتها فقسّمها على هذه الشهور الاثني عشر [شهوراً].

منها أربعة حرم: وهي: رجب الفرد، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، وسميت حرماً لزيادة حرمتها، وتحريم القتال فيها.

«فلا تظلموا فيهن أنفسكم» يحتمل أن الضمير يعود إلى الاثني عشر شهراً، وأن الله تعالى بين أنه جعلها مقادير للعباد، وأن تعمّر بطاعته، ويشكر الله تعالى على ميثقه بها، وتقيضها لمصالح العباد، فلتحذروا من ظلم أنفسكم فيها.

ويحتمل أن الضمير يعود إلى الأربعة الحرم، وأن هذا نهي لهم عن الظلم فيها، خصوصاً مع النهي عن الظلم كل وقت، لزيادة تحريمها، وكون الظلم فيها أشد منه في غيرها.

ومن ذلك النهي عن القتال فيها، على قول من قال: إن القتال في الأشهر الحرم^(١) لم ينسخ تحريمه عملاً بالنصوص العامة في تحريم القتال فيها.

ومنهم من قال: إن تحريم القتال

فيها منسوخ، أخذاً بعموم نحو قوله تعالى «وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة» أي: قاتلوا جميع أنواع المشركين والكافرين برب العالمين.

ولا تخصوا أحداً منهم بالقتال دون أحد، بل اجعلوهم كلهم لكم أعداء كما كانوا هم معكم كذلك، قد اتخذوا أهل الإيمان أعداء لهم، لا يألونهم من الشر شيئاً.

ويحتمل أن «كافة» حال من الواو فيكون معنى هذا: قاتلوا جميعكم المشركين، فيكون فيها وجوب النفير على جميع المؤمنين.

وقد نسخت على هذا الاحتمال بقوله: «وما كان المؤمنون لينفروا كافة» الآية. «واعلموا أن الله مع المتقين» بعونه ونصره وتأييده، فلتحرصوا على استعمال تقوى الله في سرهم وعلنكم، والقيام بطاعته، خصوصاً عند قتال الكفار، فإنه في هذه الحال، ربما ترك المؤمن العمل بالتقوى في معاملة الكفار الأعداء المحاربين.

٣٧ «إنما النسبي زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين» النسبي: هو ما كان أهل الجاهلية يستعملونه في الأشهر الحرم، وكان من جملة بدعهم الباطلة، أنهم لما رأوا احتياجهم للقتال في بعض أوقات الأشهر الحرم، رأوا - بأرائهم الفاسدة - أن يحافظوا على عدة الأشهر الحرم، التي حرم الله القتال فيها، وأن يؤخروا بعض الأشهر الحرم، أو يقدموه، ويجعلوا مكانه من أشهر الحل ما أرادوا، فإذا جعلوه مكانه أحلوا

عصى الله تعالى وارتكب لنهييه، ولم يساعد على نصر دين الله، ولا ذب عن كتاب الله وشرعه، ولا أعان إخوانه المسلمين على عدوهم الذي يريد أن يستأصلهم ويمحق دينهم، وربما اقتدى به غيره من ضعفاء الإيمان، بل ربما قُت في أعضاء من قاموا بجهاد أعداء الله، فحقيق بمن هذا حاله أن يتوعده الله بالوعيد الشديد، فقال:

﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يَعْذِبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ ﴿٤٠﴾ ولا تضروه شيئاً فإنه تعالى متكفل بنصر دينه وإعلاء كلمته، فسواء امتثلتم لأمر الله، أو ألقيتموه وراءكم ظهرياً.

﴿والله على كل شيء قدير﴾ لا يعجزه شيء أرادته، ولا يغالبه أحد.

﴿٤٠﴾ ﴿إِلَّا تَنْفَرُوا فَقَدْ أَنْصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ يَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: إلا تنصروا رسوله محمداً ﷺ، فالله غني عنكم، لا تضرونه شيئاً، فقد نصره في أقل ما يكون وأذله ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من مكة لما هموا بقتله، وسعوا في ذلك، وحرصوا أشد الحرص، فالجؤوه إلى أن يخرج.

﴿ثَانِي اثْنَيْنِ﴾ أي: هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أي: لما هربا من مكة، لجأ إلى غار ثور^(٢) في أسفل مكة، فمكثا فيه ليبرد عنهما الطلب.

فهما في تلك الحالة الحرجة الشديدة المشقة، حين انتشر الأعداء من كل جانب يطلبونهما ليقتلوهما، فأنزل الله عليهما من نصره ما لا يخطر على البال. ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ النبي ﷺ ﴿لِصَاحِبِهِ﴾ أي بكر لما حزن واشتد قلقه،

قليلاً، والمعيشة عسرة، فحصل من بعض المسلمين من الثاقل ما أوجب أن يعاتبهم الله تعالى عليه ويستنهضهم، فقال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ألا تعملون بمقتضى الإيمان، وداعي^(١) اليقين من المبادرة لأمر الله، والمصارعة إلى رضاه، وجهاد أعدائه والنصرة لدينكم، ف ﴿مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْثَلِثْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: تكاسلتم، وملتم إلى الأرض والدعة والسكون فيها.

﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: ما حالكم إلا حال من رضي بالدنيا وسعى لها ولم يبال بالآخرة، فكأنه ما آمن بها.

﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ التي مالت بكم، وقدمتموها على الآخرة ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أفليس قد جعل الله لكم عقولاً تزنون بها الأمور، وأياها أحق بالإيثارة؟

أفليست الدنيا - من أولها إلى آخرها - لا نسبة لها في الآخرة. فما مقدار عمر الإنسان القصير جداً من الدنيا حتى يجعله الغاية التي لا غاية وراءها، فيجعل سعيه وكده وهمه وإرادته لا يتعدى حياته الدنيا القصيرة المملوءة بالأكدار، المشحونة بالأخطار.

فبأي رأي رأيتم إثارها على الدار الآخرة الجامعة لكل نعيم، التي فيها ما تشتهيhe الأنفس وتلذ الأعين، وأنتم فيها خالدون، فوالله ما أثر الدنيا على الآخرة من وقر الإيمان في قلبه، ولا من جزل رأيه، ولا من عُد من أولي الألباب، ثم توعدهم على عدم النفير فقال:

﴿إِلَّا تَنْفَرُوا يَعْذِبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا والآخرة، فإن عدم النفير في حال الاستنفار من كبائر الذنوب الموجبة لأشد العقاب، لما فيها من المضار الشديدة، فإن المتخلف قد

القتال فيه، وجعلوا الشهر الحلال حراماً، فهذا - كما أخبر الله عنهم - أنه زيادة في كفرهم وضلالهم، لما فيه من المحاذير.

منها: أنهم ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، وجعلوه بمنزلة شرع الله ودينه، والله ورسوله بريئان منه.

ومنها: أنهم قلبوا الدين، فجعلوا الحلال حراماً، والحرام حلالاً.

ومنها: أنهم مَوَّهوا على الله بزعهم وعلى عباده، ولبسوا عليهم دينهم، واستعملوا الخداع والحيلة في دين الله.

ومنها: أن العوائد المخالفة للشرع مع الاستمرار عليها، يزول قبورها عن النفوس، وربما ظن أنها عوائد حسنة، فحصل من الغلط والضلال ما حصل، ولهذا قال: ﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَحْلُونَهُ عَاماً وَيَمْجُرُونَهُ عَاماً لِيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ أي: ليوافقوها في العدد، فيحلوا ما حَرَّمَ الله.

﴿زَيْنَ لَهُمْ سَوْءَ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي: زينت لهم الشياطين الأعمال السيئة، فرأوها حسنة، بسبب العقيدة المزينة في قلوبهم.

﴿والله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي: الذين انصبغ الكفر والتكذيب في قلوبهم، فلو جاءهم كل آية لم يؤمنوا.

﴿٣٨-٣٩﴾ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْثَلِثْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ * إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير ﴿اعلم أن كثيراً من هذه السورة الكريمة نزلت في غزوة تبوك، إذ ندب النبي ﷺ المسلمين إلى غزو الروم، وكان الوقت حاراً، والزاد

(١) في ب، ودواعي.

(٢) في أ: (إلى غار حراء)، وفي ب: عدلت إلى: (غار ثور) وهو الصحيح فيدو - والله أعلم - أنه سبق قلم.

﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ بعونه ونصره وتأييده .

﴿فأنزل الله سكينة عليه﴾ أي : الثبات والطمأنينة والسكون المثبتة للنفوس ، ولهذا لما قلق صاحبه سكنه وقال : ﴿لا تحزن إن الله معنا﴾ .

﴿وأيدوه بجنود لم تروها﴾ وهي الملائكة الكرام ، الذين جعلهم الله حرساً له ، ﴿وجعل كلمة الذين كفروا السفلى﴾ أي : الساقطة المخذولة ، فإن الذين كفروا قد كانوا على حرد قادرين ، في ظنهم على قتل الرسول ﷺ وأخذه ، حنقين عليه ، فعملوا غاية مجهودهم في ذلك ، فخذلهم الله ولم يتم لهم مقصودهم ، بل ولا أدركوا شيئاً منه .

ونصر الله رسوله بدفعه عنه ، وهذا هو النصر المذكور في هذا الموضع ، فإن النصر على قسمين : نصر المسلمين إذا طمعوا في عدوهم بأن يتم الله لهم ما طلبوا وقصدوا ، ويستولوا على عدوهم ويظهروا عليهم .

والثاني نصر المستضعف الذي طمع فيه عدوه القادر ، فنصر الله إياه أن يرد عنه عدوه ، ويدافع عنه ، ولعل هذا النصر أنفع النصرين ، ونصر الله رسوله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين من هذا النوع .

وقوله : ﴿وكلمة الله هي العليا﴾ أي : كلماته القدرية وكلماته الدينية ، هي العالية على كلمة غيره ، التي من جملتها قوله : ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ ﴿إننا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ ﴿وإن جندنا لهم الغالبون﴾ فدين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان ، بالحجج الواضحة ، والآيات الباهرة والسلطان الناصر .

﴿والله عزيز﴾ لا يغالبه مغالب ، ولا يفوته هارب ، ﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها ، ويؤخر نصر حزبه إلى وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية .

وفي هذه الآية الكريمة فضيلة أبي بكر الصديق بخصيصة لم تكن لغيره من هذه الأمة ، وهي الفوز بهذه المنقبة

الجليلة ، والصحبة الجميلة ، وقد أجمع المسلمون على أنه هو المراد بهذه الآية الكريمة ، ولهذا عدوا من أنكر صحبة أبي بكر للنبي ﷺ كافراً ، لأنه منكر للقرآن الذي صرح بها .

وفيها فضيلة السكينة ، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف التي تطيش بها الأنفذة ، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه ، وثقته بوعده الصادق ، وبحسب إيمانه وشجاعته .

وفيها : أن الحزن قد يعرض لخواص عباد الله الصديقين ، مع أن الأولى - إذا نزل بالعبد - أن يسعى في ذهابه عنه ، فإنه مضعف للقلب ، موهن للزيمة .

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ * لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ يقول تعالى لعباده المؤمنين - مهيباً لهم على النفي في سبيله فقال : ﴿انفروا خفافاً وثقالاً﴾ أي : في العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، والحر والبرد ، وفي جميع الأحوال .

﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾ أي : ابذلوا جهدكم في ذلك ، واستفرغوا وسعكم في المال والنفس ، وفي هذا دليل على أنه - كما يجب الجهاد في النفس - يجب الجهاد في المال ، حيث اقتضت الحاجة ودعت لذلك .

ثم قال : ﴿ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي : الجهاد في النفس والمال ، خير لكم من التقاعد عن ذلك ، لأن فيه رضا الله تعالى ، والفوز بالدرجات العاليات عنده ، والنصر لدين الله ، والدخول في جملة جنده وحزبه .

لو كان خروجهم لطلب العرض القريب ، أي : منفعة دنيوية سهلة

التناول ﴿وكان السفر﴾ سفرأ قاصداً ﴿أي : قريباً سهلاً﴾ ﴿لاتبعوك﴾ لعدم المشقة الكثيرة ، ﴿ولكن بعدت عليهم الشقة﴾ أي : طالت عليهم المسافة ، وصعب عليهم السفر ، فلذلك تناقلوا عنك ، وليس هذا من أمارات العبودية ، بل العبد حقيقة هو المتعبد لربه في كل حال ، القائم بالعبادة السهلة والشاقة ، فهذا العبد لله على كل حال .

﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم﴾ أي : سيحلفون أن تخلفهم عن الخروج ، أن لهم أعذراً ، وأنهم لا يستطيعون ذلك .

﴿يهلكون أنفسهم﴾ بالقعود والكذب والإخبار بغير الواقع ، ﴿والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ .

وهذا العتاب إنما هو للمنافقين ، الذين تخلفوا عن النبي ﷺ في غزوة تبوك وأبدوا من الأعدار الكاذبة ما أبدوا ، فعفا النبي ﷺ عنهم بمجرد اعتذارهم ، من غير أن يمتحنهم ، فيتبين له الصادق من الكاذب ، ولهذا عاتبه الله على هذه المسارعة إلى عذرهم فقال :

﴿٤٣ - ٤٥﴾ ﴿عفا الله عنكم لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ * لا يستثذك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين * إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ : ﴿عفا الله عنك﴾ أي : سالح وغفر لك ما أجزيت .

﴿لم أذنت لهم﴾ في التخلف ﴿حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ بأن تمتحنهم ، ليتبين لك الصادق من الكاذب ، فتعذر من يستحق العذر من لا يستحق ذلك .

ثم أخبر أن المؤمنين بالله واليوم الآخر ، لا يستأذنون في ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم ، لأن ما معهم من الرغبة في الخير والإيمان ، يحملهم على الجهاد من غير أن يحثهم عليه حاث ،

فضلاً عن كونهم يستأذنون في تركه من غير عذر.

﴿والله عليم بالمتقين﴾ فيجازيهم على ما قاموا به من تقواه، ومن علمه بالمتقين، أنه أخير، أن من علاماتهم أنهم لا يستأذنون في ترك الجهاد.

﴿إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم﴾ أي: ليس لهم إيمان تام، ولا يقين صادق، فلذلك قلت رغبتهم في الخير، وجبنوا عن القتال، واحتاجوا أن يستأذنوا في ترك القتال. ﴿فهم في ربهم يترددون﴾ أي: لا يزالون في الشك والحيرة.

﴿٤٦ - ٤٨﴾ ﴿ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فنبطهم وقيل أقعدوا مع القاعدين﴾ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ يقول تعالى مبيناً أن المتخلفين من المنافقين قد ظهر منهم من القرائن ما يبين أنهم ما قصدوا الخروج للجهاد بالكلية، وأن أعداؤهم التي اعتذروها باطلة، فإن العذر هو المانع الذي يمنع إذا بذل العبد وسعه، وسعى في أسباب الخروج، ثم منعه مانع شرعي، فهذا الذي يعذر.

﴿و﴾ أما هؤلاء المنافقون فـ ﴿لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة﴾ أي: لاستعدوا وعملوا ما يمكنهم من الأسباب، ولكن لما لم يعدوا له عدة، علم أنهم ما أرادوا الخروج.

﴿ولكن كره الله انبعاثهم﴾ معكم في الخروج للغزو ﴿فنبطهم﴾ قدراً وقضاء، وإن كان قد أمرهم وحثهم على الخروج، وجعلهم مقتدرين عليه، ولكن بحكمته ما أراد إعانتهم، بل خذلهم ونبطهم ﴿وقيل أقعدوا مع القاعدين﴾ من النساء والمعدورين.

ثم ذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً﴾ أي: نقصاً.

﴿ولأوضعوا خلالكم﴾ أي: ولسعوا في الفتنة والشر بينكم، وفرقوا جماعتكم المجتمعين، ﴿يبغونكم الفتنة﴾ أي: هم حريصون على فتنتكم وإلقاء العداوة بينكم.

﴿وفيكم﴾ أناس ضعفاء العقول ﴿سماعون لهم﴾ أي: مستجيبون لدعوتهم يغترون بهم، فإذا كانوا هم حريصين على خذلانكم، وإلقاء الشر بينكم، وتبسيطكم عن أعدائكم، وفيكم من يقبل منهم ويستصحهم. فما ظنك بالشر الحاصل من خروجهم مع المؤمنين، والنقص الكثير منهم، فله أنم الحكمة حيث نبطهم ومنعهم من الخروج مع عباده المؤمنين رحمة بهم، ولطفاً من أن يداخلهم ما لا ينفعهم بل يضرهم.

﴿والله عليم بالظالمين﴾ فيعلم عباده كيف يحذرونهم، ويبين لهم من المفاسد الناشئة من مخالطتهم.

ثم ذكر أنه قد سبق لهم سوابق في الشر فقال:

﴿لقد ابتغوا الفتنة من قبل﴾ أي: حين هاجرتهم إلى المدينة، بذلوا الجهد، ﴿وقلبوا لك الأمور﴾ أي: أداروا الأفكار، وأعملوا الخيل في إبطال دعوتكم وخذلان دينكم، ولم يقصروا في ذلك، ﴿حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون﴾ فبطل كيدهم واضمحل باطلهم، فحقيق بمثل هؤلاء أن يحذر الله عباده المؤمنين منهم، وأن لا يبالي المؤمنون بتخلفهم عنهم.

﴿٤٩﴾ ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ أي: ومن هؤلاء المنافقين من يستأذن في التخلف، ويعتذر بعذر آخر عجيب، فيقول: ﴿ائذن لي﴾ في التخلف ﴿ولا تفتني﴾ في الخروج، فإني إذا خرجت، فرأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عنهن، كما قال ذلك «الجد بن قيس». ومقصوده - قبحه الله - الرياء والنفاق بأن مقصودي مقصود حسن، فإن في خروجي فتنة وتعريضاً للشر، وفي عدم خروجي عافية وكفاً عن

الشر.

قال الله تعالى مبيناً كذب هذا القول: ﴿ألا في الفتنة سقطوا﴾ فإنه على تقدير صدق هذا القائل في قصده، [فإن] في التخلف مفسدة كبرى وفتنة عظيمة محققة، وهي معصية الله ومعصية رسوله، والتجريء على الإثم الكبير، والوزر العظيم، وأما الخروج فمفسدة قليلة بالنسبة للتخلف، وهي متوهمة، مع أن هذا القائل قصده التخلف لا غير، ولهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ ليس لهم عنها مفر ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص.

﴿٥٠ - ٥١﴾ ﴿إن تصيبك حسنة فسرهم وإن تصيبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمراً من قبل ويتولوا وهم فرحون﴾ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ يقول تعالى مبيناً أن المنافقين هم الأعداء حقاً، المبغضون للدين صرفاً: ﴿إن تصيبك حسنة﴾ كنصر وإدالة على العدو ﴿تسرهم﴾ أي: تحزنهم وتغمهم.

﴿وإن تصيبك مصيبة﴾ كإدالة العدو عليك ﴿يقولوا﴾ متبجحين بسلامتهم من الحضور معك.

﴿قد أخذنا أمراً من قبل﴾ أي: قد حذرنا وعملنا بما ينبجنا من الوقوع في مثل هذه المصيبة.

﴿ويتولوا وهم فرحون﴾ فيفرحون بمصيبتك، وبعدم مشاركتهم إياك فيها. قال تعالى راداً عليهم في ذلك ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ أي: قدره وأجره في اللوح المحفوظ.

﴿هو مولانا﴾ أي: متولي أمورنا الدينية والدنيوية، فعلينا الرضا بأقداره وليس في أيدينا من الأمر شيء.

﴿وعلى الله﴾ وحده ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ أي: يعتمدوا عليه في جلب مصالحهم ودفع المضار عنهم، ويثقوا به في تحصيل مطلوبهم، فلا خاب من توكل عليه، وأما من توكل على غيره، فإنه مخذول غير مدرك لما أمل.

﴿٥٢﴾ ﴿قل هل تربصون بنا إلا

إحدى الحسينين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون ﴿٥٧﴾ أي: قل للمنافقين الذين يتربصون بكم الدوائر: أي: شيء تربصون بنا؟ فإنكم لا تربصون بنا إلا أمراً فيه غاية نفعنا، وهو إحدى الحسينين، إما الظفر بالأعداء والنصر عليهم ونيل الثواب الآخروي والدنيوي. وإما الشهادة التي هي من أعلى درجات الخلق، وأرفع المنازل عند الله.

وأما تربصنا بكم - يا معشر المنافقين - فنحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، لا سب لنا فيه، أو بأيدينا بأن يسלטنا عليكم فنقتلكم. ﴿فتربصوا﴾ بنا الخير ﴿إنا معكم متربصون﴾ بكم الشر.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿قل أنفقوا طوعاً أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ وما منعه أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا يتفقون إلا وهم كارهون ﴿يقول تعالى مبيناً بطلان نفقات المنافقين، وذاكرًا السبب في ذلك﴾ قل ﴿لهم﴾ أنفقوا طوعاً من أنفسهم ﴿أو كرها﴾ على ذلك، بغير اختياركم. ﴿لن يتقبل منكم﴾ شيء من أعمالكم ﴿إنكم كنتم قوماً فاسقين﴾ خارجين عن طاعة الله، ثم بين صفة فسقهم وأعمالهم، فقال: ﴿وما منعه أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله﴾ والأعمال كلها شرط قبولها الإيمان، فهؤلاء لا إيمان لهم ولا عمل صالح، حتى إن الصلاة التي هي أفضل أعمال البدن، إذا قاموا إليها قاموا كسالى، قال: ﴿ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى﴾ أي: متهاطلون، لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم.

﴿ولا يتفقون إلا وهم كارهون﴾ من غير انشراح صدر وثبات نفس، ففي هذا غاية الذم لمن فعل مثل فعلهم، وأنه ينبغي للعبد أن لا يأتي الصلاة إلا وهو نشيط البدن والقلب إليها، ولا ينفق إلا وهو منشراح الصدر ثابت

القلب، يرجو ذخرها وثوابها من الله وحده، ولا يتشبه بالمنافقين.

﴿٥٥ - ٥٧﴾ ﴿فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهد أنفسهم وهم كافرون﴾ ويخلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ﴿لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلًا لولوا إليه وهم يمححون﴾ يقول تعالى: فلا تعجبك أموال هؤلاء المنافقين ولا أولادهم، فإنه لا غبطة فيها، وأول بركاتنا عليهم أن قدموها على مرضي ربهم، وعصوا الله لأجلها ﴿إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا﴾ والمراد بالعذاب هنا، ما ينالهم من المشقة في تحصيلها، والسعي الشديد في ذلك، وهم القلب فيها، وتعب البدن.

فلو قابلت لذاتهم فيها بمشقاتهم، لم يكن لها نسبة إليها، فهي - لما ألهمهم عن الله وذكره - صارت وبالأعلى عليهم حتى في الدنيا.

ومن وبالها العظيم الخطر، أن قلوبهم تتعلق بها، وإراداتهم لا تتعداها، فتكون منتهى مطلوبهم وغاية مرغوبهم، ولا يبقى في قلوبهم للأخرة نصيب، فيوجب ذلك أن ينتقلوا من الدنيا ﴿وتزهد أنفسهم وهم كافرون﴾.

فأي: عقوبة أعظم من هذه العقوبة الموجبة للشقاء الدائم والحسرة اللازمة.

﴿ويخلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم﴾ قصدهم في حلفهم هذا أنهم ﴿قوم يفرقون﴾ أي: يخافون الدوائر، وليس في قلوبهم شجاعة تحملهم على أن يبينوا أحوالهم. فيخافون إن أظهروا حالهم منكم، ويخافون أن تبرؤوا منهم، فيخطفهم الأعداء من كل جانب.

وأما حال قوي القلب ثابت الجنان، فإنه يحمله ذلك على بيان حاله، حسنة كانت أو سيئة، ولكن المنافقين خلع عليهم خلعة الجبن، وحلوا بحلية الكذب.

﴿٥٨﴾ ﴿لو أن أموالهم وأولادهم كانوا ينفعونهم﴾ أي: لو أن أموالهم وأولادهم كانوا ينفعونهم، لكانوا ينفعونهم، ولكنهم لا ينفعونهم، لأنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا يتفقون إلا وهم كارهون. ﴿لو أن أموالهم وأولادهم كانوا ينفعونهم﴾ أي: لو أن أموالهم وأولادهم كانوا ينفعونهم، لكانوا ينفعونهم، ولكنهم لا ينفعونهم، لأنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا يتفقون إلا وهم كارهون.

ثم ذكر شدة جنهم فقال: ﴿لو يجدون ملجأ﴾ يلجؤون إليه عندما تنزل بهم الشدائد، ﴿أو مغارات﴾ يدخلونها فيستقرون فيها ﴿أو مدخلًا﴾ أي: محلاً يدخلونه فيتحصنون فيه ﴿لولوا إليه﴾ وهم يمححون ﴿أي: يسرعون ويهرعون، فليس لهم ملكة يقتدرون بها على الثبات.

﴿٥٨ - ٥٩﴾ ﴿ومنهم من يلزمك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسناً الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴿أي: ومن هؤلاء المنافقين من يعيبك في قسمة الصدقات، وينتقد عليك فيها، وليس انتقادهم فيها وعيبهم لقصد صحيح، ولا لرأي: رجيح، وإنما مقصودهم أن يعطوا منها.﴾ فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴿وهذه حالة لا تنبغي للعبد أن يكون رضاء وغضبه، تابعا لهوى نفسه الدنيوي وحرصه الفاسد، بل الذي ينبغي أن يكون هواه تبعاً لرضا ربه، كما قال النبي ﷺ: لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به.﴾

وقال هنا: ﴿ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله﴾ أي: أعطاهم من قليل وكثير. ﴿وقالوا حسناً الله﴾



القادر على الكسب لطلب العلم، أعطي من الزكاة، لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل الله.

وقالوا أيضاً: يجوز أن يعطى منها الفقير لحج فرضه، [وفيه نظراً^(١)] والثامن: ابن السبيل، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده، فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم.

﴿فريضة من الله﴾ فرضها وقدرها، تابعة لعلمه وحكمه ﴿والله عليم حكيم﴾ واعلم أن هذه الأصناف الثمانية، ترجع إلى أمرين:

أحدهما: من يعطى لحاجته ونفعه، كالفقير والمسكين ونحوهما.

والثاني: من يعطى للحاجة إليه وانتفاع الإسلام به، فأوجب الله هذه الحصة في أموال الأغنياء، لسد الحاجات الخاصة والعامة للإسلام والمسلمين، فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي، لم يبق فقير من المسلمين، ولحصل من الأموال ما يسد الشغور، ويجاهد به الكفار وتحصل به جميع المصالح الدينية.

﴿٦١ - ٦٣﴾ «ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم * يخلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين * ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم * أي: ومن هؤلاء المنافقين «الذين يؤذون النبي» بالأقوال الرديئة، والعيب له ولدينه، «ويقولون هو أذن» أي: لا يبالون بما يقولون من الأذية للنبي، ويقولون: إذا بلغه عنا بعض ذلك، جئنا نعتذر إليه، فيقبل منا، لأنه أذن، أي: يقبل كل ما يقال له، لا يميز بين صادق وكاذب،

ولا يجد تمام كفايته، لأنه لو وجدها لكان غنياً، فيعطون من الزكاة ما يزول به فقرهم ومسكنتهم.

والثالث: العاملون على الزكاة، وهم كل من له عمل وشغل فيها، من حافظ لها، أو جاب لها من أهلها، أو راع، أو حامل لها، أو كاتب، أو نحو ذلك، فيعطون لأجل عمالتهم، وهي أجرة لأعمالهم فيها.

والرابع: المؤلفات قلوبهم، المؤلف قلبه: هو السيد المطاع في قومه، من يرجى إسلامه، أو يخشى شره أو يرجى بعبتيته قوة إيمانه، أو إسلام نظيره، أو جبايتها من لا يعطيها، فيعطى ما يحصل به التآليف والمصلحة.

الخامس: الرقاب، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم، فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم، فيعانون على ذلك من الزكاة، وفك الرقبة المسلمة التي في حبس الكفار داخل في هذا، بل أولى، ويدخل في هذا أنه يجوز أن يعتق منها الرقاب استقلالاً، لدخوله في قوله: ﴿وفي الرقاب﴾.

السادس: الغارمون، وهم قسمان:

أحدهما: الغارمون لإصلاح ذات البين، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر وقتنة، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بما يبدل لأحدهم أو لهم كلهم، فجعل له نصيب من الزكاة، ليكون أنشط له وأقوى لعزمه، فيعطى ولو كان غنياً.

والثاني: من غرم لنفسه ثم أعسر، فإنه يعطى ما يؤقي به دينه.

والسابع: الغازي في سبيل الله، وهم الغزاة المتطوعة، الذين لا ديوان لهم، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم، من ثمن سلاح أو دابة، أو نفقة له ولعِياله، ليتوفر على الجهاد ويطمئن قلبه.

وقال كثير من الفقهاء: إن تفرغ

أي: كافينا الله، فنرضى بما قسمه لنا، وليؤملوا فضله وإحسانه إليهم بأن يقولوا: ﴿سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون﴾ أي: متضرعون في جلب منافعنا ودفع مضارنا، لسلما من النفاق ولهدوا إلى الإيمان والأحوال العالية، ثم بين تعالى كيفية قسمة الصدقات الواجبة فقال:

﴿٦٠﴾ «إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم» يقول تعالى: «إنما الصدقات» أي: الزكوات الواجبة، بدليل أن الصدقة المستحبة لكل أحد، لا يخص بها أحد دون أحد.

أي: إنما الصدقات لهؤلاء المذكورين دون من عداهم، لأنه حصرها فيهم، وهم ثمانية أصناف.

الأول والثاني: الفقراء والمساكين، وهم في هذا الموضع صنفان متفاوتان، فالفقير أشد حاجة من المسكين، لأن الله بدأ بهم، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم، ففسر الفقير بأنه الذي لا يجد شيئاً، أو يجد بعض كفايته دون نصفها.

والمسكين: الذي يجد نصفها فأكثر،

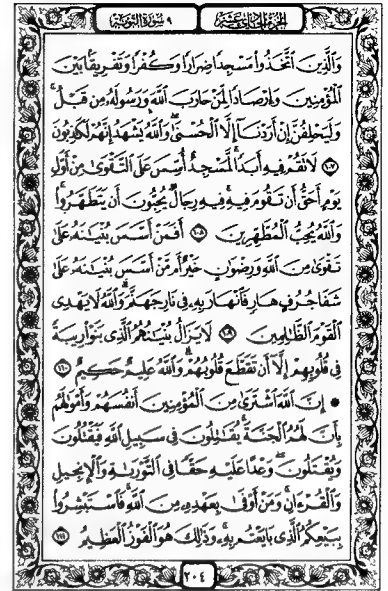
والموافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ﴿١﴾ يقول تعالى: ﴿المنافقون﴾ والمنافقات بعضهم من بعض ﴿٢﴾ لأنهم اشتركوا في النفاق، فاشتركوا في تولي بعضهم بعضاً، وفي هذا قطع للمؤمنين من ولايتهم.

ثم ذكر وصف المنافقين العام، الذي لا يخرج منه صغير منهم ولا كبير، فقال: ﴿يأمرون بالمنكر﴾ وهو الكفر والفسوق والعصيان. ﴿وينهون عن المعروف﴾ وهو الإيمان، والأخلاق الفاضلة، والأعمال الصالحة، والآداب الحسنة. ﴿ويقيضون أيديهم﴾ عن الصدقة وطرق الإحسان، فوصفهم بالبخل. ﴿نسوا الله﴾ فلا يذكرونه إلا قليلاً، ﴿فنسيتهم﴾ من رحته، فلا يوقفهم لخير، ولا يدخلهم الجنة، بل يتركهم في الدرك الأسفل من النار، خالدين فيها مخلدين. ﴿إن المنافقين هم الفاسقون﴾ حصر الفسق فيهم، لأن فسقهم أعظم من فسق غيرهم، بدليل أن عذابهم أشد من عذاب غيرهم، وأن المؤمنين قد ابتلوا بهم، إذ كانوا بين أظهرهم، والاحتراز منهم شديد. ﴿وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم﴾ جمع المنافقين والكفار في النار، واللعنة والخلود في ذلك، لاجتماعهم في الدنيا على الكفر، والمعاداة لله ورسوله والكفر بآياته.

﴿٧١ - ٧٢﴾ ﴿والمؤمنون﴾ قوله: ﴿نما كان الله ليعذبهم﴾ إذ أوقع بهم من عقوبته ما أوقع ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ حيث تجرؤوا على معاصيه، وعصوا رسوله، واتبعوا أمر كل جبار عنيد.

﴿٧١ - ٧٢﴾ ﴿والمؤمنون﴾ والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرهم الله إن الله عزيز حكيم * وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومسكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم﴾ لما ذكر أن المنافقين

والذين آمنوا وسجدوا كانوا كفراً وتقرّبوا إلى الله فبذلك كان الله ورسوله من قبل ﴿١﴾ ولا يصح أن يزعموا أن الله ورسوله من قبل ﴿٢﴾ ولا يصح أن يزعموا أن الله ورسوله من قبل ﴿٣﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٤﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٥﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٦﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٧﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٨﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٩﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿١٠﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿١١﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿١٢﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿١٣﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿١٤﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿١٥﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿١٦﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿١٧﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿١٨﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿١٩﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٢٠﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٢١﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٢٢﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٢٣﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٢٤﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٢٥﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٢٦﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٢٧﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٢٨﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٢٩﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٣٠﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٣١﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٣٢﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٣٣﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٣٤﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٣٥﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٣٦﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٣٧﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٣٨﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٣٩﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٤٠﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٤١﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٤٢﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٤٣﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٤٤﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٤٥﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٤٦﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٤٧﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٤٨﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٤٩﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٥٠﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٥١﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٥٢﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٥٣﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٥٤﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٥٥﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٥٦﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٥٧﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٥٨﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٥٩﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٦٠﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٦١﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٦٢﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٦٣﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٦٤﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٦٥﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٦٦﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٦٧﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٦٨﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٦٩﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٧٠﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٧١﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٧٢﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٧٣﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٧٤﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٧٥﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٧٦﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٧٧﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٧٨﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٧٩﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٨٠﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٨١﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٨٢﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٨٣﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٨٤﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٨٥﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٨٦﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٨٧﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٨٨﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٨٩﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٩٠﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٩١﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٩٢﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٩٣﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٩٤﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٩٥﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٩٦﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٩٧﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٩٨﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿٩٩﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا ﴿١٠٠﴾ لأنهم آمنوا وسجدوا ثم كفروا



دينه ورسله، والاستهزاء بشيء من ذلك مناف لهذا الأصل، ومنافض له أشد المناقضة.

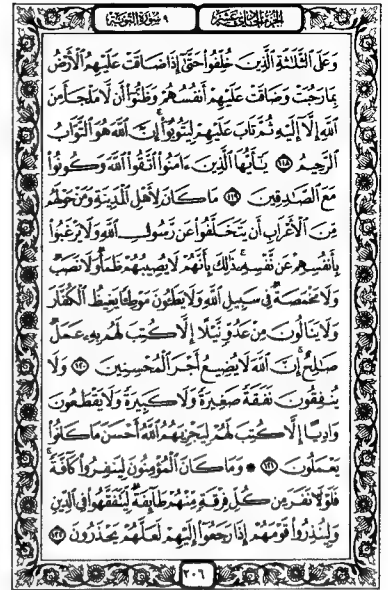
ولهذا لما جاؤوا إلى الرسول يعتذرون بهذه المقالة، والرسول لا يزيدهم على قوله: ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون﴾ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم.

وقوله: ﴿إن نغف عن طائفة منكم﴾ لتوبتهم واستغفارهم وندمهم، ﴿نغذب طائفة منكم﴾ بأنهم بسبب أنهم كانوا مجرمين مقيمين على كفرهم ونفاقهم.

وفي هذه الآيات دليل على أن من أسر سريرة، خصوصاً السريرة التي يكر فيها بدنيه، ويستهزئ به وبآياته ورسوله، أن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها، ويعاقبه أشد العقوبة.

وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه، أو سخر بذلك، أو تنقصه، أو استهزأ بالرسول أو تنقصه، أنه كافر بالله العظيم، وأن التوبة مقبولة في كل ذنب وإن كان عظيماً.

﴿٦٧ - ٦٨﴾ ﴿المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم﴾ إن المنافقين هم الفاسقون * وعد الله المنافقين



ثم عرض عليهم التوبة فقال: ﴿فإن يتوبوا بك خيراً لهم﴾ لأن التوبة أصل لسعادة الدنيا والآخرة.

﴿وإن يتولوا﴾ عن التوبة والإنابة يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ﴿في الدنيا بما ينالهم من الهم والغم والحزن على نصرة الله لدينه، وإعزاز نبيه، وعدم حصولهم على مطلوبهم، وفي الآخرة في عذاب السعير.

﴿وما لهم في الأرض من ولي﴾ يتولى أمورهم، ويحصل لهم المطلوب ﴿ولا نصير﴾ يدفع عنهم المكروه، وإذا انقطعوا من ولاية الله تعالى، فمّم أصناف الشر والخسران، والشقاء والحرمان.

﴿٧٨-٧٥﴾ ﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾ ألم يعلموا أنّ الله يعلم سرهم ونجواهم وأنّ الله علام

الغيوب ﴿أي: ومن هؤلاء المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه﴾ لئن آتانا من فضله ﴿من الدنيا فيسطها لنا ووسعها﴾ لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴿فنصل الرحم، ونفري الضيف، ونعين على نوابك الحق، ونفعل الأفعال الحسنة الصالحة.

﴿فلما آتاهم من فضله﴾ لم يفوا بما قالوا، بل ﴿بخلوا به وتولوا﴾ عن الطاعة والانقياد ﴿وهم معرضون﴾ أي: غير ملتفتين إلى الخير.

فلما لم يفوا بما عاهدوا الله عليه، عاقبهم ﴿فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم﴾ مستمراً ﴿إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون﴾.

فلحذر المؤمن من هذا الوصف الشنيع، أن يعاهد ربه، إن حصل مقصوده الفلاني ليفعلن كذا وكذا، ثم لا يفي بذلك، فإنه ربما عاقبه الله بالنفاق كما عاقب هؤلاء.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الثابت في الصحيحين: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف».

فهذا المنافق الذي وعند الله وعاهد، لئن أعطاه الله من فضله، ليصدقن وليكونن من الصالحين، حدث فكذب، وعاهد فغدر، ووعد فأخلف.

ولهذا توعد من صدر منهم هذا الصنيع بقوله: ﴿ألم يعلموا أنّ الله يعلم سرهم ونجواهم وأنّ الله علام الغيوب﴾ وسيجازيم على ما عملوا من الأعمال التي يعلمها الله تعالى، وهذه الآيات نزلت في رجل من المنافقين يقال له: «ثعلبة» جاء إلى النبي ﷺ وسأله أن يدعو الله له، أن يعطيه الله من فضله، وأنه إن أعطاه ليتصدقن، ويصل الرحم، ويعين على

النوابك، فدعا له النبي ﷺ، فكان له غنم، فلم تزل تنامي حتى خرج بها عن المدينة، فكان لا يحضر إلا بعض الصلوات الخمس، ثم أبعد، فكان لا يحضر إلا صلاة الجمعة، ثم كثرت فأبعد بها، فكان لا يحضر جمعة ولا جماعة.

ففقده النبي ﷺ فأخبر بحاله، فبعث من يأخذ الصدقات من أهلها، فمروا على ثعلبة، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، فلما لم يعطهم جاؤوا فأخبروا بذلك النبي ﷺ فقال: «يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة» ثلاثاً.

فلما نزلت هذه الآية فيه، وفي أمثاله، ذهب بها بعض أهله فبخله إياها، فجاء بركاته، فلم يقبلها النبي ﷺ، ثم جاء بها لبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ فلم يقبلها، ثم جاء بها بعد أبي بكر لعمر فلم يقبلها، فيقال: إنه هلك في زمن عثمان^(١).

﴿٧٩-٨٠﴾ ﴿الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجيدون إلا جهمهم فيسخرهم منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴿وهذا أيضاً من مخازي المنافقين، فكانوا - قبحهم الله - لا يدعون شيئاً من أمور الإسلام والمسلمين يرون لهم مقالاً، إلا قالوا وطعنوا بغياً وعدواناً، فلما حثّ الله ورسوله على الصدقة، بادر المسلمون إلى ذلك، وبذلوا من أموالهم كل على حسب حاله، منهم الكثير، ومنهم القليل، فيلمزون الكثير منهم، بأن قصده بنفقة الرياء والسمعة، وقالوا

(١) قصة ثعلبة هذه ذكرها كثير من المفسرين، وقد ضعفها جهابذة أهل الحديث كابن حزم، والبيهقي، والقرطبي، والهيتمي، والعراقي، وابن حجر، والسيوطي والمنائوي وغيرهم - رحمهم الله -، وبينوا أنّ في إسنادها علي بن يزيد، وهو ضعيف كما أن من رواها: معان بن رفاع، والقاسم بن عبد الرحمن وهما ضعيفان، وذكر ابن حزم تضعيفها من جهة منها أيضاً. ينظر المحلى: (٢٠٨/١١)، والإصابة: ترجمة ثعلبة، ومجمع الزوائد (٣٢٧/٧)، والجامع لأحكام القرآن (٢١٠/٨)، وفيض القدير (٢٥٧/٤)، وفتح الباري (٨/٣)، ولباب القول للسيوطي (١٢١) وتخريج الإحياء للعراقي (٣٣٨/٣).

من الإيمان، ولما يرجون من فضل الله وإحسانه وبره وامتنانه .

﴿وقالوا﴾ أي : المنافقون ﴿لا تنفروا في الحر﴾ أي : قالوا : إن النفير مشقة علينا بسبب الحر ، فقدموا راحة قصيرة منقضية على الراحة الأبدية التامة .

وحذروا من الحر الذي بقي منه الظلال ، ويذهب البكر^(١) والأصال ، على الحر الشديد الذي لا يقادر قدره ، وهو النار الحامية .

ولهذا قال : ﴿قل نار جهنم أشد حرألو كانوا يفتقون﴾ لما أثروا ما يفنى على ما يبقى ، ولما فروا من المشقة الخفيفة المنقضية ، إلى المشقة الشديدة الدائمة .

قال الله تعالى : ﴿فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً﴾ أي : فليمتنعوا في هذه الدار المنقضية ، ويفرحوا ببلداتها ، ويلهوا بلعبها ، فسيكون كثيراً في عذاب أليم ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر والنفاق ، وعدم الانقياد لأوامر ربهم .

﴿فإن رجعت الله إلى طائفة منهم﴾ وهم الذين تخلفوا من غير عذر ، ولم يحزنوا على تخلفهم ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ لغیر هذه العزوة ، إذا رأوا السهولة . ﴿فقل﴾ لهم عقوبة ﴿لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوا﴾ فسيغني الله عنكم .

﴿إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾ وهذا كما قال تعالى : ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾ فإن المتناقل المتخلف عن المأمور به عند انتهاز الفرصة لا يوفق له بعد ذلك ، ويحال بينه وبينه .

وفيه أيضاً تعزير لهم ، فإنه إذا تقرر عند المسلمين أن هؤلاء من المنوعين من الخروج إلى الجهاد لمعصيتهم ، كان

جزاؤهم أن سخر الله منهم ، ولهم عذاب أليم .

﴿٨٠﴾ ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة﴾ على وجه المبالغة ، وإلا فلا مفهوم لها .

﴿فلن يغفر الله لهم﴾ كما قال في الآية الأخرى : ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾ ثم ذكر السبب المانع لمغفرة الله لهم فقال : ﴿ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله﴾ والكافر لا ينفعه الاستغفار ولا العمل ما دام كافراً .

﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي : الذين صار الفسق لهم وصفاً ، بحيث لا يختارون عليه سواء ولا يغيثون به بدلاً ، يأتيهم الحق الواضح فيردونه ، فيعاقبهم الله تعالى بأن لا يوفقهم له بعد ذلك .

﴿٨١-٨٣﴾ ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرألو كانوا يفتقون﴾ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ﴿جزاء بما كانوا يكسبون﴾ فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين﴾ يقول تعالى مبيناً تبجح المنافقين بتخلفهم وعدم مبالاتهم بذلك ، الدال على عدم الإيمان ، واختيار الكفر على الإيمان .

﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ وهذا قدر زائد على مجرد التخلف ، فإن هذا تخلف محرم ، وزيادة رضا بفعل المعصية ، وتبجح به .

﴿وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾ وهذا بخلاف المؤمنين الذين إذا تخلفوا - ولو لعذر - حزنوا على تخلفهم وتأسفوا غاية الأسف ، ويحبون أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، لما في قلوبهم

للمل للفقير : إن الله غني عن صدقة هذا ، فأنزل الله تعالى : ﴿الذين يلمزون﴾ أي : يعيبون ويطعنون ﴿المطوعين من المؤمنين في الصدقات﴾ فيقولون : مراؤون ، قصدهم الفخر والرياء .

﴿و﴾ يلمزون ﴿الذين لا يجدون إلا جهدهم﴾ فيخرجون ما استطاعوا ويقولون : الله غني عن صدقاتهم ﴿ينسَخرون منهم﴾ .

فقابلهم الله على صنيعهم بأن ﴿سخر الله منهم ولهم عذاب أليم﴾ فإنهم جمعوا في كلامهم هذا بين عدة محاذير .

منها : تتبعهم لأحوال المؤمنين ، وحرصهم على أن يجدوا مقالاً يقولونه فيهم ، والله يقول : ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾ .

ومنها : طعنهم بالمؤمنين لأجل إيمانهم ، كفر بالله تعالى وبغض للدين . ومنها : أن اللمز محرم ، بل هو من كبائر الذنوب في أمور الدنيا ، وأما اللمز في أمر الطاعة ، فأقبح وأقبح .

ومنها : أن من أطاع الله وتطوع بخصلة من خصال الخير ، فإن الذي ينغي [هو] إيعاته وتشيطه على عمله ، وهؤلاء قصدوا تثبيطهم بما قالوا فيهم وعابوهم عليه .

ومنها : أن حكمهم على من أنفق مالا كثيراً بأنه مراء ، غلط فاحش ، وحكم على الغيب ، ورجم بالظن ، وأي : شر أكبر من هذا!!!

ومنها : أن قولهم لصاحب الصدقة القليلة : ﴿الله غني عن صدقة هذا﴾ ، كلام مقصوده باطل ، فإن الله غني عن صدقة المتصدق بالقليل والكثير ، بل وغني عن أهل السماوات والأرض ، ولكنه تعالى أمر العباد بما هم مفتقرون إليه ، فالله - وإن كان غنياً عنهم - فهم فقراء إليه ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ وفي هذا القول من التثبيط عن الخير ما هو ظاهر بيّن ، ولهذا كان

نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تَوَافِقُوا﴾ يقول تعالى: في بيان استمرار المنافقين على التناقل عن الطاعات، وأنها لا تؤثر فيهم السور والآيات: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ يَوْمُزُونَ فِيهَا بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني: ﴿أَسْتَأْذِنُكَ أَوَّلُوا الطَّوْلَ مِنْهُمْ﴾ يعني: أولي الغنى والأموال، الذين لا عذر لهم، وقد أمدهم الله بأموال وبنين، أفلا يشكرون الله ويمجدونه، ويقومون بما أوجبه عليهم، وسهل عليهم أمره، ولكن أبوا إلا التكاسل والاستئذان في القعود ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءُ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾.

﴿٩٠ - ٩٣﴾ ﴿وَجَاءَ الْمَعْذُرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذِنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا الله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم * ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون * إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالم وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون ﴿يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ الْمَعْذُرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذِنَ لَهُمْ﴾ أَي: جاء الذين تهاونوا، وقصروا منهم في الخروج لأجل أن يؤذن لهم في ترك الجهاد، غير مباليين في الاعتذار لجفائهم وعدم حيائهم، وإتيانهم بسبب ما معهم من الإيمان الضعيف.

وأما الذين كذبوا الله ورسوله منهم، فقعدها وتركوا الاعتذار بالكلية، ويحتمل أن معنى قوله: ﴿الْمَعْذُرُونَ﴾ أَي: الذين لهم عذر، أتوا إلى رسول الله ﷺ ليعذرهم، ومن عادته أن يعذر من له عذر.

﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في دعواهم الإيمان، المقتضي للخروج، وعدم عملهم بذلك، ثم توعدهم بقوله: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الدنيا والآخرة.

لما ذكر المعتذرين، وكانوا على قسمين، قسم معذور في الشرع، وقسم غير معذور، ذكر ذلك بقوله:

﴿لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ﴾ في أبدانهم وأبصارهم، الذين لا قوة لهم على الخروج والقتال. ﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾

الخوالم وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴿يَقُولُ تَعَالَى: فِي بَيَانِ اسْتِمْرَارِ الْمُنَافِقِينَ عَلَى التَّنَاقُلِ عَنِ الطَّاعَاتِ، وَأَنَّهَا لَا تَوَثِّرُ فِيهِمُ السُّورُ وَالْآيَاتُ: ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ يَوْمُزُونَ فِيهَا بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. ﴿أَسْتَأْذِنُكَ أَوَّلُوا الطَّوْلَ مِنْهُمْ﴾ يعني: أولي الغنى والأموال، الذين لا عذر لهم، وقد أمدهم الله بأموال وبنين، أفلا يشكرون الله ويمجدونه، ويقومون بما أوجبه عليهم، وسهل عليهم أمره، ولكن أبوا إلا التكاسل والاستئذان في القعود ﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾.

﴿٨٧﴾ قال تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ أَي: كيف رضوا لأنفسهم أن يكونوا مع النساء المتخلفات عن الجهاد، هل معهم فقه أو عقل دلهم على ذلك؟ أم طبع الله على قلوبهم فلا تعي الخير، ولا يكون فيها إرادة لفعل ما فيه الخير والفلاح؟ فهم لا يفقهون مصالحهم، فلو فقهوا حقيقة الفقه، لم يرضوا لأنفسهم بهذه الحال التي تحطهم عن منازل الرجال.

﴿٨٨ - ٨٩﴾ ﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ * أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم.

تخلف هؤلاء المنافقون عن الجهاد، فالفقه سيغني عنهم، والله عباد وخواص من خلقه اختصهم بفضله يقومون بهذا الأمر، وهم ﴿الرُّسُولُ﴾ محمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ غير متناقلين ولا كسليين، بل هم فرحون مستبشرون، ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ الكثيرة في الدنيا والآخرة، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الذين ظفروا بأعلى المطالب وأكمل الرغائب.

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فتباً لمن لم يرغب بما رغبوا فيه، وخسر دينه ودنياه وأخراه، وهذا

ذلك توبيخاً لهم، وعاراً عليهم ونكالاً أن يفعل أحد كفعالهم.

﴿٨٤﴾ ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ من المنافقين ﴿وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ بعد الدفن لتدعوه له، فإن صلاته ووقوفه على قبورهم شفاعته منه لهم، وهم لا تنفع فيهم الشفاعة.

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ومن كان كافراً ومات على ذلك، فما تنفعه شفاعته الشافعين، وفي ذلك عبرة لغيرهم، وزجر ونكال لهم، وهكذا كل من علم منه الكفر والنفاق، فإنه لا يصل عليه.

وفي هذه الآية دليل على مشروعية الصلاة على المؤمنين، والوقوف عند قبورهم للدعاء لهم، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك في المؤمنين، فإن تقييد النهي بالمنافقين يدل على أنه قد كان متقراً في المؤمنين.

﴿٨٥﴾ ﴿وَلَا تَعْجَبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأُولَادُهُمْ إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهِقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ أَي: لا تغتر بما أعطاهم الله في الدنيا من الأموال والأولاد، فليس ذلك لكرامتهم عليه، وإنما ذلك إهانة منه لهم. ﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾.

فيتعبون في تحصيلها، ويخافون من زوالها، ولا يتهئون بها.

بل لا يزالون يعانون الشدائد والمشاق فيها، وتلهيهم عن الله والدار الآخرة، حتى ينتقلوا من الدنيا ﴿وَتَزْهِقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ قد سلبهم حبها عن كل شيء، فماتوا وقلوبهم بها متعلقة، وأفندتهم عليها متحرقة.

﴿٨٦ - ٨٧﴾ ﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذِنُوا أُولَئِكَ هُمُ الْقَاعِدِينَ﴾ رضوا بأن يكونوا مع

وهذا شامل لجميع أنواع المرض الذي^(١) لا يقدر صاحبه معه على الخروج والجهاد، من عرج، وعمى، وحى، وذات الجنب، والفالج، وغير ذلك.

﴿ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون﴾ أي: لا يجدون زاداً، ولا راحلة يتبلغون بها في سفرهم، فهؤلاء ليس عليهم حرج، بشرط أن ينصحوا الله ورسوله، بأن يكونوا صادقي الإيمان، وأن يكون من نيتهم وعزمهم أنهم لو قدروا لجاهدوا، وأن يفعلوا ما يقدرون عليه من الحث والترغيب والتشجيع على الجهاد.

﴿ما على المحسنين من سبيل﴾ أي: من سبيل يكون عليهم فيه تبعة، فإنهم - بإحسانهم فيما عليهم من حقوق الله وحقوق العباد - أسقطوا توجه اللوم عليهم، وإذا أحسن العبد فيما يقدر عليه، سقط عنه ما لا يقدر عليه.

ويستدل بهذه الآية على قاعدة وهي: أن من أحسن على غيره، في نفسه^(٢) أو في ماله، ونحو ذلك، ثم ترتب على إحسانه نقص أو تلف، أنه غير ضامن لأنه محسن، ولا سبيل على المحسنين، كما أنه يدل على أن غير المحسن - وهو المسيء - كالمفرط، أن عليه الضمان.

﴿والله غفور رحيم﴾ من مغفرته ورحمته، عفا عن العاجزين، وأثابهم بنيتهم الجازمة ثواب القادرين الفاعلين.

﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم﴾ فلم يصادفوا عندك شيئاً ﴿قلتم﴾ لهم معذراً: ﴿لا أجد ما أحلكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾ فإنهم عاجزون بأذون لأنفسهم، وقد صدر منهم من الحزن والشقة ما ذكره الله عنهم.

فهؤلاء لا حرج عليهم، وإذا سقط الحرج عنهم، عاد الأمر إلى أصله،

وهو أن من نوى الخير، واقترب بنيتة الجازمة سعيً فيما يقدر عليه، ثم لم يقدر، فإنه ينزل منزلة الفاعل التام.

﴿إنما السبيل﴾ يتوجه واللوم يتناول الذين^(٣) يستأذنونك وهم أغنياء قادرين على الخروج لا عذر لهم، فهؤلاء ﴿رضوا﴾ لأنفسهم ومن دينهم ﴿بأن يكونوا مع الخوالب﴾ كالتنساء والأطفال ونحوهم.

﴿و﴾ إنما رضوا بهذه الحال لأن الله طبع على قلوبهم أي: ختم عليها، فلا يدخلها خير، ولا يحسون بمصالحهم الدينية والدنيوية، ﴿فهم لا يعلمون﴾ عقوبة لهم على ما اقترفوا.

﴿٩٤ - ٩٦﴾ ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم﴾ قل لا تعتذروا لن تؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون * سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجسٌ ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون * يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين * لما ذكر تحلف المنافقين الأغنياء، وأنهم لا عذر لهم، أخبر أنهم سـ ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم﴾ من غزاتكم.

﴿قل﴾ لهم ﴿لا تعتذروا لن تؤمن لكم﴾ أي: لن نصدقكم في اعتذاركم الكاذب.

﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ وهو الصادق في قيله، فلم يبق للاعتذار فائدة، لأنهم يعتذرون بخلاف ما أخبر الله عنهم، ومحال أن يكونوا صادقين فيما يخالف خبر الله الذي هو أعلى مراتب الصدق.

﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ في الدنيا، لأن العمل هو ميزان الصدق من الكذب، وأما مجرد الأقوال، فلا دلالة فيها على شيء من ذلك.

﴿ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ﴿فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ من خير وشر، ويجازيكم بعدله أو بفضله، من غير أن يظلمكم مثقال ذرة.

واعلم أن السوء المذنب له ثلاث حالات: إما [أن] يقبل قوله وعذره، ظاهراً وباطناً، ويعفى عنه بحيث يبقى كأنه لم يذنب. فهذه الحالة هي المذكورة هنا في حق المنافقين، أن عذرهم غير مقبول، وأنه قد تقرر أحوالهم الخبيثة وأعمالهم السيئة، وإما أن يعاقبوا بالعقوبة والتعزير الفعلي على ذنبهم، وإما أن يعرض عنهم، ولا يقابلوا بما فعلوا بالعقوبة الفعلية، وهذه الحال الثالثة هي التي أمر الله بها في حق المنافقين، ولهذا قال: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم﴾ أي: لا توبخوهم، ولا تجلدوهم أو تقتلوهم.

﴿إنهم رجس﴾ أي: إنهم قذر خبيث، ليسوا بأهل لأن يبالي بهم، وليس التوبيخ والعقوبة مفيداً فيهم، ﴿و﴾ تكفيهم عقوبة جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

وقوله: ﴿يحلفون لكم لترضوا عنهم﴾ أي: ولهم أيضاً هذا المقصد الآخر منكم، غير مجرد الإعراض، بل يجوبون أن ترضوا عنهم، كأنهم ما فعلوا شيئاً.

﴿فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ أي: فلا ينبغي لكم - أيها المؤمنون - أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في رضاه وغضبه.

وتأمل كيف قال: ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ ولم يقل: ﴿فإن الله لا يرضى عنهم﴾ ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله

يتوب عليهم ويرضى عنهم.

وأما ما داموا فاسقين، فإن الله لا يرضى عليهم، لوجود المانع من رضاه، وهو خروجه عن ما رضى الله لهم من الإيمان والطاعة، إلى ما يغضبه من الشرك والنفاق والمعاصي.

وحاصل ما ذكره الله أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر، إذا اعتذروا للمؤمنين، وزعموا أن لهم أعداءً في تخلفهم، فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم، وترضوا وتقبلوا عذرهم، فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم، فلا حباً ولا كرامة لهم.

وأما الإعراض عنهم، فيعرض المؤمنون عنهم، إعراضهم عن الأمور الردية الرجس، وفي هذه الآيات، إثبات الكلام لله تعالى في قوله: ﴿قد نبأنا الله من أخباركم﴾ وإثبات الأفعال الاختيارية لله، الواقعة بمشيئته [تعالى] وقدرته في هذا، وفي قوله: ﴿وسيرى الله عملكم ورسوله﴾ أخبر أنه سيراه بعد وقوعه، وفيها إثبات الرضا لله عن المحسنين، والغضب والسخط على الفاسقين.

﴿٩٧ - ٩٩﴾ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليهم حكيم * ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مفرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم * ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ألا إنها قربة لهم سيدخلهم الله في رحمته إن الله غفور رحيم * يقول تعالى: ﴿الأعراب﴾ وهم سكان البادية والبراري أشد كفراً ونفاقاً من الحاضرة الذين فيهم كفر ونفاق، وذلك لأسباب كثيرة:

منها: أنهم بعيدون عن معرفة الشرائع الدينية والأعمال والأحكام، فهم آخرون وأجدر ألا يعلموا حدود

ما أنزل الله على رسوله * من أصول الإيمان وأحكام الأوامر والنواهي، بخلاف الحاضرة، فإنهم أقرب لأن يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، فيحدث لهم - بسبب هذا العلم - تصورات حسنة، وإرادات للخير، الذي يعلمون، ما لا يكون في البادية.

وفيه من لطافة الطبع والانقياد للداعي ما ليس في البادية، ويجالسون أهل الإيمان، ويخالطونهم أكثر من أهل البادية، فلذلك كانوا أحرى للخير من أهل البادية، وإن كان في البادية والحاضرة، كفار ومنافقون، ففي البادية أشد وأغلظ مما في الحاضرة. ومن ذلك أن الأعراب أحرص على الأموال وأشح فيها.

﴿٩٨﴾ فمنهم من يتخذ ما ينفق من الزكاة والنفقة في سبيل الله وغير ذلك، ﴿مفرماً﴾ أي: يراها خسارة ونقصاً، لا يحتسب فيها، ولا يريد بها وجه الله، ولا يكاد يؤديها إلا كرهاً.

﴿وتربص بكم الدوائر﴾ أي: من عداوتهم للمؤمنين وبغضهم لهم، أنهم يودون وينتظرون فيهم دوائر الدهر، وفجائع الزمان، وهذا سينعكس عليهم، فعليهم دائرة السوء.

وأما المؤمنون فلمهم الدائرة الحسنة على أعدائهم، ولهم العقبي الحسنة، ﴿والله سميع عليم﴾ يعلم نيات العباد، وما صدرت عنه الأعمال من إخلاص وغيره.

وليس الأعراب كلهم مذمومين، بل منهم من يؤمن بالله واليوم الآخر، فيسلم بذلك من الكفر والنفاق ويعمل بمقتضى الإيمان.

﴿ويتخذ ما ينفق قربات عند الله﴾ أي: يحتسب نفقته، ويقصد بها وجه الله تعالى والقرب منه ﴿و﴾ يجعلها وسيلة لـ ﴿صلوات الرسول﴾ أي: دعائه لهم، وتبريكه عليهم، قال تعالى مبيناً لنفع صلوات الرسول: ﴿ألا إنها قربة لهم﴾ تقربهم إلى الله، وتنمي

أموالهم وتحل فيها البركة.

﴿سيدخلهم الله في رحمته﴾ في جملة عباد الصالحين إنه غفور رحيم، فيغفر السيئات العظيمة لمن تاب إليه، ويعم عبادته برحمته، التي وسعت كل شيء، ويخص عباد المؤمنين برحمة يوفقههم فيها إلى الخيرات، ويحميهم فيها من المخالفات، ويجزل لهم فيها أنواع الثواب.

وفي هذه الآية دليل على أن الأعراب كأهل الحاضرة، منهم المدح ومنهم المذموم، فلم يذمهم الله على مجرد تربصهم وباديتهم، إنما ذمهم على ترك أوامر الله، وأنهم في مظنة ذلك.

ومنها: أن الكفر والنفاق يزيد وينقص ويغلظ ويخف بحسب الأحوال.

ومنها: فضيلة العلم، وأن فاقده أقرب إلى الشر من يعرفه، لأن الله ذم الأعراب، وأخبر أنهم أشد كفراً ونفاقاً، وذكر السبب الموجب لذلك، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله.

ومنها: أن العلم النافع الذي هو أنفع العلوم، معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، من أصول الدين وفروعه، كمعرفة حدود الإيمان، والإسلام، والإحسان، والتقوى، والفلاح، والطاعة، والبر، والصلة، والإحسان، والكفر، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والزنا، والخمر، والربا، ونحو ذلك. فإن في معرفتها يتمكن من فعلها - إن كانت مأموراً بها^(١)، أو تركها إن كانت محظورة - ومن الأمر بها أو النهي عنها.

ومنها: أنه ينبغي للمؤمن أن يؤدي ما عليه من الحقوق، منشرح الصدر، مطمئن النفس، ويحرص أن تكون مغنماً، ولا تكون مغرماً. ﴿١٠٠﴾ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم

بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴿السابقون هم الذين سبقوا هذه الأمة ويدرونها إلى الإيمان والهجرة والجهاد وإقامة دين الله. ﴿من المهاجرين﴾ الذين، أخرجوا من ديارهم وأموالهم، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون. ﴿و﴾ من الأنصار﴾ الذين تبوءوا الدار والإيمان، [من قبلهم] يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة. ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ بالاعتقادات والأقوال والأعمال، فهؤلاء هم الذين سلموا من الذم، وحصل لهم نهاية المدح، وأفضل الكرامات من الله. ﴿رضي الله عنهم﴾ ورضاه تعالى أكبر من نعيم الجنة، ﴿ورضوا عنه﴾ وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار الجارية التي تساق إلى سقي الجنان، والحدائق الزاهية الزاهرة، والرياض الناضرة. ﴿خالدين فيها أبداً﴾ لا يبتغون عنها حولاً، ولا يطلبون منها بدلاً، لأنهم مهما تمنوه أدركوه، ومهما أراوه، وجدوه. ﴿ذلك الفوز العظيم﴾ الذي حصل لهم فيه، كل محبوب للنفوس، ولذة للأرواح، ونعيم للقلوب، وشهوة للأبدان، واندفع عنهم كل محذور. ﴿١٠١﴾ ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم﴾ يقول تعالى: ﴿ومن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة أيضاً منافقون﴾ مردوا على النفاق أي: تمزقوا عليه، واستمروا وازدادوا فيه طغياناً.

﴿لا تعلمهم﴾ بأعيانهم فتعاقبهم، أو تعاملهم بمقتضى نفاقهم، لما لله في ذلك من الحكمة الباهرة. ﴿نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين﴾ يحتمل أن التشية على بابها، وأن عذابهم عذاب في الدنيا، وعذاب في الآخرة. ففي الدنيا ما ينالهم من الهم والحزن^(١)، والكرهية لما يصيب المؤمنين من الفتح والنصر، وفي الآخرة عذاب النار وبش القار. ويحتمل أن المراد سنغلظ عليهم العذاب، ونضاعفه عليهم ونكرهه. ﴿١٠٢-١٠٣﴾ ﴿وأخسرون﴾ اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم * خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم﴾ يقول تعالى: ﴿وأخرون﴾ من بالمدينة ومن حولها، بل ومن سائر البلاد الإسلامية، ﴿اعترفوا بذنوبهم﴾ أي: أقرروا بها، وندموا عليها، وسعوا في التوبة منها، والتطهر من أدرانها. ﴿خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً﴾ ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا كان مع العبد أصل التوحيد والإيمان، المخرج عن الكفر والشرك، الذي هو شرط لكل عمل صالح، فهؤلاء خلطوا الأعمال الصالحة، بالأعمال السيئة، من التجرد على بعض المحرمات، والتقصير في بعض الواجبات، مع الاعتراف بذلك والرجاء بأن يغفر الله لهم، فهؤلاء ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾ وتوبته على عبده نوعان: الأول: التوفيق للتوبة. والثاني: قبولها بعد وقوعها منهم. ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة، اللتان لا يخلو مخلوق منهما، بل لا بقاء للعالم العلوي والسفلي إلا بهما، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾. ومن مغفرته أن المسرفين على أنفسهم الذين قطعوا أعمارهم بالأعمال السيئة، إذا تابوا إليه وأنابوا ولو قبيح موتهم بأقل القليل، فإنه يعفو عنهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، فهذه الآية دلت^(٢) على أن المخلط المعترف النادم، الذي لم يتب توبة نصوحاً، أنه تحت الخوف والرجاء، وهو إلى السلامة أقرب. وأما المخلط الذي لم يعترف ويندم على ما مضى منه، بل لا يزال مصراً على الذنوب، فإنه يخاف عليه أشد الخوف. قال تعالى لرسوله ومن قام مقامه، أمر له بما يطهر المؤمنين، ويتم إيمانهم: ﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ وهي الزكاة المفروضة، ﴿تطهرهم وتزكيهم بها﴾ أي: تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة. ﴿وتزكيهم﴾ أي: تنميتهم، وتزيد في أخلاقهم الحسنة، وأعمالهم الصالحة، وتزيد في ثوابهم الدنيوي والأخروي، وتنمي أموالهم. ﴿وصل عليهم﴾ أي: ادع لهم، أي: للمؤمنين عموماً، وخصوصاً عندما يدفون إليك زكاة أموالهم. ﴿إن صلاتك سكن لهم﴾ أي: طمأنينة لقلوبهم، واستبشار لهم، ﴿والله سميع﴾ لدعائك، سمع إجابة وقبول. ﴿عليم﴾ بأحوال العباد ونياتهم، فيجازي كل عامل بعمله، وعلى قدر نيته، فكان النبي ﷺ يمثل لأمر الله، ويأمرهم بالصدقة، وبيعت عماله لجبايتها، فإذا أتاه أحد بصدقة دعا له وبرك. ففي هذه الآية دلالة على وجوب الزكاة في جميع الأموال، وهذا إذا كانت للتجارة ظاهرة، فإنها أموال

تتمى ويكتسب بها، فمن العدل أن يواسى منها الفقراء، بأداء ما أوجب الله فيها من الزكاة.

وما عدا أموال التجارة، فإن كان المال ينمى، كالحبوب، والشمار، والماشية المتخذة للنماء والدرا والنسل، فإنها تجب فيها الزكاة، وإلا لم تجب فيها، لأنها إذا كانت للفقنية، لم تكن بمنزلة الأموال التي يتخذها الإنسان في العادة مالا يتمول، ويطلب منه المقاصد المالية، وإنما صرف عن المالية بالفقنية ونحوها.

وفيهما: أن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها، لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها. وفيها: استحباب الدعاء من الإمام أو نائبه لمن أدى زكاته بالبركة، وأن ذلك ينبغي أن يكون جهراً، بحيث يسمعه المتصدق فيسكن إليه.

ويؤخذ من المعنى، أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه.

وأنه ينبغي تنشيط من أنفق نفقة وعمل عملاً صالحاً بالدعاء له والثناء، ونحو ذلك.

﴿١٠٤﴾ «ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم» أي: أما علموا سعة رحمة الله وعموم كرمه وأنه يقبل التوبة عن عباده» التائبين من أي: ذنب كان، بل يفرح تعالى بتوبة عبده إذا تاب أعظم فرح يقدر.

«ويأخذ الصدقات» منهم، أي: يقبلها ويأخذها بيمينه، فيريها لأحدهم كما يري الرجل فلوله، حتى تكون التمرة الواحدة كالجليل العظيم، فكيف بما هو أكبر وأكثر من ذلك.

«وأن الله هو التواب» أي: كثير التوبة على التائبين، فمن تاب إليه تاب عليه، ولو تكررت منه [العصية^(١)] مراراً. ولا يمل الله من التوبة على

عباده، حتى يملوا هم، ويأبوا إلا التفار والشرود عن بابه، وموالاتهم عدوهم.

«الرحيم» الذي وسعت رحمته كل شيء، وكتبها للذين يتقون، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بآياته، ويتبعون رسوله.

﴿١٠٥﴾ «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» يقول تعالى: «وقل» لهؤلاء المنافقين: «اعملوا» ما ترون من الأعمال، واستمروا على باطلكم، فلا تحسبوا أن ذلك سيخفى.

«فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» أي: لا بد أن يتبين عملكم ويتضح، «وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون» من خير وشر، ففي هذا التهديد والوعيد الشديد على من استمر على باطله وطغيانه وغيه وعصيانه.

ويحتمل أن المعنى: أنكم مهما عملتم من خير أو شر، فإن الله مطلع عليكم، وسيطلع رسوله وعباده المؤمنين على أعمالكم ولو كانت باطنة.

﴿١٠٦﴾ «وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم» أي: «وآخرون» من المخلفين مؤخرون «لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم» ففي هذا التخويف الشديد للمتخلفين، والحث لهم على التوبة والندم.

«والله عليم» بأحوال العباد ونياتهم «حكيم» يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، فإن اقتضت حكمته أن يغفر لهم ويتوب عليهم غفر لهم وتاب عليهم، وإن اقتضت حكمته أن يخذلهم ولا يوفقهم للتوبة، فعل ذلك.

﴿١٠٧ - ١١٠﴾ «والذين اتخذوا مسجداً ضراباً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلقن إن أرضنا إلا

الحسنى والله يشهد إثمهم لكاذبون * لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين * أقم أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين * لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم» كان أناس من المنافقين من أهل قباء اتخذوا مسجداً إلى جنب مسجد قباء، يريدون به المضارة والمشاقة بين المؤمنين، ويعمدونه لمن يرجونه من المحاربين لله ورسوله، يكون لهم حصناً عند الاحتياج إليه، فبين تعالى خزيم، وأظهر سرهم فقال: «والذين اتخذوا مسجداً ضراباً» أي: مضارة للمؤمنين ولمسجدهم الذي يجتمعون فيه «وكفراً» أي: قصدهم فيه الكفر، إذا قصد غيرهم الإيمان.

«وتفريقاً بين المؤمنين» أي: ليتشعبوا ويتفرقوا ويختلفوا، «وإرصاداً» أي: إعدداً «لمن حارب الله ورسوله من قبل» أي: إعانة للمحاربين لله ورسوله، الذين تقدم حراهم واشتدت عداوتهم، وذلك كأبي عامر الراهب، الذي كان من أهل المدينة، فلما قدم النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفر به، وكان متعبداً في الجاهلية، فذهب إلى المشركين يستعين بهم على حرب رسول الله ﷺ.

فلما لم يدرك مطلوبه عندهم ذهب إلى قبصر يزعمه أنه ينصره، فهلك اللعين في الطريق، وكان على وعد ومالأة، هو والمنافقون. فكان مما أعدوا له مسجد الضرار، فنزل الوحي بذلك، فبعث إليه النبي ﷺ من يهدمه ويحرقه، فهدم وحرق، وصار بعد ذلك مزلة.

قال تعالى بعدما بين من مقاصدهم

الطاعة تؤثر في الأماكن كما أثرت في مسجد «قباة» حتى قال الله فيه: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾

ولهذا كان لمسجد قباة من الفضل ما ليس لغيره، حتى كان ﷺ يزور قباة كل سبت يصلي فيه، وحث على الصلاة فيه.

ومنها: أنه يستفاد من هذه التعاليل المذكورة في الآية، أربع قواعد مهمة، وهي:

كل عمل فيه مضارة لمسلم، أو فيه معصية لله، فإن المعاصي من فروع الكفر، أو فيه تفريق بين المؤمنين، أو فيه معاونة لمن عادى الله ورسوله، فإنه محرم ممنوع منه، وعكسه بعكسه.

ومنها: أن الأعمال الحسية الناشئة عن معصية الله لا تزال مبدعة لفاعليها عن الله بمنزلة الإصرار على المعصية حتى يزيلها ويتوب منها توبة تامة بحيث يتقطع قلبه من الندم والحسرات.

ومنها: أنه إذا كان مسجد قباة مسجداً أسس على التقوى، فمسجد النبي ﷺ الذي أسسه بيده المباركة وعمل فيه واختاره الله له من باب أولى وأحرى.

ومنها: أن العمل المبني على الإخلاص والتابعة، هو العمل المؤسس على التقوى، الموصل لعامله إلى جنات النعيم.

والعمل المبني على سوء القصد وعلى البدع والضلال، هو العمل المؤسس على شفا جرف هار، فانهار به في نار جهنم، والله لا يهدي القوم الظالمين.

﴿١١١﴾ «إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم» يخبر تعالى خبراً صدقاً، ويعد وعداً حقاً بمبايعة

فجمع في عمله بين الإخلاص والتابعة، «خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار» أي: على طرف «جرف هار» أي: بال، قد تداعى للانهدام، «فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين» لما فيه مصالح دينهم ودينهم.

﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾ أي: شكاً وريباً ماكثاً في قلوبهم، «إلا أن تقطع قلوبهم» بأن يندموا غاية الندم ويتوبوا إلى ربهم، ويخافوه غاية الخوف، فبذلك يعفو الله عنهم، وإلا فبنيانهم لا يزيدهم إلا ريباً إلى ربهم، ونفاقاً إلى نفاقهم.

﴿والله عليم﴾ بجميع الأشياء، ظاهرها وباطنها، خفيها وجليها، وبما أسر العباد، وأعلنه.

﴿حكيم﴾ لا يفعل ولا يخلق ولا يأمر ولا ينهى، إلا ما اقتضته الحكمة وأمر به فله الحمد^(١). وفي هذه الآيات فوائد عدة:

منها: أن اتخاذ المسجد الذي يقصد به الضرر لمسجد آخر بقربه، أنه محرم، وأنه يجب هدم مسجد الضرار، الذي اطلع على مقصود أصحابه.

ومنها: أن العمل وإن كان فاضلاً تغيره النية، فيقلب منهياً عنه، كما قلبت نية أصحاب مسجد الضرار عملهم إلى ما ترى.

ومنها: أن كل حالة يحصل بها التفريق بين المؤمنين، فإنها من المعاصي التي يتعين تركها وإزالتها.

كما أن كل حالة يحصل بها جمع المؤمنين وائتلافهم، يتعين اتباعها والأمر بها والحث عليها، لأن الله علل اتخاذهم لمسجد الضرار بهذا المقصد الموجب للنهي عنه، كما يوجب ذلك الكفر والمحاربة لله ورسوله.

ومنها: النهي عن الصلاة في أماكن المعصية، والبعد عنها، وعن قربها.

ومنها: أن المعصية تؤثر في البقاع، كما أثرت معصية المنافقين في مسجد الضرار، ونهي عن القيام فيه، وكذلك

الفاصلة في ذلك المسجد «وليحلفن إن أردنا» في بنائنا إياه «إلا الحسنى» أي: الإحسان إلى الضعيف، والعاجز والضرير.

﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ فشهادة الله عليهم أصدق من حلفهم.

﴿لا تقم فيه أبداً﴾ أي: لا تصل في ذلك المسجد الذي بني ضرراً أبداً، والله يغنيك عنه، ولست بمضطر إليه.

﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم﴾ ظهر فيه الإسلام في «قباة»، وهو مسجد «قباة»، أسس على إخلاص الدين لله، وإقامة ذكره وشعائر دينه، وكان قديماً في هذا عريقاً فيه، فهذا المسجد الفاضل «أحق أن تقوم فيه» وتتعبد، وتذكر الله تعالى فهو فاضل، وأهله فضلاء، ولهذا مدحهم الله بقوله: ﴿فيه رجال يحبون أن يتطهروا﴾ من الذنوب، ويتطهروا من الأوساخ، والنجاسات والأحداث.

ومن المعلوم أن من أحب شيئاً لا بد أن يسعى له ويجهد فيما يجب، فلا بد أنهم كانوا حريصين على التطهر من الذنوب والأوساخ والأحداث، ولهذا كانوا ممن سبق إسلامه، وكانوا مقيمين للصلاة، محافظين على الجهاد مع رسول الله ﷺ، وإقامة شرائع الدين، ومن كانوا يتحززون من مخالفة الله ورسوله.

وسألهم النبي ﷺ بعدما نزلت هذه الآية في مدحهم عن طهارتهم، فأخبروه أنهم يتبعون الحجارة الماء، فحمدهم على صنيعهم.

﴿والله يحب المطهرين﴾ الطهارة المعنوية، كالتنزه عن الشرك والأخلاق الرذيلة، والطهارة الحسية كإزالة الأنجاس ورفع الأحداث.

ثم فاضل بين المساجد بحسب مقاصد أهلها وموافقتها لرضاه فقال: ﴿أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله﴾ أي: على نية صالحة وإخلاص «ورضوان» بأن كان موافقاً لأمره،

ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم * وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم * يعني: ما يليق ولا يحسن للنبي وللمؤمنين به * أن يستغفروا للمشركين * أي: لمن كفر به وعبد معه غيره * ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم * فإن الاستغفار لهم في هذه الحال غلط غير مفيد، فلا يليق بالنبي والمؤمنين، لأنهم إذا ماتوا على الشرك، أو علم أنهم يموتون عليه، فقد حقت عليهم كلمة العذاب، ووجب عليهم الخلود في النار، ولم تنفع فيهم شفاعة الشافعين، ولا استغفار المستغفرين.

وأيضاً فإن النبي والذين آمنوا معه، عليهم أن يوافقوا ربهم في رضاه وغضبه، ويوالوا من وآله الله، ويعادوا من عاداه الله، والاستغفار منهم لمن تبين أنه من أصحاب النار مناف لذلك، مناقض له، ولئن وجد الاستغفار من خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لأبيه فإنه * عن موعدة وعدها إياه * في قوله:

ربي إنه كان بي حفيأ * وذلك قبل أن يعلم عاقبة أبيه.

فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، سيموت على الكفر، ولم ينفع فيه الوعظ والتذكير * تبرأ منه * موافقة لربه وتأدياً معه.

إن إبراهيم لأواه * أي: رجّاع إلى الله في جميع الأمور، كثير الذكر والدعاء والاستغفار والإنابة إلى ربه.

حليم * أي: ذو رحمة بالخلق، وصفح عما يصدر منهم إليه من الزلات، لا يستغزه جهل الجاهلين، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه، فأبوه قال له: * لأرحمك * وهو يقول له: * سلام عليك سأستغفر لك ربي *.

فعليكم أن تقتدوا وتتبعوا ملة إبراهيم في كل شيء * إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك * كما نهىكم الله عليها وعلى غيرها، ولهذا قال:

١١٥ - ١١٦ * وما كان الله

المؤمنين * كأنه قيل: من هم المؤمنون الذين لهم البشارة من الله بدخول الجنات ونيل الكرامات؟ فقال: هم * الثابتون * أي: الملازمون للتوبة في جميع الأوقات عن جميع السيئات.

العابدون * أي: المتصفون بالعبودية لله، والاستمرار على طاعته من أداء الواجبات والمستحبات في كل وقت، فبذلك يكون العبد من العابدين.

الحامدون * الله في السراء والضراء، واليسر والعسر، المعترفون بما لله عليهم من النعم الظاهرة والباطنة، الثنون على الله بذكرها وبذكره في آناه الليل وآناه النهار.

السائحون * فسرت السياحة بالصيام، أو السياحة في طلب العلم، وفسرت بسياحة القلب في معرفة الله ومحبته، والإنابة إليه على الدوام، والصحيح أن المراد بالسياحة: السفر في القربات، كالحج، والعمرة، والجهاد، وطلب العلم، وصلة الأقارب، ونحو ذلك.

الراكمون الساجدون * أي: المكثرون من الصلاة المشتملة على الركوع والسجود.

الأمرون بالمعروف * ويدخل فيه جميع الواجبات والمستحبات.

والناهون عن المنكر * وهي جميع ما نهى الله ورسوله عنه.

والحافظون لحدود الله * بتعلمهم حدود ما أنزل الله على رسوله، وما يدخل في الأوامر والنواهي والأحكام، وما لا يدخل، الملازمون لها فعلاً وتركاً.

وبشّر المؤمنين * لم يذكر ما يبشرهم به، ليعم جميع ما رتب على الإيمان من ثواب الدنيا والدين والآخرة، فالبشارة متناولة لكل مؤمن.

وأما مقدارها وصفتها فإنها بحسب حال المؤمنين، وإيمانهم، قوة، وضعفاً، وعملاً بمقتضاها.

١١٣ - ١١٤ * ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين

عظيمة، ومعاوضة جسيمة، وهو أنه * اشترى * بنفسه الكريمة * من المؤمنين أنفسهم وأموالهم * فهي الثمن والسلعة المبيعة.

بأن لهم الجنة * التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين من أنواع اللذات، والأفراح، والمسرات، والخور الحسان، والمنازل الأنيقات.

وصفة العقد والمبايعة، بأن يبذلوا لله نفوسهم وأموالهم في جهاد أعدائه، لإعلاء كلمته وإظهار دينه * فيقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون * فهذا العقد والمبايعة، قد صدرت من الله مؤكدة بأنواع التأكيدات.

وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن * التي هي أشرف الكتب التي طرقت العالم، وأعلها، وأكملها، وجاء بها أكمل الرسل أولو العزم، وكلها اتفقت على هذا الوعد الصادق.

ومن أوفى بمعهده من الله فاستبشروا * أيها المؤمنون القائمون بما وعدكم الله، * ببيعكم الذي بايعتم به * أي: لتفرحوا بذلك، وليبشر بعضكم بعضاً، ويحث بعضكم بعضاً.

وذلك هو الفوز العظيم * الذي لا فوز أكبر منه ولا أجل، لأنه يتضمن السعادة الأبدية، والنعيم المقيم، والرضا من الله الذي هو أكبر من نعيم الجنات، وإذا أردت أن تعرف مقدار الصفة، فانظر إلى المشتري من هو؟ وهو الله جل جلاله، وإلى العوض، وهو أكبر الأعواض وأجلها، جنات النعيم، وإلى الثمن المبذول فيها، وهو النفس، والمال، الذي هو أحب الأشياء للإنسان.

ولم يجرى على يديه عقد هذا التبايع، وهو أشرف الرسل، وبأي: كتاب رقم، وهي كتب الله الكبار المنزلة على أفضل الخلق.

١١٢ * الثابتون العابدون الحامدون السائحون الراكمون الساجدون الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشّر

أمر مزعج، بلغ من الشدة والمشقة ما لا يمكن التعبير عنه، وذلك لأنهم قدموا رضا الله ورضا رسوله على كل شيء.

﴿وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه﴾ أي: يتيقنوا وعرفوا بحالهم، أنه لا ينجي من الشدائد ويلجأ إليه، إلا الله وحده لا شريك له، فانقطع تعلقهم بالخلق، وتعلقوا بالله ربهم، وفروا منه إليه، فمكثوا بهذه الشدة نحو خمسين ليلة.

﴿ثم تاب عليهم﴾ أي: أذن في توبتهم ووفقهم لها ﴿ليتوبوا﴾ أي: لتقع منهم، فيتوب الله عليهم، ﴿إن الله هو التواب﴾ أي: كثير التوبة والعفو، والغفران عن الزلات والعصيان، ﴿الرحيم﴾ وصفه الرحمة العظيمة التي لا تزال تنزل على العباد في كل وقت وحين، في جميع اللحظات، ما تقوم به أمورهم الدينية والدنيوية.

وفي هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وامتنَّ عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها.

ومنها: لطف الله بهم وتبئيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة. ومنها: أن العبادة الشاقة على النفس، لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر.

ومنها: أن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنوب ولا يخرج إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

ومنها: أن علامة الخير وزوال الشدة، إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقاً تاماً، وانقطع عن المخلوقين.

ومنها: أن من لطف الله بالثلاثة، أن رسمهم بوسم، ليس بعار عليهم فقال: ﴿خلفوا﴾ إشارة إلى أن المؤمنين

الأرض بما رحبت وضائق عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴿تاب على النبي﴾ محمد ﷺ ﴿والمهاجرين والأنصار﴾ فغفر لهم الزلات، ووفر لهم الحسنات، ورقاهم إلى أعلى الدرجات، وذلك بسبب قيامهم بالأعمال الصعبة الشاقات، ولهذا قال: ﴿الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ أي: خرجوا معه لقتال الأعداء في وقعة «تبوك»^(١) وكانت في حر شديد، وضيق من الزاد والركوب، وكثرة عدو، مما يدعو إلى التخلف.

فاستعانوا الله تعالى، وقاموا بذلك من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم﴾ أي: تنقلب قلوبهم، ويميلوا إلى الدعة والسكون، ولكن الله ثبتهم وأيدهم وقواهم. وزَيَّغَ القلب هو انحرافه عن الصراط المستقيم، فإن كان الانحراف في أصل الدين كان كفراً، وإن كان في شرائعه كان بحسب تلك الشريعة التي زاغ عنها، إما قصر عن فعلها، أو فعلها على غير الوجه الشرعي.

وقوله: ﴿ثم تاب عليهم﴾ أي: قبل توبتهم ﴿إنه بهم رؤوف رحيم﴾ ومن رأفته ورحمته أن مَنَّ عليهم بالتوبة، وقبلها منهم وثبتهم عليها.

﴿و﴾ كذلك لقد تاب الله على الثلاثة الذين خلفوا﴾ عن الخروج مع المسلمين في تلك الغزوة، وهم: «كعب بن مالك» وصاحبه، وقصتهم مشهورة معروفة في الصحاح والسنن.

﴿حتى إذا﴾ حزنوا حزناً عظيماً، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت﴾ أي: على سعتها ورحبها ﴿وضاقت عليهم أنفسهم﴾ التي هي أحب إليهم من كل شيء، فضاقت عليهم الفضاء الواسع، والمحبوب الذي لم تجر العادة بالضيق منه، وذلك لا يكون إلا من

ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون إن الله بكل شيء عليم * إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ يعني: أن الله تعالى إذا مَنَّ على قوم بالهداية، وأمرهم بسلوك الصراط المستقيم، فإنه تعالى يتمم عليهم إحسانه، ويبين لهم جميع ما يحتاجون إليه، وتدعو إليه ضرورتهم، فلا يتركهم ضالين، جاهلين بأمور دينهم، ففي هذا دليل على كمال رحمته، وأن شريعته وافية بجميع ما يحتاجه العباد في أصول الدين وفروعه.

ويحتمل أن المراد بذلك ﴿وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون﴾ فإذا بين لهم ما يتقون فلم ينقادوا له، عاقبهم بالإضلال جزاء لهم على رددهم الحق المبين، والأول أولى.

﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ فلكمال علمه وعمومه علمكم ما لم تكونوا تعلمون، وبين لكم ما به تنتفعون.

﴿إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت﴾ أي: هو المالك لذلك، المدير لعباده بالإحياء والإماتة وأنواع التدابير الإلهية، فإذا كان لا يخل بتدبيره القدري فكيف يخل بتدبيره الديني المتعلق بإلهيته، ويترك عباده سدى مهملين، أو يدعهم ضالين جاهلين، وهو أعظم توليه لعباده!!

فلهذا قال: ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ أي: ولي يتولاكم بجلب المنافع لكم، أو «نصير» يدفع عنكم المضار.

﴿١١٧-١١٨﴾ ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم﴾ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم

عدوهم، فإنه يحصل عليهم المشقة بذلك، وتغوت به كثير من الصالح الأخرى، ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم﴾ أي: من البلدان، والقبائل، والأفخاذ ﴿طائفة﴾ تحصل بها الكفاية والمقصود لكان أولى.

ثم نبه على أن في إقامة المقيمين منهم وعدم خروجهم مصالح لو خرجوا لفاتتهم، فقال: ﴿ليتفقوهوا﴾ أي: القاعدون ﴿في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾ أي: ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسرارهم، وليعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم.

ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصاً الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علماً، فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم فيه فإن انتشار العلم عن العالم، من بركته وأجره الذي ينمى له.

وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأى: منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي: نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علماً ومنحه فهماً.

وفي هذه الآية أيضاً دليل وإرشاد وتنبية لطيف، لفائدة مهمة، وهي: أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها، لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصداً واحداً، وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور.

﴿١٢٣﴾ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم

وراحتها، وسكونه ﴿عن نفسه﴾ الكريمة الزكية، بل النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فعلى كل مسلم أن يفدي النبي ﷺ بنفسه ويقدمه عليها، فعلمة تعظيم الرسول ﷺ ومحبته والإيمان التام به، أن لا يتخلفوا عنه، ثم ذكر الثواب الحامل على الخروج، فقال: ﴿ذلك بأنهم﴾ أي: المجاهدين في سبيل الله ﴿لا يصيبهم ظمأ ولا نصب﴾ أي: تعب ومشقة ﴿ولا مخمصة في سبيل الله﴾ أي: مجاعة.

﴿ولا يظؤون موطئاً يغيظ الكفار﴾ من الخوض لديارهم والاستيلاء على أوطانهم، ﴿ولا ينالون من عدو نيلاً﴾ كالظفر بجيش أو سرية أو الغنيمة لال ﴿إلا كتب لهم به عمل صالح﴾ لأن هذه آثار ناشئة عن أعمالهم.

﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ الذين أحسنوا في مبادرتهم إلى أمر الله، وقيامهم بما عليهم من حقه وحق خلقه، فهذه الأعمال آثار من آثار عملهم.

ثم قال: ﴿ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً﴾ في ذهابهم إلى عدوهم ﴿إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾.

ومن ذلك هذه الأعمال، إذا أخلصوا فيها لله، ونصحوها فيها، ففي هذه الآيات أشد ترغيب وتشويق للنفوس إلى الخروج إلى الجهاد في سبيل الله، والاحتساب لما يصيبهم فيه من المشقات، وأن ذلك لهم رفعة درجات، وأن الآثار المترتبة على عمل العبد له فيها أجر كبير.

﴿١٢٢﴾ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾ يقول تعالى: - منبها لعباده المؤمنين على ما ينبغي لهم - ﴿وما كان المؤمنون لينفروا كافة﴾ أي: جميعاً لقتال

خلفوهم، [أو خلفوا عن من بُت في قبول عذرهم أو في رده] ^(١) وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير، ولهذا لم يقل: ﴿تخلفوا﴾.

ومنها: أن الله تعالى من عليهم بالصدق، ولهذا أمر بالاقتداء بهم فقال:

﴿١١٩﴾ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين﴾ أي: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ بالله، وبما أمر الله بالإيمان به، قوموا بما يقتضيه الإيمان، وهو القيام بتقوى الله تعالى، باجتناب ما نهى الله عنه والبعد عنه.

﴿وكونوا مع الصادقين﴾ في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، الذين أقوالهم صدق، وأعمالهم، وأحوالهم لا تكون إلا صدقاً خلية من الكسل والفتور، سالمة من المقاصد السيئة، مشتملة على الإخلاص والنية الصالحة، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة.

قال الله تعالى: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم﴾ الآية.

﴿١٢٠ - ١٢١﴾ وما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظؤون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون﴾ يقول تعالى - حاثاً لأهل المدينة المنورة من المهاجرين، والأنصار، ومن حولهم من الأعراب، الذين أسلموا فحسن إسلامهم -: ﴿ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله﴾ أي: ما ينبغي لهم ذلك، ولا يليق بأحوالهم.

﴿ولا يرغبوا بأنفسهم﴾ في بقائها



انقيادهم لما تحثهم عليه .

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾
أي : شك ونفاق ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ أي : مرضاً إلى مرضهم ، وشكاً إلى شكهم ، من حيث إنهم كفروا بها وعاندوها وأعرضوا عنها ، فازداد لذلك مرضهم ، وترامى بهم إلى الهلاك ﴿وَالطَّبْعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ حتى ﴿مَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ .

وهذا عقوبة لهم ، لأنهم كفروا بآيات الله وعصوا رسوله ، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه .

قال تعالى - موبخاً لهم على إقامتهم على ما هم عليه من الكفر والنفاق - :
﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ بما يصيبهم من البلايا والأمراض ، وبما يبتلون من الأوامر الإلهية التي يراد بها اختبارهم .

﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ﴾ عما هم عليه من ﴿وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ ما ينفعهم ، فيفعلونه ، وما يضرهم فيتركونه .

فالله تعالى يبتليهم - كما هي سنته في سائر الأمم - بالسراء والضراء وبالأوامر والنواهي ليرجعوا إليه ، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون .

وفي هذه الآيات دليل على أن الإيمان يزيد وينقص ، وأنه ينبغي للمؤمن أن يتفقد إيمانه ويتعاهده ، فيجدده وينميهِ ، ليكون دائماً في صعود .

﴿١٢٧﴾ وقوله : ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهِ قُلُوبَهُمْ عَنْهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ يعني : أن المنافقين الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم ، إذا نزلت سورة ليؤمنوا بها ، ويعملوا بمضمونها ﴿نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ جازمين على ترك العمل بها ، ينتظرون الفرصة في الاختفاء عن أعين المؤمنين ، ويقولون : ﴿هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾

غلظة واعلموا أن الله مع المتقين ﴿ وهذا أيضاً إرشاد آخر ، بعدما أرشدهم إلى التدبير فيمن يباشر القتال ، أرشدهم إلى أنهم يبدؤون بالأقرب فالأقرب من الكفار ، والغلظة عليهم ، والشدة في القتال ، والشجاعة والثبات .

﴿واعلموا أن الله مع المتقين﴾ أي : وليكن لديكم علم أن المعونة من الله تنزل بحسب التقوى ، فلازموا على تقوى الله ، يُعِثْكُمْ وينصركم على عدوكم .

وهذا العموم في قوله : ﴿قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾ خصوص بما إذا كانت المصلحة في قتال غير الذين يلوننا ، وأنواع المصالح كثيرة جداً .

﴿١٢٤ - ١٢٦﴾ ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون * أولاً يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴿يقول تعالى : مبيناً حال المنافقين ، وحال المؤمنين عند نزول القرآن ، وتفاوت ما بين الفريقين فقال : ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ﴾ فيها الأمر والنهي ، والخبر عن نفسه الكريمة ، وعن الأمور الغائبة ، والحث على الجهاد .

﴿فمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْكُمُ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ أي : حصل الاستفهام لمن حصل له الإيمان بها من الطائفتين .

قال تعالى - مبيناً الحال الواقعة - : ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ بالعلم بها ، وفهمها واعتقادها ، والعمل بها ، والرغبة في فعل الخير ، والانكفاف عن فعل الشر .

﴿وهم يستبشرون﴾ أي : يبشر بعضهم بعضاً بما من الله عليهم من آياته ، والتوفيق لفهمها والعمل بها . وهذا دال على انتشار صدورهم بآيات الله ، وطمأنينة قلوبهم ، وسرعة

متسللين ، وانقلبوا معرضين ، فجازاهم الله بعقوبة من جنس عملهم ، فكما انصرفوا عن العمل ﴿صرف الله قلوبهم﴾ أي : صداه عن الحق وخذله .

﴿بأنهم قوم لا يفقهون﴾ فقهاً ينفعهم ، فإنهم لو فقهوا ، لكانوا إذا نزلت سورة آمنوا بها ، وانقادوا لأمرها .

والمقصود من هذا بيان شدة نفورهم عن الجهاد وغيره من شرائع الإيمان ، كما قال تعالى عنهم : ﴿فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ حَكِيمَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ .

﴿١٢٨ - ١٢٩﴾ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴿يمتن [تعالى] على عباده المؤمنين بما بعث فيهم النبي الأمي الذي من أنفسهم ، يعرفون حاله ، ويتمكنون من الأخذ عنه ، ولا يأنفون عن الانقياد له ، وهو ﷺ في غاية النصح لهم ، والسعي في مصالحهم .

﴿عزیز عليه ما عنتم﴾ أي : يشق عليه الأمر الذي يشق عليكم ويعتكم .

تفسير سورة يونس
مكية

ربكم فاعبده أفلأ تذكرون * إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حَقاً إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون ﴿١٠﴾ يقول تعالى مبيناً لربوبيته وإلهيته وعظمته: ﴿إِنْ رِبْكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية، ولأنه رفيق في أفعاله.

ومن جملة حكمته فيها، أنه خلقها بالحق وللحق، ليعرف بأسمائه وصفاته ويفرد بالعبادة.

﴿ثم﴾ بعد خلق السماوات والأرض ﴿استوى على العرش﴾ استواء يليق بعظمته .

﴿يدبر الأمر﴾ في العالم العلوي والسفلي، من الإمامة والإحياء، وإنزال الأرزاق، ومداولة الأيام بين الناس، وكشف الضر عن المضرورين، وإجابة سؤال السائلين.

فأنواع التدابير نازلة منه وصاعدة إليه، وجميع الخلق مدعون لعزه^(٢)، خاضعون لعظمته وسلطانه.

﴿ما من شفيع إلا من بعد إذن﴾
 فلا يقدم أحد منهم على الشفاعة، ولو
 كان أفضل الخلق، حتى يأذن الله
 ولا يأذن، إلا لمن ارتضى،
 ولا يرتضى إلا أهل الإخلاص
 والتوحيد له.

﴿ذلكم﴾ الذي هذا شأنه ﴿الله﴾ ربكم ﴿أي﴾ هو الله الذي له وصف الإلهية الجامعة لصفات الكمال، ووصف الربوبية الجامع لصفات الأفعال.

﴿فاعبدوه﴾ أي: أفردوه بجميع ما
تقدرون عليه من أنواع العبودية، ﴿أفلا
تذكرون﴾ الأدلة الدالة على أنه وحده
المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام.
فلما ذكر حكمه القدري وهو
التدبير العام، وحكمه الديني وهو

﴿١٦ - ٢﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِي تَلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ * أَكَانَ
لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ
أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ
أَجْرٌ كَثِيرٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَقُولُ تَعَالَى: ﴿الَّذِي
تَلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ وَهُوَ هَذَا
الْقُرْآنُ، الْمَشْتَمِلُ عَلَى الْحِكْمَةِ
وَالْأَحْكَامِ، الدَّالَّةُ عَلَى الْحَقَائِقِ
الْإِيمَانِيَّةِ وَالْأُمُورِ وَالنَّوَاحِي الشَّرْعِيَّةِ،
الَّذِي عَلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ تَلْقِيهِ بِالرِّضَا
وَالْقَبُولِ وَالْإِتْقَانِ.

ومع هذا فأعرض أكثرهم فهم
لا يعلمون، فتعجبوا ﴿أَنْ أَوْحِنَا إِلَى
رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرَ النَّاسَ﴾
عذاب الله، وخوفهم نقم الله،
وذكرهم بآيات الله.

﴿وَيُشِرُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إيماننا صادقاً
﴿أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي:
لهم جزاء موفور^(١)، وثواب مذكور
عند ربهم بما قدموه وأسلفوه من
الأعمال الصالحة الصادقة.

فتعجب الكافرون من هذا الرجل العظيم تعجباً حملهم على الكفر به، فـ ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ﴾ عنه: ﴿إِنْ هَذَا لَسَاحِرٌ مَبِينٌ﴾ أي: بَيِّنُ السَّحَرِ، لا يَخْفَى بَزْعُهُمْ عَلَى أَحَدٍ، وَهَذَا مِنْ سَفْهِهِمْ وَعِنَادِهِمْ، فَأَتَاهُمْ تَعْجِبُوا مِنْ أَمْرِ لَيْسَ مَا يَتَعَجَّبُ مِنْهُ وَيَسْتَفْزِفُ، وَإِنَّمَا يَتَعَجَّبُ مِنْ جَهَالَتِهِمْ وَعَدَمِ مَعْرِفَتِهِمْ بِمَصَالِحِهِمْ.

كيف لم يؤمنوا بهذا الرسول
الكريم، الذي بعثه الله من أنفسهم،
يعرفونه حق المعرفة، فردوا دعوته،
وحرصوا على إبطال دينه، والله متم
نوره ولو كره الكافرون.

﴿٣-٤﴾ ﴿إِنْ رَبِّكُمْ اللَّهُ الَّذِي
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ
سَمَّاهُ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ
لَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مَنْ عِندَهُ ذَلِكَ اللَّهُ

[illegible]

﴿حريص عليكم﴾ فيحب لكم الخير، ويسعى جهده في إيصاله إليكم، ويحرص على هدايتكم إلى الإيمان، ويكره لكم الشر، ويسعى جهده في تنفيركم عنه. ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ أي: شديد الرأفة والرحمة بهم، أرحم بهم من والديهم.

ولهذا كان حقه مقدماً على سائر حقوق الخلق، وواجب على الأمة الإيمان به، وتعظيمه، وتعزيره، وتوقيره ﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ فذلك حظهم وتوفيقهم، وإن ﴿تَوَلَّوْا﴾ عن الإيمان والعمل، فامض على سبيلك، ولا تنزل في دعوتك، وقل ﴿حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ أي: الله كافي في جميع ما أمشي، ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا معبود بحق سواه.

﴿عليه توكلت﴾ أي: اعتمدت ووثقت به، في جلب ما ينفع، ودفع ما يضر، ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ الذي هو أعظم المخلوقات. وإذا كان رب العرش العظيم، الذي وسع المخلوقات، ان ربنا لما دونه من باب أولى وأحرى.

تم تفسير سورة التوبة بعون الله ومنه
 فله الحمد أولاً وآخراً
 وظاهراً وباطناً

شرعه، الذي مضمونه ومقصوده عبادة وحده لا شريك له، ذكر الحكم الجزائي، وهو مجازاته على الأعمال بعد الموت، فقال: ﴿إليه مرجعكم جميعاً﴾ أي: سيجمعكم بعد موتكم ليقام يوم معلوم.

﴿إنه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ فالقادر على ابتداء الخلق قادر على إعادته، والذي يرى ابتداءه بالخلق، ثم ينكر إعادته للخلق، فهو فاقد العقل منكر لأحد المثليين مع إثبات ما هو أولى منه، فهذا دليل عقلي واضح على المعاد. ثم ذكر الدليل الثقلي فقال:

﴿وعد الله حقاً﴾ أي: وعده صادق لا بد من إقامه.

﴿ليجزى الذين آمنوا﴾ بقلوبهم بما أمرهم الله بالإيمان به.

﴿وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم، من واجبات ومستحبات، ﴿بالقسط﴾ أي: بإيمانهم وأعمالهم، جزاء قد بينه لعباده، وأخبر أنه لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ﴿والذين كفروا﴾ بآيات الله وكذبوا رسل الله.

﴿لهم شراب من حميم﴾ أي: ماء حار، يشوي الوجوه، ويقطع الأمعاء. ﴿وعذاب أليم﴾ من سائر أصناف العذاب ﴿بما كانوا يكفرون﴾ أي: بسبب كفرهم وظلمهم، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون.

﴿٥-٦﴾ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون * إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض آيات لقوم يتقنون * لما قرر ربوبيته وإلهيته، ذكر الأدلة العقلية الأفقية الدالة على ذلك وعلى كماله، في أسمائه وصفاته، من الشمس والقمر، والسماوات والأرض وجميع ما خلق فيها من سائر أصناف المخلوقات، وأخبر أنها آيات ﴿لقوم يعلمون﴾ و﴿لقوم يتقنون﴾.

فإن العلم يهدي إلى معرفة الدلالة فيها، وكيفية استنباط الدليل^(١) على أقرب وجه، والتقوى تحدث في القلب الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، الناشئين عن الأدلة والبراهين، وعن العلم واليقين.

وحاصل ذلك أن مجرد خلق هذه المخلوقات بهذه الصفة، دال على كمال قدرة الله تعالى، وعلمه، وحياته، وقيوميته، وما فيها من الإحكام والإتقان والإبداع والحسن، دال على كمال حكمة الله، وحسن خلقه وسعة علمه. وما فيها من أنواع المنافع والمصالح - كجعل الشمس ضياء، والقمر نوراً، يحصل بهما من النفع الضروري وغيره ما يحصل - يدل ذلك على رحمة الله تعالى واعتناؤه بعباده وسعة بره وإحسانه، وما فيها من التخصيصات دال على مشيئة الله وإرادته النافذة.

وذلك دال على أنه وحده المعبود المحبوب المحمود، ذو الجلال والإكرام والأوصاف العظام، الذي لا تنبغي الرغبة والرغبة إلا إليه، ولا يصرف خالص الدعاء إلا له، لا لغيره من المخلوقات الربوبات، المفتقرات إلى الله في جميع شؤونها.

وفي هذه الآيات الحث والتغريض على التفكير في مخلوقات الله، والنظر فيها بعين الاعتبار، فإن بذلك تفتح البصيرة، ويزداد الإيمان والعقل، وتقوى القرينة، وفي إهمال ذلك، تهاون بما أمر الله به، وإغلاق لزيادة الإيمان، وجود للذهن والقرينة.

﴿٧-٨﴾ ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ * أولئك ماوهم النار بما كانوا يكسبون يقول تعالى: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمله المؤمنون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾

بدلاً عن الآخرة.

﴿واطمأنوا بها﴾ أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية مرامهم^(٢) ونهاية قصدهم، فسهوا لها وأكبوا على لذاتها وشهواتها، بأي: طريق حصلت حصلوها، ومن أي: وجه لاحت ابتدروها، قد صرفوا إراداتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها.

فكانهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست دار عمر، يتزود منها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون.

﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ فلا ينتفعون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الأفقية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة، عن المدلول المقصود.

﴿أولئك﴾ الذين هذا وصفهم ﴿ماوهم النار﴾ أي: مقررهم ومسكنهم التي لا يرحلون عنها. ﴿بما كانوا يكسبون﴾ من الكفر والشرك وأنواع المعاصي، فلما ذكر عقابهم ذكر ثواب المطيعين، فقال:

﴿٩-١٠﴾ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم﴾ * دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين يقول تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: جمعوا بين الإيمان، والقيام بموجبه ومقتضاه من الأعمال الصالحة، المشتملة على أعمال القلوب وأعمال الجوارح، على وجه الإخلاص والمتابعة.

﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ أي: بسبب ما معهم من الإيمان يشيهم الله أعظم الثواب، وهو الهداية، فيعلمهم ما ينفعهم، ويمن عليهم بالأعمال الناشئة عن الهداية، ويهديهم للنظر في آياته، ويهديهم في هذه الدار إلى

﴿١٣ - ١٤﴾ ﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا يؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ * ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ﴿يخبر تعالى أنه أهلك الأمم الماضية بظلمهم وكفرهم، بعدما جاءتهم البينات على أيدي الرسل تبين الحق فلم يتقادوا لها ولم يؤمنوا. فأحل بهم عقابه الذي لا يرد عن كل مجرم متجرىء على محارم الله، وهذه سنته في جميع الأمم.

﴿ثم جعلناكم﴾ أيها المخاطبون ﴿خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون﴾ فإن أنتم اعتبرتم واتعظتم بمن قبلكم واتبعتم آيات الله وصدقتم رسله، نجوتم في الدنيا والآخرة.

وإن فعلتم كفعل الظالمين قبلكم، أحل بكم ما أحل بهم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿١٥ - ١٧﴾ ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بذكر قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾ * قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون * فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه لا يفلح المجرمون ﴿يذكر تعالى تعنت المكذابين لرسوله محمد ﷺ، وأنهم إذا تتلى عليهم آيات الله القرآنية المبينة للحق، أعرضوا عنها، وطلبوا وجوه التعنت فقالوا، جراءة منهم وظلماً: ﴿ائت بقرآن غير هذا أو بذكر قل ما أجرامهم على الله، وأشهدهم ظلماً ورداً لآياته.

فإذا كان الرسول العظيم يأمره الله أن يقول لهم: ﴿قل ما يكون لي﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق ﴿أن أبدله من تلقاء نفسي﴾ فإني رسول محض، ليس لي من الأمر شيء، ﴿إن أتبع إلا ما يوحى

ذلك، كما يعجل لهم الخير إذا أتوا بأسبابه﴾ ﴿لقضي إليهم أجلهم﴾ أي: لمحققتهم العقوبة، ولكنه تعالى يمهلهم ولا يمهلهم، ويعفو عن كثير من حقوقه، فلو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابة.

ويدخل في هذا أن العبد إذا غضب على أولاده أو أهله أو ماله، ربما دعا عليهم دعوة لو قبلت منه لهلكوا، ولأضره ذلك غاية الضرر، ولكنه تعالى حلیم حكيم.

وقوله: ﴿فنذر الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي: لا يؤمنون بالآخرة، فلذلك لا يستعدون لها، ولا يعملون ما ينجيهم من عذاب الله، ﴿فني طغيانهم﴾ أي: باطلهم، الذي جاوزوا به الحق والحد.

﴿يعمهمون﴾ يترددون حائرين، لا يبتدون السبيل ولا يوفقون لأقوم دليل، وذلك عقوبة لهم^(١) على ظلمهم، وكفرهم بآيات الله.

﴿١٢﴾ ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون﴾ وهذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه إذا مسه ضر، من مرض أو مصيبة، اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله، قائماً وقاعداً ومضطجعاً، وألح في الدعاء ليكشف الله عنه ضره.

﴿فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره مسه﴾ أي: استمر في غفلته معرضاً عن ربه، كأنه ما جاءه ضره، فكشفه الله عنه، فأبى: ظلم أعظم من هذا الظلم!!! يطلب من الله قضاء غرضه، فإذا أناله إياه لم ينظر إلى حق ربه، وكأنه ليس عليه الله حق. وهذا تزيين من الشيطان، زين له ما كان مستهجنًا مستقبلاً في العقول والفطر.

﴿كذلك زين للمسرفين﴾ أي: ﴿ما كانوا يعملون﴾.

الصراط المستقيم وفي الصراط المستقيم، وفي دار الجزاء إلى الصراط الموصل إلى جنات النعيم، ولهذا قال: ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ الجارية على الدوام ﴿في جنات النعيم﴾ أضافها الله إلى النعيم، لاشتمالها على النعيم التام، نعيم القلب بالفرح والسرور والبهجة والحبور، ورؤية الرحمن وسماع كلامه، والاغتيال برضاه وقربه، ولقاء الأحبة والإخوان، والتمتع بالاجتماع بهم، وسماع الأصوات المطربات، والنفحات المشجيات، والمناظر المفرحات. ونعيم البدن بأنواع المأكول والمشرب، والمناخ، ونحو ذلك، مما لا تعلمه النفوس، ولا خطر ببال أحد، أو قدر أن يصفه الواصفون.

﴿دعواهم فيها سبحانك اللهم﴾ أي: عبادتهم فيها لله، وأهلًا تسبيح لله وتنزيه له عن النقائص، وآخرها تحميد لله، فالتكاليف سقطت عنهم في دار الجزاء، وإنما بقي لهم أكمل اللذات، الذي هو ألد عليهم من المأكول اللذيذة، ألا وهو ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، وتفرح به الأرواح، وهو لهم بمنزلة النفس، من دون كلفة ومشقة.

﴿و﴾ أما ﴿نحيتهم﴾ فيما بينهم عند التلاقي والتزاور، فهو السلام، أي: كلام سالم من اللغو والإثم، موصوف بأنه ﴿سلام﴾ وقد قيل في تفسير قوله: ﴿دعواهم فيها سبحانك﴾ إلى آخر الآية، أن أهل الجنة - إذا احتاجوا إلى الطعام والشراب ونحوهما - قالوا سبحانك اللهم، فأحضر لهم في الحال.

فإذا فرغوا قالوا: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾

﴿١١﴾ ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون﴾ وهذا من لطفه وإحسانه بعباده، أنه لو عجل لهم الشر إذا أتوا بأسبابه، وبادرهم بالعقوبة على

إني ﴿أي﴾: ليس لي غير ذلك، فإني عبد
تأسور، ﴿إني أخاف إن عصيت ربي
عذاب يوم عظيم﴾ فهذا قول خير
الخلق وأدبه مع أوامر ربه ووحيه،
فكيف هؤلاء السفهاء الضالين، الذين
جمعوا بين الجهل والضلال، والظلم
والعناد، والتعنت والتعجيز لرب
العالمين، أفلا يخافون عذاب يوم
عظيم؟! .

فإن زعموا أن قصدهم أن يتبين لهم الحق بالآيات التي طلبوا فهم كَذَّبُوهُ فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ بَيَّنَّ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ، وَهُوَ الَّذِي يَصْرِفُهَا كَيْفَ يَشَاءُ، تَابِعَا^(١) حُكْمَتَهُ الرَّبَّانِيَّةَ وَرَحْمَتَهُ مَعَادَهُ.

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا﴾ طويلاً ﴿مَنْ قَبْلَهُ﴾ أي: قبل تلاوته، وقبل درايتکم به، وأنا ما خطر علی بالی، ولا وقع فی ظنی.

﴿أفلا تعقلون﴾ أي حيث لم أقوله في مدة عمري، ولا صدر مني ما يدل على ذلك، فكيف أتقوله بعد ذلك، وقد لبثت فيكم عمراً طويلاً تعرفون حقيقة حال، باني أمي لا أقرأ ولا أكتب، ولا أدرس ولا أتعلم من أحد؟! ۱۱

فأتيتكم بكتاب عظيم أعجز
الفصحاء، وأعيا العلماء، فهل
يمكن - مع هذا - أن يكون من تلقاء
نفسى، أم هذا دليل قاطع أنه تنزيل من
حكيم حميد؟

فلو أعملتم أفكاركم وعقولكم،
وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب،
لجزمتكم جزماً لا يقبل الريب بصدقه،
وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال،
ولكن إذ^(٧) أبيتُم إلا التكذيب والعناد،
فأنتم لا شك أنكم ظالمون.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ
كُذْبًا، أَوْ كَذَبَ بَيِّنَاتِهِ﴾!!!

فلو كنت مُتَقَوِّلاً لَكنت أَظلم
الناس، وفاتني الفلاح، ولم تخف
عليكم حالي، ولكني جئتكم

بآيات الله، فكذبتم بها، فتعين فيكم
الظلم، ولا بد أن أمركم سيضمحل،
ولن تنالوا الفلاح، ما دمت كذلك.

ودل قوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ الآية، أن الذي حملهم على هذا التعنت الذي صدر منهم هو عدم إيمانهم بلقاء الله وعدم رجائه، وأن من آمن بلقاء الله، فلا بد أن ينقاد لهذا الكتاب ويؤمن به، لأنه حسن القصد.

﴿١٨﴾ ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَبِهُونَ﴾ ﴿وَلَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ أَي: الْمُشْرِكُونَ الْمَكْذُوبُونَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ﴾

﴿مَنْ دُونَ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ
وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أَي: لَا تَمْلِكُ لَهُمْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ مِنَ النِّعَمِ وَلَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ شَيْئًا.

﴿ويقولون﴾ قولاً خالياً من البرهان: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ أي: يعبدونهم ليقربوهم إلى الله، ويشفعوا لهم عنده، وهذا قول من تلقاء أنفسهم، وكلام ابتكروه هم، ولهذا قال تعالى - مبطلاً لهذا القول -: ﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض﴾ أي: الله تعالى هو العالم، الذي أحاط علماً بجميع ما في السماوات والأرض، وقد أخبركم بأنه ليس له شريك ولا إله معه، أنتم - يا معشر المشركين - تزعمون أنه يوجد له فيها شركاء؟ أفتخبرونه بأمر خفي عليه، وعلمتموه؟ أنتم أعلم أم الله؟ فهل يوجد قول أبطل من هذا القول، المتضمن أن هؤلاء الضلال الجهال السفهاء أعلم من رب العالمين؟

فليكتف العاقل بمجرد تصور هذا القول، فإنه يجرم بفساده وبطلانه: ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي: تقدس وتنزه أن يكون له شريك أو نظير، بل هو الله الأحد الفرد الصمد

الذي لا إله في السماوات والأرض
إلا هو، وكل معبود في العالم العلوي
والسفلي سواه، فإنه باطل عقلاً وشرعاً
وفطرة.

﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما
يبدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو
العلی الكبير﴾ .

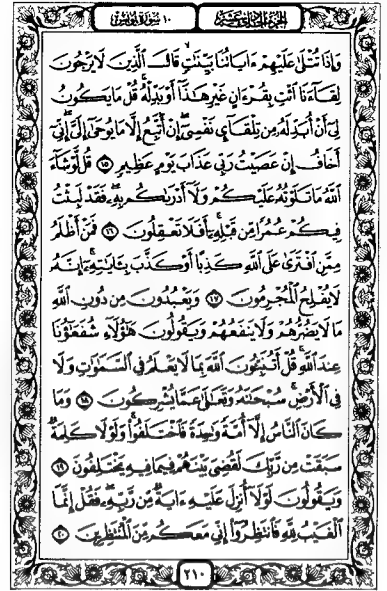
﴿١٩ - ٢٠﴾ ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون﴾ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴿أي: ﴿وما كان الناس إلا أمة واحدة﴾ متفقين على الدين الصحيح، ولكنهم اختلفوا، فبعث الله الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

﴿ولولا كلمة مسبقت من ربك﴾
بإمهال العصاة وعدم معاجلتهم
بذنوبهم، ﴿لقضى بينهم﴾ بأن ننحي
المؤمنين، وهلك الكافرين المكذبين،
وصار هذا فارقاً بينهم ﴿فيمافيه
يختلفون﴾

ولكنه أراد امتحانهم وابتلاء بعضهم ببعض، ليتبين الصادق من الكاذب.

(۲) فی ب: إذا.

(۱) فی ب: تبعاً.



آياتنا: أي: يسعون بالباطل ليطلوا به الحق.

﴿قل الله أسرع مكرًا﴾ فإن المكر السيئ لا يحيق إلا بأهله، فمقصودهم منعكس عليهم، ولم يسلموا من التبعة، بل تكتب الملائكة عليهم ما يعملون، ويحصبه الله عليهم، ثم يجازيهم [الله] عليه أوفر الجزاء.

﴿٢٢ - ٢٣﴾ ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ فلما

أنجاهم إذا هم يبعثون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إني مرجعكم فتنبتكم بما كنتم تعملون ﴿٢٤﴾ ذكر تعالى القاعدة العامة في أحوال الناس عند إصابة الرحمة لهم بعد الضراء، واليسر بعد العسر، ذكر حالة تؤيد ذلك وهي حالهم في البحر عند اشتداده، والخوف من عواقبه، فقال: ﴿هو الذي يسيركم في البر والبحر﴾ بما يسر لكم من الأسباب المسيرة^(١) لكم فيها، وهداكم إليها.

﴿حتى إذا كنتم في الفلك﴾ أي: السفن البحرية ﴿وجرين بهم بريح طيبة﴾ موافقة لما يهونه من غير انزعاج ولا مشقة.

﴿وفرحوا بها﴾ واطمأنوا إليها،

فبينما هم كذلك، إذ ﴿جاءتها ريح عاصف﴾ شديدة الهبوب ﴿وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم﴾ أي: عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، فدعوه مخلصين له الدين ووعدا من أنفسهم على وجه الإلزام، فقالوا: ﴿لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين﴾ فلما أنجاهم إذا هم يبعثون في الأرض بغير الحق ﴿أي:﴾

نسوا تلك الشدة وذلك الدعاء، وما ألزموه أنفسهم، فأشركوا بالله، من اعترفوا بأنه لا ينجيهم من الشدائد، ولا يدفع عنهم المضايق، فهلا أخلصوا لله العبادة في الرخاء، كما أخلصوه في الشدة!!

ولكن هذا البغي يعود وباله عليهم، ولهذا قال: ﴿يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا﴾ أي: غاية ما تؤملون بغيكم وشروءكم عن الإخلاص لله، أن تنالوا شيئاً من حطام الدنيا وجاهها الزر اليسير الذي سينقضي سريعاً، ويمضي جميعاً، ثم تنتقلون عنه بالرغم.

﴿ثم إني مرجعكم﴾ في يوم القيامة ﴿فنتبتكم بما كنتم تعملون﴾ وفي هذا غاية التحذير لهم عن الاستمرار على عملهم.

﴿٢٤﴾ ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون﴾ وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، فإن لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك يزهو لصاحبه إن زها وقتاً قصيراً، فإذا استكمل وتم اضمحل، وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين منها، ممتلئ القلب من همها وحزنها وحسرتها.

فذلك ﴿كماء أنزلناه من السماء﴾ فاختلط به نبات الأرض ﴿أي:﴾ نبت فيها من كل صنف، وزوج بهيج ﴿مما يأكل الناس﴾ كالحبوب والشمار ﴿ومما تأكل﴾ الأنعام ﴿كأنواع العشب، والكلا المختلف الأصناف﴾.

﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت﴾ أي: تزخرفت في منظرها، واكتست في زينتها، فصارت بهجة للناظرين، ونزهة للمتفرجين، وآية

﴿ويقولون﴾ أي: المكذبون المتعنتون، ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ يعنون: آيات الاقتراح التي يعينونها كقولهم: ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذير﴾ الآيات.

وكقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الآيات.

﴿فقل﴾ لهم إذا طلبوا منك آية ﴿إنما الغيب لله﴾ أي: هو المحيط علماً بأحوال العباد، فيدبرهم بما يقتضيه علمه فيهم وحكمته البديعة، وليس لأحد تدبير في حكم ولا دليل، ولا غاية ولا تعليل.

﴿فانتظروا إني معكم من المنتظرين﴾ أي: كل ينتظر بصاحبه ما هو أهل له، فانظروا لمن تكون العاقبة.

﴿٢١﴾ ﴿وإذا أذنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرًا إني رسلنا يكتبون ما تملكون﴾ يقول تعالى: ﴿وإذا أذنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم﴾ كالصحة بعد المرض، والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، نسوا ما أصابهم من الضراء، ولم يشكروا الله على الرخاء والرحمة، بل استمروا في طغيانهم ومكرهم. ولهذا قال: ﴿إذا لهم مكر في

للمتصيرين، فصرت ترى لها منظرًا عجيباً ما بين أخضر، وأصفر، وأبيض وغيره.

﴿وظن أهلها أنهم قادرون عليها﴾ أي: حصل معهم طمع بأن ذلك سيستمر ويدوم، لوقوف إرادتهم عنده، وانتهاء مطالهم فيه.

فيبيناهم في تلك الحالة ﴿أناها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تنغن بالأسس﴾ أي: كأنها ما كانت فهذه حالة الدنيا، سواء بسواء.

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ أي: نبينها ونوضحها، بتقريب المعاني إلى الأذهان، وضرب الأمثال ﴿لقوم يتفكرون﴾ أي: يعملون أفكارهم فيما ينفعهم.

وأما الغافل المعرض، فهذا لا تنفعه الآيات، ولا يزيل عنه الشك البيان، ولما ذكر الله حال الدنيا وحاصل نعيمها، شوق إلى الدار الباقية، فقال:

﴿٢٥-٢٦﴾ ﴿والله يدعوا إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

عمّ تعالى عبادته بالدعوة إلى دار السلام والحث على ذلك والترغيب، وخص بالهداية من شاء استخلاصه واصطفاه، فهذا فضله وإحسانه، والله يختص برحمته من يشاء، وذلك عدله وحكمته، وليس لأحد عليه حجة بعد البيان والرسول، وسمى الله الجنة «دار السلام» لسلامتها من جميع الآفات والنقائص، وذلك لكمال نعيمها وقوامه وبقائه، وحسنه من كل وجه.

ولما دعا إلى دار السلام، كأن النفوس تشوقت إلى الأعمال الموجبة

لها الموصلة إليها، فأخبر عنها بقوله: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾ أي: للذين أحسنوا في عبادة الخالق، بأن عبدوه على وجه المراقبة والنصيحة في عبوديته، وقاموا بما قدروا عليه منها، وأحسنوا إلى عباد الله بما يقدر عليهم من الإحسان القولي والفعل، من بذل الإحسان المالي، والإحسان البدني، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهلين، ونصيحة المعرضين، وغير ذلك من وجوه البر والإحسان.

فهؤلاء الذين أحسنوا لهم «الحسنى» وهي الجنة الكاملة في حسناتها وزيادتها وهي النظر إلى وجه الله الكريم وسماع كلامه، والفوز برضاه والبهجة بقربه، فبهذا حصل لهم أعلى ما يتمناه المتمنون، ويسأله السائلون.

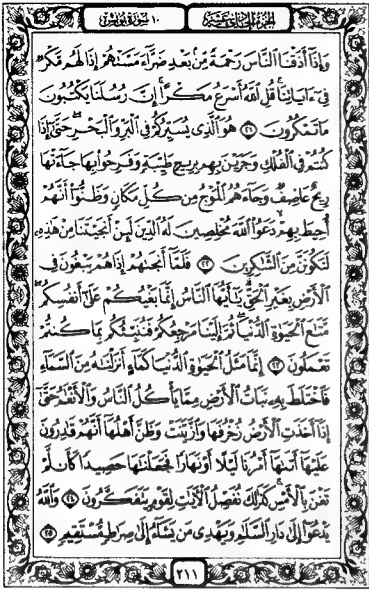
ثم ذكر اندفاع المحذور عنهم فقال: ﴿ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة﴾ أي: لا ينالهم مكروه بوجه من الوجوه، لأن المكروه إذا وقع بالإنسان، تبين ذلك في وجهه، وتغير وتكرر.

وأما هؤلاء - فهم كما^(١) قال الله عنهم - ﴿تعرف في وجوههم نضرة النعيم﴾ أولئك أصحاب الجنة ﴿اللازمون لها﴾ هم فيها خالدون، لا يحولون ولا يزولون، ولا يتغيرون.

﴿٢٧﴾ ﴿والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لما ذكر أصحاب الجنة ذكر أصحاب النار، فذكر أن بضاعتهم التي اكتسبوها في الدنيا هي الأعمال السيئة المسخطة لله، من أنواع الكفر والتكذيب، وأصناف المعاصي، فجزاؤهم سيئة مثلها، أي:

(٢) في ب: في وجوههم.

(١) في ب: فكما.



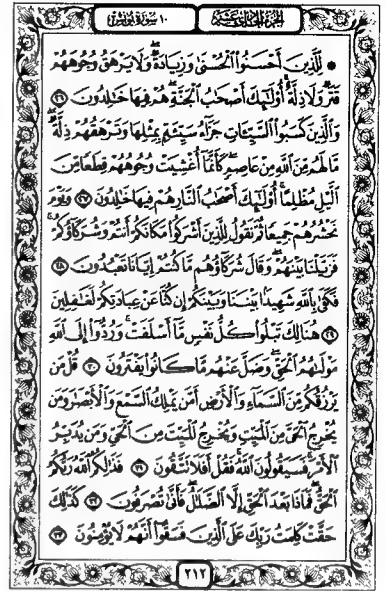
جزاء يسوؤهم بحسب ما عملوا من السيئات على اختلاف أحوالهم.

﴿وترهقهم﴾ أي: تغشاهم ﴿ذلة﴾ في قلوبهم وخوف من عذاب الله، لا يدفعه عنهم دافع ولا يعصمهم منه عاصم، وتسري تلك الذلة الباطنة إلى ظاهرهم، فتكون سوداً في الوجوه^(٢).

﴿كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ فكم بين الفريقين من الفرق، وما بعد ما بينهما من التفاوت؟!.

﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ إلى ربها ناظرة ﴿وجوه يومئذ باسرة﴾ تظن أن يفعل بها فاقة ﴿وجوه يومئذ مسفرة﴾ ضاحكة مستبشرة ﴿وجوه يومئذ عليها غبرة﴾ ترهقها قفرة ﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾.

﴿٢٨-٣٠﴾ ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم فزيلنا بينهم وقال شركاؤهم ما كنتم إيماناً تعبدون﴾ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴿هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردوا إلى الله مولاهم الحق وضل عنهم ما كانوا



كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الجيوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من البيضة، ونحو ذلك، «ويخرج الميت من الحي» عكس هذه المذكورات، «ومن يدبر الأمر» في العالم العلوي والسفلي، وهذا شامل لجميع أنواع التدابير الإلهية، فإنك إذا سألتهم عن ذلك «فسيقولون الله» لأنهم يعترفون بجميع ذلك، وأن الله لا شريك له في شيء من المذكورات.

«فقل» لهم إلزاماً بالحجة «أفلا تتقون» الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له، وتحملون ما تعبدون منه من الأنداد والأوثان.

«فذلكم» الذي وصف نفسه بما وصفها به «الله ربكم» أي: المألوه المعبود المحمود، الربى جميع الخلق بالنعم وهو: «الحق فماداً بعد الحق إلا الضلال».

فإنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير لجميع الأشياء، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يأتي بالחסنات إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو، ذو الأسماء الحسنى والصفات الكاملة العظيمة والجلال والإكرام.

«فأنتي تصرفون» عن عبادة من هذا وصفه، إلى عبادة الذي ليس له من وجوده إلا العدم، ولا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

فليس له من الملك مثقال ذرة، ولا شراكة له بوجه من الوجوه، ولا يشفع عند الله إلا بإذنه، فتباً لمن أشرك به، ووعياً لمن كفر به، لقد عدمو عقولهم بعد أن عدمو أديانهم، بل فقدوا دنياهم وآخرهم.

ولهذا قال [تعالى] عنهم: «كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون» بعد ما أراهم^(١) الله من الآيات البينات والبراهين النيرات ما فيه عبرة لأولي الألباب، وموعظة للمتقين وهدى للعالمين.

فالملائكة الكرام والأنبياء والأولياء ونحوهم يتبرؤون من عبدتهم يوم القيامة ويتصلون من دعائهم إياهم إلى عبادتهم وهم الصادقون البارون في ذلك، فحينئذ يتحسر المشركون حسرة لا يمكن وصفها، ويعلمون مقدار ما قدموا من الأعمال، وما أسلفوا من رديء الخصال، ويتبين لهم يومئذ أنهم كانوا كاذبين، وأنهم مفترون على الله، قد ضلت عبادتهم، واضمحلت معبوداتهم، وتقطعت بهم الأسباب والوسائل.

ولهذا قال تعالى: «هنالك» أي: في ذلك اليوم «تبلو كل نفس ما أسلفت» أي: تتفقد أعمالها وكسبها، وتتبعه بالجزاء، وتجازى بحسبه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وضل عنهم ما كانوا يفترون من قولهم بصفة ما هم عليه من الشرك وأن ما يعبدون من دون الله تنفعهم وتدفع عنهم العذاب.

«٣١ - ٣٣» «قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون» فذلكم الله ربكم الحق فماداً بعد الحق إلا الضلال فأنتي تصرفون * كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون» أي: «قل» لهؤلاء الذين أشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً - محتجاً عليهم بما أقروا به من توحيد الربوبية، على ما أنكروه من توحيد الإلهية - «من يرزقكم من السماء والأرض» بإنزال الأرزاق من السماء، وإخراج أنواعها من الأرض، وتيسير أسبابها فيها؟

«أم من يملك السمع والأبصار» أي: من هو الذي خلقهما وهو مالکهما؟ وخصهما بالذكر من باب التنبيه على المفضل بالمفاضل، ولكمال شرفهما ونفعهما. «ومن يخرج الحي من الميت»

يفترون» يقول تعالى: «ويوم نحشرهم جميعاً» أي: نجمع جميع الخلائق ليعاد يوم معلوم، ونحضر المشركين، وما كانوا يعبدون من دون الله.

«ثم نقول للذين أشركوا مكانكم أنتم وشركاؤكم» أي: الزموا مكانكم ليقع التحاكم والفصل بينكم وبينهم. «فزيلنا بينهم» أي: فرقنا بينهم، بالبعد البدني والقلبي، وحصلت بينهم العداوة الشديدة، بعد أن بذلوا لهم في الدنيا خالص المحبة وصفو الوداد، فانقلبت تلك المحبة والولاية بغضاً وعداوة.

وتبرأ شركاؤهم منهم وقالوا: «ما كنتم إيانا تعبدون» فأننا ننزه الله أن يكون له شريك أو نديد. «فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لنافلين» ما أمرناكم بها، ولا دعوناكم لذلك، وإنما عبدتم من دعاكم إلى ذلك، وهو الشيطان كما قال تعالى: «ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين».

وقال: «ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون» قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون».

العالمين، لعاجله بالعقوبة وبادره بالنكال .

﴿ولكن﴾ الله أنزل هذا الكتاب رحمة للعالمين، وحجة على العباد أجمعين .

أنزله ﴿تصديق الذي بين يديه﴾ من كتب الله السماوية، بأن وافقها وصدقها بما شهدت به، وبشرت بنزوله، فوقع كما أخبرت .

﴿وتفصيل الكتاب﴾ للحلال والحرام، والأحكام الدينية والقدرية، والإخبارات الصادقة .

﴿لا ريب فيه من رب العالمين﴾ أي: لا شك ولا مرية فيه بوجه من الوجوه، بل هو الحق اليقين: تنزيل من رب العالمين الذي ربّى جميع الخلق بنعمه .

ومن أعظم أنواع تربيته أن أنزل عليهم هذا الكتاب الذي فيه مصالحهم الدينية والدنيوية، المشتمل على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال .

﴿أم يقولون﴾ أي: المكذبون به عناداً وغبياً: ﴿افتراه﴾ محمد على الله، واختلقه، ﴿قل﴾ لهم - ملزماً لهم بشيء - إن قدروا عليه، أمكن ما أدعوه، وإلا كان قولهم باطلاً .

﴿فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ يعاونكم على الإتيان بسورة مثله، وهذا محال، ولو كان ممكناً لادعوا قدرتهم على ذلك، ولأتوا بمثله .

ولكن لما بان عجزهم تبين أن ما قالوه باطل، لا حظ له من الحجة، والذي حملهم على التكذيب بالقرآن المشتمل على الحق الذي لا حق فوقه، أنهم لم يحيطوا به علماً .

فلو أحاطوا به علماً وفهموه حق فهمه، لأدعوا بالتصديق به، وكذلك إلى الآن لم يأتهم تأويله الذي وعدهم أن ينزل بهم العذاب ويحل بهم النكال،

وهذا التكذيب الصادر منهم من جنس تكذيب من قبلهم، ولهذا قال: ﴿كذلك كذب الذين من قبلهم﴾ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴿وهو الهلاك

الشیطان للإنسان، أقبح البهتان، وأضل الضلال، حتى اعتقد ذلك وألفه وظنه حقاً، وهو لا شيء .

ولهذا قال: وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء أي: ما يتبعون في الحقيقة شركاء الله، فإنه ليس لله شريك أصلاً عقلاً ولا نقلاً، وإنما يتبعون الظن و ﴿إن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾ فسموها آلهة وعبدوها مع الله، ﴿إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ .

﴿إن الله عليم بما يفعلون﴾ وسيجازيهم على ذلك بالعقوبة البليغة .

﴿٣٧-٤١﴾ ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ * أم يقولون افتراء قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين * بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين * ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وريك أعلم بالمفسدين * وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ يقول تعالى: ﴿وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله﴾ أي: غير ممكن ولا متصور، أن يفترى هذا القرآن على الله تعالى، لأنه الكتاب العظيم الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ وهو الكتاب الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وهو كتاب الله الذي تكلم به [رب العالمين]، فكيف يقدر أحد من الخلق أن يتكلم بمثله، أو بما يقاربه، والكلام تابع لعظمة المتكلم ووصفه؟! فإن كان أحد يماثل الله في عظمته وأوصاف كماله، أمكن أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولو تنزلنا على الفرض والتقدير، فتَقَوَّلْهُ أحد على رب

﴿٣٤-٣٦﴾ ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده فأني توفكون﴾ * قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون﴾ * وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون﴾ يقول تعالى - مبيناً عجز آلهة المشركين وعدم انتصافها بما يوجب اتخاذها آلهة مع الله -: ﴿قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق﴾ أي: يبتدئ به ﴿ثم يعيده﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي والتقرير، أي: ما منهم أحد يبدأ الخلق ثم يعيده، وهي أضعف من ذلك وأعجز، ﴿قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ من غير مشارك ولا معاون له على ذلك .

﴿فأني توفكون﴾ أي: تصرفون، وتحرفون عن عبادة المنفرد بالابتداء، والإعادة إلى عبادة من لا يخلق شيئاً وهم يخلقون .

﴿قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق﴾ ببيانهم وإرشاده أو بإلهامه وتوفيقه .

﴿قل الله﴾ وحده ﴿يهدي للحق﴾ بالأدلة والبراهين، وبالإلهام والتوفيق، والإعانة إلى سلوك أقوم طريق .

﴿أمن لا يهدي﴾ أي: لا يهتدي ﴿إلا أن يهدي﴾ لعدم علمه ولضلاله، وهي شركاؤهم التي لا تهدي ولا تهتدي إلا أن تهدي ﴿فما لكم كيف تحكمون﴾ أي: أي شيء جعلكم تحكمون هذا الحكم الباطل، بصحة عبادة أحد مع الله، بعد ظهور الحجة والبرهان أنه لا يستحق العبادة إلا الله وحده .

إذا تبين أنه ليس في آلهتهم التي يعبدون مع الله أوصافاً معنوية ولا أوصافاً فعلية، تقتضي أن تعبد مع الله، بل هي متصفة بالنقصان الموجبة لبطلان إلهيتها، فلا شيء جعلت مع الله آلهة؟

فالجواب: أن هذا من تزوين

الذي لم يبق منهم أحداً.

فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيحل بهم ما أحل بالأمم المكذبين والقرون المهلكين.

وفي هذا دليل على الثبوت في الأمور، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبادر بقبول شيء أو رده قبل أن يحيط به علماً.

﴿ومنهم من يؤمن به﴾ أي: بالقرآن وما جاء به، ﴿ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين﴾ وهم الذين لا يؤمنون به على وجه العناد والظلم والفساد، فيسجازيهم على فسادهم بأشد العذاب.

﴿وإن كذبوك﴾ فاستمر على دعوتك، وليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء، لكل عمله. ﴿فقل لي عملي ولکم عملکم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون﴾ كما قال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

﴿٤٢ - ٤٤﴾ ﴿ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾ ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون * إن الله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ يخبر تعالى عن بعض المكذبين للرسول ولما جاء ﴿و﴾ أن ﴿منهم من يستمعون﴾ إلى النبي ﷺ وقت قراءته للوحي، لا على وجه الاسترشاد، بل على وجه التفرج والتكذيب وتطلب^(١)

العثرات، وهذا استماع غير نافع ولا مجد على أهله خيراً، لا جرم انسدهم عليهم باب التوفيق، وحرّموا من فائدة الاستماع، ولهذا قال: ﴿أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون﴾ وهذا الاستفهام بمعنى النفي المقرر، أي: لا تسمع الصم الذين لا يستمعون القول ولو جهرت به، وخصوصاً إذا كان عقلهم معدوماً.

إذا كان من المحال إسماع الأصم

الذي لا يعقل للكلام، فهؤلاء المكذبون، كذلك تمتع إسماعك إياهم إسماعاً يتفنون به.

وأما إسماع الحجة، فقد سمعوا ما تقوم عليهم به حجة الله البالغة، فهذا طريق عظيم من طرق العلم قد انسده عليهم، وهو طريق السموعات المتعلقة بالخبر.

ثم ذكر انسداد الطريق الثاني، وهو: طريق النظر فقال: ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ فلا يفيدته نظره إليك، ولا سبر أحوالك شيئاً، فكما أنك لا تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون، فكذلك لا تهدي هؤلاء.

فإذا فسدت عقولهم وأسماعهم وأبصارهم التي هي الطرق الموصلة إلى العلم ومعرفة الحقائق، فأين الطريق الموصول لهم إلى الحق؟

وذلك قوله: ﴿ومنهم من ينظر إليك﴾ الآية، أن النظر إلى حالة النبي ﷺ وهديه وأخلاقه وأعماله وما يدعو إليه من أعظم الأدلة على صدقه وصحة ما جاء به، وأنه يكفي البصير عن غيره من الأدلة.

وقوله: ﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ فلا يزيد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ يبينهم الحق فلا يقبلونه، فيعاقبهم الله بعد ذلك بالطبع على قلوبهم، والختام على أسماعهم وأبصارهم.

﴿٤٥﴾ ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم قد خسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين﴾ يخبر تعالى عن سرعة انقضاء الدنيا، وأن الله تعالى إذا حشر الناس وجمعهم ليوم لا ريب فيه، كأنهم ما لبثوا إلا ساعة من نهار، وكأنه ما مر عليهم نعيم ولا بؤس، وهم يتعارفون بينهم، كحالهم في الدنيا، ففي هذا اليوم يريح المتقون، ويخسر الذين كذبوا بقاء الله وما كانوا مهتدين

إلى الصراط المستقيم والدين القويم، حيث فاتهم النعيم، واستحقوا دخول النار.

﴿٤٦﴾ ﴿وإما نريتك بعض الذي نعدهم أو نتوفيتك فإلينا مرجعهم ثم الله شهيد على ما يفعلون﴾ أي: لا تحزن أيها الرسول على هؤلاء المكذبين، ولا تستعجل لهم، فإنهم لا بد أن يصيبهم الذي نعدهم من العذاب.

إما في الدنيا فتراه بعينك، وتقر به نفسك.

وإما في الآخرة بعد الوفاة، فإن مرجعهم إلى الله، وسينبئهم بما كانوا يعملون، أحصاه الله ونسوه، والله على كل شيء شهيد، ففيه الوعيد الشديد لهم، والتسلي للرسول الذي كذبه قومه وعانده.

﴿٤٧ - ٤٩﴾ ﴿ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ يقول تعالى: ﴿ولكل أمة﴾ من الأمم الماضية ﴿رسول﴾ يدعوهم إلى توحيد الله ودينه.

﴿فإذا جاء﴾ هم ﴿رسولهم﴾ بالآيات، صدقه بعضهم وكذبه آخرون، فيقضي الله بينهم بالقسط بنجاة المؤمنين، وإهلاك المكذبين ﴿وهم لا يظلمون﴾ بأن يعذبوا قبل إرسال الرسول وبيان الحجة، أو يعذبوا بغير جرمهم، فليحذر المكذبون لك من مشابهة الأمم المهلكين، فيحل بهم ما حل بأولئك.

ولا يستبطئوا العقوبة ويقولوا: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ فإن هذا ظلم منهم، حيث طلبوه من النبي ﷺ، فإنه ليس له من الأمر شيء، وإنما عليه البلاغ والبيان للناس.

وأما حسابهم وإزالة العذاب عليهم فمن الله تعالى، ينزله^(١) عليهم إذا جاء الأجل الذي أجله فيه، والوقت الذي قدره فيه، الموافق لحكمته الإلهية.

فإذا جاء ذلك الوقت لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون، فليحذر المكذبون من الاستعجال بالعذاب، فإنهم مستعجلون بعذاب الله الذي إذا نزل لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، ولهذا قال:

﴿٥٠ - ٥٢﴾ **﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بيئاتاً أو نهراً ما يستعجل منه المجرمون * أثم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون * ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾** يقول تعالى: **﴿قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بيئاتاً وقت نومكم بالليل﴾** «أو نهراً» في وقت غفلتكم «ماذا يستعجل منه المجرمون؟ أي: أي: بشارة استعجلوا بها؟ أي: عقاب ابتدروها؟

﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به﴾ فإنه لا ينفع الإيمان حين حلول عذاب الله، ويقال لهم توبوا وعتاباً في تلك الحال التي زعموا أنهم يؤمنون، ﴿الآن﴾ تؤمنون في حال الشدة والمشقة؟ «وقد كنتم به تستعجلون» فإن سنة الله في عباده أنه يعتهم إذا استعته قبل وقوع العذاب.

فإذا وقع العذاب لا ينفع نفساً إيمانها، كما قال تعالى عن فرعون، لما أدركه الغرق **﴿قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾** وأنه يقال له: ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾.

وقال تعالى: **﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا﴾** سنة الله التي قد خلت في عباده. وقال هنا: **﴿أثم إذا ما وقع آمنتم به، الآن﴾** تدعون الإيمان^(٢)، «وقد كنتم به تستعجلون» فهذا ما عملت أيديكم، وهذا ما استعجلتم به.

﴿ثم قيل للذين ظلموا﴾ حين يوفون أعمالهم يوم القيامة: ﴿ذوقوا عذاب الخلد﴾ أي: العذاب الذي تخلدون فيه، ولا يفتر عنكم ساعة.

﴿هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون﴾ من الكفر والتكذيب والمعاصي.

﴿٥٣ - ٥٦﴾ **﴿ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين * ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون * ألا إن الله ما في السماوات والأرض إلا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون * هو يحيي ويميت وإليه ترجعون﴾** يقول تعالى لنبيه ﷺ:

﴿ويستنبئونك أحق هو﴾ أي: يستخبرك المكذبون على وجه التبعث والعناد، لا على وجه التبين والرشاد^(٣).

﴿أحق هو﴾ أي: أصحح حشر العباد، ويعثم بعد موتهم ليوم المعاد، وجزاء العباد بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر؟

﴿قل﴾ لهم مقسماً على صحته، مستدلاً عليه بالدليل الواضح والبرهان: ﴿إي وربي إنه لحق﴾ لا مرية فيه ولا شبهة تعتريه.

﴿وما أنتم بمعجزين﴾ الله أن يعثكم، فكما ابتداء خلقكم ولم تكونوا شيئاً، كذلك يعيدكم مرة أخرى ليجازيكم بأعمالكم.

﴿و﴾ إذا كانت القيامة فـ ﴿لو أن لكل نفس ظلمت﴾ بالكفر والمعاصي ﴿ما في الأرض﴾ من ذهب وفضة وغيرهما، لتفتدي به من عذاب الله ﴿لافتدت به﴾ ولما نفعها ذلك، وإنما النفع والضرر والثواب والعقاب، على الأعمال الصالحة والسيئة.

﴿وأسروا﴾ [أي] الذين ظلموا «الندامة لما رأوا العذاب» ندما على ما قدموا، ولات حين مناص، «وقضى

بينهم بالقسط﴾ أي: العدل التام الذي لا ظلم ولا جور فيه بوجه من الوجوه.

﴿ألا إن الله ما في السماوات والأرض﴾ يحكم فيهم بحكمه الديني والقدري، وسيحكم فيهم بحكمه الجزائي، ولهذا قال: ﴿ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ فذلك لا يستعدون للقاء الله، بل ربما لم يؤمنوا به، وقد تواترت عليه الأدلة القطعية والبراهين القليلة والعقالية.

﴿هو يحيي ويميت﴾ أي: هو التصرف بالإحياء والإماتة، وسائر أنواع التدبير^(٤)، لا شريك له في ذلك.

﴿وإليه ترجعون﴾ يوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم خيرها وشرها.

﴿٥٧ - ٥٨﴾ **﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين * قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾** يقول تعالى - مرغياً للخلق في الإقبال على هذا الكتاب الكريم، بذكر أوصافه الحسنة الضرورية للعباد فقال: ﴿يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم﴾ أي: تعظكم، وتذكركم عن الأعمال الموجبة

(٢) في ب: الاسترشاد.

(٤) في ب: التدابير.

(١) في ب: ينزل.

(٢) كذا في ب، وفي أ: للإيمان.



لسخط الله، المتفضية لعقابه وتحذركم عنها بيان آثارها ومفاسدها.

«وشفاء لما في الصدور» وهو هذا القرآن، شفاء لما في الصدور من أمراض الشهوات الصادة عن الانقياد للشرع وأمراض الشبهات، القاذحة في العلم اليقيني، فإن ما فيه من المواعظ والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، مما يوجب للعبد الرغبة والرغبة.

وإذا وجدت فيه الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، ونمتا على تكرر ما يرد إليها من معاني القرآن، أوجب ذلك تقديم مراد الله على مراد النفس، وصار ما يرضي الله أحب إلى العبد من شهوة نفسه.

وكذلك ما فيه من البراهين والأدلة التي صرّفها الله غاية التصريف، وبيّنها أحسن بيان، مما يزيل الشبه القاذحة في الحق، ويصل به القلب إلى أعلى درجات اليقين.

وإذا صح القلب من مرضه، ورفل بأثواب العافية، تبعته الجوارح كلها، فإنها تصلح بصلاحه، وتفسد بفساده، «وهدى ورحمة للمؤمنين» فالهedy هو العلم بالحق والعمل به.

والرحمة هي ما يحصل من الخير والإحسان، والشواب العاجل

والأجل، لمن اهتدى به، فالهedy أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والרגائب، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين.

وإذا حصل الهدى وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور.

ولذلك أمر تعالى بالفرح بذلك فقال: «قل بفضل الله» الذي هو القرآن، الذي هو أعظم نعمة ومنة، وفضل تفضل الله به على عباده «ورحمته» الدين والإيمان، وعبادة الله ومحبة ومعرفته. «فبذلك» فليفرحوا هو خير مما يجمعون» من متاع الدنيا ولذاتها.

فنعمة الدين المتصلة بسعادة الدارين، لا نسبة بينها وبين جميع ما في الدنيا، مما هو مضمحل زائل عن قريب.

وإنما أمر الله تعالى بالفرح بفضلِهِ ورحمته، لأن ذلك مما يوجب انبساط النفس ونشاطها وشكرها لله تعالى، وقوتها، وشدة الرغبة في العلم والإيمان الداعي للزيادة منهما، وهذا فرح محمود، بخلاف الفرح بشهوات الدنيا ولذاتها، أو الفرح بالباطل، فإن هذا مذموم كما قال [تعالى عن] قوم قارون له: «لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين».

وكما قال تعالى في الذين فرحوا بما عندهم من الباطل الناقض لما جاءت به الرسل: «فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم».

«٥٩ - ٦٠» «قل رأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً قل الله أذن لكم أم على الله تفترون * وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون» يقول تعالى - منكرأ على المشركين الذين ابتدعوا

تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم^(١) -: «قل رأيتم ما أنزل الله لكم من رزق» يعني أنواع الحيوانات المحللة، التي جعلها الله رزقاً لهم ورحمة في حقهم. قل لهم - مويخا على هذا القول الفاسد -: «الله أذن لكم أم على الله تفترون» ومن المعلوم أن الله لم يأذن لهم فعلم أنهم مفترون.

«وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة» أن يفعل الله بهم من النكال، ويحل بهم من العقاب، قال تعالى: «ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة».

«إن الله لذو فضل على الناس» كثير، وذو إحسان جزيل، ولكن أكثر الناس لا يشكرون، إما أن لا يقوموا بشكرها، وإما أن يستعينوا بها على معاصيه، وإما أن يحرموا منها، ويردوا ما من الله به على عباده، وقليل منهم الشاكر الذي يعترف بالنعمة، ويشني بها على الله ويستعين بها على طاعته.

ويستدل بهذه الآية على أن الأصل في جميع الأطعمة الحل، إلا ما ورد الشرع بتحريمه، لأن الله أنكر على من حرم الرزق الذي أنزله لعباده.

«٦١» «وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض وفي السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين» يخبر تعالى عن عموم مشاهدته واطلاعه على جميع أحوال العباد في حركاتهم وسكناتهم، وفي ضمن هذا الدعوة لمراقبته على الدوام فقال: «وما تكون في شأن» أي: حال من أحوالك الدينية والدنيوية. «وما تتلو منه من قرآن» أي: وما تتلو من القرآن الذي أوحاه الله إليك.

«ولا تعملون من عمل» صغير أو كبير «إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه» أي: وقت شروءكم فيه واستمراركم على العمل به.



وافك وبيتان .

فإن كانوا صادقين في أنها شركاء لله، فليظهروا من أوصافها ما تستحق به مثقال ذرة من العبادة، فلن يستطيعوا، فهل منهم أحد يخلق شيئاً أو يرزق، أو يملك شيئاً من المخلوقات، أو يدبر الليل والنهار الذي جعله الله قياماً للناس؟

و «هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه» في النوم والراحة بسبب الظلمة، التي تغطي وجه الأرض، فلو استمر الضياء لما قرؤوا ولما سكنوا.

«و» جعل الله «النهار مبصراً» أي: مضيئاً، يبصر به الخلق، فيتصرفون في معاشهم، ومصالح دينهم ودنياهم.

«إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون» عن الله سمع فهم وقبول واسترشاد، لا سمع تعنت وعناد، فإن في ذلك لآيات لقوم يسمعون، يستدلون بها على أنه وحده المعبود وأنه الإله الحق، وأن إلهية ما سواه باطلة، وأنه الرؤوف الرحيم العليم الحكيم.

«٦٨ - ٧٠» قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض إن عندكم من سلطان هذا أنقولون على الله ما لا تعلمون * قل إن الذين يفترون على الله الكذب

لا يفلحون * متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون» يقول تعالى خبراً عن بهت المشركين لرب العالمين «قالوا اتخذ الله ولداً» فنزه نفسه عن ذلك بقوله: «سبحانه» أي: تنزه عما يقول الظالمون في نسبة النقص إلى علواً كبيراً، ثم برهن على ذلك بعدة براهين:

أحدها: قوله: «هو الغني» أي: الغنى منحصر فيه، وأنواع الغنى مستفرقة فيه، فهو الغني الذي له الغنى التام بكل وجه واعتبار من جميع الوجوه، فإذا كان غنياً من كل وجه، فلا ي: شيء يتخذ الولد؟

أحاجة منه إلى الولد، فهذا مناف لغناه فلا يتخذ أحد ولداً إلا لنقص في غناه.

البرهان الثاني، قوله: «له ما في السماوات وما في الأرض» وهذه كلمة جامعة عامة لا يخرج عنها موجود من أهل السماوات والأرض، الجميع مخلوقون عبيد مالك.

ومن المعلوم أن هذا الوصف العام ينافي أن يكون له منهم ولد، فإن الولد من جنس والده، لا يكون مخلوقاً ولا مملوكاً. فملكه لما في السماوات والأرض عموماً تنافي الولادة.

البرهان الثالث، قوله: «إن عندكم من سلطان بهذا» أي: هل عندكم من حجة وبرهان يدل على أن الله ولداً، فلو كان لهم دليل لأبدوه، فلما تخذاهم وعجزهم عن إقامة الدليل، علم بطلان ما قالوه. وأن ذلك قول بلا علم، ولهذا قال: «أنقولون على الله ما لا تعلمون» فإن هذا من أعظم المحرمات.

«قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون» أي: لا يتألون مطلوبهم، ولا يحصل لهم مقصودهم، وإنما يتمتعون في كفرهم وكذبهم في الدنيا قليلاً، ثم ينتقلون إلى الله ويرجعون إليه، فيذيقهم العذاب

الشديد بما كانوا يكفرون. «وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون».

«٧١ - ٧٣» «واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبير عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فاجمعوا أمركم وشركاءكم ثم توليتهم فما لي ولا تنظرون * فإن توليتهم فما سألتكم من أجر إن أجرينى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين *

فكذبوه فتجنبتاه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلافت وأغرقتنا الذين كذبوا بآياتنا فانظر كيف كان عاقبة المنذرين» يقول تعالى لنبيه: «واتل على قومك نبأ نوح» في دعوته لقومه، حين دعاهم إلى الله مدة طويلة، فمكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، فلم يزداهم دعاؤه إياهم إلا طغياناً، فتملأوا منه وشموا، وهو عليه الصلاة والسلام غير متكاسل، ولا متوان في دعوتهم، فقال لهم: «يا قوم إن كان كبير عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله» أي: إن كان مقامي عندكم وتذكيري إياكم ما ينفعكم^(١) «بآيات الله» الأدلة الواضحة البينة، قد شق عليكم وعظم لديكم، وأردتم أن تتألوني بسوء أو تردوا الحق. «فعلى الله توكلت» أي: اعتمدت على الله في دفع كل شر يراد بي، وبما أذعروا إليه، فهذا جندي وعذتي. وأنتم فاتوا بما قدرتم عليه، من أنواع العذ والعُد.

«فاجمعوا أمركم» كلكم، بحيث لا يتخلف منكم أحد، ولا تدخروا^(٢) من مجهودكم شيئاً.

«و» أحضروا «شركاءكم» الذي كنتم تعبدونهم وتألونهم من دون الله رب العالمين.

«ثم لا يكن أمركم عليكم غمعة» أي: مشتبهأ خفياً، بل ليكن ذلك ظاهراً علانية.

«ثم اقضوا لي» أي: اقضوا علي بالعقوبة والسوء الذي في إمكانكم، «ولا تنظرون» أي: لا تمهلون ساعة

من نهار. فهذا برهان قاطع، وآية عظيمة على صحة رسالته، وصدق ما جاء به، حيث كان وحده لا عشيرة تحميه، ولا جنود تؤويه.

وقد بادأ^(١) قومه بتسفيه آرائهم وفساد دينهم وعيب آلهتهم. وقد حلوا من بغضه وعداوته ما هو أعظم من الجبال الرواسي، وهم أهل القدرة والسطوة، وهو يقول لهم: اجتمعوا أنتم وشركاؤكم ومن استطعتم، وأبدوا كل ما تقدرون عليه من الكيد، فأوقعوا بي إن قدرتم على ذلك، فلم يقدروا على شيء من ذلك.

فعلم أنه الصادق حقاً، وهم الكاذبون فيما يدعون، ولهذا قال: ﴿فإن توليتم﴾ عن ما دعوتكم إليه، فلا موجب لتوليكم، لأنه تبين أنكم لا تولون عن باطل إلى حق، وإنما تولون عن حق قامت الأدلة على صحته، إلى باطل قامت الأدلة على فساده.

ومع هذا ﴿فما سألتكم من أجر﴾ على دعوتي وعلى إجابتيكم، فتقولوا: هذا جاءنا ليأخذ أموالنا، فتمتنعون لأجل ذلك.

﴿إن أجري إلا على الله﴾ أي: لا أريد الثواب والجزاء إلا منه، ﴿و﴾ أيضاً فإني ما أمرتكم بأمر وأخالفكم إلى ضده، بل ﴿أمرت أن أكون من المسلمين﴾ فأننا أول داخل وأول فاعل لما أمرتكم به.

﴿فكذبوه﴾ بعدما دعاهم ليلاً ونهاراً سراً وجهاراً، فلم يزداهم دعاؤه إلا فراراً، ﴿فنجيأه ومن معه في الفلك﴾ الذي أمرناه أن يصنعه بأعيننا، وقلنا له إذا فار التنور: ف ﴿احل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن﴾ ففعل ذلك.

فأمر الله السماء بماء منهمر وفجر الأرض عيوناً، فالتقى الماء على أمر قد قدر: ﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾ تجري بأعيننا، ﴿وجعلناهم

خلائف﴾ في الأرض بعد إهلاك الكاذبين.

ثم بارك الله في ذريته، وجعل ذريته هم الباقين، ونشرهم في أقطار الأرض، ﴿وأغرشنا الذين كذبوا بآياتنا﴾ بعد ذلك البيان، وإقامة البرهان، ﴿فانظر كيف كان عاقبة المنذرين﴾: هو: الهلاك المخزي، واللعة المتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم، لا تسمع فيهم إلا لوما، ولا ترى إلا قدحاً وذماً.

فليحذر هؤلاء المكذبون، أن يحل بهم ما حل بأولئك الأقوام المكذبين من الهلاك والخزي والنكال.

﴿٧٤﴾ ﴿ثم بعثنا من بعده رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ أي: ﴿ثم بعثنا﴾ من بعد نوح عليه السلام ﴿رسلاً إلى قومهم﴾ المكذبين، يدعونهم إلى الهدى، ويحذرونهم من أسباب الردى.

﴿فجاءوهم بالبينات﴾ أي: كل نبي أئيد دعوته بالآيات الدالة على صحة ما جاء به.

﴿فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل﴾ يعني: أن الله تعالى عاقبهم حيث جاءهم الرسول، فبادروا بتكذيبه، طبع الله على قلوبهم، وحال بينهم وبين الإيمان بعد أن كانوا متمكنين منه، كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ أي: نختم عليها، فلا يدخلها خير، وما ظلمهم [الله]، ولكنهم ظلموا أنفسهم بردهم الحق لما جاءهم، وتكذيبهم الأول.

﴿٧٥﴾ ﴿ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون﴾ إلى آخر القصة^(٢). أي: ﴿ثم بعثنا﴾ من بعد هؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله إلى القوم المكذبين

المهلكين.

﴿موسى﴾ بن عمران سليم الرحمن، أحد أولى العزم من المرسلين، وأحد الكبار المقتدى بهم، المنزل عليهم الشرائع المعظمة الواسعة.

﴿و﴾ جعلنا معه أخاه ﴿هارون﴾ وزيراً بعثناهما ﴿إلى فرعون وملئه﴾ أي: كبار دولته ورؤسائهم، لأن عامتهم تبع للرؤساء.

﴿بآياتنا﴾ الدالة على صدق ما جاء به من توحيد الله، والنهي عن عبادة ما سوى الله تعالى، ﴿فاستكبروا﴾ عنها ظلماً وعلواً، بعدما استيقنوها. ﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾ أي: وصفهم الإجماع والتكذيب.

﴿٧٦﴾ ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ الذي هو أكبر أنواع الحق وأعظمها، وهو من عند الله الذي خضعت لعظمته الرقاب، وهو رب العالمين المربي جميع خلقه بالنعم.

فلما جاءهم الحق من عند الله على يد موسى، ردوه فلم يقبلوه، و﴿قالوا إن هذا لسحر مبين﴾ لم يكفهم - قبضهم الله - إعراضهم ولا ردهم إياه، حتى جعلوه أبطل الباطل، وهو السحر: الذي حقيقته التمويه، بل جعلوه سحراً مبيناً ظاهراً، وهو الحق

(١) في النسختين: بادية.

(٢) في بأكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾.



الإيمان .

﴿فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾
أي : اعتمدوا عليه ، والجؤوا إليه
واستنصروه .

﴿٨٥﴾ ﴿فقالوا﴾ ممثلين لذلك
﴿على الله توكلنا ربنا لا نجعلنا فتنه
للقوم الظالمين﴾ أي : لا تسلطهم علينا
يفتتنوا ، أو يغلبونا فيفتتنوا بذلك ،
ويقولون : لو كانوا على حق لما غلبوا .

﴿٨٦﴾ ﴿ونحنا برحمتك من القوم
الكافرين﴾ لنسلم من شرهم ، ولنقيم
[على] ديننا على وجه نتمكن به من إقامة
شرائعه ، وإظهاره من غير معارض ولا
منازع .

﴿٨٧﴾ ﴿وأوحينا إلى موسى
وأخيه﴾ حين اشتد الأمر على قومهما
من فرعون وقومه ، وحرصوا على
قتلهم عن دينهم .
﴿أن تبوأ لقومكما بمصر بيوتاً﴾
أي : مروهم أن يجعلوا لهم بيوتاً
يتمكنون [به] من الاستخفاء فيها .
﴿واجعلوا بيوتكم قبلة﴾ أي :
اجعلوها محلاً تصلون فيها ، حيث
عجزتم عن إقامة الصلاة في الكنائس
والبيع العامة .

﴿واقبموا الصلاة﴾ فإنها معونة على
جميع الأمور ، ويشر المؤمنين بالنصر
والتأييد وإظهار دينهم ، فإن مع العسر
يسراً ، إن مع العسر يسراً ، وحين اشتد
الكرب وضاق الأمر ، فرّجه الله
ووسعه ، فلما رأى موسى القسوة
والإعراض من فرعون وملئه ^(١) ، دعا
عليهم وأمن هارون على دعائه ، فقال :

﴿٨٨﴾ ﴿ربنا إنك أتيت فرعون
وملأه زينة﴾ يتزينون بها من أنواع الخلي
والثياب ، والبيوت المزخرفة ، والمراكب
الفاخرة ، والخدام ، ﴿وأموالاً عظيمة
﴿في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن
سبيلك﴾ أي : إن أموالهم لم يستعينوا
بها إلا على الإضلال في سبيلك ،
فيضلون ويضلون .

﴿ربنا اطمس على أموالهم﴾ أي :

أتلفها عليهم : إما بالهلاك ، وإما
بجعلها حجارة غير متفّع بها .
﴿واشد على قلوبهم﴾ أي : قسها
﴿فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب
الآليم﴾ .

قال ذلك غضباً عليهم ، حيث
تجرؤوا على محارم الله ، وأفسدوا
عباد الله ، وصدوا عن سبيله ، ولكمال
معرفته بربه ، بأن الله سيعاقبهم على ما
فعلوا ، بإغلاق باب الإيمان عليهم .

﴿٨٩﴾ ﴿قال﴾ الله تعالى ﴿قد
أجيب دعوتكما﴾ هذا دليل على أن
موسى [كان] يدعو ، وهارون يؤمن
على دعائه ، وأن الذي يؤمن يكون
شريكاً للداعي في ذلك الدعاء .

﴿فاستقما﴾ على دينكما ، واستمرا
على دعوتكما ، ﴿ولا تتبعان سبيل
الذين لا يعلمون﴾ أي : لا تتبعان
سبيل الجهال الضلال ، المنحرفين عن
الصراط المستقيم ، المتبعين لطرق
الجحيم ، فأمر الله موسى أن يسري
ببني إسرائيل ليلاً ، وأخبره أنهم
يُتبعون ، وأرسل فرعون في المداخن
حاشرين يقولون : ﴿إن هؤلاء﴾ أي :
موسى وقومه : ﴿لشرذمة قليلون﴾
ولأنهم لنا لغائظون * وإنا لجميع
حاذرون﴾ .

فجمع جنوده قاصيهم ودانيهم ،
فأتبعهم بجنوده ، بغياً وعدواً ، أي :
خروجهم باغين على موسى وقومه ،
ومعتدين في الأرض ، وإذا اشتد البغي
واستحكم الذنب فانظر العقوبة .

﴿٩٠﴾ ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل
البحر﴾ وذلك أن الله أوحى إلى موسى
لما وصل البحر ، أن يضربه بعصاه
فضربه ، فانفلق اثني عشر طريقاً ،
وسلكه بنو إسرائيل ، وساق فرعون
وجنوده خلفه ^(٢) داخلين .

فلما استكمل موسى وقومه
خارجين من البحر ، وفرعون وجنوده
داخلين فيه ، أمر الله البحر فالتطم على
فرعون وجنوده ، فأغرقهم ، وبنو

قال قد أجبت دعوتكما فاستقما ولا تتبعان
سبيل الذين لا يعلمون • • • ونحن بيني وبينكم
فأستقموا دعوتهم وجنودهم وعدواً حتى إذا أدركه
الغمر قال ماتت أملاً لله لا اله الا الله ماتت بين يدي
والذين بالشك • • • قال وقد عصيت قبل وكنت
من المفسدين • • • قال فلو لم نجعلك بيدك لكان
خلفك • • • قال وكنت من الكافرين عن الذين الغيرون
ولقد أتانا بنو إسرائيل بل مبشراً صديقاً وذرقة فممن
فأما نحن فأتيناهم فجاءهم الجور أن يكذبوا بيوتهم
التي هم فيها كما كانوا يخجلون • • • فإن كنت في شك
من أنزلنا إليك مثل الذي بقرعك من الكذب فيك
لقد جاءك الحق من ربك فلا تكون من المشككين • • •
ولا تكون من الذين كذبوا بآيات الله فيكون من المفسدين
• • • إن الذي كذب عليه كذبك ترك لا يؤمن • • •
• • • ولقد علمتكم على أي حق يروا العذاب الآليم • • •

إسرائيل ينظرون .

حتى إذا أدرك فرعون الغمر ،
وجزم بهلاكه ﴿قال آمنتم أنه لا إله إلا
الذي آمنتم به بنو إسرائيل﴾ وهو الله
الإله الحق الذي لا إله إلا هو ﴿وأنا
من المسلمين﴾ أي : المنقادين
لدين الله ، ولما جاء به موسى .

﴿٩١﴾ قال الله تعالى - مبيناً أن
هذا الإيمان في هذه الحالة غير نافع
له - : ﴿الآن﴾ تؤمن ، وتقر
برسول الله ﴿وقد عصيت قبل﴾ أي :
بارزت بالمعاصي ، والكفر والتكذيب
﴿وكنت من المفسدين﴾ فلا ينفعك
الإيمان كما جرت عادة الله ، أن
الكفار إذا وصلوا إلى هذه الحالة
الاضطرارية أنه لا ينفعهم إيمانهم ،
لأن إيمانهم صار إيماناً مشاهداً كإيمان
من ورد القيامة ، والذي ينفع إنما هو
الإيمان بالغيب .

﴿٩٢﴾ ﴿فاليوم نجعلك بدنك
لتكون لمن خلفك آية﴾ قال المفسرون :
إن بني إسرائيل لما في قلوبهم من
الرب العظيم من فرعون ، كأنهم لم
يصدقوا بإغراقه ، وشكوا في ذلك ،
فأمر الله البحر أن يلقيه على نجوة
مرتفعة بيده ، ليكون لهم عبرة وآية .

﴿وإن كثيراً من الناس عن آياتنا

(١) في النسختين : وملئهم ، ولعل الصواب ما أثبت .

(٢) في أ : وجنودهم خلفهم ، وفي ب عدلت إلى : وجنوده خلفه .

تدركها أفهامنا .

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ يونسَ لَمَنَ المرسلين ﴾ إلى قوله : ﴿ فَارسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون ﴾ فآمنوا فممتناهم إلى حين ﴾ ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين ، لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه .

وأما قوم يونس فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر ، لبل قد استمر فعلاً وثبتوا عليه^(١) والله أعلم .

﴿ ٩٩ - ١٠٠ ﴾ ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِيعاً أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ يقول تعالى لنبية محمد ﷺ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جِيعاً ﴾ بأن يليهمهم الإيمان ، ويوزع قلوبهم للتقوى ، فقدرته صالحة لذلك ، ولكنه اقتضت حكمته أن كان بعضهم مؤمنين وبعضهم كافرين .

﴿ أَفَأَنْتَ تَكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي : لا تقدر على ذلك ، وليس فني إمكانك ، ولا قدرة لغير الله^(٢) [على^(٣)] شيء من ذلك .

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَوْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي : بإرادته ومشيئته وإذنه القدري الشرعي ، فمن كان من الخلق قابلاً لذلك ، يزكو عنده الإيمان ، وفقه وهذه .

﴿ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ ﴾ أي : الشر والضلال ﴿ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ عني الله أوامره ونواهيه ، ولا يلقون بالآل لنصائحه ومواعظه .

﴿ ١٠١ - ١٠٣ ﴾ ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ ثم ننجي رسلنا والذين

وأسماعهم وأبصارهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم الذي وعدوا به . فحيثيذ يعلمون حق اليقين أن ما هم عليه هو الضلال ، وأن ما جاءتهم به الرسل هو الحق . ولكن في وقت لا يجدي عليهم إيمانهم شيئاً ، فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ، وأما الآيات فلأنها تنفع من له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

﴿ ٩٨ ﴾ ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يونسَ لما آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ يقول تعالى : ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ﴾ من قرى المكذبين ﴿ آمَنَتْ ﴾ حين رأت العذاب ﴿ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ﴾ أي : لم يكن منهم أحد انتفع بإيمانه حين رأى العذاب ، كما قال تعالى عن فرعون ما تقدم قريباً ، لما قال : ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ف قيل له ﴿ لَآلَآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ .

وكما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ لعلني أعمل صالحاً فيما تركت كلا ﴾ .

والحكمة في هذا ظاهرة ، فإن الإيمان الاضطرابي ليس بإيمان حقيقة ، ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان ، لرجع إلى الكفران .

وقوله : ﴿ إِلَّا قَوْمَ يونسَ لما آمَنُوا ﴾ بعدما رأوا العذاب ، ﴿ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ فهم مستثنون من العموم السابق ، ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا ، ولم

أنهم دهرية منحلون عن جميع أديان الرسل ، وإنما انتسبوا للدين المسيحي ترويحاً لملكهم ، وقومياً لباطلهم ، كما يعرف ذلك من عرف أحوالهم البيئة الظاهرة .

وقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ ﴾ أي : الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه ولهذا قال : ﴿ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ كقوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ ﴾ .

﴿ ٩٥ ﴾ ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وحاصل هذا أن الله نهى عن شيئين : الشك في هذا القرآن والامتراء فيه .

وأشد من ذلك التكذيب به ، وهو آيات الله البينات التي لا تقبل التكذيب بوجه ، ورتب على هذا الخسار ، وهو عدم الربح أصلاً ، وذلك بفوات الثواب في الدنيا والآخرة ، وحصول العقاب في الدنيا والآخرة ، والنهي عن الشيء أمر بضده ، فيكون أمراً بالتصديق التام بالقرآن ، وطمأنينة القلب إليه ، والإقبال عليه علماً وعملاً .

فبذلك يكون العبد من الراجحين الذين أدرکوا أجل المطالب ، وأفضل الرغائب وأتم المناقب ، وانتفى عنهم الخسار .

﴿ ٩٦ - ٩٧ ﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم ﴾ يقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ﴾ أي : إنهم من الضالين الغاوين أهل النار ، لا بد أن يصيروا إلى ما قدره الله وقضاه ، فلا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ، فلا تزيدهم الآيات إلا طغياناً وغياً إلى غيهم .

وما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم بردهم للحق لما جاءهم أول مرة ، فعاقبهم الله بأن طبع على قلوبهم

(١) زيادة من هامش ب .

(٢) في النسختين : غير الله ، وكان لا بد من زيادة اللام لتستقيم العبارة .

(٣) زيادة يقتضيه السياق .

آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين ﴿يَدْعُو تَعَالَى عِبَادَهُ إِلَى التَّنَظُّرِ لِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالْمُرَادُ بِذَلِكَ: نَظَرَ الْفِكْرَ وَالْإِعْتِبَارَ وَالتَّأَمُّلَ، لِمَا فِيهَا وَمَا تَحْتَوِي عَلَيْهِ، وَالِاسْتِبْصَارَ، فَإِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، وَعِبَرًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ، تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ الْمَعْبُودَ الْمُحْمَدُودَ، ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الْعَظَامِ.

﴿وَمَا تَفْنِي الْآيَاتِ وَالنَّذْرَ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يَنْتَفِعُونَ بِالْآيَاتِ لِإِعْرَاضِهِمْ وَعِنَادِهِمْ.

﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَي: فَهَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ وَضُوحِهَا، ﴿إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أَي: مِنْ الْهَلَاكِ وَالْعِقَابِ، فَإِنَّهُمْ صَنَعُوا كَصَنِيعِهِمْ، وَسَنَةِ اللَّهِ جَارِيَةً فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.

﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ﴾ فَسَتَعْلَمُونَ لِمَنْ تَكُونُ لَهُ الْعَاقِبَةُ الْحَسَنَةُ، وَالنَّجَاةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَيْسَتْ إِلَّا لِلرَّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمْ.

ولهذا قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ مِنْ مَكَارِهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَشِدَائِدِهَا.

﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أَوْجِبْنَاهُ عَلَى أَنْفُسِنَا ﴿نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ وَهَذَا مِنْ دَفْعِهِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ اللَّهَ يَدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا، فَإِنَّهُ - بِحَسَبِ مَا مَعَ الْعَبْدِ مِنَ الْإِيمَانِ - تَحْمِلُ لَهُ النَّجَاةَ مِنَ الْمَكَارِهِ.

﴿١٠٤-١٠٦﴾ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنَّكَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ

عَمَدٌ ﷺ سِيدَ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامَ الْمُتَّقِينَ وَخَيْرَ الْمُوقِنِينَ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ أَي: فِي رَيْبٍ وَاشْتِبَاهٍ، فَإِنِّي لَسْتُ فِي شَكٍّ مِنْهُ، بَلْ لَدَيَّْ الْعِلْمُ الْبَقِيَّةُ أَنَّهُ الْحَقُّ، وَأَنْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ بَاطِلٌ، وَلِي عَلَى ذَلِكَ الْأَدْلَةُ الْوَاضِحَةُ وَالْبَرَاهِينُ السَّاطِعَةُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مِنَ الْأَنْدَادِ وَالْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا، لِأَنَّهُ لَا تَخْلُقُ وَلَا تَرْزُقُ، وَلَا تَدْبِرُ شَيْئًا مِنَ الْأُمُورِ، وَإِنَّمَا هِيَ مَخْلُوقَةٌ مَسْخَرَةٌ، لَيْسَ فِيهَا مَا يَقْضِي عِبَادَتَهَا.

﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ﴾ أَي: هُوَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ، وَهُوَ الَّذِي يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ لِيَجْزِيَكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ، فَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَيُصَلَّى لَهُ وَيُخَضَّعَ وَيُسَجَّدَ.

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أَي: أَخْلَصَ أَعْمَالَكَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ لِلَّهِ، وَأَقِمَّ جَمِيعَ شَرَائِعِ الدِّينِ حَنِيفًا، أَي: مُقْبِلًا عَلَى اللَّهِ، مُعْرِضًا عَمَّا سِوَاهُ، ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ لَا فِي حَالِهِمْ، وَلَا تَكُنْ مَعَهُمْ.

﴿١٠٦﴾ ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ وَهَذَا وَصَفَ لِكُلِّ مَخْلُوقٍ، أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَضُرُّ، وَإِنَّمَا النَّافِعُ الضَّارُّ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى.

﴿فَإِنْ فَعَلْتَ﴾ بِأَنَّ^(١) دَعْوَتَ مَنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴿فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أَي: الضَّالِّينَ أَنْفُسَهُمْ بِإِهْلَاكِهَا، وَهَذَا الظُّلْمُ هُوَ الشُّرْكُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فَإِذَا كَانَ خَيْرَ الْخَلْقِ، لَوْ دَعَا مَعَ اللَّهِ غَيْرَهُ، لَكَانَ مِنَ الظَّالِمِينَ الْمُشْرِكِينَ فَكَيْفَ بغيره!!

﴿١٠٧﴾ ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَدْلَةِ عَلَى أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ الْمُسْتَحَقُّ

لِلْعِبَادَةِ، فَإِنَّهُ النَّافِعُ الضَّارُّ، الْمُعْطِي الْمَانِعُ، الَّذِي إِذَا مَسَّ بِضُرٍّ، كَفَقَرٍ وَمَرَضٍ، وَنَحْوِهَا ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ لِأَنَّ الْخَلْقَ لَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَنْفَعُوا بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوا إِلَّا بِمَا كَتَبَهُ اللَّهُ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوا أَحَدًا لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ ضَرَرِهِ، إِذَا لَمْ يَرِدْهُ اللَّهُ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَإِنْ يَرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ أَي: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ، أَنْ يَرُدَّ فَضْلَهُ وَإِحْسَانَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ، فَلَا يُمْسِكُ لَهَا، وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مَرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أَي: يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ خَلْقِهِ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ لِجَمِيعِ الزَّلَاتِ، الَّذِي يُوَفِّقُ عَبْدَهُ لِأَسْبَابِ مَغْفِرَتِهِ، ثُمَّ إِذَا فَعَلَهَا الْعَبْدُ، غَفَرَ اللَّهُ ذَنْبَهُ كِبَارَهَا وَصِغَارَهَا.

﴿الرَّحِيمُ﴾ الَّذِي وَسَّعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَوَصَلَ جُودُهُ إِلَى جَمِيعِ الْمَوْجُودَاتِ، بِحَيْثُ لَا تَسْتَفْنِي عَنْ إِحْسَانِهِ طَرَفَةٌ عَيْنٍ، فَإِذَا عَرَفَ الْعَبْدُ بِالَدَّلِيلِ الْقَاطِعِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُنْفَرِدُ بِالنِّعَمِ، وَكَشَفَ النِّقَمَ، وَاعْطَاةِ الْحَسَنَاتِ، وَكَشَفَ السَّيِّئَاتِ وَالْكُرْبَاتِ، وَأَنْ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ، لَيْسَ بِيَدِهِ مِنْ هَذَا شَيْءٍ إِلَّا مَا أَجْرَاهُ اللَّهُ عَلَى يَدِهِ، جَزَمَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ، وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ.

ولهذا - لما بين الدليل الواضح قال بعده -

﴿١٠٨-١٠٩﴾ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * وَاتَّبِعْ مَا يُوْحِي إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ أَي: ﴿قُلْ﴾ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ، لِمَا تَبَيَّنَ الْبَرَاهَانُ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ

تفسير سورة هود عليه الصلاة والسلام، [وهي] مكية

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ * الر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير * ألا تعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير * وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير * إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير * يقول تعالى: هذا كتاب عظيم، ونزل كريم، ﴿أحكمت آياته﴾ أي: أتقنت وأحسننت، صادقة

أخبارها، عادلة أوامرها ونواهيها، فصيحة ألفاظه بية معانيه. ﴿ثم فصلت﴾ أي: ميزت وبينت بياناً في أعلى أنواع البيان، ﴿من لدن حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته، ﴿خبير﴾ مطلع على الظواهر والبواطن.

﴿٢﴾ ﴿فإذا كان إحكامه وتفصيله من عند الله الحكيم الخبير، فلا تسأل بعد هذا عن عظمته وجلالته واشتماله على كمال الحكمة وسعة الرحمة. وإنما أنزل الله كتابه لـ ﴿ألا تعبدوا إلا الله﴾ أي: لأجل إخلاص الدين كله لله، وأن لا يشرك به أحد من خلقه.

﴿إنني لكم﴾ أيها الناس ﴿منه﴾ أي: من الله ربكم ﴿نذير﴾ لمن تجرأ على المعاصي بعقاب الدنيا والآخرة، ﴿وبشير﴾ للمطيعين لله بثواب الدنيا والآخرة.

﴿٣﴾ ﴿وأن استغفروا ربكم﴾ عن ما صدر منكم من الذنوب ﴿ثم توبوا إليه﴾ فيما تستقبلون من أعماركم بالرجوع إليه، بالإنبابة والرجوع عما يكرهه الله إلى ما يحبه ويرضاه.

ثم ذكر ما يترتب على الاستغفار والتوبة فقال: ﴿يمتعكم متاعاً حسناً﴾ أي: يعطيكم من رزقه ما تتمتعون به

من ربكم ﴿أي: الخبير الصادق المؤيد بالبراهين، الذي لا شك فيه بوجه من الوجوه، وهو واصل إليكم من ربكم الذي من أعظم تربيته لكم، أن أنزل إليكم هذا القرآن الذي فيه تبيان لكل شيء، وفيه من أنواع الأحكام والمطالب الإلهية والأخلاق المرضية، ما فيه أعظم تربية لكم، وإحسان منه إليكم، فقد تبين الرشد من الغي ولم يبق لأحد شبهة.

﴿فمن اهتدى﴾ بهدى الله بأن علم الحق ونفهمه، وآثره على غيره، فلنفسه والله تعالى غني عن عباده، وإنما ثمرة أعمالهم راجعة إليهم.

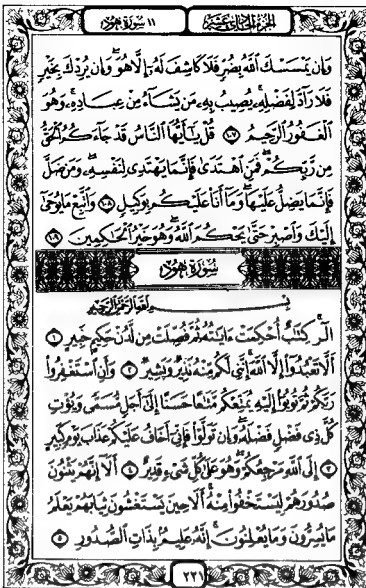
﴿ومن ضل﴾ عن الهدى بأن أعرض عن العلم بالحق، أو عن العمل به، ﴿فإنما يضل عليها﴾ ولا يضر الله شيئاً، فلا يضر إلا نفسه.

﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ فأحفظ أعمالكم وأحاسبكم عليها، وإنما أنا لكم نذير مبين، والله عليكم وكيل. فانظروا لأنفسكم ما دمتم في مدة الإمهال.

﴿واتبع﴾ أيها الرسول ﴿ما يوحى إليك﴾ علماً وعملاً وحالاً، ودعوة إليه، ﴿واصبر﴾ على ذلك، فإن هذا أعلى أنواع الصبر، وإن عاقبته حميدة، فلا تكسل ولا تضجر، بل دم على ذلك واثبت، ﴿حتى يحكم الله﴾ بينك وبين من كذبك ﴿وهو خير الحاكمين﴾ فإن حكمه مشتمل على العدل التام والقسط الذي يحمد عليه.

وقد امثل ﷺ أمر ربه، وثبت على الصراط المستقيم، حتى أظهر الله دينه على سائر الأديان، ونصره على أعدائه بالسيف والسنان، بعدما نصره [الله] عليهم بالحجة والبرهان، فلله الحمد، والثناء الحسن، كما ينبغي لجلاله وعظمته وكماله وسعة إحسانه.

تم تفسير سورة يونس والحمد لله رب العالمين



وتنتفعون.

﴿إلى أجل مسمى﴾ أي: إلى وقت وفاتكم ﴿ويؤت﴾ منكم ﴿كل ذي فضل فضله﴾ أي: يعطي أهل الإحسان والبر من فضله وبره، ما هو جزاء لإحسانهم، من حصول ما يحبون، ودفع ما يكرهون.

﴿وإن تولوا﴾ عن ما دعوتكم إليه، بل أعرضتم عنه، وربما كذبتم به ﴿فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير﴾ وهو يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين والآخرين، فيجازيهم بأعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وفي قوله: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ كالدليل على إحياء الله الموتى، فإنه قدير على كل شيء^(١)، ومن جملة الأشياء إحياء الموتى، وقد أخبر بذلك وهو أصدق القائلين، فيجب وقوع ذلك عقلاً ونقلاً.

﴿٥﴾ ﴿ألا إنهم يشنون صدورهم ليستخفوا منه ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين، وشدة ضلالهم، أنهم ﴿يشنون صدورهم﴾ أي: يميلونها ﴿ليستخفوا﴾ من الله، فتنقع صدورهم

«أخلصه وأصوبه».

قيل يا أبا علي: «ما أخلصه وأصوبه»؟.

فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً، لم يقبل.

وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً.

والخالص: أن يكون لوجه الله، والصواب: أن يكون متبعاً فيه الشرع والسنة، وهذا كما قال تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾.

وقال تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهما، لتعلموا أن الله على كل شيء قدير، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً﴾. فله تعالى خلق الخلق لعبادته ومعرفته بأسمائه وصفاته، وأمرهم بذلك، فمن انقاد، وأدى ما أمر به، فهو من الفلاحين، ومن أعرض عن ذلك، فأولئك هم الخاسرون، ولا بد أن يجمعهم في دار يجازيهم فيها على ما أمرهم به ونهاهم.

ولهذا ذكر الله تكذيب المشركين بالجزاء، فقال: ﴿ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين﴾.

أي: ولئن قلت لهؤلاء وأخبرتهم بالبعث بعد الموت، لم يصدقوك، بل كذبوك أشد التكذيب^(١)، وقدحوا فيما جئت به، وقالوا: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾. ألا وهو الحق المبين.

﴿ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة﴾ أي: إلى وقت مقدر فتابووه، لقالوا من جهلهم وظلمهم ﴿ما يحسه﴾ ومضمون هذا تكذيبهم به، فإنهم يستدلون بعدم وقوعه بهم عاجلاً على كذب الرسول المخبر بوقوع العذاب، فما أبعد هذا الاستدلال!!

﴿ألا يوم يأتيهم﴾ العذاب ﴿ليس مصروفاً عنهم﴾ فيتمكنون من النظر في أمرهم.

﴿وحاق بهم﴾ أي: نزل ﴿ما كانوا

جميع ما دب على وجه الأرض، من آدمي، أو حيوان بري أو بحري، فله تعالى قد تكفل بأرزاقهم وأقواتهم، فزرقها^(٢) على الله.

﴿ويعلم مستقرها ومستودعها﴾ أي: يعلم مستقر هذه الدواب، وهو: المكان الذي تقيم فيه وتستقر فيه، وتأوي إليه، ومستودعها: المكان الذي تنتقل إليه في ذهابها وبجبتها، وعوارض أحوالها.

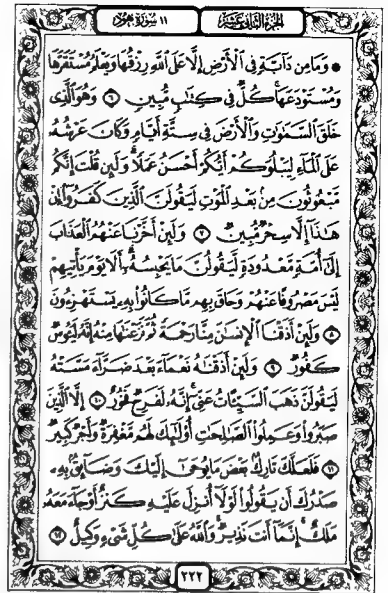
﴿كل﴾ من تفاصيل أحوالها ﴿في كتاب مبين﴾ أي: في اللوح المحفوظ المحتوي على جميع الحوادث الواقعة، والتي تقع في السموات والأرض. الجميع قد أحاط بها علم الله، وجرى بها قلمه، ونفذت فيها مشيئته، ووسعها رزقه، فلتطمئن القلوب إلى كفاية من تكفل بأرزاقها، وأحاط علماً بذواتها، وصفاتها.

﴿٧-٨﴾ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء ليليلوكم أيكم أحسن عملاً ولئن قلت إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين * ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحسه الأ يوم يأتيهم ليس مصروفاً عنهم وحق بهم ما كانوا به يستهزون* يخبر تعالى أنه ﴿خلق السموات والأرض في ستة أيام﴾ أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة ﴿و﴾ حين خلق السموات والأرض ﴿كان عرشه على الماء﴾ فوق السماء السابعة.

فبعد أن خلق السموات والأرض استوى عليه، يدبر الأمور، ويصرفها كيف شاء من الأحكام القدرية، والأحكام الشرعية. ولهذا قال: ﴿ليليلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي: ليمتحنكم، إذ خلق لكم ما فتي السموات والأرض بأمره ونهيه، فينظر أيكم أحسن عملاً.

قال الفضيل بن عياض رحمه الله:

(٢) كذا في ب، وفي أ: أشد الكذب.



حاجة لعلم الله بأحوالهم، وبصره لهياتهم.

قال تعالى - مبيناً خطاهم في هذا الظن - ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ أي: يتغطون بها، يعلمهم في تلك الحال، التي هي من أخفى الأشياء.

بل ﴿يعلم ما يسرون﴾ من الأقوال والأفعال ﴿وما يعلنون﴾ منها، بل ما هو أبغ من ذلك، وهو: ﴿إنه عليهم بذات الصدور﴾ أي: بما فيها من الإدادات، والوساوس، والأفكار التي لم ينطقوا بها، سرّاً ولا جهرّاً، فكيف تخفى عليه حالكم، إذا نيتهم صدوركم لتستخفوا منه.

ويحتمل أن المعنى في هذا أن الله يذكر إعراض المكذبين للرسول الغافلين عن دعوته، أنهم - من شدة إعراضهم - يشنون صدورهم، أي: يحدّدون حين يرون الرسول ﷺ لثلا يراهم ويسمعهم دعوته، ويعظمهم بما ينفعهم، فهل فوق هذا الإعراض شيء!!

ثم نودعهم بعلمه تعالى بجميع أحوالهم، وأنهم لا يخفون عليه، وسيجازيهم بصنيعهم.

﴿٦﴾ ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾ أي:

(١) في ب: فزرقهم.

به يستهزؤون ﴿من العذاب، حيث تهاونوا به، حتى جزموا بكذب من جاء به.﴾

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور ﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ﴿إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة وأجر كبير﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان، أنه جاهل ظالم بأن الله إذا أذاقه منه رحمة كالصحة والرزق، والأولاد، ونحو ذلك، ثم نزعها منه، فإنه يستسلم لليأس، وينقاد للحنوط، فلا يرجو ثواب الله، ولا يحظر بباله أن الله سيردها أو مثلها، أو خيراً منها عليه.﴾

وأنه إذا أذاقه رحمة من بعد ضراء مسته، أنه يفرح ويبطر، ويظن أنه سيدوم له ذلك الخير، ويقول: ﴿ذهب السيئات عني، إنه لفرح فخور﴾ أي: فرح^(١) بما أوتي مما يوافق هوى نفسه، فخور بنعم الله على عباد الله، وذلك يحمله على الأشتر والبطر والإعجاب بالنفس، والتكبر على الخلق، واحتقارهم وازدراءهم، وأي: عيب أشد من هذا؟!﴾

وهذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من وفقه الله وأخرجه من هذا الخلق الذميم إلى ضده، وهم الذين صبروا أنفسهم عند الضراء فلم ييأسوا، وعند السراء فلم يبطروا، وعملوا الصالحات من واجبات ومستحبات.

﴿أولئك لهم مغفرة ﴿لذنبهم، يزول بها عنهم كل عذور.﴾ وأجر كبير ﴿وهو: الفوز بجنت النعيم، التي فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين.﴾

﴿١٢ - ١٤﴾ ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن

يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل ﴿أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴿فإن يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾ يقول تعالى - مسلماً لنبيه محمد ﷺ عن تكذيب المكذبين -: ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز﴾ أي: لا ينبغي هذا لملك، أن قولهم يؤثر فيك، ويصدق عما أنت عليه، فتترك بعض ما يوحى إليك، ويضيق صدرك لتعتهم بقولهم: ﴿لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك﴾ فإن هذا القول ناشئ من تعنت، وظلم، وعناد، وضلال، وجهل بمواقع الحجج والأدلة، فامض على أمرك، ولا تصدك هذه الأقوال الركيكة التي لا تصدر إلا من سفيه ولا يضيق لذلك صدرك.﴾

فهل أوردوا عليك حجة لا تستطيع حلها؟ أم قدحوا ببعض ما جئت به قدحاً، يؤثر فيه وينقص قدره، فيضيق صدرك لذلك؟!﴾

أم عليك حسابهم، ومطالب بعبادتهم جبراً؟ ﴿إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل﴾ فهو الوكيل عليهم، يحفظ أعمالهم ويجازيهم بها أتم الجزء.

﴿أم يقولون افتراه﴾ أي: افتري عمد هذا القرآن؟

فأجابهم بقوله: ﴿قل﴾ لهم ﴿فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ أنه قد افتراه^(٢)، فإنه لا فرق بينكم وبينه في الفصاحة والبلاغة، وأنتم الأعداء حقاً، الحريصون بغاية ما يمكنكم على إبطال

دعوته، فإن كنتم صادقين، فأتوا بعشر سور مثله مفتريات.

﴿فإن لم يستجيبوا لكم﴾ على شيء من ذلكم ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ [من عند الله]^(٣) لقيام الدليل والمقتضي، وانتفاء المعارض.

﴿وأن لا إله إلا هو﴾ أي: واعلموا أنه لا إله إلا هو أي: هو وحده المستحق للالوهية والعبادة، ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أي: منقادون لألوهيته، مستسلمون لعبوديته، وفي هذه الآيات إرشاد إلى أنه لا ينبغي للداعي إلى الله أن يصده اعتراض المعارضين، ولا قدح القادحين.

خصوصاً إذا كان القدح لا مستند له، ولا يقدر فيمادعاً إليه، وأنه لا يضيق صدره، بل يطمئن بذلك، ماضياً على أمره، مقبلاً على شأنه، وأنه لا يجب إجابة اقتراحات المقترحين للأدلة التي يتخارونها. بل يكفي إقامة الدليل السالم عن المعارض، على جميع المسائل والمطالب. وفيها أن هذا القرآن، معجز بنفسه، لا يقدر أحد من البشر أن يأتي بمثله، ولا بعشر سور من مثله، بل ولا بسورة من مثله، لأن الأعداء البلغاء الفصحاء، تحداهم الله بذلك، فلم يعارضوه، لعلمهم أنهم لا قدرة فيهم على ذلك.

وفيها: أن بما يطلب فيه العلم، ولا يكفي غلبة الظن، علم القرآن، وعلم التوحيد، لقوله تعالى: ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو﴾.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون﴾ يقول تعالى: ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ أي: كل إرادته مقصورة على الحياة الدنيا، وعلى زينتها

(١) في ب: يفرح.

(٢) في ب: أي: أنه قد افتراه.

(٣) في ب: ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ [من عند الله] والجملة الأخيرة قد شطبت في أ.

ويدخل في هذا كل من كذب على الله، بنسبة الشريك له، أو وصفه بما لا يليق بجلاله، أو الإخبار عنه، بما لم يقل، أو ادعاء النبوة، أو غير ذلك من الكذب على الله، فهؤلاء أعظم الناس ظلماً ﴿أولئك يعرضون على ربهم﴾ ليجازيهم بظلمهم، فعندما يحكم عليهم بالعقاب الشديد ﴿يقول الشهداء﴾ أي: الذين شهدوا عليهم بافترائهم وكذبهم: ﴿هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ أي: لعنة لا تنقطع، لأن ظلمهم صار وصفاً لهم ملازماً، لا يقبل التخفيف.

ثم وصف ظلمهم فقال: ﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ فصدوا بأنفسهم عن سبيل الله، وهي سبيل الرسل التي دعوا الناس إليها، وصدوا غيرهم عنها، فصاروا أئمة يدعون إلى النار.

﴿ويبغونها﴾ أي: سبيل الله ﴿عوجاً﴾ أي: يمحطون في ميلها، وتشينها، وتهجينها، لتصير عند الناس غير مستقيمة، فيحسنون الباطل ويقبحون الحق، قبحهم الله ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾.

﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض﴾ أي: ليسوا فائتين الله، لأنهم تحت قبضته وفي سلطانه.

﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ فيدفعون عنهم المكروه، أو يحصلون لهم ما ينفعهم، بل تقطعت بهم الأسباب.

﴿يضاعف لهم العذاب﴾ أي: يغلظ ويزاد، لأنهم ضلوا بأنفسهم وأضلوا غيرهم.

﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾ أي: من بغضهم للحق ونفورهم عنه، ما كانوا يستطيعون أن يسمعو آيات الله سماعاً ينتفعون به ﴿فما لهم من التذكرة معرضين﴾ كأنهم حرم مستنفرة ﴿فرت من قسورة﴾ وما كانوا يبصرون ﴿أي: ينظرون نظر

أوحاه الله وشرعه، وعلم بعقله حسنه، فازداد بذلك إيماناً إلى إيمانه. ﴿و﴾ ثم شاهد ثالث وهو ﴿كتاب موسى﴾ التوراة التي جعلها الله ﴿إماماً﴾ للناس ﴿ورحمة﴾ لهم، يشهد لهذا القرآن بالصدق، ويوافقه فيما جاء به من الحق.

أي: أفمن كان بهذا الوصف قد تواردت عليه شواهد الإيمان، وقامت لديه أدلة اليقين، كمن هو في الظلمات والجهالات ليس بخارج منها؟! لا يستوون عند الله، ولا عند عباد الله، ﴿أولئك﴾ أي: الذين وفقوا لقيام الأدلة عندهم، ﴿يؤمنون﴾ بالقرآن حقيقة، فيشمر لهم إيمانهم كل خير في الدنيا والآخرة.

﴿ومن يكفر به﴾ أي: القرآن ﴿من الأحزاب﴾ أي: سائر طوائف أهل الأرض، المتحزبة على رد الحق، ﴿فالنار موعده﴾ لا بد من وروده إليها ﴿فلا تك في مرية منه﴾ أي: في أدنى شك ﴿إنه الحق من ربك ولكن أكثر

الناس لا يؤمنون﴾ إما جهلاً منهم وضلالاً، وإما ظلماً وعناداً وبغياً، وإلا فممن كان قصده حسناً وفهمه مستقيماً، فلا بد أن يؤمن به، لأنه يرى ما يدعوه إلى الإيمان من كل وجه. ﴿١٨ - ٢٢﴾ ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يعرضون على ربهم ويقول الشهداء هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين﴾ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون ﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض وما كان لهم من دون الله من أولياء يضاعف لهم العذاب ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون﴾ أولئك الذين خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ يخبر تعالى أنه لا أحد ﴿أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾

من النساء والبنين والقناطير المقنطرة، من الذهب، والفضة، والخيول المسومة، والأنعام والحراث. قد صرف رغبته وسعيه وعمله في هذه الأشياء، ولم يجعل لدار القرار من إرادته شيئاً، فهذا لا يكون إلا كافراً، لأنه لو كان مؤمناً، لكان ما معه من الإيمان يمنعه أن تكون جميع إرادته للدار الدنيا، بل نفس إيمانه وما تيسر له من الأعمال أثر من آثار إرادته الدار الآخرة.

ولكن هذا الشقي، الذي كأنه خلق للدنيا وحدها ﴿نوف إليهم أعمالهم فيها﴾ أي: تعطيهما ما قسم لهم في أم الكتاب من ثواب الدنيا.

﴿وهم فيها لا يبخسون﴾ أي: لا ينقصون شيئاً مما قدر لهم، ولكن هذا منتهى نعيمهم.

﴿أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار﴾ خالدين فيها أبداً، لا يُقْتَر عنهم العذاب، وقد حرموا جزيل الثواب.

﴿وحبط ما صنعوا فيها﴾ أي: في الدنيا، أي: بطل واضمحل ما عملوه مما يكيدون به الحق وأهله، وما عملوه من أعمال الخير التي لا أساس لها، ولا وجود لشرطها، وهو الإيمان.

﴿١٧﴾ ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة أولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده فلا تك في مرية منه إنه الحق من ربك ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ يذكر تعالى حال رسوله محمد ﷺ ومن قام مقامه من ورثته القانتين بدينه، وحججه الموقنين بذلك، وأنهم لا يوصف بهم غيرهم ولا يكون أحد مثلهم، فقال: ﴿أفمن كان على بينة من ربه﴾ بالوحي الذي أنزل^(١) الله فيه المسائل المهمة، ودلائلها الظاهرة، فتقن تلك البينة.

﴿ويتلوه﴾ أي: يتلو هذه البينة والبرهان برهان آخر ﴿شاهد منه﴾ وهو شاهد الفطرة المستقيمة، والعقل الصحيح، حين شهد حقيقة ما

السلام بقوله: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ﴾ أي: إن اقتضت مشيئته وحكمته أن ينزله بكم، فعل ذلك. ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ الله، وأنا ليس بيدي من الأمر شيء.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: إن إرادة الله غالبية، فإنه إذا أراد أن يغويكم لردكم الحق، فلو حرصت غاية مجهودي، ونصحت لكم أتم النصح - وهو قد فعل عليه السلام - فليس ذلك بنافع لكم شيئاً، ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ يفعل بكم ما يشاء، ويحكم فيكم بما يريد ﴿وَالِيهِ تَرْجِعُونَ﴾ فيجازيكم بأعمالكم.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ هذا الضمير محتمل أن يعود إلى نوح كما كان السياق في قصته مع قومه، وأن المعنى أن قومه يقولون: افترى على الله كذباً، وكذب بالوحي الذي يزعم أنه من الله، وأن الله أمره أن يقول: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِيَ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا يَجْرُمُونَ﴾ أي: كل عليه وزره ﴿وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾.

ويحتمل أن يكون عائداً إلى النبي محمد ﷺ، وتكون هذه الآية معترضة في أثناء قصة نوح وقومه، لأنها من الأمور التي لا يعلمها إلا الأنبياء، فلما شرع الله في قصصها على رسوله، وكانت من جملة الآيات الدالة على صدقه ورسالته، ذكر تكذيب قومه له مع البيان التام، فقال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أي: هذا القرآن اختلقه محمد من تلقاء نفسه، أي: فهذا من أعجب الأقوال وأبطلها، فإنهم يعلمون أنه لم يقرأ ولم يكتب، ولم يرحل عنهم لدراسة على أهل الكتب، فجاء بهذا الكتاب الذي تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله.

فإذا زعموا - مع هذا - أنه افتراه، علم أنهم معاندون، ولم يبق فائدة في حجاجهم، بل اللائق في هذه الحال الإعراض عنهم، ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِيَ إِجْرَامِي﴾ أي: ذنبي

والأصلح، وتدبرون الأمور.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي: غاييتي أني رسول الله إليكم، أبشركم وأنذركم، وأما ما عدا ذلك فليس بيدي من الأمر شيء، فليست خزائن الله عندي أدبرها أنا، وأعطي من أشاء وأحرم من أشاء، ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ فأخبركم بسر أتركهم وبواطنكم ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ والمعنى: أني لا أدعي رتبة فوق رتبتي، ولا منزلة سوى المنزلة التي أنزلني الله بها، ولا أحكم على الناس بظني.

﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ أَمْ يَضَعُ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَحْتَقرُهُمُ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لن يؤتيتهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم، فإن كانوا صادقين في إيمانهم فلهم الخير الكثير، وإن كانوا غير ذلك فحسابهم على الله.

﴿إِنِّي إِذَا﴾ أي: إن قلت لكم شيئاً مما تقدم ﴿لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ وهذا تأييس منه عليه الصلاة والسلام لقومه، أن ينبذ فقراء المؤمنين أو يمتقهم، وتقنع لقومه بالطرق المقتعة للمنصف.

فلما رآه لا ينكف عما كان عليه من دعوتهم، ولم يدركوا منه مطلوبهم ﴿قَالُوا يَا نُوْحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ من العذاب ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فما أجهلهم وأضلهم، حيث قالوا هذه المقالة لنبيهم الناصح.

فهلا قالوا إن كانوا صادقين: يا نوح قد نصحتنا وأشقت علينا، ودعوتنا إلى أمر لم يبين لنا فريد منك أن تبينه لنا لننقاد لك، وإلا فأنت مشكور في نصحك. لكان هذا الجواب المنصف، الذي قد دعي إلى أمر خفي عليه، ولكنهم في قولهم كاذبون، وعلى نبيهم متجرؤون. ولم يردوا ما قاله بأدنى شبهة، فضلاً عن أن يردوه بحجة.

ولهذا عدلوا - من جهلهم وظلمهم - إلى الاستعجال بالعذاب، وتعجيز الله، ولهذا أجابه نوح عليه



وافترأوكم علينا صادراً لنا عما كنا عليه. وإنما غايته أن يكون صادراً لكم أنتم، وموجباً لعدم انقيادكم للحق، الذي تزعمون أنه باطل، فإذا وصلت الحال إلى هذه الغاية، فلا نقدر على إكراهكم على ما أمر الله، ولا إلزامكم ما نفرتم عنه، ولهذا قال: ﴿أَنْزِلْكُمْ مَعَهُمْ وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ وبما قوم لا أسألكم عليه: أي: على دعوتي إياكم ﴿مَالاً﴾ فتستثقلون الغرم.

﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ وكأنهم طلبوا منه طرد المؤمنين الضعفاء، فقال لهم: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ما ينبغي لي ولا يليق بي ذلك، بل أتلقاهم بالرحب والإكرام، والإعزاز والإعظام ﴿إِنَّهُمْ مَلَاقُوا رَبَّهُمْ فَمَنْهُمْ عَلَى إِيْمَانِهِمْ وَتَقْوَاهُمْ بَجَنَاتِ النِّعَمِ﴾.

﴿وَلَكِنِّي أُرَاكُمْ قَوْمًا يَجْهَلُونَ﴾ حيث تأمروني بنفي بطرد أولياء الله وإبعادهم عني، وحيث رددتم الحق لأنهم أتباعه، وحيث استدللتم على بطلان الحق بقولكم إنني بشر مثلكم وإنه ليس لنا عليكم من فضل.

﴿وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُمْ﴾ أي: من يعنني من عذابه، فإن طردهم موجب للعذاب والنكال الذي لا يمنعه من دون الله مانع.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما هو الأنفع لكم

إن آمنوا زادهم قوة إلى قوتهم.

﴿ولا تتولوا﴾ عنه، أي: عن ربكم
﴿مجرمين﴾ أي: مستكبرين عن
عبادته، متجرئين على محارمه.

ف ﴿قالوا﴾ رادين لقوله: ﴿يا هود
ما جئتنا ببينة﴾ إن كان قصدهم بالبينة
البينة التي يقترحونها، فهذه غير لازمة
للحق، بل اللازم أن يأتي النبي بآية تدل
على صحة ما جاء به، وإن كان قصدهم
أنه لم يأتهم ببينة تشهد لما قاله بالصحة،
فقد كذبوا في ذلك، فإنه ما جاء نبي
لقومه إلا وبعث الله على يديه من
الآيات ما يؤمن على مثله البشر.

ولو لم يكن له آية، إلا دعوته إياهم
لإخلاص الدين لله وحده لا شريك
له، والأمر بكل عمل صالح وخلق
جميل، والنهي عن كل خلق ذميم من
الشرك بالله، والفواحش والظلم،
 وأنواع المنكرات، مع ما هو مشتمل
عليه هود عليه السلام من الصفات التي
لا تكون إلا لخيار الخلق وأصدقهم،
كفى بها آيات وأدلة على صدقه.

بل أهل العقول وأولو الأبواب،
يرون أن هذه الآية أكبر من مجرد
الخوارق التي يراها بعض الناس، هي
المعجزات فقط. ومن آياته وبياناته الدالة
على صدقه، أنه شخص واحد، ليس له
أنصار ولا أعوان، وهو يصرخ في
قومه ويناديهم، ويعجزهم، ويقول
لهم: ﴿إني توكلت على الله ربي
وربكم﴾.

﴿إني أشهد الله واشهدوا أني بريء
مما تشركون من دونه فكيدي جميعاً ثم
لا تنظرون﴾ وهم الأعداء الذين لهم
السطوة والغلبة، ويريدون إطفاء ما
معه من النور، بأي: طريق كان وهو
غير مكتثر منهم، ولا مبال بهم،
وهم عاجزون لا يقدر أن ينالوه
بشيء من السوء، إن في ذلك لآيات
لقوم يعقلون.

وقولهم: ﴿وما نحن بتاركي آلِهتنا

فاحمد الله واشكره، واصبر على ما
أنت عليه من الدين القويم، والصراف
المستقيم والدعوة إلى الله ﴿إن العاقبة
للمتقين﴾ الذين يتقون الشرك وسائر
المعاصي، فستكون لك العاقبة على
قومك، كما كانت لنوح على قومه.

﴿٥٠ - ٦٠﴾ ﴿وإلى عاد أخاهم
هوداً﴾ إلى آخر القصة^(١). أي: ﴿وإلى
أرسلنا﴾ إلى عاد ﴿وهم القبيلة المعروفة
في الأحقاف، من أرض اليمن،
﴿أخاهم﴾ في النسب ﴿هوداً﴾
ليتمكنوا من الأخذ عنه والعلم
بصدقه.

ف ﴿قال﴾ لهم ﴿يا قوم اعبدوا الله
ما لكم من إله غيره إن أنتم لمؤمنون﴾
أي: أمرهم بعبادة الله وحده، ونهاهم
عما هم عليه من عبادة غير الله،
وأخبرهم أنهم قد افترخوا على الله
الكذب في عبادتهم لغيره، وتجويزهم
لذلك، ووضح لهم وجوب
عبادة الله، وفساد عبادة ما سواه.

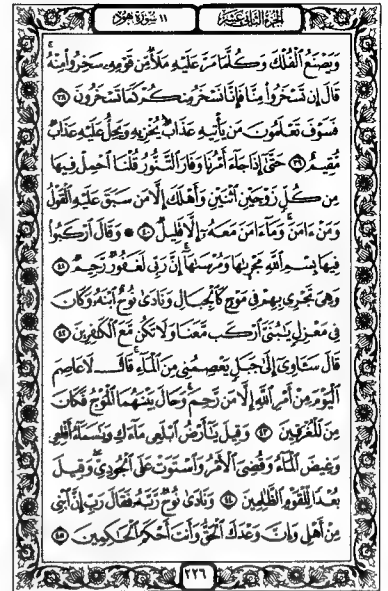
ثم ذكر عدم المانع لهم من الانقياد
فقال: ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً﴾
أي: غرامة من أموالكم على ما
دعوتكم إليه، فتقولوا: هذا يريد أن
يأخذ أموالنا، وإنما أَدْعُوكُمْ وأعلمكم
مجاناً.

﴿إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا
تعتلون﴾ ما أَدْعُوكُمْ إليه، وأنه موجب
لقبولة، متتبع المانع عن رده.

﴿ويا قوم استغفروا ربكم﴾ عما
مضى منكم ﴿ثم توبوا إليه﴾ فيما
تستقبلونه بالتوبة النصوح والإنابة
إلى الله تعالى.

فإنكم إذا فعلتم ذلك ﴿يرسل
السماء عليكم مدراراً﴾ بكثرة الأمطار
التي تخصب بها الأرض، ويكثر
خيرها.

﴿ويزدكم قوة إلى قوتكم﴾ فإنهم
كانوا من أقوى الناس، ولهذا قالوا:
﴿من أشد منا قوة؟﴾، فوعدهم أنهم



فبالغفرة والرحمة ينجو العبد من أن
يكون من الخاسرين، ودل هذا على أن
نوحاً عليه السلام لم يكن عنده علم بأن
سؤاله لربه في نجاة ابنه محرم، داخل
في قوله ﴿ولا تخاطبني في الذين
ظلموا إنهم مغفون﴾ بل تعارض عنده
الأمران، وظن دخوله في قوله:
﴿وأهلك﴾.

ويعد ذلك تبين له أنه داخل في
النهي عن الدعاء لهم والمراجعة فيهم.

﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا
وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾
من الآدميين وغيرهم من الأزواج التي
حملها معه، فيارك الله في الجميع،
حتى ملأوا أقطار الأرض ونواحيها.

﴿وأمم سمتهم﴾ في الدنيا ﴿ثم
يمسهم منا عذاب اليم﴾ أي: هذا
الإنجاء ليس بمانع لنا من أن كفر
بعد ذلك أحلنا به العقاب، وإن متعوا
قليلاً، فسؤخذون بعد ذلك.

قال الله لنبيه محمد ﷺ بعدما قص
عليه هذه القصة البسطة التي
لا يعلمها إلا من من عليه برسالاته.

﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك
ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل
هذا﴾ فيقولوا: إنه كان يعلمها.

قلوبهم، ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ أي: خامدين لا حراك لهم.

﴿كان لم يغنوا فيها﴾ أي: كأنهم لما جاءهم العذاب ماتمتموا في ديارهم ولا أنسوا بها^(١)، ولا تنعموا بها يوماً من الدهر، قد فارقهم النعيم، وتناولهم العذاب السرمدي الذي لا ينقطع، الذي كأنه لم يزل.

﴿ألا إن ثمود كفروا بربهم﴾ أي: جحدوه بعد أن جاءتهم الآية البصرة، ﴿ألا بعداً لثمود﴾ فما أشقاهم وأذلهم، نستجير بالله من عذاب الدنيا وخزيها.

٦٩ - ٨٣ ﴿ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى﴾ إلى آخر القصة^(٢) أي: ﴿ولقد جاءت رسلنا﴾ من الملائكة الكرام، رسلنا ﴿إبراهيم﴾ الخليل ﴿بالبشرى﴾ أي: بالبشارة بالولد، حين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم أن يمروا على إبراهيم، فيبشروه بإسحاق، فلما دخلوا عليه ﴿قالوا سلاماً قال سلام﴾ أي: سلموا عليه، ورد عليهم السلام.

ففي هذا مشروعية السلام، وأنه لم يزل من ملة إبراهيم عليه السلام، وأن السلام قبل الكلام، وأنه ينبغي أن يكون الرد أبلغ من الابتداء، لأن سلامهم بالجملة الفعلية الدالة على التجدد، ورده بالجملة الاسمية، الدالة على الثبوت والاستمرار، وبينهما فرق كبير كما هو معلوم في علم العربية.

﴿فما لبث﴾ إبراهيم لما دخلوا عليه ﴿أن جاء بمجمل حنيذ﴾ أي: بادر لبيته، فاستحضر لأضيافه عجلاً مشوياً على الرضف سميئاً، فقربه إليهم فقال: ألا تأكلون؟

﴿فلما رأى أيدهم لا تصل إليه﴾ أي: إلى تلك الضيافة ﴿نكرهم وأوجس منهم خيفة﴾ وظن أنهم أتوه بشر ومكروه، وذلك قبل أن يعرف أمرهم.

وبزعمهم أن هذا من أعظم القدح في صالح، كيف قدح في عقولهم وعقول آبائهم الضالين، وكيف ينهاهم عن عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يغني شيئاً من الأحجار والأشجار ونحوها.

وأمرهم بإخلاص الدين لله ربهم الذي لم تزل نعمه عليهم تترى، وإحسانه عليهم دائماً ينزل، الذي ما بهم من نعمة إلا منه، ولا يدفع عنهم السيئات إلا هو.

﴿وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾ أي: ما زلنا شاكين فيما دعوتنا إليه شكاً مؤثراً في قلوبنا الريب. وبزعمهم أنهم لو علموا صحة ما دعاهم إليه لاتبعوه، وهم كذبة في ذلك، ولهذا بين كذبهم في قوله: ﴿قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي﴾ أي: برهان يقين مني ﴿وأتاني منه رحمة﴾ أي: من علي برسائه ووحيه، أي: أفأتابعكم على ما أنتم عليه وما تدعونني إليه؟

﴿فمن ينصروني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير﴾ أي: غير خسار وتباب وضرر ﴿ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية﴾ لها شرب من البئر يوماً، ثم يشربون كلهم من ضرعها، ولهم شرب يوم معلوم.

﴿فذروها تأكل في أرض الله﴾ أي: ليس عليكم من مؤنتها وعلفها شيء، ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ أي: بعقرها ﴿فياخذكم عذاب قريب، فعقروها فقال﴾ لهم صالح: ﴿تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب﴾ بل لا بد من وقوعه.

﴿فلما جاء أمرنا﴾ بوقوع العذاب ﴿نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ﴾ أي: نجيناهم من العذاب والخزي والفضيحة.

﴿إن ربك هو القوي العزيز﴾ ومن قوته وعزته أن أهلك الأمم الطاغية، ونجى الرسل وأتباعهم، ﴿واخذ الذين ظلموا الصبيحة﴾ العظيمة فقطعت



أقرب إليه من جبل الوريد، والقرب الخاص: قربه من عابديه وسائليه ومحبيه، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿واسجد واقترب﴾.

وفي هذه الآية، وفي قوله تعالى: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع﴾، وهذا النوع، قرب يقتضي الطافة تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لمراداتهم، ولهذا يقرن باسمه «القريب» اسمه «المجيب».

فلما أمرهم بنبيهم صالح عليه السلام، ورغبهم في الإخلاص لله وحده، ردوا عليه دعوته، وقابلوه أشنع المقابلة.

﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا﴾ أي: قد كنا نرجوك ونؤمل فيك العقل والنفع، وهذا شهادة منهم لنبينهم صالح أنه ما زال معروفاً بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأنه من خيار قومه.

ولكنه لما جاءهم بهذا الأمر الذي لا يوافق أهواءهم الفاسدة، قالوا هذه المقالة التي مضمونها أنك [قد] كنت كاملاً، والآن أخلفت ظننا فيك، وصرت بحالة لا يرجى منك خير.

وذنبه ما قالوه عنه، وهو قولهم: ﴿أنهنا أن نعبد ما يعبد آبائنا﴾

(١) في ب: فيها.

(٢) في ب: أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿وما هي من الظالمين ببيعد﴾.

ف **﴿قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط﴾** أي: إنا رسل الله، أرسلنا الله إلى إهلاك قوم لوط.

وامرأة إبراهيم **﴿قائمة﴾** تخدم أضيافه **﴿فضحككت﴾** حين سمعت بحالهم وما أرسلوا به، تعجبا.

﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ فتعجبت من ذلك و **﴿قالت يا ويلتى ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا﴾** فهذان مانعان من وجود الولد **﴿إن هذا لشيء عجيب﴾**.

﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ فإن أمره لا عجب فيه، لنفوذ مشيئته التامة في كل شيء، فلا يستغرب على قدرته شيء، وخصوصاً فيما يدبره ويمضيه لأهل هذا البيت المبارك.

﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أي: لا تزال رحمته وإحسانه وبركاته، وهي: الزيادة من خيره وإحسانه، وحلول الخير الإلهي على العبد **﴿عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾** أي: حميد الصفات، لأن صفاته صفات كمال، حميد الأفعال لأن أفعاله إحسان، وجود، وبر، وحكمة، وعدل، وقسط.

مجيد، والمجد: هو عظمة الصفات وسعتها، فله صفات الكمال، وله من كل صفة كمال أكملها وأعماها.

﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروح﴾ الذي أصابه من خيفة أضيافه **﴿وجاءته البشري﴾** بالولد التفت حينئذ إلى مجادلة الرسل في إهلاك قوم لوط، وقال لهم: **﴿إن فيها لوطاً قالوا نحن أعلم بمن فيها، لتنجينه وأهله إلا امرأته﴾**.

﴿إن إبراهيم لحليم﴾ أي: ذو خلق حسن وسعة صدر وعدم غضب عند جهل الجاهلين.

﴿أواه﴾ أي: متضرع إلى الله في جميع الأوقات، **﴿منيب﴾** أي: رجّاع إلى الله بمعرفته ومحبه، والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه، فلذلك كان يجادل عمن حثّم الله هلاكهم.

فقيل له: **﴿يا إبراهيم أعرض عن**

هذا **﴿الجدال﴾** إنه قد جاء أمر ربك **﴿بهلاكهم﴾** وإنهم آتيهم عذاب غير مردود **﴿فلا فائدة في جدالك﴾**.

﴿ولما جاءت رسلنا﴾ أي: الملائكة الذين صدروا من إبراهيم لما أتوا **﴿لوطاً﴾** سيء بهم **﴿أي: شق عليه مجيئهم، وضاق بهم ذرعاً﴾** وقال هذا يوم عصيب **﴿أي: شديد حرج، لأنه علم أن قومه لا يتركونهم، لأنهم في صور شباب جرد مرد، في غاية الكمال والجمال، ولهذا وقع ما خطر بباله﴾**.

ف **﴿وجاء قومه يهرعون إليه﴾** أي: يسرعون ويبادرون، يريدون أضيافه بالفاحشة، التي كانوا يعملونها، ولهذا قال: **﴿ومن قبل كانوا يعلمون السيئات﴾** أي: الفاحشة التي ما سبقهم عليها أحد من العالمين.

﴿قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أظهر لكم﴾ من أضيافني **﴿وهذا كما عرض لسليمان﴾** على المرأتين أن يشق الولد المختصم فيه لاستخراج الحق ولعلمه أن بناته ممنوع منالهن ولا حق لهم فيهن والمقصود الأعظم دفع هذه الفاحشة الكبرى **﴿فأتقوا الله ولا تخزون في ضيفي﴾** أي: إما أن تراعوا تقوى الله، وإما أن تراعوني في ضيفي، ولا تخزون عندهم.

﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ فينهاكم ويزجركم، وهذا دليل على مروجهم وانحلالهم من الخير والمروءة.

ف **﴿قالوا﴾** له: **﴿لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد﴾** أي: لا نريد إلا الرجال، ولا لنا رغبة في النساء.

فاشتد قلق لوط عليه الصلاة والسلام، و **﴿قال لو أن لي بكم قوة أو أوي إلى ركن شديد﴾** كقبيلة مانعة لمنعتكم.

وهذا بحسب الأسباب المحسوسة، وإلا فإنه يأتى إلى أقوى الأركان وهو الله، الذي لا يقوم لقوته أحد، ولهذا لما بلغ الأمر منتهاه واشتد الكرب

قال يقول أنه يشتر أن كنت على يسكون ربك وأنتي منه رحمة من تصرفك الله إن عصيتهم ما تريدني غير تحير **﴿وتقوه هذه آفة الله لكم آية﴾** قد رويها تآكل في أرض الله ولا تسوها يسيروا فاحذروا عذاب قومي **﴿فقد رويها فقال تسنوف دارك﴾** لذلك أتيت ذلك وعدتكم كدوب **﴿فلقاها امرأة﴾** بنتك سليمان والبيت **﴿سأولمعه منكم ومن يرضي يومئذ أن ذلك هو القوي العزيز﴾** وألذ اليت طلبوا الصيحة فأبى سحوا في ربه جندوب **﴿كان رؤسنا وفيما الآن رؤسنا كركه وأنته رؤسنا﴾** ألتد **﴿ولقد علمت رؤسنا إلهية بالنسبة﴾** قالوا سكتا قال سكتة فإني أن جاريه جندوب **﴿فلقاها﴾** ألتد **﴿فأقبل إلى نسوة كركه وأنته رؤسنا جندوب﴾** قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط **﴿وتدركا﴾** فحككت فبشرنا إلى إسحق ومن وراء إسحق يعقوب

﴿قالوا﴾ له: **﴿إنا رسل ربك﴾** أي: أخبروه بحالهم ليطمئن قلبه، **﴿لن يصلوا إليك﴾** بسوء.

ثم قال جبريل بجناحه، فطمس أعينهم، فانطلقوا يتواعدون لوطاً بمجيء الصبح، وأمر الملائكة لوطاً أن يسري بأهله **﴿يقطع من الليل﴾** أي: بجانب منه قبل الفجر بكثير، ليتمكنوا من البعد عن قريتهم.

﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي: بادروا بالخروج، وليكن همكم النجاة ولا تلتفتوا إلى ما وراءكم.

﴿إلا امرأتك إنه مصيبتها﴾ من العذاب **﴿ما أصابهم﴾** لأنها تشارك قومها في الإثم، فتدلهم على أضياف لوط إذا نزل به أضياف.

﴿إن موعدهم الصبح﴾ فكان لوطاً استعجل ذلك، فقيل له: **﴿اليس الصبح بقريب﴾** **﴿فلما جاء أمرنا﴾** بنزل العذاب وإحلاله فيهم **﴿جعلنا﴾** ديارهم **﴿عاليها سافلها﴾** أي: قلبناها عليهم **﴿وأمطرنا عليها حجارة من سجيل﴾** أي: من حجارة النار الشديدة الحرارة **﴿منضود﴾** أي: متتابعة تتبع من شد عن القرية.

﴿مسومة عند ربك﴾ أي: معلمة، عليها علامة العذاب والغضب، **﴿وما هي من الظالمين﴾** الذين يشابهون لفعل

وهذا القول الذي أخرجه بصيغة التهكم، وأن الأمر بعكسه، ليس كما ظنوه، بل الأمر كما قالوه. إن صلاته تأمره أن ينهاهم عما كان يعبد آبائهم الضالون، وأن يفعلوا في أموالهم ما يشاؤون، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأي: فحشاء ومنكر أكبر من عبادة غير الله، ومن منع حقوق عباد الله، أو سرقها بالمكاييل والموازين، وهو عليه الصلاة والسلام الحليم الرشيد.

﴿قال﴾ لهم شعيب: ﴿يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي﴾: أي: يقين وطمأنينة في صحة ما جئت به، ﴿ورزقني منه رزقاً حسناً﴾: أي: أعطاني الله من أصناف المال ما أعطاني.

﴿و﴾ أنا لا أريد أن أخالفكم إلى ما أنحكم عنه، فلست أريد أن أنحكم عن البخس في المكيال والميزان، وأفعله أنا، وحتى تتطرق إليّ التهمة في ذلك. بل ما أنحكم عن أمر إلا وأنا أول مبتدئ لتركه.

﴿إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت﴾: أي: ليس لي من المقاصد إلا أن تصلح أحوالكم وتستقيم منافعكم، وليس لي من المقاصد الخاصة لي وحدي شيء بحسب استطاعتي.

ولما كان هذا فيه نوع تركية للنفس، دفع هذا بقوله: ﴿وما توفيقي إلا بالله﴾: أي: وما يحصل لي من التوفيق لفعل الخير والانفكاك عن الشر إلا بالله تعالى، لا بحولي ولا بقوتي.

﴿عليه توكلت﴾: أي: اعتمدت في أموري ووثقت في كفايته، ﴿وإليه أنيب﴾: أي: أداء ما أمرني به من أنواع العبادات، وفي [هذا] التقرب إليه بسائر أفعال الخيرات.

وهذين الأمرين تستقيم أحوال العبد، وهما الاستعانة بربه والإنابة إليه، كما قال تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ وقال: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾.

أشياءهم﴾: أي: لا تنقصوا من أشياء الناس، فتسرقوها بأخذها بنقص المكيال والميزان.

﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾: فإن الاستمرار على المعاصي، يفسد الأديان، والعقائد، والدين، والدنيا، ويهلك الحرث والنسل.

﴿بقيت الله خير لكم﴾: أي: يكفيكم ما أبقي الله لكم من الخير، وما هو لكم، فلا تطمعوا في أمر لكم عنه غنية، وهو ضار لكم جداً.

﴿إن كنتم مؤمنين﴾: فاعملوا بمقتضى الإيمان، ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾: أي: لست بحافظ لأعمالكم ووكيل عليها، وإنما الذي يحفظها الله تعالى، وأما أنا فأبلغكم ما أرسلت به.

﴿قالوا يا شعيب أصلحك تأمرنا أن نترك ما يعبد آبائنا﴾: أي: قالوا ذلك على وجه التهكم بنبيهم، والاستبعاد لإجابتهم له.

ومعنى كلامهم: أنه لا موجب لنهيك لنا، إلا أنك تصلي لله وتتعبد له، أفإن كنت كذلك، أفوجب لنا أن نترك ما يعبد آبائنا، لقول ليس عليه دليل إلا أنه موافق لك، فكيف نتبعك ونترك آباءنا الأقدمين أولي العقول والآباء؟! وكذلك لا يوجب قولك لنا: ﴿أن نفعل في أموالنا﴾ ما قلت لنا من وفاء الكيل والميزان، وأداء الحقوق الواجبة فيها، بل لا نزال نفعل فيها ما شئنا لأنها أموالنا، فليس لك فيها تصرف.

ولهذا قالوا: في تهكمهم: ﴿إنك لأنت الحليم الرشيد﴾: أي: أنت الذي الحلم والوقار لك خلق، والرشد لك سجية، فلا يصدر عنك إلا رشد، ولا تأمر إلا برشد، ولا تنهى إلا عن غي، أي: ليس الأمر كذلك.

وقصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين: بالسفه والغواية. أي: أن المعنى: كيف تكون أنت الحليم الرشيد، وآبائنا هم السفهاء الغاؤون؟!!

وقصدهم أنه موصوف بعكس هذين الوصفين: بالسفه والغواية. أي: أن المعنى: كيف تكون أنت الحليم الرشيد، وآبائنا هم السفهاء الغاؤون؟!!



قوم لوط ﴿بعبيد﴾: فليحذر العباد أن يفعلوا كفعلهم لئلا يصيبهم ما أصابهم.

﴿٨٤ - ٩٥﴾: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾: إلى آخر القصة^(١)، أي: ﴿و﴾ أرسلنا ﴿إلى مدين﴾ القبيلة المعروفة الذين يسكنون مدين، في أدنى فلسطين ﴿أخاهم﴾: في النسب ﴿شعيباً﴾ لأنهم يعرفونه، وليتمكنوا من الأخذ عنه.

فـ ﴿قال﴾ لهم: ﴿يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾: أي: أخلصوا له العبادة، فإنهم كانوا يشركون به، وكانوا - مع شركهم - يبخسون المكيال والميزان، ولهذا ناهم عن ذلك فقال: ﴿ولا تنقصوا المكيال والميزان﴾: بل أوفوا الكيل والميزان بالقسط.

﴿إني أراكم بخير﴾: أي: بنعمة كثيرة وصحة، وكثرة أموال وبنين، فاشكروا الله على ما أعطاكم، ولا تكفروا نعمة الله فيزيلها عنكم.

﴿وإني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾: أي: عذاباً يحيط بكم، ولا يبقئ منكم باقية.

﴿وبما قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط﴾: أي: بالعدل الذي ترضون أن تعطوه، ﴿ولا تبخسوا الناس﴾

(١) في ب: أكمل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾.

﴿ويا قوم لا يجربكم شقاقي﴾ أي : لا تحملكنم مخالفتي ومشاقتي ﴿أن يصيبكم﴾ من العقوبات ﴿مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعد﴾ لا في الدار ولا في الزمان .

﴿واستغفروا ربكم﴾ عما اقترفت من الذنوب ﴿ثم توبوا إليه﴾ فيما يستقبل من أعماركم بالتوبة النصوح ، والإجابة إليه بطاعته ، وترك مخالفته .

﴿إن ربي رحيم ودود﴾ لمن تاب وأناب ، يرحمه فيغفر له ، ويتقبل توبته ويحبّه ، ومعنى الودود من أسمائه تعالى ، أنه يحب عباده المؤمنين ويحبونه ، فهو «فعل» بمعنى «فاعل» وبمعنى «مفعول» .

﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً ما تقول﴾ أي : تضجروا من نصائحه ومواعظه لهم ، فقالوا : ﴿ما نفقه كثيراً ما تقول﴾ وذلك لبغضهم لما يقول ، وفترتهم عنه .

﴿وانا لتركنا ضعيفاً﴾ أي : في نفسك لست من الكبار والرؤساء بل من المستضعفين ، ﴿ولولا رهطك﴾ أي : جماعتك وقبيلتك ﴿لرجمناك وما أنت علينا بعزير﴾ أي : ليس لك قدر في صدورنا ، ولا احترام في أنفسنا ، وإنما احترمنا قبيلتك بتركنا إياك .

ف ﴿قال﴾ لهم مترقفاً لهم : ﴿يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله﴾ أي : كيف تراعوني لأجل رهطي ، ولا تراعوني لله ، فصار رهطي أعز عليكم من الله .

﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ أي : نبذتم أمر الله وراء ظهوركم ، ولم تبالوا به ولا خفتم منه .

﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾ لا يخفى عليه من أعمالكم مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، فيجازيكم على ما عملتم أتم الجزاء .

﴿و﴾ لما أعيوه وعجز عنهم قال : ﴿يا قوم اعملوا على مكانتكم﴾ أي : على حالتكم ودينكم .

﴿إني عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه﴾ ويحل عليه عذاب مقيم

أنا أم أنتم ، وقد علموا ذلك حين وقع عليهم العذاب .

﴿وارتقبوا﴾ ما يحل بي ﴿إني معكم رقيب﴾ ما يحل بكم .

﴿ولما جاء أمرنا﴾ بإهلاك قوم شعيب ﴿نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ لا تسمع لهم صوتاً ، ولا ترى منهم حركة ﴿كان لم يغنوا فيها﴾ أي : كأنهم ما أقاموا في ديارهم ، ولا تنعموا فيها حين أتاهم العذاب .

﴿ألا بعداً لمدين﴾ إذ أهلكتها الله وأخزاها ﴿كما بعدت ثمود﴾ أي : قد اشتركت هاتان القبيلتان في السحق والبعد والهلاك .

وشعيب عليه السلام كان يسمى خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته لقومه ، وفي قصته من الفوائد والعبر شيء كثير .

منها : أن الكفار كما يعاقبون ويخاطبون بأصل الإسلام ، فكذلك بشرائعه وفروعه ، لأن شعيباً دعا قومه إلى التوحيد ، وإلى إيفاء المكيال والميزان ، وجعل الوعيد مرتباً على مجموع ذلك .

ومنها : أن نقص المكايل والموازين من كبائر الذنوب ، وتخشى العقوبة العاجلة على من تعاطى ذلك ، وأن ذلك من سرقة أموال الناس ، وإذا كان سرقتهم في المكايل والموازين موجبة للوعيد ، فسرقتهم - على وجه القهر والغلبة - من باب أولى وأحرى .

ومنها : أن الجزاء من جنس العمل ، فمن بخرس أموال الناس يريد زيادة ماله ، عوقب بنقص ذلك ، وكان سبباً لزوال الخير الذي عنده من الرزق لقوله : ﴿إني أراكم بخير﴾ أي : فلا تسبوا إلى زواله بفعلكم .

ومنها : أن على العبد أن يقنع بما آتاه الله ويقنع بالحلل عن الحرام وبالمكاسب الباحة عن المكاسب المحرمة ، وأن ذلك خير له لقوله : ﴿بقية الله خير لكم﴾ ففي ذلك من البركة وزيادة الرزق ما ليس في

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا لِبَنِي إِسْرَافِيلَ أَهْلَافًا وَأَطْفَالَ عَلَيْهِمْ
حِكْمَةً لِّئِنْ سَجِدَ لِتَصَوِّرَ شُيُوءَهُ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا
هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ • وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ
شُعَيْبًا قَالَ يَتُوبُ عَبْدُوهُ وَاللَّهُ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ فِرَةً
وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ وَإِذَا رَأَيْتُمْ
وَجْهَ لِقَائِكُمْ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ وَتَقَرُّوهُ
أَفْوَاجًا لِّلْكَفَالِ وَالَّذِينَ لَا يَحْمِلُوا وَالَّذِينَ لَا يَحْمِلُونَ
أَنْفُسَهُمْ وَلَا تَقْتُلُوا فِي الْأَرْضِ مَقْسِيَةً • قَبِضَ
اللَّهُ حَبْرَ أَكْمَرٍ كَسْتُمْ قَوْمِينَ وَمَا أَفَاءَ عَلَيْكُمْ
يَحْمِلُ • قَالُوا شُعَيْبُ أَصْلُكَ أَتُكْرَهُ أَنْ تُتْرَكَ
مَا تَشَاءُ عَاقِبَةُ الْأَوَّلِينَ فَتَقَعَلْ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَكْتُمُكَ
لَيْتَ إِلَهُكُمُ الرَّشِيدُ • قَالَ يَتُوبُ الَّذِينَ يَشْرُونَ كُتً
عَلَى شَيْءٍ مِّنْ رَبِّكَ وَرَبُّنَا سَعِيدٌ وَأَرْبَابُكُمْ
أَنْ تَحْكُمَ لَكُمْ إِنْ تَأْتِيكُمُ الْبُرْهَانُ إِلَّا الْإِصْحَاقَ
مَا تَقْتُلُونَ وَمَا تَقْتُلُونَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَالْيَاقِينُ

التكالب على الأسباب المحرمة من الحق ، وضد البركة .

ومنها : أن ذلك من لوازم الإيمان وآثاره ، فإنه رتب العمل به على وجود الإيمان ، فدل على أنه إذا لم يوجد العمل فالإيمان ناقص أو معدوم .

ومنها : أن الصلاة لم تنزل مشروعة للأنبياء المتقدمين ، وأنها من أفضل الأعمال ، حتى إنه متقرر عند الكفار فضلها ، وتقديمها على سائر الأعمال ، وأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهي ميزان للإيمان وشرائعه ، فبإقامتها تكمل أحوال العبد ، وبعدم إقامتها تختل أحواله الدينية .

ومنها : أن المال الذي يزرقه الله الإنسان - وإن كان الله قد خوله إياه - فليس له أن يصنع فيه ما يشاء ، فإنه أمانة عنده ، عليه أن يقيم حق الله فيه بأداء ما فيه من الحقوق ، والامتناع من المكاسب التي حرمها الله ورسوله ، لا كما يزعمه الكفار ومن أشبههم ، أن أموالهم لهم أن يصنعوا فيها ما يشاؤون ويختارون ، سواء وافق حكم الله أو خالفه .

ومنها : أن من تكلمة دعوة الداعي وتأماتها أن يكون أول مبادر لما يأمر غيره به ، وأول منته عما ينهى غيره عنه ، كما قال شعيب عليه السلام : ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾ ولقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لِمَ

بينه، ظهرت ظهور الشمس، ﴿إلى فرعون وملئه﴾ أي: أشرف قومه لأنهم المتبعون وغيرهم تبع لهم، فلم ينقادوا لما مع موسى من الآيات التي أراهم إياها كما تقدم بسطها في سورة الأعراف، ولكنهم ﴿فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد﴾ بل هو ضال غاي، لا يأمر إلا بما هو ضرر محض، لا جرم - لما اتبعه قومه - أرداهم وأهلكهم.

﴿يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبشئ الورد المورود﴾ * وأتبعوا في هذه: أي: في الدنيا ﴿لعنة ويوم القيامة﴾ أي: يلعنهم الله وملأته والناس أجمعون في الدنيا والآخرة.

﴿بشئ الرشد المرفود﴾ أي: بشئ ما اجتمع لهم، وترادف عليهم من عذاب الله، ولعنة الدنيا والآخرة.

ولما ذكر قصص هؤلاء الأمم مع رسلهم، قال الله تعالى لرسوله: ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك﴾ لتتذرع به، ويكون آية على رسالتك، وموعظة وذكرى للمؤمنين.

﴿منها قائم﴾ لم يتلف، بل بقي من آثار ديارهم ما يدل عليهم، ﴿و﴾ منها ﴿حصيد﴾ قد تهدمت مساكنهم، واضمحلت منازلهم، فلم يبق لها أثر، ﴿وما ظلمناهم﴾ بأخذهم بأنواع العقوبات ﴿ولكن ظلموا أنفسهم﴾ بالشرك والكفر والعناد.

﴿فما أغنت عنهم آلهم التي يدعون من دون الله من شيء﴾ لما جاء أمر ربك، وهكذا كل من التجأ إلى غير الله، لم ينفعه ذلك عند نزول الشدائد.

﴿وما زادهم غير تنبيي﴾ أي: خسار ودمار، بالضد مما خطر ببالهم. ﴿١٠٢﴾ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد: أي: يقصمهم بالعذاب ويبيدهم، ولا ينفعهم ما كانوا يدعون من دون الله من شيء.

﴿إن في ذلك﴾ المذكور من أخذه

كما أنه ينبغي ذكر ما أكرم الله به أهل التقوى عند الترغيب والحث على التقوى.

ومنها: أن التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه، ويعفى عنه فإن الله تعالى يحبه ويوده، ولا عبرة بقول من يقول: ﴿إن التائب إذا تاب، فحسبه أن يغفر له، ويعود عليه العفو، وأما عود الرد والحب فإنه لا يعود﴾. فإن الله قال: ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربي رحيم ودود﴾.

ومنها: أن الله يدفع عن المؤمنين بأسباب كثيرة، قد يعلمون بعضها وقد لا يعلمون شيئاً منها، وربما دفع عنهم بسبب قبيلتهم، أو أهل وطنهم الكفار، كما دفع الله عن شعيب رجم قومه بسبب رهطه، وأن هذه الروابط التي يحصل بها الدفع عن الإسلام والمسلمين، لا بأس بالسعي فيها، بل ربما تعين ذلك، لأن الإصلاح مطلوب على حسب القدرة والإمكان.

فعلى هذا لو ساعد المسلمون الذين تحت ولاية الكفار، وعملوا على جعل الولاية جمهورية يتمكن فيها الأفراد والشعوب من حقوقهم الدينية والدنيوية، لكان أولى من استسلامهم لدولة تقضي على حقوقهم الدينية والدنيوية، وتحصر على إبادتها، وجعلهم عملة وخداماً لهم.

نعم إن أمكن أن تكون الدولة للمسلمين وهم الحكام، فهو المتعين، ولكن لعدم إمكان هذه المرتبة، فالمرتبة التي فيها دفع ووقاية للدين والدنيا مقدمة، والله أعلم.

﴿٩٦ - ١٠١﴾ وقوله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين﴾ إلى آخر القصة^(١). يقول تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى﴾ بن عمران ﴿بآياتنا﴾ الدالة على صدق ما جاء به، كالعصا واليد ونحوهما من الآيات التي أجزاها الله على يدي موسى عليه السلام.

﴿وسلطان مبين﴾ أي: حجة ظاهرة



تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون.

ومنها: أن وظيفة الرسل وسنتهم وملتهم، وإرادة الإصلاح بحسب القدرة والإمكان، فيأتون بتحصيل المصالح وتكميلها، أو بتحصيل ما يقدر عليه منها، ويدفع المفساد وتقليلها، ويراعون المصالح العامة على المصالح الخاصة.

وحقيقة المصلحة هي التي تصلح بها أحوال العباد، وتستقيم بها أمورهم الدينية والدنيوية.

ومنها: أن من قام بما يقدر عليه من الإصلاح، لم يكن ملوماً ولا مذموماً في عدم فعله ما لا يقدر عليه، فعلى العبد أن يقيم من الإصلاح في نفسه وفي غيره ما يقدر عليه.

ومنها: أن العبد ينبغي له أن لا يتكل على نفسه طرفة عين، بل لا يزال مستعيناً بربه متوكلاً عليه، سائلاً له التوفيق، وإذا حصل له شيء من التوفيق، فلينسبه لمولاه ومسديه، ولا يعجب بنفسه لقوله: ﴿وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾.

ومنها: التهيب بأخذات الأمم وما جرى عليهم، وأنه ينبغي أن تذكر القصص التي فيها إيقاع العقوبات بالمجرمين في سياق الوعظ والزجر.

للظالمين بأنواع العقوبات، ﴿لَا يَآئِدُ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي: لعبرة ودليلاً على أن أهل الظلم والإجرام لهم العقوبة الدنيوية، والعقوبة الأخروية، ثم انتقل من هذا إلى وصف الآخرة، فقال: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لِهَ النَّاسِ﴾ أي: جمعوا لأجل ذلك اليوم للمجازاة، ول يظهر لهم من عظمة الله وسلطانه وعدله العظيم ما به يعرفونه حق المعرفة.

﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ أي: يشهده الله وملأته وجميع المخلوقين، ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ أي: إتيان يوم القيامة ﴿إِلَّا لِأَجَلٍ مُّعَدودٍ﴾ إذا انقضى أجل الدنيا وما قدر الله فيها من الخلق، فحيثما ينقلهم إلى الدار الآخرة، ويجري عليهم أحكامه الجزائية، كما أجرى عليهم في الدنيا أحكامه الشرعية.

﴿يَوْمَ يَأْتِ﴾ ذلك اليوم، ويجمع الخلق ﴿لَا تَكَلُمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ حتى الأنبياء والملائكة الكرام، لا يشفعون إلا بإذنه، ﴿فَمَنْهُمْ﴾ أي: الخلق ﴿شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ فالأشقياء هم الذين كفروا بالله وكذبوا رسله وعصوا أمره، والسعداء هم: المؤمنون المتقون.

وأما جزاؤهم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقَاؤُهُمْ﴾ أي: حصلت لهم الشقاوة والخزي والفضيحة، ﴿فَنَفِي النَّارِ﴾ منغمسون في عذابها، مشدد عليهم عقابها، ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ من شدة ما هم فيه ﴿زَفِيرٌ وَشَهِيْقٌ﴾ وهو أشنع الأصوات وأقبحها.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي: في النار التي هذا عذابها ﴿مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: خالدين فيها أبداً إلا المدة التي شاء الله أن لا يكونوا فيها، وذلك قبل دخولها، كما قاله جمهور المفسرين، فالاستثناء على هذا راجع إلى ما قبل دخولها، فهم خالدون فيها جميع الأزمان، سوى الزمن الذي قبل الدخول فيها.

﴿إِنْ رَبُّكَ فَعَالٌ لِّمَا يَرِيدُ﴾ فكل ما أراد فعله واقتضته حكمته فعله تبارك وتعالى، لا يرده أحد عن مراده.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا﴾ أي: حصلت لهم السعادة، والفلاح والفوز، ﴿فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ ثم أكد ذلك بقوله: ﴿عَطَاءٌ غَيْرُ مُجْدُوذٍ﴾ أي: ما أعطاهم الله من النعيم المقيم واللذة العالية، فإنه دائم مستمر، غير منقطع بوقت من الأوقات، نسأل الله الكريم من فضله.

﴿١٠٩﴾ ﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُفَوِّهُمُ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ يقول الله تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُ فِي مَرِيَةٍ مَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ المشركون، أي: لا تشك في حالهم، وأن ما هم عليه باطل، فليس لهم عليه دليل شرعي ولا عقلي، وإنما دليلهم وشبهتهم أنهم ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾.

ومن المعلوم أن هذا ليس بشبهة، فضلاً عن أن يكون دليلاً، لأن أقوال ما عدا الأنبياء يحتج بها لا يحتج بها، خصوصاً أمثال هؤلاء الضالين الذين كثر خطأهم وفساد أقوالهم في أصول الدين، فإن أقوالهم وإن اتفقوا عليها، فإنها خطأ وضلال.

﴿وَإِنَّا لَمُفَوِّهُمُ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ أي: لا بد أن ينالهم نصيبهم من الدنيا، مما كتب لهم وإن كثر ذلك النصيب، أو راق في عينك، فإنه لا يدل على صلاح حالهم، فإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان والدين الصحيح إلا من يحب. والحاصل أنه لا يغتر باتفاق الضالين على قول الضالين من آبائهم الأقدمين، ولا على ما خولهم الله وآتاهم من الدنيا.

﴿١١٠ - ١١٣﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي

شك منه مريب * وإن كلا لما ليو فينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير * فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا إنه بما تعملون بصير * ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تتصرون * يخبر تعالى أنه أتى موسى الكتاب الذي هو التوراة، الموجب للاتفاق على أوامره ونواهيه، والاجتماع، ولكن مع هذا فإن المنتسبين إليه اختلفوا فيه اختلافاً أضر بعقائدهم وبجامعتهم الدينية.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ بتأخيرهم وعدم معاجلتهم بالعذاب ﴿لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ بإحلال العقوبة بالظالم، ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن أخر القضاء بينهم إلى يوم القيامة، وبقوا في شك منه مريب.

وإذا كانت هذه حالهم مع كتابهم فمع القرآن الذي أوحاه الله إليك غير مستغرب من طائفة اليهود، أن لا يؤمنوا به، وأن يكونوا في شك منه مريب.

﴿وإن كلا لما ليو فينهم ربك أعمالهم﴾ أي: لا بد أن الله يقضي بينهم ^(١) يوم القيامة بحكمه العدل فيجازي كلا بما يستحقه.

الصلاة، وبيان أن الحسنات يذهبن السيئات، الجميع ﴿ذكرى للذاكرين﴾ يفهمون بها ما أمرهم الله به ونهاهم، ويمثلون لتلك الأوامر الحسنة المثمرة للخيرات، الدافعة للشرور والسيئات، ولكن تلك الأمور تحتاج إلى مجاهدة النفس والصبر عليها، ولهذا قال:

﴿واصبر﴾ أي: احبس نفسك على طاعة الله، وعن معصيته، وإلزامها لذلك، واستمر ولا تضجر.

﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ بل يتقبل الله عنهم أحسن الذي عملوا، ويجزيهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون، وفي هذا ترغيب عظيم للزوم الصبر، بتشويق النفس الضعيفة إلى ثواب الله كلما ونت وفرت.

﴿١١٦﴾ ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض إلا قليلاً ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين﴾ لما ذكر تعالى إهلاك الأمم المكذبة للرسول، وأن أكثرهم منحرفون، حتى أهل الكتب الإلهية وذلك كله يقضي على الأديان بالذهاب والاضمحلال، ذكر أنه لولا أنه جعل في القرون الماضية بقايا من أهل الخير يدعون إلى الهدى، وينهون عن الفساد والردى، فحصل من نفعهم ما بقيت به الأديان، ولكنهم قليلون جداً.

وغاية الأمر أنهم نجوا باتباعهم المرسلين، وقيامهم بما قاموا به من دينهم، ويكون حجة الله أجراها على أيديهم، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة^(١).

﴿و﴾ لكن ﴿اتباع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾ أي: اتبعوا ما هم فيه من النعيم والترف، ولم يغفوا به بدلاً.

﴿وكانوا مجرمين﴾ أي: ظالمين باتباعهم ما أترفوا فيه، فلذلك حق عليهم العقاب، واستأصلهم العذاب. وفي هذا حث لهذه الأمة أن يكون

﴿ثم لا تنصرون﴾ أي: لا يدفع عنكم العذاب إذا مسكم، ففي هذه الآية التحذير من الركون إلى كل ظالم، والمراد بالركون الميل والانضمام إليه بظلمه وموافقه على ذلك، والرضا بما هو عليه من الظلم.

وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة، فكيف حال الظلمة بأنفسهم؟! نسأل الله العافية من الظلم.

﴿١١٤ - ١١٥﴾ ﴿واقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين﴾ واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين. يأمر تعالى بإقامة الصلاة كاملة ﴿طرفي النهار﴾ أي: أوله وآخره، ويدخل في هذا صلاة الفجر، وصلات الظهر والعصر، ﴿وزلفاً من الليل﴾ ويدخل في ذلك صلاة المغرب والعشاء، ويتناول ذلك قيام الليل، فإنها بما تزلف العبد وتقربه إلى الله تعالى.

﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ أي: فهذه الصلوات الخمس، وما أحق بها من التطوعات من أكبر الحسنات، وهي: مع أنها حسنات تقرب إلى الله وتوجب الثواب، فإنها تذهب السيئات وتمحوها، والمراد بذلك الصغائر، كما قيدتها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ مثل قوله: ﴿الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر﴾، بل كما قيدتها الآية التي في سورة النساء، وهي قوله تعالى: ﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً﴾.

ذلك لعل الإشارة لكل ما تقدم من لزوم الاستقامة على الصراط المستقيم وعدم مجاوزته وتعديه، وعدم الركون إلى الذين ظلموا، والأمر بإقامة



﴿إنه بما يعملون﴾ من خير وشر ﴿خبير﴾ فلا يخفى عليه شيء من أعمالهم دقيقها وجليلها.

ثم لما أخبر بعدم استقامتهم التي أوجبت اختلافهم وافتراقهم، أمر نبيه محمداً ﷺ ومن معه من المؤمنين أن يستقيموا كما أمروا، فيسلكوا ما شرعه الله من الشرائع، ويعتقدوا ما أخبر الله به من العقائد الصحيحة، ولا يزيغوا عن ذلك يمناً ولا يسرة، ويدوموا على ذلك، ولا يطفخوا بأن يتجاوزوا ما حده الله لهم من الاستقامة.

وقوله: ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ أي: لا يخفى عليه من أعمالكم شيء، وسيجازيكم عليها، ففيه ترغيب لسلوك الاستقامة وترهيب من ضدها، ولهذا حذرهم عن الميل إلى من تعدى الاستقامة فقال: ﴿ولا تركنوا﴾ أي: لا تميلوا إلى الذين ظلموا، فإنكم إذا ملتزم إليهم وافقتموهم على ظلمهم، أو رضيت ما هم عليه من الظلم ﴿فتمسك النار﴾ إن فعلتم ذلك ﴿وما لكم من دون الله من أولياء﴾ يمنعونكم من عذاب الله، ولا يحصلون لكم شيئاً من ثواب الله.

(١) جاء في هامش أ ما نصه: (والمعروف في تفسيرها غير هذا المعنى الذي ذكر هنا، وهو أن هذا بمعنى النفي، أي: إنه لم يكن في القرون السالفة أو لو بقية... الخ، ﴿إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾ أي: لكن بقي قليل بهذه الصفة، وهو قريب من المعنى الذي ذكرنا لكن ما ذكرنا في الأصل...). ثم لم يتضح باقي الكلام لإصابته بالبلل، وهو يسير.

فيهم بقايا مصلحون لما أفسد الناس، قاثمون بدين الله، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، ويصبرونهم من العمى.

وهذه الحالة أعلى حالة يرغب فيها الراغبون، وصاحبها يكون إماماً في الدين، إذا جعل عمله خالصاً لرب العالمين.

﴿١١٧﴾ ﴿وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون﴾ أي: وما كان الله ليهلك أهل القرى بظلم منه لهم، والحال أنهم مصلحون، أي: مقيمون على الصلاح، مستمرون عليه، فما كان الله ليهلكهم إلا إذا ظلموا وقامت عليهم حجة الله.

ويحتمل أن المعنى: وما كان ربك ليهلك القرى بظلمهم السابق، إذا رجعوا وأصلحوا عملهم، فإن الله يعفو عنهم، ويمحو ما تقدم من ظلمهم.

﴿١١٨-١١٩﴾ ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين﴾ إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ﴿يخبر تعالى أنه لو شاء لجعل الناس كلهم أمة واحدة على الدين الإسلامي، فإن مشيئته غير قاصرة، ولا يمتنع عليه شيء، ولكنه اقتضت حكمته أن لا يزالون مختلفين مخالفين للصرائط المستقيم، متبعين للسبل الموصلة إلى النار، كل يرى الحق فيما قاله، والضلال في قول غيره.

﴿إلا من رحم ربك﴾ فهذه هم إلى العلم بالحق والعمل به والاتفاق عليه، فهو لاء سبقت لهم سابقة السعادة، وتداركتهم العناية الربانية والتوفيق الإلهي.

وأما من عداهم فهم مخذولون موكلون إلى أنفسهم.

وقوله: ﴿ولذلك خلقهم﴾ أي: اقتضت حكمته أنه خلقهم، ليكون منهم السعداء والأشقياء، والمتفوقون والمختلفون، والفريق الذين هدى الله،

والفريق الذين حقت عليهم الضلالة، ليتبين للعباد عدله وحكمته، وليظهر ما كمن في الطباع البشرية من الخير والشر، وليقوم سوق الجهاد والعبادات التي لا تتم ولا تستقيم إلا بالامتحان والابتلاء.

﴿و﴾ لأنه ﴿تمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ فلا بد أن يسر للنار أهلاً، يعملون بأعمالها الموصلة إليها.

﴿١٢٠-١٢٣﴾ ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ وقيل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إنا عاملون ﴿وانظروا إنا منتظرون﴾ * والله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون ﴿لما ذكر في هذه السورة من أخبار الأنبياء ما ذكر، ذكر الحكمة في ذكر ذلك، فقال: ﴿وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ أي: قلبك ليطمئن ويثبت، ويصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، فإن النفوس تأنس بالاعتداء، وتنشط على الأعمال، وتريد المنافسة لغيرها، ويتأيد الحق بذكر شواهد، وكثرة من قام به.

﴿وجاءك في هذه﴾ السورة ﴿الحق﴾ اليقين، فلا شك فيه بوجه من الوجوه، فالعلم بذلك من العلم بالحق الذي هو أكبر فضائل النفوس.

﴿وموعظة وذكرى للمؤمنين﴾ أي: يتعظون به، فيرتدعون عن الأمور المكروهة، ويذكرون الأمور المحبوبة لله فيفعلونها.

وأما من ليس من أهل الإيمان فلا تنفعهم المواعظ وأنواع التذكير، ولهذا قال: ﴿وقل للذين لا يؤمنون﴾ بعدما قامت عليهم الآيات، ﴿اعملوا على مكانتكم﴾ أي: حالتكم التي أنتم

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا رَأْيَ لَكَ مِنَ الْفِتْنَةِ شَيْءٌ
﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ كُلَّ شَيْءٍ عَلَى ظَهْرِهِمْ﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَلَا الْخُبْرُ وَلَا يَحِيطُ بِشَيْءٍ مِّنْ شَيْءٍ
عَلَيْكَ مِنَ الْبَاطِلِ مِنَ الَّذِينَ يَقُولُونَ إِنَّهُم كَانُوا فِي هَذِهِ
الْحَقِّ وَمَوْعِظَةٍ وَذِكْرٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَقُلْ لِلَّهِ لَا يُؤْمِنُونَ
أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ إِنْ أَعْيُونُ ﴿وَأَنْظُرُوا إِلَىٰ مَا تُكْمِلُونَ
﴿وَهُوَ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْأَلْوَانِ وَبِهِ يُرْجَعُ الْأَرْسَالُ
فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الرَّبِّكَ إِنَّكَ أَكْبَرُ الْمَلِكِينَ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا
عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿عَن نَّصْرِ عَلَيْكَ الْحَسَنَ
الْقَوِيَّ وَإِنَّا لَنَكْتُبُكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَنَا كُنْتُمْ
قَبْلَهُ لَوَّاعِلِينَ ﴿وَقَالَ يُوسُفُ لِي وَآيَاتِي بِأَيْدِي
أَعْدَائِي وَكَتَبْنَا الْأَنْصَارَ وَالْقُرْآنَ لِي سَجِيدًا ﴿

عليها ﴿إنا عاملون﴾ على ما كنا عليه
﴿وانظروا﴾ ما يحل بنا ﴿إنا منتظرون﴾
ما يحل بكم.

وقد فصل الله بين الفريقين، وأرى عباده نصره لعباده المؤمنين، وقمعه لأعداء الله المكذبين.

﴿والله غيب السماوات والأرض﴾ أي: ما غاب فيهما من الخفايا، والأمور الغيبية.

﴿والله يرجع الأمر كله﴾ من الأعمال والعمال، فيميز الخبيث من الطيب ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ أي: قم بعبادته، وهي جميع ما أمر الله به مما تقدر عليه، وتوكل على الله في ذلك.

﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ من الخير والشر، بل قد أحاط علمه بذلك، وجرى به قلمه، وسيجري عليه حكمه وجزاؤه.

تم تفسير سورة هود
والحمد لله رب العالمين
وصلّى الله على محمد وسلم
[وكان الفراغ من نسخه في يوم السبت
في ٢١ من شهر
ربيع الآخر ١٣٤٧هـ] (١)

المجلد الرابع من تيسير الكريم الرحمن في تفسير
كلام الرب العنان لجامعه الفقير إلى الله:
عبد الرحمن بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه
ولجميع المسلمين آمين

عبارتها ورواق معانيها، ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ أي: بما اشتمل عليه هذا القرآن الذي أوحيناه إليك، وفضلناك به على سائر الأنبياء، وذلك محض مئة من الله وإحسان. ﴿وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ أي: ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحى الله إليك، ولكن جعلناه نوراً يهدي به من نشاء من عبادنا.

ولما مدح ما اشتمل عليه هذا القرآن من القصص، وأنها أحسن القصص على الإطلاق، فلا يوجد من القصص في شيء من الكتب مثل هذا القرآن، ذكر قصة يوسف، وأبيه وإخوته، القصة العجيبة الحسنة، فقال:

﴿٤-٦﴾ ﴿إذ قال يوسف لأبيه

يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً

والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين *

قال يا بني لا تقصص رؤياك على

إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان

للإنسان عدو مبين *

ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث

وینم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما

أتمها على أبويك من قبل إبراهيم

وإسحاق إن ربك عليم حكيم *

وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ أَنَّهُ يَقْصُصُ عَلَى رَسُولِهِ أَحْسَنَ

القصص في هذا الكتاب، ثم ذكر هذه

القصة وبسطها، وذكر ما جرى فيها،

فعلم بذلك أنها قصة تامة كاملة حسنة،

فمن أراد أن يكملها أو يحسنها بما يذكر

في الإسرائيليات التي لا يعرف لها

سند ولا ناقل وأغلبها كذب، فهو

مستدرك على الله، ومكمل لشيء

يزعم أنه ناقص، وحسبك بأمر ينتهي

إلى هذا الحد قبلاً، فإن تضايف هذه

السورة قد ملئت في كثير من التفسير،

من الأكاذيب والأمور الشنيعة المناقضة

لما قصه الله تعالى بشيء كثير.

فعلى العبد أن يفهم عن الله ما

قصه، ويدع ما سوى ذلك مما ليس عن

النبي ﷺ، يتقل.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ

وهكذا إذا أراد الله أمراً من الأمور العظام قدم بين يديه مقدمة، توطئة له، وتسهيلاً لأمره، واستعداداً لما يرد على العبد من المشاق، لطفاً بعبد، وإحساناً إليه، فأولها يعقوب بأن الشمس: أمه، والقمر: أبوه، والكواكب: إخوته، وأنه ستنتقل به الأحوال إلى أن يصير إلى حال يخضعون له، ويسجدون له إكراماً وإعظاماً، وأن ذلك لا يكون إلا بأسباب تتقدمه من اجتناء الله له، واصطفائه له، وإتمام نعمته عليه بالعمل والتمكين في الأرض.

وأن هذه النعمة ستشمل آل يعقوب، الذين سجدوا له وصاروا تبعاً له فيها، ولهذا قال:

﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾ أي:

يصطفيك ويختارك بما يمن به عليك

من الأوصاف الجليلة والمناقب الجميلة،

﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ أي:

من تعبیر الرؤيا، وبيان ما تؤول إليه

الأحاديث الصادقة، كالكتب السماوية

ونحوها، ﴿وینم نعمته عليك﴾ في

الدنيا والآخرة، بأن يؤتيك في الدنيا

حسنة، وفي الآخرة حسنة، ﴿كما

أتمها على أبويك من قبل إبراهيم

وإسحاق﴾ حيث أنعم الله عليهما،

بنعم عظيمة واسعة، دينية، ودنيوية.

﴿إن ربك عليم حكيم﴾ أي: علمه

محيط بالأمور، وبما احتوت عليه

ضمان العباد من البر وغيره، فيعطي

كل ما تقتضيه حكمته وحده، فإنه

حكيم يضع الأشياء مواضعها، وينزلها

منازلها.

ولما بان تعبيرها ليوسف، قال له

أبوه:

﴿يا بني لا تقصص رؤياك على

قَالَ يُوسُفُ لَا أَقْصِصُهَا عَلَى إِخْوَتِي وَكَيْدُوا لِي كَيْدًا
إِنَّ النَّاسَ لِرَأْيِي لَافْسِدُونَ * وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ
رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُرِيكَ نَاصِيئَكَ
وَمَا يَأْتِيكَ مِنْ نَفْسٍ فَكَأْتَهُمْ عَلَى أَنْبَاءِ نَفْسِكَ
إِنْ رَأَيْتَ عَلَيْكَ كَيْدَهُمْ * لَقَدْ كَانَتْ فِي يَوْسُفَ وَخَوَافِهِ
يَا نَبِيَّ السَّكِينَةِ * إِذْ قَالَ يُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَهِ
إِلَيْنَا مِنْكَ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا فِي مَكَلٍ رَئِيسَ
يُوسُفَ أَوَّلَ رُوحِهِ أَهْبَأَهُ لَعْنَةً وَرَبُّهُ لِيُكْرِهَهُمْ وَتَكْرَهُوا
مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْمًا مَصِلِينَ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَنْتَقِلْ
يُوسُفَ وَالْقَوْمُ فِي غِيَابَتِهِمْ أَنْجَى لَهُمْ بَعْضُ السَّكِينَةِ
فَإِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ يَا أَبَتَا مَا لَكَ لَأَقَامُنَا عَلَى يُوسُفَ
وَمَا أَتَيْنَا بِشَيْءٍ * أَوْسَى سَكِينًا رِزْقًا وَمَنْ يَتَوَكَّلْ
لَا يَحْزَنْ مِنْ شَيْءٍ * قَالَ إِنْ لَيْتَ رَأْيِي أَنْ تَدُلَّنِي عَلَيْهِ وَلَسْتُ
أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْوَيْلُ مِنْ رَبِّكُمْ وَتُنَاسِئُ عَنْهُ طُفُولُكُمْ * قَالُوا لَنْ
أَكْفَهُ الْوَيْلُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنْ آتَاكَ الْكُفْرُوكَ * ٣١١

تفسير سورة يوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الر تلك آيات الكتاب المبين * إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ يخبر تعالى أن آيات القرآن هي ﴿آيات الكتاب المبين﴾ أي: البين الواضحة الفاظه ومعانيه، ومن بيانه وإيضاحه:

أنه أنزله باللسان العربي، أشرف الأسنة، وأبينها، المبين لكل ما يحتاجه الناس من الحقائق النافعة^(١) وكل هذا الإيضاح والتبيين ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي: لتعقلوا حدوده وأصوله وفروعه، وأوامره ونواهيه.

فلماذا عقلتم ذلك بليقائكم، واتصفت قلوبكم بمعرفتها، أثمر ذلك عمل الجوارح والانقياد إليه، و ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي: تزداد عقولكم بتكرر المعاني الشريفة العالية، على أذهانكم، فتنتقلون من حال إلى أحوال أعلى منها وأكمل.

﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ وذلك لصدقها وسلاسة

﴿١٠﴾ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين * أي: قال قائل من إخوة يوسف الذين أرادوا قتله أو تبيعيده: ﴿لا تقتلوا يوسف﴾ فإن قتله أعظم إثماً وأشنع، والمقصود يحصل بتبيعيده عن أبيه من غير قتل، ولكن توصلوا إلى تبيعيده بأن تلقيه ﴿في غيابة الجب﴾ وتتوعدوه على أنه لا يخبر بشأنكم، بل على أنه عبد مملوك أبق منكم، لأجل أن يلتقطه بعض السيارة الذين يريدون مكاناً بعيداً، فيحفظون فيه.

وهذا القائل أحسنهم رأياً في يوسف، وأبرهم وأتقاهم في هذه القضية، فإن بعض الشر أهون من بعض، والضرر الخفيف يدفع به الضرر الثقيل، فلما اتفقوا على هذا الرأي.

﴿١١ - ١٤﴾ قالوا يا أبانا ما لك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون * أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون * قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون * قالوا لن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذا لخاسرون * أي: قال إخوة يوسف، متوصلين إلى مقصدهم لأبيهم: ﴿يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون﴾ أي: لأي شيء يدخلك الخوف منا على يوسف، من غير سبب ولا موجب؟ ﴿و﴾ الحال ﴿إنا له لناصحون﴾ أي: مشفقون عليه، نود له ما نود لأنفسنا، وهذا يدل على أن يعقوب عليه السلام لا يترك يوسف يذهب مع إخوته للبرية ونحوها.

فلما نفوا عن أنفسهم التهمة المانعة من عدم إرساله معهم، ذكروا له من مصلحة يوسف وأنسه الذي يحبه أبوه له، ما يقتضي أن يسمح بإرساله معهم، فقالوا:

﴿أرسله معنا غداً يرتع ويلعب﴾ أي: يتنزه في البرية ويستأنس، ﴿وإنا له لحافظون﴾ أي: سنراعيه، ونحفظه من أذى يريده. فأجابهم بقوله: ﴿إني ليحزنني أن

إخوتك فيكيدوا لك كيداً﴾ أي: حسداً من عند أنفسهم، أن تكون أنت الرئيس الشريف عليهم.

﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ لا يفتر عنه ليلاً ولا نهاراً، ولا سراً ولا جهاراً، فالبعد عن الأسباب التي يتسلط بها على العبد أولى، فامتثل يوسف أمر أبيه، ولم يخبر إخوته بذلك، بل كتمها عنهم.

﴿٧ - ٩﴾ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين * إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين * اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين * يقول تعالى: ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات﴾ أي: عبر وأدلة على كثير من المطالب الحسنة، ﴿للسائلين﴾ أي: لكل من سأل عنها بلسان الحال أو بلسان المقال، فإن السائلين هم الذين ينتفعون بالآيات والعبر، وأما المعرضون فلا ينتفعون بالآيات، ولا في القصص والبيانات.

﴿إذ قالوا﴾ فيما بينهم: ﴿ليوسف وأخوه﴾ بنيامين، أي: شقيقه، وإلا فكلهم إخوة، ﴿أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة﴾ أي: جماعة، فكيف يفضلهما علينا بالمحبة والشفقة، ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ أي: لفي خطأ بين، حيث فضلهما علينا من غير موجب نراه، ولا أمر نشاهده.

﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾ أي: غيبوه عن أبيه في أرض بعيدة لا يتمكن من رؤيته فيها.

فإنكم إذا فعلتم أحد هذين الأمرين يخل لكم وجه أبيكم * أي: يتفرغ لكم، ويقبل عليكم بالشفقة والمحبة، فإنه قد اشتغل قلبه بيوسف شغلاً لا يتفرغ لكم، ﴿وتكونوا من بعده﴾ أي: من بعد هذا الصنيع ﴿قوماً صالحين﴾ أي: تتوبون إلى الله، وتستغفرون من بعد ذنبكم.

فقدموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهلاً لفعله، وإزالة لشناعته، وتنشيطاً من بعضهم لبعض.



تذهبوا به * أي: مجرد ذهابكم به يحزنني ويشق علي، لأنني لا أقدر على فراقه، ولو مدة يسيرة، فهذا مانع من إرساله ﴿و﴾ مانع ثان، وهو أني أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون * أي: في حال غفلتكم عنه، لأنه صغير لا يتمتع من الذئب.

﴿قالوا لن أكله الذئب ونحن عصبة﴾ أي: جماعة، حريصون على حفظه، ﴿إنا إذا لخاسرون﴾ أي: لا خير فينا ولا نفع يرجى منا إن أكله الذئب وغلبنا عليه.

فلما مهدوا لأبيهم الأسباب الداعية لإرساله، وعدم الموانع، سمح حيثنذ بإرساله معهم لأجل أنه.

﴿١٥ - ١٨﴾ فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يعملوه في غيابة الجب وأوحينا إليه لتبينهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون * وجاءوا أباهم عشاء بيكون * قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين * وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون * أي: لما ذهب إخوة يوسف بيوسف بعد ما أذن له أبوه، وعزموا على أن يعملوه في غيابة الجب، كما قال قائلهم السابق ذكره، وكانوا قادرين على ما أجمعوا عليه، فنفذوا فيه قدرتهم، وألقوه في

منهم، فاشترؤهم بذلك الثمن، واستوثقوا منهم فيه لئلا يهرب، والله أعلم.

﴿٢١﴾ وقال الذي اشتراه من مصر لامراته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولذا وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٢٢﴾ أي: لما ذهب به السيارة إلى مصر وباعوه بها، فاشتره عزيز مصر، فلما اشتراه، أعجب به، ووصى عليه امرأته وقال: ﴿أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولذا﴾ أي: إما ينفعنا كمنع العبيد بأنواع الخدم، وإما أن نستمتع فيه استمتاعنا بأولادنا، ولعل ذلك أنه لم يكن لهما ولد، وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴿٢٣﴾ أي: كما يسرنا أن يشتريه عزيز مصر، ويكرمه هذا الإكرام، جعلنا هذا مقدمة لتمكينه في الأرض من هذا الطريق.

﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ إذا بقي لا شغل له ولا هم له سوى العلم صار ذلك من أسباب تعلمه علماً كثيراً، من علم الأحكام، وعلم التعبير، وغير ذلك، ﴿والله غالب على أمره﴾ أي: أمره تعالى نافذ، لا يبطله مبطل، ولا يغلبه مغالب، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ فلذلك يجري منهم ويصدر ما يصدر، في مغالبة أحكام الله القدريّة، وهم أعجز وأضعف من ذلك.

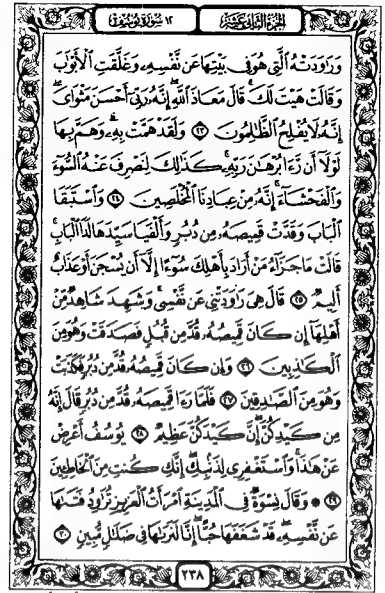
﴿٢٢﴾ ﴿ولما بلغ أشده آتيته حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي: ﴿لما بلغ﴾ يوسف ﴿أشده﴾ أي: كمال قوته المعنوية والحسية، وصلاح لأن يتحمل الأحوال الثقيلة، من النبوة والرسالة، ﴿آتيته حكماً وعلماً﴾ أي: جعلناه نبياً رسولاً، وعالماً ربانياً، ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادة الخالق ببذل الجهد والنصح فيها، وإلى عباد الله ببذل النفع والإحسان إليهم، نؤتيهم من جملة الجزاء على إحسانهم

أبوههم بذلك، و ﴿قال﴾: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ أي: زينت لكم أنفسكم أمراً قبيحاً في التفريق بيني وبينه، لأنه رأى من القرائن والأحوال لومين رؤيا يوسف التي قصّها عليه^(١) ما دلّه على ما قال.

﴿فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون﴾ أي: أما أنا فوظيفتي سأحرص على القيام بها، وهي أن أصبر على هذه المحنة صبراً جليلاً، سالماً من السخط والتشكي إلى الخلق، وأستعين الله على ذلك، لا على حولي وقوتي، فوعد من نفسه هذا الأمر وشكى إلى خالقه في قوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ لأن الشكوى إلى الخالق لا تنافي الصبر الجميل، لأن النبي إذا وعد وفي.

﴿١٩ - ٢٠﴾ ﴿وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فتأدّى لدوله قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون﴾ وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين ﴿٢١﴾ أي: مكث يوسف في الحب ما مكث، حتى ﴿جاءت سيارة﴾ أي: قافلة تريد مصر، ﴿فأرسلوا واردهم﴾ أي: فرطهم ومقدمهم، الذي يعس لهم لهم المياه، ويسبرها ويستعد لهم بتهيئة الخياض ونحو ذلك، ﴿فتأدّى﴾ ذلك الوارد ﴿لدوله﴾ فتعلق فيه يوسف عليه السلام وخرج، ﴿قال يا بشرى هذا غلام﴾ أي: استبشر وقال: هذا غلام نفيس، ﴿وأسروه بضاعة﴾ وكان إخوته قريباً منه، فاشتره السيارة منهم، ﴿بثمن بخس﴾ أي: قليل جداً، فسرّه بقوله: ﴿دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾.

لأنه لم يكن لهم قصد إلا تغيبه وإبعاده عن أبيه، ولم يكن لهم قصد في أخذ ثمنه، والمعنى في هذا: أن السيارة لما وجدوه، عزموا أن يُسْرِروا أمره، ويجعلوه من جملة بضائعهم التي معهم، حتى جاءهم إخوته فزعموا أنه عبد أبى



الجب، ثم إن الله لطف به بأن أوحى إليه وهو في تلك الحال الحرجة، ﴿لننبئهم بأسهم﴾ هذا وهم لا يشعرون ﴿٢٢﴾ أي: سيكون منك معاناة لهم، وإخبار عن أمرهم هذا، وهم لا يشعرون بذلك الأمر، ففيه بشارة له، بأنه سينجو مما وقع فيه، وأن الله سيجمعه بأهله وإخوته على وجه العز والتمكين له في الأرض.

﴿وجاؤوا أباهم عشاء يبكون﴾ ليكون إتيانهم متأخراً عن عادتهم، وبكائهم دليلاً لهم، وقريئة على صدقهم، فقالوا - متعذرين^(١) - بغير كاذب -، يا أبانا إنا ذهبنا نستبق ﴿إما على الأقدام، أو بالرمي والنضال، وتركتنا يوسف عند متاعنا﴾ توفيراً له وراحة، ﴿فأكله الذئب﴾ في حال غيبتنا عنه في استباقنا، ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ أي: تعذرنا بهذا العذر، والظاهر أنك لا تصدقنا لما في قلبك من الحزن على يوسف، والركة الشديدة عليه.

ولكن عدم تصديقك إيانا، لا يمتنعنا أن نتعذر بالعذر الحقيقي، وكل هذا تأكيد لعذرهم، ﴿و﴾ مما أكدوا به قولهم، أنهم ﴿جاؤوا على قميصه بدم كذب﴾ زعموا أنه دم يوسف حين أكله الذئب، فلم يصدقهم

(١) في ب: عدلت إلى (متعذرين).

(٢) زيادة من هامش: ب.

علماً نافعاً.

ودل هذا، على أن يوسف وفي مقام الإحسان، فأعطاه الله الحكم بين الناس، والعلم الكثير والتبوة.

﴿٢٣ - ٢٩﴾ «ورأوته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي إنه لا يفلح الظالمون * ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لتصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين * واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم * قال هي روادتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين * وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين * فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم * يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين * هذه المحنة العظيمة أعظم على يوسف من محنة إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً، لأنه صبر اختياراً مع وجود الدواعي الكثيرة، لوقوع الفعل، فقدم محبة الله عليها، وأما محنته بإخوته، فصبره صبر اضطرار، بمنزلة الأمراض والمكاره التي تصيب العبد بغير اختياره وليس له ملجأ إلا الصبر عليها، طائعاً أو كارهاً، وذلك أن يوسف عليه الصلاة والسلام بقي مكرماً في بيت العزيز، وكان له من الجمال والكمال والبهاء ما أوجب ذلك، أن «رأوته التي هو في بيتها عن نفسه» أي: هو غلامها، وتحت تدبيرها، والمسكن واحد، يتيسر إيقاع الأمر المكروه من غير إشعار أحد، ولا إحساس بشر.

﴿و﴾ زادت المصيبة، بأن «غلقت الأبواب» وصار المحل خالياً، وهما آمنان من دخول أحد عليهما، بسبب تغلق الأبواب، وقد دعت إلى نفسها «وقالت: هيت لك» أي: افعل الأمر المكروه وأقبل إليّ، ومع هذا، فهو

غريب، لا يحتشم مثله ما يحتشمه إذا كان في وطنه وبين معارفه، وهو أسير تحت يدها، وهي سيدته، وفيها من الجمال ما يدعوه إلى ما هنالك، وهو شاب عذب، وقد توعدته، إن لم يفعل ما تأمره به بالسجن، أو العذاب الأليم.

فصبر عن معصية الله، مع وجود الداعي القوي فيه، لأنه قد هم فيها بما تركه الله. وقدم مراد الله على مراد النفس الأمارة بالسوء، ورأى من برهان ربه - وهو ما معه من العلم والإيمان، الموجب لترك كل ما حرم الله - ما أوجب له البعد والانتكاف، عن هذه المعصية الكبيرة، و «قال: معاذ الله» أي: أعوذ بالله أن أفعل هذا الفعل القبيح، لأنه مما يسخط الله ويبعد منه، ولأنه خيانة في حق سيدي الذي أكرم مثواي.

فلا يليق بي أن أقابله في أهله بأقبح مقابلة، وهذا من أعظم الظلم، والظالم لا يفلح، والحاصل أنه جعل الموانع له من هذا الفعل تقوى الله، ومراعاة حق سيده الذي أكرمه، وصيانة نفسه عن الظلم الذي لا يفلح من تعاطاه، وكذلك ما من الله عليه من برهان الإيمان الذي في قلبه، يقتضي منه امتثال الأوامر، واجتناب الزواجر، والجامع لذلك كله أن الله صرف عنه السوء والفحشاء، لأنه من عباده المخلصين له في عباداتهم، الذين أخلصهم الله واختارهم، واختصهم لنفسه، وأسدى عليهم من النعم، وصرف عنهم من المكاره ما كانوا به من خيار خلقه.

ولما امتنع من إجابة طلبها بعد المراودة الشديدة، ذهب ليهرب عنها ويبادر إلى الخروج من الباب ليتخلص، ويهرب من الفتنة، فبادرته إليه، وتعلقت بثوبه، فشقت قميصه، فلما وصلا إلى الباب في تلك الحال، ألقيا سيدها، أي: زوجها لدى الباب، فرأى امرأاً شق عليه، فبادرت إلى الكذب، أن المراودة قد كانت من يوسف، وقالت: «ما جزاء من أراد

بأهلك سوءاً» ولم تقل «من فعل بأهلك سوءاً» تبرئة لها وتبرئة له أيضاً من الفعل.

وإنما النزاع عند الإرادة والمراودة، «إلا أن يسجن أو عذاب أليم» أي: أو يعذب عذاباً أليماً.

فبرأ نفسه مما رمته به، وقال: «هي روادتني عن نفسي» فحينئذ احتملت الحال صدق كل واحد منهما ولم يعلم أيهما.

ولكن الله تعالى جعل للحق والصدق علامات وأمارات تدل عليه، قد يعلمها العباد وقد لا يعلمونها، فمن الله في هذه القضية بمعرفة الصادق منهما، تبرئة لنبية وصفه يوسف عليه السلام، فانبثت شاهد من أهل بيتها، يشهد بقرينة من وجدت معه، فهو الصادق، فقال: «إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين» لأن ذلك يدل على أنه هو المقبل عليها، المراود لها المعالج، وأنها أرادت أن تدفعه عنها، فشقت قميصه من هذا الجانب.

«وإن كان قميصه قد من دبر، فكذبت وهو من الصادقين» لأن ذلك يدل على هروبه منها، وأنها هي التي طلبته فشقت قميصه من هذا الجانب، «فلما رأى قميصه قد من دبر» عرف بذلك صدق يوسف وبرأته، وأنها هي الكاذبة.

فقال لها سيدها: «إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم» وهل أعظم من هذا الكيد، الذي برأت به نفسها مما أرادت وفعلت، ورمت به نبي الله يوسف عليه السلام، ثم إن سيدها لما تحقق الأمر، قال ليوسف: «يوسف أعرض عن هذا» أي: اترك الكلام فيه وتناسه ولا تذكره لأحد، طلباً للستر على أهله، «واستغفري» أي: أيتها المرأة «لذنبك إنك كنت من الخاطئين» فأمر يوسف بالإعراض، وهي بالاستغفار والتوبة.

﴿٣٠ - ٣٥﴾ «وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إننا لنراها في ضلال

﴿فاستجاب له ربه﴾ حين دعاه ﴿فصرف عنه كيدهن﴾ فلم تزل تراوده وتستعين عليه بما تقدر عليه من الوسائل، حتى أنسها، وصرف الله عنه كيدها، ﴿إنه هو السميع﴾ لدعاء الداعي ﴿العليم﴾ بنيت الصالحة، وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعاونته ولطفه، فهذا ما نجى الله به يوسف من هذه الفتنة الملمة والمحنة الشديدة، وأما أسياده فإنه لما اشتهر الخبر وبان، وصار الناس فيها بين عاذر ولائم وقادح.

﴿بدا لهم﴾ أي: ظهر لهم ﴿من بعد ما رأوا الآيات﴾ الدالة على براءته، ﴿ليسجنه حتى حين﴾ أي: لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشاع مع وجود أسبابه، فإذا عدمت أسبابه نسي، فرأوا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن.

﴿٣٦ - ٤٠﴾ ﴿ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراي أعصر خراً وقال الآخر إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبثنا بتأويله إنا نراك من المحسنين﴾ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربِّي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ يا صاحبي السجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي: ﴿و﴾ لما دخل يوسف السجن، كان في جملة من دخل معه السجن فتيان ﴿أي: شابان، فرأى كل واحد منهما رؤيا، فقصصها على يوسف ليعبرها، ف﴾ قال أحدهما: إني أراي أعصر خراً، وقال الآخر: إني أراي أحمل فوق رأسي خبزاً، وذلك الخبز ﴿تأكل الطير منه

﴿وقالت﴾ ليوسف: ﴿اخرج عليهن﴾ في حالة جماله وبهائه.

﴿فلما رأيته أكبرنه﴾ أي: أعظمته في صدورهن، ورأين منظراً فائقاً لم يشاهدن مثله، ﴿وقطعن﴾ من الدهش ﴿أيديهن﴾ بتلك السكاكين اللاتي معهن، ﴿وقلن﴾ حاش لله ﴿أي: تنزيهاً لله﴾ ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم، وذلك أن يوسف أغطي من الجمال الفائق والنور والبهاء، ما كان به آية للناظرين، وعبرة للمتأملين.

فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز، شيء كثير - أرادت أن تربين جماله الباطن بالعفة التامة فقالت معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أي: امتنع وهي مقيمة على مراودته، لم تزدها مرور الأوقات إلا قلقاً ومحبة وشوقاً لوصاله وتوقاً.

ولهذا قالت له بحضرتين: ﴿ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين﴾ لتلجته بهذا الوعيد إلى حصول مقصودها منه، فعند ذلك اعتصم يوسف بربه، واستعان به على كيدهن و ﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه﴾ وهذا يدل على أن النسوة، جعلن يشرن على يوسف في مطاوعة سيدهن، وجعلن يكندنه في ذلك.

فاستحب السجن والعذاب الدنيوي على لذة حاضرة توجب العذاب الشديد، ﴿ولا تصرف عني كيدهن أصب إليهن﴾ أي: أمل إليهن، فإني ضعيف عاجز، إن لم تدفع عني سوء، ﴿وأكن﴾ إن صبوت إليهن ﴿من الجاهلين﴾ فإن هذا جهل، لأنه أثر لذة قليلة منغصة، على لذات متتابعات وشهوات متنوعة في جنات النعيم، ومن أثر هذا على هذا، فمن أجهل منه!! فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة.

مبين ﴿فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكناً وأتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت ااخرج عليهن فلما رأيته أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾ قالت فذلكن الذي لمننتي فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ﴿قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ولا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين﴾ يعني: أن الخبر اشتهر وشاع في البلد، وتحدث به النسوة فجعلن يلمنها، ويقلن: ﴿امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً﴾ أي: هذا أمر مستفح، هي امرأة كبيرة القدر، وزوجها كبير القدر، ومع هذا لم تزل تراود فتاها الذي تحت يدها وفي خدمتها عن نفسه، ومع هذا فإن حبه قد بلغ من قلبها مبلغاً عظيماً.

﴿قد شغفها حباً﴾ أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها، وهو باطنه وسويداؤه، وهذا أعظم ما يكون من الحب، ﴿إنا لنراها في ضلال مبين﴾ حيث وجدت منها هذه الحالة التي لا تنبغي منها، وهي حالة تحط قدرها وتضعه عند الناس، وكان هذا القول منهن مكرراً، ليس المقصود به مجرد اللوم لها والقدح فيها، وإنما أردن أن يتوصلن بهذا الكلام إلى رؤية يوسف الذي فتنت به امرأة العزيز لتحتق امرأة العزيز، وترين إياه ليعذرهما، ولهذا سماه مكرراً، فقال: ﴿فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن﴾ تدعوهن إلى منزلها للضيافة.

﴿وأعتدت لهن متكناً﴾ أي: محلاً مهياً بأنواع الفرش والوسائد، وما يقصد بذلك من المآكل اللذيذة، وكان في جملة ما أتت به وأحضرتة في تلك الضيافة طعام يحتاج إلى سكين، إما أنترج، أو غيره، ﴿وأتت كل واحدة منهن سكيناً﴾ ليقطعن فيها ذلك الطعام

يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات
خضر وأخر يابسات لعلّي أرجع إلى
الناس لعلهم يعلمون * قال تزرعون
سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في
سنبله إلا قليلاً مما تأكلون * ثم يأتي من
بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمت
لهن إلا قليلاً مما تحصنون * ثم يأتي من
بعد ذلك عام فيه يفاث الناس وفيه
يعصرون * لما أراد الله تعالى أن يخرج
يوسف من السجن، أرى الله الملك
هذه الرؤيا العجيبة، الذي تأويلها
يتناول جميع الأمة، ليكون تأويلها على
يد يوسف، فيظهر من فضله، ويبين
من علمه ما يكون له رفعة في الدارين،
ومن التقادير المناسبة أن الملك الذي
ترجع إليه أمور الرعية هو الذي رآها،
لارتباط مصالحها به .

وذلك أنه رأى رؤيا هائلة، فجمع لها علماء قومه وذوي الرأي: منهم وقال: ﴿إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع﴾ أي: سبع من البقرات ﴿عجاف﴾ وهذا من العجب، أن السبع العجاف الهزيلة اللاتي سقطت قوتهن، يأكلن السبع السمان التي كُرِّىَ نهاية في القوة.

﴿و﴾ رأيت ﴿سبع سنبلات
خضر﴾ يأكلن سبع سنبلات
﴿يابسات﴾ يا أيها الملا أفتوني في
رؤيائي ﴿لأن تعبير الجميع واحد،
وتأويله شيء واحد، ﴿إن كنتم للرؤيا
تعبرون﴾ فتحيروا، ولم يعرفوا لها
وجهاً. و ﴿قالوا: أضغاث أحلام﴾
أي: أحلام لا حاصل لها، ولا لها
تأويل.

وهذا جزم منهم بما لا يعلمون،
وتعذر منهم، [بما ليس بعذر]^(١) ثم
قالوا: ﴿وما نحن بتأويل الأحلام
بعالمين﴾ أي: لا نعبر إلا الرؤيا، وأما
الأحلام التي هي من الشيطان، أو من
حديث النفس، فإنا لا نعبرها.

فجمعوا بين الجهل والحزم، بأنها أضفأت أحلام، والإعجاب بالنفس، بحيث إنهم لم يقولوا: لا نعلم

تأويلها، وهذا من الأمور التي لا تنبغي لأهل الدين والحجا، وهذا أيضاً من لطف الله بيوسف عليه السلام. فإنه لو عبرها ابتداء - قبل أن يعرضها على الملائم من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها - لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب، وكان الملك مهتماً لها غاية، فعبّر بها يوسف - وقعت عندهم موقعاً عظيماً، وهذا نظير إظهار الله فضل آدم على الملائكة بالعلم، بعد أن سألهم فلم يعلموا. ثم سأل آدم، فعلمهم أسماء كل شيء، فحصل بذلك زيادة فضله، وكما يظهر فضل أفضل خلقه محمد ﷺ في القيامة، أن يلهم الله الخلق أن يتشفعوا بآدم، ثم بنوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى عليهم السلام، فيعتذرون عنها، ثم يأتون محمداً ﷺ فيقول: «أنا لها أنا لها»، فيشفع في جميع الخلق، وينال ذلك المقام المحمود الذي يفيظه به الأولون والآخرون.

فسيحان من خفيت الطافه، ودقّت
في إيصاله البر والإحسان، إلى خواص
أصفيائه وأوليائه، ﴿وقال الذي نجا
منهما﴾ أي: من الفتين، وهو: الذي
رأى أنه يعصر خراً، وهو الذي أوصاه
يوسف أن يذكره عند ربه ﴿واذكر بعد
أمة﴾ أي: وتذكر يوسف، وما جرى
له في تعبيرة لرؤياهما، وما وصاه به،
وعلم أنه كفيل بتعبير هذه الرؤيا بعد
مدة من السنين، فقال: ﴿أنا أنبئكم
بتأويله فأرسلون﴾ إلى يوسف لأسأله
عنها.

فأرسلوه، فجاء إليه، ولم يعنفه يوسف على نسيانه، بل استمع ما يسأله عنه، وأجابته عن ذلك، فقال: ﴿يوسف أيها الصديق﴾ أي: كثير الصدق في أقواله وأفعاله، ﴿أفتنا في سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات﴾ لعلني أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون، ﴿فإنهم مشوقون لتغييرها، وقد اهتمهم.

[illegible]

ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين ﴿١﴾
 أي: ﴿وقال﴾ يوسف عليه السلام:
 ﴿للمذي ظن أنه ناج منهما﴾ وهو:
 الذي رأى أنه يعصر خمرًا ﴿٢﴾ اذكرني
 عند ربك ﴿٣﴾ أي: اذكر له شأنِي
 وقصتي، لعله يرق لي، فيخرجني مما
 أنا فيه، ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾
 أي: فأنسى الشيطان ذلك الناجي
 ذكر الله تعالى، وذكر ما يقرب إليه،
 ومن جملة ذلك نسيانه ذكر يوسف الذي
 يستحق أن يجازى بأتم الإحسان،
 وذلك لئتم الله أمره وقضاه.

﴿قلبت في السجن بضع سنين﴾
والبضع من الثلاث إلى التسع، ولهذا
قيل: إنه لبث سبع سنين، ولما أراد الله
أن يتم أمره، وبأذن بإخراج يوسف من
السجن، قدر لذلك سبباً، كان سبباً
لإخراج يوسف وارتفاع شأنه وإعلاء
قدره، وهو رؤيا الملك.

﴿٤٣-٤٩﴾ وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات يا أيها الملأ أفتوني في رؤيائي إن كنتم للرؤيا تعبرون * قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين * وقال الذي نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فارسلون * يوسف أيها الصديق أفتنا في سبع بقرات سمان

يوسف عن نفسه ﴿فهل رأيتم منه ما يريب؟﴾.

فَبَرَأْنَاهُ و ﴿قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾ أي: لا قليل ولا كثير، فحينئذ زال السبب الذي تبنين عليه التهمة، ولم يبق إلا ما عند امرأة العزيز، ف ﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق﴾ أي: تمحط وتبين، بعد ما كنا ندخل معه من السوء والتهمة، ما أوجب له السجن^(١). ﴿إنا راودته عن نفسه، وإنه لمن الصادقين﴾ في أقواله وبراهنه، ﴿ذلك﴾ الإقرار الذي أقررت لآني راودت يوسف، ﴿لنعلم أني لم أخنه بالغيب﴾.

يحتمل أن مرادها بذلك زوجها أي: ليعلم أني حين أقررت أني راودت يوسف، أني لم أخنه بالغيب، أي: لم يجر مني إلا مجرد المراودة، ولم أفسد عليه فراشه، ويحتمل أن المراد بذلك ذلك ليعلم يوسف حين أقررت أني أنا الذي راودته، وأنه صادق أني لم أخنه في حال غيبته عني، ﴿وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ فإن كل خائن، لا بد أن تعود خيانه ومكره على نفسه، ولا بد أن يتبين أمره.

ثم لما كان في هذا الكلام نوع تزكية لنفسها، وأنه لم يجر منها ذنب في شأن يوسف، استدركت فقالت: ﴿وما أبرئ نفسي﴾ أي: من المراودة والهَم، والحرص الشديد، والكيد في ذلك، ﴿إن النفس لأماره بالسوء﴾ أي: لكثيرة الأمر لصاحبها بالسوء، أي: الفاحشة، وسائر الذنوب، فلإنها مركب الشيطان، ومنها يدخل على الإنسان ﴿إلا ما رحم ربي﴾ فنجاه من نفسه الأماره، حتى صارت نفسه مطمئنة إلى ربها، متقادة لداعي الهدى، متعاضية عن داعي الردى، فذلك ليس من النفس، بل من فضل الله ورحمته بعبد.

﴿إن ربي غفور رحيم﴾ أي: هو غفور لمن تجرأ على الذنوب والمعاصي، إذا تاب وأناب، ﴿رحيم﴾ بقبول توبته، وتوفيقه للأعمال الصالحة، وهذا هو الصواب أن هذا من قول امرأة العزيز، لا من قول يوسف، فإن السياق في كلامها، ويوسف إذ ذاك في

الشداد، أن العام الذي يليها يزول به شدتها، ومن المعلوم أنه لا يزول الجذب المستمر سبع سنين متواليات، إلا بعام مخصب جداً، وإلا لما كان للتقدير فائدة، فلما رجع الرسول إلى الملك والناس، وأخبرهم بتأويل يوسف للرؤيا، عجبوا من ذلك، وفرحوا بها أشد الفرح.

﴿٥٠ - ٥٧﴾ ﴿وقال الملك اثنتوني به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم﴾ قال ما خطبك إن راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴿ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين﴾ وما أبرئ نفسي إن النفس لأماره بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴿وقال الملك اثنتوني به أستخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴿وكذلك مكننا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين﴾ ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿يقول تعالى: ﴿وقال الملك﴾ لمن عنده ﴿اثنتوني به﴾ أي: بيوسف عليه السلام، بأن يخرجوه من السجن ويحضروه إليه، فلما جاء يوسف الرسول وأمره بالحضور عند الملك، امتنع عن المبادرة إلى الخروج، حتى تتبين براءته التامة، وهذا من صبره وعقله ورأيه التام.

ف ﴿قال﴾ للرسول: ﴿ارجع إلى ربك﴾ يعني به الملك، ﴿فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن﴾ أي: أسأله ما شأنهن وقصتهن، فإن أمرهن ظاهر متضح ﴿إن ربي بكيدهن عليم﴾ فأحضرهن الملك، وقال: ﴿ما خطبك﴾ أي: شأنكن ﴿إذ راودتن

فعبير يوسف، السبع البقرات السمان والسبع السنبليات الخضر، بأنهن سبع سنين مخصبات، والسبع البقرات المجاف والسبع السنبليات اليابسات، بأنهن سنين مجذبات، ولعل وجه ذلك - والله أعلم - أن الخصب والجذب لما كان الحارث مبنياً عليه، وأنه إذا حصل الخصب قويت الزروع والحروث، وحسن منظرها، وكثرت غلالها، والجذب بالعكس من ذلك. وكانت البقر هي التي تحرث عليها الأرض، وتسقى عليها الحروث في الغالب، والسنبليات هي أعظم الأقوات وأفضلها، عبرها بذلك لوجود المناسبة، فجمع لهم في تأويلها بين التعبير والإشارة لما يفعلونه، ويستعدون به من التدبير في سني الخصب، إلى سني الجذب فقال: ﴿تزرعون سبع سنين دأباً﴾ أي: متتابعات.

﴿فما حصدم﴾ من تلك الزروع ﴿فذرروه﴾ أي: اتركوه ﴿في سنبله﴾ لأنه أبقي له وأبعد عن الالتفات إليه ﴿إلا قليلاً مما تأكلون﴾ أي: دبروا أيضاً أكلكم في هذه السنين الخصبة، ولكن قليلاً، ليكثر ما تدخرون ويعظم نفعه ووقعه.

﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ أي: بعد تلك السنين السبع المخصبات، ﴿سبع شداد﴾ أي: مجذبات جداً ﴿يأكلن ما قدمتم لهن﴾ أي: يأكلن جميع ما ادخرتموه ولو كان كثيراً، ﴿إلا قليلاً مما تحصنون﴾ أي: تمنعونه من التقديم لهن.

﴿ثم يأتي من بعد ذلك﴾ أي: بعد السبع الشداد ﴿عام فيه يغال الناس وفيه يعصرون﴾ أي: فيه تكثر الأمطار والسيول، وتكثر الغلات، وتزيد على أقواتهم، حتى إنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم، ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك، لأنه فهم من التقدير^(١) بالسبع

السجن لم يحضر .

فلما تحقق الملك والناس براءة يوسف التامة ، أرسل إليه الملك وقال : « انتوني به أستخلصه لنفسي » أي : أجعله خصيصة لي ومقرباً لدي فأتوه به مكرماً محترماً ، « فلما كلمه » أعجبه كلامه ، وزاد موقعه عنده فقال له : « إنك اليوم لدينا » أي : عندنا « مكين أمين » أي : متمكن ، أمين على الأسرار ، ف « قال » يوسف طلباً للمصلحة العامة : « اجعلني على خزائن الأرض » أي : على خزائن جبايات الأرض وغلالاتها ، وكيلاً حافظاً مدبراً .

« إن حفيظ عليم » أي : حفيظ للذي أتوا له ، فلا يضيع منه شيء في غير محله ، وضابط للداخل والخارج ، عليم بكيفية التدبير والإعطاء والمنع ، والتصرف في جميع أنواع التصرفات ، وليس ذلك حرصاً من يوسف على الولاية ، وإنما هو رغبة منه في النفع العام ، وقد عرف من نفسه من الكفاءة والأمانة والحفظ ما لم يكونوا يعرفونه .

فلذلك طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ، فجعله الملك على خزائن الأرض وولاه إياها ، قال تعالى : « وكذلك » أي : بهذه الأسباب والمقدمات المذكورة ، « مكنا ليوسف في الأرض يتبوأ منها حيث يشاء » في عيش رغد ، ونعمة واسعة ، وجاء عريض ، « نصيب برحمتنا من نشاء » أي : هذا من رحمة الله بيوسف التي أصابه بها وقدرها له ، وليست مقصورة على نعمة الدنيا .

« ولا نضيع أجر المحسنين » ويوسف عليه السلام من سادات المحسنين ، فله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ، ولهذا قال : « ولأجر الآخرة خير » من أجر الدنيا « للذين آمنوا وكانوا يتقون » أي : لمن جمع بين التقوى والإيمان ، فبالتقوى تترك الأمور المحرمة من كبائر الذنوب وصغائرها ، وبالإيمان التام يحصل تصديق القلب ، بما أمر الله بالتصديق به ، وتتبعه أعمال القلوب وأعمال

الجوارح ، من الواجبات والمستحبات .

« ٥٨ - ٦٨ » « وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون * ولما جهزهم بجهازهم قال انتوني بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين * فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون * قالوا سنراود عنه أباه وإننا لفاعلون * وقال لفتياناه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون * فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإننا له لحافظون * قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل فإله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين * ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبقي هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير * قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من الله لتأتني به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل * وقال يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغني عنكم من الله من شيء إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتبوكل المتوكلون * ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون * أي : لما تولى يوسف عليه السلام خزائن الأرض ، دبرها أحسن تدبير ، فزرع في أرض مصر جميعها في السنين المخصبة زروعاً هائلة ، واتخذ لها المحلات الكبار ، وجبا من الأطعمة شيئاً كثيراً وحفظه ، وضبطه ضبطاً تاماً ، فلما دخلت السنون المجدية ، وسرى الجذب حتى وصل إلى فلسطين ، التي يقيم فيها يعقوب وبنوه ، فأرسل يعقوب بنيه لأجل الميرة إلى مصر ، « وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون » أي : لم يعرفوه .

« ولما جهزهم بجهازهم » أي : كال

لهم كما كان يكيل لغيرهم ، وكان من تدبيره الحسن أنه لا يكيل لكل واحد أكثر من حمل بعير ، وكان قد سألهم عن حالهم ، فأخبروه أن لهم أخاً عند أبيه ، وهو بنيامين .

ف « قال » لهم : « انتوني بأخ لكم من أبيكم » ثم رغبهم في الإتيان به فقال : « ألا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين » في الضيافة والإكرام . ثم رهبهم بعدم الإتيان به ، فقال : « فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون » وذلك لعلهم باضطرارهم إلى الإتيان إليه ، وأن ذلك يحملهم على الإتيان به .

ف « قالوا سنراود عنه أباه » دل هذا على أن يعقوب عليه السلام كان مولعاً به لا يصبر عنه ، وكان يتسل به بعد يوسف ، فلذلك احتاج إلى مراودة في بعثه معهم « وإننا لفاعلون » لما أمرتنا به .

« وقال » يوسف « لفتياناه الذين في خدمته : « اجعلوا بضاعتهم » أي : الثمن الذي اشتروا به من الميرة .

« في رحالهم لعلهم يعرفونها » أي : بضاعتهم إذا راووا بعد ذلك في رحالهم ، « لعلهم يرجعون » لأجل التخرج من أخذها على ما قيل ، والظاهر أنه أراد أن يرغبهم في إحسانه إليهم بالكيل لهم كيلاً وافياً ، ثم إعادة بضاعتهم إليهم على وجه لا يحسون بها ، ولا يشعرون لما يأتي ، فإن الإحسان يوجب للإنسان تمام الوفاء للمحسن .

« فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا : يا أبانا منع منا الكيل » أي : إن لم ترسل معنا أخانا ، « فأرسل معنا أخانا نكتل » أي : ليكون ذلك سبباً لكيلنا ، ثم التزموا له بحفظه ، فقالوا : « وإننا له لحافظون » من أن يعرض له ما يكره ، « قال » لهم يعقوب عليه السلام : « هل أمنتكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل » أي : تقدم منكم التزام أكثر من هذا في حفظ يوسف ، ومع هذا لم تفوا بما عقدتم من التأكيد ، فلا أتق بالتزامكم وحفظكم ، وإنما أتق

بالله تعالى .

قضاؤه، والأمر أمره، فما قضاه وحكم به لا بد أن يقع، ﴿عليه توكلت﴾ أي: اعتمدت على الله، لا على ما وصيتكم به من السبب، ﴿وعليه فليتوكل المتوكلون﴾ فإن بالتوكل يحصل كل مطلوب، ويندفع كل مرهوب .

﴿ولما ذهبوا و دخلوا من حيث أمرهم أبوهما ما كان﴾ ذلك الفعل يعني عنهم من الله من شيء إلا حاجة في نفس يعقوب قضاها وهو موجب الشفقة والمحبة للأولاد، فحصل له في ذلك نوع طمأنينة، وقضاء لما في خاطره .

وليس هذا قصوراً في علمه، فإنه من الرسل الكرام والعلماء الربانيين، ولهذا قال عنه: ﴿وإنه لدو علم﴾ أي: لصاحب علم عظيم ﴿لما علمناه﴾ أي: لتعليمنا إياه، لا بحوله وقوته أدركه، بل بفضل الله وتعليمه، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ عواقب الأمور ودقائق الأشياء وكذلك أهل العلم منهم، يخفى عليهم من العلم وأحكامه ولوازمه شيء كثير .

﴿٦٩ - ٧٩﴾ ﴿ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إني أنا أخوك فلا تبتسح بما كانوا يعملون﴾ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون ﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾ قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنا به زعيم ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين﴾ قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه كذلك نجزي الظالمين﴾ فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذي علم عليم ﴿قالوا إن يسرقتك امرأة فإني نسركنك ما نعرف السرقة سرقة﴾ قالوا لا يمسكنا بك ما نركب السفينة ما يركبها فاستبقنا بفضل ربك ثم دنا بآية أخرى ﴿قالوا لا تأتيناك السفينة بما هي فتناء وما كنا بموعدين﴾

هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا﴾ أي: إذا ذهبنا بأخيها صار سبباً لكيله لنا، فمرنا^(١) أهلنا، وأتينا^(٢) لهم، بما هم مضطرون إليه من القوات، ﴿ونحفظ أخاننا ونزداد كيل بعير﴾ بإرساله معنا، فإنه يكيل لكل واحد حمل بعير، ﴿ذلك كيل يسير﴾ أي: سهل لا ينالك ضرر، لأن المدة لا تطول، والمصلحة قد تبينت .

ف ﴿قال﴾ لهم يعقوب: ﴿لئن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله﴾ أي: عهداً ثقيلاً، وتحلفون بالله ﴿لأنتمني به إلا أن يحاط بكم﴾ أي: إلا أن يأتيكم أمر لا قبيل لكم به، ولا تقدرون دفعه، ﴿فلما أتوه موثقهم﴾ على ما قال وأراد ﴿قال﴾ الله على ما نقول وكيل ﴿أي: تكفينا شهادته علينا وحفظه وكفاهته، ثم لما أرسله معهم وصاهم إذا هم قدموا مصر، أن لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ وذلك أنه خاف عليهم العين، لكثرتهم وبهاء منظرهم، لكونهم أبناء^(٣) رجل واحد، وهذا سبب .

﴿ولا﴾ ف ﴿ما أغني عنكم من الله من شيء﴾ فالقدر لا بد أن يكون، ﴿إن الحكم إلا لله﴾ أي: القضاء



بيدها لهم قال أنتم شر مكاناً والله أعلم بما تصفون ﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه﴾ إنا نراك من المحسنين ﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون﴾ أي: لما دخل إخوة يوسف على يوسف ﴿آوى إليه أخاه﴾ أي: شقيقه وهو بنيامين الذي أمرهم بالإتيان به ﴿واضمه إليه، واختصه من بين إخوته، وأخبره بحقيقة الحال، و ﴿قال﴾ إني أنا أخوك فلا تبتسح﴾ أي: لا تحزن ﴿بما كانوا يعملون﴾ فإن العاقبة خير لنا، ثم خبره بما يريد أن يصنع ويتحيل لبقائه عنده إلى أن ينتهي الأمر .

﴿فلما جهزهم بجهازهم﴾ أي: كأن لكل واحد من إخوته، ومن جملتهم أخوه هذا، ﴿جعل السقاية وهو: الإناء الذي يشرب به، ويكال فيه﴾ في رحل أخيه ثم أوعوا متاعهم، فلما انطلقوا ذاهبين، ﴿أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون﴾ ولعل هذا المؤذن لم يعلم بحقيقة الحال، ﴿قالوا﴾ أي: إخوة يوسف ﴿وأقبلوا عليهم﴾ لإبعاد التهمة، فإن السارق ليس له هم إلا البعد والانطلاق عمن سرق منه، لتسلم لهم سرقة، وهؤلاء جاءوا مقبلين إليهم، ليس لهم هم إلا

وجدنا متاعنا عنده* أي: هذا ظلم منا، لو أخذنا البريء بذهب من وجدنا متاعنا عنده، ولم يقل «من سرق» كل هذا تحرز من الكذب، «إنا إذا* أي: إن أخذنا غير من وجد في رحله «لظالمون* حيث وضعنا العقوبة في غير موضعها.

﴿٨٠ - ٨٣﴾ فلما استياسوا منه خلصوا نجياً قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم في يوسف فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين * ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين * واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها وإنا لصادقون * قال بل سؤلت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم* أي: فلما استياس إخوة يوسف من يوسف أن يسمح لهم بأخيهم «خلصوا نجياً* أي: اجتمعوا وحدهم، ليس معهم غيرهم، وجعلوا يتناجون فيما بينهم، ف «قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله* في حفظه، وأنكم تأتون به إلا أن يحاط بكم* ومن قبل ما فرطتم في يوسف* فاجتمع عليكم الأمران، تفرطكم في يوسف السابق، وعدم إتيانكم بأخيه باللاحق، فليس لي وجه أواجه به أي.

﴿فلن أبرح الأرض* أي: سأقيم في هذه الأرض ولا أزال بها* حتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي* أي: يقدر لي المجيء وحدي، أو مع أخي* وهو خير الحاكمين* ثم صاهم بما يقولون لأبيهم، فقال: «ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق* أي: وأخذ بسرقة، ولم يحصل لنا أن نأتيك به، مع ما بذلنا من الجهد في ذلك. والحال أن ما شهدنا بشيء لم نعلمه، وإنما شهدنا بما علمنا، لأننا رأينا الصواع استخرج من رحله، «وما كنا للغيب حافظين* أي: لو كنا نعلم الغيب لما حرصنا وبذلنا المجهود في

يظن أنها فعلت بالقصد، فلما لم يجد في أوعيتهم شيئاً «استخرجها من وعاء أخيه* ولم يقل «وجدها، أو سرقها أخوه» مراعاة للحقيقة الواقعة. فحينئذ تم ليوسف ما أراد من بقاء أخيه عنده، على وجه لا يشعر به إخوته، قال تعالى: «كذلك كدنا ليوسف* أي: يشرنا له هذا الكيد، الذي توصل به إلى أمر غير مذموم «ما كان لياخذ أخاه في دين الملك* لأنه ليس من دينه أن يملك السارق، وإنما له عندهم جزاء آخر، فلوردت الحكومة إلى دين الملك، لم يتمكن يوسف من إبقاء أخيه عنده، ولكنه جعل الحكم منهم، ليم له ما أراد.

قال تعالى: «نرفع درجات من نشاء* بالعلم النافع، ومعرفة الطرق الموصلة إلى مقصدها، كما رفعنا درجات يوسف، «وفوق كل ذي علم عليم* فكل عالم، فوqe من هو أعلم منه حتى ينتهي العلم إلى عالم الغيب والشهادة، فلما رأى إخوة يوسف ما راوا «قالوا إن يسرق* هذا الأخ، فليس هذا غريباً منه، «فقد سرق أخ له من قبل* يعنون: يوسف عليه السلام، ومقصودهم تبرئة أنفسهم وأن هذا وأخاه قد يصدر منهما ما يصدر من السرقة، وهما ليسا شقيقين لنا.

وفي هذا من الغض عليهما ما فيه، ولهذا: أسرها يوسف في نفسه* ولم يبدها لهم* أي: لم يقابلهم على ما قالوه بما يكرهون، بل كظم الغيظ، وأسّر الأمر في نفسه، و «قال* في نفسه «أنتم شر مكاناً* حيث ذممتونا بما أنتم على أشر منه، «والله أعلم بما تصفون* منا، من وصفنا بالسرقة، يعلم الله أنا براء منها، ثم سلخوا معه مسلك التملق، لعله يسمح لهم بأخيهم.

ف «قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً* أي: وإنه لا يصبر عنه، وسيشق عليه فراقه، «فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين* فأحسن إلينا وإلى أبينا بذلك، ف «قال* يوسف «معاذ الله أن نأخذ إلا من



إزالة التهمة التي رموا بها عنهم، فقالوا في هذه الحال: «ماذا تفقدون* ولم يقولوا: «ما الذي سرقنا* لجزمهم بأنهم براء من السرقة، «قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير* أي: أجرة له على وجدانه «وأنابا به زعيم* أي: كفيل، وهذا يقوله المؤذن المتفقد.

«قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض* بجميع أنواع المعاصي، «وما كنا سارقين* فإن السرقة من أكبر أنواع الفساد في الأرض، وإنما أقسموا على علمهم أنهم ليسوا مفسدين ولا سارقين، لأنهم عرفوا أنهم سبوا من أحوالهم ما يدلهم على عفتهم وورعهم، وأن هذا الأمر لا يقع منهم يعلم من اتهمهم، وهذا أبلغ في نفي التهمة، من أن لو قالوا: «تالله لم نفسد في الأرض ولم نسرق*.

«قالوا فما جزاؤه* أي: جزاء هذا الفعل «إن كنتم كاذبين* بأن كان معكم؟ «قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو* أي: الموجود في رحله «جزاؤه* بأن يملكه صاحب السرقة، وكان هذا في دينهم أن السارق إذا ثبتت عليه السرقة كان ملكاً لصاحب المال المسروق، ولهذا قالوا: «كذلك نجزي الظالمين*.

«فبدا* المفتش «بأوعيتهم قبل وعاء أخيه* وذلك لتزول الريبة التي

ذهابه معنا، ولما أعطيناك عهدنا وموآثقتنا، فلم نظن أن الأمر سيبلغ ما بلغ، **﴿واسأل﴾** إن شككت في قولنا **﴿القرية التي كنا فيها والعبير التي أقبلنا فيها﴾** فقد اطلعوا على ما أخبرناك به **﴿وإننا لصادقون﴾** لم نكذب ولم نغير ولم نبدل، بل هذا الواقع.

فلما رجعوا إلى أبيهم وأخبروه بهذا الخبر، اشتد حزنه وتضاعف كمدّه، واتهمهم أيضاً في هذه القضية، كما اتهمهم في الأولى، و **﴿قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل﴾** أي: ألجأ في ذلك إلى الصبر الجميل، الذي لا يصحبه تسخط ولا جزع، ولا شكوى للخلق، ثم لجأ إلى حصول الفرج لما رأى أن الأمر اشتد، والكربة انتهت فقال: **﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾** أي: يوسف و **﴿بنيامين﴾** وأخوهم الكبير الذي أقام في مصر.

﴿إنه هو العليم﴾ الذي يعلم حالي، واحتياجي إلى تفريجه ومئنته، واضطراري إلى إحسانه، **﴿الحكيم﴾** الذي جعل لكل شيء قدراً، ولكل أمر منتهى، بحسب ما اقتضته حكمته الربانية.

﴿٨٤-٨٦﴾ وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم **﴿قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضاً أو تكون من الهالكين﴾** **﴿قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾** أي: وتولى يعقوب عليه الصلاة والسلام عن أولاده بعدما أخبروه هذا الخبر، واشتد به الأسف والأسى، وابيضت عيناه من الحزن الذي في قلبه، والكمد الذي أوجب له كثرة البكاء، حيث ابيضت عيناه من ذلك.

﴿فهو كظيم﴾ أي: ممتلئ القلب من الحزن الشديد، **﴿وقال يا أسفى على يوسف﴾** أي: ظهر منه ما كمن من الهم القديم والشوق المقيم، وذكرته هذه المصيبة الخفيفة بالنسبة للأولى، المصيبة الأولى، فقال له أولاده متعجبين من حاله: **﴿تالله تفتأ تذكر يوسف﴾** أي: لا تزال تذكر يوسف في جميع

أحوالك، **﴿حتى تكون حرضاً﴾** أي: فانياً لا حراك فيك ولا قدرة على الكلام.

﴿أو تكون من الهالكين﴾ أي: لا تترك ذكره مع قدرتك على ذكره أبداً، **﴿قال يعقوب﴾** **﴿إنما أشكو بثي﴾** أي: ما أبث من الكلام **﴿وحزني﴾** الذي في قلبي **﴿إلى الله﴾** وحده، لا إليكم ولا إلى غيركم من الخلق، فقولوا ما شئتم **﴿وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾** من أنه سيردهم عليّ ويقر عيني بالاجتماع بهم.

﴿٨٧-٨٨﴾ **﴿يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا﴾** من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون **﴿فلما دخلوا عليه﴾** قالوا يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين: أي: قال يعقوب عليه السلام لبنيه: **﴿يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه﴾** أي: احرصوا واجتهدوا على التفتيش عنهما **﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾** فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس: يوجب له التناقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد، فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه، **﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾** فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تشبهوا بالكافرين.

ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه، فذهبوا **﴿فلما دخلوا عليه﴾** أي: على يوسف **﴿قالوا﴾** متضرعين إليه: **﴿يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا﴾** أي: قد اضطررنا نحن وأهلنا **﴿وجئنا ببضاعة مزجاة﴾** أي: مدفوعة مرغوب عنها لقلتها، وعدم وقوعها الموقع، **﴿فأوف لنا الكيل﴾** أي: مع عدم وفاء العرض، وتصدق علينا بالزيادة عن الواجب. **﴿إن الله يجزي المتصدقين﴾** بثواب الدنيا والآخرة.

فلما انتهى الأمر، وبلغ أشده، رُقّ لهم يوسف رقة شديدة، وعرفهم بنفسه، وعاتبهم.

﴿٨٩-٩٢﴾ **﴿قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون﴾** **﴿قالوا إنك لانت يوسف﴾** قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين **﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين﴾** **﴿قال لا تشرب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾** **﴿قال: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه﴾** أما يوسف فظاهر فعلهم فيه، وأما أخوه، فعلمه والله أعلم قولهم: **﴿إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾** أو أن الحادث الذي فرق بينه وبين أبيه، هم السبب فيه، والأصل الموجب له، **﴿إذ أنتم جاهلون﴾** وهذا نوع اعتذار لهم بجهلهم، أو توبيخ لهم إذ فعلوا فعل الجاهلين، مع أنه لا ينبغي ولا يليق منهم.

فعرفوا أن الذي خاطبهم هو يوسف، فقالوا: **﴿إنك لانت يوسف؟﴾** قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا **﴿بالإيمان والتقوى﴾** والتمكين في الدنيا، وذلك بسبب الصبر والتقوى، **﴿إنه من يتق ويصبر﴾** أي: يتقي فعل ما حرم الله، ويصبر على الآلام والمصائب، وعلى الأوامر بامتثالها **﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾** فإن هذا من الإحسان، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

﴿قالوا تالله لقد آثرك الله علينا﴾ أي: فضلك علينا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، وأسأنا إليك غاية الإساءة، وحرصنا على إيصال الأذى إليك، والتسبب لك عن أبيك، فآثرك الله تعالى ومكنك مما تريد **﴿وإن كنا لخاطئين﴾** وهذا غاية الاعتراف منهم بالجرم الحاصل منهم على يوسف.

ف **﴿قال﴾** لهم يوسف عليه السلام، كرماً وجوداً:

﴿لا تشرب عليكم اليوم﴾ أي: لا أثرب عليكم ولا ألومكم ﴿يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين﴾ فسمح لهم سماحاً تاماً، من غير تعيير لهم على ذكر الذنب السابق، ودعا لهم بالمغفرة والرحمة، وهذا نهاية الإحسان الذي لا يتأتى إلا من خواص الخلق وخيار المصطفين.

﴿٩٣ - ٩٨﴾ ﴿أذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ * ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون * قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم * فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيراً ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون * قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين * قال سوف أستغفر لكم ربّي إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي: قال يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿أذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي يأت بصيراً﴾ لأن كل داء يداوى بضده، فهذا القميص - لما كان فيه أثر ريح يوسف، الذي أودع قلب أبيه من الحزن والشوق ما الله به عليم - أراد أن يشمه، فترجع إليه روحه، وتراجع إليه نفسه، ويرجع إليه بصره، والله في ذلك حكم وأسرار، لا يطلع عليها العباد، وقد اطلع يوسف من ذلك على هذا الأمر.

﴿وأتوني بأهلكم أجمعين﴾ أي: أولادكم وعشيرتكم وتوابعكم كلهم، ليحصل تمام اللقاء، ويزول عنكم نكد المعيشة، وضنك الرزق.

﴿ولما فصلت العير﴾ عن أرض مصر مقبلة إلى أرض فلسطين، شَمَّ يعقوب ريح القميص، فقال: ﴿إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون﴾ أي: تسخرون مني، وتزعمون أن هذا الكلام صدر مني من غير شعور، لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول، فوقع ما ظنه بهم فقالوا:

﴿تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ أي: لا تزال تائهاً في بحر الحب لا تدري ما تقول.

﴿فلما أن جاء البشير﴾ بقرع الاجتماع بيوسف وإخوته وأبيهم، ﴿اللقاء﴾ أي: القميص ﴿على وجهه فارتد بصيراً﴾ أي: رجع على حاله الأول بصيراً، بعد أن ابيضت عيناه من الحزن، فقال لمن حضره من أولاده وأهله الذين كانوا يفندون رأييه، ويتعجبون منه منتصراً عليهم، متجباً بنعمة الله عليه: ﴿ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ حيث كنت مترجياً للقاء يوسف، مترقباً لزيوالهم والغم والحزن.

﴿فأقروا بذنوبهم ونجسوا بذلك﴾ و ﴿قالوا: يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ حيث فعلنا معك ما فعلنا.

﴿ف﴾ قال ﴿محبباً لطلبهم، ومسرعاً لإجابتهم﴾: ﴿سوف أستغفر لكم ربّي، إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي: ورجائي به أن يغفر لكم ويرحمكم، ويتغمدكم برحمته، وقد قيل: إنه أخر الاستغفار لهم إلى وقت السحر الفاضل، ليكون أتم للاستغفار، وأقرب للإجابة.

﴿٩٩ - ١٠٠﴾ ﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾ * ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤيائي من قبل قد جعلها ربّي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو من بعد أن نزعت الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربّي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾ أي: ﴿فلما﴾ تجهز يعقوب وأولاده وأهلهم أجمعون، وارتحلوا من بلادهم قاصدين الوصول إلى يوسف في مصر وسكنائها، فلما وصلوا إليه، و ﴿دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه﴾ أي: ضمهما إليه، واختصهما بقربه، وأبدى لهما من البر والإكرام^(١) والتبجيل والإعظام شيئاً

عظيماً، ﴿وقال﴾ لجميع أهله: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾ من جميع المكارة والمخاوف، فدخلوا في هذه الحال السارة، وزال عنهم النصب ونكد المعيشة، وحصل السرور والبهجة.

﴿ورفع أبويه على العرش﴾ أي: على سرير الملك، ومجلس العزيز، ﴿وخروا له سجداً﴾ أي: أبوه، وأمه وإخوته، سجوداً على وجه التعظيم والتبجيل والإكرام، ﴿وقال﴾ لما رأى هذه الحال، ورأى سجودهم له: ﴿يا أبت هذا تأويل رؤيائي من قبل﴾ حين رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، فهذا وقوعها الذي آلت إليه ووصلت ﴿قد جعلها ربّي حقاً﴾ فلم يجعلها أضغاث أحلام.

﴿وقد أحسن بي﴾ إحساناً جسيماً ﴿إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾ وهذا من لطفه وحسن خطابه عليه السلام، حيث ذكر حاله في السجن، ولم يذكر حاله في الحب، لتمام عفوه عن إخوته، وأنه لا يذكر ذلك الذنب، وأن إتيانكم من البادية من إحسان الله إلي.

فلم يقل: جاء بكم من الجوع والنصب، ولا قال: ﴿أحسن بكم﴾ بل قال ﴿أحسن بي﴾ جعل الإحسان عائداً إليه، فتبارك من يختص برحمته من يشاء من عباده، ويبه لهم من لدنه رحمة إنه هو الوهاب، ﴿من بعد أن نزعت الشيطان بيني وبين إخوتي﴾ فلم يقل «نزعت الشيطان إختي» بل كان الذنب والجهل صدر من الطرفين، فالحمد لله الذي أخزى الشيطان ودحره، وجمعنا بعد تلك الفرقة الشاقة.

﴿إن ربّي لطيف لما يشاء﴾ يوصل بره وإحسانه إلى العبد من حيث لا يشعر، ويوصله إلى المنازل الرفيعة من أمور يكرهها، ﴿إنه هو العليم﴾ الذي يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، وسرائر العباد وضمائرهم، ﴿الحكيم﴾ في وضعه الأشياء مواضعها، وسوقه

الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها.

﴿١٠﴾ ﴿١٠﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُوفِّنِي مُسْلِمًا وَحَقِّقْنِى بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ لَمَّا آتَمَّ اللَّهُ لِيُوسُفَ مَا أَمَرْتُمُ مِنَ التَّمْكِينِ فِى الْأَرْضِ وَالْمَلِكِ، وَأَقْرَبَ عَيْنَهُ بِأَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ، وَبَعْدَ الْعِلْمِ الْعَظِيمِ الَّذِى أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، قَالَ مَقْرَأْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شَاكِرًا لَهَا دَاعِيًا بِالشُّبُهَاتِ عَلَى الْإِسْلَامِ:

﴿رب قد آتيتني من الملك﴾ وذلك أنه كان على خزائن الأرض وتديرها ووزيراً كبيراً للملك ﴿وعلمتني من تأويل أحاديث الكتب المنزلة وتأويل الرؤيا وغير ذلك من العلم﴾ فاطر السماوات والأرض أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني مسلماً ﴿أي: أدم علي الإسلام وثبتني عليه حتى توفاني عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت،﴾ والحقني بالصلحين ﴿من الأنبياء الأبرار والأصفاء الأخيار.

﴿١٠٢﴾ ﴿ذلك من أنباء الغيب
نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا
أمرهم وهم يمكرون﴾ لما قص الله هذه
القصة على محمد ﷺ قال الله له :
﴿ذلك﴾ الأنباء الذي أخبرناك به ﴿من
أنباء الغيب﴾ الذي لولا إيماننا إليك
لما وصل إليك هذا الخبر الجليل ، فإنك
لم تكن حاضراً لديهم ﴿إذ أجمعوا
أمرهم﴾ أي : إخوة يوسف ﴿وهم
يمكرون﴾ به حين تعاقدوا على التفریق
بينه وبين أبيه ، في حالة لا يطلع عليها
إلا الله تعالى ، ولا يمكن أحداً أن يصل
إلى علمها ، إلا بتعليم الله له إياها .

كما قال تعالى لما قص قصة موسى وما جرى له، ذكر الحال التي لا سبيل للخلق إلى علمها إلا بوحيه ﴿وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر، وما كنت من الشاهدين﴾ الآيات، فهذا أدل دليل على أن ما جاء به رسول الله حقاً.

﴿١٠٣-١٠٧﴾ وما أكثر الناس
ولو حرصت بمؤمنين * وما تسألهم

عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين *
وَكَاثِرِينَ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَمْرُونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ *
وَمَا يَأْمُرُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ
مُسْرِكُونَ * أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ
مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ؟ يَقُولُ تَعَالَى لَنُبَيِّنَ
لَهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ: ﴿وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ
حَرَصْتَ﴾ عَلَى إِيمَانِهِمْ ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾
فَإِنْ مَدَارِكُهُمْ وَمَقَاصِدُهُمْ قَدْ أَصْبَحَتْ
فَاسِدةً، فَلَا يَنْفَعُهُمْ حِرْصُ النَّاصِحِينَ
عَلَيْهِمْ وَلَوْ عَدِمَتْ الْمَوَانِعُ، بِأَنْ كَانُوا
يَعْلَمُونَهُمْ وَيَدْعُونَهُمْ إِلَى مَا فِيهِ الْخَيْرُ
لَهُمْ، وَدَفَعَ الشَّرَّ عَنْهُمْ، مِنْ غَيْرِ أَجْرِ
وَلَا عَوْضٍ، وَلَوْ أَقَامُوا لَهُمْ مِنَ
الشَّوَاهِدِ وَالْآيَاتِ الدَّلَالَتِ عَلَى صِدْقِهِمْ
مَا أَقَامُوا. وَلِهَذَا قَالَ:

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به ما ينفعهم ليفعلوه، وما يضرهم ليتكروه.

﴿وَكَايُنْ﴾ أي: وكم ﴿مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا﴾ دالة لهم على توحيد الله ﴿وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

ومع هذا إن وجد منهم بعض الإيمان فلا يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ﴿فهم وإن أقروا ببروبية الله تعالى، وأنه الخالق الرازق المذبر لجميع الأمور، فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده، فهوؤلاء الذين وصلوا إلى هذه الحال لم يبق عليهم إلا أن يحل بهم العذاب، ويفجأهم العقاب وهم آمنون، ولهذا قال:

﴿أَفَأَمْنُوا﴾ أي: الفاعلون لتلك الأفعال، المعرضون عن آيات الله ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ﴾ أي: عذاب يغشاهم ويعمهم ويستأصلهم، ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي: فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: فإنهم قد استوجبوا لذلك، فليتبوؤا إلى الله، ويتروكوا ما يكون سبباً في عقابهم.

﴿١٠٨ - ١٠٩﴾ ﴿قل هذه سبيلي
أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني
وسبحان الله وما أنا من المشركين *
وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى

قَالَ هَلْ مَاتَكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا مَاتَ بَنُو إِسْرَءِيلَ
مِنْ قَبْلِ هَؤُلَاءِ مِنْ حُطَاةٍ وَأَعْرَاجٍ مِثْلَ هَؤُلَاءِ ۖ وَلَمَّا
فُتِحَتْ أَسْفَلُهُمْ وَبَدَا بِأَصْنَعَتِهِمْ ذُنُوبَ الْيَوْمَةِ قَالُوا يَا أَبَا
مَاتِيحٍ هَلْ يَوْمٌ يَمُتُنُونَ إِنْ أُنْزِلَتْ قُبُورُ الْعَالَمِ وَتُحْفَظَ
أَتَانَا وَزَكَاتُكَ يَوْمَ ذَٰلِكَ كَيْفَ يَكُونُ ۖ قَالَ
لَنْ أُرِيَهُمْ مَعَكُمْ شَيْءًا قُرُوبٍ مِمَّنْ هُنَا أَمْوَالُهُمْ لَأَنْتَ
يَسِيرُ إِلَيْنَا لِحَبْلِكَ قَالُوا يَا مَوْدُودُ قُلْ هَؤُلَاءِ أَهْلُ النَّاسِ
وَكَيْفَ ۚ وَقَالَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَوْلَا بَابُ رَبِّهِمْ وَأَعْدَاؤُهُ
مِنْ أَوَّلِ شَيْءٍ قَوْمَهُ وَنَاحِي عُنُقَهُمْ مِنَ أَوَّلِينَ قَوْمَهُ ۖ إِنْ
أَتَانَا الْيَوْمَ عَلَيْهِ وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْهِ فَيُخَلِّقُ الْفُتُورَ
وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ شَيْءٍ أَرْمَهُمْ أَوْهُمْ مَا كَانَ يُخَيَّرُ
عَنْهُمْ مِنَ أَوَّلِينَ قَوْمَهُ ۚ الْأَحَادُ فِي قَبْرِ يَصُفُّ ضَعْفًا
وَلَا يَدُلُّ عَلَيْهِمْ عِلْمُ عِلْمِهِ ۚ وَلَكِنْ أَكْفَى النَّاسَ لِحَبْلِهِمْ
وَلَمَّا دَخَلُوا لَعَلَّ يَوْمَ تَأْوِيلِ إِلَيْهِ أَمَكُهُ قَالَ
إِنْ أَتَانَا لَمْ تَلَا تَكْتُمُونَ بَاكَ كَلَامًا دَخَلْتُمْ ۖ

إِلَهُمَّ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفْهَمُ سَيِّرُوا فِي
الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا
أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ يَقُولُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ
مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ لِلنَّاسِ هَذِهِ
سَبِيلِي﴾ أَي: طَرِيقِي الَّتِي أَدْعُو إِلَيْهَا،
وَهِيَ السَّبِيلُ الْمَوْصِلَةُ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى دَارِ
كَرَامَتِهِ، الْمُتَضَمِّنَةُ لِلْعَمَلِ بِالْحَقِّ وَالْعَمَلِ
بِهِ وَإِثْرِهِ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ، ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ أَي: اأَخُذْ
الْخُلُقَ وَالْعِبَادَةَ إِلَى الْوَصُولِ إِلَى
رَبِّهِمْ، وَأَرْغَبْهُمْ فِي ذَلِكَ وَأَرْفَعْهُمْ مِمَّا
يَعْلَهُمْ عَنْهُ .

ومع هذا فأنا ﴿على بصيرة﴾ من ديني، أي: على علم ويقين من غير شك ولا امتراء ولا مرية، ﴿و﴾ كذلك ﴿من اتبعني﴾ يدعو إلى الله كما أدعو، على بصيرة من أمره ﴿وسبحان الله﴾ عما نسب إليه مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله.

﴿وما أنا من المشركين﴾ في جميع أمورى، بل أعبد الله مخلصاً له الدين.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا﴾ أي: لم نرسل ملائكة ولا غيرهم من أصناف الخلق، فلا شيء يستغرب قومك رسالتك، ويزعمون أنه ليس لك عليهم فضل، فلك فيمن قبلك من المرسلين أسوة حسنة ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ أي: لا من البادية، بل من أهل القرى

الشدة منهم على الرسل .
في قصصهم عبرة لأولي الألباب * غير
ما تقدم في مطاوعها من الفوائد .

حتى إن الرسل - على كمال
يقينهم، وشدة تصديقهم بوعد الله
ووعيده - ربما أنه يحظر بقلوبهم نوع
من الإياس، ونوع من ضعف العلم
والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال
«جاءهم نصرنا فنجي من نشاء» وهم
الرسل وأتباعهم، «ولا يرد بأسنا عن
القوم المجرمين» أي: ولا يرد عذابنا،
عمن اجترم، وتجرا على الله «فما لهم
من قوة ولا ناصر» .

«لقد كان في قصصهم» أي:
قصص الأنبياء والرسل مع قومهم،
«عبرة لأولي الألباب» أي: يعتبرون
بها، أهل الخير وأهل الشر، وأن من
فعل مثل فعلهم ناله ما نالهم من كرامة
أو إهانة، ويعتبرون بها أيضاً، ما لله
من صفات الكمال والحكمة العظيمة،
وأنة الله الذي لا تنبغي العبادة إلا له
وحده لا شريك له .

وقوله: «ما كان حديثاً يفترى»
أي: ما كان هذا القرآن الذي قص الله
به عليكم من أنباء الغيب ما قص من
الأحاديث المتفردة المختلفة، «ولكن»
كان «تصديق الذي بين يديه» من
الكتب السابقة، يوافقها ويشهد لها
بالصحة، «وتفصيل كل شيء» يحتاج
إليه العباد من أصول الدين وفروعه،
ومن الأدلة والبراهين .

«وهدى ورحمة لقوم يؤمنون»

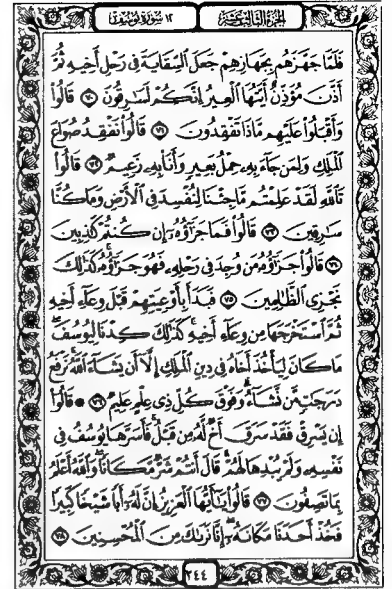
فإنهم - بسبب ما يحصل لهم به من
العلم بالحق وإيثاره - يحصل لهم
الهدى، وبما يحصل لهم من الثواب
العاجل والآجل تحصل لهم الرحمة .

فصل

في ذكر شيء من العبر والفوائد
التي اشتملت عليها هذه القصة العظيمة
التي قال الله في أولها «نحن نقص
عليك أحسن القصص» وقال «لقد
كان في يوسف وإخوته آيات
للناسئين» وقال في آخرها «لقد كان

ومن المناسبة أن الشمس لفظ
مؤنث، فلذلك كانت أمه، والقمر
والكواكب مذكرات، فكانت لأبيه
وإخوته، ومن المناسبة أن الساجد
معظم محترم للمسجود له، والمسجود
[له] معظم محترم، فلذلك دل ذلك على
أن يوسف يكون معظماً محترماً عند
أبيه وإخوته .

ومن لازم ذلك أن يكون مجتبي
مفضلاً في العلم والفضائل الموجبة
لذلك، ولذلك قال له أبوه: «وكذلك
يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل



الذين هم أكمل عقولاً، وأصح آراء،
ولبتين أمرهم ويتضح شأنهم .

«أفلم يسبروا في الأرض» إذا لم
يصدقوا لقولك، «فينظروا كيف كان
عاقبة الذين من قبلهم» كيف
أهلكهم الله بتكذيبهم، فاحذروا أن
تقيموا على ما أقاموا عليه، فيصيحكم ما
أصابهم، «ولدار الآخرة» أي: الجنة
وما فيها من النعيم المقيم، «خير للذين
اتقوا» الله في امتثال أوامره، واجتناب
نواهيه، فإن نعيم الدنيا منغص منكس،
منقطع، ونعيم الآخرة تام كامل، لا
يفنى أبداً، بل هو على الدوام في تزايد
وتواصل، «عطاء غير مجدود» أفلا
تعقلون؟ أي: أفلا تكون لكم عقول
تؤيِّز الذي هو خير على الأدنى .

«١١٠ - ١١١» «حتى إذا
استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا
جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد
بأسنا عن القوم المجرمين» * لقد كان في
قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان
حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين
يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة
لقوم يؤمنون» يخبر تعالى: أنه يرسل
الرسل الكرام، فيكذبهم القوم
المجرمون اللئام، وأن الله تعالى يمهلهم
ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله
يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية

الأحاديث ومن المناسبة في رؤيا الفتيين، أنه أول رؤيا، الذي رأى أنه يعصر خراً، أن الذي يعصر في العادة، يكون خادماً لغيره، والعصر يقصد لغيره، فلذلك أوله بما يؤول إليه، أنه يسقي ربه، وذلك متضمن لخروجه من السجن.

وأول الذي رأى أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، بأن جلدة رأسه ولحمه، وما في ذلك من المخ، أنه هو الذي يحمله، وأنه سيبرز للطيور، بمحل تتمكن من الأكل من رأسه، فرأى من حاله أنه سيقتل ويصلب بعد موته فيبرز للطيور فتأكل من رأسه، وذلك لا يكون إلا بالصلب بعد القتل.

وأول رؤيا الملك للبقرات والسنبلات، بالسنين المخصصة، والسنين المجدبة، ووجه المناسبة أن الملك، به ترتبط أحوال الرعية ومصالحها، وبصلاحه تصلح، وبفساده تفسد، وكذلك السنون بها صلاح أحوال الرعية، واستقامة أمر المعاش أو عدمه.

وأما البقر فإنها تحرث الأرض عليها، ويستقى عليها الماء، وإذا أخضبت السنة سمئت، وإذا أجذبت صارت عجافاً، وكذلك السنبال في الخصب، تكثر وتخضر، وفي الجذب تقل وتيسس وهي أفضل غلال الأرض.

ومنها: ما فيها من الأدلة على صحة نبوة محمد ﷺ، حيث قص على قومه هذه القصة الطويلة، وهو لم يقرأ كتب الأولين ولا دارس أحداً.

يراه قومه بين أظهرهم صباحاً ومساءً، وهو أمي لا يحط ولا يقرأ، وهي موافقة، لما في الكتب السابقة، وما كان لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون.

ومنها: أنه ينبغي البعد عن أسباب الشر، وكتمان ما تخشى مضرته، لقول يعقوب ليوسف «يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا»

ومنها: أنه يجوز ذكر الإنسان بما يكره على وجه النصيحة لغيره لقوله: «فيكيدوا لك كيدا».

ومنها: أن نعمة الله على العبد، نعمة على من يتعلق به من أهل بيته وأقاربه وأصحابه، وأنه ربما شملتهم، وحصل لهم ما حصل له بسببه، كما قال يعقوب في تفسيره لرؤيا يوسف «وكذلك يجتنيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب» ولما تمت النعمة على يوسف، حصل لآل يعقوب من العز والتمكين في الأرض والسرور والغلبة ما حصل بسبب يوسف.

ومنها: أن العدل مطلوب في كل الأمور، لا في معاملة السلطان رعيته ولا فيما دونه، حتى في معاملة الوالد لأولاده، في المحبة والإيثار وغيره، وأن في الإخلال بذلك يختل عليه الأمر، وتفسد الأحوال، ولهذا، لما قدم يعقوب يوسف في المحبة وآثره على إخوته، جرى منهم ما جرى على أنفسهم، وعلى أبيهم وأخيه.

ومنها: الحذر من شؤم الذنوب، وأن الذنب الواحد يستتبع ذنوباً متعددة، ولا يتم لفاعله إلا بعدة جرائم، فإخوة يوسف لما أرادوا التفريق بينه وبين أبيه، احتالوا لذلك بأنواع من الخيل، وكذبوا عدة مرات، وزوروا على أبيهم في القميص والدم الذي فيه، وفي إتيانهم عشاء بيبكون، ولا تستبعد أنه قد كثر البحث فيها في تلك المدة، بل لعل ذلك اتصل إلى أن اجتمعوا بيوسف، وكلما صار البحث، حصل من الإخبار بالكذب، والافتراء ما حصل، وهذا شؤم الذنب، وآثاره التابعة والسابقة واللاحقة.

ومنها: أن العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء

قَالَ مَكَادُ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ الْإِيمَنُ وَجَدَ مَا مَتَاعَ عِنْدَهُ بِرَأَى
إِنْ أَطْلُبُوا ﴿٢٤٥﴾ ثُمَّ اسْتَبْرَأَ مِنْهُ خَصْمًا يَجِيءُ قَالَ
كَيْفَ هُمْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَا كُنْتُ مَعَهُ فَقَدْ أَخَذَ عَلَيْهِ كَرْمِيضًا
مِنْ أَوَّلِهِ قُلْ مَا وَطَنِي فِي يَوْمِئِذٍ مَلَأَ أَرْضَ الْأَرْضِ
حَتَّى تَأْتِيَ لِي أُنْزِلَ اللَّهُ إِلَيَّ وَهُوَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ
﴿٢٤٦﴾ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَيْكُنْ قَفْرًا بَيْنَ آبَائِكَ أَنْ تَبْتَكَ سَرَى
وَمَا كُنْتَ إِلَّا بِأَيِّكَ وَمَا كُنْتَ إِلَّا لِقَابٍ حَفِظِينَ
﴿٢٤٧﴾ وَنَسَلَ الْقُرْبَى إِلَى كُنْ فِيهَا وَالْوَيْدَ إِلَى أَهْلِهَا
وَأَنَا لَصَدُوقُكُمْ ﴿٢٤٨﴾ قَالَ بَلْ سَوَّكَ لَكُنْ أَنْفُسُكُمْ
أَمْرًا فَصَبْرًا جَمِيلًا عَمِيَ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَكَ يَوْمَئِذٍ الْوَيْدُ
الْعَمِي الْمُنْكَبِرُ ﴿٢٤٩﴾ وَقُلْ عَمْرُؤُا قُلْ بَلْ سَوَّكَ لَكُنْ
يَوْمَئِذٍ وَابْتَكَ عَيْنَهُ مِنْ الْخَضِرِ فَهُوَ كَلِيمٌ ﴿٢٥٠﴾
قَالُوا تَأْلَمُ تَقْتُلُ تَذْكُرُ يَوْمَئِذٍ حَتَّى تَكُونَ حَرَمًا
أَنْتَ كُنْ بَرٌّ لِلْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي
وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٥٢﴾

لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سمح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين.

ولهذا - في أصح الأقوال - أنهم كانوا أنبياء لقوله تعالى: «وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط» وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، وما يدل على ذلك أن في رؤيا يوسف، أنه رآهم كواكب نيرة، والكواكب فيها النور والهداية الذي من صفات الأنبياء، فإن لم يكونوا أنبياء فإنهم علماء هداة.

ومنها: ما من الله به على يوسف عليه الصلاة والسلام من العلم والحلم، ومكارم الأخلاق، والدعوة إلى الله وإلى دينه، وعفوه عن إخوته الخاطئين عفواً بادرهم به، وتم ذلك بأنه لا يثرب عليهم ولا يعيرهم به.

ثم برّه العظيم بأبويه، وإحسانه لإخوته، بل لعموم الخلق.

ومنها: أن بعض الشر أهون من بعض، وارتكاب أخف الضررين أولى من ارتكاب أعظمهما، فإن إخوة يوسف، لما اتفقوا على قتل يوسف أو إلقائه أرضاً، وقال قائل منهم: «لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب» كان قوله أحسن منهم وأخف، ويسببه خف عن إخوته الإثم الكبير.

ومنها: أن الشيء إذا تداولته الأيدي وصار من جملة الأموال، ولم يعلم أنه كان على غير وجه الشرع، أنه



منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله» وإنما الهم الذي يلام عليه العبد، الهم الذي يساكنه، ويصير عزماً، ربما اقترن به الفعل.

ومنها: أن من دخل الإيمان قلبه، وكان مخلصاً لله في جميع أموره فإن الله يدفع عنه ببرهان إيمانه، وصدق إخلاصه من أنواع السوء والفحشاء وأسباب المعاصي ما هو جزء لإيمانه وإخلاصه لقوله: ﴿وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين﴾ على قراءة من قرأها بكسر اللام، ومن قرأها بالفتح، فإنه من إخلاص الله إياه، وهو متضمن لإخلاصه هو بنفسه، فلما أخلص عمله لله أخلصه الله، وخلصه من السوء والفحشاء.

ومنها: أنه ينبغي للعبد إذا رأى محلاً فيه فتنة وأسباب معصية، أن يفر منه ويهرب غاية ما يمكنه، ليتمكن من التخلص من المعصية، لأن يوسف عليه السلام - لما راودته التي هو في بيتها - فر هارباً، يطلب الباب ليتخلص من شرها، ومنها: أن القرائن يعمل بها عند الاشتباه، فلو تخاصم رجل وامرأته في شيء من أواني الدار، فما يصلح للرجل فإنه للرجل، وما يصلح للمرأة فهو لها، إذا لم يكن بينه، وكذا لو تنازع نجار وحداد في آلة حرفتهما من غير بينة، والعمل بالقافة في الأشياء والأثر، من هذا الباب، فإن شاهد يوسف شهد بالقرينة، وحكم بها في قد القميص، واستدل بقدّه من دبره على صدق يوسف وكذبها.

ومما يدل على هذه القاعدة، أنه استدل بوجود الصّواع في رحل أخيه على الحكم عليه بالسرقه، من غير بينة شهادة ولا إقرار، فعلى هذا إذا وجد المسروق في يد السارق، خصوصاً إذا كان معروفاً بالسرقه، فإنه يحكم عليه بالسرقه، وهذا أبلى من الشهادة،

وكذلك وجود الرجل يتقياً الخمر، أو وجود المرأة التي لا زوج لها ولا سيد حاملاً فإنه يقام بذلك الحد، ما لم يقم مانع منه، ولهذا سمي الله هذا الحاكم شاهداً فقال: ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾.

ومنها: ما عليه يوسف من الجمال الظاهر والباطن، فإن جماله الظاهر، أوجب للمرأة التي هو في بيتها ما أوجب، وللنساء اللاتي جمعتن حين لئها على ذلك أن تقطن أيديهن وقلن ﴿ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾ وأما جماله الباطن، فهو العفة العظيمة عن المعصية، مع وجود الدواعي الكثيرة لوقوعها، وشهادة امرأة العزيز والنسوة بعد ذلك ببراءته، ولهذا قالت امرأة العزيز: ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ وقالت بعد ذلك: ﴿الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ وقالت النسوة: ﴿حاش لله ما علمنا عليه من سوء﴾.

ومنها: أن يوسف عليه السلام اختار السجن على المعصية، فهكذا ينبغي للعبد إذا ابتلي بين أمرين - إما فعل معصية، وإما عقوبة دنيوية - أن يختار العقوبة الدنيوية على الواقعة الذنب الموجب للعقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة، ولهذا من علامات الإيمان، أن يكره العبد أن يعود في الكفر، بعد أذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته، لقول يوسف عليه السلام: ﴿ولا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين﴾.

ومنها: أن العلم والعقل يدعوان صاحبهما إلى الخير، وينهيانه عن الشر، وأن الجاهل يدعو صاحبه إلى موافقة هوى النفس، وإن كان معصية ضاراً لأصاحبه.

لا إثم على من باشره ببيع أو شراء، أو خدمة أو انتفاع أو استعمال، فإن يوسف عليه السلام باعه إخوته ببعاً حراماً، لا يجوز، ثم ذهب به السيارة إلى مصر فباعوه بها، وبقي عند سيده غلاماً رقيقاً، وسماه الله شراً^(١)، وكان عندهم بمنزلة الغلام الرقيق المكرم.

ومنها: الحذر من الخلوة بالنساء التي يخشى منهن الفتنة، والحذر أيضاً من المحبة التي يخشى ضررها، فإن امرأة العزيز جرى منها ما جرى، بسبب توخدها بيوسف، وحبها الشديد له، الذي ما تركها حتى راودته تلك المراودة، ثم كذبت عليه، فسجن بسببها مدة طويلة.

ومنها: أن الهمّ الذي همّ به يوسف بالمرأة، ثم تركه الله، مما يُقرّبه إلى الله زلفى، لأن الهمّ داع من دواعي النفس الأمارة بالسوء، وهو طبيعة لأغلب الخلق، فلما قابل بينه وبين محبة الله وخشيته، غلبت محبة الله وخشيته داعي النفس والهوى، فكان ممن ﴿خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى﴾ ومن السبعة الذين يظلمهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، أحدهم: «رجل دغته امرأة ذات

(١) كذا في أ، وفي ب: سيداً، ويبدو والله أعلم أن مراد الشيخ - رحمه الله - أن الله قال: (وشروه) فسمى الله فعلهم شراء مع كونه



ويعقوب لم يفارق الحزن قلبه في هذه المدة ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ ثم ازداد به الأمر شدة، حين صار الفراق بينه وبين ابنه الثاني شقيق يوسف، هذا وهو صابر لأمر الله، محتسب الأجر من الله، قد وعد من نفسه الصبر الجميل، ولا شك أنه وفي بما وعد به، ولا ينافي ذلك، قوله: ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ فإن الشكوى إلى الله لا تنافي الصبر، وإنما الذي ينافيه، الشكوى إلى المخلوقين.

ومنها: أن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً، فإنه لما طال الحزن على يعقوب واشتد به إلى أنه ما يكون، ثم حصل الاضطراب لآل يعقوب ومسهم الضر، أذن الله حينئذ بالفرج، فحصل التلاقي في أشد الأوقات إليه حاجة واضطراباً، فتم بذلك الأجر وحصل السرور، وعلم من ذلك أن الله يتبلي أوليائه بالشدة والرخاء، والعسر واليسر ليمتحن صبرهم وشكرهم، ويزداد - بذلك - إيمانهم ويقينهم وعرفاتهم.

ومنها: جواز إخبار الإنسان بما يجد، وما هو فيه من مرض أو فقر ونحوهما، على غير وجه التسخط، لأن إخوة يوسف قالوا: ﴿يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر﴾ ولم ينكر عليهم يوسف.

ومنها: فضيلة التقوى والصبر، وأن كل خير في الدنيا والآخرة فمن آثار التقوى والصبر، وأن عاقبة أهلها أحسن العواقب، لقوله: ﴿قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾.

ومنها: أنه ينبغي لمن أنعم الله عليه بنعمة بعد شدة وفقر وسوء حال، أن يعترف بنعمة الله عليه، وأن لا يزال ذاكراً حاله الأولى، ليحدث لذلك شكراً كلما ذكرها، لقول يوسف عليه السلام: ﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو﴾

إنم عليه ولا حرج. ومنها: أن استعمال الأسباب الدافعة للعين أو غيرها من المكاره، أو الرافعة لها بعد نزولها، غير ممنوع، بل جائز، وإن كان لا يقع شيء إلا بقضاء وقدر، فإن الأسباب أيضاً من القضاء والقدر، لأمر يعقوب حيث قال لابنه: ﴿يا بني لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾.

ومنها: جواز استعمال المكاييد التي يتوصل بها إلى الحقوق، وأن العلم بالطرق الخفية الموصلة إلى مقاصدها عما يحمد عليه العبد، وإنما الممنوع، التحيل على إسقاط واجب، أو فعل محرم.

ومنها: أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره، بأمر لا يجب أن يطلع عليه، أن يستعمل المعارض القولية والفعلية المانعة له من الكذب، كما فعل يوسف حيث ألقى الصواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه، موهماً أنه سارق، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته، وقال بعد ذلك: ﴿معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ ولم يقل «من سرق متاعنا» وكذلك لم يقل «إنا وجدنا متاعنا عنده» بل أتى بكلام عام يصلح له ولغيره، وليس في ذلك محذور، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر، وأنه يبقى عند أخيه^(١)، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبين الحال.

ومنها: أنه لا يجوز للإنسان أن يشهد إلا بما علمه، وتحققه إما بمشاهدة أو خبر من يثق به، وتطمئن إليه النفس لقولهم: ﴿وما شهدنا إلا بما علمنا﴾.

ومنها: هذه المحنة العظيمة التي امتحن الله بها نبيه وصفيه يعقوب عليه السلام، حيث قضى بالتفريق بينه وبين ابنه يوسف، الذي لا يقدر على فراقه ساعة واحدة، ويمحزنه ذلك أشد الحزن، فحصل التفريق بينه وبينه مدة طويلة، لا تقصر عن خمسة عشر سنة،

ويعمل بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه.

ومنها: حسن تدبير يوسف لما تولى خزائن الأرض، حتى كثرت عندهم الغلات جداً حتى صار أهل الأقطار يقصدون مصر لطلب الميرة منها، لعلمهم بوفورها فيها، وحتى إنه كان لا يكيل لأحد إلا مقدار الحاجة الخاصة أو أقل، لا يزيد كل قادم على كيل بعير وحمله.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن المرسلين، وإكرام الضيف لقول يوسف لإخوته ﴿آلا ترون أني أوفي الكيل وأنا خير المنزلين﴾.

ومنها: أن سوء الظن مع وجود القرائن الدالة عليه غير ممنوع ولا محرم، فإن يعقوب قال لأولاده - بعدما امتنع من إرسال يوسف معهم حتى عاجلوه أشد المعالجة، ثم قال لهم بعد ما أتوه، وزعموا أن الذئب أكله ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ وقال لهم في الأخ الآخر: ﴿هل آتاكم عليه إلا كما آمنتكم على أخيه من قبل﴾ ثم لما احتبسه يوسف عنده، وجاء إخوته لأبيهم قال لهم: ﴿بل سولت لكم أنفسكم أمراً﴾ فهم في الأخيرة - وإن لم يكونوا مفرطين - فقد جرى منهم ما أوجب لأبيهم أن قال ما قال، من غير

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمُرْسَلَةِ رَبِّكَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ نَحْوُ
وَلَكِنَّكَ أَكْثَرُ أَلَّا تَدْرِيُونَ ﴿١﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ
بَعْدَ عَرْشِهِ وَهُوَ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ لَشَمْسٍ وَقَمَرٍ
يَجْرِي لِأَجْلِ مُسَمًّى يَدْرَأَ الْبَحْرَ مُضِلًّا لَنَافِتٍ لَمَلَكٍ يَفْقَهُ
لَا تُدْرِكُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِجًّا
وَأَنْهَارًا وَمَنْ كُنْزِ السَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رِجًّا ثَانِيًا يَنْشُرُ
الْحَبَّ الْأَنْهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ
يَطْعَمُ مَشْجُورَاتٍ وَحَتَّى تَنْفَعَهُمْ وَرِجَّ وَنَحْلٍ وَفِي الْأَرْضِ
وَعَرْشُونَ يُحْشَرُونَ وَحُجُورٌ وَمَعْرُوفٌ يُفْقَهُ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ
فِي الْأَرْضِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ
تَجَبُّ مَعْرِفَةِ رَبِّهِمْ أَكْبَرُ دَرَكًا لَمْ يَكُنْ لَكُمْ فِي خَلْقِهِ
أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَعْنَابِ
أَشْطَرَفَهُمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ الْأَنْهَارِ وَمَا خَلَقُوا

(٢١٦)

الأقدار في أوقاتها التي سبق بها علمه،
وجرى بها قلمه، ويرسل ملائكته
الكرام لتدبير ما جعلهم على تدبيره.

وينزل الكتب الإلهية على رسله،
ويبين ما يحتاج إليه العباد من الشرائع
والأوامر والنواهي، ويفصلها غاية
التفصيل ببيانها وإيضاحها وتمييزها،
﴿لعلكم﴾ بسبب ما أخرج لكم من
الآيات الأفقية، والآيات القرآنية،
﴿بلقاء ربكم توقنون﴾ فإن كثرة الأدلة
وبيانها ووضوحها، من أسباب حصول
اليقين في جميع الأمور الإلهية،
خصوصاً في العقائد الكبار، كالبعث
والنشور والإخراج من القبور.

وأيضاً فقد علم أن الله تعالى حكيم
لا يخلق الخلق سدى، ولا يتركهم
عبثاً، فكما أنه أرسل رسله وأنزل كتبه
لأمر العباد ونهيهم، فلا بد أن ينقلهم
إلى دار يحمل فيها جزاؤه، فيجازي
المحسنين بأحسن الجزاء، ويجازي
المسيئين بإساءتهم.

﴿وهو الذي مدَّ الأرض﴾ أي:
خلقها للعباد، ووسعها، وبارك فيها،
ومهدا للعباد، وأودع فيها من
مصلحتهم ما أودع، ﴿وجعل فيها
رواسي﴾ أي: جبالاً عظماً، لئلا تميد
بالخلق، فإنه لولا الجبال لمادت بأهلها،
لأنها على تيار ماء، لا ثبوت لها ولا
استقرار إلا بالجبال الرواسي، التي
جعلها الله أوتاداً لها.

يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل
الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون *
وهو الذي مد الأرض وجعل فيها
رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل
فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن
في ذلك لآيات لقوم يتفكرون * وفي
الأرض قطع متجاورات وجنات من
أعشاب وزرع ونخيل صنوان وغير
صنوان يسقى بماء واحد ونفضل
بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك
لآيات لقوم يعقلون * يخبر تعالى عن
انفراد الخلق والتدبير، والعظمة
والسلطان الدال على أنه وحده المعبود،
الذي لا تنبغي العبادة إلا له، فقال:
﴿الله الذي رفع السماوات﴾ على
عظمها واتساعها بقدرته العظيمة،
﴿بغير عمد ترونها﴾ أي: ليس لها
عمد من تحتها، فإنه لو كان لها عمد،
لرأيتموها، ﴿ثم﴾ بعد ما خلق
السماوات والأرض ﴿استوى على
العرش﴾ العظيم الذي هو أعلى
المخلوقات، استواء يليق بجلاله
ويناسب كماله.

﴿وسخر الشمس والقمر﴾ لمصالح
العباد ومصالح مواشيهم وثمارهم،
﴿كل﴾ من الشمس والقمر ﴿يجري﴾
بتدبير العزيز العليم، ﴿لأجل مسمى﴾
بسير منتظم، لا يفتران ولا ينبان،
حتى يجيء لأجل المسمى وهو طي الله
هذا العالم، ونقلهم إلى الدار الآخرة
التي هي دار القرار، فعند ذلك
يطوي الله السماوات، ويبدلها، ويغير
الأرض ويبدلها. فتكسر الشمس
والقمر، ويجمع بينهما، فيلقيان في
النار، ليرى من عبدهما أنهما غير أهل
للعادة، فيتحسر بذلك أشد الحسرة،
وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين.

وقوله: ﴿يدبر الأمر يفصل
الآيات﴾ هذا جمع بين الخلق والأمر،
أي: قد استوى الله العظيم على سرير
الملك، يدبر الأمور في العالم العلوي
والسفلي، فيخلق ويرزق، ويغني
ويقدر، ويرفع أقواماً ويضع آخرين،
ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويقلل
العثرات، ويفرج الكربات، وينفذ

ومنها: لطف الله العظيم بيوسف،
حيث نقله في تلك الأحوال، وأوصل
إليه الشدائد والمحن، ليوصله بها إلى
أعلى الغايات ورفيع الدرجات.

ومنها: أنه ينبغي للعبد أن يتملق
إلى الله دائماً في تثبيت إيمانه، ويعمل
الأسباب الموجبة لذلك، ويسأل الله
حسن الخاتمة، وتمام النعمة لقول
يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿رب
قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل
الأحاديث فاطر السماوات والأرض
أنت ولي في الدنيا والآخرة توفني
مسلياً وألحقني بالصالحين﴾.

فهذا ما يسر الله من الفوائد والعبر
في هذه القصة المباركة، ولا بد أن
يظهر للمتدبر المتفكر غير ذلك.

فنسأله تعالى علماً نافعاً وعملاً
مقبلاً، إنه جواد كريم.

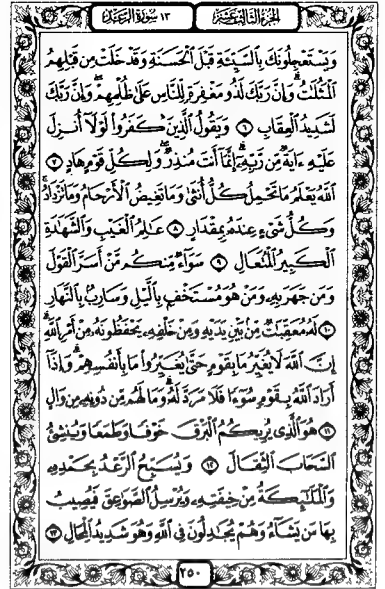
ثم تفسير سورة يوسف وأبيه وإخوته
عليهم الصلاة والسلام،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الرعد، وهي مدنية، وقيل: مكية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم المر
تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك
من ربك الحق ولكن أكثر الناس
لا يؤمنون﴾ يخبر تعالى أن هذا القرآن
هو آيات الكتاب الدالة على كل ما
يحتاج إليه العباد من أصول الدين
وفروعه، وأن الذي أنزل إلى الرسول
من ربه هو الحق المبين، لأن أخباره
صدق، وأوامره ونواهيه عدل، مؤيدة
بالأدلة والبراهين القاطعة، فمن أقبل
عليه وعلى علمه، كان من أهل العلم
بالحق، الذي يوجب لهم علمهم،
العمل بما أحب الله.

﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾
بهذا القرآن، إما جهلاً وإعراضاً عنه
وعدم اهتمام به، وإما عناداً وظلماً،
فلذلك أكثر الناس غير منتفعين به،
لعدم السبب الموجب للانتفاع.

﴿٢-٤﴾ ﴿الله الذي رفع
السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى
على العرش وسخر الشمس والقمر كل



قولهم وتكذيبهم للبعث، فإن ذلك من العجائب، فإن الذي توضح له الآيات، ويرى من الأدلة القاطعة على البعث ما لا يقبل الشك والريب، ثم ينكر ذلك، فإن قوله من العجائب.

ولكن ذلك لا يستغرب على الذين كفروا بربهم ﴿وجحدوا وحدانته، وهي أظهر الأشياء وأجلها، وأولئك الأغلال﴾ المانة لهم من الهدى ﴿في أعناقهم﴾ حيث دعوا إلى الإيمان فلم يؤمنوا، وعرض عليهم الهدى فلم يتدوا، فقلبت قلوبهم وأفشدتهم عقوبة على أنهم لم يؤمنوا به أول مرة، ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها أبداً.

﴿٦﴾ ﴿ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلثات وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب﴾ يخبر تعالى عن جهل المكذبين لرسوله، المشركين به، الذين وعظوا فلم يتعظوا، وأقيمت عليهم الأدلة فلم ينقادوا لها، بل جاهروا بالإنكار، واستدلوا بحلم [الله] الواحد القهار عنهم، وعدم معاجلتهم بذنوبهم، أنهم على حق، وجعلوا يستعجلون الرسول بالعذاب، ويقول قائلهم: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء، أو اتتنا بعذاب أليم﴾.

﴿٧﴾ ﴿الحال أنه قد خلت من قبلهم المثلثات﴾ أي: وقائع الله وأيامه في الأمم المكذبين، أفلا يتفكرون في حالهم ويتركون جهلهم، ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ أي: لا يزال خيره إليهم، وإحسانه وبره وعفوهم نازل إلى العباد، وهم لا يزال شرهم^(١) وعصيانهم إليه صاعداً.

يعصونه فيدعوههم إلى بابه، ويمرهم، فلا يحرمهم خيره وإحسانه، فإن تابوا إليه فهو حبيبهم، لأنه يحب التوابين، ويحب المتطهرين وإن لم يتوبوا فهو طبيبهم، يبتليهم بالمصائب،

الأشجار ﴿من أعناب وزرع ونخيل﴾ وغير ذلك، والنخيل التي بعضها ﴿صنوان﴾ أي: عدة أشجار في أصل واحد، وغير صنوان ﴿بأن كان كل شجرة على حداثها، والجميع يسقى بماء واحد﴾ وأرضه واحدة ﴿ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ لونا، وطعماً، ونفعاً، ولذّة؛ فهذه أرض طيبة تنبت الكلأ والعشب الكثير، والأشجار والزروع، وهذه أرض تلاصقها لا تنبت كلأ ولا تمسك ماء، وهذه تمسك الماء، ولا تنبت الكلأ، وهذه تنبت الزروع والأشجار، ولا تنبت الكلأ، وهذه الشجرة حلوة، وهذه مرة، وهذه بين ذلك.

فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها؟ أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟ ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ أي: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم، وتقودهم إلى ما يرشدهم ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره ونواهيه، وأما أهل الإعراض، وأهل البلاة فهم في ظلماتهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، لا يبتدون إلى ربهم سبيلاً ولا يعون له قبيلاً.

﴿٥﴾ ﴿وإن تعجب فعجب قولهم إذا كنا تراباً إنا لفي خلق جديد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ يحتمل أن معنى قوله ﴿وإن تعجب﴾ من عظمة الله تعالى وكثرة أدلة توحيده، فإن العجب - مع هذا - إنكار المكذبين، وتكذيبهم بالبعث، وقولهم ﴿إذا كنا تراباً إنا لفي خلق جديد﴾ أي: هذا بعيد في غاية الامتناع بزعمهم، أنهم بعد ما كانوا تراباً، أن الله يعيدهم، فإنهم - من جهلهم - قاسوا قدرة الخالق بقدرة المخلوق.

فلما رأوا هذا ممتنعاً في قدرة المخلوق، ظنوا أنه ممتنع على قدرة الخالق، ونسوا أن الله خلقهم أول مرة ولم يكونوا شيئاً.

ويحتمل أن معناه: وإن تعجب من

﴿٥﴾ جعل فيها أنهاراً تسقي الآدميين وبهائمهم وحروثهم، فأخرج بها من الأشجار والزروع والثمار خيراً كثيراً، ولهذا قال: ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي: صنفين مما يحتاج إليه العباد.

﴿يفشي الليل النهار﴾ فتظلم الآفاق، فيسكن كل حيوان إلى مأواه، ويستريحون من التعب والنصب في النهار، ثم إذا قضوا مأربهم من النوم غشى النهار الليل، فإذا هم مصبحون منتشرون في مصالحهم وأعمالهم في النهار.

﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾.

﴿إن في ذلك لآيات﴾ على المطالب الإلهية ﴿للقوم يتفكرون﴾ فيها، وينظرون فيها نظر اعتبار دالة على أن الذي خلقها ودبرها وصرفها، هو الله الذي لا إله إلا هو، ولا معبود سواه، وأنه عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، وأنه القادر على كل شيء، الحكيم في كل شيء، المحمود على ما خلقه وأمره تبارك وتعالى.

ومن الآيات على كمال قدرته وبديع صنعته، أن جعل ﴿في الأرض قطع متجاورات وجنات﴾ فيها أنواع



﴿فَيَصِيبُهَا مِنْ بَشَاءٍ﴾ من عباده، بحسب ما شاء وأراده ﴿وهو شديد المحال﴾ أي: شديد الحول والقوة، فلا يريد شيئاً إلا فعله، ولا يتعاضى عليه شيء، ولا يفوته هارب.

فإذا كان هو وحده، الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة أرزاقهم، وهو الذي يدبر الأمور، وتخضع له المخلوقات العظام التي يخاف منها، وتزعج العباد، وهو شديد القوة - فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، ولهذا قال:

﴿١٤﴾ ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كِبَاسُ طَرَفِ الْمَاءِ لِيَبْلِغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دَعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: لله وحده ﴿دعوة الحق﴾ وهي: عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى، أي: هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء، والخوف والرجاء، والحب، والرغبة، والرغبة، والإنابة، لأن ألوهيته هي الحق، والألوهية غيره باطلة، ﴿والذين يدعون من دونه﴾ من الأوثان والأنداد التي جعلوها شركاء لله.

﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ﴾ أي: لمن يدعوا ويعبدها، بشيء قليل ولا كثير، لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة، ﴿إلا كibasط كفيه إلى الماء﴾

الذي لا تناله كفاه لبعده، ﴿ليبلغ﴾ ببسط كفيه إلى الماء ﴿فاه﴾ فإنه عطشان، ومن شدة عطشه يتناول بيده وييسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه، فلا يصل إليه.

كذلك الكفار الذين يدعون معه آلهة، لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم حاجة، لأهم فقراء، كما أن من دعوهم فقراء، لا يملكون مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وما لهم فيهما من شرك، وما له منهم من ظهير.

﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلالٍ﴾ لبطلان ما يدعون من دون الله، فبطلت عباداتهم ودعاؤهم، لأن الرسيطة تبطل بطلان غايتها، ولما كان الله تعالى هو الملك الحق المبين، كانت عبادته حقاً متصلة النفع لصاحبها في الدنيا والآخرة.

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليلبلغ فاه من أحسن الأمثلة؛ فإن ذلك تشبيه بأمر محال، فكما أن هذا محال، فالمشبه به محال، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِ الْخِيَاطِ﴾.

﴿١٥﴾ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وظلالهم بالغدو والآصال﴾ أي: جميع ما احتوت عليه السماوات والأرض كلها خاضعة لربها، تسجد له طوعاً وكرهاً، فالطوع لمن يأتي بالسجود والخضوع اختياراً كالْمُؤْمِنِينَ، والكره لمن يستكبر عن عبادة ربه، وحاله وفطرته تكذبه في ذلك، ﴿وظلالهم بالغدو والآصال﴾ أي: ويسجد له ظلال المخلوقات أول النهار وآخره، وسجود كل شيء بحسب حاله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾. فإذا كانت المخلوقات كلها تسجد

لربها طوعاً وكرهاً، كان هو الإله حقاً، المعبود المحمود حقاً، والإلهية غيره باطلة، ولهذا ذكر بطلانها وبرهن عليه بقوله:

﴿١٦﴾ ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَفَتُخَذَتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعاً وَلَا ضَرراً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي: قل لهؤلاء المشركين به أوثاناً وأنداداً يحبونهم كما يحبون الله، ويذلون لها أنواع التقربات والعبادات: أفأتأهت عقولكم حتى اتخذتم من دونه أولياء تتولونهم بالعبادة، وليسوا بأهل لذلك؟

فإنهم ﴿لا يملكون لأنفسهم نفْعاً ولا ضراً﴾ وتتركون ولاية من هو كامل الأسماء والصفات، الملك للأحياء والأموات، الذي بيده الخلق والتدبير والنفع والضرر؟ فما تستوي عبادة الله وحده، وعبادة المشركين به، كما لا تستوي الأعمى والبصير، وكما لا تستوي الظلمات والنور.

فإن كان عندهم شك واشتباه، وجعلوا له شركاء زعموا أنهم خلقوا كخلقه، وفعلوا كفعله، فأزّل عنهم هذا الاشتباه واللبس، بالبرهان الدال على توحيد الإله بالوحدانية، فقل لهم: ﴿الله خالق كل شيء﴾ فإنه من المحال أن يخلق شيء من الأشياء نفسه.

ومن المحال أيضاً أن يوجد من دون خالق، فتعين أن لها إلهاً خالقاً لا شريك له في خلقه، لأنه الواحد القهار، فإنه لا توجد الوحدة والقهر إلا لله وحده، فالمخلوقات كل مخلوق فوقه مخلوق يقهره، ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى منه، حتى ينتهي القهر للواحد القهار، فالقهر والتوحيد متلازمان، متعينان لله وحده، فتبين بالدليل العقلي القاهر، أن ما يُدعى من دون الله ليس له شيء من خلق المخلوقات، وبذلك كانت عبادته باطلة.

عليهم من كل باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار* يقول تعالى: مفرقاً بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق﴾ ففهم ذلك وعمل به. ﴿كمن هو أعمى﴾ لا يعلم الحق ولا يعمل به، فبينهما من الفرق، كما بين السماء والأرض، فحقيق بالعبد أن يتذكر ويتفكر، أي الفريقتين أحسن حالاً وخير مآلاً، فيؤثر طريقها، ويسلك خلف فريقها، ولكن ما كل أحد يتذكر ما ينفعه ويضره.

﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ أي: أولو العقول الرزينة، والآراء الكاملة، الذين هم لب العالم، وصفوة بني آدم، فإن سألت عن وصفهم، فلا تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله:

﴿الذين يوفون بعهد الله﴾ الذي عهد إليهم، والذي عاهدهم عليه من القيام بحقوقه كاملة موفرة، فالوفاء بها توفيتها حقها من التتميم لها، والنصح فيها، ﴿و﴾ من تمام الوفاء بها أنهم ﴿لا ينقضون الميثاق﴾ أي: العهد الذي عاهدوا عليه الله، فدخل في ذلك جميع المواثيق والعهود والأيمان والنذور، التي يعقدها العباد. فلا يكون العبد من أولي الألباب الذين لهم الثواب العظيم، إلا بأدائها كاملة، وعدم نقضها وبخسها.

﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ وهذا عام في كل ما أمر الله بوصله، من الإيمان به وبرسوله، ومحبة وحبّة رسوله، والالتحاق لعبادته وحده لا شريك له، ولطاعة رسوله.

ويصلون آباءهم وأمهاتهم، ببرهم بالقول والفعل، وعدم عقوبتهم، ويصلون الأقارب والأرحام، بالإحسان إليهم قولاً وفعلًا. ويصلون ما بينهم وبين الأزواج والأصحاب والماليك، بأداء حقهم كاملاً موفراً، من الحقوق الدينية والدنيوية.

والسبب الذي يجعل العبد واصلاً ما أمر الله به أن يوصل، خشية الله وخوف يوم الحساب، ولهذا قال: ﴿ويخشون ربهم﴾ أي: يخافونه،

ثوابه، وغير مستجيب، فذكر عقابه فقال: ﴿للذين استجابوا لربهم﴾ أي: انقادت قلوبهم للعلم والإيمان، وجوارحهم للأمر والنهي، وصاروا موافقين لربهم فيما يريد منهم، فلهم ﴿الحسنى﴾ أي: الحالة الحسنة، والثواب الحسن.

فلهم من الصفات أجلها، ومن المناقب أفضلها ومن الثواب العاجل والآجل ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ بعد ما ضرب لهم الأمثال، وبين لهم الحق، لهم الحالة غير الحسنة، ف ﴿لأن لهم ما في الأرض جميعاً﴾ من ذهب وفضة وغيرها، ﴿ومثله معه لافتدوا به﴾ من عذاب يوم القيامة، ما تقبل منهم، وأتى لهم ذلك!!!

﴿أولئك لهم سوء الحساب﴾ وهو الحساب الذي يأتي على كل ما أسلفوه من عمل سيئ، وما ضيعوه من حقوق الله وحقوق عباده قد كتب ذلك وسطر عليهم، وقالوا: ﴿يا ويلتنا مال هذا الكتاب، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾ ﴿و﴾ بعد هذا الحساب السيئ ﴿مأواهم جهنم﴾ الجامعة لكل عذاب، من الجوع الشديد، والعطش الوجيع، والنار الحامية، والزقوم، والمزهرير، والضريع، وجميع ما ذكره الله من أصناف العذاب، ﴿وبئس المهاد﴾ أي: المقر والمسكن مسكنهم.

﴿١٩ - ٢٤﴾ ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾ إنما يتذكر أولو الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب * والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرون بالحسن السيئة أولئك لهم عقبى الدار * جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون

﴿١٧﴾ ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً وما يؤقودون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال﴾ شبه تعالى الهدى الذي أنزله على رسوله حياة القلوب والأرواح، بالماء الذي أنزله حياة الأشباح، وشبه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد، بما في المطر من النفع العام الضروري، وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالآودية التي تسيل فيها السيول، فواد كبير يسع ماء كثيراً، كقلب كبير يسع علماً كثيراً، وواد صغير يأخذ ماء قليلاً، كقلب صغير، يسع علماً قليلاً، وهكذا.

وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها، بالزبد الذي يعلو الماء، ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدرة له، حتى تذهب وتضمحل، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي والحلية الخالصة.

كذلك الشبهات والشهوات، لا يزال القلب يكرهها، ويمجاهداها بالبراهين الصادقة، والإرادات الجازمة، حتى تذهب وتضمحل ويبقى القلب خالصاً صافياً، ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره، والرجبة فيه، فالباطل يذهب ويمحقه الحق ﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ وقال هنا: ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ ليتضح الحق من الباطل والهدى من الضلال.

﴿١٨﴾ ﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ لما بين تعالى الحق من الباطل، ذكر أن الناس على قسمين: مستجيب لربه، فذكر

فيمنعهم خوفهم منه، ومن القدوم عليه يوم الحساب، أن يتجرؤوا على معاصي الله، أو يقصروا في شيء مما أمر الله به، خوفاً من العقاب ورجاءاً للثواب.

والذين صبروا على المأمورات بالامتنال، وعن المنهيات بالانكفاف عنها والبعد منها، وعلى أقدار الله المؤلة بعدم تسخطها.

ولكن بشرط أن يكون ذلك الصبر ابتغاء وجه ربه، لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه، طلباً لرضا ربه، ورجاءاً للقرب منه، والخطوة بثوابه، وهو الصبر الذي من خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلد، ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو المدحوح على الحقيقة.

وأقاموا الصلاة بأركانها، وشروطها ومكملاتها، ظاهراً وباطناً، وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية دخل في ذلك النفقات الواجبة كالزكوات والكفارات، والنفقات المستحبة، وأنهم ينفقون حيث دعت الحاجة إلى النفقة، سراً وعلانية، ويدبرون بالحسنة السيئة أي: من أساء إليهم بقول أو فعل، لم يقابلوه بفعله، بل قابله بالإحسان إليه.

فيعطون من حرمهم، ويعفون عن ظلمهم، ويصلون من قطعهم، ويمسنون إلى من أساء إليهم، وإذا كانوا يقابلون المسيء بالإحسان، فما ظنك بغير المسيء؟!

أولئك الذين وصفت صفاتهم الجليلة ومناقبهم الجميلة لهم عقبى الدار فسرها بقوله: جنات عدن أي: إقامة لا يزولون عنها، ولا يبعثون عنها جواً، لأنهم لا يرون فوقها غاية لما اشتملت عليه من النعيم والسرور، الذي تنتهي إليه المطالب والغايات.

ومن غم نعيمهم وقرة أعينهم، أنهم يدخلونها ومن صلح من آبائهم من

الذكور والإناث وأزواجهم أي: الزوج أو الزوجة وكذلك النظراء والأشباه، والأصحاب والأحباب، فإنهم من أزواجهم وذرياتهم، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب يهتوهم بالسلامة، وكرامة الله لهم ويقولون: سلام عليكم أي: حلت عليكم السلامة والتحية من الله وحصلت لكم، وذلك متضمن لزوال كل مكروه، ومستلزم لحصول كل محبوب.

بما صبرتم أي: صبركم هو الذي أوصلكم إلى هذه المنازل العالية، والجنات الغالية، فتنم عقبى الدار.

فحقيق بمن نصح نفسه وكان لها عنده قيمة، أن يجاهدها، لعلها تأخذ من أوصاف أولى الألباب بنصيب، لعلها تحظى بهذه الدار، التي هي منية النفوس، وسرور الأرواح الجامعة لجميع اللذات والأفراح، فلمثلها فيعمل العاملون، وفيها فليتنافس المتنافسون.

والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار لما ذكر حال أهل الجنة، ذكر أن أهل النار بعكس ما وصفهم به، فقال عنهم: والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه أي: من بعد ما أكده عليهم على أيدي رسله، وغلظه عليهم، فلم يقابلوه بالانقياد والتسليم، بل قابله بالإعراض والنقض، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل فلم يصلوا ما بينهم وبين ربهم بالإيمان والعمل الصالح، ولا وصلوا الأرحام ولا أدوا الحقوق، بل أفسدوا في الأرض بالكفر والمعاصي، والصدد عن سبيل الله، وابتغائها عوجاً، أولئك لهم اللعنة أي: البعد والذم، من الله وملائكته وعباده المؤمنين، ولهم سوء الدار وهي: الجحيم، بما فيها من العذاب الأليم.

الله يسط الرزق لمن يشاء ويقدر وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة

الدنيا في الآخرة إلا متاع أي: هو وحده يوسع الرزق ويبسطه على من يشاء، ويقدره ويضيقه على من يشاء، وفرحوا أي: الكفار بالحياسة الدنيا فرحاً، أوجب لهم أن يطمئنا بها، ويغفلوا عن الآخرة، وذلك لنقصان عقولهم، وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع أي: شيء حقير، يتمتع به قليلاً، ويفارق أهله وأصحابه، ويعقبهم ولا طويلاً.

٢٧-٢٩ ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب * الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب * الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم طوبى وحسن مآب * يخبر تعالى أن الذين كفروا بآيات الله، يتعتنون على رسول الله، ويقترحون ويقولون: لولا أنزل عليه آية من ربه وبزعمهم أنها لو جاءت لأمنوا، فأجابهم الله بقوله: قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب أي: طلب رضوانه، فليست الهداية والضلال بأيديهم، حتى يجعلوا ذلك متوقفاً على الآيات، ومع ذلك فهم كاذبون، ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى، وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله، ولكن أكثرهم يجهلون.

ولا يلزم أن يأتي الرسول بالآية التي يعينونها ويقترحونها، بل إذا جاءهم بآية تبين ما جاء به من الحق، كفى ذلك، وحصل المقصود، وكان أنفع لهم من طلبهم الآيات التي يعينونها، فإنها لو جاءتهم طبق ما اقترحوا، فلم يؤمنوا بها لعاجلهم العذاب، ثم ذكر تعالى علامة المؤمنين فقال:

الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله أي: يزول قلقها واضطرابها، وتحضرها أفراحها ولذاتها.

ألا يذكر الله تطمئن القلوب أي: حقيق بها، وحرى أن لا تطمئن لشيء سوى ذكره، فإنه لا شيء ألد

أن يقع في علمه نقص أو خلل، ولهذا قال: «وعنده أم الكتاب» أي: اللوح المحفوظ الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع له وشعب.

فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب، كأعمال اليوم والليلة التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لشبوتها أسباباً، ولمحوها أسباباً، لا تتعدى تلك الأسباب، ما رسم في اللوح المحفوظ، كما جعل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر وسعة الرزق، وكما جعل المعاصي سبباً لمحق بركة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب سبباً للسلامة. وجعل التعرض لذلك، سبباً للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يديره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه في اللوح المحفوظ.

﴿٤٠ - ٤١﴾ «وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب» * أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب. يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: لا تعجل عليهم بإصاغة ما يوعدون به من العذاب، فهم إن استمروا على طغيانهم وكفرهم، فلا بد أن يصيبهم ما وعدوا به، «إما نرينك» إياه في الدنيا، فتقر بذلك عينك، «أو نتوفينك» قبل إصابتهم، فليس ذلك شغلاً لك «فإنما عليك البلاغ» والتبيين للخلق.

«وعلينا الحساب» فنحاسب الخلق على ما قاموا به، مما عليهم، وضيعوه، ونثيبهم أو نعاقبهم.

ثم قال متوعداً للمكذبين: «أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها» قيل بإهلاك المكذبين واستئصال الظالمين، وقيل: بفتح بلدان المشركين، ونقصهم في أموالهم وأبدانهم، وقيل غير ذلك من الأقوال. والظاهر - والله أعلم - أن المراد

بذلك، أن أراضي هؤلاء المكذبين جعل الله يفتحها ويغاتها، ويجعل القوارع بأطرافها، تنبيهاً لهم قبل أن يجتاحهم النقص، ويوقع الله بهم من القوارع ما لا يدره أحد، ولهذا قال: «والله يحكم لا معقب لحكمه» ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدرى والجزائى.

فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها، توجد في غاية الحكمة والإنقان، لا خلل فيها ولا نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القلح فيها، بخلاف حكم غيره، فإنه قد يوافق الصواب، وقد لا يوافق، وهو سريع الحساب. أي: فلا يستعجلوا بالعذاب، فإن كل ما هو آت، فهو قريب.

﴿٤٢ - ٤٣﴾ «وقد مكر الذين من قبلهم فله المكر جميعاً يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار» * ويقول الذين كفروا لست مرسلًا قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب. يقول تعالى: «وقد مكر الذين من قبلهم» برسلمهم، وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يغن عنهم مكرهم، ولم يصنعوا شيئاً، فإنهم يحاربون الله وبيارزونه «قلله المكر جميعاً» أي: لا يقدر أحد أن يمكر مكرًا إلا بإذنه، وتحت قضائه وقدره، فإذا كانوا يمكرون بدينه، فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم، فإن الله «يعلم ما تكسب كل نفس» أي: همومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة.

والمكر لا بد أن يكون من كسبها، فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكرًا يضر الحق وأهله، ويفيدهم شيئاً، «وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار» أي: ألهم أول رسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين، لا للكفر وأعماله.

«ويقول الذين كفروا لست مرسلًا» أي: يكذبونك، ويكذبون ما أرسلت به، «قل» لهم - إن طلبوا

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كُنْتُ نَذِيرًا لِّبَنِي آدَمَ وَبَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ عَهْدٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَكُتِبَ عَلَيْهِمُ

الْحَسْبُ وَكُتِبَ عَلَيْهِمُ الْمَسْئَلَةُ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِمُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ

فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

وَصَبْرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ

تعلم ما أتى به، بخلاف ما لو كانوا على غير لسانهم، فإنهم يحتاجون إلى أن يتعلموا تلك اللغة التي يتكلم بها، ثم يفهمون عنه، فإذا بين لهم الرسول ما أمروا به، ونهوا عنه، وقامت عليهم حجة الله * فيضل الله من يشاء * ممن لم ينقد للهدى، ويهدي من يشاء ممن اختصه برحمته.

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي - من عزته - أنه انفراد بالهداية والإضلال، وتقليب القلوب إلى ما شاء، ومن حكمته أنه لا يضع هدايته ولا إضلاله إلا بالمحل اللائق به.

ويستدل بهذه الآية الكريمة على أن علوم العربية الموصلة إلى تبين كلامه وكلام رسوله أمور مطلوبة محبوبة لله، لأنه لا يتم معرفة ما أنزل على رسوله إلا بها.

إلا إذا كان الناس بحالة لا يحتاجون إليها، وذلك إذا غمرنا على العربية، ونشأ عليها صغيرهم، وصارت طبيعة لهم، فحيث قد اكتشفوا المؤنة، وصلحوا لأن يتلقوا عن الله وعن رسوله ابتداء، كما تلقى عنهم الصحابة رضي الله عنهم.

﴿٨ - ٨﴾ «ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور * وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم * وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد * وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإن الله لغني حييد * نجبر تعالى: أنه أرسل موسى بآياته العظيمة الدالة على صدق ما جاء به وصحته، وأمره بما أمر الله به

رسوله محمداً ﷺ، بل وبما أمر به جميع الرسل قومهم، «أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور» أي: ظلمات الجهل والكفر وفروعه، إلى نور العلم والإيمان وتوابعه، «وذكرهم

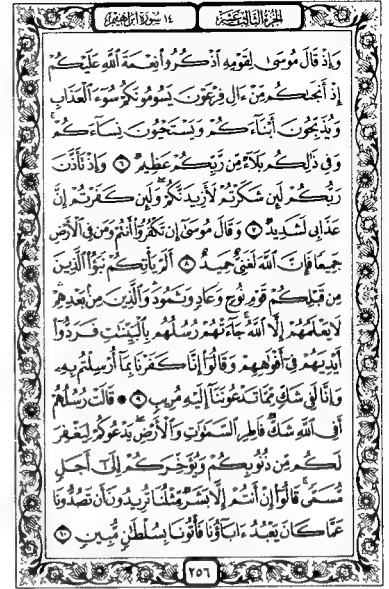
الحميد» بعد ذكر الصراط الموصل إليه إشارة إلى أن من سلكه فهو عزيز بعز الله، قوي، ولو لم يكن له أنصار إلا الله، محمود في أموره، حسن العاقبة.

وليدل ذلك على أن صراط الله، من أكبر الأدلة على ما لله من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وأن الذي نصبه لعباده، عزيز السلطان، حيد في أقواله وأفعاله وأحكامه، وأنه مألوه معبود بالعبادات التي هي منازل الصراط المستقيم، وأنه كما أن له ملك السماوات والأرض خلقاً ورزقاً وتديراً، فله الحكم على عباده بأحكامه الدينية، لأنهم ملكه، ولا يليق به أن يتركهم سدى، فلما بين الدليل والبرهان، توعدهم من لم ينقد لذلك، فقال: «وويل للكافرين من عذاب شديد» لا يقدر قدره، ولا يوصف أمره، ثم وصفهم بأنهم «الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة» فرضوا بها واطمأنوا، وغفلوا عن الدار الآخرة.

﴿ويصدون﴾ الناس «عن سبيل الله» التي نصبها لعباده، وبينها في كتبه وعلى السنة رسله، فهو لا قد نابذوا مولاهم بالمعاداة والمحاربة، «ويغفونها» أي: سبيل الله «عوجاً» أي: يحرضون على تهجينها وتقبيحها، للتفتير عنها، ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون.

﴿أولئك﴾ الذين ذكر وصفهم «في ضلال بعيد» لأنهم ضلوا وأضلوا، وشاقوا الله ورسوله وحاربهما، فأبى: ضلال أبعد من هذا؟!، وأما أهل الإيمان فبعكس هؤلاء، يؤمنون بالله وآياته، ويستحبون الآخرة على الدنيا، ويدعون إلى سبيل الله ويمسحونها مهما أمكنهم، ويبينون استقامتها.

﴿٤﴾ «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم» وهذا من لطفه بعباده، أنه ما أرسل رسولاً إلا بلسان قومه، ليبين لهم ما يحتاجون إليه، ويتمكنون من



استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم. والله أعلم.

تم تفسير سورة الرعد،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهي مكية

﴿١ - ٣﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إن صراط العزيز الحميد * الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد * الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويغفونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد * نجبر تعالى أنه أنزل كتابه على رسوله محمد ﷺ لنفع الخلق، ليخرج الناس من ظلمات الجهل والكفر والأخلاق السيئة وأنواع المعاصي، إلى نور العلم والإيمان والأخلاق الحسنة، وقوله: «بإذن ربهم» أي: لا يحصل منهم المراد المحسوب لله، إلا بإرادة من الله ومعونة، ففيه حث للعباد على الاستعانة بربهم.

ثم فسر النور الذي يهديهم إليه هذا الكتاب، فقال: «إلى صراط العزيز الحميد» أي: الموصل إليه وإلى دار كرامته، المشتمل على العلم بالحق والعمل به، وفي ذكر «العزيز

ذلك، وعدم مللهم، ذكر منتهى ما وصلت بهم الحال مع قومهم فقال: ﴿وقال الذين كفروا لرسولهم﴾ متوعدين لهم - ﴿لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا﴾ وهذا أبغ ما يكون من الرد، وليس بعد هذا فيهم مطمع، لأنه ما كفاهم أن أعرضوا عن الهدى، بل توعدهم بالإخراج من ديارهم ونسبوا إلى أنفسهم، وزعموا أن الرسل لا حق لهم فيها، وهذا من أعظم الظلم، فإن الله أخرج عباده إلى الأرض وأمرهم بعبادته، وسخر لهم الأرض وما عليها يستعينون بها على عبادته.

فمن استعان بذلك على عبادة الله، حل له ذلك وخرج من التبعة، ومن استعان بذلك على الكفر وأنواع المعاصي، لم يكن ذلك خالصاً له، ولم يحل له، فعلم أن أعداء الرسل في الحقيقة ليس لهم شيء من الأرض التي توعدها الرسل بإخراجهم منها. وإن رجعنا إلى مجرد العادة فإن الرسل من جملة أهل بلادهم، وأفراد منهم، فلا شيء يمنعونهم حقاً لهم صريحاً واضحاً؟! هل هذا إلا من عدم الدين والمروءة بالكلية؟

ولهذا لما انتهى مكرهم بالرسول إلى هذه الحال، ما بقي حينئذ إلا أن يمضي الله أمره، وينصر أوليائه، ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ بأنواع العقوبات.

﴿ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾ ذلك أي: العاقبة الحسنة التي جعلها الله للرسول ومن تبعهم جزاء ﴿لن خاف مقامي﴾ عليه في الدنيا، ورأى الله مراقبة من يعلم أنه يراه، ﴿وخاف وعيد﴾ أي: ما توعدت به من عصاني، فأوجب له ذلك الانكفاف عما يكرهه الله، والمبادرة إلى ما يحبه الله.

﴿واستفتحوا﴾ أي: الكفار، أي: هم الذين طلبوا واستعجلوا فتح الله وفرقانه بين أوليائه وأعدائه، فجاءهم ما استفتحوا به، وإلا فالله حلیم

عليهم الصلاة والسلام لقومهم، بآية عظيمة، وهو أن قومهم - الغالب - لهم القهر والغلبة عليهم، فتحدثهم رسولهم بأنهم متوكلون على الله، في دفع كيدكم ومكركم، وجازمون بكفايته إياهم، وقد كفاهم الله شرهم مع حرصهم على إتلافهم وإطفاء ما معهم من الحق، فيكون هذا كقول نوح لقومه: ﴿يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري فأجبعوا أمركم وشركاءكم، ثم لا يكن أمركم عليكم غمّة، ثم اقضوا إلي ولا تنظرون﴾ الآيات.

وقول هود عليه السلام قال: ﴿إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون من دونه فكيديني جميعاً ثم لا تنظرون﴾.

﴿ولنصبرن على ما آذيتمونا﴾ أي: ولنستمرن على دعوتكم ووعظكم وتذكيركم، ولا نبالي بما يأتينا منكم من الأذى، فإننا سنوطن أنفسنا على ما ينالنا منكم من الأذى، احتساباً للأجر، ونصحاً لكم، لعل الله أن يهديكم مع كثرة التذكير.

﴿وعلى الله﴾ وحده لا على غيره ﴿فليتوكل المتوكلون﴾ فإن التوكل عليه مفتاح لكل خير.

واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب، وهي التوكل على الله في إقامة دينه ونصره، وهداية عبيده، وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما يكون من التوكل.

﴿١٣ - ١٧﴾ ﴿وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ * ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد * واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد * من ورثه جهنم ويسقى من ماء صديد * يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورثه عذاب غليظ﴾ لما ذكر دعوة الرسل لقومهم ودوامهم على



ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به، وقولكم: ﴿فأنتونا بسلطان مبین﴾ فإن هذا ليس بأيدينا، وليس لنا من الأمر شيء.

﴿وما كان لنا أن تأتيكم بسلطان إلا بإذن الله﴾ فهو الذي إن شاء جاءكم به، وإن شاء لم يأتكم به، وهو لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته ورحمته، ﴿وعلى الله﴾ لا على غيره ﴿فليتوكل المؤمنون﴾ فيعتمدون عليه في جلب مصالحهم ودفع مضارهم، لعلمهم بتمام كفايته وكمال قدرته، وعميم إحسانه، ويشقون به في تيسير ذلك، وبحسب ما معهم من الإيمان يكون توكلهم.

فعلم بهذا وجوب التوكل، وأنه من لوازم الإيمان، ومن العبادات الكبار التي يحبها الله ويرضاها، لتوقف سائر العبادات عليه، ﴿وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا﴾.

أي: شيء يمنعنا من التوكل على الله، والحال أننا على الحق والهدى، ومن كان على الحق والهدى، فإن هداية يوجب له تمام التوكل، وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدي وكفايته، يدعو إلى ذلك، بخلاف من لم يكن على الحق والهدى، فإنه ليس ضامناً على الله، فإن حاله مناقضة لحال المتوكل.

وفي هذا كإشارة من الرسل

﴿وسخر لكم الأنهار﴾ لتسقي حروثكم وأشجاركم، وتشربوا منها.

﴿وسخر لكم الشمس والقمر دائبين﴾ لا يفران، ولا يبان، يسعيان لمصالحكم، من حساب أزمנתكم ومصالح أبدانكم، وحيواناتكم، وزروعكم، وثماركم، ﴿وسخر لكم الليل﴾ لتسكنوا فيه ﴿والنهار﴾ مبصراً، لتبتغوا من فضله.

﴿وأتاكم من كل ما سألتموه﴾ أي: أعطاكم من كل ما تعلق به أمانكم وحاجتكم، عما تسألونه إياه بلسان الحال، أو بلسان المقال، من أنعام، وآلات، وصناعات وغير ذلك، ﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ فضلاً عن قيامكم بشكرها ﴿إن الإنسان لظلوم كفار﴾ أي: هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالم متجبر على المعاصي، مقصر في حقوق ربه، كفار لنعم الله، لا يشكرها ولا يعترف بها، إلا من هداه الله فشكر نعمه، وعرف حق ربه وقام به.

ففي هذه الآيات من أصناف نعم الله على العباد شيء عظيم، مجمل ومفصل، يدعو الله به العباد إلى القيام بشكره وذكره، ويحثهم على ذلك، ويرغبهم في سؤاله ودعائه، أثناء الليل والنهار، كما أن نعمه تتكرر عليهم في جميع الأوقات.

﴿٣٥﴾ ﴿وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً﴾ أي: ﴿و﴾ اذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة، إذ قال: ﴿رب اجعل هذا البلد﴾ أي: الحرم ﴿آمناً﴾ فاستجاب الله دعاءه شرعاً وقدرًا، فحرمه الله في الشرع، وبسّر من أسباب حرمة قدرًا ما هو معلوم، حتى إنه لم يردّ ظالم بسوء إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب القيل وغيرهم.

ولما دعا له بالأمن، دعا له ولبنيه بالأمن فقال: ﴿واجنبنني وبني أن نعبد الأصنام﴾ أي: اجعلني وإياهم، جانباً بعيداً عن عبادتها، والإلام بها، ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه، بكثرة من افتتن وإبتلي بعبادتها، فقال:

﴿تمتعوا﴾ بكفركم وضلالكم قليلاً، فليس ذلك بنافعكم ﴿فإن مصيركم إلى النار﴾ أي: مآلكم ومقركم ومآواكم فيها وبش المصير.

﴿٣٦﴾ ﴿قل لعبادي الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلاق﴾ أي: قل لعبادي المؤمنين آمراً لهم بما فيه غاية صلاحهم، وأن ينتهزوا الفرصة، قبل أن لا يمكنهم ذلك: ﴿يقيموا الصلاة﴾ ظاهراً وباطناً ﴿وينفقوا مما رزقناهم﴾ أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم، قليلاً أو كثيراً ﴿سراً وعلانية﴾ وهذا يشمل النفقة الواجبة، كالزكاة ونفقة من تجب [عليه] نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها.

﴿من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلاق﴾ أي: لا ينفع فيه شيء، ولا سبيل إلى استدراك مافات، لا بمعاوضة بيع وشراء، ولا بهبة خليل وصديق، فكل امرئ له شأن يغنيه، فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، وليتفقد أعماله ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر.

﴿٣٧﴾ ﴿٣٨﴾ ﴿الذي خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار﴾ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴿وأتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ إن الإنسان لظلوم كفار ﴿يخبر تعالى: أنه وحده﴾ الذي خلق السماوات والأرض ﴿على اتساعها وعظمتها، وأنزل من السماء ماء﴾ وهو: المطر الذي ينزله الله من السحاب، ﴿فأخرج﴾ بذلك الماء ﴿من الثمرات﴾ المختلفة الأنواع ﴿رزقاً لكم﴾ ورزقاً لأنعامكم ﴿وسخر لكم الفلك﴾ أي:

السفن والمراكب، ﴿لتجري في البحر بأمره﴾ فهو الذي يسّر لكم صنعتها، وأقدركم عليها، وحفظها على تيار الماء لتحملكم، وتحمل تجارتكم وأمتعتكم إلى بلد تقصدونه.

وفي الآخرة عند الموت بالثبات على الدين الإسلامي، والخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال الملكين، للجواب الصحيح، إذا قيل للميت «من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟» هدهم للجواب الصحيح، بأن يقول المؤمن: «الله ربي، والإسلام ديني، ومحمد نبي».

﴿ويضل الله الظالمين﴾ عن الصواب في الدنيا والآخرة، وما ظلمهم الله ولكنهم ظلموا أنفسهم، وفي هذه الآية دلالة على فتنة القبر وعذابه، ونعيمه، كما تواترت بذلك النصوص عن النبي ﷺ في الفتنة وصفنها، ونييم القبر وعذابه.

﴿٢٨ - ٣٠﴾ ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار﴾ جهنم يصلونها وبش القرار ﴿وجعلوا لله أنداداً ليضلوا عن سبيله قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار﴾ يقول تعالى - مبيناً حال المكذبين لرسوله من كفار قريش، وما آل إليه أمرهم: ﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً﴾ ونعمة الله هي إرسال محمد ﷺ إليهم، يدعوهم إلى إدراك الخيرات في الدنيا والآخرة، وإلى النجاة من شرور الدنيا والآخرة، فبدلوا هذه النعمة بردها، والكفر بها والصّد عنها بأنفسهم.

﴿٣١﴾ ﴿و﴾ صدّهم غيرهم حتى ﴿أحلوا قومهم دار البوار﴾ وهي النار، حيث تسببوا لإضلالهم، فصاروا وبالاً على قومهم، من حيث يظن نفعهم، ومن ذلك أنهم زينوا لهم الخروج يوم «بدر» ليحاربوا الله ورسوله، فجري عليهم ما جرى، وقتل كثير من كبرائهم وصناديدهم في تلك الوقعة.

﴿جهنم يصلونها﴾ أي: يحيط بهم حرها من جميع جوانبهم ﴿وبش القرار﴾.

﴿وجعلوا لله أنداداً﴾ أي: نظراء وشركاء ﴿ليضلوا عن سبيله﴾ أي: ليضلوا العباد عن سبيل الله، بسبب ما جعلوا لله من الأنداد، ودعوههم إلى عبادتها، ﴿قل﴾ لهم متوعداً:

﴿٣٦﴾ ﴿رَبِّ إِبْرَاهِيمَ أَضَلَّلْنِ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ﴾ أي: ضلوا بسببها، ﴿فَمَنْ تَبِعْنِي﴾ على ما جئت به من التوحيد والإخلاص لله رب العالمين ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ لتمام الموافقة، ومن أحب قوماً وتبعهم التحق بهم.

﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا من شفقة الخليل عليه الصلاة والسلام حيث دعا للعاصين بالغفرة والرحمة من الله، والله تبارك وتعالى أرحم منه بعباده، لا يعذب إلا من تكرر عليه.

﴿٣٧﴾ ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذَرِيَّتِي بُوَادَ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ وذلك أنه أتى بـ «هاجر» أم إسماعيل وبابنها إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وهو في الرضاع، من الشام حتى وضعهما في مكة، وهي - إذ ذاك - ليس فيها سكن، ولا دأع ولا مجيب، فلما وضعهما دعا ربه بهذا الدعاء، فقال - متضرعاً متوكلاً على ربه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذَرِيَّتِي﴾ أي: لا كل ذريتي، لأن إسحاق في الشام، وباقي بنيه كذلك، وإنما أسكن في مكة إسماعيل وذريته، وقوله: ﴿بُوَادَ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ أي: لأن أرض مكة لا تصلح للزراعة.

﴿رَبَّنَا لِيَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: اجعلهم موحدين مقيمين الصلاة، لأن إقامة الصلاة من أخص وأفضل العبادات الدينية، فمن أقامها كان مقيماً لدينه، ﴿فَاجْعَلْ أَفْتَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: تحبهم وتحب الموضع الذي هم ساكنون فيه.

فأجاب الله دعاءه، فأخرج من ذرية إسماعيل محمداً ﷺ، حتى دعا ذريته إلى الدين الإسلامي، وإلى ملة أبيهم إبراهيم، فاستجابوا له وصاروا مقيمي الصلاة.

وافترض الله حج هذا البيت الذي أسكن به ذرية إبراهيم، وجعل فيه سراً عجباً جاذباً للقلوب، فهي تحجه، ولا تقضي منه وطراً على الدوام، بل كلما أكثر العبد التردد إليه ازداد شوقه، وعظم ولعه وتوقه، وهذا سر إضافته

تعالى إلى نفسه المقدسة.

﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ فأجاب الله دعاءه، فصار يجبي إليه ثمرات كل شيء، فإنك ترى مكة المشرفة كل وقت، والثمار فيها متوفرة، والأرزاق تتوالى إليها من كل جانب.

﴿٣٨﴾ ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نَخْفِي وَمَا نَعْلُنُ﴾ أي: أنت أعلم بنا منا، فنسألك من تدبيرك وتربيتك لنا أن تيسر لنا من الأمور التي نعلمها والتي لا نعلمها، ما هو مقتضى علمك ورحمتك، ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ ومن ذلك هذا الدعاء الذي لم يقصد به الخليل إلا الخير، وكثرة الشكر لله رب العالمين.

﴿٣٩﴾ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ فهبتهم من أكبر النعم، وكونهم على الكبر في حال الإيأس من الأولاد نعمة أخرى، وكونهم أنبياء صالحين، أجل وأفضل، ﴿إِنْ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي: لقريب الإجابة عن دعاءه، وقد دعوته، فلم يخيب رجائي، ثم دعا لنفسه ولذريته، فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مَقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذَرِيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ﴿فَاسْتَجَابَ اللَّهُ لَهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ، إِلَّا أَنْ دَعَاهُ لِأَبِيهِ إِنَّمَا كَانَ عَنِ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهُ إِيَّاهُ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ اللَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ.

﴿٤٢﴾ - ﴿٤٣﴾ ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفندتهم هواء ﴿هَذَا وَعِيدٌ شَدِيدٌ لِلظَّالِمِينَ، وَتَسْلِيَةٌ لِلْمُظْلَمِينَ، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ حيث أمهلهم وأدّر عليهم الأرزاق، وتركهم يتقلبون في البلاد آمنين مطمئنين، فليس في هذا ما يدل على حسن حالهم، فإن الله يُعْطِي للظالم ويمهله ليزداد إثماً، حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ

الْقَرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ والظلم - هاهنا - يشمل الظلم فيما بين العبد وربّه، وظلمه لعباد الله، ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ أي: لا تُطْرَفُ من شدة ما ترى من الأحوال وما أزعجها من القلاقل.

﴿مهطعين﴾ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي حين يدعوهم إلى الحضور بين يدي الله للحساب، لا امتناع لهم ولا محيص ولا ملجأ، ﴿مقنعي رؤوسهم﴾ أي: رافعياً قد غلّت أيديهم إلى الأذقان، فارتفعت لذلك رؤوسهم، ﴿لا يرتد إليهم طرفهم وأفندتهم هواء﴾ أي: أفندتهم فارغة من قلوبهم، قد صعدت إلى الخناجر، لكنها غلوة من كل هم وغم وحزن وقلق.

﴿٤٤﴾ - ﴿٤٦﴾ ﴿وَأَنْذَرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال * وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال * وقد مكروا مكروهم وعند الله مكروهم وإن كان مكروهم لتزول منه الجبال ﴿يَقُولُ تَعَالَىٰ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَأَنْذَرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ﴾ أي: صِفْ لهم صفة تلك الحال، وحذّرهم من الأعمال الموجبة للعذاب، الذي حين يأتي في شدائده وقلقله، ﴿فيقول الذين ظلموا﴾ بالكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، نادمين على ما فعلوا، سائلين للرجعة في غير وقتها، ﴿رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي: رُدُّنَا إِلَى الدُّنْيَا، فَإِنَّا قَدْ أَبْصَرْنَا، ﴿نَجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ والله يدعو إلى دار السلام ﴿ونتبع الرسل﴾ وهذا كله لأجل التخلص من العذاب، وإلا فهم كذبة في هذا الوعد ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه﴾.

ولهذا يوبخون ويقال لهم: ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ عن الدنيا وانتقال إلى الآخرة، فها قد تبين جنحكم في إقسامكم،

لأنبيائهم ورسلمهم بالاستهزاء والسخرية وعدم الإيمان، ولهذا قال: **﴿لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين﴾** أي: عادة الله فيهم، يهلك من لم يؤمن بآيات الله.

﴿١٤ - ١٥﴾ **﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون﴾** * لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون **﴿أي: ولو جاءتهم كل آية عظيمة، لم يؤمنوا وكابروا﴾** **﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء﴾** فصاروا يعرجون فيه، وشاهدونه عياناً بأنفسهم، لقالوا من ظلمهم وعادهم، منكربين لهذه الآية: **﴿إنما سكرت أبصارنا﴾** أي: أصابها سكر وغشاوة، حتى رأينا ما لم نر، **﴿بل نحن قوم مسحورون﴾** أي: ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر، وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار، فأنهم لا مطمع فيهم ولا رجاء، ثم ذكر الآيات الدالات على ما جاءت به الرسل من الحق فقال:

﴿١٦ - ٢٠﴾ **﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين﴾** * وحفظناها من كل شيطان رجيم **﴿إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾** * والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي **﴿وأثبتنا فيها من كل شيء موزون﴾** * وجعلنا لكم فيها معاش ومن لستم له برازقين **﴿يقول تعالى - مبيناً كمال اقتداره ورحمته بخلقه -:﴾** **﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾** أي: نجوماً كالأبراج والأعلام العظام يتبدى بها في ظلمات البر والبحر، **﴿وزيناها للناظرين﴾** فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهي والهيبة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها، والنظر في معانيها والاستدلال بها على بارئها.

﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ إذا استرق السمع، اتبعته الشهاب الثاقب، فبقيت السماء، ظاهرها مجملًا بالنجوم النيرات، وباطنها محروساً ممنوعاً من الآفات.

﴿إلا من استرق السمع﴾ أي: في بعض الأوقات، قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس، **﴿فأتبعه شهاب مبين﴾** أي: بين منير، يقتله أو يخبله.

فربما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه، فيقطع خبر السماء عن الأرض، وربما ألقاها إلى وليه قبل أن يدركه الشهاب، فيضئها ويكذب معها مئة كذبة، ويستدل بتلك الكلمة التي سمعت من السماء.

﴿والأرض مددناها﴾ أي: وسعناها سعة يتمكن الآدميون والحيوانات كلها على الامتداد بأرجائها، والتناول من أرزاقها، والسكون في نواحيها.

﴿والقينا فيها رواسي﴾ أي: جبلاً عظيماً، تحفظ الأرض بإذن الله أن تميد، وتثبتها أن تزول **﴿وأثبتنا فيها من كل شيء موزون﴾** أي: نافع متقوم يضطر إليه العباد والبلاد، ما بين نخيل وأعناب، وأصناف الأشجار، وأنواع النبات.

﴿وجعلنا لكم فيها معاش﴾ من الحرث، ومن الماشية، ومن أنواع المكاسب والحرف. **﴿ومن لستم له برازقين﴾** أي: أنعمنا عليكم بعبيد وإماء وأنعام، لنفعمكم ومصالحكم، وليس عليكم رزقها، بل خولكم الله إياها وتكفل بأرزاقها.

﴿٢١﴾ **﴿وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾** أي: جميع الأرزاق وأصناف الأقدار، لا يملكها أحد إلا الله، فخزائنها بيده، يعطي من يشاء ويمنع من يشاء، بحسب حكيمته ورحمته الواسعة، **﴿وما ننزله﴾** أي: المقدر من كل شيء، من مطر وغيره، **﴿إلا بقدر معلوم﴾** فلا يزيد على ما قدره الله، ولا ينقص منه.

﴿٢٢﴾ **﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾** أي: وسخرنا

ولقد جعلنا في السماء رؤساً ورجلاً للظلمة وحفظناها من كل شيطان رجيم **﴿ومن لستم له برازقين﴾** أي: أنعمنا عليكم بعبيد وإماء وأنعام، لنفعمكم ومصالحكم، وليس عليكم رزقها، بل خولكم الله إياها وتكفل بأرزاقها.

الرياح، رياح الرحمة تلمح السحاب، كما يلقح الذكر الأنثى، فينشأ عن ذلك الماء بإذن الله، فيسقيه الله العباد ومواسيهم وأرضهم، ويبقى في الأرض مدخراً لحاجاتهم وضروراتهم ما هو مقتضى قدرته ورحمته، **﴿وما أنتم له بخازنين﴾** أي: لا قدرة لكم على خزنه وادخاره، ولكن الله يخزنه لكم، ويسلكه ينايع في الأرض، رحمة بكم وإحساناً إليكم.

﴿٢٣ - ٢٥﴾ **﴿وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون﴾** * ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المتأخرين **﴿وإن ربك هو يحشرهم إنه حكيم عليم﴾** أي: هو وحده لا شريك له، الذي يحيي الخلق من العدم، بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً ويميتهم لأجلهم التي قدرها **﴿ونحن الوارثون﴾** كقوله: **﴿إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾** وليس ذلك بعزیز ولا تمتنع على الله، فإنه تعالى يعلم المستقدمين من الخلق والمتأخرين منهم، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، وما تفرق من أجزائهم، وهو الذي قدرته لا يعجزها معجز، فيعيد عباده خلقاً جديداً ويحشرهم إليه.

﴿إنه حكيم﴾ يضع الأشياء

ذلك امتحان وإبتلاء من الله له وللعباد، ليتبين الصادق الذي يطيع مولاة دون عدوه ممن ليس كذلك، ولذلك حذرنا منه غاية التحذير، وشرح لنا ما يريده منا.

﴿قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض﴾ أي: أزين لهم الدنيا، وأدعوهم إلى إشارها على الأخرى، حتى يكونوا متقادين لكل معصية.

﴿ولأغوينهم أجمعين﴾ أي: أصدهم كلهم عن الصراط المستقيم، ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ أي: الذين أخلصتهم واجتبتيتهم، لإخلاصهم، وإيمانهم، وتوكلهم.

قال الله تعالى: ﴿هذا صراط عليّ مستقيم﴾ أي: معتدل موصل إلي، وإلى دار كرامتي.

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ قيلهم به إلى ما تشاء من أنواع الضلالات، بسبب عبوديتهم لربهم وانقيادهم لأوامره، أعانهم الله وعصمهم من الشيطان.

﴿إلا من اتبعك﴾ فرضي بولايتك وطاعتك، بدلاً من طاعة الرحمن، ﴿من الغاوين﴾ والغاوي: ضد الراشد، فهو الذي عرف الحق وتركه، والضال: الذي تركه من غير علم منه به.

﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ أي: إبليس وجنوده، ﴿لها سبعة أبواب﴾ كل باب أسفل من الآخر، ﴿لكل باب منهم﴾ أي: من أتباع إبليس ﴿جزء مقسوم﴾ بحسب أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿فكبكبوا فيها هم والغاؤون وجنود إبليس أجمعين﴾.

ولما ذكر تعالى ما أعد لأعدائه أتباع إبليس من النكال والعذاب الشديد، ذكر ما أعد لأوليائه من الفضل العظيم، والنعيم المقيم فقال:

﴿٤٥ - ٥٠﴾ ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾ ادخلوها بسلام آمنين * ونزعنا ما في صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين * لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين * نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم * وأن

إبليس، وفي ضمن ذلك التحذير لنا من شره وفتنته، فقال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ أي: آدم عليه السلام ﴿من صلصال من حمأ مسنون﴾ أي: من طين قد ييس، بعدما خر، حتى صار له صلصلة وصوت، كصوت الفخار، والحمأ المسنون: الطين المتغير لونه وريحه من طول مكته.

﴿والجان﴾ وهو: أبو الجن أي: إبليس ﴿خلقناه من قبل﴾ خلق آدم ﴿من نار السموم﴾ أي: من النار الشديدة الحرارة، فلما أراد الله خلق آدم قال للملائكة:

﴿إني خالق بشرأ من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويت﴾ جسداً تاماً ﴿ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾ فامتثلوا أمر ربهم.

﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ تأكيد بعد تأكيد، ليدل على أنه لم يتخلف منهم أحد، وذلك تعظيماً لأمر الله، وإكراماً لآدم حيث علم ما لم يعلموا.

﴿إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾ وهذه أول عداوته لآدم وذريته، قال الله: ﴿يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين؟ قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون﴾ فاستكبر على أمر الله، وأبدى العداوة لآدم وذريته، وأعجب بعنصره، وقال: أنا خير من آدم.

﴿قال﴾ الله معاقباً له على كفره واستكباره ﴿فاخرج منها فإنك رجيم﴾ أي: مطرود مبعد من كل خير، ﴿وإن عليك اللعنة﴾ أي: الذم والعيب، والبعد عن رحمة الله ﴿إلى يوم الدين﴾ ففيها وما أشبهها، دليل على أنه سيستمر على كفره وبعده من الخير.

﴿قال رب فأنظرنى﴾ أي: أمهلني ﴿إلى يوم يبعثون﴾ قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، وليس إجابة الله لدعائه كرامة في حقه، وإنما



مواضعها، وينزلها منازلها، ويجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿٢٦ - ٤٤﴾ ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾ والجآن خلقناه من قبل من نار السموم * وإذا قال ربك للملائكة إني خالق بشرأ من صلصال من حمأ مسنون * فإذا سويت ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين * فسجد الملائكة كلهم أجمعون * إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين * قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين * قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون * قال فاخرج منها فإنك رجيم * وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين * قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون * قال فإنك من المنظرين * إلى يوم الوقت المعلوم * قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين * إلا عبادك منهم المخلصين * قال هذا صراط علي مستقيم * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين * وإن جهنم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم * يذكر تعالى نعمته وإحسانه على أبنائنا آدم عليه السلام، وما جرى من عدوه

نبيهم شعيب، فدعاهم إلى التوحيد وترك ظلم الناس في المكابيل والموازين، وعالجهم على ذلك أشد المعالجة فاستمروا على ظلمهم في حق الخالق، وفي حق الخلق، ولهذا وصفهم هنا بالظلم، **﴿فانتقمنا منهم﴾** فأخذهم عذاب يوم الظلة، إنه كان عذاب يوم عظيم. **﴿وإنهما﴾** أي: ديار قوم لوط وأصحاب الأيكة **﴿لبمام ميين﴾** أي: لبطريق واضح، يمر بهم المسافرون كل وقت، فبين من آثارهم ما هو مشاهد بالابصار، فيعتبر بذلك أولو الأبواب.

﴿٨٠ - ٨٤﴾ **﴿ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين﴾** وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين * وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين * فأخذتهم الصيحة مصبحين * فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * يخبر تعالى عن أهل الحجر، وهم قوم صالح الذين يسكنون الحجر المعروف في أرض الحجاز، أنهم كذبوا المرسلين، أي: كذبوا صالحاً، ومن كذب رسولاً فقد كذب سائر الرسل، لاتفاق دعوتهم، وليس تكذيب بعضهم لشخصه، بل لما جاء به من الحق الذي اشترك جميع الرسل بالإتيان به، **﴿وآتيناهم آياتنا﴾** الدالة على صحة ما جاءهم به صالح من الحق، التي من جملتها تلك الناقة، التي هي من آيات الله العظيمة.

﴿فكانوا عنها معرضين﴾ كبراً وتجبراً على الله، **﴿وكانوا﴾** من كثرة إنعام الله عليهم **﴿ينحتون من الجبال بيوتا آمنين﴾** من المخاوف، مطمئنين في ديارهم، فلو شكروا النعمة وصدقوا نبيهم صالحاً عليه السلام، لأدّر الله عليهم الأرزاق، ولاكرمهم بأنواع من الثواب العاجل والآجل، ولكنهم - لما كذبوا وعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم، وقالوا: **﴿وبا صالح اتتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾**.

﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين﴾ فتقطعت قلوبهم في أجوافهم، وأصبحوا في دارهم جائمين هلكى،

مع ما يتبع ذلك من الخزي واللعنة المستمرة **﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾** لأن أمر الله إذا جاء، لا يرده كثرة جنود، ولا قوة أنصار، ولا غزارة أموال.

﴿٨٥ - ٨٦﴾ **﴿وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وإن الساعة لأتية فاصفح الصفيح الجميل﴾** إن ربك هو الخلاق العليم **﴿أي: ما خلقناهما عبثاً وباطلاً كما يظن ذلك أعداء الله، بل ما خلقناهما﴾** **﴿إلا بالحق﴾** الذي منه، أن يكونا بما فيهما دالتين على كمال خالقهما، واقتداره، وسعة رحمته وحكمته، وعلمه المحيط، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وحده لا شريك له، **﴿وإن الساعة لأتية﴾** لا ريب فيها **﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾** **﴿فاصفح الصفيح الجميل﴾** وهو الصفيح الذي لا أذية فيه، بل يقابل إساءة المسيء بالإحسان، وذنبه بالغفران، لتثال من ربك جزيل الأجر والثواب، فإن كل ما هو آت فهو قريب، وقد ظهر لي معنى أحسن مما ذكرت هنا.

وهو: أن المأمور به هو الصفيح الجميل، أي: الحسن الذي قد سلم من الحقد والأذية القولية والفعلية، دون الصفيح الذي ليس بجميل، وهو الصفيح في غير محله، فلا يصفح حيث اقتضى المقام العقوبة، كعقوبة المعتدين الظالمين الذين لا ينفع فيهم إلا العقوبة، وهذا هو المعنى.

﴿إن ربك هو الخلاق﴾ لكل مخلوق **﴿العليم﴾** بكل شيء، فلا يعجزه أحد من جميع ما أحاط به علمه، وجرى عليه خلقه، وذلك سائر الموجودات.

﴿٨٧ - ٩٣﴾ **﴿ولقد آتيناك سبعاً﴾** من الثاني والقرآن العظيم * لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين * **﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾** الذين جعلوا القرآن عضين * فوربك

الَّذِينَ جَعَلُوا الْفِرْعَوْنَ عِزًّا ۖ فَلَوْلَا كُنْهُ ۖ أَفَرَأَيْتَ لِمَ نَكُتُ ۖ لَأَجْمِرِينَ ۖ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ فَاصْبِرْ مَا تَأْمُرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْكَافِرِينَ ۖ إِنَّ كَذِبَكَ لَشَهِيدٌ ۖ لِّلَّذِينَ يَمْشُونَ مَعَ الْفِرْعَوْنَ لَا يَسْمَعُونَ قَوْلَكَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۖ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَدِيدًا ۖ إِنَّكَ بَعْدَ صَبْرِكَ وَلَدُوكُن مِمَّن لَّمْ يَشْكُرُوا ۖ وَاعْبُدْ رَبَّكَ مِن بَيْنَ يَدَيْكَ الْيَقِينُ ۖ

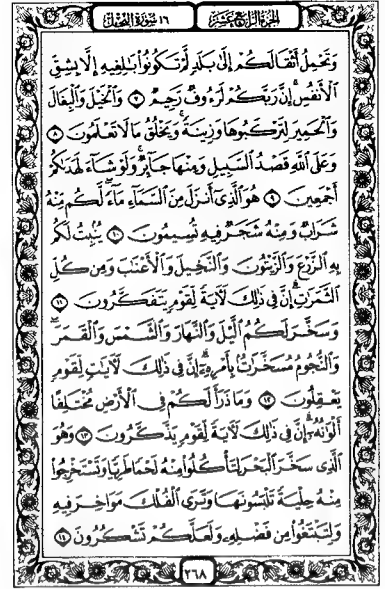
بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَاهُ سَيِّدًا يَمْلِكُ ۖ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَكْثَرُ مِنَ الْأَرْضِ ۖ وَأَنَّا مُنْقِضِينَ عِبَادَهُ ۖ إِنَّا نَدْرَأُ أَفْعَالَهُ ۖ إِنَّ أَفْعَالَهُ ۖ قَوْلُ ۖ حَقٌّ ۖ أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَاهُ سَيِّدًا يَمْلِكُ ۖ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَكْثَرُ مِنَ الْأَرْضِ ۖ وَأَنَّا مُنْقِضِينَ عِبَادَهُ ۖ إِنَّا نَدْرَأُ أَفْعَالَهُ ۖ إِنَّ أَفْعَالَهُ ۖ قَوْلُ ۖ حَقٌّ ۖ أَلَمْ تَرَ أَنَّا جَعَلْنَاهُ سَيِّدًا يَمْلِكُ ۖ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَكْثَرُ مِنَ الْأَرْضِ ۖ وَأَنَّا مُنْقِضِينَ عِبَادَهُ ۖ إِنَّا نَدْرَأُ أَفْعَالَهُ ۖ إِنَّ أَفْعَالَهُ ۖ قَوْلُ ۖ حَقٌّ ۖ

لنسانهم أجمعين * عما كانوا يعملون **﴿ولقد يقول تعالى مُمْتَنًا على رسوله:﴾** **﴿ولقد آتيناك سبعاً من الثاني﴾** وهن - على الصحيح - السور السبع الطوال: «البقرة» و «آل عمران» و «النساء» و «المائدة» و «الأنعام» و «الأعراف» و «الأنفال» مع «التوبة». أو أنها فاتحة الكتاب لأنها سبع آيات، فيكون عطف «القرآن العظيم» على ذلك، من باب عطف العام على الخاص، لكثرة ما في الثاني من التوحيد، وعلوم الغيب، والأحكام الجلية، وتشتيتها فيها.

وعلى القول بأن «الفاتحة» هي السبع الثاني، معنا: أنها سبع آيات، تنشئ في كل ركعة، وإذا كان الله قد أعطاه القرآن العظيم مع السبع الثاني، كان قد أعطاه أفضل ما يتنافس فيه المتنافسون، وأعظم ما فرح به المؤمنون، **﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾** ولذلك قال بعده:

﴿لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم﴾ أي: لا تعجب إعجاباً يملكك على إشغال فكرك بشهوات الدنيا التي تمتع بها المتفرون، واغتر بها الجاهلون، واشتغى بما آتاك الله من الثاني والقرآن العظيم، **﴿ولا تحزن عليهم﴾** فإنهم لا خير فيهم يُرجى، ولا نفع يُرتقب.

فلك في المؤمنين عنهم أحسن



البدل، وأفضل العوض، «واخفض جناحك للمؤمنين» أي: إبن لهم جانبك، وحسن لهم خلقك، محبة وكراماً، وتوذاً، «وقل إني أنا النذير المبين» أي: قم بما عليك من النذارة، وأداء الرسالة، والتبليغ للقريب والبعيد، والعدو، والصديق، فإنك إذا فعلت ذلك، فليس عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء.

وقوله: «كما أنزلنا على المقتسمين» أي: كما أنزلنا العقوبة على المقتسمين على بطلان ما جئت به، الساعين لصد الناس عن سبيل الله. «الذين جعلوا القرآن عضين» أي: أصنافاً وأعضاء وأجزاء، يصرفونه بحسب ما يهرونه، فمنهم من يقول: سحر، ومنهم من يقول: كهانة، ومنهم من يقول: مُقْتَرى، إلى غير ذلك من أقوال الكفرة المكذبين به، الذين جعلوا قديحهم فيه ليصدوا الناس عن الهدى.

«فأوربك لنسألنهم أجمعين» أي: جميع من قدح فيه وعابه، وحزفه وبذله «عما كانوا يعملون» وفي هذا أعظم ترهيب وزجر لهم عن الإقامة على ما كانوا عليه^(١).

ثم أمر الله رسوله أن لا يبالي بهم

ولا بغيرهم، وأن يصدع بما أمر الله، ويعلن بذلك لكل أحد ولا يعوقه عن أمره عائق ولا تصدّه أقوال المتهورين، «وأعرض عن المشركين» أي: لا تبال بهم، واترك مشاغلهم ومسابتهم، مقبلاً على شأنك، «إننا كفيناك المستهزئين» بك وبما جئت به، وهذا وعد من الله لرسوله، أن لا يضره المستهزؤون، وأن يكفيه الله إياهم بما شاء من أنواع العقوبة.

وقد فعل تعالى، فإنه ما تظاهر أحد بالاستهزاء برسول الله ﷺ وبما جاء به إلا أهلكه الله وقتله شر قتلة.

ثم ذكر وصفهم وأنهم كما يؤذونك يا رسول الله، فأنهم أيضاً يؤذون الله ويعملون معه «إلهاً آخر» وهو ربههم وخالقهم ومديرهم «فسوف يعلمون» غِبْ أفعالهم إذا وردوا القيامة، «ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون» لك من التكذيب والاستهزاء.

فنحن قادرون على استئصالهم بالعذاب، والتعجيل لهم بما يستحقون، ولكن الله يمهلهم ولا يمهلهم.

فأنت يا محمد «نسبح بحمد ربك وكن من الساجدين» أي: أكثر من ذكر الله وتسبيحه وتحميده والصلاة، فإن ذلك يوسع الصدر ويشرحه، ويعينك على أمورك.

«٩٩» «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» أي: الموت، أي: استمر في جميع الأوقات على التقرب إلى الله بأنواع العبادات، فامتثل أمر ربه، فلم يزل دائباً في العبادة، حتى أتاه اليقين من ربه ﷻ، تسليماً كثيراً.

ثم تفسير سورة الحجر

تفسير سورة النحل وهي مكية

«١- ٢» «بسم الله الرحمن الرحيم أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون * ينزل

الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون» يقول تعالى - مقرباً لما وعد به محققاً لوقوعه -: «أتى أمر الله فلا تستعجلوه» فإنه أت، وما هو أت فإنه قريب، «سبحانه وتعالى عما يشركون» من نسبة الشريك والولد والصاحبة، والكفء، وغير ذلك مما نسبته إليه المشركون، مما لا يليق بجلاله، أو ينافي كماله، ولما نزه نفسه عما وصفه به أعداؤه، ذكر الوحي الذي ينزله على أنبيائه، مما يجب اتباعه في ذكر ما ينسب لله، من صفات الكمال فقال:

«ينزل الملائكة بالروح من أمره» أي: بالوحي الذي به حياة الأرواح «على من يشاء من عباده» ممن يعلمه صالحاً، لتحمل رسالته.

وزبدة دعوة المرسلين كلهم ومدارها على قوله: «أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون» أي: على معرفة الله تعالى وتوحيده في صفات العظمة، التي هي صفات الألوهية، وعبادته وحده لا شريك له، فهي التي أنزل الله بها كتبه، وأرسل رسله، وجعل الشرائع كلها تدعو إليها، وتحث وتجاهد من حاربها وقام بضدها، ثم ذكر الأدلة والبراهين على ذلك. فقال:

«٣- ٩» «خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون * خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين * والأنعام خلقها لكم فيها دماء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم * والحيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون * وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين» هذه السورة تسمى سورة النعم، فإن الله ذكر في



وقت راحتها وسكونها، ووقت حركتها وسرحها، وذلك أن جمالها لا يعود إليها منه شيء، فإنكم أنتم الذين تتجملون بها، كما تتجملون بشبابكم وأولادكم وأموالكم، وتعجبون بذلك، **﴿وتحمل أثقالكم﴾** من الأحمال الثقيلة، بل وتحملكم أنتم **﴿إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس﴾** ولكن الله ذلها لكم.

فمنها ما تركبونه، ومنها ما تحملون عليه ما تشاؤون من الأثقال إلى البلدان البعيدة والأقطار الشاسعة، **﴿إن ركبكم لرؤوف رحيم﴾** إذ سخر لكم ما تضطرون إليه وتحتاجونه، فله الحمد، كما ينبغي لجلال وجهه، وعظيم سلطانه، وسعة جوده وبره.

﴿والخيل والبغال والحمير﴾ سخرناها لكم **﴿لتركيوها وزينة﴾** أي: تارة تستعملونها للضرورة في الركوب، وتارة لأجل الجمال والزينة، ولم يذكر الأكل، لأن البغال والحمير محرم أكلها، والخيل لا تستعمل - في الغالب - للأكل، بل ينهي عن ذبحها لأجل الأكل، خوفاً من انقطاعها، وإلا فقد ثبت في الصحيحين، أن النبي ﷺ أذن في لحوم الخيل.

﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾ مما يكون بعد نزول القرآن من الأشياء، التي يركبها الخلق في البر والبحر والجو، ويستعملونها في منافعهم ومصالحهم، فإنه لم يذكرها بأعيانها، لأن الله تعالى لا يذكر في كتابه إلا ما يعرفه العباد، أو يعرفون نظيره، وأما ما ليس له نظير، فإنه لو ذكر لم يعرفوه، ولم يفهموا المراد منه، فيذكر أصلاً جامعاً يدخل فيه ما يعلمون وما لا يعلمون، كما ذكر نعيم الجنة، وسمى منه ما نعلم ونشاهد نظيره، كالنخل والأعناب والرمان، وأجل ما لا نعرف له نظيراً في قوله: **﴿فيهما من كل فاكهة زوجان﴾**.

أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها، فأخبر أنه خلق السماوات والأرض بالحق، ليستدل بها العباد على عظمة خالقهما، وما له من نعمت الكمال، ويعلموا أنه خلقهما مسكناً لعباده الذين يعبدونه، بما يأمهم به من الشرائع التي أنزلها على السنة رسله، ولهذا نزه نفسه عن شرك المشركين به فقال: **﴿تعالى عما يشركون﴾** أي: تنزهه وتعظم عن شركهم، فإنه الإله حقاً، الذي لا تنبغي العبادة، والحب والذل إلا له تعالى، ولما ذكر خلق السماوات [والأرض] ^(١)، ذكر خلق ما فيهما.

وبدا بأشرف ذلك وهو الإنسان فقال: **﴿خلق الإنسان من نطفة﴾** لم يزل يدبرها، ويرقيها وينميها، حتى صارت بشراً تاماً، كامل الأعضاء الظاهرة والباطنة، قد غمره بنعمه الغزيرة، حتى إذا استتم فخر بنفسه وأعجب بها **﴿فلماذا هو خصيم مبين﴾** يحتمل أن المراد: فلماذا هو خصيم لربه، يكفر به، ويجادل رسله، ويكذب بآياته. ونسي خلقه الأول، وما أنعم الله عليه به، من النعم، فاستعان بها على معاصيه، ويحتمل أن المعنى: أن الله أنشأ آدمي من نطفة، ثم لم يزل ينقله من طور إلى طور، حتى صار عاقلاً متكلماً، ذا ذهن ورأي، يخاصم ويجادل، فليشكر العبد ربه الذي أوصله إلى هذه الحال، التي ليس في إمكانه القدرة على شيء منها.

﴿والأنعام خلقها لكم﴾ أي: لأجلكم، ولأجل منافعكم ومصالحكم، من جملة منافعها العظيمة أن لكم **﴿فيها دفاء﴾** مما تتخذون من أصوافها وأوبارها، وأشعارها، وجلودها، من الثياب، والفرش، والبيوت.

﴿ولكم فيها﴾ منافع غير ذلك **﴿ومنها تأكلون﴾** ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون **﴿أي: في**

فكذلك هنا، ذكر ما نعرفه من المراكب، كالخيل، والبغال، والحمير، والإبل، والسفن، وأجل الباقي في قوله: **﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾** ولما ذكر تعالى الطريق الحسي، وأن الله قد جعل للعباد ما يقطعونه به من الإبل وغيرها، ذكر الطريق المعنوي الموصل إليه فقال:

﴿وعلى الله قصد السبيل﴾ أي: الصراط المستقيم، الذي هو أقرب الطرق وأخصرها، موصل إلى الله.

وأما الطريق الجائر في عقائده وأعماله، وهو كل ما خالف الصراط المستقيم، فهو قاطع عن الله، موصل إلى دار الشقاء، فسلك المهتدون الصراط المستقيم بإذن ربهم، وضل الغاؤون عنه، وسلكوا الطرق الجائرة، **﴿ولو شاء لهداكم أجمعين﴾** ولكنه هدى بعضاً كراماً وفضلاً، ولم يهد آخرين، حكمة منه وعدلاً.

﴿١٠ - ١١﴾ هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون * ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون. بذلك على كمال قدرة الله، الذي أنزل هذا الماء من السحاب الرقيق اللطيف، ورحمته حيث جعل فيه ماء

لديهم، ولهذا يعطي الله أهل الجنة كل ما تمنوه عليه، حتى إنه يذكُرهم أشياء من النعيم لم تخطر على قلوبهم.

فتبارك الذي لا نهاية لكرمه، ولا حد لجوده، الذي ليس كمثل شيء في صفات ذاته، وصفات أفعاله، وأثار تلك النعوت، وعظمة الملك والملكوت، وكذلك يجزي الله المتقين لسخط الله وعذابه، بأداء ما أوجبه عليهم من الفروض والواجبات، المتعلقة بالقلب والبدن واللسان، من حقه وحق عباده، وترك ما نهاهم الله عنه.

«الذين تتوفاهم الملائكة» مستمرين على تقواهم «طيبين» أي: طاهرين مطهرين من كل نقص ودنس يتطرق إليهم، ويحل في إيمانهم، فطابت قلوبهم بمعرفة الله ومحبته، وألستهم بذكره والثناء عليه، وجوارحهم بطاعته والإقبال عليه، «يقولون سلام عليكم» أي: التحية الكاملة حاصلة لكم، والسلامة من كل آفة.

وقد سلمتم من كل ما تكرهون «ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون» من الإيمان بالله والانقياد لأمره، فإن العمل هو السبب والمادة والأصل في دخول الجنة والنجاة من النار، وذلك العمل حصل لهم برحمة الله ومنته عليهم، لا بحولهم وقوتهم.

«٣٣ - ٣٤» «هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك كذلك فعل الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» فأصابهم سيئات ما عملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤون» يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء الذين جاءتهم الآيات فلم يؤمنوا، وذكروا فلم يتذكروا، «إلا أن تأتيهم الملائكة» لقبض أرواحهم «أو يأتي أمر ربك» بالعذاب الذي سيحل بهم، فإنهم قد استحقوا لوقوعه فيهم، «كذلك فعل الذين من قبلهم» كذبوا وكفروا، ثم لم يؤمنوا حتى نزل بهم العذاب.

«وما ظلمهم الله» إذ عذبهم، «ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» فإنها

لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم.

«فادخلوا أبواب جهنم» كل أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم، «فلبس ثوبى المتكبرين» نار جهنم، فإنها ثوبى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم، ومحل الهموم والغموم، وموضع السخط من الحي القيوم، لا يفتُر عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يوماً من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم.

«٣٠ - ٣٢» «وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين» جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون كذلك يجزي الله المتقين «الذين تتوفاهم الملائكة طيبين» يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون» لما ذكر الله قيل المكذبين بما أنزل الله، ذكر ما قاله المتقون، وأنهم اعترفوا وأقروا بأن ما أنزله الله نعمة عظيمة، وخير عظيم امتن الله به على العباد، فقبلوا تلك النعمة، وتلقوها بالقبول والانقياد، وشكروا الله عليها، فعملوها، وعملوا لها «للذين أحسنوا» في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى عباد الله، فلهم «في هذه الدنيا حسنة» رزق واسع، وعيشة هنية، وطمأنينة قلب، وأمن وسرور.

«ولدار الآخرة خير» من هذه الدار، وما فيها من أنواع اللذات والمشتتات، فإن هذه نعيمها قليل، محشو بالآفات منقطع، بخلاف نعيم الآخرة، ولهذا قال: «ولنعم دار المتقين»

«جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاؤون» أي: مهما تمنته أنفسهم، وتعلقت به إرادتهم، حصل لهم على أكمل الوجوه وأتمها، فلا يمكن أن يطلبوا نوعاً من أنواع النعيم الذي فيه لذة القلوب وسرور الأرواح، إلا وهو حاضر



وتعادون الله وحزبه لأجلهم، وتزعمون أنهم شركاء الله، فإذا سألهم هذا السؤال، لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم، والاعتراف بعنادهم فيقولون «ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين» قال الذين أوتوا العلم «أي: الربانيون» إن الحزبي اليوم» أي: يوم القيامة «والسوء» أي: العذاب «على الكافرين»

وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهداء، وأن لقولهم اعتباراً عند الله وعند خلقه، ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة وفي القيامة فقال:

«الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم» أي: تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغشهم، وقد علم ما يلقي الظلمة في ذلك المقام، من أنواع العذاب والحزى والإهانة.

«فألقوا السلم» أي: استسلموا، وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله وقالوا: «ما كنا تعمل من سوء» فيقال لهم: «بلى» كنتم تعملون السوء، ف «إن الله عليم بما كنتم تعملون» فلا يفيدكم الجحود شيئاً، وهذا في بعض مواقف القيامة، ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا ظناً أنه ينفعهم، فإذا شهدت عليهم جوارحهم، وتبين ما كانوا عليه أقروا واعترفوا، ولهذا



بما عند الله من الأجر والثواب لمن آمن به وهاجر في سبيله، لم يتخلف عن ذلك أحد.

ثم ذكر وصف أوليائه فقال: ﴿الذين صبروا﴾ على أوامر الله وعن نواهيه، وعلى أقدار الله المؤلمة، وعلى الأذى فيه والمحن ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي: يعتمدون عليه في تنفيذ محابته، لا على أنفسهم. وبذلك تنجح أمورهم، وتستقيم أحوالهم، فإن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، فما فات أحداً شيء من الخير إلا لعدم صبره، وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله.

﴿٤٣ - ٤٤﴾ ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ بالبينات والزبر وأزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ أي: لست ببدع من الرسل، فلم نرسل قبلك ملائكة، بل رجالاً كامليين من الشرائع والأحكام ما هو من فضله وإحسانه على العبيد، من غير أن يأتوا بشيء من قبل أنفسهم، ﴿فاسألوا أهل الذكر﴾ أي: الكتب السابقة ﴿إن كنتم لا تعلمون﴾ نبي الأولين، وشككتهم هل بعث الله رجالاً؟

فاسألوا أهل العلم بذلك، الذين نزلت عليهم الزبر والبينات، فعلموها وفهموها، فإنهم كلهم قد تقرروا عندهم، أن الله ما بعث إلا رجالاً يوحى إليهم من أهل القرى، وعموم هذه الآية فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه العلم بكتاب الله المنزل.

فإن الله أمر من لا يعلم بالرجوع إليهم في جميع الحوادث، وفي ضمنه تعديل لأهل العلم وتزكية لهم، حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل

من التبعة، فدل على أن الله ائتمنهم على وحيه وتنزيله، وأنهم مأمورون بتزكية أنفسهم، والاتصاف بصفات الكمال.

وأفضل أهل الذكر أهل هذا القرآن العظيم، فإنهم أهل الذكر على الحقيقة، وأولى من غيرهم بهذا الاسم، ولهذا قال تعالى: ﴿وأزلنا إليك الذكر﴾ أي: القرآن الذي فيه ذكر ما يحتاج إليه العباد من أمور دينهم ودنياهم، الظاهرة والباطنة، ﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ وهذا شامل لتبيين ألفاظه، وتبيين معانيه، ﴿ولعلهم يتفكرون﴾ فيه، فيستخرجون من كنوزه وعلموه بحسب استعدادهم، وإقبالهم عليه.

﴿٤٥ - ٤٧﴾ ﴿فأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ أو يأخذهم في ثقلهم فما هم بمعجزين * أو يأخذهم على تخوف فإن ريكهم لرؤوف رحيم﴾ هذا تخويف من الله تعالى لأهل الكفر والتكذيب وأنواع المعاصي، من أن يأخذهم بالعذاب على غيرة وهم لا يشعرون، إما أن يأخذهم العذاب من فوقهم، أو من أسفل منهم بالخسف وغيره، وإما في حال ثقلهم وشغلهم، وعدم خطور العذاب ببالهم، وإما في حال تخوفهم من العذاب، فليسوا بمعجزين لله، في حالة من هذه الأحوال، بل هم تحت قبضته ونواصيهم بيده.

ولكنه رؤوف رحيم، لا يعاجل العصاة بالعقوبة، بل يمهلهم ويعافيتهم ويرزقهم وهم يؤذونه ويؤذون أوليائه، ومع هذا يفتح لهم أبواب التوبة، ويدعوهم إلى الإقلاع من السيئات التي تضرهم، ويعدهم بذلك أفضل الكرامات، ومغفرة ما صدر منهم من الذنوب، فَلْيَسْتَحِ المجرم من ربه أن تكون نعم الله عليه نازلة في جميع اللحظات^(٢)، ومعاصيه

في الله من بعد ما ظلموا نبوتهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ يخبر تعالى بفضل المؤمنين المتحدين ﴿الذين هاجروا في الله﴾ أي: في سبيله وابتغاء مرضاته ﴿من بعد ما ظلموا﴾ بالآذية والمحنة من قومهم، الذين يفتنونهم ليردوهم إلى الكفر والشرك، فتركوا الأوطان والخلان، وانتقلوا عنها لأجل طاعة الرحمن، فذكر لهم ثوابين، ثواباً عاجلاً في الدنيا من الرزق الواسع والعيش الهنيء، الذي راوه عياناً، بعدما هاجروا، وانتصروا على أعدائهم، وافتتحوا البلدان، وغنموا منها الغنائم العظيمة، فتمولوا، وآتاهم الله في الدنيا حسنة.

﴿ولأجر الآخرة﴾ الذي وعدهم الله على لسان رسوله ﴿أكبر﴾ من أجر الدنيا، كما قال تعالى: ﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون﴾ * يشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم﴾ وقوله: ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي: لو كان لهم علم ويقين

صاعدة إلى ربه في كل الأوقات، ولتعلّم أن الله يهمل ولا يهمل، وأنه إذا أخذ العاصي أخذه أخذ عزيز مقتدر، فليُثَبِّبْ إليه وَلْيَرْجَعْ في جميع أموره إليه، فإنه رؤوف رحيم.

فالبدار البدار إلى رحمة الواسعة وبه العميم، وسلوك الطرق الموصلة إلى فضل الرب الرحيم، ألا وهي تقواه والعمل بما يحبه ويرضاه.

﴿٤٨-٥٠﴾ أولم يسروا إلى ما خلق الله من شيء يتفوق ظلاله عن اليمين والشمائل سجداً لله وهم داحرون * والله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون * يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون * يقول تعالى: ﴿أولم يروا﴾ أي: الشاكون في توحيد ربهم وعظمته وكماله، ﴿إلى ما خلق الله من شيء﴾ أي: إلى جميع مخلوقاته، وكيف تنفياً أظلتها، ﴿عن اليمين﴾ وعن ﴿الشمائل سجداً لله﴾ أي: كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمته وجلاله، ﴿وهم داحرون﴾ أي: ذليلون تحت التسخير والتدبير والقهر، ما منهم أحد إلا وناصيته بيد الله، وتديره عنده.

﴿وإن يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة﴾ من الحيوانات الناطقة والصامتة، ﴿والملائكة﴾ الكرام، خصهم بعد العموم لفضلهم وشرفهم وكثرة عبادتهم، ولهذا قال: ﴿وهم لا يستكبرون﴾ أي: عن عبادته، على كثرتهم، وعظمة أخلاقهم وقوتهم، كما قال تعالى: ﴿لئن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون﴾.

﴿يخافون ربهم من فوقهم﴾ لما مدحهم بكثرة الطاعة والخضوع لله، مدحهم بالخوف من الله الذي هو فوقهم بالذات والقهر، وكمال الأوصاف، فهم أذلاء تحت قهره.

﴿وفيعلون ما يؤمرون﴾ أي: مهمّاً أمرهم الله تعالى امتثلوا لأمره، طوعاً واختياراً، وسجود المخلوقات لله تعالى قسماً: سجود اضطرار، ودلالة على

ماله من صفات الكمال، وهذا عام لكل مخلوق، من مؤمن وكافر، وبر وفاجر، وحيوان ناطق وغيره، وسجود اختيار يختص بأوليائه وعباده المؤمنين، من الملائكة وغيرهم [من المخلوقات].

﴿٥١-٥٥﴾ وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فيايبى فارهبون * وله ما في السموات والأرض وله الدين واصباً أفغير الله تتقون * وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون * ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناكم فتمتعوا فسوف تعلمون * يأمر تعالى بعبادته وحده لا شريك له، ويستدل على ذلك بانفراده بالنعم والوحدانية فقال: و ﴿لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ أي: تجعلون له شريكاً في إلهيته، وهو ﴿إنما هو إله واحد﴾ متوحد في الأوصاف العظيمة، متفرد بالأفعال كلها.

فكما أنه الواحد في ذاته، وأسمائه ونعوته وأفعاله، فلتنوّذْه في عبادته، ولهذا قال: ﴿فيايبى فارهبون﴾ أي: خافوني، وامتثلوا أمري، واجتنبوا نهيي، من غير أن تشركوا بي شيئاً من المخلوقات، فإنها كلها لله تعالى مملوكة.

﴿وله ما في السموات والأرض وله الدين واصباً﴾ أي: الدين، والعبادة، والذل في جميع الأوقات، لله وحده، على الخلق أن يخلصوه لله، وينصبغوا بعبوديته.

﴿أفغير الله تتقون﴾ من أهل الأرض أو أهل السموات، فإنهم لا يملكون لكم ضرراً ولا نفعاً، والله المنفرد بالعبادة والإحسان، ﴿وما بكم من نعمة﴾ ظاهرة وباطنة ﴿فمن الله﴾ لا أحد يشركه فيها، ﴿ثم إذا مسكم الضر﴾ من فقر ومرض وشدة ﴿فإليه تجأرون﴾ أي: تضرعون بالدعاء والتضرع، لعلمكم أنه لا يدفع الضر والشدة إلا هو، فالذي انفرد بإعطائكم ما تحبون، وصرف ما تكرهون، هو

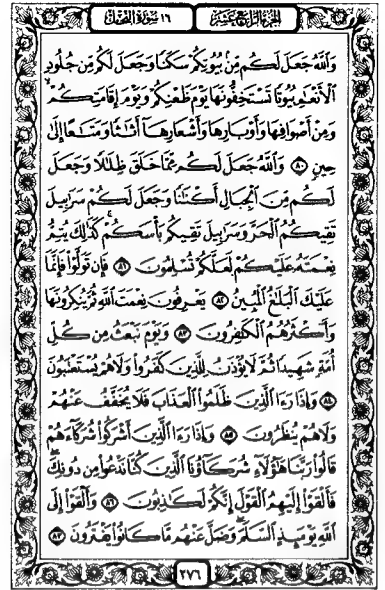


الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده.

ولكن كثيراً من الناس، يظلمون أنفسهم، ويجحدون نعمة الله عليهم إذا نجاهم من الشدة فصاروا في حال الرخاء، أشركوا به بعض مخلوقاته الفقيرة، ولهذا قال:

﴿ليكفروا بما آتيناكم﴾ أي: أعطيناهم، حيث نجيناكم من الشدة، وخلصناكم من المشقة، ﴿فتمتعوا﴾ في دنياكم قليلاً ﴿فسوف تعلمون﴾ عاقبة كفرهم.

﴿٥٦-٦٠﴾ ويحملون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم تالله لتسألن عما كنتم تفترون * ويجعلون الله بشاراً أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون * للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء والله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم * يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم وافتراءهم على الله الكذب، وأنهم يجعلون لأصنامهم التي لا تعلم ولا تنفع ولا تضر - نصيباً مما رزقهم الله وأنعم به عليهم، فاستعانوا برزقه على الشرك به، وتقربوا به إلى أصنام منحوتة، كما قال تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم



وهذا لشركائنا، فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله، الآية، لنسألن عما كنتم تفترون. ويقال: «الله أذن لكم أم على الله تفترون؟» وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة؟ فيعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

«ويعملون لله البنات» حيث قالوا عن الملائكة العباد المقربين: إنهم بنات الله، «ولهم ما يشتهون» أي: لأنفسهم الذكور، حتى إنهم يكرهون البنات كراهة شديدة، فكان أحدهم «إذا بشر بالأنثى ظل وجهه مسوداً» من الغم الذي أصابه «وهو كظيم» أي: كاظم على الحزن والأسف إذ بشر بأنثى، وحتى إنه يقتضض عند أبناء جنسه، ويتوارى منهم من سوء ما بشر به.

ثم يعمل فكره ورأيه الفاسد فيما يصنع بتلك البنت التي بشر بها «أيمسكه على هون» أي: يتركها من غير قتل على إهانة وذل «أم يدسه في التراب» أي: يدفنها وهي حية، وهو الواد الذي ذم الله به المشركين، «ألا ساء ما يحكمون» إذ وصفوا الله بما لا يليق بجلاله، من نسبة الولد إليه.

ثم لم يكفهم هذا، حتى نسبوا له أزدًا القسمين، وهو الإناث، اللاتي يأنفون بأنفسهم عنها ويكرهونها، فكيف ينسبونها لله تعالى؟! فبئس الحكم حكمهم.

ولما كان هذا من أمثال السوء التي نسبها إليه أعداؤه المشركون، قال تعالى: «للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء» أي: المثل الناقص والعيب التام، «ولله المثل الأعلى» وهو كل صفة كمال، وكل كمال في الوجود، فالله أحق به، من غير أن يستلزم ذلك نقصاً بوجه، وله المثل الأعلى في قلوب أوليائه، وهو التعظيم والإجلال والمحبة والإناابة والمعرفة.

«وهو العزيز» الذي قهر جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات بأسرها، «الحكيم» الذي يضع الأشياء مواضعها، فلا يأمر ولا يفعل، إلا ما يحمد عليه ويثنى على كماله فيه. «٦١» «ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» لما ذكر تعالى ما افتراه الظالمون عليه، ذكر كمال حلمه وصبره فقال: «ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم» من غير زيادة ولا نقص، «ما ترك عليها من دابة» أي: لأهلك المبشرين للمعصية وغيرهم، من أنواع الدواب والحوانات، فإن شؤم المعاصي يهلك به الحرث والنسل.

«ولكن يؤخرهم» عن تعجيل العقوبة عليهم إلى أجل مسمى، وهو يوم القيامة «فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون» فليحذروا ما داموا في وقت الإمهال، قبل أن يجيء الوقت الذي لا إمهال فيه. «٦٢ - ٦٣» «ويعملون لله ما يكرهون وتصف السنتهم الكذب أن لهم الحسن لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون» تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم» يخبر تعالى أن المشركين «يجمعون لله ما يكرهون» من البنات، ومن الأوصاف القبيحة، وهو الشرك، بصرف شيء من العبادات إلى بعض المخلوقات التي هي عيب لله، فكما أنهم يكرهون، ولا

يرضون أن يكون عبيدهم - وهم مخلوقون من جنسهم - شركاء لهم فيما رزقهم الله، فكيف يجعلون له شركاء من عبيده!! «و» هم مع هذه الإساءة العظيمة «تصف السنتهم الكذب أن لهم الحسن» أي: أن لهم الحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، رد عليهم بقوله: «لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون» مقدمون إليها، ماكثون فيها، غير خارجين منها أبداً.

بين تعالى لرسوله ﷺ أنه ليس هو أول رسول كُذِبَ فقال [تعالى]: «تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك» رسلاً يدعوهم إلى التوحيد، «فزين لهم الشيطان أعمالهم» فكذبوا الرسل، وزعموا أن ما هم عليه، هو الحق المنجي من كل مكروه، وأن ما دعت إليه الرسل فهو بخلاف ذلك، فلما زين لهم الشيطان أعمالهم، صار وليهم في الدنيا، فأتاعوه واتبعوه، وتولوه.

«٦٤» «والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون» عن الله مواعظه وتذكيره، فيستدلون بذلك على أنه وحده المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، لأنه النعم بآنزال المطر وإنبات جميع أصناف النبات، وعلى أنه على كل شيء قدير، وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الأموات، وأن الذي نشر هذا الإحسان لذوره رحمة واسعة، وجود عظيم. «٦٥ - ٦٦» «وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم بما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين» ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا إن في ذلك لآية لقوم يعقلون»

أي: ﴿إن لكم في الأنعام﴾ التي سخرها الله لمنافعكم ﴿العبرة﴾ تستدلون بها على كمال قدرة الله وسعة إحسانه، حيث أسقاكم من بطونها المشتعلة على الفرث والدم، فأخرج من بين ذلك لبناً خالصاً من الكدر سائغاً للشاربين، للذته، ولأنه يسقي ويغذي، فهل هذه إلا قدرة إلهية لا أمر طبيعي.

فأي: شيء في الطبيعة يقلب العلف الذي تأكله البهيمة، والشراب الذي تشربه من الماء العذب والملح، لبناً خالصاً سائغاً للشاربين؟

وجعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب منافع للعباد ومصالح، من أنواع الرزق الحسن الذي يأكله العباد، طرياً ونضيجاً، وحاضراً ومدخراً، وطعاماً، وشراباً يتخذ من عصيرها ونبذها، ومن السكر الذي كان حلالاً قبل ذلك، ثم إن الله نسخ جل المسكرات، وأعاض عنها بالطيبات من الأنبذة، وأنواع الأشربة اللذيذة المباحة.

﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ عن الله كمال اقتداره، حيث أخرجه من أشجار شبيهة بالخطب، فصارت ثمرة لذيدة وفاكهة طيبة، وعلى شمول رحمته، حيث عم^(١) بها عباده ويسرها لهم، وأنه الإله المعبود وحده، حيث إنه المنفرد بذلك.

﴿٦٨ - ٦٩﴾ ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يمرشون﴾ ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ في خلق هذه النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها وهدايته لها، ثم يخرج من بطونها هذا العسل اللذيذ، مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها

ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة. فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتعام لطفه بعباده، وأنه الذي لا ينبغي أن يحب غيره ويدعى سواه.

﴿٧٠﴾ ﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً إن الله عليم قدير﴾ يخبر تعالى أنه الذي خلق العباد ونقلهم في الخلقة، طوراً بعد طور، ثم بعد أن يستكملوا آجالهم، يتوفاهم، ومنهم من يعمره حتى ﴿يرد إلى أرذل العمر﴾ أي: أخسه الذي يبلغ به الإنسان إلى ضعف القوى الظاهرة والباطنة، حتى العقل الذي هو جوهر الإنسان، يزد ضعفه حتى إنه ينسى ما كان يعلمه، ويصير عقله كعقل الصبي، ولهذا قال: ﴿لكيلا يعلم بعد علم شيئاً، إن الله عليم قدير﴾ أي: قد أحاط علمه وقدرته بجميع الأشياء، ومن ذلك ما ينقل به الآدمي من أطوار الخلقة، خلقاً بعد خلق، كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾.

﴿٧١﴾ ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق فما الذين فضلوا برادي رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء أفبينعمة الله يبحدون﴾ وهذا من أدلة توحيده، وقبح الشرك به، يقول تعالى: ﴿كما أنكم مشتركون بأنكم مخلوقون موزوقون، إلا أنه تعالى فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾ فجعل منكم أحراراً لهم مال وثروة، ومنكم أرقاء لهم، لا يملكون شيئاً من الدنيا، فكما أن سادتهم الذين فضلهم الله عليهم بالرزق ليسوا برادي رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء﴾ ويرون هذا من الأمور المتنوعة، فكذلك من أشركتم بها مع الله، فإنها عبيد ليس لها من الملك مثقال ذرة، فكيف تجعلونها شركاء الله تعالى؟!

هل هذا إلا من أعظم الظلم، والجحود لنعم الله؟! ولهذا قال: ﴿أفبينعمة الله يبحدون﴾ فلو أقروا بالنعمة ونسبوها إلى من أولأها، لما أشركوا به أحداً.

﴿٧٢﴾ ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون﴾ يخبر تعالى عن مثبته العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجاً ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولاداً تقر بهم أعينهم ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم، وينتفعون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات، من جميع المأكول والمشرب، والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها.

﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون﴾ أي: أيؤمنون بالباطل الذي لم يكن شيئاً مذكوراً، ثم أوجده الله، وليس له من وجوده سوى العدم، فلا تخلق، ولا ترزق، ولا تدبر من الأمر شيئاً، وهذا عام لكل ما عبد من دون الله، فإنها باطلة، فكيف يتخذها المشركون من دون الله؟!!

﴿وبنعمة الله هم يكفرون﴾ يبحدون، ويستعینون بها على معاصي الله والكفر به، هل هذا إلا من أظلم الظلم، وأفجر الفجور، وأسفه السفه؟!!

﴿٧٣ - ٧٦﴾ ﴿وعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السماوات والأرض شيئاً ولا يستطيعون﴾ فلا تضربوا الله الأمثال إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون * ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهراً هل يستون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون * وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه

إياها، وجعل ينميها فيهم شيئاً فشيئاً إلى أن يصل كل أحد إلى الحالة اللانقطة به، وذلك لأجل أن يشكروا الله، باستعمال ما أعطاهم من هذه الجوارح في طاعة الله، فمن استعملها في غير ذلك كانت حجة عليه، وقابل النعمة بأقبح المقابلة.

﴿٧٩﴾ ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي: لأنهم المنتفعون بآيات الله، المتفكرون فيما جعلت آية عليه، وأما غيرهم فإن نظرهم نظر لهُو وغفلة، ووجه الآية فيها أن الله تعالى خلقها بخلقة تصلح للطيران، ثم سخر لها هذا الهواء اللطيف ثم أودع فيها من قوة الحركة وما قدرت به على ذلك، وذلك دليل على كمال حكمته وعلمه الواسع وعنايته الربانية بجميع مخلوقاته وكمال اقتداره، تبارك الله رب العالمين.

﴿٨٠ - ٨٣﴾ ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين﴾ * والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكنائاً وجعل لكم سرائيل تقيكم الحر وسرايل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون * فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين * يعزفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون * يذكر تعالى عباده نعمه، ويستدعي منهم شكرها والاعتراف بها فقال: ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾ في الدور والقصور ونحوها، تُكثِّكُم من الحر والبرد وتستركم، أنتم وأولادكم وأمتعتكم، وتتخذون فيها الغرف والبيوت التي هي لأنواع منافعكم ومصالحكم، وفيها حفظ لأموالكم وحرمتكم، وغير ذلك من الفوائد المشاهدة، ﴿وجعل لكم من جلود

العلم لم يتجرؤوا على الشرك العظيم. والمثل الثاني مثل ﴿رجلين أحدهما أبكم﴾ لا يسمع ولا ينطق و ﴿لا يقدر على شيء﴾ لا قليل ولا كثير ﴿وهو كل على مولاه﴾ أي: يخدمه مولاه، ولا يستطيع هو أن يخدم نفسه، فهو ناقص من كل وجه، فهل يستوي هذا ومن كان يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم، فأقواله عدل، وأفعاله مستقيمة، فكما أنهما لا يستويان، فلا يستوي من عبيد من دون الله وهو لا يقدر على شيء من مصالحه، فلولا قيام الله بها لم يستطيع شيئاً منها، لا يكون كفواً ونذاً لمن لا يقول إلا الحق، ولا يفعل إلا ما يحمد عليه.

﴿٧٧﴾ ﴿والله غيب السماوات والأرض وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير﴾ أي: هو تعالى المنفرد بغيب السماوات والأرض، فلا يعلم الخفايا والبواطن والأسرار إلا هو، ومن ذلك علم الساعة، فلا يدري أحد متى تأتي إلا الله، فإذا جاءت وتجلت، لم تكن ﴿إلا كلمح البصر أو هو أقرب﴾ من ذلك، فيقوم الناس من قبورهم إلى يوم بعثهم ونشورهم، وتفوت الفرص لمن يريد الإمهال، ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فلا يستغرب على قدرته الشاملة إحياءه للموتى.

﴿٧٨﴾ ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾ أي: هو المنفرد بهذه النعم حيث ﴿أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً﴾ ولا تقدر على شيء ثم إنه ﴿جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ خص هذه الأعضاء الثلاثة لشرفها وفضلها، ولأنها مفتاح لكل علم، فلا وصل للبعد علم إلا من أحد هذه الأبواب الثلاثة، وإلا فسائر الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة، هو الذي أعطاهم

لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾ يخبر تعالى عن جهل المشركين وظلمهم، أنهم يعبدون من دونه آلهة اتخذوها شركاء لله، والحال أنهم لا يملكون لهم رزقاً من السماوات والأرض، فلا ينزلون مطراً ولا رزقاً، ولا ينبتون من نبات الأرض شيئاً، ولا يملكون مثقال ذرة في السماوات والأرض، ولا يستطيعون لو أرادوا، فإن غير المالك للشيء ربما كان له قوة واقتدار على ما ينفع من يتصل به، وهؤلاء لا يملكون ولا يقدر.

فهذه صفة آلهتهم، كيف جعلوها مع الله، وشبهوها بمالك الأرض والسماوات، الذي له الملك كله، والحمد كله، والقوة كلها!!!

ولهذا قال: ﴿فلا تضربوا الله الأمثال﴾ المتضمنة للتسوية بينه وبين خلقه ﴿إن الله يعلم وأتمم لا تعلمون﴾ فعلينا أن لا نقول عليه بلا علم، وأن نسمع ما ضربه العليم من الأمثال، فلماذا ضرب تعالى مثلياً له ولمن يعبد من دونه، أحدهما عبد مملوك، أي: رقيق لا يملك نفسه، ولا يملك من المال والدنيا شيئاً، والثاني حرٌ غنيٌ قد رزقه الله منه رزقاً حسناً، من جميع أصناف المال وهو كريم محب للإحسان، فهو يتفق منه سرّاً وجهراً، هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان مع أنهما مخلوقان، غير محال استواؤهما.

فإذا كانا لا يستويان، فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة، ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه، بالرب الخالق المالك لجميع الممالك، القادر على كل شيء!!!

ولهذا حمد نفسه، واختص بالحمد بأنواعه، فقال: ﴿الحمد لله﴾ فكأنه قيل: إذا كان الأمر كذلك فلم سوى المشركون آلهتهم بالله؟ قال: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فلو علموا حقيقة

مستحب، وذلك كتنفع الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع، حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره.

وخص الله إيتاء ذي القربى - وإن كان داخلاً في العموم - لتأكيد حقهم، وتعين صلتهم وبرهم، والحرص على ذلك.

ويدخل في ذلك جميع الأقارب، قريبيهم وبعيدهم، لكن كل ما كان أقرب كان أحق بالبر.

وقوله: ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ وهو كل ذنب عظيم استفحشته الشرائع والفطر، كالشرك بالله، والقتل بغير حق، والزنا، والسرقة، والعجب، والكبر، واحتقار الخلق، وغير ذلك من الفواحش.

ويدخل في المنكر كل ذنب ومعصية متعلق بحق الله تعالى.

وبالغي كل عدوان على الخلق، في الدماء والأموال والأعراض.

فصارت هذه الآية جامعة لجميع الأمور والمنهيات، لم يبق شيء إلا دخل فيها، فهذه قاعدة ترجع إليها سائر الجزئيات، فكل مسألة مشتملة على عدل أو إحسان أو إيتاء ذي القربى، فهي بما أمر الله به.

وكل مسألة مشتملة على فحشاء أو منكر أو بغي، فهي بما نهى الله عنه. وبها يعلم حسن ما أمر الله به، وقبح ما نهى عنه، وبها يعتبر ما عند الناس من الأقوال، وترد إليها سائر الأحوال، فتبارك من جعل في كلامه، الهدى، والشفاء، والنور، والفرقان بين جميع الأشياء.

ولهذا قال: ﴿يَعْظُمُكُمْ﴾ به أي: بما بينه لكم في كتابه، بأمركم بما فيه غاية صلاحكم، ونهيكم عما فيه مضرركم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ما يعظكم به، فتفهمونه وتعقلونه، فإنكم إذا تذكروا وعقلتموه، عملتم بمقتضاه، فسدتم سعادة لا شقاوة معها.

فلما أمر بما هو واجب في أصل الشرع، أمر بوفاء ما أوجبه العبد على نفسه فقال:

الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معاني كثيرة، يكون اللفظ لها كالفائدة والأساس، واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية، وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصى، فلما كان هذا القرآن تبياناً لكل شيء، صار حجة الله على العباد كلهم. فانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون، فصار هدى لهم يبتدون به إلى أمر دينهم ودنياهم، ورحمة ينالون به كل خير في الدنيا والآخرة. فالهدى ما نالوه به من علم نافع، وعمل صالح، والرحمة ما ترتب على ذلك من ثواب الدنيا والآخرة، كصلاح القلب وبره وطمانينته، وقام العقل الذي لا يتم إلا بتربيته على معانيه، التي هي أجل المعاني وأعلاها، والأعمال الكريمة والأخلاق الفاضلة، والرزق الواسع، والنصر على الأعداء بالقول والفعل، ونيل رضا الله تعالى، وكرامته العظيمة التي لا يعلم ما فيها من النعيم المقيم إلا الرب الرحيم.

﴿٩٠﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فالعدل الذي أمر الله به، يشمل العدل في حقه، وفي حق عباده، فالعدل في ذلك، أداء الحقوق كاملة موفرة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية، والمركبة منهما، في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام، فيؤدي كل مال ما عليه تحت ولايته، سواء في ذلك ولاية الإمامة الكبرى، وولاية القضاء، ونواب الخليفة ونواب القاضي.

والعدل هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكة، ومن العدل في المعاملات، أن تعاملهم في عقود البيع والشراء وسائر المعاضات، بإيفاء جميع ما عليك، فلا تبخس لهم حقاً، ولا تغشهم، ولا تتخذهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة

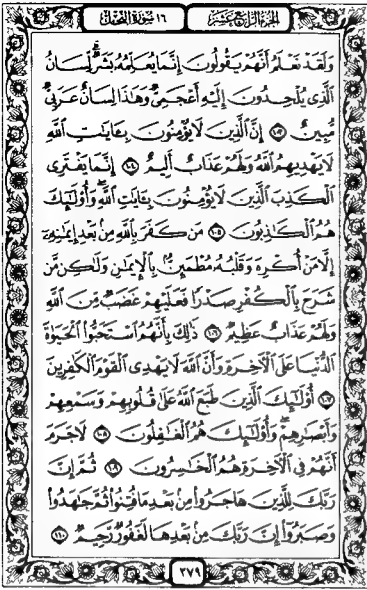


شهاداً على هؤلاء ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين. لما ذكر فيما تقدم أنه يبعث ﴿في كل أمة شهيداً﴾ ذكر ذلك أيضاً هنا، وخص منهم هذا الرسول الكريم فقال: ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ أي: على أمتك، تشهد عليهم بالخير والشر، وهذا من كمال عدل الله تعالى، أن كل رسول يشهد على أمته، لأنه أعظم اطلاعاً من غيره على أعمال أمته، وأعدل وأشفق من أن يشهد عليهم إلا بما يستحقون.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾.

وقال تعالى: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض. وقوله: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ في أصول

الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين، وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبين، بالفاظ واضحة، ومعان جلية، حتى إنه تعالى يثني فيه الأمور الكبار، التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت، وإعادتها في كل ساعة، ويعيدها ويبدئها بالفاظ مختلفة وأدلة متنوعة، لتستقر في القلوب فتشمر من



﴿٩٥ - ٩٧﴾ «ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون * ما عندكم ينفد وما عند الله باقٍ ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون * من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون * يحذر تعالى عباده من نقض العهود والأيمان، لأجل متاع الدنيا وحطامها، فقال:

﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً﴾ تنالونه بالنقض وعدم الوفاء «إنما عند الله * من الثواب العاجل والأجل لمن أثار رضاه، وأوفى بما عاهد عليه الله «هو خير لكم» من حطام الدنيا الزائلة «إن كنتم تعلمون».

فأثروا ما يبقى على ما يفنى، فإن الذي عندكم ولو كثر جداً، لا بد أن «ينفد» ويفنى، «وما عند الله باقٍ» ببقائه، لا يفنى ولا يزول، فليس يعاقل من أثار الفاني الخسيس على الباقي النفس، وهذا كقوله تعالى: «بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى» «وما عند الله خير للآبرار» وفي هذا الحث والترغيب على الزهد في الدنيا. خصوصاً الزهد المتعين، وهو الزهد فيما يكون ضرراً على العبد، ويوجب له الاشتغال عما أوجب الله عليه، وتقديمه على

أي: لا تنبغي هذه الحالة منكم، تعقدون الأيمان المؤكدة، وتنتظرون فيها الفرص، فإذا كان العاقد لها ضعيفاً غير قادر على الآخر، أنهما، لا لتعظيم العقد واليمين، بل لعجزه. وإن كان قوياً، يرى مصلحته النبوية في نقضها، نقضها غير مبال بعهد الله ويمينه.

كل ذلك دوراناً مع أهوية النفوس، وتقديمها لها على مراد الله منكم، وعلى المروءة الإنسانية، والأخلاق المرضية، لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وقوة من الأخرى.

وهذا ابتلاء من الله وامتحان يتليكم الله به حيث قبض من أسباب المحن الذي يمتحن به الصادق الوفي من الفاجر الشقي.

﴿وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون﴾ فيجازي كلا بما عمل، ويجزي الغادر.

﴿٩٣﴾ «ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون» أي: «لو شاء الله» لجمع الناس على الهدى وجعلهم «أمة واحدة» ولكنه تعالى المنفرد بالهداية والإضلال، وهدايته وإضلاله من أفعاله التابعة لعلمه وحكمته، يعطي الهداية من يستحقها فضلاً، ويمنعها من لا يستحقها عدلاً. «ولتسألن عما كنتم تعملون» من خير وشر، فيجازيكم عليها أتم الجزاء وأعدله.

﴿٩٤﴾ «ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم» أي: «ولا تتخذوا أيمانكم» وعهودكم ومواثيقكم تبعاً لأهوائكم، متى شئتم وفيتم بها، ومتى شئتم نقضتموها، فإنكم إذا فعلتم ذلك، تزل أقدامكم بعد ثبوتها على الصراط المستقيم. «وتذوقوا السوء» أي: العذاب الذي يسوءكم ويجزئكم «بما صددتم عن سبيل الله» حيث ضللتكم وأضللتم غيركم «ولكم عذاب عظيم» مضاعف.

﴿٩١ - ٩٢﴾ «وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون * ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبين لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون».

وهذا يشمل جميع ما عاهد العبد عليه ربه، من العبادات والنذور والأيمان التي عقدها، إذا كان الوفاء بها براً، ويشمل أيضاً ما تعاهد عليه هو وغيره، كالعهدود بين المتعاقدين، وكالوعد الذي يعده العبد لغيره، ويؤكد على نفسه، فعليه في جميع ذلك الوفاء وتحميها مع القدرة، ولهذا نهى الله عن نقضها فقال: «ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها» بعقدها على اسم الله تعالى: «وقد جعلتم الله عليكم» أي المتعاقدان «كفيلاً» فلا يحل لكم أن لا تحكموا ما جعلتم الله عليكم كفيلاً، فيكون ذلك ترك تعظيم لله واستهانة به، وقد رضي الآخر منك باليمين، والتوكيد الذي جعلت الله فيه كفيلاً. فكما اتهمتك وأحسن ظنه فيك، فلتفت له بما قلت وأكدته.

﴿إن الله يعلم ما تفعلون﴾ يجازي كل عامل بعمله، على حسب نيته ومقصده.

﴿ولا تكونوا﴾ في نقضكم للعهد بأسوأ الأمثال وأقبحها وأدله على سفه متعاطيها، وذلك «كالتى» تغزل غزلاً قوياً، فإذا استحكم وتم ما أريد منه نقضته فجعلته «أنكاثاً» فتعبت على الغزل، ثم على النقض، ولم تستفد سوى الخيبة والعناء، وسفاهة العقل، ونقص الرأي، فكذلك من نقض ما عاهد عليه، فهو ظالم جاهل سفيه، ناقص الدين والمروءة.

وقوله: «تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة»

الحاسرون ﴿الذين خسروا أنفسهم وأموالهم وأهلهم يوم القيامة﴾، وفاتهم النعيم المقيم، وحصلوا على العذاب الأليم..

وهذا بخلاف من أكره على الكفر وأجبر عليه، وقلبه مطمئن بالإيمان، راغب فيه، فإنه لا حرج عليه ولا إثم، ويجوز له النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها.

ودل ذلك، على أن كلام المكره على الطلاق، أو العتاق، أو البيع، أو الشراء، أو سائر العقود، أنه لا عبرة به، ولا يترتب عليه حكم شرعي، لأنه إذا لم يعاقب على كلمة الكفر إذا أكره عليها، فغيرها من باب أولى وأحرى.

﴿١١٠ - ١١١﴾ ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ * يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتوفي كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ﴿أي: ثم إن ربك الذي ربي عباده المخلصين بلطفه وإحسانه لغفور رحيم لمن هاجر في سبيله، وخلى دياره وأمواله، طلباً لرضا الله، وفُتِنَ على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الإيمان، وتخلص ما معه من اليقين، ثم جاهد أعداء الله ليدخلهم في دين الله، بلسانه ويده، وصبر على هذه العبادات الشاقة، على أكثر الناس.

فهذه أكبر الأسباب التي تنال بها أعظم العطايا، وأفضل المواهب، وهي مغفرة الله للذنوب صغارها وكبارها، المتضمن ذلك زوال كل أمر مكروه، ورحمته العظيمة التي بها صلحت أحوالهم واستقامت أمور دينهم ودنياهم، فلهم الرحمة من الله في يوم القيامة حين ﴿تأتي كل نفس تجادل عن نفسها﴾ كل يقول نفسي نفسي لا يمه سوى نفسه، ففي ذلك اليوم يفتقر العبد إلى حصول مثقال ذرة من الخير.

﴿وتوفي كل نفس ما عملت﴾ من خير وشر ﴿وهم لا يظلمون﴾ فلا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم. ﴿فاليوم لا تغلظ نفس شيئاً ولا تجزون

لا يؤمنون بآيات الله﴾ كالعاندين لرسوله من بعد ما جاءتهم البينات. ﴿وأولئك هم الكاذبون﴾ أي: الكذب منحصر فيهم وعليهم أولى بأن يطلق من غيرهم. وأما محمد ﷺ المؤمن بآيات الله، الخاضع لربه، فمحال أن يكذب على الله، ويتقول عليه ما لم يقل، فأعداؤه رموه بالكذب الذي هو وصفهم، فأظهر الله خزيهم وبين فضائهم، فله تعالى الحمد.

﴿١٠٦ - ١٠٩﴾ ﴿من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدر فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم﴾ * ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين * أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون * لا جرم أنهم في الآخرة هم الحاسرون ﴿يغير تعالى عن شناعة حال﴾ من كفر بالله من بعد إيمانه ﴿فعمي بعد ما أبصر، ورجع إلى الضلال بعد ما اهتدى، وشرح صدره بالكفر، راضياً به مطمئناً، أن لهم الغضب الشديد من الرب الرحيم، الذي إذا غضب لم يقم لغضبه شيء، وغضب عليهم كل شيء.﴾ * ولهم عذاب عظيم ﴿أي: في غاية الشدة، مع أنه دائم أبداً.

﴿ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾ حيث ارتدوا على أدبارهم، طمعاً في شيء من حطام الدنيا، ورغبة فيه، وزهداً في خير الآخرة، فلما اختاروا الكفر على الإيمان، منعهم الله الهداية، فلم يهدم، لأن الكفر وصفهم، طبع على قلوبهم فلا يدخلها خير، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم فلا ينفذ منها ما ينفعهم، ويصل إلى قلوبهم. فشملتهم الغفلة، وأحاط بهم الخذلان، وحرمو رحمة الله التي وسعت كل شيء، وذلك أنها أنتهم فردوها، وعرضت عليهم فلم يقبلوها.

﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم

الحق من الباطل، والهدى من الضلال، ويبشرهم أن لهم أجراً حسناً، ماكثين فيه أبداً. وأيضاً فإنه كلما نزل شيئاً فشيئاً، كان أعظم هداية وبشارة لهم ما لو أتاهم جملة واحدة، وتفرق الفكر فيه، بل ينزل الله حكماً وبشارة، [أكثر] ^(١) فإذا فهموه وعقلوه وعرفوا المراد منه، وترووا منه، أنزل نظيره وهكذا. ولذلك بلغ الصحابة رضي الله عنهم به مبلغاً عظيماً، وتغيرت أخلاقهم وطباعهم، وانتقلوا إلى أخلاق وعوائد وأعمال، فاقوا بها الأولين والآخرين.

وكان أعلى وأولى لمن بعدهم، أن يتربوا بعلومه، ويتخلقوا بأخلاقه، ويستضيؤوا بنوره في ظلمات الغي والجهالات، ويجعلوه إمامهم في جميع الحالات، فبذلك تستقيم أمورهم الدينية والدنيوية.

﴿١٠٣ - ١٠٥﴾ ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ * إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم * إنما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ﴿يغير تعالى عن قبل المشركين المكذبين لرسوله﴾ أنهم يقولون إنما يعلمه ﴿هذا الكتاب الذي جاء به﴾ بشر ﴿وذلك البشر، الذي يشيرون إليه أعجمي اللسان وهذا﴾ القرآن ﴿لسان عربي مبين﴾

هل هذا القول ممكن؟ أو له حظ من الاحتمال؟ ولكن الكاذب يكذب ولا يفكر فيما يؤول إليه كذبه، فيكون في قوله من التناقض والفساد ما يوجب رده بمجرد تصوره.

﴿إن الذين لا يؤمنون بآيات الله﴾ الدالة دلالة صريحة على الحق المبين، فيردونها ولا يقبلونها. ﴿لا يهديهم الله﴾ حيث جاءهم الهدى، فردوه، فموجبوا بحرمانه، وخذلان الله لهم. ﴿ولهم﴾ في الآخرة ﴿عذاب أليم﴾.

﴿إنما يفترى الكذب﴾ أي: إنما يصدر افتراء الكذب من الذين

إلا ما كنتم تعملون ﴿١١٢﴾.

﴿١١٢ - ١١٣﴾ وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون * ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون * وهذه القرية هي مكة المشرفة، التي كانت آمنة مطمئنة، لا يهاج فيها أحد، وتحترمها الجاهلية الجهلاء، حتى إن أحدهم يجد قاتل أبيه وأخيه، فلا يهيجه مع شدة الحمية فيهم والنصرة العربية، فحصل لها من الأمن التام ما لم يحصل لسواها، وكذلك الرزق الواسع.

كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان، فجاءهم رسول منهم يعرفون أمانته وصدقه، يدعوه إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، والبسم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم * وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

﴿١١٤ - ١١٨﴾ فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واشكروا نعمة الله إن كنتم عباده * إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم * ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون * متاع قليل ولهم عذاب أليم * وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * يأمر تعالى عباده بأكل ما رزقهم الله من الحيوانات والحبوب والثمار، وغيرها. ﴿حلالاً طيباً﴾ أي: حالة كونها متصفة

بهذين الوصفين، بحيث لا تكون مما حرم الله، أو أثراً عن غصب ونحوه. فتمتعوا بما خلق الله لكم من غير إسراف ولا تسعد. ﴿واشكروا نعمة الله﴾ بالاعتراف بها بالقلب، والثناء على الله بها، وصرفها في طاعة الله. ﴿إن كنتم عباده﴾ أي: إن كنتم مخلصين له العبادة، فلا تشكروا إلا إياه، ولا تنسوا النعم.

﴿إنما حرم عليكم﴾ الأشياء المضرة تنزيهاً لكم، وذلك: كـ ﴿الميتة﴾ ويدخل في ذلك كل ما كان موته على غير ذكاة مشروعة، ويستثنى من ذلك، ميتة الجراد والسملك.

﴿والدم﴾ المسفوح، وأما ما يبقى في العروق واللحم فلا يضر. ﴿ولحم الخنزير﴾ لقذارته وخبثه، وذلك شامل للحمه وشحمه وجميع أجزائه. ﴿وما أهل لغير الله به﴾ كالذي يذبح للأصنام والقبور ونحوها، لأنه مقصود به الشرك.

﴿فمن اضطر﴾ إلى شيء من المحرمات - بأن حملته الضرورة، وخاف إن لم يأكل أن يهلك - فلا جناح عليه إذا لم يكن باغياً أو عادياً، أي: إذا لم يرد أكل المحرم، وهو غير مضطر، ولا متعد الحلال إلى الحرام، أو متجاوز لما زاد على قدر الضرورة، فهذا الذي حرمه الله من المباحات.

﴿١١٦﴾ ﴿ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام﴾ أي: لا تحرموا وتحللوا من تلقاء أنفسكم، كذباً وافتراء على الله وتقولاً عليه.

﴿لتفتروا على الله الكذب، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون﴾ لا في الدنيا، ولا في الآخرة، ولا بد أن يظهر الله خزيمهم وإن تمتعوا في الدنيا، فإنه ﴿متاع قليل﴾ ومصيرهم إلى النار ﴿ولهم عذاب أليم﴾.

فإنه تعالى ما حرم علينا إلا

الخيثات، تفضلاً منه، وصيانة عن كل مستقذر.

وأما الذين هادوا فحرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بسبب ظلمهم عقوبة لهم، كما قصه في سورة الأنعام في قوله: ﴿وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها إلا ما حملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم، ذلك جزيناهم ببغيهم وإننا لصادقون﴾.

﴿١١٩﴾ ﴿ثم إن ربك للذنين عملوا سوءاً بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحو إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ وهذا حص من لعباده على التوبة، ودعوة لهم إلى الإنابة، فأخبر أن من عمل سوءاً بجهالة، بعاقبة ما تنجي عليه، ولو كان متممداً للذنوب، فإنه لا بد أن ينقص ما في قلبه من العلم وقت مقارفة الذنب. فإذا تاب وأصلح، بأن ترك الذنب وندم عليه^(١) وأصلح أعماله، فإن الله يغفر له ويرحمه، ويتقبل توبته ويعيده إلى حالته الأولى، أو أعلى منها.

﴿١٢٠ - ١٢٣﴾ ﴿إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين﴾ * شاكراً لأنعمه اجتباة وهذه إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين * يخبر تعالى عما فضل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة فقال:

﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ أي: إماماً جامعاً لخصال الخير، هادياً مهتدياً. ﴿قانتاً لله﴾ أي: مديماً لطاعة ربه، مخلصاً له الدين. ﴿حنيفاً﴾: مقبلاً على الله بالمحبة، والإنابة، والعبودية، معرضاً عن سواه. ﴿ولم يك من المشركين﴾ في قوله وعمله، وجميع أحواله، لأنه إمام الموحدين الخفاء.

﴿شاكراً لأنعمه﴾ أي: آتاه الله في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة

وباطنة، فقام بشكرها، فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن «اجتنابه» ربه، واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين.

«وهدهاه إلى صراط مستقيم» في علمه وعمله، فعلم بالحق وأثره على غيره.

«وأتيناه في الدنيا حسنة» رزقاً واسعاً، وزوجة حسنة، وذرية صالحين، وأخلاقاً مرضية «لأنه في الآخرة لمن الصالحين» الذين لهم المنازل العالية، والقرب العظيم من الله تعالى.

ومن أعظم فضائله أن الله أوحى لسيد الخلق وأكملهم، أن يتبع ملة إبراهيم، ويقتدي به هو وأمه.

﴿١٢٤﴾ «إنما جعل السبب على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون».

يقول تعالى: ﴿إنما جعل السبب أي: فرضاً على الذين اختلفوا فيه﴾

حين ضلوا عن يوم الجمعة، وهم اليهود، فصار اختلافهم سبباً لأن يجب عليهم في السبت احترامه وتعظيمه، وإلا فالفضيلة الحقيقية ليوم الجمعة، الذي هدى الله هذه الأمة إليه.

«وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون» فيبين لهم الحق من البطل، والمستحق للثواب عن استحق العقاب^(١).

﴿١٢٥﴾ «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين» أي: ليكن دعاؤك للخلق مسلمهم وكافرهم، إلى سبيل ربك المستقيم، المشتمل على العلم النافع، والعمل الصالح «بالحكمة» أي: كل أحد على

حسب حاله وفهمه وقبوله وانقياده. ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل، والبداة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب.

إما بما تشتمل عليه الأوامر من المصالح وتعدادها، والنواهي من المضار وتعدادها، وإما بذكر إكرام من قام بدين الله، وإهانة من لم يقم به.

وإما بذكر ما أعد الله للطائعين من الثواب العاجل والآجل، وما أعد

للعاصين من العقاب العاجل والآجل، فإن كان [المدعو] يرى أن ما هو عليه حق. أو كان داعية إلى الباطل، فيجادل بالتي هي أحسن، وهي الطرق التي تكون أدعى لاستجابته عقلاً ونقلاً.

ومن ذلك الاحتجاج عليه بالأدلة التي كان يعتقددها، فإنه أقرب إلى حصول المقصود، وأن لا تؤدي المجادلة إلى خصام أو مشاتمة تذهب بمقصودها، ولا تحصل الفائدة منها، بل يكون القصد منها هداية الخلق إلى الحق لا المغالبة ونحوها.

وقوله: ﴿إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله﴾ علم السبب الذي أداه إلى الضلال، وعلم أعماله المترتبة على ضلاله، وسيجازهه عليها.

«وهو أعلم بالمهتدين» علم أنهم يصلحون للهداية، فهداهم، ثم مَن عليهم فاجتباهم.

﴿١٢٦ - ١٢٨﴾ «وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين * وإصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون * إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون» يقول تعالى - مبيحاً للعدل، ونادياً للفضل والإحسان «وإن عاقبتهم» من أساء إليكم بالقول والفعل «فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به» من غير زيادة منكم، على

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشَّرَّ أَنْ يَحْمِلَهُمْ ثِقَلًا مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَسْفَلًا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَلِيمٌ ذُو بَرْهَيْنَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنُفِخَ بِالنَّفْثِ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ شَاسِكًا بَلْ لَأَشْمُوءُ أَجْنَبَهُ وَهَدَىٰ إِلَىٰ جِرْطٍ لِّتَقِيمَ ﴿١٢٧﴾ وَإِنَّا لَنُفِخُ فِي الْنَّفْثِ حَسَنَةً وَلَئِنَّا لَنُفِخُ فِي الْآخِرَةِ لِلَّذِينَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٨﴾ وَوَعَدْنَا إِيَّاكَ أَنْ أَتِيَ مَلَائِكَةُ آبَائِهِمْ خَفَاءً وَأَمَّا كَانَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٢٩﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَكْذِبُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿١٣٠﴾ أَدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْهُمْ بِالَّذِي أَحْسَنَ لَكَ رَبُّكَ هُوَ أَفْضَلُ مِنْ سَبِيلِكَ وَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الْمَهْتَدِينَ ﴿١٣١﴾ وَإِنَّا لَنُفِخُ فِي الْنَّفْثِ حَسَنَةً وَلَئِنَّا لَنُفِخُ فِي الْآخِرَةِ لِلَّذِينَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٢﴾ وَأَمَّا كَانَ مِنَ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَكْذِبُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿١٣٤﴾

ما أجراه معكم.

«ولئن صبرتم» عن المعاقبة، وعفوتهم عن جرمهم، «لهو خير للصابرين» من الاستيفاء، وما عند الله خير لكم، وأحسن عاقبة، كما قال تعالى: «فمن عفا وأصلح فأجره على الله» ثم أمر رسوله بالصبر على دعوة الخلق إلى الله، والاستعانة بالله على ذلك، وعدم الاتكال على النفس، فقال:

«وإصبر وما صبرك إلا بالله» هو الذي يعينك عليه ويثبتك. «ولا تحزن عليهم» إذا دعوتهم، فلم تر منهم قبولاً لدعوتك، فإن الحزن لا يجدي عليك شيئاً. «ولا تك في ضيق» أي: شدة وحر، «مما يمكرون» فإن مكرهم عائد إليهم، وأنت من المتقين المحسنين.

والله مع المتقين المحسنين، بعونه، وتوفيقه وتسديده، وهم الذين اتقوا الكفر والمعاصي، وأحسنوا في عبادة الله، بأن عبدوا الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم، والإحسان إلى الخلق يبذل النفع لهم من كل وجه.

نسال الله أن يجعلنا من المتقين المحسنين.

تم تفسير سورة النحل والحمد لله

نفس المسجد، وأن الإسراء بروحه وجسده معاً، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى، ومنقبة عظيمة.

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء، وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أسري به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك، إلى السماوات، حتى وصل إلى ما فوق السماوات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض الله عليه الصلوات خمسين، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم، حتى صارت خمساً بالفعل، وخمسين بالأجر والثواب، وحاز من المآخر تلك الليلة، هو وأمته، مالا يعلم مقداره إلا الله عز وجل.

وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن، ومقام التحدي بصفة العبودية، لأنه نال هذه المقامات الكبار، بتكميله لعبودية ربه.

وقوله: ﴿الذي باركنا حوله﴾ أي: بكثرة الأشجار والأنهار، والخصب الدائم.

ومن بركته، تفضيله على غيره من المساجد، سوى المسجد الحرام، ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلوة فيه، وأن الله اختصه محلاً لكثير من أنبيائه وأصفياه.

﴿٢-٨﴾ ﴿وأتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً * وقضينا إلى بني إسرائيل * وأخبرناهم في كتابهم، أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي، والبطر لنعم الله، والعلو في الأرض والتكبر فيها، وأنه إذا وقع واحدة منهما، سلط الله عليهم الأعداء، وانتقم منهم، وهذا تحذير لهم وإنذار، لعلمهم يرجعون فيتذكرون.

﴿وقضينا إلى بني إسرائيل﴾ أي: تقدمنا وعهدنا إليهم، وأخبرناهم في كتابهم، أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي، والبطر لنعم الله، والعلو في الأرض والتكبر فيها، وأنه إذا وقع واحدة منهما، سلط الله عليهم الأعداء، وانتقم منهم، وهذا تحذير لهم وإنذار، لعلمهم يرجعون فيتذكرون.

﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما. أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد ﴿بعثنا عليكم﴾ بعثنا قديراً، وسلطنا عليكم تسليطاً كونياً جزائياً ﴿عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ أي: ذوي شجاعة وعدد وعدة

نفس المسجد، وأن الإسراء بروحه وجسده معاً، وإلا لم يكن في ذلك آية كبرى، ومنقبة عظيمة.

وقد تكاثرت الأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ في الإسراء، وذكر تفاصيل ما رأى، وأنه أسري به إلى بيت المقدس، ثم عرج به من هناك، إلى السماوات، حتى وصل إلى ما فوق السماوات العلى، ورأى الجنة والنار، والأنبياء على مراتبهم، وفرض الله عليه الصلوات خمسين، ثم ما زال يراجع ربه بإشارة موسى الكليم، حتى صارت خمساً بالفعل، وخمسين بالأجر والثواب، وحاز من المآخر تلك الليلة، هو وأمته، مالا يعلم مقداره إلا الله عز وجل.

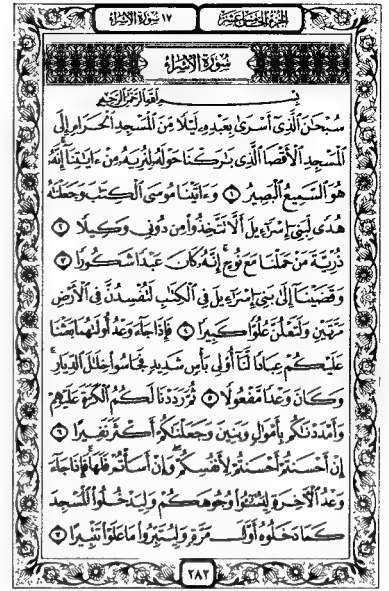
وذكره هنا وفي مقام الإنزال للقرآن، ومقام التحدي بصفة العبودية، لأنه نال هذه المقامات الكبار، بتكميله لعبودية ربه.

وقوله: ﴿الذي باركنا حوله﴾ أي: بكثرة الأشجار والأنهار، والخصب الدائم.

ومن بركته، تفضيله على غيره من المساجد، سوى المسجد الحرام، ومسجد المدينة، وأنه يطلب شد الرحل إليه للعبادة والصلوة فيه، وأن الله اختصه محلاً لكثير من أنبيائه وأصفياه.

﴿٢-٨﴾ ﴿وأتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلاً﴾ ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً * وقضينا إلى بني إسرائيل * وأخبرناهم في كتابهم، أنهم لا بد أن يقع منهم إفساد في الأرض مرتين بعمل المعاصي، والبطر لنعم الله، والعلو في الأرض والتكبر فيها، وأنه إذا وقع واحدة منهما، سلط الله عليهم الأعداء، وانتقم منهم، وهذا تحذير لهم وإنذار، لعلمهم يرجعون فيتذكرون.

﴿فإذا جاء وعد أولاهما﴾ أي: أولى المرتين اللتين يفسدون فيهما. أي: إذا وقع منهم ذلك الفساد ﴿بعثنا عليكم﴾ بعثنا قديراً، وسلطنا عليكم تسليطاً كونياً جزائياً ﴿عباداً لنا أولي بأس شديد﴾ أي: ذوي شجاعة وعدد وعدة



تفسير سورة بني إسرائيل وهي مكية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير﴾ ينزه تعالى نفسه المقدسة ويعظمها، لأن له الأفعال العظيمة والمنن الحسيمة، التي من جملتها أن ﴿أسرى بعبده﴾ ورسوله محمد ﷺ، ﴿من المسجد الحرام﴾ الذي هو أجل المساجد على الإطلاق ﴿إلى المسجد الأقصى﴾ الذي هو من المساجد الفاضلة، وهو محل الأنبياء.

فأسري به في ليلة واحدة إلى مسافة بعيدة جداً، ورجع في ليلته، وأراه الله من آياته، ما ازداد به هدى وبصيرة وثباتاً وفرقاً، وهذا من اعتنائه تعالى به ولطفه، حيث يسره لليسرى في جميع أموره، وخوَّله نعماً فاق بها الأولين والآخرين، وظاهر الآية أن الإسراء كان في أول الليل، وأنه من نفس المسجد الحرام، لكن ثبت في الصحيح، أنه أسري به من بيت أم هانئ، فعل هذا، تكون الفضيلة في المسجد الحرام لسائر الحرم، فكله تتضاعف فيه العبادة كتضاعفها في

فنصرهم الله عليكم، فقتلوكم وسبوا أولادكم، ونهبوا أموالكم، وجاسوا خلال دياركم فهتكوا الدور، ودخلوا المسجد الحرام وأفسدوه. ﴿وكان وعداً مفعولاً﴾ لا بد من وقوعه، لوجود سببه منهم.

واختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المسلمين، إلا أنهم اتفقوا على أنهم قوم كفار.

إما من أهل العراق، أو الجزيرة، أو غيرها، سلطهم الله على بني إسرائيل لما كثرت فيهم المعاصي، وتركوا كثيراً من شريعتهم، وطفوا في الأرض.

﴿ثم ردنا لكم الكرة عليهم﴾ أي: على هؤلاء الذين سلطوا عليكم، فأجليتموهم من دياركم. ﴿وأمددناكم بأموال وبنين﴾ أي: أكثرنا أرزاقكم، وكثرناكم، وقويناكم عليهم، ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ منهم، وذلك بسبب إحسانكم وخضوعكم لله.

﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾ لأن النفع عائد إليكم، حتى في الدنيا كما شاهدتم من انتصاركم على أعدائكم. ﴿وإن أسأتم فلها﴾ أي: فلأنفسكم يعود الضرر، كما أراكم الله من تسلط الأعداء.

﴿فإذا جاء وعد الآخرة﴾ أي: المرة الآخرة^(١) التي تفسدون فيها في الأرض، سلطنا أيضاً عليكم الأعداء. ﴿ليسوؤوا وجوهكم﴾ بانتصارهم عليكم وسبيكم وليدخلوا المسجد الحرام كما دخلوه أول مرة، والمراد بالمسجد، مسجد بيت المقدس.

﴿وليبتروا﴾ أي: يخربوا ويدمروا ﴿ما علوا﴾ عليه ﴿تتبيرا﴾ فيخربوا بيوتكم ومساجدكم وحروثكم. ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ فيدبل لكم الكرة عليهم، فرحمهم وجعل لهم الدولة.

وتوعدهم على المعاصي فقال: ﴿وإن عدتم﴾ إلى الإفساد في الأرض ﴿عدنا﴾ إلى عقوبتكم، فعادوا لذلك، فسلط الله عليهم رسوله محمداً ﷺ،

فانتقم الله به منهم، فهذا جزء الدنيا، وما عند الله من النكال أعظم وأشنع، ولهذا قال: ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ يصلونها ويلازمونها، لا يخرجون منها أبداً. وفي هذه الآيات التحذير لهذه الأمة من العمل بالمعاصي لئلا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل، فسنه الله واحدة لا تبدل ولا تغير.

ومن نظر إلى تسلط الكفرة على المسلمين والظلمة، عرف أن ذلك من أجل ذنوبهم، عقوبة لهم، وأنهم إذا أقاموا كتاب الله وسنة رسوله، مكن لهم في الأرض، ونصرهم على أعدائهم.

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً﴾ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً ﴿يخبر تعالى عن شرف القرآن وجلالته، وأنه﴾ يهدي للتي هي أقوم ﴿أي: أعدل وأعلى، من العقائد والأعمال والأخلاق، فمن اهتدى بما يدعو إليه القرآن، كان أكمل الناس وأقومهم وأهداهم في جميع أموره.

﴿وبيشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات﴾ من الواجبات والسنن، ﴿أن لهم أجراً كبيراً﴾ أعده الله لهم في دار كرامته، لا يعلم وصفه إلا هو.

﴿وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً﴾ فالقرآن مشتمل على البشارة والندارة، وذكر الأسباب التي تنال بها البشارة، وهو الإيمان، والعمل الصالح، والتي تستحق بها الندارة وهو ضد ذلك.

﴿١١﴾ ﴿ويدع الإنسان بالشعر دعاء بالخير وكان الإنسان عجولاً﴾ وهذا من جهل الإنسان وعجلته، حيث يدعو على نفسه وأولاده وماله بالشعر عند الغضب، ويبادر بذلك الدعاء، كما يبادر بالدعاء في الخير،



ولكن الله - بلطفه^(٢) - يستجيب له في الخير، ولا يستجيب له بالشر. ﴿ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم﴾.

﴿١٢﴾ ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبينوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾ يقول تعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ أي:

داليتين على كمال قدرة الله وسعة رحمته، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له. ﴿فمحونا آية الليل﴾ أي: جعلناه مظلماً، للسكون فيه والراحة، ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ أي: مضيئة، لتبينوا فضلاً من ربكم في معاشكم وصنائعكم وتجاراتكم وأسفاركم.

﴿ولتعلموا﴾ بتوالي الليل والنهار واختلاف القمر وعدد السنين والحساب فتبينوا عليها ما تشاؤون من مصالحكم.

﴿وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾ أي: بينا الآيات وصرفناه، لتمييز الأشياء، ويستبين الحق من الباطل، كما قال تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾.

﴿ومن أراد الآخرة﴾ فرضيها وأثرها على الدنيا ﴿وسعى لها سعيها﴾ الذي دعت إليه الكتب السماوية، والآثار النبوية، فعمل بذلك على قدر إمكانه ﴿وهو مؤمن﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

﴿فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ أي: مقبولاً مئتماً، مدحراً لهم أجرهم وثوابهم عند ربهم.

ومع هذا، فلا يفوتهم نصيبهم من الدنيا، فكلما يمدد الله منها، لأنه عطاؤه وإحسانه. ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ أي: ممنوعاً من أحد، بل جميع الخلق راتعون بفضلته وإحسانه.

﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ في الدنيا، بسعة الأرزاق وقلتها، واليسر والعسر، والعلم والجهل، والعقل والسفه، وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها.

﴿وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه.

فكم بين من هو في الغرف العاليات، واللذات المتنوعات، والسرور والخيرات والأفراح، ممن هو يتقلب في الجحيم، ويعذب بالعذاب الأليم، وقد حل عليه سخط الرب الرحيم، وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت مالا يمكن أحداً عده.

﴿٢٢﴾ ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً﴾ أي: لا تمتدح أن أحداً من المخلوقين يستحق شيئاً من العبادة، ولا تشرك بالله أحداً منهم، فإن ذلك داع للذم والخذلان، فالله وملائكته ورسله، قد نهوا عن الشرك، وذموا من عمله أشد الذم، ورتبوا عليه من الأسماء المذمومة، والأوصاف المقبوحة، ما كان به متعاطيه، أشنع الخلق وصفاً، وأقبحهم نعتاً.

وله من الخذلان في أمر دينه ودنياه، بحسب ما تركه من التعلق بربه، فمن تعلق بغيره فهو مخذول، قد وكل إلى من تعلق به، ولا أحد من الخلق ينفع

واستدل بهذه الآية على أن أهل الفترات، وأطفال المشركين، لا يعذبهم الله حتى يبعث إليهم رسولاً، لأنه منزّه عن الظلم.

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً﴾ وكما أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾ يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة، ويستأصلها بالعذاب، أمر مترفيها أمراً قديراً، ففسقوا فيها، واشتد طغيانهم، ﴿فحق عليها القول﴾ أي: كلمة العذاب التي لا مرد لها ﴿فدمرناها تدميراً﴾.

وهؤلاء أمم كثيرة أبادهم الله بالعذاب، من بعد قوم نوح، كعاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم ممن عاقبهم الله لما كثر بغيتهم، واشتد كفرهم، أنزل [الله] بهم عقابه العظيم. ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً﴾ فلا يخافوا منه ظملاً، وأنه يعاقبهم على ما عملوه.

﴿١٨ - ٢١﴾ ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾ ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴿كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً﴾ يخبر تعالى أن ﴿من كان يريد الدنيا﴾ العاجلة ﴿المنقضية الزائلة، فعمل لها وسعى، ونسي المبتدأ والمنتهى، أن الله يُعجل له من حظائها ومتاعها ما يشاؤه ويريده، مما كتب [الله] له في اللوح المحفوظ، ولكنه متاع غيز نافع ولا دائم له.

ثم يجعل له في الآخرة ﴿جهنم يصلاها﴾ أي: يباشر عذابها، ﴿مذموماً مدحوراً﴾ أي: في حالة الخزي والفضيحة والذم من الله ومن خلقه، والبعد عن رحمة الله، فيجمع له بين العذاب والفضيحة.



﴿١٣ - ١٤﴾ ﴿وكل إنسان الزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ وهذا إخبار عن كمال عدله، أن كل إنسان يلزمه طائره في عنقه، أي: ما عمل من خير وشر، يجعله الله ملازماً له، لا يتعداه إلى غيره، فلا يحاسب بعمل غيره، ولا يحاسب غيره بعمله.

﴿ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾ فيه ما عمله من الخير والشر حاضرأ، صغيره وكبيره، ويقال له: ﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.

وهذا من أعظم العدل والإنصاف، أن يقال للعبد: حاسب نفسك، ليعترف بما عليه من الحق الموجب للعقاب.

﴿١٥﴾ ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ أي: هداية كل أحد وضلاله لنفسه، لا يحمل أحد ذنب أحد، ولا يدفع عنه مثقال ذرة من الشر، والله تعالى أعدل العادلين، لا يعذب أحداً حتى تقوم عليه الحجة بالرسالة، ثم يعاند الحجة.

وأما من انقاد للحجة، أو لم تبلغه حجة الله تعالى، فإن الله تعالى لا يعذبه.

والإكرام، الواجب والمسنون، وذلك الحق، يتفاوت بتفاوت الأحوال، والأقارب، والحاجة وعدمها، والأزمنة.

﴿والمسكين﴾ آتة حقه من الزكاة ومن غيرها، لتزول مسكنته، ﴿وابن السبيل﴾ وهو الغريب المنقطع به عن بلده، فيعطى الجميع من المال، على وجه لا يضر المعطي، ولا يكون زائداً على المقدار اللائق، فإن ذلك تبذير، وقد نهى الله عنه وأخبر:

﴿إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين﴾ لأن الشيطان لا يدعو إلا إلى كل خصلة ذميمة، فيدعو الإنسان إلى البخل والإمساك، فإذا عصاه، دعاه إلى الإسراف والتبذير. والله تعالى، إنما يأمر بأعدل الأمور وأتوسطها ويمدح عليه، كما في قوله عن عباد الرحمن الأبرار ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً﴾.

وقال هنا: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك﴾ كناية عن شدة الإمساك والبخل. ﴿ولا تبسطها كل البسط﴾ فتتفق فيما لا ينبغي، أو زيادة على ما ينبغي.

﴿فتقعد﴾ إن فعلت ذلك ﴿ملوماً﴾ أي: تلام على ما فعلت ﴿محسوراً﴾ أي: حاسر اليد فارغها، فلا بقي ما في يدك من المال ولا خلفه مدح وثناء.

وهذا الأمر بإيتاء ذي القربى، مع القدرة والغنى، فأما مع العدم، أو تعمس النفقة الحاضرة، فأمر تعالى أن يُزَدُّوا رذاً جليلاً فقال: ﴿وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها﴾ أي: تعرض عن إعطائهم إلى وقت آخر، ترجو فيه من الله تيسير الأمر.

﴿فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ أي: لطيفاً برفق، ووعد بالجميل، عند سنوح الفرصة واعتذار بعدم الإمكان في الوقت الحاضر، لينقلبوا عنك مطمئنة خواطرهم، كما قال تعالى: ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى﴾.

وهذا أيضاً من لطف الله تعالى

﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ أي: تواضع لهما، ذلاً لهما ورحمة، واحتساباً للأجر، لا لأجل الخوف منهما، أو الرجاء لما لهما، ونحو ذلك من المقاصد التي لا يؤجر عليها العبد.

﴿وقل رب ارحمهما﴾ أي: ادع لهما بالرحمة أحياء وأمواتاً، جزاء على تربيتهما إياك صغيراً.

وفهم من هذا، أنه كلما ازدادت التربية ازداد الحق، وكذلك من تولى تربية الإنسان في دينه ودنياه، تربية صالحة غير الأبوين، فإن له على من رباه حق التربية.

﴿٢٥﴾ ﴿ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً﴾ أي: ربكم تعالى مطلع على ما أكنته سرائركم من خير وشر، وهو لا ينظر إلى أعمالكم وأبدانكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وما فيها من الخير والشر.

﴿إن تكونوا صالحين﴾ بأن تكون إراداتكم ومقاصدكم دائرة على مرضاة الله، ورغبتكم فيما يقربكم إليه، وليس في قلوبكم إرادات مستقرة لغير الله.

﴿فإنه كان للأوابين﴾ أي: الرجاعين إليه في جميع الأوقات ﴿غفوراً﴾ فمن اطلع الله على قلبه، وعلم أنه ليس فيه إلا الإجابة إليه ومحبة ما يقرب إليه، فإنه، وإن جرى منه في بعض الأوقات ما هو مقتضى الطباع البشرية، فإن الله يعفو عنه، ويغفر له الأمور العارضة غير المستقرة.

﴿٢٦ - ٣٠﴾ ﴿وأت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً﴾ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً * وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً * ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً * إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴿يقول تعالى: ﴿وأت ذا القربى حقه﴾ من البر

أحداً إلا بإذن الله، وكما أن جعل مع الله إلهاً آخر له الذم والخذلان، فمن وحده، وأخلص دينه الله، وتعلق به دون غيره، فإنه محمود معان في جميع أحواله.

﴿٢٣ - ٢٤﴾ ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً﴾ واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً لما نهى تعالى عن الشرك به، أمر بالتوحيد، فقال: ﴿وقضى ربك قضاء دينياً، وأمر أمراً شرعياً﴾ أن لا تعبدوا أحداً من أهل الأرض والسموات الأحياء والأموات.

﴿إلا إياه﴾ لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي له كل صفة كمال، وله من تلك الصفة أعظمها، على وجه لا يشبهه أحد من خلقه، وهو المنعم بالنعمة الظاهرة والباطنة، الدافع لجميع النقم، الخالق، الرازق، المدبر لجميع الأمور، فهو المتفرد بذلك كله، وغيره ليس له من ذلك شيء.

ثم ذكر بعد حقه القيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي: أحسنوا إليهما بجميع وجوه الإحسان، القولي والفعل، لأنهما سبب وجود العبد، ولهما من المحبة للولد والإحسان إليه، والقرب، ما يقتضي تأكد الحق ووجوب البر.

﴿إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما﴾ أي: إذا وصلا إلى هذا السن، الذي تضعف فيه قواهما، ويحتاجان من اللطف والإحسان ما هو معروف. ﴿فلا تقل لهما أف﴾ وهذا أدنى مراتب الأذى، نيه به على ما سواه، والمعنى لا تؤذيهما أدنى أذى.

﴿ولا تنهرهما﴾ أي: تزجرهما، وتتكلم لهما كلاماً خشناً، ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ بلفظ يحبانه، وتأدب وتلطف بكلام لين حسن يلذ على قلوبهما، وتطمئن به نفوسهما، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والعوائد والأزمان.

بالعباد، أمرهم بانتظار الرحمة والرزق منه، لأن انتظار ذلك عبادة، وكذلك وَعَدَهُمْ بالصدقة والمعروف عند التيسر، عبادة حاضرة، لأن الله يفعل الحسنه حسنة، ولهذا ينبغي للإنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، وينوي فعل ما لم يقدر عليه، ليثاب على ذلك، ولعل الله يسره له [بسبب رجائه] (١٧).

ثم أخبر تعالى أنه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده، ويقدره ويضيقه على من يشاء حكمه منه، «إنه كان يعباده خبيراً بصيراً» فيجزئهم على ما يعلمه صالحاً لهم، ويدبرهم، بلطفه وكرمه. ﴿٣١﴾ «ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً» وهذا من رحمته بعباده، حيث كان أرحم بهم من والديهم، فنهى الوالدين أن يقتلوا أولادهم خوفاً من الفقر والإملاق، وتكفل برزق الجميع.

وأخبر أن قتلهم كان خطأ كبيراً، أي: من أعظم كبائر الذنوب، لزوال الرحمة من القلب، والعقوق العظيم والتجروء على قتل الأطفال، الذين لم يجر منهم ذنب ولا معصية.

﴿٣٢﴾ «ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلاً» والنهي عن قربانه أبلى من النهي عن مجرد فعله، لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، فإن: «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه»، خصوصاً هذا الأمر، الذي في كثير من النفوس أقوى داع إليه.

ووصف الله الزنى وقبحه بأنه «كان فاحشة» أي: إثماً يستفحش في الشرع والعقل والفطر، لتضمنه التجري على الحرمة في حق الله، وحق المرأة، وحق أهلها، أو زوجها، وإفساد الفراش، واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفساد.

وقوله: «وساء سبيلاً» أي: بسئ السبيل، سبيل من تجرأ على هذا الذنب العظيم.

﴿٣٣﴾ «ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً» وهذا شامل لكل نفس «حرم الله» قتلها من صغير وكبير، وذكر وأنثى، وحر وعبد، ومسلم وكافر له عهد.

﴿٣٤﴾ «إلا بالحق» كالنفس بالنفس، والزاني المحصن، والتارك لدينه المفارق للجماعة، والباغي في حال بغية إذا لم يدافع إلا بالقتل.

﴿٣٥﴾ «ومن قتل مظلوماً» أي: بغير حق «فقد جعلنا لوليه» وهو أقرب عصباته وورثته إليه «سلطاناً» أي: حجة ظاهرة على القصاص من القاتل، وجعلنا له أيضاً تسليطاً قديراً على ذلك، وذلك حين تجتمع الشروط الموجبة للقصاص، كالعمد العدوان، والمكافأة.

﴿٣٦﴾ «فلا يسرف» الولي «في القتل إنه كان منصوراً» والإسراف مجاوزة الحد، إما أن يمثل بالقاتل، أو يقتله بغير ما قتل به، أو يقتل غير القاتل. وفي هذه الآية دليل على أن الحق في القتل للولي، فلا يقتص إلا بإذنه، وإن عفا سقط القصاص.

وأن ولي المقتول، يعينه الله على القاتل ومن أعانه حتى يتمكن من قتله.

﴿٣٧﴾ «ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسؤولاً» وهذا من لطفه ورحمته تعالى باليتيم، الذي فقد والده وهو صغير، غير عارف بمصلحة نفسه، ولا قائم بها، أن أمر أوليائه بحفظه وحفظ ماله وإصلاحه، وأن لا يقربوه «إلا بالتي هي أحسن» من التجارة فيه، وعدم تعريضه للأخطار، والحرص على تنميته، وذلك تمتد إلى أن «يبلى» اليتيم «أشده» أي: بلوغه، وعقله، ورشده، فإذا بلغ أشده، زالت عنه الولاية، وصار ولي نفسه، ودفع إليه ماله.

كما قال تعالى: «فإن أنستم منهم

رشداً فادعوا إليهم أموالهم» «وأوفوا بالعهد» الذي عاهدتم الله عليه، والذي عاهدتم الخلق عليه. «إن العهد كان مسؤولاً» أي: مسؤولين عن الوفاء به وعدمه، فإن وفيتهم، فلكم الشواب الجزيل، وإن لم تفوا (١٨)، فعليكم الإثم العظيم.

﴿٣٨﴾ «وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلاً» وهذا أمر بالعدل وإيفاء الكاكيل والموازين بالقسط، من غير بخس ولا نقص، ويؤخذ من عموم المعنى، النهي عن كل غش في ثمن أو مئتمن أو معقود عليه، والأمر بالنصح والصدق في المعاملة.

﴿٣٩﴾ «ذلك خير» من عدمه «وأحسن تأويلاً» أي: أحسن عاقبة، به يسلم العبد من التبعات، وبه تنزل البركة.

﴿٤٠﴾ «ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً» أي: لا تتبع ما ليس لك به علم، بل تثبث في كل ما تقوله وتفعله، فلا تظن ذلك يذهب لا لك ولا عليك، «إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً» فحقيق بالعبد الذي يعرف أنه مسؤول عما قاله وفعله، وعما استعمل به جوارحه التي خلقها الله لعبادته، أن يُعَدَّ للسؤال جواباً، وذلك لا يكون إلا باستعمالها بعبودية الله، وإخلاص الدين له، وكفها عما يكرهه الله تعالى.

﴿٤١﴾ «ولا تمسك فني الأرض مرحاً إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً» كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً * ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً» يقول تعالى: «ولا تمسك فني الأرض مرحاً» أي: كبراً وتبهاً وبطراً، متكبراً على الحق، ومتعظماً على الخلق.

﴿٤٢﴾ «إنك» في فلكك ذلك «لن تحرق



الولد المتضمن لحاجته، واستغناء بعض المخلوقات عنه، وحكموا له بأردأ القسمين، وهن الإناث، وهو الذي خلقكم، واصطفاكم بالذكر، فتعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

﴿٤١ - ٤٤﴾ * ولقد صرفنا في هذا القرآن ليزكروا وما يزيدهم إلا نفوراً * قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً * سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً * تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً * يخبر تعالى أنه صرف لعباده في هذا القرآن، أي: نوع الأحكام ووضحها، وأكثر من الأدلة والبراهين على ما دعا إليه، ووعظ وذكر، لأجل أنه يتذكروا ما ينفعهم فيسلوكوه، وما يضرهم فيدعوه.

ولكن أبى أكثر الناس إلا نفوراً عن آيات الله، لبغضهم للحق، ومحبته ما كانوا عليه من الباطل، حتى تعصبوا لباطلهم، ولم يعيروا آيات الله لهم سمعاً، ولا أقوالاً بالآل. ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة، التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به، ونهى عن ضده، وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئاً كثيراً، بحيث من أصغى إلى بعضها، لا تدع في قلبه شكاً ولا ريباً.

ومن الأدلة على ذلك هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا، فقال: ﴿قل﴾ للمشركين الذين يعبدون مع الله إلهاً آخر: ﴿لو كان معه آلهة كما يقولون﴾ أي: على موجب زعمهم وافتراءهم، ﴿إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ أي: لا تتخذوا سبيلاً إلى الله بعبادته والإنابة إليه، والتقرب وابتغاء الوسيلة، فكيف يجعل العبد الفقير الذي يرى شدة افتقاره لعبودية ربه،

الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً﴾ في تكبرك بل تكون حقيراً عند الله ومحقرأ عند الخلق، مبخوضاً محقوتاً، قد اكتسبت أشد الأخلاق، واكتسبت أردلها، من غير إدراك لبعض ما تروم. ﴿كل ذلك﴾ المذكور الذي نهى الله عنه فيما تقدم من قوله: ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ والنهي عن عقوق الوالدين، وما عطف على ذلك، كان سببه عند ربك مكروهاً: أي: كل ذلك يسوء العاملين ويضرهم، والله تعالى يكرهه ويأباه.

﴿ذلك﴾ الذي بيناه ووضحناه من هذه الأحكام الجليلة، ﴿عما أوحى إليك ربك من الحكمة﴾ فإن الحكمة، الأمر بمحاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق، والنهي عن أراذل الأخلاق، وأسوأ الأعمال.

وهذه الأعمال المذكورة في هذه الآيات، من الحكمة العالية، التي أوحاها رب العالمين لسيد المرسلين في أشرف الكتب، ليأمر بها أفضل الأمم، فهي من الحكمة التي من أوتياها فقد أوتي خيراً كثيراً.

ثم ختمها بالنهي عن عبادة غير الله، كما افتتحها بذلك فقال: ﴿ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم﴾ أي: خالداً مخلداً، فإنه من يشرك بالله، فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار.

﴿ملوماً مدحوراً﴾ أي: قد لحقتك اللامة واللعة والذم من الله وملانكته والناس أجمعين.

﴿٤٠﴾ * أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾ وهذا إنكار شديد على من زعم أن الله اتخذ من خلقه بنات فقال: ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين﴾ أي: اختار لكم الصفوة والقسم^(١) الكامل، واتخذ لنفسه من الملائكة إناثاً، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله.

﴿إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾ فيه أعظم الجراة على الله، حيث نسبتم له

إلهاً مع الله؟! هل هذا إلا ما أظلم الظلم وأسفه السفه!!!.

فعل هذا المعنى، تكون هذه الآية كقوله تعالى: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾.

وقوله تعالى: ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾ قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء.

ويحتمل أن المعنى في قوله: ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ أي: لطلبوا السبيل، وسعوا في مغالبة الله تعالى، فإما أن يعلو عليه فيكون من علا وقهر هو الرب الإله، فاما وقد علموا أنهم يقرون أن آلهتهم التي يعبدون^(٢) من دون الله مقهورة مغلوبة، ليس لها من الأمر شيء، فلم اتخذوها وهي بهذه الحال؟ فيكون هذا كقوله تعالى: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض﴾.

﴿سبحانه وتعالى﴾ أي: تقدس وتنزه وعلت أوصافه ﴿عما يقولون﴾ من الشرك به، واتخاذ الأنداد معه ﴿علواً كبيراً﴾ فعلاً قدره وعظم، وجلت كبرياؤه، التي لا تقدر أن

وعافاهم، ورزقهم، ودعاهم إلى بابه ليتوبوا من هذا الذنب العظيم، ليعطيهم الثواب الجزيل، ويغفر لهم ذنبهم، فلولا حلمه ومغفرته، لسقطت السماوات على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة.

﴿٤٥ - ٤٨﴾ «وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً * وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وذكرنا في القرآن وحده ولولا على أديبارهم نفورا * نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً * انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً» يخبر تعالى عن عقوبته للمكذبين بالحق الذين ردوه وأعرضوا عنه، أنه يحول بينهم وبين الإيمان، فقال:

﴿وإذا قرأت القرآن الذي فيه الوعظ والتذكير، والهدى والإيمان، والخير والعلم الكثير.

﴿جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾ يستترهم عن فهمه حقيقة، وعن التحقق بحقائقه والانقياد لما يدعو إليه من الخير.

﴿وجعلنا على قلوبهم أكنة﴾ أي: أغطية وأغشية، لا يفقهون معها القرآن، بل يسمعون سماعاً تقوم به عليهم الحجة، ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي: صمما عن سماعه، ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن داعياً لتوحيده، ناهياً عن الشرك به. ﴿ولوا على أديبارهم نفورا﴾ من شدة بغضهم له، ومحبته لما هم عليه من الباطل، كما قال تعالى: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾.

﴿نحن أعلم بما يستمعون به﴾ أي: إنما منعناهم من الانتفاع عند سماع القرآن، لأننا نعلم أن مقاصدهم سيئة،

يريدون أن يعشروا على أقل شيء ليقدحوا به، وليس استماعهم لأجل الاسترشاد وقبول الحق، وإنما هم معتمدون على عدم اتباعه، ومن كان بهذه الحالة، لم يفده الاستماع شيئاً، ولهذا قال: ﴿إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى﴾ أي: متناجين ﴿إن تتبعون الظالمين﴾ في مناجاتهم: ﴿إلا رجلاً مسحوراً﴾ فإذا كانت هذه مناجاتهم الظالمة فيما بينهم، وقد بنوها على أنه مسحور، فهم جازمون أنهم غير معتبرين لما قال، وأنه يهذي، لا يدري ما يقول.

قال تعالى: ﴿انظر متعجباً﴾ كيف ضربوا لك الأمثال التي هي أضل الأمثال، وأبعدها عن الصواب ﴿فضلوا﴾ في ذلك، أو فصارت سبباً لضلالهم، لأنهم بنوا عليها أمرهم، والمبني على فاسد أفسد منه.

﴿فلا يستطيعون سبيلاً﴾ أي: لا يهتدون أي اهتداء، فنصيبهم الضلال المحض، والظلم الصَّرف.

﴿٤٩ - ٥٢﴾ «وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً إنا لمبعوثون خلقاً جديداً * قل كونوا حجارة أو حديداً * أو خلقاً مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسيقضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً * يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً» يخبر تعالى عن قول المنكرين للبعث، وتكذيبهم به، واستبعادهم بقولهم: ﴿إذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ أي: أجساداً بالية، ﴿إنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي: لا يكون ذلك، وهو محال بزعمهم، فجعلوا أشد الجهل، حيث كذبوا رسل الله، وجحدوا آيات الله، وقاسوا قدرة خالق السماوات والأرض بقدرتهم الضعيفة العاجزة، فلما رأوا أن هذا ممتنع عليهم لا يقدر على، جعلوا قدرة الله كذلك. فسبحان من جعل خلقاً من خلقه،



يكون معه آلهة، فقد ضل من قال ذلك ضلالاً مبيناً، وظلم ظلماً كبيراً.

لقد تضاعفت لعظمته المخلوقات العظيمة، وصغرت لدى كبريائه السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن ﴿والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه﴾.

وافتقر إليه العالم العلوي والسفلي، فقرأ ذاتياً، لا ينفك عن أحد منهم في وقت من الأوقات.

هذا الفقر بجميع وجوهه، فقر من جهة الخلق والرزق والتدبير، وفقر من جهة الاضطراب، إلى أن يكون مبعودهم ومحبوبهم، الذي إليه يتقربون، وإليه في كل حال يفزعون، ولهذا قال:

﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء من حيوان ناطق وغير ناطق، ومن أشجار ونبات وجامد وحَيٍّ وميت﴾ إلا يسبح بحمده بلسان الحال، ولسان المقال. ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ أي: تسبيح باقي المخلوقات التي على غير لغتكم بل يحيط بها علام الغيوب.

﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾ يعاجل بالعقوبة من قال فيه قولاً تكاد السماوات والأرض تنفطر منه وتخر له الجبال ولكنه أمهلهم، وأنعم عليهم،

من قِيلَها، فبذلك يطيعون ربهم، ويستقيم أمرهم، ويهدون لرشدهم.

﴿ربكم أعلم بكم﴾ من أنفسكم، فلذلك لا يريد لكم إلا ما هو الخير، ولا يأمركم إلا بما فيه مصلحة لكم، وقد تريدون شيئاً خيراً في عكسه.

﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يَعَذِّبْكُمْ﴾ فيوفق من شاء لأسباب الرحمة، ويخذل من شاء، فيضل عنها، فيستحق العذاب.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ كَيْلًا﴾ تدبر أمرهم، وتقوم بمجازاتهم، وإنما الله هو الوكيل، وأنت مبلغ هاد إلى صراط مستقيم.

﴿وَرَبِّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من جميع أصناف الخلائق، فيعطي كلا منهم ما يستحقه تفتضيه حكمته، ويفضل بعضهم على بعض في جميع الخصال، الحسية والمعنوية، كما فضل بعض النبيين المشتركين بوحية على بعض بالفضائل والخصائص الراجعة إلى ما مَنَّ به عليهم، من الأوصاف المدوحة، والأخلاق المرضية، والأعمال الصالحة، وكثرة الاتباع، ونزول الكتب على بعضهم، المشتملة على الأحكام الشرعية والعقائد المرضية، كما أنزل على داود زبوراً، وهو الكتاب المعروف.

فإذا كان تعالى قد فضل بعضهم على بعض، وآتى بعضهم كتباً، فلم ينكر المكذوبون لمحمد ﷺ ما أنزله الله عليه وما فضله به من النبوة والكتاب.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إِنْ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ للمشركين بالله الذين اتخذوا من دونه أنداداً يعبدونهم كما يعبدون الله، ويدعونهم كما يدعونه، ملزماً لهم بتصحيح ما زعموه واعتقدوه إن كانوا صادقين:

﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ آلهة من دون الله فانظروا هل ينفعونكم، أو

سرعة وقوعه، وأن الذي مر عليكم من النعيم كأنه ما كان.

فهذا الذي يقول عنه المنكرون: ﴿متى هو؟﴾ يندمون غاية الندم عند وروده، ويقال لهم: ﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾.

﴿٥٣ - ٥٥﴾ ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَكُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ ربكم أعلم بكم إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يَعَذِّبْكُمْ وما أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ كَيْلًا * وربك أعلم بمن في السماوات والأرض ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبوراً وهذا من لطفه بعباده، حيث أمرهم بأحسن الأخلاق والأعمال والأقوال، الموجبة للسعادة في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وهذا أمر بكل كلام يقرب إلى الله، من قراءة، وذكر، وعلم، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وكلام حسن لطيف مع الخلق على اختلاف مراتبهم ومنازلهم، وأنه إذا دار الأمر بين أمرين حسنين، فإنه يؤمر بإيثار أحسنهما إن لم يمكن الجمع بينهما.

والقول الحسن داع لكل خلق جميل، وعمل صالح، فإن من ملك لسانه، ملك جميع أمره.

وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَكُمْ﴾ أي: يسعى بين العباد بما يفسد عليهم دينهم ودنياهم.

فدواء هذا، أن لا يطيعوه في الأقوال غير الحسنة التي يدعوههم إليها، وأن يلبثوا فيما بينهم، لينقمع الشيطان الذي ينزغ بينهم، فإنه عدوهم الحقيقي الذي ينبغي لهم أن يحاربوه، فإنه يدعوهم ليكفونوا من أصحاب السعير.

وأما إخوانهم، فإنهم وإن نزغ الشيطان فيما بينهم، وسعى في العداوة، فإن الحزم كل الحزم، السعي في ضد عدوهم، وأن يجمعوا أنفسهم الأمانة بالسوء، التي يدخل الشيطان

يزعمون أنهم أولو العقول والألباب، مثلاً في جهل أظهر الأشياء وأجلها، وأوضحها براهين وأعلها، ليري عباده أنه ما تَمَّ إلا توفيقه وإعانتة، أو الهلاك والضلal.

﴿ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾.

ولهذا أمر رسوله ﷺ أن يقول لهنؤلاء المنكرين للبعث استبعاداً:

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ﴾ أي: يعظم ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾ لتسلموا بذلك على زعمكم، من أن تالكم قدرة الله، أو تنفذ فيكم مشيئته، فإنكم غير معجزى الله، في أي: حالة تكونون، وعلى أي: وصف تتحولون، وليس لكم في أنفسكم تدبير في حالة الحياة وبعد الممات.

فدعوا التدبير والتصريف لمن هو على كل شيء قدير، وبكل شيء محيط. ﴿فسيقولون﴾ حين تقيم عليهم الحجة في البعث: ﴿مَنْ يَعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فكما فطركم، ولم تكونوا شيئاً مذكوراً، فإنه سيعيدكم خلقاً جديداً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ﴾.

﴿فسيقولون﴾ إليك رؤوسهم أي: يبرزونها، إنكاراً وتعجباً بما قلت، ﴿ويقولون متى هو﴾ أي: متى وقت البعث الذي تزعمه على قولك؟ لا إقراراً منهم لأصل البعث، بل ذلك سَفَهٌ منهم، وتعجيز. ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ فليس في تعيين وقته فائدة، وإنما الفائدة والمدار على تقريره والإقرار به وإثباته، وإلا فكل ما هو آتٍ فإنه قريب.

﴿يوم يدعوكم﴾ للبعث والنشور، وينفخ في الصور، ﴿فتستجيبون بحمده﴾ أي: تنقادون لأمره، ولا تستعصون عليه. وقوله: ﴿بحمده﴾ أي: هو المحمود تعالى على ما يفعله ويجزي به العباد، إذا جمعهم ليوم التناد.

﴿وتظنون إن لبثتم إلا قليلاً﴾ من

لا يحصل إلا بها، بل المقصود منها التخويف والترهيب، ليرتدعوا عن ما هم عليه.

﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ علماء وقدرة، فليس لهم ملجأ يلجؤون إليه، ولا ملاذ يلودون به عنه، وهذا كاف لمن له عقل في الانكفاف عما يكرهه الله الذي أحاط بالناس.

﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة﴾ أكثر المفسرين على أنها في ليلة الإسراء.

﴿والشجرة الملعونة﴾ التي ذكرت في القرآن ﴿وهي شجرة الرقوم، التي تنبت في أصل الجحيم.

والمنعنى، إذا كان هذان الأمران، قد صارا فتنة للناس حتى استلج الكفار بكفرهم، وازداد شرهم، وبعض من كان إيمانه ضعيفاً، رجع عنه بسبب أن ما أخبرهم به من الأمور التي كانت ليلة الإسراء، ومن الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كان خارقاً للعادة.

والإخبار بوجود شجرة تنبت في أصل الجحيم أيضاً، من الخوارق، فهذا الذي أوجب لهم التكذيب، فكيف لو شاهدوا الآيات العظيمة والخوارق الجسيمة!!

أليس ذلك أولى أن يزداد بسببه شرهم؟! فلذلك رحمهم الله وصرفها عنهم، ومن هنا تعلم أن عدم التصريح في الكتاب والسنة، بذكر الأمور العظيمة التي حدثت في الأزمنة المتأخرة، أولى وأحسن، لأن الأمور التي لم يشاهد الناس لها نظيراً، ربما لا تقبلها عقولهم لو أخبروا بها قبل وقوعها، فيكون ذلك ريباً في قلوب بعض المؤمنين، وممانعاً يمنع من لم يدخل الإسلام، ومنفراً عنه. بل ذكر الله ألفاظاً عامة، تتناول جميع ما يكون.

﴿ونخوفهم﴾ بالآيات ﴿فما يزيدهم﴾ التخويف ﴿إلا طغياناً كبيراً﴾ وهذا أبلغ ما يكون في التملي بالشر ومحبته، وبغض الخير وعدم

كلها لله، والنصح فيها، وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدر عليها، فمن زعم أنه يجب الله بغير ذلك، فهو كاذب.

﴿٥٨﴾ ﴿وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً﴾ أي: ما من قرية من القرى المكذبة للرسل، إلا لا بد أن يصيبهم هلاك قبل يوم القيامة، أو عذاب شديد، كتاب كتبه الله، وقضاء أمره، لا بد من وقوعه، فليبادر المكذبون بالإنابة إلى الله وتصدق رسله، قبل أن تتم عليهم كلمة العذاب، ويحق عليهم القول.

﴿٥٩ - ٦٠﴾ ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وأتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ * ﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾ يذكر تعالى رحمته بعدم إنزاله الآيات التي يقترح بها المكذبون، وأنه ما منعه أن يرسلها إلا خوف من تكذيبهم لها، فإذا كذبوا بها، عاجلهم العقاب، وحل بهم من غير تأخير، كما فعل بالاولين الذين كذبوا بها.

ومن أعظم الآيات، الآية التي أرسلها الله إلى ثمود، وهي الناقة العظيمة الباهرة، التي كانت تصدر عنها جميع القبيلة بأجمعها، ومع ذلك كذبوا بها، فأصابهم ما قص الله علينا في كتابه، وهؤلاء كذلك، لو جاءتهم الآيات الكبار لم يؤمنوا، فإنه ما منعهم من الإيمان خفاء ما جاء به الرسول واشتباهه، هل هو حق أو باطل؟ فإنه قد جاء من البراهين الكثيرة، ما دل على صحة ما جاء به، الموجب لهداية من طلب الهداية، فغيرها مثلاً، فلا بد أن يسلكوا بها ما سلكوا بغيرها، فترك إنزالها والحالة هذه، خير لهم وأنفع.

وقوله: ﴿وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً﴾ أي: لم يكن القصد بها أن تكون داعية وموجة للإيمان، الذي

يدفعون عنكم الضر، فإنهم ﴿يملكون كشف الضر عنكم﴾ من مرض، أو فقر، أو شدة، ونحو ذلك، فلا يدفعونه بالكلية، ﴿ولا﴾ يملكون أيضاً تحويله من شخص إلى آخر، ومن شدة إلى ما دونها.

فإذا كانوا بهذه الصفة فلا شيء تدعونهم من دون الله؟ فإنهم لا كمال لهم، ولا فعال نافعة، فاتخاذهم نقص في الدين والعقل، وسفه في الرأي.

ومن العجب، أن السفه عند الاعتياد والممارسة، وتلقيه عن الآباء الضالين بالقبول، يراه صاحبه هو الرأي: السديد، والعقل المفيد.

ويرى إخلاص الدين لله الواحد الأحد، الكامل المنعم بجميع النعم الظاهرة والباطنة، هو السفه، والأمر المتعجب منه، كما قال المشركون: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾.

ثم أخبر أيضاً، أن الذين يعبدونهم من دون الله، في شغل شاغل عنهم، باهتمامهم بالافتقار إلى الله، وابتغاء الوسيلة إليه، فقال:

﴿أولئك الذين يدعون﴾ من الأنبياء والصالحين والملائكة ﴿يتفنون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب﴾ أي: يتنافسون في القرب من ربهم، ويبدلون ما يقدر عليهم من الأعمال الصالحة المقربة إلى الله تعالى وإلى رحمته، ويخافون عذابه، فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب.

﴿إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه والتوقي من أسبابه.

وهذه الأمور الثلاثة، الخوف والرجاء والمحبة، التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده، هي الأصل والمادة في كل خير.

فمن تمت له، تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها، ترحلت عنه الخيرات، وأحاطت به الشرور.

وعلمة المحبة ما ذكره الله، أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله وينافس في قربه بإخلاص الأعمال

الانقياد له.

﴿٦١- ٦٥﴾ «وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طيناً * قال أرايتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكرك ذرتي إلا قليلاً * قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً * واستفز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً * إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلًا * بينه تبارك وتعالى عباده على شدة عداوة الشيطان، وحرصه على إضلالهم، وأنه لما خلق الله آدم، استكبر عن السجود له، وقال ﴿متكبراً﴾: «أسجد لمن خلقت طيناً» أي: من طين، وبزعمه أنه خير منه، لأنه خلق من نار. وقد تقدم فساد هذا القياس الباطل من عدة أوجه.

فلما تبين لإبليس تفصيل الله لآدم قال ﴿مخاطباً لله﴾: «أرايتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتكرك ذرتي» أي: لاستأصلنهم بالإضلال، ولأغوينهم ﴿إلا قليلاً﴾ عرف الخبيث، أنه لا بد أن يكون منهم من يعاديه ويعصيه.

فقال الله له: «اذهب فمن تبعك منهم» واختارك على ربه ووليه الحق، ﴿فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفوراً﴾ أي: مدخراً لكم، موفراً جزاء على أعمالكم.

ثم أمره الله أن يفعل كل ما يقدر عليه من إضلالهم، فقال: ﴿واستفز من استطعت منهم بصوتك﴾ ويدخل في هذا كل داع إلى المعصية.

﴿وأجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾ ويدخل فيه كل راكب وماش في معصية الله، فهو من خيل الشيطان ورجله.

والمقصود أن الله ابتلى العباد بهذا العدو المبين، الداعي لهم إلى معصية الله، بأقواله وأفعاله. ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ وذلك شامل لكل معصية تعلقت بأموالهم وأولادهم، من منع الزكاة والكفارات والحقوق الواجبة، وعدم تأديب الأولاد وتربيتهم على الخير وترك الشر، وأخذ الأموال بغير حقها، أو وضعها بغير حقها، أو استعمال المكاسب الرديئة.

بل ذكر كثير من المفسرين، أنه يدخل في مشاركة الشيطان في الأموال والأولاد، ترك التسمية عند الطعام والشراب والجماع، وأنه إذا لم يسم الله في ذلك، شارك فيه الشيطان، كما ورد فيه الحديث.

﴿وعدهم﴾ الوعود^(١) المزخرفة التي لا حقيقة لها، ولهذا قال: ﴿وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ أي: باطلاً مضمحلاً، كأن يزين لهم المعاصي والعقائد الفاسدة، ويعددهم عليها الأجر، لأنهم يظنون أنهم على الحق، وقال تعالى: ﴿الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً﴾.

ولما أخبر عما يريد الشيطان أن يفعل بالعباد، وذكر ما يعتصم به من فتنته، وهو عبودية الله، والقيام بالإيمان والتوكل، فقال:

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أي: تسلط وإغواء، بل الله يدفع عنهم - بقيامهم بعبوديته - كل شر، ويحفظهم من الشيطان الرجيم، ويقوم بكفائتهم. ﴿وكفى بربك وكيلًا﴾ لمن توكل عليه، وأدى ما أمر به.

﴿٦٦- ٦٩﴾ ﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لئبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيمًا * وإذا مستكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً * أفأنتم أن يخسف

﴿٦٧﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٦٨﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٦٩﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٧٠﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٧١﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٧٢﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٧٣﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٧٤﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٧٥﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٧٧﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٧٨﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٧٩﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٨٠﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٨١﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٨٢﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٨٣﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٨٤﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٨٥﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٨٦﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٨٩﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٩٠﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٩١﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿فأولئك هم الذين كفروا﴾

بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً * أم أنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيفرقكم بما كفرتهم ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً * يذكر تعالى نعمته على العباد، بما سخر لهم من الفلك، والسفن والمراكب، وألهمهم كيفية صنعتها، وسخر لها البحر اللطيم، يحملها على ظهره، لينتفع العباد بها في الركوب والحمل للأمتعة والتجارة. وهذا من رحمته بعباده، فإنه لم يزل بهم رحيماً رؤوفاً، يؤتيهم من كل ما تعلقت به إرادتهم ومنافعهم.

ومن رحمته الدالة على أنه وحده المعبود دون ما سواه، أنهم إذا مسهم الضر في البحر فخافوا من الهلاك لتراكم الأمواج، ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرخاء من الأحياء والأموات، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات لعلهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر، وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسماوات الذي تستغيث به في شدائدها جميع المخلوقات، وأخلصوا له الدعاء والتضرع في هذه الحال.

فلما كشف الله عنهم الضر،

﴿٧٣ - ٧٧﴾ وإن كادوا

معرفتك .

﴿ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾
ينقذك مما يحل بك من العذاب ،
ولكن الله تعالى عصمك من أسباب
الشر ، ومن البشر ، فثبتك وهداك
الصراط المستقيم ، ولم تترك إليهم بوجه
من الوجوه ، فله عليك أتم نعمة وأبلغ
منحة .

﴿وإن كادوا ليستفزونك من الأرض
ليخرجوك منها﴾ أي : من بغضهم
لمقامك بين أظهرهم ، قد كادوا أن
يخرجوك من الأرض ، ويحلوك منها .

ولو فعلوا ذلك ، لم يلبثوا بعدك فيها
إلا قليلاً ، حتى تحل بهم العقوبة ، كما
هي سنة الله التي لا تحول ولا تبدل في
جميع الأمم ، كل أمة كذبت رسولها
وأخرجته ، عاجلها الله بالعقوبة .

ولما مكر به الذين كفروا وأخرجوه ،
لم يلبثوا إلا قليلاً ، حتى أوقع الله بهم
بـ « بدر » وقتل صناديدهم ، وفض
يضيئهم ، فله الحمد .

وفي هذه الآيات ، دليل على شدة
افتقار العبد إلى تثبيت الله إياه ، وأنه
ينبغي له أن لا يزال متملقاً لربه ، أن
يثبته على الإيمان ، ساعياً في كل سبب
موصول إلى ذلك ، لأن النبي ﷺ وهو
أكمل الخلق ، قال الله له :

﴿ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن
إليهم شيئاً قليلاً﴾ فكيف بغيره !!
وفيها تذكير الله لرسوله بثبته عليه ،
وعصمته من الشر ، فدل ذلك على
أن الله يحب من عباده أن يتفطنوا
لإنعامه عليهم - عند وجود أسباب
الشر - بالعصمة منه ، والثبات على
الإيمان .

وفيها : أنه بحسب علو مرتبة
العبد ، وتواتر النعم عليه من الله يعظم
إثمه ، ويتضاعف جرمه ، إذا فعل ما
يلام عليه ، لأن الله ذكر رسوله لو
فعل - وحاشاه من ذلك - بقوله :

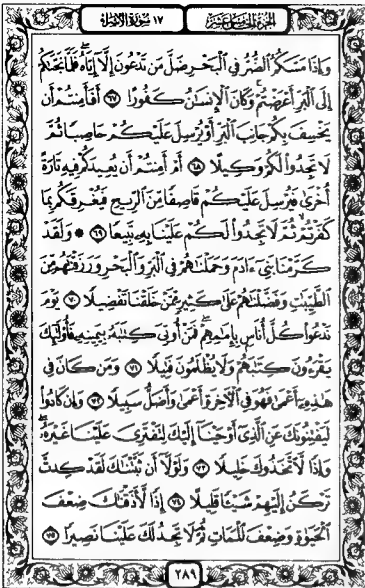
ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفtri
علينا غيره وإذا لا تخذوك خليلًا *
ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم
شيئاً قليلاً * إذا لأذقناك ضعف الحياة
وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا
نصيراً * وإن كادوا ليستفزونك من
الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون
خلافك إلا قليلاً * سنة من قد أرسلنا
قبلك من رسلنا ولا تجد لسنننا تحويلاً *
يذكر تعالى منته على رسوله محمد ﷺ
وحفظه له من أعدائه الخريصين على
فتنته بكل طريق ، فقال : ﴿وإن كادوا
ليفتنوك عن الذي أوحينا إليك لتفtri
علينا﴾ أي : قد كادوا لك أمراً لم
يدركوه ، وتحيلوا لك ، على أن تفtri
على الله غير الذي أنزلنا إليك ، فتجيء
بما يوافق أهواءهم ، وتدع ما أنزل الله
إليك .

﴿وإذا﴾ لو فعلت ما يهونون
﴿لا تخذوك خليلًا﴾ أي : حبيباً صفيًا ،
أعز عليهم من أحبائهم ، لما جبلك الله
عليه من مكارم الأخلاق ، ومحاسن
الأداب ، المحبة للقريب والبعيد ،
والصديق والعدو .

ولكن لتعلم أنهم لم يعادوك
وينابذك العداوة ، إلا للحق الذي
جنت به ، لا لذاتك ، كما قال الله
تعالى : ﴿قد نعلم إنه ليحزنك الذي
يقولون فلمنهم لا يكذبونك ولكن
الظالمين بآيات الله يحدون﴾ .

﴿و﴾ مع هذا فـ ﴿لولا أن ثبتناك﴾
على الحق ، وامتننا عليك بعدم الإجابة
لداعيهم ، ﴿لقد كدت تركن إليهم
شيئاً قليلاً﴾ من كثرة المعالجة ، ومحبتك
لهدياتهم .

﴿إذا﴾ لو ركنك إليهم بما يهونون
﴿لأذقناك ضعف الحياة وضعف
الممات﴾ أي : لأصبنك بعدذاب
مضاعف ، في الدنيا والآخرة ، وذلك
لكمال نعمة الله عليك ، وكمال



﴿إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف
الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾ .

وفيها : أن الله إذا أراد إهلاك أمة ،
تضاعف جرمها ، وعظم وكبر ، فيحق
عليها القول من الله ، فيوقع بها
العقاب ، كما هي سنته في الأمم إذا
أخرجوا رسولهم .

﴿٧٨ - ٨١﴾ ﴿أقم الصلاة لدلوك
الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن
قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ * ومن الليل
فتسجد به نافلة لك عسى أن يبعثك
ربك مقاماً محموداً * * وقل رب أدخلني
مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق
واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً *
وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل
كان زهوقاً﴾ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ
بإقامة الصلاة تامة ، ظاهراً وباطناً ، في
أوقاتها ، ﴿لدلوك الشمس﴾ أي :
ميلانها إلى الأفق الغربي بعد الزوال ،
فيدخل في ذلك صلاة الظهر وصلاة
العصر .

﴿إلى غسق الليل﴾ أي : ظلمته ،
فدخل في ذلك صلاة المغرب وصلاة
العشاء . ﴿وقرآن الفجر﴾ أي : صلاة
الفجر ، وسميت قرآناً ، لمشروعية إطالة
القراءة فيها أطول من غيرها ، ولفضل
القراءة حيث يشهدها الله ، وملائكة



الليل وملائكة النهار.

ففي هذه الآية، ذكر الأوقات الخمسة، للصلوات المكتوبات، وأن الصلوات الموقعة فيها فرائض، لتخصيصها بالأمم.

وفيه: أن الوقت شرط لصحة الصلاة، وأنه سبب لوجوبها، لأن الله أمر بإقامتها لهذه الأوقات.

وأن الظاهر والعصر يجمعان، والمغرب والعشاء كذلك، للعذر، لأن الله جمع وقتهما جميعاً.

وفيه: فضيلة صلاة الفجر، وفضيلة إطالة القراءة فيها، وأن القراءة فيها ركن، لأن العبادة إذا سميت ببعض أجزائها، دل على فرضية ذلك.

وقوله: ﴿ومن الليل فتهجد به﴾ أي: صل به في سائر أوقاته. «نافلة لك» أي: لتكون صلاة الليل زيادة لك في علو القدر، ورفع الدرجات، بخلاف غيرك، فإنها تكون كفارة لسيئاته.

ويحتمل أن يكون المعنى: أن الصلوات الخمس فرض عليك وعلى المؤمنين، بخلاف صلاة الليل، فإنها فرض عليك بالخصوص، لكرامتك على الله، أن جعل وظيفتك أكثر من

غيرك، وليكثر ثوابك، وتنال بذلك المقام المحمود، وهو المقام الذي يحمد فيه الأولون والآخرون، مقام الشفاعة العظمى، حين يستشفع الخلائق بآدم، ثم نوح، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، وكلهم يعتذر ويتأخر عنها، حتى يستشفعوا بسيد ولد آدم، ليرحمهم الله من هم الموقف وكرهه، فيشفع عند ربه فيشفعه، ويقيم مقاماً يغطيه به الأولون والآخرون، وتكون له المنة على جميع الخلق.

وقوله: ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق﴾ أي: اجعل مدخلي ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك، وذلك لتضمنها الإخلاص وموافقة الأمر.

﴿واجعل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً﴾ أي: حجة ظاهرة، وبرهاناً قاطعاً على جميع ما أتبه وأذره.

وهذا أعلى حالة ينزلها الله العبد، أن تكون أحواله كلها خيراً، ومقربة له إلى ربه، وأن يكون له - على كل حالة من أحواله - دليلاً ظاهراً، وذلك متضمن للعلم النافع، والعمل الصالح، للعلم بالوسائل والدلائل.

وقوله: ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾ والحق هو ما أوحاه الله إلى رسوله محمد ﷺ، فأمره الله أن يقول ويعلم، قد جاء الحق الذي لا يقوم له شيء، وزهق الباطل أي: أضمحل وتلاشى.

﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ أي: هذا وصف الباطل، ولكنه قد يكون له صولة وروجان إذا لم يقابله الحق، فعند مجيء الحق يضمحل الباطل، فلا يبقى له حراك.

ولهذا لا يروج الباطل إلا في الأزمان والأمكنة الحالية من العلم بآيات الله وبيئاته.

﴿٨٢﴾ وقوله: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً﴾ فالقرآن مشتمل على الشفاء والرحمة، وليس ذلك لكل

أحد، وإنما ذلك للمؤمنين به، المصدقين بآياته، العالمين به، وأما الظالمون بعدم التصديق به أو عدم العمل به، فلا تزيدهم آياته إلا خساراً، إذ به تقوم عليهم الحجة، فالشفاء الذي تضمنه القرآن عام لشفاء القلوب، من الشبه، والجهالة، والآراء الفاسدة، والانحراف السيئ، والقصود السيئة^(١).

فإنه مشتمل على العلم اليقيني، الذي تزول به كل شبهة وجهالة، والوعظ والتذكير، الذي يزول به كل شهوة تخالف أمر الله، وشفاء الأبدان من آلامها وأسقامها.

وأما الرحمة، فإن ما فيه من الأسباب والوسائل التي يبحث عليها، متى فعلها العبد فاز بالرحمة والسعادة الأبدية، والثواب العاجل والأجل.

﴿٨٣﴾ ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤسراً﴾ هذه طبيعة الإنسان من حيث هو، إلا من هداه الله، فإن الإنسان - عند إنعام الله عليه - يفرح بالنعم ويبطر بها، ويعرض وينأى بجانبه عن ربه، فلا يشكره ولا يذكره.

﴿وإذا مسه الشر﴾ كالمريض ونحوه ﴿كان يؤساً﴾ من الخير، قد قطع عن ربه رجاءه، وظن أن ما هو فيه دائم أبداً.

وأما من هداه الله، فإنه عند النعم يخضع لربه، ويشكر نعمته، وعند الضرر يتضرع، ويرجو من الله عافيته، وإزالة ما وقع فيه، وبذلك يخف عليه البلاء.

﴿٨٤﴾ ﴿قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ أي: ﴿قل كل﴾ من الناس يعمل على شاكلته. أي: على ما يليق به من الأحوال، إن كان من الصفوة الأبرار، لم يشاكلهم إلا عملهم لرب العالمين. ومن كان من غيرهم من المخدولين، لم يناسبهم إلا العمل للمخلوقين، ولم

يوافقهم إلا ما وافق أغراضهم .

﴿٨٨﴾ ﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ فيعلم من يصلح للهداية، فيهديه، ومن لا يصلح لها فيخذله ولا يهديه .

﴿٨٩﴾ ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل، التي لا يقصد بها إلا التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية، التي لا يتقن وصفها وكيفيتها كل أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد .

ولهذا أمر الله رسوله أن يجيب سؤالهم بقوله: ﴿قل الروح من أمر ربي﴾ أي: من جملة مخلوقاته، التي أمرها أن تكون فكانت، فليس في السؤال عنها كبير فائدة، مع عدم علمكم بغيرها .

وفي هذه الآية دليل على أن المسؤول إذا سئل عن أمر، الأولي بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه .

﴿٩٠﴾ ﴿٨٧﴾ ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً﴾ إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً يخبر تعالى أن القرآن والوحي الذي أوحاه إلى رسوله، رحمة منه عليه وعلى عباده، وهو أكبر النعم على الإطلاق على رسوله، فإن فضل الله عليه كبير، لا يقادر قدره .

فالذي تفضل به عليك، قادر على أن يذهب به، ثم لا تجد راداً يردّه، ولا وكيلاً يتوجه عند الله فيه .

فَلَنُغْتَبِطَ بِهِ، وَتَقَرُّ بِهِ عَيْنُكَ، وَلَا يَجْزُنْكَ تَكْذِيبُ الْمَكْذِبِينَ، وَاسْتِهْزَاءُ الضَّالِّينَ، فَإِنَّهُمْ عَرْضَتْ عَلَيْهِمْ أَجُلُ النِّعَمِ، فَدَرَوْهَا لِهَوَانِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَخَذَلَانَهُ لَهُمْ .

﴿٨٨﴾ ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ وهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، على صحة ما جاء به الرسول وصدقه، حيث تحدى الله الإنس والجن أن يأتوا بمثله، وأخبر أنهم لا يأتون بمثله، ولو تعاونوا كلهم على ذلك لم يقدروا عليه .

ووقع كما أخبر الله، فإن دواعي أعدائه المكذبين به، متوفرة على رد ما جاء به بأي: وجه كان، وهم أهل اللسان والفصاحة، فلو كان عندهم أدنى تأهل وتمكن من ذلك لفعلوه .

فعلم بذلك، أنهم أذعنوا غاية الإذعان، طوعاً وكرهاً، وعجزوا عن معارضته .

وكيف يقدر المخلوق من تراب، الناقص من جميع الوجوه، الذي ليس له علم ولا قدرة ولا إرادة ولا مشيئة ولا كلام ولا كمال إلا من ربه، أن يعارض كلام رب الأرض والسموات، المطلع على سائر الخفيات، الذي له الكمال المطلق، والحمد المطلق، والمجد العظيم، الذي لو أن البحر يمدّه من بعده سبعة أبحر مداداً، والأشجار كلها أقلام، لنفذ المداد، وفنيت الأقلام، ولم تنفذ كلمات الله .

فكما أنه ليس أحد من المخلوقين مماثلاً لله في أوصافه فكلامه من أوصافه، التي لا يماثله فيها أحد، فليس كمثله شيء، في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله تبارك وتعالى .

فتباً لمن اشتبه عليه كلام الخالق بكلام المخلوق، وزعم أن محمداً ﷺ افتراه على الله واختلقه من نفسه .

﴿٩١﴾ ﴿لَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ ﴿٩٢﴾ ﴿قُلْ لَّيْسَ أَخْتَصَمَ الْإِنسُ وَبَيْنَ عَلَانِ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِبَيْنَلِهِمْ وَلَوْ كَانَ مَعْزَجُ فِرْعَوْنَ بِعَصْفِهِمْ لَعَا جِئَ أَتَانِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿٩٣﴾ ﴿وَقَالُوا لَنُؤْتِيَنَّكَ لَنَاسًا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ ﴿٩٤﴾ ﴿أَوَلَمْ تَكُنْ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجْمٍ يَّسَّرَ فَنَاجِرًا لَّأَنَّهُمْ نَحَلْنَاهَا تَفْهِيمًا﴾ ﴿٩٥﴾ ﴿أَوَلَمْ يَشْفِ السَّمَاءَ كَمَا رَعِمَتْ عَلَيْكَ كَسَمْنَا لَكَ أَنَّكَ وَآلَهُ وَالْمَلَائِكَةَ قِيْلًا أَوْ كُنْ لَكَ يَوْمَ تَحْمِلُ أَوْ تَرْجُو أَوْ تَرْجُو أَوْ تَرْجُو أَوْ تَرْجُو﴾ ﴿٩٦﴾ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿وَقَالُوا لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ ﴿٩٨﴾ ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا﴾ ﴿٩٩﴾ ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَعِمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بَالَهُ الْمَلَائِكَةُ نَقِيبًا﴾ ﴿١٠٠﴾ ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زَخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنُؤْمِنَنَّ لِرَبِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤَهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿١٠١﴾ ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا﴾ ﴿١٠٢﴾ ﴿قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَحْمِلُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكَاتٌ رَسُولًا﴾ ﴿١٠٣﴾ ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ ﴿١٠٤﴾ ﴿قُلْ يَقُولُ تَعَالَى﴾ ﴿١٠٥﴾ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ﴿١٠٦﴾ ﴿أَي: نَوْعًا فِيهِ الْمَوَاعِظُ وَالْأَمْثَالُ، وَثَبَاتُ فِيهِ الْمَعَانِي الَّتِي يَضْطَرُّ إِلَيْهَا الْعِبَادُ، لِأَجْلِ أَنْ يَتَذَكَّرُوا وَيَتَّقُوا، فَلَمْ يَتَذَكَّرْ إِلَّا الْقَلِيلُ مِنْهُمْ، الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ سَابِقَةُ السَّعَادَةِ، وَأَعَانَهُمُ اللَّهُ بِتَوْفِيقِهِ، وَأَمَّا أَكْثَرُ النَّاسِ فَأَبَوْا إِلَّا كُفُورًا لِهَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ مِنْ



جميع النعم، وجعلوا يمتنعون عليه [بافتراح] ^(١) آيات غير آياته، يخترعونها من تلقاء أنفسهم الظالمة الجاهلة.

فيقولون لرسول الله ﷺ الذي أتى بهذا القرآن المشتعل على كل برهان وآية: ﴿لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ أي: أنهاراً جارية. ﴿أو تكون لك جنة من نخيل وعنب﴾ فتستغني بها عن المشي في الأسواق والذهاب والمجيء.

﴿أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً﴾ أي: قطعاً من العذاب، ﴿أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً﴾ أي: جميعاً، أو مقابلة ومعانية، يشهدون لك بما جثت به.

﴿أو يكون لك بيت من زخرف﴾ أي: مزخرف بالذهب وغيره. ﴿أو ترقى في السماء﴾ رقبياً حسياً، ﴿و﴾ مع هذا فـ ﴿لن نؤمن لريك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه﴾.

ولما كانت هذه تمنعات وتعجيزات، وكلام أسفه الناس وأظلمهم، التضمنة لرد الحق وسوء الأدب مع الله، وأن الرسول ﷺ هو الذي يأتي بالآيات، أمره الله أن ينزهه فقال: ﴿قل سبحان ربي﴾ عما تقولون علواً كبيراً، وسبحانه أن تكون أحكامه وآياته تابعة لأهوائهم الفاسدة، وآرائهم الضالة.

﴿هل كنت إلا بشر رسولاً﴾ ليس بيدي شيء من الأمر.

وهذا السبب الذي منع أكثر الناس من الإيمان، حيث كانت الرسل التي ترسل إليهم من جنسهم بشراً.

وهذا من رحمته بهم، أن أرسل إليهم بشراً منهم، فإنهم لا يطيقون التلقي من الملائكة.

فلو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، يشنون على رؤية الملائكة والتلقي عنهم، ﴿لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ ليمكنهم التلقي عنه.

﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً﴾ فمن شهادته لرسوله ما أيده به من المعجزات، وما أنزله عليه من الآيات، ونصره على من عاداه وناوأه.

فلو تقول عليه بعض الأقاويل، لأخذ منه باليمين، ثم لقطع منه الوتين، فإنه خير بصير، لا تخفى عليه من أحوال العباد خافية.

﴿٩٧ - ١٠٠﴾ ﴿ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأوهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً﴾ ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا إذا كنا عظاماً ورَفَاتاً إنا لمبعوثون خلقاً جديداً * أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه فأبى الظالمون إلا كفوراً * قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنكم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً * يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال، فمن يهده، فييسره لليسرى ويحبسه العسرى، فهو المهتدي على الحقيقة، ومن يضلله، فيخذله، ويكله إلى نفسه، فلا هادي له من دون الله، وليس له ولي ينصره من عذاب الله، حين يحشرهم الله على وجوههم خريباً وإهانة، عمياً وبكماً،

لا يبصرون ولا ينطقون.

﴿مأوهم﴾ أي: مفرهم ودارهم ﴿جهنم﴾ التي جمعت كل هم وغم وعذاب.

﴿كلما خبت﴾ أي: خيأت للانطفاء ﴿زدناهم سعيراً﴾ أي: سعرتها بهم لا يفتر عنهم العذاب، ولا يقضى عليهم فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها، ولم يظلمهم الله تعالى، بل جازاهم بما كفروا بآياته وأنكروا البعث الذي أخبرت به الرسل ونطقت به الكتب وعجزوا ربهم وأنكروا تمام قدرته.

﴿وقالوا إذا كنا عظاماً ورَفَاتاً إنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي: لا يكون هذا لأنه في غاية البعد عند عقولهم الفاسدة.

﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض﴾ وهي أكبر من خلق الناس. ﴿قادر على أن يخلق مثلهم﴾ بل، إنه على ذلك قدير.

﴿ر﴾ لكنه قد ﴿جعل﴾ لذلك ﴿أجلاً لا ريب فيه﴾ ولا شك، وإلا فلو شاء لجاءهم به بفتة، ومع إقامة الحجج والأدلة على البعث.

﴿فأبى الظالمون إلا كفوراً﴾ ظلماً منهم وافتراء.

﴿قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي﴾ التي لا تنفذ ولا تبديد. ﴿إذا لأمسكنم خشية الإنفاق﴾ أي: خشية أن ينفد ما تنفقون منه، مع أنه من المحال أن تنفذ خزائن الله، ولكن الإنسان مطبوع على الشح والبخل.

﴿١٠١ - ١٠٤﴾ ﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذا جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحوراً * قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً * فأراد أن يستفزهم



﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ .

﴿وكبره تكبيراً﴾ أي : عظمه وأجله بالإخبار بأوصافه العظيمة ، وبالثناء عليه ، بأسمائه الحسنی ، وبتمجيده بأفعاله المقدسة ، وبعظمته وإجلاله بعبادته وحده لا شريك له ، وإخلاص الدين كله له .

تم تفسير سورة الإسراء والله الحمد والمنة والثناء الحسن على يد جامعه عبد الرحمن ابن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين وصلى الله على محمد وسلم تسليماً وذلك في ٧ جمادى الأولى ١٣٤٤ .

المجلد الخامس من تفسير الكريم الرحمن من تفسير كلام المنان لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمن بن ناصر السعدي^(١)

تفسير سورة الكهف وهي مكية

﴿١ - ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾ * قِيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً * وينذر

الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً * فلعلكم باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴿ الحمد لله هو الثناء عليه بصفاته ، التي هي كلها صفات كمال ، وينعمه الظاهرة والباطنة ، الدينية والدنيوية ، وأجل نعمه على الإطلاق ، إنزاله الكتاب العظيم على عبده ورسوله ، محمد ﷺ

فحمد نفسه ، وفي ضمنه إرشاد العباد ليحمده على إرسال الرسول إليهم ، وإنزال الكتاب عليهم ، ثم وصف هذا الكتاب بوصفين مشتملين ، على أنه الكامل من جميع الوجوه ، وهما نفي العوج عنه ، وإثبات أنه قيم مستقيم ، فنفي العوج يقتضي أنه ليس في أخباره كذب ، ولا في أوامره ونواهي ظلم ولا عبث ، وإثبات الاستقامة يقتضي أنه لا يخبر ولا يأمر إلا بأجلّ الأخبارات ، وهي الأخبار ، التي تملأ القلوب معرفة وإيماناً وعقلاً ، كالأخبار بأسماء الله وصفاته وأفعاله ، ومنها الغيوب المتقدمة والمتأخرة ، وأن أوامره ونواهي تزكي النفوس ،

﴿الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾ بل الملك كله الله الواحد القهار ، فالعالم العلوي والسفلي ، كلهم مملوكون لله ، ليس لأحد من الملك شيء .

﴿ولم يكن له ولي من الدل﴾ أي : لا يتولى أحداً من خلقه ليتعزز به ويعاونه ، فإنه الغني الحميد ، الذي لا يحتاج إلى أحد من المخلوقات ، في الأرض ولا في السماوات ، ولكنه يتخذ أولياء إحساناً منه إليهم ورحمة بهم

(١) كان الشيخ - رحمه الله - قد طلب في ١٣٧٤/٢/٣١ من الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - أن يختار من يتولى طباعة خمسة آلاف نسخة من المجلد الخامس من التفسير ، وذكر محب الدين الخطيب والشيخ حامد الفقي - رحمهما الله - فبعث الشيخ محمد نصيف - رحمه الله - بالكتاب إلى الأستاذ : محب الدين الخطيب لطباعته ، وطبع بالفعل عام ١٣٧٥هـ ، وقد جعل الشيخ - رحمه الله - لهذا الجزء مقدمة ، واتبه بخاتمة فيها أصول وكميات من تفسير ، وهذه هي مقدمة الشيخ لهذا الجزء ، وأما الخاتمة فقد جعلتها في آخر التفسير ، قال - رحمه الله - :

(بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ، وأصلي وأسلم على محمد وآله وصحبه . أما بعد فلما كان علم التفسير للقرآن أشرف العلوم على الإطلاق وأهمها وأحقها بتحقيق معانيه وفهم مبانيه ، لكونه تنزيلاً من حكيم حميد أنزله هدى ورحمة للعباد وتبياناً لكل شيء وتفصيلاً لكل ما يحتاجونه في دينهم ودنياهم وأخراهم ، وكان من خاصة علم القرآن أن فهم بعضه وطائفة منه يعين على فهم جميعه ، لأن القرآن من أوله إلى آخره يدور على تقرير الأصول النافعة والحقائق والشرائع الكبار والأحكام الحسنة والعقائد الصحيحة ، ويوجه العباد إلى كل خير ويحذرهم من كل شر ، ويعيد تقرير هذه الأمور ويبيدها بأساليب متنوعة وتصاريف مناسبة في غاية اليسر والسهولة والإحكام والحسن الذي لا مزيد عليه . وقد تكرر عليّ السؤال من كثير من الأصحاب في نشر تفسيرنا هذا جميعه وألحوا لما يرونه من الفائدة الكبيرة ، فاعتذرت بأن ذلك يصعب جداً لأنه مبسوط ، وأيضاً في هذه الأوقات قلت رغبات الناس في الكتب المطولة ، لذلك أحببت إيجابهم لنشر بعض ما طلبوا وهو الاقتصاد على جزء واحد من أجزاء هذا التفسير ، ووقع الاختيار على الجزء الأوسط من سورة الكهف إلى آخر النمل ، فما لا يحصل جميعه لا يترك جميعه . وأرجو الله وأسأله أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه ، نافعاً لنا ولاخواننا ، وأن يمدنا بعونه وعنايته وتوفيقه إنه جواد كريم رءوف رحيم . وأتبعته بكميات وأصول من كميات التفسير لاستدراك ما لعله يفوت القارئ في غير هذا الجزء ، فإن الأصول والكميات تبني عليها الفروع والجزيئات ، ويحصل بها من النفع والفائدة على اختصارها ما لا يحصل في الكلام الطويل ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

فنتة قومهم لهم، ﴿فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة﴾ أي: تثبتنا بها وتحفظنا من الشر، وتوقفنا للخير ﴿وهيئ لنا من أمرنا رشدا﴾ أي: يسر لنا كل سبب موصل إلى الرشd، وأصلح لنا أمر ديننا ودنيانا، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة، إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق، فلذلك استجاب الله

دعاءهم، وقبض لهم ما لم يكن في حسابهم، قال: ﴿فضربنا على آذانهم في الكهف﴾ أي: أنمناهم ﴿سنتين عددا﴾ وهي ثلاث مئة سنة وتسع سنين، وفي النوم المذكور حفظ لقلوبهم من الاضطراب والخوف، وحفظ لهم من قومهم، وليكون آية بينة، ﴿ثم بعثناهم﴾ أي: من نومهم ﴿لنعلم الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا﴾ أي: لنعلم أيهم أحصى لمقدار مدتهم، كما قال تعالى: ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم﴾ الآية، وفي العلم بمقدار لبثهم، ضبط للحساب، ومعرفة لكمال قدرة الله تعالى وحكمته ورحمته، فلو استمروا على نومهم، لم يحصل الاطلاع على شيء من ذلك من قصتهم.

﴿١٣ - ١٤﴾ ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى﴾ وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السماوات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذا شططاً﴾ هذا شروع في تفصيل قصتهم، وأن الله يقصها على نبيه بالحق والصدق، الذي ما فيه شك ولا شبهة بوجه من الوجوه، ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم﴾ وهذا من جموع القلة، يدل ذلك على أنهم دون العشرة، ﴿آمنوا﴾ بالله وحده لا شريك له من دون قومهم، فشكر الله لهم إيمانهم، فزادهم هدى، أي: بسبب أصل اعتدائهم إلى الإيمان، زادهم الله من الهدى، الذي هو العلم النافع، والعمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿وزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾.

الدنيا منزل عبور، لا محل حبور، وشقة سفر، لا منزل إقامة، فبذل جهده في معرفة ربه، وتنفيذ أوامره، وإحسان العمل، فهذا بأحسن المنازل عند الله، وهو حقيق منه بكل كرامة ونعيم، وسرور وتكريم، فنظر إلى باطن الدنيا، حين نظر المغتر إلى ظاهرها، وعمل لآخرته، حين عمل البطال لذاته، فشتان ما بين الفريقين، وما أبعد الفرق بين الطائفتين!!

﴿٩ - ١٢﴾ ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا﴾ إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً﴾ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً﴾ ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً﴾ وهذا الاستفهام بمعنى النفي والنهي. أي: لا تظن أن قصة أصحاب الكهف، وما جرى لهم، غريبة على آيات الله، وبديعة في حكمته، وأنه لا نظير لها، ولا مجانس لها، بل الله تعالى من الآيات العجيبة الغريبة ما هو كثير، من جنس آياته في أصحاب الكهف وأعظم منها، فلم يزل الله يُري عباده من الآيات في الأفاق وفي أنفسهم، ما يتبين به الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وليس المراد بهذا النفي عن أن تكون قصة أصحاب الكهف من العجائب، بل هي من آيات الله العجيبة، وإنما المراد، أن جنسها كثير جداً، فالوقوف معها وحدها، في مقام العجب والاستعجاب، نقص في العلم والعقل، بل وظيفة المؤمن التفكير بجميع آيات الله، التي دعا الله العباد إلى التفكير فيها، فإنها مفتاح الإيمان، وطريق العلم والإيقان. وأضافهم إلى الكهف، الذي هو الغار في الجبل، والرقيم، أي: الكتاب الذي قد رقت فيه أسماؤهم وقصتهم، للائتمام له دهرأ طويلاً، ثم ذكر قصتهم جملة، وفصلها بعد ذلك فقال: ﴿إذ أوى الفتية﴾ أي: الشباب، ﴿إلى الكهف﴾ يريدون بذلك التحصن والتحرز من



وأشجار، وأنهار، وزروع، وثمار، ومناظر بهيجة، ورياض أنيقة، وأصوات شجية، وصور مليحة، وذهب وفضة، وخيل وإبل ونحوها، الجميع جعله الله زينة لهذه الدار، فتنة واختباراً. ﴿لنبليوهم أيهم أحسن عملاً﴾ أي: أخلصه وأصوبه، ومع ذلك سيجعل الله جميع هذه المذكورات، فانية مضمحلة، وزائلة منقضية، وستعود الأرض صعيداً جرزاً قد ذهبت لذاتها، وانقطعت أنهارها، واندرست آثارها، وزال نعيمها، هذه حقيقة الدنيا، قد جلاها الله لنا كأنها رأي عين، وحذرنا من الاغترار بها، ورجبنا في دار يدوم نعيمها، ويسعد مقيمها، كل ذلك رحمة بنا، فاغتر بزخرف الدنيا وزينتها، من نظر إلى ظاهر الدنيا، دون باطنها، فصحبوا الدنيا صحبة البهائم، وغمغموها غمغمة السوام، لا ينظرون في حق ربهم، ولا يهتمون لمعرفة، بل همهم تناول الشهوات، من أي وجه حصلت، وعلى أي حالة اتفقت، فهو لا إذا حضر أحدهم الموت، قلق لخراب ذاته، وفوات لذاته، لا لما قدمت يدها من الترفيط والسيئات.

وأما من نظر إلى باطن الدنيا، وعلم المقصود منها ومنه، فإنه تناول منها، ما يستعين به على ما خلق له، وانتهاز الفرصة في عمره الشريف، فجعل

﴿وربطنا على قلوبهم﴾ أي: صبرناهم وثبتناهم، وجعلنا قلوبهم مطمئنة في تلك الحالة المزعجة، وهذا من لطفه تعالى بهم وبره، أن وفقهم للإيمان والهدى، والصبر والثبات، والطمأنينة.

﴿إذ قاموا فقالوا فأووا ربنا رب السموات والأرض﴾ أي: الذي خلقنا ورزقنا، ودبرنا وربانا، هو خالق السموات والأرض، المفرد بخلق هذه المخلوقات العظيمة، لا تلك الأوثان والأصنام، التي لا تخلق ولا ترزق، ولا تملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فاستدلوا بتوحيد الربوبية على توحيد الإلهية، ولهذا قالوا: ﴿لن ندعو من دونه إلهاً﴾ أي: من سائر المخلوقات ﴿لقد قلنا إذا﴾ أي: إن دعونا معه آلهة، بعد ما علمنا أنه الرب الإله، الذي لا تجوز ولا تنبغي العبادة إلا له ﴿شططاً﴾ أي: ميلاً عظيماً عن الحق، وطريقاً بعيدة عن الصواب، فجمعوا بين الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والتزام ذلك، وبيان أنه الحق وما سواه باطل، وهذا دليل على كمال معرفتهم بربهم، وزيادة الهدى من الله لهم.

﴿١٥﴾ ﴿هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ لما ذكروا ما من الله به عليهم من الإيمان والهدى، التفتوا^(١) إلى ما كان عليه قومهم، من اتخاذ الآلهة من دون الله، فمقتوهم، وبينوا أنهم ليسوا على يقين من أمرهم، بل هم في غاية الجهل والضلال فقالوا: ﴿لولا يأتون عليهم بسلطان بين﴾ أي: بحجة وبرهان، على ما هم عليه من الباطل، ولا يستطيعون سبيلاً إلى ذلك، وإنما ذلك افتراء منهم على الله وكذب عليه، وهذا أعظم الظلم، ولهذا قال: ﴿فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾.

﴿١٦﴾ ﴿وإذ اعتزلتموهم وما

يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً﴾ أي: قال بعضهم لبعض، إذ حصل لكم اعتزال قومكم في أجسامكم وأديانكم، فلم يبق إلا النجاء من شرهم، والتسبب بالأسباب المقضية لذلك، لأنهم لا سبيل لهم إلى قتالهم، ولا بقاتهم^(٢) بين أظهرهم، وهم على غير دينهم، ﴿فأووا إلى الكهف﴾ أي: انضموا إليه واخفوا فيه ﴿ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقاً﴾ وفيما تقدم، أخبر أنهم دعوه بقوله: ﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً﴾ فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والاتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهياً لهم من أمرهم مرفقاً، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه، كان على غاية ما يمكن من الصيانة، ولهذا قال:

﴿١٧- ١٨﴾ ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه ذلك من آيات الله من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً * وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال وكلهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً﴾ أي: حفظهم الله من الشمس فيسر لهم غاراً إذا طلعت الشمس تميل عنه يمينا، وعند غروبها تميل عنه شمالاً، فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم بها، ﴿وهم في فجوة منه﴾ أي: من الكهف أي: مكان متسع، وذلك ليترقهم الهواء والنسيم، ويزول عنهم الوخم والتأذي بالمكان الضيق، خصوصاً مع طول

المكث، وذلك من آيات الله الدالة على قدرته ورحمته بهم، وإجابة دعائهم وهدايتهم حتى في هذه الأمور، ولهذا قال: ﴿من يهد الله فهو المهتد﴾ أي: لا سبيل إلى نيل الهداية إلا من الله، فهو الهادي المرشد لمصالح الدارين، ﴿ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً﴾ أي: لا تجد من يتولاه ويدبره، على ما فيه صلاحه، ولا يرشده إلى الخير والصلاح، لأن الله قد حكم عليه بالضلال، ولا راد لحكمه.

﴿وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود﴾ أي: تحسبهم أي الناظر إليهم [كأنهم]^(٣) أيقاظ، والحال أنهم نيام، قال المفسرون: وذلك لأن أعينهم مفتحة، لئلا تفسد، فالناظر إليهم يحسبهم أيقاظاً، وهم رقود، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال، وهذا أيضاً من حفظه لأبدانهم، لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها، فكان من قدر الله، أن قلبهم على جنوبهم يمينا وشمالاً، بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض، من غير تقليب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها.

﴿وكلهم باسط ذراعيه بالوصيد﴾ أي: الكلب الذي كان مع أصحاب الكهف، أصابه ما أصابهم من النوم وقت حراسته، فكان باسطاً ذراعيه بالوصيد، أي: الباب، أو فئانه، هذا حفظهم من الأرض. وأما حفظهم من الآدميين، فأخبر أنه حاهم بالرعب، الذي نشره الله عليهم، فلو اطلع عليهم أحد، لامتلأ قلبه رعباً، وولى منهم فراراً، وهذا الذي أوجب أن يبقوا كل هذه المدة الطويلة، وهم لم يعثر عليهم أحد، مع قربهم من المدينة جداً، والدليل على قربهم، أنهم لما استيقظوا، أرسلوا أحدهم يشتري لهم طعاماً من المدينة، وبقوا في انتظاره، فدل ذلك على شدة قربهم منها.

(٣) في النسختين: كأنه.

(٢) في النسختين: ولا بقاؤهم.

(١) في ب: والتقوى وهو تصحيح.

أطلع الناس على حال أهل الكهف، وذلك - والله أعلم - بعدما استيقظوا، وبعثوا أحدهم يشتري لهم طعاماً، وأمروه بالاستخفاء والإخفاء، فأراد الله أمراً فيه صلاح للناس، وزيادة أجر لهم، وهو أن الناس رأوا منهم آية من آيات الله، المشاهدة بالعيان، على أن وعد الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا بُد، بعدما كانوا يتنازعون بينهم أمرهم، فمن مثبت للوعد والجزاء، ومن ناف لذلك، فجعل قصتهم زيادة بصيرة ويقين للمؤمنين، وحجة على الجاحدين، وصار لهم أجر هذه القضية، وشهر الله أمرهم، ورفع قدرهم حتى عظمهم الذين اطلعوا عليهم.

و «قالوا ابنوا عليهم بنياناً» الله أعلم بحالهم ومآلهم، وقال من غلب على أمرهم، وهم الذين لهم الأمر:

«لنتخذن عليهم مسجداً» أي: نعبد الله تعالى فيه، ونذكركه أحوالهم، وما جرى لهم، وهذه الحالة محظورة، نهي عنها النبي ﷺ، وذم فاعليها، ولا يدل ذكرها هنا على عدم ذمها، فإن السياق في شأن تعظيم أهل الكهف والثناء عليهم، وأن هؤلاء وصلت بهم الحال إلى أن قالوا: ابنوا عليهم مسجداً، بعد خوف أهل الكهف الشديد من قومهم، وحذرهم من الاطلاع عليهم، فوصلت الحال إلى ما ترى.

وفي هذه القصة، دليل على أن من قرأ بدينه من الفتن سلمه الله منها. وأن من حرص على العافية عافاه الله ومن أوى إلى الله، آواه الله، وجعله هداية لغيره، ومن تحمل الذل في سبيله وابتغاء مرضاته، كان آخر أمره وعاقبته العز العظيم من حيث لا يحتسب «وما عند الله خير للأبرار».

«٢٢» «سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً

الرجم بالحجارة، فيقتلونهم أشنع قتلة، لختقمهم عليهم وعلى دينهم، وإما أن يفتنوه عن دينهم، ويردوهم في ملتهم، وفي هذه الحال، لا يفلحون أبداً، بل يحسرون في دينهم ودنياهم وأخراهم، وقد دلت هاتان الآيتان على عدة فوائد:

منها: الحث على العلم، وعلى المباحثة فيه، لكون الله بعثهم لأجل ذلك.

ومنها: الأدب فيمن اشتبه عليه العلم، أن يرده إلى عالمه، وأن يقف عند حده.

ومنها: صحة الوكالة في البيع والشراء، وصحة الشركة في ذلك.

ومنها: جواز أكل الطيبات، والمطاعم اللذيذة، إذا لم تخرج إلى حد الإسراف المنهي عنه لقوله: «فلينظر أيها أذكى طعاماً فليأتكم برزق منه». وخصوصاً إذا كان الإنسان لا يلائمه إلا ذلك ولعل هذا عمدة كثير من المفسرين، القائلين بأن هؤلاء أولاد ملوك، لكونهم أمروه بأزكى الأطعمة، التي جرت عادة الأغنياء الكبار بتناولها.

ومنها: الحث على التحرز، والاستخفاء، والبعد عن مواقع الفتن في الدين، واستعمال الكتمان في ذلك على الإنسان وعلى إخوانه في الدين.

ومنها: شدة رغبة هؤلاء الفتية في الدين، وفرارهم من كل فتنة، في دينهم، وتركهم أوطانهم في الله.

ومنها: ذكر ما اشتغل عليه الشر من المضار والمفاسد، الداعية لبغضه، وتركه، وأن هذه الطريقة، هي طريقة المؤمنين المتقدمين والمتأخرين، لقولهم: «ولن نفلحوا إذا أبداً»

«٢١» «وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها إذ يتنازعون بينهم أمرهم فقالوا ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً» يخبر الله تعالى، أنه

«١٩ - ٢٠» «وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم فابعثوا أحدكم بوركتم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أذكى طعاماً فليأتكم برزق منه ولينطق ولا يشعرن بكم أحداً * إنهم إن يظهروا عليكم يرمواكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبداً» يقول تعالى: «وكذلك بعثناهم» أي: من نومهم الطويل «ليتساءلوا بينهم» أي: ليتباحثوا للوقوف على الحقيقة من مدة لبثهم.

«قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم» وهذا مبني على ظن القائل، وكانهم وقع عندهم اشتباه في طول مدتهم، فهذا «قالوا ربكم أعلم بما لبثتم». فردوا العلم إلى المحيط علمه بكل شيء، جملة وتفصيلاً، ولعل الله تعالى - بعد ذلك - أطلعهم على مدة لبثهم، لأنه بعثهم ليتساءلوا بينهم، وأخبر أنهم تساءلوا، وتكلموا بمبلغ ما عندهم، وصار آخر أمرهم الاشتباه، فلا بد أن يكون قد أخبرهم يقيناً، علمنا ذلك من حكمته في بعثهم، وأنه لا يفعل ذلك عبثاً. ومن رحمته بمن طلب علم الحقيقة في الأمور المطلوب علمها، وسعى لذلك ما أمكنه، فإن الله يوضح له ذلك، وبما ذكر فيما بعده من قوله: «وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها» فلولا أنه حصل العلم بحالهم، لم يكونوا دليلاً على ما ذكر، ثم إنهم لما تساءلوا بينهم، وجرى منهم ما أخبر الله به، أرسلوا أحدهم بوركهم، أي: بالدرهم، التي كانت معهم، ليشتري لهم طعاماً يأكلونه، من المدينة التي خرجوا منها، وأمروه أن يتخير من الطعام أذكاه، أي: أطيبه وألذّه، وأن يتلطف في ذهابه وشرائه وإيابه، وأن يحتفي في ذلك، ويخفي حال إخوانه، ولا يشعرن بهم أحداً. وذكروا المحذور من اطلاع غيرهم عليهم، وظهورهم عليهم، أنهم بين أمرين، إما

لهواه، حيث ما اشتتهت نفسه فعله، وسعى في إدراكه، ولو كان فيه هلاكة وخسرانه، فهو قد اتخذ إلهه هواه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ الآية.

﴿وكان أمره﴾ أي: مصالح دينه ﴿فرطاً﴾ أي: ضائعة معطلة. فهذا قد نهى الله عن طاعته، لأن طاعته تدعو إلى الاقتداء به، ولأنه لا يدعو إلا ما هو متصف به، ودلت الآية على أن الذي ينبغي أن يطاع، ويكون إماماً للناس، من امتلا قلبه بمحبة الله، وفاض ذلك على لسانه، فلهج بذكر الله، واتبع مرضي ربه، فقدمها على هواه، فحفظ بذلك ما حفظ من وقته، وصلحت أحواله، واستقامت أفعاله، ودعا الناس إلى ما من الله به عليه، فحقيق بذلك، أن يتبع ويعجل إماماً، والصبر المذكور في هذه الآية، هو الصبر على طاعة الله، الذي هو أعلى أنواع الصبر، وبتمامه تتم باقي الأقسام. وفي الآية، استحباب الذكر والدعاء والعبادة طرقي النهار، لأن الله مدحهم بفعله، وكل فعل مدح الله فاعله، دل ذلك على أن الله يحبه، وإذا كان يحبه فإنه يأمر به، ويرغب فيه.

﴿٢٩ - ٣١﴾ ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفعاً﴾ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴿ولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفعاً﴾ أي: قل للناس يا محمد: هذا الحق من ربكم، أي: قد تبين الهدى من الضلال، والرشد من الغي، وصفات أهل السعادة، وصفات أهل الشقاوة، وذلك بما بينه الله على لسان رسوله، فإذا بان واتضح، ولم يبق فيه شبهة

التغير والتبديل، فلو كانت ناقصة، لعرض لها ذلك أو شيء منه، وفي هذا تعظيم للقرآن، في ضمنه الترغيب على الإقبال عليه.

﴿ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ أي: لن تجد من دون ربك ملجأ تلجأ إليه، ولا معاذاً تعوذ به، فإذا تعين أنه وحده الملجأ في كل الأمور، تعين أن يكون هو المألوه المعبود المرغوب إليه، في السراء والضراء، المقتدر إليه في جميع الأحوال، المسؤول في جميع المطالب.

﴿٢٨﴾ ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾ يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ، وغيره أسوته في الأوامر والنواهي - أن يصبر نفسه مع المؤمنين العباد المنيبين ﴿الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ أي: أول النهار وآخره يريدون بذلك وجه الله، فوصفهم بالعبادة والإخلاص فيها، ففيها الأمر بصحبة الأخيار، ومجاهدة النفس على صحبتهم، ومخالطتهم وإن كانوا فقراء فإن في صحبتهم من الفوائد ما لا يحصى.

﴿ولا تعد عيناك عنهم﴾ أي: لا تجاوزهم بصرك، وترفع عنهم نظرك.

﴿تريد زينة الحياة الدنيا﴾ فإن هذا ضار غير نافع، قاطع عن المصالح الدينية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب بالدنيا، فتصير الأفكار والهواجس فيها، وتزول من القلب الرغبة في الآخرة، فإن زينة الدنيا تروق للناظر وتسحر العقل، فيغفل القلب عن ذكر الله، ويُقَسِّل على اللذات والشهوات، فيضيع وقته، وينفرط أمره، فيخسر الخسارة الأبدية، والسندامة السرمدية، ولهذا قال: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ غفل عن الله، فعاقبه بأن أغفله عن ذكره.

﴿واتبع هواه﴾ أي: صار تبعاً



انفراده بالولاية العامة والخاصة، فهو الولي الذي يتولى تدبير جميع الكون، الولي لعبادة المؤمنين، يخرجهم من الظلمات إلى النور ويسرهم لليسرى، ويخبرهم العسرى، ولهذا قال: ﴿ما لهم من دونه من ولي﴾. أي: هو الذي تولى أصحاب الكهف، بلطفه وكرمه، ولم يكلهم إلى أحد من الخلق.

﴿ولا يشرك في حكمه أحداً﴾ وهذا يشمل الحكم الكوني القدرى، والحكم الشرعي الديني، فإنه الحاكم في خلقه، قضاء وقدر، وخلقا وتديراً، والحاكم فيهم بأمره ونهيه، وثوابه وعقابه. ولما أخبر أنه تعالى له غيب السماوات والأرض، فليس لمخلوق إليها طريق، إلا من الطريق التي يخرج بها عباده، وكان هذا القرآن، قد اشتمل على كثير من الغيوب، أمر تعالى بالإقبال عليه فقال:

﴿٢٧﴾ ﴿واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ التلاوة: هي الاتباع، أي: اتبع ما أوحى الله إليك بمعرفة معانيه وفهمها، وتصديق أخباره، وامتنال أوامره ونواهي، فإنه الكتاب الجليل، الذي لا مبدل لكلماته، أي: لا تغير ولا تبدل لصديقها وعدلها، وبلوغها من الحسن فوق كل غاية ﴿ومتت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾ فلتماها، استحال عليها

ودلت الآية الكريمة وما أشبهها، على أن الحلية عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة لأنه أطلقها في قوله ﴿يَحْلُونَ﴾ وكذلك الحرير ونحوه.

﴿٣٢ - ٣٤﴾ ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً﴾ * كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خللاهما نهراً * وكان له ثمر﴾ يقول تعالى لنبيه ﷺ: اضرب للناس مثل هذين الرجلين، الشاكر لنعمة الله، والكافر لها، وما صدر من كل منهما، من الأقوال والأفعال، وما حصل بسبب ذلك من العقاب العاجل والأجل، والثواب ليعتبرا بحالهما، ويتعظوا بما حصل عليهما، وليس معرفة أعيان الرجلين، وفي أي: زمان أو مكان هما فيه فائدة أو نتيجة، فالنتيجة تحصل من قصتهما فقط، والتعرض لما سوى ذلك من التكلف. فأحد هذين الرجلين الكافر لنعمة الله الجلية، جعل الله له جنتين، أي: بستانين حسنين، من أعناب.

﴿وحففناهما بنخل﴾ أي: في هاتين الجنتين من كل الثمرات، وخصوصاً أشرف الأشجار، العنب والنخل، فالعنب في وسطها، والنخل قد حف بذلك، ودار به، فحصل فيه من حسن المنظر وبهائه، وبروز الشجر والنخل للشمس والرياح، التي تكمل بها الثمار، وتنضج وتنجوهر، ومع ذلك جعل بين تلك الأشجار زرعاً، فلم يبق عليهما إلا أن يقال: كيف ثمار هاتين الجنتين؟ وهل لهما ماء يكفيهما؟ فأخبر تعالى أن كلا من الجنتين آتت أكلها، أي: ثمرها وزرعها ضعفين، أي: متضاعفاً ﴿و﴾ أنها ﴿لم تظلم منه شيئاً﴾ أي: لم تنقص من أكلها أدنى شيء، ومع ذلك، فالأنهار في جوانبهما سارحة كثيرة غزيرة.

﴿وكان له﴾ أي: لذلك الرجل ﴿ثمر﴾ أي: عظيم كما يفيد التثكير، أي: قد استكملت جنتاه ثمارها،

وشره، وعمل الصالحات من الواجبات والمستحبات ﴿إننا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾ وإحسان العمل: أن يريد العبد العمل لوجه الله، متبعاً في ذلك شرع الله. فهذا العمل لا يضعه الله، ولا شيئاً منه، بل يحفظه للعاملين، ويوفيه من الأجر، بحسب عملهم وفضله وإحسانه، وذكر أجرهم بقوله:

﴿أولئك لهم جنات تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق متكئين فيها على الأرائك﴾. أي: أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجنات العليات التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة، والمنازل الرفيعة، وحللتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والاستبرق، وهو ما رق منه. متكئين فيها على الأرائك، وهي السرر المزينة، المجدلة بالثياب الفاخرة، فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال التعب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون، وتمام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية، فهذه الدار الجلية ﴿نعم الثواب﴾ للعاملين ﴿وحسنت مرتفعاً﴾ يرتفعون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من الحبرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة، وأي: مرتفع أحسن من دار، أدنى أهلها يسير في ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه ألقي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطي جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب، ما قصرت عنه الأمان، ومع ذلك، فتعيمهم على الدوام متزايد في أوصافه وحسنه، فنسأل الله الكريم، أن لا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان، بشراً ما عندنا من التقصير والعصيان.

﴿فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر﴾ أي: لم يبق إلا سلوك أحد الطريقتين، بحسب توفيق العبد، وعدم توفيقه، وقد أعطاه الله مشيئة بها يقدر على الإيمان والكفر، والخير والشر، فمن آمن فقد وفق للصواب، ومن كفر فقد قامت عليه الحجة، وليس بمكره على الإيمان، كما قال تعالى ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾ وليس في قوله: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ الإذن في كلا الأمرين، وإنما ذلك تهديد ووعيد لمن اختار الكفر بعد البيان التام، كما ليس فيها ترك قتال الكافرين. ثم ذكر تعالى مآل الفريقين فقال: ﴿إننا أعدنا للظالمين﴾ بالكفر والفسوق والعصيان ﴿ناراً أحاط بهم سرادقها﴾ أي: سورها المحيط بها، فليس لهم منفذ ولا طريق ولا مخلص منها، تصلاهم النار الحامية.

﴿وإن يستغيثوا﴾ أي: يطلبوا الشراب، ليطفىء ما نزل بهم من العطش الشديد. ﴿يفثاوا بماء كالمهل﴾ أي: كالرصاص المذاب، أو كعكر الزيت، من شدة حرارته.

﴿يشوي الوجوه﴾ أي: فكيف بالأمعاء والبطن، كما قال تعالى ﴿يصهر به ما في بطونهم والجلود﴾ * ولهم مقامع من حديد﴾.

﴿بئس الشراب﴾ الذي يراد ليطفىء العطش، ويدفع بعض العذاب، فيكون زيادة في عذابهم، وشدة عقابهم.

﴿وساءت﴾ النار ﴿مرتفعاً﴾ وهذا ذم لحالة النار، أنها ساءت المحل، الذي يرتفع به، فإنها ليس فيها ارتفاق، وإنما فيها العذاب العظيم الشاق، الذي لا يُقْتَر عنهم ساعة، وهم فيه مبلسون، قد أيسوا من كل خير، ونسيهم الرحيم في العذاب كما نسوه. ثم ذكر الفريق الثاني فقال: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: جمعوا بين الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره

وَأَزْجَحَّتْ أَشْجَارُهُمَا، وَلَمْ تَعْرِضْ لِهَما أَفَةٌ أَوْ نَقْصٌ، فَهَذَا غَايَةُ مَنْتَهَى زِينَةِ الدُّنْيَا فِي الْحَرِثِ، وَلِهَذَا اغْتَرَّ هَذَا الرَّجُلُ بِهِمَا، وَتَبَجَّحَ وَافْتَخَرَ، وَنَسِيَ آخِرَتَهُ.

﴿٣٤ - ٣٦﴾ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رَدَدْتِ إِلَى رَبِّي لَأُجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * أَيُّ: فَقَالَ صَاحِبُ الْجَنَّتَيْنِ لِصَاحِبِهِ الْمُؤْمِنِ، وَهُمَا يَتَحَاوَرَانِ، أَيُّ: يَتَرَاوَعَانِ بَيْنَهُمَا فِي بَعْضِ الْمَاجِرِيَّاتِ الْعَتَادَةِ، مُفْتَخِرًا عَلَيْهِ:

﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ فخر بكثرة ماله، وعزة أنصاره من عبيد، وخدم، وأقارب، وهذا جهل منه، وإلا فأَيُّ: افتخار بأمر خارجي ليس فيه فضيلة نفسية، ولا صفة معنوية، وإنما هو بمنزلة فخر الصبي بالأماني، التي لا حقائق تحتها، ثم لم يكفه هذا الافتخار على صاحبه، حتى حكم بجهله وظلمه، وظن لما دخل جنته، ف ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾ أَيُّ: تَنْقَطِعَ وَتُضْمَحِلَّ ﴿هَذِهِ أَبَدًا﴾ فَاطْمَأَنَّنَ إِلَى هَذِهِ الدُّنْيَا، وَرَضِيَ بِهَا، وَأَنْكَرَ الْبُعْثَ، فَقَالَ: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رَدَدْتِ إِلَى رَبِّي﴾ عَلَى ضَرْبِ الْمَثَلِ ﴿لَأُجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ أَيُّ: لِيُعْطِنِي خَيْرًا مِنْ هَاتَيْنِ الْجَنَّتَيْنِ، وَهَذَا لَا يَخْلُو مِنْ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَن يَكُونَ عَالِمًا بِحَقِيقَةِ الْحَالِ، فَيَكُونُ كَلَامُهُ هَذَا عَلَى وَجْهِ التَّهَكُّمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ فَيَكُونُ زِيَادَةُ كُفْرِهِ إِلَى كُفْرِهِ، وَإِمَّا أَن يَكُونَ هَذَا ظَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ، فَيَكُونُ مِنْ أَجْهَلِ النَّاسِ، وَأَبْخَسِهِمْ حَقًّا مِنَ الْعَقْلِ، فَأَيُّ: تَلَاذَمَ بَيْنَ عَطَاءِ الدُّنْيَا وَعَطَاءِ الْآخِرَةِ، حَتَّى يَظُنَّ بِجَهْلِهِ أَنَّهُ مَنْ أُعْطِيَ فِي الدُّنْيَا أُعْطِيَ فِي الْآخِرَةِ، بَلِ الْغَالِبُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَزْوِي الدُّنْيَا عَنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَصْفِيَائِهِ، وَيُوسِعُهَا عَلَى أَعْدَائِهِ، الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ يَعْلَمُ حَقِيقَةَ الْحَالِ، وَلَكِنَّهُ

قَالَ هَذَا الْكَلَامَ عَلَى وَجْهِ التَّهَكُّمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ فَإِثْبَاتُ أَنَّ وَصْفَهُ الظُّلْمَ، فِي حَالِ دَخُولِهِ، الَّذِي جَرَى مِنْهُ، مِنَ الْقَوْلِ مَا جَرَى، يَدُلُّ عَلَى تَمَرُّدِهِ وَعَتَادِهِ.

﴿٣٧ - ٣٩﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ * أَيُّ: قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ الْمُؤْمِنُ، نَاصِحًا لَهُ، وَمَذْكَرًا لِحَالِهِ الْأَوَّلَى، الَّتِي أَوْجَدَهُ اللَّهُ فِيهَا فِي الدُّنْيَا ﴿مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ فَهُوَ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِنِعْمَةِ الْإِحْيَادِ وَالْإِمْدَادِ، وَوَصَلَ عَلَيْكَ النِّعَمَ، وَنَقَلَكَ مِنْ طُورٍ إِلَى طُورٍ، حَتَّى سَوَّاكَ رَجُلًا، كَامِلَ الْأَعْضَاءِ وَالْجَوَارِحِ الْمَحْسُوسَةِ وَالْمَعْقُولَةِ، وَبِذَلِكَ يَسِّرُ لَكَ الْأَسْبَابَ، وَهِيَ لَكَ مَا هِيَ مِنْ نِعَمِ الدُّنْيَا، فَلَمْ تَحْصِلْ لَكَ الدُّنْيَا بِحَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ، بَلْ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ، فَكَيْفَ يَلِيقُ بِكَ أَنْ تَكْفُرَ بِاللَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا، وَتُجَدُّ^(١) نِعْمَتُهُ، وَتَزْعُمُ أَنَّهُ لَا يَبْعَثُكَ، وَإِنْ بَعَثَكَ أَنَّهُ يَعْطِيكَ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ؟! هَذَا مِمَّا لَا يَنْبَغِي وَلَا يَلِيقُ. وَلِهَذَا لَمَّا رَأَى صَاحِبُهُ الْمُؤْمِنُ حَالَهُ وَاسْتِمْرَارَهُ عَلَى كُفْرِهِ وَطُغْيَانِهِ، قَالَ خَبِيرًا عَنْ نَفْسِهِ، عَلَى وَجْهِ الشُّكْرِ لِرَبِّهِ، وَالْإِعْلَانِ بِدِينِهِ، عِنْدَ وَرُودِ الْمَجَادَلَاتِ وَالشُّبْهِ: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ فَأَقْرَبُ بَرِّيُوتِهِ لِرَبِّهِ، وَإِنْفِرَادِهِ فِيهَا، وَالتَّزَمُّ^(٢) طَاعَتِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، ثُمَّ أَخْبَرَهُ أَنَّ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَلَوْ مَعَ قَلَّةِ مَالِهِ وَوَلَدِهِ، أَنَّهُ هِيَ النِّعْمَةُ الْحَقِيقَةُ، وَأَنَّ مَا عَدَاهَا مُعَرَّضٌ لِلزَّوَالِ وَالْعُقُوبَةِ عَلَيْهِ وَالنَّكَالِ، فَقَالَ:

﴿٣٩ - ٤٤﴾ ﴿إِنْ تَرَى أَنَا أَقْلُ مِنْكَ مَالًا وَلَوْلَا * فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا

مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حَسْبَانًا مِنْ السَّمَاءِ فَيُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا * أَوْ يُصْبِحُ مَاوْهَا غُورًا فَلَنْ يَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا * وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبِرْ يَقْلَبْ كَفِيهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا * هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا *.

أَيُّ: قَالَ لِلْكَافِرِ صَاحِبُهُ الْمُؤْمِنُ: أَنْتَ - وَإِنْ فَخَرْتَ عَلَيَّ بِكَثْرَةِ مَالِكَ وَوَلَدِكَ، وَرَأَيْتَنِي أَقْلُ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا - فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ، خَيْرٌ وَأَبْقَى، وَمَا يَرْجَى مِنْ خَيْرِهِ وَإِحْسَانِهِ، أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ الدُّنْيَا، الَّتِي يَتَنَافَسُ فِيهَا الْمُتَنَافِسُونَ.

﴿فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ أَيُّ: عَلَى جَنَّتِكَ الَّتِي طَغَيْتَ بِهَا وَغَرَّتَكَ ﴿حَسْبَانًا مِنْ السَّمَاءِ﴾ أَيُّ: عَذَابًا، بِمَطَرٍ عَظِيمٍ أَوْ غَيْرِهِ، ﴿فَيُصْبِحُ﴾ بِسَبَبِ ذَلِكَ ﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾ أَيُّ: قَدْ اقْتَلَعَتْ أَشْجَارُهَا، وَتَلَفَتْ ثَمَارُهَا، وَغَرِقَ زَرْعُهَا، وَزَالَ نَفْعُهَا، ﴿أَوْ يُصْبِحُ مَاوْهَا﴾ الَّذِي مَادَتْهَا مِنْهُ ﴿غُورًا﴾ أَيُّ: غَائِرًا فِي الْأَرْضِ ﴿فَلَنْ يَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ أَيُّ: غَائِرًا لَا يَسْتَطِيعُ الْوُصُولُ إِلَيْهِ بِالْمَعَاوِلِ وَلَا بِغَيْرِهَا، وَإِنَّمَا دَعَا عَلَى جَنَّتِهِ الْمُؤْمِنُ غَضَبًا لِرَبِّهِ، لِكُونِهَا غُرَّتَهُ وَأَطْغَتَهُ، وَاطْمَأَنَّنَ إِلَيْهَا، لَعَلَّهُ يَنْسِبُ، وَيَرَاجِعُ رَشْدَهُ، وَيَبْصُرُ فِي أَمْرِهِ.

فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ ﴿وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾ أَيُّ: أَصَابَهُ عَذَابُ أَحَاطَ بِهِ، وَاسْتَهْلَكَهُ، فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُ شَيْءٌ، وَالْإِحَاطَةُ بِالشَّمْرِ يَسْتَلْزِمُ تَلْفَ جَمِيعِ أَشْجَارِهِ، وَثَمَارِهَا، وَزَرْعِهِ، فَتَدْمُ كُلُّ النَّدَامَةِ، وَاشْتَدَّ لَذَلِكَ أَسْفُهُ، ﴿فَاصْبِرْ يَقْلَبْ كَفِيهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ أَيُّ: عَلَى كَثْرَةِ نَفَقَاتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ عَلَيْهَا، حَيْثُ اضْمَحَلَّتْ وَتَلَاشَتْ، فَلَمْ يَبْقَ لَهَا عَوْضٌ، وَتَدْمُ أَيْضًا عَلَى شُرْكِهِ،

قال :

﴿٥٥﴾ «وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلًا» أي : ما منع الناس من الإيمان، والحال أن الهدى الذي يحصل به الفرق، بين الهدى والضلال، والحق والباطل، قد وصل إليهم، وقامت عليهم حجة الله، فلم يمنعهم عدم البيان، بل منعهم الظلم والعدوان عن الإيمان، فلم يبق إلا أن تأتيهم سنة الله، وعادته في الأولين من أنهم إذا لم يؤمنوا عوجلوا بالعذاب، أو يرون العذاب قد أقبل عليهم، ورأوه مقابلة ومعاناة، أي : فليخافوا من ذلك، وليتوبوا من كفرهم، قبل أن يكون العذاب الذي لا مرد له .

﴿٥٦﴾ «وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ويمادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا» أي : لم نرسل الرسل عبثاً، ولا ليتخذهم الناس أرباباً، ولا ليدعوا إلى أنفسهم، بل أرسلناهم يدعون الناس إلى كل خير، ويهتدون عن كل شر، ويشيرونهم على امتثال ذلك بالثواب العاجل والآجل، وينذرونهم على معصية ذلك بالعقاب العاجل والآجل، فقامت بذلك حجة الله على العباد، ومع ذلك يأبى الظالمون الكافرون، إلا المجادلة بالباطل، ليدحضوا به الحق، فسعوا في نصر الباطل مهما أمكنهم، وفي دحض الحق وإبطاله، واستهزؤوا برسول الله وآياته، وفرحوا بما عندهم من العلم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، ويظهر الحق على الباطل ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ ومن حكمة الله ورحمته، أن تقييضة المبطلين المجادلين الحق بالباطل، من أعظم الأسباب إلى وضوح الحق وتبين شواهد وأدلتها، وتبين الباطل وفساده، فبضدها تتبين الأشياء .

﴿٥٧ - ٥٩﴾ «ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما

يفرق بينهم وبينهم، ويبعد بعضهم بعض، ويتبين حينئذ عداوة الشركاء لشركائهم، وكفرهم بهم، وتبريهم منهم، كما قال تعالى : ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ .

﴿٥٣﴾ «ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً» أي : لما كان يوم القيامة وحصل من الحساب ما حصل، وتميز كل فريق من الخلق بأعمالهم، وحقت كلمة العذاب على المجرمين، فأروا جهنم قبل دخولها، فانزعجوا واشتد قلقهم لظنهم أنهم مواقعوها، وهذا الظن قال المفسرون : إنه بمعنى اليقين، فأيقنوا أنهم داخلوها ﴿ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ أي : معدلاً يعدلون إليه، ولا شافع لهم من دون إذنه، وفي هذا من التخويف والترهيب، ما ترعد له الأفتدة والقلوب .

﴿٥٤﴾ «ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً» يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن، وجلالته، وعمومه، وأنه صرّف فيه من كل مثل، أي : من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة، والسعادة الأبدية، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك، ففيه أمثال الحلال والحرام، وجزاء الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب، اعتقاداً، وطمأنينة، ونوراً، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة، وعدم المنازعة له في أمر من الأمور، ومع ذلك، كان كثير من الناس يجادلون في الحق بعد ما تبين، ويمجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق ﴿ولهذا قال : «وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً» أي : مجادلة ومنازعة فيه، مع أن ذلك غير لائق بهم، ولا عدل منهم، والذي أوجب له ذلك وعدم الإيمان بالله، إنما هو الظلم والعدوان، لا لقصور في بيانه وحجته وبرهانه، وإلا فلو جاءهم العذاب، وجاءهم ما جاء قبلهم، لم تكن هذه حالهم، ولهذا

قال تعالى : ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات﴾ . وقال تعالى : ﴿إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله﴾ .

﴿٥١ - ٥٢﴾ «ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً» * ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوه فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقاً يقول تعالى : ما أشهدت الشياطين [وهؤلاء المضلين]، ﴿خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ أي : ما أحضرتهم ذلك، ولا شاورتهم عليه، فكيف يكونون خالقين لشيء من ذلك؟! بل المنفرد بالخلق والتدبير، والحكمة والتقدير، هو الله، خالق الأشياء كلها، المتصرف فيها بحكمته، فكيف يجعل له شركاء من الشياطين، يوالون ويपाعون، كما يطاع الله، وهم لم يخلقوا ولم يشهدوا خلقاً، ولم يعاونوا الله تعالى؟! ولهذا قال : ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ أي : معاونين، مظاهرين لله على شأن من الشؤون، أي : ما ينبغي ولا يليق بالله، أن يجعل لهم قسطاً من التدبير، لأنهم ساعون في إضلال الخلق والعداوة لربهم، فاللائق أن يقصيه ولا يدنهم .

ولما ذكر حال من أشرك به في الدنيا، وأبطل هذا الشرك غاية الإبطال، وحكم بجهل صاحبه وسفه، أخبر عن حالهم مع شركائهم يوم القيامة، وأن الله يقول لهم : ﴿نادوا شركائي بزعمكم أي : على موجب زعمكم الفاسد، وإلا فالحقيقة ليس لله شريك في الأرض، ولا في السماء، أي : نادوهم، ليتفعوكم، ويخلصوكم من الشدائد، فدعوه فلم يستجيبوا لهم﴾ لأن الحكم والملك يومئذ لله، لا أحد يملك مثقال ذرة من النفع لنفسه ولا لغيره .

﴿وجعلنا بينهم﴾ أي : بين المشركين وشركائهم «موبقاً» أي : مهلكاً،

ذلك .

ثم أخبر تعالى عن سعة مغفرته ورحمته، وأنه يغفر الذنوب، ويتوب الله على من يتوب، فيتغمده برحمته، ويشمله بإحسانه، وأنه لو أخذ^(٢) العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب، لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حلیم لا يعجل بالعقوبة، بل يمهّل ولا يهمل، والذنوب لا بد من وقوع آثارها، وإن تأخر عنها مدة طويلة، ولهذا قال :

﴿لهم موعداً لم يجدوا من دونه موثلاً﴾ أي : لهم موعداً، يجازون فيه بأعمالهم، لا بد لهم منه، ولا مندوحة لهم عنه، ولا ملجأ، ولا محيد عنه، وهذه سنته في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنبأوا، غفر لهم ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا، فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعداً لهم، أنزل بهم بأسه، ولهذا قال : ﴿وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا﴾ أي : بظلمهم، لا بظلم منا ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ أي : وقتاً مقدراً، لا يتقدمون عنه ولا يتأخرون .

﴿٦٠ - ٨٢﴾ وإذ قال موسى لفتهاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقياً * فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله في البحر سرباً * فلما جاوزا قال لفتهاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً * قال أرايت إذ أوبنا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبا * قال ذلك ما كنا نبغ فارتدا على آثارهما قصصاً * فوجدا عبداً من عبادنا آتيناها رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً * قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً * قال إنك لن تستطيع معي صبراً * وكيف تصبر على ما لم

قدمت يدها إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً * وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موثلاً * وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً * يخبر تعالى أنه لا أعظم ظلماً، ولا أكبر جرماً، من عبد ذكر بآيات الله ويؤمن له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وخوف ورعب ورغب، فأعرض عنها، فلم يتذكر بما ذكر به، ولم يرجع عما كان عليه، ونسي ما قدمت يدها من الذنوب، ولم يراقب علام الغيوب، فهذا أعظم ظلماً من المعرض الذي لم تأت آيات الله ولم يذكر بها، وإن كان ظالماً، فإنه أخف^(١) ظلماً من هذا، لكون العصي على بصيرة وعلم، أعظم ممن ليس كذلك، ولكن الله تعالى عاقبه بسبب إعراضه عن آياته، ونسيانه للذنوب، ورضاه لنفسه، حالة الشر مع علمه بها، أن سد عليه أبواب الهداية بأن جعل على قلبه أكنة، أي : أغطية محكمة تمنعه أن يفقه الآيات وإن سمعتها، فليس في إمكانها الفقه الذي يصل إلى القلب، ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي : صمماً يمنعهم من وصول الآيات، ومن سماعها على وجه الانتفاع وإذا كانوا بهذه الحالة، فليس لهديتهم سبيل، ﴿وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبداً﴾ لأن الذي يرجى أن يجيب الداعي للهدى من ليس عالماً، وأما هؤلاء الذين أبصروا ثم عموا، ورأوا طريق الحق حقاً فتركوه، وطريق الضلال ضلالاً فسلكوه، وعاقبهم الله بإقفال القلوب والطبع عليها، فليس في هدايتهم حيلة ولا طريق . وفي هذه الآية من التخويف لمن ترك الحق بعد علمه، أن يحال بينهم وبينه، ولا يتمكن منه بعد ذلك، ما هو أعظم مرهب وزاجر عن

تخط به خيراً * قال ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً * قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً * فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها إلى قوله : ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ يخبر تعالى عن نبيه موسى عليه السلام، وشدة رغبته في الخير وطلب العلم، أنه قال لفتهاه - أي : خادمه الذي يلازمه في حضره وسفره، وهو «يوشع بن نون» الذي نبأه الله بعد ذلك : ﴿لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين﴾ أي : لا أزال مسافراً وإن طالت علي الشقة، ولحقنتي المشقة، حتى أصل إلى مجمع البحرين، وهو المكان الذي أوحى إليه أنك ستجد فيه عبداً من عباد الله العالمين، عنده من العلم ما ليس عندك، ﴿أو أمضي حقياً﴾ أي : مسافة طويلة، المعنى : أن الشوق والرغبة، حمل موسى أن قال لفتهاه هذه المقالة، وهذا عزم منه جازم، فلذلك أمضاه .

﴿فلما بلغا﴾ أي : هو وفتهاه ﴿مجمع بينهما نسيا حوتهما﴾ وكان معهما حوت يتزودان منه ويأكلان، وقد وعد أنه متى فقد الحوت قُتِمَ ذلك العبد الذي قصده، فاتخذ ذلك الحوت سبيله، أي : طريقه في البحر سرباً وهذا من الآيات .

قال المفسرون : إن ذلك الحوت الذي كانا يتزودان منه، لما وصلا إلى ذلك المكان، أصابه بلل البحر، فانسرب بإذن الله في البحر، وصار مع حيواناته حياً .

فلما جاوز موسى وفتهاه مجمع البحرين، قال موسى لفتهاه : ﴿آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً﴾ أي : لقد تعبنا من هذا السفر المجاوز فقط، وإلا فالسفر الطويل الذي وصلا به إلى مجمع البحرين لم يجدا مس التعب فيه، وهذا من الآيات والعلامات الدالة لموسى على وجود مطلبه، وأيضاً فإن

(١) في ب : فإنه أشد، والسياق يدل على ما أثبت .

(٢) في الأصل واخذ .

الشوق المتعلق بالوصول إلى ذلك المكان، سهل لهما الطريق، فلما تجاوزا غايتهما وجدا مس التعب، فلما قال موسى لفتاه هذه المقالة، قال له فتاه: ﴿أرأيت إذ أومينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت﴾ أي: ألم تعلم حين أوانا الليل إلى تلك الصخرة المعروفة بينهما ﴿فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان﴾ لأنه السبب في ذلك ﴿وانخذ سبيله في البحر عجباً﴾ أي: لما انسرب في البحر ودخل فيه، كان ذلك من العجائب.

قال المفسرون: كان ذلك المسلك للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً، فلما قال له الفتى هذا القول، وكان عند موسى وعد من الله أنه إذا فقد الحوت، وجد الخضر، فقال موسى: ﴿ذلك ما كنا نبغ﴾ أي: نطلب ﴿فارتدا﴾ أي: رجعا على آثارهما قصصاً: أي: رجعا يقصان أثرهما، إلى المكان الذي نسيا فيه الحوت فلما وصلا إليه، وجدا عبداً من عبادنا، وهو الخضر، وكان عبداً صالحاً، لا نبياً على الصحيح.

آتيناه [رحمة من عندنا أي: أعطاه الله رحمة خاصة بها زاد علمه وحسن عمله ﴿وعلمناه﴾] ﴿من لدنا﴾ [أي: من عندنا] علماً، وكان قد أعطي من العلم ما لم يعط موسى، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء، وخصوصاً في العلوم الإيمانية والأصولية، لأنه من أولى العزم من المرسلين، الذين فضلهم الله على سائر الخلق، بالعلم والعمل، وغير ذلك، فلما اجتمع به موسى قال له على وجه الأدب والمشاورة، والإخبار عن مطلبه: ﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً﴾ أي: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمك الله، ما به أسترشد وأهتدي، وأعرف به الحق في تلك القضايا؟ وكان الخضر، قد أعطاه الله من الإلهام والكرامة، ما به يحصل له الاطلاع على بواطن كثير

من الأشياء التي خفيت، حتى على موسى عليه السلام، فقال الخضر لموسى: لا أمتنع من ذلك، ولكنك ﴿لن تستطيع معي صبراً﴾ أي: لا تقدر على اتباعي وملازمتي، لأنك ترى ما لا تقدر على الصبر عليه من الأمور التي ظاهرها المنكر، وباطنها غير ذلك، ولهذا قال: ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً﴾ أي: كيف تصبر على أمر، ما أحطت بباطنه وظاهره، وعلمت المقصود منه وماله؟ فقال موسى: ﴿ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً﴾ وهذا عزم منه، قبل أن يوجد الشيء المتحزن به، والعزم شيء، ووجود الصبر شيء آخر، فلذلك ما صبر موسى عليه السلام حين وقع الأمر، فحينئذ قال له الخضر: ﴿فإن أتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً﴾ أي: لا تبتدئي بسؤال منك وإنكار، حتى أكون أنا الذي أخبرك بحاله، في الوقت الذي ينبغي إخبارك به، فنهاء عن سؤاله، ووعدة أن يوقفه على حقيقة الأمر.

﴿فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها﴾ أي: اقتلع الخضر منها لوحاً، وكان له مقصود في ذلك سبب، فلم يصبر موسى عليه السلام، لأن ظاهره أنه منكر، لأنه عيب للسفينة، وسبب لغرق أهلها، ولهذا قال موسى: ﴿أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيثاً إمرأاً﴾ أي: عظيماً شنيعاً، وهذا من عدم صبره عليه السلام، فقال له الخضر: ﴿ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ أي: فوقع كما أخبرتك، وكان هذا من موسى نسياناً فقال: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً﴾ أي: لا تعسر علي الأمر واسمح لي، فإن ذلك وقع على وجه النسيان، فلا تؤاخذني في أول مرة. فجمع بين الإقرار به والعذر منه، وأنه ما ينبغي لك أيها الخضر الشدة على صاحبك، فسمح عنه الخضر.

﴿فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً﴾ أي: صغيراً ﴿فقتله﴾ الخضر، فاشتد بموسى الغضب، وأخذته الحمية الدينية، حين قتل غلاماً صغيراً لم يذنب ﴿قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيثاً نكراً﴾ أي: نكر مثل قتل الصغير، الذي ليس عليه ذنب، ولم يقتل أحداً؟! وكانت الأولى من موسى نسياناً، وهذه غير نسيان، ولكن عدم صبر، فقال له الخضر معاتباً ومذكراً: ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾

فقال [له] موسى: ﴿إن سألتك عن شيء﴾ بعد هذه المرة ﴿فلا تصاحبني﴾ أي: فأنت معذور بذلك، وبتترك صحبتي ﴿قد بلغت من لدني عذراً﴾ أي: أعذرت مني، ولم تقصر. ﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها﴾ أي: استضافاهم، فلم يضيفوهما ﴿فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ أي: قد عاب واستهدم ﴿فأقامه﴾ الخضر أي: بناه وأعادَه جديداً. فقال له موسى: ﴿لو شئت لأخذت عليه أجراً﴾ أي: أهل هذه القرية، لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، وأنت تبنيه من دون أجره، وأنت تقدر عليها؟ فحينئذ لم يف موسى عليه السلام بما قال، واستعذر

﴿فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً﴾ أي: صغيراً ﴿فقتله﴾ الخضر، فاشتد بموسى الغضب، وأخذته الحمية الدينية، حين قتل غلاماً صغيراً لم يذنب ﴿قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيثاً نكراً﴾ أي: نكر مثل قتل الصغير، الذي ليس عليه ذنب، ولم يقتل أحداً؟! وكانت الأولى من موسى نسياناً، وهذه غير نسيان، ولكن عدم صبر، فقال له الخضر معاتباً ومذكراً: ﴿ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾

فقال [له] موسى: ﴿إن سألتك عن شيء﴾ بعد هذه المرة ﴿فلا تصاحبني﴾ أي: فأنت معذور بذلك، وبتترك صحبتي ﴿قد بلغت من لدني عذراً﴾ أي: أعذرت مني، ولم تقصر. ﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها﴾ أي: استضافاهم، فلم يضيفوهما ﴿فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ أي: قد عاب واستهدم ﴿فأقامه﴾ الخضر أي: بناه وأعادَه جديداً. فقال له موسى: ﴿لو شئت لأخذت عليه أجراً﴾ أي: أهل هذه القرية، لم يضيفونا مع وجوب ذلك عليهم، وأنت تبنيه من دون أجره، وأنت تقدر عليها؟ فحينئذ لم يف موسى عليه السلام بما قال، واستعذر

ومنها: أن المسافر لطلب علم أو جهاد أو نحوه، إذا اقتضت المصلحة الإخبار بمطلبه، وأين يريده، فإنه أكمل من كتمه، فإن في إظهاره فوائد من الاستعداد له عدته، وإتيان الأمر على بصيرة، وإظهاراً لشرف هذه العبادة الجليلة، كما قال موسى: ﴿لَا أَرِحْ حَتَّى أَبْلُغَ بِجَمْعِ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضَى حَقْبًا﴾

وكما أخبر النبي ﷺ أصحابه حين غزا تبوك بوجهه، مع أن عادته الثورية، وذلك تبع للمصلحة .
ومنها: إضافة الشر وأسبابه إلى الشيطان، على وجه التسويل والتزيين، وإن كان الكل بقضاء الله وقدره، لقول نبي موسى: ﴿وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره﴾ .

ومنها: جواز إخبار الإنسان عما هو من مقتضى طبيعة النفس، من نصب أو جوع أو عطش، إذا لم يكن على وجه التسخط وكان صدقاً، لقول موسى: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً﴾

ومنها: استحباب كون خادم الإنسان، ذكياً فطناً كيساً، ليتم له أمره الذي يريد.

ومنها: استحباب إطعام الإنسان خادمه من مأكله، وأكلهما جميعاً، لأن ظاهر قوله: ﴿آتَا غَدَاءَنَا﴾ إضافة إلى الجميع، أنه أكل هو وهو جميعاً.

ومنها: أن المونة تنزل على العبد على حسب قيامه بالمأمور به، وأن الموافق لأمر الله، يعان ما لا يعان غيره لقوله: ﴿لقد لقينا من سفرنا هذا صَبَاً﴾ والإشارة إلى السفر المجاوز، لمجمع البحرين، وأما الأول، فلم يشتك منه التعب مع طوله، لأنه هو السفر على الحقيقة. وأما الأخير، فالظاهر أنه بعض يوم، لأنهم فقدوا الخوت حين أووا إلى الصخرة، فالظاهر أنهم باتوا عندها، ثم ساروا من الغد، حتى إذا جاء وقت الغداء قال موسى لفته: ﴿آتَا غَدَاَنَا﴾ فحينئذ تذكر أنه

إساءة إليهما، وقطع لذريتهما، فإن الله تعالى سيعطيهما من الذرية ما هو خير منه، ولهذا قال: ﴿فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً﴾ أي: ولدًا صالحًا، زكياً، واصلًا لرحمه، فإن الغلام الذي قتل لو بلغ لعقهما أشد العقوق بحملهما على الكفر والطغيان.

﴿وأما الجدار﴾ الذي أقمته ﴿فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً﴾ أي: حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحتهما، لكونهما صغيرين عداماً أباهما، وحفظهما الله أيضاً بصلاح والدهما.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ أي: فلهذا هدمت الجدار، واستخرجت ماتحته من كنزهما، وأعدته مجاًناً.

﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: هذا الذي فعلته رحمة من الله، أتاه الله عبده الخضر ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أي: أتيت^(١) شيئاً من قبل نفسي، وبمجرد إرادتي، وإنما ذلك من رحمة الله وأمره.

﴿ذلك﴾ الذي فسرت له لك ﴿تأويل﴾
 ما لم تسطع عليه صبراً
 وفي هذه القصة العجيبة الجليلية،
 من الفوائد والأحكام والقواعد شيء
 كثير، ننبه على بعضه بعون الله . فمنها
 فضيلة العلم، والرحلة في طلبه، وأنه
 أهم الأمور، فإن موسى عليه السلام
 رحل مسافة طويلة، ولقي النصب في
 طلبه، وترك القعود عند بني إسرائيل،
 لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفر
 لزيادة العلم على ذلك .

ومنها: البدء بالأهم فالأهم، فإن زيادة العلم وعلم الإنسان أهم من ترك ذلك، والاشتغال بالتعليم من دون تزود من العلم، والجمع بين الأمرين أكمل.

ومنها: جواز أخذ الخادم في الحضر والسفر لكفاية المؤنة وطلب الراحة، كما فعل موسى.

١٨ سورة النور
 ١٩
 ٢٠
 ٢١
 ٢٢
 ٢٣
 ٢٤
 ٢٥
 ٢٦
 ٢٧
 ٢٨
 ٢٩
 ٣٠
 ٣١
 ٣٢
 ٣٣
 ٣٤
 ٣٥
 ٣٦
 ٣٧
 ٣٨
 ٣٩
 ٤٠
 ٤١
 ٤٢
 ٤٣
 ٤٤
 ٤٥
 ٤٦
 ٤٧
 ٤٨
 ٤٩
 ٥٠
 ٥١
 ٥٢
 ٥٣
 ٥٤
 ٥٥
 ٥٦
 ٥٧
 ٥٨
 ٥٩
 ٦٠
 ٦١
 ٦٢
 ٦٣
 ٦٤
 ٦٥
 ٦٦
 ٦٧
 ٦٨
 ٦٩
 ٧٠
 ٧١
 ٧٢
 ٧٣
 ٧٤
 ٧٥
 ٧٦
 ٧٧
 ٧٨
 ٧٩
 ٨٠
 ٨١
 ٨٢
 ٨٣
 ٨٤
 ٨٥
 ٨٦
 ٨٧
 ٨٨
 ٨٩
 ٩٠
 ٩١
 ٩٢
 ٩٣
 ٩٤
 ٩٥
 ٩٦
 ٩٧
 ٩٨
 ٩٩
 ١٠٠

الخضر منه ، فقال له :

﴿هذا فراق بيني وبينك﴾ فإنك شرطت ذلك على نفسك، فلم يبق الآن عذر، ولا موضع للصحة، ﴿سأبنيك﴾ بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً أي: سأخبرك بما أنكرت عليّ، وأبنيك بما لي في ذلك من المآرب، وما يؤول إليه الأمر.

﴿أما السفينة﴾ التي خرقتها
﴿فكانت لمساكين يعملون في البحر﴾
يقتضي ذلك الرقة عليهم، والرأفة
بهم. ﴿فأردت أن أعيبها وكان وراءهم
ملك يأخذ كل سفينة غصبا﴾ أي: كان
مرورهم على ذلك الملك الظالم، فكل
سفينة صالحة تمر عليه ما فيها عيب
غصبها وأخذها ظلماً، فأردت أن
أخرقها ليكون فيها عيب، فتسلم من
ذلك الظالم.

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ﴾ الذي قتلته ﴿فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ فَخَشِينَا أَنْ يَرِيقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾. وكان ذلك الغلام قد قدر عليه أنه لو بلغ لأرحق أبويه طغياناً وكُفراً، أي: لحملهما على الطغيان والكفر، إما لأجل محبتهم إياه، أو للحاجة إليه أو يحدسها على ذلك، أي: فقُتلتَه، لاطلاعي على ذلك، سلامة لدين أبويه المؤمنين، وأي: فائدة أعظم من هذه الفائدة الجليلة!! وهو وإن كان فيه

نسيه في الموضع الذي إليه منتهى قصده .

ومنها : أن ذلك العبد الذي لقيه ، ليس نبياً ، بل عبداً صالحاً ، لأنه وصفه بالعبودية ، وذكر مئة الله عليه بالرحمة والعلم ، ولم يذكر رسالته ولا نبوته ، ولو كان نبياً ، لذكر ذلك كما ذكر غيره .

وأما قوله في آخر القصة : ﴿ وما فعلته عن أمري ﴾ فإنه لا يدل على أنه نبي ، وإنما يدل على الإلهام والتحديث ، كما يكون لغير الأنبياء ، كما قال تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ﴾ .

ومنها : أن العلم الذي يُعلَّمه الله [لعباده] ^(١) نوعان :

علم مكتسب يدركه العبد بجده واجتهاده . ونوع علم لدني ، يهبه الله لمن يمن عليه من عباده لقوله : ﴿ وعلمناه من لدنا علماً ﴾

ومنها : التأدب مع المعلم ، وخطاب المتعلم بإياه ألطف خطاب ، لقول موسى عليه السلام :

﴿ هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً ﴾ فأخرج الكلام بصورة الملاحظة والمشاورة ، وأنت هل تأذن لي في ذلك أم لا ، وإقراره بأنه يتعلم منه ، بخلاف ما عليه أهل الجفاء أو الكبر ، الذي لا يظهر للمعلم افتقاره إلى علمه ، بل يدعي أنه يتعاون هو وإياه ، بل ربما ظن أنه يعلم معلمه ، وهو جاهل جداً ، فالذل للمعلم ، وإظهار الحاجة إلى تعليمه ، من أنفع شيء للمتعلم .

ومنها : تواضع الفاضل للتعلم ممن دونه ، فإن موسى - بلا شك - أفضل من الخضر .

ومنها : تعلم العالم الفاضل للعلم الذي لم يتمهر فيه ، ممن مهر فيه ، وإن كان دونه في العلم بدرجات كثيرة .

فإن موسى عليه السلام من أولي العزم من المرسلين ، الذين منحهم الله وأعطاهم من العلم ما لم يعط سواهم ، ولكن في هذا العلم الخاص كان عند الخضر ما ليس عنده ، فلماذا حرص على التعلم منه .

فعل هذا ، لا ينبغي للفقهاء المحدث ، إذا كان قاصراً في علم النحو ، أو الصرف ، أو نحوه من العلوم ، أن لا يتعلمه ممن مهر فيه ، وإن لم يكن محدثاً ولا فقيهاً .

ومنها : إضافة العلم وغيره من الفضائل لله تعالى ، والإقرار بذلك ، وشكر الله عليها لقوله :

﴿ تعلمن مما علمت ﴾ أي : مما علمك الله تعالى .

ومنها : أن العلم النافع ، هو العلم المرشد إلى الخير ، فكل علم يكون فيه رشد وهداية لطرق ^(٢) الخير ، وتحذير عن طريق الشر ، أو وسيلة لذلك ، فإنه من العلم النافع ، وما سوى ذلك ، فإما أن يكون ضاراً ، أو ليس فيه فائدة لقوله : ﴿ أن تعلمن مما علمت رشداً ﴾

ومنها : أن من ليس له قوة الصبر على صحبة العالم والعلم ، وحسن الثبات على ذلك ، أنه يفوته بحسب عدم صبره كثير من العلم ^(٣) ، فمن لا صبر له لا يدرك العلم ، ومن استعمل الصبر ولازمه ، أدرك به كل أمر سعى فيه ، لقول الخضر - يعتذر من موسى بذكر المانع لموسى من الأخذ عنه - إنه لا يصبر معه .

ومنها : أن السبب الكبير لحصول الصبر ، إحاطة الإنسان علماً وخبرة بذلك الأمر الذي أمر بالصبر عليه ، وإلا فالذي لا يدريه ، أو لا يدري غايته ولا نتيجته ، ولا فائدته وثمرته ليس عنده سبب الصبر لقوله : ﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به ﴾ خبراً . فجعل الموجب لعدم صبره ، عدم إحاطته خبراً بالأمر .

ومنها : الأمر بالتأني والتثبت ، وعدم المبادرة إلى الحكم على الشيء ، حتى يعرف ما يراد منه ، وما هو المقصود .

ومنها : تعليق الأمور المستقبلية التي من أفعال العباد بالمشيئة ، وأن لا يقول الإنسان للشيء : إني فاعل ذلك في المستقبل ، إلا أن يقول : « إن شاء الله » .

ومنها : أن العزم على فعل الشيء ، ليس بمنزلة فعله ، فإن موسى قال : ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ﴾ فوطن نفسه على الصبر ولم يفعل .

ومنها : أن المعلم إذا رأى المصلحة في إيزاعه للمتعلم أن يترك الابتداء في السؤال عن بعض الأشياء ، حتى يكون المعلم هو الذي يوقفه عليها ، فإن المصلحة تنبع ، كما إذا كان فهمه قاصراً ، أو نهاه عن الدقيق في سؤال الأشياء التي غيرها أهم منها ، أو لا يدركها ذهنه ، أو يسأل سؤلاً ، لا يتعلق في موضوع البحث .

ومنها : جواز ركوب البحر ، في غير الحالة التي يخاف منها .

ومنها : أن الناسي غير مؤاخذ بنسيانه ، لا في حق الله ، ولا في حقوق العباد ، لقوله : ﴿ لا تؤاخذني بما نسيت ﴾

ومنها : أنه ينبغي للإنسان أن يأخذ من أخلاق الناس ومعاملاتهم ، العفو منها ، وما سمحت به أنفسهم ، ولا ينبغي له أن يكلفهم ما لا يطيقون ، أو يشق عليهم ويرهقهم ، فإن هذا مدعاة إلى الثغور منه والسامة ، بل يأخذ المتيسر ليتيسر له الأمر .

ومنها : أن الأمور تجري أحكامها على ظاهرها ، وتعلق بها الأحكام الدنيوية في الأموال والدماء وغيرها ، فإن موسى عليه السلام أنكز على الخضر خرقة السفينة ، وقتل الغلام ، وأن هذه الأمور ظاهرها أنها من المنكر ، وموسى عليه السلام لا يسعه

(١) زيادة من هامش : ب .

(٢) في ب : لطريق .

(٣) بدلاً من الجملة : (أنه يفوته . . . كثير من العلم) جاء في ب : (أنه ليس بأهل لتلقي العلم) وجاءت هذه الجملة في : أ مشطوبة .

السكوت عنها، في غير هذه الحال التي سحب عليها الخضر، فاستعجل عليه السلام وبادر إلى الحكم في حالتها العامة، ولم يلتفت إلى هذا العارض، الذي يوجب عليه الصبر، وعدم المبادرة إلى الإنكار.

ومنها: القاعدة الكبيرة الجليلة وهو أنه: «يدفع الشر الكبير بارتكاب الشر الصغير» ويراعي أكبر المصلحتين بتفويت أدناهما، فإن قتل الغلام شر، ولكن بقاءه حتى يفتن أبويه عن دينهما أعظم شراً منه، وبقاء الغلام من دون قتل وعصمته، وإن كان يظن أنه خير، فالخير ببقاء دين أبويه وإيمانها خير من ذلك، فلذلك قتله الخضر، وتحت هذه القاعدة من الفروع والفوائد ما لا يدخل تحت الحصر، فتزاحم المصالح والمفاسد كلها داخل في هذا.

ومنها: القاعدة الكبيرة أيضاً وهي أن: «عمل الإنسان في مال غيره، إذا كان على وجه المصلحة وإزالة المفسدة، أنه يجوز، ولو بلا إذن، حتى ولو ترتب على عمله إتلاف بعض مال الغير» كما خرق الخضر السفينة لتعيب، فتسلم من غضب الملك الظالم. فعلى هذا لو وقع حرق، أو غرق، أو نحوهما في دار إنسان أو ماله، وكان إتلاف بعض المال، أو هدم بعض الدار فيه سلامة للباقي جاز للإنسان، بل شرع له ذلك، حفظاً لمال الغير، وكذلك لو أراد ظالم أخذ مال الغير، ودفع إليه إنسان بعض المال افتداء للباقي جاز، ولو من غير إذن.

ومنها: أن العمل يجوز في البحر، كما يجوز في البر لقوله: «يعملون في البحر» ولم ينكر عليهم عملهم.

ومنها: أن المسكين قد يكون له مال لا يبلغ كفايته، ولا يخرج بذلك عن اسم المسكينة، لأن الله أخبر أن هؤلاء المساكين لهم سفينة.

ومنها: أن القتل من أكبر الذنوب لقوله في قتل الغلام: «لقد جئت شيئاً نكراً».

ومنها: أن القتل قصاصاً غير منكراً لقوله: «بغير نفس».

ومنها: أن العبد الصالح يحفظه الله في نفسه، وفي ذريته.

ومنها: أن خدمة الصالحين، أو من يتعلق بهم، أفضل من غيرها، لأنه علل استخراج كنزهما، وإقامة جدارهما، أن أباهما صالح.

ومنها: استعمال الأدب مع الله تعالى في الألفاظ، فإن الخضر أضاف عيب السفينة إلى نفسه، بقوله: «فأردت أن أعيبها». وأما الخير، فأضافه إلى الله تعالى، لقوله: «فأراد ربك أن يبلغنا أشدها ويستخرجنا من رحمته من ربك» كما قال إبراهيم عليه السلام: «وإذا مرضت فهو يشفين» وقالت الجن: «وأنأ لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشداً» مع أن الكل بقضاء الله وقدره.

ومنها: أنه ينبغي للمصاحب أن لا يفارق صاحبه في حالة من الأحوال، ويترك صحبته حتى يعتبه، ويعذر منه، كما فعل الخضر مع موسى.

ومنها: أن موافقة المصاحب لصاحبه، في غير الأمور المحذورة، مدعاة وسبب لبقاء الصحبة وتأكدها، كما أن عدم الموافقة سبب لقطع المرافقة.

ومنها: أن هذه القضايا التي أجراها الخضر هي قدر محض أجراها الله وجعلها على يد هذا العبد الصالح، ليستدل العباد بذلك على لطافه في أقضيته، وأنه يقدر على العبد أموراً يكرهها جداً، وهي صلاح دينه، كما في قضية الغلام، أو وهي صلاح دنياه كما في قضية السفينة، فأراهم نموذجاً من لطفه وكرمه، ليعرفوا ويرضوا غاية الرضا بأقداره المكرومة.

﴿٨٣ - ٨٨﴾ «ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً * إنا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً * فأتبع سبباً * حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً * قال أما من ظلم فسوف

نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً * وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً» كان أهل الكتاب أو المشركون، سألوا رسول الله ﷺ عن قصة ذي القرنين، فأمره الله أن يقول: «سأتلو عليكم منه ذكراً» فيه نبأ مفيد، وخطاب عجيب.

أي: سأتلو عليكم من أحواله، ما يتذكر فيه، ويكون عبرة، وأما ما سوى ذلك من أحواله، فلم يتله عليهم. «إنا مكنا له في الأرض» أي: ملكه الله تعالى، ومكنه من النفوذ في أقطار الأرض، وإقيادهم له. «وآتيناه من كل شيء سبباً * فأتبع سبباً» أي: أعطاه الله من الأسباب الموصلة له لما وصل إليه، ما به يستعين على قهر البلدان، وسهولة الوصول إلى أقاصي العمران، وعمل بتلك الأسباب التي أعطاه الله إياها، أي: استعملها على وجهها، فليس كل من عنده شيء من الأسباب يسلكه، ولا كل أحد يكون قادراً على السبب، فإذا اجتمع القدرة على السبب الحقيقي والعمل به، حصل المقصود، وإن عدما أو أحدهما لم يحصل.

وهذه الأسباب التي أعطاه الله إياها، لم نغيرنا الله ولا رسوله بها، ولم تتناقلها الأخبار على وجه يفيد العلم، فلهذا لا يسعنا غير السكوت عنها، وعدم الالتفات لما يذكره النقلة للإسرائيليات ونحوها، ولكننا نعلم بالجملة أنها أسباب قوية كثيرة، داخلية وخارجية، بها صار له جند عظيم، ذو عذو وعُدو ونظام، وبه تمكن من قهر الأعداء، ومن تسهيل الوصول إلى مشارق الأرض ومغاربها وأنحائها، فأعطاه الله ما بلغ به مغرب الشمس، حتى رأى الشمس في مرأى العين، كأنها تغرب في عين حمئة، أي: سوداء، وهذا المعتاد لمن كان بينه وبين أفق الشمس الغربي ماء، رآها تغرب في نفس الماء وإن كانت في غاية الارتفاع، ووجد عندها، أي: عند مغربها قوماً «قلنا يا ذا القرنين إما أن



من دونها سترًا ﴿أي: وجدها تطلع على أناس ليس لهم ستر من الشمس، إما لعدم استعدادهم في المساكن، وذلك لزيادة همجيتهم وتوحشهم، وعدم تمذنتهم، وإما لكون الشمس دائمة عندهم، لا تغرب عنهم غروبًا يذكر، كما يوجد ذلك في شرقي أفريقيا الجنوبي، فوصل إلى موضع انقطع عنه علم أهل الأرض، فضلًا عن وصولهم إياه بأبدانهم، ومع هذا، فكل هذا بتقدير الله له، وعلمه به، ولهذا قال: ﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرًا﴾ أي: أحطنا بما عنده من الخير والأسباب العظيمة وعلمنا معه، حيثما توجه وسار.

تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنًا ﴿أي: إما أن تعذبهم بقتل، أو ضرب، أو أسر ونحوه، وإما أن تحسن إليهم، فخير بين الأمرين، لأن الظاهر أنهم إما كفار أو فساق، أو فيهم شيء من ذلك، لأنهم لو كانوا مؤمنين غير فساق، لم يُرخص له في تعذيبهم، فكان عند ذي القرنين من السياسة الشرعية ما استحق به المدح والثناء، لتوفيق الله له لذلك، فقال: سأجعلهم قسمين: ﴿أما من ظلم﴾ بالكفر ﴿فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابًا نكرًا﴾ أي: تحصل له العقوبتان، عقوبة الدنيا، وعقوبة الآخرة، ﴿وأما من آمن وعمل صالحًا فله جزاء الحسنى﴾ أي: فله الجنة والحالة الحسنة عند الله جزاء يوم القيامة، ﴿وستقول له من أمرنا يسرًا﴾ أي: وسنحسن إليه، ولنلطف له بالقول، ونيسر له المعاملة، وهذا يدل على كونه من الملوك الصالحين والأولياء العادلين العالمين، حيث وافق مرضاة الله في معاملة كل أحد، بما يليق بحاله.

﴿٨٩-٩٨﴾ ثم اتبع سبباً *

حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترًا * كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً * ثم اتبع سبباً * حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً * قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً * قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً * أتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله نارا قال أتوني أفرغ عليه قطراً * فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقباً * قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً * أي: لما وصل إلى مغرب الشمس كثر راجعاً، قاصداً مطلعها، متبعاً للأسباب التي أعطاها الله، فوصل إلى مطلع الشمس فوجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم

ربه على تمكينه واقتداره، فقال لهم: ﴿ما مكني فيه ربي خير﴾ أي: عما تبذلون لي وتعطوني، وإنما أطلب منكم أن تعينوني بقوة منكم بأيديكم ﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾ أي: مانعاً من عبورهم عليكم.

﴿أتوني زبر الحديد﴾ أي: قطع الحديد. فأعطوه ذلك.

﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ أي: الجبلين اللذين بني بينهما السد ﴿قال انفخوا﴾ النار أي: أوقدوها إيقاداً عظيماً، واستعملوا لها المنافع لتشتد، فتذيب النحاس، فلما ذاب النحاس، الذي يريد أن يصبه بين زبر الحديد ﴿قال أتوني أفرغ عليه قطراً﴾ أي: نحاساً مذاباً، فأفرغ عليه القطر، فاستحكم السد استحكاماً هائلاً، وامتنع به من وراءه من الناس، من ضرر يأجوج ومأجوج.

﴿فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقباً﴾ أي: فما لهم استطاعة، ولا قدرة على الصعود عليه لارتفاعه، ولا على نقبه لإحكامه وقوته، فلما فعل هذا الفعل الجميل والأثر الجليل، أضاف النعمة إلى مولياها وقال: ﴿هذا رحمة مني ربي﴾ أي: من فضله وإحسانه علي، وهذه حال الخلفاء الصالحين، إذا من الله عليهم بالنعمة الجليلة، ازداد شكرهم وإقرارهم، واعترفهم بنعمة الله، كما

﴿ثم اتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين﴾ قال المفسرون: ذهب متوجهاً من المشرق، قاصداً للشمال، فوصل إلى ما بين السدين، وهما سدان، كانا سلاسل جبال معروفين في ذلك الزمان، سداً بين يأجوج ومأجوج وبين الناس، وجد من دون السدين قوماً لا يكادون يفقهون قولاً، لعجمة ألسنتهم، واستعجاب أذهانهم وقلوبهم، وقد أعطى الله ذا القرنين من الأسباب العلمية، ما فقه به السنة أولئك القوم وفقهم، وراجعهم وراجعوه، فاشتكوا إليه ضرر يأجوج ومأجوج، وهما: أمتان عظيمتان من بني آدم، فقالوا:

﴿إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض﴾ بالقتل وأخذ الأموال وغير ذلك.

﴿فهل نجعل لك خرجاً﴾ أي: جُعلاً ﴿على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾ ودل ذلك على عدم اقتدارهم بأنفسهم على بنيان السد، وعرفوا اقتدار ذي القرنين عليه، فبدلوا له أجره ليفعل ذلك، وذكروا له السبب الداعي، وهو: إفسادهم في الأرض، فلم يكن ذو القرنين ذا طمع، ولا رغبة في الدنيا، ولا تاركاً لإصلاح أحوال الرعية، بل كان قصده الإصلاح، فلذلك أجاب طلبتهم لما فيها من المصلحة، ولم يأخذ منهم أجره، وشكر

والأولياء شركاء الله يعبدونهم،
ويزعمون أنهم يكونون لهم أولياء،
ينجونه من عذاب الله، وينيلونهم
ثوابه، وهم قد كفروا بالله وبرسله.

يقول الله لهم على وجه الاستفهام
الإنكاري المقرر بطلانه في العقول:
﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا
عبادي من دوني أولياء﴾ أي: لا يكون
ذلك ولا يوالي ولي الله معادياً لله أبداً،
فإن الأولياء موافقون لله في محبته
ورضاه، وسخطه وبغضه، فيكون على
هذا المعنى مشابهاً لقوله تعالى: ﴿ويوم
يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة
أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ قالوا
سبحانك أنت ولينا من دينهم.

فمن زعم أنه يتخذ ولي الله ولياً له،
وهو معاد لله، فهو كاذب، ويحتمل -
وهو الظاهر - أن المعنى: أفحسب
الكفار بالله، المنايذون لرسله، أن
يتخذوا من دون الله أولياء ينصرونهم،
وينفعونهم من دون الله، ويدفعون
عنهم الأذى؟ هذا حسان باطل، وظن
فاسد، فإن جميع المخلوقين، ليس
بيدهم من النفع والضرر، شيء،
ويكون هذا كقوله تعالى: ﴿قل ادعوا
الذين زعمتم من دونه فلا يملكون
كشف الضر عنكم ولا تحويلاً﴾ ولا
يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة
ونحو ذلك من الآيات التي يذكر الله
فيها، أن المتخذ من دونه ولياً ينصره
ويواليه، ضال خائب الرجاء، غير نائل
لبعض مقصوده.

﴿إنا اعتدنا جهنم للكافرين نزلاً﴾
أي: ضيافة وقرى، فبئس النزل
نزلهم، وبئست جهنم ضيافتهم.

﴿١٠٣-١٠٦﴾ ﴿قل هل ننبئكم
بالأخسرين أعمالاً﴾ الذين ضل
سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون
أنهم يحسنون صنعاً * أولئك الذين
كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت
أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة
وزناً * ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا

في الصور فجمعناهم جمعاً وعرضنا
جهنم يومئذ للكافرين عرضاً الذين
كانت أعينهم في غطاء عن ذكرى
وكانوا لا يستطيعون سمعاً * أي: إذا
نفخ إسرافيل في الصور، أعاد الله
الأرواح إلى الأجساد، ثم حشرهم
وجمعهم لموقف القيامة، الأولين منهم
والآخرين، والكافرين والمؤمنين،
ليسألوا ويحاسبوا ويميزون بأعمالهم،
فأما الكافرون - على اختلافهم - فإن
جهنم جزاؤهم، خالدين فيها أبداً.

﴿١٠١﴾ ولهذا قال: ﴿وعرضنا
جهنم يومئذ للكافرين عرضاً﴾ كما قال
تعالى: ﴿وبرزت الجحيم للغاوين﴾^(١)
أي: عرضت لهم لتكون مأواهم
ومنزلهم، ولتتمتعوا بأغلالها
وسعيرها، وحميمها، وزمهريرها،
وليدوقوا من العقاب، ما تبكم له
القلوب، وتصفم الأذان، وهذا آثار
أعمالهم، وجزاء أفعالهم، فإنهم في
الدنيا ﴿كانت أعينهم في غطاء عن
ذكرى﴾ أي: معرضين عن الذكر
الحكيم، والقرآن الكريم، وقالوا:
﴿قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه﴾ وفي
أعينهم أغطية تمنعهم من رؤية آيات الله
النافعة، كما قال تعالى: ﴿وعلى
أبصارهم غشاوة﴾.

﴿وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾
أي: لا يقدرون على سماع آيات الله
الموصلة إلى الإيمان، لبغضهم القرآن
والرسول، فإن المبغض لا يستطيع أن
يلقي سمعه إلى كلام من أبغضه، فإذا
انحجبت عنهم طرق العلم والخير،
فليس لهم^(٢) سمع ولا بصر، ولا عقل
نافع، فقد كفروا بالله وجحدوا آياته،
وكذبوا رسله، فاستحقوا جهنم،
وساءت مصيراً.

﴿١٠٢﴾ ﴿أفحسب الذين كفروا
أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا
اعتدنا جهنم للكافرين نزلاً﴾ وهذا
برهان وبيان، لبطلان دعوى المشركين
الكافرين، الذين اتخذوا بعض الأنبياء



قال سليمان عليه السلام، لما حضر
عنده عرش ملكة سبأ مع البعد
العظيم، قال: ﴿هذا من فضل ربي
ليبلوني أشكر أم أكفر﴾ بخلاف أهل
التجبر والتكبر والعلو في الأرض فإن
النعم الكبار تزيدهم أشراً وبطراً.

كما قال قارون - لما آتاه الله من
الكنوز، ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة
أولي القوة - قال: ﴿إنما أوتيته على
علم عندي﴾.

وقوله: ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ أي:
خروج يأجوج ومأجوج ﴿جعله﴾
أي: ذلك السد المحكم المتقن ﴿دكاً﴾
أي: دكه فانهدم، واستوى هو
والأرض ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾.

﴿٩٩﴾ ﴿وتركنا بعضهم يومئذ
يموج في بعض﴾ يحتمل أن الضمير،
يعود إلى يأجوج ومأجوج، وأنهم إذا
خرجوا على الناس - من كثرتهم
واستيعابهم للأرض كلها - ي موج
بعضهم ببعض، كما قال تعالى:
﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج
وهم من كل حذب ينسلون﴾. ويحتمل
أن الضمير يعود إلى الخلائق يوم
القيامة، وأنهم يجتمعون فيه فيكثر
ويموج بعضهم ببعض، من الأهوال
والزلازل العظام، بدليل قوله: ﴿ونفخ

(١) في النسختين: (وإذا الجحيم برزت) وهو سبق قلم.

(٢) في النسختين: له.

واخذوا آياتي ورسلي هزواً ﴿أي: قل يا محمد، للناس - على وجه التحذير والإنذار -: هل أخبركم بأخسر الناس أعمالاً على الإطلاق؟﴾ الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ﴿أي: بطل واضمححل كل ما عملوه من عمل، يحسبون أنهم محسنون في صنعه، فكيف بأعمالهم التي يعلمون أنها باطلة، وأنها محادة لله ورسله ومعاداة؟!﴾ فمن هم هؤلاء الذين خسرت أعمالهم، ف ﴿خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة؟ ألا ذلك هو الخسران المبين﴾.

﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه﴾ أي: جحدوا الآيات القرآنية والآيات العيانة، الدالة على وجوب الإيمان به وبملأنته، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر.

﴿فحبطت﴾ بسبب ذلك ﴿أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ لأن الوزن فائدته، مقابلة الحسنات بالسيئات، والنظر في الراجح منها والمرجوح، وهؤلاء لا حسنات لهم لعدم شرطها، وهو الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ لكن تعد أعمالهم وتحصى، ويقررون بها، ويغزون بها على رؤوس الأشهاد، ثم يعذبون عليها، ولهذا قال: ﴿ذلك جزاؤهم﴾ أي: حيوط أعمالهم، وأنه لا يقام لهم يوم القيامة، ﴿وزناً﴾ لحقارتهم وخستهم، بكفرهم بآيات الله، واتخاذهم آياته ورسله، هزواً يستهزئون بها، ويستخرون^(١) منها، مع أن الواجب في آيات الله ورسله، الإيمان التام بها، والتعظيم لها، والقيام بها أتم القيام، وهؤلاء عكسوا القضية، فانعكس أمرهم، وتمسوا، وانتكسوا في العذاب. ولما بين مآل الكافرين وأعمالهم، بين أعمال المؤمنين ومآلهم فقال:

﴿١٠٧ - ١٠٨﴾ ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات

(١) في النسختين: ويستخرون.

(٢) كذا في أ، وفي ب: ومث.



على القلوب، فلو علم العباد بعض ذلك النعيم علماً حقيقياً يصل إلى قلوبهم، لطارت إليها قلوبهم بالاشواق، ولتقطعت أرواحهم من ألم الفراق، ولساروا إليها زرافات ووحداناً، ولم يؤثروا عليها دنيا فانية، ولذات منعصة متلاشية، ولم يفوتوا أوقاً تذهب ضائعة خاسرة، يقابل كل لحظة منها من النعيم من الحقب آلاف مؤلفة، ولكن الغفلة شملت، والإيمان ضعف، والعلم قل، والإرادة نفذت^(٢)، فكان ما كان، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقوله: ﴿خالدين فيها﴾ هذا هو تمام النعيم، إن فيها النعيم الكامل، ومن تمامه أنه لا ينقطع ﴿لا ييغون عنها حولاً﴾ أي: تحولاً ولا انتقالاً، لأنهم لا يرون إلا ما يعجبهم ويبهجهم، ويسرهم ويفرحهم، ولا يرون نعيماً فوق ما هم فيه.

﴿١٠٩﴾ ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً﴾ أي: قل لهم خبراً عن عظمة الباري، وسعة صفاته، وأنها لا يحيط العباد بشيء منها: ﴿لو كان البحر﴾ أي: هذه الأبحر الموجودة في العالم ﴿مداداً

ومعرفته، والسبب الموصل إليه. وذلك أن الله تعالى اجتنبى واصطفى زكريا عليه السلام لرسالته، وخصه بوحيه، فقام بذلك قيام أمثاله من المرسلين، ودعا العباد إلى ربه، وعلمهم ما علمه الله، ونصح لهم في حياته وبعد مماته، كإخوانه من المرسلين ومن اتبعهم، فلما رأى من نفسه الضعف، وخاف أن يموت، ولم يكن أحد ينوب منابه في دعوة الخلق إلى ربه والنصح لهم، شكوا إلى ربه ضعفه الظاهر والباطن، وناداه نداء خفياً، ليكون أكمل وأفضل وأتم إخلاصاً، فقال:

﴿رب إني وهن العظم مني﴾ أي: وهى وضعف، وإذا ضعف العظم، الذي هو عماد البدن، ضعف غيره، واشتعل الرأس شيباً، لأن الشيب دليل الضعف والكبر، ورسول الموت ورائده ونذيره، فتوسل إلى الله تعالى بضعفه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله، لأنه يدل على التبري من الخول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته.

﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ أي: لم تكن يا رب تردني خائباً ولا محروماً من الإجابة، بل لم تنزل بي حفيماً ولدعائي جيباً، ولم تنزل الطافك تنوياً عليّ، وإحسانك واصلأ إليّ، وهذا توسل إلى الله بإنعامه عليه، وإجابة دعواته السابقة، فسأل الذي أحسن سابقاً، أن يتم إحسانه لاحقاً.

﴿وإني خفت الموالي من ورائي﴾ أي: وإني خفت من يتولى على بني إسرائيل من بعد موتي، أن لا يقوموا بدينك حق القيام، ولا يدعوا عبادك إليك، وظاهر هذا، أنه لم ير فيهم أحداً فيه لياقة للإمامة في الدين، وهذا فيه شفقة زكريا عليه السلام ونصحه، وأن طلبه للولد، ليس كطلب غيره، قصده مجرد المصلحة الدنيوية، وإنما قصده مصلحة الدين، والخوف من ضياعه، ورأى غيره غير صالح لذلك، وكان بيته من البيوت المشهورة في الدين، ومعدن الرسالة، ومظنة للخير، فدعا الله أن يرزقه ولداً، يقوم بالدين

﴿قل﴾ يا محمد للكفار وغيرهم: ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ أي: لست بالله، ولا لي شركة في الملك، ولا علم بالغيب، ولا عندي خزانة الله، و ﴿إنما أنا بشر مثلكم﴾ عبد من عبيد ربي، ﴿يوحى إلي أنما الإلهكم إله واحد﴾ أي: فضلت عليكم بالوحي، الذي يوحى الله إلي، الذي أجله الإخبار لكم: أنما الإلهكم إله واحد، أي: لا شريك له، ولا أحد يستحق من العبادة مثقال ذرة غيره، وأدعوكم إلى العمل الذي يقربكم منه، وينيلكم ثوابه، ويدفع عنكم عقابه. ولهذا قال:

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً﴾ وهو الموافق لشرع الله، من واجب ومستحب، ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي: لا يراني بعمله، بل يعمل خالصاً لوجه الله تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك، فإنه خاسر في دنياه وآخرها، وقد فاتته القرب من مولاه ونيل رضاه.

آخر تفسير سورة الكهف، والله الحمد

تفسير سورة مريم وهي مدنية

﴿١-٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم كهيعص﴾ ذكر رحمة ربك عبده زكريا * إذ نادى ربه نداء خفياً * قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً * وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتى عاقراً فهب لي من لدنك ولياً * يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً * أي: هذا ذكر رحمة ربك عبده زكريا * سنقصه عليك، ونفصله تفصيلاً يعرف به حالة نبيه زكريا، وأثاره الصالحة، ومناقبه الجميلة، فإن في قصصها عبرة للمعتبرين، وأسوة للمقتدين، ولأن في تفصيل رحمته لأولياته، وبأي سبب حصلت لهم، مما يدعو إلى محبة الله تعالى، والإكثار من ذكره



لكلمات ربي. أي: وأشجار الدنيا من أولها إلى آخرها، من أشجار البلدان والبراري، والبحار أقلام، لننفذ البحر، وتكسرت الأقلام قبل أن تنفذ كلمات ربي. وهذا شيء عظيم، لا يحيط به أحد.

وفي الآية الأخرى: ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾. وهذا من باب تقريب المعنى إلى الأذهان، لأن هذه الأشياء مخلوقة، وجميع المخلوقات منقضية منتهية، وأما كلام الله فإنه من جملة صفاته، وصفاته غير مخلوقة، ولا لها حد ولا منتهى، فأني سعة وعظمة تصورتها القلوب فالله فوق ذلك، وهكذا سائر صفات الله تعالى، كعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته، فلو جمع علم الخلائق من الأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، لكان بالنسبة إلى علم العظيم، أقل من نسبة عصفور وقع على حافة البحر، فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته، ذلك بأن له الصفات العظيمة الواسعة الكاملة، وأن إلى ربك المنتهى.

﴿١١٠﴾ ﴿قل﴾ إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما الإلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي:



لم يكن عاقاً، ولا مسيناً إلى أبيه، بل كان محسناً إليهما بالقول والفعل .

﴿ولم يكن جباراً عصبياً﴾ أي : لم يكن متجبراً متكبراً عن عبادة الله، ولا مترفعاً على عباد الله، ولا على والديه، بل كان متواضعاً، متذللاً، مطيعاً، أواباً لله على الدوام، فجمع بين القيام بحق الله، وحق خلقه، ولهذا حصلت له السلامة من الله، في جميع أحواله، مبادئها وعواقبها، فلماذا قال : ﴿وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ وذلك يقتضي سلامته من الشيطان، والشر، والعقاب في هذه الأحوال الثلاثة وما بينها، وأنه سالم من النار والأموال، ومن أهل دار السلام، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى والده وعلى سائر المرسلين، وجعلنا الله من أتباعهم، إنه جواد كريم .

﴿١٦ - ٢١﴾ واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً * فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سوياً * قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً * قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغياً * قال كذلك قال ربك هو على هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمراً مقضياً * لما ذكر قصة زكريا ويحيى، وكانت من الآيات العجيبة،

وانتقل منها إلى ما هو أعجب منها، تدريجاً من الأدنى إلى الأعلى فقال : ﴿واذكر في الكتاب﴾ الكريم ﴿مريم﴾ عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعيها الكامل، أي : واذكر في الكتاب مريم، في حالها الحسنة، حين انتبذت : أي : تباعدت عن أهلها مكاناً شرقياً : أي : مما يلي الشرق عنهم، فاتخذت من دونهم حجاباً : أي : سترأ وامنعاً، وهذا التباعد منها، واتخاذ الحجاب،

انتعزل، وتنفرد بعبادة ربها، وتقتل له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى، وذلك امتثال منها لقوله تعالى : ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ وقوله : ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ وهو : جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي : كاملاً من الرجال، في صورة جميلة، وهيئة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص، لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه، فلما رآته في هذه الحال، وهي معترلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد اتخذت الحجاب عن أعز الناس عليها وهم أهلها، خافت أن يكون رجلاً قد تعرض لها بسوء، وطمع فيها، فاعتصمت بربها، واستعاذت منه فقالت له : ﴿إني أعوذ بالرحمن منك﴾ أي : ألتجئ به واعتصم برحمته، أن تتلني بسوء، ﴿إن كنت تقياً﴾ أي : إن كنت تخاف الله، وتعمل بتقواه، فاترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام بربها، وبين تخويفه وترهيبه، وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر، والبشرية الكاملة السوية، ولم يطق لها بسوء، أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها،

وانتقل منها إلى ما هو أعجب منها، تدريجاً من الأدنى إلى الأعلى فقال : ﴿واذكر في الكتاب﴾ الكريم ﴿مريم﴾ عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعيها الكامل، أي : واذكر في الكتاب مريم، في حالها الحسنة، حين انتبذت : أي : تباعدت عن أهلها مكاناً شرقياً : أي : مما يلي الشرق عنهم، فاتخذت من دونهم حجاباً : أي : سترأ وامنعاً، وهذا التباعد منها، واتخاذ الحجاب، انتعزل، وتنفرد بعبادة ربها، وتقتل له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى، وذلك امتثال منها لقوله تعالى : ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ وقوله : ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ وهو : جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي : كاملاً من الرجال، في صورة جميلة، وهيئة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص، لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه، فلما رآته في هذه الحال، وهي معترلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد اتخذت الحجاب عن أعز الناس عليها وهم أهلها، خافت أن يكون رجلاً قد تعرض لها بسوء، وطمع فيها، فاعتصمت بربها، واستعاذت منه فقالت له : ﴿إني أعوذ بالرحمن منك﴾ أي : ألتجئ به واعتصم برحمته، أن تتلني بسوء، ﴿إن كنت تقياً﴾ أي : إن كنت تخاف الله، وتعمل بتقواه، فاترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام بربها، وبين تخويفه وترهيبه، وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر، والبشرية الكاملة السوية، ولم يطق لها بسوء، أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها،

وانتقل منها إلى ما هو أعجب منها، تدريجاً من الأدنى إلى الأعلى فقال : ﴿واذكر في الكتاب﴾ الكريم ﴿مريم﴾ عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعيها الكامل، أي : واذكر في الكتاب مريم، في حالها الحسنة، حين انتبذت : أي : تباعدت عن أهلها مكاناً شرقياً : أي : مما يلي الشرق عنهم، فاتخذت من دونهم حجاباً : أي : سترأ وامنعاً، وهذا التباعد منها، واتخاذ الحجاب،

انتعزل، وتنفرد بعبادة ربها، وتقتل له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى، وذلك امتثال منها لقوله تعالى : ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ وقوله : ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ وهو : جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي : كاملاً من الرجال، في صورة جميلة، وهيئة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص، لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه، فلما رآته في هذه الحال، وهي معترلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد اتخذت الحجاب عن أعز الناس عليها وهم أهلها، خافت أن يكون رجلاً قد تعرض لها بسوء، وطمع فيها، فاعتصمت بربها، واستعاذت منه فقالت له : ﴿إني أعوذ بالرحمن منك﴾ أي : ألتجئ به واعتصم برحمته، أن تتلني بسوء، ﴿إن كنت تقياً﴾ أي : إن كنت تخاف الله، وتعمل بتقواه، فاترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام بربها، وبين تخويفه وترهيبه، وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر، والبشرية الكاملة السوية، ولم يطق لها بسوء، أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها،

وانتقل منها إلى ما هو أعجب منها، تدريجاً من الأدنى إلى الأعلى فقال : ﴿واذكر في الكتاب﴾ الكريم ﴿مريم﴾ عليها السلام، وهذا من أعظم فضائلها، أن تذكر في الكتاب العظيم، الذي يتلوه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، تذكر فيه بأحسن الذكر، وأفضل الثناء، جزاء لعملها الفاضل، وسعيها الكامل، أي : واذكر في الكتاب مريم، في حالها الحسنة، حين انتبذت : أي : تباعدت عن أهلها مكاناً شرقياً : أي : مما يلي الشرق عنهم، فاتخذت من دونهم حجاباً : أي : سترأ وامنعاً، وهذا التباعد منها، واتخاذ الحجاب، انتعزل، وتنفرد بعبادة ربها، وتقتل له في حالة الإخلاص والخضوع والذل لله تعالى، وذلك امتثال منها لقوله تعالى : ﴿وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين * يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين﴾ وقوله : ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ وهو : جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي : كاملاً من الرجال، في صورة جميلة، وهيئة حسنة، لا عيب فيه ولا نقص، لكونها لا تحتمل رؤيته على ما هو عليه، فلما رآته في هذه الحال، وهي معترلة عن أهلها، منفردة عن الناس، قد اتخذت الحجاب عن أعز الناس عليها وهم أهلها، خافت أن يكون رجلاً قد تعرض لها بسوء، وطمع فيها، فاعتصمت بربها، واستعاذت منه فقالت له : ﴿إني أعوذ بالرحمن منك﴾ أي : ألتجئ به واعتصم برحمته، أن تتلني بسوء، ﴿إن كنت تقياً﴾ أي : إن كنت تخاف الله، وتعمل بتقواه، فاترك التعرض لي، فجمعت بين الاعتصام بربها، وبين تخويفه وترهيبه، وأمره بلزوم التقوى، وهي في تلك الحالة الخالية، والشباب، والبعد عن الناس، وهو في ذلك الجمال الباهر، والبشرية الكاملة السوية، ولم يطق لها بسوء، أو يتعرض لها، وإنما ذلك خوف منها،

تقول: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ فلما أشارت إليهم بتكليمه، تعجبوا من ذلك وقالوا: ﴿كيف نكلم من كان في المهد صبياً﴾ لأن ذلك لم تجر به عادة، ولا حصل من أحد في ذلك السن، فحينئذ قال عيسى عليه السلام، وهو في المهد صبي: ﴿إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ فخطبهم بوصفه بالعبودية، وأنه ليس فيه صفة يستحق بها أن يكون إلهاً، أو ابناً للإله، تعالى الله عن قول النصارى المخالفين لعيسى في قوله ﴿إني عبد الله﴾ ومدعون موافقته.

﴿آتاني الكتاب﴾ أي: قضى أن يؤتيني الكتب ﴿وجعلني نبياً﴾ فأخبرهم بأنه عبد الله، وأن الله علمه الكتاب، وجعله من جملة أنبيائه، فهذا من كماله لنفسه، ثم ذكر تكليمه لغيره فقال: ﴿وجعلني مباركا أينما كنت﴾ أي: في أي مكان، وأي زمان، فالبركة جعلها الله في تعليم الخير والدعوة إليه، والنهي عن الشر، والدعوة إلى الله في أقواله وأفعاله، فكل من جالسه، أو اجتمع به، نالته بركته، وسعد به مصاحبه.

﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ أي: أوصاني بالقيام بحقوقه، التي من أعظمها الصلاة، وحقوق عباده، التي أجلها الزكاة، مدة حياتي، أي: فأنما تمثل لوصية ربي، عامل عليها، منفذ لها، ووصاني أيضاً، أن أبر والدتي فأحسن إليها غاية الإحسان، وأقوم بما ينبغي لها، لشرفها وفضلها، ولكونها والدة لها حق الولادة وتوابعها.

﴿ولم يجعلني جباراً﴾ أي: متكبراً على الله، مترفعاً على عباده ﴿شقياً﴾ في دنياي أو أخراي، فلم يجعلني كذلك بل جعلني مطيعاً له خاضعاً خاشعاً متذللاً، متواضعاً لعباد الله، سعيداً في الدنيا والآخرة، أنا ومن اتبعني، فلما تم له الكمال، ومحمد الخصال قال: ﴿والسلام علي يوم

الناس لا يصدقونها، ولا فيه فائدة، وليكون تبرئتها بكلام عيسى في المهد، أعظم شاهد على براءتها، فإن إتيان المرأة بولد من دون زوج، ودعواها أنه من غير أحد، من أكبر الدعاوى، التي لو أقسم عدة من الشهود، لم تصدق بذلك، فجعلت بينه هذا الخارق للعادة، أمراً من جنسه، وهو كلام عيسى في حال صغره جداً، ولهذا قال تعالى:

﴿٢٧-٣٣﴾ ﴿فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فرياً﴾ يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً * فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً * قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً * وجعلني مباركا أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً * وبرأ بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً * والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً * أي: فلما تелت مريم من نفاسها، أنت بعيسى قومها تحمله، وذلك لعلمها ببراءة نفسها وطهارتها، فأتت غير مبالية ولا مكترثة، فقالوا: ﴿لقد جئت شيئاً فرياً﴾ أي: عظيماً وخيماً، وأرادوا بذلك البغاء^(١)، حاشاها من ذلك، ﴿يا أخت هارون﴾ الظاهر، أنه أخ لها حقيقي، فنسبوا إليه، وكانوا يسمون بأسماء الأنبياء، وليس هو هارون بن عمران أخا موسى، لأن بينهما قروناً كثيرة، ﴿ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً﴾ أي: لم يكن أبوك إلا صالحين سالمين من الشر، وخصوصاً هذا الشر، الذي يشيرون إليه، وقصدهم: فكيف كنت على غير وصفهما؟ وأتيت بما لم يأتيا به؟، وذلك أن الذرية - في الغالب - بعضها من بعض، في الصلاح وضده، فتعجبوا - بحسب ما قام بقلوبهم - كيف وقع منها، فأشارت لهم إليه، أي: كلموه، وإنما أشارت لذلك، لأنها أمرت عند مخاطبة الناس لها، أن

﴿٢٢-٢٦﴾ ﴿فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً﴾ فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً * فنادها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً * وهزني إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً * فكلي واشربي وقري عينا فإما ترين من البشر أحداً فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً * أي: لما حملت بعيسى عليه السلام، خافت من الفضيحة، فتباعدت عن الناس مكاناً قصياً، فلما قرب ولادها، ألجأها المخاض إلى جذع نخلة، فلما ألها وجع الولادة، ووجع الانفراد عن الطعام والشراب، ووجع قلبها من حالة الناس، وخافت عدم صبرها، تمت أنها ماتت قبل هذا الحادث، وكانت نسياً منسياً فلا تذكر، وهذا التمني بناء على ذلك المزعج، وليس في هذه الأمنية خير لها ولا مصلحة، وإنما الخير والمصلحة بتقدير ما حصل، فحينئذ سكن الملك روعها وثبت جأشها ونادها من تحتها، لعله في مكان أنزل من مكانها، وقال لها: لا تحزني، أي: لا تجزعي ولا تهتمي، فـ ﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ أي: نهراً تشربين منه، ﴿وهزني إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً﴾ أي: طرياً لذيداً نافعاً ﴿فكلي﴾ من التمر، ﴿واشربي﴾ من النهر ﴿وقري عينا﴾ بعيسى، فهذا طمانينتها من جهة السلامة من ألم الولادة، وحصول الأكل والمشرب والهني.

وأما من جهة حالة الناس، فأمرها أنها إذا رأت أحداً من البشر، أن تقول على وجه الإشارة: ﴿إني نذرت للرحمن صوماً﴾ أي: سكوئاً ﴿فلن أكلم اليوم إنسياً﴾ أي: لا تخاطبهم بكلام لتستريجي من قولهم وكلامهم. وكان معروفاً عندهم أن السكوت من العبادات المشروعة، وإنما لم تؤمر بخطابهم في نفي ذلك عن نفسها لأن

(١) كذا في ب، وفي أ: البغي، وما في ب يبدو أنه معدل من البغي فصار (البغاء) هو الأقرب المتوافق مع القصة.

وأقولهم، ويقولون: ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ ففي القيامة، يستيقنون حقيقة ما هم عليه.

﴿لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾ وليس لهم عذر في هذا الضلال، لأنهم بين معاند ضال على بصيرة، عارف بالحق صادف عنه، وبين ضال عن طريق الحق، متمكن من معرفة الحق والصواب، ولكنه راض بضلاله وما هو عليه من سوء أعماله، غير ساع في معرفة الحق من الباطل، وتأمل كيف قال: ﴿فويل للذين كفروا﴾ بعد قوله ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ ولم يقل ﴿فويل لهم﴾ ليعود الضمير إلى الأحزاب، لأن من الأحزاب المختلفين، طائفة أصابت الصواب، ووافقت الحق، فقالت في عيسى: ﴿إنه عبد الله ورسوله﴾ فآمنوا به، واتبعوه، فهؤلاء مؤمنون، غير داخلين في هذا الوعيد، فلماذا خص الله بالوعيد الكافرين.

﴿٣٩-٤٠﴾ ﴿وانذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون﴾ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإنا يرجعون ﴿الإنذار هو: الإعلام بالخوف على وجه التهيب، والإخبار بصفاته، وأحق ما ينذر به ويخوف به العباد، يوم الحسرة حين يقضى الأمر، فيجمع الأولون والآخرون في موقف واحد، ويسألون عن أعمالهم، فمن آمن بالله، واتبع رسله، سعد سعادة لا يشقى بعدها، ومن لم يؤمن بالله ويتبع رسله شقى شقاوة لا سعادة^(١) بعدها، وخسر نفسه وأهله، فحينئذ يتحسر، ويندم ندامة تنقطع منها القلوب، وتنصدع منها الأفئدة، وأي: حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته، واستحقاق سخطه والنار، على وجه لا يتمكن من الرجوع ليستأنف العمل، ولا سبيل له إلى تغيير حاله بالعود إلى الدنيا؟ فهذا قدامهم، والحال أنهم في الدنيا في

ربي وربكم ﴿الذي خلقنا، وصورنا، ونفد فينا تدبيره، وصرفنا تقديره.

﴿فاعبدوه﴾ أي: أخلصوا له العبادة، واجتهدوا في الإنابة، وفي هذا الإقرار بتوحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، والاستدلال بالأول على الثاني، ولهذا قال: ﴿هذا صراط مستقيم﴾ أي: طريق معتدل، موصل إلى الله، لكونه طريق الرسول وأتباعهم، وما عدا هذا، فإنه من طرق الغي والضلال.

﴿٣٧-٣٨﴾ ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين ﴿لما بين تعالى حال عيسى ابن مريم الذي لا يُشك فيها ولا يمتري، أخبر أن الأحزاب، أي: فرق الضلال، من اليهود والنصارى وغيرهم، على اختلاف طبقاتهم اختلفوا في عيسى عليه السلام، فمن غال فيه وجاف، فممنهم من قال: إنه الله، وممنهم من قال: إنه ابن الله، وممنهم من قال: إنه ثالث ثلاثة وممنهم من لم يجعله رسلاً، بل رماه بأنه ولد بغى كاليهود. وكل هؤلاء أقوالهم باطلة، وآراؤهم فاسدة، مبنية على الشك والعناد، والأدلة الفاسدة، والشبه الكاسدة، وكل هؤلاء مستحقون للوعيد الشديد، ولهذا قال: ﴿فويل للذين كفروا﴾ بالله ورسله وكتبه، ويدخل فيهم اليهود والنصارى، القائلون بعيسى قول الكفر ﴿من مشهد يوم عظيم﴾ أي: مشهد يوم القيامة، الذي يشهده الأولون والآخرون، أهل السماوات وأهل الأرض، الخالق والمخلوق، الممتلئ بالزلازل والأحوال، المشتمل على الجزاء بالأعمال، فحينئذ يتبين ما كانوا يخفون ويبدون، وما كانوا يكتُمون.

﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾ أي: ما أسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم! فيقرون بكفرهم وشركهم

ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً ﴿أي: من فضل ربي وكرمه، حصلت لي السلامة يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم بعثي، من الشر والشيطان والعقوبة، وذلك يقتضي سلامته من الأحوال، ودار الفجار، وأنه من أهل دار السلام، فهذه معجزة عظيمة، وبرهان باهر، على أنه رسول الله، وعبد الله حقاً.

﴿٣٤-٣٦﴾ ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾ ما كان الله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أي: ذلك الموصوف بتلك الصفات، عيسى ابن مريم، من غير شك ولا مريبة، بل قول الحق وكلام الله، الذي لا أصدق منه قبلاً، ولا أحسن منه حديثاً، فهذا الخبر اليقيني عن عيسى عليه السلام، وما قبل فيه مما يخالف هذا، فإنه مقطوع ببطلانه، وغايته أن يكون شكاً من قائله لا علم له به، ولهذا قال: ﴿الذي فيه يمترون﴾ أي: يشكون فيمارون بشكهم، ويجادلون بخرصهم، فمن قائل عنه: إنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة، تعالى الله عن إفكهم وتقولهم علواً كبيراً، ف ﴿ما كان الله أن يتخذ من ولد﴾ أي: ما ينبغي ولا يليق، لأن ذلك من الأمور المستحيلة، لأنه الغني الحميد، المالك لجميع الممالك، فكيف يتخذ من عباده ومغاليكه ولداً؟! ﴿سبحانه﴾ أي: تنزهه وتقدس عن الولد والنقص، ﴿إذا قضى أمراً﴾ أي: من الأمور الصغار والكبار، لم يمتنع عليه ولم يستصعب ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ فإذا كان قدره ومشيتته نافذاً في العالم العلوي والسفلي، فكيف يكون له ولد؟! وإذا كان إذا أراد شيئاً قال له: ﴿كن فيكون﴾ فكيف يستبعد إيجاده عيسى من غير أب؟! ولهذا أخبر عيسى أنه عبد مربوب كغيره، فقال: ﴿وإن الله

وَدَعَيْتُهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَرَفَعْتُهُ يَدِي ۖ وَدَعَا اللَّهَ
مِنْ رَحْمَتِي أَنَّهُ هَذَا يَدِي ۖ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ أَمْرًا يُعْمَلُ
أَتَمَّكَانَ صِدْقًا الْوَغْدَ وَكَانَ رَسُولًا يَدِي ۖ وَكَانَ بِأَمْرِهِ
بِالْصَّلَاةِ وَالْحُكْمِ وَكَانَ عِدَّةَ رِيَّةٍ مَرِيَّةً ۖ وَأَذْكُرُ فِي
الْكِتَابِ إِذْ رَفَعْتُ لَكَ صِدْقًا يَدِي ۖ وَدَعَاكَ مَكَانًا
ۖ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَشْرَكَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْقِتَابَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَمَنْ
حَتَمَاسُ مَوْجٍ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمْ وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ عَدُوٌّ لَكَ ۖ وَكَانَ
إِنَّا نَقُولُ عَلَيْهِمْ ذَٰلِكَ الرَّغْوُ حَتَمًا وَكَانَ يَدِي ۖ وَكَانَ مِنْ
بَرِّهِمْ عَلَى الصَّلَاةِ وَالْحُكْمِ وَأَتَمَّكَانَ الشَّهْرَ وَشَقَّوْهُ بَلْعُونَ
يَدِي ۖ الْأَمْرُ تَابَ وَأَمْرٌ وَكَانَ صِدْقًا يَدِي ۖ وَكَانَ
الْحَقُّ لَا يَطْلُوهُ شَيْءٌ ۖ جَسَدِي عَدِي إِلَى رَفْعِ الْقُرْآنِ عِدَّةً
بِالْحَقِّ فَكُنَّا رَضَمًا مَائِي ۖ لَا يَسْمَعُونَ فِي الْقُلُوبِ إِلَّا السَّلَامَ
وَلَمْ يَكُنْ رَضَمًا مَائِي ۖ وَكَانَ الْحَقُّ يَدِي ۖ وَكَانَ الْحَقُّ يَدِي ۖ
مِنْ كَادَاتٍ مَكَانَ يَدِي ۖ وَمَا تَدْرَأُ إِلَّا بِأَمْرٍ وَكَانَ
مَائِي ۖ أَلَيْسَا وَمَا خَلَقْنَا وَمَا تَدْرَأُ وَمَا تَدْرَأُ لَيْسَا ۖ

عندي، بل قد أعطاني الله من العلم ما
لم يعطك، والمقصود من هذا قوله:
﴿فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾ أي:
مستقيماً معتدلاً، وهو: عبادة الله
وحده لا شريك له، وطاعته في جميع
الأحوال، وفي هذا من لطف الخطاب
وليته ما لا يخفى، فإنه لم يقل: «يا أبت
أنا عالم، وأنت جاهل» أو: «ليس
عندك من العلم شيء»، وإنما أتى
بصيغة تقتضي أن عندي وعندك علماً،
وأن الذي وصل إلي لم يصل إليك ولم
يأتك، فينبغي لك أن تتبع الحجة وتتقاد
لها.

﴿يا أبت لا تعبد الشيطان﴾ لأن من
عبد غير الله فقد عبد الشيطان، كما
قال تعالى: ﴿ألم أعهد إليكم يا بني آدم
أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو
مبين﴾.

﴿إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾
فمن اتبع خطواته، فقد اتخذه ولياً وكان
عاصياً لله بمنزلة الشيطان. وفي ذكر
إضافة العصيان إلى اسم الرحمن، إشارة
إلى أن المعاصي تمنع العبد من
رحمة الله، وتعلق عليه أبوابها، كما أن
الطاعة أكبر الأسباب لنيل رحمته،
ولهذا قال: ﴿يا أبت إنِّي أخاف أن
يمسك عذاب من الرحمن﴾ أي: بسبب
إصرارك على الكفر، وتماديك في
الطغيان فتكون للشيطان ولياً أي:
في الدنيا والآخرة، فتنزل بمنزلة

ورفع قدرهم، وأعلو أمرهم، بسبب ما
قاموا به، من عبادة الله ومحبة،
والإنابة إليه، والقيام بحقوقه، وحقوق
العباد، ودعوة الخلق إلى الله، والصبر
على ذلك، والمقامات الفاخرة، والمنازل
العالية، فذكر الله في هذه السورة جملة
من الأنبياء، يأمر الله رسوله أن
يذكرهم، لأن في ذكرهم إظهار الشناء
على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه
إليهم، وفيه الحث على الإيمان بهم
ومحبتهم، والاقتران بهم، فقال:
﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان
صديقاً نبياً﴾ جمع الله له بين الصديقية
والنبوة.

فالصديق: كثير الصدق، فهو
الصادق في أقواله وأفعاله وأحواله،
المصدق بكل ما أمر بالتصديق به،
وذلك يستلزم العلم العظيم الواصل إلى
القلب، المؤثر فيه، الموجب لليقين،
والعمل الصالح الكامل، وإبراهيم
عليه السلام، هو أفضل الأنبياء كلهم
بعد محمد ﷺ، وهو الأب الثالث
للطوائف الفاضلة، وهو الذي
جعل الله في ذريته النبوة والكتاب،
وهو الذي دعا الخلق إلى الله، وصبر
على ما ناله من العذاب العظيم، فدعا
القریب والبعيد، واجتهد في دعوة أبيه
مهما أمكنه، وذكر الله مراجعته إياه،
فقال: ﴿إذ قال لأبيه﴾ مهجناً له عبادة
الأوثان: ﴿يا أبت لم تعبد ما لا يسمع
ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ أي:
لم تعبد أصناماً، ناقصة في ذاتها، وفي
أفعالها، فلا تسمع، ولا تبصر،
ولا تملك لعابدها نفعاً ولا ضرراً، بل
لا تملك لأنفسها شيئاً من النفع،
ولا تقدر على شيء من الدفع، فهذا
برهان جلي دال على أن عبادة الناقص
في ذاته وأفعاله مستقيح عقلاً وشرعاً.
ودل بتبسيه وإشارته، أن الذي يجب
ويحسن عبادة من له الكمال، الذي
لا ينال العباد نعمة إلا منه، ولا يدفع
عنهم نقمة إلا هو، وهو الله تعالى.

﴿يا أبت إنِّي قد جاءني من العلم ما
لم يأتك﴾ أي: يا أبت لا تحقرني
وتقول: إنني ابنك، وإن عندك ما ليس

غفلة عن هذا الأمر العظيم لا يخطر
بقلوبهم، ولو خطر فعلى سبيل الغفلة،
قد عنتهم الغفلة، وشملتهم السكره،
فهم لا يؤمنون بالله، ولا يتبعون
رسله، قد ألتهم دنياهم، وحالت
بينهم وبين الإيمان شهواتهم المنقضية
الفانية، فالدنيا وما فيها، من أولها إلى
آخرها، ستهذب عن أهلها، ويذهبون
عنها، وسيرث الله الأرض ومن
عليها، ويرجعهم إليه، فيجازيهم بما
عملوا فيها، وما خسروا فيها أو
ربحوا، فمن فعل خيراً فليحمد الله،
ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا
نفسه.

﴿٤١ - ٥٠﴾ ﴿واذكر في الكتاب
إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً﴾ إذ قال
لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا
يبصر ولا يغني عنك شيئاً * يا أبت
إنني قد جاءني من العلم ما لم يأتك
فاتبعني أهدك صراطاً سوياً * يا أبت
لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان
للرحمن عصياً * يا أبت إنني أخاف أن
يمسك عذاب من الرحمن فتكون
للشيطان ولياً * قال أرأيت أنت عن
آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجنك
واهجرني ملياً * قال سلام عليك
سأستغفر لك رب إنني كان بي حفيماً *
وأعتزلكم وما تدعون من دون الله
وأدعو ربِّي عسى ألا أكون بدعاء ربي
شقياً * فلما اعتزلهم وما يعبدون من
دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا
جعلنا نبياً * ووهبنا لهم من رحمتنا
وجعلنا لهم لسان صدق علياً * أجل
الكتب وأفضلها وأعلاها، هذا الكتاب
المبين، والذكر الحكيم، فإن ذكر فيه
الأخبار، كانت أصدق الأخبار
وأحقها، وإن ذكر فيه الأمر والنهي،
كانت أجل الأوامر والنواهي، وأعدلها
وأقسطها، وإن ذكر فيه الجزاء والوعود
والوعيد، كان أصدق الأنباء وأحقها
وأدلهها على الحكمة والعدل والفضل،
وإن ذكر فيه الأنبياء والمرسلون، كان
المذكور فيه أكمل من غيره وأفضل،
ولهذا كثيراً ما يبدأ ويعيد في قصص
الأنبياء، الذين فضلهم على غيرهم،

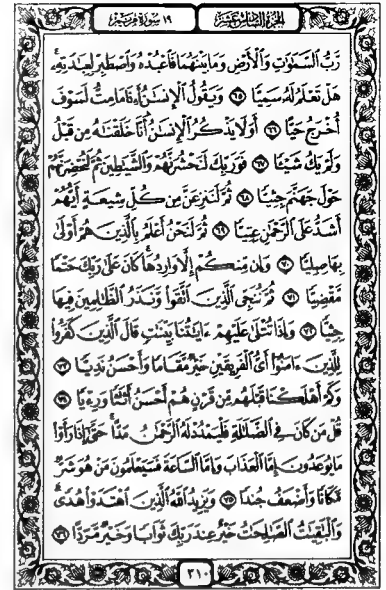
﴿ووهبنا لهم﴾ أي: لإبراهيم وابنيه ﴿من رحمتنا﴾ وهذا يشمل جميع ما وهب الله لهم من الرحمة، من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون، ﴿وجعلنا لهم لسان صدق علياً﴾ وهذا أيضاً من الرحمة التي وهبها لهم، لأن الله وعد كل محسن، أن ينشر له ثناء صادقاً بحسب إحسانه، وهؤلاء من أئمة المحسنين، فنشر الله الثناء الحسن الصادق غير الكاذب، العالي غير الخفي، فذكرهم ملاً للخافقين، والثناء عليهم ومحبتهم، امتلات بها القلوب، وفاضت به الألسنة، فصاروا قدوة للمقتدين، وأئمة للمهتدين، ولا تزال أذكارتهم في سائر العصور، متجددة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

﴿٥١-٥٣﴾ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً * وناديناه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً * ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً * أي: واذكر في هذا القرآن العظيم موسى بن عمران، على وجه التبجيل له، والتعظيم، والتعريف بمقامه الكريم، وأخلاقه الكاملة، ﴿إنه كان مخلصاً﴾ قرىء بفتح اللام، على معنى أن الله تعالى اختاره واستخلصه، واصطفاه على العالمين. وقرىء بكسرهما، على معنى أنه غلب على الله تعالى، في جميع أعماله، وأقواله، ونياته، فوصفه بالإخلاص في جميع أحواله، والمعنيين متلازمان، فإن الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه موجب لاستخلاصه، وأجل حالة يوصف بها العبد، الإخلاص منه، والاستخلاص من ربه، ﴿وكان رسولاً نبياً﴾ أي: جمع الله له بين الرسالة والنبوة، فالرسالة تقتضي تبليغ كلام المرسل، وتبليغ جميع ما جاء به من

أدعو الله لك بالهداية والمغفرة، بأن يهديك للإسلام، الذي تحصل به المغفرة، ف ﴿إنه كان بي حفيماً﴾ أي: رحيماً رؤوفاً بحالي، معتياً بي، فلم يزل يستغفر الله له رجاء أن يهديه الله، فلما تبين له أنه عدو الله، وأنه لا يفيد فيه شيئاً، ترك الاستغفار له، وتبرأ منه.

وقد أمرنا الله باتباع ملة إبراهيم، فمن اتباع ملته، سلوك طريقه في الدعوة إلى الله، بطريق العلم والحكمة واللين والسهولة، والانتقال من مرتبة إلى مرتبة^(٢)، والصبر على ذلك، وعدم السأمة منه، والصبر على ما ينال الداعي من أذى الخلق بالقول والفعل، ومقابلة ذلك بالصفح والعفو، بل بالإحسان القولی والفعلی.

فلما أيسر من قومه وأبيه قال: ﴿واعزلكم وما تدعون من دون الله﴾ أي: أنتم وأصنامكم ﴿وآدعوري﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة ﴿عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً﴾ أي: عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي، وهذه وظيفة من أيسر عن دعاهم، فاتبعوا أهواءهم، فلم تنجح فيهم المواعظ، فأصروا في طغيانهم يعمهون، أن يشتغل بإصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعتزل الشر وأهله، ولما كان مفارقة الإنسان لوطنه ومآله وأهله وقومه، من أشق شيء على النفس، لأمور كثيرة معروفة، ومنها انفراده عن يتعزز بهم ويتكثر، وكان من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، واعتزل إبراهيم قومه، قال الله في حقه: ﴿فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً﴾ من إسحق ويعقوب ﴿جعلنا نبياً﴾ فحصل له هبة هؤلاء الصالحين^(٣) المرسلين إلى الناس، الذين خصهم الله بوحية، واختارهم لرسالته، واصطفاهم من العالمين.



الذميمة، وترتع في مراتع الوخيمة، فتدرج الخليل عليه السلام بدعوة أبيه، بالأسهل فالأسهل، فأخبره بعلمه، وأن ذلك موجب لاتباعك إياي، وأنت إن أطعني، اهتديت إلى صراط مستقيم، ثم نهاه عن عبادة الشيطان، وأخبره بما فيها من المضار، ثم حذره عقاب الله ونقمته إن أقام على حاله، وأنه يكون ولياً للشيطان، فلم ينجح هذا الدعاء بذلك الشقي، وأجاب بجواب جاهل وقال: ﴿أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم﴾ فتبجح بالهته [التي هي] ^(١) من الحجر والأصنام، ولما إبراهيم عن رغبته عنها، وهذا من الجهل المفرط، والكفر الوخيم، يتمدح بعبادة الأوثان، ويدعو إليها.

﴿لئن لم تنته﴾ أي: عن شتم آلهتي، ودعوتي إلى عبادة الله ﴿لأرجنك﴾ أي: قتلاً بالخنجر، ﴿واهجرني ملياً﴾ أي: لا تكلمني زماناً طويلاً، فأجابه الخليل جواب عباد الرحمن عند خطاب الجاهلين، ولم يشتمه، بل صبر، ولم يقابل أباه بما يكره، وقال: ﴿سلام عليك﴾ أي: سنسلم من خطايي إياك بالشتم والسب وبما تكره، ﴿سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيماً﴾ أي: لا أزال

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: من رتبة إلى رتبة.

(٣) في ب: فحصل له ولهؤلاء الصالحين.

وخواص المرسلين، وذكر فضائلهم ومراتبهم قال: ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾. أي: أنعم الله عليهم نعمة لا تلحق، ومئة لا تسبق، من النبوة والرسالة، وهم الذين أمرنا أن ندعو الله أن يهدينا صراط الذين أنعمت عليهم، وأن من أطاع الله، كان ﴿مع الذين أنعم الله عليهم، من النبيين﴾ الآية. وأن بعضهم ﴿من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح﴾ أي: من ذريته ﴿ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل﴾ فهذه خير بيوت العالم، اصطفاهم الله، واختارهم، واجتباهم، وكان حالهم عند تلاوة آيات الرحمن عليهم، المتضمنة للإخبار بالغيوب وصفات علام الغيوب، والإخبار باليوم الآخر، والوعد والوعيد.

﴿خروا سجداً وبكياً﴾ أي: خضعوا لآيات الله، وخشعوا لها، وأثرت في قلوبهم من الإيمان والرغبة والرغبة، ما أوجب لهم البكاء والإنابة، والسجود لربهم، ولم يكونوا من الذين إذا سمعوا آيات الله خروا عليها صماً وعمياناً.

وفي إضافة الآيات إلى اسمه ﴿الرحمن﴾ دلالة على أن آياته، من رحمته بعباده وإحسانه إليهم، حيث هداهم بها إلى الحق، وبصرهم من العمى، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة.

﴿٥٩ - ٦٣﴾ ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً﴾ * إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يَدْخُلُونَ الجنة ولا يظلمون شيئاً * جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب إنه كان وعده مأتياً * لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً * تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقياً * لما ذكر تعالى هؤلاء الأنبياء

للوعد الذي يعقده مع الله أو مع العباد، ولهذا لما وعد من نفسه الصبر على ذبح أبيه [له] ^(١) وقال: ﴿ستجدني إن شاء الله من الصابرين﴾ وفي ذلك ومكن أباه من الذبح، الذي هو أكبر مصيبة تصيب الإنسان، ثم وصفه بالرسالة والنبوة، التي [هي] أكبر ممن الله على عبده، وأهلها ^(٢) من الطبقة العليا من الخلق.

﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة﴾ أي: كان مقيماً لأمر الله على أهله، فيأمرهم بالصلاة المتضمنة للإخلاص للمعبود، وبالصلاة المتضمنة للإحسان إلى العبيد، فأكمل نفسه، وكمل غيره، وخصوصاً أخص الناس عنده وهم أهله، لأنهم أحق بدعوته من غيرهم. ﴿وكان عند ربه مرضياً﴾ وذلك بسبب امتثاله لمراضي ربه واجتهاده فيما يرضيه، ارتضاه الله وجعله من خواص عباده وأوليائه المقربين، فرضي الله عنه، ورضي [هو] عن ربه.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً﴾ * ورفعناه مكاناً علياً * أي: اذكر في الكتب ^(٣) على وجه التعظيم والإجلال، والوصف بصفات الكمال ﴿إدريس إنه كان صديقاً نبياً﴾ جمع الله له بين الصديقية، الجامعة للتصديق التام، والعلم الكامل، واليقين الثابت، والعمل الصالح، وبين اصطفاؤه لوحيه، واختياره لرسالته، ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ أي: رفع الله ذكره في العالمين، ومنزلته بين المقربين، فكان علي الذكر، عالي المنزلة.

﴿٥٨﴾ ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ومن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ومن هدينا واجتبتنا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجداً وبكياً﴾ لما ذكر هؤلاء الأنبياء المكرمين،

الشرع، دقه وجله. والنبوة تقتضي إيماء الله إليه وتخصيصه بإزالة الوحي إليه، فالنبوة بينه وبين ربه، والرسالة بينه وبين الخلق، بل خصه الله من أنواع الوحي، بأجل أنواعه وأفضلها، وهو: تكليمه تعالى وتقريبه مناجياً لله تعالى، وبهذا اختص من بين الأنبياء، بأنه كليم الرحمن، ولهذا قال: ﴿وناديته من جانب الطور الأيمن﴾ أي: الأيمن من موسى في وقت مسيره، أو الأيمن: أي: الأبرك من الأيمن والبركة. ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أن بورك من في النار ومن حولها﴾ ﴿وقربناه نجياً﴾ والفرق بين النداء والنجاء، أن النداء هو الصوت الرفيع، والنجاء ما دون ذلك، وفي هذه إثبات الكلام لله تعالى وأنواعه، من النداء، والنجاء، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً لمن أنكر ذلك، من الجهمية، والمعتزلة، ومن نحا نحوه.

وقوله: ﴿ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبياً﴾ هذا من أكبر فضائل موسى وإحسانه، ونصحه لأخيه هارون، أنه سأل ربه أن يشركه في أمره، وأن يجعله رسولاً مثله، فاستجاب الله له ذلك، ووهب له من رحمته أخاه هارون نبياً. فنبوة هارون تابعة لنبوة موسى عليهما السلام، فساعده على أمره، وأعانه عليه.

﴿٥٤ - ٥٥﴾ ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾ * وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً * أي: واذكر في القرآن الكريم، هذا النبي العظيم، الذي خرج منه الشعب العربي، أفضل الشعوب وأجلها، الذي منهم سيد ولد آدم.

﴿إنه كان صادق الوعد﴾ أي: لا يعد وعداً إلا وفي به، وهذا شامل

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: وجعله.

(٣) في ب: في الكتاب.

من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴿ والمعاني كلها صحيحة ثابتة، ولكن الاحتمال الأول أولى، بدليل قوله: ﴿إنه كان وعده مأثياً﴾ لا بد من وقوعه، فإنه لا يخلف الميعاد، وهو أصدق القائلين.

﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾ أي: كلاماً لا غياً لا فائدة فيه، ولا ما يؤثم، فلا يسمعون فيها شتماً، ولا عيباً، ولا قولاً فيه معصية لله، أو قولاً مكدرًا، ﴿إلا سلاماً﴾ أي: إلا الأقوال السالمة من كل عيب، من ذكر الله، وتحية، وكلام سرور، وبشارة، ومطاحة الأحاديث الحسنة بين الإخوان، وسماع خطاب الرحمن، والأصوات الشجعية، من الحور والملائكة والولدان، والنعيمات المطربة، والألفاظ الرخيمة، لأن الدار دار السلام، فليس فيها إلا السلام التام من جميع الوجوه، ﴿ولهم رزقهم فيها بكرة وعشياً﴾ أي: أرزاقهم من المأكّل والمشارب، وأنواع اللذات، مستمرة حيثما طلبوا، وفي أي: وقت رغبوا، ومن تمامها ولذتها وحسنها، أن تكون في أوقات معلومة.

﴿بكرة وعشياً﴾ ليعظم وقعها ويتم نفعها، فلك الجنة التي وصفناها بما ذكر ﴿التي نورث من عبادنا من كان تقياً﴾ أي: نورثها المتقين، ونجعلها منزلهم الدائم، الذي لا يظعنون عنه، ولا ييغون عنه جَوْلاً، كما قال تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين﴾.

﴿٦٤ - ٦٥﴾ ﴿وما ننزّل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً﴾ * رب السماوات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سماً؟ استنبأ النبي ﷺ جبريل عليه السلام مرة في نزوله إليه فقال له: ﴿لو تأتينا أكثر مما تأتينا - تشوقاً إليه، وتوحشاً

اسمه﴾ ﴿الرحن﴾ لأنها فيها من الرحمة والإحسان، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب [بشر]. وسماها تعالى رحمة، فقال: ﴿وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون﴾. وأيضاً ففي إضافتها إلى رحمة، ما يدل على استمرار سرورها، وأنها باقية بقاء رحمة، التي هي أثرها وموجبها، والعباد في هذه الآية، المراد: عباد إلهيته، الذين عبدوه، والتزموا شرائعه، فصارت العبودية وصفاً لهم كقوله: ﴿وعباد الرحمن﴾ ونحوه، بخلاف عباده المالك فقط، الذين لم يعبدوه، فهؤلاء وإن كانوا عبيداً لربوبيته، لأنه خلقهم ورزقهم ودبرهم، فليسوا داخلين في عبيد إلهيته العبودية الاختيارية، التي يمدح صاحبها، وإنما عبوديتهم عبودية اضطرار، لا مدح لهم فيها.

وقوله: ﴿بالغيب﴾ يحتمل أن تكون متعلقة بـ ﴿وعد الرحمن﴾ فيكون المعنى على هذا، أن الله وعدهم إياها وعداً غائباً، لم يشاهدوه ولم يروه، فأمنوا بها، وصدقوا غيبها، وسعوا لها سعيها، مع أنهم لم يروها، فكيف لو رأوها، لكانوا أشد لها طلباً، وأعظم فيها رغبة، وأكثر لها سعيًا، ويكون في هذا، مدح لهم بإيمانهم بالغيب، الذي هو الإيمان النافع. ويحتمل أن تكون متعلقة بعباده، أي: الذين عبدوه في حال غيبهم وعدم رؤيتهم إياه، فهذه عبادتهم ولم يروه، فلو رأوه، لكانوا أشد له عبادة، وأعظم إنابة، وأكثر حباً، وأجل شوقاً، ويحتمل أيضاً، أن المعنى: هذه الجنات التي وعدها الرحمن عباده، من الأمور التي لا تدرکها الأوصاف، ولا يعلمها أحد إلا الله، ففيه من التشويق لها، والوصف المجل، ما يهيج النفوس، ويزعج الساكن إلى طلبها، فيكون هذا مثل قوله: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم

المخلصون﴾ المتبعون لمراضي ربهم، النبيون إليه، ذكر من أتى بعدهم، وبذلوا ما أمروا به، وأنه خلف من بعدهم خلف، رجعوا إلى الخلف والوراء، فأضاعوا الصلاة التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها، فتهاونوا بها وضيعوها، وإذا ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين، التي هي أكّد الأعمال، وأفضل الخصال، كانوا لما سواها من دينهم أضيع، وله أرفض، والسبب الداعي لذلك، أنهم اتبعوا شهوات أنفسهم وإراداتها فصارت همهم منصرفة إليها، مقدمة لها على حقوق الله، فنشأ من ذلك التضييع لحقوقه، والإقبال على شهوات أنفسهم، مهما لاحت لهم حصلوها، وعلى أي: وجه اتفقت تناولوها.

﴿فسوف يلقون غياً﴾ أي: عذاباً مضاعفاً شديداً، ثم استثنى تعالى فقال: ﴿إلا من تاب﴾ عن الشرك والبدع والمعاصي، فأقلع عنها وندم عليها، وعزم عزمًا جازماً أن لا يعاودها، ﴿وأمن﴾ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ﴿وعمل صالحاً﴾ وهو العمل الذي شرعه الله على السنة رسله، إذا قصد به وجهه، ﴿فأولئك﴾ الذين جمعوا بين التوبة والإيمان، والعمل الصالح، ﴿يدخلون الجنة﴾ المشتعلة على النعيم المقيم، والعيش السليم، وجوار الرب الكريم، ﴿ولا يظلمون شيئاً﴾ من أعمالهم، بل يجدونها كاملة، موفرة أجورها، مضاعفاً عددها.

ثم ذكر أن الجنة التي وعدهم بدخولها، ليست كسائر الجنات، وإنما هي جنات عدن، أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها، ولا جَوْل ولا زوال، وذلك لسعتها، وكثرة ما فيها من الخيرات والسرور، والبهجة والحبور.

﴿التي وعد الرحمن عباده بالغيب﴾ أي: التي وعدها الرحمن، أضافها إلى

(١) جعل الشيخ هذه الكلمات بالرفع، وجعل فوق كلمة (المخلصون) بخط صغير كلمة (قطع) وفي هذا إشارة إلى أنه من باب القطع

لفراقه، وليطمئن قلبه بنزوله -
فأنزل الله تعالى على لسان جبريل: ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك﴾ أي: ليس لنا من الأمر شيء، إن أمرنا، ابتدنا أمره، ولم نعص له أمراً، كما قال عنهم: ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ فنحن عبيد مأمورون، ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك﴾ أي: له الأمور الماضية والمستقبلية والحاضرة، في الزمان والمكان، فإذا تبين أن الأمر كله لله، وأنتا عبيد مدبرون، فيبقى الأمر دائراً بين: «هل تقتضيه الحكمة الإلهية فينفذه؟ أم لا تقتضيه فيؤخره؟» ولهذا قال: ﴿وما كان ربك نسياً﴾ أي: لم يكن الله لينساك ويملكك، كما قال تعالى: ﴿ما ودعك ربك وما قلى﴾ بل لم يزل معتنياً بأمورك، مجرباً لك على أحسن عوانده الجميلة، وتدبيره الجميلة.

أي: فإذا تأخر نزولنا عن الوقت المعتاد، فلا يحزنك ذلك ولا يهيك، واعلم أن الله هو الذي أراد ذلك، لما له من الحكمة فيه، ثم علل إحاطة علمه، وعدم نسيانه، بأنه «رب السماوات والأرض» فربوبيته للسماوات والأرض، وكونهما على أحسن نظام وأكمل، ليس فيه غفلة ولا إهمال، ولا سُدَي، ولا باطل، برهان قاطع على علمه الشامل، فلا تشغل نفسك بذلك، بل اشغلي بما ينفعك ويعود عليك طائله، وهو: عبادته وحده لا شريك له، «واصطبر لعبادته» أي: اصبر نفسك عليها واجهدا، وقم عليها أتم القيام وأكملها بحسب قدرتك، وفي الاشتغال بعبادة الله تسلية للعابد عن جميع التعلقات والمشتبهات، كما قال تعالى: ﴿ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾ إلى أن قال: ﴿وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها﴾ الآية. «هل تعلم له سمياً» أي: هل تعلم الله مسامياً ومشابهاً ومثالاً من المخلوقين. وهذا استفهام بمعنى الثَّني، المعلوم

بالعقل. أي: لا تعلم له مسامياً ولا مشابهاً، لأنه الرب، وغيره مربوب، الخالق، وغيره مخلوق، الغني من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذات من كل وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية، وأن عبادته حق، وعبادة ما سواه باطل، فهذا أمر بعبادته وحده، والاصطبار لها، وعلل ذلك بكماله وانفراده بالعظمة والأسماء الحسنى.

﴿٦٦ - ٦٧﴾ «ويقول الإنسان أإذا مامت لسوف أخرج حياً * أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً» المراد بالإنسان هاهنا، كل منكر للبعث، مستبعد لوقوعه، فيقول - مستفهماً على وجه النفي والعناد والكفر - «إذا ما مت لسوف أخرج حياً». أي: كيف يعيدني الله حياً بعد الموت، وبعد ما كنت رميمًا؟! هذا لا يكون ولا يتصور، وهذا بحسب عقله الفاسد ومقصده السيء، وعناده لرسول الله وكتبه، فلو نظر أدنى نظر، وتأمل أدنى تأمل، لرأى استبعاده للبعث، في غاية السخافة، ولهذا ذكر تعالى برهاناً قاطعاً، ودليلاً واضحاً، يعرفه كل أحد على إمكان البعث فقال: ﴿أولاً يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئاً﴾ أي: أو لا يلفت نظره، ويستذكر حاله الأولى، وأن الله خلقه أول مرة، ولم يك شيئاً، فمن قدر على خلقه من العدم، ولم يكن شيئاً، مذكوراً، أليس بقادر على إنشائه بعد ما تمزق، وجمعه بعد ما تفرق؟ وهذا كقوله: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾.

وفي قوله: ﴿أولاً يذكر الإنسان﴾ دعوة للنظر، بالدليل العقلي، بألفظ خطاب، وأن إنكار من أنكرك ذلك، مبني على غفلة منه عن حاله الأولى، وإلا فلو تذكرها وأحضرها في ذهنه، لم ينكر ذلك.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ «فوربك لنحضرنهم

والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً * ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً * ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾ أقسم الله تعالى وهو أصدق القائلين - بربوبيته، ليحشرن هؤلاء المنكرين للبعث، هم وشياطينهم فيجمعهم لميقات يوم معلوم، «ثم لنحضرنهم حول جهنم جثياً» أي: جاثين على ركبهم من شدة الأحوال، وكثرة الزلزال، وفظاعة الأحوال، منتظرين لحكم الكبير المتعال، ولهذا ذكر حكمه فيهم فقال:

﴿ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عتياً﴾ أي: ثم لننزعن من كل طائفة وفرقة من الظالمين المشتركين في الظلم والكفر والعُتُو أشدهم عتواً، وأعظمهم ظلماً، وأكبرهم كفراً، فيقدمهم إلى العذاب، ثم هكذا يقدم إلى العذاب، الأغلظ إثماً، فالأغلظ، وهم في تلك الحال متلاعنون، يلعن بعضهم بعضاً، ويقول آخراهم لأولاهم: ﴿ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار﴾ قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون * وقالت أولاهم لأخرهم فما كان لكم علينا من فضل؟ وكل هذا تابع لعدله وحكمته وعلمه الواسع، ولهذا قال: ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صلياً﴾ أي: علمنا محيط بمن هو أولى صلياً بالنار، قد علمناهم، وعلمنا أعمالهم واستحقاقها وقسطها من العذاب.

﴿٧١ - ٧٢﴾ «وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً * ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ وهذا خطاب لسائر الخلائق، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، أنه ما منهم من أحد، إلا سيرد النار، حكماً حتمه الله على نفسه، وأوعده به عباده، فلا بد من نفوذه، ولا محيد عن وقوعه.

واختلف في معنى الورد، فقيل: ورودها، حضورها للخلائق كلهم، حتى يحصل الانزعاج من كل أحد، ثم بَعْدُ، ينجي الله المتقين. وقيل: ورودها، دخولها، فتكون على المؤمنين

برداً وسلاماً. وقيل: الورد، هو المرور على الصراط، الذي هو على متن جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم، فمنهم من يمر كليمح البصر، وكالريح، وكأجاويد الخيل، وكأجاويد الركاب، ومنهم من يسعى، ومنهم من يمشي مشياً، ومنهم من يزحف زحفاً، ومنهم من يخطف فيلقى في النار، كُلٌّ بحسب تقواه، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الله تعالى بفعل المأمور، واجتناب المحذور ﴿وَنُذِرُ الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿فِيهَا جَثَايَ﴾ وهذا بسبب ظلمهم وكفرهم، وجب لهم ^(١) الخلود، وحق عليهم العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿٧٣ - ٧٤﴾ ﴿وَإِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِمُ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا * وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرَثِيًّا﴾ أي: وإذا تتلى على هؤلاء الكفار آياتنا بينات، أي: واضحات الدلالة على وحدانية الله وصدق رسله، توجب لمن سمعها صدق الإيمان وشدة الإيقان، قابلوها بضد ما يجب لها، واستهزؤوا بها وبمن آمن بها، واستدلوا بحسن حالهم في الدنيا، على أنهم خير من المؤمنين، فقالوا معارضين للحق: ﴿أَيُ الْفَرِيقَيْنِ﴾ أي: نحن والمؤمنون ﴿خَيْرٌ مَقَاماً﴾ أي: في الدنيا، من كثرة الأموال والأولاد، وتوفر الشهوات ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ أي: مجلساً. أي: فاستنتجوا من هذه المقدمة الفاسدة، أنهم أكثر مالا وأولاداً، وقد حصلت لهم أكثر مطالبهم من الدنيا، ومجالسهم وأنديتهم مزخرفة مزوقة.

والمؤمنون بخلاف هذه الحال، فهم خير من المؤمنين، وهذا دليل في غاية الفساد، وهو من باب قلب الحقائق، وإلا فكثرة الأموال والأولاد، وحسن المنظر، كثيراً ما يكون سبباً لهلاك صاحبه، وشقائه، وشره، ولهذا قال

تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا﴾ أي: متاعاً، من أوان وفرش، وبيوت، وزخارف، وأحسن رثياً، أي: أحسن مرأى ومنظراً، من غضارة العيش، وسرور اللذات، وحسن الصور، فإذا كان هؤلاء المهلكون أحسن منهم أثاناً ورثياً، ولم يمنعهم ذلك من حلول العقاب بهم، فكيف يكون هؤلاء، وهم أقل منهم وأذل، معتصمين من العذاب ﴿أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزَّبِيرِ﴾؟ وعلم من هذا، أن الاستدلال على خير الآخرة بخير الدنيا من أفسد الأدلة، وأنه من طرق الكفار.

﴿٧٥﴾ ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَدًا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ لما ذكر دليلهم الباطل، الدال على شدة عنادهم، وقوة ضلالهم، أخبر هنا، أن من كان في الضلالة، بأن رضيها لنفسه وسعى فيها، فإن الله يمدّه منها، ويزيده فيها حباً، عقوبة له على اختيارها على الهدى، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ ﴿وَنَقَلْنَا أَفْسِدَتْهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ وَنَذَرْنَاهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا﴾ أي: القائلون: ﴿أَيُ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ ﴿مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ بقتل أو غيره ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ التي هي باب الجزاء على الأعمال ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ أي: فحينئذ يتبين لهم بطلان دعواهم، وأنها دعوى مضحكة، ويتيقنون أنهم أهل الشر، ﴿وَأَضْعَفُ جُنْدًا﴾ ولكن لا يفيدهم هذا العلم شيئاً، لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا، فيعملون غير عملهم الأول.

﴿٧٦﴾ ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا

هدى والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير مردداً﴾ لما ذكر أنه يمد للظالمين في ضلالهم، ذكر أنه يزيد المهتدين هداية من فضله عليهم ورحمته، والهدى يشمل العلم النافع، والعمل الصالح، فكل من سلك طريقاً في العلم والإيمان والعمل الصالح، زاده الله منه، وسهله عليه ويسره له، ووهب له أموراً أخرى، لا تدخل تحت كسبه، وفي هذا دليل على زيادة الإيمان ونقصه، كما قاله السلف الصالح، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿لِيُزَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ ﴿وَإِذَا تَلَّيْتُمْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾.

ويدل عليه أيضاً الواقع، فإن الإيمان قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، والمؤمنون متفاوتون في هذه الأمور، أعظم تفاوت، ثم قال: ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ أي: الأعمال الباقية، التي لا تنقطع إذا انقطع غيرها، ولا تضمحل، هي الصالحات منها، من صلاة وزكاة، وصوم، وحج، وعمرة، وقراءة، وتسيب، وتكبير، وتحميد، وتهليل، وإحسان إلى المخلوقين، وأعمال قلبية وبدنية، فهذه الأعمال ﴿خير عند ربك ثواباً وخير مردداً﴾ أي: خير عند الله، ثوابها وأجرها، وكثير للعاملين نفعها وردها، وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل في غير باب، فإنه ما تُم غير الباقيات الصالحات، عمل ينفع، ولا يبقى لصاحبه ثوابه ولا ينجع، ومناسبة ذكر الباقيات الصالحات - والله أعلم - أنه لما ذكر أن الظالمين جعلوا أحوال الدنيا من المال والولد، وحسن المقام ونحو ذلك، علامة لحسن حال صاحبها، أخبر هنا أن الأمر ليس كما زعموا، بل العمل الذي هو عنوان السعادة ومنشور الفلاح، هو العمل بما يحبه الله ويرضاه.

﴿٧٧ - ٨٠﴾ ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالاً وَوَلَدًا * أَطْلَع

الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً * كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً * ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً * أي: أفلا تتعجب من حالة هذا الكافر، الذي جمع بين كفره بآيات الله ودعواه الكبيرة، أنه سيؤتى في الآخرة مالاً وولداً، أي: يكون من أهل الجنة، هذا من أعجب الأمور، فلو كان مؤمناً بالله وداعى هذه الدعوى، لسهل الأمر.

وهذه الآية - وإن كانت نازلة في كافر معين - فإنها تشمل كل كافر، زعم أنه على الحق، وأنه من أهل الجنة، قال الله توبيخاً له وتكذيباً: ﴿أطلع الغيب﴾ أي: أحاط علمه بالغيب، حتى علم ما يكون، وأن من جملة ما يكون، أنه يؤتى يوم القيامة مالاً وولداً؟ ﴿أم اتخذ عند الرحمن عهداً﴾ أنه نائل ما قاله، أي: لم يكن شيء من ذلك، فعلم أنه مُتَقَوِّلٌ، قائل ما لا علم له به. وهذا التقسيم والترديد، في غاية ما يكون من الإلزام وإقامة الحجة؛ فإن الذي يزعم أنه حاصل له خير عند الله في الآخرة، لا يخلو: إما أن يكون قوله صادراً عن علم بالغيب المستقبل، وقد علم أن هذا الله وحده، فلا أحد يعلم شيئاً من المستقبلات الغيبية، إلا ما أطلعه الله إليه من رسله.

وإما أن يكون متخذاً عهداً عند الله، بالإيمان به، واتباع رسله، الذي عهد الله لأهله، وأوزع أنهم أهل الآخرة، الناجون الفائزون. فإذا انتفى هذان الأمران، علم بذلك بطلان الدعوى، ولهذا قال تعالى: ﴿كلا﴾ أي: ليس الأمر كما زعم، فليس للقاتل اطلاع على الغيب، لأنه كافر، ليس عنده من علم الرسل شيء، ولا اتخذ عند الرحمن عهداً، لكفره وعدم إيمانه، ولكنه يستحق ضد ما تَقَوَّلَهُ، وأن قوله مكتوب محفوظ، ليجازى عليه ويعاقب، ولهذا قال: ﴿سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مداً﴾ أي: نزيده من أنواع العقوبات،

كما ازداد من الغي والضلال، ﴿ونرثه ما يقول﴾ أي: نرثه ماله وولده، فيستقل من الدنيا فرداً، بلا مال ولا أهل ولا أنصار ولا أعوان ﴿ويأتينا فرداً﴾ فيرى من وخيم العذاب وأليم العقاب، ما هو جزاء أمثاله من الظالمين.

﴿٨٣ - ٨٤﴾ ﴿ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً * فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عداً﴾ وهذا من عقوبة الكافرين أنهم - لما لم يعتصموا بالله، ولم يتمسكوا بحبل الله، بل أشركوا به والوا أعداءه، من الشياطين - سلطهم عليهم، وقبضهم لهم، فجعلت الشياطين تؤزهم إلى المعاصي أزاً، وتزعجهم إلى الكفر إزعاجاً، فيوسوسون لهم، ويوحون إليهم، ويزنون لهم الباطل، ويقبحون لهم الحق، فيدخل حب الباطل في قلوبهم، ويتشربها، فيسمى فيه سعي المحق في حقه، فينصره بجهدته ويحارب عنه، ويمجاهد أهل الحق في سبيل الباطل، وهذا كله، جزاء له على توليه من وليه وتوليه لعدوه، جعل له عليه سلطاناً، وإلا فلو آمن بالله، وتوكل عليه، لم يكن له عليه سلطان، كما قال تعالى: ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون.

﴿فلا تعجل عليهم﴾ أي: على هؤلاء الكفار المستعجلين بالعذاب ﴿إنما نعد لهم عداً﴾ أي: أن لهم أياماً معدودة لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون، نمهلهم ونحلم عنهم مدة ليراجعوا أمر الله، فإذا لم ينجع فيهم ذلك أخذناهم أخذ عزيز مقتدر.

﴿٨٥ - ٨٧﴾ ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً * ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهداً ﴿يغير تعالى عن تفاوت الفريقين المتقين،

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأَتُوبَ إِلَى اللَّهِ مَالاً فَلَمَّا أَتَاهُ فَلَمْ يَجِدْهُ يَرْجِعُ الْوَيْلَ إِلَى اللَّهِ عَنِ الْعَذَابِ ﴿٨٣﴾ وَأَنذَرْنَا يُوحِيَ اللَّهُ لَهُ خُصْمًا لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿٨٤﴾ وَتَبَوَّءُوا لِلْكَافِرِينَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَالْأَنْدَادُ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْخُلَّةِ ﴿٨٥﴾ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَتَبَوَّءُوا لِلْكَافِرِينَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَالْأَنْدَادُ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْخُلَّةِ ﴿٨٧﴾ وَتَبَوَّءُوا لِلْكَافِرِينَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَالْأَنْدَادُ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْخُلَّةِ ﴿٨٨﴾ وَتَبَوَّءُوا لِلْكَافِرِينَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَالْأَنْدَادُ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْخُلَّةِ ﴿٨٩﴾ وَتَبَوَّءُوا لِلْكَافِرِينَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَالْأَنْدَادُ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْخُلَّةِ ﴿٩٠﴾ وَتَبَوَّءُوا لِلْكَافِرِينَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَالْأَنْدَادُ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْخُلَّةِ ﴿٩١﴾ وَتَبَوَّءُوا لِلْكَافِرِينَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَالْأَنْدَادُ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْخُلَّةِ ﴿٩٢﴾ وَتَبَوَّءُوا لِلْكَافِرِينَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَالْأَنْدَادُ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْخُلَّةِ ﴿٩٣﴾ وَتَبَوَّءُوا لِلْكَافِرِينَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَالْأَنْدَادُ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْخُلَّةِ ﴿٩٤﴾ وَتَبَوَّءُوا لِلْكَافِرِينَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَالْأَنْدَادُ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْخُلَّةِ ﴿٩٥﴾ وَتَبَوَّءُوا لِلْكَافِرِينَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَالْأَنْدَادُ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْخُلَّةِ ﴿٩٦﴾ وَتَبَوَّءُوا لِلْكَافِرِينَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَالْأَنْدَادُ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْخُلَّةِ ﴿٩٧﴾ وَتَبَوَّءُوا لِلْكَافِرِينَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَالْأَنْدَادُ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْخُلَّةِ ﴿٩٨﴾ وَتَبَوَّءُوا لِلْكَافِرِينَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَالْأَنْدَادُ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْخُلَّةِ ﴿٩٩﴾ وَتَبَوَّءُوا لِلْكَافِرِينَ الْأَرْضَ وَمَا فِيهَا وَالْأَنْدَادُ مِنَ الْجَنَّةِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ الْخُلَّةِ ﴿١٠٠﴾

والمجرمين، وأن المتقين له - باتقاء الشرك والبدع والمعاصي - يحشرهم إلى موقف القيامة مكرمين، مبجلين معظمين، وأن مآلهم الرحمن، وقصدهم المنان، وفوداً إليه، والوفاد لا بد أن يكون في قلبه من الرجاء، وحسن الظن بالوفاد [إليه]^(١)، ما هو معلوم، فالتقون يقدون إلى الرحمن، راجين منه رحمته وعميم إحسانه، والفوز بعطاياه في دار رضوانه، وذلك بسبب ما قدموه من العمل بتقواه، واتباع مرضيه، وأن الله عهد إليهم بذلك الشواب على السنة رسله، فتوجهوا إلى ربهم مطمئنين به، واثقين بفضله.

وإما المجرمون، فإنهم يساقون إلى جهنم ورداً، أي: عطاشاً، وهذا أشع ما يكون من الحالات، سوقهم على وجه الذل والصغار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنم، في حال ظمأهم ونصبهم يستغيثون فلا يغاثون، ويدعون فلا يستجاب لهم، ويستشفعون فلا يشفع لهم، ولهذا قال: ﴿لا يملكون الشفاعة﴾ أي: ليست الشفاعة ملكهم، ولا لهم منها شيء، وإنما هي لله تعالى ﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾. وقد أخبر أنه لا تنفعهم شفاعة الشافعين، لأنهم

﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ فَعَلِمَهَا قَدْ أَخْفَاهُ عَنِ الْخَلَائِقِ كُلِّهِمْ، فَلَا يَعْلَمُهَا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَالْحِكْمَةُ فِي إِتْيَانِ السَّاعَةِ ﴿لَتُحْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْمَى﴾ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فِيهِ الْبَابُ لِذَلِكَ الْجَزَاءِ ﴿لَيُحْزِي الَّذِينَ أَسَؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيُحْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ﴾.

﴿١٦﴾ ﴿فَلا يَصْدُكَ عَنْهَا مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدِي﴾ أي: فلا يصدك ويشغلك عن الإيمان بالساعة، والجزاء، والعمل لذلك، من كان كافراً بها، غير معتمد لوقوعها.

يسعى في الشك فيها والتشكيك، ويجادل فيها بالباطل، وقيم من الشبه ما يقدر عليه، متبعاً في ذلك هواه، ليس قصده الوصول إلى الحق، وإنما قصاره اتباع هواه، فإياك أن تصغي إلى من هذه حاله، أو تقبل شيئاً من أقواله وأعماله الصادة عن الإيمان بها والسعي لها سعيها، وإنما حذر الله تعالى عَمَّنْ هذه حاله لأنه من أخوف ما يكون على المؤمن بوسوسته وتدجيله^(١)، وكون النفوس مجبولة على التشبه، والافتداء بأبناء الجنس، وفي هذا تنبيه وإشارة إلى التحذير عن كل داع إلى باطل، يصد عن الإيمان الواجب، أو عن كماله، أو يقع الشبهة في القلب، وعن النظر في الكتب المشتعلة على ذلك، وذكر في هذا الإيمان به، وعبادته، والإيمان باليوم الآخر، لأن هذه الأمور الثلاثة أصول الإيمان، وركن الدين، وإذا تمت أمر الدين، ونقصه أو فقده بنقصها، أو نقص شيء منها.

وهذه نظير قوله تعالى في الإخبار عن ميزان سعادة الفرق ، الذين أوتوا الكتاب وشقاوتهم : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

وقوله: ﴿فتردى﴾ أي: تهلك
وتشقى، إن اتبعت طريق من يصد

كليمه موسى لكفى، وقد قال كثير من المفسرين: «إن الله أمره أن يلقي نعليه، لأنهما من جلد حمار»، فالله أعلم بذلك.

﴿وأنا اخترتك﴾ أي: تخيرتك واصطفيتك من الناس، وهذه أكبر نعمة ومنة أنعم الله بها عليه، تقتضي من الشكر ما يليق بها، ولهذا قال: ﴿فاستمع لما يوحى﴾ أي: ألقى سمعك للذي أوحى إليك، فإنه حقيق بذلك، لأنه أصل الدين ومبده، وعماد الدعوة الإسلامية، ثم بين الذي يوحى إليه بقوله: ﴿إنني أنا الله لا إله إلا أنا﴾ أي: الله المستحق الألوهية المتصف بها، لأنه الكامل في أسمائه وصفاته، المفرد بأفعاله، الذي لا شريك له ولا مثل ولا كفو ولا سمي، ﴿فاعبدني﴾ بجميع أنواع العبادة، ظاهرها وباطنها، أصولها وفروعها، ثم خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في العبادة، لفضلها وشرفها، وتضمنها عبودية القلب واللسان والجوارح.

وقوله: ﴿الذكري﴾ اللام للتعليل أي: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي، لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، وهو عبودية القلب، وبه سعادته، فالقلب المعطل عن ذكر الله، معطل عن كل خير، وقد خرب كل الخراب، فشرع الله للعباد أنواع العبادات، التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصاً الصلاة.

قال الله تعالى: ﴿اتل ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر﴾ أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهياها عن الفحشاء والمنكر، وهذا النوع يقال له توحيد الألوهية، وتوحيد العبادة، فالألوهية وصفه تعالى، والعبودية وصف عبده.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ أي: لا بد من وقوعها ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ أي: عن نفسي كما في بعض القراءات، كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ فَلِ

٢. سورة طه
 اِذْ اَوْحَيْنَا اِلَى اَبْنَاكَ مَارِيسَ ۝ اَنْ اَقْدِرُوهُ فَاَلْقَاهُ فِي
 الْوَادِي ۝ فَلْيَقِهِ الْيَتَامَىٰ لِغُلَامِهِ عَدُوْلٌ ۝ وَعَدُوْلًا لِّلنَّسْ
 عَةِ ۝ عَمَلٌ بَرٌّ ۝ وَلِنُضَعَّ عَلَیْكَ ۝ اِذْ غَضِبْنَا اَمَّاكَ فَتَقُوْلُ
 حَلْ اَدْعُكُمْ لَمْ يَنْ يَخْلُفْكُمْ فَهَكَذَا ۝ اَلَا اَبْنَاكَ كُنْ تَقَرُّ بِهَا
 وَلَا تَحْزَنْ ۝ وَفَلَّتْ نَفْسُكَ فَتَخْلُفُكَ مِنَ الْعَمْرِ ۝ وَفَلَّتْ اَكْفُوْرًا
 فَلَمَّحَ بِيَدِهِ ۝ اِنْ اَهْلَ مَدِيْنَةٍ فُرِجَتْ عَلَیْكَ فَاَقْدِرْ لِّمَدِيْنَةٍ
 وَاصْطَلَمْتُكَ لِنَفْسِي ۝ اَذْهَبْ اَنْتَ وَاصْغُرْ بِاَيِّهَا ۝ وَلَا تَخِشَا
 فِي ذِكْرِي ۝ اَذْهَبَا اِلَى دِهْنُوْنَ اِنْدَمَطَعَا ۝ وَقُوْلَا مَعَاذَا
 اِلٰهِنَا اَلَمْ نَكُنْ رَّكْعًا وَارْتَضَيْنَا ۝ اَلَا اَبْنَاكَ اِنْ تَخَافُ اَنْ
 يَخْلُطَ عَلَيْنَا اَوْ اَنْ يَنْتَلِيَا ۝ قَالَ لَا يَخَافُ اَنْ يَمَسَّكَ اَمْسُ
 وَارَاكَ ۝ فَاَيُّهَا مَعُوْلًا اَبَا رَسُوْلٍ ۝ اَبْنَاكَ فَاَرْسِلْ مَعَاذَكَ
 اِسْمَاعِيْلَ ۝ وَلَا تَحْزَنْ ۝ فَدَخَلْتُهُ بِرَبِّهِمْ ۝ وَكَوْنُكَ وَاسْتَدْعَاكَ
 مِنْ اَلْبَحْرِ اَمْدَحَا ۝ فَاَمَّا اَدْعُوْا اِلَيْنَا اَلَا الْمَدَارُ ۝ اَلَمْ يَكُنْ
 وَتَقُوْلُ ۝ قَالَ فَرَّ وَفَكَدَّ اِيْمَانُكَ ۝ قَالَ رُبَّمَا اَرَادَ اِيْعْلَانُ
 كُلِّ قَوْمٍ ۝ خَلَقْتُهُمْ مِّنْ عَمَلٍ ۝ قَالَ فَاَبَا اَلْغُرُوْبِ ۝ اَلَمْ يَكُنْ

البرد، ولم يكن عنده ما يتدفأ به في سفره، ﴿فقال لأله إني آنست﴾ أي: أبصرت ﴿ناراً﴾ وكان ذلك في جانب الطور الأيمن، ﴿لعملي آتيكم منها بقبس﴾ تصطلون به ﴿أو أجد على النار هدى﴾ أي: من يهديني الطريق. وكان مطلبه، النور الحسي والهداية الحسية، فوجد ثمَّ النور المعنوي، نور الوحي، الذي تستنير به الأرواح والقلوب، والهداية الحقيقية، هداية الصراط المستقيم، الموصلة إلى جنات النعيم، فحصل له أمر لم يكن في حسابه، ولا خطر بباله.

﴿١١﴾ ﴿فلما أناه﴾ أي: النار التي أتسها من بعيد، وكانت - في الحقيقة - نوراً، وهي نار تحرق وتشرق، ويدل على ذلك قوله ﷺ: «حجابه النور أو النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»، فلما وصل إليها نودي منها، أي: ناداه الله، كما قال: ﴿وناديه من جانب الطور الأيمن وقربناه نجياً﴾ ﴿إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى﴾ أخبره أنه ربه، وأمره أن يستعد ويتهيا لمناجاته، ويستم لذلك، ويلقي نعليه، لأنه بالوادي المقدس المطهر العظم، ولو لم يكن من تقديسه، إلا أن الله اختاره لمناجاته

عنها، وقوله تعالى:

﴿١٧- ٢٣﴾ «وما تلك بيمينك يا موسى * قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى * قال ألقها يا موسى * فآلقها فإذا هي حية تسعى * قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى * واضمم يديك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى * لنريك من آياتنا الكبرى».

لما بين الله لموسى أصل الإيمان، أراد أن يبين له ويريه من آياته ما يطمئن به قلبه، وتقر به عينه، ويقوى إيمانه، بتأييد الله له على عدوه فقال: «وما تلك بيمينك يا موسى * هذا، مع علمه تعالى، ولكن لزيادة الاهتمام في هذا الموضع، أخرج الكلام بطريق الاستفهام، فقال موسى: «هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي» ذكر فيها هاتين المنفعتين، منفعة لجنس الآدمي، وهو أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، فيحصل فيها معونة، ومنفعة للبهائم، وهو أنه كان يرعى الغنم، فإذا رعاها في شجر الخط ونحوه، هش بها، أي: ضرب الشجر، ليتساقط ورقه، فيرعاها الغنم.

هذا الخلق الحسن من موسى عليه السلام، الذي من آثاره، حسن رعاية الحيوان البهيم، والإحسان إليه دل على عناية من الله له واصطفاء، وتخصيص تقتضيه رحمة الله وحكمته.

﴿ولي فيها مآرب﴾ أي: مقاصد ﴿أخرى﴾ غير هذين الأمرين.

ومن أدب موسى عليه السلام، أن الله لما سأله عما في يمينه، وكان السؤال محتملاً عن السؤال عن عينها، أو منفعتها أجابه بعينها، ومنفعتها فقال الله له: «ألقها يا موسى * فآلقها فإذا هي حية تسعى * انقلب بآذن الله ثعباناً عظيماً، فولى موسى هارباً خائفاً، ولم يعقب، وفي وصفها بأنها تسعى، إزالة لوهم يمكن وجوده، وهو أن يظن أنها تخبييل

لا حقيقة، فكونها تسعى يزيل هذا الوهم.

فقال الله لموسى: «خذها ولا تخف * أي: ليس عليك منها بأس.

﴿سنعيدها سيرتها الأولى﴾ أي: هيئتها وصفتها، إذ كانت عصا، فامتثل موسى أمر الله إيماناً به وتسليماً، فأخذها، فعادت عصاه التي كان يعرفها هذه - آية، ثم ذكر الآية الأخرى، فقال: «واضمم يديك إلى جناحك * أي: أدخل يديك في جيبك، وضم عليك عضدك، الذي هو جناح الإنسان * تخرج بيضاء من غير سوء * أي: بياضاً ساطعاً، من غير عيب ولا برص * آية أخرى».

قال الله: «فذلك برهانان من ربك إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين».

﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾ أي: فعلنا ما ذكرنا، من انقلاب العصا حية تسعى، ومن خروج اليد بيضاء للناظرين، لأجل أن نريك من آياتنا الكبرى، الدالة على صحة رسالتك وحقيقة ما جئت به، فيطمئن قلبك ويزداد علمك، وتثق بوعد الله لك بالحفظ والنصرة، ولتكون حجة وبرهاناً لمن أرسلت إليهم.

﴿٢٤- ٣٦﴾ «أذهب إلى فرعون إنه طغى * قال رب اشرح لي صدري * ويسر لي أمري * واحلل عقدة من لساني * يفقهوا قولي * واجعل لي وزيراً من أهلي * هارون أخي * أشد به أزري * وأشركه في أمري * كي نسبحك كثيراً * ونذكرك كثيراً * إنك كنت بنا بصيراً * قال قد أوتيت سؤلك يا موسى * لما أوحى الله إلى موسى، ونبا، وأراه الآيات الباهرات، أرسله إلى فرعون، ملك مصر، فقال: «أذهب إلى فرعون إنه طغى» أي:

تورد وزاد على الحد في الكفر والفساد والعلو في الأرض، والقهر للضعفاء، حتى إنه ادعى الربوبية والألوهية -

قبحه الله - أي: وطغيانه سبب لهلاكه، ولكن من رحمة الله وحكمته وعدله، أنه لا يعذب أحداً، إلا بعد قيام الحجة بالرسول، فحيث علم موسى عليه السلام أنه تحمل حملاً عظيماً، حيث أرسل إلى هذا الجبار العنيد، الذي ليس له منازع في مصر من الخلق، وموسى عليه السلام، وحده، وقد جرى منه ما جرى من القتل، فامتثل أمر ربه، وتلقاه بالانشرح والقبول، وسأله المعونة وتيسير الأسباب، التي [هي] ^(١) من تمام الدعوة، فقال: «رب اشرح لي صدري * أي: وسعه وأنسحه، لأتحمل الأذى القولي والفعل، ولا يتكدر قلبي بذلك، ولا يضيق صدري، فإن الصدر إذا ضاق، لم يصلح صاحبه لهداية الخلق ودعوتهم.

قال الله لنبيه محمد ﷺ: «فما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك» وعسى الخلق يقبلون الحق مع اللين وسعة الصدر وانشرحه عليهم.

﴿ويسر لي أمري﴾ أي: سهل علي كل أمر أسلكه وكل طريق أقصده في سبيلك، وهون علي ما أمامي من الشدائد، ومن تيسير الأمر أن يسر للداعي أن يأتي جميع الأمور من أبوابها، ويخاطب كل أحد بما يناسب له، ويدعوه بأقرب الطرق الموصلة إلى قبول قوله.

﴿واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾ وكان في لسانه ثقل لا يكاد يفهم عنه الكلام، كما قاله المفسرون، كما قال الله عنه أنه قال: «وأخي هارون هو أفصح مني لساناً» فسأل الله أن يحل منه عقدة، يفقهوا ما يقول فيحصل المقصود التام من المخاطبة والمراجعة والبيان عن المعاني.

﴿واجعل لي وزيراً من أهلي﴾ أي: معيناً ^(٢) يعاونني، ويؤازرنني، ويساعدني على من أرسلت إليهم، وسأل أن يكون من أهله، لأنه من باب

الأعداء لله وللموسى، ويترسب في أولاده، ويكون قرة عين لمن رآه، ولهذا قال: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةَ مِنِّي﴾ فكل من رآه أحبه ﴿وَلَتُصْنَعْ عَلَى عَيْنِي﴾ ولتترسب على نظري وفي حظي وكلامي، وأي: نظر وكفالة، أجل وأكمل، من ولاية البر الرحيم، القادر على إيصال مصالح عبده، ودفع المضار عنه؟! فلا ينتقل من حالة إلى حالة، إلا والله تعالى هو الذي دبر ذلك لمصلحة موسى، ومن حسن تدبيره، أن موسى لما وقع في يد عدوه، قلقت أمه قلقاً شديداً، وأصبح فؤادها فارغاً، وكادت تخبر به، لولا أن الله ثبتها وربط على قلبها، ففي هذه الحالة، حرم الله على موسى المراضع، فلا يقبل ثدي امرأة قط، ليكون ماله إلى أمه فترضعه، ويكون عندها، مطمئنة ساكنة، قريرة العين، فجعلوا يعرضون عليه المراضع، فلا يقبل ثدياً، فجاءت أخت موسى، فقالت لهم: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ وقلبت نفسها، وهو القبطي، لما دخل المدينة وقت غفلة من أهلها، وجد رجلين يقتتلان، واحد من شيعة موسى، والآخر من عدوه قبطي ﴿فَاسْتَفَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ فدعا الله وسأله المغفرة، فغفر له، ثم فر هارباً لما سمع أن الملا طلبوه، يريدون قتله.

فنجاه الله من الغم من عقوبة الذنب، ومن القتل، ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أي: اختبرناك، وبلونناك، فوجدناك مستقيماً في أحوالك أو نقلناك في أحوالك، وأطوارك، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه، ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ حين فر هارباً من فرعون وملئه، حين أرادوا قتله، فتوجه إلى مدين، ووصل إليها، وتزوج هناك، ومكث عشر سنين، أو ثمان سنين،

لينفر عنه، ويحتاج مع ذلك أيضاً، أن يتيسر له أمره، فيأتي البيوت من أبوابها، ويدعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، يعامل الناس كلاً بحسب حاله، وتعام ذلك، أن يكون لمن هذه صفته، أعوان ووزراء، يساعدونه على مطلوبه، لأن الأصوات إذا كثرت، لا بد أن تؤثر، فلذلك سأل عليه الصلاة والسلام هذه الأمور فأعطياها.

وإذا نظرت إلى حالة الأنبياء المرسلين إلى الخلق، رأيتهم بهذه الحال، بحسب أحوالهم خصوصاً، خاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ، فإنه في الذروة العليا من كل صفة كمال، وله من شرح الصدر، وتيسير الأمر، وفصاحة اللسان، وحسن التعبير والبيان، والأعوان على الحق من الصحابة، فمن بعدهم، ما ليس لغيره.

﴿٣٧-٤١﴾ ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ * إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى * أن اقذفه في التابوت فاذفه في اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدولي وعدو له وألقيت عليك محبة مني ولتصنع على عيني * إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن وقتلت نفساً فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين في أهل مدين ثم جئناك على قدر بنا موسى * واصطنعتك لنفسك * لما ذكر منته على عبده ورسوله، موسى بن عمران، في الدين، والوحي، والرسالة، وإجابة سؤاله، ذكر نعمته عليه، وقت التربية، والتنقلات في أطواره، فقال: ﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ حيث ألهمنا أمك أن تقذفك في التابوت وقت الرضاع، خوفاً من فرعون، لأنه أمر بذبح أبناء بني إسرائيل، فأخفته أمه، وخافت عليه خوفاً شديداً فقذفته في التابوت، ثم قذفته في اليم، أي: شط نيل مصر، فأمر الله اليم، أن يلقيه في الساحل، وقبض أن يأخذه، أعدى

البر، وأحق ببر الإنسان قرابته، ثم عينه بسؤاله فقال: ﴿هَارُونَ أَخِي﴾ * اشد به أزرى * أي: قوني به، وشد به ظهري، قال الله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلَ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ ﴿وَأُشْرِكُهُ فِي أَمْرِي﴾ أي: في النبوة، بأن تجعله نبياً رسولاً، كما جعلتني.

ثم ذكر الفائدة في ذلك فقال: ﴿كَيْ تَسْبَحَكَ كَثِيرًا وَتَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ علم عليه الصلاة والسلام، أن مدار العبادات كلها، والدين، على ذكر الله، فسأل الله أن يجعل أخاه معه، يتساعدان ويتعاونان على البر والتقوى، فيكثر منهما ذكر الله من التسبيح والتهليل، وغيره من أنواع العبادات.

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ تعلم حالنا وضعفنا وعجزنا وافتقارنا إليك في كل الأمور، وأنت أبصر بنا من أنفسنا وأرحم، فمنّ علينا بما سألناك، وأجب لنا فيما دعوناك.

فقال الله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾ أي: أعطيت جميع ما طلبت، فسنشرح صدرك، ونيسر أمرك، ونحل عقدة من لسانك، يفقهوا قولك، ونشد عضدك بأخيك هارون، ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون.

وهذا السؤال من موسى عليه السلام، يدل على كمال معرفته بالله، وكمال فطنته ومعرفته للأمور، وكمال نصحه، وذلك أن الداعي إلى الله، المرشد للخلق، خصوصاً إذا كان المدعو من أهل العناد والتكبر والطغيان^(١)، يحتاج إلى سعة صدر، وحلم تام، على ما يصيبه من الأذى، ولسان فصيح، يتمكن من التعبير به عن ما يريد، ويقصده، بل الفصاحة والبلاغة لصاحب هذا المقام، من ألزم ما يكون، لكثرة المراجعات والمراوضات، ولحاجته لتحسين الحق، وتزيينه بما يقدر عليه، ليحببه إلى النفوس، وإلى تقبيح الباطل وتهجينه،

﴿ثم جئت على قدر يا موسى﴾ أي: جئت مجيئاً قد مضى به القدر، وعلمه الله وأراده في هذا الوقت وهذا الزمان وهذا المكان، ليس مجيئك اتفاقاً من غير قصد ولا تدبير منا، وهذا يدل على كمال اعتناء الله بكليمة موسى عليه السلام، ولهذا قال: ﴿واصطنعتك لنفسي﴾ أي: أجريت عليك صنائعي ونعمي، وحسن عوائي، وتربيتي، لتكون لنفسي حبيباً مختصاً، وتبلغ في ذلك مبلغاً لا يناله أحد من الخلق، إلا النادر منهم، وإذا كان الحبيب إذا أراد اصطناع حبيبه من المخلوقين، وأراد أن يبلغ من الكمال المطلوب له ما يبلغ، يبذل غاية جهده، ويسعى نهاية ما يمكنه في إيصاله لذلك، فما ظنك بصنائع الرب القادر الكريم، وما تحسبه يفعل بمن أراده لنفسه، واصطفاه من خلقه!!

﴿٤٢-٤٦﴾ ﴿أذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري﴾ * اذهباً إلى فرعون إنه طغى * فقولاً له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى * قالاً ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى * قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى﴾ لما امتن الله على موسى بما امتن به، من النعم الدينية والدنيوية قال له: ﴿أذهب أنت وأخوك﴾ هارون ﴿بآياتي﴾ أي: الآيات التي مني، الدالة على الحق وحسنه، وقبح الباطل، كاليد، والعصا ونحوها، في تسع آيات إلى فرعون وملائته، ﴿ولا تنياً في ذكري﴾ أي: لا تفترا، ولا تكسلا عن مداومة ذكري بل استمرا عليه، والزماء كما وعدتما بذلك ﴿كي نسبحك كثيراً ونذكرك كثيراً﴾ فإن ذكر الله فيه معونة على جميع الأمور، يسهلها، ويخفف حملها.

﴿أذهب إلى فرعون إنه طغى﴾ أي: جاوز الحد، في كفره وطغيانه، وظلمه وعدوانه.

﴿فقولاً له قولاً لينا﴾ أي: سهلاً لطيفاً، برفق ولين وأدب في اللفظ من دون فحش ولا صلف، ولا غلظة في

المقال، أو فظاظة في الأفعال، ﴿لعله بسبب القول اللين﴾ يتذكر * ما يتفحه فيأتيه، ﴿أو يخشى﴾ ما يضره فيتركه، فإن القول اللين داع لذلك، والقول الغليظ منفر عن صاحبه، وقد فسر القول اللين في قوله: ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾ * وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ فإن في هذا الكلام، من لطف القول وسهولته، وعدم بشاعته، ما لا يخفى على المتأمل، فإنه أتى بـ «هل» الدالة على العرض والمشاورة، التي لا يشتمز منها أحد، ودعاه إلى التزكي والتطهر من الأدناس، التي أصلها التطهر عن الشرك، الذي يقبله كل عقل سليم، ولم يقل «أزكيك» بل قال: ﴿تزكى﴾ أنت بنفسك، ثم دعاه إلى سبيل ربه، الذي رباه، وأنعم عليه بالنعمة الظاهرة والباطنة، التي ينبغي مقابلتها بشكرها، وذكرها فقال: ﴿وأهديك إلى ربك فتخشى﴾ فلما لم يقبل هذا الكلام اللين الذي يأخذ حسنة بالقلوب، علم أنه لا ينجع فيه تذكير، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿قالاً ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا﴾ أي: يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا، قبل أن تبلغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجة ﴿أو أن يطغى﴾ أي: يتمرد عن الحق، ويطغى بملكه وسلطانه وجنده وأعوانه، ﴿قال لا تخافا﴾ أن يفرط عليكما ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾ أي: أنتما بحفظي ورعايتي، أسمع أقوالكما، وأرى جميع أحوالكما، فلا تخافا منه، فزال الخوف عنهما، واطمأنت قلوبهما بوعده ربهما.

﴿٤٧-٤٨﴾ ﴿فأتيناه فقولاً لينا رسولاً ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى﴾ إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى﴾ أي: فأتيناه بهذين الأمرين، دعوته إلى الإسلام، وتخليص هذا الشعب الشريف بني إسرائيل - من قيده وتعبيده لهم، ليتحرروا ويملكوا أمرهم، ويقيم فيهم موسى شرع الله

﴿قالاً ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا﴾ أي: يبادرنا بالعقوبة والإيقاع بنا، قبل أن تبلغه رسالاتك، ونقيم عليه الحجة ﴿أو أن يطغى﴾ أي: يتمرد عن الحق، ويطغى بملكه وسلطانه وجنده وأعوانه، ﴿قال لا تخافا﴾ أن يفرط عليكما ﴿إنني معكما أسمع وأرى﴾ أي: أنتما بحفظي ورعايتي، أسمع أقوالكما، وأرى جميع أحوالكما، فلا تخافا منه، فزال الخوف عنهما، واطمأنت قلوبهما بوعده ربهما.

ودينه.

﴿قد جئناك بآية﴾ تدل على صدقنا ﴿فالتقى موسى عصاه فإذا هي شعبان مبین﴾ * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين * إلى آخر ما ذكر الله عنهم. ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾ أي: من اتبع الصراط المستقيم، واهتدى بالشرع المبين، حصلت له السلامة في الدنيا والآخرة.

﴿إنا قد أوحى إلينا﴾ أي: خبر من عند الله، لا من عند أنفسنا ﴿أن العذاب على من كذب وتولى﴾ أي: كذب بأخبار الله، وأخبار رسله، وتولى عن الانقياد لهم واتباعهم، وهذا فيه الترغيب لفرعون بالإيمان والتصديق واتباعهما، والترهيب من ضد ذلك، ولكن لم يفد فيه هذا الوعد والتذكير، فأنكر ربه وكفر، وجادل في ذلك ظمناً وعدناً.

﴿٤٩-٥٥﴾ ﴿قال فمن ربكما يا موسى﴾ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى * قال فما بال القرون الأولى * قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى * الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى * كلوا واراعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى * منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾



الدليل القاطع، عدل إلى المشاغبة، وحاد عن المقصود فقال لموسى: ﴿فما بال القرون الأولى﴾ أي: ما شأنهم، وما خبرهم؟ وكيف وصلت بهم الحال، وقد سبقونا إلى الإنكار والكفر، والظلم، والعناد، ولنا فيهم أسوة؟ فقال موسى: ﴿علمها عند ربّي في كتاب لا يضل ربّي ولا ينسى﴾ أي: قد أحصى أعمالهم من خير وشر، وكتبه في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، وأحاط به علماً وخبراً، فلا يضل عن شيء منها، ولا ينسى ما علمه منها.

ومضمون ذلك، أنهم قدموا إلى ما قدموا، ولاقوا أعمالهم، وسيجازون عليها، فلا معنى لسؤالك واستفهامك يا فرعون عنهم، فتلك أمة قد خلت، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم، فإن كان الدليل الذي أوردناه عليك، والآيات التي أريناها، قد تحققت صدقها وبقينها، وهو الواقع، فانقد إلى الحق، ودع عنك الكفر والظلم، وكثرة الجدل بالباطل، وإن كنت قد شككت فيها أو رأيته غير مستقيمة، فالطريق مفتوح وباب البحث غير مغلق، فرد الدليل بالدليل، والبرهان بالبرهان، ولن نجد لذلك سبيلاً، ما دام الملوان.

كيف وقد أخبر الله عنه، أنه جحدوا مع استيقانها، كما قال تعالى: ﴿وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ وقال موسى: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر﴾ فعلم أنه ظالم في جداله، قصده العلو في الأرض.

ثم استطرد في هذا الدليل القاطع، بذكر كثير من نعمه وإحسانه الضروري، فقال: ﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾ أي: فراشاً بحالة تتمكنون من السكون فيها، والقرار، والبناء، والغراس، وإثارتها للزادراع وغيره، وذلك للذلك، ولم يجعلها ممتعة عن مصلحة من مصالحكم.

﴿وسلك لكم فيها سبلاً﴾ أي: نفذ لكم الطرق الموصلة، من أرض إلى أرض، ومن قطر إلى قطر، حتى كان آدميون يتمكنون من الوصول إلى جميع الأرض بأسهل ما يكون، ويتنفعون بأسفارهم، أكثر مما ينتفعون بإقامتهم.

﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى﴾ أي: أنزل المطر فأحيا به الأرض بعد موتها، وأنبث بذلك جميع أصناف النوابت على اختلاف أنواعها، وتشتت أشكالها، وتباين أحوالها، فساقه، وقدره، ويسره، رزقاً لنا ولأعنامنا، ولولا ذلك لهلك من عليها من آدمي وحيوان، ولهذا قال: ﴿كلوا وارعوا أنعامكم﴾ وساقها على وجه الامتنان، ليدل ذلك على أن الأصل في جميع النوابت الإباحة، فلا يحرم منهم إلا ما كان مضراً كالسموم ونحوه.

﴿إن في ذلك لآيات لأولي النهى﴾ أي: لذوي العقول الرزينة، والأفكار المستقيمة على فضل الله وإحسانه، ورحمته، وسعة جوده، وتمام عنايته، وعلى أنه الرب المعبود، المالك المحمود، الذي لا يستحق العبادة سواه، ولا الحمد والمدح والشناء، إلا من امتن بهذه النعم، وعلى أنه على كل شيء قدير، فكما أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحي الموتى.

وخص الله أولي النهى بذلك، لأنهم المنتفعون بها، الناظرون إليها نظر اعتبار، وأما من عداهم، فإنهم بمنزلة البهائم السارحة، والأنعام السائمة، لا ينظرون إليها نظر اعتبار، ولا تنفذ بصائرهم إلى المقصود منها، بل حظهم حظ البهائم، يأكلون ويشربون، وقلوبهم لاهية، وأجسامهم معرضة. ﴿وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون﴾.

ولما ذكر كرم الأرض، وحسن

أي: قال فرعون لموسى على وجه الإنكار: ﴿فمن ربكما يا موسى﴾ فأجاب موسى بجواب شاف كاف واضح، فقال: ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ أي: ربنا الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، الدال على حسن صنعه من خلقه، من كبر الجسم وصغره وتوسطه، وجميع صفاته، ثم هدى كل مخلوق إلى ما خلقه له، وهذه الهداية العامة^(١) المشاهدة في جميع المخلوقات فكل مخلوق، تحبه يسعى لما خلق له من المنافع، وفي دفع المضار عنه، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل، ما يتمكن^(٢) به على ذلك.

وهذا كقوله تعالى: ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ فالذي خلق المخلوقات، وأعطاهما خلقها الحسن، الذي لا تقتصر العقول فوق حسنه، وهدها لمصالحها، هو الرب على الحقيقة، فإنكاره إنكار لأعظم الأشياء وجوداً، وهو مكابرة ومجاهرة بالكذب، فلو قدر أن الإنسان، أنكر من الأمور المعلومة ما أنكر، كان إنكاره لرب العالمين أكبر من ذلك، ولهذا لما لم يمكن فرعون، أن يعاند هذا

(١) في ب: الكاملة.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ما يتمكن.

شكرها لما ينزله الله عليها من المطر، وأنها بإذن ربها، تخرج النبات المختلف الأنواع، أخبر أنه خلقنا منها، وفيها يعبدنا إذا متنا فدفنا فيها، ومنها يخرجنا تارة أخرى، فكما أوجدنا منها من العدم، وقد علمنا ذلك وتحققناه، فسيعيدنا بالبعث منها بعد موتنا، ليجازينا بأعمالنا التي عملناها عليها.

وهذان دليلان على الإعادة عقليان واضحيان: إخراج النبات من الأرض بعد موتها، وإخراج المكلفين منها في إيجادهم.

﴿٥٦ - ٦١﴾ «ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى * قال اجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحر يا موسى * فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى * قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشركم ضحى * فتولى فرعون فججمع كيدهم ثم أتى * قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افتري * يخبر تعالى، أنه أرى فرعون من الآيات والعبر والقواطع، جميع أنواعها العيانة، والأفقية والنفسية، فما استقام ولا ارعوى، وإنما كذب وتولى، كذب الخبر، وتولى عن الأمر والنهي، وجعل الحق باطلاً، والباطل حقاً، وجادل بالباطل ليضل الناس، فقال: «اجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك» زعم أن هذه الآيات التي أراه إياها موسى، سحر وتمويه، المقصود منها إخراجهم من أرضهم، والاستيلاء عليها، ليكون كلامه مؤثراً في قلوب قومه، فإن الطباع تميل إلى أوطانها، ويصعب عليها الخروج منها ومفارقتها.

فأخبرهم أن موسى هذا قصده، ليعجزوه، ويسعوا في محاربتة، فلنأتينك بسحر مثل سحرك فأمهلنا، واجعل لنا «موعداً لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى» أي: مستو علمنا وعلمك به، أو مكاناً مستوياً معتداً ليمكن من رؤية ما فيه.

فقال موسى: «موعدكم يوم

الزينة» وهو عيدهم، الذي يتفرغون فيه ويقطعون شواغلهم، «وأن يحشركم الناس ضحى» أي: يجمعون كلهم في وقت الضحى، وإنما سأل موسى ذلك، لأن يوم الزينة ووقت الضحى منه يحصل فيه من كثرة الاجتماع، ورؤية الأشياء على حقائقها، ما لا يحصل في غيره، «فتولى فرعون فججمع كيدهم» أي: جميع ما يقدر عليه، مما يكيد به موسى، فأرسل في مدائنه من يحشركم السحرة الماهرين في سحرهم، وكان السحر إذ ذاك متوفراً، وعلمه علماً مرغوباً فيه، فججمع خلقاً كثيراً من السحرة، ثم أتى كل منهما للموعد، واجتمع الناس للموعد.

فكان الجمع حافلاً، حضره الرجال والنساء، والملا، والأشراف، والعوام، والصغار، والكبار، وحضوا الناس على الاجتماع، وقالوا للناس: «هل أنتم مجتمعون * لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين» فحين اجتمعوا من جميع البلدان، وعظمهم موسى عليه السلام، وأقام عليهم الحجة، وقال لهم: «ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب» أي: لا تنصروا ما أنتم عليه من الباطل بسحركم وتغالبون الحق، وتفترون على الله الكذب، فيستأصلكم بعذاب من عنده، ويخيب سعيكم وافتراكم، فلا تتركوا ما تطلبون من النصر والجاه عند فرعون وملئه، ولا تسلمون من عذاب الله، وكلام الحق لا بد أن يؤثر في القلوب، لا جرم ارتفع الخصام والنزاع بين السحرة لما سمعوا كلام موسى، وارتبكوا، ولعل من جملة نزاعهم، الاشتباه في موسى، هل هو على الحق أم لا؟ ولكن هم إلى الآن، ما تم أمرهم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، «ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة» فحيثئذ أسروا فيما بينهم النجوى، وأنهم يتفقون على مقالة واحدة، لينجحوا في مقالهم وفعالهم، وليتمسك الناس بدينهم، والنجوى التي أسروها فسر بها بقوله: «قالوا إن هذان لساحران يريدان أن

يخرجاك من أرضك بسحرهما» كعمالة فرعون السابقة، فإما أن يكون ذلك توافقاً من فرعون والسحرة على أن يكون المقالة من غير قصد، وإما أن يكون تلقيناً منه لهم مقالته، التي صمم عليها وأظهرها للناس، وزادوا على قول فرعون أن قالوا: «ويذهب بطريقتكم المثل» أي: طريقة السحر حسدكم عليها، وأراد أن يظهر عليكم، ليكون له الفخر والصيت والشهرة، ويكون هو المقصود بهذا العلم، الذي أشغلتكم زمانكم فيه، ويذهب عنكم ما كنتم تأكلون بسببه، وما يتبع ذلك من الرياسة، وهذا حض من بعضهم على بعض على الاجتهاد في مغالبتة، ولهذا قالوا: «فأجمعوا كيدكم» أي: أظهروه دفعة واحدة متظاهرين متساعدين فيه، متناصرين، متفقاً رأيكم وكلمتكم، «ثم اتنوا صفاً» ليكون أمكن لعملكم، وأهيب لكم في القلوب، ولئلا يترك بعضهم بعض مقدوره من العمل، واعلموا أن من أفلح اليوم ونجح وغلب غيره، فإنه المفلح الفائز، فهذا يوم له ما بعده من الأيام، فلهذه دهرهم ما أصلهم في باطلهم، وأشدهم فيه، حيث أتوا بكل سبب ووسيلة ويمكن، ومكيدة يكيدون بها الحق، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، ويظهر الحق على الباطل، فلما تمت مكيدتهم، وانحصر مقصدهم، ولم يبق إلا العمل «قالوا يا موسى إما أن تلقي عصاك» وإما أن تكون أول من ألقى خيره، موهمين أنهم على جزم من ظهورهم عليه بأي: حالة كانت، فقال لهم موسى: «بل القوا» فآلقوا حبالهم وعصيهم، «فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه» أي: إلى موسى «من سحرهم» البليغ «أنها تسعى» أي: أنها حيات تسعى فلما خيل إلى موسى ذلك، «أوجس في نفسه خيفة موسى» كما هو مقتضى الطبيعة البشرية، وإلا فهو جازم بوعد الله ونصره، «قلنا» له تثبثا وتطمئناً: «لا تخف إنك أنت الأعلى» عليهم، أي: ستعلو عليهم وتقهرهم، ويذلوا

لك ويخضعوا.

﴿وَأَتَى مَا فِي يَمِينِكَ﴾ أي: عصاك
﴿تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ
سَاحِرٍ وَلَا يَفْلَحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾
أي: كيدهم ومكرهم، ليس بشئ لهم
ولا ناجح، فإنه من كيد السحرة،
الذين يموهون على الناس، ويلبسون
الباطل، ويخيلون أنهم على الحق،
فالتقى موسى عصاه، فتلقفت ما صنعوا
كله وأكلته، والناس ينظرون لذلك
الصنيع، فعلم السحرة علماً يقيناً أن
هذا ليس بسحر، وأنه من الله، فبادروا
للإيمان.

﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا
بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾
فوقع الحق وظهر وسطع، وبطل
السحر والمكر والكيد، في ذلك المجمع
العظيم.

فصارت بينة ورحمة للمؤمنين،
وحجة على المعاندين فـ ﴿قَالَ﴾ فرعون
للسحرة: ﴿آمَنْتُمْ لِهَذَا قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾
أي: كيف أقدمتم على الإيمان من دون
مراجعة مني ولا إذن؟

استغرب ذلك منهم، لأدهم معه،
وذله، وانقيادهم له في كل أمر من
أمرهم، وجعل هذا من ذاك.

ثم استلج فرعون في كفره وطغيانه
بعد هذا البرهان، واستخف عقول
قومه، وأظهر لهم أن هذه الغلبة من
موسى للسحرة، ليس لأن الذي معه
الحق، بل لأنه تملاً هو والسحرة،
ومكروا، ودبروا أن يخرجوا فرعون
وقومه من بلادهم، فقبل قومه هذا
المكر منه، وظنوه صدقاً ﴿فَاسْتَخَفَّ
قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾
مع أن هذه المقالة التي قالها، لا تدخل
عقل من له أدنى مسكة من عقل
ومعرفة بالواقع، فإن موسى أتى من
مدین وحيداً، وحين أتى لم يجتمع بأحد
من السحرة ولا غيرهم، بل بادر إلى
دعوة فرعون وقومه، وأراهم الآيات،
فأراد فرعون أن يعارض ما جاء به
موسى فسعى ما أمكنه، وأرسل في
مدائنه من يجمع له كل ساحر عليم.
فجاءوا إليه، ووعدهم الأجر

والمنزلة عند الغلبة، وهم حرصوا غاية
الحرص، وكادوا أشد الكيد، على
غلبتهم لموسى، وكان منهم ما كان،
فهل يمكن أن يتصور مع هذا أن
يكونوا دبروا هم وموسى واتفقوا على
ما صدر؟ هذا من أعمل المحال، ثم
توعد فرعون السحرة فقال:
﴿فَلَا تَقْطَعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ
خَلْفٍ﴾ كما يفعل بالمحارب الساعي
بالفساد، يقطع يده اليمنى، ورجله
اليسرى، ﴿وَلَا صَلْبَنَكُمْ فِي جُنُوحِ
النَّخْلِ﴾ أي: لأجل أن تشتبهوا
وتختزوا، ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا
وَأَبْقَى﴾ يعني يزعمه هو أو الله، وأنه
أشد عذاباً من الله وأبقى، قلباً
للحقائق، وترهيباً لمن لا عقل له.

ولهذا لما عرف السحرة الحق،
ورزقهم الله من العقل ما يدركون به
الحقائق، أجابوه بقولهم:

﴿لَنْ نَوْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ
الْبَيِّنَاتِ﴾ أي: لن نختارك وما وعدتنا
به من الأجر والتقريب، على ما أرانا الله
من الآيات البينات الدالات على أن الله
هو الرب المعبود وحده، المعظم المبجل
وحده، وأن ما سواه باطل، ونؤثرك
على الذي فطرنا وخلقنا، هذا لا يكون
﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ مما أوعدتنا به
من القطع، والصلب، والعذاب.

﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾
أي: إنما توعدنا به غاية ما يكون في
هذه الحياة الدنيا، ينقضي ويزول ولا
يضرنا، بخلاف عذاب الله، لمن استمر
على كفره، فإنه دائم عظيم.

وهذا كأنه جواب منهم، لقوله:
﴿وَلَتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ وفي
هذا الكلام، من السحرة، دليل على أنه
ينبغي للعاقل، أن يوازن بين لذات
الدنيا، ولذات الآخرة، وبين عذاب
الدنيا، وعذاب الآخرة.

﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنُغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا﴾
أي: كفرنا ومعاصينا، فإن الإيمان
مكفر للسيئات، والتوبة تجب ما قبلها،
وقولهم، ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنْ
السَّحَرِ﴾ الذي عارضنا به الحق، هذا
دليل على أنهم غير مختارين في عملهم

المقدم، وإنما أكرههم فرعون إكراهاً.

والظاهر - والله أعلم - أن موسى
لما وعظهم كما تقدم في قوله: ﴿وَيَلْكُمْ
لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ
بِعَذَابٍ﴾ أثر معهم، ووقع منهم موقفاً
كبيراً، ولهذا تنازعوا بعد هذا الكلام
والموعظة، ثم إن فرعون ألزمهم ذلك،
وأكرههم على المكر الذي أجروه،
ولهذا تكلموا بكلامه السابق قبل
إتيانهم، حيث قالوا: ﴿إِنَّ هَٰذَا
لَسَاحِرٌ زَائِرٌ﴾ أن يخرجوا من أرضهم
أرضهم بسحرهما، فجروا على ما سنَّه
لهم، وأكرههم عليه، ولعل هذه النكتة
التي قامت بقلوبهم من كراهمتهم
لمعارضة الحق بالباطل وفعلهم، ما
فعلوا على وجه الإغماض، هي التي
أثرت معهم، ورحمهم الله بسببها،
ووقفهم للإيمان والتوبة، ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ
مِمَّا وَعَدْنَاهُ مِنَ الْأَجْرِ وَالْمَنْزِلَةِ وَالْجَاهِ،
وَأَبْقَى ثَوَاباً وَإِحْسَاناً﴾ لا ما يقول
فرعون: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ إِنَّا أَشَدُّ عَذَابًا
وَأَبْقَى﴾ يريد أنه أشد عذاباً وأبقى.
وجميع ما أتى من قصص موسى مع
فرعون، يذكر الله فيه إذا أتى على قصة
السحرة، أن فرعون توعدهم بالقطع
والصلب، ولم يذكر أنه فعل ذلك، ولم
يأت في ذلك حديث صحيح، والجزم
بوقوعه أو عدمه، يتوقف على الدليل،
والله أعلم بذلك وغيره، ولكن توعده
إياهم بذلك مع اقتداره، دليل على
وقوعه، ولأنه لو لم يقع لذكره الله،
ولاتفاق الناقلين على ذلك.

﴿٧٤-٧٦﴾ ﴿إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبِّهِ
مَجْرماً فَإِنَّهُ جَهَنَّمُ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا
يَحْيَا﴾ * ومن يأتته مؤمناً قد عمل
الصالحات فأولئك لهم الدرجات
العلی * جنات عدن تجري من تحتها
الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من
تزكى * يخبر تعالى أن من أتاه، وقدم
عليه مجرماً - أي: وصفه الجرم من كل
وجه، وذلك يستلزم الكفر - واستمر
على ذلك حتى مات، فإن له نار
جهنم، الشديد نكالها، العظيمة
أغللالها، البعيد قعرها، الأليم حرها
وقرها، التي فيها من العقاب ما يذيب

الأكياد والقلوب، ومن شدة ذلك أن المعبذب فيها لا يموت ولا يحيا، لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة يتلذذ بها، وإنما حياته محسوة بمعذب القلب والروح والبدن، الذي لا يقدر قدره، ولا يفتر عنه ساعة، يستغيث فلا يغاث، ويدعو فلا يستجاب له.

نعم، إذا استغاث، أغاث بماء كالمهل يشوي الوجوه، وإن دعا، أجيب به ﴿أخسبوا فيها ولا تكلمون﴾. ومن يأت ربه مؤمناً به مصداقاً لرسله، متعباً لكتبه ﴿قد عمل الصالحات﴾ الواجبة والمستحبة، ﴿فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ أي: المنازل العاليات، وفي الغرف المزخرفات، واللذات المتواصلات، والأنهار السارحات، والخلود الدائم، والسرور العظيم، فيما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿وذلك﴾ الشواب، ﴿جزاء من تزكى﴾ أي: تطهر من الشرك والكفر والفسوق والعصيان، إما أن لا يفعلها بالكلية، أو يتوب مما فعله منها، وزكى أيضاً نفسه، ونماها بالإيمان والعمل الصالح، فإن للتزكية معنيين، التيقية، وإزالة الخبث، والزيادة بحصول الخير، وسميت الزكاة زكاة، لهذهين الأمرين.

﴿٧٧-٧٩﴾ ﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى﴾ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم * وأضل فرعون قومه وما هدى ﴿لما ظهر موسى بالبراهين على فرعون وقومه، مكث في مصر يدعوهم إلى الإسلام، ويسعى في تخليص بني إسرائيل من فرعون وعذابه، وفرعون في عتو ونفور، وأمره شديد على بني إسرائيل ويريه الله من الآيات والعبر، ما قصه الله علينا

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِرَبِّكَ وَأَسْرِ بِرَبِّكَ
الْبَحْرَيْنِ لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا دُرَكًا ۖ يَنْتَظِمُ رَجُلًا
بِحُورِهِمْ يَتَّبِعُهُمُ الْيَوْمَ مَا غِيبَهُمْ ۖ وَاسْأَلْ رَجُلًا
قَوْمَهُ هَاتِيكُمْ ۚ يَبْسُ وَاتِّبَاعُ ۚ قَدْ أَفْتَحْنَا لَكَ ذِكْرًا
وَعَدْنَاكَ كَذِبًا ۖ وَالْطُّورَ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكُتُبَ وَالْحُكْمَ
وَأَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَاءَ ذَرْبًا لَّكَ ۖ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحْمِلَ عَلَيْكُمْ
غَمًّا مِّنْ تَحْتِهَا رِجَالٌ ۚ وَلَقَدْ أَفْضَلْنَا لَكَ الْيَوْمَ الْفَتْحَ ۚ
فَاتَّبَعْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكُتُبَ وَالْحُكْمَ ۖ وَآتَيْنَاكَ
مِنَّا رُحْمًا يُوقَى ۖ قَالَ هُمْ أَوْلَىٰ بِأَلْفِ نَارٍ مِّنْ دُونِكَ أَتَىٰ لَكَ
الْيَوْمَ الْحُجُومُ ۚ قَالَ فَلَا تَذْهَبْ لَهَا ۚ قَوْمَهُمْ هَاتِيكُمْ ۚ
الْيَوْمَ الْأَيْمَنَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكُتُبَ وَالْحُكْمَ ۖ وَآتَيْنَاكَ
مِنَّا رُحْمًا يُوقَى ۖ قَالُوا لَنَنْتَهِزَنَّ مَوَاقِعَكَ بِهَٰذَا الْكَلْبِ إِنَّا
نُتَوَعِّدُ ۚ قَالُوا لَئِن لَّمْ يَنتَهِزْهُمُ مِّنْ قَبْلِكَ نَفْخُفُّكَ فَيَحْمِلُكَ
أُولَٰئِكَ مِنْ دُونِكَ ۚ أَلَمْ يَكُن لَّهُمُ الْآيَاتُ ۚ

والضلال، وعدم الاهتداء بهدي الله، ولهذا قال تعالى: ﴿وأضل فرعون قومه﴾ بما زين لهم من الكفر، وتهجين ما أتى به موسى، واستخفافه إياهم، وما هدهم في وقت من الأوقات، فأوردتهم موارد الغي والضلال، ثم أوردتهم مورد العذاب والنكال.

﴿٨٠-٨٢﴾ ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناك من عدوكم ووعدناك جانب الطور الأيمن ونزلنا عليك من السلسوى * كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يجلل عليه غضبي فقد هوى * وإني لفشار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ يذكّر تعالى بني إسرائيل بمِنَّةِ العظيمة عليهم بإهلاك عدوهم، ومواعيده لموسى عليه السلام بجانب الطور الأيمن، لينزل عليه الكتاب، الذي فيه الأحكام الجليلة، والأخبار الجميلة، فتم عليهم النعمة الدينية، بعد النعمة الدنيوية، ويذكر منته أيضاً عليهم في التيه، بإنزال المن والسلى، والرزق الرغد الهني الذي يحصل لهم بلا مشقة، وأنه قال لهم: ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي: واشكروه على ما

(١) هنا زيادة في ب: أن يواعد بني إسرائيل ويبدو أنها مشطوبة في أ.

(٢) كذا في ب، وفي أ: الكلمة غير واضحة.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بهلاكهم.



إلى دين الحق، ورد بدعة أو كفر أو ضلالة، وجهاد، وهجرة، وغير ذلك من جزئيات الهداية، كلها مكفرات للذنوب محصلات لغاية المطلوب.

﴿٨٣-٨٦﴾ وما أعجلك عن قومك يا موسى * قال هم أولاء على أثري وعجلت إليك رب لترضى * قال فإنا قد فتننا قومك من بعدك وأضلهم السامري * فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألي يعدكم ربكم وعداً حسناً أظال عليكم العهد أم أردتم أن يحمل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي * كان الله تعالى، قد واعد موسى أن يأتيه لينزل عليه التوراة ثلاثين ليلة، فأتىها بعشر، فلما تم الميعات، بادر موسى عليه السلام إلى الحضور للموعد شوقاً لربه، وحرصاً على موعوده، فقال الله له:

﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾ أي: ما الذي قدمك عليهم؟ ولم لم تصبر حتى تقدم أنت وهم؟ قال: ﴿هم أولاء على أثري﴾ أي: قريباً مني، وسيصلون في أثري والذي عجلني إليك يا رب طلباً لقربك ومسارةً في رضاك، وشوقاً إليك، فقال الله له: ﴿فإنا قد فتننا قومك من بعدك﴾ أي: بعبادتهم للعجل، ابتليانهم، واختبرناهم، فلم يصبروا، وحين وصلت إليهم المحنة، كفروا وأضلهم السامري.

﴿فأخرج لهم عجلاً جسداً﴾ وصاغه فصار له خوار فقالوا: ﴿لهم هذا الإلهكم وإله موسى﴾ فنسيه موسى، فافتتن به بنو إسرائيل، فعبدوه، ونهاهم هارون فلم ينتهوا، فلما رجع موسى إلى قومه وهو غضبان أسف، أي: ممتلئ غيظاً وحنقاً وغماً، قال لهم مويخاً ومقيحاً لفعلهم: ﴿يا قوم ألي يعدكم ربكم وعداً حسناً﴾ وذلك بإنزال التوراة، ﴿أظال عليكم العهد﴾ أي: المدة، فطاولتم غيبتني وهي مدة قصيرة؟ هذا قول كثير من المفسرين، ويحتمل أن معناه: أظال عليكم عهد النبوة والرسالة، فلم يكن لكم بالنبوة علم ولا أثر، واندرست

آثارها، فلم تقفوا منها على خير، فانمحت آثارها بعد العهد بها، فعبدتم غير الله، لغلبة الجهل، وعدم العلم بآثار الرسالة؟ أي: ليس الأمر كذلك، بل النبوة بين أظهركم، والعلم قائم، والعذر غير مقبول؟ أم أردتم بفعلكم، أن يحمل عليكم غضب من ربكم؟ أي: فتعرضتم لأسبابه واقتحمتم موجب عذابه، وهذا هو الواقع، ﴿فأخلفتم موعدي﴾ حين أمرتكم بالاستقامة، ووصيت بكم هارون، فلم ترقبوا غائباً، ولم تحترموا حاضراً.

﴿٨٧-٨٩﴾ قالوا ما أخلفنا موعدك بملكنا ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم ففقدناها فكذلك ألقى السامري * فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا الإلهكم وإله موسى فنسي * أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً﴾ أي: قالوا له: ما فعلنا الذي فعلنا عن تعمد منا، وملك منا لأنفسنا، ولكن السبب الداعي لذلك، أننا تأمننا من زينة القوم التي عندنا، وكانوا فيما يذكرون استعاروا حلياً كثيراً من القبط، فخرجوا وهو معهم والقوه، وجمعوه حين ذهب موسى ليراجعوه فيه إذا رجع.

وكان السامري قد بصر يوم الغرق بأثر الرسول، فسولت له نفسه أن يأخذ قبضة من أثره، وأنه إذا ألقاها على شيء حيي، فتنه وامتحاناً، فألقاها على ذلك العجل الذي صاغه بصورة عجل، فتحرك العجل، وصار له خوار وصوت، وقالوا: إن موسى ذهب يطلب ربه، وهو هاهنا فنسيه، وهذا من بلادهم، وسخافة عقولهم، حيث رأوا هذا الغريب الذي صار له خوار، بعد أن كان جهاذاً، فظنوه إله الأرض والسموات.

﴿أفلا يرون﴾ أن العجل لا يرجع إليهم قولاً، أي: لا يتكلم ويراجعهم ويراجعون، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً، فالعادم للكمال والكلام والفعال لا يستحق أن يعبد وهو أنقص من عابديه، فإنهم يتكلمون ويقدر

أسدى إليكم من النعم ﴿ولا تطغوا فيه﴾ أي: في رزقه، فتستعملونه في معاصيه، وتبطلون النعمة، فإنكم إن فعلتم ذلك، حل عليكم غضبي أي: غضبت عليكم، ثم عذبتكم، ﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾ أي: ردى وهلك، وخاب وخسر، لأنه عديم الرضا والإحسان، وحل عليه الغضب والخسران.

ومع هذا، فالتوبة معروضة، ولو عمل العبد ما عمل من المعاصي، فلهذا قال: ﴿وإني لغفار﴾ أي: كثير المغفرة والرحمة، لمن تاب من الكفر والبدة - والفسوق، وآمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعمل صالحاً من أعمال القلب والبدن، وأقوال اللسان.

﴿ثم اهتدي﴾ أي: سلك الصراط المستقيم، وتابح الرسول الكريم، واقتدى بالدين القويم، فهذا يغفر الله أوزاره، ويعفو عما تقدم من ذنبه وإصراره، لأنه أتى بالسبب الأكبر، للمغفرة والرحمة، بل الأسباب كلها منحصرة في هذه الأشياء فإن التوبة تجب ما قبلها، والإيمان والإسلام يهدم ما قبله، والعمل الصالح الذي هو الحسنات، يذهب السيئات، وسلوك طرق الهداية بجميع أنواعها، من تعلم علم، وتدبر آية أو حديث، حتى يتبين له معنى من المعاني يهتدي به، ودعوة

ولا يُخَافُ، ولا يُدْعَى إله هو، لأنه الكامل الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، المحيط علمه بجميع الأشياء، الذي ما من نعمة بالعباد إلا منه، ولا يدفع سوء إلا هو، فلا إله إلا هو، ولا معبود سواه.

﴿٩٩-١٠١﴾ كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد أتيناك من لدنا ذكراً * من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً * خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حلالاً * يمتن الله تعالى على نبيه ﷺ بما قصه عليه من أنباء السابقين، وأخبار السالفين، كهذه القصة العظيمة، وما فيها من الأحكام وغيرها، التي لا ينكرها أحد من أهل الكتاب، فأنت لم تدرس أخبار الأولين، ولم تتعلم ممن دراها، فأخبارك بالحق اليقين من أخبارهم، دليل على أنك رسول الله حقاً، وما جئت به صدق، ولهذا قال: ﴿وقد أتيناك من لدنا﴾ أي: عطية نفيسة، ومنحة جزيلة من عندنا. ﴿ذكرأ﴾ وهو هذا القرآن الكريم، ذكر للأخبار السابقة واللاحقة، وذكر يتذكر به ما لله تعالى من الأسماء والصفات الكاملة، ويتذكر به أحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء، وهذا ما يدل على أن القرآن مشتمل على أحسن ما يكون من الأحكام، التي تشهد العقول والفطر بحسنها وكمالها، ويذكر هذا القرآن ما أودع الله فيها، وإذا كان القرآن ذكراً للرسول ولأمته، فيجب تلقيه بالقبول والتسليم والانقياد والتعظيم، وأن يهتدى بنوره إلى الصراط المستقيم، وأن يقبلوا عليه بالتعلم والتعليم.

وأما مقابلته بالإعراض، أو ما هو أعظم منه من الإنكار، فإنه كفر لهذه النعمة، ومن فعل ذلك، فهو مستحق للعقوبة، ولهذا قال: ﴿من أعرض عنه﴾ فلم يؤمن به، أو تهاون بأوامره ونواهيه، أو بتعلم معانيه الواجبة ﴿فإنه يحمل يوم القيامة وزراً﴾ وهو ذنبه، الذي بسببه أعرض عن القرآن، وأولاه الكفر والهجران، ﴿خالدين فيه﴾ أي:

يا سامري * قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لي نفسي * قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس إن لك موعداً لن نخلفه وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً لنحرقنه ثم لننسفن في اليم نسفاً. أي: ما شأنك يا سامري، حيث فعلت ما فعلت؟ فقال: ﴿بصرت بما لم يبصروا به﴾ وهو جبريل عليه السلام، على فرس رآه وقت خروجهم من البحر، وغرق فرعون وجنوده على ما قاله المفسرون، فقبضت قبضة من أثر حافر فرسه، فنبذتها على العجل، ﴿وكذلك سولت لي نفسي﴾ أن أقبضها، ثم أنبذها، فكان ما كان، فقال له موسى: ﴿فاذهب﴾ أي: تباعد عني واستأخر مني ﴿فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس﴾ أي: تعاقب في الحياة عقوبة، لا يدنو منك أحد، ولا يمسك أحد، حتى إن من أراد القرب منك، قلت له: لا تمسني، ولا تقرب مني، عقوبة على ذلك، حيث مس ما لم يمسه غيره، وأجرى ما لم يجره أحد، ﴿وإن لك موعداً لن نخلفه﴾ فتجاوز بعملك، من خير وشر، ﴿وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفاً﴾ أي: العجل ﴿لنحرقنه ثم لننسفن في اليم نسفاً﴾ ففعل موسى ذلك، فلو كان إلهاً، لامتنع ممن يريده بأذى ويسعى له بالإتلاف، وكان قد أشرب العجل في قلوب بني إسرائيل، فأراد موسى عليه السلام إتلافه وهم ينظرون، على وجه لا تمكن إعادته بالإحراق والسحق وذريه في اليم ونسفه، ليزول ما في قلوبهم من حبه، كما زال شخصه، ولأن في إبقائه محنة، لأن في النفوس أقوى دواعي الباطل، فلما تبين لهم بطلانه، أخبرهم بمن يستحق العبادة وحده لا شريك له، فقال:

﴿٩٨﴾ ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الكريم، فلا يؤله، ولا يُحَبِّ، ولا يُزجى

على بعض الأشياء، من النفع والدفع، بإقدار الله لهم.

﴿٩٠-٩٤﴾ ﴿ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري * قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى * قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا * ألا تتبعن أفعصيت أمري * قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾ أي: إن اتخاذهم العجل، ليسوا معذورين فيه، فإنه وإن كانت عرضت لهم الشبهة في أصل عبادته، فإن هارون قد نهاهم عنه، وأخبرهم أنه فتنة، وأن ربهم الرحمن، الذي منه النعم الظاهرة والباطنة، الدافع للنقم وأنه أمرهم أن يتبعوه ويعتزلوا العجل، فأبوا وقالوا: ﴿لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى﴾

فأقبل موسى على أخيه لاثماً له، وقال: ﴿يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن﴾ فتخبرني لأبادر للرجوع إليهم؟ ﴿أف عصيت أمري﴾ في قولي ﴿أخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾.

فأخذ موسى برأس هارون ولحيته، يجره من الغضب والعتب عليه، فقال هارون: ﴿يا ابن أم﴾ ترفيق له، وإلا فهو شقيقه ﴿لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي﴾ أمرتني أن أخلفك فيهم، فلو تبعتك، لتركت ما أمرتني بلزومه وخشيت لاثمتك، و ﴿أن تقول فرقت بين بني إسرائيل﴾ حيث تركتهم، وليس عندهم راع ولا خليفة، فإن هذا يفرقهم ويشتت شملهم، فلا تجمعني مع القوم الظالمين، ولا تشمت فينا الأعداء، فندم موسى على ما صنع بأخيه، وهو غير مستحق لذلك ف ﴿قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين﴾ ثم أقبل على السامري.

﴿٩٥-٩٧﴾ ف ﴿قال فما خطبك

في وزرهم، لأن العذاب هو نفس الأعمال، تنقلب عذاباً على أصحابها، بحسب صغرها وكبرها.

﴿وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ أي: بشس الحمل الذي يحملونه، والعذاب الذي يعذبونه يوم القيامة، ثم استطرد، فذكر أحوال يوم القيامة وأحواله فقال:

﴿١٠٢ - ١٠٤﴾ «يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً * يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً * نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً»

أي: إذا نفخ في الصور وخرج الناس من قبورهم، كُلُّ على حسب حاله، فالمتقون يحشرون إلى الرحمن وفداً، والمجرمون يحشرون زُرْقاً ألوانهم من الخوف والقلق والعطش، يتناجون بينهم، ويتخافتون في قصر مدة الدنيا، وسرعة الآخرة، فيقول بعضهم: ما لبثتم إلا عشرة أيام، ويقول بعضهم غير ذلك، والله يعلم تخافتهم، ويسمع ما يقولون ﴿إذ يقول أمثلهم طريقة﴾ أي: أعدلهم وأقربهم إلى التقدير ﴿إن لبثتم إلا يوماً»

والمقصود من هذا، الندم العظيم، كيف ضيعوا الأوقات القصيرة، وقطعوا ساهين لاهين، معرضين عما ينفعهم، مقبلين على ما يضرهم، فها قد حضر الجزاء، وحق الوعيد، فلم يبق إلا الندم، والدعاء بالويل والثبور.

كما قال تعالى: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾.

﴿١٠٥ - ١١٢﴾ «ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً * فيذرها قاعاً صافصفاً * لا ترى فيها عوجاً ولا أمناً * يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً * يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون به علماً * وعنن الوجوه

للحي القيوم وقد خاب من حمل ظلماً * ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هضماً» يخبر تعالى عن أحوال القيامة، وما فيها من الزلازل والقلاقل، فقال: ﴿ويسألونك عن الجبال﴾ أي: ماذا يصنع بها يوم القيامة، وهل تبقى بحالها أم لا؟ ﴿فقل ينسفها ربي نسفاً﴾ أي: يزيلها ويقلعها من أماكنها فتكون كالعهن وكالرمل، ثم يدكها فيجعلها هباء منبثاً، فتضمحل وتلاشى، ويسويها بالأرض، ويجعل الأرض قاعاً صافصفاً، مستوياً لا ترى فيه أيها الناظر عوجاً، هذا من تمام استوائها ﴿ولا أمناً﴾ أي: أودية وأماكن منخفضة، أو مرتفعة فتبرز الأرض، وتوسع للخلائق، ويمدها الله مدد الأديم، فيكونون في موقف واحد، يسمعون الداعي، ويتقدم البصر، ولهذا قال:

﴿يومئذ يتبعون الداعي﴾ وذلك حين يبعثون من قبورهم ويقومون منها، يدعوهم الداعي إلى الحضور والاجتماع للموقف، فيتبعونه مهطعين إليه، لا يلتفتون عنه، ولا يرجعون يمنة ولا يسرة، وقوله: ﴿لا عوج له﴾ أي: لا عوج لدعوة الداعي، بل تكون دعوته حقاً وصدقاً، لجميع الخلق، يسمعون جميعهم، ويصبح بهم أجمعين، فيحضرون لموقف القيامة، خاشعة أصواتهم للرحمن، ﴿فلا تسمع إلا همساً﴾ أي: إلا وطء الأقدام، أو المخافة سرّاً بتحريك الشفتين فقط، يملكهم الخشوع والسكون والإنصات، انتظاراً لحكم الرحمن فيهم، وتعنو وجوههم، أي: تذل وتخضع، فتري في ذلك الموقف العظيم، الأغنياء والفقراء، والرجال والنساء، والأحرار والأرقاء، والملوك والسوقة، ساكتين منصتين، خاشعة أبصارهم، خاضعة رقابهم، جاثين على ركبهم، عانية وجوههم، لا يدرون ماذا ينفصل كل منهم به، ولا ماذا

يفعل به، قد اشتغل كُلُّ بنفسه وشأنه، عن أبيه وأخيه، وصديقه وحبيبه ﴿لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾ فحيثُذَّ يحكم فيهم الحاكم العدل الديان، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بالحرمان.

والأمل بالرب الكريم، الرحمن الرحيم، أن يري الخلائق منه، من الفضل والإحسان، والعفو والصفح والغفران، ما لا تعبر عنه الألسنة، ولا تتصوره الأفكار، ويتطلع لرحمته إذ ذاك جميع الخلق لما يشاهدونه [فيختص المؤمنون به ورسله بالرحمة] ^(١)، فإن قيل: من أين لكم هذا الأمل؟ وإن شئت قلت: من أين لكم هذا العلم بما ذكر؟

قلنا: لما نعلمه من غلبة رحمته لغضبه، ومن سعة جوده، الذي عم جميع البرايا، وما نشاهده في أنفسنا وفي غيرنا، من النعم المتواترة في هذه الدار، وخصوصاً في فصل القيامة، فإن قوله: ﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾ ﴿إلا من أذن له الرحمن﴾ مع قوله ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ مع قوله ﷺ: ﴿إن لله مشة رحمة، أنزل لعباده رحمة، بها يتراحون ويتعاطفون، حتى إن البهيمة ترفع حافرهما عن ولدها خشية أن تطأه﴾ - أي: - من الرحمة المودعة في قلبها، فإذا كان يوم القيامة، ضمت هذه الرحمة إلى تسع وتسعين رحمة، فرحم بها العباد.

مع قوله ﷺ: «لله أرحم بعباده من الوالدة بولدها»، فقل ما شئت عن رحمته، فإنها فوق ما تقول، وتصور ما شئت، فإنها فوق ذلك، فسبحان من رحم في عدله وعقوبته، كما رحم في فضله وإحسانه ومثوبته، وتعالى من وسعت رحمته كل شيء، وعم كرمه كل حي، وجَلَّ من غيبي عن عباده، رحيم بهم، وهم مفتقرون إليه على الدوام، في جميع أحوالهم، فلا غنى لهم عنه طرفة عين.

وقوله: ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا

من أذن له الرحمن ورضي له قولاً ﴿أي: لا يشفع أحد عنده من الخلق، إلا إذا أذن في الشفاعة﴾^(١)، ولا يأذن إلا لمن رضي قوله، أي: شفاعته، من الأنبياء والمرسلين، وعباده المقربين، فيمن ارتضى قوله وعمله، وهو المؤمن المخلص، فإذا اختل واحد من هذه الأمور، فلا سبيل لأحد إلى شفاعته من أحد.

وينقسم الناس في ذلك الموقف قسمين:

ظالمين يكفرهم وشرهم، فهؤلاء لا ينالهم إلا الخيبة والحerman، والعذاب الأليم في جهنم، وسخط الديان.

والقسم الثاني: من آمن بالإيمان المأمور به، وعمل صالحاً من واجب ومسنون ﴿فلا يخاف ظلماً﴾ أي: زيادة في سيئاته ﴿ولا هضماً﴾ أي: نقصاً من حسناته، بل تغفر ذنوبه، وتطهر عيوبه، وتضاعف حسناته، ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾.

﴿١١٣﴾ وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً ﴿أي: وكذلك أنزلنا هذا الكتاب، باللسان الفاضل العربي، الذي تفهمونه وتفقهونه، ولا يخفى عليكم لفظه، ولا معناه.

﴿وصرفنا فيه من الوعيد﴾ أي: نوغناها أنواعاً كثيرة، تارة بذكر أسمائه الدالة على العدل والانتقام، وتارة بذكر المثالات التي أحلها بالأمم السابقة، وأمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة، وتارة بذكر آثار الذنوب، وما تكسبه من العيوب، وتارة بذكر أهوال القيامة، وما فيها من المزعجات والمقلقات، وتارة بذكر جهنم وما فيها من أنواع العقاب وأصناف العذاب، كل هذا رحمة بالعباد، لعلهم يتقون الله فيتركون من الشر والمعاصي ما يضرهم، ﴿أو يحدث لهم ذكراً﴾ فيعملون من

﴿١١٤﴾ ﴿فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه وقل رب زدني علماً﴾ لما ذكر تعالى حكمه الجزائي في عبادته، وحكمه الأمري الديني، الذي أنزله في كتابه، وكان هذا من آثار ملكه قال: ﴿فتعالى الله﴾ أي: جل وارتفع وتقدس عن كل نقص وأفة، ﴿الملك﴾ الذي الملك وصفه، والخلق كله ممالك له، وأحكام الملك القدسية والشرعية، نافذة فيهم.

﴿الحق﴾ أي: وجوده وملكه وكماله حق، فصفت الكمال، لا تكون حقيقة إلا لذي الجلال، ومن ذلك: الملك، فإن غيره من الخلق، وإن كان له ملك في بعض الأوقات، على بعض الأشياء، فإنه ملك قاصر باطل يزول، وأما الرب، فلا يزال ولا يزول ملكاً حياً قيوماً جليلاً.

﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه﴾ أي: لا تبادر بتلقف القرآن حين يتلوه عليك جبريل، واصبر حتى يفرغ منه، فإذا فرغ منه فاقراه، فإن الله قد ضمن لك جمعه في صدرك وقراءتك إياه، كما قال تعالى: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ إن علينا جمعه وقرآنه ﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ ثم إن علينا بيانه ﴿ولما كانت عجلته﴾ عليه، تلقف الوحي ومبادرته إليه، تدل على محبته التامة للعلم وحرصه عليه، أمره الله تعالى أن يسأله زيادة العلم، فإن العلم خير، وكثرة الخير مطلوبة، وهي من الله، والطريق إليها الاجتهاد، والشوق للعلم، وسؤال الله، والاستعانة به، والافتقار إليه في كل وقت.

﴿١١٥﴾ ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾ أي: ولقد عهدنا آدم وأمرناه، وعهدنا إليه عهداً ليقوم به، فالتزمه، وأذعن له وانقاد، وعزم على القيام به، ومع ذلك نسي ما أمر به، وانتقضت عزمته المحكمة، فجرى عليه ما جرى، فصار عبرة لذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعته، نسي آدم فنسيت ذريته، وخطيء فخطئوا، ولم يثبت على العزم المؤكد، وهم كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقر بها واعترف، فغفرت له، ومن يشابه أباه فما ظلم.

ثم ذكر تفصيل ما أجمله فقال: ﴿١١٦ - ١٢٢﴾ ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى﴾ قلنا يا آدم إن هذا عدو

يؤخذ من هذه الآية الكريمة، الأدب في تلقي العلم، وأن المستمع للعلم ينبغي له أن يتأني ويصبر حتى يفرغ الملي والمعلم من كلامه المتصل بعضه ببعض، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال، ولا يبادر بالسؤال وقطع كلام مُلقِي العلم، فإنه سبب للحرمان، وكذلك المسؤول، ينبغي له أن يستملي سؤال السائل، ويعرف المقصود منه قبل الجواب، فإن ذلك سبب لإصابة الصواب.

﴿١١٥﴾ ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً﴾ أي: ولقد عهدنا آدم وأمرناه، وعهدنا إليه عهداً ليقوم به، فالتزمه، وأذعن له وانقاد، وعزم على القيام به، ومع ذلك نسي ما أمر به، وانتقضت عزمته المحكمة، فجرى عليه ما جرى، فصار عبرة لذريته، وصارت طبائعهم مثل طبيعته، نسي آدم فنسيت ذريته، وخطيء فخطئوا، ولم يثبت على العزم المؤكد، وهم كذلك، وبادر بالتوبة من خطيئته، وأقر بها واعترف، فغفرت له، ومن يشابه أباه فما ظلم.

فإنهم، هم والرسول، بشر عبيد لله، فلا يليق منهم الاقتراح بحسب أهوائهم، وإنما الذي يزلها ويختار منها ما يختار بحسب حكمته، هو الله.

ولأن^(١) قولهم: ﴿لولا أنزل عليه آيات من ربه﴾ يقتضي أنه لم يأتهم بآية على صدقه، ولا بيّنة على حقه، وهذا كذب وافتراء، فإنه أتى من المعجزات الباهرات، والآيات القاهرة، ما يحصل ببعضه المقصود، ولهذا قال: ﴿أولم تأتكم﴾ إن كانوا صادقين في قولهم، وأنهم يطلبون الحق بدليله، ﴿بيّنة ما في الصحف الأولى﴾ أي: هذا القرآن العظيم، المصدق لما في الصحف الأولى، من التوراة والإنجيل، والكتب السابقة المطابق لها، المخبر بما أخبرت به، وتصديقه أيضاً مذكور فيها، ومبشر بالرسول بها، وهذا كقوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ
الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةٌ
ذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ فالآيات تنفع
المؤمنين، ويزداد بها إيمانهم وإيقانهم،
وأما المعرضون عنها المعارضون لها،
فلا يؤمنون بها، ولا ينتفعون بها،
﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
لَا يُؤْمِنُونَ﴾ * ولو جاءتهم كل آية حتى
يأروا العذاب ﴿وإنما الفائدة في سوقها
إليهم ومخاطبتهم بها، لتقوم عليهم
حجة الله، ولئلا يقولوا حين ينزل بهم
العذاب: ﴿لَوْلَا أُرْسِلَتْ إِلَيْنَا رَسُولًا
فَتُنَبِّئَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنُخْزَىٰ﴾
بالعقوبة، فهذا قد جاءكم رسولي ومع
هذه آياتي وبراهيني، فإن كنتم كما تقولون،
فصدقوه.

قل يا محمد مخاطباً للمكذبين لك الذين يقولون تربصوا به رب المنون ﴿قل كل متربص﴾ فتربصوا بي الموت ، وأنا أتربص بكم العذاب ﴿قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين﴾ أي : الظفر أو الشهادة ﴿ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو

ويتعلمونهم، ما يصلح الصلاة ويفسدها
ويكملها.

﴿واصطبر عليها﴾ أي: على الصلاة بإقامتها، بحدودها وأركانها وآدابها وخشوعها، فإن ذلك مشق على النفس، ولكن ينبغي إكراهها وجهاها على ذلك، والصبر معها دائماً، فإن العبد إذا أقام صلاته على الوجه المأمور به، كان لما سواها من دينه أحفظ وأقوم، وإذا ضيعها كان لما سواها أضيع، ثم ضمن تعالى لرسوله الرزق، وأن لا يشغله الاهتمام به عن إقامة دينه، فقال:

﴿نحن نرزقك﴾ أي: رزقك علينا
قد تكفلنا به، كما تكفلنا بأرزاق
الخلق كلهم، فكيف بمن قام بأمرنا،
واشتغل بذكرنا؟! ورزق الله عام
للمتقى وغيره، فينبغي الاهتمام بما
يجلب السعادة الأبدية، وهو: التقوى،
ولهذا قال: ﴿والعاقبة﴾ في الدنيا
والآخرة ﴿للمتقوى﴾ التي هي فعل
المأمور وترك المنهي، فمن قام بها، كان
له العاقبة، كما قال تعالى: ﴿والعاقبة
للمتقين﴾.

﴿١٣٣- ١٣٥﴾ ﴿وقالوا لولا يأتينا بآية من ربّه أو لم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى﴾ * ولو أنا أهلكناهم بعدذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى * قل كل متربص فترصوا فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى ﴿أي: قال المكذبون للرسول ﷺ﴾: هلا يأتينا بآية من ربّه؟ يعنون آيات الاقتراح كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا﴾ * أو تكون لك جنة من نخيل وعنب تفجر الأنهار خلالها تفجيرا * أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالثانكة

وهذا تعنت منهم وعناد وظلم،

سُورَةُ الْاِنشِائَاتِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

اَقْرَبُ لَكَ اِنْ جِاسَهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ فَعَسَوْفَ ۝
مَآ يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ اِلَّا اسْتَمْسَقُوْهُ وَهُمْ
يَلْعَنُوْنَ ۝ اَلَيْسَ لَهُمْ ظُهُورُهُمْ اَوَّارٌ اَوْ اَلْبَحْرِ الَّذِي
ظَلَمُوْا اَهْلَ هَآؤُلَا اِيْتَرَفْنَاكُمْ فَاَلَمْ تَأْتُوا الْبَحْرَ وَلَمْ
تُجِئُوْا ۝ قَالَ رَبِّ يَسِّرْ لِي الْقَوْلَ فَاِذَا اسْتَسْقَمَ وَالْاَرْضُ
وَهُوَ السَّجْدُ الْعَلِيْمُ ۝ بَلْ قَالُوْا اَسْمُنْ اَسْمُنْ بَلْ اَقْرَبُ
بَلْ هُوَ سَكِرَةٌ يَلْعَنُ اِيْنَا يَكْفُرُ كَمَا اُرْسِلَ الْاَكْلُوْنَ ۝
مَا اَمْسَتْ قِيَامُهُمْ مِنْ قُرْبَةٍ اَهْلَكَ سَمَاءُ اَقْمَرُ تَوَسَّوْا ۝
وَمَا اَزْمَسَتْ اَقْدَامُ الْاَرَبِ اَلَمْ يَجِدْ اِلَهُهُ فَيَسْتَوْا اَهْلُ
الْاَرْضِ اِنْ كُنْتُمْ اِلٰهًا لَتَكُوْنُوا ۝ وَتَاَسْتَفْهِمُوْكُمْ
لَا يَكُوْنُ الْعِلْمُ وَتَاَسْتَفْهِمُوْكُمْ لَمْ يَكُوْنُوا ۝ ثُمَّ سَاءَ ظُهُورُهُمْ
اَلَيْسَ فَاَعْيَبُوْهُمْ وَنَسُوا مَا كُنْتُمْ اَلْفُرْقِيْنَ ۝
لَقَدْ اَرْسَلْنَا اِلَيْكُمْ رُسُلًا وَكُنتُمْ اَعْلَامًا قَلُوْنَ ۝

۳۳۳

عجيبها وعشاقها، فيندمون حيث لا تنفع الندامة، ويعلمون ما هم عليه إذا قدموا في القيامة، وإنما جعلها الله فتنه واختباراً، ليعلم من يقف عندها ويغتر بها، ومن هو أحسن عملاً، كما قال تعالى: ﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ * وإنا لجاعلون ما عليها صعيداً جرزاً .

﴿ورزق ربك﴾ العاجل من العلم والإيمان، وحقائق الأعمال الصالحة، والآجل من النعيم المقيم، والعيش السليم في جوار الرب الرحيم ﴿خير﴾ مما متعنا به أزواجاً، في ذاته وصفاته ﴿وأبقى﴾ لكونه لا يتقطع، أكلها دائم وظلها، كما قال تعالى: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ والآخرة خير وأبقى.

وفي هذه الآية، إشارة إلى أن العبد إذا رأى من نفسه طموحاً إلى زينة الدنيا، وإقبالاً عليها، أن يذكرها ما أمامها من رزق ربه، وأن يوازن بين هذا وهذا.

﴿١٣٢﴾ «وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للمتقوى» أي: حث أهلك على الصلاة، وأزعجهم إليها من فرض ونفل. والأمر بالشيء، أمر بجميع ما لا يتم إلا به، فيكون أمراً

السبيل، فلما لم تسلكوه، وسلكتكم غيره من الطرق، التي فيها ضَعَتَكُمْ وَخَسَّتَكُمْ في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما، علم أنه ليس لكم معقول صحيح، ولا رأي: رجح.

وهذه الآية، مصداقها ما وقع، فإن المؤمنين بالرسول، الذين تذكروا بالقرآن، من الصحابة فمن بعدهم، حصل لهم من الرفعة والعلو الباهر، والصيت العظيم، والشرف على الملوك، ما هو أمر معلوم لكل أحد، كما أنه معلوم ما حصل، لمن لم يرفع بهذا القرآن رأساً، ولم يهتد به ويتزك به، من المقت والضعفة والتدسية، والشقاوة، فلا سبيل إلى سعادة الدنيا والآخرة إلا بالتذكر بهذا الكتاب.

﴿١١ - ١٥﴾ ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون﴾ قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ﴿فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ يقول تعالى - محذراً لهؤلاء الظالمين، المكذبين للرسول، بما فعل بالأمم المكذبة لغيره من الرسل - ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ أي: أهلكنا بعدذاب مستأصل ﴿من قرية﴾ تلفت عن آخرها ﴿وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ وأن هؤلاء المهلكين، لما أحسوا بعدذاب الله وعقابه، وبأشهرهم نزوله، لم يمكن لهم الرجوع، ولا طريق لهم إلى النزوع، وإنما ضربوا الأرض بأرجلهم، ندماً وقلقاً، وتحسراً على ما فعلوا وهربوا من وقوعه، فقبل لهم على وجه التهكم بهم: ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم به ومساكنكم لعلكم تسألون﴾ أي: لا يفيدكم الركض والندم، ولكن إن كان لكم اقتدار، فارجعوا إلى ما أترفتم فيه، من اللذات والمشتهيات، ومساكنكم المزخرفات، ودنياكم التي غرتكم وألهتكم، حتى جاءكم أمر الله، فكونوا فيها متمكنين، وللذات جانيين، وفي منازلكم مطمئنين

معظمين، لعلكم أن تكونوا مقصودين في أموركم كما كنتم سابقاً، مسؤولين من مطالب الدنيا كحالتكم الأولى، وهيهات، أين الوصول إلى هذا؟ وقد فات الوقت، وحل بهم العقاب والمقت، وذهب عنهم عزهم وشرفهم ودنياهم، وحضرهم ندمهم وتحسرهم؟

ولهذا ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ ﴿فما زالت تلك دعواهم﴾ أي: الدعاء بالويل والثبور والندم، والإقرار على أنفسهم بالظلم، وأن الله عادل فيما أحل بهم، ﴿حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ أي: بمنزلة النبات الذي قد حصد وأنيم، قد خدت منهم الحركات، وسكنت منهم الأصوات، فاحذروا - أيها المخاطبون - أن تستمروا على تكذيب أشرف الرسل، فيحل بكم كما حل بأولئك.

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَافْتَحْنَا مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ يخبر تعالى أنه ما خلق السماوات والأرض عبثاً ولا لعباً من غير فائدة، بل خلقها بالحق وللحق، ليستدل بها العباد على أنه الخالق العظيم، المدبر الحكيم، الرحمن الرحيم، الذي له الكمال كله، والحمد كله، والعزة كلها، الصادق في قيله، الصادقة رسله فيما تخبر عنه، وأن القادر على خلقهما مع سعتهما وعظمهما، قادر على إعادة الأجساد بعد موتها، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا﴾ على الفرض والتقدير المحال ﴿لَافْتَحْنَا مِنْ لَدُنَّا﴾ أي: من عندنا ﴿إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ولم نطلعكم على ما فيه عبث ولهو، لأن ذلك نقص ومثل سوء، لا تحب أن نريه إياكم، فالسماوات والأرض اللذان بمرأى منكم على الدوام، لا يمكن أن يكون القصد منهما العبث واللهو، كل هذا تَنَزَّلَ مع العقول الصغيرة وإقناعها بجميع الوجوه المقتنة، فسبحان الحليم الرحيم،

الحكيم في تنزيله الأشياء منازلها. ﴿١٨ - ٢٠﴾ ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ ﴿وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾ ﴿يستحسرون﴾ يخبر تعالى، أنه تكفل بإحقاق الحق وإبطال الباطل، وإن كل باطل قيل وجود له، فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان، ما يدمغه فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه ﴿فإذا هو زاهق﴾ أي: مضمحل فإن، وهذا عام في جميع المسائل الدينية، لا يورد مبطل شبهة عقلية ولا نقلية، في إحقاق باطل، أو رد حق، إلا وفي أدلة الله، من القواطع العقلية والنقلية، ما يُذهِبُ ذلك القول الباطل ويقمعه، فإذا هو متبين بطلانه لكل أحد.

وهذا يتبين باستقراء المسائل، مسألة مسألة، فإنك تجدها كذلك ثم قال: ﴿ولكم﴾ أيها الواصفون الله، بما لا يليق به، من اتخاذ الولد والصاحبة، ومن الأنثاد والشركاء، حظكم من ذلك، ونصيبكم الذي تدركون ﴿الويل﴾ والندامة والخسران.

ليس لكم مما قلتم فائدة، ولا يرجع عليكم بعائدة تؤملونها، وتعملون لأجلها، وتسعون في الوصول إليها، إلا عكس مقصودكم، وهو الخيبة والحرمان، ثم أخبر أنه له ملك السماوات والأرض وما بينهما، فالكل عبيده ومماليكه، فليس لأحد منهم ملك ولا قسط من الملك، ولا معاونته عليه، ولا يشفع إلا بإذن الله، فكيف يتخذ من هؤلاء آلهة، وكيف يجعل الله منها ولد؟! فتعالى وتقدس المالك العظيم، الذي خضعت له الرقاب، وذُلَّتْ له الصعاب، وخشعت له الملائكة المقربون، وأذعنوا له بالعبادة الدائمة المستمرة أجمعون، ولهذا قال: ﴿ومن عنده﴾ أي: من الملائكة ﴿لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾ أي: لا يملون ولا يسأمونها، لشدة رغبته، وكمال محبتهم، وقوة

أبدانهم. ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾ أي: مستغرقين في العبادة والتسبيح في جميع أوقاتهم، فليس في أوقاتهم وقت فارغ منها ولا خال منها، وهم على كثرتهم بهذه الصفة، وفي هذا من بيان عظمتهم وجلالة سلطانه وكمال علمه وحكمته، ما يوجب أن لا يعبد إلا هو، ولا تُصَرَّف العبادة لغيره.

﴿٢١-٢٥﴾ ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ ينشرون﴾ * لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا فسبحان الله رب العرش عما يصفون * لا يسأل عما يفعل وهم يسألون * أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون * وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا أنا فاعبدون * لما بين تعالى كمال اقتداره وعظمتهم، وخضوع كل شيء له، أنكر على المشركين الذين اتخذوا من دون الله آلهة من الأرض، في غاية العجز وعدم القدرة * هم ينشرون * استفهام بمعنى النفي، أي: لا يقدرّون على نشرهم وحشرهم، يفسرها قوله تعالى: ﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون﴾ * ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً * ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون﴾ * لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون * فالمشرك يعبد المخلوق الذي لا ينفع ولا يضر، ويدع الإخلاص لله، الذي له الكمال كله وبيده الأمر والنفع والضرر، وهذا من عدم توفيقه، وسوء حفظه، وتؤثر جهله، وشدة ظلمه، فإنه لا يصلح الوجود، إلا على إله واحد، كما أنه لم يوجد إلا برب واحد.

ولهذا قال: ﴿لو كان فيهما﴾ أي: في السماوات والأرض ﴿آلهة إلا الله لفسدنا﴾ في ذاتهما، وفسد من فيهما، من المخلوقات.

وبيان ذلك: أن العالم العلوي

والسفلي، على ما يرى، في أكمل ما يكون من الصلاح والانظام، الذي ما فيه خلل ولا عيب، ولا ممانعة ولا معارضة، فدل ذلك على أن مدبره واحد، ورب واحد، وإله واحد، فلو كان له مدبران وربان أو أكثر من ذلك، لاختل نظامه، وتقوضت أركانه، فإنهما يتمانعان ويتعارضان، وإذا أراد أحدهما تدبير شيء، وأراد الآخر عدمه، فإنه محال وجود مرادهما معاً، ووجود مراد أحدهما دون الآخر، يدل على عجز الآخر وعدم اقتداره، واتفاقهما على مراد واحد في جميع الأمور غير ممكن، فإذا تعين أن القاهر الذي يوجد مراده وحده، من غير مانع ولا مدافع، هو الله الواحد القهار، ولهذا ذكر الله دليل التمانع في قوله: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلنا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون﴾.

ومنه - على أحد التأويلين - قوله تعالى: ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً﴾ * سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً * ولهذا قال هنا: ﴿فسبحان الله﴾ أي: تنزه وتقدس عن كل نقص لكماله وحده، ﴿رب العرش﴾ الذي هو سقف المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فربوبية^(١) ما دونه من باب أولى، ﴿عما يصفون﴾ أي: الجاحدون الكافرون، من اتخاذ الولد والصاحبة، وأن يكون له شريك بوجه من الوجوه. ﴿لا يسأل عما يفعل﴾ لعظمتهم وعزته، وكمال قدرته، لا يقدر أحد أن يمانعه أو يعارضه، لا بقول، ولا بفعل، ولكمال حكمته ووضعه الأشياء مواضعها وإتقانها، أحسن شيء يقدره العقل، فلا يتوجه إليه سؤال، لأن خلقه ليس فيه خلل ولا إخلال.

﴿وهم﴾ أي: المخلوقون كلهم ﴿يسألون﴾ عن أفعالهم وأقوالهم،

لعجزهم وفقهرهم، ولكونهم عبيداً، قد استحققت أفعالهم وحركاتهم، فليس لهم من التصرف والتدبير في أنفسهم، ولا في غيرهم مقال ذرة.

ثم رجع إلى تهجين حال المشركين، وأنهم اتخذوا من دونه آلهة فقل لهم موبخاً ومقراً: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ أي: حجتكم ودليلكم على صحة ما ذهبتم إليه، ولن يجدوا لذلك سبيلاً، بل قد قامت الأدلة القطعية على بطلانه، ولهذا قال: ﴿هذا ذكر من معي وذكر من قبلي﴾ أي: قد اتفقت الكتب والشرائع على صحة ما قلت لكم، من إبطال الشرك، فهذا كتاب الله الذي فيه ذكر كل شيء، بأدلتها العقلية والنقلية، وهذه الكتب السابقة كلها، برهان وأدلة لما قلت.

ولما علم أنهم قامت عليهم الحجة والبرهان على بطلان ما ذهبوا إليه علم أنه لا برهان لهم، لأن البرهان القاطع، يجزم أنه لا معارض له، وإلا لم يكن قطعياً، وإن وجد معارضات، فإنها شبه لا تغني من الحق شيئاً.

وقوله: ﴿بل أكثرهم لا يعلمون الحق﴾ أي: وإنما أقاموا على ما هم عليه، تقليداً لأسلافهم يجادلون بغير علم ولا هدى، وليس عدم علمهم الحق لحفائه وغموضه، وإنما ذلك لإعراضهم عنه، وإلا فلو التفتوا إليه أدنى التفات، تبين لهم الحق من الباطل تبيناً واضحاً جلياً، ولهذا قال: ﴿فهم معرضون﴾.

ولما حول تعالى على ذكر المتقدمين، وأمر بالرجوع إليها في بيان هذه المسألة، بيّنها أتم تبين في قوله: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا أنا فاعبدون﴾ فكل إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ فكل الرسل، الذين من قبلك مع كتبهم، زبدة رسالتهم وأصلها، الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وبيان أنه الإله الحق المعبود، وأن عبادة ما

سواه باطلة.

﴿٢٦-٢٩﴾ ﴿قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ



وعنت وجوههم لعزه وجماله، فلما بين أنه لا حق لهم في الألوهية، ولا يستحقون شيئاً من العبودية بما وصفهم به من الصفات المقتضية لذلك، ذكر أيضاً أنه لا حظ لهم، ولا بمجرد الدعوى، وأن من قال منهم: ﴿إني إله من دون الله﴾ على سبيل الفرض والتنزل ﴿فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾. وأي: ظلم أعظم من ادعاء المخلوق الناقص، الفقير إلى الله من جميع الوجوه، مشاركة الله في خصائص الإلهية والربوبية؟! ﴿٣٠﴾

﴿أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون﴾ أي: أولم ينظر هؤلاء الذين كفروا بربهم، وجحدوا الإخلاص له في العبودية، ما يدلهم دلالة مشاهدة، على أنه الرب المحمود، الكريم المعبود، فيشاهدون السماء والأرض، فيجدونها رتقاً، هذه ليس فيها سحب ولا مطر، وهذه هامة ميتة لا نبات فيها، ففتقناها: السماء بالمطر، والأرض بالنبات، أليس الذي أوجد في السماء السحاب، بعد أن كان الجو صافياً لا قرعة فيه، وأودع فيه الماء الغزير، ثم ساقه إلى بلد ميت؟ قد اغبرت أرجاؤه، وقحط عنه ماؤه، فأمطره فيها، فاهتزت وتحركت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج، مختلف الأنواع، متعدد المنافع، [أليس ذلك] (٣) دليلاً على أنه الحق، وما سواه باطل، وأنه محيي الموتى، وأنه الرحمن الرحيم؟ ولهذا قال: ﴿أفلا يؤمنون﴾ أي: إيماناً صحيحاً، ما فيه شك ولا شرك.

ثم عدد تعالى الأدلة الأقفية فقال: ﴿٣١-٣٣﴾ وجعلنا في الأرض رواسي أن يمتد بهم وجعلنا فيها فجاً سبلاً لعلهم يهتدون * وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون * وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك

ولداً سبحانه بل عباد مكرمون * لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون * ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين * يخبر تعالى عن سفاهة المشركين المكذبين للرسول، وأنهم زعموا - قبحهم الله - أن الله اتخذ ولداً فقالوا: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم، وأخبر عن وصف الملائكة، بأنهم (١) عبيد مربيون مدبرون، ليس لهم من الأمر شيء، وإنما هم مكرمون عند الله، قد أكرمهم الله، وصيرهم من عبيد كرامته ورحمته، وذلك لما خصهم به من الفضائل والتطهير عن الرذائل، وأنهم في غاية الأدب مع الله، والامثال لأوامره.

فـ ﴿لا يسبقونه بالقول﴾ أي: لا يقولون قولاً لما يتعلق بتدبير المملكة، حتى يقول الله، لكمال أدبهم، وعلمهم بكمال حكمته وعلمه.

﴿وهم بأمره يعملون﴾ أي: مهما أمرهم، امتثلوا لأمره، ومهما دبرهم عليه، فعلوه، فلا يعصونه طرفة عين، ولا يكون لهم عمل بأهواء أنفسهم من دون أمر الله، ومع هذا، قاله قد أحاط بهم علمه، فعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي: أمورهم الماضية والمستقبلية، فلا خروج لهم عن علمه، كما لا خروج لهم عن أمره وتدبيره.

ومن جزئيات وصفهم بأنهم لا يسبقونه بالقول، أنهم لا يشفعون لأحد بدون إذنه ورضاه، فإذا أذن لهم وارتضى من يشفعون فيه، شفعوا فيه، ولكنه تعالى لا يرضى من القول والعمل إلا ما كان خالصاً لوجهه، متبعاً فيه الرسول. وهذه الآية من أدلة إثبات الشفاعة، وأن الملائكة يشفعون. ﴿وهم من خشيته مشفقون﴾ أي: خائفون وجلون، قد خضعوا لجلاله،

يسبحون﴾ أي: ومن الأدلة على قدرته وكماله ووحدانيته ورحمته، أنه لما كانت الأرض لا تستقر إلا بالجبال، أرساها بها وأوتداه، لثلاث عمود بالعباد، أي: لثلاث تضطرب، فلا يتمكن العباد من السكون فيها، ولا حرثها، ولا الاستقرار بها، فأرساها بالجبال، فحصل بسبب ذلك من المصالح والمنافع ما حصل، ولما كانت الجبال المتصل بعضها ببعض، قد تتصل اتصالاً كثيراً جداً، فلو بقيت بحالها جبلاً شاخحات، وقُللاً باذخات، لتعطل الاتصال بين كثير من البلدان.

فمن حكمة الله ورحمته، أن جعل بين تلك الجبال فجاً سبلاً، أي: طرقاً سهلة لا حَزَنَةً، لعلهم يهتدون إلى الوصول إلى مطالبهم من البلدان، ولعلهم يهتدون بالاستدلال بذلك على وحدانية المنان.

﴿وجعلنا السماء سقفاً للأرض التي أنتم عليها﴾ محفوظاً من السقوط ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا﴾ محفوظاً أيضاً من استراق الشياطين للسمع.

﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ أي: غافلون لا هون، وهذا عام في جميع آيات السماء، من علوها، وسعتها،

رسول الله ﷺ، استهزؤا به، وقالوا: ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ أي: أهذا المحتقر بزعمتهم، الذي يسب آلهتكم ويذمها ويقع فيها، أي: فلا تبالوا به، ولا تحتفلوا به.

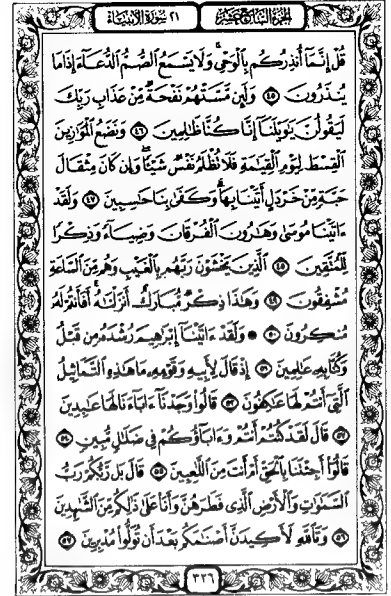
هذا استهزاءهم واحتقارهم له، بما هو من كماله، فإنه الأكمل الأفضل، الذي من فضائله ومكارمه، إخلاص العبادة لله، وذم كل ما يعبد من دونه وتنقصه، وذكر محله ومكانته، ولكن محل الازدراء والاستهزاء هؤلاء الكفار، الذين جمعوا كل خلق ذميم، ولو لم يكن إلا كفرهم بالرب وجحدهم لرسله، فصاروا بذلك من أخس الخلق وأرذلهم، ومع هذا، فذكرهم للرحمن، الذي هو أعلى جلالهم، كافرون بها، لأنه لا يذكرونه، ولا يؤمنون به إلا وهم مشركون، فذكرهم كفر وشرك، فكيف بأحوالهم بعد ذلك؟ ولهذا قال: ﴿وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ وفي ذكر اسمه ﴿الرحمن﴾ هنا، بيان لقباحة حالهم، وأنهم كيف قابلوا الرحمن - مسدي النعم كلها، ودافع النقم الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع السوء إلا إياه - بالكفر والشرك.

﴿خلق الإنسان من عجل﴾ أي: خلق عجبوا، يبادر الأشياء، ويستعجل بوقوعها، فالمؤمنون يستعجلون عقوبة الله للكافرين، ويتباطؤونها، والكافرون يتولون^(٢) ويستعجلون بالذاب، تكذيباً وعداءً، ويقولون: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ والله تعالى يمهّل ولا يمهّل، ويعلم، ويعمل لهم أجلاً مؤقتاً ﴿إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ ولهذا قال: ﴿سأريكم آياتي﴾ أي: في انتقامي عن كفر بي وعصائي ﴿فلا تستعجلون﴾ ذلك، وكذلك الذين كفروا يقولون: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ قالوا هذا القول، اغتراراً، ولما يحق عليهم

والخير فتنة وإلينا ترجعون﴾ لما كان أعداء الرسول يقولون^(١) تربصوا به رب المنون. قال الله تعالى: هذا طريق مسلك، ومعبد منهوك، فلم نجعل لبشر ﴿من قبلك﴾ يا محمد ﴿الخلد﴾ في الدنيا، فإذا مت، فسبيل أمثالك، من الرسل والأنبياء والأولياء، وغيرهم.

﴿أفإن مت فهم الخالدون﴾ أي: فهل إذا مت خلدوا بعدك، فليهنهم الخلود إذا إن كان، وليس الأمر كذلك، بل كل من عليها فإن، ولهذا قال: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ وهذا يشمل سائر نفوس الخلائق، وإن هذا كأس لا بد من شربه وإن طال بالعبد المدى، وعمر سنين، ولكن الله تعالى أوجد عباده في الدنيا، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالخير والشر، بالغنى والفقر، والعز والذل، والحياة والموت، فتنة منه تعالى ليلوهم أيهم أحسن عملاً، ومن يفتتن عند مواقع الفتن ومن ينجو، ﴿وإلينا ترجعون﴾ فنجازيكم بأعمالكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ وهذه الآية، تدل على بطلان قول من يقول ببقاء الخضر، وأنه مخلد في الدنيا، فهو قول لا دليل عليه، ومناقض للأدلة الشرعية.

﴿٣٦ - ٤١﴾ ﴿وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي يذكر آلهتكم وهم بذكر الرحمن هم كافرون﴾ خلق الإنسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون * بل تأتيهم بغتة فتبهتهم فلا يستطيعون ردها ولا هم ينظرون * ولقد استهزئ به رسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزؤون * وهذا من شدة كفرهم، فإن المشركين إذا رأوا



وعظمتها، ولونها الحسن، وإتقانها العجيب، وغير ذلك من المشاهد فيها، من الكواكب الثوابت والسيارات، وشمسها وقمرها النيرات، المتولد عنهما الليل والنهار، وكونهما دائماً في فلكهما سابحين، وكذلك النجوم، فتقوم بسبب ذلك منافع العباد من الحر والبرد، والفصول، ويعرفون حساب عباداتهم ومعاملاتهم، ويستريحون في ليلهم، ويهدؤون ويسكنون، ويتشرون في نهارهم، ويسعون في معاشهم، كل هذه الأمور إذا تدبرها اللبيب، وأمعن فيها النظر، جزم جزمًا لا شك فيه، أن الله جعلها مؤقتة في وقت معلوم، إلى أجل محتم، يقضي العباد منها مآربهم، وتقوم بها منافعهم، وليستمتعوا وينتفعوا، ثم بعد هذا، ستزول وتضمحل، وبقيتها الذي أوجدها، ويسكنها الذي حركها، وينتقل المكلفون إلى دار غير هذه الدار، يجدون فيها جزاء أعمالهم، كاملاً مؤثراً، ويعلم أن المقصود من هذه الدار أن تكون مزرعة لدار القرار، وأنها منزل سفر، لا محل إقامة.

﴿٣٤ - ٣٥﴾ ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾ كل نفس ذائقة الموت وتنبؤكم بالشر

(١) في السخيتين: يقولون قل تربصوا.

(٢) في أ الكلمة أقرب إلى أن تكون يقولون وفي ب غير واضحة وكلمة (يتولون) أقرب مناسبة للسياق.

العقاب، وينزل بهم العذاب.

ف «لو يعلم الذين كفروا» حالهم الشنيعة حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم، إذ قد أحاط بهم من كل جانب، وغشيتهم من كل مكان «ولا هم ينصرون» أي: لا ينصروهم غيرهم، فلا نصروا ولا انتصروا، «بل تأتيهم» النار «بغتة فتبتهتهم» من الانزعاج والذعر والخوف العظيم، «فلا يستطيعون ردها» إذ هم أذل وأضعف من ذلك.

﴿ولا هم ينظرون﴾ أي : يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فلو علموا هذه الحالة حق المعرفة، لما استعجلوا بالعذاب، ولخافوه أشد الخوف، ولكن لما ترحل عنهم هذا العلم، قالوا ما قالوا، ولما ذكر استهزاءهم برسوله بقولهم : ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ سلاه بأن هذا دأب الأمم السالفة مع رسلهم، فقال : ﴿ولقد استهزئ برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم﴾ أي : نزل بهم ﴿ما كانوا به يستهزئون﴾ أي : نزل بهم العذاب، وتقطعت عنهم الأسباب، فليحذر هؤلاء، أن يصيبهم ما أصاب أولئك المكذبين.

﴿٤٢﴾ ﴿٤٤﴾ ﴿قل من يكلمكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون﴾ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون ﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾ يقول تعالى - ذاكراً عجز هؤلاء، الذين اتخذوا من دونه آلهة، وأنهم محتاجون مضطرون إلى ربهم الرحمن، الذي رحمته، شملت البرّ والفاجر، في ليّلهم ونهارهم - فقال : ﴿قل من يكلمكم﴾ أي : يحرسكم ويحفظكم ﴿بالليل﴾ إذ كنتم نائمين على فرشكم، وذهبت حواسكم ﴿وبالنهار﴾ وقت انتشاركم وغفلتكم ﴿من الرحمن﴾ أي : بدله غيره، أي : هل يحفظكم أحد غيره؟ لا حافظ إلا هو .

﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾
 فلماذا أشركوا به، وإلا فلو أقبلوا على
 ذكر ربهم، وتلقوا نصائحهم، لهدوا
 لرشدهم، ووقفوا في أمرهم.

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا﴾
أي: إذا أردناهم بسوء، هل من آلهتهم
من يقدر على منعهم من ذلك السوء،
والشر النازل بهم؟؟

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِمَّنْ يَصْحَبُونَ﴾ أي: لا يعانون على أمورهم من جهتنا، وإذا لم يعانوا من الله، فهم مخذلون في أمورهم، لا يستطيعون جلب منفعة، ولا دفع مضرة، والذي أوجب لهم استمرارهم على كفرهم، وشركهم قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ أي: أمددناهم بالأموال والبنين، وأطلنا أعمارهم، فاشتغلوا بالتمتع بها، ولهو بها عما له خلقوا، وطال عليهم الأمد، ففست قلوبهم، وعسا طغيانهم، وتغلظ كفرانهم، فلو ألقنوا أنظارهم إلى مَنْ عن يمينهم وعن يسارهم من الأرض، لم يجدوا إلا هالكاً، ولم يسمعوا إلا صوت ناعية، ولم يحسوا إلا بقرون متتابعة على الهلاك، وقد نصب الموت في كل طريق لاقتناص النفوس الأشراك، ولهذا قال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي: يموت أهلها وفنائهم، شيئاً فشيئاً، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، فلو رأوا هذه الحالة لم يقتروا ويستمروا على ما هم عليه.

﴿أفهم الغالبون﴾ الذين بوسعهم الخروج عن قدر الله؟ وبطاعتهم الامتناع عن الموت؟ فهل هذا وصفهم حتى يغتروا بطول البقاء؟ أم إذا جاءهم رسول ربهم ليقبض أرواحهم أذعنوا وذلوا، ولم يظهر منهم أدنى مانعة؟

﴿٤٥-٤٦﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءُ إِذَا مَا يُنْذِرُونَ﴾ * وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * أَيْ: ﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ: ﴿إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ * أَيْ: إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، لَا أَتِيكُم بِشَيْءٍ مِنْ عِنْدِي، وَلَا عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ، وَلَا

أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك، وإنما أنذركم بما أوحاه الله لي، فإن استجتم، فقد استجبتم لله، وسيبكم على ذلك، وإن أعرضتم وعارضتم، فليس بيدي من الأمر شيء، وإنما الأمر لله، والتقدير كله لله.

﴿وَلَا يَسْمَعُ الصَّوْمَ الدَّعَاءُ﴾ أَي: الْأَصْمُ لَا يَسْمَعُ صَوْتًا، لِأَن سَمْعَهُ قَدْ فَسَدَ وَتَعَطَّلَ، وَشَرَطَ السَّمْعَ مَعَ الصَّوْتِ، أَنَّ يَوْجِدَ حُلَّ قَابِلٍ لِذَلِكَ، كَذَلِكَ الْوَحْيُ سَبَبُ حَيَاةِ الْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ، وَلِلْفَلَسَفَةِ عَنْ اللَّهِ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الْقَلْبُ غَيْرَ قَابِلٍ لِسَمَاعِ الْهَدْيِ، كَانَ بِالنِّسْبَةِ لِلْهَدْيِ وَالْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الْأَصْمِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَصْوَاتِ، فَهَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ، صَمٌّ عَنِ الْهَدْيِ، فَلَا يَسْتَفْرِغُ عَدَمَ اتِّبَاعِهِمْ، خُصَرَاءُ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ الَّتِي لَمْ يَأْتِهِمُ الْعَذَابُ، وَلَا مِنْهُمْ اللَّهُ.

فلو مسهم ﴿نفحة من عذاب ربك﴾
 أي: ولو جزء يسيراً ولا يسير من
 عذابه، ﴿ليقولن يا ويلنا إنا كنا
 ظالمين﴾ أي: لم يكن قولهم إلا الدعاء
 بالويل والشبور والندم، والاعتراف
 بظلمهم وكفرهم واستحقاقهم
 للعذاب.

والانقياد والتسليم، وشكر الله على هذه المنحة الجليلة، والقيام بها، واستخراج بركته، بتعلم ألفاظه ومعانيه، وأما مقابله بضد هذه الحالة، من الإعراض عنه، والإضراب عنه صفحاً، وإنكاره، وعدم الإيمان به، فهذا من أعظم الكفر وأشد الجهل والظلم، ولهذا أنكر تعالى على من أنكره، فقال: ﴿أفأنتم له مكرون﴾

﴿٥١ - ٧٣﴾ ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين﴾ إلى آخر هذه القصة، وهو قوله: ﴿وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين﴾ لما ذكر تعالى موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم وكتابيهما، قال: ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل﴾ أي: من قبل إرسال موسى ومحمد ونزول كتابيهما، فأراه الله ملكوت السماوات والأرض، وأعطاه من الرشد، الذي كمل به نفسه، ودعا الناس إليه، ما لم يؤته أحداً من العالمين غير محمد، وأضاف الرشد إليه، لكونه رشداً بحسب حاله وعلو مرتبته، وإلا فكل مؤمن له من الرشد بحسب ما معه من الإيمان. ﴿وكنا به عالمين﴾ أي: أعطيناه رشده، واختصصناه بالرسالة والخلعة، واصطفيناه في الدنيا والآخرة، لعلمنا أنه أهل لذلك، وكفه له، لذكائه وذكائه، ولهذا ذكر حاجته لقومه، ونهيه عن الشرك، وتكسير الأصنام، وإلزامهم بالحجة، فقال: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل﴾ التي مثلتموها، نحتموها بأيديكم، على صور بعض المخلوقات ﴿التي أنتم لها عاكفون﴾ مقيمون على عبادتها، ملازمون لذلك، فما هي؟ وأي فضيلة ثبتت لها؟ وأين عقولكم التي ذهبت حتى أفنيت أوقاتكم بعبادتها؟ والحال أنكم مثلتموها، ونحتموها بأيديكم، فهذا من أكبر العجائب، تعبدون ما تحنون.

والقرآن^(١)، فأخبر أنه آتى موسى أصلاً، وهارون تبعاً ﴿الفرقان﴾ وهو التوراة الفارقة بين الحق والباطل، والهدى والضلال، وأنها ﴿ضياء﴾ أي: نور يهتدي به المهتدون، ويأتى به السالكون، وتعرف به الأحكام، ويميز به بين الحلال والحرام، وينير في ظلمة الجهل والبعد والغواية، ﴿وذكرنا للمتقين﴾ يتذكرون به ما ينفعهم وما يضرهم، ويتذكر به الخير والشر، وخص ﴿المتقين﴾ بالذكر، لأنهم المنتفعون بذلك، علماً وعملاً، ثم فسر المتقين فقال: ﴿الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ أي: يخشونه في حال غيبتهم، وعدم مشاهدة الناس لهم، فمع المشاهدة أولى، فيتورعون عما حرم، ويقومون بما أزم، ﴿وهم من الساعة مشفقون﴾ أي: خائفون وجلون، لكمال معرفتهم بربهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، والعطف هنا من باب عطف الصفات المتغايرات، الواردة على شيء واحد وموصوف واحد.

﴿وهذا﴾ أي: القرآن ﴿ذكر مبارك أنزلناه﴾ فوصفه بوصفين جليلين، كونه ذكراً يتذكر به جميع المطالب، من معرفة الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، ومن صفات الرسل والأولياء وأحوالهم، ومن أحكام الشرع من العبادات والمعاملات وغيرها، ومن أحكام الجزاء والجنة والنار، فيتذكر به المسائل والدلائل العقلية والنقلية، وسماه ذكراً، لأنه يذكر ما ركزه الله في العقول والفطر، من التصديق بالأخبار الصادقة، والأمر بالحسن عقلاً، والنهي عن القبيح عقلاً، وكونه ﴿مباركاً﴾ يقتضي كثرة خيراته^(٢) ونماها وزيادتها، ولا شيء أعظم بركة من هذا القرآن، فإن كل خير ونعمة، وزيادة دينية أو دنيوية أو أخروية، فإنها بسببه، وأثر عن العمل به، فإذا كان ذكراً مباركاً، وجب تلقينه بالقبول



والسينات، ﴿فلا تظلم نفس﴾ مسلمة أو كافرة ﴿شيئاً﴾ بأن تنقص من حسناتها، أو يزداد في سيئاتها.

﴿وإن كان مثقال حبة من خردل﴾ التي أصغر الأشياء وأحقرها، من خير أو شر ﴿آتيناً بها﴾ وأحضرناها، ليجازى بها صاحبها، كقوله: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

وقالوا ﴿يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾.

﴿وكفى بنا حاسبين﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فكفى به حاسباً، أي: عالماً بأعمال العباد، حافظاً لها، مثبتاً لها في الكتاب، عالماً بمقاديرها ومقادير ثوابها وعقابها واستحقاقها، موصلاً للعمال جزاءها.

﴿٤٨ - ٥٠﴾ ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرنا للمتقين﴾ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون ﴿وهذا ذكر مبارك أنزلناه﴾ أفأنتم له مكرون ﴿كثيراً ما يجمع تعالى بين هذين الكتابين الجليلين، اللذين لم يطرق العالم أفضل منهما، ولا أعظم ذكراً، ولا أبرك، ولا أعظم هدى وبياناً لهما التوراة

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في النسختين خيره، وغيرت الكلمة لتوافق مع الضمائر التي بعدها.

عبادة الخالق الرازق المدبر؟

وأما الدليل السمعي، فهو المنقول عن الرسل عليهم الصلاة والسلام، فإن ما جاؤوا به معصوم، لا يغلط ولا يخبر بغير الحق، ومن أنواع هذا القسم، شهادة أحد من الرسل على ذلك، فلماذا قال إبراهيم: ﴿وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ﴾ أي: أن الله وحده المعبود وأن عبادة ما سواه باطل ﴿من الشاهدين﴾ وأي: شهادة بعد شهادة الله أعلى من شهادة الرسل؟ خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً خليل الرحمن.

ولما بين أن أصنامهم ليس لها من التدبير شيء أراد أن يريهم بالفعل عجزها وعدم انتصارها وليكيد كيداً يحصل به إقرارهم بذلك فلماذا قال: ﴿وَتَاللهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾ أي: أكسرها على وجه الكيد ﴿بعد أن تولوا مدبرين﴾ عنها إلى عيد من أعيادهم، فلما تولوا مدبرين، ذهب إليها بخفية ﴿فجعلهم جذاً﴾ أي: كسراً وقطعاً، وكانت مجموعة في بيت واحد، فكسرها كلها، ﴿إلا كبيراً لهم﴾ أي: إلا صنمهم الكبير، فإنه تركه لمقصد سببته، وتأمل هذا الاحتراز العجيب، فإن كل ممقوت عند الله، لا يطلق عليه ألفاظ التعظيم، إلا على وجه إضافته لأصحابه، كما كان النبي ﷺ إذا كتب إلى ملوك الأرض المشركين يقول: ﴿إلى عظيم الفرس﴾ إلى عظيم الروم ونحو ذلك، ولم يقل: ﴿إلى العظيم﴾، وهنا قال تعالى: ﴿إلا كبيراً لهم﴾ ولم يقل: ﴿كبيراً من أصنامهم﴾. فهذا ينبغي التنبيه له، والاحتراز من تعظيم ما حقره الله، إلا إذا أضيف إلى من عظمه.

وقوله: ﴿لعلهم إليه يرجعون﴾ أي: ترك إبراهيم تكسير صنمهم هذا لأجل أن يرجعوا إليه، ويستملوا حجته، ويلتفتوا إليها، ولا يعرضوا عنها، ولهذا قال في آخرها: ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾

فحين رأوا ما حل بأصنامهم من الإهانة والخزي ﴿قالوا من فعل هذا بالهتتا إنه لمن الظالمين﴾ فرموا إبراهيم

فأجابوا بغير حجة، جواب العاجز، الذي ليس بيده أدنى شبهة، فقالوا: ﴿وجدنا آباءنا﴾ كذلك يفعلون، فسلكتنا سبيلهم، وتبعناهم على عبادتها، ومن العلوم أن فعل أحد من الخلق سوى الرسل ليس بحجة، ولا تجوز به القدوة، خصوصاً في أصل الدين، وتوحيد رب العالمين، ولهذا قال لهم إبراهيم مضملاً للجميع: ﴿لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ أي: ضلال بين واضح، وأي: ضلال أبلف من ضلالهم في الشرك، وترك التوحيد؟! أي: فليس ما قلتم، يصلح للتمسك به، وقد اشركتم وإياهم في الضلال الواضح، البين لكل أحد، ﴿قالوا﴾ على وجه الاستغراب لقوله، والاستعظام لما قال، وكيف بادأهم بتسفيهم وتسفيه آبائهم: ﴿أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعين﴾ أي: هذا القول الذي قلته، والذي جئتنا به، هل هو حق وجد؟ أم كلامك لنا، كلام لاعب مستهزئ، لا يدري ما يقول؟ وهذا الذي أرادوا، وإنما رددوا الكلام بين الأمرين، لأنهم نزلوه منزلة المقرر المعلوم عند كل أحد، أن الكلام الذي جاء به إبراهيم كلام سفيه لا يعقل ما يقول، فرد عليهم إبراهيم رداً بين به وجه سفههم وقلة عقولهم فقال: ﴿بل ربكم رب السماوات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ فجمع لهم بين الدليل العقلي والدليل السمعي.

أما الدليل العقلي، فإنه قد علم كل أحد حتى هؤلاء الذين جادلهم إبراهيم، أن الله وحده الخالق لجميع المخلوقات، من بني آدم، والملائكة، والجن، والبهائم، والسماوات، والأرض، المدبر لهن بجميع أنواع التدبير، فيكون كل مخلوق مفضولاً مدبراً متصرفاً فيه، ودخل في ذلك جميع ما عبد من دون الله.

أفيلق عند من له أدنى مسكة من عقل وتمييز، أن يعبد مخلوقاً متصرفاً فيه، لا يملك نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ويدع

بالظلم الذي هم أولى به حيث كسرها ولم يدروا أن تكسيه لها من أفضل مناقبه ومن عدله وتوحيده، وإنما الظالم من اتخذها آلهة، وقد رأى ما يفعل بها ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم﴾ أي: يعيهم ويذمهم، ومن هذا شأنه لا بد أن يكون هو الذي كسرها أو أن بعضهم سمعه يذكر أنه سيكيدها ﴿يقال له إبراهيم﴾ فلما تحققوا أنه إبراهيم ﴿قالوا فأتوا به﴾ أي: بإبراهيم ﴿على أعين الناس﴾ أي: بمرأى منهم ومسمع ﴿لعلهم يشهدون﴾ أي: يحضرون ما يصنع بمن كسر آلهتهم، وهذا الذي أراد إبراهيم وقصد أن يكون بيان الحق بمشهد من الناس ليشهدوا الحق وتقوم عليهم الحجة، كما قال موسى حين واعد فرعون: ﴿هو عدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى﴾ فحين حضر الناس وأحضر إبراهيم قالوا له: ﴿أأنت فعلت هذا﴾ أي: التكسير ﴿بالهتتا يا إبراهيم﴾ وهذا استفهام تقرير، أي: فما الذي جرأك، وما الذي أوجب لك الإقدام على هذا الأمر؟

فقال إبراهيم والناس شاهدون: ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ أي: كسرها غضباً عليها، لما عبدت معه، وأراد أن تكون العبادة منكم لصنمكم الكبير وحده، وهذا الكلام من إبراهيم، القصد منه إلزام الخصم وإقامة الحجة عليه، ولهذا قال: ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ وأراد الأصنام المكسرة، اسألوها لم كسرت؟ والصنم الذي لم يكسر، اسألوه لأي: شيء كسرها، إن كان عندهم نطق، فسيجيبونكم إلى ذلك، وأنا وأنتم، وكل أحد يدري أنها لا تنطق ولا تتكلم، ولا تنفع ولا تضر، بل ولا تنصر نفسها من يريدها بأذى.

﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي: ثابت عليهم عقولهم، ورجعت إليهم أحلامهم، وعلموا أنهم ضالون في عبادتها، وأقروا على أنفسهم بالظلم والشرك، ﴿فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾ فحصل بذلك المقصود، ولزمهم

الحجة بإقرارهم أن ما هم عليه باطل، وأن فعلهم كفر وظلم، ولكن لم يستمروا على هذه الحالة، ولكن «نكسوا على رؤوسهم» أي: انقلب الأمر عليهم، وانتكست عقولهم، وضلت أحلامهم، فقالوا لإبراهيم: «لقد علمت ما هؤلاء ينطقون» فكيف تهكم بنا وتستهزئ بنا وتأمرنا أن نسألها وأنت تعلم أنها لا تنطق؟

فقال إبراهيم - مويخاً لهم ومعلنأ بشرهم على رؤوس الأشهاد، ومبينأ عدم استحقات آلهتهم للعبادة -: «أنتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم» فلا نفع ولا دفع، «أف لكم ولما تعبدون من دون الله» أي: ما أضلكم وأخسر صفقتكم، وما أخسكم، أنتم وما عبدتم من دون الله، إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدمتم العقل، وارتكبت الجهل والضلال على بصيرة، صارت البهائم أحسن حالا منكم.

فحينئذ لما أفحمهم، ولم يبينوا حجة، استعملوا قوتهم في معاقبته، ف«قالوا حرّوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين» أي: اقتلوه أئسج القتلات، بالإحراق، غضباً لآلهتكم، ونصرة لها. فتعساً لهم تعساً، حيث عبدوا من أقروا أنه يحتاج إلى نصرهم، واتخذوه إلهاً، فانتصر الله لخليله لما ألقوه في النار وقال لها: «كوني برداً وسلاماً على إبراهيم» فكانت عليه برداً وسلاماً، لم ينله فيها أذى، ولا أحس بمكروه.

«وأرادوا به كيداً» حيث عزموا على إحراقه، «فجعلناهم الآخرين» أي: في الدنيا والآخرة، كما جعل الله خليله وأتباعه هم الرابحين المفلحين.

«ونجينا له ولوطاً» وذلك أنه لم يؤمن به من قومه إلا لوط عليه السلام، قيل: إنه ابن أخيه، فنجاه الله، وهاجر «إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين» أي: الشام، فغادر قومه في «بابل» من أرض العراق، «وقال إني مهاجرٌ إلى ربي إنه

هو العزيز الحكيم» ومن بركة الشام، أن كثيراً من الأنبياء كانوا فيها، وأن الله اختارها مهاجراً لخليله، وفيها أحد بيوت الثلاثة المقدسة، وهو بيت المقدس. «ووهبنا له» حين اعتزل قومه «إسحاق ويعقوب» ابن إسحق «نافلة» بعدما كبر، وكانت زوجته عاقراً، فبشرته الملائكة بإسحاق، «ومن وراء إسحاق يعقوب» ويعقوب هو إسرائيل، الذي كانت منه الأمة العظيمة، وإسماعيل بن إبراهيم، الذي كانت منه الأمة الفاضلة العربية، ومن ذريته سيد الأولين والآخرين. «وكلنا» من إبراهيم وإسحق ويعقوب «جعلنا صالحين» أي: قائمين بحقوقه وحقوق عباده، ومن صلاحهم، أنه جعلهم أئمة يهدون بأمره، وهذا من أكبر نعم الله على عبده أن يكون إماماً يبتدي به المهتدون، ويمشي خلفه السالكون، وذلك لما صبروا، وكانوا بآيات الله يوقنون.

وقوله: «يهدون بأمرنا» أي: يهدون الناس بديننا، لا يأمرن بأهواء أنفسهم، بل بأمر الله ودينه، واتباع مرضاته، ولا يكون العبد إماماً حتى يدعو إلى أمر الله.

«وأوحينا إليهم فعل الخيرات» يفعلونها ويدعون الناس إليها، وهذا شامل لجميع الخيرات، من حقوق الله وحقوق العباد.

«وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة» هذا من باب عطف الخاص على العام، لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ولأن من كلهما كما أمر، كان قائماً بدينه، ومن ضيعهما، كان لما سواهما أضيع، ولأن الصلاة أفضل الأعمال، التي فيها حقه، والزكاة أفضل الأعمال، التي فيها الإحسان لخلقه.

«وكانوا لنا» أي: لا لغيرنا «عابدين» أي: مديمين على العبادات القلبية والقولية والبدينية في أكثر أوقاتهم، فاستحقوا أن تكون العبادة وصفهم، فاتصفوا بما أمر الله به الخلق، وخلقهم لأجله.

«٧٤-٧٥» «ولوطاً آتينا حكماً وعلماً ونجينا له من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين» وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين. هذا ثناء من الله على رسوله (لوط) عليه السلام بالعلم الشرعي، والحكم بين الناس، بالصواب والسداد، وأن الله أرسله إلى قومه، يدعوهم إلى عبادة الله وينهاهم عما هم عليه من الفواحش، فلبث يدعوهم، فلم يستجيبوا له، فقلب الله عليهم ديارهم وعذبهم عن آخرهم، لأنهم «قوم سوء فاسقين» كذبوا الداعي، وتوعدوه بالإخراج، ونجى الله لوطاً وأهله، فأمره أن يسري بهم ليلاً، ليعلوا عن القرية، فسروا ونجوا، من فضل الله عليهم ومثته.

«وأدخلناه في رحمتنا» التي من دخلها، كان من الأمنين، من جميع المخاوف، النائلين كل خير وسعادة وبر وسرور وثناء، وذلك لأنه من الصالحين، الذين صلحت أعمالهم، وزكت أحوالهم، وأصلح الله فاسدهم والصلاح هو السبب لدخول العبد برحمة الله، كما أن الفساد سبب لحرمانه الرحمة والخير، وأعظم الناس صلاحاً الأنبياء عليهم السلام، ولهذا يصفهم بالصلاح، وقال سليمان عليه السلام: «وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين».

«٧٦-٧٧» «ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم» ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوء فأغرقناهم أجمعين» أي: وأذكر عبدنا ورسولنا نوحاً عليه السلام، مثنياً مادحاً، حين أرسله الله إلى قومه، فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى عبادة الله، وينهاهم عن الشرك به، ويؤيدي فيهم ويعيد، ويدعوهم سرّاً وجهاراً، وليلاً ونهاراً، فلما رآهم لا يتجع فيهم الوعظ، ولا يفيد لديهم الزجر، نادى ربه وقال: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً» * إنك إن تذرهم

وننجيانه من الغم وكذلك ننجي
أي: وأذكر عبدنا ورسولنا ذا
النون، وهو: يونس، أي: صاحب
النون، وهي الحوت، بالذكر الجميل،
والثناء الحسن، فإن الله تعالى أرسله إلى
قومه، فدعاهم، فلم يؤمنوا، فوعدهم
بنزول العذاب بأمد سماه لهم.

﴿فجاءهم العذاب﴾، وراوه عياناً، فعجبوا إلى الله، وضجوا وتابوا، فرفع الله عنهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعتها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾. وقال: ﴿وَأرسلناه إلى مئة ألف أو يزيدون فآمنوا فممتعناهم إلى حين﴾. وهذه الأمة العظيمة، الذين آمنوا بدعوة يونس، من أكبر فضائله، ولكنه عليه الصلاة والسلام ذهب مغاضباً، وأبق عن ربه للذنوب من الذنوب التي لم يذكرها الله لنا في كتابه، ولا حاجة لنا إلى تعيينها [لقوله: ﴿إذ أبقى إلى الفلك... وهو مليم﴾ أي: فاعل ما يلام عليه^(١) والظاهر أن^(٢) عجلته ومغاضبته لقومه وخروجه من بين أظهرهم قبل أن يأمره الله بذلك، وظن أن الله لا يقدر عليه، أي: يضيق عليه في بطن الحوت، أو ظن أنه سيفوت الله تعالى، ولا مانع من عروض هذا الظن للكمل من الخلق على وجه لا يستقر ولا يستمر عليه، فركب في السفينة مع أناس، فافترعوا، مَنْ يلقون منهم في البحر؟ لما خافوا الغرق إن بقوا كلهم، فأصاب القرعة يونس، فالتقمه الحوت، وذهب به إلى ظلمات البحار، فتأدى في تلك الظلمات: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ فأقر الله تعالى بكمال الألوهية، ونزعه عن كل نقص وعيب وآفة، واعترف بظلم نفسه وجنابته، قال الله تعالى: ﴿فلولا أنه كان من المسبحين، لبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ ولهذا قال هنا:

عبرة للعابدين، الذين ينتفعون بالعبور،
ثم ما أثنابه الله بعد زواله، ونظروا السبب،
وجدوه الصبر، ولهذا أثنى الله عليه به
في قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ
إِنَّهُ أَوَابٌ﴾ فجعلوه أسوة وقودة عندما
يصيهم الضر.

﴿٨٥-٨٦﴾ وإسماعيل الصابرين * وأدخلناهم في رحمنا إتهم من الصالحين ﴿٨٥﴾ أي: واذكر عبادنا المصطفين وأنبياءنا المرسلين بأحسن الذكر، وأثن عليهم أبلغ الثناء، وإسماعيل بن إبراهيم، وإدريس، وذا الكفل، نبيين من أنبياء بني إسرائيل ﴿٨٦﴾ من هؤلاء المذكورين ﴿٨٥﴾ من الصابرين ﴿٨٦﴾ والصبر: هو حبس النفس ومنعها، مما تميل بطبعها إليه، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يستحق العبد اسم الصبر التام، حتى يوفي هذه الثلاثة حقها. فهؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قد وصفهم الله بالصبر، فدل أنهم وفوها حقها، وقاموا بها كما ينبغي، ووصفهم أيضاً بالصلاح، وهو يشمل صلاح القلوب، بمعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه كل وقت، وصلاح اللسان، بأن يكون رطباً من ذكر الله، وصلاح الجوارح، باشتغالها بطاعة الله وكفها عن المعاصي. فبصبرهم وصلاتهم، أدخلهم الله برحمته، وجعلهم مع إخوانهم من المرسلين، وأثابهم الثواب العاجل والأجل. ولو لم يكن من ثوابهم، إلا أن الله تعالى نَوَّه بذكرهم في العالمين، وجعل لهم لسان صدق في الآخرين، لكفى بذلك شرفاً وفضلاً.

﴿٨٧-٨٨﴾ ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ
مَغْضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي
الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ
إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ * فاستجبنا له

[illegible]

ربه أني مسني الضر وأنت أرحم
الراحمين * فاستجبنا له فكشفنا ما به
من ضرر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة
من عندنا وذكرى للعابدين»، أي:
وأذكر عبدنا ورسولنا أيوب - مثنياً
معظماً له، رافعاً لقدره - حين ابتلاه
ببلاء شديد، فوجده صابراً راضياً عنه،
وذلك أن الشيطان سلب على جسده،
ابتلاء من الله وامتحاناً، فنفخ في
جسده، ففترح قروحاً عظيمة، ومكث
مدة طويلة، واشتد به البلاء، ومات
أهله، وذهب ماله، فنادى ربه: رب
﴿أني مسني الضر وأنت أرحم
الراحمين﴾ فتوسل إلى الله بالإخبار عن
حال نفسه، وأنه بلغ الضر منه كل
مبلغ، وبرحمته ربه الواسعة العامة
فاستجاب الله له، وقال له: ﴿اركض
برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾
فركض برجله، فخرجت من ركضته
عين ماء باردة، فاغتسل منها وشرب،
فأذهب الله ما به من الأذى، ﴿وآتيناه
أهله﴾ أي: رددنا عليه أهله وماله.

﴿ومثلهم معهم﴾ بأن منحه الله مع العافية من الأهل والمال شيئاً كثيراً، ﴿رحمة من عندنا﴾ به، حيث صبر ورضي، فأناب الله ثواباً عاجلاً قبل ثواب الآخرة.

﴿وذكرى للعابدين﴾ أي: جعلناه

﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم﴾ أي: الشدة التي وقع فيها.

﴿وكذلك نجّي المؤمنين﴾ وهذا وعد وبشارة لكل مؤمن وقع في شدة وغم، أن الله تعالى سينجيه منها، ويكشف عنه ويخفف، لإيمانه كما فعل بـ «يونس» عليه السلام.

﴿٨٩ - ٩٠﴾ ﴿وزكريا إذ نادى ربه رب لا تدّرني فرداً وأنت خير الوارثين﴾ * فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهيباً وكانوا لنا خاشعين﴾ أي: واذكر عبدنا ورسولنا زكريا، منوهاً بذكره، ناشراً لما قبله من فضائله، التي من جملتها هذه المنقبة العظيمة المتضمنة لنصحته للخلق، ورحمة الله إياه، وأنه ﴿نادى ربه رب لا تدّرني فرداً﴾ أي: ﴿قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً﴾ * ولم أكن بدعائك رب شقياً * واني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً * يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً﴾.

من هذه الآيات علمنا أن قوله ﴿رب لا تدّرني فرداً﴾ أنه لما تقارب أجله، خاف أن لا يقوم أحد بعده مقامه في الدعوة إلى الله، والنصح لعباد الله، وأن يكون في وقته فرداً، ولا يخلف من يشفعه ويعينه، على ما قام به، ﴿وأنت خير الوارثين﴾ أي: خير الباقيين، وخير من خلفني بخير، وأنت أرحم بعبادك مني، ولكنني أريد ما يطمئن به قلبي، وتسكن له نفسي، ويجري في موازيني ثوابه، ﴿فاستجبنا له ووهبنا له يحيى﴾ النبي الكريم، الذي لم يجعل الله له من قبل سمياً.

﴿وأصلحنا له زوجه﴾ بعدما كانت عاقراً، لا يصلح رحمها للحولادة، فأصلح الله رحمها للحمل لأجل نبيه زكريا، وهذا من فوائد الجليس والقرين الصالح، أنه مبارك على قرينه، فصار يحيى مشتركاً بين الوالدين.

ولما ذكر هؤلاء الأنبياء والمرسلين،

كلاً على انفراده، أثني عليهم عموماً فقال: ﴿إنهم كانوا يسارعون في الخيرات﴾ أي: يبادرون إليها ويفعلونها في أوقاتها الفاضلة، ويكملونها على الوجه اللائق الذي ينبغي، ولا يتركون فضيلة يقدرون عليها إلا انتهزوا الفرصة فيها، ﴿ويدعوننا رغباً ورهيباً﴾ أي: يسألوننا الأمور المرغوب فيها، من مصالح الدنيا والآخرة، ويتعذرون بنا من الأمور المرهوب منها، من مضار الدارين، وهم راغبون راهبون لا غافلون، لاهون ولا مدلون، ﴿وكانوا لنا خاشعين﴾ أي: خاضعين متذللين متضرعين، وهذا لكمال معرفتهم بربهم.

﴿٩١ - ٩٤﴾ ﴿والتي أحصنت فرجها فنفضنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ * إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون * وتقطعوا أمرهم بينهم كل إلينا راجعون * فمن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا كفران لسعيه وإنا له كاتبون﴾ أي: واذكر مريم عليها السلام مثنياً عليها مبيناً لقدرها، شاهراً لشرفها فقال: ﴿والتي أحصنت فرجها﴾ أي: حفظته من الحرام وقربانه، بل ومن الحلال، فلم تتزوج لاشتغالها بالعبادة، واستغراق وقتها بالخدمة لربها.

وحين جاءها جبريل في صورة بشر سوي تأم الخلق والحسن ﴿قالت إني أعود بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ فجازاها الله من جنس عملها، ورزقها ولداً من غير أب، بل نفخ فيها جبريل عليه السلام، فحملت بإذن الله.

﴿وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾ حيث حملت به، ووضعته من دون ميسس أحد، وحيث تكلم في المهد، وبزأها عما ظن بها المتهمون، وأخبر عن نفسه في تلك الحالة، وأجرى الله على يديه من الخوارق والمعجزات ما هو معلوم، فكانت وابنها آية للعالمين، يتحدث بها جيلاً بعد جيل، ويعتبر بها المعتبرون.

ولما ذكر الأنبياء عليهم السلام، قال مخاطباً للناس: و ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ أي: هؤلاء المرسل المذكورون، هم أمتكم وأئمتكم الذين بهم تأتمون، ويهديم تقتدون، كلهم على دين واحد، وصراط واحد، والرب أيضاً واحد.

ولهذا قال: ﴿وأنا ربكم﴾ الذي خلقتكم، وربيتكم بنعمتي، في الدين والدنيا، فإذا كان الرب واحداً، والنبي واحداً، والدين واحداً، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، بجميع أنواع العبادة كان وظيفتكم والواجب عليكم القيام بها، ولهذا قال: ﴿فاعبدون﴾ فرتب العبادة على ما سبق بالفاء ترتيب المسبب على سببه.

وكان اللائق، الاجتماع على هذا الأمر وعدم التفرق فيه، ولكن البغي والاعتداء، أبيا إلا الافتراق والتقطع. ولهذا قال: ﴿وتقطعوا أمرهم بينهم﴾ أي: تفرق الأحزاب المنتسبون لاتباع الأنبياء فرقاً، وتشتتوا، كل يدعي أن الحق معه، والباطل مع الفريق الآخر ﴿وكل حزب بما لديهم فرحون﴾.

وقد علم أن المصيب منهم، من كان سالكاً للدين القويم والصراط المستقيم، مؤتماً بالأنبياء، وسيظهر هذا إذا انكشف الغطاء، وبرح الخفاء، وحشر الله الناس لفصل القضاء، فحينئذ يتبين الصادق من الكاذب، ولهذا قال: ﴿كل﴾ من الفرق المتفرقة وغيرهم ﴿إلينا راجعون﴾ أي: فنجازهم أتم الجزاء.

ثم فصل جزاءه فيهم، منطقاً ومفهوماً، فقال: ﴿فمن يعمل من الصالحات﴾ أي: الأعمال التي شرعتها الرسل، وحشت عليها الكتب ﴿وهو مؤمن﴾ بالله وبرسله، وما جأؤا به ﴿فلا كفران لسعيه﴾ أي: لا نضيع سعيه ولا نبطله، بل نضاعفه له أضعافاً كثيرة.

﴿وإنا له كاتبون﴾ أي: مثبتون له في اللوح المحفوظ، وفي الصحف

التي مع الحفظة. أي: ومن لم يعمل من الصالحات، أو عملها وهو ليس بمؤمن، فإنه محروم خاسر في دينه ودينه.

﴿٩٥﴾ ﴿وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون﴾ أي: يمتنع على القرى المهلكة المعذبة الرجوع إلى الدنيا ليستدركوا ما فرطوا فيه، فلا سبيل إلى الرجوع لمن أهلك وعذب، فليحذر المخاطبون، أن يستمروا على ما يوجب الإهلاك فيقع بهم، فلا يمكن رفعه، وليقلعوا وقت الإمكان والإدراك.

﴿٩٦- ٩٧﴾ ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون﴾ واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين ﴿هذا تحذير من الله للناس، أن يقيموا على الكفر والمعاصي، وأنه قد قرب افتتاح يأجوج ومأجوج، وهما قبيلتان عظيمتان من بني آدم، وقد سد عليهم ذو القرنين، لما شكى إليه إفسادهم في الأرض، وفي آخر الزمان يفتح السد عنهم، فيخرجون إلى الناس في هذه الحالة والوصف، الذي ذكره الله، من كل مكان مرتفع، وهو الحدب، ينسلون أي: يسرعون. وفي هذا دلالة على كثرتهم الباهرة، وإسراعهم في الأرض، إما بذواتهم، وإما بما خلق الله لهم من الأسباب التي تقرب لهم البعيد، وتسهل عليهم الصعب، وأنهم يقهرون الناس، ويعلون عليهم في الدنيا، وأنه لا يدان لأحد بقتالهم.

﴿واقترب الوعد الحق﴾ أي: يوم القيامة الذي وعد الله بآتيانه، ووعدته حق وصدق، ففي ذلك اليوم ترى أبصار الكفار شاخصة من شدة الأفزع والأهوال المزعجة والقلقل المقلعة، وما كانوا يعرفون من جناباتهم وذنوبهم، وأنهم يدعون بالويل والثبور والندم والحسرة على ما فات، ويقولون ل: ﴿قد كنا في غفلة من هذا﴾ اليوم العظيم، فلم نزل فيها مستغرقين، وفي

لهو الدنيا متمتعين، حتى أتانا اليقين، ووردنا القيامة، فلو كان يموت أحد من الندم والحسرة، لما أتوا. ﴿بل كنا ظالمين﴾ اعترفوا بظلمهم وعدل الله فيهم، فحينئذ يؤمر بهم إلى النار، هم وما كانوا يعبدون، ولهذا قال:

﴿٩٨- ١٠٣﴾ ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾ أي: لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون ﴿لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون﴾ إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ﴿لا يسمعون حسيها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون﴾ لا يحزنهم الفرع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون، أي: إنكم أيها العابدون مع الله آلهة غيره ﴿حصب جهنم﴾ أي: وقودها وحطبها ﴿أنتم لها واردون﴾ وأصنامكم.

والحكمة في دخول الأصنام النار، وهي حماد لا تعقل، وليس عليها ذنب، بيان كذب من اتخذها آلهة، وليزداد عذابهم، فلها قال: ﴿لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها﴾ وهذا كقوله تعالى: ﴿ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين﴾ وكل من العابدين والمعبودين فيها خالدون، لا يخرجون منها، ولا ينتقلون عنها.

﴿لهم فيها زفير﴾ من شدة العذاب ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾ صم بكم عمي، أو لا يسمعون من الأصوات غير صوتها، لشدة غليانها واشتداد زفيرها وتغيظها.

ودخول آلهة المشركين النار، إنما هو الأصنام، أو من عبده وهو راض بعبادته، وأما المسيح، وعزير، والملائكة ونحوهم، ممن عبد من الأولياء، فإنهم لا يعذبون فيها، ويدخلون في قوله: ﴿إن الذين سبقت لهم منا الحسنى﴾ أي: سبقت لهم سابقة السعادة في علم الله، وفي اللوح المحفوظ وفي تيسيرهم في الدنيا لليسرى والأعمال الصالحة.

﴿أولئك عنها﴾ أي: عن النار ﴿مبعدون﴾ فلا يدخلونها، ولا يكونون قريباً منها، بل يبعدون عنها غاية البعد، حتى لا يسمعوها حسيها، ولا يروا شخصها، ﴿وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون﴾ من المأكّل، والشارب، والمناكح والمناظر، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مستمر لهم ذلك، يزداد حسنه على الأحقاب، ﴿لا يحزنهم الفرع الأكبر﴾ أي: لا يقلقهم إذا فرغ الناس أكبر فرع، وذلك يوم القيامة، حين تقرب النار، تنغيظ على الكافرين والعاصين فيفرغ الناس لذلك الأمر وهؤلاء لا يحزنهم، لعلمهم بما يقدمون عليه، وأن الله قد أنعم بما يخافون، ﴿وتلقاهم الملائكة﴾ إذا بعثوا من قبورهم، وأتوا على النجائب وفدأ لنشورهم، مهنيين لهم قائلين: ﴿هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾ فلنهيكم ما وعدكم الله، وليعظم استبشاركم بما أمامكم من الكرامة، وليكثر فرحكم وسروركم بما أنعم الله من المخاوف والمكاره.

﴿١٠٤- ١٠٥﴾ ﴿يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴿ينبئ تعالى أنه يوم القيامة يطوي السماوات - على عظمها واتساعها - كما يطوي الكاتب للسجل﴾ أي: الورقة المكتوب فيها، فتنشر نجومها، ويكور شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده﴾ أي: إعادتنا للخلق، مثل ابتدائنا خلقهم، فكما ابتدائنا خلقهم ولم يكونوا شيئاً، كذلك نعيدهم بعد موتهم.

﴿وعداً علينا إنا كنا فاعلين﴾ ننفذ ما وعدنا، لكامل قدرته، وأنه لا تمتنع منه الأشياء.

﴿ولقد كتبنا في الزبور﴾ وهو الكتاب المزبور، والمراد: الكتب المنزلة، كالتوراة ونحوها ﴿من بعد

الذكر ﴿أي: كتيبته في الكتب المنزلة، بعد ما كتبنا في الكتاب السابق، الذي هو اللوح المحفوظ، وأم الكتاب الذي توافقه جميع التقادير المتأخرة عنه والكتوب في ذلك: ﴿أن الأرض﴾

﴿أي: أرض الجنة﴾ يرثها عبادي الصالحون ﴿الذين قاموا بالمأمورات، واجتنبوا المنهيات، فهم الذين يورثهم الله الجنات، كقول أهل الجنة: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض تنبؤاً من الجنة حيث نشاء﴾.

ويحتمل أن المراد: الاستخلاف في الأرض، وأن الصالحين يمكن الله لهم في الأرض، ويوليهم عليها كقوله تعالى: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلكم﴾... الآية.

﴿١٠٦ - ١١٢﴾ ﴿إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾ * وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴿قل إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فهل أنتم مسلمون﴾ * فإن تولوا فقل أنذرتكم على سواء وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون ﴿إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون﴾ * وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين ﴿قال رب احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾

يشي الله تعالى على كتابه العزيز ﴿القرآن﴾ وبيّن كفايته التامة عن كل شيء، وأنه لا يستغنى عنه فقال: ﴿إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين﴾ أي: يتبلغون به في الوصول إلى ربهم، وإلى دار كرامته، فيوصلهم إلى أجل المطالب، وأفضل الرغائب. وليس للعابدين، الذين هم أشرف الخلق، وراء غاية، لأنه الكفيل بمعرفة ربهم، بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وبالإخبار بالغيوب الصادقة، وبالدعوة لحقائق الإيمان، وشواهد الإيقان، البين للمأمورات كلها، والمنهيات جميعها، المعروف بعبوب النفس والعمل، والطرق التي ينبغي سلوكها في دقيق الدين وجليله، والتحذير من طرق الشيطان وبيان مداخله على الإنسان، فمن لم يغنه

القرآن فلا أغناه الله، ومن لا يكفيه فلا كفاه الله.

ثم أثنى على رسوله الذي جاء بالقرآن، فقال: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ فهو رحمته المهداة لعباده، فالؤمنون به قبلوا هذه الرحمة وشكروها وقاموا بها، وغيرهم كفرها، وبدلوا نعمة الله كفرأ، وأبوارحمة الله ونعمته.

﴿قل﴾ يا محمد ﴿إنما يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾ الذي لا يستحق العبادة إلا هو، ولهذا قال: ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ أي: منقادون لعبوديته مستسلمون لألوهيته، فإن فعلوا فليحمدوا ربهم على ما منّ عليهم بهذه النعمة التي فاقت المنز.

﴿فإن تولوا﴾ عن الانقياد لعبودية ربهم، فحذرهم حلول المثلثات، ونزول العقوبة.

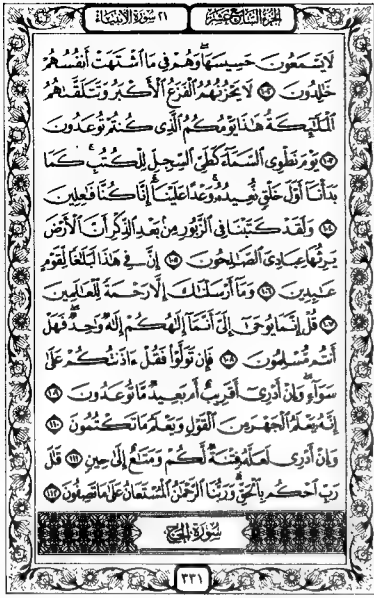
﴿فقل أنذرتكم﴾ أي: أعلمتكم بالعقوبة ﴿على سواء﴾ أي: علمي وعلمكم بذلك مستو، فلا تقولوا - إذا نزل بكم العذاب: ﴿ما جأنا من بشير ولا نذير﴾ بل الآن، استوى علمي وعلمكم لما أنذرتكم وحذرتكم، وأعلمتكم بمآل الكفر، ولم أكنم عنكم شيئاً.

﴿وإن أدري أقرب أم بعيد ما توعدون﴾ أي: من العذاب، لأن علمه عند الله، وهو بيده، ليس لي من الأمر شيء.

﴿وإن أدري لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين﴾ أي: لعل تأخير العذاب الذي استعجلتموه شر لكم، وأن تمتعوا في الدنيا إلى حين، ثم يكون أعظم لعقوبتكم.

﴿قال رب احكم بالحق﴾ أي: بيننا وبين القوم الكافرين، فاستجاب الله هذا الدعاء، وحكم بينهم في الدنيا قبل الآخرة، بما عاقب الله به الكافرين من وقعة «بدر» وغيرها.

﴿وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ أي: نسأل ربنا الرحمن،



ونستعين به على ما تصفون، من قولكم سنظهر عليكم، وسيضمحل دينكم، فنحن في هذا، لا نعجب بأنفسنا، ولا نتكل على حولنا وقوتنا، وإنما نستعين بالرحمن، الذي ناصية كل مخلوق بيده، ونرجوه أن يتم ما استعناه به من رحمته، وقد فعل، والله الحمد.

تفسير سورة الحج قيل: مكية، وقيل: مدنية

﴿١ - ٢﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ * يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد﴾ يخاطب الله الناس كافة، بأن يتقوا ربهم، الذي رباهم بالنعيم الظاهرة والباطنة، فحقيق بهم أن يتقوه، بترك الشرك والفسوق والعصيان، ويمثلوا أوامره مهما استطاعوا.

ثم ذكر ما يعينهم على التقوى، ويحذرهم من تركها، وهو الإخبار بأحوال القيامة، فقال:

﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ لا يقدر قدره، ولا يبلغ كنهه، ذلك بأنها إذا وقعت الساعة، رجفت الأرض وارتجت، وزلزلت زلزالها،

منهم يومئذ شأن يغنيه^(١). يدعون إلى النار.

وهناك ﴿يعض الظالم على يديه، يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً﴾ وتسود حينئذ وجوه وتبيض وجوه، وتنصب الموازين التي يوزن بها مثاقيل الذر، من الخير والشر، وتنشر صحائف الأعمال وما فيها من جميع الأعمال والأقوال والنيات، من صغير وكبير، وينصب الصراط على متن جهنم، وتزلف الجنة للمتقين، وبرزت الحميم للغاوين. ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً﴾ ويقال لهم: ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ وإذا نادوا ربهم ليخرجهم منها، قال: ﴿اخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾. قد غضب عليهم الرب الرحيم، وحضرهم العذاب الأليم، وأيسوا من كل خير، ووجدوا أعمالهم كلها، لم يفتقدوا منها نقيراً ولا قطميراً.

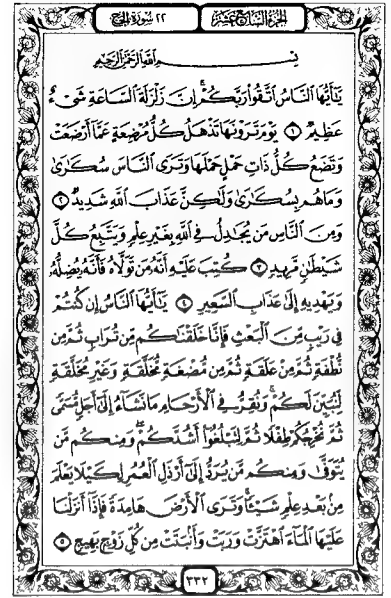
هذا، والمتقون في روضات الجنات يحIRON، وفي أنواع اللذات يتفكهون، وفيما اشتتهت أنفسهم خالدون، فحقيق بالعاقل الذي يعرف أن كل هذا أمامه، أن يعدله غدّة، وأن لا يليه في الأمل، فيترك العمل، وأن تكون تقوى الله شعاره، وخوفه دثاره، ومحبة الله وذكره، روح أعماله.

﴿٣-٤﴾ ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد﴾ كتب عليه أنه من تولاه فأنه يضله ويهديه إلى عذاب السعير﴾ أي: ومن الناس طائفة ورفقة، سلكوا طريق الضلال، وجعلوا يجادلون بالباطل الحق، يريدون إحقاق الباطل وإبطال الحق، والحال أنهم في غاية الجهل ما عندهم من العلم شيء، وغاية ما عندهم، تقليد أئمة الضلال، من كل شيطان مريد، متمرد على الله وعلى رسله، معاندين لهم، قد شاق الله ورسوله، وصار من الأئمة الذين

يدعون إلى النار. ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ أي: قدر على هذا الشيطان المريد ﴿أنه من تولاه﴾ أي: اتبعه ﴿فأنه يضله﴾ عن الحق، ويجنبه الصراط المستقيم ﴿ويهديه إلى عذاب السعير﴾ وهذا نائب إبليس حقاً، فإن الله قال عنه: ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ فهذا الذي يجادل في الله، قد جمع بين ضلاله بنفسه، وتصديه إلى إضلال الناس، وهو متبع، ومقلد لكل شيطان مريد، ظلمات بعضها فوق بعض، ويدخل في هذا، جمهور أهل الكفر والبدع، فإن أكثرهم مقلدة، يجادلون بغير علم.

﴿٥-٧﴾ ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ﴿وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور﴾ يقول تعالى: ﴿يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث﴾ أي: شك واشتبه، وعدم علم بوقوعه، مع أن الواجب عليكم أن تصدقوا ربكم، وتصدقوا رسله في ذلك، ولكن إذا أبيتم إلا الريب، فهاكم دليلاً عقلياً تشهدونهما، كل واحد منهما، يدل دلالة قطعية على ما شككتم فيه، ويزيل عن قلوبكم الريب.

أحدهما: الاستدلال بابتداء خلق الإنسان، وأن الذي ابتدأه سعيده، فقال فيه: ﴿فإننا خلقناكم من تراب﴾ وذلك بخلق أبي البشر آدم عليه السلام، ﴿ثم من نطفة﴾ أي: مني،



وتصدعت الجبال واندكت، وكانت كشيئاً مهيلاً، ثم كانت هباء منبثاً، ثم انقسم الناس ثلاثة أزواج.

فهناك تنفطر السماء، وتكور الشمس والقمر، وتنتثر النجوم، ويكون من الفلاقل والبلابل ما تنصدع له القلوب، وتجل منه الأفئدة، وتشيب منه الولدان، وتذوب له الصم الصلاب، ولهذا قال: ﴿يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾ مع أنها مجبولة على شدة محبتها لولدها، خصوصاً في هذه الحال، التي لا يعيش إلا بها.

﴿وتضع كل ذات حمل حملها﴾ من شدة الفزع والهول، ﴿وترى الناس سكارى وما هم بسكارى﴾ أي: تحسبهم - أيها الرائي لهم - سكارى من الخمر، وليسوا سكارى.

﴿ولكن عذاب الله شديد﴾: فلذلك أذهب عقولهم، وفرغ قلوبهم، وملأها من الفزع، وبلغت القلوب الحناجر، وشخصت الأبصار، وفي ذلك اليوم، لا يجزي والد عن ولده، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً.

ويومئذ ﴿يفر المرء من أخيه﴾ وأمه وأبيه ﴿وصاحبه وبنيه﴾ لكل امرئ

من كل زوج ﴿أي: صنف من أصناف النبات﴾ بهييج ﴿أي: يبهج الناظرين، ويسر المتأملين، فهذان الدليلان القاطعان، يدلان على هذه المطالب الخمسة، وهي هذه.

﴿ذلك﴾ الذي أنشأ الآدمي من ما وصف لكم، وأحيا الأرض بعد موتها، ﴿بأن الله هو الحق﴾ أي: الرب المعبود، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وعبادته هي الحق، وعبادة غيره باطلة، ﴿وأنه يحيي الموتى﴾ كما ابتداء الخلق، وكما أحيا الأرض بعد موتها، ﴿وأنه على كل شيء قدير﴾ كما أشهدكم من بديع قدرته وعظيم صنعته ما أشهدكم.

﴿وأن الساعة آتية لا ريب فيها﴾ فلا وجه لاستبعادها، ﴿وأن الله يبعث من في القبور﴾ فيجازيكم بأعمالكم حسنها وسيئها.

﴿٨-٩﴾ ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير﴾ ثاني عطفه ليضلل عن سبيل الله له في الدنيا خزي ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴿المجادلة المتقدمة للمقلد، وهذه المجادلة للشيطان المريد، الداعي إلى البدع، فأخبر أنه ﴿يجادل في الله﴾ أي: يجادل رسل الله وأتباعهم بالباطل ليدحض به الحق، ﴿بغير علم﴾ صحيح ﴿ولا هدى﴾ أي: غير متبوع في جداله هذا من يهديه، لا عقل مرشد، ولا متبوع مهتد، ﴿ولا كتاب منير﴾ أي: واضح بين، أي: فلا له حجة عقلية ولا نقلية، إن هي إلا شبهات، يوحيا إليه الشيطان ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾ ومع هذا ﴿فاني عطفه﴾ أي: لأوي جانبه وعنقه، وهذا كناية عن كبره عن الحق، واحتقاره للخلق، فقد فرح بما معه من العلم غير النافع، واحتقر أهل الحق وما معهم من الحق، ﴿ليضل﴾ الناس، أي: ليكون من دعاة الضلال، ويدخل تحت هذا جميع أئمة الكفر والضلال، ثم ذكر عقوبتهم الدنيوية والأخروية فقال: ﴿له في الدنيا خزي﴾ أي: يفتضح هذا في الدنيا قبل الآخرة، وهذا من

وهذا ابتداء أول التخليق، ﴿ثم من علقه﴾ أي: تنقلب تلك النطفة، بإذن الله دماً أحمر، ﴿ثم من مضغه﴾ أي: ينتقل الدم مضغة، أي: قطعة لحم، بقدر ما ي مضغ، وتلك المضغة تارة تكون ﴿مخلقة﴾ أي: مصور منها خلق الآدمي، ﴿وغير مخلقة﴾ تارة، بأن تقذفها الأرحام قبل تخليقها، ﴿لنئين لكم﴾ أصل نشأتكم، مع قدرته تعالى على تكميل خلقه في لحظة واحدة، ولكن ليبين لنا كمال حكمته، وعظيم قدرته، وسعة رحمته.

﴿ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى﴾ أي: ونقر، أي: نبقي في الأرحام من الحمل، الذي لم تقذفه الأرحام، ما نشاء إيقاءه إلى أجل مسمى، وهو مدة الحمل. ﴿ثم نخرجكم﴾ من بطون أمهاتكم ﴿طفلاً﴾ لا تعلمون شيئاً، وليس لكم قدرة، وسخرنا لكم الأمهات، وأجرينا لكم في ثديها الرزق، ثم تنتقلون طوراً بعد طور، حتى تبلغوا أشدكم، وهو كمال القوة والعقل.

﴿ومنكم من يتوفى﴾ من قبل أن يبلغ سن الأشد، ومنكم من يتجاوزهُ فيريد إلى أرذل العمر، أي: أخسه وأرذله، وهو سن الهرم والتخريف، الذي به يزول العقل ويضمحل، كما زالت باقي القوى، وضعفت.

﴿لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً﴾ أي: لأجل أن لا يعلم هذا العمر شيئاً مما كان يعلمه قبل ذلك، وذلك لضعف عقله، فقوة الآدمي محفوفة بضعفين، ضعف الطفولية ونقصها، وضعف الهرم ونقصه، كما قال تعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ والدليل الثاني، إحياء الأرض بعد موتها، فقال الله فيه: ﴿وترى الأرض هامدة﴾ أي: خاشعة مغبرة لا نبات فيها، ولا خضر، ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت﴾ أي: تحركت بالنبات ﴿وربت﴾ أي: ارتفعت بعد خشوعها وذلك لزيادة نباتها، ﴿وأنبتت



آيات الله العجيبة، فإنك لا تجد داعياً من دعاة الكفر والضلال، إلا وله من المقت بين العالين، واللعنة، والبغض، والذم، ما هو حقيق به، وكل بحسب حاله.

﴿ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق﴾ أي: نذيقه حرها الشديد، وسعيرها البليغ، وذلك بما قدمت يداها، ﴿وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾

﴿١١-١٣﴾ ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد ﴿يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولئس العشير﴾ أي: ومن الناس من هو ضعيف الإيمان، لم يدخل الإيمان قلبه، ولم تحالطه بشاشته، بل دخل فيه، إما خوفاً، وإما عادة على وجه لا يثبت عند المحن، ﴿فإن أصابه خير اطمأن به﴾ أي: إن استمر رزقه رغداً، ولم يحصل له من المكروه شيء، اطمأن بذلك الخير، لا بليامانه. فهذا، ربما أن الله يعافيه، ولا يقيض له من الفتن ما يتصرف به عن دينه، ﴿وإن أصابته فتنة﴾ من حصول مكروهه، أو زوال محبوبه ﴿انقلب على وجهه﴾ أي: ارتد عن دينه، ﴿خسر الدنيا والآخرة﴾ أما في



﴿١٤﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَرِيدُ ﴿لَا ذَكَرَ تَعَالَى الْمَجَادِلَ بِالْبَاطِلِ، وَأَنَّهُ عَلَى قَسَمَيْنِ، مَقْلَدٌ، وَدَاعٌ، ذَكَرَ أَنَّ الْمُتَسَمِّي بِالْإِيمَانِ أَيْضاً عَلَى قَسَمَيْنِ، الْقَسَمِ يَدْخُلُ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ كَمَا تَقْدَمُ، وَالْقَسَمِ الثَّانِي: الْمُؤْمِنُ حَقِيقَةٌ، صَدَقَ مَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ^(١) يَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَسَمِيَتْ الْجَنَّةُ جَنَّةً، لَاشْتِمَالِهَا عَلَى الْمَنَازِلِ وَالْقُصُورِ وَالْأَشْجَارِ وَالتَّوَابِتِ الَّتِي تُجْنَى مِنْ فِيهَا، وَيَسْتَرُّ بِهَا مِنْ كَثَرَتِهَا، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَرِيدُ﴾ فَمَا أَرَادَهُ تَعَالَى فَعَلَهُ مِنْ غَيْرِ مَنَاعٍ وَلَا مَعَارِضٍ، وَمِنْ ذَلِكَ، إِيْصَالُ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَيْهَا، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بَمَتْنِهِ وَكَرَمِهِ.

﴿١٥﴾ ﴿مَنْ كَانَ يَظُنْ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبْنَ كَيْدَهُ مَا يَغِيطُ﴾ أَي: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنْ دِينَهُ سَيُضْمَحَلُّ، فَإِنَّ النَّصْرَ مِنَ اللَّهِ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ ذَلِكَ الظَّانُّ ﴿بِسَبَبٍ﴾ أَي: حَبْلٌ ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ وَلِيَرْقَى إِلَيْهَا ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ النَّصْرَ النَّازِلَ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ ^(٢).

﴿١٦﴾ ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَرِيدُ﴾ أَي: وَكَذَلِكَ لَمْ فَصَّلْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ مَا فَصَّلْنَا، جَعَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ، ذَالَاتٍ عَلَى جَمِيعِ الْمَطَالِبِ وَالْمَسَائِلِ النَّافِعَةِ، وَلَكِنَّ الْهَدَايَةَ بِيَدِ اللَّهِ، فَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ هَدَايَتَهُ، اهْتَدَى بِهَذَا الْقُرْآنِ، وَجَعَلَهُ إِمَاماً لَهُ وَقُدُورَةً، وَاسْتَضَاءَ بِنُورِهِ، وَمَنْ لَمْ يَرِدِ اللَّهُ هَدَايَتَهُ، فَلَوْ جَاءَتْهُ كُلُّ آيَةٍ مَا آمَنَ، وَلَمْ يَنْفَعَهُ الْقُرْآنُ شَيْئاً، بَلْ يَكُونُ حُجَّةً عَلَيْهِ.

﴿١٧ - ٢٤﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمِنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يَهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مَكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ * هَذَانِ خَصِمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ إِلَى قَوْلِهِ:

﴿١٤﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَرِيدُ ﴿لَا ذَكَرَ تَعَالَى الْمَجَادِلَ بِالْبَاطِلِ، وَأَنَّهُ عَلَى قَسَمَيْنِ، مَقْلَدٌ، وَدَاعٌ، ذَكَرَ أَنَّ الْمُتَسَمِّي بِالْإِيمَانِ أَيْضاً عَلَى قَسَمَيْنِ، الْقَسَمِ يَدْخُلُ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ كَمَا تَقْدَمُ، وَالْقَسَمِ الثَّانِي: الْمُؤْمِنُ حَقِيقَةٌ، صَدَقَ مَا مَعَهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ ^(١) يَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَسَمِيَتْ الْجَنَّةُ جَنَّةً، لَاشْتِمَالِهَا عَلَى الْمَنَازِلِ وَالْقُصُورِ وَالْأَشْجَارِ وَالتَّوَابِتِ الَّتِي تُجْنَى مِنْ فِيهَا، وَيَسْتَرُّ بِهَا مِنْ كَثَرَتِهَا، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَرِيدُ﴾ فَمَا أَرَادَهُ تَعَالَى فَعَلَهُ مِنْ غَيْرِ مَنَاعٍ وَلَا مَعَارِضٍ، وَمِنْ ذَلِكَ، إِيْصَالُ أَهْلِ الْجَنَّةِ إِلَيْهَا، جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهُمْ بَمَتْنِهِ وَكَرَمِهِ.

﴿١٥﴾ ﴿مَنْ كَانَ يَظُنْ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبْنَ كَيْدَهُ مَا يَغِيطُ﴾ أَي: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وَأَنْ دِينَهُ سَيُضْمَحَلُّ، فَإِنَّ النَّصْرَ مِنَ اللَّهِ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ ذَلِكَ الظَّانُّ ﴿بِسَبَبٍ﴾ أَي: حَبْلٌ ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ وَلِيَرْقَى إِلَيْهَا ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ النَّصْرَ النَّازِلَ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ ^(٢).

﴿١٦﴾ ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَرِيدُ﴾ أَي: وَكَذَلِكَ لَمْ فَصَّلْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ مَا فَصَّلْنَا، جَعَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ، ذَالَاتٍ عَلَى جَمِيعِ الْمَطَالِبِ وَالْمَسَائِلِ النَّافِعَةِ، وَلَكِنَّ الْهَدَايَةَ بِيَدِ اللَّهِ، فَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ هَدَايَتَهُ، اهْتَدَى بِهَذَا الْقُرْآنِ، وَجَعَلَهُ إِمَاماً لَهُ وَقُدُورَةً، وَاسْتَضَاءَ بِنُورِهِ، وَمَنْ لَمْ يَرِدِ اللَّهُ هَدَايَتَهُ، فَلَوْ جَاءَتْهُ كُلُّ آيَةٍ مَا آمَنَ، وَلَمْ يَنْفَعَهُ الْقُرْآنُ شَيْئاً، بَلْ يَكُونُ حُجَّةً عَلَيْهِ.

الدنيا، فإنه لا يحصل له بالردة ما أمله الذي جعل الردة رأساً لئله، وعوضاً عما يظن إدراكه، فخاب سعيه، ولم يحصل له إلا ما قسم له، وأما الآخرة، فظاهراً، حرم الجنة التي عرضها السماوات والأرض، واستحق النار، ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أَي: الْوَاضِحُ الْبَيِّنُ.

﴿يَدْعُو﴾ هَذَا الرَّاجِعُ عَلَى وَجْهِهِ ﴿مَنْ دُونَ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نِنْفَعُهُ﴾ وَهَذَا صِفَةُ كُلِّ مَدْعُوٍّ وَمُعْبُودٍ مِنْ دُونَ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ وَلَا لِغَيْرِهِ نَفْعاً وَلَا ضَرراً، ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ الَّذِي قَدْ بَلَغَ فِي الْبَعْدِ إِلَى حَدِّ النِّهَايَةِ، حَيْثُ أَعْرَضَ عَنْ عِبَادَةِ النَّافِعِ الضَّارِّ، الْغَنِيِّ الْمَغْنِيِّ، وَأَقْبَلَ عَلَى عِبَادَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلَهُ أَوْ دُونِهِ، لَيْسَ بِيَدِهِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، بَلْ هُوَ إِلَى حَصُولِ ضِدِّ مَقْصُودِهِ أَقْرَبَ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿يَدْعُو لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ فَإِنْ ضَرُّهُ فِي الْعَقْلِ وَالْبَدَنِ وَالْدُنْيَا وَالْآخِرَةِ مَعْلُومٌ ﴿لِبِئْسَ الْمَوْلَى﴾ أَي: هَذَا الْمَعْبُودُ ﴿وَلِبِئْسَ الْعَشِيرُ﴾ أَي: الْقَرِيبِينَ الْمُلَازِمِينَ عَلَى صَحْبَتِهِ، فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْمَوْلَى وَالْعَشِيرِ، حَصُولِ النَّفْعِ، وَدَفْعِ الضَّرَرِ، فَإِذَا لَمْ يَحْصُلْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا، فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ مَلُومٌ.

(١) فِي النسختين: أَنَّهُمْ.

(٢) فِي هَامِشِ ب ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ النَّصْرَ عَنِ الرَّسُولِ.

«وهذا إلى صراط الحميد» يخبر تعالى عن طوائف أهل الأرض، من الذين أوتوا الكتاب، من المؤمنين واليهود والنصارى والصابئين، ومن المجوس، ومن المشركين أن الله سيجمعهم جميعهم ليوم القيامة، ويفصل بينهم بحكمه العدل، ويمجازيهم بأعمالهم التي حفظها وكتبها وشهدها، ولهذا قال: «إن الله على كل شيء شهيد» ثم فصل هذا الفصل بينهم بقوله: «هذان خصمان اختصموا في ربهم» كل يدعي أنه الحق.

«فالذين كفروا» يشمل كل كافر، من اليهود، والنصارى، والمجوس، والصابئين، والمشركين.

«قطعت لهم ثياب من نار» أي: يجعل لهم ثياب من قطران، وتشعل فيها النار، ليعمهم العذاب من جميع جوانبهم.

«يصب من فوق رؤوسهم الحميم» الماء الحار جداً، يصهر به ما في بطونهم من اللحم والشحم والأمعاء، من شدة حره، وعظيم أمره، «ولهم مقامع من حديد» بيد الملائكة الغلاظ الشداد، تضربهم فيها وتقمعهم، «كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها» فلا يُفْشَرُ عنهم العذاب، ولا هم ينظرون، ويقال لهم توبيخاً: «ذوقوا عذاب الحريق» أي: المحرق للقلوب والأبدان، «إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار» ومعلوم أن هذا الوصف لا يصدق على غير المسلمين، الذين آمنوا بجميع الكتب، وجميع الرسل، «يخلون فيها من أساور من ذهب» أي: يُسَوَّرُونَ في أيديهم، رجالهم ونساءهم أساور الذهب.

«ولباسهم فيها حرير» فتم نعيمهم بذكر أنواع المأكولات اللذيذات المشتتم عليها، لفظ الجنات، وذكر الأنهار السارحات، أنهار الماء واللبن والعسل والخمر، وأنواع اللباس، والخلي الفاخر، وذلك بسبب أنهم

«وهذا إلى الطيب من القول» الذي أفصله وأطيبه كلمة الإخلاص، ثم سائر الأقوال الطيبة التي فيها ذكر الله، أو إحسان إلى عباد الله، «وهذا إلى صراط الحميد» أي: الصراط المحمود، وذلك، لأن جميع الشرع كله محتو على الحكمة والحمد، وحسن الأمور به، وقبح المنهي عنه، وهو الدين الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، المشتتم على العلم النافع والعمل الصالح. أو: وهذا إلى صراط الله الحميد، لأن الله كثيراً ما يضيف الصراط إليه، لأنه يوصل صاحبه إلى الله، وفي ذكر «الحميد» هنا، ليعين أنهم نالوا الهداية بحمد ربهم

ومنته عليهم، ولهذا يقولون في الجنة: «الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله» واعترض تعالى بين هذه الآيات بذكر سجود المخلوقات له، جميع من في السماوات والأرض، والشمس، والقمر، والنجوم، والجبال، والشجر، والدواب، الذي يشمل الحيوانات كلها، وكثير من الناس، وهم المؤمنون، «وكثير حق عليه العذاب» أي: وجب وكتب، لكفره وعدم إيمانه، فلم يوفقه الله للإيمان، لأن الله أهانه، «ومن يهن الله فما له من مكرم» ولا راد لما أراد، ولا معارض لمشيئته، فإذا كانت المخلوقات كلها ساجدة لربها، خاضعة لعظمته، مستكنة لعزته، عانية لسلطانه، دل على أنه وحده، الرب العبود، والمملك المحمود، وأن من عدل عنه إلى عبادة سواه، فقد ضل ضلالاً بعيداً، وخسر خسراناً مبيناً.

«إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم» يخبر تعالى عن شناعة ما عليه المشركون الكافرون بربهم، وأنهم جمعوا بين الكفر بالله ورسوله، وبين الصد

وهذا إلى الطيب من القول وهذا إلى صراط الحميد
﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ
الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفِ فِيهِ
وَالْبَادِ وَمَنْ يَنْزِلْ فِيهِ مِنَ الْفَاسِقِ يُؤَفِّقْهُ مِنْ عَذَابِ
أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ تِلْكَ بَوَاقِ الْأَيْتِ بِمَا نَكَتَ آيَاتُ أَنْ لَا
تَشْرَكَ بِرَبِّكَ شَيْئًا وَطَلَعَتْ نَيِّتُ اللَّيْلِ لِيُظْفِرَ وَتَلَعَتِ
الْأُشُّورُ ﴿٢٦﴾ وَأَوَّلُ الْفَاتِحَةِ بِمَا تَأْتِي
رَبَّكَ لَا عَلَى كُلِّ سَائِرِ آيَاتٍ مِنْ كُلِّ فَيْعٍ
يَسْمَعُونَ وَأَنْتَ بِمَا تَعْلَمُونَ وَأَنْتَ اللَّهُ فِي آيَاتِكَ مُتَعَلِّمٌ
عَلَى تَارِقَةٍ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ
أَلْسَانِ الْفَقِيرِ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا أَقْدَمَهُمْ وَأَوَّلَهُمْ
وَلِيُطَوَّرُوا بِالْأَيْتِ الْكَبِيرِ ﴿٢٨﴾ تِلْكَ وَمَنْ تَعَلَّمْ
حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لِعِبَادِهِمْ وَلِحُجَّتِ لَكُمْ
الْأَنْعَامُ الْأَمَّا تَسْأَلُ عَلَيْهِمْ فَاحْتَسِبُوا
الْخَيْرَ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَأَجِبُوا قَوْلَ الرَّؤُوفِ ﴿٢٩﴾

عن سبيل الله ومنع الناس من الإيمان، والصد أيضاً عن المسجد الحرام، الذي ليس ملكاً لهم ولا لأبائهم، بل الناس فيه سواء، المقيم فيه، والطارء إليه، بل صدوا عنه أفضل الخلق محمداً وأصحابه، والحال أن هذا المسجد الحرام، من حرمة واحترامه وعظمته، أن من يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم.

فمجرد إرادة الظلم والإلحاد في الحرم، موجب للعذاب، وإن كان غيره لا يعاقب العبد عليه إلا بعمل الظلم، فكيف بمن أتى فيه أعظم الظلم، من الكفر والشرك، والصد عن سبيله، ومنع من يريده بزيارة، فما ظنكم^(١) أن يفعل الله بهم!!

وفي هذه الآية الكريمة، وجوب احترام الحرم، وشدة تعظيمه، والتحذير من إرادة المعاصي فيه وفعلها.

﴿٢٦ - ٢٩﴾ «وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وظهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود» * وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق * ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فكلوا

قبله وسائل إليه .

ولعله - والله أعلم أيضاً - لفائدة أخرى، وهو: أن الطواف مشروع كل وقت، وسواء كان تابعاً لنسك، أم مستقلاً بنفسه .

﴿٣٠ - ٣١﴾ ذلك ومن يعظم

حرمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور * حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ﴿ذلك﴾ الذي ذكرنا لكم من تلکم الأحكام، وما فيها من تعظيم حرمات الله وإجلالها وتكريمها، لأن تعظيم حرمات الله، من الأمور المحبوبة لله، المقربة إليه، التي من عظمها وأجلها، أثابه الله ثواباً جزيلاً، وكانت خيراً له في دينه، ودنياه وأخراه عند ربه .

وحرمات الله: كل ماله حرمة، وأمر باحترامه، بعبادة أو غيرها، كالناسك كلها، وكالحرم والإحرام، والهدايا، والعبادات التي أمر الله بالعباد بالقيام بها، فتعظيمها وإجلالها بالقلب، ومحبتها، وتكميل العبودية فيها، غير متهاون، ولا متكاسل، ولا متناقل، ثم ذكر منته وإحسانه بما أحله لعباده، من هيمة الأنعام، من إبل وبقر وغنم، وشرعها من جملة المناسك، التي يقترب بها إليه، فعظمت منته فيها من الوجهين، ﴿إلا ما يتلى عليكم﴾ في القرآن تحريمه من قوله: ﴿حرمتم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ الآية، ولكن الذي من رحمته بعباده، أن حرمه عليهم، ومنعهم منه، تزكية لهم، وتطهيراً من الشرك به وقول الزور، ولهذا قال: ﴿فاجتنبوا الرجس﴾ أي: الخبث القذر ﴿من الأوثان﴾ أي: الأنداد، التي جعلتموها آلهة مع الله، فإنها أكبر أنواع الرجس، والظاهر أن ﴿من﴾ هنا ليست لبيان الجنس، كما قاله كثير من المفسرين، وإنما هي للتبعض، وأن الرجس عام في جميع المنهيات المحرمات، فيكون

تشوش على المتعبدين، بالصلاة والطواف، وقدم الطواف على الاعتكاف والصلاة، لاختصاصه بهذا البيت، ثم الاعتكاف، لاختصاصه بجنس المساجد .

﴿وأذن في الناس بالحج﴾ أي: أعلمهم به، وادعهم إليه، وبلغ دانيهم وقاصيهم، فرضه وفضيلته، فلنك إذا دعوتهم، أتوك حجاجاً وعُمَاراً، رجالاً، أي: مشاة على أرجلهم من الشوق، ﴿وعلى كل ضامر﴾ أي: ناقه ضامر، تقطع المهامه والمفاوز، وتواصل السير، حتى تأتي إلى أشرف الأماكن، ﴿من كل فج عميق﴾ أي: من كل بلد بعيد، وقد فعل الخليل عليه السلام، ثم من بعده ابنه محمد ﷺ، فدعيا الناس إلى حج هذا البيت، وأبدى في ذلك وأعداداً، وقد حصل ما وعد الله به، أتاه الناس رجالاً وركباً من مشارق الأرض ومغاربها، ثم ذكر فوائد زيارة بيت الله الحرام، مرغبا فيه فقال: ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ أي: لينالوا ببيت الله منافع دينية، من العبادات الفاضلة، والعبادات التي لا تكون إلا فيه، ومنافع دنيوية، من التكدس، وحصول الأرباح الدنيوية، وكل هذا أمر مشاهد كل يعرفه، ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من هيمة الأنعام﴾ وهذا من المنافع الدينية والدنيوية، أي: ليذكروا اسم الله عند ذبح الهدايا، شكراً لله على ما رزقهم منها، ويسرها لهم، فإذا ذبحتموها ﴿فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير﴾ أي: شديد الفقر، ﴿ثم ليقتضوا تفثهم﴾ أي: يقتصوا نسكهم، ويزيلوا الوسخ والأذى، الذي لحقهم في حال الإحرام، ﴿وليوفوا نذورهم﴾ التي أوجبوها على أنفسهم، من الحج، والعمرة والهدايا، ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ أي: القديم، أفضل المساجد على الإطلاق، المعتق: من تسلط الجبابرة عليه . وهذا أمر بالطواف، خصوصاً بعد الأمر بالمناسك عموماً، لفضله، وشرفه، ولكونه المقصود، وما



منها وأطعموا البائس الفقير * ثم ليقتضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق ﴿يذكر تعالى عظمة البيت الحرام وجلالته وعظمته بانيه، وهو خليل الرحمن، فقال: ﴿وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت﴾ أي: هيأناه له، وأنزلناه إياه، وجعل قسماً من ذريته من سكانه، وأمره الله ببنائه، فبناه على تقوى الله، وأسس على طاعة الله، وبناه هو وابنه إسماعيل، وأمره أن لا يشرك به شيئاً، بأن يخلص لله أعماله، ويبنيه على اسم الله .

﴿وطهر بيتي﴾ أي: من الشرك والمعاصي، ومن الأنجاس والأدناس وأضافه الرحمن إلى نفسه، لمشرفه، وفضله، ولتعظيم محبته في القلوب، وتنصب إليه الأفتدة من كل جانب، وليكون أعظم لتطهيره وتعظيمه، لكونه بيت الرب للطائفتين به والعاكفين عنده، القيمين لعبادة من العبادات من ذكر، وقراءة، وتعلم علم وتعليمه، وغير ذلك من أنواع القرب، ﴿والركع السجود﴾ أي: المصلين، أي: طهره لهؤلاء الفضلاء، الذين همهم طاعة مولاهم وخدمته، والتقرب إليه عند بيته، فهو لاء لهم الحق، ولهم الإكرام، ومن إكرامهم تطهير البيت لأجلهم، ويدخل في تطهيره، تطهيره من الأصوات اللاغية والمرفعة التي

منها عنها عموماً، وعن الأوثان التي هي بعضها خصوصاً، ﴿واجتنبوا قول الزور﴾ أي: جميع الأقوال المحرمات، فإنها من قول الزور الذي هو الكذب، ومن ذلك شهادة الزور فلما نهاهم عن الشرك والرجس وقول الزور.

أمرهم أن يكونوا ﴿حنفاء لله﴾ أي: مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه.

﴿غير مشركين به ومن يشرك بالله﴾ فمثله ﴿فكأنما خر من السماء﴾ أي: سقط منها ﴿فتخطفه الطير﴾ بسرعة ﴿أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾ أي: بعيد، كذلك المشرك، فالإيمان بمنزلة السماء، محفوظة مرفوعة.

ومن ترك الإيمان، بمنزلة الساقط من السماء، عرضة للآفات والبلديات، فلما أن تخطفه الطير تنقطع أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودنياه.

﴿٣٢-٣٣﴾ ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب * لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق ﴿أي: ذلك الذي ذكرنا لكم من تعظيم حرمانه وشعائره، والمراد بالشعائر: أعلام الدين الظاهرة، ومنها المناسك كلها، كما قال تعالى: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ ومنها الهدايا والقربان للبيت، وتقدم أن معنى تعظيمها، إجلالها، والقيام بها، وتكميلها على أكمل ما يقدر عليه العبد، ومنها الهدايا، فتعظيمها باستحسانها واستسمانها، وأن تكون مكملة من كل وجه، فتعظيم شعائر الله صادر من تقوى القلوب، فالعظم لها يبرهن على تقواه وصحة إيمانه، لأن تعظيمها تابع لتعظيم الله وإجلاله.

﴿لكم فيها﴾ أي: [في] الهدايا ﴿منافع إلى أجل مسمى﴾ هذا في الهدايا المسوقة، من البدن ونحوها، ينتفع بها أربابها، بالركوب، والحلب ونحو ذلك، مما لا يضرها [إلى أجل

مسمى] مقدر، موقت وهو ذبحها إذا وصلت محلها وهو البيت العتيق، أي: الحرم كله ﴿منى﴾ وغيرها، فإذا ذبحت، أكلوا منها وأهدوا، وأطعموا البائس الفقير.

﴿٣٤-٣٥﴾ ولكل أمة جعلنا منسكاً لذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهمك إله واحد فله أسلموا وبشّر المختين * الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وما رزقناهم ينفقون ﴿أي: ولكل أمة من الأمم السالفة جعلنا منسكاً، أي: فاستبقوا إلى الخيرات وتسارعوا إليها، ولننظر أيكم أحسن عملاً، والحكمة في جعل الله لكل أمة منسكاً، لإقامة ذكره، والالتفات لشكره، ولهذا قال: ﴿ليذكروا اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام فإلهمك إله واحد﴾ وإن اختلفت أجناس الشرائع، فكلها متفقة على هذا الأصل، وهو ألوهية الله، وإفراده بالعبودية، وترك الشرك به ولهذا قال: ﴿قله أسلموا﴾ أي: انقادوا واستسلموا له لا لغيره، فإن الإسلام له طريق إلى الوصول إلى دار السلام. ﴿وبشّر المختين﴾ بخير الدنيا والآخرة، والمخبت: الخاضع لربه، المستسلم لأمره، المتواضع لعباده.

ثم ذكر صفات المختين فقال: ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي: خوفاً وتعظيماً، فتركوا لذلك المحرمات، لحوقهم ووجلهم من الله وحده، ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ من البأساء والضراء وأنواع الأذى، فلا يجري منهم التسخط لشيء من ذلك، بل صبروا ابتغاء وجه ربه، محتسبين ثوابه، مرتقبين أجره، ﴿والمقيمي الصلاة﴾ أي: الذين جعلوها قائمة مستقيمة كاملة، بأن أدوا اللازم فيها والمستحب، وعبوديتها الظاهرة والباطنة، ﴿وما رزقناهم ينفقون﴾ وهذا يشمل جميع النفقات الواجبة، كالزكاة، والكفارة، والنفقة على الزوجات والماليك، والأقارب، والنفقات المستحبة، كالصدقات بجميع

وجوهها، وأتى بـ ﴿من﴾ المفيدة للتبويض، ليعلم سهولة ما أمر الله به ورغب فيه، وأنه جزء يسير مما رزق الله، ليس للعبد في تحصيله قدرة، لولا تيسير الله له ورزقه إياه. فإياها المرزوق من فضل الله، أنفق ما رزقك الله ينفق الله عليك، ويزدك من فضله.

﴿٣٦-٣٧﴾ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله لكم فيها خير فاذكروا اسم الله عليها صواف فإذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتّر كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون * لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم وبشّر المحسنين ﴿هذا دليل أن الشعائر عام في جميع أعلام الدين الظاهرة. وتقدم أن الله أخبر أن من عظم شعائره، فإن ذلك من تقوى القلوب، وهنا أخبر أن من جملة شعائره، البُذُن، أي: الإبل، والبقر، على أحد القولين، فتعظم وتستسمن، وتستحسن، ﴿لكم فيها خير﴾ أي: المهدي وغيره، من الأكل، والصدقة، والانتفاع، والشواب، والأجر، ﴿فاذكروا اسم الله عليها﴾ أي: عند ذبحها قولوا ﴿بسم الله﴾ واذبحوها، ﴿صواف﴾ أي: قائمات، بأن تقام على قوائمها الأربع، ثم تعقل يدها اليسرى، ثم تنحر.

﴿إذا وجبت جنوبها﴾ أي: سقطت في الأرض جنوبها، حين تسليخ، ثم يسقط الجزار جنوبها على الأرض، فحينئذ قد استعدت لأن يؤكل منها، ﴿فكلوا منها﴾ وهذا خطاب للمهدي، فيجوز له الأكل من هديه، ﴿وأطعموا القانع والمعتّر﴾ أي: الفقير الذي لا يسأل، تقنعاً، وتعففاً، والفقير الذي يسأل، فكل منهما له حق فيهما.

﴿كذلك سخرناها لكم﴾ أي: البدن ﴿لعلكم تشكرون﴾ الله على تسخيرها، فإنه لولا تسخيرها لها، لم يكن لكم بها طاقة، ولكنه ذللها لكم وسخرها، رحمة بكم وإحساناً إليكم،

فاحدوه .

وقوله: ﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دَمَآؤَهَا﴾ أي: ليس المقصود منها ذبيحتها فقط . ولا ينال الله من لحومها ولا دماؤها شيء، لكونه الغني الحميد، وإنما يناله الإخلاص فيها، والاحتساب، والنية الصالحة، ولهذا قال: ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ﴾ ففي هذا حثٌّ وترغيب على الإخلاص في النحر، وأن يكون القصد وجه الله وحده، لا فخراً ولا رياء، ولا سمعة، ولا مجرد عادة، وهكذا سائر العبادات، إن لم يقتصر بها الإخلاص وتقوى الله، كانت كالقشور الذي لا لبُّ فيه، والجسد الذي لا روح فيه .

﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾ أي: تعظموه وتحملوه، ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أي: مقابلة لهديته إياكم، فإنه يستحق أكمل الثناء وأجل الحمد، وأعلى التعظيم، ﴿وَيُبَشِّرُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بعبادة الله بأن يعيدوا الله، كأنهم يرونه، فإن لم يصلوا إلى هذه الدرجة فيعبده، معتقدين وقت عبادتهم اطلاعاً عليهم، ورؤيته إياهم، والمحسنيين لعباد الله، بجميع وجوه الإحسان من نفع مال، أو علم، أو جاه، أو نصيح، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر، أو كلمة طيبة ونحو ذلك، فالمحسنون لهم البشارة من الله، بسعادة الدنيا والآخرة وسيحسن الله إليهم، كما أحسنوا في عبادته ولعباده ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة .

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ هذا إخبار ووعد وبشارة من الله، للذين آمنوا، أن الله يدافع عنهم كل مكروه، ويدفع عنهم كل شر - بسبب إيمانهم - من شر الكفار، وشر وسوسة الشيطان، وشرور أنفسهم، وسيئات أعمالهم، ويحمل عنهم عند نزول المكاره، ما لا يتحملون، فيخفف عنهم غاية التخفيف . كل مؤمن له من هذه المدافعة والفضيلة بحسب إيمانه، فمستقل ومستكثر .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ أي: خائن في أمانته التي حمله الله إياها، فيبخس حقوق الله عليه، ويخونها، ويخون الخلق .

﴿كَفُورٍ﴾ لنعم الله، يوالي عليه الإحسان، ويتوالى منه الكفر والعصيان، فهذا لا يحبه الله، بل يبغضه ويمقتة، وسيجازه على كفره وخيائته، ومفهوم الآية، أن الله يحب كل أمين قائم بأمانته، شكور لمولاه .

﴿٣٩ - ٤١﴾ ﴿أَذْنُ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ بَأْتِهِمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز * الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور * كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار، وأمورين بالصبر عليهم، لحكمة إلهية، فلما هاجروا إلى المدينة، وأوذوا، وحصل لهم منعة وقوة، أذن لهم بالقتال، قال تعالى: ﴿أَذْنُ لِلَّذِينَ يَقَاتِلُونَ﴾ يفهم منه أنهم كانوا قبل ممنوعين، فأذن الله لهم بقتال الذين يُقَاتِلُونَ، وإنما أذن لهم، لأنهم ظلموا، بمنعهم من دينهم، وأذيتهم عليه، وإخراجهم من ديارهم .

﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ فليستصروه، وليستعينوا به، ثم ذكر صفة ظلمهم فقال: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي: أُلْجُوا إِلَى الْخُرُوجِ بِالْأَذْيَةِ وَالْفِتْنَةِ ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ ذَنْبِهِمُ الَّذِي نَقَمَ مِنْهُمْ أَعْدَاؤُهُمْ﴾ أن يقولوا ربنا الله ﴿أَيُّ إِلَّا أَنْهُمْ وَحَدُوا اللَّهَ، وَعَبَدُوهُ مَخْلُصِينَ لَهُ الدِّينَ، فَإِنْ كَانَ هَذَا ذَنْبًا، فَهُوَ ذَنْبُهُمْ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ وهذا يدل على حكمة الجهاد، وأن المقصود منه إقامة دين الله، وذُبُّ الكفار المؤذنين للمؤمنين، البادئين لهم بالاعتداء، عن

ظلمهم واعتدائهم، والتمكن من عبادة الله، وإقامة الشرائع الظاهرة، ولهذا قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بَعْضٌ﴾ فيدفع الله بالمجاهدين في سبيله ضرر الكافرين، ﴿لَهَدَمْتُ صَوَامِعَ وَبِيعَ وَصَلَوَاتٍ وَمَسَاجِدَ﴾ أي: لهدمت هذه المعابد الكبار، لطوائف أهل الكتاب، معابد اليهود والنصارى، والمساجد للمسلمين، ﴿يَذْكُرُ فِيهَا﴾ أي: في هذه المعابد ﴿أَسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ تقام فيها الصلوات، وتتل فيها كتب الله، ويذكر فيها اسم الله بأنواع الذكر، فلولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لاستولى الكفار على المسلمين، فخربوا معابدهم، وفتنوه عن دينهم، فدل هذا، أن الجهاد مشروع، لأجل دفع الصائل والمؤذي، ومقصود لغيره، ودل ذلك على أن البلدان التي حصلت فيها الطمأنينة بعبادة الله، وعمرت مساجدها، وأقيمت فيها شعائر الدين كلها، من فضائل المجاهدين وبركتهم، دفع الله عنها الكافرين، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمُ بَعْضٌ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ .

فإن قلت: نرى الآن مساجد المسلمين عامرة لم تخرب، مع أنها كثير منها إمارة صغيرة، وحكومة غير منظمة، مع أنهم لا يدان لهم بقتال من جاورهم من الإفرنج، بل نرى المساجد التي تحت ولايتهم وسيطرتهم عامرة، وأهلها آمنون مطمئنون، مع قدرة ولايتهم من الكفار على هدمها، والله أخبر أنه لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لهدمت هذه المعابد، ونحن لا نشاهد دفعاً .

أجيب بأن هذا السؤال والاستشكال، داخل في عموم هذه الآية وفرد من أفرادها، فإن من عرف أحوال الدول الآن ونظامها، وأنها تعتبر كل أمة وجنس تحت ولايتها، ودخل في حكمها، تعتبره عضواً من أعضاء المملكة، وجزءاً من أجزاء الحكومة، سواء كانت تلك الأمة

مقتدرة بِعَدِّهَا أو عُدِّهَا، أو مالها، أو عملها، أو خدمتها، فتراعي الحكومات مصالح ذلك الشعب، الدينية والدنيوية، وتحشى إن لم تفعل ذلك أن يحتل نظامها، وتفقد بعض أركانها، فيقوم من أمر الدين بهذا السبب ما يقوم، خصوصاً المساجد، فإنها - والله الحمد - في غاية الانتظام، حتى في عواصم الدول الكبار.

وتراعي تلك الدول الحكومات المستقلة، نظراً لخواطر رعاياهم المسلمين، مع وجود التحاسد والتباغض بين دول النصارى، الذي أخبر الله أنه لا يزال إلى يوم القيامة، فتبقى الحكومة المسلمة، التي لا تقدر تدافع عن نفسها، سالمة من [كثير] ^(١) ضررهم، لقيام الحسد عندهم، فلا يقدر أحدهم أن يمد يده عليها، خوفاً من احتمالها بالآخر، مع أن الله تعالى لا بد أن يُري عباده من نصر الإسلام والمسلمين، ما قد وعده في كتابه.

وقد ظهرت - والله الحمد - أسبابه [يشعور المسلمون بضرورة رجوعهم إلى دينهم والشعور مبدأ العمل]^(٢٢)، فنحمده ونسأله أن يتم نعمته، ولهذا قال في وعده الصادق المطابق للواقع: ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ أي: يقوم بنصر دينه، مخلصاً له في ذلك، يقاتل في سبيله، لتكون كلمة الله هي العليا. ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ أي: كامل القوة، عزيز لا يرام، قد قهر الخلائق، وأخذ بنواصيهم، فأبشروا، يا معشر المسلمين، فإنكم وإن ضعف عددكم وعُدُّكم، وقويَّ عدد عدوكم وعدتهم^(٢٣)، فإن ركنكم القوي العزيز، ومعتمدكم على من خلقكم وخلق ما تعملون، فاعملوا بالأسباب المأمور بها، ثم اطلبوا منه نصركم، فلا بد أن ينصركم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ
يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ وقوموا،

أيها المسلمون، بحق الإيمان والعمل الصالح، فقد ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوني لا يشركون بي شيئا﴾ .

ثم ذكر علامة من ينصره، وبها يعرف، أن من ادعى أنه ينصر الله ويُنصر دينه، ولم يتصف بهذا الوصف، فهو كاذب فقال: ﴿الذين إن مكناهم في الأرض﴾ أي: ملكناهم إياها، وجعلناهم المتسلطين عليها، من غير منازع ينازعهم، ولا معارض، ﴿أقاموا الصلاة﴾ في أوقاتها، وحدودها، وأركانها، وشروطها، في الجمعة والجماعات.

﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ التي عليهم خصوصاً، وعلى رعيّتهم عموماً، أتوها أهلها، الذين هم أهلها، ﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ﴾ وهذا يشمل كل معروف حسنه شرعاً وعقلاً، من حقوق الله، وحقوق الآدميين، ﴿وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ كل منكر شرعاً وعقلاً، معروف قبحه، والأمر بالشيء والنهي عنه يدخل فيه ما لا يتم إلا به، فإذا كان المعروف والمنكر يتوقف على تعلم وتعليم، أجبروا الناس على التعلم والتعليم، وإذا كان يتوقف على تأديب ومقدر شرعاً، أو غير مقدر، كأنواع التعزيز، قاموا بذلك، وإذا كان يتوقف على جعل أناس متصدين له، لزم ذلك، ونحو ذلك مما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به.

﴿والله عاقبة الأمور﴾ أي: جميع الأمور، ترجع إلى الله، وقد أخبر أن العاقبة للفقوى، فمن سلطه الله على العباد من الملوك، وقام بأمر الله، كانت له العاقبة الحميدة، والحالة الرشيدة، ومن تسلط عليهم بالجبوت، وأقام فيهم هوى نفسه،

أَوَّلَ الْيَوْمِ يَقُولُونَ بِمَا نَعْلَمُ عَلَيْهِمْ قَوْلًا اللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ
 ١٠ لَقَدْ يَمُرُّ الْأَوَّلِينَ بِالْآخِرِينَ وَكَيْفَ يَمُرُّ بِعَيْنِكَ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا
 رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ
 السَّمَوَاتُ وَبِئْسَ مَا يَكُونُ لَكُمْ وَمَسْجِدُكُمْ عَلَيْهَا يُدْعَىٰ بِاسْمِ اللَّهِ
 كَثِيرًا وَبِاتْرَافِكُمْ اللَّهُ ثُمَّ يُصَلُّونَ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَلَكُومٌ خَبِيرٌ
 ١١ الَّذِينَ فِي مَكَّةَ خَفَوْا أَفْئِدًا مِنَ الصَّلَاةِ وَتَأْتُوا
 الْكُفَّةَ وَتُؤْمَرُوا بِالْقُرْآنِ وَالْحَوَارِ الْكُفَّةِ وَهُمْ يَنفِرُونَ
 ١٢ الْأُمُورِ وَلَنْ يَكُونَ لَكَ مَقْعَدٌ فَذَلِكُنَّ أَصْحَابُ قَوْمٍ قَوْمٌ مُّوجِبُونَ
 وَعَادُوا وَكُنُوفَهُمْ وَكُنُوفُهُمْ رُكُوعًا وَقَوْمٌ ثَلَوِيثٌ وَأَصْحَابُ
 مَدِينٍ وَلَكِنَّهُم مَّوْحَا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لَئِنْ لَمْ تُخِذْ لَهُمْ
 قَوْلُكَ كَاتِبِينَ كُفِرُوا ١٣ فَلَمَّا زِنَ قَوْلَهُ أَهْلَكَ تَحْتَهَا
 وَهِيَ طَالَةٌ فَمِنْ تَحْتِهَا عَلَٰمٌ يُدْعَىٰ بِاسْمِ اللَّهِ فَخُتِلَ وَقُتِرَ
 فَتَبَيَّنَ ١٤ إِنَّكَ لَبَرُّؤُوسٌ عَلَى الْأَرْضِ فَكُنْ لَكُمْ لَهْزُ
 قُلُوبٍ يَقُولُونَ بِهَا أَوْ مَا كَانَ يَسْمَعُونَ بِهَا قَالُوا
 لَأَقْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَقْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ١٥

فإنه وإن حصل له ملك موقت، فإن عاقبته غير حميدة، فولايته مشروومة، وعاقبته مذمومة.

﴿٤٢-٤٦﴾ ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط * وأصحاب مدائن وكذب موسى فأملت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير * فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد * أفلم يسيرا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وإن يكذبك هؤلاء المشركون فلست بأول رسول كذب، وليسوا بأول أمة كذبت رسولها ﴿فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود * وقوم إبراهيم وقوم لوط * وأصحاب مدائن﴾ أي: قوم

سبع.

﴿وكذب موسى فأمليت
للكافرين﴾ المكذبين، فلم أعاجلهم
بالعقوبة، بل أمهلتهم، حتى استمروا
في طغيانهم يعمهون، وفي كفرهم

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في أ: وعدتكم، وهو سبق قلم - والله أعلم -.

﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ من طوله، وشدته، وهوله، فسواء أصابهم عذاب في الدنيا، أم تأخر عنهم العذاب، فإن هذا اليوم، لا بد أن يدركهم.

ويحتمل أن المراد: أن الله حليم، ولو استعجلوا العذاب، فإن يوماً عنده كألف سنة مما تعدون، فالمدة، وإن تطاولتموها، واستطأتم فيها نزول العذاب، فإن الله يمهل المدد الطويلة ولا يهمل، حتى إذا أخذ الظالمين بعذابه لم يفلتهم.

﴿وكأين من قرية أهلكنا﴾ أي: أمهلناها مدة طويلة ﴿وهي ظالمة﴾ أي: مع ظلمهم، فلم يكن مبادرتهم بالظلم، موجباً لمبادرتنا بالعقوبة، ﴿ثم أخذناها﴾ بالعذاب ﴿وإلى المصير﴾ أي: مع عذابها في الدنيا، سترجع إلى الله، فيعذبها بذنوبها، فليأخذ هؤلاء الظالمون من حلول عقاب الله، ولا يغتروا بالإمهال.

﴿٤٩ - ٥١﴾ ﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين﴾ فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم﴾ (١) يأمر تعالى عبده ورسوله محمداً ﷺ أن يخاطب الناس جميعاً، بأنه رسول الله، حقاً، مبشراً للمؤمنين بشواب الله، منذراً للكافرين والظالمين من عقابه، وقوله: ﴿مبين﴾ أي: بين الإنذار، وهو التخويف مع الإعلام بالخوف، وذلك لأنه أقام البراهين الساطعة على صدق ما أنذرهم به، ثم ذكر تفصيل النذارة والبشارة فقال: ﴿فالذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ بجوارحهم ﴿في جنات النعيم﴾ أي: الجنات التي يتنعم بها بأنواع النعيم من المأكول والمشرب والمتاع والصور والأصوات والتنعم برؤية الرب الكريم وسماع

يزدحم عليه الخلق، لشربهم وشرب مواشيهم، ففقد أهله، وعدم منه الوارد والصادر، وكم من قصر، تعب عليه أهله، فشيدوه، ورفعوه، وحصنوه، وزخرفوه، فحين جاءهم أمر الله، لم يغن عنهم شيئاً، وأصبح خالياً من أهله، قد صاروا عبرة لمن اعتبر، ومثلاً لمن فكر ونظر.

ولهذا دعا الله عباده إلى السير في الأرض، لينظروا، ويعتبروا فقال: ﴿أفلم يسيروا في الأرض﴾ بأبداهم وقلوبهم ﴿فتكون لهم قلوب يعقلون بها﴾ آيات الله ويتأملون بها مواقع عبره، ﴿أو أذان يسمعون بها﴾ أخبار الأمم الماضين، وأنباء القرون المعذنين، وإلا فمجرد نظر العين، وسماع الأذن، وسير البدن الخالي من التفكير والاعتبار، غير مفيد، ولا موصل إلى المطلوب، ولهذا قال: ﴿فإنها لا تعنى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾ أي: هذا العمى الضار في الدين، عمى القلب عن الحق، حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المراثيات، وأما عمى البصر، فغايبته بلغة، ومنفعة دنيوية.

﴿٤٧ - ٤٨﴾ ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾ وكأين من قرية أهلكنا وهي ظالمة ثم أخذناها إلى المصير﴾ أي: يستعجلونك هؤلاء المكذبون بالعذاب، لجهلهم، وظلمهم، وعنادهم، وتعجزاً لله، وتكذيباً لرسله، ولن يخلف الله وعده، فما وعدهم به من العذاب، لا بد من وقوعه، ولا يمنعه منه مانع، وأما عجلته، والمبادرة فيه، فليس ذلك إليك يا محمد، ولا يستفزك عجلتهم وتعجزهم إيانا. فإن أمامهم يوم القيامة، الذي يجمع فيه أولهم وآخرهم، ويجازون بأعمالهم، ويقع بهم العذاب الدائم الأليم، ولهذا قال:



وشرهم يزدادون، ﴿ثم أخذتهم﴾ بالعذاب أخذ عزيز مقتدر ﴿فكيف كان تكذيبهم كيف حاله، كان أشد العقوبات، وأفظع المثلثات، فمنهم من أغرقه، ومنهم من أخذته الصيحة، ومنهم من أهلك بالريح العقيم، ومنهم من خسف به الأرض، ومنهم من أرسل عليه عذاب يوم الظلة، فليعتبر بهم هؤلاء المكذبون، أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم ليسوا خيراً منهم، ولا كتب لهم براءة في الكتب المنزلة من الله، وكم من المعذنين المهلكين أمثال هؤلاء كثير، ولهذا قال: ﴿فكأين من قرية﴾ أي: وكم من قرية ﴿أهلكناها﴾ بالعذاب الشديد، والخزي الدنيوي، ﴿وهي ظالمة﴾ بكفرها بالله وتكذيبها لرسله، لم يكن عقوبتنا لها ظلماً منا، ﴿ففي خاوية على عروشها﴾ أي: فديارهم منهتمة، قصورها، وجدرانها، قد سقطت عروشها، فأصبحت خراباً بعد أن كانت عامرة، وموحشة بعد أن كانت أهلة بأهلها آنسة، ﴿وبئر معطلة وقصر مشيد﴾ أي: وكم من بشر، قد كان

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - إلى الآية رقم (٥٦) من هذه السورة فجمع بينها وبين هذه الآية فكتب (فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك أصحاب الجحيم) ثم فسرها بما يوافق الذي كتب، فعدلت الآية وصورتها، وأبقيت التفسير كما هو.

كلامه ﴿والذين كفروا﴾ أي: جحدوا
نعمة ربهم وكذبوا رسله وآياته فأولئك
أصحاب الجحيم أي: الملازمون لها،
المصاحبون لها في كل أوقاتهم، فلا
يخفف عنهم من عذابها ولا يقتر عنهم
لحظة من عقابها.

﴿٥٢﴾ - ٥٧﴾ ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم * ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد * وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا به فتجب له قلوبهم وإن الله لهاد الذين آمنوا إلى صراط مستقيم * ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب عقيم * الملك يومئذ يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فأولئك لهم عذاب مهين﴾ يخبر تعالى بحكمته البالغة، واختياره لعباده، وأن الله ما أرسل قبل محمد ﴿من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى﴾ أي: قرأ قراءته، التي يذكر بها الناس، ويأمرهم وينهاهم، ﴿ألقى الشيطان في أمنيته﴾ أي: في قراءته، من طرقة ومكايدة، ما هو مناقض لتلك القراءة، مع أن الله تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله، وحفظ وحيه أن يشبهه، أو يختلط بغيره. ولكن هذا الإلقاء من الشيطان، غير مستقر ولا مستمر، وإنما هو عارض يعرض، ثم يزول، وللعوارض أحكام، ولهذا قال: ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ أي: يزيله ويذهبه ويبطله، ويبين أنه ليس من آياته، و ﴿يحكم الله آياته﴾ أي: يتقنها، ويجررها، ويحفظها، فتبقى خالصة من مخالطة إلقاء الشيطان، ﴿والله عزيز﴾ أي: كامل القوة

والاقتدار، فبكمال قوته، يحفظ وحيه،
 ويزيل ما تلقىه الشياطين، ﴿حَكِيمٌ﴾
 يضع الأشياء مواضعها، فمن كمال
 حكمته، مَكَّن الشياطين من الإلقاء
 المذكور، ليحصل ما ذكره بقوله:
 ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾
 لطائفتين من الناس، لا يبالي الله بهم،
 وهم الذين ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي:
 ضعف وعدم إيمان تام وتصديق
 جازم، فيؤثر في قلوبهم أدنى شبهة
 تطرأ عليها، فإذا سمعوا ما ألقاه
 الشيطان، داخلهم الريب والشك،
 فصار فتنة لهم.

«والقاسية قلوبهم» أي: الغليظة، التي لا يؤثر فيها زجر ولا تذكير، ولا تفهم عن الله وعن رسوله لقسوتها، فإذا سمعوا ما ألقاه الشيطان، جعلوه حجة لهم على باطلهم، وجادلوا به وشاقوا الله ورسوله، ولهذا قال: ﴿وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾ أي: مشاقة لله، ومعادنة للحق، ومخالفة له، بعيد من الصواب، فما يليق به الشيطان، يكون فتنه لهؤلاء الطائفتين، فيظهر به ما في قلوبهم، من الخبث الكامن فيها، وأما الطائفة الثالثة، فإنه يكون رحمة في حقها، وهم المذكورون بقوله: ﴿وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق من ربك﴾ لأن الله منحهم من العلم، ما به يعرفون الحق من الباطل، والرشد من الغي، فيميزون بين الأمرين، الحق المستقر، الذي يحكمه الله، والباطل العارض الذي يتسخه الله، بما على كل منهما من الشواهد، وليعلموا أن الله حكيم، يقض بعض أنواع الابتلاء، ليظهر بذلك كمال النفوس الخيرة والشريرة، ﴿فيؤمنوا به﴾ بسبب ذلك، ويزداد إيمانهم عند دفع المعارض والشبه.

﴿فَتَخَبَتْ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخشع
وتخضع، وتسلم لحكمته، وهذا من
هدايته إياهم، ﴿وإن الله لهادي الذين

أمنوا ﴿ بسبب إيمانهم ﴾ إلى صراط مستقيم ﴿ علم بالحق، وعمل بمقتضاه، فثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهذا النوع من تثبيت الله لعبده .

وهذه الآيات، فيها بيان أن الرسول ﷺ أسوة بإخوانه المسلمين، لما وقع منه عند قراءته ﷻ: **«والنجم»** فلما بلغ **«أفرايمت اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى»** ألقى الشيطان في قراءته: **«تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتهن^(١) لترتجى»**، فحصل بذلك للرسول حزن وللناس فتنة، كما ذكر الله، فأنزل الله هذه الآيات.

﴿٥٥ - ٥٧﴾ ولا يزال الذين كفروا في مرة منه حتى تأتئهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب عقيم * الملك يومئذ لله يحكم بينهم فالذين آمنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم * والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فالولئك لهم عذاب مهين ﴿٥٦﴾ يخبر تعالى عن حالة الكفار، وأنهم لا يزالون في شك مما جنتهم به يا محمد، لعنادهم، وإعراضهم، وأنهم ^(٢) لا يبرحون مستمرين على هذه الحال ﴿٥٧﴾ حتى تأتئهم

(۱) کذا فی ب، وفي أ: شفاعتهم.

(٢) في النسختين : وأنه .

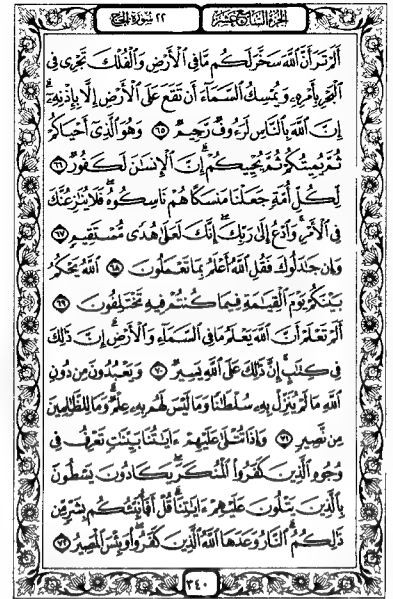
عليه وظلّم، فإنه يجوز له مقابلة الجاني بمثل جنايته، فإن فعل ذلك، فليس عليه سبيل، وليس بملوم، فإن بُغِيَ عليه بعد هذا، فإن الله ينصره، لأنه مظلوم، فلا يجوز أن يُبغَى عليه، بسبب أنه استوفى حقه، وإذا كان المجازي غيره، بإساءته إذا ظلم بعد ذلك، نصره الله، فالذي بالأصل لم يعاقب أحداً إذا ظلمَ وجُني عليه، فالنصر إليه أقرب.

﴿إن الله لعفو غفور﴾ أي: يعفو عن المذنبين، فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويغفر ذنوبهم فيزيلها، ويزيل آثارها عنهم، فالله هذا وصفه المستقر اللازم الذاتي، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات بالعفو والمغفرة، فينبغي لكم أيها المظلومون المجني عليهم، أن تغفوا وتصفحوا وتغفروا ليعاملكم الله كما تعاملون عباده ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾.

﴿٦١ - ٦٢﴾ ﴿ذلك بأن الله يولي الليل في النهار ويولي النهار في الليل وأن الله سميع بصير﴾ * ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير﴾ ذلك الذي شرع لكم تلك الأحكام الحسنة العادلة، هو حسن التصرف، في تقديره وتديبه، الذي ﴿يولي الليل في النهار﴾ أي: يدخل هذا على هذا وهذا على هذا، فيأتي بالليل بعد النهار، وبالنهار بعد الليل، ويزيد في أحدهما ما ينقصه في الآخر، ثم بالعكس، فيترتب على ذلك، قيام الفصول، ومصالح الليل والنهار، والشمس والقمر، التي هي من أجل نعمة على العباد، وهي من الضروريات لهم. ﴿وأن الله سميع﴾ يسمع ضجيج الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات، ﴿بصير﴾ يرى ديبب النملة السوداء، تحت الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾.

خير الرازقين * ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حلیم﴾ هذه بشارة كبرى، لمن هاجر في سبيل الله، فخرج من داره ووطنه وأولاده وماله، ابتغاء وجه الله، ونصرة لدين الله، فهذا قد وجب أجره على الله، سواء مات على فراشه، أو قتل مجاهداً في سبيل الله، ﴿ليرزقنهم الله رزقا حسنا﴾ في البرزخ، وفي يوم القيامة بدخول الجنة الجامعة للروح والريحان، والحسن والإحسان، ونعيم القلب والبدن، ويحتمل أن المعنى^(١) أن المهاجر في سبيل الله، قد تكفل برزقه في الدنيا، رزقا واسعاً حسناً، سواء علم الله منه أنه يموت على فراشه، أو يقتل شهيدا، فكلهم مضمون له الرزق، فلا يتوهم أنه إذا خرج من دياره وأمواله، سيفتقر ويحتاج، فإن رازقه هو خير الرازقين، وقد وقع كما أخبر، فإن المهاجرين السابقين، تركوا ديارهم وأبناءهم وأموالهم، نصرة لدين الله، فلم يلبثوا إلا يسيراً، حتى فتح الله عليهم البلاد، ومكنهم من العباد فاجتبوا من أموالها، ما كانوا به من أغنى الناس، ويكون على هذا القول، قوله: ﴿ليدخلنهم مدخلا يرضونه﴾ إما ما يفتح الله عليهم من البلدان، خصوصاً فتح مكة المشرفة، فلأنهم دخلوها في حالة الرضا والسرور، وإما المراد به رزق الآخرة، وأن ذلك دخول الجنة، فتكون الآية جمعت بين الرزقين، رزق الدنيا، ورزق الآخرة، واللفظ صالح لذلك كله، والمعنى صحيح، فلا مانع من إرادة الجميع ﴿وإن الله لعليم﴾ بالأمور، ظاهرها، وباطنها، متقدمها، ومتأخرها، ﴿حلیم﴾ يعصيه الخلاق، ويبارزونه بالعظائم، وهو لا يعاجلهم بالعقوبة مع كمال اقتداره، بل يواصل لهم رزقه، ويسدي إليهم فضله.

﴿٦٠﴾ ﴿ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بغى عليه لينصرنه الله إن الله لعفو غفور﴾ ذلك بأن من جُنِيَ



الساعة بغتة﴾ أي: مفاجأة ﴿أو يأتيهم عذاب يوم عقيم﴾ أي: لا خير فيه، وهو يوم القيامة، فإذا جاءت الساعه، أو أتاهم ذلك اليوم، علم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، وندموا حيث لا ينفعهم الندم، وأبلسوا وأيسوا من كل خير، وودوا لو آمنوا بالرسول واتخذوا معه سبيلاً، ففي هذا تحذيرهم من إقامتهم على مرتبتهم وفريتهم.

﴿الملك يومئذ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الله﴾ تعالى، لا لغيره، ﴿يحكم بينهم﴾ بحكمه العدل، وقضائه الفصل، ﴿فالذين آمنوا﴾ بالله ورسله، وما جازوا به ﴿وعملوا الصالحات﴾ ليصدقوا بذلك إيمانهم ﴿في جنات النعيم﴾ نعيم القلب والروح والبدن، مما لا يصفه الواصفون، ولا تدركه العقول.

﴿والذين كفروا﴾ بالله ورسله وكذبوا بآياته الهادية للحق والصواب فأعرضوا عنها، أو عاندوها، ﴿فأولئك لهم عذاب مهين﴾ لهم، من شدته، وألمه، وبلوغه للأفئدة كما استهانوا برسله وآياته، أهانهم الله بالعذاب.

﴿٥٨ - ٥٩﴾ ﴿والذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا وإن الله لهو

﴿ذلك﴾ صاحب الحكم والأحكام ﴿بأن الله هو الحق﴾ أي: الثابت، الذي لا يزال ولا يزول، الأول الذي ليس قبله شيء، الآخر الذي ليس بعده شيء، كامل الأسماء والصفات، صادق الوعد، الذي وعده حق ولقاؤه حق، ودينه حق، وعبادته هي الحق، النافعة الباقية على الدوام.

﴿وأن ما يدعون من دونه﴾ من الأصنام والأنداد، من الحيوانات والجمادات، ﴿هو الباطل﴾ الذي، هو باطل في نفسه، وعبادته باطلة، لأنها متعلقة بمضمحل فإن، فتبطل تبعاً لغايتها ومقصودها، ﴿وأن الله هو العلي الكبير﴾ العلي في ذاته، فهو عال على جميع المخلوقات وفي قدره، فهو كامل الصفات، وفي قهره لجميع المخلوقات، الكبير في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، الذي من عظمته وكبريائه، أن الأرض قبضته يوم القيامة، والسموات مطويات بيمينه، ومن كبريائه، أن كرسيه وسع السموات والأرض، ومن عظمته وكبريائه، أن نواصي العباد بيده، فلا يتصرفون إلا بمشيئته، ولا يتحركون ويسكنون إلا بإرادته.

وحقيقة الكبرياء التي لا يعلمها إلا هو، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، أنها كل صفة كمال وجلال وكبرياء وعظمة، فهي ثابتة له، وله من تلك الصفة أجلها وأكملها، ومن كبريائه، أن العبادات كلها، الصادرة من أهل السموات والأرض، كلها المقصود منها، تكبيره وتعظيمه، وإجلاله وإكرامه، ولهذا كان التكبير شعاراً للعبادات الكبار، كالصلاة وغيرها.

﴿٦٤ - ٦٥﴾ ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير﴾ * له ما في السموات وما في الأرض وإن الله لهو الغني الحميد ﴿هذا حث منه تعالى، وترغيب في النظر بآياته الدالات على

وحدانيته، وكماله فقال: ﴿ألم تر﴾ أي: ألم تشاهد ببصرك وببصيرتك ﴿أن الله أنزل من السماء ماء﴾ وهو: المطر، فينزل على أرض خاشعة مجدية، قد اغبرت أرجاؤها، وبس ما فيها، من شجر ونبات، فتصبح مخضرة قد اكتست من كل زوج كريم، وصار لها بذلك منظر بهيج، إن الذي أحيها بعد موتها وهموها لمحيي الموتى بعد أن كانوا رميماً.

﴿إن الله لطيف خبير﴾ اللطيف الذي يدرك بواطن الأشياء، وخفياتها، وسرائرها، الذي يسوق إلى عبده الخير، ويدفع عنه الشر^(١)، بطرق لطيفة تخفى على العباد، ومن لطفه، أنه يري عبده، عزته في انتقامه وكمال اقتداره، ثم يظهر لطفه بعد أن أشرف العبد على الهلاك، ومن لطفه، أنه يعلم مواقع القطر من الأرض، ويذور الأرض في باطنها، فيسوق ذلك الماء إلى ذلك البذر، الذي خفي على علم الخلائق فينبت منه أنواع النبات، ﴿خبير﴾ بسرائر الأمور، وخبايا الصدور، وخفايا الأمور.

﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ خلقاً وعبداً، يتصرف فيهم بملكه وحكمته وكمال اقتداره، ليس لأحد غيره من الأمر شيء.

﴿وإن الله لهو الغني﴾ بذاته الذي له الغنى المطلق التام، من جميع الوجوه، ومن غناه، أنه لا يحتاج إلى أحد من خلقه، ولا يواليهم من ذلة، ولا يتكثر بهم من قلة، ومن غناه، أنه ما اتخذ صاحبة ولا ولداً، ومن غناه، أنه صمد، لا يأكل ولا يشرب، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه الخلق بوجه من الوجوه، فهو يُطعم ولا يُطعم، ومن غناه، أن الخلق كلهم مفتقرون إليه، في إحيائهم، وإعدادهم وإمدادهم، وفي دينهم ودنياهم، ومن غناه، أنه لو اجتمع من في السموات ومن في الأرض، الأحياء منهم

والأموات، في صعيد واحد، فسأل كل منهم ما بلغت أمنيته، فأعطاهم فوق أمانيتهم، ما نقص ذلك من ملكه شيء، ومن غناه، أن يده سحاء بالخير والبركات، الليل والنهار، لم يزل إفضاله على الأنفاس، ومن غناه وكرمه، ما أودعه في دار كرامته، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿الحميد﴾ أي: المحمود في ذاته، وفي أسمائه، لكونها حسنى، وفي صفاته، لكونها كلها صفات كمال، وفي أفعاله، لكونها دائرة بين العدل والإحسان والرحمة والحكمة، وفي شرعه، لكونه لا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مفسدة خالصة أو راجحة، الذي له الحمد، الذي يملأ ما في السموات والأرض، وما بينهما، وما شاء بعدها، الذي لا يحصي العباد ثناء على حمده، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يشني عليه عباده، وهو المحمود على توفيق من يوفقه، وخذلان من يخذله، وهو الغني في حمده، الحميد في غناه.

﴿٦٥ - ٦٦﴾ ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر بأمره ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ * وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور ﴿أي: ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك السابعة، وأبديه الواسعة، و ﴿أن الله سخر لكم ما في الأرض﴾ من حيوانات، ونبات، وجمادات، فجميع ما في الأرض، مسخر لبني آدم، حيواناتها، لركوبه، وحمله، وأعماله، وأكله، وأنواع انتفاعه، وأشجارها، وثمارها، يقتاتها، وقد سلط على غرسها واستغلالها، ومعادنها، يستخرجها، وينتفع بها، ﴿والفلك﴾ أي: وسخر لكم الفلك، وهي السفن

﴿تجري في البحر بأمره﴾ تحملكم، وتحمل تجارتكم، وتوصلكم من محل إلى محل، وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها، ومن رحمته بكم أنه ﴿يمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ فلولاً رحمته وقدرته، لسقطت السماء على الأرض، فتلف ما عليها، وهلك من فيها ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾.

﴿إن الله بالناس لرؤوف رحيم﴾ أرحم بهم من والديهم، ومن أنفسهم، ولهذا يريد لهم الخير، ويريدون لها الشر والضرر، ومن رحمته، أن سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء.

﴿وهو الذي أحياكم﴾ أوجدكم من العدم ﴿ثم يميتكم﴾ بعد أن أحياكم، ﴿ثم يحييكم﴾ بعد موتكم، ليجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ﴿إن الإنسان﴾ أي: جنسه، إلا من عصمه الله ﴿للكفور﴾ نعم الله، كفور بالله، لا يعترف بإحسانه، بل ربما كفر بالبعث وقدرته ربه.

﴿٦٧ - ٧٠﴾ ﴿لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم﴾ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون * الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون * ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ يخبر تعالى أنه جعل لكل أمة «منسكاً» أي: معبداً وعبادة، قد تختلف في بعض الأمور، مع اتفاقها على العدل والحكمة، كما قال تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليلوكم فيما أتاكم﴾ الآية، ﴿هم ناسكوه﴾ أي: عاملون عليه، بحسب أحوالهم، فلا اعتراض على شريعة من الشرائع، خصوصاً من الأميين أهل الشرك والجهل المبين، فإنه إذا ثبتت رسالة الرسول بأدلتها، وجب أن يتلقى جميع ما جاء به بالقبول

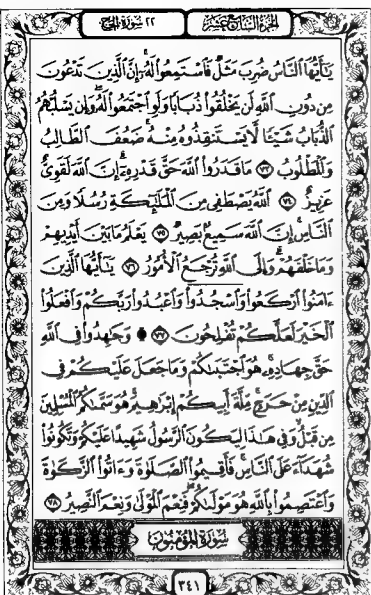
والتسليم، وترك الاعتراض، ولهذا قال: ﴿فلا ينازعنك في الأمر﴾ أي: لا ينازعك المكذبون لك، ويعترضون على بعض ما جئتكم به، بعقولهم الفاسدة، مثل منازعتهم في حل الميتة، بقياسهم الفاسد، يقولون: «تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله»، وكقولهم «إنما البيع مثل الربا» ونحو ذلك من اعتراضاتهم، التي لا يلزم الجواب عن أعيانها، وهم منكرون لأصل الرسالة، وليس فيها مجادلة ومحاجة بانفرادها، بل لكل مقام مقال، فصاحب هذا الاعتراض، المنكر لرسالة الرسول، إذا زعم أنه يجادل ليسترشد، يقال له: الكلام معك في إثبات الرسالة وعدمها، وإلا فالإقتصار على هذه، دليل أن مقصوده التعنت والتعجيز، ولهذا أمر الله رسوله أن يدعو إلى ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، ويمضي على ذلك، سواء اعترض المعارضون أم لا، وأنه لا ينبغي أن يثنيك عن الدعوة شيء، لأنك ﴿على هدى مستقيم﴾ أي: معتدل موصل للمقصد، متضمن علم الحق والعمل به، فأنت على ثقة من أمرك، ويقين من دينك، فيوجب ذلك لك الصلابة والمضي لما أمرك به ربك، ولست على أمر مشكوك فيه، أو حديث مفترى، فتقف مع الناس ومع أهوائهم، وآرائهم، ويوقفك اعتراضهم، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿فتوكل على الله إنك على الحق المبين﴾. مع أن في قوله: ﴿إنك لعلى هدى مستقيم﴾ إرشاداً لأجوبة المعارضين على جزئيات الشرع، بالعقل الصحيح، فإن الهدى وصف لكل ما جاء به الرسول، والهدى: ما تحصل به الهداية، من مسائل الأصول والفروع، وهي المسائل التي يعرف حسننها وعدلها وحكمتها بالعقل والفطرة السليمة، وهذا يعرف بتدبر تفاصيل المأمورات والمنهيات.

ولهذا أمره الله بالعدول عن جدالهم في هذه الحالة، فقال: ﴿وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون﴾

أي: هو عالم بمقاصدكم ونياتكم، فمجازيكم عليها في يوم القيامة الذي يحكم الله بينكم فيما كنتم فيه تختلفون، فمن وافق الصراط المستقيم، فهو من أهل النعيم، ومن زاغ عنه، فهو من أهل الجحيم، ومن تمام حكمه، أن يكون حكماً بعلم، فلذلك ذكر إحاطة علمه، وإحاطة كتابه فقال: ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض﴾ لا يخفى عليه منها خافية، من ظواهر الأمور وبواطنها، خفيها وجليها، متقدمها ومتأخرها، أن ذلك العلم المحيط بما في السماء والأرض قد أثبتته الله في كتاب، وهو اللوح المحفوظ، حين خلق الله القلم، قال له: «اكتب» قال: ما أكتب؟ قال: «اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة».

﴿إن ذلك على الله يسير﴾ وإن كان تصوره عندكم لا يحاط به، فالله تعالى يسير عليه أن يحيط علماً بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتاب مطابق للواقع.

﴿٧١ - ٧٢﴾ ﴿ويعبدون من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً وما ليس لهم به علم وما للظالمين من نصير﴾ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدّها الله الذين كفروا وبش المصير﴾ يذكر تعالى حالة المشركين به، العادلين به غيره، وأن حالهم أقبح الحالات، وأنه لا مستند لهم على ما فعلوه، فليس لهم به علم، وإنما هو تقليد تلقوه عن آبائهم الضالين، وقد يكون الإنسان لا علم عنده بما فعله، وهو - في نفس الأمر - له حجة ما علمها، فأخبر هنا، أن الله لم ينزل في ذلك سلطاناً، أي: حجة تدل عليه وتجوّزه، بل قد أنزل البراهين القاطعة على فساده وبطلانه، ثم تواعد الظالمين منهم المعاندين للحق فقال: ﴿وما للظالمين من نصير﴾ ينصرهم من عذاب الله إذا نزل بهم وحل. وهل هؤلاء الذين لا علم لهم بما هم عليه قضد في اتباع



أولى، ﴿ولو اجتمعوا له﴾ بل أبلغ من ذلك لو يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ﴿وهذا غاية ما يصير من العجز﴾. ﴿ضعف الطالب﴾ الذي هو المعبود من دون الله ﴿والمطلوب﴾ الذي هو الذباب، فكل منهما ضعيف، وأضعف منهما، من يتعلق بهذا الضعيف، وينزله منزلة رب العالمين.

فهذا ما قدر ﴿الله حق قدره﴾ حيث سوى الفقير العاجز من جميع الوجوه، بالغني القوي من جميع الوجوه، سوى من لا يملك لنفسه، ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، بمن هو النافع الضار، المعطي المانع، مالك الملك، والمتصرف فيه بجميع أنواع التصريف.

﴿إن الله لقوي عزيز﴾ أي: كامل القوة، كامل العزة، من كمال قوته وعزته، أن نواصي الخلق بيديه، وأنه لا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بإرادته ومشيئته، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ومن كمال قوته، أنه يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ومن كمال قوته، أنه يبعث الخلق كلهم، أولهم وآخرهم، بصيحة واحدة، ومن كمال قوته، أنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية، بشيء يسير، وسوط من عذابه.

﴿٧٥-٧٦﴾ ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير﴾ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم وإلى الله ترجع الأمور ﴿لما بين تعالى كماله وضعف الأصنام، وأنه المعبود حقاً، بين حالة الرسل، وتميزهم عن الخلق بما تميزوا به من الفضائل فقال: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ أي: يختار رسلاً، يكونون أزكى ذلك النوع، وأجمعه لصفات المجد، وأحقه بالاصطفاء، فالرسل لا يكونون إلا

الآيات والهدى إذا جاءهم؟ أم هم راضون بما هم عليه من الباطل؟ ذكر ذلك بقوله: ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا﴾ التي هي آيات الله الجليلة، المستلزمة لبيان الحق من الباطل، لم يلتفتوا إليها، ولم يرفعوا بها رأساً، بل ﴿تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾ من بغضها وكرهاتها، ترى وجوههم مغبسة، وأبشارهم مكفهرة، ﴿يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾ أي: يكادون يوقعون بهم القتل والضرب البالغ، من شدة بغضهم وبغض الحق وعداوته، فهذه الحالة من الكفار بس الحالة، وشرها بس الشر، ولكن ثم ما هو شر منها، حالتهم التي يؤولون إليها، فلماذا قال: ﴿قل أفأنسيتكم بشر من ذلك النار وعدّها الله الذين كفروا وبئس المصير﴾ فهذه شرها طويل عريض، ومكروها وآلامها تزداد على الدوام.

﴿٧٣-٧٤﴾ ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز ﴿هذا مثل ضربه الله لقبح عبادة الأوثان، وبيان نقصان عقول من عيدها، وضعف الجميع، فقال: ﴿يا أيها الناس﴾ هذا خطاب للمؤمنين والكفار، المؤمنون يزدادون علماً وبصيرة، والكافرون تقوم عليهم الحجة، ﴿ضرب مثل فاستمعوا له﴾ أي: ألقوا إليه أسماعكم، وتفهموا ما احتوى عليه، ولا يصادف منكم قلباً لاهية، وأسماعاً معرضة، بل ألقوا إليه القلوب والأسماع، وهو هذا: ﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ شمل كل ما يُدعى من دون الله، ﴿لن يخلقوا ذباباً﴾ الذي هو من أحقر المخلوقات وأخسها، فليس في قدرتهم خلق هذا المخلوق الضعيف، فما فوقه من باب

صفوة الخلق على الإطلاق، والذي اختارهم واصطفاهم^(١)، ليس جاهلاً بحقائق الأشياء، أو يعلم شيئاً دون شيء، وإنما المصطفي لهم، السميع، البصير، الذي قد أحاط علمه وسمعه وبصره بجميع الأشياء، فاختياره إياهم، عن علم منه، أنهم أهل لذلك، وأن الوحي يصلح فيهم كما قال تعالى: ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾.

﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي: هو يرسل الرسل، يدعو الناس إلى الله، ففهم الحبيب، ومنهم الراد لدعوتهم، ومنهم العامل، ومنهم الناكل، فهذا وظيفة الرسل، وأما الجزاء على تلك الأعمال، فمصيها إلى الله، فلا تعدم منه فضلاً أو عدلاً.

﴿٧٧-٧٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون﴾ وجهادوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبىكم إبراهيم هو سبأكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فتنعم المولى ونعم النصير ﴿يأمر تعالى عباده المؤمنين بالصلاة، وخص منها الركوع

تم تفسير سورة الحج،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة المؤمنين وهي مكية

﴿١- ١١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ * الَّذِينَ يَرْتُونَ الْفُرْدُوسَ * فِيهَا خَالِدُونَ * هَذَا ثَنُوهُ مِنْ اللَّهِ، بِذِكْرِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَذَكَرَ فَلَاحَهُمْ وَسَعَادَتِهِمْ، وَبَأَيِّ شَيْءٍ وَصَلُوا إِلَى ذَلِكَ، وَفِي ضَمَنِ ذَلِكَ، الْحَثُّ عَلَى الْإِتِّصَافِ بِصِفَاتِهِمْ، وَالتَّرَغِيبُ فِيهَا. فَلْيُزَيِّنِ الْعَبْدُ نَفْسَهُ وَغَيْرَهُ عَلَى هَذِهِ الْآيَاتِ، يَعْرِفُ بِذَلِكَ مَا مَعَهُ وَمَا مَعِ غَيْرِهِ مِنَ الْإِيمَانِ، زِيَادَةً وَنَقْصًا، كَثْرَةً وَقَلَّةً، فَقُولُهُ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أَي: قَدْ فَازُوا وَسَعَدُوا وَنَجَحُوا، وَأَدْرَكُوا كُلَّ مَا يَرَامُ. الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ مِنْ صِفَاتِهِمُ الْكَامِلَةِ أَنَّهُمْ ﴿فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾

والخشوع في الصلاة: هو حضور القلب بين يدي الله تعالى، مستحضراً لقربه، فيسكن لذلك قلبه، وتطمئن نفسه، وتسكن حركاته، ويقل التفاته، متادباً بين يدي ربه، مستحضراً جميع ما يقوله ويفعله في صلاته، من أول صلاته إلى آخرها، فتنتفي بذلك الوسواس والأفكار الردية، وهذا روح الصلاة، والمقصود منها، وهو الذي يكتب للعبد، فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب، وإن كانت مجزئة مثاباً عليها، فإن الثواب على

ربما توهم متوهم أن هذا من باب تكليف ما لا يطاق، أو تكليف ما يشق، احترز منه بقوله: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ أي: مشقة وعسر، بل يسره غاية التيسير، وسهله بغاية السهولة، فأولاً ما أمر بالزوم إلا بما هو سهل على النفوس، لا يثقلها ولا يؤودها، ثم إذا عرض بعض الأسباب الموجبة للتخفيف، خفف ما أمر به، إما بإسقاطه، أو إسقاط بعضه. ويؤخذ من هذه الآية، قاعدة شرعية وهي أن «المشقة تجلب التيسير» و «الضرورات تبيح المحظورات»، فيدخل في ذلك من الأحكام الفرعية، شيء كثير معروف في كتب الأحكام.

﴿ملة أبيكم إبراهيم﴾ أي: هذه الملة المذكورة، والأوامر المزیورة، ملة أبيكم إبراهيم، التي ما زال عليها، فالزومها واستمسكوا بها.

﴿هو سماكم المسلمين من قبل﴾ أي: في الكتب السابقة، مذكورون ومشهورون، ﴿وفي هذا﴾ أي: هذا الكتاب، وهذا الشرع. أي: ما زال هذا الاسم لكم قديماً وحديثاً، ﴿ليكون الرسول شهيداً عليكم﴾ بأعمالكم خيراً وشرها، ﴿وتكونوا شهداء على الناس﴾ لكونكم خير أمة أخرجت للناس، أمة وسطاً عدلاً خياراً، تشهدون للرسول أنهم بلغوا أمهم، وتشهدون على الأمم أن رسلهم بلغتهم بما أخبركم الله به في كتابه، ﴿فأقيموا الصلاة﴾ بأركانها وشروطها وحدودها، وجميع لوازمها، ﴿وآتوا الزكاة﴾ المفروضة لاستحقاقها شكر الله على ما أولاكم، ﴿واعتصموا بالله﴾ أي: امتنعوا به وتوكلوا عليه في ذلك، ولا تتكلموا على حولكم وقوتكم، ﴿هو مولاكم﴾ الذي يتولى أموركم، فيديرهم بحسن تدبيره، ويصرفكم على أحسن تقديره، ﴿فنعم المولى ونعم النصير﴾ أي: نعم المولى لمن تولاها، فحصل له مطلوبه ﴿ونعم النصير﴾ لمن استنصره فدفع عنه المكروه.



والسجود، لفضلهما وركنيتهما، وعبادته التي هي قرّة العيون، وسلوة القلب المحزون، وأن ربوبيته وإحسانه على العباد، يقتضي منهم أن يخلصوا له العبادة، ويأمرهم بفعل الخير عموماً.

وعلق تعالى الفلاح على هذه الأمور فقال: ﴿لعلكم تفلحون﴾. أي: تفوزون بالمطلوب المرغوب، وتنجون من المكروه المرهوب، فلا طريق للفلاح سوى الإخلاص في عبادة الخالق، والسعي في نفع عبده، فمن وفق لذلك، فله القدر المأثور، من السعادة والنجاح والفلاح.

﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ والجهاد بذل الوسع في حصول الغرض المطلوب، فالجهاد في الله حق جهاده، هو القيام التام بأمر الله، ودعوة الخلق إلى سبيله بكل طريق موصل إلى ذلك، من نصيحة وتعليم وقتال وأدب وزجر ووعظ، وغير ذلك.

﴿هو اجتباكم﴾ أي: اختاركم - يا معشر المسلمين - من بين الناس، واختار لكم الدين، ورضيه لكم، واختار لكم أفضل الكتب وأفضل الرسل، فقابلوا هذه المنحة العظيمة، بالقيام بالجهاد فيه حق القيام، ولما كان قوله: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾

أن تكون كلها في ملكه، فلو كان له بعضها لم تحل، لأنها^(١) ليست مما ملكت يمينه، بل هي ملك له ولغيره، فكما أنه لا يجوز أن يشترك في المرأة الحرة زوجان، فلا يجوز أن يشترك في الأمة المملوكة سيدان.

والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون^(٢) أي: مراعون لها، ضابطون، حافظون، حريصون على القيام بها وتنفيذها، وهذا عام في جميع الأمانات التي هي حق لله، والتي هي حق للعباد، قال تعالى: «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان» فجميع ما أوجبه الله على عبده أمانة، على العبد حفظها بالقيام التام بها، وكذلك يدخل في ذلك أمانات الآدميين، كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما، فعلى العبد مراعاة الأمرين، وأداء الأمانتين «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» وكذلك العهد، يشمل العهد الذي بينهم وبين ربهم والذي بينهم وبين العباد، وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرم عليه التفريط فيها وإهمالها، والذين هم على صلواتهم يحافظون^(٣) أي: يداومون عليها في أوقاتها وحدودها وأشرطها وأركانها، فمدحهم بالخشوع بالصلاة، وبالمحافظة عليها، لأنه لا يتم أمرهم إلا بالأمرين، فمن يداوم على الصلاة من غير خشوع، أو على الخشوع من دون محافظة عليها، فإنه مذموم ناقص. «أولئك» الموصوفون بتلك الصفات «هم الوارثون» الذين يرثون الفردوس^(٤) الذي هو أعلى الجنة ووسطها وأفضلها، لأنهم حلوا من صفات الخير أعلاها وذروتها، أو المراد بذلك جميع الجنة، ليدخل بذلك عموم المؤمنين، على درجاتهم و^(٥) مراتبهم، كل بحسب حاله، «هم فيها

حسب ما يعقل القلب منها. «والذين هم عن اللغو» وهو الكلام الذي لا خير فيه ولا فائدة، «معرضون» رغبة عنه، وتنزيهاً لأنفسهم، وترفعاً عنه، وإذا مروا باللغو مروا كراماً، وإذا كانوا معرضين عن اللغو، فإعراضهم عن المحرم من باب أولى وأحرى، وإذا ملك العبد لسانه وخزنه - إلا في الخير - كان مالكا لأمره، كما قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين وصاه بوصايا قال: «ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسان نفسه وقال: «كف عليك هذا»، فالؤمنون من صفاتهم الحميدة، كف ألستهم عن اللغو والمحرمات.

والذين هم للزكاة فاعلون^(٦) أي: مؤدون لزكاة أموالهم، على اختلاف أجناس الأموال، مزكين لأنفسهم من أدناس الأخلاق ومساوئ الأعمال التي تزكو النفس بتركها وتجنبها، فأحسنوا في عبادة الخالق، في الخشوع في الصلاة، وأحسنوا إلى خلقه بأداء الزكاة.

والذين هم لفروجهم حافظون^(٧) عن الزنا، ومن تمام حفظها تجب ما يدعو إلى ذلك، كالنظر واللمس ونحوهما. فحفظوا فروجهم من كل أحد «إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم» من الإماء المملوكات «فإنهم غير ملومين» بقربيهما، لأن الله تعالى أحلها.

«فمن ابتغى وراء ذلك» غير الزوجة والسرية «فأولئك هم العادون» الذين تعدوا ما أحل الله إلى ما حرمه، المتجرؤون على محارم الله وعموم هذه الآية، يدل على تحريم نكاح المتعة، فإنها ليست زوجة حقيقة مقصوداً بقاءها، ولا مملوكة، وتحريم نكاح المحلل لذلك.

ويدل قوله: «أو ما ملكت أيماهم» أنه يشترط في حل المملوكة،

(١) في أ: لأنه، وفي ب: لأن، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في ب: في مراتبهم.

وَأُولَئِكَ السَّامِعُونَ مَا يَقُولُونَ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ قَوْلًا وَلَا دَعْوَى بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١٢﴾ فَأَتَتْهَا كُلُّ غُفَّةٍ بِمَتْنٍ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْرَبَ لَكُوفُهَا تَوَكُّبَهُ كَبِيرَةً وَمِمَّا تَأْتُوا بِالنَّارِ ﴿١٣﴾ وَنَمْرُودَ عَزَّجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصَيِّغَ اللَّذَائِكِ ﴿١٤﴾ وَإِنَّ لَكُوفِي الْأَنْهَارِ لَعُودَةً شَفِيقَةً يَتَقَى بِطُوبَى وَلَكُوفِيهَا مَنَافِعُ كَبِيرَةٌ وَمِمَّا تَأْتُوا بِالنَّارِ ﴿١٥﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ عَجُوزٌ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّبِعُونَ أَعْمَهُ أَلَمْ يَأْتِكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿١٧﴾ فَقَالَ الْقَوْمُ الْوَالِدِينَ ﴿١٨﴾ فَكَرِهْنَا أَنْ يَتَّبِعُوا هَٰذَا إِلَّا أَتَيْنَا مَكَرًا بِكُرْبٍ يُّدْرِكُ الْيَقِينَ ﴿١٩﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْأَنْهَارِ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ مَأْتِيَةً يَتَّبِعُونَ فِي آبَائِنَا الْأُولَىٰ ﴿٢٠﴾ إِنْ هُمْ إِلَّا طَائِفَةٌ لِّدَعْوَةِ قَوْمٍ تَقُصُّ وَلَهُمْ حُجُوبٌ ﴿٢١﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً ﴿٢٢﴾ فَأَتَتْهَا الْيَقِينُ ﴿٢٣﴾ أَمْسَحْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ اللَّهِ فَإِنَّا نَكُونُ لَكَ قَوْمًا نَّفَعُونَ ﴿٢٤﴾ فَاسْكُنْ فِيهَا مَعَ كَرِيمٍ تَتَّقِينَ وَأَمَّا الْكُفْرُ فَهُوَ سَرِينٌ ﴿٢٥﴾ أَلْقُوا نَجْمَهُمْ فِي الْأَرْضِ فَلْيَنظُرُوا إِلَهُهُمُ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٦﴾

خالدون^(١) لا يظعنون عنها، ولا يبعون عنها جولا، لاشتمالها على أكمل النعيم وأفضله وأتمه، من غير مكدر ولا منقص.

﴿١٢ - ١٦﴾ «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين» ثم جعلناه نطفة في قرار مكين «ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين» ثم إنكم بعد ذلك لميتون «ثم إنكم يوم القيامة تبعثون» ذكر الله في هذه الآيات أطوار الآدمي وتنقلاته، من ابتداء خلقه إلى آخر ما يصير إليه، فذكر ابتداء خلق أبي النوع البشري آدم عليه السلام، وأنه «من سلالة من طين» أي: قد سلت، وأخذت من جميع الأرض، ولذلك جاء بنوه على قدر الأرض، منهم الطيب والخبث، وبين ذلك، والسهل والحزن، وبين ذلك «ثم جعلناه» أي: جنس الآدميين «نطفة» تخرج من بين الصلب والترائب، فتستقر «في قرار مكين» وهو الرحم، محفوظة من الفساد والريح وغير ذلك.

«ثم خلقنا النطفة» التي قد استقرت قبل «علقة» أي: دما أحر،

دوامه، ﴿فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أنزلناه عليها، فسكن واستقر، وأخرج بقدرة منزله، جميع الأزواج النباتية، وأسكنه أيضاً معداً في خزائن الأرض، بحيث لم يذهب نازلاً، حتى لا يوصل إليه، ولا يبلغ قعره، ﴿وإِذَا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ﴾ إما بأن لا ننزله، أو ننزله، فيذهب نازلاً لا يوصل إليه، أو لا يوجد منه المقصود منه، وهذا تنبيه منه لعباده أن يشكروه على نعمته، ويقدرها عدمها، ماذا يحصل به من الضرر، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾.

﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ﴾ أي: بذلك الماء ﴿جَنَّاتٍ﴾ أي: بساتين ﴿مَنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ خص تعالى هذين النوعين، مع أنه ينشئ منه غيرهما من الأشجار، لفضلهما ومنافعهما، التي فاقت بها الأشجار، ولهذا ذكر العام في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ أي: في تلك الجنات ﴿فَوَاكِهَ كَثِيرَةٍ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ من تين، وأترج، ورمان، وتفاح وغيرها، ﴿وشجرة تخرج من طور سيناء﴾ وهي شجرة الزيتون، أي: جنسها، خصت بالذكر، لأن مكانها خاص في أرض الشام، ولمنافعها، التي ذكر بعضها في قوله: ﴿تَنْتَبِثُ بِالذَّهْنِ وَصَبْغٍ لِلْأَكْلِينَ﴾ أي: فيها الزيت، الذي هو دهن، يستعمل^(١) استعماله من الاستصباح به، واصطباغ الأكلين، أي: يجعل إداماً للأكلين، وغير ذلك من المنافع.

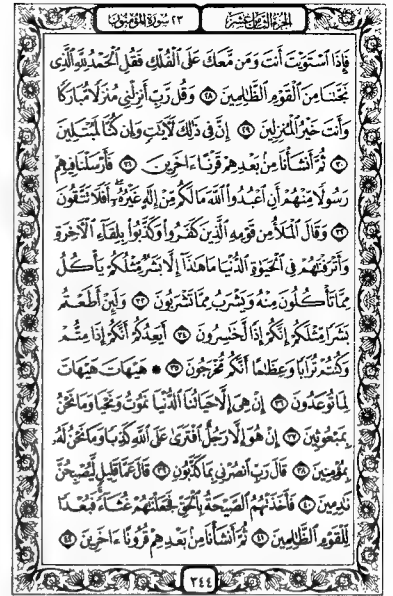
﴿٢١ - ٢٢﴾ ﴿وإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نَسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعَ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وعليها وعلى الفلك تحملون ﴿أي: ومن نعمه عليكم، أن سخر لكم الأنعام، الإبل والبقرة، والغنم، فيها عبرة للمعتبرين، ومنافع للمنتفعين﴾ نسقيكم مما في بطونها من لبن، يخرج من بين فرث ودم، خالص سائغ لشاربين، ﴿ولكم فيها منافع كثيرة﴾ من أصوافها، وأوبارها، وأشعارها، وجعل لكم من

وسبيلها. قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتْرَكَ سُدًى﴾ ألم يك نقطة من مني يعني * ثم كان علقه فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى؟

﴿١٧ - ٢٠﴾ ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكنناه في الأرض وإنا على ذهاب به لقادرون * فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون * وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين ﴿لما ذكر تعالى خلق الأدمي، ذكر سكنه، وتوفر النعم عليه من كل وجه فقال:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَقْفًا لِّلْبَلَادِ، وَمَصْلَحَةً لِّلْعِبَادِ﴾ سبع طرائق ﴿أي: مصلحة للعباد﴾ سبع سماوات طباقاً، كل طبقة فوق الأخرى، قد زينت بالنجوم والشمس والقمر، وأودع فيها من مصالح الخلق ما أودع، ﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾ فكما أن خلقنا عام لكل مخلوق، فعلما أيضاً محيط بما خلقنا، فلا تغفل مخلوقاً ولا ننساه، ولا نخلق خلقاً فنضيقه، ولا نخلف عن السماء فتقع على الأرض، ولا ننسى ذرة في لجج البحار وجوانب القلوات، ولا دابة إلا سقنا إليها رزقها ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها﴾ وكثيراً ما يقرن تعالى بين خلقه وعلمه كقوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ لأن خلق المخلوقات، من أقوى الأدلة العقلية، على علم خالقها وحكمته.

﴿وأنزلنا من السماء ماء﴾ يكون رزقاً لكم ولأنعامكم بقدر ما يكفيكم، فلا ينقصه، بحيث لا يكفي الأرض والأشجار، فلا يحصل منه المقصود، ولا يزيده زيادة لا تحتمل، بحيث يتلف المساكن، ولا تعيش معه النباتات والأشجار، بل أنزله وقت الحاجة لنزوله، ثم صرفه عند التضضر من



بعد مضي أربعين يوماً من النطفة، ﴿ثم خلقنا العلقه﴾ بعد أربعين يوماً ﴿مضغة﴾ أي: قطعة لحم صغيرة، بقدر ما يمزج من صغرها، ﴿فخلقنا المضغة اللينة عظاماً﴾ صلبة، قد تحللت اللحم، بحسب حاجة البدن إليها، ﴿فكسونا العظام لحماً﴾ أي: جعلنا اللحم، كسوة للعظام، كما جعلنا العظام، عماداً للحم، وذلك في الأربعين الثالثة، ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ نفخ فيه الروح، فانتقل من كونه جماداً، إلى أن صار حيواناً، ﴿فتبارك الله﴾ أي: تعالى وتعظيم وكثر خيره ﴿أحسن الخالقين﴾ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين * ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴿فَخَلَقْهُ كُلَّهُ حَسَنًا، وَالْإِنْسَانَ مِنْ أَحْسَنِ مَخْلُوقَاتِهِ، بَلْ هُوَ أَحْسَنُهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ ولهذا كان خواصه أفضل المخلوقات وأكملها.

﴿ثم إنكم بعد ذلك﴾ الخلق، ونفخ الروح ﴿لميتون﴾ في أحد أطواركم وتنقلاتكم، ﴿ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ فتجازون بأعمالكم، حسنها

جلود الأنعام بيوتاً تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ﴿ومنها تأكلون﴾ أفضل المأكول من لحم وشحم.

﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ أي: جعلها سفناً لكم في البر، تحملون عليها أنفالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس، كما جعل لكم السفن في البحر تحملكم، وتحمل متاعكم، قليلاً [كان] أو كثيراً، فالذي أنعم بهذه النعم، وصنف أنواع الإحسان، وأدر علينا من خيره المذلل، هو الذي يستحق كمال الشكر، وكمال الثناء، والاجتهاد في عبوديته، وأن لا يستعان بنعمه على معاصيه.

﴿٢٣ - ٣٠﴾ ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ إلى آخر القصة وهي قوله ﴿إن في ذلك لآيات وإن كنا لمبتليين﴾ يذكر تعالى رسالة عبده ورسوله نوح عليه السلام، أول رسول أرسله لأهل الأرض، فأرسله إلى قومه، وهم يعبدون الأصنام، فأمرهم بعبادة الله وحده، فقال: ﴿يا قوم اعبدوا الله﴾ أي: أخلصوا له العبادة، لأن العبادة لا تصح إلا بإخلاصها. ﴿مالك من إله غيره﴾ فيه إبطال ألوهية غير الله، وإثبات الإلهية لله تعالى، لأنه الخالق الرازق، الذي له الكمال كله، وغيره بخلاف ذلك. ﴿أفلا تتقون﴾ ما أنتم عليه من عبادة الأوثان والأصنام، التي صورت على صور قوم صالحين، فعبدها مع الله، فاستمر على ذلك، يدعوهم سراً وجهاراً، وليلاً ونهاراً، ألف سنة إلا خمسين عاماً، وهم لا يزدادون إلا عتواً ونفورا.

﴿فقال الملأ﴾ من قومه الأشراف والسادة المتبعون - على وجه المعارضة لنبيهم نوح، والتحذير من اتباعه - : ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾ أي: ما هذا إلا بشر مثلكم، قصده حين ادعى النبوة أن

يزيد عليكم فضيلة، ليكون متبوعاً، وإلا فما الذي يفضل عليه، وهو من جنسكم؟ وهذه المعارضة ما زالت موجودة في مكذي الرسل، وقد أجاب الله عنها بجواب شاف، على ألسنة رسله كما في قوله: ﴿قالوا﴾ أي: لرسلكم ﴿إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين﴾ قالت لهم رسلكم إن نحن إلا بشر مثلكم، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ﴿فأخبروا أن هذا فضل الله ومته، فليس لكم أن تحجروا على الله، وتمنعوه من إيصال فضله علينا.

وقالوا هنا: ﴿ولو شاء الله لأنزل ملائكة﴾ وهذه أيضاً معارضة بالمشيئة باطلة، فإنه وإن كان لو شاء أنزل ملائكة، فإنه حكيم رحيم، حكمته ورحمته تقتضي أن يكون الرسول من جنس آدميين، لأن الملك لا قدرة لهم على مخاطبته، ولا يمكن أن يكون إلا بصورة رجل، ثم يعود اللبس عليهم كما كان.

وقولهم: ﴿ما سمعنا بهذا﴾ أي: بإرسال رسول ﴿في آبائنا الأولين﴾ وأي حجة في عدم سماعهم إرسال رسول في آبائهم الأولين؟ لأنهم لم يحيطوا علماً بما تقدم، فلا يجعلوا جهلهم حجة لهم، وعلى تقدير أنه لم يرسل فيهم رسلاً، فلما أن يكونوا على الهدى، فلا حاجة لإرسال الرسول إذ ذاك، وإما أن يكونوا على غيرهم، فليحمدوا ربهم ويشكروه أن خصهم بنعمة لم تأت آباءهم، ولا شعروا بها، ولا يجعلوا عدم الإحسان على غيرهم سبباً لكفرهم للإحسان إليهم.

﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ أي: مجنون ﴿فترى صوابه﴾ أي: انتظروا به ﴿حتى حين﴾ إلى أن يأتيه الموت.

وهذه الشبهة التي أوردوها^(١)، معارضة لنبوة نبيهم، دالة على شدة كفرهم وعنادهم، وعلى أنهم في غاية

الجهل والضلال، فإنها لا تصلح للمعارضة بوجه من الوجوه، كما ذكرنا، بل هي في نفسها متناقضة متعارضة. فقوله: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم﴾ أثبتوا أن له عقلاً يكيدهم به، ليعلوهم ويسودهم، ويحتاج - مع هذا - أن يحذر منه لئلا يغتر به، فكيف يلتزم مع قولهم: ﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ وهل هذا إلا من شبه ضال، منقلب عليه الأمر، قصده الدفع بأي: طريق اتفق له، غير عالم بما يقول؟! ويأبى الله إلا أن يظهر خزي من عاداه وعادى رسله.

فلما رأى نوح أنه لا يفيدهم دعاؤه إلا فراراً ﴿قال رب انصرني بما كذبون﴾ فاستنصر ربه عليهم، غضباً لله، حيث ضيعوا أمره، وكذبوا رسوله وقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ * إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ﴿قال تعالى: ﴿ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون﴾.

﴿فأوحينا إليه﴾ عند استجابتنا له، سبباً ووسيلة للنجاة، قبل وقوع أسبابه، ﴿أن اصنع الفلك﴾ أي: السفينة ﴿بأعيننا ووحينا﴾ أي: بأمرنا لك ومعونتنا، وأنت في حفظنا وكلاءتنا بحيث نراك ونسمعك.

﴿فإذا جاء أمرنا﴾ بإرسال الطوفان الذي عذبوا به ﴿وفار الثنور﴾ أي: فارت الأرض، وتفجرت عيوناً، حتى محل النار، الذي لم تجر العادة إلا ببعده عن الماء، ﴿فأسلك فيها من كل زوجين اثنين﴾ أي: أدخل في الفلك من كل جنس من الحيوانات، ذكرراً وأنثى، تبقى مادة النسل لسائر الحيوانات، التي اقتضت الحكمة الربانية إيجادها في الأرض، ﴿وأهلك﴾ أي: أدخلهم ﴿إلا من سبق عليه القول﴾ كابنه، ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا﴾ أي: لا تدعني أن أنجيهم، فإن القضاء والقدر، قد حتم أنهم مغرقون.

بوحيه، وفضله برسالته، وابتلي بعبادة الشجر والحجر.

وهذا نظير قولهم: ﴿قالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لفي ضلال وسعر﴾ ألقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشرك ﴿فلما أنكروا رسالته وردوها، أنكروا ما جاء به من البعث بعد الموت، والمجازاة على الأعمال فقالوا:﴾

﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون﴾ هيهات هيهات لما توعدون ﴿أي: بعيد بعيد ما يعدكم به، من البعث، بعد أن تمزقتم وكنتم تراباً وعظاماً، فنظروا نظراً قاصراً، ورأوا هذا بالنسبة إلى قدرهم غير ممكن، فحاسوا قدرة الخالق بقدرهم، تعالى الله. فأنكروا قدرته على إحياء الموتى، وعجزوه غاية التعجيز، ونسوا خلقهم أول مرة، وأن الذي أنشأهم من العدم، فإعادته لهم بعد البلى أمون عليه، وكلاهما هين لديه، فلم لا ينكرون أول خلقهم، ويكابرون المحسوسات، ويقولون: إنا لم نزل موجودين، حتى يسلم لهم إنكارهم للبعث، وينتقلوا معهم إلى الاحتجاج على إثبات وجود الخالق العظيم؟

وهنا دليل آخر، وهو: أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، إن ذلك لمحيي الموتى، إنه على كل شيء قدير، وثم دليل آخر، وهو ما أجاب به المنكرين للبعث في قوله: ﴿بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب﴾ * فإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد ﴿فقال في جوابهم:﴾ قد علمنا ما تنقص الأرض منهم ﴿أي: في البلى، وعندنا كتاب حفيظ﴾.

﴿إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا﴾ أي: يموت أناس، ويحيا أناس ﴿وما نحن بمبعوثين﴾

﴿إن هو إلا رجل به جنة﴾ ^(٢) فلهذا أتى بما أتى به، من توحيد الله،

بمبعوثين * إن هو إلا رجل افترى على الله كذباً وما نحن له بمؤمنين ^(١) * قال رب انصرني بما كذبون * قال عما قليل ليصبحن نادمين * فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين * لما ذكر نوحاً وقومه، وكيف أهلكهم قال: ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ الظاهر أنهم «نمود» قوم صالح عليه السلام، لأن هذه القصة تشبه قصتهم.

﴿فأرسلنا فيهم رسلاً منهم﴾ من جنسهم، يعرفون نسبه وحسبه وصدقه، ليكون ذلك أسرع لانقيادهم، إذا كان منهم، وأبعد عن اشمزازهم، فدعا إلى ما دعت إليه الرسل أمهم ﴿أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ فكلمهم اتفقوا على هذه الدعوة، وهي أول دعوة يدعون بها أمهم، الأمر بعبادة الله، والإخبار أنه المستحق لذلك، والنهي عن عبادة ما سواه، والإخبار ببطان ذلك وفساده، ولهذا قال: ﴿أفلا تتقون﴾ ربكم، فتجنبوا هذه الأوثان والأصنام.

﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة، وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾ أي: قال الرؤساء الذين جمعوا بين الكفر والمعاندة، وأطغاهم ترفهم في الحياة الدنيا، معارضة لنبيهم، وتكذيباً وتحذيراً منه: ﴿ما هذا إلا بشر مثلكم﴾ أي: من جنسكم ﴿يأكل مما تاكلون منه ويشرب مما تشربون﴾ فما الذي يفضل عليه عليكم؟ فهلا كان ملكاً لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب، ﴿ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون﴾ أي: إن تبعتموه وجعلتموه لكم رئيساً، وهو مثلكم إنكم لمسلوبو العقل، نادمون على ما فعلتم. وهذا من العجب، فإن الخسارة والندامة حقيقة لمن لم يتابعه ولم ينتقل له. والجهل والسفه العظيم لمن تكبر عن الانقياد لبشر، خصه الله

﴿فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك﴾ أي: علوتم عليها، واستقلت بكم في تيار الأمواج، ولجج اليم، فاحدوا الله على النجاة والسلامة. فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين، وهذا تعليم منه له ولمن معه، أن يقولوا هذا شكراً له وحمداً على نجاتهم، من القوم الظالمين في عملهم وغذابهم.

﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين﴾ أي: وبقيت عليكم نعمة أخرى، فادعوا الله فيها، وهي أن ييسر الله لكم منزلاً مباركاً، فاستجاب الله دعاءه، قال الله: ﴿وقضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ إلى أن قال: ﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾ الآية.

﴿إن في ذلك﴾ أي: في هذه القصة ﴿لآيات﴾ تدل على أن الله وحده المعبود، وعلى أن رسوله نوحاً صادق، وأن قومه كاذبون، وعلى رحمة الله بعباده، حيث حملهم في صلب أبيهم نوح، في الفلك لما غرق أهل الأرض. وقال الفلك أيضاً من آيات الله، قال تعالى: ﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾ ولهذا جمعها هنا لأنها تدل على عدة آيات ومطالب. ﴿وإن كنا لمبلتين﴾

﴿٣١ - ٤١﴾ ﴿ثم أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ فأرسلنا فيهم رسلاً منهم أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون * وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تاكلون منه ويشرب مما تشربون * ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون * أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون * هيهات هيهات لما توعدون * إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن

(١) كتب الشيخ هذه الآية فقال: (إن هو إلا رجل به جنة فترى ما به حتى حين) وهذا سبق قلم منه - رحمه الله -، وسيفسرها فيما يلي على نحو مما أثبت وقد تركت تفسيره للآيات كما هو.

(٢) ينظر التعليق السابق.

اكتسبوه، فإن الله يعلمه، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء وأفضله، فذل هذا على أن الرسل كلهم، متفقون على إباحة الطيبات من المأكّل، وتحريم الخبائث منها، وأنهم متفقون على كل عمل صالح وإن تنوعت بعض أجناس المأمورات، واختلفت بها الشرائع، فإنها كلها عمل صالح، ولكن تفاوتت بتفاوت الأزمنة.

ولهذا، الأعمال الصالحة، التي هي صلاح في جميع الأزمنة، قد اتفقت عليها الأنبياء والشرائع، كالأمر بتوحيد الله، وإخلاص الدين له، ومحبته، وخوفه، ورجائه، والبر، والصدق، والوفاء بالعهد، وصلة الأرحام، وبر الوالدين، والإحسان إلى الضعفاء والمساكين واليتامى، والحنو والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك من الأعمال الصالحة، ولهذا كان أهل العلم، والكتب السابقة، والعقل، حين بعث الله محمداً ﷺ، يستدلون على نبوته بأجناس ما يأمر به، وينهى عنه، كما جرى له قبله، فإنه إذا أمر بما أمر به الأنبياء، الذين من قبله، ونهى عما نهوا عنه، دل على أنه من جنسهم، بخلاف الكذاب، فلا بد أن يأمر بالشر، وينهى عن الخير.

ولهذا قال تعالى للرسول: ﴿وإن هذه أممكم أمة﴾ أي: جماعتكم - يا معشر الرسل - جماعة ﴿واحدة﴾ متفقة على دين واحد، وربكم واحد.

﴿فاتقون﴾ بامتنثال أوامري، واجتناب زواجرى. وقد أمر الله المؤمنين بما أمر به المرسلين، لأنهم بهم يقتدون، وخلفهم يسلكون، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون﴾ فالواجب من كل المنتسبين إلى الأنبياء وغيرهم، أن يمتثلوا هذا، ويعملوا به، ولكن أبى الظالمون المترفون إلا عصياناً، ولهذا قال: ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً﴾ أي: تقطع المنتسبون إلى اتباع الأنبياء ﴿أمرهم﴾ أي: دينهم ﴿بينهم زبراً﴾ أي: قطعاً ﴿كل حزب بما لديهم

المهلكين﴾ في الغرق في البحر، وبنو إسرائيل ينظرون.

﴿ولقد آتينا موسى﴾ بعدما أهلك الله فرعون، وخلص الشعب الإسرائيلي مع موسى، وتمكن حينئذ من إقامة أمر الله فيهم، وإظهار شعائره، وعده الله أن ينزل عليه التوراة أربعين ليلة، فذهب لميقات ربه، قال الله تعالى ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء﴾. ولهذا قال هنا: ﴿لعلهم يهتدون﴾ أي: بمعرفة تفاصيل الأمر والنهي، والثواب والعقاب، ويعرفون ربهم بأسمائه وصفاته.

﴿٥٠﴾ ﴿وجعلنا ابن مريم وأويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين﴾ أي: وامتتتاً على عيسى ابن مريم، وجعلناه وأمه من آيات الله العجيبة، حيث حملته وولده من غير أب، وتكلم في المهد صبياً، وأجرى الله على يديه من الآيات ما أجرى، ﴿وأويناهما إلى ربوة﴾ أي: مكان مرتفع، وهذا - والله أعلم - وقت وضعها، ﴿ذات قرار﴾ أي: مستقر وراحة ﴿ومعين﴾ أي: ماء جار، بدليل قوله: ﴿قد جعل ربك تحتك﴾ أي: تحت المكان الذي أنت فيه، لارتفاعه، ﴿سرياً﴾ أي: نهراً وهو المعين ﴿وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنياً﴾ فكلوا واشربوا وقرى عينا.

﴿٥١-٥٦﴾ ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم﴾ وإن هذه أممكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زبراً كل حزب بما لديهم فرحون﴾ فذرهم في غمرتهم حتى حين ﴿أحسبون أننا نمدهم به من مال وبين﴾ ﴿نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾ هذا أمر منه تعالى لرسله بأكل الطيبات، التي هي الرزق الطيب الحلال، وشكر الله، بالعمل الصالح، الذي به يصلح القلب والبدن، والدنيا والآخرة. ويخبرهم أنه بما يعملون عليهم، فكل عمل عمله، وكل سعى



وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين إلى فرعون وملئيه ك «هامان» وغيره من رؤسائهم، ﴿فاستكبروا﴾ أي: تكبروا عن الإيمان بالله، واستكبروا على أنبيائه، ﴿وكانوا قوماً عالين﴾ أي: وصفهم العلو، والقهر، والفساد في الأرض، فلهذا صدر منهم الاستكبار، ذلك غير مستكثر منهم.

﴿فقالوا﴾ كبراً وتيهاً، وتحذيراً لضعفاء العقول، وتمويهاً: ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ كما قاله من قبلهم سواء بسواء، تشابهت قلوبهم في الكفر، فتشابهت أقوالهم وأفعالهم، وجحدوا منة الله عليهما بالرسالة.

﴿وقومهما﴾ أي: بنو إسرائيل لنا عابدون﴾ أي: معبدون بالأعمال والأشغال الشاقة، كما قال تعالى: ﴿وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾ فكيف نكون تابعين بعد أن كنا متبوعين؟! وكيف يكون هؤلاء رؤساء علينا؟! ونظير قولهم، قول قوم نوح: ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي﴾. من العلوم أن هذا لا يصلح لدفع الحق، وأنه تكذيب ومعاودة.

ولهذا قال: ﴿فكذبوا فما كانوا من

أي: بما عندهم من العلم والدين ﴿فرحون﴾ يزعمون أنهم المحقون، وغيرهم على غير الحق، مع أن المحق منهم، من كان على طريق الرسل، من أكل الطيبات، والعمل الصالح، وما عداهم فإنهم مبطلون.

﴿فذرهم في غمرتهم﴾ أي: في وسط جهلهم بالحق، ودعواهم أنهم هم^(١) المحقون. ﴿حتى حين﴾ أي: إلى أن ينزل العذاب بهم، فإنهم لا يتفهم فيهم وعظ، ولا يفيدهم زجر، وكيف يفيد من يزعم أنه على الحق، ويطمع في دعوة غيره إلى ما هو عليه؟

﴿أعجبون أنما نمدهم به من مال وبنين﴾ * نسارع لهم في الخيرات أي: أظنون أن زيادتنا إياهم بالأموال والأولاد، دليل على أنهم من أهل الخير والسعادة، وأن لهم خير الدنيا والآخرة؟ وهذا مقدم لهم، ليس الأمر كذلك.

﴿بل لا يشعرون﴾ أنما نملي لهم ونمهلهم ونمدهم بالنعم، ليزدادوا إثماً، وليتوفر عقابهم في الآخرة، وليغتبطوا بما أوتوا ﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾.

﴿٥٧ - ٦٢﴾ ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لا يشركون * والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون * أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون * ولا تكلف نفساً إلا وسعها ولدنيا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون * لما ذكر تعالى الذين جمعوا بين الإساءة والأمن، الذين يزعمون أن عطاء الله إياهم في الدنيا دليل على خيرهم وفضلهم، ذكر الذين جمعوا بين الإحسان والخوف، فقال: ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ أي: وجلون، مشفقة قلوبهم كل ذلك من خشية ربهم، خوفاً

أن يضع عليهم عدله، فلا يبقى لهم حسنة، وسوء ظن بأنفسهم، أن لا يكونوا قد قاموا بحق الله تعالى، وخوفاً على إيمانهم من الزوال، ومعرفة منهم بربهم، وما يستحقه من الإجلال والإكرام، وخوفهم وإشفاقهم يوجب لهم الكف عما يوجب الأمر المخوف من الذنوب، والتقصير في الواجبات.

﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾ أي: إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، ويتفكرون أيضاً في الآيات القرآنية ويتدبرونها، فيبين لهم من معاني القرآن وجلالته واتفاقه، وعدم اختلافه وتناقضه، وما يدعو إليه من معرفة الله وخوفه ورجائه، وأحوال الجزاء، فيحدث لهم بذلك من تفاصيل الإيمان، ما لا يعبر عنه اللسان.

ويتفكرون أيضاً في الآيات الأفقية، كما في قوله: ﴿إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لآولي الألباب﴾ إلى آخر الآيات.

﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ أي: لا شركاً جلياً، كاتخاذ غير الله معبوداً، يدعوه ويرجوه ولا شركاً خفياً، كالرياء ونحوه، بل هم مخلصون لله، في أقوالهم وأعمالهم وسائر أحوالهم.

﴿والذين يؤتون ما آتوا﴾ أي: يعطون من أنفسهم مما أمروا به، ما آتوا من كل ما يقدرون عليه، من صلاة، وزكاة، وحج، وصدقة، وغير ذلك، ﴿و﴾ مع هذا قلوبهم وجلة أي: خائفة ﴿أنهم إلى ربهم راجعون﴾ أي: خائفة عند عرض أعمالها عليه، والوقوف بين يديه، أن تكون أعمالهم غير منجية من عذاب الله، لعلمهم بربهم، وما يستحقه من أصناف العبادات.

﴿أولئك يسارعون في الخيرات﴾ أي: في ميدان التسارع في أفعال

الخير، همهم ما يقرهم إلى الله، وإرادتهم مصروفة فيما ينجي من عذابه، فكل خير سمعوا به، أو سنحت لهم الفرصة إليه، انتهزوه وبادروه، قد نظروا إلى أولياء الله وأصفيائه، أمامهم، وبمنة، ويسرة، يسارعون في كل خير، وينافسون في الزلفى عند ربهم، فنافسوه. ولما كان المسابق لغيره المسارع قد يسبق لجده وتشميره، وقد لا يسبق لتقصيره، أخبر تعالى أن هؤلاء من القسم السابقين فقال:

﴿وهم لها﴾ أي: للخيرات ﴿سابقون﴾ قد بلغوا ذروتها، وتباروا هم والرعييل الأول، ومع هذا، قد سبقت لهم من الله سابقة السعادة، أنهم سابقون. ولما ذكر مسارعهم إلى الخيرات وسبقهم إليها، ربما وهم وأهم أن المطلوب منهم ومن غيرهم أمر غير مقدور أو متعسر، أخبر تعالى أنه لا يكلف ﴿نفساً إلا وسعها﴾ أي: بقدر ما تسعه، ويفضل من قوتها عنه، ليس مما يستوعب قوتها، رحمة منه وحكمة، لتيسير طريق الوصول إليه، ولتعمر جادة السالكين في كل وقت إليه. ﴿ولدنيا كتاب ينطق بالحق﴾ وهو الكتاب الأول، الذي فيه كل شيء، وهو يطابق كل واقع يكون، فلذلك كان حقاً، ﴿وهم لا يظلمون﴾ ينقص من إحسانهم، أو يزداد في عقوبتهم وعصيانهم.

﴿٦٣ - ٦٧﴾ ﴿بل قلوبهم في غمرة من هذا ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون﴾ * حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون * لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون * قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون * مستكبرين به سامراً تهجرون﴾ * يخبر تعالى أن قلوب المكذبين في غمرة من هذا، أي: وسط غمرة من الجهل والظلم، والغفلة والإعراض، تمنعهم من الوصول إلى هذا القرآن، فلا يهتدون به، ولا يصل

إلى قلوبهم منه شيء. ﴿وَإِذَا قُرَأَ الْقُرْآنُ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا * فَلَمَّا كَانَتْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْهُ، عَمِلُوا بِحَسَبِ هَذَا الْحَالِ، مِنَ الْأَعْمَالِ الْكَفَرِيَّةِ، وَالْمُعَانِدَةِ لِلشَّرْعِ، مَا هُوَ مُوجِبٌ لِعِقَابِهِمْ، ﴿وَلَكِنْ لَكُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ هَذِهِ الْأَعْمَالِ * هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ أَي: فَلَا يَسْتَغْبِرُوا عَدَمَ وَقُوعِ الْعَذَابِ فِيهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يَمْلِكُهُمْ لِيَعْمَلُوا هَذِهِ الْأَعْمَالِ، الَّتِي بَقِيَتْ عَلَيْهِمْ مِمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمْ، فَإِذَا عَمِلُوهَا وَاسْتَوْفَوْهَا، انْتَقَلُوا بِشَرِّ حَالَةٍ إِلَى غَضَبِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ﴾ أَي: مُتَنَعِّمِيهِمْ، الَّذِينَ مَا عَمِلُوا إِلَّا التَّرَفَ وَالرَّفَاهِيَةَ وَالنَّعِيمَ، وَلَمْ تَحْصُلْ لَهُمُ الْمَكَارَةُ، فَإِذَا أَخَذْنَا هُمْ ﴿بِالْعَذَابِ﴾ وَوَجَدُوا مَسَّهُ ﴿إِذَا هُمْ يَحَارُونَ﴾ يَصْرُخُونَ وَيَتَوَجَّعُونَ، لِأَنَّهُ أَصَابَهُمْ أَمْرٌ خَالَفَ مَا هُمْ عَلَيْهِ، وَيَسْتَغِيثُونَ، فَيَقَالُ لَهُمْ: ﴿لَا تَحَارُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْهَا لَا تَنْصُرُونَ﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمُ النَّصْرَةُ مِنَ اللَّهِ، وَانْقَطَعَ عَنْهُمْ ^(١) الْغَوْثُ مِنْ جَانِبِهِ، لَمْ يَسْتَطِيعُوا نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ، وَلَمْ يَنْصُرْهُمْ أَحَدٌ.

فَكَانَهُ قِيلَ: مَا السَّبَبُ الَّذِي أَوْصَلَهُمْ إِلَى هَذَا الْحَالِ؟ قَالَ: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تَتْلَى عَلَيْهِمْ لَتُؤْمِنُوا بِهَا وَتَقْبَلُوا عَلَيْهَا، فَلَمْ تَفْعَلُوا ذَلِكَ، بَلْ كُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكُصُونَ﴾ أَي: رَاجِعِينَ الْقَهْقَرَى إِلَى الْخُلْفِ، وَذَلِكَ لِأَنِّ بَاتِبَاعَهُمُ الْقُرْآنَ يَتَقَدِّمُونَ، وَبِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ يَسْتَأْخِرُونَ وَيَنْزِلُونَ إِلَى أَسْفَلِ سَافِلِينَ. ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ﴾ قَالَ الْمَفْسُورُونَ مَعْنَاهُ: مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ، الضَّمِيرُ يَعُودُ إِلَى الْبَيْتِ، الْمَعْنَى عِنْدَ الْمُخَاطَبِينَ، أَوْ الْحَرَمِ، أَي: مُتَكَبِّرِينَ عَلَى النَّاسِ بِسَبَبِهِ، يَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ الْحَرَمِ، فَتَحْنُ أَفْضَلُ مِنْ غَيْرِنَا وَأَعْلَى، ﴿سَامِرًا﴾ أَي: جَمَاعَةً يَتَحَدَّثُونَ بِاللَّيْلِ حَوْلَ الْبَيْتِ

﴿تَهْجُرُونَ﴾ [أَي: يَقُولُونَ الْكَلَامَ الْهَجْرَ الَّذِي هُوَ الْقِيْحُ فِي] ^(٢) هَذَا الْقُرْآنِ. فَالْمُكَذِّبُونَ كَانَتْ طَرِيقَتُهُمْ فِي الْقُرْآنِ، الْإِعْرَاضُ عَنْهُ، وَيُوصِي بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ بِذَلِكَ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ وَقَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثُ تَعْجِبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تُبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقُولُهُ.

فَلَمَّا كَانُوا جَامِعِينَ لِهَذِهِ الرِّذَالِ، لَا جَرَمَ حَقَّتْ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةُ، وَلَمَّا وَقَعُوا فِيهَا، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ نَاصِرٌ يَنْصُرُهُمْ، وَلَا مَغِيثٌ يَنْقِذُهُمْ، وَيُؤَيِّخُونَ عِنْدَ ذَلِكَ هَذِهِ الْأَعْمَالُ السَّاقِطَةُ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ أَي: أَفَلَا يَتَفَكَّرُونَ فِي الْقُرْآنِ وَيَتَأَمَّلُونَهُ وَيَتَدَبَّرُونَهُ، أَي: فَإِنَّهُمْ لَوْ تَدَبَّرُوهُ، لَأَوْجِبَ لَهُمُ الْإِيمَانَ، وَلَمَنْعَهُمْ مِنَ الْكُفْرِ، وَلَكِنَّ الْمَصِيبَةَ الَّتِي أَصَابَتْهُمْ بِسَبَبِ إِعْرَاضِهِمْ عَنْهُ، وَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ تَدَبُّرَ الْقُرْآنِ، يَدْعُو إِلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَيَعْصِمُ مِنْ كُلِّ شَرٍّ، وَالَّذِي مَنَعَهُمْ مِنْ تَدَبُّرِهِ أَنْ عَلَى قُلُوبِهِمْ أَقْفَالًا.

﴿أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ أَي: أَوْ مَنَعَهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ، أَنَّهُ جَاءَهُمْ رَسُولٌ وَكِتَابٌ، مَا جَاءَ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ، فَفَرَضُوا بِسُلُوكِ طَرِيقِ آبَائِهِمُ الضَّالِّينَ، وَعَارَضُوا كُلَّ مَا خَالَفَ ذَلِكَ، وَلِهَذَا قَالُوا، هُمْ وَمَنْ أَشَبَّهُهُمْ مِنَ الْكُفَرِ، مَا أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ فَأَجَابَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتَكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ فَهَلْ تَتَّبِعُونَ إِنْ كَانَ قَصْدُكُمْ الْحَقَّ، فَأَجَابُوا بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِمْ ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أَرْسَلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ أَي: أَوْ مَنَعَهُمْ مِنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ، أَنَّ رَسُولَهُمْ مُحَمَّدًا ﷺ، غَيْرَ مَعْرُوفٍ عَنْهُمْ، فَهُمْ مُنْكَرُونَ لَهُ؟

يَقُولُونَ: لَا نَعْرِفُهُ، وَلَا نَعْرِفُ صَدَقَهُ، دَعَوَانَا حَتَّى نَنْظُرَ حَالَهُ وَنَسْأَلَ عَنْهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ خَبْرَةٌ، أَي: لَمْ يَكُنْ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُمْ يَعْرِفُونَ الرَّسُولَ ﷺ مَعْرِفَةً تَامَةً، صَغِيرَهُمْ وَكَبِيرَهُمْ يَعْرِفُونَ مِنْهُ كُلَّ خَلْقٍ جَمِيلٍ، وَيَعْرِفُونَ صَدَقَهُ وَأَمَانَتَهُ، حَتَّى كَانُوا يَسْمُونَهُ قَبْلَ الْبُعْثَةِ «الْأَمِينَ» فَلَمْ لَا يَصْدُقُونَهُ، حِينَ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ الْعَظِيمِ، وَالصَّدَقِ الْمِينِ؟.

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾ أَي: جُنُونٌ، فَلِهَذَا قَالَ مَا قَالَ، وَالْمُجَنُّونَ غَيْرُ مَسْمُوعٍ مِنْهُمْ، وَلَا عِبْرَةٌ بِكَلَامِهِ، لِأَنَّهُ يَهْذِي بِالْبَاطِلِ وَالْكَلامِ السَّخِيفِ.

قَالَ اللَّهُ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ: ﴿بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ﴾ أَي: بِالْأَمْرِ الثَّابِتِ، الَّذِي هُوَ صَدَقٌ وَعَدْلٌ، لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا تَنَاقُضَ، فَكَيْفَ يَكُونُ مِنْ جَاءَ بِهِ، بِهِ جِنَّةٌ؟! وَهَلَا يَكُونُ إِلَّا فِي أَعْلَى دَرَجَةِ الْكَمَالِ، مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَأَيْضًا فَإِنَّ فِي هَذَا الْإِنْتِقَالَ مِمَّا تَقَدَّمَ، أَي: بَلْ الْحَقِيقَةُ الَّتِي مَنَعَتْهُمْ مِنَ الْإِيمَانِ أَنَّهُ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ وَأَعْظَمُ الْحَقِّ الَّذِي جَاءَهُمْ بِهِ إِخْلَاصُ الْعِبَادَةِ لِلَّهِ وَحْدَهُ، وَتَرْكُ مَا يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَقَدْ عَلِمَ كَرَاهَتَهُمْ لِهَذَا الْأَمْرِ وَتَعْجِبَهُمْ مِنْهُ، فَكُونُ الرَّسُولِ آتَى بِالْحَقِّ، وَكُونُهُمْ كَارِهِينَ لِلْحَقِّ بِالْأَصْلِ، هُوَ الَّذِي أَوْجَبَ لَهُمُ التَّكْذِيبَ بِالْحَقِّ لَا شُكًّا وَلَا تَكْذِيبًا لِلرَّسُولِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيِّنَاتٍ اللَّهُ يَمْحَدُّونَ﴾ فَإِنَّ قِيلَ: لَمْ يَكُنْ الْحَقُّ مُوَافِقًا لَأَهْوَائِهِمْ لِأَجْلِ أَنْ يُؤْمِنُوا وَيَسْرِعُوا بِالْإِنْقِيَادِ؟ أَجَابَ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَوَجْهَ ذَلِكَ أَنَّ أَهْوَاءَهُمْ مُتَعَلِّقَةٌ بِالظُّلْمِ وَالْكَفْرِ وَالْفُسَادِ مِنَ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ، فَلَوْ تَبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، لِفُسَادِ التَّصَرُّفِ وَالتَّدْبِيرِ الْمَبْنِيِّ عَلَى الظُّلْمِ وَعَدَمِ الْعَدْلِ،

فالسماوات والأرض ما استقامتا إلا بالحق والعدل ﴿٧١﴾ أتيناهم بذكرهم ﴿٧٢﴾ أي: بهذا القرآن المذكر لهم بكل خير، الذي به فخرهم وشرفهم، حين يقومون به، ويكونون به سادة الناس.

﴿فهم عن ذكرهم معرضون﴾ شقاوة منهم، وعدم توفيق ﴿نسوا الله﴾ فنسيهم ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾ فالقرآن ومن جاء به، أعظم نعمة ساقها الله إليهم، فلم يقابلوها إلا بالرد والإعراض، فهل بعد هذا الحرمان حرمان؟ وهل يكون وراءه إلا نهاية الخسران؟.

﴿٧٢﴾ ﴿أم تسألهم خرجاً فخراج ربك خيرٌ وهو خيرُ الرازقين﴾ أي: أو منعهم من اتباعك يا محمد، أنك تسألهم على الإجابة أجرأ ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾ يتكلفون من اتباعك بسبب ما تأخذ منهم من الأجر والخراج، ليس الأمر كذلك ﴿فخراج ربك خير وهو خير الرازقين﴾ وهذا كما قال الأنبياء لأمتهم: ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجري إلا على الله﴾ أي: ليسوا يدعون الخلق طمعاً فيما يصيبهم منهم من الأموال، وإنما يدعون نصحاً لهم، وتحصيلاً لمصالحهم، بل كان الرسل أنصح للخلق من أنفسهم، فجزاهم الله عن أهمهم خير الجزاء، ورزقنا الاقتداء بهم في جميع الأحوال.

﴿٧٣ - ٧٤﴾ ﴿وانك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون ﴿ذكر الله تعالى في هذه الآيات الكريمات، كل سبب موجب للإيمان، وذكر الموانع، وبين فسادها، واحداً بعد واحد، فذكر من الموانع أن قلوبهم في غمرة، وأنهم لم يدبروا القول، وأنهم اقتدوا بأبائهم، وأنهم قالوا: برسولهم جنة، كما تقدم الكلام عليها، وذكر من الأمور الموجبة لإيمانهم، تدبر القرآن، وتلقى نعمة الله بالقبول، ومعرفة حال

الرسول محمد ﷺ، وكمال صدقه وأمانته، وأنه لا يسألهم عليه أجراً، وإنما سعيه لنفعهم ومصلحتهم، وأن الذي يدعوهم إليه صراط مستقيم، سهل على العاملين لاستقامته، موصل إلى المقصود، من قرب حنيفية سمحة، حنيفية في التوحيد، سمحة في العمل، فدعوتك إياهم إلى الصراط المستقيم، موجب لمن يريد الحق أن يتبعك، لأنه مما تشهد العقول والفطر بحسنه، وموافقته للمصالح، فإن يذهبون إن لم يتابعوك؟ فإنهم ليس عندهم ما يغنيهم ويكفيهم عن متابعتك، لأنهم ﴿عن الصراط لناكبون﴾ متجنبون منحرفون، عن الطريق الموصل إلى الله، وإلى دار كرامته، ليس في أيديهم إلا ضلالات وجهالات.

وهكذا كل من خالف الحق، لا بد أن يكون منحرفاً في جميع أموره، قال تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾.

﴿٧٥ - ٧٧﴾ ﴿ولو رحناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون﴾ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون﴾ هذا بيان لشدة تمردهم وعنادهم، وأنهم إذا أصابهم الضر، دعوا الله أن يكشف عنهم ليؤمنوا، أو ابتلاههم بذلك ليرجعوا إليه. إن الله إذا كشف الضر عنهم لجوا، أي: استمروا في طغيانهم يعمهون، أي: يجولون في كفرهم، حائرين مترددين.

كما ذكر الله حالهم عند ركوب الفلك، وأنهم يدعونه مخلصين له الدين، وينسون ما يشركونه، فلما أنجاهم إذا هم يبيغون في الأرض بالشرك وغيره.

﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ قال المفسرون: المراد بذلك: الجوع الذي أصابهم سبع سنين، وأن الله ابتلاههم

﴿وذكرهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون﴾ ولقد أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد إذا هم فيه مبلسون﴾ وهو الذي أنشأ لهم السمعة والأخذة قبل أن تأتيهم ﴿وهو الذي ذكرهم في الأرض وإلى عثرتهم﴾ وهو الذي يحيى ويميت وله أخلافت الليل والنهار فلا تعولون ﴿بل قالوا إنما نحن الماتون﴾ قالوا إنما نأبئنا وكنا نأبئنا عظاماً ما نلتعون ﴿لقد وعدنا نحن وآبائنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ قل لي الأرض ومن يرثها من بعدكم ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم﴾ سيقولون لله قل أفلا تعقلون ﴿قل من يذكركم ملكك قل حي وهو خير ولا تجارعتهم إن كتمت تقولون﴾ سيقولون لله قل فأتى شحوتهم

بذلك، ليرجعوا إليه بالذل والاستسلام، فلم ينجع فيهم، ولا نجح منهم أحد، ﴿فما استكانوا لربهم﴾ أي: خضعوا وذلوا ﴿وما يتضرعون﴾ إليه ويفتقرون، بل مرَّ عليهم ذلك ثم زال، كأنه لم يصبهم، لم يزلوا في غيهم وكفرهم، ولكن وراءهم العذاب الذي لا يرد، وهو قوله: ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذاب شديد﴾ كالقتل يوم بدر وغيره، ﴿إذا هم فيه مبلسون﴾ أيسون من كل خير، قد حضرهم الشر وأسبابه، فلنخذلوا قبل نزول عذاب الله الشديد، الذي لا يرد، بخلاف مجرد العذاب، فإنه ربما أقلع عنهم، كالعقوبات الدنيوية، التي يؤبد الله بها عباده. قال تعالى فيها: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾.

﴿٧٨ - ٨٠﴾ ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون ﴿وهو الذي يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون﴾ خير تعالى بمننه على عباده الداعية^(١) لهم إلى شكره، والقيام بحقه فقال: ﴿وهو الذي أنشأ لكم

الماء اهتزت وربت ﴿الآيات .

﴿٨٤ - ٨٩﴾ ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون﴾ سيقولون لله قل أفلا تذكرون ﴿قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم﴾ سيقولون لله قل أفلا تتقون ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون﴾ سيقولون لله قل فأنى تسحرون ﴿أي: قل لهؤلاء المكذبين بالبعث، العادلين بالله غيره، محتجاً عليهم بما أثبتوه، وأقروا به من توحيد الربوبية، وانفراد الله بها، على ما أنكروه من توحيد الإلهية والعبادة، وبما أثبتوه من خلق المخلوقات العظيمة، على ما أنكروه من إعادة الموتى، الذي هو أسهل من ذلك .

﴿لمن الأرض ومن فيها﴾ أي: من هو الخالق للأرض ومن عليها، من حيوان، ونبات، وجهاد، وبحار، وأنهار، وجبال، المالك لذلك، المدبر له؟ فلنك إذا سألتهم^(٢) عن ذلك، لا بد أن يقولوا: لله وحده، فقل لهم إذا أقروا بذلك: ﴿أفلا تذكرون﴾ أي: أفلا ترجعون إلى ما ذكركم الله به، بما هو معلوم عندهم، مستقر في فطركم، قد يغيبه الإعراض في بعض الأوقات، والحقيقة أنكم إن رجعت إلى ذاكرتكم، بمجرد التأمل، علمتم أن مالك ذلك، هو المعبود وحده، وأن إلهية من هو ملوك، أبطل الباطل، ثم انتقل إلى ما هو أعظم من ذلك، فقال: ﴿قل من رب السماوات السبع﴾ وما فيها من النيرات، والكواكب السيارت، والشوابع ﴿ورب العرش العظيم﴾ الذي هو أعلى المخلوقات وأوسعها وأعظمها، فمن الذي خلق ذلك ودبره، وصرفه بأنواع التدبير؟ ﴿سيقولون لله﴾ أي: سيقرون بأن الله رب ذلك كله .

قل لهم حين يقرون بذلك: ﴿أفلا تتقون﴾ عبادة المخلوقات العاجزة،

وتناوبهما، فلو شاء أن يجعل النهار سرمداً، من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه؟ ولو شاء أن يجعل الليل سرمداً، من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تبصرون؟ ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ .

ولهذا قال هنا: ﴿أفلا تعقلون﴾ فتعرفون أن الذي وهب لكم من النعم، السمع، والأبصار، والأفئدة، والذي نشركم في الأرض وحده، والذي يجي ويميت وحده، والذي يتصرف بالليل والنهار وحده، أن ذلك موجب لكم، أن تخلصوا له العبادة وحده لا شريك له، وتتركوا عبادة من لا ينفع ولا يضر، ولا يتصرف بشيء، بل هو عاجز من كل وجه، فلو كان لكم عقل لم تفعلوا ذلك .

﴿٨١ - ٨٣﴾ ﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون﴾ قالوا أءذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ﴿لقد وعدنا نحن وآبائنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي: بل سلسك هؤلاء المكذبون مسلك الأولين من المكذبين بالبعث، واستبعدهوا غاية الاستبعاد وقالوا: ﴿إذنا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ أي: هذا لا يتصور، ولا يدخل العقل، بزعمهم .

﴿لقد وعدنا نحن وآبائنا هذا من قبل﴾ أي: ما زلنا نعهد بأن البعث كائن، نحن وآبائنا، ولم نره، ولم يأت بعد، ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي: قصصهم وأسمارهم، التي يتحدث بها وتلهي، وإلا فليس لها حقيقة، وكذبوا - قبحهم الله - فإن الله أراهم، من آياته أكبر من البعث، ومثله، ﴿لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾ .

﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾ قال من يجيي العظام وهي رميم ﴿الآيات وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها



السمع ﴿لتدركوا به السموات، فتنفتحوا في دينكم وديناكم، والأبصار﴾ لتدركوا بها المبصرات، فتفتقروا بها^(١) في مصالحكم .

﴿والأفئدة﴾ أي: العقول التي تدركون بها الأشياء، وتميزون بها عن البهائم، فلو عدمتم السمع، والأبصار، والعقول، بأن كنتم صماً عمياً بكم ما ذا تكون حالكم؟ وما ذا تفقدون من ضرورياتكم وكمالكم؟ أفلا تشكرون الذي من عليكم بهذه النعم، فتقومون بتوحيده وطاعته؟ ولكنكم، قليل شكركم، مع توالي النعم عليكم .

﴿وهو﴾ تعالى ﴿الذي ذراكم في الأرض﴾ أي: بشكم في أقطارها، وجهاتها، وسلطكم على استخراج مصالحها ومنافعها، وجعلها كافية لمعيشكم ومساكنكم، ﴿والله تحشرون﴾ بعد موتكم، فيجازيكم بما عملتم في الأرض، من خير وشر، وتحدث الأرض التي كنتم فيها بأخبارها، ﴿وهو﴾ تعالى وحده ﴿الذي يجيي ويميت﴾ أي: المتصرف في الحياة والموت، هو الله وحده، ﴿ولله اختلاف الليل والنهار﴾ أي: تعاقبهما

(١) كذا في ب، وفي أ: لتدركوا به المبصرات، فتفتقروا به .

(٢) في أ: سألتهم .

وتتقون الرب العظيم، كامل القدرة، عظيم السلطان؟ وفي هذا من لطف الخطاب، من قوله: ﴿أفلا تذكرون﴾ ﴿أفلا تتقون﴾ والوعظ بأداة العرض الجاذبة للقلوب، ما لا يخفى. ثم انتقل إلى إقراهم بما هو أعم من ذلك كله فقال: ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾ أي: ملك كل شيء، من العالم العلوي، والعالم السفلي، ما نبصره، وما لا نبصره؟.

و «الملكوت»: صيغة مبالغة، بمعنى الملك. ﴿وهو يغير عبادهم من الشر، ويدفع عنهم المكار، ويحفظهم مما يضرهم، ولا يجار عليه﴾ أي: لا يقدر أحد أن يجير على الله، ولا يدفع الشر الذي قدره الله. بل ولا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ﴿سيقولون لله﴾ أي: سيقرون أن الله المالك لكل شيء، المجير، الذي لا يجار عليه.

﴿قل﴾ لهم حين يقرون بذلك، ملزماً لهم، ﴿فأني تسحرون﴾ أي: فأين تذهب عقولكم، حيث عبدتم من علمتم أنهم لا ملك لهم، ولا قسط من الملك، وأنهم عاجزون من جميع الوجوه، وتركتم الإخلاص للمالك العظيم القادر المدير لجميع الأمور، فالعقول التي دلتكم على هذا، لا تكون إلا مسحورة، وهي - بلا شك - قد سحرها الشيطان، بما زين لهم، وحسن لهم، وقلب الحقائق لهم، فسحر عقولهم، كما سحرت السحرة أعين الناس.

﴿٩٠ - ٩٢﴾ ﴿بل أتيناهاهم بالحق وإنهم لكاذبون﴾ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحانه الله عما يصفون ﴿عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾ يقول تعالى: بل أتينا هؤلاء المكذبين بالحق، المتضمن للصدق في الأخبار، العدل في الأمر والنهي، فما بالهم لا يعترفون به، وهو أحق أن يتبع؟ وليس عندهم

ما يعوضهم عنه، إلا الكذب والظلم، ولهذا قال: ﴿وإنهم لكاذبون﴾.

﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله﴾ كذب يعرف بخبر الله، وخبر رسله، ويعرف بالعقل الصحيح، ولهذا نبه تعالى على الدليل العقلي، على امتناع إلهين فقال: ﴿إذا﴾ أي: لو كان معه إله كما يقولون ﴿لذهب كل إله بما خلق﴾ أي: لانفرد كل واحد من الإلهين بمخلوقاته واستقل بها، ولحرص على ممانعة الآخر ومغالبتها، ﴿ولعلا بعضهم على بعض﴾ فالغالب يكون هو الإله، وإلا فمع التمانع لا يمكن وجود العالم، ولا يتصور أن ينتظم هذا الانتظام المدهش للعقول، واعتبر ذلك بالشمس والقمر، والكواكب الثابتة، والسيارة، فإنها منذ خلقت، وهي تجري على نظام واحد، وترتيب واحد، كلها مسخرة بالقدرة، مدبرة بالحكمة لمصالح الخلق كلهم، ليست مقصورة على مصلحة أحد دون أحد، ولن ترى فيها خللاً ولا تناقضاً، ولا معارضة في أدنى تصرف، فهل يتصور أن يكون ذلك، تقدير إلهين ربين!!

﴿سبحان الله عما يصفون﴾ قد نطقت بلسان حالها، وأفهمت ببدیع أشكالها، أن المدبر لها إله واحد، كامل الأسماء والصفات، قد افتقرت إليه جميع المخلوقات، في ربوبيته لها، وفي إلهيته لها، فكما لا وجود لها ولا دوام إلا بربوبيته، كذلك، لا صلاح لها ولا قوام إلا بعبادته وإفراده بالطاعة، ولهذا نبه على عظمة صفاته بأنموذج من ذلك، وهو علمه المحيط، فقال: ﴿عالم الغيب﴾ أي: الذي غاب عن أبصارنا وعلمنا، من الواجبات والمستحيلات والمستحبات، ﴿والشهادة﴾ وهو ما نشاهد من ذلك ﴿فتعالى﴾ أي: ارتفع وعظم، ﴿عما يشركون﴾ به، من لا علم عنده، إلا ما علمه الله^(١).

﴿٩٣ - ٩٥﴾ ﴿قل رب إما تريني

ما يوعدون﴾ رب فلا تجعلني في القوم الظالمين ﴿وإننا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ لما أقام تعالى على المكذبين أدلته العظيمة، فلم يلتفتوا لها، ولم يذعنوا لها، حق عليهم العذاب، ووعدوا بنزوله، وأرشد الله رسوله أن يقول: ﴿قل رب إما تريني ما يوعدون﴾ أي: أتني وقت أريتنني عذابهم، وأحضرتني ذلك، ﴿رب فلا تجعلني في القوم الظالمين﴾ أي: اعصمني واحمني، مما ابتليتهم به من الذنوب الموجبة للنقم، واحمني أيضاً من العذاب الذي ينزل بهم، لأن العقوبة العامة تعم - عند نزولها - العصي وغيره، قال الله في تقريب عذابهم: ﴿وإننا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ ولكن إن أخرناه فلحكمة، وإلا، فقدرتنا صالحة لإيقاعه فيهم.

﴿٩٦ - ٩٨﴾ ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون﴾ وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين ﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ هذا من مكارم الأخلاق، التي أمر الله رسوله بها فقال: ﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ أي: إذا أساء إليك أعداؤك، بالقول والفعل، فلا تقابلهم بالإساءة، مع أنه يجوز معاقبة المسيء بمثل إساءته، ولكن ادفع إساءتهم إليك بالإحسان منك إليهم، فإن ذلك فضل منك على المسيء، ومن مصالح ذلك، أنه تخف الإساءة عنك، في الحال، وفي المستقبل، وأنه أدعى لجلب المسيء إلى الحق، وأقرب إلى ندمه وأسفه، ورجوعه بالتوبة عما فعل، ولتصف العافي بصفة الإحسان، ويقهر بذلك عدوه الشيطان، وليستوجب الثواب من الرب، قال تعالى: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ وقال تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ وما يلقاها ﴿إلا﴾ أي: ما يوفق لهذا الخلق الجميل ﴿إلا﴾ الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ

(١) في ب: شطب حرف الجر (من) وغيرت الجملة فصارت (ولا علم عندهم إلا ما علمه الله).

عظيم.

وقوله: ﴿نحن أعلم بما يصفون﴾ أي: بما يقولون من الأقوال المتضمنة للكفر والتكذيب بالحق، قد أحاط علمنا بذلك، وقد حلمنا عنهم، وأمهلناهم، وصبرنا عليهم، والحق لنا، وتكذيبهم لنا، فأنت - يا محمد - ينبغي لك أن تصبر على ما يقولون، وتقابلهم بالإحسان، هذه ^(١) وظيفة العبد في مقابلة المسيء من البشر، وأما المسيء من الشياطين، فإنه لا يفيد فيه الإحسان، ولا يدعو حزبه إلا ليكونوا من أصحاب السعير، فالوظيفة في مقابلته، أن يسترشد ما أرشد الله إليه رسوله فقال: ﴿وقل رب أعوذ بك﴾ أي: اعتصم بحولك وقوتك متبرئاً من حولي وقوتي ﴿من همزات الشياطين﴾ وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ أي: أعوذ بك من الشر الذي يصيبني بسبب مباشرتهم وهمزهم ومستمهم، ومن الشر الذي بسبب حضورهم ووسوستهم، وهذه ^(٢) استعاذة من مادة الشر كله وأصله، ويدخل فيها، الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان، ومن مسه ووسوسته، فإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر، وأجاب دعاءه، سلم من كل شر، ووفق لكل خير.

﴿٩٩ - ١٠٠﴾ ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون﴾ لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلاً إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ يخبر تعالى عن حال من حضره الموت، من المفرطين الظالمين، أنه يندم في تلك الحال، إذا رأى ماله، وشاهد قبح أعماله فيطلب الرجعة إلى الدنيا، لا للتمتع بلذاتها واقتطاف شهواتها وإنما ذلك يقول:

﴿لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ من العمل، وفرطت في جنب الله. ﴿كلاً﴾ أي: لا رجعة له ولا إمهال، قد قضى الله أنهم إليها لا يرجعون،

﴿إنها﴾ أي: مقالته التي تمنى فيها الرجوع إلى الدنيا ﴿كلمة هو قائلها﴾ أي: مجرد قول باللسان، لا يفيد صاحبه إلا الحسرة والندم، وهو أيضاً غير صادق في ذلك، فإنه لو رُدَّ لعاد لما نهي عنه.

﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾ أي: من أمامهم وبين أيديهم برزخ، وهو الحاجز بين الشيتين، فهو هنا: الحاجز بين الدنيا والآخرة، وفي هذا البرزخ، يتنعم المطيعون، ويعذب العاصون، من موتهم إلى يوم يبعثون، أي: فليعدوا له عذته، وليأخذوا له أهبة.

﴿١٠١ - ١١٤﴾ ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون * ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون * تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون * ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون * قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين * ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون * قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون * إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين * فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون * إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون * قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين * قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فأسأل العادين * قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾ يخبر تعالى عن هول يوم القيامة، وما في ذلك اليوم، من المزعجات والمقلقات، وأنه إذا نفخ في الصور نفخة البعث، فحشر الناس أجمعون، لميقات يوم معلوم، أنه يصيهم من الهول ما ينسيهم أنسابهم، التي هي أقوى الأسباب، فغير

الأنساب من باب أولى، وأنه لا يسأل أحد أحداً عن حاله، لا اشتغاله بنفسه، فلا يدري هل ينجو نجاة لا شقاوة بعدها؟ أو يشقى شقاوة لا سعادة بعدها؟ قال تعالى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه * وأمّه وأبيه * وصاحبته وبنيه﴾ لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه ^(٣).

وفي القيامة مواضع، يشتد كربها، ويعظم وقعها، كالميزان الذي يميز به أعمال العبد، وينظر فيه بالعدل ما له وما عليه، وتبين فيه مثاقيل الذر، من الخير والشر، ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ بأن رجحت حسناته على سيئاته ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ لنجاتهم من النار، واستحقاقهم الجنة، وفوزهم بالثناء الجميل، ﴿ومن خفت موازينه﴾ بأن رجحت سيئاته على حسناته، وأحاطت بها خطيئاته ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ كل خسارة، غير هذه الخسارة، فإنها - بالنسبة إليها - سهلة، ولكن هذه خسارة صعبة، لا يجبر مصابها، ولا يستدرك فائتها، خسارة أبدية، وشقاوة سرمدية، قد خسر نفسه الشريفة، التي يتمكن بها من السعادة الأبدية ففوتها هذا النعيم المقيم، في جوار الرب الكريم.

﴿في جهنم خالدون﴾ لا يخرجون منها أبد الأبدين، وهذا الوعيد، إنما هو كما ذكرنا، لمن أحاطت خطيئاته بحسناته، ولا يكون ذلك إلا كافراً، فعلى هذا، لا يحاسب محاسبة من توزن حسناته وسيئاته، فإنهم لا حسنات لهم، ولكن تُعَدُّ أعمالهم وتحصى، فيوقفون عليها، ويقررون بها، ويخزون بها، وأما من معه أصل الإيمان، ولكن عظمت سيئاته، فرجحت على حسناته، فإنه وإن دخل النار، لا يخلد فيها، كما دلت على ذلك نصوص الكتاب والسنة.

ثم ذكر تعالى، سوء مصير الكافرين

(١) في الموضعين في النسختين: هذا.

(٢) في الموضعين في النسختين: هذا.

(٣) في النسختين وقع تداخل بين آيات سورة عبس وآيات سورة المعارج فكانت أقرب إلى آيات سورة عبس فأثبتها منها.

صاحبه، وعرض من قارنه ومازجه، ما لا يفعله بقية الذنوب، فأخبر أن الزاني لا يقدم على نكاحه من النساء، إلا أنثى زانية، تناسب حاله حالها، أو مشركة بالله، لا تؤمن ببعث ولا جزاء، ولا تلتزم أمر الله، والزانية كذلك، لا ينكحها إلا زان أو مشرك ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ أي: حرم عليهم أن ينكحوا زانياً، أو ينكحوا زانية.

ومعنى الآية: أن من اتصف بالزنا، من رجل أو امرأة، ولم يتب من ذلك، أن المقدم على نكاحه، مع تحريم الله لذلك، لا يخلو إما أن لا يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فذاك لا يكون إلا مشركاً، وإما أن يكون ملتزماً لحكم الله ورسوله، فأقدم على نكاحه مع علمه بزناه، فإن هذا النكاح زنا، والنكاح زان مسافح، فلو كان مؤمناً بالله حقاً، لم يقدم على ذلك، وهذا دليل صريح على تحريم نكاح الزانية حتى تتوب، وكذلك إنكاح الزاني حتى يتوب، فإن مقارنة الزوج لزوجته، والزوجة لزوجها، أشد الاقتران والازدواجات، وقد قال تعالى: ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم﴾ أي: قراءهم، فحرم الله ذلك، لما فيه من الشر العظيم، وفيه من قلة الغيرة، وإلحاق الأولاد، الذين ليسوا من الزوج، وكون الزاني لا يعفوا بسبب اشتغاله بغيرها، مما بعضه كاف للتحريم^(١)، وفي هذا دليل أن الزاني ليس مؤمناً، كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» فهو وإن لم يكن مشركاً، فلا يطلق عليه اسم المدح، الذي هو الإيمان المطلق.

﴿٤-٥﴾ «والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون» * إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحو فإن الله غفور رحيم ﴿لما عظم تعالى أمر

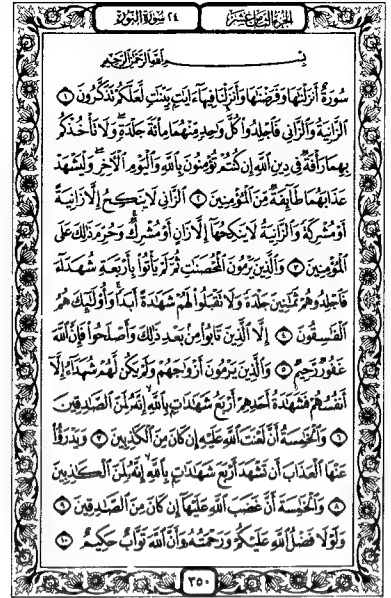
رحمة منا بالعباد، وحفظناها من كل شيطان ﴿وفرضناها﴾ أي: قدرنا فيها ما قدرنا، من الحدود والشهادات وغيرها، وأنزلنا فيها آيات بينات﴾ أي: أحكاماً جليلة، وأوامر وزواجر، وحكماً عظيمة ﴿لعلمكم تذكرون﴾ حين نبين لكم، ونعلمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ثم شرع في بيان تلك الأحكام المشار إليها، فقال:

﴿٢-٣﴾ «الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة ولا تأخذكم بهما رافة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين».

هذا الحكم في الزاني والزانية البكرين، أنهما يجلد كل منهما مئة جلدة، وأما الثيب، فقد دلت السنة الصحيحة المشهورة، أن حده الرجم، ونهانا تعالى أن تأخذنا رافة [بهما] في دين الله، تمنعنا من إقامة الحد عليهم، سواء رافة طبيعية، أو لأجل قرابة أو صداقة أو غير ذلك، وأن الإيمان موجب لانتفاء هذه الرافة المانعة من إقامة أمر الله، فرحمته حقيقة، بإقامة حد الله عليه، فنحن وإن رحمناه لجريان القدر عليه، فلا نرحمه من هذا الجانب، وأمر تعالى أن يحضر عذاب الزانين طائفة، أي: جماعة من المؤمنين، ليستهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع، وليشهدوا الحد فعلاً، فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل، مما يقوى بها العلم، ويستقر بها الفهم، ويكون أقرب لإصابة الصواب، فلا يزداد فيه ولا ينقص، والله أعلم.

«الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين» هذا بيان لرذيلة الزنا، وأنه يندس عرض



مع الله آلهة غيره، بلا بينة من أمره ولا برهان يدل على ما ذهب إليه، وهذا قيد ملازم، فكل من دعا غير الله، فليس له برهان على ذلك، بل دلت البراهين على بطلان ما ذهب إليه، فأعرض عنها ظلماً وعناداً، فهذا سيقدم على ربه، فيجازيه بأعماله، ولا ينيله من الفلاح شيئاً، لأنه كافر، «إنه لا يفلح الكافرون» فكفرهم منعهم من الفلاح.

«وقل» داعياً لربك مخلصاً له الدين «رب اغفر» لنا حتى تنجيتنا من المكروه، وارحمنا، لتوصلنا برحمتك إلى كل خير.

«وأنت خير الراحمين» فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه.

ثم تفسير سورة المؤمنين، من فضل الله وإحسانه

تفسير سورة النور وهي مدنية

﴿١﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون» أي: هذه «سورة» عظيمة القدر «أنزلناها»

الزاني^(١) بوجوب جلده، وكذا رجه إن كان محصناً، وأنه لا تجوز مقارنته، ولا مخالطته على وجه لا يسلم فيه العبد من الشر، بين تعالى تعظيم الإقدام على الأعراض بالرمي بالزنا فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: النساء الأحرار العفائف، وكذلك الرجال، لا فرق بين الأمرين، والمراد بالرَّمْي الرَّمْيُ بالزنا، بدليل السياق، ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ على ما رواه به ﴿بِأَرْبَعَةٍ شَهَادَةٍ﴾ أي: رجال عدول، يشهدون بذلك صريحاً، ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ بسوط متوسط، يؤلم فيه، ولا يبالغ بذلك حتى يتلفه، لأن القصد التأديب لا الإتلاف، وفي هذا تقدير حد القذف، ولكن بشرط أن يكون المَقْذُوف كما قال تعالى محصناً مؤمناً، وأما قذف غير المحصن، فإنه يوجب التعزير.

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ أي: النساء الأحرار العفائف، وكذلك الرجال، لا فرق بين الأمرين، والمراد بالرَّمْي الرَّمْيُ بالزنا، بدليل السياق، ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا﴾ على ما رواه به ﴿بِأَرْبَعَةٍ شَهَادَةٍ﴾ أي: رجال عدول، يشهدون بذلك صريحاً، ﴿فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ بسوط متوسط، يؤلم فيه، ولا يبالغ بذلك حتى يتلفه، لأن القصد التأديب لا الإتلاف، وفي هذا تقدير حد القذف، ولكن بشرط أن يكون المَقْذُوف كما قال تعالى محصناً مؤمناً، وأما قذف غير المحصن، فإنه يوجب التعزير.

﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ أي: لهم عقوبة أخرى، وهو أن شهادة القاذف غير مقبولة، ولو خُذَ على القذف، حتى يتوب كما يأتي، ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طاعة الله، الذين قد كثر شرهم، وذلك لانتهاك ما حرم الله، وانتهاك عرض أخيه، وتسليط الناس على الكلام بما تكلم به، وإزالة الأخوة التي عقدها الله بين أهل الإيمان، ومحنة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وهذا دليل على أن القذف من كبائر الذنوب.

وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ فإن الله غفور رحيم ﴿فَالْتَوْبَةُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ﴾ أن يُكْذِبَ القاذف نفسه، ويقر أنه كاذب فيما قال، وهو واجب عليه، أن يكذب نفسه ولو تيقن وقوعه، حيث لم يأت بأربعة شهود، فإذا تاب القاذف وأصلح عمله بدل إساءته إحساناً، زال عنه الفسق، وكذلك تقبل شهادته على الصحيح، فإن الله غفور رحيم يغفر

﴿٦٠ - ١٠﴾ ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ * وَلَوْ لَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾

وإنما كانت شهادات الزوج على زوجته، دارة عنه الحد، لأن الغالب، أن الزوج لا يقدم على رمي زوجته، التي يندسه ما يندسها إلا إذا كان صادقاً، ولأن له في ذلك حقاً، وخوفاً من إلحاق أولاد ليسوا منه به، ولغير ذلك من الحكم المفقودة في غيره فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ أي: الحرائر^(٢) لا المملوكات.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ على رميهم بذلك ﴿شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ﴾ بأن لم يقيموا شهوداً، على ما رموه به ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ سماها شهادة، لأنها نائبة مناب الشهود، بأن يقول: «أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميتها به».

﴿وَالْخَامِسَةَ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ أي: يزيد في الخامسة مع الشهادة المذكورة، مؤكداً تلك الشهادات، بأن يدعو على نفسه، باللعنة إن كان كاذباً، فإذا تم لعانه، سقط عنه حد القذف، ظاهر الآيات، ولو سمي الرجل الذي رماها به، فإنه يسقط حقه تبعاً لها. وهل يقام عليها الحد، بمجرد لعان الرجل وتكولها أم تحبس؟ فيه قولان للعلماء، الذي يدل عليه الدليل، أنه يقام عليها الحد، بدليل قوله: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ

إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَادَةٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ * وَلَوْ لَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾

تشهد» إلى آخره، فلولاً أن العذاب وهو الحد قد وجب بلعانه، لم يكن لعانها درائلاً له.

ويدراً عنها، أي: يدفع عنها العذاب، إذ قابلت شهادات الزوج، بشهادات من جنسها.

﴿أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وتزيد في الخامسة، مؤكداً لذلك، أن تدعو على نفسها بالغضب، فإذا تم اللعان بينهما، فرق بينهما إلى الأبد، وانتفى الولد الملاعن عليه، وظاهر الآيات يدل على اشتراط هذه الألفاظ عند اللعان، منه ومنها، واشتراط الترتيب فيها، وأن لا ينقص منها شيء، ولا يبدل شيء بشيء، وأن اللعان تختص بالزوج إذا رمى امرأته، لا بالعكس، وأن الشبه في الولد مع اللعان لا عبرة به، كما لا يعتبر مع الفراش، وإنما يعتبر الشبه حيث لا مرجح إلا هو.

﴿وَلَوْ لَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ وجواب الشرط محذوف، يدل عليه سياق الكلام أي: لأجل بأحد المتلاعنين الكاذب منهما، ما دعا به على نفسه، ومن رحمة وفضله، ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين، لشدة الحاجة إليه، وأن بين

(١) في أ: الزنا، وفي ب: الكلمة مشطوبة.

(٢) في النسختين: الأحرار ولعل الصواب ما أثبت.

من ذلك، وقد حد النبي ﷺ منهم جماعة، «والذي تولى كبره» أي: معظم الإفك، وهو المنافق الخبيث، عبد الله بن أبي بن سلول - لعنه الله - «له عذاب عظيم» ألا وهو الخلود في الدرك الأسفل من النار.

ثم أرشد الله عباده عند سماع مثل هذا الكلام فقال: «لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً» أي: ظن المؤمنون بعضهم ببعض خيراً، وهو السلامة مما رموا به، وأن ما معهم من الإيمان المعلوم، يدفع ما قيل فيهم من الإفك الباطل، «وقالوا» بسبب ذلك الظن «سبحانك» أي: تنزيهاً لك عن كل سوء، وعن أن تبلي أصفياءك بالأمور الشنيعة، «هذا إفك مبين» أي: كذب وبهت، من أعظم الأشياء، وأبينها. فهذا من الظن الواجب، حين سماع المؤمن عن أخيه المؤمن، مثل هذا الكلام، وأن يبرئه بلسانه، ويكذب القائل لذلك.

«لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء» أي: هلا جاء الرامون على ما رموا به، بأربعة شهداء أي: عدول مرضيين. «فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون» وإن كانوا في أنفسهم قد تيقنوا ذلك، فإنهم كاذبون في حكم الله، لأن الله حرم عليهم التكلم بذلك، من دون أربعة شهود، ولهذا قال: «فأولئك عند الله هم الكاذبون» ولم يقل: «فأولئك هم الكاذبون»، وهذا كله، من تعظيم حرمة عرض المسلم، بحيث لا يجوز الإقدام على رميه، من دون نصاب الشهادة بالصدق.

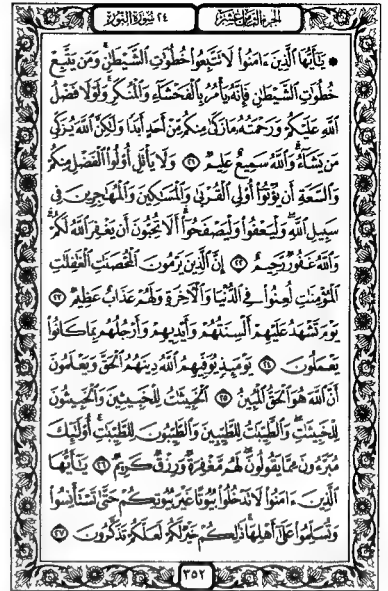
«ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة» بحيث شملكم إحسانه فيهما، في أمر دينكم ودنياكم، «لمسكم فيما أفضتم» أي: خضتم فيه» من شأن الإفك «عذاب عظيم» لاستحقاقكم ذلك بما قلتم، ولكن من فضل الله عليكم ورحمته، أن

الجيش في الظهيرة، فلما رأى بعض المنافقين الذين في صحبة النبي ﷺ، في ذلك السفر مجيء صفوان بها في هذه الحال، أشاع ما أشاع، ووشى الحديث، وتلقفته الألسن، حتى اغتر بذلك بعض المؤمنين، وصاروا يتناقلون هذا الكلام، وانحبس الوحي مدة طويلة عن الرسول ﷺ.

وبلغ الخبر عائشة بعد ذلك بمدة، فحزنت حزناً شديداً، فأنزل الله تعالى براءتها في هذه الآيات، ووعظ الله المؤمنين، وأعظم ذلك، ووصاهم بالوصايا النافعة. فقوله تعالى: «إن الذين جاؤوا بالإفك» أي: الكذب الشنيع، وهو زمني أم المؤمنين «عصبة منكم» أي: جماعة منتسبون إليكم يا معشر المؤمنين، منهم المؤمن الصادق [في إيمانه ولكنه اغتر بترويح المنافقين]^(١) ومنهم المنافق.

«لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم» لما تضمن ذلك تبرئة أم المؤمنين ونزاهتها، والتنويه بذكرها، حتى تناول عموم المدح سائر زوجات النبي ﷺ، ولما تضمن من بيان الآيات المضطر إليها العباد، التي ما زال العمل بها إلى يوم القيامة، فكل هذا خير عظيم، لولا مقالة أهل الإفك لم يحصل ذلك، وإذا أراد الله أمراً جعل له سبباً، ولذلك جعل الخطاب عاماً مع المؤمنين كلهم، وأخير أن قدح بعضهم ببعض كقدح في أنفسهم، فقيه أن المؤمنين في توادهم وتراحهم وتعاطفهم، واجتماعهم على مصالحهم، كالجسد الواحد، والمؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، فكما أنه يكره أن يقدح أحد في عرضه، فليكره من كل أحد، أن يقدح في أخيه المؤمن، الذي بمنزلة نفسه، وما لم يصل العبد إلى هذه الحالة، فإنه من نقص إيمانه وعدم نصحه.

«لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم» وهذا وعيد للذين جاؤوا بالإفك، وأنهم سيعاقبون على ما قالوا



لكم شدة الزنا وفظاعته، وفضاعة القذف به، وأن شرع التوبة من هذه الكبائر وغيرها.

«١١-٢٦» «إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم» إلى آخر الآيات وهو قوله: «لهم مغفرة ورزق كريم» لما ذكر فيما تقدم، تعظيم الزمي بالزنا عموماً، صار ذلك كأنه مقدمة لهذه القصة، التي وقعت على أشرف النساء، أم المؤمنين رضي الله عنها، وهذه الآيات، نزلت في قصة الإفك المشهورة، الثابتة في الصحاح والسنن والمسانيد.

وحاصلها أن النبي ﷺ، في بعض غزواته، ومعه زوجته عائشة الصديقة بنت الصديق، فانقطع عقدهما فانحبست في طلبه ورحلوا جملها وهودجها، فلم يفقدوها، ثم استقل الجيش راحلاً، وجاءت مكانهم، وعلمت أنهم إذا فقدوها، رجعوا إليها فاستمروا في مسيرهم، وكان صفوان بن المعطل السلمي، من أفاضل الصحابة رضي الله عنه، قد عرس في أخريات القوم ونام، فرأى عائشة رضي الله عنها فعرفها، فأناخ راحلته، فركبتها من دون أن يكلمها أو تكلمه، ثم جاء يقود بها بعد ما نزل

شرع لكم التوبة، وجعل العقوبة مطهرة للذنوب.

﴿إذ تلقونه بالسنتكم﴾ أي: تلقفونه، ويلقيه بعضكم إلى بعض، وتستوشون حديثه، وهو قول باطل. ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾ والأمران محظوران، التكلم بالباطل، والقول بلا علم، ﴿ونحسبونه هيناً﴾ فلذلك أقدم عليه من أقدم من المؤمنين الذين تابوا منه، وتطهروا بعد ذلك، ﴿وهو عند الله عظيم﴾ وهذا فيه الزجر البالغ، عن تعاطي بعض الذنوب على وجه التهاون بها، فإن العبد لا يفيد حسابه شيئاً، ولا يخفف من عقوبة الذنب، بل يضاعف الذنب، ويسهل عليه مواقعة مرة أخرى.

﴿ولولا إذ سمعتموه﴾ أي: وهلا إذ سمعتم - أيها المؤمنون - كلام أهل الإفك ﴿قلتم﴾ منكرين لذلك، معظمين لأمره: ﴿ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ أي: ما ينبغي لنا، وما يليق بنا الكلام، بهذا الإفك المبين، لأن المؤمن يمنعه إيمانه من ارتكاب القبائح ﴿هذا بهتان﴾ أي: كذب عظيم. ﴿يعظمكم الله أن تعودوا مثله﴾ أي: لتظيره، من زعم المؤمنين بالفجور، فالله يعظمكم وينصحكم عن ذلك، ونعم المواعظ والنصائح من ربنا فيجب علينا مقابلتها بالقبول والإذعان، والتسليم والشكر له، على ما بين لنا ﴿إن الله نعماً يعظمكم به﴾. ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ دل ذلك على أن الإيمان الصادق، يمنع صاحبه من الإقدام على المحرمات. ﴿وبين الله لكم الآيات﴾ المشتملة على بيان الأحكام، والوعظ، والزجر، والترغيب، والترهيب، يوضحها لكم توضيحاً جلياً. ﴿والله عليم﴾ أي: كامل العلم عام الحكمة، فمن علمه وحكمته، أن علمكم من علمه، وإن كان ذلك راجعاً لمصالحكم في كل وقت.

﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة﴾ أي: الأمور الشنيعة المستقبحة المستعظمة، فيحبون أن تشيع الفاحشة ﴿في الذين آمنوا لهم عذاب أليم﴾ أي: موجه للقلب والبدن، وذلك لغشه لإخوانه المسلمين، ومحبة الشر لهم، وجراءته على أعراضهم، فإذا كان هذا الوعيد، لمجرد محبة أن تشيع الفاحشة، واستحلاء ذلك بالقلب، فكيف بما هو أعظم من ذلك، من إظهاره، ونقله؟! وسواء كانت الفاحشة، صادرة أو غير صادرة.

وكل هذا من رحمة الله بعباده المؤمنين، وصيانة أعراضهم، كما صان دماءهم وأموالهم، وأمرهم بما يقتضي المصافاة، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه. ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ فلذلك علمكم، وبيّن لكم ما تجهلونه.

﴿ولولا فضل الله عليكم﴾ قد أحاط بكم من كل جانب ﴿ورحمته﴾ عليكم ﴿وأن الله رؤوف رحيم﴾ لما بين لكم هذه الأحكام والمواعظ، والحكم الجليّة، ولما أمهل من خالف أمره، ولكن فضله ورحمته، وأن ذلك وصفه اللازم أثر لكم من الخير الدنيوي والأخروي، ما لن تحصوه، أو تعدوه.

ولما نهى عن هذا الذنب بخصوصه، نهى عن الذنوب عموماً فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ أي: طرقة وسواسه. وخطوات الشيطان، يدخل فيها سائر المعاصي المتعلقة بالقلب، واللسان والبدن، ومن حكمته تعالى، أن بين الحكم، وهو: النهي عن اتباع خطوات الشيطان. والحكمة وهو بيان ما في المنهي عنه، من الشر المقتضي، والداعي لتركه فقال: ﴿ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه﴾ أي: الشيطان ﴿يأمر بالفحشاء﴾ أي: ما تستفحشه العقول والشرائع، من الذنوب

العظيمة، مع ميل بعض النفوس إليه. ﴿والمنكر﴾: هو ما تنكره العقول ولا تعرفه. فالعاصي التي هي خطوات الشيطان، لا تخرج عن ذلك، فهي الله عنها للعباد، نعمة منه عليهم أن يشكروه ويذكروه، لأن ذلك صيانة لهم عن التدنس بالردائل والقبائح، فمن إحسانه عليهم، أن نهاهم عنها، كما نهاهم عن أكل السموم القاتلة ونحوها، ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً﴾ أي: ما تطهر من اتباع خطوات الشيطان، لأن الشيطان يسعى هو وجنده، في الدعوة إليها وتحسينها، والنفس ميالة إلى السوء أماره به، والنقص مُستول على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، فلو خلى وهذه الدواعي، ما زكى أحد بالتطهر من الذنوب والسيئات والنماء بفعل الحسنات، فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، ولكن فضله ورحمته أوجبا أن يتركى منكم من تزكى.

وكان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»، ولهذا قال: ﴿ولكن الله يزيك من يشاء﴾ من يعلم منه أن يزيك بالتزكية، ولهذا قال: ﴿والله سميع عليم﴾.

﴿ولا يأتل﴾ أي: لا يحلف ﴿أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا﴾ كان من جملة الخائفين في الإفك «مسطح بن أثاثة» وهو قريب لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان مسطح فقيراً من المهاجرين في سبيل الله، فحلف أبو بكر أن لا ينفق عليه، لقوله الذي قال.

فنزلت هذه الآية، ينهاهم^(١) عن هذا الحلف المتضمن لقطع النفقة عنه، ويحثه على العفو والصفح، ويعدّه بمغفرة الله إن غفر له، فقال:

حيث قال «إنما جعل الاستئذان من أجل البصر»، فبسبب الإخلال به، يقع البصر على العورات التي داخل البيوت، فإن البيت للإنسان في ستر عورة ما وراءه، بمنزلة الثوب في ستر عورة جسده.

ومنها: أن ذلك يوجب الريبة من الداخل، ويتهم بالشر سرقة أو غيرها، لأن الدخول خفية، يدل على الشر، ومنع الله المؤمنين من دخول غير بيوتهم حتى يستأنسوا أي: يستأذنوا. سمي الاستئذان استئناساً، لأن به يحصل الاستئناس، وبعدمه تحصل الوحشة، «وتسلموا على أهلها» وصفة ذلك، ما جاء في الحديث: «السلام عليكم، أدخل»؟

«ذلكم» أي: الاستئذان المذكور «خير لكم لعلكم تذكرون» لاشتماله على عدة مصالح، وهو من مكارم الأخلاق الواجبة، فإن أذن، دخل المستأذن.

«فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا» أي: فلا تمتنعوا من الرجوع، ولا تخضبوا منه، فإن صاحب المنزل، لم يمنعكم حقاً واجباً لكم، وإنما هو متبرع، فإن شاء أذن أو منع، فأنتم لا تأخذ أحدكم الكبير والاشتمزاز من هذه الحال، «هو أذكى لكم» أي: أشد لتطهيركم من السيئات، وتنميكم بالحسنات. «والله بما تعملون عليم» فيجازي كل عامل بعمله، من كثرة وقلة، وحسن وعدمه، هذا الحكم في البيوت المسكونة، سواء كان فيها متاع للإنسان أم لا، وفي البيوت غير المسكونة، التي لا متاع فيها للإنسان، وأما البيوت التي ليس فيها أهلها، وفيها متاع الإنسان المحتاج للدخول إليه، وليس فيها أحد يتمكن من استئذانه، وذلك كبيوت الكراء وغيرها، فقد ذكرها بقوله:

«ليس عليكم جناح» أي: حرج وإثم، دل على أن الدخول من غير استئذان في البيوت السابقة، أنه محرم،

للخبشيات* أي: كل خبيث من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للخبث، وموافق له، ومقترون به، ومشاكل له، وكل طيب من الرجال والنساء، والكلمات والأفعال، مناسب للطيب، وموافق له، ومقترون به، ومشاكل له، فهذه كلمة عامة وحصر، لا يخرج منه شيء، من أعظم مفرداته، أن الأنبياء - خصوصاً أولي العزم منهم، خصوصاً سيدهم محمد ﷺ، الذي هو أفضل الطيبين من الخلق على الإطلاق لا يناسبهم إلا كل طيب من النساء، فالقدح في عائشة رضي الله عنها بهذا الأمر قدح في النبي ﷺ، وهو المقصود بهذا الإفك، من قصد المنافقين، فمجرد كونها زوجة للرسول ﷺ، يعلم أنها لا تكون إلا طيبة طاهرة من هذا الأمر القبيح.

فكيف وهي هي!! صديقة النساء وأفضلهن وأعلمهن وأطيبهن، حبيبة رسول رب العالمين، التي لم ينزل الوحي عليه وهو في لحاف زوجة من زوجاته غيرها، ثم صرح بذلك، بحيث لا يبقى لبطل مقالا، ولا لشك وشبهة مجالا، فقال: «أولئك مبرؤون مما يقولون» والإشارة إلى عائشة رضي الله عنها أصلاً، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعاً «لهم مغفرة» تستغرق الذنوب «ورزق كريم» في الجنة صادر من الرب الكريم.

﴿٢٧ - ٢٩﴾ «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون» * فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أذكى لكم والله بما تعملون عليم * ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون* يرشد الباري عباده المؤمنين، أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم بغير استئذان، فإن في ذلك عدة مفاسد: منها ما ذكره الرسول ﷺ،

«ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم» إذا عاملتم عبيده، بالعتو والصفح، عاملكم بذلك، فقال أبو بكر - لما سمع هذه الآية - : بلى، والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع النفقة إلى مسطح، وفي هذه الآية دليل على النفقة على القريب، وأنه لا تترك النفقة والإحسان بمعصية الإنسان، والحث على العفو والصفح، ولو جرى عليه ما جرى من أهل الجرائم.

ثم ذكر الوعيد الشديد على رمي المحصنات فقال: «إن الذين يرمون المحصنات» أي: العفاف عن الفجور «الغافلات» التي لم يخطر ذلك بقلوبهن «المؤمنات» «لعنوا في الدنيا والآخرة» واللعنة لا تكون إلا على ذنب كبير.

وأكد اللعنة بأنها متواصلة عليهم في الدارين «ولهم عذاب عظيم» وهذا زيادة على اللعنة، أبعدهم عن رحمته، وأحل بهم شدة نقمته.

وذلك العذاب يوم القيامة «يوم تشهد عليهم السنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» فكل جارية تشهد عليهم بما عملته، ينطقها الذي أنطق كل شيء، فلا يمكنه الإنكار، ولقد عدل في العباد، من جعل شهودهم من أنفسهم، «يومئذ يوفيههم الله دينهم الحق» أي: جزاءهم على أعمالهم، الجزاء الحق، الذي بالعدل والقسط، يجدون جزاءها موفراً، لم يفقدوا منها شيئاً، «ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً» ويعلمون في ذلك الموقف العظيم، أن الله هو الحق المبين، فيعلمون انحصار الحق المبين في الله تعالى.

فأوصافه العظيمة حق، وأفعاله هي الحق، وعبادته هي الحق، ولقاؤه حق، ووعدته ووعيده، وحكمه الديني والحزائي حق، ورسله حق، فلا تم حق، إلا في الله وما من الله. «الخبشيات للخبثيين والخبثيون



عادة، ويحتمل أن المراد بالصالحين الصالحون للزوج المحتاجون إليه^(١)، من العبيد والإماء، يؤيد هذا المعنى، أن السيد غير مأمور بتزويج مملوكه، قبل حاجته إلى الزواج. ولا يبعد إرادة المعنيين كليهما، والله أعلم.

وقوله: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ أي: الأزواج والمتزوجين ﴿يَغْنَمُهم الله من فضله﴾ فلا يمنعكم ما تتوهمون، من أنه إذا تزوج، افترق بسبب كثرة العائلة ونحوه، وفيه حث على التزوج، ووعد للمتزوج بالغنى بعد الفقر.

﴿والله واسع﴾ كثير الخير عظيم الفضل ﴿عليم﴾ بمن يستحق فضله الديني والدنيوي أو أحدهما، ممن لا يستحق، فيعطي كلاً ما علمه واقتضاه حكمه.

﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله﴾ هذا حكم العاجز عن النكاح، أمره الله أن يستعفف، أن يكف عن المحرم، ويفعل الأسباب التي تكفه عنه، من صرف دواعي قلبه بالإنكار التي تخطر بإيقاعه فيه، ويفعل أيضاً، كما قال النبي ﷺ: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».

وقوله: ﴿الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً﴾ أي: لا يقدرون نكاحاً، إما لفقرهم أو فقر أولياتهم وأسيادهم، أو امتناعهم من تزويجهم [وليس لهم]^(٢)، من قدرة على إجبارهم على ذلك، وهذا التقدير، أحسن من تقدير من قدر «لا يجدون مهر نكاح»، وجعلوا المضاف إليه نائباً مناب المضاف، فإن في ذلك محذورين: أحدهما: الحذف في الكلام، والأصل عدم الحذف.

والثاني: كون المعنى قاصراً على من له حالان، حالة غنى بماله، وحالة عدم، فيخرج العبيد والإماء ومن إنكاحه على وليه، كما ذكرنا.

﴿حتى يغنيهم الله من فضله﴾ وعد

الفلاح إلا بالتوبة، وهي الرجوع مما يكرهه الله، ظاهراً وباطناً، إلى: ما يحبه ظاهراً وباطناً، ودل هذا، أن كل مؤمن محتاج إلى التوبة، لأن الله خاطب المؤمنين جميعاً، وفيه الحث على الإخلاص بالتوبة في قوله: ﴿وتوبوا إلى الله﴾ أي: لا لمقصد غير وجهه، من سلامة من آفات الدنيا، أو رياء وسمعة، أو نحو ذلك من المقاصد الفاسدة.

﴿٣٢-٣٣﴾ ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يَغْنَمُهم الله من فضله والله واسع عليم﴾ وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ يأمر تعالى الأولياء والأسياد، بإنكاح من تحت ولايتهم من الأيامى وهم: من لا أزواج لهم، من رجال، ونساء ثيب، وأبكار، فيجب على القريب وولي التيسيم، أن يزوج من يحتاج للزواج، ممن تجب نفقته عليه، وإذا كانوا مأمورين بإنكاح من تحت أيديهم، كان أمرهم بالنكاح بأنفسهم من باب أولى.

﴿والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾ يحتمل أن المراد بالصالحين، صلاح الدين، وأن الصالح من العبيد والإماء - وهو الذي لا يكون فاجراً زانياً - مأمور سيده بإنكاحه، جزاء له على صلاحه، وترغيباً له فيه، ولأن الفاسد بالزنا، منهى عن تزوجه، فيكون مؤيداً للمذكور في أول السورة، أن نكاح الزاني والزانية محرم حتى يتوب، ويكون التخصيص بالصلاح في العبيد والإماء دون الأحرار، لكثرة وجود ذلك في العبيد

الأجانب، وعلل تعالى ذلك، بأنهم لم يظهرها على عورات النساء، أي: ليس لهم علم بذلك، ولا وجدت فيهم الشهوة بعد ودل هذا، أن المميز تستتر منه المرأة، لأنه يظهر على عورات النساء.

﴿ولا يضرين بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾ أي: لا يضرين الأرض بأرجلهن، ليصوت ما عليهن من خلي، كخلاخل وغيرها، فتعلم زينتها بسببه، فيكون وسيلة إلى الفتنة.

ويؤخذ من هذا ونحوه، قاعدة سد الوسائل، وأن الأمر إذا كان مباحاً، ولكنه يفضي إلى محرم، أو يخاف من وقوعه، فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في الأرض، الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة لعلم الزينة، منع منه.

ولما أمر تعالى بهذه الأوامر الحسنة، ووصى بالوصايا المستحسنة، وكان لا بد من وقوع تقصير من المؤمن بذلك، أمر الله تعالى بالتوبة، فقال:

﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون﴾ لأن المؤمن يدعوه إيمانه إلى التوبة ثم علق على ذلك الفلاح، فقال: ﴿لعلكم تفلحون﴾ فلا سبيل إلى

(١) في النسختين: الصالحين للزوج المحتاجين إليه.

(٢) زيادة من ب بخط مغاير، وقد حذف بعدها حرف (من).

للمستعفف أن الله سيغنيه ويسر له أمره، وأمر له بانتظار الفرج، لتلا يشق عليه ما هو فيه.

وقوله ﴿والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً﴾ أي: من ابتغى وطلب منكم الكتاب، وأن يشتري نفسه، من عبيد وإماء، فأجيبوه إلى ما طلب، وكاتبوه، ﴿إن علمتم فيهم﴾ أي: في الطالبين للكتابة ﴿خيراً﴾ أي: قدرة على التكسب، وصلاًحاً في دينه، لأن في الكتابة تحصيل المصلحتين، مصلحة العتق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبذله في فداء نفسه. وربما جد واجتهد، وأدرك لسيده في مدة الكتابة من المال ما لا يحصل في رقه، فلا يكون ضرر على السيد في كتابته، مع حصول عظيم المنفعة للعبد، فلذلك أمر الله بالكتابة على هذا الوجه أمر إيجاب، كما هو الظاهر، أو أمر استحباب على القول الآخر، وأمر بمعاونتهم على كتابتهم، لكونهم محتاجين لذلك، بسبب أنهم لا مال لهم، فقال: ﴿وآتوهم من مال الله الذي آتاكم﴾ يدخل في ذلك أمر سيده الذي كاتبه، أن يعطيه من كتابته أو يسقط عنه منها، وأمر الناس بمعونتهم.

ولهذا جعل الله للمكاتبين قسطاً من الزكاة، ورغب في إعطائه بقوله: ﴿من مال الله الذي آتاكم﴾ أي: فكما أن المال مال الله، وإنما الذي بأيديكم عطية من الله لكم ومحض منة، فأحسنوا لعباد الله، كما أحسن الله إليكم.

ومفهوم الآية الكريمة، أن العبد إذا لم يطلب الكتابة، لا يؤمر سيده أن يبتدىء بكتابته، وأنه إذا لم يعلم منه خيراً، بأن علم منه عكسه، إما أنه يعلم أنه لا كسب له، فيكون بسبب ذلك كلاً على الناس، ضائعاً، وإما أن يخاف إذا عتق، وصار في حرية نفسه، أن يتمكن من الفساد، فهذا لا يؤمر

بكتابته، بل ينهى عن ذلك لما فيه من المحذور المذكور.

ثم قال تعالى: ﴿ولا تكرهوا فتياتكم﴾ أي: إماءكم ﴿على البغاء﴾ أي: أن تكون زانية ﴿إن أردن تحصناً﴾ لأنه لا يتصور إكراهها إلا بهذه الحال، وأما إذا لم ترد تحصناً فإنها تكون بغياً، يجب على سيدها منعها من ذلك، وإنما هذا نهي لما كانوا يستعملونه في الجاهلية، من كون السيد يجبر أمته على البغاء، ليأخذ منها أجرة ذلك، ولهذا قال: ﴿لتبتغوا عرض الحياة الدنيا﴾ فلا يليق بكم أن تكون إماءكم خيراً منكم، وأعف عن الزنا، وأنتم تفعلون بهن ذلك، لأجل عرض الحياة، متاع قليل يعرض ثم يزول.

فكسبكم النزاهة، والنظافة، والمروءة - بقطع النظر عن ثواب الآخرة وعقابها - أفضل من كسبكم العرض القليل، الذي يكسبكم الرذالة والخسة.

ثم دعا من جرى منه الإكراه إلى التوبة، فقال: ﴿ومن يكرهن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾ فليتب إلى الله، وليقلع عما صدر منه مما يغضبه، فإذا فعل ذلك، غفر الله ذنوبه، ورحمه كما رحم نفسه بفكاكها من العذاب، وكما رحم أمته بعدم إكراهها على ما يضرها.

﴿٣٤﴾ ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم وموعظة للمتقين﴾ هذا تعظيم وتفخيم لهذه الآيات، التي تلاها على عباده، ليعرفوا قدرها، ويقوموا بحققها فقال: ﴿ولقد أنزلنا إليكم آيات مبينات﴾ أي: واضحات الدلالة، على كل أمر تحتاجون إليه، من الأصول والفروع، بحيث لا يبقى فيها إشكال ولا شبهة، ﴿وأنزلنا إليكم أيضاً﴾ مثلاً من الذين خلوا من قبلكم، من أخبار الأولين، الصالح منهم والطالح، وصفة أعمالهم، وما جرى لهم وجرى عليهم تعتبرونه مثلاً ومعتبراً، لمن فعل

مثل أفعالهم أن يجازى مثل ما جوزوا. ﴿وموعظة للمتقين﴾ أي: وأنزلنا إليكم موعظة للمتقين، من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، يتعظ بها المتقون، فينكفون عما يكره الله إلى ما يحبه الله.

﴿٣٥﴾ ﴿الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم﴾ ﴿الله نور السماوات والأرض﴾ الحسي والمعنوي، وذلك نه تعالى بذاته نور، وحجابه - الذي لولا لطفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه - نور، وبه استنار العرش، والكرسي، والشمس، والقمر، والنور، وبه استنارت الجنة.

وكذلك النور المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور. فلولا نوره تعالى، لتراكت الظلمات، ولهذا، كل محل يفقد نوره فتم الظلمة والخصر، ﴿مثل نوره﴾ الذي يهدي إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين، ﴿كمشكاة﴾ أي: كوة ﴿فيها مصباح﴾ لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق ذلك ﴿المصباح في زجاجة الزجاجة﴾ من صفاتها وبهائتها ﴿كأنها كوكب دري﴾ أي: مضيء إضاءة الدر. ﴿يوقد﴾ ذلك المصباح، الذي في تلك الزجاجة الدرية ﴿من شجرة مباركة زيتونة﴾ أي: يوقد من زيت الزيتون الذي ناره من أنور ما يكون، ﴿لا شرقية﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار، ﴿ولا غربية﴾ فقط، فلا تصيبها الشمس [أولاً] (١) النهار، وإذا انتفى عنها الأمران، كانت متوسطة من الأرض، كزيتون الشام،

(١) في النسختين آخر النهار، ولعل الصواب ما أثبت، ثم إن الكلمة معدلة من آخر إلى أول في ب، بقلم مغاير لما كتبت به النسخة.

لكثرة الاشتغال بالبيع على غيره، فهؤلاء الرجال، وإن انجروا، وباعوا، واشتروا، فإن ذلك، لا محذور فيه. لكنه لا تلهيهم تلك، بأن يقدموها ويؤثروها على «ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة» بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه.

ولما كان ترك الدنيا شديداً على أكثر النفوس، وحب المكاسب بأنواع التجارات محبوباً لها، ويشق عليها تركه في الغالب، وتتكلف من تقديم حق الله على ذلك، ذكر ما يدعوها إلى ذلك - ترغيباً وترهيباً - فقال: «يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار» من شدة هوله وإزعاجه للقلوب والأبدان، فلذلك خافوا ذلك اليوم، فسهل عليهم العمل، وترك ما يشغل عنه، «ليجزئهم الله أحسن ما عملوا» والمراد بأحسن ما عملوا: أعمالهم الحسنة الصالحة، لأنها أحسن ما عملوا، لأنهم يعملون المباحات وغيرها، فالثواب لا يكون إلا على العمل الحسن، كقوله تعالى: «ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويمجزم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» «ويزيدهم من فضله» زيادة كثيرة عن الجزاء المقابل لأعمالهم، «والله يرزق من يشاء بغير حساب» بل يعطيه من الأجر ما لا يبلغه عمله، بل ولا تبلغه أمنيته، ويعطيه من الأجر بلا عَد ولا كيل، وهذا كناية عن كثرته جداً.

﴿٣٩ - ٤٠﴾ «والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب» * أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور» هذان مثلاً، ضربهما الله لأعمال الكفار في بطلانها وذهابها سدى وتحسر عاملها منها

بالغدو والأصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزئهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب.

أي: يتعبد لله «في بيوت» عظيمة فاضلة، هي أحب البقاع إليه، وهي المساجد. «أذن الله» أي: أمر ووصى «أن ترفع» ويذكر فيها اسمه هذان مجموع أحكام المساجد، فيدخل في رفعها، بناؤها، وكسنها، وتنظيفها من النجاسة والأذى، وصونها عن المجانين والصبيان الذين لا يتحرزون عن النجاسة، وعن الكافر، وأن تصان عن اللغو فيها، ورفع الأصوات بغير ذكر الله.

«ويذكر فيها اسمه» يدخل في ذلك الصلاة كلها، فرضها، ونفلها، وقراءة القرآن، والتسبيح، والتلهيل، وغيره من أنواع الذكر، وتعلم العلم وتعليمه، والمذاكرة فيها، والاعتكاف، وغير ذلك من العبادات التي تفعل في المساجد، ولهذا كانت عمارة المساجد على قسمين: عمارة بنيان، وصيانة لها، وعمارة بذكر اسم الله، من الصلاة وغيرها، وهذا أشرف القسمين، ولهذا شرعت الصلوات الخمس والجمعة في المساجد، وجوباً عند أكثر العلماء، أو استحباباً عند آخرين. ثم مدح تعالى عمارتها بالعبادة فقال: «يسبح له» إخلاصاً «بالغدو» أول النهار «والأصال» آخره «رجال». خص هذين الوقتين لشرفهما ولتيسر السير فيهما إلى الله وسهولته. ويدخل في ذلك، التسبيح في الصلاة وغيرها، ولهذا شرعت أذكار الصباح والمساء وأورادها عند الصباح والمساء. أي: يسبح فيها الله رجال، وأي: رجال، ليسوا ممن يؤثر على ربه دنيا، ذات لذات، ولا تجارة ومكاسب، مشغلة عنه، «لا تلهيهم تجارة» وهذا يشمل كل تكسب يقصد به العوض، فيكون قوله: «ولا بيع» من باب عطف الخاص على العام،

تصبيها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب، ويكون أصفى لزيته، ولهذا قال: «يكاد زيتها» من صفائه «يضيء» ولو لم تمسه نار» فإذا مسته النار، أضاء إضاءة بليغة «نور على نور» أي: نور النار، ونور الزيت.

ووجه هذا المثل الذي ضرب به الله، وتطبيقه على حالة المؤمن، ونور الله في قلبه، أن فطرته التي فطر عليها، بمنزلة الزيت الصافي، ففطرته صافية، مستعدة للتعاليم الإلهية، والعمل المشروع، فإذا وصل إليه العلم والإيمان، اشتمل ذلك النور في قلبه، بمنزلة اشتعال النار في فتيلة ذلك المصباح، وهو صافي القلب من سوء القصد، وسوء الفهم عن الله، إذا وصل إليه الإيمان، أضاء إضاءة عظيمة، لصفائه من الكدورات، وذلك بمنزلة صفاء الزجاج الدرية، فيجتمع له نور الفطرة، ونور الإيمان، ونور العلم، وصفاء المعرفة، نور على نوره.

ولما كان هذا من نور الله تعالى، وليس كل أحد يصلح له ذلك، قال: «يهدي الله لنوره من يشاء» ممن يعلم زكاه وطهارته، وأنه يزكي معه وينمو. «ويضرب الله الأمثال للناس» ليعقلوا عنه ويفهموا، لطفاً منه بهم، وإحساناً إليهم، وليتضح الحق من الباطل، فإن الأمثال تقرب المعاني المعقولة من المحسوسة، فيعلمها العباد علماً واضحاً، «والله بكل شيء عليم» فعلمه محيط بجميع الأشياء، «فَلْتَعْلَمُوا أَنَّ ضَرْبَهُ الْأَمْثَالُ، ضَرْبٌ مِنْ يَعْلَمُ حَقَائِقَ الْأَشْيَاءِ وَتَفَاصِيلَهَا، وَأَنَّهَا مَصْلُحَةٌ لِلْعِبَادِ، فَلْيَكُنْ اشْتَغَالُكُمْ بِتَذَكُّرِهَا وَتَعَقُّلِهَا، لَا بِالْإِعْتِرَاضِ عَلَيْهَا، وَلَا بِمَعَارَضَتِهَا، فَإِنَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

ولما كان نور الإيمان والقرآن أكثر وقوع أسبابه في المساجد، ذكرها منوهاً بها فقال:

﴿٣٦ - ٣٨﴾ «في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها



المخلوقات نظر اعتبار وتفكر وتدبر لما أريد بها ومنها، والمعرض الجاهل نظره إليها نظر غفلة، بمنزلة نظر البهائم .

﴿٤٥﴾ «والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء إن الله على كل شيء قدير» ينبه عباده على ما يشاهدونه، أنه خلق جميع الدواب التي على وجه الأرض، «من ماء» أي: مادتها كلها الماء، كما قال تعالى: «وجعلنا من الماء كل شيء حي» .

فالحوانات التي تتوالد، مادتها ماء النطفة، حين يلقيح الذكر الأنثى. والحوانات التي تتولد من الأرض، لا تتولد إلا من الرطوبات المائية، كالحشرات لا يوجد منها شيء، يتولد من غير ماء أبداً، فالمادة واحدة، ولكن الخلقة مختلفة من وجوه كثيرة، «فمنهم من يمشي على بطنه» كالحية ونحوها، «ومنهم من يمشي على رجلين» كالآدميين، وكثير من الطيور، «ومنهم من يمشي على أربع» كبهيمة الأنعام ونحوها. فاختلافها - مع أن الأصل واحد - يدل على نفوذ مشيئة الله، وعموم قدرته، ولهذا قال: «يخلق الله ما يشاء» أي: من المخلوقات، على ما يشاؤه من الصفات، «إن الله على كل شيء قدير» كما أنزل المطر على الأرض، وهو لقاح واحد، والأم واحدة، وهي الأرض، والأولاد مختلفو الأصناف والأوصاف «وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون» .

﴿٤٦﴾ «لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم» أي: لقد رحمنا عبادنا، وأنزلنا إليهم آيات بينات، أي: واضحة الدلالة، على جميع المقاصد الشرعية، والآداب المحمودة، والمعارف الرشيدة، فانضحت بذلك السبل، وتبين الرشيد من الغي،

والهدى من الضلال، فلم يبق أدنى شبهة لمبطل يتعلق بها، ولا أدنى إشكال لمريد الصواب، لأنها تنزيل من كَمَل علمه، وكملت رحمته، وكمل بيانه، فليس بعد بيانه بيان «ليهلك» بعد ذلك «من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة»، «والله يهدي من يشاء» ممن سبقت لهم سابقة الحسن، وقدم الصدق، «إلى صراط مستقيم» أي: طريق واضح مختصر، موصل إليه، وإلى دار كرامته، متضمن العلم بالحق وإثارة والعمل به. عمم البيان التام لجميع الخلق، وخصص بالهداية فضل الكريم بممنون وذاك عدله، وقطع الحجة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مواقع إحسانه .

﴿٤٧ - ٥٠﴾ «ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون» يخبر تعالى عن حالة الظالمين، ممن في قلبه مرض وضعف إيمان، أو نفاق وريب وضعف علم، أنهم يقولون بالستهم، ويلتزمون الإيمان بالله والطاعة، ثم لا يقومون بما قالوا، ويتولى فريق منهم عن الطاعة تَوَلَّياً عظيماً، بدليل قوله: «وهم معرضون» فإن التولي، قد يكون له نية عود ورجوع إلى ما تولى عنه، وهذا التولي معرض، لا التفات له، ولا نظر لما تولى عنه، وتجده هذه الحالة مطابقة لحال كثير ممن يدعي الإيمان والطاعة لله وهو ضعيف الإيمان، تجده لا يقوم بكثير من العبادات، خصوصاً: العبادات التي تشق على كثير من النفوس، كالزكوات، والنفقات الواجبة والمستحبة، والجهاد في سبيل الله، ونحو ذلك .

«وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم» أي: إذا صار بينهم وبين أحد

الآبصار» أي: ألم تشاهد ببصرك، عظيم قدرة الله، وكيف «يزجي» أي: يسوق «سحاباً» قطعاً متفرقة «ثم يولف» بين تلك القطع، فيجعله سحاباً متراكماً، مثل الجبال .

«فتسرى الودق» أي: الوابل والمطر، يخرج من خلال السحاب، نقطاً متفرقة، ليحصل بها الانتفاع من دون ضرر، فتمتلئ بذلك الغدران، وتتدفق الخللجان، وتسيل الأودية، وتنبت الأرض من كل زوج كريم، وتارة ينزل الله من ذلك السحاب برداً يتلف ما يصيبه .

«فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء» بحسب ما اقتضاه حكمه القدري، وحكمته التي يحمد عليها، «يكاد سنا برقة» أي: يكاد ضوء برق ذلك السحاب، من شدته «يذهب بالآبصار» أليس الذي أنشأها وساقها لعباده المفتقرين، وأنزلها على وجه يحصل به النفع وينتفي به الضرر، كامل القدرة، نافذ المشيئة، واسع الرحمة؟ .

«يقلب الله الليل والنهار» من حر إلى برد، ومن برد إلى حر، من ليل إلى نهار، ونهار إلى ليل، ويبدل الأيام بين عباده، «إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار» أي: لذوي البصائر، والعقول النافذة للأمور المطلوبة منها، كما تنفذ الأبصار إلى الأمور المشاهدة الحسية . فالبصير ينظر إلى هذه

وبقي الحق الثالث المختص بالرسول، وهو التعزير والتوقيف، كما جمع بين الحقوق الثلاثة في سورة الفتح في قوله: ﴿لَتؤْمِنُوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً﴾.

﴿٥٣ - ٥٤﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون﴾ * قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حل وعليكم ما حلتهم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ يخبر تعالى عن حالة المتخلفين عن الرسول ﷺ في الجهاد من المنافقين، ومن في قلوبهم مرض وضعف إيمان أنهم يقسمون بالله، ﴿لئن أمرتهم﴾ فيما يستقبل، أو لئن نصصت عليهم حين خرجت ﴿ليخرجن﴾ والمعنى الأول أولى. قال الله - راداً عليهم -: ﴿قل لا تقسموا﴾ أي: لا نحتاج إلى إقسامكم ولا إلى أعذاركم، فإن الله قد نبأنا من أخباركم، وطاعتكم معروفة، لا تخفى علينا، قد كنا نعرف منكم التناقل والكسل من غير عذر، فلا وجه لعذرهم وقسمكم، إنما يحتاج إلى ذلك، من كان أمره محتماً، وخاله مشتبهاً، فهذا ربما يفيد العذر براءة، وأما أنتم فكلاً ولما، وإنما ينتظر بكم ويخاف عليكم حلول بأس الله ونقمته، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ فيجازيكم عليها أتم الجزاء، هذه حالهم في نفس الأمر، وأما الرسول عليه الصلاة والسلام، فوظيفته أن يأمركم وينهاكم، ولهذا قال:

﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن﴾ امتثلوا، كان حظكم وسعادتكم^(١)، وإن ﴿تولوا﴾ فإنما عليه ما حل من الرسالة، وقد أداها. ﴿وعليكم ما حلتهم﴾ من الطاعة، وقد بانث حالكم وظهرت، فإن ضلالكم وغيبكم واستحقاقكم العذاب. ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ إلى الصراط المستقيم،

﴿٥١ - ٥٢﴾ ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ * ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾.

أي: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ حقيقة، الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم حين يدعون إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، سواء وافق أهواءهم أو خالفها، ﴿أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: سمعنا حكم الله ورسوله، وأجبنا من دعانا إليه، وأطعنا طاعة تامة، سالمة من الحرج.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ حصر الفلاح فيهم، لأن الفلاح: الفوز بالمطلوب، والنجاة من المكروه، ولا يفلح إلا من حكم الله ورسوله، وأطاع الله ورسوله.

ولما ذكر فضل الطاعة في الحكم خصوصاً، ذكر فضلها عموماً، في جميع الأحوال، فقال: ﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ فيصدق خبرهما ويمتثل أمرهما، ﴿ويخش الله﴾ أي: يخافه خوفاً مقروناً بمعرفة، فيترك ما نهى عنه، ويكف نفسه عما تهوى، ولهذا قال: ﴿ويتقه﴾ بترك المحظور، لأن التقوى - عند الإطلاق - يدخل فيها، فعل المأمور، وترك المنهي عنه، وعند اقترائها بالبر أو الطاعة - كما في هذا الموضع - تفسر بتوقي عذاب الله، بترك معاصيه، ﴿فأولئك﴾ الذين جمعوا بين طاعة الله وطاعة رسوله، وخشية الله وتقواه، ﴿هم الفائزون﴾ بنجاتهم من العذاب، لتركهم أسبابه، ووصولهم إلى الثواب، لفعلهم أسبابه، فالفوز محصور فيهم، وأما من لم يتصف بوصفهم، فإنه يفوته من الفوز بحسب ما قصر عنه من هذه الأوصاف الحميدة، واشتملت هذه الآية، على الحق المشترك بين الله وبين رسوله، وهو الطاعة المستلزمة للإيمان، والحق المختص بالله، وهو الخشية والتقوى،

حكومة، ودعوا إلى حكم الله ورسوله ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مَعْرُضُونَ﴾ يريدون أحكام الجاهلية، ويفضلون أحكام القوانين غير الشرعية على الأحكام الشرعية، لعلهم أن الحق عليهم، وأن الشرع لا يحكم إلا بما يطابق الواقع، ﴿وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه﴾ أي: إلى حكم الشرع ﴿مذعنين﴾ وليس ذلك لأجل أنه حكم شرعي، وإنما ذلك لأجل موافقة أهوائهم، فليسوا بمدوحين في هذه الحال، ولو أتوا إليه مذعنين، لأن العبد حقيقة، من يتبع الحق فيما يحب ويكره، وفيما يسره ويمحزنه، وأما الذي يتبع الشرع عند موافقة هواه، وينبذه عند مخالفته، ويقدم الهوى على الشرع، فليس بعبد على الحقيقة، قال الله في لومهم على الإعراض عن الحكم الشرعي: ﴿أففي قلوبهم مرض﴾ أي: علة، أخرجت القلب عن صحته وأزالت حاسته، فصار بمنزلة المريض، الذي يعرض عما ينفعه، ويقبل على ما يضره، ﴿أم ارتابوا﴾ أي: شكوا، وقلقت قلوبهم من حكم الله ورسوله، واهتموه أنه لا يحكم بالحق، ﴿أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله﴾ أي: يحكم عليهم حكماً ظالماً جائراً، وإنما هذا وصفهم ﴿بل أولئك هم الظالمون﴾.

وأما حكم الله ورسوله، ففي غاية العدالة والقسط، وموافقة الحكمة. ﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾. وفي هذه الآيات، دليل على أن الإيمان، ليس هو مجرد القول حتى يقترن به العمل، ولهذا نفى الإيمان عمن تولوا عن الطاعة، ووجوب الانقياد لحكم الله ورسوله في كل حال، وأن من ينقلد له دل على مرض في قلبه، وريب في إيمانه، وأنه يجرم إساءة الظن بأحكام الشريعة، وأن يظن بها خلاف العدل والحكمة.

ولما ذكر حالة المعرضين عن الحكم الشرعي، ذكر حالة المؤمنين المدوحين، فقال:

(١) في ب: كان حظهم وسعادتهم.

قولا وعملاً، فلا سبيل لكم إلى الهداية إلا بطاعته، وبدون ذلك، لا يمكن، بل هو محال.

﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ أي: تبليغكم البين الذي لا يَبْقَى لأحد شكاً ولا شبهة، وقد فعل ﷺ، بلغ البلاغ المبين، وإنما الذي يحاسبكم ويجازيكم هو الله تعالى، فالرسول ليس له من الأمر شيء، وقد قام بوظيفته.

﴿٥٥﴾ ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾ هذا من أو عاده^(١) الصادقة، التي شوهد تأويلها ومغيرها، فإنه وعد من قام بالإيمان والعمل الصالح من هذه الأمة، أن يستخلفهم في الأرض، يكونون هم الخلفاء فيها، المتصرفين في تدبيرها، وأنه يُمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وهو دين الإسلام، الذي فاق الأديان كلها، ارتضاه لهذه الأمة، لفضلها وشرفها ونعمته عليها، بأن يتمكنوا من إقامته، وإقامة شرائعه الظاهرة والباطنة، في أنفسهم وفي غيرهم، لكون غيرهم من أهل الأديان وسائر الكفار مغلوبين ذليلين، وأنه يبدلهم من بعد خوفهم الذي كان الواحد منهم لا يتمكن من إظهار دينه، وما هو عليه إلا بأذى كثير من الكفار، وكون جماعة المسلمين قليلين جداً بالنسبة إلى غيرهم، وقد رماهم أهل الأرض عن قوس واحدة، وبغوا لهم الغوائل.

فوعدهم الله هذه الأمور وقت نزول الآية، وهي لم تشهد الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والتمكين من إقامة الدين الإسلامي، والأمن التام، بحيث يعبدون الله ولا يشركون به شيئاً، ولا يخافون أحداً إلا الله، فقام صدر هذه

الأمة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم، فمكنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام، فهذا من آيات الله العجبية الباهرة، ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويُدبِلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح.

﴿ومن كفر بعد ذلك﴾ التمكن والسلطنة التامة لكم، يا معشر المسلمين، ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ الذين خرجوا عن طاعة الله، وفسدوا، فلم يصلحوا لصالح، ولم يكن فيهم أهلية للخير، لأن الذي يترك الإيمان في حال عزه وقهره، وعدم وجود الأسباب المانعة منه، يدل على فساد نيته، وخبت طويته، لأنه لا داعي له لترك الدين إلا ذلك. ودلت هذه الآية، أن الله قد مكن من قبلنا، واستخلفهم في الأرض، كما قال موسى لقومه: ﴿يستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون﴾ وقال تعالى: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين﴾ * ونمكن لهم في الأرض.

﴿٥٦ - ٥٧﴾ ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾ * لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض ومأواهم النار وللبئس المصير﴾ يأمر تعالى بإقامة الصلاة، بآركانها وشروطها وآدابها، ظاهراً وباطناً، وبإيتاء الزكاة من الأموال التي استخلف الله عليها العباد، وأعطاهم إياها، بأن يؤتوها الفقراء وغيرهم، ممن ذكرهم الله لمصرف الزكاة، فهذا أكبر الطاعات وأجلها، جامعتان لحقه وحق خلقه، للإخلاص للمعبود، وللإحسان إلى

العبيد، ثم عطف عليهما الأمر العام، فقال: ﴿وأطيعوا الرسول﴾ وذلك بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ ﴿لعلكم﴾ حين تقومون بذلك ﴿ترحمون﴾ فمن أراد الرحمة، فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول، فهو مُتَمَنٍّ كاذب، وقد منته نفسه الأمانى الكاذبة.

﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض﴾ فلا يغركم ما مُتَعَوَّ به في الحياة الدنيا، فإن الله، وإن أمهلهم فإنه لا يمهِّلهم ﴿نمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ﴾.

ولهذا قال هنا: ﴿ومأواهم النار وللبئس المصير﴾ أي: بشئ المآل، مآل الكافرين، مآل الشر والحسرة والعقوبة الأبدية.

﴿٥٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم﴾ أمر المؤمنين أن يستأذنهم ممالكهم، والذين لم يبلغوا الحلم منهم. قد ذكر الله حكمته وأنه ثلاث عورات للمستأذن عليهم، وقت نومهم بالليل بعد العشاء، وعند انتابهم قبل صلاة الفجر، فهذا - في الغالب - أن النائم يستعمل للنوم في الليل ثوباً غير ثوبه المعتاد، وأما نوم النهار، فلما كان في الغالب قليلاً، قد ينام فيه العبد بشيابه المعتادة، قيده بقوله: ﴿وحيث تضعون ثيابكم من الظهيرة﴾ أي: للقائلة، وسط النهار.

ففي ثلاثة هذه الأحوال، يكون المالك والأولاد الصغار كغيرهم، لا يُمكنون من الدخول إلا بإذن، وأما

بالمملوك، فليس بوجهه، لوجهين :

أحدهما : أن المملوك لا يقال فيه «ملكته مفاعحه»، بل يقال : «ما ملكتموه» أو «ما ملكت إيمانكم» لأنهم مالكون له جملة ، لا لمفاعحه فقط .

والثاني : أن بيوت الممالك، غير خارجة عن بيت الإنسان نفسه، لأن المملوك وما ملكه لسيده، فلا وجه لنفي الحرج عنه .

﴿أو صديقكم﴾ وهذا الحرج المنفي عن الأكل^(١)، من هذه البيوت كل ذلك، إذا كان بدون إذن، والحكمة فيه معلومة من السياق، فإن هؤلاء المسمين^(٢)، قد جرت العادة والعرف، بالمساحة في الأكل منها، لأجل القرابة القريبة، أو التصرف التام، أو الصداقة، فلو قُدر في أحد من هؤلاء عدم المساحة والشح في الأكل المذكور، لم يجز الأكل، ولم يرتفع الحرج، نظراً للحكمة والمعنى .

وقوله : ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً﴾ فكل ذلك جائز، أكل أهل البيت الواحد جميعاً، أو أكل كل واحد منهم وحده، وهذا نفى للحرج، لا نفى للفضيلة وإلا فالأفضل الاجتماع على الطعام .

﴿فإذا دخلتم بيوتا﴾ نكرة في سياق الشرط، يشمل بيت الإنسان وبيت غيره، سواء كان في البيت ساكن أم لا، فإذا دخلها الإنسان ﴿فسلموا على أنفسكم﴾ أي : فليسلم بعضكم على بعض، لأن المسلمين كأنهم شخص واحد، من تواددهم، وتراحمهم، وتعاطفهم، فالسلام مشروع لدخول سائر البيوت، من غير فرق بين بيت وبيت، والاستئذان تقدم أن فيه تفصيلاً في أحكامه، ثم مدح هذا السلام فقال : ﴿تحية من عند الله مباركة

أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاعحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون﴾ يخبر تعالى عن مثبته على عباده، وأنه لم يجعل عليهم في الدين من حرج بل يشره غاية التيسير، فقال :

﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ أي : ليس على هؤلاء جناح، في ترك الأمور الواجبة، التي تتوقف على واحد منها، وذلك كالجهاد ونحوه، مما يتوقف على بصر للأعمى، أو سلامة للأعرج، أو صحة للمريض، ولهذا المعنى العام الذي ذكرناه، أطلق الكلام في ذلك، ولم يقيد، كما قيد قوله : ﴿ولا على أنفسكم﴾ أي : حرج ﴿أن تأكلوا من بيوتكم﴾ أي : بيوت أولادكم، وهذا موافق للحديث الشابت : «أنت ومالك لأبيك»، والحديث الآخر : «إن أطيب ما أكلتم من كسبكم»، وإن أولادكم من كسبكم، وليس المراد من قوله : ﴿من بيوتكم﴾ بيت الإنسان نفسه، فإن هذا من باب تحصيل الحاصل، الذي ينزه عنه كلام الله، ولأنه نفى الحرج عما يظن أو يتوهم فيه الإثم من هؤلاء المذكورين، وأما بيت الإنسان نفسه فليس فيه أدنى توهم .

﴿أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم، أو بيوت إخوانكم، أو بيوت أخواتكم، أو بيوت أعمامكم، أو بيوت عماتكم، أو بيوت أخوالكم، أو بيوت خالاتكم﴾ وهؤلاء معروفون، ﴿أو ما ملكتم مفاعحه﴾ أي : البيوت التي أنتم متصرفون فيها بوكالة، أو ولاية ونحو ذلك، وأما تفسيرها



يجوز لمن أن يكشفن وجوههن لآمن المحذور منها وعليها، ولما كان نفى الحرج عنهن في وضع الثياب، ربما توهم منه جواز استعمالها لكل شيء، دفع هذا الاحتراز بقوله : ﴿غير متبرجات بزينة﴾ أي : غير مظهرات للناس زينة، من تجعل بثياب ظاهرة، وتستتر وجهها، ومن ضرب الأرض برجلها، ليعلم ما تخفي من زيتها، لأن مجرد الزينة على الأنثى، ولو مع تسترها، ولو كانت لا تشتهى يفتن فيها، ويوقع الناظر إليها في الحرج ﴿وأن يستعففن خير لهن﴾ . والاستعفاف : طلب العفة، بفعل الأسباب المقترضية لذلك، من تزوج وتزك لما يحشى منه الفتنة، ﴿والله سميع﴾ لجميع الأصوات ﴿عليم﴾ بالنيات والمقاصد، فليحذرن من كل قول وقصد فاسد، ويعلمن أن الله يجازي على ذلك .

﴿٦١﴾ ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت

(١) في ب : من .

(٢) مراد الشيخ - رحمه الله - فإن بيوت هؤلاء المسمين، كما يبدو - والله أعلم - .

طيبة ﴿أي: سلامكم بقولكم: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته» أو «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» إذ تدخلون البيوت، ﴿تحية من عند الله﴾ أي: قد شرعها لكم، وجعلها تحيتكم، ﴿مباركة﴾ لاشتغالها على السلامة من النقص، وحصول الرحمة والبركة والنماء والزيادة، ﴿طيبة﴾ لأنها من الكلم الطيب المحبوب عند الله، الذي فيه طيب نفس للمحيا، ومحبة وجلب مودة.

لما بين لنا هذه الأحكام الجليلة قال : ﴿كذلك يبين الله لكم الآيات﴾
الدالات على أحكامه الشرعية
وحكمها، ﴿لعلكم تعقلون﴾ عنه
فتفهمونها، وتعقلونها بقلوبكم،
ولتكونوا من أهل العقول والألباب
الرزينة، فإن معرفة أحكامه الشرعية
على وجهها، يزيد به العقل، وينمو به
اللب، لكون معانيها أجل المعاني،
وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزء من
جنس العمل، فكما استعمل عقله
للعقل عن ربه، وللتفكر في آياته التي
دعا إليها، زاده من ذلك .

وفي هذه الآيات دليل على قاعدة عامة كلية وهي: «أن العرف والعادة مخصص للألفاظ، كتخصيص اللفظ للفظ». فإن الأصل، أن الإنسان ممنوع من تناول طعام غيره، مع أن الله أباح الأكل من بيوت هؤلاء، للعرف والعادة، فكل مسألة تتوقف على الإذن من مالك الشيء، إذا علم إذنه بالقول أو العرف، جاز الإقدام عليه.

وفيها دليل على أن الأب يجوز له أن يأخذ ويتملك من مال ولده ما لا يضره، لأن الله سمى بيته بيتاً للإنسان.

وفيها دليل على أن المتصرف في بيت الإنسان، كزوجه، وأخته ونحوهما، يجوز لهما الأكل عادة، وإطعام السائل المعتاد.

وفيهما دليل ، على جواز المشاركة في الطعام ، سواء أكلوا مجتمعين ، أو

متفرقين، ولو أفضى ذلك إلى أن يأكل بعضهم أكثر من بعض.

﴿٦٢ - ٦٤﴾ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ وَدَعَاءَ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذٍ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * إِلَّا إِنْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ هذا إرشاد من الله لعباده المؤمنين، أنهم إذا كانوا مع الرسول ﷺ على أمر جامع، أي: من ضرورته أو من مصلحته، أن يكونوا فيه جميعاً، كالجهاد، والمشاورة، ونحو ذلك من الأمور التي يشترك فيها المؤمنون، فإن المصلحة تقتضي اجتماعهم عليه وعدم تفرقهم، فالؤمن بالله ورسوله حقاً، لا يذهب لأمر من الأمور، لا يرجع لأهله، ولا يذهب لبعض الخواص التي يشذ بها عنهم، إلا بإذن من الرسول أو نائبه من بعده، فجعل موجب الإيمان، عدم الذهاب إلا بإذن، ومدحهم على فعلهم هذا، وأدبهم مع رسوله وولي الأمر منهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ ولكن هل يأذن لهم أم لا؟ ذكر لإذنه لهم شرطين:

أحدهما: أن يكون لشأن من
شؤونهم، وشغل من أشغالهم، فأما
من يستأذن من غير عذر، فلا يؤذن له.

والثاني: أن يشاء الإذن له فتقتضيه المصلحة، من دون مضرة بالآذن، قال:

﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذْنِ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ فإذا كان له عذر واستأذن، فإن كان في قعوده وعدم

إِنَّمَا أَتُخَوِّفُهُمُ الْيَزِيدُ مَا سَأَلَ أَمَّا وَرَسُولُهُ وَادَّاعَا أَنَا
مَعَهُ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ لِي وَدَّعَهُ حَتَّى تَسْتَفْذِنُوا الْيَزِيدَ
تَسْتَفْذِنُوا أَوْلِيَاءَ الْيَزِيدِ يَخَوِّفُونَ بَأْسَهُ وَرَسُولَهُ فَإِنَّا
أَسْتَفْذِنُوا لِيَعْنِي شَاهِدَهُ فَإِنَّ لَنَا خِيَارَ دِينِهِمْ وَأَسْتَفْذِنُوا
لَهُمُ الْيَزِيدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ❶ ❷ ❸ ❹ ❺ ❻ ❼ ❽ ❾ ❿ ⓫ ⓬ ⓭ ⓮ ⓯ ⓰ ⓱ ⓲ ⓳ ⓴ ⓵ ⓶ ⓷ ⓸ ⓹ ⓺ ⓻ ⓼ ⓽ ⓾ ⓿
يَتَكَلَّمُ كَمَا دَعَا بِهِمْ كَمَا نَعَى عَنْهُمَا دَعَا إِلَهُ الْيَزِيدِ يَسْأَلُونَ
وَيَكْلُمُونَ دَاوُدَ الْيَزِيدِ يَخَافُونَ عَنْ أَمْرِهِمْ وَأَوْصِيَهُمْ
خَيْرَهُ أَوْصِيَهُمْ عَلَيْهِ أَلُمُ ❶ ❷ ❸ ❹ ❺ ❻ ❼ ❽ ❾ ❿ ⓫ ⓬ ⓭ ⓮ ⓯ ⓰ ⓱ ⓲ ⓳ ⓴ ⓵ ⓶ ⓷ ⓸ ⓹ ⓺ ⓻ ⓼ ⓽ ⓾ ⓿
الْمَسْكُونِ وَالْأَرْضِ دَعَا إِلَهُ مَا سَأَلَ عَلَيْهِ وَيَوْمَ تَرْجَعُونَ
إِلَيْهِ يَنْبَغِي لَهُمْ بِسَاءَ عَمَلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
تَبَارَكَ الَّذِي دَنَا إِلَهُ الْفَرَّقَانِ عَلَا عَمِدِهِ وَيَكُونُ لِلْعَالَمِينَ تَضَرُّعًا
وَالَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَهُ
يَكُونُ لَمْ يَشْرِكْ فِي الْمُلْكِ وَتَلَقَّى كُلُّ نَفْسٍ مَقْعَدَ تَحْوِيلِهَا

ذهابه مصلحةً برأيه، أو سجاسته،
رنحو ذلك، لم ياذن له، ومع هذا إذا
استأذن، وأذن له بشرطيه، أمر الله
رسوله أن يستغفر له، لما عسى أن
يكون مقصراً في الاستئذان، ولهذا
قال: ﴿واستغفر لهم الله إن الله غفور
رحيم﴾ يغفر لهم الذنوب ويرحمهم،
بأن جاز لهم الاستئذان مع العذر.

﴿لَا تَجْعَلُوا دَعَاءَ الرُّسُولِ بَيْنَكُمْ
كَدَعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ أي: لا تجعلوا
دعاء الرسول إياكم ودعائكم للرسول
كدعاء بعضكم بعضاً، فإذا دعاكم
فأجيبوه وجوباً، حتى إنه تجب إجابة
الرسول ﷺ في حال الصلاة، وليس
أحد إذا قال قولاً يجب على الأمة قبول
قوله والعمل به، إلا الرسول،
لعصمته، وكوننا خاطئين باتباعه، قال
تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ
وَلِلرُّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾
وكذلك لا تجعلوا دعاءكم للرسول

كدعاء بعضهم بعضاً، فلا تقولوا: «يا محمد» عند ندائكم، أو «يا أحمد بن عبد الله» كما يقول ذلك بعضهم لبعض، بل من شرفه وفضله وتمييزه ﷺ عن غيره، أن يقال: يا رسول الله، يا نبي الله.



ولما قيد علمه بأعمالهم، ذكر العموم بعد الخصوص، فقال: ﴿والله بكل شيء عليم﴾

تفسير سورة الفرقان وهي مكية عند الجمهور

﴿١-٢﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً * الذي له ملك السماوات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك وخلق كل شيء فقدره تقديراً * هذا بيان لعظمته الكاملة، وتفردِه [بالوحدانية] ^(١) من كل وجه، وكثرة خيراته وإحسانه، فقال: ﴿تبارك﴾ أي: تعظم، وكملت أوصافه، وكثرت خيراته، الذي من أعظم خيراته ونعمه، أن نزل هذا القرآن الفارق بين الحلال والحرام، والهدى والضلال، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، ﴿على عبده﴾ محمد ﷺ الذي كمل مراتب العبودية، وفاق جميع المرسلين، ﴿ليكون﴾ ذلك الإنزال للفرقان على عبده ﴿للعالمين نذيراً﴾ ينذرهم بأس الله ونقمه، ويبين لهم مواقع رضا الله من سخطه، حتى إن من قبل نذارته وعمل بها، كان من الناجين في الدنيا والآخرة، الذين حصلت لهم السعادة الأبدية، والملك السرمدى، فهل فوق هذه النعمة وهذا الفضل والإحسان شيء؟ فتبارك الذي هذا من بعض إحسانه وبركاته.

﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ أي: له التصرف فيها وحده، وجميع من فيها ممالك وعبيد له، مذعنون لعظمته، خاضعون لربوبيته، فقرأ إلى رحته، الذي ﴿لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك﴾ وكيف يكون له ولد أو شريك، وهو المالك، وغيره مملوك، وهو القاهر، وغيره مقهور، وهو الغني بذاته من جميع الوجوه، والمخلوقون مفتقرون إليه، فقرأ ذاتياً

من جميع الوجوه؟! وكيف يكون له شريك في الملك، ونواصي العباد كلهم بيديه، فلا يتحركون أو يسكنون، ولا يتصرفون إلا بإذنه، فتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فلم يقدره حق قدره من قال فيه ذلك، ولهذا قال: ﴿وخلق كل شيء﴾ شمل العالم العلوي، والعالم السفلي، من حيواناته، ونباتاته، وجماداته، ﴿فقدره تقديراً﴾ أي: أعطى كل مخلوق منها ما يليق به، ويناسبه من الخلق، وما تقتضيه حكمته من ذلك، بحيث صار كل مخلوق لا يتصور العقل الصحيح أن يكون بخلاف شكله وصورته المشاهدة، بل كل جزء وعضو من المخلوق الواحد، لا يناسبه غير عمله الذي هو فيه. قال تعالى: ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى * وقال تعالى: ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ ولما بين كماله وعظمته، وكثرة إحسانه، كان ذلك مقتضياً لأن يكون وحده المحبوب المألوه العظيم، المفرد بالإخلاص وحده، لا شريك له ناسب أن يذكر بطلان عبادة ما سواه، فقال:

﴿٣﴾ ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ضُرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾. أي: من أعجب العجائب، وأدل الدليل على سفاهتهم، ونقص عقولهم، بل أدل على ظلمهم وجراءتهم على ربهم، أن اتخذوا آلهة بهذه الصفة، في كمال العجز، أنها لا تقدر على خلق شيء، بل هم مخلوقون، بل بعضهم مما عملته أيديهم. ﴿ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً﴾ أي: لا قليلاً ولا كثيراً، لأنه نكرة في سياق النفي.

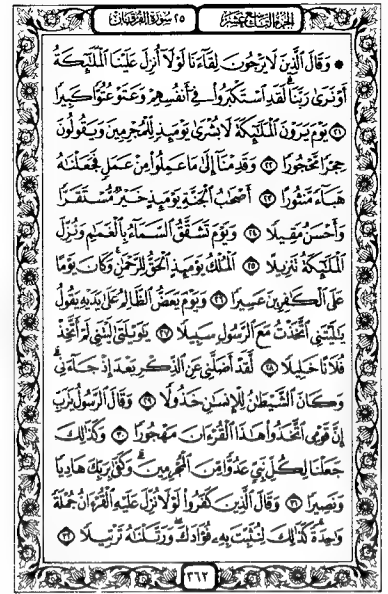
﴿ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نُشُوراً﴾ أي: بعثاً بعد الموت، فأعظم أحكام العقل بطلان إلهيتها، وفسادها وفساد عقل من اتخذها آلهة وشركاء

يفعل ذلك وذهب من غير استئذان، فهو وإن خفي عليكم بذهابه على وجه خفي، وهو المراد بقوله: ﴿يتسللون منكم لواذاً﴾ أي: يلدزون وقت تسللهم وانطلاقهم بشيء يحجبهم عن العيون، فالله يعلمهم، وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء، ولهذا توعدهم بقوله: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾ أي: يذهبون إلى بعض شؤونهم عن أمر الله ورسوله، فكيف بمن لم يذهب إلى شأن من شؤونهم؟! وإنما ترك أمر الله من دون شغل له.

﴿أن تصيبهم فتنة﴾ أي: شرك وشر ﴿أو يصيبهم عذاب أليم﴾.

﴿إلا إن الله ما في السماوات والأرض﴾ ملكاً وعبداً، يتصرف فيهم بحكمه القدري، وحكمه الشرعي. ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ أي: قد أحاط علمه بما أنتم عليه، من خير وشر، وعلم جميع أعمالكم، أحصاها علمه، وجرى بها قلمه، وكتبها عليكم الحفظة الكرام الكاتبون.

﴿ويوم يرجعون إليه﴾ في يوم القيامة ﴿فينبئهم بما عملوا﴾ يخبرهم بجميع أعمالهم، دقيقها وجليلها، إخباراً مطابقاً لما وقع منهم، ويستشهد عليهم أعضاءهم، فلا يعدمون منه فضلاً أو عدلاً.



مسحوراً.

﴿فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾
قالوا أقوالاً متناقضة، كلها جهل وضلال وسفه، ليس في شيء منها هداية، بل ولا في شيء منها أدنى شبهة تقدر في الرسالة، فبمجرد النظر إليها وتصورها، يجزم العاقل ببطلانها، ويكفيه عن ردها، ولهذا أمر تعالى بالنظر إليها وتدبرها، والنظر: هل توجب التوقف عن الحزم للرسول بالرسالة والصدق؟ ولهذا أخبر أنه قادر على أن يعطيك خيراً كثيراً في الدنيا فقال: ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ أي: خيراً مما قالوا، ثم فسره بقوله: ﴿جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً﴾ مرتفعة مزخرفة، فقدرته ومشيئته، لا تقصر عن ذلك، ولكنه تعالى - لما كانت الدنيا عنده في غاية البعد والحقارة - أعطى منها أولياءه ورسله، ما اقتضته حكمته منها، واقتراح أعدائهم بأنهم، هلا رزقوا منها رزقاً كثيراً جداً، ظلم وجراة.

ولما كانت تلك الأقوال التي قالوها معلومة الفساد، أخبر تعالى أنها لم تصدر منهم لطلب الحق، ولا لاتباع البرهان، وإنما صدرت منهم تعنتاً وظلماً، وتكذيباً بالحق، فقالوا ما بقلوبهم من ذلك، ولهذا قال: ﴿بل كذبوا بالساعة﴾ والمكذب المتعنت، الذي ليس له قصد في اتباع الحق، لا سبيل إلى هدايته، ولا حيلة في مجادلته، وإنما له حيلة واحدة، وهي نزول العذاب به، فلماذا قال: ﴿واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً﴾ أي: ناراً عظيمة، قد اشتد سعيرها، وتغيظت على أهلها، واشتد زفيرها. ﴿إذا رأتهم من مكان بعيد﴾ أي: قبل وصولهم ووصولها إليهم، ﴿سمعوا لها نغيظاً﴾ عليهم ﴿وزفيراً﴾ تقلق منه الأفئدة، وتتصدع القلوب، ويكاد الواحد منهم يموت خوفاً منها وذعراً، قد غضبت عليهم لغضب خالقها، وقد زاد لهم لزيادة كفرهم وشركهم. ﴿وإذا القوا منها مكاناً ضيقاً

مقرنين﴾ أي: عذابهم، وهم في وسطها، جمع في مكان بين ضيق المكان، وتزاحم السكان، وتقربهم بالسلاسل والأغلال، فإذا وصلوا لذلك المكان النحس، وحسبوا في أثر حبس ﴿دعوا هنالك ثبوراً﴾ دعوا على أنفسهم بالثبور والخزي والفضيحة، وعلموا أنهم ظالمون معتدون، قد عدل فيهم الخالق، حيث أنزلهم بأعمالهم هذا المنزل، وليس ذلك الدعاء والاستغاثة بنافعة لهم، ولا مغنية من عذاب الله، بل يقال لهم: ﴿لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾ أي: لو زاد ما قلتم أضعاف أضعافه، ما أفادكم إلا الهم والغم والحزن.

لما بين جزاء الظالمين، ناسب أن يذكر جزاء المتقين فقال:

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً﴾ لهم فيها ما يشاؤون خالدين كان على ربك وعداً مسؤولاً.

أي: قل لهم - مبيناً لسفاهة رأيهم، واختيارهم الضار على النافع -: ﴿أذلك﴾ الذي وصفت لكم من العذاب ﴿خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون﴾ التي زادها تقوى الله، فمن قام بالتقوى، فالله قد وعده إياها، ﴿كانت لهم جزاء﴾ على تقواهم ﴿ومصيراً﴾ موثلاً يرجعون إليها، ويستقرون فيها، ويخلدون دائماً أبداً.

﴿لهم فيها ما يشاؤون﴾ أي: يطلبون، وتتعلق بهم أمانتهم ومشيئتهم، من الطعام، والشارب اللذيذة، والملابس الفاخرة، والنساء الجميلات، والقصور العاليات، والجنات، والحداثق المرجحنة، والفواكه التي تسر ناظرها وأكلها، من حسناتها وتنوعها، وكثرة أصنافها، والأنهار التي تجري في رياض الجنة وساتينها، حيث شاؤوا يصرفونها، ويفجرونها أنهاراً من ماء غير آسن، وأنهاراً من لبن لم يتغير طعمه، وأنهاراً من خمر لذة للشاربين، وأنهاراً من عسل مصفى، وروائح طيبة، ومسكن

واستهزاء. ﴿ياكل الطعام﴾ وهذا من خصائص البشر، فهلا كان ملكاً لا يأكل الطعام، ولا يحتاج إلى ما يحتاج إليه البشر، ﴿ويمشي في الأسواق﴾ للبيع والشراء، وهذا - بزعمهم - لا يليق بمن يكون رسولاً، مع أن الله قال: ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾.

﴿لولا أنزل إليه ملك﴾ أي: هلا أنزل معه ملك يساعده ويعاونه، ﴿فيكون معه نذيراً﴾ ويزعمهم أنه غير كاف للرسالة، ولا بطوقه وقدرته القيام بها.

﴿أو يلقى إليه كنز﴾ أي: مال مجموع من غير تعب، ﴿أو تكون له جنة يأكل منها﴾ فيستغني بذلك عن منيه في الأسواق لطلب الرزق.

﴿وقال الظالمون﴾ حملهم على القول، ظلمهم لا اشتباه منهم، ﴿إن تبعون إلا رجالاً مسحوراً﴾ هذا، وقد علموا كمال عقله، وحسن حديثه، وسلامته من جميع المطاعن. ولما كانت هذه الأقوال منهم، عجيبة جداً، قال تعالى: ﴿انظر كيف ضربوا لك الأمثال﴾ وهي: أنه هلاً كان ملكاً، وزالت عنه خصائص البشر؟ أو معه ملك، لأنه غير قادر على ما قال، أو أنزل عليه كنز، أو جعلت له جنة تغنيه عن المشي في الأسواق، أو أنه كان

مزخرفة، وأصوات شجية، تأخذ من حسننها بالقلوب، ومزاورة الإخوان، والتمتع بلقاء الأحباب، وأعلى من ذلك كله، التمتع بالنظر إلى وجه الرب الرحيم، وسماع كلامه، والخطوة بقربه، والسعادة برضاه، والأمن من سخطه، واستمرار هذا النعيم ودوامه، وزيادته على عمر الأوقات، وتعاقب الآتات ﴿كان﴾ دخولها والوصول إليها ﴿على ربك وعداً مسؤولاً﴾ يسأله إياها، عباده المتقون بلسان حالهم، ولسان مقالهم، فأى: السدائين المذكورتين خير وأولى بالإيثار؟ وأي: العاملين، عمال دار الشقاء، أو عمال دار السعادة، أولى بالفضل والعقل والفخر، يا أولى الألباب؟

لقد وضع الحق، واستار السبيل، فلم يبق للمفرط عذر في تركه الدليل، فنرجوكم يا من قضيت على أقوام بالشقاء، وأقوام بالسعادة، أن تجعلنا ممن كتبت لهم الحسنى وزيادة، ونستغيث بك اللهم من حالة الأشقياء، ونسألك المعافاة منها.

﴿١٧ - ٢٠﴾ ﴿ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾ قالوا سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوماً بوراً ﴿فقد كذبوك بما تقولون فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً﴾ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيراً ﴿يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركاتهم يوم القيامة، وتبريهم منهم، وبطلان سعيهم، فقال: ﴿ويوم يحشرهم﴾ أي: المكذبين المشركين ﴿وما يعبدون من دون الله فيقول﴾ الله خاطباً للمعبودين على وجه التقريع لمن عبيدهم: ﴿أنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا

السبيل﴾ هل أمرتهم بعبادتهم، وزينت لهم ذلك، أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟

﴿قالوا سبحانه﴾ نزهوا الله عن شرك المشركين به، وبرؤوا أنفسهم من ذلك، ﴿ما كان ينبغي لنا﴾ أي: لا يليق بنا، ولا يحسن منا، أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم، ونعبدهم وندعوه، فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك، متبرئين من عبادة غيرك، فكيف نأمر أحداً بعبادتنا؟ هذا لا يكون. أو، سبحانه عن ﴿أن نتخذ من دونك من أولياء﴾ وهذا كقول المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام: ﴿وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب﴾ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم الآية.

وقال تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ قالوا سبحانه أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ فلما نزهوا أنفسهم، أن يدعوا لعبادة غير الله، أو يكونوا أضلواهم، ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين فقالوا: ﴿ولكن متعتهم وآباءهم﴾ في لذات الدنيا وشهواتها، ومطالبتها النفسية، ﴿حتى نسوا الذكر﴾ اشتغلاً في لذات الدنيا، واكباباً على شهواتها، فحافظوا على دنياهم، وضيعوا دينهم ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ أي: بائرين لا خير فيهم، ولا يصلحون لصلاح، لا يصلحون إلا للهلاك والوبار، فذكروا المانع من اتباعهم الهدى، وهو التمتع في الدنيا، الذي صرفهم عن الهدى، وعدم المقتضى للهدى، وهو:

أنهم لا خير فيهم، فإذا عدم المقتضى، ووجد المانع، فلا تشاء من شر وهلاك، إلا وجدته فيهم، فلما تبرؤوا منهم، قال الله توبيحاً وتقريعاً للعابدين^(١): ﴿فقد كذبوك بما تقولون﴾ إنهم أمروكم بعبادتهم، ورضوا فعلكم، وأنهم شفعاء لكم عند ربكم، كذبوكم في ذلك الزعم، وصاروا من أكبر أعدائكم، فحق عليكم العذاب، ﴿فما تستطيعون صرفاً﴾ للعذاب عنكم بفعلكم، أو بفداء، أو غير ذلك، ﴿ولا نصراً﴾ لعجزكم، وعدم ناصركم. هذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين، كما رأيت، أسوأ حكم، وأشر مصير.

وأما المعاند منهم، الذي عرف الحق وصدف عنه، فقال في حقه: ﴿ومن يظلم منكم﴾ بترك الحق ظلماً وعناداً، ﴿نذقه عذاباً كبيراً﴾ لا يقادر قدره، ولا يبلغ أمره.

ثم قال تعالى جواباً لقول المكذبين: ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ فما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام، وما جعلناهم ملائكة، فلك فيهم أسوة. وأما الغنى والفقر، فهو فتنة، وحكمة من الله تعالى، كما قال: ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة﴾ الرسول فتنة للمرسل إليهم، واختبار للمطيعين من العاصين^(٢)، والرسول فتنهم بدعوة الخلق، والغنى فتنة للفقير، والفقير فتنة للغني، وهكذا سائر أصناف الخلق في هذه الدار، دار الفتن والابتلاء والاختبار.

والقصد من تلك الفتنة ﴿أتصبرون﴾ فتقومون بما هو وظيفتكم اللازمة الراتب، فيثيبكم مولاكم^(٣)، أم لا تصبرون فتستحقون العقوبة؟

﴿وكان ربك بصيراً﴾ يعلم أحوالكم، ويصطفى من يعلمه يصلح

منه شيء، لأنه لا خير في مقيل أهل النار ومستقرهم، كقوله: ﴿أَلله خير أما يشركون﴾.

﴿٢٥ - ٢٩﴾ * ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً * الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً * ويوم بعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً * يا ويلتي ليتني لم أنخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً * يخبر تعالى عن عظمة يوم القيامة، وما فيه من الشدة والكروب، ومزعجات القلوب فقال: ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام﴾ وذلك الغمام الذي ينزل الله فيه، ينزل من فوق السماوات، فتتفطر له السماوات وتشقق، وتنزل الملائكة كل سماء فيقفون صفّاً صفّاً، إما صفّاً واحداً محيطاً بالخالق، وإما كل سماء، يكونون صفّاً، ثم السماء التي تليها صفّاً، وهكذا.

القصد أن الملائكة - على كثرتهم وقوتهم - ينزلون محيطين بالخالق، مذعنين لأمر ربهم، لا يتكلم منهم أحد إلا بإذن من الله، فما ظنك بالأدمي الضعيف، خصوصاً الذي بارز ماله بالضعف، وأقدم على مساخطه، ثم قدم عليه بذنوب وخطايا لم يتب منها، فيحكم فيه الملك الحق بالحكم الذي لا يجوز، ولا يظلم مثقال ذرة، ولهذا قال: ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ لصعوبته الشديدة، وتعسر أموره عليه، بخلاف المؤمن، فإنه يسير عليه، خفيف الحمل.

﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً.

وقوله: ﴿الملك يومئذ﴾ أي: يوم القيامة ﴿الحق للرحمن﴾ لا يبقى لأحد من المخلوقين، مُلكٌ ولا صورة مُلكٍ، كما كانوا في الدنيا، بل قد تساوت الملوك ورعاياهم، والأحرار والعبيد، والأشراف وغيرهم، ومما يرتاح له القلب، وتطمئن به النفس، وينشرح له

الموت، إذا تنزلت عليهم الملائكة، قال الله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم اليوم تحزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون﴾. ثم في القبر، حين يأتيهم منكر ونكير، فيسألهم عن ربهم ونبیهم ودينهم، فلا يجيبون جواباً ينجيهم، فيحلون بهم النعمة، وتزول عنهم بهم الرحمة، ثم يوم القيامة، حين تسوقهم الملائكة إلى النار، ثم يسلمونهم لخزنة جهنم، الذين يتولون عذابهم، ويباشرون عقابهم، فهذا الذي اقترحوه، وهذا الذي طلبوه، إن استمروا على إجرامهم لا بد أن يروه ويلقوه، وحينئذ يتعدون من الملائكة، ويفرون، ولكن لا مفر لهم.

﴿ويقولون حجراً محجوراً﴾ * يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذوا إلا بسلطان.

﴿وقدما إلى ما عملوا من عمل﴾ أي: أعمالهم التي رجوا أن تكون خيراً وتعبوا فيها، ﴿فجعلناه هباء منثوراً﴾ أي: باطلاً مضمحلاً، قد خسروه وحرموا أجره، وعوقبوا عليه، وذلك لفساده الإيمان، وصدوره عن مكذب لله ورسله، فالعمل الذي يقبله الله، ما صدر عن المؤمن المخلص، المصدق للرسول، المتبع لهم فيه.

﴿٢٤﴾ * أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً وأحسن مقيلاً * أي: في ذلك اليوم الهائل، كثير البلبال * أصحاب الجنة الذين آمنوا بالله، وعملوا صالحاً، واتفقوا ربهم * خير مستقراً * من أهل النار * وأحسن مقيلاً * أي: مستقرهم في الجنة، وراحتهم التي هي القيلولة، هو المستقر النافع، والراحة التامة، لاشتغال ذلك على تمام النعيم، الذي لا يشوبه كدر، بخلاف أصحاب النار، فإن جهنم ساءت مستقراً ومقيلاً وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل، فيما ليس في الطرف الآخر

لرسالته، ويختصه بتفضيله، ويعلم أعمالكم فيجازيكم عليها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

﴿٢١ - ٢٣﴾ * وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً * يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجراً محجوراً * وقدما إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً * أي: قال المكذبون للرسول، المكذبون بوعده الله ووعيده، الذين ليس في قلوبهم خوف الوعيد، ولا رجاء لقاء الخالق.

﴿لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا﴾ أي: هلا نزلت الملائكة، تشهد لك بالرسالة، وتؤيدك عليها، أو تنزل رسلاً مستقلين، أو نرى ربنا فيكلمنا، ويقول: هذا رسولي فاتبعوه؟ وهذا معارضة للرسول بما ليس بمعارض، بل بالتكبر والعلو والعتو.

﴿لقد استكبروا في أنفسهم﴾ حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وتجروؤوا هذه الجراءة، فمن أنتم يا فقراء، ويا مساكين، حتى تطلبوا رؤية الله، وتزعمو أن الرسالة متوقف ثبوتها على ذلك؟ وأي: كبر أعظم من هذا؟

﴿وعتوا عتواً كبيراً﴾ أي: قسوا وصلبوا عن الحق قساوة عظيمة، فقلوبهم أشد من الأحجار، وأصلب من الحديد، لا تلين للحق، ولا تصني للناصحين، فلذلك لم ينجح فيهم وعظ ولا تذكير، ولا اتبعوا الحق حين جاءهم النذير، بل قابلوا أصدق الخلق وأنصحهم، وآيات الله البيّنات، بالإعراض والتكذيب والمعارضة، فأى: عتو أكبر من هذا العتو؟! ولذلك، بطلت أعمالهم واضمحلت، وخسروا أشد الخسران، وحرّموا غاية الحرمان.

﴿يوم يرون الملائكة﴾ التي اقترحوا نزولها ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ وذلك أنهم لا يرونها، مع استمرارهم على جرهم وعنادهم، إلا لعقوبتهم، وحلول البأس بهم، فأول ذلك عند

أضل سبيلاً^(١) أي: وإذا رآك يا محمد، هؤلاء المكذبون لك، المعاندون لآيات [الله]^(٢)، المستكبرون في الأرض، استهزؤوا بك واحتقروك، وقالوا - على وجه الاحتقار والاستصغار -: ﴿أهذا الذي بعث الله رسولا﴾ أي: غير مناسب ولا لائق، أن يبعث الله هذا الرجل، وهذا من شدة ظلمهم وعنادهم، وقلوبهم الحقائق، فإن كلامهم هذا يفهم أن الرسول - حاشاه - في غاية الخسة والحقارة، وأنه لو كانت الرسالة لغيره، لكان أنسب.

﴿وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ فهذا الكلام، لا يصدر إلا من أجهل الناس وأضلهم، أو من أعظمهم عناداً، وهو متجاهل، قصده ترويح ما معه من الباطل بالقدح بالحق وبمن جاء به، وإلا فمن تدبر أحوال محمد بن عبد الله ﷺ، وجده رجل العالم وهامهم، ومقدمهم في العقل، والعلم، واللب، والرزانة، ومكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، والعفة، والشجاعة، والكرم، وكل خُلُقي فاضل، وأن المحقر له، والشأنى له، قد جُمع من السفه والجهل، والضلال، والتناقض، والظلم، والعدوان، ما لا يجمعه غيره، وحسبه جهلاً وضللاً، أن يقدح بهذا الرسول العظيم، والهمام الكريم.

والقصد من قديمهم فيه واستهزأهم به، تصلبهم على باطلهم، وغرورا لضعفاء العقول^(٢)، ولهذا قالوا: ﴿إِنْ كَادَ﴾ هذا الرجل ﴿لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا﴾ بأن يجعل الآلهة إلهاً واحداً ﴿لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ لأضلنا، زعموا - قبحهم الله - أن الضلال هو التوحيد، وأن الهدى ما هم عليه من الشرك، فلماذا تواصل بالصبر عليه. ﴿وَإِنْ طَلَّقَ الْمَلَائِكَةُ أَنْ أَمْسُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ﴾.

وهنا قالوا: ﴿لولا أن صبرنا

الدنيا إلى الصراط المستقيم، وفي الآخرة إلى الوصول إلى جنات النعيم.

﴿٣٥ - ٤٠﴾ ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً * فقلنا اذهب إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً * وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً * وعاداً وثمود وأصحاب الرّس وقروناً بين ذلك كثيراً * وكلا ضربنا له الأمثال وكلا تبرنا تتبيراً * ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشوراً ﴿٤٠﴾ أشار تعالى إلى هذه القصص، وقد بسطها في آيات أخر، ليُحذّر المخاطبين من استمرارهم على تكذيب رسولهم، فيصيبهم ما أصاب هؤلاء الأمم الذين قربا منهم، ويعرفون قصصهم بما استفادوا واشتغلوا عنهم.

ومنهم من يرون آثارهم عياناً،
يقوم صالح في الحجر، وكالقرية التي
أنططرت مطر السوء، بحجارة من
سجيل، يمرّون عليهم مصبحين،
وبالليل في أسفارهم، فإن أولئك
الأمم ليسوا شراً منهم، ورسلم ليسوا
خيراً من رسول هؤلاء ﴿كفاركم خير
من أولئكم أم لكم براءة في الزبر﴾
ولكن الذي منع هؤلاء من الإيمان -
مع ما شاهدوا من الآيات - أنهم كانوا
لا يرجون بعثاً ولا نشوراً، فلا يرجون
لقاء ربهم، ولا يخشون نكاله، لذلك
استمروا على عنادهم، وإلا فقد جاءهم
من الآيات، ما لا يبقى معه شك ولا
شبهة، ولا إشكال، ولا ارتياب.

﴿٤١ - ٤٤﴾ ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن تَخْذَلْنِكَ إِلَّا هَزُوا أَعْذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا * إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنَّ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ رَوْنِ الْعَذَابِ مِنْ أَضَلِّ سَبِيلًا * أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ كَيْلًا * أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ وَيَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ

اَنْتَحَسِبُ اَنْ اَكْفُرَ مِنْكُمْ بِسَمْعِكُمْ اَوْ بَعْوِكُمْ اِنْ هُمْ
 اِلَّا اَكْفَرُ اَلَمْ تَعْلَمُوْهُ اَمَلٌ سَيِّئًا ۝ اَوْتَرَكُوا اِلٰهَ رَبِّكَ
 كَيْفَ مَذْكُوْلًا ۝ وَلَوْ كُنْتُمْ اَعْلَمُوْهُ سَاكِتًا ۝ وَجَعَلْنَا الْقُلُوْبَ
 عَلَيْهِمْ ذُلًا ۝ وَفُتِنَتْ اَيْمَانُ اَقْبَاصِ اِيْمَانٍ ۝ وَهُوَ الَّذِي
 جَعَلَ لَكُمْ اَنْتَ اَبْلُ اِيْمَانًا وَالْقَوْمَ سَوَاءً وَجَعَلَ الْفُتُوْرَ
 ۝ وَهُوَ الَّذِي اَوْسَلَ الرِّجْمَ لِبَنِي اِيْمَانٍ ۝ وَتَحْمِيْمًا ۝ وَتَرَكَا
 مِنَ السَّكَنَةِ مَا ظَهَرُوا ۝ اَلَيْسَ مِنْ بَلَدٍ شَيْءٌ اَوْ شَقِيْعَةٌ
 مَّا سَلَفَتْ اَلْعَمَاءُ اَوَّاسٌ كَثِيْرًا ۝ وَلَقَدْ عَزَمْتَ بَيْنَهُمْ
 اِيْدًا ۝ فَاقْبَرُ اَكْفَرُ اَلْاَكْفَرِيْنَ ۝ وَلَوْ لَبِثْنَا
 اَلْحَيٰثَةَ اِنْ كُنَّا قَبِيْرًا ۝ فَلَا طَافَ الْكُفُوْرَ وَتَحْمِيْمًا
 بِهِ جَعَلْنَا كَثِيْرًا ۝ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَّ الْغَوِيْنَ فَلَكَ عِلْمٌ
 فَارَاتُ وَهَكَذَا يَلْمُ الْاَسْحَابَ وَجَعَلَ بَيْنَهُمْ رُبْعًا وَجَعَلَا
 عَصُوْرًا ۝ وَهُوَ الَّذِي عَلَّقَ مِنْ اَلَكَّةِ بِشَرِّ جَعَلَهُ سَبَا
 وَصِيْرًا ۝ وَكَانَ رَيْكٌ قَبِيْرًا ۝ وَتَحْمِيْمًا ۝ وَتَحْمِيْمًا ۝ وَتَحْمِيْمًا ۝
 مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا ضَرُّهُ ۝ وَكَانَ الْكُفُوْرَ عَلَّ اَيُّهُ ظَهَرُوا ۝

ومعلم، وواعظ، أن يقتدي بربه في تدبيره حال رسوله، كذلك العالم، يدبر أمر الخلق فكلما حدث موجب، أو حصل موسم، أتى بما يناسب ذلك من الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والمواظم الموافقة لذلك.

وفيه رد على المتكلمين، من الجهمية
 ونحوهم، ممن يرى أن كثيراً من
 نصوص القرآن محمولة على غير
 ظاهرها، ولها معان غير ما يفهم منها،
 فإذا - على قولهم - لا يكون القرآن
 أحسن تفسيراً من غيره، وإنما التفسير
 الأحسن - على زعمهم - تفسيرهم
 الذي حرفوا له المعاني تحريفاً.

﴿٣٤﴾ الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً ﴿٣٥﴾ يخبر تعالى عن حال المشركين الذين كذبوا رسوله، وسوء مآلهم، وأنهم يحشرون على وجوههم ﴿٣٦﴾ أشنع مرأى، وأفظع منظر، تسحبهم ملائكة العذاب ويجرونهم إلى جهنم ﴿٣٧﴾ الجامعة لكل عذاب وعقوبة. ﴿٣٨﴾ أولئك الذين بهذه الحالة ﴿٣٩﴾ شر مكاناً ﴿٤٠﴾ ممن آمن بالله وصدق رسله، ﴿٤١﴾ وأضل سبيلاً ﴿٤٢﴾ وهذا من باب استعمال أفعول التفضيل، فيما ليس في الطرف الآخر منه شيء، فإن المؤمنين حسن مكانهم ومستقرهم، واهتدوا في



الحق، وعبادة غيره باطلة، لقوله:

﴿٥٥﴾ *ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً* أي: يعبدون أصناماً وأموالاً، لا تضر ولا تنفع، ويجعلونها أنداداً للمالك النفع والضرر والعطاء والمنع، مع أن الواجب عليهم، أن يكونوا مقتدين بإرشادات ربهم، ذابنين عن دينه، ولكنهم عكسوا القضية.

﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ فالباطل الذي هو الأوثان والأنداد، أعداء الله، فالكافر عاونها وظهرها على ربها، وصار عدواً لربه، مبارزاً له في العداوة والحرب، هذا، وهو الذي خلقه ورزقه، وأنعم عليه بالنعم الظاهرة والباطنة، وليس يخرج عن ملكه وسلطانه وقبضته، والله لم يقطع عنه إحسانه وبره، وهو - بجهله - مستمر على هذه المعادة والمبارزة.

﴿٥٦ - ٦٠﴾ *وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً* قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً * وتوكل على الحي الذي لا يموت وسبح بحمده وكفى به

بذنوب عباده خبيراً * الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيراً * وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً * يخبر تعالى: أنه ما أرسل رسوله محمداً ﷺ، مسيطراً على الخلق، ولا جعله ملكاً، ولا عنده خزائن الأشياء، وإنما أرسله مبشراً يشر من أطاع الله، بالثواب العاجل والآجل * ونذيراً ينذر من عصى الله، بالعقاب العاجل والآجل، وذلك مستلزم لتبيين ما به البشارة، وما تحصل به النذارة، من الأوامر والنواهي، وإنك - يا محمد - لا تسألهم على إبلاغهم القرآن والهدى أجراً، حتى يمنعم ذلك من اتباعك، ويتكفلون من الغرامة. * إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً * أي: إلا من شاء، أن ينفق نفقة في مرضاة ربه وسيله، فهذا وإن رغبتكم فيه، فلست

أجبركم عليه، وليس أيضاً أجراً لي عليكم، وإنما هو راجع لمصلحتكم، وسلوكم للسبيل الموصلة إلى ربكم، ثم أمره أن يتوكل عليه ويستعين به، فقال: ﴿وتوكل على الحي الذي له الحياة الكاملة المطلقة﴾ الذي لا يموت وسبح بحمده * أي: اعبدوه وتوكل عليه في الأمور المتعلقة بك والمتعلقة بالخلق. * وكفى به بذنوب عباده خبيراً يعلمها، ويجازي عليها، فأنت ليس عليك من هدام شيء، وليس عليك حفظ أعمالهم، وإنما ذلك كله، بيد الله * الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى بعد ذلك * على العرش الذي هو سقف المخلوقات، وأعلاها، وأوسعها، وأجلها. * الرحمن استوى على عرشه، الذي وسع السماوات والأرض باسمه الرحمن، الذي وسعت رحمته كل شيء فاستوى على أوسع المخلوقات، بأوسع الصفات. فأنبت هذه الآية، خلقه للمخلوقات، وإطلاعه على ظاهرهم وباطنهم، وعلوه فوق العرش، ومباينته إياهم.

﴿فاسأل به خبيراً﴾ يعني بذلك نفسه الكريمة، فهو الذي يعلم أوصافه وعظمته وجلاله، وقد أخبركم بذلك، وأبان لكم من عظمته، ما تسعدون به من معرفته، فعرفه العارفون، وخضعوا لجلاله، واستكبر عن عبادته الكافرون، واستنكفوا عن ذلك، ولهذا قال: ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن﴾ أي: وحده، الذي أنعم عليكم بسائر النعم، ودفع عنكم جميع النقم. ﴿قالوا﴾ جحداً وكفراً: ﴿وما الرحمن﴾ بزعمهم الفاسد، أنهم لا يعرفون الرحمن، وجعلوا من جملة قوادحهم في الرسول، أن قالوا: ينهانا عن اتخاذ آلهة مع الله، وهو يدعو معه إليها آخر، يقول: «يا رحمن» ونحو ذلك، كما قال تعالى: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياً ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ فأسماؤه تعالى كثيرة، لكثرة أوصافه، وتعدد كماله،

به، بل ابذل جهدك في تبليغ ما أرسلت به. * وجاهدهم بالقرآن جهاداً كبيراً * أي: لا تبغ من مجهودك في نصر الحق وقمع الباطل، إلا بذلته، ولو رأيت منهم من التكذيب والجراءة ما رأيت، فابذل جهدك، واستفرغ وسعك، ولا تياس من هدايتهم، ولا تترك إبلاغهم لأهوائهم.

﴿٥٣﴾ *وهو الذي مرج البحرين جعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً* أي: وهو وحده الذي مرج البحرين يلتقيان، البحر العذب، وهي الأنهار السارحة على وجه الأرض، والبحر الملح، وجعل منفعة كل واحد منهما مصلحة للعباد، * وجعل بينهما برزخاً * أي: حاجزاً يمحز من اختلاط أحدهما بآخر، فتذهب المنفعة المقصودة منهما * وحجراً محجوراً * أي: حاجزاً حصيناً.

﴿٥٤﴾ *وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً* أي: وهو الله وحده لا شريك له، الذي خلق آدمي، من ماء مهين، ثم نشر منه ذرية كثيرة، وجعلهم أنساباً وأصهاراً، متفرقين ومجتمعين، والمادة كلها من ذلك الماء المهيّن، فهذا يدل على كمال اقتداره، لقوله: * وكان ربك قديراً * ويدل على أن عبادته هي

فكل واحد منها، دل على صفة كمال .
﴿أنسجد لما تأمرنا﴾ أي : لمجرد أمرك إيانا . وهذا مبني منهم على التكذيب بالرسول ، واستكبارهم عن طاعته ، ﴿وزادهم﴾ دعوتهم إلى السجود للرحمن ﴿نفورا﴾ هرباً من الحق إلى الباطل ، وزيادة كفر وشقاء .

﴿٦١ - ٦٢﴾ ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾ * وهو الذي جعل الليل والنهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً ﴿كرر تعالى في هذه السورة الكريمة قوله : ﴿تبارك﴾ ثلاث مرات ، لأن معناها كما تقدم ، أنها تدل على عظمة الباري ، وكثرة أوصافه ، وكثرة خيرات وإحسانه . وهذه السورة ، فيها من الاستدلال على عظمته ، وسعة سلطانه ، ونفوذ مشيئته ، وعموم علمه وقدرته ، وإحاطة ملكه في الأحكام الأمرية والأحكام الجزائية وكمال حكمته . وفيها ، ما يدل على سعة رحمته ، وواسع جوده ، وكثرة خيرات ، الدينية والدنيوية ، ما هو مقتض لتكرار هذا الوصف الحسن ، فقال : ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾ وهي : النجوم عمومها ، أو منازل الشمس والقمر التي تنزلها منزلة منزلة ، وهي بمنزلة البروج والقلاع للمدن في حفظها ، كذلك النجوم بمنزلة البروج المجمولة للحراسة ، فإنها رجوم للشياطين .

﴿وجعل فيه سراجاً﴾ فيه النور والحرارة ، وهو : الشمس . ﴿وقمراً منيراً﴾ فيه النور ، لا الحرارة ، وهذا من أدلة عظمته ، وكثرة إحسانه ، فإن ما فيها من الخلق الباهر ، والتدبير المنتظم ، والجمال العظيم ، دال على عظمة خالقها في أوصافه كلها ، وما فيها من المصالح للخلق والمنافع ، دليل على كثرة خيرات .

﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفاً﴾ أي : يذهب أحدهما ، فيخلفه الآخر ، هكذا أبداً ، لا يجتمعان ، ولا يرتفعان ، ﴿لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ أي : لمن أراد أن يتذكر بهما

ويعتبر ، ويستدل بهما على كثير من المطالب الإلهية ، ويشكر الله على ذلك ، ولمن أراد أن يذكر الله ويشكره ، وله ورد من الليل أو النهار ، فمن فاته وزدّه من أحدهما ، أدركه في الآخر ، وأيضاً فإن القلوب تتقلب وتنتقل في ساعات الليل والنهار ، فيحدث لها النشاط والكسل ، والذكر والغفلة ، والقبض والبسط ، والإقبال والإعراض ، فجعل الله الليل والنهار ، يتوالى على العباد ويتكرران ، ليحدث لهم الذكر والنشاط ، والشكر لله في وقت آخر ، ولأن أوراد العبادات ، تتكرر بتكرر الليل والنهار ، فكلما تكررت الأوقات ، أحدث للعبد همه غير همه التي كسلت في الوقت المتقدم ، فزاد في تذكرها وشكرها ، فوظائف الطاعات بمنزلة سقي الإيمان الذي يمدّه ، فلولا ذلك لذوى غرس الإيمان وبس . فلله أتم حمد وأكمل على ذلك .

ثم ذكر من جملة كثرة خيره ، منته على عباده الصالحين ، وتوفيقهم للأعمال الصالحات ، التي أكسبتهم المنازل العاليات ، في غرف الجنات فقال :

﴿٦٣ - ٧٧﴾ ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ * والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً * والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراماً * إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ إلى آخر السورة الكريمة .

العبودية لله نوعان : عبودية لربوبيته ، فهذه يشترك فيها سائر الخلق ، مسلمهم وكافرهم ، برهم وفاجرهم ، فكلهم عبيد الله مربوبون مديرون ﴿إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾ وعبودية لألوهيته ، وعبادته ، ورحمته ، وهي عبودية أنبيائه ، وأوليائه ، وهي المراد هنا ، ولهذا أضافها إلى اسمه «الرحمن» إشارة إلى أنهم إنما وصلوا إلى هذه الحال بسبب رحمته ، فذكر أن صفاتهم أكمل الصفات ، ونعوتهم أفضل

النعوت ، فوصفهم بأنهم ﴿يمشون على الأرض هوناً﴾ أي : ساكنين متواضعين لله وللخلق ، فهذا وصف لهم بالوقار ، والسيكينة ، والتواضع لله ولعباده . ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ أي : خطاب جهل ، بدليل إضافة الفعل ، وإسناده لهذا الوصف ، ﴿قالوا سلاماً﴾ أي : خاطبوهم خطاباً يسلمون فيه من الإثم ، ويسلمون من مقابلة الجاهل بجهله . وهذا مدح لهم ، بالحلم الكثير ، ومقابلة المسيء بالإحسان ، والعفو عن الجاهل ، ورزانة العقل الذي أوصلهم إلى هذه الحال .

﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾ أي : يكثر من صلاة الليل ، مخلصين فيها لربهم ، متذللين له ، كما قال تعالى : ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وما رزقناهم ينفقون﴾ * فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾ .

﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم﴾ أي : ادفعه عنا ، بالعصمة من أسبابه ، ومغفرة ما وقع منا ، مما هو مقتض للعذاب . ﴿إن عذابها كان غراماً﴾ أي : ملازماً لأهلها ، بمنزلة ملازمة الغريم لغريمه . ﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾ وهذا منهم ، على وجه التضرع لربهم ، وبيان شدة حاجتهم إليه ، وأنهم ليس في طاقتهم احتمال هذا العذاب ، ولتذكروا بمنة الله عليهم ، فإن صرف الشدة ، بحسب شدتها وفظاعتها ، يعظم وقعها ويشد الفرح بصرفها .

﴿والذين إذا أنفقوا﴾ النفقات الواجبة والمستحبة ﴿لم يسرفوا﴾ بأن يزيدوا على الحد ، فيدخلوا في قسم التذبير ، وإهمال الحقوق الواجبة ، ﴿ولم يقتروا﴾ فيدخلوا في باب البخل والشح ﴿وكان﴾ إنفاقهم ﴿بين ذلك﴾ بين الإسراف والتقتير ﴿قواماً﴾ يبدلون في الواجبات من الزكوات ، والكفارات ، والنفقات الواجبة ، وفيما ينبغي ، على الوجه الذي ينبغي ، من

غير ضرر ولا ضرار، وهذا من عدلهم واقتصادهم.

﴿والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر﴾ بل يعبدونه وحده، مخلصين له الدين، حنفاء، مقبلين عليه، معرضين عما سواه.

﴿ولا يقتلون النفس التي حرم الله﴾

وهي نفس المسلم، والكافر المعاهد، ﴿إلا بالحق﴾ كقتل النفس بالنفس، وقتل الزاني المحصن، والكافر الذي يحل قتله. ﴿ولا يزنون﴾ بل يحفظون فروجهم ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾.

﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي: الشرك بالله، أو قتل النفس التي حرم الله بغير حق، أو الزنا، فسوف ﴿يلقى أثاماً﴾ ثم فسره بقوله: ﴿يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه﴾ أي: في العذاب ﴿مهاناً﴾ فالوعيد بالخلود، لمن فعلها كلها، ثابت لا شك فيه، وكذا لمن أشرك بالله، وكذلك الوعيد بالعذاب الشديد، على كل واحد من هذه الثلاثة، لكونها إما شرك، وإما من أكبر الكبائر.

وأما خلود القاتل والزاني في العذاب، فإنه لا يتناول الخلود، لأنه قد دلت النصوص القرآنية والسنة النبوية، أن جميع المؤمنين سيخرجون من النار، ولا يخلد فيها مؤمن، ولو فعل من المعاصي ما فعل، ونص تعالى على هذه الثلاثة، لأنها أكبر الكبائر: فالشرك فيه فساد الأديان، والقتل فيه فساد الأبدان، والزنا فيه فساد الأعراض.

﴿إلا من تاب﴾ عن هذه المعاصي وغيرها، بأن ألقع عنها في الحال، وندم على ما مضى له من فعلها، وعزم عزمًا جازماً أن لا يعود، ﴿وآمن﴾ بالله إيماناً صحيحاً، يقتضي ترك المعاصي وفعل الطاعات، ﴿وعمل عملاً صالحاً﴾ مما أمر به الشارع، إذا قصد به وجه الله.

﴿فأولئك يبدل الله سيئاتهم

حسنات﴾ أي: تتبدل أفعالهم وأقوالهم، التي كانت مستعدة لعمل السيئات، تتبدل حسنات، فيتبدل شركهم إيماناً، ومعصيتهم طاعة، وتتبدل نفس السيئات التي عملوها، ثم أحدثوا عن كل ذنب منها توبة وإنابة وطاعة تبدل حسنات، كما هو ظاهر الآية.

وورد في ذلك حديث الرجل الذي حاسبه الله ببعض ذنوبه، فعذّدها عليه، ثم أبدل مكان كل سيئة حسنة فقال: «يارب، إن لي سيئات لا أراها هانئة» والله أعلم.

﴿وكان الله غفوراً﴾ لمن تاب، يغفر الذنوب العظيمة ﴿رحيماً﴾ بعباده حيث دعاهم إلى التوبة بعد مبارزته بالعظائم، ثم وفقهم لها، ثم قبلها منهم.

﴿ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً﴾ أي: فلْيَعْلَمْ أن توبته في غاية الكمال، لأنها رجوع إلى الطريق الموصل إلى الله، الذي هو عين سعادة العبد وفلاحه، فلْيَخْلُصْ فيها، ولْيَخْلُصْها من شوائب الأغراض الفاسدة، فالمقصود من هذا، الحث على تكميل التوبة، وإيقاعها على أفضل الوجوه وأجلها، ليقدم على من تاب إليه فيوفيه^(١) أجره، بحسب كمالتها.

﴿والذين لا يشهدون الزور﴾ أي: لا يحضرون الزور، أي: القول والفعل المحرم، فيجتنبون جميع المجالس، المشتعلة على الأقوال المحرمة، أو الأفعال المحرمة، كالخوض في آيات الله، والجدال الباطل، والغيبة، والنميمة، والسب، والقذف، والاستهزاء، والغناء المحرم، وشرب الخمر، وفرش الخمر، والصور، ونحو ذلك، وإذا كانوا لا يشهدون الزور، فمن باب أولى وأحرى، أن لا يقولوه ويفعلوه.

وشهادة الزور داخله في قول الزور، تدخل في هذه الآية بالأولوية، ﴿وإذا مروا باللغو﴾ وهو الكلام الذي

لا خير فيه، ولا فيه فائدة دينية ولا دنيوية، ككلام السفهاء ونحوهم ﴿مروا كراماً﴾ أي: نزهاً أنفسهم وأكرموها عن الخوض فيه، ورأوا الخوض فيها، وإن كان لا إثم فيه، فإنه سفه ونقص للإنسانية والمروءة، فربّوا بأنفسهم عنه.

وفي قوله: ﴿وإذا مروا باللغو﴾ إشارة إلى أنهم لا يقصدون حضوره ولا سماعه، ولكن عند المصادفة التي من غير قصد، يكرمون أنفسهم عنه.

﴿والذين إذا ذكروا بآيات ربهم﴾ التي أمرهم باستماعها والاهتداء بها، ﴿لم يخروا عليها صماً وعمياناً﴾ أي: لم يقابلوها بالإعراض عنها، والصمم عن سماعها، وصرف النظر والقلوب عنها، كما يفعل من لم يؤمن بها ولم يصدق، وإنما حالهم فيها وعند سماعها، كما قال تعالى: ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ يقابلونها بالقبول والافتقار إليها، والانقياد والتسليم لها، وتجد عندهم أذاناً سامعة، وقلوباً واعية، فيزداد بها إيمانهم، ويتم بها إيقانهم، وتحدث لهم نشاطاً، ويفرحون بها سروراً واغتباطاً.

﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا﴾ أي: قرنائنا من أصحاب وأقران وزوجات، ﴿وذرياتنا قرة أعين﴾ أي: تقرّ بهم أعيننا.

وإذا استقرأنا حالهم وصفاتهم، عرفنا من همهم وعلو مرتبتهم، أنهم لا تقرّ أعينهم حتى يروهم مطيعين لربهم، عالمين عاملين، وهذا كما أنه دعاء لأزواجهم وذرياتهم في صلاحهم، فإنه دعاء لأنفسهم، لأن نفعه يعود عليهم، ولهذا جعلوا ذلك هبة لهم، فقالوا: ﴿هب لنا﴾ بل دعاؤهم يعود إلى نفع عموم المسلمين، لأن بصلاح من ذكر، يكون سبباً لصلاح كثير ممن يتعلق بهم، وينتفع بهم.

حي، العزيز الذي أهلك الأشقياء بأنواع العقوبات، الرحيم بالسعداء، حيث أنجاهم من كل شر وبلاء.

﴿١٠-٦٨﴾ «وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين» إلى آخر القصة قوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» أعاد الباري تعالى قصة موسى وثناها في القرآن ما لم يشن غيرها، لكونها مشتملة على حكم عظيمة وعبر، وفيها نبأه مع الظالمين والمؤمنين، وهو صاحب الشريعة الكبرى، وصاحب التوراة أفضل الكتب بعد القرآن، فقال: «وَأَذْكُرْ حَالَةَ مُوسَى الْفَاضِلَةِ، وَقَتِ نَدَائِهِ إِلَهَ إِيَّاهُ، حِينَ كَلَّمَهُ وَنَبَأَهُ وَأَرْسَلَهُ، فَقَالَ:

«أَنْ أَتِيتَ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ تَكْبُرُونَ فِي الْأَرْضِ، وَعَلَوْا عَلَى أَهْلِهِا، وَادَّعَى كِبِيرَهُمُ الرُّبُوبِيَّةَ، قَوْمُ فِرْعَوْنَ لَا يَتَّقُونَ» أي: قل لهم، بلين قول، ولطف عبارة «لَا تَتَّقُونَ» الله الذي خلقكم ورزقكم، فتتركون ما أنتم عليه من الكفر.

فقال موسى عليه السلام، معتذراً من ربه، ومبشراً لعذره، وسائلاً له المعونة على هذا الحمل الثقيل: «قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * وَيَضْحِكُوا مِنِّي وَلا يُنْقِضُوا لِي أَمْرِي».

فقال: «رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاجْعَلْ عَقْدَةً مِن لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي» فأرسل إلى هارون، فأجابه الله طليته، ونبأ أخاه هارون كما نبأه «فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رَدًّا» أي: معاوناً لي على أمري أن يصدقوني.

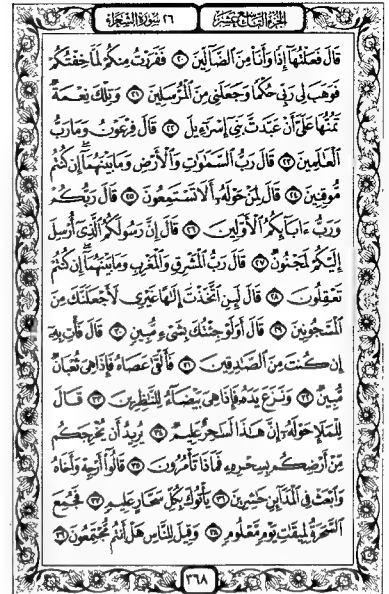
«وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ» أي: في قتل القبطي «فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ».

«قَالَ كَلَّا» أي: لا يتمكنون من قتلك، فإنا سنجعل لكما سلطاناً، فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون. ولهذا لم يتمكن فرعون من قتل موسى، مع منابذته له غاية المنابذة، وتسفيهه رأيه، وتضليله وقومه، «فَازْهَبْ بِآيَاتِنَا» الدالة على

«أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» أي: فلا تفعل، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات، فإن الهداية بيد الله، وقد أدبت ما عليك من التبليغ، وليس فوق هذا القرآن المبين آية حتى ننزلها ليومنوا [بها]، فإنه كاف شاف، لمن يريد الهداية، ولهذا قال: «إِنَّ نَشَأَ نَزَلْ عَلَيْهِمُ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ» أي: من آيات الاقتراح، «فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ» أي: أعناق المكذبين «لَهَا خَاضِعِينَ» ولكن لا حاجة إلى ذلك، ولا مصلحة فيه، فإنه إذ ذاك الوقت، يكون الإيمان غير نافع، وإنما الإيمان النافع، الإيمان بالغيب، كما قال تعالى: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا» الآية.

«وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ عُدَّتْ» يأمرهم ونهاهم، ويذكرهم ما ينفعهم ويضرهم. «إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ» بقلوبهم وأبدانهم، هذا إعراضهم عن الذكر المحدث، الذي جرت العادة، أنه يكون موقعه أبلغ من غيره، فكيف بإعراضهم عن غيره، وهذا، لأنهم لا خير فيهم، ولا تنجح فيهم المواعظ، ولهذا قال: «فَقَدْ كَذَّبُوا» أي: بالحق، وصار التكذيب لهم سجية، لا تتغير ولا تبدل، «فَنَسِيتُهُمْ أَنْبَاءَ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» أي: سيقع بهم العذاب، ويحل بهم ما كذبوا به، فإنهم قد حقت عليهم كلمة العذاب. قال الله منبهاً على التفكير الذي ينفع صاحبه: «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» من جميع أصناف النباتات، حسنة المنظر، كريمة في نفعها، «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً» على إحياء الله الموتى بعد موتهم، كما أحيا الأرض بعد موتها «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ» كما قال تعالى: «وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ».

«وَأَنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ» الذي قد قهر كل مخلوق، ودان له العالم العلوي والسفلي، «الرَّحِيمُ» الذي وسعت رحمته كل شيء، ووصل جوده إلى كل



تفسير سورة الشعراء وهي مكية عند الجمهور

﴿١-٩﴾ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ طسم * تلك آيات الكتاب المبين * لعلك باع نفسك ألا تكونوا مؤمنين * إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ * وما يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحدث إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ * فقد كذبوا فسبأتهم أنباء ما كانوا به يستهزؤون * أولم يروا إلى الأرض كم أنبنا فيها من كل زوج كريم * إن في ذلك لآية وما كان أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ» يشير الباري تعالى إشارة تدل على التعظيم لآيات الكتاب المبين البين الواضح، الدال على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، بحيث لا يبقى عند الناظر فيه شك ولا شبهة فيما أخبر به أو حكم به، لوضوحه ودلالته على أشرف المعاني، وارتباط الأحكام بحكمها، وتعليقها بمناسبتها، فكان رسول الله ﷺ ينذر به الناس، ويهدي به الصراط المستقيم، فيهندي بذلك عباد الله المتقون، ويعرض عنه من كتب عليه الشقاء، فكان يحزن حزناً شديداً على عدم إيمانهم، حرصاً منه على الخير، ونصحاً لهم.

فلهاذا قال تعالى عنه: «لعلك باع نفسك» أي: مهلكها وشاق عليها،

العظيم، فيظهر الحق على الباطل، ويقر أهل العلم وأهل الصناعة بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر، فعمل فرعون برأيهم، فأرسل في المدائن من يجمع السحرة، واجتهد في ذلك وجد.

﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾ قد واعدهم إياه موسى، وهو يوم الزينة، الذي يتفرغون فيه من أشغالهم.

﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون﴾ أي: نودي بعموم الناس بالاجتماع في ذلك اليوم الموعد ﴿لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾ أي: قالوا للناس: اجتمعوا لتتفروا غلبة السحرة لموسى، وأنهم ماهرون في صناعتهم، فتتبعهم ونعظمهم، ونعرف فضيلة علم السحر، فلو وفقوا للحق، لقالوا: لعلنا نتبع الحق منهم، ولنعرف الصواب، فلذلك ما أفاد فيهم ذلك، إلا قيام الحجة عليهم.

﴿فلما جاء السحرة﴾ ووصلوا لفرعون قالوا له: ﴿إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين﴾ لموسى؟ ﴿قال نعم﴾ لكم أجر وثواب ﴿وإنكم إذا لمن المقربين﴾ عندي، وعدهم الأجر والقربة منه، ليزداد نشاطهم، ويأتوا بكل مقدورهم في معارضة ما جاء به موسى.

﴿فلما اجتمعوا للموعود، هم وموسى، وأهل مصر، وعظمهم موسى وذكرهم، وقال: ﴿ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى﴾ فتنازعوا وتحاصموا، ثم شجعهم فرعون، وشجع بعضهم بعضاً.

﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾ أي: ألقوا كل ما في خواتركم إلقاؤه، ولم يقيد بشيء دون شيء، لجزمه ببطلان ما جاؤوا به من معارضة الحق.

﴿فألقوا جبالهم وعصيهم﴾ فإذا هي حبات تسعى، وسحروا بذلك أعين الناس، ﴿وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ فاستعانوا بعزة عبد

﴿فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف﴾ تتلعق وتأخذ ﴿ما يأفكون﴾ فالتفت جميع ما ألقوا من الحبال والعصي، لأنها إفك وكذب وزور، وذلك كله باطل، لا يقوم للحق ولا يقاومه.

فلما رأى السحرة هذه الآية العظيمة، تيقنوا - لعلمهم - أن هذا ليس بسحر، وإنما هو آية من آيات الله، ومعجزة تنبئ بصديق موسى، وصحة ما جاء به.

﴿فألقي السحرة ساجدين﴾ لربهم.

﴿قالوا آمنا برب العالمين﴾ رب موسى وهارون.

﴿وانقمع الباطل في ذلك المجمع، وأقر رؤسؤه ببطلانه، ووضح الحق وظهر، حتى رأى ذلك الناظرون بأبصارهم، ولكن أبى فرعون إلا عتوا وضللاً، وتنادياً في غيه وعناداً، فقال للسحرة: ﴿أمتنم له قبل أن آذن لكم﴾ يتعجب، ويعجب قومه من جراتهم عليه، وإقدامهم على الإيمان من غير إذنه ومؤامراته. ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ هذا، وهو الذي جمع السحرة وملاه، الذين أشاروا عليه بجمعهم من مدائنهم، وقد علموا أنهم ما اجتمعوا بموسى ولا رأوه قبل ذلك، وأنهم جاؤوا من السحر بما يحير الناظرين ويبلهم، ومع ذلك، فراج عليهم هذا القول، الذي هم بأنفسهم وقفوا على بطلانه، فلا يستنكر على أهل هذه العقول، أن لا يؤمنوا بالحق الواضح والآيات الباهرة، لأنهم لو قال لهم فرعون عن أي شيء كان، إنه على خلاف حقيقته، صدقوه.

ثم توعد السحرة فقال: ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف﴾ أي: اليد اليمنى والرجل اليسرى، كما يفعل بالفسد في الأرض،

فألقوا جبالهم وعصيهم، فإذا هي حبات تسعى، وسحروا بذلك أعين الناس، ﴿وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ فاستعانوا بعزة عبد العظيم، فيظهر الحق على الباطل، ويقر أهل العلم وأهل الصناعة بصحة ما جاء به موسى، وأنه ليس بسحر، فعمل فرعون برأيهم، فأرسل في المدائن من يجمع السحرة، واجتهد في ذلك وجد.

﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾ قد واعدهم إياه موسى، وهو يوم الزينة، الذي يتفرغون فيه من أشغالهم.

﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون﴾ أي: نودي بعموم الناس بالاجتماع في ذلك اليوم الموعد ﴿لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾ أي: قالوا للناس: اجتمعوا لتتفروا غلبة السحرة لموسى، وأنهم ماهرون في صناعتهم، فتتبعهم ونعظمهم، ونعرف فضيلة علم السحر، فلو وفقوا للحق، لقالوا: لعلنا نتبع الحق منهم، ولنعرف الصواب، فلذلك ما أفاد فيهم ذلك، إلا قيام الحجة عليهم.



نعبان﴾ أي: ذكر الحيات، ﴿مبين﴾ ظاهر لكل أحد، لا خيال ولا تشبيه.

﴿ونزع يده﴾ من جيبه ﴿فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ أي: لها نور عظيم، لا نقص فيه لمن نظر إليها. ﴿قال﴾

فرعون ﴿للملا حوله﴾ معارضاً للحق ومن جاء به: ﴿إن هذا لساحر عليم﴾

يريد أن يخرجكم من أرضكم، موة عليهم، لعلمه بضعف عقولهم، أن هذا من جنس ما يأتي به السحرة، لأنه من المقرر عندهم، أن السحرة يأتون من العجائب بما لا يقدر عليه الناس، وخوفهم أن قصده بهذا السحر، التوصل إلى إخراجهم من وطنهم، ليجدوا ويجهدوا في معاداة من يريد إجلاءهم عن أولادهم وديارهم، ﴿فماذا تأمرون﴾ أن نفعل به؟

﴿قالوا أرحه وأخاه﴾ أي: أخرها

﴿وابعث في المدائن حاشرين﴾ جامعين للناس ﴿يأتوك﴾ أولئك الحاشرون

﴿بكل سحار عليم﴾ أي: ابعث في جميع مدنك، التي هي مقر العلم

ومعدن السحر، من يجمع لك كل ساحر ماهر، عليم في سحره، فإن الساحر يقابل بسحر من جنس سحره.

وهذا من لطف الله أن يري العباد

بطلان ما موه به فرعون الجاهل الضال

المضل، أن ما جاء به موسى سحر،

قيضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر، لينعقد المجلس عن حضرة الخلق

وهذا من لطف الله أن يري العباد

بطلان ما موه به فرعون الجاهل الضال

المضل، أن ما جاء به موسى سحر،

قيضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر، لينعقد المجلس عن حضرة الخلق

وهذا من لطف الله أن يري العباد

بطلان ما موه به فرعون الجاهل الضال

المضل، أن ما جاء به موسى سحر،

قيضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر، لينعقد المجلس عن حضرة الخلق

وهذا من لطف الله أن يري العباد

بطلان ما موه به فرعون الجاهل الضال

المضل، أن ما جاء به موسى سحر،

قيضهم أن جمعوا أهل المهارة بالسحر، لينعقد المجلس عن حضرة الخلق

وهذا من لطف الله أن يري العباد

بطلان ما موه به فرعون الجاهل الضال

﴿وَأَصْلَبْنَكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ لتختزوا، وتذلوا. فقال السحرة - حين وجدوا حلاوة الإيمان وذاقوا لذته - : ﴿لَا ضَيْرَ﴾ أي: لا نبالي بما توعدتنا به ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ * إِنَّا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا من الكفر والسكر وغيرهما ﴿أَنْ كُنَّا أُولَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بموسى، من هؤلاء الجنود، فثبتهم الله وصبرهم.

فيحتمل أن فرعون فعل بهم ما توعدهم به، لسلطانه واقتداره إذ ذاك، ويحتمل أن الله منعه منهم، ثم لم يزل فرعون وقومه مستمرين على كفرهم، يأتيهم موسى بالآيات البينات، وكلما جاءتهم آية، وبلغت منهم كل مبلغ، وعدوا موسى وعاهدوه، لشن كشف الله عنهم، ليؤمنن به، وليرسلن معه بني إسرائيل، فيكشفه الله، ثم ينكثون، فلما يش موسى من إيمانهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وأن لبني إسرائيل أن ينجيهم من أسرهم، ويمكن لهم في الأرض، أوحى الله إلى موسى: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي: اخرج ببني إسرائيل أول الليل، ليتماودوا ويتمهلوا في ذهابهم. ﴿إِنكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ أي: سيتبعكم فرعون وجنوده.

وقع كما أخبر، فإنهم لما أصبحوا، وإذا بنو إسرائيل قد سروا كلهم مع موسى.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ يجمعون الناس، ليوقع ببني إسرائيل، ويقول مشجعاً لقومه: ﴿إِنْ هَؤُلَاءَ﴾ أي: بني إسرائيل ﴿لَشُرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ * وإنهم لنا لفاثظون ﴿وَرِيدٌ أَنْ نَنْفَذَ غَيْظَنَا فِي هَؤُلَاءِ الْعَبِيدِ﴾ الذين أبغوا منا.

﴿وَأَنَا لَجَمِيعٌ حَازِرُونَ﴾ أي: الحذر على الجميع منهم، وهم أعداء للجميع، والمصلحة مشتركة، فخرج فرعون وجنوده في جيش عظيم، ونفير عام، لم يتخلف منهم سوى أهل الأعدار، الذين منعهم العجز.

قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي: بساتين مصر

وجناتها الفائقة، وعيونها المتدفقة، وزروع قدم ملأت أراضيهم، وعمرت بها حاضرتهم وبواديه.

﴿ومقام كريم﴾ يعجب الناظرين، ويلهي التاملين، تمتعوا به دهرًا طويلاً، وقضوا بلذاته وشهوته عمراً مديداً، على الكفر والعناد، والتكبر على العباد واليه العظيم.

﴿كذلك وأورثناها﴾ أي: هذه البساتين والعيون، والزروع، والمقام الكريم، ﴿بني إسرائيل﴾ الذين جعلوهم من قبل عبيدهم، وسخروا في أعمالهم الشاقة، فسبحان من يؤتي الملك من يشاء، وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء بطاعته، ويذل من يشاء بمعصيته.

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مَشْرِقِينَ﴾ أي: اتبع قوم فرعون قوم موسى، وقت شروق الشمس، وساقوا خلفهم محثين، على غيظ وحقن قادرين.

﴿فلما تراءى الجمعان﴾ أي: رأى كل منهما صاحبه، ﴿قال أصحاب موسى﴾ شاكين لموسى وحزينين: ﴿إِنَّا لَمَدْرُكُونَ﴾ ذ. ﴿قال﴾ موسى مثبثاً لهم، وغبراً لهم بوعده ربه الصادق: ﴿كَلَّا﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرت، أنكم مدركون، ﴿إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ لما فيه نجاتي ونجاتكم، ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أُضْرِبْ بَعْصَاكَ الْبَحْرَ﴾ فضربه ﴿فَانْفَلَقَ﴾ اثني عشر طريقاً ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ﴾ أي: الجبل العظيم ﴿فَدَخَلَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾

﴿وَأَزَلَفْنَاهُمْ﴾ في ذلك المكان ﴿الْآخِرِينَ﴾ أي: فرعون وقومه، قربانهم، وأدخلناهم في ذلك الطريق، الذي سلك منه موسى وقومه.

﴿وَأَنعَجْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ استكملوا خارجين، لم يتخلف منهم أحد.

﴿ثم أغرقنا الآخرين﴾ لم يتخلف منهم عن الغرق أحد، ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ﴾ عظيمة على صدق ما جاء به موسى عليه السلام، وبطلان ما عليه فرعون وقومه، ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ مع هذه الآيات المقتضية

وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَدَّعَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ وَأَنْفِرْ لِي أَتَمَّ كَيْدًا مِنْ أَتَمِّ الْكَدِّ ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ يَوْمَ لَا يَفْقَهُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقُلُوبٍ سَلِيمٍ﴾ وَأَلْزَمْنِي نَجْتَةً لِمَنْفَعَتَيْنِ ﴿وَرَبِّ زَيْنِ الْحُجُجِ الْقَائِمِينَ﴾ وَقِيلَ لِمَنْزِلٍ مَا كُنْتَ تَعْتَقِدُ ﴿مِنْ دُوبِ اللَّهِ هَلْ يَسْتَعِزُّكَ رَبُّكَ بِتَوَكُّرِهِ﴾ فَكَبَّرَ بِأَيُّهَا وَالْقَائِمُونَ ﴿وَيَسْتَعِزُّونَ بِالْإِسْمِ الْغُثِّ وَالْغَرِيِّ﴾ فَأَوَّاهُوا بِهَا فَيُخَفِّصُونَ ﴿فَلَقَدْ كَانَ لَآئِي سَكْنَتِ بْنِ إِدْرِيسَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَمَا أَشْكَا إِلَّا الْغُيُوثَ ﴿فَلَمَّا نَسُوا نَجْفِيُونَ﴾ وَلَا تَصْبِرُ بِحِمِّ قَلْبِكَ أَنْ تَأْكُذَّكَ فَتَكُونَ مِنَ الْفُتُونَةِ ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَصْغَرَ ذُرِّيَّتَيْنِ﴾ فَإِنَّ ذَلِكَ لَمَوْءَاظٌ لِلْكَرِيمِ ﴿كَذَلِكَ قَوْمٌ فِيهِ الْغَيْبُطُ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ مُوسَى الْآخِثُونَ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَئِذِ وَاعْتَصِرُوا عَظِيمَهُ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَرْجَى إِلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿فَلَقَدْ أَهْلَكْنَا وَلِيَّوْنَ﴾ ﴿فَأَوَّاهُوا لَكَ وَأَتَبَعَكَ الْآخِثُونَ﴾

للإيمان، لفساد قلوبكم، ﴿وإن ربك لهُو العزيز الرحيم﴾ بعزته أهلك الكافرين المكذبين، وبرحمته نجى موسى ومن معه أجمعين.

﴿٦٩ - ١٠٤﴾ ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم﴾ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ﴿إلى آخر هذه القصة﴾ وإن ربك لهُو العزيز الرحيم ﴿أي: واتل يا محمد على الناس، نبأ إبراهيم الخليل، وخبره الجليل، في هذه الحالة بخصوصها، وإلا فله أنباء كثيرة، ولكن من أعجب أنبائه وأفضلها، هذا النبأ المتضمن لرسالته ودعوته وقومه، ومحاجته إياهم، وإبطاله ما هم عليه، ولذلك قيده بالظرف، فقال: ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون﴾ قالوا: متبحجين بعبادتهم: ﴿نعبد أصناماً﴾ نحتها ونعملها بأيدينا. ﴿فنظّل لها عاكفين﴾ أي: مقيمين على عبادتها في كثير من أوقاتها، فقال لهم إبراهيم، مبيناً لعدم استحقاقها للعبادة: ﴿هل يسمعونكم إذ تدعون﴾ فيستجيبون دعاءكم، ويفرجون كربكم، ويزيلون عنكم كل مكروه؟

﴿أو ينفعونكم أو يضرون﴾ فأقروا أن ذلك كله غير موجود فيها، فلا تسمع دعاء، ولا تنفع، ولا تضر، ولهذا لما كسرها وقال: ﴿بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ قالوا له: ﴿لقد علمت ما

بعزه أعداءه، فأغرقهم بالطوفان
 ﴿الرحيم﴾ بأوليائه، حيث نجى نوحاً
 ومن معه، من أهل الإيمان.
 ﴿١٢٣ - ١٤٠﴾ كذبت عاد
 المرسلين ﴿إلى آخر القصة﴾ أي: كذبت
 القبيلة المسماة عاداً، رسولهم هوداً،
 وتكذيبهم له تكذيب لغيره، لاتفاق
 الدعوة.

هذا تذكيرهم بالنعم، ثم ذكرهم
 حلول عذاب الله، فقال: ﴿إني أخاف
 عليكم عذاب يوم عظيم﴾ أي: إني -
 من شفقتي عليكم وبري بكم - أخاف
 أن ينزل بكم عذاب عظيم، إذا نزل
 لا يرد، إن استمررتم على كفركم
 وبغيكم.

فقالوا معاندين للحق مكذبين
 لنبيهم: ﴿سواء علينا أوعظت أم لم
 تكن من الواعظين﴾ أي: الجميع على
 حد سواء، وهذا غاية العتو، فإن قوماً
 بلغت بهم الحال إلى أن صارت
 مواعظ الله، التي تذيب الجبال الصم
 الصلاب، وتتصدع لها أفئدة أولي
 الألباب، وجودها وعدمها - عندهم -
 على حد سواء، لقوم انتهى ظلمهم،
 واشتد شقاؤهم، وانقطع الرجاء من
 هدايتهم، ولهذا قالوا: ﴿إن هذا إلا
 خلق الأولين﴾ أي: هذه الأحوال
 والنعم، ونحو ذلك، عادة الأولين،
 تارة يستغنون، وتارة يفتقرون، وهذه
 أحوال الدهر، لا أن هذه عن ومنح
 من الله تعالى، وابتلاء لعباده ﴿وما
 نحن بمعذبين﴾ وهذا إنكار منهم
 للبعث، أو تنزل مع نبيهم وتكم به،
 إننا على فرض أننا نبعث، فإننا كما
 أدّرت علينا النعم في الدنيا، كذلك
 لا تزال مستمرة علينا إذا بعثنا.

﴿فكذبوه﴾ أي: صار التكذيب
 سجية لهم وخلقاً، لا يردعهم عنه
 رادع. ﴿فأهلكناهم﴾ ﴿بريح صرصر
 عاتية﴾ سخرها عليهم سبع ليال
 وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها
 صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية.

﴿إن في ذلك لآية﴾ على صدق نبينا
 هود عليه السلام، وصحة ما جاء به،
 وبطلان ما عليه قومه، من الشرك
 والجبروت، ﴿وما كان أكثرهم

﴿إني لكم رسول أمين﴾ ﴿فأتاكم الله وأول يومين﴾ ﴿وأتاكم الله وأول يومين﴾ ﴿وأتاكم الله وأول يومين﴾

﴿إذ قال لهم أخوهم﴾ في النسب
 ﴿هود﴾ بلطف وحسن خطاب: ﴿ألا
 تتقون﴾ الله، فتركوا الشرك وعبادة
 غيره، ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي:
 أرسلني الله إليكم، رحمة بكم، واعتناء
 بكم، وأنا أمين، تعرفون ذلك مني،
 رتب على ذلك قوله: ﴿فاتقوا الله
 وأطيعون﴾ أي: أدوا حق الله تعالى،
 وهو التقوى، وأدوا حقى، بطاعتي
 فيما أمركم به وأنهاكم عنه، فهذا
 موجب لأن تتبعوني وتطيعوني، وليس
 ثم مانع يمنعكم من الإيمان، فلست
 أسألكم على تبليغي إياكم ونصحي لكم
 أجراً، حتى تستقلوا ذلك المفرغ. ﴿إن
 أجري إلا على رب العالمين﴾ الذي
 رباهم بنعمه، وأدرّ عليهم فضله
 وكرمه، خصوصاً ما رآى به أوليائه
 وأنبياءه.

﴿أتبنون بكل ريع﴾ أي: مدخل
 بين الجبال ﴿آية﴾ أي: علامة
 ﴿تعيثون﴾ أي: تفعلون ذلك عبثاً لغير
 فائدة تعود بمصالح دينكم ودنياكم.
 ﴿وتتخذون مصانع﴾ أي: بركاً
 ومجايل للمياه ﴿لعلكم تخلدون﴾ والحال
 أنه لا سبيل إلى الخلود لأحد.

﴿وإذا بطشتم﴾ بالخلق ﴿بطشتم
 جبارين﴾ قتلاً وضرباً، وأخذ أموال.
 وكان الله تعالى قد أعطاهم قوة
 عظيمة، وكان الواجب عليهم أن
 يستمعينوا بقوتهم على طاعة الله،
 ولكنهم فخروا واستكبروا، وقالوا:
 ﴿من أشد منا قوة﴾ واستعملوا قوتهم
 في معاصي الله، وفي العبث والسفه،
 فلذلك نهاهم نبيهم عن ذلك.

﴿فاتقوا الله﴾ واتركوا شرككم
 وبطركم ﴿وأطيعون﴾ حيث علمتم أني
 رسول الله إليكم، أمين ناصح،

كذبتم ولم يؤمنوا. ﴿إذ قال لهم أخوهم﴾ في النسب
 ﴿هود﴾ بلطف وحسن خطاب: ﴿ألا
 تتقون﴾ الله، فتركوا الشرك وعبادة
 غيره، ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي:
 أرسلني الله إليكم، رحمة بكم، واعتناء
 بكم، وأنا أمين، تعرفون ذلك مني،
 رتب على ذلك قوله: ﴿فاتقوا الله
 وأطيعون﴾ أي: أدوا حق الله تعالى،
 وهو التقوى، وأدوا حقى، بطاعتي
 فيما أمركم به وأنهاكم عنه، فهذا
 موجب لأن تتبعوني وتطيعوني، وليس
 ثم مانع يمنعكم من الإيمان، فلست
 أسألكم على تبليغي إياكم ونصحي لكم
 أجراً، حتى تستقلوا ذلك المفرغ. ﴿إن
 أجري إلا على رب العالمين﴾ الذي
 رباهم بنعمه، وأدرّ عليهم فضله
 وكرمه، خصوصاً ما رآى به أوليائه
 وأنبياءه.

فاستمر نوح عليه الصلاة والسلام
 على دعوتهم ليلاً ونهاراً، سراً وجهاراً،
 فلم يزدادوا إلا نفوراً، و ﴿قالوا لنن
 تنه يا نوح﴾ من دعوتك إيانا، إلى الله
 وحده ﴿لنكونن من المرجومين﴾ أي:
 لنقتلك شر قتلة، بالرمي بالحجارة،
 كما يقتل الكلب. فتبأ لهم، ما أقيح
 هذه المقابلة، يقابلون الناصح الأمين
 الذي هو أشفق عليهم من أنفسهم،
 بشر مقابلة. لا جرم لما انتهى ظلمهم،
 واشتد كفرهم، دعا عليهم نبيهم بدعوة
 أحاطت بهم، فقال: ﴿رب لا تذر على
 الأرض من الكافرين دياراً﴾ الآيات.
 وهنا ﴿قال رب إن قومي كذبون *
 فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ أي: أهلك
 الباغي منا، وهو يعلم أنهم البغاة
 الظلمة، ولهذا قال: ﴿ونجني ومن
 معي من المؤمنين﴾ ﴿فأنجيناه ومن
 معه في السفلك﴾ أي: السفينة
 المشحون من الخلق والحيوانات،
 ثم أغرقنا بعد: أي: بعد نوح، ومن
 معه من المؤمنين ﴿الباقين﴾ أي: جميع
 قومه.

﴿إن في ذلك﴾ أي: نجاة نوح
 وأتباعه، وإهلاك من كذبه ﴿لآية﴾ دالة
 على صدق رسلنا، وصحة ما جاؤوا
 به، وبطلان ما عليه أعداؤهم المكذبون
 بهم.
 ﴿وإن ربك لهُو العزيز﴾ الذي قهر



وقد أجابت عنها الرسل بقولهم: **﴿إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده﴾**. وإن نظنك لمن الكاذبين **﴿وهذا جراءة منهم وظلم وقول زور، قد انطوا على خلافه، فإنه ما من رسول من الرسل، واجه قومه ودعاهم، وجادلهم وجادلوه، إلا وقد أظهر الله على يديه من الآيات، ما به يتيقنون صدقه وأمانته، خصوصاً شعيباً عليه السلام، الذي يسمى خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته قومه، ومجادلتهم بالتالي هي أحسن، فإن قومه قد تيقنوا صدقه، وأن ما جاء به حق، ولكن إخبارهم عن ظن كذبه كذب منهم﴾**.

﴿فأسقط علينا كسفاً من السماء﴾ أي: قطع عذاب تستأصلنا. **﴿إن كنت من الصادقين﴾** كقول إخوانهم **﴿وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾** أو أنهم طلبوا بعض آيات الاقتراح، التي لا يلزم تميم مطلوب من سألها. **﴿قال﴾** شعيب عليه السلام: **﴿ربي أعلم بما تعملون﴾** أي: نزول العذاب، ووقوع آيات الاقتراح، لست أنا الذي أتى بها وأنزلها بكم، وليس عليّ إلا تبليغكم ونصحكم وقد فعلت، وإنما الذي يأتي بها ربي، العالم بأعمالكم وأحوالكم، الذي يجازيكم ويحاسبكم.

﴿فكذبوه﴾ أي: صار التكذيب لهم وصفاً، والكفر لهم ديدناً، بحيث لا تفيدهم الآيات، وليس بهم حيلة إلا نزول العذاب. **﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾** أظلتهم سحابة فاجتمعوا تحتها مستلذين، لظللها غير الظليل، فأحرقتهم بالعذاب، فظلوا تحتها خامدين، ولديارهم مفارقين، ولدار الشقاء والعذاب نازلين. **﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾** لا كرة لهم إلى الدنيا، فيستأنفوا

العمل، ولا يُقتر عنهم العذاب ساعة، ولا هم ينظرون. **﴿إن في ذلك لآية﴾** دالة على صدق شعيب، وصحة ما دعا إليه، وطلان رد قومه عليه، **﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾** مع رؤيتهم الآيات، لأنهم لا زكاء فيهم، ولا خير لديهم **﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾**.

﴿وإن ربك لهو العزيز﴾ الذي امتنع بقوته عن إدراك أحد، وقهر كل مخلوق. **﴿الرحيم﴾** الذي الرحمة وصفه، ومن آثارها، جميع الخيرات في الدنيا والآخرة، من حين أوجد الله العالم إلى ما نهاية له. ومن عزته، أن أهلك أعداءه حين كذبوا رسله، ومن رحمته، أن نجى أوليائه ومن اتبعهم من المؤمنين.

﴿١٩٢ - ٢٠٣﴾ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين * وإنه لفي زبر الأولين * أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل * ولو نزلناه على بعض الأعمجين * فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين * كذلك سلكناه في قلوب المجرمين * لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الآليم * فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون * فيقولوا هل نحن منظرون * لما ذكر قصص الأنبياء مع أمهم، وكيف دعوهم، و [ما] ردوا عليهم به، وكيف أهلك الله أعداءهم، وصارت لهم العاقبة.

ذكر هذا الرسول الكريم، والنبي المصطفى العظيم، وما جاء به من الكتاب، الذي فيه هداية لأولي الألباب، فقال: **﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾** فالذي أنزله، فاطر الأرض والسماوات، المربي جميع العالم، العلوي والسفلي، وكما أنه رباهم بهدایتهم لمصالح دنياهم وأبدانهم، فإنه يربهم أيضاً، بهدایتهم لمصالح دينهم وأخراهم، ومن أعظم ما رباهم به، إنزال هذا الكتاب الكريم، الذي

ويغضبه، من الكفر والمعاصي، **﴿إني لكم رسول أمين﴾** يترتب على ذلك، أن تتقوا الله وتطيعون، وكانوا - مع شركهم - يبخسون المكايل والموازين، فلذلك قال لهم: **﴿أوفوا الكيل﴾** أي: أتموه وأكملوه **﴿ولا تكونوا من المخسرين﴾** الذين ينقصون الناس أموالهم ويسلبونها ببخس المكيال والميزان، **﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾** أي: بالميزان العادل، الذي لا يميل، **﴿واتقوا الذي خلقكم والجبللة الأولين﴾** أي: الخليفة الأولين، فكما أنفرد بخلقكم، وخلق من قبلكم من غير مشارك له في ذلك، فأفردوه بالعبادة والتوحيد، وكما أنعم عليكم بالإيجاد والإمداد بالنعم، فقابلوه بشكره.

قالوا له، مكذبين له، رادّين لقوله: **﴿إنما أنت من المسحurin﴾** فأنّت تهذي وتكلم كلام المسحور، الذي غايته أن لا يؤاخذ به.

﴿وما أنت إلا بشر مثلنا﴾ فليس فيك فضيلة اختصاصت بها علينا، حتى تدعونا إلى اتباعك، وهذا مثل قول من قبلهم ومن بعدهم، ممن عارضوا الرسل هذه الشبهة، التي لم يزالوا يدلون بها ويصلون، ويتفقون عليها، لانفاقهم على الكفر، وتشابه قلوبهم.

طول المدة. القصص أن الحذر، من وقوع العذاب، واستحقاقهم له. وأما تعجيله أو تأخيره، فلا أهمية تحته، ولا جدوى عنده.

﴿٢٠٨-٢١٢﴾ ﴿وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون * ذكرى وما كنا ظالمين * وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم وما يستطيعون * إنهم عن السمع لمعزولون﴾ يخبر تعالى عن كمال عدله في إهلاك المكذبين، وأنه ما أوقع بقرية هلاكاً وعذاباً، إلا بعد أن يعذر منهم، ويبعث فيهم النذر بالآيات البينات، ويدعونهم إلى الهدى، وينهونهم عن الردى، ويذكرونهم بآيات الله، وينبهونهم على أيامه في نعمه ونقمه.

﴿ذكرى﴾ لهم وإقامة حجة عليهم. ﴿وما كنا ظالمين﴾ فنهلك القرى قبل أن ننذرهم، ونأخذهم وهم غافلون عن النذر، كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا﴾ ﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾.

ولما بين تعالى كمال القرآن وجلالته، نزهه عن كل صفة نقص، وحماه - وقت نزوله، وبعد نزوله - من شياطين الجن والإنس، فقال: ﴿وما تنزلت به الشياطين * وما ينبغي لهم﴾ أي: لا يليق بحالهم ولا يناسبهم ﴿وما يستطيعون﴾ ذلك. ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ قد أبعدوا عنه، وأعدت لهم الرجوم لحفظه، ونزل به جبريل أقوى الملائكة، الذي لا يقدر شيطان أن يقربه، أو يحوم حول ساحته، وهذا كقوله: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنه له لحافظون﴾.

﴿٢١٣-٢١٦﴾ ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر فتكون من المعذبين * وأنذر عشيرتك الأقرين * واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين * فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾ ينهى تعالى رسوله أصلاً، وأمته أسوة له في ذلك، عن دعاء غير الله، من جميع المخلوقين، وأن ذلك موجب للعذاب الدائم، والعقاب السرمدى، لكونه

أفصح الخلق، وأقدرهم على التعبير عن المقاصد، بالعبارات الواضحة وأنصحهم، وليبادروا إلى التصديق به، وتلقيه بالتسليم والقبول، ولكن تكذيبهم له عن غير شبهة، إن هو إلا عرض الكفر والعناد، وأمر قد توارثته الأمم المكذبة، فلهاذا قال: ﴿كذلك سلكناه في قلوب المجرمين﴾ أي: أدخلنا التكذيب، وأنظمناه في قلوب أهل الإجماع، كما يدخل السلك في الإبرة، فتشربته، وصار وصفاً لها، وذلك بسبب ظلمهم وجرمهم، فلذلك ﴿لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم﴾ على تكذيبهم، ﴿فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي: يأتيهم على حين غفلة، وعدم إحساس منهم، ولا استشعار بنزوله، ليكون أبلغ في عقوبتهم والنكال بهم.

﴿فيقولوا﴾ إذ ذاك: ﴿هل نحن منظرون﴾ أي: يطلبون أن يُنظروا ويمهلوا، والحال إنه قد فات الوقت، وحل بهم العذاب الذي لا يرفع عنهم، ولا يقتر ساعة.

﴿٢٠٤-٢٠٧﴾ ﴿أفبعذابنا يستمعجلون * أفرأيت إن متعناهم سنين * ثم جاءهم ما كانوا يوعدون * ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ يقول تعالى: ﴿أفبعذابنا الذي هو العذاب الأليم العظيم، الذي لا يستهان به ولا يحتقر، ﴿يستعجلون﴾ فما الذي غرهم؟ هل فيهم قوة وطاقة للصبر عليه؟ أم عندهم قوة يقدر على دفعه أو رفعه إذا نزل؟ أم يُعجزوننا ويظنون أننا لا نقدر على ذلك؟

﴿أفرأيت إن متعناهم سنين﴾ أي: أفرأيت إذا لم نستعجل عليهم بإنزال العذاب، وأمهلناهم عدة سنين يتمتعون في الدنيا ﴿ثم جاءهم ما كانوا يوعدون﴾ من العذاب.

ما أغنى عنهم ما كانوا يتمتعون من اللذات والشهوات، أي: أي شيء تغني عنهم وتفيدهم، وقد مضت، وبطلت، واضمحلت، وأعقبت تبعاتها، وضوعف لهم العذاب عند

اشتغالهم على الخير الكثير، والبر الغزير، وفيه من الهداية لمصالح الدارين، والأخلاق الفاضلة، ما ليس في غيره، وفي قوله: ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ من تعظيمه وشدة الاهتمام فيه، من كونه نزل من الله، لا من غيره، مقصوداً فيه نفعكم وهدايتكم، ﴿نزل به الروح الأمين﴾ وهو جبريل عليه السلام، الذي هو أفضل الملائكة وأقوامهم، ﴿الأمين﴾ الذي قد أمن أن يزيد فيه أو ينقص.

﴿على قلبك﴾ يا محمد ﴿لتكون من المنذرين﴾ تهدي به إلى طريق الرشاد، وتنذر به عن طريق الغي.

﴿بلسان عربي﴾ وهو أفضل الألسنة، بلغة من بُعث إليهم، ويأمر دعوتهم أصلاً، اللسان البين الواضح. وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه وهي قلبه، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها وأوسعها، وهو اللسان العربي المبين.

﴿وإنه لفي زبر الأولين﴾ أي: قد بشرت به كتب الأولين وصدقته، وهو لما نزل يُطبق ما أخبرت به، صدقها، بل جاء بالحق وصدق المرسلين.

﴿أولم يكن لهم آية﴾ على صحته، وأنه من الله ﴿أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾ الذي قد انتهى إليهم العلم، وصاروا أعلم الناس، وهم أهل الصنف، فإن كل شيء يحصل به اشتباه، يرجع فيه إلى أهل الخبرة والدراية، فيكون قولهم حجة على غيرهم، كما عرف السحرة الذين مهروا في علم السحر، صدق معجزة موسى، وأنه ليس بسحر، فقول الجاهلين بعد هذا لا يؤبه به.

﴿ولو نزلناه على بعض الأعجمين﴾ الذين لا يفقهون لسانهم، ولا يقدر على التعبير لهم كما ينبغي ﴿فقراء﴾ عليهم ما كانوا به مؤمنين ﴿يقولون: ما نفقه ما يقول، ولا ندرى ما يدعو إليه، فليحمدوا ربهم، أن جاءهم على لسان

والشهادة. فاستحضر العبد رؤية الله له في جميع أحواله، وسمعه لكل ما ينطق به، وعلمه بما ينطوي عليه قلبه، من الهم والعزم والنيات، مما يعينه على منزلة الإحسان.

﴿٢٢١ - ٢٢٧﴾ ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفك أئيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون * والشعراء يتبعهم الغاؤون * ألم تر أنهم في كل واد يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ هذا جواب لمن قال من مكذبي الرسول: إن محمداً ينزل عليه شيطان. وقول من قال: إنه شاعر، فقال: ﴿هل أنبئكم﴾ أي: أخبركم الخبر الحقيقي الذي لا شك فيه ولا شبهة، على من تنزل الشياطين، أي: بصفة الأشخاص، الذين تنزل عليهم الشياطين. ﴿تنزل على كل أفك﴾ أي: كذاب، كثير القول للزور، والإفك بالباطل، ﴿أئيم﴾ في فعله، كثير المعاصي، هذا الذي تنزل عليه الشياطين، وتناسب حاله حالهم؟

﴿يلقون﴾ عليه ﴿السمع﴾ الذي يسترقونه من السماء، ﴿وأكثرهم كاذبون﴾ أي: أكثر ما يلقون إليه كذب^(٢)، فيصدق واحدة، ويكذب معها مئة، فيختلط الحق بالباطل، ويضمحل الحق بسبب قلته، وعدم علمه. فهذه^(٣) صفة الأشخاص الذين تنزل عليهم الشياطين، وهذه صفة وحيم له.

وأما محمد ﷺ، فحاله مباينة لهذه الأحوال أعظم مباينة، لأنه الصادق الأمين، البار الراشد، الذي جمع بين بر القلب وصدق اللهجة ونزاهة الأفعال

ورفعها، وأعجب بعمله، فهل هذا إلا من جهله، وتزيين الشيطان وخدعه له، ولهذا قال الله لرسوله: ﴿فإن عصوك﴾ في أمر من الأمور، فلا تتبرأ منهم، ولا تترك معاملتهم، بخفض الجناح، ولين الجانب، بل تبرأ من عملهم، فعظمهم عليه وانصحهم، وابدل قدرتك في ردهم عنه وتوبتهم منه، وهذا لدفع، احتراز وهم من يتوهم، أن قوله: ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ يقتضي الرضاء بجميع ما يصدر منهم، ما داموا مؤمنين، فدفع هذا بهذا، والله أعلم.

﴿٢١٧ - ٢٢٠﴾ ﴿وتوكل على العزيز الرحيم * الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين * إنه هو السميع العليم﴾ أعظم مساعد للعبد على القيام بما أمر به، الاعتماد على ربه، والاستعانة بمولاه على توفيقه للقيام بالأمور، فلذلك أمر الله تعالى بالتوكل عليه، فقال: ﴿وتوكل على العزيز الرحيم﴾ والتوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع ثقته به، وحسن ظنه بحصول مطلوبه، فإنه عزيز رحيم، بعزته يقدر على إيصال الخير ودفع الشر عن عبده، وبرحمته به يفعل ذلك. ثم نبهه على الاستعانة باستحضار قرب الله، والنزول في منزل الإحسان فقال: ﴿الذي يراك حين تقوم * وتقلبك في الساجدين﴾ أي: يراك في هذه العبادة العظيمة، التي هي الصلاة، وقت قيامك وتقلبك راعياً وساجداً خصها بالذكر، لفضلها وشرفها، ولأن من استحضر فيها قرب ربه، خضع وذل، وأكملها، وتكملها يكمل سائر عمله، ويستعين بها على جميع أموره.

﴿إنه هو السميع﴾ لسائر الأصوات، على اختلافها وتشتتها وتنوعها، ﴿العليم﴾ الذي أحاط بالظواهر والبواطن، والغيب

شركاً، ﴿ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار﴾ والنهي عن الشيء أمرٌ بضده، فالنهي عن الشرك، أمر بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، محبة، وخوفاً، ورجاء، وذلاً، وإنابة إليه في جميع الأوقات. ولما أمره بما فيه كمال نفسه، أمره بتكميل غيره، فقال: ﴿وأُنذِر عَشِيرَتِكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ الذين هم أقرب الناس إليك، وأحقهم بإحسانك الديني والدنيوي، وهذا لا ينافي أمره بإنذار جميع الناس، كما إذا أمر الإنسان بعموم الإحسان، ثم قيل له ﴿أحسن إلى قرابتك﴾، فيكون هذا خصوصاً^(١) دالاً على التأكيد وزيادة الحق، فامتثل ﷺ هذا الأمر الإلهي، فدعى سائر بطون قريش، فعمم وخصص، وذكرهم ووعظهم، ولم يُنبئ ﷺ من مقدوره شيئاً، من نصيحهم وهدايتهم إلا فعله، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض، ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ بلين جانبك، ولطف خطابك لهم، وتوددك وتحببك إليهم، وحسن خلقك والإحسان التام بهم، وقد فعل ﷺ ذلك، قال تعالى: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر﴾ فهذه أخلاقه ﷺ، أكمل الأخلاق، التي يحصل بها من المصالح العظيمة ودفع المضار ما هو مشاهد فهل يليق بمؤمن بالله ورسوله، ويدعي اتباعه والافتداء به، أن يكون كلاً على المسلمين، شرس الأخلاق، شديد الشكيمة عليهم، غليظ القلب، فظ القول، فظيعة؟ [أو] إن رأى منهم معصية أو سوء أدب، هجرهم ومقتهم وأبغضهم، لا لين عنده، ولا أدب لديه، ولا توفيق، قد حصل من هذه المعاملة من المفساد، وتعطيل المصالح ما حصل، ومع ذلك تمجد محتقراً لمن اتصف بصفات الرسول الكريم، قد رماه بالنفاق والمداينة، وقد كمل نفسه

(١) وفي ب: الخصوص.

(٢) في النسختين: كذاباً.

(٣) في النسختين: هذا.

إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة
لذكرى ﴿العزیز﴾ الذي قهر جميع
الاشياء، وأذعنت له كل المخلوقات،
﴿الحكيم﴾ في أمره وخلقه. ومن
عمران، الذي علم الله منه أنه أهل
لرسالته ووحيه وتكليمه. ومن عزته،
أن تعتمد عليه، ولا تستوحش من
انفرادك وكثرة أعدائك وجبروتهم، فإن
نواصيهم بيد الله، وحركاتهم
وسكونهم بتدبيره.

﴿وَأَلْقَ عَصَاكَ﴾ فآلقاها ﴿فَلَمَّا رآهَا
تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ وهو ذكرُ الحيات،
سريع الحركة، ﴿وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾
ذعراً من الحية التي رأى، على مقتضى
الطباع البشرية، فقال الله له: ﴿يَا
مُوسَى لَا تَخَفْ﴾ وقال في الآية
الأخرى: ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿إِنِّي لَا يُخَافُ لِسِيَّ
الْمُرْسَلُونَ﴾ لأن جميع المخاوف مندرجة
في قضائه وقدره وتصريفه وأمره،
فالذين اختصهم الله برسالته،
واصطفاهم لوحيه، لا ينبغي لهم أن
يخافوا غير الله، خصوصاً عند زيادة
القرب منه، والخطوة بتكليمه.

﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حَسَنًا بَعْدَ
سُوءٍ﴾ أي: فهذا الذي هو محل الخوف
والوحشة بسبب ما أسدى من الظلم،
وما تقدم له من الجرم، وأما المرسلون،
فما لهم وللوحشة والخوف؟ ومع هذا،
من ظلم نفسه بمعاصي الله، ثم تاب
وأناب، فبدل سيئاته حسنات،
ومعاصيه طاعات، فإن الله غفور
رحيم، فلا يياس أحد من رحمته
ومغفرته، فإنه يغفر الذنوب جميعاً،
وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

﴿وَادْخُلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ
بَيْضًا مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ لا برص ولا
نقص، بل بياض يبهر الناظرين
شعاعه. ﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ
وَقَوْمِهِ﴾ أي: هاتان الآيتان، انقلاب
العصا حية تسعى، وإخراج اليد من

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾
أي: أشده وأسوأه وأعظمه، وهم
في الآخرة هم الأخسرون ﴿حَصْرُ
الْخَسَارِ فِيهِمْ، لكونهم خسروا أنفسهم
وأهلهم يوم القيامة، وخسروا الإيمان
الذي دعتهم إليه الرسل.

﴿وَإِنَّا لَنُلْقِي الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ
عَلِيمٍ﴾ أي: وإن هذا القرآن الذي ينزل
عليك وتلقفه وتتلقيه، ينزل من عند
﴿حكيم﴾ يضع الأشياء مواضعها،
وينزلها منازلها. ﴿عليم﴾ بأسرار
الأمور^(١) وبواطنها، كظواهرها. وإذا
كان من عند ﴿حكيم عليم﴾^(٢) علم
أنه كله حكمة ومصالح للعباد، من
الذي [هو] أعلم بمصالحهم منهم؟

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ
نَارًا﴾ إلى آخر قصته، يعني: اذكر هذه
الحالة الفاضلة الشريفة من أحوال
موسى بن عمران، ابتداء الوحي إليه،
واصطفائه برسالته، وتكليم الله إياه،
وذلك أنه لما مكث في مدين عدة
سنين، وسار بأهله من مدين متوجهاً
إلى مصر، فلما كان في أثناء الطريق
ضل، وكان في ليلة مظلمة باردة،
فقال لهم: ﴿إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي:
أبصرت ناراً من بعيد ﴿سَاتِيكُمْ مِنْهَا
بَخِيرٌ﴾ عن الطريق، ﴿أَوْ آتِيكُمْ
بَشَاهِبٍ﴾ قيس لعلمكم تصطلون ﴿أي:
تستدفئون، وهذا دليل على أنه تائه،
ومشتد برده، هو وأهله.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي
النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا﴾ أي: ناداه الله تعالى
وأخبره، أن هذا محل مقدس مبارك،
ومن بركته، أن جعله الله موضعاً
لتكليم الله لموسى وندائه وإرساله.

﴿وَسَبِّحَانَ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ عن
أن يُظَنَّ به نقص أو سوء، بل هو
الكمال في وصفه وفعله.

﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ أي: أخبره الله أنه الله
المستحق للعبادة وحده لا شريك له،
كما في الآية الأخرى ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا

وَعَدُوا بِهَا وَأَسْبَغَتْهَا أَشْمُهُمْ طَمَعًا وَعِلْمًا فَظَنُّوا كَأَنَّهُ
عَبْدٌ لِلْمُضِيِّينَ ﴿وَلَقَدْ أَنبَأْنَا دَاوُدَ رَسُولَنَا وَعَلَّمْنَاهُ
الْحَمْدَ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿وَوَرِّثَ
سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِلْمُنَا سَمِطُ الْقَلَمِ
وَأَوْرَثْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَمَوْفِقُ الْإِيمَانِ ﴿وَتَحْيَرُ
لِسُلَيْمَانَ عَجُوزُهُ مِنَ الْيَمِينِ وَالْأَيْمَنِ وَالطَّلَافِ فَهُوَ مُؤْتَمِرٌ
﴿حَتَّىٰ إِذَا أَثَارَ عَلَ وَادِ الْقَلَمِ قَالَ تَلَمَّ يَا أَيُّهَا الْقَلَمُ أَذْخُلُوا
مَسْكَنَكُمْ لَا يَحْتَلِكُكُمْ سُلَيْمَانُ رَجُوعُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ
﴿فَتَبَسَّ سَاجِدًا لِلَّهِ وَقَالَ رَبِّ أَوْفِنِي أَنْ أَقْضِيَ
يَعْنِكَ الْيَوْمَ أَقْضَيْتَ عَلَيَّ دَعْوَايَ وَأَنْ أَغْشَى كَلِمًا
وَرَضِيَةً وَأَذْهَبَ بِرَحْمَتِكَ فِي صَبَاكَ الْعَالَمِينَ ﴿وَقَعَّدَ
الطَّلَافُ فَقَالَ مَا لَكَ يَا أَلَى الْهَيْدَةِ أَتُكَلِّمُ
رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿لَا تُدْرِكُهُ عَيْنٌ شَاهِدَةٌ وَلَا أُذُنٌ
أُولَى الْيَمِينِ بِشَاطِلِ الْيَمِينِ ﴿فَكَتَبْتَ عَزَائِمَهُ
فَقَالَ لَحَظْتُ مَا لَا تُحِيطُ بِهِ وَخَشِلْتُ مِنْ سُلَيْمَانِ الْيَمِينِ ﴿

أنه مؤمن ذلك؟ أم لا بد لذلك من
دليل؟ وهو الحق، فلذلك بين تعالى
صفة المؤمنين، فقال: ﴿الَّذِينَ يقيمون
الصلاة﴾ فرضها ونفلها، فيأتون
بأفعالها الظاهرة، من أركانها،
وشروطها، وواجباتها، بل
ومستحباتها، وأفعالها الباطنة، وهو
الخشوع الذي روحها ولبها،
باستحضار قرب الله، وتدبر ما يقول
المصلي ويفعله.

﴿ويؤتون الزكاة﴾ المفروضة
لمستحقيها. ﴿وهم بالآخرة هم
يوقنون﴾ أي: قد بلغ معهم الإيمان إلى
أن وصل إلى درجة اليقين، وهو العلم
التام، الواصل إلى القلب، الداعي إلى
العمل. ويقينهم بالآخرة، يقتضي
كمال سعيهم لها، وحذرهم من
أسباب العذاب وموجبات العقاب،
وهذا أصل كل خير.

﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾
ويكذبون بها، ويكذبون من جاء
بإثباتها، ﴿زيناً لهم أعمالهم فهم
يعمّهون﴾ حائرين مترددين، مؤثرين
سخط الله على رضاه، قد انقلبت
عليهم الحقائق، فرأوا الباطل حقاً،
والحق باطلاً.

(١) في ب: الأحوال.

(٢) سبق فلم الشيخ - رحمه الله - فكتب: (حكيم خير) فصحتها، وأبقيت التفسير كما هو.

وكلّا آتينا حكماً وعلماً الآية .
 ﴿وقال﴾ شاكرين لربهما منته
 الكبرى بتعليمهما : ﴿الحمد لله الذي
 فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾
 فحمداً لله على جعلهما من المؤمنين ،
 أهل السعادة ، وأنهم كانوا من
 خواصهم .

ولا شك أن المؤمنين أربع درجات :
 الصالحون ، ثم فوقهم الشهداء ، ثم
 فوقهم الصديقون ، ثم فوقهم الأنبياء ،
 وداود وسليمان ، من خواص الرسل ،
 وإن كانوا دون درجة أولي العزم
 [الخمسة] ، لكنهم من جملة الرسل
 الفضلاء الكرام ، الذين نوه الله
 بذكرهم ، ومدحهم في كتابه مدحاً
 عظيماً ، فحمدوا الله على بلوغ هذه
 المنزلة ، وهذا عنوان سعادة العبد ، أن
 يكون شاكراً لله على نعمه الدينية
 والدنيوية ، وأن يرى جميع النعم من
 ربه ، فلا يفخر بها ولا يعجب بها ، بل
 يرى أنها تستحق عليه شكراً كثيراً ،
 فلما مدحهما مشتركين ، خص سليمان
 بما خصه به ، ليكون الله أعطاه ملكاً
 عظيماً ، وصار له من الماكرات ما لم
 يكن لأبيه ، صلى الله عليهما وسلم ،
 فقال : ﴿وورث سليمان داود﴾ أي :
 ورث علمه ونبوته ، فانضم علم أبيه إلى
 علمه ، فلعله تعلم من أبيه ما عنده من
 العلم ، مع ما كان عليه من العلم وقت
 أبيه ، كما تقدم من قوله ففهمناها
 سليمان ، وقال شكراً لله ، وتبجحاً
 بإحسانه ، وتحدثاً بنعمته : ﴿يا أيها
 الناس علمنا منطق الطير﴾ فكان عليه
 الصلاة [والسلام] يفقه ما تقول وتكلم
 به ، كما راجع الهدد وراجع ، وكما
 فهم قول النملة للنمل كما يأتي ، وهذا
 لم يكن لأحد غير سليمان عليه الصلاة
 والسلام .

﴿وأوتينا من كل شيء﴾ أي :
 أعطانا الله من النعم ، ومن أسباب
 الملك ، ومن السلطنة والقهر ، ما لم يؤت

الجيب ، فتخرج بيضاء في جملة تسع
 آيات ، تذهب بها وتدعو فرعون
 وقومه ، ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾
 فسقوا بشرهم وعتوهم وعلوهم على
 عباد الله ، واستكبارهم في الأرض
 بغير الحق .

فذهب موسى عليه السلام إلى
 فرعون وملئه ، ودعاهم إلى الله تعالى ،
 وأراهم الآيات . ﴿فلما جاءتهم آياتنا
 مبصرة﴾ مضيئة ، تدل على الحق ،
 ويبصر بها كما تبصر الأبصار
 بالشمس . ﴿قالوا هذا سحر مبين﴾ لم
 يكفهم مجرد القول بأنه سحر ، بل
 قالوا : ﴿مبين﴾ ظاهر لكل أحد . وهذا
 من أعجب العجائب ، الآيات
 المبصرة ، والأنوار الساطعات ، تجعل
 من أبين الخزعبلات وأظهر السحرا
 هل هذا إلا من أعظم المكابرة ، وأوقع
 السفطة .

﴿وجحدوا بها﴾ أي : كفروا
 بآيات الله ، جاحدين لها ،
 واستيقنتها أنفسهم ﴿أي : ليس
 جحدهم مستنداً إلى الشك والريب ،
 وإنما جحدهم مع علمهم ويقينهم﴾^(١)
 بصحتها ﴿ظلماً﴾ منهم لحق ربهم
 ولأنفسهم ، ﴿وعلواً﴾ على الحق وعلى
 العباد ، وعلى الانقياد للرسل ، ﴿فانظر
 كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أسوأ
 عاقبة ، دمرهم الله وغرّهم في البحر ،
 وأخزاهم ، وأورث مساكنهم
 المستضعفين من عباده .

﴿١٥ - ٤٤﴾ ﴿ولقد آتينا داود
 وسليمان علماً وقال الحمد لله الذي
 فضلنا على كثير من عباده المؤمنين﴾
 وورث سليمان داود إلى آخر القصة .
 يذكر في هذا القرآن ، وينوه بمتته على
 داود وسليمان ابنه ، بالعلم الواسع
 الكثير ، بدليل التنكير ، كما قال تعالى :
 ﴿وداود وسليمان إذ يحكمان في
 الحرث إذ نفثت فيه غنم القوم وكنا
 لحكمهم شاهدين﴾ ففهمناها سليمان

(١) في ب : يتيقنهم .

(٢) في النسختين : فقال : (رب هب) وهو خطأ .

(٣) في أ : في بعض في .



أحداً من آدميين ، ولهذا دعا ربه
 فقال : ﴿وهب﴾ لي ملكاً لا ينبغي
 لأحد من بعدي ﴿فسخر الله له
 الشياطين ، يعملون له كل ما شاء ، من
 الأعمال التي يعجز عنها غيرهم ،
 وسخر له الريح ، غدوها شهر
 ورواحها شهر .

﴿إن هذا﴾ الذي أعطانا الله وفضلنا
 واختصنا به ﴿لهو الفضل المبين﴾
 الواضح الجلي ، فاعترف أكمل اعتراف
 بنعمة الله تعالى .

﴿وحشر لسليمان جنوده من الجن
 والإنس والطير فهم يوزعون﴾ أي :
 جمع له جنوده الكثيرة الهائلة المتنوعة ،
 من بني آدم ، ومن الجن والشياطين ،
 ومن الطيور فهم يوزعون ، يدبرون ،
 ويرد أولهم على آخرهم ، وينظمون
 غاية التنظيم في سيرهم ونزولهم ،
 وحلهم وترحالهم قد استعد لذلك ،
 وأعد له عدته ، وكل هذه الجنود مؤطرة
 بأمره ، لا تقدر على عصيانه ، ولا
 تتمرد عنه ، قال تعالى : ﴿هذا عطاؤنا
 فامنن أو أمسك﴾ أي : أعط بغير
 حساب ، فسار بهذه الجنود الضخمة في
 بعض أسفاره^(٣) .

﴿حتى إذا أتوا على وادي النمل

والجبروت. والرسل منزهون عن ذلك.

وقال شاكرًا لله الذي أوصله إلى هذه الحال: ﴿رب أوزعني﴾ أي: ألهمني ووفقي ﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾ فإن النعمة على الوالدين نعمة على الولد. فسأل ربه التوفيق لقيام بشكر نعمته، الدينية والدنيوية، عليه وعلى والديه، ﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ أي: ووفقي أن أعمل صالحاً ترضاه، لكونه موافقاً لأمرك، مخلصاً فيه، سالماً من المفسدات والمنقصات، ﴿وادخلني برحمتك﴾ التي منها الجنة ﴿في﴾ جملة ﴿عبادك الصالحين﴾ فإن الرحمة مجعولة للصالحين على اختلاف درجاتهم ومنازلهم. فهذا نموذج ذكره الله من حالة سليمان عند سماع خطاب النملة ونداءها.

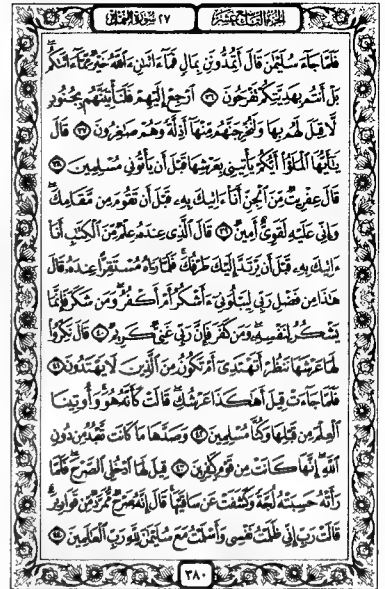
ثم ذكر نموذجاً آخر من مخاطبته للطير، فقال: ﴿وتفقد الطير﴾ دل هذا على كمال عزمه وحزمه، وحسن تنظيمه لجنوده، وتدييره بنفسه للأمور الصغار والكبار، حتى إنه لم يهمل هذا الأمر، وهو تفقد الطيور، والنظر: هل هي موجودة كلها، أم مفقودة منها شيء؟ وهذا هو المعنى للآية. ولم يصنع شيئاً من قال: إنه تفقد الطير، لينظر أين الهدهد منها^(١)، ليدله على بعد الماء وقربه، كما زعموا عن الهدهد، أنه يبصر الماء تحت الأرض الكثيفة، فإن هذا القول لا يدل عليه دليل، بل الدليل العقلي واللفظي دال على بطلانه، أما العقلي، فإنه قد عرف بالعادة والتجارب والملاحظات، أن هذه الحيوانات كلها، ليس منها شيء يبصر هذا البصر الخارق للعادة، ينظر الماء تحت الأرض الكثيفة، ولو كان كذلك، لذكره الله، لأنه من أكبر الآيات.

وأما الدليل اللفظي، فلو أريد هذا المعنى، لقال: ﴿وطلب الهدهد لينظر له الماء، فلما فقده قال ما قال﴾ أو ﴿فتش عن الهدهد﴾، أو: ﴿بحث عنه﴾ ونحو

ذلك من العبارات، وإنما تفقد الطير، لينظر الحاضر منها والغائب، ولزومها للمراكز والمواضع التي عينها لها. وأيضاً فإن سليمان عليه السلام، لا يحتاج ولا يضطر إلى الماء، بحيث يحتاج لهندسة الهدهد، فإن عنده من الشياطين والعفاريت، ما يحفرون له الماء، ولو بلغ في العمق ما بلغ. وسخر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فكيف - مع ذلك - يحتاج إلى الهدهد؟!!

وهذه التفسيرات التي توجد، وتشتهر بها أقوال، لا يعرف غيرها، تنقل هذه الأقوال عن بني إسرائيل مجردة، ويفعل الناقل عن مناقضتها للمعاني الصحيحة، وتطبيقها على الأقوال، ثم لا تزال تتناقل، وينقلها المتأخر مسلماً للمتقدم، حتى يظن أنها الحق، فيقع من الأقوال الردية في التفسيرات ما يقع، واللييب الفطن، يعرف أن هذا القرآن الكريم، العربي المبين، الذي خاطب الله به الخلق كلهم، عالمهم وجاهلهم، وأمرهم بالتفكير في معانيه، وتطبيقها على ألفاظه العربية المعروفة المعاني، التي لا تجهلها العرب العرباء، وإذا وجد أقوالاً منقولة عن غير رسول الله ﷺ، ردها إلى هذا الأصل، فإن وافقت قبلها، لكون اللفظ دالاً عليها، وإن خالفته لفظاً ومعنى، أو لفظاً أو معنى، ردها وجزم ببطلانها، لأن عنده أصلاً معلوماً مناقضاً لها، وهو ما يعرفه من معنى الكلام ودلالته.

والشاهد، أن تفقد سليمان عليه السلام للطير، وفقده الهدهد، يدل على كمال حزمه وتدييره الملك بنفسه، وكمال فطنته، حتى فقد هذا الطائر الصغير ﴿فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائين﴾ أي: هل عدم رؤيتي إياه، لقلة فطنتي به، لكونه خفياً بين هذه الأمم الكثيرة؟ أم على بابها، بأن كان غائباً من غير إذني ولا أمري؟ فحينئذ تغيط عليه وتوعده، فقال:



قالت نملة: ﴿منية لرفقتها وبني جنسها﴾: يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون﴾ فنصحت هذه النملة، وأسهمت النمل، إما بنفسها، ويكون الله قد أعطى النمل أسماً خارقاً للعادة، لأن التنبيه للنمل، الذي قد ملأ الوادي بصوت نملة واحدة، من أعجب العجائب. وإما بأنها أخبرت من حولها من النمل، ثم سرى الخبر من بعضهم لبعض حتى بلغ الجميع، وأمرتهن بالخذر، والطريق في ذلك، وهو دخول مساكنهن.

وعرفت حالة سليمان وجنوده، وعظمة سلطانه، واعتذرت عنهم، أنهم إن حطموكم، فليس عن قصد منهم ولا شعور، فسمع سليمان عليه الصلاة والسلام قولها وفهمه، ﴿فتبسم ضاحكاً من قولها﴾ إعجاباً منه بفصاحتها^(٢) ونصحها، وحسن تعبيرها. وهذا حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، الأدب الكامل، والتعجب في موضعه، وأن لا يبلغ بهم الضحك إلا إلى التبسم، كما كان الرسول ﷺ مجلّ ضحكه التبسم، فإن القهقهة تدل على خفة العقل وسوء الأدب. وعدم التبسم والعجب مما يتعجب منه، يدل على شراسة الخلق

المطر، وإنابت النبات، ويخرج خبء الأرض عند النفخ في الصور وإخراج الأموات من الأرض، ليجازيهم بأعمالهم **﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾**.

﴿الله لا إله إلا هو﴾ أي: لا تنبغي العبادة، والإنابة، والذل، والحب، إلا له، لأنه المألوه، لما له من الصفات الكاملة، والنعم الموجبة لذلك. **﴿رب العرش العظيم﴾** الذي هو سقف المخلوقات، ووسع الأرض والسموات، فهذا الملك عظيم السلطان، كبير الشأن، هو الذي يذل له ويخضع، ويسجد له ويركع، فسلم الهدهد حين ألقى إليه هذا النبأ العظيم، وتعجب سليمان كيف خفي عليه.

وقال متبناً لكمال عقله ورزاقته: **﴿سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾** اذهب بكتابي هذا **﴿وسأتي نصه﴾** **﴿فألقه إليهم ثم تول عنهم﴾** أي: استأخر غير بعيد **﴿فانظر ماذا يرجعون﴾** إليك وما يترجعون به. فذهب به فألقاه عليها، فقالت لقومها: **﴿إني ألقى إلي كتاب كريم﴾** أي: جليل المقدار، من أكبر ملوك الأرض.

ثم بينت مضمونه فقالت: **﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾** **﴿ألا تعملوا عليّ وآتوني مسلمين﴾** أي: لا تكونوا فوقني، بل اخضعوا تحت سلطاني، وانقادوا لأوامري، وأقبلوا إلي مسلمين.

وهذا في غاية الجازاة مع البيان التام، فإنه تضمن نهيهم عن العلو عليه، والبقاء على حالهم التي هم عليها، والانقياد لأمره، والدخول تحت طاعته، ومجيئهم إليه، ودعوتهم إلى الإسلام، وفيه استحباب ابتداء الكتب بالبسملة كاملة، وتقديم الاسم في أول عنوان الكتاب، فمن حزمها وعقلها، أن جمعت كبار دولتها ورجال مملكتها، وقالت: **﴿يا أيها الملأ أفتوني**

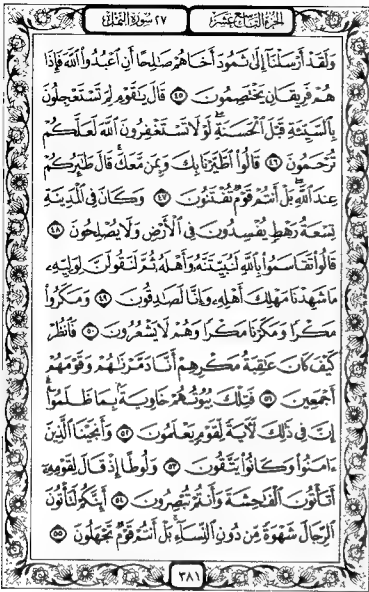
﴿لأعذبنه عذاباً شديداً﴾ دون القتل، **﴿أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين﴾** أي: حجة واضحة على تخلفه، وهذا من كمال ورعه وإنصافه، أنه لم يقسم على مجرد عقوبته بالعذاب أو القتل، لأن ذلك لا يكون إلا من ذنب، وغيبته قد تحتمل أنها لعذر واضح، فلذلك استثناه، لورعه وفطنته.

﴿فمكث غير بعيد﴾ ثم جاء، وهذا يدل على هيبة ^(١) جنوده منه، وشدة استثمارهم لأمره، حتى إن هذا الهدهد، الذي خلفه العذر الواضح، لم يقدر على التخلف زمناً كثيراً، **﴿فقال﴾** لسليمان: **﴿أحطت بما لم تحط به﴾** أي: عندي من العلم علم ما أحطت به، على علمك الواسع، وعلو درجتك فيه، **﴿وجئتك من سبأ﴾** القبيلة المعروفة في اليمن **﴿بنياً يقين﴾** أي: خبر متيقن.

ثم فسر هذا النبأ فقال: **﴿إني وجدت امرأة تملكهم﴾** أي: تملك قبيلة سبأ، وهي امرأة، **﴿وأوتيت من كل شيء﴾** يؤتاها الملوك، من الأموال، والسلاح، والجنود، والحصون، والقلاع، ونحو ذلك. **﴿ولها عرش عظيم﴾** أي: كرسي ملكها الذي تجلس عليه، عرش هائل، وعظم العروش تدل على عظمة المملكة وقوة السلطان وكثرة رجال الشورى.

﴿وجدها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾ أي: هم مشركون يعبدون الشمس. **﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾** فرأوا ما هم عليه هو الحق، **﴿فهم لا يهتدون﴾** لأن الذي يرى أن الذي عليه حق، لا مطعم في هدايته حتى تتغير عقيدته.

ثم قال: **﴿ألا﴾** أي: هلا **﴿يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض﴾** أي: يعلم الخفي الخبيء، في أقطار السماوات، وأنحاء الأرض، من صغار المخلوقات، وبذور النباتات، وخفايا الصدور، ويخرج خبء الأرض والسماء، بإنزال



في أمري **﴿أي: أخبروني، ماذا نجيبه به؟ وهل ندخل تحت طاعته وننقاد؟ أم ماذا نفعل؟﴾** ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون **﴿أي: ما كنت مستبدة بأمر دون رأيكم ومشورتكم﴾**.

ف **﴿قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد﴾** أي: إن رددت عليه قوله، ولم تدخل في طاعته، فإننا أقوياء على القتال، فكأنهم مالوا إلى هذا الرأي، الذي لو تم لكان فيه دمارهم، ولكنهم أيضاً لم يستقروا عليه، بل قالوا: **﴿الامر إليك﴾** أي: الرأي: ما رأيت، لعلهم بعقلها وحزمها، ونصحها لهم **﴿فانظري﴾** نظر فكر وتدبر **﴿ماذا تأمرين﴾**.

فقلت لهم - مقنعة لهم عن رأيهم، ومبينة سوء مغية القتال - **﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾** قتلاً، وأسراً، ونهباً لأموالها، وتخريباً لديارها، **﴿وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾** أي: جعلوا الرؤساء السادة أشرف الناس من الأذلين، أي: فهذا رأي: غير سعيد، وأيضاً، فلست بمطبعة له قبل الاختبار وإرسال من يكشف عن أحواله ويتدبرها، وحيثئذ نكون على بصيرة من أمرنا، فقالت: **﴿وإني مرسله إليهم بهدية فنانظرة بـم يرجع المرسلون﴾** منه. هل يستمر على رأيه

لعقلها ﴿أهتدي﴾ للصواب، ويكون عندها ذكاء وفطنة تليق بملكها ﴿أم تكون من الذين لا يهتدون﴾.

﴿فلما جاءت﴾ قادمة على سليمان، عرض عليها عرشها، وكان عهدها به، قد خلفته في بلدها، و ﴿قيل لها أهلكذا عرشك﴾ أي: أنه استقر عندنا أن لك عرشاً عظيماً، فهل هو كهذا العرش الذي أحضرناه لك؟ ﴿قالت كأنه هو﴾ وهذا من ذكائها وفطنتها، لم تقل «هو» لوجود التغيير فيه والتذكير، ولم تنف أنه هو، لأنها عرفت، فأنت بلفظ محتمل للأمرين، صادق على الحالين، فقال سليمان متعجباً من هدايتها وعقلها، وشاكراً لله أن أعطاه أعظم منها: ﴿وأوتينا العلم من قبلها﴾ أي: الهداية، والعقل، والحزم، من قبل هذه الملكة، ﴿وكننا مسلمين﴾ وهي الهداية النافعة الأصلية.

ويحتمل أن هذا من قول ملكة سبأ: «وأوتينا العلم عن ملك سليمان وسلطانه، وزيادة اقتداره، من قبل هذه الحالة التي رأينا فيها قدرته على إحضار العرش من المسافة البعيدة، فأدعنا له، وجئنا مسلمين له، خاضعين لسلطانه».

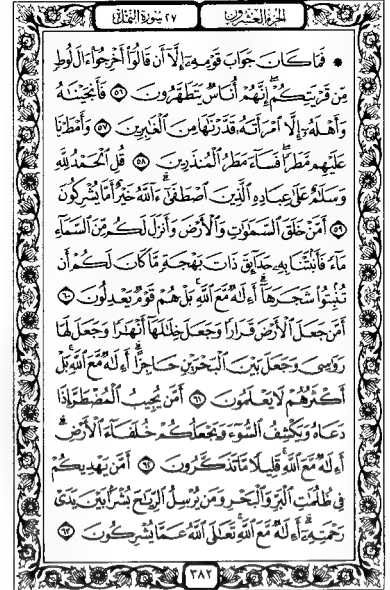
قال الله تعالى: ﴿وصدّها ما كانت تعبد من دون الله﴾ أي: عن الإسلام، وإلا، فلها من الذكاء والفطنة ما به تعرف الحق من الباطل، ولكن العقائد الباطلة تذهب بصيرة القلب ﴿إنها كانت من قوم كافرين﴾ فاستمرت على دينهم، وانفراد الواحد عن أهل الدين، والعادة المستمرة بأمر يراه بعقله من ضلالهم وخطئهم، من أندر ما يكون، فلهذا لا يستغرب بقاؤها على الكفر، ثم إن سليمان أراد أن ترى من سلطانه ما يبهّر العقول، فأمرها أن تدخل الصرح، وهي المجلس المرتفع المتسع، وكان مجلساً من قوارير، تجري تحته الأنهار.

﴿قيل لها ادخلي الصرح فلما رأتها حسبت لجة﴾ ماء، لأن القوارير شفاقة،

﴿أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين﴾ والظاهر أن سليمان إذ ذاك في الشام، فيكون بينه وبين سبأ نحو مسيرة أربعة أشهر، شهران ذهاباً، وشهران إياباً، ومع ذلك، يقول هذا العفريت: أنا ألترم بالمجيء به، على كبره وثقله وبُعده، قبل أن تقوم من مجلسك الذي أنت فيه. والمتعاد من المجالس الطويلة، أن تكون معظم الضحى، نحو ثلث يوم، هذا نهاية المعتاد، وقد يكون دون ذلك، أو أكثر، وهذا الملك العظيم، الذي عند أحاد رعيته هذه القوة والقدرة، وأبلغ من ذلك أن ﴿قال الذي عنده علم من الكتاب﴾: قال المفسرون: هو رجل عالم صالح، عند سليمان يقال له: «أصف بن برخيا» كان يعرف اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى.

﴿أنا أتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك﴾ بأن يدعو الله بذلك الاسم، فيحضر حالاً، وأنه دعا الله فحضر. فالله أعلم [هل هذا المراد أم أن عنده علماً من الكتاب يقتدر به على جلب البعيد وتحصيل الشديد] ^(١).

﴿فلما رآه﴾ سليمان ﴿مستقراً عنده﴾ حمد الله تعالى على إقداره وملكه، وتيسير الأمور له، و ﴿قال هذا من فضل ربي ليبلوني﴾ أشكر أم أكفر؟ أي: ليختبرني بذلك. فلم يغتر عليه السلام بملكه وسلطانه وقدرته، كما هو دأب الملوك الجاهلين، بل علم أن ذلك اختبار من ربه، فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة، ثم بين أن الشكر لا ينتفع الله به، وإنما يرجع نفعه إلى صاحبه، فقال: ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾ غني عن أعماله، كريم، كثير الخير، يعم به الشاكر والكافر، إلا أن شكر نعمه داع للمزيد منها، وكفرها داع لزوالها، ثم قال لمن عنده: ﴿نكروا لها عرشها﴾ أي: غيروها بزيادة ونقص، ونحو ذلك ﴿ننظر﴾ مختبرين



وقوله؟ أم تحدعه الهدية، وتبدل فكرته، وكيف أحواله وجنوده؟

فأرسلت له هدية مع رسل من عقلاء قومها، وذوي الرأي: منهم، ﴿فلما جاء سليمان﴾ أي: جاءه الرسل بالهدية ﴿قال﴾ منكرأ عليهم ومتغيظاً على عدم إجابتهم: ﴿أتمدنون بما لم آتاني الله خير مما آتاكم﴾ فليست تقع عندي موقعاً، ولا أفرح بها، قد أغتاني الله عنها، وأكثر علي النعم، ﴿بل أنتم بهديتكم تفرحون﴾ لحبكم للدنيا، وقلة ما بأيديكم بالنسبة لما أعطاني الله.

ثم أوصى الرسول من غير كتاب، لما رأى من عقله، وأنه سينقل كلامه على وجهه، فقال: ﴿ارجع إليهم﴾ أي: بهديتك ﴿فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم﴾ أي: لا طاقة لهم بها ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون ﴿فرجع إليهم، وأبلغهم ما قال سليمان، وتجهزوا للمسير إلى سليمان، وعلم سليمان أنهم لا بد أن يسيروا إليه، فقال لمن حضره من الجن والإنس: ﴿أيكم يأتيني بعرضها قبل أن يأتوني مسلمين﴾ أي: لأجل أن تنصرف فيه قبل أن يسلموا، فتكون أموالهم محترمة، ﴿قال عفريت من الجن والعفريت: هو القوي الشيط جداً:

وهباته وعدله، وحكمته في عقوبته المكذبين وتعذيب الظالمين، وسلم أيضاً على عباده، الذين تخيرهم واصطفاهم على العالمين، من الأنبياء والمرسلين، وصفوة الله من العالمين، وذلك لرفع ذكرهم، وتنوياً بقدرهم، وسلامتهم من الشر والأدناس، وسلامة ما قالوه في ربهم من النقاص والعيوب.

﴿الله خير أما يشركون﴾ وهذا استفهام قد تقرر وعرف، أي: الله الرب العظيم، كامل الأوصاف، عظيم اللطاف، خير أم الأصنام والأوثان التي عبدوها معه، وهي ناقصة من كل وجه، لا تنفع ولا تضر، ولا تملك لأنفسها ولا لعبادها مثقال ذرة من الخير، فالله خير مما يشركون.

ثم ذكر تفاصيل ما به يعرف ويتعين أنه الإله المعبود، وأن عبادته هي الحق، وعبادة [ما] سواه هي الباطل، فقال:

﴿٦٠﴾ ﴿أَنَّنِ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُم أَن تَنبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِلَهُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾.

أي: من خلق السماوات وما فيها، من الشمس والقمر والنجوم والملائكة، والأرض وما فيها، من جبال وبحار وأنهار وأشجار وغير ذلك؟

﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ أي: لأجلكم ﴿من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بَهْجَةٍ﴾ أي: بساتين ﴿ذات بَهْجَةٍ﴾ أي: حسن منظر، من كثرة أشجارها وتنوعها، وحسن ثمارها، ﴿ما كان لكم أن تنبتوا شجرها﴾ لولا مئة الله عليكم بإنزال المطر. ﴿أليس مع الله﴾ فعل هذه الأفعال، حتى يعبد معه ويشرك به؟ ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ به غيره، ويسوون به سواه، مع علمهم أنه وحده خالق العالم العلوي والسفلي، ومنزل الرزق.

﴿٦١﴾ ﴿أَنَّنِ جَعَلُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلُ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلُ لَهَا رِوَاسِي

فَكَانَ قِيلَ: ما نَقَمْتُمْ مِنْهُمْ، وَمَا ذَنْبُهُمُ الَّذِي أَوْجِبَ لَهُمُ الْإِخْرَاجَ، فَقَالُوا: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُفْرِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ رِجَالٌ مُّشْرِكُونَ﴾. وَتَنَزَّهُونَ عَنِ اللُّوَاطِ وَأَدْبَارِ الذُّكُورِ. فَجَعَلُوا أَفْضَلَ الْحَسَنَاتِ بِمَنْزِلَةِ أَقْبَحِ السَّيِّئَاتِ، وَلَمْ يَكْتَفُوا بِمَعْصِيَتِهِمْ لِنَبِيِّهِمْ فِيمَا وَعَدَهُمْ بِهِ، حَتَّى وَصَلُوا إِلَى إِخْرَاجِهِ، وَالبَلَاءِ مُوَكَّلٌ بِالْمَنْطِقِ، فَهَمَّ قَالُوا: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُفْرِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ رِجَالٌ مُّشْرِكُونَ﴾.

ومفهوم هذا الكلام: «وأنتم متلوثون بالخبث والقذر، المقتضي لنزول العقوبة بقريتكم، ونجاة من خرج منها».

ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَنبِئْهُمْ وَأَهْلِهِ إِلا أَمْرَاتُهُ قَدْ رَأَوْهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ وذلك لما جاءته الملائكة في صورة أضياف، وسمع بهم قومه، فجاءوا إليه يريدونهم بالشر، وأغلق الباب دونهم، واشتد الأمر عليه، ثم أخبرته الملائكة عن جليلة الحال، وأنهم جأؤوا لاستنقاده وإخراجه من بين أظهرهم، وأنهم يريدون إهلاكهم، وأن موعدهم الصبح، وأمروه أن يسري بأهله ليلاً، إلا أمراته فإنه سيصيبها ما أصابهم، فخرج بأهله ليلاً، فنجوا، وصبحهم العذاب، فقلب الله عليهم ديارهم، وجعل أعلاها أسفلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك.

ولهذا قال هنا: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ أي: بشس المطر مطرهم، وبشس العذاب عذابهم، لأنهم أئذروا وخوفوا، فلم يترجروا ولم يتردعوا، فأحل الله بهم عقابه الشديد.

﴿٥٩﴾ ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى أَلَيْسَ خَيْرًا مِّمَّا يَشْرِكُونَ﴾ أي: قل «الحمد لله» الذي يستحق كمال الحمد والمدح والثناء، لكمال أوصافه، وجليل معرفته،



لقومه - داعياً لهم إلى الله وناصحاً -: ﴿أَنَاتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ أي: الفعل الشنعاء، التي تستفحشها العقول والفطر، وتستفحشها الشرائع ﴿وأنتم تبصرون﴾ ذلك، وتعلمون قبحه، فعانذتم، واركتبتم ذلك، ظلماً منكم وجراً على الله.

ثم فسر تلك الفاحشة، فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي: كيف توصلتم إلى هذه الحال، صارت شهوتكم للرجال، وأدبارهم محل الغائط والتجوو والخبث، وتركتم ما خلق الله لكم من النساء، من المحال الطيبة، التي جبلت النفوس إلى الميل إليها وأنتم انقلب عليكم الأمر، فاستحسنتم القبيح، واستقبحتم الحسن، ﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾ متجاوزون لحدود الله، متجرؤون على محارمه.

﴿فما كان جواب قومه﴾ قبول ولا انزجار، ولا تذكر وإدكار، إنما كان جوابهم المعارضة والناقضة، والتوعد لنبيهم الناصح ورسولهم الأمين، بالإجلاء عن وطنه، والتشريد عن بلده. فما كان جواب قومه ﴿إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم﴾

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فذهب إلى آية الاعراف فكتب: ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ وفسرها على هذا، فصححت الآية،

وأبقيت التفسير كما هو.

السماوات والأرض الغيب إلا الله وما يشعرون أيان يبعضون * بل أذكرك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون * وقال الذين كفروا إذا كنا تراباً وأبأؤنا أننا لمخرجون * لقد وعدنا هذا نحن وأبأؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين * يخبر تعالى أنه المنقرد بعلم غيب السماوات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾ وكقوله: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ إلى آخر السورة.

فهذه الغيوب ونحوها، اختص الله بعلمها، فلم يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، وإذا كان هو المنقرد بعلم ذلك، المحيط علمه بالسرائر والبواطن والخفايا، فهو الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ثم أخبر تعالى عن ضعف علم المكذبين بالآخرة، منتقلاً من شيء إلى ما هو أبلغ منه، فقال:

﴿وما يشعرون﴾ أي: وما يدرون ﴿أيان يبعثون﴾ أي: متى البعث والنشور، والقيام من القبور، أي: فلذلك لم يستعدوا، ﴿بل أذكرك علمهم في الآخرة﴾ أي: بل ضعف، وقُلْ ولم يكن يقيناً، ولا علماً وأصل إلى القلب، وهذا أقل وأدنى درجة للعلم، ضعفه وهماؤه، بل ليس عندهم علم، ولا ضعيف، وإنما هم في شك منها، أي: من الآخرة، والشك زال به العلم، لأن العلم بجميع مراتبه، لا يجامع الشك، ﴿بل هم منها﴾ أي: من الآخرة ﴿عمون﴾ قد عميت عنها بصائرهم، ولم يكن في قلوبهم من وقوعها ولا احتمال، بل أنكروها واستبعدوها، ولهذا قال: ﴿وقال الذين كفروا إذا كنا تراباً وأبأؤنا أننا لمخرجون﴾ أي: هذا بعيد غير ممكن، قاسوا قدرة كامل القدرة بقدرهم الضعيفة، ﴿لقد وعدنا هذا﴾ أي: البعث ﴿نحن وأبأؤنا من قبل﴾ أي:

تذكرون﴾ أي: قليل تذكركم وتذكركم للأمور، التي إذا تذكروها اذكرتم ورجعتم إلى الهدى، ولكن الغفلة والإعراض شامل لكم، فلذلك ما أرويتم ولا اهتديتم.

﴿٦٣﴾ ﴿أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ أي: مع الله تعالى الله عما يشركون﴾ أي: من هو الذي يهديكم حين تكونون في ظلمات البر والبحر، حيث لا دليل، ولا معلم يرى، ولا وسيلة إلى النجاة إلا هدايته لكم، وتيسيره الطريق، وجعل ما جعل لكم من الأسباب التي تهتدون بها، ﴿ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ أي: بين يدي المطر، فيرسلها، فتثير السحاب، ثم تؤلفه، ثم تجمعها، ثم تلقحها، ثم تدره، فيستبشر بذلك العباد، قبل نزول المطر. ﴿إله مع الله﴾ فعل ذلك؟ أم هو وحده، الذي انفرد به؟ فلم أشركم معه غيره، وعبدتم سواه؟ ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ تعاضم وتنزه وتقدس عن شركهم وتساويتهم به غيره.

﴿٦٤﴾ ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض إله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي: من هو الذي يبدأ الخلق، وينشئ المخلوقات، ويبتدئ خلقها، ثم يعيد الخلق يوم البعث والنشور؟ ومن يرزقكم من السماء والأرض، بالمطر والنبات؟ ﴿إله مع الله﴾ يفعل ذلك، ويقدر عليه؟ ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ أي: حججتكم ودليلكم على ما قلتم ﴿إن كنتم صادقين﴾ وإلا، فبتقدير أنكم تقولون: إن الأصنام لها مشاركة له، في شيء من ذلك، فذلك مجرد دعوى، صدقوها بالبرهان، وإلا، فاعرفوا أنكم مبطلون، لا حجة لكم، فارجعوا إلى الأدلة القينية والبراهين القطعية الدالة على أن الله هو المنفرد بجميع التصرفات، وأنه المستحق أن تصرف له جميع أنواع العبادات.

﴿٦٥ - ٦٨﴾ ﴿قل لا يعلم من في

وجعل بين البحرين حاجزاً إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي: هل الأصنام والأوثان، الناقصة من كل وجه، التي لا فعل منها ولا رزق ولا نفع، خير؟ أم الله الذي ﴿جعل الأرض قراراً﴾ يستقر عليها العباد ويتمكنون من السكنى، والحراث، والبناء، والذهاب، والإياب. ﴿وجعل خلالها أنهاراً﴾ أي: جعل في خلال الأرض، أنهاراً ينتفع بها العباد، في زروعهم وأشجارهم، وشربهم وشرب مواشيهم.

﴿وجعل لها رواسي﴾ أي: جبلاً ترسيها وتثبتها، لثلاث غايات، وتكون أوتاداً لها، لثلاث اضطرب. ﴿وجعل بين البحرين﴾ البحر المالح والبحر العذب ﴿حاجزاً﴾ يمنع من اختلاطهما، فنفوت المنفعة المقصودة من كل منهما، بل جعل بينهما حاجزاً من الأرض، جعل مجرى الأنهار في الأرض مبعدة عن البحار، فيحصل منها مقاصدها ومصالحها، ﴿إله مع الله﴾ فعل ذلك، حتى يعدل به الله ويشرك به معه. ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ فيشركون بالله، تقليداً لرؤسائهم، وإلا فلو علموا حق العلم، لم يشركوا به شيئاً.

﴿٦٦﴾ ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إله مع الله قليلاً ما تذكرون﴾ أي: هل يجيب المضطر، الذي أقلقته الكروب، وتعسر عليه المطلب، واضطر للخلاص مما هو فيه، إلا الله وحده؟ ومن يكشف السوء، أي: البلاء والشر والنقمة، إلا الله وحده؟ ومن يجعلكم خلفاء الأرض، يمكنكم منها، ويمد لكم بالرزق، ويوصل إليكم نعمه، وتكونون خلفاء من قبلكم، كما أنه سيميتكم، ويأتي بقوم بعدكم، إله مع الله يفعل هذه الأفعال؟ لا أحد يفعل مع الله شيئاً من ذلك، حتى بإقراركم أيها المشركون، ولهذا كانوا إذا مسهم الضر، دعوا الله مخلصين له الدين، لعلمهم أنه وحده المقتدر على دفعه وإزالته، ﴿قليلاً ما

معانيه، فهؤلاء تحصل لهم به الهداية إلى الصراط المستقيم، والرحمة المتضمنة للسعادة والفوز والفلاح.

﴿٧٨﴾ **﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾** أي: إن الله تعالى سيفصل بين المتخمين، وسيحكم بين المختلفين، بحكمه العدل، وقضائه القسط، فالأمور وإن حصل فيها اشتباه في الدنيا بين المختلفين، لحفاء الدليل، أو لبعض المقاصد، فإنه سيبين فيها الحق المطابق للواقع، حين يحكم الله فيها، **﴿وهو العزيز﴾** الذي قهر الخلائق فأذعنوا له، **﴿العليم﴾** بجميع الأشياء **﴿العليم﴾** بأقوال المختلفين، وعن ماذا صدرت، وعن غاياتها ومقاصدها، وسيجازي كلا بما علمه فيه.

﴿٧٩-٨١﴾ **﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾** * إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون * أي: اعتمد على ربك في جلب المصالح ودفع المضار، وفي تبليغ الرسالة، وإقامة الدين، وجهاد الأعداء. **﴿إنك على الحق المبين﴾** الواضح، والذي على الحق، يدعو إليه، ويقوم بنصرته، أحق من غيره بالتوكل، فإنه يسعى في أمر مجزوم به، معلوم صدقه، لا شك فيه ولا مرية. وأيضاً، فهو حق في غاية البيان، لا خفاء به ولا اشتباه، وإذا قمت بما حملت، وتوكلت على الله في ذلك، فلا يضرك ضلال من ضل، وليس عليك هداهم، فلهذا قال: **﴿إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء﴾** أي: حين تدعوهم وتناديهم، وخصوصاً **﴿إذا ولوا مدبرين﴾** فإنه يكون أبلغ في عدم إسماعهم.

﴿وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم﴾ كما قال تعالى: **﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾**. **﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾** أي: هؤلاء الذين ينقادون لك، الذين يؤمنون

لهم وقوع ما استعجلوه: **﴿قل عسى أن يكون ردف لكم﴾** أي: قرب منكم، وأوشك أن يقع بكم **﴿بعض الذي تستعجلون﴾** من العذاب.

﴿٧٣-٧٥﴾ **﴿وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾** * وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون * وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين * ينبه عباده، على سعة جوده، وكثرة أفضاله، ويحثهم على شكرها، ومع هذا، فأكثر الناس قد أعرضوا عن الشكر، واشتغلوا بالنعم عن المنعم. **﴿وإن ربك ليعلم ما تكن﴾** أي: تنطوي عليه **﴿صدورهم وما يعلنون﴾** فليحذروا من عالم السرائر والظواهر، وليراقبوه.

﴿وما من غائبة في السماء والأرض﴾ أي: خفية، وسر من أسرار العالم العلوي والسفلي، **﴿إلا في كتاب مبين﴾** قد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فكل حادث يحدث جلي أو خفي، إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ.

﴿٧٦-٧٧﴾ **﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾** * وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين * وهذا خبر عن هيمنة القرآن، على الكتب السابقة، وتفصيله وتوضيحه، لما كان فيها قد وقع فيه اشتباه واختلاف عند بني إسرائيل، فنقصه هذا القرآن قصاً زال به الإشكال، وبيّن الصواب من المسائل المختلف فيها. وإذا كان بهذه المثابة، من الجلالة والوضوح، وإزالة كل خلاف، وفصل كل مشكل، كان أعظم نعم الله على العباد، ولكن ما كل أحد يقابل النعمة بالشكر. ولهذا بين أن نفعه ونوره وهده، يختص بالمؤمنين، فقال: **﴿وإنه لهدى﴾** من الضلالة والغيّ والشبه **﴿ورحمة﴾** تشلج له صدورهم، وتستقيم به أمورهم الدينية والدنيوية **﴿للمؤمنين﴾** به، المصدقين له، المتلقين له بالقبول، المقبلين على تدبره، المتفكرين في

فلم يحنأ، ولا رأينا منه شيئاً. **﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾** أي: قصصهم وأخبارهم، التي تقطع بها الأوقات، وليس لها أصل، ولا صدق فيها.

فانتقل في الإخبار عن أحوال هؤلاء المكذبين بالإخبار أنهم لا يدرون متى وقت الآخرة، ثم الإخبار بضعف علمهم فيها، ثم الإخبار بأنه شك، ثم الإخبار بأنه عسى، ثم الإخبار بإنكارهم لذلك واستبعادهم وقوعه. أي: وبسبب هذه الأحوال ترخل خوف الآخرة من قلوبهم، فأقدموا على معاصي الله، وسهل عليهم تكذيب الحق، والتصديق بالباطل، واستحلوا الشهوات على القيام بالعبادات، ففسدوا دنياهم وأخرهم.

﴿٦٩﴾ **﴿ثم نبههم على صدق ما أخبرت به الرسل، فقال: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾** فلا تجدون مجرماً قد استمر على إجرامه، إلا وعاقبته شر عاقبة، وقد أحل الله به من الشر والعقوبة ما يليق بحاله.

﴿٧٠-٧٢﴾ **﴿ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون﴾** * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون * أي: لا تحزن يا محمد على هؤلاء المكذبين، وعدم إيمانهم، فإنك لو علمت ما فيهم من الشر، وأنهم لا يصلحون للخير، لم تأس ولم تحزن، ولا يضق صدرك، ولا تقلق نفسك بمكرهم، فإن مكرهم سيعود عاقبته عليهم، **﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾** ويقول المكذوبون بالمعاد، وبالحق الذي جاء به الرسول، مستعجلين للعذاب: **﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾** وهذا من سفاهة رأيهم وجهلهم، فإن وقوعه ووقته، قد أجله الله بأجله، وقدره بقدر، فلا يدل عدم استعجاله على بعض مطلوبهم.

ولكن - مع هذا - قال تعالى محذراً

السعدي غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين، وذلك في ٢٢ رمضان سنة ١٣٤٣.

المجلد السادس من تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، من منن الله على الفقير إلى العمد المبدئي: عبده وابن عبده وابن أمته: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدي غفر الله له وأمين.

تفسير سورة القصص وهي مكية

﴿١-٥١﴾ * بسم الله الرحمن الرحيم طسم * تلك آيات الكتاب المبين * نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون * إلى آخر القصة. * تلك الآيات المستحقة

للتعظيم والتفخيم * آيات الكتاب المبين * لكل أمر يحتاج إليه العباد، من معرفة ربهم، ومعرفة حقوقه، ومعرفة أوليائه وأعدائه، ومعرفة وقائعه وأيامه، ومعرفة ثواب الأعمال، وجزاء العمال، فهذا القرآن قد بينها غاية التبیین، وجلأها للعباد ووضحها.

من جملة ما أبان، قصة موسى وفرعون، فإنه أبداها، وأعادها في عدة مواضع، ويسطها في هذا الموضع فقال: ﴿نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق﴾. فإن نبأها غريب، وخبرها عجيب.

﴿لقوم يؤمنون﴾ فالإيم يساق الخطاب، ويوجه الكلام، حيث إن معهم من الإيمان ما يقبلون به على تدبر ذلك، وتلقفه بالقبول والاهتداء بمواقع العبر، ويزدادون إيماناً و يقيناً، وخيراً إلى خيرهم، وأما من عداهم، فلا يستفيدون منه إلا إقامة الحجة عليهم، وصانه الله عنهم، وجعل بينهم وبينه حجاباً أن يفقهوه، فأول هذه القصة ﴿إن فرعون علاني الأرض﴾ في ملكه وسلطانه وجنوده وجبروته، فصار من أهل العلو فيها، لا من الأعلى فيها. ﴿وجعل أهلها

ألفاظه ومعانيه، فهذا الذي علي وقد أدبته، ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ نفعه يعود عليه، وثمرته عائدة إليه ﴿ومن ضل فقل إنما أنا من النذرين﴾ وليس بيدي من الهداية شيء.

﴿وقل الحمد لله﴾ الذي له الحمد في الأولى والآخرة، ومن جميع الخلق، خصوصاً أهل الاختصاص والصفوة من عباده، فإن الذي ينبغي أن يقع منهم من الحمد والثناء على ربهم، أعظم مما يقع من غيرهم لرفعة درجاتهم، وكمال قربهم منه، وكثرة خيراته عليهم.

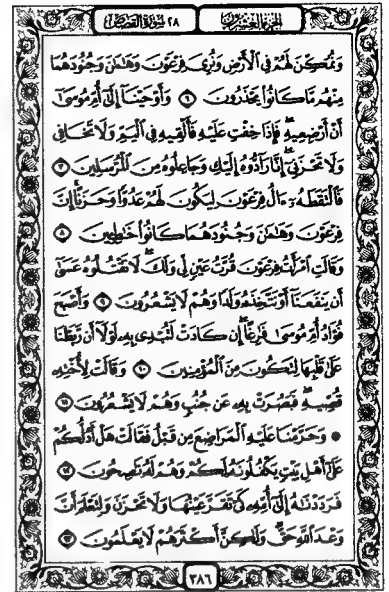
﴿سيريكم آياته فتمرّفونها﴾ معرفة تدلّكم على الحق والباطل، فلا بد أن يريكم من آياته ما تستنيرون به في الظلمات. ﴿لهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة﴾.

﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بل قد علم ما أنتم عليه من الأعمال والأحوال، وعلم مقدار جزاء تلك الأعمال، وسيحكم بينكم حكماً محموداً عليه، ولا يكون لكم حجة بوجه من الوجوه عليه.

تم تفسير سورة النمل بفضل الله وإعائته وتيسيره

ونسأله تعالى أن لا تزال ألطافه ومعونته مستمرة علينا، وواصله منه إلينا، فهو أكرم الأكرمين، وخير الراحمين، وموصل المنقطعين، ومحجّب السائلين، ميسر الأمور العسيرة، وفتاح أبواب بركاته، ومجزّل في جميع الأوقات هباته، ميسر القرآن للمتذكرين، ومسهل طرقه وأبوابه للمقبلين، وممد مائدة خيراته وميراثه للمتفكرين، والحمد لله رب العالمين. وصلّى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

على يد جامعته وممليه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله



﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾ أي: من الأمر الذي فزع الخلق لأجله آمنون، وإن كانوا يفرعون معهم.

﴿ومن جاء بالسيئة﴾ اسم جنس، يشمل كل سيئة ﴿فكتب وجوههم في النار﴾ أي: ألقوا في النار على وجوههم، ويقال لهم: ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾.

﴿٩١-٩٣﴾ * إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين * وأن اتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من النذرين * وقال الحمد لله سيريكم آياته فتمرّفونها وما ربك بغافل عما تعملون * أي: قل لهم يا محمد ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة﴾ أي: مكة المكرمة التي حرّمها وأنعم على أهلها، فيجب أن يقابلوا ذلك بالشكر والقبول. ﴿وله كل شيء﴾ من العلويات والسفليات، أتى به لثلاث يتوهم اختصاص ربوبيته بالبيت وحده. ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾^(١) أي: أبادر إلى الإسلام، وقد فعل ﷺ، فإنه أول هذه الأمة إسلاماً، وأعظمها استسلاماً، ﴿و﴾ أمرت أيضاً ﴿أن اتلو﴾ عليكم القرآن ﴿لتهتدوا به وتقتدوا وتعلموا﴾

(١) سبق قلم الشيخ - رحمه الله - فكتب: ﴿وأمرت أن أكون أول المسلمين﴾ وعلى هذا فسر الآية.



﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادة الله، المحسنين لخلق الله، نعطيهم علماً وحكماً بحسب إحسانهم، ودل هذا على كمال إحسان موسى عليه السلام.

﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ إما وقت القائلة، أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار. ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان﴾ أي: يتخاصمان ويتضاربان. ﴿هذا من شيعته﴾ أي: من بني إسرائيل. ﴿وهذا من عدوه﴾ القبط.

﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾ لأنه قد اشتهر، وعلم الناس أنه من بني إسرائيل، واستغاثه لموسى، دليل على أنه بلغ موسى عليه السلام مبلغاً يخاف منه، ويرجى من بيت الملكة والسلطان.

﴿فوكزه موسى﴾ أي: وكز الذي من عدوه، استجابة لاستغاثته الإسرائيلي، ﴿فقضى عليه﴾ أي: أماته من تلك الوكزة، لشدة وقوة موسى.

فندم موسى عليه السلام على ما جرى منه، و ﴿قال هذا من عمل الشيطان﴾ أي: من تزيينه ووسوسته، ﴿إنه عدو مضل مبين﴾ فلذلك أجزيت ما أجزيت بسبب عداوته البينة، وحرصه على الإضلال.

ثم استغفر ربه ف ﴿قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾ خصوصاً للمخبتين، المبادرين للإتابة والتوبة، كما جرى من موسى عليه السلام.

ف ﴿قال﴾ موسى ﴿رب بما أنعمت عليّ بالتوبة والمغفرة والنعيم الكثيرة، قلن أكون ظهيراً﴾ أي: معيناً ومساعداً ﴿للمجرمين﴾ أي: لا أعين أحداً على معصية، وهذا وعد من موسى عليه السلام، بسبب مئة الله عليه، أن لا يعين مجرماً، كما فعل في قتل القبطي. وهذا يفيد أن النعم تقتضي من العبد فعل الخير وترك الشر.

﴿ف﴾ لما جرى منه قتل الذي هو من عدوه ﴿أصبح في المدينة خائفاً

منه من قبول ثدي امرأة، فأخبروه إلى السوق رحمة به، ولعل أحداً يطلبه، فجاءت أخته، وهو بتلك الحال ﴿فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون﴾

وهذا جُل غرضهم، فإنهم أحبه حباً شديداً، وقد منعه الله من المراضع فخافوا أن يموت، فلما قالت لهم أخته تلك المقالة، المشتعلة على الترسيع في أهل هذا البيت، بتمام حفظه وكفالتها، والنصح له، بادروا إلى إيجابتها، فأعلمتهم ودلتهم على أهل هذا البيت.

﴿فرددناه إلى أمه﴾ كما وعدناها بذلك ﴿كي تفر عينها ولا تحزن﴾ بحيث إنه تربي عندها على وجه تكون فيه أمانة مطمئنة، تفرح به، وتأخذ الأجرة الكثيرة على ذلك، ولتعلم أن وعد الله حق، فأرسلناها بعض ما وعدناها به عياناً، ليطمئن بذلك قلبها، ويزداد إيمانها، ولتعلم أنه سيحصل وعد الله في حفظه ورسالته، ولكن أكثرهم لا يعلمون، فإذا رأوا السبب متشوشاً، شوش ذلك إيمانهم، لعدم علمهم الكامل، أن الله تعالى يجعل المحن الشاقة والعقبات الشاقة، بين يدي الأمور العالية والمطالب الفاضلة، فاستمر موسى عليه الصلاة والسلام عند آل فرعون، يتربى في سلطانه، ويركب مراكبهم، ويلبس ملابسهم، وأمه بذلك مطمئنة، قد استقر أنها أمه من الرضاع، ولم يستنكر ملازمته إياها وحنوها عليه.

وتأمل هذا اللطف، وصيانة نبيه موسى من الكذب في منطقه، وتيسير الأمر، الذي صار به التعلق بينه وبينها، الذي بان للناس أنه هو الرضاع، الذي بسببه يسميها أمّاً، فكان الكلام الكثير منه ومن غيره في ذلك كله صدقاً وحقاً.

﴿ولما بلغ أشده﴾ من القوة والعقل واللب، وذلك نحو أربعين سنة في الغالب، ﴿واستوى﴾ كملت فيه تلك الأمور، ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾ أي: حكماً يعرف به الأحكام الشرعية، ويحكم به بين الناس، وعلماً كثيراً.

[المقالات] في شأن موسى: ﴿وهم لا يشعرون﴾ ما جرى به القلم، ومضى به القدر، من وصوله إلى ما وصل إليه، وهذا من لطفه تعالى، فإنهم لو شعروا، لكان لهم وله شأن آخر.

ولما فقدت موسى أمه، حزنت حزناً شديداً، وأصبح فؤادها فارغاً من القلق الذي أزعجها، على مقتضى الحالة البشرية، مع أن الله تعالى نهاها عن الحزن والخوف، ووعدها برده.

﴿إن كادت لتبدي به﴾ أي: بما في قلبها ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ فثبتناها، فصبرت، ولم تبد به. ﴿لتكون﴾ بذلك الصبر والثبات ﴿من المؤمنين﴾ فإن العبد إذا أصابته مصيبة فصبر وثبت، ازداد بذلك إيمانه، ودل ذلك على أن استمرار الجزع مع العبد، دليل على ضعف إيمانه.

﴿وقالت﴾ أم موسى ﴿لأخته قصيه﴾ أي: اذهبي [فقصي الأثر عن أخيك وابحثي عنه من غير أن يحس بك أحد أو يشعروا بمقصودك فذهبت تقصه] ﴿فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾ أي: أبصرته على وجه، كأنها مارة لا قصد لها فيه.

وهذا من تمام الحزم والحذر، فإنها لو أبصرته، وجاءت إليهم قاصدة، لظنوا بها أنها هي التي ألقته، فربما عزموا على ذبحه، عقوبة لأهله. ومن لطف الله بموسى وأمه، أن

يترقب! هل يشعر به آل فرعون أم لا؟
وإنما خاف، لأنه قد علم، أنه
لا يتجرأ أحد على مثل هذه الحال
سوى موسى من بني إسرائيل.

فبينما هو على تلك الحال ﴿فإذا﴾
الذي استنصره بالأمس ﴿على عدوه﴾
﴿يستصرخه﴾ على قطي آخر. ﴿قال﴾
له موسى ﴿موبخاً له على حاله﴾ ﴿إنك﴾
لفؤي مبین ﴿أي: بين الغواية﴾ ظاهر
الجراءة ﴿فلما أن أراد أن يبطش﴾
موسى ﴿بالذي هو عدو لهما﴾ ﴿أي: له﴾
وللمخاصم المستصرخ ﴿أي: لم يزل﴾
اللجاج بين القبطي والإسرائيلي وهو
يستغيث بموسى ﴿فأخذته الحمية﴾
حتى هم أن يبطش بالقبطي ﴿قال﴾
له القبطي زاجراً له عن قتله ﴿أتريد﴾
أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس إن
تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض ﴿لأن﴾
من أعظم آثار الجبار في الأرض
قتل النفس بغير حق.

﴿وما تريد أن تكون من المصلحين﴾
والأ، فلو أردت الإصلاح لحلت بني
وبينه من غير قتل أحد، فأنكف موسى
عن قتله، وارعوى لوعظه وزجره،
وشاع الخبر بما جرى من موسى في
هاتين القضيتين، حتى تراود ملاً
فرعون وفرعون على قتله، وتشاوروا
على ذلك، وقبض الله ذلك الرجل
الناصح، وبادرهم إلى الإخبار لموسى
بما اجتمع عليه رأي ملئهم. فقال:
﴿وجاء رجل من أقصى المدينة يسمى
أي: ركضاً على قدميه من نصيح
لموسى، وخوفه أن يوقعوا به قبل أن
يشمر، ف﴾ قال يا موسى إن الملا
يأتهمون، أي: يتشاورون فيك
﴿ليقتلوك فاخرج﴾ عن المدينة ﴿إني
لك من الناصحين﴾ فامتثل نصحه،
﴿فخرج منها خائفاً يتربص﴾ أن يوقع
به القتل، ودعا الله، و ﴿قال رب
نجني من القوم الظالمين﴾ فإنه قد تاب
من ذنبه وفعله غضباً من غير قصد منه
للقتل، فتوعدهم له ظلم منهم
وجراء.

﴿ولما توجه تلقاء مدين﴾ أي :
قاصداً بوجهه مدين، وهو جنوبي

فلسطين، حيث لا ملك لفرعون،
 ﴿قال عسى ربي أن يهديني سواء
 السبيل﴾ أي: وسط الطريق المختصر،
 الموصل إليها بسهولة ورفق، فهذا الله
 سواء السبيل، فوصل إلى مدين.

﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة
من الناس يسقون﴾ مواشيهم، وكانوا
أهل ماشية كثيرة ﴿ووجد من دونهم﴾
أي: من دون تلك الأمة ﴿إمرأتين
تؤذنان﴾ غنهما عن حياض الناس،
لعجزهما عن مزاحمة الرجال ويخلفهم،
وعدم مروءتهم عن السقي لهما.

﴿قَالَ﴾ لهما موسى ﴿مَا حَظُّكُمَا﴾
 أَي: مَا شَأْنُكُمَا هَذِهِ الْحَالَةُ، ﴿قَالَتَا﴾
 لَا نَسْقِي حَتَّى يَصْدُرَ الرَّعَاءُ أَي: قَدْ
 جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّهُ لَا يَحْصِلُ لَنَا سَقْيُ
 حَتَّى يَصْدُرَ الرَّعَاءُ مَوَاشِيَهُمْ، فَإِذَا خَلَا
 لَنَا الْجَوُّ سَقَيْنَا، ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾
 أَي: لَا قُوَّةَ لَهُ عَلَى السَّقْيِ، فَلَيْسَ فِينَا
 قُوَّةٌ نَقْتَدِرُ بِهَا، وَلَا لَنَا رِجَالٌ يَزَاحُمُونَ
 الرَّعَاءَ. فَزَقَّ لهما مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ
 وَرَحِمَهُمَا ﴿فَسَقَى لهما﴾ غَيْرَ طَالِبٍ
 مِنْهُمَا الْأَجْرَةَ، وَلَا لَهُ قَصْدٌ غَيْرُ
 وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَمَّا سَقَى لهما، وَكَانَ
 ذَلِكَ وَقْتُ شِدَّةِ حَرِّ، وَسُطِّ النَّهَارِ،
 بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ﴾
 سَتَرَ بِحَا أَذَلِكَ الظِّلَّالَ بَعْدَ التَّعَبِ.

﴿فقال﴾ في تلك الحالة، مستزقاً ربه ﴿ربّ إني لما أنزلت إليّ من خير فقير﴾ أي: إني مفقر للخير الذي تسوقه إليّ وتيسره لي. وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في هذه الحالة داعياً ربه متملقاً.

وأما المرأتان، فذهبتا إلى أبيهما، وأخبرتاه بما جرى، فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاءته **تمشي** على استحياء، وهذا يدل على كرم عنصرها، وخلقها الحسن، فإن الحياة من الأخلاق الفاضلة، وخصوصاً في النساء.

ويدل على أن موسى عليه السلام،
لم يكن فيما فعله من السقي لهما بمنزلة
الأجير والخادم الذي لا يستحق منه
عادة، وإنما هو عزيز النفس، رأت من

﴿لَقَدْ قَضَىٰ رَبِّيَ الْاِحْلَامَ وَسَكَرَ بِالْاُخْرَىٰ مَا كَانَ مِنْ
 جَانِبِ الْكُوْبَةِ لَا قَالَ لِاُخْرَىٰ مَا تَكُنْ لِي اِنْ تَمَنَيْتُ
 لَكَ اَلْسِنَةً يَنْتَفِعُ مِنْهَا بِحَرْفٍ وَوَقَدْ اَتَىٰ لَكَ لِسَانُكَ
 فَمَقُولُوتٌ ﴿لَقَدْ اَنشَأْنَا نُوْحًا مِنْ سُلَيْمٍ الْاَوَّلِ الْاٰخِرِ
 فِي الْقَبْرِ وَلَبَّىٰ رَكْعَتَا الْجَنَّةِ اِنْ تَكُنْ مَعْرِفًا لِّمَا
 اَعَدَّ الْعَالَمِيْنَ ﴿وَاِنَّ اَصْحَابَ قُلُوْبٍ رَّاهِبًا مَّا هُمْ
 كَالْاَنَامِ اِنَّ اَلْمَذْكُوْرَ لَوَلَّىٰ رُءُوبًا يَبْهَتُوْنَ اَقْبَالَ وَآخِثًا
 اِلَيْكَ مِنَ الْاَوَّيْمِ ﴿اَنَّهُ لَدَلَّكَ فِي حَبِيْلِكَ خُتْبَ
 يَبْضَعُكَ مِنْ عَرْمٍ مَوْسُوْمٍ اَوْ اَسْمَ اِلَآهٍ خَلَقَكَ مِنْ اَلْاَوَّلِ
 فَلْيَكْ ذِكْرًا مِنْ ذِكْرِ الْاَوْثَرِ وَكَوْنْ لِّمَنْ اِيْمُهُ كَارِثًا
 قَوْمًا قَاسِيُوْنَ ﴿قَالَ رَبِّ اِنِّي فَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا طَافَتْ
 اِنْ تَكُوْنُوْنَ ﴿وَاَجِبْ كَرِيْمًا مَّنْ اَنْفَعُ مَوْفُوْعًا لِّسَانًا
 فَاَوْفُوْهُ سَوْفًا رَّاهِبًا مَوْفُوْعًا لِّاَلْفَاظٍ اَنْ يَكُنْ دُوْنِ
 قَالِ سَمْعًا عَصِدًا لِّبَحِيْثٍ وَتَعْمَلُ اَكْسَامًا سَلَامًا
 مَّا يَصُوْنُ اَلْحَمْدُ اِلَآهًا وَتَمْنِ اَلْحَمْدُ اَلْعَالَمِيْنَ ﴿

حسن خلقه ومكارم أخلاقه ، ما
أوجب لها الحياء منه ، ف ﴿قالت﴾ له :
﴿إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت
لنسا﴾ أي : لا ليمنن عليك ، بل أنت
الذي ابتدأتنا بالإحسان ، وإنما قصده
أن يكافئك على إحسانك ، فأجابها
موسى .

﴿فلما جاءه وقصّ عليه القصص﴾
من ابتداء السبب الموجب لهربه، إلى أن
وصل إليه **﴿قال﴾** له مسكناً روعه،
جابرأً قلبه: **﴿لا تخف نجوت من القوم
الظالمين﴾** أي: ليذهب خوفك
وروعك، فإن الله نجاك منهم، حيث
وصلت إلى هذا المحل، الذي ليس لهم
عليه سلطان.

﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا: أَي: إحدَى ابنتيه
﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ﴾ أَي: اجعله أجيراً
عندك، يرعى الغنم ويسقيها، ﴿إِنْ
خَيْرٌ مِّنْ اسْتَأْجَرْتُ الْقَوِيَ الْآمِينَ﴾ أَي:

إن موسى أولى من استؤجر فإنه جمع القوة والأمانة، وخير أجير استؤجر، من جمعهما، أي: القوة والقدرة على ما استؤجر عليه، والأمانة فيه بعدم الخيانة، وهذان الوصفان، ينبغي اعتبارهما في كل مَنْ يتولى للإنسان عملاً، بإجارة أو غيرها.

فإن الخلل لا يكون إلا بفقدهما أو فقد أحدهما، وأما اجتماعهما، فإن العمل يتم ويكمل، وإنما قالت ذلك، لأنها شاهدت من قوة موسى عند



على ما نقول وكيل ﴿ حافظ يراقبنا، ويعلم ما تعاقنا عليه .

وهذا الرجل، أبو المراتين، صاحب مدين، ليس بشعيب النبي المعروف، كما اشتهر عند كثير من الناس، فإن هذا قول لم يدل عليه دليل، وغاية ما يكون، أن شعيباً عليه السلام، قد كانت بلده مدين، وهذه القضية جرت في مدين، فأين الملازمة بين الأمرين .

وأيضاً، فإنه غير معلوم أن موسى أدرك زمان شعيب، فكيف بشخصه؟! ولو كان ذلك الرجل شعيباً، لذكره الله تعالى، ولسمته المراتان، وأيضاً فإن شعيباً عليه الصلاة والسلام، قد أهلك الله قومه بتكذيبهم إياه، ولم يبق إلا من آمن به، وقد أعاد الله المؤمنين أن يرضوا لبنتي نبيهم، بمنعهما عن الماء، وصد ماشيتهما، حتى يأتيهما رجل غريب، فيحسن إليهما، ويسقي ماشيتهما، وما كان شعيب ليرضى أن يرعى موسى عنده ويكون خادماً له، وهو أفضل منه وأعلى درجة، والله أعلم.]، إلا أن يقال: هذا قبل نبوة موسى فلا منافاة وعلى كل حال لا يعتمد على أنه شعيب النبي بغير نقل صحيح عن النبي ﷺ^(١).

﴿ فلما قضى موسى الأجل ﴾ يحتمل أنه قضى الأجل الواجب، أو الزائد عليه، كما هو الظن بموسى ووفاته، اشتاق إلى الوصول إلى أهله والدته وعشيرته ووطنه، وعلم من طول المدة، أنهم قد تناسوا ما صدر منه . ﴿ سار بأهله ﴾ قاصداً مصر، ﴿ آتس ﴾ أي: أبصر ﴿ من جانب الطور نارا ﴾ قال لأهله امكثوا إني آتست نارا لعلني آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون ﴾ وكان قد أصابهم البرد، وناهوا الطريق .

﴿ ٣٠ ﴾ فلما أتاهما نودي ﴿ يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾ فأخبره بألوهيته وربوبيته، ويلزم من ذلك، أن

يأمره بعبادته وتألوهه، كما صرح به في الآية الأخرى ﴿ فاعبدني وأقم الصلاة لذكري ﴾ . ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ فألقاها ﴿ فلما رآها تهتز ﴾ تسعى سعياً شديداً، ولها صورة مهيبة ﴿ كأنها جان ﴾ ذكر الحيات العظيمة، ﴿ وولي مدبراً ولم يعقب ﴾ أي: يرجع لاستيلاء الروح على قلبه، فقال الله له: ﴿ يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الآمنين ﴾ وهذا أببلغ ما يكون في التأمين وعدم الخوف .

فإن قوله: ﴿ أقبل ﴾ يقتضي الأمر بإقباله، ويجب عليه الامتثال، ولكن قد يكون إقباله، وهو لم يزل الأمر المخوف، فقال: ﴿ ولا تخف ﴾ أمر له بشيئين، إقباله، وأن لا يكون في قلبه خوف، ولكن يبقى احتمال، وهو أنه قد يقبل وهو غير خائف، ولكن لا تحصل له الوقاية والأمن من المكروه، فقال: ﴿ إنك من الآمنين ﴾ فحيث اندفع المحذور من جميع الوجوه، فأقبل موسى عليه السلام غير خائف ولا مرعوب، بل مطمئناً، واثقاً بخبر ربه، قد ازداد إيمانه، وتم يقينه، فهذه آية أراه الله إياها قبل ذهابه إلى فرعون، ليكون على يقين تام، فيكون^(٢) أجره له وأقوى وأصلب، ثم أراه الآية الأخرى فقال: ﴿ اسلك يدك ﴾ أي: أدخلها ﴿ في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ فسلكتها وأخرجها، كما ذكره الله تعالى .

﴿ واضمم إليك جناحك من الرهب ﴾ أي: ضم جناحك وهو عضدك إلى جنبك يزول عنك الرهب والخوف . ﴿ فذائك ﴾ انقلاب العصا حية، وخروج اليد بيضاء من غير سوء ﴿ برهانان من ربك ﴾ أي: حجتان قاطعتان من الله، ﴿ إلى فرعون وملئه إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾ فلا يكفيهم مجرد الإنذار وأمر الرسول إياهم، بل لا بد من الآيات الباهرة، إن نفعت .

ف﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام،

السقي لهما ونشاطه، ما عرفت به قوته، وشاهدت من أمانته وديانته، وأنه رحمهما في حالة لا يرجى نفعهما، وإنما قصده [بذلك] وجه الله تعالى، ﴿ قال ﴾ صاحب مدين لموسى: ﴿ إني أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين على أن تاجرني ﴾ أي: تصير أجيراً عندي ﴿ ثماني حجج ﴾ أي: ثماني سنين . ﴿ فإن أتممت عشرأ فمن عندك ﴾ تبرع منك، لا شيء واجب عليك . ﴿ وما أريد أن أشق عليك ﴾ فأحتم عشر السنين، أو ما أريد أن أستأجرك لأكلفك أعمالاً شاقة، وإنما أستأجرك لعمل سهل يسير لا مشقة فيه ﴿ ستجدني إن شاء الله من الصالحين ﴾ فرغبه في سهولة العمل، وفي حسن المعاملة، وهذا يدل على أن الرجل الصالح، ينبغي له أن يحسن خلقه مهما أمكنه، وأن الذي يطلب منه، أبلغ من غيره .

ف﴿ قال ﴾ موسى عليه السلام - مجبياً له فيما طلب منه -: ﴿ ذلك بيني وبينك ﴾ أي: هذا الشرط، الذي أنت ذكرت، رضيت به، وقد تم فيما بيني وبينك . ﴿ أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علي ﴾ سواء قضيت الثماني الواجبة، أم تبرعت بالزائد عليها ﴿ والله

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ليكون.

معتذراً من ربه، وسائلاً له المعونة على ما حمله، وذاكراً له الموانع التي فيه، ليزيل ربه ما يحجزه منها. ﴿رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا﴾ أي: ﴿فأخاف أن يقتلوني﴾ وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي رده﴾ أي: معاونا ومساعداً ﴿يُصِدِّقُنِي﴾ فإنه مع تصافر الأخبار يقوى الحق فأجابه الله إلى سؤاله، فقال: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ أي: نعاونك به ونقويك.

ثم أزال عنه محذور القتل، فقال: ﴿ونجعل لكم سلطاناً﴾ أي: تسلطاً، وتمكناً من الدعوة بالحجة، والهيبة الإلهية من عدوهما لها، ﴿فلا يصلون إليكما﴾ وذلك بسبب آياتنا، وما دلت عليه من الحق، وما أزعجت به من باشرها ونظر إليها، فهي التي بها حصل لكم السلطان، واندفع بها عنكم كيد عدوكم^(١)، وصارت لكم أبلى من الخنود، أولى العدى والعدوى.

﴿أَنْتُمْ وَمَنْ أَتْبَعَكُمْ الْغَالِبُونَ﴾
وهذا وعد لموسى في ذلك الوقت،
وهو وحده فريد، وقد رجع إلى بلده،
بعد ما كان شريداً، فلم تزل الأحوال
تتطور، والأمور تنتقل، حتى أنجز الله
له موعوده، ومكثه من العباد والبلاد،
وصار له ولأتباعه الغلبة والظهور.

فذهب موسى برسالة ربه ﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات﴾ واضحات الدلالة على ما قاله لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء. ﴿قالوا﴾ على وجه الظلم والعلو والعناد: ﴿ما هذا إلا سحرٌ مفترى﴾ كما قال فرعون في تلك الحالة التي ظهر فيها الحق، واستعمل على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور. ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ هذا، وهو الذكي غير الزكي، الذي بلغ من المكر والخداع والكيد ما قصه الله علينا، وقد علم ﴿ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض﴾ ولكن الشقاء غالب.

﴿وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾
وقد كذبوا في ذلك، فإن الله أرسل يوسف عليه السلام قبل موسى، كما قال تعالى: ﴿ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف كذاب﴾.

﴿وقال موسى﴾ حين زعموا أن الذي جاءهم به سحر وضلال، وأن ما هم عليه هو الهدى: ﴿ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار﴾ أي: إذا لم تغد المواجهة معكم، وتبين الآيات البينات، وأيتم إلا التماذي في غيكم واللاج على كفركم، فالله تعالى العالم بالمتدي وغيره، ومن تكون له عاقبة الدار، نحن أم أنتم ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه، والفلاح والفوز، وصار لأولئك، الخسار سوء العاقبة والهلاك.

﴿وقال فرعون﴾ متجرباً على ربه، وعموهاً على قومه السفهاء، أخفاء العقول: ﴿يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري﴾ أي: أنا وحدي إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثمَّ إله غيري لعلمته، فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون! حيث لم يقل: «ما لكم من إله غيري» بل تورع وقال: «ما علمت لكم من إله غيري». وهذا، لأنه عندهم العالم الفاضل، الذي مهما قال فهو الحق، ومهما أمر أطاعوه.

فلما قال هذه المقالة، التي قد تحتمل أن تُمَّ إليها غيره، أراد أن يحقق النفي، الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فقال لـ «هامان»: «فأوقد لي يا هامان على الطين» ليجعل له لبناً من فخار. «فاحمل لي صرحاً» أي: بناء «لعملي» أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين» ولكن سنحقق هذا الظن، ونريكم كذب موسى. فانظر هذه الجراءة العظيمة على الله، التي ما بلغها

(۱) کذا فی ب، وفی أ: عنکم کید عدوهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: فكذا.

فتعين الأمر الثاني، وهو: أن هذا جاء من قِبَل الله ووحيه وإرساله، فثبت بالدليل القطعي صحة رسالتك، ورحمة الله بك للعباد، ولهذا قال: ﴿ولكن رحمة من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك﴾ أي: العرب وقريش، فإن الرسالة [عندهم] لا تعرف وقت إرسال الرسول وقبله بأزمان متطاولة، ﴿لعلهم يذكرون﴾ تفصيل الخير فيفعلونه، والشر فيتركونه، فإذا كنت بهذه المنزلة، كان الواجب عليهم، المبادرة إلى الإيمان بك، وشكر هذه النعمة، التي لا يقادر قدرها، ولا يدرك شكرها.

وإنذاره للعرب لا ينفي أن يكون مرسلًا لغيرهم، فإنه عربي، والقرآن الذي أنزل عليه عربي، وأول مَنْ باشر بدعوته العرب، فكانت رسالته إليهم أصلاً، ولغيرهم تبعاً، كما قال تعالى: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس﴾ ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً﴾. ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ من الكفر والمعاصي ﴿فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين﴾ أي: فأرسلناك يا محمد، لدفع حجتهم، وقطع مقالهم.

﴿فلما جاءهم الحق﴾ الذي لا شك فيه ﴿من عندنا﴾ وهو القرآن، الذي أوحيناه إليك ﴿قالوا﴾ مكذبين له، ومعترضين بما ليس يعترض به: ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ أي: أنزل عليه كتاب من السماء جملة واحدة. أي: فأما ما دام ينزل متفرقاً، فإنه ليس من عند الله. وأي: دليل في هذا؟ وأي: شبهة أنه ليس من عند الله حين نزل مفرقاً؟

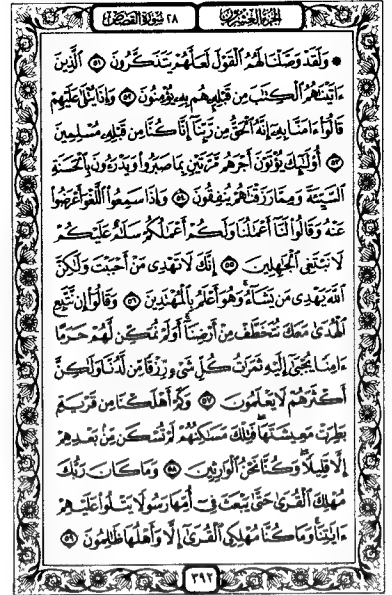
بل من كمال هذا القرآن، واعتناء الله بمن أنزل عليه، أن نزل متفرقاً، ليثبت الله به فؤاد رسوله، ويحصل زيادة الإيمان للمؤمنين ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾. وأيضاً، فإن قياسهم على كتاب موسى، قياس قد نقضوه،

الذي أنزله على موسى، فيه بصائر للناس، أي: أمور يبصرون بها ما ينفعهم وما يضرهم، فتقوم الحجة على العاصي، وينتفع بها المؤمن، فتكون رحمة في حقه، وهداية له إلى الصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وهدى ورحمة لعلهم يذكرون﴾.

ولما قص الله على رسوله ما قص، من هذه الأخبار الغيبية، تبّه العباد على أن هذا خبر إلهي محض، ليس للرسول طريق إلى علمه إلا من جهة الوحي، ولهذا قال: ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ أي: بجانب الطور الغربي وقت قضائنا لموسى الأمر، ﴿وما كنت من الشاهدين﴾ على ذلك، حتى يقال: إنه وصل إليك من هذا الطريق، ﴿ولكننا أنشأنا قروناً فنتطاول عليهم العمر﴾ فاندرس العلم ونسيت آياته، فبعثناك في وقت اشتدت الحاجة إليك وإلى ما علمناك وأوحينا إليك. ﴿وما كنت ثاوياً﴾ أي: مقيماً ﴿في أهل مدين تنلو عليهم آياتنا﴾ أي: تعلمهم وتتعلم منهم، حتى أخبرت بما أخبرت من شأن موسى في مدين، ﴿ولكننا كنا مرسلين﴾ أي: ولكن ذلك الخبر الذي جئت به عن موسى، أثر من آثار إرسالنا إياك، ووَخِي لا سبيل لك إلى علمه بدون إرسالنا.

﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ موسى، وأمرناه أن يأتي القوم الظالمين، ويبلغهم رسالتنا، ويريمهم من آياتنا وعجائبنا ما قصصنا عليك. والمقصود: أن الماجريات التي جرت لموسى عليه الصلاة والسلام في هذه الأماكن، فقصصتها كما هي، من غير زيادة ولا نقص، لا يخلو من أحد أمرين:

إما أن تكون حضرتها وشاهدتها، أو ذهبت إلى محالها فتعلمتها من أهلها، فحيث قد لا يدل ذلك على أنك رسول الله، إذ الأمور التي يخبر بها عن شهادة ودراسة، من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذا قد عَلِمَ وتيقن أنه ما كان وما صار، فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك.



فانظر كيف كان عاقبة الظالمين، كانت أشر العواقب وأخسرها عاقبة أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بالعقوبة الأخروية.

﴿وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار﴾ أي: جعلنا فرعون وملاءه من الأئمة الذين يقتدى بهم ويمشى خلفهم إلى دار الخزي والشقاء. ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ من عذاب الله، فهم أضعف شيء، عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون الله من ولي ولا نصير.

﴿وأنبئناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي: [وأنبئناهم زيادة في عقوبتهم وخزيهم، في الدنيا لعنة يلعنون، ولهم عند الخلق الشقاء القبيح والمقت والذم، وهذا أمر مشاهد، فهم أئمة الملعونين في الدنيا ومقدمتهم، ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ المبعدين، المستقرة أفعالهم. الذين اجتمع عليهم مقت الله، ومقت خلقه، ومقت أنفسهم.

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ وهو التوراة ﴿من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾ الذين كان خاتمهم في الإهلاك العام، فرعون وجنوده. وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة، انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف.

﴿بصائر للناس﴾ أي: كتاب الله،

الأمور، خصوصاً إذا كانوا مظلومين، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل، الأمة الضعيفة، من أسر فرعون وملئه، ومكنهم في الأرض، وملكهم بلادهم.

ومنها: أن الأمة ما دامت ذليلة مقهورة لا تأخذ حقها ولا تتكلم به، لا يقوم لها أمر دينها، [ولا دنياها] (٣) ولا يكون لها إمامة فيه.

ومنها: لطف الله بأم موسى، وتوحيته عليها المصيبة بالبشارة، بأن الله سيرد إليها ابنها، ويجعله من المرسلين.

ومنها: أن الله يقدر على عبده بعض المشاق، لينيله سروراً أعظم من ذلك، أو يدفع عنه شراً أكثر منه، كما قدر على أم موسى ذلك الحزن الشديد، والههم البالغ، الذي هو وسيلة إلى أن يصل إليها ابنها، على وجه مطمئن به نفسها، وتقربه عينا، وتزداد به غبطة وسروراً.

ومنها: أن الخوف الطبيعي من الخلق، لا ينافي الإيمان ولا يزيله، كما جرى لأم موسى ولموسى من تلك المخاوف.

ومنها: أن الإيمان يزيد وينقص، وأن من أعظم ما يزيد به الإيمان، ويتم به اليقين، الصبر عند المزعجات، والتثبيت من الله عند المقلقات، كما قال تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ليزداد إيمانها بذلك ويطمئن قلبها.

ومنها: أن من أعظم نعم الله على عبده، و [أعظم] معونة للعبد على أموره، تثبيت الله إياه، وربط جأشه وقلبه عند المخاوف، وعند الأمور المذهلة، فإنه بذلك يتمكن من القول الصواب، والفعل الصواب، بخلاف من استمر قلقه وروعه وانزعاجه، فإنه يضعف فكره، ويذهل عقله، فلا ينتفع بنفسه في تلك الحال.

ومنها: أن العبد - ولو عرف أن القضاء والقدر ووعد الله نافذ لا بد منه - فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي

من هذا وصفه؟! ولكن ظلمه وعدوانه، وعدم محبة للحق، هو الذي أوجب له: أن يبقى على ضلاله ولا يهديه الله، فلهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: الذين صار الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، جاءهم الهدى فرفضوه، وعرض لهم الهوى فتبعوه، سدوا على أنفسهم أبواب الهداية وطرقها، وفتحوا عليهم أبواب الغواية وسبلها، فهم في غيهم وظلمهم يعمهون، وفي شقاوتهم وهلاكهم يترددون.

وفي قوله: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ دليل على أن كل من لم يستجب للرسول، وذهب إلى قول مخالف لقول الرسول، فإنه لم يذهب إلى هدى، وإنما ذهب إلى هوى.

﴿ولقد وُضِّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلُ﴾ أي: تابعناه وواصلناه، وأنزلناه شيئاً فشيئاً، رحمة بهم ولطفاً ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ حين تتكرر عليهم آياته، وتنزل عليهم بيناته وقت الحاجة إليها. فصار نزوله متفرقاً رحمة بهم، فلم اعتراضوا بما هو من مصالحهم؟

فصل في ذكر بعض الفوائد والجبر في هذه القصة العجيبة

فمنها أن آيات الله تعالى وعبره، وأيامه في الأمم السابقة، إنما يستفيد بها ويستنير المؤمنون، فعلى حسب إيمان العبد تكون عبرته، وإن الله تعالى إنما يسوق القصص لأجلهم، وأما غيرهم، فلا يعبا الله بهم، وليس لهم منها نور وهدى.

ومنها: أن الله تعالى إذا أراد أمراً هيباً أسبابه، وأتى بها شيئاً فشيئاً بالتدريج، لا دفعة واحدة.

ومنها: أن الأمة المستضعفة، ولو بلغت في الضعف ما بلغت، لا ينبغي لها أن يستولي عليها الكسل عن طلب حقها، ولا الإياس من ارتقاها إلى أعلى

فكيف يقيسونه على كتاب كفروا به ولم يؤمنوا؟ ولهذا قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ أي: القرآن والتوراة، تعاونتا في سحرهما وإضلال الناس ﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُمْ كَافِرُونَ﴾ فثبت بهذا أن القوم يريدون إبطال الحق بما ليس ببرهان، وينقضونه بما لا ينقض، ويقولون الأقوال المتناقضة المختلفة، وهذا شأن كل كافر. ولهذا صرح أنهم كفروا بالكتابين والرسولين، ولكن هل كفرهم بهما طلباً للحق، واتباعاً لآمر عندهم خير منهما، أم مجرد هوى؟

قال تعالى ملزماً لهم بذلك: ﴿فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا﴾ أي: من التوراة والقرآن ﴿أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ولا سبيل لهم ولا لغيرهم أن يأتوا بمثلها، فإنه ما طرق العالم منذ خلقه الله، مثل هذين الكتابين، علماً، وهدى، وبيانا، ورحمة للخلق، وهذا من كمال الإنصاف من الداعي أن قال: أنا مقصودي الحق والهدى والرشد، وقد جئتكم بهذا الكتاب المشتمل على ذلك، الموافق لكتاب موسى، فيجب علينا جميعاً الإذعان لهما واتباعهما، من حيث كونهما هدى وحقاً، فإن جئتموني بكتاب من عند الله هو أهدى منهما اتبعته، وإلا فلا أترك هدى وحقاً قد علمته لغير هدى وحق (١).

﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ فلم يأتوا بكتاب أهدى منهما ﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ أي: فاعلم أن تركهم اتباعك، ليسوا ذاهبين إلى حق يعرفونه، ولا إلى هدى، وإنما ذلك مجرد اتباع لأهوائهم. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ فهذا من أضل الناس، حيث عرض عليه الهدى والصراط المستقيم، الموصول إلى الله وإلى دار كرامته، فلم يلتفت إليه ولم يقبل عليه، ودعاه هواه إلى سلوك الطرق الموصلة إلى الهلاك والشقاء (٢)، فاتبعه وترك الهدى، فهل أحد أضل

[يعمل] للإنسان، أن يكون قوياً أميناً. ومنها: أن من مكارم الأخلاق، أن يُحَسِّن خلقه لأجيريه وخادمه، ولا يشق عليه بالعمل، لقوله: ﴿وما أريد أن أشق عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين﴾.

ومنها: جواز عقد الإجارة وغيرها من العقود من دون إشهاد، لقوله: ﴿والله على ما نقول وكيل﴾.

ومنها: ما أجرى الله على يد موسى من الآيات البينات، والمعجزات الظاهرة، من الحية، وانقلاب يده بيضاء من غير سوء، ومن عصمة الله لموسى وهارون، من فرعون، ومن الفرق.

ومنها: أن من أعظم العقوبات أن يكون الإنسان إماماً في الشر، وذلك بحسب معارضته لآيات الله وبياناته، كما أن من أعظم نعمة أنعم الله بها على عبده، أن يجعله إماماً في الخير هادياً مهدياً.

ومنها: ما فيها من الدلالة على رسالة محمد ﷺ، حيث أخبر بذلك تفصيلاً مطابقاً، وتأصيلاً موافقاً، قصه قصاً، صدق به المرسلين، وأيد به الحق المبين، من غير حضور شيء من تلك الوقائع، ولا مشاهدة لموضع واحد من تلك المواضع، ولا تلاوة درس فيها شيئاً من هذه الأمور، ولا مجالسة أحد من أهل العلم، إن هو إلا رسالة الرحيم الرحمن، ووحى أنزله عليه الكريم المنان، لينذر به قوماً جاهلين، وعن النذر والرسول غافلين.

فصلوات الله وسلامه، على مَنْ مجرد خبره ينبيء أنه رسول الله، ومجرد أمره ونهيه ينبه العقول النيرة، أنه من عند الله، كيف وقد تطابق على صحة ما جاء به وصدقه خبر الأولين والآخرين، والشرع الذي جاء به من رب العالمين، وما جُبل عليه من الأخلاق الفاضلة التي لا تناسب ولا تصلح إلا لأعلى الخلق درجة، والنصر المبين لدينه وأمته، حتى بلغ دينه مبلغ

ترتكب الأخف منهما والأسلم، كما أن موسى، لما دار الأمر بين بقاءه في مصر ولكنه يقتل، أو يذهب^(١) إلى بعض البلدان البعيدة التي لا يعرف الطريق إليها، وليس معه دليل [يد] له غير ربه، ولكن هذه الحالة أقرب للسلامة من الأولى، ف تبعها موسى.

ومنها: أن الناظر في العلم عند الحاجة إلى التكلم فيه، إذا لم يترجح عنده أحد القولين، فإنه يستهدي ربه، ويسأله أن يهديه الصواب من القولين، بعد أن يقصد بقلبه الحق ويبحث عنه، فإن الله لا يخيب مَنْ هذه حاله. كما خرج موسى تلقاء مدين فقال: ﴿عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾.

ومنها: أن الرحمة بالخلق، والإحسان على مَنْ يعرف ومَنْ لا يعرف، من أخلاق الأنبياء، وأن من الإحسان سقي الماشية الماء، وإعانة العاجز.

ومنها: استحباب الدعاء بتبيين الحال وشرحها، ولو كان الله عالماً بها، لأنه تعالى، يجب تضرع عبده وإظهار ذله ومسكنته، كما قال موسى: ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾.

ومنها: أن الحياة - خصوصاً من الكرام - من الأخلاق المدوحة. ومنها: المكافأة على الإحسان لم يزل دأب الأمم السابقين.

ومنها: أن العبد إذا فعل العمل لله تعالى، ثم حصل له مكافأة عليه من غير قصد بالقصد الأول، أنه لا يلام على ذلك، كما قبل موسى مجازاة صاحب مدين عن معروفه الذي لم يبتغ له، ولم يستشرف بقلبه على عوض.

ومنها: مشروعية الإجارة، وأنها تجوز على رعاية الغنم ونحوها، مما لا يقدر العمل، وإنما مرده العرف.

ومنها: أنه تجوز الإجارة بالمنفعة، ولو كانت المنفعة بضعاً.

ومنها: أن خطبة الرجل لابنته الرجل الذي يتخير لا يلام عليه.

ومنها: أن خير أجير وعامل

أمر بها، ولا يكون ذلك منافيًا لإيمانه بخبر الله، فإن الله قد وعد أم موسى أن يرده عليها، ومع ذلك، اجتهدت على رده، وأرسلت أخته لتقصه وتطلبه.

ومنها: جواز خروج المرأة في حوائجها، وتكليمها للرجال من غير محذور، كما جرى لأخت موسى وابنتي صاحب مدين.

ومنها: جواز أخذ الأجرة على الكفالة والرضاع، والدلالة على مَنْ يفعل ذلك.

ومنها: أن الله من رحمته بعبده الضعيف الذي يريد إكرامه، أن يريه من آياته، ويشهده من بيناته، ما يزيد به إيمانه، كما رد الله موسى على أمه، لتعلم أن وعد الله حق.

ومنها: أن قتل الكافر الذي له عهد بعقد أو عُرف لا يجوز، فإن موسى عليه السلام عدّ قتله القبطي الكافر ذنباً، واستغفر الله منه.

ومنها: أن الذي يقتل النفوس بغير حق يُعد من الجبارين الذين يفسدون في الأرض.

ومنها: أن مَنْ قتل النفوس بغير حق، وزعم أنه يريد الإصلاح في الأرض، وتهيب أهل المعاصي، فإنه كاذب في ذلك، وهو مفسد كما حكى الله قول القبطي: ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ على وجه التقرر له، لا الإنكار.

ومنها: أن إخبار الرجل غيره بما قيل فيه، على وجه التحذير له من شر يقع فيه، لا يكون ذلك نميمية - بل قد يكون واجباً - كما أخبر ذلك الرجل لموسى، ناصحاً له ومحذراً.

ومنها: أنه إذا خاف القتل والتلف في الإقامة، لا يلقي بيده إلى التهلكة، ولا يستسلم لذلك، بل يذهب عنه، كما فعل موسى.

ومنها: أنه عند تراحم المفسدين، إذا كان لا بد من ارتكاب أحدهما، أنه



الأماكن، قد حَف بها الخوف من كل جانب، وأهلها غير آمنين ولا مطمئنين، فَلْيَحْمِلُوا رَهِمَ عَلَى هَذَا الأَمْنِ التام، الذي ليس فيه غيرهم، وعلى الرزق الكثير، الذي يجيئ إليهم من كل مكان، من الثمرات والأطعمة والبضائع، ما به يرتزقون ويتوسعون.

وَلْيَتَّبِعُوا هَذَا الرَسُولَ الكَرِيمَ، لِيَتِمَّ لَهُمُ الأَمْنُ والرغد، وإياهم وتكذيبه، والبطر بنعمة الله، فيبدلوا من بعد أمنهم خوفاً، وبعد عزهم ذلاً، وبعد غناهم فقراً، ولهذا توعدهم بما فعل بالأمم قبلهم، فقال:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِشَتَهَا: أَي: فخرت بها وألقتها، واشتغلت بها عن الإيمان بالرسول، فأهلكهم الله، وأزال عنهم النعمة، وأحل بهم النقمة.﴾ **﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾** لتوالي الهلاك والتلف عليهم، وإيحاشها من بعدهم.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ **للعباد،** نُمِيتهم، ثم ترجع إلينا جميع ما متعناهم به من النعم، ثم نعيدهم^(١) إلينا فنجازهم بأعمالهم.

ومن حكمته ورحمته أن لا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجة عليهم، بإرسال الرسل إليهم، ولهذا قال: **﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾** أي: بكفرهم وظلمهم **﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمَةٍ﴾** أي: في القرية والمدينة التي إليها يرجعون، ونحوها يترددون، وكل ما حولها ينتجعها، ولا تخفى عليه أخبارها.

﴿وَسَوْلاً يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ **الدالة على صحة ما جاء به، وصدق ما دعاهم إليه، فيبلغ قوله قاصيهم ودانيهم، بخلاف بعث الرسل في القرى البعيدة، والأطراف النائية، فإن ذلك مظنة الخفاء والجفاء، والمدن الأمهات مظنة الظهور والانتشار، وفي الغالب أنهم أقل جفاء من غيرهم.**

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ **بالكفر والمعاصي، مستحقون للعقوبة. والحاصل: أن الله لا يعذب أحداً إلا بظلمه، وإقامة الحجة عليه.**

﴿٦٠ - ٦١﴾ **﴿وَمَا أَوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾** * **أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لآتيه كمن تمتعنا متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾** هذا حض من الله لعباده على الزهد في الدنيا وعدم الاغترار بها، وعلى الرغبة في الأخرى، وجعلها مقصود العبد ومطلوبه، ويخبرهم أن جميع ما أوتيهم الخلق، من الذهب، والفضة، والحيوانات، والأمتعة، والنساء، والبنين، والمأكّل، والمشارب، واللذات، كلها متاع الحياة [الدنيا] وزينتها، أي: يتمتع به وقتاً قصيراً، متاعاً قاصراً، محشواً بالمنغصات، مزموجاً بالغصص.

ويزين به زماناً يسيراً، للفرح والرياء، ثم يزول ذلك سريعاً، وينقضي جميعاً، ولم يستفد صاحبه منه إلا الحسرة والندم، والحقبة والحرمان.

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ **من النعيم المقيم، والعيش السليم** **﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾** أي: أفضل في وصفه وكميته، وهو دائم أبداً، مستمر سرمداً.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ **أي: أفلا يكون لكم عقول، بها تزنون أي: الأمور^(٢) أولى بالإشارة، وأي: الدارين أحق للعمل لها، فدل ذلك أنه بحسب عقل العبد، يؤثر الأخرى على الدنيا، وأنه ما أثر أحد الدنيا إلا لنقص في عقله، ولهذا نبه العقول على الموازنة بين عاقبة مؤثر الدنيا ومؤثر الآخرة، فقال: **﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ﴾** أي: هل يستوي مؤمن ساع للآخرة سعيها، قد عمل على وعد ربه له، بالشواب الحسن، الذي هو الجنة، وما فيها من النعيم العظيم، فهو لآتيه من**

بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين * وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولاً يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون. يخبر تعالى أن المكذبين من قريش وأهل مكة، يقولون للرسول ﷺ: **﴿إِنْ تَنْتَهِ عَنِ الْهُدَى مَعَكَ تَنْتَهِطَ مِنْ أَرْضِنَا﴾** بالقتل والأسر ونهب الأموال، فإن الناس قد عادوك وخالفوك، فلو تابعتك لتعرضنا لمعاداة الناس كلهم، ولم يكن لنا بهم طاقة.

وهذا الكلام منهم، يدل على سوء الظن بالله تعالى، وأنه لا ينصر دينه، ولا يعلي كلمته، بل يمكن الناس من أهل دينه، فيسومونهم سوء العذاب، وظنوا أن الباطل سيعلو على الحق.

قال الله مبيناً لهم حالة هم بها دون الناس وأن الله اختصهم بها، فقال: **﴿أَوَلَمْ نَمُكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾** أي: أولم نجعلهم متمكنين [يمكنين] في حرم يكثره المتأبون، ويقصده الزائرون، قد أحترمه البعيد والقريب، فلا يهاج أهله، ولا ينتقصونه بقليل [ولا كثيراً].

والحال أن كل ما حولهم من

(١) كذا في ب، وفي أ: ثم نفيدهم إلينا فنجازهم، وهو خطأ ظاهر من النسخ.

(٢) في ب: الأمور.

غير شك ولا ارتياب، لأنه وعد من كريم صادق الوعد، لا يخلف الميعاد، لعبد قام بمرضاته وجانب سخطه، ﴿كَمَنْ مَتَعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فهو يأخذ فيها ويعطي، ويأكل ويشرب، ويتمتع كما تتمتع البهائم، قد اشتغل بديناه عن آخرته، ولم يرفع يهدي الله رأساً، ولم ينقذ للمرسلين، فهو لا يزال كذلك، لا يتزود من دنياه إلا الخسار والهلاك.

﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين للحساب، وقد علم أنه لم يقدم خيراً لنفسه، وإنما قدم جميع ما يضره، وانتقل إلى دار الجزاء بالأعمال، فما ظنكم إلى ما يصير إليه؟ وما تحسبون ما يصنع به؟ فليختر العاقل لنفسه، ما هو أولى بالاختيار، وأحق الأمرين بالإيثار.

﴿٦٢ - ٦٦﴾ ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا تبارنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون * وقيل ادعوا شركاءكم فدعوههم فلم يستجيبوا لهم ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون * ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين * فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ هذا إخبار من الله تعالى، عما يسأل عنه الخلائق يوم القيامة، وأنه يسألهم عن أصول الأشياء، وعن عبادة الله وإجابة رسله، فقال: ﴿ويوم يناديهم﴾ أي: ينادي مَنْ أشركوا به شركاء يعبدونهم، ويرجون نفعهم، ودفع الضرر عنهم، فيناديهم، ليبين لهم عجزها وضلالهم، ﴿فيقول أين شركائي﴾ وليس لله شريك، ولكن ذلك بحسب زعمهم وافترائهم، ولهذا قال: ﴿الذين كنتم تزعمون﴾ فأين هم، بذواتهم، وأين نفعهم وأين دفعهم؟

ومن المعلوم أنه^(١) يتبين لهم في تلك الحال، أن الذي عبدوه ورجوه باطل، مضمحل في ذاته، وما رجوا

منه، فيقرّون على أنفسهم بالضلالة والغواية، ولهذا ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ الرؤساء والقادة، في الكفر والشر، مقرّين بغوايتهم وإغوائهم: ﴿ربنا هؤلاء﴾ التابعون ﴿الذين أغوينا أغويناهم كما غوينا﴾ أي: كلنا قد اشترك في الغواية، وحق عليه كلمة العذاب.

﴿تبارنا إليك﴾ من عبادتهم، أي: نحن برآء منهم ومن عملهم. ﴿ما كانوا إيانا يعبدون﴾ وإنما كانوا يعبدون الشياطين.

﴿وقيل﴾ لهم: ﴿ادعوا شركاءكم﴾ على ما أملت فيهم من النفع فأمرؤا بدعائهم في ذلك الوقت الخرج، الذي يضطر فيه العابد إلى مَنْ عبده.

﴿فدعوههم﴾ لينفعوهم، أو يدفعوا عنهم من عذاب الله من شيء. ﴿فلم يستجيبوا لهم﴾ فعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين مستحقين للعقوبة، ﴿ورأوا العذاب﴾ الذي سيحل بهم عياناً، بأبصارهم بعدما كانوا مكذّبين به منكرين له.

﴿لو أنهم كانوا يهتدون﴾ أي: لما حصل عليهم ما حصل، ولهدوا إلى صراط الجنة، كما اهتموا في الدنيا، ولكن لم يهتدوا، فلم يهتدوا.

﴿ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين﴾ هل صدقتموهم، ﴿واتبعتموهم﴾ أم كذبتموهم وخالفتموهم؟

﴿فعميت عليهم الأنبياء يومئذ فهم لا يتساءلون﴾ أي: لم يحيروا عن هذا السؤال جواباً، ولم يهتدوا إلى الصواب.

ومن المعلوم أنه لا ينجي في هذا الموضع إلا التصريح بالجواب الصحيح، المطابق لأحوالهم، من أننا أجبناهم بالإيمان والانقياد، ولكن لما علموا تكذيبهم لهم وعنادهم لأمرهم، لم ينطقوا بشيء، ولا يمكن أن يتساءلوا ويتراجعوا بينهم في ماذا

يحييون به، ولو كان كذباً.

﴿٦٧﴾ ﴿فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المقبلين﴾ لما ذكر تعالى سؤال الخلق عن معبودهم وعن رسلم، ذكر الطريق الذي ينجو به العبد من عقاب الله تعالى، وأنه لا نجاة إلا لمن اتصف بالتوبة من الشرك والمعاصي، وآمن بالله فعبده، وآمن برسله فصدقهم، وعمل صالحاً متبعاً فيه للرسول، ﴿فعسى أن يكون﴾ مَنْ جمع هذه الخصال ﴿من المقبلين﴾ الناجحين بال مطلوب، الناجين من المهروب، فلا سبيل إلى الفلاح بدون هذه الأمور.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون * وهو الله لا إله إلا هو له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون﴾ هذه الآيات، فيها عموم خلقه لسائر المخلوقات، ونفوذ مشيئته بجميع البريات، وانفراده باختيار مَنْ يختاره ويختصه، من الأشخاص، والأوامر، والأزمان [والأماكن، وأن أحداً^(٢) ليس له من الأمر والاختيار شيء، وأنه تعالى منزّه عن كل ما يشركونه به، من الشريك، والظهير، والعوين، والولد، والصاحبة، ونحو ذلك، مما أشرك به المشركون، وأنه العالم بما أكتنه الصدور وما أعلنه، وأنه وحده المعبود المحمود في الدنيا والآخرة، على ما له من صفات الجلال والجمال، وعلى ما أسداه إلى خلقه من الإحسان والإفضال.

وأنه هو الحاكم في الدارين، في الدنيا، بالحكم القدري، الذي أثره جميع ما خلق وذراً، والحكم الديني، الذي أثره جميع الشرائع، والأوامر والنواهي.

وفي الآخرة يحكم بحكمه القدري والجزائي، ولهذا قال: ﴿وإليه

ترجعون ﴿ فيجازي كلا منكم بعمله، من خير وشر .

﴿٧١-٧٣﴾ ﴿قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون ﴾ * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ﴾ * ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴿ هذا امتنان من الله على عباده، يدعوه به إلى شكره، والقيام بعبوديته وحقه، أنه جعل لهم من رحمته النهار ليتبغوا من فضل الله، وينتشروا لطلب أرزاقهم ومعاشهم في ضيائه، والليل ليهذؤوا فيه ويسكنوا، وتستريح أبدانهم وأنفسهم من تعب التصرف في النهار، فهذا من فضله ورحمته بعباده .

فهل أحد يقدر على شيء من ذلك؟ فلو جعل ﴿عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون﴾ مواظ الله وآياته سماع فهم وقبول وانقياد، ولو جعل ﴿عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون﴾ مواقع العبر، ومواضع الآيات، فتستنير بصائرهم، وتسلكون الطريق المستقيم .

وقال في الليل : ﴿أفلا تسمعون﴾ وفي النهار ﴿أفلا تبصرون﴾ لأن سلطان السمع أبلغ في الليل من سلطان البصر، وعكسه النهار . وفي هذه الآيات، تنبيه إلى أن العبد ينبغي له أن يتدبر نعم الله عليه، ويتبصر فيها، ويقيسها بحال عدمها، فإنه إذا وازن بين حالة وجودها، وبين حالة عدمها، تنبه عقله لموضع المنّة، بخلاف مَنْ جرى مع العوائد، ورأى أن هذا أمر لم يزل مستمراً، ولا يزال . وعمي قلبه عن الثناء على الله، بنعمه، ورؤية افتقاره إليها في كل وقت، فإن هذا لا يحدث له فكرة شكراً ولا ذكراً .

﴿٧٤-٧٥﴾ ﴿ويوم يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون ﴾ * ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هاتوا برهانكم فاعلموا أن الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴿ أي : ويوم ينادي الله المشركين به، العادلين به غيره، الذين يزعمون أن له شركاء، يستحقون أن يعبدوا، وينفعون ويضرّون، فإذا كان يوم القيامة، أراد الله أن يظهر جرائمهم وكذبهم في زعمهم وتكذيبهم ^(١) لأنفسهم ف ﴿يناديهم فيقول أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ أي : بزعمهم، لا بنفس الأمر، كما قال : ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾ .

فإذا حضروا وإياهم، نزع ﴿من كل أمة﴾ من الأمم المكذبة ﴿شهيداً﴾ يشهد على ما جرى في الدنيا، من شركهم واعتقادهم، وهؤلاء بمنزلة المتخين .

أي : انتخبنا من رؤساء المكذبين مَنْ يتصدى للخصومة عنهم، والمجادلة عن إخوانهم، ومن هم وإياهم على طريق واحد، فإذا برزوا للمحاكمة ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾ حجتكم ودليلكم على صحة شرككم، هل أمرناكم بذلك؟ هل أمرتكم رسلي؟ هل وجدتم ذلك في شيء من كتبني؟ هل فيهم أحد يستحق شيئاً من الإلهية؟ هل ينفعونكم أو يدفعون عنكم من عذاب الله أو يغنون عنكم؟ فليفعلوا إذا [إن] كان فيهم أهلية ^(٢)، وليروكم إن كان لهم قدرة، ﴿فاعلموا﴾ حيثنّ بطلان قولهم وفساده، و ﴿أن الحق لله﴾ تعالى، قد توجهت عليهم الخصومة، وانقطعت حجتهم، وأفلجت حجة الله، ﴿وضل عنهم ما كانوا يفترون﴾ من الكذب والإفك، اضمحل وتلاشى وعدم، وعلموا أن الله قد عدل فيهم، حيث لم يضع العقوبة إلا بمن استحقها واستأهلها .

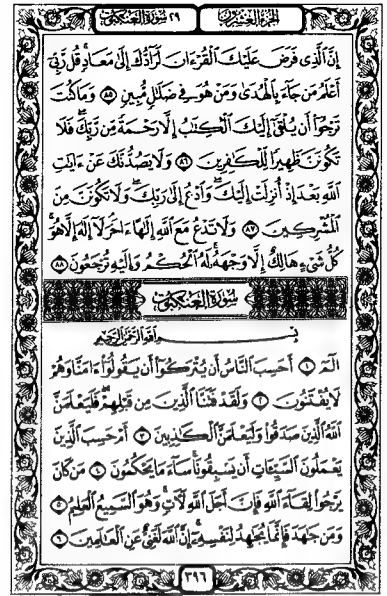
﴿٧٦-٨٢﴾ ﴿إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم﴾ إلى آخر القصة . يخبر تعالى عن حالة قارون وما [فعل] وفُعل به وُصِّح ووُعِظ، فقال : ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ أي : من بني إسرائيل، الذين فضّلوا على العالمين، وفاقوهم في زمانهم، وامتّن الله عليهم بما امتنّ به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا، بغى على قومه وطغى، بما أوتيته من الأموال العظيمة المطغية . ﴿وآتيناه من الكنوز﴾ أي : كنوز الأموال شيئاً كثيراً، ﴿ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة﴾ [أولي القوة] والعصبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة، ونحو ذلك . أي : حتى إن مفاتيح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها، هذه المفاتيح، فما ظنك بالخزائن؟ ﴿إذ قال له قومه﴾ ناصحين له محذرين له عن الطغيان : ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ أي : لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة، فإن الله لا يحب الفرحين بها، المكين على محبتها .

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ أي : قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات، ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ أي : لا نامرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعاً، بل أنفق لآخرتك، واستمتع بدنيك استمتاعاً لا يثلم دينك، ولا يضر بآخرتك، ﴿وأحسن﴾ إلى عباد الله ﴿كما أحسن الله﴾ عليك بهذه الأموال، ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم، ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ بل يعاقبهم على ذلك أشد العقوبة .

فـ ﴿قال﴾ قارون - راداً لنصيحتهم، كافراً لنعمة ربه :- ﴿إنما

(١) كذا في ب، وفي أ: وتكذيب .

(٢) كذا في ب، وفي أ: فيهم إلهية .



في كتبه وأخبرت [بها] رسله، التي [قد] جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص، **﴿نجعلها﴾** داراً وقراراً **﴿للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾** أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق، **﴿ولا فساداً﴾** وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والفساد، لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح.

وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة، ولهذا قال: **﴿والعاقبة﴾** أي: حالة الفلاح والنجاح، التي تستقر وتستمر، لمن اتقى الله تعالى، وغيرهم - وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة - فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب. وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة، أن الذين يريدون العلو في الأرض، أو الفساد، ليس لهم في الدار الآخرة نصيب، ولا لهم منها نصيب^(١).

﴿٨٤﴾ **﴿من جاء بالحسنة فله خيرٌ منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾**

يخبر تعالى عن مضاعفة فضله، وغام عدله، فقال: **﴿من جاء بالحسنة﴾** شرط فيها أن يأتي بها العامل، لأنه قد يعملها، ولكن يقترن بها ما لا تقبل منه أو يبطلها، فهذا لم يجرى بالحسنة، والحسنة: اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالى وحق^(٢) عباده، **﴿فله خير منها﴾** أي: أعظم وأجل، وفي الآية الأخرى **﴿فله عشر أمثالها﴾**^(٣). هذا التضعيف للحسنة، لا بد منه، وقد يقترن بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة، كما قال تعالى: **﴿والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾** بحسب حال العامل وعمله، ونفعه ومحله ومكانه، **﴿ومن جاء بالسيئة﴾** وهي كل ما نهى الشارع عنه نهياً تحريم. **﴿فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾** كقوله تعالى: **﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثله وهم لا يظلمون﴾**.

﴿٨٥ - ٨٨﴾ **﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد قل رب أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين * وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك فلا تكونن ظهيراً للكافرين * ولا يصذنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين * ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون﴾** يقول تعالى: **﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾** أي: أنزله، وفرض فيه الأحكام، وبين فيه الحلال والحرام، وأمرك بتبليغه للعالمين، والدعوة لأحكام جميع المكلفين، لا يلبق بحكمته أن تكون الحياة هي الحياة الدنيا فقط، من غير أن يثاب العباد ويعاقبوا، بل لا بد أن يردك إلى معاد، يجازي فيه المحسنون بإحسانهم، والمسيئون بمصيبتهم.

وقد بينت لهم الهدى، وأوضحت لهم المنهج، فإن تبعوك، فذلك حظهم وسعادتهم، وإن أبوا إلا عصيانك والقدح بما جئت به من الهدى، وتفضيل ما معهم من الباطل على الحق، فلم يبق للمجادلة محل، ولم يبق إلا المجازاة على الأعمال من العالم بالغيب والشهادة، والمحق والمبطل. ولهذا قال: **﴿قل رب أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين﴾** وقد علم أن رسوله هو المهتدي الهادي، وأن أعداءه هم الضالون المضلون.

﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب﴾ أي: لم تكن متحرياً لنزول هذا الكتاب عليك، ولا مستعداً له، ولا متصدياً. **﴿إلا رحمة من ربك﴾** بك وبالعباد، فأرسلك هذا الكتاب، الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين، فإذا علمت أنه أنزله إليك رحمة منه، [علمت] أن جميع ما أمر به ونهى عنه، فإنه رحمة وفضل من الله، فلا يكن في صدرك حرج من شيء منه، وتظن أن مخالفه أصلح وأنفع.

﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾ أي: معيماً لهم على ما هو من شعب كفرهم، ومن جملة مظاهرهم، أن يقال في شيء منه، إنه خلاف الحكمة والمصلحة والمنفعة.

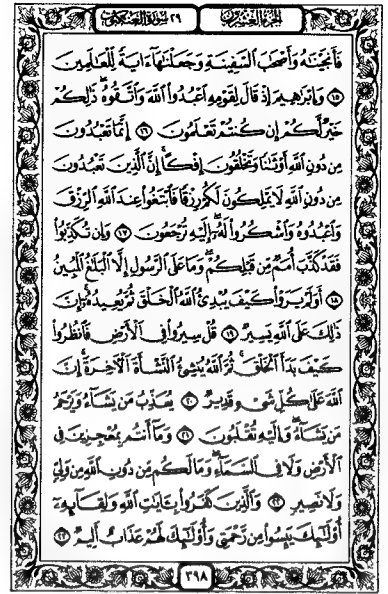
﴿ولا يصذنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾ بل أبلغها وأنفذها، ولا تبال بمكرهم ولا يخدعنك عنها، ولا تتبع أهواءهم.

﴿وادع إلى ربك﴾ أي: اجعل الدعوة إلى ربك منتهى قصدك وغاية عملك، فكل ما خالف ذلك فارقضه، من رياء، أو سمعة، أو موافقة أغراض أهل الباطل، فإن ذلك داع إلى الكون معهم، ومساعدتهم على أمرهم، ولهذا قال: **﴿ولا تكونن من المشركين﴾** لا في شركهم، ولا في فروعه وشعبه، التي هي جميع المعاصي.

(٣) زيادة من هامش: ب.

(٢) في ب: وحقوق العباد.

(١) في ب: حظ.



الصحيح والعمل الصالح عنوان على سعادة صاحبه، وأنه من أهل الرحمن، والصالحين من عباد الله تعالى.

﴿١٠ - ١١﴾ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين * وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين * لما ذكر تعالى أنه لا بد أن يمتحن من ادعى الإيمان، ليظهر الصادق من الكاذب، بين تعالى أن من الناس فريقاً لا صبر لهم على المحن، ولا ثبات لهم على بعض الزلازل، فقال: ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أؤذي في الله بضرب، أو أخذ مال، أو تعبير، ليرتد عن دينه، وليراجع الباطل، جعل فتنة الناس كعذاب الله﴾ أي: يجعلها صادة له عن الإيمان والثبات عليه، كما أن العذاب صاؤه عما هو سببه.

﴿ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم﴾ لأنه موافق للهوى، فهذا الصنف من الناس من الذين قال الله فيهم: ﴿ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المين﴾.

﴿أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين﴾ حيث خبركم بهذا الفريق، الذي حاله كما وصف لكم، فتعرفون بذلك كمال علمه وسعة حكمته.

﴿وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين﴾ أي: فلذلك قدّر محناً وابتلاء، ليظهر علمه فيهم، فيجازيهم بما ظهر منهم، لا بما يعلمه بمجرده، لأنهم قد يحتجون على الله، أنهم لو ابتلوا لثبتوا.

﴿١٢ - ١٣﴾ وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون *

وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون * يخبر تعالى عن افتراء الكفار ودعوتهم للمؤمنين إلى دينهم، وفي ضمن ذلك، تحذير المؤمنين من الاغترار بهم والوقوع في مكرهم، فقال: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا﴾ فاتركوا دينكم أو بعضه واتبعونا في ديننا، فإننا نضمن لكم الأمر ولنحمل خطاياكم. وهذا الأمر ليس بأيديهم، فلهاذا قال: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ لا قليل ولا كثير. فهذا التحمل، ولو رضي به صاحبه، فإنه لا يفيد شيئاً، فإن الحق لله، والله تعالى لم يمكن العبد من التصرف في حقه إلا بأمره وحكمه، أن لا تزر وازرة وزر أخرى.

ولما كان قوله: ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ قد يتوهم منه أيضاً، أن الكفار الداعين إلى كفرهم - ونحوهم ممن دعا إلى باطله - ليس عليهم إلا ذنبهم الذي ارتكبه، دون الذنب الذي فعله غيرهم، ولو كانوا متسببين فيه، قال: [تخبراً عن هذا الوهم] ^(١) ﴿وليحملن أثقالهم﴾ أي: أثقال ذنوبهم التي عملوها وأثقالاً مع أثقالهم، وهي الذنوب التي بسببهم ومن جرائهم، فالذنب الذي فعله التابع [لكل من التابع]، والتبوع حصته منه، هذا لأنه فعله وباشره، والتبوع [لأنه] تسبب في فعله ودعا إليه، كما أن الحسنة إذا فعلها التابع له أجرها بالباشرة، وللداعي أجره بالتسبب. ﴿وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ من الشر وتزيينه، [وقولهم] ^(٢) ﴿ولنحمل خطاياكم﴾.

﴿١٤ - ١٥﴾ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون * فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين * يخبر تعالى عن حكمه وحكمته في عقوبة ^(٣) الأمم المكذبة،

كانوا يعملون، وهي أعمال الخير، من واجبات ومستحبات، فهي أحسن ما يعمل العبد، لأنه يعمل المباحات أيضاً، وغيرها.

﴿٨﴾ ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنتنكم بما كنتم تعملون * أي: وأمرنا الإنسان، ووصيناه بوالديه حسناً، أي: ببرهما والإحسان إليهما، بالقول والعمل، وأن يحافظ على ذلك، ولا يعقهما ويسيء إليهما في قوله وعمله.

﴿وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم﴾ وليس لأحد علم بصحة الشرك بالله، وهذا تعظيم لأمر الشرك، فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنتنكم بما كنتم تعملون * فأجازيكم بأعمالكم، فبروا والديكم وقدموا طاعتكما، إلا على طاعة الله ورسوله، فإنها مقدمة على كل شيء.

﴿٩﴾ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين * أي: من آمن بالله وعمل صالحاً، فإن الله وعده أن يدخله الجنة في جملة عباده الصالحين، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، كل على حسب درجته ومرتبته عند الله، فالإيمان

(٢) كذا في ب، وفي أ: وقوله.

(٣) في ب: عقوبات.

(١) زيادة من هامش: ب.

وأن الله أرسل عبده ورسوله نوحاً عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة، والنهي عن الأنداد والأصنام، ﴿فلبث فيهم نبياً داعياً ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ وهو لا يبني بدعوتهم، ولا يفتر في نصيحهم، يدعوهم ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، فلم يرسدوا ولم يبتدوا، بل استمروا على كفرهم وطغيانهم، حتى دعا عليهم نبيه نوح عليه الصلاة والسلام، مع شدة صبره وحلمه واحتماله، فقال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ ﴿فأخذهم الطوفان﴾ أي: الماء الذي نزل من السماء بكثرة، ونبع من الأرض بشدة ﴿وهم ظالمون﴾ مستحقون للعذاب.

﴿فأنجيناه وأصحاب السفينة﴾ الذين ركبوا معه، أهله ومن آمن به. ﴿وجعلناها﴾ أي: السفينة، أو قصة نوح ﴿آية للعالمين﴾ يعتبرون بها، على أن من كذب الرسل، آخر أمره الهلاك، وأن المؤمنين سيجعل الله لهم من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً.

وجعل الله أيضاً السفينة، أي: جنسها آية للعالمين، يعتبرون بها رحمة ربهم، الذي قيض لهم أسبابها، ويسر لهم أمرها، وجعلها تحملهم وتحمل متاعهم من محل إلى محل ومن قطر إلى قطر.

﴿١٦ - ٢٢﴾ ﴿وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون * وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين * أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله يسير * قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة إن الله على كل

شيء قدير * يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقبلون * وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ يذكر تعالى أنه أرسل خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلى قومه، يدعوهم إلى الله، فقال [لهم]: ﴿اعبدوا الله﴾ أي: وحدوه، وأخلصوا له العبادة، وامثلوا ما أمركم به، ﴿واتقوه﴾ أن يغضب عليكم، فيعذبكم، وذلك بترك ما يغضبه من المعاصي، ﴿ذلكم﴾ أي: عبادة الله وتقواه ﴿خير لكم﴾ من ترك ذلك، وهذا من باب إطلاق «أفعل التفضيل» بما ليس في الطرف الآخر منه شيء، فإن ترك عبادة الله، وترك تقواه، لا خير فيه بوجه، وإنما كانت عبادة الله وتقواه خيراً للناس، لأنه لا سبيل إلى نيل كرامته في الدنيا والآخرة إلا بذلك، وكل خير يوجد في الدنيا والآخرة، فإنه من آثار عبادة الله وتقواه. ﴿إن كنتم تعلمون﴾ ذلك، فاعلموا الأمور وانظروا ما هو أولى بالإشارة، فلما أمرهم بعبادة الله وتقواه، نهاهم عن عبادة الأصنام، وبين لهم نقصها وعدم استحقاقها للعبودية، فقال: ﴿إنما تعبدون من دون الله آوثاناً وتخلقون إفكاً﴾ تحتونها وتخلقونها بأيديكم، وتخلقون لها أسماء الآلهة، وتخلقون الكذب بالأمر بعبادتها والتمسك بذلك، ﴿إن الذين تدعون من دون الله﴾ في نقصه، وأنه ليس فيه ما يدعو إلى عبادته، ﴿لا يملكون لكم رزقاً﴾ فكأنه قيل: قد بان لنا أن هذه الأوثان مخلوقة ناقصة، لا تملك نفعا ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وأن من هذا وصفه، لا يستحق أدنى أدنى أدنى مثقال مثقال مثقال ذرة من العبادة والتأله، والقلوب لا بد أن تطلب معبوداً تأله وتسأله حوائجها، فقال - حاثاً لهم على من يستحق العبادة - ﴿فابتغوا عند الله الرزق﴾ فإنه هو

الميسر له، المقدر، المجيب لدعوة من دعاه في أمر دينه ودنياه^(١)، ﴿واعبدوه﴾ وحده لا شريك له، لكونه الكامل النافع الضار، المتفرد بالتدبير، ﴿واشكروا له﴾ وحده، لكون جميع ما وصل ويصل إلى الخلق من النعم فمه، وجميع ما اندفع ويندفع من النقم عنهم فهو الدافع لها ﴿إليه ترجعون﴾ يجازيكم على ما عملتم، وينشكم بما أسرتم وأعلنتم، فاحذروا القدوم عليه وأنتم على شرككم، وارغبوا فيما يقربكم إليه، وينشكم - عند القدوم - عليه. ﴿ولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده﴾ يوم القيامة ﴿إن ذلك على الله يسير﴾ كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ

الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾. ﴿قل﴾ لهم، إن حصل معهم رب وشك في الابتداء: ﴿سيروا في الأرض﴾ بأبداً نكم وقلوبكم ﴿فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ فإنكم ستجدون أمماً من آدميين والحيوانات، لا تزال توجد شيئاً فشيئاً، وتجود النبات والأشجار، كيف تحدث وقتاً بعد وقت، وتجود السحاب والرياح ونحوها، مستمرة في تجدها، بل الخلق دائماً في بدء وإعادة، فانظر

الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾. ﴿قل﴾ لهم، إن حصل معهم رب وشك في الابتداء: ﴿سيروا في الأرض﴾ بأبداً نكم وقلوبكم ﴿فانظروا كيف بدأ الخلق﴾ فإنكم ستجدون أمماً من آدميين والحيوانات، لا تزال توجد شيئاً فشيئاً، وتجود النبات والأشجار، كيف تحدث وقتاً بعد وقت، وتجود السحاب والرياح ونحوها، مستمرة في تجدها، بل الخلق دائماً في بدء وإعادة، فانظر

بارساله إليهم، وإنما كان مجاوبتهم له شر مجاوبة.

﴿قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾ أشنع القتل، وهم أناس مقتدرون، لهم السلطان، فألقوه في النار ﴿فأنجاه الله﴾ منها

﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ فيعلمون صحة ما جاءت به الرسل، وبرهمن ونصحهم، وبطلان قول من خالفهم وناقضهم، وأن المعارضين للرسل كأنهم تواصوا وحث بعضهم بعضاً على التكذيب.

﴿وقال﴾ لهم إبراهيم في جملة ما قاله من نصحه: ﴿إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾ أي: غاية ذلك، مودة في الدنيا تنتقطع وتضمحل، ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ أي: يتبرأ كل من العابدين والمعبودين من الآخر ﴿وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ فكيف تتعلقون بمن يعلم أنه يتبرأ من عابديه ويلعنهم؟ ﴿و﴾ أن ماوى الجميع، العابدين والمعبودين ﴿النار﴾ وليس أحد ينصرهم من عذاب الله، ولا يدفع عنهم عقابه.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ ﴿فأمن له لوط وقال﴾ لني مهاجر إلى ربي إنه هو العزيز الحكيم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي: لم يزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام يدعو قومه، وهم مستمرون على عنادهم، إلا أنه آمن له بدعوته لوط، الذي نبأه الله، وأرسله إلى قومه كما سيأتي ذكره.

﴿وقال﴾ إبراهيم حين رأى أن دعوة قومه لا تفيدهم شيئاً: ﴿إني مهاجر إلى ربي﴾ أي: هاجر أرض السوء، ومهاجر إلى الأرض المباركة، وهي الشام، ﴿إنه هو العزيز﴾ أي: الذي له القوة، وهو يقدر على هدايتكم، ولكنه حكيم ما اقتضت حكمته ذلك، ولما اعتزلهم وفارقهم، وهم بحالهم، لم

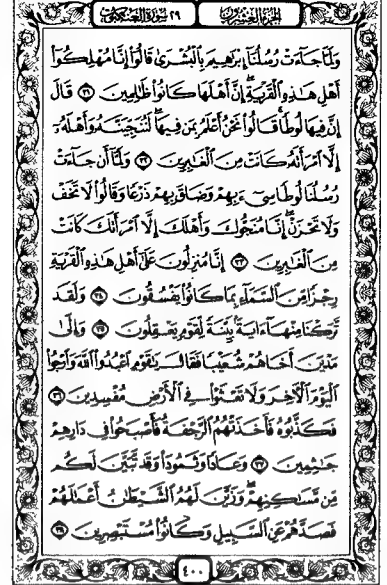
لا تحسبوا أنه مغفول عنكم، أو معجزون لله في الأرض ولا في السماء، فلا تغرنكم قدرتكم وما زينت لكم أنفسكم وخذعتكم، من النجاة من عذاب الله، فليستم بمعجزين الله في جميع أقطار العالم.

﴿وما لكم من دون الله من ولي﴾ يتولاكم، فيحصل لكم مصالح دينكم ودنياكم، ﴿ولا نصير﴾ ينصركم، فيدفع عنكم المكاره.

﴿٢٣﴾ ﴿والذين كفروا بآيات الله ولقائه أولئك يئسوا من رحمتي وأولئك لهم عذاب أليم﴾ يخبر تعالى من هم الذين زال عنهم الخير، وحصل لهم الشر، وأنهم الذين كفروا به وبرسله، وبما جاؤهم به، وكذبوا بلقاء الله، فليس عندهم إلا الدنيا، فلذلك قدموا على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي، لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك، ولهذا قال تعالى: ﴿أولئك يئسوا من رحمتي﴾ أي: فلذلك لم يعملوا سبباً واحداً يحصلون به الرحمة، وإلا لوطمعوها في رحمته، لعملوا لذلك أعمالاً، والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان:

إياس الكفار منها، وتركهم جميع سبب يقربهم منها، وإياس العصاة، بسبب كثرة جناباتهم وأوحشتهم، فملك قلوبهم، فأحدث لها الإياس، ﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ أي: مؤلم موجه. وكان هذه الآيات معترضات بين كلام إبراهيم عليه السلام لقومه، وردهم عليه، والله أعلم بذلك.

﴿٢٤ - ٢٥﴾ ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾ فأنجاه الله من النار إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون * وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً وماؤكم النار وما لكم من ناصرين﴾ أي: فما كان مجاوبة قوم إبراهيم إبراهيم حين دعاهم إلى ربه قبول دعوته، والاهتداء بنصحه، ورؤية نعمة الله عليهم



إليهم وقت موتهم الصغرى - النوم - وقد هجم عليهم الليل بظلامه، فسكنت منهم الحركات، وانقطعت منهم الأصوات، وصاروا في فرشهم وماوهم كالميتين، ثم إنهم لم يزالوا على ذلك طول ليلهم، حتى انفلق الإصباح، فانتبهوا من رقدتهم، وبعثوا من موتهم، قائلين: «الحمد لله الذي أحياناً بعدما أماتنا وإليه النشور». ولهذا قال: ﴿ثم الله﴾ بعد الإعادة ﴿ينشئ النشأة الآخرة﴾ وهي النشأة التي لا تقبل موتاً ولا نوماً، وإنما هو الخلود والدوام في إحدى الدارين. ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فقد رتبته تعالى لا يعجزها شيء، وكما قدر بها على ابتداء الخلق، فقد رتبته على الإعادة من باب أولى وأحرى.

﴿يعذب من يشاء ويرحم من يشاء﴾ أي: هو المنفرد بالحكم الجزائي، وهو إثابة الطائعين ورحمتهم، وتعذيب العصاة والتنكيل بهم. ﴿وإليه تقلبون﴾ أي: ترجعون إلى الدار، التي بها تجري عليكم أحكام عذابه ورحمته، فاكسبوا في هذه الدار، ما هو من أسباب رحمته من الطاعات، وابتعدوا من أسباب عذابه، وهي المعاصي.

﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء﴾ أي: يا هؤلاء الكاذبون، المتجرؤن على المعاصي،

يذكر الله عنهم أنه أهلكهم بعذاب، بل ذكر اعتزاله إياهم، وهجرته من بين أظهرهم.

فأما ما يذكر في الإسرائيليات، أن الله تعالى فتح على قومه باب البعوض، فشرب دماءهم، وأكل لحومهم، وأتلفهم عن آخرهم، فهذا يتوقف الجزم به على الدليل الشرعي، ولم يوجد، فلو كان الله استأصلهم بالعذاب لذكره كما ذكر إهلاك الأمم المكذبة، ولكن لعل من أسرار ذلك، أن الخليل عليه السلام من أرحم الخلق وأفضلهم [وأحلمهم] وأجلهم، فلم يدع على قومه كما دعا غيره، ولم يكن الله ليجري بسببه عذاباً عاماً.

وما يدل على ذلك، أنه راجع الملائكة في إهلاك قوم لوط، وجادلهم، ودافع عنهم، وهم ليسوا قومه، والله أعلم بالخال.

«ووهبنا له إسحاق ويعقوب» أي: بعدما هاجر إلى الشام «وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب» فلم يأت بعده نبي إلا من ذريته، ولا نزل كتاب إلا على ذريته، حتى ختموا بالنبي محمد ﷺ وعليهم أجمعين.

وهذا [من] أعظم المناقب والمفاخر، أن تكون مواد الهداية والرحمة والسعادة والفلاح في ذريته، وعلى أيديهم اهتدى المهتدون، وآمن المؤمنون، وصلح الصالحون. «وآتيناه أجره في الدنيا» من الزوجة الجميلة فائقة الجمال، والرزق الواسع، والأولاد، الذين بهم قرت عينه، ومعرفة الله ومحبته، والإنابة إليه.

«وإنه في الآخرة لمن الصالحين» بل هو ومحمد صلى الله عليهما وسلم أفضل الصالحين على الإطلاق، وأعلامهم منزلة، فجمع الله له بين سعادة الدنيا والآخرة.

﴿٢٨-٣٥﴾ «ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين» أثنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في

ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين * قال رب انصرنى على القوم المفسدين» إلى آخر القصة. تقدم أن لوطاً عليه السلام آمن لإبراهيم، وصار من المهتدين به، وقد ذكروا أنه ليس من ذرية إبراهيم، وإنما هو ابن أخي إبراهيم.

فقوله تعالى: «وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب» وإن كان عاماً، فلا يناقض كون لوط نبياً رسولاً وهو ليس من ذريته، لأن الآية جيء بها لسياق المدح والثناء على الخليل، وقد أخبر أن لوطاً اهتدى على يديه، ومن اهتدى على يديه أكمل ممن اهتدى من ذريته بالنسبة إلى فضيلة الهادي، والله أعلم.

فأرسل الله لوطاً إلى قومه، وكانوا مع شركهم، قد جمعوا بين فعل الفاحشة في الذكور، وتقطع السبيل، وفشو المنكرات في مجالسهم، فنصحهم لوط عن هذه الأمور، وبين لهم قبائحها في نفسها، وما تؤول إليه من العقوبة البليغة، فلم يبرعوا ولم يذكروا. «فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين»

فأيس منهم نبيهم، وعلم استحقاقهم العذاب، وجزع من شدة تكذيبهم له، فدعا عليهم و «قال رب انصرنى على القوم المفسدين» فاستجاب الله دعاءه، فأرسل الملائكة لإهلاكهم، فمروا بإبراهيم قبل، وبشروه بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، ثم سألهم إبراهيم أين يريدون؟ فأخبروه أنهم يريدون إهلاك قوم لوط، فجعل يراجعهم ويقول: «إن فيها لوطاً» فقالوا له: «لنتجينه وأهله إلا أمرأته كانت من الغابرين» ثم مضوا حتى أتوا لوطاً، فساء مجيئهم، وضاق بهم ذرعاً، بحيث إنه لم يعرفهم، وظن أنهم من جملة أبناء السبيل الضيوف، فخاف عليهم من

قومه، فقالوا له: «لا تخف ولا تحزن» وأخبروه أنهم رسل الله. «إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين» إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً أي: عذاباً «من السماء بما كانوا يفسقون» فأمره أن يسري بأهله ليلاً، فلما أصبحوا، قلب الله عليهم ديارهم، فجعل عليها سافلها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل متتابعة حتى أبادتهم وأهلكتهم، فصاروا سَمَراً من الأسمار، وعبرة من العبر، «ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون» أي: تركنا من ديار قوم لوط، أثاراً بينة لقوم يعقلون العبر بقلوبهم، [فيتنفون بها]، كما قال تعالى: «وإنكم لتمرون عليهم مصبحين» وبالليل أفلا تعقلون».

﴿٣٦-٣٧﴾ «وإلى مدين أخاهم شعيباً فقال يا قوم اعبدوا الله وارجو اليوم الآخر ولا تعشوا في الأرض مفسدين» فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين» أي: «و» أرسلنا «إلى مدين» القبيلة المعروفة المشهورة «شعيباً» فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث ورجائه، والعمل له، ونهاهم عن الإنساف في الأرض، ببخس المكاييل والموازين، والسعي بقطع الطرق، فكذبوه فأخذهم عذاب الله «فأصبحوا في دارهم جاثمين»

﴿٣٨-٤٠﴾ «وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين» وقارون وفرعون وهامان ولقد جاءهم موسى بالبينات فاستكبروا في الأرض وما كانوا سابقين * فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون» أي: وكذلك ما فعلنا بعاد وثمود، وقد علمتم قصصهم، وتبين لكم بشيء

شيء خلقه، وأتقن ما أمره .

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس﴾
أي : لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم ،
لكونها من الطرق الموضحة للعلوم ،
ولأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور
المحسوسة ، فيتضح المعنى المطلوب
بسببها ، فهي مصلحة لعموم الناس .

﴿و﴾ لكن ﴿ما يعقلها﴾ بفهمها
وتدبرها ، وتطبيقها على ما ضربت له ،
وعقلها في القلب ﴿إلا العالمون﴾ أي :
أهل العلم الحقيقي ، الذين وصل العلم
إلى قلوبهم .

وهذا مدح للأمثال التي يضربها ،
وحثٌ على تدبرها وتعقلها ، ومدح لمن
يعقلها ، وأنه عنوان على أنه من أهل
العلم ، فعلم أن مَنْ لم يعقلها ليس من
العالمين .

والسبب في ذلك ، أن الأمثال التي
يضربها الله في القرآن ، إنما هي للأمور
الكبار ، والمطالب العالية ، والمسائل
الجليلة ، فأهل العلم يعرفون أنها أهم
من غيرها ، لاعتناء الله بها ، وحثه
عباده على تعقلها وتدبرها ، فيبذلون
جهدهم في معرفتها .

وأما مَنْ لم يعقلها ، مع أهميتها ، فإن
ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم ،
لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة ، فعدم
معرفته غيرها من باب أولى وأحرى .
ولهذا ، أكثر ما يضرب الله الأمثال في
أصول الدين ونحوها .

﴿٤٤﴾ ﴿خلق الله السماوات
والأرض بالحق إن في ذلك لآية
للمؤمنين﴾ أي : هو تعالى المنفرد بخلق
السماوات ، على علوها وارتفاعها
وسعتها وحسنها وما فيها من الشمس
والقمر والكواكب والملائكة ، والأرض
وما فيها من الجبال والبحار والبراري
والقفار والأشجار ونحوها ، وكل ذلك
خلقه بالحق ، أي : لم يخلقها عبثاً
ولا سدى ، ولا لغير فائدة ، وإنما
خلقها ، ليقوم أمره وشرعه ، ولتتم
نعمته على عباده ، وليروا من حكمته
وقهره وتدبيره ، ما يلهيهم على أنه وحده
معبودهم ومحبوبهم وإلههم . ﴿إن في
ذلك لآية للمؤمنين﴾ على كثير من

الأمر بخلاف مقصوده ، فإن مثله كمثل
العنكبوت ، اتخذت بيتاً يقيها من الحر
والبرد والآفات ، ﴿وإن أوهن
البيوت﴾ أضعفها وأوهاها ﴿لبيت
العنكبوت﴾ . فالعنكبوت من
الحيوانات الضعيفة ، وبيتها من أضعف
البيوت ، فما ازدادت باتخاذها إلا
ضعفاً ، كذلك هؤلاء الذين يتخذون
من دونه أولياء ، فقراء عاجزون من
جميع الوجوه ، وحين اتخذوا الأولياء من
دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم ،
ازدادوا ضعفاً إلى ضعفهم ، ووهناً إلى
وهنهم .

فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من
مصالحهم ، وألقوها عليهم ، وتخلوا هم
عنها ، على أن أولئك سيقومون بها ،
فخذلوهم ، فلم يحصلوا منهم على
طائل ، ولا أنالوهم من معونتهم أقل
نائل .

فلو كانوا يعلمون حقيقة العلم ،
حالهم وحال مَنْ اتخذوهم ، لم
يتخذوهم ، ولتبرؤوا منهم ، وتولوا
الرب القادر الرحيم ، الذي إذا تولاه
عبده وتوكل عليه ، كفاه مؤونة دينه
ودنياه ، وازداد قوة إلى قوته ، في قلبه
وفي بدنه وحاله وأعماله .

ولما بين نهاية ضعف آلهة المشركين ،
ارتقى من هذا إلى ما هو أبلغ منه ، وأنها
ليست بشيء ، بل هي مجرد أسماء
سموها ، وظنون اعتقدوها ، وعند
التحقيق ، يتبين للعاقل بطلانها
وعدمها ، ولهذا قال : ﴿إن الله يعلم ما
يدعون من دونه من شيء﴾ أي : إنه
تعالى يعلم - وهو عالم الغيب
والشهادة - أنهم ما يدعون من دون الله
شيئاً موجوداً ، ولا إلهاً له حقيقة ،
كقوله تعالى : ﴿إن هي إلا أسماء
سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها
من سلطان﴾ وقوله : ﴿وما يتبع الذين
يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون
إلا الظن وإن هم إلا يخرون﴾ .

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ الذي له
القوة جميعاً ، التي قهر بها جميع
المخلوقات ، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع
الأشياء مواضعها ، الذي أحسن كل

تشاهدونه بأبصاركم من مساكنهم
وأثارهم التي بانوا عنها ، وقد جاءتهم
رسولهم بالآيات البينات ، المفيدة
للبصيرة ، فكذبوهم وجادلوهم .

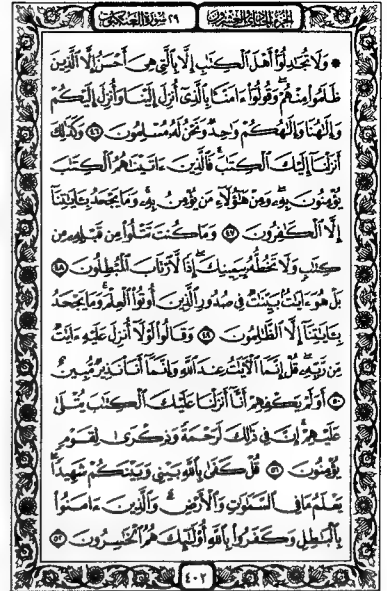
﴿ورزى لهم الشيطان أعمالهم﴾
حتى ظنوا أنها أفضل مما جاءتهم به
الرسول ، وكذلك قارون ، وفرعون ،
وهامان ، حين بعث الله إليهم
موسى بن عمران ، بالآيات البينات ،
والبراهين الساطعات ، فلم ينقادوا ،
واستكبروا في الأرض ، [على عباد الله
فأذلوهم ، وعلى الحق فردوه فلم يقدروا
على النجاء حين نزلت بهم العقوبة]
﴿وما كانوا سابقين﴾ الله ، ولا فائتين ،
بل سلّموا واستسلموا .

﴿فكلاً﴾ من هؤلاء الأمم المكذبة
﴿أخذنا بذنبيه﴾ على قدره ، وبعقوبة
مناسبة له ، ﴿فمنهم من أرسلنا عليه
حاصباً﴾ أي : عذاباً يحصبهم ، كقوم
عاد ، حين أرسل الله عليهم الريح
العقيم ، و ﴿سخرها عليهم سبع ليال
وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها
صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية﴾ .

﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ كقوم
صالح ، ﴿ومنهم من خسفنا به
الأرض﴾ كقارون ، ﴿ومنهم من
أغرقنا﴾ كفرعون وهامان وجنودهما .

﴿وما كان الله﴾ أي : ما ينبغي
ولا يليق به تعالى أن يظلمهم لكمال
عدله ، وغناه التام عن جميع الخلق .
﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾
منعوا حقها التي هي بصده ، فإنها
مخلوقة لعبادة الله وحده ، فهؤلاء
وضعوها في غير موضعها ، وأشغلوها
بالشهوات والمعاصي ، فضروها غاية
الضرر ، من حيث ظنوا أنهم ينفعونها .

﴿٤١ - ٤٣﴾ ﴿مثل الذين اتخذوا
من دون الله أولياء كمثل العنكبوت
اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت
العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ * إن الله
يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو
العزيز الحكيم * وتلك الأمثال نضربها
للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴿هذا
مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره ،
يقصد به التعزز والثَقْوَى والنفع ، وأن



ولاً، فكل مَنْ له قصد صحيح، فإنه لا بد أن يؤمن به، لما اشتمل عليه من البينات، لكل مَنْ له عقل، أو ألقى السمع وهو شهيد.

ومما يدل على صحته، أنه جاء به هذا النبي الأمين، الذي عرف قومه صدقه وأمانته ومدخله ومخرجه وسائر أحواله، وهو لا يكتب بيده خطأ، ولا يقرأ خطأ مكتوباً، فإتيانه به في هذه الحال، من أظهر البينات القاطعة، التي لا تقبل الارتياح، أنه من عند الله العزيز الحميد، ولهذا قال: ﴿وما كنت تتلو﴾ أي: تقرأ ﴿من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك إذا﴾ لو كنت بهذه الحال ﴿لارتاب المبطلون﴾

فقالوا: تعلمه من الكتب السابقة، أو استنسخه منها، فأما وقد نزل على قلبك، كتاباً جليلاً، تحدث به الفصحاء والبلغاء، الأعداء الألداء، أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، فعجزوا غاية العجز، بل ولا حدثهم أنفسهم بالمعارضة، لعلمهم ببلاغته وفصاحته، وأن كلام أحد من البشر، لا يبلغ أن يكون مجارياً له أو على منواله، ولهذا قال:

﴿٤٩﴾ ﴿بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يحسد باياتنا إلا الظالمون﴾.

أي: ﴿بل﴾ هذا القرآن ﴿آيات بينات﴾ لا خفيات، ﴿في صدور الذين أوتوا العلم﴾ وهم سادة الخلق، وعقلاؤهم، وأولو الألباب منهم، والأكمل منهم.

فإذا كان آيات بينات في صدور أمثال هؤلاء، كانوا حجة على غيرهم، وإنكار غيرهم لا يضر، ولا يكون ذلك إلا ظلماً، ولهذا قال: ﴿وما يحسد باياتنا إلا الظالمون﴾ لأنه لا يحجدها إلا جاهل تكلم بغير علم، ولم يقتد بأهل العلم، وهو متمكن من معرفته على حقيقته، وإما متجاهل عرف أنه حق فعانده، وعرف صدقه فخالفه.

﴿٥٠ - ٥٢﴾ ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين﴾ * أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون * قل كفى بالله ببني بينكم شهيداً يعلم ما في السماوات والأرض والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ أي: واعترض هؤلاء الظالمون المكذوبون للرسول ولما جاء به، واقترحوا عليه نزول آيات عينوها، كقولهم: ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً﴾ الآيات. فتعين الآيات ليس عندهم، ولا عند الرسول ﷺ، فإن في ذلك تدبيراً مع الله، وأنه لو كان كذلك، وينبغي^(١) أن يكون كذلك، وليس لأحد من الأمر شيء. ولهذا قال: ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ إن شاء أنزلها أو منعها ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ وليس لي مرتبة فوق هذه المرتبة.

وإذا كان القصد بيان الحق من الباطل، فإذا حصل المقصود - بأي طريق - كان اقتراح الآيات المعينات على ذلك ظلماً وجوراً، وتكبراً على الله وعلى الحق.

بل لو قدر أن تنزل تلك الآيات، ويكون في قلوبهم أنهم لا يؤمنون بالحق إلا بها، كان ذلك ليس بإيمان، وإنما ذلك شيء وافق أهواءهم، فآمنوا، لا لأنه حق، بل لتلك الآيات.

فأي فائدة حصلت في إنزالها على التقدير الفرضي؟

ولما كان المقصود بيان الحق، ذكر تعالى طريقه، فقال: ﴿أولم يكفهم﴾ في علمهم بصدقك وصدق ما جئت به ﴿أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ وهذا كلام مختصر جامع، فيه من الآيات البينات، والدلالات الباهرات، شيء كثير، فإنه كما تقدم إتيان الرسول به بمجرد وهو أمي، من أكبر الآيات على صدقه.

به، واتخذها لها، وأمن بجميع كتبه ورسله، وانقاد لله واتبع رسله، فهو السعيد، ومن انحرف عن هذا الطريق، فهو الشقي.

﴿٤٧ - ٤٨﴾ ﴿وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يحسد باياتنا إلا الكافرون﴾ * وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾ أي: ﴿وكذلك أنزلنا إليك﴾ يا محمد، هذا ﴿الكتاب﴾ الكريم، المبين كل نبأ عظيم، الداعي إلى كل خلق فاضل، وأمر كامل، المصدق للكتب السابقة، المخبر به الأنبياء الأقدمون.

﴿فالذين آتيناهم الكتاب﴾ فعرفوه حق معرفته، ولم يداخلهم حسد وهوى. ﴿يؤمنون به﴾ لأنهم تيقنوا صدقه، بما لديهم من الموافقات، وبما عندهم من البشارات، وبما تميزوا به من معرفة الحسن والقبيح، والصدق والكذب.

﴿ومن هؤلاء﴾ الموجودين ﴿من يؤمن به﴾ إيماناً على بصيرة، لا عن رغبته ولا رهبة. ﴿وما يحسد باياتنا إلا الكافرون﴾ الذين ذأبهم الجحود للحق والعناد له. وهذا حصر لمن كفر به، أنه لا يكون من أحد قصده متابعة الحق،

ثم عجزهم عن معارضته، وتحديه إياهم^(١)، آية أخرى، ثم ظهوره، وبروزه جهراً علانية، يتلى عليهم، ويقال: هو من عند الله، قد أظهره الرسول، وهو في وقت قل فيه أنصاره، وكثر مخالفوه وأعداؤه، فلم يخفه، ولم يثن ذلك عزمه، بل صرح به على رؤوس الأشهاد، ونادى به بين الحاضر والباد، بأن هذا كلام ربي، فهل أحد يقدر على معارضته، أو ينطق بمباراته أو يستطيع مجاراته؟

ثم إخباره عن قصص الأولين، وأنباء السابقين^(٢)، والغيوب المتقدمة والمتأخرة، مع مطابقته للواقع.

ثم هيمنته على الكتب المتقدمة، وتصحيحه للصحيح، ونفي ما أدخل فيها من التحريف والتبديل، ثم هدايته لسواء السبيل، في أمره ونهيه، فما أمر بشيء فقال العقل «ليته لم يأمر به»، ولا نهى عن شيء فقال العقل: «ليته لم ينه عنه»، بل هو مطابق للعدل والميزان، والحكمة المعقولة لذوي البصائر والعقول (ثم مسaire إرشاداته وهداياته وأحكامه لكل حال وكل زمان بحيث لا تصلح الأمور إلا به)^(٣).

فجميع ذلك يكفي من أراد تصديق الحق، وعمل على طلب الحق، فلا كفى الله من لم يكفه القرآن، ولا شفى الله من لم يشفه الفرقان، ومن اهتدى به واكتفى، فإنه خير له^(٤)، فلذلك قال: «إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون» وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية.

«قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً» فأننا قد استشهدته، فإن كنت كاذباً، أحل بي ما به تعتبرون، وإن كان إنما يؤيدني وينصري ويسير لي الأمور،

فلتكفيكم هذه الشهادة الجليلة من الله، فإن وقع في قلوبكم أن شهادته - وأنت لم تسمعه ولم تروه - لا تكفي دليلاً، فإنه «يعلم ما في السماوات والأرض». ومن جملة معلوماته حالي وحاليكم، ومقالي لكم^(٥) فلو كنت متقولاً عليه، مع علمه بذلك، وقدرته على عقوبتي، لكان قدحاً في علمه وقدرته وحكمته كما قال تعالى: «ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين».

«والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون» حيث هم خسروا الإيمان بالله وملأته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وحيث فاتهم النعيم المقيم، وحيث حصل لهم في مقابلة الحق الصحيح كل باطل قبيح، وفي مقابلة النعيم كل عذاب أليم، فخسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة.

﴿٥٣ - ٥٥﴾ «ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون» يخبر تعالى عن جهل المكذبين للرسول وما جاء به، وأنهم يقولون - استعجالاً للعذاب، وزيادة تكذيب - «متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟»

يقول تعالى: «ولولا أجل مسمى * مضروب لنزوله، ولم يأت بعد، لجاءهم العذاب» بسبب تعجزهم لنا وتكذيبهم الحق، فلو أخذناهم بجهلهم، لكان كلامهم أسرع لبلاتهم وعقوبتهم، ولكن - مع ذلك - فلا يستبثون^(٦) نزوله، فإنه سيأتيهم «بغتة وهم لا يشعرون». فوقع كما أخبر الله تعالى، لما قدموا «بدر» بطرين مفاخرين، ظانين أنهم قادرون

على مقصودهم، فأهانهم^(٧) الله، وقتل كبارهم، واستوعب جملة أشرارهم، ولم يبق فيهم بيت إلا أصابته تلك المصيبة، فأتاهم العذاب من حيث لم يحتسبوا، ونزل بهم وهم لا يشعرون. هذا، وإن لم ينزل عليهم العذاب الدنيوي، فإن أمامهم العذاب الآخروي، الذي لا يخلص منهم أحد منه، سواء عوجل بعذاب الدنيا أو أمهل.

«وإن جهنم لمحيطة بالكافرين» ليس لهم عنها معدل ولا متصرف، قد أحاطت بهم من كل جانب، كما أحاطت بهم ذنوبهم وسيئاتهم وكفرهم، وذلك العذاب، هو العذاب الشديد.

«يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون» فإن أعمالكم انقلبت عليكم عذاباً، وشملكم العذاب كما شملكم لكفر والذنوب.

﴿٥٦ - ٥٩﴾ «يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فيآسي فاعبدون * كل نفس ذائقة الموت ثم إني أ ترجعون * والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوتنهم من الجنة غراً تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين * الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون» يقول تعالى: «يا عبادي الذين آمنوا» بي وصدقوا رسولي «إن أرضي واسعة فيآسي فاعبدون» فإذا تعذرت عليكم عبادة ربكم في أرض، فارتحلوا منها إلى أرض أخرى، حيث كانت العبادة لله وحده، فأماكن العبادة ومواضعها، واسعة، والمعبود واحد، والموت لا بد أن ينزل بكم ثم ترجعون إلى ربكم، فيجازي من أحسن عبادته وجمع بين الإيمان والعمل الصالح بإنزاله الغرف العالية، والمنازل الأنيقة الجامعة لما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وأتم فيها خالدون.

(٧) في النسختين: فأهانهم، ولعلها كما أثبت والله أعلم.

(٤) في ب: فإنه رحمة له وخير.

(٥) كذا في ب، وفي أ: ومقالمكم.

(٦) كذا في ب، وفي أ: يستعجلونك.

(١) في ب: وتحديهم إياه.

(٢) في ب: السابقين.

(٣) زيادة من هامش: ب.

ف ﴿نعم﴾ تلك المنازل، في جنات النعيم ﴿أجر العاملين﴾ لله، ﴿الذين صبروا﴾ على عبادة الله ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ في ذلك. فصبرهم على عبادة الله، يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان، الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك.

وتوكلهم، يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به، أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها، ونص على التوكل، وإن كان داخلاً في الصبر، لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأمور به، ولا يتم إلا به.

﴿٦٠﴾ ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها﴾ الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم ﴿أي: الباري تبارك وتعالى، قد تكفل بأرزاق الخلائق كلهم، قوهم وعاجزهم، فكم ﴿من دابة﴾ في الأرض، ضعيفة القوى، ضعيفة العقل. ﴿لا تحمل رزقها﴾ ولا تدخره، بل لم تزل، لا شيء معها من الرزق، ولا يزال الله يسخر لها الرزق، في كل وقت وبوقته.

﴿الله يرزقها وإياكم﴾ فكلكم عيال الله، القائم برزقكم، كما قام بخلقكم وتدريبكم، ﴿وهو السميع العليم﴾ فلا يخفى عليه خافية، ولا تهلك دابة من عدم الرزق بسبب أنها خافية عليه.

كما قال تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾.

﴿٦١ - ٦٣﴾ ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون﴾ * الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له إن الله بكل شيء عليم * ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض من بعد

موتها ليقولن الله قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴿هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، فأنت لو سألتهم مَنْ خلق السموات والأرض، ومَنْ نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، ومَنْ بيده تدبير جميع الأشياء؟﴾ ليقولن الله ﴿وحده، ولا غترقوا بعجز الأوثان ومن عبده مع الله على شيء من ذلك.

فاعجب لإفكهم وكذبهم، وعدولهم إلى مَنْ أقروا بعجزه، وأنه لا يستحق أن يدبر شيئاً، وسجل عليهم بعدم العقل، وأنهم السفهاء، ضعفاء الأحلام، فهل تجد أضعف عقلاً، وأقل بصيرة، ممن أتى إلى حجر، أو قبر ونحوه، وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يخلق ولا يرزق، ثم صرف له خالص الإخلاص، وصافي العبودية، وأشركه مع الرب، الخالق الرازق، النافع الضار.

وقل: الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون، ليحذره الموقنون.

وقل: الحمد لله، الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم ورزقهم، ووسط الرزق على مَنْ يشاء، وضيقه على من يشاء، حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده وما ينبغي لهم.

﴿٦٤ - ٦٩﴾ ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾ * فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله لخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم وليمتنعوا فسوف يعلمون * أولم يروا أننا جعلنا حراماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم أقبالاً باطل يؤمنون وينعمة الله يكفرون * ومن أظلم ممن افترى على

الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه اليس في جهنم مثوى للكافرين * والذين جاهدوا فبنا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾ يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة، وفي ضمن ذلك، التزهيد في الدنيا والتشويق للآخرة، فقال: ﴿وما هذه الحياة الدنيا﴾ في الحقيقة ﴿إلا لهو ولعب﴾ تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان، بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات، والشهوات الخالبة للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس المبطلّة الباطلة، ثم تزول سريعاً، وتنقضي جميعاً، ولم يحصل منها محبة إلا على الندم والحسرة والخسران.

وأما الدار الآخرة، فلإنها دار ﴿الحيوان﴾ أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجوداً فيها كل ما تكمل به الحياة، وتم به اللذات، من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان، من المأكّل، والمشرب، والمناكح، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿لو كانوا يعلمون﴾ لما أتروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقلون لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب، فدل ذلك على أن الذين يعلمون، لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا، لما يعلمونه من حالة الدارين.

ثم ألزم تعالى المشركين بإخلاصهم لله تعالى، في حالة^(١) الشدة، عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك، يتركون إذا أندادهم، ويخلصون الدعاء لله وحده لا شريك له، فلما زالت عنهم الشدة، ونجى^(٢) مَنْ أخلصوا له الدعاء إلى البر، أشركوا به من لا نجاهم من شدة، ولا أزال^(٣) عنهم مشقة. فهلا أخلصوا لله الدعاء في حال

ويحلوا بساحته [وهذه الأمور لو قارنها الإيمان وبنيت عليه لأنثرت الرقي العالي، والحياة الطيبة، ولكنها لما بني كثير، منها على الإلحاد لم تثمر إلا هبوط الأخلاق وأسباب الفناء والتدمير^(١)].

﴿وهم عن الآخرة هم غافلون﴾ قد توجهت قلوبهم وأهواؤهم وإراداتهم إلى الدنيا وشهواتها وحطامها، فعملت لها وسعت، وأقبلت بها وأدبرت، وغفلت عن الآخرة، فلا الجنة تشتاق إليها، ولا النار تخافها وتحشاها، ولا المقام بين يدي الله ولقائه يروعها ويزعجها، وهذا علامة الشقاء، وعنوان الغفلة عن الآخرة.

ومن العجب أن هذا القسم من الناس، قد بلغت بكثير منهم الفطنة والذكاء في ظاهر الدنيا، إلى أمر يحير العقول ويدهش الألباب.

وأظهروا من المعجائب الذرية^(٢) والكهربائية، والمراكب البرية والبحرية والهوائية، ما فاقوا به وبرزوا، وأعجبوا بعقولهم، ورأوا غيرهم عاجزاً عما أقدرهم الله عليه، فنظروا إليهم بعين الاحتقار والازدراء، وهم مع ذلك، أبعد الناس في أمر دينهم، وأشدهم غفلة عن آخرتهم، وأقلهم معرفة بالعواقب، قد رآهم أهل البصائر النافذة، في جهلهم يتخطون، وفي ضلالهم يعمهون، وفي باطلهم يترددون^(٣). نسوا الله فأنساهم أنفسهم، أولئك هم الفاسقون.

ثم^(٤) نظرنا إلى ما أعطاهم الله وأقدرهم عليه، من الأفكار الدقيقة في الدنيا وظواهرها، وما حرموا من العقل العالي، فعرفوا^(٥) أن الأمر لله، والحكم له في عبادته، وإن هو إلا توفيقه وخذلانه، فخافوا^(٦) ربهم وسألوه أن يتم لهم ما وهبهم، من نور العقول والإيمان، حتى يصلوا إليه،

﴿ما خلق الله السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق﴾ [أي] ليلوكم أيكم أحسن عملاً. ﴿وأجل مسمى﴾ أي: مؤقت بقاؤهما إلى أجل تنقضي به الدنيا، ونجى به القيامة، وتبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

﴿وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون﴾. فلذلك لم يستعدوا للقاءه، ولم يصدقوا رسله التي أخبرت به، وهذا الكفر عن غير دليل، بل الأدلة القاطعة، قد دلت على البعث والجزاء،

أسباب وجوده، ويتيقنون عدم الأمر الذي لم يشاهدوا له من الأسباب المتقضية لوجوده شيئاً، فهم واقفون مع الأسباب، غير ناظرين إلى مسببها، المتصرف فيها.

﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ فتيقنوا ذلك، واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه.

فلما نزلت هذه الآيات، التي فيها هذا الوعد، صدق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة سنين عيونها، فلما جاء الأجل، الذي ضربه الله، انتصر الروم على الفرس، وأجلوهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله.

وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها، ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها، من المسلمين والمشركين. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن ما وعد الله به حق، فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعد الله، ويكذبون آياته، وهؤلاء الذين لا يعلمون، أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا^(٧).

﴿ويعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ فينظرون إلى الأسباب، ويجزمون بوقوع الأمر الذي في رأيهم انعدت



لا يدخل في الحساب.

﴿وعد الله لا يخلف الله وعده﴾ فتيقنوا ذلك، واجزموا به، واعلموا أنه لا بد من وقوعه.

فلما نزلت هذه الآيات، التي فيها هذا الوعد، صدق بها المسلمون، وكفر بها المشركون، حتى تراهن بعض المسلمين وبعض المشركين على مدة سنين عيونها، فلما جاء الأجل، الذي ضربه الله، انتصر الروم على الفرس، وأجلوهم من بلادهم التي أخذوها منهم، وتحقق وعد الله.

وهذا من الأمور الغيبية التي أخبر بها الله قبل وقوعها، ووجدت في زمان من أخبرهم الله بها، من المسلمين والمشركين. ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن ما وعد الله به حق، فلذلك يوجد فريق منهم يكذبون بوعد الله، ويكذبون آياته، وهؤلاء الذين لا يعلمون، أي: لا يعلمون بواطن الأشياء وعواقبها، وإنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا^(٧).

(١) كذا في ب، وفي أ: النارية.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يتددون.

(٣) هكذا في النسختين، وقد شطبت

الكلمة في ب، وجعل بدلها (ولو).

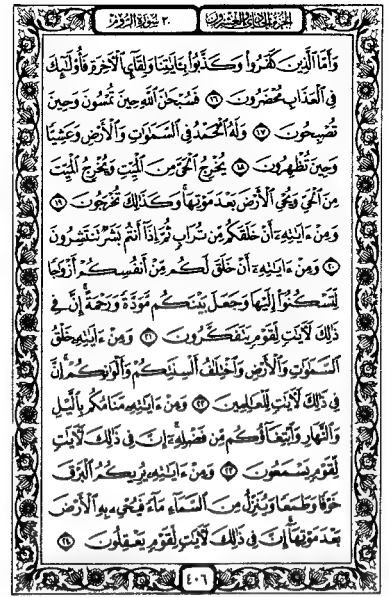
(٤) في ب: عدلت إلى: لعرفوا.

(٥) في ب: عدلت إلى ولخافوا.

(٦) زيادة من هامش ب، لم يتضح أولها

وقد نقلته من طبعة السلفية.

(٧) كذا في ب، وفي أ: يعرف.



عظمته، ونفوذ مشيئته، وقوة إقنتداره، وجبل صنعه، وسعة رحمته وإحسانه، فقال: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ وذلك بخلق أصل النسل، آدم عليه السلام، ﴿ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ أي: الذي خلقكم من أصل واحد ومادة واحدة^(١) وبشكم في أقطار الأرض [وأرجائها ففي ذلك آيات على أن الذي أنشاكم من هذا الأصل وبشكم في أقطار الأرض]^(٢) هو الرب المعبود، الملك المحمود، والرحيم الودود، الذي سيعيدكم بالبعث بعد الموت.

﴿ومن آياته﴾ الدالة على رحمته وعنايته بعباده، وحكمته العظيمة، وعلمه المحيط، ﴿أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا﴾ تناسبكم وتناسبونهم، وتشاكلكم وتشاكلونهم، ﴿لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾ بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة.

فحصل بالزوجة الاستمتاع واللذة، والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم، والسكون إليها، فلا تجد بين أحد في الغالب، مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة، ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ يُعْمِلُونَ أَفْكَارَهُمْ، ويتدبرون آيات الله، وينتقلون من شيء إلى شيء.

﴿٢٢﴾ ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ إن في ذلك لآيات للعالمين ﴿والعالمون﴾ هم أهل العلم، الذين يفهمون العبر، ويتدبرون الآيات. والآيات في ذلك كثيرة: فمن آيات خلق السماوات والأرض وما فيهما، أن ذلك دال على عظمة سلطان الله وكمال اقتداره، الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة،

وكمال حكمته، لما فيها من الإقنتان، وسعة علمه، لأن الخالق لا بد أن يعلم ما خلقه ﴿ألا يعلم من خلق﴾ وعموم رحمته وفضله، لما في ذلك من المنافع الجليلة، وأنه المريد، الذي يختار ما يشاء، لما فيها من التخصيصات والمزايا، وأنه وحده، الذي يستحق أن يعبد ويوحد، لأنه المنفرد بالخلق، فيجب أن يفرد بالعبادة، فكل هذه أدلة عقلية، نبه الله العقول إليها، وأمرها بالتفكر واستخراج العبرة منها.

﴿٢١﴾ كذلك في ﴿اختلاف ألسنتكم وألوانكم﴾ على كثرتكم وتباينكم مع أن الأصل واحد، ومخرج الحروف واحدة، ومع ذلك لا تجد صوتين متفقين من كل وجه، ولا لونين متشابهين من كل وجه، إلا وتجد من الفرق بين ذلك ما به يحصل التمييز. وهذا دال على كمال قدرته، ونفوذ مشيئته.

﴿٢٣﴾ ﴿ومن آياته مناخم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله﴾ إن في ذلك التشابه فيحصل الاضطراب، ويفوت كثير من المقاصد والمطالب.

﴿٢٤﴾ ﴿ومن آياته مناخم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله﴾ إن في ذلك تشكرون وعلى تمام حكمته، إذ حكمته اقتضت سكون الخلق في وقت، ليستريحوا به^(٤) ويستجموا^(٥)، وانتشارهم في وقت، لمصالحهم الدينية والدنيوية، ولا يتم ذلك إلا بتعاقب الليل والنهار عليهم، والمنفرد بذلك، هو المستحق للعبادة.

﴿٢٥﴾ ﴿ومن آياته يريكم البرق

النبات من الأرض الميتة والسنبله من الحبة، والشجرة من النواة، والفرخ من البيضة، والمؤمن من الكافر، ونحو ذلك.

﴿ويخرج الميت من الحي﴾ بعكس المذكور ﴿ويحيي الأرض بعد موتها﴾ فينزل عليها المطر وهي ميتة هامدة، فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ﴿وكذلك تخرجون﴾ من قبوركم.

فهذا دليل قاطع، وبرهان ساطع، أن الذي أحيا الأرض بعد موتها، فإنه يحيي الأموات، فلا فرق في نظر العقل بين الأميين، ولا موجب لاستبعاد أحدهما مع مشاهدة الآخر.

﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ هذا شروع في تعداد آياته الدالة على انفرادة بالإلهية، وكمال

(١) زيادة بخط المؤلف من هامش أ.

(٢) زيادة من ب.

(٣) زيادة يقتضيهما السياق.

(٤) زيادة من أ.

(٥) الكلمة غير واضحة في النسختين وكأنها (ويجموا) وقد زيد عليها في نسخة ب حرفان فصارت يستجموا.

خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴿٢٥﴾ أي: ومن آياته، أن ينزل عليكم المطر، الذي تحيا به البلاد والعباد، ويريكهم قبل نزوله مقدماته، من الرعد والبرق، الذي يخاف ويطمع فيه.

﴿إن في ذلك لآيات﴾ [دالة] على عموم إحسانه، وسعة علمه، وكمال إنقائه، وعظيم حكمته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها. ﴿لقوم يعقلون﴾ أي: لهم عقول، تعقل بها ما تسمعه، وتراه وتحفظه، وتستدل به على ما جعل دليلاً عليه.

﴿٢٥ - ٢٧﴾ ﴿ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون * وله من في السماوات والأرض كل له قانتون * وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾ أي: ومن آياته العظيمة، أن قامت السماوات والأرض واستقرتا، وثبتتا بأمره فلم تنزلزلا، ولم تسقط السماء على الأرض، فقدردته العظيمة، التي بها أمسك السماوات والأرض أن تزولا، يقدر بها أنه إذا دعا الخلق دعوة من الأرض، إذا هم يخرجون ﴿خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس﴾.

﴿وله من في السماوات والأرض﴾ الكل خلقه وماليكه، المتصرف فيهم من غير منازع ولا معاون ولا معارض، وكلهم قانتون لجلاله، خاضعون لكماله.

﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو﴾ أي: الإعادة للخلق بعد موتهم ﴿أهون عليه﴾ من ابتداء خلقهم، وهذا بالنسبة إلى الأذهان والعقول، فإذا كان قادراً على الابتداء الذي تقرون به، كانت ^(١) قدرته على الإعادة التي أهون أولى وأولى.

ولما ذكر من الآيات العظيمة ما به

يعتبر المعتبرون، ويتذكر المؤمنون ويتبصر المهتدون، ذكر الأمر العظيم والمطلب الكبير، فقال: ﴿وله المثل الأعلى في السماوات والأرض﴾ وهو كل صفة كمال، والكمال من تلك الصفة، والمجبة، والإنابة التامة الكاملة في قلوب عباده المخلصين، والذكر الجليل، والعبادة منهم. فالمثل الأعلى، هو وصفه الأعلى، وما ترتب عليه.

ولهذا كان أهل العلم يستعملون في حق الباري قياس الأولى، فيقولون: كل صفة كمال في المخلوقات، فخالقها أحق بالانصاف بها، على وجه لا يشاركه فيها أحد، وكل نقص في المخلوق ينزه عنه، فتزبه الخالق عنه من باب أولى وأحرى.

﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي: له العزة الكاملة، والحكمة الواسعة، فعزته، أوجد بها المخلوقات وأظهر الأمور، وحكمته، أنقن بها ما صنعه وأحسن فيها ما شرعه.

﴿٢٨ - ٢٩﴾ ﴿ضرب لكم مثلاً﴾ من أنفسكم هل لكم من ما ملكت إيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون * بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين﴾ هذا مثل ضربه الله تعالى، لقبح الشرك وتهجينه، مثلاً من أنفسكم، لا يحتاج إلى حل وترحال، وإعمال الجمال.

﴿هل لكم مما ملكت إيمانكم من شركاء فيما رزقناكم﴾ أي: هل أحد من عبيدكم وإمائكم الأرقاء يشارككم في رزقكم، وترون أنكم وهم فيه على حد سواء.

﴿تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ أي: كالأحرار الشركاء في الحقيقة، الذين يخاف من قسمه، واختصاص كل شيء بحاله؟

ليس الأمر كذلك، فإنه ليس أحد مما ملكت إيمانكم شريكاً لكم فيما

رزقكم الله تعالى.

هذا، ولستم الذين خلقتهموهم ورزقتهموهم، وهم أيضاً ممالك مثلكم، فكيف ترضون أن تجعلوا لله شريكاً من خلقه، وتجعلونه بمنزلة، وعديلاً له في العبادة، وأنتم لا ترضون مساواة ممالككم لكم؟ هذا من أعجب الأشياء، ومن أدل شيء على [سفه] ^(٢) من اتخذ شريكاً مع الله، وأن ما اتخذ باطل مضمحل، ليس مساوياً لله، ولا له من العبادة شيء.

﴿كذلك نفصل الآيات﴾ بتوضيحها بأمثلتها ﴿لقوم يعقلون﴾ الحقائق ويعرفون، وأما من لا يعقل، فلو فصلت له الآيات، وبينت له البينات، لم يكن له عقل يبصر به ما تبين، ولا لب يعقل به ما توضح، فأهل العقول والألباب، هم الذين يساق إليهم الكلام، ويوجه الخطاب.

وإذا علم من هذا المثال، أن من اتخذ من دون الله شريكاً يعبده ويتوكل عليه في أموره، فإنه ليس معه من الحق شيء، فما الذي أوجب له الإقدام على أمر باطل، توضح له بطلانه وظهر برهانه؟ [لقد] ^(٣) أوجب لهم ذلك اتباع الهوى، فلماذا قال: ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾ هويت أنفسهم الناقصة، التي ظهر من نقصانها ما تعلق به هواها، أمراً يهزم العقل بفساده، والفطر برده، بغير علم دلهم عليه، ولا برهان قادم إليه.

﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ أي: لا تعجبا من عدم هدايتهم، فإن الله تعالى أضلهم بظلمهم، ولا طريق لهداية من أضل الله، لأنه ليس أحد معارضاً لله، أو منازعاً له في ملكه.

﴿وما لهم من ناصرين﴾ ينصرونهم حين تحق عليهم كلمة العذاب، وتقطع بهم الوصل والأسباب.

﴿٣٠ - ٣٢﴾ ﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم

وباطل، فيكونون مشاهين بذلك للمشركين في التفرق، بل الدين واحد، والرسول واحد، والإله واحد.

وأكثر الأمور الدينية، وقع فيها الإجماع بين العلماء والأئمة، والأخوة الإيمانية، قد عقدوا الله وربطها أتم ربط، فما بال ذلك كله يُلغى، ويُبنى التفرق والشقاق بين المسلمين على مسائل خفية، أو فروع خلافية، يضل بها بعضهم بعضاً، ويتميز بها بعضهم عن بعض؟

فهل هذا إلا من أكبر نزغات الشيطان وأعظم مقاصده، التي كاد بها للمسلمين؟

وهل السعي في جمع كلمتهم، وإزالة ما بينهم من الشقاق، المبني على ذلك الأصل الباطل، إلا من أفضل الجهاد في سبيل الله، وأفضل الأعمال القربة إلى الله؟

ولما أمر تعالى بالإنيابة إليه - وكان الأمور بها، هي الإنيابة الاختيارية، التي تكون في حالي العسر واليسر، والسعة والضيق - ذكر الإنيابة الاضطرارية، التي لا تكون مع الإنسان إلا عند ضيقه وكرهه، فإذا زال عنه الضيق، نبذها وراء ظهره، وهذه غير نافعة، فقال:

﴿٣٣-٣٥﴾ «وإذا مسَّ الناس ضرر دعوهم منييين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون * ليكفروا بما آتيناهم فتمتموا فسوف تعلمون * أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون».

﴿وإذا مسَّ الناس ضرر﴾ مرض، أو خوف من هلاك، ونحوه. ﴿دعوا ربهم منييين إليه﴾ ونسوا ما كانوا به يشركون في تلك الحال، لعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا الله.

﴿ثم إذا أذاقهم منه رحمة﴾ شفاهم من مرضهم، وأمنهم من خوفهم، ﴿إذا فريق منهم﴾ ينقضون تلك الإنيابة

الناس لا يعلمون﴾ فلا يتعرفون الدين القيم، وإن عرفوه لم يسلكوه.

﴿منييين إليه واتقوه﴾ وهذا تفسير لإقامة الوجه للدين، فإن الإنيابة إنيابة القلب وانجذاب دواعيه لمراضي الله تعالى.

ويلزم من ذلك، حمل ^(٢) البدن بمقتضى ما في القلب، فشمَل ذلك العبادات الظاهرة والباطنة، ولا يتم ذلك إلا بترك المعاصي الظاهرة والباطنة، فلذلك قال: ﴿واتقوه﴾ فهذا يشمل فعل المأمورات وترك المنهيات.

وخص من المأمورات الصلاة، لكونها تدعو إلى الإنيابة والتقوى، لقوله تعالى: ﴿وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ فهذا إيعانها على التقوى.

ثم قال: ﴿ولذكر الله أكبر﴾ فهذا حثها على الإنيابة.

وخص من المنهيات أصلها، والذي لا يقبل معه عمل، وهو الشرك، فقال: ﴿ولا تكونوا من المشركين﴾ لكون الشرك مضاداً للإنيابة، التي روحها الإخلاص من كل وجه.

ثم ذكر حالة المشركين مهجناً لها ومقبحاً، فقال: ﴿من الذين فرقوا دينهم﴾ مع أن الدين واحد، وهو إخلاص العبادة لله وحده، وهؤلاء المشركون فرقوه، منهم من يعبد الأوثان والأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، ومنهم من يعبد الأولياء والصالحين، ومنهم يهود، ومنهم نصارى.

ولهذا قال: ﴿وكانوا شيعاً﴾ أي: كل فرقة من فرق الشرك تألفت وتعصبت، على نصر ما معها من الباطل، ومناذبة غيرهم ومحاربتهم.

﴿كل حزب بما لديهم﴾ من العلوم المخالفة لعلوم الرسل ﴿فرحون﴾ به، يحكمون لأنفسهم بأنه الحق، وأن غيرهم على باطل، وفي هذا تحذير للمسلمين من تشتتهم وتفرقهم فرقاً، كل فريق يتعصب لما معهم من حق

ولكن أكثر الناس لا يعلمون * منييين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين * من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون﴾ يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال، وإقامة دينه، فقال: ﴿فأقم وجهك﴾ أي: انصب وجهه إلى الدين الذي هو الإسلام، والإيمان، والإحسان، بأن تتوجه بقلبك، وقصدك، وبدنك إلى ^(١) إقامة شرائع الدين الظاهرة، كالصلاة، والزكاة، والصوم، والحج ونحوها. وشرائعه الباطنة، كالمحبة، والخوف، والرجاء، والإنيابة، والإحسان في الشرائع الظاهرة والباطنة، بأن تعبد الله فيها كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك.

وخص الله إقامة الوجه، لأن إقبال الوجه تبع لإقبال القلب، ويترب على الأمرين سغى البدن، ولهذا قال: ﴿حنيفاً﴾ أي: مقبلاً على الله في ذلك، معرضاً عما سواه.

وهذا الأمر الذي أمرناك به، هو ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ ووضع في عقولهم حسنها، واستباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع، الظاهرة والباطنة، قد وضع الله في قلوب الخلق كله، الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق، وإيثار الحق، وهذا حقيقة الفطرة.

ومن خرج عن هذا الأصل، فلعارض عرض لفطرته أفسدها، كما قال النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

﴿لا تبدل خلق الله﴾ أي: لا أحد يبدل خلق الله، فيجعل المخلوق على غير الوضع الذي وضعه الله. ﴿ذلك﴾ الذي أمرنا به ﴿الدين القيم﴾ أي: الطريق المستقيم الموصل إلى الله، وإلى كرامته، فإن من أقام وجهه للدين حنيفاً، فإنه سالك الصراط المستقيم، في جميع شرائعه وطرقه، ﴿ولكن أكثر



أن يستأنفوا^(٣) العمل، بل فرغ من الأعمال، لم يبق إلا أجزاء العمال. ﴿يومئذ يصدعون﴾ أي: يتفرون عن ذلك اليوم، ويصدرون أشتاتاً متفاوتين، ليُزوا أعمالهم.

﴿٤٤﴾ ﴿مَنْ كَفَرَ﴾ منهم ﴿فعليه كفره﴾ ويعاقب هو بنفسه، لا تزر وازرة وزر أخرى، ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ من الحقوق التي لله، أو التي للعباد، الواجبة والمستحبة، ﴿فَلَا نُنْفِسُ﴾ لا لغيرهم ﴿يمهدون﴾ أي: يهيئون، ولأنفسهم يعمرون آخرتهم، ويستعدون للفوز بمنازلتها وغرفاتها، ومع ذلك، جزاؤهم ليس مقصوراً على أعمالهم، بل يجزيهم الله من فضله الممدود، وكرمه غير المحدود، ما لا تبلغه أعمالهم. وذلك لأنه أحبهم، وإذا أحب الله عبداً صب عليه الإحسان صباً، وأجزل له العطايا الفاخرة، وأنعم عليه بالنعمة الظاهرة والباطنة.

وهذا بخلاف الكافرين، فإن الله لا أبغضهم ومقتهم، عاقبهم وعذبهم، ولم يزدهم كما زاد من قبلهم، فلهاذا قال: ﴿إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿٤٦﴾ ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يَرْسِلَ الرِّيحَ﴾ مِشْرَاتٍ وليُذِيقَكُمْ من رحمته ولتجري الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون﴾ أي: ومن الأدلة الدالة على رحمته وبعثه الموتى، وأنه الإله المعبود، والملك المحمود، ﴿أَنْ يَرْسِلَ الرِّيحَ﴾ أمام المطر ﴿مِشْرَاتٍ﴾ بإثارتها للسحاب ثم جمعها، فتبشر بذلك النفوس قبل نزوله.

﴿وليُذِيقَكُمْ من رحمته﴾ فينزل عليكم من رحمته مطراً، تحيا به البلاد والعباد، وتذوقون من رحمته ما تعرفون أن رحمته هي المنقذة للعباد والجالية لأرزاقهم، فتشتاقون إلى الإكثار من الأعمال الصالحة، الفاتحة لخزائن الرحمة.

﴿ولتجري الفلك﴾ في البحر

أي: استعلن الفساد في البر والبحر، أي: فساد معاشهم ونقصها، وحلول الآفات بها، وفي أنفسهم من الأمراض والوباء، وغير ذلك، وذلك بسبب ما قدمت أيديهم من الأعمال الفاسدة، المفسدة بطبعها.

هذه المذكورة ﴿ليُذِيقَهُمْ بعض الذي عملوا﴾ أي: ليعلموا أنه المجازي على الأعمال، فعجل لهم نموذجاً من جزاء أعمالهم في الدنيا ﴿لعلهم يرجعون﴾ عن أعمالهم، التي أثرت لهم من الفساد ما أثرت، فتصلح أحوالهم، ويستقيم أمرهم.

فسبحان مَنْ أنعم ببلائه، وتفضل بعقوبته، وإلا فلو أذاقهم جميع ما كسبوا، ما ترك على ظهرها من دابة.

﴿٤٢﴾ ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ كيف كان عاقبة الذين من قبل كان أكثرهم مشركين ﴿والأمر بالسير في الأرض، يدخل فيه السير بالأبدان^(٢)، والسير في القلوب، للنظر والتأمل بعواقب المتقدمين.

﴿كان أكثرهم مشركين﴾ تمجدون عاقبتهم شر العواقب، ومآلهم شر مآل، عذاب استأصلهم، وذم ولعن من خلق الله يتبعهم، وخزي يتواصل، فاحذروا أن تفعلوا فعالهم، يُحْذَى بكم حذوهم، فإن عدل الله وحكمته في كل زمان ومكان.

﴿٤٣ - ٤٥﴾ ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله يومئذ يصدعون * من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون * ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله إنه لا يحب الكافرين﴾ أي: أقبل بقلبك، وتوجه بوجهك، واسع ببدنك، لإقامة الدين القيم المستقيم، فنفذ أوامره ونواهيه بجد واجتهاد، وقم بوظائفه الظاهرة والباطنة، وبادر زمانك وحياتك وشبابك، ﴿من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾ وهو يوم القيامة، الذي إذا جاء لا يمكن رده، ولا يرجأ العاملون

ودل قوله: ﴿وما أتيتهم من زكاة﴾ أن الصدقة مع اضطراب من يتعلق بالمتفق، أو مع دين عليه لم يقضه، ويقدم عليه الصدقة، أن ذلك ليس بزكاة يؤجر عليه العبد، ويرد تصرفه شرعاً، كما قال تعالى في الذي يمدح: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ فليس مجرد إيتاء المال خيراً، حتى يكون بهذه الصفة، وهو: أن يكون على وجه يتزكى به المؤتي.

﴿٤٠﴾ ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ يخبر تعالى أنه وحده المنفرد بخلقكم وورزقكم، وإماتتكم وإحيائكم، وأنه ليس أحد من الشركاء التي يدعوههم المشركون، مَنْ يشارك الله في شيء من هذه الأشياء.

فكيف يشركون بمن انفرد بهذه الأمور، مَنْ ليس له تصرف فيها بوجه من الوجوه؟!

فسبحانه وتعالى، وتقدس وتنزه، وعلا عن شركهم، فلا يضره ذلك، وإنما وبالهم^(١) عليهم.

﴿٤١﴾ ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾

(٢) كذا في ب، وفي أ: في الأبدان. (٣) في ب: ليستأنفوا.

(١) في ب: وباله.

﴿بأمره﴾ القدري ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ بالتصرف في معاشكم ومصالحكم.

﴿ولملكم تشكرون﴾ من سخر لكم الأسباب، وسير لكم الأمور. فهذا المقصود من النعم، أن تقابل بشكر الله تعالى، ليزيدكم الله منها، ويبقيها عليكم.

وأما مقابلة النعم بالكفر والمعاصي، فهذه حال مَنْ يَذُلُّ نعمة الله كفراً، ونعمته محنة، وهو معرض لها للزوال، والانتقال منه إلى غيره.

﴿٤٧﴾ ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك﴾ في الأمم السابقين ﴿رسلاً إلى قومهم﴾ حين جحدوا توحيد الله، وكذبوا بالحق، فجاءتهم رسالهم يدعونهم إلى التوحيد والإخلاص، والتصديق بالحق، وبطلان ما هم عليه من الكفر والضلال، وجاءوهم بالبينات والأدلة على ذلك، فلم يؤمنوا، ولم يزولوا عن غيهم. ﴿فانتقمنا من الذين أجرموا﴾ ونصرنا المؤمنين أتباع الرسل. ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ أي: أوجبنا ذلك على أنفسنا، وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة ووعدناهم به، فلا بد من وقوعه.

فأنتم أيها المكذبون لمحمد ﷺ، إن بقيتم على تكذيبكم، حلت بكم العقوبة، ونصرناه عليكم.

﴿٤٨ - ٥٠﴾ ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويمجعه كسفاً تقرى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يجمي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتعام نعمته،

أنه ﴿يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾ من الأرض، ﴿فيبسطه في السماء﴾ أي: يمدّه ويوسعه ﴿كيف يشاء﴾ أي: على أي: حالة أرادها من ذلك، ثم ﴿يمجعه﴾ أي: ذلك السحاب الواسع ﴿كسفاً﴾ أي: سحاباً ثخيناً، قد طبق بعضه فوق بعض.

﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ أي: السحاب، نقطاً صغيراً متفرقة، لا تنزل جميعاً، فتفسد ما أتت عليه.

﴿فإذا أصاب به﴾ بذلك المطر ﴿من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ يبشر بعضهم بعضاً بنزوله، وذلك لشدة حاجتهم وضرورتهم إليه، فلهذا قال: ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين﴾ أي: آيسين قانطين لتأخر وقت مجيئه، أي: فلما نزل في تلك الحال، صار له موقع عظيم ﴿عندهم﴾^(١)، وفرح واستبشار.

﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يجمي الأرض بعد موتها﴾ فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم.

﴿إن ذلك﴾ الذي أحيا الأرض بعد موتها ﴿لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ قدرته تعالى، لا يتعاضى عليها شيء، وإن تعاضى على قدر خلقه، ودق عن أفهامهم، وحارت فيه عقولهم.

﴿٥١ - ٥٣﴾ ﴿ولئن أرسلنا ريحاً

فأروه مصفراً لظلوا من بعده يكفرون﴾ فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ﴿وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ يخبر تعالى عن حالة الخلق، وأنهم مع هذه النعم عليهم بإحياء الأرض بعد موتها، ونشر رحمة الله تعالى، لو أرسلنا على هذا النبات الناشئ عن المطر، وعلى زروعهم، ريحاً مضرة متلفة أو منقصة، ﴿فأروه مصفراً﴾ قد تداعى إلى التلف ﴿لظلوا من بعده يكفرون﴾ فينسون النعم الماضية، ويبادرون إلى الكفر. وهوؤلاء، لا ينفع فيهم وعظ ولا

﴿فإنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء﴾ وبالأولى إذا ولوا مدبرين ﴿فإن الموانع قد توفرت فيهم عن الانقياد والسمع النافع، كتوفر هذه الموانع المذكورة عن سماع الصوت الحسي. ﴿وما أنت بهاد العمي عن ضلالتهم﴾ لأنهم لا يقبلون الإبصار بسبب عماهم فليس منهم^(٢) قابلة له. ﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ فهؤلاء الذين ينفع فيهم إسماع الهدى، المؤمنون بآياتنا بقلوبهم، المتقادون لأوامرنا، المسلمون لنا، لأن معهم الداعي القوي لقبول النصائح والمواعظ، وهو استعدادهم للإيمان بكل آية من آيات الله، واستعدادهم لتنفيذ ما يقدرون عليه من أوامر الله ونواهيه. ﴿٥٤﴾ ﴿الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير﴾ يخبر تعالى عن سعة علمه، وعظيم اقتداره، وكمال حكمته، ابتداء خلق الأدميين من ضعف، وهو الأطوار الأول من خلقه، من نقطة إلى علقة إلى مضغة إلى أن صار حيواناً في الأرحام، إلى أن ولد، وهو في سن الطفولية، وهو إذ

لم يُمكنوا، فإنه فات وقت الإعذار، فلا تقبل معذرتهم، ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي: يزال عتبهم والعتاب عنهم.

﴿٥٨ - ٦٠﴾ ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل ولئن جنتهم بأية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾ * كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون * فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون﴾ أي: ﴿ولقد ضربنا﴾ لأجل عنايتنا ورحمتنا ولطفنا وحسن تعليمنا. ﴿لنناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ تنضح به الحقائق، وتعرف به الأمور، وتنقطع به الحجة. وهذا عام في الأمثال، التي يضر بها الله في تقريب الأمور المعقولة بالمحسوسة. وفي الإخبار بما سيكون، وجلاء حقيقته، [حتى] كأنه وقع.

ومنه في هذا الموضع، ذكر الله تعالى، ما يكون يوم القيامة وحالة المجرمين فيه، وشدة أسفهم، وأنه لا يقبل منهم عذر ولا عتاب.

ولكن أبى الظالمون الكافرون، إلا معاندة الحق الواضح، ولهذا قال: ﴿ولئن جنتهم بأية﴾ أي: أي: آية، تدل على صحة ما جئت به ﴿ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾ أي: قالوا للحق: إنه باطل. وهذا من كفرهم وجراءتهم، وطبع الله على قلوبهم، وجهلهم المفرط، ولهذا قال: ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾ فلا يدخلها خير، ولا يدرك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحق باطلاً، والباطل حقاً.

﴿فاصبر﴾ على ما أمرت به، وعلى دعوتهم إلى الله، ولو رأيت منهم إعراضاً، فلا يصدك ذلك.

﴿إن وعد الله حق﴾ أي: لا شك فيه، وهذا مما يعين على الصبر، فإن العبد إذا علم أن عمله غير ضائع، بل سيجده كاملاً، هان عليه ما يلقاه من

اعتذار منهم لعله ينفعهم العذر، واستقصار لمدة الدنيا.

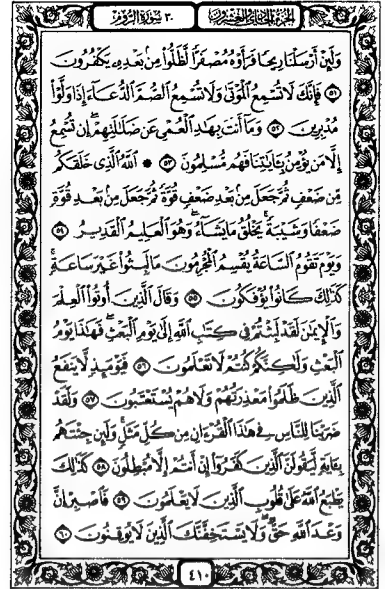
ولما كان قولهم كذباً لا حقيقة له، قال تعالى: ﴿كذلك كانوا يؤفكون﴾ أي: ما زالوا - وهم في الدنيا - يؤفكون عن الحقائق، ويأتفكون الكذب، ففي الدنيا، كذبوا الحق الذي جاءتهم به المرسلون، وفي الآخرة، أنكروا الأمر المحسوس، وهو اللبث الطويل في الدنيا، فهذا خلقهم القبيح، والعبد يبعث على ما مات عليه.

﴿وقال الذين أوتوا العلم والإيمان﴾ أي: من الله عليهم بهما، وصارا وصفاً لهم، العلم بالحق، والإيمان المستلزم إظهار الحق، وإذا كانوا عالمين بالحق، مؤثرين له، لزم أن يكون قولهم مطابقاً للواقع، مناسباً لأحوالهم.

فلماذا قالوا الحق: ﴿لقد لبثتم في كتاب الله﴾ أي: في قضائه وقدره، الذي كتبه الله عليكم، وفي حكمه ﴿إلى يوم البعث﴾ أي: عمرتم غمراً يتذكر فيه المتذكر، ويتدبر فيه المتدبر، ويعتبر فيه المعتبر، حتى صار البعث ووصلتم إلى هذه الحال.

﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ فلذلك أنكروتموه في الدنيا، وأنكرتم إقامتكم في الدنيا وقتاً تتمكنون فيه من الإنابة والتوبة، فلم يزل الجهل شعاركم، وآثاره من التكذيب والخسار دثاركم.

﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾ فإن كذبوا وزعموا أنهم ما قامت عليهم الحجة، أو ما تمكنوا من الإيمان، ظهر كذبهم، بشهادة أهل العلم والإيمان، وشهادة جلودهم وأيديهم وأرجلهم، وإن طلبوا الإعذار وأنهم يردون ولا يعودون لما شؤوا عنه،



ذاك في غاية الضعف، وعدم القدرة. ثم ما زال الله يزيد في قوته شيئاً فشيئاً، حتى بلغ سن الشباب واستوت قوته، وكملت قواه الظاهرة والباطنة، ثم انتقل من هذا الطور، ورجع إلى الضعف والشية والهرم.

﴿يخلق ما يشاء﴾ بحسب حكمته. ومن حكمته، أن يري العبد ضعفه، وأن قوته محفوفة بضعفين، وأنه ليس له من نفسه إلا النقص، ولولا تقوية الله له، لما وصل إلى قوة وقدرة، ولو استمرت قوته في الزيادة، لطفى وبغى وعتا.

وليعلم العباد كمال قدرة الله التي لا تزال مستمرة، يخلق بها الأشياء، ويدبر بها الأمور ولا يلحقها إعياء ولا ضعف ولا نقص بوجه من الوجوه.

﴿٥٥ - ٥٧﴾ ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون﴾ * وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون * فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾ يخبر تعالى عن يوم القيامة، وسرعة مجيئه، وأنه إذا قامت الساعة يقسم المجرمون بالله أنهم ﴿ما لبثوا﴾ في الدنيا إلا ﴿ساعة﴾ وذلك

المكارة، ويسر عليه كل عسير، غليه^(٥).
واستقل من عمله كل كثير.

﴿وَلَا يَسْتَخْفِكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾
 أي: قد ضعف إيمانهم، وقل يقينهم؛
 فخفت لذلك أحلامهم، وقل
 صبرهم، فإياك أن يستخفك هؤلاء،
 فإنك إن لم تجعلهم^(١) منك على بال
 وتحذر منهم، وإلا استخفوك وهلكوك
 على عدم الثبات على الأوامر
 والنواهي، والنفس تساعدكم على
 هذا، وتطلب التشبه والموافقة^(٢)،
 وهذا مما يدل على أن كل مؤمن موقن
 رزين العقل، يسهل عليه الصبر، وكل
 ضعيف اليقين ضعيف [العقل]^(٣)
 خفيفه.

فالأول بمنزلة اللب، والآخر
بمنزلة القشور. فالله المستعان.

تفسير سورة لقمان
وهي مكية

﴿١٥ - ٥﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الْكَرِيمِ * هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ *
الَّذِينَ يَقِیْمُونَ الصَّلَاةَ وَیُؤْتُونَ الزَّكَاةَ
وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ یُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى
هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾
یشیر تعالیٰ إشارة دالة علی التعظیم الی
﴿آیات الكتاب الحکیم﴾ آی: آیاته
محکمة، صدرت من حکیم خبیر.

من إحكامها، أنها جاءت بأجل
الألفاظ وأفصحها وأبينها، الدالة على
أجل المعاني وأحسنها.

ومن إحكامها، أنها محفوظة من التغيير والتبديل، والزيادة والنقص والتحريف.

ومن إحكامها: أن جميع ما فيها من الأخبار^(٤) السابقة واللاحقة، والأمور الغيبية كلها، مطابقة للمواقع، مطابق لها الواقع، لم يخالفها كتاب من الكتب الإلهية، ولم يخبر بخلافها نبي من الأنبياء أولم يأت ولن يأتي علم محسوس ولا معقول صحيح يناقض ما دلت

وعليه^(٥).
ومن إحكامها: أنها ما أمرت بشيء، إلا وهو خالص المصلحة أو راجحها، ولا نهت عن شيء، إلا وهو خالص المفسدة أو راجحها، وكثيراً ما يجمع بين الأمر بالشيء مع ذكر [حكمته]^(٦) فائدته، والنهي عن الشيء مع ذكر مضرته.

ومن إحصائياتها: أنها جمعت بين
الترغيب والترهيب، والوعظ والبليغ،
الذي تعتدل به النفوس الخيرة وتحتكم،
فتعمل بالحزم.

ومن إحصائها: أنك تجد آياته المتكررة، كالقصص، والأحكام، ونحوها، قد اتفقت كلها وتواطأت، فليس فيها تناقض ولا اختلاف. فكلما ازداد بها البصير تدبراً، وأعمل فيها العقل تفكيراً، انبه عقله، وذهل لبه، من التوافق والتواطؤ، وجزم جزملاً لا يمتري فيه، أنه تنزيل من حكيم حميد.

ولكن - مع أنه حكيم - يدعو إلى كل خلق كريم، وينهى عن كل خلق لئيم، أكثر الناس محرومون الاهتداء به، معرضون عن الإيمان والعمل به، إلا مَنْ وفقه الله تعالى وعصمه، وهم المحسنون في عبادة ربهم والمحسنون إلى الخلق.

فإنه ﴿هدى﴾ لهم، يهديهم إلى الصراط المستقيم، ويخرجهم من طرق الجحيم، ﴿ورحمة﴾ لهم، تحصل لهم به السعادة في الدنيا والآخرة، والخير الكثير، والثواب الجزيل، والفرح والسرور، ويندفع عنهم الضلال والشقاء.

ثم وصف المحسنين بالعلم التام، وهو اليقين الموجب للعمل والخوف من عقاب الله، فيتركون معاصيه، ووصفهم بالعمل، وخصّ من العمل عاملين فاضلين: الصلاة المشتملة على الإخلاص ومناجاة الله تعالى، والتعبّد العام للقلب واللسان والجوارح المعينة

على سائر الأعمال، والزكاة التي تزكي صاحبها من الصفات الرذيلة، وتنفع أخاه المسلم، وتسد حاجته، ويبين بها أن العبد يؤثر محبة الله على محبته للمال، فيخرجه محبوبه من المال لما هو أحب إليه، وهو طلب مرضاة الله.

ف ﴿أولئك﴾ هم المحسنون، الجامعون بين العلم التام والعمل ﴿على هدى﴾ أي: عظيم، كما يفيدُه التذكير، وذلك الهدى حاصل لهم، وواصل إليهم ﴿من ربهم﴾ الذي لم يزل يرِيهم بالنعم، ويدفع عنهم النقم.

وهذا الهدى الذي أوصله إليهم،
من تربيته الخاصة بأوليائه، وهو أفضل
أنواع التربية. ﴿وأولئك هم المفلحون﴾
الذين أدركوأرضاً ربهم، وثوابه
الدينوي والأخروي، وسلموا من
سخطه وعقابه. وذلك لسلكهم طريق
الفلاح، الذي لا طريق له غيرها.

ولما ذكر تعالى المهتدين بالقرآن،
المقبلين عليه، ذكر من أعرض عنه، ولم
يرفع به رأساً، وأنه عوقب على ذلك،
بأن تعوض عنه كل باطل من القول،
فترك أعلى الأقوال، وأحسن الحديث،
واستبدل به أسفل قول وأنبهه، فلذلك
قال:

﴿٦-٩﴾ ﴿ومن الناس من يشتري﴾

(٥) زيادة من : ب .

(٦) زيادة من: ب.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في أ: الأحكام والتصويب من: ب.

(۱) کذا فی ب وفی أ: تجعل.

(٢) كذا في ب وفي أ: والمراقبة.

فثبت عجزهم عن إثبات شيء لها تستحق به أن تعبد.

ولكن عبادتهم إياها عن غير علم وبصيرة، بل عن جهل وضلال، ولهذا قال: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: جلي واضح حيث عبدوا من لا يملك نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وتركوا الإخلاص للمخلوق الرازق المالك لكل الأمور.

﴿١٢-١٩﴾ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ﴾ وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم إلى آخر القصة. يجبر تعالى عن امتنانه على عبده الفاضل لقمان، بالحكمة، وهي العلم [بالحق]^(١) على وجهه وحكمته، فهي العلم بالأحكام، ومعرفة ما فيها من الأسرار والإحكام، فقد يكون الإنسان عالماً ولا يكون حكيماً.

وأما الحكمة، فهي مستلزمة للعلم، بل وللعمل، ولهذا فسرت الحكمة بالعلم النافع والعمل الصالح.

ولما أعطاه الله هذه المنة العظيمة، أمره أن يشكره على ما أعطاه، ليبارك له فيه، وليزيده من فضله، وأخبره أن شكر الشاكرين، يعود نفعه عليهم، وأن من كفر فلم يشكر الله، عاد وبال ذلك عليه. والله غني [عنه]^(٢) حميد فيما يقدره ويقضيه على من خالف أمره، فغناه تعالى، من لوازم ذاته، وكونه حميداً في صفات كماله، حميداً في جميل صنعه، من لوازم ذاته، وكل واحد من الوصفين صفة كمال، واجتماع أحدهما إلى الآخر زيادة كمال إلى كمال.

واختلف المفسرون، هل كان لقمان نبياً، أو عبداً صالحاً؟ والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه آتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه، فذكر

أصول الحكمة وقواعدها الكبار، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ لَقْمَانُ لَابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾

أو قال له قولاً به يعظه بالأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، وبين له السبب في ذلك فقال: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ لِّظُلْمٍ عَظِيمٍ﴾ ووجه كونه عظيماً، أنه لا أظفَع وأبشع من سوء المخلوق من تراب بمالك الرقاب، وسوء الذي لا يملك من الأمر شيئاً بمن له الأمر كله، وسوء الناقص الفقير من جميع الوجوه بالرب الكامل الغني من جميع الوجوه، وسوء من لم يُعَمِّمْ بمثقال ذرة [من النعم]^(٣) بالذي ما باخلاق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم وقلوبهم وأبدانهم إلا منه، ولا يصرف سوء إلا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟!!

وهل أعظم ظلماً ممن خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، [فجعلها في أحسن المراتب]^(٤) جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئاً، فظلم نفسه ظلماً كبيراً.

ولما أمر بالقيام بحقه، بترك الشرك الذي من لوازمه القيام بالتوحيد، أمر بالقيام بحق الوالدين، فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِأَيِّ: عَهْدِنَا إِلَيْهِ، وَجَعَلْنَاهُ وَصِيَّةً عِنْدَهُ، سَنَسْأَلُهُ عَنِ الْقِيَامِ بِهَا، وَهَلْ حَفَظَهَا أَمْ لَا؟ فَوَصَّيْنَاهُ بِوَالِدَيْهِ﴾ وقلنا له: ﴿أَشْكُرِي﴾ بالقيام بعبوديتي وأداء حقوقي، وأن لا تستعني بنعمي على معصيتي، ﴿وَلَوْلَا دَيْكَ﴾ بالإحسان إليهما بالقول اللين، والكلام اللطيف، والفعل الجميل، والتواضع لهما [وأكرامهما]^(٥) وإجلالهما، والقيام بمؤنتهما، واجتناب الإساءة إليهما من كل وجه، بالقول والفعل.

فوصيناه بهذه الوصية، وأخبرناه أن ﴿إِلَى الْمَصِيرِ﴾ أي: سترجع أيها الإنسان إلى مَنْ وصاك وكلفك بهذه

الحقوق، فيسألك: هل قمت بها، فيثيبك الثواب الجزيل؟ أم ضيعتها، فيعاقبك العقاب الويل؟

ثم ذكر السبب الموجب لبر الوالدين في الأم، فقال: ﴿حَلَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ﴾ أي: مشقة على مشقة، فلا تزال تلاقي المشاق، من حين يكون نطفة، من السحيم، والمرض، والضعف، والثقل، وتغير الحال، ثم وجع الولادة، ذلك الوجع الشديد.

ثم ﴿فَصَالَهُ فِي غَمٍّ﴾ وهو ملازم لحضانه أمه وكفالتها ورضاعها، أمما يحسن بمن تحمل على ولده هذه الشدائد مع شدة الحب، أن يؤكد على ولده، ويوصي إليه بتمام الإحسان إليه؟

﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ﴾ أي: اجتهد والداك ﴿عَلَى أَنْ تَشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ ولا تظن أن هذا داخل في الإحسان إليهما، لأن حق الله مقدم على حق كل أحد، و «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق».

ولم يقل: ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَعَقِّبْهُمَا﴾، بل قال: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أي: بالشرك، وأما برهما، فاستمر عليه، ولهذا قال: ﴿وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ أي: صحبة إحسان إليهما بالمعروف، وأما اتباعهما وما بحالة الكفر والمعاصي، فلا تتبعهما.

﴿وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنْبَأَ إِلَيْ﴾ وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله، المستسلمون لربهم، النبيون إليه.

واتباع سبيلهم، أن يسلك مسلكتهم في الإنابة إلى الله، التي هي انجذاب دواعي القلب وإراداته إلى الله، ثم يتبعها سعي البدن، فيما يرضي الله ويقرب منه.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ الطائعات والمعاصي والمنيب، وغيره ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يخفى على الله من أعمالهم خافية.

(٥) زيادة من: ب.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) زيادة من: ب.

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

﴿يَا بُنَيَّ إِنِّهَا إِنْ تَكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ التي هي أصغر الأشياء وأحقرها، ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ أي: في وسطها ﴿أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ﴾ في أي: جهة من جهاتها ﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ لسعة علمه، وقام خبرته، وكمال قدرته، ولهذا قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي: لطف في علمه وخبرته، حتى اطلع على البواطن والأسرار، وخفايا القفار والبحار.

والقصود من هذا، الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته مهما أمكن، والترهيب من عمل القبيح، قل أو كثر.

﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ حثه عليها، وخصها لأنها أكبر العبادات البدنية، وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر، وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه.

والأمر بما لا يتم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا به، من الرفق، والصبر، وقد صرح به في قوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ ومن كونه فاعلاً لما يأمر به، كافاً لما ينهى عنه، فتضمن هذا، تكميل نفسه بفعل الخير وترك الشر، وتكميل غيره بذلك، بأمره ونهي.

ولما علم أنه لا بد أن يبتلى إذا أمر ونهى، وأن في الأمر والنهي مشقة على النفوس، أمره بالصبر على ذلك، فقال: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ﴾ ذلك الذي وعظ به لقمان ابنه ﴿مَنْ عَزَمَ الْأُمُورَ﴾ أي: من الأمور التي يعزم عليها ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم.

﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ أي: لا تَغْلُ وتعيس بوجهك للناس، تكبراً عليهم وتعاضلاً.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا﴾ أي: بطراً، فخرًا بالنعم، ناسياً للنعم، معجباً بنفسك. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ﴾^(١) في نفسه وهيئته وتعاضله

﴿فَخُورٍ﴾ بقوله.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ أي: امش متواضعاً مستكيناً، لا مَشْيَ البطر والتكبر، ولا مشي التماوت.

﴿وَاجْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ أدباً مع الناس ومع الله، ﴿إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتَ﴾ أي: أظفعتها وأبشعها ﴿لِصَوْتِ الْحَمِيرِ﴾ فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الحمار، الذي قد علمت خسته وبلادته.

وهذه الوصايا التي وصى بها لقمان لابنه، تجمع أمهات الحكم، وتستلزم ما لم يذكر منها، وكل وصية يقرن بها ما يدعو إلى فعلها إن كانت أمراً، وإلى تركها إن كانت نهياً.

وهذا يدل على ما ذكرنا في تفسير الحكمة، أنها العلم بالأحكام وحكوها ومناسباتها، فأمره بأصل الدين، وهو التوحيد، ونهاه عن الشرك، وبين له الموجب لتركه، وأمره ببر الوالدين، وبين له السبب الموجب لبرهما، وأمره بشكره وشكرهما، ثم احترز بأن محل برهما وامتنال أوامرهما ما لم يأمر بمعصية، ومع ذلك فلا يعقهما، بل يحسن إليهما، وإن كان لا يطيعهما إذا جاهدها على الشرك. وأمره بمراقبة الله، وخوفه القدوم عليه، وأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الخير والشر إلا أتى بها.

ونهاه عن التكبر، وأمره بالتواضع، ونهاه عن البطر والأشر والمرح، وأمره بالسكون في الحركات والأصوات، ونهاه عن ضد ذلك.

وأمره بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الصلاة، وبالصبر اللذين يسهل بهما كل أمر، كما قال تعالى: ﴿فَحَقِّقْ بَيْنَ أَوْصِيَٰى هَذِهِ الْوَصَايَا، أَنْ يَكُونَ خُصُوصاً بِالْحِكْمَةِ، مشهوراً بها. ولهذا من مئة الله عليه وعلى سائر عباد، أن قصص عليهم من حكمته، ما يكون لهم به أسوة حسنة.

﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمَنِ النَّاسُ مِنْ مُجَادِلٍ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُو كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ يمتن تعالى على عباده بنعمه، ويدعوهم إلى شكرها ورؤيتها، وعدم الغفلة عنها فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أي: تشاهدوا وتبصروا بأبصاركم وقلوبكم، ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ من الشمس والقمر والنجوم، كلها مسخرات لنفع العباد.

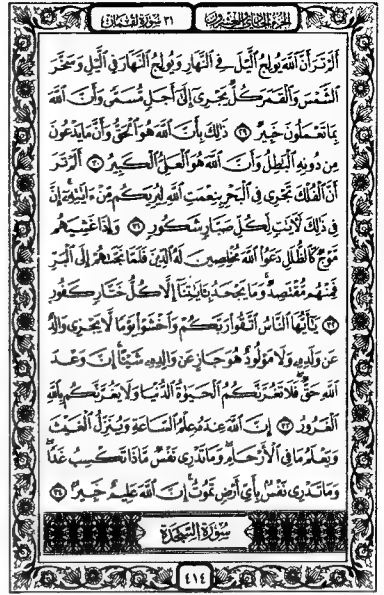
﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ من الحيوانات والأشجار والزرع، والأنهار والمعادن ونحوها، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾.

﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: عَمَّكم وغمركم نعمه الظاهرة والباطنة التي نعلم بها، والتي تخفى علينا، نعم الدنيا، ونعم الدين، حصول المنافع، ودفع المضار، فوظيفتكم أن تقوموا بشكر هذه النعم، بمحبة النعم والخضوع له، وصرفها في الاستعانة على طاعته، وأن لا يستعان بشيء منها على معصيته.

﴿وَلَكِنْ مَعَ تَوَالِي هَذِهِ النِّعَمِ، مِنَ النَّاسِ مَنْ﴾ لم يشكرها، بل كفرها وكفر بمن أنعم بها، وجحد الحق الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله، فجعل ﴿يُجَادِلُ فِي اللَّهِ﴾ أي: يجادل عن الباطل ليدحض به الحق، ويدفع به ما جاء به الرسول من الأمر بعبادة الله وحده، وهذا المجادل على غير بصيرة، فليس جداله عن علم، فيترك شأنه، ويسمح له في الكلام ﴿وَلَا هُدًى﴾ يقتدي به بالمهتدين ﴿وَلَا كِتَابٌ مُنِيرٌ﴾ [غير مبين للحق فلا معقول ولا منقول ولا اقتداء بالمهتدين]^(٢) وإنما جداله في الله مبني

(١) كذا في: ب، وزاد في: أ قوله تعالى: فخور.

(٢) زيادة من: ب.



وأفعاله، فإذا تصور العقل ذلك، عرف أن المثل الذي ضربه الله لكلامه، ليدرك العباد شيئاً منه، وإلا، فالأمر أعظم وأجل.

ثم ذكر جلالة عزته وكمال حكمته فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي: له العزة جميعاً، الذي ما في العالم العلوي والسفلي من القوة إلا منه، أعطاهما للخلق، فلا حول ولا قوة إلا به، ويعزته قهر الخلق كلهم وتصرف فيهم ودبرهم، وبحكمته خلق الخلق، والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وجد بالحكمة، وكانت غايته المقصودة الحكمة، فهو الحكيم في خلقه وأمره.

ثم ذكر عظمة قدرته وكمالها، وأنه لا يمكن أن يتصورها العقل، فقال: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعِثْكُمْ إِلَّا كُنُفُسٌ وَاحِدَةٌ﴾ وهذا شيء يحير العقول، إن خلق جميع الخلق - على كثرتهم وبعثهم بعد موتهم، بعد تفرقهم في لمحة واحدة - كخلقه نفساً واحدة، فلا وجه لاستبعاد البعث والنشور والجزاء على الأعمال، إلا الجهل بعظمة الله وقوة قدرته.

ثم ذكر عموم سمعه لجميع السموات، وبصره لجميع المبصرات، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾

﴿٢٩ - ٣٠﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل وأن الله هو العلي الكبير وهذا فيه أيضاً، انفراد بالتصرف والتدبير، وسعة تصرفه بإيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، أي: إدخال أحدهما على الآخر، فإذا دخل أحدهما ذهب الآخر.

وتسخيره للشمس والقمر، يجريان بتدبير ونظام، لم يحتل منذ خلقهما،

﴿والبحر يمد له من بعده سبعة أبحر﴾ مداداً يستمد بها، لتكسرت تلك الأقلام، ولفني ذلك المداد، ولم تنفذ كلمات الله تعالى، وهذا ليس مبالغه لا حقيقة له، بل لما علم تبارك وتعالى أن العقول تنقاصر عن الإحاطة ببعض صفاته، وعلم تعالى أن معرفته لعباده أفضل نعمة أنعم بها عليهم، وأجل منقبة حصلوها، وهي لا تمكن على وجهها، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، فنبههم تعالى تنبيهاً تستنير به قلوبهم، وتشرح له صدورهم، ويستدلون بما وصلوا إليه إلى ما لم يصلوا إليه، ويقولون كما قال أفضلهم وأعلمهم بربه: ﴿لَا نَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ﴾، وإلا، فالأمر أجل من ذلك وأعظم.

وهذا التمثيل، من باب تقريب المعنى، الذي لا يطاق الوصول إليه إلى الأفهام والأذهان، وإلا فالأشجار، وإن تضاعفت على ما ذكر أضعافاً كثيرة، والبحور لو امتدت^(١) بأضعاف مضاعفة، فإنه يتصور نفاذها واقتضاؤها، لكونها مخلوقة.

وأما كلام الله تعالى، فلا يتصور نفاذه، بل دلنا الدليل الشرعي والعقلي، على أنه لا نفاذ له ولا منتهى، وكل شيء ينتهي إلا الباري وصفاته ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾.

وإذا تصور العقل حقيقة أوليته تعالى وآخرته، وأنه كل ما فرضه الذهن من الأزمان السابقة، مهما تسلسل الفرض والتقدير، فهو تعالى قبل ذلك إلى غير نهاية، وأنه مهما فرضه الذهن والعقل، من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد على ذلك من ساعد بقلبه ولسانه، فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية ولا نهاية.

والله في جميع الأوقات يحكم، ويتكلم، ويقول، ويفعل كيف أراد، وإذا أراد لا مانع له من شيء من أقواله

القدرية، وأحكامه الأمرية، وأحكامه الجزائية، فكلهم عبيد ممالك، مدبرون مسخرون، ليس لهم من الملك شيء، وأنه واسع الغنى، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه أحد من الخلق. ﴿مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أَرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ﴾. وأن أعمال النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين لا تنفع الله شيئاً وإنما تنفع عامليها، والله غني عنهم وعن أعمالهم، ومن غناه، أن أغناهم وأقناهم في دنياهم وأخرهم.

ثم أخبر تعالى عن سعة حمده، وأن حمده من لوازم ذاته، فلا يكون إلا حميداً من جميع الوجوه، فهو حميد في ذاته، وهو حميد في صفاته، فكل صفة من صفاته، يستحق عليها أكمل حمد وأتمه، لكونها صفات عظمة وكمال، وجميع ما فعله وخلقه بحمد عليه، وجميع ما أمر به ونهى عنه بحمد عليه، وجميع ما حكم به في العباد وبين العباد، في الدنيا والآخرة، بحمد عليه.

ثم أخبر عن سعة كلامه وعظمه قوله، بشرح يبلغ من القلوب كل مبلغ، وتنبره له العقول، وتحير فيه الأنثدة، وتسيح في معرفته أولو الأبواب والبصائر، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ يكتب بها

ليقيم بذلك من مصالح العباد
ومنافعهم، في دينهم ودنياهم، ما به
يعتبرون ويستفحون.

و ﴿كل﴾ منهما ﴿يجري إلى أجل مسمى﴾ إذا جاء ذلك الأجل، انقطع جريانها، وتعطل سلطانها، وذلك في يوم القيامة، حين تكور الشمس، ويخسف القمر، وتنتهي دار الدنيا، وتبتدئ الدار الآخرة.

﴿وَأَن اللّٰهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من خير
وشر ﴿خبير﴾ لا يخفى عليه شيء من
ذلك، وسيجازيكم على تلك
الأعمال، بالشواب للمطيعين،
والعقاب للعاصين.

وذلك الذي بين لكم من عظمته وصفاته، ما بين بأن الله هو الحق في ذاته وفي صفاته، ودينه حق، ورسوله حق، ووعدته حق، ووعيده حق، وعبادته هي الحق.

﴿وَأَنْ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ الْبَاطِلِ﴾
 فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، فَلَوْلَا إِيجَادُ اللَّهِ لَهُ مَا
 وَجَدَ، وَلَوْلَا إِمْدَادُهُ لَمَا بَقِيَ، فَإِذَا كَانَ
 بَاطِلًا، كَانَتْ عِبَادَتُهُ أَبْطُلَ وَأَبْطُلَ.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته، الذي علت صفاته، أن يقاس بها صفات أحد من الخلق، وعلا على الخلق قهقرهم، ﴿الكبير﴾ الذي له الكبرياء في ذاته وصفاته، وله الكبرياء في قلوب أهل السماء والأرض.

﴿٣١-٣٢﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ
تَجْرِي فِي الْبَحْرِ نَبْتَةً اللَّهُ لِيُرِيَكُمْ مِنْ
آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ
شَكُورٍ * وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُلِ
دَعَا اللَّهَ خُلُوصًا لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَاهُمْ
إِلَى الْبَرِّ فَمَنْهُمْ مَقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا
إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ أي: أَلَمْ تَرَ مِنْ آثَارِ
قُدْرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ وَعَنَائَتِهِ بَعِيدَهُ، أَنَّ سَفْرَ
الْبَحْرِ، تَجْرِي فِيهِ الْفُلُكُ بِأَمْرِ الْقُدْرِيِّ

[ولطفه وإحسانه، ﴿ليریکم من آیاته﴾
ففيها الانتفاع والاعتبار]^(١).

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ آيَاتٌ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ فهم المستفوعون بالآيات، صبار على الضراء، شكور على السراء، صبار على طاعة الله وعن معصيته وعلى أقداره، شكور لله على نعمه الدينية والدنيوية.

وذكر تعالى حال الناس عند ركوبهم البحر وغشيان الأمواج كالظل فوقهم، أنهم يخلصون الدعاء [الله] والعبادة: ﴿فلما نجاهم إلى البر انقسموا فريقين﴾

فرقة مقتصدة، أي: لم تقم
بشكر الله على وجه الكمال، بل هم
مذنبون ظالمون لأنفسهم.

وفرقه كافرةً بنعمة الله، جاحلة لها، ولهذا قال: ﴿وما يحدد بآياتنا إلا كل ختار﴾ (٤) أي: غدار، ومن غدره أنه عاهد ربه، لئن أنجيتنا من البحر، وشدته، لنكونن من الشاكرين، فغدر، ولم يف بذلك، ﴿كفور﴾ يتعم الله. فهل يليق بمن نجاهم الله من هذه الشدة، إلا القيام التام بشكر نعم الله؟

﴿٣٣﴾ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ
وَإِخْشَاوْا يَوْمًا لَا يُجْزَى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ
وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ
وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ يَا مَرْتَلَى
النَّاسُ بِتَقْوَاهُ، الَّتِي هِيَ امْتِثَالُ أَوَامِرِهِ
وَتَرْكُ زَوَاجِرِهِ، وَیَسْتَلْفِتُهُمْ لَخْشِیَةِ یَوْمِ
الْقِیَامَةِ، الْیَوْمِ الشَّدِیدِ، الَّذِی فِیهِ کُلُّ
أَحَدٍ لَا یُجِزِیهِ إِلَّا نَفْسُهُ، فَ﴿لَا یُجْزِی
وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٌ عَنْ
وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ لَا یَزِیدُ فِی حَسَنَاتِهِ
وَلَا یَنْقُصُ مِنْ سِیِّئَاتِهِ، قَدْ تَمَّ عَلَی کُلِّ
عَبْدٍ عَمَلُهُ، وَتَحَقَّقَ عَلَیهِ جَزَاؤُهُ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِي يَقُولُ الْحَقُّ لَا يَمُوتُ فَيُؤْمِنُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾
 الَّذِينَ يَقُولُونَ لَقَدْ بَدَّلَ اللَّهُ مَوَاطِنَ دِينِنَا الَّذِي كُنَّا نَمُوتُ أَنَّهَا
 مِنْ يَدِينِمْ فَلَمْ يَكُنْ مِنْ يَدِينِمْ ﴿٢﴾ اللَّهُ الَّذِي
 خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
 اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا يُدْعَى مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلَدٍ وَلَا يَتَوَضَّعُ
 لَهُ شَيْءٌ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ يَدْعُوا الْأَظْمِرَ مِنَ الْأَرْضِ
 ثُمَّ يَخْرِجُ الْبُيُوتَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَالْأَرْضُ تَسْتَوِي ثُمَّ تَخْرُجُ
 مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ الْعُتُوبُ وَالْجِبَالُ تَخْرُجُ ﴿٤﴾ اللَّهُ أَحْسَنُ
 مَا تُحْكِمُ أَعْيُنُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَوَدُّونَ ﴿٥﴾ ثُمَّ يَجْعَلُ
 السَّاعَةَ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عِزِّي وَهُمْ فِي عِزِّي مُدْغَبُونَ ﴿٦﴾ ثُمَّ
 يَخْرُجُ السَّاعَةَ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عِزِّي وَهُمْ فِي عِزِّي مُدْغَبُونَ ﴿٧﴾ ثُمَّ
 يَخْرُجُ السَّاعَةَ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عِزِّي وَهُمْ فِي عِزِّي مُدْغَبُونَ ﴿٨﴾ ثُمَّ
 يَخْرُجُ السَّاعَةَ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ عِزِّي وَهُمْ فِي عِزِّي مُدْغَبُونَ ﴿٩﴾

فلفت النظر في هذا لهذا اليوم
المهيل، مما يقوي العبد ويسهل عليه
تقوى الله، وهذا من رحمة الله بالعباد،
يأمرهم بتقواه التي فيها سعادتهم،
ويعدهم عليها الثواب، ويحذرهم من
العقاب، ويزعجهم إليه بالوعاظ
والمخوفات، فلك الحمد يا رب
العالمين.

﴿إن وعد الله حق﴾ فلا تمتروا فيه، ولا تعملوا عمل غير المصدق، فهذا قال: ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ بزينتها وزخارفها وما فيها من الفتن والمحن.

﴿وَلَا يَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُوبُ﴾ الذي هو الشيطان، الذي ما زال يخدع الإنسان ولا يغفل عنه في جميع الأوقات، فإن الله على عباده حقاً، وقد وعدهم موعداً يجازيهم فيه بأعمالهم، وهل وفوا حقه أم قصروا فيه.

وهذا أمر يجب الاهتمام به، وأن يجعله العبد نصب عينيه، ورأس مال تجارته التي يسعى إليه.

ومن أعظم العوائق عنه والقواطع
دونه، الدنيا الفتانة، والشيطان

(١) زيادة من: ب.

(۲) فی ب: كالظلل.

(٣) زيادة من : ب .

(۴) کذا فی ب، وزاد فی أ: قوله تعالى: ﴿کفور﴾.

ريك ﴿ أنزله رحمة للعباد ﴾ لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك ﴿ أي : هم في حال ضرورة وفاقاة لإرسال الرسول وإنزال الكتاب ، لعدم النذير ، بل هم في جهلهم يعمهون ، وفي ظلمة ضلالهم يترددون ، فأنزلنا الكتاب عليك ﴿ لعلمهم يبتدون ﴾ من ضلالهم ، فيعرفون الحق فيؤثرونه .

وهذه الأشياء التي ذكرها الله ، كلها مناقضة لتكذيبهم له ، وإنها تقتضي منهم الإيمان والتصديق التام به ، وهو كونه ﴿ من رب العالمين ﴾ وأنه ﴿ الحق ﴾ والحق مقبول على كل حال ، وأنه ﴿ لا ريب فيه ﴾ بوجه من الوجوه ، فليس فيه ما يوجب الريبة ، لا بخبر لا يطابق للواقع ^(٢) ، ولا بخفاء واشتباه معانيه ، وأنهم في ضرورة وحاجة إلى الرسالة ، وأن فيه الهداية لكل خير وإحسان .

﴿ ٤ - ٩ ﴾ ﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون ﴾ * يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾ * ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ﴾ الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ﴾ * ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ﴾ * ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون ﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته بخلق ﴿ السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ﴾ أولها يوم الأحد وآخرها الجمعة ، مع قدرته على خلقها بلحظة ، ولكنه تعالى رفيق حكيم .

﴿ ثم استوى على العرش ﴾ الذي هو سقف المخلوقات ، استواء يليق بجلاله . ﴿ ما لكم من دونه من ولي ﴾ يشولاكم في أموركم فينتفعكم ﴿ ولا شفيع ﴾ يشفع لكم إن توجه إليكم العقاب .

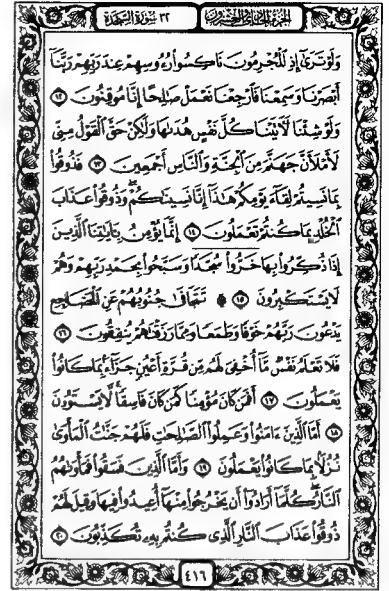
بالأرحام ربه : هل هو ذكر أم أنثى ؟ فيقضي الله ما يشاء .

﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ من كسب دينها ودنياها ، ﴿ وما تدري نفس بأي : أرض تموت ﴾ بل الله تعالى هو المختص بعلم ذلك جميعه . ولما خصص هذه الأشياء ، عمم علمه بجميع الأشياء فقال : ﴿ إن الله عليم خبير ﴾ محيط بالظواهر والبواطن ، والخفايا والخبائيا والسرائر ، ومن حكمته التامة ، أن أخفى علم هذه الخمسة عن العباد ، لأن في ذلك من المصالح ما لا يخفى على من تدبر ذلك .

تم تفسير سورة لقمان
بفضل الله وعونه ، والحمد لله

تفسير سورة السجدة وهي مكية

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم آمَن ﴾ * تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ * أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك لعلمهم يبتدون ﴾ يخبر تعالى أن هذا الكتاب الكريم ، أنه تنزيل نزل من رب العالمين ، الذي رباهم بنعمته . ومن أعظم ما رباهم به ، هذا الكتاب ، الذي فيه كل ما يصلح أحوالهم ، ويتمم أخلاقهم ، وأنه لا ريب فيه ولا شك ولا امتراء ، ومع ذلك قال المكذبون للرسول الظالمون في ذلك : افتراه محمد ، واختلقه من عند نفسه ، وهذا من أكبر الجراءة على إنكار كلام الله ، ورمي محمد ﷺ ، بأعظم الكذب ، وقدرة الخلق على كلام مثل كلام الخالق . وكل واحد من هذه من الأمور العظائم ، قال الله - راداً على من قال : افتراه - ﴿ بل هو الحق ﴾ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد . ﴿ من



الموسوس المسؤل ، فنهى تعالى عباده أن تغرهم الدنيا أو يغرهم بالله الغرور ﴿ يعلمهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً ﴾ .

﴿ ٣٤ ﴾ ﴿ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي : أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ قد تقرر أن الله تعالى أحاط علمه بالغيب والشهادة ، والظواهر والبواطن ، وقد يطلع الله عباده على كثير من الأمور الغيبية ، وهذه [الأمور] ^(١) الخمسة ، من الأمور التي طوى علمها عن جميع المخلوقات ، فلا يعلمها نبي مرسل ، ولا ملك مقرب ، فضلاً عن غيرهما ، فقال : ﴿ إن الله عنده علم الساعة ﴾ أي : يعلم متى مرساها ، كما قال تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يحيلها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تاتيكم إلا بغتة ﴾ الآية .

﴿ وينزل الغيث ﴾ أي : هو المنفرد بإنزاله ، وعلم وقت نزوله .

﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ فهو الذي أنشأ ما فيها ، وعلم ما هو ، هل هو ذكر أم أنثى ، ولهذا يسأل الملك الموكل

﴿أفلا تتذكرون﴾ فتعلمون أن خالق الأرض والسموات، المستوي على العرش العظيم، الذي انفراد بتدبيركم وتوليكم، وله الشفاعة كلها، هو المستحق لجميع أنواع العبادة.

﴿يدبر الأمر﴾ القُدري والأمر الشرعي، الجميع هو المنفرد بتدبيره، نازلة تلك التدابير من عند الملك القدير ﴿من السماء إلى الأرض﴾ فَيُسَعِّدُهَا وَيُشْقِي، وَيُعْنِي وَيُفْقِرُ، وَيُعْزِ وَيُذِلُّ، وَيُكْرِمُ وَيُهِنُّ، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، وَيُنْزِلُ الْأَرْزَاقَ.

﴿ثم يعرج إليه﴾ أي: الأمر ينزل من عنده ويعرج إليه ﴿في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ وهو يعرج إليه ويصله في لحظة.

﴿ذلك﴾ الذي خلق تلك المخلوقات العظيمة، الذي استوى على العرش العظيم، وانفرد بالتدبير في المملكة، ﴿عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم﴾ فبسعة علمه، وكمال عزته، وعموم رحمته، أوجدها، وأودع فيها من المنافع ما أودع، ولم يعسر عليه تدبيرها.

﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ أي: كل مخلوق خلقه الله، فإن الله أحسن خلقه، وخلقه خلقاً يليق به ويوافقه، فهذا عام.

ثم خص آدمي لشرفه وفضله فقال: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ وذلك بخلق آدم عليه السلام، أبي البشر.

﴿ثم جعل نسله﴾ أي: ذرية آدم ناشئة ﴿من ماء مهين﴾ وهو النطفة المستقدرة الضعيفة.

﴿ثم سواه﴾ بلحمه وأعضائه وأعصابه وعروقه، وأحسن خلقته، ووضع كل عضو منه بالحل الذي لا يليق به غيره، ﴿ونفخ فيه من روحه﴾ بأن أرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، فيعود بإذن الله حيواناً بعد إذ

كان جاداً.

﴿وجعل لكم السمع والأبصار﴾ أي: ما زال يعطيكم من النافع شيئاً فشيئاً، حتى أعطاكم السمع والأبصار ﴿والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾ الذي خلقكم وصوركم.

﴿١٠- ١١﴾ ﴿وقالوا إذا ضللنا في الأرض إنا لنفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾ قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون ﴿أي: قال المكذبون بالبعث على وجه الاستبعاد: ﴿إذا ضللنا في الأرض﴾ أي: بليتنا وتمزقنا، وتفرقنا في المواضع التي لا نعلم.

﴿إنا لنفي خلق جديد﴾ أي: لبعوثون بعثاً جديداً. بزعمهم أن هذا من أبعد الأشياء، وذلك لقياسهم قدرة الخالق بقدرهم.

وكلامهم هذا، ليس لطلب الحقيقة، وإنما هو ظلم وعناد، وكفر بلقاء ربهم وجحد، ولهذا قال: ﴿بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾ فكلامهم علم^(١) مصدرة وغايته، وإلا، فلو كان قصدهم بيان الحق، لَيَّنَّ لهم من الأدلة القاطعة على ذلك، ما يجعله مشاهداً للبصيرة بمنزلة الشمس للبصر.

ويكفيهم أنهم معهم علم أنهم قد ابتدئوا من العدم، فالإعادة أسهل من الابتداء، وكذلك الأرض الميتة، ينزل الله عليها المطر، فتحيا بعد موتها، وينبت به متفرق بذورها.

﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾ أي: جعله الله وكيلاً على قبض الأرواح، وله أعوان. ﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾ فيجازيكم بأعمالكم، وقد أنكرتم البعث، فانظروا ماذا يفعل الله بكم.

﴿١٢- ١٤﴾ ﴿ولو تری إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربنا أبصروا وسمعتنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ * ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملاّن جهنم من الجنة والناس

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَكُمُ الْأَعْلَى وَلَكِنَّكُمْ أَكْثَرٌ ظُلُمًا وَأَكْثَرُ غُفْلًا ﴿١٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَبَ تَبَاتُكًا يَتَّبِعُ مَا يَكْفُورُ بِهِ قُلْ يَتَّبِعْكُمْ مَلَائِكَةُ الْمَوْتِ بِحَسْرَتٍ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَنشَأْنَا نِسْمَ الْإِنسَانِ مِنْ نُفُوسٍ مُّطَهَّرَةٍ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَشَرِ مَا تَفْكِرُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَشَرِ مَا تَفْكِرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَشَرِ مَا تَفْكِرُونَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَشَرِ مَا تَفْكِرُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَشَرِ مَا تَفْكِرُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَشَرِ مَا تَفْكِرُونَ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَشَرِ مَا تَفْكِرُونَ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَشَرِ مَا تَفْكِرُونَ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَشَرِ مَا تَفْكِرُونَ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ الْأَنْعَامِ

١١٧

أجمعين * فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيانكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴿١﴾ لما ذكر تعالى رجوعهم إليه يوم القيامة، ذكر حالهم في مقامهم [بين يديه]^(٢)، فقال: ﴿ولو ترى إذ المجرمون﴾ الذين أصروا على الذنوب العظيمة، ﴿ناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾ خاشعين خاضعين أذلاء، مقرين بجرمهم، سائلين الرجعة قائلين: ﴿ربنا أبصرونا وسمعتنا﴾ أي: بان لنا الأمر، ورأيناها عياناً، فصار عين يقين.

﴿فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون﴾ أي: صار عندنا الآن يقين بما [كننا]^(٣) نكذب به، أي: لرأيت أمراً فظيلاً، وحالاً مزعجة، وأقواماً خاسرين، وسؤلاً غير محاب، لأنه قد مضى وقت الإمهال.

وكل هذا بقضاء الله وقدره، حيث خلى بينهم وبين الكفر والمعاصي، فلهاذا قال: ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها﴾ أي: لهدينا الناس كلهم، وجعناهم على الهدى، فمشتبنتنا صالحة لذلك، ولكن الحكمة تأبى أن يكونوا كلهم على الهدى، ولهذا قال: ﴿ولكن حق القول مني﴾ أي: وجب، وثبت

(١) كذا في: ب، وفي أ: ظلم، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) زيادة من: ب.

وافق غنياً أو فقيراً، قريباً أو بعيداً، ولكن الأجر يتفاوت بتفاوت النفع، فهذا عملهم.

وأما جزاؤهم، فقال: ﴿فلا تعلم نفس﴾ يدخل فيه جميع نفوس الخلق، لكونها نكرة في سياق النفي. أي: فلا يعلم أحد ﴿ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ من الخير الكثير، والنعيم الغزير، والفرح والسرور، واللذة والحبور، كما قال تعالى على لسان رسوله: «أعددت لعبادي الصالحين، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

فكما صلوا في الليل ودعوا، وأخفوا العمل، جازاهم من جنس عملهم، فأخفى أجرهم، ولهذا قال: ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾

﴿١٨ - ٢٠﴾ ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستويون﴾ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى نزلاً بما كانوا يعملون * وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون ﴿بنيه تعالى العقول على ما تقرر فيها، من عدم تساوي المتفاوتتين المتباينين، وأن حكمته تقتضي عدم تساويهما، فقال: ﴿أفمن كان مؤمناً﴾ قد عمر قلبه بالإيمان، وانقادت جوارحه لشرائعه، واقتضى إيمانه آثاره وموجباته، من ترك مساخط الله، التي ^(٢) يضر وجودها بالإيمان.

﴿كمن كان فاسقاً﴾ قد خرب قلبه وتعطل من الإيمان، فلم يكن فيه وازع ديني، فأسرعت جوارحه بموجبات الجهل والظلم، من كل إثم ومعصية، وخرج بفسقه عن طاعة الله.

أفيستوي هذان الشخصان؟

﴿لا يستويون﴾ عقلاً وشرعاً، كما لا يستوي الليل والنهار، والضيء والظلمة، وكذلك لا يستوي ثوابهما في الآخرة.

﴿أما الذين آمنوا وعملوا

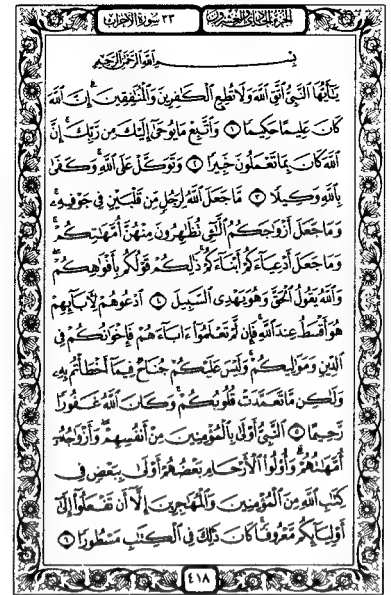
لا يستكبرون﴾ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً وما رزقناهم ينفقون * فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴿لما ذكر تعالى الكافرين بآياته، وما أعد لهم من العذاب، ذكر المؤمنين بها، ووصفهم، وما أعد لهم من الثواب، فقال: ﴿إنما يؤمن بآياتنا﴾ [أي: إيماناً حقيقياً، من يوجد منه شواهد الإيمان، وهم: ﴿الذين إذا ذكروا﴾ بآيات ربهم قتلعت عليهم آيات القرآن، وأتتهم النصائح على أيدي رسل الله، وودعوا إلى التذكر، سمعوها فقبلوها، وانقادوا، و﴿خروا سجداً﴾ أي: خاضعين لها، خضوع ذكر لله، وفرح بمعرفته.

﴿وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون﴾ لا بقلوبهم، ولا بأبدانهم، فيمتنعون من الانقياد لها، بل متواضعون لها، قد تلقوها بالقبول، والتسليم، وقابلوها بالانقياد والتسليم، وتوصلوا بها إلى مرضاة الرب الرحيم، واهتدوا بها إلى الصراط المستقيم.

﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ أي: ترتفع جنوبهم، وتنزعج عن مضاجعها اللذيذة، إلى ما هو الذعدهم منه وأحب إليهم، وهو الصلاة في الليل، ومناجاة الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿يدعون ربهم﴾ أي: في جلب مصالحهم الدينية والدنيوية، ودفع مضارهما. ﴿خوفاً وطمعاً﴾ أي: جامعين بين الوصفين، خوفاً أن ترد أعمالهم، وطمعاً في قبولها، خوفاً من عذاب الله، وطمعاً في ثوابه.

﴿وما رزقناهم﴾ من الرزق، قليلاً كان أو كثيراً ﴿ينفقون﴾ ولم يذكر قيد النفقة، ولا المنفق عليه، ليدل على العموم، فإنه يدخل فيه، النفقة الواجبة، كالزكوات، والكفارات، ونفقة الزوجات والأقارب، والنفقة المستحبة في وجوه الخير، والنفقة والإحسان المالي خير مطلقاً، سواء



ثبوتاً لا تغير فيه.

﴿لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾ فهذا الوعد لا بد منه، ولا محيد عنه، فلا بد من تقدير أسبابه من الكفر والمعاصي.

﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ أي: يقال للمجرمين الذين ملكهم الذل، وسألوا الرجعة إلى الدنيا، ليستردكوا ما فاتهم، قد فات وقت الرجوع ولم يبق إلا العذاب، فذوقوا العذاب الأليم بما نسيتم لقاء يومكم هذا، وهذا النسيان نسيان ترك، أي: بما أعرضتم عنه وتركتم العمل له، وكأنكم غير قادمين عليه ولا ملاقيه.

﴿إننا نسيانكم﴾ أي: تركناكم بالعذاب، جزاء من جنس عملكم، فكما نسيتم نسيتم، ووذوقوا عذاب الخلد﴾ أي: العذاب غير المنقطع، فإن العذاب إذا كان له أجل وغاية، كان فيه بعض التنفيس والتخفيف، وأما عذاب جهنم - أعادنا الله منه - فليس فيه روح راحة، ولا انقطاع لعذابهم فيها. ﴿بما كنتم تعملون﴾ من الكفر والفسوق والمعاصي.

﴿١٥ - ١٧﴾ ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا ذكروا بها خروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم

الصالحات» من فروض ونوافل ﴿فلهم جنات المأوى﴾ أي: الجنات التي هي مأوى اللذات، ومعدن الخيرات، ومحل الأفراح، ونعيم القلوب والنفوس والأرواح، ومحل الخلود، وجوار الملك المعبود، والتمتع بقربه، والنظر إلى وجهه، وسماع خطابه.

﴿نزلاً﴾ لهم، أي: ضيافة وقرى ﴿بما كانوا يعملون﴾ فأعمالهم التي تفضل الله بها عليهم، هي التي أوصلتهم لتلك المنازل الغالية العالية، التي لا يمكن التوصل إليها ببذل الأموال، ولا بالجنود والخدم، ولا بالأولاد، بل ولا بالنفوس والأرواح، ولا يتقرب إليها بشيء أصلاً، سوى الإيمان والعمل الصالح.

﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ أي: مقرهم ومحل خلودهم، النار التي جمعت كل عذاب وشقاء، ولا يُقْتَرَّ عنهم العقاب ساعة.

﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها﴾ فكلما حدثتهم إرادتهم بالخروج لبلوغ العذاب منهم كل مبلغ، ردوا إليها، فذهب عنهم روح ذلك الفرج، واشتد عليهم الكرب.

﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ فهذا عذاب النار، الذي يكون فيه مقرهم ومأواهم، وأما العذاب الذي قبل ذلك، ومقدمة له وهو عذاب البرزخ، فقد ذكر بقوله:

﴿٢١﴾ ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر لعلهم يرجعون﴾

أي: ولنذيقن الفاسقين المكذبين نموذجاً من العذاب الأدنى، وهو عذاب البرزخ، فنذيقهم طرفاً منه قبل أن يموتوا، إما بعذاب بالقتل ونحوه، كما جرى لأهل بدر من المشركين، وإما عند الموت، كما في قوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسهم اليوم تجزون عذاب الهون﴾ ثم

يكمل لهم العذاب الأدنى في برزخهم.

وهذه الآية من الأدلة على إثبات عذاب القبر، ودلالاتها ظاهرة، فإنه قال: ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى﴾ أي: بعض وجزء منه، فدل على أن ثم عذاباً أدنى قبل العذاب الأكبر، وهو عذاب النار.

ولما كانت الإذاقة من العذاب الأدنى في الدنيا، قد لا يتصل بها الموت، فأخبر تعالى أنه يذيقهم ذلك لعلهم يرجعون إليه ويتوبون من ذنوبهم كما قال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾.

﴿٢٢﴾ ﴿ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون﴾ أي: لا أحد أظلم وأزيد تعدياً، ممن ذكر بآيات ربه، التي أوصلها إليه ربه، الذي يريد تربيته، وتكميل نعمته عليه على يد رسله، تأمره وتذكره مصالحه الدينية والدنيوية، وتنهيه عن مضاره الدينية والدنيوية، التي تقتضي أن يقابلها بالإيمان والتسليم، والانقياد والشكر، فقابلها هذا الظالم بضد ما ينبغي، فلم يؤمن بها ولا اتبعها، بل أعرض عنها وتركها وراء ظهره، فهذا من أكبر المجرمين، الذين يستحقون شديد العقاب، ولهذا قال: ﴿إنا من المجرمين منتقمون﴾.

﴿٢٣ - ٢٥﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب فلا تكن في مرية من لقائه وجعلناه هدى لبني إسرائيل * وجعلناه منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون * إن ربك هو يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ لما ذكر تعالى آياته التي ذكر بها عباده، وهو القرآن، الذي أنزله على محمد ﷺ، ذكر أنه ليس ببعد من الكتب، ولا من جاء به بغريب من الرسل، فقد أتى الله موسى الكتاب الذي هو التوراة المصدقة للقرآن، التي

قد صدقها القرآن، فتطابق حقيهما، وثبت برهانهما، ﴿فلا تكن في مرية من لقائه﴾ لأنه قد تواردت أدلة الحق وبيناته، فلم يبق للشك والمرية محل.

﴿وجعلناه﴾ أي: الكتاب الذي آتينا موسى ﴿هدى لبني إسرائيل﴾ يهتدون به. في أصول دينهم وفروعه^(١)، وشرائعه موافقة لذلك الزمان في بني إسرائيل.

وأما هذا القرآن الكريم، فجعله الله هداية للناس كلهم، لأنه هداية للخلق، في أمر دينهم ودنياهم إلى يوم القيامة، وذلك لكماله وعلوه ﴿وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم﴾.

﴿وجعلنا منهم﴾ أي: من بني إسرائيل ﴿أئمة يهدون بأمرنا﴾ أي: علماء بالشرع وطرق الهداية، مهتدين في أنفسهم، يهدون غيرهم بذلك الهدى، فالكتاب الذي أنزل إليهم هدى، والمؤمنون به منهم على قسمين: أئمة يهدون بأمر الله، وأتباع مهتدون بهم.

والقسم الأول أرفع الدرجات بعد درجة النبوة والرسالة، وهي درجة الصديقين، وإنما نالوا هذه الدرجة العالية بالصبر على التعلم والتعليم، والدعوة إلى الله، والأذى في سبيله، وكفوا أنفسهم عن مجاحها في المعاصي واسترسالها في الشهوات.

﴿وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ أي: وصلوا في الإيمان بآيات الله إلى درجة اليقين، وهو العلم التام الموجب للعمل، وإنما وصلوا إلى درجة اليقين، لأنهم تعلموا تعليماً صحيحاً، وأخذوا المسائل عن أدلتها المفيدة لليقين.

فما زالوا يتعلمون المسائل، ويستدلون عليها بكثرة الدلائل، حتي وصلوا لذلك، فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

وتمَّ مسائل اختلف فيها بنو إسرائيل، منهم من أصاب فيها الحق، ومنهم من أخطأ خطأ أو عمداً، والله تعالى ﴿يفصل بينهم يوم القيامة فيما

ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً * وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً أي: يا أيها الذي من الله عليه بالنبوة، واختصه بوحيه، وفضله على سائر الخلق، اشكر نعمة ربك عليك باستعمال تقواه، التي أنت أولى بها من غيرك، والذي يجب عليك منها أعظم من سواك، فامتثل أوامره ونواهيه، وبلغ رسالاته، وأذ إلى عباده وحيه، وابدل النصيحة للخلق.

ولا يصدنك عن هذا المقصود صاد، ولا يردك عنه راد، فلا تطع كل كافر قد أظهر العداوة لله ورسوله، ولا منافق قد استبطن التكذيب والكفر، وأظهر ضده.

فهؤلاء هم الأعداء على الحقيقة، فلا تطعمهم في بعض الأمور، التي تنقض التقوى وتناقضها، ولا تتبع أهواءهم، يضلوك عن الصواب.

﴿و﴾ لكن «اتبع ما يوحى إليك من ربك» فإنه هو الهدى والرحمة، وأزج بذلك ثواب ربك، فإنه بما تعملون خير، يجازيكم بحسب ما يعلمه منكم من الخير والشر.

فإن وقع في قلبك، أنك إن لم تطعمهم في أهوائهم المضلة، حصل عليك منهم ضرر، أو حصل نقص في هداية الخلق، فادفع ذلك عن نفسك، واستعمل ما يقاومه ويقاوم غيره، وهو التوكل على الله، بأن تعتمد على ربك اعتماد من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، في سلامتك من شرهم، وفي إقامة الدين الذي أمرت به، وثق بالله في حصول ذلك الأمر على أي حال كان.

﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ توكل إليه الأمور، فيقوم بها وبما هو أصلح للعبد، وذلك لعلمه بمصالح عبده، من حيث لا يعلم العبد، وقدرته على إيصالها إليه، من حيث لا يقدر عليها العبد، وأنه أرحم بعبده من نفسه، ومن والديه، وأرأف به من كل أحد،

بصر الرجال، وإنما نظروا إلى ذلك نظر الغفلة، وبجرد العادة، فلم يوقفوا للخير.

﴿٢٨ - ٣٠﴾ ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين * قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون * فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون أي: يستعجل المجرمون بالعذاب الذي وعدوا به على التكذيب، جهلاً منهم ومعاندة.

﴿ويقولون متى هذا الفتح﴾ الذي يفتح بيننا وبينكم، بتعذيبنا على زعمكم إن كنتم أيها الرسل «صادقين» في دعواكم.

﴿قل يوم الفتح﴾ الذي يحصل به عقابكم، لا تستفيدون به شيئاً، فلو كان إذا حصل، حصل إمهالككم، لتستدركوا ما فاتكم، حين صار الأمر عندكم يقيناً، لكان لذلك وجه، ولكن إذا جاء يوم الفتح، انقضى الأمر، ولم يبق للمحنة محل ف «لا ينفع الذين كفروا إيمانهم» لأنه صار إيمان ضرورة، «ولا هم ينظرون» أي: يمهلون، فيؤخر عنهم العذاب، فيستدركون أمرهم.

﴿فأعرض عنهم﴾ لما وصل خطابهم إلى حالة الجهل واستعجال العذاب. «وانتظر» الأمر الذي يحل بهم، فإنه لا بد منه، ولكن له أجل، إذا جاء لا يتقدم ولا يتأخر. «إنهم منتظرون» بك ريب المنون، ومتربصون بكم دوائر السوء، والعاقبة للفقوى.

تم تفسير سورة السجدة بحول الله
ومنه فله تعالى كمال الحمد
والثناء والمجد

تفسير سورة الأحزاب وهي مدنية

﴿١ - ٣﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليماً حكيماً * واتبع ما يوحى إليك من

كانوا فيه يختلفون» وهذا القرآن يقص على بني إسرائيل بعض الذي يختلفون فيه، فكل خلاف وقع بينهم، ووجد في القرآن تصديق لأحد القولين، فهو الحق، وما عدها بما خالفه باطل.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ «أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون * أولم يروا أننا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً نأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون» يعني: أولم يتبين لهؤلاء المكذبين للرسول، ويهدمهم إلى الصواب. «كم أهلكنا من قبلهم من القرون» الذين سلكوا مسلكهم، «يمشون في مساكنهم» فيشاهدونها عياناً، تقوم هود وصالح، وقوم لوط.

«إن في ذلك لآيات» يستدل بها على صدق الرسل التي جاءتهم، وبطلان ما هم عليه من الشرك والشرك، وعلى أن من فعل مثل فعلهم، ففعل بهم كما فعل بأشباعه من قبل.

وعلى أن الله تعالى مجازي العباد، وباعثهم للحشر والتناد. «أفلا يسمعون» آيات الله فيعونها فيفتفون بها، فلو كان لهم سمع صحيح وعقل رجيح، لم يقيموا على حالة^(١) يجزم بها بالهلاك.

«أولم يروا» بأبصارهم نعمتنا وكمال حكمتنا «أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز» التي لا نبات فيها، فيسوق الله المطر الذي لم يكن قبل موجوداً فيها، فيفرغه فيها من السحاب أو من الأنهار. «فنخرج به زرعاً» أي: نباتاً مختلف الأنواع «تأكل منه أنعامهم» وهو نبات البهائم، «وأنفسهم» وهو طعام الآدميين.

«أفلا يبصرون» تلك المنة، التي أحيا الله بها البلاد والعباد، فيستبصرون فيهتدون بذلك البصر وتلك البصيرة، إلى الصراط المستقيم، ولكن غلب عليهم العمى، واستولت عليهم الغفلة، فلم يبصروا في ذلك

(١) كذا في ب، وفي أ: على حالة لم يجزم، والصواب - والله أعلم - حذف لم.

الإلهية.

﴿وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن﴾ بأن يقول أحدكم لزوجته: «أنت علي كظهر أمي أو كأمي» فما جعلهن الله ﴿أمهاتكم﴾ أمك من ولدتك، وصارت أعظم الناس عليك حرمة وتحريماً، وزوجتك أحل النساء لك، فكيف تشبه أحد المتناقضين بالأخر؟

هذا أمر لا يجوز، كما قال تعالى: ﴿الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً﴾.

﴿وما جعل أديعاءكم أبناءكم﴾ والأديعاء، الولد الذي كان الرجل يذعيه وهو ليس له، أو يُدعى إليه بسبب تبنيه إياه، كما كان الأمر بالجاهلية وأول الإسلام.

فأراد الله تعالى أن يبطله ويزيله، فقدم بين يدي ذلك بيان قبحه، وأنه باطل وكذب، وكل باطل وكذب، لا يوجد في شرع الله، ولا يتصف به عبد الله.

يقول تعالى: فإله لا يجعل الأديعاء الذين تدعونهم، أو يدعون إليكم، أبناءكم، فإن أبناءكم في الحقيقة، من ولدنهم وكانوا منكم، وأما هؤلاء الأديعاء من غيركم، فلا جعل الله هذا كهذا.

﴿ذلكم﴾ القول الذي تقولون في الدعي: إنه ابن فلان الذي ادعاه، أو والده فلان ﴿قولكم بأفواهكم﴾ أي: قول لا حقيقة له ولا معنى له.

﴿والله يقول الحق﴾ أي: اليقين والصدق، فلذلكم أمركم باتباعه على قوله وشرعه، فقوله حق، وشرعه حق، والأقوال والأفعال الباطلة لا تنسب إليه بوجه من الوجوه، وليست من هدايته، لأنه لا يهدي إلا إلى السبيل المستقيمة، والطرق الصادقة.

خصوصاً خواص عبيده، الذين لم يزل يربهم ببره، ويؤثر عليهم بركاته الظاهرة والباطنة، خصوصاً وقد أمره بإلقاء أموره إليه ووعده، فهناك لا تسأل عن كل أمر يتيسر، وصعب يسهل، وخطوب تهون، وكروب تزول، وأحوال وحوائج تقضى، وبركات تنزل، ونقم تدفع، وشرور ترفع.

وهناك ترى العبد الضعيف، الذي فوض أمره لسيده، قد قام بأمر لا يقوم بها أمة من الناس، وقد سهل الله [عليه]^(١) ما كان يصعب على فحول الرجال، وبالله المستعان.

﴿٤-٥﴾ ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن أمهاتكم وما جعل أديعاءكم أبناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾ * أدعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يعاتب تعالى [عباده]^(٢) عن التكلم بما ادعوههم لأبائهم هو أقسط عند الله فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً لا حقيقة له من الأقوال، ولم يجعله الله تعالى كما قالوا، فإن ذلك القول منكم كذب وزور، يترتب عليه منكرات من الشرع. وهذه قاعدة عامة في التكلم في كل شيء، والإخبار بوقوع ووجود ما لم يجعله الله تعالى.

ولكن خص هذه الأشياء المذكورة لوقوعها، وشدة الحاجة إلى بيانها، فقال: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ هذا لا يوجد، فإياكم أن تقولوا عن أحد: إن له قلبين في جوفه، فتكونوا كاذبين على الخلقة

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) زيادة من: ب.

وإن كان ذلك واقعاً بمشيئته، فمشيئته عامة، لكل ما وجد من خير وشر.

ثم صرح لهم بترك الحالة الأولى، المتضمنة للقول الباطل، فقال: ﴿ادعوهم﴾ أي: الأديعاء ﴿لأبائهم﴾ الذين ولدوهم ﴿هو أقسط عند الله﴾ أي: أعدل وأقوم وأهدى.

﴿فإن لم تعلموا آباءهم﴾ الحقيقيين ﴿فإخوانكم في الدين ومواليكم﴾ أي: إخوانكم في دين الله ومواليكم في ذلك، فادعوههم بالأخوة الإيمانية الصادقة، والموالة على ذلك، فترك الدعوة إلى من تبناهم حتم لا يجوز فعلها.

وأما دعاؤهم لأبائهم، فإن علموا، دعوا إليهم، وإن لم يعلموا، اقتصر على ما يعلم منهم، وهو أخوة [الدين]^(٣) والموالة، فلا تظنوا أن حالة عدم علمكم بأبائهم عذر في دعوتهم إلى من تبناهم، لأن المحذور لا يزول بذلك.

﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به﴾ بأن سبق على لسان أحدكم دعوته إلى من تبناه، فهذا غير مؤاخذ به، أو علم أبوه ظاهراً، [قدعوتهم إليه]^(٤) وهو في الباطن غير أبيه، فليس^(٥) عليكم في ذلك حرج إذا كان خطأ،

(٥) في (أ) وقعت هنا زيادة حرف (في)

ولا محل له.



على ولاية ذوي الأرحام في جميع الولايات، كولايات النكاح والمال، وغير ذلك.

﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أُولِيَائِكُمْ
مَعْرُوفًا﴾ أي: ليس لهم حق
مفروض، وإنما هو بإرادتكم، إن
شئتم أن تتبرعوا لهم تبرعاً تطوهم
معروفاً منكم، ﴿كَانَ ذَلِكَ الْحَكَمُ
الْمَذْكُورَ﴾ في الكتاب مسطوراً ﴿أَي:﴾
قد سطر وكتب وقدره الله، فلا بد من
نفوذه.

﴿٧-٨﴾ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمَنْكَ وَمَنْ نُوحَ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صَدَقَتِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾
يُخَيِّرُ تَعَالَى أَنَّهُ أَخَذَ مِنَ النَّبِيِّينَ عَمُومًا، وَمِنْ أَوَّلِي الْعِزِّ - وَهُمْ هَؤُلَاءِ الْخَمْسَةُ الْمَذْكُورُونَ - خُصُوصًا، مِيثَاقَهُمُ الْغَلِيظَ وَعَهْدَهُمُ الثَّغِيلَ الْمَوْكُودَ، عَلَى الْقِيَامِ بِدِينِ اللَّهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَأَنَّ هَذَا سَبِيلُ قَدِ مَشَى الْأَنْبِيَاءُ الْمُتَقَدِّمُونَ، حَتَّى خَتَمُوا بِسَيِّدِهِمْ وَأَفْضَلِهِمْ، مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَمَرَ النَّاسَ بِالْإِتْقَانِ بِهِمْ.

وسيسأل الله الأنبياء وأتباعهم عن
هذا العهد الغليظ، هل وفوا فيه
وصدقوا؟ فينبئهم جنات النعيم؟ أم
كفروا، فيعذبهم العذاب الأليم؟ قال
تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما
عاهدوا الله عليه﴾.

﴿٩٦ - ١١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ
جُنُودُ فَارِسِلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ
تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا * إِذْ
جَاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ
وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ
الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنًّوْنَا * هُنَالِكَ
ابْتَلَى الْمُؤْمِنُونَ وَزَلْزَلُوا زَلْزَلًا شَدِيدًا
يَذْكُرُ تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ نِعْمَتُهُ عَلَيْهِمْ،
وَيُحِثُّهُمْ عَلَى شُكْرِهَا، حِينَ جَاءَتْهُمْ
جُنُودُ أَهْلِ مَكَّةَ وَالْحِجَازِ مِنْ فَوْقِهِمْ،
وَأَهْلُ نَجْدٍ مِنْ أَسْفَلِ نِهِمْ، وَتَعَاقَدُوا

مع مراد الرسول، أن يقدم مراد الرسول، وأن لا يعارض قول الرسول بقول أحد، كائناً مَنْ كان، وأن يفدوه بأنفسهم وأموالهم وأولادهم، ويقدموا محبته على حبة الخلق كلهم، وألا يقولوا حتى يقول، ولا يقدموا بين يديه.

وهو ﷺ أب للمؤمنين، كما في قراءة بعض الصحابة، يريهم كما يري الوالد أولاده.

فترتب على هذه الأبوة، أن كان نساؤه أمهاتهم، أي: في الحرمة والاحترام والإكرام، لا في الخلوة والمحرمية، وكان هذا مقدمة لما سيأتي في قصة زيد بن حارثة، الذي كان قبل يدعى: "زيد بن محمد" حتى أنزل الله ﴿ما كان محمد أبا أحد من رجالكم﴾ فقطع نسبه وانتسابه منه، فأخبر في هذه الآية، أن المؤمنين كلهم أولاد للرسول، فلا مزية لأحد عن أحد وإن انقطع عن أحدهم انتساب الدعوة، فإن النسب الإيماني لم ينقطع عنه، فلا يحزن ولا بأسف.

وترتب على أن زوجات الرسول
 أمهات المؤمنين، أنهن لا يحملن لأحد
 من بعده، كما الله صرح^(١) بذلك:
 ﴿وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ
 أَبْدًا﴾.

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ أي: الأقارب،
 قريوا أو بعدوا ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾
 في كتاب الله ﴿أَي:﴾ ^(٢) في حكمه،
 فيرث بعضهم بعضاً، وبير بعضهم
 بعضاً، فهم أولى من الحلف والنصرة.

والأدعياء الذين كانوا من قبل يرثون،
بهذه الأسباب، دون ذوي الأرحام،
فقط تعالى التوارث بذلك وجعله
للأقارب، لطفاً منه وحكمة، فإن الأمر
لو استمر على العادة السابقة، لحصل
من الفساد والشر والتحويل لحرمان
الأقارب من الميراث شيء كثير.

﴿من المؤمنين والمهاجرين﴾ أي: سواء كان الأقارب مؤمنين مهاجرين وغير مهاجرين، فإن ذوي الأرحام مقدمون في ذلك، وهذه الآية حجة

[illegible]

﴿ولكن﴾ يؤاخذكم بما ﴿تعمدت﴾ قلوبكم ﴿من الكلام بما لا يجوز﴾. ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ غفر لكم ورحمكم، حيث لم يعاقبكم بما سلف، وسمح لكم بما أخطأتم به، ورحمكم حيث بين لكم أحكامه التي تصلح دينكم ودنياكم، فله الحمد تعالى.

﴿٦٦﴾ ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفًا كان ذلك في الكتاب مستطورا﴾ يخبر تعالى المؤمنين خبراً يعرفون به حالة الرسول ﷺ ومرتبته، فيعاملونه بمقتضى تلك الحالة، فقال: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ أقرب ما للإنسان، وأولى ما له نفسه، فالرسول أولى به من نفسه، لأنه عليه الصلاة والسلام، بذل لهم من النصيح والشفقة والرفقة، ما كان به أرحم الخلق وأزأفهم، فرسول الله أعظم الخلق مثنةً عليهم من كل أحد، فإنه لم يصل إليهم مثقال ذرة من الخير، ولا اندفع عنهم مثقال ذرة من الشر، إلا على يديه وبسبه.

فلذلك، وجب عليه أنه إذا تعارض
مراد النفس، أو مراد أحد من الناس،

وتعاهدوا على استئصال الرسول والصحابة، وذلك في وقعة الخندق.

ومالأنهم [طوائف] ^(١) اليهود الذين حوالى المدينة، فجاءوا بجنود عظيمة وأمم كثيرة.

وخندق رسول الله ﷺ على المدينة، فحصبوا المدينة، واشتد الأمر، وبلغت القلوب الحناجر، حتى بلغ الظن من كثير من الناس كل مبلغ، لما رأوا من الأسباب المستحكمة، والشدائد الشديدة، فلم يزل الحصار على المدينة مدة طويلة، والأمر كما وصف الله: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْبَصَارُ وَبُلْغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا﴾ أي: الظنون السيئة، أن الله لا ينصر دينه ولا يتم كلمته.

﴿هَنَالِكِ ابْتَلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ هذه الفتنة العظيمة ﴿وَزَلْزَلُوا زَلْزَالًا شَدِيدًا﴾ بالخوف والقلق والجوع، ليتبين إيمانهم، ويزيد إيقانهم، فظهر - والله الحمد - من إيمانهم وشدة يقينهم، ما فاقوا فيه الأولين والآخرين.

وعندما اشتد الكرب، وتفاقت الشدائد، صار إيمانهم عين اليقين، ﴿وَمَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾.

وهنالک تبين نفاق المنافقين، وظهر ما كانوا يضمرون، قال تعالى:

﴿١٢﴾ ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

وهذه عادة المنافق عند الشدة والمحنة، لا يثبت إيمانه، وينظر بعقله القاصر، إلى الحالة القاصرة ^(٢)، ويصدق ظنه.

﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، بَعْدَ مَا جَزَعُوا وَقِيلَ صَبْرُهُمْ، صَارُوا أَيْضًا مِنَ الْمُخْذَلِينَ، فَلَا صَبْرُوا بَأَنْفُسِهِمْ، وَلَا تَرَكَوْا النَّاسَ مِنْ

شَرِّهِمْ، فَقَالَتْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ: ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ يريدون: ﴿يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ﴾، فنادوهم باسم الوطن النبيي [عن التسمية] ^(٣)، فيه إشارة إلى أن الدين والأخوة الإيمانية، ليس له في قلوبهم قدر، وأن الذي حملهم على ذلك، مجرد الخور الطبيعي.

﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مَقَامَ لَكُمْ﴾ أي: في موضعكم الذي خرجتم إليه خارج المدينة، وكانوا عسكروا دون الخندق وخارج المدينة، ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى المدينة، فهذه الطائفة تخذل عن الجهاد، وتبين أنهم لا قوة لهم بقتال عدوهم، ويأمرهم بترك القتال، فهذه الطائفة أشتر الطوائف وأضرها، وطائفة أخرى دونهم، أصابهم الجبن والجزع، وأحبوا أن ينخللوا عن الصفوف، فجعلوا يعتذرون بالأعذار الباطلة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: عليها الخطر، ونخاف عليها أن يهجم عليها الأعداء، ونحن غيَّب عنها، فأذَّن لنا نرجع إليها، فنحرسها، وهم كذبة في ذلك.

﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يَرِيدُونَ﴾ أي: ما قصدهم ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ ولكن جعلوا هذا الكلام وسيلة وعدراً. [لهم] ^(٤) فهولاء قل إيمانهم، وليس له ثبوت عند اشتداد المحن.

﴿وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمُ الْمَدِينَةُ﴾ من أقطارها. أي: لو دخل الكفار إليها من نواحيها، واستولوا عليها - لا كان ذلك - ﴿ثُمَّ سَنَلْهُ هَؤُلَاءُ الْفِتْنَةَ﴾ أي: الانقلاب عن دينهم، والرجوع إلى دين المستولين التغلبين ﴿لَأَتَوْهَا﴾ أي: لأعطوها مبادرين.

﴿وَمَا تَلْبِسُوا بِهَا إِلَّا يُسِيرًا﴾ أي: ليس لهم منعة ولا تصلب على الدين، بل بمجرد ما تكون الدولة للأعداء، يعطونهم ما طلبوا، ويوافقونهم على كفرهم، هذه حالهم.

والحال أنهم قد ﴿عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الدِّبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مِنْهُمْ﴾ سيئاً لهم عن ذلك العهد، فيجدهم قد نقضوه، فما ظنهم إذا بربهم؟

﴿١٦﴾ ﴿قُلْ لَهُمْ، لَا تَمَأْ عَلَى فِرَارِهِمْ، وَغَيْباً أَنَّهُمْ لَا يَفِيدُهُمْ ذَلِكَ شَيْئًا﴾ لن ينفعكم الفرار إن فررت من الموت أو القتل ﴿فَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ، لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾.

والأسباب تنفع، إذا لم يعارضها القضاء والقدر، فإذا جاء القضاء والقدر، تلاشى كل سبب، وبطلت ^(٥) كل وسيلة ظنها الإنسان تنجيه.

﴿وَإِذَا﴾ حين فررتم لتسلموا من الموت والقتل، ولتتعموا في الدنيا فإنكم ﴿لَا تَمْتَنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ متاعاً لا يسوى فراركم، وترككم أمر الله، وتفويتكم على أنفسكم التمتع الأبدي، في النعيم السرمدي.

ثم بين أن الأسباب كلها لا تغني عن العبد شيئاً إذا أراد الله بسوء، فقال: ﴿قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ﴾ أي: يمنعكم ﴿مِنْ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ أي: شرّاً، ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ فإنه هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي لا يأتي بالخير إلا هو، ولا يدفع السوء إلا هو.

﴿وَلَا يَحْدُونُ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ يتولاهم، فيجلب لهم النفع ^(٦) ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ أي: ينصرهم، فيدفع عنهم المضار.

فَلْيَمْتَنُوا طَاعَةَ الْمُنْفَرِدِ بِالْأُمُورِ كُلِّهَا، الذي نفذت مشيئته، ومضى قدره، ولم ينفع مع ترك ولايته ونصرته ولي ولا ناصر.

ثم توعّد تعالى المخذلين المعوقين، وتهدهم فقال: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾ عن الخروج لمن [لم] ^(٧) يخرجوا ﴿وَالْقَاتِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ الذين خرجوا:

(٦) في ب: المنافع.

(٧) زيادة من: ب.

(٤) زيادة من: ب.

(٥) كذا في ب، وفي أ: بطل.

(١) زيادة من: ب.

(٢) في ب: الحاضرة.

(٣) زيادة من: ب.

وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه، يحثه على التأسى بالرسول ﷺ. لما ذكر حالة المنافقين عند الخوف، ذكر حال المؤمنين، فقال: ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب﴾ الذين تحزبوا، ونزلوا منازلهم، وانتهى الخوف، ﴿قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾ في قوله: ﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله إلا إن نصر الله قريب﴾.

﴿وصدق الله ورسوله﴾ فإنا رأينا ما أخبرنا به ﴿وما زادهم﴾ ذلك الأمر ﴿إلا إيماناً﴾ في قلوبهم ﴿وتسليماً﴾ في جوارحهم، وانقياداً لأمر الله. ولما ذكر أن المنافقين عاهدوا الله، لا يولون الأدبار، ونقضوا ذلك العهد، ذكر وفاء المؤمنين به، فقال: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ أي: وفوا به، وأتموه، وأكملوه، فبذلوا مهجهم في مرضاته، وسبّلوا أنفسهم في طاعته.

﴿فمنهم من قضى نجبه﴾ أي: إرادته ومطلوبه وما عليه من الحق، فقتل في سبيل الله، أو مات مؤدياً لحقه لم ينقصه شيئاً. ﴿ومنهم من ينتظر﴾ تكميل ما عليه، فهو شارب في قضاء ما عليه، وفاء نجبه ولما يكمله، وهو في رجاء تكميله، ساع في ذلك مجد.

﴿وما بذلوا تبديلاً﴾ كما بذل غيرهم، بل لم يزلوا على العهد، لا يلوون ولا يتغيرون، فهؤلاء الرجال على الحقيقة، ومن^(٥) عداهم فصورهم صور رجال، وأما الصفات فقد قصرت عن صفات الرجال.

﴿ليجزى الله الصادقين بصدقهم﴾ أي: بسبب صدقهم، في أقوالهم وأحوالهم، ومعاملتهم مع الله، واستواء ظاهرهم وباطنهم، قال الله تعالى: ﴿هذا يوم ينفع الصادقين

يظنون أن هؤلاء الأحزاب، الذين تحزبوا على حرب رسول الله ﷺ وأصحابه لم يذهبوا حتى يستأصلوهم، فخاب ظنهم، وبطل حسابهم.

﴿وإن يأت الأحزاب﴾ مرة أخرى ﴿يودوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبيائكم﴾ أي: لو أتى الأحزاب مرة ثانية مثل هذه المرة، وذو هؤلاء المنافقون، أنهم ليسوا في المدينة ولا في القرب منها، وأنهم مع الأعراب في البادية، يستخبرون عن أخباركم، ويسألون عن أنبيائكم، ماذا حصل عليكم؟

فتبأ لهم، وبعداً فليسوا بمن يبال^(١) بحضورهم ﴿ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾ فلا تبالوهم، ولا تأسوا عليهم.

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ حيث حضر الهيجاء بنفسه الكريمة، وبأشرف موقف الحرب، وهو الشريف الكامل، البطل الباسل، فكيف تشحون بأنفسكم عن أمر جاد رسول الله ﷺ بنفسه فيه؟!!

فتأسوا به في هذا الأمر وغيره. واستدل الأصوليون في هذه الآية، على الاحتجاج بأفعال الرسول ﷺ، وأن الأصل، أن أمته أسوته في الأحكام، إلا ما دلّ الدليل الشرعي على الاختصاص به.

فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيئة.

فالأسوة الحسنة في الرسول ﷺ، فإن المتأسى به، سالك الطريق الموصل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم. وأما الأسوة بغيره إذا خالفه، فهو الأسوة السيئة، كقول الكفار^(٢) حين دعاهم الرسل للتأسي [بهم]^(٣): ﴿إننا وجدنا آبائنا على أمة وإننا على آثارهم مهتدون﴾.

وهذه الأسوة الحسنة، إنما يسلكها ويوفق لها، من كان يرجو الله واليوم الآخر، فإن ما معه^(٤) من الإيمان،

﴿علم إلينا﴾ أي: ارجعوا، كما تقدم من قولهم: ﴿يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا﴾.

وهم مع تعويقهم وتحذيلهم ﴿لا يأتون إليكم﴾ القتال والجهاد بأنفسهم ﴿إلا قليلاً﴾ فهم أشد الناس حرصاً على التخلف، لعدم الداعي لذلك من الإيمان والصبر، ووجود المقتضي للجبن، من النفاق وعدم الإيمان.

﴿أشحة عليكم﴾ بأبدانهم عن القتال، وأموالهم عند النفقة فيه، فلا يجاهدون بأموالهم وأنفسهم. فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك ﴿نظر المقيش﴾ عليه ﴿من الموت﴾ من شدة الجبن الذي خلق قلوبهم، والقلق الذي أهملهم، وخوفاً من إجبارهم على ما يكرهون من القتال.

﴿فإذا ذهب الخوف﴾ وصاروا في حال الأمن والطمأنينة، ﴿سلقوكم بالنسنة﴾ أي: خاطبوكم وتكلموا معكم بكلام حديد، ودعواى غير صحيحة.

وحين تسمعهم، تظنهم أهل الشجاعة والإقدام، ﴿أشحة على الخير﴾ الذي يراد منهم، وهذا شر ما في الإنسان، أن يكون شحيحاً بما أمر به، شحيحاً بما له أن يتفقه في وجهه، شحيحاً في بدنه أن يجاهد أعداء الله، أو يدعو إلى سبيل الله، شحيحاً بجاهه، شحيحاً بعلمه ونصيحته ورأيه.

﴿أولئك﴾ الذين بتلك الحالة ﴿لم يؤمنوا﴾ بسبب عدم إيمانهم أحبط الله أعمالهم، ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾.

وأما المؤمنون، فقد وقاهم الله شح أنفسهم، ووفقه لبذل ما أمروا به، من بذل لأبدانهم في القتال في سبيله، وإعلاء كلمته، وأموالهم للنفقة في طرق الخير، وجاههم وعلمهم. ﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا﴾ أي:

(٥) في أ: وما عداهم، ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في ب: فإن ذلك ما معه.

(١) في ب: يغالى.

(٢) في ب: المشركين.



بأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيراً * ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحاً نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقاً كريماً ﴿

لما اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ذكر مضاعفة أجرهن، ومضاعفة وزهن وإثمنهن لو جرى منهن، ليزداد حذرهن، وشكرهن الله تعالى، فجعل من أتى منهن بفاحشة ظاهرة لها العذاب ضعفين .

﴿ومن يقنت منكن﴾ أي: تطيع ﴿الله ورسوله وتعمل صالحاً﴾ قليلاً أو كثيراً، ﴿نؤتها أجرها مرتين﴾ أي: مثل ما نعطي غيرها مرتين، ﴿وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ وهي الجنة، فقنتن الله ورسوله، وعملن صالحاً، فعلم بذلك أجرهن .

﴿٣٢ - ٣٤﴾ يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض وقلن قولاً معروفاً * وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطمن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويظهركم تطهيراً * وأذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴿ يقول تعالى: ﴿يا نساء النبي﴾ خطاب لهن كلهن ﴿لستن كأحد من النساء﴾ إن اتقيتن ﴿الله﴾، فإنكن بذلك تفقن النساء، ولا يلحقكن أحد من النساء، فكملمن التقوى بجميع وسائلها ومقاصدها .

فلهذا أرشدنهن إلى قطع وسائل المحرم، فقال: ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ أي: في مخاطبة الرجال، أو بحيث يسمعون فتلن في ذلك، وتتكلمن بكلام رقيق يدعو ويطمع ﴿الذي في قلبه مرض﴾ أي: مرض شهوة الزنا، فإنه مستعد، ينظر أدنى محرّك يحركه، لأن قلبه غير صحيح، [فإن القلب

منها: الاعتناء برسوله وغيرته عليه، أن يكون بحالة يشق عليه كثرة مطالب زوجاته الدنيوية .

ومنها: سلامته ﷺ بهذا التخيير من تبعة حقوق الزوجات، وأنه يبقى في حرية نفسه، إن شاء أعطى، وإن شاء منع ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له﴾ .

ومنها: تنزيهه عن لو كان فيهن من تؤثر الدنيا على الله ورسوله والدار الآخرة عنها، وعن مقارنتها .

ومنها: سلامة زوجاته رضي الله عنهن عن الإثم والتعرض لسخط الله ورسوله .

فحسم الله بهذا التخيير عنهن التسخط على الرسول، الموجب لسخطه، المسخط لربه، الموجب لعقابه .

ومنها: إظهار رفعتهم وعلو درجتهم، وبيان علو همهم، أن كان الله ورسوله والدار الآخرة مرادهن ومقصودهن، دون الدنيا وحطامها .

ومنها: استعدادهن بهذا الاختيار، للأمر الخيار، للوصول إلى خيار درجات الجنة، وأن يكن زوجاته في الدنيا والآخرة .

ومنها: ظهور المناسبة بينه وبينهن، فإنه أكمل الخلق، وأراد الله أن تكون نساؤه^(١) كاملات مكملات، طيبات مطيبات ﴿الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾ .

ومنها: أن هذا التخيير داع، وموجب للقناعة التي يطمئن لها القلب، وينشرح لها الصدر، ويزول عنهن جشع الحرص، وعدم الرضا الموجب لقلق القلب واضطرابه، وهمه وغمه .

ومنها: أن يكون اختيارهن هذا، سبباً لزيادة أجرهن ومضاعفته، وأن يكن بمرتبة ليس فيها أحد من النساء، ولهذا قال: ﴿٣٠ - ٣١﴾ ﴿يا نساء النبي من

وتغضبن لفقدها، فليس لي فيكن أرب حاجة، وأتئن بهذه الحال .

﴿فتعالين متعنن﴾ شيئاً مما عندي من الدنيا ﴿وأسرحكن﴾ أي: أفارقكن ﴿سراحاً جميلاً﴾ من دون مغاضبة ولا مشاقمة، بل بسعة صدر، وانشرح بال، قبل أن تبلغ الحال إلى ما لا ينبغي .

﴿وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة﴾ أي: هذه الأشياء مرادكن، وغاية مقصودكن، وإذا حصل لكنن الله ورسوله والجنة، لم تبالين بسعة الدنيا وضيقها، ويسرها وعسرها، وقنعتن من رسول الله بما تيسر، ولم تطلبن منه ما يشق عليه، ﴿فإن الله أعد للمحسنات منكم أجراً عظيماً﴾ رتب الأجر على وصفهن بالإحسان، لأنه السبب الموجب لذلك، لا لكونهن زوجات للرسول، فإن مجرد ذلك لا يكفي، بل لا يفيد شيئاً مع عدم الإحسان، فخيّرهن رسول الله ﷺ في ذلك، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة كلهن، ولم يتخلف منهن واحدة، رضي الله عنهن .

وفي هذا التخيير فوائد عديدة:

الصحيح^(١)، ليس فيه شهوة لما حرم الله، فإن ذلك لا تكاد تميله ولا تحركه الأسباب، لصحة قلبه وسلامته من المرض.

بخلاف مريض القلب، الذي لا يتحمل ما يتحمل الصحيح، ولا يصبر على ما يصبر عليه، فأدنى سبب يوجد، يدفعه إلى الحرام، يجيب دعوته، ولا يتعاصى عليه، فهذا دليل على أن الوسائل لها أحكام المقاصد. فإن الخضوع بالقول واللين فيه، في الأصل مباح، ولكن لما كان وسيلة إلى المحرم، منع منه، ولهذا ينبغي للمرأة في مخاطبة الرجال، أن لا تلين لهم القول.

ولما نهاهن عن الخضوع في القول، فربما توهم أنهن مأمورات بإغلاظ القول، دفع هذا بقوله: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ أي: غير غليظ ولا جاف، كما أنه ليس بِلَيِّنٍ خاضع.

وتأمل كيف قال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ ولم يقل: ﴿فَلَا تَلِينَ بِالْقَوْلِ﴾ وذلك لأن المنهي عنه القول اللين، الذي فيه خضوع المرأة للرجل، وانكسارها عنده، والخاضع هو الذي يطمع فيه، بخلاف من تكلم كلاماً ليناً ليس فيه خضوع، بل ربما صار فيه ترفع وقهر للخصم، فإن هذا لا يطمع فيه خصمه، ولهذا مدح الله رسوله باللين، فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لَنْتَ لَهُمْ﴾ وقال لموسى وهارون: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۖ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لِّعَلَّهُ يَنصَرُّ﴾.

ودلّ قوله: ﴿فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ مع أمره بحفظ الفرج وثنائه على الحافظين لفروجهم والحافظات، ونبيه عن قربان الزنا، أنه ينبغي للعبد

إذا رأى من نفسه هذه الحالة، وأنه يش^(٢) لفعل المحرم عندما يرى أو يسمع كلام مَنْ يهواه، ويجد دواعي طمعه قد انصرفت إلى الحرام، فلْيُغْرِفْ أن ذلك مرض.

فَلْيَجْتَهِدْ فِي إضعاف هذا المرض وحسم الخواطر الرديّة، ومجاهدة نفسه على سلامتها من هذا المرض الخطر، وسؤال الله العصمة والتوفيق، وأن ذلك من حفظ الفرج المأمور به.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: اقررن فيها، لأنه أسلم وأحفظ لكنّ، ﴿وَلَا تَبْرَجْنَ﴾ تبرجن تبرج الجاهلية الأولى أي: لا تكشرن الخروج متجملات أو متطيبات، كعادة أهل الجاهلية الأولى، الذين لا علم عندهم ولا دين، فكل هذا دفع للشّر وأسابيه.

ولما أمرهن بالتقوى عموماً، وبجزئيات من التقوى، نص عليها [الحاجة]^(٣) النساء إليها، كذلك أمرهن بالطاعة، خصوصاً الصلاة والزكاة، اللتان يحتاجهما ويضطر إليهما كلي أحد، وهما أكبر العبادات، وأجل الطاعات، وفي الصلاة الإخلاص للمعبود، وفي الزكاة الإحسان إلى العبيد.

ثم أمرهن بالطاعة عموماً، فقال: ﴿وَأَطِيعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يدخل في طاعة الله ورسوله، كل أمر أمراً به أمر إيجاب أو استحباب.

﴿إِنَّمَا يَرِيدُ اللَّهُ﴾ بأمركن بما أَمَرَكُمْ بِهِ، ونهيكن بما^(٤) نَهَاكُمْ عَنْهُ، ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ﴾ أي: الأذى والشر والخبث، يا ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ ويظهركم تطهيراً حتى تكونوا طاهرين مطهرين.

أي: فاحذروا ربكم واشكروا على هذه الأوامر والنواهي، التي أخبركم بمصلحتها وأنها محض مصلحتكم، لم يرد الله أن يجعل عليكم بذلك حرجاً ولا مشقة، بل لتتذكروا نفوسكم، ولتظهر أخلاقكم، وتحسن أعمالكم، ويعظم بذلك أجركم.

ولما أمرهن بالعمل الذي هو فعل وترك، أمرهن بالعلم، وبين لهن طريقه، فقال: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ والمراد بآيات الله، القرآن. والحكمة، أسرار. أو سِتْرَ رسوله. وأمرهن بذكره، يشمل ذكر لفظه، بتلاوته، وذكر معناه، بتدبره والتفكير فيه، واستخراج أحكامه وحكمه، وذكر العمل به وتأويله. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يدرك أسرار^(٥) الأمور، وخفايا الصدور، وخبايا السماوات والأرض، والأعمال التي تبين وتسر.

فلطفه وخبرته، يقتضي حثهن على الإخلاص وإسرار الأعمال، ومجازاة الله على تلك الأعمال.

ومن معاني «اللطيف» الذي يسوق عبده إلى الخير، ويعصمه من الشر، بطرق خفية لا يشعر بها، ويسوق إليه من الرزق ما لا يدريه، ويريه من الأسباب التي تكرهها النفوس ما يكون ذلك طريقاً [لله]^(٦) إلى أعلى الدرجات وأرفع المنازل.

﴿٣٥﴾ ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا

(١) زيادة من: ب، لا يستقيم الكلام بدونها.

(٢) كذا في: ب، وفي أ: يشتهي، والأقرب ما أثبت.

(٣) زيادة من: ب.

(٤) في ب: عمّا.

(٥) في ب: سرائر.

(٦) زيادة من: ب.

فعلنا ذلك لفائدة عظيمة، وهي:
﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾ حيث رأوك تزوجت زوج زيد بن حارثة، الذي كان من قبل يتنسب إليك.

ولما كان قوله: **﴿لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم﴾** عاماً في جميع الأحوال وكان من الأحوال، ما لا يجوز ذلك، وهي قبل انقضاء وطره منها، قيد ذلك بقوله: **﴿إذا قضاوا منهاهن وأمر الله مفعولاً﴾** أي: لا بد من فعله، ولا عائق له ولا مانع.

وفي هذه الآيات المشتملات على هذه القصة فوائد، منها: الثناء على زيد بن حارثة، وذلك من وجهين: أحدهما: أن الله سماه في القرآن، ولم يسم من الصحابة باسمه غيره. والثاني: أن الله أخبر أنه أنعم عليه، أي: بنعمة الإسلام والإيمان. وهذه شهادة من الله له أنه مسلم مؤمن، ظاهراً وباطناً، وإلا فلا وجه لتخصيصه بالنعمة، لولا أن المراد بها النعمة الخاصة.

ومنها: أن المتق في نعمة المتق. ومنها: جواز تزوج زوجة الدعي، كما صرح به. ومنها: أن التعليم الفعلي أبلغ من القول، خصوصاً إذا اقترن بالقول، فإن ذلك نور على نور.

ومنها: أن المحبة التي في قلب العبد، لغير زوجته وملوكته وعارمه، إذا لم يقتصر بها محذور، لا يأتهم عليها العبد، ولو اقترن بذلك أمنيته، أن لو طلقها زوجها لتزوجها من غير أن يسمى في فزقة بينهما، أو يتسبب بأي سبب كان، لأن الله أخبر أن الرسول ﷺ أخفى ذلك في نفسه.

ومنها: أن الرسول ﷺ قد بلغ البلاغ المبين، فلم يدع شيئاً مما أوحى إليه إلا وبلغه، حتى هذا الأمر، الذي فيه عتابه.

وهذا يدل على أنه رسول الله، ولا يقول إلا ما أوحى إليه، ولا يريد تعظيم نفسه.

ومنها: أن المستشار مؤتمن، يجب عليه - إذا استشير في أمر من الأمور - أن يشير بما يعلمه أصلح للمستشير^(١)، ولو كان له حظ نفس، فتقدم مصلحة المستشار على هوى نفسه وغرضه.

ومنها: أن من الرأي: الحسن لمن استشار في فراق زوجته أن يؤمر بإسكانها مهما أمكن صلاح الحال، فهو أحسن من الفرقة.

ومنها: [أنه يتعين]^(٢) أن يقدم العبد خشية الله على خشية الناس، وأنها أحق منها وأولى.

ومنها: فضيلة زينب رضي الله عنها أم المؤمنين، حيث تولى الله تزويجها من رسوله ﷺ، من دون خطبة ولا شهود، ولهذا كانت تفتخر بذلك على أزواج رسول الله ﷺ، وتقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات.

ومنها: أن المرأة إذا كانت ذات زوج، لا يجوز نكاحها، ولا السعي فيه وفي أسبابه، حتى يقضي زوجها وطره منها، ولا يقضي وطره، حتى تنقضي عدتها، لأنها قبل انقضاء عدتها، وهي في عصمتها، أو في حقه الذي له وطرها، ولو من بعض الوجوه.

﴿٣٨-٣٩﴾ ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيباً هذا دفع لطمع من طعن في الرسول ﷺ، في كثرة أزواجه، وأنه طعن بما لا مطعن فيه، فقال: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي: إثم وذنب. ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ أي: قدر له من الزوجات، فإن هذا قد أباحه الله للأنبياء قبله، ولهذا قال:

وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُ الْخِيعَةُ مِنْ أَمْرِهِ وَمَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ أَنَّهُ عَلَيْهِ وَأَمْسَتْ عَلَيْهِ أَمْسَكَ عَلَيْكَ رَبِّكَ وَأَتَى اللَّهَ وَتَخَفَى فِي شَيْءٍ مَا اللَّهُ مُبْدِي وَتَخَفَى الْكَافِرَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنْ تَعْتَنِي فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مَنَاسِكَ رَزَّحَتْ لَكَ لِكَيْ لَا يَكُنْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ اللَّهَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَانَ اللَّهُ حَسِيبًا فَإِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا وَأَمْسَتْ عَلَيْهِ أَمْسَكَ عَلَيْكَ رَبِّكَ وَأَتَى اللَّهَ وَتَخَفَى فِي شَيْءٍ مَا اللَّهُ مُبْدِي وَتَخَفَى الْكَافِرَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنْ تَعْتَنِي فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مَنَاسِكَ رَزَّحَتْ لَكَ لِكَيْ لَا يَكُنْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ اللَّهَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَانَ اللَّهُ حَسِيبًا فَإِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا وَأَمْسَتْ عَلَيْهِ أَمْسَكَ عَلَيْكَ رَبِّكَ وَأَتَى اللَّهَ وَتَخَفَى فِي شَيْءٍ مَا اللَّهُ مُبْدِي وَتَخَفَى الْكَافِرَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنْ تَعْتَنِي فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مَنَاسِكَ رَزَّحَتْ لَكَ لِكَيْ لَا يَكُنْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَ اللَّهَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَانَ اللَّهُ حَسِيبًا

﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ أي: لا بد من وقوعه. ثم ذكر من هم الذين من قبل قد خلوا، وهذه سنتهم وعادتهم، وأنهم ﴿الذين يبلغون رسالات الله﴾ فيتلون على العباد آيات الله وحججه وبراهينه، ويدعونهم إلى الله ﴿ويخشونه﴾ وحده لا شريك له ﴿ولا يخشون أحداً﴾ إلا الله.

فإذا كان هذا سنة في الأنبياء المعصومين، الذين وظيفتهم قد أدوها وقاموا بها أتم القيام، وهو دعوة الخلق إلى الله، والخشية منه وحده، التي تقتضي فعل كل مأمور، وترك كل محذور، دل ذلك على أنه لا نقص فيه بوجه.

﴿وكفى بالله حسيباً﴾ محاسباً عباده، مراقباً أعمالهم. وعلم من هذا، أن النكاح من سنن المرسلين.

﴿٤٠﴾ ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ أي: لم يكن الرسول ﴿محمد﴾ أباً أحدهم من رجالكم، أباً الأمة فقطع انتساب زيد بن حارثة منه، من هذا الباب.

ولما كان هذا النفي عاماً في جميع الأحوال، إن حمل ظاهر اللفظ على

(١) كذا في ب، وفي أ: للمستشار، ولعل الصواب ما أثبت - والله أعلم -.

(٢) زيادة من: ب.

وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً *
ويشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً
كبيراً * ولا تطع الكافرين والمنافقين
ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله
وكيلاً * هذه الأشياء التي وصف الله
بها رسوله محمداً ﷺ، هي المقصود من
رسالته وزيدتها وأصولها التي اختص
بها، وهي خمسة أشياء: أحدها: كونه
﴿شاهداً﴾ أي: شاهداً على أمته بما
عملوه من خير وشر، كما قال تعالى:
﴿لتكونوا شهداء على الناس ويكون
الرسول عليكم شهيداً﴾ فكيف إذا
جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على
هؤلاء شهيداً ﴿فهو ﷺ شاهد عدل
مقبول.

الثاني، والثالث: كونه ﴿مبشراً
ونذيراً﴾ وهذا يستلزم ذكر المبشر
والنذر، وما يشر به وينذر، والأعمال
الموجبة لذلك.

فالمبشرون هم: المؤمنون المتقون،
الذين جمعوا بين الإيمان والعمل
الصالح، وترك المعاصي، لهم البشرى
في الحياة الدنيا، بكل ثواب دنيوي
وديني، رتب على الإيمان والتقوى،
وفي الآخرة بالنعيم المقيم.

وذلك كله يستلزم ذكر تفصيل
المذكور، من تفاصيل الأعمال،
وخصال التقوى، وأنواع الثواب.

والمُنذر، هم: المجرمون الظالمون،
أهل الظلم والجهل، لهم النذارة في
الدنيا، من العقوبات الدنيوية والدينية
المرتبة على الجهل والظلم، وفي
الآخرة، بالعقاب الويل، والعذاب
الطويل.

وهذه الجملة تفصيلها، ما جاء
به ﷺ من الكتاب والسنة، المشتمل
على ذلك.

الرابع: كونه ﴿داعياً إلى الله﴾ أي:
أرسله الله يدعو الخلق إلى ربه،
ويسوقهم^(٢) لكرامته، ويأمرهم بعبادته
التي خلقوا لها، وذلك يستلزم
استقامته على ما يدعو إليه، وذكر
تفاصيل ما يدعو إليه، بتعريفهم لربه

وينبغي مداومة ذلك في جميع
الأوقات، على جميع الأحوال، فإن
ذلك عبادة يسبق بها العامل وهو
مستريح، وداع إلى حجة الله ومعرفته،
وعون على الخير، وكف اللسان عن
الكلام القبيح.

﴿وسبحوه بكرة وأصيلاً﴾ أي:
أول النهار وآخره، لفضلها وشرفها،
وسهولة العمل فيها.

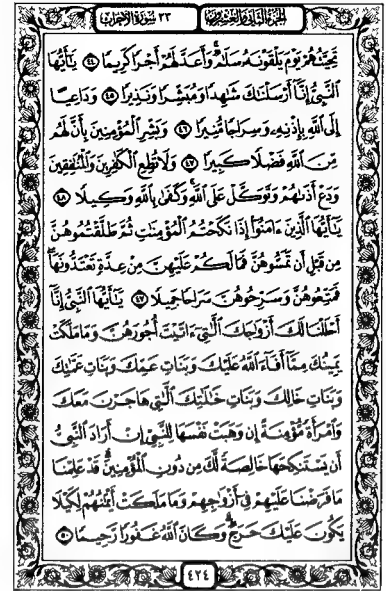
﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته
ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان
بالمؤمنين رحيماً﴾ أي: من رحمته
بالمؤمنين ولطفه بهم، أن جعل من
صلاته عليهم وثنائه، وصلاة ملائكته
ودعائهم، ما يخرجهم من ظلمات

الذنوب والجهل، إلى نور الإيمان
والتوفيق والعلم والعمل، فهذه أعظم
نعمة أنعم بها على العباد الطائعين،
تستدعي منهم شكرها، والإكثار من
ذكر الله، الذي لطف بهم ورحمهم،
وجعل حلة عرشه أفضل الملائكة،
ومن حوله يسبحون بحمد ربه
ويستغفرون للذين آمنوا فيقولون:
﴿ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً
فاغفر للذين تابوا واتبعا سبيلك وقهم
عذاب الجحيم﴾ ربنا وأدخلهم جنات
عدن التي وعدتهم ومن صلح من
آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت
العزيز الحكيم * وقهم السيئات ومن
تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو
الفوز العظيم.

فهذه رحمته ونعمته عليهم في
الدنيا.

وأما رحمته بهم في الآخرة، فأجل
رحمة، وأفضل ثواب، وهو الفوز برضا
ربه وتحيته، واستماع كلامه الجليل،
ورؤية وجهه الجميل، وحصول الأجر
الكبير، الذي لا يدري ولا يعرف
كنهه، إلا مَنْ أعطاهم إياه، ولهذا
قال: ﴿تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد
لهم أجراً كريماً﴾.

﴿٤٥-٤٨﴾ ﴿يا أيها النبي إنا
أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً *



ظاهرة، أي: لا أبوة نسب، ولا أبوة
ادعاء، وقد كان تقرر فيما تقدم أن
الرسول ﷺ أب للمؤمنين كلهم،
وأزواجه أمهاتهم، فاحتراز أن يدخل
في هذا النوع بعموم النهي المذكور،
فقال: ﴿ولكن رسول الله وخاتم
النبيين﴾ أي: هذه مرتبته مرتبة المطاع
المتبوع، المهتدى به، المؤمن له، الذي
يجب تقديم محبته على محبة كل أحد،
الناصح الذي لهم، أي: للمؤمنين،
من يره [ونصحه]^(١)، كأنه أب لهم.

﴿وكان الله بكل شيء عليماً﴾ أي:
قد أحاط علمه بجميع الأشياء، ويعلم
حيث يجعل رسالاته، ومن يصلح
لفضله ومن لا يصلح.

﴿٤١-٤٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا
اذكروا الله ذكراً كثيراً * وسبحوه بكرة
وأصيلاً * هو الذي يصلي عليكم
وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى
النور وكان بالمؤمنين رحيماً * تحيتهم
يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجراً
كريماً﴾ يأمر تعالى المؤمنين بذكره ذكراً
كثيراً، من تهليل وتحميد وتسبيح
وتكبير وغير ذلك، من كل قول فيه
قربة إلى الله، وأقل ذلك، أن يلازم
الإنسان أوراد الصباح والمساء، وأدبار
الصلوات الخمس، وعند العوارض
والأسباب.

الطلاق بعد النكاح، فدل على أنه قبل ذلك لا محل له.

وإذا كان الطلاق الذي هو فرقة تامة وتحريم تام، لا يقع قبل النكاح، فالتحريم الناقص، لظهار أو إيلاء ونحوه، من باب أولى وأحرى، أن لا يقع قبل النكاح، كما هو أصح قولي العلماء.

ويدل على جواز الطلاق، لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وعلى وجه لم يلهمهم عليه ولم يؤنبهم، مع تصدير الآية بخطاب المؤمنين.

وعلى جوازه قبل المسيس، كما قال في الآية الأخرى: ﴿لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن﴾ وعلى أن المطلقة قبل الدخول لا عدة عليها، بل بمجرد طلاقها يجوز لها التزوج، حيث لا مانع، وعلى أن عليها العدة بعد الدخول.

وهل المراد بالدخول والتيسيس الوطء، كما هو مَجْمَع عليه؟ أو وكذلك الخلوة، ولو لم يحصل معها وطء، كما أفتى بذلك الخلفاء الراشدون، وهو الصحيح. فمن دخل عليها، وطئها أم لا، إذا خلا بها، وجب عليها العدة.

وعلى أن المطلقة قبل المسيس تمتع على الموسع قدره، وعلى المقتر قدره، ولكن هذا إذا لم يفرض لها مهر، فإن كان لها مهر مفروض، فإنه إذا طلق قبل الدخول تَنَصَّف المهر، وكفى عن المتعة، وعلى أنه ينبغي لمن فارق زوجته قبل الدخول أو بعده، أن يكون الفراق جليلاً، يحمد فيه كل منهما الآخر.

ولا يكون غير جميل، فإن في ذلك من الشر المرتب عليه، من قدح كل منهما بالآخر شيء كثير.

وعلى أن العدة حق للزوج، لقوله: ﴿فما لكم عليهن من عدة﴾ دل مفهومه، أنه لو طلقها بعد المسيس، كان له عليها عدة [وعلى أن المفارقة

يستعينون على سلوك الصراط المستقيم، وهذا من جملة حكم الشرع، كما أن من حكمه، أن يذكر في مقام الترهيب، العقوبات المرتبة على ما يرهّب منه، ليكون عوناً على الكف عما حَرَّمَ الله.

ولما كان تَمُّ طائفة من الناس، مستعدة للقيام بصد الداعين إلى الله من الرسل وأتباعهم، وهم المنافقون، الذين أظهروا الموافقة في الإيمان، وهم كفرة فجرة في الباطن، والكفار ظاهراً وباطناً، نهى الله رسوله عن طاعتهم، وحذره ذلك، فقال: ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ أي: في كل أمر يصد عن سبيل الله، ولكن لا يقتضي هذا أذاهم، بل لا تطعمهم ﴿ودع أذاهم﴾^(٢٦) فإن ذلك جالب لهم، وداع إلى قبول الإسلام، وإلى كف كثير من أذيتهم له ولأهله، ﴿وتوكل على الله﴾ في إتمام أمرك، وخذلان عدوك، ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ تُوَكَّل إليه الأمور المهمة، فيقوم بها ويسهلها على عبده.

﴿٤٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جيلاً﴾ يخبر تعالى المؤمنين، أنهم إذا نكحوا المؤمنات، ثم طلقوهن من قبل أن يمسوهن، فليس عليهن في ذلك عدة يعتدها^(٢٧) أزواجهن عليهن، وأمرهم بتمتعيهن^(٢٨) بهذه الحالة، بشيء من متاع الدنيا، الذي يكون فيه جبر لخواطرن، لأجل فراقهن، وأن يفارقوهن فراقاً جيلاً، من غير خاصمة ولا مشاتمة ولا مطالبة، ولا غير ذلك.

ويستدل بهذه الآية، على أن الطلاق لا يكون إلا بعد النكاح. فلو طلقها قبل أن ينكحها، أو علق طلاقها على نكاحها، لم يقع، لقوله: ﴿إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن﴾ فجعل

بصفاته القدسة، وتنزيهه عما لا يليق بجلاله، وذكر أنواع العبودية، والدعوة إلى الله بأقرب طريق موصل إليه، وإعطاء كل ذي حق حقه، وإخلاص الدعوة إلى الله، لا إلى نفسه وتعظيمها، كما قد يعرض ذلك لكثير من النفوس في هذا المقام، وذلك كله بإذن الله تعالى له في الدعوة وأمره وإرادته وقدره.

الخامس: كونه ﴿سراجاً منيراً﴾ وذلك يقتضي أن الخلق في ظلمة عظيمة، لا نور يبتدى به في ظلماتها، ولا علم يستدل به في جهالاتها^(٢٩)، حتى جاء الله بهذا النبي الكريم، فأضاء الله به تلك الظلمات، وعلم به من الجهالات، وهدى به ضلالاً إلى الصراط المستقيم.

فأصبح أهل الاستقامة قد وضع لهم الطريق، فمشوا خلف هذا الإمام وعرفوا به الخير والشر، وأهل السعادة من أهل الشقاوة، واستناروا به لمعرفة معبودهم، وعرفوه بأوصافه الحميدة، وأفعاله السديدة، وأحكامه الرشيدة.

وقوله: ﴿ويُشِرُّ المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ ذكر في هذه الجملة المبشر، وهم المؤمنون، وعند ذكر الإيمان بمفرده، تدخل فيه الأعمال الصالحة.

وذكر المبشر به، وهو الفضل الكبير، أي: العظيم الجليل، الذي لا يقادر قدره، من النصر في الدنيا، وهداية القلوب، وغفران الذنوب، وكشف الكرب، وكثرة الأرزاق الدائرة، وحصول النعم السارة، والفوز برضا ربهم وثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه.

وهذا مما ينشط العاملين، أن يذكر لهم من ثواب الله على أعمالهم، ما به

(١) كذا في ب، وفي أ: جهاتها.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) كذا في النسختين ولعل الصواب تعتدها.

(٤) كذا في ب، وفي أ: بتمتعن.

يزل متصفاً بالمغفرة والرحمة، وينزل على عباده من مغفرته ورحمته وجوده وإحسانه، ما اقتضته حكمته، ووجدت منهم أسبابه.

﴿٥١﴾ ﴿ترجي من تشاء منهم وتؤوي إليك من تشاء ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ذلك أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتن كلهن والله يعلم ما في قلوبكم وكان الله عليماً حليماً﴾ وهذا أيضاً من توسعة الله على رسوله ورحمته به، أن أباح له ترك القسم بين زوجاته على وجه الوجوب، وأنه إن فعل ذلك فهو تبرع منه، ومع ذلك، فقد كان ﷺ يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، ويقول: «اللهم هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك».

فقال هنا: ﴿ترجي من تشاء منهم﴾ [أي: تؤخر من أردت من زوجاتك فلا تؤويها إليك، ولا تبنت عندها] (٥)، ﴿وتؤوي إليك من تشاء﴾ أي: تضمها وتبنت عندها.

﴿و﴾ مع ذلك لا يتعين هذا الأمر ﴿من ابتغيت﴾ أي: تؤويها ﴿فلا جناح عليك﴾ والمعنى أن الخيرة بيدك في ذلك كله [وقال كثير من المفسرين إن هذا خاصٌ بالواهبات له أن يرجي من يشاء ويؤوي من يشاء، أي: إن شاء قبل من وهبت نفسها له وإن شاء لم يقبلها والله أعلم] (٦).

ثم بين الحكمة في ذلك فقال: ﴿ذلك﴾ أي: التوسعة عليك، وكون الأمر راجعاً إليك وبذلك، وكون ما جاء منك إليهن تبرعاً منك ﴿أدنى أن تقر أعينهن ولا يحزن ويرضين بما آتيتن كلهن﴾ لعلهن أنك لم تترك واجبا، ولم تفرط في حق لازم.

النساء، فإنه لا يباح من الأقارب من النساء، غير هؤلاء الأربع، وما عداهن من الفروع مطلقاً، والأصول مطلقاً، وفروع الأب والأم، وإن نزلوا، وفروع من فوقهم لصلبه، فإنه لا يباح.

وقوله: ﴿اللاتي هاجرن معك﴾ قيد لخل هؤلاء للرسول، كما هو الصواب من القولين في تفسير هذه الآية، وأما غيره عليه الصلاة والسلام، فقد علم أن هذا قيد لغير الصحة.

﴿و﴾ أحللتنا لك امرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي بمجرد هبتها نفسها.

﴿إن أراد النبي أن يستنكحها﴾ أي: هذا تحت الإرادة والرغبة، ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ يعني: بإباحة المؤهبة (٧). وأما المؤمنون، فلا يحل لهم أن يتزوجوا امرأة بمجرد هبتها نفسها لهم.

﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم﴾ أي: قد علمنا ما على المؤمنين، وما يحل لهم، وما لا يحل من الزوجات وملك اليمين. وقد علمناهم بذلك، وبيننا فرائضه.

فما في هذه الآية، مما يخالف ذلك، فإنه خاص لك، لكون الله جعله خطاباً للرسول وحده بقوله: ﴿يا أيها النبي إنا أحللتنا لك﴾ إلى آخر الآية.

وقوله: ﴿خالصة لك من دون المؤمنين﴾ وأباحت لك يا أيها النبي ما لم نبح لهم، ووسعنا لك ما لم نوسع على غيرك، ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ وهذا من زيادة اعتناء الله تعالى برسوله ﷺ.

﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي: لم

بالوفاة تعتد مطلقاً لقوله: ﴿ثم طلقتموهن﴾ الآية (٨).

وعلى أن من عدا غير المدخول بها، من المفارقات من الزوجات، بموت أو حياة، عليهن العدة.

﴿٥٠﴾ ﴿يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتي هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي إن أراد النبي أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفوراً رحيماً﴾ يقول تعالى، تمتنا على رسوله بإحلاله له ما أحل مما يشترك هو والمؤمنون، وما يتفرد به ويختص: ﴿يا أيها النبي إنا أحللتنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ أي: أعطيتهن مهورهن، من الزوجات، وهذا من الأمور المشتركة بينه وبين المؤمنين [فإن المؤمنين] (٩)، كذلك يباح لهم ما (١٠) آتوهن أجورهن من الأزواج.

﴿و﴾ كذلك أحللتنا لك ﴿وما ملكت يمينك﴾ أي: الإماء التي ملكت ﴿مما أفاء الله عليك﴾ من غنيمة الكفار من عبيدهم، والأحرار من لهن زوج منهم، ومن لا زوج لهن، وهذا أيضاً مشترك.

وكذلك من المشترك، قوله: ﴿وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك﴾ شمل العم والعمة، والخال والخالة، القرييين والبعيدين، وهذا حصر المحلات.

يؤخذ من مفهومه أن ما عداهن من الأقارب غير محلل، كما تقدم في سورة

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) كذا في أ، وفي ب: من.

(٤) في ب: المؤهبة.

(٥) زيادة من ب.

(٦) زيادة من هامش (ب) وفي بعض الكلمات عدم وضوح وتم تصويبها من طبعة السلفية.



احتجابهن عن عمهن وخالهن من باب أولى، ولأن منطوق الآية الأخرى، المصروفة بذكر العم والحال مقدمة، على ما يفهم من هذه الآية.

وقوله: ﴿ولا نساكنهن﴾ أي: لا جناح عليهن ألا يحتجن من جنسهن، أي: اللاتي من جنسهن في الدين، فيكون ذلك خرجاً لنساء الكفار، ويحتمل أن المراد جنس النساء، فإن المرأة لا تحتجب عن المرأة. ﴿ولا ما ملكت أيمانهم﴾ ما دام العبد في ملكها جميعه.

ولما رفع الجناح عن هؤلاء، شرط فيه وفي غيره لزوم تقوى الله، وأن لا يكون في محذور شرعي، فقال: ﴿واتقين الله﴾ أي: استعملن تقواه في جميع الأحوال ﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ يشهد أعمال العباد، ظاهرها وباطنها، ويسمع أقوالهم، ويرى حركاتهم، ثم يجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿٥٦﴾ ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ وهذا فيه تنبيه على كمال رسول الله ﷺ، ورفعة درجته، وعلو منزلته عند الله وعند خلقه، ورفع ذكره. و ﴿إن الله﴾ تعالى ﴿وملائكته يصلون﴾ عليه، أي: يشني الله عليه بين الملائكة، وفي الملائكة، لمحبتة تعالى له، وتثني عليه الملائكة القريبون، ويدعون له ويتضرعون.

﴿يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ اقتداء بالله وملائكته، وجزاء له على بعض حقوقه عليكم، وتكميلاً لإيمانكم، وتعظيماً له ﷺ، ومحبة وإكراماً، وزيادة في حسناتكم، وتكفيراً من سيئاتكم وأفضل هيئات الصلاة عليه الصلاة والسلام، ما علم به أصحابه: «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد

مجيد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد» وهذا الأمر بالصلاة والسلام عليه مشروع في جميع الأوقات، وأوجبه كثير من العلماء في الصلاة.

﴿٥٧ - ٥٨﴾ ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً﴾ والذي يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً، لما أمر تعالى بتعظيم رسوله ﷺ، والصلاة والسلام عليه، نهى عن أذيته، وتوعد عليها فقال: ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾ وهذا يشمل كل أذية، قولية أو فعلية، من سب وشتم، أو تنقص له أو لدينه، أو ما يعود إليه بالأذى. ﴿لعنهم الله في الدنيا﴾ أي: أبعدهم وطردهم، ومن لعنهم [في الدنيا] ^(٥)، أنه يحتمل قتل من شتم الرسول ﷺ وآذاه.

﴿والآخرة وأعد لهم عذاباً اليماً﴾ جزاء له على أذاه، أن يؤذى بالعذاب الأليم، فاذية الرسول ليست كاذية غيره، لأنه - ﷺ - لا يؤمن العبد بالله، حتى يؤمن برسوله ﷺ. وله من التعظيم الذي هو من لوازم الإيمان، ما يقتضي ذلك أن لا يكون مثل غيره.

وإن كانت أذية المؤمنين عظيمة، وإثمها عظيماً، ولهذا قال فيها: ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا﴾ أي: بغير جنابة منهم موجبة للأذى ﴿فقد احتملوا﴾ على ظهورهم ﴿بهتاناً﴾ حيث آذوهم بغير سبب ﴿وإثماً مبيناً﴾ حيث تعدوا عليهم، وانتهكوا حرمة أمر الله باحترامها.

ولهذا كان سب أحاد المؤمنين موجباً للتعزير، بحسب حالته وعلو مرتبته، فتعزير من سب الصحابة أبلغ، وتعزير من سب العلماء وأهل الدين أعظم من غيرهم.

﴿٥٩ - ٦٢﴾ ﴿يا أيها النبي قل

[بعده] ^(١) محل هذا المقام.

وأيضاً، فإنهن زوجاته في الدنيا والآخرة، والزوجة باقية بعد موته، فلذلك لا يحل نكاح زوجاته بعده لأحد من أمته. ﴿إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾ وقد امتثلت هذه الأمة هذا الأمر، واجتنبت ما نهى الله عنه منه، والله الحمد والشكر.

ثم قال تعالى: ﴿إن تبدوا شيئاً﴾ أي: تظهروه ﴿أو تخفوه فإن الله كان بكل شيء عليماً﴾ يعلم ما في قلوبكم وما أظهرتموه، فيجازيكم عليه.

﴿٥٥﴾ ﴿لا جناح عليهن في آبائهن ولا إبنائهن ولا إخوانهن ولا أبناء إخوانهن ولا نساكنهن ولا ما ملكت أيمانهم واتقين الله إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ لما ذكر أنهم لا يسألن متاعاً إلا من وراء حجاب، وكان اللفظ عاماً [لكل أحد] ^(٢)، احتج أن يستثنى منه هؤلاء المذكورون من المحارم، وأنه ﴿لا جناح عليهن﴾ في عدم الاحتجاب عنهم.

ولم يذكر فيها الأعمام والأخوال، لأنهم إذا لم يحتجب عن عمن هن عمامته ولا ^(٣) خالاته، من أبناء الإخوة والأخوات، مع رفعتهم عليهم، فعدم

(١) زيادة من: ب.

(٢) زيادة من: ب.

(٣) في ب: بدون (لا) وهو الأقرب.

(٤) زيادة من: ب.

(٥) في ب: يتحتم.

مستحقون للعقاب، أرادوا أن يشتفوا عن أفضلوهم، فقالوا: ﴿ربنا أتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً﴾ فيقول الله لكل ضعف، فكلكم اشتركتم في الكفر والمعاصي، فتشتركون في العقاب، وإن تفاوت عذاب بعضكم على بعض بحسب تفاوت الجرم.

ومن القول السديد، لين الكلام ولطفه في غطاطية الأنام، والقول المتضمن للنصح والإشارة بما هو الأصلح.

ثم ذكر ما يترتب على تقواه، وقول القول السديد فقال: ﴿يصلح لكم أعمالكم﴾ أي: يكون ذلك سبباً لصلاحها وطريقاً لقبولها، لأن استعمال التقوى، تتقبل به الأعمال كما قال تعالى: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

ويوفق فيه الإنسان للعمل الصالح، ويصلح الله الأعمال [أيضاً] بحفظها عما يفسدها، وحفظ ثوابها ومضاعفته، كما أن الإخلاص بالتقوى والقول السديد، سبب لفساد الأعمال وعدم قبولها، وعدم ترتب آثارها عليها.

﴿ويغفر لكم﴾ أيضاً ﴿ذنوبكم﴾ التي هي السبب في هلاككم، فالتقوى تستقيم بها الأمور، ويندفع بها كل محذور ولهذا قال: ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾.

﴿٧٢ - ٧٣﴾ ﴿إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً يعظم تعالى شأن الأمانة التي اتّمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية، كحال العلانية، وأنه

﴿٦٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً﴾ يحذر تعالى عباده المؤمنين عن أذية رسولهم محمد ﷺ، النبي الكريم، الرؤوف الرحيم، فيقابلوه بضد ما يجب له من الإكرام والاحترام، وأن لا يتشبهوا بحال الذين آذوا موسى بن عمران، كلمه الرحمن، فبرأه الله مما قالوا من الأذية، أي: أظهر الله لهم براءته.

والحال أنه عليه الصلاة والسلام، ليس على التهمة والأذية، فإنه كان وجيهاً عند الله، مقرباً لديه، من خواص المرسلين، ومن عباده المخلصين، فلم يزرهم ما له من الفضائل عن أذيته والتعرض له بما يكره، فاحذروا أيها المؤمنون، أن تتشبهوا بهم في ذلك، والأذية المشار إليها هي قول بني إسرائيل لموسى^(١) لما رأوا شدة حياته وتستره عنهم: ﴿إنه ما يمنعه من ذلك إلا أنه أدر﴾ أي: كبير الخصيتين، واشتهر ذلك عندهم، فأراد الله أن يبرئه منهم، فاغسل يوماً، ووضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فأمر موسى عليه السلام في طلبه، فمَرَّ به على مجالس بني إسرائيل، فزأوه أحسن خلق الله، فزال عنه ما رموه به.

﴿٧٠ - ٧١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً﴾ يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً يأمر تعالى المؤمنين بتقواه، في جميع أحوالهم، في السر والعلانية، ويخص منها، ويندب للقول السديد، وهو



في أجسامهم، ويبلغ العذاب إلى أفئدتهم، ويخلدون في ذلك العذاب الشديد، فلا يخرجون منه، ولا يُفتر عنهم ساعة.

ولا يجدون لهم ولياً فيعطيهما ما طلبوه ﴿ولا نصيراً﴾ يدفع عنهم العذاب، بل قد تخلى عنهم الولي والنصير، وأحاط بهم عذاب السعير، وبلغ منهم مبلغاً عظيماً، ولهذا قال: ﴿يوم تقلب وجوههم في النار﴾ فيذوقون حرها، ويشتد عليهم أمرها، ويتحسرون على ما أسلفوا.

﴿يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول﴾ فسلمنا من هذا العذاب، واستحققنا كالمطيعين جزيل الثواب. ولكن أمانة فات وقتها، فلم تقدمهم إلا حسرة وندماً، وهماً، وغماً، وألماً.

﴿وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا﴾ وقلدناهم على ضلالهم، ﴿فأضلونا السبيلاً﴾.

كقوله تعالى: ﴿يوم بعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً * لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني الآية.

ولما علموا أنهم هم وكبراءهم

يحمد عليه ويشكر، والعدل الذي يحمد
عليه ويعترف بحكمته فيه.

وحد نفسه هنا، على أن ﴿له ما في السماوات وما في الأرض﴾ ملكاً وعبيداً، يتصرف فيهم بحمده. ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ لأن في الآخرة يظهر من حمده والثناء عليه، ما لا يكون في الدنيا، فإذا قضى الله تعالى بين الخلاق كلهم ورأى الناس والخلق كلهم، ما حكم به، وكمال عدله وقسطه وحكمته فيه، حمده كلهم على ذلك، حتى أهل العقاب ما دخلوا النار، إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، وأن هذا من جراء أعمالهم، وأنه عادل في حكمه بعقابهم.

وأما ظهور حمده في دار النعيم والثواب، فذلك شيء قد تواردت به الأخبار، وتوافق عليه الدليل السمعي والعقلي، فإنهم في الجنة، يرون من توالي نعم الله، وإدراج خيره، وكثرة بركاته، وسعة عطايه، التي لم يبق في قلوب أهل الجنة أمنية ولا إرادة، إلا وقد أعطي، فوق ما تمنى وأراد، بل يعطون من الخير ما لم تتعلق به أمانيتهم، ولم يحيط بقلوبهم .

فما ظنك بحمدهم لربهم في هذه الحال، مع أن في الجنة تضمحل العوارض والقواطع، التي تقطع عن معرفة الله وعيبته والثناء عليه، ويكون ذلك أحب إلى أهلها من كل نعيم، والذ عليهم من كل لذة، ولهذا إذا رأوا الله تعالى، وسمعوا كلامه عند خطابه لهم، أذهلهم ذلك عن كل نعيم، ويكون الذكر لهم في الجنة كالنفس، متواصلًا في جميع الأوقات، هذا إذا أضفت ذلك إلى أنه يظهر لأهل الجنة في الجنة كل وقت، من عظمة ربهم وجلاله وجماله وسعة كماله، ما يوجب لهم كمال الحمد والثناء عليه.

﴿وهو الحكيم﴾ في ملكه وتدبيره، الحكيم في أمره ونهيه. ﴿الخبير﴾ المطلع على سرائر الأمور وخفاياها ولهذا فصل علمه بقوله: ﴿يعلم ما يلج في الأرض﴾ أي: من مطر، وبذر، وحيوان ﴿وما يخرج منها﴾ من

تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة،
السماوات والأرض والجبال، عرض
تخمين لا تحتمل، وأنت إن قُمتَ بها
وأديتها على وجهها فلك الثواب، وإن
لم تقومي بها [ولم تؤديها] فعليك
العقاب.

﴿فَأَيْنَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾
 أي: خوفاً أن لا يقرن بما حملن، ولا عصياناً لرهن، ولا زهداً في ثوابه، وعرضها الله على الإنسان على ذلك الشرط المذكور، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل. فانقسم الناس - بحسب قيامهم بها وعدمه - إلى ثلاثة أقسام:

منافقون أظهروا أنهم قاموا بها ظاهراً
لا باطناً، ومشركون تركوها ظاهراً
وباطناً، ومؤمنون قاثمون بها ظاهراً
وباطناً.

فذكر الله تعالى أعمال هذه الأقسام الثلاثة، وما لهم من الثواب والعقاب، فقال: ﴿يُعَذِّبُ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتُ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. فله الحمد تعالى، حيث ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين، الدالين على تمام مغفرة الله، وسعة رحمته، وعموم جوده، مع أن المحكوم عليهم، كثير منهم لم يستحق المغفرة والرحمة، لنفاقه وشركه.

تم تفسير سورة الأحزاب
بحمد الله وعونه

تفسير سورة سبأ
وهي مكية

﴿١٦-٢﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله الذي له ما في السموات وما
في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو
الحكيم الخبير * يعلم ما يلج في
الأرض وما يخرج منها وما ينزل من
السماء وما يعرج فيها وهو الرحمن
الغفور﴾ الحمد: الثناء بالصفات
الحميدة والأفعال الحسنة، فله تعالى
الحمد، لأن جميع صفاته يحمد عليها،
لكونها صفات كمال، وأفعاله يحمد
عليها، لأنها دائرة بين الفضل الذي

أَتَقْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أِمْرًا كَبِيرًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
فِي الْمَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالْأَقْدَابِ هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَوُونَ الْيَدِيْنِ
وَمَا كُنْتُمْ بِمَعْرِفِهِمْ بِرِسْكَ السَّعَادَةِ وَالْأَعْيُنِ ۚ إِنَّكُمْ تَغْتَفِرُوهُمْ
الْأَرْضَ أَوْ تُشْفِقُ عَلَيْهِمْ كَمَا يَفْعَلُ السَّعَادَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنتَبِهٍ ۝ • وَلَقَدْ وَفَّيْنَا قَاوُوسًا وَنَا
قَصْلًا نَّجِيًّا لَّوْلِي مَعْمُودٍ الظَّالِمِينَ ۚ وَأَنَّا لَهُ الْوَحْيُ ۝ أَن
أَعْمَلُ سَيِّئَاتٍ وَفَرِّقَ فِي الشَّرِّ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنَّا بِمَا يَصْنَعُونَ
بَصِيرٌ ۝ • وَلَمَّا لَخِيَ الرَّبَّ خُذُوا مَعَهُمْ زُرَّاحَهُمْ شُهُودًا
وَأَسْنَأَهُمُ الْعَرْشَ الْظَاهِرَ ۚ وَهَمَّ الْيَهُودُ أَنْ يَفْعَلَ بِبَنِي
يَاقِينَ يَهُودَ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ قَوْمًا نَّافِقِينَ فِي عَذَابِ السَّعِيرِ
۝ • يَسْتَوُونَ لِمَا كَانُوا فِي تَحْدِيدٍ وَقِيلَ لِيَحْمِلُوا أَوْحَابَهُمْ
وَقُدُورَهُمْ رَاسِيَئَ أَصْعَامٍ ۚ أَلَا قَاوُوسٌ قَدْ كُنَّ أَفْئِدَةُ بَنِي إِسْرَءِيلَ
الْفُكُورَ ۝ • فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِمُ الْكُتُبَ مَدَّ لَهُمْ عَلَىٰ نُورِهِ
إِلَّا ذَاكَ ۚ وَالْأَرْضُ تَأْكُلُ مِنْسَأَلَهُمْ حَتَّىٰ تَصِيرَ الْجَبَلُ
لَكُمْ نَوَاحِي ۚ كَانُوا الْعَبَّ مَالِكِينَ ۚ فِي الْعَذَابِ الْهَبْنِ ۝

أنواع النباتات وأصناف الحيوانات،
«وما ينزل من السماء» من الأملاك
والأرزاق والأقدار، «وما يعرج فيها»
من الملائكة والأرواح وغير ذلك.

ولما ذكر مخلوقاته وحكمته فيها، وعلمه بأحوالها، ذكر مغفرته ورحمته لها، فقال: ﴿هو الرحيم الغفور﴾ أي: الذي الرحمة والمغفرة وصفه، ولم تزل آثارها تنزل على عباده كل وقت، بحسب ما قاموا به من مقتضياتها.

﴿٣-٥﴾ «وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعبز عنه مثقال ذرة في سماءات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين * ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم * والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز اليم» لما بين تعالى عظمته بما وصف به نفسه، وكان هذا موجباً لتعظيمه وتقديسه والإيمان به، ذكر أن من أصناف الناس طائفة لم تقدر رها حق قدره، ولم تعظمه حق عظمته، بل كفروا به، وأنكروا قدرته على إعادة الأموات وقيام الساعة، وعارضوا بذلك رسله، فقال: ﴿وقال الذين كفروا﴾ أي: بالله وبرسله، وبما جاؤوا به، فقالوا بسبب كفرهم: ﴿لا تأتينا الساعة﴾ أي: ما هي إلا هذه الحياة الدنيا نموت ونحيا.



فأمر الله رسوله أن يرد قولهم ويبطله، ويقسم على البعث، وأنه سيأتيهم، واستدل على ذلك بدليل من آثر به، لزمه أن يصدق بالبعث ضرورة، وهو علمه تعالى الواسع العام، فقال: ﴿عالم الغيب﴾ أي: الأمور الغائبة عن أبصارنا وعن علمنا، فكيف بالشهادة؟! ثم أكد علمه فقال: ﴿لا يغرب﴾ أي: لا يغيب عن علمه ﴿مشقال ذرة في السماوات ولا في الأرض﴾ أي: جميع الأشياء بذواتها وأجزائها، حتى أصغر ما يكون من الأجزاء، وهو المثاقيل منها.

﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين﴾ أي: قد أحاط به علمه، وجري به قلمه، وتضمنه الكتاب المبين، الذي هو اللوح المحفوظ، فالذي لا يخفى عن علمه مشقال الذرة فما دونه، في جميع الأوقات، ويعلم^(١) ما تنقص الأرض من الأموات، وما يبقى من أجسادهم، قادر على بعثهم، من باب أولى، وليس بعثهم بأعجب من هذا العلم المحيط.

ثم ذكر القصد من البعث، فقال: ﴿ليجزى الذين آمنوا﴾ بقلوبهم، صدقوا الله، وصدقوا رسله تصديقاً جازماً، ﴿وعملوا الصالحات﴾ تصديقاً

لإيمانهم. ﴿أولئك لهم مغفرة﴾ لذنوبهم، بسبب إيمانهم وعملهم، يندفع بها كل شر وعقاب. ﴿ورزق كريم﴾ بإحسانهم، يحصل لهم به كل مطلوب ومرغوب وأمنية.

﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ أي: سعوا فيها كفراً بها، ومعجزاً لمن جاء بها، ومعجزاً لمن أنزلها، كما عجزوه في الإعادة بعد الموت. ﴿أولئك لهم عذاب من رجز اليم﴾ أي: مؤلم لأبدانهم وقلوبهم.

﴿ويرى الذين أوتوا العلم﴾ الذي أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأنهم يرون ما أنزل على رسوله ليس بحق، ذكر حالة الموقنين من العباد، وهم أهل العلم، وأنهم يرون ما أنزل الله على رسوله من الكتاب، وما اشتمل عليه من الأخبار هو الحق، أي: الحق منحصر فيه، وما خالفه وناقضه فإنه باطل، لأنهم وصلوا من العلم إلى درجة اليقين.

ويرون أيضاً أنه في أوامره ونواهيه ﴿يهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ وذلك أنهم جزموا بصدق ما أخبر به من وجوه كثيرة: من جهة علمهم بصدق من أخبر به، ومن جهة موافقته للأمور الواقعة، والكتب السابقة، ومن جهة ما يشاهدون من أخبارها، التي تقع عياناً، ومن جهة ما يشاهدون من الآيات العظيمة الدالة عليها في الآفاق وفي أنفسهم ومن جهة موافقتها لما دلت عليه أسماؤه تعالى وأوصافه.

ويرون في الأوامر والنواهي، أنها تهدي إلى الصراط المستقيم، المتضمن للأمر بكل صفة تزكي النفس، وتنمي الأجر، وتفيد العامل وغيره، كالصدق، والإخلاص، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى عموم الخلق، ونحو ذلك. وتنتهي عن كل صفة قبيحة، تدنس النفس، وتحبط الأجر، وتوجب الإثم والوزر،

من الشرك، والزنا، والربا، والظلم في الدماء والأموال والأعراض.

وهذه متقية لأهل العلم وفضيلة، وعلامة لهم، وأنه كلما كان العبد أعظم علماً وتصديقاً بأخبار ما جاء به الرسول، وأعظم معرفة بحكم أوامره ونواهيه، كان من أهل العلم الذين جعلهم الله حجة على ما جاء به الرسول، احتج الله بهم على المكذبين المعاندين، كما في هذه الآية وغيرها.

﴿٧-٩﴾ وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد * أفترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد * أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك لآية لكل عبد منيب﴾ أي: ﴿وقال الذين كفروا﴾ على وجه التكذيب والاستهزاء والاستبعاد، وذكر وجه الاستبعاد.

أي: قال بعضهم لبعض: ﴿هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد﴾ يعنون بذلك الرجل، رسول الله ﷺ، وأنه رجل أتى بما يستغرب منه، حتى صار - بزعمهم - فرجة يتفرجون عليه، وأعجوبة يستخرون منه، وأنه كيف يقول: ﴿إنكم مبعوثون﴾ بعدما مزقكم البلى، وتفرقت أوصالكم، واضمحلت أعضاؤكم؟! فهذا الرجل الذي يأتي بذلك، هل

﴿أفترى على الله كذباً﴾ فتجراً عليه وقال ما قال، ﴿أم به جنة﴾؟ فلا يستغرب منه، فإن الجنون فنون، وكل هذا منهم، على وجه العناد والظلم، ولقد علموا أنه أصدق خلق الله وأعقلهم، ومن علمهم، أنهم أبدوا وأعادوا في معاداتهم، وبذلوا أنفسهم وأموالهم في صد الناس عنه، فلو كان كاذباً مجنوناً لم ينبغ لكم

لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون؟

ولما ذكر ما امتنَّ به عليه وعلى آله، أمره بشكره، وأن يعملوا صالحاً، ويراقبوا الله تعالى فيه، بإصلاحه وحفظه من المفسدات، فإنه بصير بأعمالهم، مطلع عليهم، لا يخفى عليه منها شيء.

﴿١٢ - ١٤﴾ «ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير * يعملون له ما يشاء من محارب وثمانيل وجفان كالجواب وقدور راسيات اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور * فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين» لما ذكر فضله على داود عليه السلام، ذكر فضله على ابنه سليمان عليه الصلاة والسلام، وأن الله سخر له الريح تجري بأمره وتحمله، وتحمل جميع ما معه، وتقطع المسافة البعيدة جداً في مدة يسيرة، فتسير في اليوم مسيرة شهرين. «غدوها شهر» أي: أول النهار إلى الزوال «ورواحها شهر» من الزوال، إلى آخر النهار «وأسلنا له عين القطر» أي: سخرنا له عين النحاس، وسهلنا له الأسباب في استخراج ما يستخرج منها من الأواني وغيرها.

وسخر الله له أيضاً الشياطين والجن، لا يقدرون أن يستعصوا عن أمره، «ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير» وأعمالهم^(١)، كل ما شاء سليمان عمله، «من محارب» وهو كل بناء يعقد وتحكم به الأبنية، فهذا فيه ذكر الأبنية الفخمة، «وثمانيل» أي: صور الحيوانات والجمادات، من إتقان صنعتهن،

لأن المنيب مقبل إلى ربه، قد توجهت إراداته وهماته لربه، ورجع إليه في كل أمر من أموره، فصار قريباً من ربه، ليس له هم إلا الاشتغال بمريضاته، فيكون نظره للمخلوقات نظر فكرة وعبرة، لا نظر غفلة غير نافعة.

﴿١٠ - ١١﴾ «ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد * أن عمل سابغات وقدر في السرد واصلوا صالحاً إني بما تعملون بصير» أي: ولقد مننا على عبدنا ورسولنا داود عليه الصلاة والسلام، وآتيناه فضلاً من العلم النافع، والعمل الصالح، والتَّعَمُّد الدينية والدنيوية، ومن نعمة عليه، ما خصه به من أمره تعالى الجمادات، كالجبال والحيوانات، من الطيور، أن تُؤَوَّب معه، وتُرَجَّع التسبيح بحمد ربها مجابة له، وفي هذا من النعمة عليه، أن كان ذلك من خصائصه التي لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وأن ذلك يكون منهضاً له ولغيره على التسبيح إذا رأوا هذه الجمادات والحيوانات تتجواب بتسبيح ربها وتمجيده وتكبيره وتحميده، كان ذلك مما يبيح على ذكر الله تعالى.

ومنها: أن ذلك - كما قال كثير من العلماء أنه طرب لصوت داود، فإن الله تعالى قد أعطاه من حسن الصوت ما فاق به غيره، وكان إذا رَجَّع التسبيح والتهليل والتحميد بذلك الصوت الرخيم الشجي المطرب، طرب كل مَنْ سمعه، من الإنس والجن، حتى الطيور والجبال، وسبحت بحمد ربها.

ومنها: أنه لعله ليحصل له أجر تسبيحها، لأنه سبب ذلك، وتسبيح تبعاً له.

ومن فضله عليه، أن ألان له الحديد، ليعمل الدروع السابغات، وعلمه تعالى كيفية صنعه، بأن يقدره في السرد، أي: يقدره حلقاً، ويصنعه كذلك، ثم يدخل بعضها ببعض. قال تعالى: «وعلمناه صنعة لبوس

يا أهل العقول غير الزاكية - أن تصغوا لما قال، ولا أن تحتفلوا بدعوته، فإن المجنون، لا ينبغي للعاقل أن يلفت إليه نظره، أو يبلغ قوله منه كل مبلغ.

ولولا عنادكم وظلمكم، لبادرتم لإجابته، ولبيتم دعوته، ولكن «ما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون» ولهذا قال تعالى: ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ومنهم الذين قالوا تلك المقالة، «في العذاب والضلال البعيد» أي: في الشقاء العظيم، والضلال البعيد، الذي ليس بقريب من الصواب، وأي: شقاء وضلال، أبلغ من إنكارهم لقدرة الله على البعث، وتكذيبهم لرسوله الذي جاء به، واستهزأوا به، وجزمهم بأن ما جاءوا به هو الحق، فرأوا الحق باطلاً، والباطل والضلال حقاً وهدى.

ثم نهيهم على الدليل العقلي، الدال على عدم استبعاد البعث، الذي استبعدوه، وأنهم لو نظروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض فرأوا من قدرة الله فيهما ما يبهر العقول، ومن عظمت ما يذهل العلماء الفحول، وأن خلقهما وعظمتما وما فيهما من المخلوقات أعظم من إعادة الناس - بعد موتهم - من قبورهم، فما الحامل لهم على ذلك التكذيب، مع التصديق بما هو أكبر منه؟ نعم، ذاك خبر غيبي إلى الآن، ما شاهدوه، فلذلك كذبوا به.

قال الله: ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ أي: من العذاب، لأن الأرض والسماء تحت تدبيرنا، فإن أمرناهما لم يستعصيا، فاحذروا إصراركم على تكذيبكم، فنعاقبكم أشد العقوبة. ﴿إن في ذلك﴾ أي: خلق السماوات والأرض وما فيهما من المخلوقات «لآية لكل عبد منيب».

فكلما كان العبد أعظم إنابة إلى الله، كان انتفاعه بالآيات أعظم،

ولهذا قال: ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾ ومنها: أن الله لما علم احتياجهم في تجارتهم ومكاسبهم إلى الأرض المباركة - الظاهر أنها: [قرى صنعاء] قاله غير واحد من السلف، وقيل إنها [النشام] - هيأ لهم من الأسباب ما به يتيسر وصولهم إليها بغاية السهولة، من الأمن، وعدم الخوف، وتواصل القرى بينهم وبينها، بحيث لا يكون عليهم مشقة بحمل الزاد والمزاد.

ولهذا قال: ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير﴾ أي: [سيراً] مقدراً يعرفونه ويحكمون عليه، بحيث لا يتيهون عنه ﴿الليالي وأياماً آمناً﴾ أي: مطمئنين في السير، في تلك الليالي والأيام، غير خائفين. وهذا من تمام نعمة الله عليهم، أن أمنهم من الخوف.

فأعرضوا عن التَّعَمُّ، وعن عبادته، ويطروا النعمة وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا، أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسراً.

﴿وظلموا أنفسهم﴾ بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أطغتهم، فأبادهها عليهم، فأرسل عليها سيل العرم، أي: السيل المتوعر، الذي خرب سددهم، وأتلف جناتهم، وخرب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنات ذات الحداثق المعجبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجار لا نفع فيها، ولهذا قال: ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل﴾ أي: شيء قليل من الأكل الذي لا يقع منهم موقعاً ﴿خبط وأثل وشيء من سدر قليل﴾ وهذا كله شجر معروف، وهذا من جنس عملهم.

فكما بدلوا الشكر الحسن بالكفر القبيح، بدلوا تلك لنعمة بما ذكر، ولهذا قال: ﴿ذلك جزيناكم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور﴾ أي: وهل نجازي جزاء العقوبة - بدليل السياق - وإلا من كفر بالله ويطر النعمة؟ فلما أصابهم ما أصابهم تفرقوا

عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذوات أكل خبط وأثل وشيء من سدر قليل * ذلك جزيناكم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور * وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالي وأياماً آمناً * فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومرقنهم كل ممزق إن في ذلك آيات لكل صبار شكور * ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين * وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك وربك على كل شيء حفيظ * سبأ قبيلة معروفة في أداني اليمن، ومسكنهم بلدة يقال لها «أرب»، ومن نعم الله ولطفه بالناس عموماً، وبالعرب خصوصاً، أنه قص في القرآن أخبار المهلكين والمعاقبين، ممن كان يجاور العرب ويشاهد آثاره ويتناقل الناس أخباره، ليكون ذلك أدعى إلى التصديق، وأقرب للموعظة فقال: ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم﴾ أي: محلهم الذي يسكنون فيه ﴿آية﴾ والآية هنا: ما أدر الله عليهم من التَّعَمُّ، وصرف عنهم من النِّعَم، الذي يقتضي ذلك منهم، أن يعبدوا الله ويشكروه. ثم فسر الآية بقوله: ﴿جنتان عن يمين وشمال﴾ وكان لهم واد عظيم، تأتيه سيول كثيرة، وكانوا بنوا سداً محكماً، يكون مجمعاً للماء، فكانت السيول تأتيه، فيجتمع هناك ماء عظيم، فيفرقونه على بساتينهم، التي عن يمين ذلك الوادي وشماله. وتُغَلُّ لهم تلك الجنتان العظيمتان، من الثمار ما يكفيهم، ويحصل لهم به الغبطة والسرور، فأمرهم الله بشكر نعمه التي أدرها عليهم من وجوه كثيرة، منها: هاتان الجنتان اللتان غالب أوقاتهم منها.

ومنها: أن الله جعل بلدهم بلدة طيبة، لحسن هوائها، وقلة وخها، وحصول الرزق الرغد فيها.

ومنها: أن الله تعالى وعدهم - إن شكروه - أن يغفر لهم ويرحمهم،

وقدرتهم على ذلك وعملهم لسليمان، ﴿وجفان كالجواب﴾ أي: كالبرك الكبار، يعملونها لسليمان للطعام، لأنه يحتاج إلى ما لا يحتاج إليه غيره، ﴿و﴾ يعملون له قدوراً راسيات لا تزول عن أماكنها، من عظمها.

فلما ذكر منته عليهم، أمرهم بشكرها، فقال: ﴿اعملوا آل داود﴾ وهم داود وأولاده وأهله، لأن الأئمة على الجميع، وكثير من هذه المصالح عائد لكلهم. ﴿شكراً﴾ الله على ما أعطاهم، ومقابلة لما أولاهم. ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ فأكثرهم لم يشكروا الله تعالى على ما أولاهم من نعمه، ودفع عنهم من النِّعَم.

والشكر: اعتراف القلب بمنة الله تعالى، وتلقيها افتقاراً إليها، وصرفها في طاعة الله تعالى، وصونها عن صرفها في المعصية.

فلم يزل الشياطين يعملون لسليمان عليه الصلاة والسلام كل بناء، وكانوا قد موهوا على الإنس، وأخبروهم أنهم يعلمون الغيب ويطلعون على المكنونات، فأراد الله تعالى أن يُري العباد كذبهم في هذه الدعوى، فمكثوا يعملون على عملهم، وقضى الله الموت على سليمان عليه السلام، وأتكا على عصاه وهي المنسأة، فصاروا إذا مروا به وهو متكئ عليها، ظنوه حياً، وهابوه.

فغدوا على عملهم كذلك سنة كاملة على ما قيل، حتى سلطت دابة الأرض على عصاه، فلم تزل ترعاها، حتى باد وسقط، فسقط سليمان عليه السلام وتفرقت الشياطين وتبينت الإنس أن الحق: ﴿لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين﴾ وهو العمل الشاق عليهم، فلو علموا الغيب، لعلموا موت سليمان، الذي هم أحرص شيء عليه، ليسلموا بما هم فيه.

﴿١٥ - ٢١﴾ ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور * فأعرضوا فأرسلنا



ومن علوه، أن حكمه تعالى يعلو، وتذعن له النفوس، حتى نفوس التكبرين والمشركين.

وهذا المعنى أظهر، وهو الذي يدل عليه السياق، ويحتمل أن الضمير يعود إلى الملائكة، وذلك أن الله تعالى إذا تكلم بالوحي سمعته الملائكة، فصعقوا وخروا لله سجداً، فيكون أول مَنْ يرفع رأسه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، وإذا زال الصعق عن قلوب الملائكة، وزال الفرع، فيسأل بعضهم بعضاً عن ذلك الكلام الذي صعقوا منه: ماذا قال ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض: قال الحق، إما إجمالاً، لعلمهم أنه لا يقول إلا حقاً، وإما أن يقولوا: قال كذا وكذا، للكلام الذي سمعوه منه، وذلك من الحق.

فيكون المعنى على هذا: أن المشركين الذين عبدوا مع الله تلك الآلهة، التي وصفنا لكم عجزها ونقصها، وعدم نفعها بوجه من الوجوه، كيف صدقوا وصرقوا عن إخلاص العبادة للرب العظيم، العلي الكبير، الذي - من عظمتهم وجلاله - أن الملائكة الكرام والمقربين من الخلق، يبلغ بهم الخضوع والصعق عند سماع كلامه هذا المبلغ، ويقرون كلهم لله، أنه لا يقول إلا الحق.

فما بال هؤلاء المشركين، استكبروا عن عبادة مَنْ هذا شأنه، وعظمة ملكه وسلطانه. فتعالى العلي الكبير عن شرك المشركين وإفكهم وكذبهم. ﴿٢٤ - ٢٧﴾ ﴿قل من يرزقكم من السماوات والأرض قل الله وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين﴾ * قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسال عما تعملون * قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتح العليم * قل أروني الذين أحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم﴾. يأمر تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يقول لمن أشرك بالله ويسأله عن حجة شركه: ﴿مَنْ يرزقكم

والعجب، أن المشرک استکبر عن الانقياد للرسول بزعمه ^(١) أنهم بشر، ورضي أن يعبد ويدعو الشجر والحجر، استکبر عن الإخلاص للملك الرحمن الديان، ورضي عبادة من ضره أقرب من نفعه، طاعة لأعدى عدوله وهو الشيطان. وقوله: ﴿حتى إذا فرغ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير﴾. يحتمل أن الضمير في هذا الموضع يعود إلى المشرکين، لأنهم مذكورون في اللفظ، والقاعدة في الضمائر، أن تعود إلى أقرب مذكور، ويكون المعنى: إذا كان يوم القيامة، وفرغ عن قلوب المشرکين، أي: زال الفرع، وسئلوا حين رجعت إليهم عقولهم، عن حالهم في الدنيا، وتكذيبهم للحق الذي جاءت به الرسل، أنهم يقولون أن ما هم عليه من الكفر والشرك باطل، وأن ما قال الله وأخبرت به عنه رسله، هو الحق فبدا لهم ما كانوا يخفون من قبل وعلموا أن الحق لله، واعترفوا بذنوبهم. ﴿وهو العلي﴾ بذاته، فوق جميع مخلوقاته وقهره لهم وعلو قدره، بما له من الصفات العظيمة، جليلة المقدار ﴿الكبير﴾ في ذاته وصفاته.

(١) في النسختين: بزعمهم، ولعل الأقرب - والله أعلم - ما أثبت.

(٢) ورد في الهامش هنا: فعل الشرط.

الإجابة لما اقترحوه على الرسول، موجاً لرد دعوته.

فما اقترحوه، استعجالهم العذاب الذي أنذرهم به، فقال: ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ وهذا ظلم منهم. فأى: ملازمة بين صدقه وبين الإخبار بوقت وقوعه؟ وهل هذا إلا رد للحق، وسفه في العقل؟ أليس النذير ﴿في أمر﴾ في أحوال الدنيا، لو جاء قوماً يعلمون صدقه ونصحه، ولهم عدو ينتهز الفرصة منهم ويعدو لهم، فقال لهم: تركت عدوكم قد سار، يريد اجتياحكم واستئصالكم. فلو قال بعضهم: إن كنت صادقاً، فأخبرنا بأية ساعة يصل إلينا، وأين مكانه الآن؟ فهل يعد هذا القائل عاقلاً، أم يحكم بسفهه وجنونه؟

هذا، والمخبر يمكن صدقه وكذبه، والعدو قد يبدو له غيرهم، وقد تنحل عزيمته، وهم قد يكون بهم منعة يدافعون بها عن أنفسهم، فكيف بمن كذب أصدق الخلق، المعصوم في خبره، الذي لا ينطق عن الهوى، بالعذاب اليقين، الذي لا مدفع له ولا ناصر منه؟! أليس رد خبره بحجة عدم بيانه وقت وقوعه من أسفه السفه؟!!

﴿قل﴾ لهم - غيبراً بوقت وقوعه الذي لا شك فيه -: ﴿لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ فاحذروا ذلك اليوم، وأعدوا له عدته.

﴿٣١-٣٣﴾ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صدناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له

لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم * الآية ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون﴾.

وكذلك خواص خلقه من الأنبياء والمرسلين، لا يعلمون له شريكاً، فيا أيها المشركون أروني الذين ألحقتم بزعمكم الباطل بالله ﴿شركاء﴾.

وهذا السؤال لا يمكنهم الإجابة عنه، ولهذا قال: ﴿كلا﴾ أي: ليس لله شريك، ولا ند، ولا ضد. ﴿بل هو الله﴾ الذي لا يستحق التأله والتعبد إلا هو ﴿العزیز﴾ الذي قهر كل شيء، فكل ما سواه فهو مقهور مسخر مدبر. ﴿الحكيم﴾ الذي اتقن ما خلقه، وأحسن ما شرعه، ولو لم يكن في حكمته في شرعه إلا أنه أمر بتوحيده وإخلاص الدين له، وأحب ذلك، وجعله طريقاً للنجاة، ونهى عن الشرك به واتخاذ الأنداد من دونه، وجعل ذلك طريقاً للشقاء والهلاك، لكفى^(١) بذلك برهاناً على كمال حكمته، فكيف، وجميع ما أمر به ونهى عنه مشتمل على الحكمة!!

﴿٢٨-٣٠﴾ ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ * ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين * قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون﴾ يخبر تعالى أنه ما أرسل رسوله ﷺ، إلا يبشر جميع الناس بشواب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة لذلك، وينذرهم عقاب الله، ويخبرهم بالأعمال الموجبة له، فليس لك من الأمر شيء، وكل ما اقترح عليك أهل التكذيب والعناد، فليس من وظيفتك، إنما ذلك بيد الله تعالى، ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي: ليس لهم علم صحيح، بل إما جهال، أو معاندون لم يعملوا بعلمهم، فكانهم لا علم لهم. ومن عدم علمهم، جعلهم عدم

ولا حياة ولا نشوراً، بل هي جمادات لا تعقل ولا تسمع دعاء عابديها، ولو سمعته ما استجابت لهم، ويوم القيامة يكفرون بشركهم، ويتبرأون منهم، ويتلاعنون بينهم، ليس لهم قسط من الملك، ولا شركة فيه، ولا إعانة فيه، ولا لهم شفاعة يستقلون بها دون الله، فهو يدعو من هذا وصفه، ويتقرب إليه مهما أمكنه، ويعادي من أخلص الدين لله ويحاربه، ويكذب رسل الله الذين جاؤوا بالإخلاص لله وحده، تبين^(٢) لك أي: الفريقين، المهتدي من الضال، والشقي من السعيد؟ ولم يحتاج إلى أن يعين لك ذلك، لأن وصف الحال أوضح من لسان المقال.

﴿قل﴾ لهم ﴿لا تسألون عما أجرنا، ولا تسأل عما تعملون﴾ أي: كل منا ومنكم له عمله أنتم ﴿لا تسألون﴾ عن إجرامنا وذنوبنا لو أذنبنا، ونحن لا نسأل عن أعمالكم، فليكن المقصود منا ومنكم طلب الحقائق، وسلوك طريق الإنصاف، ودعوا ما كنا نعمل، ولا يكن مانعاً لكم من اتباع الحق، فإن أحكام الدنيا تجري على الظواهر، ويتبع فيها الحق ويجنب الباطل، وأما الأعمال، فلها دار أخرى، يحكم فيها أحكام الحاكمين، ويفصل بين المختصمين، أعدل العادلين.

ولهذا قال: ﴿قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا﴾ أي: يحكم بيننا حكماً، يتبين به الصادق من الكاذب، والمستحق للشواب من المستحق للعقاب، وهو خير الفاتحين.

﴿قل﴾ لهم يا أيها الرسول، ومن ناب منابك: ﴿أروني الذين ألحقتم به شركاء﴾ أي: أين هم؟ وأين السبيل إلى معرفتهم؟ وهل هم في الأرض، أم في السماء؟ فإن عالم الغيب والشهادة قد أخبرنا أنه ليس في الوجود له شريك. ﴿ويعبدون من دون الله ما

(١) ورد في الهامش هنا: جواب الشرط.

(٢) كذا في ب، وفي أ: يكفى، ولعل الصواب ما أثبت.

فإن بُعِثْنَا، فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا، سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعذبنا.

فأجابهم الله تعالى، بأن بسط الرزق وتضييقه، ليس دليلاً على ما زعمتم، فإن الرزق تحت مشيئة الله، إن شاء بسطه لعبده، وإن شاء ضيقه.

وليست الأموال والأولاد بالتي تقرب إلى الله زلفى وتدني إليه، وإنما الذي يقرب منه زلفى، الإيمان بما جاءت به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان، فأولئك لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفاً، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، لا يعلمها إلا الله، ﴿وهم في الغرفات آمنون﴾ أي: في المنازل العاليات المرتفعات جداً، ساكنين فيها مطمئنين، آمنون من المكدرات والمنقصات، لما هم فيه من اللذات وأنواع المشتبهات، وآمنون من الخروج منها والحزن فيها.

وأما الذين سعوا في آياتنا على وجه التعجيز لنا ولرسلنا، والتكذيب، ف ﴿أولئك في العذاب محضرون﴾.

﴿٣٩﴾ ثم أعاد تعالى أنه ﴿يسبط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ ليرتب عليه قوله: ﴿وما أنفقتم من شيء﴾ نفقة واجبة أو مستحبة، على قريب، أو جار، أو مسكين، أو يتيم، وغير ذلك، ﴿فهو﴾ تعالى ﴿يخلفه﴾ فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق، الذي يسبط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿وهو خير الرازقين﴾ فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها.

﴿٤٠ - ٤٢﴾ ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ ثم يقول للملائكة أهولاء إياكم كانوا يعبدون ﴿قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون﴾ فالיום لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا وتقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ أي: العابدين لغير الله

[وأنه] ترك الباطل الذي أوصله إلى هذا العذاب، سراً في أنفسهم، لخوفهم من الفضيحة في إقرارهم على أنفسهم. وفي بعض مواقف القيامة، وعند دخولهم النار، يظهر ذلك الندم جهراً.

﴿ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ يا ويلتى ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً﴾ الآيات.

﴿وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾ فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾ يغفلون كما يغفل المسجون الذي سيهان في سجنه كما قال تعالى: ﴿إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون﴾ في الحميم ثم في النار يسجرون﴾ الآيات.

﴿هل يجزون﴾ في هذا العذاب والتكال، وتلك الأغلال الثقال ﴿إلا ما كانوا يعملون﴾ من الكفر والفسق والعصيان.

﴿٣٤ - ٣٩﴾ ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين ﴿قل إن ربي يسبط الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ﴿والذين يسهون في آياتنا معاجزين أولئك في العذاب محضرون﴾ قل إن ربي يسبط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وهو خير الرازقين ﴿يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل، أنها كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد ﷺ، وأن الله إذا أرسل رسولا في قرية من القرى كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم وفخروا بها.

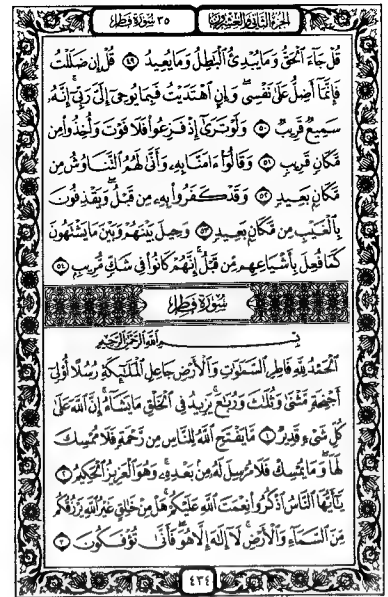
﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾ أي: ممن اتبع الحق ﴿وما نحن بمعذبين﴾ أي: أولاً، لسا بمبعوثين،

أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ لما ذكر تعالى أن ميعاد المستعجلين بالعذاب لا بد من وقوعه عند حلول أجله، ذكر هنا حالهم في ذلك اليوم، وأنك لو رأيت حالهم إذا وقفوا عند ربهم، واجتمع الرؤساء والأنبياء في الكفر والضلال، لرأيت أمراً عظيماً وهولاً جسيماً، ورأيت كيف يتراجع، ويرجع بعضهم إلى بعض القول، ف ﴿يقول الذين استضعفوا﴾ وهم الأتباع ﴿للذين استكبروا﴾ وهم القادة: ﴿لولا أنتم لكنا مؤمنين﴾ ولكنكم خلّصتم بيننا وبين الإيمان، وزينتم لنا الكفر [ان]، فبتعنكم على ذلك، ومقصودهم بذلك أن يكون العذاب على الرؤساء دونهم.

﴿قال الذين استكبروا للذين استضعفوا﴾ مستفهمين لهم ومخبرين أن الجميع مشتركون في الجرم: ﴿أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم﴾ أي: بقوتنا وقهرنا لكم. ﴿بل كنتم مجرمين﴾ أي: مختارين للإجرام، لستم مقهورين عليه، وإن كنا قد زينا لكم، فما كان لنا عليكم من سلطان.

﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ أي: بل الذي دهانا منكم، ووصل إلينا من إضلالكم، ما دبّرتموه من المكر، في الليل والنهار، إذ تحشّنون لنا الكفر وتدعوننا إليه، وتقولون: إنه الحق، وتقذحون في الحق وتهجنونه وترزعمون أنه الباطل، فما زال مكركم بنا وكيدكم إيانا، حتى أغويتمونا وقتلتمونا.

فلم تفد تلك المراجعة بينهم شيئاً إلا تبري بعضهم من بعض، والندامة العظيمة، ولهذا قال: ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ أي: زال عنهم ذلك الاحتجاج الذي احتج به بعضهم على بعض لينجو من العذاب، وعلم أنه ظالم مستحق له، فندم كل منهم غاية الندم، وغنى أن لو كان على الحق،



﴿قُلْ﴾ يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ، لهؤلاء
المكذِبين المعاندين، المتصدِّين لرد الحق
وتكذيبه، والقدح بمن جاء به: ﴿إِنَّمَا
أَعْظَمُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ أي: بخصلة
واحدة، أشير عليكم بها، وأنصح لكم
في سلوكها، وهي طريق نصف،
لست أدعوكم بها إلى اتباع قولي، ولا
إلى ترك قولكم من دون موجب لذلك،
وهي: ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَلٍ﴾
أي: تنهضوا بهمة ونشاط، وقصد
لاتباع الصواب، وإخلاص لله،
مجتمعين، ومتباحثين في ذلك،
ومتناظرين، وفرادي، وكل واحد
يخاطب نفسه بذلك.

فلذا قمتم لله مثني وفرادي،
استعملتم فكركم وأجلمتموه، وتدبرتم
أحوال رسولكم، هل هو مجنون، فيه
صفات المجانين من كلامه، وهيئته،
وصفته؟ أم هو نبي صادق، منذر لكم
ما يضركم، مما أمامكم من العذاب
الشديد؟

فلو قبلوا هذه الموعظة
واستعملوها، لتبين لهم أكثر من
غيرهم، أن رسول الله ﷺ ليس
بمجنون، لأن هيئاته^(١) ليست كهيئات
المجانين، في خنقهم، واختلاجهم،
ونظرهم، بل هيئته أحسن الهيئات،
وحرركاته أجل الحركات، وهو أكمل

الخلق، أدباً، وسكينة، وتواضعاً،
ووقاراً، لا يكون [إلا] لأرزن الرجال
عقلاً.

ثم [إذا] تأملوا كلامه الفصيح،
ولفظه المليح، وكلماته التي تملأ
القلوب أمناً وإيماناً، وتزكي النفوس،
وتطهر القلوب، وتبعث على مكارم
الأخلاق، وتحث على محاسن الشيم،
وترهب^(٢) عن مساوئ الأخلاق
ورذائلها، إذا تكلم رفقته العيون، هية
وإجلالاً وتعظيماً.

فهل هذا يشبه هذيان المجانين
وعريدهم، وكلامهم الذي يشبه
أحوالهم؟!!

فكل مَنْ تدبر أحواله، ومقصده
استعلام هل هو رسول الله أم لا؟
سواء تفكر وحده أو مع غيره، جزم
بأنه رسول الله حقاً، ونبيه صدقاً،
خصوصاً المخاطبين، الذي هو
صاحبهم يعرفون أول أمره وآخره.

وَتَمَّ مانع للنفوس آخر من اتباع
الداعي إلى الحق، وهو أنه يأخذ أموال
مَنْ يستجيب له، ويأخذ أجرة على
دعوته. فبيّن الله تعالى نزاهة
رسوله ﷺ عن هذا الأمر، فقال:
﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي: على
اتباعكم للحق ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ أي:
فأشهدكم أن ذلك الأجر - على
التقدير - أنه لكم، ﴿إِنْ أَجَرْتُمْ﴾
على الله وهو على كل شيء شهيد
أي: محيط علمه بما أدعو إليه، فلو
كنت كاذباً، لأخذني بعقوبته، وشهد
أيضاً على أعمالكم، سيحفظها
عليكم، ثم يجازيكم بها.

ولما بيّن البراهين الدالة على صحة
الحق وبطلان الباطل، أخبر تعالى أن
هذه سنته وعادته أن ﴿يَقْذِفَ بِالْحَقِّ﴾
على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، لأنه
بيّن من الحق في هذا الموضع، ورد به
أقوال المكذِبين، ما كان عبرة
للمعتبرين، وآية للمتأملين.

فإنك كما ترى، كيف اضمحلت
أقوال المكذِبين، وتبين كذبهم

وعنادهم، وظهر الحق وسطع، وبطل
الباطل وانقمع، وذلك بسبب بيان
﴿علام الغيوب﴾ الذي يعلم ما تنطوي
عليه القلوب من الرساوس والشبه،
ويعلم ما يقابل ذلك ويدفعه من
الحجج.

فيعلم بها عباد، وبينها لهم، ولهذا
قال: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي: ظهر
وبان، وصار بمنزلة الشمس، وظهر
سلطانه. ﴿وَمَا يَبْدِئُ الْبَاطِلَ وَمَا
يَعِيدُ﴾ أي: اضمحل وبطل أمره،
وذهب سلطانه، فلا يبدى ولا يعيد.

ولما تبين الحق بما دعا إليه الرسول،
وكان المكذِبون له يرمونه بالضلال،
أخبرهم بالحق ووضحه لهم، وبين
لهم عجزهم عن مقاومته، وأخبرهم
أن رميمهم له بالضلال ليس بضائر الحق
شيئاً، ولا دافع ما جاء به.

وأنه إن ضل - وحاشاه من ذلك،
لكن على سبيل التنزل في المجادلة -
فإنما يضل على نفسه، أي: ضلاله
قاصر على نفسه، غير متعدٍ إلى غيره.

﴿وَإِنْ اهْتَدَيْتُمْ﴾ فليس ذلك من
نفسي وحوالي وقوتي، وإنما هدايتي بما
﴿يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ فهو مادة هدايتي،
كما هو مادة هداية غيري. إن ربي
﴿سميع﴾ للأقوال والأصوات كلها
﴿قريب﴾ من دعائه وسأله وعبده.

﴿٥١ - ٥٤﴾ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزَعُوا
فَلَا فُوتَ وَأَخَذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ *
وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَإِنَّا لَلْهَمُ التَّنَافُوسُ مِنْ
مَّكَانٍ بَعِيدٍ * وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ
وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ *
وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ
بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍ
مُرِيبٍ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى﴾ أيها
الرسول، وَمَنْ قام مقامك، حال
هؤلاء المكذِبين، ﴿إِذْ فَزَعُوا﴾ حين
رأوا العذاب، وما أخبرتهم به الرسل
وما كذبوا به، لرأيت أمراً هائلاً،
ومنظراً مفضعاً، وحالة منكرة، وشدة
شديدة، وذلك حين يحق عليهم
العذاب.



الأعمال ﴿الصالحات لهم مغفرة﴾
لذئوبهم، يزول بها عنهم الشر والمكروه
﴿أجر كبير﴾ يحصل به المطلوب.

﴿٨﴾ ﴿أفمن زين له سوء عمله
فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء
ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك
عليهم حسرات إن الله عليم بما
يصنعون﴾ يقول تعالى: ﴿أفمن زين
له عمله السيئ القبيح، زينه له
الشیطان، وحسنه في عينه﴾. ﴿فرآه
حسناً﴾ أي: كمن هداه الله إلى
الصراف المستقيم والدين القويم، فهل
يستوي هذا وهذا؟
فالأول: عمل السيء، ورأى الحق
باطلاً، والباطل حقاً.

والثاني: عمل الحسن، ورأى الحق
حقاً، والباطل باطلاً، ولكن الهداية
والإضلال بيد الله تعالى، ﴿فإن الله
يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا
تذهب نفسك عليهم﴾ أي: على
الضالين الذين زين لهم سوء أعمالهم،
وصدهم الشيطان عن الحق
﴿حسرات﴾ فليس عليك إلا البلاغ،
وليس عليك من هداهم شيء، والله
﴿هو﴾ الذي يجازيهم بأعمالهم ﴿إن الله
عليم بما يصنعون﴾

﴿٩﴾ ﴿والله الذي أرسل الرياح
فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا
به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾
يخبر تعالى عن كمال اقتداره، وسعة
جوده، وأنه ﴿أرسل الرياح فتثير
سحاباً فسقناه إلى بلد ميت﴾ فأنزله الله
عليها ﴿فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾.

فحييت البلاد والعباد، وارتزقت
الحيوانات، ورتعت في تلك الخيرات،
﴿كذلك﴾ الذي أحيأ الأرض بعد
موتها، ينشر الله الأموات من قبورهم،
بعدما مزقهم البلى، فيسوق إليهم
مطراً، كما ساقه إلى الأرض الميتة،
فينزله عليهم فتحي الأبدان والأرواح
من القبور، ويأتون للقيام بين يدي الله
ليحكم بينهم، ويفصل بحكمه العدل.

﴿١٠﴾ ﴿من كان يريد العزة فلله
العزة جميعاً إليه يصعد الكلم الطيب
والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون

السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك
هو يبور﴾ أي: يا من يريد العزة،
اطلبها بمن هي بيده، فإن العزة
بيد الله، ولا تنال إلا بطاعته، وقد
ذكرها بقوله: ﴿إليه يصعد الكلم
الطيب﴾ من قراءة وتسبيح وتحميد
وتهليل، وكل كلام حسن طيب،
فيرفع إلى الله ويعرض عليه،
ويشي الله على صاحبه بين الملا الأعلى،
﴿والعمل الصالح﴾ من أعمال القلوب
وأعمال الجوارح ﴿يرفعه﴾ الله تعالى
إليه أيضاً، كالكلم الطيب.

وقيل: والعمل الصالح يرفع الكلم
الطيب، فيكون رفع الكلم الطيب
بحسب أعمال العبد الصالحة، فهي
التي ترفع كلمه الطيب، فإذا لم يكن له
عمل صالح، لم يرفع له قول إلى الله
تعالى، فهذه الأعمال التي ترفع إلى الله
تعالى، ويرفع الله صاحبها ويغزه.

وأما السيئات فإنها بالعكس، يريد
صاحبها الرفعة بها، ويمكر ويكيد
ويعود ذلك عليه، ولا يزداد إلا إهانةً
ونزولاً، ولهذا قال: ﴿والعمل الصالح
يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم
عذاب شديد﴾ يهانون فيه غاية الإهانة.
﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ أي: يهلك
ويضمحل، ولا يفيدهم شيئاً، لأنه
مكر بالباطل، لأجل الباطل.

﴿١١﴾ ﴿والله خلقكم من تراب ثم
من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل
من أنثى ولا تضع إلا بعلمه وما يعمر
من معمر ولا ينقص من عمره إلا في
كتاب إن ذلك على الله يسير﴾ يذكر
تعالى خلقه الآدمي، وتنقله في هذه
الأطوار، من تراب إلى نطفة وما
بعدها.

﴿ثم جعلكم أزواجاً﴾ أي: لم يزل
ينقلكم، طوراً بعد طور، حتى
أوصلكم إلى أن كنتم أزواجاً، ذكراً
يتزوج أنثى، ويراد بالزواج، الذرية
والأولاد، فهو وإن كان النكاح من
الأسباب فيه، فإنه مقترن بقضاء الله
وقدره وعلمه، ﴿وما تحمل من أنثى
ولا تضع إلا بعلمه﴾ وكذلك أطوار
الآدمي، كلها بعلمه وقضائه.

وعد الله، بالبعث والجزاء على
الأعمال، ﴿حق﴾ أي: لا شك فيه،
ولا مرية، ولا تردد، قد دلت على ذلك
الأدلة السمعية والبراهين العقلية، فإذا
كان وعده حقاً، فتجهزوا له، وبادروا
أوقاتكم الشريفة بالأعمال الصالحة،
ولا يقطعكم عن ذلك قاطع، ﴿فلا
تغرنكم الحياة الدنيا﴾ بلذاتها وشهواتها
ومطالبها النفسية، فتلهيكم عما خلقتم
له، ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ الذي
هو ﴿الشیطان﴾ الذي هو عدوكم في
الحقيقة ﴿فاتخذوه عدواً﴾ أي: لتكن
منكم عداوته على بال، ولا تهملوا
محاربتة كل وقت، فإنه يراكم وأنتم
لا ترونه، وهو دائماً لكم بالمرصاد.

﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من
أصحاب السعير﴾ هذا غايته ومقصوده
فمن تبعه، أن يهان غاية الإهانة
بالعذاب الشديد.

ثم ذكر أن الناس انقسموا بحسب
طاعة الشيطان وعدمها إلى قسمين،
وذكر جزاء كل منهما، فقال: ﴿الذين
كفروا﴾ أي: جمحدوا ما جاءت به
الرسول، ودلت عليه الكتب ﴿لهم
عذاب شديد﴾ في نار جهنم، شديد
في ذاته ووصفه، وأهم خالدون فيها
أبداً.

﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم، بما
دعا إلى الإيمان به ﴿وعملوا﴾
بمقتضى ذلك الإيمان، بجوارحهم،



الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير * إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير * هذا إخبار عن قدرته وحكمته ورحمته، أنه جعل البحرين لمصالح العالم الأرضي كلهم، وأنه لم يسو بينهما، لأن المصلحة تقتضي أن تكون الأنهار عذبة فرائاً، سائغاً شرابها، لينتفع بها الشاربون والغارسون والزارعون، وأن يكون البحر ملحاً أجاجاً، لئلا يفسد الهواء المحيط بالأرض بروائح ما يموت في البحر من الحيوانات، ولأنه ساكن لا يجري، فملوحته تمنعه من التغير، ولتكون حيواناته أحسن وألذ، ولهذا قال: **«ومن كل من البحر الملح والعذب تأكلون لحماً طرياً»** وهو السمك الميسر صيده في البحر، **«وتستخرجون حلية تلبسونها»** من لؤلؤ ومرجان وغيرهما، مما يوجد في البحر، فهذه مصالح عظيمة للعباد.

والمعنى: أن طول العمر وقصره، بسبب وبغير سبب، كله بعلمه تعالى، وقد أثبت ذلك **«في كتاب»** حوى ما يجري على العبد، في جميع أوقاته وأيام حياته.

«إن ذلك على الله يسير» أي: إحاطة علمه بتلك المعلومات الكثيرة، وإحاطة كتابه فيها، فهذه ثلاثة أدلة من أدلة البعث والنشور، كلها عقلية، نبه الله عليها في هذه الآيات: إحياء الأرض بعد موتها، وأن الذي أحيأها سيحيي الموتى، وتقل الآدمي في تلك الأطوار.

فألذي أوجده ونقله، طبقاً بعد طبق، وحالاً بعد حال، حتى بلغ ما قدر له، فهو على إعادته وإنشائه النشأة الأخرى أقدر، وهو أهون عليه، وإحاطة علمه بجميع أجزاء العالم، العلوي والسفلي، دقيقها وجليلها، الذي في القلوب، والأجئة التي في البطون، وزيادة الأعمال ونقصها، وإثبات ذلك كله في كتاب. فالذي كان هذا [نعمته] ^(١) يسيراً عليه، فأعادته للأموات أيسر وأيسر. فتبارك من كثر خيريه، ونبه عباده على ما فيه صلاحهم، في معاشهم ومعادهم.

«وما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون» * يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر

والحركة والسكون، وانتشار العباد في طلب فضله، وما فيهما من تنضيج الثمار وتحفيف ما يخفف ^(٢)، وغير ذلك مما هو من الضروريات، التي لو فقدت للحق الناس الضرر.

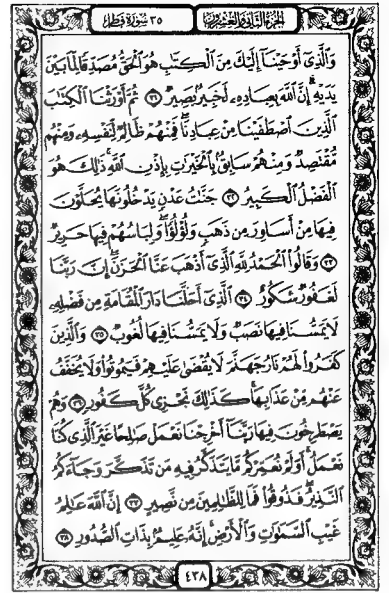
وقوله: **«كل يجري لأجل مسمى»** أي: كل من الشمس والقمر، يسيران في فلكهما ما شاء الله أن يسيرا، فإذا جاء الأجل، وقرب انقضاء الدنيا، انقطع سيرهما، وتعتل سلطانهما، وخسف القمر، وكورت الشمس، وانتشرت النجوم.

فلما بين تعالى ما بين من هذه المخلوقات العظيمة، وما فيها من العبر الدالة على كماله وإحسانه، قال: **«ذلكم الله ربكم له الملك»** أي: الذي انفرد بخلق هذه المذكورات وتسخيرها، هو الرب المألوه المعبود، الذي له الملك كله.

«والذين تدعون من دونه» من الأوثان والأصنام **«ما يملكون من قطمير»** أي: لا يملكون شيئاً، لا قليلاً ولا كثيراً، حتى ولا القطمير الذي هو أحقر الأشياء، وهذا من تنصيص النفي وعمومه، فكيف يُدْعَوْنَ، وهم غير مالكين لشيء من ملك السموات والأرض؟

(١) هنا جاءت كلمة (نعمته) في الهامش ولم يتضح لي محلها بدقة والأقرب أنه هنا.

(٢) كذا في: ب، وفي أ: وتخفيف ما يخفف.



ومن غناه تعالى، أن أغنى الخلق في الدنيا والآخرة، الحميد في ذاته، وأسمائه لأنها حسنى، وأوصافه لكونها غالياً، وأفعاله لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره ونواهيه، فهو الحميد على ما فيه، وعلى ما منه، وهو الحميد في غناه [الغني في حمده].

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ يحتمل أن المراد: إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بغيركم من الناس، أطوع لله منكم، ويكون في هذا تهديد لهم بالهلاك والإبادة، وأن مشيئته غير قاصرة عن ذلك.

ويحتمل أن المراد بذلك، إثبات البعث والنشور، وأن مشيئة الله تعالى نافذة في كل شيء، وفي إعادتك بعد موتكم خلقاً جديداً، ولكن لذلك الوقت أجل قدره الله، لا يتقدم عنه ولا يتأخر.

﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع، ولا معجز له.

ويدل على المعنى الأخير، ما ذكره بعده في قوله: ﴿وَلَا تَزِرْ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: في يوم القيامة كل أحد يجازى بعمله، ولا يحمل أحد ذنب أحد. ﴿وَأَنْ تَدْعَ مَثْقَلَةٌ﴾ أي: نفس مثقلة بالخطايا والذنوب، تستغيث بمن يحمل عنها بعض أوزارها ﴿لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ فإنه لا يحمل عن قريب، فليست حال الآخرة بمنزلة حال الدنيا، يساعد الحميم حميمه، والصديق صديقه، بل يوم القيامة، يتمنى العبد أن يكون له حق على أحد، ولو على والديه وأقاربه.

﴿إِنَّمَا تَنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة ويتنفعون بها، أهل الخشية لله بالغييب، أي: الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والغييب، وأهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها، لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه

ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم، فلولا إيجادهم إياهم، لم يوجدوا.

فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم [بها]، لما استعدوا لأي: عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل [لهم] من الرزق والنعم شيء.

فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكرب والشدائد. فلولا دفعه عنهم، وتفريجه لكربتهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.

فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية وأجناس التدبير.

فقراء إليه، في تألههم له، وحبهم له، وتعبدهم، وإخلاص العباد له تعالى، فلو لم يوفقهم لذلك لهلكوا، وفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم.

فقراء إليه، في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلو لا تعليمه لم يتعلموا، ولو لا توفيقه لم يصلحوا.

فهم فقراء بالذات إليه، بكل معنى، وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموفق منهم، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا أحرى بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.

﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: الذي له الغنى التام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال، ونعوت وجلال.

ومع هذا ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ﴾ لا يسمعوك لأنهم ما بين جناد وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم. ﴿وَلَوْ سَمِعُوا﴾ على وجه الفرض والتقدير ﴿مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأنهم لا يملكون شيئاً، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده، ولهذا قال: ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ﴾ أي: يتبرؤون منكم، ويقولون: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِينَا مِنْ ذُنُوبِهِمْ﴾.

﴿وَلَا يَنْبَشُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ أي: لا أحد ينبتك، أصدق من الله العليم الخبير، فاجزم بأن هذا الأمر، الذي نبأ به كأنه رأي عين، فلا تشك فيه ولا تتر. فتضمنت هذه الآيات، الأدلة والبراهين الساطعة، الدالة على أنه تعالى المألوه المعبود، الذي لا يستحق شيئاً من العبادة سواء، وأن عبادة ما سواه باطلة متعلقة بباطل، لا تفيد عابده شيئاً.

﴿١٥ - ١٨﴾ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز * ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير يخاطب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم

العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير، وتنهى عن الفحشاء والمنكر.

﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾ أي: وَمَنْ زَكَّى نَفْسَهُ بِالتَّزَكَّى مِنَ الْعُيُوبِ، كَالرِّيَاءِ وَالْكِبَرِ، وَالْكَذْبِ وَالْغَشِّ، وَالْمَكْرِ وَالْخِدَاعِ وَالنِّفَاقِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْأَخْلَاقِ الرَّذِيلَةِ، وَتَحَلَّى بِالْأَخْلَاقِ الْحَمِيلَةِ، مِنَ الصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ، وَالتَّوَاضُعِ، وَلِإِنْ الْجَانِبِ، وَالنَّصِاحَةِ لِلْعِبَادِ، وَسَلَامَةِ الصَّدْرِ مِنَ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ مَسَاوِيءِ الْأَخْلَاقِ، فَإِنَّ تَزَكِّيَهُ يَعُودُ نَفْعُهَا إِلَيْهِ، وَيَصِلُ مَقْصُودُهَا إِلَيْهِ، لَيْسَ يَضِيعُ مِنْ عَمَلِهِ شَيْءٌ.

﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ فيجوز أن الخلائق على ما أسلفوه، وبمحاسبهم على ما قدموه وعملوه، ولا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

﴿١٩- ٢٤﴾ ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمَسْمُوعٍ مِنْ فِي الْقُبُورِ * إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ يخبر تعالى أنه لا يتساوى الأضداد في حكمة الله، وفيما أودعه في فطر عباده، ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى فَاقِدَ الْبَصَرِ وَالْبَصِيرُ * وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ * وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ * وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ فكما أنه من المقرر عندهم، الذي لا يقبل الشك، أن هذه المذكورات لا تتساوى، فكذلك فلتعلموا أن عدم تساوي المتضادات المعنية أولى وأولى.

فلا يستوي المؤمن والكافر، ولا المهتدي والضال، ولا العالم والجاهل، ولا أصحاب الجنة وأصحاب النار، ولا أحياء القلوب وأمواتها، فبين هذه الأشياء من التفاوت والفرق ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فإذا علمت المراتب، وميزت الأشياء، وبان الذي ينبغي أن يتنافس في تحصيله من ضده، فليختر الحازم لنفسه ما هو أولى به وأحقها بالإثارة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ سماع فهم وقبول، لأنه تعالى هو الهادي الموفق ﴿وَمَا أَنْتَ بِمَسْمُوعٍ مِنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي: أَمْوَاتِ الْقُلُوبِ، أَوْ كَمَا أَنْ دَعَاكَ لَا يَفِيدُ سَكَانَ الْقُبُورِ شَيْئًا، كَذَلِكَ لَا يَفِيدُ الْمَعْرِضُ الْمَعَانِدُ شَيْئًا، وَلَكِنْ وَظِيفَتُكَ النَّذَارَةُ، وَإِبْلَاجُ مَا أَرْسَلْتَ بِهِ، قَبْلَ مِنْكَ أَمْ لَا.

ولهذا قال: ﴿إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ * إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: مجرد إرسالنا إياك بالحق، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَبْعَثُكَ عَلَى حِينِ فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُمُوسٍ مِنَ السَّبِيلِ، وَانْدِرَاسٍ مِنَ الْعِلْمِ، وَضُرُورَةٍ عَظِيمَةٍ إِلَى بَعَثَتِكَ، فَبِعَثِّكَ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.

وكذلك ما بعثناك به من الدين القويم، والصرط المستقيم، حق لا باطل، وكذلك ما أرسلناك به، من هذا القرآن العظيم، وما اشتمل عليه من الذكر الحكيم، حق وصدق. ﴿بَشِيرًا * لِمَنْ أَطَاعَكَ﴾، بِثَوَابِ اللَّهِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، ﴿وَنَذِيرًا * لِمَنْ عَصَاكَ﴾، بِعِقَابِ اللَّهِ الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، وَلَسْتُ بِبَدِيعِ الرُّسُلِ.

فما ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ مِنَ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ ﴿إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ يقيم عليهم حجة الله ﴿لِيَهْلِكَ مِنْ هَلَكٍ عَنْ بَيْتَةٍ وَيَحْيَا مِنْ حَيٍّ عَنْ بَيْتَةٍ﴾.

﴿٢٥- ٢٦﴾ ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبِيرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ * ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: وَإِنْ يَكْذِبُكَ أَيُّهَا الرُّسُولُ، هَؤُلَاءِ الْمَشْرُوكُونَ، فَلَسْتُ أَوَّلَ رَسُولٍ كَذَّبَ، ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدَّلَالَتِ عَلَى الْحَقِّ، وَعَلَى صِدْقِهِمْ فِيمَا أَخْبَرُوهُمْ بِهِ، ﴿وَبِالزَّبِيرِ﴾ أي: الْكُتُبِ الْمَكْتُوبَةِ، الْمَجْمُوعِ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْأَحْكَامِ، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي: الْمُضِيِّ فِي أَخْبَارِهِ الصَّادِقَةِ، وَأَحْكَامِهِ الْعَادِلَةِ، فَلَمْ يَكُنْ تَكْذِيبُهُمْ إِيَّاهُمْ نَاشِئًا عَنْ اشْتِبَاهِهِ، أَوْ قُصُورِ بِنَاءِ جَاءَتْهُمْ بِهِ الرُّسُلُ، بَلْ بِسَبَبِ ظُلْمِهِمْ وَعِنَادِهِمْ.

﴿٢٦﴾ ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

بأنواع العقوبات ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ عليهم؟ كَانَ أَشَدَّ النِّكَيرِ وَأَعْظَمَ التَّنْكِيلِ، فَيُأَيِّمُكُمْ وَتَكْذِيبُ هَذَا الرُّسُولِ الْكَرِيمِ، فَيُصِيبُكُمْ كَمَا أَصَابَ أَوْلَئِكَ، مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَالْخِزْيِ الْوَحِيمِ.

﴿٢٧- ٢٨﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلَفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ الْأَنْعَامُ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ يذكر تعالى خلقه للأشياء المتضادات، التي أصلها واحد ومادتها واحدة، وفيها من التفاوت والفرق ما هو مشاهد معروف، ليدل العباد على كمال قدرته وبديع حكمته.

فمن ذلك: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ الْمُخْتَلِفَاتِ، وَالنَّبَاتَاتِ الْمُتَنَوِّعَاتِ، مَا هُوَ مُشَاهِدٌ لِلنَّاطِرِينَ، وَالْمَاءِ وَاحِدٌ، وَالْأَرْضُ وَاحِدَةٌ.

ومن ذلك: الْجِبَالُ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ أَوْتَادًا لِلْأَرْضِ، تَحْدُهَا جِبَالًا مُشْتَبِكَةً، بَلْ جِبَالًا وَاحِدًا، وَفِيهَا أَلْوَانٌ مُتَعَدَّةٌ، فِيهَا جُدَدٌ بَيضٌ، أَي: طَرَائِقُ بَيضٌ، وَفِيهَا طَرَائِقُ صَفَرٍ وَحُمْرٍ، وَفِيهَا غَرَابِيبُ سُودٍ، أَي: شَدِيدَةُ السَّوَادِ جَدًّا.

ومن ذلك: النَّاسُ وَالدَّوَابُّ وَالْأَنْعَامُ، فِيهَا مِنْ اخْتِلَافِ الْأَلْوَانِ وَالْأَوْصَافِ وَالْأَصْوَاتِ وَالْهَيْئَاتِ، مَا هُوَ مَرْتَبِي بِالْأَبْصَارِ، مُشْهُودٌ لِلنَّظَارِ، وَالْكَلِّ مِنْ أَصْلٍ وَاحِدٍ وَمَادَّةٍ وَاحِدَةٍ.

فتفاوتها دليل عقلي على مشيئة الله تعالى، الَّتِي خَصَّصَتْ مَا خَصَّصَتْ مِنْهَا، بِلَوْنِهِ، وَوَصَفِهِ، وَقُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى حَيْثُ أَوْجَدَهَا كَذَلِكَ، وَحُكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ، حَيْثُ كَانَ ذَلِكَ اخْتِلَافٌ وَذَلِكَ التَّفَاوُتُ، فِيهِ مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ، وَمَعْرِفَةِ الطَّرِيقِ، وَمَعْرِفَةِ النَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، مَا هُوَ مَعْلُومٌ.

وذلك أيضاً، دليل على سعة علم الله تعالى، وَأَنَّهُ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ، وَلَكِنَّ الْغَافِلَ يَنْظُرُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَغَيْرِهَا نَظْرَ غَفْلَةٍ لَا تَحْدُثُ لَهُ

ولهذا، ما زال الله يرسل الرسل رسولاً بعد رسول، حتى ختمهم بمحمد ﷺ، فجاء هذا الشرع، الذي يصلح لمصالح الخلق إلى يوم القيامة، ويتكفل بما هو الخير في كل وقت.

ولهذا، لما كانت هذه الأمة أكمل الأمم عقولاً، وأحسنهم أفكاراً، وأرقهم قلوباً، وأزكاهم أنفساً، اصطفاها الله تعالى، واصطفى لهم دين الإسلام، وأورثهم الكتاب المهيمن على سائر الكتب، ولهذا قال: ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ وهم هذه الأمة. ﴿فمنهم ظالم لنفسه﴾ بالمعاصي، [التي] هي دون الكفر. ﴿ومنهم مقتصد﴾ مقتصر على ما يجب عليه، تارك للمحرم. ﴿ومنهم سابق بالخيرات﴾ أي: سارع فيها واجتهد، فسبق غيره، وهو المؤدي للفرائض، الكثير من النوافل، التارك للمحرم والمكروه.

فكلهم اصطفاها الله تعالى، لورثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، فلكل منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان، وأعمال الإيمان، من وراثته الكتاب، لأن المراد بوراثته الكتاب، وراثته علمه وعمله، ودراسة ألفاظه، واستخراج معانيه.

وقوله: ﴿يأذن الله﴾ راجع إلى السابق بالخيرات، لثلا يغتر بعمله، بل ما سبق إلى الخيرات إلا بتوفيق الله تعالى ومعونته، فينبغي له أن يشتغل بشكر الله تعالى على ما أنعم به عليه.

﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ أي: وراثته الكتاب الجليل لمن اصطفى تعالى من عباده؛ هو الفضل الكبير، الذي جميع النعم بالنسبة إليه، كالعدم، فأجل النعم على الإطلاق، وأكبر الفضل، وراثته هذا الكتاب.

ثم ذكر جزاء الذين أورثهم كتابه فقال: ﴿جنات عدن يدخلونها﴾ أي:

وذكر أنهم حصل لهم ما رجوه فقال: ﴿ليوفيههم أجورهم﴾ أي: أجور أعمالهم، على حسب قلتها وكثرتها، وحسنها وعدمه، ﴿ويزيدهم من فضله﴾ زيادة عن أجورهم. ﴿إنه غفور شكور﴾ غفر لهم السيئات، وقبل منهم القليل من الحسنات.

﴿٣١-٣٥﴾ ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه﴾ إن الله بعباده خبير بصير * ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير * جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير * وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾ يذكر تعالى أن الكتاب الذي أوحاه إلى رسوله ﴿هو الحق﴾ من كثرة ما اشتمل عليه من الحق، كأن الحق منحصر فيه، فلا يكن في قلوبكم حرج منه، ولا تستهينوا به، فإذا كان هو الحق، لزم أن كل ما دل عليه من المسائل الإلهية والغيبية وغيرها، مطابق لما في الواقع، فلا يجوز أن يرد به ما يخالف ظاهره وما دل عليه.

﴿مُصَدِّقاً لما بين يديه﴾ من الكتب والرسل، لأنها أخبرت به، فلما وجد وظهر، ظهر به صدقها، فهي بشرت به وأخبرت، وهو صدقها، ولهذا لا يمكن أحد أن يؤمن بالكتب السابقة، وهو كافر بالقرآن أبداً، لأن كفره به ينقض إيمانه بها، لأن من جملة أخبارها الخبر عن القرآن، ولأن أخبارها مطابقة لأخبار القرآن.

﴿إن الله بعباده خبير بصير﴾ فيعطي كل أمة وكل شخص، ما هو اللائق بحاله. ومن ذلك، أن الشرائع السابقة لا تليق إلا بوقتها وزمانها،

التذكر، وإنما ينتفع بها مَنْ يخشى الله تعالى، ويعلم بفكره الصائب وجه الحكمة فيها.

ولهذا قال: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فكل مَنْ كان بالله أعلم، كان أكثر له خشية، وأوجب له خشية الله، الانكفاف عن المعاصي، والاستعداد للقاء مَنْ يخشاه، وهذا دليل على فضيلة العلم، فإنه داع إلى خشية الله، وأهل خشيته هم أهل كرامته، كما قال تعالى: ﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه﴾.

﴿إن الله عزيز﴾ كامل العزة، ومن عزته خلق هذه المخلوقات المتضادات. ﴿غفور﴾ لذنوب التائبين.

﴿٢٩-٣٠﴾ ﴿إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلاية يرجون تجارة لن تبور﴾ ليوفيههم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ أي: يتبعونه في أوامره فيمتثلونها، وفي نواهيه فيتركونها، وفي أخباره فيصدقونها ويعتقدونها، ولا يقدمون عليه ما خالفه من الأقوال، ويتلون أيضاً ألفاظه، بدراسته، ومعانيه، بتتبعها واستخراجها.

ثم خص من التلاوة بعدما عم، الصلاة التي هي عماد الدين، ونور المسلمين، وميزان الإيمان، وعلامة صدق الإسلام، والنفقة على الأقارب والمساكين واليتامى وغيرهم، من الزكاة والكفارات والنذور والصدقات. ﴿سراً وعلاية﴾ في جميع الأوقات.

﴿يرجون﴾ [بذلك] ﴿تجارة لن تبور﴾ أي: لن تكسد وتفسد، بل تجارة، هي أجل التجارات وأعلها وأفضلها، ألا وهي رضا ربهم، والفوز بجزيل ثوابه، والنجاة من سخطه وعقابه، وهذا فيه أنهم يخلصون^(١) بأعمالهم، وأنهم لا يرجون بها من المقاصد السيئة والنيات الفاسدة شيئاً.

جنت مشتملات على الأشجار، والظل، والظليل، والحدائق الحسنة، والأنهار المتدفقة، والقصور العالية، والمنازل المزخرفة، في أبد لا يزول، وعيش لا يتفد.

والعدن «الإقامة» فجنت عدن أي: جنت إقامة، أضافها للإقامة، لأن الإقامة والخلود وصفها ووصف أهلها.

﴿يَحْلَوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ وهو الحل الذي يجعل في اليدين، على ما يحبون، ويرون أنه أحسن من غيره، الرجال والنساء في الحلية في الجنة سواء. ﴿وَيُحَلِّقُونَ فِيهَا﴾ يخلعون فيها ﴿لِبَاسًا﴾ ينظم في ثيابهم وأجسادهم. ﴿وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ من سندس، ومن إستبرق أخضر.

﴿وَيُحَلِّقُونَ فِيهَا﴾ لما تم نعيمهم، وكملت لذتهم ﴿قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ وهذا يشمل كل حزن، فلا حزن يعرض لهم بسبب نقص في جلالهم، ولا في طعامهم وشرابهم، ولا في لذاتهم ولا في أجسادهم، ولا في دوام لبتهم، فهم في نعيم ما يرون عليه مزيداً، وهو في تزايد أبد الأبد.

﴿إِنْ رَبَّنَا لِغُفُورٍ﴾ حيث غفر لنا الزلات ﴿شُكُورٍ﴾ حيث قبل منا الحسنات وضاعفها، وأعطانا من فضله ما لم تبلغه أعمالنا ولا أمانيتنا، فبمغفرته نجوا من كل مكروه ومرهوب، وبشكره وفضله حصل لهم كل مرغوب محبوب.

﴿الَّذِي أَحْلَانَا﴾ أي: أنزلنا نزول حلول واستقرار، لا نزول معبر واعتبار. ﴿دَارِ الْقَامَةِ﴾ أي: الدار التي تدوم فيها الإقامة، والدار التي يرغب في المقام فيها، لكثرة خيراتها، وتوالي مسراتها، وزوال كدوراتها، وذلك الإحلال ﴿مَنْ فَضْلُهُ﴾ علينا وكرمه، لا بأعمالنا، فلولا فضله، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه.

﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا﴾

فيها لغوب﴾ أي: لا تعب في الأبدان ولا في القلب والقوى، ولا في كثرة التمتع، وهذا يدل على أن الله تعالى يجعل أبدانهم في نشأة كاملة، ويبيء لهم من أسباب الراحة على الدوام، ما يكونون بهذه الصفة، بحيث لا يمسه نصب ولا لغوب، ولا هم ولا حزن.

ويدل على أنهم لا ينامون في الجنة، لأن النوم فائدته زوال التعب، وحصول الراحة به، وأهل الجنة بخلاف ذلك، ولأنه موت أصغر، وأهل الجنة لا يموتون، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

﴿٣٦ - ٣٧﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعلمكم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴿لما ذكر تعالى حال أهل الجنة ونعيمهم، ذكر حال أهل النار وعذابهم فقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: جحدوا ما جاءتهم به رسالهم من الآيات، وأنكروا لقاء ربهم.

﴿لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ يعذبون فيها أشد العذاب، وأبلغ العقاب. ﴿لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بالموت ﴿فَيَمُوتُوا﴾ فيستريحوا، ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ فشدّة العذاب وعظمه، مستمر عليهم في جميع الآت واللحظات.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ وهم يصطرخون فيها ﴿أي: يصرخون ويتصايحون ويستغيثون ويقولون: ﴿ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ فاعترفوا بذنبهم، وعرفوا أن الله عدل فيهم، ولكن سألوا الرجعة في غير وقتها، فيقال لهم: ﴿أولم نعلمكم ما﴾ أي: دهرأ وعمراً ﴿يتذكر فيه من تذكر﴾ أي: يتمكن فيه من أراد التذكر من العمل، متعانكم في

الدنيا، وأدرنا عليكم الأرزاق، وقضينا لكم أسباب الراحة، ومددنا لكم في العمر، وتابعنا عليكم الآيات، وأوصلنا إليكم النذر، وابتليناكم بالسراء والضراء، لتنبؤا إلينا وترجعوا إلينا، فلم ينجع فيكم إنذار، ولم تفد فيكم موعظة، وأخرنا عنكم العقوبة، حتى إذا انقضت آجالكم وتمت أعماركم، ورحلتم عن دار الإمكان بأشرف الحالات، ووصلتم إلى هذه الدار دار الجزاء على الأعمال، سألتكم الرجعة؟ هيهات هيهات، فات وقت الإمكان، وغضب عليكم الرحيم الرحمن، واشتد عليكم عذاب النار، ونسيكم أهل الجنة، فامكنوا فيها خالدين مخلدين، وفي العذاب مهانين، ولهذا قال: ﴿فَذُوقُوا﴾ فما للظالمين من نصير ﴿ينصروهم فيخرجهم منها، أو يخفف عنهم من عذابها.

﴿٣٨﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ لما ذكر تعالى جزاء أهل الدارين، وذكر أعمال الفريقين، أخبر تعالى عن سعة علمه تعالى، واطلاعه على غيب السماوات والأرض، التي غابت عن أبصار الخلق وعن علمهم، وأنه عالم بالسرائر، وما تنطوي عليه الصدور من الخير والشر والزكاء وغيره، فيعطي كلا ما يستحقه، وينزل كل أحد منزلته.

﴿٣٩﴾ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْخَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ يخبر تعالى عن كمال حكمته ورحمته بعباده، أنه قدر بقضائه السابق، أن يجعل بعضهم يخلف بعضاً في الأرض، ويرسل لكل أمة من الأمم النذر، فينظر كيف يعملون، فمن كفر بالله وبما جاءت به رسله، فإن كفره عليه، وعليه إثمه وعقوبته، ولا يحمل عنه أحد، ولا يزداد الكافر بكفره إلا مقت ربه له وبغضه إياه، وأي: عقوبة أعظم

من مقت الرب الكريم؟!

﴿ولا يزيّد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾ أي: يخسرون أنفسهم وأهليهم وأعمالهم ومنازلهم في الجنة، فالكافر لا يزال في زيادة من الشقاء والخسران، والخزي عند الله وعند خلقه والحرمان.

﴿٤٠﴾ ﴿قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرؤي ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات أم آتيانهم كتاباً فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾ يقول تعالى مُعْجِزاً لآلهة المشركين، ومبيناً نقصها، وبطلان شركهم من جميع الوجوه.

﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهم: ﴿أرأيتم﴾ أي: أخبروني عن شركائكم الذين تدعون من دون الله هل هم مستحقون للدعاء والعبادة، ف ﴿أرؤي ماذا خلقوا﴾ [من الأرض] هل خلقوا بحراً أم خلقوا جبلاً أو خلقوا [حيواناً، أو خلقوا جماداً؟] سيقرون أن الخالق لجميع الأشياء هو الله تعالى، أم لشركائكم شركة ﴿في السماوات﴾ في خلقها وتديرها؟ سيقولون: ليس لهم شركة.

فلذا لم يخلقوا شيئاً، ولم يشاركوا الخالق في خلقه، فلم عبدوهم ودعوتهم مع إقراركم بعجزهم؟ فانتفى الدليل العقلي على صحة عبادتهم، ودل على بطلانها.

ثم ذكر الدليل السمعي، وأنه أيضاً متنفذ، فلماذا قال: ﴿أم آتيانهم كتاباً﴾ يتكلم بما كانوا به يشركون، يأمرهم بالشرك وعبادة الأوثان. ﴿فهم﴾ في شركهم ﴿على بينة﴾ من ذلك الكتاب الذي نزل عليهم في صحة الشرك؟

ليس الأمر كذلك؟ فإنهم ما نزل عليهم كتاب قبل القرآن، ولا جاءهم نذير قبل رسول الله محمد ﷺ، ولو قدر نزول كتاب إليهم، وإرسال رسول إليهم، وزعموا أنه أمرهم بشركهم، فلنا نجزم بكذبهم، لأن الله قال: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا

نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾ فالرسل والكتب، كلها متفقة على الأمر بإخلاص الدين لله تعالى، ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾.

فإن قيل: إذا كان الدليل العقلي والنقلي قد دلّ على بطلان الشرك، فما الذي حمل المشركين على الشرك، وفيهم ذوو العقول والذكاء والفطنة؟

أجاب تعالى بقوله: ﴿بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضاً إلا غروراً﴾ أي: ذلك الذي مشوا عليه، ليس لهم فيه حجة، فإنما ذلك توصية بعضهم لبعض به، وتزيين بعضهم لبعض، واقتداء المتأخر بالتقدم الضال، وأمانى مَنّاها الشيطان، وزين لهم [سوء] أعمالهم، فنشأت في قلوبهم، وصارت صفة من صفاتها، فعسر زوالها، وتعسر انفصالها، فحصل ما حصل من الإقامة على الكفر والشرك الباطل المضمحل.

﴿٤١﴾ ﴿إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده إنه كان حليماً غفوراً﴾ يخبر تعالى عن كمال قدرته، وتمام رحمته، وسعة حلمه ومغفرته، وأنه تعالى يمسك السماوات والأرض عن الزوال، فإنهما لو زالتا أمسكهما أحد من الخلق، ولعجزت قدرهم وقواهم عنها.

ولكنه تعالى، قضى أن يكونا كما وجدا، ليحصل للخلق القرار، والنفع والاعتبار، وليعلموا من عظيم سلطانه وقوة قدرته، ما به تمتلئ قلوبهم له إجلالاً وتعظيماً، ومحبة وتكريماً، وليعلموا كمال حلمه ومغفرته، بإمهال المذنبين، وعدم معاجلته للعاصين، مع أنه لو أمر السماء لحصبتهم، ولو أذن للأرض لابتلعتهن، ولكن وسعتهن مغفرته، وحلمه، وكرمه ﴿إنه كان حليماً غفوراً﴾

﴿٤٢ - ٤٣﴾ ﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما

زادهم إلا نفوراً * استكباراً في الأرض ومكر السيئ ولا يجتبي المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾ أي: وأقسم هؤلاء، الذين كذبوك يا رسول الله، قسماً اجتهدوا فيه بالإيمان الغليظة: ﴿لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم﴾ أي: أهدى من اليهود والنصارى [أهل الكتب]، فلم يفوا بتلك الإقسامات والعهود.

﴿فلما جاءهم نذير﴾ لم يهتدوا، ولم يصيروا أهدى من إحدى الأمم، بل لم يدوموا على ضلالهم الذي كان، بل ﴿ما زادهم﴾ ذلك ﴿إلا نفوراً﴾ زيادة ضلال وبغي وعناد.

وليس إقسامهم المذكور، لقصد حسن، وطلب للحق، وإلا لوفقوا له، ولكنه صادر عن استكبار في الأرض على الخلق وعلى الحق، وبهجة في كلامهم هذا، يريدون به المكر والخداع، وأنهم أهل الحق، الحريصون على طلبه، فيغتر به المغترون، ويمشي خلفهم المقتدون.

﴿ولا يجتبي المكر السيئ﴾ الذي مقصوده مقصود سيئ، ومآله وما يرمي إليه سيئ باطل ﴿إلا بأهله﴾ فمكرهم إنما يعود عليهم، وقد أبان الله لعباده في هذه المقالات وتلك الإقسامات، أنهم كذبة في ذلك مزورون، فاستبان خزيمهم، وظهرت فضيحتهم، وتبين قصدهم السيئ، فعاد مكرهم في نحوهم، ورد الله كيدهم في صدورهم.

فلم يبق لهم إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، الذي هو سنة الله في الأولين، التي لا تبدل ولا تغير، أن كل من سار في الظلم والعناد والاستكبار على العباد، أن يحل به نقمته، وتسلب عنه نعمته، فليترقب هؤلاء، ما فعل بأولئك.

﴿٤٤ - ٤٥﴾ ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا

وما أشبه ذلك، فإنها من آثاره التي تكتب له، وكذلك عمل الشر.

ولهذا: «مَنْ سَنَّ سُنَّةَ حَسَنَةٍ فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةَ شَيْئَةٍ فَعَلَيْهِ وَزَرُهَا وَوَزَرَ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

وهذا الموضع، يبين لك علو مرتبة الدعوة إلى الله والهداية إلى سبيله بكل وسيلة وطريق موصل إلى ذلك، ونزول درجة الداعي إلى الشر الإمام فيه، وأنه أسفل الخليقة، وأشدّهم جرماً، وأعظمهم إثمًا.

﴿وكل شيء﴾ من الأعمال والنيات وغيرها ﴿أحصيناه في إمام مبين﴾ أي: كتاب هو أم الكتب وإليه مرجع الكتب، التي تكون بأيدي الملائكة، وهو اللوح المحفوظ.

﴿١٣ - ٣٠﴾ واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴿ إلى آخر القصة . أي : واضرب لهؤلاء المكذبين برسالتك ، الرادين لدعوتك ، مثلاً يعتبرون به ، ويكون لهم موعظة إن وفقوا للخير ، وذلك المثل : أصحاب القرية ، وما جرى منهم من التكذيب لرسل الله ، وما جرى عليهم من عقوبته ونكاله .

وتعيين تلك القرية، لو كان فيه فائدة، لعينها الله، فالتعرض لذلك وما أشبهه من باب التكلف والتكلم بلا علم، ولهذا إذا تكلم أحد في مثل هذا تجدد عنده من الخبط والخلط والاختلاف الذي لا يستقر له قرار، ما تعرف به أن طريق العلم الصحيح، الوقوف مع الحقائق، وترك التعرض لما لا فائدة فيه، وبذلك تزكو النفس، ويزيد العلم، من حيث يظن الجاهل أن زيادته بذكر الأقوال التي لا دليل عليها، ولا حجة عليها ولا يحصل منها من الفائدة إلا تشويش الذهن واعتناء الأمور المشكوك فيها.

والشاهد أن هذه القرية جعلها الله
مثلاً للمخاطبين. ﴿إِذْ جَاءَهَا

رؤوسهم إلى فوق، ﴿فهم مقمحون﴾ أي: رافعو رؤوسهم من شدة الغل الذي في أعناقهم، فلا يستطيعون أن يخفضوها.

«وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً» أي: حاجزاً يحجزهم عن الإيمان، «فهم لا يسمعون» قد غمرهم الجهل والشقاء من جميع جوانبهم، فلم تغد فيهم النذارة. «وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون» وكيف يؤمن من طبع على قلبه، ورأى الحق باطلاً والباطل حقاً؟! »

والقسم الثاني: الذين قبلوا النذارة، وقد ذكرهم بقوله: ﴿إِنَّمَا تَنْذَرُ﴾ أي: إِنَّمَا تَنْفَعُ نَذَارَتُكَ، ويتعظ بنصيحك ﴿مَنْ أَتَّبَعَ الذِّكْرَ﴾ [أي: مَنْ قَصَدَهُ اتَّبَعَ الْحَقَّ وَمَا ذَكَرَ بِهِ، وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ] أي: مَنْ أَتَّصَفَ بِهِذِينَ الْأَمْرِينَ، الْقَصْدُ الْحَسَنُ فِي طَلَبِ الْحَقِّ، وَخَشْيَةُ اللَّهِ تَعَالَى، فَهَمَّ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ بِرِسَالَتِكَ، وَيَزْكُونَ بِتَعْلِيمِكَ، وَهَذَا الَّذِي وَفَّقَ لَهُذِينَ الْأَمْرِينَ ﴿نَبِّشُرُهُ بِمَغْفَرَةٍ﴾ لِذُنُوبِهِ، ﴿وَأَجْرُ كَرِيمٍ﴾ لِأَعْمَالِهِ الصَّالِحَةِ، وَنِيَّتِهِ الْحَسَنَةِ.

﴿إنا نحن نحبي الموتى﴾ أي: نبعثهم بعد موتهم لنجازهم على الأعمال، ﴿ونكتب ما قدموا﴾ من الخير والشر، وهو أعمالهم التي عملوها وياشروها في حال حياتهم، ﴿وأثأروهم﴾ وهي آثار الخير وأثار الشر، التي كانوا هم السبب في إيجادها في حال حياتهم وبعد وفاتهم، وتلك الأعمال التي نشأت من أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، فكل خير عمل به أحد من الناس، بسبب علم العبد وتعليمه ونصحه، أو أمره بالمعروف، أو نهيهِ عن المنكر، أو علم أودعه عند المتعلمين، أو في كتب ينتفع بها في حياته وبعد موته، أو عمل خيراً، من صلاة أو زكاة أو صدقة أو إحسان، فاقنتى به غيره، أو عمل مسجداً، أو محلاً من المحال التي يرتفق بها الناس،

من الكتب، عادمين الرسل، قد عمتهم
الجهالة، وغمرتهم الضلالة،
وأضحكوا عليهم وعلى سفههم عقول
العالمين، فأرسل الله إليهم رسولا من
أنفسهم، يزيههم ويعلمهم الكتاب
والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي
ضلال مبين، فينذر العرب الأميين،
ومن لحق بهم من كل أمي، ويذكر أهل
الكتب بما عندهم من الكتب،
فنعمة الله به على العرب خصوصا،
وعلى غيرهم عموما. ولكن هؤلاء
الذين بعثت فيهم لإنذارهم بعدما
أنذرتهم، انقسموا قسمين: قسم رد ما
جئت به، ولم يقبل النذارة، وهم الذين
قال الله فيهم ﴿لقد حق القول على
أكثرهم فهم لا يؤمنون﴾ أي: نفذ
فيهم القضاء والمشيئة، أنهم لا يزالون
في كفرهم وشرهم، وإنما حق عليهم
القول بعد أن عرّض عليهم الحق
فرفضوه، فحيثذ عوقبوا بالطبع على
قلوبهم.

وذكر الموانع من وصول الإيمان لقلوبهم، فقال: ﴿إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً﴾ وهي جمع «غل» و «الغل»: ما يغل به العنق، فهو للعنق بمنزلة القيد للرجل، وهذه الأغلال التي في الأعناق^(١) عظيمة قد وصلت إلى أذنانهم ورفعت

(١) كذا في ب، وفي أ: الأذقان.



أوجد الله هذه الشمار، غير محتاجة لطبخ ولا شي، تؤخذ من أشجارها، فتؤكل في الحال. ﴿أفلا يشكرون﴾ من ساق لهم هذه النعم، وأسبغ عليهم من جوده وإحسانه، ما به تصلح أمور دينهم ودنياهم، أليس الذي أحيا الأرض بعد موتها، فأثبت فيها الزروع والأشجار، وأودع فيها لذيذ الشمار، وأظهر ذلك الجنى من تلك الغصون، وفجر الأرض اليابسة الميتة بالعيون، بقادر على أن يحيي الموتى؟ بل، إنه على كل شيء قدير.

﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها﴾ أي: الأصناف كلها، ﴿عما تنبت الأرض﴾ فنوع فيها من الأصناف ما يعسر تعداده. ﴿ومن أنفسهم﴾ فنوعهم إلى ذكر وأنثى، وفاوت بين خلقهم وخلقهم، وأوصافهم الظاهرة والباطنة. ﴿وما لا يعلمون﴾ من المخلوقات التي قد خلقت وغابت عن علمنا، والتي لم تخلق بعد، فسبحانه وتعالى أن يكون له شريك، أو ظهير، أو عوين، أو وزير، أو صاحبة، أو ولد، أو سمي، أو شبيه، أو مثيل في صفات كماله ونعوت جلاله، أو يعجزه شيء يريد.

﴿٣٧ - ٤٠﴾ ﴿وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون﴾ والنسلخ تجري مستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم. ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم﴾ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون. أي: ﴿وآية لهم﴾ على نفوذ مشيئة الله، وكمال قدرته، وإحيائه الموتى بعد موتهم. ﴿الليل نسلخ منه النهار﴾ أي: نزيل الضياء العظيم الذي طبق الأرض، فبدله بالظلمة، ونحلها محله ﴿فإذا هم مظلمون﴾ وكذلك نزيل هذه الظلمة، التي عمتهم وشملتهم، فتطلع الشمس، فتضيء الأفطار، وينتشر الخلق لمعاشهم ومصالحهم، ولهذا قال: ﴿والشمس تجري لمستقر

﴿٣١ - ٣٢﴾ ﴿ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون﴾ وإن كل لما جميع لدينا محضرون. يقول تعالى: ألم يروهؤلاء ويعتبروا بمن قبلهم من القرون المكذبة، التي أهلكها الله تعالى وأوقع بها عقابها، وأن جميعهم قد باد وهلك، فلم يرجع إلى الدنيا، ولن يرجع إليها، وسيعيد الله الجميع خلقاً جديداً، ويبعثهم بعد موتهم، ويحضرون بين يديه تعالى، ليحكم بينهم بحكمه العدل الذي لا يظلم مثقال ذرة، ﴿وإن تك حسنة يضاعفها، ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾.

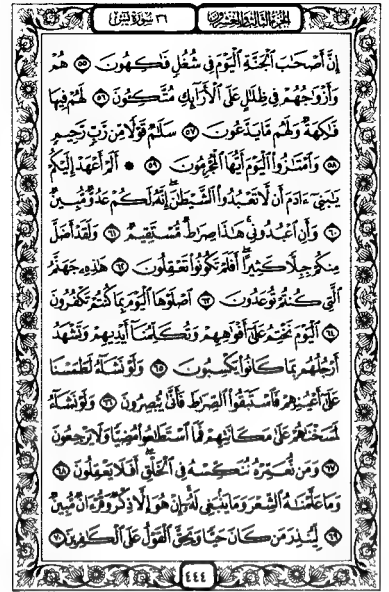
﴿٣٣ - ٣٦﴾ ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه ياكلون﴾ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون. ﴿ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم﴾ أفلا يشكرون. ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون﴾ أي: ﴿وآية لهم﴾ على البعث والنشور، والقيام بين يدي الله تعالى للجزاء على الأعمال، هذه ﴿الأرض الميتة﴾ أنزل الله عليها المطر، فأحيانا^(١) بعد موتها، وأخرجنا منها حبا فمنه ياكلون. من جميع أصناف الزروع، ومن جميع أصناف النبات، التي تأكله أنعامهم، وجعلنا فيها. أي: في تلك الأرض الميتة ﴿جنات﴾ أي: بساتين، فيها أشجار كثيرة، وخصوصاً النخيل والأعناب، اللذان هما أشرف الأشجار، ﴿وفجرنا فيها﴾ أي: في الأرض ﴿من العيون﴾

جعلنا في الأرض تلك الأشجار، والنخيل والأعناب، ﴿ليأكلوا من ثمره﴾ قوتاً وفاكهة، وأذماً ولذة، ﴿و﴾ الحال أن تلك الشمار ﴿ما عملته أيديهم﴾ وليس لهم فيه صنع، ولا عمل، إن هو إلا صنعة أحكم الحاكمين، وخير الرازقين، وأيضاً فلم تعمله أيديهم بطبخ ولا غيره، بل

بأنواع الثوبات والمسرات، أي: لو وصل علم ذلك إلى قلوبهم، لم يقيموا على شركهم.

قال الله في عقوبة قومه: ﴿وما أنزلنا على قومه﴾ من بعده من جند من السماء. أي: ما احتجنا أن نتكلف في عقوبتهم، فننزل جنداً من السماء لإتلافهم، ﴿وما كنا منزلين﴾ لعدم الحاجة إلى ذلك، وعظمة اقتدار الله تعالى، وشدة ضعف بني آدم، وأنهم أدنى شيء يصيبهم من عذاب الله يكفيهم. ﴿إن كانت﴾ أي: كانت عقوبتهم ﴿إلا صيحة واحدة﴾ أي: صوتاً واحداً، تكلم به بعض ملائكة الله، ﴿فإذا هم خامدون﴾ قد تقطعت قلوبهم في أجوافهم، وانزعجوا لتلك الصيحة، فأصبحوا خامدين، لا صوت ولا حركة، ولا حياة بعد ذلك العنو والاستكبار، ومقابلة أشرف الخلق بذلك الكلام القبيح، وتجبرهم عليهم.

قال الله متوجعاً للعباد: ﴿يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن﴾ أي: ما أعظم شقاءهم، وأطول عناءهم، وأشد جهلهم، حيث كانوا بهذه الصفة القبيحة، التي هي سبب لكل شقاء وعذاب ونكال!!



معارضين للحق، محتجين بالمشيئة: ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الآ في ضلال ميين] حيث تأمرونا بذلك.

وهذا مما يدل على جهلهم العظيم، أو تجاهلهم الوخيم، فإن المشيئة ليست حجة لعاص أبداً، فإنه وإن كان ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فإنه تعالى مكن العباد، وأعطاهم من القوة ما يقدرون على فعل الأمر واجتناب النهي، فإذا تركوا ما أمروا به، كان ذلك اختياراً منهم، لا جبراً لهم وقهراً.

﴿ويقولون﴾ على وجه التكذيب والاستعجال: ﴿متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ قال الله تعالى: لا يستبعدوا ذلك، فإنه [عن] قريب ﴿ما ينظرون إلا صيحة واحدة﴾ وهي نفخة الصور ﴿تأخذهم﴾ أي: تصيبهم ﴿وهم يخضمون﴾ أي: وهم لا همون عنها، لم تحط على قلوبهم في حال خصومتهم، وتشاجرهم بينهم، الذي لا يوجد في الغالب إلا وقت الغفلة، وإذا أخذتهم وقت غفلتهم، فإنهم لا ينظرون ولا يمهلون ﴿فلا يستطيعون توصية﴾ أي: لا قليلة ولا كثيرة ﴿ولا إلى أهلهم يرجعون﴾

﴿٥١-٥٤﴾ ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون ﴿قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ النفخة الأولى، هي نفخة الفزع والموت، وهذه نفخة البعث والنشور، فإذا نفخ في الصور، خرجوا من الأجداث والقبور، ينسلون إلى ربهم، أي: يسرعون للحضور بين يديه، لا يتمكنون من التأني والتأخر، وفي تلك الحال، يحزن المكذبون، ويظهرون الحسرة والندم، ويقولون:

﴿يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا﴾ أي: من رقدتنا في القبور، لأنه ورد في بعض الأحاديث، أن لأهل القبور رقدة قبيل النفخ في الصور، فيجالبون، فيقال [لهم]: ﴿هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون﴾ أي: هذا الذي وعدكم الله به، ووعدتكم به الرسل، فظهر صدقهم رأي عين.

ولا تحسب أن ذكر الرحمن في هذا الموضع، لمجرد الخبر عن وعده، وإنما ذلك للإخبار بأنه في ذلك اليوم العظيم، سيرون من رحمته ما لا يحيط به الظنون، ولا حسب به الحاسبون، كقوله: ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ وخشعت الأصوات للرحمن ﴿ونحو ذلك، بما يذكر اسمه الرحمن في هذا.

﴿إن كانت﴾ البعثة من القبور ﴿إلا صيحة واحدة﴾ ينفخ فيها إسرافيل في الصور، فتحي الأجساد، فإذا هم جميع لدينا محضرون ﴿الأولون والآخرون، والإنس والجن، ليحاسبا على أعمالهم.

﴿فاليوم لا تظلم نفس شيئاً﴾ لا ينقص من حسناتها، ولا يزداد في سيئاتها، ﴿ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ من خير أو شر، فمن وجد خيراً فليحمد الله على ذلك، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

﴿٥٥-٥٨﴾ إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون ﴿هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون﴾ لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ﴿سلام قولاً من رب رحيم﴾ [لما ذكر تعالى] أن كل أحد لا يجازي إلا ما عمله، ذكر جزاء الفريقين، فبدأ بجزاء أهل الجنة، وأخبر أنهم في ذلك اليوم ﴿في شغل فاكهون﴾ أي: في شغل مفكه للنفس، مُلذ لها، من كل ما تهواه النفوس، وتلذذ العيون، ويتمناه التمتنون.

ومن ذلك افتضاض العذارى الجميلات، كما قال: ﴿هم وأزواجهم﴾ من الحور العين، اللاتي قد

الغرق، و [لهذا] نبههم على نعمته عليهم حيث ^(١) أنجاهم مع قدرته على ذلك، فقال: ﴿وإن نشأ نفركهم فلا صريخ لهم﴾ أي: لا أحد يصرخ لهم فيعاونهم على الشدة، ولا يزيل عنهم المشقة، ﴿ولا هم ينجذون﴾ مما هم فيه، ﴿إلا رحمة منا ومناعاً إلى حين﴾ حيث لم نفركهم، لطفاً بهم، وتمتعاً لهم إلى حين، لعلهم يرجعون، أو يستدركون ما فرط منهم.

﴿وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم﴾ أي: من أحوال البرزخ والقيامة، وما في الدنيا من العقوبات لعلكم ترحمون ﴿أعرضوا عن ذلك، فلم يرفعوا به رأساً، ولو جاءهم كل آية، ولهذا قال: ﴿وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين﴾. وفي إضافة الآيات إلى ربهم، دليل على كمالها ووضوحها، لأنه ما أبين من آية من آيات الله، ولا أعظم بياناً.

وإن من جملة تربية الله لعباده، أن أوصل إليهم الآيات التي يستدلون بها على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم.

﴿وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله﴾ أي: من الرزق الذي من به الله عليكم، ولو شاء لسلبكم إياه، ﴿قال الذين كفروا للذين آمنوا﴾

كانوا يكسبون* أي: تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوه، وينطقها الذي أنطق كل شيء.

﴿ولو نشاء لطمسنا على أعينهم﴾ بأن نذهب أبصارهم، كما طمسنا على نطقهم. ﴿فاستبقوا الصراط﴾ أي: فبادروا إليه، لأنه الطريق إلى الوصول إلى الجنة، ﴿فأنى يبصرون﴾ وقد طمسنا أبصارهم.

﴿ولو نشاء لمسخناهم على مكائهم﴾ أي: لأذهبنا حركتهم ﴿فما استطاعوا مضياً﴾ إلى الأمام ﴿ولا يرجعون﴾ إلى ورائهم ليعبدوا عن النار. والمعنى: أن هؤلاء الكفار، حقت عليهم كلمة العذاب، ولم يكن بُدٌّ من عقابهم.

وفي ذلك الموطن، ما تمَّ إلا النار قد برزت، وليس لأحد نجاة إلا بالعبور على الصراط، وهذا لا يستطيعه إلا أهل الإيمان، الذين يمشون في نورهم، وأما هؤلاء، فليس لهم عند الله عهد في النجاة من النار؛ فإن شاء طمس أعينهم وأبقى حركتهم، فلم يهتدوا إلى الصراط لو استبقوا إليه وبادروه، وإن شاء أذهب حراكهم فلم يستطيعوا التقدم ولا التأخر. المقصود: أنهم لا يعبرونه، فلا تحصل لهم النجاة.

﴿٦٨﴾ ﴿ومن نمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون﴾ يقول تعالى: ﴿ومن نمره﴾ من بني آدم ﴿ننكسه في الخلق﴾ أي: يعود إلى الحالة التي ابتدأ حالة الضعف، ضعف العقل، وضعف القوة. ﴿أفلا يعقلون﴾ أن الآدمي ناقص من كل وجه، فيتداركوا قوتهم وعقولهم، فيستعملونها في طاعة ربهم.

﴿٦٩ - ٧٠﴾ ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين﴾ لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين ﴿ينزه تعالى نبيه محمداً ﷺ عما رماه به المشركون، من أنه شاعر، وأن الذي جاء به شعر فقال: ﴿وما علمناه الشعر وما ينبغي له﴾ أن يكون شاعراً، أي: هذا من

المجرمون* أي: تميزوا عن المؤمنين، وكونوا على حدة، ليوبخهم ويقرعهم على رؤوس الأشهاد قبل أن يدخلهم النار، فيقول لهم: ﴿ألم أعهد إليكم﴾ أي: أمركم وأوصيكم، على السنة رسلي، [وأقول لكم]: ﴿يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان﴾ أي: لا تطيعوه؟ وهذا التوبيخ، يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر والمعاصي، لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له، ﴿إنه لكم عدو مبين﴾ فحذرتكم منه غاية التحذير، وأنذرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه، ﴿و﴾ أمرتكم ﴿أن اعبدوني﴾ بامثال أوامري وترك زواجري، ﴿هذا﴾ أي: عبادتي وطاعتي، ومعصية الشيطان ﴿صراط مستقيم﴾ فعلوم الصراط المستقيم وأعماله ترجع إلى هذين الأمرين، أي: فلم تحفظوا عهدي، ولم تعملوا بوصيتي، فواليتم عدوكم، ف ﴿أضل منكم جبلاً كثيراً﴾ أي: خلقاً كثيراً. ﴿أفلم تكونوا تعقلون﴾ أي: فلا كان لكم عقل يأمركم بموالاة ربكم ووليكم الحق، ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم ولياً، فلو كان لكم عقل صحيح لما تعلمت ذلك، فإذا أظلمت الشيطان، وعاديتم الرحمن، وكذبتم بلقاؤه، ووردتم القيامة دار الجزاء، وحق عليكم القول بالعذاب ف ﴿هذه جهنم التي كنتم توعدون﴾ وتكذبون بها، فانظروا إليها عياناً، فهناك تنزعج منهم القلوب، وتزوغ الأبصار، ويحصل الفزع الأكبر.

ثم يكمل ذلك، بأن يؤمر بهم إلى النار، ويقال لهم: ﴿اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون﴾ أي: ادخلوها على وجه تصلاكم، ويحيط بكم حرها، ويبلغ منكم كل مبلغ، بسبب كفركم بآيات الله، وتكذيبكم لرسول الله.

قال الله تعالى في بيان وصفهم الفظيع في دار الشقاء: ﴿اليوم نختم على أفواههم﴾ بأن نجعلهم خرساً فلا يتكلمون، فلا يقدرون على إنكار ما عملوه من الكفر والتكذيب. ﴿وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما

جمعن حسن الوجوه والأبدان وحسن الأخلاق. ﴿في ظلال على الأرائك﴾ أي: على السرر المزينة باللباس المزخرف الحسن. ﴿متكئون﴾ عليها، اتكاء على كمال الراحة والطمأنينة واللذة.

﴿لهم فيها فاكهة﴾ كثيرة، من جميع أنواع الثمار اللذيذة، من غناب وتين ورمان، وغيرها، ﴿ولهم ما يدعون﴾ أي: يطلبون، فمهما طلبوه وتمنوه أدركوه.

ولهم أيضاً ﴿سلام﴾ حاصل لهم ﴿من رب رحيم﴾ ففي هذا كلام الرب تعالى لأهل الجنة وسلامه عليهم، وأكده بقوله: ﴿قولا﴾ وإذا سلم عليهم الرب الرحيم، حصلت لهم السلامة التامة من جميع الوجوه، وحصلت لهم التحية، التي لا تحية أعلى منها، ولا نعيم مثلها، فما ظنك بتحية ملك الملوك، الرب العظيم، الرؤوف الرحيم، لأهل دار كرامته، الذي أحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً، فلولا أن الله تعالى قدر أن لا يموتوا، أو تزول قلوبهم عن أماكنها من الفرح والبهجة والسرور، لحصل ذلك.

فمرجور ربنا أن لا يحرمننا ذلك النعيم، وأن يمتنعنا بالنظر إلى وجهه الكريم.

﴿٥٩ - ٦٧﴾ ﴿وامتازوا اليوم أيها المجرمون﴾ ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين* وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم* ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون* هذه جهنم التي كنتم توعدون* اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون* اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون* ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون* ولو نشاء لمسخناهم على مكائهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون* لما ذكر تعالى جزاء المتقين، ذكر جزاء المجرمين ﴿و﴾ أنهم يقال لهم يوم القيامة ﴿امتازوا اليوم أيها

جنس المحال أن يكون شاعراً، لأنه رشيد مهتد، والشعراء غاؤون، يتبعهم الغاؤون، ولأن الله تعالى حسم جميع الشبه التي يتعلّق بها الضالون على رسوله، فحسّم أن يكون يكتب أو يقرأ، وأخبر أنه ما علمه الشعر وما ينبغي له، «إن هو إلا ذكر وقرآن مبين» أي: ما هذا الذي جاء به إلا ذكر يتذكر به أولو الألباب، جميع المطالب الدينية، فهو مشتمل عليها أتم اشتمال، وهو يذكر العقول، ما ركز الله في فطرها من الأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح.

﴿وَقُرْآنٌ مِّبِينٌ﴾ أي: مبين لما يطلب بيانه. ولهذا حذف المفعول، ليدل على أنه مبين لجميع الحق، بأدلته التفصيلية والإجمالية، والباطل وأدلة بطلانه، أنزله الله كذلك على رسوله.

﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي: حي القلب واعيه، فهو الذي يزكو على هذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه والعمل، ويكون القرآن لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية. «ويحق القول على الكافرين» لأنهم قامت عليهم به حجة الله، وانقطع احتجاجهم، فلم يبق لهم أدنى عذر وشبهة يُدّلون بها.

﴿٧١- ٧٣﴾ «أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون * وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون * ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون» يأمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخر لهم من الأنعام وذلّلها، وجعلهم مالكين لها، مطاوعة لهم في كل أمر يريدونه منها، وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم وحمل أنقاعهم ومخاضهم وأمتعتهم من محل إلى محل، ومن أكلهم منها، وفيها دفء، ومن أوبارها وأشعارها وأصوافها أثاثاً ومتاعاً إلى حين، وفيها زينة وجمال، وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها، «أفلا

يشكرون» الله تعالى الذي أنعم بهذه النعم، ويخلصون له العبادة ولا يتمتعون بها تمتعاً خالياً من العبرة والفكرة.

﴿٧٤- ٧٥﴾ «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يَنْصُرُونَ * لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ» هذا بيان لبطلان آلهة المشركين، التي ^(١) اتخذوها مع الله تعالى، ورجوا نصرها وشفعها، فإنها في غاية العجز «لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ» ولا أنفسهم ينصرون، فإذا كانوا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ، فكيف ينصرونهم؟ والنصر له شرطان: الاستطاعة [والقدرة] ^(٢)، فإذا استطاع، يبقى: هل يريد نصره من عبده أم لا؟ فَتَقَيَّيْ الاستطاعة، ينفي الأمرين كليهما.

﴿وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ أي: محضرون هم وهم في العذاب، ومتبرئ بعضهم من بعض، أفلا تبرأوا في الدنيا من عبادة هؤلاء، وأخلصوا العبادة للذي بيده الملك والنفع والضرر، والعطاء والمنع، وهو الولي النصير؟

﴿٧٦﴾ «فَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونُ» أي: فلا يحزنك يا أيها الرسول، قول المكذبين، والمراد بالقول: ما دل عليه السياق، كل قول يقدحون فيه في الرسول، أو فيما جاء به.

أي: فلا تشغل قلبك بالحزن عليهم «إِنَّا نَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ» فنجازيم على حسب علمنا بهم، وإلا فقولهم لا يضرك شيئاً.

﴿٧٧- ٨٣﴾ «أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين * وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم * قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم * الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون *

أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم * إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون» هذه الآيات الكريمت، فيها [ذكر] شبهة منكري البعث، والجواب عنها بأتم جواب وأحسنه وأوضحه، فقال تعالى: «أولم ير الإنسان» المنكر للبعث والشاك فيه، أمراً يفيد اليقين التام بوقوعه، وهو ابتداء خلقه «من نطفة» ثم تنقله في الأطوار شيئاً فشيئاً، حتى كبر وشب، وتم عقله واستتب، «فإذا هو خصيم مبين» بعد أن كان ابتداء خلقه من نطفة، فلينظر التفاوت بين هاتين الحالتين، وليعلم أن الذي أنشأه من العدم، قادر على أن يعيده بعدما تفرق وتمزق، من باب أولى.

﴿وضرب لنا مثلاً﴾ لا ينبغي لأحد أن يضربه، وهو قياس قدرة الخالق بقدرة المخلوق، وأن الأمر المستبعد على قدرة المخلوق مستبعد على قدرة الخالق.

فسر هذا المثل [بقوله]: «قال» ذلك الإنسان «مَنْ يَحْيِي العظام وهي رميم» أي: هل أحد يحييها؟ استفهام إنكار، أي: لا أحد يحييها بعدما بليت وتلاشت.

هذا وجه الشبهة والمثل، وهو أن هذا أمر في غاية البعد على ما يعهد من قدرة البشر، وهذا القول الذي صدر من هذا الإنسان غفلة منه، ونسيان لا ابتداء خلقه، فلو فطن لخالقه بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً فوجد عياناً، لم يضرب هذا المثل.

فأجاب تعالى عن هذا الاستبعاد بجواب شاف كاف، فقال: «قل يحييها الذي أنشأها أول مرة» وهذا بمجرد تصوره، يعلم به علماً يقيناً لا شبهة فيه، أن الذي أنشأها أول مرة

(١) كذا في ب، وفي أ: الذي.

(٢) زيادة من هامش ب، ويبدو - والله أعلم - أن الشرطين هما: الاستطاعة والإرادة، وبقية كلام الشيخ - رحمه الله - يدل على ذلك.

قادر على الإعادة ثاني مرة، وهو أهون على القدرة إذا تصوره المتصور، وهو بكل خلق عليم.

هذا أيضاً دليل ثان من صفات الله تعالى، وهو أن علمه تعالى محيط بجميع مخلوقاته في جميع أحوالها، في جميع الأوقات، ويعلم ما تنقص الأرض من أجساد الأموات وما يبقى، ويعلم الغيب والشهادة، فإذا أقر العبد بهذا العلم العظيم، علم أنه أعظم وأجل من إحياء الله الموتى من قبورهم.

ثم ذكر دليلاً ثالثاً الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون* فإذا أخرج [النار] اليابسة من الشجر الأخضر، الذي هو في غاية الرطوبة، مع تضادها وشدة تحالفهما، فإخراجه الموتى من قبورهم مثل ذلك. ثم ذكر دليلاً رابعاً فقال: أوليس الذي خلق السماوات والأرض* على سعتهم وعظمتهم* بقادر على أن يخلق مثلهم* أي: [أن] يعيدهم [بأعيانهم]. بلى* قادر على ذلك، فإن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس. وهو الخلاق العليم. وهذا دليل خامس، فإنه تعالى الخلاق، الذي جميع المخلوقات، متقدمها ومتأخرها، صغيرها وكبيرها، كلها أثر من آثار خلقه وقدرته، وأنه لا يستعصي عليه مخلوق أراد خلقه.

فإعادته للأموات، فرد من أفراد [آثار] خلقه، ولهذا قال: [إنما أمره إذا أراد شيئاً] نكرة في سياق الشرط، فتعم كل شيء. [أن يقول له كن فيكون] أي: في الحال من غير تمنع.

فنبحان الذي بيده ملكوت كل شيء* وهذا دليل سادس، فإنه تعالى هو الملك المالك لكل شيء، الذي جميع ما سكن في العالم العلوي والسفلي ملك له، وعبيد مسخرون ومدبرون، يتصرف فيهم بأقداره الحكمية، وأحكامه الشرعية، وأحكامه الجزائية. فإعادته إياهم بعد موتهم، لينفذ

فيهم حكم الجزاء، من تمام ملكه، ولهذا قال: [وليه ترجعون] من غير امتراء ولا شك، لتواتر البراهين القاطعة والأدلة الساطعة على ذلك. فتبارك الذي جعل في كلامه الهدى والشفاء والنور.

تم تفسير سورة يس، فلهذا [تعالى] الحمد كما ينبغي لجلاله، وله الثناء كما يليق بكماله، وله المجد كما تستدعيه عظمته وكبريائه، وصلى الله على محمد وآله وسلم

تفسير سورة الصفات، وهي مكية

﴿١- ١١﴾ بسم الله الرحمن الرحيم والصفات صفاً* فالزاجرات زجراً* فالتاليات ذكراً* إن إلهكم لواحد* رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق* إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب* وحفظاً من كل شيطان مارد* لا يسمعون إلى الملاء الأعلى ويصدقون من كل جانب* دحوراً ولهم عذاب واصب* إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب* فاستفتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب* هذا قسم منه تعالى بالملائكة الكرام، في حال عبادتها وتبديرها ما تدبره بإذن ربها، على ألوهيته تعالى وربوبيته، فقال: ﴿والصفات﴾ صفاً أي: صفوفاً في خدمة ربهم، وهم الملائكة، ﴿فالزاجرات زجراً﴾ وهم الملائكة، يزجرون السحاب وغيره بأمر الله، ﴿فالتاليات ذكراً﴾ وهم الملائكة الذين يتلون كلام الله تعالى.

فلما كانوا متألّهين لربهم، ومتعبدين في خدمته، ولا يعصونه طرفة عين، أقسم بهم على ألوهيته فقال: ﴿إن إلهكم لواحد﴾ ليس له شريك في الإلهية، فأخلصوا له الحب والخوف والرجاء، وسائر أنواع العبادة. ﴿رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق﴾ أي: هو الخالق

لهذه المخلوقات، والرازق لها، المدبر لها، فكما أنه لا شريك له في ربوبيته إياها، فكذلك لا شريك له في ألوهيته، وكثيراً ما يقرر تعالى توحيد الإلهية بتوحيد الربوبية، لأنه دال عليه. وقد أقر به أيضاً المشركون في العبادة، فيلزمهم بما^(١) أقروا به على ما أنكروه.

وخص الله المشارق بالذكر، لدلائلها على المغارب، أو لأنها مشارق النجوم التي سيذكرها، فلهاذا قال: ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾ وحفظاً من كل شيطان مارد* لا يسمعون إلى الملاء الأعلى* ذكر الله في الكواكب هاتين الفائدتين العظيمتين:

إحداها: كونها زينة للسماء، إذ لولاها، لكانت السماء جرمًا مظلماً لا ضوء فيها، ولكن زينها فيها لتستثير أرجاؤها، وتحسن صورتها، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، ويحصل فيها من المصالح ما يحصل.

والثانية: حراسة السماء عن كل شيطان مارد، يصل بتمرده إلى استماع الملاء الأعلى، وهم الملائكة، فإذا استمعت قذفتها بالشهب الثواقب* من كل جانب* طرداً لهم، وإبعاداً عن استماع ما يقول الملاء الأعلى.

صلصالٍ من حمٍ مسنونٍ ﴿١٢﴾ - الأولون ﴿١٣﴾

ولما كان هذا منتهى ما عندهم، وغاية ما لديهم، أمر الله رسوله أن يجيبهم بجواب مشتمل على ترهيبهم^(١)، فقال: ﴿قل نعم﴾ ستبعثون، أنتم وآبائكم الأولون ﴿وأنتم داخرون﴾ ذليلون صاغرون، لا تمتنعون، ولا تستعصون على قدرة الله.

﴿فإنما هي زجرة واحدة﴾ ينفخ إسرافيل فيها في الصور ﴿فإذا هم﴾ مبعوثون من قبورهم ﴿ينظرون﴾ كما ابتدء خلقهم، بعثوا بجميع أجزائهم، حفاة عراة غرلا، وفي تلك الحال، يظهر الندم والخزي والخسار، ويدعون بالويل والثبور.

﴿وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين﴾ فقد أقروا بما كانوا في الدنيا به يستهزون.

فيقال لهم: ﴿هذا يوم الفصل﴾ بين العباد فيما بينهم وبين ربهم من الحقوق، وفيما بينهم وبين غيرهم من الخلق.

﴿٢٢-٢٦﴾ ﴿احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون﴾ من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ﴿وقفوه﴾ إنهم مسؤولون ﴿ما لكم لا تناصرون﴾ بل هم اليوم مستسلمون ﴿أي: إذا أحضروا يوم القيامة، وعانوا ما به يكذبون، ورأوا ما به يستسخرون، يؤمر بهم إلى النار، التي بها كانوا يكذبون، فيقال: ﴿احشروا الذين ظلموا﴾ أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي، ﴿وأزواجهم﴾ الذين من جنس عملهم، كل يضم إلى من يجانسه في العمل.

﴿وما كانوا يعبدون﴾ من دون الله، من الأصنام والأنداد التي زعموها، فاجعوهم جميعاً ﴿فاهدوهم﴾ إلى صراط الجحيم ﴿أي: سوقوهم﴾ سوفاً عنيفاً إلى جهنم، وبعد ما يتعين أمرهم إلى النار، ويعرفون أنهم من أهل

ويستسخرون * وإذا ذكروا لا يذكرون * وقالوا إن هذا إلا سحر مبين * أءذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإننا لمبعوثون * أو آباءنا الأولون * قل نعم وأنتم داخرون * فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون * وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين * هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون ﴿٢١﴾ ﴿١٢﴾ بل عجبنا عجبنا يا أيها الرسول وأياها الإنسان، من تكذيب من كذب بالبعث، بعد أن أريتهم من الآيات العظيمة والأدلة المستقيمة، وهو حقيقة محل عجب واستغراب، لأنه بما لا يقبل الإنكار، ﴿و﴾ أعجب من إنكارهم وأبلغ منه، أنهم ﴿يسخرون﴾ ممن جاء بالخبر عن البعث، فلم يكفهم مجرد الإنكار، حتى زادوا السخرية بالقول الحق.

﴿و﴾ من العجب أيضاً أنهم ﴿إذا ذكروا﴾ ما يعرفون في فطرمهم وعقولهم، وفطنوا له، وألفت نظرهم إليه ﴿لا يذكرون﴾ ذلك، فإن كان جهلاً، فهو من أدل الدلائل على شدة بلائتهم العظيمة، حيث ذكروا ما هو مستقر في الفطر، معلوم بالعقل، لا يقبل الإشكال، وإن كان تجاهلاً وعناداً، فهو أعجب وأغرب.

ومن العجب [أيضاً] أنهم إذا أقيمت عليهم الأدلة، وذكروا الآيات التي يخضع لها فحول الرجال والباب الألباء، يسخرون منها ويعجبون. ومن العجب أيضاً، قولهم للحق لما جاءهم: ﴿إن هذا إلا سحر مبين﴾ فجعلوا أعلى الأشياء وأجلها، وهو الحق، في رتبة أخس الأشياء وأحقها.

ومن العجب أيضاً، قياسهم قدرة رب الأرض والسموات، على قدرة آدمي الناقص من جميع الوجوه، فقالوا استبعاداً وإنكاراً: ﴿إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أإننا لمبعوثون﴾ أو آباءنا



﴿ولهم عذاب واصب﴾ أي: دائم، معد لهم، لتمردهم عن طاعة ربهم.

ولولا أنه [تعالى] استثنى، لكان ذلك دليلاً على أنهم لا يستمعون شيئاً أصلاً، ولكن قال: ﴿إلا من خطف الخطفة﴾ أي: إلا من تلقف من الشياطين المردة، الكلمة الواحدة على وجه الخفية والسرقه، ﴿فاتبه شهاب ثاقب﴾ تارة يدركه قبل أن يوصلها إلى أوليائه، فينقطع خبر السماء، وتارة يخبر بها قبل أن يدركه الشهاب، فيكذبون معها مئة كذبة يروجونها بسبب الكلمة التي سمعت من السماء.

ولما بين هذه المخلوقات العظيمة قال: ﴿فاستفهم﴾ أي: اسأل منكري خلقهم بعد موتهم، ﴿أهم أشد خلقاً﴾ أي: إيجادهم بعد موتهم، أشد خلقاً وأشق؟ ﴿أم من خلقنا﴾ من [هذه] المخلوقات؟ فلا بد أن يقرؤا أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس.

فيلزمهم إذا الإقرار بالبعث، بل لو رجعوا إلى أنفسهم وفكروا فيها، لعلموا أن ابتداء خلقهم من طين لازب، أصعب عند الفكر من إنشائهم بعد موتهم، ولهذا قال: ﴿إننا خلقناهم من طين لازب﴾ أي: قوي شديد كقوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من



«و» الحال أنه «ما كان لنا عليكم من سلطان» أي: قهر لكم على اختيار الكفر «بل كنتم قوماً طاعين» متجاوزين للحد^(١).

«فحق علينا» نحن وإياكم «إنا لذائقون» العذاب، أي: حق علينا قدر ربنا وقضاؤه، أنا وإياكم سندوق العذاب، ونشترك في العقاب «ف» لذلك «أغويناكم إنا كنا غاوين» أي: دعوناكم إلى طريقتنا التي نحن عليها، وهي الغواية، فاستجبتم لنا، فلا تلومونا ولوموا أنفسكم.

قال تعالى: «فإنهم يومئذ» أي: يوم القيامة «في العذاب مشتركون» وإن تفاوتت مقادير عذابهم بحسب جرمهم، كما اشتركوا في الدنيا على الكفر، اشتركوا في الآخرة بجزائهم، ولهذا قال: «إنا كذلك نفعل بالمجرمين» ثم ذكر أن إجرامهم قد بلغ الغاية وجاوز النهاية، فقال: «إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله» فدعوا إليها، وأمروا بترك إلهية ما سواه «يستكبرون» عنها وعلى من جاء بها.

«ويقولون» معارضة لها: «إنا لتاركوا آلِهتنا» التي لم نزل نعبدنا نحن وآباؤنا «ل» قول «شاعر مجنون» يعنون محمداً ﷺ، فلم يكفهم - قبحهم الله - الإعراض عنه، ولا مجرد تكذيبه، حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام، وجعلوه شاعراً مجنوناً، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل خلق الله، وأعظمهم رأياً.

ولهذا قال تعالى: ناقضاً لقولهم: «بل جاء» محمد «بالحق» أي: بحجته حق، وما جاء به من الشرع والكتاب حق. «وصدق المرسلين» [أي: وحجته صدق المرسلين] فلولا حجته وإرساله لم يكن الرسل صادقين، فهو آية ومعجزة لكل رسول قبله، لأنهم أخبروا به وبشروا، وأخذ الله عليهم العهد والميثاق، لئن جاءهم ليؤمنن به

دار البوار، يقال: «وقفوهم» قبل أن تصلوهم إلى جهنم «إنهم مسؤولون» عما كانوا يفترونه في الدنيا، ليظهر على رؤوس الأشهاد كذبهم وفضيحتهم.

فيقال لهم: «مالك لا تناصرون» أي: ما الذي جرى عليكم اليوم؟ وما الذي طرقكم لا ينصر بعضكم بعضاً، ولا يغيث بعضكم بعضاً، بعدما كنتم تزعمون في الدنيا، أن آلِهتكم ستدفع عنكم العذاب وتغيثكم وتشفع لكم عند الله، فكأنهم لا يجيبون هذا السؤال، لأنهم قد علاهم الذل والصغار، واستسلموا للعذاب النار، وخشعوا وخضعوا وأبلسوا، فلم ينطقوا.

ولهذا قال: «بل هم اليوم مستسلمون».

«٢٧ - ٣٩» «وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون» قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين * قالوا بل لم تكونوا مؤمنين * وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاعين * فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون * فأغويناكم إنا كنا غاوين * فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون * إنا كذلك نفعل بالمجرمين * إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون أءنا لتاركوا آلِهتنا لشاعر مجنون * بل جاء بالحق وصدق المرسلين * إنكم لذائقوا العذاب الأليم * وما تجزون إلا ما كنتم تعملون * لما جمعوا هم وأزواجهم وآلِهتهم، وهدوا إلى صراط الجحيم، ووقفوا، فستلوا، فلم يجيبوا، أقبلوا فيما بينهم، يلوم بعضهم بعضاً على إضلالهم وضلالهم، فقال الأتباع للمتبعين الرؤساء: «إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين» أي: بالقوة والغلبة، فضللونا، ولولا أنتم لكانا مؤمنين.

«قالوا» لهم: «بل لم تكونوا مؤمنين» أي: ما زلتم مشركين، كما نحن مشركون، فأى: شيء فضلكم علينا؟ أي: شيء يوجب لومنا؟

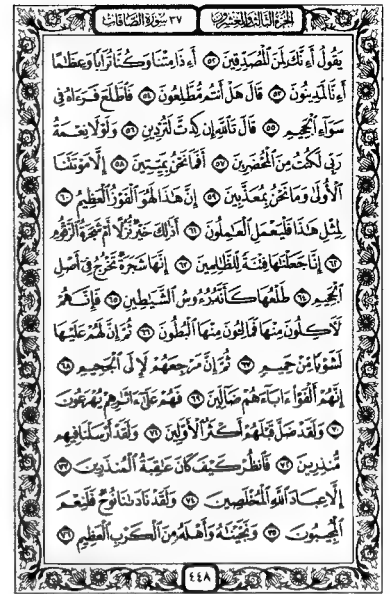
ولينصره، وأخذوا ذلك على أعينهم، فلما جاء ظهر صدق الرسل الذين قبله، وتبين كذب من خالفهم، فلو قدر عدم حجته، وهم قد أخبروا به، لكان ذلك قادحاً في صدقهم.

وصدق أيضاً المرسلين، بأن جاء بما جاؤوا به، ودعاه إلى ما دعوا إليه، وآمن بهم، وأخبر بصحة رسالتهم ونبوتهم وشرعهم.

ولما كان قولهم السابق: «إنا لذائقون» قولاً صادراً منهم، يحتمل أن يكون صدقاً أو غيره، أخبر تعالى بالقول الفصل الذي لا يحتمل غير الصدق واليقين، وهو الخبر الصادر منه تعالى، فقال: «إنكم لذائقوا العذاب الأليم» أي: المؤلم الموجه، «وما تجزون» في إذاقة العذاب الأليم «إلا ما كنتم تعملون» فلم نظلمكم، وإنما عدلنا فيكم؟

ولما كان هذا الخطاب لفظه عاماً، والمراد به المشركون، استثنى تعالى المؤمنين فقال:

«٤٩ - ٤٩» «إلا عباد الله المخلصين» أولئك لهم رزق معلوم * فواكه وهم مكرمون * في جنات النعيم * على سرر متقابلين * يطفأ عليهم بكأس من معين * بيضاء لذة للشاربين * لا فيها غول ولا هم عنها



الفاخرة، المزخرفة الجميلة، فهم متكئون عليها على وجه الراحة والطمأنينة والفرح. ﴿متقابلين﴾ فيما بينهم، قد صفت قلوبهم ومحبتهم فيما بينهم، ونعموا باجتماع بعضهم مع بعض، فإن مقابلة وجوههم، تدل على تقابل قلوبهم، وتآدب بعضهم مع بعض، فلم يستدبره أو يجعله إلى جانبه، بل من كمال السرور والأدب ما دل عليه ذلك التقابل.

﴿يطاف عليهم بكأس من معين﴾ أي: يتردد الولدان المستعدون لخدمتهم بالأشربة اللذيذة، بالكاسات الجميلة المنظر، المترعة من الرحيق المختوم بالمسك، وهي كاسات الخمر.

وتلك الخمر، تخالف خمر الدنيا من كل وجه، فإنها في لونها ﴿بيضاء﴾ من أحسن الألوان، وفي طعمها ﴿لذة للشاربين﴾ يتلذذ شاربيها بها وقت شربها وبعده، وأنها سالمة من غول العقل وزهابه ونزفه ونزف مال صاحبا، وليس فيها صداع ولا كدر، فلما ذكر طعامهم وشرابهم ومجالسهم وعموم النعيم وتفاصيله داخلية في قوله: ﴿جنات النعيم﴾.

لكن فصل هذه الأشياء لتعلم فتشاق النفوس إليها، ذكر أزواجهم فقال: ﴿وعندهم قاصرات الطرف عين﴾ أي: وعند أهل دار النعيم، في محلاتهم القريبة، حور حسان، كاملات الأوصاف، قاصرات الطرف، إما أنها قصرت طرفها على زوجها، لعفتها وعدم مجاوزته لغيره، ولجمال زوجها وكماله، بحيث لا تطلب في الجنة سواه، ولا ترغب إلا به، وإما لأنها قصرت طرف زوجها عليها، وذلك يدل على كمالها وجمالها الفائق، الذي أوجب لزوجها أن يقصر طرفه عليها، وقصر الطرف أيضاً، يدل على قصر النفس والمحبة عليها، وكلا المعنيين محتمل، وكلاهما صحيح، و [كل] هذا يدل على جمال الرجال والنساء في الجنة، ومحبة بعضهم بعضاً، محبة لا يطمح إلى غيره، وشدة عفتهم كلهم، وأنه لا حسد فيها ولا تباضض

ولا تشاحن، وذلك لانقضاء أسبابه. ﴿عين﴾ أي: حسن الأعين جيلانها، ملاح الحديق، ﴿كانهن﴾ أي: الحور ﴿بيض مكنون﴾ أي: مستور، وذلك من حسنهن وصفائهن وكون ألوانهن أحسن الألوان وأبهاها، ليس فيه كدر ولا شين.

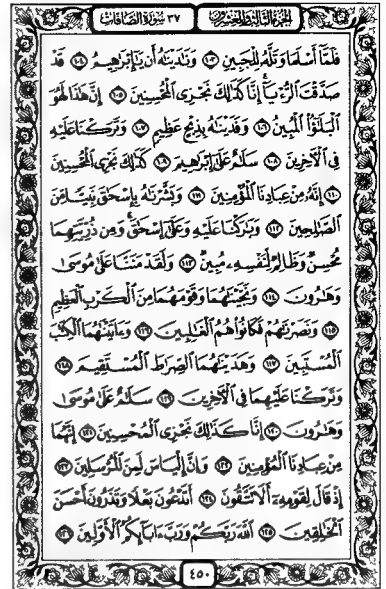
﴿٥٠ - ٦١﴾ ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتسألون﴾ قال قائل منهم: إني كان لي قرين * يقول إنك لمن المصدقين * إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمدنيون * قال هل أنتم مطعون * فاطلع فرآه في سواء الجحيم * قال تالله إن كنت لثردين * ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين * أما نحن بميتين * إنا موتنا الأولى وما نحن بمعذبين * إن هذا لهو الفوز العظيم * لمثل هذا فليعمل العاملون * لما ذكر تعالى نعيمهم وتمام سرورهم، بالآكل والشارب، والأزواج الحسان، والمجالس الحسنة، ذكر تذاكرهم فيما بينهم، ومطارحتهم للأحاديث عن الأمور الماضية، وأنهم ما زالوا في المحادثة والتساؤل، حتى أفضى ذلك بهم، إلى أن قال قائل منهم: ﴿إني كان لي قرين﴾ في الدنيا ينكر البعث، ويقولني على تصديقي به، و ﴿يقول﴾ لي ﴿إنك لمن المصدقين﴾ إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمدنيون * أي: مجازون بأعمالنا؟ أي: كيف تصدق بهذا الأمر البعيد، الذي في غاية الاستغراب، وهو أننا إذا تمزقنا فصرنا تراباً وعظاماً، أننا نبعث ونعاد، ثم نحاسب ونجازى بأعمالنا؟!!

أي: يقول صاحب الجنة لإخوانه: هذه قصتي، وهذا خبري، أنا وقريني، ما زلت أنا مؤمناً مصدقاً، وهو ما زال مكذباً منكراً للبعث، حتى متنا، ثم بعثنا، فوصلت أنا إلى ما ترون من النعيم الذي أخبرتنا به الرسل، وهو لا شك أنه قد وصل إلى العذاب. ف ﴿هل أنتم مطعون﴾ لننظر إليه، فنزداد غبطة وسروراً بما نحن فيه، ويكون ذلك رأيي عين؟ والظاهر من حال أهل الجنة، وسرور بعضهم

يترفون * وعندهم قاصرات الطرف عين * كأنهن بيض مكنون.

يقول تعالى: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ فإنهم غير ذائق العذاب الأليم، لأنهم أخلصوا لله الأعمال، فأخلصهم، واختصهم برحمته، وجاد عليهم بلطفه، ﴿أولئك لهم رزق معلوم﴾ أي: غير مجهول، وإنما هو رزق عظيم جليل، لا يجهل أمره، ولا يبلغ كنهه، فسر به قوله: ﴿فواكه﴾ من جميع أنواع الفواكه التي تتفكه بها النفس، للذتها في لونها وطعمها. ﴿وهم مكرمون﴾ لا مهانون محقرين، بل معظمون مجلدون موقرون، قد أكرم بعضهم بعضاً، وأكرمتهم الملائكة الكرام، وصاروا يدخلون عليهم من كل باب، ويثبثونهم ببلوغ أهنا الثواب، وأكرمهم أكرم الأكرمين، وجاد عليهم بأنواع الكرامات، من نعيم القلوب والأرواح والأبدان، ﴿في جنات النعيم﴾ أي: الجنات التي النعيم وصفها، والسرور نعتها، وذلك لما جمعتها، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وسلمت من كل غلي بنعيمها، من جميع المكدرات والمنغصات.

ومن كرامتهم عند ربهم، وإكرام بعضهم بعضاً، أنهم على ﴿سرر﴾ وهي المجالس المرتفعة، المزينة بأنواع الأكسية



وقال: ﴿رُبَّ انصِرني على القوم
المفسدين﴾ فاستجاب الله له، ومدح
تعالى نفسه فقال: ﴿قُلْنِعْمَ المَجِيبُونَ﴾
لدعاء الداعين، وسماع تبذلهم
وتضرعهم، أجابه إجابة طابق ما
سأل، نجاه وأهله من الكرب العظيم،
وأغرق جميع الكافرين، وأبقى نسله
وذريته متسلسلين، فجميع الناس من
ذرية نوح عليه السلام، وجعل له ثناء
حسناً مستمراً إلى وقت الآخرين،
وذلك لأنه عمن في عبادة الخالق،
عمن إلى الخلق، وهذه شئته تعالى في
المحسنين، أن ينشر لهم من الثناء على
حسب إحسانهم.

ودل قوله: ﴿إنه من عبادنا
المؤمنين﴾ أن الإيمان أرفع منازل
العباد، وأنه مشتمل على جميع شرائع
الدين وأصوله وفروعه، لأن الله مدح
به خواص خلقه.

﴿٨٣ - ١١٣﴾ ﴿وإن من شيعته
لإبراهيم﴾ إلى آخر القصة، أي: وإن
من شيعه نوح عليه السلام، ومن هو
على طريقته في النبوة والرسالة، ودعوة
الخلق إلى الله، وإجابة الدعاء، إبراهيم
الخليل عليه السلام. ﴿إذ جاء ربه
بقلب سليم﴾ من الشرك والشبه،
والشهوات المانعة من تصور الحق
والعمل به، وإذا كان قلب العبد
سليماً، سلم من كل شر، وحصل له
كل خير، ومن سلامته، أنه سليم من
غش الخلق وحسدهم، وغير ذلك من
مساوئ الأخلاق، ولهذا نصح الخلق
في الله، وبدأ بأبيه وقومه، فقال: ﴿إذ
قال لأبيه وقومه ماذا تعبدون﴾ هذا
استفهام بمعنى^(١) الإنكار، وإلزام لهم
بالحجة.

﴿إفكاً لكه دون الله تريدون﴾ أي:
أتعبدون [من دونه] آلهة كذباً، ليست
بآلهة، ولا تصلح للعبادة، فما ظنكم
برب العالمين أن يفعل بكم وقد عبدتم
معه غيره؟ وهذا ترهيب لهم بالجزاء
بالعقاب على الإقامة على شركهم.
وما الذي ظننتم برب العالمين، من

ينذرونهم عن غيهم وضلالهم،
﴿فانظر كيف كان عاقبة النذرين﴾
كانت عاقبتهم الهلاك والخزي
والفضيحة، فليحذر هؤلاء أن يستمروا
على ضلالهم، فيصيبيهم مثل ما
أصابهم.

ولما كان المنذرون ليسوا^(٢) كلهم
ضالين، بل منهم من آمن وأخلص
الدين لله، استثناء الله من الهلاك
فقال: ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي:
الذين أخلصهم الله، وخصهم برحمته
لإخلاصهم، فإن عواقبهم صارت
حميدة.

ثم ذكر أنموذجاً من عواقب الأمم
المكذبين، فقال:

﴿٧٥ - ٨٢﴾ ﴿ولقد نادانا نوح
فلنعم المَجِيبُونَ﴾ ونجينا وأهله من
الكرب العظيم ﴿وجعلنا ذريته هم
الباقين﴾ وتركنا عليه في الآخرين ﴿
سلام على نوح في العالمين﴾ إنا كذلك
نجزي المحسنين ﴿إنه من عبادنا
المؤمنين﴾ ثم أغرقنا الآخرين ﴿يخبر
تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه
السلام أول الرسل، أنه لما دعا قومه
إلى الله تلك المدة الطويلة، فلم يزددهم
دعاه إلا فراراً، أنه نادى ربه فقال:
﴿رُبَّ لا تذر على الأرض من الكافرين
دياراً﴾ الآية.

النقص حتى جعلتم له أنداداً وشركاء.
فأراد عليه السلام أن يكسر
أصنامهم ويتمكن من ذلك، فانتهاز
الفرصة في حين غفلة منهم لما ذهبوا إلى
عيد من أعيادهم، فخرج معهم ﴿فنظر
نظرة في النجوم﴾ فقال إني سقيم.

في الحديث الصحيح: ﴿لم يكذب
إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات:
قوله: ﴿إني سقيم﴾ وقوله: ﴿بل فعله
كبيرهم هذا﴾ وقوله عن زوجته ﴿إنها
أختي﴾، والقصد أنه تخلف عنهم، ليم
له الكيد بالهتهم ﴿ف﴾ لهذا ﴿تولوا عنه
مدبرين﴾ فلما وجد الفرصة، ﴿فراغ
إلى آلهتهم﴾ أي: أسرع إليها على وجه
الخفية والمراوغة، ﴿فقال﴾ متهمكاً بها
﴿ألا تأكلون﴾ ما لكم لا تنطقون
أي: فكيف يليق أن تُعبد، وهي أنقص
من الحيوانات التي تأكل أو تكلم؟ فهذه
جماد لا تأكل ولا تكلم. ﴿فراغ عليهم
ضرباً باليمين﴾ أي: جعل يضربها
بقوته ونشاطه، حتى جعلها جذاً، إلا
كبيراً لهم، لعلهم إليه يرجعون،
﴿فأقبلوا إليه يرفون﴾ أي: يسرعون
ويهرعون، أي: يريدون أن يوقعوا به،
بعدما بحثوا وقالوا: ﴿من فعل هذا
بالهتنا إنه لمن الظالمين﴾.

وقيل لهم: ﴿سمعنا فتى يذكركم
يقال له إبراهيم﴾ يقول: ﴿تالله لأكيدن
أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾
فويخوه ولاموه، فقال: ﴿بل فعله
كبيرهم هذا فاسألوه﴾ إن كانوا
ينطقون ﴿فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا
إنكم أنتم الظالمون﴾ ثم تكسروا على
رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء
ينطقون ﴿قال أفتعبدون من دون الله
ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾
الآية. و ﴿قال﴾ هنا: ﴿أتعبدون ما
تحتون﴾ أي: تحتونه بأيديكم
وتصنعونه؟ فكيف تعبدونهم، وأنتم
الذين صنعتموهم، وتتركون
الإخلاص لله؟ الذي ﴿خلقكم وما
تعملون﴾ قالوا ابناؤه بنياناً؟ أي:
عالياً مرتفعاً، وأوقدوا فيها النار

﴿فألقوه في الجحيم﴾ جزء على ما فعل من تكسير ألتهم.
﴿فأرادوا به كيداً﴾ ليقتلوه أشنع قتلة ﴿فجعلناهم الأسفلين﴾ رد الله كيدهم في نحورهم، وجعل النار على إبراهيم برداً وسلاماً.

﴿و﴾ لما فعلوا فيه هذا الفعل، وأقام عليهم الحجة، وأعذر منهم، ﴿قال إني ذاهب إلى ربي﴾ أي: مهاجر إليه، قاصد إلى الأرض المباركة أرض الشام. ﴿سبهدين﴾ يدلني إلى ما فيه الخير لي، من أمر ديني ودنياي، وقال في الآية الأخرى: ﴿وأعزلكم وما تدعون من دون الله وأدعوني عسى أن لا أكون بدعاء ربي شقياً﴾.

﴿ربِّ هب لي﴾ ولداً يكون ﴿من الصالحين﴾ وذلك عندما أيس من قومه ولم يرفههم خيراً، دعا الله أن يهب له غلاماً صالحاً ينفع الله به في حياته وبعد مماته، فاستجاب الله له وقال: ﴿فبشرناه بغلام حليم﴾ وهذا إسماعيل عليه السلام بلا شك، فإنه ذكر بعده البشارة [بإسحاق] ولأن الله تعالى قال في بشره بإسحاق ﴿فبشرناها﴾ بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ﴿فدل على أن إسحاق غير الذبيح، ووصف الله إسماعيل عليه السلام بالحلم، وهو ينضمّن الصبر، وحسن الخلق، وسعة الصدر، والعفو عن جنى.

﴿فلما بلغ الغلام﴾ معه السعي ﴿أي: أدرك أن يسعى معه، وبلغ سنّاً يكون في الغالب أحب ما يكون لوالديه، قد ذهبت مشقته، وأقبلت منفته، فقال له إبراهيم عليه السلام: ﴿إني أرى في المنام أني أذبحك﴾ أي: قد رأيت في النوم والرؤيا، أن الله يأمرني بذبحك، ورؤيا^(١) الأنبياء وحي، ﴿فانظر ماذا ترى﴾ فإن أمر الله تعالى لا بد من تنفيذه، ﴿قال﴾ إسماعيل صابراً محتسباً، مرضياً لربه، وباراً بوالده: ﴿يا أبتِ افعل ما تؤمر﴾ أي: [امض] لما أمرك الله ﴿ستجدني إن

شاء الله من الصابرين﴾ أخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى، لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى.

﴿فلما أسلما﴾ أي: إبراهيم وابنه إسماعيل، جازماً بقتل ابنه وثمرة فؤاده، امتثالاً لأمر ربه، وخوفاً من عقابه، والابن قد وطن نفسه على الصبر، وهانت عليه في طاعة ربه، ورضا والده، ﴿وتله للجبين﴾ أي: تلى إبراهيم إسماعيل على جبينه، ليضجعه فيذبحه، وقد انكب لوجهه لئلا ينظر وقت الذبح إلى وجهه.

﴿ونادييناه﴾ في تلك الحال المزعجة، والأمر المدهش: ﴿أن يا إبراهيم﴾ قد صدقت ﴿أي: قد فعلت ما أمرت به، فإنك وظنت نفسك على ذلك، وفعلت كل سبب، ولم يبق إلا إمرار السكين على حلقه، ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادتنا، المقدمين رضانا على شهوات أنفسهم.

﴿إن هذا﴾ الذي امتحنا به إبراهيم عليه السلام ﴿لهو البلاء المبين﴾ أي: الواضح، الذي تبين به صفاء إبراهيم، وكمال محبة لربه وخلته، فإن إسماعيل عليه السلام لما وهبه الله لإبراهيم، أحبه حباً شديداً، وهو خليل الرحمن، والخلّة أعلى أنواع المحبة، وهو منصب لا يقبل المشاركة ويقتضي أن تكون جميع أجزاء القلب متعلقة بالمحبيب، فلما تعلقت شعبة من شعب قلبه بابنه إسماعيل، أراد تعالى أن يصفى وده ويختبر خلته، فأمره أن يذبح من زاحم حبه حب ربه، فلما قدّم حب الله، وآثره على هواه، وعزم على ذبحه، وزال ما في القلب من المزاحم، بقي الذبح لا فائدة فيه، فلهذا قال: ﴿إن هذا لهو البلاء المبين﴾ وفديناه بذبح عظيم ﴿أي: صار بدله ذبح من الغنم عظيم، ذبحه إبراهيم، فكان عظيماً من جهة أنه كان فداء لإسماعيل، ومن جهة أنه من جملة العبادات الجليلة، ومن جهة أنه كان قرباناً وسنة إلى يوم

القيامة.

﴿وتركنا عليه في الآخرين﴾ سلام على إبراهيم ﴿أي: وأبقينا عليه ثناء صادقاً في الآخرين، كما كان في الأولين، فكل وقت بعد إبراهيم عليه السلام، فإنه [فيه] محبوب معظم مثني عليه.

﴿سلام على إبراهيم﴾ أي: تحيته عليه كقولهِ: ﴿قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى﴾.

﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ في عبادة الله، ومعاملة خلقه، أن نفرح عنهم الشدائد، ونجعل لهم العاقبة والثناء الحسن.

﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ بما أمر الله بالإيمان به، الذين بلغ بهم الإيمان إلى درجة اليقين، كما قال تعالى: ﴿وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين﴾.

﴿١١٢﴾ ﴿وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين﴾ هذه البشارة الثانية بإسحاق، الذي من ورائه يعقوب، فبشر بوجوده وبقائه، ووجود ذريته، وكونه نبياً من الصالحين، فهي بشارات متعددة.

﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾ أي: أنزلنا عليهما البركة، التي هي النمو والزيادة في علمهما وعملهما وذريتهما، فبشر الله من ذريتهما ثلاث أمم عظيمة: أمة العرب من ذرية إسماعيل، وأمة بني إسرائيل، وأمة الروم من ذرية إسحاق. ﴿ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين﴾ أي: منهم الصالح والطالح، والعاقل والظالم الذي تبين ظلمه بكفره وشره، ولعل هذا من باب دفع الإيهام، فإنه لما قال: ﴿وباركنا عليه وعلى إسحاق﴾ اقتضى ذلك البركة في ذريتهما، وأن من تمام البركة، أن تكون الذرية كلهم محسنين، فأخبر الله تعالى أن منهم محسناً وظالماً، والله أعلم.

﴿١١٤ - ١٢٢﴾ ﴿ولقد مننا على

أي: من ربه مغاضباً له، ظاناً أنه لا يقدر عليه، ويحبسه في بطن الحوت، ولم يذكر الله ما غاضب عليه، ولا ذنبه الذي ارتكبه، لعدم فائدتنا بذكره، وإنما فائدتنا بما ذُكرنا عنه أنه أذنب، وعاقبه الله مع كونه من الرسل الكرام، وأنه نجاه بعد ذلك، وأزال عنه الملام، وقيض له ما هو سبب صلاحه.

فلما أتى لجأ ﴿إلى الفلك المشحون﴾ بالركاب والأمتعة، فلما ركب مع غيره، والفلك شاحن، ثقلت السفينة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركبان، وكأنهم لم يجدوا لأحد مزية في ذلك، فافترعوا على أن من قرع وغلب، ألقي في البحر عدلاً من أهل السفينة، وإذا أراد الله أمراً هياً أسبابه.

فلما [افترعوا] أصابت القرعة يونس ﴿فكان من المدحضين﴾ أي: المغلولين، فألقي في البحر ﴿فالتقمه الحوت وهو﴾ وقت التقامه ﴿مليم﴾ أي: فاعل ما يلام عليه، وهو مغاضبته لربه.

﴿فلولا أنه كان من المسبحين﴾ أي: في وقته السابق بكثرة عبادته لربه وتسبيحه وتحميده، وفي بطن الحوت حيث قال: ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنني كنت من الظالمين﴾.

﴿ولبث في بطنه إلى يوم يبعثون﴾ أي: لكانت مقبرته، ولكن بسبب تسبيحه وعبادته لله، نجاه الله تعالى، وكذلك ينجي الله المؤمنين عند وقوعهم في الشدائد. ﴿فنبذناه بالعماء﴾ بأن قذفه الحوت من بطنه بالعماء، وهي الأرض الخالية العارية من كل أحد، بل ربما كانت عارية من الأشجار والظلال. ﴿وهو سقيم﴾

أي: قد سقم ومرض، بسبب حبسه في بطن الحوت، حتى صار مثل الفرخ المعوط في البيضة.

﴿وأنبتنا عليه شجرة من يقطين﴾ تظله بظلها الظليل، لأنها بادرة باردة الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به وبره.

في العذاب، ولم يذكر لهم عقوبة دنيوية. ﴿إلا عباد الله المخلصين﴾ أي: الذين أخلصهم الله ومن عليهم باتباع نبيهم، فإنهم غير محضرين في العذاب، وإنما لهم من الله جزيل الثواب. ﴿وتركنا عليه﴾ أي: على إلياس ﴿في الآخرين﴾ ثناء حسناً، ﴿سلام على إل ياسين﴾ أي: تحية من الله ومن عباده عليه.

﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ * إنه من عبادنا المؤمنين ﴿فأثنى الله عليه كما أثنى على إخوانه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين﴾.

﴿١٣٣ - ١٣٨﴾ ﴿وإن لوطاً لمن المرسلين﴾ * إذ نجيناه وأهله أجمعين * إلا عجوزاً في الغابرين * ثم دمرنا الآخرين * وإنكم لتمررون عليهم مصبحين * وبالليل أفلا تعقلون﴾ وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله لوط، بالنبوة والرسالة، ودعوته إلى الله قومه، ونهيهم عن الشرك وفعل الفاحشة، فلما لم ينتهوا، نجاه الله وأهله أجمعين، فسروا ليلاً فنجوا.

﴿إلا عجوزاً في الغابرين﴾ أي: الباقين المذبذبين، وهي زوجة لوط لم تكن على دينه. ﴿ثم دمرنا الآخرين﴾ بأن قلينا عليهم ديارهم ﴿فجعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود﴾ حتى همدوا وخذوا.

﴿وإنكم لتمررون عليهم﴾ أي: على ديار قوم لوط ﴿مصبحين﴾ وبالليل﴾ أي: في هذه الأوقات يكثر ترددكم إليها ومروركم بها، فلم تقبل الشك والمرية. ﴿أفلا تعقلون﴾ الآيات والعبر، وتنزجرون عما يوجب الهلاك؟

﴿١٣٩ - ١٤٨﴾ ﴿وإن يونس لمن المرسلين﴾ إلى آخر القصة. وهذا ثناء منه تعالى على عبده ورسوله يونس بن متى، كما أثنى على إخوانه المرسلين، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، وذكر تعالى عنه، أنه عاقبه عقوبة دنيوية، أنجاه منها بسبب إيمانه وأعماله الصالحة، فقال: ﴿إذ أتى﴾

موسى وهارون﴾ إلى آخر القصة يذكر تعالى مثته على عبديه ورسوله موسى وهارون ابني عمران، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله تعالى، ونجاتهما وقومهما من عدوهما فرعون، ونصرهما عليه، حتى أغرقه الله وهم ينظرون، وإنزال الله عليهما الكتاب المستبين، وهو التوراة التي فيها الأحكام والمواعظ وتفصيل كل شيء، وأن الله هدهما الصراط المستقيم، بأن شرع لهما ديناً ذا أحكام وشرائع مستقيمة موصلة إلى الله، ومن عليهما بسلوكة.

﴿وتركنا عليهما في الآخرين﴾ * سلام على موسى وهارون﴾ أي: أبقى عليهما ثناء حسناً، وتحية في الآخرين، ومن باب أولى وأحرى في الأولين ﴿إننا كذلك نجزي المحسنين﴾ * إنهما من عبادنا المؤمنين﴾.

﴿١٣٣ - ١٣٨﴾ ﴿وإن إلياس لمن المرسلين﴾ * إذ قال لقومه ألا تتقون * أتدعون بعلاً وتذرون أحسن الخالقين * الله ربكم ورب آبائكم الأولين * فكذبوه فإنهم لمحضرون * إلا عباد الله المخلصين * وتركنا عليه في الآخرين * سلام على إل ياسين * إننا كذلك نجزي المحسنين * إنه من عبادنا المؤمنين﴾ يمدح تعالى عبده ورسوله إلياس عليه الصلاة والسلام، بالنبوة والرسالة، والدعوة إلى الله، وأنه أمر قومه بالتقوى وعبادة الله وحده، ونهاهم عن عبادتهم صنماً لهم يقال له «بعل»، وتركهم عبادة الله الذي خلق الخلق، وأحسن خلقهم، ورباهم فأحسن تربيتهم، وأدر عليهم النعم الظاهرة والباطنة، وأنكم كيف تركتم عبادة الله من هذا شأنه، إلى عبادة صنم لا يضر ولا ينفع، ولا يخلق ولا يرزق، بل لا يأكل ولا يتكلم؟؟ وهل هذا إلا من أعظم الضلال والسفه والغف؟؟!!

﴿فكذبوه﴾ فيما دعاهم إليه، فلم ينقادوا له، قال الله متوعداً لهم: ﴿فإنهم لمحضرون﴾ أي: يوم القيامة

لشيء يراد * ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق * أنزل عليه الذكر من بينا بل هم في شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب * أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب * أم لهم ملك السماوات والأرض وما بينهما فليرشقوا في الأسباب * جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب * هذا بيان من الله تعالى لحال القرآن، وحال المكذبين به معه ومع من جاء به، فقال: ﴿ص والقرآن ذي الذكر﴾ أي: ذي القدر العظيم والشرف، المذكر للعباد كل ما يحتاجون إليه من العلم، بأسماء الله وصفاته وأفعاله، ومن العلم بأحكام الله الشرعية، ومن العلم بأحكام المعاد والجزاء، فهو مذكر لهم في أصول دينهم وفروعه.

وهنا لا يحتاج إلى ذكر المقسم عليه، فإن حقيقة الأمر، أن المقسم به وعليه شيء واحد، وهو هذا القرآن، فإذا الموصوف بهذا الوصف الجليل، فإذا كان القرآن بهذا الوصف، علم ضرورة العباد إليه فوق كل ضرورة، وكان الواجب عليهم تلقّيه بالإيمان والتصديق، والإقبال على استخراج ما يتذكر به منه.

فهدي الله من هدى لهذا، وأبى الكافرون به وبمن أنزله، وصار معهم ﴿عزّة وشقاق﴾ عزّة وامتناع عن الإيمان به، واستكبار وشقاق له، أي: مشاقة ومخاصمة في رده وإبطاله، وفي القدح بمن جاء به.

فتوعدهم بإهلاك القرون الماضية المكذبة بالرسول، وأنهم حين جاءهم الهلاك، نادوا واستغاثوا في صرف العذاب عنهم ولكن ﴿لات حين مناص﴾ أي: وليس الوقت وقت خلاص مما وقعوا فيه، ولا فرج لما أصابهم، فليخز هؤلاء أن يدوموا على عزتهم وشقاقهم، فيصيبيهم ما أصابهم.

أقوالهم الشنيعة التي وصفوه بها، نزه نفسه عنها فقال: ﴿سبحان ربك﴾ أي: تنزه وتعالى ﴿ربّ المرأة﴾ [أي: الذي عز فقهر كل شيء، واعتز عن كل سوء يصفونه به، ﴿وسلام على المرسلين﴾ لسلاستهم من الذنوب والآفات، وسلامة ما وصفوا به فاطر الأرض والسماوات.

والحمد لله رب العالمين ﴿الآل ف اللام للاستغراق، فجميع أنواع الحمد من الصفات الكاملة العظيمة، والأفعال التي ربي بها العالمين، وأدّر عليهم فيها النعم، وصرف عنهم بها النقم، ودبرهم تعالى في حركاتهم وسكنهم، وفي جميع أحوالهم، كلها لله تعالى، فهو المقدس عن النقص، المحمود بكل كمال، المحبوب المعظم، ورسله سالمون مسلم عليهم، ومن اتبعهم في ذلك له السلامة في الدنيا والآخرة. [وأعداؤه لهم الهلاك والعطب في الدنيا والآخرة]﴾.

تم تفسير سورة الصفات

في ٦ شوال سنة ١٣٤٣ هـ على يد جامعهم وكتابه: عبد الرحمن بن ناصر السعدي وصلى الله على سيدنا محمد وسلم تسليماً والحمد لله الذي بنعمته

تم الصالحات

المجلد السابع من تيسير الكريم المنان في تفسير آيات القرآن لعامة: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين

تفسير سورة ص وهي مكية

﴿١- ١١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ص والقرآن ذي الذكر * بل الذين كفروا في عزة وشقاق * كم أهلكنا من قبلهم من قرن فتنادوا ولات حين مناص * وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب * أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب * وانطلق الملائكة من أن امشوا واصبروا على آلهتهم إن هذا



الأولين، لأخلصنا لله العباد، بل لكنا المخلصين على الحقيقة.

وهم كذبة في ذلك، فقد جاءهم أفضل الكتب فكفروا به، فعلم أنهم متمردون على الحق، ﴿فسوف يعلمون﴾ العذاب حين يقع بهم، ولا يحسبوا أيضاً أنهم في الدنيا غالبون، بل قد سبقت كلمة الله التي لا مرد لها ولا مخالف لها لعباده المرسلين وجنده المفلحين، أنهم الغالبون لغيرهم، المنصورون من ربهم نصراً عزيزاً، يتمكنون فيه من إقامة دينهم، وهذه بشارة عظيمة لمن اتصف بأنه من جند الله، بأن كانت أحواله مستقيمة، وقاتل من أمر بقتالهم، أنه غالب منصور.

ثم أمر رسوله بالإعراض عن من عاندوا ولم يقبلوا الحق، وأنه ما بقي إلا انتظار ما يحل بهم من العذاب، ولهذا قال: ﴿وابصرهم فسوف يبصرون﴾ من يحل به النكال، فإنه سيحل بهم. ﴿فإذا نزل بساحتهم﴾ أي: نزل عليهم، وقريباً منهم ﴿فساء صباح المنذرين﴾ لأنه صباح الشر والعقوبة والاستئصال. ثم كرر الأمر بالتوحي عنهم، وتهديدهم بوقوع العذاب.

ولما ذكر في هذه السورة كثيراً من

سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب لما ذكر تعالى أنه أتى نبيه داود الفصل في الخطاب بين الناس، وكان معروفاً بذلك مقصوداً، ذكر تعالى نبأ خصمين اختصما عنده في قضية جعلهما الله فتنة لداود، وموعظة لخلل ارتكبه، فتاب الله عليه وغفر له، وقبض له هذه القضية، فقال لنبيه

محمد ﷺ: ﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾ فإنه نبأ عجب ﴿إذ تسوروا﴾ على داود ﴿المحارب﴾ أي: محل عبادته من غير إذن ولا استئذان، ولم يدخلوا عليه مع باب، فلذلك لما دخلوا عليه بهذه الصورة، فزع منهم وخاف، فقالوا له:

نحن ﴿خصمان﴾ فلا تخف ﴿بغى بعضنا على بعض﴾ بالظلم ﴿فاحكم بيننا بالحق﴾ أي: بالعدل، ولا تمل مع أحدنا ﴿ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط﴾

والمقصود من هذا، أن الخصمين قد عرف أن قصدهما الحق الواضح الصرف، وإذا كان ذلك، فسيقصان^(١) عليه نبأهما بالحق، فلم يشتمز نبي الله داود من وعظهما له، ولم يؤنبهما.

فقال أحدهما: ﴿إن هذا أخي﴾ نص على الأخوة في الدين أو النسب أو الصداقة، لاقتضائها عدم البغي، وأن بغية الصادر منه أعظم من غيره. ﴿له تسع وتسعون نعجة﴾ أي: زوجة، وذلك خير كثير، يوجب عليه القناعة بما آتاه الله. ﴿ولي نعجة واحدة﴾ فطمع فيها ﴿فقال أكفليها﴾ أي: دعها لي، وخلصها في كفالتي. ﴿وعزني في الخطاب﴾ أي: غلبني في القول، فلم يزل بي حتى أدركها أو كاد.

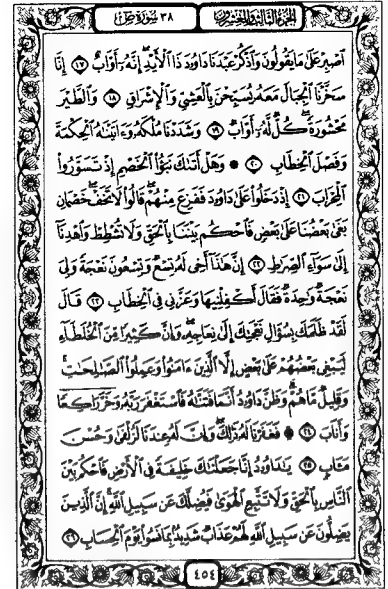
فقال داود - لما سمع كلامه - ومن المعلوم من السياق السابق من كلامهما، أن هذا هو الواقع، فلهذا لم يحتاج أن يتكلم الآخر؛ فلا وجه للاعتراض بقول القائل: «لم حكم داود قبل أن يسمع كلام الخصم الآخر»؟

ومن أعظم العابدين، نبي الله داود عليه الصلاة والسلام ﴿ذا الأيّد﴾^(٢) أي: القوة العظيمة على عبادة الله تعالى، في بدنه وقلبه. ﴿إنه أواب﴾ أي: رجّاع إلى الله في جميع الأمور بالإجابة إليه، بالحب والتأله، والخوف والرجاء، وكثرة التضرع والدعاء، رجّاع إليه عندما يقع منه بعض الخلل، بالإقلاع والتوبة النصوح.

ومن شدة إنابته لربه وعبادته، أن سخر الله الجبال معه، تسبح معه بحمد ربه ﴿بالعشي والإشراق﴾ أول النهار وآخره.

﴿وسخر الطير محشورة﴾ معه مجموعة ﴿كل﴾ من الجبال والطير، لله تعالى ﴿أواب﴾ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يا جبال أوبي معه والطير﴾ فهذه منتهى الله عليه بالعبادة، ثم ذكر منتهى عليه بالملك العظيم فقال: ﴿وشددنا ملكه﴾ أي: قويناه بما أعطيناه من الأسباب وكثرة العدد والعدد التي بها قوى الله ملكه، ثم ذكر منتهى عليه بالعلم، فقال: ﴿وآتينا الحكمة﴾ أي: النبوة والعلم العظيم، ﴿وفضل الخطاب﴾ أي: الخصومات بين الناس.

﴿٢١-٢٦﴾ ﴿وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب﴾ إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط * إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب * قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً وأواب * فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب * يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن



وتستاصلهم إن أقاموا على ما هم عليه.

﴿١٦-١٧﴾ ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطناً قبل يوم الحساب﴾ أصبر على ما يقولون. أي: قال هؤلاء المكذوبون، من جهلهم ومعاندتهم الحق، مستعجلين للعذاب: ﴿ربنا عجل لنا قطناً﴾ أي: قسطنا وما قسم لنا من العذاب عاجلاً ﴿قبل يوم الحساب﴾ وجأوا في هذا القول، وزعموا أنك يا محمد، إن كنت صادقاً، فعلاصة صدقك أن تأتينا بالعذاب، فقال لرسوله: ﴿أصبر على ما يقولون﴾ كما صبر من قبلك من الرسل، فإن قولهم لا يضر الحق شيئاً، ولا يضرناك في شيء، وإنما يضررون أنفسهم.

﴿١٧-٢٠﴾ ﴿واذكر عبدنا داود الأيّد إنه أواب﴾ إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق * والطير محشورة كل له أواب * وشددنا ملكه وآتينا الحكمة وفصل الخطاب لما أمر الله رسوله بالصبر على قومه، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة لله وحده، ويتذكر حال العابدين، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾.

(١) كذا في ب، وفي الأصل: ذو الأيّد.

(٢) في النسختين: فسيقصون.

أنه بحسب لب الإنسان وعقله يحصل له التذكر والانتفاع بهذا الكتاب .

﴿٣٠ - ٤٠﴾ «ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب * إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد * فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب * ردها علي فططق مسحاً بالسوق والأعناق * ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب * قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب * فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب * والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين في الأصفاد * هذا عطاؤنا فامنن أو أسكن بغير حساب * وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب * لما أتى تعالى على داود، وذكر ما جرى له ومنه، أتى على ابنه سليمان عليهما السلام فقال : «ووهبنا لداود سليمان» أي : أنعمنا به عليه، وأقررنا به عينه .

﴿نِعَمَ الْعَبْدُ﴾ سليمان عليه السلام، فإنه اتصف بما يوجب المدح، وهو «إنه أواب» أي : رجأع إلى الله في جميع أحواله، بالتأله والإنابة، والمحبة والذكر والدعاء والتضرع، والاجتهاد في مرضاة الله، وتقديمها على كل شيء .

ولهذا، لما عرضت عليه الخيل الجياد السبق الصافنات، أي : التي من وصفها الصفون، وهو رفع إحدى قوائمها عند الوقوف، وكان لها منظرٌ رائع، وجمال معجب، خصوصاً للمحتاج إليها كالملوك، فما زالت تُعرض عليه حتى غابت الشمس في الحجاب، فألهته عن صلاة المساء وذكره، فقال ندماً على ما مضى منه، وتقرباً إلى الله بما ألهاه عن ذكره، وتقديم حب الله على حب غيره : «إني أحببت حب الخير» وضمن «أحببت» معنى «آثرت» أي : آثرت حب الخير، الذي هو المال عموماً، وفي هذا الموضع المراد الخيل . «عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب»

النار * أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار * كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب * يخبر تعالى عن تمام حكمته في خلقه السماوات والأرض، وأنه لم يخلقهما باطلاً، أي : عبثاً ولعباً من غير فائدة ولا مصلحة . «ذلك ظن الذين كفروا» بربهم، حيث ظنوا ما لا يليق بجلاله . «فويل للذين كفروا من النار» فلإنها التي تأخذ الحق منهم، وتبلغ منهم كل مبلغ .

وإنما خلق الله السماوات والأرض بالحق وللحق، فخلقهما ليعلم العباد كمال علمه وقدرته وسعة سلطانه، وأنه تعالى وحده المعبود، دون من لم يخلق مثقال ذرة من السماوات والأرض، وأن البعث حق، وسيفصل الله بين أهل الخير والشر . ولا يظن الجاهل بحكمة الله أن يسوي الله بينهما في حكمه، ولهذا قال : «أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار» هذا غير لائق بحكمتنا وحكمنا .

﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك﴾ فيه خير كثير، وعلم غزير، فيه كل هدى من ضلالة، وشفاء من داء، ونور يستضاء به في الظلمات، وكل حكم يحتاج إليه المكلفون، وفيه من الأدلة القطعية على كل مطلوب، ما كان به أجل كتاب طرق العالم منذ أنشأ الله .

﴿ليدبروا آياته﴾ أي : هذه الحكمة من إنزاله، ليتدبر الناس آياته، فيستخرجوا علمها ويتأملوا أسرارها وحكمها، فإنه بالتدبر فيه والتأمل لمعانيه، وإعادة الفكر فيها مرة بعد مرة، تدرك بركنته وخيره، وهذا يدل على الحث على تدبر القرآن، وأنه من أفضل الأعمال، وأن القراءة المشتملة على التدبر أفضل من سرعة التلاوة التي لا يحصل بها هذا المقصود .

﴿وليتذكر أولوا الألباب﴾ أي : أولو العقول الصحيحة، يتذكرون بتدبرهم لها كل علم ومطلوب، فدل هذا على

«لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه» وهذه عادة الخلطاء والقرناء الكثير منهم، فقال : «وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض» لأن الظلم من صفة النفوس . «إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات» فإن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح، يمنعهم من الظلم . «وقليل ما هم» كما قال تعالى : «وقليل من عبادي الشكور» . «وظن داود» حين حكم بينهما «أنما فتناه» أي : اختبرناه ودبرنا عليه هذه القضية ليتنبه «فاستغفر ربه» لما صدر منه، «وخز راكم» أي : ساجداً «وأناب» لله تعالى بالتوبة النصوح والعبادة .

﴿ففقرنا له ذلك﴾ الذي صدر منه، وأكرمهم الله بأنواع الكرامات، فقال : «وإن له عندنا لزلفى» أي : منزلة عالية، وقربة منا، «وحسن مآب» أي : مرجع .

وهذا الذنب الذي صدر من داود عليه السلام، لم يذكره الله لعدم الحاجة إلى ذكره، فالتعرض له من باب التكلف، وإنما الفائدة ما قصه الله علينا من لطفه به وتوبته وإنابته، وأنه ارتفع محله، فكان بعد التوبة أحسن منه قبلها .

﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض﴾ تنفذ فيها القضايا الدينية والدنيوية، «فاحكم بين الناس بالحق» أي : العدل، وهذا لا يتمكن منه، إلا بعلم بالواجب، وعلم بالواقع، وقدرة على تنفيذ الحق، «ولا تتبع الهوى» فتميل مع أحد، لقراءة أو صداقة أو محبة، أو بغض للآخر «فيضلك» الهوى «عن سبيل الله» ويخرجك عن الصراط المستقيم، «إن الذين يضلون عن سبيل الله» خصوصاً المتعمدين منهم، «لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب» فلو ذكروه ووقع خوفه في قلوبهم، لم يميلوا مع الهوى الفاتن .

﴿٢٧ - ٢٩﴾ «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من

﴿رُدُّوْهَا عَلَيَّ﴾ فردوها ﴿فَطْفَقَ﴾ فيها ﴿مَسْحًا بالسَّوْقِ والأَعْنَاقِ﴾ أي: جعل يعقرها بسيفه، في سوقها وأعناقها.

﴿ولقد فتنا سليمان﴾ أي: ابتليناه واختبرناه بذهاب ملكه وانفصاله عنه بسبب خلل اقتضته الطبيعة البشرية، ﴿وَالْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً﴾ أي: شيطانا قضى الله وقدر أن يجلس على كرسي ملكه، ويتصرف في الملك في مدة فتنة سليمان، ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ سليمان إلى الله تعالى وتاب.

ف ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مَلِكًا﴾ لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب ﴿فاستجاب الله له وغفر له، ورد عليه ملكه، وزاده ملكاً لم يحصل لأحد من بعده، وهو تسخير الشياطين له، يبنون ما يريد، ويغوصون له في البحر، يستخرجون الدر والخلي، ومَن عصاه منهم قرنه في الأصفاة وأوثقه.

وقلنا له: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ ففَرَّ به عينا ﴿فَامْشِ﴾ على مَنْ شئت، ﴿أَوْ أَمْسِكْ﴾ مَنْ شئت ﴿بَغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: لا حرج عليك في ذلك ولا حساب، لعلمه تعالى بكمال عدله، وحسن أحكامه، ولا تحسبن هذا لسليمان في الدنيا دون الآخرة، بل له في الآخرة خير عظيم، ولهذا قال: ﴿وَإِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ أي: هو من المقربين عند الله المكرمين بأنواع الكرامات لله.

فصل فيما تبين لنا من القوائد والحكم في قصة داود وسليمان عليهما السلام

فمنها: أن الله تعالى يقص على نبيه محمد ﷺ أخبار مَنْ قبله، ليثبت فؤاده وتطمئن نفسه، ويذكر له من عباداتهم وشدة صبرهم وإنابتهم، ما يشوقه إلى منافستهم، والتقرب إلى الله الذي تقربوا له، والصبر على أذى قومه، ولهذا - في هذا الموضع - لما ذكر الله ما ذكر من أذية قومه وكلامهم فيه وفيما جاء به، أمره بالصبر، وأن يذكر عبده داود فيتسلى به.

ومنها: أن الله تعالى يمدح ويحب القوة في طاعته، قوة القلب والبدن، فإنه يحصل منها من آثار الطاعة وحسنها وكثرتها، ما لا يحصل مع الوهن وعدم القوة، وأن العبد ينبغي له تعاطي أسبابها، وعدم الركون إلى الكسل والبطالة المخلة بالقوى المضغفة للنفس.

ومنها: أن الرجوع إلى الله في جميع الأمور، من أوصاف أنبياء الله وخواص خلقه، كما أثنى الله على داود وسليمان بذلك، فليقتد بهما المقتدون، وليهتد بهداهم السالكون، ﴿أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾.

ومنها: ما أكرم الله به نبيه داود عليه السلام، من حُسن الصوت العظيم، الذي جعل الله بسببه الجبال الصم، والطيور البهيم، يجاوبنه إذا رجع صوته بالتسبيح، ويسبحن معه بالعشي والإشراق.

ومنها: أن من أكبر نِعَم الله على عبده، أن يرزقه العلم النافع، ويعرف الحكم والفصل بين الناس، كما امتنَّ الله به على عبده داود عليه السلام.

ومنها: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفياه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنته إياهم وابتلائهم بما به يزول عنهم الحذور، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى، كما جرى لداود وسليمان عليهما السلام.

ومنها: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى، لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك، وأنه قد يجري منهم بعض مقتضيات الطبيعة من المعاصي، ولكن الله يتداركهم ويبادهم بلطفه.

ومنها: أن داود عليه السلام [كان] في أغلب أحواله لازماً محرابه لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب، لأنه كان إذا خلا في محرابه لا يأتيه أحد، فلم يجعل كل وقته للناس، مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام، بل جعل له وقتاً يخلو فيه

بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره.

ومنها: أنه ينبغي استعمال الأدب في الدخول على الحكام وغيرهم، فإن الخصمين لما دخلا على داود في حالة غير معتادة ومن غير الباب المعهود، فرع منهم، واشتد عليه ذلك، ورأه غير لائق بالحال.

ومنها: أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

ومنها: كمال حلم داود عليه السلام، فإنه ما غضب عليهما حين جاءه به غير استئذان، وهو الملك، ولا اتهمهما ولا ويخهما.

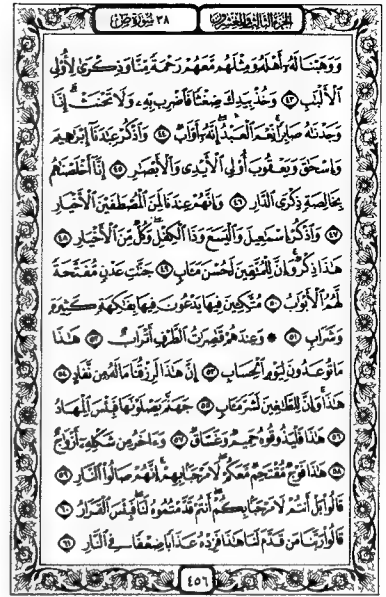
ومنها: جواز قول المظلوم لمن ظلمه «أَنْتَ ظَلَمْتَنِي» أو «يَا ظَالِمٌ» ونحو ذلك أو «باغ علي» لقولهما: ﴿خصمان بغى بعضنا على بعض﴾.

ومنها: أن الموعوظ والمنصوح، ولو كان كبير القدر، جليل العلم، إذا نصحه أحد أو وعظه، لا يغضب ولا يشمتز، بل يبادره بالقبول والشكر، فإن الخصمين نصحا داود فلم يشمتز ولم يغضب، ولم يثنه ذلك عن الحق، بل حكم بالحق الصرف.

ومنها: أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية، موجبة للتعادي بينهم، وبغى بعضهم على بعض، وأنه لا يرد عن ذلك إلا استعمال تقوى الله، والصبر على الأمور، بالإيمان والعمل الصالح، وأن هذا من أقل شيء في الناس.

ومنها: أن الاستغفار والعبادة، خصوصاً الصلاة، من مكفرات الذنوب، فإن الله رتب مغفرة ذنب داود على استغفاره وسجوده.

ومنها: إكرام الله لعبده داود وسليمان، بالقرب منه، وحسن الثواب، وأن لا يظن أن ما جرى لهما من نقص لدرجتهما عند الله تعالى، وهذا من تمام لطفه بعباده المخلصين، أنه إذا غفر لهم وأزال أثر ذنوبهم، أزال الآثار المترتبة عليه كلها، حتى ما يقع في



البصيرة في دين الله. فوصفهم بالعلم النافع، والعمل الصالح الكثير.

﴿إنا أخلصناهم بخالصة عظيمة، وخصيصة جسيمة، وهي ذكرى الدار﴾ جعلنا ذكرى الدار الآخرة في قلوبهم، والعمل لها صفوة وقتهم، والإخلاص والمراقبة لله وصفهم الدائم، وجعلناهم ذكرى الدار يتذكر بأحوالهم المتذكر، ويعتبر بهم المعبر، ويذكرون بأحسن الذكر.

﴿وانهم عندنا لمن المصطفين﴾ الذين اصطفاهم الله من صفوة خلقه، ﴿الأخيار﴾ الذين لهم كل خلق كريم، وعمل مستقيم.

﴿٤٨ - ٤٩﴾ ﴿واذكر اسماعيل واليسع وذو الكفل وكل من الأخيار﴾ هذا ذكرهم أي: واذكر هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثن عليهم أحسن الثناء، فإن كلا منهم من الأخيار الذين اختارهم الله من الخلق، واختار لهم أكمل الأحوال، من الأعمال والأخلاق، والصفات الحميدة، والحاصل السديدة.

﴿هذا﴾ أي: ذكر هؤلاء الأنبياء الصفوة وذكر أوصافهم، ﴿ذكر﴾ في هذا القرآن ذي الذكر، يتذكر بأحوالهم المتذكرون، ويشتاق إلى الاقتداء بأوصافهم الحميدة المقتدون، ويعرف ما من الله عليهم به من الأوصاف

الزكية، وما نشر لهم من الثناء بين البرية.

فهذا نوع من أنواع الذكر، وهو ذكر أهل الخير، ومن أنواع الذكر، ذكر جزاء أهل الخير وأهل الشر، ولهذا قال:

﴿٤٩ - ٥٤﴾ ﴿وإن للممتقين حسن

مآب * جنات عدن مفتحة لهم الأبواب * متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب * وعندهم قاصرات الطرف أنرب * هذا ما توعدون ليوم الحساب * إن هذا لرزقنا ما له من نفاد﴾ أي: ﴿وإن للممتقين﴾ رهم، بامتثال الأوامر واجتناب النواهي، من كل مؤمن ومؤمنة، ﴿لحسن مآب﴾ أي: للآبأ حسناً، ومرجعاً مستحسناً.

ثم فسره وفصله، فقال: ﴿جنات عدن﴾ أي: جنات إقامة، لا ينبغي صاحبها بدلاً منها، من كمالها وتمام نعيمها، وليسوا بخارجين منها ولا بمخرجين.

﴿مفتحة لهم الأبواب﴾ أي: مفتحة لأجلهم أبواب منازلها ومسكنها، لا يحتاجون أن يفتحوها هم، بل هم مخدومون، وهذا دليل أيضاً على الأمان التام، وأنه ليس في جنات عدن، ما يوجب أن تغلق لأجله أبوابها.

﴿متكئين فيها﴾ على الأرائك المزينات، والمجالس المزخرفات.

﴿يدعون فيها﴾ أي: يأمرسون خدامهم، أن يأتوا بفاكهة كثيرة وشراب، من كل ما تشتهى نفوسهم، وتلذذ أعينهم، وهذا يدل على كمال النعيم، وكمال الراحة والطمأنينة، وتمام اللذة.

﴿وعندهم﴾ من أزواجهم، الحور العين ﴿قاصرات﴾ طرفهن على أزواجهن، وطرف أزواجهن عليهن، لجمالهم كلهن، ومحبة كل منهما للآخر، وعدم طموحه لغيره، وأنه لا ينبغي بصاحبه بدلاً، ولا عنه عوضاً. ﴿أنرب﴾ أي: على سن واحد، أعدل سن الشباب وأحسنه وألذه.

﴿هذا ما توعدون﴾ أيها المتقون ﴿ليوم الحساب﴾ جزاء على أعمالكم الصالحة.

﴿إن هذا لرزقنا﴾ الذي أوردناه على أهل دار النعيم ﴿ماله من نفاد﴾ أي: انقطاع، بل هو دائم مستقر في جميع الأوقات، متزايد في جميع الآئات.

وليس هذا يعظم على الرب الكريم، الرؤوف الرحيم، البر الجواد، الواسع الغني، الحميد اللطيف الرحمن، الملك الديان، الجليل الجميل المنان، ذي الفضل الباهر، والكرم التواتر، الذي لا تحصى نعمه، ولا يحاط ببعض بره.

﴿٥٥ - ٦٤﴾ ﴿هذا وإن للطاغين

لشر مآب * جهنم يصلونها فبئس المهاد * هذا فليذوقوه حميم وغساق * وآخر من شكله أزواج * هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار * قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار * قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار * وقالوا ما لنا لا نرى رجلاً كنا نعدهم من الأشرار * اتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار * إن ذلك لحق تحاصم أهل النار﴾ ﴿هذا﴾ الجزء للممتقين ما وصفناه ﴿وإن للطاغين﴾ أي: المتجاوزين للحد في الكفر والمعاصي ﴿لشر مآب﴾ أي: لشر مرجع ومنقلب، ثم فصله فقال: ﴿جهنم﴾ التي جمع فيها كل عذاب، واشتد حرها، وانتهى قرها ﴿يصلونها﴾ أي: يعذبون فيها عذاباً يحيط بهم من كل وجه، لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل.

﴿فبئس المهاد﴾ المعد لهم مسكناً ومستقراً ﴿هذا﴾ المهاد، هذا العذاب الشديد، والحزني والفضيحة والنكال. ﴿فليذوقوه حميم﴾ ماء حار، قد اشتد حره، يشربونه فيقطع أمعاءهم. ﴿وغساق﴾ وهو أكره ما يكون من الشراب، من قيح وصيد، مر المذاق، كريه الرائحة.

﴿وآخر من شكله﴾ أي: من نوعه ﴿أزواج﴾ أي: عدة أصناف من

أصناف العذاب، يعذبون بها ويحزون بها.

وعند تواردهم على النار يشتم بعضهم بعضاً، ويقول بعضهم لبعض: ﴿هَذَا فُوجٌ مَقْتَحَمٌ مَعَكُمْ﴾ النار لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار.

﴿قَالُوا﴾ أي: الفوج المقبل المقتحم: ﴿بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَوْهُ﴾ أي: العذاب لنا، بدعوتكم لنا، وفتنتكم وإضلالكم وتسبيكم. ﴿فَبُئْسَ الْقَرَارُ﴾ قرار الجميع، قرار السوء والشر.

ثم دعوا على المغوين لهم ف ﴿قَالُوا﴾ ربنا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ. وقال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ لِكُلِّ ضَعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وقالوا﴾ وهم في النار: ﴿مَالَنَا لَا نَرَى رَجُلًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ﴾ أي: كُنَّا نَزْعُمُ أَنَّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ، المستحقين لعذاب النار، وهم المؤمنون، تفقدتهم أهل النار - قُبِحَهم الله - هل يرونهم في النار؟ ﴿أَتُخَذْنَا هُمْ سَخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ أي: عدم رؤيتنا لهم دأب بين أمرين:

إما أننا غالطون في عدنا إياهم من الأشرار، بل هم من الأخيار، وإنما كلامنا لهم من باب السخرية والاستهزاء بهم، وهذا هو الواقع، كما قال تعالى لأهل النار: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ فاتخذوهم سخرى حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون.

والأمر الثاني: أنهم لعلهم زَاغَتْ أَبْصَارُنَا عَنْ رُؤْيَتِهِمْ معنا في العذاب، وإلا فهم معنا معذبون ولكن تجاوزتهم أبصارنا، فيحتمل أن هذا الذي في قلوبهم، فتكون العقائد التي اعتقدوها في الدنيا، وكثرة ما حكموا لأهل الإيمان بالنار، تمكنت من قلوبهم، وصارت صيغة لها، فدخلوا النار وهم بهذه الحالة، فقالوا ما قالوا.

ويحتمل أن كلامهم هذا كلام تمويه، كما موهوا في الدنيا، موهوا حتى في النار، ولهذا يقول أهل الأعراف لأهل النار: ﴿أَهْؤَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

قال تعالى مؤكداً ما أخبر به، وهو أصدق القائلين: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾ الذي ذكرت لكم ﴿لِحَقٍّ﴾ ما فيه شك ولا مرية ﴿فَخَاصِمُ أَهْلِ النَّارِ﴾.

﴿٦٥ - ٨٨﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ * رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا * الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ * قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ * أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ * مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ * إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * إِذْ قَالَ رَبِّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ * فَاذْأَبْ سُوَيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعَوْهُ سَاجِدِينَ * فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قَالَ فَارْجِعْ مِنْهَا فإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنْ عَلَيْكَ لِعَاقِبَةُ يَوْمِ الدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ * إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ * قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِنْ تَبِعِكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالِينَ * وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ * قُلْ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لَهْؤَلَاءَ الْمُكَذِّبِينَ، إِنْ طَلَبُوا مِنْكَ مَا لَيْسَ لَكَ وَلَا بِيَدِكَ: ﴿إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ﴾ هذا نهاية ما عندي، وأما الأمر فله تعالى، ولكني أمركم وأنهاكم، وأحثكم على الخير وأزجركم عن الشر فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَعَلَيْهَا. ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ

إِلَّا اللَّهُ﴾ أي: ما أحد يؤله ويعبد بحق إلا الله ﴿الوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾. هذا تقرير لألوهيته، هذا البرهان القاطع، وهو وحدته تعالى، وقهره لكل شيء، فإن القهر ملازم للوحدة، فلا يكون قهارين متساويين في قهرهما أبداً، فالذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يُعبد وحده، كما كان قاهراً وحده، وقرر ذلك أيضاً بتوحيد الربوبية فقال: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾

أي: خالقهما، ومربيهما، ومدبرها^(١) بجميع أنواع التدابير. ﴿الْعَزِيزُ﴾ الذي له القوة، التي بها خلق المخلوقات العظيمة. ﴿الْغَفَّارُ﴾ لجميع الذنوب، صغيرها وكبيرها، لمن تاب إليه وأقْلَع منها.

فهذا الذي يجب ويستحق أن يعبد، دون من لا يخلق ولا يرزق، ولا يضر ولا ينفع، ولا يملك من الأمر شيئاً، وليس له قوة الاقدار، ولا بيده مغفرة الذنوب والأوزار.

﴿قُلْ﴾ لهم، خوفاً ومحذراً، ومنهضاً لهم ومنذراً: ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾ أي: ما أنبأتكم به من البعث والنشور والجزاء على الأعمال، خبر عظيم ينبغي الاهتمام الشديد بشأنه، ولا ينبغي إغفاله، ولكن ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ كأنه ليس أمامكم حساب ولا عقاب ولا ثواب، فإن شككتهم في قولي، وامترستم في خبري، فإني أخبركم بأخبار لا علم لي بها ولا درستها في كتاب، فإخباري بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص، أكبر شاهد لصدقي، وأدل دليل على حق ما جئتكم به، ولهذا قال: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى﴾ أي: الملائكة ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ لولا تعليم الله إياي، وإجأؤه إلي، ولهذا قال: ﴿إِنْ يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر النذارة، جليها، فلا نذير أبْلَغ من نذارته ﷺ.

ثم ذكر اختصاص الملائكة فقال: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ على وجه الإخبار ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ أي: مادته من طين ﴿فَإِذَا سُوِيَتْهُ﴾ أي: سويت جسمه وتم، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فوطئ الملائكة الكرام أنفسهم على ذلك، حين يتم خلقه ونفخ الروح فيه، امتثالاً لربه، وإكراماً لآدم عليه السلام، فلما تم خلقه في بدنه وروحه، وامتحن الله آدم والملائكة في العلم، وظهر فضله عليهم، أمرهم الله بالسجود. فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس لم يسجد ﴿استكبر﴾ عن أمر ربه، واستكبر على آدم ﴿وكان من الكافرين﴾ في علم الله تعالى.

ف ﴿قَالَ﴾ الله موبخاً ومعاتباً: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي﴾ أي: شرفته وكرمه واختصصته بهذه الخصيصة، التي اختص بها عن سائر الخلق، وذلك يقتضي عدم التكبر عليه.

﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ في امتناعك ﴿أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾.

﴿قَالَ﴾ إبليس معارضاً لربه ومناقضاً: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾. وبزعمه أن عنصر النار خير من عنصر الطين، وهذا من القياس الفاسد، فإن عنصر النار مادة الشر والفساد، والعلو والطيش والخفة وعنصر الطين مادة الرزاة والتواضع، وإخراج أنواع الأشجار والنباتات، وهو يغلب النار ويطفئها، والنار تحتاج إلى مادة تقوم بها، والطين قائم بنفسه، فهذا قياس شيخ القوم، الذي عارض به الأمر الشفاهي من الله، قد تبين غاية بطلانه وفساده، فما بالك بأقيسة التلاميذ الذين عارضوا الحق بأقيستهم؟ فإنها كلها أعظم بطلاناً وفساداً من هذا القياس.

ف ﴿قَالَ﴾ الله له: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من السماء والمحل الكريم. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ أي: مبعد مدحور. ﴿وإِنْ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ أي: طردتي

وإبعادي ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: دائماً أبداً.

﴿قَالَ رَبُّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَمِيتُونَ﴾ لشدة عداوته لآدم وذريته، ليتمكن من إغواء من قدر الله أن يغويه.

ف ﴿قَالَ﴾ الله مجيباً لدعوته، حيث اقتضت حكمته ذلك: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ﴾ * إلى يوم الوقت المعلوم حين تستكمل الذرية، يتم الامتحان.

فلما علم أنه مُنْظَرٌ، بادى ربه، من خبثه، بشدة العداوة لربه ولآدم وذريته فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَا أَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ يحتمل أن الباء للقسمة، وأنه أقسم بعزة الله ليغويهم كلهم أجمعين.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ علم أن الله سيحفظهم من كيد.

ويحتمل أن الباء للاستعانة، وأنه لما علم أنه عاجز من كل وجه، وأنه لا يضل أحداً إلا بمشيئة الله تعالى، فاستعان بعزة الله على إغواء ذرية آدم هذا، وهو عدو الله حقاً.

ونحن يا ربنا العاجزون المقصرون، المقرون لك بكل نعمة، ذرية من شرفته وكرمه، فنستعين بعزتك العظيمة وقدرتك، ورحمتك الواسعة لكل مخلوق، ورحمتك التي أوصلت إليناها ما أوصلت من النعم الدينية والدنيوية، وصرفت بها عنا ما صرفت من النقم، أن تعيننا على محاربتة وعداوته، والسلامة من شره وشركه، ونحسن الظن بك أن تحجب دعاءنا، ونؤمن بوعدك الذي قلت لنا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ فقد دعوناك كما أمرتنا، فاستجب لنا كما وعدتنا. ﴿إِنَّكَ لَا تَخْلَفُ الْمِيعَادَ﴾.

﴿قَالَ﴾ الله تعالى ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ أي: الحق وصفي، والحق قولي ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فلما بين الرسول للناس الدليل ووضح لهم السبيل قال الله له: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: على دعائي إياكم ﴿مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ أدعي أمراً ليس لي، وأقفو ما ليس لي به علم، لا أتبع إلا ما يوحى إلي.

﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: هذا الوحي والقرآن ﴿إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ يتذكرون به كل ما ينفعهم من مصالح دينهم ودنياهم، فيكون شرفاً ورفعة للعالمين به، وإقامة حجة على المعاندين.

فهذه السورة العظيمة، مشتملة على الذكر الحكيم، والنبأ العظيم، وإقامة الحجج والبراهين، على مَنْ كَذَبَ بالقرآن وعارضه، وكَذَبَ مَنْ جَاءَ بِهِ، والإخبار عن عباد الله المخلصين، وجزاء التقيين والطاغين. فلماذا أقسم في أولها بأنه ذو الذكر، ووصفه في آخرها بأنه ذكر للعالمين.

وأكثر التذكير بها فيما بين ذلك، كقوله: ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا﴾ - ﴿وَادْكُرْ عَبْدَنَا﴾ - ﴿رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى﴾ - ﴿هَذَا ذِكْرٌ﴾.

اللهم علما منه ما جهلنا، وذكرنا منه ما نسينا، نسيان غفلة ونسيان ترك. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ﴾ أي: خبره ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ وذلك حين يقع عليهم العذاب وتقطع عنهم الأسباب.

تم تفسير سورة ص بمئة تعالى وعونه.

تفسير سورة الزمر وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم * إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين * ألا الله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار ﴿يخبر تعالى عن عظمة القرآن، وجلالة مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ وَنَزَلَ مِنْهُ، وأنه نزل من الله العزيز الحكيم، أي: الذي وصفه الألوهية للخلق، وذلك لعظمته وكماله، والعزة التي قهر بها كل مخلوق، وذو له كل شيء، والحكمة في خلقه وأمره﴾.

فالقرآن نازل عن هذا وصفه، والكلام وصف للمتكلم، والوصف يتبع الموصوف، فكما أن الله تعالى



الكامل من كل وجه، الذي لا مثيل له، فكذلك كلامه كامل من كل وجه لا مثيل له، فهذا وحده كافٍ في وصف القرآن، دال على مرتبته.

ولكنه - مع هذا - زاد بياناً لكماله بمن نزل عليه، وهو محمد ﷺ، الذي هو أشرف الخلق فعلم أنه أشرف الكتب، وبما نزل به، وهو الحق، فنزل بالحق الذي لا مزية فيه، لإخراج الخلق من الظلمات إلى النور، ونزل مشتلاً على الحق في أخباره الصادقة، وأحكامه العادلة، فكل ما دل عليه فهو أعظم أنواع الحق، من جميع المطالب العلمية، وما بعد الحق إلا الضلال.

ولما كان نازلاً من الحق، مشتلاً على الحق لهداية الخلق، على أشرف الخلق، عظمت فيه النعمة وجلت، ووجب القيام بشكرها، وذلك بإخلاص الدين لله، فلهذا قال: ﴿فاعبد الله خالصاً له الدين﴾ أي: أخلص لله تعالى جميع دينك، من الشرائع الظاهرة والسرائع الباطنة: الإسلام والإيمان والإحسان، بأن تفرد الله وحده بها، وتقصد به وجهه لا غير ذلك من المقاصد.

﴿ألا لله الدين الخالص﴾ هذا تقرير للأمر بالإخلاص، وبيان أنه تعالى كما أنه له الكمال كله، وله التفضل على عباده من جميع الوجوه، فكذلك له الدين الخالص الصافي من جميع الشوائب، فهو الدين الذي ارتضاه لنفسه، وارتضاه لصفوة خلقه وأمرهم به، لأنه متضمن للتأله لله في حبه وخوفه ورجائه، وللإنابة إليه في عبوديته، والإنابة إليه في تحصيل مطالب عباده.

وذلك الذي يصلح القلوب ويزكيها ويطهرها، دون الشرك به في شيء من العبادة، فإن الله بريء منه، وليس فيه شيء، فهو أغنى الشركاء عن الشرك، وهو مفسد للقلوب والأرواح والدنيا والآخرة، مُشَقِّقٌ للنفوس غاية

من خلقه يجعله راحماً لعباده، بل هو أرحم بهم من أنفسهم والديهم، وهو الذي يحثهم ويدعوهم إلى الأسباب التي ينالون بها رحمته، وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم، وهو الغني، الذي له الغنى التام المطلق، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كلأ منهم ما سأل وتمنى، لم ينقصوا غناه شيئاً، ولم ينقصوا مما عنده، إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخط.

وجميع الشفعاء يخافونه، فلا يشفع منهم أحد إلا بإذنه، وله الشفاعة كلها.

فهذه الفروق يعلم جهل المشركين به، وسفههم العظيم، وشدة جراتهم عليه.

ويعلم أيضاً الحكمة في كون الشرك لا يغفره الله تعالى، لأنه يتضمن القدح في الله تعالى، ولهذا قال - حاكماً بين الفريقين المخلصين والمشركون، وفي ضمنه التهديد للمشركون - ﴿إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون﴾

وقد علم أن حكمه أن المؤمنين المخلصين في جنات النعيم، ومن

أي: فهو لا قدر تركوا ما أمر الله به من الإخلاص، وتجردوا على أعظم المحرمات، وهو الشرك، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء، الملك العظيم، بالملوك، وزعموا بعقولهم الفاسدة ورأيهم السقيم، أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء وشفعاء ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم، ويستعطفونهم عليهم، ويمهدون لهم الأمر في ذلك، أن الله تعالى كذلك.

وهذا القياس من أفسد الأقبيسة، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق، مع ثبوت الفرق العظيم، عقلاً ونقلاً وفطرة، فإن الملوك، إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم، لأنهم لا يعلمون أحوالهم. فيحتاج من يعلمهم بأحوالهم، وربما لا يكون في قلوبهم رحمة لصاحب الحاجة، فيحتاج من يعطفهم عليه [ويسترحه لهم] ^(١)، ويحتاجون إلى الشفعاء والوزراء، ويخافون منهم، فيقبضون حوائج من توسطوا لهم، مراعاة لهم، ومدارة لخواطرم، وهم أيضاً فقراء، قد يمنعون لما يخشون من الفقر.

وأما الرب تعالى، فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها، الذي لا يحتاج من يخبره بأحوال رعيته وعباده، وهو تعالى أرحم الراحمين، وأجود الأجودين، لا يحتاج إلى أحد

(١) في أ: متعذرين.

(٢) كذا في النسختين ولعل الصواب (ويسترجمهم له).

مقهوراً، ولكان له إدلال على أبيه ومناسبة منه .

ووحده تعالى وقهره متلازمان، فالواحد لا يكون إلا قهاراً، والقهار لا يكون إلا واحداً، وذلك ينفي الشركة له من كل وجه .

﴿٥٥ - ٧﴾ «خلق السماوات والأرض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار * خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون * إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور» يخبر تعالى أنه «خلق السماوات والأرض» أي:

«وخصها بالذكر، مع أنه أنزل لمصالح عباده من البهائم غيرها، لكثرة نفعها، وعموم مصالحها، ولشرفها، ولاختصاصها بأشياء لا يصلح غيرها، كالأضحية والهدي والعقيقة، ووجوب الزكاة فيها، واختصاصها بالدية .

ولما ذكر خلق أبنائنا وأمناء، ذكر ابتداء خلقنا، فقال: «يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق» أي: طوراً بعد طور، وأنتم في حال لا يد خلقو تمسك، ولا عين تنظر إليكم، وهو قد رباكم في ذلك المكان الضيق «في ظلمات ثلاث» ظلمة البطن، ثم ظلمة الرحم، ثم ظلمة المشيمة، «ذلكم» الذي خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وخلقكم وخلق لكم الأنعام والنعم «الله ربكم» أي: المألوه المعبود، الذي رباكم وديركم، فكما أنه الواحد في خلقه وتربيته لا شريك له في ذلك، فهو الواحد في ألوهيته لا شريك له، ولهذا قال: «لا إله إلا هو فأنى تصرفون» بعد هذا البيان ببيان استحقاقه تعالى للإخلاص وحده إلى عبادة الأوثان، التي لا تدبر شيئاً، وليس لها من الأمر شيء .

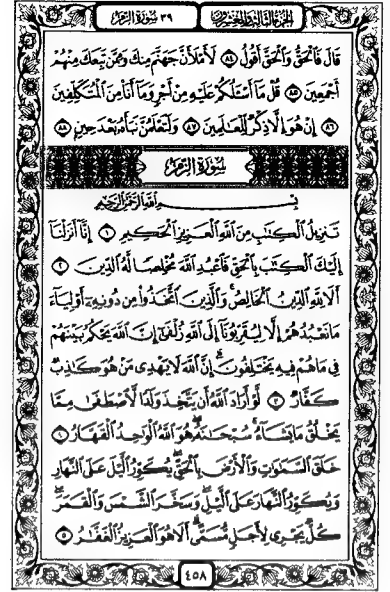
«إن تكفروا فإن الله غني عنكم» لا يضره كفركم، كما لا يستفيع بطاعتكم، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم . «ولا يرضى لعباده الكفر» لكمال إحسانه بهم،

«يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا إله إلا هو فأنى تصرفون * إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور» يخبر تعالى أنه «خلق السماوات والأرض» أي:

«وخصها بالذكر، مع أنه أنزل لمصالح عباده من البهائم غيرها، لكثرة نفعها، وعموم مصالحها، ولشرفها، ولاختصاصها بأشياء لا يصلح غيرها، كالأضحية والهدي والعقيقة، ووجوب الزكاة فيها، واختصاصها بالدية .

ولما ذكر خلق أبنائنا وأمناء، ذكر ابتداء خلقنا، فقال: «يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق» أي: طوراً بعد طور، وأنتم في حال لا يد خلقو تمسك، ولا عين تنظر إليكم، وهو قد رباكم في ذلك المكان الضيق «في ظلمات ثلاث» ظلمة البطن، ثم ظلمة الرحم، ثم ظلمة المشيمة، «ذلكم» الذي خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر، وخلقكم وخلق لكم الأنعام والنعم «الله ربكم» أي: المألوه المعبود، الذي رباكم وديركم، فكما أنه الواحد في خلقه وتربيته لا شريك له في ذلك، فهو الواحد في ألوهيته لا شريك له، ولهذا قال: «لا إله إلا هو فأنى تصرفون» بعد هذا البيان ببيان استحقاقه تعالى للإخلاص وحده إلى عبادة الأوثان، التي لا تدبر شيئاً، وليس لها من الأمر شيء .

«إن تكفروا فإن الله غني عنكم» لا يضره كفركم، كما لا يستفيع بطاعتكم، ولكن أمره ونهيه لكم محض فضله وإحسانه عليكم . «ولا يرضى لعباده الكفر» لكمال إحسانه بهم،



يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار . «إن الله لا يهدي» أي: لا يوفق للهداية إلى الصراط المستقيم «من هو كاذب كفار» أي: وصفه الكذب أو الكفر، بحيث تأتية المواعظ والآيات، ولا يزول عنه ما اتصف به، ويريه الله الآيات، فيجحدوها ويكفر بها ويكذب، فهذا أتى له الهدى وقد سد على نفسه الباب، وعوقب بأن طبع الله على قلبه، فهو لا يؤمن!!

﴿٤٤﴾ «لو أراد الله أن يتخذ ولداً لأصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار» أي: «لو أراد الله أن يتخذ ولداً» كما زعم ذلك من زعمه، من سفهاء الخلق . «لأصطفى» مما يخلق ما يشاء أي: لأصطفى بعض مخلوقاته التي يشاء اصطفاؤه، واختصه لنفسه، وجعله بمنزلة الولد، ولم يكن حاجة إلى اتخاذ الصاحبة . «سبحانه» عما ظنه به الكافرون، أو نسبه إليه الملحدون . «هو الله الواحد القهار» أي: الواحد في ذاته، وفي أسمائه، وفي صفاته، وفي أفعاله، فلا شبيه له في شيء من ذلك، ولا مماثل، فلو كان له ولد، لاقتضى أن يكون شبيهاً له في وحدته، لأنه بعضه، وجزءه منه .

القهار لجميع العالم العلوي والسفلي، فلو كان له ولد لم يكن



فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون * أي: **﴿قل﴾** يا أيها الرسول للناس: **﴿إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾** في قوله في أول السورة: **﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين﴾**

﴿وأمرت لأن أكون أول المسلمين﴾ لأنني الداعي الهادي للخلق إلى ربهم، فيقتضي أني أول من اتهم بما أمر به، وأول من أسلم، وهذا الأمر لا بد من إيقاعه من محمد ﷺ، ومن زعم أنه من أتباعه، فلا بد من الإسلام في الأعمال الظاهرة، والإخلاص لله في الأعمال الظاهرة والباطنة.

﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي﴾ في ما أمرني به من الإخلاص والإسلام. **﴿عذاب يوم عظيم﴾** يخلد فيه من أشرك، ويعاقب فيه من عصى. **﴿قل الله أعبد مخلصاً له ديني﴾** فاعبدوا ما شئتم من دونه، كما قال تعالى: **﴿قل يا أيها الكافرون﴾** لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين *.

﴿قل إن الخاسرين﴾ حقيقة هم **﴿الذين خسروا أنفسهم﴾** حيث حرموها الثواب، واستحققت بسببهم وخيم العقاب **﴿وأهلهم يوم القيامة﴾** أي: فرق بينهم وبينهم، واشتد عليهم الحزن، وعظم الخسران. **﴿ألا ذلك هو الخسران المبين﴾** الذي ليس مثله خسران، وهو خسران مستمر، لا ربح بعده، بل ولا سلامة.

ثم ذكر شدة ما يحصل لهم من الشقاء فقال: **﴿لهم من فوقهم ظلل من النار﴾** أي: قطع عذاب كالسحاب العظيم **﴿ومن تحتهم ظلل﴾**

﴿ذلك﴾ الوصف الذي وصفنا به عذاب أهل النار، سوط يسوق الله به عباده إلى رحمته، **﴿يخوف﴾** الله به عباده، يا عباد فاتقون * أي: جعل ما أعده لأهل الشقاء من العذاب داع يدعو

عباده إلى التقوى، وزاجر عما يوجب العذاب. فسبحان من رحم عباده في كل شيء، وسهل لهم الطرق الموصلة إليه، وحثهم على سلوكها، ورغبهم بكل مرغبت تشتاق له النفوس وتطمئن له القلوب، وحذروهم من العمل لغيره ^(١) غاية التحذير، وذكر لهم الأسباب الزاجرة عن تركه.

﴿١٧ - ١٨﴾ **﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأتوا إلى الله﴾** لهم البشري فبشر عباد * الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب * لما ذكر حال المجرمين ذكر حال النبيين وثوابهم، فقال: **﴿والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها﴾** والمراد بالطاغوت في هذا الموضع، عبادة غير الله، فاجتنبوها في عبادتها. وهذا من أحسن الاحتراز من الحكيم العليم، لأن المدح إنما يتناول المجتنب لها في عبادتها.

﴿وأتوا إلى الله﴾ بعبادته وإخلاص الدين له، فانصرفت دواعيهم من عبادة الأصنام إلى عبادة الملك العلّام، ومن الشرك والمعاصي إلى التوحيد والطاعات، **﴿لهم البشري﴾** التي لا يقادر قدرها، ولا يعلم وصفها، إلا من أكرمهم بها، وهذا شامل للبشري في الحياة الدنيا بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، والعناية الربانية من الله، التي يرون في خلالها، أنه مريد لإكرامهم في الدنيا والآخرة، ولهم البشري في الآخرة عند الموت، وفي القبر، وفي القيامة، وخاتمة البشري ما يبشرهم به الرب الكريم، من دوام رضوانه وبره وإحسانه وحلول أمانه في الجنة.

ولما أخبر أن لهم البشري، أمره الله ببشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة فقال: **﴿فبشر عباد﴾** * الذين يستمعون القول * وهذا جنس يشمل كل قول، فهم يستمعون جنس القول ليميزوا بين ما ينبغي إثاره

الحق ظاهرين لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك * تشير إليه هذه الآية، وترمي إليه من قريب، وهو أنه تعالى أخبر أن أرضه واسعة، فمهما منعتهم من عبادته في موضع فهاجروا إلى غيرها، وهذا عام في كل زمان ومكان، فلا بد أن يكون لكل مهاجر، ملجأ من المسلمين يلجأ إليه، وموضع يتمكن من إقامة دينه فيه.

﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ وهذا عام في جميع أنواع الصبر، الصبر على أقدار الله المؤلة فلا يتسخطها، والصبر عن معاصيه فلا يرتكبها، والصبر على طاعته حتى يؤديها، فوعد الله الصابرين أجرهم بغير حساب، أي: بغير حد ولا عذ ولا مقدار، وما ذاك إلا لفضيلة الصبر وعمله عند الله، وأنه معين على كل الأمور.

﴿١١ - ١٦﴾ **﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين﴾** * وأمرت لأن أكون أول المسلمين * **﴿قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾** * قل الله أعبد مخلصاً له ديني * فاعبدوا ما شئتم من دونه قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين * لهم من

ما ينبغي اجتنابه، فلهذا من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه، وأحسنه على الإطلاق كلام الله وكلام رسوله، كما قال في هذه السورة: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً﴾ الآية.

وفي هذه الآية نكتة، وهي: أنه لما أخبر عن هؤلاء المدحوحين أنهم يستمعون القول فيتبعون أحسنه، كأنه قيل: هل من طريق إلى معرفة أحسنه حتى نتصف بصفات أولي الألباب، وحتى نعرف أن من أثره علمنا أنه من أولي الألباب؟

قيل: نعم، أحسنه ما نص الله عليه
 ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً
 مشاهداً﴾ الآية.

﴿الَّذِينَ يَسْتَمْعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾، أولئك الذين هداهم الله ﴿وَأُولَئِكَ أَكْثَرُ الْأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ﴾، وأولئك هم أولو الألباب ﴿أَي: العقول الزاكية﴾.

ومن لبهم وحزمهم، أنهم عرفوا
الحسن من غيره، وأثروا ما ينبغي إشارته
على ما سواه، وهذا علامة العقل، بل
لا علامة للعقل سوى ذلك، فإن الذي
لا يميز بين الأقوال، حسننها
وقبحها، ليس من أهل العقول
الصحيحة، أو الذي يميز، لكن غلبت
شهوته عقله، فبقي عقله تابعاً لشهوته
فلم يؤثر الأحسن، كان ناقص العقل.

﴿١٩ - ٢٠﴾ ﴿أَمِنَ حَقَّ عَلَيْهِ
كَلِمَةَ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تَنْقُذُ مَنْ فِي
النَّارِ * لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَهْمَ لَهُمْ
غُرْفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرْفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ
الْمِيعَادَ﴾ أَي : أَمِنَ وَجِبَتْ عَلَيْهِ كَلِمَةُ
العَذَابِ بِاسْتِمْرَارِهِ عَلَى غِيهِ وَعُنَادِهِ
وَكُفْرِهِ، فَإِنَّهُ لَا حِيلَةَ لَكَ فِي هِدَايَتِهِ،
وَلَا تَقْدِرُ تَنْقُذُ مَنْ فِي النَّارِ لَا حَالَةَ،
لَكِنَّ الْغَنَى كُلَّ الْغَنَى، وَالْفَوْزُ كُلَّ
الْفَوْزِ، لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ أَعَدَّ لَهُمْ مِنَ
الْكَرَامَةِ وَأَنْوَاعِ النِّعَمِ مَا لَا يَقَادِرُ
قُدْرَهُ.

﴿لَهُمْ غُرَفٌ﴾ أي: منازل عالية

مزخرفة، من حسناتها وبهائها وصفائها،
أنه يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من
ظاهرها، ومن علوها وارتفاعها،
[أنها]^(١) ترى كما يرى الكوكب الغابر
في الأفق الشرقي أو الغربي، ولهذا
قال: ﴿من فوقها غرف﴾ أي: بعضها
فوق بعض ﴿مبنية﴾ بذهب وفضة،
وملاطها المسك الأذفر.

﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ المتدفقة،
المسقية للنباتات الزاهرة والأشجار
الطاهرة، فتغل بأنواع الثمار اللذيذة،
والفاكهة النضجة.

﴿وعد الله لا يخلف الله الميعاد﴾
وقد وعد المتقين هذا الثواب، فلا بد
من الوفاء به، فليوفوا بخصال التقوى،
ليوفهم أجورهم.

﴿٢١﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلَفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ صَفْراً ثُمَّ يَعْمَلُ لَهُ حُطَاماً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يذكر تعالى أولي الأبواب، ما أنزله من السماء من الماء، وأنه سلكه ينابيع في الأرض، أي: أودعه فيها ينبوعاً يستخرج بسهولة ويسر، ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلَفًا أَلْوَانُهُ﴾ من بر وفرة، وشعير وأرز، وغير ذلك. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ عند استكمالها، أو عند حدوث آفة فيه ﴿فَتَرَاهُ صَفْراً ثُمَّ يَعْمَلُ لَهُ حُطَاماً﴾ متكسراً ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ يذكرون به عناية ربهم ورحمته بعباده، حيث يسر لهم هذا الماء، وخصه بخزائن الأرض تبعاً لأصالحهم. ويذكرون به كمال قدرته، وأنه يحيي الموتى، كما أحيا الأرض بعد موتها، ويذكرون به أن الفاعل لذلك هو المستحق للعبادة.

اللهم اجعلنا من أولي الألباب،
الذين نوهت بذكرهم، وهديتهم بما
أعطيتهم من العقول، وأريتهم من
أسرار كتابك، ويدع آياتك ما لم يصل
إليه غيرهم، إنك أنت الوهاب.

﴿۲۲﴾ ﴿أَفَمِنْ شَرِّهِ﴾

أَتَمَنَّا سِجَّ اللَّهِ سَجْرَةً لَّا يَلْبِثُهَا مَوْلُوهُنَّ قَوْلُهُنَّ رَبُّهُنَّ قَوْلُ
الْعَالَمِينَ قَوْلُهُمْ هُنَّ ذِكْرُ أُولَئِكَ فِي مَسَاجِدٍ ۝
أَتَدْعُونَ الْتَّمِيمَ لِيُكَفِّرَ عَنْكُمْ تِلْكَ الْأَسْمَاءُ الَّتِي تَقُولُونَ
مَوْلَاؤُنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ رَبَّهُمْ تِلْكَ الْأَسْمَاءُ مَوْلَاؤُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى
ذِكْرِ أُولَئِكَ هُدًى اللَّهُ يَهْدِي بِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِّ
اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ حَادٍ ۝ أَتَمَنَّا نَتَّبِعَ وَجْهَهُ سُبُوحُ الْعَذَابِ
قَوْلُ الْعَبِيدِ وَقِيلَ لِلْعَالَمِينَ دَعُوا مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۝
كَلَّمَ الْآلِهَةَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ أَلْعَدَابِ مِنْ عِندِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
فَإَذْنَبُوا اللَّهُ الْفَخْرَ فِي الْحُجُوتِ الْأَشْيَاءِ وَالْعَذَابِ الْأَعْوَجِ
أَعَزُّ رُكُوعًا وَأَضْمَحُوتَ ۝ وَلَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ إِذْ هَذَا
الْفَرَقَانِ مِنْ كُلِّ نَجْمٍ أَلْهَمَهُ يَتَّبِعُونَ ۝ قَوْلًا
عَرَبِيًّا مَعْرُوفًا يَدْعُونَ بِهِ الْأَعْيُنُ عَن قَوْلِ
يَهُودَ سُكْرًا مُتَشَكِّبُونَ وَيَسْمَعُ سَمْعًا يَطْلِي بِهِ فَيَسْتَعِينُ
بِهَا الْعَمْدُ قَوْلُ الْعَدُوِّ لِحَاقِهِمْ ۝ إِنَّكَ يَتْلُوكَ مِنْ
مَقَامٍ ۝ وَأَلْكَوْهُمُ الْغُلَامَ عِنْدَ رَبِّهِمْ فَخَصُّوا ۝

للإسلام فهو على نور من ربه فويل
للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك في
ضلال مبين ﴿أي: أفيسئوي مَنْ
شرح الله صدره للإسلام، فاتسع
لتلقي أحكام الله والعمل بها، منشرحاً
قرير العين، على بصيرة من أمره، وهو
المراد بقوله: ﴿فهو على نور من ربه﴾
كمن ليس كذلك، بدليل قوله: ﴿فويل
للقاسية قلوبهم من ذكر الله﴾ أي:
لا تلين لكتابيه، ولا تتذكر آياته،
ولا تطمئن بذكره، بل هي معرضة عن
ربه، ملتفتة إلى غيره، فهؤلاء لهم
الويل الشديد، والشر الكبير.

﴿أولئك في ضلال مبين﴾ وأي:
ضلال أعظم من ضلال مَنْ أعرض عن
وليه؟ ومن كل السعادة في الإقبال
عليه، وقسا قلبه عن ذكره، وأقبل على
كل ما يضره!!

﴿٢٣﴾ ﴿الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ يخبر تعالى عن كتابه الذي نزله أنه ﴿أحسن الحديث﴾ على الإطلاق، فأحسن الحديث كلام الله، وأحسن الكتب المنزلة من كلام الله هذا القرآن، وإذا كان هو الأحسن، علم أن ألفاظه

﴿مثنى﴾ أي: تثنى فيه القصص والأحكام، والوعد والوعيد، وصفات أهل الخير، وصفات أهل الشر، وتثنى فيه أسماء الله وصفاته، وهذا من جلالته وحسنه، فإنه تعالى لما علم احتياج الخلق إلى معانيه الزكية للقلوب، المكمل للأخلاق، وأن تلك المعاني للقلوب، بمنزلة الماء لسقى العاني للقلب،

سهل المعاني، خصوصاً على العرب. **﴿غير ذي عوج﴾** أي: ليس فيه خلل ولا نقص بوجه من الوجوه، لا في ألفاظه ولا في معانيه، وهذا يستلزم كمال اعتداله واستقامته كما قال تعالى: **﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً﴾** قيماءً.

﴿لعلهم يتقون﴾ الله تعالى، حيث سهلنا عليهم طرق التقوى العلمية والعملية، بهذا القرآن العربي المستقيم، الذي ضرب الله فيه من كل مثل.

ثم ضرب مثلاً للشرك والتوحيد فقال: **﴿ضرب الله مثلاً رجلاً﴾** أي: عبداً **﴿فيه شركاء متشاكسون﴾** فهم كثيرون، وليسوا متفقين على أمر من الأمور وحالة من الحالات حتى تتمكن راحته، بل هم متشاكسون متنازعون فيه، كل له مطلب يريد تنفيذه ويريد الآخر غيره، فما تظن حال هذا الرجل مع هؤلاء الشركاء المتشاكسين؟

﴿ورجلاً مسلماً لرجل﴾ أي: خالصاً له، قد عرف مقصود سيده، وحصلت له الراحة التامة. **﴿هل يستويان﴾** أي: هذان الرجلان **﴿مثلاً﴾**؟ لا يستويان.

كذلك المشرك، فيه شركاء متشاكسون، يدعو هذا، ثم يدعو هذا، فتراه لا يستقر له قرار، ولا يطمئن قلبه في موضع، والموخذ غلص لربه، قد خلصه الله من الشركة لغيره، فهو في أتم راحة وأكمل طمأنينة، فـ **﴿هل يستويان مثلاً الحمد لله﴾** على تبين الحق من الباطل، وإرشاد الجهال. **﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾**

﴿إنك ميت وإنهم ميتون﴾ أي: كلكم لا بد أن يموت **﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون﴾**.

﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ فيما تنازعتم فيه، فيفصل بينكم بحكمه العادل، ويميزي كلًا ما عمله **﴿أحصاه الله ونسوه﴾**.

﴿٣٢-٣٥﴾ فمن أظلم ممن

كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه **﴿ليس في جهنم مثوى للكافرين﴾** * والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون * لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين * ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون * يقول تعالى، محذراً وغيراً: أنه لا أظلم وأشد ظلماً **﴿ومن كذب على الله﴾** إما بنسبته إلى ما لا يليق بجلاله، أو بادعاء النبوة، أو الإخبار بأن الله تعالى قال كذا، أو أخبر بكذا، أو حكم بكذا وهو كاذب، فهذا داخل في قوله تعالى: **﴿وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾** إن كان جاهلاً، وإلا فهو أشنع وأشنع،

﴿وكذب بالصدق إذ جاءه﴾ (١) أي: ما أظلم ممن جاءه الحق المؤيد بالبينات فكذبه، فتكذبه ظلم عظيم منه، لأنه رد الحق بعدما تبين له، فإن كان جامعاً بين الكذب على الله والكذب بالحق، كان ظلماً على ظلم. **﴿ليس في جهنم مثوى للكافرين﴾** يحصل بها الاشتفاء منهم، وأخذ حق الله من كل ظالم وكافر. **﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾**.

ولما ذكر الكاذب المكذب وجنانيته وعقوبته، ذكر الصادق المصدق وثوابه، فقال: **﴿والذي جاء بالصدق﴾** في قوله وعمله، فدخل في ذلك الأنبياء ومن قام مقامهم، ممن صدق فيما قاله عن خبر الله وأحكامه، وفيما فعله من خصال الصدق.

﴿وصدق به﴾ أي: بالصدق لأنه قد يجيء الإنسان بالصدق، ولكن قد لا يصدق به، بسبب استكباره، أو احتقاره لمن قاله وأتى به، فلا بد في المدح من الصدق والتصديق، فصدقه يدل على علمه وعدله، وتصديقه يدل على تواضعه وعدم استكباره.

﴿أولئك﴾ أي: الذين وفقوا للجمع بين الأمرين **﴿هم المتقون﴾** فإن جميع خصال التقوى ترجع إلى الصدق بالحق

والتصديق به.

﴿لهم ما يشاؤون عند ربهم﴾ من الشواب، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. فكل ما تعلقت به إرادتهم ومشتيتهم، من أصناف اللذات والمشتبهات، فإنه حاصل لهم، معد مهياً، **﴿ذلك جزاء المحسنين﴾** الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم **﴿المحسنين﴾** إلى عباد الله.

﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾ عمل الإنسان له ثلاث حالات:

إما أسوأ، أو أحسن، أو لا أسوأ ولا أحسن.

والقسم الأخير قسم المباحات وما لا يتعلق به ثواب ولا عقاب، والأسوأ، المعاصي كلها، والأحسن، الطاعات كلها، فهذا التفصيل يتبين معنى الآية، وأن قوله: **﴿ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا﴾** أي: ذنوبهم الصغار، بسبب إحسانهم وتقواهم، **﴿ويميزهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون﴾** أي: بحساناتهم كلها.

﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾.

مَنْ كَانَ مَاتَ، أَوْ قُضِيَ أَنْ يَمُوتَ فِي مَنَامِهِ.

﴿وَيُرْسِلُ﴾ النفس ﴿الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أَي: إِلَى اسْتِكْمَالِ رِزْقِهَا وَأَجْلِهَا. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ عَلَى كَمَالِ اقْتِدَارِهِ، وَإِحْيَايَةِ الْمَوْتَى بَعْدَ مَوْتِهِمْ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرُّوحَ وَالنَّفْسَ جِسْمٌ قَائِمٌ بِنَفْسِهِ، مُخَالَفٌ لِّجَوْهَرِهِ جَوْهَرُ الْبَدَنِ، وَأَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ مَدْبُورَةٌ، يَتَصَرَّفُ اللَّهُ فِيهَا فِي الرِّفَاةِ وَالْإِمْسَاكِ وَالْإِرْسَالِ، وَأَنَّ أَرْوَاحَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ تَتَلَقَّى فِي الْبَرَزَخِ، فَتَجْتَمِعُ فَتُنْشِئُ أَفْئِدَةً، فَيُرْسِلُ اللَّهُ أَرْوَاحَ الْأَحْيَاءِ، وَيَمْسِكُ أَرْوَاحَ الْأَمْوَاتِ.

﴿٤٣- ٤٤﴾ ﴿أَمْ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبُكُمْ أَمْ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلُوبُكُمْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ * قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. يَنْكَرُ تَعَالَى عَلَى مَنْ اتَّخَذَ مِنْ دُونِهِ شُفَعَاءَ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ وَيَسْأَلُهُمْ وَيُعْبِدُهُمْ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ - مَبْنِيًّا جَهْلُهُمْ، وَأَنَّهَا لَا تَسْتَحِقُّ شَيْئًا مِنْ الْعِبَادَةِ -: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا﴾ أَي: مَنْ اتَّخَذْتُمْ مِنَ الشُّفَعَاءِ ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ أَي: لَا مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ، بَلْ وَلَيْسَ لَهُمْ عَقْلٌ يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَمْدَحُوا بِهِ، لِأَنَّهَا جَادَاتٌ مِنْ أَحْجَارٍ وَأَشْجَارٍ وَصُورٍ وَأَمْوَاتٍ، فَهَلْ يَقَالُ: إِنَّ لِي اتَّخَذْتُهَا عَقْلًا؟ أَمْ هُوَ مِنْ أَضَلِّ النَّاسِ وَأَجْهَلِهِمْ وَأَعْظَمِهِمْ ظُلْمًا؟

﴿قُلْ﴾ لَهُمْ: ﴿لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ لِأَنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ وَكُلُّ شَفِيعٍ فَهُوَ بِخَافِهِ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَشْفَعَ عِنْدَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِذَا أَرَادَ رَحْمَةً عِنْدَهُ، أَذِنَ لِلشَّفِيعِ الْكَرِيمِ عِنْدَهُ أَنْ يَشْفَعَ، رَحْمَةً بِالْآثِنِينَ. ثُمَّ قَرَّرَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ كُلَّهَا لَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: جَمِيعٌ مَا فِيهِمَا مِنَ الدُّوَاتِ وَالْأَفْعَالِ وَالصِّفَاتِ. فَالْوَاجِبُ أَنْ تَطْلُبَ الشَّفَاعَةَ مِنْ يَمْلِكُهَا، وَتَخْلَصَ لَهُ الْعِبَادَةُ. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فَيَجَازِي الْمَخْلُصَ لَهُ بِالشَّوَابِ الْجَزِيلِ، وَمَنْ

أَشْرَكَ بِهِ بِالْعَذَابِ الْوَبِيلِ.

﴿٤٥- ٤٦﴾ ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ * قُلْ اللَّهُ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ. يَذْكُرُ تَعَالَى حَالَةَ الْمُشْرِكِينَ، وَمَا الَّذِي اقْتَضَاهُ شُرَكَهُمْ أَنَّهُمْ ذَكَرَ اللَّهَ تَوْحِيدًا لَهُ، وَأَمْرًا بِإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ، وَتَرْكُ مَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ، أَنَّهُمْ يَشْمَتُونَ وَيَنْفَرُونَ، وَيَكْرَهُونَ ذَلِكَ أَشَدَّ الْكَرَاهَةِ.

﴿وَإِذَا ذَكَرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ، وَدَعَا الدَّاعِي إِلَى عِبَادَتِهَا وَمَدْحِهَا، إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ بِذَلِكَ، فَرَحًا بِذِكْرِ مَعْبُودَاتِهِمْ، وَلَكُونِ الشَّرِكِ مُوَافِقًا لِأَهْوَائِهِمْ، وَهَذِهِ الْحَالُ أَشْرَ الْحَالَاتِ وَأَشْنَعُهَا، وَلَكِنْ مَوَدِّعُهُمْ يَوْمَ الْجَزَاءِ. فَهَنَّاكَ يُوْخِذُ الْحَقَّ مِنْهُمْ، وَيَنْظُرُ: هَلْ تَنْفَعُهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شَيْئًا؟

ولهذا قال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أَي: خَالِقُهُمَا وَمُدَبِّرُهُمَا، ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ الَّذِي غَابَ عَنْ أَبْصَارِنَا وَعِلْمِنَا، ﴿وَالشَّهَادَةِ﴾ الَّذِي نَشَاهَدُهُ.

﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ وَإِنْ مِنْ أَعْظَمِ الْاِخْتِلَافِ اِخْتِلَافُ الْمُؤَحِّدِينَ الْمُخْلِصِينَ الْقَائِلِينَ: إِنَّ مَا هُمْ عَلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ، وَإِنْ لَهُمُ الْحَسَنَى فِي الْآخِرَةِ دُونَ غَيْرِهِمْ، وَالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِكَ الْأَنْدَادَ وَالْأَوْثَانَ، وَسَوَّوْا فَيْكَ مَنْ لَا يَسْوَى شَيْئًا، وَتَنْقُصُوكَ غَايَةَ النِّقْصِ، وَاسْتَبْشَرُوا عِنْدَ ذِكْرِ آلِهَتِهِمْ، وَاشْمَتُوا عِنْدَ ذِكْرِكَ، وَزَعَمُوا مَعَ هَذَا أَنَّهُمْ عَلَى الْحَقِّ وَغَيْرِهِمْ عَلَى الْبَاطِلِ، وَأَنْ لَهُمُ الْحَسَنَى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. وَقَدْ أَخْبَرَنَا بِالْفَصْلِ بَيْنَهُمْ بَعْدَهَا

بقوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَيْبٍ فَأَلَّذِينَ كَفَرُوا قَطَعْتُمْ لَهُمْ ثِيَابَ مِنْ نَارٍ يَصُبُّ مِنْ فَوْقَ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ * يَصْهَرُ بِهِ مَا فِي بَطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ * وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ. إِلَى أَنْ قَالَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَحْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾. ﴿إِنَّهُ مَنْ يَشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ فَبَيَّنَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، بَيَانَ عَمُومٍ خَلَقَهُ تَعَالَى وَعَمُومَ حُكْمِهِ بَيْنَ عِبَادِهِ، فَقُدْرَتِهِ الَّتِي نَشَأَتْ عَنْهَا الْمَخْلُوقَاتُ، وَعِلْمِهِ الْمَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ، دَالٌ عَلَى حُكْمِهِ بَيْنَ عِبَادِهِ وَبَيْنَهُمْ، وَعِلْمِهِ بِأَعْمَالِهِمْ، خَيْرُهَا وَشَرُّهَا، وَبِمُقَادِيرِ جَزَائِهَا، وَخَلَقَهُ دَالٌ عَلَى عِلْمِهِ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾.

﴿٤٧- ٤٨﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَّلَ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ * وَبَدَّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ. لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُ الْحَاكِمُ بَيْنَ عِبَادِهِ، وَذَكَرَ مَقَالَ الْمُشْرِكِينَ وَشَتَائِعَهَا، كَانَ النُّفُوسُ تَشَوَّقَتْ إِلَى مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَخْبَرَ أَنَّ لَهُمْ ﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أَي: أَشَدَّهُ وَأَفْظَعَهُ، كَمَا قَالُوا أَشَدَّ الْكُفْرِ وَأَشْنَعَهُ، وَأَنَّهُمْ عَلَى - الْفُرْصِ وَالتَّقْدِيرِ - لَوْ كَانَ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، مِنْ ذَهَبِهَا وَفُضَّتِهَا وَلُؤْلُؤِهَا وَحَيَوَانَاتِهَا وَأَشْجَارِهَا وَزُرُوعِهَا وَجَمِيعِ أَوَانِهَا وَأَنْثَاهَا وَمِثْلَهُ مَعَهُ، ثُمَّ بَدَّلَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنَ الْعَذَابِ وَيَنْجُوا مِنْهُ، مَا قَبِلَ مِنْهُمْ، وَلَا أَغْنَى عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ شَيْئًا، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ * لِأَنَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

﴿وَبَدَّلَ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أَي: يَظُنُّونَ مِنَ السَّخَطِ الْعَظِيمِ، وَالْمَقْتِ الْكَبِيرِ، وَقَدْ كَانُوا

يحكمون لأنفسهم بغير ذلك.

﴿وبدا لهم سيئات ما كسبوا﴾ أي: الأمور التي تسوؤهم، بسبب صنيعهم وكسبهم. ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون﴾ من الوعيد والعذاب الذي نزل بهم، وما حل عليهم العقاب.

﴿٤٩ - ٥٢﴾ ﴿فإذا مس الإنسان ضرر دعانا ثم إذا خولناه نعمه منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون * فأصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين * أولم يعلموا أن الله ييسط الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾ يخبر تعالى عن حالة الإنسان وطبيعته، أنه حين يمس ضرر، من مرض أو شدة أو كرب، ﴿دعانا﴾ ملحاً في تفريج ما نزل به * ثم إذا خولناه نعمه مثلاً فكشفنا ضره وأزلنا مشقته، عاد بربه كافراً، والمعروفه منكراً، و ﴿قال إنما أوتيته على علم﴾ أي: علم من الله، أي له أهل، وأنا مستحق له، لأنني كريم عليه، أو على علم مني بطرق تحصيله.

قال تعالى: ﴿بل هي فتنة﴾ يتلى الله به عباده، لينظر من يشكره عن كفره. ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ فلذلك يعدون الفتنة منحة، ويشتهه عليهم الخير المحض، بما قد يكون سبباً للخير أو للشر.

قال تعالى: ﴿قد قالها الذين من قبلهم﴾ أي: قولهم ﴿إنما أوتيته على علم﴾ فما زالت متوارثة عند المكذبين، لا يفرون بنعمة ربهم، ولا يرون له حقاً، فلم يزل دأبهم حتى أهلكوا، ولم يغن عنهم ما كانوا يكسبون﴾ حين جاءهم العذاب.

﴿فأصابهم سيئات ما كسبوا﴾ والسيئات في هذا الموضع: العقوبات، لأنها تسوء الإنسان وتحزنه. ﴿والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا﴾ فليسوا خيراً من أولئك، ولم يكتب لهم براءة في الزبر.

ولما ذكر أنهم اغتروا بالمال، وزعموا - بجهلهم - أنه يدل على حسن حال صاحبه، أخبرهم تعالى، أن رزقه لا يدل على ذلك، وأنه ﴿يسط الرزق لمن يشاء﴾ من عباده، سواء كان صالحاً أو طالحاً ﴿ويقدر﴾ الرزق، أي: يضيقه على من يشاء، صالحاً أو طالحاً، فرزقه مشترك بين البرية، والإيمان والعمل الصالح يخص به خير البرية. ﴿إن في ذلك، لآيات لقوم يؤمنون﴾ أي: بسط الرزق وقبضه، لعلمهم أن مرجع ذلك، عائد إلى الحكمة والرحمة، وأنه أعلم بحال عبده، فقد يضيّق عليهم الرزق لطفاً بهم، لأنه لو بسطه لبغوا في الأرض، فيكون تعالى مراعيّاً في ذلك صلاح دينهم الذي هو مادة سعادتهم وفلاحهم، والله أعلم.

﴿٥٣ - ٥٩﴾ ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتاكم العذاب ثم لا تنصرون * واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتكم العذاب بفتنة وأنتم لا تشعرون * أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين * أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين * أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين * بلى قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين﴾ يخبر تعالى عباده المسرفين بسعة كرمه، ويحثهم على الإنابة قبل أن لا يمكنهم ذلك فقال: ﴿قل﴾ يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله، غيبراً للعباد عن ربهم: ﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم﴾ باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علام الغيوب.

﴿لا تقنطوا من رحمة الله﴾ أي: لا تياسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا وتراكت عيوننا، فليس لها طريق

يزيلها ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا أنه يغفر الذنوب جميعاً، من الشرك، والقتل، والزنا، والربا، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار. ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي: وصفه المغفرة والرحمة، وصفان لازمان ذاتيان، لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، ماثلة للموجود، تسح يداه من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم على العباد والفواضل في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته، ولكن لمغفرته ورحمته ونيلهما أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم، ولهذا أمر تعالى بالإنابة إليه، والمبادرة إليها فقال: ﴿وأنسيوا إلى ربكم﴾ بقلوبكم ﴿وأسلموا له﴾ بجوارحكم، إذا أفردت الإنابة، دخلت فيها أعمال الجوارح، وإذا جمع بينهما، كما في هذا الموضع، كان المعنى ما ذكرنا.

وفي قوله: ﴿إلى ربكم وأسلموا له﴾ دليل على الإخلاص، وأنه من دون إخلاص، لا تفيد الأعمال الظاهرة والباطنة شيئاً. ﴿من قبل أن يأتكم العذاب﴾ مجيئاً لا يدفع ﴿ثم لا تنصرون﴾. فكأنه قيل: ما هي الإنابة والإسلام؟ وما جزئياتها وأعمالها؟

فأجاب تعالى بقوله: ﴿واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم﴾ مما أمركم من الأعمال الباطنة، كمحبة الله، وخشيته، وخوفه، ورجائه، والنصح لعباده، ومحبة الخير لهم، وترك ما يصاد ذلك. ومن الأعمال الظاهرة، كالصلاة،

فسوا هذا المخلوق الناقص الخالق الرب العظيم، الذي من عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السماوات - على سعتها وعظمتها - مطويات بيمينه، فلا عظمه حق عظمته من سوى به غيره، ولا أظلم منه.

﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي: تنزه وتعاظم عن شركهم به.

﴿٦٨ - ٧٠﴾ ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ وأشرقت الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون * ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ لما خوفهم تعالى من عظمته، خوفهم بأحوال يوم القيامة، ورغبهم ورهبهم فقال: ﴿ونفخ في الصور﴾ وهو قرن عظيم، لا يعلم عظمته إلا خالقه، ومن أطلعه الله على علمه من خلقه، فينفخ فيه إسرافيل عليه السلام، أحد الملائكة المقربين، وأحد حملة عرش الرحمن.

﴿فصعق﴾ أي: غشي أو مات، على اختلاف القولين: ﴿من في السماوات ومن في الأرض﴾ أي: كلهم، لما سمعوا نفخة الصور أزعجتهم من شدتها وعظمتها، وما يعلمون أنها مقدمة له. ﴿إلا من شاء الله﴾ من ثبته الله عند النفخة، فلم يصعق، كالشهداء أو بعضهم، وغيرهم. وهذه النفخة الأولى، نفخة الصعق ونفخة الفزع.

﴿ثم نفخ فيه﴾ النفخة الثانية نفخة البعث ﴿فإذا هم قيام ينظرون﴾ أي: قد قاموا من قبورهم لبعثهم وحسابهم، قد تمت منهم الخلقة الجسدية والأرواح، وشخصت أبصارهم ﴿ينظرون﴾ ماذا يفعل الله بهم.

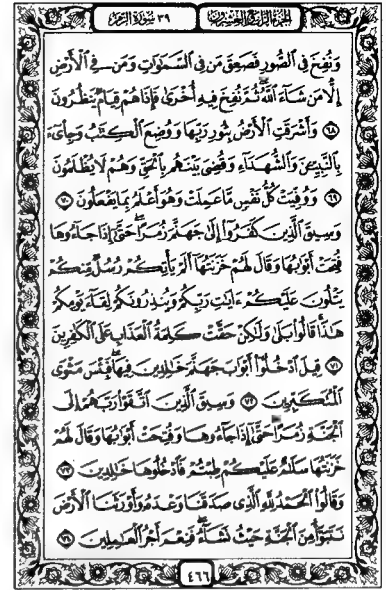
﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ علم من هذا، أن الأنوار الموجودة تذهب يوم القيامة وتضمحل، وهو كذلك، فإن الله أخبر أن الشمس تكور،

من كل وجه، لا ينفع ولا يضر، لم تأمروني بذلك، وذلك لأن الشرك بالله محبط للأعمال، مفسد للأحوال، ولهذا قال: ﴿ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك﴾ من جميع الأنبياء ﴿لئن أشركت ليحبطن عملك﴾ هذا مفرد مضاف، يعم كل عمل، ففي نبوة جميع الأنبياء، أن الشرك محبط لجميع الأعمال، كما قال تعالى في سورة الأنعام - لما عدد كثيراً من أنبيائه ورسله قال عنهم: ﴿ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾.

﴿ولتكونن من الخاسرين﴾ دينك وأخرتك، فبالشرك تحبط الأعمال، ويستحق العقاب والنكال.

ثم قال: ﴿بل الله فاعبد﴾ لما أخبر أن الجاهلين يأمرونه بالشرك، وأخبر عن شناعته، أمره بالإخلاص فقال: ﴿بل الله فاعبد﴾ أي: أخلص له العبادة وحده لا شريك له، ﴿وكن من الشاكرين﴾ لله على توفيق الله تعالى، فكما أنه تعالى يشكر على النعم الدنيوية، كصحة الجسم وعافيته، وحصول الرزق وغير ذلك، كذلك يشكر ويثنى عليه بالنعم الدينية، كالتوفيق للإخلاص، والتقوى، بل ينعم الدين، هي النعم على الحقيقة، وفي تدبر أنها من الله تعالى والشكر لله عليها، سلامة من آفة العجب التي تعرض لكثير من العاملين، بسبب جهلهم، وإلا، فلو عرف العبد حقيقة الحال، لم يعجب بنعمة تستحق عليه زيادة الشكر.

﴿٦٧﴾ ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ يقول تعالى: وما قدر هؤلاء المشركون ربهم حق قدره، ولا عظمه حق تعظيمه، بل فعلوا ما يناقض ذلك، من إشراكهم به من هو ناقص في أوصافه وأفعاله، فأوصافه ناقصة من كل وجه، وأفعاله ليس عنده نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا يملك من الأمر شيئاً.



وتدبيراً، ف ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده، وهو العزيز الحكيم﴾. فلما بين من عظمته ما يقتضي أن تمتلئ القلوب له إجلالاً وإكراماً، ذكر حال من عكس القضية فلم يقدره حق قدره، فقال: ﴿والذين كفروا بآيات الله﴾ الدالة على الحق اليقين والصراط المستقيم، ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ خسروا ما به تصلح القلوب من التأله والإخلاص لله، وما به تصلح الألسن من إشغالها بذكر الله، وما تصلح به الجوارح من طاعة الله، وتعوضوا عن ذلك كل مفسد للقلوب والأبدان، وخسروا جنات النعيم، وتعوضوا عنها بالعذاب الأليم.

﴿٦٤ - ٦٦﴾ ﴿قل أنفسير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون * ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين﴾ بل الله فاعبدوا من الشاكرين، ﴿قل﴾ يا أيها الرسول لهؤلاء الجاهلين، الذين دعوك إلى عبادة غير الله: ﴿أنفسير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ أي: هذا الأمر صدر من جهلكم، وإلا فلو كان لكم علم بأن الله تعالى الكامل من جميع الوجوه، مسدي جميع النعم، هو المستحق للعبادة، دون من كان ناقصاً

بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين.

﴿وينذرونكم لقاء يومكم هذا﴾ أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحد من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟

﴿قالوا﴾ مقرين بذنبيهم، وأن حجة الله قامت عليهم: ﴿بلى﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وحذرونا من هذا اليوم. ﴿ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾ أي: بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب، التي هي لكل من كفر بآيات الله، وجحد ما جاءت به المرسلون، فاعترفوا بذنبيهم وقيام الحجة عليهم.

﴿ف قيل﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال: ﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها. ﴿خالدين فيها﴾ أبداً، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا ينظرون. ﴿فنبشئ مئوى المتكبرين﴾ أي: بنس المقر، النار مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا على الحق، فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل والخزي.

ثم قال عن أهل الجنة: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم﴾ بتوجيه والعمل بطاعته، سوق إكرام وإعزاز، يحشرون وفداً على النجائب. ﴿إلى الجنة زمراً﴾ فرحين مستبشرين، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها وتشاكله. ﴿حتى إذا جاؤوها﴾ أي: وصلوا لتلك الرحاب الرحبية والمنازل الأنيقة، وهب عليهم ريحها ونسيمها، وأن خلودها ونعيمها. ﴿وفتحت﴾ لهم ﴿أبوابها﴾ فتحت إكرام، لكرام الخلق، ليكرموا فيها. ﴿وقال لهم خزنتها﴾ تهنته لهم وترحيباً: ﴿سلام عليكم﴾ أي: سلام من كل آفة وشر حال عليكم. ﴿طبت﴾ أي: طابت قلوبكم بمعرفة الله ومحبه وخشيته، وألستكم بذكره، وجوارحكم بطاعته. ﴿ف﴾ بسبب طيبكم ﴿ادخلوها خالدين﴾

وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين * قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فنبشئ مئوى المتكبرين * وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتهم فادخلوها خالدين * وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فننعم أجر العاملين * وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين * لما ذكر تعالى حكمه بين عباده، الذين جمعهم في خلقه ورزقه وتدبيره، واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة، فرقمهم تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر، والتقوى والفجور، فقال: ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم﴾ أي: سوقاً عنيماً، يضربون بالسياط الموجهة، من الزبانية الغلاظ الشداد، إلى شر محبس وأفظع موضع، وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال عنها كل سرور، كما قال تعالى: ﴿يوم يُدعون إلى نار جهنم دعا﴾ أي: يدفعون إليها دفعا، وذلك لامتناعهم من دخولها.

ويساقون إليها ﴿زمراً﴾ أي: فرقا متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضاً، وبرا بعضهم من بعض. ﴿حتى إذا جاؤوها﴾ أي: وصلوا إلى ساحتها ﴿فتبخت﴾ لهم أي: لأجلهم ﴿أبوابها﴾ لقدومهم وقرئ لتزولهم.

﴿وقال لهم خزنتها﴾ مهتئين لهم بالشقاء الأبدى، والعذاب السرمدي، وموبخين لهم على الأعمال التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع: ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ أي: من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتمكنون من التلقي عنهم؟ ﴿يتلون عليكم آيات ربكم﴾ التي أرسلهم الله

والقمر مجسفاً، والنجوم تندثر، ويكون الناس في ظلمة، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربها، عندما يتجلى وينزل للفصل بينهم، وذلك اليوم يجعل الله للخلق قوة، وينشئهم نشأة يَفْقَؤُونَ على أن لا يحرقهم نوره، ويتمكنون أيضاً من رؤيته، وإلا، فنوره تعالى عظيم، لو كشفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

﴿ووضع الكتاب﴾ أي: كتاب الأعمال ودبوانه، وضع ونشر، ليقرا ما فيه من الحسنات والسيئات، كما قال تعالى: ﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾. ويقال للعامل من تمام العدل والإنصاف: ﴿أقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾.

﴿وجيء بالنبئين﴾ لیسألوا عن التبليغ، وعن أمهم، ويشهدوا عليهم. ﴿والشهداء﴾ من الملائكة، والأعضاء والأرض. ﴿وقضى بينهم بالحق﴾ أي: العدل التام والقسط العظيم، لأنه حساب صادر ممن لا يظلم مثقال ذرة، ومن هو محيط بكل شيء، وكتابه الذي هو اللوح المحفوظ، محيط بكل ما عملوه، والحفظة الكرام، والذين لا يعصون ربهم، قد كتبت عليهم ما عملوه، وأعدل الشهداء قد شهدوا على ذلك الحكم، فحكم بذلك من يعلم مقادير الأعمال ومقادير استحقاقها للثواب والعقاب، فيحصل حكم يقر به الخلق، ويعترفون لله بالحمد والعدل، ويعرفون به من عظمتهم وعلمه وحكمته ورحمته ما لم يخطر بقلوبهم، ولا تعبر عنه ألسنتهم، ولهذا قال: ﴿ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون﴾.

﴿٧١-٧٥﴾ ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم

وأما إخبار عن الغيوب الماضية والمستقبلية، فهي من تعليم العليم لعباده .

وأما إخبار عن نِعْمَةِ العظيمة، وآلاته الجسيمة، وما يوصل إلى ذلك من الأوامر، فذلك يدل عليه قوله: ﴿ذِي الطول﴾ .

وأما إخبار عن نِعْمَةِ الشديدة، وعمّا يوجبها ويقتضيها من المعاصي، فذلك يدل عليه قوله: ﴿شديد العقاب﴾ .

وأما دعوة للمذنبين إلى التوبة والإنابة، والاستغفار، فذلك يدل عليه قوله: ﴿غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب﴾ .

وأما إخبار بأنه وحده المألوه المعبود، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على ذلك، والحث عليه، والنهي عن عبادة ما سوى الله، وإقامة الأدلة العقلية والنقلية على فسادها، والترهيب منها، فذلك يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ .

وأما إخبار عن حكمه الجزائي العدل، وثواب المحسنين، وعقاب العاصين، فهذا يدل عليه قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ .

فهذا جميع ما يشتمل عليه القرآن من المطالب العاليات .

﴿٤-٦﴾ ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد * كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب * وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار * يخبر تبارك وتعالى أنه ما يجادل في آياته إلا الذين كفروا والمراد بالمجادلة هنا، المجادلة لرد آيات الله ومقابلتها بالباطل، فهذا من صنيع الكفار، وأما المؤمنون، فيخضعون لله تعالى الذي يليق الحق ليدحض به الباطل، ولا ينبغي للإنسان أن يغتر بحالة الإنسان الدنيوية، ويظن أن إعطاء الله إياه في الدنيا، دليل على محبته له وأنه على الحق، ولهذا قال: ﴿فلا يغررك

اليوم العظيم﴾ حافين من حول العرش﴾ أي: قد قاموا في خدمة ربهم، واجتمعوا حول عرشه، خاضعين لجلاله، معترفين بكماله، مستغرقين بجماله . ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ أي: ينزهونه عن كل ما لا يليق بجلاله، مما نسب إليه المشركون وما لم ينسبوا .

﴿وقضي بينهم﴾ أي: بين الأولين والآخرين من الخلق ﴿بالحق﴾ الذي لا اشتباه فيه ولا إنكار، ممن عليه الحق . ﴿وقيل الحمد لله رب العالمين﴾ لم يذكر القائل مَنْ هو، ليدل ذلك على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم وحكمته على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار، حمد فضل وإحسان، وحمد عدل وحكمة .

ثم تفسير سورة الزمر بحمد الله وعونه

تفسير سورة المؤمن مكية

﴿١-٣﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَم * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير﴾ يخبر تعالى عن كتابه العظيم، بأنه صادر ومنزل من الله المألوه المعبود، لكماله وانفراده بأفعاله، ﴿العزيز﴾ الذي قهر بعزته كل مخلوق، ﴿العليم﴾ بكل شيء، ﴿غافر الذنب﴾ للمذنبين ﴿وقابل التوب﴾ من التائبين، ﴿شديد العقاب﴾ على مَنْ تجرأ على الذنوب ولم يتب منها، ﴿ذِي الطول﴾ أي: التفضل والإحسان الشامل .

فلما قرر ما قرر من كماله، وكان ذلك موجباً لأن يكون وحده المألوه الذي تخلص له الأعمال، قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ﴾ .

ووجه المناسبة بذكر نزول القرآن من الله، الموصوف بهذه الأوصاف، أن هذه الأوصاف مستلزمة لجميع ما يشتمل عليه القرآن من المعاني .

فإن القرآن: إما إخبار عن أسماء الله وصفاته وأفعاله، وهذه

لأنها الدار الطيبة، ولا يليق بها إلا الطيبون .

وقال في النار: ﴿فتحت أبوابها﴾ وفي الجنة: ﴿وفتحت﴾ بالواو، إشارة إلى أن أهل النار، بمجرد وصولهم إليها، فتحت لهم أبوابها من غير انتظار ولا إسهال، وليكون فتحها في وجوههم، وعلى وصولهم، أعظم حرها، وأشد لعذابها .

وأما الجنة، فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها ولا ينالها كل أحد، إلا مَنْ أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك، فيحتاجون لدخولها لشفاعة أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد ﷺ حتى يشفع، فيشفعه الله تعالى .

وفي الآيات دليل على أن النار والجنة لهما أبواب تفتح وتغلق، وأن لكل منهما خزنة، وهما الداران الخالصتان اللتان لا يدخل فيهما إلا مَنْ استحقهما، بخلاف سائر الأمكنة والدور .

﴿وقالوا﴾ عند دخولهم فيها واستقرارهم، حامدين ربهم على ما أولاهم ومنّ عليهم وهداهم: ﴿الحمد لله الذي صدقنا وعده﴾ أي: وعدنا الجنة على السنة رسله، إن آمنا وصلحنا، فوق لنا بما وعدنا، وأنجز لنا ما مثانا . ﴿وأورثنا الأرض﴾ أي: أرض الجنة ﴿نتبوأ من الجنة حيث نشاء﴾ أي: ننزل منها أي: مكان شئنا، ونتناول منها أي: نعيم أردنا، ليس ممنوعاً عنا شيء نريده . ﴿فنعم أجر العاملين﴾ الذين اجتهدوا بطاعة ربهم، في زمن قليل منقطع، فنالوا بذلك خيراً عظيماً باقياً مستمراً .

وهذه الدار التي تستحق المدح على الحقيقة، التي يكرم الله فيها خواص خلقه، ورضيها الجواد الكريم لهم نزلاً، وبنى أعلاها وأحسنها، وعرسها بيده، وحشاشها من رحمته وكرامته ما يبعضه يفرح الحزين، ويزول الكدر ويتم الصفاء .

﴿وترى الملائكة﴾ أيها الرائي ذلك

تفضل بالأسباب ومسبباتها .

وتضمن ذلك، أن المقارن من زوج وولد وصاحب، يسعد بقرينه، ويكون اتصاله به سبباً لخير يحصل له، خارج عن عمله وسبب عمله كما كانت الملائكة تدعو للمؤمنين ولمن صلح من آباءهم وأزواجهم وذرياتهم، وقد يقال: إنه لا بد من وجود صلاحهم لقوله: ﴿وَمَنْ صَلَح﴾ فحينئذ يكون ذلك من نتيجة عملهم، والله أعلم .

﴿١٠-١٢﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون﴾ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ﴿ذلكم بأنه إذا دُعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به ثؤموا فالحكم لله العلي الكبير﴾ يخبر تعالى عن الفضيحة والخزي الذي يصيب الكافرين، وسؤالهم الرجعة، والخروج من النار، وامتناع ذلك عليهم وتوبيخهم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أطلقه ليشمل أنواع الكفر كلها، من الكفر بالله، أو بكتبه، أو برسله، أو باليوم الآخر، حين يدخلون النار، ويقرون أنهم مستحقونها، لما فعلوه من الذنوب والأوزار، فيمقتون أنفسهم لذلك أشد المقت، ويغضبون عليها غاية الغضب، فينادون عند ذلك، ويقال لهم: ﴿لَمُتَّ اللَّهُ﴾ أي: إياكم ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ أي: حين دعتكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم من البينات ما تبين به الحق، فكفرتهم وزهدتم في الإيمان الذي خلقكم الله له،

وخرجتم من رحمته الواسعة، فمقتكم وأبغضكم، فهذا أكبر من مقتكم أنفسكم﴾ أي: فلم يزل هذا المقت مستمراً عليكم، والسخط من الكريم خالاً بكم، حتى آلت بكم الحال إلى ما آلت، فالיום حل عليكم غضب الله وعقابه، حين نال المؤمنون رضوان الله وثوابه، فتمنوا الرجوع، و﴿قالوا ربنا أمتنا اثنتين﴾ يريدون الموة الأولى وما بين النفختين على ما قيل، أو العدم

واجتهدوا اجتهد المحبين، ومن العمال الذين هم المؤمنون، الذين يحبههم الله تعالى من بين خلقه، فسائر الخلق المكلفين يبغضهم الله إلا المؤمنين منهم، فمن محبة الملائكة لهم دعوا الله، واجتهدوا في صلاح أحوالهم، لأن الدعاء للشخص من أدل الدلائل على محبته، لأنه لا يدعو إلا لمن يحبه .

وتضمن ما شرحه الله وفصله من دعائهم بعد قوله: ﴿يستغفرون للذين آمنوا﴾ التنبيه اللطيف على كيفية تدبير كتابه، وأن لا يكون التدبير مقتصراً على مجرد معنى اللفظ بمفرده، بل ينبغي له أن يتدبر معنى اللفظ، فإذا فهمه فهماً صحيحاً على وجهه، نظر بعقله إلى ذلك الأمر والطرق الموصلة إليه وما لا يتم إلا به وما يتوقف عليه، وجزم بأن الله أراده، كما يجزم أنه أراد المعنى الخاص، الدال عليه اللفظ .

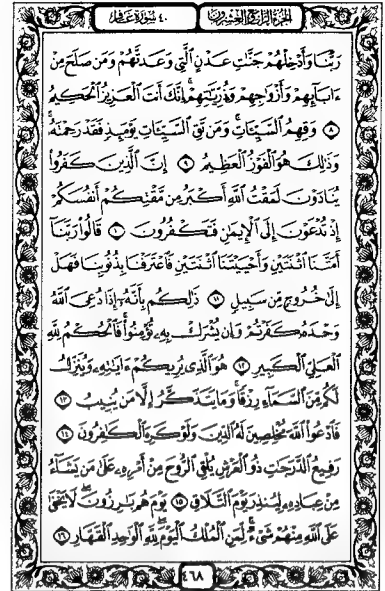
والذي يوجب له الجزم بأن الله أراده أمران:

أحدهما: معرفته وجزمه بأنه من توابع المعنى والمتوقف عليه .

الثاني: علمه بأن الله بكل شيء عليم، وأن الله أمر عباده بالتدبير والتفكر في كتابه .

وقد علم تعالى ما يلزم من تلك المعاني . وهو المخبر بأن كتابه هدى ونور وتبيان لكل شيء، وأنه أفصح الكلام وأجله إيضاحاً، فبذلك يحصل للعبد من العلم العظيم والخير الكثير، بحسب ما وفقه الله له وقد كان في تفسيرنا هذا، كثير من هذا من به الله علينا .

وقد يخفى في بعض الآيات مأخذه على غير التأمل صحيح الفكرة، ونسأله تعالى أن يفتح علينا من خزائن رحمته ما يكون سبباً لصلاح أحوالنا وأحوال المسلمين، فليس لنا إلا التعلق بكرمه، والتوسل بإحسانه، الذي لا نزال نتقلب فيه في كل الآئات، وفي جميع اللحظات، ونسأله من فضله، أن يفتينا شر أنفسنا المانع والمعوق لوصول رحمته، إنك الكريم الوهاب، الذي



﴿فقد رحمته﴾ لأن رحمتك لم تزل مستمرة على العباد، لا يمنعها إلا ذنوب العباد وسيئاتهم، فمن وقته السيئات وفقته للحسنات وجزائها الحسن. ﴿وذلك﴾ أي: زوال المحذور بوقاية السيئات، وحصول المحبوب بحصول الرحمة، ﴿هو الفوز العظيم﴾ الذي لا فوز مثله، ولا يتنافس المتنافسون بأحسن منه .

وقد تضمن هذا الدعاء من الملائكة كمال معرفتهم بربهم، والتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى، التي يجب من عباده التوسل بها إليه، والدعاء بما يناسب ما دعوا الله فيه، فلما كان دعاؤهم بحصول الرحمة، وإزالة أثر ما اقتضته النفوس البشرية التي علم الله نقصها واقتضاءها لما اقتضته من المعاصي، ونحو ذلك من المبادئ والأسباب التي قد أحاط الله بها علماً، توسلوا بالرحيم العليم .

وتضمن كمال أدبهم مع الله تعالى بإقرارهم بربوبيته لهم الربوبية العامة والخاصة، وأنه ليس لهم من الأمر شيء، وإنما دعاؤهم لربهم صدر من فقير بالذات من جميع الوجوه، لا يُذلي على ربه بحالة من الأحوال، إن هو إلا فضل الله وكرمه وإحسانه .

وتضمن موافقتهم لربهم تمام الموافقة، بمحبة ما يحبه من الأعمال التي هي العبادات التي قاموا بها،

المحض قبل إيمانهم، ثم أماتهم بعدما أوجدتهم، «وأحييتنا اثنتين» الحياة الدنيا والحياة الآخرة، «فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل» أي: تمسروا وقالوا ذلك، فلم يقد ولم ينجع، وويخوا على عدم فعل أسباب النجاة، فقيل لهم: «ذلكم بأنه إذا دهي الله وحده» أي: إذا دعي لتوحيده، وإخلاص العمل له، ونهي عن الشرك به «كفرتم» به واشمازت لذلك قلوبكم ونفرت غاية النفور. «وإن يشرك به تؤمنوا» أي: هذا الذي أنزلكم هذا المنزل، وبوأكم هذا المقيبل والمحل، أنكم تكفرون بالإيمان، وتؤمنون بالكفر، ترضون بما هو شر وفساد في الدنيا والآخرة، وتكرهون ما هو خير وصلاح في الدنيا والآخرة. تؤثرون سبب الشقاوة والذل والغضب، وتزهدون بما هو سبب الفوز والفلاح والظفر «وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً».

«فالحكم لله العلي الكبير» العلي: الذي له علو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر، وعلو القهر ومن علو قدره، كمال عدله تعالى، وأنه يضح الأشياء مواضعها، ولا يساوي بين المتقين والفجار.

«الكبير» الذي له الكبرياء والعظمة والمجد، في أسمائه وصفاته وأفعاله المنتزه عن كل آفة وعيب ونقص، فإذا كان الحكم له تعالى، وقد حكم عليكم بالخلود الدائم، وحكمه لا يغير ولا يبدل.

﴿١٣-١٧﴾ «هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً وما يتذكر إلا من ينيب» فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون * رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق * يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار * اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب» يذكر تعالى نعمه العظيمة على

عباده، بتبيين الحق من الباطل، بما يري عباده من آياته النفسية والأفاقية والقرآنية، الدالة على كل مطلوب مقصود، الموضحة للهدى من الضلال، بحيث لا يبقى عند الناظر فيها والتأمل لها أدنى شك في معرفة الحقائق، وهذا من أكبر نعمه على عباده، حيث لم ينيب الحق مشتبهاً، ولا الصواب ملتبساً، بل نوع الدلالات ووضع الآيات، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة وكلما كانت المسائل أجمل وأكبر، كانت الدلائل عليها أكثر وأيسر، فانظر إلى التوحيد لما كانت مسائلته من أكبر المسائل، بل أكبرها، كثرت الأدلة عليها العقلية والنقلية وتنوعت، وضرب الله لها الأمثال وأكثر لها من الاستدلال، ولهذا ذكرها في هذا الموضع، ونبه على جملة من أدلتها فقال: «فادعوا الله مخلصين له الدين»

ولما ذكر أنه يري عباده آياته، نبه على آية عظيمة فقال: «وينزل لكم من السماء رزقاً» أي: مطراً، به ترتزقون وتعيشون أنتم وبهائمكم، وذلك يدل على أن النعم كلها منه، فمنه نعم الدين، وهي المسائل الدينية والأدلة عليها، وما يتبع ذلك من العمل بها. والنعم الدنيوية كلها، كالنعم الناشئة عن الغيث، الذي تحيا به البلاد والعباد. وهذا يدل دلالة قاطعة أنه وحده هو المعبود، الذي يتعين إخلاص الدين له، كما أنه - وحده - المنعم.

«وما يتذكر» بالآيات حين يذكر بها «إلا من ينيب» إلى الله تعالى، بالإقبال على محبته وخشيته وطاعته والتضرع إليه، فهذا الذي ينتفع بالآيات، وتصير رحمة في حقه، ويزداد بها بصيرة.

ولما كانت الآيات تشتمل التذكر، والتذكر يوجب الإخلاص لله، رتب الأمر على ذلك بالفاء الدالة على السببية فقال: «فادعوا الله مخلصين له الدين» وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة، والإخلاص معناه: تخلص

الدين بغيره ولا يشركه شيء لا طلة الإيمان لك الله مريح أصلي * وأوردكم يوم الأوتار إلى القلوب لدى الخلق كطيرين ما للفقير من حيسر ولا شيع ينام * يدعى عاتة الأحمق وما تحبى المودود * والله يقضى بالحق والبرك ينفوت عن ذنوبه لا يقصود * ومن أن الله هو السميع البصير * أول تيسر وأول الأرض يظنوا أن كان عتبة الذين كانوا من قبلهم كانوا من أولهم قوة وإن كان كرسى الأرض فأنتم الله يذوبهم وإن كان كرسى القوم وأول * والله يأتهم كانت أولهم رزقهم بالنيب فكروا فأنتم الله أولهم في كسب العاقب * ولقد أنزلنا موسى بالبينات وسلطان نبينا * إلى فرعون وقهاره وقدره * فقال استعزكم بالله * فلما جاءهم من الحق من عذاب قالوا أفتألفوا آية الدين استأمنهم وأمنتمهم فاستأمنهم وما كذب الكافرين إلا في ضلال

القصد لله تعالى في جميع العبادات الواجبة والمستحبة، حقوق الله وحقوق عباده. أي: أخلصوا لله تعالى في كل ما تدنيونه به وتقربون به إليه.

«ولو كره الكافرون» لذلك، فلا تبالوا بهم، ولا يشنكم ذلك عن دينكم، ولا تأخذكم بالله لومة لائم، فإن الكافرين يكرهون الإخلاص لله وحده غاية الكراهة، كما قال تعالى: «وإذا ذكر الله وحده اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون».

ثم ذكر من جلاله وكماله ما يقتضي إخلاص العبادة له، فقال: «رفيع الدرجات ذو العرش» أي: العلي الأعلى، الذي استوى على العرش واختص به، وارتفعت درجاته ارتفاعاً باين به مخلوقاته، وارتفع به قدره، وجلت أوصافه، وتعالى ذاته، أن يتقرب إليه إلا بالعمل الزكي الطاهر المطهر، وهو الإخلاص، الذي يرفع درجات أصحابه ويرقيهم إليه، ويعلمهم فوق خلقه، ثم ذكر نعمته على عباده بالرسالة والوحي، فقال: «يلقي الروح» أي: الوحي الذي للأرواح والقلوب بمنزلة الأرواح للأجساد، فكما أن الجسد بدون الروح لا يحيا ولا يعيش، فالروح والقلب بدون روح الوحي لا يصلح ولا يفلح، فهو تعالى «يلقي الروح من أمره» الذي فيه

الصدور ﴿٢٠﴾ مما لم يبينه العبد لغيره، فالله تعالى يعلم ذلك الخفي، فغيره من الأمور الظاهرة من باب أولى وأحرى.

﴿والله يقضي بالحق﴾ لأن قوله حق، وحكمه الشرعي حق، وحكمه الجزائي حق وهو المحيط علماً وكتابة وحفظاً بجميع الأشياء، وهو المنزه عن الظلم والنقص وسائر العيوب، وهو الذي يقضي قضاء القدري، الذي إذا شاء شيئاً كان وما لم يشأ لم يكن، وهو الذي يقضي بين عباده المؤمنين والكافرين في الدنيا، ويفصل بينهم بفتح ينصر به أولياءه وأحبابه.

﴿والذين يدعون من دونه﴾ وهذا شامل لكل ما عبد من دون الله ﴿لا يقضون بشيء﴾ لعجزهم وعدم إرادتهم للخير واستطاعتهم لفعله.

﴿إن الله هو السميع﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات. ﴿البصير﴾^(١) بما كان وما يكون، وما ينصر وما لا ينصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون.

قال في أول هاتين الآيتين ﴿وأُنذِرهم يوم الآزفة﴾ ثم وصفها بهذه الأوصاف القتنضية للاستعداد لذلك اليوم العظيم، لاشتمالها على الترهيب والترهيب.

﴿٢١-٢٢﴾ ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق﴾ ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله إنه قوي شديد العقاب ﴿يقول تعالى﴾: ﴿أولم يسيروا في الأرض﴾ أي: بقلوبهم وأبصارهم، سير نظر واعتبار، وتفكر في الآثار، ﴿فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم﴾ من المكذبين، فسجدونها شر العواقب، عاقبة الهلاك والدمار والحزى والفضيحة، وقد كانوا أشد قوة من هؤلاء في العدد والغدد وكبر الأجسام. ﴿و﴾ أشد آثاراً في

ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة؟ الملك ﴿الله الواحد القهار﴾ أي: المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. ﴿القهار﴾ لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصاً في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تكلم نفس إلا بإذنه، ﴿اليوم نحزى كل نفس بما كسبت﴾ في الدنيا، من خير وشر، قليل وكثير. ﴿لا ظلم اليوم﴾ على أحد، بزيادة في سيئاته، أو نقص من حسناته. ﴿إن الله سريع الحساب﴾ أي: لا تستبطخوا ذلك اليوم، فإنه أت، وكل أت قريب. وهو أيضاً سريع المحاسبة لعباده يوم القيامة، لإحاطة علمه وكمال قدرته.

﴿١٨-٢٠﴾ ﴿وأُنذِرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاطمين ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴿والله يقضي بالحق والذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء﴾ إن الله هو السميع البصير ﴿يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ﴾: ﴿وأُنذِرهم يوم الآزفة﴾ أي: يوم القيامة التي قد أزفت وقربت، وأن الوصول إلى أهوالها وقلاقلها وزلازلها، إذ القلوب لدى الحناجر ﴿أي: قد ارتفعت وبقيت أفئدتهم هواء، ووصلت القلوب من الروح والكرب إلى الحناجر، شاحصة أبصارهم. ﴿كاظمين﴾ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً، وكاظمين على ما في قلوبهم من الروح الشديد والمزعجات الهائلة.

﴿ما للظالمين من حميم﴾ أي: قريب ولا صاحب، ﴿ولا شفيع يطاع﴾ لأن الشفعاء لا يشفعون في الظالم نفسه بالشرك، ولو قدرت شفاعتهم، فالله تعالى لا يرضى شفاعتهم، فلا يقبلها. ﴿يعلم خائنة الأعين﴾ وهو النظر الذي يخفيه العبد من جلسه ومقارنه، وهو نظر المسارقة، ﴿وما تخفي

وَقَالَ يُعَذِّبُهُمْ مُؤَمَّرَاتٍ فَلَمَّا أُنْزِلَتْ مُوسَىٰ وَنُوحٌ وَصَارَ إِلَىٰ أَخِيكَ
أَنْ يَبْدُوَ لَكُمْ أَوْ أَنْ يَبْدُوَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ الْقَسَدَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ
مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مَكْرٍ لَا تَزِدْ
بَيْنَهُمُ الْخِصَابَ ﴿٢١﴾ وَقَالَ تَزِدْ مُوسَىٰ مِنْ نَالِ فِرْعَوْنَ
يَكْفُرُ بِسَيِّئَةِ الْفَقْلُوتِ تَزِدْ أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ
جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَنْ تَكُونَ كَذِبًا وَأَكْثَرُ
كَذِبِهِمْ وَلَنْ تَكُونَ كَذِبًا فَكَيْفَ تَكُونُ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَبْعِدُكُمْ
إِنَّ اللَّهَ أَجْدَىٰ مِنْ هَؤُلَاءِ فَكَيْفَ تَكُونُ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَبْعِدُكُمْ
أَكْثَرُ الْيَوْمِ ظَاهِرٌ فِي الْأَرْضِ مِنْ تَضَرُّعَاتِ بَنِي إِسْرَءِيلَ
جَاءَهُمْ نَارُ فِرْعَوْنَ مَا تَرِيكُمْ إِلَّا أَمَا لَكُمَا وَمَا أَهْدِيكُمْ
إِلَّا سَبِيلَ الْأَرْضِ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ لِقَوْلِهِ إِنَّ الْإِنْسَانَ
عَلَيْكُمْ كَذِبٌ مُرَارًا أَكْثَرُ ﴿٢٣﴾ بِئْسَ أَقْرَبُ فَجْ وَتَكَوَّنَ
وَتَكَوَّنَ مِنَ الْوَسْوَاسِ مِنْ تَهْوِيهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ
وَتَقَرَّبَ إِلَىٰ عَالَمٍ عَلَىٰ كَرَمٍ الْقَسَدَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ تُنْفَخُ الْمِثَاقُ
مَا لَكُمْ مِنَ الْآمِنِينَ عَالَمٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ هَادٍ ﴿٢٥﴾

نفع العباد ومصلحتهم.

﴿على من يشاء من عباده﴾ وهم الرسل الذين فضّلهم الله واختصهم الله لوجه ودعوة عباده.

والفائدة في إرسال الرسل، هو تحصيل سعادة العباد في دينهم ودنياهم وآخرتهم، وإزالة الشقاوة عنهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم، ولهذا قال: ﴿لينذر﴾ من ألقى الله إليه الرحي ﴿يوم التلاق﴾ أي: يخوف العباد بذلك، ويحثهم على الاستعداد له بالأسباب المنجية مما يكون فيه.

وسماه «يوم التلاق»، لأنه يلتقي فيه الخالق والمخلوق، والمخلوقون بعضهم مع بعض، والعاملون وأعمالهم وجزأهم.

﴿يوم هم بارزون﴾ أي: ظاهرون على الأرض، قد اجتمعوا في صعيد واحد، لا عوج ولا أمث فيه، يسمعون الداعي وينفذهم البصر.

﴿لا يخفى على الله منهم شيء﴾ لا من ذواتهم ولا من أعمالهم، ولا من جزاء تلك الأعمال.

﴿لمن الملك اليوم﴾ أي: من هو المالك لذلك اليوم العظيم، الجامع للآولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك، وتقطعت الأسباب،

الأسم المكذبين، الذين تحزبوا على أنبيائهم، واجتمعوا على معارضتهم، ثم بينهم فقال: ﴿مثل داب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم﴾ أي: مثل عادتهم في الكفر والتكذيب، وعادة الله فيهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا قبل الآخرة، ﴿وما الله يريد ظلماً للعباد﴾ فيعذبهم بغير ذنب أذنبوه، ولا جرم أسلفوه.

ولما خوفهم العقوبات الدنيوية، خوفهم العقوبات الآخورية، فقال: ﴿يا قوم إني أخاف عليكم يوم التناد﴾ أي: يوم القيامة، حين ينادي أهل الجنة أهل النار: ﴿أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً﴾ إلى آخر الآيات.

﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾.

وحين ينادي أهل النار مالكا ﴿ليقبض علينا ربك﴾ فيقول: ﴿إنكم ماكثون﴾. وحين ينادون ربهم: ﴿ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون﴾ فيجيبهم: ﴿أخسؤوا فيها ولا تكلمون﴾. وحين يقال للمشركين: ﴿ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾. فخوفهم رضي الله عنه هذا اليوم المهول، وتوجع لهم أن أقاموا على شركهم بذلك، ولهذا قال: ﴿يوم تولون مدبرين﴾ أي: قد ذهب بكم إلى النار ﴿مالك من الله من عاصم﴾ لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه من أحد ﴿يوم تبلى السرائر﴾ فما له من قوة ولا ناصر.

﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾ لأن الهدى بيد الله تعالى، فإذا منع عبده الهدى لعلمه أنه غير لائق به، لحبته، فلا سبيل إلى هدايته.

﴿ولقد جاءكم يوسف بن يعقوب عليهما السلام من قبل إتيان موسى، بالبينات الدالة على صدقه، وأمركم بعبادة ربكم وحده لا شريك له،﴾ فما

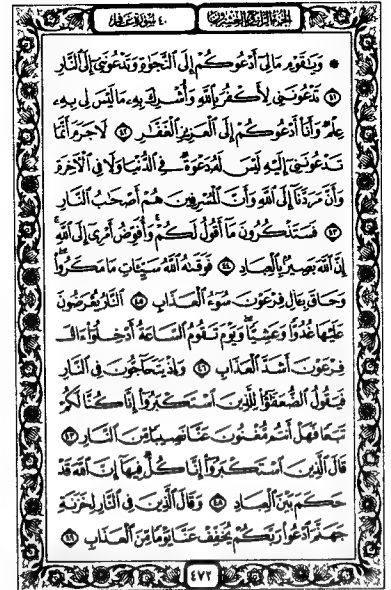
ولا يوق للصرات المستقيم، أي: وقد رأيتم ما دعا موسى إليه من الحق، وما هداه الله إلى بيانه من البراهين العقلية والخورق السماوية، فالذي اهتدى هذا الهدى لا يمكن أن يكون مسرفاً ولا كاذباً، وهذا دليل على كمال علمه وعقله ومعرفته بربه.

ثم حذر قومه ونصحهم، وخوفهم عذاب الآخرة، ونهاهم عن الاغترار بالملك الظاهر، فقال: ﴿يا قوم لكم الملك اليوم﴾ أي: في الدنيا ﴿ظاهرين في الأرض﴾ على رعيحكم، تنفذون فيهم ما شئتم من التدبير، فهبكم حصل لكم ذلك وتم، ولن ينم، ﴿فمن ينصرنا من بأس الله﴾ أي: عذابه ﴿إن جاءنا﴾ وهذا من حسن دعوته، حيث جعل الأمر مشتركاً بينه وبينهم بقوله: ﴿فمن ينصرنا﴾ وقوله: ﴿إن جاءنا﴾ ليفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

ف قال فرعون: معارضاً له في ذلك، ومغزراً لقومه أن يتبعوا موسى: ﴿ما أرىكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ وصدق في قوله: ﴿ما أرىكم إلا ما أرى﴾ ولكن ما الذي رأى أن يستخف قومه فيتابعوه، ليقم بهم رياسته، ولم يزالحق معه، بل رأى الحق مع موسى، وجحد به مستيقناً له.

وكذب في قوله: ﴿وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ فإن هذا قلب للحق، فلو أمرهم باتباعه اتباعاً مجرداً على كفره وضلاله، لكان الشر أهون، ولكنه أمرهم باتباعه، وزعم أن في اتباعه اتباع الحق وفي اتباع الحق، الضلال.

﴿وقال الذي آمن﴾ مكرراً دعوة قومه، غير آيس من هدايتهم، كما هي حالة الدعاة إلى الله تعالى، لا يزالون يدعون إلى ربهم، ولا يرددهم عن ذلك راد، ولا يثنيه عتو من دعوته عن تكرار الدعوة، فقال لهم: ﴿يا قوم إني أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب﴾ يعني



فبينكم وبين حل قتلته مفاوز تنقطع بها أعناق المطي.

ثم قال لهم مقالة عقلية تقنع كل عاقل، بأي: حالة قدرت، فقال: ﴿وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصحبكم بعض الذي يعدكم﴾ أي: موسى بين أمرين، إما كاذب في دعوته أو صادق فيها، فإن كان كاذباً فكذبه عليه، وضرره مختص به، وليس عليكم في ذلك ضرر حيث امتنعتم من إجابته وتصديقه، وإن كان صادقاً وقد جاءكم بالبينات، وأخبركم أنكم إن لم تحببوه عذبكم الله عذاباً في الدنيا وعذاباً في الآخرة، فإنه لا بد أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وهو عذاب الدنيا.

وهذا من حسن عقله، ولطف دفعه عن موسى، حيث أتى بهذا الجواب الذي لا تشوش فيه عليهم، وجعل الأمر دائراً بين تلك الحالتين، وعلى كل تقدير فقتله سفه وجهل منكم.

ثم انتقل رضي الله عنه وأرضاه وغفر له ورحمه - إلى أمر أعلى من ذلك، وبيان قرب موسى من الحق فقال: ﴿إن الله لا يهدي من هو مسرف﴾ أي: متجاوز الحد بترك الحق والإقبال على الباطل. ﴿كذاب﴾ بنسبته ما أسرف فيه إلى الله، فهذا لا يهديه الله إلى طريق الصواب، لا في مدلوله ولا في دليله،

زلتم في شك مما جاءكم به، في حياته حتى إذا هلك، ازداد شككم وشرككم، و ﴿قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا﴾ أي: هذا ظنكم الباطل، وحسابكم الذي لا يليق بالله تعالى، فإنه تعالى لا يترك خلقه سدى، لا يأمرهم وينهاهم، ويرسل إليهم رسلا، وظن أن الله لا يرسل رسولا ظن ضلال، ولهذا قال: ﴿كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب﴾ وهذا هو وصفهم الحقيقي الذي وصفوا به موسى ظلماً وعلواً، فهم المسرفون بتجاوزهم الحق وعدولهم عنه إلى الضلال، وهم الكذبة، حيث نسبوا ذلك إلى الله، وكذبوا رسوله.

فالذي وصفه السرف والكذب، لا ينفك عنهما، لا يهديه الله، ولا يوقفه للخير، لأنه رد الحق بعد أن وصل إليه وعرفه، فجزأوه أن يعاقبه الله، بأن يمنعه الهدى، كما قال تعالى: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾ ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾.

﴿٣٥﴾ ثم ذكر وصف المسرف الكذاب فقال: ﴿الذين يجادلون في آيات الله﴾ التي بينت الحق من الباطل، وصارت - من ظهورها - بمنزلة الشمس للبصر، فهم يجادلون فيها على وضوحها، ليدفعوها ويبتلوها ﴿بغير سلطان أثامهم﴾ أي: بغير حجة وبرهان، وهذا وصف لازم لكل من جادل في آيات الله، فإنه من المحال أن يجادل بسلطان، لأن الحق لا يعارضه معارض، فلا يمكن أن يعارضه بدليل شرعي أو عقلي أصلاً، ﴿كبير﴾ ذلك القول المتضمن لرد الحق بالباطل ﴿مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا﴾ فالله أشد بغضاً لصاحبه، لأنه تضمن التكذيب بالحق والتصديق بالباطل ونسبته إليه، وهذه أمور يشد بغض الله لها ولمن اتصف بها، وكذلك عباده المؤمنون يعمقون على ذلك أشد المقت موافقة لربهم، وهؤلاء خواص

خلق الله تعالى، فمقتهم دليل على شناعة من مقتوه، ﴿كذلك﴾ أي: كما طبع على قلوب آل فرعون ﴿يطبع الله على كل قلب متكبر جبار﴾ متكبر في نفسه على الحق برده وعلى الخلق باحتقارهم، جبار بكثرة ظلمه وعدوانه.

﴿وقال فرعون﴾ معارضاً لموسى ومكذباً له في دعوته إلى الإقرار برب العالمين، الذي على العرش استوى، وعلى الخلق اعتلى: ﴿يا هامان ابن لي صرحاً﴾ أي: بناء عظيماً مرتفعاً، والقصد منه لعل أطلع ﴿إلى إله موسى وإني لأظنه كاذب﴾ في دعواه أن لنا رباً، وأنه فوق السماوات.

ولكنه يريد أن يحتاط فرعون، ويختبر الأمر بنفسه، قال الله تعالى في بيان الذي حمله على هذا القول: ﴿وكذلك زين لفرعون سوء عمله﴾ فزين له العمل السيئ، فلم يزل الشيطان يزينه، وهو يدعو إليه ويحسنه، حتى رآه حسناً، ودعا إليه وناظر مناظرة المحقين، وهو من أعظم المفسدين، ﴿وصد عن السبيل﴾ الحق، بسبب الباطل الذي زين له. ﴿وما كيد فرعون﴾ الذي أراد أن يكيد به الحق، ويوهم به الناس أنه حق، وأن موسى مبطل ﴿إلا في تباب﴾ أي: خسار وبوار، لا يفيد إلا الشقاء في الدنيا والآخرة.

﴿٣٨﴾ ﴿وقال الذي آمن﴾ معيداً نصيحته لقومه: ﴿يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد﴾ لا كما يقول لكم فرعون، فإنه لا يهديكم إلا طريق الغي والفساد. ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع﴾ يتمتع بها ويتنعم قليلاً، ثم تنقطع وتضمحل، فلا تغرنكم وتخدعنكم عما خلقتم له ﴿وإن الآخرة هي دار القرار﴾ التي هي محل الإقامة، ومنزل السكون والاستقرار، فينبغي لكم أن تؤثروها، وتعملوا لها عملاً يسعدكم فيها.

﴿من عمل سيئة﴾ من شرك أو فسوق أو عصيان ﴿فلا يجزى إلا

قَالُوا أَوَلَمْ نَكُنْ مِنْكُمْ رُسُلًا قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَأَمَّا أَتَىٰ الْقُلُوبَ الْكُفُورَ إِلَّا فِي مُكْتَلَبٍ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ مُرْسِلَاتُ الْوَيْلِ وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَلَا مَدْرَءَ لَكُمْ وَلَئِنْ لَمْ يَنْفَعِ الْظَالِمِينَ صَعْدُهُمْ وَقَدْ أَفْلَحَ الْفَعْلُ وَهُوَ سُوءُ الْدَارِ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ أَنشَأْنَا لَكُمْ أَنْفُسًا نَافِلَةً وَأَلْزَمْنَا بَيْنَهُمْ يَدًا لَئِلاَّ الْيَكْتَبَ ﴿٤١﴾ هَذِهِ دَعْوَانَا لَئِلاَّ الْيَكْتَبَ ﴿٤٢﴾ فَأَمَّا يَدُ اللَّهِ فَغَدَّ اللَّهُ حَتَّى زُلْزِلَتْ أَسْفِلُهَا فَسَوَّىٰ غَدَّ اللَّهُ إِلَى الْإِنكِارِ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُجِذِّبُ الْقُلُوبَ لِمَا يَشَاءُ اللَّهُ بِحَسْبِ طَعْنِهِ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ قُلُوبَهُمْ ﴿٤٤﴾ لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ الْبَشَرِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّمَا أَعِزَّنَا لِلدَّارِ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا يَكُونُ فِي قُلُوبِهِمْ لَكَاةٌ فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

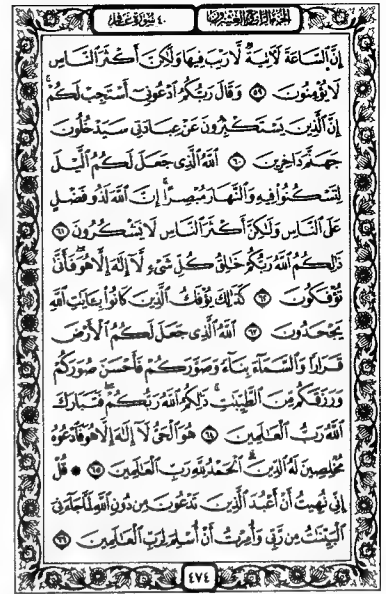
مثلها﴾ أي: لا يجازى إلا بما يسווه ويجزه لأن جزاء السيئة السوء.

﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى﴾ من أعمال القلوب والجوارح، وأقوال اللسان ﴿فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب﴾ أي: يعطون أجرهم بلا حد ولا عد، بل يعطيهم الله ما لا تبلغه أعمالهم.

﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة﴾ بما قلت لكم ﴿وتدعونني إلى النار﴾ بترك اتباع نبي الله موسى عليه السلام. ثم فسر ذلك فقال:

﴿تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم﴾ أنه يستحق أن يُعبد من دون الله، والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب وأقبحها، ﴿وإننا أدعوكم إلى العزيز﴾ الذي له القوة كلها، وغيره ليس بيده من الأمر شيء. ﴿الغفار﴾ الذي يسرف العباد على أنفسهم ويتجرون على مساخطه ثم إذا تابوا وأنابوا إليه، كفر عنهم السيئات والذنوب، ودفع موجباتها من العقوبات الدنيوية والأخروية.

﴿لا جرم﴾ أي: حقاً يقيناً ﴿أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة﴾ أي: لا يستحق من الدعوة إليه، والحث على اللجأ إليه، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لعجزه ونقصه، وأنه لا يملك نفعاً



ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً.

﴿وإن مردنا إلى الله - تعالى فسيجازي كل عامل بعمله.﴾ وأن المسرفين هم أصحاب النار، وهم الذين أسرفوا على أنفسهم بالتجرؤ^(١) على ربهم، بمعاصيه والكفر به، دون غيرهم.

فلما نصحهم وحذّره وأنذرهم، ولم يطيعوه ولا وافقوه، قال لهم: ﴿فستذكرون ما أقول لكم﴾ من هذه النصيحة، وسترون مغبة عدم قبولها حين يحمل بكم العقاب، وتحرمون جزيل الثواب.

﴿وأفوض أمري إلى الله﴾ أي: ألجأ إليه وأعتصم، وألقي أموري كلها لديه، وأتوكل عليه في مصالحه ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم. ﴿إن الله بصير بالعباد﴾ يعلم أحوالهم وما يستحقون، يعلم حالي وضعفي فيمنعني منكم ويكفيني شركم، ويعلم أحوالكم فلا تتصرفون إلا بإرادته ومشيته، فإن سلطكم علي، فبحكمة منه تعالى، وعن إرادته ومشيته صدر ذلك.

﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا﴾ أي: وقى الله القوي الرحيم، ذلك الرجل المؤمن الموفق، عقوبات ما مكر فرعون

وأكله له، من إرادة إهلاكه وإتلافه، لأنه بادأهم بما يكرهون، وأظهر لهم الموافقة التامة لموسى عليه السلام، ودعاهم إلى ما دعاهم إليه موسى، وهذا أمر لا يمتثلونه، وهم الذين لهم القدرة إذ ذاك، وقد أغضبهم واشتد حنقهم عليه، فأرادوا به كيداً، فحفظه الله من كيدهم ومكرهم وانقلب كيدهم ومكرهم، على أنفسهم، ﴿وحاق بال فرعون سوء العذاب﴾ أغرقهم الله تعالى في صبيحة واحدة عن آخرهم.

وفي البرزخ ﴿النار يعمرون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ فهذه العقوبات الشنيعة، التي تحمل بالمكذبين لرسل الله، المعاندين لأمره.

﴿٤٧-٥٠﴾ ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾ قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد * وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب * قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال * يخبر تعالى عن تحاصم أهل النار، وعتاب بعضهم بعضاً، واستغاثتهم بخزنة النار، وعدم الفائدة في ذلك فقال: ﴿وإذ يتحاجون في النار﴾ يمتحج التابعون بإغواء المتبوعين، ويتبرأ المتبوعون من التابعين، ﴿فيقول الضعفاء﴾ أي: الأتباع للقادة ﴿للذين استكبروا﴾ على الحق، ودعوههم إلى ما استكبروا لأجله. ﴿إنا كنا لكم تبعاً﴾ أنتم أغويتمونا وأضللتتمونا وزينتم لنا الشرك والشر، ﴿فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار﴾ أي: ولو قليلاً.

﴿قال الذين استكبروا﴾ مبينين لعجزهم ونفوذ الحكم الإلهي في الجميع: ﴿إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد﴾ وجعل لكل قسطه من العذاب، فلا يزداد في ذلك ولا ينقص

منه، ولا يغير ما حكم به الحكيم. ﴿وقال الذين في النار﴾ المستكبرين والضعفاء ﴿لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب﴾ لعله تحصل بعض الراحة، ف ﴿قالوا﴾ لهم موبخين ومبينين أن شفاعتهم لا تنفعهم، ودعاهم لا يفيدهم شيئاً: ﴿أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات﴾ التي تبيّن بها الحق والصراط المستقيم، وما يقرب من الله وما يبعد منه؟

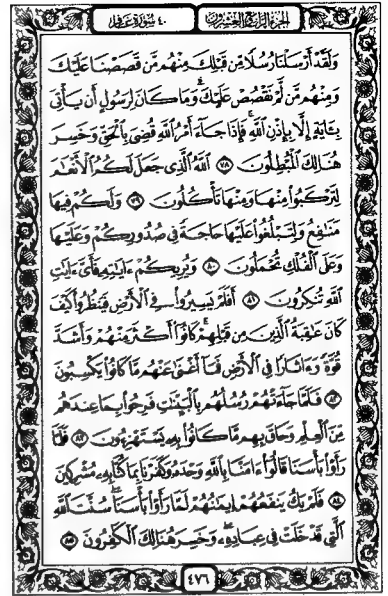
﴿قالوا بلى﴾ قد جاؤنا بالبينات، وقامت علينا حجة الله البالغة، فظلمنا وعاندنا الحق بعد ما تبين. ﴿قالوا﴾ أي: الخزنة، لأهل النار، متبرئين من الدعاء لهم والشفاعة: ﴿فادعوا﴾ أنتم ولكن هذا الدعاء، هل يغني شيئاً أم لا؟

قال تعالى: ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي: باطل لاغ، لأن الكفر محيط لجميع الأعمال، صاذ لإجابة الدعاء.

﴿٥١-٥٢﴾ ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار، لما ذكر عقوبة آل فرعون في الدنيا، والبرزخ، ويوم القيامة، وذكر حالة أهل النار الفظيعة، الذين نابذوا رسله وحاربوه، قال: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾ أي: بالحجة والبرهان والنصر، وفي الآخرة بالحكم لهم، ولأتباعهم بالثواب، ولن حاربهم بشدة العقاب.

﴿يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم﴾ حين يعتذرون ﴿ولهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾ أي: الدار السيئة التي تسوء نازليها.

﴿٥٣-٥٥﴾ ﴿ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بني إسرائيل الكتاب﴾ هدى وذكرى لأولي الألباب * فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالعشي والإبكار﴾ لما ذكر



والإهانة، جزاء عن استكبارهم.

﴿٦١-٦٥﴾ **﴿الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾** ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فإني توفكون * كذلك يوفك الذين كانوا بآيات الله يحدون * الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناءً وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فبارك الله رب العالمين * هو الحي لا إله إلا هو فدعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين تدبر هذه الآيات الكريمات، الدالة على سعة رحمة الله تعالى وجزيل فضله، ووجوب شكره، وكمال قدرته، وعظيم سلطانه، وسعة ملكه، وعموم خلقه لجميع الأشياء، وكمال حياته، واتصافه بالحمد على كل ما اتصف به من الصفات الكاملة، وما فعله من الأفعال الحسنة، وتمام ربوبيته وانفراده فيها، وأن جميع التدبير في العالم العلوي والسفلي في ماضي الأوقات وحاضرها ومستقبلها بيد الله تعالى، ليس لأحد من الأمور شيء، ولا من القدرة شيء، فيتج من ذلك، أنه تعالى المألوه المعبود وحده، الذي لا يستحق أحد من العبودية شيئاً، كما لم يستحق من الربوبية شيئاً، وينتج من ذلك، امتلاء القلوب بمعرفة الله تعالى

ومحبته وخوفه ورجائه، وهذا الأمران - وهما معرفته وعبادته - هما اللذان خلق الله الخلق لأجلهما، وهما الغاية المقصودة منه تعالى لعباده، وهما الموصلان إلى كل خير وفلاح وصلاح، وسعادة دنيوية وأخرية، وهما اللذان هما أشرف عطايا الكريم لعباده، وهما أشرف اللذات على الإطلاق، وهما اللذان إن فاتا فأت كل خير وحضر كل شر.

فسأله تعالى أن يملأ قلوبنا بمعرفته ومحبه، وأن يجعل حركاتنا الباطنة والظاهرة خالصة لوجهه، تابعة لأمره، إنه لا يتعاطمه سؤال، ولا يحفيه نوال.

ف قوله تعالى: **﴿الله الذي جعل لكم الليل﴾** أي: لأجلكم جعل الله الليل مظلماً، **﴿لتسكنوا فيه﴾** من حركاتكم، التي لو استمرت لضرت، فتأوون إلى فرشكم، ويلقي الله عليكم النوم الذي يستريح به القلب والبدن، وهو من ضروريات الآدمي لا يعيش بدونه، ويسكن أيضاً، كل حبيب إلى حبيبه، ويجتمع الفكر، وتقل الشواغل.

﴿و﴾ جعل تعالى **﴿النهار مبصراً﴾** منيراً بالشمس المستمرة في الفلك، فتقومون من فرشكم إلى أشغالكم الدينية والدنيوية، هذا لذكره وقراءته، وهذا لصلاته، وهذا لطلبه العلم ودراسته، وهذا لبيعه وشرائه، وهذا لبنائه أو حدادته، أو نحوها من الصناعات، وهذا لسفره براً وبحراً، وهذا لفلاحته، وهذا لتصليح حيواناته.

﴿إن الله لذو فضل﴾ أي: عظيم، كما يدل عليه التذكير **﴿على الناس﴾**. حيث أنعم عليهم بهذه النعم وغيرها، وصرف عنهم النقم، وهذا يوجب عليهم تمام شكره وذكره، **﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾** بسبب جهلهم وظلمهم. **﴿وقليل من عبادي الشكور﴾** الذين يقرون بنعمة ربهم، ويخضعون لله ويحبونه، ويصرفونها في طاعة مولاهم ورضاه.

﴿ذلكم﴾ الذي فعل ما فعل **﴿الله ربكم﴾** أي: المنفرد بالإلهية، والمنفرد بالربوبية، لأن انفراده بهذه النعم من ربوبيته، وإيجابها للشكر من ألوهيته، **﴿لا إله إلا هو﴾** تقرير أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، **﴿خالق كل شيء﴾** تقرير لربوبيته.

ثم صرح بالأمر بعبادته فقال: **﴿فإني توفكون﴾** أي: كيف تصرفون عن عبادته وحده لا شريك له، بعدما أبان لكم الدليل وأنا أن لكم السبيل!!

﴿كذلك يوفك الذين كانوا بآيات الله يحدون﴾ أي: عقوبة على جحدهم لآيات الله، وتعتديهم على رسله، صرفوا عن التوحيد والإخلاص، كما قال تعالى: **﴿وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون﴾**.

﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً﴾ أي: قارة ساكنة، مهياة لكل مصالحكم، تتمكنون من حرثها وغرسها والبناء عليها، والسفر والإقامة فيها.

﴿والسما بناء﴾ سقفاً للأرض التي أنتم فيها، قد جعل الله فيها ما تنتفعون به من الأنوار والعلامات التي يبتدى بها في ظلمات البر والبحر، **﴿وصوركم فأحسن صوركم﴾** فليس في جنس الحيوانات أحسن صورة من بني آدم، كما قال تعالى: **﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾**.

وإذا أردت أن تعرف حسن الآدمي وكمال حكمة الله تعالى فيه، فانظر إليه عضواً عضواً، هل تجد عضواً من أعضائه يليق به ويصلح أن يكون في غير محله؟ وانظر أيضاً، إلى الميل الذي في القلوب بعضهم لبعض، هل تجد ذلك في غير الآدميين؟ وانظر إلى ما خصه الله به من العقل والإيمان، والمحبة والمعرفة، التي هي أحسن الأخلاق المناسبة لأجل الصور.

﴿ورزقكم من الطيبات﴾ وهذا شامل لكل طيب، من مأكّل،

ومشرب، ومنكح، ومليس، ومنظر، ومسمع، وغير ذلك من الطيبات التي يسرها الله لعباده، ويسر لهم أسبابها، ومنعمهم من الخبائث التي تضادها، وتضر أبدانهم وقلوبهم وأديانهم، ﴿ذلكم﴾ الذي دبر الأمور وأنعم عليكم بهذه النعم ﴿الله ربكم﴾ ﴿فتبارك الله رب العالمين﴾ أي: تعظم وكثر خيره وإحسانه، المربي جميع العالمين بنعمه.

﴿هو الحي﴾ الذي له الحياة الكاملة التامة، المستلزمة لما تستلزمه من صفاته الذاتية، التي لا تتم حياته إلا بها، كالسمع، والبصر، والقدرة، والعلم، والكلام، وغير ذلك من صفات كماله ونعوت جلاله.

﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود بحق إلا وجهه الكريم. ﴿فادعوه﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿مخلصين له الدين﴾ أي: اقصدوا بكل عبادة ودعاء وعمل وجه الله تعالى، فإن الإخلاص هو المأمور به، كما قال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾.

الحمد لله رب العالمين ﴿أي: جميع المحامد والمدائح والثناء، بالقول كنطق الخلق بذكره، والفعل، كعبادتهم له، كل ذلك لله تعالى وحده لا شريك له، لكماله في أوصافه وأفعاله، وتمام نعمه.

﴿٦٦-٦٨﴾ ﴿قل إنني نهييت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾ هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون ﴿هو الذي يحيي ويميت فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله وحده، وذكر الأدلة على ذلك والبيانات، صرح بالنهي عن عبادة ما سواه فقال: ﴿قل﴾ يا أيها النبي ﴿إنني نهييت أن أعبد الذين

تدعون من دون الله﴾ من الأوثان والأصنام، وكل ما عبد من دون الله.

ولست على شك من أمري، بل على يقين وبصيرة، ولهذا قال: ﴿لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين﴾ بقلبي ولساني وجوارحي، بحيث تكون منقاداً لطاعته، مستسلمة لأمره، وهذا أعظم مأمور به على الإطلاق، كما أن النهي عن عبادة ما سواه أعظم منهي عنه على الإطلاق، ثم قرر هذا التوحيد بأنه الخالق لكم، والمطور لخلقكم، فكما خلقكم وحده فاعبدوه وحده، فقال: ﴿هو الذي خلقكم من تراب﴾ وذلك بخلقه أصلكم وأبيكم آدم عليه السلام. ﴿ثم من نطفة﴾ وهذا ابتداء خلق سائر النوع الإنساني ما دام في بطن أمه، فنبه بالابتداء على بقية الأطوار، من العلقه، فالضغة، فالعظام، فنفخ الروح، ﴿ثم يخرجكم طفلاً﴾ ثم هكذا تنتقلون في الخلقة الإلهية حتى تبلغوا أشدكم من قوة العقل والبدن، وجميع قواه الظاهرة والباطنة. ﴿ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل﴾ بلوغ الأشد ﴿ولتبلغوا﴾ هذه الأطوار المقدرة إلى أجل مسمى تنتهي عنده أعماركم. ﴿ولعلكم تعقلون﴾ أحوالكم، فتعلمون أن المطور لكم في هذه الأطوار كامل الاقتدار، وأنه الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأنكم ناقصون من كل وجه.

﴿هو الذي يحيي ويميت﴾ أي: هو المنفرد بالإحياء والإماتة، فلا تموت نفس بسبب أو بغير سبب، إلا بإذنه. ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾.

﴿فإذا قضى أمراً﴾ جليلاً أو حقيراً ﴿فإنما يقول له كن فيكون﴾ لا رد في ذلك، ولا مشوية، ولا تمنع.

﴿٦٩-٧٦﴾ ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون﴾ الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون ﴿إذ الأغلال في

أعناقهم والسلاسل يسحبون﴾ في الحميم ثم في النار يسجرون ﴿ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون﴾ من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون﴾ ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ﴿ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله الواضحة البينة متعجباً من حالهم الشنيعة. ﴿أنى يصرفون﴾ أي: كيف ينعبدون عنها؟ وإلى أي شيء يذهبون بعد البيان التام؟ هل يجادلون آيات بينات تعارض آيات الله؟ لا والله. أم يجادلون شبهاً توافق أهواءهم، ويوصلون بها لأجل باطلهم؟ فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم بتكذيبهم بالكتاب الذي جاءهم من الله، وبما أرسل الله به رسله، الذين هم خير الخلق وأصدقهم، وأعظمهم عقولاً، فهؤلاء لا جزاء لهم سوى النار الحامية، ولهذا توعدهم الله بعذابها فقال: ﴿فسوف يعلمون﴾ إذ الأغلال في أعناقهم التي لا يستطيعون معها حركة. ﴿والسلاسل﴾ التي يقننون بها هم وشياطينهم ﴿يسحبون﴾ في الحميم ﴿أي: الماء الذي اشتد غليانه وحره. ﴿ثم في النار يسجرون﴾ يوقد عليهم اللهب العظيم فيصلون بها، ثم يويخون على شرهم وكذبهم.

ويقال ﴿لهم أين ما كنتم تشركون﴾ من دون الله هل نفعوكم أو دفعوا عنكم بعض العذاب؟ قالوا ضلوا عنا ﴿أي: غابوا ولم يحضروا، ولو حضروا لم ينفعوا، ثم إنهم أنكروا فقالوا: ﴿بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً﴾ يحتمل أن مرادهم بذلك الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم وينفدهم، ويحتمل - وهو الأظهر - أن مرادهم بذلك الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون بعبادة معدوم الإلهية، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿كذلك يضل الله

تتكبرون ﴿يمتن تعالى على عباده بما جعل لهم من الأنعام التي بها جملة من الإنعام﴾:

منها: منافع الركوب عليها والحمل.

ومنها: منافع الأكل من لحومها والشرب من ألبانها.

ومنها: منافع الدفء، واتخاذ الآلات والأمتعة من أصوافها وأوبارها وأشعارها، إلى غير ذلك من المنافع.

﴿ولتسلفوا عليها حاجة في صدوركم﴾ من الوصول إلى الأوطان البعيدة، وحصول السرور بها، والفرح عند أهلها. ﴿وعليها وعلى الفلك تحملون﴾ أي: على الرواحل البرية والفلك البحرية يحملكم الله الذي سخرها وهيا لها ما هيا من الأسباب التي لا تتم إلا بها.

﴿ويريكم آياته﴾ الدالة على وحدانيته وأسمائه وصفاته، وهذا من أكبر نعمه، حيث أشهد عباده آياته النفسية، وآياته الأفقية، ونعمه الباهرة، وعدّها عليهم، ليعرفوه ويشكروه ويذكروه.

﴿فأي آيات الله تنكرون﴾ أي: أي آية من آياته لا تعترفون بها؟ فإنكم قد تقرر عنكم، أن جميع الآيات والنعم منه تعالى، فلم يبق للإنكار علة، ولا للإعراض عنها موضع، بل أوجب لذوي الألباب بذل الجهد، واستفراغ الوسع، للاجتهد في طاعته والتبذل في خدمته والانتفاع إليه.

﴿٨٢ - ٨٥﴾ ﴿أنلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثارا في الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون * فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفروا بما كنا به مشركين * فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك

والآخرة، ولهذا قال: ﴿فلما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ في الدنيا فذاك ﴿أو نتوفينك﴾ قبل عقوبتهم ﴿فإلينا يرجعون﴾ فنجازيم بأعمالهم، ﴿فلا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾. ثم سلأه وصبره بذكر إخوانه المرسلين فقال:

﴿٧٨﴾ ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون﴾ أي: ﴿ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً﴾ كثيرين إلى قومهم، يدعوهم ويصبرون على أذاهم. ﴿منهم من قصصنا عليك﴾ خبرهم ﴿ومنهم من لم نقصص عليك﴾. وكل الرسل مدبرون، ليس ييدهم شيء من الأمر.

وما كان لأحد منهم ﴿أن يأتي بآية﴾ من الآيات السمعية والعقلية إلا بإذن الله ﴿أي: بمشيئته وأمره، فاقترح المقترح على الرسل الإتيان بالآيات، ظلم منهم وتعت وتكذيب، بعد أن أيدهم الله بالآيات الدالة على صدقهم وصحة ما جاؤوا به. ﴿فإذا جاء أمر الله﴾ بالفصل بين الرسل وأعدائهم، والفتح. ﴿قضي﴾ بينهم ﴿بالحق﴾ الذي يقع الموقع، ويوافق الصواب بإنجاء الرسل وأتباعهم، وإهلاك المكذبين، ولهذا قال: ﴿وخسر هنالك﴾ أي: وقت القضاء المذكور ﴿المبطلون﴾ الذين وصفهم الباطل، وما جاؤوا به من العلم والعمل باطل، وغايتهم المقصودة لهم باطلة، فلنخدر هؤلاء المخاطبون أن يستمروا على باطلهم فيخسروا كما خسروا أولئك، فإن هؤلاء لا خبر منهم، ولا لهم براءة في الكتب بالنجاة.

﴿٧٩ - ٨١﴾ ﴿الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها ومنها تأكلون﴾ ولكم فيها منافع وتبلغوا عليها حاجة في صدوركم وعليها وعلى الفلك تحملون * ويرىكم آياته فأي آيات الله

الكافرين﴾ أي: كذلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا، الضلال الواضح لكل أحد، حتى إنهم بأنفسهم يقرون ببطلانه يوم القيامة، ويتبين لهم معنى قوله تعالى: ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن﴾ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة﴾ الآيات.

ويقال لأهل النار ﴿ذلكم﴾ العذاب الذي نوع عليكم ﴿بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون﴾ أي: تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه، وبالعلوم التي خالفتكم بها علوم الرسل وتفرحون على عباد الله، بغياً وعدواناً وظلماً وعصياناً، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم﴾.

وكما قال قوم قارون له: ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾.

وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب، بخلاف الفرح المدحوح الذي قال الله فيه: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾ وهو الفرح بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿ادخلوا أبواب جهنم﴾ كل طبقة من طبقاتها على قدر عمله. ﴿خالدين فيها﴾ لا يخرجون منها أبداً ﴿فتبس مشوى المتكبرين﴾ مشوى يخزون فيه ويهانون ويحسبون ويعذبون ويرددون بين حرها وزمهريرها.

﴿٧٧﴾ ﴿فأصبر إن وعد الله حق فلما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون﴾ أي: ﴿فأصبر﴾ يا أيها الرسول على دعوة قومك وما ينالك منهم من أذى، واستمع على صبرك بإيمانك ﴿إن وعد الله حق﴾ سينصر دينه، ويغلي كلمته، وينصر رسله في الدنيا والآخرة، واستمع على ذلك أيضاً، بتوقع العقوبة بأعدائك في الدنيا

الكافرون﴾ يحث تعالى المكذبين لرسولهم على السير في الأرض بأبدانهم وقلوبهم وسؤال العالمين. ﴿فَينظروا﴾ نظر فكر واستدلال، لا نظر غفلة وإهمال.

﴿كيف كان عاقبة الذين من قبلهم﴾ من الأمم السالفة، كعاد وثمود وغيرهم، ممن كانوا أعظم منهم قوة وأكثر أموالاً وأشد آثاراً في الأرض من الأبنية الحصينة، والغراس الأنيفة، والزروع الكثيرة ﴿فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ حين جاءهم أمر الله، فلم تغن عنهم قوتهم، ولا افتدوا بأموالهم، ولا تحصنوا ب حصونهم.

ثم ذكر جرهم الكبير فقال: ﴿فلما جاءهم رسلهم بالبينات﴾ من الكتب الإلهية، والخوارق العظيمة، والعلم النافع المبين، للهدى من الضلال، والحق من الباطل ﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾ المناقض لدين الرسل.

ومن المعلوم، أن فرحهم به يدل على شدة رضاهم به وتمسكهم، ومعادة الحق الذي جاء به الرسل، وجعل باطلهم حقاً، وهذا عام لجميع العلوم التي نوقض بها ما جاء به الرسل، ومن أحقها بالدخول في هذا، علوم الفلسفة، والمنطق اليوناني، الذي رذت به كثير من آيات القرآن، ونقصت قدره في القلوب، وجعلت أدلته اليقينية القاطعة أدلة لفظية لا تفيد شيئاً من اليقين، ويقدم عليها عقول أهل السفة والباطل، وهذا من أعظم الإلحاد في آيات الله والمعارضة لها والمناقضة فالله المستعان.

﴿وحاق بهم﴾ أي: نزل ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾ من العذاب. ﴿فلما رأوا بأسنا﴾ أي: عذابنا، أقروا حيث لا ينفعهم الإقرار ﴿قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين﴾ من الأصنام والأوثان، وتبرأنا من كل ما خالف الرسل من علم أو عمل. ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا

بأسنا﴾ أي: في تلك الحال، وهذه ﴿سنة الله﴾ وعادته ﴿التي خلت في عباده﴾ أن المكذبين حين ينزل بهم بأس الله وعقابه إذا آمنوا، كان إيمانهم غير صحيح، ولا منجياً لهم من العذاب، وذلك لأنه إيمان ضرورة قد اضطروا إليه، وإيمان مشاهدة، وإنما الإيمان النافع الذي ينجي صاحبه، هو الإيمان الاختياري، الذي يكون إيماناً بالغيب، وذلك قبل وجود قرائن العذاب.

﴿وخسر هنالك﴾ أي: وقت الإهلاك وإذاقة البأس ﴿الكافرون﴾ دينهم ودنياهم وأخراهم، ولا يكفي مجرد الخسارة في تلك الدار، بل لا بد من خسران يشقي في العذاب الشديد، والخلود فيه، دائماً أبداً.

ثم تفسير سورة المؤمن بحمد الله ولطفه وموعنته، لا بحولنا وقوتنا، فله الشكر والثناء

تفسير سورة فصلت^(١) مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ حم * تنزيل من الرحمن الرحيم * كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون * بشيراً ونذيراً فاعرض أكثرهم فهم لا يسمعون * وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا قمر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون * قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد * فاستقيموا إليه واستغفروا وويل للمشركين * الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالأخرة هم كافرون * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ يخبر تعالى عباده أن هذا الكتاب الجليل والقرآن الجميل ﴿تنزيل﴾ صادر ﴿من الرحمن الرحيم﴾ الذي وسعت رحمته كل شيء، الذي من أعظم رحمته وأجلها إنزال هذا الكتاب، الذي حصل به من العلم والهدى والنور والشفاء والرحمة والخير الكثير، ما هو

من أجل نعيمه على العباد، وهو الطريق للسعادة في الدارين.

ثم أثنى على الكتاب بتمام البيان فقال: ﴿فُصِّلَتْ آياته﴾ أي: فصل كل شيء من أنواعه على حدته، وهذا يستلزم البيان التام، والتفريق بين كل شيء، وتمييز الحقائق. ﴿قرآناً عربياً﴾ أي: باللغة الفصحى أكمل اللغات، ﴿فُصِّلَتْ آياته وجعل عربياً﴾ لقوم يعلمون. أي: لأجل أن يتبين لهم معناه كما تبين لفظه، ويتضح لهم الهدى من الضلال، والنعى من الرشاد.

وأما الجاهلون الذين لا يزيدهم الهدى إلا ضلالاً، ولا البيان إلا عمى فهو لا لم يسق الكلام لأجلهم، ﴿وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون﴾.

﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي: بشيراً بالشواب والعاجل والآجل، ونذيراً بالعقاب العاجل والآجل، وذكر الأسباب والأوصاف تفصيلهما، وذكر الأسباب والأوصاف التي تحصل بها البشارة والنذارة، وهذه الأوصاف للكتاب، مما يوجب أن يُتَلَقَّى بالقبول والإذعان والإيمان والعمل به، ولكن أعرض أكثر الخلق عنه إعراض المستكبرين، ﴿فهم

دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالنا ائتينا طائعتين * فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم * ينكر تعالى ويعجب من كفر الكافرين به، الذين جعلوا معه أنداداً يشركونهم معه، ويبدلون لهم ما يشاؤون من عباداتهم، ويسوونهم بالرب العظيم، الملك الكريم، الذي خلق الأرض الكثيفة العظيمة في يومين، ثم دحاها في يومين، بأن جعل فيها رواسي من فوقها، ترسيها عن الزوال والتزلزل وعدم الاستقرار، فكمثل خلقها، ودحاها، وإخراج أقواتها، وتوابع ذلك * في أربعة أيام سواء للسائلين * عن ذلك، فلا يبتك مثل خبير، فهذا الخبر الصادق الذي لا زيادة فيه ولا نقص.

ثم * بعد أن خلق الأرض * استوى * أي: قصد * إلى * خلق السماء وهي دخان * قد ثار على وجه الماء، * فقال لها * ولما كان هذا التخصيص يومهم الاختصاص، عطف عليه بقوله: * وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً * أي: انقادا لأمري طائعتين أو مكرهتين، فلا بد من نفوذه. * قالنا ائتينا طائعتين * ليس لنا إرادة تخالف إرادتك. * فقضاهن سبع سموات في يومين * قَمَّ خلق السماوات والأرض في ستة أيام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، مع أن قدرة الله ومشيتته صالحة لخلق الجميع في لحظة واحدة، ولكن مع أنه قدير، فهو حكيم رفيق، فمن حكمته ورفقه، أن جعل خلقها في هذه المدة المقدرة.

واعلم أن ظاهر هذه الآية، مع قوله تعالى في النزاعات، لما ذكر خلق السماوات قال: * والأرض بعد ذلك دحاها * يظهر منها التعارض، مع أن كتاب الله لا تعارض فيه ولا اختلاف.

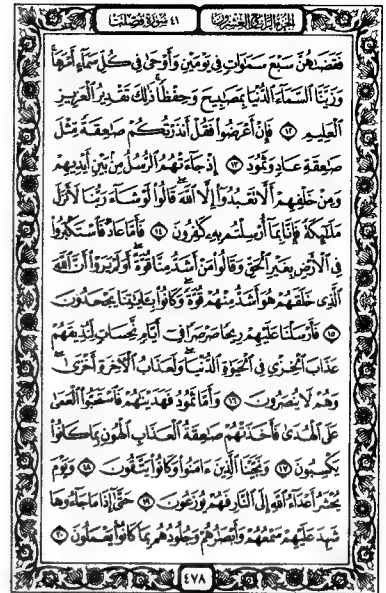
والجواب عن ذلك ما قاله كثير من السلف، أن خلق الأرض وصورتها

بتصديق الخبر الذي أخبر به، واتباع الأمر واجتناب النهي، هذه حقيقة الاستقامة، ثم الدوام على ذلك، وفي قوله: * إليه * تنبيه على الإخلاص، وأن العامل ينبغي له أن يجعل مقصوده وغايته التي يعمل لأجلها، الوصول إلى الله، وإلى دار كرامته، فبذلك يكون عمله خالصاً صالحاً نافعاً، وبفواته يكون عمله باطلاً.

ولما كان العبد - ولو حرص على الاستقامة - لا بد أن يحصل منه خلل بتقصير بمأمور، أو ارتكاب منهي، أمره بدواء ذلك بالاستغفار المتضمن للتوبة فقال: * واستغفروه * ثم توعد من ترك الاستقامة فقال: * وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة * أي: الذين عبدوا من دونه من لا يملك نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، وندسوا أنفسهم، فلم يزكوها بتوحيد ربهم والإخلاص له، ولم يصلوا ولا زكوا، فلا إخلاص للخالق بالتوحيد والصلاة، ولا نفع للمخلوق بالزكاة وغيرها. * وهم بالآخرة هم كافرون * أي: لا يؤمنون بالبعث ولا بالجنة والنار، فلذلك لما زال الخوف من قلوبهم، أقدموا على ما أقدموا عليه مما يضرهم في الآخرة.

ولما ذكر الكافرين ذكر المؤمنين، ووصفهم جزاءهم، فقال: * إن الذين آمنوا * بهذا الكتاب، وما اشتمل عليه مما دعا إليه من الإيمان، وصدقوا بإيمانهم بالأعمال الصالحة الجامعة للإخلاص، والتابعة. * لهم أجر * أي: عظيم * غير ممنون * أي: غير مقطوع ولا نافذ، بل هو مستمر مدى الأوقات، متزايد على الساعات، مشتمل على جميع اللذات والمشتتهات.

٩١ - ١٢ * قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهي



لا يسمعون * له سماع قبول وإجابة، وإن كانوا قد سمعوه سماعاً تقوم عليهم به الحجة الشرعية.

وقالوا * أي: هؤلاء المعرضون عنه، مبينين عدم انتفاعهم به، بسد الأبواب الموصلة إليه: * قلوبنا في أكثاب * أي: أغطية مغطاة * مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر * أي: صمم فلا نسمع لك * ومن بيننا وبينك حجاب * فلا نراك.

القصد من ذلك، أنهم أظهروا الإعراض عنه من كل وجه، وأظهروا بغضه والرضا بما هم عليه، ولهذا قالوا: * فاعمل إنا عاملون * أي: كما رضيت بالعمل بدينك، فإننا راضون كل الرضا بالعمل في ديننا، وهذا من أعظم الخذلان، حيث رضوا بالضلال عن الهدى، واستبدلوا الكفر بالإيمان، وباعوا الآخرة بالدنيا.

قل * لهم يا أيها النبي: * إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي * أي: هذه صفتي ووظيفتي، أني بشر مثلكم، ليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به، وإنما فضّلني الله عليكم وميّزني وخصّني بالوحي الذي أرحاه إلي وأمرني باتباعه ودعوتكم إليه.

فاستقيموا إليه * أي: اسلكوا الصراط الموصل إلى الله تعالى،

بربكم ﴿الظن السيء﴾ حيث ظننتم به ما لا يليق بجلاله . ﴿أرداكم﴾ أي : أهلككم ، ﴿فأصبحت من الخاسرين﴾ لأنفسهم وأهلهم وأديانهم بسبب الأعمال التي أوجها لكم ظنكم القبيح بربكم ، فحققت عليكم كلمة العقاب والشقاء ، ووجب عليكم الخلود الدائم في العذاب ، الذي لا يفترونه ساعة :

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾
فَلَا جَلْدَ عَلَيْهَا وَلَا صَبْرَ، وَكُلَّ حَالَةٍ
قُدِّرَ إِمْكَانُ الصَّبْرِ عَلَيْهَا، فَالنَّارُ
لَا يُمْكِنُ الصَّبْرُ عَلَيْهَا، وَكَيْفَ الصَّبْرُ
عَلَى نَارٍ قَدْ أَشْتَدَّ حَرُّهَا، وَزَادَتْ عَلَى
نَارِ الدُّنْيَا بِسَبْعِينَ ضِعْفًا، وَعَظُمَ غَلِيَانُ
حِمِيمِهَا، وَزَادَتْ فِي صِدِيدِهَا، وَتَضَاعَفَ
بَرْدُ زَمْهَرِيرِهَا وَعَظُمَتْ سَلَاسِلُهَا
وَأَغْلَالُهَا، وَكَبُرَتْ مَقَامِعُهَا، وَغُلِظَ
خُرْزَانُهَا، وَزَالَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ
رَحْمَتِهِمْ، وَخَتَمَ ذَلِكَ سَخَطَ الْجَبَّارِ،
وَقَوْلُهُ لَهُمْ حِينَ يَدْعُونَهُ وَيَسْتَعِيثُونَ:
﴿أَخْسِرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾.

﴿وإن يستعجبوا﴾ أي: يطلبوا أن يزال عنهم العتب ويرجعوا إلى الدنيا ليستأنفوا العمل. ﴿فما هم من المعتبين﴾ لأنه ذهب وقته، وعمرهما يعمر فيه من تذكر وجاءهم النذير وانقطعت حجتهم مع أن استعتابهم كذب منهم ﴿ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون﴾.

﴿٢٥﴾ وقبضنا لهم قراءاً فزینوا لهم ما بین یدیهما وما خلفهم وحق علیهم القول فی أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إیهم كانوا خاسرین ﴿٢٦﴾ أي: وقبضنا لهؤلاء الظالمین الجاحدین للحق ﴿قراءاً﴾ من الشیاطین، كما قال تعالی: ﴿ألم تر أنّا أرسلنا الشیاطین علی الکافرین توزهم أزاً﴾ أي: ترعجهم إلی المعاصي وتحثهم علیها، بسبب ما زینوا ﴿لهم ما بین یدیهما وما خلفهم﴾ فالدنیا زخرفوها بأعینهم، ودعورهم إلی لذاتها وشهواتها المحرمة حتی افتتنوا، فأقدموا علی معاصي الله، وسلکوا ما شاؤوا من محاربة الله ورسله، والآخرۃ یعدّوها

من المعتبين ﴿يخبر تعالى عن أعدائه، الذين بارزوه بالكفر به وبآياته، وتكذيب رسله ومعاداتهم ومحاربتهم، وحالهم الشنيعة حين يحشرون، أي: يجمعون.﴾ **[إلى النار فهم يوزعون]** **[أي:]** يرد أولهم على آخرهم، ويتبع آخرهم أولهم، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، لا يستطيعون امتناعاً، ولا ينصرون أنفسهم ولا هم ينصرون، **﴿حتى إذا ما جاؤوها﴾** أي: حتى إذا وردوا على النار، وأرادوا الإنكار، أو أنكروا ما عملوه من المعاصي، **﴿شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم﴾** عموم بعد خصوص. **[﴿بما كانوا يعملون﴾]** أي: شهد عليهم كل عضو من أعضائهم، فكل عضو يقول: أنا فعلت كذا وكذا يوم كذا وكذا. وخص هذه الأعضاء الثلاثة، لأن أكثر الذنوب إنما تقع بها أو بسببها.

فإذا شهدت عليهم عاتبوا،
 وقالوا جلودهم ﴿ هذا دليل على أنَّ
 الشهادة تقع من كل عضو كما ذكرنا:
 ﴿ لم شهدتم علينا ﴾ ونحن ندافع
 عنكم؟ ﴿ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق
 كل شيء ﴾، فليس في إمكاننا الامتناع
 عن الشهادة حين أنطقنا الذي
 لا يستعصي عن مشيئته أحد.

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فكما خلقكم بذواتكم وأجسامكم، خلق أيضاً صفاتكم، ومن ذلك الإنطاق. ﴿وإليه ترجعون﴾ في الآخرة، فيجزئكم بما علمتم، ويحتمل أن المراد بذلك، الاستدلال على البعث بالخلق الأول، كما هو طريقة القرآن.

﴿وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم﴾ أي: وما كنتم تخفون عن شهادة أعضائكم عليكم، ولا تحاذرون من ذلك. ﴿ولكن ظننتم﴾ بإقدامكم على المعاصي ﴿أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون﴾. فلذلك صدر منكم ما صدر، وهذا الظن، صار سبب هلاكهم وشقائهم ولهذا قال: ﴿وذلك ظنكم الذي ظننتم

١١
 ١٢
 ١٣
 ١٤
 ١٥
 ١٦
 ١٧
 ١٨
 ١٩
 ٢٠
 ٢١
 ٢٢
 ٢٣
 ٢٤
 ٢٥
 ٢٦
 ٢٧
 ٢٨
 ٢٩
 ٣٠
 ٣١
 ٣٢
 ٣٣
 ٣٤
 ٣٥
 ٣٦
 ٣٧
 ٣٨
 ٣٩
 ٤٠
 ٤١
 ٤٢
 ٤٣
 ٤٤
 ٤٥
 ٤٦
 ٤٧
 ٤٨
 ٤٩
 ٥٠
 ٥١
 ٥٢
 ٥٣
 ٥٤
 ٥٥
 ٥٦
 ٥٧
 ٥٨
 ٥٩
 ٦٠
 ٦١
 ٦٢
 ٦٣
 ٦٤
 ٦٥
 ٦٦
 ٦٧
 ٦٨
 ٦٩
 ٧٠
 ٧١
 ٧٢
 ٧٣
 ٧٤
 ٧٥
 ٧٦
 ٧٧
 ٧٨
 ٧٩
 ٨٠
 ٨١
 ٨٢
 ٨٣
 ٨٤
 ٨٥
 ٨٦
 ٨٧
 ٨٨
 ٨٩
 ٩٠
 ٩١
 ٩٢
 ٩٣
 ٩٤
 ٩٥
 ٩٦
 ٩٧
 ٩٨
 ٩٩
 ١٠٠

هداية بيان، وإنما نص عليهم، وإن كان جميع الأمم المهلكة، قد قامت عليهم الحجة وحصل لهم البيان، لأن آية ثمود آية باهرة، قد رآها صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنشأهم، وكانت آية مبصرة، فلهذا خصهم بزيادة البيان والهدى.

ولكنهم - من ظلمهم وشرهم -
استحبوا العمى - الذي هو الكفر
والضلال - على الهدى - الذي هو
العلم والإيمان - فأخذهم العذاب بما
كانوا يكسبون لا ظلماً من الله لهم .
﴿ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾
أي : نجى الله صالحاً عليه السلام ومن
اتبعه من المؤمنين المتقين للشرك
والعاصي .

﴿١٩ - ٢٤﴾ ﴿يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ
الله إلى النار فهم يوزعون﴾ * حتى إذا ما
جاؤوها شهد عليهم سمعهم
وأبصارهم وجلودهم بما كانوا
يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم
علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل
شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه
ترجعون * وما كنتم تسترون أن يشهد
عليكم سمعكم ولا أبصاركم
ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله
لا يعلم كثيرا مما تعملون * وذلكم
ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم
فأصبحتم من الخاسرين * فَإِنْ يَصْبِرُوا
فالنار مثوى لهم وإن يستعبدوا فما هم

لكونها من خصال خواص الخلق، التي ينال بها العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، التي هي من أكبر خصال مكارم الأخلاق.

﴿٣٥ - ٣٩﴾ «وإما ينزغنك من

الشیطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم * ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون * فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون * ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير. لما ذكر تعالى ما يقابل به العدو من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان، ذكر ما يدفع به العدو الجئي، وهو الاستعانة بالله والاحتماء من شره، فقال: «وإما ينزغنك من الشيطان نزغ» أي: أي وقت من الأوقات، أحسست بشيء من نزغات الشيطان، أي: من وساوسه وتزيينه للشهر، وتكسيله عن الخير، وإصابة ببعض الذنوب، وإطاعة له ببعض ما يأمر به «فاستعذ بالله» أي: أسأله، مفتقراً إليه، أن يعيذك ويعصمك منه، «إنه هو السميع العليم» فإنه يسمع قولك وتضرعك، ويعلم حالك واضطراك إلى عصمته وحمايته.

ثم ذكر تعالى أن «من آياته» الدالة على كمال قدرته، ونفوذه مشيئته، وسعة سلطانه، ورحمته بعباده، وأنه الله وحده لا شريك له «الليل والنهار»: هذا بمنفعة ضيائه وتصرف العباد فيه، وهذا بمنفعة ظلمته، وسكون الخلق فيه. «والشمس والقمر» اللذان لا تستقيم معاش العباد ولا أبدانهم ولا أبدان حيواناتهم إلا بهما، وبهما من المصالح ما لا يحصى عدده.

«لا تسجدوا للشمس ولا للقمر» فإنهما مدبران مسخران مخلوقان. «واسجدوا لله الذي خلقهن» أي:

اعبدوه وحده لأنه الخالق العظيم، ودعوا عبادة ما سواه من المخلوقات، وإن كبر جرمه وكثرت مصالحه، فإن ذلك ليس منه، وإنما هو من خالقه تبارك وتعالى. «إن كنتم إياه تعبدون» فخصوه بالعبادة وإخلاص الدين له.

«فإن استكبروا» عن عبادة الله تعالى، ولم ينقادوا لها، فإنهم لن يضروا الله شيئاً، والله غني عنهم، وله عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولهذا قال: «فالذين عند ربك» يعني: الملائكة المقربين «يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون» أي: لا يملون من عبادته، لقوتهم وشدة الداعي القوي منهم إلى ذلك.

«ومن آياته» الدالة على كمال قدرته، وانفراذه بالملك والتدبير والوحدانية، «أنك ترى الأرض خاشعة» أي: لا نبات فيها «فإذا أنزلنا عليها الماء» أي: أنظر «اهتزت» أي: تحركت بالنبات «وربت» ثم: أنبتت من كل زوج بهيج، فيحيي به العباد والبلاد.

«إن الذي أحياها» بعد موتها وهو دها، «لمحيي الموتى» من قبورهم إلى يوم بعثهم، ونشورهم «إنه على كل شيء قدير» فكما لم تعجز قدرته على إحياء الأرض بعد موتها، لا تعجز عن إحياء الموتى.

﴿٤٠ - ٤٢﴾ «إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير * إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد» الإلحاد في آيات الله: الميل بها عن الصواب بأي وجه كان: إما بإنكارها وجحودها، وتكذيب من جاء بها، وإما بتحريفها وتصريفها عن معناها الحقيقي، وإثبات معاني لها ما أرادها الله منها.

فتوعد تعالى من ألحد فيها بأنه لا يخفى عليه، بل هو مطلع على

ظاهرة وباطنه، وسيجازيه على إلحاده بما كان يعمل، ولهذا قال: «أفمن يلقى في النار» مثل الملحد بآيات الله «خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة» من عذاب الله مستحقاً لثوابه؟ من المعلوم أن هذا خير.

لما تبين الحق من الباطل، والطريق النجى من عذابه من الطريق المهلك قال: «اعملوا ما شئتم» إن شئتم فاسلكوا طريق الرشd الموصلة إلى رضا ربكم وجنته، وإن شئتم فاسلكوا طريق الغي المسخطة لربكم، الموصلة إلى دار الشقاء.

«إنه بما تعملون بصير» يجازيكم بحسب أحوالكم وأعمالكم، كقوله تعالى: «وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر».

ثم قال تعالى: «إن الذين كفروا بالذكر» أي: يمحذون القرآن الكريم المذكر للعباد جميع مصالحهم الدينية والدنيوية والأخروية، المغلي لقدرة من اتبعه، «لما جاءهم» نعمة من ربهم على يد أفضل الخلق وأكملهم. «و» الحال «إنه لكتاب» جامع لأوصاف الكمال «عزيز» أي: منيع من كل من أراد به تحريف أو سوء، ولهذا قال: «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه» أي: لا يقربه شيطان من شياطين الإنس والجن، لا بسرقة، ولا بإدخال ما ليس منه به، ولا بزيادة، ولا نقص، فهو محفوظ في تنزيله، محفوظة ألفاظه ومعانيه، قد تكفل من أنزله بحفظه كما قال تعالى: «إننا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون».

«تنزيل من حكيم» في خلقه وأمره، يضع كل شيء موضعه، وينزلها منازلها. «حميد» على ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وعلى ما له من العدل والإفضال، فلهذا كان كتابه مشتملاً على تمام الحكمة، وعلى تحصيل المصالح والمنافع، ودفع المفاسد والمضار، التي يحمد عليها.

﴿٤٣﴾ «ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة

نفعه وثوابه في الدنيا والآخرة، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا، ضرره وعقابه في الدنيا والآخرة، وفي هذا حثٌّ على فعل الخير وترك الشر، وانتفاع العاملين بأعمالهم الحسنة، وضررهم بأعمالهم السيئة، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى. ﴿وَمَا رِبِكْ بِظِلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾، فَيُحْمَلُ أَحَدًا فوق سبائهم.

﴿٤٧ - ٤٨﴾، ﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا أَرْذَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ * وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ﴾، هذا إخبار عن سعة علمه تعالى واختصاصه بالعلم الذي لا يطلع عليه سواه فقال: ﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: جميع الخلق ترد علمها إلى الله تعالى، ويقولون بالعجز عنه، الرسل، والملائكة، وغيرهم.

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾ أي: وعائها الذي تخرج منه، وهذا شامل لثمرات جميع الأشجار التي في البلدان والبراري، فلا تخرج ثمرة شجرة من الأشجار، إلا وهو يعلمها علماً تفصيلاً.

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ من بني آدم وغيرهم، من أنواع الحيوانات، إلا بعلمه ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ أنثى حملها إلا بعلمه. فكيف سوى المشركون به تعالى مَنْ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ وَلَا سَمْعَ وَلَا بَصَرَ؟

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ أي: المشركين به يوم القيامة توبيخاً وإظهاراً لكذبهم، فيقول لهم: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِي﴾ الذين زعمتم أنهم شركائي، فعبدتموهم وجادلتم على ذلك، وعاديتهم الرسل لأجلهم؟ ﴿قَالُوا﴾ مقرين ببطلان إلهيتهم وشركتهم مع الله: ﴿أَرْذَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ أي: أعلمناك يا ربنا، واشهد علينا أنه ما منا أحد يشهد بصحة إلهيتهم وشركتهم، فكلنا الآن قد رجعنا إلى بطلان عبادتها، وتبرأنا منها، ولهذا قال: ﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ﴾ من دون الله، أي:

هدى وشفاء، أي: يهديهم لطريق الرشد والصراط المستقيم، ويعلمهم من العلوم النافعة ما به تحصل الهداية التامة وشفاء لهم من الأسقام البدنية والأسقام القلبية، لأنه يزجر عن مساوئ الأخلاق وأقبح الأعمال، ويحث على التوبة النصوح التي تغسل الذنوب وتشفى القلب.

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بالقرآن ﴿فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ أي: صمم عن استماعه وإعراض، وهو عليهم عمى، أي: لا يبصرون به رشدًا، ولا يتدون به، ولا يزيدهم إلا ضلالاً فإنهم إذا ردوا الحق، ازدادوا عمى إلى عمائم، وغياً إلى غيهم.

﴿أُولَئِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ أي: ينادون إلى الإيمان ويدعون إليه فلا يستجيبون، بمنزلة الذي ينادي وهو في مكان بعيد، لا يسمع داعياً ولا يجيب متادياً. والمقصود: أن الذين لا يؤمنون بالقرآن، لا يتفقون بهدا، ولا يبصرون بنوره، ولا يستفيدون منه خيراً، لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى، بإعراضهم وكفرهم.

﴿٤٥ - ٤٦﴾، ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٌ * مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلَنْفُسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رِبِكْ بِظِلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾. كما آتيناك الكتاب، فصنع به الناس ما صنعوا معك، اختلفوا فيه: فمنهم مَنْ آمَنَ به واهتدى وانتفع، ومنهم مَنْ كذبه ولم ينتفع به، وإن الله تعالى، لولا حلمه وكلمته السابقة بتأخير العذاب إلى أجل مسمى لا يتقدم عليه ولا يتأخر، لقضي بينهم. بمجرد ما يتميز المؤمنون من الكافرين، بإهلاك الكافرين في الحال، لأن سبب الهلاك قد وجب وحق. ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مِرْيَبٌ﴾ أي: قد بلغ بهم إلى الريب الذي يقلقهم، فلذلك كذبوه وجحدوه.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾ وهو العمل الذي أمر الله به ورسوله ﴿فَلَنْفُسِهِ﴾

وذو عقاب إليهم، أي: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ﴾ أيها الرسول من الأقوال الصادرة ممن كذبك وعانذك، إلا ما قد قيل للرسول من قبلك، أي: من جنسها، بل ربما إنهم تكلموا بكلام واحد، كتعجب جميع الأمم المكذبة للرسول، من دعوتهم إلى الإخلاص لله وعبادته وحده لا شريك له، وردهم هذا بكل طريق يقدرون عليه، وقولهم: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾.

واقترحهم على رسلهم الآيات، التي لا يلزمهم الإتيان بها، ونحو ذلك من أقوال أهل التكذيب، لما تشابهت قلوبهم في الكفر تشابهت أقوالهم، وصبر الرسل عليهم السلام على أذاهم وتكذيبهم، فاصبر كما صبر مَنْ قَبْلَكَ.

ثم دعاهم إلى التوبة والإتيان بأسباب المغفرة، وحذرهم من الاستمرار على الغي فقال: ﴿إِنَّ رِبَكْ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ أي: عظيمة، يمحوها كل ذنب لمن أقطع وتاب ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لمن أصر واستكبر.

﴿٤٤﴾، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِي لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ يخبر تعالى عن فضله وكرمه، حيث أنزل كتابه عربياً، على الرسول العربي، بلسان قومه، ليبين لهم، وهذا مما يوجب لهم زيادة الاعتناء به، والتلقي له والتسليم، وأنه لو جعله قرآنًا أعجمياً بلغة غير العرب، لا تعرض المكذبون وقالوا: ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ أي: هلاً بينت آياته، ووضحت وفسرت. ﴿أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ أي: كيف يكون محمد عربياً، والكتاب أعجمي؟ هذا لا يكون فنفى الله تعالى كل أمر يكون فيه شبهة لأهل الباطل عن كتابه، ووصفه بكل وصف يوجب لهم الانقياد، ولكن المؤمنون الموقفون انتفعوا به، وارتفعوا، وغيرهم بالعكس من أحوالهم.

ولهذا قال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا

فإن قلت، أو شككت بصحته وحقيقته، فسقيم الله لكم ويريك من آياته في الآفاق، كآليات التي في السماء وفي الأرض، وما يحدثه الله تعالى من الحوادث العظيمة الدالة للمستبصر على الحق.

﴿وفي أنفسهم﴾ مما اشتملت عليه أبدانهم من بديع آيات الله وعجائب صنعته، وباهر قدرته، وفي حلول العقوبات والمثالات في المكذبين، ونصر المؤمنين. ﴿حتى يتبين لهم﴾ من تلك الآيات، بياناً لا يقبل الشك ﴿أنه الحق﴾ وما اشتمل عليه حق.

وقد فعل تعالى، فإنه أرى عباده من الآيات ما به تبين لهم أنه الحق، ولكن الله هو الموفق للإيمان من شاء، والخاذل لمن يشاء.

﴿أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ أي: أولم يكفهم على أن القرآن حق، ومن جاء به صادق، بشهادة الله تعالى، فإنه قد شهد له بالتصديق، وهو أصدق الشاهدين، وأيده ونصره نصراً متضمناً لشهادته القولية عند من شك فيها.

﴿ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم﴾ أي: في شك من البعث والقيامة، وليس عندهم دار سوى الدار الدنيا، فلذلك لم يعملوا للآخرة، ولم يلتفتوا لها. ﴿ألا إنه بكل شيء محيط﴾ علماً وقدره وعزة.

تم تفسير سورة السجدة

- بمته تعالى -

تفسير سورة الشورى مكية

﴿١ - ٩﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم * عسق﴾ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم * له ما في السماوات وما في الأرض وهو العلي العظيم * تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم * والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم

ثم قال تعالى: ﴿ولئن أذقناه﴾ أي: الإنسان الذي لا يسأم من دعاء الخير، وإن مسه الشر فيؤوس قنوط ﴿رحمة منا﴾ أي: بعد ذلك الشر الذي أصابه، بأن عافاه الله من مرضه، أو أغناه من فقره، فإنه لا يشكر الله تعالى، بل يبغى ويطنى، ويقول: ﴿هذالي﴾ أي: أتاني لأنني له أهل وأنا مستحق له ﴿وما أظن الساعة قائمة﴾ وهذا إنكار منه للبعث، وكفر للنعمة والرحمة التي أذاقها الله له. ﴿ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى﴾ أي: على تقدير إتيان الساعة، وأني سأرجع إلى ربي، إن لي عنده للحسنى، فكما حصلت لي النعمة في الدنيا، فإنها ستحصل لي في الآخرة وهذا من أعظم الجراءة والقول على الله بلا علم، فلماذا توعدته الله بقوله: ﴿فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ﴾ أي: شديد جداً.

﴿وإذا أنعمنا على الإنسان﴾ بصحة أو رزق أو غيرهما، ﴿أعرض﴾ عن ربه وعن شكره ﴿ونأى﴾ أي: ترفع ﴿بجانبه﴾ عجباً وتكبراً. وإن مسه الشر ﴿أي: المرض، أو الفقر، أو غيرهما﴾ فذو دعاء عريض ﴿أي: كثير جداً، لعدم صبره، فلا صبر في الضراء، ولا شكر في الرخاء، إلا من هداه الله ومن عليه.

﴿٥٢ - ٥٤﴾ ﴿قل أرايتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد * ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط﴾ أي: ﴿قل﴾ لهؤلاء المكذبين بالقرآن المسارعين إلى الكفران ﴿أرايتم إن كان﴾ هذا القرآن ﴿من عند الله﴾ من غير شك ولا ارتياب، ﴿ثم كفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد﴾ أي: معاندة الله ولرسوله، لأنه تبين لكم الحق والصواب، ثم عدلتم عنه، لا إلى حق، بل إلى باطل وجهل، فإذا تكونون أضل الناس وأظلمهم.

ذهبت عقائدهم وأعمالهم، التي أفنوا فيها أعمارهم على عبادة غير الله، وظنوا أنها تفيدهم وتدفع عنهم العذاب وتشفع لهم عند الله، فخاب سعيهم، وانتقض ظنهم، ولم تغن عنهم شركاؤهم شيئاً ﴿وظنوا﴾ أي: أبقتوا في تلك الحال ﴿ما لهم من محيص﴾ أي: منقذ ينقذهم، ولا مغيث ولا ملجأ، فهذه عاقبة من أشرك بالله غيره، يبينها الله لعباده ليحذروا الشرك به.

﴿٤٩ - ٥١﴾ ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيؤوس قنوط﴾ ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ * وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾ هذا إخبار عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وعدم صبره وجلده، لا على الخير ولا على الشر، إلا من نقله الله من هذه الحال إلى حال الكمال، فقال: ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير﴾ أي: لا يمل دائماً من دعاء الله، في الغنى والمال والولد، وغير ذلك من مطالب الدنيا، ولا يزال يعمل على ذلك، ولا يقتنع بقليل ولا كثير منها، فلو حصل له من الدنيا ما حصل، لم يزل طالباً للزيادة.

﴿وإن مسه الشر﴾ أي: المكروه، كالمرض والفقر وأنواع البلايا ﴿فيؤوس قنوط﴾ أي: ييأس من رحمة الله تعالى، ويظن أن هذا البلاء هو القاضي عليه بالهلاك، ويتشوش من إتيان الأسباب على غير ما يجب ويطلب.

إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات، فإنهم إذا أصابهم الخير والنعمة والمحاب، شكروا الله تعالى، وخافوا أن تكون نعم الله عليهم استدراجاً وإمهالاً، وإن أصابتهم مصيبة في أنفسهم وأموالهم وأولادهم صبروا، ورجوا فضل ربهم، فلم ييأسوا.

أمكن من أنواع التقربات، ويتولى عباده عموماً بتدبيره ونفوذ القدر فيهم، ويتولى عباده المؤمنين خصوصاً، بإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتربيتهم بلطفه، وإعانتهم في جميع أمورهم.

﴿وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ أي: هو المتصرف بالإحياء والإماتة، ونفوذ المشيئة والقدرة، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

﴿١٠-١٢﴾ ﴿وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت وإليه أنيب﴾ فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذركم فيه ليس كمثل شيء وهو السميع البصير * له مقاليد السماوات والأرض بيسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شيء عليم﴾ يقول تعالى: ﴿وما اختلفتم فيه من شيء﴾ من أصول دينكم وفروعه، مما لم تتفقوا عليه ﴿فحكمه إلى الله﴾ يرد إلى كتابه، وإلى سنة رسوله، فما حكما به فهو الحق، وما خالف ذلك فباطل. ﴿ذلكم الله ربي﴾ أي: فكما أنه تعالى الرب الخالق الرازق المدبر، فهو تعالى الحاكم بين عباده بشرعه في جميع أمورهم.

ومفهوم الآية الكريمة، أن اتفاق الأمة حجة قاطعة، لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلماً ما اختلفنا فيه، فما اتفقنا عليه، يكفي اتفاق الأمة عليه، لأنها معصومة عن الخطأ، ولا بد أن يكون اتفاقها موافقاً لما في كتاب الله وسنة رسوله.

وقوله: ﴿عليه توكلت﴾ أي: اعتمدت بقلبي عليه في جلب المنافع ودفع المضار، واثقاً به تعالى في الإسعاف بذلك. ﴿وإليه أنيب﴾ أي: أتوجه بقلبي وبدني إليه، وإلى طاعته وعبادته.

وهذان الأصلان، كثيراً ما يذكرهما الله في كتابه، لأنهما يحصل بمجموعهما كمال العبد، ويفوته

معرفته ومحبه وتعظيمه وإجلاله وإكرامه، وصرف جميع أنواع العبودية الظاهرة والباطنة له تعالى، وأن من أكبر الظلم وأفحش القول، اتخاذ أنداد لله من دونه، ليس يبداهم نفع ولا ضرر، بل هم مخلوقون مفتقرون إلى الله في جميع أحوالهم، ولهذا عقبه بقوله: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء﴾ يتولونهم بالعبادة والطاعة، كما يعبدون الله ويطيعونه، فإنما اتخذوا الباطل، وليسوا بأولياء على الحقيقة. ﴿الله حفيظ عليهم﴾ يحفظ عليهم أعمالهم، فيجازيهم بخيرها وشرها. ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ فتسأل عن أعمالهم، وإنما أنت مبلغ أديت وظيفتك.

ثم ذكر منته على رسوله وعلى الناس، حيث أنزل الله ﴿قرآناً عربياً﴾ بين الألفاظ والمعاني ﴿لتنذر أم القرى﴾ وهي مكة المكرمة ﴿ومن حولها﴾ من قرى العرب، ثم يسري هذا الإنذار إلى سائر الخلق. ﴿وتنذر﴾ الناس ﴿يوم﴾ الجمع الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، وتخبرهم أنه ﴿لا ريب فيه﴾ وأن الخلق ينقسمون فيه فريقين ﴿فريق في الجنة﴾ وهم الذين آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين، وفريق في السعير﴾ وهم أصناف الكفرة الكاذبين.

﴿٨﴾ ﴿و﴾ مع هذا ﴿لو شاء الله﴾ لجعل الناس، أي: جعل الناس أمة واحدة على الهدى، لأنه القادر الذي لا يمتنع عليه شيء، ولكنه أراد أن يدخل في رحمته من شاء من خواص خلقه.

وأما الظالمون الذين لا يصلحون لصالح، فإنهم محرومون من الرحمة، ف﴿مالهم﴾ من دون الله ﴿من ولي﴾ يتولاهم، فيحصل لهم المحبوب ﴿ولا نصير﴾ يدفع عنهم المكروه.

والذين ﴿اتخذوا من دونه أولياء﴾ يتولونهم بعبادتهم إياهم، فقد غلطوا أبقح غلط، فالله هو الولي الذي يتولاه عبده بعبادته وطاعته، والتقرب إليه بما

بوكيل * وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير * ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير * أم اتخذوا من دونه أولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى وهو على كل شيء قدير﴾ يخبر تعالى أنه أوحى هذا القرآن العظيم إلى النبي الكريم، كما أوحى إلى من قبله من الأنبياء والمرسلين، ففيه بيان فضله، بإنزال الكتب، وإرسال الرسل، سابقاً ولاحقاً، وأن محمداً ﷺ ليس يبدع من الرسل، وأن طريقته طريقة من قبله، وأحواله تناسب أحوال من قبله من المرسلين. وما جاء به يشابه ما جاؤوا به، لأن الجميع حق وصدق، وهو تنزيل من أنصف بالالوهية والعزة العظيمة والحكمة البالغة، وأن جميع العالم العلوي والسفلي ملكه وتحت تدبيره القدرى والشريعى.

وأنه ﴿العلي﴾ بذاته، وقدره، وقهره. ﴿العظيم﴾ الذي من عظمته ﴿تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن﴾ على عظمها وكونها جماداً، ﴿والملائكة﴾ الكرام المقربون خاضعون لعظمته، مستكينون لعزته، مذعنون بربوبيته. ﴿يسبحون بحمد ربهم﴾ ويعظمونه عن كل نقص، ويصفونه بكل كمال، ﴿ويستغفرون لمن في الأرض﴾ عما يصدر منهم، مما لا يليق بعظمة ربهم وكبريائه، مع أنه تعالى هو ﴿الغفور الرحيم﴾ الذي لولا مغفرته ورحمته، لعاجل الخلق بالعقوبة المستأصلة.

وفي وصفه تعالى بهذه الأوصاف، بعد أن ذكر أنه أوحى إلى الرسل كلهم عموماً، وإلى محمد - صلى الله عليه وسلم - جمعين - خصوصاً، إشارة إلى أن هذا القرآن الكريم، فيه من الأدلة والبراهين، والآيات الدالة على كمال البارى تعالى، ووصفه بهذه الأسماء العظيمة الموجبة لامتلاء القلوب من

الكمال بفوتهما أو فوت أحدهما، كقوله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ وقوله: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾. فاطر السماوات والأرض: أي: خالقهما بقدرته ومشيته وحكمته. ﴿جعل لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ لتسكنوا إليها، وتنتشر منكم الذرية، ويحصل لكم من النفع ما يحصل. ﴿ومن الأنعام أزواجاً﴾ أي: ومن جميع أصنافها نوعين، ذكراً وأنثى، لتبقى وتنمو لمنافعكم الكثيرة، ولهذا عداها باللام الدالة على التعليل، أي: جعل ذلك لأجلكم، ولأجل النعمة عليكم، ولهذا قال: ﴿يبدؤكم فيه﴾ أي: يبتكم ويكثركم ويكثر مواشيك، بسبب أن جعل لكم من أنفسكم، وجعل لكم من الأنعام أزواجاً.

﴿ليس كمثله شيء﴾ أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، لأن أسمائه كلها حسنى، وصفاته صفة^(١) كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثله شيء، لانفراده وتوحيده بالكمال من كل وجه. ﴿وهو السميع﴾ لجميع الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن الحاجات.

﴿البصير﴾ يرى دبيب النملة السوداء، في الليلة الظلماء، على الصخرة الصماء، ويرى سريان القوت في أعضاء الحيوانات الصغيرة جداً، وسريان الماء في الأغصان الدقيقة. وهذه الآية ونحوها، دليل لمذهب أهل السنة والجماعة، من إثبات الصفات، ونفي ماثلة المخلوقات. وفيها رد على المشبهة في قوله: ﴿ليس كمثله شيء﴾ وعلى المعطلة في قوله: ﴿وهو السميع البصير﴾.

وقوله: ﴿له مقاليد السماوات والأرض﴾ أي: له ملك السماوات والأرض، وييده مفاتيح الرحمة الكمال بفوتهما أو فوت أحدهما، فكل الخلق مفتقرون إلى الله، في جلب مصالحهم، ودفع المضار عنهم، في كل الأحوال، ليس بيد أحد من الأمر شيء.

والله تعالى هو المعطي المانع، الضار النافع، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه، ولا يدفع الشر إلا هو، و ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾. ولهذا قال هنا: ﴿يسبغ الرزق لمن يشاء﴾ أي: يوسع له ويعطيه من أصناف الرزق ما شاء، ﴿ويقدر﴾ أي: يضيق على من يشاء، حتى يكون بقدر حاجته، لا يزيد عنها، وكل هذا تابع لعلمه وحكمته، فلماذا قال: ﴿إنه بكل شيء عليم﴾ فيعلم أحوال عباد، فيعطي كل ما يليق بحكمته وتقضيه مشيته.

﴿١٣﴾ ﴿شرح لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾ كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يحببني إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب. هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباده، أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها، وأزكاها وأطهرها، دين الإسلام، الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده، بل شرعه الله لخيار الخيار، وصفوة الصفوة، وهم أولو العزم من المرسلين المذكورون في هذه الآية، أعلى الخلق درجة، وأكملهم من كل وجه، فالدين الذي شرعه الله لهم، لا بد أن يكون مناسباً لأحوالهم، موافقاً لكمالهم، بل إنما كملهم الله واصطفاهم، بسبب قيامهم به، فلولوا الدين الإسلامي، ما ارتفع أحد من الخلق، فهو روح السعادة، وقطب رحي الكمال، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم، ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب.

ولهذا قال: ﴿أن أقيموا الدين﴾ أي: أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى ولا تعاونون على الإثم والعدوان. ﴿ولا تتفرقوا فيه﴾ أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزاباً، وتكونون شيعاً يعادي بعضكم بعضاً مع اتفاقكم على أصل دينكم.

ومن أنواع الاجتماع على الدين وعدم التفرق فيه، ما أمر به الشارع من الاجتماعات العامة، كاجتماع الحج والأعياد، والجمع والصلوات الخمس والجهاد، وغير ذلك من العبادات التي لا تتم ولا تكمل إلا بالاجتماع لها وعدم التفرق.

﴿كبر على المشركين ما تدعوهم إليه﴾ أي: شق عليهم غاية المشقة، حيث دعوتهم إلى الإخلاص لله وحده، كما قال عنهم: ﴿وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾ وقولهم: ﴿أجعل الألوهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب﴾.



ولكنهم لم يتبعوه، بل اتبعوا أهواءهم، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً.

﴿وقل﴾ لهم عند جدالهم ومناظرتهم: ﴿آمنت بما أنزل الله من كتاب﴾ أي: لتكن مناظرتك لهم مبنية على هذا الأصل العظيم، الدال على شرف الإسلام وجلالته وهيمنته على سائر الأديان، وأن الدين الذي يزعم أهل الكتاب أنهم عليهم جزء من الإسلام، وفي هذا إرشاد إلى أن أهل الكتاب إن ناظروا مناظرة مبنية على الإيمان ببعض الكتب، أو ببعض الرسل دون غيره، فلا يسلم لهم ذلك، لأن الكتاب الذي يدعو إليه، والرسول الذي ينتسبون إليه، من شرطه أن يكون مصداقاً بهذا القرآن وبين جاء به، فكتابتنا ورسولنا لم يأمرنا إلا بالإيمان بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل، التي أخبر بها وصدق بها، وأخبر أنها مصدقة له ومقرة بصحته.

وأما مجرد التوراة والإنجيل، وموسى وعيسى، الذين لم يوصفوا لنا، ولم يوافقوا لكتابتنا، فلم يأمرنا بالإيمان بهم.

وقوله: ﴿وأمرت لأعدل بينكم﴾ أي: في الحكم فيما اختلفتم فيه، فلا تمنعني عداوتكم وبغضكم، يا أهل الكتاب من العدل بينكم، ومن العدل في الحكم، بين أهل الأقوال المختلفة، من أهل الكتاب وغيرهم، أن يقبل ما معهم من الحق، ويرد ما معهم من الباطل، ﴿الله ربنا وربكم﴾ أي: هو رب الجميع، لستم بأحق به منا. ﴿لنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ من خير وشر ﴿لا حجة بيننا وبينكم﴾ أي: بعدما تبينت الحقائق، واتضح الحق من الباطل، والهدى من الضلال، لم يبق للجدال والمنازعة محل، لأن المقصود من الجدال، إنما هو بيان الحق من الباطل، ليهتدي الراشد، ولتقوم الحجة على الغاوي، وليس المراد بهذا أن أهل الكتاب لا يجادلون، كيف والله يقول: ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ وإنما المراد ما ذكرنا.

والله المصير﴾ لما أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرق، أخبرهم أنكم لا تغتروا بما أنزل الله عليكم من الكتاب، فإن أهل الكتاب لم ينفقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغياً وعدواناً منهم، فإنهم تباعدوا وغاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف، فاحذروا أيها المسلمون أن تكونوا مثلهم.

﴿ولولا كلمة سبقت من ربك﴾ أي: بتأخير العذاب القاضى ﴿إلى أجل مسمى لقضي بينهم﴾ ولكن حكمته وحلمه، اقتضى تأخير ذلك عنهم. ﴿وإن الذين أوتوا الكتاب من بعدهم﴾ أي: الذين ورثوه وصاروا خلفاً لهم بمن ينتسب إلى العلم منهم ﴿لفي شك منه مريب﴾ أي: لفي اشتباه كثير يقع في الاختلاف، حيث اختلف سلفهم بغياً وعداء، فإن خلفهم اختلفوا شكاً وارتياباً، والجميع مشتركون في الاختلاف المذموم.

﴿فلذلك فادع﴾ أي: فللدين القويم والصراط المستقيم، الذي أنزل الله به كتابه وأرسل رسله، فادع إليه أمتك وحضهم عليه، وجاهد عليه من لم يقله، ﴿واستقم﴾ بنفسك ﴿كما أمرت﴾ أي: استقامة موافقة لأمر الله، لا تفريط ولا إفراط، بل امتثالاً لأوامر الله واجتناباً لنواهيه، على وجه الاستمرار على ذلك، فأمره بتكميل نفسه بلزوم الاستقامة، وبتكميل غيره بالدعوة إلى ذلك.

ومن المعلوم أن أمر الرسول ﷺ أمر لأمة إذا لم يرد تخصيص له.

﴿ولا تتبع أهواءهم﴾ أي: أهواء المنحرفين عن الدين، من الكفرة والمنافقين إما باتباعهم على بعض دينهم، أو بترك الدعوة إلى الله، أو بترك الاستقامة، فإنك إن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين، ولم يقل: ﴿ولا تتبع دينهم﴾ لأن حقيقة دينهم الذي شرعه الله لهم، هو دين الرسل كلهم،

﴿الله يجتبي إليه من يشاء﴾ أي: يختار من خلقه من يعلم أنه يصلح للاجتماع لرسالته وولايته ومنه أن اجتنبى هذه الأمة وفضلها على سائر الأمم، واختار لها أفضل الأديان وخيرها.

﴿ويهدي إليه من ينيب﴾ هذا السبب الذي من العبد، يتوصل به إلى هداية الله تعالى، وهو إنيابته لربه، وانجذاب دواعي قلبه إليه، وكونه قاصداً وجهه، فحسن مقصد العبد مع اجتهاده في طلب الهداية، من أسباب التيسير لها، كما قال تعالى: ﴿يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام﴾.

وفي هذه الآية، أن الله ﴿يهدي إليه من ينيب﴾ مع قوله: ﴿واتبع سبيل من أناب إلى﴾ مع العلم بأحوال الصحابة رضي الله عنهم، وشدة إنابتهم، دليل على أن قولهم حجة، خصوصاً الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم أجمعين.

﴿١٤ - ١٥﴾ ﴿وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم وإن الذين أوتوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب﴾ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا

«الله يجمع بيننا وإليه المصير» يوم القيامة، فيجزى كلا بعمله، ويتبين حينئذ الصادق من الكاذب.

﴿١٦﴾ «والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حاجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد» وهذا تقرير لقوله: لا حجة بيننا وبينكم، فأخبر هنا أن «الذين يحاجون في الله» بالحجج الباطلة، والشبه المتناقضة «من بعد ما استجيب له» أي: من بعد ما استجاب الله أولو الألباب والعقول، لما بين لهم من الآيات القاطعة، والبراهين الساطعة، فهؤلاء المجادلون للحق من بعد ما تبين «حاجتهم داحضة» أي: باطلة مدفوعة «عند ربهم» لأنها مشتملة على رد الحق وكل ما خالف الحق، فهو باطل.

«وعليهم غضب» لعصيانهم وإعراضهم عن حجج الله وبياناته وتكذيبها. «ولهم عذاب شديد» هو أثر غضب الله عليهم، فهذه عقوبة كل مجادل للحق بالباطل.

﴿١٧ - ١٨﴾ «الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب * يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد» لما ذكر تعالى أن حججه واضحة بيّنة، بحيث استجاب لها كل من فيه خير، ذكر أصلها وقاعدتها، بل جميع الحجج التي أوصلها إلى العباد، فقال: «الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان» فالكتاب هو هذا القرآن العظيم، نزل بالحق، واشتمل على الحق والصدق واليقين، وكله آيات بيّنات، وأدلة واضحات، على جميع المطالب الإلهية والعقائد الدينية، فجاء بأحسن المسائل وأوضح الدلائل.

وأما الميزان، فهو العدل والاعتبار بالقياس الصحيح والعقل الرجيح، فكل الدلائل العقلية، من الآيات الآفاقية والنفسية، والاعتبارات الشرعية، والمناسبات والعلل،

والأحكام والحكم، داخله في الميزان الذي أنزله الله تعالى ووضعه بين عباده، ليزنوا به ما أشبه من الأمور، ويعرفوا به صدق ما أخبر به وأخبرت رسله، فما خرج عن هذين الأمرين عن الكتاب والميزان عما قيل إنه حجة أو برهان أو دليل أو نحو ذلك من العبارات، فإنه باطل متناقض، قد فسدت أصوله، وانهدمت مبانيه وفروعه، يعرف ذلك من خبر المسائل وما أخذها، وعرف التمييز بين راجح الأدلة من مرجوحها، والفرق بين الحجج والشبه، وأما من اغتر بالعبارات المزخرفة، والألفاظ المموهة، ولم تنفذ بصيرته إلى المعنى المراد، فإنه ليس من أهل هذا الشأن، ولا من فرسان هذا الميدان، فوفاقه وخلافه سيان.

ثم قال تعالى مخوفاً للمستعجلين لقيام الساعة المنكرين لها، فقال: «وما يدريك لعل الساعة قريب» أي: ليس بمعلوم بعدها، ولا متى تقوم، فهي في كل وقت متوقع وقوعها، مخوف وجبتها. «يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها» عناداً وتكذيباً، وتعجيزاً لربهم. «والذين آمنوا مشفقون منها» أي: خائفون، لإيمانهم بها، وعلمهم بما تشتمل عليه من الجزاء بالأعمال، وخوفهم، لمعرفتهم بربهم، أن لا تكون أعمالهم منجية لهم ولا مسعدة، ولهذا قال: «ويعلمون أنها الحق» الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه «ألا إن الذين يمارون في الساعة» أي: بعدما امتروا فيها، ماروا الرسل وأتباعهم بإثباتها فهم في شقاق بعيد، أي: معاندة ومخاصمة غير قريبة من الصواب، بل في غاية البعد عن الحق، وأئى بعد أبعد ممن كذب بالدار التي هي الدار على الحقيقة، وهي الدار التي خلقت للبقاء الدائم والخلود السرمد، وهي دار الجزاء التي يظهر الله فيها عدله وفضله وإنما هذه الدار بالنسبة إليها، كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها، وهي دار عبور وممر، لا محل استقرار.

وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي الْقَوْمِ نَصِيبًا مِّمَّا تَسْأَلُونَ لَهُمْ مِمَّا رَزَقَهُمْ اللَّهُ قَصَصًا مِنْ أَمْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي الْقَوْمِ نَصِيبًا مِّمَّا تَسْأَلُونَ لَهُمْ مِمَّا رَزَقَهُمْ اللَّهُ قَصَصًا مِنْ أَمْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي الْقَوْمِ نَصِيبًا مِّمَّا تَسْأَلُونَ لَهُمْ مِمَّا رَزَقَهُمْ اللَّهُ قَصَصًا مِنْ أَمْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي الْقَوْمِ نَصِيبًا مِّمَّا تَسْأَلُونَ لَهُمْ مِمَّا رَزَقَهُمْ اللَّهُ قَصَصًا مِنْ أَمْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي الْقَوْمِ نَصِيبًا مِّمَّا تَسْأَلُونَ لَهُمْ مِمَّا رَزَقَهُمْ اللَّهُ قَصَصًا مِنْ أَمْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي الْقَوْمِ نَصِيبًا مِّمَّا تَسْأَلُونَ لَهُمْ مِمَّا رَزَقَهُمْ اللَّهُ قَصَصًا مِنْ أَمْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي الْقَوْمِ نَصِيبًا مِّمَّا تَسْأَلُونَ لَهُمْ مِمَّا رَزَقَهُمْ اللَّهُ قَصَصًا مِنْ أَمْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي الْقَوْمِ نَصِيبًا مِّمَّا تَسْأَلُونَ لَهُمْ مِمَّا رَزَقَهُمْ اللَّهُ قَصَصًا مِنْ أَمْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي الْقَوْمِ نَصِيبًا مِّمَّا تَسْأَلُونَ لَهُمْ مِمَّا رَزَقَهُمْ اللَّهُ قَصَصًا مِنْ أَمْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي الْقَوْمِ نَصِيبًا مِّمَّا تَسْأَلُونَ لَهُمْ مِمَّا رَزَقَهُمْ اللَّهُ قَصَصًا مِنْ أَمْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي الْقَوْمِ نَصِيبًا مِّمَّا تَسْأَلُونَ لَهُمْ مِمَّا رَزَقَهُمْ اللَّهُ قَصَصًا مِنْ أَمْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي الْقَوْمِ نَصِيبًا مِّمَّا تَسْأَلُونَ لَهُمْ مِمَّا رَزَقَهُمْ اللَّهُ قَصَصًا مِنْ أَمْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي الْقَوْمِ نَصِيبًا مِّمَّا تَسْأَلُونَ لَهُمْ مِمَّا رَزَقَهُمْ اللَّهُ قَصَصًا مِنْ أَمْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي الْقَوْمِ نَصِيبًا مِّمَّا تَسْأَلُونَ لَهُمْ مِمَّا رَزَقَهُمْ اللَّهُ قَصَصًا مِنْ أَمْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٠﴾

فصدقوا بالدار المضمحلة الغانية، حيث رأوها وشاهدوها، وكذبوا بالدار الآخرة، التي تواترت بالإخبار عنها الكتب الإلهية، والرسل الكرام وأتباعهم، الذين هم أكمل الخلق عقولاً، وأغزرهم علماً، وأعظمهم فطنة وفهماً.

﴿١٩ - ٢٠﴾ «الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز * من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب» يخبر تعالى بلطفه بعباده ليعرفوه وبحبوه، ويتعرضوا للطفه وكرمه، واللطف من أوصافه تعالى معناه: الذي يدرك الضمائر والسرائر، الذي يوصل عباده - وخصوصاً المؤمنين - إلى ما فيه الخير لهم من حيث لا يعلمون ولا يحسبون.

فمن لطفه بعبده المؤمن، أن هداه إلى الخير هداية لا تخطر بباله، بما يسر له من الأسباب الداعية إلى ذلك، من فطرته على محبة الحق والانقياد له وإيزاعه تعالى لملائكته الكرام، أن يشتوا عباده المؤمنين، ويخوهم على الخير، ويلقوا في قلوبهم من تزيين الحق ما يكون داعياً لاتباعه.

ومن لطفه أن أمر المؤمنين بالعبادات الاجتماعية، التي بها تقوى عزائمهم وتنبعث همهم، ويحصل منهم التنافس



على الخير والرغبة فيه، واقتداء بعضهم ببعض.

ومن لطفه، أن قيتض لعبده كل سبب يعوقه ويحول بينه وبين المعاصي، حتى إنه تعالى إذا علم أن الدنيا والمال والرياسة ونحوها مما يتنافس فيه أهل الدنيا، تقطع عبده عن طاعته، أو تحمله على الغفلة عنه، أو على معصية صرفها عنه، وقدر عليه رزقه، ولهذا قال هنا: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ بحسب اقتضاء حكمته ولطفه ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ الذي له القوة كلها، فلا حول ولا قوة لأحد من المخلوقين إلا به، الذي دانت له جميع الأشياء.

ثم قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾ أي: أجرها وثوابها، فأمّن بها وصدق، وسعى لها سعيها ﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾ بأن نضاعف عمله وجزاءه أضعافاً كثيرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ ومع ذلك، فنصبيه من الدنيا لا بد أن يأتيه.

﴿وَمَنْ كَانَ يَرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾ بأن: كانت الدنيا هي مقصوده وغاية مطلوبة، فلم يقدم لآخرته، ولا رجا ثوابها، ولم يخش عقابها. ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ نصيبه الذي قسم له، ﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها.

وهذه الآية، شبيهة بقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون. إلى آخر الآيات.

﴿٢١-٢٣﴾ أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم وإن الظالمين لهم عذاب أليم * ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير * ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً إن الله غفور شكور * يخبر تعالى أن المشركين اتخذوا شركاء يوالونهم ويشترون هم وإياهم في الكفر وأعماله، من شياطين الإنس، الدعاة إلى الكفر ﴿شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله﴾ من الشرك والبدع، وتحريم ما أحل الله، وتحليل ما حرم الله ونحو ذلك مما اقتضته أهواؤهم.

مع أن السدين لا يكون إلا ما شرعه الله تعالى، ليدين به العباد ويتقربوا به إليه، فالأصل الحجر على كل أحد أن يشرع شيئاً ما جاء عن الله وعن رسوله، فكيف هؤلاء الفسقة المشركين هم وأباؤهم على الكفر.

﴿ولولا كلمة الفصل لقضي بينهم﴾ أي: لولا الأجل المسمى الذي ضربه الله فاصلاً بين الطوائف المختلفة، وأنه سيؤخرهم إليه، لقضي بينهم في الوقت الحاضر بسعادة المحق وإهلاك المبطل، لأن مقتضى الإهلاك موجود، ولكن أمامهم العذاب الأليم في الآخرة، هؤلاء وكل ظالم.

وفي ذلك اليوم ﴿ترى الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿مشفقين﴾ أي: خائفين وجلين ﴿مما كسبوا﴾ أن يعاقبوا عليه.

ولما كان الخائف قد يقع به ما أشفق منه وخافه، وقد لا يقع، أخبر أنه ﴿واقع بهم﴾ العقاب الذي خافوه،

لأنهم أتوا بالسبب التام الموجب للعقاب، من غير معارض، من توبة ولا غيرها، ووصلوا موضعاً فات فيه الانتظار والإمهال.

﴿والذين آمنوا﴾ بقلوبهم بالله وكتبته ورسله وما جاؤوا به، ﴿وعملوا الصالحات﴾ يشمل كل عمل صالح من أعمال القلوب، وأعمال الجوارح من الواجبات والمستحبات، فهؤلاء ﴿في روضات الجنات﴾ أي: الروضات المضافة إلى الجنات، والمضاف يكون بحسب المضاف إليه، فلا تسأل عن بهجة تلك الرياض الموقنة، وما فيها من الأنهار المتدفقة، والفياض العسبة، والمناظر الحسنة، والأشجار المثمرة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، والاجتماع بكل حبيب، والأخذ من المعاشرة والمنادمة بأكمل نصيب، رياض لا تزداد على طول المدى إلا حسناً وبهاء، ولا يزداد أهلها إلا اشتياقاً إلى لذاتها ووداداً، ﴿لهم ما يشاؤون﴾ فيها، أي: في الجنات، فمهما أرادوا فهو حاصل، ومهما طلبوا حصل، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ وهل فوز أكبر من الفوز برضا الله تعالى، والتنعم بقربه في دار كرامته؟

﴿ذلك الذي يبشر الله عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: هذه البشارة العظيمة، التي هي أكبر البشائر على الإطلاق، بشر بها الرحيم الرحمن، على يد أفضل خلقه لأهل الإيمان والعمل الصالح، فهي أجل الغايات، والوسيلة الموصلة إليها أفضل الوسائل.

﴿قل لا أسألكم عليه﴾ أي: على تبليغي إياكم هذا القرآن ودعوتكم إلى أحكامه. ﴿أجراً﴾ فلست أريد أخذ أموالكم، ولا التولي عليكم والترأس، ولا غير ذلك من الأغراض ﴿إلا المودة في القربى﴾.

يحتمل أن المراد: لا أسألكم عليه أجراً إلا أجراً واحداً هو لكم، وعائد نفعه إليكم، وهو أن تودوني وتحبوني

الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير * وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد * هذا بيان لكمال كرم الله تعالى وسعة جوده وتعام لطفه، بقبول التوبة الصادرة من عباده حين يقلعون عن ذنوبهم ويندمون عليها، ويعزمون على أن لا يعاودوها إذا قصدوا بذلك وجه ربه، فإن الله يقبلها بعدما انعقدت سببا للهلاك، ووقوع العقوبات الدنيوية والدينية.

﴿ويعفو عن السيئات﴾ ويمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات، ويعود التائب عنده كريماً، كأنه ما عمل سوءاً قط، ويجبه ويوقفه لما يقربه إليه.

ولما كانت التوبة من الأعمال العظيمة، التي قد تكون كاملة بسبب تمام الإخلاص والصدق فيها، وقد تكون ناقصة عند نقصهما، وقد تكون فاسدة إذا كان القصد منها بلوغ غرض من الأغراض الدنيوية، وكان محل ذلك القلب الذي لا يعلمه إلا الله، ختم هذه الآية بقوله: ﴿ويعلم ما تفعلون﴾ فالله تعالى دعا جميع العباد إلى الإنابة إليه والتوبة من التقصير، فانقسموا - بحسب الاستجابة له - إلى قسمين: مستجيبين وصفهم بقوله: ﴿ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي: يستجيبون لرهبهم لما دعاهم إليه وينقادون له ويلبون دعوته، لأن ما معهم من الإيمان والعمل الصالح يحملهم على ذلك، فإذا استجابوا له، شكر الله لهم، وهو الغفور الشكور.

وزادهم من فضله توفيقاً ونشاطاً على العمل، وزادهم مضاعفة في الأجر زيادة عن ما تستحقه أعمالهم من الثواب والفوز العظيم.

وأما غير المستجيبين لله وهم المعاندون الذين كفروا به وبرسله، فـ ﴿لهم عذاب شديد﴾ في الدنيا والآخرة، ثم ذكر أن من لطفه بعباده، أنه لا يوسع عليهم الدنيا سعة، تضر بأديانهم فقال: ﴿ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض﴾ أي: لغفلوا

على الله بادعاء النبوة والنسبة إلى الله ما هو بريء منه، وهم يعلمون صدقك وأمانتك، فكيف يتجربون على هذا الكذب الصراح؟

بل تجربوا بذلك على الله تعالى، فإنه قدح في الله، حيث مكنتك من هذه الدعوة العظيمة، المتضمنة - على موجب زعمهم - أكبر الفساد في الأرض، حيث مكنته الله من التصريح بالدعوة، ثم بنسبتها إليه، ثم يؤيده بالمعجزات الظاهرات، والأدلة القاهرات، والنصر المبين، والاستيلاء على مَنْ خالفه، وهو تعالى قادر على حسم هذه الدعوة من أصلها ومادتها، وهو أن يختم على قلب الرسول ﷺ فلا يعي شيئاً ولا يدخل إليه خير، وإذا ختم على قلبه انحسم الأمر كله وانقطع.

فهذا دليل قاطع على صحة ما جاء به الرسول، وأقوى شهادة من الله له على ما قال، ولا يوجد شهادة أعظم منها ولا أكبر، ولهذا من حكمته ورحمته، وسنته الجارية، أنه يمحو الباطل ويزيله، وإن كان له صولة في بعض الأوقات، فإن عاقبته الاضمحلال.

﴿ويحق الحق بكلماته﴾ الكونية، التي لا تغير ولا تبدل، ووعد الصديق، وكلماته الدينية التي تحقق ما شرعه من الحق، وتثبت في القلوب، وتبصر أولي الألباب، حتى إن من جملة إحقاقه تعالى الحق، أن يُقَيِّضَ له الباطل ليقاومه، فإذا قاومه، صال عليه الحق ببراهينه وبياناته، فظهر من نوره وهده ما به يضمحل الباطل وينقمع، ويتبين بطلانه لكل أحد، ويظهر الحق كل الظهور لكل أحد.

﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ أي: بما فيها، وما اكتته ولم تبه.

﴿٢٥-٢٨﴾ وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون * ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله والكاफرون لهم عذاب شديد * ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في

في القربة، أي: لأجل القربة. ويكون على هذا المودة الزائدة على مودة الإيمان، فإن مودة الإيمان بالرسول، وتقديم محبته على جميع المحاب بعد محبة الله، فرض على كل مسلم، وهؤلاء طلب منهم زيادة على ذلك أن يحبوه لأجل القربة، لأنه ﷺ، قد باشر بدعوته أقرب الناس إليه، حتى إنه قيل: إنه ليس في بطون قريش أحد، إلا ولرسول الله ﷺ، فيه قرابة.

ويحتمل أن المراد إلا مودة الله تعالى الصادقة، وهي التي يصحبها التقرب إلى الله، والتوسل بطاعته الدالة على صحتها وصدقها، ولهذا قال: ﴿إلا المودة في القربى﴾ أي: في التقرب إلى الله، وعلى كلا القولين، فهذا الاستثناء دليل على أنه لا يسألهم عليه أجراً بالكلية، إلا أن يكون شيئاً يعود نفعه إليهم، فهذا ليس من الأجر في شيء، بل هو من الأجر منه لهم ﷺ، كقوله تعالى: ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ وقولهم: ﴿ما لفلان ذنب عندك، إلا أنه محسن إليك﴾.

﴿ومن يقترف حسنة﴾ من صلاة، أو صوم، أو حج، أو إحسان إلى الخلق ﴿نزدله فيها حسناً﴾ بأن يشرح الله صدره، ويسر أمره، وتكون سبباً للتوفيق لعمل آخر، ويزداد بها عمل المؤمن، ويرتفع عند الله وعند خلقه، ويحصل له الثواب العاجل والآجل.

﴿إن الله غفور شكور﴾ يغفر الذنوب العظيمة ولو بلغت ما بلغت عند التوبة منها، ويشكر على العمل القليل بالأجر الكثير، فيمغفرته يغفر الذنوب ويستر العيوب، ويشكره يتقبل الحسنات ويضاعفها أضعافاً كثيرة.

﴿٢٤﴾ ﴿أم يقولون افترى على الله كذباً﴾ فإن يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليم بذات الصدور يعني أم يقول المكذبون للرسول ﷺ جرأة منهم وكذباً: ﴿افترى على الله كذباً﴾ فرموك بأشنع الأمور وأببحها، وهو الافتراء

عن طاعة الله، وأقبلوا على التمتع بشهوات الدنيا، فأوجب لهم الإكباب على ما تشتهي نفوسهم، ولو كان معصية وظلماً.

﴿ولكن ينزل بقدر ما يشاء﴾ بحسب ما اقتضاه لطفه وحكمته، إنه بعباده خبير بصير، كما في بعض الآثار أن الله تعالى يقول: «إن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الغنى، ولو أفقرته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الفقر، ولو أغنيته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا الصحة، ولو أمرضته لأفسده ذلك، وإن من عبادي من لا يصلح إيمانه إلا المرض ولو عافيته لأفسده ذلك، إني أدبر أمر عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إني خبير بصير».

﴿وهو الذي ينزل الغيث﴾ أي: المطر الغزير الذي به يغيث البلاد والعباد، «من بعد ما قطوا» وانقطع عنهم مدة ظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسوا وعملوا لذلك الجذب أعمالاً، فينزل الله الغيث «وينشر» به رحمته، من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعاً عظيماً، ويستبشرون بذلك ويفرحون. ﴿وهو الولي﴾ الذي يتولى عباده بأنواع التدبير، ويتولى القيام بمصالح دينهم ودنياهم. ﴿الحميد﴾ في ولايته وتدبيره، الحميد على ما له من الكمال، وما أوصله إلى خلقه من أنواع الإفضال.

﴿٢٩﴾ ﴿ومن آياته خلق السماوات والأرض وما بث فيهما من دابة وهو على جمعهم إذا يشاء قدير﴾ أي: ومن أدلة قدرته العظيمة، وأنه سيحيي الموتى بعد موتهم، «خلق» هذه السماوات والأرض، على عظمهما وسعتهما، الدال على قدرته وسعة سلطانه، وما فيهما من الإتيان والإحكام دال على حكمته وما فيهما من المنافع والمصالح دال على رحمته، وذلك يدل على أنه المستحق لأنواع العبادة كلها، وأن إلهية ما سواه باطلة.

﴿وما بث فيهما﴾ أي: نشر في السماوات والأرض من أصناف الدواب التي جعلها الله مصالحاً ومنافع لعباده. ﴿وهو على جمعهم﴾ أي: جمع الخلق بعد موتهم لموقف القيامة ﴿إذا يشاء قدير﴾ فقد رتبته ومشينته صالحان لذلك، ويتوقف وقوعه على وجود الخبر الصادق، وقد علم أنه قد تواترت أخبار المرسلين وكتبهم بوقوعه.

﴿٣٠-٣١﴾ ﴿وما أصابكم من مصيبة فيما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾ وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير، يخبر تعالى، أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أبدانهم وأموالهم وأولادهم وفيما يحبون ويكون عزيزاً عليهم، إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، وأن ما يعفو الله عنه أكثر، فإن الله لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾. وليس إهمالاً منه تعالى تأخير العقوبات ولا عجزاً.

﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض﴾ أي: معجزين قدرة الله عليكم، بل أنتم عاجزون في الأرض، ليس عندكم امتناع عما ينفذه الله فيكم. ﴿وما لكم من دون الله من ولي﴾ يتولاكم، فيحصل لكم المنافع ﴿ولا نصير﴾ يدفع عنكم المضار.

﴿٣٢-٣٥﴾ ﴿ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام﴾ إن يشاء يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور * أو يوبقهن بما كسبن ويعفو عن كثير * ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص * أي: ومن أدلة رحمته وعنايته بعباده ﴿الجوار في البحر﴾ السفن، والمراكب النارية والشراعية، التي من عظمها «كالأعلام» وهي الجبال الكبار، التي سخر لها البحر العجاج، وحفظها من النظام الأمواج، وجعلها تحملك وتحمّل امتنعكم الكثيرة، إلى البلدان والأقطار البعيدة، وسخر لها من الأسباب ما كان معونة

على ذلك.

ثم نبّه على هذه الأسباب بقوله: ﴿إن يشاء يسكن الريح﴾ التي جعلها الله سبباً لشيئها، ﴿فيظللن﴾ أي: الجوار ﴿رواكد﴾ على ظهر البحر، لا تتقدم ولا تتأخر، ولا ينتقض هذا بالمراكب النارية، فإن من شرط مشيها وجود الريح.

وإن شاء الله تعالى أوبق الجوار بما كسب أهلها، أي: أغرقها في البحر وأتلفها، ولكنه يحلم ويعفو عن كثير. ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي: كثير الصبر على ما تكرهه نفسه ويشق عليها، فيكرهها عليه، من مشقة طاعة، أو ردع داع إلى معصية، أو ردع نفسه عند المصائب عن التسخط، ﴿شكور﴾ في الرخاء وعند النعم، يعترف بنعمة ربه ويخضع له، ويصرفها في مرضاته، فهذا الذي ينتفع بآيات الله.

وأما الذي لا صبر عنده، ولا شكر له على نعم الله، فإنه مغرض أو معاند لا ينتفع بالآيات.

ثم قال تعالى: ﴿ويعلم الذين يجادلون في آياتنا﴾ ليظلوها بباطلهم. ﴿ما لهم من محيص﴾ أي: لا ينقذهم مقدماً حل بهم من العقوبة.

﴿٣٦-٣٩﴾ ﴿فما أوتيتهم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون﴾ والذي يجتنبون كباثر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون * والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم وما رزقناهم ينفقون * والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون * هذا تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة، وذكر الأعمال الموصلة إليها فقال: ﴿فما أوتيتهم من شيء﴾ من ملك ورياسة، وأموال وبنين، وصحة وعافية بدنية. ﴿فمتاع الحياة الدنيا﴾ لذة منغصة منقطعة. ﴿وما عند الله﴾ من الثواب الجزيل، والأجر الجليل، والنعيم المقيم «خير» من لذات الدنيا، خيرية لا نسبة بينهما «وأبقى»

عذاب الله لم يدفع عنهم. ﴿وَمَنْ يَضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ تحصل به هدايته، فهو لا ضلوا حيث زعموا في شركائهم النفع ودفع الضر، فتبين حينئذ ضلالهم.

﴿٤٧ - ٤٨﴾ ﴿استجيبوا للربكم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ما لكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير﴾ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ يأمر تعالى عباده بالاستجابة له، بامثال ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وبالمبادرة بذلك وعدم التسويف، من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي إذا جاء لا يمكن رده واستدراك الفائت، وليس للعبد في ذلك اليوم ملجأ يلجأ إليه، فيفوت ربه، ويهرب منه.

بل قد أحاطت الملائكة بالخلقة من خلفهم، ونودوا ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ وليس للعبد في ذلك اليوم نكير لما اقترفه وأجرمه، بل لو أنكر لشهدت عليه جوارحه.

وهذه الآية ونحوها، فيها ذم الأمل، والأمر بانتهاز الفرصة في كل عمل يعرض للعبد، فإن للتأخير آفات.

﴿فإن أعرضوا﴾ عما جنتهم به بعد البيان التام ﴿فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ تحفظ أعمالهم وتسأل عنها، ﴿إن عليك إلا البلاغ﴾ فإذا أدبت ما عليك، فقد وجب أجرك على الله، سواء استجابوا أم أعرضوا، وحسابهم على الله الذي يحفظ عليهم صغير أعمالهم وكبيرها، وظاهرها وباطنها.

ثم ذكر تعالى حالة الإنسان، وأنه إذا أذقه الله رحمة، من صحة بدن، ورزق رغد، وجاء ونحوه ﴿فرح بها﴾ أي: فرح فرحاً مقصوراً عليها، لا يتعداها، ويلزم من ذلك طمأنينته بها، وإعراضه عن المنعم.

﴿٤٤ - ٤٦﴾ ﴿ومن يضل الله فما له من ولي من بعده وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفي وقال الذين آمنوا إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا إن الظالمين في عذاب مقيم﴾ وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضل الله فما له من سبيل﴾ يخبر تعالى أنه المنفرد بالهداية والإضلال، وأنه ﴿من يضل الله﴾ بسبب ظلمه ﴿فما له من ولي من بعده﴾ يتولى أمره ويهديه.

﴿وترى الظالمين لما رأوا العذاب﴾ مرأى ومنظراً فظيماً، صعباً شنيعاً، يظهرون الندم العظيم، والحزن على ما سلف منهم، و﴿يقولون هل إلى مرد من سبيل﴾ أي: هل لنا طريق أو حيلة إلى رجوعنا إلى الدنيا، لنعمل غير الذي كنا نعمل، وهذا طلب للأمر المحال الذي لا يمكن.

﴿وتراهم يعرضون عليها﴾ أي: على النار ﴿خاشعين من الذل﴾ أي: ترى أجسامهم خاشعة للذل الذي في قلوبهم، ﴿ينظرون من طرف خفي﴾ أي: ينظرون إلى النار مسارقة وشزراً، من هيبتها وخوفها.

﴿وقال الذين آمنوا﴾ حين ظهرت عواقب الخلق، وتبين أهل الصدق من غيرهم: ﴿إن الخاسرين﴾ على الحقيقة ﴿الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة﴾ حيث فوتوا أنفسهم جزيل الثواب، وحصلوا على أليم العقاب وفرق بينهم وبين أهليهم، فلم يجتمعوا بهم، آخر ما عليهم. ﴿ألا إن الظالمين﴾ أنفسهم بالكفر والمعاصي ﴿في عذاب مقيم﴾ أي: في سوائه ووسطه، منغمرين لا يخرجون منه أبداً، ولا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون.

﴿وما كان لهم من أولياء ينصرونهم من دون الله﴾ كما كانوا في الدنيا يمتنون بذلك أنفسهم، ففي القيامة يتبين لهم ولغيرهم أن أسبابهم التي أملوها تقطعت، وأنه حين جاءهم



ظلمه من غير أن يقع منه شيء، فهذا لا يجازى بمثله، وإنما يؤدب تأديباً يردعه عن قول أو فعل صدر منه.

﴿إنما السبيل﴾ أي: إنما تتوجه الحجة بالعقوبة الشرعية ﴿على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق﴾ وهذا شامل للظلم والبغي على الناس، في دنائهم وأموالهم وأعراضهم. ﴿أولئك لهم عذاب أليم﴾ أي: موجه للقلوب والأبدان، بحسب ظلمهم وبغيهم.

﴿ولن نصبر﴾ على ما يناله من أذى الخلق ﴿وغفر﴾ لهم، بأن سمح لهم عما يصدر منهم، ﴿إن ذلك لمن عزم الأمور﴾ أي: لمن الأمور التي حث الله عليها وأكدها، وأخبر أنه لا يلقاها إلا أهل الصبر والخطوطة العظيمة، ومن الأمور التي لا يوفق لها إلا أولو العزائم والهمم، وذوو الألباب والبصائر.

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل، من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومغفرته، ومقابلته بالإحسان، أشق وأشق، ولكنه يسير على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الانتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه.

فخير، وإن شراً فشر. ثم تفسير سورة الشورى، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، على تيسيره وتسهيله.

تفسير سورة الزخرف مكية

﴿١ - ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حَمْدُ * والكتاب المبين * إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون * وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم * أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين﴾ هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين وأطلق، ولم يذكر المتعلق، ليدل على أنه مبين لكل ما يحتاج إليه العباد من أمور الدنيا والدين والأخرة.

﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾ هذا المقسم عليه، أنه جعل بأفصح اللغات وأوضحها وأبينها، وهذا من بيانه. وذكر الحكمة في ذلك فقال: ﴿لعلكم تعقلون﴾ ألفاظه ومعانيه لتيسرها وقربها من الأذهان.

﴿وإنه أي: هذا الكتاب ﴿لدينا﴾ في الملأ الأعلى في أعلى الرتب وأفضلها ﴿لعللي حكيم﴾ أي: لعلي في قدره وشرفه وعمله، حكيم فيما يشمل عليه من الأوامر والنواهي والأخبار، فليس فيه حكم مخالف للحكمة والعدل والميزان.

ثم أخبر تعالى أن حكمته وفضله يقتضي أن لا يترك عباده مهملات، لا يرسل إليهم رسولاً، ولا ينزل عليهم كتاباً، ولو كانوا مسرفين ظالمين فقال:

﴿أفنضرب عنكم الذكر صفحاً﴾ أي: أفنعرض عنكم، ونترك إنزال الذكر إليكم، ونضرب عنكم صفحاً، لأجل إعراضكم، وعدم انقيادكم له؟ بل ننزل عليكم الكتاب، ونوضح لكم فيه كل شيء، فإن آمنتم به واهتديتم، فهو من توفيقكم، وإلا قامت عليكم الحجة، وكتم على بيته من أمركم.

﴿٦ - ٨﴾ ﴿وكم أرسلنا من نبي في الأولين * وما يأتيهم من نبي إلا

إرسال ملك، ولا مخاطبة منه شفاهاً. ﴿أو﴾ يكلمه منه شفاهاً، لكن ﴿من وراء حجاب﴾ كما حصل لموسى بن عمران، كلم الرحمن.

﴿أو﴾ يكلمه الله بواسطة الرسول الملكي، ف ﴿يرسل رسولاً﴾ كجبريل أو غيره من الملائكة.

﴿فنيوحى بإذنه﴾ أي: بإذن ربه، لا بمجرد هواه، ﴿إنه﴾ تعالى علي الذات، علي الأوصاف، عظيمها، علي الأفعال، قد قهر كل شيء، ودانت له المخلوقات. حكيم في وضعه كل شيء في موضعه، من المخلوقات والشرائع.

﴿وكذلك﴾ حين أوحينا إلى الرسل قبلك ﴿أوحينا إليك روحاً من أمرنا﴾ وهو هذا القرآن الكريم، سماه روحاً، لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير.

وهو محض مئة الله على رسوله وعباده المؤمنين، من غير سبب منهم، ولهذا قال: ﴿ما كنت تدري﴾ أي:

قبل نزوله عليك ﴿ما الكتاب ولا الإيمان﴾ أي: ليس عندك علم بأخبار الكتب السابقة، ولا إيمان وعمل بالشرائع الإلهية، بل كنت أمياً لا تخط ولا تقرأ، فجاءك هذا الكتاب الذي ﴿جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا﴾ يستضيئون به في ظلمات الكفر والبدع، والأهواء المردية، ويعرفون به الحقائق، ويهتدون به إلى الصراط المستقيم.

﴿وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم﴾ أي: تبينه لهم وتوضحه، وتنيره وترغبهم فيه، وتنهاهم عن ضده، وترهبهم منه، ثم فسر الصراط المستقيم فقال:

﴿صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض﴾ أي: الصراط الذي نصبه الله لعباده، وأخبرهم أنه موصل إليه وإلى دار كرامته، ﴿إلا إلى الله تصير الأمور﴾ أي: ترجع جميع أمور الخير والشر، فيجازى كلاً بحسب عمله، إن خيراً

﴿وإن تصيبهم سئئة﴾ أي: مرض أو فقر، أو نحوهما ﴿بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ أي: طبيعته كفران النعمة السابقة، والتسخط لما أصابه من السئنة.

﴿٤٩ - ٥٠﴾ ﴿الله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور * أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير﴾ هذه الآية فيها الإخبار عن سعة ملكه تعالى، ونفوذ تصرفه في الملك في الخلق ما يشاء، والتدبير لجميع الأمور، حتى إن تدبيره تعالى، من عمومته، أنه يتناول المخلوقة عن الأسباب التي يباشرها العباد، فإن النكاح من الأسباب لولادة الأولاد، فالله تعالى هو الذي يعطيهم من الأولاد ما يشاء.

فمن الخلق من يهب له إناثاً، ومنهم من يهب له ذكوراً، ومنهم من يزوج، أي: يجمع له ذكوراً وإناثاً، ومنهم من يجعله عقيماً لا يولد له.

﴿إنه عليم﴾ بكل شيء ﴿قدير﴾ على كل شيء، فيصرف بعلمه وإتقانه الأشياء، ويقدرته في مخلوقاته.

﴿٥١ - ٥٣﴾ ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علي حكيم * وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لستهدي إلى صراط مستقيم *

صراط الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض إلا إلى الله تصير الأمور﴾ لما قال المكذبون لرسول الله، الكافرون بالله: ﴿لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية﴾ من كبرهم وتجبرهم، رد الله عليهم بهذه الآية الكريمة، وأن تكليمه تعالى لا يكون إلا لخواص خلقه، للأنبياء والمرسلين، وصفوته من العالمين، وأنه يكون على أحد هذه الأوجه.

إما ﴿أن يكلمه الله وحياً﴾ بأن يلقي الرحي في قلب الرسول، من غير

كانوا به يستهزؤون * فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين * يقول تعالى: إن هذه سنتنا في الخلق، أن لا نتركهم مهلاً، فكم * أرسلنا من نبي في الأولين * يأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، ولم يزل التكذيب موجوداً في الأمم.

وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزؤون * جحداً لما جاء به، وتكبراً على الحق.

فأهلكنا أشد * من هؤلاء بطشاً * أي: قوة وأفعالاً وأثراً في الأرض، * ومضى مثل الأولين * أي: مضت أمثالهم وأخبارهم، وبيننا لكم منها ما فيه عبرة ومزجر عن التكذيب والإنكار.

٩ - ١٤ * ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم * الذي جعل لكم الأرض مهدياً وجعل لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون * والذي نزل من السماء ماء بقدر فأنشأنا به بلدة ميتة كذلك تخرجون * والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لنقلبون * يخبر تعالى عن المشركين، أنك لو * سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن * الله وحده لا شريك له، العزيز الذي دانت لعزته جميع المخلوقات، العليم بظواهر الأمور وبواطنها، وأوائلها وأواخرها، فإذا كانوا مقرنين بذلك، فكيف يجعلون له الولد والصاحبة والشريك؟ وكيف يشركون به من لا يخلق ولا يرزق، ولا يُميت ولا يحيي؟!

ثم ذكر أيضاً من الأدلة الدالة على كمال نعمته واقتداره، بما خلقه لعباده من الأرض التي مهدها وجعلها قراراً للعباد، يتمكنون فيها من كل ما يريدون.

وجعل لكم فيها سبلاً * أي:

جعل منافذ بين سلاسل الجبال المتصلة، تنفذون منها إلى ما وراءها من الأقطار. * لعلكم تهتدون * في السير في الطرق ولا تضيعون، ولعلكم تهتدون أيضاً في الاعتبار بذلك والادكار فيه.

والذي نزل من السماء ماء بقدر * لا يزيد ولا ينقص، ويكون أيضاً بمقدار الحاجة، لا ينقص بحيث لا يكون فيه نفع، ولا يزيد بحيث يضر العباد والبلاد، بل أغاث به العباد، وأنقذ به البلاد من الشدة، ولهذا قال: * فأنشأنا به بلدة ميتة * أي: أحييناها بعد موتها، * كذلك تخرجون * أي: فكما أحيا الأرض الميتة الهامدة بالماء، كذلك يحييكم بعدما تستكملون في البرزخ، ليجازيكم بأعمالكم.

والذي خلق الأزواج كلها * أي: الأصناف جميعها، مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون، من ليل ونهار، وحر وبرد، وذكر وأنثى، وغير ذلك. * وجعل لكم من الفلك * أي: السفن البحرية، الشراعية والنارية، ما تركبون * و * من الأنعام ما تركبون * لتستووا على ظهوره * وهذا شامل لظهور الفلك وظهور الأنعام، أي: لتستقروا عليها، * ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه * بالاعتراف بالنعمة لمن سخرها، والشأن عليه تعالى بذلك، ولهذا قال: * وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * أي: لولا تسخيره لنا ما سخر من الفلك، والأنعام، ما كنا مطيقين لذلك وقادرين عليه، ولكن من لطفه وكرمه تعالى، سخرها وذلها ويسر أسبابها.

والمقصود من هذا، بيان أن الرب الموصوف بما ذكره، من إفاضة النعم على العباد، هو الذي يستحق أن يعبد، ويصلى له ويسجد.

١٥ - ٢٥ * وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفور مبين * أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم

بالبين * وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم * أومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين * وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً आشهدوا خلقتهم سكتب شهدتهم ويسألون * وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون * أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون * بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون * قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون * فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين * يخبر تعالى عن شناعة قول المشركين، الذين جعلوا لله تعالى ولداً، وهو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد، وإن ذلك باطل من عدة أوجه:

منها: أن الخلق كلهم عباد، والعبودية تنافي الولادة.

ومنها: أن الولد جزء من والده، والله تعالى بائن من خلقه، مبين لهم في صفاته ونعوت جلاله، والولد جزء من الوالد، فمحال أن يكون لله تعالى ولد.

ومنها: أنهم يزعمون أن الملائكة بنات الله، ومن المعلوم أن البنات أدون الصنفين، فكيف يكون لله البنات، ويصطفيهن بالبين، ويفضلهم بها؟! فإذا يكونون أفضل من الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ومنها: أن الصنف الذي نسبوه لله، وهو البنات، أدون الصنفين، وأكرههما لهم، حتى إنهم من كراهتهم لذلك * إذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً * من كراهته وشدة بغضه، فكيف يجعلون لله ما يكرهون؟

ومنها: أن الأنثى ناقصة في

وصفها، وفي منطقها وبيانها، ولهذا قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ يُنَشِّئُ فِي الْحَلِيقَةِ﴾ أي: يجعل فيها، لنقص جماله، فيجعل بأمر خارج عنه؟ ﴿وهو في الخصام﴾ أي: عند الخصام الموجب لإظهار ما عند الشخص من الكلام، ﴿غير مبين﴾ أي: غير مبين لحجته، ولا مفصح عما احتوى عليه ضميره، فكيف ينسبون لله تعالى؟

ومنها: أنهم جعلوا الملائكة الذين هم عباد الله إنشأ، فتجروا على الملائكة، العباد المقربين، ورفوهم عن مرتبة العبادة والذل، إلى مرتبة المشاركة لله، في شيء من خواصه، ثم نزلوا بهم عن مرتبة الذكورية إلى مرتبة الأنوثة، فسبحان من أظهر تناقض من كذب عليه وعاند رسله.

ومنها: أن الله رد عليهم بأنهم لم يشهدوا خلق الله للملائكة، فكيف يتكلمون بأمر من المعلوم عند كل أحد، أنه ليس لهم به علم؟! ولكن لا بد أن يسألوا عن هذه الشهادة، وستكتب عليهم، ويعاقبون عليها.

وقوله تعالى: ﴿وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم﴾ فاحتجوا على عبادتهم الملائكة بالمشيئة، وهي حجة لم يزل المشركون يطرقونها، وهي حجة باطلة في نفسها، عقلاً وشرعاً. فكل عاقل لا يقبل الاحتجاج بالقدر، ولو سلكه في حالة من أحواله لم يثبت عليها قدمه.

وأما شرعاً، فإن الله تعالى أبطل الاحتجاج به، ولم يذكره عن غير المشركين به المكذبين لرسله، فإن الله تعالى قد أقام الحجة على العباد، فلم يبق لأحد عليه حجة أصلاً، ولهذا قال هنا: ﴿ما لهم بذلك من علم إن هم إلا بخرصون﴾ أي: يتخرصون تخرصاً لا دليل عليه، ويتخبطنون خبط عشواء.

ثم قال: ﴿أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون﴾ يخبرهم بصفة أفعالهم، وصدق أقوالهم؟ ليس الأمر كذلك، فإن الله أرسل محمداً نذيراً إليهم، وهم لم يأتهم نذير غيره، أي:

فلا عقل ولا نقل، وإذا انتفى الأمران، فلا ثم إلا الباطل.

نعم، لهم شبهة من أوهى الشبهة، وهي تقليد آبائهم الضالين، الذين ما زال الكفرة يردون بتقليدهم دعوة الرسل، ولهذا قال هنا: ﴿بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة﴾ أي: على دين وملة ﴿وإنا على آثارهم مهتون﴾ أي: فلا نتبع ما جاء به محمد ﷺ.

وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها: أي: منعموها، وملوها الذين أطغتهم الدنيا، وغرتهم الأموال، واستكبروا على الحق. ﴿إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون﴾ أي: فهو لا ليسوا يبدع منهم، وليسوا بأول من قال هذه المقالة.

وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين، بتقليدهم لأبائهم الضالين، ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصب عض، يراد به نصرة ما معهم من الباطل.

ولهذا كل رسول يقول لمن عارضه بهذه الشبهة الباطلة: ﴿أولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم﴾ أي: فهل تتبعوني لأجل الهدى؟ ﴿قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ فعلم بهذا، أنهم ما أرادوا اتباع الحق والهدى، وإنما قصدتهم اتباع الباطل والهوى.

﴿فانتقمنا منهم﴾ بتكذيبهم الحق، وردهم إياه بهذه الشبهة الباطلة. ﴿فانظر كيف كان عاقبة المكذبين﴾ فليحذر هؤلاء أن يستمروا على تكذيبهم، فيصيهم ما أصابهم.

﴿٢٦ - ٣٢﴾ ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون﴾ * إلا الذي فطرني فإنه سيهدين * وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون * بل تمتع هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين * ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون * وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم * أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق

وذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الآيات ولكن جعلناه نذيراً ومن شأنا من عبادنا ولكم الهدى إلى صراط مستقيم ﴿يربط الله الذي له مافى السموات وما فى الأرض آلا إلى آتوصيه بالأنور﴾

بسم الله الرحمن الرحيم
حده ﴿والصالحين الذين﴾ ﴿إلا جعلناه نذيراً﴾ ﴿لعلهم يرجعون﴾ ﴿فإن الله الذى له المصير﴾ ﴿فأخبر عن دينه الذى ورثه فى ذريته فقال﴾ ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه﴾ ﴿الذين اتخذوا من دون الله آلهة يعبدونهم ويتقربون إليهم﴾ ﴿إننى براء مما تعبدون﴾ أي: مبعوض له، محتنب معاد لأهله، ﴿إلا الذى فطرني﴾ ﴿فإنى أتولاه، وأرجو أن يهديني للعلم بالحق والعمل به، فكما فطرني ودبرني بما يصلح بدني ودنياي، فسيهدين﴾ لما يصلح ديني وآخرتي.

وجعلها: أي: هذه الخصلة الحميدة، التي هي أم الخصال وأساسها، وهي إخلاص العبادة لله وحده، والتبري من عبادة ما سواه.

كلمة باقية في عقبه: أي: ذريته لعلهم إليها يرجعون لشهرتها عنه، وتوصيته لذريته، وتوصية بعض بنيه - كإسحاق ويعقوب - لبعض، كما قال تعالى: ﴿ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه﴾ إلى آخر الآيات.

فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته عليه السلام حتى دخلهم الترف والطغيان.

فلم تزل هذه الكلمة موجودة في ذريته عليه السلام حتى دخلهم الترف والطغيان.

السفهاء والمجانين؟

كيف يجعل مثل هذا عظيماً؟ أم كيف يفضل على خاتم الرسل وسيد ولد آدم ﷺ؟ ولكن الذين كفروا لا يعقلون.

وفي هذه الآية تنبيه على حكمة الله تعالى في تفضيل الله بعض العباد على بعض في الدنيا * ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً * أي: ليسخر بعضهم بعضاً، في الأعمال والحرف والصنائع.

فلو تساوى الناس في الغنى، ولم يحتاج بعضهم إلى بعض، لتعطلت كثير من مصالحهم ومنافعهم.

وفيها دليل على أن نعمته الدينية خير من النعمة الدنيوية كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾.

﴿٣٣ - ٣٥﴾ * ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون * وزخرفاً وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين * يخبر تعالى بأن الدنيا لا تسوى عنده شيئاً، وأنه لولا لطفه ورحمته بعباده، التي لا يقدم عليها شيئاً، لوسّع الدنيا على الذين كفروا توسيعاً عظيماً، وجعل ﴿لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج﴾ أي: درجاً من فضة * عليها يظهرون * على سطوحهم.

﴿ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون﴾ من فضة، وجعل لهم ﴿زخرفاً﴾ أي: لزخرف لهم دنياهم بأنواع الزخارف، وأعطاهم ما يشتهون، ولكن منعه من ذلك رحمته بعباده خوفاً عليهم من التسارع في الكفر وكثرة المعاصي بسبب حب الدنيا، ففي هذا دليل على أنه يمنع العباد بعض أمور الدنيا منعاً عاماً أو خاصاً لمصالحهم، وأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، وأن كل هذه المذكورات متاع الحياة الدنيا، منغصة، مكدرة، فانية، وأن الآخرة عند الله تعالى خير للمتقين لربهم بامتثال أوامره

لرحمة الله، ويبدعهم تدبيرها، فيعطون النبوة والرسالة من يشاؤون، ويمنعونها ممن يشاؤون؟

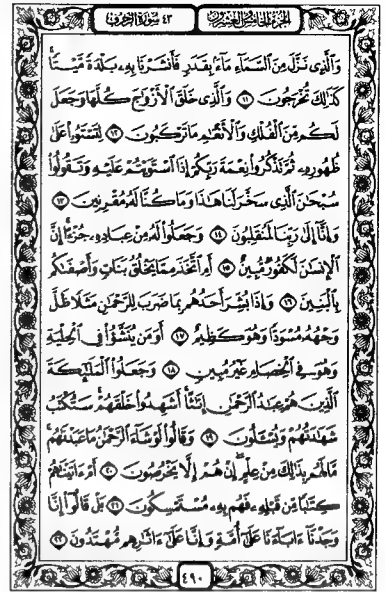
﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾ أي: في الحياة الدنيا، ﴿والحال أن رحمة ربك خير مما يجمعون من الدنيا﴾.

فإذا كانت معاش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى، هو الذي يقسمها بين عباده، فيبسط الرزق على من يشاء، ويضيقه على من يشاء، بحسب حكمته، فرحمته الدينية، التي أعلاها النبوة والرسالة، أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى، فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

فعلم أن اقتراحهم ساقط لاغ، وأن التدبير للأمور كلها، دينها وديوبها، بيد الله وحده. هذا إقناع لهم، من جهة غلظهم في الاقتراح، الذي ليس في أيديهم منه شيء، إن هو إلا ظلم منهم ورد للحق.

وقولهم: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ لو عرفوا حقائق الرجال، والصفات التي بها يعرف علو قدر الرجل، وعظم منزلته عند الله وعند خلقه، لعلموا أن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن عبد المطلب ﷺ، هو أعظم الرجال قدراً، وأعلاهم فخراً، وأكملهم عقلاً، وأغزهم علماً، وأجلهم رأياً، وعزماً وحزماً، وأكملهم خلقاً، وأوسعهم رحمة، وأشدهم شفقة، وأهداهم وأتقاهم.

وهو قطب دائرة الكمال، وإليه المنتهى في أوصاف الرجال، ألا وهو رجل العالم على الإطلاق، يعرف ذلك أولياؤه وأعداؤه، فكيف يفضل عليه المشركون من لم يشم مثقال ذرة من كماله؟!، ومن جرمه ومنتهمى حقه، أن جعل إلهه الذي يعبد ويدعوه ويتقرب إليه، صنماً، أو شجراً، أو حجراً، لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، وهو كل على مولاه، يحتاج لمن يقوم بمصالحه، فهل هذا إلا من فعل



فقال تعالى: ﴿بل تمتعت هؤلاء وآباءهم﴾ بأنواع الشهوات، حتى صارت هي غايتهن ونهاية مقصودهم، فلم نزل يترى حبها في قلوبهم، حتى صارت صفات راسخة، وعقائد متأصلة. ﴿حتى جاءهم الحق﴾ الذي لا شك فيه ولا مرية ولا اشتباه. ﴿ورسل مبين﴾ أي: بين الرسالة، قامت أدلة رسالته قياماً باهراً، بأخلاقه ومعجزاته، وبما جاء به، وبما صدق به المرسلين، وبنفس دعوته ﷺ.

﴿ولما جاءهم الحق﴾ الذي يوجب على من له أدنى دين ومعقول أن يقبله وينقاد له. ﴿قالوا هذا سحر وإنا به كافرون﴾ وهذا من أعظم المعاندة والمشاقة، فلأنهم لم يكتفوا بمجرد الإعراض عنه، بل ولا جحده، فلم يرضوا حتى قدحوا به قدحاً شنيعاً، وجعلوه بمنزلة السحر الباطل، الذي لا يأتي به إلا أخبث الخلق وأعظمهم افتراء، والذي حملهم على ذلك، طغيانهم بما تمتعهم الله به وآباءهم.

﴿وقالوا﴾ مقترحين على الله بعقولهم الفاسدة: ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ أي: معظم عندهم، مبتجل من أهل مكة، أو أهل الطائف، كالوليد بن المغيرة ونحوه، ممن هو عندهم عظيم.

قال الله رداً لاقتراحهم: ﴿أهم يقسمون رحمة ربك﴾ أي: أهم الحزان



عليه، ويذكركم الشر ويهيككم عنه،
«وسوف تسألون» عنه، هل قمتم به
فارتفعتم وانتفعتم، أم لم تقوموا به
فيكون حجة عليكم، وكفرا منكم بهذه
النعمة؟

«واسأل من أرسلنا من قبلك من
رسلنا أجمعنا من دون الرحمن آلهة
يعبدون» حتى يكون للمشركين نوع
حجة، يتبعون فيها أحداً من الرسل،
فإنك لو سألتهم واستخبرتهم عن
أحوالهم، لم تجد أحداً منهم يدعو إلى
اتخاذ إله آخر مع الله مع أن كل
الرسل، من أولهم إلى آخرهم، يدعون
إلى عبادة الله، وحده لا شريك له.
قال تعالى: «ولقد بعثنا في كل أمة
رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا
الطاغوت» وكل رسول بعثه الله،
يقول لقومه: اعبدوا الله ما لكم من إله
غيره، فدل هذا، أن المشركين ليس لهم
مستند في شركهم، لا من عقل
صحيح، ولا نقل عن الرسل.

﴿٤٦- ٥٦﴾ «ولقد أرسلنا موسى
بآياتنا إلى فرعون وملئه» إلى آخر
القصة^(١) إلى آخر القصة. لما قال تعالى:
«واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا
أجمعنا من دون الرحمن آلهة يعبدون»
بين تعالى حال موسى ودعوته، التي
هي أشهر ما يكون من دعوات الرسل،

ولأن الله تعالى أكثر من ذكرها في
كتابه، فذكر حاله مع فرعون، فقال:
«ولقد أرسلنا موسى بآياتنا» التي دلت
دلالة قاطعة على صحة ما جاء به،
كالعصا، والحية، وإرسال الجراد،
والقمل، إلى آخر الآيات.

«إلى فرعون وملئه» فقال إني رسول
رب العالمين» فدعاهم إلى الإقرار
بربهم، ونهاهم عن عبادة ما سواه،
«فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها
يضحكون» أي: ردوها وأنكروها،
واستهزؤوا بها، ظلماً وعلواً، فلم يكن
لقصور بالآيات، وعدم وضوح فيها،
ولهذا قال: «وما نريهم من آية إلا هي
أكبر من اختها» أي: الآية المتأخرة
أعظم من السابقة، «وأخذناهم
بالعذاب» كالجراد، والقمل،
والضفادع، والدم، آيات مفصلات.
«لعلهم يرجعون» إلى الإسلام،
ويذعنون له، ليزول شركهم وشرهم.

«وقالوا» عندما نزل عليهم
العذاب: «يا أيها الساحر» يعنون
موسى عليه السلام، وهذا، إما من
باب التهكم به، وإما أن يكون هذا
الخطاب عندهم مدحاً، فتضرعوا إليه
بأن خاطبه بما يخاطبون به من يزعمون
أنهم علماؤهم، وهم السحرة، فقالوا:
«يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد
عندك» أي: بما خصك الله به،
وفضلك به، من الفضائل والمناقب، أن
يكشف عنا العذاب «إننا لمهتدون» إن
كشف الله عنا ذلك، «فلما كشفنا
عنهم العذاب إذا هم ينكثون» أي: لم
يفوا بما قالوا، بل غدروا، واستمروا
على كفرهم. وهذا كقوله تعالى:
«فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد
والقمل والضفادع والدم آيات
مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً
مجرمين» ولما وقع عليهم الرجز قالوا
يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك
لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك
ولنرسلن معك بني إسرائيل» فلما
كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه

إذا هم ينكثون.

«ونادى فرعون في قومه قال»
مستعلاً بإباطله، قد غره ملكه، وأطغاه
ماله وجنوده: «يا قوم اليس لي مُلكٌ
يمضُرُّ أي: الست المالك لذلك،
المتصرف فيه، «وهذه الأنهار تجري من
تحتي» أي: الأنهار المنسحبة من النيل،
في وسط القصور والبساتين. «أفلا
تبصرون» هذا الملك الطويل العريض،
وهذا من جهله البليغ، حيث افتخر
بأمر خارج عن ذاته، ولم يفخر
بأوصاف حميدة، ولا أفعال سديدة.

«أم أنا خير من هذا الذي هو
مهين» يعني - قبحه الله - بالمهين،
موسى بن عمران، كلمه الرحمن، وهو
الوجه عند الله، أي: أنا العزيز، وهو
الذليل المهان المحقر، فأثنا خير؟ «و»
مع هذا فلا «يكاد يبين» عما في
ضميره بالكلام، لأنه ليس بفصيح
اللسان، وهذا ليس من العيوب في
شيء، إذا كان يبين ما في قلبه، ولو
كان قليلاً عليه الكلام.

ثم قال فرعون: «فلولا ألقى عليه
أسورة من ذهب» أي: فهل كان
موسى بهذه الحالة، أن يكون مزيناً
مجملاً بالخلي والأساور؟ «أو جاء معه
اللائكة مقترنين» يعاونونه على
دعوته، ويؤيدونه على قوله.

«فاستخف قومه فاطاعوه» أي:
استخف عقولهم بما أبدى لهم من هذه
الشبه، التي لا تسمن ولا تغني من
جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلاً
على حق ولا على باطل، ولا تروج إلا
على ضعفاء العقول.

فأي: دليل يدل على أن فرعون
حق، لكون مُلك مصر له، وأنهاره
تجري من تحته؟

وأي: دليل يدل على بطلان ما جاء
به موسى، لقله أتباعه، وثقل لسانه،
وعدم تحلية الله له، ولكنه لقي ملاً
لا معقول عندهم، فنهما قال اتبعوه،
من حق وباطل. «إنهم كانوا قوماً
فاسقين» فسبب فسقهم، قيص لهم

عليه السلام مقالة باطلة، ورد ما جاء به، إلا مَنْ هدى الله من المؤمنين، الذين شهدوا له بالرسالة، وصدقوا بكل ما جاء به، وقالوا: إنه عبد الله ورسوله.

﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْبَيمِ﴾ أي: ما أشد حزن الظالمين وما أعظم خسارهم في ذلك اليوم!!

﴿٦٦- ٧٣﴾ هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون * الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين * يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون * الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين * ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون * يطاف عليهم من الولدان المخلدون وأحسن الأواني وأفرجها، وهي صحاف الذهب وشرابهم، بالطف الأواني، وهي الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة أعظم من صفاء القوارير.

﴿٦٦- ٧٣﴾ هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون * الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين * يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون * الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين * ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون * يطاف عليهم من الولدان المخلدون وأحسن الأواني وأفرجها، وهي صحاف الذهب وشرابهم، بالطف الأواني، وهي الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة أعظم من صفاء القوارير.

﴿٦٦- ٧٣﴾ هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون * الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين * يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون * الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين * ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون * يطاف عليهم من الولدان المخلدون وأحسن الأواني وأفرجها، وهي صحاف الذهب وشرابهم، بالطف الأواني، وهي الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة أعظم من صفاء القوارير.

﴿٦٦- ٧٣﴾ هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون * الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين * يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون * الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين * ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون * يطاف عليهم من الولدان المخلدون وأحسن الأواني وأفرجها، وهي صحاف الذهب وشرابهم، بالطف الأواني، وهي الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة أعظم من صفاء القوارير.

﴿٦٦- ٧٣﴾ هل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون * الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين * يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون * الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين * ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون * يطاف عليهم من الولدان المخلدون وأحسن الأواني وأفرجها، وهي صحاف الذهب وشرابهم، بالطف الأواني، وهي الأكواب التي لا عرى لها، وهي من أصفى الأواني، من فضة أعظم من صفاء القوارير.

وَلَا يُولَوْنَ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَنفِرُ فِيهَا بِأَرْبَعَةِ آيَاتٍ وَمِنْ عَذَابِهَا تُسَمَّىٰ سَاقِيَةٌ ۖ وَلَا تُجَادَىٰ عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ قَالَ قَدْ خَلَقْتُكُمْ خَلْقًا جَدِيدًا وَلَا تُفِرُّكُمْ ۚ بَعْضُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ فِتْوَاهَا قَالُوا اللَّهُ أَطِيعُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ مُرِيدُ زُرِّيكُمْ فَأَعِدُوا لَهُمْ عَذَابًا مُّسْتَقِيمًا ۖ فَاتَّخَذُوا الْآخِذِينَ مِنْ بَيْنِهِمْ قَوْلًا لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْبَيمِ ۖ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۚ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۚ يَذُكَّرُ عَنْهُمْ عَذَابُ الْيَوْمِ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ۚ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۚ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَائٍ مِنْ ذَهَبٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَاءٍ مُنْقَظٍ ۚ وَالْأَنْفُسُ تَذُكَّرُ ۚ وَكَانَ فِيهَا مَخَالِكُ الْيَوْمِ ۚ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ لَكُمْ فِيهَا نِكَاحٌ كَمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ

من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات. ﴿قال﴾ لبني إسرائيل: ﴿قد جنتكم بالحكمة﴾ النبوة والعلم، بما ينبغي على الوجه الذي ينبغي. ﴿ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه﴾ أي: أبين لكم صوابه وجوابه، فيزول عنكم بذلك اللبس، فجاء عليه السلام مكملًا ومتممًا لشريعة موسى عليه السلام، ولأحكام التوراة. وأتى ببعض التسهيلات الموجبة للانقياد له، وقبول ما جاءهم به. ﴿فاتقوا الله وأطيعون﴾ أي: اعبدوا الله وحده لا شريك له، وامثلوا أمره، واجتنبوا نهيه، وأمتوا بي وصدقوني وأطيعون.

﴿إن الله هوري وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ ففيه الإقرار بتوحيد الربوبية، بأن الله هو المربي جميع خلقه بأنواع النعم الظاهرة والباطنة، والإقرار بتوحيد العبودية، بالأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، وإخبار عيسى عليه السلام أنه عبد من عباد الله، ليس كما قال فيه النصارى: «إنه ابن الله، أو ثالث ثلاثة»، والإخبار بأن هذا المذكور صراط مستقيم، موصل إلى الله وإلى جنته.

فلما جاءهم عيسى عليه السلام بهذا «اختلف الأحزاب» المتحزبون على التكذيب «من بينهم» كل قال بعبسى

والشمار للذيذة تأكلون^(١) .

ولما ذكر نعيم الجنة، عقبه بذكر عذاب جهنم، فقال:

﴿٧٤-٧٨﴾ **إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مَبْلُوسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ * وَنَادَا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ * لَقَدْ جِئْتُم بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ .**

﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ﴾ الذين أجرموا بكفرهم وتكذيبهم **﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ﴾** أي: منغمسون فيه، محيط بهم العذاب من كل جانب، **﴿خَالِدُونَ﴾** فيه، لا يخرجون منه أبداً، و **﴿لَا يَفْتَرُ عَنْهُمْ﴾** العذاب ساعة، بإذنته، ولا يتهوين عذابه، **﴿وَهُمْ فِيهِ مَبْلُوسُونَ﴾** أي: آيسون من كل خير، غير راجين للفرج، وذلك أنهم ينادون ربهم فيقولون: **﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عَدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾** قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون وهذا العذاب العظيم، بما قدمت أيديهم، وبما ظلموا به أنفسهم، والله لم يظلمهم ولم يعاقبهم بلا ذنب ولا جرم.

﴿وَنَادَا﴾ وهم في النار، لعلهم يحصل لهم استراحة، **﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾** أي: ليمتنا فنستريح، فإننا في غم شديد، وعذاب غليظ، لا صبر لنا عليه ولا جلد. ف **﴿قَالَ﴾** لهم مالك خازن النار - حين طلبوا منه أن يدعو الله لهم أن يقضي عليهم -: **﴿إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ﴾** أي: مقيمون فيها، لا تخرجون عنها أبداً، فلم يحصل لهم ما قصدوه، بل أجابهم بنقيض قصدهم، وزادهم غماً إلى غمهم، ثم وبخهم بما فعلوا، فقال: **﴿لَقَدْ جِئْتُم بِالْحَقِّ﴾** الذي يوجب عليكم أن تتبعوه فلو تبعتموه، لفترمت وسعدتم، **﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾** فلذلك شقيتم شقاوة لا سعادة بعدها. **﴿٧٩-٨٠﴾** **﴿أَمْ أَمْرًا فَإِنَّا مَبْرُومُونَ * أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ**

سرهم ونجواهم بلى ورسلنا لديهم يكتبون﴾ يقول تعالى: **﴿أَمْ أَبْرَمَ الْمَكِيدُونَ بِالْحَقِّ الْمَاعِدُونَ لَهُ﴾** **﴿أَمْ أَمْرًا﴾** أي: كادوا كيداً، ومكروا للحق ولن جاء بالحق، ليدحضوه، بما موهوا من الباطل المزخرف المزوق، **﴿فَأِنَّا مَبْرُومُونَ﴾** أي: محكمون أمراً، ومديرون تدبيراً يعلو تدبيرهم، وينقضه ويطله، وهو ما قيقضه الله من الأسباب والأدلة لإحقاق الحق وإبطال الباطل، كما قال تعالى: **﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ .**

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ بجهلهم وظلمهم **﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سُرُّهُمْ﴾** الذي لم يتكلموا به، بل هو سر في قلوبهم **﴿وَنَجْوَاهُمْ﴾** أي: كلامهم الخفي الذي يتناجون به، أي: فلذلك أقدموا على المعاصي، وظنوا أنها لا تبعة لها ولا مجازاة على ما خفي منها.

فرد الله عليهم بقوله: **﴿بَلَى﴾** أي: إنا نعلم سرهم ونجواهم، **﴿وَرَسَلْنَا﴾** الملائكة الكرام، **﴿لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾** كل ما عملوه، وسيحفظ ذلك عليهم، حتى يردوا القيامة، فيجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربك أحداً.

﴿٨١-٨٣﴾ **﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ * فَذَرِهِمْ يَخوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْعَدُونَ﴾** أي: قل يا أيها الرسول الكريم، للذين جعلوا لله ولداً، وهو الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد.

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ لذلك الولد، لأنه جزء من والده، وأنا أولى الخلق انقياداً للأمور المحبوبة لله، ولكني أول المنكرين لذلك، وأشدهم له نفياً، فعلم بذلك بطلانه، فهذا احتجاج عظيم عند من عرف أحوال الرسل، وأنه إذا علم أنهم أكمل الخلق، وأن كل خير فهم أول الناس سبقاً إليه وتكميلاً له، وكل شر

فهم أول الناس تركاً له وإنكاراً له ويُعداً منه، فلو كان على هذا للرحمن ولد وهو الحق، لكان محمد بن عبد الله، أفضل الرسل أول من عبده، ولم يسبقه إليه المشركون.

ويحتمل أن معنى الآية: لو كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين لله، ومن عبادتي لله، إثبات ما أثبتته، ونفي ما نفاه، فهذا من العبادة القولية الاعتقادية، ويلزم من هذا، لو كان حقاً، لكنت أول مثبت له، فعلم بذلك بطلان دعوى المشركين وفسادها، عقلاً ونقلاً. **﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾** من الشريك والظهير، والعوين والولد، وغير ذلك، مما نسبته إليه المشركون. **﴿فَذَرِهِمْ يَخوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾** أي: يخوضوا بالباطل، ويلعبوا بالمحال، فعلموهم ضارة غير نافعة، وهي الخوض والبحث بالعلوم التي يعارضون بها الحق وما جاءت به الرسل، وأعمالهم لعب وسفاهة، لا تزكي النفوس، ولا تثمر المعارف.

ولهذا توعدهم بما أمامهم من يوم القيامة فقال: **﴿حَتَّى يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْعَدُونَ﴾** فسيعلمون فيه ماذا حصلوا، وما حصلوا عليه من الشقاء الدائم، والعذاب المستمر.

﴿٨٤-٨٩﴾ **﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ * وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَلِئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ * وَقِيلَ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ * فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾** يخبر تعالى، أنه وحده المألوه المعبود في السماوات والأرض فأهل السماوات كلهم، والمؤمنون من أهل الأرض، يعبدونه، ويعظمونه، ويخضعون

(١) ما بين الحاصرتين جاء في نسخة (أ) مقدماً على تفسير الآية السابقة (وتلك الجنة التي أوردتموها بما كنتم تعملون).

لجلاله، ويفتقرون لكماله.

﴿تسبح له السماوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ * والله يسجد من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً.

فهو تعالى المألوه المعبود، الذي يألوه الخلائق كلهم، طائعين مختارين، وكارهين. وهذه كقوله تعالى: ﴿وهو الله في السماوات وفي الأرض﴾ أي: ألوهيته ومحبه فيهما. وأما هو فهو فوق عرشه، بائن من خلقه، متوحد بجلاله، متمجد بكماله، ﴿وهو الحكيم﴾ الذي أحكم ما خلقه، وأتقن ما شرعه، فما خلق شيئاً إلا لحكمة، ولا شرع شيئاً إلا لحكمة، وحكمه القدري والشرعي والجزائي مشتمل على الحكمة. ﴿العليم﴾ بكل شيء، يعلم السر وأخفى، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في العالم العلوي والسفلي، ولا أصغر منها ولا أكبر.

﴿وتبارك الذي له ملك السماوات والأرض وما بينهما﴾ تبارك بمعنى تعالى وتعاظم، وكثر خيره، واتسعت صفاته، وعظم ملكه. ولهذا ذكر سعة ملكه للسماوات والأرض وما بينهما، وسعة علمه، وأنه بكل شيء عليم، حتى إنه تعالى، انفرد بعلم كثير من الغيوب، التي لم يطلع عليها أحد من الخلق، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولهذا قال: ﴿وعنده علم الساعة﴾ قدم الظرف، ليفيد الحصر، أي: لا يعلم متى تجيء الساعة إلا هو، ومن تمام ملكه وسعته، أنه مالك الدنيا والآخرة، ولهذا قال: ﴿وإليه ترجعون﴾ أي: في الآخرة فيحكم بينكم بحكمه العدل، ومن تمام ملكه، أنه لا يملك أحد من خلقه من الأمر شيئاً، ولا يقدم على الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه.

﴿ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة﴾ أي: كل من دُعي من دون الله، من الأنبياء والملائكة

الجميل.

فصلوات الله وسلامه على من خصه الله بالخلق العظيم، الذي فُضِّل به أهل الأرض والسما، وارتفع به أعلى من كواكب الجوزاء.

وقوله: ﴿فسوف يعلمون﴾ أي: غِبْ ذنوبهم، وعاقبة جرمهم.

تم تفسير سورة الزخرف

تفسير سورة الدخان مكية

﴿١٦-١﴾ * بسم الله الرحمن الرحيم حم * والكتاب المبين * إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك إنه هو السميع العليم * رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين * لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الأولين * بل هم في شك يلعبون * فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون * أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون * إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون * يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون * هذا قسم بالقرآن على القرآن، فأقسم بالكتاب المبين لكل ما يحتاج إلى بيانه، أنه أنزله ﴿في ليلة مباركة﴾ أي: كثيرة الخير والبركة، وهي ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، فأنزل أفضل الكلام بأفضل الليالي والأيام، على أفضل الأنام، بلسغة العرب الكرام، لينذر به قوماً عمتهم الجهالة، وغلبت عليهم الشقاوة، فيستضيئوا بنوره، ويقتبسوا من هدا، ويسيروا وراءه، فيحصل لهم الخير الدنيوي، والخير الآخروي، ولهذا قال: ﴿إنا كنا منذرين﴾ فيها * أي: في تلك الليلة الفاضلة التي نزل فيها القرآن * يفرق كل أمر حكيم * أي: يفصل ويميز، ويكتب كل أمر قدري وشرعي، حكم الله به، وهذه الكتابة والفرقان،

وغيرهم، لا يملكون الشفاعة، ولا يشفعون إلا بإذن الله، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولهذا قال: ﴿إلا من شهد بالحق﴾ أي: نطق بلسانه، مقراً بقلبه، عالماً بما شهد به، ويشترط أن تكون شهادته بالحق، وهو الشهادة لله تعالى بالوحدانية، ولرسله بالنبوة والرسالة، وصحة ما جاؤوا به، من أصول الدين وفروعه، وحقائقه وشرائعه، فهؤلاء الذين تنفع فيهم شفاعة الشافعين، وهؤلاء الناجون من عذاب الله، الحائزون لثوابه. ثم قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله﴾ أي: ولئن سألت المشركين عن توحيد الربوبية، ومن هو الخالق، لأقروا أنه الله وحده لا شريك له.

﴿فأنى يؤفكون﴾ أي: فكيف يصرفون عن عبادة الله والإخلاص له وحده؟! فأقراهم بتوحيد الربوبية، يلزمهم به الإقرار بتوحيد الألوهية، وهو من أكبر الأدلة على بطلان الشرك.

﴿وقيل له يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون﴾ هذا معطوف على قوله: ﴿وعنده علم الساعة﴾ أي: وعنده علم قيله، أي: الرسول ﷺ، شاكياً لربه تكذيب قومه، متحزناً على ذلك، متحسراً على عدم إيمانهم، فالله تعالى عالم بهذه الحال، قادر على معاجلتهم بالعقوبة، ولكنه تعالى حلیم، يمهل العباد ويستأنس بهم، لعلمهم يتوبون ويرجعون، ولهذا قال:

﴿فاصفع عنهم وقل سلام﴾ أي: اصفع عنهم ما يأتيك من أذيتهم القولية والفعلية، واعف عنهم، ولا يبدر منك لهم إلا السلام الذي يُقَابِل به أولو الألباب والبصائر الجاهلين، كما قال تعالى عن عباده الصالحين: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون﴾ أي: خطاباً بمقتضى جهلهم ﴿قالوا سلاماً﴾ فامتثل ﷺ لأمر ربه، وتلقى ما يصدر إليه من قومه وغيرهم من الأذى، بالعفو والصفح، ولم يقابلهم عليه إلا بالإحسان إليهم والخطاب

فرعون داخلين فيه، أمره الله تعالى أن يلتطم عليهم، فغرقوا عن آخرهم، وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا، وأورثه الله بني إسرائيل، الذين كانوا مستعبدين لهم، ولهذا قال: ﴿كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها﴾ أي: هذه النعمة المذكورة ﴿قوماً آخرين﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿كذلك وأورثناها بني إسرائيل﴾.

﴿فما بكت عليهم السماء والأرض﴾ أي: لما أنلفهم الله وأهلكهم، لم تبك عليهم السماء والأرض، أي: لم يحزن عليهم، ولم يؤمن على فراقهم، بل كل استبشر بهلاكهم وتلفهم، حتى السماء والأرض، لأنهم ما خلفوا من آثارهم إلا ما يسود وجوههم، ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين.

﴿وما كانوا منظرين﴾ أي: مهملين عن العقوبة، بل اصطلمتهم في الحال. ثم امتنّ تعالى على بني إسرائيل، فقال: ﴿ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين﴾ الذي كانوا فيه ﴿من فرعون﴾ إذ يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم.

﴿إنه كان عالياً﴾ أي: مستكبراً في الأرض بغير الحق، ﴿من المسرفين﴾ المتجاوزين لحدود الله، المتجرئين على عارمه.

﴿ولقد اخترناهم﴾ أي: اصطفيناهم وانتقيناهم ﴿على علم﴾ منا بهم، وباستحقاقهم لذلك الفضل ﴿على العالمين﴾ أي: عالمي زمانهم ومن قبلهم وبعدهم حتى أتى الله بأمة محمد ﷺ، ففضلوا العالمين كلهم، وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس، وامتنّ عليهم بما لم يمتن به على غيرهم.

﴿وآتيناهم﴾ أي: بني إسرائيل ﴿من الآيات﴾ الباهرة، والمعجزات الظاهرة، ﴿ما فيه بلاء مبين﴾ أي:

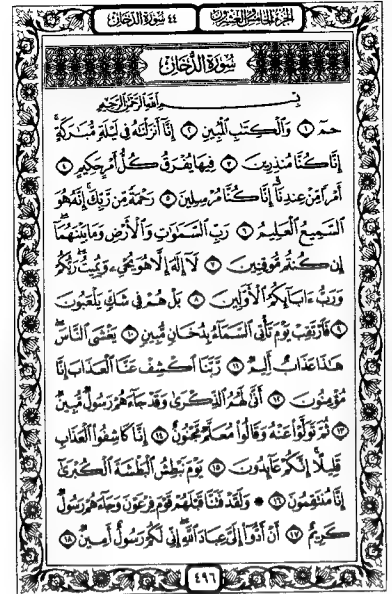
واستعبدتهم بغير حق، فأرسلوهم ليعبدوا ربهم، ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي: رسول من رب العالمين، أمين على ما أرسلني به، لا أكتكم منه شيئاً، ولا أزيد فيه ولا أنقص، وهذا يوجب تمام الانقياد له.

﴿وأن لا تعملوا على الله﴾ بالاستكبار عن عبادته، والعلو على عباد الله، ﴿إني أتاكم بسلطان مبين﴾ أي: بحجة بينة ظاهرة، وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات، والأدلة القاهرات، فكذبوه وهما بقتله، فلجأ بالله من شرهم، فقال: ﴿وإني عذت بربي وربكم أن ترجون﴾ أي: تقتلوني أشر القتلات، بالرجم بالحجارة.

﴿وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون﴾ أي: لكم ثلاث مراتب: الإيمان بي، وهو مقصودي منكم، فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة، فاعتزلوني، لا علي ولا لي، فاكفوني شركم، فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية، بل لم يزالوا متمردين عاتين على الله، محاربين لنبيه موسى عليه السلام، غير ممكنين له من قومه بني إسرائيل، ﴿فعدا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون﴾ أي: قد أجرموا جرماً، يوجب تعجيل العقوبة.

فأخبر عليه السلام بحالهم، وهذا دعاء بالحال، التي هي أبلغ من المقال، كما قال عن نفسه عليه السلام ﴿رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ فأمره الله أن يسري بعباده ليلاً، وأخبره أن فرعون وقومه سيتبعونه، ﴿وأتارك البحر رهواً﴾ أي: بحاله وذلك أنه لما سرى موسى ببني إسرائيل كما أمره الله، ثم تبعهم فرعون، فأمر الله موسى أن يضرب البحر، فضربه، فصارت اثني عشر طريقاً، وصار الماء من بين تلك الطرق كالجبال العظيمة، فسلكه موسى وقومه.

فلما خرجوا منه، أمره الله أن يتركه رهواً، أي: بحاله، ليسلكه فرعون وجنوده ﴿إنهم جند مغرقون﴾ فلما تكامل قوم موسى خارجين منه، وقوم



إننا منتقمون﴾ أن هذا ما وقع لقريش كما تقدم.

وإذا نزلت هذه الآيات على هذين المعنيين، لم تجد في اللفظ ما يمنع من ذلك.

بل تجد ما يطابق لهما أتم المطابقة، وهذا الذي يظهر عندي ويترجح، والله أعلم.

﴿١٧ - ٣٣﴾ ﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾ إلى آخر القصة^(١) لما ذكر تعالى تكذيب من كذب الرسول محمداً ﷺ، ذكر أن لهم سلفاً من المكذبين، فذكر قصتهم مع موسى، وما أحل الله بهم، ليرتدع هؤلاء المكذبون عن ما هم عليه، فقال: ﴿ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون﴾ أي: ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا موسى بن عمران إليهم، الرسول الكريم، الذي فيه من الكرم ومكارم الأخلاق ما ليس في غيره، ﴿أن أدوا إلي عباد الله﴾ أي: قال لفرعون وملته: أدوا إلي عباد الله، يعني بهم: بني إسرائيل، أي: أرسلوهم، وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم سوء العذاب، فلأنهم عشيري، وأفضل العالمين في زمانهم. وأنتم قد ظلمتموهم،

(١) في نسخة (ب) ذكر الآيات كاملة.

واضحات، على صدق هذا القرآن العظيم، وصحة ما اشتمل عليه من الحكم والأحكام، ودالات أيضاً على ما الله تعالى من الكمال، وعلى البعث والنشور.

ثم قسم تعالى الناس، بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه، إلى قسمين:

قسم يستدلون بها، ويتفكرون بها، ويتفهمون فيرتفعون، وهم المؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، إيماناً تاماً، وصل بهم إلى درجة اليقين، فزكى منهم العقول، وازدادت به معارفهم وأبوابهم وعلومهم.

وقسم يسمع آيات الله سمعاً تقوم به الحجة عليهم، ثم يعرض عنها ويستكبر، كأنه ما سمعها، لأنها لم تترك قلبه، ولا طهرته، بل بسبب استكباره عنها ازداد طغيانه.

وأنه إذا علم من آيات الله شيئاً اتخذها هزواً، فتوعده الله تعالى بالويل فقال:

﴿ويل لكل أفاك أثيم﴾ أي: كذاب في مقاله، أثيم في فعالة.

وأخبر أن له عذاباً أليماً، وأن من ورائهم جهنم تكفي في عقوبتهم البليغة.

وأنه لا يغني عنهم ما كسبوا من الأموال ﴿ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء﴾ يستنصرون بهم فخذلوهم، أخرج ما كانوا إليهم لو نفخوا.

فلما بين آياته القرآنية والعيانية، وأن الناس فيها على قسمين، أخبر أن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية، أنه هدى، فقال: ﴿هذا هدى﴾ وهذا وصف عام لجميع القرآن، فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى، بصفاته المقدسة، وأفعاله الحميدة، ويهدي إلى معرفة رسله، وأوليائه، وأعدائه، وأوصافهم، ويهدي إلى الأعمال الصالحة ويدعو إليها، ويبين الأعمال السيئة وينهى عنها، ويهدي إلى بيان الجزاء على الأعمال، ويبين الجزاء الدنيوي والأخروي، فالهتدون اهتدوا به، فأفلحوا وسعدوا، ﴿والذين كفروا

لعلهم يتذكرون﴾ ما فيه نفعهم في فعلونه، وما فيه ضررهم في تركونه.

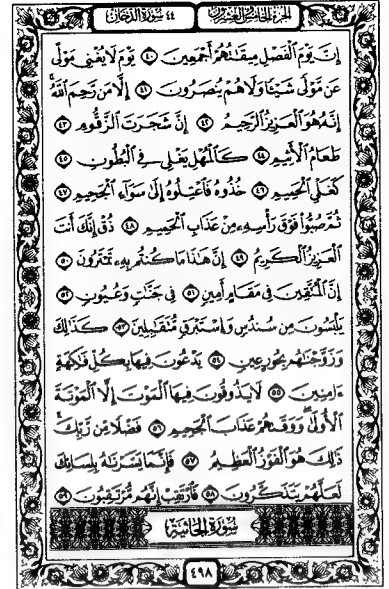
﴿فارتقب﴾ أي: انتظر ما وعدك ربك من الخير والنصر، ﴿إنهم مرتقبون﴾ ما يجلب بهم من العذاب، وفرق بين الارتقابين: رسول الله وأنبياءه يرتقبون الخير في الدنيا والآخرة، وضدهم يرتقبون الشر في الدنيا والآخرة.

تم تفسير سورة الدخان،
والله الحمد والمنة

تفسير سورة الجاثية مكية

﴿١١-١٠﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿إن في السماوات والأرض آيات للمؤمنين﴾ وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ﴿واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون﴾ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون ﴿ويل لكل أفاك أثيم﴾ يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصبر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ﴿وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين﴾ من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم ﴿هذا هدى﴾ هذا هدى للذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم ﴿يخبر تعالى خيراً يتضمن الأمر بتعظيم القرآن والاعتناء به، أنه ﴿تنزيل﴾ من الله المألوه المعبود، لما اتصف به من صفات الكمال، وانفرد به من النعم، الذي له العزة الكاملة والحكمة التامة، ثم أيد ذلك بما ذكره من الآيات الأفقية والنفسية، من خلق السماوات والأرض، وما بث فيهما من الدواب، وما أودع فيهما من المنافع، وما أنزل الله من الماء، الذي يحيي به الله البلاد والعباد.

فهذه كلها آيات بينات، وأدلة



يحار الطرف في حسنهن، وينبهر العقل بجمالهن، وينخلب اللب لكمالهن، ﴿عين﴾ أي: ضخام الأعين حسانتها.

﴿يدعون فيها﴾ أي: الجنة ﴿بكل فاكهة﴾ مما له اسم في الدنيا، ومما لا يوجد له اسم، ولا نظير في الدنيا، فمهما طلبوه من أنواع الفاكهة وأجناسها، أحضر لهم في الحال، من غير تعب ولا كلفة، ﴿آمنين﴾ من انقطاع ذلك، وآمنين من مضرتهم، وآمنين من كل مكدر، وآمنين من الخروج منها والموت، ولهذا قال: ﴿لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى﴾ أي: ليس فيها موت بالكلية، ولو كان فيها موت يستثنى، لم يستثن الموتة الأولى، التي هي الموتة في الدنيا، فتم لهم كل محبوب مطلوب، ﴿ووقاهم عذاب الجحيم﴾ فضلاً من ربك ﴿أي: حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم، من فضل الله عليهم وكرمه، فإنه تعالى هو الذي وفقهم للأعمال الصالحة، التي بها نالوا خير الآخرة، وأعطاهم أيضاً ما لم تبلغه أعمالهم، ﴿ذلك هو الفوز العظيم﴾ وأي: فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته، والسلامة من عذابه وسخطه؟

﴿فإنما يسرناه﴾ أي: القرآن ﴿بلسانك﴾ أي: سهلناه بلسانك الذي هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها، فيسر به لفظه، وتيسر معناه.

بآيات ربهم ﴿الواضحة القاطعة، التي لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه، وتضاعف طغيانه، ﴿لهم عذاب من رجز اليم﴾

﴿١٢-١٣﴾ ﴿الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون * وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ يخبر تعالى بفضل على عباده وإحسانه إليهم، بتسخير البحر لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره، ﴿لتبتغوا من فضله﴾ بأنواع التجارات والمكاسب، ﴿ولعلكم تشكرون﴾ الله تعالى، فإنكم إذا شكرتموه، زادكم من نعمه وأثابكم على شكركم أجراً جزيلاً.

﴿وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه﴾ أي: من فضله وإحسانه، وهذا شامل لأجرام السماوات والأرض، ولما أودع الله فيهما، من الشمس والقمر، والكواكب، والثواب، والسيارات، وأنواع الحيوانات، وأصناف الأشجار والثمار، وأجناس المعادن، وغير ذلك مما هو معد لمصالح بني آدم، ومصالح ما هو من ضروراته، فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم في شكر نعمته، وأن تتغلغل أفكارهم في تدبر آياته وحكمه، ولهذا قال: ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ وجلة ذلك أن خلقها وتدبيرها وتسخيرها، دال على نفوذ مشيئة الله، وكمال قدرته، وما فيها من الإحكام والإتقان، وبديع الصنعة، وحسن الخلقة، دال على كمال حكمته وعلمه، وما فيها من السعة والعظمة والكثرة، دال على سعة ملكه وسلطانه، وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات، دليل على أنه الفعال لما يريد، وما فيها من المنافع، والمصالح الدينية والدنيوية، دليل على سعة رحمته، وشمول فضله وإحسانه، وبديع لطفه

وبره، وكل ذلك دال على أنه وحده المألوه المعبود، الذي لا تنبغي العبادة والذل والمحبة إلا له، وأن رسله صادقون فيما جاؤوا به، فهذه أدلة عقلية واضحة، لا تقبل ريباً ولا شكاً.

﴿١٤-١٥﴾ ﴿قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون * من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بحسن الخلق، والصبر على أذية المشركين به، الذين لا يرجون أيام الله، أي: لا يرجون ثوابه، ولا يخافون وقائعه في العاصين، فإنه تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون. فأنتم يا معشر المؤمنين، يجزيكم على إيمانكم، وصفحكم وصبركم، ثواباً جزيلاً، وهم إن استمروا على تكذيبهم فلا يحل بكم^(١) ما حل بهم من العذاب الشديد والخزي، ولهذا قال: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾.

﴿١٦-١٧﴾ ثم قال تعالى: ﴿ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين * وآتيناهم بينات من الأمر فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ أي: ولقد أنعمنا على بني إسرائيل نعماً لم تحصل لغيرهم من الناس، وآتيناهم ﴿الكتاب﴾ أي: التوراة والإنجيل، و ﴿الحكم﴾ بين الناس، و ﴿النبوة﴾ التي امتازوا بها، وصارت النبوة في ذرية إبراهيم عليه السلام، أكثرهم من بني إسرائيل، ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ من المأكول والمشرب والملابس، وإنزال المن والسلوى عليهم، ﴿وفضلناهم على العالمين﴾ أي: على الخلق بهذه النعم، ويخرج من هذا العموم اللفظي، هذه

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قوله﴾ ﴿الذين لا يرجون أيام الله﴾ أي: الذين لا يرجون ثوابه، ولا يخافون وقائعه في العاصين، فإنه تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون. فأنتم يا معشر المؤمنين، يجزيكم على إيمانكم، وصفحكم وصبركم، ثواباً جزيلاً، وهم إن استمروا على تكذيبهم فلا يحل بكم^(١) ما حل بهم من العذاب الشديد والخزي، ولهذا قال: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون﴾.

﴿١٦﴾

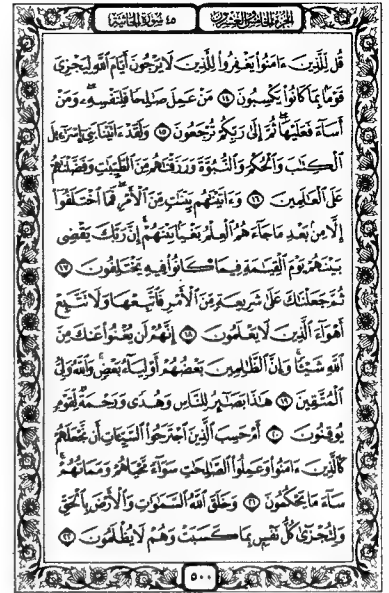
الامة، فإنهم خير أمة أخرجت للناس.

والسياق يدل على أن المراد غير هذه الأمة، فإن الله يقص علينا ما امتن به على بني إسرائيل، وميزهم عن غيرهم، وأيضاً فإن الفضائل التي فاق بها بنو إسرائيل من الكتاب والحكم والنبوة، وغيرها من النعوت، قد حصلت كلها لهذه الأمة، وزادت عليهم هذه الأمة فضائل كثيرة، فهذه الشريعة شريعة بني إسرائيل جزء منها، فإن هذا الكتاب مهيمن على سائر الكتب السابقة، ومحمد ﷺ مصدق لجميع المرسلين.

﴿وآتيناهم﴾ أي: آتينا بني إسرائيل ﴿بينات﴾ أي: دلالات تبين الحق من الباطل ﴿من الأمر﴾ القدري الذي أوصله الله إليهم.

وتلك الآيات هي المعجزات التي رآوها على يد موسى عليه السلام، فهذه النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل، تقتضي الحال أن يقوموا بها على أكمل الوجوه، وأن يجتمعوا على الحق الذي بينه الله لهم، ولكن انعكس الأمر، فعاملوها بعكس ما يجب.

وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به، ولهذا قال: ﴿فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم﴾ أي: الموجب لعدم



﴿٢٠﴾ ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أي: ﴿هَذَا﴾ القرآن الكريم والذكر الحكيم ﴿بَصَائِرُ لِلنَّاسِ﴾ أي: يحصل به التبصرة في جميع الأمور للناس، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين، والهدى والرحمة. ﴿لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ فيهتدون به إلى الصراط المستقيم، في أصول الدين وفروعه، ويحصل به الخير والسرور، والسعادة في الدنيا والآخرة، وهي الرحمة، فتزكو به نفوسهم، وتزداد به عقولهم، ويزيد به إيمانهم ويقينهم، وتقوم به الحجة على من أصر وعاند.

﴿٢١﴾ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: أم حسب المسيؤون، المكشرون من الذنوب، المقصرون في حقوق ربهم.

﴿أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بأن قاموا بحقوق ربهم، واجتنبوا مساخطه، ولم يزلوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم؟ أي: أحسبوا أن يكونوا «سواء» في الدنيا والآخرة؟ ساء ما ظنوا وحسبوا، وساء ما حكموا به، فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين، وخير العادلين، ويناقض العقول السليمة، والفطر المستقيمة، ويضاد ما نزلت به الكتب، وأخبرت به الرسل، بل الحكم الواقع القطعي، أن المؤمنين العاملين الصالحات، لهم النصر والفلاح والسعادة والشواب، في العاجل والأجل، كل على قدر إحسانه، وأن المسيئين لهم الغضب والإهانة، والعذاب والشقاء، في الدنيا والآخرة.

﴿٢٢﴾ ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلَتَجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: خلق الله السماوات والأرض بالحكمة، وليعبد وحده لا شريك له، ثم يجازي بعد ذلك من أمرهم بعبادته، وأنعم عليهم بالنعمة الظاهرة والباطنة، هل شكروا الله تعالى، وقاموا بالمأمور؟ أم كفروا، فاستحقوا جزاء الكفور؟

﴿٢٣-٢٦﴾ ﴿أَفَرَأَيْتَ مِنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَغَلَّبَ قَلْبَهُ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون * وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا آتوا بآياتنا إن كنتم صادقين * قل الله يجيبكم ثم يمتيكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ يقول تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ الرجل الضال الذي ﴿اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ فما هويه سلكه، سواء كان يرضي الله أو يسخطه. ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ من الله تعالى، أنه لا تليق به الهداية، ولا يزكو عليها. ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ﴾ فلا يسمع ما ينفعه، ﴿وَقَلْبَهُ﴾ فلا يعي الخير، ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾ تمنعه من نظر الحق، ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد يهديه، وقد سد الله عليه أبواب الهداية، وفتح له أبواب الغواية، وما ظلمه الله، ولكن هو ظلم نفسه، وتسبب لمنع رحمة الله عليه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ما ينفعكم فتسلكونه، وما يضركم فتجتنبونه.

﴿وَقَالُوا﴾ أي: منكروا البعث ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي: إن هي إلا عادات، وجزئي على رسوم الليل والنهار، يموت أناس، ويحيا أناس، وما مات فليس براجع إلى الله، ولا مجازيه بعمله.

وقولهم هذا صادر عن غير علم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ فأنكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين، من غير دليل لهم على ذلك ولا برهان.

إن هي إلا ظنون، واستبعدادات خالية عن الحقيقة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأِذَا تَتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ مَا كَانَ حِجَّتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا آتُوا بآيَاتِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذا جراءة منهم على الله،

الاختلاف، وإنما حملهم على الاختلاف البغي من بعضهم على بعض، والظلم.

﴿إِنْ رَبُّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز المحق من المبطل، والذي حمّله على الاختلاف، الهوى أو غيره.

﴿١٨-١٩﴾ ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَنْ يَغْنَوْا عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنْ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِي الْمُتَّقِينَ﴾ أي: ثم شرعنا لك شريعة كاملة تدعو إلى كل خير، وتنهى عن كل شر، من أمرنا الشرعي ﴿فَاتَّبِعْهَا﴾ فإن في اتباعها السعادة الأبدية، والصلاح والفلاح، ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: الذين تكون أهويتهم غير تابعة للعلم، ولا ماضية خلفه، وهم كل من خالف شريعة الرسول ﷺ هواء وإرادته، فإنه من أهواء الذين لا يعلمون.

﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَغْنَوْا عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لا ينفعونك عند الله، فَيَحْضَلُوا لك الخير، ويدفعوا عنك الشر، إن اتبعتهم على أهوائهم، ولا تصلح أن توافقهم وتواليهم، فإنك وإياهم متباينون، وبعضهم ولي لبعض ﴿وَاللَّهُ وَلِي الْمُتَّقِينَ﴾ يخرجهم من الظلمات إلى النور، بسبب تقواهم وعملهم بطاعته.

حيث اقترحوا هذا الاقتراح، وزعموا أن صدق رسل الله متوقف على الإتيان بأبائهم، وأنهم لو جاؤوهم بكل آية لم يؤمنوا، إلا إن تبعتهم الرسل على ما قالوا وهم كذبة فيما قالوا، وإنما قصدهم دفع دعوة الرسل، لا بيان الحق، قال تعالى: ﴿قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ وإلا فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم، لعملوا له أعمالاً وتبؤوا له.

﴿٢٧ - ٣٧﴾ * والله مـلـسـكـ

السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون * وتري كل أمة جاثية كل أمة تدعى إلى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون * هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون * فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ذلك هو الفوز المبين * وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم فاستكبرتم وكنتم قومًا مجرمين * وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين * وبدا لهم سينات ما عملوا وحق بهم ما كانوا به يستهزؤون * وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم هذا وماؤكم النار وما لكم من ناصرين * ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزواً وغرتم الحياة الدنيا فالיום لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون * فله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين * وله الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم * يخبر تعالى عن سعة ملكه، وانفراده بالتصرف والتدبير في جميع الأوقات، وأنه «يوم تقوم الساعة» ويجمع الخلائق لموقف القيامة، يحصل الخسار على المبطلين، الذين أتوا بالباطل ليدحضوا به الحق، وكانت أعمالهم باطلة، لأنها متعلقة بالباطل، فبطلت في يوم القيامة، اليوم الذي تستبين به الحقائق، واضمحلت عنهم، وفاتهم الثواب، وحصلوا على

الليم العقاب.

ثم وصف تعالى شدة يوم القيامة وهوله ليحذره العباد، ويستعد له العباد، فقال: ﴿وترى﴾ أي الرائي لذلك اليوم ﴿كل أمة جاثية﴾ على ركبها خوفاً وذعراً، وانتظاراً لحكم الملك الرحمن.

﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ أي: إلى شريعة نبيهم الذي جاءهم من عند الله، وهل قاموا بها فيحصل لهم الثواب والنجاة؟ أم ضيعوها فيحصل لهم الخسران؟ فأمه موسى شريعة موسى، وأمة عيسى كذلك، وأمة محمد كذلك، وهكذا غيرهم، كل أمة تدعى إلى شرعها الذي كلفت به، هذا أحد الاحتمالات في الآية، وهو معنى صحيح في نفسه، غير مشكوك فيه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿كل أمة تدعى إلى كتابها﴾ أي: إلى كتاب أعمالها، وما سطر عليها من خير وشر، وأن كل أحد يجازي بما عمله بنفسه، كقوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾.

ويحتمل أن العنيين كليهما مراد من الآية، ويدل على هذا قوله: ﴿هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق﴾ أي: هذا كتابنا الذي أنزلنا عليكم، يفصل بينكم بالحق الذي هو العدل، ﴿إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون﴾ فهذا كتاب الأعمال، ولهذا فصل ما يفعل الله بالفريقين فقال: ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ إيماناً صحيحاً، وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة، من واجبات ومستحبات، ﴿فيدخلهم ربهم في رحمته﴾ التي عملها الجنة، وما فيها من النعيم المقيم، والعيش السليم، ﴿ذلك هو الفوز المبين﴾ أي: المفاض والنجاة والربح، والفلاح الواضح البين، الذي إذا حصل للعبد، حصل له كل خير، واندفع عنه كل شر.

﴿وأما الذين كفروا﴾ بالله، فيقال لهم توبيخاً وتقريعاً: ﴿أفلم تكن آياتي تتلى عليكم﴾ وقد دلتكم على ما فيه صلاحكم، ونهتكم عما فيه ضرركم، وهي أكبر نعمة وصلت إليكم، لو

وفقتم لها، ولكن استكبرتم عنها، وأعرضتم، وكفرتم بها، فجئنيتم أكبر جناتية، وأجرمتهم أشد الجرم، فالיום تجزون ما كنتم تعملون، ويوبخون أيضاً بقوله: ﴿وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم منكرين لذلك﴾: ﴿ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين﴾.

فهذه حالهم في الدنيا، وحال البعث الإنكار له، ورذ قول من جاء به. قال تعالى: ﴿وبدا لهم سينات ما عملوا﴾ أي: وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم، ﴿وحق بهم﴾ أي: نزل ﴿ما كانوا به يستهزؤون﴾ أي: نزل بهم العذاب، الذي كانوا في الدنيا يستهزؤون به وبوقوعه وبمن جاء به. ﴿وقيل اليوم ننساكم﴾ أي: نترككم في العذاب ﴿كما نسيتم لقاء يومكم هذا﴾ فإن الجزاء من جنس العمل، ﴿وماؤكم النار﴾ أي: هي مقركم ومصيركم، ﴿وما لكم من ناصرين﴾ ينصرونكم من عذاب الله، ويدفعون عنكم عقابه.

﴿ذلكم﴾ الذي حصل لكم من العذاب ﴿ب﴾ سبب ﴿أنكم اتخذتم آيات الله هزواً﴾ مع أنها موجبة للجد والاجتهاد، وتلقيها بالسرور والاستبشار والفرح.

﴿وغرتم الحياة الدنيا﴾ بزخارفها ولذاتها وشهواتها، فاطمأنتم إليها، وعلمتم لها، وتركتم العمل للدار الباقية.

﴿فالיום لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون﴾ أي: ولا يمهلون، ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحاً.

﴿فله الحمد﴾ كما ينبغي لجلاله وعظيم سلطانه ﴿رب السموات ورب الأرض رب العالمين﴾ أي: له الحمد على ربوبيته لسائر الخلائق، حيث خلقهم ورباهم، وأنعم عليهم بالنعمة الظاهرة والباطنة، ﴿وله الكبرياء في السموات والأرض﴾ أي: له الجلال والعظمة والمجد.

فالحمد فيه الشناء على الله بصفات الكمال، ومحبته تعالى وإكرامه،

سيجدون ثوابها في تلك الدار كاملاً
موفراً.

وأقام تعالى الأدلة الدالة على تلك
الدار، وأذاق العباد نموذجاً من الثواب
والعقاب العاجل، ليكون أدعى لهم إلى
طلب المحبوب، والهرب من
المرهوب، ولهذا قال هنا: ﴿ما خلقنا

السماوات والأرض وما بينهما إلا
بالحق﴾ أي: لا عبثاً ولا سدى، بل
ليعرف العباد عظمة خالقهما،
ويستدلوا على كماله، ويعلموا أن الذي
خلقهما على عظمهما، قادر على أن
يعيد العباد بعد موتهم للجزاء، وأن
خلقهما وبقاءهما مقدر إلى ﴿أجل

مسمى﴾.
فلما أخبر بذلك - وهو أصدق
القائلين وأقام الدليل، وأثار السبيل
أخبر - مع ذلك - أن طائفة من الخلق
قد أبوا إلا إغراضاً عن الحق، وصدوقاً
عن دعوة الرسل، فقال: ﴿والذين
كفروا عما أنذروا معرضون﴾، وأما
الذين آمنوا، فلما علموا حقيقة الحال
قبلوا وصايا ربهم، وتلقوها بالقبول
والتسليم، وقابلوها بالانقياد
والتعظيم، ففازوا بكل خير، واندفع
عنهم كل شر.

﴿٤-٦﴾ ﴿قل أرأيتم ما تدعون
من دون الله أروني ماذا خلقوا من
الأرض أم لهم شرك في السماوات
اتنوني بكتاب من قبل هذا أو إثارة من
علم إن كنتم صادقين﴾ ومن أضل ممن
يدعو من دون الله من لا يستجيب له
إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم
غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم
أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ أي:
﴿قل﴾ لهؤلاء الذين أشركوا بالله،
أوثاناً وأنداداً، لا تملك نفعاً
ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة
ولا نشوراً، قل لهم - مبيناً عجز
أوثانهم، وأنها لا تستحق شيئاً من
العبادة -: ﴿أروني ماذا خلقوا من
الأرض أم لهم شرك في السماوات﴾ -
هل خلقوا من أجرام السماوات
والأرض شيئاً؟ هل خلقوا جبالات؟ هل
أجروا أنهاراً؟ هل نشروا حيواناتاً؟ هل

والكبرياء فيها عظمته وجلاله،
والعبادة مبنية على ركنين، عبة الله،
والذل له، وهما ناشتان عن العلم
بمحامد الله وجلاله وكبريائه.

﴿وهو العزيز﴾ القاهر لكل شيء،
﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء
مواضعها، فلا يشرع ما يشرعه إلا
لحكمة ومصلحة، ولا يخلق ما يخلقه
إلا لفائدة ومنفعة.

تم تفسير سورة الجاثية، والله الحمد
والنعمة والفضل

تفسير سورة الأحقاف مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن
الرحيم حم﴾ تنزيل الكتاب من الله
العزيز الحكيم * ما خلقنا السماوات
والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل
مسمى والذين كفروا عما أنذروا
معرضون﴾ هذا ثناء منه تعالى على كتابه
العزيز وتعظيم له، وفي ضمن ذلك
إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره،
والإقبال على تدبر آياته، واستخراج
كنوزه.

ولما بين إنزال كتابه المتضمن للأمر
والنهى، ذكر خلقه السماوات
والأرض، فجمع بين الخلق والأمر،
﴿ألا له الخلق والأمر﴾ كما قال تعالى:
﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن
الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن﴾
وكما قال تعالى: ﴿ينزل الملائكة بالروح
من أمره على من يشاء من عباده أن
أنذروا أنه لا إله إلا أنا فأتقون﴾ خلق
السماوات والأرض بالحق﴾ فانه تعالى
هو الذي خلق المكلفين، وخلق
مساكنهم، وسخر لهم ما في
السماوات وما في الأرض، ثم أرسل
إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه،
وأمرهم ونهاهم، وأخبرهم أن هذه
الدار دار أعمال وعمر للعمال، لا دار
إقامة لا يرحل عنها أهلها، وأنهم
سيتقلون منها إلى دار الإقامة والقرار،
وموطن الخلود والدوام، وإنما
أعمالهم التي عملوها في هذه الدار،

بعض ﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾.
﴿٧-١٠﴾ ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا
بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم
هذا سحر مبين﴾ أم يقولون افتراء قل
إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً
هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيداً
بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم * قل
ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما



﴿قل ما كنت بدعاً من الرسل﴾ أي: لست بأول رسول جاءكم، حتى تستغربوا رسالتي وتستنكروا دعوتي، فقد تقدم من الرسل والأنبياء من وافقت دعوتي دعوتهم، فلاي: شيء تنكر رسالتي؟ **﴿وما أدري ما يفعل بي ولا بكم﴾** أي: لست إلا بشراً، ليس بيدي من الأمر شيء، والله تعالى هو المتصرف بي وبكم، الحاكم علي وعليكم، ولست الآتي بالشيء من عندي، **﴿وما أنا إلا نذير مبين﴾** فإن قبلتم رسالتي، وأجبتم دعوتي، فهو حظكم ونصيبكم في الدنيا والآخرة، وإن رددتم ذلك علي فحسابكم علي الله، وقد أنذركم، ومن أنذر فقد أعذر.

﴿قل أرايتم إن كان عند الله وكفرتهم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم﴾ أي: أخبروني، لو كان هذا القرآن من عند الله، وشهد على صحته الموقفون من أهل الكتاب، الذين عندهم من الحق ما يعرفون أنه الحق، فآمنوا به واعتدوا، فتطابقت أنباء الأنبياء وأنباعهم النبلاء، واستكبرتم أيها الجهلاء الأغبياء، فهل هذا إلا أعظم الظلم وأشد الكفر؟ **﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾** ومن الظلم الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه.

﴿١١-١٢﴾ **﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾** * ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً لينذر الذين ظلموا وبشري للمحسنين **﴿أي: قال الكفار بالحق معاندين له، وراذلين لدعوته: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾ أي: ما سبقنا إليه المؤمنون، أي: لكننا أول مبادر به، وسابق إليه، وهذا من البهجة في مكان، فأني دليل يدل على أن علامة الحق سبق المكذبين به للمؤمنين؟ هل هم أذكى نفوساً؟ أم أكمل عقولاً؟ أم الهدى بأيديهم؟ ولكن هذا الكلام الذي صدر منهم، يُعزّون به أنفسهم**

يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين * **﴿قل أرايتم إن كان من عند الله وكفرتهم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم﴾** إن الله لا يهدي القوم الظالمين **﴿أي: وإذا تتلى على المكذبين ﴿آياتنا بينات﴾ بحيث تكون على وجه لا يمتري بها، ولا يشك في وقوعها وحققها، لم تقدمهم خيراً، بل قامت عليهم بذلك الحجة، ويقولون من إفكهم وافتراءهم ﴿للحق لما جاءهم هذا سحر مبين﴾ أي: ظاهر لا شك فيه، وهذا من باب قلب الحقائق، الذي لا يروج إلا على ضعفاء العقول، وإلا فبين الحق الذي جاء به الرسول ﷺ، وبين السحر من المنافاة والمخالفة، أعظم مما بين السماء والأرض، وكيف يقاس الحق - الذي علا وارتفع ارتفاعاً على الأفلاك، وفاق بضوئه ونوره نور الشمس، وقامت الأدلة الأفقية والنفسية عليه، وأقرت به وأذعن أولو البصائر والعقول الرزينة - بالباطل الذي هو السحر، الذي لا يصدر إلا من ضال ظالم خبيث النفس، خبيث العمل؟! فهو مناسب له وموافق لحاله، وهل هذا إلا من البهجة؟**

﴿أم يقولون افتراه﴾ أي: افتري محمد هذا القرآن من عند نفسه، فليس هو من عند الله.

﴿قل لهم: ﴿إن افتريته﴾ فإله علي قادر وبما تفيضون فيه عالم، فكيف لم يعاقبني على افترائي الذي زعمتم؟﴾ فهل **﴿تملكون لي من الله شيئاً﴾** إن أرادني الله بضراً، أو أرادني برحمة **﴿كفى به شهيداً بيني وبينكم﴾** فلو كنت متقولاً عليه، لأخذ مني باليمين، ولعاقبني عقاباً يراه كل أحد، لأن هذا أعظم أنواع الافتراء لو كنت متقولاً، ثم دسهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته، فقال: **﴿وهو الغفور الرحيم﴾** أي: فتوبوا إليه، وأقلعوا عما أنتم فيه، يغفر لكم ذنوبكم، ويرحمكم، فيوفقكم للخير، ويشيكم جزيل الأجر.

بمثلة من لم يقدر على الشيء، ثم طفق يذمه، ولهذا قال: **﴿وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم﴾** أي: هذا السبب الذي دعاهم إليه، أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن، وفاتهم أعظم المواهب، وأجل الرغائب، قدحوا فيه بأنه كذب، وهو الحق الذي لا شك فيه، ولا امتراء يعتريه، الذي قد وافق الكتب السماوية خصوصاً، أكملها وأفضلها بعد القرآن، وهي التوراة التي أنزلها الله على موسى **﴿إماماً ورحمة﴾** أي: يقتدي بها بنو إسرائيل، ويبتدون بها، فيحصل لهم خير الدنيا والآخرة.

﴿وهذا القرآن﴾ **﴿كتاب مصدق﴾** للكتب السابقة، شهد بصدقها، وصدقها، بموافقتها لها، وجعله الله **﴿لساناً عربياً﴾** ليسهل تناوله، ويتيسر تذكره، **﴿لينذر الذين ظلموا﴾** أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان، إن استمروا على ظلمهم بالعذاب الويل، ويشير المحسنين في عبادة الخالق، وفي نفع المخلوقين، بالثواب الجزيل، في الدنيا والآخرة، ويذكر الأعمال التي ينذر عنها، والأعمال التي يشير بها.

﴿١٣-١٤﴾ **﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** * أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون **﴿أي: إن الذين أقروا برهم، وشهدوا له بالوحدانية، والتزموا طاعته**

غيرها. ﴿وتتجاوز عن سيئاتهم﴾ في جملة ﴿أصحاب الجنة﴾ فحصل لهم الخير والمحبوب، وزال عنهم الشر والمكروه.

﴿وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ أي: هذا الوعد الذي وعدناهم هو وعد صادق من أصدق القائلين، الذي لا يخلف الميعاد.

﴿١٧ - ١٩﴾ ﴿والذي قال لوالديه أف لكما أتعداني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾ أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين * ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون ﴿لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه، ذكر حال العاق، وأنها شر الحالات، فقال: ﴿والذي قال لوالديه﴾ إذ دعوا^(١) إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وخوفه الجزاء.

وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما، أن يدعوها إلى ما فيه سعاده الأبدية، وفلاحه السرمدى، فقابلهما بأقبح مقابلة، فقال: ﴿أف لكما﴾ أي: تبأ لكما ولما جئتما به.

ثم ذكر وجه استبعاده وإنكاره لذلك فقال: ﴿أتعداني أن أخرج﴾ من قبري إلى يوم القيامة ﴿وقد خلت القرون من قبلي﴾ على التكذيب، وسلفوا على الكفر، وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور وجهول ومعاند؟ ﴿وهما﴾ أي: والداه ﴿يستغيثان الله﴾ عليه، ويقولان له: ﴿ويلك آمن﴾ أي: يبذلان غاية جهدهما، ويسعيان في هدايته أشد السعي، حتى إنهما - من حرصهما عليه - أنهما يستغيثان الله له، استغاثة الغريق، ويسألانه سؤال الشريك، ويعذلان ولدهما، ويتوجعان له، ويبينان له الحق، فيقولان: ﴿إن وعد الله حق﴾ ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما، ولدهما لا يزداد

وما قاسته من المكاره وقت حملها، ثم مشقة ولادتها المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانه، وليست المذكورات مدة يسيرة، ساعة أو ساعتين، وإنما ذلك مدة طويلة قدرها ﴿ثلاثون شهراً﴾: للحمل تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هذا الغالب.

ويستدل بهذه الآية مع قوله: ﴿والوالدان يرضعن أولادهن حولين كاملين﴾ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، لأن مدة الرضاع - وهي ستان - إذا سقطت منها الستان، بقي ستة أشهر، مدة للحمل، ﴿حتى إذا بلغ أشده﴾ أي: نهاية قوته وشبابه، وكمال عقله، ﴿وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني﴾ أي: ألهمني ووفقني ﴿أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي﴾ أي: نعم الدين، ونعم الدنيا، وشكره بصرف النعم في طاعة مسديها وموليها، ومقابلته مئته، بالاعتراف والعجز عن الشكر، والاجتهاد في الفناء بها على الله، والنعم على الوالدين، نعم على أولادهم وذريتهم، لأنهم لا بد أن ينالهم منها ومن أسبابها وآثارها، خصوصاً نِعَم الدين، فإن صلاح الوالدين بالعلم والعمل، من أعظم الأسباب لصلاح أولادهم.

﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ بأن يكون جامعاً لما يصلحه، سالماً عما يفسده، فهذا العمل الذي يرضاه الله ويقبله، ويثيب عليه. ﴿وأصلح لي في ذريتي﴾ لما دعا لنفسه بالصلاح، دعا لذريته أن يصلح الله أحوالهم، وذكر أن صلاحهم يعود نفعه على والديهم، لقوله: ﴿وأصلح لي﴾.

﴿إني تبست إليك﴾ من الذنوب والمعاصي، ورجعت إلى طاعتك ﴿وإني من المسلمين﴾.

﴿أولئك﴾ الذين ذكرت أوصافهم ﴿الذين تنقبل عنهم أحسن ما عملوا﴾ وهو الطاعات، لأنهم يعملون أيضاً



وداموا على ذلك، و ﴿استقاموا﴾ مدة حياتهم ﴿فلا خوف عليهم﴾ من كل شر أمامهم، ﴿ولا هم يحزنون﴾ على ما خلفوا وراءهم، ﴿أولئك أصحاب الجنة﴾ أي: أهلها الملائمون لها، الذين لا يبغون عنها حولاً، ولا يريدون بها بدلاً، ﴿خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون﴾ من الإيمان بالله، المقتضي للأعمال الصالحة التي استقاموا عليها.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً حملته أمه كرهاً ووضعته كرهاً وحمله وفصاله ثلاثون شهراً حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبست إليك وإني من المسلمين * أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا وتتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون﴾ هذا من لطفه تعالى بعباده وشكره للوالدين، أن وصى الأولاد وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك من وجوه الإحسان.

ثم نبه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحملته الأم من ولدها

إلا عتواً ونفوراً، واستكباراً عن الحق وقدحاً فيه، ﴿فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي: إلا منقول من كتب المتقدمين، ليس من عند الله، ولا أوحاه الله إلى رسوله، وكل أحد يعلم أن محمداً ﷺ أنبي لا يكتب ولا يقرأ، ولا تعلم من أحد، فمن أين يتعلمه؟ وأتى للخلق أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؟

﴿أولئك الذين﴾ هذه الحالة الذميمة ﴿حق عليهم القول﴾ أي: حقت عليهم كلمة العذاب ﴿في﴾ جملة ﴿أمم﴾ قد خلت من قبلهم من الجن والإنس على الكفر والتكذيب، فسيدخل هؤلاء في غمارهم، وسيغرقون في تيارهم.

﴿إنهم كانوا خاسرين﴾ والخسران فوات رأس مال الإنسان، وإذا فقد رأس ماله، فالأرباح من باب أولى وأحرى، فهم قد فاتهم الإيمان، ولم يحصلوا على شيء من النعيم، ولا سلموا من عذاب الجحيم ﴿ولكل﴾ من أهل الخير وأهل الشر ﴿درجات مما عملوا﴾ أي: كل على حسب مرتبته من الخير والشر، ومنازلهم في الدار الآخرة على قدر أعمالهم، ولهذا قال: ﴿وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون﴾ بأن لا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿٢٠﴾ ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون﴾ يذكر تعالى حال الكفار عند عرضهم على النار حين يوبخون ويقرعون، فيقال لهم: ﴿أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا﴾ حيث اطمأننتم إلى الدنيا، واغترتم بلذاتها، ورزيتم شهواتها، وألهتكم طيباتها عن السعي لأخركم، وتمتعتم تمتع الأنعام السارحة فهي حظكم من آخرتكم، ﴿فاليوم تجزون عذاب الهون﴾ أي:

العذاب الشديد، الذي يهينكم ويفضحكم بما كنتم تقولون على الله غير الحق، أي: تنسبون الطريق الضالة التي أنتم عليها إلى الله، وإلى حكمه، وأنتم كذبة في ذلك، ﴿وبما كنتم تفسقون﴾ أي: تتكبرون عن طاعته، فجمعوا بين قول الباطل، والعمل بالباطل، والكذب على الله بسببه إلى رضاه، والقدح في الحق، والاستكبار عنه، فعوقبوا أشد العقوبة.

﴿٢١-٢٦﴾ ﴿وإذ ذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف﴾ إلى آخر القصة^(١) أي: ﴿وإذ ذكر﴾ بالثناء الجميل ﴿أخا عاد﴾ وهو هود عليه السلام، حيث كان من الرسل الكرام، الذين نضلهم الله تعالى بالدعوة إلى دينه، وإرشاد الخلق إليه.

﴿إذ أنذر قومه﴾ وهم عاد ﴿بالأحقاف﴾ أي: في منازلهم المعروفة بالأحقاف، وهي: الرمال الكثيرة في أرض اليمن. ﴿وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه﴾ فلم يكن بدءاً منهم ولا مخالفاً لهم، قائلًا لهم: ﴿ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم﴾

فأمرهم بعبادة الله، الجامعة لكل قول سديد وعمل حميد، ونهاهم عن الشرك والتنديد، وخوفهم - إن لم يطيعوه - العذاب الشديد، فلم تغد فيهم تلك الدعوة. ﴿قالوا أجبنا لتأفكنا عن آلهتنا﴾ أي: ليس لك من القصد، ولا معك من الحق، إلا أنك حسدنا على آلهتنا، فأردت أن تصرفنا عنها.

﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ وهذا غاية الجهل والعناد. ﴿قال إنما العلم عند الله﴾ فهو الذي بيده أزمة الأمور ومقاليدها، وهو الذي يأتيكم بالعذاب إن شاء. ﴿وإلغكم ما أرسلت به﴾ أي: ليس علي إلا البلاغ المبين، ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ فلذلك صدر منكم ما صدر من هذه الجرأة الشديدة، فأرسل الله عليهم

﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ قد تلفت مواشيهم وأموالهم وأنفسهم. ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ بسبب جرمهم وظلمهم، هدامع أن الله تعالى قد أدر عليهم النعم العظيمة، فلم يشكروه، ولا ذكروه، ولهذا قال: ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾ أي: مكناهم في الأرض، يتناولون طيباتها، ويتمتعون بشهواتها،

العذاب العظيم، وهي الرياح التي دمرتهم وأهلكتهم، ولهذا قال: ﴿فلما رآوه﴾ أي: العذاب ﴿عارضاً مستقبلاً أوديتهم﴾ أي: معترضاً كالسحاب، قد أقبل على أوديتهم التي تسيل، فتسقي نوابتهم، ويشربون من آبائها وغدرانها.

﴿قالوا﴾ مستبشرين: ﴿هذا عارض ممطرنا﴾ أي: هذا السحاب سيمطرنا. قال تعالى: ﴿بل هو ما استعجلتم به﴾ أي: هذا الذي جئتم به على أنفسكم، حيث قلتم: ﴿فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين﴾ ﴿ريح فيها عذاب أليم﴾ ﴿تدمر كل شيء﴾ تمر عليه من شدتها ونحسها.

فسلطها الله عليهم ﴿سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً﴾ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴿بأمر ربها﴾ أي: بإذنه ومشيئته. ﴿فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم﴾ قد تلفت مواشيهم وأموالهم وأنفسهم. ﴿كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ بسبب جرمهم وظلمهم، هدامع أن الله تعالى قد أدر عليهم النعم العظيمة، فلم يشكروه، ولا ذكروه، ولهذا قال: ﴿ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه﴾ أي: مكناهم في الأرض، يتناولون طيباتها، ويتمتعون بشهواتها،

(١) في ب: ذكر الآيات كاملة إلى قوله تعالى: ﴿وحاق بهم ما كانوا به يستهترون﴾.

أصل للإنجيل ، وعمدة لبني إسرائيل
في أحكام الشرع ، وإنما الإنجيل متمم
ومكمل ومغير لبعض الأحكام .

﴿مصدقاً لما بين يديه يهدي﴾ هذا الكتاب الذي سمعناه ﴿إلى الحق﴾ وهو الصواب في كل مطلوب وخبر، ﴿وإلى طريق مستقيم﴾ موصل إلى الله، وإلى جنته، من العلم بالله، وبأحكامه الدينية، وأحكام الجزاء.

فلما مدحوا القرآن وبينوا محله
ومرتبته، دعوههم إلى الإيمان به،
فقالوا: ﴿يا قومنا أجبوا داعي الله﴾
أي: الذي لا يدعو إلا إلى ربه،
لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه ولا
هوى، وإنما يدعوكم إلى ربكم،
ليشبعكم، ويزيل عنكم كل شر
ومكروه، ولهذا قالوا: ﴿يففر لكم من
ذنوبكم ويحرم من عذاب الأليم﴾ وإذا
أجارهم من العذاب الأليم، فما ثم بعد
ذلك إلا النعيم، فهذا جزاء من أجاب
داعي الله.

﴿ومن لا يحب داعي الله فليس بمعجز في الأرض﴾ فإن الله على كل شيء قدير، فلا يفوته هارب، ولا يغالبه مغالب. ﴿وليس له من دونه أولياء أولئك في ضلال مبين﴾ وأي ضلال أببلغ من ضلال من نادته الرسل، ووصلت إليه النذر بالآيات البينات، والحجج المتواترات، فأعرض واستكبر!!!

﴿٣٣﴾ ﴿أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعجزهم بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير﴾ هذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت، بما هو أبلغ منها، وهو أنه الذي خلق السماوات والأرض، على عظمتهما وسعتهما وإتقان خلقهما، من دون أن يكثر بذلك، ولم يَنفِ بخلقهن فكيف تعجزه إعادتكم بعد موتكم، وهو على كل شيء قدير!!!

﴿٣٤ - ٣٥﴾ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * فاصبر كما صبر أولو العزم

العرب، كعاد وشمود ونحوهم، وأن الله تعالى صرّف لهم الآيات، ﴿لعلهم يرجعون﴾ عما هم عليه من الكفر والتكذيب، فلعلهم يؤمنوا، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، ولم تنفعهم ألتهم التي يدعون من دون الله من شيء، ولهذا قال هنا: ﴿فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة﴾ أي: يتقربون إليهم، ويتألهونهم لرجاء نفعهم.

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ فلم يجيبوهم، ولا دفعوا عنهم، ﴿وَذَلِكَ إِنَّهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الكذب، الذي يمينون به أنفسهم، حيث يزعمون أنهم على الحق، وأن أعمالهم ستة: ففعهم، فضلت وبطلت.

﴿٢٩ - ٣٢﴾ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ
نَفَرًَا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا
حَضَرُوهُ قَالُوا أَنُصَلُّوا لِمَا قُضِيَ وَلَوْ أَنَّا
إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مِّنْذَرِينَ * قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا
سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا
لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ
مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ
وَأَمْنُوا بِهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرَمِ
مَنْ عَذَابَ أَلِيمٍ * وَمَنْ لَا يَجِيبِ
دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ
وَلَيْسَ لَهُ مِّنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ كَانَ اللَّهُ تَعَالَىٰ قَدْ أَرْسَلَ
رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى الْخَلْقِ ، أَنَسَهُم
وَجَنَّهُم ، وَكَانَ لَا بَدَّ مِنْ إِبْلَاجِ الْجَمِيعِ
لِدَعْوَةِ النُّبُوَّةِ وَالرَّسَالَةِ .

فالإنس، يمكنه عليه الصلاة والسلام دعوتهم وإنذارهم، وأما الجن، فصرفهم الله إليه بقدرته، وأرسل إليه ﴿نفرًا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا﴾ أي: وصّى بعضهم بعضاً بذلك، ﴿فلما قضى﴾ وقد وعوه، وأثر ذلك فيهم ﴿ولو إلى قومهم منذرين﴾ نصحاً منهم لهم، وإقامة لحجة الله عليهم، وقبضهم الله معونة لرسوله ﷺ في نشر دعوته في الجن.

﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَاباً أُنْزِلَ
مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ ﴿لَأَن كِتَابَ مُوسَى

وَوَعَدْنَا الْإِنسَانَ إِذَا يَدْرَأُ إِلَىٰ آلِهِ أَنَّمَا أَرْفَأُهُ وَأَوْفَعُهُ
كُرْهُهُ وَعَصْلُهُ فَصَلَّمْنَا بَيْنَهُنَّ لِقَاءَ إِسْحَارِهِ فَأَبْغَىٰ الْأُمَمُ دَوْبَغَ
أَيُّومٍ سَنَةَ قَالَ رَبِّ ابْرُؤْنِي إِنَّ أَعْيُنِي فَتَنَكَ الْبَاقِي فَتَنَتْ
عَلَىٰ رَجُلٍ وَابْنِهِ وَأَنَّ أَفْكَرَ عِلْمًا وَتَزِينَةً وَأَعْلَمَ لِمَ فِي
مُؤْتَرِكِي تَأَنَّى بِشَيْءٍ ذِيكَ وَأَتَىٰ مِنَ الشُّرَاطِينِ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ
تَنْقَلِبُ عَنْهُمْ فَأَحْسِنَ سَامِعُوا وَتَجَاوَزُوا عَنْ سَبِيلِهِمْ فِي مَحَلِّ
الْحَيَاةِ وَغَدَا الْيَوْمَ فِي الَّذِينَ كَانُوا يُعَذِّبُونَ ۝ وَأَلَدِي قَالَ وَلَوْلَا
أَنِّي لَكَ الْوَلَدُ لَأَن آتَىٰ وَخُجَّ وَغَدَا الْيَوْمَ فِي قَبْلِ وَخُجَّ
فَسَبَّحَ تَعَالَى اللَّهُ وَتَعَالَى وَغَدَا الْيَوْمَ فِي قَبْلِ وَخُجَّ
أَسْطَلِمَا الْكَلِيمِ ۝ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا يُعَذِّبُونَ فَأَقُولُ فِي أَسْمِ
فَدَعَلَهُ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ وَالْإِنْسَانِ كَانُوا يُعَذِّبُونَ ۝
وَالْكَرِيمُ دَعَلَهُ فَتَجَاوَزُوا عَنْ سَبِيلِهِمْ وَغَدَا الْيَوْمَ فِي قَبْلِ وَخُجَّ
وَقَدْ مَرَّشَ الَّذِينَ كَانُوا عَمَلُ الْأَعْمَىٰ فَتَبَيَّنَ كَرَمِي
سَبَّحَ تَعَالَى اللَّهُ وَتَعَالَى وَغَدَا الْيَوْمَ فِي قَبْلِ وَخُجَّ
بِأَكْثَرِ مَنْ يَكُونُ فِي الْأَرْضِ وَخُجَّ وَغَدَا الْيَوْمَ فِي قَبْلِ وَخُجَّ

وعمرنا هم عمراً يتذكر فيه من تذكر،
 ريتعظ فيه المهتدي، أي: ولقد مكنا عاداً
 كما مكناكم يا هؤلاء المخاطبون، أي:
 فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه مختص
 بكم، وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله
 شيئاً، بل غيركم أعظم منكم تمكيناً، فلم
 تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم
 ولا جنودهم من الله شيئاً.

﴿وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً
وافئدة﴾ أي: لا قصور في أسماعهم
ولا أبصارهم ولا أذهانهم، حتى يقال
إنهم تركوا الحق جهلاً منهم، وعدم تمكن
من العلم به، ولا خلل في عقولهم،
ولكن التوفيق بيد الله. ﴿فما أغنى عنهم
سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من
شيء﴾ لا قليل ولا كثير، وذلك بسبب
أنهم ﴿يحدون بآيات الله﴾ الدالة على
توحده وإفراده بالعبادة.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾
 أي: نزل بهم العذاب الذي يكذبون
 بوقوعه، ويستَهْزِئُونَ بالرسَل الذين
 حذروهم منه.

﴿٢٧-٢٨﴾ ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا
حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ ﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ
اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا
عَنْهُمْ وَذَلِكَ إَفْكَهُمُ﴾ ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾
يحذر تعالى مشركي العرب وغيرهم،
بإهلاك الأمم الكاذبين، الذين هم
حول ديارهم، بل كثير منهم في جزيرة

من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون ﴿يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة عند عرضهم على النار التي كانوا يكذبون بها، وأنهم يويخون، ويقال لهم: ﴿اليس هذا بالحق﴾ فقد حضرقوه وشاهدتموه عياناً؟ ﴿قالوا بلى وربنا﴾ فاعترفوا بذنبهم، وتبين كذبهم ﴿قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي: عذاباً لازماً دائماً، كما كان كفركم صفة لازمة:

ثم أمر تعالى رسوله أن يصبر على
أذية المكذبين المعادين له، وأن لا يزال
داعياً لهم إلى الله، وأن يقتدي بصبر
أولي العزم من المرسلين، سادات
الخلق، أولي العزائم والهمم العالية،
الذين عظم صبرهم، وتم يقينهم، فهم
أحق الخلق بالأسوة بهم، والقفو
لآثارهم، والاهتداء بمنارهم.

فامتثل ﷺ لأمره، فصبر صبراً لم يصبره نبي قبله، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعاً بأصده عن الدعوة إلى الله، وفعلوا ما يمكنهم من العداوة والمحاربة، وهو ﷺ لم يزل صادعاً بأمر الله، مقيماً على جهاد أعداء الله، صابراً على ما يناله من الأذى، حتى مكَّن الله له في الأرض، وأظهر دينه على سائر الأديان، وأمته على الأمم، فصلى الله عليه وسلم تسليماً.

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ أي: لهؤلاء المكذبين المستعجلين للعذاب، فإن هذا من جهلهم وحقهم، فلا يَسْتَعْجِلُكَ بجَهْلِهِمْ، ولا يَحْمِلُكَ ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك، فإن كل ما هو أت قريب، و﴿كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا﴾ في الدنيا إلا ساعة من نهار﴾ فلا يحزنك تمتهم القليل وهم صانرون إلى العذاب الويل.

﴿بلاغ﴾ أي: هذه الدنيا، متاعها وشهواتها ولذاتها بلغة منغصة، ودفع وقت حاضر قليل.

أوهذا القرآن العظيم، الذي بَيْنَا
لكم فيه البيان التام، بلاغ لكم، وزاد

إلى الدار الآخرة، ونعم الزاد والبلغة،
زاد يوصل إلى دار النعيم، ويعصم من
العذاب الأليم، فهو أفضل زاد يتزوده
المحلاّق، وأجل نعمة أنعم الله بها
عليهم.

﴿فهل يهلك﴾ بالعقوبات ﴿إلا القوم الفاسقون﴾ أي: الذين لا خير فيهم، وقد خرجوا عن طاعة ربهم، ولم يقبلوا الحق الذي جاءهم به الرسل.

وأعذر الله لهم وأنذرهم، فبعد ذلك إذ يستمرون على تكذيبهم وكفرهم، نسأل الله العصمة.

آخر تفسير سورة الأحقاف،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة القتال، وهي مدنية

﴿١٦-٣﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ * هَذِهِ الْآيَاتُ مُشْتَمَلَاتٌ عَلَى ذِكْرِ ثَوَابِ الْمُؤْمِنِينَ وَعِقَابِ الْعَاصِينَ، وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ، وَدَعْوَةُ الْخَلْقِ إِلَى الْإِعْتِبَارِ بِذَلِكَ، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَهَؤُلَاءِ رُؤَسَاءُ الْكُفْرِ، وَأَوْتُمَةُ الضَّلَالِ، الَّذِينَ جَمَعُوا بَيْنَ الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَأَيَّاتِهِ، وَالصَّدِّ لِنَفْسِهِمْ وَغَيْرِهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، الَّتِي هِيَ الْإِيمَانُ بِمَا دَعَتْ إِلَيْهِ الرِّسَالُ وَاتَّبَاعَهُ.

فهؤلاء «أضل» الله «أعمالهم»
أي: أبطلها وأشواقهم بسببها، وهذا
يشمل أعمالهم التي عملوها ليكيدوا
بها الحق وأولياء الله، أن الله جعل
كيدهم في نحورهم، فلم يدركوا مما
قصدا شيئاً، وأعمالهم التي يرجون
أن يثابوا عليها، أن الله سيحبطها
عليهم، والسبب في ذلك أنهم اتبعوا
الباطل، وهو كل غاية لا يراد بها
وجه الله من عبادة الأصنام والأوثان،

والأعمال التي في نصر الباطل لما كانت باطلة، كانت الأعمال لأجلها باطلة.

وأما ﴿والذين آمنوا﴾ بما أنزل الله على رسله عموماً، وعلى محمد ﷺ خصوصاً، ﴿وعملوا الصالحات﴾ بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله، وحقوق العباد الواجبة والمستحبة.

﴿كُفِّرَ﴾ الله ﴿عَنهُم سَيِّئَاتِهِمْ﴾
صغارها وكبارها، وإذا كُفِّرَتْ
سَيِّئَاتِهِمْ، نَجَوْا مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ. ﴿وَأُصْلِحَ بِهِمُ﴾ أي:
أُصْلِحَ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَقُلُوبُهُمْ
وَأَعْمَالُهُمْ، وَأُصْلِحَ ثَوَابُهُمْ، بِتَمَنِّيَتِهِ
وَتَزَكِيَّتِهِ، وَأُصْلِحَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِمْ،
وَالسَّبَبُ فِي ذَلِكَ أَنَّهُمْ: ﴿اتَّبَعُوا الْحَقَّ﴾
الَّذِي هُوَ الصِّدْقُ وَالْيَقِينُ، وَمَا اشْتَمَلَ
عَلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ، الصَّادِرُ ﴿مِنْ
بِهِمْ﴾ الَّذِي رِيَاهُمْ بِنِعْمَتِهِ، وَدَبَّرَهُمْ
بِلُطْفِهِ قُرْبَاهُمْ تَعَالَى بِالْحَقِّ فَاتَّبَعُوهُ،
فَصَلَحَتْ أُمُورُهُمْ، فَلَمَّا كَانَتِ الْغَايَةُ
الْمَقْصُودَةَ لَهُمْ، مَتَعَلِّقَةً بِالْحَقِّ الْمُنْسُوبِ
إِلَى اللَّهِ الْبَاقِي الْحَقِّ الْمُبِينِ، كَانَتْ
الْوَسِيلَةُ صَالِحَةً بَاقِيَةً، بَاقِيًا ثَوَابُهَا.

﴿كذلك يضرب الله للناس أمثالهم﴾ حيث بين لهم تعالى أهل الخير وأهل الشر، وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون ﴿ليهلك من هلك عن بينة ويحييا من حي عن بينة﴾ .

كان قتال وحرب . تعالى للمؤمنين ، أن ينصروا الله بالقيام

بدينه ، والدعوة إليه ، وجهاد أعدائه ، والقصد بذلك وجه الله ، فإنهم إذا فعلوا ذلك ، نصرهم الله وثبت أقدامهم ، أي : يربط على قلوبهم

بالصبر والطمأنينة والثبات ، ويصبر أجسامهم على ذلك ، ويعينهم على أعدائهم ، فهذا وعد من كريم صادق الوعد ، أن الذي ينصره بالأقوال والأفعال سينصره مولاه ، ويسر له أسباب النصر ، من الثبات وغيره .

وأما الذين كفروا بربه ، ونصروا الباطل ، فإنهم في تعس ، أي : انتكاس من أمرهم وخذلان .

«وأضل أعمالهم» أي : أبطل أعمالهم التي يكيدون بها الحق ، فرجع كيدهم في نحورهم ، وبطلت أعمالهم التي يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله .

ذلك الإضلال والتعس للذين كفروا ، بسبب أنهم «كروهوا ما أنزل الله» من القرآن الذي أنزله الله ، صلاحاً للعباد ، وفلاحاً لهم ، فلم يقبلوه ، بل أبغضوه وكروهوا ، «فأحبط أعمالهم»

«١٠ - ١١» «أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين

من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها * ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم» أي : أفلا يسير هؤلاء المكذوبين بالرسول ﷺ ، فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟ فإنهم لا يجدون عاقبتهم إلا شر العواقب ، فإنهم لا يلتفتون يمنة ولا يسرة إلا وجدوا ما حولهم ، قد بادوا وهلكوا ، واستأصلهم التكذيب والكفر ، فخدموا ، ودمر الله عليهم أموالهم وديارهم ، بل دمر أعمالهم ومكرهم ، وللكافرين في كل زمان ومكان ، أمثال هذه العواقب الوخيمة ، والعقوبات الدمية .

وأما المؤمنون ، فإن الله تعالى ينجيهم من العذاب ، ويجزل لهم كثير الثواب . «ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا»

فإذا كان في بعض الأوقات ، لا حرب فيه لسبب من الأسباب ، فلا قتل ولا أسر .

«ذلك» الحكم المذكور في ابتلاء المؤمنين بالكافرين ، ومداولة الأيام بينهم ، وانتصار بعضهم على بعض «ولو يشاء الله لانتصر منهم» فإنه تعالى على كل شيء قدير ، وقادر على أن لا ينتصر الكفار في موضع واحد أبداً ، حتى يبید المسلمون خضراءهم .

«ولكن ليلو بعضكم ببعض» يقوم سوق الجهاد ، ويتبين بذلك أحوال العباد ، الصادق من الكاذب ، وليؤمن من آمن إيماناً صحيحاً عن بصيرة ، لا إيماناً منياً على متابعة أهل الغلبة ، فإنه إيمان ضعيف جداً ، لا يكاد يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا .

«والذين قتلوا في سبيل الله» لهم ثواب جزيل ، وأجر جميل ، وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم ، لتكون كلمة الله هي العليا .

فهؤلاء لن يضل الله أعمالهم ، أي : لن يحبطها ويبطلها ، بل يتقبلها وينميها لهم ، ويظهر من أعمالهم نتائجها ، في الدنيا والآخرة .

«سيهديهم» إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة ، «ويصلح بالهم» أي : حالهم وأمورهم ، وثوابهم يكون صالحاً كاملاً لا نكد فيه ولا تنغيص بوجه من الوجوه .

«ويدخلهم الجنة عرفها لهم» أي : عرفها أولاً ، بأن شوقهم إليها ، ونعتها لهم ، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها ، التي من جملتها القتل في سبيله ، ووقفهم للقيام بما أمرهم به ورغبهم فيه ، ثم إذا دخلوا الجنة ، عرفهم منازلهم ، وما احتوت عليه من النعيم المقيم ، والعيش السليم .

«٧ - ٩» «يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم * والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم * ذلك بأنهم كروهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم» هذا أمر منه



«٤ - ٦» «فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم * سيهديهم ويصلح بالهم * ويدخلهم الجنة عرفها لهم» يقول تعالى - مرشداً عباده إلى ما فيه صلاحهم ، ونصرهم على أعدائهم :- «فإذا لقيتم الذين كفروا» في الحرب والقتال ، فاصدقوهم القتال ، واضربوا منهم الأعناق ، حتى تشخنوهم وتكسروا شوكتهم وتبطلوا شرهم ، فإذا فعلتم ذلك ، ورأيتم الأسر أولى وأصلح ، «فشدوا الوثاق» أي : الرباط ، وهذا احتياط لأسرهم لئلا يهربوا ، فإذا شد منهم الوثاق اطمان المسلمون من هربهم ومن شرهم ، فإذا كانوا تحت أسرهم ، فأنتم بالخيار بين المن عليهم ، وإطلاقهم بلا مال ولا فداء ، وإما أن تدفوهم بأن لا تطلقوهم حتى يشتروا أنفسهم ، أو يشتريهم أصحابهم بمال ، أو بأسير مسلم عندهم .

وهذا الأمر مستمر «حتى تضع الحرب أوزارها» أي : حتى لا يبقى حرب ، وتبقون في المسالة والمهادنة ، فإن لكل مقام مقالاً ، ولكل حال حكماً ، فالحال التقدمة ، إنما هي إذا

ذلك، وتواطؤها عليه.

السابع: أن خواص الخلق، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقاً وعقولاً، ورأياً وصواباً، وعلماً - وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون - قد شهدوا الله بذلك.

الثامن: ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية، التي تدل على التوحيد أعظم دلالة، وتنادي عليه بلسان حالها بما أودعها من لطائف صنعته، وبديع حكمته، وغرائب خلقه.

فهذه الطرق التي أكثر الله من دعوة الخلق بها إلى أنه لا إله إلا الله، وأبداها في كتابه وأعادها عند تأمل العبد في بعضها، لا بد أن يكون عنده يقين وعلم بذلك، فكيف إذا اجتمعت وتواطأت واتفقت، وقامت أدلة التوحيد من كل جانب، فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك في قلب العبد، بحيث يكون كالجبال الرواسي، لا تزلزله الشبه والخيالات، ولا يزداد - على تكرار الباطل والشبه - إلا نمواً وكمالاً.

هذا، وإن نظرت إلى الدليل العظيم، والأمر الكبير - وهو تدبر هذا القرآن العظيم، والتأمل في آياته - فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ما لا يحصل في غيره.

وقوله: ﴿واستغفر لذنبك﴾ أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك، بأن تفعل أسباب المغفرة من التوبة والدعاء بالمغفرة، والخسنيات الماحية، وترك الذنوب والعفو عن الجرائم.

﴿و﴾ استغفر أيضاً للمؤمنين والمؤمنات، فإنهم - بسبب إيمانهم - كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة. ومن جملة حقوقهم أن يدعو لهم ويستغفر لذنوبهم، وإذا كان مأموراً بالاستغفار لهم المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم، فإن من لوازم ذلك النصح لهم، وأن يحب لهم من الخير ما

ففي هذا الحث على الاستعداد قبل مفاجأة الموت، فإن موت الإنسان قيام ساعته.

﴿١٩﴾ ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم﴾ العلم لا بد فيه من إقرار القلب ومعرفته، بمعنى ما طلب منه علمه، وقامه أن يعمل بمقتضاه.

وهذا العلم الذي أمر الله به - وهو العلم بتوحيد الله - فرض عين على كل إنسان، لا يسقط عن أحد، كائناً من كان، بل كل مضطر إلى ذلك. والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا هو أمور: أحدها بل أعظمها: تدبر أسمائه وصفاته، وأفعاله الدالة على كماله وعظمته وجلالته^(١)، فإنها توجب بذل الجهد في التأله له، والتعبد للرب الكامل الذي له كل حمد ومجد وجلال وجمال.

الثاني: العلم بأنه تعالى المنفرد بالخلق والتدبير، فيعلم بذلك أنه المنفرد بالالوهية.

الثالث: العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، فإن ذلك يوجب تعلق القلب به ومحبة، والتأله له وحده لا شريك له.

الرابع: ما نراه ونسمعه من الثواب لأولياته القائمين بتوحيده من النصر والنعم العاجلة، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به، فإن هذا داع إلى العلم، بأنه تعالى وحده المستحق للعبادة كلها.

الخامس: معرفة أوصاف الأوثان والأنداد التي عبدت مع الله، واتخذت آلهة، وأنها ناقصة من جميع الوجوه، فقيرة بالذات، لا تملك لنفسها ولا لعابديها نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا ينصرون من عبدهم، ولا ينفعونهم بمشقال ذرة، من جلب خير أو دفع شر، فإن العلم بذلك يوجب العلم بأنه لا إله إلا هو وبطلان إلهية ما سواه.

السادس: اتفاق كتب الله على



أسماعهم، ووعته قلوبهم، وانقادت له جوارحهم، ولكنهم يعكس هذه الحال، ولهذا قال: ﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم﴾ أي: ختم عليها، وسد أبواب الخير التي تصل إليها بسبب اتباعهم أهواءهم، التي لا يهون فيها إلا الباطل.

ثم بين حال المهتدين، فقال: ﴿والذين اهتدوا﴾ بالإيمان والانتقاد، واتباع ما يرضي الله ﴿زادهم هدى﴾ شكراً منه تعالى لهم على ذلك، ﴿وأتاهم تقواهم﴾ أي: وفقهم للخير، وحفظهم من الشر، فذكر للمهتدين جزاءين: العلم النافع، والعمل الصالح.

﴿١٨﴾ ﴿فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي: فهل ينظرون هؤلاء المكذبون أو ينتظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة؟ أي: فجأة، وهم لا يشعرون ﴿فقد جاء أشرارها﴾ أي: علاماتها الدالة على قربها.

﴿فأتى لهم إذا جاءتهم ذكراهم﴾ أي: من أين لهم، إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم أن يتذكروا ويستعتبوا؟ قد فات ذلك، وذهب وقت التذكر، فقد عمروا ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير.

يجب لنفسه، ويكره لهم من الشر ما يكره لنفسه، ويأمرهم بما فيه الخير لهم، وينهاهم عما فيه ضررهم، ويعفو عن مساوئهم ومعائبهم، ويحرص على اجتماعهم اجتماعاً تتألف به قلوبهم، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق، الذي به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم.

﴿والله يعلم متقلبكم﴾ أي: تصرفاتكم وحركاتكم، وذهابكم ومجيئكم، ﴿ومشاوكم﴾ الذي به تستقرون، فهو يعلمكم في الحركات والسكنات، فيجازيكم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿٢٠ - ٢٣﴾ ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المقيش عليه من الموت فأولى لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم * فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ يقول تعالى: ﴿ويقول الذين آمنوا استعجالاً ومبادرة للأوامر الشاقة: ﴿لولا نزلت سورة﴾ أي: فيها الأمر بالقتال.

﴿فإذا أنزلت سورة محكمة﴾ أي: ملزم العمل بها، ﴿وذكر فيها القتال﴾ الذي هو أشق شيء على النفوس، لم يثبت ضعفاء الإيمان على امتثال هذه الأوامر، ولهذا قال: ﴿رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المقيش عليه من الموت﴾ من كراحتهم لذلك، وشدته عليهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية﴾.

ثم نذبه تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم، فقال: ﴿فأولى لهم * طاعة

وقول معروف﴾ أي: فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه همهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه.

﴿فلماذا عزم الأمر﴾ أي: جاءهم الأمر جد، وأمر محتم، ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله ﴿لكان خيراً لهم﴾ من حالهم الأول، وذلك من وجوه:

منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده.

ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل، بوظيفة وقته، وبوظيفة المستقبل، أما الحال، فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل، فإنه لا يجيء حتى تفتت الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه.

ومنها: أن العبد المؤمل للأمال المستقبلية، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته، على ما يستقبل من أموره، فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هم به ووطن نفسه^(١) عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعيناً بربه في ذلك، فهذا حربي بالتوفيق والتسديد في جميع أموره.

ثم ذكر تعالى حال التولي عن طاعة ربه، وأنه لا يتولى إلى خير، بل إلى شر، فقال: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ أي: فهما أمران، إما التزام لطاعة الله، وامتثال لأوامره، فثم الخير والرشد والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتولي عن طاعة الله، فما ثم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطعة الأرحام.

﴿أولئك الذين﴾ أفسدوا في

ويقول الذين آمنوا لولا أنزلت سورة ﴿فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم، ويجمعوا عليه همهم، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم، وليفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه.﴾ فلماذا عزم الأمر﴾ أي: جاءهم الأمر جد، وأمر محتم، ففي هذه الحال لو صدقوا الله بالاستعانة به، وبذل الجهد في امتثاله ﴿لكان خيراً لهم﴾ من حالهم الأول، وذلك من وجوه: منها: أن العبد ناقص من كل وجه، لا قدرة له إلا إن أعانه الله، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده. ومنها: أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل، ضعف عن العمل، بوظيفة وقته، وبوظيفة المستقبل، أما الحال، فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره، والعمل تبع للهمة، وأما المستقبل، فإنه لا يجيء حتى تفتت الهمة عن نشاطها فلا يعان عليه. ومنها: أن العبد المؤمل للأمال المستقبلية، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر، شبيه بالمتألي الذي يجزم بقدرته، على ما يستقبل من أموره، فأحرى به أن يخذل ولا يقوم بما هم به ووطن نفسه^(١) عليه، فالذي ينبغي أن يجمع العبد همه وفكرته ونشاطه على وقته الحاضر، ويؤدي وظيفته بحسب قدرته، ثم كلما جاء وقت استقبله بنشاط وهمة عالية مجتمعة غير متفرقة، مستعيناً بربه في ذلك، فهذا حربي بالتوفيق والتسديد في جميع أموره. ثم ذكر تعالى حال التولي عن طاعة ربه، وأنه لا يتولى إلى خير، بل إلى شر، فقال: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾ أي: فهما أمران، إما التزام لطاعة الله، وامتثال لأوامره، فثم الخير والرشد والفلاح، وإما إعراض عن ذلك، وتولي عن طاعة الله، فما ثم إلا الفساد في الأرض بالعمل بالمعاصي وقطعة الأرحام. ﴿أولئك الذين﴾ أفسدوا في

الأرض، وقطعوا أرحامهم ﴿لعنهم الله﴾ بأن أبعدهم عن رحمته، وقربوا من سخط الله.

﴿فأصمهم وأعمى أبصارهم﴾ أي: جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ولا يبصرون، فلم يآذان، ولكن لا تسمع سماع إذعان وقبول، وإنما تسمع سماعاً تقوم به حجة الله عليها، ولهم أعين، ولكن لا يبصرون بها العبر والآيات، ولا يلتفتون بها إلى البراهين والبيئات.

﴿٢٤﴾ ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾ أي: فهل يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله، ويتأملونه حق التأمل، فإنهم لو تدبروه، لدلّهم على كل خير، ولحذّروهم من كل شر، ولألقواهم من الإيمان، وأفندتهم من الإيقان، ولأوصلهم إلى المطالب العالية، والمواهب الغالية، ولبيّن لهم الطريق الموصلة إلى الله، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداها، والطريق الموصلة إلى العذاب، وبأي شيء تحذر، ولعرفهم ببرهم، وأسماؤه وصفاته وإحسانه، ولشوّقهم إلى الثواب الجزيل، ورهبهم من العقاب الويليل.

﴿أم على قلوب أقفالها﴾ أي: قد أغلق على ما فيها من الشر وأقفلت،

(١) في ب: وتوعد نفسه، وكذلك كانت في أ من قبل ثم شطبها الشيخ - رحمه الله - وعدلها إلى: وطن نفسه.

فقال: ﴿ولنبلونكم﴾ أي: نختبر إيمانكم وصبركم، ﴿حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ فمن امتثل أمر الله وجاهد في سبيل الله لنصر دينه وإعلاء كلمته فهو المؤمن حقاً، ومن تكاسل عن ذلك، كان ذلك نقصاً في إيمانه.

﴿٣٢﴾ ﴿إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم﴾ هذا وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها، من الكفر بالله، وصد الخلق عن سبيل الله الذي نصبه موصلاً إليه.

﴿وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى﴾ أي: عاندوه وخالفوه عن عمد وعناد، لا عن جهل وغبي وضلال، فإنهم ﴿لن يضروا الله شيئاً﴾ فلا ينقص به ملكه.

﴿وسيحبط أعمالهم﴾ أي: مساعيتهم التي بذلوها في نصر الباطل، بأن لا تثمر لهم إلا الخيبة والخسران، وأعمالهم التي يرجون بها الثواب، لا تقبل لعدم وجود شرطها.

﴿٣٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ يأمر تعالى المؤمنين بأمر به تتم أمورهم، وتحصل سعادتهم الدينية والدنيوية، وهو طاعته وطاعة رسوله في أصول الدين وفروعه، والطاعة هي امتثال الأمر، واجتناب النهي على الوجه المأمور به بالإخلاص وتمام المتابعة.

وقوله: ﴿ولا تبطلوا أعمالكم﴾ يشمل النهي عن إبطالها بعد عملها، بما يفسدها، من من بها وإعجاب، وفخر وسمعة، ومن عمل بالمعاصي التي تضمحل معها الأعمال، ويحبط أجزؤها، ويشمل النهي عن إفسادها حال وقوعها بقطعها، أو الإتيان بمفسد من مفسداتها.

فبطلات الصلاة والصيام والحج ونحوها، كلها داخلة في هذا، ومنهني عنها، ويستدل الفقهاء بهذه الآية على تحريم قطع الفرض، وكرهه قطع

الملائكة الموكلون بقبض أرواحهم، يضربون وجوههم وأدبارهم بالمقامع الشديدة؟!

﴿ذلك﴾ العذاب الذي استحقوه ونالوه ﴿ب﴾ سبب ﴿أنهم اتبعوا ما أسخط الله﴾ من كل كفر وفسوق وعصيان.

﴿وكرهوا رضوانه﴾ فلم يكن لهم رغبة فيما يقرهم إليه، ولا يذنبهم منه، ﴿فأحبط أعمالهم﴾ أي: أبطلها وأذهبها، وهذا بخلاف من اتبع ما يرضي الله وكره سخطه، فإنه سيكفر عنه سيئاته، ويضاعف أجره وثوابه.

﴿٢٩ - ٣١﴾ ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم﴾ ولو شاء لأريناكمهم فلعرقتهم بسيماهم * ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم * ولنبلونكم حتى تعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم﴾ يقول تعالى: ﴿أم حسب الذين في قلوبهم مرض﴾ من شبهة أو شهوة، بحيث تخرج القلب عن حال صحته واعتداله، أن الله لا يخرج ما في قلوبهم من الأضغان والعداوة للإسلام وأهله؟ هذا ظن لا يليق بحكمة الله، فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب، وذلك بالابتلاء بالمحن، التي من ثبت عليها، ودام إيمانه فيها، فهو المؤمن حقيقة، ومن رده على عقبيه فلم يصبر عليها، وحين أتاه الامتحان، جزع وضعف إيمانه، وخرج ما في قلبه من الضغن، وتبين نفاقه، هذا مقتضى الحكمة الإلهية، مع أنه تعالى قال: ﴿ولو نشاء لأريناكمهم فلعرقتهم بسيماهم﴾ أي: بعلاماتهم التي هي كالوسم في وجوههم.

﴿ولتعرفنهم في لحن القول﴾ أي: لا بد أن يظهر ما في قلوبهم، ويتبين بفتلات السنتهم، فإن الألسن مغارف القلوب، يظهر منها ما في القلوب من الخير والشر ﴿والله يعلم أعمالكم﴾ فيجازيكم عليها.

ثم ذكر أعظم امتحان يمتحن به عباده، وهو الجهاد في سبيل الله،



فلا يدخلها خير أبداً؟ هذا هو الواقع.

﴿٢٥ - ٢٨﴾ ﴿إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سؤل لهم وأمل لهم * ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم إسرارهم * فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم﴾ يجبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان على أعقابهم إلى الضلال والكفران، ذلك لا عن دليل دلهم ولا برهان، وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان وتزيين لهم، وإملاء منه لهم: ﴿يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾.

وذلك أنهم قد تبين لهم الهدى، فزهوا فيه ورفضوه، و ﴿قالوا للذين كرهوا ما نزل الله﴾ من البارزين العداوة لله ولرسوله ﴿سنطيعكم في بعض الأمر﴾ أي: الذي يوافق أهواءهم، فلذلك عاقبهم الله بالضلال، والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدي، والعذاب السرمدي.

﴿والله يعلم إسرارهم﴾ فلذلك فضحهم، وبينها لعباده المؤمنين، لئلا يغتروا بها.

﴿فكيف﴾ ترى حالهم الشنيعة، ورؤيتهم الفظيعة ﴿إذا توفتهم

النفل، من غير موجب لذلك، وإذا كان الله قد نهى عن إبطال الأعمال، فهو أمر بإصلاحها، وإكمالها وإتمامها، والإتيان بها، على الوجه الذي تصلح به علماً وعملاً.

﴿٣٤-٣٥﴾ **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ * فَلَا تَهْتَوُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرَكَ أَعْمَالَكُمْ﴾** هذه الآية والتي في البقرة قوله: **﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾** مقيدتان، لكل نص مطلق، فيه إحباط العمل بالكفر، فإنه مقيد بالموت عليه، فقال هنا: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾** بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر **﴿وَصَدُوا﴾** الخلق **﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾** بتزهدهم إياهم بالحق، ودعوتهم إلى الباطل، وتزيينه، **﴿ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾** لم يتوبوا منه، **﴿فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾** لا بشفاعة ولا بغيرها، لأنه قد تحتم عليهم العقاب، وفاتهم الثواب، ووجب عليهم الخلود في النار، وسدت عليهم رحمة الرحيم الغفار.

ومفهوم الآية الكريمة أنهم إن تابوا من ذلك قبل موتهم، فإن الله يغفر لهم ويرحمهم، ويدخلهم الجنة، ولو كانوا مغبين أعمارهم في الكفر به والصد عن سبيله، والإقدام على معاصيه، فسبحان من فتح لعباده أبواب الرحمة، ولم يغلقلها عن أحد، ما دام حياً متمكناً من التوبة.

وسبحان الحليم، الذي لا يعاجل العاصين بالعقوبة، بل يعافيه، ويرزقهم، كأنهم ما عصوه مع قدرته عليهم.

ثم قال تعالى: **﴿فَلَا تَهْتَوُوا﴾** أي: لا تضعفوا عن قتال عدوكم، ويستولي عليكم الخوف، بل اصبروا واشتروا، ووطنوا أنفسكم على القتال والجلاد، طلباً لمرضاة ربكم، ونصحاً للإسلام، وإغضاباً للشيطان.

ولا تدعوا إلى المسألة والمشاركة بينكم وبين أعدائكم، طلباً للراحة، **﴿و﴾**

الحال أنكم **﴿أَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتْرَكَ أَعْمَالَكُمْ﴾** أي: ينقصكم أعمالكم.

فهذه الأمور الثلاثة، كل منها مقتضى للصبر وعدم الوهن كونهم الأعلى، أي: قد توفرت لهم أسباب النصر، ووعدوا من الله بالوعد الصادق، فإن الإنسان لا يهن إلا إذا كان أذل من غيره وأضعف عدداً وغدداً، وقوة داخلية وخارجية.

الثاني: أن الله معهم، فإنهم مؤمنون، والله مع المؤمنين، بالنصر والتأييد، وذلك موجب لقوة قلوبهم، وإقدامهم على عدوهم.

الثالث: أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئاً، بل سيوفهم أجورهم، ويزيدهم من فضله، خصوصاً عبادة الجهاد، فإن النفقة تضاعف فيه، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وقال تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْؤُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضَيِّعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يَنْفَقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَظِّهِمْ إِنَّ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

فلماذا عرف الإنسان أن الله تعالى لا يضيع عمله وجهاده، أوجب له ذلك النشاط، وبذل الجهد فيما يترتب عليه الأجر والثواب، فكيف إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة فإن ذلك يوجب النشاط التام، فهذا من ترغيب الله لعباده، وتنشيطهم وتقوية أنفسهم على ما فيه صلاحهم وفلاحهم.

﴿٣٦-٣٨﴾ **﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ إِنْ تَوَمَّنَا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِنْ يَسْأَلْكُمْوْهَا فَيَحْضِكُمْ تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ * هَآ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لَتَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمَنْكُم مَّنْ يَبْخُلْ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ**

قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ هذا تهديد منه لعباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنها لعب ولهو، لعب في الأبدان ولهو في القلوب، فلا يزال العبد لاهياً في ماله، وأولاده، وزينته، ولذاته من النساء، والمأكّل والمشارب، والمساكن والمجالس، والمناظر والرياسات، لاهياً في كل عمل لا فائدة فيه، بل هو دائر بين البطالة والغفلة والمعاصي، حتى تستكمل دنياه، ويحضره أجله، فإذا هذه الأمور قد ولّت وفارقت، ولم يحصل العبد منها على طائل، بل قد تبين له خسارته وحرمانه، وحضر عذابه، فهذا موجب للعاقل الزهد فيها، وعدم الرغبة فيها، والاهتمام بشأنها، وإنما الذي ينبغي أن يتم به ما ذكره بقوله: **﴿وَأَنْ تَتَّقُوا﴾** بأن تؤمنوا بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتقوموا بتقواه التي هي من لوازم الإيمان ومقتضياته، وهي العمل بمرصاته على الدوام، مع ترك معاصيه، فهذا الذي ينفع العبد، وهو الذي ينبغي أن يتنافس فيه، وتبذل الهمم والأعمال في طلبه، وهو مقصود الله من عباده رحمة بهم ولطفاً، ليثيبهم الثواب الجزيل، ولهذا قال: **﴿وَأَنْ تَتَّقُوا﴾** وتقوموا بتقواكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم **﴿أي: لا يريد تعالى أن يكلفكم ما يشق عليكم، ويعنتكم من أخذ أموالكم، ويقائكم بلا مال، أو ينقصكم نقصاً يضركم، ولهذا قال: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْوْهَا فَيَحْضِكُمْ تَبَخَّلُوا﴾ ويخرج أضغانكم﴾** أي: ما في قلوبكم من الضغن، إذا طلب منكم ما تكرهون بذله.

والدليل على أن الله لو طلب منكم أموالكم وأحفاكم بسؤالها، أنكم تمتنعون منها، أنكم **﴿تَدْعُونَ لَتَنْفَقُوا﴾** في سبيل الله **﴿على هذا الوجه، الذي فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية﴾**

﴿فَمَنْكُم مَّنْ يَبْخُلْ﴾ أي: فكيف لو سألكم، وطلب منكم أموالكم في غير أمر ترونه مصلحة عاجلة؟ أليس من باب أولى وأحرى امتناعكم من ذلك.

ثم قال: ﴿ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه﴾ لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى، وفاته خير كثير، ولن يضر الله بترك الإنفاق شيئاً.

فإن الله هو الغني وأنتم الفقراء تحتاجون إليه في جميع أوقاتكم، لجميع أموركم.

﴿وإن تتولوا﴾ عن الإيمان بالله، وامتنال ما يأمركم به ﴿يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾ في التولي، بل يطيعون الله ورسوله، ويحيون الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾.

تم تفسير سورة القتال،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الفتح وهي مدنية

﴿١ - ٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ هذا الفتح المذكور هو صلح الحديبية، حين صد المشركون رسول الله ﷺ لما جاء معتمراً في قصة طويلة، صار آخر أمرها أن صالحهم رسول الله ﷺ على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، وعلى أن يعتمر من العام المقبل، وعلى أن من أراد أن يدخل في عهد قريش وحلفهم دخل، ومن أحب أن يدخل في عهد رسول الله ﷺ وعقده فعل.

وبسبب ذلك لما أمن الناس بعضهم بعضاً، اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل، وصار كل مؤمن بأي محل كان من تلك الأقطار، يتمكن من ذلك، وأمكن الحريص على الوقوف على حقيقة الإسلام، فدخل الناس في تلك المدة في دين الله أفواجا، فلذلك سماه الله فتحاً، ووصفه بأنه فتح مبين أي: ظاهر جلي، وذلك لأن المقصود

في فتح بلدان المشركين إعزاز دين الله، وانتصار المسلمين، وهذا حصل بذلك^(١) الفتح، ورتب الله على هذا الفتح عدة أمور، فقال: ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ وذلك - والله أعلم - بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة، والدخول في الدين بكثرة، وبما تحمّل ﷺ من تلك الشروط التي لا يصبر عليها إلا أولو العزم من المرسلين، وهذا من أعظم مناقبه وكراماته ﷺ، أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

﴿ويتم نعمته عليك﴾ بإعزاز دينك، ونصرك على أعدائك، واتساع كلمتك، ﴿ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ تنال به السعادة الأبدية، والفلاح السرمدى.

﴿وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾ أي: قوياً لا يتضعضع فيه الإسلام، بل يحصل الانتصار التام، وقمع الكافرين، وذلمهم ونقصهم، مع توفر قوى المسلمين ونموهم، ونمو أموالهم.

ثم ذكر آثار هذا الفتح على المؤمنين، فقال:

﴿٤ - ٦﴾ ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم والله جنود السماوات والأرض وكان الله عليمًا حكيمًا * ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً * ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾.

يجبر تعالى عن ميّته على المؤمنين بإنزال السكينة في قلوبهم، وهي السكون والطمأنينة، والثبات عند نزول المحن المقلقة، والأمور الصعبة، التي تشوش القلوب، وتزعج الألباب، وتضعف النفوس، فمن

نعمة الله على عبده في هذه الحال أن يشبته ويربط على قلبه، وينزل عليه السكينة، ليتلقى هذه المشقات بقلب ثابت ونفس مطمئنة، فيستعد بذلك لإقامة أمر الله في هذه الحال، فيزداد بذلك إيمانه، ويتم إيقانه، فالصحابة رضي الله عنهم لما جرى ما جرى بين رسول الله ﷺ والمشركين، من تلك الشروط التي ظاهرها أنها غضاضة عليهم، وحط من أقدارهم، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس، فلما صبروا عليها ووطنوا أنفسهم لها، ازدادوا بذلك إيماناً مع إيمانهم. وقوله: ﴿والله جنود السماوات والأرض﴾ أي: جميعها في ملكه، وتحت تدبيره وقهره، فلا يظن المشركون أن الله لا ينصر دينه ونبيه، ولكنه تعالى عليم حكيم، ففتتضي حكمته المداولة بين الناس في الأيام، وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر. ﴿ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم﴾ فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين، أن يحصل لهم المرغوب المطلوب بدخول الجنات، ويزيل عنهم المحذور بتكفير السيئات. ﴿وكان ذلك﴾ الجزء المذكور للمؤمنين ﴿عند الله فوزاً عظيماً﴾ فهذا ما يفعل بالمؤمنين في ذلك الفتح المبين.

وأما المنافقون والمنافقات، والمشركون والمشركات، فإن الله يعذبهم بذلك، ويريم ما يسوؤهم؛ حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين، وظنوا بالله الظن السوء، أنه لا ينصر دينه، ولا يُعلي كلمته، وأن أهل الباطل، ستكون لهم الدائرة على أهل الحق، فأدار الله عليهم ظنهم، وكانت دائرة السوء عليهم في الدنيا، ﴿وغضب الله عليهم﴾ بما اقترفوه من المحادة لله ولرسوله، ﴿ولعنهم﴾ أي: أبعدهم وأقصاهم عن رحمته ﴿وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً﴾.

﴿٧﴾ ﴿والله جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيمًا﴾ كرر

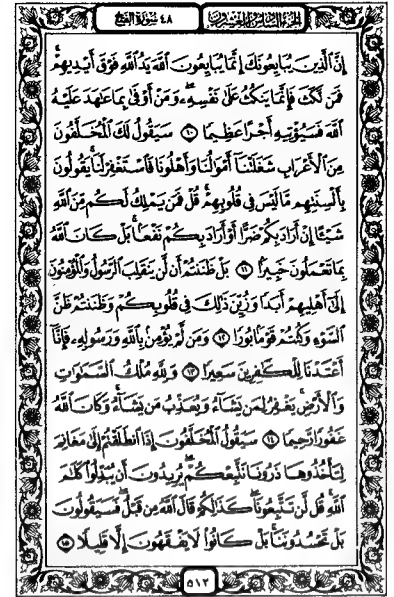
ثم ذكر الأعداء التي يعذر بها العبد عن الخروج إلى الجهاد، فقال: ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج﴾ أي: في التخلف عن الجهاد لعذرهم المانع.

﴿ومن يطع الله ورسوله﴾ في امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما ﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها ما تشبهه الأنفس، وتلد الأعين، ﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله ورسوله ﴿يعذب عذاباً أليماً﴾ فالسعادة كلها في طاعة الله، والشقاوة في معصيته ومخالفته.

﴿١٨ - ٢١﴾ ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً﴾ * ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً * وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطاً مستقيماً * وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً * يجبر تعالى بفضلته ورحمته، برضاه عن المؤمنين إذ يبايعون الرسول ﷺ تلك المبايعة التي بيضت وجوههم، واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة، وكان سبب هذه البيعة - التي يقال لها «بيعة الرضوان» لرضا الله عن المؤمنين فيها، ويقال لها «بيعة أهل الشجرة» - أن رسول الله ﷺ لما دار الكلام بينه وبين المشركين يوم الحديبية في شأن مجيئه، وأنه لم يجهز لقتال أحد، وإنما جاء زائراً هذا البيت، معظماً له، فبعث رسول الله ﷺ عثمان بن عفان لمكة في ذلك، فجاء خبر غير صادق، أن عثمان قتله المشركون، فجمع رسول الله ﷺ من معه من المؤمنين، وكانوا نحواً من ألف وخمس مئة، فبايعوه تحت شجرة على قتال المشركين، وأن لا يفروا حتى يموتوا، فأخبر تعالى أنه رضي عن المؤمنين في تلك الحال، التي هي من أكبر الطاعات وأجل القربات، ﴿فعلم ما في قلوبهم﴾ من الإيمان، ﴿فأنزل

رشدهم، لعلموا أن حرمانهم بسبب عصيانهم، وأن المعاصي لها عقوبات دنيوية ودينية، ولهذا قال: ﴿بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾.

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن طغيوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً أليماً﴾ * ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ومن يتول يعذب عذاباً أليماً﴾ لما ذكر تعالى أن المخلفين من الأعراب يتخلفون عن الجهاد في سبيله، ويعتذرون بغير عذر، وأنهم يطلبون الخروج معهم إذا لم يكن شوكة ولا قتال، بل للمجرد الغنيمة، قال تعالى محتجاً لهم: ﴿قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس شديد﴾ أي: سيدعوكم الرسول ومن ناب منابه من الخلفاء الراشدين والأئمة، وهؤلاء القوم فارس والروم ومن نحنا نحوهم وأشبههم. ﴿تقاتلونهم أو يسلمون﴾ أي: إما هذا وإما هذا، وهذا هو الأمر الواقع، فإنهم في حال قتالهم ومقاتلتهم لأولئك الأقوام، إذ كانت شدتهم وبأسهم معهم، فإنهم في تلك الحال لا يقبلون أن يبذلوا الجزية، بل إما أن يدخلوا في الإسلام، وإما أن يقاتلوا على ما هم عليه، فلما أثنخهم المسلمون، وضعفوا وذلوا، ذهب بأسهم، فصاروا إما أن يسلموا، وإما أن يبذلوا الجزية، ﴿فإن طغيوا﴾ الداعي لكم إلى قتال هؤلاء ﴿يؤتكم الله أجراً حسناً﴾ وهو الأجر الذي رتبته الله ورسوله على الجهاد في سبيل الله، ﴿وإن تتولوا كما توليتم من قبل﴾ عن قتال من دعاكم الرسول إلى قتاله، ﴿يعذبكم عذاباً أليماً﴾ ودلت هذه الآية على فضيلة الخلفاء الراشدين، الداعين لجهاد أهل البأس من الناس، وأنه تجب طاعتهم في ذلك.



بما أمره الله به ﴿ويعذب من يشاء﴾ ممن تهاون بأمر الله، ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي: وصفه اللازم الذي لا ينفك عنه المغفرة والرحمة، فلا يزال في جميع الأوقات يغفر للمذنبين، ويتجاوز عن الخطائين، ويتقبل توبة التائبين، وينزل خيره المردار، أثناء الليل والنهار.

﴿١٥﴾ ﴿استلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا تتبعكم يريدون أن يبذلوا كلام الله قل لن تتبعوننا كذلك قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً﴾ لما ذكر تعالى المخلفين وذمهم، ذكر أن من عقوبتهم الدنيوية، أن رسول الله ﷺ وأصحابه إذا انطلقوا إلى غنائم لا قتال فيها ليأخذوها، طلبوا منهم الصحبة والمشاركة، ويقولون: ﴿ذرونا تتبعكم يريدون﴾ بذلك أن يبذلوا كلام الله حيث حكم بعقوبتهم، واختصاص الصحابة المؤمنين بتلك الغنائم، شرعاً وقدرًا. ﴿قل﴾ لهم ﴿لن تتبعوننا كذلك قال الله من قبل﴾ إنكم محرومون منها بما جئتم على أنفسكم، وبما تركتم القتال أول مرة.

﴿فسيقولون﴾ محيين لهذا الكلام، الذي منعوا به عن الخروج: ﴿بل تحسدوننا﴾ على الغنائم، هذا منتهى علمهم في هذا الموضع، ولو فهموا

السكينة عليهم ﴿شكراً لهم على ما في قلوبهم، زادهم هدى، وعلم ما في قلوبهم من الخزع من تلك الشروط التي شرطها المشركون على رسوله، فأنزل عليهم السكينة تثبتهم، وتطمئن بها قلوبهم، ﴿وأنابهم فتحاً قريباً﴾ وهو فتح خيبر، لم يحضره سوى أهل الحديبية، فاختصوا بخيبر وغنائمها، جزاء لهم، وشكراً على ما فعلوه من طاعة الله تعالى والقيام بمرضاته.

﴿ومغانم كثيرة يأخذونها﴾ وكان الله عزيزاً حكيماً ﴿أي: له العزة والقدرة، التي قهر بها الأشياء، فلو شاء لانتصر من الكفار في كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين، ولكنه حكيماً، يبتلي بعضهم ببعض، ويمتحن المؤمن بالكافر.

﴿وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها﴾ وهذا يشمل كل غنيمة غنمها المسلمون إلى يوم القيامة، ﴿فجعل لكم هذه﴾ أي: غنيمة خيبر أي: فلا تحسبوا وحدها، بل ثم شيء كثير من الغنائم سيتبعها، ﴿و﴾ أحدوا الله إذ ﴿كف أيدي الناس﴾ القادرين على قتالكم، الحريصين عليه ﴿عنكم﴾ فهي نعمة، وتخفيف عنكم.

﴿ولتكون﴾ هذه الغنيمة ﴿آية للمؤمنين﴾ يستدلون بها على خبر الله الصادق، ووعده الحق، وثوابه للمؤمنين، وأن الذي قدرها سيقدر غيرها، ﴿ويهديكم﴾ بما يقيض لكم من الأسباب ﴿صراطاً مستقيماً﴾ من العلم والإيمان والعمل.

﴿وأخرى﴾ أي: وعدكم أيضاً غنيمة أخرى ﴿لم تقدروا عليها﴾ وقت هذا الخطاب، ﴿قد أحاط الله بها﴾ أي: هو قادر عليها، وتحت تدبيره وملكه، وقد وعدكموها، فلا بد من وقوع ما وعده، لكمال اقتدار الله تعالى، ولهذا قال: ﴿وكان الله على كل شيء قديراً﴾.

﴿٢٢-٢٣﴾ ﴿ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأديبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً، هذه

بشارة من الله لعباده المؤمنين، بنصرهم على أعدائهم الكافرين، وأنهم لو قابلوهم وقاتلوهم ﴿لولوا الأديبار، ثم لا يجدون ولياً﴾ يتولى أمرهم، ﴿ولا نصيراً﴾ ينصرهم ويعينهم على قتالكم، بل هم يخذلون مغلوبون وهذه سنة الله في الأمم السابقة، أن جند الله هم الغالبون، ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾.

﴿٢٤-٢٥﴾ ﴿وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ وكان الله بما تعملون بصيراً ﴿هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدي معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزلزلوا لعدبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ يقول تعالى ممتناً على عباده بالعافية، من شر الكفار ومن قتالهم، فقال: ﴿وهو الذي كف أيديهم﴾ أي: أهل مكة ﴿عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم﴾ أي: من بعد ما قدرتم عليهم، وصاروا تحت ولايتكم بلا عقد ولا عهد، وهم نحو ثمانين رجلاً، انحدروا على المسلمين ليصيبوا منهم غرة، فوجدوا المسلمين منتبهين فأمسكوكهم، فتركوهم ولم يقتلوهم، رحمة من الله بالمؤمنين إذ لم يقتلوهم، ﴿وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ فيجازي كل عامل بعمله، ويدبركم أيها المؤمنون بتدبيره الحسن.

ثم ذكر تعالى الأمور المهيجة على قتال المشركين، وهي كفرهم بالله ورسوله، وصددهم رسول الله ومن معه من المؤمنين، أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له بالحج والعمرة، وهم الذين أيضاً صدوا ﴿الهدى معكوفاً﴾ أي: محبوساً ﴿أن يبلغ محله﴾ وهو محل ذبحه وهو مكة، فمنعوه من الوصول إليه ظلماً وعدواناً، وكل هذه أمور موجبة وداعية إلى قتالهم، ولكن ثم مانع وهو: وجود رجال ونساء من أهل الإيمان بين أظهر المشركين،

﴿لولا الذين كفروا لولوا الأديبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً، هذه

وليسوا متميزين بمحلة أو مكان يمكن أن لا ينالهم أذى، فلولا هؤلاء الرجال المؤمنون، والنساء المؤمنات، الذين لا يعلمهم المسلمون أن تطوؤهم أي: خشية أن تطوؤهم ﴿فتصيبكم منهم معرة بغير علم﴾ والمعرة: ما يدخل تحت قتالهم، من نيلهم بالأذى والمكره، وفائدة أخرى، وهو: أنه ليدخل في رحمته من يشاء فيمن عليهم بالإيمان بعد الكفر، وبالهدى بعد الضلال، فيمنعكم من قتالهم لهذا السبب.

﴿لو تزلزلوا﴾ أي: لو زالوا من بين أظهرهم ﴿لعدبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً﴾ بأن نبيح لكم قتالهم، ونأذن فيه، وننصركم عليهم.

﴿٢٦﴾ ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين﴾ والزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليمًا ﴿يقول تعالى: ﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية﴾ حيث أنفوا من كتابة ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾، وأنفوا من دخول رسول الله ﷺ والمؤمنين إليهم في تلك السنة، لثلا يقول الناس: «دخلوا مكة قاهرين لقريش»، وهذه الأمور ونحوها من أمور الجاهلية، لم تزل في قلوبهم حتى أوجبت لهم ما أوجبت

ولم نجىء لقتال أحد، ولكن من حال بيننا وبين البيت قاتلناه، فقال النبي ﷺ: «فروحوا إذا»، فراحوا، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال النبي ﷺ: «إن خالد بن الوليد بالغيم في خيل لقريش، فخذوا ذات اليمين»، فوالله ما شعر بهم خالد، حتى إذا هو بغيرة الجيش، فانطلق يركض نذيراً لقريش.

وسار النبي ﷺ، حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها، بركت راحلته، فقال الناس: حل حل، فألحت، فقالوا: خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»، ثم قال: «والذي نفسي بيده، لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمان الله إلا أعطيتهموها»، ثم زجرها، فوثبت به، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية، على ثمد قليل الماء، إنما يتبرضه الناس تبرضاً، فلم يلبث الناس أن نزحوه، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش.

فانتزع سهماً من كنانته، ثم أمرهم أن يمحلوها فيه، قال: فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنها، وفزعت قريش لنزوله عليهم، فأحب رسول الله ﷺ أن يبعث إليهم رجلاً من أصحابه، فدعا عمر بن الخطاب ليعثه إليهم، فقال: يا رسول الله، ليس بمكة أحد من بني كعب يغضب لي، إن أوديت، فأرسل عثمان بن عفان، فإن عشيرته بها، وإنه مبلغ ما أردت.

فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فأرسله إلى قريش، وقال: «أخبرهم أنا لم نأت لقتال، إنما جئنا عُمَّاراً، وادعهم إلى الإسلام».

وأمره أن يأتي رجلاً بمكة مؤمنين، ونساء مؤمنات، فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان، فانطلق

عشرة مئة، قال: يرحمه الله وهم، وهو حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مئة، قلت: وقد صح عن جابر القولان، وصح عنه أنهم نحروا عام الحديبية سبعين بدنة، البدنة عن سبعة، فقليل له: كم كنتم؟ قال: ألفاً وأربع مئة، بخيلنا ورجلنا، يعني: فارسهم وراجلهم.

والقلب إلى هذا أميل، وهو قول البراء بن عازب، ومعلق بن يسار، وسلمة بن الأكوع، في أصح الروایتين، وقول المسيب بن حزن، قال شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه: كنا مع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ألفاً وأربع مئة، وغلط غلطاً بيناً من قال: كانوا سبع مئة، وعذره^(١) أنهم نحروا يومئذ سبعين بدنة، والبدنة قد جاء إجزاؤها عن سبعة أو عشرة، وهذا لا يدل على ما قاله هذا القائل، فإنه قد صرح بأن البدنة كانت في هذه الغزوة عن سبعة، فلو كانت السبعون عن جميعهم، لكانوا أربع مئة وتسعين رجلاً، وقد قال بتمام الحديث بعينه، أنهم كانوا ألفاً وأربع مئة.

فصل

فلما كانوا بذى الحليفة، قلده رسول الله ﷺ الهذلي وأشعره، وأحرم بالعمرة، وبعث عيناً له بين يديه من خزاعة، يخبره عن قريش، حتى إذا كانوا قريباً من عُسفان، أتاه عينه، فقال: إني قد تركت كعب بن لؤي، قد جمعوا لك الأحابيش، وجمعوا لك جوعاً، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت.

واستشار النبي ﷺ أصحابه: أترون أن نميل إلى ذراري هؤلاء الذين أعانواهم فنصيبهم، فإن قعدوا قعدوا موتورين محزونين، وإن نجوا تكن عنقاً قطعها الله، أم ترون أن نؤم البيت؟ فمن صدنا عنه قاتلناه؟ قال أبو بكر: الله ورسوله أعلم، إنما جئنا معتمرين،

كالزعر الذي أخرج شطأه، فأزهره فاستغلظ، ولهذا قال: «ليفيظ بهم الكفار» حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون هم وهم في معارك الزوال، ومعامع القتال.

«وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا» فالصحابية رضي الله عنهم، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، قد جمع الله لهم بين المغفرة، التي من لوازمها وقاية شرور الدنيا والآخرة، والأجر العظيم في الدنيا والآخرة.

ولنسق قصة الحديبية بطولها، كما ساقها الإمام شمس الدين ابن القيم في «الهدى النبوي»، فإن فيها إعانة على فهم هذه السورة، وتكلم على معانيها وأسرارها، قال - رحمه الله تعالى -:

فصل في قصة الحديبية

قال نافع: كانت سنة ست في ذي القعدة، وهذا هو الصحيح، وهو قول الزهري، وقاتادة، وموسى بن عقبة، ومحمد بن إسحاق وغيرهم.

وقال هشام بن عروة، عن أبيه: خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية في رمضان، وكانت في شوال، وهذا وهم، وإنما كانت غزاة الفتح في رمضان. قال أبو الأسود عن عروة: إنها كانت في ذي القعدة على الصواب.

وفي الصحيحين عن أنس، أن النبي ﷺ اعتمر أربع عمر، كلهن في ذي القعدة، فذكر منهن عمرة الحديبية، وكان معه ألف وخمس مئة، هكذا في الصحيحين عن جابر، وعنه فيهما: كانوا ألفاً وأربع مئة، وفيهما، عن عبد الله بن أبي أوفى: كنا ألفاً وثلاث مئة، قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب: كم كان الجماعة الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال: خمس عشرة مئة، قال: قلت: فإن جابر بن عبد الله قال: كانوا أربع

كلمه أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة على رأس النبي ﷺ، ومعه السيف، وعليه المغفر فكلما أهوى عروة إلى حية النبي ﷺ، ضرب يده بنعل السيف، وقال: أخر يدك عن حية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، وقال: من ذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أي: غدر، أولست أسعى في غدرتك؟ وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ: «أما الإسلام فأقبل، وأما المال فليست منه في شيء».

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله ﷺ، فوالله ما تنخم النبي ﷺ نخامة، إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها جلده ووجهه. وإذا أمرهم ابتدروا إلى أمره، وإذا توضأ، كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم، خفصوا أصواتهم عنده، وما يجذون إليه النظر، تعظيماً له.

فرجع عروة إلى أصحابه، فقال: أي: قوم، والله لقد وفدت على الملوك، على كسرى، وقيصصر، والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه، ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فذلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم، خفصوا أصواتهم عنده، وما يجذون إليه النظر تعظيماً له، وقد عرض عليكم خطبة رشيد فاقبلوها.

فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتة، فقالوا: اتته.

فلما أشرف على النبي ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «هذا فلان، وهو من قوم يعظمون البدن فابعثوها له، فبعثوها فاستقبله القوم يلبون، فلما رأى ذلك، قال: سبحان الله، لا ينبغي لهؤلاء أن يصدوا عن البيت. فرجع إلى أصحابه، فقال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت، وما أرى أن يصدوا عن البيت فقام مكرز بن

عن رسول الله ﷺ، وكان أول من بايعه، أبو سنان الأسدي، وبايعه سلمة بن الأكوع ثلاث مرات، في أول الناس، وأوسطهم، وآخرهم.

فبينما هم كذلك، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي، في نفر من خزاعة، وكانوا عيبة نصح لرسول الله ﷺ، من أهل تهامة، فقال: إني تركت كعب بن لؤي، وعامر بن لؤي، نزلوا أعداد مياه الحديبية، معهم العوذ الطافيل، وهم مقاتلون، وصادوك عن البيت.

قال رسول الله ﷺ: «إنا لم نجئ لقتال أحد، ولكن جئنا معتمرين، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضررت بهم، فإن شاؤوا أمادهم ويحلوا بيني وبين الناس، وإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلا فقد جوا، وإن أبوا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده، لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي، أو لينفذن الله أمره»، قال بديل: سأبلغهم ما تقول.

فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إني قد جئكم من عند هذا الرجل، وسمعت يقول قولاً، فإن شئتم عرضته عليكم، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن نتحدثنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي: منهم: هات ما سمعته، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فقال عروة بن مسعود الثقفي: إن هذا قد عرض عليكم خطبة رشد، فاقبلوها، ودعوني آتة، فقالوا: اتته، فاتاه، فجعل يكلمه، فقال له النبي ﷺ: نحواً من قوله لبديل، فقال له عروة عند ذلك: أي: محمد، رأيت لو استأصلت قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاحت أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فوالله إني لأرى وجوهاً، وأرى أوباشاً من الناس، خليفاً أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امصص بظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ قال: من ذا؟ قال: أبو بكر، قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد كانت لك عندي لم أجرك بها، لأجبتك.

وجعل يكلم النبي ﷺ، وكلما

عثمان، فمر على قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثني رسول الله ﷺ أَدْعُوكُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى الْإِسْلَامِ، وَنَخْبِرُكُمْ أَنَّا لَمْ نَأْتِ لِقِتَالِ، وَإِنَّمَا جِئْنَا عُمَرَاءَ، قَالُوا: قَدْ سَمِعْنَا مَا تَقُولُ، فَاذْهَبْ لِحَاجَتِكَ.

وقام إليه أبان بن سعيد بن العاص، فرحب به، وأسرج فرسه، فحمل عثمان على الفرس، فأجاره، وأردفه أبان حتى جاء مكة، وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان: خلص عثمان قبلنا إلى البيت وطاف به، فقال رسول الله ﷺ: «ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون»، فقالوا: وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص؟ قال: «ذاك ظني به، أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف معه»، واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح، فرمى رجل من أحد الفريقين رجلاً من الفريق الآخر، وكانت معركة، وتراموا بالنبل والحجارة، وصاح الفريقان كلاهما، وارتعن كل واحد من الفريقين بمن فيه، وبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل، فدعا إلى البيعة.

فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ، وهو تحت الشجرة، فبايعوه على أن لا يفروا، فأخذ رسول الله ﷺ بيد نفسه، وقال: «هذه عن عثمان»، ولما تمت البيعة، رجع عثمان، فقال له المسلمون: اشتفت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت، فقال: بشما ظننتم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنة، ورسول الله ﷺ بمقيم بالحديبية، ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ. ولقد دعيتي قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت، فقال المسلمون: رسول الله ﷺ، كان أعلمنا بالله، وأحسننا ظناً.

وكان عمر أخذ بيد رسول الله ﷺ للبيعة تحت الشجرة، فبايعه المسلمون كلهم إلا الجند بن قيس، وكان معقل بن يسار، أخذ بغصنها يرفعه

حفص، وقال: دعوني آتة، فقالوا: ائنه، فلما أشرف عليهم، قال النبي ﷺ: «هذا مكرز بن حفص، وهو رجل فاجر»، فجعل يكلم رسول الله ﷺ، فبينما هو يكلمه، إذ جاء سهيل بن عمرو، فقال النبي ﷺ: «قد سهل لكم من أمركم»، فقال: هات، اكتب بيننا وبينك كتاباً، فعدا الكاتب، فقال: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما ندرى ما هو، ولكن اكتب: «باسمك اللهم» كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا بسم الله الرحمن الرحيم.

فقال النبي ﷺ: «اكتب باسمك اللهم».

ثم قال: «اكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»، فقال سهيل: فوالله لو نعلم أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: «إني رسول الله وإن كذبتُموني، اكتب: محمد بن عبد الله»، فقال النبي ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به»، فقال سهيل: والله لا نتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة، ولكن لك من العام المقبل، فكتب.

فقال سهيل : على أن لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك ، إلا رددته علينا .

فقال المسلمون: سبحان الله، كيف
يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما قاضيتك عليه، أن تردّه، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، فقال: فوالله إذا لا أصالحك على شيء أبداً، فقال

النبي ﷺ: «أفجزه لي»، فقال: ما أنا بمجزيه، فقال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل، قال مركز: قد أجزناه.

فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين، أريد إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما لقيت؟ وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً.

قال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأثبت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله ألست نبي الله؟ قال: «بلى». قلت: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى» فقلت: علام نغطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا؟ فقال: «إني رسول الله، وهو ناصرني، ولست أعصيه»، قلت: أولست كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت ومطوف به؟ قال: «بلى»، فأخبرتكم أنكم تأتيه العام؟ قلت: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به».

قال: فأثبت أبا بكر، فقلت له كما
قلت لرسول الله ﷺ، ورد عليه أبو
بكر كما رد عليه رسول الله ﷺ
سواء، وزاد: فاستمسك بغرزه حتى
موت، فوالله إنه لعلي الحق، قال عمر:
فعملت لذلك أعمالا.

فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ: «قوموا وانحروا، ثم احلقوا»، فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقيم منهم أحد، قام فدخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: يا رسول الله أعجب ذلك؟ أخرج، ثم لا تكلم أحداً كلمة حتى تنحر بدتك، وتدعو حالكك فيحلق لك، فقام وأخرج، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدته، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً، ثم جاءت أسوة مؤمنات، فأنزل الله عز وجل: «إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات، حتى بلغن بكم الكوافر، فظننكم عمر

(۱) زیادة من ب.

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَجِدَاءُ عَلَى الْكُفَرِ إِذْ بُدِئَ بِهِمُ
 نَزْلُهُمْ فَجَاهِدًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ وَرِضْوَانًا يَوْمَئِذٍ
 فِي وَجْهِهِمْ خُفْرَةٌ مِنَ الشَّجَرِ ذَلِكَ أَتَتْهُمُ مِنَ الْوَيْلِ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
 فِي الْإِنْجِيلِ كَذِبٌ كَرِيمٌ فَذَرْهُمْ فَانْصَلْطَمُوا مَا كُنْهُمْ غَلْطٌ
 عَلَى سُرُورِهِمْ تَجْعَلُ الْوَقْرَ عَلَى أَعْيُنِهِمْ وَنَدَّاهُ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَتَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَقْبُورَةٌ وَأَجْرًا عَظِيمًا

سُورَةُ الْاِنْجِيلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَهَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَأَقْرَبُوا
 اللَّهُمَّ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَقْرَبُوا إِلَهُكُمْ
 فَوْقَ سَوْنِ الْوَلَدِ وَابْتَغُوا إِلَهَ اللَّهِ أَقْرَبًا لَكُمْ بَيْنَهُمْ
 يُخْشِعُونَ أَنْ تَحْطَ أَغْثُكُمْ وَأَسْفَلُكُمْ فَتُخْشِعُونَ إِنْ أَلَّ الَّذِينَ
 يُخْشِعُونَ أَنْ يَمُوتَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَلَّ الَّذِينَ
 عَلَيْهِمُ الْكُفْرُ إِنَّهُ مَقْبُورَةٌ وَأَجْرًا عَظِيمًا إِنْ أَلَّ الَّذِينَ
 يَتَّقُونَ كَذِبُونَ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ

٥١٥

يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، فتزوج إحداهما معاوية، والأخرى صفوان بن أمية، ثم رجع إلى المدينة. وفي مرجعه أنزل الله عليه: ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾ إلى آخرها، فقال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟ فقال: «نعم»، فقال الصحابة: هنيئاً لك يا رسول الله، فما لنا؟

فأنزل الله عز وجل : ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين﴾ الآية . انتهى .

وهذا آخر تفسير سورة الفتح والله الحمد
والمنة

[وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ
 وَصَحْبِهِ. فَقَتَلْتَهُ مِنْ خَطِّ الْمَقْسَرِ رَحِمَهُ اللَّهُ
 وَعَفَا عَنْهُ، وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْ كِتَابَتِهِ فِي
 ١٣ ذِي الْحِجَّةِ ١٣٤٥. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى
 نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ
 تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ آمِينَ. بِقَلَمِ
 الْفَقِيرِ إِلَى رَبِّهِ سُلَيْمَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْعَبْدِ اللَّهِ
 الْبَسَامِ. غُفِرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِجَمِيعِ
 الْمُسْلِمِينَ آمِينَ. وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ
 وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا
 كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
 يَنْعِمَتُهُ تَمَّ الصَّالِحَاتِ] ^(١)

المجلد الثامن من تيسير الكريم الرحمن في تفسير
كلام المنان من به الله على عبده وابن عبده وابن أمته:
عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن سعدى.

العبد وهو لا يشعر، كما أن الأدب معه من أسباب [حصول الثواب و] قبول الأعمال.

ثم مدح من غض صوته عند رسول الله ﷺ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى أي: ابتلاها واختبرها، فظهرت نتيجة ذلك، بأن صلحت قلوبهم للتقوى، ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم المتضمنة لزوال الشر والمكره، والأجر العظيم، الذي لا يعلم وصفه إلا الله تعالى، وفي الأجر العظيم وجود المحبوب^(١)، وفي هذا دليل على أن الله يمتحن القلوب، بالأمر والنهي والمحن، فمن لازم أمر الله، واتبع رضاه، وسارع إلى ذلك، وقدمه على هواه، تمحض وتمحص للتقوى، وصار قلبه صالحاً لها ومن لم يكن كذلك، علم أنه لا يصلح للتقوى.

﴿٤ - ٥﴾ «إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم» نزلت هذه الآيات الكريمات في أناس من الأعراب، الذين وصفهم الله تعالى بالجفاء، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، قدموا وافدين على رسول الله ﷺ، فوجدوه في بيته وحجرات نسائه، فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج، بل نادوه: يا محمد يا محمد [أي: أخرج إلينا]، فذمهم الله بعدم العقل، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل وعلامته استعمال الأدب.

فأدب العبد، عنوان عقله، وأن الله يريد به الخير، ولهذا قال: ﴿ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم﴾ أي: غفور لما صدر عن عباده من الذنوب والإخلال بالأدب، رحيم بهم، حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثالات.

وفواته تفوته السعادة الأبدية والنعيم السرمدى، وفي هذا، النهي [الشديد] عن تقديم قول غير الرسول ﷺ على قوله، فإنه متى استبان سنة رسول الله ﷺ، وجب اتباعها، وتقديمها على غيرها، كائنات ما كان^(٢).

ثم أمر الله بتقواه عموماً، وهي كما قال طلق بن حبيب: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله، تحشى عقاب الله.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سميعٌ﴾ أي: لجميع الأصوات في جميع الأوقات، في خفي المواضع والجهات، ﴿عليمٌ﴾ بالظواهر والبواطن، والسوابق واللاحق، والواجبات والمستحيلات والممكنات^(٣).

وفي ذكر الاسمين الكريمين - بعد النهي عن التقدم بين يدي الله ورسوله والأمر بتقواه - حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة، وترهيب عن عدم الامتثال^(٤).

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ﴾ وهذا أدب مع رسول الله ﷺ في خطابه، أي: لا يرفع المخاطب له صوته معه فوق صوته، ولا يجهر له بالقول، بل يخفض الصوت، ويخاطبه بأدب ولين، وتعظيم وتكریم، وإجلال وإعظام، ولا يكون الرسول كأحدكم، بل يميزوه في خطابهم، كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة، ووجوب الإيمان به، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به، فإن في عدم القيام بذلك محذوراً، وخشية أن يحبط عمل



تفسير سورة الحجرات وهي مدنية

﴿١ - ٣﴾ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَنْفُسُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * هَذَا مَتَّضِعٌ لِلأَدَبِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى، وَمَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَالتَّعْظِيمُ لَهُ، وَاحْتِرَامُهُ، وَإِكْرَامُهُ، فَأَمَر [الله] عباده المؤمنين بما يقتضيه الإيمان بالله وبرسوله، من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يكونوا ماشين خلف أوامر الله، متبعين لسنة رسول الله ﷺ في جميع أمورهم، و[أن] لا يتقدموا بين يدي الله ورسوله، ولا يقولوا حتى يقول، ولا يأمروا حتى يأمر، فإن هذا حقيقة الأدب الواجب مع الله ورسوله، وهو عنوان سعادة العبد

(١) في ب: من كان.

(٢) في ب: والجاهزات.

(٣) في ب: عن ضده.

(٤) في ب: وفيه حصول كل محبوب.

﴿٦٦﴾ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴿٦٧﴾ وهذا أيضاً من الآداب التي على أولي الأبواب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بخبر أن يشتبوا في خبره، ولا يأخذوه مجرداً، فإن في ذلك خطراً كبيراً، ووقوعاً في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سبباً للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق، التثبت والتبين، فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه، كُذِّب ولم يعمل به، ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقف فيه كما ذكرنا، ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير [من] الخوارج، المعروفين بالصدق، ولو كانوا فاسقاً.

﴿٧-٨﴾ وأعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون * فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴿٩﴾ أي: ليكن لديكم معلوماً أن رسول الله ﷺ بين أظهركم، وهو الرسول الكريم، البار، الراشد، الذي يريد بكم الخير وينصح لكم، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ما لا يوافقكم الرسول عليه، ولو يطيعكم في كثير من الأمر لشق عليكم وأعنتكم، ولكن الرسول يرشدكم، والله تعالى يحب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم، بما أودع الله في قلوبكم من محبة الحق وإشارته، وبما ينصب على الحق من الشواهد والأدلة الدالة على صحته،

وقبول القلوب والفطر له، وبما يفعله تعالى بكم من ترفيقه للإنباء إليه، ويكره إليكم الكفر والفسوق أي: الذنوب الكبار، والعصيان: هي ما دون ذلك من الذنوب^(١)، بما أودع في قلوبكم من كراهة الشر، وعدم إرادة فعله، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساده وعدم قبول الفطر له، وبما يجعله الله من الكراهة في القلوب له^(٢)

﴿أولئك﴾ أي: الذين زين الله الإيمان في قلوبهم، وحبه إليهم، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان هم الراشدون ﴿٩﴾ أي: الذين صلحت علومهم وأعمالهم، واستقاموا على الدين القويم، والصراط المستقيم. وضدهم الغاؤون، الذين حبب إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وكره إليهم الإيمان، والذنب ذنبهم، فإنهم لما فسقوا طبع الله على قلوبهم، ولما زاغوا أزاع الله قلوبهم ﴿١٠﴾ ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة، قلب الله أفئدتهم.

وقوله: ﴿فضلاً من الله ونعمة﴾ أي: ذلك الخير الذي حصل لهم، هو بفضل الله عليهم وإحسانه، لا بحولهم وقوتهم. ﴿والله عليم حكيم﴾ أي: عليم بمن يشكر النعمة فيوقفه لها، ممن لا يشكرها، ولا تليق به، فيضع فضله حيث تقتضيه حكمته.

﴿٩-١٠﴾ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين * إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴿١١﴾ هذا متضمن لنهي المؤمنين [عن] أن يبغي بعضهم على بعض، ويقاتل^(٣) بعضهم بعضاً، وأنه

إذا اقتتل طائفتان من المؤمنين، فإن على غيرهم من المؤمنين أن يتلافوا هذا الشر الكبير، بالإصلاح بينهم، والتوسط بذلك على أكمل وجه يقع به الصلح، ويسلكوا الطريق الموصلة إلى ذلك، فإن صلحتا فيها ونعمت، وإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴿١٢﴾ أي: ترجع إلى ما حد الله ورسوله، من فعل الخير وترك الشر، الذي من أعظمه الاقتتال، [وقوله] ﴿فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل﴾ هذا أمر بالصلح، وبالعدل في الصلح، فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل، بل بالظلم والحيث على أحد الخصمين، فهذا ليس هو الصلح المأمور به، فيجب أن لا يراعى أحدهما لقراءة، أو وطن، أو غير ذلك من المقاصد والأغراض، التي توجب العدول عن العدل، ﴿إن الله يحب المقسطين﴾ أي: العادلين في حكمهم بين الناس وفي جميع الولايات التي تولوها، حتى إنه قد يدخل في ذلك عدل الرجل في أهله وعياله في أدائه حقوقهم، وفي الحديث الصحيح: «المقسطون عند الله على منابر من نور الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا».

﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ هذا عقد عقده الله بين المؤمنين، أنه إذا وجد من أي: شخص كان في مشرق الأرض ومغربها، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فإنه أخ للمؤمنين، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ما يحبون لأنفسهم، ويكرهون له ما يكرهون لأنفسهم، ولهذا قال النبي ﷺ آمراً بحقوق الأخوة الإيمانية: (لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا يبغ أحدكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المؤمن أخو المؤمن،

(١) في ب: أي: الذنوب الصغار.

(٢) في ب: وبما يجعل الله في القلوب من الكراهة له.

(٣) في ب: ويقتل.

لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره^(١).

وقال ﷺ^(٢): «المؤمن للمؤمنين كالبنیان يشد بعضه بعضاً» وشيك بين أصابعه.

ولقد أمر الله ورسوله بالقيام بحقوق المؤمنين بعضهم لبعض، وبما به يحصل التألف والتوادد والتواصل بينهم، كل هذا تأييد لحقوق بعضهم على بعض، فمن ذلك، إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لفرق القلوب وتباغضها [وتدابرها]، فيلصق المؤمنون بين إخوانهم، وليسعوا فيما به يزول شتائهم.

ثم أمر بالتقوى عموماً، ورتب على القيام بحقوق المؤمنين ويتقوى الله، الرحمة [فقال: «لعلكم ترحمون»]، وإذا حصلت الرحمة حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين من أعظم حواجب الرحمة.

وفي هاتين الآيتين من الفوائد، غير ما تقدم: أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية، ولهذا كان من أكبر الكبائر، وأن الإيمان والأخوة الإيمانية لا تزول مع وجود القتال كغيره من الذنوب الكبار التي دون الشرك، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة، وعلى وجوب الإصلاح بين المؤمنين بالعدل، وعلى وجوب قتال البغاة حتى يرجعوا إلى أمر الله، وعلى أنهم لو رجعوا لغير أمر الله، بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه، أنه لا يجوز ذلك، وأن أموالهم معصومة، لأن الله أباح دمائهم وقت استمرارهم على بغيتهم خاصة، دون أموالهم.

﴿١١﴾ «يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون» وهذا أيضاً من حقوق المؤمنين بعضهم على بعض، أن «لا يسخر قوم من قوم» بكل كلام، وقول، وفعل دال على تحقير الأخ المسلم، فإن ذلك حرام لا يجوز، وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه، وعسى أن يكون المسخور به خيراً من الساخر، كما هو^(٣) الغالب والواقع، فإن السخرية لا تقع إلا من قلب متلئ من مساوىء الأخلاق، مُتَحَلِّ بكل خلق ذميم، ولهذا قال النبي ﷺ: «بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم».

ثم قال: «ولا تلمزوا أنفسكم» أي: لا يعيب بعضكم على بعض، واللمز بالقول، والهمز بالفعل، وكلاهما منهي عنه حرام، متوعد عليه بالنار.

كما قال تعالى: «ويل لكل همزة لمزة» الآية، وسمى الأخ المؤمن^(٤) نفساً لأخيه، لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هكذا حالهم كالجسد الواحد، ولأنه إذا همز غيره، أوجب للغير أن يهمزه، فيكون هو المتسبب لذلك.

«ولا تنابزوا بالألقاب» أي: لا يعير أحدهم أخاه، ويلقبه بلقب ذم يكره أن يطلق عليه^(٥)، وهذا هو التنابز، وأما الألقاب غير المذمومة، فلا تدخل في هذا.

«بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان» أي: بئسما تبدلتكم عن الإيمان والعمل بشرائعه، وما تقتضيه بالإعراض عن أوامره ونواهيه، باسم الفسوق والعصيان، الذي هو التنابز بالألقاب.

«ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون» فهذا [هو] الواجب على العبد، أن يتوب إلى الله تعالى، ويخرج من حق أخيه المسلم، باستحلاله والاستغفار، والمدح له مقابلة [على] ذمه.

«ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون» فالناس قسمان: ظالم لنفسه غير تائب، وتائب مفلح، ولا ثم قسم ثالث غيرها.

﴿١٢﴾ «يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً يجب أحدهم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم» نهي تعالى عن كثير من الظن سوء^(٦) بالمؤمنين، ذ «إن بعض الظن إثم» وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة، وكظن سوء، الذي يقترب به كثير من الأقوال، والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن سوء بالقلب، لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به، حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضاً إساءة الظن بالمسلم، وبغضه وعداوته المأمور بخلاف ذلك منه.

«ولا تجسسوا» أي: لا تفتشوا عن عورات المسلمين، ولا تتبعوها، واتركوا^(٧) المسلم على حاله، واستعملوا التغافل عن أحواله^(٨)، التي إذا فتشت ظهر منها ما لا ينبغي.

(١) في ب: أورد الشيخ الحديث كما يلي: (لا تحاسدوا ولا تاحشوا ولا تباغضوا ولا تنابزوا وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، ولا يكذب) متفق عليه.

(٢) في ب: وفيها عن النبي ﷺ.

(٣) في ب: وهو الغالب.

(٤) في ب: المسلم.

(٥) في ب: بلقب يكره أن يقال فيه.

(٦) في ب: السيء.

(٧) في ب: ودعوا.

(٨) في ب: عن زلاته.

ذرة، بل يوفيك إياها أكمل ما تكون لا تفقدون منها صغيراً ولا كبيراً، ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي: غفور لمن تاب إليه وأنا، رحيم به، حيث قبل توبته.

﴿إنما المؤمنون﴾ أي: على الحقيقة ﴿الذين آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا في سبيل الله﴾ أي: من جمعوا بين الإيمان والجهاد في سبيله، فإن من جاهد الكفار، دل ذلك على الإيمان التام في القلب، لأن من جاهد غيره على الإسلام، والقيام بشرائعه، فجهاده لنفسه على ذلك، من باب أولى وأحرى؛ ولأن من لم يقو على الجهاد، فإن ذلك دليل على ضعف إيمانه، وشرط تعالى في الإيمان عدم الريب، وهو الشك، لأن الإيمان النافع هو الجزم اليقيني بما أمر الله بالإيمان به، الذي لا يعتريه شك بوجه من الوجوه.

وقوله: ﴿أولئك هم الصادقون﴾ أي: الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة، فإن الصدق دعوى كبيرة في كل شيء يدعى يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان، وأعظم ذلك دعوى الإيمان الذي هو مدار السعادة، والفوز الأبدي، والفلاح السرمدي، فمن ادعاه وقام بواجباته ولوازمه، فهو الصادق المؤمن حقاً، ومن لم يكن كذلك، علم أنه ليس بصادق في دعواه، وليس لدعواه فائدة، فإن الإيمان في القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالى.

فإثباته ونفيه من باب تعليم الله بما في القلب، وهذا سوء أدب، وظن بالله، ولهذا قال: ﴿قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض﴾ * والله بكل شيء عليم * وهذا شامل للأشياء كلها، التي من جملتها ما في القلوب من الإيمان والكفران، والبر والفجور، فإنه تعالى يعلم ذلك كله ويميز عليه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

هذه حالة من أحوال من ادعى لنفسه الإيمان وليس به، فإنه إما أن

وفي هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب مطلوبة مشروعة، لأن الله جعلهم شعوباً وقبائل لأجل ذلك.

﴿١٤ - ١٨﴾ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم * وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم * إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون * قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السماوات وما في الأرض والله بكل شيء عليم * يمتنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين * إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون * يخبر تعالى عن مقالة الأعراب الذين دخلوا في الإسلام في عهد رسول الله ﷺ دخولاً من غير بصيرة، ولا قيام بما يجب ويقتضيه الإيمان، أنهم ادعوا مع هذا وقالوا: آمنا أي: إيماناً كاملاً، مستوفياً لجميع أموره هذا موجب هذا الكلام، فأمر الله رسوله أن يرد عليهم، فقال: ﴿قل لم تؤمنوا﴾ أي: لا تدعوا لأنفسكم مقام الإيمان، ظاهراً وباطناً، كاملاً.

﴿ولكن قولوا أسلمنا﴾ أي: دخلنا في الإسلام، واقتصروا على ذلك.

﴿و﴾ السبب في ذلك، أنه لما يدخل الإيمان في قلوبكم * وإنما آتتم خوفاً أو رجاءً أو نحو ذلك، مما هو السبب في إيمانكم، فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان في قلوبكم، وفي قوله: ﴿ولما يدخل الإيمان في قلوبكم﴾ أي: وقت هذا الكلام الذي صدر منكم، فكان فيه إشارة إلى أحوالهم بعد ذلك، فإن كثيراً منهم، من الله عليهم بالإيمان الحقيقي، والجهاد في سبيل الله، ﴿وإن تطيعوا الله ورسوله﴾ بفعل خير، أو ترك شر * لا يلتكم من أعمالكم شيئاً * أي: لا ينقصكم منها مثقال

﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً﴾ والغيبة كما قال النبي ﷺ: «ذكرك أخاك بما يكره ولو كان فيه».

ثم ذكر مثلاً منفرأ عن الغيبة، فقال: ﴿أحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ شبه أكل لحمه ميتاً المكروه للنفس [غاية الكراهة] باغتيابه، فكما أنكم تكرهون أكل لحمه، وخصوصاً إذا كان ميتاً، فاقد الروح، فكذلك [فلتكرهوا] غيبته وأكل لحمه حياً.

﴿واتقوا الله إن الله ثواب رحيم﴾ والثواب الذي يأذن بتوبة عبده فيوفقه لها، ثم يتوب عليه بقبول توبته، رحيم بعباده، حيث دعاهم إلى ما ينفعهم، وقبل منهم التوبة، وفي هذه الآية دليل على التحذير الشديد من الغيبة، وأن الغيبة من الكبائر، لأن الله شبهها بأكل لحم الميت، وذلك من الكبائر.

﴿١٣﴾ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ يخبر تعالى أنه خلق بني آدم من أصل واحد، وجنس واحد، وكلهم من ذكر وأنثى، ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء، ولكن الله [تعالى] بث منهما رجالاً كثيراً ونساءً، وفرقهم، وجعلهم شعوباً وقبائل أي: قبائل صفاراً وكباراً، وذلك لأجل أن يتعارفوا، فلأنهم لو استقل كل واحد منهم بنفسه، لم يحصل بذلك التعارف الذي يترتب عليه التناصر والتعاون والتوارث، والقيام بحقوق الأقارب، ولكن الله جعلهم شعوباً وقبائل، لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها مما يتوقف على التعارف، ولحقوق الأنساب، ولكن الكرم بالتقوى، فأكرمهم عند الله أتقاهم، وهو أكثرهم طاعة وانكفافاً عن المعاصي، لا أكثرهم قرابة وقوماً، ولا أشرفهم نسباً، ولكن الله تعالى عليم خبير، يعلم من يقوم منهم بتقوى الله ظاهراً وباطناً، ممن يقوم بذلك ظاهراً لا باطناً، فيجازي كلا بما يستحق.

تفسير سورة ق وهي مكية

وضعف عقولهم، بمنزلة المجنون الذي يستغرب كلام العاقل، وبمنزلة الجبان الذي يتعجب من لقاء الفارس للفرسان، وبمنزلة البخيل الذي يستغرب سخاء أهل السخاء، فأبي: ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله؟ وهل تعجبه إلا دليل على زيادة ظلمه وجهله؟ وإما أن يكونوا متعجبين، على وجه يعلمون خطأهم فيه، فهذا من أعظم الظلم وأشنع.

ثم ذكر وجه تعجبهم، فقال: ﴿إِذَا مَتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ففاسوا قدرة من هو على كل شيء قدير، الكامل من كل وجه، بقدرة العبد الفقير العاجز من جميع الوجوه، وقاسوا الجاهل الذي لا علم له، بمن هو بكل شيء عليم، الذي يعلم ما تنقص الأرض من أجسادهم مدة مقامهم في برزخهم، وقد أحصى في كتابه الذي هو عنده محفوظ عن التغيير والتبديل، كل ما يجري عليهم في حياتهم ومماتهم، وهذا استدلال بكمال علمه، وسعته التي لا يحيط بها إلا هو، على قدرته على إحياء الموتى.

﴿٥﴾ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أي: ﴿بَلْ﴾ كلامهم الذي صدر منهم، إنما هو عناد وتكذيب للحق الذي هو أعلى أنواع الصدق ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ أي: مختلط مشتب، لا يشتون على شيء، ولا يستقر لهم قرار، فتارة يقولون عنك إنك ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر، وكذلك جعلوا القرآن عضيض، كل قال فيه ما اقتضاه رأيه الفاسد، وهكذا كل من كذب بالحق، فإنه في أمر مختلط، لا يدري له وجهة^(١) ولا قرار، [فترى أموره متناقضة متفكة] كما أن من اتبع الحق

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * إِذَا مَتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ * قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيفٌ * يُقَسِّمُ تَعَالَى بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ أَيْ: وَسِعَ المعاني عظيمها، كثير الوجوه كثير البركات، جزيل المبرات. والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها، وأحق كلام يوصف بهذا، هذا القرآن، الذي قد احتوى على علوم الأولين والآخرين، الذي حوى من الفصاحة أكملها، ومن الألفاظ أجزلها، ومن المعاني أعمها وأحسنها، وهذا موجب لكمال اتباعه و[أسرعة] الانقياد له، وشكر الله على المنة به.

ولكن أكثر الناس لا يقدر نعم الله قدرها، ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ أي: المكذبون للرسول ﷺ، ﴿أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي: ينذرهم ما يضرهم، ويأمرهم بما ينفعهم، وهو من جنسهم، يمكنهم التلقي عنه، ومعرفة أحواله وصدقه.

فتعجبوا من أمر لا ينبغي لهم التعجب منه، بل يتعجب من عقل من تعجب منه.

﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ الذين حملهم كفرهم وتكذيبهم، لا نقص بذكائهم وآرائهم^(٥).

﴿هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: مستغرب، وهم في هذا الاستغراب بين أمرين:

إما صادقون في [استغرابهم و] تعجبهم، فهذا يدل على غاية جهلهم،

يكون ذلك تعليماً لله، وقد علم أنه عالم بكل شيء، وإما أن يكون قصدهم بهذا الكلام المنة على رسوله، وأنهم قد بذلوا له [وتبرعوا] بما ليس من مصالحهم، بل هو من حظوظه الدنيوية، وهذا تجمل بما لا يحمل، وفخر بما لا ينبغي لهم أن يفتخروا على رسوله به^(١)، فإن المنة لله تعالى عليهم، فكما أنه تعالى يمن^(٢) عليهم بالخلق والرزق، والنعم الظاهرة والباطنة، فمنته عليهم هدايتهم إلى الإسلام، ومنته عليهم بالإيمان، أعظم^(٣) من كل شيء، ولهذا قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَل لَّا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنْ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: الأمور الخفية فيها، التي تخفى على الخلق، كالذي في لجج البحار، ومهامم القفار، وما جئ الليل أو وراه النهار، يعلم قطرات الأمطار، وحيات الرمال، ومكنونات الصدور، وخبايا الأمور.

﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مَبِينٍ﴾.

﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يحصي عليكم أعمالكم، ويوفيككم إياها، ويجازيككم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة وحكمته البالغة.

تم تفسير سورة الحجرات،
بمعون الله ومنه وجوده وكرمه،
فلك اللهم من الحمد أكمله وأتمه،
ومن الجود أفضله وأعمه^(٤)

(١) في ب: لا ينبغي لهم الفخر به على رسوله.

(٢) في ب: هو المان.

(٣) في ب: أفضل.

(٤) في ب: يعد قوله وكرمه: والحمد لله.

(٥) كذا في ب، وفي أ: لا نقص بقلوبهم وعقولهم.

(٦) في ب: وجه.

أحد، وأنه الذي لا تنبغي العبادة والذل [والحب] إلا له تعالى.

وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها، دليل على إحياء الله الموتى، ليجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: ﴿وَأَحْيَيْنَاهُ بِلَدَّةٍ مِيتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾.

ولما ذكرهم بهذه الآيات السماوية والأرضية، خوَّفهم أخذات الأمم، وألا يستمروا على ما هم عليه من التكذيب، فيصيبهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين، فقال:

﴿١٢- ١٥﴾ ﴿كَذَبْتَ قَبْلَهُمْ قَوْمَ نُوحٍ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَثَمُودَ * وَعَادَ وَفِرْعَوْنَ وَإِخْوَانَ لُوطَ * وَأَصْحَابَ الْأَيْكَةِ وَقَوْمَ تُعَ كَذَبَ الرَّسْلَ فَحَقَّ وَعِيدُ * أَفَمِيتًا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ * أَي: كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْأُمَمِ رُسُلَهُمُ الْكِرَامَ وَأَنْبِيَاءَهُمُ الْعِظَامُ، كـ «نُوحٍ» كَذَبَهُ قَوْمُهُ [وَتَمُودَ كَذَبُوا صَالِحًا] (٦)، وَعَادَ كَذَبُوا «هُودًا»، وَإِخْوَانَ لُوطَ كَذَبُوا «لُوطًا»، وَأَصْحَابَ الْأَيْكَةِ كَذَبُوا «شُعَيْبًا»، وَقَوْمَ تُعَ، وَتَبَعَ كُلُّ مَلِكٍ مَلِكَ الْيَمَنِ فِي الزَّمَانِ السَّابِقِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ (٧) فَقَوْمُ تُعَ كَذَبُوا الرَّسُولَ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يُخْبِرْنَا اللَّهُ مِنْ هُوَ ذَلِكَ الرَّسُولُ، وَأَي: تُتَّبَعُ مِنَ التَّبَاعَةِ، لِأَنَّهُ - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - كَانَ مَشْهُورًا عِنْدَ الْعَرَبِ لَكُونِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ الْعَرَبَاءِ، الَّذِينَ لَا تُخْفَى مَاجِرَاتِهِمْ عَلَى الْعَرَبِ خُصُوصًا مِثْلَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ الْعَظِيمَةِ.

فَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ كَذَبُوا الرَّسْلَ، الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ، فَحَقَّ عَلَيْهِمْ وَعِيدُ اللَّهِ وَعَقُوبَتُهُ، وَلَسْتُمْ أَبْهَى الْمَكْذُوبِينَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرًا مِنْهُمْ، وَلَا

الْفَوَاكِهُ اللَّذِيذَةِ، مِنَ الْعَنْبِ وَالرَّمَانِ وَالْأَثْرَجِ وَالتَّفَاحِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَصْنَافِ الْفَوَاكِهِ، وَمِنْ النَّخِيلِ الْبَاسِقَاتِ أَي: الطَّوَالِ، الَّتِي يَطُولُ (٣) نَفْعُهَا وَتَرْتَفِعُ إِلَى السَّمَاءِ حَتَّى تَبْلُغَ مَبْلَغًا لَا يَبْلُغُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأَشْجَارِ، فَتَخْرُجُ مِنَ الطَّلَعِ النَّضِيدِ، فِي قَتَوَانِهَا مَا هُوَ رِزْقٌ لِلْعِبَادِ قَوْتًا وَأَدْمًا وَفَاكِهَةً، يَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَدْخَرُونَ، هُمْ وَمَوَاشِيَهُمْ وَكَذَلِكَ مَا يُخْرِجُ اللَّهُ بِالطَّرِ، وَمَا هُوَ أَثَرُهُ مِنَ الْأَنْهَارِ الَّتِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، وَالَّتِي تَحْتَهَا مِنْ حَبِّ الْحَصِيدِ، أَي: مِنَ الزَّرْعِ الْمَحْصُودِ، مِنْ بُرٍّ وَشَعِيرٍ، وَذَرَّةٍ، وَأَرَزٍ، وَدَخْنٍ وَغَيْرِهِ.

فَإِنْ فِي النَّظَرِ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ﴿تَبَصَّرْ﴾ يَتَبَصَّرُ بِهَا مِنْ عَمَى الْجَهْلِ، ﴿وَذَكَّرْ﴾ يَتَذَكَّرُ بِهَا مَا يَنْفَعُ فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا، وَيَتَذَكَّرُ بِهَا مَا أَخْبَرَ اللَّهَ بِهِ، وَأَخْبَرَتْ بِهِ رُسُلُهُ، وَلَيْسَ ذَلِكَ لِكُلِّ أَحَدٍ، بَلْ ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مَنِيبٍ﴾ إِلَى اللَّهِ أَي: مُقْبِلٍ عَلَيْهِ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَإِجَابَةِ دَاعِيهِ، وَأَمَّا الْمَكْذِبُ أَوْ الْمَعْرُضُ، فَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ.

وحاصل هذا، أن ما فيها من الخلق الباهر، والشدة والقوة، دليل على كمال قدرة الله تعالى، وما فيها من الحسن والإتقان، ويديع الصنعة، ويديع الخلقة (٤)، دليل على أن الله أحكم الحاكمين، وأنه بكل شيء عليم، وما فيها من المنافع والمصالح للعباد، دليل على رحمة الله التي وسعت كل شيء، وجوده الذي عم كل حي، وما فيها من عظم الخلقة ويديع النظام، دليل على أن الله تعالى هو الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، ولم يكن له كفورًا

وصدق به، قد استقام أمره، واعتدل سبيله، وصدق فعله قبله.

﴿٦٦- ١١﴾ ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بُنِيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ * وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَالْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبَصَّرْ وَذَكَّرْ لِكُلِّ عَبْدٍ مَنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ * رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَاهُ بِلَدَّةٍ مِيتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ لَمَّا ذَكَرَ تَعَالَى حَالَةَ الْمَكْذِبِينَ وَمَا ذَمَّهُمْ بِهِ، دَعَاهُمْ إِلَى النَّظَرِ فِي آيَاتِهِ (١) الْأَفْقِيَّةِ، كَيْ يَعْتَبِرُوا، وَيَسْتَدْلُوا بِهَا عَلَى مَا جَعَلَتْ أَدْلَةً عَلَيْهِ، فَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ﴾ أَي: لَا يَحْتَاجُ ذَلِكَ النَّظَرَ إِلَى كَلْفَةٍ وَشَدِّ رَحْلٍ، بَلْ هُوَ فِي غَايَةِ السَّهُولَةِ، فَيَنْظُرُونَ ﴿كَيْفَ بُنِيْنَاهَا﴾ قَبَّةً مُسْتَوِيَةً الْأَرْجَاءِ، ثَابِتَةً الْبِنَاءِ، مَزِينَةً بِالنَّجُومِ الْخَنَسِ، وَالْجَوَارِ الْكَنَسِ، الَّتِي ضَرَبَتْ مِنَ الْأَفَقِ إِلَى الْأَفَقِ فِي غَايَةِ الْحَسَنِ وَالْمَلَاخَةِ، لَا تَرَى فِيهَا عَيْبًا، وَلَا فُرُوجًا، وَلَا خِلَالَ، وَلَا إِخْلَالَ.

قَدْ جَعَلَهَا اللَّهُ سَقْفًا لِأَهْلِ الْأَرْضِ، وَأَوْدَعَ فِيهَا مِنْ مَصَالِحِهِمُ الضَّرُورِيَّةِ مَا أَوْدَعَ.

﴿و﴾ إِلَى «الْأَرْضِ كَيْفَ مَدَدْنَاهَا» وَوَسَّعْنَاهَا، حَتَّى أَمَكَّنَ كُلَّ حَيَوَانَ السَّكُونِ فِيهَا وَالْإِسْتِقْرَارَ (٢)، وَالْإِسْتِعْدَادَ لِجَمِيعِ مَصَالِحِهِ، وَأَرْسَاهَا بِالْجِبَالِ، لِتُسْتَقَرَّ مِنَ التَّنَزُّلِ وَالتَّوْجُجِ، ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أَي: مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ النَّبَاتِ الَّتِي تُسَرِّ نَازِلَهَا، وَتُعْجِبُ مَبْصَرَهَا، وَتَقَرُّ عَيْنَ رَامِقِهَا، لِأَكْلِ بَنِي آدَمَ، وَأَكْلِ بَهَائِمِهِمْ وَمَنْفَعِهِمْ، وَخَصَّ مِنْ تِلْكَ الْمَنَافِعِ بِالذِّكْرِ، الْجَنَّاتِ الْمُشْتَمِلَةَ عَلَى

(١) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: آيَاتُ اللَّهِ.

(٢) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: الْقَرَار.

(٣) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: الَّتِي يَسْتَمِرُّ نَفْعُهَا، وَيَطُولُ حَتَّى تَبْلُغَ مَبْلَغًا لَا يَبْلُغُ إِلَيْهِ.

(٤) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: وَعَجِيبُ الْخَلْقَةِ.

(٥) زِيَادَةٌ مِنْ هَامِشٍ ب.

(٦) كَذَا فِي ب، وَفِي أ: وَقَوْمُ تُعَ وَهُوَ كُلُّ مَلِكٍ مَلِكِ الْيَمَنِ فِي الزَّمَانِ السَّابِقِ يُقَالُ لَهُ تَبَعَ.

رسلهم أكرم على الله من رسولكم، فاحذروا جرمهم، لئلا يصيبكم ما أصابهم.

ثم استدل تعالى بالخلق الأول - وهو المنشأ الأول^(١) - على الخلق الآخر، وهو النشأة الآخرة.

فكما^(٢) أنه الذي أوجدهم بعد العدم، كذلك يعيدهم بعد موتهم وصبرورثهم إلى الرفات وآ الرمم، فقال: ﴿أفعبينا﴾ أي: أفعجزنا وضعفت قدرتنا ﴿بالخلق الأول﴾؟ ليس الأمر كذلك، فلم نعجز ونغي عن ذلك، وليسوا في شك من ذلك، وإنما هم في لبس من خلق جديد هذا الذي شكوا فيه، والتبس عليهم أمره، مع أنه لا محل لللبس فيه، لأن الإعادة أهون من الابتداء، كما قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾.

﴿١٦ - ١٨﴾ ﴿ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾ * إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد * ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد * يخبر تعالى أنه المتفرد بخلق^(٣) جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله وما يسره، ويوسوس في صدره^(٤)، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد، الذي هو أقرب شيء إلى الإنسان، وهو العرق^(٥) المكتنف لثغرة النحر، وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب منه^(٦) في جميع

أحواله، فيستحيي منه أن يراه حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره، وكذلك ينبغي له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيجلهم ويوقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه، مما لا يرضي رب العالمين، ولهذا قال: ﴿إذ يتلقى المتلقيان﴾ أي: يتلقيان عن العبد أعماله كلها، واحد ﴿عن اليمين﴾ يكتب الحسنات، ﴿و﴾ الآخر ﴿عن الشمال﴾ يكتب السيئات، وكل منهما ﴿عتيد﴾ بذلك متهيئ لعمله الذي أعد له، ملازم له^(٧) ﴿ما يلفظ من قول﴾ خير أو شر ﴿إلا لديه رقيب عتيد﴾ أي: مراقب له، حاضر لحاله، كما قال تعالى: ﴿وإن عليكم لحافظين﴾ * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾.

﴿١٩ - ٢٢﴾ ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد﴾ * ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد * وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد * لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾ أي: ﴿وجاءت﴾ هذا الغافل المكذب بآيات الله ﴿سكرة الموت بالحق﴾ الذي لا مرد له ولا مناص، ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ أي: تتأخر وتنكص^(٨) عنه، ﴿ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد﴾ أي: اليوم الذي يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب، والمؤمنين ما وعدهم به من الشواب، ﴿وجاءت كل نفس معها سائق﴾ يسوقها إلى موقف القيامة، فلا

يمكنها أن تتأخر عنه، ﴿وشهيد﴾ يشهد عليها بأعمالها، خيرها وشرها، وهذا يدل على اعتناء الله بالعباد، وحفظه لأعمالهم، ومجازاته لهم بالعدل، فهذا الأمر، مما يجب أن يجعله العبد منه على بال، ولكن أكثر الناس غافلون، ولهذا قال: ﴿لقد كنت في غفلة من هذا﴾ أي: يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام توبيخاً، ولوماً وتعنيفاً أي: لقد كنت مكذباً بهذا، تاركاً للعمل له فالآن ﴿كشفنا عنك غطاءك﴾ الذي غطى قلبك، فكشرك نومك، واستمر^(٩) إعراضك، ﴿فبصرك اليوم حديد﴾ ينظر ما يزعجه ويروعه من أنواع العذاب والنكال.

أو هذا خطاب من الله للبعد فإنه في الدنيا في غفلة^(١٠) عما خلق له، ولكنه يوم القيامة ينتبه ويزول عنه وسنه، ولكنه في وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط، ولا يستدرك الفائت، وهذا كله تخويف من الله للعباد، وترهيب بذكر ما يكون على المكذبين في ذلك اليوم العظيم.

﴿٢٣ - ٢٩﴾ ﴿وقال قرينه هذا ما لدي عتيد﴾ * ألقيا في جهنم كل كفار عنيد * متاع للخبير معتد مريب * الذي جعل مع الله إلهاً آخر فآلقياه في العذاب الشديد * قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد * قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد * ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد﴾ يقول تعالى: ﴿وقال قرينه﴾ أي: قرين هذا المكذب

(١) في ب: النشأة الأولى.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وأنه كما أنه.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أنه الذي خلق.

(٤) في ب: وتوسوس به نفسه.

(٥) في ب: العظم.

(٦) في ب: إليه.

(٧) في ب: لذلك.

(٨) كذا في ب، وفي أ: تحيد.

(٩) كذا في ب، وفي أ: ودام.

(١٠) كذا في ب، وفي أ: أنه في غفلة في الدنيا.

تلوموني ولوموا أنفسكم... الآية^(٤).

قال الله تعالى مجيباً لاختصاصهم: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدِيََّ أَيُّ: لَا فائدة في اختصاصكم^(٥) عندي، ﴿وَالْحَالُ أَنِّي: قد قدمت إليكم بالوعيد﴾ أي: جاء تكلم رسلي بالآيات البينات، والحجج الواضحات، والبراهين الساطعات، فقامت عليكم حجتي، وانقطعت حجبتكم، وقدمتم علي بما أسلفتم من الأعمال التي وجب جزاؤها.

﴿مَا يَسِدِلُ الْقَوْلُ لَدِيَ: أي: لا يمكن أن يخلف ما قاله الله وأخبر به، لأنه لا أصدق من الله قبيلاً، ولا أصدق حديثاً.

﴿وَمَا أَنَا بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ بل أجزيهم بما عملوا من خير وشر، فلا يزداد في سيئاتهم، ولا ينقص من حسناتهم.

﴿٣٥-٣٠﴾ ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ * وَأَزْلَفْتُ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ يقول تعالى مخوفاً لعباده: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلْ امْتَلَأْتِ﴾ وذلك من كثرة ما ألقى فيها، ﴿وتقول هل من مزيد﴾ أي: لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين العاصين، غضباً لربها، وغيطاً على الكافرين.

وقد وعدنا الله ملاها، كما قال تعالى: ﴿لَا مَلَأْنَ جَهَنَّمَ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ حتى يضع رب العزة عليها قدمه الكريمة المنزهة عن التشبيه،

المعرض، من الملائكة، الذين وكلهم الله على حفظه وحفظ أعماله، فيحضره يوم القيامة ويحضر أعماله ويقول: ﴿هَذَا مَا لَدِيَ عِتِيدٍ﴾ أي: قد أحضرت ما جعلت عليه، من حفظه وحفظ عمله، فيجازى بعمله.

ويقال لمن استحق النار: ﴿الْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: كثير الكفر والعناد لآيات الله، المكثّر من المعاصي، المجترئ على المحارم والمأثم.

﴿مَنَاعٌ لِلْخَيْرِ﴾ أي: يمنع الخير الذي عنده^(١)، الذي أعظمه الإيمان بالله ﴿وملائكته﴾^(٢) وكتبه ورسله مناع، لنفع ماله ويدنه، ﴿مَعْتَدٌ﴾ على عباد الله، وعلى حدوده^(٣)، ﴿مَرِيبٌ﴾ أي: شاك في وعد الله ووعيده، فلا إيمان ولا إحسان ولكن وصفه الكفر والعدوان، والشك والريب والشع، واتخاذ الآلهة من دون الرحمن، ولهذا قال: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي: عبد معه غيره، ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ﴿فَالْقِيَاءُ﴾ أيها الملكان القرينان ﴿فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ الذي هو معظما وأشدّها وأشنعها.

﴿قَالَ قَرِينُهُ﴾ الشيطان، متبرئاً منه، حاملاً عليه إثمه: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتَنِي﴾ لأنني لم يكن لي عليه سلطان ولا حجة ولا برهان، ولكن كان في الضلال البعيد، فهو الذي ضل وأبعد عن الحق باختياره، كما قال في الآية الأخرى:

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لِمَا قَضَى الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا

(١) في ب: قِيلَهُ.

(٢) زيادة من هامش ب.

(٣) في أ زيادة هنا هي (أثيم) أي كثير الإثم) ويبدو أن الشيخ سبق قلمه لآيات سورة القلم. وقد شطبت الزيادة من ب.

(٤) في ب وقف عند قوله: (فأخلفتكم).

(٥) كذا في ب، وفي أ: خصاكم.

(٦) كذا في ب، وفي أ: يزيد.

(٧) في ب: أثم.



فيزوي بعضها على بعض، وتقول: قط، قد اكتفيت وامتلات، ﴿وَأَزْلَفْتُ الْجَنَّةَ﴾ أي: قربت بحيث تشاهد وينظر ما فيها، من النعيم المقيم، والحبرة والسرور، وإنما أزلفت وقربت، لأجل المتقين لربهم، التاركين للشرك، صغيره وكبيره، الممتثلين لأوامر ربهم، المنقادين له، ويقال لهم على وجه التهنية: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ﴾ أي: هذه الجنة وما فيها مما تشبهه الأنفس وتلد الأعين، هي التي وعد الله كل أواب أي: رجّاع إلى الله في جميع الأوقات، بذكره وحبه، والاستعانة به، ودعائه وخوفه ورجائه.

﴿حَفِيفٌ﴾ أي: يحافظ على ما أمر الله به، بامتثالها على وجه الإخلاص والإكمال له، على أكمل^(٧) الوجوه، حفيظ لحدوده، ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ﴾ أي: خافه على وجه المعرفة بربه، والرجاء لرحمته، ولأزم على

عنهم ﴿أي: عن الأموات﴾.

﴿سراعاً﴾ أي: يسرعون لإجابة الداعي لهم إلى موقف القيامة، ﴿ذلك حشر علينا يسير﴾ أي: هيئ^(٢) على الله، يسير لا تعب فيه ولا كلفة، ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ لك عما يحزنك من الأذى، وإذا كنا أعلم بذلك، فقد علمت كيف اعتناؤنا بك، وتيسيرنا لأمورك، ونصرنا لك على أعدائك، فليفرح قلبك، ولتطمئن نفسك، ولتعلم أننا أرحم بك وأرف من نفسك، فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله، والتأسي بأولي العزم من رسل الله، ﴿وما أنت عليهم بجبار﴾ أي: مسلط عليهم ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾ ولهذا قال: ﴿فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾ والتذكير [هو] تذكير ما تقرر في العقول والفطر، من محبة الخير وإيثاره وفعله، ومن بغض الشر ومجانبته، وإنما يتذكر بالتذكير من يخاف وعيد الله، وأما من لم يخف الوعيد ولم يؤمن به، فهذا فائدة تذكيره إقامة الحجة عليه، لئلا يقول: ﴿ما جاءنا من بشير ولا نذير﴾.

آخر تفسير سورة ق، والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً

تفسير سورة الذاريات مكية

﴿١٦-٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والذاريات ذروا﴾ فالحاملات وقرأ ﴿فالجاريات يسراً﴾ فالقسمات أمراً ﴿إنما توعدون لصادق﴾ وإن الدين لواقع ﴿هذا قسم من الله الصادق في قبيله، بهذه المخلوقات العظيمة التي جعل الله فيها من المصالح والمنافع ما جعل على أن وعده صادق، وأن الدين الذي هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال، لواقع لا محالة، ما له من دافع، فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه، وأقام الأدلة والبراهين عليه، فلم يكذب به

المكذبون، ويعرض عن العمل له العاملون.

والمراد بالذاريات: هي الرياح التي تندروا في هبوبها ﴿ذروا﴾ بليتها، ولطفها، وقوتها، وإزعاجها، ﴿والحاملات وقرأ﴾ السحاب، تحمل الماء الكثير، الذي ينفع الله به البلاد والعباد، ﴿والجاريات يسراً﴾: النجوم التي تجري على وجه اليسر والسهولة، فتزين بها السماوات، ويهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وينتفع بالاعتبار بها، ﴿والمقسمات أمراً﴾: الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره بإذن الله، فكل منهم قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا وأمور الآخرة، لا يتعدى ما قدر له وما أخذ ورسم، ولا ينقص منه.

﴿٧-٩﴾ ﴿والسماوات ذات الحجب﴾ إنكم لفي قول مختلف ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي: والسماوات ذات الطرائق الحسنة، التي تشبه حجب الرمال، ومياه الغدران، حين يجرکہا النسيم، ﴿إنكم﴾ أيها المكذبون لمحمد ﷺ، ﴿لفي قول مختلف﴾ منكم من يقول ساحر، ومنكم من يقول كاهن، ومنكم من يقول مجنون، إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة، الدالة على حيرتهم وشكهم، وأن ما هم عليه باطل، ﴿يؤفك عنه من أفك﴾ أي: يصرف عنه من الإيمان، وانصرف قلبه عن أدلة الله اليقينية وبراهينه، واختلاف قولهم دليل على فساده وبطلانه، كما أن الحق الذي جاء به محمد ﷺ، متفق [يصدق بعضه بعضاً] لا تناقض فيه ولا اختلاف، وذلك دليل على صحته، وأنه من عند الله ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

﴿١٠-١٤﴾ ﴿قتل الخراصون﴾ الذين هم في غمرة ساهون ﴿يسألون﴾ أيان يوم الدين ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾ ذوقوا فتنتكم هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴿يقول تعالى﴾ قتل

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَعَلَّمْنَاهُ مَوَاقِفَهُ ثُمَّ نَعَى عَنْ آيَاتِهِ
مِنْ خَلْقِ الْوَيْدِ ﴿إِنْ تَنَادَى الثَّقَلَيْنِ فِي الْبَيْنِ نَدَى الْفَيْدِ
ثَقَلَيْنِ قَوْلُ الْوَيْدِ لَا يَدِينُ مِنْ عَيْنِهِ وَصَدَّتْ سَكْرُهُ
لَقَوْلِ الْوَيْدِ ذَاكَ مَا كُنْتَ تَعْبُدُ وَنَفَعَ فِي الصُّورِ الْوَيْدِ
يَوْمَ الْوَيْدِ وَصَدَّتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا وَوَيْدَهُ قَدْ كُنْتُ
فِي عَقْدِهِ مِنْ ذَلِكَ كَفَفْتُ عَنْكَ عَقْدَهُ لَقَوْلِهِ الْوَيْدِ
وَقَالَ فِي يَوْمِهِ هَذَا مَا دَعَى عَيْنَهُ الْوَيْدِ جَهَنَّمَ كُلُّهَا عَيْنُهُ
تَسَاءَلُ لِقَوْلِهِ مَعْدُومٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ الْقَوْلِ الْوَيْدِ
فَالْقِيَامَةُ فِي الْعَذَابِ الْوَيْدِ ﴿قَالَ لَهُ رَبِّي إِنَّا الْقَائِلُونَ
كَانَ خَلْقُ الْوَيْدِ قَوْلُ الْوَيْدِ لَقَوْلِهِ قَدْ كُنْتُ الْوَيْدِ
يَا الْوَيْدِ نَادَى الْقَوْلُ الْوَيْدِ وَأَنَا الْوَيْدُ لِلْقَيْدِ يَوْمَ
قَوْلِ الْوَيْدِ هَلْ أَتَاكَ بِقَوْلِهِ الْوَيْدِ وَالْوَيْدِ الْوَيْدِ
الْقَائِلُونَ عَيْنُهُ هَذَا مَا دَعَى كُلُّ الْوَيْدِ سَوِيظُ
مَنْ تَنَادَى الْقَوْلُ الْوَيْدِ وَنَدَى قَوْلِ الْوَيْدِ أَدْعَاهَا يَوْمَ
ذَلِكَ يَوْمَ الْوَيْدِ لَقَوْلِهِ الْوَيْدِ وَنَدَى الْوَيْدِ تَرِيدُ

الخراصون ﴿أي: قاتل الله الذين كذبوا على الله، وجحدوا آياته، وخاضوا بالباطل، ليدحضوا به الحق، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون، الذين هم في غمرة﴾ أي: في لجة من الكفر والجهل والضلال، ﴿ساهون﴾ يسألون ﴿على وجه الشك والتكذيب أيان يبعثون أي: متى يبعثون، مستبشرين لذلك، فلا تسأل عن حالهم وسوء ما لهم﴾ يوم هم على النار يفتنون ﴿أي: يعذبون بسبب ما انطوا عليه من خبث الباطن والظاهر، ويقال [لهم]: ﴿ذوقوا فتنتكم﴾ أي: العذاب والنار، الذي هو أثر ما افتتوا به، من الابتلاء الذي صيرهم إلى الكفر والضلال، ﴿هذا﴾ العذاب، الذي وصلتكم إليه، [هو] الذي كنتم به تستعجلون ﴿فالآن تمتعوا بأنواع العقاب والنكال، والسلاسل والأغلال، والسخط والوبال.

﴿١٥-١٩﴾ ﴿إن المتقين في جنات وعيون﴾ آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ وبالأسحار هم يستغفرون ﴿وفي أموالهم حق للسائل والمحروم﴾ يقول تعالى في ذكر ثواب المتقين وأعمالهم، التي أوصلتهم إلى

أموالهم حق واجب ومستحب للساائل والمحروم* أي: للمحتاجين الذين يطلبون من الناس، والذين لا يطلبون منهم^(٤).

﴿٢٠ - ٢٣﴾ وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون * وفي السماء رزقكم وما توعدون * فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون يقول تعالى - داعياً عباده إلى التفكير والاعتبار -: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾ وذلك شامل لنفس الأرض، وما فيها من جبال وبحار وأنهار وأشجار ونبات، تدل المتفكر فيها، المتأمل لمعانيها، على عظمة خالقها، وسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه بالظواهر والبواطن. وكذلك في نفس العبد من العبر والحكمة والرحمة ما يدل على أن الله وحده الأحد^(٥) الفرد الصمد، وأنه لم يخلق الخلق سدى.

وقوله: ﴿وفي السماء رزقكم﴾ أي: مادة رزقكم من الأمطار، وصنوف الأقدار، الرزق الديني والدنيوي، وما توعدون* من الجزاء في الدنيا والآخرة، فإنه ينزل من عند الله كسائر الأقدار، فلما بين الآيات ونبه عليها تنبيهاً ينتبه به الذكي اللبيب، أقسم تعالى على أن وعده وجزاءه حق، وشبه ذلك بأظهر الأشياء [لنا] وهو النطق، فقال: ﴿فو رب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون﴾ فكما لا تشكون في نطقكم، فكذلك لا ينبغي الشك في البعث بعد الموت^(٦).

﴿٢٤ - ٣٧﴾ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين إذ دخلوا عليه

الوجوه، ولما نهى عنه، بالانزجار عنه الله، على أكمل وجه، فإن الذي أعطاهم الله من الأوامر والنواهي هو أفضل العطايا، التي حقها أن تتلقى بالشكر [الله] عليها والانتقاد.

والمعنى الأول ألصق بسياق الكلام، لأنه ذكر وصفهم في الدنيا، وأعمالهم بقوله: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك﴾ الوقت الذي وصلوا به إلى النعيم ﴿محسنين﴾ وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم، بأن يعبدوه كأنهم يرونه، فإن لم يكونوا يرونه، فإنه يراهم، وللإحسان إلى عباد الله ببذل النفع والإحسان، من مال، أو علم، أو جاه، أو نصيحة، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر، أو غير ذلك من وجوه الإحسان^(٧)، وطرق الخيرات.

حتى إنه يدخل في ذلك، الإحسان بالقول، والكلام اللين، والإحسان إلى الممالك، والبهاائم المملوكة وغير المملوكة^(٨)، ومن أفضل أنواع الإحسان في عبادة الخالق، صلاة الليل، الدالة على الإخلاص، وتواطؤ القلب واللسان، ولهذا قال: ﴿كانوا﴾ أي: المحسنون ﴿قليلًا من الليل ما يجمعون﴾ أي: كان هجوعهم أي: نومهم بالليل قليلاً، وأما أكثر الليل، فإنهم قانتون لربهم، ما بين صلاة، وقراءة، وذكر، ودعاء، وتضرع، وبالأسحار التي هي قبيل الفجر ﴿هم يستغفرون﴾ الله تعالى، فمدوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل، يستغفرون الله تعالى، استغفار المذنب لذنبه، وللاستغفار بالأسحار فضيلة وخصيصة ليست لغيره، كما قال تعالى في وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿والمستغفرين بالأسحار﴾ وفي



ذلك الجزاء: ﴿إن المقيمين﴾ أي: الذين كانت التقوى شعارهم، وطاعة الله دثارهم، ﴿في جنات﴾ مشتملات على جميع [أصناف] الأشجار والفواكه التي يوجد لها نظير في الدنيا، والتي لا يوجد لها نظير، مما لم تنظر العيون إلى مثله، ولم تسمع الآذان، ولم يخطر على قلوب العباد^(٩)، ﴿وعيون﴾ سارحة، تشرب منها البساتين، ويشرب بها عباد الله، يفجرونها تفجيراً، ﴿آخذين ما آتاهم ربهم﴾ يحتمل أن المعنى أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم، من جميع أصناف النعيم، فأخذوا ذلك، راضين به، قد قرت به أعينهم، وفرحت به نفوسهم، ولم يطلبوا منه بدلاً، ولا يغيون عنه حولاً، وكل قد ناله من النعيم ما لا يطلب عليه المزيد، ويحتمل أن هذا وصف المتقين في الدنيا، وأنهم آخذون ما آتاهم الله، من الأوامر والنواهي أي: قد تلقوها بالرحب وانشرح الصدر، متقادين لما أمر الله به، بالامتثال على أكمل

(١) في ب: قلب بشر.

(٢) في ب: من وجه البر.

(٣) كذا في ب، وفي أ: التي تملك والتي لا تملك.

(٤) في ب: والذين لا يسألونهم.

(٥) في ب: أن الله واحد أحد.

(٦) في ب: فكذلك ينبغي أن لا يعترىكم الشك في البعث والجزاء.

فصل في بعض ما تضمنته هذه القصة من الحكم والأحكام

منها: أن من الحكمة، قص الله على عباده نبأ الأخيار والفجار، ليعتبروا بحالهم^(٣)، وأين وصلت بهم الأحوال.

ومنها: فضل إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، حيث ابتدأ الله قصته بما يدل على الاهتمام بشأنها، والاعتناء بها.

ومنها: مشروعية الضيافة، وأنها من سنن إبراهيم الخليل، الذي أمر الله هذا النبي^(٤) وأمته، أن يتبعوا ملته، وساقها الله في هذا الموضع، على وجه المدح له والثناء.

ومنها: أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام، بالقول والفعل، لأن الله وصف أضياف إبراهيم بأنهم مكرمون أي: أكرمهم إبراهيم، ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة قولاً وفعلًا، ومكرمون أيضاً عند الله تعالى.

ومنها: أن إبراهيم عليه السلام، قد كان بيته مأوى للطارقين والأضياف، لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان، وإنما سلكوا طريق الأدب في الابتداء بالسلام^(٥)، فرد عليهم إبراهيم سلاماً أكمل من سلامهم وأتم، لأنه أتى به جملة اسمية دالة على الثبوت والاستقرار.

ومنها: مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان، أو صار له فيه نوع اتصال، لأن في ذلك فوائد كثيرة.

ومنها: أدب إبراهيم ولطفه في الكلام، حيث قال: ﴿قوم منكرون﴾ ولم يقل: ﴿أنكرتكم﴾ [وبين اللفظين من الفرق ما لا يخفى].

ومنها: المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها، لأن خير البر عاجله [ولهذا يبادر إبراهيم بإحضار قري أضيافه].

ومنها: أن الذبيحة الحاضرة، التي

معه النساء، ومع ذلك، فأنا عقيم، غير صالح رحمي للولادة أصلاً، فثُمَّ مانعان، كل منهما مانع من الولد، وقد ذكرت المانع الثالث في سورة هود بقولها: ﴿وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب﴾.

﴿قالوا كذلك قال ربك﴾ أي: الله الذي قدر ذلك وأمضاه، فلا عجب في قدرة الله تعالى ﴿إنه هو الحكيم العليم﴾ أي: الذي يضع الأشياء مواضعها، وقد وسع كل شيء علماً فسلموا لحكمه، واشكروه على نعمته.

قال لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿فما خطبكم أيها المرسلون﴾ الآيات، أي: ما شأنكم وما تريدون؟ لأنه استشعر^(١) أنهم رسل، أرسلهم الله لبعض الشؤون المهمة.

﴿٣٢﴾ ﴿قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين﴾ وهم قوم لوط، قد أجرموا، أشركوا بالله، وكذبوا رسولهم، وأتوا الفاحشة الشنعاء التي ما سبقهم إليها أحد من العالمين.

﴿لنرسل عليهم حجارة من طين﴾ مسوأة عند ربك للمسرفين^(٢) أي: معلمة، على كل حجر منها سمة صاحبه^(٣)، لأنهم أسرفوا وتجاوزوا الحد، فجعل إبراهيم يجادلهم في قوم لوط، لعل الله يدفع عنهم العذاب، فقال الله: ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيتهم عذاب غير مردود﴾.

﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين﴾ فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين^(٤) وهم بيت لوط عليه السلام، إلا أمراته، فإنها من المهلكين.

﴿وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم﴾ يعتبرون بها ويعلمون أن الله شديد العقاب، وأن رسله صادقون مصدقون.

فقالوا سلاماً قال سلام قوم منكرون * فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين * فقربه إليهم قال ألا تأكلون * فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم * فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم * قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم * [قال فما خطبكم أيها المرسلون * قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين * لنرسل عليهم حجارة من طين * مسوأة عند ربك للمسرفين * فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين * وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم] يقول تعالى: ﴿هل أتاك﴾ أي: أما جاءك ﴿حديث ضيف إبراهيم المكرمين﴾ ونبأهم الغريب العجيب، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط، وأمرهم بالمرور على إبراهيم، فجأوه في صورة أضياف.

﴿إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال﴾ مجيباً لهم ﴿سلام﴾ أي: عليكم ﴿قوم منكرون﴾ أي: أنتم قوم منكرون، فأحب أن تعرفوني بأنفسكم، ولم يعرفهم إلا بعد ذلك.

ولهذا راغ إلى أهله أي: ذهب سريعاً في خفية، ليحضر لهم قراه، ﴿فجاء بعجل سمين﴾ فقربه إليهم وعرض عليهم الأكل، فـ ﴿قال ألا تأكلون﴾ فأوجس منهم خيفة حين رأى أيديهم لا تصل إليه، ﴿قالوا لا تخف﴾ وأخبروه بما جاؤوا له ﴿وبشروه بغلام عليم﴾ وهو إسحاق عليه السلام، فلما سمعت المرأة البشارة ﴿أقبلت﴾ فرحة مستبشرة ﴿في صرة﴾ أي: صيحة ﴿فصكت وجهها﴾ وهذا من جنس ما يجري من النساء عند السرور [ونحوه] من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة، ﴿وقالت عجوز عقيم﴾ أي: أتى لي الولد، وأنا عجوز، قد بلغت من السن، ما لا تلد

(٥) في ب: في ابتداء السلام.

(٣) في ب ليعتبروا بهم.

(٤) أمر الله محمداً وأمه.

(١) كذا في ب، وفي أ: علم.

(٢) في ب على كل حجر اسم صاحبه.

قد أعدت لغير الضيف الحاضر^(١)، إذا جعلت له، ليس فيها أقل إهانة، بل ذلك من الإكرام، كما فعل إبراهيم عليه السلام، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون.

ومنها: ما من الله به على خليله إبراهيم، من الكرم الكثير، وكون ذلك حاضراً عنده^(٢)، وفي بيته معداً، لا يحتاج إلى أن يأتي به^(٣) من السوق أو الجيران، ولا غير ذلك.

ومنها: أن إبراهيم، هو الذي خدم أضيافه، وهو خليل الرحمن، وكبير من ضيف الضيفان.

ومنها: أنه قرّبه إليهم في المكان الذي هم فيه، ولم يجعله في موضع، ويقول لهم: «تفضلوا، أو اتوا إليه» لأن هذا أسير عليهم وأحسن.

ومنها: حسن ملاطفة الضيف في الكلام اللين، خصوصاً عند تقديم الطعام إليه، فإن إبراهيم عرض عليهم عرضاً لطيفاً، وقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ ولم يقل: «كلوا» ونحوه من الألفاظ، التي غيرها أولى منها، بل أتى بأداة العرض، فقال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ فينبغي للمقتدي به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة، ما هو المناسب واللائق بالحال، كقوله لأضيافه: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أو: ﴿أَلَا تَتَفَضَّلُونَ عَلَيْنَا وَتَشْرَفُونَنَا وَتَحْسِنُونَ إِلَيْنَا﴾، ونحوه.

ومنها: أن من خاف من الإنسان^(٥) لسبب من الأسباب، فإن عليه أن يزيل عنه الخوف، ويذكر له ما يؤمن روعه، ويسكن جأشه، كما قالت الملائكة لإبراهيم ﴿لَا خَافَهُمْ﴾: ﴿لَا تَخَفْ﴾ وأخبروه بتلك البشارة السارة بعد الخوف منهم.

ومنها: شدة فرح سارة امرأة إبراهيم، حتى جرى منها ما جرى، من صك وجهها، وصرتها غير

المعهد.

ومنها: ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة، من البشارة بغلام عليم.

﴿٣٨ - ٤٠﴾ وقوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ * فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: ﴿وَفِي مُوسَى﴾ وما أرسله الله به إلى فرعون وملئه بالآيات البينات، والمعجزات الظاهرات، آية للذين يخافون العذاب الأليم، فلما أتى موسى بذلك السلطان المبين، فتولى فرعون ﴿بِرُكْنِهِ﴾ أي: أعرض بجانبه عن الحق ولم يلتفت إليه، وقذح فيه أعظم القذح، فقالوا: ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: إن موسى، لا يخلو إما أن يكون ساحراً وما أتى به شعبذة^(٧) ليس من الحق في شيء، وإما أن يكون مجنوناً لا يؤاخذ بما صدر منه لعدم عقله.

هذا، وقد علموا؛ خصوصاً فرعون، أن موسى صادق، كما قال تعالى: ﴿وَجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً﴾ وقال موسى لفرعون: ﴿لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض [بصائر] الآية﴾، ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: مذنب طاع، عات على الله، فأخذه الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿٤١ - ٤٢﴾ ﴿وَفِي عاد إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرِّيمِ﴾ أي: ﴿وَفِي عاد﴾ القبيلة المعروفة آية عظيمة^(٨) ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ أي: التي لا خير فيها، حين كذبوا نبيهم هوداً عليه السلام، ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْنَاهُ كَالرِّيمِ﴾ أي: كالرَّمِّ البالية، فالذي أهلكهم على قوتهم وبطشهم، دليل على [كمال] قوته واقتداره، الذي لا يعجزه شيء، المنتقم ممن عصاه.

﴿٤٣ - ٤٥﴾ ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ * فَتَعَاوَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ * فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ أي: ﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ [آية عظيمة]، حين أرسل الله إليهم صالحاً عليه السلام، فكذبوه وعاندوه، وبعث الله له الناقة آية مبصرة، فلم يزددهم ذلك إلا عتواً ونفوراً.

فقيل ﴿لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ فتعوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة ﴿أي: الصيحة العظيمة المهلكة﴾ وهم ينظرون، إلى عقوبتهم بأعينهم، ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ﴾ ينجون به من العذاب، ﴿وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ﴾ لأنفسهم.

﴿٤٦﴾ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلِ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: وكذلك ما فعل الله بقوم نوح، حين كذبوا نوحاً عليه السلام وفسقوا عن أمر الله، فأرسل الله عليهم السماء والأرض بماء المنهمر، فأغرقهم الله تعالى [عن آخرهم]، ولم يبق من الكافرين دياراً، وهذه عادة الله وستة فيمن عصاه.

﴿٤٧ - ٥١﴾ ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ * وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ * وَمَنْ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَفَرَّوْا إِلَىٰ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ * وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ يقول تعالى مبيناً لقدرته العظيمة: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ أي: خلقناها وأثقفناها، وجعلناها سقفاً للأرض وما عليها.

﴿بِأَيْدٍ﴾ أي: قوة وقدرة عظيمة

(٨) في ب: تقديم وتأخير في هذا الكلام.

(٦) كذا في ب، مصححة في الهامش، وفي أ: فلما أتى فرعون.

(٧) في ب: إما أن يكون ما أتى به سحراً وشعبذة.

(١) كذا في ب، وفي أ: الخاص.

(٢) في ب: لديه.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أن يستلحقه.

(٤) في ب: وسيد.

(٥) في ب: من أحد.

الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ﴿٥٤﴾ وكذلك المؤمنون، لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه والسعي فيه، بادروا إلى الإيمان برسولهم وتعظيمهم وتوقيرهم وخطابهم بالخطاب اللائق بهم.

﴿٥٤ - ٥٥﴾ ﴿فتول عنهم فما أنت بملوم﴾ * وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴿٥٥﴾ يقول تعالى أمراً رسولاً بالإعراض عن المعرضين المكذبين: ﴿فتول عنهم﴾ أي: لا تبال بهم ولا تؤاخذهم، وأقبل على شأنك.

فليس عليك لوم في ذنبهم، وإنما عليك البلاغ، وقد أدبت ما حملت، وبلغت ما أرسلت به.

﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾ والتذكير نوعان: تذكير بما لم يعرف تفصيله، مما عرف مجمله بالفطر والعقول^(٣)، فإن الله فطر العقول على حبة الخير وإيثاره، وكرهه الشر والزهد فيه، وشرعه موافق لذلك، فكل ما أمر به ونهى من الشرع، فإنه من التذكير، وتام التذكير، أن يذكر ما في الأمور به، من الخير والحسن والمصالح، وما في المنهي عنه من المضار.

والنوع الثاني من التذكير: تذكير بما هو^(٤) معلوم للمؤمنين، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول، فيذكرون لذلك، ويكرر عليهم ليرسخ في أذهانهم، وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه من ذلك، وليحدث لهم نشاطاً وهمة، توجب لهم الانتفاع والارتفاع.

وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة واتباع رضوان الله، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى، وتقع منهم الموعظة موقعها، كما قال تعالى: ﴿فذكر إن نعت الذكرى﴾ * سيذكر من يخشى * ويتجنبها

المراد^(٥) والمطلوب. وسمى الله الرجوع إليه فراراً، لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكارة، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن [والسرور] والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلا الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه، ﴿إني لكم منه نذير مبين﴾ أي: منذر لكم من عذاب الله، وخوف بين النذارة، ﴿ولا تجعلوا مع الله الهأ آخراً﴾ هذا من الفرار إلى الله، بل هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله من الأوثان والأنداد والقبور، وغيرها، مما عبد من دون الله، ويخلص العبد لربه العبادة والخوف والرجاء والدعاء والإنابة.

﴿٥٢ - ٥٣﴾ ﴿كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون﴾ * أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴿٥٣﴾ يقول الله مسلياً لرسوله ﷺ عن تكذيب المشركين بالله، المكذبين له، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ما هو منزّه عنه، وأن هذه الأقوال ما زالت دأباً وعادة للمجرمين المكذبين للرسول، فما أرسل الله من رسول إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون.

يقول الله تعالى: هذه الأقوال التي صدرت منهم - الأولين والآخرين - هل هي أقوال تواصوا بها، ولقن بعضهم بعضاً بها؟

فلا يستغرب - بسبب ذلك - اتفاقهم عليها: ﴿أم هم قوم طاغون﴾ تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم؟ وهذا هو الواقع، كما قال تعالى: ﴿وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال

﴿وإنا لموسعون﴾ لأرجائها وأنحائها، وإنا لموسعون [أيضاً] على عبادنا بالرزق الذي ما ترك الله دابة في مهامه القفار، ولجج البحار، وأقطار العالم العلوي والسفلي، إلا وأوصل إليها من الرزق، ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها.

فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات، وتبارك الذي وسعت رحمته جميع البريات، ﴿والأرض فرشناها﴾ أي: جعلناها فراشاً للخلق، يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم، من مساكن وغراس وزرع وحرث وجلوس، وسلوك للطرق الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم، ولما كان الفراش قد يكون صالحاً للانتفاع من كل وجه، وقد يكون من وجه دون وجه، أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاد، على أكمل الوجوه وأحسنها، وأتى على نفسه بذلك، فقال: ﴿فنعلم الماهدون﴾ الذي مهد لعباده ما اقتضته [حكيمته] ورحمته وإحسانه، ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾ [أي: صنفين]، ذكر وأنثى، من كل نوع من أنواع الحيوانات، ﴿لعلكم تذكرون﴾ [لنعم الله التي أنعم بها عليكم]^(٦) في تقدير ذلك، وحكمته حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها، لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها، فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع.

فلما دعا العباد إلى النظر لآياته الموجبة لخشيته والإنابة إليه، أمر بما هو المقصود من ذلك، وهو الفرار إليه أي: الفرار عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه، ظاهراً وباطناً، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى ذكر الله، فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله وقد زال عنه المروء، وحصل له نهاية

(١) كذا في ب، وفي أ: نعمة الله عليكم.

(٢) في ب: غاية المراد.

(٣) كذا في ب، وفي أ: مما عرف بالفطر والعقول مجمله.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ما..

كلم الله عليه نبيه موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأوحى إليه ما أوحى من الأحكام، وفي ذلك من المنّة عليه وعلى أمته، ما هو من آيات الله العظيمة، ونعمه التي لا يقدر العباد لها على عدّ ولا ثمن.

﴿وكتاب مسطور﴾ يحتمل أن المراد به اللوح المحفوظ، الذي كتب الله به كل شيء، ويحتمل أن المراد به القرآن الكريم، الذي هو أفضل كتاب^(١)، أنزله الله محتوياً على نبي الأولين والآخرين، وعلوم السابقين واللاحقين.

وقوله: ﴿في رق﴾ أي: ورق منشور. أي: مكتوب مسطر، ظاهر غير خفي، لا تخفى حاله على كل عاقل بصير.

﴿والبيت المعمور﴾ وهو البيت الذي فوق السماء السابعة، المعمور مدى الأوقات بالملائكة الكرام، الذي يدخله كل يوم سبعون ألف ملك [يتعبدون فيه لربهم ثم]، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة وقيل: إن البيت المعمور هو بيت الله الحرام، المعمور بالطائفين والمصلين والذاكرين كل وقت، وبالوفود إليه بالحج والعمرة.

كما أقسم الله به في قوله: ﴿وهذا البلد الأمين﴾ وتحقيق بيت أفضل بيوت الأرض، الذي قصده بالحج والعمرة، أحد أركان الإسلام، ومبانيه العظام، التي لا يتم إلا بها، وهو الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وجعله الله مثابة للناس وأمناً، أن يقسم الله به، ويبين من عظمت ما هو اللائق به وبحرمته.

﴿والسقف المرفوع﴾ أي: السماء، التي جعلها الله سقفاً للمخلوقات، وبناء للأرض، تستمد منها أنوارها، ويقتدى بعلاماتها ومنارها، وينزل الله منها المطر والرحمة وأنواع الرزق.

﴿والبحر المسجور﴾ أي: المملوء

منهم أحد، ويعلم ما تنقص الأرض منهم، فسبحان القوي المتين.

﴿٥٩ - ٦٠﴾ ﴿فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون﴾ فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون^(٢) أي: وإن للذين ظلموا وكذبوا^(٣) محمداً ﷺ من العذاب والنكال ﴿ذنوباً﴾ أي: نصيباً وقسطاً، مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب.

﴿فلا يستعجلون﴾ بالعذاب، فإن سنة الله في الأمم واحدة، فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة، فإنه لا بد أن يقع عليه العذاب، ولو تأخر عنه مدة، ولهذا توعدهم الله بيوم القيامة، فقال: ﴿فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون﴾ وهو يوم القيامة، الذي قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والسلاسل والأغلال، فلا مغيث لهم، ولا منقذ من عذاب الله تعالى [نعوذ بالله منه].

تفسير سورة الطور، مكية

﴿١٦ - ١٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والطور * وكتاب مسطور * في رق منشور * والبيت المعمور * والسقف المرفوع * والبحر المسجور * إن عذاب ربك لواقع * ماله من دافع * يوم ثور السماء موراً * وتسير الجبال سيراً * فويل يومئذ للمكذابين * الذين هم في خوض يلعبون * يوم يدعون إلى نار جهنم دعا * هذه النار التي كنتم بها تكذبون * أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون * اصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ يقسم تعالى بهذه الأمور العظيمة، المشتعلة على الحكم الجليّة، على البعث والجزاء للمتقين والمكذّبين، فأقسم بالطور الذي هو الجبل الذي

الأشقى. وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير، فهذا لا ينفع تذكيره، بمنزلة الأرض السبخة التي لا يفيدها المطر شيئاً، وهؤلاء الصنف، لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم.

﴿٥٦ - ٥٨﴾ ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون * إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين * هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عن سواه، وذلك يتضمن^(١) معرفته تعالى، فإن تمام العبادة، متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه، كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله، فما خلقهم لحاجة منه إليهم.

فما يريد منهم من رزق وما يريد أن يطعموه، تعالى الله الغني المغني عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه، وإنما جميع الخلق فقراء إليه، في جميع حوائجهم ومطالبهم، الضرورية وغيرها، ولهذا قال: ﴿إن الله هو الرزاق﴾ أي: كثير الرزق، الذي ما من دابة في الأرض ولا في السماء إلا على الله رزقها، ويعلم مستقرها ومستودعها، ﴿ذو القوة المتين﴾ أي: الذي له القوة والقدرة كلها، الذي أوجد بها الأجرام العظيمة، السفلية والعلوية، وبها تصرف في الظواهر والبواطن، ونفذت مشيئته في جميع البريات، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يعجزه هارب، ولا يخرج عن سلطانه أحد، ومن قوته أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم، ومن قدرته وقوته أنه يبعث الأموات بعدما مزقهم البلى، وعصفت بترابهم^(٢) الرياح، وابتلعهم الطيور والسباع، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه القفار، ولجج البحار، فلا يقوته

(١) في ب: وذلك متوقف.

(٢) في ب: بتكذيبهم.

(٢) في ب: عصفت بهم.

(٤) في ب: الكتب.

ماء، قد سجره الله، ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض، مع أن مقتضى الطبيعة، أن يغمر وجه الأرض، ولكن حكمته اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان، ليعيش من على وجه الأرض، من أنواع الحيوان وقيل: إن المراد بالمسجور، الموقد الذي يوقد [ناراً] يوم القيامة، فيصير ناراً تُلظي، ممتلئاً على عظمته وسعته من أصناف العذاب.

هذه الأشياء التي أقسم الله بها، مما يدل على أنها من آيات الله وأدلة توحيده، وبراهين قدرته، وبعثه الأموات، ولهذا قال: «إن عذاب ربك لواقع» أي: لا بد أن يقع، ولا يخلف الله وعده وقيله.

﴿ما له من دافع﴾ يدفعه، ولا مانع يمنعه، لأن قدرة الله تعالى لا يغالها مغالب، ولا يفوتها هارب، ثم ذكر وصف ذلك اليوم، الذي يقع فيه العذاب، فقال: ﴿يوم تثور السماء موراً﴾ أي: تدور السماء وتضطرب، وتدوم حركتها بانزعاج وعدم سكون، ﴿وتسير الجبال سيراً﴾ أي: تزول عن أماكنها، وتسير كسير السحاب، وتتلون كالعن المنفوش، وتثبت بعد ذلك [حتى تصير] مثل الهباء، وذلك كله لعظم هول يوم القيامة، وفظاعة ما فيه من الأمور المزعجة، والزلازل المقلقة، التي أزجعت هذه الأجرام العظيمة، فكيف بالآدمي الضعيف؟! ﴿فويل يومئذ للمكذبين﴾ والويل: كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف، ثم ذكر وصف المكذبين الذين استحقوا به الويل، فقال: ﴿الذين هم في خوض يلعبون﴾ أي: خوض في الباطل ولعب به. فعلوهم ويحوتهم بالعلوم الضارة المتضمنة للتكذيب

بالحق، والتصديق بالباطل، وأعمالهم أعمال أهل الجهل والسفه واللعب، بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة.

﴿يوم يدعون إلى نار جهنم دعا﴾ أي: يوم يدفعون إليها دفعاً، ويساقون إليها سوقاً عنيفاً، ويمجرون على وجوههم، ويقال لهم توبيحاً ولوماً: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾ فالיום ذوقوا عذاب الخلد الذي لا يبلغ قدره، ولا يوصف أمره.

﴿أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون﴾ يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب، كما يدل عليه سياق الآية أي: لما رأوا النار والعذاب قيل لهم من باب التقرير: «أهذا سحر لا حقيقة له، فقد رأيتموه، أم أنتم في الدنيا لا تبصرون» أي: لا بصيرة لكم ولا علم عندكم، بل كنتم جاهلين بهذا الأمر، لم تقم عليكم الحجة؟ والجواب انتفاء الأمرين:

أما كونه سحراً، فقد ظهر لهم أنه أحق الحق، وأصدق الصدق، المخالف^(٢) للسحر من جميع الوجوه، وأما كونهم لا يبصرون، فإن الأمر بخلاف ذلك، بل حجة الله قد قامت عليهم، ودعتهم الرسل إلى الإيمان بذلك، وأقامت من الأدلة والبراهين على ذلك، ما يجعله من أعظم الأمور البرهنة الواضحة الجلية.

ويحتمل أن الإشارة [بقوله: (أفسح هذا أم أنتم لا تبصرون) إلى ما جاء به الرسول ﷺ من الحق المبين، والصراط المستقيم أي: هذا الذي جاء به محمد ﷺ سحرٌ أم عدم بصيرة بكم، حتى اشتبه عليكم الأمر، وحقيقة الأمر أنه أوضح من كل شيء وأحق الحق،

وأن حجة الله قامت عليهم^(٣). ﴿اصلوها﴾ أي: ادخلوا النار على وجه تحيط بكم، وتستوعب جميع أبدانكم^(٤)، وتطلع على أفئدتكم.

﴿فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم﴾ أي: لا يفيدكم الصبر على النار شيئاً، ولا يتأسى بعضكم ببعض، ولا يخفف عنكم العذاب، وليست^(٥) من الأمور التي إذا صبر العبد عليها هانت مشقتها وزالت شدتها.

وإنما فعل بهم ذلك، بسبب أعمالهم الخبيثة وكسبهم، [ولهذا قال] ﴿إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾.

﴿١٧ - ٢٠﴾ ﴿إن المتقين في جنات ونعيم﴾ فأكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم * كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون * متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين * لما ذكر تعالى عقوبة المكذبين، ذكر نعيم المتقين، ليجمع بين الترغيب والترهيب، فتكون القلوب بين الخوف والرجاء، فقال: ﴿إن المتقين﴾ لربهم، الذين اتقوا سخطه وعذابه، بفعل أسبابه من امتثال الأوامر واجتناب النواهي.

﴿في جنات﴾ أي: بساتين، قد اكتست رياضها من الأشجار المثمرة، والأنهار المتدفقة، والقصور المجددة، والمنازل المزخرفة، ﴿ونعيم﴾ [وهذا] شامل لنعيم القلب والروح والبدن، ﴿فأكهين بما آتاهم ربهم﴾ أي: معجيين به، متمتعين على وجه الفرح والسرور بما أعطاهم الله من النعيم الذي لا يمكن وصفه، ولا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، ووقاهم عذاب الجحيم، فرزقهم المحبوب،

(١) كذا في ب، وفي أ: يقع به.

(٢) في ب: المنافي.

(٣) بعد قوله والصراط المستقيم جاءت العبارة في ب مختلفة عما في أ، وهذا نص ما في ب: (أي: أفيتصور من له عقل أن يقول عنه: إنه سحر، وهو أعظم الحق وأجله، ولكن لعدم بصيرتهم قالوا فيه ما قالوا).

(٤) في ب: (وتشمل أبدانكم).

(٥) كذا في ب، وفي أ: وليس.

الأمر الثالث، وهو أن كلامهم فيها سلام طيب طاهر، منسر للنفوس، مفرح للقلوب، يتعاشرون أحسن عشرة، ويتنادمون أطيب النادمة، ولا يسمعون من ربه، إلا ما يقر أعينهم، ويدل على رضاه عنهم [وحبته لهم].

﴿ويطوف عليهم غلمان لهم﴾ أي: خدم شباب ﴿كانهم لؤلؤ مكنون﴾ من حسنهم وبهائهم، يدورون عليهم بالخدمة وقضاء ما يحتاجون إليه^(٥)، وهذا يدل على كثرة نعيمهم وسعته، وكمال راحتهم.

﴿واقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ عن أمور الدنيا وأحوالها. ﴿قالوا﴾ في [ذكر] بيان الذي أوصلهم إلى ما هم فيه من الخبرة والسرور: ﴿إنا كنا قبل﴾ أي: في دار الدنيا ﴿في أهلنا مشفقين﴾ أي: خائفين وجلين، فتركنا من خوف الذنوب، وأصلحنا لذلك العيوب.

﴿فمن الله علينا﴾ بالهداية والتوفيق، ﴿ووقانا عذاب السموم﴾ أي: العذاب الحار الشديد حره.

﴿إنا كنا من قبل ندعوه﴾ أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، وهذا شامل لدعاء العبادة ودعاء المسألة أي: لم نزل نتقرب إليه بأنواع القربات^(٦)، وندعوه في سائر الأوقات، ﴿إنه هو البر الرحيم﴾ فمن برّه بنا ورحمته إيانا، أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

﴿٢٩-٤٣﴾ ﴿فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون﴾ أم يقولون شاعر تربص به رب المنون * قل تربصوا فإن معكم من التربين * أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون * أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين * أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون * أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون *

ولا تأثيم * ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون * واقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين * فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم * إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم * وهذا من تمام نعيم أهل الجنة، أن ألحق الله بهم ذريتهم الذين اتبعوهم بإيمان أي: الذين لحقوهم بالإيمان الصادر من آباءهم، فصارت الذرية تبعاً لهم بالإيمان، ومن باب أولى إذا تبعهم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم، فهو لاء المذكورون، يلحقهم الله بمنازل آباءهم في الجنة وإن لم يبلغوها، جزاء لآبائهم، وزيادة في ثوابهم، ومع ذلك، لا ينقص الله الأبناء من أعمالهم شيئاً، ولما كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك، يلحق الله بهم أبناءهم وذريتهم، أخبر أنه ليس حكم الدارين حكماً واحداً، فإن النار دار العدل، ومن عدله تعالى أن لا يعذب أحداً إلا بذنب، ولهذا قال: ﴿كل امرئ بما كسب رهين﴾ أي: مرتين بعمله، فلا تزر وازرة وزر أخرى، ولا يحمل على أحد ذنب أحد. هذا اعتراض من فوائده إزالة الوهم المذكور.

وقوله: ﴿وأمددناهم﴾ أي: أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ورزقنا العيم، ﴿بفاكهة﴾ من العنب والرمان والتفاح، وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون، ﴿ولحم مما يشتهون﴾ من كل ما طلبوه واشتهه أنفسهم، من لحم الطير وغيرها.

﴿يتنازعون فيها كأساً﴾ أي: تدور كأسات الرحيق والخمر عليهم، ويتعاطونها فيما بينهم، وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب وأباريق وكأس ﴿لا لغو فيها ولا تأثيم﴾ أي: ليس في الجنة كلام لغو، وهو الذي لا فائدة فيه ولا تأثيم، وهو الذي فيه إثم ومعصية، وإذا انتفى الأمران، ثبت

ونجاهم من المهروب، لما فعلوا ما أحبه الله، وجانبوا ما يسخطه ويأباه.

﴿كلوا واشربوا﴾ أي: بما تشتهيه أنفسكم، من [أصناف] المأكّل والمشرب اللذيذة، ﴿هنيئاً﴾ أي: متهنئين بتلك المأكّل والمشرب^(١) على وجه الفرح والسرور والبهجة والحبور. ﴿بما كنتم تعملون﴾ أي: نلتهم ما نلتهم بسبب أعمالكم الحسنة، وأقوالكم المستحسنة، ﴿متكئين على سرر مصفوفة﴾ الاتكاء: هو الجلوس على وجه التمكن والراحة والاستقرار، والسرر: هي الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية.

ووصف الله السرر بأنها مصفوفة، ليدل ذلك على كثرتها، وحسن تنظيمها، واجتماع أهلها وسرورهم، بحسن معاشرتهم، ولطف كلام بعضهم لبعض^(٢)، فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ما لا يحظر بالبال، ولا يدور في الخيال، من المأكّل والمشرب [اللذيذة]، والمجالس الحسنة الأنيقة، لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتي لا يتم سرور بدونهن^(٣)، فذكر الله أن لهم من الأزواج أكمل النساء أوصافاً وخلقاً وأخلاقاً، ولهذا قال: ﴿وزوجناهم بحور عين﴾ وهن النساء اللواتي قد جمعن من جمال الصورة الظاهرة وبهائنها، ومن الأخلاق الفاضلة، ما يوجب أن يحيرن بحسنهن الناظرين، ويسلبن عقول العالين، وتكاد الأئدة أن تطيش^(٤) شوقاً إليهن، ورغبة في وصالهن، والعيّن: حسان الأعين مليحاتها، التي صفا بياضها وسوادها.

﴿٢٨-٢١﴾ ﴿والذين آمنوا واتبعهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين * وأممدناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون * يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها

(٥) في ب: وقضاء أشغالهم.

(٦) في ب: العبادات.

(٣) في ب: إلا بهن.

(٤) في ب: تطير.

(١) في ب: متهنئين بذلك على وجه.

(٢) في ب: وملاحظه بعضهم بعضاً.

أثرت، وصدر منها ما صدر^(٢).

فإن عقولاً جعلت أكمل الخلق عقلاً
مجنوناً، وأصدق الصدق^(٣) وأحق الحق
كذباً وباطلاً، لَهِيَ العقول التي ينزه
المجانين عنها، أم الذي حملهم على ذلك
ظلمهم وطغيانهم؟ وهو الواقع،
فالتطغيان ليس له حد^(٤) يقف عليه،
كأنه يستغرب من الطاعني المتجاوز الحد
كل قول وفعل صدر منه .

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُهُ﴾ أي: تقول
محمد القرآن، وقاله من تلقاء نفسه؟
﴿بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلو آمنوا، لم يقولوا
ما قالوا.

﴿٣٤﴾ ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ أنه تقوله، فإنكم العرب الفصحاء، والفحول البلغاء، وقد تحداكم أن تأتوا بمثله، فتصدق معارضتكم أو تقروا بصدقه، وأنكم لو اجتمعتم، أنتم والإنس والجن، لم تقدرُوا على معارضته والإتيان بمثله، فحيثُ أنتم بين أمرين: إما مؤمنون به، مهتدون بهديه، وإما معاندون متبعون لما علمتم من الباطل.

﴿أَمْ خَلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ وهذا استدلال عليهم، بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم.

وقد تقرّر في العقل مع الشرع، أن
الأمور لا يخلو من أحد ثلاثة أمور:

إما أنهم خلقوا من غير شيء أي :
لا خالق خلقهم ، بل وجدوا من غير
إيجاد ولا موجد ، وهذا عين المحال .

أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ لَأَنْفُسِهِمْ، وَهَذَا
أَيْضاً مُحَالٌ، فَإِنَّهُ لَا يَتَصَوَّرُ أَنْ يَوْجِدُوا
نَفْسَهُمْ^(٥)

فإذا بطل [هذان] الأمران، وبان

أم عندهم خزانة ريك أم هم
 المصيطرون * أم لهم سلم يستمعون
 فيه فليات مستمعهم سلطان مين * أم
 له البناث ولكم البنون * أم تسألهم
 أجراً فهم من مغرم مثقلون * أم
 عندهم الغيب فهم يكتبون * أم
 يريدون كيداً فالذين كفروا هم
 المكيدون * أم لهم إله غير الله
 سبحانه الله عما يشركون ﴿ يأمُرُ تعالى
 رسوله ﷺ أَنْ يَذْكَرَ النَّاسَ، مُسْلِمَهُمْ
 وَكَافِرَهُمْ، لِتَقُومَ حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى
 الظَّالِمِينَ، وَيَهْتَدِيَ بِتَذْكِيرِهِ الْمَوْفِقُونَ،
 وَأَنَّهُ لَا يَبَالِي بِقَوْلِ الْمُشْرِكِينَ الْمَكْذِبِينَ
 وَأُذَيْتِهِمْ وَأَقْوَالَهُمْ الَّتِي يَصْدُونَ بِهَا
 النَّاسَ عَنْ اتِّبَاعِهِ، مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّهُ أَبْعَدُ
 النَّاسَ عَنْهَا، وَلِهَذَا نَفَى عَنْهُ كُلَّ نَقْصٍ
 رَمَوْهُ بِهِ، فَقَالَ: ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ
 رَبِّكَ﴾ أَي: مَنَّهُ وَلَطْفِهِ، ﴿بِكَاهِنٍ﴾
 أَي: لَهُ رَزْيٌ مِنَ الْجِنِّ، يَأْتِيهِ بِأَخْبَارِ
 بَعْضِ الْغُيُوبِ، الَّتِي يَضُمُّ إِلَيْهَا مَنَّةً
 كَذِبَةً، ﴿وَلَا تَجْنُونَ﴾ فَاغْدُ لِلْعَقْلِ، بَلْ
 أَنْتَ أَكْمَلُ النَّاسِ عَقْلاً، وَأَبْعَدُهُمْ عَنِ
 الشَّيَاطِينِ، وَأَعْظَمُهُمْ صِدْقاً، وَأَجْلَهُمْ
 وَأَكْمَلَهُمْ، وَتَارَةً ﴿يَقُولُونَ﴾ فِيهِ: إِنَّهُ
 ﴿شَاعِرٌ﴾ يَقُولُ الشَّعْرَ، وَالَّذِي جَاءَ بِهِ
 شِعْرٌ، وَاللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشَّعْرَ
 وَمَا يَنْفَعِي لَهُ﴾ .

﴿نتربص به رب المنون﴾ أي: ننتظر به الموت^(١)، فسيبطل أمره، [ونستريح منه]، ﴿قل﴾ لهم جواباً لهذا الكلام السخيف: ﴿تربصوا﴾ أي: انتظروا بي الموت، ﴿فإني معكم من التربصين﴾ نترصد بكم، أن يصيبكم الله بعذاب من عنده، أو بأيدينا، ﴿أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون﴾ أي: أهذا التكذيب لك، والأقوال التي قالوها؟ هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم؟ فبش العقول والأحلام، التي أثرت ما

(١) كذا في ب، وفي أ: نتربص به الموت، وننتظره فيه.

(٢) في ب: التي هذه نتائجها، وهذه ثمراتها.

(٣) في ب: وجعلت أصدق الصدق.

(٤) كذا في ب، وفي أ: لا حذله.

(۵) فی ب: أن يوجد أحد نفسه.

إليهم، وقد فعل الله ذلك - والله الحمد - فلم يبق الكفار من مقدورهم من المكر شيئاً إلا فعلوه، فنصر الله نبيه ودينه عليهم^(٢)، وخذلهم وانتصر منهم.

﴿أَمْ لَهُمْ إلهٌ غيرُ الله؟ أي: ألهم إله يدعى ويرجى نفعه، ويخاف من ضره، غير الله تعالى؟﴾ سبحانه الله عما يشركون. فليس له شريك في الملك، ولا شريك في الوجدانية والعبادة، وهذا هو المقصود من الكلام الذي سبق لأجله، وهو بطلان عبادة ما سوى الله وبيان فسادها بتلك الأدلة القاطعة، وأن ما عليه المشركون هو الباطل، وأن الذي ينبغي أن يعبد ويُصلى له ويسجد ويخلص له دعاء العبادة ودعاء المسألة، هو الله المألوه المعبود، كامل الأسماء والصفات، كثير النعوت الحسنة، والأفعال الجميلة، ذو الجلال والإكرام، والعز الذي لا يرام، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الكبير الحميد المجيد.

﴿٤٤ - ٤٦﴾ ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحابٌ مَرَكُومٌ * فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون * يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم ينصرون﴾ يقول تعالى في [ذكر] بيان أن المشركين المكذبين بالحق الواضح، قد عتوا [عن الحق] وعسوا على الباطل، وأنه لو قام على الحق كل دليل لما اتبعوه، ولخالفوه وعاندوه، ﴿وإن يروا كسفاً من السماء ساقطاً﴾ أي: لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة كسف أي: قطع كبار من العذاب ﴿يقولوا سحابٌ مَرَكُومٌ﴾ أي: هذا سحاب متراكم على العادة أي: فلا يبالون بما رأوا من الآيات ولا يعتبرون بها، وهؤلاء لا دواء لهم إلا العذاب والنكال، ولهذا قال: ﴿فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه

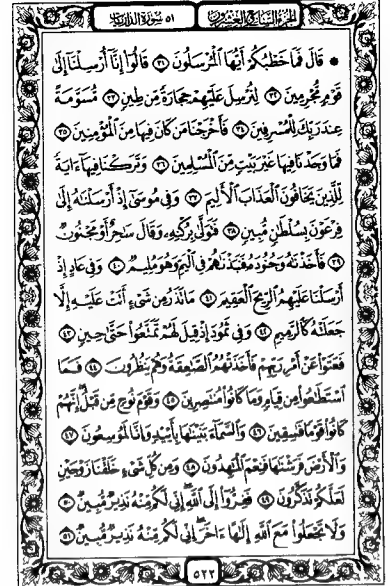
والرسول ﷺ قد أقام من الأدلة والبراهين على ما أخبر به، ما يوجب أن يكون خبره^(٢) عين اليقين وأكمل الصدق، وهم لم يقيموا على ما ادعوه شبهة، فضلاً عن إقامة حجة.

وقوله: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ؟﴾ كما زعمتم ﴿ولكم البنون﴾ فتجمعون بين المحذورين؟ جعلكم له الولد، واختياركم له أنقص الصنفين؟ فهل بعد هذا التنقص لرب العالمين غاية أو دونه نهاية؟

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ يا أيها الرسول ﴿أَجراً؟﴾ على تبليغ الرسالة، ﴿فهم من مغرم مثقلون﴾ ليس الأمر كذلك، بل أنت الخريص على تعليمهم، تبرعاً من غير شيء، بل تبذل لهم الأموال الجزيلة، على قبول رسالتك، والاستجابة [لأمرك] ودعوتك، وتعطي المؤلفقة قلوبهم [ليتمكن العلم والإيمان من قلوبهم].

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ؟﴾ ما كانوا يعلمونه من الغيوب، فيكونون قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسول الله، فعارضوه وعاندوه بما عندهم من علم الغيب؟ وقد علم أنهم الأمة الأمية، الجهال الضالون، ورسول الله ﷺ هو الذي عنده من العلم أعظم من غيره، وأنبأه الله من علم الغيب على ما لم يُطْلَغ عليه أحداً من الخلق، وهذا كله إلزام لهم بالطرق العقلية والنقلية على فساد قولهم، وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها وأسلمها من الاعتراض، وقوله: ﴿أَمْ يَرِيدُونَ؟﴾ بقدهم فيك وفيما جنتهم به ﴿كيداً﴾ يبطلون به دينك، ويفسدون به أمرك؟

﴿فالذين كفروا هم المكيدون﴾ أي: كيدهم في نحورهم، ومضرتة عائدة



﴿أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا﴾.

﴿أَمْ هُمُ الْمُصِيطَرُونَ؟ أي: المتسلطون على خلق الله وملكه، بالقهر والغلبة؟ ليس الأمر كذلك، بل هم العاجزون الفقراء، ﴿أَمْ لَهُمْ سلم يستمعون فيه؟ أي: ألهم اطلاع على الغيب، واستماع له بين الملأ الأعلى، فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم؟﴾ فليأت مستمعهم﴾ المدعي لذلك ﴿بسلطان مبین﴾ وأئني له ذلك؟

والله تعالى عالم الغيب والشهادة، فلا يظهر على غيبه [أحد] إلا من ارتضى من رسول يخبره بما أراد من علمه.

وإذا كان محمد ﷺ أفضل الرسل وأعلمهم وإمامهم، وهو المخبر بما أخبر به، من توحيد الله، ووعدته، ووعيدته، وغير ذلك من أخباره الصادقة، والمكذبون هم أهل الجهل والضلال والغي والعتاد، فأئني المخبرين أحق بقبول خبره؟ خصوصاً

(١) زيادة من هامش ب.

(٢) في ب: ما يوجب أن يكون ذلك عين اليقين.

(٣) في ب: فنصر الله نبيه عليهم، وأظهر دينه، وخذلهم.

تفسير سورة النجم
[وهي] مكية

يصعقون ﴿ وهو يوم القيامة الذي يصيهم ﴾ [فيه] من العذاب والنكال ، ما لا يقادر قدره ، ولا يوصف أمره .

﴿يَوْمَ لَا يَغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾
 أي: لا قليلاً ولا كثيراً، وإن كان في
 الدنيا قد يوجد منهم كيد يعيشون به
 زمناً قليلاً، فيوم القيامة يضمحل
 كيدهم، وتبطل مساعيهم،
 ولا ينتصرون من عذاب الله
 ﴿وَلَا هُمْ يَنْصُرُونَ﴾

﴿٤٧- ٤٩﴾ **وَأَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَاباً دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٧﴾** لما ذكر [الله] عذاب الظالمين في القيامة، أخبر أن لهم عذاباً دون عذاب يوم القيامة^(١)، وذلك شامل لعذاب الدنيا، بالقتل والسبي والإخراج من الديار، ولعذاب البرزخ والقبر، ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب، وشدة العقاب.

ولما بين تعالى الحجج والبراهين على بطلان أقوال المكذابين، أمر رسوله ﷺ أن لا يعابأ بهم شيئاً، وأن يصبر لحكم ربه القدرى والشرعى بلزومه والاستقامة عليه، ووعد الله بالكفاية بقوله: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: بمرأى منا وحفظ، واعتناء بأمرك، وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادة، فقال: ﴿وَسُبْحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: من الليل.

ففيه الأمر بقيام الليل، أو حين تقوم إلى الصلوات الخمس، بدليل قوله: ﴿ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم﴾ أي: آخر الليل، ويدخل فيه صلاة الفجر، والله أعلم.

تم تفسير سورة والطور والحمد لله

﴿١٨-١٩﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والنجم إذا هوى * ما ضل صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى * علمه شديد القوى * ذو مرة فاستوى * وهو بالأفق الأعلى * ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى * فأوحى إلى عبده ما أوحى * ما كذب الفؤاد ما رأى * أفتمارونه على ما يرى * ولقد رآه نزلة أخرى * عند سدرة المنتهى * عندها جنة المأوى * إذ يفغشى السدرة ما يفغشى * ما زأغ البصر وما طغى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴿١﴾ يقسم تعالى بالنجم عند هُوبِهِ أي: سقوطه في الأفق في آخر الليل عند إدبار الليل وإقبال النهار، لأن في ذلك من آيات الله العظيمة، ما أوجب أن أقسم به، والصحيح أن النجم، اسم جنس شامل للنجوم كلها، وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول ﷺ من الوحي الإلهي، لأن في ذلك مناسبة عجبية، فإن الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء، فكذلك الوحي وآثاره زينة للأرض، فلولا العلم الموروث عن الأنبياء، لكان الناس في ظلمة أشد من الليل اليوم.

والمقسم عليه، تنزيه الرسول ﷺ عن الضلال في علمه، والغنى في قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتدياً في علمه، هادياً، حسن القصد، ناصحاً للأمة^(٢)، بعكس ما عليه أهل الضلال من فساد العلم، وفساد القصد^(٣)، وقال ﴿صاحبكم﴾ لينبهم على ما يعرفونه منه، من الصدق والهداية، وأنه لا يخفى عليهم أمره، ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ أي: ليس نطقه صادراً عن هوى نفسه، ﴿إن هو

والمقسم عليه، تنزيه الرسول ﷺ
عن الضلال في علمه، والغَي في
قصده، ويلزم من ذلك أن يكون مهتدياً
في علمه، هادياً، بحسن القصد،
ناصحاً للأمة^(٢)، بعكس ما عليه أهل
الضلال من فساد العلم، وفساد
القصد^(٣)، وقال ﴿صاحبكم﴾ لينبهم
على ما يعرفونه منه، من الصدق
والهداية، وأنه لا يخفى عليهم أمره،
﴿وما ينطق عن الهوى﴾ أي: ليس
نطقه صادراً عن هوى نفسه، ﴿إن هو

(١) في ب: في الآخرة أخبر أن لهم عذاباً قبل عذاب...

(۲) فی ب: للخلق.

(۳) فی ب : وسوء .

كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مِزَانٌ مِّنَ الظُّلُمِ أَتَى الْأَعْمَىٰ ﴿١٠٠﴾
 فَاتَّبَعُوهُ بِهٖ هٖ هُوَ قَوْمٌ طَٰغَوْنَ ﴿١٠١﴾ قَوْلَ عَنِيهِمْ قَاتِلْهُمْ بَلْ هُمْ
 وَكَذٰلِكَ قَالَ الذِّكْرَىٰ نَقَمَ الْقَوْمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَمَا عَلَّمَتْ لِي الْحَيٰۤءُ
 وَلَا لِيَدْرِي لِي لِيَدْرِي مَا يُدْرِي مِنْهُمْ مِنْ رِّفْقٍ وَمَا أُرِيدُ
 أَن يُطِيعُونِ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْفَضْلِ الْعَتِيقُ ﴿١٠٤﴾ قَالَ
 الَّذِينَ عَلِمُوا أَن تَوْبًا مِّنْهُمُ أَتَىٰ أَحَدَهُمْ فَلَا يُتَّبَعُونَ
 قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ أَن يُنصَرُوا بِآيَاتِنَا فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْعَلُونَ ﴿١٠٥﴾

سُورَةُ الطُّورِ

وَالْقُلُوبِ ۝ وَكَتَبَ مُتَطَهِّرِينَ ۝ فِي رَقٍّ مُنِيرٍ ۝
وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝ وَالشَّجَرِ الْمُنْفُوعِ ۝ وَالْجَنَّةِ الْمُنِيرِ ۝
إِنْ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَا لَكُمْ مِنَ رَاحَةٍ ۝ يَوْمَ تَوَدَّ أَنْتُمْ
تُؤَخَّرُونَ ۝ وَلَيْسَ إِلَٰهًا سِوَاكَ ۝ يُؤْتِي السَّحَابَ نُفُورًا ۝
فَيُفْثِلُ فِيهَا صُفْرًا ۝ فَيَرْسِلُ فِيهَا طُوفَانًا ۝ يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَى تَارِ
الْأَيْنِ ۝ فَمَنْ فَوْقَ يَدْعُونا ۝ يَوْمَ تَدْعُونَ إِلَى تَارِ
جَهَنَّمَ دَعَا ۝ هَٰذِهِ آيَاتُ الْكِتَابِ الَّتِي كُنْهُمْ بِهَا يُكْذِبُونَ ۝

إلا وحي يوحى ﴿أي: لا يتبع إلا ما أوحى الله إليه من الهدى والتقوى، في نفسه وفي غيره.

ودل هذا على أن السنة وحي من الله
لرسوله ﷺ، كما قال تعالى:
﴿وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة﴾
وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى
وعن شرعه، لأن كلامه لا يصدر عن
هوى، وإنما يصدر عن وحي يوحى،
ثم ذكر المعلم للرسول ﷺ، وهو
جبريل [عليه السلام]، أفضل الملائكة
[الكرام] وأقواهم وأكملهم، فقال:
﴿علمه [شديد القوى]﴾ أي: نزل
بالوحي على الرسول ﷺ جبريل عليه
السلام، ﴿شديد القوى﴾ أي: شديد
القوة الظاهرة والباطنة، قوي على تنفيذ
ما أمره الله بتنفيذه، قوي على إيصال
الوحي إلى الرسول ﷺ، ومنعه من
اختلاس الشياطين له، أو إدخالهم فيه
ماليس منه، وهذا من حفظ الله
لرحبه، أن أرسله مع هذا الرسول
القوى الأمين.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: قوة، وخلق
حسن، وجمال ظاهر وباطن.

﴿فاستوى﴾ جبریل علیہ السلام

طغى ﴿أي: وما تجاوز البصر، وهذا كمال الأدب منه صلوات الله وسلامه عليه، أن قام مقاماً أقامه الله فيه، ولم يقصر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه، وهذا أكمل ما يكون من الأدب العظيم، الذي فاق فيه الأولين والآخرين، فإن الإخلال يكون بأحد هذه الأمور: إما أن لا يقوم العبد بما أمر به، أو يقوم به على وجه التفريط، أو على وجه الإنفراط، أو على وجه الخicide يميناً وشمالاً، وهذه الأمور كلها متفتية عنه ﷺ .

﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾ من الجنة والنار، وغير ذلك من الأمور التي رآها ﷺ ليلة أسري به.

﴿١٩ - ٢٥﴾ ﴿أنزليهم السلاط والعرى * ومناة الثالثة الأخرى * الكم الذكر وله الأنثى * تلك إذا قسمة ضيزى * إن هي إلا أسماء سئمتوها أنتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى * أم للإنسان ما تمنى * فلله الآخرة والأولى﴾ لما زكى تعالى ما جاء به محمد ﷺ من الهدى ودين الحق، والأمر بعبادة الله وتوحيده، ذكر بطلان ما عليه المشركون من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء، ولا تنفع ولا تضر، وإنما هي أسماء فارغة عن المعنى، سماها المشركون هم وآباؤهم الجهال الضلال، ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة التي لا تستحقها، فخذعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال، فالآلهة التي بهذه الحال، لا تستحق مثقال ذرة من العبادة، وهذه الأنناد التي سموها بهذه الأسماء، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هي متصفة بها، فسموا «اللات» من «الإله» المستحق للعبادة، و «العزيز» من «العزيز»، و «مناة» من «المنان»، إلحاداً في أسماء الله وتجريراً على الشرك به، وهذه أسماء متجردة

أسري به، من آيات الله العظيمة، وأنه تيقنه حقاً بقلبه ورؤيته، هذا [هو] الصحيح في تأويل الآية الكريمة، وقيل: إن المراد بذلك رؤية الرسول ﷺ لربه ليلة الإسراء، وتكليمه إياه، وهذا اختيار كثير من العلماء وحهم الله، فاثبتوا بهذا رؤية الرسول ﷺ لربه في الدنيا، ولكن الصحيح القول الأول، وأن المراد به جبريل عليه السلام، كما يدل عليه السياق، وأن محمداً ﷺ رأى جبريل في صورته الأصلية [التي هو عليها] مرتين، مرة في الأفق الأعلى، تحت السماء الدنيا كما تقدم، والمرة الثانية فوق السماء السابعة ليلة أسري برسول الله ﷺ، ولهذا قال: ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ أي: رأى محمد جبريل مرة أخرى، نازلاً إليه.

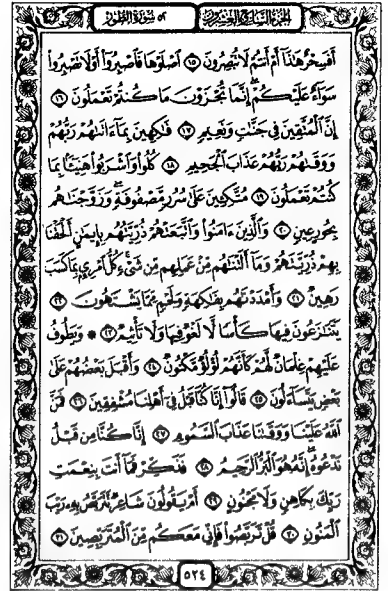
﴿عند سدرة المنتهى﴾ وهي شجرة عظيمة جداً، فوق السماء السابعة، سميت سدرة المنتهى، لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله، من الوحي وغيره، أو لانتهاه علم الخلق^(٣) إليها أي: لكونها فوق السماوات والأرض، فهي المنتهى في علوها^(٤)، أو لغير ذلك، والله أعلم.

فرأى محمد ﷺ جبريل في ذلك المكان، الذي هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة، التي لا يقرها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة.

عند تلك الشجرة «جنة الماوى» أي: الجنة الجامعة لكل نعيم، بحيث كانت محلاً تنشئ إليه^(٥) الأمانى، وترغب فيه الإرادات، وتأوي إليها الرغبات، وهذا دليل على أن الجنة في أعلى الأماكن، وفوق السماء السابعة.

﴿إذ يغشى السدرة ما يغشى﴾ أي: يغشاها من أمر الله، شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل.

﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ أي: ما زاغ بيمته ولا يسرة عن مقصوده ﴿وما



﴿وهو بالأفق الأعلى﴾ أي: أفق السماء الذي هو أعلى من^(١) الأرض، فهو من الأرواح العلوية، التي لا تنالها الشياطين ولا يتمكنون من الوصول إليها.

﴿ثم دنا﴾ جبريل من النبي ﷺ، لإيصال الوحي إليه.

﴿فتدلى﴾ عليه من الأفق الأعلى ﴿فكان﴾ في قربه منه ﴿قاب قوسين﴾ أي: قدر قوسين، والقوس معروف، ﴿أو أدنى﴾ أي: أقرب من القوسين، وهذا يدل على كمال مباشرة^(٢) للرسول ﷺ بالرسالة، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام.

﴿فأوحى﴾ الله بواسطة جبريل عليه السلام ﴿إلى عبده﴾ محمد ﷺ ﴿ما أوحى﴾ أي: الذي أوحاه إليه من الشرع العظيم، والنبا المستقيم.

﴿ما كذب الفؤاد ما رأى﴾ أي: اتفق فؤاد الرسول ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه الله إليه، وتواطأ عليه سمعه وقلبه وبصره، وهذا دليل على كمال الوحي الذي أوحاه الله إليه، وأنه تلقاه منه تلقياً لا شك فيه ولا شبهة ولا ريب، فلم يكذب فؤاده ما رأى بصره، ولم يشك بذلك. ويحتمل أن المراد بذلك ما رأى ﷺ ليلة

(٥) كذا في ب، وفي أ: إليها.

(٣) في ب: علم المخلوقات.

(٤) كذا في ب، وفي أ: علومها.

(١) كذا في ب، وفي أ: الأعلى على.

(٢) في ب: مباشرة.

عن المعاني، فكل من له أدنى مسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

﴿الكم الذكر وله الأنثى﴾ أي: أتعملون لله البنات بزعمكم، ولكم البنون؟

﴿تلك إذا قسمة ضيزى﴾ أي: ظالمة جائرة، [وأي ظلم أعظم من قسمة] تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟ [تعالى عن قولهم علواً كبيراً].

وقوله: ﴿إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبكم، وكل أمر ما أنزل الله به من سلطان، فهو باطل فاسد، لا يتخذ ديناً، وهم - في أنفسهم - ليسوا بمتبعين لبرهان، يتيقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلهم على قولهم، الظن الفاسد، والجهل الكاسد، وما تنهوا أنفسهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي اتباعهم الظن، من فقد العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ أي: الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد، فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه، وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين، ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه، غايته اتباع الظن، ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فالبقاء على هذه الحال، من أسفه السفه، وأظلم الظلم، ومع ذلك يمتنون الأماني، ويفترون بأنفسهم.

ولهذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمنى وهو كاذب في ذلك، فقال: ﴿أم للإنسان ما تمنى﴾ فله الأخرة والأولى ﴿فيعطي منهما من يشاء، ويمنع من يشاء، فليس الأمر تابعا لأمانيتهم، ولا موافقاً لأهوائهم.

﴿٢٦﴾ ﴿وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ يقول تعالى منكراً على من عبد غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة: ﴿وكم من ملك في السماوات﴾ من الملائكة المقربين، وكرام الملائكة، ﴿لا تغني شفاعتهم شيئاً﴾ أي: لا تفيد من دعاها وتعلق بها ورجاها، ﴿إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ أي: لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له. ومن المعلوم المتقرر، أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه الله، موافقاً فيه صاحبه الشريعة، فالمشركون إذاً لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين، وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

﴿٢٧ - ٣٠﴾ ﴿إن السذيين لا يؤمنون بالآخرة ليسئون الملائكة تسمية الأنثى﴾ وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً * فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ يعني أن المشركين بالله المكذبين لرسله، الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة تجرؤوا على ما تجرؤوا عليه، من الأقوال، والأفعال المحادة لله ولرسوله، من قولهم: «الملائكة بنات الله»، فلم ينزهوا ربهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة ويجلوهم عن تسميتهم إياهم إنثاء، والحال أنه ليس لهم بذلك علم، لا عن الله، ولا عن رسوله، ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دال على نقيض قولهم، وأن الله منزّه عن الأولاد والصاحبة، لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأن الملائكة كرام مقربون

إلى الله، قائمون بخدمة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ والمشركون^(١) إنما يتبعون في ذلك القول القبيح، وهو^(٢) الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، فإن الحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

ولما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين أنهم^(٣) لا غرض لهم في اتباع الحق، وإنما غرضهم ومقصودهم، ما تنهوا نفوسهم، أمر الله رسوله بالأعراض عمن تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم، والقرآن العظيم، والنبا الكريم، فأعرض عن العلوم النافعة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، فهذا منتهى إرادته، ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده، فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها، كيف حصلت حصولها، وبأي طريق سنحت ابتدروها، ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ أي: هذا منتهى علمهم وغايته، وأما المؤمنون بالآخرة، المصدقون بها، أولو الأبواب والعقول، فهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومهم أفضل العلوم وأجلها، وهو العلم المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والله تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهيده، ممن لا يستحق

(١) كذا في ب، وفي أ: وهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: إلا.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أنه.

موجود مشاهد منكم حين أنشاكم^(٤) الله من الأرض، وإذ كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجوداً فيكم، وإن كان الله تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به، ولكن الضعف لم يزل، فلعلمه تعالى بأحوالكم هذه، ناسبت الحكمة الإلهية والجود الرباني، أن يتعمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصاً إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآتات، وفراره من الذنوب التي يتمت بها عند مولاه، ثم تقع منه الفتلة بعد الفتلة، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين^(٥)، أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريباً وأن يكون الله له في جميع أحواله مجيباً، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: تحبسون الناس بطهارتها على وجه التمدح^(٦).

﴿هو أعلم بمن اتقى﴾ [فإن التقوى، محلها القلب، والله هو المطلع عليه، المجازي على ما فيه من بر وتقوى، وأما الناس، فلا يغنون عنكم من الله شيئاً].

﴿٣٣-٦٢﴾ ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى * وَأَعْطَى قَلِيلاً وَأَكْدَى * أَعْنَدَهُ عِلْمَ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى * أَمْ لَمْ يَبْأَ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَمَى * وَأَنْ سَمِعَهُ سَوْفَ يَرَى * ثُمَّ يَجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى * وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى * وَأَنْهُ هُوَ أَضْحَكَكَ وَأَبْكَى * وَأَنْهُ هُوَ آمَاتٌ وَأَحْيَا * وَأَنْهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى * مِنْ نَظْفَةٍ إِذَا تَمْنَى * وَأَنْ

من أعمال الشر بالعقوبة البليغة^(١).
﴿وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى خلق الله، بأنواع المنافع ﴿بِالْحَسَنَى﴾ أي: بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، وأكبر ذلك وأجله رضا ربه، والفوز بنعيم الجنة^(٢).

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ أي: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات، التي يكون تركها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار، كالزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، والقتل، ونحو ذلك من الذنوب العظيمة، ﴿إِلَّا اللَّصْمَ﴾ وهي الذنوب الصغار، التي لا يصير صاحبها عليها، أو التي يلم بها العبد، المرة بعد المرة، على وجه الندرة والقلّة، فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرجاً للعبد من أن يكون من المحسنين، فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء، ولهذا قال: ﴿إِنْ رَبُّكَ وَاسِعُ الْغُفْرَةِ﴾ فلولا مغفرته لهلكت البلاد والعباد، ولولا عفوه وحلمه لسقطت السماء على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة. ولهذا قال النبي ﷺ:

«الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن، ما اجتنبت الكبائر»، [وقوله: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشاكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم﴾ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جللكم عليه، من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض^(٣) المحرمات، وكثرة الجوازب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف



ذلك فيكله إلى نفسه، ويخذه، فيضل عن سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى﴾ فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به.

﴿٣١-٣٢﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّصْمَ إِنْ رَبُّكَ وَاسِعُ الْغُفْرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَاكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بَطُونِ أُمّهَاتِكُمْ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾ يخبر تعالى أنه مالك الملك، المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع من في السماوات والأرض ملك لله، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم، في عبيده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم [عنه]، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي، ليجزي الذين أساءوا العمل السيئات من الكفر فما دونه بما عملوا

(١) في ب: الفظية.

(٢) في ب: والفوز بالجنة وما فيها من النعيم.

(٣) في ب: إلى فعل.

(٤) في ب: حين أخرجكم.

(٥) في ب: وأجود الأجودين.

(٦) كذا في ب، وفي أ: تطهرونها، وتخبرون الناس بذلك على وجه التمدح.

«وأنه خلق الزوجين» فسر الزوجين^(١) بقوله: «الذكر والأنثى» وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات، ناطقها وبهيماها، فهو المنفرد بخلقها، «من نقطة إذا تمتى» وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة، حيث أوجد تلك الحيوانات، صغيرها كبيرها من نقطة ضعيفة^(٢) من ماء مهين، ثم نماها وكملمها، حتى بلغت ما بلغت، ثم صار الآدمي منها إما إلى أرفع المقامات في أعلى عليين، وإما إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين، ولهذا استدل بالبداية على الإعادة، فقال: «وأن عليه النشأة الأخرى» فيعيد العباد من الأحداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات، «وأنه هو أغنى وأقنى» أي: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب، من الحرف وغيرها، وأقنى أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يصيرون به مقتنين لها، ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه على عباده أن جميع النعم منه تعالى^(٣)، وهذا يوجب للعباد أن يشكروه، ويعبدوه وحده لا شريك له، «وأنه هو رب الشعري» وهي النجم المعروف بالشعري العبور، المسماة بالمرزم، وخصها الله بالذكر، وإن كان رب كل شيء، لأن هذا النجم مما عُبد في الجاهلية، فأخبر تعالى أن جنس ما يعبده المشركون مريبوب مدبر مخلوق، فكيف تتخذ إلهاً مع الله^(٤)، «وأنه أهلك عاداً الأولى» وهم قوم هود عليه السلام، حين كذبوا

وإحسانه الخليفة كلها، وتحمد الله عليه، حتى إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم، والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شر الموارد، وقد استدل بقوله تعالى: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» من يرى أن القرب لا يفيد^(٥) إهداؤها للأحياء ولا للأموات قالوا لأن الله قال: «وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» فصول سعي غيره إليه مناف لذلك، وفي هذا الاستدلال نظر، فإن الآية إنما تدل على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه، وهذا حق لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدل على أنه لا ينتفع بسعي غيره، إذا أهدها ذلك الغير له، كما أنه ليس للإنسان من المال إلا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك، أن لا يملك ما وهبه له الغير من ماله الذي يملكه.

وقوله: «وأن إلى ربك المنتهى» أي: إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى في كل حال، فإنه ينتهي العلم والحكم، والرحمة وسائر الكمالات، «وأنه هو أضحك وأبكى» أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشر، والفرح والسرور والهم والحزن، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك، «وأنه هو أمات وأحيا» أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا،

عليه النشأة الأخرى» إلى آخر السورة يقول تعالى: «أفرأيت» قبح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده، فتولى عن ذلك وأعرض عنه؟ فإن سمحت نفسه ببعض الشيء، القليل، فإنه لا يستمر عليه، بل يبخل ويكدي ويمنع. فإن المعروف ليس سجية له وطبيعة^(٦)، بل طبعه التولي عن الطاعة، وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع هذا، فهو يزكي نفسه، وينزلها غير منزلتها التي أنزلها الله بها. «أعنده علم الغيب فهو يرى» الغيب ويخبر به، أم هو متقول على الله، متجري على الجمع بين الإساءة والتزكية^(٧)، كما هو الواقع، لأنه قد علم أنه ليس عنده علم من الغيب، وأنه لو قدر أنه ادعى ذلك فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبي المعصوم، تدل على نقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه.

«أم لم ينبا» هذا المدعي «بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفى» أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه، وفي تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره الله بقوله: «ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى» أي: كل عامل له عمله الحسن والسيئ، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء، ولا يتحمل أحد عن أحد ذنباً، «وأن سعيه سوف يرى» في الآخرة فيميز حسنه من سيئه، «ثم يجزاء الجزاء الأولي» أي: المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسن، والسيئ الخالص بالشر، والمشوب بحسبه، جزاء تقرر بعدله

(١) في ب: فإن الإحسان ليس سجية له وطبعاً.

(٢) فتجريء عليه جامع بين المحذرين الإساءة والتزكية.

(٣) في ب: لا يجوز.

(٤) في ب: فسرهما.

(٥) كذا في ب، وفي أ: قليلة.

(٦) في ب: وهذا من نعمه تعالى أن أخبرهم أن جميع النعم منه.

(٧) في ب: فكيف تتخذ مع الله آلهة.

غافلون عنه، لاهون عن تدبره، وهذا من قلة عقولكم وأديانكم، فلو عبدتم الله وطلبتهم رضاه في جميع الأحوال لما كنتم بهذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ الأمر بالسجود لله خصوصاً، ليدل ذلك على فضله^(٦)، وأنه سر العبادة ولها، فإن لبها الخشوع لله^(٧) والخضوع له، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد^(٨)، فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام.

ثم أمر بالعبادة عموماً، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

تم تفسير سورة النجم، والحمد لله الذي لا نحصى ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً.

تفسير سورة اقتربت مكية

﴿١ - ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغني النذر﴾ يخبر تعالى أن الساعة وهي القيامة اقتربت وأن أوانها، وحين وقت مجيئها، ومع ذلك، فهؤلاء المكذوبون لم يزالوا مكذبين بها، غير مستعدين لنزولها، ويريم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على

ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؟ ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟ فما الذي يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين؟

﴿أزفت الآزفة﴾ أي: قربت القيامة، ودنا وقتها، وبانت علاماتها، ليس لها من دون الله كاشفة﴾ أي: إذا أنت القيامة وجاءهم العذاب الموعود به.

ثم توعدهم المنكرين لرسالة الرسول محمد ﷺ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم، فقال: ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون؟﴾ أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون منه، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة الخارقة للأمور [والحقائق] المعروفة؟ هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث الذي إذا حدث صدق، وإذا قال قولاً فهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو القرآن^(٩) العظيم، الذي لو أنزل على جبل لرأته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، الذي يزيد ذوي الأحلام رأياً وعقلاً، وتسديداً وثباتاً، وإيماناً و يقيناً والذي^(١٠) ينبغي العجب من عقل من تعجب منه، وسفهو وضلاله.

﴿وتضحكون ولا تبكون﴾ أي: تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونهيهِ، وإصغاءً لوعده ووعدهِ، والتفاتاً لأخباره الحسنة الصادقة، ﴿وانتم سامدون﴾ أي:

هوداً، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية، ﴿وثمود﴾ قوم صالح عليه السلام، أرسله الله إلى ثمود فكذبوه، فبعث الله إليهم^(١١) الناقة آية، ففقروها وكذبوه، فأهلكهم الله تعالى، ﴿فما أبقى﴾ منهم أحداً، بل أهلكهم الله عن آخرهم^(١٢)، ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم في اليم، ﴿والمؤتفة﴾ وهم قوم لوط عليه السلام ﴿أهوى﴾ أي: أصابهم الله بعذاب ما عذب به أحداً من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، ولهذا قال: ﴿فغشاها ما غشى﴾ أي: غشيتها من العذاب الأليم الوخيم ما غشى أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه، ﴿فبأي: آلاء ربك تتمارى﴾ أي: فبأي: نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؟ فإن نعم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا هو.

﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله، ليس ببديع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه، فلأي: شيء تنكر رسالته؟ وبأي: حجة تبطل دعوته؟

أليست أخلاقه [أعلا] أخلاق الرسل الكرام، أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كل شر؟^(١٣)

(١) في ب: لهم.

(٢) في ب: بل أبادهم عن آخرهم.

(٣) في ب: أليس يدعو إلى كل خير، وينهي عن كل شر.

(٤) في ب: القرآن.

(٥) في ب: بل الذي.

(٦) في ب: يدل على فضله.

(٧) في ب: فإن روحها الخشوع لله.

(٨) في أ: القلب، وفي ب: الكلمة غير واضحة، وقد جعلتها العبد لمناسبة الكلمة للسياق لقوله فيما بعد: (قلبه وبدنه).



يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ﴿فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى، لأمّنوا قطعاً، واتبعوا محمداً ﷺ، لأنه أراهم الله على يديه^(٥) من البينات والبراهين والحجج القواطع، ما دل على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، وكل أمر مستقر ﴿أي: إلى الآن، لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلى آخره، فالصدق يتقلب في جنات النعيم، ومغفرة الله ورضوانه، والمكذب يتقلب في سخط الله وعذابه، خالداً مخلداً أبداً.

وقال تعالى - مبيناً أنهم ليس لهم قصد صحيح، ولا اتباع للهدى -: ﴿ولقد جاءهم من الأنبياء ﴿أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة ﴿ما فيه مزيج﴾: أي: زاجر يجرهم عن غيهم وضلالهم، وذلك ﴿حكمة﴾ منه تعالى ﴿بالغة﴾: أي: لتقوم حجته على المخالفين^(٦)، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل، ﴿فما تغني النذر﴾ كقوله تعالى: ﴿ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾.

﴿٦- ٨﴾ ﴿فتول عنهم يوم يدعو الداع إلى شيء نكر ﴾ خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر ﴾ مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر ﴿يقول تعالى لرسوله ﷺ: قد بان أن المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم والتولي عنهم، [فقال]: ﴿فتول عنهم﴾ وانتظر بهم يوماً عظيماً وهولاً جسيماً، وذلك حين

مثله البشر، فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على [صحة ما جاء به و] صدقه، أشار ﷺ إلى القمر بإذن الله تعالى، فانشق فلقنتين، فلققة على جبل أبي قبيس، وفلققة على جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى^(٧) الكائنة في العالم العلوي، التي لا يقدر الخلق على التموه بها والتخيل، فشاهدوا أمراً ما رأوا مثله، بل ولم يسمعوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يرد الله بهم خيراً، ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم، وقالوا: سحرنا محمد، ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من قدم^(٨) إليكم من السفر، فإنه وإن قدر على سحركم، لا^(٩) يقدر أن يسحر من ليس مشاهداً مثلكم، فسألوا كل من قدم، فأخبرهم بوقوع ذلك، فقالوا: ﴿سحر مستمر﴾ سحرنا محمد وسحر غيرنا، وهذا من البهت الذي لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل، وهذا ليس إنكاراً منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم، فإنهم مستعدون لمقابلتها بالباطل^(١٠) والرد لها، ولهذا قال: ﴿وإن يروا آية يعرضوا﴾ ولم يعد الضمير على انشقاق القمر فلم يقل: وإن يروها بل قال: ﴿وإن يروا آية يعرضوا﴾ وليس قصدهم اتباع الهوى، ولهذا قال: ﴿وكذبوا واتبعوا أهواءهم﴾ كقوله تعالى: ﴿فإن لم

﴿يدعو الداع﴾ إسرافيل عليه السلام إلى شيء نكر ﴿أي: إلى أمر فطيع تنكره الخليقة، فلم تر منظرأ أظفح ولا أوجع منه، فينفخ إسرافيل نفخة، يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة، ﴿خشعاً أبصارهم﴾: أي: من الهول والفرع الذي وصل إلى قلوبهم، فخضعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم.

﴿يخرجون من الأجداث﴾ وهي القبور، ﴿كأنهم﴾ من كثرتهم، وروجان بعضهم ببعض ﴿جراد منتشر﴾: أي: مبعوث في الأرض، متكاثر جداً، ﴿مهطعين إلى الداع﴾: أي: مسرعين لإجابة النداء الداعي^(١١)، وهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبون دعوته، ويسرعون إلى إجابته، ﴿يقول الكافرون﴾ الذين قد حضر عذابهم: ﴿هذا يوم عسر﴾ كما قال تعالى ﴿على الكافرين غير يسير﴾.

(١) في ب: العظيمة.

(٢) في ب: من ورد.

(٣) في ب: لم.

(٤) في ب: بالتكذيب.

(٥) كذا في النسختين والمراد ظاهر وهو أن الله أراهم على يديه.

(٦) في ب: العالمين.

(٧) كذا في ب، وفي أ: مسرعين لنداء الداعي.

ونهاراً، وسراً وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا عناداً وطغياناً، وقدحاً في نبيهم، ولهذا قال هنا: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ لَزَعَمَهُمْ أَنْ مَا هُمْ عَلَيْهِ وَأَبَاؤُهُمْ مِنَ الشَّرِّ وَالضَّلَالِ هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الْعَقْلُ، وَأَنْ مَا جَاءَ بِهِ نُوحٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جَهْلٌ وَضَلَالٌ لَا يَصْدُرُ إِلَّا مِنَ الْمَجَانِينِ، وَكَذَّبُوا فِي ذَلِكَ، وَقَلَّبُوا الْحَقَّاقِ الثَّابِتَةَ شَرْعاً وَعَقْلاً، فَإِنْ مَا جَاءَ بِهِ هُوَ الْحَقُّ الثَّابِتُ، الَّذِي يَرشُدُ الْعُقُولَ النَّبِيرَةَ الْمُسْتَقِيمَةَ، إِلَى الْهُدَى وَالتَّوَرُّ وَالرَّشْدِ، وَمَا هُمْ عَلَيْهِ جَهْلٌ وَضَلَالٌ مُبِينٌ، [وقوله: ﴿وَأَزْدَجِرْ﴾ أي: زجره قومه وعنفره عندما دعاهم إلى الله تعالى، فلم يكفهم - قبحهم الله - عدم الإيمان به، ولا تكذيبهم إياه، حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل، هذه حالهم مع أنبيائهم، فعند ذلك دعا نوح ربه [فقال: ﴿أني مغلوب﴾] لا قدرة لي على الانتصار منهم، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم، ﴿فانتصر﴾ اللهم لي منهم، وقال في الآية الأخرى: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ الآيات، فأجاب الله سؤاله، وانتصر له من قومه، قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ أي: كثير جداً متتابع، ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ فجعلت السماء ينزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها، حتى التنور الذي لم تخرج العادة بوجود الماء فيه، فضلاً عن كونه منبعاً للماء، لأنه موضع النار.

﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أي: ماء السماء والأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ﴾ من الله له بذلك، ﴿قَدْ قُدِّرَ﴾ أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين، ﴿وَحَلَّلْنَا عَلَى ذَاتِ

ويحتمل أن المراد: أننا أهلكنا قوم نوح، وفعلنا بهم ما فعلنا من العذاب والخزي، جزاء لهم على كفرهم وعنادهم، وهذا متوجه على قراءة من قرأها بفتح الكاف، ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَدْكُرٍ﴾ أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكر بها المتذكرون، على أن من عصى الرسل وعانداهم أهلكه الله بعقاب عام شديد، أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لعبده^(١) نوح عليه السلام، ثم أبقى الله تعالى صنعتها وجنسها بين الناس ليدل ذلك على رحمته بخلقه وعنايته، وكمال قدرته، ويديع صنعتته، ﴿فَهَلْ مِنْ مَدْكُرٍ؟﴾ أي: فهل متذكر^(٥) للآيات، ملق ذهنه وفكرته لما يأتيه منها، فإنها في غاية البيان واليسر؟ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي﴾ أي: فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يَبْقَى لأحد عليه حجة.

﴿وَلَقَدْ يَسْرُنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مَدْكُرٍ﴾ أي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا

﴿فَالْتَقَى الْمَاءُ﴾ أي: ماء السماء والأرض ﴿عَلَى أَمْرٍ﴾ من الله له بذلك، ﴿قَدْ قُدِّرَ﴾ أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين، ﴿وَحَلَّلْنَا عَلَى ذَاتِ



[مفهوم ذلك أنه يسير سهل على المؤمنين]^(١)

﴿٩٦ - ١٧﴾ ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدَجَرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتصر * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدَسْرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءَ لِمَنْ كَانَ كُفْرٍ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مَدْكُرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي * وَلَقَدْ يَسْرُنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مَدْكُرٍ﴾ لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم، ولا تجدي عليهم شيئاً، أنذرهم وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسل، وكيف أهلكهم الله وأحل بهم عقابه.

فذكر قوم نوح، أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا عن ترك الشرك وقالوا: ﴿لَا تَذَرِنَا آلِهَتَكُمُ وَلَا تَذَرِنَا وَدًّا وَلَا سِوَاعَا * وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾.

ولم يزل نوح يدعوه إلى الله ليلاً

(٣) في ب: ولا صده عن ذلك صاد.

(٤) في ب: لرسوله.

(٥) في ب: فهل من متذكر.

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وشدت

أسرها.

القرآن الكريم، ألفاظه للحفظ والأداء، ومعانيه للفهم والعلم، لأنه أحسن الكلام لفظاً، وأصدق معنى، وأبينه تفسيراً، فكل من أقبل عليه يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير، وسهله عليه، والذكر شامل لكل ما يتذكر به العالمون من الحلال والحرام، وأحكام الأمر والنهي، وأحكام الجزاء والمواظب والعبر، والعقائد النافعة والأخبار الصادقة، ولهذا كان علم القرآن حفظاً وتفسيراً، أسهل العلوم، وأجلها على الإطلاق، وهو العلم النافع الذي إذا طلبه العبد أعين عليه، قال بعض السلف عند هذه الآية: هل من طالب علم فيُعان [عليه]؟ ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾.

﴿١٨ - ٢٢﴾ «كذبت عادٌ فكيف كان عذابى ونذر * إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر * فكيف كان عذابى ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» «وعدا» هي القبيلة المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هوداً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، فكذبوه، فأرسل الله عليهم «ريحاً صرصراً» أي: شديدة جداً، «فى يوم نحس» أي: شديد العذاب والشقاء عليهم، «مستمر» عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً، «تنزع الناس» من شدتها، فترفعهم إلى جو السماء، ثم تدفعهم بالأرض فتهلكهم، فيصبحون «كأنهم أعجاز نخل منقعر» أي: كأن جثثهم بعد هلاكهم مثل جذوع النخل الخاوي الذي أصابته ^(١) الريح فسقط على الأرض، فما أهون الخلْق على الله إذا عصوا أمره، «فكيف كان عذابى ونذر» كان [والله] العذاب الأليم، والنذارة التي ما أبقت لأحد عليه حجة، «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر» كرر تعالى ذلك رحمة بعباده

وعناية بهم، حيث دعاهم إلى ما يصلح
دنياهم وأخراهم.

﴿٢٣ - ٣٢﴾ * كذبت ثمود
بالنذر * فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه
إنا إذا لقي ضلال وسعر * ألقي الذكر
عليه من بيننا بل هو كذاب أشعر *
سيعلمون غداً من الكذاب الأشر * إنا
مرسلو الناقة فتنه لهم فارتقبهم
واصطبر * ونبههم أن الماء قسمة بينهم
كل شرب محتضر * فنادوا أصحابهم
فتعاطى فمقر * فكيف كان عذابي
ونذر * إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة
فكانوا كهشيم المحتظر * ولقد يسرنا
القرآن للذكر فهل من مدكر * أي :
كذبت ثمود وهم القبيلة المعروفة
المشهورة في أرض الحجر، نبههم
صالحاً عليه السلام، حين دعاهم إلى
عبادة الله وحده لا شريك له،
وأأنذهم العقاب إن هم خالفوه،
فكذبوه واستكبروا عليه، وقالوا - كثيراً
وتيهاً - : ﴿أبشراً منا واحداً نتبعه﴾
أي : كيف نتبع بشراً، لا ملكاً منا،
لا من غيرنا، ممن هو أكبر عند الناس
منا، ومع ذلك فهو شخص واحد ﴿إنا
إذا﴾ أي : إن اتبعناه وهو بهذه الحال
﴿لقي ضلال وسعر﴾ أي : إنا لضالون
أشقياء، وهذا الكلام من ضلالهم
وشقائهم، فإنهم أنفوا أن يتبعوا رسولاً
من البشر، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين
للشجر والحجر والصور * ﴿ألقي الذكر
عليه من بيننا﴾ أي : كيف يخضع الله
من بيننا وينزل عليه الذكر؟ فأي : مزية
خصه من بيننا؟ وهذا اعتراض من
المكذبين على الله، لم يزالوا يدلون به،
ويوصلون ويحولون ويحولون به دعوة
الرسول، وقد أجاب الله عن هذه
الشبهة بقول الرسل لأهمهم : ﴿قالت
رسولهم إن نحن إلا بشر مثلكم
ولكن الله يمن على من يشاء من
عباده﴾ فالرسل من الله عليهم بصفات
وأخلاق وكمالات، بها صلحوا
رسالاتهم والاختصاص بوحية،

حَقًّا أَتَيْتُكُمْ بِمُذْخِرٍ مِّنَ الْآيَاتِ كَأَنَّهُمْ جُلَسَاءُ شَتْرٍ ۝
 يُطِيعُونَ أَمْرًا يُؤْتَاهُ الْكُوفُورُ مَتَدُونًا مِّنْهُ ۝ كَذَّبَتْ
 قَوْمُ ثَعْلَبٍ وَهُوَ قَوْمُ عَدُوِّ آلِ كَالِبٍ وَآلِ جَعْفَرٍ ۝ دَعَا
 رَبَّهُ أَنِ مَلَائِكَةً قُلِّبْ ۝ فَفُتِحُوا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَأَنزِلَتْ مَغْشَرٌ
 وَمِنْهَا أُنزِلَ آيَةُ الْفَاتِحَةِ الْإِنشَاءُ عَلٰى أَمْرٍ قَدِيرٍ ۝ وَخَلَقْنَا
 عَلَى الْأَنْوَارِ وَمِنْهُ نُحْيِي الْبَاشِرِينَ وَأَمْلِكُ لَمْ يَكُنْ كَافِرًا ۝
 وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَةٌ قَهْرًا مِنْ دُونِهِ ۝ فَكَفَّ كَذِبَ عَدَلِي وَدُرِّ
 ۝ وَلَقَدْ بَيَّنَّاهُ الْقُرْآنَ لِلنَّاسِ قَهْرًا مِنْ دُونِهِ ۝ كَذَّبَتْ
 عَلَا فَكَفَّ كَذِبَ عَدَلِي وَدُرِّ ۝ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا
 مَّرِيضًا يَوْمَ تَحْشُرُ شَيْئَةً ۝ تَرَى النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَحْزَابٌ ۝
 شُعْبَرُ ۝ فَكَفَّ كَذِبَ عَدَلِي وَدُرِّ ۝ وَلَقَدْ بَيَّنَّاهُ الْقُرْآنَ
 لِلنَّاسِ قَهْرًا مِنْ دُونِهِ ۝ كَذَّبَتْ قَوْمُ الْبَذْرِ ۝ فَخَالُوا الْبَصَرَ
 بَيْنًا وَبَيْنَهُمْ ۝ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ سُبْحًا ۝ أَلَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ
 مِنْ بَيْنِنَا إِذْ هُوَ كَأَنَّهُ أَيْمٌ ۝ سَيَمْلِكُونَ عَدَاثًا الْكَلَامُ الْأَكْبَرُ
 ۝ إِنَّا نَسِيتُ الْآثِقَةَ فَتَنَةً لَّهُمْ أَتَى بَيْنَهُمْ وَأَمْلِكُ

ومن رحمته وحكمته أن كانوا من
البشر، فلو كانوا من الملائكة لم يمكن
البشر أن يتلقوا عنهم، ولو جعلهم من
الملائكة لعاجل الله المكذبين لهم
بالعقاب العاجل.

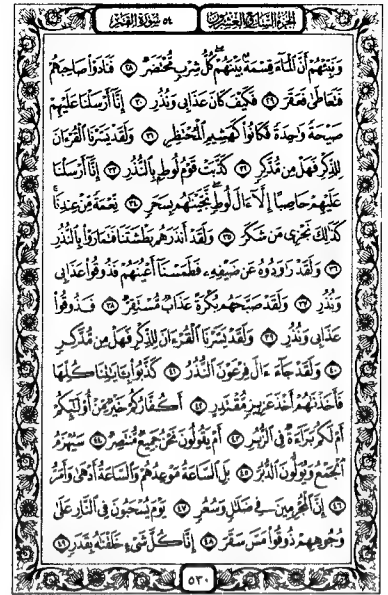
والمقصود بهذا الكلام الصادر من
ثمود لنبيهم صالح، تكذيبه، ولهذا
حكموا عليه بهذا الحكم الجائر،
فقالوا: ﴿بل هو كذاب أشرف﴾ أي:
كثير الكذب والشر، ففصحهم الله ما
أسفه أحلامهم وأظلمهم، وأشدهم
مقابلة للصادقين الناصحين بالخطاب
الشنيع، لا جرم عاقبهم الله حين اشتد
طغيانهم، فأرسل الله الناقة التي هي
من أكبر النعم عليهم، آية من
آيات الله، ونعمة يحتسبون من
ضرعها^(٢) ما يكفيهم أجمعين، «فنتنة
لهم»: أي: اختباراً منه لهم وامتحاناً
«فارتقبهم واصطبر»: أي: اصبر على
دعوتك إياهم، وارتقب ما يعل بهم،
أو ارتقب هل يؤمنون أو يكفرون؟
«ونبئهم أن الماء قسمة بينهم»: أي:
أخبرهم أن الماء أي: موردهم الذي
يستعملونه، قسمة بينهم وبين الناقة،
لها شرب يوم ولهم شرب يوم آخر
معلوم، «كل شرب محضر»: أي:
يحضره من كان قسمته، ويحظر على من

من العير ما لم يشهد عليه أحدًا غيرهم^(٣)، فكذبوا بآيات الله كلها، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر، فأغرقهم في اليم هو وجنوده^(٤).

والمراد من ذكر هذه القصص تحذير [الناس و] المكذبين لمحمد ﷺ، ولهذا قال: ﴿أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ﴾ أي: هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل، خير من أولئك المكذبين، الذين ذكر الله هلاكهم وما جرى عليهم؟ فإن كانوا خيراً منهم، أمكن أن ينجوا من العذاب، ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار، وليس الأمر كذلك، فإنهم إن لم يكونوا شراً منهم، فليسوا بخير منهم، ﴿أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزَّبِيرِ﴾ أي: أم أعطاكم الله عهداً وميثاقاً في الكتب التي أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذ أنكم الناجون بإخبار الله ووعده؟ وهذا غير واقع، بل غير ممكن عقلاً وشرعاً، أن تكتب براءتهم في الكتب الإلهية المتضمنة للعدل والحكمة، فليس من الحكمة نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين، لأفضل الرسل وأكرمهم على الله، فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها، فأخبر تعالى أنهم يقولون: ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ قال تعالى مبيناً لضعفهم، وأنهم مهزومون: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فوقع كما أخبر، هزم الله جمعهم الأكبر يوم بدر، وقتل من^(٥) صناديدهم وكبرائهم ما ذلوا به^(٦)، ونصر الله دينه ونبيه وحزبه المؤمنين. ومع ذلك، فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم، ومن أصيب في الدنيا منهم، ومن منع بلذاته، ولهذا قال: ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ﴾ الذي يجازون به، ويؤخذ منهم الحق بالقسط، ﴿وَالسَّاعَةِ أَهْمِي وَأَمْرِي﴾ أي:

عن الشرك والفاحشة التي ما سبقهم بها أحد من العالمين، فكذبوه واستمروا على شركهم وقبائحهم، حتى إن الملائكة الذين جاؤوه بصورة أضياف حين سمع بهم قوم لوط، جاؤهم^(١) مسرعين، يريدون إيقاع الفاحشة فيهم، لعنهم الله وقبحهم، وراودوه عنهم، فأمر الله جبريل عليه السلام، فطمس أعينهم بجناحه، وأنذرهم نبهم بطشة الله وعقوبته ﴿فَتَعَارَوْا بِالْأُنْدُرِ﴾ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴿قلب الله عليهم ديارهم، وجعل أسفلها أعلاها، وتتبعهم بحجارة من سجيل منضود، مسومة عند ربك للمسرفين، ونجى الله لوطاً وأهله من الكرب العظيم، جزاء لهم على شكرهم لربهم، وعبادته وحده لا شريك له.

﴿٤١ - ٥٥﴾ ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ﴾ كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ﴿أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَئِكَ﴾ أم لكم براءة في الزبیر ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ﴾ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴿بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةِ أَهْمِي وَأَمْرِي﴾ إن المجرمين في ضلال وسعر ﴿يَوْمَ يَسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وجوههم ذوقوا مس سقر﴾ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مذكر ﴿وكل شيء فعلوه في الزبیر﴾ وكل صغير وكبير مستطر ﴿إن المتقين في جنات ونهر﴾ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴿أي: ولقد جاء آل فرعون﴾ أي: فرعون وقومه ﴿النذر﴾ فأرسل الله إليهم موسى الكليم، وأيده بالآيات الباهرات، والمعجزات القاهرة^(٢)، وأشهدهم



ليس بقسمة له.

﴿فنادوا أصحابهم﴾ الذي باشر عقرها، الذي هو أشقى القبيلة ﴿فتعاطى﴾ أي: انقاد لما أمره به من عقرها ﴿فعمق﴾ فكيف كان عذابي ونذر ﴿كان أشد عذاب، أرسل الله عليهم صيحة ورجفة أهلكتهم عن آخرهم، ونجى الله صالحاً ومن آمن معه،﴾ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر.

﴿٣٣ - ٤٠﴾ ﴿كذبت قوم لوط بالنذر﴾ إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر ﴿نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر﴾ ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر ﴿ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر﴾ ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر ﴿فذوقوا عذابي ونذر﴾ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ﴿أي: كذبت قوم لوط﴾ لوطاً عليه السلام، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم

(١) في ب: جاءوا.

(٢) في ب: بالآيات البينات، والمعجزات الباهرات.

(٣) في ب: ما لم يشهد غيرهم.

(٤) في ب: فأغرقه وجنوده في اليم.

(٥) في ب: وقتلت.

(٦) في ب: فأذلوا.

أعظم وأشق، وأكبر من كل ما يتوهم، أو يدور بالبال^(١).

﴿إن المجرمين﴾ أي: الذين أكثروا من فعل الجرائم، وهي الذنوب العظيمة من الشرك وغيره، من المعاصي ﴿في ضلال وسعر﴾ أي: هم ضالون في الدنيا، ضلالٌ عن العلم، وضلال عن العمل، الذي ينجيهم من العذاب، ويوم القيامة في العذاب الأليم، والنار التي تتسعر بهم، وتشتعل في أجسامهم، حتى تبلغ أفئدتهم، ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾ التي هي أشرف ما بهم من الأعضاء، وألها أشد من ألم غيرها، فيهانون بذلك ويغزون، ويقال لهم: ﴿ذوقوا مس سقر﴾ أي: ذوقوا ألم النار وأسفها وغيظها ولهبها.

﴿إننا كل شيء خلقناه بقدر﴾ وهذا شامل للمخلوقات والعوالم العلوية والسفلية، أن الله تعالى وحده خلقها لا خالق لها سواه، ولا مشارك له في خلقها^(٢)، وخلقها بقضاء سبق به علمه، وجرى به قلمه، بوقتها ومقدارها، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف، وذلك على الله يسير، فلهذا قال: ﴿وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر﴾ فإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون كما أراد، كلمح البصر، من غير ممانعة ولا صعوبة.

﴿ولقد أهلكنا أشياءكم﴾ من الأمم السابقين الذين عملوا كما عملتم، وكذبوا كما كذبتهم ﴿فهل من مدكر﴾ أي: متذكر يعلم أن سنة الله في الأولين والآخرين واحدة، وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار، فإن هؤلاء مثلهم، ولا فرق بين الفريقين. ﴿وكل شيء فعلوه في الزبر﴾ أي: كل ما فعلوه من خير وشر مكتوب عليهم في الكتب القدريّة ﴿وكل صغير وكبير مستنظر﴾ أي: مسطر مكتوب، وهذا حقيقة القضاء

والقدر، أن جميع الأشياء كلها، قد علمها الله تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأ لم يكن ليصيبه.

﴿إن المتقين﴾ الله، بفعل أوامره وترك نواهيه، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر.

﴿في جنات ونهر﴾ أي: في جنات النعيم، التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من الأشجار البائعة، والأنهار الجارية، والقصور الرفيعة، والمنازل الأنيقة، والمأكول والمشرب اللذيذة، والحور الحسن، والروضات البهية في الجنان، ورضوان الملك الديان، والفوز بقربه، ولهذا قال: ﴿في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾ فلا تسأل بعد هذا عما يعطيهم ربهم من كرامته وجوده، ويمدهم به من إحسانه ومنته، جعلنا الله منهم، ولا حرماناً خير ما عنده بشر ما عندنا.

تم تفسير سورة اقتربت،
والله الحمد والشكر

تفسير سورة الرحمن [وهي] مكية

﴿١٣ - ١﴾ ﴿بسم الله الرحمن

الرحيم * الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطفئوا في الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان * والأرض وضعها للأنعام * فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام * والحب ذو العصف والريحان * فبأي آلاء ربكما تكدبان﴾ هذه السورة الكريمة الجليلة، افتتحها باسمه «الرحمن» الدال على سعة

شر

﴿خلق الإنسان﴾ في أحسن تقويم، كامل الأعضاء، مستوفي الأجزاء، محكم البناء، قد أنقن البديع تعالى^(٣) خلقه أي اتقان، ومميزه على سائر الحيوانات، بأن «علمه البيان» أي: التبيين عما في ضميره، وهذا شامل للتعليم النطقي والتعليم الخطي، فالبيان الذي ميز الله به آدمي على غيره من أجل نعمه، وأكبرها عليه، «الشمس والقمر بحسبان» أي: خلق الله الشمس والقمر، وسخرهما يجريان بحساب مقنن، وتقدير مقدر،

(١) في ب: في الخيال.

(٢) في ب: خلقه.

(٣) في ب: قد أنقن الباري تعالى البديع خلقه.

وتنشر لها النفوس .

ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه التي تشاهد بالابصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين، الإنس والجن، قررهم تعالى بنعمه، فقال: ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ أي: فبأي: نعم الله الدينية والدنيوية تكذبان؟

وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبي ﷺ هذه السورة، فما مر بقوله: ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ إلا قالوا^(١٦): ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد، فهذا الذي ينبغي^(١٧) للعبد إذا تليت عليه نعم الله وآلاؤه، أن يقر بها ويشكر، ويحمد الله عليها.

﴿١٤ - ١٦﴾ ثم قال تعالى: ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار * وخلق الجن من مارج من نار * فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾.

وهذا من نعمه تعالى على عباده، حيث أراهم [من] آثار قدرته وبديع صنعته، أن ﴿خلق﴾ أبا الإنس وهو آدم عليه السلام ﴿من صلصال كالفخار﴾ أي: من طين مبلول، قد أحكم به وأتقن، حتى جف، فصار له صلصلة وصوت يشبه صوت الفخار الذي طبخ على النار^(١٨)، ﴿وخلق الجن﴾ أي: أبا الجن، وهو إبليس اللعين^(١٩) ﴿من مارج من نار﴾ أي: من لهب النار الصافي، أو الذي قد خالطه الدخان، وهذا يدل على شرف عنصر آدمي المخلوق من الطين والتراب، الذي هو محل الرزانة والثقل والمنافع، بخلاف عنصر الجن وهو النار، التي هي محل الخفة والبطيش والشر والفساد.

ولما بين خلق الثقلين ومادة ذلك^(٢٠)، وكان ذلك منه منه [تعالى]

﴿وأقيموا الوزن بالقسط﴾ أي: اجعلوه قائماً بالعدل، الذي تصل إليه مقدرتكم وإمكانتكم، ﴿ولا تخسروا الميزان﴾ أي: لا تنقصوه وتعملوا بضده، وهو الجور والظلم والطغيان، ﴿والأرض وضعها﴾ الله على ما كانت عليه من الكثافة والاستقرار واختلاف [أوصافها و] أحوالها ﴿للأنعام﴾ أي: للخلق، لكي يستقروا عليها، وتكون لهم مهاداً وفرشاً يبنون بها، ويمرثون ويفرسون ويمجفرون ويسلكون سبلها فجاءاً، ويستغفون بمعادنها وجميع ما فيها، مما تدعو إليه حاجتهم، بل ضرورتهم.

ثم ذكر ما فيها من الأقوات الضرورية، فقال: ﴿فيها فاكهة﴾ وهي جميع الأشجار التي تثمر الثمرات التي يتفكه بها العباد، من العنب والتين والرمان والتفاح، وغير ذلك، ﴿والنخل ذات الأكمام﴾ أي: ذات الوعاء الذي ينفلق عن القنوان التي تخرج شيئاً فشيئاً حتى تتم، فتكون قوتا يؤكل ويدخر، يتزود منه المقيم والمسافر، وفاكهة لذينة من أحسن الفواكه، ﴿والحب ذو العصف﴾ أي: ذو الساق الذي يداس، فينتفع بتبته للأنعام وغيرها، ويدخل في ذلك حب البر والشعير والذرة [والأرز] والدخن، وغير ذلك، ﴿والريحان﴾ يحتمل أن المراد بذلك جميع الأرزاق التي يأكلها آدميون، فيكون هذا من باب عطف العام على الخاص، ويكون الله قد امتنّ على عباده بالقوت والرزق، عموماً وخصوصاً، ويحتمل أن المراد بالريحان، الريحان المعروف، وأن الله امتنّ على عباده بما يسره في الأرض من أنواع الروائح الطيبة، والمشام الفاخرة، التي تسر الأرواح،



رحمة بالعباد، وعناية بهم، وليقوم بذلك من مصالحهم ما يقوم، ويعرف العباد عدد السنين والحساب، ﴿والنجم والشجر يسجدان﴾ أي: نجوم السماء، وأشجار الأرض، تعرف ربها وتسجد له، وتطيع وتخضع^(٢١)، وتقاد لما سخرها له من مصالح عباده ومنافعهم، ﴿والسماء رفعها﴾ سقفاً للمخلوقات الأرضية، ووضع الله الميزان أي: العدل بين العباد، في الأقوال والأفعال، وليس المراد به الميزان المعروف وحده، بل هو كما ذكرنا، يدخل فيه الميزان المعروف، والمكيال الذي تكال به الأشياء والمقادير، والمساحات التي تضبط بها المجهولات، والحقائق التي يفصل بها بين المخلوقات، ويقام بها العدل بينهم، ولهذا قال: ﴿ألا تظنوا في الميزان﴾ أي: أنزل الله الميزان، لئلا تتجاوزوا الحد في الميزان، فإن الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم، لحصل من الخلل ما الله به عليهم، ولفسدت السماوات والأرض.

(١) في ب: وتضع.

(٢) في ب: فكلما مر بقوله: ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ قالوا.

(٣) في ب: فهكذا ينبغي.

(٤) في ب: وهو الطين المشوي.

(٥) في ب: لعنه الله.

(٦) كذا في ب، وفي أ: مادة الثقلين.

على عباده^(١)، قال: ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾.

﴿١٧- ١٨﴾ *رب المشرقين ورب المغربين * فبأي: آلاء ربكما تكذبان* أي: هو تعالى رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر، والكواكب النيرة، وكل ما غربت عليه، [وكل ما كانا فيه] فهي تحت^(٢) تدبيره وربوبيته، وثناها هنا لإرادة العموم مشرقى الشمس شتاءً وصيفاً، ومغربها كذلك^(٣).

﴿١٩- ٢١﴾ *مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي: آلاء ربكما تكذبان* المراد بالبحرين: البحر العذب، والبحر المالح، فهما يلتقيان كلاهما، فيصّب العذب في البحر المالح، ويختلطان ويمتزجان، ولكن الله تعالى جعل بينهما برزخاً من الأرض، حتى لا يبغي أحدهما على الآخر، ويحصل النفع بكل منهما، فالعذب منه يشربون وتشرب أشجارهم وزروعهم، والمالح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسماك، واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقراً مسخراً للسفن والمراكب، ولهذا قال:

﴿٢٤- ٢٥﴾ *وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام * فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾.

أي: وسخر تعالى لعباده السفن الجواري، التي تمخر البحر وتشقه بإذن الله، التي ينشئها آدميون، فتكون من كبرها وعظمتها كالأعلام، وهي الجبال العظيمة، فيركبها الناس، ويحملون عليها أمتعتهم وأنواع تجارتهم، وغير ذلك مما تدعو إليه حاجتهم وضرورتهم، وقد حفظها حافظ السماوات والأرض، وهذه من نعم الله الجليلة، فلذلك قال: ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾.

﴿٢٦- ٢٨﴾ *كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام * فبأي: آلاء ربكما تكذبان* أي: كل من على الأرض، من إنس وجن، ودواب، وسائر المخلوقات، يفنى ويموت ويبعد ويبقى الحي الذي لا يموت ﴿ذو الجلال والإكرام﴾ أي: ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يعظم ويبجل ويجل لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجود، والداعي لأن يكرم أوليائه وخواص خلقه بأنواع الإكرام، الذي يكرمه أوليائه ويجلونه، [ويعظمونه] ويحبونه، وينيبون إليه ويعبدونه، ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾.

﴿٢٩- ٣٠﴾ *يسألوه من في السماوات والأرض كل يوم هو في شأن * فبأي: آلاء ربكما تكذبان* أي: هو الغني بذاته عن جميع مخلوقاته، وهو واسع الجود والكرم، فكل الخلق مفتقرون إليه، يسألونه جميع حوائجهم، بحالهم ومقالهم، ولا يستغنون عنه طرفة عين ولا أقل من ذلك، وهو تعالى ﴿كل يوم هو في شأن﴾ يغني فقيراً، ويغبر كسيراً، ويعطي قوماً، ويمنع آخرين، ويميت ويحيي، ويرفع ويخفض، لا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلظه المسائل، ولا يبرمه إحاح الملحين، ولا طول مسألة السائلين، فسبحان الكريم الوهاب، الذي عمت مواهبه أهل الأرض والسماوات، وعمّ لطفه جميع الخلق في كل الآنات واللحظات، وتعالى الذي لا يمنعه من الإعطاء معصية العاصين، ولا استغناء الفقراء الجاهلين به وبكرمه، وهذه الشؤون التي أخبر أنه تعالى كل يوم هو في شأن، هي تقاديره وتدابيره التي قدرها

في الأزل وقضاها، لا يزال تعالى يمضيها وينفذها في أوقاتها التي اقتضته حكمته، وهي أحكامه الدينية التي هي الأمر والنهي، والقدرية التي يجريها على عباده مدة مقامهم في هذه الدار، حتى إذا تمت [هذه] الخليفة وأفناهم الله تعالى^(٤)، وأراد تعالى أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويريم من عدله وفضله وكثرة إحسانه، ما به يعرفونه ويوحّدونه، نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان إلى دار الحيوان.

وفرح حينئذ لتنفيذ هذه الأحكام، التي جاء وقتها، وهو المراد بقوله: ﴿٣١- ٣٢﴾ *سنفرغ لكم أيها الثقلان * فبأي: آلاء ربكما تكذبان* أي: سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا.

﴿٣٣﴾ *يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان* أي: إذا جمعهم الله في موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزاً لهم: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض﴾ أي: تخرجون منفذاً مسلماً تخرجون به عن ملك الله وسلطانه، ﴿فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ أي: لا تخرجون عنه إلا بقوة وتسلط منكم، وكمال قدرة، وأنى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً؟! ففي ذلك الموقف لا يتكلم أحد إلا بإذنه، ولا تسمع إلا همساً، وفي ذلك الموقف يستوي الملوك والممالك، والرؤساء والمرؤوسون، والأغنياء والفقراء.

(١) في ب: عليهم.

(٢) فالجميع تحت..

(٣) في ب: وثناها هنا باعتبار مشارقتها شتاءً وصيفاً والله أعلم.

(٤) كذا في ب، وفي أ: وأفنى الله الخلق.

أهل الجنة وجلسهم عليها، وأنهم متكئون عليها، [أي:] جلوس تمكن واستقرار [وراحة]، كجلوس من الملوك على الأسرة، وتلك الفرش، لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله عز وجل، حتى إن بطائنها التي تلي الأرض منها، من إستبرق، وهو أحسن الحرير وأفخره، فكيف بظواهرها التي تلي بشرتهم؟! (١)

﴿وجنى الجنّين دان﴾ الجنى هو الثمر المستوي أي: ثمر هاتين الجنتين قريب التناول، يناله القائم والقاعد والمضطجع.

﴿فيهن قاصرات الطرف﴾ أي: قد قصرن طرفهن على أزواجهن، من حسنهن وجمالهن، وكمال محبتهن لهن، وقصرن أيضاً طرف أزواجهن عليهن، من حسنهن وجمالهن ولذة وصلهن، ﴿لم يطمثن إنس قبلهن ولا جان﴾ أي: لم ينلهن قبلهن أحد من الإنس والجن، بل هن أبكار عرب، متحبات إلى أزواجهن، بحسن التبعل والتغنج والملاحة والدلال، ولهذا قال: ﴿كأنهن الياقوت والمرجان﴾ وذلك لصفائهن وجمال منظرهن وبهائهن، ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الخالق ونفع عبده، إلا أن يحسن إليه بالشواب الجزيل، والفوز الكبير، والنعيم المقيم، والعيش السليم، فهاتان الجنتان العاليتان للمقربين، ﴿ومن دونهما جنتان﴾ من فضة بنيانها وأنيتهما وحليتهما وما فيهما لأصحاب اليمين، وتلك الجنتان ﴿مدهامتان﴾ أي: سوداوان من شدة الخضرة التي هي أثر الري.

﴿٦٦﴾ ﴿فيهما عينان نضاختان﴾ أي: فوارتان، ﴿فيهما فاكهة﴾ من جميع أصناف الفواكه، وأخصها النخل والرمان، اللذان فيهما من المنافع ما فيهما، ﴿فيهن﴾ أي: في الجنات كلها ﴿خيرات حسان﴾ أي: خيرات

أن تظهر للخلق حجته البالغة، وحكمته الجليلة.

﴿٤٣- ٤٥﴾ ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ يطوفون بينها وبين حميم آن ﴿فبأي: الآء ربكما تكذبان﴾ أي: يقال للمكذبين بالوعد والوعد حين تسعر الجحيم: ﴿هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون﴾ فليهنهم تكذيبهم بها، وليذوقوا من عذابها ونكالها وسعيرها وأغلالها، ما هو جزاء لتكذيبهم (٢)، ﴿يطوفون بينها﴾ أي: بين أطباق الجحيم ولهبها ﴿وبين حميم آن﴾ أي: ماء حار جداً قد انتهى حره، وزمهير قد اشتد برده وقره، ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ ولما ذكر ما يفعل بالمجرمين، ذكر جزاء المتقين الخائفين، فقال:

﴿٤٦- ٦٥﴾ ﴿ولن خاف مقام ربه جنتان﴾ فبأي: الآء ربكما تكذبان إلى آخر السورة.

أي: وللذي خاف ربه وقيامه عليه، فترك ما نهى عنه، وفعل ما أمره به، له جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وبنيانها وما فيهما، إحدى الجنتين جزاء على ترك المنهات، والأخرى على فعل الطاعات، ومن أوصاف تلك الجنتين أنهما ﴿ذواتا أفنان﴾ [أي: فيهما من ألوان النعيم المتنوعة نعيم الظاهر والباطن ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر] (٤) أن ﴿فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار البائنة الكثيرة اللذيذة، أو ذواتا أنواع وأصناف من جميع أصناف النعيم وأنواعه جمع فن، أي: صنف.

وفي تلك الجنتين ﴿عينان تجريان﴾ يفجرونها على ما يريدون ويشتهون، ﴿فيهما من كل فاكهة﴾ من جميع أصناف الفواكه ﴿زوجان﴾ أي: صنفان، كل صنف له لذة ولون، ليس للنوع الآخر، ﴿متكئين على فرش بطائنها من إستبرق﴾ هذه صفة فرش

﴿٣٥- ٣٦﴾ ثم ذكر ما أعد لهم في ذلك الموقف العظيم (١)، فقال: ﴿يرسل عليكم شواظ من نار﴾ ونحاس فلا تنظران فبأي: آلاء ربكما تكذبان؟ أي: يرسل عليكم [لهب صافٍ من النار.

﴿ونحاس﴾ وهو اللهب، الذي قد خالطه الدخان، والمعنى أن هذين الأمرين الفظيعين يرسلان عليكم يا معشر الجن والإنس، ويحيطان بكما فلا تنتصران، لا بناصر من أنفسكم، ولا بأحد ينصركم من دون الله.

ولما كان تخويله لعباده نعمة منه عليهم، وسوطاً يسوقهم به إلى أعلى المطالب وأشرف المواهب، امتن عليهم (٢)، فقال: ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾.

﴿٣٧﴾ ﴿فإذا انشقت السماء﴾ [أي: يوم القيامة من شدة الأهوال، وكثرة البلبال، وترادف الأروجال، فانخفضت شمسها وقمرها، وانتشرت نجومها، فكانت من شدة الخوف والانزعاج ﴿وردة كالدهان﴾ أي: كانت كاللؤلؤ والرصاص المذاب ونحوه ﴿فبأي: آلاء ربكما تكذبان﴾ فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ أي: سؤال استعلام بما وقع، لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة والماضي والمستقبل، ويريد أن يجازي العباد بما علمه من أحوالهم، وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة علامات يعرفون بها، كما قال تعالى: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾.

﴿٤١﴾ وقال هنا: ﴿يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام﴾ أي: فيؤخذ بنواصي المجرمين وأقدامهم، فيلقون في النار ويسحبون فيها، وإنما يسألهم تعالى سؤال توبيخ وتقرير بما وقع منهم، وهو أعلم به منهم، ولكنه تعالى يريد

(٥) كذا في ب، وفي أ: أي.

(٦) في ب: التي يباشرون.

(٣) في ب: جزاء لهم على تكذيبهم.

(٤) زيادة من هامش: ب.

(١) في ب: في ذلك اليوم.

(٢) في ب: ذكر متته بذلك.

العين في الأنثى، من أعظم الأدلة على حسنها وجمالها.

﴿كأشبال اللؤلؤ المكنون﴾ أي: كأنهن اللؤلؤ الأبيض الرطب الصافي البهي، المستور عن الأعين والريح والشمس، الذي يكون لونه من أحسن الألوان، الذي لا عيب فيه بوجه من الوجوه، فكذلك الحور العين، لا عيب فيهن [بوجه]، بل هن كاملات الأوصاف، جميلات النعوت.

فكل ما تأملت منها لم تجد فيه إلا ما يسر الخاطر^(٣) ويروق الناظر، وذلك النعيم المعد لهم ﴿جزاء بما كانوا يعملون﴾ فكما حسنت منهم الأعمال، أحسن الله لهم الجزاء، ووفر لهم الفوز والنعيم.

﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾ أي: لا يسمعون في جنات النعيم كلاماً يلغي، ولا يكون فيه فائدة، ولا كلاماً يؤثم صاحبه، ﴿إلا قليلاً سلاماً سلاماً﴾ أي: إلا كلاماً طيباً، وذلك لأنها دار الطيبين، ولا يكون فيها إلا كل طيب، وهذا دليل على حسن أدب أهل الجنة في خطابهم فيما بينهم، وأنه أطيب كلام، وأسرر للنفوس^(٤)، وأسلمه من كل لغو وإثم، نسأل الله من فضله.

﴿٢٧﴾ ثم ذكر تعميم أصحاب اليمين^(٥)، فقال: ﴿وأصحاب اليمين﴾ ما أصحاب اليمين؟ أي: شأنهم عظيم، وحالهم جسيم، ﴿في سدر مخضود﴾ أي: مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان [الرديئة] المضرة، مجعول مكان ذلك الثمر الطيب، وللستر من الخواص، الظل الظليل، وراحة الجسم فيه، ﴿وطلح منضود﴾ والطلح معروف، وهو شجر [كبار] يكون بالبادية، تنضد أغصانه من الثمر اللذيذ الشهى، ﴿وماء مسكوب﴾ أي: كثير

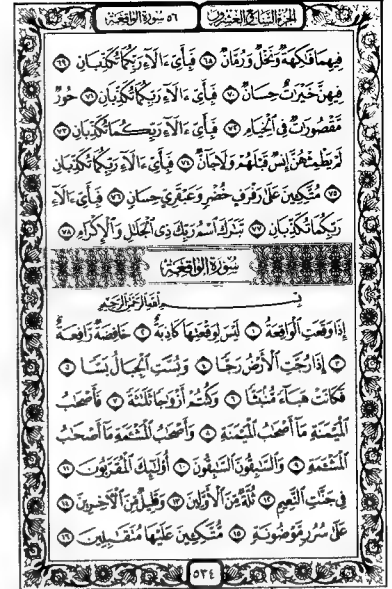
مخلدون؟ أي: يدور على أهل الجنة للخدمة وقضاء حوائجهم، ولدان صغار الأسنان، في غاية الحسن والبهاء، ﴿كأنهم لؤلؤ مكنون﴾ أي: مستور، لا يناله ما يغيره، مخلوقون للبقاء والخلد، لا يهرمون ولا يتغيرون، ولا يزيدون على أسنانهم، ويدورون عليهم بأية شراهم ﴿ياكواب﴾ وهي التي لا عرى لها، ﴿وأباريق﴾: الأواني التي لها عرى، ﴿وكأس من معين﴾ أي: من خمر لذيذ المشرب، لا آفة فيها، ﴿لا يصدعون عنها﴾ أي: لا تصدعهم رؤوسهم كما تصدع خمرة الدنيا رأس شاربيها.

ولاهم عنها ينزفون، أي: لا تنزف عقولهم، ولا تذهب أحلامهم منها، كما يكون لخمّر الدنيا.

والحاصل: أن جميع^(٦) ما في الجنة من أنواع النعيم الموجود جنسه في الدنيا، لا يوجد في الجنة فيه آفة، كما قال تعالى: ﴿فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى﴾ وذكر هنا خمر الجنة، ونفى عنها كل آفة توجد في الدنيا.

﴿وفاكهة مما يتخيرون﴾ أي: مهما تخيروا، وراق في أعينهم، واشتهته نفوسهم، من أنواع الفواكه الشهية، والجنى اللذيذ، حصل لهم على أكمل وجه وأحسنه، ﴿ولحم طير مما يشتهون﴾ أي: من كل صنف من الطيور يشتهونه، ومن أي: جنس من لحمه أرادوا، وإن شأوا مشوياً، أو طيبخاً، أو غير ذلك.

﴿وحور عين﴾ كأشبال اللؤلؤ المكنون؟ أي: ولهم حور عين، والحوراء: التي في عينها كحل وملاحة، وحسن وبهاء، والعين: حسان الأعين وضخامها^(٧)، وحسن



المقربون؟ أي: السابقون في الدنيا إلى الخيرات، هم السابقون في الآخرة لدخول الجنات.

أولئك الذين هذا وصفهم، المقربون عند الله، في جنات النعيم، في أعلى عليين، في المنازل العاليات، التي لا منزلة فوقها، وهؤلاء المذكورون ﴿ثلة من الأولين﴾ أي: جماعة كثيرون من المتقدمين من هذه الأمة وغيرهم.

﴿١٤﴾ ﴿وقليل من الآخرين﴾ وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة في الجملة على متأخريها، لكون المقربين من الأولين أكثر من المتأخرين، والمقربون هم خواص الخلق، ﴿على سرر موضونة﴾ أي: مرمولة بالذهب والفضة، واللؤلؤ والجوهر، وغير ذلك من [الحلي] الزينة، التي لا يعلمها إلا الله تعالى، ﴿متكئين عليها﴾ أي: على تلك السرر، جلوس تمكين وطمأنينة وراحة واستقرار. ﴿متقابلين﴾ وجه كل منهم إلى وجه صاحبه، من صفاء قلوبهم، وحسن أدبهم، وتقابل قلوبهم.

﴿١٧﴾ ﴿يطوف عليهم ولدان

(١) في ب: كل.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ضخام الأعين.

(٣) في ب: القلب.

(٤) في ب: للقلوب.

(٥) في ب: ثم ذكر ما أعد لأصحاب اليمين.

من العيون والأنهار السارحة، والمياه المتدفقة، وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة* أي: ليست بمنزلة فاكهة الدنيا تقطع في وقت من الأوقات، وتكون ممنوعة [أي: متعسرة] على مبتغيها، بل هي على الدوام موجودة، وجناها قريب يتناوله العبد على أي: حال يكون، وفورش مرفوعة* أي: مرفوعة فوق الأسرة ارتفاعاً عظيماً، وتلك الفرش من الحرير والذهب واللؤلؤ وما لا يعلمه إلا الله. ﴿إنا أنشأناهم إنشاءً﴾ أي: إنا أنشأنا نساء أهل الجنة نشأة غير النشأة التي كانت في الدنيا، نشأة كاملة لا تقبل الفناء، ﴿فجعلناهم أبقاراً﴾ صغارهم وكبارهم، وعموم ذلك يشمل الحور العين ونساء أهل الدنيا، وأن هذا الوصف - وهو البكارة - ملازم لهن في جميع الأحوال، كما أن كونهن ﴿عرباً أتراباً﴾ ملازم لهن في كل حال، والعروب: هي المرأة المتحبة إلى بعلها بحسن لفظها، وحسن هيئتها ودلالها وجمالها [ومحبتها]، فهي التي إن تكلمت سبت العقول، وود السامع أن كلامها لا ينقضي، خصوصاً عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة والنغمات المطربة، وإن نظر إلى أدها وسمتها ودلها ملأت قلب بعلها فرحاً وسروراً، وإن برزت^(١) من محل إلى آخر، امتلاً ذلك الموضع منها ريحاً طيباً ونوراً، ويدخل في ذلك الغنجة عند الجماع.

والأتراب اللاتي على سن واحدة، ثلاث وثلاثين سنة، التي هي غاية ما يتمنى ونهاية سن الشباب، فنساؤهم عرب أتراب، متفقات مؤلفات، راضيات مرضيات، لا يُحْزَنُ ولا يُحْزَنُ، بل هن أفراح النفوس، وقررة العيون، وجلاء الأبصار، ﴿لأصحاب اليمين﴾ أي: معدات لهم مهيات، ﴿ثلة من الأولين * وثلة من الآخرين﴾ أي: هذا القسم من أصحاب اليمين عدد كثير من الأولين،

وعدد كثير من الآخرين.

﴿٤١ - ٤٨﴾ ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * في سموم وحيم * وظل من محموم * لا بارد ولا كريم * إنهم كانوا قبل ذلك مترفين * وكانوا يصرون على الحنث العظيم * وكانوا يقولون إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمبعوثون * أو أبأونا الأولون﴾.

المراد بأصحاب الشمال: أصحاب النار، والأعمال المشؤومة، فذكر [الله] لهم من العقاب، ما هم حقيقون به، فأخبر أنهم ﴿في سموم﴾ أي: ريح حارة من حر نار جهنم، يأخذ بأنفاسهم، وتقلقهم أشد القلق، ﴿وحيم﴾ أي: ماء حار يقطع أمعاءهم، ﴿وظل من محموم﴾ أي: لهب نار يختلط بدخان، ﴿لا بارد ولا كريم﴾ أي: لا برده فيه ولا كرم، والمقصود أن هناك الهم والغم، والحزن والشر، الذي لا خير فيه، لأن نفي الضد إثبات لضده. ثم ذكر أعمالهم التي أوصلتهم إلى هذا الجزاء، فقال: ﴿إنهم كانوا قبل ذلك مترفين﴾ أي: قد ألهمهم دنياهم، وعملوا لها، وتنعموا وتمتعوا بها، فآلهاهم الأمل عن إحسان العمل، فهذا الترف الذي ذمهم الله عليه، ﴿وكانوا يصرون على الحنث العظيم﴾ أي: وكانوا يفعلون الذنوب الكبار ولا يتوبون منها، ولا يندمون عليها، بل يصرون على ما يسخط مولاهم، فقدموا عليه بأوزار كثيرة [غير مغفورة].

وكانوا ينكرون البعث، فيقولون استبعاداً لوقوعه: ﴿إذا متنا وكنا تراباً وعظاماً إنا لمبعوثون * أو أبأونا الأولون﴾ أي: كيف نبعث بعد موتنا وقد لبنا، فكنا تراباً وعظاماً؟ [هذا من المحال] ﴿إنا لمبعوثون أو أبأونا الأولون﴾ قال تعالى جواباً لهم ورداً عليهم^(٢): ﴿قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم﴾، أي: قل إن متقدم الخلق ومتأخرهم،

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ﴾ عن طريق الهدى، التابعون لطريق الردى، ﴿المكذبون﴾ بالرسول ﷺ وما جاء به من الحق والوعد والوعيد، ﴿لأكلون من شجر من زقوم﴾ وهو أقبح الأشجار وأخسها، وأنتنها ريحاً، وأبشعها منظرًا، ﴿فمالمثلون منها البطون﴾ والذي أوجب لهم أكلها - مع ما هي عليه من الشناعة - الجوع المفرط، الذي يلتهب في أكبادهم وتكاد تنقطع منه أفئدتهم. هذا الطعام الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يسمن ولا يغني من جوع. وأما شرابهم، فهو بئس الشراب، وهو أنهم يشربون على هذا الطعام من الماء الحميم الذي يغلي في البطون شرب الإبل الهيم أي: العطاش، التي قد اشتد عطشها، أو [أن الهيم] داء يصيب الإبل، لا تروى معه من شراب الماء.

﴿هذا﴾ الطعام والشراب ﴿نزلهم﴾ أي: ضيافتهم ﴿يوم الدين﴾ وهي

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيْهَا الضَّالُّونَ﴾ عن طريق الهدى، التابعون لطريق الردى، ﴿المكذبون﴾ بالرسول ﷺ وما جاء به من الحق والوعد والوعيد، ﴿لأكلون من شجر من زقوم﴾ وهو أقبح الأشجار وأخسها، وأنتنها ريحاً، وأبشعها منظرًا، ﴿فمالمثلون منها البطون﴾ والذي أوجب لهم أكلها - مع ما هي عليه من الشناعة - الجوع المفرط، الذي يلتهب في أكبادهم وتكاد تنقطع منه أفئدتهم. هذا الطعام الذي يدفعون به الجوع، وهو الذي لا يسمن ولا يغني من جوع.

﴿هذا﴾ الطعام والشراب ﴿نزلهم﴾ أي: ضيافتهم ﴿يوم الدين﴾ وهي

ولا يخفى، بل يصدق به ويعلم.

وقوله: ﴿وَجَعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾ أي: تجعلون مقابلة منة الله عليكم بالرزق التكذيب والكفر لنعمة الله، فتقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، وتضيفون النعمة لغير مسديها وموليها، فهلا شكرتم الله تعالى على إحسانه، إذ أنزله الله إليكم ليزيدكم من فضله، فإن التكذيب والكفر داء لرفع النعم وحلول النقم.

﴿فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون﴾ أي: فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم، وأنتم تنظرون المحتضر في هذه الحالة، والحال أنا نحن أقرب إليه منكم، بعلمنا وملائكتنا، ولكن لا تبصرون، ﴿فلولا إن كنتم غير مدينين﴾ أي: فهلا إذا كنتم تزعمون، أنكم غير مبعوئين ولا محاسبين ومجازين، ترجعون الروح إلى بدنها ﴿إن كنتم صادقين﴾ وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردها إلى موضعها، فحينئذ إما أن تقروا بالحق الذي جاءكم به محمد ﷺ، وإما أن تعاندوا وتعلم حالكم وسوء مآلكم.

﴿٨٨ - ٩٦﴾ ﴿فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم * إن هذا لهو حق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم﴾ ذكر الله تعالى أحوال الطوائف الثلاث: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين، في أول السورة في دار القرار.

ثم ذكر أحوالهم في آخرها عند الاحتضار والموت، فقال: ﴿فأما إن كان﴾ أليت ﴿من المقربين﴾ وهم الذين أدوا الواجبات والمستحبات، وتركوا

مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله وعند ملائكته في الملأ الأعلى.

ويحتمل أن المراد بالكتاب المكتون، هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة الذين ينزلهم الله بوحيه وتنزيله^(٢)، وأن المراد بذلك أنه مستور عن الشياطين، لا قدرة لهم^(٣) على تغييره، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه، ﴿لا يمسسه إلا المطهرون﴾ أي: لا يمس القرآن إلا الملائكة الكرام، الذين طهرهم الله تعالى من الآفات والذنوب والعيوب، وإذا كان لا يمس إلا المطهرون، وأن أهل الخبث والشياطين، لا استطاعة لهم، ولا يدان إلى مسه، دلت الآية بتنبهها^(٤)، على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر، كما ورد بذلك الحديث، ولهذا قيل أن الآية خبر بمعنى النهي أي: لا يمس القرآن إلا طاهر.

﴿تنزيل من رب العالمين﴾ أي: إن هذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة هو تنزيل رب العالمين، الذي يربي عباده بنعمة الدينية والدنيوية، ومن أجل تربية ربي بها عباده، أنزله هذا القرآن، الذي قد اشتمل على مصالح الدارين، ورحم الله به العباد رحمة لا يقدرون لها شكوراً، وبما يجب عليهم أن يقوموا به^(٥)، ويعلنوه ويدعوا إليه ويصدقوا به، ولهذا قال: ﴿أفبهذا الحديث أنتم مدهنون﴾ أي: أفبهذا الكتاب العظيم والذكر الحكيم أنتم تدهنون أي: تحتفون وتدلسون خوفاً من الخلق وعارهم وألسنتهم؟ هذا لا ينبغي ولا يليق، إنما يليق أن يداهن بالحديث الذي لا يثق صاحبه منه.

وأما القرآن الكريم، فهو الحق الذي لا يغالب به مغالب إلا غلب، ولا يصول به صائل إلا كان العالي على غيره، وهو الذي لا يداهن به

السبب في ذلك، لأن الدنيا كلها دار سفر، والعبد من حين ولد فهو مسافر إلى ربه، فهذه النار، جعلها الله متاعاً للمسافرين في هذه الدار، وتذكراً لهم بدار القرار، فلما بين من نعمه ما يوجب الشناء عليه من عباده وشكره وعبادته، أمر بتسبيحه وتحميده^(٦)، فقال: ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي: نزه ربك العظيم، كامل الأسماء والصفات، كثير الإحسان والخيرات، واحده بقلبك ولسانك وجوارحك، لأنه أهل لذلك، وهو المستحق لأن يُشكر فلا يكفر، ويُذكر فلا ينسى، ويُطاع فلا يعصى.

﴿٧٥ - ٨٧﴾ ﴿فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسـم لو تعلمون عظيم﴾ إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون * لا يمسسه إلا المطهرون * تنزيل من رب العالمين * أفبهذا الحديث أنتم مدهنون * وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون * فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعوهن إن كنتم صادقين﴾ أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها أي: مساقطها في مغاريها، وما يحدث الله في تلك الأوقات، من الحوادث الدالة على عظمتها وكبريائه وتوحيده، ثم عظم هذا القسم به، فقال: ﴿وإنه لقسـم لو تعلمون عظيم﴾ وإنما كان القسم عظيماً، لأن في النجوم وجريانها، وسقوطها عند مغاريها، آيات وعبراً لا يمكن حصرها، وأما القسم عليه، فهو إثبات القرآن، وأنه حق لا ريب فيه، ولا شك يعتريه، وأنه كريم أي: كثير الخير، غزير العلم، فكل خير وعلم، فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه، ﴿في كتاب مكنون﴾ أي: مستور عن أعين الخلق، وهذا الكتاب المكتون هو اللوح المحفوظ أي: إن هذا القرآن

(١) في ب: وتعظيمه.

(٢) في ب: لوجيه ورسالته.

(٣) كذا في ب، وفي أ: لها.

(٤) في ب: تنبهاً.

(٥) كذا في ب، وفي أ: عليهم به أن

يقوموا به.

المحرمات والمكروهات^(١) وفضول المباحات، ﴿ف﴾ لهم ﴿روح﴾ أي: راحة وطمانينة، وسرور وبهجة، ونعيم القلب والروح، ﴿وريحان﴾ وهو اسم جامع لكل لذة بدنية، من أنواع المأكّل والمشرب وغيرهما، وقيل: الريحان هو الطيب المعروف، فيكون تعبيراً بنوع الشيء عن جنسه العام^(٢).

﴿وجنة نعيم﴾ جامعة للآمرين كليهما، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فيبشر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة، التي تكاد تطير منها الأرواح من الفرح والسرور.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَتَخَفُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ * نَزَلْنَا مِنْ غُفُورٍ رَحِيمٍ﴾.

وقد أول قوله^(٣) تبارك تعالى: ﴿لَهُمُ الْبَشَرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أن هذه البشارة المذكورة، هي البشـرى في الحياة الدنيا.

[وقوله:] «وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَهُمْ الَّذِينَ آدُوا الْوَاجِبَاتِ وَتَرَكُوا الْمُحْرَمَاتِ، وَ [إِنْ] حَصَلَ مِنْهُمْ التَّقْصِيرُ فِي بَعْضِ الْحَقُوقِ الَّتِي لَا تَحِلُّ بِتَوْحِيدِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ، ﴿ف﴾ يَقَالُ لِأَحَدِهِمْ: «سَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ» أَيْ: سَلَامٌ حَاصِلٌ لَكَ مِنْ إِخْوَانِكَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ أَيْ: يَسْلُمُونَ عَلَيْهِ وَيَحْيَوْنَهُ عِنْدَ وَصُولِهِ إِلَيْهِمْ وَلِقَائِهِمْ لَهُ، أَوْ يَقَالُ لَهُ: سَلَامٌ لَكَ مِنَ الْآفَاتِ وَالْبَلِيَّاتِ وَالْعَذَابِ، لِأَنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، الَّذِينَ

سَلِمُوا مِنَ الذُّنُوبِ الْمَوْبِقَاتِ.

﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمَكْذِبِينَ الضَّالِّينَ﴾ أَيْ: الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْحَقِّ وَضَلُّوا عَنِ الْهُدَى، ﴿فَنَزَلَ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصَلَّى جَحِيمٌ﴾ أَيْ: ضَيَافَتُهُمْ يَوْمَ قُدُومِهِمْ عَلَى رَبِّهِمْ تَصَلَّى الْجَحِيمِ الَّتِي تَحِيطُ بِهِمْ، وَتَصِلُ إِلَى أَنْفُسِهِمْ، وَإِذَا اسْتَغَاثُوا مِنْ شِدَّةِ الْعَطَشِ وَالظَّمْأِ يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِشَسِّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مَرْتَقَاً.

﴿إِنْ هَذَا﴾ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى، مِنْ جَزَاءِ الْعِبَادِ بِأَعْمَالِهِمْ، خَيْرٌهَا وَشَرُّهَا، وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ أَيْ: الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ وَلَا مَرِيَّةَ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ الثَّابِتُ الَّذِي لَا يَدُ مِنْ وَقْعِهِ، وَقَدْ أَشْهَدَ اللَّهُ عِبَادَهُ الْأَدْلَةَ الْقَوَاطِعَ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى صَارَ عِنْدَ أَوَّلِي الْأَلْيَابِ كَأَنَّهُمْ ذَائِقُونَ لَهُ مَشَاهِدُونَ لَهُ^(٤)، فَحَمَدُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى مَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ وَالْمُنْحَةِ الْجَسِيمَةِ.

ولهذا قال تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ فسبحان ربنا العظيم، وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون الجاحدون علواً كبيراً. والحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه.

[تم تفسير سورة الواقعة]

تفسير سورة الحديد [وهي] مدنية

﴿١-٦﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ سَبِّحَ اللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * هُوَ الَّذِي خَلَقَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * يُخَبِّرُ تَعَالَى عَنْ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ وَسِعَةِ سُلْطَانِهِ، أَنَّ جَمِيعَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ النَّاطِقَةِ وَالصَّامِتَةِ وَغَيْرِهَا، [وَالْجَوَامِدِ] تَسْبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهَا، وَتَنْزِعُهُ عَمَّا لَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَأَنَّهُ قَانِتَةٌ لِرَبِّهَا، مُنْقَادَةٌ لِعَزَّتِهِ، قَدْ ظَهَرَتْ فِيهَا آثَارُ حُكْمَتِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فِهَذَا فِيهِ بَيَانٌ عَمُومٌ افْتِقَارُ الْخُلُوقَاتِ الْعُلُوبَةِ وَالسُّفْلِيَةِ لِرَبِّهَا، فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهَا، وَعَمُومٌ عَزَّتِهِ وَقَهْرُهُ لِلْأَشْيَاءِ كُلِّهَا، وَعَمُومٌ حُكْمَتِهِ فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ عَمُومِ مُلْكِهِ، فَقَالَ: ﴿لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أَيْ: هُوَ الْخَالِقُ لِلذَّلِكَ، الرَّازِقُ الْمُدَبِّرُ لَهَا بِقُدْرَتِهِ ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ﴾ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، ﴿وَالْآخِرُ﴾ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ شَيْءٌ، ﴿وَالظَّاهِرُ﴾ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ شَيْءٌ، ﴿وَالْبَاطِنُ﴾ الَّذِي لَيْسَ دُونَهُ شَيْءٌ.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ قَدْ أَحَاطَ عِلْمُهُ بِالظُّوْهِرِ وَالْبُيُوتَانِ، وَالسَّرَائِرِ وَالْخَفَايَا، وَالْأُمُورِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَالْمُتَأَخِّرَةِ.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أَوَّلُهَا يَوْمُ الْأَحَدِ وَآخِرُهَا يَوْمُ الْجُمُعَةِ ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ اسْتَوَاءً يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، فَوْقَ جَمِيعِ خَلْقِهِ، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ مِنْ حَبٍّ وَحَيَوَانٍ وَمَطَرٍ،

(١) فِي ب: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أَيْ: إِنْ كَانَ الْعَبْدُ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ إِلَى اللَّهِ الْمُتَقَرَّبِينَ إِلَيْهِ بِأَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ وَالْمُسْتَحْبَاتِ، وَتَرَكِ الْمُحْرَمَاتِ وَالْمَكْرُوهَاتِ.

(٢) فِي ب: فَيَكُونُ مِنْ بَابِ التَّعْبِيرِ بِنَوْعِ الشَّيْءِ عَنْ جَنْسِهِ.

(٣) فِي ب: فَنَسَر.

(٤) فِي ب: مُشَاهِدُونَ لِحَقِيقَتِهِ.

وغير ذلك .

﴿وما يخرج منها﴾ من نباتٍ وشجر وحيوان وغير ذلك، ﴿وما ينزل من السماء﴾ من الملائكة والأقمار والأرزاق .

﴿وما يعرج فيها﴾ من الملائكة والأرواح، والأدعية والأعمال، وغير ذلك .

﴿وهو معكم أينما كنتم﴾ كقوله : ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾ .

وهذه المعية، معية العلم والاطلاع، ولهذا تواعد ووعد على المجازاة بالأعمال بقوله : ﴿والله بما تعملون بصير﴾ أي : هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال، من بر وفجور، فمجازيكم عليها، وحافظها عليكم، ﴿له ملك السماوات والأرض﴾ ملكاً وخلقاً وعبداً، يتصرف فيهم بما شاء من أوامره القدريّة والشرعية، الجارية على الحكمة الربانية، ﴿والى الله ترجع الأمور﴾ من الأعمال والعمال، فيعرض عليه العباد، فيميز الخبيث من الطيب، ويمجزي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته .

﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي : يدخل الليل على النهار، فيغشيهم الليل بظلامه، فيسكنون ويهدؤون، ثم يدخل النهار على الليل، فيزول ما على الأرض من الظلام، ويضيء الكون، فيتحرك العباد، ويقومون إلى مصالحهم ومعاشهم، ولا يزال الله يكور الليل على النهار، والنهار على الليل، ويدول بينهما، في الزيادة والنقص، والطول والقصر، حتى تقوم بذلك الفصول، وتستقيم الأزمنة، ويحصل من المصالح ما يحصل بذلك، فتبارك الله رب العالمين، وتعالى الكريم الجواد، الذي

أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة، ﴿وهو عليم بذات الصدور﴾ أي : بما يكون في صدور العالمين، فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك، ويخذل من يعلم أنه لا يصلح لهدايته^(١) .

﴿٧-١١﴾ ﴿آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾ * وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين * هو الذي ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤوف رحيم * وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السماوات والأرض لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير * من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم * يأمر تعالى عباده بالإيمان به وبرسوله وبما جاء به، وبالنفقة في سبيله، من الأموال التي جعلها الله في أيديهم واستخلفهم عليها، لينظر كيف يعملون، ثم لما أمرهم بذلك، رغبهم وحثهم عليه بذكر ما رتب عليه من الثواب، فقال : ﴿فالذين آمنوا منكم وأنفقوا﴾ أي : جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله، والنفقة في سبيله، لهم أجر كبير، أعظمه [وأجله] رضا ربهم، والفوز بدار كرامته، وما فيها من النعيم المقيم، الذي أعده الله للمؤمنين والمجاهدين، ثم ذكر [السبب] الداعي لهم إلى الإيمان، وعدم المانع منه، فقال : ﴿وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين﴾ أي : وما الذي يمنحكم من الإيمان، والحال أن الرسول محمد ﷺ أفضل الرسل وأكرم داع دعا إلى الله يدعوكم، فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته،

إِنَّ اللَّهَ لَنَنصِرَ الْمُصِيبِينَ ﴿١١﴾ فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ ﴿١٢﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿١٣﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَفْهِمُونَ ﴿١٥﴾ وَنَعْلَمُ رُسُلَكَ كَذِبًا كَذِبُونَ ﴿١٦﴾ فَلَوْلَا إِنَّا لَكُنَّا فَتَقَدِّمُ ﴿١٧﴾ وَأَنْتَ خَلِّدُ نَظَرُونَ ﴿١٨﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٩﴾ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٢٠﴾ تُحَرِّجُونَنَا مِنْ دَافِعِ الْمُنَى ﴿٢١﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَعْيُنِ الْيَقِينِ ﴿٢٢﴾ فَسَبِّحْهُ مِنْ غَضَبِ الرَّحْمَنِ ﴿٢٣﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْكُفْرِ وَالشَّكِّ فِي الْحَقِّ ﴿٢٤﴾ فَسَبِّحْهُ مِنْ غَضَبِ الرَّحْمَنِ ﴿٢٥﴾ إِنَّ هَذَا لَفِي كِتَابِ الْيَقِينِ ﴿٢٦﴾ فَسَبِّحْهُ بِحَمْدِ رَبِّكَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَرَبُّكَ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
سَبِّحْهُ بِحَمْدِ رَبِّكَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَرَبُّكَ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾

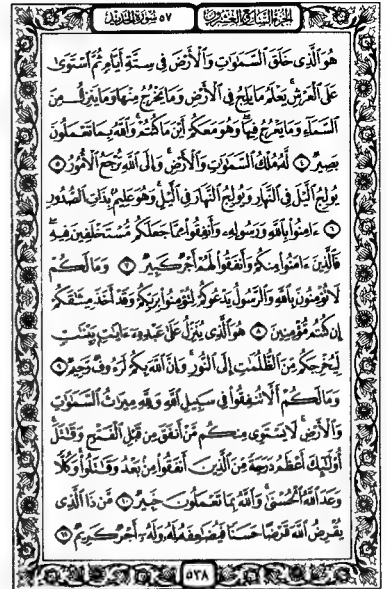
والتلبية والإجابة للحق الذي جاء به، وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان إن كنتم مؤمنين، ومع ذلك، من لطفه وعنايته بكم، أنه لم يكتف بمجرد دعوة الرسول الذي هو أشرف العالم، بل أيده بالمعجزات، ودلكم على صدق ما جاء به بالآيات البينات، فلماذا قال : ﴿هو الذي ينزل على عبده آيات بينات﴾ أي : ظاهرات تدل أهل العقول على صدق كل ما جاء به^(٢)، وأنه حق اليقين، ﴿ليخرجكم﴾ بإرسال الرسول إليكم، وما أنزله الله على يده من الكتاب والحكمة .

﴿من الظلمات إلى النور﴾ أي : من ظلمات الجهل والكفر، إلى نور العلم والإيمان، وهذا من رحمته بكم ورافته، حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها ﴿وإن الله بكم لرؤوف رحيم﴾

﴿١٠﴾ ﴿وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السماوات والأرض﴾ أي : وما الذي يمنكم من النفقة في سبيل الله، وهو طرق الخير كلها، ويوجب لكم أن تبخلوا، ﴿وهو الحال أنه ليس لكم شيء، بل﴾ الله ميراث السماوات والأرض فجميع الأموال ستنتقل من أيديكم أو تنقلون

(١) كذا في ب، وفي أ ونخذل من يعلمه لا يصلح .

(٢) في ب : على صحة جميع ما جاء به .



يتوهم منه نقص وقدح في الفضول، احترز تعالى من هذا بقوله: ﴿وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَى﴾ أي: الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده، كلهم وعده الله الجنة، وهذا يدل على فضل الصحابة [كلهم]، رضي الله عنهم، حيث شهد الله لهم بالإيمان، ووعدهم الجنة، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فيجازي كلًا منكم على ما يعلمه من عمله، ثم حث على النفقة في سبيله، لأن الجهاد متوقف على النفقة فيه، وبذل الأموال في التجهز له، فقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهي النفقة [الطيبة] التي تكون خالصة لوجه الله، موافقة لرضا الله، من مال حلال طيب، طيبة به نفسه، وهذا من كرم الله تعالى [حيث] سماه قرضاً، والمال ماله، والعبد عبده، ووعد بالمضاعفة عليه أضعافاً كثيرة، وهو الكريم الوهاب، وتلك المضاعفة محلها وموضعها يوم القيامة، يوم كل يتبين فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزاء الحسن، ولذلك قال:

﴿١٢ - ١٥﴾ «يوم ترى المؤمنين

والمؤمنات يسمى نورهم بين أيديهم وبأيامانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم * يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فاضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب * ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرركم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور * فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا ماؤاكم النار هي مولاكم وبئس المصير * يقول تعالى - مبيناً لفضل الإيمان واغتياب أهله به يوم القيامة - : «يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيامانهم» أي: إذا

كان يوم القيامة، وكورت الشمس، وخسف القمر، وصار الناس في الظلمة، ونصب الصراط على متن جهنم، فحينئذ ترى المؤمنين والمؤمنات، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيامانهم، فيمشون بأيامانهم ونورهم في ذلك الموقف الهائل الصعب، كل على قدر إيمانه، ويبشرون عند ذلك بأعظم بشارة، فيقال: ﴿بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم﴾ فله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم، وألذها لنفوسهم، حيث حصل لهم كل مطلوب [محبوب]، ونجوا من كل شر ومرهوب، فلذا رأى المنافقون نور المؤمنين يمشون به^(١)، وهم قد طغىء نورهم وبقوا في الظلمات حائرين، قالوا للمؤمنين: «انظرونا نقتبس من نوركم» أي: أمهلونا لننال من نوركم ما نمشي به، لننجو من العذاب، فـ ﴿قِيلَ لَهُمْ: «ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ أي: إن كان ذلك ممكناً، والحال أن ذلك غير ممكن، بل هو من المحالات، ﴿فَضْرِبْ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ﴿سُورَةُ﴾ أي: حائط منيع، وحصن حصين، ﴿لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ وهو الذي يلي المؤمنين، ﴿وَوَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ وهو الذي يلي المنافقين، فينادي المنافقون المؤمنين، فيقولون لهم تضرعاً وترحاً: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾ في الدنيا نقول: «لا إله إلا الله»، ونصلي ونصوم ونجاهد، ونعمل مثل عملكم؟

﴿قَالُوا بَلَى﴾ كنتم معنا في الدنيا، وعملتم [في الظاهر] مثل عملنا، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين، من غير إيمان ولا نية [صادقة] صالحة، بل ﴿فَتَنْتَهَمُ أَنْفُسُكُمْ وَتَرْبِصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتهم في خبر الله الذي لا يقبل شكاً، ﴿وَوَغَرَّكُمْ الْأَمَانِيُّ﴾ الباطلة، حيث^(٢) تنتميت أن تنالوا مثال المؤمنين، وأنتم غير موقنين، ﴿حَتَّى

عنها، ثم يعود الملك إلى ملكه تبارك وتعالى، فاعتنموا الإنفاق ما دامت الأموال في أيديكم، وانتهزوا الفرصة، ثم ذكر تعالى تفاضل الأعمال بحسب الأحوال والحكمة الإلهية، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ، أُولَئِكَ أَكْثَرُ أُعْظَمَ دَرَجَةُ الْمَنْفِقِ﴾ من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، المراد بالفتح هنا هو فتح الحديبية، حين جرى من الصلح بين الرسول وبين قريش مما هو أعظم الفتوحات التي حصل بها نشر الإسلام، واختلاط المسلمين بالكافرين، والدعوة إلى الدين من غير معارض، فدخل الناس من ذلك الوقت في دين الله أفواجاً، واعتز الإسلام عزاً عظيماً، وكان المسلمون قبل هذا الفتح لا يقدر على الدعوة إلى الدين في غير البقعة التي أسلم أهلها، كالمدينة وتوابعها، وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها من ديار المشركين يؤذى ويخاف، فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وأنفق وقاتل، أعظم درجة وأجرأ وثواباً ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك، كما هو مقتضى الحكمة، ولذلك كان السابقون وفضلاء الصحابة، غالبهم أسلم قبل الفتح، ولما كان التفضيل بين الأمور قد

(١) في ب: يمشون بنورهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: التي.

جاء أمر الله ﷻ أي: حتى جاءكم الموت وأنتم بتلك الحال الذميمة.

«وغيركم بالله الضرور» وهو الشيطان، الذي زين لكم الكفر والريب، فاطمأنتم به، ووثقتم بوعده، وصدقتم خبره، «فالיום لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا» فلو افدتيم بمثل الأرض ذهباً ومثله معه، لما تقبل منكم، «وأوامك النار» أي: مستقركم، «هي مولاكم» التي تتولاكم وتضمكم إليها، «وبش المصير» النار.

[قال تعالى: «وأما من خفت موازينه * فأما هاية * وما أدراك ما هية * نار حامية»].

﴿١٦ - ١٧﴾ «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون * اعلما أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم آيات الله لعلكم تتقون» فما ذكر لكم آيات الله لعلكم تتقون، والمنافقين والمناقفات في الدار الآخرة، كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها، والاستكانة لعظمته، فعاتب الله المؤمنين [على عدم ذلك]، فقال: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾

أي: ألم يحى^(١) الوقت الذي تلين به قلوبهم^(٢) وتخشع لذكر الله، الذي هو القرآن، وتنقاد لأوامره وزواجره، وما نزل من الحق الذي جاء به محمد ﷺ وهذا فيه الحث على الاجتهاد على خشوع القلب لله تعالى، ولما أنزله من الكتاب والحكمة، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية والأحكام الشرعية كل وقت، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك، «ولا

يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد» أي: ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب والالتقيا التام، ثم لم يدوموا عليه، ولا ثبتوا، بل طال عليهم الزمان واستمرت بهم الغفلة، فاضمحل إيمانهم وزال إيقانهم، «فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون» فالقلوب تحتاج في كل وقت إلى أن تذكر بما أنزله الله، وتناطق بالحكمة، ولا يتنبغي الغفلة عن ذلك، فإن ذلك^(٣) سبب لقسوة القلب وجمود العين.

«اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون» فإن الآيات تدل العقول على العلم بالمطالب الإلهية، والذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم، فيجازيم بأعمالهم، والذي أحيا الأرض بعد موتها بماء المطر قادر على أن يحيي القلوب الميتة بما أنزله من الحق على رسوله، وهذه الآية تدل على أنه لا عقل لمن لم يتدب بآيات الله ولم يتقذ لشرائع الله.

﴿١٨ - ١٩﴾ «إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم * والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم» إن المصدقين والمصدقات، بالتشديد أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعية، والنفقات المرضية، «وأقرضوا الله قرضاً حسناً» بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدخراً لهم^(٤) عند ربهم، «يضاعف لهم» الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، «ولهم

نورهم» والنور من نور ربهم أي: نورهم وبأعينهم يشهدونكم اليوم بحسن عهدي بالذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم» إن المصدقين والمصدقات، بالتشديد أي: الذين أكثروا من الصدقات الشرعية، والنفقات المرضية، «وأقرضوا الله قرضاً حسناً» بأن قدموا من أموالهم في طرق الخيرات ما يكون مدخراً لهم^(٤) عند ربهم، «يضاعف لهم» الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، «ولهم

أجر كريم» وهو ما أعده الله لهم في الجنة، مما لا تعلمه النفوس.

«والذين آمنوا بالله ورسله» والإيمان عند أهل السنة: هو قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، فيشمل ذلك جميع شرائع الدين الظاهرة والباطنة، فالذين جمعوا بين هذه الأمور هم الصديقون أي: الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين، ودون مرتبة الأنبياء.

[وقوله: «والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم» كما ورد في الحديث الصحيح: «إن في الجنة مئة درجة، ما بين الدرجتين^(٥)» كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله، وهذا يقتضي شدة علوهم ورفعتهم، وقرهم إلى الله تعالى.

«والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم» فهذه الآيات جمعت أصناف الخلق، المتصدقين، والصديقين، والشهداء، وأصحاب الجحيم، فالمتصدقون الذين كان لجُل عملهم الإحسان إلى الخلق، وبذل النفع إليهم بغاية ما يمكنهم، خصوصاً

(٤) في ب: ذخراً.

(٥) في ب: ما بين كل درجتين.

(١) في ب: ألم يأت.

(٢) في ب: الذي به تلين قلوبكم.

(٣) في ب: فإنه.



بالنفع بالمال في سبيل الله.

والصديقون هم الذينكملوا مراتب الإيمان والعمل الصالح، والعلم النافع، واليقين الصادق، والشهداء هم الذين قاتلوا في سبيل الله [لإعلاء كلمة الله، وبذلوا أنفسهم وأموالهم] فقتلوا، وأصحاب الجحيم هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله.

وبقي قسم ذكرهم الله في سورة فاطر، وهم المقتصدون الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، إلا أنهم حصل منهم تقصير ببعض حقوق الله وحقوق عباده، فهؤلاء مآلهم الجنة، وإن حصل لهم عقوبة ببعض ما فعل.

﴿٢٠ - ٢١﴾ ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور * سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبين غايتها وغاية

أهلها، بأنها لعب ولهو، تلعب بها الأبدان، وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب، والغفلة عن ذكر الله^(١)، وعما أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعباً ولهواً، بخلاف أهل البقطة وعُمّال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته ومحبته، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقرهم إلى الله، من النفع القاصر والمتعدي.

[وقوله]: ﴿وزينة﴾ أي: تزيّن في اللباس والطعام والشراب، والمراكب والدور والقصور والجاه. [وتفاخر بينكم] أي: كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها، ﴿وتكاثر في الأموال والأولاد﴾ أي: كل يريد أن يكون هو الكاثر لغيره في المال والولد، وهذا مصداقه، وقوعه من تحبّي الدنيا والمطمئنين إليها.

بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبراً ولم يجعلها مستقراً، فنافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى الله^(٢)، وإذا رأى من يكاثره وينافسه بالأموال والأولاد، نافسه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدنيا مثلاً بغيث نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار، الذين قصرُوا همهم ونظرهم إلى الدنيا^(٣) جاءها من أمر الله [ما أتلفها] فهاجت وبيست، فعادت على حالها الأولى، كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا زوّي لها مرأى أنيق، كذلك الدنيا، بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة، مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة، إذ أصابها القدر بما

أذهبها^(٤) من يده، وأزال تسلطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين، لم يتزود منها سوى الكفن، فتبّأ لمن أضحت هي غاية أمنيته ولها عمله وسعيه.

وأما العمل للآخرة فهو الذي ينفع، ويدخر لصاحبه، ويصحب العبد على الأبد، ولهذا قال تعالى: ﴿وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان﴾ أي: حال الآخرة، ما يخلو من هذين الأمرين: إما العذاب الشديد في نار جهنم، وأغلالها وسلاسلها وأهوالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومنتهى مطلبه، فتجرأ على معاصي الله، وكذب بآيات الله، وكفر بأنعم الله.

وإما مغفرة من الله للمسيئات، وإزالة للعقوبات، ورضوان من الله، يحل من أحله^(٥) به دار الرضوان لمن عرف الدنيا، وسعى للآخرة سعيها.

فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾ أي: إلامتاع يتمتع به وينتفع به، ويستدفع به الحاجات، لا يغتر به ويطمئن إليه إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرم بالله الغرور.

ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته، وذلك يكون بالسعي بأسباب المغفرة، من التوبة النصوح، والاستغفار النافع، والبعد عن الذنوب ومظانها، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح، والحرص على ما يرضي الله على الدوام، من الإحسان في عبادة الخالق، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع، ولهذا ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك، فقال: ﴿وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله﴾ والإيمان بالله ورسله^(٦)، يدخل فيه أصول الدين وفروعه، ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء﴾ أي: هذا

(٥) في ب: من أحله عليه.

(٣) في ب: همهم ونظرهم.

(١) في ب: بلهو قلوبهم وغفلتهم.

(٦) كذا في ب، وفي أ: ورسوله.

(٤) في ب: فأذهبها.

(٢) في ب: إلى ذلك.

﴿والميزان﴾ وهو العدل في الأقوال والأفعال، والدين الذي جاءت به الرسل، كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي وفي معاملات الخلق، وفي الجنائيات والقصاص والحدود [والموارث وغير ذلك]، وذلك ﴿ليقوم الناس بالقسط﴾ قياماً بدين الله، وتحصيلاً لمصالحهم التي لا يمكن حصرها وعدّها، وهذا دليل على أن الرسل متفقون في قاعدة الشرع، وهو القيام بالقسط، وإن اختلفت أنواع العدل، بحسب الأزمنة والأحوال، ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد﴾ من آلات الحرب، كالسلاح والدروع وغير ذلك.

﴿ومنافع للناس﴾ وهو ما يشاهد من نفعه في أنواع الصناعات والحرف، والآواني وآلات الحرث، حتى إنه قلَّ أن يوجد شيء إلا وهو يحتاج إلى الحديد.

﴿وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب﴾ أي: ليقم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد، فيتبين من ينصره وينصر رسله في حال الغيب، التي ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة، التي لا فائدة بوجود الإيمان فيها، لأنه حينئذ يكون ضرورياً.

﴿إن الله قوي عزيز﴾ أي: لا يعجزه شيء، ولا يفوته هارب، ومن قوته وعزته أن أنزل الحديد الذي منه الآلات القوية، ومن قوته وعزته أنه قادر على الانتصار من أعدائه، ولكنه يبتي أوليائه بأعدائه، ليعلم من ينصره بالغيب، وقرن تعالى في هذا^(١) الموضع بين الكتاب والحديد، لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه، ويعلي كلمته بالكتاب الذي فيه الحجة والبرهان والسيف الناصر بإذن الله، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط، الذي يستدل به على حكمة الباري وكماله،

إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة.

﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل﴾ أي: يجمعون بين الأمرين الذميين، اللذين كل منهما كاف في الشر البخل: وهو منع الحقوق الواجبة، ويأمرون الناس بذلك، فلم يكفهم بخلهم، حتى أمروا الناس بذلك، وحثّوهم على هذا الخلق الذميم بقولهم وفعلهم، وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها، ﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله فلا يضر إلا نفسه، ولن يضر الله شيئاً، ﴿فإن الله هو الغني الحميد﴾ الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السموات والأرض، وهو الذي أغنى عباده وأقناهم، الحميد الذي له كل اسم حسن، ووصف كامل، وفعل جميل، يستحق أن يحمد عليه ويثنى ويعظم.

﴿٢٥-٢٧﴾ ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوي عزيز﴾ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون * ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين آتيناه رافة ورحمة ورهانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها فاتينا الذين آمنوا منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون﴾ يقول تعالى: ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات﴾ وهي الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جازوا به وحقيقته.

﴿وأنزلنا معهم الكتاب﴾ وهو اسم جنس يشمل سائر الكتب التي أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم، ما ينفعهم في دينهم ودنياهم،

الذي بيناه لكم، وذكرنا لكم فيه الطرق الموصلة إلى الجنة، والطرق الموصلة إلى النار، وأن فضل الله بالشواهد الجزيل والأجر العظيم^(٢)، من أعظم منته على عباده وفضله. ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ الذي لا يحصى ثناء عليه، بل هو كما أنتم على أنفسه، وفوق ما يثني عليه عباده.

﴿٢٢-٢٤﴾ ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير﴾ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور * الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد﴾ يقول تعالى مخبراً عن عموم قضائه وقدره: ﴿ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم﴾ وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق، من خير وشر، فكلها قد كتبت في اللوح المحفوظ، صغيرها وكبيرها، وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول، بل تذهل عنده أفشدة أولي الألباب، ولكنه على الله يسير، وأخير الله عباده بذلك لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر، فلا يأسوا ويمزنوا على ما فاتهم، مما طمحت له أنفسهم وتشوقوا إليه، لعلهم أن يكون ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ، لا بد من نفوذه ووقوعه، فلا سبيل إلى دفعه، ولا يفرحوا بما آتاهم الله فرح بطر وأشر، لعلهم أنهم ما أدركوه بحولهم وقوتهم، وإنما أدركوه بفضل الله وقوته، فيشتغلوا بشكر من أولى النعم ودفع النقم، ولهذا قال: ﴿والله لا يحب كل مختال فخور﴾ أي: متكبر فظ غليظ، معجب بنفسه، فخور بنعم الله، ينسبها إلى نفسه، وتطغيه وتلهيه، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ثم

(١) في ب: وأن ثواب الله بالأجر الجزيل، والثواب الجميل.

(٢) في ب: أحد من خلقه.

(٣) في ب: بهذا.

وكمال شريعته التي شرعها على ألسنة رسله.

ولما ذكر نبوة الأنبياء عموماً، ذكر من خواصهم النبيين الكريمين نوحاً وإبراهيم اللذين جعل الله النبوة والكتاب في ذريتهما، فقال: ﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب﴾ أي: الأنبياء المتقدمين والمتأخرين كلهم من ذرية نوح وإبراهيم عليهما السلام، وكذلك الكتب كلها نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين، ﴿فمنهم﴾ أي: ممن أرسلنا إليهم الرسل ﴿مهتد﴾ بدعوتهم، منقاد لأمرهم، مسترشد بهداهم.

﴿وكثير منهم فاسقون﴾ أي: خارجون عن [طاعة الله و] طاعة الرسل والأنبياء^(١)، كما قال تعالى: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾.

﴿ثم قفينا﴾ أي: أتبعنا ﴿على آثارهم برسلانا وقفينا بعيسى ابن مريم﴾ خصّ الله عيسى عليه السلام؛ لأن السياق مع النصارى، الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام، ﴿وآتيناه الإنجيل﴾ الذي هو من كتب الله الفاضلة، ﴿وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رافة ورحمة﴾ كما قال تعالى: ﴿لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون﴾ الآيات.

ولهذا كان النصارى آئين من غيرهم قلوباً، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام.

﴿ورهبانية ابتدعوها﴾ والرهبانية: العبادة، فهم ابتدعوا عند أنفسهم عبادة، ووظفوها على أنفسهم، والتزموا لوازم ما كتبها الله عليهم ولا فرضها، بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم، قصدهم بذلك رضا الله

تعالى، ومع ذلك ﴿فما رعوها حق رعايتها﴾ أي: ما قاموا بها ولا أدوا حقوقها، فقصروا من وجهين: من جهة ابتداعهم، ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم.

فهذه الحال هي الغالب من أحوالهم.

ومنهم من هو مستقيم على أمر الله، ولهذا قال: ﴿فآتيناهم آمنوا﴾ أي: الذين آمنوا بمحمد ﷺ، مع إيمانهم بعيسى، كل أعطاه الله على حسب إيمانه ﴿وكثير منهم فاسقون﴾.

﴿٢٨ - ٢٩﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وأمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به ويفغفر لكم والله غفور رحيم﴾ لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ وهذا الخطاب، يحتمل أنه [خطاب] لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى وعيسى عليهما السلام، يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم، بأن يتقوا الله فيتركوا معاصيه، ويؤمنوا برسوله محمد ﷺ، وأنهم إن فعلوا ذلك أعطاهم الله ﴿كفلين من رحمته﴾ أي: نصيبين من الأجر نصيب على إيمانهم بالأنبياء الأقدمين، ونصيب على إيمانهم بمحمد ﷺ.

ويحتمل أن يكون الأمر عاماً يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم، وهذا الظاهر، وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى الذي يدخل فيه جميع الدين، ظاهره وباطنه، أصوله وفروعه، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم، أعطاهم الله ﴿كفلين من رحمته﴾ لا يعلم وصفهما وقدرهما إلا الله تعالى أجر على الإيمان، وأجر على التقوى، أو أجر على امتثال الأوامر، وأجر على اجتناب النواهي، أو أن الثنية المراد بها تكرار الإيتاء مرة بعد أخرى.

﴿ويجعل لكم نوراً تمشون به﴾ أي: يعطيكم علماً وهدى ونوراً تمشون به في ظلمات الجهل، ويغفر لكم السيئات.

﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ فلا يستكثر^(٢) هذا الثواب على فضل ذي الفضل العظيم، الذي عم فضله أهل السماوات والأرض، فلا يخلو مخلوق من فضله طرفه عين ولا أقل من ذلك. [وقوله] ﴿لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله﴾ أي: بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيماناً عاماً، واتقى الله، وأمن برسوله، لأجل أن أهل الكتاب يكون لديهم علم^(٣) بأنهم لا يقدرون على شيء من فضل الله أي: لا يحجرون على الله بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة، فيقولون: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾ ويتمنون على الله الأماني الفاسدة، فأخبر الله تعالى أن المؤمنين برسوله محمد ﷺ، المتقين لله، لهم كفلان من رحمته، ونور، ومغفرة، رغمًا على أنوف أهل الكتاب، وليعلموا ﴿أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾ ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه من فضله، ﴿والله ذو الفضل العظيم﴾ [الذي لا يقادر قدره].

تم تفسير سورة الحديد،
والله الحمد والمنة، والحمد لله

تفسير سورة قد سمع الله وهي مدنية

﴿١ - ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير﴾ الذين يظهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور * الذين يظهرون من نسائهم ثم يمدون لما قالوا فتحرير

(٣) في ب: لأجل أن يكون عند أهل

الكتاب علم.

(١) في ب: طاعة رسله.

(٢) في ب: فلا يستغرب كثرة.



الوقوع فيها، فيجب أن لا تتعدى ولا يقصر عنها.

﴿ولللكافرين عذاب اليم﴾.

وفي هذه الآيات عدة أحكام:

منها: لطف الله بعباده واعتناؤه بهم، حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة، وأزالها ورفع عنها البلوى، بل رفع البلوى بحكمه العام لكل من ابتلى بمثل هذه القضية.

ومنها: أن الظهار مختص بتحريم الزوجة، لأن الله قال: ﴿من نسأهم﴾ فلو حرم أمته، لم يكن [ذلك] ظهاراً، بل هو من جنس تحريم الطعام والشراب، تجب فيه كفارة اليمين فقط.

ومنها: أنه لا يصح الظهار من امرأة قبل أن يتزوجها، لأنها لا تدخل في نسائه وقت الظهار، كما لا يصح طلاقها، سواء نجز ذلك أو علقه.

ومنها: أن الظهار محرم، لأن الله سماه منكراً [من القول] وزوراً.

ومنها: تنبيه الله على وجه الحكم وحكمته، لأن الله تعالى قال: ﴿ما هن أمهاتهم﴾.

ومنها: أنه يكره للرجل أن ينادي زوجته ويسميتها^(١) باسم محارمه،

كقوله: «يا أمي»، «يا אחتي» ونحوه، لأن ذلك يشبه المحرم.

ومنها: أن الكفارة إنما تجب بالعدو لما قال المظاهر، على اختلاف القولين السابقين، لا بمجرد الظهار.

ومنها: أنه يجزىء في كفارة الرقبة، الصغير والكبير، والذكر والأنثى، لإطلاق الآية في ذلك.

ومنها: أنه يجب إخراجها إن^(٢) كانت عتقاً أو صياماً قبل المسيس، كما قيده الله، بخلاف كفارة الإطعام، فإنه يجوز المسيس والوطء في أثنائها.

ومنها: أنه لعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس، أن ذلك ادعى لإخراجها، فإنه إذا اشتاق إلى الجماع، وعلم أنه لا يمكن من ذلك إلا بعد الكفارة، يادر لإخراجها.

ومنها: أنه لا بد من إطعام ستين مسكيناً، فلو جمع طعام ستين مسكيناً، ودفعها لواحد أو أكثر من ذلك، دون الستين لم يجز ذلك، لأن الله قال: ﴿فإطعام ستين مسكيناً﴾.

﴿٥﴾ إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات ولللكافرين عذاب مهين﴾ محادة الله ورسوله: مخالفتها ومعصيتها خصوصاً في الأمور الفظيعة، كمحاددة الله ورسوله بالكفر، ومعاداة أولياء الله.

وقوله: ﴿كبتوا كما كبت الذين من قبلهم﴾ أي: أذلوا وأهينوا كما فعل بمن قبلهم، جزاء وفاقاً.

وليس لهم حجة على الله، فإن الله قد قامت حجة البالغة على الخلق، وقد أنزل من الآيات البينات والبراهين ما يبين الحقائق ويوضح المقاصد، فمن اتبعها وعمل عليها، فهو من المهتدين الفائزين، ولللكافرين بها عذاب مهين﴾ أي: يهينهم ويذلهم، كما تكبروا عن آيات الله، أهانهم وأذلهم. ﴿٧-٦﴾ يوم يبعثهم الله جميعاً

فينبئهم بما علموا أحصاء الله ونسوه والله على كل شيء شهيد * ألم تر أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم﴾ يقول الله تعالى: يوم يبعث الله الخلق جميعاً، فيقومون من أجدانهم سريعاً فيجازيهم بأعمالهم﴾ فينبئهم بما عملوا من خير وشر، لأنه علم ذلك وكتبه في اللوح المحفوظ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة بكتابته، هذا ﴿و﴾ العاملون قد نسوا ما عملوه، والله أحصى ذلك.

﴿والله على كل شيء شهيد﴾ بالظواهر^(٣) والسرائر، والخبايا والحقايا، ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته بما في السموات والأرض من دقيق وجليل. وأنه ﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا﴾ والمراد بهذه المعية معية العلم والإحاطة بما تتاجوا به وأسرره فيما بينهم، ولهذا قال: ﴿إن الله بكل شيء عليم﴾ ثم قال تعالى:

﴿٨-٩﴾ ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذ جاؤوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير * يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتهم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذي إليه تحشرون﴾ النجوى هي التناجي بين اثنين فأكثر، وقد تكون في الخير، وتكون في الشر.

فأمر تعالى المؤمنين أن يتناجوا بالبر، وهو اسم جامع لكل خير وطاعة،

وقيام بحق الله ولعباده^(١)، والتقوى، وهي [هنا]: اسم جامع لترك جميع المحارم والمأثم، فالؤمن يمثل هذا الأمر الإلهي، فلا تجده مناجياً ومحدثاً إلا بما يقربه من الله، ويباعده من سخطه، والفاجر يتهاون بأمر الله، ويناجي بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، كالمناققين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاؤُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يَحْيِكْ بِهِ اللَّهُ﴾ أي: يستنون الأدب معك في تحيتهم لك، ويقولون في أنفسهم: أي: يسرون في أنفسهم^(٢) ما ذكره عالم الغيب والشهادة عنهم، وهو قولهم: ﴿لَوْ لَا يَعْلَمُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ ومعنى ذلك أنهم يتهاونون بذلك، ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم، أن ما يقولون غير محذور، قال تعالى في بيان أنه يمهل ولا يهمل: ﴿حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلُونَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ أي: تكفيهم جهنم التي جمعت كل شقاء وعذاب [عليهم]، تحيط بهم، ويعذبون بها ﴿فَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ وهؤلاء المذكورون إما أناس من المنافقين يظهرون الإيمان، ويخاطبون الرسول ﷺ بهذا الخطاب الذي يوهمون أنهم أرادوا به خيراً^(٣)، وهم كذبة في ذلك، وإما أناس من أهل الكتاب، الذين إذا سلموا على النبي ﷺ، قالوا: «السام عليك يا محمد» يعنون بذلك الموت.

﴿١٠﴾ ﴿إِنَّمَا النُّجُوى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِالْإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا

النُّجُوى﴾ أي: تناجي أعداء المؤمنين بالمؤمنين، بالمرء والخديعة، وطلب السوء من الشيطان، الذي كيدته ضعيف ومكره غير مفيد.

﴿لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا غاية هذا المكر ومقصوده، ﴿وَلَيْسَ بِضَارِهِمْ شَيْئاً إِلَّا بِالْإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإن الله تعالى وعد المؤمنين بالكفاية والنصر على الأعداء، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ فأعداء الله ورسوله والمؤمنين، مهما تناجوا ومكروا، فإن ضرر ذلك^(٤) عائد إلى أنفسهم، ولا يضر المؤمنين إلا شيء قدره الله وقضاه، ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: ليعتمدوا^(٥) عليه ويثقوا بوعدته، فإن من توكل على الله كفاه، وتولى أمر دينه ودنياه^(٦).

﴿١١﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحَ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هذا تأديب^(٧) من الله لعباده المؤمنين، إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعاتهم، واحتاج بعضهم أو بعض القادمين عليهم للتفصح له في المجلس، فإن من الأدب أن يفسحوا له تحصيلاً لهذا المقصود.

وليس ذلك بضار للمجالس^(٨) شيئاً، فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه هو، والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح فسح الله له، ومن وسع لأخيه وسع الله عليه. ﴿وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا﴾ أي: ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم حاجة تعرض،

(١) في ب: بحق الله وحق عباده.

(٢) في ب: يسرون فيها.

(٣) كذا في ب، وفي أ: والخطاب للرسول ﷺ الذي يوهمون به أنهم أرادوا خيراً.

(٤) كذا في ب، وفي أ: فإن ضرره.

(٥) كذا في ب، وفي أ: يعتمدوا.

(٦) في ب: وكفاه أمر دينه ودنياه.

(٧) في ب: هذا أدب.

(٨) في ب: للفاسح.



﴿فَانْشُزُوا﴾ أي: فبادروا للقيام لتحصيل تلك المصلحة، فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان، والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات، بحسب ما خصهم الله به، من العلم والإيمان.

﴿والله بما تعملون خبير﴾ فيجازي كل عامل بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وفي هذه الآية فضيلة العلم، وأن زينته وثمرته التأديب بأدابه والعمل بمقتضاه.

﴿١٢ - ١٣﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَاجَعْتُمْ الرُّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تُجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا

استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون ﴿يخبر تعالى عن شناعة حال المنافقين الذين يتولون الكافرين، من اليهود والنصارى وغيرهم ممن غضب الله عليهم، ونالوا من لعنة الله أوفى نصيب، وأنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين، ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾.

فليسوا مؤمنين ظاهراً وباطناً لأن باطنهم مع الكفار، ولا مع الكفار ظاهراً وباطناً، لأن ظاهرهم مع المؤمنين، وهذا وصفهم الذي نعتهم الله به، والحال أنهم يخلفون على ضده الذي هو الكذب، فيحلفون أنهم مؤمنون، وهم يعلمون^(٢١) أنهم ليسوا مؤمنين، فجزاء هؤلاء الخونة الفجرة الكذبة، أن الله أعد لهم عذاباً شديداً، لا يقادر قدره، ولا يعلم وصفه، إنهم ساء ما كانوا يعملون، حيث عملوا بما يسخط الله^(٢٢)، ويوجب عليهم العقوبة واللعنة، ﴿اتخذوا إيمانهم جنة﴾ أي: ترساً وقاية، يتقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين، فبسبب ذلك صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله، وهي الصراط الذي من سلكه أفضى به إلى جنات النعيم، ومن صد عنه فليس إلا الصراط الموصل إلى الجحيم، ﴿فلهم عذاب مهين﴾ حيث استكبروا عن الإيمان بالله والانقياد لآياته، أهانهم بالعذاب السرمدى، الذي لا يفتّر عنهم ساعة ولا هم ينظرون، ﴿لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً﴾ فلا تدفع^(٢٣) عنهم شيئاً من العذاب، ولا تحصل لهم قسطاً من الثواب، ﴿أولئك أصحاب النار﴾ الملازمون لها، الذين لا يخرجون عنها، و﴿هم فيها خالدون﴾ ومن عاش على شيء مات عليه، فكما أن المنافقين في الدنيا يموهون على

الأدب مع الرسول والإكرام له، وأمرهم تعالى أن يقوموا بالأمورات الكبار المقصودة بنفسها، فقال: ﴿فإذ لم تفعلوا﴾ أي: لم يهن عليكم تقديم الصدقة، ولا يكفي هذا، فإنه ليس من شرط الأمر أن يكون هيناً على العبد، ولهذا قيده بقوله: ﴿وتاب الله عليكم﴾ أي: عفا لكم عن ذلك، ﴿فأقيموا الصلاة﴾ بأركانها وشروطها، وجميع حدودها ولوازمها، ﴿وآتوا الزكاة﴾ المفروضة (في أموالكم) إلى مستحقها.

وهاتان العبادتان هما أم العبادات البدنية والمالية، فمن قام بهما على الوجه الشرعي، فقد قام بحقوق الله وحقوق عباده، [ولهذا قال بعده: ﴿وأطيعوا الله ورسوله﴾ وهذا أشمل ما يكون من الأوامر.

ويدخل في ذلك طاعة الله [وطاعة] رسوله بامتنال أوامرهما واجتناب نواهيهما، وتصديق ما أخبرا به، والوقوف عند حدود الله^(٢٤).

والعبرة في ذلك على الإخلاص والإحسان، ولهذا قال: ﴿والله خبير بما تعملون﴾ فيعلم تعالى أعمالهم، وعلى أي: وجه صدرت، فيجازيهم على حسب علمه بما في صدورهم.

﴿١٤-١٩﴾ ﴿ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم يخلفون على الكذب وهم يعلمون﴾ * أعد الله لهم عذاباً شديداً إنهم ساء ما كانوا يعملون * اتخذوا إيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين * لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون *



تعملون ﴿يأمر تعالى المؤمنين بالصدقة، أمام مناجاة رسوله محمد ﷺ تأديباً لهم وتعليماً، وتعظيماً للرسول ﷺ، فإن هذا التعظيم خير للمؤمنين وأظهر أي: بذلك يكثر خيركم وأجركم، وتحصل لكم الطهارة من الأناس، التي من جملتها ترك احترام الرسول ﷺ والأدب معه بكثرة المناجاة التي لا ثمرة تحتها، فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدي مناجاته صار هذا ميزاناً لن كان حريصاً على الخير والعلم، فلا يبالي بالصدقة، ومن لم يكن له حرص ولا رغبة في الخير، وإنما مقصوده مجرد كثرة الكلام، فينكف بذلك عن الذي يشق على الرسول، هذا في الوجد للصدقة، وأما الذي لا يجد الصدقة، فإن الله لم يضيق عليه الأمر، بل عفا عنه وسامحه، وأباح له المناجاة بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها.

ثم لما رأى تبارك وتعالى شفقة المؤمنين ومشقة الصدقات عليهم عند كل مناجاة، سهل الأمر عليهم، ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدي المناجاة، وبقي التعظيم للرسول والاحترام بحاله لم ينسخ، لأن هذا الحكم من باب المشروع لغيره، ليس مقصوداً لنفسه، وإنما المقصود هو

(٢١) كذا في ب، وفي أ: يَسْخَطُهُ.

(٢٢) في ب: أي لا تدفع.

(١) في ب: حدود الشرع.

(٢) في ب: وبالحال.

المؤمنين، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعاً، حلفوا لله كما حلفوا للمؤمنين، ويحسبون في حلفهم هذا أنهم على شيء، لأن كفرهم ونفاقهم وعقائدهم الباطلة، لم تزل ترسخ في أذهانهم شيئاً فشيئاً، حتى غرثهم وظنوا أنهم على شيء يعتد به، ويعلق عليه الثواب، وهم كاذبون في ذلك، ومن المعلوم أن الكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة، وهذا الذي جرى عليهم من استحواذ الشيطان الذي استولى عليهم، وزين لهم أعمالهم، وأنساهم ذكر الله، وهو العدو المبين، الذي لا يريد بهم إلا الشر، «إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير».

عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴿١﴾ يقول تعالى: ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله﴾ أي: لا يجتمع هذا وهذا، فلا يكون العبد مؤمناً بالله واليوم الآخر حقيقة، إلا كان عاملاً على مقتضى الإيمان^(١) ولوآزمه، من محبة من قام بالإيمان وموالاته، وبغض من لم يقم به ومعاداته، ولو كان أقرب الناس إليه.

وهذا هو الإيمان على الحقيقة، الذي وجدت ثمرته والمقصود منه، وأهل هذا الوصف هم الذين كتب الله في قلوبهم الإيمان أي: رسمه وثبته وغرسه غرساً، لا يتزلزل ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك.

وهم الذين قواهم الله بروح منه أي: بوحيه ومعونته، ومدده الإلهي وإحسانه الرباني.

وهم الذين لهم الحياة الطيبة في هذه الدار، ولهم جنات النعيم في دار القرار، التي فيها من كل ما تشتهي النفس وتلد الأعين وتختار، ولهم أكبر النعيم وأفضله، وهو أن الله يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً، ويرضون عن ربهم بما يعطيهم من أنواع الكرامات، ووافر المثوبات، وجزيل الهبات، ورفيع الدرجات بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم غاية، ولا فوقه نهاية^(٢).

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر، وهو مع ذلك مُؤَادٍ لأعداء الله، محب لمن ترك الإيمان^(٣) وراء ظهره، فإن هذا إيمان زعجِي لا حقيقة له، فإن كل أمر لا بد له من برهان يصدقه، فمجرد الدعوى لا تفيد شيئاً ولا يصدق صاحبها.

تم تفسير قد سمع الله، بحمد الله وعونه وتسديده، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً

﴿أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ الذين خسروا دينهم ودنياهم وأنفسهم وأهلهم.

﴿٢٠-٢١﴾ ﴿إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك في الأذنين﴾ كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز ﴿هذا وعد ووعد، وعيد لمن حاد الله ورسوله بالكفر والمعاصي، أنه غزول مذلول، لا عاقبة له حميدة، ولا راية له منصوره﴾.

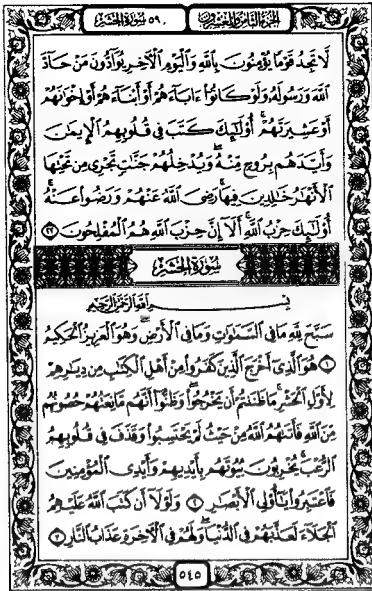
ووعد لمن آمن به وبرسله، واتبع ما جاء به المرسلون، فصار من حزب الله المفلحين، أن لهم الفتح والنصر والغلبة في الدنيا والآخرة، وهذا وعد لا يخلف ولا يغير، فإنه من الصادق القوي العزيز الذي لا يعجزه شيء يريده.

﴿٢٢﴾ ﴿لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا

(١) في ب: إيمانه.

(٢) في ب: ولا وراءه.

(٣) في ب: لمن نبذ.



تفسير سورة الحشر [وهي مدنية]

﴿١-٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبّح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ إلى آخر القصة.

هذه السورة تسمى «سورة بني النضير» وهم طائفة كبيرة من اليهود في جانب المدينة، وقت بعثة النبي ﷺ فلما بعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كفروا به في جملة من كفر من اليهود، فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هادن سائر طوائف اليهود الذين هم جيرانه في المدينة، فلما كان بعد [وقعة] بدر بسنة أشهر أو نحوها، خرج إليهم النبي ﷺ، وكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمري، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس هاهنا حتى نقضي حاجتك، فخلا بعضهم ببعض،

من خبير، ثم عمر رضي الله عنه، [أخرج بقيتهم منها].

﴿ما ظننتم﴾ أيها المسلمون ﴿أن يخرجوا﴾ من ديارهم، لحصانتها ومنعتها وعزمهم فيها.

﴿وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله﴾ فأعجبوا بها وغرتهم، وحسبوا أنهم لا ينالون بها، ولا يقدر عليها أحد، وقدر الله تعالى وراء ذلك كله، لا تغني عنه الحصون والقلاع، ولا تجدي فيهم القوة والدفاع.

ولهذا قال: ﴿فاتألم الله من حيث لم يحتسبوا﴾ أي: من الأمر والباب، الذي لم يخطر ببالهم أن يؤتوا منه، وهو أنه تعالى ﴿كذب في قلوبهم الرعب﴾ وهو الخوف الشديد، الذي هو جند الله الأكبر، الذي لا ينفع معه عُدَّة ولا عُدَّة، ولا قوة ولا شدة، فالأمر الذي يحسبونه ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل هو الحصون التي تحصنوا بها، واطمأن نفوسهم إليها، ومن وثق بغير الله فهو مخذول، ومن ركن إلى غير الله فهو عليه وبال^(٤)، فاتألم أمر سماوي نزل على قلوبهم، التي هي محل الثبات والصبر، أو الخور والضعف، فأزال الله قوتها وشدتها، وأورثها ضعفاً وخوراً وجبناً، لا حيلة لهم ولا منعة معه^(٥)، فصار ذلك عوناً عليهم، ولهذا قال: ﴿يخرجون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين﴾ وذلك أنهم صالحوا النبي ﷺ على أن لهم ما حملت الإبل.

فنقضوا لذلك كثيراً من سقوفهم التي استحسنتوها، وسلطوا المؤمنين بسبب بغيتهم على إخراج ديارهم وهم حصونهم، فهم الذين جنوا على أنفسهم، وصاروا من أكبر عون عليها، ﴿فاعتبروا يا أولي الأبصار﴾ أي: البصائر النافذة، والعقول الكاملة، فإن في هذا معبراً يعرف به صنع الله تعالى في المعاندين للحق، المتبعين لأهوائهم، الذين لم تنفعهم

ونهبوا إليهم، وعلي بن أبي طالب يحمل اللواء.

فأقاموا على حصونهم يرمون بالنبل والحجارة، واعتزلتهم قريظة، وخاتهم ابن أبي وحلفاؤهم من غطفان، فحاصرهم رسول الله ﷺ، وقطع نخلهم وحرَّق، فأرسلوا إليه: نحن نخرج من المدينة، فأنزلهم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذرائعهم، وأن لهم ما حملت إيلهم إلا السلاح، وقبض رسول الله ﷺ الأموال والسلاح.

وكانت بنو النضير خالصة لرسول الله ﷺ لنوائبه ومصالح المسلمين، ولم يحمسها، لأن الله أفاءها عليه، ولم يوجب المسلمون عليها بخيل ولا ركب، وأجلاهم إلى خبير وفيهم خبي بن أخطب كبيرهم، واستولى على أرضهم وديارهم، وقبض السلاح، فوجد من السلاح خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفاً، هذا حاصل قصتهم كما ذكرها أهل السير.

فافتتح تعالى هذه السورة بالإخبار أن جميع من في السماوات والأرض تسبح بحمدها، وتنزهه عما لا يليق بجلاله، وتعبده وتخضع لجلاله^(١)، لأنه العزيز الذي قد قهر كل شيء، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه مستعصي^(٢)، الحكيم في خلقه وأمره، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته، ومن ذلك نصر الله لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل الكتاب من بني النضير حين غدروا برسوله، فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم التي ألفوها وأحبوها.

وكان إخراجهم منها أول حشر وجلاء كتبه الله عليهم على يد رسوله محمد ﷺ، فجلوا إلى خبير، ودلت الآية الكريمة أن لهم حشراً وجلاء غير هذا، فقد وقع حين أجلاهم النبي ﷺ



وسؤل لهم الشيطان الشقاء الذي كتب عليهم، فتأمروا بقتله ﷺ، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى فيصعد فيلقبها على رأسه يشدخه بها؟ فقال أشقاها عمرو بن جحاش: أنا، فقال لهم سلام بن مشكم: لا تفعلوا، فوالله ليُخبرن بما هممت به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه، وجاء الوحي على الفور إليه من ربه بما هوأ به، فنهض مسرعاً، فتوجه إلى المدينة، ولحقه أصحابه، فقالوا: نهضت ولم تشعر بك، فأخبرهم بما هممت به. وبعث إليهم رسول الله ﷺ: «أن أخرجوا من المدينة ولا تسكنوني بها، وقد أجلتكم عشراً، فمن وجدت بعد ذلك بها ضربت عنقه».

فأقاموا أياماً يتجهزون، وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أبي [بن سلول]: (أن لا تخرجوا من دياركم، فإن معي ألفين يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان).

وطمع رئيسهم خبي بن أخطب فيما قال له، وبعث إلى رسول الله ﷺ يقول: إننا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

فكبر رسول الله ﷺ وأصحابه،

(٥) في ب: لا حيلة لهم في دفعه

فصار.

(٣) كذا في ب، وفي أ: لا.

(٤) في ب: كان وبالأ عليه.

(١) في ب: لعظمته.

(٢) في ب: عسير.



الموجب لجعله تعالى الأموال أموال والهجرة.

وقوله: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ أي: ومن أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها على من سواهم، الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون إلا من خلق زكي، ومحبة الله تعالى مقدمة على محبة شهرات النفس ولذاتها، ومن ذلك قصة الأنصاري الذي نزلت الآية بسببه، حين أثر ضيفه بطعامه وطعام أهله وأولاده وباتوا جوعاً، والإيثار عكس الأثرة، فالإيثار محمود، والأثرة مذمومة، لأنها من خصال البخل والشح، ومن رُزق الإيثار فقد وُقي شح نفسه ﴿ومن يُوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ ووقاية شح النفس، يشمل وقايتها الشح في جميع ما أمر به، فإنه إذا وُقي العبد شح نفسه، سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعاً منقاداً، منشراحاً بها صدره، وسمحت نفسه بترك ما نهى الله عنه، وإن كان محبوباً للنفس، تدعو إليه وتطلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز، بخلاف من لم يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير، الذي هو أصل الشر ومادته، فهذان^(١) الصنفان الفاضلان الزكيان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم، وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين، وسادات المسلمين، وقادات المتقين^(٢).

وحسب من بعدهم من الفضل أن يسير خلفهم، ويأتهم بهدايم، ولهذا ذكر الله من اللاحقين من هو مؤتم بهم وسائر خلفهم فقال: ﴿والذين جاؤوا من بعدهم﴾ أي: من بعد المهاجرين

الفيء لمن قدره الله، وأنهم يحققون بالإعانة، مستحقون لأن تجعل لهم، وأنهم ما بين مهاجرين قد هجروا المحبوبات والمآلوفات، من الديار والأوطان والأحباب والخلان والأموال، رغبة في الله ونصرة لدين الله، ومحبة لرسول الله، فهؤلاء هم الصادقون الذين عملوا بمقتضى إيمانهم، وصدقوا بإيمانهم بأعمالهم الصالحة والعبادات الشاقة، بخلاف من ادعى الإيمان وهو لم يصدق به بالجهد والهجرة وغيرهما من العبادات، وبين أنصار وهم الأوس والخزرج الذين آمنوا بالله ورسوله طوعاً ومحبة واختياراً، وأووا رسول الله ﷺ، ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوؤوا دار الهجرة والإيمان حتى صارت موثلاً ومرجعاً يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه المسلمون إذ كانت البلدان كلها بلدان حرب وشرك وشر، فلم يزل أنصار الدين تأوي إلى الأنصار، حتى انتشر الإسلام وقوي، وجعل يزيد شيئاً فشيئاً، وينمو قليلاً قليلاً، حتى فتحوا القلوب بالعلم والإيمان والقرآن، والبلدان بالسيف واللسان.

الذين من جملة أوصافهم الجميلة أنهم ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾ وهذا لمحبتهم لله ورسوله، أحبوا أحبابه، وأحبوا من نصر دينه.

﴿ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا﴾ أي: لا يجدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله وخصمه به من الفضائل والمناقب التي هم أهلها، وهذا يدل على سلامة صدورهم، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها.

ويدل ذلك على أن المهاجرين أفضل من الأنصار، لأن الله قدمهم بالذكر، وأخبر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على أن الله تعالى آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة

المنقطع بهم في غير أوطانهم.

وإنما قدر الله هذا التقدير، وحصر الفيء في هؤلاء الميعين لـ ﴿كسي لا يكون دولة﴾ أي: مدوالة واختصاصاً ﴿بين الأغنياء منكم﴾ فإنه لو لم يقدره، لتداولته الأغنياء الأثوياء، ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه شيء، وفي ذلك من الفساد ما لا يعلمه إلا الله، كما أن في اتباع أمر الله وشرعه من المصالح ما لا يدخل تحت الحصر، ولذلك أمر الله بالقاعدة الكلية والأصل العام، فقال: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾ وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه، وأن ما جاء به الرسول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرسول على حكم الشيء كنص الله تعالى، لا رخصة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله، ثم أمر بتقواه التي بها عمارة القلوب والأرواح [والدنيا والآخرة]، وبها السعادة الدائمة والفوز العظيم، وبباضاعتها الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فقال: ﴿واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ على من ترك التقوى، وأثر اتباع الهوى.

﴿٨﴾ ثم ذكر تعالى الحكمة والسبب

(٢) كذا في ب، وفي أ: المؤمنين.

(١) كذا في ب، وفي أ: فهؤلاء.

والأنصار ﴿يقولون﴾ على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان﴾

وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين، السابقين من الصحابة، ومن قبلهم ومن بعدهم، وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض، ويدعو بعضهم لبعض، بسبب المشاركة في الإيمان المقتضي لعقد الأخوة بين المؤمنين^(١)، التي من فروعها أن يدعو بعضهم لبعض، وأن يحب بعضهم بعضاً.

ولهذا ذكر الله في الدعاء نفي الغل عن القلب، الشامل لقليل الغل وكثيره^(٢)، الذي إذا انتفى ثبت ضده، وهو المحبة بين المؤمنين والموالة والنصح، ونحو ذلك مما هو من حقوق المؤمنين.

فوصف الله من بعد الصحابة بالإيمان، لأن قولهم: ﴿سبقونا بالإيمان﴾ دليل على المشاركة في الإيمان^(٣)، وأنهم تابعون للصحابة في عقائد الإيمان وأصوله، وهم أهل السنة والجماعة، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم، ووصفهم بالإقرار بالذنوب والاستغفار منها، واستغفار بعضهم لبعض، واجتهادهم في إزالة الغل والحقد عن قلوبهم لإخوانهم المؤمنين، لأن دعاءهم بذلك مستلزم لما ذكرنا، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضاً، وأن يحب أحدهم لأخيه ما يحب لنفسه، وأن ينصح له حاضراً وغائباً، حياً وميتاً، ودلت الآية الكريمة [على] أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض، ثم ختموا دعاءهم باسمين كريمين، دالين على

كمال رحمة الله وشدة رأفته وإحسانه بهم، الذي من جلته، بل من أجله، توفيقهم للقيام بحقوق الله وحقوق عباده.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة، وهم المستحقون للنفي الذي مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام.

وهؤلاء أهل الله الذين هم أهلهم، جعلنا الله منهم، بمنه وكرمه.

ثم تعجب تعالى من حال المنافقين الذين طمّعوا إخوانهم من أهل الكتاب، في نصرتهم وموالاتهم على المؤمنين، وأنهم يقولون لهم: ﴿لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً﴾ أي: لا نطيع في عدم نصرتكم أحداً يعذلنا أو يخوننا، ﴿وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون﴾ في هذا الوعد الذي غروا به إخوانهم، ولا يستكثر هذا عليهم، فإن الكذب وصفهم، والغرور والخداع مقارنهم، والنفاق والجبن يصحبهم، ولهذا كذبهم [الله] بقوله، الذي وجد خبره كما أخبر الله به، ووقع طبق ما قال، فقال: ﴿لئن أخرجوا﴾ من ديارهم جلاء ونفياً ﴿لا يخرجون معهم﴾ لمحبتهم للأوطان، وعدم صبرهم على القتال، وعدم وفائهم بوعدهم^(٤).

﴿ولئن قوتلوا لا ينصرونهم﴾ بل يستولي عليهم الجبن، ويملكهم الفشل، ويخذلون إخوانهم، أحوج ما كانوا إليهم.

﴿ولئن نصروهم﴾ على الفرض والتقدير^(٥) ﴿ليؤنس الأديبار ثم لا ينصرون﴾ أي: ليحصل منهم

الإدبار عن القتال والنصرة، ولا يحصل لهم نصر من الله.

والسبب الذي أوجب لهم ذلك^(٦)، أنكم - أيها المؤمنون - ﴿أشد رهبة في صدورهم من الله﴾ فخافوا منكم أعظم مما يخافون الله، وقدموا مخافة المخلوق الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضرراً، على مخافة الخالق، الذي بيده الضر والنفع، والعطاء والمنع.

﴿ذلك بأنهم قوم لا يفقهون﴾ مراتب الأمور، ولا يعرفون حقائق الأشياء، ولا يتصورون العواقب، وإنما الفقه كل الفقه، أن يكون خوف الخالق ورجاؤه ومحبته مقدمة على غيرها، وغيرها تبعاً لها.

﴿١٤﴾ ﴿لا يقاتلونكم جميعاً﴾ أي: في حال الاجتماع ﴿إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر﴾ أي: لا يشتتون لقتالكم^(٧) ولا يعزمون عليه، إلا إذا كانوا متحصنين في القرى، أو من وراء الجدر والأسوار.

فإنهم إذ ذاك ربما يحصل منهم امتناع، اعتماداً [على] حصونهم وجدرهم، لا شجاعة بأنفسهم، وهذا من أعظم الذم، ﴿بأسهم بينهم شديد﴾ أي: بأسهم فيما بينهم شديد، لا أفة في أبدانهم ولا في قوتهم، وإنما الأفة في ضعف إيمانهم وعدم اجتماع كلمتهم، ولهذا قال: ﴿تحسبهم جميعاً﴾ حين تراهم مجتمعين ومظاهرين.

﴿و﴾ لكن ﴿قلوبهم شتى﴾ أي: متباغضة متفرقة متشتتة.

﴿ذلك﴾ الذي أوجب لهم اتصافهم بما ذكر ﴿بأنهم قوم لا يعقلون﴾ أي: لا عقل عندهم، ولا لب، فإنهم لو

(١) كذا في ب، وفي أ: للمؤمنين.

(٢) في ب: لقليله وكثيره.

(٣) في ب: المشاركة فيه.

(٤) في ب: بالوعد.

(٥) كذا في ب، وفي أ: على ضرب المثل.

(٦) في ب: حملهم على ذلك.

(٧) في ب: على قتالكم.

العبد نفسه، وأنه ينبغي له أن يتفقدھا، فإن رأى زللاً تداركه بالإقلاع عنه، والتوبة النصوح، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه، وإن رأى نفسه مقصراً في أمر من أوامر الله، بذل جهده واستعان بربه في تكميله وتتميمه، وإتقانه، ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه وبين تقصيره، فإن ذلك يوجب له الحياة بلا محالة.

والحرمان كل الحرمان، أن يغفل العبد عن هذا الأمر، ويشابه قوماً نسوا الله وغفلوا عن ذكره والقيام بحقه، وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها، فلم ينتجحوا، ولم يحصلوا على طائل، بل أنساهم الله مصالح أنفسهم، وأغفلهم عن منافعتها وفوائدها، فصار أمرهم فرطاً، فرجعوا بخسارة الدارين، وغبنوا غبناً لا يمكنهم تداركه، ولا يجبر كسره، لأنهم هم الفاسقون، الذين خرجوا عن طاعة ربهم وأوضاعوا في معاصيه، فهل يستوي من حافظ على تقوى الله ونظر لما قدم لغده، فاستحق جنات النعيم، والعيش السليم - مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين - ومن غفل عن ذكر الله، ونسي حقوقه، فشقي في الدنيا، واستحق العذاب في الآخرة، فالأولون هم الفائزون، والآخرون هم الخاسرون.

ولما بين تعالى لعباده ما بين، وأمرهم^(١) ونهاهم في كتابه العزيز، كان هذا موجباً لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه وحثهم عليه، ولو كانوا في القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسي، فإن هذا القرآن لو أنزل على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله أي: لكمال تأثيره في القلوب، فإن مواعظ القرآن أعظم المواعظ على الإطلاق، وأوامره ونواهيه محتوية على الحكم والمصالح المقرونة بها، وهي من أسهل شيء على

خالدین فیها﴾ كما قال تعالى: ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ﴿وذلك جزاء الظالمين﴾ الذين اشتروا في الظلم والكفر، وإن اختلفوا في شدة العذاب وقوته، وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه، فإنه يدعوهم ويدلهم إلى ما يضرهم بغرور، حتى إذا وقعوا في الشباك، وحاقت بهم أسباب الهلاك، تبرا منهم وتخلى عنهم.

واللوم كل اللوم على من أطاعه، فإن الله قد حذر منه وأنذر، وأخبر بمقاصده وغاياته ونهايته، فالمقدم على طاعته عاص على بصيرة لا عذر له.

﴿١٨ - ٢١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون * لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون * لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجب الإيمان ويقتضيه من لزوم تقواه، سرّاً وعلانية، في جميع الأحوال، وأن يراعوا ما أمرهم الله به من أوامره وشرائعه وحدوده، وينظروا ما لهم وما عليهم، وماذا حصلوا عليه من الأعمال التي تنفعهم أو تضرهم في يوم القيامة، فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم وقبلة قلوبهم، واهتموا بالمقام بها، اجتهدوا في كثرة الأعمال الموصلة إليها، وتصفيتها من القواطع والعوائق التي توقفهم عن السير أو تعوقهم أو تصرفهم، وإذا علموا أيضاً أن الله خبير بما يعملون، لا تخفى عليه أعمالهم، ولا تضيع لديه ولا يسهلها، أوجب لهم الجد والاجتهاد.

وهذه الآية الكريمة أصل في محاسبة

كانت لهم عقول، لآثروا الفضل على المفضول، ولما رضوا لأنفسهم بأبخص الخطتين، ولكانت كلمتهم مجتمعة، وقلوبهم مؤتلفة، فبذلك يتناصرون ويتعاضدون، ويتعاونون على مصالحهم ومنافعهم الدينية والدنيوية.

مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب، الذين انتصر الله لرسوله منهم، وأذاقهم الخزي في الحياة الدنيا، وعدم نصر من وعدهم بالمعونة ﴿كمثل الذين من قبلهم قريباً﴾ وهم كفار قريش الذين زين لهم الشيطان أعمالهم، وقال: ﴿لا غالب لكم اليوم من الناس وإنني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه﴾ وقال: ﴿إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون﴾ الآية.

فغرتهم أنفسهم، وغرهم من غرهم، الذين لم ينفعوهم ولم يدفعا عنهم العذاب، حتى أتوا ﴿بذراً﴾ بفخرهم وخيلائهم، ظانين أنهم مدركون برسول الله والمؤمنين أمانهم.

فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم، فقتلوا كبارهم وصناديدهم، وأسروا من أسروا منهم، وفر من فر، وذاقوا بذلك وبال أمرهم وعاقبة شركهم وبغيهم، هذا في الدنيا، ﴿ولهم﴾ في الآخرة عذاب النار، ومثل هؤلاء المنافقين الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب ﴿كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر﴾ أي: زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه، فلما اغتر به وكفر، وحصل له الشقاء، لم ينفعه الشيطان الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه، بل تبرأ منه و ﴿قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين﴾ أي: ليس لي قدرة على دفع العذاب عنك، ولست بمغن عنك مثقال ذرة من الخير، ﴿فكان عاقبتهما﴾ أي: الداعي الذي هو الشيطان، والمُدعو الذي هو الإنسان حين أطاعه ﴿أنهما في النار﴾

﴿يُخْرِجُونَ الرِّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أَيُّهَا
الْمُؤْمِنُونَ مِنْ دِيَارِكُمْ، وَيُشْرِدُونَكُمْ مِنْ
أَوْطَانِكُمْ، وَلَا ذَنْبَ لَكُمْ فِي ذَلِكَ
عِنْدَهُمْ، إِلَّا أَنْكُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ رَبِّكُمْ
الَّذِي يَتَعَيْنِ عَلَى الْخَلْقِ كُلِّهِمْ الْقِيَامَ
بِعِبَادِيَّتِهِ، لِأَنَّهُ رَبُّهُمْ، وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ
بِالنِّعَمِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ، وَهُوَ اللَّهُ
تَعَالَى.

فلما أعرضوا عن هذا الأمر، الذي هو أوجب الواجبات، وقسم به، عادوكم، وأخرجوكم - من أجله - من دياركم، فأني دين، وأني مروءة وعقل، يبقى مع العبد إذا والى الكفار الذين هذا وصفهم في كل زمان أو مكان؟! ولا يمنعهم منه إلا خوف، أو مانع قوي.

﴿إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ
وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ أي: إِنْ كَانَ
خُرُوجُكُمْ مَقْصُودَكُمْ بِهِ الْجِهَادُ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ، لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ، وَابْتِغَاءَ
مَرْضَاةِ اللَّهِ ^(٣)، فَاعْمَلُوا بِمَقْضَى هَذَا،
مِنْ مَوَالَاةِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ وَمَعَادَاةِ أَعْدَائِهِ،
فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ ^(٤)، وَهُوَ
مِنْ أَعْظَمِ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْمُتَقَرِّبُونَ إِلَى
رَبِّهِمْ وَيَتَّبِعُونَ بِهِ رِضَاهُ.

﴿تَسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا
أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ﴾ أي : كيف تسرون
المودة للكافرين وتخفونها، مع علمكم
أن الله عالم بما تخفون وما تعلنون؟!،
فهو وإن خفي على المؤمنين، فلا يخفى
على الله تعالى، وسيجازي العباد بما
يعلمه منهم من الخير والشر، ﴿وَمَنْ
يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ﴾ أي : موالاته الكافرين
بعدما حذركم الله منها ﴿فَقَدْ ضَلَّ
سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ لأنه سلك مسلكاً مخالفاً
للشرع وللعقل والمروءة الإنسانية.

ثم بين تعالى شدة عداوتهم، تهيجاً
للمؤمنين على عداوتهم، ﴿إِنْ
يُثْقِفُوكُمْ﴾ أي: يجذوكم، وتسخ لهم
الفرصة في أذاكم، ﴿يَكُونُوا لَكُمْ

النبي ﷺ بشأنه، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب.

وعاتب حاطباً، فاعتذر رضي الله عنه بعذر قبله النبي ﷺ، وهذه الآيات فيها النهي الشديد عن موالة الكفار من المشركين وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم، وأن ذلك مناف للإيمان، ومخالف لملة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ومناقض للعقل الذي يوجب الحذر كل الحذر من العدو، الذي لا يبغي من مجهوده في العداوة شيئاً، ويوتنهنز الفرصة في إيصال الضرر إلى عدوه، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا! اْعْمَلُوا بِمَقْصُودِ إِيمَانِكُمْ، مِنْ وَلَايَةِ مَنْ قَامَ بِالْإِيمَانِ، وَمَعَادَاةٍ مِنْ عَدَاةٍ، فَإِنَّ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّ الْمُؤْمِنِينَ.

فلا تتخذوا عدو الله ﴿وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾ أي: تنسارعون في مودتهم وفي السعي بأسبابها، فإن المودة إذا حصلت، تبعها النصر والموالاة، فخرج العبد من الإيمان، وصار من جملة أهل الكفران، وانفصل عن أهل الإيمان.

وهذا المتخذ للكافر ولياً، عادم
المروءة أيضاً، فإنه كيف يوالى أعدى
أعدائه الذي لا يريد له إلا الشر،
ويخالف ربه ووليه الذي يريد به الخير،
ويأسره به، ويحشده عليه؟! وما يدعو
للمؤمن أيضاً إلى معاداة الكفار، أنهم قد
كفروا بما جاء المؤمنين من الحق،
ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة،
لإنهم قد كفروا بأصل دينكم، وزعموا
أنكم ضاللون على غير هدى.

والحال أنهم كفروا بالحق الذي لا شك فيه ولا مرية، ومن رد الحق محال أن يوجد له دليل أو حجة تدل على صحة قوله، بل مجرد العلم بالحق^(٢)، يدل على بطلان قول من رده فساداً.

ومن عداوتهم البليغة أنهم

[illegible]

من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير * ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم * لقد كان لكم فيهم سوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ومن يتول فإن الله هو الغني الحميد * عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم * لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين * إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴿ ذكر كثير من المفسرين، [رحمهم الله]، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات في قصة حاطب بن أبي بلتعة، حين غزا النبي ﷺ غزوة الفتح، فكتب حاطب إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، ليتخذ بذلك يداً عندهم لا [شكاً و] نفاقاً، وأرسله مع امرأة، فأخبر

(١) في ب: إلى المشركين من أهل مكة.

(۲) کذا فی ب، وفي أ: مجرد رد الحق.

(۳) فی ب: وابتغاء رضاہ.

(۴) فی ب: هذا من أعظم الجهاد فی سبيله.

أعداءهم ﴿وايهم﴾ بالقتل والضرب، ونحو ذلك.

والاستنهم بالسوء أي: بالقول الذي يسوء، من شتم وغيره، ﴿وودوا لو تكفرون﴾ فإن هذا غاية ما يريدون منكم.

فإن احتججتم وقتلتم: نوالي الكفار لأجل القرابة والأموال، فلن تغني عنكم أموالكم ولا أولادكم من الله شيئاً. ﴿والله بما تعملون بصير﴾ فلذلك حذرهم من موالات الكافرين الذين تضرهم موالاتهم، قد كان لكم يا معشر المؤمنين أسوة حسنة ﴿أي: قدوة صالحة واتتمام ينفعكم، في إبراهيم والذين معه﴾ من المؤمنين، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً، ﴿إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله﴾ أي: إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ومن معه من المؤمنين، من قومهم المشركين وما يعبدون من دون الله.

ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح، فقالوا: ﴿كفرنا بكم وبدا﴾ أي: ظهر وبان ﴿بيننا وبينكم العداوة والبغضاء﴾ أي: البغض بالقلوب، وزوال مودتها، والعداوة بالأبدان، وليس لتلك العداوة والبغضاء وقت ولا حد، بل ذلك ﴿أبدأ﴾ ما دمت مستمرين على كفرهم ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ أي: فإذا آمنتم بالله وحده، زالت العداوة والبغضاء، وانقلبت مودة وولاية، فلکم أيها المؤمنون أسوة [حسنة] في إبراهيم ومن معه في القيام بالإيمان والتوحيد، والقيام ببلوازم ذلك ومقتضياته، وفي كل شيء تعبدوا به لله وحده، ﴿إلا﴾ في خصلة واحدة وهي ﴿قول إبراهيم لأبيه﴾ أزر المشرك، الكافر المعاند، حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد، فامتنع، فقال إبراهيم: ﴿لأستغفرن لك﴾ والحال أني لا ﴿أملك لك من الله من شيء﴾ لكنني أدعوك ربي عسى أن لا أكون

بدعاء ربي شقياً، فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم في هذه الحالة التي دعا بها للمشرك، فليس لكم أن تدعوا للمشركين، وتقولوا: إنا في ذلك متبعون لملة إبراهيم، فإن الله ذكر عذر إبراهيم في ذلك بقوله: ﴿وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم﴾.

ولكم أسوة حسنة في إبراهيم ومن معه، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه، واعترفوا بالعجز والتقصير، فقالوا: ﴿ربنا عليك توكلنا﴾ أي: اعتمدنا عليك في جلب ما ينفعنا ودفع ما يضرنا، ووثقنا بك يا ربنا في ذلك.

﴿واليك أنبنا﴾ أي: رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك وجميع ما يقرب إليك، فنحن في ذلك ساعون، وبفعل الخيرات مجتهدون، ونعلم أنا إليك نصير، فسنستعد للقدوم عليك، ونعمل ما يقربنا الزلفى إليك^(١)، ﴿ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا﴾ أي: لا تسلطهم علينا بذنوبنا، فيفتنونا ويمنعونا مما يقدر عليهم من أمور الإيمان، ويفتنون أيضاً بأنفسهم، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة، ظنوا أنهم على الحق وأنا على الباطل، فازدادوا كفراً وطغياناً، ﴿واغفر لنا﴾ ما اقترنا من الذنوب والسيئات، وما قصرنا به من المأمورات، ﴿ربنا إنك أنت العزيز﴾ القاهر لكل شيء، ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، فبعزتكم^(٢) وحكمتك انصرتنا على أعدائنا، واغفر لنا ذنوبنا، وأصلح عيوبنا.

ثم كرر الحث [لهم] على الاقتداء بهم، فقال: ﴿لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة﴾ وليس كل أحد تسهل عليه هذه الأسوة، وإنما تسهل على من ﴿كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ فإن الإيمان واحتساب الأجر والثواب، يسهل على العبد كل عسير، ويقل لديه

كل كثير، ويوجب له الاكثار من الاقتداء بعباد الله الصالحين، والأنبياء والمرسلين، فإنه يرى نفسه مفتقراً ومضطراً إلى ذلك غاية الاضطراب.

﴿ومن يتول﴾ عن طاعة الله والتأسي برسول الله، فلن يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً، ﴿فإن الله هو الغني﴾ الذي له الغنى التام [المطلق] من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه [بوجوه]، ﴿الحميد﴾ في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإنه محمود على ذلك كله.

ثم أخبر تعالى أن هذه العداوة التي أمر الله بها المؤمنين للمشركين، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان، فإن الحكم يدور مع علته، فإن المودة^(٣) الإيمانية ترجع، فلا تأسوا أيها المؤمنون من رجوعهم إلى الإيمان، ف ﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة﴾ سببها رجوعهم إلى الإيمان، ﴿والله قدير﴾ على كل شيء، ومن ذلك هداية القلوب وتقليبها من حال إلى حال، ﴿والله غفور رحيم﴾ لا يتعاضده ذنب أن يغفره، ولا يكبر عليه عيب أن يستره، ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم﴾ وفي هذه الآية إشارة وبشارة إلى إسلام بعض المشركين، الذين كانوا إذ ذاك أعداء للمؤمنين، وقد وقع ذلك، والله الحمد والمنة.

ولما نزلت هذه الآيات الكريمات، المهيجة على عداوة الكافرين، وقعت من المؤمنين كل موقع، وقاموا بها أتم القيام، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه، فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل في المحرم، فقال: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب

(٢) كذا في ب، وفي أ: فمن عزتكم. (٣) في ب: والمودة.

(١) في ب: ما يزلنا إليك.

المسطين ﴿أي: لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركون، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا يحال لم يتصبا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا مفسدة^(١)﴾، كما قال تعالى عن الأبوين المشركين إذا كان ولدهما مسلماً: ﴿وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾.

[وقوله: ﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين﴾ أي: لأجل دينكم، عداوة لدين الله ولمن قام به، وأخرجوكم من دياركم وظاهروا﴾ أي:عاونوا غيرهم ﴿على إخراجكم﴾ نهاكم الله ﴿أن تولوهم﴾ بالمودة والنصرة، بالقول والفعل، وأما بركم وإحسانكم، الذي ليس بشئ للمشركين، فلم ينهاكم الله عنه، بل ذلك داخل في عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم من الأدميين، وغيرهم.

﴿ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾ وذلك الظلم يكون بحسب التولي، فإن كان تولى تاماً، صار^(٢) ذلك كفراً يخرجاً عن دائرة الإسلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دون ذلك.

﴿١٠ - ١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وآتوهن ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتوهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر وأسألوها ما أنفقتم وليسألوها ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم

حكيم * وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتهم فآتوا الذين ذهبوا أزواجهم مثل ما أنفقوا واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ لما كان صلح الحديبية، صالح النبي ﷺ المشركين، على أن من جاء منهم إلى المسلمين مسلماً، أنه يرد إلى المشركين، وكان هذا لفظاً عاماً، [مطلقاً] يدخل في عمومه النساء والرجال، فأما الرجال، فإن الله لم يشأ رسوله عن ردهم إلى المشركين وفاء بالشرط وتتميماً للصلح الذي هو من أكبر المصالح، وأما النساء، فلما كان ردهن فيه مفسد كثيرة، أمر الله المؤمنين إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات، وشكوا في صدق إيمانهن، أن يمتحنوهن ويخبروهن، بما يظهر به صدقهن، من إيمان مغلظة وغيرها، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق بل رغبة في زوج أو بلد أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية.

فإن كن بهذا الوصف، تعين ردهن وفاء بالشرط، من غير حصول مفسدة، وإن امتحنوهن فوجدن صادقات، أو علموا ذلك منهن من غير امتحان، فلا يرجعوهن إلى الكفار، ﴿لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن﴾ فهذه مفسدة كبيرة في ردهن راعاها الشارع، وراعى أيضاً الوفاء بالشرط، بأن يعطوا الكفار أزواجهن ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه عوضاً عنهن، ولا جناح حيثن على المسلمين أن ينكحوهن ولو كان لهن أزواج في دار الشرك، ولكن بشرط أن يؤتوهن أجورهن من المهر والنفقة، وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم أن يمسكها ما دامت على كفرها، غير أهل الكتاب، ولهذا قال تعالى: ﴿ولا تمسكوا بعصم الكوافر﴾ وإذا نهى عن الإمساك

بعصمتها^(٣)، فالنهي عن ابتداء تزويجها أولى، ﴿وأسألوها ما أنفقتم﴾ أيها المؤمنون، حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار، فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم، استحق المسلمون أن يأخذوا مقابلة ما ذهب من نسائهم^(٤) إلى الكفار، وفي هذا دليل على أن خروج البضع من الزوج متقوم، فإذا أسند مفسد نكاح امرأة رجل، برضاع أو غيره، كان عليه ضمان المهر، وقوله: ﴿ذلكم الحكم الذي ذكره الله وبينه لكم يحكم به بينكم﴾^(٥)، ﴿والله عليم حكيم﴾ فيعلم تعالى، ما يصلح لكم من الأحكام، ويشرع لكم ما تقتضيه الحكمة^(٦).

وقوله: ﴿وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار﴾ بأن ذهبن مرتدات ﴿فعاقبتهم فآتوا الذين ذهبوا أزواجهم مثل ما أنفقوا﴾ كما تقدم أن الكفار إذا كانوا يأخذون بدل ما يفوت من أزواجهن إلى المسلمين، فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار وفاتت عليه، لزم أن يعطيه المسلمون من الغنيمة بدل ما أنفق^(٧).

﴿واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾ فإيمانكم بالله يقتضي منكم أن تكونوا ملازمين للتعوى على الدوام.

﴿١٢﴾ ﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبأيعنك على أن لا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين بهتاناً يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم﴾ هذه الشروط المذكورة في هذه الآية تسمى «مبايعة النساء» الالائي [كن] بايعن على إقامة الواجبات المشتركة، التي تجب على الذكور والنساء في جميع الأوقات.

(٧) في ب: فعلى المسلمين أن يعطوه من الغنيمة بدل ما أنفق.

(٥) في ب: وبينه لكم حكم الله بينه لكم ووضحه.

(٦) في ب: فيشرعه بحسب حكمته ورحمته.

(١) في ب: ولا تبعة.

(٢) في ب: كان ذلك.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بعصمها.

(٤) في ب: زوجاتهم.

بحمد الله ويعبدونه ويسألونه حوائجهم، ﴿وهو العزيز﴾ الذي قهر الأشياء بعزته وسلطانه، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره، ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لم تقولون ما لا تفعلون؟ أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما قدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر وربما نزهتم أنفسكم عنه، وأنتم متلوثون به ومتصفون به، فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للأمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللنهاي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه، قال تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾ وقال شعيب عليه الصلاة والسلام لقومه: ﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾.

﴿٤﴾ ﴿إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص﴾ هذا حث من الله لعباده على الجهاد في سبيله وتعليمهم كيف يصنعون وأنه ينبغي لهم أن يصفوا في الجهاد صفاً متراصاً متساوياً، من غير خلل يقع (٨) في الصفوف، وتكون صفوفهم على نظام وترتيب به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاضد وإرهاب العدو وتنشيط بعضهم بعضاً، ولهذا كان النبي ﷺ إذا حضر القتال، صف أصحابه، ورتبهم في مواقعهم، بحيث لا يحصل اتكال بعضهم على بعض، بل تكون كل طائفة منهم مهمة بمركزها وقائمة بوظيفتها، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ويحصل الكمال.

﴿٥﴾ ﴿وإذ قال موسى لقومه يا قوم

أصحاب القبور﴾ أي: يا أيها المؤمنون، إن كنتم مؤمنين بربكم، ومتبعين لرضاء ومجانين لسخطه، ﴿لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾ وإنما غضب عليهم لكفرهم، وهذا شامل لجميع أصناف الكفار. ﴿قد يشوا من الآخرة﴾ أي: قد حرموا من خير الآخرة، فليس لهم منها نصيب، فاحذروا أن تولوهم فتوافقوهم على شرهم وكفرهم (٥)، فتحرموا خير الآخرة كما حرموا.

[وقوله: ﴿كما يشك الكفار من أصحاب القبور﴾ حين أفضوا إلى الدار الآخرة، ووقفوا على حقيقة الأمر (٦)، وعلموا علم اليقين أنهم لا نصيب لهم منها. ويحتمل أن المعنى: قد يشوا من الآخرة أي: قد أنكروها وكفروا بها، فلا يستغرب حيثئذ منهم الإقدام على مسأخط الله وموجبات عذابه وإيأسهم من الآخرة، كما يشك الكفار المنكرون للبعث في الدنيا من رجوع أصحاب القبور إلى الله تعالى.

تم تفسير سورة الممتحنة،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الصف [وهي] مدنية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سبح الله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون * وهذا بيان لعظمته تعالى وقهره، وذو جميع الخلق (٧) له تبارك وتعالى، وأن جميع من في السماوات والأرض يسبحون

وأما الرجال، فيتفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم وما يتعين عليهم، فكان النبي ﷺ يمثل ما أمره الله به، فكان إذا جاءت النساء يبایعنه، والتزمن بهذه الشروط بايعهن، وجبر قلوبهن، واستغفر لهن الله، فيما يحصل منهن من التقصير (١)، وأدخلهن في جملة المؤمنين بأن ﴿لا يشركن بالله شيئاً﴾ بأن يفردن الله [وحده] بالعبادة.

﴿ولا يقتلن أولادهن﴾ كما يجري لنساء الجاهلية الجاهلاء.

﴿ولا يزنين﴾ كما كان ذلك موجوداً كثيراً في البغايا وذوات الأخدان، ﴿ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهن وأرجلهن﴾ والبهتان: الافتراء على الغير أي: لا يفترين بكل حالة، سواء تعلقت بهن وأزواجهن (٣)، أو سواء تعلق ذلك بغيرهم، ﴿ولا يعصينك في معروف﴾ أي: لا يعصينك في كل أمر تأمرهن به، لأن أمرك لا يكون إلا بمرعوف، ومن ذلك طاعتهم [لك] في النهي عن النياحة، وشق الثياب، وخش الوجوه، والدعاء بدعاء (٤) الجاهلية.

﴿فبايعهن﴾ إذا التزمن بجميع ما ذكر.

﴿واستغفر لهن الله﴾ عن تقصيرهن، وتطليباً لخواطرهن، ﴿إن الله غفور﴾ أي: كثير المغفرة للعاصين، والإحسان إلى المذنبين التائبين، ﴿رحيم﴾ وسعت رحمته كل شيء، وعم إحسانه البرايا.

﴿١٣﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يشوا من الآخرة كما يشك الكفار من

(١) كذا في ب، وفي أ: يحصل من التقصير منهن.

(٢) في ب: بل.

(٣) في ب: مع أزواجهن.

(٤) في ب: بدعوى.

(٥) في ب: وشركهم.

(٦) في ب: وشاهدوا.

(٧) في ب: الخلق له.

(٨) في ب: يحصل.

الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله [حقاً].

﴿قالوا﴾ معاندين للحق مكذبين له ﴿هذا سحر مبين﴾ وهذا من أعجب العجائب، الرسول الذي [قد] وضحت رسالته، وصارت آيئاً من شمس النهار، يجعل ساحراً آيئاً سحره، فهل في الخذلان أعظم من هذا؟ وهل في الافتراء أعظم ^(٥) من هذا الافتراء، الذي نفى عنه ما كان معلوماً من رسالته، وأثبت له ما كان أبعد الناس منه؟

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب﴾ بهذا وغيره، والحال أنه لا عذر له، وقد انقطعت حجته، لأنه ﴿يدعى إلى الإسلام﴾ ويبين له براهينه وبيئاته، ﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين، لا تردهم عنه موعظة، ولا يزجرهم بيان ولا برهان، خصوصاً هؤلاء الظلمة القائمين بمقابلة الحق ليردوه، ولينصروا الباطل، ولهذا قال الله عنهم: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم﴾ أي: بما يصدر منهم من المقالات الفاسدة، التي يردون بها الحق، وهي ^(٦) لا حقيقة لها، بل تزيد البصير معرفة بما هم عليه من الباطل ﴿والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ أي: قد تكفل الله بنصر دينه، وإتمام الحق الذي أرسل به رسله، وإشاعة ^(٧) نوره على سائر الأقطار، ولو كره الكافرون، وبذلوا بسبب كراحتهم كل سبب يتوصلون ^(٨) به إلى إطفاء نور الله فإنهم مغلوبون.

وصاروا بمنزلة من ينفخ عين

مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصداقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين * ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين * يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون * هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون يقول تعالى مخبراً عن عناد بني إسرائيل المتقدمين، الذين دعاهم عيسى ابن مريم، وقال لهم: ﴿يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم﴾ أي: أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر، [وأيدني بالبراهين الظاهرة]، ومما يدل على صدقي، كوني ﴿مصداقاً لما بين يدي من التوراة﴾ أي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية، ولو كنت مدعياً للنبوّة، لجئت بغير ما جاءت به المرسلون، ومصداقاً لما بين يدي من التوراة أيضاً، أنها أخبرت بي وبشرت، فجئت وبعثت مصداقاً لها ﴿ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد﴾ وهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي.

فعيسى عليه الصلاة والسلام كالأنبياء ^(٩)، يصدق بالنبي السابق، ويبشر بالنبي اللاحق، بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق، والأمر والنهي ﴿فلما جاءهم﴾ محمد ﷺ الذي بشر به عيسى ﴿بالبينات﴾ أي: الأدلة الواضحة،

لم تؤذوني وقد تعلمون أني رسول الله إليكم فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ [أي:] ﴿وإذ قال موسى لقومه﴾ موبخاً لهم على صنيعهم، ومقرعاً لهم على أذيتهم، وهم يعلمون أنه رسول الله: ﴿لم تؤذوني﴾ بالأقوال والأفعال ﴿وقد تعلمون أني رسول الله إليكم﴾

والرسول من حقه الإكرام والإعظام، والانقياد ^(١٠) بأوامره، والابتدار لحكمه.

وأما أذية الرسول الذي إحسانه إلى الخلق فوق كل إحسان بعد إحسان الله، ففي غاية الوقاحة والجراءة والزيف عن الصراط المستقيم، الذي قد علموه وتركوه، ولهذا قال: ﴿فلما زاغوا﴾ أي: انصرفوا عن الحق بقصدتهم ﴿أزاغ الله قلوبهم﴾ عقوبة لهم على زيفهم الذي اختاروه لأنفسهم ورضوه لها، ولم يوفقههم الله للهدى، لأنهم لا يخلق بهم الخير، ولا يصلحون إلا للشر، ﴿والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾ أي: الذين لم يزل الفسق وصفاً لهم، لا ^(١١) لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة تنفي أن إضلال الله لعباده، ليس ظلماً منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسبب منهم، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه، فيجازيهم بعد ذلك بالإضلال ^(١٢) والزيف الذي لا حيلة لهم في دفعه وتقليب القلوب [عقوبة لهم وعدلاً منه بهم] كما قال تعالى: ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون﴾.

﴿٩ - ٦﴾ ﴿وإذ قال عيسى ابن

(١) في ب: والقيام.

(٢) في ب: ليس.

(٣) كذا في ب، وفي أ: بالضلال.

(٤) في ب: كسائر الأنبياء.

(٥) في ب: أبلغ.

(٦) كذا في ب، وفي أ: التي.

(٧) في ب: وإظهار.

(٨) في ب: كل ما قدروا عليه مما يتوصلون.

الجليل الجميل، الذي أنشأ دار النعيم، وجعل فيها من الجلال والجمال ما يبهر عقول الخلق ويأخذ بأفئدتهم.

وتعالى من له الحكمة التامة، التي من جملتها، أن الله لو أرى الخلائق الجنة حين خلقها^(٢)، ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد، ولما هنامهم العيش في هذه الدار المنغصة، المشوب نعيمها بالمها، وسرورها^(٣) بترحها.

وسميت الجنة جنة عدن، لأن أهلها مقيمون فيها، لا يخرجون منها أبداً، ولا يغفون عنها حولا، ذلك الثواب الجزيل، والأجر الجميل، الفوز العظيم، الذي لا فوز مثله، فهذا الثواب الأخروي.

وأما الثواب الدنيوي لهذه التجارة، فذكره بقوله: ﴿وَأُخْرَى تَحِبُّونَهَا﴾ أي: ويحصل لكم خصلة أخرى تحبونها، وهي: ﴿نُصْرَ مِنَ اللَّهِ﴾ [لكم] على الأعداء، يحصل به العز والفرح، ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ تتسع به دائرة الإسلام، ويحصل به الرزق الواسع، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين، وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد، [إذا قام غيرهم بالجهاد]^(٤) فلم يؤسهم الله تعالى من فضله وإحسانه، بل قال: ﴿وَيُشْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالثواب العاجل والآجل، كل على حسب إيمانه، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين في سبيل الله، كما قال النبي ﷺ: «إِنْ

في الجنة مئة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»^(٥)

ثم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ [أي: بالأقوال والأفعال، وذلك بالقيام بدين الله، والحرص على إقامته^(٦) تنفيذه على الغير، وجهاد من عانده ونابذه بالأبدان والأموال، ومن نصر الباطل بما يزعمه من العلم ورد الحق، بدحض حجته، وإقامة الحجة عليه، والتحذير منه.

ومن نصر دين الله، تَعَلَّمَ كتاب الله وسنة رسوله، والحث على ذلك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم هيج الله المؤمنين بالاعتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مِنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: قال لهم عارضا ومنهضاً^(٧): من يعاونني ويقوم معي في نصرتي لدين الله، ويدخل مدخلي ويخرج مخرجي؟

فابتدر الحواريون، فقالوا: «نحن أنصار الله» فمضى عيسى عليه السلام على أمر الله ونصر دينه، هو ومن معه من الحواريين، «فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ» بسبب دعوة عيسى والحواريين، «وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ» منهم، فلم ينقادوا لدعوتهم، فجاهد المؤمنون الكافرين، «فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ» أي: قويناهم ونصرتناهم عليهم.

«فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ» عليهم وقاهرين [لهم]، فأنتم يا أمة محمد



عليين، يترأهم أهل الجنة كما يترأى الكوكب الدري في الأفق الشرقي أو الغربي، وحتى إن بناء الجنة بعضه من لبن ذهب [وبعضه من] لبن فضة، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان، وبعض المنازل من الزمرد والجواهر الملونة بأحسن الألوان، حتى إنها من صفاتها يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، وفيها من الطيب والحسن ما لا يأتي عليه وصف الواسفين، ولا خطر على قلب أحد من العالمين، لا يمكن أن يدركوه حتى يروه، ويتمتعوا بحسنه وتقر أعينهم به، ففي تلك الحالة، لولا أن الله خلق أهل الجنة، وأنشأهم نشأة كاملة لا تقبل العدم، لأوشك أن يموتوا من الفرح، فسبحان من لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه وفوق ما يشني عليه عباده^(٨)، وتبارك

(١) في ب: أحد من خلقه.

(٢) في ب: أنه لو رأى العباد الجنة.

(٣) في ب: وفرحها.

(٤) زيادة من هاشم ب.

(٥) في ب جاء بدلاً من هذا الحديث ما يلي: [كما قال النبي ﷺ: (من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، وجبت له الجنة) فمجب لها أبو سعيد الخدري - راوي الحديث - فقال: أعدها عليّ يا رسول الله، فأعدها عليه ثم قال: (وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض) فقال: وما هي يا رسول الله قال: (الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله) رواه مسلم.

(٦) في ب: تنفيذه.

(٧) في ب: قال لهم منها.

كونوا أنصار الله ودعاة دينه، ينصركم الله كما نصر من قبلكم، ويظهركم على عدوكم. ثمت والله الحمد^(١)

تفسير سورة الجمعة [وهي] مدنية

﴿١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ يسبح الله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴿أي: يسبح الله وينقاد لأمره، ويتألهه ويعبده، جميع ما في السماوات والأرض، لأنه الكامل الملك، الذي له ملك العالم العلوي والسفلي، فالجميع ممالكه وتحت تدبيره، ﴿القدوس﴾ المعظم، المنزه عن كل آفة ونقص، ﴿العزيز﴾ القاهر للأشياء كلها، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره.

فهذه الأوصاف العظيمة مما تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿٢-٤﴾ ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ المراد بالأميين: الذين لا كتاب عندهم، ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم، ممن ليسوا من أهل الكتاب، فامتن الله تعالى عليهم منة عظيمة أعظم من منته على غيرهم، لأنهم عادمون للعلم والخير، وكانوا في ضلال مبين، يتعبدون للأشجار والأصنام والأحجار، ويتخلقون بأخلاق السباع الضارية، يأكل قويم ضعيفهم، وقد كانوا في غاية الجهل بعلوم الأنبياء،

فبعث الله فيهم رسولاً منهم، يعرفون نسبه وأوصافه الجميلة وصدقه، وأنزل عليه كتابه، ﴿يتلو عليهم آياته﴾ القاطعة الموجبة للإيمان واليقين، ﴿ويزكِّيهم﴾ بأن يحثهم على الأخلاق الفاضلة، ويفصلها لهم، ويذجرهم عن الأخلاق الرذيلة، ﴿ويعلمهم الكتاب والحكمة﴾ أي: علم القرآن^(٢) وعلم السنة، المشتمل ذلك علوم الأولين والآخرين، فكانوا بعد هذا التعليم والتزكية منه أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين، وأكمل الخلق أخلاقاً، وأحسنهم هدياً وسمتاً، اهتدوا بأنفسهم، وهدوا غيرهم، فصاروا أئمة المهتدين، وهذه المؤمنين^(٣)، فلهه عليهم ببعثه هذا الرسول ﷺ أكمل نعمة، وأجل منحة، وقوله: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ أي: وامتن على آخرين من غيرهم أي: من غير الأميين، ممن يأتي بعدهم، ومن أهل الكتاب، لما يلحقوا بهم أي: فيمن باشر^(٤) دعوة الرسول، ويحتمل أنهم لما يلحقوا بهم في الفضل، ويحتمل أن يكونوا لما يلحقوا بهم في الزمان، وعلى كل، فكل المعنيين صحيح، فإن الذين بعث الله فيهم رسوله وشاهدوه وباشروا دعوته، حصل لهم من الخصائص والفضائل ما لا يمكن أحداً أن يلحقهم فيها، وهذا من عزته وحكمته، حيث لم يترك عباده هملأً ولا سدى، بل ابتهت فيهم الرسل، وأمرهم ونهاهم، وذلك من فضل الله العظيم، الذي يؤتيه من يشاء من عباده، وهو أفضل من نعمته عليهم بعافية البدن وسعة الرزق، وغير ذلك من النعم الدنيوية، فلا أعظم من نعمة الدين التي هي مادة الفوز، والسعادة الأبدية.

(١) في ب: تم تفسيرها والحمد لله رب العالمين.

(٢) في ب: علم الكتاب.

(٣) في ب: وقادة المتقين.

(٤) كذا في ب، وفي أ: باشروا.

(٥) في ب: ويعملوا بها.



﴿٥-٨﴾ ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَحْمِلُوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَتَّعُونَ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * قُلْ إِنْ الْمَوْتَ الَّذِي تَدْعُونَ مِنْهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ فَأَتِمُّوا صَبْرَكُمْ وَلَا يَذْكُرْ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ مِنْ قَبْلُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾

(١) في ب: تم تفسيرها والحمد لله رب العالمين.

(٢) في ب: علم الكتاب.

(٣) في ب: وقادة المتقين.

(٤) كذا في ب، وفي أ: باشروا.

(٥) في ب: ويعملوا بها.

الدين، فقد خسر الخسارة الحقيقية، من حيث ظن أنه يربح، وهذا الأمر بترك البيع مؤقت مدة الصلاة، **﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض لطلب المكاسب والتجارات، ولما كان الاشتغال في التجارة مظنة الغفلة عن ذكر الله، أمر الله بالإكثار من ذكره، فقال: ﴿واذكروا الله كثيراً﴾ أي: في حال قيامكم وقعودكم وعلى جنوبكم، لعلكم تفلحون﴾** فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح.

﴿وإذا راوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها﴾ أي: خرجوا من المسجد حرصاً على ذلك اللهو و [تلك] التجارة، وتركوا الخير، **﴿وتركوا قائماً﴾** تحطبت الناس، وذلك: [في] يوم جمعة بينما النبي ﷺ يخطب الناس، إذ قدم المدينة غير تحمل تجارة، فلما سمع الناس بها وهم في المسجد، انفضوا من المسجد، وتركوا النبي ﷺ يخطب استعجالاً لما لا ينبغي أن يستعجل له، وترك أدب، **﴿قل ما عند الله﴾** من الأجر والثواب، لمن لازم الخير وصبر نفسه على عبادة ربه.

﴿خير من اللهو ومن التجارة﴾ التي، وإن حصل منها بعض المقاصد، فإن ذلك قليل منغص، مفوت لخير الآخرة، وليس الصبر على طاعة الله مفوتاً للرزق، فإن الله خير الرازقين، فمن اتقى الله رزقه من حيث لا يحسب.

وفي هذه الآيات فوائد عديدة: منها: أن الجمعة فريضة على جميع المؤمنين، يجب عليهم السعي لها، والمبادرة والاهتمام بشأنها.

ومنها: أن الخطبتين يوم الجمعة فريضتان^(٤) يجب حضورهما، لأنه فسر الذكر هنا بالخطبتين، فأمر الله بالمضي إليه والسعي له.

ومنها: مشروعية النداء ليوم الجمعة والأمر به.

ومنها: النهي عن البيع والشراء بعد

التحدي الذي جعله الله دليلاً على صدقهم إن تمنوه، وكذبهم^(٢) إن لم يتمنوه، ولما لم يقع منهم مع الإعلان لهم بذلك، علم أنهم عالمون بطلان ما هم عليه وفساده، ولهذا قال: **﴿ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم﴾** من الذنوب والمعاصي التي يستوحشون من الموت من أجلها، **﴿والله عليم بالظالمين﴾** فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شيء، هذا وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم، ويفرون^(٣) منه [غاية الفرار]، فإن ذلك لا ينجيهم، بل لا بد أن يلاقيهم الموت الذي قد حتمه الله على العباد وكتبه عليهم.

ثم بعد الموت واستكمال الآجال، يرد الخلق كلهم يوم القيامة إلى عالم الغيب والشهادة، فينبئهم بما كانوا يعملون، من خير وشر، قليل وكثير.

﴿٩ - ١١﴾ **﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾** فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتنفوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون * وإذا راوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوا قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين* يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة والمبادرة إليها، من حين ينادي لها والسعي إليها، والمراد بالسعي هنا: المبادرة إليها والاهتمام لها، وجعلها أهم الأشغال، لا العدو الذي قد نهى عنه عند المضي إلى الصلاة، وقوله: **﴿وفروا البيع﴾** أي: اتركوا البيع، إذا نودي للصلاة، وامضوا إليها.

فإن ذلكم خير لكم من اشتغالكم بالبيع، وتفويتكم الصلاة الفريضة التي هي من أكد الفروض.

﴿إن كنتم تعلمون﴾ أن ما عند الله خير وأبقى، وأن من أثر الدنيا على



من كتب العلم، فهل يستفيد ذلك الحمار من تلك الكتب التي فوق ظهره؟ وهل يلحق به فضيلة بسبب ذلك؟ أم حظه منها حملها فقط؟ فهذا مثل علماء اليهود^(١)، الذين لم يعملوا بما في التوراة، الذي من أجله وأعظمه الأمر باتباع محمد ﷺ، والبشارة به، والإيمان بما جاء به من القرآن، فهل استفاد من هذا وصفه من التوراة إلا الخيبة والخسران وإقامة الحجة عليه؟ فهذا المثل مطابق لأحوالهم.

بشس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله الدالة على صدق رسولنا وصدق ما جاء به.

﴿والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي: لا يرشدهم إلى مصالحهم ما دام الظلم لهم وصفاً والعناد لهم نعتاً، ومن ظلم اليهود وعنادهم، أنهم يعلمون أنهم على باطل، ويزعمون أنهم على حق، وأنهم أولياء الله من دون الناس.

ولهذا أمر الله رسوله، أن يقول لهم: إن كنتم صادقين في زعمكم أنكم على الحق، وأولياء الله: **﴿فتمنوا الموت﴾** وهذا أمر خفيف، فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا

(١) في ب: علماء أهل الكتاب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: أو كذبهم.

(٣) في ب: بل يفرون.

(٤) في ب: فريضة.

نداء الجمعة، وتحريم ذلك، وما ذاك إلا لأنه يفوت الواجب ويشغل عنه، فدل ذلك على أن كل أمر ولو كان مباحاً في الأصل، إذا كان ينشأ عنه تفويت واجب، فإنه لا يجوز في تلك الحال.

ومنها: الأمر بحضور الخطبتين^(١) يوم الجمعة، وذم من لم يحضرهما، ومن لازم ذلك الإنصات لهما.

ومنها: أنه ينبغي للعبد القبل على عبادة الله، وقت دواعي النفس لحضور اللهو [والتجارات] والشهوات، أن يذكرها بما عند الله من الخيرات، وما لمؤثر رضاه على هواه.

تم تفسير سورة الجمعة،
ولله الحمد والثناء^(٢)

تفسير سورة المنافقين^(٣) مدنية

﴿١-٦﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون * ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون * وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون * وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوأوا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون * سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله للفاسقين * لما قدم النبي ﷺ المدينة، وكثر المسلمون في المدينة واعتز

الإسلام بها^(٤)، صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ليقى جامهم، وتحقق دماؤهم، وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون، لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة، فقال: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا﴾ على وجه الكذب: ﴿نشهد إنك لرسول الله﴾ وهذه الشهادة من المنافقين على وجه الكذب والنفاق، مع أنه لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله، فإن ﴿الله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ في قولهم ودعواهم، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم.

﴿اتخذوا أيمانهم جنة﴾ أي: ترساً يترسون بها من نسبتهم إلى النفاق.

فصدوا عن سبيله بأنفسهم، وصدوا غيرهم عن يخفى عليه حالهم، ﴿إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ حيث أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وأقسموا على ذلك وأوهمو صدقهم، ﴿ذلك﴾ الذي زين لهم النفاق ﴿بـ﴾ سبب ﴿أنهم﴾ لا يثبتون على الإيمان.

بل ﴿آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم﴾ بحيث لا يدخلها الخير أبداً، ﴿فهم لا يفقهون﴾ ما ينفعهم، ولا يعون ما يعود بمصالحهم، ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم﴾ من روائها ونضارتها، ﴿وإن يقولوا تسمع لقولهم﴾ أي: من حسن منطقهم تستلذ لاستماعه، فأجسامهم وأقوالهم معجبة، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة والهدى الصالح شيء، ولهذا قال: ﴿كأنهم خشب مسندة﴾ لا منفعة فيها، ولا ينال منها إلا الضرر المحض، ﴿يحسبون كل

وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوأوا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون * سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله للفاسقين * لما قدم النبي ﷺ المدينة، وكثر المسلمون في المدينة واعتز الإسلام بها^(٤)، صار أناس من أهلها من الأوس والخزرج، يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، ليقى جامهم، وتحقق دماؤهم، وتسلم أموالهم، فذكر الله من أوصافهم ما به يعرفون، لكي يحذر العباد منهم، ويكونوا منهم على بصيرة، فقال: ﴿إذا جاءك المنافقون قالوا﴾ على وجه الكذب: ﴿نشهد إنك لرسول الله﴾ وهذه الشهادة من المنافقين على وجه الكذب والنفاق، مع أنه لا حاجة لشهادتهم في تأييد رسوله، فإن ﴿الله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون﴾ في قولهم ودعواهم، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم.

صيحة عليهم﴾ وذلك لجبنهم وفزعهم وضعف قلوبهم، والريب الذي في قلوبهم^(٥) يخافون أن يطلع عليهم.

فهؤلاء ﴿هم العدو﴾ على الحقيقة، لأن العدو البارز التميز أهون من العدو الذي لا يشعر به، وهو مخادع مكر، يزعم أنه ولي، وهو العدو المبين، ﴿فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون﴾ أي: كيف يصرفون عن الدين الإسلامي بعدما تبين أدلته واتضح معالمة، إلى الكفر الذي لا يفيدهم إلا الخسار والشقاء ﴿وإذا قيل للمنافقين تعالوا يستغفر لكم رسول الله﴾ عما صدر منكم، لتحسن أحوالكم، وتقبل أعمالكم، امتنعوا من ذلك أشد الامتناع، و ﴿لوأوا رؤوسهم﴾ امتناعاً من طلب الدعاء من الرسول، ﴿ورأيتهم يصدون﴾ عن الحق بغضاً له ﴿وهم مستكبرون﴾ عن اتباعه بغياً وعناداً، فهذه حالهم عندما يدعون إلى طلب الدعاء من الرسول، وهذا من لطف الله وكرامته لرسوله، حيث لم يأتوا إليه، فيستغفر لهم، فإنه

(١) كذا في ب، وفي أ: الخطبة.

(٢) في ب: بمن الله وعونه والحمد لله رب العالمين.

(٣) كذا في النسختين.

(٤) في ب: وكثر الإسلام فيها وعز.

(٥) وفي ب: وضعف قلوبهم وريبها.

بما تعملون» يأمر تعالى عباده المؤمنين بالإكثار من ذكره، فإن في ذلك الربح والفلاح، والخيرات الكثيرة، وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره، فإن حبة المال والأولاد مجبولة عليها أكثر النفوس، فتقدمها على حبة الله، وفي ذلك الخسارة العظيمة، ولهذا قال تعالى: ﴿ومن يفعل ذلك﴾ أي: يلهه ماله وولده، عن ذكر الله ﴿فأولئك هم الخاسرون﴾ للسعادة الأبدية، والنعيم المقيم، لأنهم أثروا ما يفنى على ما يبقى، قال تعالى: ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم﴾ وقوله: ﴿وانفقوا مما رزقناكم﴾ يدخل في هذا، النفقات الواجبة، من الزكاة والكفارات^(٥)، ونفقة الزوجات، والماليك، ونحو ذلك، والنفقات المستحبة، كبذل المال في جميع المصالح، وقال: ﴿مما رزقناكم﴾ ليدل ذلك على أنه تعالى، لم يكلف العباد من النفقة ما يعتهم ويشق عليهم، بل أمرهم بإخراج جزء^(٦) مما رزقهم الله الذي يسره لهم^(٧) ويسر لهم أسبابه.

فليشكروا الذي أعطاهم، بمواساة إخوانهم المحتاجين، وليبادروا بذلك، الموت الذي إذا جاء، لم يمكن العبد أن يأتي بمثقال ذرة من الخير، ولهذا قال: ﴿من قبل أن يأتي أحدكم الموت﴾ فيقول: متحسراً على ما فرط في وقت الإمكان، سائلاً الرجعة التي هي محال: ﴿رب لولا أخرتني إلى أجل قريب﴾ أي: لأنتارك ما فرطت فيه، ﴿فأصدق﴾ من مالي، ما به أنجو من العذاب، وأستحق به جزيل الثواب، ﴿وأكن من الصالحين﴾ بأداء المأمورات كلها، واجتناب المنهيات، ويدخل في هذا، الحج وغيره، وهذا السؤال والتمني، قد فات وقته، ولا يمكن تداركه، ولهذا قال: ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾ المحتوم لها^(٨) والله

خذلان الدين، وأذية المسلمين، مثل هذه الدعوى، التي لا تروج إلا على من لا علم له بحقائق الأمور^(٩)، ولهذا قال الله رداً لقولهم: ﴿والله خزائن السماوات والأرض﴾ فيوتي الرزق من يشاء، ويمنعه من يشاء، ويسر الأسباب لمن يشاء، ويعسرهما على من يشاء، ﴿ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ فلذلك قالوا تلك المقالة، التي مضمونها أن خزائن الرزق في أيديهم، وتحت مشيتهم.

﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل﴾ وذلك في غزوة المريسيع، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار بعض كلام كدر الخواطر، ظهر حيثئذ نفاق المنافقين، وأظهروا ما في نفوسهم^(١٠).

وقال كبيرهم عبد الله بن أبي ابن سلول: ما مثلنا ومثل هؤلاء - يعني المهاجرين - إلا كما قال القائل: «غذ كلبك يأكلك»^(١١).

وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» بزعيمه أنه هو وإخوانه من المنافقين الأعزون، وأن رسول الله ومن معه^(١٢) هم الأذلون، والأمر بعكس ما قال هذا النافق، فلماذا قال [تعالى]: ﴿والله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ فهم الأعزاء، والمنافقون وإخوانهم من الكفار [هم] الأذلاء. ﴿ولكن المنافقين لا يعلمون﴾ [ذلك] فلذلك زعموا أنهم الأعزاء، اغتراراً بما هم عليه من الباطل، ثم قال تعالى:

﴿٩- ١١﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ وانفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين * ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها والله خير



سواء استغفر لهم أم لم يستغفر لهم فلن يغفر الله لهم، وذلك لأنهم قوم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، مؤثرون للكفر على الإيمان، فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول، لو استغفر لهم كما قال تعالى: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾. إن الله لا يهدي القوم الفاسقين.

﴿٧- ٨﴾ ﴿هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون﴾ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون وهذا من شدة عداوتهم للنبي ﷺ والمسلمين، لما رأوا اجتماع أصحابه وأئبلانهم، ومسارعتهم في مرضاة الرسول ﷺ، قالوا بزعيمهم الفاسد:

﴿لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا﴾ فإنهم - بزعيمهم - لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم، لما اجتمعوا في نصرة دين الله، وهذا من أعجب العجب، أن يدعي هؤلاء المنافقون الذين هم أحرص الناس على

(١) في ب: بالحقائق.

(٢) في ب: وتبين ما في قلوبهم.

(٣) في ب: سمّن كلبك.

(٤) في ب: ومن اتبعه.

(٥) كذا في ب، وفي أ: الكفارة.

(٦) كذا في ب، وفي أ: أمرهم بجزء.

(٧) في ب، مما رزقهم ويسره ويسر

أسبابه.

خبير بما تعملون» من خير وشر، فيجازيكم على ما علمه منكم، من النيات والأعمال.

تم تفسير سورة المنافقين،
وله الحمد

تفسير سورة التغابن [وهي] مكية

﴿١-٤﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم يسبح الله ما في السماوات وما في الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير * هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير * خلق السماوات والأرض بالحق وصوركم فأحسن صوركم وإليه المصير * يعلم ما في السماوات والأرض ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور» هذه الآيات [الكريمات]، مشتملات على جملة كثيرة واسعة، من أوصاف الباري العظيمة، فذكر كمال ألوهيته تعالى، وسعة غناه، وافتقار جميع الخلائق إليه، وتسبيح من في السماوات والأرض بحمدها، وأن الملك كله لله، فلا يخرج مخلوق عن ملكه، والحمد كله له، حمد على ما له من صفات الكمال، وحمد على ما أوجده من الأشياء، وحمد على ما شرعه من الأحكام، وأسأده من النعم.

وقدرته شاملة، لا يخرج عنها موجود، فلا يعجزه شيء يريده، وذكر أنه خلق العباد، وجعل منهم المؤمن والكافر، فإيمانهم وكفرهم كله بقضاء الله وقدره، وهو الذي شاء ذلك منهم، بأن جعل لهم قدرة وإرادة، بها يتمكنون من كل ما يريدون من الأمر والنهي، «والله بما تعملون بصير» فلما ذكر خلق الإنسان المكلف الأمور النهي، ذكر خلق باقي المخلوقات، فقال: «خلق السماوات

والأرض» أي: أجزأهما، [وجميع] ما فيها فأحسن خلقهما، «بالحق» أي: بالحكمة والغاية المقصودة له تعالى، «وصوركم فأحسن صوركم» كما قال تعالى: «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم» فالإنسان أحسن المخلوقات صورة، وأبهاها منظراً. «وإليه المصير» أي: المرجع يوم القيامة، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم، ويسألكم عن النعم والنعيم، الذي أولاكموه^(١)، هل قمتم بشكره، أم لم تقوموا بشكره؟ ثم ذكر عموم علمه، فقال: «يعلم ما في السماوات والأرض» أي: من السرائر والظواهر، والغيب والشهادة. «ويعلم ما تسرون وما تعلنون والله عليم بذات الصدور» أي: بما فيها من الأسرار الطيبة، والخبايا الخبيثة، والنيات الصالحة، والمقاصد الفاسدة، فإذا كان عليمًا بذات الصدور، تعين على العاقل البصير، أن يحرص ويجتهد في حفظ باطنه، من الأخلاق الرذيلة، واتصافه بالأخلاق الجميلة.

﴿٥-٦﴾ «ألم يأتكم نبي الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم * ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهودنا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد» لما ذكر تعالى من أوصافه الكاملة العظيمة، ما به يعرف ويعبد، ويبذل الجهد في مرضاته، وتجنب مساحظته، أخبر بما فعل بالأمم السابقين، والقرون الماضية، الذين لم تزل أنبأهم يتحدث بها المتأخرون، ويخبر بها الصادقون، وأنهم حين جاءتهم الرسل^(٢) بالحق، كذبوهم وعاندوهم، فأذاقهم الله وبال أمرهم في الدنيا، وأخزاهم فيها، «ولهم عذاب أليم» في [الدار] الآخرة، ولهذا ذكر السبب في هذه العقوبة، فقال: «ذلك» النكال والوبال، الذي أحلنناه بهم

بأنهم «كانت تأتيهم رسلهم بالبينات» أي: بالآيات الواضحات، الدالة على الحق والباطل، فاشمأزوا واستكبروا على رسلهم، فقالوا: «أبشر يهودنا» أي: فليس لهم فضل علينا، ولاي شيء خصهم الله دوننا، كما قال في الآية الأخرى: «قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده» فهم حجروا فضل الله ومنته على أنبيائه أن يكونوا رسلاً للخلق، واستكبروا عن الانقياد لهم، فابتلوا بعبادة الأحجار والأشجار ونحوها «فكفروا» بالله «وتولوا» عن طاعة الله، «واستغنى الله» عنهم، فلا يبالي بهم، ولا يضره ضلالهم شيئاً، «والله غني حميد» أي: هو الغني، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه، الحميد في أقواله وأفعاله وأوصافه.

﴿٧﴾ «زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قلاً بلى وري تبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير» يخبر تعالى عن عناد الكافرين، وزعمهم الباطل، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فأمر أشرف خلقه أن يقسم بربه على بعثهم، وجزائهم بأعمالهم الخبيثة، وتكذيبهم بالحق، «وذلك على الله يسير» فإنه وإن كان عسيراً، بل متعذراً بالنسبة إلى الخلق، فإن قواهم كلهم لو اجتمعت^(٣) على إحياء ميت [واحد]، ما قدروا على ذلك.

وأما الله تعالى، فإنه إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، قال تعالى: «ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون».

﴿٨﴾ «فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير» لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث، وأن ذلك [منهم] موجب كفرهم بالله وآياته، أمر بما يعصم من الهلكة

قلبه، فاطمأن ولم يتزعج عند المصائب، كما يجري لمن^(٤) لم يهد الله قلبه، بل يرزقه الله الثبات عند ورودها^(٥)

والقيام بموجب الصبر، فيحصل له بذلك ثواب عاجل، مع ما يدخر الله له يوم الجزاء من الثواب^(٦)، كما قال تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ وعلم من هذا أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب، بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره، بل وقف مع مجرد الأسباب، أنه يتخذ، ويكمله الله إلى نفسه، وإذا وكل العبد إلى نفسه، فالنفس ليس عندها إلا الجزع والهلع، الذي هو عقوبة عاجلة على العبد، قبل عقوبة الآخرة، على ما فرط في واجب الصبر. هذا ما يتعلق بقوله: ﴿ومن يؤمن بالله يهد قلبه﴾ في مقام المصائب الخاص، وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظي، فإن الله أخبر أن كل من آمن أي: الإيمان المأمور به من^(٧) الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وصدق إيمانه بما يقتضيه الإيمان من القيام بلوازمه وواجباته، أن هذا السبب الذي قام به العبد أكبر سبب لهداية الله له في أحواله وأقواله وأفعاله^(٨)، وفي علمه وعمله.

وهذا أفضل جزاء يعطيه الله لأهل الإيمان، كما قال تعالى في الأخبار: أن المؤمنين يشبههم الله^(٩) في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

وأصل الثبات: ثبات القلب وصبره، ويقينه عند ورود كل فتنة، فقال: ﴿ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ فأهل الإيمان أهدى الناس قلوباً، وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات، وذلك لما معهم من الإيمان.

[وقوله]: ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا

وأنتهم هم الخاسرون، فكانه قيل: بأي: شيء يحصل الفلاح والشقاء والنعيم والعذاب؟

فذكر تعالى أسباب ذلك بقوله: ﴿ومن يؤمن بالله﴾ [أي]: إيماناً تاماً شاملاً لجميع ما أمر الله بالإيمان به، ويعمل صالحاً من الفرائض والنوافل، من أداء حقوق الله وحقوق عباده. ﴿يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ فيها ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وتختاره الأرواح، وتحن إليه القلوب، ويكون نهاية كل مرغوب، ﴿خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا﴾ أي: كفروا [بها] من غير مستند شرعي ولا عقلي، بل جاءتهم الأدلة والبيات، فكذبوا بها، وعاندوا ما دلت عليه.

﴿أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾ لأنها جمعت كل يؤس وشدة، وشقاء وعذاب.

﴿١١ - ١٣﴾ ﴿ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه والله بكل شيء عليم﴾ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين * الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ يقول تعالى: ﴿ما أصاب من مصيبة إلا باذن الله﴾ وهذا عام لجميع المصائب، في النفس، والمال، والولد، والأحباب، ونحوهم، فجميع ما أصاب العباد فبقضاء الله وقدره، قد سبق بذلك علم الله [تعالى]، وجرى به قلمه، ونفذت به مشيئته، واقتضته حكمته، والشأن كل الشأن، هل يقوم العبد بالوظيفة التي عليه في هذا المقام، أم لا يقوم بها؟ فإن قام بها، فله الثواب الجزيل، والأجر الجميل، في الدنيا والآخرة، فإذا آمن أنها من عند الله، فرضي بذلك، وسلم لأمره، هدى الله

والشقاء، وهو الإيمان بالله ورسوله وكتابه^(١١)، وبسماء الله نوراً، فإن النور^(١٢) ضد الظلمة، وما في الكتاب الذي أنزله الله من الأحكام والشرائع والأخبار، أنوار يهتدى بها في ظلمات الجهل المدلهمة، ويمشى بها في حندس الليل البهيم، وما سوى الاهتداء بكتاب الله، فهي علوم ضررها أكثر من نفعها، وشرها أكثر من خيرها، بل لا خير فيها ولا نفع، إلا ما وافق ما جاءت به الرسل، والإيمان بالله ورسوله وكتابه، يقتضي الجزم التام، واليقين الصادق بها، والعمل بمقتضى ذلك التصديق، من امتثال الأوامر، واجتناب المناهي^(١٣)، ﴿والله بما تعملون خبير﴾ فيجازيكم بأعمالكم الصالحة والسيئة.

﴿٩ - ١٠﴾ ﴿يوم يحمكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ومن يؤمن بالله ويعمل صالحاً يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير﴾ يعني: اذكروا يوم الجمع الذي يجمع الله به الأولين والآخرين، ويقفهم موقفاً هائلاً عظيماً، وينبئهم بما عملوا، فحينئذ يظهر الفرق والتفاوت بين الخلائق، ويُرْفَعُ أقوامٌ إلى أعلى عليين، في الغرف العاليات، والمنازل المرتفعات، المشتعلة على جميع اللذات والشهوات، ويخفض أقوامٌ إلى أسفل سافلين، محل الهم والغم، والحزن، والعذاب الشديد، وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم، وأسلفوه أيام حياتهم، ولهذا قال: ﴿ذلك يوم التغابن﴾.

أي: يظهر فيه التغابن والتفاوت بين الخلائق، ويفنن المؤمنون الفاسقين، ويعرف المجرمون أنهم على غير شيء،

(٨) في ب: في أقواله وأفعاله وجميع أحواله.

(٩) في ب: كما قال تعالى مخبراً أنه يثبت المؤمنين.

(٤) في ب: ممن.

(٥) كذا في ب، وفي أ: عندها.

(٦) في ب: من الأجر العظيم.

(٧) في ب: وهو.

(١١) في ب: الإيمان به، ورسوله، وكتبه.

(١٢) في ب: لأن النور.

(١٣) في ب: النواهي.

طلقها في طهر وطىء فيه، فإنه لا يؤمن حملها، فلا يتبين و [لا] يتضح بأي: عدة تعتد، وأمر تعالى بإحصاء العدة، أي: ضبطها بالحيض إن كانت تحيض، أو بالأشهر إن لم تكن تحيض، وليست حاملاً، فإن في إحصائها أداء لحق الله، وحق الزوج المطلق، وحق من سيتزوجها بعد، [وحقها في النفقة ونحوها] فإذا ضبطت عدتها، علمت حالها على بصيرة، وعلم ما يترتب عليها من الحقوق، وما لها منها، وهذا الأمر بإحصاء العدة، يتوجه [للزوج]^(١)، وللمرأة، إن كانت مكلفة، وإلا

فلوليها، وقوله: ﴿واتقوا الله ويحكم﴾ أي: في جميع أموركم، وخافوه في حق الزوجات المطلقات، ف ﴿لا تخرجوهن من بيوتهن﴾ مدة العدة، بل يلزم بيوتهن^(٢) الذي طلقها زوجها وهي فيها.

﴿ولا يخرجن﴾ أي: لا يجوز لهن الخروج منها، أما النهي عن إخراجها، فلأن^(٣) المسكن يجب على الزوج للزوجة^(٤)، لتكمل فيه عدتها التي هي حق من حقوقه.

وأما النهي عن خروجها، فلما في خروجها من إضاعة حق الزوج وعدم صونه.

ويستمر هذا النهي عن الخروج من البيوت والإخراج إلى تمام العدة.

﴿إلا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ أي: بأمر قبيح واضح، موجب لإخراجها، بحيث يدخل على أهل البيت الضر من عدم إخراجها، كالأذى بالأقوال والأفعال الفاحشة، ففي هذه الحال يجوز لهم إخراجها، لأنها هي التي تسببت لإخراج نفسها، والإسكان فيه جبر لحاظها، ورفق بها، فهي التي أدخلت الضرر على نفسها^(٥)، وهذا في المعتدة الرجعية، وأما البائن، فليس لها سكنى واجبة، لأن السكن تبع

لعالم الغيب والشهادة^(٦)، أي: ما غاب عن العباد من الجنود التي لا يعلمها إلا هو، وما يشاهدونه من المخلوقات، الذي لا يغالب ولا يمانع، الذي فهر كل الأشياء، ﴿الحكيم﴾ في خلقه وأمره، الذي يضع الأشياء مواضعها.

تم تفسير الثغابن [ولله الحمد]

تفسير سورة الطلاق [وهي] مدنية

﴿١-٣﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة فاتقوا الله ربيكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً * فإذا بلغتن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾ يقول تعالى مخاطباً لنبية ﷺ وللمؤمنين:

﴿يا أيها النبي إذا طلقتم النساء أي: أردتم طلاقهن ﴿ف﴾ ألتمسوا لطلاقهن الأمر المشروع، ولا تبادروا بالطلاق من حين يوجد سببه، من غير مراعاة لأمر الله.

بل ﴿طلقوهن لعدتهن﴾ أي: لأجل عدتهن، بأن يطلقها زوجها وهي طاهر، في طهر لم يجامعها فيه، فهذا الطلاق هو الذي تكون العدة فيه واضحة بينة، بخلاف ما لو طلقها وهي حائض، فإنها لا تحتسب بتلك الحيضة التي وقع فيها الطلاق، وتطول عليها العدة بسبب ذلك، وكذلك لو



تعالى، وبذلك تطلع وتنج وتفوز كل الفوز.

ثم رغب تعالى في النفقة، فقال: ﴿إن تقرضوا الله قرضاً حسناً﴾ وهو كل نفقة كانت من الحلال، إذا قصد بها العبد وجه الله تعالى وطلب مرضاته، ووضعها في موضعها ﴿بضاعفه لكم﴾ النفقة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

﴿ومع المضاعفة أيضاً﴾ يغفر لكم، بسبب الإنفاق والصدقة ذنوبكم، فإن الذنوب يكفرها الله بالصدقات والحسنات: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾.

﴿والله شكور حلیم﴾ حلیم لا يعاجل من عساه، بل يمهله ولا يمهله، ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾. والله تعالى شكور يقبل من عباده اليسير من العمل، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر، ويشكر تعالى لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال، ونساء^(١) بالتكاليف الثقيل، ومن ترك شيئاً لله، عوضه الله خيراً منه.

(١) في ب: وأنواع التكاليف.

(٢) زيادة من هاشم: ب.

(٣) في ب: بل تلزم بيتها.

(٤) كذا في ب، وفي أ: فإن.

(٥) كذا في ب، وفي أ: يجب للزوجة عليه.

(٦) في ب: عليها.

للفتنة، والنفقة تجب للرجعية دون البائن، **﴿وتلك حدود الله﴾** [أي: التي حدها لعباده وشرعها لهم، وأمرهم بلزومها والوقوف معها، **﴿ومن يتعد حدود الله﴾** بأن لم يقف معها، بل تجاوزها، أو قصر عنها، **﴿فقد ظلم نفسه﴾** أي: بخسها حظها، وأضاع نصيبه من اتباع حدود الله التي هي الصلاح في الدنيا والآخرة. **﴿لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً﴾** أي: شرع الله العدة، وحدد الطلاق بها، لحكم عظيمة: فمنها: أنه لعل الله يحدث في قلب المطلق الرحمة والمودة، فيراجع من طلقها، ويستأنف عشرتها، فيتمكن من ذلك مدة العدة، أو لعله يطلقها لسبب منها، فيزول ذلك السبب في مدة العدة، فيراجعها لانتفاء سبب الطلاق.

ومن الحكم: أنها مدة التبرص، يعلم براءة رحمها من زوجها.

وقوله: **﴿فلذا بلغن أجلهن﴾** أي: إذا قاربن انقضاء العدة، لأنهن لو خرجن من العدة، لم يكن الزوج مخيراً بين الإمساك والفرار. **﴿فأمسكوهن بمعروف﴾** أي: على وجه المعاشرة [الحسنة]، والصحبة الجميلة، لا على وجه الضرار، وإرادة الشر والخبس، فإن إمساكها على هذا الوجه لا يجوز، **﴿أو فارقوهن بمعروف﴾** أي: فراقاً لا محذور فيه، من غير تشاتم ولا تخاصم، ولا قهر لها على أخذ شيء من مالها.

﴿وأشهدوا﴾ على طلاقها ورجعتها **﴿ذوي عدل منكم﴾** أي: رجلين مسلمين عدلين، لأن في الإشهاد المذكور، سداً لباب المخاصمة، وتكتمان كل منهما ما يلزمه بياته. **﴿وأقيموا﴾** أيها الشهداء

﴿الشهادة لله﴾ أي: اثنوا بها على وجهها، من غير زيادة ولا نقص، واقصدوا بإقامتها وجه الله وحده^(١)، ولا تراعوا بها قريباً لقربته، ولا صاحباً لمحبتة، **﴿ذلكم﴾** الذي ذكرنا لكم من الأحكام والحدود **﴿يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر﴾** فإن من يؤمن بالله واليوم الآخر، يوجب له ذلك^(٢) أن يتعظ بمواعظ الله، وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة ما تمكن منها، بخلاف من ترحل الإيمان عن قلبه، فإنه لا يبالي بما أقدم عليه من الشر، ولا يعظم مواعظ الله لعدم الموجب لذلك، ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغم، أمر تعالى بتقواه، وأن^(٣) من اتقاه في الطلاق وغيره، فإن الله يجعل له فرجاً ومخرجاً.

فإذا أراد العبد الطلاق، ففعله على الوجه الشرعي، بأن أوقعه طليقة واحدة، في غير حيض ولا طهر قد وطئ فيه^(٤)، فإنه لا يضييق عليه الأمر، بل جعل الله له فرجاً وسعة يتمكن فيها من مراجعة النكاح^(٥)، إذا ندم على الطلاق، والآية، وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة، فإن العبرة بعموم اللفظ، فكل من اتقى الله تعالى، ولازم مرضاة الله في جميع أحواله، فإن الله يشبهه في الدنيا والآخرة.

ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجاً ومخرجاً من كل شدة ومشقة، وكما أن من اتقى الله جعل له فرجاً ومخرجاً، فمن لم يتق الله، وقع في الشدائد والأصار والأغلال، التي لا يقدر على التخلص منها والخروج من تبعتها، واعتبر ذلك بالطلاق، فإن العبد إذا لم يتق الله فيه، بل أوقعه على الوجه

(١) في ب: وجه الله تعالى.

(٢) في ب: فإن الإيمان بالله، واليوم الآخر يوجب لصاحبه.

(٣) في ب: ووعد من.

(٤) في ب: ولا طهر أصابها فيه.

(٥) في ب: يتمكن بها من الرجوع إلى النكاح.

(٦) في ب: لا يتمكن من استدراكها.



المحرم، كالثلاث ونحوها، فإنه لا بد أن يندم ندامة لا يمكنه استدراكها^(٦) والخروج منها.

وقوله: **﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾** أي: يسوق الله الرزق للمتقي، من وجه لا يحتسبه ولا يشعر به.

﴿ومن يتوكل على الله﴾ أي: في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ويشق به في تسهيل ذلك **﴿فهو حسبه﴾** أي: كافيه الأمر الذي توكل عليه به، وإذا كان الأمر في كفالة الغني القوي [العزیز] الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شيء، ولكن ربما أن الحكمة الإلهية اقتضت تأخيرها إلى الوقت المناسب له، فلماذا قال تعالى: **﴿إن الله بالغ أمره﴾** أي: لا بد من نفوذ قضائه وقدره، ولكنه **﴿قد جعل الله لكل شيء قدراً﴾** أي: وقتاً ومقداراً، لا يتعداه ولا يقصر عنه.

﴿٤٥ - ٥﴾ **﴿واللّٰثي يثسّن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم فعدتهن**

ضرر ولا مشقة، وذلك راجع إلى العرف، ﴿وإن كن أي: المطلقات أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضمن حملهن﴾ وذلك لأجل الحمل الذي في بطنها، إن كانت بانثاً، ولها وحملها إن كانت رجعية، ومنتهى النفقة حتى يضمن حملهن^(٣)، فإذا وضع حملهن، فيما أن يرضعن أولادهن أو لا، ﴿فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن﴾ المسماة لهن، إن كان مسمى، وإلا فأجر المثل، ﴿واثمروا بينكم بمعروف﴾ أي: ليأمر كل واحد من الزوجين ومن غيرها الآخر بالمعروف، وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة في الدنيا والآخرة، فإن الغفلة عن الائتمار بالمعروف، يحصل فيه^(٤) من الشر والضرر، ما لا يعلمه إلا الله، وفي الائتمار تعاون على البر والتقوى، وبما يناسب هذا المقام، أن الزوجين عند الفراق وقت العدة، خصوصاً إذا ولد لهما^(٥) ولد في الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق، الذي في الغالب ما يصدر إلا عن بغض، ويتأثر منه البغض شيء كثير^(٦).

فكل منهما يؤمر بالمعروف، والمعاشرة الحسنة، وعدم المشاقة والمخاصمة^(٧)، وينصح على ذلك.

﴿وإن تعاسرتم﴾ بأن لم تتفقوا^(٨) على إرضاعها لولدها، فلترضع^(٩) له أخرى غيرها ﴿فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتن بالمعروف﴾ وهذا حيث كان الولد يقبل ثدي غير أمه، فإن لم يقبل إلا ثدي أمه، تعينت لإرضاعه،

أجلهن أي: عدتهن ﴿أن يضمن حملهن أي: جميع ما في بطونهن، من واحد، ومتعدد، ولا عبء حيثئذ بالأشهر ولا غيرها، ﴿ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً﴾ أي: من اتقى الله تعالى، يسر له الأمور، وسهل عليه كل عسير. ﴿ذلك﴾ أي: الحكم الذي بينه الله لكم ﴿أمر الله أنزل إليكم﴾ لتمشوا عليه، ﴿وتاتموا﴾ وتقوموا به وتعظموه.

﴿ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً﴾ أي: يندفع عنه المحذور، ويحصل له المطلوب.

﴿٦ - ٧﴾ ﴿اسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضمن حملهن فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن واثمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى﴾ لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسراً ﴿تقدم أن الله نهى عن إخراج المطلقات عن البيوت، وهنا أمر بإسكانهن، وقدر الإسكان^(١) بالمعروف، وهو البيت الذي يسكنه مثله ومثلها، بحسب وجد الزوج وعسره، ﴿ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن﴾ أي: لا تضاروهن عند سكنانهن بالقول أو الفعل، لأجل أن يمللن، فيخرجن من البيوت قبل تمام العدة، فتكونوا أنتم المخرجين لهن، وحاصل هذا أنه نهى عن إخراجهن، ونهاهن عن الخروج، وأمر بسكنانهن، على وجه لا يحصل عليهن



ثلاثة أشهر واللاتي لم يحضن وأولات الأحمال أجلهن أن يضمن حملهن ومن يتق الله يجعل له من أمره يسراً * ذلك أمر الله أنزله إليكم ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجراً ﴿١﴾ لما ذكر تعالى أن الطلاق المأمور به يكون لعدة النساء، ذكر تعالى العدة، فقال:

﴿واللاتي يشن من الحيض من نسائكم﴾ بأن كن يحضن، ثم ارتفع حيضهن، لكبر أو غيره، ولم يزوج رجوعه، فإن عدتها ثلاثة أشهر، جعل لكل شهر، مقابلة حيضة.

﴿واللاتي لم يحضن﴾ أي: الصغار اللاتي لم يأتتهن الحيض بغد، والبالغات^(١) اللاتي لم يأتتهن حيض بالكلية، فإنهن كالأيسات، عدتهن ثلاثة أشهر، وأما اللاتي يحضن، فذكر الله عدتهن في قوله: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾. [وقوله:] ﴿وأولات الأحمال

(١) في ب: أو البالغات.

(٢) في ب: إسكانهن.

(٣) في ب: إلى وضع الحمل.

(٤) في ب: فيها.

(٥) في ب: بينهما.

(٦) في ب: الذي لا يحصل في الغالب إلا مقروناً بالبغض فيتأثر من ذلك شيء كثير.

(٧) في ب: والمنازعة.

(٨) في ب: بأن لم يتفق الزوجان.

(٩) في ب: فسترضع له أخرى.



﴿فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ أي: الجميع أعوان للرسول، مظاهرون، ومن كان هؤلاء أعوانه^(٥)، فهو المنصور، وغيره ممن يناوئه مخدول^(٦)، وفي هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين، حيث جعل الباري نفسه [الكريمة]، وخواص خلقه، أعواناً لهذا الرسول الكريم.

وهذا فيه من التحذير للزوجتين الكريمتين ما لا يخفى، ثم خوفهما أيضاً بحالة تشق على النساء غاية المشقة، وهو الطلاق، الذي هو أكبر شيء عليهن، فقال: ﴿عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن﴾ أي: فلا ترفعن عليه، فإنه لو طلقكن، لم يضق^(٧) عليه الأمر، ولم يكن مضطراً ليكن، فإنه سيلقى^(٨)، ويبدله الله أزواجاً خيراً منكن، ديناً وجالاً، وهذا من باب التعليق الذي لم يوجد، ولا يلزم وجوده، فإنه ما طلقهن، ولو طلقهن، لكان ما ذكره الله من هذه الأزواج الفاضلات، الجامعات بين الإسلام، وهو القيام بالشرائع الظاهرة، والإيمان، وهو: القيام بالشرائع الباطنة، من العقائد وأعمال القلوب.

القنوت هو دوام الطاعة واستمرارها، «تأثبات» عما يكرهه الله، فوصفهن بالقيام بما يحبه الله، والتوبة عما يكرهه الله، «ثبات وأبكاراً» أي: بعضهن ثيب، وبعضهن أبكار، ليتنوع^(٩) فيما يجب، فلما سمعن رضي الله عنهن هذا التخويف والتأديب، بادرن إلى رضا رسول الله ﷺ، فكان هذا

أو أراد الحنث، فعليه هذه الكفارة المذكورة، وقوله: ﴿والله مولاكم﴾ أي: متولي أموركم، ومربيكم أحسن تربية، في أمور دينكم ودنياكم، وما به يندفع عنكم الشر، فلذلك فرض لكم تحلة أيمانكم، لتبرأ ذمكم، ﴿وهو المعلم الحكيم﴾ الذي أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم، وهو الحكيم في جميع ما خلقه وحكم به، فلذلك شرع لكم من الأحكام، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم، ومناسب لأحوالكم.

[وقوله: ﴿وإذا أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً﴾] قال كثير من المفسرين: هي حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، أسر لها النبي ﷺ حديثاً، وأمر أن لا تخبر به أحداً، فحدثت به عائشة رضي الله عنهما، وأخبره الله بذلك الخبر الذي أذاعته، فعرفها ﷺ ببعض ما قالت، وأعرض عن بعضه، كرماً منه ﷺ وحلماً، ف «قالت»: له: ﴿من أنبأك هذا﴾ الخبر الذي لم يخرج مناً؟ «قال نُبَّاني المعلم الخبير» الذي لا تخفى عليه خافية، يعلم السر وأخفى، [وقوله: ﴿إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما﴾] الخطاب للزوجتين الكريمتين من أزواجه ﷺ عائشة وحفصة رضي الله عنهما، كانتا سبباً لتحريم النبي ﷺ على نفسه ما يحبه، فعرض الله عليهما التوبة، وعاتبهما على ذلك، وأخبرهما أن قلوبهما^(١٠) قد صغت أي: مالت وانحرفت عما ينبغي لهن، من الورع والأدب مع الرسول ﷺ واحترامه، وأن لا يشققن عليه، ﴿وإن تظاهرا عليه﴾ أي: تعاونا^(١١) على ما يشق عليه، ويستمر هذا الأمر منكن،

«تبغى» بذلك التحريم «مرضاة أزواجك والله غفور رحيم» هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم، ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه سبباً لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى حاكماً حكماً عاماً في جميع الأيمان:

﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾^(١٢) أي: قد شرع لكم، وقدر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث، وما به الكفارة^(١٣) بعد الحنث، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا﴾ إلى أن قال: ﴿فكفارتهم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتكم﴾.

فكل من حرم حلالاً عليه، من طعام أو شراب أو سرية، أو حلف يميناً بالله، على فعل أو ترك، ثم حنث

(١) في ب: فقال تعالى: ﴿قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم﴾ وهذا عام في جميع أيمان المؤمنين.

(٢) في ب: وما به تكفر.

(٣) في ب: أن قلوبكما.

(٤) في ب: تعاونا.

(٥) في ب: أنصاره.

(٦) في ب: وغيره أن يناوئه فهو مخدول.

(٧) في ب: لا يضيق.

(٨) في ب: سيجد.

ما هم عليه من أنواع الضلال، وجهادهم بالسلاح والقتال لمن أبى أن يجيب دعوة الله وينقاد لحكمه، فإن هذا يجاهد ويغلظ له، وأما المرتبة الأولى، فتكون بالتي هي أحسن، فالكفار والمنافقون لهم عذاب في الدنيا، بتسليط الله لرسوله وحزبه [عليهم و] على جهادهم وقتالهم، وعذاب النار في الآخرة وبئس المصير، الذي يصير إليها كل شقي خاسر.

﴿١٠-١٢﴾ ﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين * وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين * ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين﴾ هذان المثالان اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين، ليبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن وقربه منه لا يفيد شيئاً، وأن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً مع قيامه بالواجب عليه.

فكان في ذلك إشارة وتحذيراً لزوجات النبي ﷺ عن المعصية، وأن اتصالهن به ﷺ لا ينفعهن شيئاً مع الإساءة، فقال:

﴿ضرب الله مثلاً للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا﴾ أي: المرأتان ﴿تحت عبدين من عبادنا صالحين﴾ وهما نوح ولوط عليهما السلام.

﴿فخانتاهما﴾ في الدين، بأن كانتا على غير دين زوجيهما، وهذا هو المراد بالخيانة، لا خيانة النسب والفراش، فإنه ما بغت امرأة نبي قط، وما كان الله ليجعل امرأة أحد من أنبيائه

لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون﴾ أي: يوبخ أهل النار يوم القيامة بهذا التوبخ، فيقال لهم: ﴿يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم﴾ [أي: فإنه ذهب وقت الاعتذار، وزال نفعه، فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال، وأنتم لم تقدموا إلا الكفر بالله، والتكذيب بآياته، وعارية رسله وأوليائه].

﴿٨﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير﴾ قد أمر الله بالتوبة النصوح في هذه الآية، ووعد عليها بتكفير السيئات، ودخول الجنات، والفوز والفلاح، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة بنور إيمانهم، ويمشون بضياءه، ويتمتعون بروحه وراحته، ويشفقون إذا طفت الأنوار، التي تعطي المنافقين، ويسألون الله، أن يتمم لهم نورهم، فيستجيب الله دعوتهم، ويوصلهم ما^(٧) معهم من النور واليقين، إلى جنات النعيم، وجوار الرب الكريم، وكل هذا من آثار التوبة النصوح.

والمراد بها: التوبة العامة الشاملة للذنوب كلها، التي عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجهه^(٨) والقرب منه، ويستمر عليها في جميع أحواله.

﴿٩﴾ ﴿يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير﴾ يأمر [الله] تعالى نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، والإغلاظ عليهم في ذلك، وهذا شامل لجهادهم بإقامة الحجج [عليهم ودعوتهم] بالموعظة الحسنة^(٩)، وإبطال

الوصف منطقاً عليهن، فصرن أفضل نساء المؤمنين، وفي هذا دليل على أن الله لا يختار لرسوله ﷺ إلا أكمل الأحوال وأعلى الأمور، فلما اختار الله لرسوله بقاء نسائه المذكورات معه دل على أنهن خير النساء وأكملهن.

﴿٦﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون﴾ أي: يا من آمن بالله عليهم بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه.

ف ﴿قوا أنفسكم وأهليكم ناراً﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بإلزامها أمر الله، والقيام بأمره امتثالاً، ونهيه اجتناباً، والتوبة عما يسخط الله ويوجب العذاب، ووقاية الأهل [والأولاد]، بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله، فلا يسلم العبد إلا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيما يدخل^(١٠) تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممن هو تحت ولايته وتصرفه.

ووصف الله النار بهذه الأوصاف، ليزجر عباده عن التهاون بأمره، فقال: ﴿وقودها الناس والحجارة﴾ كما قال تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون﴾. ﴿عليها ملائكة غلاظ شداد﴾ أي: غليظة أخلاقهم، عظيم^(١١) انتهارهم، يفرعون بأصواتهم، ويخيفون^(١٢) بمرأهم، ويهينون أصحاب النار بقوتهم، ويمثلون^(١٣) فيهم أمر الله، الذي حثم عليهم العذاب^(١٤) وأوجب عليهم شدة العقاب، ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون﴾ وهذا فيه أيضاً مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به.

﴿٧﴾ ﴿يا أيها الذين كفروا

(١) في ب: وفيمن يدخل.

(٢) في ب: شديد.

(٣) في ب: ويزعجون.

(٤) في ب: وينفذون.

(٥) في ب: بالعذاب.

(٦) في ب: يتم.

(٧) في ب: بما.

(٨) في ب: إلا وجه الله.

(٩) كذا في ب، وفي أ: بإقامة الحجج

والموعظة الحسنة.

ملء الدنيا، ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً﴾ أي: كل واحدة فوق الأخرى، ولسن طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان، ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ أي: خلل ونقص.

وإذا انتفى النقص من كل وجه، صارت حسنة كاملة، متناسبة من كل وجه، في لونها وهيئتها وارتفاعها، وما فيها من الشمس والقمر والكواكب النيرات، الثوابت منهن والسيارات. ولما كان كمالها معلوماً، أمر [الله] تعالى بتكرار النظر إليها والتأمل في أرجائها، قال:

﴿فارجع البصر﴾ أي: أعده إليها، ناظراً معتبراً ﴿هل ترى من فطور﴾ أي: نقص واختلال، ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ والمراد بذلك: كثرة التكرار ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير﴾ أي: عاجزاً عن أن يرى خلاً أو فطوراً، ولو حرص غاية الحرص.

ثم صرح بذكر حسننها، فقال:

﴿٥٥ - ١٠﴾ ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين واعتدنا لهم عذاب السعير﴾ وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ﴿إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور﴾ تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾ وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير

أي: ولقد جملنا ﴿السماء الدنيا﴾ التي ترونها وتليكم، ﴿بمصابيح﴾ وهي النجوم، على اختلافها في النور والضياء، فإنه لولا ما فيها من النجوم، لكان سقفاً مظلماً، لا حسن فيه ولا جمال.

ولكن جعل الله هذه النجوم زينة

هي كمال العلم والعمل .
تمت لله الحمد

تفسير سورة الملك [وهي] مكية

﴿١ - ٤﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴿تبارك الذي بيده الملك﴾ أي: تعاظم وتعالى، وكثر خيره، وعم إحسانه، من عظمته أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي، فهو الذي خلقه، ويتصرف فيه بما شاء، من الأحكام القدريّة، والأحكام الدينيّة، التابعة لحكمته، ومن عظمته، كمال قدرته التي يقدر بها على كل شيء، وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة، كالسموات والأرض.

وخلق الموت والحياة أي: قدر لعباده أن يهيئهم ثم يميتهم ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي: أخلصه وأصوبه، فإن^(١) الله خلق عباده، وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سيقبلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره، فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل، أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر الله، فله شر الجزاء.

﴿وهو العزيز﴾ الذي له العزة كلها، التي قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات.

﴿الغفور﴾ عن السيئتين والمقصرين والمذنبين، خصوصاً إذا تابوا وأنابوا، فإنه يغفر ذنوبهم، ولو بلغت عنان السماء، ويستر عيوبهم، ولو كانت

بغياً، ﴿فلم يغنيا﴾ أي: نوح ولوط ﴿عنهما﴾ أي: عن أمرأتيهما ﴿من الله شيئاً وقيل﴾ لهما ﴿ادخلا النار مع الداخلين﴾.

﴿وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة فرعون﴾ وهي آسية بنت مزاحم رضي الله عنها، ﴿إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة ونجني من فرعون وعمله ونجني من القوم الظالمين﴾ فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها، وسؤالها لربها أجل المطالب، وهو دخول الجنة، ومجاورة الرب الكريم، وسؤالها أن ينجها الله من فتنه فرعون وأعماله الخبيثة، ومن فتنه كل ظالم، فاستجاب الله لها، فعاشت في إيمان كامل، وثبات تام، ونجاة من الفتن، ولهذا قال النبي ﷺ: «كامل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». [وقوله]: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾ أي: صانته وحفظته عن الفاحشة، لكمال ديانتها، وعفتها، ونزاهتها.

﴿ففنفخنا فيه من روحنا﴾ بأن نفخ جبريل [عليه السلام] في جيب درعها، فوصلت نفخته إلى مريم، فجاء منها عيسى ابن مريم [عليه السلام]، الرسول الكريم والسيد العظيم.

﴿وصدقت بكلمات ربها وكتبه﴾ وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة، فإن التصديق بكلمات الله، يشمل كلماته الدينيّة والقدريّة، والتصديق بكتبه، يقتضي معرفة ما به يحصل التصديق، ولا يكون ذلك إلا بالعلم والعمل، [ولهذا قال] ﴿وكانت من القانتين﴾ أي: المطيعين لله، المداومين على طاعته^(١) بخشية وخشوع، وهذا وصف لها بكمال العمل، فإنها رضي الله عنها صديقة، والصديقية:

(١) في ب: أي المداومين على

للسماء [وجملاً]، ونوراً وهداية يبتدى بها في ظلمات البر والبحر، ولا ينافي إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح، أن يكون كثير من النجوم فوق السماوات السبع، فإن السماوات شفافة، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا، وإن لم تكن الكواكب فيها، **﴿وجعلناها﴾** أي: المصابيح **﴿رجوماً للشياطين﴾** الذين يريدون استراق خبر السماء، فجعل الله هذه النجوم حراسة للسماء عن تلفف الشياطين أخبار الأرض، فهذه الشهب التي ترمى من النجوم، أعدها الله في الدنيا للشياطين، **﴿واعتدنا لهم﴾** في الآخرة **﴿عذاب السمير﴾** لأنهم غمدوا على الله، وأضلوا عباده، ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم، قد أعد الله لهم عذاب السمير، فلماذا قال: **﴿وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير﴾** الذي يهان به أهله ^(١) غاية الهوان، **﴿إذا ألقوا فيها﴾** على وجه الإهانة والذل **﴿سمعوا لها شهيقاً﴾** أي: صوتاً عالياً فظيعاً، **﴿تكاد تميز من الغيظ﴾** أي: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضاً، وتقطع من شدة غيظها على الكفار، فما ظنك ما تفعل بهم، إذا حصلوا فيها؟! ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها، فقال: **﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير﴾**؟ أي: حالكم هذا واستحقاقكم النار، كأنكم لم تحبوا عنها، ولم تحذروكم النذر منها، **﴿قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾** فجمعوا بين تكذيبهم الخاص، والتكذيب العام بكل ما أنزل الله ولم يكنهم ذلك، حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، بل جعلوا ضلالهم ضلالاً كبيراً، فأَيُّ عناد وتكبر وظلم يشبه هذا؟

﴿وقالوا﴾ معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد: **﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السمير﴾** فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل الله، وجاءت به الرسل، والعقل الذي ينفع صاحبه، ويوقفه على حقائق الأشياء، وإيثار الخير، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة، فلا سمع [لهم] ولا عقل، وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان، وأرباب الصدق والإيمان، فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية، فسمعوا ما جاء من عند الله، وجاء به رسول الله علماً ومعرفة وعملاً.

والأدلة العقلية: المعرفة للهدى من الضلال، والحسن من القبيح، والخير من الشر، وهم - في الإيمان - بحسب ما من الله عليهم به من الاقتداء بالعقول والمنقول، فسبحان من يختص بفضله من يشاء، ويمن على من يشاء من عباده، ويخذل من لا يصلح للخير.

قال تعالى عن هؤلاء الداخلين للنار، المعترفين بظلمهم وعنادهم:

﴿١١﴾ **﴿فاعترفوا بأنهم فسحقاً لأصحاب السمير﴾** أي: بُعِدْ لهم وخسارة وشقاء.

فما أشقاهم وأرداهم، حيث فاتهم ثواب الله، وكانوا ملازمين للسمير، التي تستعر في أبدانهم، وتطلع على أفئدتهم!

﴿١٢﴾ **﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير﴾** لما ذكر حالة الأشقياء الفجار، ذكر حالة السعداء الأبرار ^(٢)، فقال: **﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب﴾** أي: في جميع أحوالهم، حتى في الحالة التي لا يطلع عليهم فيها إلا الله، فلا يقدمون على معاصيه، ولا يقصرون فيما أمر به ^(٣)، **﴿لهم مغفرة﴾** لذنوبهم، وإذا غفر الله ذنوبهم، وقاهم شرها، ووقاهم عذاب

الجحيم، ولهم أجر كبير وهو ما أعده الله لهم في الجنة، من النعيم المقيم، والملك الكبير، واللذات [التواصلات] والمشتريات، والقصور [المنازل] العاليات، والخور الحسان، والخدم والولدان.

وأعظم من ذلك وأكبر رضا الرحمن، الذي يحله الله على أهل الجنان ^(٤).

﴿١٣ - ١٤﴾ **﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور﴾** * ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟ هذا إخبار من الله بسعة علمه، وشمول لطفه، فقال: **﴿وأسروا قولكم أو اجهروا به﴾** أي: كلها سواء لديه، لا يخفى عليه منها خافية، ف **﴿إنه عليم بذات الصدور﴾** أي: بما فيها من النيات والإرادات، فكيف بالأقوال والأفعال، التي تسمع وترى؟! ^(٥)

ثم قال - مستدلاً بدليل عقلي على علمه -: **﴿ألا يعلم من خلق﴾** فمن خلق الخلق وأتقنه وأحسنه، كيف لا يعلمه؟! **﴿وهو اللطيف الخبير﴾** الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر، والخبائيا والاختفايا والغيوب، وهو الذي **﴿يعلم السر﴾**

(٤) في ب: الذي يحله على ساكني الجنان.

(٣) في ب: ولا يقصرون عما أمرهم به.

(١) في ب: التي يهان بها أهلها.
(٢) في ب: ذكر وصف الأبرار السعداء.



الأخلاق، و [الآيات] الحائثات على الخلق العظيم^(٢)، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كل خصلة منها، في الذروة العليا، فكان ﷺ سهلاً ليناً، قريباً من الناس، مجبياً لدعوة من دعاه، قاضياً حاجة من استقصاه، جابراً لقلب من سألته، لا يجرمه، ولا يبرده خائباً، وإذا أراد أصحابه منه أمراً وافقهم عليه، وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذور، وإن عزم على أمر لم يستبد به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبل من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشر جليساً له إلا أتم عشرة وأحسنها، فكان لا يعيس في وجهه، ولا يغلظ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشرة، ولا يمسك عليه فلتات لسانه، ولا يؤاخذ به بما يصدر منه من جفوة، بل يحسن إلى عشيره غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ.

فلما أنزله الله في أعلى المنازل من جميع الوجوه، وكان أعداؤه ينسبون إليه أنه مجنون مفتون، قال: ﴿فستبصر ويبصرون * بأيكم الفتون﴾ وقد تبين أنه أهدى الناس، وأكملهم لنفسه ولغيره، وأن أعداءه أضل الناس [وشر الناس]^(٣) للناس، وأنهم هم الذين فتنوا عباد الله، وأضلوه عن سبيله، وكفى بعلم الله بذلك، فإنه هو المحاسب المجازي.

و ﴿هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين﴾ وهذا فيه تهديد للضالين، ووعد للمهتدين، وبيان لحكمة الله، حيث كان يهدي من يصلح للهداية، دون غيره.

﴿٨٦-٨٧﴾ فلا تطع المكذبين * ودوا لو تدهن فيدهنون * ولا تطع كل حلاف مهين * هزاز مشاء بنميم * مناع للخير معتد أثيم * عتل بعد ذلك زنيم * أن كان ذا مال وبنين * إذا تلى عليه آياتنا قال أساطير

الأولین * سنسمه على الخرطوم﴾ يقول الله تعالى لنبيه ﷺ ﴿فلا تطع المكذبين﴾ الذين كذبوك وعاندوا الحق، فإنهم ليسوا أهلاً لأن يطاعوا، لأنهم لا يأمرؤن إلا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلا الباطل، فالطبع لهم مُقَدِّمٌ على ما يضره، وهذا عام في كل مكذب، وفي كل طاعة ناشئة عن التكذيب، وإن كان السياق في شيء خاص، وهو أن المشركين طلبوا من النبي ﷺ أن يسكت عن عيب آلهم ودينهم، ويستكتوا عنه، ولهذا قال: ﴿ودوا﴾ أي: المشركون ﴿لو تدهن﴾ أي: توافقه على بعض ما هم عليه، إما بالقول أو بالفعل أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه، ﴿فيدهنون﴾ ولكن اصدع بأمر الله، وأظهر دين الإسلام، فإن تمام إظهاره بنقض ما يضاده، وعيب ما يناقضه، ﴿ولا تطع كل حلاف﴾ أي: كثير الحلف، فإنه لا يكون كذلك إلا وهو كذاب، ولا يكون كذاباً إلا وهو ﴿مهين﴾ أي: خسيس النفس، ناقص الهمة، ليس له همة^(٤) في الخير، بل إرادته في شهوات نفسه الخسيسة. ﴿هزاز﴾ أي: كثير العيب [للناس] والطعن فيه^(٥)، بالغية والاستهزاء، وغير ذلك.

﴿مشاء بنميم﴾ أي: يمشي بين الناس بالنميمة، وهي: نقل كلام بعض الناس لبعض، لقصد الإفساد بينهم، وإلقاء العداوة والبغضاء، ﴿مناع للخير﴾ الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك، ﴿معتد أثيم﴾ على الخلق في ظلمهم، في الدماء والأموال والأعراض^(٦) ﴿أثيم﴾ أي: كثير الإثم والذنوب المتعلقة في حق الله تعالى ﴿عتل بعد ذلك﴾ أي: غليظ شرس الخلق قاس غير منقاد للحق ﴿زنيم﴾ أي: دَعي، ليس له أصل و [لا] مادة

براءة نبيه محمد ﷺ عما نسب إليه أعداؤه من الجنون، فنفي عنه الجنون^(١)، بنعمة ربه عليه وإحسانه، حيث منَّ عليه بالعقل الكامل، والرأي: الجزل، والكلام الفصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام، وسطره الأنام، وهذا هو السعادة في الدنيا، ثم ذكر سعاده في الآخرة، فقال: ﴿وإن لك لأجراً﴾ أي: عظيماً، كما يفيدہ التنكير، ﴿غير محنون﴾ أي: [غير] مقطوع، بل هو دائم مستمر، وذلك لما أسلفه النبي ﷺ من الأعمال الصالحة، والأخلاق الكاملة، ولهذا قال: ﴿وإنك لعل خلق عظيم﴾ أي: عالياً به، مستعلياً بخلقك الذي منَّ الله عليك به، وحاصل خلقه العظيم، ما فسرت به أم المؤمنين [عائشة] - رضي الله عنها - لمن سألها عنه، فقالت: «كان خلقه القرآن»، وذلك نحو قوله تعالى له: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ ﴿فيما رحمة من الله لنت لهم﴾ [الآية]، ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه ﷺ بمكارم

(١) في ب: عنه ذلك.

(٢) في ب: على كل خلق جميل.

(٣) زيادة من هاشم ب.

(٤) في ب: ليس له رغبة.

(٥) كذا في ب، وفي أ: في الناس.

(٦) في ب: يظلمهم في دماءهم

وأموالهم وأعراضهم.

فلولا استثنيتكم قفلتم: «إن شاء الله»، وجعلتم مشيتكم تابعة لمشيئة الله، لما جرى عليكم ما جرى، فقالوا: ﴿سبحان ربنا إنا كنا ظالمين﴾ أي: استدركوا بعد ذلك، ولكن بعدما وقع العذاب على جنتهم، الذي لا يرفع، ولكن لعل تسبيحهم هذا، وإقرارهم على أنفسهم بالظلم، ينفعهم في تخفيف الإثم ويكون توبة، ولهذا ندما ندامة عظيمة، ﴿فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون﴾ فيما أجروه وفعلوه، ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين﴾ أي: تجاوزين للحد في حق الله وحق عباده، ﴿عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون﴾ فهم رجوا الله أن يبدلهم خيراً منها، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله، ويلحون عليه في الدنيا، فإن كانوا كما قالوا، فالظاهر أن الله أبدلهم في الدنيا خيراً منها، لأن من دعا الله صادقاً، ورغب إليه ورجاه، أعطاه سؤلَه.

قال تعالى ميثناً^(٤) ما وقع: ﴿كذلك العذاب﴾ أي: [الدنيوي لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلب الله العبد الشيء الذي طغى به وبغى، وأثر الحياة الدنيا، وأن يزيله عنه، أحوج ما يكون إليه. وللعذاب الآخرة أكبر﴾ من عذاب الدنيا ﴿لو كانوا يعلمون﴾ فإن من علم ذلك، أوجب له الانزعاج عن كل سبب يوجب العذاب ويحل العقاب^(٥).

﴿وللعذاب الآخرة أكبر﴾ من عذاب الدنيا ﴿لو كانوا يعلمون﴾ فإن من علم ذلك، أوجب له الانزعاج عن كل سبب يوجب العذاب ويحل العقاب^(٥).
﴿٣٤ - ٤١﴾ ﴿إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم﴾ أفنجل المسلمين كالمجرمين * ما لكم كيف تحكمون * أم لكم كتاب فيه تدرسون * إن لكم فيه ما تحيرون * أم لكم إيمان علينا بالغة إلى يوم القيامة إن لكم ما تحكمون * سلم أيم بذلك زعيم * أم لهم شركاء فليأتوا بشر كائهم إن كانوا صادقين * يخبر تعالى بما أعده للمتقين للكفر والمعاصي، من أنواع

اغترار أصحاب الجنة، الذين هم فيها شركاء، حين زهت ثمارها وأينعت أشجارها، وأن وقت صرامها، وجزموا أنها في أيديهم وطوع أمرهم، [وأنه] ليس ثم مانع يمنعهم منها، ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء، أنهم سيصرمونها أي: يجذونها مصبحين، ولم يدروا أن الله بالمرصاد، وأن العذاب سيخلفهم عليها، ويأدرهم إليها.

﴿فطاف عليها طائف من ربك﴾ أي: عذاب نزل عليها ليلاً ﴿وهم نائمون﴾ فأبادهما وأتلفها ﴿فأصبحت كالصريم﴾ أي: كالليل المظلم، ذهبت الأشجار والثمار، هذا وهم لا يشعرون بهذا الواقع الملم، ولهذا تنادوا فيما بينهم لما أصبحوا يقول بعضهم لبعض: ﴿اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين﴾ فانتطلقوا قاصدين له^(٣) ﴿وهم يتخافتون﴾ فيما بينهم، ولكن بمنع حق الله، ويقولون: ﴿لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين﴾ أي: بكروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذلك، بمنع الفقراء والمساكين، ومن شدة حرصهم وبخلهم، أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافة، خوفاً أن يسمعه أحد، فيخبر الفقراء. ﴿وغدوا﴾ في هذه الحالة الشنيعة، والقسوة، وعدم الرحمة ﴿على حرث قادرين﴾ أي: على إمساك ومنع حق الله، جازمين بقدرتهم عليها، ﴿فلما رأوها﴾ على الوصف الذي ذكر الله كالصريم، ﴿قالوا﴾ من الحيرة والانزعاج. ﴿إنا لضالون﴾ أي: تائهون عنها، لعلها غيرها، فلما تحققوها، ورجعت إليهم عقولهم، قالوا: ﴿بل نحن محرومون﴾ منها، فعرفوا حيثش أنه عقوبة، ف ﴿قال أوسطهم﴾ أي: أعد لهم وأحسنهم طريقة: ﴿ألم أقل لكم لولا تسبحون﴾ أي: تنزهون الله عما لا يليق به، ومن ذلك، ظنكم أن قدرتكم مستقلة،

ينتج منها الخير، بل أخلاقه أقبح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاح، له زنة أي: علامة في الشر يعرف بها.

وحاصل هذا، أن الله تعالى نبى عن طاعة كل خلاف كذاب، خسيس النفس، سبىء الأخلاق، خصوصاً الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر عن الحق وعلى الخلق، والاحتقار للناس، كالغيبة والنميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.

وهذه الآيات - وإن كانت نزلت في بعض المشركين، كالوليد بن المغيرة أو غيره، لقوله عنه: ﴿أن كان ذا مال وبني﴾ * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾ أي: لأجل كثرة ماله وولده، طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه، وجعله من جملة أساطير الأولين، التي يمكن صدقها وكذبها - فإنها عامة في كل من اتصف بهذا الوصف، لأن القرآن نزل لهداية الخلق كله، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربما نزل بعض الآيات في سبب أو في شخص من الأشخاص، لتتضح به القاعدة العامة، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامة.

ثم تواعد تعالى من جرى منه ما وصف الله، بأن الله سيسمه على خرطوم^(١) في العذاب، وليعذبه عذاباً ظاهراً، يكون عليه سمة وعلامة، في أشق الأشياء عليه، وهو وجهه.

﴿١٧ - ٣٣﴾ ﴿إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين﴾ ولا يستثنون * فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ﴿إلى آخر القصة يقول تعالى: إنا بلونا هؤلاء المكذبين بالخير وأمهلتناهم، وأمددناهم بما شئنا من مال وولد، وطول عمر، ونحو ذلك، مما يوافق أهواءهم، لا لكرامتهم علينا، بل ربما يكون استدراجاً لهم من حيث لا يشعرون^(٢)، فاغترارهم بذلك نظير

(٥) في ب: كل سبب يوجب العقاب

ويحرم الثواب.

(٣) في ب: لها.

(٤) في ب: معظماً.

(١) في ب: على الخرطوم.

(٢) في ب: من حيث لا يعلمون.

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ أي: ليس لنفورهم عنك، وعدم تصديقهم لما جئت به، سبب يوجب لهم ذلك، فإنك تعلمهم، وتدعوهم إلى الله، لمحضر مصلحتهم، من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرمًا ينقل عليهم.

﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ﴾ ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا فيها أنهم على حق، وأن لهم الثواب عند الله، فهذا أمر ما كان، وإنما كانت حالهم حال معاند ظالم، فلم يبق إلا الصبر لأذاهم، والتحمل لما يصدر منهم، والاستمرار على دعوتهم، ولهذا قال: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: لما حكم به شرعاً وقدرًا، فالحكم القدري، يصبر على المؤذي منه، ولا يَتَلَقَّى بالسخط والجزع، والحكم الشرعي، يُقَابَلُ بالقبول والتسليم، والالتقياد التام لأمره.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ﴾ وهو يونس بن متى، عليه الصلاة والسلام أي: ولا تشابه في الحال التي أوصلته، وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه، وذهابه مغاضباً لربه، حتى ركب في البحر، فافتزع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أنهم يلحقون لكي تخف بهم، فوقعت القرعة عليه، فالتقمة الحوت وهو مليم، [وقوله] ﴿إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو نادى وهو مغتم مهتم، بأن قال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. فاستجاب الله له، وقذفته الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، ولهذا قال هتا: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَئِذَا

يَسْجُدُونَ لِلَّهِ، طَوْعًا وَاخْتِيَارًا، ويذهب الفجار والمنافقون ليسجدوا فلا يقدرون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصي البقر، لا يستطيعون الانحناء، وهذا الجزاء من جنس عملهم، فإنهم كانوا يدعون في الدنيا إلى السجود لله وتوحيده وعبادته وهم سالون، لا علة فيهم، فيستكبرون عن ذلك ويأبون، فلا تسأل يومئذ عن حالهم وسوء مآلهم، فإن الله قد سخط عليهم، وحقت عليهم كلمة العذاب، وتقطعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة ولا الاعتذار يوم القيامة، ففي هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصي، و [يوجب] التدارك مدة الإمكان.

ولهذا قال تعالى ﴿٤٤ - ٥٢﴾ ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْخَبِيثِ﴾ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأمل لهم إن كيدي متين * أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ * أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَ نِعْمَةً مِنْ رَبِّهِ لَئِذَا بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ أي: دعني والمكذبين بالقرآن العظيم، فإن علي جزاءهم، ولا تستعجل لهم، ف سنستدرجهم من حيث لا يعلمون* فنمدهم بالأموال والأولاد، ونمدهم في الأرزاق والأعمال، ليفتروا ويستمروا على ما يضرهم، فإن هذا من كيد الله لهم، وكيد الله لأعدائه، متين قوي، يبلغ من ضررهم وعذابهم فوق كل مبلغ^(٤).

النعيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين، وأن حكمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المسلمين^(١) القانتين لربهم، المنقادين لأوامره، المتبعين لمراضيه كالمجرمين الذين أوضاعوا في معاصيه، والكفر بآياته، ومعاندة رسله، ومحاربة أوليائه، وأن من ظن أنه يسويهم في الثواب، فإنه قد أساء الحكم، وأن حكمه حكم باطل، ورأيه^(٢) فاسد، وأن المجرمين إذا ادعوا ذلك، فليس لهم مستند، لا كتاب فيه يدرسون [ويتلون] أنهم من أهل الجنة، وأن لهم ما طلبوا وتخيروا.

وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون، وليس لهم شركاء وأعوان على إدراك ما طلبوا، فإن كان لهم شركاء وأعوان فليأتوا بهم إن كانوا صادقين، ومن المعلوم أن جميع ذلك منتف، فليس لهم كتاب، ولا لهم عهد عند الله في النجاة، ولا لهم شركاء يعينونهم، فعلم أن دعواهم باطلة فاسدة، وقوله: ﴿سَلِّمْ إِلَيْهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ أي: أيم الكفيل بهذه الدعوى الفاسدة، فإنه لا يمكن التصدر بها ولا الزعامة فيها^(٣).

﴿٤٢ - ٤٣﴾ ﴿يَوْمَ يَكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالون* أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشف فيه من القلاقل [والزلازل] والأحوال ما لا يدخل تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباديه ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبهها شيء، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه، فحيثئذ يدعون إلى السجود لله، فيسجد المؤمنون الذين كانوا

(١) في ب: المتقين.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ورأي.

(٣) في ب: بهذه الدعوى التي تبين بطلانها فإنه لا يمكن أحداً أن يتصدر بها، ولا يكون زعيماً فيها.

(٤) في ب: وعقوبتهم كل مبلغ.

صرعى ﴿أي: هلكى موتى﴾، كأنهم أعجاز نخل خاوية ﴿أي: كأنهم جذوع النخل التي قد قطعت رؤوسها الخاوية، الساقط بعضها على بعض، فهل ترى لهم من باقية﴾ وهذا استفهام بمعنى النفي المقرر.

﴿٩ - ١٢﴾ ﴿وجاء فرعون ومن قبله والمؤتفكات بالخاطئة﴾ * فمضوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية * إنا لما طغيا الماء حملناكم في الجارية * لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية ﴿أي: وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين، عاد وثمود، جاء غيرهم من الطغاة العتاة، كفرعون مصر، الذي أرسل الله إليه عبده ورسوله موسى [ابن عمران] عليه الصلاة والسلام، وأراه من الآيات البينات، ما تيقنوا بها الحق، ولكن جحدوا وكفروا، ظمأ وعلوا، وجاء من قبله من المكذبين، والمؤتفكات﴾ * أي: قرى قوم لوط، الجميع جاؤوا بالخاطئة ﴿أي: بالفعل الطاغية، وهي (٧) الكفر والتكذيب، والظلم والمعاندة، وما انضم إلى ذلك من أنواع الفواحش (٨) والفسوق،﴾ فمضوا رسول ربهم * وهذا اسم جنس أي: كل من هؤلاء كذب (٩) الرسول الذي أرسله الله إليهم. فأخذ الله الجميع أخذة رابية ﴿أي: زائدة على الحد والمقدار، الذي يحصل به هلاكهم، ومن جملة أولئك، قوم نوح، أغرقهم الله في اليم حين طغى الماء على وجه الأرض، وعلا على مواضعها الرفعة.

وامتنن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن الله حملهم ﴿في الجارية﴾ وهي السفينة في أصلاب آبائهم، وأمهاتهم، الذين نجاهم الله، فاحمدوا الله واشكروا الذي نجاكم

خاوية * فهل ترى لهم من باقية﴾ ﴿الحاقة﴾ من أسماء يوم القيامة، لأنها تنق وتنزل بالخلق، وتظهر فيها حقائق الأمور، ونجيات الصدور، فعظم تعالى شأنها وفخمه، بما كثره من قوله: ﴿الحاقة﴾ * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة ﴿فإن لها شأنًا عظيمًا، وهولًا جسيمًا، [ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل] (٣)، ثم ذكر نموذجًا من أحوالها الموجودة في الدنيا المشاهدة فيها، وهو ما (٤) أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية، فقال: ﴿كذبت ثمود﴾ وهم القبيلة المشهورة، سكان الحجر، الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحاً عليه السلام، ينهاهم عما هم عليه من الشرك، ويأمرهم بالتوحيد، فردوا دعوتهم وكذبوه، وكذبوا ما أخبرهم به من يوم القيامة، وهي القارعة التي تفرع الخلق بأهوالها، وكذلك عاد الأولى، سكان حضرموت، حين بعث الله إليهم رسوله هوداً عليه الصلاة والسلام، يدعوهم إلى عبادة الله [وحده]، فكذبوه، وكذبوا بما أخبر (٥) به من البعث، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك المعجل (٦): ﴿فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية﴾ وهي الصيحة العظيمة الفظيعة، التي انصدعت منها قلوبهم، وزهقت لها أرواحهم فأصبحوا موتى لا يرى إلا مساكنهم وجنثهم، ﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر﴾ أي: قوية شديدة الهبوب، لها صوت أبلغ من صوت الرعد [القاصف]، ﴿عاتية﴾ [أي: عتت على خزائنها، على قول كثير من المفسرين، أو عتت على عاد، وزادت على الحد كما هو الصحيح،﴾ سخرها عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام حسوماً ﴿أي: نحسا وشراً فظيماً عليهم، فدمرتهم وأهلكتهم،﴾ فترى القوم فيها

بالعراء ﴿أي: ل طرح في العراء، وهي الأرض الخالية﴾ وهو مذموم ﴿ولكن الله (١) تعمد برحمته، فنبد وهو ممدوح، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى، ولهذا قال: ﴿فاجتنباه ربه﴾ أي: اختاره واصطفاه ونقاه من كل كدر، ﴿فجعله من الصالحين﴾ أي: الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم، [وأحوالهم] فامتثل نبينا محمد ﷺ أمر ربه، فصبر لحكم ربه صبراً لا يدركه فيه أحد من العالمين.

فجعل الله له العاقبة ﴿والعاقبة للمتقين﴾ ولم يدرك أعداؤه فيه إلا ما يسوؤهم، حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم أي: يصيبوه (٢) بأعينهم، من حسدهم وغيظهم وحنقهم، هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلي، والله حافظه وناصره، وأما الأذى القولي، فيقولون فيه أقوالاً، بحسب ما توحى إليهم قلوبهم، فيقولون تارة «مجنون»، وتارة «ساحر»، وتارة «شاعر».

قال تعالى: ﴿وما هو إلا ذكر للعالمين﴾ أي: وما هذا القرآن الكريم، والذكر الحكيم، إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم. ثم تفسير سورة القلم، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الحاقة وهي مكية

﴿١ - ٨﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ الحاقة * ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة * كذبت ثمود وعاد بالقارعة * فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية * وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية * سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل

- (١) كذا في ب، وفي أ: ولكنه.
 (٢) كذا في ب، وفي أ: أي: يصيبهم.
 (٣) من هامش أ.
 (٤) كذا في ب، وفي أ: ومما.
 (٥) في ب وأنكروا ما أخبر به.
 (٦) في ب: العاجل.

حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياته الدالة على توحيدِهِ، ولهذا قال: ﴿لنجعلنَّها﴾ أي: الجارية، والمراد جنسها، لكم ﴿تذكُّر﴾ تذكُّركم أول سفينة صنعت، وما قصتها، وكيف نجَّى الله عليها من آمن به واتبع رسوله، وأهلك أهل الأرض كلهم، فإن جنس الشيء مذكَّر بأصله.

وقوله: ﴿وتعبيها أذن واعية﴾ أي: تعقلها أولو الأبواب، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها.

وهذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة، وأهل البلادة وعدم الفطنة، فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله، لعدم وعيهم عن الله، وفكرهم بآيات الله^(١).

﴿١٣ - ١٨﴾ وقوله: ﴿فلإذا نفخ في الصور نفخة واحدة * وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة * فيومئذ وقعت الواقعة * وانشقت السماء فهي يومئذ واهية * والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية * يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية﴾ لما ذكر ما فعله تعالى بالكاذبين لرسله، وكيف جازاهم وعجل لهم العقوبة في الدنيا، وأن الله نجى الرسل وأتباعهم، كان هذا مقدمة لذكر الجزاء الأخروي، وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة، فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام القيامة، وأن أول ذلك أنه ينفخ إسرافيل ﴿في الصور﴾ إذا تكاملت الأجساد نابضة، ﴿نفخة واحدة﴾ فتخرج الأرواح، فتدخل كل روح في جسدها، فإذا الناس قيام لرب العالمين.

﴿وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة﴾ أي: فتت الجبال

واضمحلت، وخلطت بالأرض، ونسفت على الأرض، فكان الجميع قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، هذا ما يصنع بالأرض وما عليها، وأما ما يصنع بالسماء، فإنها تضطرب وتغور وتتشقق ويتغير لونها، وتهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها، وكرب جسيم هائل أوهاما وأضعفها.

﴿والمملك﴾ أي: الملائكة الكرام ﴿على أرجائها﴾ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربهم، مستكينين لعظمته.

﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ أملاك في غاية القوة، إذا أتى للفصل بين العباد، والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله، ولهذا قال: ﴿يومئذ تعرضون﴾ على الله ﴿لا تخفى منكم خافية﴾ لا من أجسامكم وأجسادكم^(٢)، ولا من أعمالكم [وصفاتكم]، فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة.

ويحشر العباد حفاةً غُرلاً، في أرض مستوية، يسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، فحينئذ يجازيهم بما عملوا، ولهذا ذكر كيفية الجزاء، فقال:

﴿١٩ - ٢٤﴾ ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابي * إني ظننت أني ملاق حسابي * فهو في عيشة راضية * في جنة عالية * قطوفها دانية * كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ وهؤلاء هم أهل السعادة، يُعْطَوْنَ كتبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم، تمييزاً لهم، وتنويعاً بشأنهم، ورفعاً لمقدارهم،

ويقول أحدهم عند ذلك من الفرح والسرور، ومحة أن يطلع الخلق على ما مَنَّ الله عليه به من الكرامة: ﴿هاؤم اقرؤوا كتابي﴾ أي: دونكم كتابي فاقرؤوه، فإنه يبشر بالجنات، وأنواع الكرامات، ومغفرة الذنوب، وستر العيوب، والذي أوصليني إلى هذه الحال، ما مَنَّ الله به علي من الإيمان بالبعث والحساب، والاستعداد له، بالممكن من العمل، ولهذا قال: ﴿إني ظننت أني ملاق حسابي﴾ أي: أيقنت، فالظن - هنا - [بمعنى] اليقين، ﴿فهو في عيشة راضية﴾ أي: جامعة لما تشتهيهِ النفس، وتلد الأعين، وقد رضوها، ولم يختاروا عليها غيرها. ﴿في جنة عالية﴾ المنازل والقصور، عالية المحل. ﴿قطوفها دانية﴾ أي: ثمرها وجنانها، من أنواع الفواكه، قريبة، سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلها، قياماً وقعوداً ومتكئين، ويقال لهم إكراماً: ﴿كلوا واشربوا﴾ أي: من كل طعام لذيذ، وشراب شهيّ، ﴿هنيئاً﴾ أي: تاماً كاملاً، من غير مكدر ولا منقص.

وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ من الأعمال الصالحة - وترك الأعمال السيئة^(٣) - من صلاة، وصيام، وصدقة، وحج، وإحسان إلى الخلق، وذكر الله، وإنابة إليه.

فالأعمال جعلها الله سبباً لدخول الجنة، ومادة لنعيمها، وأصلاً لسعادتها.

﴿٢٥ - ٣٧﴾ ﴿وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابي * ولم أدر ما حسابي * يا ليتها كانت القاضية * ما أغنى عني مالي * هلك عني سلطاني * خذوه فغلوه﴾ ثم

(١) في ب: وتفكرهم بآياته.

(٢) في ب: لا من أجسادكم وذواتكم.

(٣) هكذا في المخطوطتين وقد جاءت جملة: (ترك الأعمال السيئة) بين جملة (الأعمال الصالحة) وتفصيل تلك الأعمال فصار في الكلام نوع إيهام مما دفع إلى تأخير جملة: وترك. في الطبقات السابقة، وقد جعلت الكلام كما هو مع الإشارة إلى أنها جملة معترضة.

الجحيم صلوه * ثم في سلسلة ذرعهها سبعون ذراعاً فاسلكوه * إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين * فليس له اليوم هاهنا حيم * ولا طعام إلا من غسلين * لا يأكله إلا الخاطئون * هؤلاء أهل الشقاء، يُعْطَوْنَ كتب أعمالهم السيئة^(١) بشمالهم تمييزاً لهم وخزياً، وعاراً وفضيحة، فيقول أحدهم من لهم والغم والخزي^(٢) : «يا ليتني لم أوت كتابي» لأنه يشتر بدخول النار، والخسارة الأبدية، «ولم أدر ما حسابي» أي : ليتني كنت نسباً نسبياً، ولم أبعث وأحاسب، ولهذا قال : «يا ليتني كانت القاضية» أي : يا ليت موتي هي الموتة التي لا بعث بعدها.

ثم التفت إلى ماله وسلطانه، فإذا هو وبال عليه، لم يقدم منه لآخرته، ولم ينفعه في الافتداء من عذاب الله^(٣)، فيقول : «ما أغنى عني مالي» أي : ما نفعتني لا في الدنيا، لم أقدم منه شيئاً، ولا في الآخرة، قد ذهب وقت نفعه.

«ملك عني سلطاني» أي : ذهب واضمحل، فلم تنفع الجنود الكثيرة، ولا العدد الخطيرة^(٤)، ولا الجاه العريض، وفانت بسببه المتاجر والأرباح، وحضر بدله الهموم والغموم والأتراح، فحينئذ يؤمر بعذابه فيقال للزبانية الغلاظ الشداد : «خذوه فغلوه» أي : اجعلوا في عنقه غلاً يخنقه، «ثم الجحيم صلوه» أي : قلبوه على جبرها ولهبها، «ثم في سلسلة ذرعهها سبعون ذراعاً» من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة، «فاسلكوه» أي : انظموه فيها بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه، ويعلق فيها، فلا يزال

يعذب هذا العذاب الفظيع، فبئس العذاب والعقاب، وواحدة من له التوبيخ والعتاب، فإن السبب الذي أوصله إلى هذا المحل : «إنه كان لا يؤمن بالله العظيم» بأن كان كافراً بربه، معانداً لرسله، راداً ما جاؤوا به من الحق، «ولا يحض على طعام المسكين» أي : ليس في قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين، فلا يطعمهم [من ماله]، ولا يحض غيره على إطعامهم، لعدم الوازع في قلبه، وذلك لأن مدار السعادة ومادتها أمران : الإخلاص لله، الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخلق، بوجوه الإحسان، الذي من أعظمها دفع ضرورة المحتاجين، بإطعامهم ما يتقوتون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان، فلذلك استحقوا ما استحقوا، «فليس له اليوم ها هنا» أي : يوم القيامة «حيم» أي : قريب أو صديق يشفع له، لينجو من عذاب الله، أو يفوز بثواب الله : «ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له» «ما للظالمين من حيم ولا شفيع يطاع».

وليس له طعام إلا من غسلين وهو صديد أهل النار، الذي هو في غاية الحرارة، وتنن الريح، وقبح الطعم ومرارته لا يأكل هذا الطعام الذميم إلا الخاطئون الذين أخطؤوا الصراط المستقيم، وسلوكوا سبل الجحيم^(٥)، فلذلك استحقوا العذاب الأليم.

﴿٣٨-٥٢﴾ «فلا أقسم بما تبصرون * وما لا تبصرون * إنه ليقول رسول كريم * وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون * ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون * تنزيل من

نزلنا ونزّلنا وتبين ذلك العذاب، فبئس العذاب والعقاب، وواحدة من له التوبيخ والعتاب، فإن السبب الذي أوصله إلى هذا المحل : «إنه كان لا يؤمن بالله العظيم» بأن كان كافراً بربه، معانداً لرسله، راداً ما جاؤوا به من الحق، «ولا يحض على طعام المسكين» أي : ليس في قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين، فلا يطعمهم [من ماله]، ولا يحض غيره على إطعامهم، لعدم الوازع في قلبه، وذلك لأن مدار السعادة ومادتها أمران : الإخلاص لله، الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخلق، بوجوه الإحسان، الذي من أعظمها دفع ضرورة المحتاجين، بإطعامهم ما يتقوتون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان، فلذلك استحقوا ما استحقوا، «فليس له اليوم ها هنا» أي : يوم القيامة «حيم» أي : قريب أو صديق يشفع له، لينجو من عذاب الله، أو يفوز بثواب الله : «ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له» «ما للظالمين من حيم ولا شفيع يطاع».

رب العالمين * ولو تقول علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين * وإنه لتذكرة للمتقين * وإنه لنعلم أن منكم مكذبين * وإنه لحسرة على الكافرين * وإنه لحق البقين * فسبح باسم ربك العظيم» أقسم تعالى بما يبصر الخلق من جميع الأشياء وما لا يبصرونه، فدخل في ذلك كل الخلق، بل يدخل^(١) في ذلك نفسه المقدسة، على صدق الرسول بما جاء به من هذا القرآن الكريم، وأن الرسول الكريم بلغه عن الله تعالى، ونزه الله رسوله عما رماه به أعداؤه، من أنه شاعر أو ساحر، وأن الذي حملهم على ذلك، عدم إيمانهم وتذكرهم، فلو آمنوا وتذكروا، لعلوا ما ينفعهم ويضرهم، ومن ذلك، أن ينظروا في حال محمد ﷺ، ويرمقوا أوصافه وأخلاقه، لرأوا أمراً مثل الشمس يدلهم على أنه رسول الله حقاً، وأن ما جاء به تنزيل رب العالمين، لا يليق أن يكون قول

(١) في ب : كتبهم المشتملة على أعمالهم السيئة.

(٢) في ب : الحزن.

(٣) في ب : ولا ينفعه لو اقتدى به من العذاب.

(٤) في ب : فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا العدد.

(٥) في ب : وسلوكوا كل طريق يوصلهم إلى الجحيم.

(٦) في ب : بل دخل.

تفسير سورة سأل سائل وهي مكية

﴿١-٧﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين ليس له دافع * من الله ذي المارح * تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة * فاصبر صبراً جميلاً * إنهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً﴾ يقول تعالى مبيناً لجهل المعاندين، واستعجالهم لعذاب الله، استهزاء وتعتاً وتعجزاً:

﴿سأل سائل﴾ أي: دعا داع، واستفتح مستفتح ﴿بعذاب واقع * للكافرين﴾ لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم ﴿ليس له دافع * من الله﴾ أي: ليس لهذا العذاب الذي استعجل به من استعجل، من متمردي المشركين، أحد يدفعه قبل نزوله، أو يرفعه بعد نزوله، وهذا حين دعا النضر بن الحارث القرشي أو غيره من المشركين^(١)، فقال: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم﴾ إلى آخر الآيات.

فالعذاب لا بد أن يقع عليهم من الله، فلما أن يعجل لهم في الدنيا، وإما أن يؤخر عنهم إلى الآخرة^(٢)، فلو عرفوا الله تعالى، وعرفوا عظمتهم، وسعة سلطانه، وكمال أسمائه وصفاته، لما استعجلوا ولا تسلموا وتأدبوا، ولهذا أخبر تعالى من عظمتهم ما يصاد أقوالهم القبيحة، فقال: ﴿ذي المارح * تعرج الملائكة والروح إليه﴾ أي: ذو العلو والجلال والعظمة، والتدبير لسائر الخلق، الذي تعرج إليه الملائكة بما دبرها^(٣) على تدبيره، وتعرج إليه الروح، وهذا اسم جنس يشمل الأرواح كلها، برّها وفاجرها، وهذا عند الوفاة، فاما الأبرار، فتعرج أرواحهم إلى الله، فيؤذن لها من سماء

﴿وإنه﴾ أي: القرآن الكريم ﴿لنذكرة للمقين﴾ يذكرون به مصالح دينهم ودينهم، فيعرفونها، ويعملون عليها، يذكروهم العقائد الدينية، والأخلاق المرضية، والأحكام الشرعية، فيكونون من العلماء الربانيين، والعباد العارفين، والأئمة المهديين، ﴿وإننا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ به، وهذا فيه تهديد ووعيد للمكذبين، فإنه سيعاقبهم على تكذيبهم بالعقوبة البليغة، ﴿وإنه لحسرة على الكافرين﴾ فإنهم لما كفروا به، ورأوا ما وعدهم به، تحسروا إذ لم يهتدوا به، ولم ينقادوا لأمره، ففاتهم الشواب، وحصلوا على أشد العذاب، وتقطعت بهم الأسباب.

﴿وإنه لحق اليقين﴾ أي: أعلى مراتب العلم، فإن أعلى مراتب العلم اليقين وهو العلم الثابت، الذي لا يتزلزل ولا يزول.

واليقين مراتبه ثلاثة، كل واحدة أعلى مما قبلها:

أولها: علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر.

ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر.

ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة.

وهذا القرآن الكريم، بهذا الوصف، فإن ما فيه من العلوم المؤيدة بالبراهين القطعية، وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانية، يحصل به لمن ذاقه حق اليقين.

﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ أي: نزهه عما لا يليق بجلاله، وقده بذكر أوصاف جلاله وجماله وكماله.

تم تفسير سورة الحاقة، والحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، على كماله وأفضاله وعدله.



البشر^(١)، بل هو كلام دال على عظمة من تكلم به، وجلالة أوصافه، وكمال تربيته لعباده، وعلوه فوق عباده، وأيضاً، فإن هذا ظن منهم بما لا يليق بالله وحكمته فإنه لو تقول عليه^(٢) وافترى ﴿بعض الأقاويل﴾ الكاذبة، ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ ثم لقطنا منه الوتين^(٣)، وهو عرق متصل بالقلب، إذا انقطع، مات^(٤) منه الإنسان، فلو قدر أن الرسول - حاشا وكلا - تقول على الله، لعاجله بالعقوبة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر، لأنه حكيم، على كل شيء قدير، فحكمته تقتضي أن لا يمهل الكاذب عليه، الذي يزعم أن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم، وأنه هو وأتباعه لهم النجاة، ومن خالفه فله الهلاك.

فلذا كان الله قد أيد رسوله بالمعجزات، وبرهن على صدق ما جاء به بالآيات البينات، ونصره على أعدائه، ومكنه من نواصيهم، فهو أكبر شهادة منه على رسالته، وقوله: ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾ أي: لو أهلكه، ما امتنع هو بنفسه، ولا قدر أحد أن يمنعه من عذاب الله.

(١) في ب: قولاً للبشر.

(٢) في ب: علينا.

(٣) في ب: هلك.

(٤) في ب: المكذبين.

(٥) في ب: وإما أن يؤخر لهم في

الآخرة.

(٦) في ب: بما جعلها.

إلى سماء، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها الله عز وجل، فتحيي ربه وتسلم عليه، وتحظى بقربه، وتبهج بالدنو منه، ويحصل لها منه الثناء والإكرام، والبر والإعظام.

وأما أرواح الفجار، فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء استأذنت فلم يؤذن لها، وأعيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافة التي تعرج إلى الله فيها الملائكة والأرواح^(١)، وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب، وأعانها عليه من اللطافة والخفة وسرعة السير، مع أن تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنة، من ابتداء العروج إلى وصولها، ما أخذ لها، وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى، فهذا الملك العظيم، والعالم الكبير، علويه وسفليه، جميعه قد تولى خلقه وتديره، العلي الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، وعلم مستقرهم ومستودعهم، وأوصلهم من رحمته وبره ورزقه^(٢)، ما عمهم وشملهم، وأجرى عليهم حكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي.

فبؤساً لأقوام جهلوا عظمتهم، ولم يقدروه حق قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان، وسبحان الحليم الذي أمهلهم وما أمهلهم، وآذوه فصير عليهم، وعافاهم ورزقهم.

هذا أحد الاحتمالات في تفسير هذه الآية [الكريمة]، فيكون هذا العروج والصعود في الدنيا، لأن السياق الأول يدل على هذا.

ويحتمل أن هذا في يوم القيامة، وأن الله تبارك وتعالى يَظْهَرُ لعباده في يوم القيامة، من عظمتهم وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفته، مما يشاهدونه من عروج الأملأ والأرواح، صاعدة ونازلة،

بالتدابير الإلهية، والشؤون في الخليفة^(٣).

في ذلك اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة من طوله وشدته، لكن الله تعالى يخففه على المؤمن.

وقوله: ﴿فاصبر صبراً جليلاً﴾ أي: اصبر على دعوتك لقومك صبراً جليلاً، لا تضجر فيه ولا ملل، بل استمر على أمر الله، وادع عباده إلى توحيده، ولا يمنعك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم، وعدم رغبتهم، فإن في الصبر على ذلك خيراً كثيراً، وإنهم يرونه بعيداً * ونراه قريباً * الضمير يعود إلى البعث، الذي يقع فيه عذاب السائلين بالعذاب أي: إن حالهم حال المنكر له، أو الذي غلبت عليه الشقة والسكره، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور، والله يراه قريباً، لأنه رفيق حليم لا يعجل، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وكل ما هو آت فهو قريب. ثم ذكر أهوال ذلك اليوم وما يكون فيه، فقال:

﴿٨- ١٨﴾ ﴿يوم تكون السماء كالمهل * وتكون الجبال كالعهن * ولا يسأل حميم حميماً * يصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ بنيه * وصاحبه وأخيه * وفصيلته التي تؤويه * ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيهم * كلا إنها لظى * نزاعة للشوى * تدعو من أدبر وتولى * وجمع فأوعى﴾

أي: ﴿يوم﴾ القيامة، تقع فيه هذه الأمور العظيمة فـ ﴿تكون السماء كالمهل﴾ وهو الرصاص المذاب، من تشققها، وبلوغ الهول منها كل مبلغ.

﴿٩﴾ ﴿وتكون الجبال كالعهن﴾ وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذلك هباء منثوراً، فتضمحل، فإذا كان هذا القلق والانزعاج لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة، فما ظنك بالعبد

الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟

أليس حقيقاً، أن ينخلع قلبه وينزعج لبه، ويذهل عن كل أحد؟ ولهذا قال: ﴿ولا يسأل حميم حميماً * يصرونهم﴾ أي: يشاهد الحميم، وهو القريب حميمه، فلا يبقى في قلبه متسع لسؤال حميمه عن حاله، ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومودتهم، ولا يمه إلا نفسه، ﴿يود المجرم﴾ الذي حق عليه العذاب ﴿لو يفتدي من عذاب يومئذ بنيه * وصاحبه﴾ أي: زوجته ﴿وأخيه * وفصيلته﴾ أي: قرابته ﴿التي تؤويه﴾ التي جرت عاداتها في الدنيا أن تتناصر ويعين بعضها بعضاً، ففي يوم القيامة، لا ينفع أحد أحداً، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله.

بل لو يفتدي [المجرم المستحق للعذاب] بجميع ما في الأرض ثم ينجي لم ينفعه ذلك.

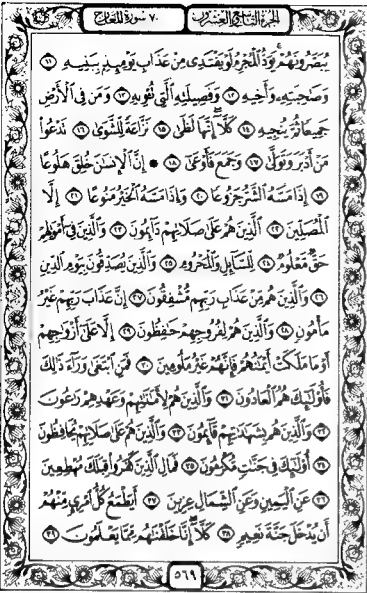
﴿كلا﴾ أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون^(٤)، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء.

(١) في ب: تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله.

(٢) في ب: وإحسانه.

(٣) في ب: والشؤون الربانية.

(٤) في ب: قد حقت عليهم كلمة ربك.



إليها ومسها، ممن لا يجوز له ذلك، ويتركون أيضاً، وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة.

﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ أي: سرياتهم ﴿فإنهم غير ملومين﴾ في وطنهم، في المحل الذي هو محل الحرث، ﴿فمن ابتغى وراء ذلك﴾ أي: غير الزوجة وملك اليمين، ﴿فأولئك هم العادون﴾ أي: المتجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم الله، ودلت هذه الآية على تحريم [نكاح] المتعة، لكونها غير زوجة مقصودة، ولا ملك يمين.

﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي: مراعون لها، حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، وهذا شامل لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربه، كالتكليف السرية، التي لا يطلع عليها إلا الله، والأمانات التي بين العبد وبين الخلق، في الأموال والأسرار، وكذلك العهد، شامل للعهد الذي عاهد عليه الله، والعهد الذي عاهد عليه الخلق، فإن العهد يسأل عنه العبد، هل قام به ووفاه، أم رفضه وخانه فلم يقم به؟

﴿والذين هم بشهادتهم قائمون﴾ أي: لا يشهدون إلا بما يعلمونه، من غير زيادة ولا نقص ولا كتمان، ولا يحايي فيها قريباً ولا صديقاً ونحوه، ويكون القصد بها^(٢) وجه الله.

قال تعالى: ﴿وأقيموا الشهادة لله﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين﴾.

﴿والذين هم على صلاتهم محافظون﴾ بمداومتها على أكمل وجوها، ﴿أولئك﴾ أي: الموصوفون بتلك الصفات ﴿في جنات مكرمون﴾ أي: قد أوصل الله لهم من الكرامة والنعيم المقيم ما تشتهي الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

مكرمون﴾ وهذا الوصف للإنسان من حيث هو وصف طبيعته الأصلية، أنه هلوع. وفسر الهلوع بأنه: ﴿إذا مسه الشر جزوعاً﴾ فيجزع إن أصابه فقر أو مرض، أو ذهاب محبوب له، من مال أو أهل أو ولد، ولا يستعمل في ذلك الصبر والرضا بما قضى الله، ﴿وإذا مسه الخير منوعاً﴾ فلا ينفق عما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبره، فيجزع في الضراء، ويمنع في السراء. ﴿إلا المصلين﴾ الموصوفين بتلك الأوصاف، فإنهم إذا مسهم الخير شكروا الله، وأنفقوا عما خولهم الله، وإذا مسهم الشر صبروا واحتسبوا.

وقوله: [في وصفهم] ﴿الذين هم على صلاتهم دائمون﴾ أي: مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكملاتها.

وليسوا كمن لا يفعلها، أو يفعلها وقتاً دون وقت، أو يفعلها على وجه ناقص. ﴿والذين في أموالهم حق معلوم﴾ من زكاة وصدقة ﴿للسائل﴾ الذي يتعرض للسؤال، ﴿والمحروم﴾ وهو المسكين الذي لا يسأل الناس فيعطوه، ولا يفتن له، فيتصدق عليه. ﴿والذين يصدقون بيوم الدين﴾

أي: يؤمنون بما أخبر الله به، وأخبرت به رسله، من الجزاء والبعث، ويتيقنون ذلك، فيستعدون للأخرة، ويسعون لها سعيها. والتصديق بيوم الدين، يلزم منه التصديق بالرسول، وبما جاؤوا به من الكتب.

﴿والذين هم من عذاب ربهم مشفقون﴾ أي: خائفون وجلون، فيتركون لذلك كل ما يقرههم من عذاب الله. ﴿إن عذاب ربهم غير مأمون﴾ أي: هو العذاب الذي يخشى ويحذر.

﴿والذين هم لقروجهم محافظون﴾ فلا يطؤون بها وطأ محرماً، من زنى، أو لواط، أو وطء في دبر، أو حيض، ونحو ذلك، ويحفظونها أيضاً من النظر



﴿إنها لظى * نزاعة للشوى﴾ أي: للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدة عذابها^(١)

﴿تدعو﴾ إليها^(٢) ﴿من أدبر وتولى * وجع فأوعى﴾ أي: أدبر عن اتباع الحق وأعرض عنه، فليس له فيه غرض، وجمع الأموال بعضها فوق بعض وأوعاها، فلم يتفق منها فإن النار تدعوهم إلى نفسها، وتستعد للالتهاب بهم.

﴿١٩ - ٣٥﴾ ﴿إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً * إلا المصلين * الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين في أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين * والذين هم من عذاب ربهم مشفقون * إن عذاب ربهم غير مأمون * والذين هم لقروجهم محافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم بشهادتهم قائمون * والذين هم على صلاتهم محافظون * أولئك في جنات

(٢) في ب: تدعو إلى نفسها.

(٣) في ب: القصد بإقامتها.

(١) في ب: أي: النار التي تنلظي تنزع من شدتها للأعضاء الظاهرة والباطنة.

وحاصل هذا، أن الله وصف أهل السعادة والخير بهذه الأوصاف الكاملة، والأخلاق الفاضلة، من العبادات البدنية، كالصلاة، والمداومة عليها، والأعمال القلبية، كخشية الله الداعية لكل خير، والعبادات المالية، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة، ومعاملة الله، ومعاملة خلقه، أحسن معاملة من إنصافهم، وحفظ عهودهم وأسرارهم^(١)، والعفة التامة بحفظ الفروج عما يكره الله تعالى.

﴿٣٦- ٣٩﴾ **﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مَهْطَعِينَ * عَنِ اليمينِ وَعَنِ الشَّامِلِ عَزِينَ * أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ * كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾** يقول تعالى، مبيناً اغترار الكافرين: **﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَبْلَكَ مَهْطَعِينَ﴾** أي: مسرعين **﴿عَنِ اليمينِ وَعَنِ الشَّامِلِ عَزِينَ﴾** أي: قطعاً متفرقة، وجماعات متوزعة^(٢)، كل منهم بما لديه فرح.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ بأي: سبب أطمعهم، وهم لم يقدموا سوى الكفر، والاحجود برب العالمين، ولهذا قال: **﴿كَلَّا﴾** [أي:] ليس الأمر بآمانيهم، ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب، فهم ضعفاء، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

﴿٤٠- ٤٤﴾ **﴿فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ * عَلَى أَنْ نَبْدِلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ * فَذَرِهِمْ يَخوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْعَدُونَ * يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سَرَّاحًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذُلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾** هذا إقسام منه تعالى بالمشارق والمغرب، للشمس والقمر

تعالى أنه أرسله^(٥) إلى قومه، رحمة بهم وإنذاراً لهم من عذاب الله الأليم، خوفاً من استمرارهم على كفرهم، فيهلكهم الله هلاكاً أبدياً، ويعذبهم عذاباً سرمدياً، فامتثل نوح عليه السلام لذلك، وابتدر لأمر الله، فقال: **﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾** أي: واضح النذارة بيننا، وذلك لتوضيحه ما أنذر به وما أنذر عنه، وبأي: شيء تحصل النجاة، بين جميع ذلك بيانا شافياً، فأخبرهم وأمرهم بزيادة ما يأمرهم به^(٦)، فقال: **﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾** وذلك بإفراده تعالى بالتوحيد والعبادة، والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله، فإنهم إذا اتقوا الله غفر ذنوبهم، وإذا غفر ذنوبهم، حصل لهم النجاة من العذاب، والفوز بالشواب، **﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾** أي: يمتعكم في هذه الدار، ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى أي: مقدر [البقاء في الدنيا] بقضاء الله وقدره [إلى وقت محدد]، وليس المتاع أبداً، فإن الموت لا بد منه، ولهذا قال: **﴿إِنْ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾** لما كفرتم بالله، وعاندتم الحق، فلم يجيئوا لدعوته، ولا انقادوا لأمره، فقال شاكياً لربه: **﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾** أي: نفوراً عن الحق وإعراضاً، فلم يبق لذلك فائدة، لأن فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه، **﴿وَإِنِّي كَلِمَةٌ لِّتُغْفَرَ لِي غَفْرًا﴾** أي: لأجل أن يستجيبوا، فإذا استجابوا، غفرت لهم، فكان هذا محض مصلحتهم، ولكنهم أبوا إلا تمادياً على باطلهم، ونفوراً عن الحق، **﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾** حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح عليه السلام، **﴿وَاسْتَعْصَبُوا شِيَابَهُمْ﴾** أي: تغطوا بها غطاء يغشاهم، بعداً عن الحق وبغضاً له، **﴿وَأَصْرُوا﴾** على كفرهم وشركهم، **﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾** على

والكواكب، لما فيها من الآيات الباهرات على البعث، وقدرته على تبديل أمثالهم، وهم بأعيانهم، كما قال تعالى: **﴿وَنَنْشُكُمْ فِيمَا لَا تَعْلَمُونَ﴾** **﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾** أي: ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا إذا أردنا أن نعيده، فإذا تقرّر البعث والجزاء، واستمروا على تكذيبهم، وعدم انقيادهم لآيات الله **﴿فَذَرِهِمْ يَخوضُوا وَيَلْعَبُوا﴾** أي: يخوضوا بالأقوال الباطلة، والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا، ويتمتعوا **﴿حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يَوْعَدُونَ﴾** فإن الله قد أعد لهم فيه من النكال والوبال ما هو عاقبة خوضهم ولعبهم.

ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون يومهم^(٣) الذي يوعدون، فقال: **﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾** أي: القبور، **﴿سَرَّاحًا﴾** مجيئين لدعوة الداعي، مهطعين إليها **﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾** أي: [كأنهم إلى عِلَم] يؤمون ويسرعون^(٤) أي: فلا يتمكنون من الاستعصاء للداعي، والالتواء لنداء المنادي، بل يأتون أذلاء مهقورين للقيام، بين يدي رب العالمين. **﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذُلَّةٌ﴾** وذلك أن الذلة والقلق قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم، فخشعت منهم الأبصار، وسكنت منهم الحركات، وانقطعت الأصوات. فهذه الحال والمآل، هو يومهم **﴿الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾** ولا بد من الوفاء بوعد الله **﴿تَمَّتْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ﴾**.

تفسير سورة نوح عليه السلام وهي مكية

﴿٢٨- ٢٨﴾ **﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ﴾** إلى آخر السورة لم يذكر الله في هذه السورة سوى قصة نوح وحدها لطول لبثه في قومه، وتكرار دعوته إلى التوحيد، ونبيه عن الشرك، فأخبر

(٥) في ب: أنه أرسل نوحاً.

(٦) في ب: وأمرهم بأصل ذلك.

(٣) في ب: اليوم.

(٤) في ب: ويقصدون.

(١) في ب: وحفظ حقوقهم وأماناتهم.

(٢) في ب: متنوعة.

الحق ﴿استكباراً﴾ فشرهم ازداد، وخيرهم يُعَذَّب.

﴿ثم إني دعوتهم جهاراً﴾ أي: بمسمع منهم كلهم، ﴿ثم إني أعلنت لهم وأسررت لهم إسراراً﴾ كل هذا حرص ونصح، وإتيانهم بكل باب يظن أن يحصل منه المقصود^(١)، ﴿فقللت استغفروا ربكم﴾ أي: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب، واستغفروا الله منها.

﴿إنه كان غفاراً﴾ كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، فرغبهم بمغفرة الذنوب، وما يترتب عليها من حصول الثواب، واندفاع العقاب.

ورغبهم أيضاً بخير الدنيا العاجل، فقال: ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ أي: مطراً متتابعاً، يروي الشباب والوهاد، ويحيي البلاد والعياد.

﴿ويمددكم بأموال وبنين﴾ أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها ما تطلبون من الدنيا وأولادكم، ﴿ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً﴾ وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها.

﴿مال لكم لا ترجون لله وقاراً﴾ أي: لا تحافون الله عظمة، وليس الله عندكم قدر، ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾ أي: خلقاً [من] بعد خلق، في بطن الأم، ثم في الرضاع، ثم في سن الطفولية، ثم التمييز، ثم الشباب، إلى آخر ما وصل إليه الخلق^(٢)، فالذي انفرد بالخلق والتدبير البديع، متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على الإقرار بالمعاد، وأن الذي أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم.

واستدل أيضاً عليهم بخلق السماوات التي هي أكبر من خلق الناس، فقال: ﴿ألم تتروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً﴾ أي:

كل سماء فوق الأخرى، ﴿وجعل القمر فيهن نوراً﴾ لأهل الأرض ﴿وجعل الشمس سراجاً﴾.

ففيه تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشمس والقمر الدالة على رحمته وسعة إحسانه، فالعظيم الرحيم، يستحق أن يعظم ويحب ويعبد ويخاف ويرجى، ﴿والله أنبتكم من الأرض نباتاً﴾ حين خلق أباكم آدم وأنتم في صلبه، ﴿ثم يعيدكم فيها﴾ عند الموت ﴿ويخرجكم إخراجاً﴾ للبعث والنشور، فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور، ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾ أي:

مبسوطة مهياة للارتفاع بها، ﴿لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً﴾ فلولاً أنه بسطها، لما أمكن ذلك، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها، والبناء، والسكون على ظهرها.

﴿قال نوح﴾ شاكياً لربه: إن هذا الكلام والوعظ والتذكير ما نجع فيهم ولا أفاد: ﴿إنهم عصوني﴾ فيما أمرتهم به ﴿واتبعوا من لم يزد به ماله وولده إلا خساراً﴾ أي: عصوا الرسول الناصح الدال على الخير، واتبعوا الملال والأشراف الذين لم تزد أموالهم ولا أولادهم إلا خساراً أي: هلاكاً وتقوياً للآرباح، فكيف بمن انقاد لهم وأطاعهم؟! ﴿ومكروا مكراً كباراً﴾ أي: مكراً كبيراً بليغاً في معاندة الحق.

﴿وقالوا﴾ لهم داعين إلى الشرك مزينين له: ﴿لا تذرنا آلهمكم﴾ فدعوههم إلى التعصب على ما هم عليه من الشرك، وأن لا يدعوا ما عليه آبائهم الأقدمون، ثم عينوا آلهم، فقالوا: ﴿ولا تذرنا ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾ وهذه أسماء رجال صالحين، لما ماتوا، زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم، لينشطوا - بزعمهم - على الطاعة إذا

رأوها، ثم طال الأمد، وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطان: إن أسلافكم يعبدونهم، ويتوسلون بهم، وبهم يسقون المطر، فعبدوهم، ولهذا أوصى رؤسائهم للتابعين لهم، أن لا يدعوا عبادة هذه الآلهة^(٣).

﴿وقد أضلوا كثيراً﴾ أي: وقد أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيراً من الخلق، ﴿ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً﴾ أي: لو كان ضلالهم عند دعوتي إياهم بحق، لكان مصلحة، ولكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلا ضلالاً أي: فلم يبق محل لنجاحهم ولا لصلاحهم، ولهذا ذكر الله عذابهم وعقوبتهم الدنيوية والأخروية، فقال:

﴿عما خطيئاتهم أغرقوا﴾ في اليم الذي أحاط بهم ﴿فادخلوا ناراً﴾ فذهبت أجسادهم في الغرق، وأرواحهم للنار والحرق، وهذا كله بسبب خطيئاتهم، التي اتاهم نبينهم نوح ينذرهم عنها، ويخبرهم بشؤمها ومغبتها، فرفضوا ما قال، حتى حل بهم النكال، ﴿فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً﴾ ينصرونهم حين نزل بهم الأمر الأمر، ولا أحد يقدر يعارض القضاء والقدر.

﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ يدور على وجه الأرض، وذكر السبب في ذلك، فقال: ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً﴾ أي: بقاؤهم مفسدة محضة، لهم ولغيرهم، وإنما قال نوح - عليه السلام - ذلك، لأنه مع كثرة مخالطته إياهم، ومزاولته لأخلاقهم، علم بذلك نتيجة أعمالهم، لا جرم أن الله استجاب دعوته^(٤)، فأغرقهم أجمعين، ونجى نوحاً ومن معه من المؤمنين.

﴿رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل

(١) في ب: بكل طريق يظن به حصول المقصود.

(٢) في ب: ثم إلى آخر ما يصل إليه الخلق.

(٣) في ب: هذه الأصنام.

(٤) في ب: فلماذا استجاب الله له دعوته.

بيني مؤمنًا^(١) خص المذكورين لتأكد حقهم وتقديم برهم، ثم عمم الدعاء، فقال: «وللمؤمنين والمؤمنات، ولا تزد الظالمين إلا تباراً^(٢) أي: خساراً ودماراً وهلاكاً.

تم تفسير سورة نوح عليه السلام [والحمد لله]

تفسير سورة قل أوحى إلي [وهي] مكية

﴿١-٢﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنًا عجيباً * يهدي إلى الرشد فأمنّا به ولن نشرك بربنا أحداً^(١) أي: «قل» يا أيها الرسول للناس «أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن» صرفهم الله [إلى رسوله] لسماع آياته، لتقوم عليهم الحجة، [وتتم عليهم النعمة] ويكونوا نذراً^(٢) لقومهم.

وأمر الله رسوله، أن يقص نبأهم على الناس، وذلك أنهم لما حضروه، قالوا: أنصتوا، فلما أنصتوا، فهموا معانيه، ووصلت حقائقه إلى قلوبهم، «فقالوا إنا سمعنا قرآنًا عجيباً^(٣) أي: من العجائب الغالية، والمطالب العالية.

﴿٢﴾ «يهدي إلى الرشد» والرشد: اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم، «فأمنّا به ولن نشرك بربنا أحداً» فجمعوا بين الإيمان الذي يدخل فيه جميع أعمال الخير، وبين التقوى، [المتضمنة لترك الشر] وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه، ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد

واجتناب المضار، فإن ذلك آية عظيمة، وحجة قاطعة، لمن استنار به، واهتدى بهديه، وهذا الإيمان النافع، الثمر لكل خير، المبني على هداية القرآن، بخلاف إيمان العوائد، والمربى والإلف ونحو ذلك، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة، «وأنه تعالى جد ربنا» أي: تعالت عظمته وتقدست أسماؤه، «ما اتخذ صاحبة ولا ولداً» فعلموا من جد الله وعظمته، ما دلهم على بطلان من يزعم أن له صاحبة أو ولداً، لأن له العظمة الكمال^(٤) في كل صفة كمال، واتخاذ صاحبة والولد ينافي ذلك، لأنه يضاد كمال الغنى.

«وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً» أي: قولاً جائراً عن الصواب، متعدياً للحد، وما حمله على ذلك إلا سفهو وضعف عقله، وإلا فلو كان رزيناً مطمئناً لعرف كيف يقول.

﴿٥﴾ «وأنّا ظننا أن لن نقول الإنس والجن على الله كذباً» أي: كنا مغترين قبل ذلك، وغرنا القادة^(٥) والرؤساء من الجن والإنس، فأحسنّا بهم الظن، وظنناهم^(٦) لا يتجرؤون على الكذب على الله، فلذلك كنا قبل هذا على طريقهم، فاليوم إذ بان لنا الحق، رجعنا إليه^(٧)، وانقذنا له، ولم نبال بقول أحد من الناس^(٨) يعارض الهدى.

﴿٦﴾ «وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقاً» أي: كان الإنس يعبدون الجن ويستعيذون بهم عند المخاوف والأفزع^(٩)، فزاد الإنس الجن رهقاً أي: طغياناً وتكبيراً، لما رأوا الإنس

يعبدونهم، ويستعيذون بهم، ويحتمل أن الضمير في زادهم يرجع إلى الجن ضمير الواو^(١٠) أي: زاد الجن الإنس ذعراً وتخويفاً لما رأوهم يستعيذون بهم، ليلجئوهم إلى الاستعانة بهم، فكان الإنسي إذا نزل بواد خوف، قال: «أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قوم».

«وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحداً» أي: فلما أنكروا البعث، أقدموا على الشرك والطغيان.

«وأنّا لمسنا السماء» أي: أتيناها واختبرناها، «فوجدناها ملئت حرساً شديداً» عن الوصول إلى أرجائها [والدنو منها]، «وشهباً» يرمى بها من استرق السمع، وهذا بخلاف عادتنا الأولى، فإنّا كنا نتمكن من الوصول إلى خبر السماء.

«وأنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع» فنتلطف من أخبار السماء ما شاء الله، «فمن يستمع الآن يجد له شهاباً

(١) في ب: منذرين لقومهم.

(٢) في ب: والجلال.

(٣) في ب: عزتنا السادة والرؤساء.

(٤) في ب: وحسبناهم.

(٥) في ب: سلكتنا طريقه.

(٦) في ب: من الخلق.

(٧) في ب: كان الإنس يعوذون بالجن عند المخاوف والأفزع، ويعبدونهم.

(٨) في ب: ويحتمل أن الضمير وهي الواو يرجع إلى الجن.



وعرفنا هدايته وإرشاده، أثر في قلوبنا
ف «أمتنا به» .

ثم ذكروا ما يرغب المؤمن فقالوا:
«فمن يؤمن بربه» إيماناً صادقاً «فلا
يخاف بخساً ولا رهقاً» أي: لا نقصاً
ولا طغياناً ولا أذى يلحقه^(١)، وإذا
سلم من الشر حصل له الخير،
فالإيمان سبب داع إلى حصول كل خير
وانتفاء كل شر.

«وإنا منا المسلمون ومنا
القاسطون» أي: الجاثرون، العادلون
عن الصراط المستقيم.

«فمن أسلم فأولئك تحروا ورشداً»
أي: أصابوا طريق الرشد، الموصول
لهم إلى الجنة ونعيمها، «وأما
القاسطون فكانوا لجهنم حطباً» وذلك
جزاء على أعمالهم، لا ظلم من الله
لهم، فإنهم «لو استقاموا على
الطريقة المثلث لأسقيناهم ماء غدقاً»
أي: هنيئاً مريئاً، ولم يمنعه ذلك إلا
ظلمهم وعدوانهم. «لنفتنهم فيه»
أي: لنختبرهم فيه ونمتحنهم، ليظهر
الصادق من الكاذب.

«ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه
عذاباً صعداً» أي: من أعرض عن
ذكر الله، الذي هو كتابه، فلم يتبعه
ويقتد له، بل غفل عنه ولهى، يسلكه
عذاباً صعداً أي: شديداً بليغاً.

«وإن المساجد لله فلا تدعوا مع الله
أحدًا» أي: لا دعاء عبادة، ولا دعاء
مسألة، فإن المساجد التي هي أعظم
محال العبادة، مبنية على الإخلاص لله،
والخضوع لعظمته، والاستكانة لعزته،
«وأنه لما قام عبد الله يدعوه» أي:
يسأله ويتعبد له ويقرأ القرآن كاد الجن
من تكاثروا عليه أن يكونوا عليه لبدًا
أي: متلبدين متراكمين، حرصاً على
سماع ما جاء به من الهدى.

«قل» لهم يا أيها الرسول، مبيناً
حقيقة ما تدعو إليه:

«إنما أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا»
أي: أوحده وحده لا شريك له،
وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان،
وكل ما يتخذة المشركون من دونه.

«قل إني لا أملك لكم ضرراً
ولا رشداً» فإني عبد ليس لي من الأمر
ولا من التصرف شيء.

«٢٢» «قل إني لن ينجيني من الله
أحد» أي: لا أحد أستجير به ينقذني
من عذاب الله، وإذا كان الرسول
الذي هو أكمل الخلق، لا يملك ضرراً
ولا رشداً، ولا يمنع نفسه من الله
[شئناً] إن أراد به سوء، فغيره من الخلق
من باب أولى وأحرى، «ولن أجد من
دونه ملتحداً» أي: ملجأً ومنصراً
«إلا بلاغاً من الله ورسالاته» أي:
ليس لي مزية على الناس، إلا أن الله
خصني بإبلاغ رسالاته ودعوة الخلق
إلى الله، وبهذا^(٢) تقوم الحجة على
الناس.

«ومن يعص الله ورسوله فإن له نار
جهنم خالدين فيها أبداً» وهذا المراد به
المعصية الكفرية، كما قيدتها النصوص
الأخر المحكمه.

وأما مجرد المعصية، فإنه لا يوجب
الخلود في النار، كما دلت على ذلك
آيات القرآن، والأحاديث عن
النبي ﷺ، وأجمع عليه سلف الأمة
وأئمة هذه الأمة.

«حتى إذا راوا ما يوعدون» أي:
شاهدوه عياناً، وجزموا أنه واقع بهم،
«فسيعلمون» في ذلك الوقت حقيقة
المعرفة «من أضعف ناصراً وأقل
عدداً» حين لا ينصرهم غيرهم ولا
أنفسهم ينتصرون، وإذا يحشرون فرادى
كما خلقوا أول مرة، «قل» لهم إن
سألوكم [فقالوا] «متى هذا الوعد؟»
«إن أدري أقرب ما توعدون أم يعمل
له ربي أمداً» أي: غاية طويلة، فعلم
ذلك عند الله، «عالم الغيب فلا يظهر
على غيبه أحدًا» من الخلق، بل انفرد
بعلم الضمائر والأسرار والغيب، «إلا

رصدًا» أي: مرصداً له، معداً لإتلافه
وإحراقه أي: وهذا له شأن عظيم، ونبأ
جسيم، وجزموا أن الله تعالى أراد أن
يحدث في الأرض حادثاً كبيراً، من
خير أو شر، فلهذا قالوا: «وإنا لا
ندري أشراً أريد بمن في الأرض أم أراد
بهم رحمةً ورشداً» أي: لا بد من هذا أو
هذا، لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيراً
أنكروه، فعرّفوا بفطنتهم، أن هذا
الأمر يريد به الله، ويحدثه في الأرض،
وفي هذا بيان لأدهم، إذ أضافوا الخير
إلى الله تعالى، والشر حذفوا فاعله تأدياً
مع الله.

«وإنا منا الصالحون ومنا دون
ذلك» أي: فساق وفجار وكفار،
«كنا طرائق قدداً» أي: فرقاً متنوعة،
وأهواء متفرقة، كل حزب بما لديهم
فرحون.

«وإنا ظننا أن لن نعجز الله في
الأرض ولن نعجزه هرباً» أي: وأنا في
وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله
وكمال عجزنا، وأن نواصينا بيد الله،
فلن نعجزه في الأرض ولن نعجزه إن
هربنا وسعينا بأسباب الفرار والخروج
عن قدرته، لا ملجأً منه إلا إليه،
«وإنا لما سمعنا الهدى» وهو القرآن
الكريم، الهادي إلى الصراط المستقيم،

(١) في ب: فقالوا: «فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً» أي: من آمن به إيماناً صادقاً فلا عليه نقص ولا أذى يلحقه.

(٢) في ب: ودعوة خلقه إليه وبذلك.



وأفضلها، وهو قيام الليل.

ومن رحمته تعالى، أنه لم يأمره بقيام الليل كله، بل قال: ﴿قم الليل إلا قليلاً﴾ ثم قدر ذلك، فقال: ﴿نصفه أو انقص منه﴾ أي: من النصف ﴿قليلاً﴾ بأن يكون الثلث ونحوه ﴿أو زد عليه﴾ أي: على النصف، فيكون الثلثين ونحوها.

﴿ورتل القرآن ترتيلاً﴾ فإن ترتيل القرآن به يحصل التدبر والتفكير، وتحريك القلوب به، والتعبد بآياته، والتهنيؤ والاستعداد التام له، فإنه قال: ﴿إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾ أي: نوحى إليك هذا القرآن الثقيل أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهذا الوصف، حقيق أن يتهيا له، ويرتل، ويتفكر فيما يشتمل عليه. ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: ﴿إن ناشئة الليل﴾ أي: الصلاة فيه بعد النوم ﴿هي أشد وطأ وأقوم قبلاً﴾ أي: أقرب إلى تحصيل مقصود القرآن، يتواطأ على القرآن القلب واللسان، وتقل الشواغل،

ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره، وهذا بخلاف النهار، فإنه لا يحصل به هذا المقصود^(٣)، ولهذا قال: ﴿إن لك في النهار سباً طويلاً﴾ أي: تردداً على حوائجك ومعاشك، يوجب اشتغال القلب، وعدم تفرغه للتفكير التام، واذكر اسم ربك﴾ شامل لأنواع الذكر كلها ﴿وتبشّر إليه تبشيراً﴾ أي: انقطع إلى الله تعالى، فإن الانقطاع إلى الله والإنابة إليه، هو الانفصال بالقلب عن الخلق، والاتصاف بمحبة الله، وكل ما يقرب إليه، ويدي من رضاه.

﴿رب المشرق والمغرب﴾ وهذا اسم جنس يشمل المشرق والمغرب [كلهما]، فهو تعالى رب المشرق والمغرب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي مصلحة له من العالم العلوي والسفلي، فهو رب كل شيء وخالفه ومدبره.

﴿لا إله إلا هو﴾ أي: لا معبود إلا وجهه الأعلى، الذي يستحق أن ينحس بالمحبة والتعظيم، والإجلال والتكريم، ولهذا قال: ﴿فأناخذة وكيلاً﴾ أي: حافظاً ومدبراً لأمورك كلها.

فلما أمره الله بالصلاة خصوصاً، وبالذكر عموماً، وذلك يحصل للعبد ملكة قوية في تحمل الأثقال، وفعل الثقيل^(٤) من الأعمال، أمره بالصبر على ما يقول فيه المعاندون له ويسبونهم ويسبون ما جاء به، وأن يمضي على أمر الله، لا يصده عنه صداد، ولا يردده راد، وأن يسجرهم هجرأ جيلاً، وهو الهجر حيث اقتضت المصلحة الهجر الذي لا أذية فيه، فيقابلهم^(٥) بالهجر والإعراض عنهم وعن أقوالهم التي تؤذيه، وأمره

بجدالهم بالتي هي أحسن.

﴿وذري والمكذبين﴾ أي: أتركني وإياهم، فسأنتقم منهم، وإن أهملتهم فلا أهملهم، وقوله: ﴿أولي النعمة﴾ أي: أصحاب النعمة والغنى، الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه، وأمدهم من فضله كما قال تعالى: ﴿كل إن الإنسان ليطغى﴾ أن رآه استغنى﴾ ثم توعدهم بما عنده من العقاب، فقال:

﴿١٢ - ١٤﴾ ﴿إن لدينا أنكالاً وجحيماً﴾ وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً ﴿يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً﴾ أي: إن عندنا ﴿أنكالاً﴾ أي: عذاباً شديداً، جعلناه تنكيلاً للذي لا يزال مستمراً على الذنوب^(٦). ﴿وجحيماً﴾ أي: ناراً حامية ﴿وطعاماً ذا غصة﴾ وذلك لمرارته وبشاعته، وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن، ﴿وعذاباً أليماً﴾ أي: موجعاً مفظعاً، وذلك ﴿يوم ترجف الأرض والجبال﴾ من الهول العظيم، ﴿وكانت الجبال الراسيات الصم الصلاب﴾ كثيباً مهيلاً ﴿أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تبس بعد ذلك، فتكون كالهباء المنثور.

﴿١٥ - ١٦﴾ ﴿إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً﴾ فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً ﴿يقول تعالى: احمدوا ربكم على إرسال هذا النبي الأمي العربي البشير النذير، الشاهد على الأمة بأعمالهم، واشكروه وقوموا بهذه النعمة الجليلة، وإياكم أن تكفروها، فتعصوا رسولكم، فتكونوا كفراعون حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتوحيد، فلم يصدقه، بل عصاه،

(١) في ب: حصول.

(٢) في ب: عليه.

(٣) في ب: فإنه لا تحصل به هذه المقاصد.

(٤) في ب: وفعل المشق.

(٥) في ب: بل يعاملهم.

(٦) في ب: على ما يغضب الله.

المعروفة، وأنه مأمور بتطهيرها عن [جميع] النجاسات، في جميع الأوقات، خصوصاً في الدخول في الصلوات، وإذا كان مأموراً بتطهير الظاهر، فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن.

«والرجز فاهجر» يحتمل أن المراد بالرجز الأصنام والأوثان، التي عبدت مع الله، فأمره بتركها، والبراءة منها وما نسب إليها من قول أو عمل.

ويحتمل أن المراد بالرجز أعمال الشر كلها وأقواله، فيكون أمراً له بترك الذنوب، صغيرها وكبيرها^(٤)، ظاهرها وباطنها، فيدخل في ذلك الشرك وما دونه.

«ولا تمنن تستكثر» أي: لا تمنن على الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية، فتكثر^(٥) بتلك المنّة، وترى لك [الفضل] عليهم بإحسانك المنّة، بل أحسن إلى الناس مهما أمكنك، وأنس [عندهم] إحسانك، ولا تطلب أجره إلا من الله تعالى، واجعل من أحسنت إليه وغيره على حد سواء.

وقد قيل: إن معنى هذا، لا تعطي أحداً شيئاً، وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه، فيكون هذا خاصاً بالنبي ﷺ.

«ولربك فاصبر» أي: احتسب بصبرك، واقصده وجه الله تعالى، فامثل رسول الله ﷺ لأمره، وبادر إليه، فأنذر الناس، وأوضح لهم بالآيات البينات جميع المطالب الإلهية، وعظم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوء، وهجر كل ما يبعد عن الله^(٦) من الأصنام وأهلها، والشر وأهله، وله المنّة على الناس - بعد منّة الله - من غير أن يطلب منهم

يتغمده الله برحمته ومغفرته، فإنه هالك.

تم تفسير سورة المزمل^(٧)

تفسير سورة المدثر [وهي] مكية

﴿١-٧﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم يا أيها المدثر * قم فأنذر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر * ولا تمنن تستكثر * ولربك فاصبر» تقدم أن المزمل والمدثر بمعنى واحد، وأن الله أمر رسوله ﷺ، بالاجتهاد في عبادة الله القاصرة والمتعدية، فتقدم هناك الأمر له بالعبادات الفاضلة القاصرة، والصبر على أذى قومه، وأمره هنا بإعلان الدعوة^(٨)، والصدع بالإنذار، فقال: «قم» [أي] بجِد ونشاط «فأنذر» الناس بالأقوال والأفعال، التي يحصل بها المقصود، وبيان حال النذر عنه، ليكون ذلك أدعى لتركه، «وربك فكبر» أي: عظمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله، وأن يعظمه العباد ويقوموا بعبادته.

«وثيابك فطهر» يحتمل أن المراد بثيابه، أعماله كلها، وبططهيرها تخليصها والنصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والفسدات، والمنقصات من شرك ورياء، [ونفاق]، وعجب، وتكبر، وغفلة، وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عباداته.

ويدخل في ذلك تطهير الثياب من النجاسة، فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال خصوصاً في الصلاة، التي قال كثير من العلماء: إن إزالة النجاسة عنها شرط من شروط الصلاة.

ويحتمل أن المراد بثيابه، الثياب



وليعلم أن مثقال ذرة من الخير في هذه الدار، يقابله أضعاف أضعاف الدنيا، وما عليها في دار النعيم المقيم، من اللذات والشهوات، وأن الخير والبر في هذه الدنيا، مادة الخير والبر في دار القرار، وبذره وأصله وأساسه، فوا أسفاه على أوقات مضت في الغفلات، وواحسرتاه على أزمان تقضت بغير الأعمال الصالحات، وواغوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارقتها، ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها منها^(٩).

فلك اللهم الحمد، وإليك المشتكى، وبك المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بك.

«واستغفروا الله إن الله غفور رحيم» وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد ما يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب أثناء الليل والنهار، فمتى لم

(١) في ب: أرحم بها من نفسها.

(٢) في ب: تم تفسيرها والحمد لله.

(٣) في ب: بالإعلان بالدعوة.

(٤) في ب: صغارها وكبارها.

(٥) في ب: فتستكثر.

(٦) في ب: وهجر كل ما يبعد من دون الله وما يبعد منه.

على ذلك^(١) جزاء ولا شكوراً، وصبر لله أكمل صبر، فصبر على طاعة الله، وعن معاصي الله، وعلى أقدار الله المؤلمة^(٢)، حتى فاق أولي العزم من المرسلين، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

﴿٨-١٠﴾ «فلماذا نقرر في الناقور * فذلك يومئذ يوم عسير * على الكافرين غير يسير» أي: فإذا نفخ في الصور للقيام من القبور، وجمع الخلق^(٣) للبعث والنشور. «فذلك يومئذ يوم عسير» لكثرة أهواله وشدائده «على الكافرين غير يسير» لأنهم قد أيسوا من كل خير، وأيقنوا بالهلاك والبوار.

ومفهوم ذلك أنه على المؤمنين يسير، كما قال تعالى: «يقول الكافرون هذا يوم عسر».

﴿١١-٣١﴾ «ذري ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالا ممدوداً * وبنين شهوداً * ومهدت له تمهيداً * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيداً * سأرهقه صعوداً * إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر * سأصليه سقر * وما أدراك ما سقر * لا تبقي ولا تذر * لواحة للبشر * عليها تسعة عشر * وما جعلنا أصحاب النار إلا فتنة للذين كفروا * جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا * ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً كذلك يضل الله من

يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكري للبشر» هذه الآيات، نزلت في الوليد بن المغيرة، معاند الحق، والمبارز لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقة، فذمه الله ذماً لم يذمه^(٤) غيره، وهذا جزاء كل من عاند الحق ونابذه، أن له الحزني في الدنيا، ولعذاب الآخرة أحرى، فقال: «ذري ومن خلقت وحيداً» أي: خلقتك منفرداً، بلا مال ولا أهل، ولا غيره، فلم أزل أنمي وأربيه^(٥)، «وجعلت له مالا ممدوداً» أي: كثيراً «و» جعلت له «بنين» أي: ذكوراً «شهوداً» أي: دائماً حاضرين عنده، [على الدوام] يتمتع بهم، ويقضي بهم

حوائجه، ويستنصر بهم. «ومهدت له تمهيداً» أي: مكنته من الدنيا وأسبابها، حتى انقادت له مطالبه، وحصل على^(٦) ما يشتهي ويريد، «ثم» مع هذه النعم والإمدادات «يطمع أن أزيد» أي: يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا. «كلا» أي: ليس الأمر كما طمع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه، وذلك لأنه «كان لآياتنا عنيداً» أي: معانداً، عرفها ثم أنكرها، ودعته إلى الحق فلم ينقد لها ولم يكفه أنه أعرض وتولى عنها، بل جعل يحاربها ويسعى في إبطالها، ولهذا قال عنه:

«إنه فكر» [أي: في نفسه، وقدر] ما فكر فيه، ليقول قولاً يطل به القرآن.

«فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر» لأنه قدر أمراً ليس في طوره، وتَسَوَّرَ على ما لا يناله هو و [لا] أمثاله، «ثم نظر» ما يقول، «ثم

(١) في ب: أن يطلب عليهم بذلك.

(٢) في ب: وصبر لربه أكمل صبر، فصبر على طاعة الله وعن معاصيه، وصبر على أقداره المؤلمة.

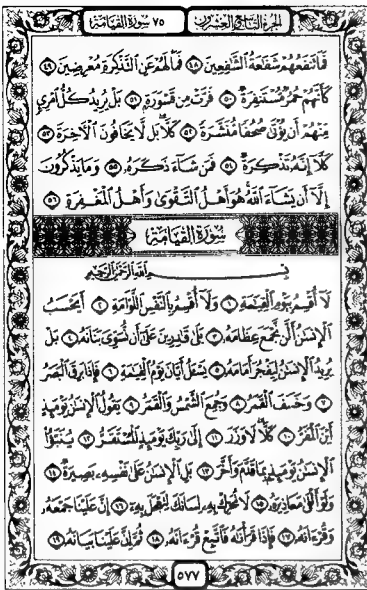
(٣) في ب: الخلائق.

(٤) في ب: لم يذم به غيره.

(٥) في ب: أربيه، وأعطيه.

(٦) في ب: وحصل له.

(٧) في ب: على وصفه بهذا الوصف لكلام الله تعالى.



عبس وبسر» في وجهه، وظاهره نفرة عن الحق وبغضاً له، «ثم أدبر» أي: تولى «واستكبر» نتيجة سعيه الفكري والعملي والقبلي، أن قال: «إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر» أي: ما هذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس أيضاً كلام البشر الأخيار، بل كلام الفجار منهم والأشرار، من كل كاذب سحار.

فتباً له، ما أبعد من الصواب، وأحراه بالخسارة والتهاب!!

كيف يدور في الأذهان، أو يتصوره ضمير كل إنسان، أن يكون أعلى الكلام وأعظمه، كلام الرب العظيم، الماجد الكريم، يشبه كلام المخلوقين الفقراء الناقصين؟!

أم كيف يتجرأ هذا الكاذب العنيد، على وصفه كلام المبدئ المعيد^(٧).

فما حقه إلا العذاب الشديد والنكال، ولهذا قال تعالى:

«سأصليه سقر * وما أدراك ما سقر * لا تبقي ولا تذر» أي:

كل وقت، وكل مسألة من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأوهام التي تعرض في مقابلة الحق، فجعل ما أنزله الله على رسوله محصلاً لهذه الفوائد^(١) الجليلة، ومميزاً للكاذبين من الصادقين، ولهذا قال: ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك وشبهة ونفاق. ﴿والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ وهذا على وجه الخيرة والشك، والكفر منهم بآيات الله، وهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه، وإضلاله لمن يضل، ولهذا قال:

﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ فمن هداه الله، جعل ما أنزله الله على رسوله رحمة في حقه، وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله، جعل ما أنزله على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة، وظلمه في حقه، والواجب أن يتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم، فإنه لا يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم ﴿إلا هو﴾ فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير، فعليكم أن تصدقوا خبره، من غير شك ولا ارتياب، ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ أي: وما هذه الموعظة والتذكار مقصوداً به اللعب واللعب، وإنما المقصود به، أن يتذكر [به] البشر ما ينفعهم في فعلونه، وما يضرهم في تركونه.

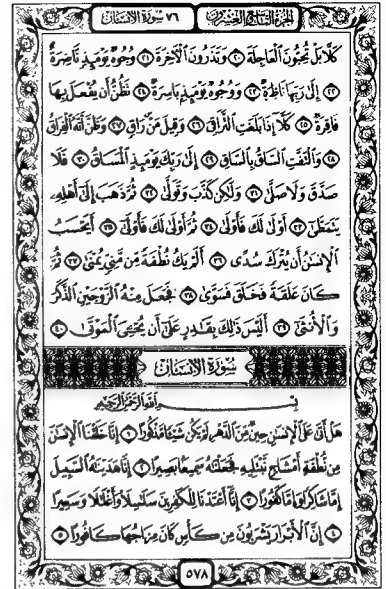
﴿كل نفس بما كسبت﴾ من أعمال السوء وأفعال الشر، ﴿رهينة﴾ بها موثقة بسعيها، قد ألزم عقها، وغل في رقبتها، واستوجبت به العذاب، ﴿إلا أصحاب اليمين﴾ فإنهم لم يرتكبوا، بل أطلقوا وفرحوا ﴿في جنات يتساءلون﴾ عن المجرمين ﴿أي: في جنات قد حصل لهم بها جميع مطلوباتهم، وتمت لهم الراحة والطمانينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضت بهم المحادثة، أن سألوا عن المجرمين، أي: حال وصلوا إليها، وهل وجدوا ما وعدهم الله تعالى؟

فقال بعضهم لبعض: «هل أنتم مطلعون عليهم»، فاطلعوا عليهم في وسط الجحيم يعذبون، فقالوا لهم: «ما سلككم في سقر» أي: أي شيء أدخلكم فيها؟ وبأي ذنب استحققتموها؟ فـ ﴿قالوا لم نك من

كل وقت، وكل مسألة من مسائل الدين، ودفع الشكوك والأوهام التي تعرض في مقابلة الحق، فجعل ما أنزله الله على رسوله محصلاً لهذه الفوائد^(١) الجليلة، ومميزاً للكاذبين من الصادقين، ولهذا قال: ﴿وليقول الذين في قلوبهم مرض﴾ أي: شك وشبهة ونفاق. ﴿والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلاً﴾ وهذا على وجه الخيرة والشك، والكفر منهم بآيات الله، وهذا وذاك من هداية الله لمن يهديه، وإضلاله لمن يضل، ولهذا قال:

﴿كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ فمن هداه الله، جعل ما أنزله الله على رسوله رحمة في حقه، وزيادة في إيمانه ودينه، ومن أضله، جعل ما أنزله على رسوله زيادة شقاء عليه وحيرة، وظلمه في حقه، والواجب أن يتلقى ما أخبر الله به ورسوله بالتسليم، فإنه لا يعلم جنود ربك من الملائكة وغيرهم ﴿إلا هو﴾ فإذا كنتم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير، فعليكم أن تصدقوا خبره، من غير شك ولا ارتياب، ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ أي: وما هذه الموعظة والتذكار مقصوداً به اللعب واللعب، وإنما المقصود به، أن يتذكر [به] البشر ما ينفعهم في فعلونه، وما يضرهم في تركونه.

﴿٣٢-٥٦﴾ ﴿كلا والقمر﴾ والليل إذ أدبر * والصبح إذا أسفر * إنما لإحدى الكبر * نذيراً للبشر * لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر * كل نفس بما كسبت رهينة * إلا أصحاب اليمين * في جنات يتساءلون * عن المجرمين * ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين * فما تنفعهم شفاعة الشافعين * فما لهم عن التذكرة معرضين * كأنهم حمر مستنفرة *



لا تبقي من الشدة، ولا على المعذب شيئاً إلا وبلغته، ﴿لواحة للبشر﴾ أي: تلوحهم [وتصليهم] في عذابها، وتقلعهم بشدة حرها وقربها.

﴿عليها تسعة عشر﴾ من الملائكة، خزنة لها، غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

﴿وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة﴾ وذلك لشدة قوتهم.

﴿وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا﴾ يحتمل أن المراد: إلا لعذابهم وعقابهم في الآخرة، ولزيادة نكالهم فيها، والعذاب يسمى فتنة، [كما قال تعالى: ﴿يوم هم على النار يفتنون﴾] ويحتمل أن المراد: أنا ما أخبرناكم

بعدهم، إلا لنعلم من يصدق ومن يكذب، ويدل على هذا، ما ذكر بعده في قوله: ﴿ليستبين الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً﴾ فإن أهل الكتاب، إذا وافق ما عندهم وطابقه، ازداد يقينهم بالحق، والمؤمنون كلما أنزل الله آية، فأمنا بها وصدقوا، ازداد إيمانهم، ﴿ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون﴾ أي: ليزول عنهم الريب والشك، وهذه مقاصد جليلة، يعنى بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين، وزيادة الإيمان في

[ولا زائدة] وإنما أتى بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، وكثرة الإتيان بها مع اليمين، لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح.

فالمقسم به في هذا الموضع، هو المقسم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم، ﴿ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ وهي جميع النفوس الخيرة والفاجرة، سُميت «اللوامة» لكثرة ترددها وتلومها، وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها، ولأنها عند الموت تلوم صاحبها على ما عملت^(١)، بل نفس المؤمن تلوم صاحبها في الدنيا على ما حصل منه، من تفريط أو تقصير في حق من الحقوق، أو غفلة، فجمع بين الإقسام بالجزاء، وعلى الجزاء، وبين مستحق الجزاء.

ثم أخبر مع هذا، أن بعض المعاندين يكذب بيوم القيامة، فقال: ﴿يُحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ بعد الموت، كما قال في الآية الأخرى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾؟ فاستبعد من جهله وعدوانه قدرة الله على خلق عظامه التي هي عماد البدن، فرد عليه بقوله: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِيَ بَنَانَهُ﴾ أي: أطراف أصابعه وعظامه، المستلزم ذلك لخلق جميع أجزاء البدن، لأنها إذا وجدت الأنامل والبنان، فقد تمت خلقة الجسد، وليس إنكاره لقدرة الله تعالى قصوراً بالدليل الدال على ذلك، وإنما [وقع] ذلك منه أن قصده وإرادته أن يكذب^(٢) بما أمامه من البعث. والفجور: الكذب مع التعمد.

جاءتهم الآيات البينات التي تبين الحق وتوضحه، فلو كان فيهم خير لآمنوا، ولهذا قال: ﴿كَلَّا﴾ أن نعطيهم ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز، ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ فلو كانوا يخافونها، لما جرى منهم ما جرى.

﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذَكُّرٌ﴾ الضمير إما أن يعود على هذه السورة، أو على ما اشتملت عليه [من] هذه الموعظة، ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ لأنه قد بين له السبل، ووضح له الدليل.

﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ فإن مشيئته^(٣) نافذة عامة، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير، ففيها رد على القدرية، الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبرية، الذين يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة، ولا فعل حقيقة، وإنما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئة حقيقة، وفعلًا، وجعل ذلك تابعاً لمشيئته، ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي: هو أهل أن يتقى ويعبد، لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه واتبع رضاه.

تم تفسير سورة المدثر،
ولله الحمد^(٤)

تفسير سورة القيامة [وهي] مكية

﴿١-٦﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لا أقسم بيوم القيامة * ولا أقسم بالنفس اللوامة * يحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه * بل قادرين على أن نسوي بنانه * بل يريد الإنسان ليفجر أمامه * يسأل أنبان يوم القيامة * ليست «لا» [ها] هنا نافية،

المصلين * ولم نك نطعم المسكين * فلا إخلاص للمعبود، [ولا إحسان] ولا نفع للخلق المحتاجين.

﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ أي: نخوض بالباطل، ونجادل به الحق، ﴿وَكُنَّا نَكْذِبُ بَيُّومَ الدِّينِ﴾ هذا آثار الخوض بالباطل، [وهو] التكذيب بالحق، ومن أحق الحق، يوم الدين، الذي هو على الجزاء على الأعمال، وظهور ملك الله وحكمه العدل لساثر الخلق.

فاستمرينا على هذا المذهب الفاسد^(١) ﴿حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينَ﴾ أي: الموت، فلما ماتوا على الكفر تعذرت حينئذ عليهم الخيل، وانسد في وجوههم باب الأمل، ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم^(٢).

فلما بين الله مآل المخالفين، ورهب مما^(٣) يفعل بهم، عطف على الموجودين بالعتاب واللوم، فقال: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي: صادين غافلين عنها.

﴿كَأَنَّهُمْ﴾ في نفرتهم الشديدة منها ﴿حَرٌّ مُسْتَفْتَرَةٌ﴾ أي: كأنهم حر وحش نفرت فنفر بعضها بعضاً، فزاد عدوها، ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ أي: من صائد ورام يريد لها، أو من أسد ونحوه، وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق، ومع هذا الإعراض وهذا النفور، يدعون الدعاوى الكبار.

فـ ﴿يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صَاحِقًا مُنْشَرًّا﴾ نازلة عليه من السماء، يزعم أنه لا يتنقاد للحق إلا بذلك، وقد كذبوا، فإنهم لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، فإنهم

(١) في ب: الباطل.

(٢) كذا في ب، وفي أ: ولا يرضى أعمالهم.

(٣) في ب: وبين ما يفعل بهم.

(٤) في ب: فإن مشيئة الله.

(٥) في ب: تمت والله الحمد والمنة.

(٦) في ب: على ما فعلت.

(٧) في ب: لأن إرادته وقصده التكذيب.

ثم ذكر أحوال القيامة فقال :

﴿٧- ١٥﴾ ﴿فإذا برق البصر *

وخسف القمر * وجمع الشمس والقمر * يقول الإنسان يومئذ أين المفر * كلا لا وزر * إلى ربك يومئذ المستقر * ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر * بل الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره *.

أي : إذا كانت القيامة برقت الأبصار من الهول العظيم ، وشخصت فلا تطرف كما قال تعالى : ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعي رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء﴾ * وخسف القمر * أي : ذهب نوره وسلطانه ، ﴿وجمع الشمس والقمر﴾ * وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى ، فيجمع الله بينهما يوم القيامة ، ويخسف القمر ، وتكرر الشمس ، ثم يقذفان في النار ، ليرى العباد أنهما عبدان مسخران ، وليرى من عبدهما أنهم كانوا كاذبين .

﴿يقول الإنسان﴾ حين يرى تلك القلائل المزعجات : ﴿أين المفر ؟﴾ أي : أين الخلاص والفرار مما طرقتنا وأصابنا^(١) ؟

﴿كلا لا وزر﴾ أي : لا ملجأ لأحد دون الله ، ﴿إلى ربك يومئذ المستقر﴾ لسائر العباد ، فليس في إمكان أحد أن يستتر أو يهرب عن ذلك الموضع ، بل لا بد من إيقافه ليجزى بعمله ، ولهذا قال : ﴿ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر﴾ أي : بجميع عمله الحسن والسيئ ، في أول وقته وآخره ، وينبأ بخبر لا ينكره ، ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة﴾ أي : شاهداً ومحاسباً ، ﴿ولو ألقى معاذيره﴾ فإنها معاذير لا تقبل ، ولا تقابل ما يقرر به العبد^(٢) ، فيُقر به ، كما قال تعالى :

﴿اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ .

فالعبد وإن أنكر ، أو اعتذر عما عمله ، فإنكاره واعتذاره يفيدانه شيئاً ، لأنه يشهد عليه سمعه وبصره وجميع جوارحه بما كان يعمل ، ولأن استعتابه قد ذهب وقته وزال نفعه : ﴿فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون﴾ .

﴿١٦- ١٩﴾ ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه﴾ كان النبي ﷺ إذا جاءه جبريل بالوحي ، وشرع في تلاوته عليه ، بادره النبي ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه ، فنهاه الله عن هذا ، وقال : ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه﴾ .

وقال هنا : ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به﴾ ثم ضمن له تعالى أنه لا بد أن يحفظه ويقرأه ، ويجمعه الله في صدره ، فقال : ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾ فالحرص الذي في خاطرك ، إنما الداعي له حذر الفوات والنسيان ، فإذا ضمنه الله لك ، فلا موجب لذلك .

﴿فإذا قرأناه فاتبع قرآنه﴾ أي : إذا كمل جبريل قراءة ما أوحى الله^(٣) إليك ، فحينئذ اتبع ما قرأه وأقرأه . ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ أي : بيان معانيه ، فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه ، وهذا أعلى ما يكون ، فامتثل ﷺ لأدب ربه ، فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا ، أنصت له ، فإذا فرغ قرأه .

وفي هذه الآية أدب لأخذ العلم ، أن لا يبادر المتعلم المعلم قبل أن يفرغ من^(٤) المسألة التي شرع فيها ، فإذا فرغ منها سأله عما أشكل عليه ، وكذلك إذا

كان في أول الكلام ما يوجب الرد أو الاستحسان ، أن لا يبادر برده أو قبوله ، حتى يفرغ من ذلك الكلام ، ليتبين ما فيه من حق أو باطل ، وليفهمه فهماً يتمكن به من الكلام عليه .

وفيها : أن النبي ﷺ كما بين للامة ألفاظ الوحي ، فإنه قد بين لهم معانيه .

﴿٢٠- ٢٥﴾ ﴿كلا بل تحبون العاجلة * وتذرون الآخرة * وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة * ووجوه يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة﴾ أي : هذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم ﴿تحبون العاجلة﴾ وتسعون فيما يحصلها ، وفي لذاتها وشهواتها ، وتؤثرونها على الآخرة ، فتذرون العمل لها ، لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة ، والإنسان مولع بحب العاجل ، والآخرة متأخر ما فيها من النعيم المقيم ، فلذلك غفلتم عنها وتركتموها ، كأنكم لم تخلقوا لها ، وكأن هذه الدار هي دار القرار ، التي تبذل فيها نفائس الأعمار ، ويسعى لها آناء الليل والنهار ، وبهذا انقلبت عليكم الحقيقة ، وحصل من الخسار ما حصل .

فلو آثرتم الآخرة على الدنيا ، ونظرتم للعواقب نظر البصير العاقل لأنجحتكم ، وريحتم ربحاً لا خسارة معه ، وفزتم فوزاً لا شقاء يصحبه .

ثم ذكر ما يدعو إلى إيثار الآخرة ، ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها ، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا : ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ أي : حسنة بهية ، لها رونق ونور ، مما هم فيه من نعيم القلوب ، وبهجة النفوس ، ولذة الأرواح ، ﴿إلى ربها ناظرة﴾ أي : تنظر إلى ربها^(٥) على حسب مراتبهم : منهم

(١) في ب : والفكك مما طرقتنا وآلم بنا .

(٢) في ب : بل يقرر بعمله .

(٣) في ب : إذا أكمل جبريل ما يوحى إليك .

(٤) في ب : أن لا يبادر المتعلم للمعلم قبل أن يفرغ المعلم .

(٥) في ب : أي ينظرون إلى ربهم .

خلق الإنسان هذه [وطوره إلى] الأطوار المختلفة «بقادر على أن يحيي الموتى» بل إنه على كل شيء قدير .

تم تفسير سورة القيامة ، والله الحمد والمنة ، وذلك في ١٦ صفر سنة ١٣٤٤^(٧) .

المجلد التاسع من تفسير الكريم الرحمن في تفسير القرآن لجامعه الفقير إلى الله : عبد الرحمن بن ناصرين عبد الله السعدي غفر الله له ولوالديه والمسلمين آمين .

تفسير سورة هل أتى على الإنسان وهي مكية

﴿١- ٣﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً» ذكر الله في هذه السورة الكريمة أول حالة الإنسان ومبتدأها ومتوسطها ومنتهاها .

فذكر أنه مر عليه دهرٌ طويل ، وهو الذي قبل وجوده ، وهو معدوم بل ليس مذكوراً .

ثم لما أراد الله تعالى خلقه ، خلق [آباه] آدم من طين ، ثم جعل نسله متسلسلاً «من نطفة أمشاج» أي : ماء مهين مستقذر «نبتليه» بذلك ، لنعلم هل يرى حاله الأول ، ويتفطن لها أم ينساها وتغره نفسه؟

فأنشأه الله ، وخلق له القوى الباطنة والظاهرة ، كالسمع والبصر ، وسائر الأعضاء ، فأنماها له وجعلها سالمة يتمكن بها من تحصيل مقاصده .

ثم أرسل إليه الرسل ، وأنزل عليه الكتب ، وهداه الطريق الموصلة

ولكن القضاء والقدر ، إذا حتم وجاء فلا مرد له ، «وظن أنه الفراق» للدنيا .

«والتفت الساق بالساق» أي : اجتمعت الشدائد والتفت ، وعظم الأمر وصعب الكرب ، وأريد أن تخرج الروح التي ألقت البدن^(٤) ولم تنزل معه ، فتساق إلى الله تعالى ، حتى يجازيها بأعمالها ، ويقررها بفعالها .

فهذا الزجر ، [الذي ذكره الله] يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها ، ويزجرها عما فيه هلاكها .

ولكن المعاند الذي^(٥) لا تنفع فيه الآيات ، لا يزال مستمراً على بغيه وكفره وعناده .

«فلا صدق» أي : لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره «ولا صلي * ولكن كذب» بالحق في مقابلة التصديق ، «وتولى» عن الأمر والنهي ، هذا وهو مطمئن قلبه ، غير خائف من ربه ، بل يذهب «إلى أهله يتمطى» أي : ليس على باله شيء ، ثم توعده بقوله : «أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى» وهذه كلمات وعيد ، كررها لتكرير وعيده ، ثم ذكر الإنسان بخلقه الأول ، فقال : «أحسب الإنسان أن يترك سدى» أي : معطلاً^(٦) ، لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يُشأب ولا يُعاقب؟ هذا حسابان باطل ، وظن بالله غير ما يليق بحكمته .

«ألم يك نطفة من مني يعني * ثم كان» بعد المنى «علقة» أي : دماً ، «فخلق» الله منها الحيوان وسواه أي : ألقنه وأحكمه ، «فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك» الذي

من ينظره كل يوم بكرة وعشيا ، ومنهم من ينظره كل جمعة مرة واحدة ، فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم ، وجماله الباهر ، الذي ليس كمثل شيء ، فإذا رآوه نسوا ما هم فيه من النعيم ، وحصل لهم من اللذة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه ، ونضرت وجوههم ، وازدادوا جمالاً إلى جمالهم ، فنسأل الله الكريم أن يجعلنا معهم .

وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة : «وجوه يومئذ باسرة» أي : معبسة ومكدرة^(١) ، خاشعة ذليلة «نظن أن يفعل بها فاقة» أي : عقوبة شديدة ، وعذاب أليم ، فلذلك تغيرت وجوههم وعبت .

﴿٢٦- ٤٠﴾ «كلا إذا بلغث الترقي * وقيل من راق * وظن أنه الفراق * والتفت الساق بالساق * إلى ربك يومئذ المساق * فلا صدق ولا صلي * ولكن كذب وتولى * ثم ذهب إلى أهله يتمطى * أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى * أحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني يعني * ثم كان علقه فخلق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى» يعظ تعالى عباده ، بذكر حال المحتضر عند الساق^(٢) ، وأنه إذا بلغت روحه الترقي ، وهي العظام المكتنفة لشجرة النحر ، فحيث يشد الكرب ، ويطلب كل وسيلة وسبب ، يظن أن يحصل به الشفاء والراحة ، ولهذا قال : «وقيل من راق» أي : من يرقيه ، من الرقية ، لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية ، فلم يبق إلا الأسباب الإلهية^(٣) .

(١) في ب : كدرة .

(٢) في ب : بذكر المحتضر حال الساق .

(٣) في ب : فتعلقوا بالأسباب الإلهية .

(٤) في ب : أن تخرج الروح من البدن الذي ألفته .

(٥) كذا في ب ، وفي أ : التي .

(٦) في ب : أي مهملاً .

(٧) في ب : والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد وسلم .

إلى الله^(١)، ورغبه فيها، وأخبره بما له عند الوصول إلى الله.

ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك، ورهبه منها، وأخبره بما له إذا سلكها، وابتلاء بذلك، فانقسم الناس إلى شاكِر لنعمة الله عليه، قائم بما حمله الله من حقوقه، وإلى كفور لنعمة الله عليه، أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية، فردّها، وكفر بربه، وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك.

ثم ذكر تعالى حال الفريقين عند الجزاء فقال:

﴿٤- ٢٢﴾ «إنا اعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً * إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً * إلى آخر الثواب أي: إنا هيأنا وأرصدنا لمن كفر بالله، وكذب رسله، وتجراً على المعاصي «سلاسل» في نار جهنم، كما قال تعالى: «ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه».

«وأغلالاً» تغل بها أيديهم إلى أعناقهم ويوثقون بها.

«وسعيراً» أي: ناراً تستعر بها أجسامهم، وتحرق بها أبدانهم، «كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها، ليذوقوا العذاب» وهذا العذاب دائم لهم أبداً، مخلدون فيه سرمداً.

وأما «الأبرار» وهم الذين برت قلوبهم بما فيها من محبة الله ومعرفته، والأخلاق الحميلة، فبرت جوارحهم^(٢)، واستعملوها بأعمال البر، أخبر أنهم «يشربون من كأس» أي: شراب لذيذ من خمر قد مزج بكافور أي: خلط بكافور، ليبرده ويكسر حدته، وهذا الكافور [في غاية اللذة]، قد سلم من كل مكدر ومنغص، موجود في كافور الدنيا،

فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أنها في الجنة وهي في الدنيا تعدم في الآخرة^(٣).

كما قال تعالى: «في سدر مخضود * وطلح منضود» وأزواج مطهرة «لهم دار السلام عند ربهم» وفيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين.

«عينا يشرب بها عباد الله» أي: ذلك الكأس اللذيذ الذي يشربون به، لا يخافون نفاذه، بل له مادة لا تنقطع، وهي عين دائمة الفيضان والجريان، يفجرها عباد الله تفجيـراً، أنى شأوا، وكيف أرادوا، فإن شأوا صرفوها إلى البساتين الزاهرات، أو إلى الرياض الناضرات، أو بين جوانب القصور والمسكن المخرفات، أو إلى أي: جهة يرونها من الجهات الموقنات.

وقد ذكر^(٤) جملة من أعمالهم في أول هذه السورة، فقال: «يوفون بالنذر» أي: بما ألزموا به أنفسهم الله من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون بالنذر، وهو لم يجب^(٥) عليهم، إلا بإيجابهم على أنفسهم، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية، من باب أولى وأحرى، «ويخافون يوماً كان شره مستطيراً» أي: متشراً فاشياً، فخافوا أن ينالهم شره، فتركوا كل سبب موجب لذلك، «ويطمعون الطعام على حبه» أي: وهم في حال يحبون فيها المال والطعام، لكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم، ويتحرون في إطعامهم أولى الناس وأحوجهم، «مسكيناً ويتيماً وأسيراً».

ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجه الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: «إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً» أي:

لا جزاء مالياً، ولا ثناء قولياً.

«إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً» أي: شديد الجهمة والشر «قمطيراً» أي: ضنكاً ضيقاً، «فوقاهم الله شر ذلك اليوم» فلا يجزهم الفرع الأكبر، وتلقاهم الملائكة [هذا يومكم الذي كنتم توعدون].

«ولقاهم» أي: أكرمهم وأعطاهم «نضرة» في وجوههم «وسروراً» في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن، «وجزاهم بما صبروا» على طاعة الله، فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصي الله، فتركوها، وعلى أقدار الله المؤلة، فلم يتسخطوها، «جنة» جامعة لكل نعيم، سالمة من كل مكدر ومنغص، «وحريراً» كما قال [تعالى:] «ولباسهم فيها حرير» ولعل الله إنما خص الحرير، لأنه لباسهم الظاهر، الدال على حال صاحبه.

«متكئين فيها على الأرائك» الاتكاء: التمكن من الجلوس، في حال الرفاهية والطمأنينة [الراحة]، والأرائك هي السرر التي عليها لباس المزين، «لا يرون فيها» أي: في الجنة «شمساً» يضرهم حرها، «ولا زمهرياً» أي: برداً شديداً، بل جميع أوقاتهم في ظل ظليل، لا حر ولا برد، بحيث تلتذ به الأجساد، ولا تتألم من حر ولا برد.

«ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً» أي: قربت ثمراتها من مريدها تقريباً ينالها، وهو قائم، أو قاعد، أو مضطجع.

ويطاف على أهل الجنة أي: يدور [عليهم] الخدم والولدان^(٦) «بآنية من فضة» وأكواب كانت قواريرا * قوارير من فضة» أي: مادتها من فضة،

(١) في ب: الطريق الموصلة إليه وبينها.

(٢) في ب: أعمالهم.

(٣) في ب: الموجودة في الدنيا تعدم من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة.

(٤) في ب: ثم ذكر.

(٥) في ب: الذي هو غير واجب.

(٦) في ب: «ويطاف عليهم» أي: يدور الولدان والخدم على أهل الجنة.

على الهدى ﴿أعدل لهم عذاباً أليماً﴾
[بظلمهم وعدوانهم].

تم تفسير سورة الإنسان،
ولله الحمد والمنة^(١)

تفسير سورة المرسلات وهي مكية

﴿١- ١٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والمرسلات عرفاً * فالعاصفات عصفاً * والناشرات نشرأ * فالفارقات فرقاً * فالملقيات ذكراً * عدراً أو نذراً * إنما توعدون لواقع * فإذا التجوم طمست * وإذا الجبال نسفت * وإذا الرسل أقتت * لأي: يوم أجلت * ليوم الفصل * وما أدراك ما يوم الفصل * ويل يومئذ للمكذبين﴾ أقسم تعالى على البعث والجزاء بالأعمال^(٢)، بالمرسلات عرفاً، وهي الملائكة التي يرسلها الله تعالى بشئونه القدرية وتدبير العالم، وبشؤونه الشرعية وحيه إلى رسله.

و ﴿عرفاً﴾ حال من المرسلات أي: أرسلت بالعرف والحكمة والمصلحة، لا بالنكر والعبث.

﴿فالعاصفات عصفاً﴾ وهي [أيضاً] الملائكة التي يرسلها الله تعالى، وصفها بالمبادرة لأمره، وسرعة تنفيذ أوامره، كالريح العاصف، أو: أن العاصفات، الرياح الشديدة، التي يسرع هبوبها، ﴿والناشرات نشرأ﴾ يحتمل أنها الملائكة^(٣)، تنشر ما دبرت على نشره، أو أنها السحاب التي ينشر بها الله الأرض، فيحييها بعد موتها، ﴿فالملقيات ذكراً﴾ هي الملائكة، تلقي أشرف الأوامر، وهو الذكر الذي

﴿٢٨﴾ ثم استدل عليهم وعلى بعثهم بدليل عقلي، وهو دليل الابتداء، فقال: ﴿نحن خلقناهم﴾ أي: أوجدناهم من العدم، ﴿وشدنا أسرهم﴾ أي: أحكمنا خلقتهم بالأعصاب، والعروق، والأوتار، والقوى الظاهرة والباطنة، حتى تم الجسم واستكمل، وتمكن من كل ما يريده، فالذي أوجدهم على هذه الحالة، قادر على أن يعيدهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقلهم في هذه الدار إلى هذه الأطوار، لا يليق به أن يتركهم سدى، لا يؤمرون، ولا ينهون، ولا يثابون، ولا يعاقبون، ولهذا قال:

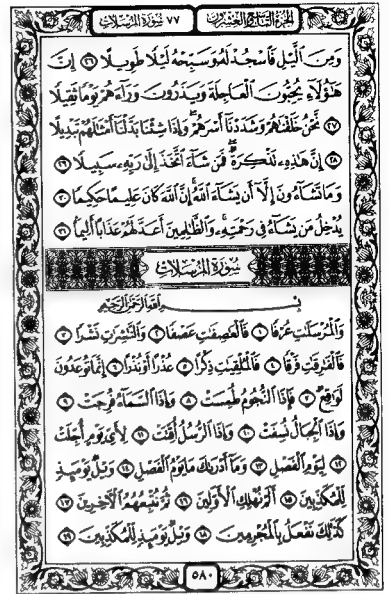
﴿بدلنا أمثالهم تبديلاً﴾ أي: أنشأناكم للبعث نشأة أخرى، وأعدناكم بأعيانكم، وهم بأنفسهم أمثالهم.

﴿إن هذه تذكرة﴾ أي: يتذكر بها المؤمن، فيتنفع بما فيها من التخويف والترغيب.

﴿فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي: طريقاً موثقاً إليه، فالله يبين الحق والهدى، ثم يخير الناس بين الاهتداء بها أو النفور عنها، مع قيام الحجة عليهم^(٤)، ﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله﴾ فإن مشيئة الله نافذة، ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ فله الحكمة في هداية المهتدي، وإضلال الضال.

﴿يدخل من يشاء في رحمته﴾ فيختصه بعنايته، ويوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقتها.

﴿والظالمين﴾ الذين اختاروا الشقاء



المكتوبات وما يتبعها من النوافل، والذكر، والتسبيح، والتهليل، والتكبير في هذه الأوقات.

﴿ومن الليل فاسجد له﴾ أي: أكثر [له] من السجود، ولا يكون ذلك إلا بالإكثار من الصلاة^(٥).

﴿وسبحه ليلاً طويلاً﴾ وقد تقدم تقييد هذا المطلق بقوله: ﴿يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلاً﴾ الآية^(٦): [وقوله] ﴿إن هؤلاء﴾ أي: المكذبين لك أيها الرسول بعدما بينت لهم الآيات، ورغبوا ورهبوا، ومع ذلك، لم يقد فيهم ذلك شيئاً، بل لا يزالون يؤثرون ﴿العاجلة﴾ ويطمثون إليها، ﴿ويذررون﴾ أي: يتركون العمل ويميلون ﴿وراءهم﴾ أي: أمامهم ﴿يوماً قليلاً﴾ وهو يوم القيامة، الذي مقداره خمسون ألف سنة مما تعدون، وقال تعالى: ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾.

فكانهم ما خلقوا إلا للدنيا والإقامة فيها.

(١) في ب: وذلك متضمن لكثرة الصلاة.

(٢) في ب: أكمل الآيات نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه.

(٣) في ب: إقامة للحجة ليهلك من هلك عن بينة، ويحيى من حي عن بينة.

(٤) في ب: تمت ولله الحمد.

(٥) في ب: على الأعمال.

(٦) في ب: يحتمل أن المراد بها الملائكة.

يرحم الله به عبادہ، ويذكرهم فيه
منافعهم ومصالحهم، تلقية إلى الرسل،
﴿عذراً أو نذراً﴾ أي: إعداراً وإنذاراً

للناس، تنذر الناس ما أمامهم من
المخاوف، وتقطع معذرتهم^(١)،
فلا يكون لهم حجة على الله.

﴿إنما توعدون﴾ من البعث والجزاء
على الأعمال ﴿لواقع﴾ أي: محتتم
وقوعه، من غير شك ولا ارتياب.

فيذا وقع حصل من التغيير للعالم
والأحوال الشديدة ما يزعج القلوب،
وتشتد له الكروب، فتنتطمس النجوم
أي: تتناثر وتزول عن أماكنها وتنسف
الجبال، فتكون كالهباء المنثور، وتكون
هي والأرض قاعاً صفصفاً، لا ترى
فيها عوجاً ولا أمناً، وذلك اليوم هو
اليوم الذي أقتت فيه الرسل، وأجلت
للحكم بينها وبين أممها، ولهذا قال:

﴿لأي: يوم أُجِلَّت﴾ استفهام
للتعظيم والتفخيم والتوهيل.

ثم أجاب بقوله: ﴿ليوم الفصل﴾
[أي: بين الخلائق، بعضهم لبعض،
وحساب كل منهم منفرداً، ثم توعد
المكذب بهذا اليوم، فقال: ﴿ويل
يومئذ للمكذبين﴾ أي: يا حسرتهم،
وشدة عذابهم، وسوء منقلبهم،
أخبرهم الله، وأقسم لهم، فلم
يصدقوه، فاستحقوا^(٢) العقوبة
البليغة.

﴿١٦-١٩﴾ ﴿ألم نهلك
الأولين﴾ ثم نتبعهم الآخرين *
كذلك نفعل بالمجرمين * ويل يومئذ
للمكذبين﴾ أي: أما أهلكتنا المكذبين
السابقين، ثم نتبعهم بإهلاك من كذب
من الآخرين، وهذه سنته السابقة
واللاحقة في كل مجرم لا بد من
عذابه^(٣)، فلم لا تعذبون بما ترون

﴿٢٠-٢٤﴾ ﴿ألم نخلقكم من ماء

مهيّن * فجعلناه في قرار مكين * إلى

قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون *

ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي: أما

خلقناكم أيها الأدميون ﴿من ماء مهيّن﴾

أي: في غاية الحقايرة، خرج من بين

الصلب والترائب، حتى جعله الله

﴿في قرار مكين﴾ وهو الرحم، به

يستقر وينمو ﴿إلى قدر معلوم﴾ ووقت

مقدر، ﴿فقدرنا﴾ أي: قدرنا ودبرنا

ذلك الجنين، في تلك الظلمات،

ونقلناه من النطفة إلى العلقة، إلى

المضغة، إلى أن جعله الله جسداً، ثم

نفخ فيه الروح، ومنهم من يموت قبل

ذلك.

﴿فنعم القادرون﴾ [يعني بذلك

نفسه المقدسة] حيث كان قدراً تابعاً

للحكمة، موافقاً للحمد^(٤).

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ بعدما

بين الله لهم الآيات، وأراهم العبر

والبينات.

﴿٢٥-٢٨﴾ ﴿ألم نجعل الأرض

كفأناً * أحياء وأمواتاً * وجعلنا فيها

رواسي شأغات وأسقينكم ماءً فراتاً * أما

ويل يومئذ للمكذبين﴾ أي: أما

امتتنا^(٥) عليكم وأنعمنا، بتسخير

الأرض لمصالحكم، فجعلناها ﴿كفأناً﴾

لكم، ﴿أحياء﴾ في القبور، فكما أن الدور

والقصور من نعم الله على عباده ومنته،

فكذلك القبور، رحمة في حقهم،

وستراً لهم، عن كون أجسادهم بادية

للسباع وغيرها.

﴿وجعلنا فيها رواسي﴾ أي: جبالاً

الرفعة من مآلهم. ﴿فجعلنا في قرار مكين﴾
﴿٢٠-٢٤﴾ ﴿ألم نخلقكم من ماء مهيّن * فجعلناه في قرار مكين * إلى قدر معلوم * فقدرنا فنعم القادرون *﴾
﴿٢٥-٢٨﴾ ﴿ألم نجعل الأرض كفأناً * أحياء وأمواتاً * وجعلنا فيها رواسي شأغات وأسقينكم ماءً فراتاً * أما ويل يومئذ للمكذبين﴾
﴿٢٩-٣٣﴾ ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب * لا ظليل ولا يغني من اللهب * إنها ترمي بشرراً كالقصر * كأنه جباله صفر * ويل يومئذ للمكذبين﴾ هذا من الويل الذي أعد [للمجرمين] للمكذبين، أن يقال لهم يوم القيامة: ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون﴾ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾ أي: إلى ظل نار جهنم، التي تمتاز في

ترسي الأرض، لثلاث عميد بأهلها،
فثبتها الله بالجبال الراسيات الشأغات
أي: الطوال العراض، ﴿وأسقينكم ماء فراتاً﴾ أي: عذباً زلالاً، قال
تعالى: ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون * أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جلعناه أجاجا فلولا تشكرون﴾.

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ مع ما
أراهم الله من النعم، التي أنفرد الله
بها، واختصهم بها، فقابلوها
بالتكذيب.

﴿٢٩-٣٣﴾ ﴿انطلقوا إلى ما كنتم
به تكذبون﴾ انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث
شعب * لا ظليل ولا يغني من
اللهب * إنها ترمي بشرراً كالقصر *
كأنه جباله صفر * ويل يومئذ
للمكذبين﴾ هذا من الويل الذي أعد
للمجرمين [للمكذبين، أن يقال لهم
يوم القيامة: ﴿انطلقوا إلى ما كنتم به
تكذبون﴾ ثم فسر ذلك بقوله: ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾
أي: إلى ظل نار جهنم، التي تمتاز في

(١) في ب: أعذارهم.

(٢) في ب: فلذلك استحقوا.

(٣) في ب: عقابه.

(٤) في ب: لأن قدره تابع لحكمته موافق للحمد.

(٥) في ب: أمانتنا.

والأشربة اللذيذة، ﴿هَنِيئًا﴾ أي: من غير منغص ولا مكدر، ولا يتم هناؤه، حتى يسلم الطعام والشراب من كل آفة ونقص، وحتى يجزوا أنه غير منقطع ولا زائل، ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فأعمالكم هي السبب الموصول لكم إلى هذا النعيم^(٣) المقيم، وهكذا كل من أحسن في عبادة الله وأحسن إلى عباد الله، ولهذا قال: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ويل يومئذ للمكذبين، ولو لم يكن لهم من هذا الويل إلا فوات هذا النعيم، لكفى به حرماناً وخساراً^(٤).

﴿٤٦ - ٥٠﴾ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا قَلِيلًا إِنَّكُمْ يَوْمَئِذٍ تُجْرَمُونَ﴾ ويل يومئذ للمكذبين * وإذ قيل لهم اركعوا لا يركعون * ويل يومئذ للمكذبين * فبأي: حديث بعده يؤمنون، هذا تهديد ووعد للمكذبين، أنهم وإن أكلوا في الدنيا وشربوا وتمتعوا بالذلات، وغفلوا عن القربات، فإنهم مجرمون، يستحقون ما يستحقه المجرمون، فستقطع عنهم اللذات، وتبقى عليهم التبعات، ومن إجرامهم أنهم إذا أمروا بالصلاة التي هي أشرف العبادات، وقيل لهم: ﴿ارْكَعُوا﴾ امتنعوا من ذلك.

فأي إجرام فوق هذا؟ وأي تكذيب يزيد على هذا؟؟!

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ ومن الويل عليهم أنهم تنسد عليهم أبواب التوفيق، ويحرمون كل خير، فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن الكريم، الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق.

﴿فبأي: حديث بعده يؤمنون﴾ أبالباطل الذي هو كاسمه، لا يقوم عليه شبهة فضلاً عن الدليل؟ أم بكلام كل مشرك كذاب أفاك مين؟

فليس بعد النور المبين إلا دياجي

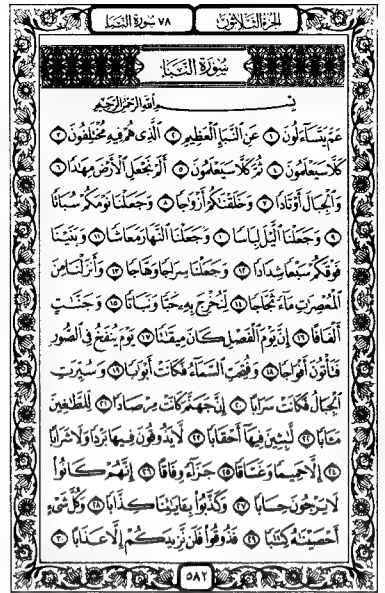
هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين * فإن كان لكم كيد فكيديون * ويل يومئذ للمكذبين * أي: هذا اليوم العظيم الشديد على المكذبين، لا ينطقون فيه من الخوف والوجل الشديد، ﴿وَلَا يُوْذَنَ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ أي: لا تقبل معذرتهم، ولو اعتذروا: ﴿فَيُؤْمِنُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾.

﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين﴾ لنفصل بينكم، ونحكم بين الخلائق، ﴿فإن كان لكم كيد﴾ تقدرون على الخروج من ملكي، وتنجون به من عذابي، ﴿فكيديون﴾ أي: ليس لكم قدرة ولا سلطان، كما قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾.

ففي ذلك اليوم، تبطل حيل الظالمين، ويضمحل مكرمهم وكيدهم، ويستسلمون لعذاب الله، ويبين لهم كذبهم في تكذبيهم ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾.

﴿٤١ - ٤٥﴾ ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعِیُونٍ * وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ * ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ * ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ * ويل يومئذ للمكذبين، لما ذكر عقوبة المكذبين، ذكر ثواب^(٢) المحسنين، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [أي:] للتكذيب، المتصفين بالتصديق في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم، ولا يكونون كذلك إلا بأدائهم الواجبات، وتركهم المحرمات.

﴿في ظلال﴾ من كثرة الأشجار المتنوعة، الزاهية البهية. ﴿وعيون﴾ جارية من السلسبيل، والرحيق وغيرها، ﴿وفواكه مما يشتهون﴾ أي: من خيار الفواكه وطيبها، ويقال لهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ من المأكَل الشهية،



خلاله ثلاث شعب أي: قطع من النار أي: تتعاوره وتتناوبه وتجتمع به.

﴿لا ظليل﴾ ذلك الظل أي: لا راحة فيه ولا طمأنينة، ﴿ولا يغني﴾ من مكث فيه ﴿من﴾ اللهب، بل اللهب قد أحاط به، يمنة ويسرة ومن كل جانب، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾.

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٌ﴾ وكذلك نجزي الظالمين.

ثم ذكر عظم شر النار، الدال على عظمتها وفضاعتها وسوء منظرها، فقال:

﴿إِنهَا تَرْمِي بِشَرِّ كَالْقَصْرِ﴾ * كأنه جملة صفر، وهي السود التي تضرب إلى لون فيه صفرة، وهذا يدل على أن النار مظلمة، لهبها وجهرها وشرها، وأنها سوداء، كريمة المراءى^(١)، شديدة الحرارة، نسأل الله العافية منها [من الأعمال المقربة منها].

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾

﴿٣٥ - ٤٠﴾ ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ﴾ * ولا يؤذن لهم فيعتذرون * ويل يومئذ للمكذبين *

(١) في ب: كريمة المنظر.

(٢) في ب: ثواب.

(٣) في ب: إلى جنات النعيم.

(٤) في ب: حرماً وحرماناً.

الظلمات، ولا بعد الصدق الذي قامت الأدلة والبراهين على صدقه إلا الكذب الصراح والإفك المبين^(١)، الذي لا يليق إلا بمن يناسبه.

فتبأ لهم، ما أعماهم! وويحاً لهم، ما أخسرهم وأشقاهم!

نسأل الله العفو والعافية [إنه جواد كريم. تمت].

تفسير سورة عم وهي مكية

﴿١-٥﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ عم يتساءلون * عن النبأ العظيم * الذي هم فيه مختلفون * كلا سيعلمون * ثم كلا سيعلمون * أي: عن أي شيء يتساءل المكذبون بآيات الله؟ ثم بين ما يتساءلون عنه، فقال: ﴿عن النبأ العظيم * الذي هم فيه مختلفون﴾ أي: عن الخبر العظيم، الذي طال فيه نزاعهم، وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد، وهو النبأ الذي لا يقبل الشك ولا يدخله الريب، ولكن المكذبون ببقاء ربهم لا يؤمنون، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم.

ولهذا قال: ﴿كلا سيعلمون * ثم كلا سيعلمون﴾ أي: سيعلمون إذا نزل بهم العذاب ما كانوا به يكذبون، حين يدعون إلى نار جهنم دغا، ويقال لهم: ﴿هذه النار التي كنتم بها تكذبون﴾.

ثم بين^(٢) تعالى النعم والأدلة الدالة على صدق ما أخبرت^(٣) به الرسل، فقال:

﴿٦-١٦﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ

مهاداً * والجبال أوتاداً * وخلقناكم أزواجاً * وجعلنا نومكم سباتاً * وجعلنا الليل لباساً * وجعلنا النهار معاشاً * وبنينا فوقكم سبعا شداداً * وجعلنا سراجاً وهاجاً * وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً * لنخرج به حبا ونباتاً * وجنات النافاف * أي: أما أنعمنا عليكم بنعم جليلة، فجعلنا لكم الأرض مهاداً^(٤) أي: مهيأة لكم

لكم ولمصالحكم، من الحروث والمسكن والسبل. والجبال أوتاداً تمسك الأرض لئلا تضطرب بكم وتميد، وخلقناكم أزواجاً^(٥) أي: ذكورا وإناثا من جنس واحد، ليسكن كل منهما إلى الآخر، فتكون^(٥) المودة والرحمة، وتنشأ عنهما الذرية، وفي ضمن هذا الامتنان، بلذة النكح.

﴿وجعلنا نومكم سباتاً﴾ أي: راحة لكم، وقطعا لأشغالكم، التي متى تمادت بكم أضرت بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يغشى الناس، لتقطع^(٦) حركاتهم المضارة، وتحصل راحتهم النافعة.

﴿وبنينا فوقكم سبعا شداداً﴾ أي: سبع سموات، في غاية القوة، والصلابة والشدة، وقد أمسكها الله بقدرته، وجعلها سقفا للأرض، فيها عدة منافع لهم، ولهذا ذكر من منافعها الشمس، فقال: ﴿وجعلنا سراجاً وهاجاً﴾ نيه بالسراج على النعمة بنورها، الذي صار كالضرورة للخلق، وبالهواج الذي فيه الحرارة على حرارتها وما فيها من المصالح^(٧).

﴿وأنزلنا من المعصرات﴾ أي: السحاب ماء ثجاجاً^(٨) أي: كثيراً جداً.

(١) في ب: الذي قامت عليه الأدلة والبراهين القاطعة إلا الإفك الصراح والكذب المبين.

(٢) في ب: ثم ذكر.

(٣) في ب: على ما جاءت به الرسل.

(٤) في ب: مذلة.

(٥) في ب: فتكون.

(٦) في ب: لتسكن.

(٧) في ب: الذي صار ضرورة للخلق، وبالهواج وهي: حرارتها على ما فيها من الإنضاج والمنافع.

(٨) في ب: الجلية.



﴿لنخرج به حبا﴾ من بُرّ وشعير، وذرة وأرز، وغير ذلك مما يأكله آدميون.

﴿ونباتاً﴾ يشمل سائر النبات، الذي جعله الله قوتا لمواشيهم، ﴿وجنات النافاف﴾ أي: بساتين ملتفة، فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة.

فالذي أنعم عليكم بهذه النعم العظيمة^(٨)، التي لا يقدر قدرها، ولا يحصى عدها، كيف [تكفرون به من البعث والنشور؟! أم كيف تستعينون بنعمه على معاصيه وتحذونها؟!]

﴿١٧-٣٠﴾ ﴿إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً * يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً * وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً * وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً * إِنْ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَاداً * لِلطَّاغِينَ مَاباً * لَا يَشِينُ فِيهَا أَحْقَاباً * لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَاباً * إِلَّا

جلودهم، ولا ما يدفع ظماهم. ﴿٣١-٣٦﴾ **﴿إن للمتقين مفازاً﴾** * حدائق وأعناباً * وكواعب أتراباً * وكأساً دهاقاً * لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاًباً * جزاء من ربك عطاء حساباً * لما ذكر حال المجرمين، ذكر مال المتقين، فقال: **﴿إن المتقين مفازاً﴾** أي ^(١): الذين اتقوا سخط ربهم، بالتمسك بطاعته، والانكفاف عما يكرهه ^(٢) فلمهم مفاز ومنجى، وبُعْد عن النار، وفي ذلك المفاز لهم لأصناف الأشجار الزاهية، في الثمار التي تتفجر بين خلالها الأنهار، وخص الأعناب لشرفه وكثرته في تلك الحدائق.

ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس **﴿كواعب﴾**: وهي: النواهد اللاتي لم تنكسر ثديين من شبابهن، وقوتهن، ونضارتهن ^(٣). **﴿والأتراب﴾**: اللاتي على سن واحد متقارب، ومن عادة الأتراب أن يكنّ متأكفات متعاشرات، وذلك السن الذي هن فيه ثلاث وثلاثون سنة، في أعدل سن الشباب ^(٤). **﴿وكأساً دهاقاً﴾** أي: مملوءة من رحيق، لذة للشاربين، **﴿لا يسمعون فيها لغواً﴾** أي: كلاماً لا فائدة فيه **﴿ولا كذاًباً﴾** أي: إثمًا. كما قال تعالى: **﴿لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً﴾** إلا قليلاً سلاماً سلاماً.

ولإنما أعطاهم الله هذا الشواب الجزيل [من فضله وإحسانه] **﴿جزاء من ربك﴾** لهم **﴿عطاء حساباً﴾** أي: بسبب أعمالهم التي وفقهم الله لها، وجعلها ثمناً لجنته ونعيمها ^(٥).

﴿وكذبوا بآياتنا كذاًباً﴾ أي: كذبوا بها تكديباً واضحاً صريحاً وجاءتهم البينات فعاندوها.

﴿وكل شيء﴾ من قليل وكثير، وخير وشر **﴿أحصيناه كتاباً﴾** أي: كتبناه ^(٦) في اللوح المحفوظ، فلا يخشى المجرمون أننا عذبناهم بذنوب لم يعملوها، ولا يحسبوا أنه يضيع من أعمالهم شيء، أو ينسى منها مثقال ذرة، كما قال تعالى: **﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً﴾**.

﴿فذوقوا﴾ أيها المكذبون هذا العذاب الأليم والخزي الدائم **﴿فلن نزيدكم إلا عذاباً﴾** وكل وقت وحين يزداد عذابهم [وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها].



حيماً وغساقاً * جزاء وفاقاً * إنهم كانوا لا يرجون حساباً * وكذبوا بآياتنا كذاًباً * فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذاباً * ذكر تعالى ما يكون في يوم القيامة الذي يتساءل عنه المكذبون، ويحجده المعاندون، أنه يوم عظيم، وأن الله جعله **﴿ميقاتاً﴾** للخلق **﴿ينفخ في الصور فتأتون أفواجا﴾** ويجري فيه من الزعازع والقلال ما يشيب له الوليد، وتنزع له القلوب، فتسير الجبال، حتى تكون كالهباء المبيوث، وتشقق ^(١) السماء حتى تكون أبواباً، ويفصل الله بين الخلائق بحكمه الذي لا ييجور، وتوقد نار جهنم التي أرصدها الله وأعدّها للطاغين، وجعلها مشوى لهم ومأباً، وأنهم يلبثون فيها أحقاباً كثيرة، و **﴿الحقْب﴾** على ما قاله كثير من المفسرين: ثمانون سنة. وهم إذا وردوها ^(٢) **﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً﴾** أي: لا ما يبرد

(١) في ب: وتنشق.

(٢) في ب: فإذا وردوها.

(٣) في ب: أثبتناه.

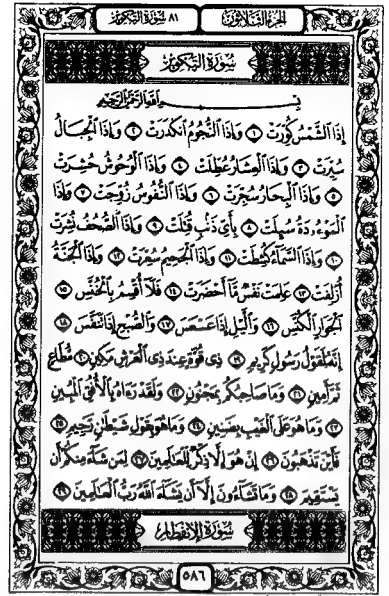
(٤) كذا في ب، وفي أ: فقال: إن المتقين.

(٥) في ب: عن معصيته.

(٦) كذا في ب، وفي أ: وهي الناهد التي لم ينكسر ثديها من شبابه ونضارتها وقوتها.

(٧) في ب: أعدل ما يكون من الشباب.

(٨) في ب: وجعلها سبباً للوصول إلى كرامته.



وأذهل أفئدتهم الفزع، وغلب عليهم التأسف [واستولت عليهم] الحسرة.

يقولون أي: الكفار في الدنيا، على وجه التكذيب: ﴿إِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخْرَةً﴾ أي: بالية فئاتا.

﴿قَالُوا تِلْكَ إِذْ أَكَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ أي: استبعدوا أن يعثهم الله ويعيدهم بعدما كانوا عظاماً نخرة، جهلاً [منهم] بقدرة الله، وتجزؤا عليه.

قال الله في بيان سهولة هذا الأمر عليه: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ ينفخ فيها في الصور.

فإذا خللت كلهم «بالساهرة» أي: على وجه الأرض، قيام ينظرون، فيجمعهم الله ويقضي بينهم بحكمه العدل ويجازيهم.

﴿١٥ - ٢٦﴾ «هل أتاك حديث موسى * إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى * أذهب إلى فرعون إنه طغى * فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى * فأراه الآية الكبرى * فكذب وعصى * ثم أدبر يسمي * فحشر فننادى * فقال أنا ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة ربكم الأعلى * فأخذه الله نكال الآخرة

والأولى * إن في ذلك لعبرة لمن يخشى» يقول [الله] تعالى لنبيه محمد ﷺ: «هل أتاك حديث موسى» وهذا الاستفهام عن أمر عظيم متحقق وقوعه.

أي: هل أتاك حديثه [إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى] وهو المحل الذي كلمه الله فيه، وامتنن عليه بالرسالة، واختصه بالوحي والاجتباء^(١) فقال له: «أذهب إلى فرعون إنه طغى» أي: فانه عن طغيانه وشركه وعصيانه، يقول لين، وخطاب لطيف، لعله «يتذكر أو يخشى»

«فقل» له: «هل لك إلى أن تزكى» أي: هل لك في خصلة حميدة، وعمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب، وهي أن تزكى نفسك وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلى الإيمان والعمل الصالح؟

«وأهديك إلى ربك» أي: أدلك عليه، وأبين لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه.

«فتخشى» الله إذا علمت الصراط المستقيم، فامتنع فرعون عما دعاه إليه موسى.

﴿فأراه الآية الكبرى﴾ أي: جنس الآية الكبرى، فلا ينافي تعددها «فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين». «فكذب» بالحق «وعصى» الأمر، «ثم أدبر يسمي» أي: يجتهد في مبارزة الحق ومحاربته، «فحشر» جنوده أي: جمعهم «فننادى * فقال لهم: أنا ربكم الأعلى» فأذعنوا له، وأقروا بباطله حين استخفهم، «فأخذه الله نكال الآخرة والأولى» أي: صارت عقوبته^(٢) دليلاً وزاجراً، ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة، «إن في ذلك لعبرة لمن يخشى» فإن من

يخشى الله، هو الذي ينتفع بالآيات والعبر، فإذا رأى عقوبة فرعون، عرف أن كل من تكبر وعصى، وبارز الملك الأعلى، عاقبه في الدنيا والآخرة، وأما من ترحلت خشية الله من قلبه، فلو جاءته كل آية لم يؤمن [بها].

﴿٢٧ - ٣٣﴾ «أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاه * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها * متاعاً لكم ولأنعامكم» يقول تعالى مبيناً دليلاً واضحاً لنكري البعث ومستعدي إعادة الله للأجساد:

«أنتم» أيها البشر «أشد خلقاً أم السماء» ذات الجرم العظيم، والخلق القوي، والارتفاع الباهر «بناها» الله، «رفع سمكها» أي: جرمها وصورتها، «فسواها» بإحكام وإتقان، يحير العقول، ويذهل الألباب، «وأغطش ليلها» أي: أظلمه، فعمت الظلمة [جميع] أرجاء السماء، فأظلم وجه الأرض، «وأخرج ضحاها» أي: أظهر فيه النور العظيم، حين أتى بالشمس، فامتد^(٣) الناس في مصالح دينهم ودنياهم.

«والأرض بعد ذلك» أي: بعد خلق السماء «دحاه» أي: أودع فيها منافعها.

وفسر ذلك بقوله: «أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها» أي: ثبتها في الأرض.

فَدَخِيَ الأرض بعد خلق السماء، كما هو نص هذه الآيات [الكريمة].

وأما خلق نفس الأرض، فمتقدم على خلق السماء كما قال تعالى: «قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين» إلى أن قال: «ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا

(١) في ب: وابتعثه بالوحي واجتبه.

(٢) في ب: أي جعل الله عقوبته.

(٣) في ب: فانتشر.

طاعين^(١).

فالذي خلق السماوات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام، والأرض الكثيفة الغبراء، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم، لا بد أن يبعث الخلق المكلفين، فيجازيهم على أعمالهم، فمن أحسن فله الحسن، ومن أساء فلا يلومن إلا نفسه، ولهذا ذكر بعد هذا القيام الجزء^(٢)، فقال:

﴿٣٤-٤١﴾ فإذا جاءت الطامة الكبرى * يوم يتذكر الإنسان ما سعى * وبرزت الجحيم لمن يرى * فأما من طفئ * وأثر الحياة الدنيا * فإن الجحيم هي المأوى * وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هي المأوى﴾ أي: إذا جاءت القيامة الكبرى، والشدة العظمى، التي يهون عندها كل شدة، فحينئذ يذهل الوالد عن ولده، والصاحب عن صاحبه [وكل محب عن حبيبه]. و ﴿يتذكر الإنسان ما سعى﴾ في الدنيا، من خير وشر، فيتمنى زيادة مثقال ذرة في حسناته، ويغتمه ويحزن لزيادة مثقال ذرة في سيئاته.

ويعلم إذ ذاك أن مادة ربحه وخسرانه ما سعه في الدنيا، وينقطع كل سبب ووصلة كانت في الدنيا، سوى الأعمال.

﴿وبرزت الجحيم لمن يرى﴾ أي: جعلت في البراز، ظاهرة لكل أحد، قد برزت^(٣) لأهلها، واستعدت لأخذهم، منتظرة لأمر ربها.

﴿فأما من طفئ﴾ أي: جاوز الحد، بأن تجرأ على المعاصي الكبار، ولم يقتصر على ما حده الله.

﴿وأثر الحياة الدنيا﴾ على الآخرة،

فصار سعيه لها، ووقته مستغرقاً في حظوظها وشهواتها، ونسي الآخرة وترك العمل لها.

﴿فإن الجحيم هي المأوى﴾ [له] أي: المقر والسكن لمن هذه حاله، ﴿وأما من خاف مقام ربه﴾ أي: خاف القيام عليه ومجازاته بالعدل، فأثر هذا الخوف في قلبه. فنهى نفسه عن هواها الذي يقيد^(٤)ها عن طاعة الله، وصار هواه تبعاً لما جاء به الرسول، وجاهد الهوى والشهوة الصاذين عن الخير، ﴿فإن الجنة﴾ [المشتملة على كل خير وسرور ونعيم] هي المأوى لمن هذا وصفه.

﴿٤٢-٤٦﴾ يسألونك عن الساعة أتدري ما هي * فيم أنت من ذكراها * إلى ربك منتهاها * إنما أنت منذر من يخشاها * كأنهم يوم يرونها * يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ أي: يسألك المتعنتون المكذبون بالبعث عن الساعة متى وقوعها و﴿إيان مرساها﴾ فأجابهم الله بقوله: ﴿فيم أنت من ذكراها﴾ أي: ما الفائدة لك ولهم في ذكرها ومعرفة وقت مجيئها؟ فليس تحت ذلك نتيجة، ولهذا لما كان علم العباد للساعة ليس لهم فيه مصلحة دينية ولا دنيوية، بل المصلحة في خوفه عليهم، طوى علم ذلك عن جميع الخلق، واستأثر بعلمه فقال:

﴿إلى ربك منتهاها﴾ أي: إليه ينتهي علمها، كما قال في الآية الأخرى: ﴿يسألونك عن الساعة إيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغته يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون^(٥)﴾

﴿إنما أنت منذر من يخشاها﴾ أي:

إنما نذراتك [نفعها] لمن يخشى مجيء الساعة، ويخاف الوقوف بين يديه، فهم الذين لا يهمهم سوى الاستعداد لها والعمل لأجلها.

وأما من لا يؤمن بها، فلا يبالي به ولا بتعنته، لأنه تعنت مبني على العناد والتكذيب، وإذا وصل إلى هذه الحال، كان الإجابة عنه عبثاً، ينزه الحكيم عنه [تحت] والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة عبس وهي مكية

﴿١-١٠﴾ بسم الله الرحمن الرحيم عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزكى * أو يذكر فتنتفه الذكرى * أما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى * وأما من جاءك يسعى * وهو يخشى * فأنت عنه تلهى﴾ وسبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي ﷺ ويتعلم منه.

وجاءه رجل من الأغنياء، وكان ﷺ حريصاً على هداية الخلق، فقال ﷺ [وأصغى] إلى الغني، وصد عن الأعمى الفقير، رجاء لهداية ذلك الغني، وطمعاً في تزكيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف، فقال: ﴿عبس﴾ [أي: في وجهه] ﴿وتولى﴾ في بدنه، لأجل مجيء الأعمى له، ثم ذكر الفائدة في الإقبال عليه، فقال: ﴿وما يدريك لعله﴾ أي: الأعمى ﴿يزكى﴾ أي: يتطهر عن الأخلاق الرذيلة، ويتصف بالأخلاق الجميلة؟

﴿أو يذكّر فتنتفه الذكرى﴾ أي: يتذكر ما ينفعه، فيعمل^(٦) بتلك الذكرى.

(١) وقع هنا سبق قلم من الشيخ - رحمه الله - فقال: إلى أن قال «ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات» وصواب ذلك ما أثبت.

(٢) في ب: ذكر بعد هذا قيام الساعة ثم الجزء.

(٣) في ب: هيث.

(٤) في ب: الذي يصدها.

(٥) وردت الآية ناقصة في وسطها من نسخة (أ) ووردت ناقصة من آخرها من نسخة ب فأتتمتها.

(٦) في ب: فينتفع.

الأشجار الكثيرة الملتفة، «وفاكهة وأبنا» الفاكهة: ما يتفكه فيه الإنسان، من تين وعنب وخوخ ورمان، وغير ذلك.

والآب: ما تأكله البهائم والأنعام، ولهذا قال: «متاعاً لكم ولأنعامكم» التي خلقها الله وسخرها لكم، فمن نظر في هذه النعم، أوجب له ذلك شكر ربه، وبذل الجهد في الإنابة إليه، والإقبال على طاعته، والتصديق بأخباره.

﴿٣٣-٤٢﴾ «فإذا جاءت

الصاخة * يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبه وبنيه * لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه * وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها

قتره * أولئك هم الكفرة الفجرة»

أي: إذا جاءت صيحة القيامة، التي

تصخ لهولها الأسماع، وتزعج لها

الأفئدة يومئذ، مما يرى الناس من

الأحوال وشدة الحاجة لسالف

الأعمال، «يفر المرء» من أعز الناس

إليه، وأشفقهم لديه، «من أخيه *

وأمه وأبيه * وصاحبه» أي: زوجته

«وبنيه» وذلك لأنه «لكل امرئ

منهم يومئذ شأن يغنيه» أي: قد

أشغلته نفسه، واهتم لفكاها، ولم يكن

له التفات إلى غيرها، فحينئذ ينقسم

الخلق إلى فريقين: سعداء وأشقياء،

فأما السعداء، فوجوههم [يومئذ]

«مسفرة» أي: قد ظهر فيها السرور

والبهجة، من ما عرفوا من نجاتهم،

وفوزهم بالنعيم، «ضاحكة

مستبشرة * ووجوه» الأشقياء [يومئذ]

عليها غبرة * ترهقها» أي: تغشاها

«قتره» فهي سوداء مظلمة مدلهمة،

قد آيست من كل خير، وعرفت

شقائها وهلاكها.

«أولئك» الذين بهذا الوصف «هم

الكفرة الفجرة» أي: الذين كفروا

بنعمة الله، وكذبوا بآيات الله،

وتجروا على عماره.

«بأيدي سفرة»: وهم الملائكة [الذين هم] السفراء بين الله وبين عباده، «كرام»: أي: كثيري الخير والبركة، «بررة»: قلوبهم - أعمالهم.

وذلك كله حفظ من الله لكتابه، أن

يجعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة

الكرام الأقوياء الأنقياء، ولم يجعل

للسياطين عليه سبيلاً، وهذا مما يوجب

الإيمان به وتلقيه بالقبول، ولكن مع

هذا أبى الإنسان إلا كفوراً، ولهذا قال

تعالى: «قتل الإنسان ما أكفره»

لنعمة الله، وما أشد معاندته للحق

بعدما تبين، وهو ما هو؟ هو من

أضعف الأشياء، خلقه الله من ماء

مهيّن، ثم قدر خلقه، وسواه بشراً

سويًا، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة.

«ثم السبيل يسره»: أي: يسر له

الأسباب الدينية والدنيوية، وهذه

السبيل، [وبينه] وامتحنه بالأمر

والنهي، «ثم أماته فأقبره»: أي: أكرمه

بالدفن، ولم يجعله كسائر الحيوانات

التي تكون جيفها على وجه الأرض،

«ثم إذا شاء أنشره»: أي: بعثه بعد

موته للجزاء، فالله هو المنفرد بتدبير

الإنسان وتصريفه بهذه التصاريف، لم

يشاركه فيه مشارك، وهو - مع هذا -

لا يقوم بما أمره الله، ولم يقض ما

فرضه عليه، بل لا يزال مقصراً تحت

الطلب.

ثم أرشده تعالى إلى النظر والتفكير

في طعامه، وكيف وصل إليه بعدما

تكررت عليه طبقات عديدة، ويسره

له، فقال: «فلينظر الإنسان إلى

طعامه * أنا صببنا الماء صباً» أي:

أنزلنا المطر على الأرض بكثرة، «ثم

شققتنا الأرض» للنبات «شقاً * فأنبتنا

فيها» أصنافاً مصنفة من أنواع الأطعمة

اللذيذة، والأقوات الشهية «حباً»

وهذا شامل لسائر الحبوب على اختلاف

أصنافها، «وعنباً وقضباً»: وهو

القت، «وزيتوناً ونخلًا» وخص هذه

الأربعة لكثرة فوائدها ومنافعها.

«وحدات غلباً» أي: بساين فيها

وهذه فائدة كبيرة، هي المقصودة من بعثة الرسل، ووعظ الوعاظ، وتذكير المذكرين، فأقبال على من جاء بنفسه مفتقراً لذلك منك^(١)، هو الأليق الواجب، وأما تصديقك وتعرضك للغني المستغني الذي لا يسأل ولا يستفتي لعدم رغبته في الخير، مع تركك من هو أهم منه، فإنه لا ينبغي لك، فإنه ليس عليك أن لا يزكى، فلو لم تنزك، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر.

فدل هذا على القاعدة المشهورة،

أنه: «لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم،

ولا مصلحة متحققة لمصلحة متوهمة»،

وأنه ينبغي الإقبال على طالب العلم،

المفتقر إليه، الحريص عليه أزيد من غيره.

﴿١١-٣٢﴾ «كلا إنها تذكرة *

فمن شاء ذكره * في صحف

مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي

سفرة * كرام بررة * قتل الإنسان ما

أكفره * من أي: شيء خلقه * من

نطفة خلقه فقدّره * ثم السبيل

يسره * ثم أماته فأقبره * ثم إذا شاء

أنشره * كلا لما يقض ما أمره *

فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا

الماء صباً * ثم شققنا الأرض شقاً *

فأنبتنا فيها حباً * وعنباً وقضباً *

وزيتوناً ونخلًا * وحدائق غلباً *

وفاكهة وأبنا * متاعاً لكم ولأنعامكم»

يقول تعالى: «كلا إنها تذكرة»: أي:

حقاً إن هذه الموعظة تذكرة من الله،

يذكر بها عباده، ويبين لهم في كتابه ما

يحتاجون إليه، ويبين الرشد من الغي،

فإذا تبين ذلك «فمن شاء ذكره»: أي:

عمل به، كقوله تعالى: «وقل الحق من

ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء

فليكفر».

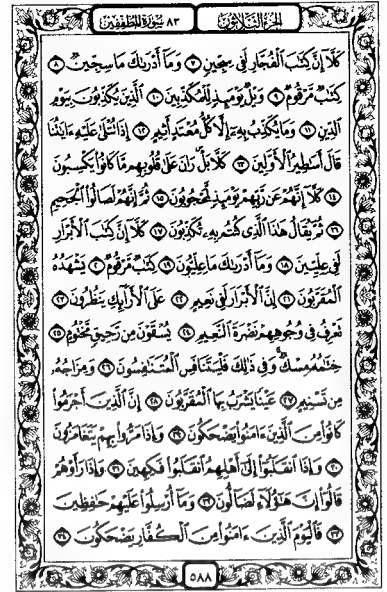
ثم ذكر محل هذه التذكرة وعظمها

ورفع قدرها، فقال: «في صحف

مكرمة * مرفوعة» القدر والرتبة

«مطهرة» [من الآفاق و] عن أن تنالها

أيدي الشياطين أو يسترقوها، بل هي



لها سيران .

سير إلى جهة المغرب مع باقي الكواكب والأفلاك^(١)، وسير معاكس لهذا من جهة المشرق تختص به هذه السبعة دون غيرها .

فأقسم الله بها في حال خنوسها أي : تأخرها، وفي حال جريانها، وفي حال كنوسها أي : استتارها بالنهار، ويحتمل أن المراد بها جميع النجوم الكواكب السيارة وغيرها .

﴿والليل إذا عسعس﴾ أي : أدبر، وقيل : أقبل، ﴿والصبح إذا تنفس﴾ أي : بانت^(٢) علامت الصباح، وانشق النور شيئاً فشيئاً حتى يستكمل وتطلع الشمس، وهذه آيات عظام، أقسم الله بها على علو سند القرآن^(٣) وجلالته، وحفظه من كل شيطان رجيم، فقال : ﴿إنه لقول رسول كريم﴾ وهو جبريل عليه السلام، نزل به من الله تعالى، كما قال تعالى : ﴿وانه لسنزيل رب العالمين﴾ نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين ﴿

ووصفه الله بالكريم لكرم أخلاقه،

وكثرة خصاله الحميدة، فإنه أفضل الملائكة، وأعظمهم رتبة عند ربه، ﴿ذي قوة﴾ على ما أمره الله به .

ومن قوته أنه قلب ديار قوم لوط بهم فأهلكهم .

﴿عند ذي العرش﴾ أي : جبريل مقرب عند الله، له منزلة رفيعة، وخصيصة من الله اختصه بها، ﴿مكن﴾ أي : له مكانة ومنزلة فوق منازل الملائكة كلهم .

﴿مطاع ثم﴾ أي : جبريل مطاع في الملا الأعلى، لديه^(٤) من الملائكة المقربين جنود، نافذ فيهم أمره، مطاع رايه، ﴿أمين﴾ أي : ذو أمانة وقيام بما أمر به، لا يزيد ولا ينقص، ولا يتعدى ما حُد له، وهذا [كله] يدل على شرف القرآن عند الله تعالى، فإنه بعث به هذا الملك الكريم، الموصوف بتلك الصفات الكاملة . والعادة أن الملوك لا ترسل الكريم عليها إلا في أهم المهمات، وأشرف الرسائل .

ولما ذكر فضل الرسول الملكي الذي جاء بالقرآن، ذكر فضل الرسول البشري الذي نزل عليه القرآن، ودعا إليه الناس، فقال : ﴿وما صاحبكم﴾ وهو محمد ﷺ ﴿بمجنون﴾ كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته، المتقولون عليه من الأقوال، التي يريدون أن يُطفئوا بها ما جاء به ما شاؤوا وقدروا عليه، بل هو أكمل الناس عقلاً، وأجلهم رأياً، وأصدقهم لهجة .

﴿ولقد رآه بالأفق المبين﴾ أي : رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام بالأفق البين، الذي هو أعلى ما يلوح للبصر .

﴿وما هو على الغيب بضنين﴾ أي : وما هو على ما أوحاه الله إليه بمتهم

يزيد فيه أو ييقص أو يكتم بعضه، بل هو ﷺ أمين أهل السماء وأهل الأرض، الذي بلغ رسالات ربه البلاغ المبين، فلم يشح بشيء منه، عن غني ولا فقير، ولا رئيس ولا مرؤوس، ولا ذكر ولا أنثى، ولا حضري ولا بدوي، ولذلك بعثه الله في أمة أمية، جاهلة جهلاء، فلم يمت ﷺ حتى كانوا علماء ربانيين، وأحباراً متفرسين، إلهم الغاية في العلوم، وإلهم المنتهى في استخراج الدقائق والفهوم، وهم الأساتذة وغيرهم قصاره أن يكون من تلاميذهم .

﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ لما ذكر جلالة كتابه^(٥) وفضله بذكر الرسولين الكريمين، اللذين وصل إلى الناس على أيديهما، وأثنى الله عليهما بما أثنى، دفع عنه كل آفة ونقص مما يقدح في صدقه، فقال : ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾ أي : في غاية البعد عن الله وعن قربه، ﴿فأين تذهبون﴾ أي : كيف يخطر هذا ببالكم، وأين عزبت عنكم أذهانكم؟ حتى جعلتم الحق الذي هو في أعلى درجات الصدق بمنزلة الكذب، الذي هو أنزل ما يكون [وأردل] وأسفل الباطل؟ هل هذا إلا من انقلاب الحقائق .

﴿إن هو إلا ذكر للعالمين﴾ يتذكرون به ربهم، وما له من صفات الكمال، وما ينزه عنه من النقائص والردائل [والأمثال]، ويتذكرون به الأوامر والنواهي وحكمها، ويتذكرون به الأحكام القدرية والشرعية والجزائية، وبالجملة، يتذكرون به مصالح الدارين، وينالون بالعمل به السعادات .

﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾ بعدما

(١) في ب : مع سائر الكواكب والفلك .

(٢) في ب : الكواكب .

(٣) في ب : بدت .

(٤) في ب : أقسم الله عليها لقوة سند القرآن .

(٥) في ب : لأنه .

(٦) كذا في ب، وفي أ : جلالة .

تبين الرشد من الغي، والهدى من الضلال.

﴿وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾ أي: فمشيئته نافذة، لا يمكن أن تعارض أو تمنع.

وفي هذه الآية وأمثالها، رد على فرقتي القدرة النفاة، والقدرة المجبرة كما تقدم مثلها [والله أعلم والحمد لله].

تفسير سورة الانفطار [وهي] مكية

﴿١-٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم إذا السماء انفطرت * وإذا البحار فجرت * وإذا القبور بعثرت * علمت نفس ما قدمت وأخرت﴾ أي: إذا انشقت السماء وانفطرت، وانتشرت^(١) نجومها، وزال جمالها، وفجرت البحار فصارت بحراً واحداً، وبعثت القبور بأن أخرجت^(٢) ما فيها من الأموات، وحشروا للموقف بين يدي الله للجزاء على الأعمال.

فحينئذ ينكشف الغطاء، ويزول ما كان خفياً، وتعلم كل نفس ما معها من الأرباح والخسائر، هنالك بعض الظالم على يديه إذا رأى أعماله باطلة، وميزانه قد خف، والمظالم قد تداعت إليه، والسيئات قد حضرت لديه، وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدي^(٣).

و [هنالك] يفوز المتقون، المقدمون لصالح الأعمال بالفوز العظيم، والنعيم المقيم، والسلامة من عذاب الجحيم.

﴿٦-١٢﴾ ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم * الذي خلقك فسواك فعدلك * في أي: صورة ما شاء ركبك * كلابل تكذبون

بالدين * وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون﴾ يقول تعالى معاتباً للإنسان المقصر في حق ربه، المتجريء على مساخطه^(٤): ﴿يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم﴾ أي: أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم؟ أم احتقاراً منك لعذابه؟ أم عدم إيمان منك بجزائه؟

أليس هو الذي خلقك فسواك؟ في أحسن تقويم؟ ﴿فعدلك﴾ وركبك تركيباً قوياً معتدلاً، في أحسن الأشكال، وأجل الهيئات، فهل يليق بك أن تكفر نعمة المنعم، أو تجحد إحسان المحسن؟

إن هذا إلا من جهلك وظلمك وعنادك وغشمك، فاجد الله أن لم يجعل صورتك صورة كلب أو حمار، أو نحوهما من الحيوانات [فلماذا قال تعالى ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾

[وقوله: ﴿كلابل تكذبون بالدين﴾ أي: مع هذا الوعظ والتذكير، لا تزالون مستمرين على التكذيب بالجزاء.

وانتم لا بدان تحاسبوا على ما عملتم، وقد أقام الله عليكم ملائكة كراماً يكتبون أقوالكم وأفعالكم ويعلمون أفعالكم، ودخل في هذا أفعال القلوب، وأفعال الجوارح، فاللائق بكم أن تكرمهم وتحملوهم وتحترمهم.

﴿١٣-١٩﴾ ﴿إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم * يصلونها يوم الدين * وما هم عنها بغائبين * وما أدراك ما يوم الدين * يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ المراد بالأبرار، القاتمون بحقوق الله وحقوق عباده، الملائمون

﴿١٣-١٩﴾ ﴿إن الأبرار لفي نعيم * وإن الفجار لفي جحيم * يصلونها يوم الدين * وما هم عنها بغائبين * وما أدراك ما يوم الدين * يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله﴾ المراد بالأبرار، القاتمون بحقوق الله وحقوق عباده، الملائمون

للبر، في أعمال القلوب وأعمال الجوارح، فهؤلاء جزاؤهم النعيم في القلب والروح والبدن، في دار الدنيا [وفي دار البرزخ و] في دار القرار.

﴿وإن الفجار﴾ الذين قصرُوا في حقوق الله وحقوق عباده، الذين فجرت قلوبهم، ففجرت أعمالهم ﴿لفي جحيم﴾ أي: عذاب اليم، في دار الدنيا و [دار البرزخ و] في دار القرار يصلونها﴾ ويعذبون [بها] أشد العذاب ﴿يوم الدين﴾ أي: يوم الجزاء على الأعمال.

﴿وما هم عنها بغائبين﴾ أي: بل هم ملازمون لها، لا يخرجون منها. ﴿وما أدراك ما يوم الدين﴾ ثم ما أدراك ما يوم الدين؟ ففي هذا تهويل لذلك اليوم الشديد الذي يحير الأذهان.

﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً﴾ ولو كانت لها قريبة (أو حبيبة) مصافية، فكل مشغل بنفسه لا يطلب الفكاك لغيرها.

﴿والأمر يومئذ لله﴾ فهو الذي يفصل بين العباد، ويأخذ للمظلوم حقه من ظلمه [والله أعلم].

(١) في ب: وتناثر.

(٢) في ب: بأن أخرج.

(٣) في ب: إذا رأى ما قدمت يده وأيقن بالشقاء الأبدي والعذاب السرمدي.

(٤) في ب: المقصر في حقه المتجريء على معاصيه.

أولى هذا الوعيد من المطففين .

﴿لفي سجين﴾ ثم فسر ذلك بقوله :
﴿وما أدراك ما سجين﴾ * كتاب مرقوم * أي : كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة ، والسجين : المحل الضيق الضنك ، و «سجين» ضد «عليين» الذي هو محل كتاب الأبرار ، كما سيأتي .

وقد قيل : إن «سجين» هو أسفل الأرض السابعة ، مأوى الفجار ومستقرهم في معادهم .

﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾ ثم بين المكذبين بأنهم ^(١٠) ﴿الذين يكذبون بيوم الدين﴾ أي : يوم الجزاء ، يوم يدين الله فيه الناس بأعمالهم .

﴿وما يكذب به إلا كل معتد﴾ على محارم الله ، متعد من الحلال إلى الحرام .

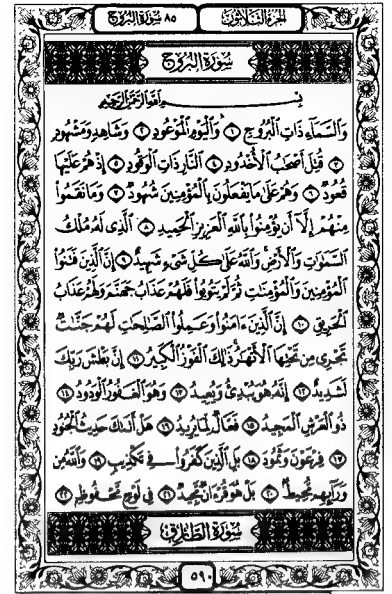
﴿أثيم﴾ أي : كثير الإثم ، فهذا الذي يحمله عدوانه على التكذيب ، ويحمله [عدوانه على التكذيب ويوجب له] كبره رد الحق ، ولهذا ﴿إذا تتلى عليه آياتنا﴾ الدالة على الحق ، و [على] صدق ما جاءت به رسله ، كذبا وعاندها ، ﴿وقال﴾ : هذا «أساطير الأولين» أي : من ترهات المتقدمين ، وأخبار الأمم الغابرين ، ليس من عند الله تكبراً وعناداً .

وأما من أنصف ، وكان مقصوده الحق المبين ، فإنه لا يكذب بيوم الدين ، لأن الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة ، ما يجعله حق اليقين ، وصار لقلوبهم مثل الشمس للأبصار ^(١١) ، بخلاف من ران على قلبه كسبه ، وغطته معاصيه ، فإنه محجوب عن الحق ، ولهذا جوزي على ذلك ، بأن حجب عن الله ، كما حجب قلبه في الدنيا عن آيات الله ، ﴿ثم إنهم﴾ مع هذه العقوبة البليغة ﴿لصالوا الجحيم﴾ ثم يقال لهم توبيخاً

ودلت الآية الكريمة ، على أن الإنسان كما يأخذ من الناس الذي له ، يجب عليه أن يعطيهم كل ما لهم من الأموال والعاملات ، بل يدخل في [عموم هذا] ^(١٢) الحجج والمقاتلات ، فإنه كما أن المتناظرين قد جرت العادة أن كل واحد [منهما] يحرص على ماله من الحجج ، فيجب عليه أيضاً أن يبين ما لخصمه من الحجج ^(١٣) [التي لا يعلمها] ، وأن ينظر في أدلة خصمه كما ينظر في أدلته هو ، وفي هذا الموضع يعرف إنصاف الإنسان من تعصبه واعتسافه ، وتواضعه من كبره ، وعقله من سفهه ، نسأل الله التوفيق لكل خير .

ثم توعّد تعالى المطففين ، وتعجب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه ، فقال : ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون﴾ * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿فالذي جرأهم على التطفيف عدم إيمانهم باليوم الآخر ، وإلا فلو آمنوا به ، وعرفوا أنهم يقومون بين يدي الله ، يحاسبهم ^(١٤) على القليل والكثير ، لأقلعوا عن ذلك وتابوا منه .

﴿٧- ١٧﴾ ﴿كلا إن كتاب الفجار لفي سجين﴾ * وما أدراك ما سجين * كتاب مرقوم * ويل يومئذ للمكذبين * الذي يكذبون بيوم الدين * وما يكذب به إلا كل معتد أثيم * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين * كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون * كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم * ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون ﴿يقول تعالى : ﴿كلا إن كتاب الفجار﴾ [وهذا شامل لكل فاجر] من أنواع الكفرة والمنافقين ، والفاسقين



تفسير سورة المطففين وهي مكية ^(١)

﴿١- ٦﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ويل للمطففين﴾ * الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون * وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون * ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون﴾ * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴿ويل﴾ كلمة عذاب ، ووعيد ^(٢) ﴿للمطففين﴾ وفسر الله المطففين بقوله ^(٣) ﴿الذين إذا اكتالوا على الناس﴾ أي : أخذوا منهم وفاء عما ثبت لهم قبلهم يستوفونه كاملاً من غير نقص .

﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم﴾ أي : إذا أعطوا الناس حقهم ، الذي للناس ^(٤) عليهم بكيل أو وزن ، ﴿يخسرون﴾ أي : ينقصونهم ذلك ، إما بمكيال وميزان ناقصين ، أو بعدم ملء المكيال والميزان ، أو نحو ذلك ، فهذا سرقة [لأموال] الناس ^(٥) ، وعدم إنصاف [لهم] منهم .

وإذا كان هذا الوعيد ^(٦) على الذين يخسرون الناس بالمكيال والميزان ، فالذي يأخذ أموالهم قهراً أو سرقة ،

(١) في ب : وهي مدنية .

(٢) في ب : وعقاب .

(٣) في ب : بأنهم .

(٤) في ب : لهم .

(٥) كذا في ب ، وفي أ : سرقة للناس .

(٦) في ب : وعيداً .

(٧) في ب : يدخل في ذلك .

(٨) في ب : الحجة .

(٩) في ب : أنهم سيقومون بين يدي الله

فيحاسبهم .

(١٠) في ب : ثم بينهم بقوله

(١١) في ب : وصار لبصائرهم بمنزلة

الشمس للأبصار .

وتقريباً: ﴿هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب: عذاب الجحيم، وعذاب التوبيخ، واللوم.

وعذاب الحجاب من رب العالمين، المتضمن لسخطه وغضبه عليهم، وهو أعظم عليهم من عذاب النار، ودل مفهوم الآية، على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة وفي الجنة، ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات، ويتهجون بخطابه، ويفرحون بقربه، كما ذكر الله ذلك في عدة آيات من القرآن، وتواتر فيه النقل عن رسول الله.

وفي هذه الآيات، التحذير من الذنوب، فإنها ترين على القلب وتغطيه شيئاً فشيئاً، حتى ينطمس نوره، وتوت بصيرته، فتقلب عليه الحقائق، فيرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، وهذا من بعض^(١) عقوبات الذنوب.

﴿١٨ - ٢٧﴾ * كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين * وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون * إن الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم * يسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون * ومزاجه من تسنيم * لما ذكر أن كتاب الفجار في أسفل الأمكنة وأضيقتها، ذكر أن كتاب الأبرار في أعلاها وأوسعها، وأفسحها وأن كتابهم المرقوم * يشهده المقربون * من الملائكة الكرام، وأرواح الأنبياء، والصديقين والشهداء، ويُنوّه الله بذكرهم في الملأ الأعلى، و «عليون» اسم لأعلى الجنة، فلما ذكر كتابهم، ذكر أنهم في نعيم، وهو اسم جامع لنعيم القلب والروح والبدن، ﴿على الأرائك﴾ أي: [على] السرر المزينة بالفرش الحسن.

﴿ينظرون﴾ إلى ما أعد الله لهم من

النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم، ﴿تعرف﴾ أيها الناظر إليهم ﴿في وجوههم نضرة النعيم﴾ أي: بهاء النعيم^(٢) ونضارته ورويقه، فإن توالي اللذة والسرور^(٣)، يكسب الوجه نوراً وحسناً وبهجة.

﴿يسقون من رحيق﴾ وهو من أطيب ما يكون من الأشربة وألذها، ﴿مختوم﴾ ذلك الشراب، ﴿ختامه مسك﴾ يحتمل أن المراد مختوم عن أن يداخله شيء ينقص لذته، أو يفسد طعمه، وذلك الختام الذي ختم به مسك.

ويحتمل أن المراد أنه [الذي] يكون في آخر الإناء، الذي يشربون منه الرحيق حثالة، وهي المسك الأذفر، فهذا الكدر منه، الذي جرت العادة في الدنيا أنه يراق، يكون في الجنة بهذه المثابة، ﴿وفي ذلك﴾ النعيم المقيم، الذي لا يعلم مقداره وحسنه إلا الله، ﴿فليتنافس المتنافسون﴾ أي: يتسابقوا في المبادرة إليه والأعمال الموصلة إليه، فهذا أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفاس، وأحرى ما تزاومت للوصول إليه فحول الرجال.

﴿٢٧ - ٢٨﴾ * ومزاج هذا الشراب من تسنيم، وهي عين * يشرب بها المقربون * صزفاً، وهي أعلى أشربة الجنة على الإطلاق، فلذلك كانت خالصة للمقربين، الذين هم أعلى الخلق منزلة، ومموجة لأصحاب اليمين أي: مخلوطة بالرحيق وغيره من الأشربة اللذيذة.

﴿٢٩ - ٣٦﴾ * إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون * وإذا مروا بهم يتغامزون * وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين * وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون * وما أرسلوا عليهم حافظين * فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون * هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون * لما ذكر تعالى جزاء المجرمين

وجزاء المؤمنين^(٤)، و ﴿ذكر﴾ ما بينهم من التفاوت العظيم، أخبر أن المجرمين كانوا في الدنيا يسخرون بالمؤمنين، ويستهزؤون بهم، ويضحكون منهم، ويتغامزون بهم عند مرورهم عليهم، احتقاراً لهم وازدراء، ومع هذا تراهم مطمئنين، لا ينظر الخوف على بالهم، ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم﴾ صباحاً أو مساءً ﴿انقلبوا فكهين﴾ أي: مسرورين مغتبطين^(٥)، وهذا من أعظم^(٦) ما يكون من الاغترار، أنهم جمعوا بين غاية الإساءة والأمن^(٧) في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب من الله وعهد، أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى، وأن المؤمنين ضالون، افتراء على الله، وتجرواً على القول عليه بلا علم.

قال تعالى: ﴿وما أرسلوا عليهم حافظين﴾ أي: وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ملزمين بحفظ أعمالهم، حتى يحرصوا على رميمهم بالضلال، وما هذا منهم إلا تعنت وعناد وتلاعب، ليس له مستند ولا برهان، ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة من جنس عملهم، قال تعالى: ﴿فالיום﴾ أي: يوم القيامة، ﴿الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾ حين يرونهم في غمرات العذاب يتقلبون، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون، والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة ﴿على الأرائك﴾ وهي السرر المزينة، ﴿ينظرون﴾ إلى ما أعد الله لهم من النعيم، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم.

﴿هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون﴾ أي: هل جوزوا من جنس عملهم؟

فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، ورأوهم^(٨) في العذاب والنكال، الذي هو عقوبة الغي والضلال.

(٦) في ب: وهذا أشد.

(٧) في ب: مع الأمن.

(٨) في ب: حين رأوهم.

والمسرات والأفراح.

(٤) في ب: المحسنين.

(٥) كذا في ب، وفي أ: مغبوطين.

(١) في ب: من أعظم.

(٢) في ب: أي بهاء.

(٣) في ب: فإن توالي اللذات

نعم، ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلاً من الله وحكمة، والله عليم حكيم.

تفسير سورة الانشقاق وهي مكية

﴿١٥ - ١٠﴾ **بسم الله الرحمن الرحيم** إذا السماء انشقت * وأذنت لربها وحقت * وإذا الأرض مدت * وألقت ما فيها وتخلت * وأذنت لربها وحقت * يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه * فأما من أوتي كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حساباً يسيراً * وينقلب إلى أهله مسروراً * وأما من أوتي كتابه وراء ظهره * فسوف يدعو ثوراً * ويصلى سعيراً * إنه كان في أهله مسروراً * إنه ظن أن لن يحور * بلى إن ربه كان به بصيراً * يقول تعالى مبيناً لما يكون في يوم القيامة من تغير الأجرام العظام: ﴿إذا السماء انشقت﴾ أي: انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتشرت نجومها، وخسف بشمسها وقمرها.

﴿وأذنت لربها﴾ أي: استمعت لأمره، وألقت سمعها، وأصاحت لخطابه، وحق لها ذلك، فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم، لا يعصى أمره، ولا يخالف حكمه. ﴿وإذا الأرض مدت﴾ أي: رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم، فسويت، ومدّها الله تعالى مد الأديم، حتى صارت واسعة جداً، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعاً صفصفاً لا ترى فيه عوجاً ولا أمثاً.

﴿وألقت ما فيها﴾ من الأموات والكوز.

﴿وتخلت﴾ منهم، فإنه ينفخ في الصور، فتخرج الأموات من الأجداث إلى وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها، حتى تكون كالأسطوان العظيم، يشاهده الخلق، ويتحسرون

على ما هم فيه يتنافسون، ﴿وأذنت لربها وحقت﴾ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه * أي: إنك ساع إلى الله، وعامل بأوامره ونواهيه، ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تلاقي الله يوم القيامة، فلا تعدم منه جزءاً بالفضل إن كنت سعيداً، أو بالعدل إن كنت شقيماً^(١). ولهذا ذكر تفصيل الجزاء، فقال: ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾ وهم أهل السعادة.

﴿٨﴾ **فسوف يحاسب حساباً يسيراً** وهو العرض اليسير على الله، فيقرره الله بذنوبه، حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله [تعالى]: له: «إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا سترتها لك اليوم».

﴿وينقلب إلى أهله﴾ في الجنة **﴿مسروراً﴾** لأنه نجا من العذاب وفاز بالثواب، **﴿وأما من أوتي كتابه وراء ظهره﴾** أي: بشماله من خلفه^(٢).

﴿فسوف يدعو ثوراً﴾ من الخزي والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها، **﴿ويصلى سعيراً﴾** أي: تحيط به السعير من كل جانب، ويقلب على عذابها، وذلك لأنه في الدنيا **﴿كان في أهله مسروراً﴾** لا يخطر البعث على باله، وقد أساء، ولم^(٣) يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه.

﴿بلى إن ربه كان به بصيراً﴾ فلا يحسن أن يتركه سدى، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب.

﴿١٦ - ٢٥﴾ **﴿فلا أقسم بالشفق﴾** والليل وما وسق * والقمر إذا اتسق * لتركبن طبقاً عن طبق * فما لهم لا يؤمنون * وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون * بل الذين كفروا يكتفون * والله أعلم بما يوعون * فيشرهم بعذاب الأليم * إلا

الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون﴾ أقسم في هذا الموضع بآيات الليل، فأقسم بالشفق الذي هو بقية نور الشمس، الذي هو مفتتح الليل، **﴿والليل وما وسق﴾** أي: احتوى عليه من حيوانات وغيرها، **﴿والقمر إذا اتسق﴾** أي: امتلاً نوراً بإبداره، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع، والمقسم عليه قوله: **﴿لتركبن﴾** [أي: أيها الناس **﴿طبقاً عن طبق﴾** أي: أطواراً متعددة وأحوالاً متباينة، من النطفة إلى العلقة، إلى المضغة، إلى نفخ الروح، ثم يكون وليداً وطفلاً، ثم ممزاً، ثم يجري عليه قلم التكليف، والأمر والنهي، ثم يموت بعد ذلك، ثم يبعث ويحازى بأعماله، فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد، دالة على أن الله وحده هو المعبود، الموحد، المذبر لعباده بحكمته ورحمته، وأن العبد فقير عاجز، تحت تدبير العزيز الرحيم، ومع هذا، فكثير من الناس لا يؤمنون **﴿وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون﴾** أي: لا يخضعون للقرآن، ولا يتقادون لأوامره ونواهيه، **﴿بل الذين كفروا يكتفون﴾** أي: يعاندون الحق بعدما تبين، فلا يستغرب عدم إيمانهم وعدم انقيادهم للقرآن، فإن المكذب بالحق عناداً، لا حيلة فيه، **﴿والله أعلم بما يوعون﴾** أي: بما يعملونه وينوونه سراً، فإله يعلم سرهم وجهرهم، وسيجازيهم بأعمالهم، ولهذا قال: **﴿فيشرهم بعذاب الأليم﴾** وسميت البشارة بشارة، لأنها تؤثر في البشارة سروراً أو غماً.

فهذه حال أكثر الناس، التكذيب بالقرآن، وعدم الإيمان [به].

ومن الناس فريق هداهم الله، فأمنوا بالله، وقبلوا ما جاءهم به الرسل، فأمنوا وعملوا الصالحات.

فهؤلاء لهم أجر غير ممنون أي: غير

(١) في ب: جزء بالفضل أو العدل، بالفضل إن كنت سعيداً، وبالعبودية إن كنت شقيماً.

(٢) في ب: من وراء ظهره.

(٣) في ب: ولا.

مقطوع، بل هو أجر دائم مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

تم تفسير السورة ولله الحمد

تفسير سورة البروج وهي مكية

﴿١ - ٢٢﴾ «بسم الله الرحمن الرحيم والسماء ذات البروج * واليوم الموعود * وشاهد ومشهود * قتل أصحاب الأخدود * النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد * الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شهيد * إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير * إن بطش ربك لشديد * إنه هو يبدى ويعيد * وهو الغفور الودود * ذو العرش المجيد * فعال لما يريد * هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود * بل الذين كفروا في تكذيب * والله من ورائهم محيط * بل هو قرآن مجيد * في لوح محفوظ» ﴿والسماء ذات البروج﴾ أي: [ذات] المنازل المشتملة على منازل الشمس والقمر، والكواكب المنتظمة في سيرها، على أكمل ترتيب ونظام دال على كمال قدرة الله تعالى ورحمته، وسعة علمه وحكمته.

﴿واليوم الموعود﴾ وهو يوم القيامة، الذي وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه، ويضم فيه أولهم وآخرهم، وقاصيهم ودانيهم، الذي

لا يمكن أن يتغير، ولا يخلف الله العباد.

﴿وشاهد ومشهود﴾ وشمل هذا كل من اتصف بهذا الوصف أي: مُبْصِر ومُبْصَر، وحاضر ومحضور، وراء ومرئي.

والقسم عليه، ما تضمنه هذا القسم من آيات الله الباهرة، وحكمه الظاهرة، ورحمته الواسعة، وقيل: إن المقسم عليه قوله: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ وهذا دعاء عليهم بالهلاك. و «الأخدود»: الحفر التي تحفر في الأرض.

وكان أصحاب الأخدود هؤلاء قومًا كافرين، ولديهم قوم مؤمنون، فراودهم للدخول^(١) في دينهم، فامتنع المؤمنون من ذلك، فشق الكافرون أخدوداً [في الأرض]، وقذفوا فيها النار، وقعدوا حولها، وفتنوا المؤمنين، وعرضوهم عليها، فمن استجاب لهم أطلقوه، ومن استمر على الإيمان قذفوه في النار، وهذا في غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين، ولهذا العنهم الله وأهلكهم وتوعدهم فقال: ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾ ثم فسر الأخدود بقوله: ﴿النار ذات الوقود﴾ إذ هم عليها قعود * وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود * وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب، لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها، ومحاربة أهلها وتعذيبهم بهذا العذاب، الذي تنفطر منه القلوب، وحضورهم إياهم عند إقائهم فيها، والخال أنهم ما نقموا من المؤمنين إلا خصلة^(٢) يمدحون عليها، وبها سعادتهم، وهي أنهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد أي: الذي له

(١) في ب: على الدخول.

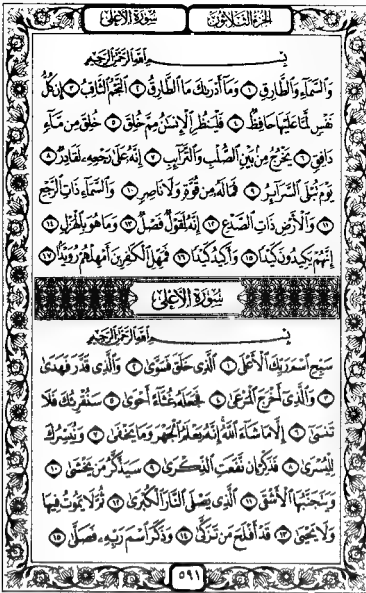
(٢) في ب: حالة.

(٣) في ب: يتصرف فيهم بما يشاء.

(٤) في ب: أفلا خاف هؤلاء المتوردون عليه أن يأخذهم العزيز المقتدر، أو ما علموا كلهم أنهم ممالك لله.

(٥) في ب: مجازيهم عليها.

(٦) في ب: والجاهل في عمى وضلال.



العزة التي قهر بها كل شيء، وهو حميد في أقواله وأوصافه وأفعاله.

﴿الذي له ملك السماوات والأرض﴾ خلقاً وعبداً، يتصرف فيهم تصرف المالك بملكه^(٣)، ﴿والله على كل شيء شهيد﴾ علماً وسمعاً وبصراً، أفلا خاف هؤلاء المتوردون على الله، أن يبطش بهم العزيز المقتدر، أو ما علموا أنهم جميعهم ممالك لله^(٤)، ليس لأحد على أحد سلطة، من دون إذن المالك؟ أو خفي عليهم أن الله محيط بأعمالهم، مجاز لهم على فعالهم^(٥)؟ كلا إن الكافر في غرور، والظالم في جهل وعمى^(٦) عن سواء السبيل.

ثم وعدهم وأوعدهم، وعرض عليهم التوبة، فقال: ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾ أي: العذاب الشديد المحرق.

قال الحسن رحمه الله: انظروا إلى هذا الكرم والجود، هم قتلوا أولياءه

والله لا معاون لإرادته، ولا مانع له عما أراد.

ثم ذكر من أفعاله الدالة على صدق ما جاءت به رسله، فقال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ وكيف كذبوا المرسلين، فجعلهم الله من المهلكين، ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ أي: لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد، لا تنفع فيهم الآيات، ولا تُجدي لديهم العظات، ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ أي: قد أحاط بهم علماً وقدره، كقوله: ﴿إِنْ رِبِّكَ لِلْمَرْصَادِ﴾ فيه الوعيد الشديد للكافرين، من عقوبة من هم في قبضته، وتحت تدبيره. ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ أي: وسيع المعاني عظيمها، كثير الخير والعلم، ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ من التغيير والزيادة والنقص، ومحفوظ من الشياطين، وهو اللوح المحفوظ الذي قد أثبت الله فيه كل شيء.

وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته، ورفعة قدره عند الله تعالى، والله أعلم.

تم تفسير السورة

تفسير سورة الطارق وهي مكية

﴿١٧-١٦﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النُّجُومُ الثَّاقِبُ * إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ * فليَنظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ * إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ * وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ * وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصُّدُوعِ * إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ * إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَآكِيدُ كِيدًا * فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رَوِيدًا﴾ يقول [الله] تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾.

ثم فسر الطارق بقوله: ﴿النُّجُومُ

ولهذا كانت محبته أصل العبودية، وهي المحبة التي تتقدم جميع المحاب وتغلبها، وإن لم يكن غيرها تبعاً لها، كانت عذاباً على أهلها، وهو تعالى الودود، الوداد لأحبابه، كما قال تعالى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ والمودة هي المحبة الصافية، وفي هذا سر لطيف، حيث قرن «الودود» بالغفور، ليدل ذلك على أن أهل الذنوب إذا تابوا إلى الله وأنبأوا، غفر لهم ذنوبهم وأحبهم، فلا يقال: بل تغفر ذنوبهم، ولا يرجع إليهم الود، كما قاله بعض الغالطين.

بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب، من رجل له راحلة، عليها طعامه وشرابه وما يصلحه، فأصلها في أرض فلاة مهلكة، فأيس منها، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت، فينمى هو على تلك الحال، إذا راحلته على رأسه، فأخذ بخطامها، فالله أعظم فرحاً بتوبة العبد من هذا براحلته، وهذا أعظم فرح يقدر.

فله الحمد والثناء، وصفو الوداد، ما أعظم بره، وأكثر خيره، وأغزر إحسانه، وأوسع امتنانه!! ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ أي: صاحب العرش العظيم، الذي من عظمته، أنه وسع السماوات والأرض والكرسي، فهي بالنسبة إلى العرش كحلقة ملقاة في فلاة، بالنسبة لسائر الأرض، وخص الله العرش بالذكر، لعظمته، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه تعالى، وهذا على قراءة الجر، يكون «المجيد» نعتاً للعرش، وأما على قراءة الرفع، فإنَّ المجيد نعتُ الله^(١)، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها.

﴿فَعَالٌ لَمَّا يُرِيدُ﴾ أي: مهما أراد شيئاً فعله، إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون، وليس أحد فعالاً لما يريد إلا الله.

فإن المخلوقات، ولو أرادت شيئاً، فإنه لا بد لإرادتها من معاون وممانع،



وأهل طاعته، وهو يدعوهم إلى التوبة. ولما ذكر عقوبة الظالمين، ذكر ثواب المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا بِقُلُوبِهِمْ وَعَمَلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بجوارحهم ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ الذي حصل به الفوز^(٢) برضا الله ودار كرامته.

﴿إِنْ يَبْطِشْ رَبُّكَ لِشَيْءٍ﴾ أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام [القوية] شديدة، وهو بالمرصاد للظالمين، كما قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾.

﴿إِنَّهُ هُوَ يَبْدِئُ وَيَعِيدُ﴾ أي: هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته، فلا مشارك له في ذلك^(٣)، ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ﴾ الذي يغفر الذنوب جميعاً لمن تاب، ويعفو عن السيئات لمن استغفره وأناب.

﴿الْوَدُودُ﴾ الذي يحبه أحبابه محبة لا يشبهها شيء فكما أنه لا يشابهه شيء في صفات الجلال والجمال، والمعاني والأفعال، فمحبته في قلوب خواص خلقه، التابعة لذلك، لا يشبهها شيء من أنواع المحاب،

(١) في ب: حصل لهم الفوز.

(٢) في ب: فلا يشاركه في ذلك مشارك.

(٣) في ب: فإنه يكون نعتاً لله.

الثاقب^(١) أي: المضيء، الذي يثقب نوره، فيخرق السماوات [يفنذ حتى يرى في الأرض]، والصحيح أنه اسم جنس يشمل سائر النجوم الثواقب. وقد قيل: إنه «زحل» الذي يخرج السماوات السبع ويفنذ فيها^(٢)، فيرى منها.

وسمي طارقاً، لأنه يطرق ليلاً، والمقسم عليه قوله: «إن كل نفس لما عليها حافظ» يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة، وتستجازي بعملها المحفوظ عليها، «فلينظر الإنسان مم خلق» أي: فليتدبر خلقته ومبدأه، فإنه مخلوق «من ماء دافق» وهو المني الذي يخرج من بين الصلب والترائب» يحتمل أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة، وهي ثدياها. ويحتمل أن المراد المني الدافق، وهو مني الرجل، وأن محله الذي يخرج منه ما بين صلبه وترائبه، ولعل هذا أولى، فإنه إنما وصف الله به الماء الدافق، والذي يحس [به] ويشاهد دفق، هو مني الرجل، وكذلك لفظ الترائب فإنها تستعمل في الرجل، فإن الترائب للرجل، بمنزلة الثديين للأنثى، فلو أرادت الأنثى، لقال: «من بين الصلب والثديين»، ونحو ذلك، والله أعلم.

فالذي أوجد الإنسان من ماء دافق، يخرج من هذا الموضع الصعب، قادر على رجعه في الآخرة، وإعادته للبعث والنشور [والجزاء]، وقد قيل: إن معناه، أن الله على رجوع الماء المدفوق في الصلب لقادر، وهذا - وإن كان المعنى صحيحاً - فليس هو المراد من الآية، ولهذا قال بعده: «يوم تبلى السرائر» أي: تختبر سرائر الصدور، ويظهر ما كان في القلوب من خير وشر على صفحات الوجوه قال تعالى: «يوم تبيض وجوه وتسود وجوه» ففي الدنيا، تنكتم كثير من الأمور، ولا تظهر عياناً للناس، وأما في القيامة، فيظهر برُّ الأبرار، وفجور الفجار،

وتصير الأمور علانية، «فما له من قوة» يدفع بها عن نفسه^(٣)، «ولا ناصر» خارجي^(٤) ينتصر به، فهذا القسم على حالة العاملين وقت عملهم وعند جزائهم.

ثم أقسم قسمًا ثانيًا على صحة القرآن، فقال: «والسماوات ذات الرجع» * والأرض ذات الصدع» أي: ترجع السماء بالمطر كل عام، وتنصدع الأرض للنبات، فيعيش بذلك آدميون والبهائم، وترجع السماء أيضاً بالأقنار والشؤون الإلهية كل وقت، وتنصدع الأرض عن الأموات، «إنه» أي: القرآن «لقول فصل» أي: حق وصدق، بين واضح.

«وما هو بالهزل» أي: جد ليس بالهزل، وهو القول الذي يفصل بين الطوائف والمقاتلات، وتنفصل به الخصومات.

«إنهم» أي: المكذبين للرسول ﷺ، وللقرآن، «يكيدون كيدا» ليدفعوا بكيدهم الحق، ويؤيدوا الباطل، «وأكيد كيدا» لإظهار الحق، ولو كره الكافرون، ولدفع ما جاؤوا به من الباطل، ويعلم بهذا من الغالب، فإن الآدمي أضعف وأحق من أن يغلب القوي العليم في كيد، «فمهمل الكافرين أمهلهم رويدا» أي: قليلاً، فسيعلمون عاقبة أمرهم، حين ينزل بهم العقاب.

تم تفسير سورة الطارق،
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة سبح وهي مكية

«١- ١٩» «بسم الله الرحمن الرحيم سبح اسم ربك الأعلى» * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى * والذي أخرج المرعى * فجعله غثاء أحوى * سنقرئك فلا تنسى * إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفى *

وهذه الهداية العامة، التي مضمونها أنه هدى كل مخلوق لمصلحته، وتذكر فيها نعمه الدنيوية، ولهذا قال فيها: «والذي أخرج المرعى» أي: أنزل من السماء ماء فأنبت به أنواع^(٥) النبات والعشب الكثير، فرتع فيها الناس والبهائم وكل حيوان^(٦)، ثم بعد أن

(٥) في ب: أصناف.

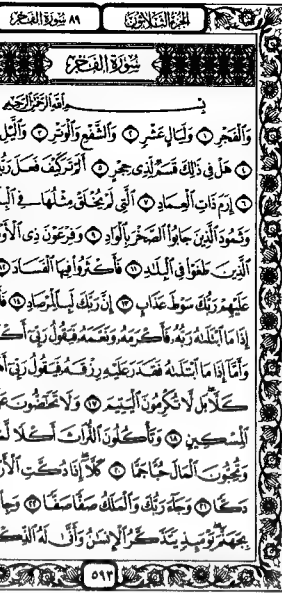
(٦) في ب: وجميع الحيوانات.

(٣) في ب: من خارج.

(٤) في ب: بمعناها العظيم الجليل.

(١) في ب: ويفنذها.

(٢) في ب: أي من نفسه يدفع بها





حصل من الذكرى جميع المقصود أو بعضه .

ومفهوم الآية أنه إن لم تنفع الذكرى، بأن كان التذكير يزيد في الشر، أو ينقص من الخير، لم تكن الذكرى مأموراً بها، بل منهياً عنها، فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين: منتفعون وغير منتفعين .

فأما المنتفعون، فقد ذكرهم بقوله: ﴿سَيَذْكُرُنَا يَخْشَى﴾ الله تعالى، فإن خشية الله تعالى، وعلمه بأن سيجازيه على أعماله^(٥)، توجب للبعد الانكفاف عن المعاصي^(٦) والسعي في الخيرات .

وأما غير المنتفعين، فذكرهم بقوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ الذي يصلى النار الكبرى، وهي النار الموقدة، التي تطلع على الأنفذة، ثم لا يموت فيها ولا يحيى، أي: يعذب عذاباً أليماً، من غير راحة ولا استراحة، حتى إنهم يتمنون الموت فلا يحصل لهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَقْضَى عَلَيْهِمْ فِيمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ .

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ أي: قد فاز وربح من طهر نفسه ونقاها من الشرك والظلم ومساوئ الأخلاق، وذكر اسم ربه فصلي، أي: اتصف بذكر الله، وانصحب به قلبه، فأوجب له ذلك العمل بما يرضي الله، خصوصاً الصلاة، التي هي ميزان الإيمان، فهذا معنى الآية الكريمة، وأما من فسر قوله: ﴿تَزَكَّى﴾ بمعنى أخرج زكاة الفطر، وذكر اسم ربه فصل، أنه صلاة العيد، فإنه وإن كان داخلًا في اللفظ وبعض جزئياته، فليس هو المعنى وحده .

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: تقدمونها على الآخرة، وتختارون نعيمها

المنقص المكدر الزائل على الآخرة، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [وللآخرة خير من الدنيا في كل وصف مطلوب، وأبقى لكونها دار خلد وبقاء وصفاء، والدنيا دار فناء، فالؤمن العاقل لا يختار الأبداء على الأجود، ولا يبيع لذة ساعة، بترحة الأبد، فحب الدنيا وإيثارها على الآخرة رأس كل خطيئة،

﴿إِنْ هَذَا﴾ المذكور لكم في هذه السورة المباركة، من الأوامر الحسنة، والأخبار المستحسنة ﴿لَفِي الصَّحْفِ الْأَوَّلِيِّ﴾ * صحف إبراهيم وموسى، اللذين هما أشرف المرسلين، سوى^(٧) النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

فهذه أوامر في كل شريعة، لكونها عائدة إلى مصالح الدارين، وهي مصالح في كل زمان ومكان .

تم تفسير سورة سيع، والله الحمد

تفسير سورة الغاشية وهي مكية

﴿١٦-١﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ هل أتاك حديث الغاشية * وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة * تصل ناراً حامية * تسقى من عين أنية * ليس لهم طعام إلا من ضريع * لا يسمن ولا يغمي من جوع * وجوه يومئذ ناعمة * لسعيها راضية * في جنة عالية * لا تسمع فيها لاغية * فيها عين جارية * فيها سرر مرفوعة * وأكواب موضوعة * ونمارق مصفوفة * وزرابي مبثوثة * يذكر تعالى أحوال يوم القيامة وما فيها من الأحوال الطائفة، وأنها تغشى الخلائق بشدائدها، فيجazon بأعمالهم، ويتميزون [إلى] فريقين: فريقاً في الجنة، وفريقاً في السعير .

استكمل ما قدر له من الشباب، ألوى نباته، ووضوح عشب، فجعله غشاء أحوى، أي: أسود أي: جعله هشيماً رميمًا، ويذكر فيها نعمه الدينية، ولهذا امتن الله بأصلها ومنشأها^(١)، وهو القرآن، فقال: ﴿سَنُقَرِّئكُ فَلَا تَنسَى﴾ أي: سنحفظ ما أوحينا إليك من الكتاب، ونوعه قلبك، فلا تنسى منه شيئاً، وهذه بشارة كبيرة من الله لعبده ورسوله محمد ﷺ، أن الله سيعلمه علماً لا ينساه، ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ مما اقتضت حكمته أن ينسيكه لمصلحة بالغة، ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى﴾ ومن ذلك أنه يعلم ما يصلح عباده أي: فلذلك يُشرع ما أراد، ويحكم بما يريد^(٢)، ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى﴾ وهذه أيضاً بشارة كبيرة^(٣)، أن الله ييسر رسوله ﷺ لليسرى في جميع أموره، ويجعل شرعه ودينه يسراً^(٤) .

﴿فَذَكِّرْ﴾ بشرع الله وآياته ﴿إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ أي: ما دامت الذكرى مقبولة، والموعظة مسموعة، سواء

(١) في ب: ومادتها .

(٢) كذا في ب، وفي أ: يحكم بما أراد، ويحكم بما يريد .

(٣) في ب: أخرى .

(٤) كذا في ب، وفي أ: يسيراً .

(٥) في ب: والعلم بمجازاته على الأعمال .

(٦) في ب: الانكفاف عما يكرهه الله .

(٧) في ب: بعد .

فأخبر عن وصف كلا الفريقين، فقال في [وصف] أهل النار: ﴿وجوه يومئذ﴾ أي: يوم القيامة ﴿خاشعة﴾ من الذل والفضيحة والخزي.

﴿عاملة ناصبة﴾ أي: تاعبة في العذاب، تجر على وجوهها، وتغشى وجوههم النار.

ويحتمل أن المراد [بقوله]: ﴿وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة﴾ في الدنيا لكونهم في الدنيا أهل عبادات وعمل، ولكنه لما عدم شرطه وهو الإيمان، صار يوم القيامة هباء منثوراً، وهذا الاحتمال وإن كان صحيحاً من حيث المعنى، فلا يدل عليه سياق الكلام، بل الصواب المقطوع به هو الاحتمال الأول، لأنه قيده بالظرف، وهو يوم القيامة، ولأن المقصود هنا بيان وصف أهل النار عموماً، وذلك الاحتمال جزء قليل من أهل النار بالنسبة إلى أهلها^(١)؛ ولأن الكلام في بيان حال الناس عند غشيان العاشية، فليس فيه تعرض لأحوالهم في الدنيا.

وقوله: ﴿تصل ناراً حامية﴾ أي: شديداً حرها، تحيط بهم من كل مكان، ﴿تسقى من عين آنية﴾ أي: حارة شديدة الحرارة ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ فهذا شرابهم.

وأما طعامهم، فـ ﴿ليس لهم طعام إلا من ضريع﴾ لا يسمن ولا يغني من جوع وذلك أن المقصود من الطعام أحد أمرين: إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه، وإما أن يسمن بدنه من الهزال، وهذا الطعام ليس فيه شيء من هذين الأمرين، بل هو طعام في غاية المرارة والنتن والخسة، نسأل الله العافية.

وأما أهل الخير، فوجوههم يوم

القيامة ﴿ناعمة﴾ أي: قد جرت عليهم نضرة النعيم، فنضرت أبدانهم، واستنارت وجوههم، وسروا غاية السرور، ﴿لسعياً﴾ الذي قدمته في الدنيا من الأعمال الصالحة، والإحسان إلى عباد الله، ﴿راضية﴾ إذ وجدت ثوابه مدخراً مضاعفاً، فحمدت عقبه، وحصل لها كل ما تتمناه، وذلك أنها ﴿في جنة﴾ جامعة لأنواع النعيم كلها، ﴿عالية﴾ في محلها ومنازلها، فمحلها في أعلى عِلين، ومنازلها مساكن عالية، لها غرف ومن فوق الغرف غرف مبنية يشرفون منها على ما أعد الله لهم من الكرامة.

﴿قطوفها ذاتية﴾ أي: كثيرة الفواكه اللذيذة، المثمرة بالثمار الحسنة، السهلة التناول، بحيث ينالونها على أي حال كانوا، لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة، أو يستعصي عليهم منها ثمرة.

﴿لا تسمع فيها﴾ أي: الجنة ﴿لا غيبة﴾ أي: كلمة لغو وباطل، فضلاً عن الكلام المحرم، بل كلامهم كلام حسن [نافع] مشتمل على ذكر الله تعالى، وذكر نعمه المتواترة عليهم، و [على] الآداب المستحسنة^(٢) بين المتعاشرين، الذي يسر القلوب، ويشرح الصدور.

﴿فيها عين جارية﴾ وهذا اسم جنس أي: فيها العيون الجارية التي يفجرونها ويصرفونها كيف شاؤوا، وأنى أرادوا.

﴿فيها سرر مرفوعة﴾ و «السرر» جمع «سرير»، وهي المجالس المرتفعة في ذاتها، وبما عليها من الفرش اللينة الوطنية.

﴿وأكواب موضوعة﴾ أي: أوإن ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة، قد وضعت بين أيديهم، وأعدت لهم، وصارت تحت طلبهم واختيارهم،

يطوف بها عليهم الولدان المخلدون. ﴿ونمارق مصفوفة﴾ أي: وسائد من الحرير والإستبرق وغيرهما لا يعلمه إلا الله، قد صفت للجلوس والاتكاء عليها، وقد أريحوا عن أن يضعوها، ويصقوها بأنفسهم.

﴿١٦﴾ ﴿وزرابي مبثوثة﴾ والزرابي [هي]: البسط الحسن، مبثوثة أي: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب.

﴿١٧ - ٢٦﴾ ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ وإلى السماء كيف رفعت * وإلى الجبال كيف نصبت * وإلى الأرض كيف سطحت * فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر * إلا من تولى وكفر * فيعذبه الله العذاب الأكبر * إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم * يقول تعالى حثاً للذين لا يصدقون الرسول ﷺ، ولغيرهم من الناس، أن يتفكروا في مخلوقات الله الدالة على توحده: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾ أي: [ألا] ينظرون إلى خلقها البديع، وكيف سخرها الله للعباد، وذلكها لمنافعهم الكثيرة التي يضطرون إليها.

﴿وإلى الجبال كيف نصبت﴾ بهيئة باهرة، حصل بها استقرار الأرض^(٣) وثباتها عن الاضطراب، وأودع الله فيها من المنافع [الجليلة] ما أودع.

﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾ أي: مدت مدداً واسعاً، وسهلت غاية التسهيل، ليستقر الخلائق^(٤) على ظهرها، ويتمكنوا من حرثها وغراسها، والبنيان فيها، وسلوك الطرق الموصلة^(٥) إلى أنواع المقاصد فيها.

واعلم أن تسطيحها لا ينافي أنها كرة مستديرة، قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها، كما دل على ذلك

(١) في ب: جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار.

(٢) في ب: الحسنة.

(٣) في ب: الاستقرار للأرض.

(٤) في ب: العباد.

(٥) في ب: طرقها.

الشديدة، والعتو والتجبر، ﴿التي لم يخلق مثلها﴾ أي: مثل عاد ﴿في البلاد﴾ أي: في جميع البلدان ﴿في القوة والشدة﴾، كما قال لهم نبهم هود عليه السلام: ﴿واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون﴾.

﴿وتمود الذين جابوا الصخر بالواد﴾ أي: وادي القرى، نحتوا بقرتهم الصخور، فانحذوها مساكن، ﴿وفرعون ذي الأوتاد﴾ أي: [ذي] الجنود الذين بُنيتوا ملكه، كما تثبت الأوتاد ما يراد إمساكه بها، ﴿الذين طغوا في البلاد﴾ هذا الوصف عائد إلى عاد وتمرود وفرعون ومن تبعهم، فإنهم طغوا في بلاد الله، وأدوا عباد الله، في دينهم وديناهم، ولهذا قال: ﴿فاكثروا فيها الفساد﴾ وهو العمل بالكفر وشبهه، من جميع أجناس المعاصي، وسعوا في محاربة الرسل وصد الناس عن سبيل الله، فلما بلغوا من العتو ما هو موجب لهلاكهم، أرسل الله عليهم من عذابه ذنوباً وسوط عذاب، ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾ لمن عصاه^(٥) يمهله قليلاً، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

﴿١٥ - ٢٠﴾ ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن * وأما إذا ما ابتلاه فقدّر عليه رزقه فيقول ربي أهانن * كلا بل لا تكرمون اليتيم * ولا تحاضون على طعام المسكين * وتأكلون التراث أكلاً لما * وتحبون المال حباً جماً﴾ يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان من حيث هو، وأنه جاهل ظالم، لا علم له بالعواقب، يظن الحالة التي تقع فيه تستمر ولا تزول، ويظن أن إكرام الله في الدنيا وإنعامه عليه يدل على كرامته عنده وقربه منه، وأنه إذا ﴿قدّر عليه رزقه﴾ أي: ضيقه، فصار بقدر قوته لا يفضل منه، أن هذا إهانة من الله

وإقبال النهار، من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأنه وحده المدبر^(٤) لجميع الأمور، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويقع في الفجر صلاة فاضلة معظمة، يحسن أن يقسم الله بها، ولهذا أقسم بعده بالليالي العشر، وهي على الصحيح: ليلي عشر رمضان، أو [عشر] ذي الحجة، فإنها ليال مشتملة على أيام فاضلة، ويقع فيها من العبادات والقربات ما لا يقع في غيرها.

وفي ليلي عشر رمضان ليلة القدر، التي هي خير من ألف شهر، وفي نهارها، صيام آخر رمضان الذي هو ركن من أركان الإسلام.

وفي أيام عشر ذي الحجة، الوقوف بعرفة، الذي يغفر الله فيه لعباده مغفرة يحزن لها الشيطان، فما زُيَّ الشيطان أحقر ولا أدر منه في يوم عرفة، لما يرى من تنزّل الأملأ والرحمة من الله لعباده، ويقع فيها كثير من أفعال الحج والعمرة، وهذه أشياء معظمة، مستحقة لأن يقسم الله بها. ﴿والليل إذا يسر﴾ أي: وقت سريانه وإرخائه ظلامه على العباد، فيسكنون ويستريحون ويطمثون، رحمة منه تعالى وحكمة.

﴿هل في ذلك﴾ المذكور ﴿قسم لذي حجر﴾ أي: [لذي] عقل؟ نعم، بعض ذلك يكفي، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

﴿٦ - ١٤﴾ ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد * التي لم يخلق مثلها في البلاد * وتمود الذين جابوا الصخر بالواد * وفرعون ذي الأوتاد * الذين طغوا في البلاد * فاكثروا فيها الفساد * فصّب عليهم ربك سوط عذاب * إن ربك لبالمرصاد﴾ يقول تعالى: ﴿ألم تر﴾ بقلبك وبصيرتك كيف فعل بهذه الأمم الطاغية، وهي ﴿إرم﴾ القبيلة المعروفة في اليمن ﴿ذات العماد﴾ أي: القوة

النقل والعقل والحس والمشاهدة، كما هو مذكور معروف عند أكثر^(١) الناس، خصوصاً في هذه الأزمنة، التي وقف الناس على أكثر أرجائها بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعد، فإن التسطيع إنما ينافي كروية الجسم الصغير جداً، الذي لو سطح لم يبق له استدارة تذكر.

وأما جسم الأرض الذي هو في غاية الكبير والسعة^(٢)، فيكون كروياً مسطحاً، ولا يتنافى الأمران، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة.

﴿فذكر إنما أنت مذكر﴾ أي: ذكر الناس وعظهم، وأنذرهم وبشّره، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم، ولم تبعث مسيطراً عليهم، مسلطاً موكلاً بأعمالهم، فإذا قمت بما عليك، فلا عليك بعد ذلك لوم، كقوله تعالى: ﴿وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد﴾.

وقوله: ﴿إلا من تولى وكفر﴾ أي: لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله ﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ أي: الشديد الدائم، ﴿إن إلينا إيابهم﴾ أي: رجوع الخليقة^(٣) وجمعهم في يوم القيامة.

﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ فنحاسبهم على ما عملوا من خير وشر.

آخر تفسير سورة الغاشية، والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الفجر وهي مكية

﴿١ - ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر * والليل إذا يسر * هل في ذلك قسم لذي حجر﴾ الظاهر أن المقسم به هو المقسم عليه، وذلك جائز مستعمل، إذا كان أمراً ظاهراً مُهِمّاً، وهو كذلك في هذا الموضع.

فأقسم تعالى بالفجر، الذي هو آخر الليل ومقدمة النهار، لما في إقبال الليل

(١) في ب: كثير.

(٢) في ب: الخلاق.

(٥) في ب: لمن يعصيه.

(٢) في ب: الذي هو كبير جداً واسع.

(٤) في ب: وأنه تعالى هو المدبر.

فكها من الرق، بعثتها أو مساعدتها على أداء كتابتها، ومن باب أولى فكأن الأسير المسلم عند الكفار.

﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة﴾

أي: مجاعة شديدة، بأن يطعم وقت الحاجة أشد الناس حاجة، ﴿وبتيماً ذا مقربة﴾ أي: جامعاً بين كونه تيمماً، فقيراً ذا قرابة، ﴿أو مسكيناً ذا مقربة﴾ أي: قد لزق بالتراب من الحاجة والضرورة، ﴿ثم كان من الذين آمنوا﴾^(٥) أي: آمنوا بقلوبهم بما يجب الإيمان به، وعملوا الصالحات

بجوارحهم من كل قول^(٦) وفعل واجب أو مستحب، ﴿وتواصوا بالصبر﴾ على طاعة الله وعن معصيته، وعلى أقدار الله المؤلمة بأن يثب بعضهم بعضاً على الاتقياء لذلك، والإنيان به كاملاً منشرحاً به الصدر، مطمئنة به النفس.

﴿وتواصوا بالمرحمة﴾ للخلق، من إعطاء محتاجهم، وتعليم جاهلهم، والقيام بما يحتاجون إليه من جميع الوجوه، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، أولئك الذين قاموا بهذه الأوصاف، الذين وفقهم الله لاقتحام هذه العقبة ﴿أولئك أصحاب الميمنة﴾

لأنهم أدوا ما أمر الله به من حقوقه وحقوق عباده، وتركوا ما نهوا عنه، وهذا عنوان السعادة وعلامتها.

﴿والذين كفروا بآياتنا﴾ بأن نبيذوا هذه الأمور وراء ظهورهم، فلم يصدقوا بالله، [ولا آمنوا به]، ولا عملوا صالحاً، ولا رحوا عباد الله، ﴿والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة﴾ عليهم ناز مؤصدة^(٧) أي: مغلقة، في عمد مددة،

أن لن يقدر عليه أحد، ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه، ف ﴿يقول أهلكت ما لا لبدا﴾ أي: كثيراً، بعضه فوق بعض.

وسمى الله تعالى الإنفاق في الشهوات والمعاصي إهلاكاً، لأنه لا ينتفع المتفق بما أنفق، ولا يعود عليه من إنفاقه إلا الندم والخسار والتعب والقلّة، لا كمن أنفق في مرضاة الله في سبيل الخير، فإن هذا قد تاجر مع الله، وربح أضعاف أضعاف ما أنفق.

قال الله متوعداً هذا الذي يفخر بما أنفق في الشهوات: ﴿أحسب أن لم يره أحد﴾ أي: أحسب^(٨) في فعله هذا، أن الله لا يراه ويحاسبه على الصغير والكبير؟

بل قدره الله، وحفظ عليه أعماله، ووكّل به الكرام الكاتبين، لكل ما عمله من خير وشر.

ثم قرره بنعمه، فقال: ﴿ألم نجعل له عينين﴾ * ولساناً وشفقتين^(٩) للجمال والبصر والنطق، وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها، فهذه نعم الدنيا، ثم قال في نعم الدين: ﴿وهديناه النجدين﴾ أي: طريقَي الخير والشر، بينا له الهدى من الضلال، والرشد من الغي.

فهذه المنن الجزيلة، تقتضي من العبد أن يقوم بحقوق الله، ويشكر الله على نعمه، وأن لا يستعين بها على معاصيه^(١٠)، ولكن هذا الإنسان لم يفعل ذلك.

﴿١١﴾ ﴿فلا اقتحم العقبة﴾ أي: لم يقتحمها ويعبر عليها، لأنه متبع لشهواته^(١١).

وهذه العقبة شديدة عليه، ثم نسر [هذه] العقبة بقوله: ﴿فك رقبة﴾ أي:



الأمين، الذي هو مكة المكرمة، أفضل البلدان على الإطلاق، خصوصاً وقت حلول الرسول ﷺ فيها، ﴿ووالد وما ولد﴾ أي: آدم وذريته.

والقسم عليه قوله: ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ يحمل أن المراد بذلك ما يكابده ويقاسيه من الشدائد في الدنيا، وفي البرزخ، ويوم يقوم الأشهاد، وأنه ينبغي له أن يسعى في عمل يريجه من هذه الشدائد، ويوجب له الفرح والسرور الدائم.

وإن لم يفعل، فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد أبد الآباد.

ويحتمل أن المعنى: لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم، وأقوم خلقه، مقدر^(١٢) على التصرف والأعمال الشديدة، ومع ذلك، [فإنه] لم يشكر الله على هذه النعمة [العظيمة]، بل بطر بالعافية وتحبّر على خالقه، فحسب بجعله وظلمه أن هذه الحال ستدوم له، وأن سلطان تصرفه لا ينزل، ولهذا قال تعالى: ﴿أحسب

(١) في ب: يقدر.

(٢) في ب: أيقظ.

(٣) في ب: على معاصي الله.

(٤) في ب: لهواه.

(٥) سبق قلم الشيخ فزاد في الآية ﴿وعملوا الصالحات﴾ فحذفت الزيادة في الآية وأبقيت التفسير.

(٦) في ب: فدخل في هذا كل قول.

الخلق حينئذ من الانتفاع بها، بجميع وجهه^(٢) الانتفاع.

﴿ونفس وما سواها﴾ يحتمل أن المراد نفس سائر المخلوقات الحيوانية، كما يؤيد هذا العموم، ويحتمل أن المراد بالإقسام بنفس الإنسان المكلف، بدليل ما يأتي بعده.

وعلى كُلِّ، فالنفس آية كبيرة من آياته التي حقيقة بالإقسام بها^(٣)، فإنها في غاية اللطف والخفة، سريعة التنقل [والحركة] والتغير والتأثر والانفعالات النفسية، من الهم، والإرادة، والقصد، والحب، والبغض، وهي التي لولاها لكان البدن مجرد تمثال لا فائدة فيه، وتسويتها على هذا الوجه^(٤) آية من آيات الله العظيمة.

وقوله: ﴿قد أفلح من زكاه﴾ أي: طهر نفسه من الذنوب، ونقاها من العيوب، ورثاها ببطاعة الله، وعلأها بالعلم النافع والعمل الصالح.

﴿وقد خاب من دساها﴾ أي: أخفى نفسه الكريمة، التي ليست حقيقة بقمعها وإخفائها، بالتدنس بالردائل، والدنو من العيوب والافتراق للذنوب، وترك ما يكملها وينميها، واستعمال ما يشينها ويدسيها.

﴿كذبت ثمود بطغواها﴾ أي: بسبب طغيانها وترفعها عن الحق، وعتوها على رسل الله^(٥)، «إذ اتبعث أشقاه» أي: أشقى القبيلة، [وهو] «قدار بن سالف» لعقرها حين اتفقوا على ذلك، وأمره فأعمر لهم.

﴿فقال لهم رسول الله﴾ صالح عليه السلام محذراً: ﴿ناقة الله وسقياها﴾ أي: احذروا عقر ناقة الله، التي جعلها لكم آية عظيمة، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم بسقي لبنها أن تعقروها، فكذبوا نبيهم صالحاً ﴿فعمقروها، فدمدم عليهم ربهم بذنبهم﴾ أي: دمر عليهم وعمهم بعقابه، وأرسل عليهم الصيحة من

قد مدت من ورائها، لثلاث تنفتح أبوابها، حتى يكونوا في ضيق وهم وشدة [والحمد لله].

تفسير سورة الشمس وضحاها وهي مكية

﴿١- ١٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها * والنهار إذا جلاها * والليل إذا يغشاها * والسماء وما بناها * والأرض وما طحاها * ونفس وما سواها * فאלهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاه * وقد خاب من دساها * كذبت ثمود بطغواها * إذ اتبعث أشقاه * فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها * فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها * ولا يخاف عقباها﴾ أقسم تعالى بهذه الآيات العظيمة، على النفس المفلحة، وغيرها من النفوس الفاجرة، فقال:

﴿والشمس وضحاها﴾ أي: نورها، ونفعها الصادر منها، ﴿والقمر إذا تلاها﴾ أي: تبعها في المنازل والنور، ﴿والنهار إذا جلاها﴾ أي: جلى ما على وجه الأرض وأوضحه، ﴿والليل إذا يغشاها﴾ أي: يثشى وجه الأرض، فيكون ما عليها مظلماً.

فتعاقب الظلمة والضياء، والشمس والقمر، على هذا العالم، بانتظام وإتقان، وقيام^(١) لمصالح العباد، أكبر دليل على أن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه المعبود وحده، الذي كل معبود سواه فباطل.

﴿والسماء وما بناها﴾ يحتمل أن «ما» موصولة، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها، الذي هو الله تبارك وتعالى، ويحتمل أنها مصدرية، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها، الذي هو غاية ما يقدر من الأحكام والإتقان والإحسان، ونحو ذلك قوله: ﴿والأرض وما طحاها﴾ أي: مدحا ووسعها، فتمكن

(١) كذا في ب، وفي أ: وانتظام.

(٢) في ب: أوجه.

(٣) في ب: يحق الإقسام بها.

(٤) في ب: على ما هي عليه.

(٥) في ب: على رسولهم.

(٦) في ب: في العقوبة.



فوقهم، والرجفة من تحنهم، فأصبحوا جائئين على ركبهم، لا تجد منهم داعياً ولا مجيباً.

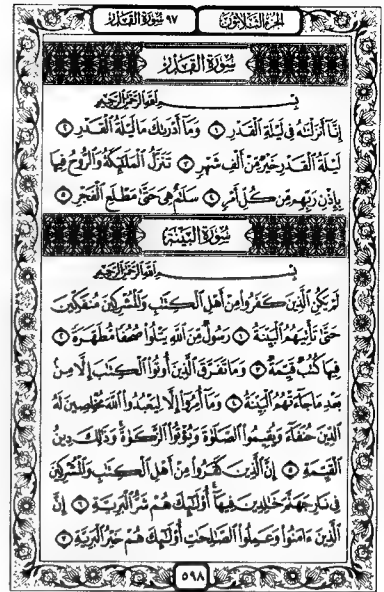
﴿فسواها﴾ عليهم أي: سوى بينهم بالعقوبة^(٦) ﴿ولا يخاف عقباها﴾ أي: تبعها.

وكيف يخاف من هو قاهر، لا يخرج عن قهره وتصرفه مخلوق، الحكيم في كل ما قضاه وشرعه؟

تمت والله الحمد

تفسير سورة الليل وهي مكية

﴿١- ٢١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم والليل إذا يغشى * والنهار إذا تجل * وما خلق الذكر والأنثى * إن سعيكم لشتى * فأما من أعطى واتقى * وصدق بالحسنى * فسنيسره لليسرى * وأما من بخل واستغنى * وكذب بالحسنى * فسنيسره للعسرى * وما يغني عنه ماله إذا تردى * إن علينا للهدى * وإن لنا للآخرة والأولى * فأنذر تكمر ناراً تلظى * لا يصلاها إلا الأشقى * الذي كذب وتولى * وسيجنبها الأتقى * الذي يؤتي ماله يتزكى * وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء



وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى
هذا قسم من الله بالزمان الذي تقع فيه
أفعال العباد على تفاوت أحوالهم،
فقال: ﴿والليل إذا يغشى﴾ [أي: يعم]
الخلق بظلامه، فيسكن كل إلى ماواه
ومسكنه، ويستريح العباد من الكد
والتعب، ﴿والنهار إذا تجلى﴾ للخلق،
فاستضاءوا بنوره، وانتشروا في
مصالحهم، ﴿وما خلق الذكر والأنثى﴾
إن كانت «ما» موصولة، كان إقساماً
بنفسه الكريمة الموصوفة، بأنه ^(١) خالق
الذكور والإناث، وإن كانت مصدرية،
كان قسماً بخلق للذكر والأنثى،
وكمال حكمته في ذلك أن خلق من
كل صنف من الحيوانات التي يريد
بقاءها ذكراً وأنثى، ليبقى النوع
ولا يضمحل، وقاد كلا منهما إلى
الآخر بسلسلة الشهوة، وجعل كلا
منهما مناسباً للآخر، فتبارك الله
أحسن الخالقين.

وقوله: ﴿إن سعيكم لشتى﴾ هذا
[هو] القسم عليه أي: إن سعيكم أيها
المكلفون لتفاوت تفاوتاً كثيراً، وذلك

بحسب تفاوت نفس الأعمال
ومقدارها والنشاط فيها، وبحسب
الغاية المقصودة بتلك الأعمال، هل هو
وجه الله الأعلى الباقي؟ فيبقى السعي
له ^(٢) ببقائه، وينتفع به صاحبه، أم هي
غاية مضمحلة فانية، فيبطل السعي
ببطلانها، ويضمحل باضمحلها؟

وهذا كل عمل يقصد به غير
وجه الله تعالى، بهذا الوصف، ولهذا
فصل الله تعالى العاملين، ووصف
أعمالهم، فقال: ﴿فأما من أعطى﴾
[أي: ما أمر به من العبادات المالية،
كالزكوات، والكفارات والنفقات،
والصدقات، والإنفاق في وجوه
الخير، والعبادات البدنية كالصلاة،
والصوم ونحوهما.

والمرتبة منهما، كالحج والعمرة،
[ونحوهما] ﴿وأتقى﴾ ما نهي عنه، من
المحرمات والمعاصي، على اختلاف
أجناسها.

﴿وصدق بالحسنى﴾ أي: صدق
بـ «لا إله إلا الله» وما دلت عليه، من
جميع العقائد الدينية، وما ترتب عليها
من الجزاء الأخروي.

﴿فستيسره اليسرى﴾ أي: نسهل
عليه أمره، ونجعله ميسراً له ^(٣) كل
خير، ميسراً له ترك كل شر، لأنه أتى
بأسباب التيسير، فيسر الله له ذلك.

﴿وأما من بخل﴾ بما أمر به، فترك
الإنفاق الواجب والمستحب، ولم
تسمح نفسه بأداء ما وجب لله،
﴿واستغنى﴾ عن الله، فترك عبوديته
جانباً، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار
إلى ربه، الذي لا نجاة لها ولا فوز
ولا فلاح، إلا بأن يكون هو محبوبها
ومعبودها، الذي تقصده وتتوجه إليه،
﴿وكذب بالحسنى﴾ أي: بما
أوجب الله على العباد التصديق به من

العقائد الحسنة، ﴿فستيسره لليسرى﴾
أي: للحالة العسرة، والخصال
الذميمة، بأن يكون ميسراً للشراً أينما
كان، ومقيضاً له أفعال المعاصي،
نسأل الله العافية.

﴿وما يغني عنه ماله﴾ الذي أطغاه
واستغنى به، وبخل به إذا هلك
ومات، فإنه لا يصحبه إلا عمله
الصالح ^(٤).

وأما ماله [الذي لم يخرج منه
الواجب] فإنه يكون وبالاً عليه، إذ لم
يقدم منه آخرته شيئاً.

﴿إن علينا للهدى﴾ أي: إن الهدى
المستقيم طريقه، يوصل إلى الله، ويدي
من رضاه، وأما الضلال، فطرق
مسدودة عن الله، لا توصل صاحبها
إلا للعذاب الشديد.

﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ ملكاً
وتصرفاً، ليس له فيهما مشارك،
فليرغب الراغبون إليه في الطلب،
ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين،
﴿فأنذرتكم نارا تلظى﴾ أي: تستمر
وتتوقد، ﴿لا يصلها إلا الأشتى﴾ *
الذي كذب، بالخبر ﴿وتولى﴾ عن
الأمر.

﴿وسيجنبها الأتقى﴾ الذي يؤتي
ماله يتزكى، بأن يكون قصده به تزكية
نفسه، وتطهيرها من الذنوب
والعيوب ^(٥)، قاصداً به وجه الله
تعالى، فدل هذا على أنه إذا تضمن
الإنفاق المستحب ترك واجب، كدين
ونفقة ونحوهما، فإنه غير مشروع، بل
تكون عطيته مردودة عند كثير من
العلماء، لأنه لا يتزكى بفعل مستحب
يفوت عليه الواجب.

﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزى﴾
أي: ليس لأحد من الخلق على هذا
الأتقى نعمة تجزى إلا وقد كافأها،

(١) في ب: يكونه.

(٢) في ب: العمل له.

(٣) في ب: أي يسر له أمره، ونجعله سهلاً عليه.

(٤) في ب: فإنه لا يصحب الإنسان إلا عمله الصالح.

(٥) في ب: والأدناس.

رباك وورعك، بل لم يزل يربيك أحسن تربية، ويعليك درجة بعد درجة.

﴿وما قلا﴾ ك الله أي: ما أبغضك منذ أحبك، فإن نفي الضد دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض لا يكون مدحاً، إلا إذا تضمن ثبوت كمال، فهذه حال الرسول ﷺ الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة الله له واستمرارها، وترقيته في درج^(٢) الكمال، ودوام اعتناء الله به.

وأما حاله المستقبل، فقال: ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ أي: كل حالة متأخرة من أحوالك، فإن لها الفضل على الحالة السابقة.

فلم يزل ﷺ يصعد في درج المعالي^(٣)، ويمكن له الله دينه، وينصره على أعدائه، ويسدد له أحواله، حتى مات، وقد وصل إلى حال لا يصل^(٤) إليها الأولون والآخرون، من الفضائل والنعم، وقرة العين، وسرور القلب.

ثم بعد ذلك، لا تسأل عن حاله في الآخرة، من تفاصيل الإكرام، وأنواع الإنعام، ولهذا قال: ﴿ولسوف يعطيك ربك فترضى﴾ وهذا أمر لا يمكن التعبير عنه بغير هذه العبارة الجامعة الشاملة.

ثم امتن عليه بما يعلمه من أحواله^(٥) [الخاصة] فقال: ﴿ألم يجدك يتيماً فأوى﴾ أي: وجدك لا أم لك، ولا أب، بل قد مات أبوه وأمه وهو لا يدبر نفسه، فأواه الله، وكفله جده عبد المطلب، ثم لما مات جده كفله الله عمه أبا طالب، حتى أیده الله بنصره وبالؤمنين.

﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ أي: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق.

وربما بقي له الفضل والمنة على الناس، فتمحض عبداً لله، لأنه رقيق إحسانه وحده، وأما من بقي^(١) عليه نعمة للناس لم يجزها ويكافئها، فإنه لا بد أن يترك للناس، ويفعل لهم ما ينقص [إخلاصه].

وهذه الآية، وإن كانت متناولة لأبي بكر الصديق رضي الله عنه، بل قد قيل إنها نزلت في سببه، فإنه - رضي الله عنه - ما لأحد عنده من نعمة تجزى، حتى ولا رسول الله ﷺ، إلا نعمة الرسول التي لا يمكن جزاؤها، وهي [نعمة] الدعوة إلى دين الإسلام، وتعليم الهدى ودين الحق، فإن الله ورسوله المنة على كل أحد، منة لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة، فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل، فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تجزى، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالى.

ولهذا قال: ﴿إلا ابتغاء وجهه ربه الأعلى﴾ * ولسوف يرضى * هذا الأتقى بما يعطيه الله من أنواع الكرامات والثوبات، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة والضحي وهي مكية

﴿١-١١﴾ * بسم الله الرحمن الرحيم والضحي * والليل إذا سجدى * ما ودعك ربك وما قلى * وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى * ألم يجدك يتيماً فأوى * ووجدك ضالاً فهدى * ووجدك عائلاً فأغنى * فأما اليتيم فلا تقهر * وأما السائل فلا تنهر * وأما بنعمة ربك فحدث * أقسم تعالى بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحي، وبالليل إذا سجدى وادلهمت ظلمته، على اعتناء الله برسوله ﷺ، فقال: ﴿ما ودعك ربك﴾ أي: ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك منذ

﴿ووجدك عائلاً﴾ أي: فقيراً ﴿فأغنى﴾ بما فتح الله عليك^(٦) من البلدان، التي جبيت لك أموالها وخارجها.

فالذي أزال عنك هذه النقائص، سيزيل عنك كل نقص، والذي أوصلك إلى الغنى، وأواك ونصرك وهداك، قابل نعمته بالشكران.

[ولهذا قال:] ﴿فأما اليتيم فلا تقهر﴾ أي: لا تسيء معاملته، ولا يضق صدرك عليه، ولا تنهره، بل أكرمه، وأعطه ما تيسر، وأصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك.

﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ أي: لا يصدر منك إلى السائل كلام^(٧) يقتضي رده عن مطلوبه، بنهر وشراسة خلق، بل أعطه ما تيسر عندك أو رده بمعروف [وإحسان].

وهذا يدخل فيه السائل للمال، والسائل للعلم، ولهذا كان المعلم مأموراً بحسن الخلق مع المتعلم، ومباشرة بالإكرام والتحنن عليه، فإن في ذلك معونة له على مقصده، وإكراماً لمن كان يسعى في نفع العباد والبلاد.

(٧) في ب: لا يصدر منك كلام للسائل.

(٤) في ب: ما وصل.

(٥) كذا في ب، وفي أ: الأحوال.

(٦) في ب: فأغناك الله بما فتح عليك.

(١) في ب: بقيت.

(٢) في ب: درجات.

(٣) في ب: درجات.

فرغت من الصلاة وأكملتها، فانصب في الدعاء، وإلى ربك فارغب في سؤال مطالبك .

واستدل من قال بهذا القول، على مشروعية الدعاء والذكر عقب الصلوات المكتوبات، والله أعلم بذلك تمت والله الحمد .

تفسير سورة التين وهي مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والتين والزيتون * سينين * وهذا البلد الأمين * لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه أسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون * فما يكذبك بعد بالدين * أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ ﴿التين﴾ هو التين المعروف، وكذلك ﴿الزيتون﴾ أقسم بهاتين الشجرتين، لكثرة منافع شجرهما وثمرهما، ولأن سلطانهما في أرض الشام، محل نبوة عيسى ابن مريم عليه السلام .

﴿وطور سينين﴾ أي : طور سيناء، محل نبوة موسى ﷺ، ﴿وهذا البلد الأمين﴾ وهي مكة المكرمة، محل نبوة محمد ﷺ . فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة، التي اختارها وابتعث منها أفضل النبوات^(٢) وأشرافها .

والمقسم عليه قوله : ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ أي : تام الخلق، متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهراً أو باطناً شيئاً، ومع هذه النعم العظيمة، التي ينبغي منه القيام بشكرها، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، مشتغلون باللهو واللعب، قد رضوا لأنفسهم بأسفل الأمور، وسفاسف الأخلاق، فردهم الله في أسفل سافلين أي : أسفل النار، موضع العصاة المتمردين على ربهم، إلا من من الله عليه بالإيمان والعمل الصالح، والأخلاق الفاضلة العالية، ﴿فلهم﴾

﴿الذي أنقض﴾ أي : أثقل ﴿ظهرك﴾ كما قال تعالى : ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ . ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ أي : أعلينا قدرك، وجعلنا لك الشئ الحسن العالي، الذي لم يصل إليه أحد من الخلق، فلا يذكر الله إلا ذكر معه رسوله ﷺ، كما في الدخول في الإسلام، وفي الأذان والإقامة والخطب، وغير ذلك من الأمور التي أعلى الله بها ذكر رسوله محمد ﷺ .

وله في قلوب أمته من المحبة والإجلال والتعظيم ما ليس لأحد غيره، بعد الله تعالى، فجازه الله عن أمته أفضل ما جرى نبياً عن أمته .

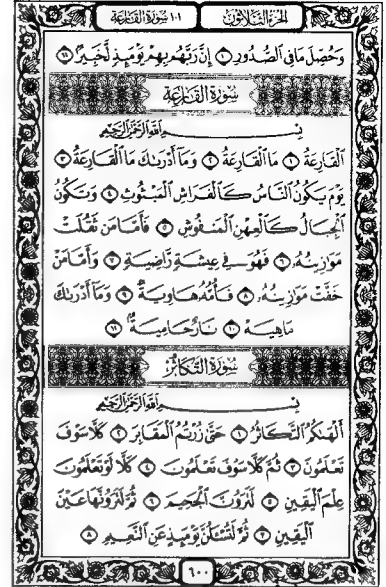
وقوله : ﴿فإن مع العسر يسراً﴾ إن مع العسر يسراً ﴿بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، حتى لو دخل العسر جحر ضب لدخل عليه اليسر فأخرجه، كما قال تعالى : ﴿سيجعل الله بعد عسر يسراً﴾ وكما قال النبي ﷺ : ﴿إن الفرج مع الكرب، وإن مع العسر يسراً﴾ .

وتعريف «العسر» في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتنكير «اليسر» يدل على تكراره، فلن يغلب عسر يسرين . وفي تعريفه بالألف واللام، الدالة على الاستغراق والعموم يدل على أن كل عسر - وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ - فإنه في آخره التيسير ملازم له .

ثم أمر الله رسوله أصلاً، والمؤمنين تبعاً، بشكره والقيام بواجب نعمه، فقال : ﴿فلذا فرغت فانصب﴾ أي : إذا تفرغت من أشغالك، ولم يبق في قلبك ما يعوقه، فاجتهد في العبادة والدعاء .

﴿وللى ربك﴾ وحده ﴿فارغب﴾ أي : أعظم الرغبة في إجابة دعائك وقبول عبادتك^(١) .

ولا تكن ممن إذا فرغوا وتفرغوا لعبوا وأعرضوا عن ربهم وعن ذكره، فتكون من الخاسرين . وقد قيل : إن معنى قوله : فلذا



﴿وأما بنعمة ربك﴾ [وهذا يشمل] النعم الدينية والدنيوية ﴿فحدث﴾ أي : أثن على الله بها، وخصصها بالذكر إن كان هناك مصلحة .

وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق، فإن التحدث بنعمة الله داع لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة الحسن .

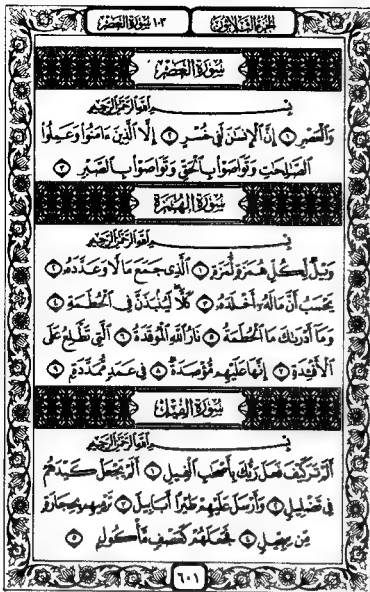
تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك وهي مكية

﴿١-٨﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذي أنقض ظهرك * ورفعنا لك ذكرك﴾ * فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً * فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب﴾ يقول تعالى - ممتناً على رسوله - : ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ أي : نوسع لشرائع الدين والدعوة إلى الله، والانصاف بمكارم الأخلاق، والإقبال على الآخرة، وتسهيل الخيرات، فلم يكن ضيقاً حرجاً، لا يكاد ينقاد لخير، ولا تكاد تجده منبسطة .

﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ أي : ذنبك

(٢) في ب : أفضل الأنبياء وأشرافهم .

(١) في ب : دعواتك .



فامتنع، وقال: «ما أنا بقارىء» فلم يزل به حتى قرأ. فأنزل الله عليه: «اقرأ باسم ربك الذي خلق» عموم الخلق، ثم خص الإنسان، وذكر ابتداء خلقه «من علق» فالذي خلق الإنسان واعتنى بتدبيره، لا بد أن يدبره بالأمم والنهي، وذلك بإرسال الرسول إليهم^(١)، وإنزال الكتب عليهم، ولهذا ذكر^(٢) بعد الأمر بالقراءة، خلقه^(٣) للإنسان.

ثم قال: «اقرأ وربك الأكرم» أي: كثير الصفات واسمها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود، الذي من كرمه أن علم بالعلم^(٤). و «علم بالقلم» * علم الإنسان ما لم يعلم، فإنه تعالى أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئاً، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، ويسر له أسباب العلم.

فعلمه القرآن، وعلمه الحكمة، وعلمه بالقلم، الذي به تحفظ العلوم، وتضبط الحقوق، وتكون رسلاً للناس تنوب مناب خطابهم، فله الحمد والمنة، الذي أنعم على عباده بهذه النعم التي لا يقدرון لها على جزاء ولا شكور، ثم من عليهم بالغنى وسعة الرزق، ولكن الإنسان - لجهله وظلمه - إذا رأى نفسه غنياً، طغى وبغى، وتجبر عن الهدى، ونسى أن إلى ربه الرجعى، ولم يخف الجزاء، بل ربما وصلت به الحال أنه يترك الهدى بنفسه، ويدعو [غيره] إلى تركه، فينهى عن الصلاة التي هي أفضل أعمال الإيمان. يقول الله لهذا المتمرد العاتى: «أرأيت» أيها الناهي للعبد إذا صل «إن كان» العبد المصلى «على الهدى» العلم بالحق والعمل به، «أو أمر» غيره «بالتقوى».

فهل يحسن أن ينهى من هذا وصفه؟ أليس نهيه من أعظم المحاذرة لله والمحاربة للحق؟ فإن النهي لا يتوجه إلا لمن هو في نفسه على غير الهدى، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى.

بذلك المنازل العالية، و «أجر غير ممنون» أي: غير مقطوع، بل لذات متوافرة، وأفراح متواترة، ونعم متكاثرة، في أبداً يزول، ونعيم لا يحول، أكلها دائم وظلها، «فما يكذبك بعد بالدين» أي: أي شيء يكذبك أيها الإنسان بيوم الجزاء على الأعمال، وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما به يحصل لك اليقين، ومن نعمه ما يوجب عليك أن لا تكفري شيء مما أخبرك به، «أليس الله بأحكم الحاكمين» فهل تقتضى حكمته أن يترك الخلق سدى لا يؤمرون ولا ينهون، ولا يثابون ولا يعاقبون؟

أم الذي خلق الإنسان أطواراً بعد أطوار، وأوصل إليهم من النعم والخير والبر ما لا يحصونه، ورباهم التربية الحسنة، لا بد أن يعيدهم إلى دار هي مستقرهم وغايتهم، التي إليها يقصدون، ونحوها يؤمنون. تمت والله الحمد.

تفسير سورة اقرأ [وهي] مكية

﴿١-١٩﴾ بسم الله الرحمن الرحيم اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم * كلا إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى * إن إلى ربك الرجعى * أرأيت الذي ينهى * عبداً إذا صلى * أرأيت إن كان على الهدى * أو أمر بالتقوى * أرأيت إن كذب وتولى * ألم يعلم بأن الله يرى * كلا لئن لم ينته لنسفنا بالناصية * ناصية كاذبة خاطئة * فلیدع ناديه * سندع الزبانية * كلا لا تطعه واسجد واقترب * هذه السورة أول السور القرآنية نزولاً على رسول الله ﷺ.

فإنها نزلت عليه في مبادئ النبوة، إذ كان لا يدري ما الكتاب ولا الإيمان، فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام بالرسالة، وأمره أن يقرأ،

«أرأيت إن كذب» الناهي بالحق، «وتولى» عن الأمر، أما يخاف الله ويخشى عقابه؟ ألم يعلم بأن الله يرى؟ ما يعمل ويفعل؟

ثم توعده إن استمر على حاله، فقال: «كلا لئن لم ينته» عما يقول ويفعل «لنسفن بالناصية» أي: لناخذن بناصرته، أخذاً عنيفاً، وهي حقيقة بذلك، فإنها «ناصية كاذبة خاطئة» أي: كاذبة في قولها، خاطئة في فعلها.

«فلیدع» هذا الذي حق عليه العقاب^(٥) «ناديه» أي: أهل مجلسه وأصحابه ومن حوله، ليعينوه على ما نزل به، «سندعوا الزبانية» أي: خزنة جهنم، لأخذه وعقوبته، فلينظر أي: الفريقين أقوى وأقدر؟ فهذه حالة الناهي وما توعده من العقوبة، وأما حالة المنهي، فأمره الله أن لا يصغى إلى هذا الناهي ولا يتقاد لنهيه، فقال: «كلا لا تطعه» [أي: فإنه لا يأمر إلا بما فيه خسارة الدارين، «واسجد» لربك «واقترب» منه في السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات، فإنها كلها تُدني من رضا وتقرب منه.

وهذا عام لكل ناهٍ عن الخير ومنهي

(٥) في ب: العذاب.

(٣) في ب: بخلقه.

(٤) في ب: بأنواع العلوم.

(١) في ب: بإرسال الرسل.

(٢) في ب: ولهذا أتى.

هم خير البرية * جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشي ربه * يقول تعالى : ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ﴾ أي : [من] اليهود والنصارى والمشركون * من سائر أصناف الأمم .

﴿ منفكين ﴾ عن كفرهم وضلالهم الذي هم عليه أي : لا يزالون في غيهم وضلالهم ، لا يزيدهم مرور السنين ^(٥) إلا كفراً .

﴿ حتى تأتيهم البينة ﴾ الواضحة ، والبرهان الساطع ، ثم فسر تلك البينة فقال : ﴿ رسول من الله ﴾ أي : أرسله الله ، يدعو الناس إلى الحق ، وأنزل عليه كتاباً يتلوه ، ليعلم الناس الحكمة ويزكيهم ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ولهذا قال : ﴿ يتلو صحفاً مطهرة ﴾ أي : محفوظة عن قربان الشياطين ، لا يمسها إلا المطهرون ، لأنها في أعلى ما يكون من الكلام .

ولهذا قال عنها : ﴿ فيها ﴾ أي : في تلك الصحف ﴿ كتب قيمة ﴾ أي : أخبار صادقة ، وأوامر عادلة تهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، فإذا جاءتهم هذه البينة ، فحينئذ يتبين طالب الحق عن ليس له مقصد في طلبه ، فيهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة .

وإذا لم يؤمن أهل الكتاب لهذا الرسول وينقادوا له ، فليس ذلك ببدع من ضلالهم وعنادهم ، فإنهم ما تفرقوا واختلفوا وصاروا أحزاباً * إلا من بعد ما جاءتهم البينة * التي توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق ، ولكنهم لرداءتهم ونذاتهم ، لم يزددهم الهدى إلا ضلالاً ، ولا البصيرة إلا عمى ، مع أن الكتب كلها جاءت بأصل واحد ودين واحد ، فما أمروا في سائر الشرائع إلا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين * أي :

﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ أي : تعادل من فضلها ألف شهر ، فالعمل الذي يقع فيها ، خير من العمل في ألف شهر [خالية منها] ، وهذا عما تتحير فيه ^(٣) الألباب ، وتندش له العقول ، حيث من تبارك وتعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى ، بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر ، عمر رجل معمر عمراً طويلاً ، نيفاً وثمانين سنة .

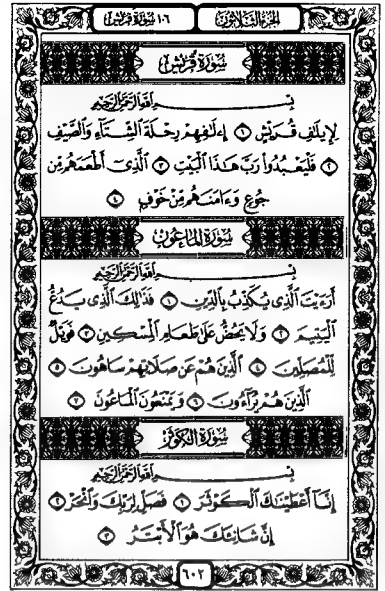
﴿ تنزل الملائكة والروح فيها ﴾ أي : يكثّر نزولهم فيها * من كل أمر * سلام هي * أي : سالمة من كل آفة وشر ، وذلك لكثرة خيرها ، ﴿ حتى مطلع الفجر ﴾ أي : مبتدأها من غروب الشمس ومنتهاها طلوع الفجر ^(٤) .

وقد تواترت الأحاديث في فضلها ، وأنها في رمضان ، وفي العشر الأواخر منه ، خصوصاً في أوتاره ، وهي باقية في كل سنة إلى قيام الساعة .

ولهذا كان النبي ﷺ يعتكف ويكثر من التعبد في العشر الأواخر من رمضان ، رجاء لليلة القدر [والله أعلم] .

تفسير سورة لم يكن وهي مدنية

١ - ٨ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون منفكين حتى تأتيهم البينة * رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة * فيها كتب قيمة * وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة * وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة * إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك



عنه ، وإن كانت نازلة في شأن أبي جهل حين نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة ، وعبث به ^(١) وأذاه . تمت والله الحمد

تفسير سورة القدر وهي [مكية]

١ - ٥ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ إنا أنزلناه في ليلة القدر * وأدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هي حتى مطلع الفجر * يقول تعالى مبيناً لفصل القرآن وعلو قدره : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ كما قال تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ وذلك أن الله [تعالى] ، ابتداء بإنزاله ^(٢) في رمضان [في] ليلة القدر ، ورحم الله بها العباد رحمة عامة ، لا يقدر العباد لها شكراً .

وسميت ليلة القدر ، لعظم قدرها وفضلها عند الله ، ولأنه يقدر فيها ما يكون في العام من الآجال والأرزاق والمقادير القدريّة .

ثم فخم شأنها ، وعظم مقدارها ، فقال : ﴿ وما أدراك ما ليلة القدر ﴾ أي : فإن شأنها جليل ، وخطرها عظيم ،

(٥) في ب : الأوقات .

(٤) كذا في ب ، وفي أ : تنتهي من غروب الشمس إلى طلوع الفجر .

(١) في ب : وعذبه .

(٢) في ب : ابتداء بإنزال القرآن .

(٣) كذا في ب ، وفي أ : به .

الأشياء، [وجوزي عليها] فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [ووجدوا ما عملوا حاضراً].

وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلاً، والترهيب من فعل الشر ولو حقيراً.

تفسير سورة العاديات وهي مكية

﴿١- ١١﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والعاديات صبحاً * فالموريات قدحاً * فالمغيرات صبحاً * فأثرن به نقعاً * فوسطن به جمعاً * إن الإنسان لربه لكتود * وإنه على ذلك لشهيد * وإنه لحب الخير لشديد * أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور * وحصل ما في الصدور * إن ربهم بهم يومئذ لخبير * أقسم الله تبارك وتعالى بالخيل، لما فيها من آيات الله الباهرة، ونعمه الظاهرة، ما هو معلوم للخلق.

وأقسم [تعالى] بها في الحال التي لا يشاركها [فيه] غيرها من أنواع الحيوانات، فقال: ﴿والعاديات صبحاً﴾ أي: العاديات عدواً بليغاً قوياً، يصدر عنه الضبح، وهو صوت نفسها في صدرها عند اشتداد العدو^(٥). ﴿فالموريات﴾ بحوافرهن ما يطان عليه من الأحجار ﴿قدحاً﴾ أي: تقدح^(٦) النار من صلالة حوافرهن [وقوعن] إذا عدون، ﴿فالمغيرات﴾ على الأعداء ﴿صبحاً﴾ وهذا أمر أغلبي، أن الغارة تكون صباحاً، ﴿فأثرن به﴾ أي: بعدوهن وغارتهن ﴿نقعاً﴾ أي: غباراً، ﴿فوسطن به﴾ أي: براكينهم ﴿جمعاً﴾ أي: توسطن به جموع الأعداء، الذين أغار عليهم.

والمقسم عليه قوله: ﴿إن الإنسان لربه لكتود﴾ أي: لننوع للخير الذي

تفسير سورة إذا زلزلت وهي مدنية

﴿١- ٨﴾ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إذا زلزلت الأرض زلزالها * وأخرجت الأرض أثقالها * وقال الإنسان ما لها * يومئذ تحدث أخبارها * بأن ربك أوحى لها * يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليرَوُا أعمالهم * فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره * يخبر تعالى عما يكون يوم القيامة، وأن الأرض تتزلزل وترجف وترتع، حتى يسقط ما عليها من بناء وعلم^(٣).

فتندك جبالها، وتُسَوَّى تلالها، وتكون قاعاً صفصفاً لا عوج فيه ولا أمت.

﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ أي: ما في بطنها، من الأموات والكنوز، ﴿وقال الإنسان﴾ إذا رأى ما عراها من الأمر العظيم مستعظماً لذلك: ﴿ما لها؟ أي: أي شيء عرض لها؟﴾

﴿يومئذ تحدث الأرض أخبارها﴾ أي: تشهد على العاملين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم، ذلك ﴿بأن ربك أوحى لها﴾ [أي] وأمرها أن تخبر بما عمل عليها، فلا تعصي لأمره^(٤).

﴿يومئذ يصدر الناس﴾ من موقف القيامة، حين يقضي الله بينهم ﴿أشتاتاً﴾ أي: فرقا متفاوتين. ﴿ليروا أعمالهم﴾ أي: ليرى الله ما عملوا من الحسنات والسيئات، ويرى جزاءه موفراً.

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ وهذا شامل عام للخير والشر كله، لأنه إذا رأى مثقال الذرة، التي هي أحقر

قاصدين بجميع عباداتهم الظاهرة والباطنة وجه الله، وطلب الزلفى لديه، ﴿حنفاء﴾ أي: معرضين [مانلين] عن سائر الأديان المخالفة لدين التوحيد. وخص الصلاة والزكاة، [بالذكر] مع أنهما داخلان في قوله: ﴿ليعبدوا الله مخلصين﴾ لفضلهما وشرفهما، وكونهما العبادتين اللتين من قام بهما قام بجميع شرائع الدين.

﴿وذلك﴾ أي: التوحيد والإخلاص في الدين، هو ﴿دين القيمة﴾ أي: الدين المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، وما سواه فطرق موصلة إلى الجحيم.

ثم ذكر جزاء الكافرين بعدما جاءتهم البينة، فقال: ﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركون في نار جهنم﴾ قد أحاط بهم عذابها، واشتد عليهم عقابها، ﴿خالدين فيها﴾ لا يفتر عنهم العذاب، وهم فيها مبلسون، ﴿أولئك هم شر البرية﴾ لأنهم عرفوا الحق وتركوه، وخسروا الدنيا والآخرة.

﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية﴾ لأنهم عبدوا الله وعرفوه، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة، ﴿جزاؤهم عند ربهم جنات عدن﴾ أي: جنات إقامة، لا ظعن فيها ولا رحيل، ولا طلب لغاية فوقها، ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه، مرضي عنهم بما قاموا به من مرضيه، ورضوا عنه، بما أعد لهم من أنواع الكرامات وجزيل الثوبات ﴿ذلك﴾ الجزاء الحسن ﴿لمن خشى ربه﴾ أي: لمن خاف الله، فأحجم عن معاصيه، وقام بواجباته^(١)

[تمت والحمد لله]

(١) في ب: بما أوجب عليه.

(٢) في ب: الزلزلة.

(٣) في ب: ومثلهم.

(٤) كذا في ب، وفي أ: ولا تستعصي.

(٥) في ب: عذوها.

(٦) في ب: تقدح.

عليه لربه^(١).

فطبيعة [الإنسان] وجبلته، أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق، فتؤديه كاملة موفرة، بل طبيعتها الكسل والمنع لما عليه من الحقوق المالية والبدنية، إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف إلى وصف السماح بأداء الحقوق، **﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾** أي: إن الإنسان على ما يعرف من نفسه من المنع والكند لشاهد بذلك، لا يجحده ولا ينكره، لأن ذلك أمرٌ بيّن واضح. ويحتمل أن الضمير عائد إلى الله تعالى أي: إن العبد لربه لكنود، والله شهيد على ذلك، ففيه الوعيد، والتهديد الشديد، لمن هو لربه كنود، بأن الله عليه شهيد.

﴿وإنه﴾ أي: الإنسان **﴿الحب﴾** الخير أي: المال **﴿لشديد﴾** أي: كثير الحب للمال.

وحبه لذلك، هو الذي أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه، قدم شهوة نفسه على حق^(٢) ربه، وكل هذا لأنه قصر نظره على هذه الدار، وغفل عن الآخرة، ولهذا قال حائلاً على خوف يوم الوعيد:

﴿أفلا يعلم﴾ أي: هلاً يعلم هذا المفتتر **﴿إذا بعثر ما في القبور﴾** أي: أخرج الله الأموات من قبورهم، لحشرهم ونشورهم.

﴿وخصّل ما في الصدور﴾ أي: ظهر وبان [ما فيها] ما استتر في الصدور من كائنات الخير والشر، فصار السر علانية، والباطن ظاهراً، وبان على وجوه الخلق نتيجة أعمالهم.

﴿إن ربهم بهم يومئذ لخبير﴾ أي: مطلع على أعمالهم الظاهرة والباطنة، الخفية والجلية، ومجازيهم عليها. وخص خبره^(٣) بذلك اليوم، مع أنه خبير بهم في كل وقت، لأن المراد

بذلك، الجزاء بالأعمال^(٤)، الناشئ عن علم الله وإطلاعه.

تفسير سورة القارعة [وهي] مكية

﴿١١-١٠﴾ **﴿بسم الله الرحمن الرحيم القارعة * ما القارعة * وما أدراك ما القارعة * يوم يكون الناس كالفرش المبثوث * وتكون الجبال كالعهن المنفوش * فأما من ثقلت موازينه * فهو في عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأما هاوية * وما أدراك ما هيبة * ناز حامية﴾** **﴿القارعة﴾** من أسماء يوم القيامة، سميت بذلك، لأنها تفرع الناس وترعجهم بأهوالها، ولهذا عظم أمرها وفخمه بقوله: **﴿القارعة * ما القارعة * وما أدراك ما القارعة * يوم يكون الناس﴾** من شدة الفزع والهول، **﴿كالفرش المبثوث﴾** أي: كالجراد المنتشر، الذي يموج بعضه في بعض، والفرش: هي الحيوانات التي تكون في الليل، يموج بعضها ببعض لا تدري أين توجه، فإذا أوقد لها نار تهافت إليها لضعف إدراكها، فهذه حال الناس أهل العقول، وأما الجبال الصم الصلاب، فتكون **﴿كالعهن المنفوش﴾** أي: كالصوف المنفوش، الذي بقي ضعيفاً جداً، تطير به أدنى ريح، قال تعالى: **﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾** ثم بعد ذلك تكون هباء منثوراً، فتضمحل ولا يبقى منها شيء يشاهد، فحينئذ تنصب الموازين، وينقسم الناس قسمين: سعداء وأشقياء، **﴿فأما من ثقلت موازينه﴾** أي: رجحت حسناته على سيئاته **﴿فهو في عيشة راضية﴾** في جنات النعيم.

﴿وأما من خفت موازينه﴾ بأن لم

تكن له حسنات تقاوم سيئاته، **﴿فأما هاوية﴾** أي: مأواه ومسكنه النار، التي من أسمائها الهاوية، تكون له بمنزلة الأم الملازمة كما قال تعالى: **﴿إن عذابها كان غراماً﴾**.

وقيل: إن معنى ذلك، فأما دماغه هاوية في النار أي: يلتقي في النار على رأسه.

﴿وما أدراك ما هيبة﴾ وهذا تعظيم لأمرها، ثم فسرها بقوله هي: **﴿ناز حامية﴾** أي: شديدة الحرارة، قد زادت حرارتها على حرارة نار الدنيا سبعين ضعفاً. نستجير بالله منها.

تفسير سورة الهالك المتكاثر وهي مكية

﴿٨-١﴾ **﴿بسم الله الرحمن الرحيم الهالك المتكاثر * حتى زرم المقابر * كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين * لترون الجحيم * ثم لترونها عين اليقين * ثم لتسألن يومئذ عن النعيم﴾** يقول تعالى موبخاً عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له من عبادته وحده لا شريك له، ومعرفته، والإنابة إليه، وتقدير محبته على كل شيء: **﴿الهالك﴾** عن ذلك المذكور **﴿المتكاثر﴾** ولم يذكر المتكاثر به، ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون، من التكاثر في الأموال، والأولاد، والأنصار، والجنود، والخدم، والجاه، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر، وليس المقصود به الإخلاص لله تعالى^(٥).

فاستمرت غفلتكم ولهوتكم [وتشاغلكم] **﴿حتى زرم المقابر﴾** فأنكشف لكم حينئذ الغطاء، ولكن

(١) في ب: الله عليه.

(٢) في ب: على رضا ربه.

(٣) في ب: خبرهم.

(٤) في ب: المراد بهذا الجزاء على الأعمال.

(٥) في ب: وليس المقصود منه وجه الله.

بعدما تعذر عليكم استئنافه .

ودل قوله : ﴿ حتى زرتم المقابر ﴾ أن البرزخ دار مقصود منها النفوذ إلى الدار الباقية^(١) ، لأن الله سماهم زائرين ، ولم يسمهم مقيمين .

فدل ذلك على البعث والجزاء بالأعمال^(٢) ، في دار باقية غير فانية ، ولهذا توعدهم بقوله : ﴿ كلا سوف تعلمون ﴾ ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ أي : لو تعلمون ما أمامكم علماً يصل إلى القلوب ، لما ألهاكم التكاثر ، ولبادرتكم إلى الأعمال الصالحة .

ولكن عدم العلم الحقيقي ، صيركم إلى ما ترون ، ﴿ لترون الجحيم ﴾ أي : لترون القيامة ، فلترون الجحيم التي أعدها الله للكافرين .

﴿ ثم لترونها عين اليقين ﴾ أي : رؤية بصرية ، كما قال تعالى : ﴿ ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً ﴾ .

﴿ ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ الذي تنعمتم به في دار الدنيا ، هل قمتم بشكره ، وأديتم حق الله فيه ، ولم تستعينوا به على معاصيه ، فينعمكم نعيماً أعلى منه وأفضل .

أم اغتررتكم به ، ولم تقوموا بشكره ؟ بل ربما استعنتم به على معاصي الله ، فيعاقبكم على ذلك ، قال تعالى : ﴿ ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون ﴾ الآية .

تفسير سورة العصر وهي مكية

﴿ ١-٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم والعصر * إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا

بالصبر ﴾ أقسم تعالى بالعصر ، الذي هو الليل والنهار ، محل أفعال العباد وأعمالهم أن كل إنسان خاسر ، والخاسر ضد الربح .

والخسار مراتب متعددة متفاوتة :

قد يكون خساراً مطلقاً ، كحال من خسر الدنيا والآخرة ، وفاته النعيم ، واستحق الجحيم .

وقد يكون خاسراً من بعض الوجوه دون بعض ، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان ، إلا من اتصف بأربع صفات :

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به ، ولا يكون الإيمان بدون العلم ، فهو فرع عنه لا يتم إلا به .

والعمل الصالح ، وهذا شامل لأفعال الخير كلها ، الظاهرة والباطنة ، المتعلقة بحق الله وحق عباده^(٣) ، الواجبة والمستحبة .

والتواصي بالحق ، الذي هو الإيمان والعمل الصالح أي : يوصي بعضهم بعضاً بذلك ، ويحثه عليه ، ويرغبه فيه .

والتواصي بالصبر على طاعة الله ، وعن معصية الله ، وعلى أقدار الله المؤلمة .

فبالأمرين الأولين يكمل الإنسان^(٤) نفسه ، وبالأمرين الآخرين يكمل غيره ، ويتكامل الأمور الأربعة ، يكون الإنسان قد سلم من الخسار ، وفاز بالربح [العظيم] .

تفسير سورة الهمة وهي مكية

﴿ ١-٩ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ويل لكل همزة لمزة * الذي جمع مالا وعدده * يحسب أن ماله أخذه * كلا ليتنبلن في الخطمة * وما أدراك ما الخطمة * نار الله الموقدة * التي تطلع على الأفئدة * إنها عليهم مؤصلة *

في عمدة ممددة ﴾ ويل ﴿ أي : وعيد ، وويل ، وشدة عذاب ﴾ لكل همزة لمزة ، الذي يهمل الناس بفعله ، ويلزمهم بقوله ، فالهماز : الذي يعيب الناس ، ويطعن عليهم بالإشارة والفعل ، واللاماز : الذي يعيبهم بقوله .

ومن صفة هذا الهماز اللماز ، أنه لا هم له سوى جمع المال وتعديده والغبطة به ، وليس له رغبة في إنفاقه في طرق الخيرات وصلة الأرحام ، ونحو ذلك ، ﴿ يحسب ﴾ بجهله ﴿ أن ماله أخذه ﴾ في الدنيا ، فلذلك كان كده وسعيه كله في تنمية ماله ، الذي يظن أنه ينمي عمره ، ولم يدرك أن البخل يقصف الأعمار ، ويخرب الديار ، وأن البر يزيد في العمر .

﴿ كلا ليتنبلن ﴾ أي : ليطرحن ﴿ في الخطمة * وما أدراك ما الخطمة ﴾ تعظيم لها ، وتهويل لشأنها .

ثم فسرها بقوله : ﴿ نار الله الموقدة ﴾ التي وقودها الناس والحجارة ﴿ التي ﴾ من شدتها ﴿ تطلع على الأفئدة ﴾ أي : تنفذ من الأجسام إلى القلوب .

ومع هذه الحرارة البليغة هم محبسون فيها ، قد أيسروا من الخروج منها ، ولهذا قال : ﴿ إنها عليهم مؤصلة ﴾ أي : مغلقة ، ﴿ في عمدة ﴾ من خلف الأبواب ﴿ ممددة ﴾ لئلا يخرجوا منها ﴿ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ﴾ .

نعوذ بالله من ذلك ونسأله العفو والعافية[.

تفسير سورة الفيل وهي مكية

﴿ ١-٥ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم

(١) في ب : الآخرة . (٢) في ب : على الأعمال .

(٣) في ب : بحقوق الله وحقوق عباده .

(٤) في ب : العبد .

الصلاة، فهذا يقع من كل أحد، حتى من النبي ﷺ ولهذا وصف الله هؤلاء بالرياء والقسوة وعدم الرحمة، فقال: ﴿الذين هم يراؤون﴾ أي: يعملون الأعمال لأجل رثاء الناس.

﴿٧﴾ ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أي: يمنعون إعطاء الشيء، الذي لا يضر إعطاؤه على وجه العارية، أو الهبة، كالإناء، والدلو، والفأس، ونحو ذلك، مما جرت العادة ببذلها والسماحة به^(٧).

فهؤلاء - لشدة حرصهم - يمنعون الماعون، فكيف بما هو أكثر منه.

وفي هذه السورة، الحث على إكرام^(٨) اليتيم، والمساكين، والتحضيض على ذلك، ومراعاة الصلاة، والمحافظة عليها، وعلى الإخلاص [فيها] في جميع الأعمال. والحث على [فعل المعروف] وبذل الأمور الخفيفة، كعارية الإناء والدلو والكتاب، ونحو ذلك، لأن الله ذم من لم يفعل ذلك، والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، والحمد لله رب العالمين.

تفسير سورة الكوثر وهي مكية

﴿١-٣﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ممتناً عليه: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ أي: الخير الكثير، والفضل الغزير، الذي من جلته، ما يعطيه الله لنبيه ﷺ يوم القيامة، من النهر الذي يقال له «الكوثر»، ومن الحوض^(٩). طوله شهر، وعرضه شهر، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، أنيته كنجوم^(١٠) السماء في

ولهذا أمرهم الله بالشكر، فقال: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ أي: ليوحده ويخلصوا له العبادة، ﴿الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ فرغد الرزق والأمن من المخاوف، من أكبر النعم الدنيوية، الموجبة لشكر الله تعالى.

فلك اللهم الحمد والشكر على نعمك الظاهرة والباطنة، وخص الله بالربوبية البيت^(١١)، لفضله وشرفه، ولا فهو رب كل شيء.

تفسير سورة الماعون وهي مكية

﴿١-٧﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالْدينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِلْمُصْلِينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يَرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ يقول تعالى ذاماً لمن ترك حقوقه وحقوق عباده: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالْدينِ﴾ أي: بالبعث والجزاء، فلا يؤمن بما جاءت به الرسل.

﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾ أي: يدفعه بعنف وشدة، ولا يرحمه لقساوة قلبه، ولأنه لا يرجو ثواباً، ولا يخشى^(١٢) عقاباً.

﴿ولا يحض﴾ غيره ﴿على طعام المسكين﴾ ومن باب أولى أنه بنفسه لا يطعم المسكين، ﴿فويل للمصلين﴾ أي: الملتزمون^(١٣) لإقامة الصلاة، ولكنهم ﴿عن صلاتهم ساهون﴾ أي: مضيعون لها، تاركون لوقتها، مفوتون لأركانها^(١٤)، وهذا لعدم اهتمامهم بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة، التي هي أهم الطاعات وأفضل القربات، والسهو عن الصلاة، هو الذي يستحق صاحبه الدم واللوم^(١٥)، وأما السهو في

كعصف مأكول﴾ أي: أما رأيت من قدرة الله وعظيم شأنه، ورحمته بعباده، وأدلة توحيده، وصدق رسوله محمد ﷺ، ما فعله الله بأصحاب الفيل، الذين كادوا بيته الحرام وأرادوا إخراجه، فتجهزوا لأجل ذلك، واستصحبوا معهم الفيلة لهدمه، وجاؤوا بجمع لا قبل للعرب به، من الحيشة واليمن، فلما انتهوا إلى قرب مكة، ولم يكن بالعرب مدافعة، وخرج أهل مكة من مكة خوفاً على أنفسهم منهم، أرسل الله عليهم طيراً أبابيل أي: متفرقة، تحمل حجارة حممة من سجيل، فرمتهم بها، وتبعت قاصيهم ودانيهم، فخمدوا وهدموا، وصاروا كعصف مأكول، وكفى الله شرهم، ورد كيدهم في نحورهم، [وقصتهم معروفة مشهورة] وكانت تلك السنة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، فصارت من جملة إرغاصات دعوته، ومقدمات^(١٦) رسالته، فلهذا الحمد والشكر.

تفسير سورة لإيلاف قريش وهي مكية

﴿١-٤﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لإيلاف قريش * لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾ قال كثير من المفسرين: إن الجار والمجرور متعلق بالسورة التي قبلها أي: فعلنا ما فعلنا بأصحاب الفيل لأجل قريش وأمنهم، واستقامة مصالحهم، وانتظام رحلتهم في الشتاء لليمن، والصيف للشام، لأجل التجارة والمكاسب.

فأهلك الله من أرادهم بسوء، وعظم أمر الحرم وأهله في قلوب العرب، حتى احترموهم، ولم يعترضوا لهم في أي: سفر أرادوا،

(٩) كذا في ب، وفي أ: ومن الحوض

الذي يقال له: الكوثر.

(١٠) في ب: عدد نجوم السماء.

(٥) في ب: مخلون بأركانها.

(٦) في ب: الذم والوعيد.

(٧) في ب: يبذله والسماح به.

(٨) في ب: إطعام.

(١) في ب: أدلة.

(٢) في ب: الربوبية بالبيت.

(٣) في ب: يخاف.

(٤) كذا في ب، وفي أ: الذين ملتزمون.

دين ﴿ كما قال تعالى: ﴿ قل كل يعمل على شاكلته ﴾ ﴾ أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ .

تفسير سورة النصر وهي مدنية (٢)

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ في هذه السورة الكريمة، بشارة وأمر لرسوله عند حصولها، وإشارة وتنبية على ما يترتب على ذلك .

فالبشارة هي البشارة بنصر الله لرسوله، وفتحه مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجا، بحيث يكون كثير منهم من أهله وأنصاره، بعد أن كانوا من أعدائه، وقد وقع هذا المبشر به، وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح، فأمر الله رسوله أن يشكر ربه على ذلك، ويسبح بحمده ويستغفره، وأما الإشارة، فإن في ذلك إشارتين: إشارة لأن يستمر النصر لهذا الدين (٣)، ويزداد عند حصول التسبيح بحمد الله واستغفاره من رسوله، فإن هذا من الشكر، والله يقول: ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ وقد وجد ذلك في زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم في هذه الأمة لم يزل نصر الله مستمرا، حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه دين من الأديان، ودخل فيه ما لم يدخل في غيره، حتى حدث من الأمة من مخالفة أمر الله ما حدث، فابتلاههم الله (٤) بتفرق الكلمة، وتشتت الأمر، فحصل ما حصل .

[ومع هذا] فلهذه الأمة، وهذا الدين، من رحمة الله ولطفه، ما لا

كثرتها واستنارتها، من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً .

ولما ذكر منته عليه، أمره بشكرها فقال: ﴿ فصل لربك وانحر ﴾ خص هاتين العبادتين بالذكر، لأيهما من أفضل العبادات وأجل القربات .

ولأن الصلاة تتضمن الخضوع [في] القلب والجوارح لله، وتنقلها في أنواع العبودية، وفي النحر تقرب إلى الله بأفضل ما عند العبد من النحائر، وإخراج للمال الذي جبلت النفوس على محبته والشح به .

﴿ إن شأنتك ﴾ أي: مبغضك وذامك ومتنقصك ﴿ هو الأبر ﴾ أي: المقطوع من كل خير، مقطوع العمل، مقطوع الذكر .

وأما محمد ﷺ، فهو الكامل حقاً، الذي له الكمال الممكن في حق المخلوق، من رفع الذكر، وكثرة الأنصار والأتباع ﷺ .

تفسير سورة الكافرون

﴿ ١ - ٦ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين ﴾ أي: قل للكافرين معلنا ومصرحاً ﴿ لا أعبد ما تعبدون ﴾ أي: تبرأ مما كانوا يعبدون من دون الله، ظاهراً وباطناً .

﴿ ولا أنتم عابدون ما أعبد ﴾ لعدم إخلاصكم لله في عبادته (١)، فعبادتكم له المقترنة بالشرك لا تسمى عبادة، ثم كرر ذلك ليدل الأول على عدم وجود الفعل، والثاني على أن ذلك قد صار وصفاً لازماً .

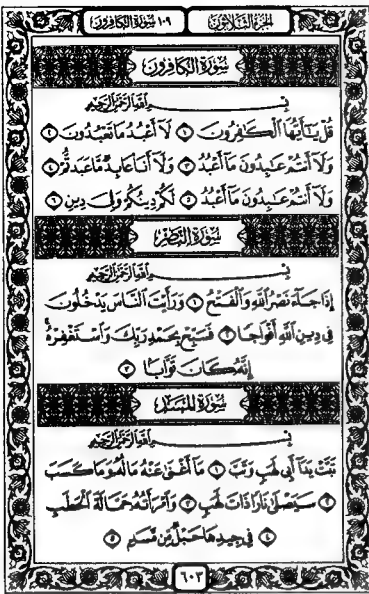
ولهذا ميز بين الفريقين، وفصل بين الطائفتين، فقال: ﴿ لكم دينكم ولي

(١) في ب: إخلاصكم في عبادتكم لله .

(٢) في ب: وهي مكة .

(٣) في ب: إشارة أن النصر يستمر للدين .

(٤) في ب: فابتلوا .



يخطر بالبال، أو يدور في الخيال وأما الإشارة الثانية، فهي الإشارة إلى أن أجل رسول الله ﷺ قد قرب ودنا، ووجه ذلك أن عمره عمر فاضل أقسم الله به .

وقد عهد أن الأمور الفاضلة تختم بالاستغفار، كالصلاة والحج، وغير ذلك .

فأمر الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال، إشارة إلى أن أجله قد انتهى، فليستعد ويتهيأ للقاء ربه، ويختم عمره بأفضل ما يجده صلوات الله وسلامه عليه .

فكان ﷺ يتأول القرآن، ويقول ذلك في صلاته، يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: « سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي » .

تفسير سورة تبت [وهي] مكية

﴿ ١ - ٣ ﴾ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب * سيصلى

ومن شر النفاثات في العقد * ومن شر حاسد إذا حسد* أي: «قل» متعوذاً «أعوذ» أي: أجدأ وألوذ، وأعتصم «برب الفلق» أي: فالق الحب والنوى، وفالق الإصباح.

«من شر ما خلق» وهذا يشمل جميع ما خلق الله، من إنس، وجن، وحيوانات، فيستعاذ بخالقها من الشر الذي فيها، ثم خص بعدما عم، فقال: «ومن شر غاسق إذا وقب» أي: من شر ما يكون في الليل، حين يغشى الناس، وتنتشر فيه كثير من الأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية.

«ومن شر النفاثات في العقد» أي: ومن شر السواحر، اللاتي يستعن على سحرهن بالثفت في العقد، التي يعقدنها على السحر.

«ومن شر حاسد إذا حسد» والحاسد: هو الذي يحب زوال النعمة عن المحسود فيسعى في زوالها بما يقدر عليه من الأسباب، فاحتيج إلى الاستعاذة بالله من شره، وإبطال كيده، ويدخل في الحاسد العاين، لأنه لا تصدر العين إلا من حاسد شرير الطبع، خبيث النفس، فهذه السورة، تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشر، عموماً وخصوصاً.

ودلت على أن السحر له حقيقة يخشى من ضرره، ويستعاذ بالله منه [ومن أهله].

تفسير سورة الناس

وهي مدنية^(١)

«١-٦» «بسم الله الرحمن الرحيم قل أعوذ برب الناس * ملك الناس * إله الناس * من شر الوسواس الخناس * الذي يوسوس في صدور الناس * من الجنة والناس» وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة

برب الناس وملكهم وإلههم، من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها وماذتها، الذي من فتنته وشره، أنه

زوجها، متقلدة في عنقها حبلاً من مسد، وعلى كل، ففي هذه السورة، آية باهرة من آيات الله، فإن الله أنزل هذه السورة، وأبو لهب وامراته لم يهلكا، وأخبر أنهما سيعذبان في النار ولا بد، ومن لازم ذلك أنهما لا يسلمان، فوقع كما أخبر عالم الغيب والشهادة.

تفسير سورة الإخلاص

[وهي مكية]

«١-٤» «بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد» أي: «قل» قولاً جازماً به، معتقداً له، عارفاً بمعناه، «هو الله أحد» أي: قد انحصرت فيه الأحدية، فهو الأحد المنفرد بالكمال، الذي له الأسماء الحسنی، والصفات الكاملة العليا، والأفعال المقدسة، الذي لا نظير له ولا مثيل.

«الله الصمد» أي: المقصود في جميع الحوائج. فأهل العالم العلوي والسفلي مفتقرون إليه غاية الافتقار، يسألونه حوائجهم، ويرغبون إليه في مهماتهم، لأنه الكامل في أوصافه، العليم الذي قد كمل في علمه، الخليم الذي قد كمل في حلمه، الرحيم الذي [كمل في رحمته الذي] وسعت رحمته كل شيء، وهكذا سائر أوصافه، ومن كماله أنه «لم يلد ولم يولد» لكمال غناه، «ولم يكن له كفواً أحد» لا في أسمائه ولا في أوصافه، ولا في أفعاله، تبارك وتعالى.

فهذه السورة مشتملة على توحيد الأسماء والصفات.

تفسير سورة الفلق

[وهي مكية]

«١-٥» «بسم الله الرحمن الرحيم قل أعوذ برب الفلق * من شر ما خلق * ومن شر غاسق إذا وقب *



ناراً ذات لهب * وامراته حمالة الحطب * في جيدها حبل من مسد» أبو لهب هو عم النبي ﷺ، وكان شديد العداوة [والأذية] للنبي ﷺ، فلا فيه دين، ولا حية للقرابة - قبحه الله - فذمه الله بهذا الذم العظيم، الذي هو خزي عليه إلى يوم القيامة، فقال:

«نبت يدا أبي لهب» أي: خسرت يده، وشقي «وتب» فلم يربح، «ما أغنى عنه ماله» الذي كان عنده وأطغاه، ولا ما كسبه فلم يرد عنه شيئاً من عذاب الله إذ نزل به، «سبصلى» ناراً ذات لهب» أي: استحيط به النار من كل جانب، هو «وامراته حمالة الحطب».

وكانت أيضاً شديدة الأذية لرسول الله ﷺ تتعاون هي وزوجها على الإثم والعدوان، وتلقي الشر، وتسعى غاية ما تقدر عليه في أذية الرسول ﷺ وتجمع على ظهرها من الأوزار بمنزلة من يجمع حطباً، قد أعد له في عنقه حبلاً «من مسد» أي: من ليف.

أو أنها تحمل في النار الحطب على

يوسوس في صدور الناس، فيحسن [لهم] الشر، ويريم إياه في صورة حسنة، وينشط إراداتهم لفعله، ويقبح لهم الخير ويثبطهم عنه، ويريم إياه في صورة غير صورته، وهو دائماً بهذه الحال يوسوس ويخنس أي: يتأخر إذا ذكر العبد ربه واستعان به على دفعه. فينبغي له أن [يستعين و] يستعيز ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم. وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك، فكل دابة هو آخذ بناصيتها. وبألوهيته التي خلقهم لأجلها، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم، الذي يريد أن يقتطعهم عنها ويحول بينهم يوسوس في صدور الناس، فيحسن [لهم] الشر، ويريم إياه في صورة حسنة، وينشط إراداتهم لفعله، ويقبح لهم الخير ويثبطهم عنه، ويريم إياه في صورة غير صورته، وهو دائماً بهذه الحال يوسوس ويخنس أي: يتأخر إذا ذكر العبد ربه واستعان به على دفعه. فينبغي له أن [يستعين و] يستعيز ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم. وأن الخلق كلهم داخلون تحت الربوبية والملك، فكل دابة هو آخذ بناصيتها. وبألوهيته التي خلقهم لأجلها، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم، الذي يريد أن يقتطعهم عنها ويحول بينهم

وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، والوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس، ولهذا قال: ﴿من الجنة والناس﴾. والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً. ونسأله تعالى أن يتم نعمته، وأن يعفو عنا ذنباً لنا حالت^(١) بيننا وبين كثير من بركاته، وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا عن تدبر آياته. ونرجوه ونأمل منه أن لا يجرمنا خير ما عنده بشر ما عندنا، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولا

يقنط من رحمته إلا القوم الضالون. وصلى الله وسلم على رسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، صلاة وسلاماً دائماً دائمين متواصلين أبداً الأوقات، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات. تم تفسير كتاب الله بعونه وحسن توفيقه، على يد جامعه وكتابه، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله المعروف بابن سعدي، غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين، وذلك في غرة ربيع الأول من سنة أربع وأربعين وثلثمائة وألف من هجرة محمد ﷺ^(٢)

(١) في ب: ذنوبنا التي حالت.

(٢) في ب: ووقع النقل في شعبان ١٣٤٥ رينا تقبل منا واعف إنك أنت الغفور الرحيم.

الملاحق

١- أصول وكمليات من أصول التفسير وكملياته لا يستغني عنها المفسر للقرآن.

٢- تفسير الآيات التي اختلفت فيها النسختان..

أصول وكليات

من أصول التفسير وكلياته لا يستغني عنها المُفسر للقرآن^(١)

النكرة في سياق النفي، أو سياق النهي، أو الاستفهام، أو سياق الشرط، نَعَمْ، وكذلك المفرد المضاف يعم، وأمثلة ذلك كثيرة.

فمتى وجدت نكرة واقعة بعد المذكورات، أو وجدت مفرداً مضافاً إلى معرفة، فأثبت جميع ما دخل في ذلك اللفظ، ولاتعتبر سبب النزول وحده، فإن «العبرة بعموم اللفظ، لا بخصوص السبب». وينبغي أن تنزل جميع الحوادث والأفعال الواقعة، والتي لاتزال تحدث، على العمومات القرآنية، فبذلك تعرف أن القرآن تبيان لكل شيء، وأنه لا يحدث حادث، ولا يستجد أمر من الأمور، إلا وفي القرآن بيانه وتوضيحه.

ومن أصوله أن الألف واللام الداخلة على الأوصاف، وعلى أسماء الأجناس، تُفيد استغراق جميع ما دخلت عليه من المعاني.

ومن كليات القرآن، أنه يدعوا إلى توحيد الله ومعرفته، بذكر أسماء الله، وأوصافه، وأفعاله الدالة على تفرد بالوحدانية، وأوصاف الكمال، وإلى أنه الحق، وعبادته هي الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل، ويبين نقص كل ما عُبد من دون الله من جميع الوجوه.

ويدعو إلى صحة ما جاء به الرسول محمد ﷺ وصدقه، ببيان إحكامه، وتماحه، وصدق إخباراته كلها، وحسن أحكامه. ويبين ما كان عليه الرسول ﷺ، من الكمال البشري الذي لا يلحقه فيه أحد من الأولين والآخرين، ويتحداهم بأن يأتوا بمثل ما جاء به إن كانوا صادقين.

ويقرر ذلك بشهادته تعالى بقوله وفعله وإقراره إياه، وتصديقه له بالحجة والبرهان، وبالنصر والظهور، وبشهادة أهل العلم المنصفين. ويقابل بين ما جاء به من الحق في أخباره وأحكامه، وبين ما كان عليه أعداؤه، والمكذبون به، من الكذب في أخبارهم، والباطل في أحكامهم، كما يقرر ذلك بالمعجزات المتنوعة.

ويقرر الله المعاد بذكر كمال قدرته، وخلقِه للسموات والأرض، اللتين هما أكبر من خلق الناس، وبأن الذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى، وبأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى. ويذكر أيضاً أيامه في الأمم، ووقوع المثلث التي شاهدها الناس في الدنيا، وأنها نموذج من جزاء الآخرة.

ويدعو جميع المبطلين من الكفار والمشركين والملحدين بذكر محاسن الدين، وأنه يهدي للتي هي أقوم، في عقائده وأخلاقه وأعماله، وبيان ما لله من العظمة والربوبية، والنعم العظيمة. وأن مَنْ تفرد بالكمال المطلق، والنعم كلها، هو الذي لاتصلح العبادة إلا له، وأن ما عليه المبطلون، إذا مُيزَ وحقق وُجد شراً وباطلاً، وعواقبه وخيمة.

ومن أصول التفسير، إذا فهمت ما دلّت عليه الآيات الكريمة من المعاني مطابقة وتضمناً، فاعلم أن لوازم هذه المعاني، وما لاتتم إلا به، وشروطها وتوابعها، تابعة لذلك المعنى، فما لا يتم الخبر إلا به،

(١) هذه الخاتمة جعلها الشيخ - رحمه الله - في آخر الجزء الخامس لما طبع في حياته، وقد جعلتها في خاتمة التفسير.

فهو تابع للخير، وما لا يتم الحكم إلا به، فهو تابع للحكم، وأن الآيات التي يفهم منها التعارض والتناقض، ليس فيها تناقض ولاتعارض، بل يجب حمل كل منها على الحالة المناسبة لللائقة بها. وأن حذف المتعلقات، من مفعولات وغيرها، يدل على تعميم المعنى، لأن هذا من أعظم فوائد الحذف، وأنه لا يجوز حذف ما لا يدل عليه السياق اللفظي، والقرينة الحالية، كما أن الأحكام المقيدة بشروط أو صفات تدل على أن تلك القيود، لا بد منها في ثبوت الحكم.

إذا أمر الله بشيء كان ناهياً عن ضده، وإذا نهى عن شيء كان أمراً بضده، وإذا أثنى على نفسه بنفي شيء من النقائص؛ كان إثباتاً للكمال المنافي لذلك النقص. وكذلك إذا أثنى على رسله وأوليائه ونزههم عن شيء من النقائص، فهو مدح لهم بما يضاد ذلك النقص، ومثله نفي النقائص عن دار النعيم، يدل على إثبات ضد ذلك.

ومن الكليات؛ أنه إذا وضع الحق وظهر ظهوراً جلياً، لم يبق للمجادلات العلمية والمعارضات العملية محل، بل تبطل المعارضات، وتضمحل المجادلات.

ما نفاه القرآن؛ فإما أن يكون غير موجود، أو أنه موجود، ولكنه غير مفيد ولا نافع.

الموهوم لا يدفع المعلوم، والمجهول لا يعارض المحقق، وما بعد الحق إلا الضلال.

ذكر الله في القرآن الإيمان والعمل الصالح في مواضع كثيرة رتب عليهما من الجزاء العاجل والآجل والآثار الحميدة شيئاً كثيراً، فالإيمان هو: التصديق الجازم، بما أمر الله ورسوله بالتصديق به، المتضمن لأعمال الجوارح.

والعمل الصالح هو: القيام بحقوق الله، وحقوق عباده، وكذلك أمر الله بالتقوى، ومدح المتقين، ورتب على التقوى حصول الخيرات، وزوال المكروهات. والتقوى الكاملة: امتثال أمر الله وأمر رسوله، واجتناب نهيهما وتصديق خبرهما.

وإذا جمع الله بين التقوى والبر ونحوه، كانت التقوى اسماً لتوقي جميع المعاصي، والبر اسماً لفعل الخيرات، وإذا أفرد أحدهما، دخل فيه الآخر.

وذكر الله الهدى المطلوب في مواضع كثيرة، وأثنى على المهتدي، وأخبر أن الهدى بيده، وأمرنا بطلبه منه، وبالسعي في كل سبب يحصل الهدى، وذلك شامل لهداية العلم والعمل.

فالمهتدي: من عرف الحق، وعمل به، وضده الغي والضلال، فمن عرف الحق ولم يعمل به فهو الغاوي، ومن جهل الحق فهو الضال.

أمر الله بالإحسان، وأثنى على المحسنين، وذكر ثوابهم المتنوع في آيات كثيرة. وحقيقة الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وأن تبذل ما تستطيعه من النفع المالي والبدني والقلبي إلى المخلوقين.

وأمر بالإصلاح وأثنى على المصلحين، وأخبر أنه لا يضيع ثوابهم وأجرهم.

والإصلاح هو: أن تسعى في إصلاح عقائد الناس وأخلاقهم. وجميع أحوالهم، بحيث تكون على غاية ما يمكن من الصلاح، وأيضاً يشمل إصلاح الأمور الدينية، والأمور الدنيوية، وإصلاح الأفراد والجماعات، وضد هذا الفساد.

والإفساد، قد نهى عنه، وذم المفسدين، وذكر عقوباتهم المتعددة، وأخبر أنه لا يصلح أعمالهم الدينية والدنيوية.

أثنى الله على اليقين، وعلى الموقنين، وأنهم هم المتفعون بالآيات القرآنية، والآيات الأفقية.

واليقين أخص من العلم، فهو: العلم الراسخ، المثمر للعمل والطمأنينة.

أمر الله بالصبر، وأثنى على الصابرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل في عدة آيات، نحو تسعين موضعاً، وهو يشمل أنواعه الثلاثة: الصبر على طاعة الله، حتى يؤديها كاملة من جميع الوجوه، والصبر عن محارم الله حتى ينهى نفسه الأمانة بالسوء عنها. والصبر على أقدار الله المؤلمة، فيتلقاها بصبر وتسليم، غير متسخط في قلبه ولا بدنه ولا لسانه.

وكذلك أثنى الله على الشكر، وذكر ثواب الشاكرين، وأخبر أنهم أرفع الخلق في الدنيا والآخرة. وحقيقة الشكر هو: الاعتراف بجميع نعم الله، والثناء على الله بها، والاستعانة بها على طاعة المنعم.

وذكر الله الخوف والخشية، في مواضع كثيرة. أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، وأنهم المتشفعون بالآيات، التاركون للمحرمات.

وحقيقة الخوف والخشية: أن يخاف العبدُ مقامه بين يدي الله، ومقامه عليه، فينهي نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله.

والرجاء: أن يرجو العبد رحمة الله العامة، ورحمته الخاصة به. فيرجو قبول ما تفضل الله عليه به من الطاعات، وغفران ما تاب منه من الزلات، ويعلق رجاءه بربه في كل حال من أحواله.

وذكر الله الإنابة في مواضع كثيرة، وأثنى على المنيبين، وأمر بالإنابة إليه. وحقيقة الإنابة: انجذاب القلب إلى الله، في كل حالة من أحواله، ينب إلى ربه عند النعماء بشكره، وعند الضراء بالتضرع إليه، وعند مطالب النفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهماته، وينيب إلى ربه، باللهم بذكره في كل وقت.

[والإنابة أيضاً: الرجوع إلى الله، بالتوبة من جميع المعاصي، والرجوع إليه في جميع أعماله وأقواله، فيعرضها على كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، فتكون الأعمال والأقوال، موزونة بميزان الشرع^(١)].

أمر تعالى بالإخلاص، وأثنى على المخلصين، وأخبر أنه لا يقبل إلا العمل الخالص. وحقيقة الإخلاص: أن يقصد العامل بعمله وجه الله وحده وثوابه. وضده: الرياء، والعمل للأغراض النفسية.

نهى الله عن التكبر، وذم الكبر والمتكبرين، وأخبر عن عقوباتهم العاجلة والآجلة. والتكبر هو: رد الحق، واحتقار الخلق، وضد ذلك التواضع، فقد أمر به، وأثنى على أهله، وذكر ثوابهم، فهو قبول الحق ممن قاله، وأن لا يحتقر الخلق، بل يرى فضلهم، ويحب لهم ما يحب لنفسه. العدل، هو: أداء حقوق الله، وحقوق العباد.

والظلم: عكسه، فهو يشمل ظلم العبد لنفسه بالمعاصي والشرك وظلم العباد في دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

الصدق، هو: استواء الظاهر والباطن في الاستقامة على الصراط المستقيم، والكذب بخلاف ذلك. حدود الله هي: محارمه، وهي التي يقول فيها ﴿تلك حدود الله فلا تقربوها﴾، ويراد بها ما أباحه الله وحلله، وقدره، وفرضه، فيقول فيها ﴿تلك حدود الله فلا تعتدوها﴾.

الأمانة هي: الأمور التي يؤتمن عليها العبد. فيشمل ذلك أداء حقوق الله، وخصوصاً الخفية، وحقوق خلقه كذلك.

المهود والعقود، يدخل فيها التي بينه وبين الله، وهو: القيام بعبادة الله مخلصاً له الدين، والتي بينه وبين العباد من المعاملات ونحوها.

(١) ما بين القوسين في هامش النسخة بخط مغاير لخط الشيخ - رحمه الله -

الحكمة والقوام فعل ما ينبغي على الوجه الذي ينبغي .
والإسراف والتبذير، مجاوزة الحد في الإنفاق . والتقتير والبخل عكسه: التقصير في النفقات الواجبة .
المعروف: اسم جامع لكل ما عرف حسنه ونفعه شرعاً وعقلاً، والمنكر عكسه .
الاستقامة: لزوم طاعة الله، وطاعة رسوله على الدوام .
مرض القلب هو: اعتلاله، وهو نوعان: مرض شكوك في الحق، ومرض شهوة للأمور المحرمة .
النفاق: إظهار الخير، وإبطان الشر، فيدخل فيه النفاق الاعتقادي والنفاق العملي .
القرآن، كله مُحْكَمٌ، وأحكمت آياته من جهة موافقتها للحكمة، وأن أخباره أعلى درجات الصدق،
وأحكامه في غاية الحسن . وكله متشابه، من جهة اتفاه في البلاغة والحسن، وتصديق بعضه لبعض وكمال
اتفاهه .

ومنه محكم ومتشابه، من جهة أن متشابهه ما كان فيه إجمال أو احتمال لبعض المعاني . ومحكمه،
واضح مبين صريح في معناه، إذا رُدَّ إليه المتشابه، اتفق الجميع، واستقامت معانيه .
معية الله التي ذكرها في كتابه، نوعان:

معية العلم والإحاطة، وهي: المعية العامة، فإنه مع عباده أينما كانوا .
ومعية خاصة، وهي: معيته مع خواص خلقه بالنصرة، واللطف، والتأييد .
الدعاء والدعوة، يشمل دعاء العبادة، فيدخل فيه كل عبادة أمر الله بها ورسوله .
ودعاء المسألة، وهو: سؤال الله جلب المنافع، ودفع المضار .
الطيبات: اسم جامع لكل طيب نافع، من العقائد، والأخلاق، والأعمال، والمأكُل، والمشارب
والمكاسب . والخبيث ضد ذلك .

وقد يراد بالخبيث: الرديء، وبالطيب: الخيار كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا
كَسَبْتُمْ، وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾^(١) .
النفقة، تشمل النفقة الواجبة: كالزكاة، والكفارة، ونفقة النفس، والعائلة، والمماليك، والنفقة
المستحبة: كالنفقة في جميع طرق الخير .

التوكل على الله والاستعانة به، قد أمر الله بها، وأثنى على المتوكلين في آيات كثيرة .
وحقيقة ذلك: قوة اعتماد القلب على الله في جلب المصالح، ودفع المضار الدينية والدنيوية، مع
الثقة به في حصول ذلك .

العقل النبي مدحه الله وأثنى على أهله، وأخبر أنهم هم المتفعون بالآيات . هو: الذي يفهم، ويعقل
الحقائق النافعة، ويعمل بها، ويعقل صاحبه عن الأمور الضارة، ولذلك قيل له: جِبر، ولُب، ونُهَى، لأنه
يحجر صاحبه وينهاه عما يضره .

العلم هو: معرفة الهدى بدليله، فهو معرفة المسائل النافعة المطلوبة، ومعرفة أدلتها وطرقها، التي
تهدي إليها .

والعلم النافع هو: العلم بالحق والعمل به، وضده الجهل .
لفظ «الامة» في القرآن على أربعة أوجه: يراد به «الطائفة من الناس» وهو الغالب . ويراد به «المدّة»،

(١) لم يتم الشيخ - رحمه الله - الآية، ويتماها يتضح مراده، وتماها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تَنفَقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ
تَمُتُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ .

ويراد به «الدين» و«الملعة»، ويراد به «الإمام» في الخير.

لفظ «استوى» في القرآن على ثلاثة أوجه: إن عُذِّي «على» كان معناه العلو والارتفاع، «ثم استوى على العرش»

وإن عُذِّي «إلى» فمعناه قصد، كقوله: «ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات».

وإن لم يُعَدَّ بشيء، فمعناه «كَمَل»، كقوله تعالى «ولما بلغ أشده واستوى».

«التوبة» ورد في آيات كثيرة الأمر بها، ومدح التائبين وثوابهم، وهي: الرجوع عما يكرهه الله ظاهراً وباطناً، إلى ما يحبه الله ظاهراً وباطناً.

الصراط المستقيم، الذي أمر الله بلزومه وأثنى على المستقيمين عليه، هو: الطريق المعتدل الموصل إلى رضوان الله وثوابه، وهو متابعة النبي ﷺ في أقواله وأفعاله وكل أحواله.

الذكر لله الذي أمر به، وأثنى على الذاكرين، وذكر جزاءهم العاجل والآجل هو: عند الإطلاق، يشمل جميع ما يقرب إلى الله: من عقيدة، أو فكر نافع، أو خلق جميل، أو عمل قلبي أو بدني، أو ثناء على الله، أو تسييح ونحوه، أو تعلم أحكام الشرع الأصولية والفروعية، أو ما يعين على ذلك، فكله داخل في ذكر الله.

فصل

وقد تكرر كثير من أسماء الله الحسنى في القرآن بحسب المناسبات، والحاجة داعية إلى التنبيه إلى معانيها الجامعة، فنقول:

قد تكرر اسم «الرب» في آيات كثيرة.

و«الرب»: هو المربي جميع عبادته بالتدبير وأصناف النعم. وأخص من هذا تربيته لأصفيائه بإصلاح قلوبهم وأرواحهم وأخلاقهم. ولهذا كثر دعاؤهم له بهذا الاسم الجليل، لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصة.

«الله»: هو المألوه المعبود، ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، لما اتصف به من صفات الألوهية التي هي صفات الكمال.

«الملك، المالك»: الذي له الملك فهو الموصوف بصفة الملك، وهي صفات العظمة والكبرياء، والقهر والتدبير، الذي له التصرف المطلق في الخلق والأمر والجزاء، وله جميع العالم العلوي والسفلي، كلهم عبيد ومماليك، ومضطرون إليه.

«الواحد، الأحد»: وهو الذي توحد بجميع الكمالات، بحيث لا يشاركه فيها مشارك. ويجب على العبيد توحيده، عقلاً، وقولاً، وعملاً، بأن يعترفوا بكماله المطلق، وتفرد بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة.

«الصمد»: وهو الذي تقصده الخلائق كلها في جميع حاجاتها، وضرورتها وأحوالها، لما له من الكمال المطلق في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله.

«المليم، الخبير»: وهو الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والأسرار والإعلان، وبالواجبات والمستحيلات والممكنات، وبالعالم العلوي والسفلي، وبالماضي والحاضر والمستقبل، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء.

«الحكيم»: وهو الذي له الحكمة العليا في خلقه وأمره، الذي أحسن كل شيء خلقه «ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون». فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع شيئاً سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عبادته، في شرعه، وفي قدره وجزائه.

والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها.

«الرحمن، الرحيم، البر، الكريم، الجواد، الرؤوف، الوهاب».

هذه الأسماء تتقارب معانيها، وتدل كلها على اتصاف الرب بالرحمة، والبر، والجود، والكرم، وعلى سعة رحمته ومواهبه، التي عم بها جميع الوجود، بحسب ما تقتضيه حكمته.، وخص المؤمنين منها بالنصيب الأوفر، والحظ الأكمل، قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون﴾ الآية. والنعم والإحسان، كله من آثار رحمته، وجوده، وكرمه. وخيرات الدنيا والآخرة، كلها من آثار رحمته.

«السميع» لجميع الأصوات، باختلاف اللغات على تفنن الحاجات.

«البصير» الذي يُبصر كل شيء وإن دقَّ وصغر، فيبصر ديب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء. ويُبصر ما تحت الأرضين السبع، كما يبصر ما فوق السموات السبع. وأيضاً سميع بصير بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، والمعنى الأخير يرجع إلى الحكمة.

«الحميد» في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، فله من الأسماء أحسنها، ومن الصفات أكملها، ومن الأفعال أتمها وأحسنها، فإن أفعاله تعالى دائرة بين الفضل والعدل.

«المجيد، الكبير، العظيم، الجليل» وهو الموصوف بصفات المجد، والكبرياء، والعظمة، والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم من كل شيء، وأجل وأعلى. وله التعظيم والإجلال في قلوب أوليائه وأصفيائه، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه وإجلاله، والخضوع له والتذلل لكبريائه.

«العفو، الغفور، الغفار» الذي لم يزل، ولا يزال بالعفو معروفاً، وبالإغفران والصفح عن عباده موصوفاً، كل أحد مضطر إلى عفو ومغفرته، كما هو مضطر إلى رحمته وكرمه، وقد وعد بالمغفرة والعفو لمن أتى بأسبابها، قال تعالى: ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾

«التواب» الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيبين، فكل من تاب إلى الله توبة نصوحاً، تاب الله عليه، فهو التائب على التائبين أولاً بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب عليهم بعد توبتهم قبولاً لها، وعفواً عن خطاياهم.

«القدوس، السلام» أي: المعظم المنزه عن صفات النقص كلها، وأن يماثله أحد من الخلق، فهو المنزه عن جميع العيوب، والمنزه عن أن يقاربه أو يماثله أحد في شيء من الكمال ﴿ليس كمثله شيء﴾ ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ ﴿هل تعلم له سميّاً﴾ ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً﴾

فالقدوس كالسلام، ينفان كل نقص من جميع الوجوه، ويتضمنان الكمال المطلق من جميع الوجوه، لأن النقص إذا انتفى ثبت الكمال كله.

«العلي الأعلى» وهو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه، علو الذات، وعلو القدر والصفات، وعلو القهر. فهو الذي على العرش استوى، وعلى الملك احتوى. وبجميع صفات العظمة والكبرياء والجلال والجمال وغاية الكمال اتصف، وإليه فيها المنتهى.

«العزیز» الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع. فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته.

«القوي، المتين» هو في معنى العزيز.

«الجبار» هو بمعنى العلي الأعلى، وبمعنى القهار، وبمعنى «الرؤوف» الجابر للقلوب المنكسرة، وللضعيف العاجز، ولمن لا ذبه ولجأ إليه.

«المتكبر» عن السوء والنقص والعيوب، لعظمته وكبريائه.

«الخالق، الباري»، المصور» الذي خلق جميع الموجودات وبرأها وسوّأها بحكمته، وصورها بحمده وحكمته، وهو لم يزل ولا يزال على هذا الوصف العظيم.

«المؤمن» الذي أثنى على نفسه بصفات الكمال، وبكمال الجلال والجمال، الذي أرسل رسله وأنزل كتبه بالآيات والبراهين، وصدق رسله بكل آية وبرهان، يدل على صدقهم وصحة ما جاؤوا به.

«المهيمن»: المطلع على خفايا الأمور وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علماً.

«القدير» كامل القدرة، بقدرته أوجد الموجودات، وبقدرته دبرها، وبقدرته سوّأها وأحكمها، وبقدرته يحيي ويميت، ويعث العباد للجزاء، ويجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، الذي إذا أراد شيئاً قال له «كن فيكون»، وبقدرته يقلب القلوب، ويصرفها على ما يشاء ويريد.

«اللطيف» الذي أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والبواطن والأمور الدقيقة، اللطيف بعباده المؤمنين، الموصول إليهم مصالحهم بلطفه وإحسانه، من طرق لا يشعرون بها، فهو بمعنى «الخبير» وبمعنى «الرؤوف».

«الحسيب» هو العليم بعباده، كافي المتوكلين، المجازي لعباده بالخير والشر، بحسب حكمته وعلمه بدقيق أعمالهم وجليلها.

«الرقيب» المطلع على ما أكنته الصدور، القائم على كل نفس بما كسبت، الذي حفظ المخلوقات وأجرها على أحسن نظام وأكمل تدبير.

«الحفيظ» الذي حفظ ما خلقه، وأحاط علمه بما أوجده، وحفظ أوليائه من وقوعهم في الذنوب والهلكات، ولطف بهم في الحركات والسكنات، وأحصى على العباد أعمالهم وجزاءها.

«المحيط» بكل شيء علماً، وقدرة، ورحمة، وقهراً.

«القهار» لكل شيء، الذي خضعت له المخلوقات، وذلت لعزته وقوته وكمال اقتداره.

«المُقِيت» الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات، وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء بحكمته وحمده.

«الوكيل» المتولي لتدبير خلقه بعلمه وكمال قدرته وشمول حكمته، الذي تولى أوليائه، فيسرههم لليسرى، وجنبهم العسرى، وكفاهم الأمور. فمن اتخذه وكيلاً كفاه ﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾.

«ذو الجلال والإكرام» أي: ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة والجود، والإحسان العام والخاص، المكرم لأوليائه وأصفياه، الذين يجلونه ويعظمونه ويحبونه.

«الودود» الذي يحب أنبياءه ورسله وأتباعهم، ويحبونه، فهو أحب إليهم من كل شيء، قد امتلأت قلوبهم من محبته، ولهجت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه وداً وإخلاصاً وإنابة من جميع الوجوه.

«الفتاح» الذي يحكم بين عباده بأحكامه الشرعية، وأحكامه القدريّة، وأحكام الجزاء، الذي فتح بلطفه بصائر الصادقين، وفتح قلوبهم لمعرفة ومحبته والإنابة إليه، وفتح لعباده أبواب الرحمة والأرزاق المتنوعة، وسبب لهم الأسباب التي يتالون بها خير الدنيا والآخرة ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده﴾.

«الرزاق» لجميع عباده، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها. ورزقه لعباده نوعان:

رزق عام، شمل البرّ والفاجر، والأولين والآخرين، وهو رزق الأبدان.

ورزق خاص وهو رزق القلوب، وتغذيتها بالعلم والإيمان.

والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاص بالمؤمنين، على مراتبهم منه، بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته.

«الحكم، العدل» الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة بعدله وقسطه. فلا يظلم مثقال ذرة، ولا يحمل أحداً وزر أحد، ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه ويؤدي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق إلا أوصل إليه حقه، وهو العدل في تدبيره وتقديره ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾.

«جامع الناس» ليوم لا ريب فيه، وجامع أعمالهم وأرزاقهم، فلا يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وجامع ما تفرق واستحال من الأموات الأولين والآخرين، بكمال قدرته، وسعة علمه.

«الحي القيوم» كامل الحياة والقائم بنفسه. القيوم لأهل السموات والأرض، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم، وجميع أحوالهم، فالحي: الجامع لصفات الذات، والقيوم الجامع لصفات الأفعال.

«النور» نور السموات والأرض، الذي نور قلوب العارفين بمعرفته والإيمان به، ونور أفئدتهم بهدأته، وهو الذي أنار السموات والأرض بالأنوار التي وضعها، وحجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

«بديع السموات والأرض» أي: خالقهما ومبدعهما، في غاية ما يكون من الحسن والخلق البديع، والنظام العجيب المحكم.

«القباض الباسط» يقبض الأرزاق والأرواح، ويسط الأرزاق والقلوب، وذلك تبع لحكمته ورحمته.

«المعطي، المانع» لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فجميع المصالح والمنافع منه تطلب، وإليه يرغب فيها، وهو الذي يعطيها لمن يشاء، ويمنعها من يشاء بحكمته ورحمته.

«الشهيد» أي: المطلع على جميع الأشياء. سمع جميع الأصوات خفيها وجليها، وأبصر جميع الموجودات دقيقها وجليلها صغيرها وكبيرها، وأحاط علمه بكل شيء، الذي شهد لعباده وعلى عباده بما عملوه.

«المبدئ، المعيد» قال تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾، ابتداء خلقهم ليبلوهم أيهم أحسن عملاً، ثم يعيدهم ليجزي الذين أحسنوا بالحسنى، ويجزي المسيئين بإساءتهم. وكذلك هو الذي يبدأ إيجاد المخلوقات شيئاً فشيئاً، ثم يعيدها كل وقت.

«الفعال لما يريد» وهذا من كمال قوته ونفوذ مشيئته وقدرته، أن كل أمر يريد يفعله بلا مانع ولا معارض، وليس له ظهير ولا عوين، على أي أمر يكون، بل إذا أراد شيئاً قال له «كن فيكون». ومع أنه الفعال لما يريد، فإرادته تابعة لحكمته وحمده، فهو موصوف بكمال القدرة، ونفوذ المشيئة، وموصوف بشمول الحكمة، لكل ما فعله ويفعله.

«الغني، المغني» فهو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه والاعتبارات لكماله، وكمال صفاته، فلا يطرُق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنياً، لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقاً، قادراً، رازقاً، محسناً، فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني، الذي بيده خزائن السموات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة. المغني جميع خلقه غنى عاماً، والمغني لخواص خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية.

«الحليم» الذي يدر على خلقه النعم الظاهرة والباطنة، مع معاصيهم وكثرة زلاتهم، فيحلم عن مقابلة المعاصين بعصيانهم، ويستعطيهم كي يتوبوا، ويمهلهم كي ينيبوا.

«الشاكِر، الشكور» الذي يشكر القليل من العمل، ويغفر الكثير من الزلل. ويضاعف للمخلصين أعمالهم بغير حساب، ويشكر الشاكِرين، ويذكر من ذكره، ومن تقرب إليه بشيء من الأعمال الصالحة،

تقرب الله منه أكثر.

«القريب، المجيب» أي: هو تعالى القريب من كل أحد، وقربه تعالى نوعان: قرب عام من كل أحد، بعلمه، وخبرته، ومراقبته، ومشاهدته، وإحاطته. وقرب خاص، من عابديه، وسائليه، ومحبيه، وهو قرب لا تدرك له حقيقة، وإنما تعلم آثاره، من لطفه بعبده، وعنايته به، وتوفيقه وتسديده. ومن آثاره الإجابة للداعين، والإنابة^(١) للعابدين، فهو المجيب إجابة عامة للداعين مهما كانوا، وأين كانوا، وعلى أي حال كانوا كما وعدهم بهذا الوعد المطلق، وهو المجيب إجابة خاصة للمستجيبين له المنقادين لشريعته، وهو المجيب أيضاً للمضطرين، ومن انقطع رجاؤهم من المخلوقين وقوي تعلقهم به طمعاً ورجاء وخوفاً. «الكافي» عباده جميع ما يحتاجون ويضطرون إليه، الكافي كفاية خاصة من آمن به، وتوكل عليه، واستمد منه حوائج دينه ودنياه.

«الأول، والآخر، والظاهر، والباطن».

قد فسرها النبي ﷺ تفسيراً جامعاً واضحاً، فقال: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء». «الواسع» الصفات والنعوت ومتعلقاتها، بحيث لا يخصي أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه. واسع العظمة والسلطان والملك، واسع الفضل والإحسان، عظيم الجود والكرم. «الهادي، الرشيد» أي: الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع، وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منية إليه متقادة لأمره. وللرشيد معنى بمعنى الحكيم، فهو الرشيد في أقواله وأفعاله، وشرائعه كلها خير ورشد وحكمة، ومخلوقاته مشتملة على الرشد.

«الحق» في ذاته وصفاته، فهو واجب الوجود، كامل الصفات والنعوت، وجوده من لوازم ذاته، ولا وجود لشيء من الأشياء إلا به. فهو الذي لم يزل ولا يزال بالجلال والجمال والكمال موصوفاً، ولم يزل ولا يزال بالإحسان معروفاً.

فقوله حق، وفعله حق، ولقاؤه حق، ورسله حق، وكتبه حق، ودينه هو الحق، وعبادته وحده لا شريك له هي الحق، وكل شيء ينسب إليه فهو حق. «ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير»

«وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر» «فماذا بعد الحق إلا الضلال» «قل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً»

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم على محمد وعلى آله وأصحابه، ومن تبعهم إلى يوم الدين.

قال ذلك وكتبه العبد الفقير إلى ربه عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه، ومشايخه، وأحبابه، وجميع المسلمين آمين.

(١) كذا في الأصل ولعلها: (الإنابة) والله أعلم.

فلما بين تعالى هذه الأحكام الجليلة بين الزوجين، أتى على أحكامه وعلى بيانه لها وتوضيحه، وموافقته للعقول السليمة، وأن القصد من بيانه لعباده، أن يعقلوا عنه ما بينه، فيعقلونها حفظاً، وفهماً، وعملاً بها، فإن ذلك من تمام عقلها.

﴿٢٤٣﴾ ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي: ألم تسمع بهذه القصة العجيبة الجارية على من قبلكم من بني إسرائيل، حيث حل الوءاء بديارهم، فخرجوا بهذه الكثرة، فراراً من الموت، فلم ينجمهم الفرار، ولا أغنى عنهم من وقوع ما كانوا يحذرون، فعاملهم بنقيض مقصودهم، وأماتهم الله عن آخرهم، ثم تفضل عليهم، فأحياهم، إما بدعوة نبي، كما قاله كثير من المفسرين، وإما بغير ذلك.

ولكن ذلك، بفضلته وإحسانه، وهو لا زال فضله على الناس، وذلك موجب لشكرهم لنعم الله بالاعتراف بها وصرفها في مرضاة الله، ومع ذلك فأكثر الناس قد قصروا بواجب الشكر.

وفي هذه القصة، عبرة بأنه على كل شيء قدير، وذلك آية محسوسة على البحث، فإن هذه القصة معروفة منقولة، نقلاً متواتراً عند بني إسرائيل ومن اتصل بهم، ولهذا أتى بها تعالى، بأسلوب الأمر الذي قد تقرر عند المخاطبين.

ويحتمل أن هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم خوفاً من الأعداء، وجبناً عن لقاءهم، ويؤيد هذا أن الله ذكر بعدها الأمر بالقتال وأخبر عن بني إسرائيل أنهم كانوا مخرجين من ديارهم وأبنائهم.

وعلى الاحتمالين فإن فيها ترغيباً في الجهاد، وترهيباً من التقاعد عنه، وأن ذلك لا يغني عن الموت شيئاً. ﴿قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم﴾.

﴿٢٤٤-٢٤٥﴾ ﴿وقاتلوا في سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم﴾ * ما الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون﴾ جمع الله بين الأمر بالقتال في سبيله بالمال والبدن لأن الجهاد لا يقوم إلا بالأميرين، وحث على الإخلاص فيه، بأن يقاتل العبد، لتكون كلمة الله هي العليا، فإن الله

كان على الزوجة، أن تترخص حولاً كاملاً، ثم نسخ بأربعة أشهر وعشر.

ويجبون عن تقدم الآية الناسخة، أن ذلك تقدم في الوضع، لا في الزول، لأن شرط النسخ أن يتأخر عن المنسوخ، وهذا القول لا دليل عليه.

ومن تأمل الآيتين، اتضح له أن القول الآخر في الآية، هو الصواب، وأن الآية الأولى في وجوب التريض أربعة أشهر وعشراً، على وجه التحميم على المرأة، وأما في هذه الآية فإنها وصية لأهل الميت، أن يبقوا زوجة ميتهم عندهم، حولاً كاملاً، جبراً لخاطرهما، ويرأى بميتهم، ولهذا قال: ﴿وصية لأزواجهم﴾، أي: وصية من الله لأهل الميت، أن يستوصوا بزوجته، ويمتعوها ولا يخرجوها.

فإن رغبتم أقامت في وصيتها، وإن أحببت الخروج فلا حرج عليها، ولهذا قال: ﴿فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهن﴾، أي: من التجمل واللباس. لكن الشرط، أن يكون بالمعروف، الذي لا يخرجها عن حدود الدين والاعتبار، وختم الآية بهذين الاسمين العظميين، الدالين على كمال العزة، وكمال الحكمة، لأن هذه أحكام صدرت عن عزته، ودلت على كمال حكمته، حيث وضعها في مواضعها اللائقة بها.

﴿٢٤١-٢٤٢﴾ ﴿وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين﴾ * كذلك بين الله لكم آياته لعلكم تعقلون﴾ لما بين بين الآية السابقة، إمتاع المفارقة بالموت، ذكر هنا أن كل مطلقة، فلها على زوجها، أن يمتعها ويمعطيها ما يناسب حاله وحالها، وأنه حق، إنما يقوم به المتقون، فهو من خصال التقوى الواجبة أو المستحبة.

فإن كانت المرأة لم يسم لها صداق، وطلقها قبل الدخول، فتقدم أنه يجب عليه بحسب يساره وإعساره. وإن كان مسمى لها، فمتاعها نصف المسمى.

وإن كانت مدخولاً بها، صارت المتعة مستحبة، في قول جمهور العلماء. ومن العلماء من أوجب ذلك، استدلالاً بقوله: ﴿حقاً على المتقين﴾، والأصل في «الحق» أنه واجب، خصوصاً وقد أضافه إلى المتقين، وأصل التقوى واجبة.

﴿٢٣٨-٢٣٩﴾ ثم قال تعالى: ﴿حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ * فإن خفتم فرجالاً أو ركباً فإذا أمتمم فاذكروا الله كما علمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ يأمر تعالى بالمحافظة ﴿على الصلوات﴾ عموماً، وعلى «الصلوة الوسطى» وهي العصر خصوصاً.

والمحافظة عليها: أداؤها بوقتها، وشروطها، وأركانها، وخشوعها، وجميع ما لها، من واجب ومستحب. وبالمحافظة على الصلوات، تحصل المحافظة على سائر العبادات، وتفيد النهي عن الفحشاء والمنكر، خصوصاً إذا أكملها كما أمر بقوله: ﴿وقوموا لله قانتين﴾، أي: ذليلين مخلصين خاشعين، فإن القنوت دوام الطاعة مع الخشوع،

﴿٢٣٩﴾ وقوله: ﴿فإن خفتم﴾ حذف المتعلق، ليعم الخوف من العدو، والسبع، وفوات ما يتضرر العبد بوقته فصولاً، ﴿رجالاً﴾ ماشين على أرجلكم.

﴿أو ركباً﴾ على الخيل والإبل، وسائر المركوبات، وفي هذه الحال، لا يلزمه الاستقبال، فهذه صفة صلاة المعذور بالخوف، فإذا حصل الأمن، صلى صلاة كاملة.

ويدخل في قوله: ﴿فإذا أمتمم فاذكروا الله﴾ تكميل الصلوات، ويدخل فيه أيضاً، الإكثار من ذكر الله، شكره له على نعمة الأمن وعلى نعمة التعليم، لما فيه سعادة العبد.

وفي الآية الكريمة، فضيلة العلم، وأن على من علمه الله ما لم يكن يعلم الإكثار من ذكر الله. وفيه الإشعار أيضاً أن الإكثار من ذكره، سبب لتعليم علوم أخر، لأن الشكر مقرون بالمزيد.

ثم قال تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهن من معروف والله عزيز حكيم﴾.

﴿٢٤٠﴾ اشتهر عند كثير من المفسرين، أن هذه الآية الكريمة، نسختها الآية التي قبلها وهي قوله تعالى: ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتريصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً﴾، وأن الأمر

﴿سميع﴾ للأقوال، وإن خفيت، ﴿عليم﴾ بما تحتوي عليه القلوب من النيات الصالحة وضدها.

وأيضاً، فإنه إذا علم المجاهد في سبيله، أن الله سميع عليم، هان عليه ذلك، وعلم أنه بعينه ما يتحمل المتحملون من أجله، وأنه لا بد أن يمددهم بعونه ولطفه.

وتأمل هذا الحث اللطيف على النفقة، وأن المنفق قد أقرض الله المليء الكريم، ووعدته المضاعفة الكثيرة، كما قال تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾.

ولما كان المانع الأكبر من الإنفاق خوف الإملاق، أخبر تعالى أن الغنى والفقر بيد الله، وأنه يقبض الرزق على من يشاء، ويبسطه على من يشاء، فلا يتأخر من يريد الإنفاق خوف الفقر، ولا يظن أنه ضائع، بل مرجع العباد كلهم إلى الله، فيجد المنفقون والعاملون أجراً عنده مدخراً، أحوج ما يكونون إليه، ويكون له من الوقع العظيم، ما لا يمكن التعبير عنه.

والمراد بالقرض الحسن: هو ما جمع أوصاف الحسن، من النية الصالحة، وسماحة النفس، بالنفقة، ووقوعها في محلها وأن لا يتبعها المنفق مأ ولا أذى؛ ولا مبطلاً ومنقصاً.

﴿٢٤٦﴾ ﴿ألم تر إلى الملائكة بني إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله﴾ إلى آخر القصة. يقص الله تعالى هذه القصة على الأمة، ليعتبروا وليرغبوا في الجهاد، ولا ينكثوا عنه، فإن الصابرين صارت لهم العواقب الحميدة في الدنيا والآخرة، والناكثين خسروا الأمرين.

فأخبر تعالى أن أهل الرأي من بني إسرائيل وأصحاب الكلمة النافذة؛ تراودوا في شأن الجهاد، واتفقوا على أن يطلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكاً؛ ليقطع النزاع بتعيينه، وتحصل الطاعة التامة، ولا يبقى لقاتل مقال.

وأن نبيهم خشي أن طلبهم هذا، مجرد كلام لا فعل معه، فأجابوا نبيهم بالمزم

الجازم، وأنهم التزموا ذلك التزاماً تاماً، وأن القتال متعين عليهم، حيث كان وسيلة لاسترجاع ديارهم؛ ورجوعهم إلى مقرهم ووطنهم.

﴿٢٤٧﴾ ﴿وأنه عتبن لهم نبيهم طالوت ملكاً، يقودهم في هذا الأمر الذي لا بد له من قائد يحسن القيادة، وأنهم استغربوا تعيينه لطالوت، وثم من هو أحق منه بيتاً وأكثر مالاً﴾.

فأجابهم نبيهم: إن الله اختاره عليهم؛ بما آتاه الله من قوة العلم بالسياسة؛ وقوة الجسم، اللذين هما آلة الشجاعة والنجدة، وحسن التدبير، وأن الملك ليس بكثرة المال؛ ولا يكون صاحبه ممن كان الملك والسيادة في بيوتهم، فالله يؤتي ملكه من يشاء.

﴿٢٤٨﴾ ثم لم يكتف ذلك النبي الكريم بإقناعهم بما ذكره؛ من كفاءة طالوت؛ واجتماع الصفات المطلوبة فيه حتى قال لهم: ﴿إن آية ملكه أن يأتكم التابوت فيه سكينه من ربكم ببقية مما ترك آل موسى وآل هارون﴾، وكان هذا التابوت قد استولت عليه الأعداء.

فلم يكتفوا بالصفات المعنوية في طالوت، ولا بتعيين الله له على لسان نبيهم، حتى يؤيد ذلك هذه المعجزة، ولهذا قال: ﴿إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾، فحيث سلما وانقادوا.

﴿٢٤٩﴾ فلما ترأس فيهم طالوت، وجندهم، ورتبهم، وفصل بهم إلى قتال عدوهم، وكان قد رأى منهم من ضعف العزائم والههم، ما يحتاج إلى تمييز الصابر من الناكل، فقال: ﴿إن الله مبتليكم بنهر﴾ تمرؤن عليه وقت حاجة إلى الماء.

﴿فمن شرب منه فليس مني﴾، أي: لا يتبعني؛ لأن ذلك برهان على قلة صبره، ووفور جزعه، ﴿ومن لم يطعمه فإنه مني﴾ لصدقه وصبره، ﴿إلا من اغترف غرفة بيده﴾، أي: فإنه مسامح فيها.

فلما وصلوا إلى ذلك النهر وكانوا محتاجين إلى الماء، شربوا كلهم منه ﴿إلا قليلاً منهم﴾ فإنهم صبروا ولم يشربوا.

﴿فلما جاوزوه هو والذين آمنوا معه قالوا﴾ أي: الناكلون أو الذين عبروا:

﴿لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده﴾.

فإن كان القائلون هم الناكلين، فهذا قول يبررون به نكولهم، وإن كان القائلون هم الذين عبروا مع طالوت، فإنه حصل معهم نوع استضعاف لأنفسهم، ولكن شجعهم على الثبات والإقدام أهل الإيمان الكامل حيث قالوا: ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين﴾ بعونه وتأييده، ونصره، فشتوا، وصبروا لقتال عدوهم جالوت وجنوده.

﴿٢٥٠﴾ ﴿وقيل لداود﴾ **﴿جالوت﴾** وحصل بذلك الفتح والنصر على عدوهم.

﴿وآتاه الله﴾، أي: داود **﴿الملك والحكمة﴾** النبوة والعلوم النافعة، وآتاه الله الحكمة وفصل الخطاب.

﴿٢٥١﴾ ثم بين تعالى، فائدة الجهاد فقال: ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض﴾ باستيلاء الكفرة والفجار، وأهل الشر والفساد.

﴿ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ حيث لطف بالمؤمنين، ودافع عنهم وعن دينهم، بما شرعه وبما قدره.

﴿٢٥٢﴾ فلما بين هذه القصة قال لرسوله **﴿فلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين﴾**.

ومن جملة الأدلة على رسالته، هذه القصة، حيث أخبر بها وحياً من الله، مطابقاً للواقع، وفي هذه القصة عبر كثيرة للأمة.

منها: فضيلة الجهاد في سبيله، وفوائده، وثمراته، وأنه السبب الوحيد في حفظ الدين، وحفظ الأوطان، وحفظ الأبدان والأموال، وأن المجاهدين، ولو شقت عليهم الأمور، فإن عواقبهم حميدة كما أن الناكلين، ولو استراحوا قليلاً، فإنهم سيعتبون طويلاً.

ومنها: الانتداب لرياسة من فيه كفاءة، وأن الكفاءة ترجع إلى أمرين: إلى العلم الذي هو علم السياسة والتدبير، وإلى القوة التي ينفذ بها الحق، وأن من اجتمع فيه الأمران فهو أحق من غيره.

ومنها: الاستدلال بهذه القصة على ما قاله العلماء، أنه ينبغي للأمير للجيوش،

فيه المعاضات بالبيع ونحوه، ولا التبرعات، ولا الشفاعات، فكل أحد يقول: ما قدمت لحياتي.

فتنتقع الأسباب كلها، إلا الأسباب المتعلقة بطاعة الله والإيمان به، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا، وهم في الغرفات آمنون﴾، ﴿وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾.

ثم قال تعالى: ﴿والكافرون هم الظالمون﴾، وذلك لأن الله خلقهم لعبادته، ورزقهم وعافاهم، ليستعينوا بذلك على طاعته، فخرجوا عما خلقهم الله له، وأشركوا بالله، ما لم ينزل به سلطاناً، واستعانوا بنعمه على الكفر، والفسوق، والعصيان، فلم يبقوا للعدل موضعاً، فلهذا حصر الظلم المطلق فيهم.

﴿٢٥٥﴾ ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم﴾ أخير ﷺ أن هذه الآية أعظم آيات القرآن، لما احتوت عليه من معاني التوحيد والعظمة، وسعة الصفات للباري تعالى.

فأخبر أنه ﴿الله﴾ الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، فاللوهية غيره، وعبادة غيره باطلة.

وأنه ﴿الحي﴾ الذي له جميع معاني الحياة الكاملة، من السمع والبصر، والقدرة، والإرادة، وغيرها، والصفات الذاتية.

كما أن ﴿القيوم﴾ تدخل فيه جميع صفات الأفعال، لأنه القيوم الذي قام بنفسه، واستغنى عن جميع مخلوقاته، وقام بجميع الموجودات، فأوجدتها وأبقاها، وأمدّها بجميع ما تحتاج إليه في وجودها وبقيائها.

ومن كمال حياته وقيوميته، أنه

المهد صبيّاً، وأيده بروح القدس، أي: بروح الإيمان.

فجعل روحانيته فائقة روحانية غيره، فحصل له بذلك القوة والتأييد، وإن كان أصل التأييد بهذه الروح عاماً لكل مؤمن، بحسب إيمانه، كما قال: ﴿وأيدهم بروح منه﴾، لكن ما لعيسى أعظم مما لغيره، لهذا خصه الله بالذكر.

وقيل: إن روح القدس - هنا - جبريل، أيدّه الله بإعانه ومؤازرته، لكن المعنى هو الأول.

ولما أخبر عن كمال الرسل، وما أعطاهم من الفضل والخصائص، وأن دينهم واحد، ودعوتهم إلى الخير واحدة، وكان موجب ذلك ومقتضاه، أن تجتمع الأمم على تصديقهم، والانقياد لهم، لما أتاهم من البينات التي على مثلها يؤمن البشر، لكن أكثرهم انحرفوا عن الصراط المستقيم، ووقع الاختلاف بين الأمم.

فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، ووقع لأجل ذلك الاقتتال الذي هو موجب الاختلاف والتعادي، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فما اختلفوا، ولو شاء الله أيضاً - بعدما وقع الاختلاف الموجب للاقتتال - ما اقتتلوا.

ولكن حكمته، اقتضت جريان الأمور على هذا النظام بحسب الأسباب، ففي هذه الآية أكبر شاهد على أنه تعالى، يتصرف في جميع الأسباب المقتضية لمسبباتها، وأنه إن شاء أبقاها، وإن شاء منعه، وكل ذلك تيغ لحكمته وحده، فإنه فعال لما يريد، فليس لإرادته ومشيتته ممانع ولا معارض ولا معاون.

﴿٢٥٤﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون﴾ بحث الله المؤمنين على النفقات، في جميع طرق الخير؛ لأن حذف المعمول، يفيد التعميم، ويذكرهم نعمته عليهم، بأنه هو الذي رزقهم، ونوع عليهم النعم، وأنه لم يأمرهم بإخراج جميع ما في أيديهم، بل أتى بـ «من» الدالة على التبعية، فهذا مما يدعوهم إلى الإنفاق.

ومما يدعوهم أيضاً إخبارهم أن هذه النفقات، مدخرة عند الله في يوم لا تغيد

أن يتفقدوا عند فصولها، فيمنع من لا يصلح للقتال، من رجال وخيل وركاب، لضعفه، أو ضعف صبره، أو لتخذيذه، أو خوف الضرر بصحته، فإن هذا القسم ضرر محض على الناس.

ومنها: أنه ينبغي عند حضور البأس، تقوية المجاهدين، وتشجيعهم، وحثهم على القوة الإيمانية، والاتكال الكامل على الله، والاعتماد عليه، وسؤال الله الثبوت، والإعانة على الصبر والنصر على الأعداء.

ومنها: أن العزم على القتال والجهاد غير حقيقته، فقد يعزم الإنسان، ولكن عند حضوره، تنحل عزمته، ولهذا كان من دعاء النبي ﷺ: «أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد».

فهؤلاء الذين عزموا على القتال، وأتوا بكلام يدل على العزم المصمم، لما جاء الوقت، نكس أكثرهم، ويشبه هذا قوله ﷺ: «وأسألك الرضا بعد القضاء»؛ لأن الرضا بعد وقوع القضاء المكروه للنفس، هو الرضا الحقيقي.

﴿٢٥٣﴾ وقوله تعالى ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾ يخبر الباري أنه فاوت بين الرسل في الفضائل الجليلة، والتخصيصات الجميلة، بحسب ما من الله به عليهم، وقاموا به من الإيمان الكامل؛ واليقين الراسخ، والأخلاق العالية، والآداب السامية، والدعوة، والتعليم، والنفع العميم.

فمنهم من اتخذ خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم من رفعه فوق الخلائق درجات.

وجميعهم لا سبيل لأحد من البشر إلى الوصول إلى فضلهم الشامخ.

وخصّ عيسى ابن مريم أنه آتاه البينات الدالة على أنه رسول الله حقاً، وعبداه صدقاً، وأن ما جاء به من عند الله كله حق، فجعله يبرى الأكمه والأبرص، ويحيي الموتى بإذن الله، وكلم الناس في

﴿لا تأخذه سنة﴾، أي: نعاس
﴿ولا نوم﴾؛ لأن السنة والنوم، إنما
يعرضان للمخلوق، الذي يعتريه الضعف،
والعجز، والانحلال، ولا يعرضان لذي
العظمة والكبرياء والجلال.

وأخبر أنه مالك جميع ما في السموات
والأرض، فكلهم عبيد لله ممالك،
لا يخرج أحد منهم عن هذا الطور، ﴿إن
كل من في السموات والأرض إلا آتي
الرحمن عبداً﴾، فهو المالك لجميع
الممالك، وهو الذي له صفات الملك
والتصرف، والسلطان، والكبرياء.

ومن تمام ملكه أنه لا يشفع عنده
أحد ﴿إلا بإذنه﴾، فكل الرجاء والشفعاء
عبيد له ممالك، لا يقدمون على شفاعته
حتى يأذن لهم. ﴿قل لله الشفاعة جميعاً﴾
له ملك السموات والأرض، والله لا يأذن
لأحد أن يشفع إلا فيمن ارتضى،
ولا يرتضى إلا توحيد، واتباع رسله،
فمن لم يتصف بهذا، فليس له في الشفاعة
نصيب.

ثم أخبر عن علمه الواسع المحيط، وأنه
يعلم ما بين أيدي الخلق، من الأمور
المستقبلية، التي لا نهاية لها ﴿وما
خلفهم﴾ من الأمور الماضية التي لا حد
لها، وأنه لا تخفى عليه خافية ﴿يعلم
خاتمة الأعين وما تخفي الصدور﴾.

وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من
علم الله ومعلوماته ﴿إلا بما شاء﴾ منها
وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية
والقدرية، وهو جزء يسير جداً منضمحل
في علوم الباري ومعلوماته، كما قال أعلم
الخلق به، وهم الرسل والملائكة:
﴿سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا﴾.

ثم أخبر عن عظمته وجلاله، وأن
كرسيه، وسع السموات والأرض، وأنه قد
حفظهما ومن فيهما من العوالم بالأسباب
والنظامات، التي جعلها الله في
المخلوقات.

ومع ذلك فـ ﴿لا يؤوده﴾، أي: يثقله
حفظهما، لكمال عظمته، واقتداره، وسعة
حكيمته في أحكامه.

﴿وهو العلي﴾ بذاته، على جميع
مخلوقاته، وهو العلي بعظمة صفاته، وهو
العلي الذي قهر المخلوقات، ودانت له
الموجودات، وخضعت له الصعاب،

وذلت له الرقاب.

﴿العظيم﴾ الجامع، لجميع صفات
العظمة والكبرياء، والمجد والبهاء، الذي
تحبه القلوب، وتعظمه الأرواح، ويعرف
العارفون أن عظمة كل شيء، وإن جلت
عن الصفة، فإنها مضمحلة في جانب
عظمة العلي العظيم.

فآية احتوت على هذه المعاني التي هي
أجل المعاني، يحق أن تكون أعظم آيات
القرآن، ويحق لمن قرأها، متدبراً متفهماً،
أن يمتلىء قلبه من اليقين والعرفان
والإيمان، وأن يكون محفوظاً بذلك من
شروع الشيطان.

﴿٢٥٦﴾ ﴿لا إكراه في الدين﴾ قد تبين
الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت
ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى
لا انفصام لها والله سميع عليم ﴿هذا بيان
لكمال هذا الدين الإسلامي﴾، وأنه لكمال
براهينه، واتضح آياته، وكونه هو دين
العقل والعلم، ودين الفطرة والحكمة،
ودين الصلاح والإصلاح، ودين الحق
والرشد، فلكمال وقبول الفطرة له،
لا يحتاج إلى الإكراه عليه؛ لأن الإكراه
إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب، ويتنافى
مع الحقيقة والحق، أو لما تخفى براهينه
وآياته، وإلا فمن جاءه هذا الدين، ورده
ولم يقبله، فإنه لعناده.

فإنه قد تبين الرشد من الغي، فلم يبق
لأحد عذر ولا حجة، إذا رده ولم يقبله،
ولا منافاة بين هذا المعنى، وبين الآيات
الكثيرة الموجبة للجهد، فإن الله أمر
بالتعال ليعود الدين كله لله، ولدفع اعتداء
المعتدين على الدين.

وأجمع المسلمون على أن الجهاد ماضٍ
مع البر والفاجر، وأنه من الفروض
المستمرة الجهاد القولي والجهاد الفعلي.

فمن ظن من المفسرين أن هذه الآية
تنافي آيات الجهاد، فجزم بأنها منسوخة
فقوله ضعيف، لفظاً ومعنى، كما هو
واضح بين لمن تدبر الآية الكريمة، كما
نهنا عليه.

ثم ذكر الله انقسام الناس إلى قسمين:
قسم آمن بالله وحده لا شريك له،
وكفر بالطاغوت - وهو كل ما ينافي
الإيمان بالله من الشرك وغيره -، فهذا قد
استمسك بالعروة الوثقى، التي لا انفصام
لها، بل هو مستقيم على الدين الصحيح،

حتى يصل به إلى الله؛ وإلى دار كرامته.
ويؤخذ القسم الثاني، من مفهوم الآية،
أن من لم يؤمن بالله، بل كفر به، وآمن
بالطاغوت، فإنه هالك هلاكاً أبدياً،
ومعذب عذاباً سرمدياً.

وقوله: ﴿والله سميع﴾، أي: لجميع
الأصوات، باختلاف اللغات، على تفنن
الحاجات، وسميع لدعاء الداعين،
وخضوع المتضرعين.

﴿عليهم﴾ بما أكتنه الصدور، وما خفي
من خفايا الأمور، فيجازي كل أحد بحسب
ما يعلمه، من نياته وعمله.

﴿٢٥٧﴾ ﴿الله ولي الذين آمنوا﴾
يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين
كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من
النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار
هم فيها خالدون ﴿هذه الآية مرتبة على
الآية التي قبلها، فالسابقة هي الأساس،
وهذه هي الثمرة.

فأخبر تعالى أن الذين آمنوا بالله،
وصدقوا إيمانهم، بالقيام بواجبات
الإيمان، وترك كل ما ينافي، أنه وليهم،
يتولاهم بولايته الخاصة، ويتولى تربيتهم،
فيخرجهم من ظلمات الجهل والكفر
والمعاصي والغفلة والإعراض، إلى نور
العلم واليقين والإيمان، والطاعة والإقبال
الكامل على ربهم، وينور قلوبهم بما يقذفه
فيها من نور الوحي والإيمان، وييسرهم
لليسرى، ويجنبهم العسرى.

وأما الذين كفروا، فإنهم لما تولوا غير
وليهم، ولأهم الله ما تولوا لأنفسهم،
وخذلهم، ووكلمهم إلى رعاية من تولاهم،
ممن ليس عنده نفع ولا ضرر، فأضلّوهم
وأشقوقهم، وحرموهم هداية العلم النافع
والعمل الصالح، وحرموهم السعادة،
وصارت النار مشواهم، خالدين فيها
مخلدين.

اللهم تولنا فمن توليت.

﴿٢٥٨﴾ ﴿ألم تر إلى الذين حاج
إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال
إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا
أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي
بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب
فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم
الظالمين﴾ يقص الله علينا من أنباء الرسل
والسالفين، ما به تبين الحقائق، وتقوم
البراهين المتنوعة على التوحيد.

فأخبر تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام، حيث حاش هذا الملك الجبار، وهو نمرود^(١) البابلي، المعطل المنكر لرب العالمين، وانتدب لمقاومة إبراهيم الخليل ومحاكته في هذا الأمر، الذي لا يقبل شكاً، ولا إشكالاً، ولا ريباً، وهو توحيد الله وربوبيته، الذي هو أجلى الأمور وأوضحها.

ولكن هذا الجبار، غره ملكه وأطفاه، حتى وصلت به الحال إلى أن نجاه، وحاج إبراهيم الرسول العظيم، الذي أعطاه الله من العلم واليقين، ما لم يعط أحداً من الرسل، سوى محمد ﷺ.

فقال إبراهيم منظرأ له: ﴿ربي الذي يحيي ويميت﴾، أي: هو المنفرد بالخلق والتدبير، والإحياء والإماتة، فذكر من هذا الجنس أظهرها، وهو الإحياء والإماتة، فقال ذلك الجبار مباهتاً: ﴿أنا أحيي وأميت﴾، وعنى بذلك أنني أقتل من أردت قتله، وأستقي من أردت استبقائه.

ومن المعلوم أن هذا تمويه وتزوير، وحيدة عن المقصود، وأن المقصود أن الله تعالى هو الذي تفرد بإيجاد الحياة في المعدومات، وردّها على الأموات، وأنه هو الذي يميّت العباد والحيوانات بأجالها، بأسباب ربطها وبغير أسباب.

فلما رآه الخليل مموهاً تمويهاً، ربما راج على الهرج الرعاع، قال إبراهيم - ملزماً له بتصديق قوله إن كان كما يزعم: ﴿فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب، فبهت الذي كفر﴾، أي: وقف، وانقطعت حجته، واضمحلت شبهته.

وليس هذا من الخليل انتقالاً من دليل إلى آخر، وإنما هو إلزام لنمرود، بطرد دليله إن كان صادقاً، وأتى بهذا الذي لا يقبل الترويج والتزوير والتمويه.

فجميع الأدلة: السمعية، والعقلية، والقطرية، قد قامت شاهدة بتوحيد الله، معترفة بانفراده بالخلق والتدبير، وأن من هذا شأنه، لا يستحق العبادة إلا هو، وجميع الرسل متفقون على هذا الأصل العظيم، ولم ينكروه إلا معاند مكابر، مماثل لهذا الجبار العنيد، فهذا من أدلة التوحيد.

﴿٢٥٩-٢٦٠﴾ ثم ذكر أدلة كمال القدرة والبعث والجزاء، فقال: ﴿أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير * وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيًا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾.

هذان دليلان عظيمان، محسوسان في الدنيا قبل الآخرة، على البعث والجزاء، واحذ أجراه الله على يد رجل شاك في البعث على الصحيح، كما تدل عليه الآية الكريمة، والآخر على يد خليله إبراهيم.

كما أجرى دليل التوحيد السابق على يده، فهذا الرجل مر على قرية قد دمرت تدميراً، وخوت على عروشها، قد مات أهلها وخربت عمارتها، فقال - على وجه الشك والاستبعاد -: ﴿أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟﴾، أي: ذلك بعيد، وهي في هذه الحال، يعني: وغيرها مثلها، بحسب ما قام بقلبه تلك الساعة.

فأراد الله رحمته ورحمة الناس، حيث أماته الله مائة عام، وكان معه حمار، فأماته معه، ومعه طعام وشراب، فأبقاهما الله بحالهما كل هذه المدد الطويلة، فلما مضت الأعوام المائة، بعثه الله، فقال: ﴿كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم﴾، وذلك بحسب ما ظنه، فقال الله: ﴿بل لبثت مائة عام﴾، والظاهر أن هذه المجابوة على يد بعض الأنبياء الكرام.

ومن تمام رحمة الله به وبالناس، أنه أراه الآية عياناً، ليقتنع بها، فبعدما عرف أنه ميت قد أحياه الله، قيل له: ﴿فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه﴾، أي: لم يتغير في هذه المدد الطويلة، وذلك من آيات قدرة الله، فإن الطعام والشراب -

﴿٢٦٠﴾ وأما السهران الآخر، فإن إبراهيم قال طالباً من الله، أن يريه كيف يحيي الموتى، فقال الله له: ﴿أولم تؤمن﴾ ليزيل الشبهة عن خليله.

﴿قال﴾ إبراهيم: ﴿بلى﴾، يا رب، قد آمنت أنك على كل شيء قدير، وأنت يحيي الموتى، وتجازي العباد، ولكن أريد

﴿حليم﴾ مع كمال غناه، وسعة عطايه، يحلم عن العاصين، ولا يعاجلهم بالعقوبة، بل يعافيههم ويرزقهم، ويدر عليهم خيره، وهم مبارزون له بالمعاصي.

﴿٢٦٤-٢٦٦﴾ ثم نهى أشد النهي عن المن والأذى، وضرب لذلك مثلاً، فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين * ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير * أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعنان تجري من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبير وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ ضرب الله في هذه الآيات ثلاثة أمثلة: للمتق ابتغاء وجهه، ولم يتبع نفقته مناً ولا أذى، ولمن أتبعها مناً وأذى، وللمرائي.

﴿٢٦٥﴾ فأما الأول، فإنه لما كانت نفقته مقبولة مضاعفة، لصدورها عن الإيمان والإخلاص التام ﴿ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم﴾، أي: ينفقون، وهم ثابتون على وجه السماحة والصدق، فمثل هذا العمل ﴿كمثل جنة بربوة﴾، وهو المكان المرتفع، لأنه يتبين للرياح والشمس، والماء فيها غزير.

فإن لم يصبها ذلك الوابل الغزير، حصل طل كاف، لطيب منبتها، وحسن أرضها، وحصول جميع الأسباب الموفرة لنموها وازدهارها وإثمارها. ولهذا آتت أكلها ضعفين﴾، أي: متضاعفاً.

وهذه الجنة التي على هذا الوصف، هي أعلى ما يطلبه الناس، فهذا العمل الفاضل بأعلى المنازل.

﴿٢٦٦﴾ وأما من أنفق لله، ثم أتبع نفقته مناً وأذى، أو عمل عملاً، فأتى بمبطل لذلك العمل، فهذا مثله مثال صاحب هذه الجنة، لكن سلب عليها ﴿إعصار﴾ وهو الريح الشديدة ﴿فيه نار فاحترقت﴾، وله ذرية ضعفاء، وهو

دفع الحاجات، والإعانة على الخير والطاعات، فهذه النفقات مضاعفة، هذه المضاعفة بسبعمائة إلى أضعاف أكثر من ذلك، ولهذا قال: ﴿والله يضاعف لمن يشاء﴾، وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق، من الإيمان، والإخلاص التام، وفي ثمرات نفقته ونفعها، فإن بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة، ومصالح متنوعة، فكان الجزاء من جنس العمل.

ثم أيضاً ذكر ثواباً آخر للمتقين أموالهم في سبيله، نفقة صادرة، مستوفية لشروطها، منتفية موانعها، فلا يتبعون المنفق عليه مناً منهم عليه، وتعداداً للنعم، وأذية له، قولية أو فعلية. فهؤلاء ﴿لهم أجرهم عند ربهم﴾ بحسب ما يعلمه منهم، وبحسب نفقاتهم ونفعها، وبفضله الذي لا تناله، ولا تصل إليه صدقاتهم.

﴿ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، فنفي عنهم المكروه الماضي، بنفي الحزن، والمستقبل بنفي الخوف عليهم، فقد حصل لهم المحبوب، واندفع عنهم المكروه.

﴿٢٦٣﴾ ﴿قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم﴾ ذكر الله أربع مراتب للإحسان: المرتبة العليا: النفقة الصادرة عن نية صالحة، ولم يتبعها المنفق مناً ولا أذى.

ثم يليها قول المعروف، وهو: الإحسان القولي بجميع وجوهه، الذي فيه سرور المسلم، والاعتذار من السائل إذا لم يوافق عنده شيئاً، وغير ذلك من أقوال المعروف.

والثالثة: الإحسان بالعفو والمغفرة، عن أساء إليك، بقول أو فعل. وهذان أفضل من الرابعة، وخير منها وهي التي يتبعها المتصدق الأذى للمعطي، لأنه كدر إحسانه وفعل خيراً وشرّاً.

فالخير المحض - وإن كان مفضولاً - خير من الخير الذي يخالطه شر، وإن كان فاضلاً، وفي هذا التحذير العظيم لمن يؤذي من تصدق عليه، كما فعله أهل اللؤم والحق والجهل.

﴿والله﴾ تعالى ﴿غني﴾ عن صدقاتهم، وعن جميع عبادته.

أن يطمئن قلبي، وأصل إلى درجة عين اليقين.

فأجاب الله دعوته، كرامة له، ورحمة بالعباد، ﴿قال: فخذ أربعة من الطير﴾ ولم يبين أي الطيور هي، فالآية حاصلة بأي نوع منها، وهو المقصود، ﴿فصرهم إليك﴾ أي: ضمنهم، واذبحهم، ومزقهم.

﴿ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً، ثم ادعهم، يأتينك سعيّاً واعلم أن الله عزيز حكيم﴾.

ففعل ذلك، وفترق أجزاءهن على الجبال، التي حوله، ودعاهن بأسمائهن، فأقبلن إليه، أي: سريعات، لأن السعي: السرعة، وليس المراد أنهن جئن على قوائمه، وإنما جئن طائرات، على أكمل ما يكون من الحياة.

وخص الطيور بذلك، لأن إحياءهن أكمل وأوضح من غيرهن.

وأيضاً أزال في هذا كل وهم، ربما يعرض للنفس المبطلّة، فجعلهن متعدّدات أربعة، ومزقهن جميعاً، وجعلهن على رؤوس الجبال، ليكون ذلك ظاهراً علناً، يشاهد من قرب ومن بعد، وأنه نحاهن عنه كثيراً، لئلا يظن أن يكون عاملاً حيلة من الحيل، وأيضاً أمره أن يدعوهن فجنن مسرعات.

فصارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله وحكمته.

وفيه تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله وحكمته وعظمته وسعة سلطانه، وتمازج عدله وفضله.

﴿٢٦١-٢٦٢﴾ ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أثبت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ هذا حث عظيم من الله لعباده في إنفاق أموالهم في سبيله، وهو طريقه الموصل إليه، فيدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة، وفي الاستعداد للجهاد في سبيله، وفي تجهيز المجاهدين وتجهيزهم، وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين.

ويلي ذلك الإنفاق على المحتاجين، والفقراء والمساكين.

وقد يجتمع الأمران، فيكون في النفقة

ضعيف قد أصابه الكبر.

فهذه الحال من أفظع الأحوال، ولهذا صدر هذا المثل بقوله: ﴿أيود أحدكم﴾، إلى آخرها بالاستفهام المتقرر عند المخاطبين فظاعته، فإن تلقها دفعة واحدة، بعد زهاء أشجارها، وإيناع ثمارها، مصيبة كبرى.

ثم حصول هذه الفاجعة - وصاحبها كبير قد ضعف عن العمل، وله ذرية ضعفاء، لا مساعدة منهم له، ومؤنتهم عليه - فاجعة أخرى، فصار صاحب هذا المثل، الذي عمل لله، ثم أبطل عمله بمناف له، يشبه حال صاحب الجنة، التي جرى عليها ما جرى، حين اشتدت ضرورته إليها.

المثل الثالث: الذي يراي الناس، وليس معه إيمان بالله، ولا احتساب لثوابه، حيث شبه قلبه بالصفوان، وهو الحجر الأملس، عليه تراب يظن الراي أنه إذا أصابه المطر، أثبت كما تثبت الأراضي الطيبة، ولكنه كالحجر، الذي أصابه الوابل الشديد، فأذهب ما عليه من التراب، وتركه صلباً.

وهذا مثل مطابق لقلب المرائي، الذي ليس فيه إيمان، بل هو قاس لا يلين ولا يخشع.

فهذا أعماله ونفقاته لا أصل لها، تؤسس عليه، ولا غاية لها، تنتهي إليها، بل ما عمله، فهو باطل، لعدم شرطه.

والذي قبله بطل بعد وجود الشرط، لوجود المانع، والأول مقبول مضاعف، لوجود شرطه الذي هو الإيمان والإخلاص والثبات، وانتفاء الموانع المفسدة.

وهذه الأمثال الثلاثة، تنطبق على جميع العاملين، فليزن العبد نفسه وغيره بهذه الموازين العادلة، والأمثال المطابقة.

﴿وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون﴾.

﴿٢٦٧ - ٢٦٨﴾ يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تجمعوا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد * الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم * يحث الباري عباده على الإنفاق مما كسبوا في التجارات، ومما أخرج لهم من الأرض،

من الحبوب والشمار، وهذا يشمل زكاة التقدين، والعروض كلها، المعنة للبيع والشراء، والخارج من الأرض، من الحبوب والشمار، ويدخل في عمومها القرض والتفل.

وأمر تعالى أن يقصدوا الطيب منها، ولا يقصدوا الخبيث، وهو الرديء الدون، يجعلونه لله، ولو بذله لهم من لهم حق عليه، لم يرتضوه ولم يقبلوه إلا على وجه المغاضاة والإغماض.

فالواجب إخراج الوسط من هذه الأشياء، والكمال إخراج العالي، والمنوع إخراج الرديء، فإن هذا لا يجزىء عن الواجب، ولا يحصل فيه الثواب التام في المنسوب.

﴿واعلموا أن الله غني حميد﴾، فهو غني عن جميع المخلوقين، وهو الغني عن نفقات المنفقين، وعن طاعات الطائعين، وإنما أمرهم بها، وحثهم عليها، لنفعهم، ومحض فضله وكرمه عليهم.

ومع كمال غناه، وسعة عطاياه، فهو الحميد فيما يشربه لعباده من الأحكام الموصلة لهم إلى دار السلام.

وحميد في أفعاله، التي لا تخرج عن الفضل والمدل والحكمة، وحميد الأوصاف، لأن أوصافه كلها محاسن وكمالات، لا يبلغ العباد كنهها، ولا يدركون وصفها.

﴿٢٦٨﴾ فلما حثهم على الإنفاق النافع، ونهاهم عن الإمساك الضار، بين لهم أنهم بين داعين:

داعي الرحمن، يدعوهم إلى الخير، ويعدهم عليه الخير، والفضل والثواب عاجل والآجل، وإخلاف ما أنفقوا.

وداعي الشيطان، الذي يحثهم على الإمساك ويخوفهم، إن أنفقوا أن يفترقوا، فمن كان مجيباً لداعي الرحمن، وأنفق مما رزقه الله، فليبشر بمغفرة الذنوب، وحصول كل مطلوب، ومن كان مجيباً لداعي الشيطان، فإنه إنما يدعو حزبه، ليكونوا من أصحاب السعير، فليختر العبد أي الأمرين أليق به.

وختم الآية بأنه ﴿واسع عليم﴾، أي: واسع الصفات، كثير الهبات، عليم بمن يستحق المضاعفة من العاملين، وليم بمن هو أهل، فيوفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات.

﴿٢٦٩﴾ يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾ لما ذكر أحوال المتفنيين للأموال، وأن الله أعطاهم، ومن عليهم بالأموال التي يدركون بها النفقات في الطرق الخيرية، ويتألون بها المقامات السنية، ذكر ما هو أفضل من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة من يشاء من عباده، ومن أراد بهم خيراً من خلقه.

والحكمة هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال.

وهذا أفضل العطايا، وأجل الهبات، ولهذا قال: ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾؛ لأنه خرج من ظلمة الجهالات إلى نور الهدى، ومن حق الانحراف في الأقوال والأفعال، إلى إصابة الصواب فيها، وحصول السداد، ولأنه كمل نفسه بهذا الخير العظيم، واستعد لنفع المخلوق أعظم نفع، في دينهم ودنياهم.

وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام.

ولكن ما يتذكر هذا الأمر العظيم، وما يعرف قدر هذا العطاء الجسيم. ﴿إلا أولو الألباب﴾ وهم أهل العقول الوافية، والأحلام الكاملة، فهم الذين يعرفون النافع فيعملونه، والضار فيتركونه.

وهذان الأمران، وهما بذل النفقات المالية، وبذل الحكمة العلمية، أفضل ما تقرب به المتقربون إلى الله، وأعلى ما وصلوا به إلى أجل الكرامات.

وهما اللذان ذكرهما النبي ﷺ بقوله: ﴿لا حسد إلا في اثنين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه علىهلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعلمها الناس﴾.

﴿٢٧٠ - ٢٧١﴾ ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار﴾ إن تبدأ الصدقات فتعماً هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير﴾ يخبر تعالى، أنه مهما أنفق المنفقون أو تصدق المتصدقون، أو نذر الناذرون، فإن الله يعلم ذلك.

البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يحق الله الربا ويُرَبِّي الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم * إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأنذروا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون * وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون * واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون * لما ذكر الله حالة المنافقين وما لهم من الله، من الخيرات، وما يكفر عنهم، من الذنوب والخطيئات، ذكر الظالمين أهل الربا والمعاملات الخبيثة، وأخبر أنهم يجازون بحسب أعمالهم، فكما كانوا في الدنيا في طلب المكاسب الخبيثة كالمجانين، عوقبوا في البرزخ والقيامة، أنهم لا يقومون من قبورهم، إلى يوم بعثهم ونشورهم * إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس *، أي: من الجنون والصرع.

وذلك عقوبة، وخزي وفضيحة لهم، وجزاء لهم على مراتبهم ومجاهرتهم بقولهم: ﴿إنما البيع مثل الربا﴾، فجمعوا - بجرأتهم - بين ما أحل الله، وبين ما حرم الله، واستباحوا بذلك الربا.

ثم عرض تعالى العقوبة على المرابين وغيرهم، فقال: ﴿فمن جاءه موعظة من ربه﴾، بيان مقرون به الوعد والوعيد.

﴿فانتهى﴾ عما كان يتعاطاه من الربا ﴿فله ما سلف﴾ مما تجرأ عليه وتاب منه.

﴿وأمره إلى الله﴾ فيما يستقبل من زمانه، فإن استمر على توبته، فإله لا يضع أجر المحسنين.

﴿ومن عاد﴾ بعد بيان الله وتذكيره وتوعده لآكل الربا ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ في هذا أن الربا موجب لدخول النار والخلود فيها، وذلك لشناعته، ما لم يمنع من الخلود مانع الإيمان.

ويتضمن التذكير لهم بالإخلاص. وكرر علمه - تعالى - بنفقاتهم، لإعلامهم أنه لا يضع عنده مثقال ذرة: ﴿وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً﴾.

﴿٢٧٣-٢٧٤﴾ ﴿للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم﴾ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلاية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون * يعني أنه ينبغي أن تنحروا بصدقاتكم الفقراء، الذين حبسوا أنفسهم في سبيل الله، وعلى طاعته، وليس لهم إرادة في الاكتساب، أو ليس لهم قدرة عليه، وهم يتعففون، إذا رآهم الجاهل ظن أنهم أغنياء * لا يسألون الناس إلحافاً *، فهم لا يسألون بالكلية، وإن سألوا اضطراباً، لم يلحفوا في السؤال.

فهذا الصنف من الفقراء، أفضل ما وضعت فيهم النفقات لدفع حاجتهم، وإعانة لهم على مقصدهم وطريق الخير، وشكراً لهم على ما اتصفوا به من الصبر، والنظر إلى الخالق، لا إلى الخلق.

﴿٢٧٤﴾ ومع ذلك، فالإنفاق في طرق الإحسان وعلى المحاويع حيشاً كانوا، فإنه خير وأجر، وثواب عند الله، ولهذا قال تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلاية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾.

فإن الله يظلمهم بظلمه يوم لا ظل إلا ظله، وإن الله ينيلهم الخيرات ويدفع عنهم الأحزان والمخاوف والكربات.

وقوله: ﴿فلهم أجرهم عند ربهم﴾، أي: كل أحد منهم بحسب حاله.

وتخصيص ذلك، بأنه عند ربهم، يدل على شرف هذه الحال، ووقوعها في الموقع الأكبر، كما في الحديث الصحيح: ﴿إن العبد ليتصدق بالتمرة من كسب طيب فيقبلها الجبار بيده، فيريها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل العظيم﴾.

﴿٢٧٥-٢٨١﴾ ﴿الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما

ومضمون الإخبار بعلمه، يدل على الجزء، وأن الله لا يضع عنده مثقال ذرة، ويعلم ما صدرت عنه، من نيات صالحة، أو سيئة، وأن الظالمين الذين يمنعون ما أوجب الله عليهم، أو يتحتمون ما حرم عليهم، ليس لهم من دونه أنصار، ينصرونهم ويمعنونهم، وأنه لا بد أن تقع بهم العقوبات.

﴿٢٧١﴾ وأخبر أن الصدقة إن أبداها المتصدق، فهي خير، وإن أخفاها، وسلمها للفقير، كان أفضل، لأن الإخفاء على الفقير، إحسان آخر.

وأيضاً فإنه يدل على قوة الإخلاص، وأحد السبعة الذين يظلمهم الله في ظله: ﴿من تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه﴾.

وفي قوله: ﴿وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم﴾ فائدة لطيفة، وهو أن إخفاءها خير من إظهارها، إذا أعطيت للفقير.

فأما إذا صرفت في مشروع خيري، لم يكن في الآية، ما يدل على فضيلة إخفائها، بل هنا قواعد الشرع، تدل على مراعاة المصلحة، فربما كان الإظهار خيراً، لحصول الأسوة والافتداء، وتنشيط النفوس على أعمال الخير.

وقوله: ﴿ويكفر عنكم من سيئاتكم﴾ في هذا: أن الصدقات يجتمع فيها الأوامر:

حصول الخير، وهو: كثرة الحسنات والشواب والأجر، ودفع الشر والبلاء الدنيوي والأخروي، بتكفير السيئات.

﴿والله بما تعملون خبير﴾، فيجازي كلأبعمله، بحسب حكمته.

﴿٢٧٢﴾ ﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقون من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون﴾ أي: إنما عليك - أيها الرسول - البلاغ، وحث الناس على الخير، وزجرهم عن الشر، وأما الهداية، فييد الله تعالى.

ويخبرهم عن المؤمنين حقاً، أنهم لا ينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم، واحتساب ثوابه، لأن إيمانهم يدعوه إلى ذلك، فهذا خير وتركية للمؤمنين،

عليم * وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤد الذي أؤتمن أمانته وليتق الله ربه ولا تكتسبوا الشهادة ومن يكتسبها فإنه أثم قلبه والله بما تعملون عليم*.

احتوت هاتان الآيتان، على إرشاد الباري عباده في معاملاتهم إلى حفظ حقوقهم بالطرق النافعة والإصلاحات التي لا يقترح العقلاء أعلى ولا أكمل منها، فإن فيها فوائد كثيرة.

منها: جواز المعاملات في الديون، سواء كانت ديون سلم أو شراء مؤجلاً ثمنه، فكله جائز؛ لأن الله أخبر به عن المؤمنين، وما أخبر به عن المؤمنين، فإنه من مقتضيات الإيمان وقد أقرهم عليه الملك الديان.

ومنها: وجوب تسمية الأجل في جميع المدائنات وحلول الإجازات.

ومنها: أنه إذا كان الأجل مجهولاً، فإنه لا يحل، لأنه غرر وخطر، فيدخل في الميسر.

ومنها: أمره تعالى بكتابة الديون. وهذا الأمر قد يجب، إذا وجب حفظ الحق، كالذي للعبد عليه ولأية، كأموال اليتامى، والأوقاف، والوكلاء، والأمناء، وقد يقارب الوجوب، كما إذا كان الحق متمحفاً للعبد، فقد يقوى الوجوب وقد يقوى الاستحباب، بحسب الأحوال والمقتضية لذلك.

وعلى كل حال، فالكتابة من أعظم ما تحفظ بها هذه المعاملات المؤجلة، لكثرة النسيان، ولوقوع المغالطات، ولاحتراز من الخونة الذين لا يخشون الله تعالى. ومنها: أمره تعالى للكاتب أن يكتب بين المتعاملين بالعدل، فلا يعمل مع أحدهما لقرابة ولا غيرها، ولا على أحدهما لعداوة ونحوها.

ومنها: أن الكتابة بين المتعاملين من أفضل الأعمال، ومن الإحسان إليهما، وفيها حفظ حقوقهما، وبراءة ذمهما كما أمره الله بذلك، فليحتسب الكاتب بين الناس هذه الأمور، ليحظى بثوابها.

ومنها: أن الكاتب لا بد أن يكون عارفاً بالعدل، معروفاً بالعدل؛ لأنه إذا لم يكن عارفاً بالعدل لم يتمكن منه، وإذا لم يكن معتبراً عادلاً عند الناس رضى، لم تكن كتابته معتبرة، ولا حاصل بها المقصود، الذي هو حفظ الحقوق.

الناس يأخذ الربا ﴿ولا تظلمون﴾ ببخسكم رؤوس أموالكم.

فكل من تاب من الربا، فإن كانت معاملاته سالفة، فله ما سلف، وأمره منظر فيه، وإن كانت معاملاته موجودة، وجب عليه أن يقتصر على رأس ماله، فإن أخذ زيادة، فقد تجرأ على الربا.

وفي هذه الآية، بيان لحكمة الربا، وأنه يتضمن الظلم للمحتاجين بأخذ الزيادة، وتضاعف الربا عليهم، وهو واجب إنظارهم.

﴿٢٨٠﴾ ولهذا قال: ﴿وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة﴾، أي: وإن كان الذي عليه الدين معسراً، لا يقدر على الوفاء، وجب على غريمه أن ينظره إلى ميسرة.

وهو يجب عليه إذا حصل له وفاء بأي طريق مباح، أن يوفي ما عليه.

وإن تصدق عليه غريمه - بإسقاط الدين كله أو بعضه - فهو خير له، ويهون على العبد، التزام الأمور الشرعية، واجتنب المعاملات الربوية، والإحسان إلى المعسرين، علمه بأن له يوماً يرجع فيه إلى الله، ويوفيه عمله، ولا يظلمه مثقال ذرة، كما ختم هذه الآية بقوله:

﴿٢٨١﴾ ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله، ثم توفى كل نفس ما كسبت، وهم لا يظلمون﴾.

﴿٢٨٢-٢٨٣﴾ ثم قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونوا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلك أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وإن فعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء

وهذا من جملة الأحكام التي تتوقف على وجود شروطها، وانتفاء موانعها، وليس فيها حجة للخوارج، كغيرها من آيات الوعيد.

فالأوجب أن تصدق جميع نصوص الكتاب والسنة، فيؤمن العبد بما تواترت به النصوص، من خروج من في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من الإيمان، من النار. ومن استحقاق هذه الموبقات لدخول النار، إن لم يتب منها.

﴿٢٧٦﴾ ثم أخبر تعالى أنه يمحى مكاسب المرابين، ويربي صدقات المنفقين، عكس ما يتبادر لأذهان كثير من الخلق، أن الإنفاق ينقص المال وأن الربا يزيد، فإن مادة الرزق وحصول ثمراته من الله تعالى، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته وامتثال أمره.

فالتجريء على الربا، يعاقبه بنقيض مقصوده، وهذا مشاهد بالتجربة، ﴿ومن أصدق من الله قيلاً﴾.

﴿والله لا يحب كل كفار أثيم﴾، وهو الذي كفر نعمة الله، وجحد مئة ربه، وأثم بإصراره على معاصيه.

ومفهوم الآية، أن الله يحب من كان شكوراً على النعماء، تائباً من المآثم والذنوب.

﴿٢٧٧﴾ ثم أدخل هذه الآية بين آيات الربا، وهي قوله: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾، الآية، لبيان أن أكبر الأسباب لاجتناب ما حرم الله من المكاسب الربوية تكميل الإيمان وحقوقه، خصوصاً إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وإن الزكاة إحسان إلى الخلق، ينافي تعاطي الربا، الذي هو ظلم لهم، وإساءة عليهم.

﴿٢٧٨﴾ ثم وجه الخطاب للمؤمنين، وأمرهم أن يتقوه، ويذروا ما بقي من معاملات الربا، التي كانوا يتعاطونها قبل ذلك، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك، فإنهم محاربون لله ورسوله، وهذا من أعظم ما يدل على شناعة الربا، حيث جعل المصير عليه، محارباً لله ورسوله.

﴿٢٧٩﴾ ثم قال: ﴿وإن تبتم﴾ يعني من المعاملات الربوية.

﴿فلنكم رؤوس أموالكم لا تظلمون﴾

للأداء، وأن القيام بالشهادة من أفضل الأعمال الصالحة، كما أمر الله بها، وأخير عن نفعها ومصلحتها.

ومنها: أنه لا يحل الإضرار بالكتاب، ولا بالشهيد، بأن يدعى في وقت أو حالة، تضرهما.

وكما أنه نهى لأهل الحقوق والمتعاملين، وأن يضار الشهود والكتاب، فإنه أيضاً نهى للكتاب والشهيد، أن يضار المتعاملين أو أحدهما.

وفي هذا أيضاً أن الشاهد والكتاب - إذا حصل عليهما ضرر في الكتابة والشهادة - أنه يسقط عنهما الوجوب.

وفيها التنبيه على أن جميع المحسنين الفاعلين للمعروف، لا يحل إضرارهم، وتحميلهم ما لا يطيقون، ذ «هل جزء الإحسان إلا الإحسان؟»

وكذلك على من أحسن وفعل معروفًا، أن يتمم إحسانه بترك الإضرار القولي والفعلية بمن أوقع به المعروف، فإن الإحسان لا يتم إلا بذلك.

ومنها: أنه لا يجوز أخذ الأجرة على الكتابة والشهادة، حيث وجبت، لأنه حق أوجه الله على الكتاب والشهيد، ولأنه من مضارة المتعاملين.

ومنها: التنبيه على المصالح والفوائد المترتبة على العمل بهذه الإرشادات الجلية، وأن فيها حفظ الحقوق والعدل، وقطع التنازع والسلامة من النسيان والذهول، ولهذا قال: «ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا»، وهذه مصالح ضرورية للعباد.

ومنها: أن تعلم الكتابة من الأمور الدينية، لأنها وسيلة إلى حفظ الدين والدنيا وسبب للإحسان.

ومنها: أن من خصه الله بنعمة من النعم، يحتاج الناس إليها، فمن تمام شكر هذه النعمة، أن يعود بها على عباد الله، وأن يقضي بها حاجتهم، لتعليل الله النهي عن الامتناع عن الكتابة، بتذكير الكتاب بقوله: «كما علمه الله»، ومع هذا: «فمن كان في حاجة أخيه، كان الله في حاجته».

ومنها: أن الإضرار بالشهود والكتاب، فسوق بالإنسان، فإن الفسوق هو الخروج عن طاعة الله إلى معصيته، وهو يزيد وينقص، ويتبعض، ولهذا لم يقل: «فأنتم فساق» أو «فاسقون»، بل قال: «فإنه

ومنها: الإرشاد إلى الإشهاد في البيع، فإن كانت في المداينات، فحكمها حكم الكتابة كما تقدم، لأن الكتابة هي كتابة الشهادة، وإن كان البيع بيعاً حاضراً، فينبغي الإشهاد فيه، ولا حرج فيه بترك الكتابة، لكثرة وحصول المشقة فيه.

ومنها: الإرشاد إلى إشهاد رجلين عدلين، فإن لم يمكن، أو تعذر، أو تعمس، فرجل وامرأتان، وذلك شامل لجميع المعاملات، بيوع الإدارة، وبيوع الديون، وتوابعها من الشروط والوثائق وغيرها.

وإذا قيل: قد ثبت أنه ﷺ قضى بالشاهد الواحد مع اليمين، والآية الكريمة ليس فيها إلا شهادة رجلين، أو رجل وامرأتين، قيل: الآية الكريمة، فيها إرشاد الباري عباده إلى حفظ حقوقهم، ولهذا أتى فيها بأكمل الطرق، وأقواها، وليس فيها ما يناهض ما ذكره النبي ﷺ من الحكم بالشاهد واليمين.

فباب حفظ الحقوق في ابتداء الأمر، يرشد فيه العبد إلى الاحتراز والتحفظ التام، وباب الحكم بين المتنازعين، ينظر فيه إلى المرجحات والبيّنات، بحسب حالها.

ومنها: أن شهادة المرأتين، قائمة مقام الرجل الواحد، في الحقوق الدنيوية، وأما في الأمور الدينية - كالرواية والفتوى - فإن المرأة فيه، تقوم مقام الرجل، والفرق ظاهر بين البابين.

ومنها: الإرشاد إلى الحكمة في كون شهادة المرأتين عن شهادة الرجل، وأنه لضعف ذاكرة المرأة غالباً، وقوة حافظة الرجل.

ومنها: أن الشاهد لو نسي شهادته، فذكره الشاهد الآخر، فذكر أنه لا يضر ذلك النسيان، إذا زال بالتذكير لقوله: «أن تضلّ إحداهما فتذكر إحداها الأخرى»، ومن باب أولى، إذا نسي الشاهد، ثم ذكر من دون تذكير، فإن الشهادة مدارها على العلم واليقين.

ومنها: أن الشهادة لا بد أن تكون عن علم ويقين، لا عن شك، فمتى صار عند الشاهد ريب في شهادته - ولو غلب على ظنه - لم يحل له أن يشهد إلا بما يعلم.

ومنها: أن الشاهد ليس له أن يمتنع، إذا دعي للشهادة، سواء دعي للتحمل أو

ومنها: أن من تمام الكتابة والعدل فيها، أن يحسن الكاتب الإنشاء، والألفاظ المعتمدة في كل معاملة بحسبها، وللعرف في هذا المقام، اعتبار عظيم.

ومنها: أن الكتابة من نعم الله على العباد التي لا تستقيم أمورهم الدينية ولا الدنيوية إلا بها، وأن من علمه الله الكتابة، فقد تفضل عليه بفضل عظيم، فمن تمام شكره لنعمة الله تعالى، أن يقضي بكتابه حاجات العباد، ولا يمتنع من الكتابة، ولهذا قال: «ولا ياب كاتب أن يكتب كما علمه الله».

ومنها: أن الذي يكتبه الكاتب، هو اعتراف من عليه الحق، إذا كان يحسن التعبير عن الحق الذي عليه، فإن كان لا يحسن ذلك - لصغره، أو سفهه، أو جنونه، أو خرسه، أو عدم استطاعته - أملى عنه وليه، وقام وليه في ذلك مقامه. ومنها: أن الاعتراف من أعظم الطرق، التي تثبت بها الحقوق، حيث أمر الله تعالى أن يكتب الكاتب، ما أملى عليه من عليه الحق.

ومنها: ثبوت الولاية على القاصرين، من الصغار والمجانين، والسفهاء ونحوهم.

ومنها: أن الولي يقوم مقام موليه، في جميع اعترافاته المتعلقة بحقوقه.

ومنها: أن من أمنته في معاملة، وفوضته فيها، فقله في ذلك مقبول، وهو نائب منابك، لأنه إذا كان الولي على القاصرين ينوب منابهم، فالذي وليته باختيارك وفوضت إليه الأمر، أولى بالقبول، واعتبار قوله وتقديمه على قولك عند الاختلاف.

ومنها: أنه يجب على الذي عليه الحق - إذا أملى على الكاتب - أن يتقي الله، ولا يبخس الحق الذي عليه، فلا ينقصه في قدره، ولا في وصفه، ولا في شرط من شروطه، أو قيد من قيوده، بل عليه أن يعترف بكل ما عليه من متعلقات الحق، كما يجب ذلك إذا كان الحق على غيره له، فمن لم يفعل ذلك، فهو من المطففين الباخسين.

ومنها: وجوب الاعتراف بالحقوق الجلية والحقوق الخفية، وأن ذلك من أعظم خصال التقوى، كما أن ترك الاعتراف بها من نواقض التقوى ونواقصها.

فسوق بكم﴾ فيقدر خروج العبد عن طاعة ربه، فإنه يحصل به من الفسوق، بحسب ذلك.

واستدل بقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾ أن تقوى الله، وسيلة إلى حصول العلم، وأوضح من هذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾، أي: علماً تفرقون به بين الحقائق، والحق والباطل.

ومنها: أنه كما أنه من العلم النافع، تعليم الأمور الدينية المتعلقة بالعبادات، فمنه أيضاً، تعليم الأمور الدنيوية المتعلقة بالمعاملات، فإن الله تعالى، حفظ على العباد أمور دينهم ودنياهم، وكتابه العظيم فيه بيان كل شيء.

﴿٢٨٣﴾ ومنها: مشروعية الوثيقة بالحقوق، وهي الرهن والضمانات، التي تكفل للعبد حصوله حقه، سواء عامل برأ أو فاجراً، أميناً أو خائناً، فكم في الوثائق من حفظ حقوق، وانقطاع منازعات.

ومنها: أن تمام الوثيقة في الرهن، أن يكون مقبوضاً، ولا يدل ذلك على أنه لا يصح الرهن إلا بالقبض، بل التقييد بكون الرهن مقبوضاً، يدل على أنه قد يكون مقبوضاً، تحصل به الثقة التامة، وقد لا يكون مقبوضاً، فيكون ناقصاً.

ومنها: أنه يستدل بقوله: ﴿فَرِهَانَ مَقْبُوضَةٍ﴾ أنه إذا اختلف الراهن والمرتهن في مقدار الدين الذي به الرهن، أن القول قول المرتهن، صاحب الحق، لأن الله جعل الرهن وثيقة به، فلو لا أنه يقبل قوله في ذلك، لم تحصل به الوثيقة لعدم الكتابة والشهود.

ومنها: أنه يجوز التعامل بغير وثيقة، ولا شهود، لقوله: ﴿فَإِنْ آمَنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ، فليؤد الذي ائتمن أمانته﴾، ولكن في هذه الحال يحتاج إلى التقوى والخوف من الله، وإلا فصاحب الحق مخاطر في حقه، ولهذا أمر الله في هذه الحال، من عليه الحق، أن يتقي الله ويؤدي أمانته.

ومنها: أن من ائتمنه معامله، فقد عمل معه معروفاً عظيماً، ورضي بدينه وأمانته، فيتأكد على من عليه الحق، أداء الأمانة من الجهتين: أداء لحق الله، وامتنالاً لأمره، ووفاء بحق صاحبه، الذي رضي بأمانته، ووثق به.

ومنها: تحريم كتم الشهادة، وأن كاتمها قد أثم قلبه، الذي هو ملك الأعضاء، وذلك لأن كتمها، كالتشهاد بالباطل والزور، فيها ضياع الحقوق، وفساد المعاملات، والإثم المتكرر في حقه، وحق من عليه الحق.

وأما تقييد الرهن بالسفر - مع أنه يجوز حضراً وسفراً - فللحاجة إليه لعدم الكاتب والشاهد.

وختم الآية بأنه ﴿عَلِيمٌ﴾ بكل ما يعمله العباد، كالتعريب لهم في المعاملات الحسنة، والترهيب من المعاملات السيئة.

﴿٢٨٤﴾ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدِّلُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَفُوهُ يُحَاسِبُكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يخبر تعالى، بعموم ملكه لأهل السماء والأرض، وإحاطة علمه بما أبداه العباد، وما أخفوه في أنفسهم، وأنه سيحاسبهم به، فيغفر لمن يشاء، وهو المنيب إلى ربه، الأبواب إليه ﴿إِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَابِينَ غَفُورًا﴾.

ويعذب من يشاء، وهو المصّر على المعاصي، في باطنه وظاهره.

وهذه الآية لا تنافي الأحاديث الواردة في العفو، عما حدث به العبد نفسه، ما لم يعمل أو يتكلم، فتلك المخاطر التي تحدث بها النفوس، التي لا يتصف بها العبد ولا يصمم عليها، وأما هنا فهي العزائم المصممة، والأوصاف الثابتة في النفوس، أوصاف الخير، وأوصاف الشر، ولهذا قال: ﴿مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾، أي: استقر فيها وثبت، من العزائم والأوصاف.

وأخبر أنه ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فمن تمام قدرته، محاسبة الخلائق، وإيصال ما يستحقونه من الثواب والعقاب.

﴿٢٨٥ - ٢٨٦﴾ ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ وَكُتِبَ وَرَسُولُهُ لَا تَفِرُّ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رِيسَلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تَأْخُذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَغْطَيْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِنْ صَرْنَا كَمَا حَمَلْتَنَا عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفُ رِيسَلَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ثبت عنه ﷺ

أن من قرأ هاتين الآيتين في ليلته كفتاه، أي: من جميع الشرور، وذلك لما احتوتا عليه من المعاني الجليلة، فإن الله أمر في أول هذه السورة الناس بالإيمان، بجميع أصوله في قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾، الآية.

وأخبر في هذه الآية، أن الرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين، آمنوا بهذه الأصول العظيمة، وجميع الرسل، وجميع الكتب، ولم يصنعوا صنيع من آمن ببعض، وكفر ببعض، كحالة المنحرفين من أهل الأديان المنحرفة.

وفي قرآن المؤمنين بالرسول ﷺ، والإخبار عنهم جميعاً بخبر واحد، شرف عظيم للمؤمنين.

وفيه أنه ﷺ مشاركٌ للامة في توجه الخطاب الشرعي له، وقيامه التام به، وأنه فاق المؤمنين، بل فاق جميع المرسلين في القيام بالإيمان وحقوقه.

وقوله: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾، هذا التزام من المؤمنين، عام لجميع ما جاء به النبي ﷺ من الكتاب والسنة، وأنهم سمعوه سماع قبول وإذعان وانقياد، ومضمون ذلك تضرعهم إلى الله في طلب الإعانة على القيام به، وأن الله يغفر لهم ما قصرُوا فيه من الواجبات، وما ارتكبه من المحرمات، وكذلك تضرعوا إلى الله في هذه الأدعية النافعة، والله تعالى قد أجاب دعاءهم على لسان نبيه ﷺ فقال: ﴿قَدْ فَعَلْتُ﴾.

فهذه الدعوات مقبولة من مجموع المؤمنين قطعاً، ومن أفرادهم، إذا لم يمنع من ذلك مانع في الأفراد، وذلك أن الله رفع عنهم المؤاخذه في الخطأ والنسيان، وأن الله سهل عليهم شرعه غاية التسهيل، ولم يحملهم من المشاق، والأصار، والأغلال، ما حمله على من قبلهم، ولم يحملهم فوق طاقتهم، وقد غفر لهم ورحمهم، ونصرهم على القوم الكافرين.

فنسأل الله تعالى، بأسمائه وصفاته، وبما من به علينا من التزام دينه، أن يحقق لنا ذلك، وأن ينجز لنا ما وعدنا على لسان نبيه، وأن يصلح أحوال المؤمنين.

ويؤخذ من هنا قاعدة التيسير، ونفي الحرج في أمور الدين كلها. وقاعدة العفو عن النسيان والخطأ، في

غاية الصراحة والبيان، يردون إليها المشتبه، الذي تحصل فيه الحيرة لنقص العلم، ونقص المعرفة.

فيردون المشابه إلى المحكم، فيعود كله محكماً، ويقولون: ﴿آتنا به كل من عند ربنا وما يذكر﴾ للأمور النافعة، والعلوم الصائبة ﴿إلا أولوا الأبواب﴾، أي: أهل العقول الرزينة.

ففي هذا دليل على أن هذا، من علامة أولي الأبواب، وأن اتساع المشابه، من أوصاف أهل الآراء السقيمة، والعقول الواهية، والقصور السيئة.

وقوله: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾: إن أريد بالتأويل معرفة عاقبة الأمور، وما تنتهي وتؤول إليه، تعين الوقوف على ﴿إلا الله﴾ حيث هو تعالى المتفرد بالتأويل بهذا المعنى، وإن أريد بالتأويل: معنى التفسير، ومعرفة معنى الكلام، كان العطف أولى، فيكون هذا مدحاً للراسخين في العلم، أنهم يعلمون كيف ينزلون نصوص الكتاب والسنة، محكمها ومشابهها.

ولما كان المقام مقام انقسام إلى منحرفين ومستقيمين، دعوا الله تعالى أن يثبتهم على الإيمان، فقالوا: ﴿ربنا لا تزغ قلوبنا﴾، أي: لا تملها عن الحق إلى الباطل.

﴿بعد إذ هديتنا، وهب لنا من لدنك رحمة﴾، تصلح بها أحوالنا ﴿إنك أنت الوهاب﴾، أي: كثير الفضل والهبات.

وذلك أن الله تعالى ذكر عن الراسخين، أنهم يسألونه أن لا يزغ قلوبهم، بعد إذ هداهم، وقد أخبر في آيات آخر الأسباب التي بها تزغ قلوب أهل الانحراف، وأن ذلك بسبب كسبهم، كقوله: ﴿فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم﴾، ﴿ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم﴾.

﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة﴾.

فالعيد إذا تولى عن ربه، ووالى عدوه، ورأى الحق، فصدف عنه، ورأى الباطل فاختره، ولاه الله ما تولى لنفسه، وأزاغ قلبه، عتوة له على ربه، وما ظلمه الله، ولكنه ظلم نفسه، فلا يلم إلا نفسه الأمارة بالسوء، والله أعلم.

﴿٩٩﴾ ﴿ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد﴾ هذا

﴿٥٥﴾ ومن تمام قيويمته تعالى، أن علمه محيط بالخلائق ﴿لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء﴾ حتى ما في بطون الحوامل.

﴿٦٦﴾ فهو ﴿الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء﴾ من ذكر وأنثى، وكامل الخلق وناقصه، متقلبن في أطوار خلقته وبديع حكمته، فمن هذا شأنه مع عباده، واعتناؤه العظيم بأحوالهم، من حين أنشأهم إلى منتهى أمورهم لا مشارك له في ذلك - فيتعين أنه لا يستحق العبادة إلا هو.

﴿٧٧﴾ ﴿لا إله إلا هو العزيز﴾ الذي قهر الخلائق بقوته، واعتز عن أن يوصف بنقص أو يعت بدم ﴿الحكيم﴾ في خلقه وشرعه.

﴿٧٨﴾ ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الأبواب﴾ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إن هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب﴾ يخبر تعالى عن عظمتهم، وكمال قيويمته، أنه هو الذي تفرد بإنزال هذا الكتاب العظيم، الذي لم يوجد - ولن يوجد - له نظير أو مقارب في هدايته، وبلاغته وإعجازه، وإصلاحه للخلق، وأن هذا الكتاب يحتوي على المحكم الواضح المعاني البين، الذي لا يشتبه بغيره، ومنه آيات متشابهات، تحتمل بعض المعاني، ولا يتعين منها واحد من الاحتمالين بمجردا، حتى تضم إلى المحكم.

فالذين في قلوبهم مرض وزيغ، وانحراف، لسوء قصدهم، يتبعون المشابه منه، فيستدلون به على مقالاتهم الباطلة، وآرائهم الزائفة، طلباً للفتنة، وتحريفاً لكتابه، وتأويلاً له على مشاربهم ومذاهبهم ليضلوا ويضلوا.

وأما أهل العلم الراسخون فيه، الذين وصل العلم واليقين إلى أفئدتهم، فأثمر لهم العمل والمعارف - فيعلمون أن القرآن كله من عند الله، وأنه كله حق، محكمه ومتشابهه، وأن الحق لا يتناقض ولا يختلف.

فلعلمهم أن المحكمات، معناها في

العبادات، وفي حقوق الله تعالى. وكذلك في حقوق الخلق من جهة رفع المأثم، وتوجه الذم.

وأما وجوب ضمان المتلفات، خطأ أو نسياناً، في النفوس والأموال، فإنه مرتبط على الإلتاف بغير حق، وذلك شامل لحالة الخطأ والنسيان، والعمد.

تم تفسير سورة البقرة، والله الحمد والثناء، وصلى الله على محمد وسلم.

تفسير سورة آل عمران وهي مدنية

﴿١﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ آلم * الله لا إله إلا هو الحي القيوم * نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل * من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام * إن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء * هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾ آلم * من الحروف التي لا يعلم معناها إلا الله.

﴿٢﴾ ﴿٣﴾ فأخبر تعالى أنه ﴿الحي﴾ كامل الحياة، ﴿القيوم﴾ القائم بنفسه، المقيم لأحوال خلقه، وقد أقام أحوالهم الدينية، وأحوالهم الدنيوية والقدرية، فأنزل على رسوله محمد ﷺ الكتاب بالحق، الذي لا ريب فيه، وهو مشتمل على الحق ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ من الكتب، أي: شهد بما شهدت به، ووافقها، وصدق من جاء بها من المرسلين.

وكذلك ﴿أنزل التوراة والإنجيل﴾. ﴿٤﴾ ﴿من قبل﴾ هذا الكتاب ﴿هدى للناس﴾.

وأكمل الرسالة وختمها بمحمد ﷺ، وكتابه العظيم الذي هدى الله به الخلق، من الضلالات، واستنقذهم به من الجهالات، وفرق به بين الحق والباطل، والسعادة والشقاوة، والصرط المستقيم، وطرق الجحيم، فالذين آمنوا به واهتدوا، حصل لهم به الخير الكثير، والشواب العاجل والأجل.

﴿إن الذين كفروا بآيات الله﴾ التي بينها في كتابه وعلى لسان رسوله ﴿لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام﴾ ممن عصاه.

الراسخون في العلم، أهل العلم والإيمان، يتوسلون إلى ربهم بإيمانهم، لمغفرة ذنوبهم، ووقايتهم عذاب النار، وهذا من الوسائل التي يحبها الله، أن يتوسل العبد إلى ربه، بما من به عليه من الإيمان والأعمال الصالحة، إلى تكميل نعم الله عليه، بحصول الثواب الكامل، واندفاع العقاب.

﴿١٧﴾ ثم وصفهم بأجمل الصفات: بالصبر الذي هو حبس النفوس على ما يحبه الله، طلباً لمرضاته، يصبرون على طاعة الله، ويصبرون عن معاصيه، ويصبرون على أقداره المؤلمة.

وبالصدق بالأقوال والأحوال، وهو استواء الظاهر والباطن، وصدق العزيمة على سلوك الصراط المستقيم، وبالقنوت الذي هو دوام الطاعة، مع مصاحبة الخشوع والخضوع، وبالنفقات في سبيل الخيرات، وعلى الفقراء، وأهل الحاجات، وبالاستغفار، خصوصاً وقت الأسحار، فإنهم مدوا الصلاة إلى وقت السحر، فجلسوا يستغفرون الله تعالى.

﴿١٨﴾ «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم» هذه أجمل الشهادات الصادرة من الملك العظيم، ومن الملائكة، وأهل العلم، على أجل مشهود عليه، وهو توحيد الله، وقيامه بالقسط، وذلك يتضمن الشهادة على جميع الشرع، وجميع أحكام الجزاء.

فإن الشرع والدين، أصله وقاعدته، توحيد الله وإفراده بالعبودية، والاعتراف بانفراده، بصفات العظمة والكبرياء، والمجد، والعز، والقدرة، والجلال، وينعمون الجود، والبر والرحمة، والإحسان، والجمال، وبكماله المطلق الذي لا يحصي أحد من الخلق، أن يحيطوا بشيء منه، أو يبلغوه، أو يصلوا إلى الشئاء عليه، والعبادات الشرعية، والمعاملات وتوابعها، والأمر والنهي، كله عدل وقسط، لا ظلم فيه ولا جور، بوجه من الوجوه، بل هو في غاية الحكمة والإحكام، والجزاء على الأعمال الصالحة والسئية، كله قسط وعدل.

«قل أي شيء أكبر شهادة؟ قل الله»، فتوحيد الله، ودينه، وجزاؤه، قد ثبت

بحسب الأسباب الحسية - الأمر بالعكس. ﴿١٤ - ١٥﴾ «زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثُ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ * قُلْ أُوْنِشْكُم بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ» أخبر تعالى في هاتين الآيتين، عن حالة الناس في إثارة الدنيا على الآخرة، وبين التفاوت العظيم، والفرق الجسيم بين الدارين، فأخبر أن الناس زُيِّنَتْ لهم هذه الأمور، فرمقوها بالأبصار، واستحلوها بالقلوب، وعكفت على لذاتها النفوس، كل طائفة من الناس تميل إلى نوع من هذه الأنواع، قد جعلوها هي أكبر همهم، ومبلغ علمهم، وهي - مع هذا - متاع قليل، منقضى في مدة يسيرة.

فهذا «متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب».

﴿١٥﴾ ثم أخبر عن ذلك بأن المتقين لله، القائمين بعبوديته، لهم خير من هذه اللذات، فلهم أصناف الخيرات، والنعميم المقيم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ولهم رضوان الله الذي هو أكبر من كل شيء.

ولهم الأزواج المطهرة، من كل آفة ونقص، جميلات الأخلاق، كاملات الخلائق، لأن النفي يستلزم ضده، فتطهيرها من الآفات، مستلزم لوصفها بالكاملات.

«والله بصير بالعباد» فييسر كلاً منهم لما خلق له، أما أهل السعادة، فييسرهم للعمل لهذه الدار الباقية، ويأخذون من هذه الحياة الدنيا، ما يعينهم على عبادة الله وطاعته، وأما أهل الشقاوة والإعراض، فيقيضهم لعمل أهل الشقاوة، ويرضون بالحياة الدنيا، ويطمنون بها، ويتخذونها قراراً.

﴿١٦ - ١٧﴾ «الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَمَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ» أي: هؤلاء

من تمة كلام الراسخين في العلم، وهو يتضمن الإقرار بالبعث والجزاء، واليقين التام، وأن الله لا بد أن يوقع ما وعد به، وذلك يستلزم موجه ومقتضاه، من العمل والاستعداد لذلك اليوم، فإن الإيمان بالبعث والجزاء، أصل صلاح القلوب، وأصل الرغبة في الخير، والرغبة من الشر، للذين هما أساس الخيرات.

﴿١٠ - ١١﴾ «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ * كَذَّابٌ آلُ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ» لما ذكر يوم القيامة، ذكر أن جميع من كفر بالله، وكذب رسول الله، لا بد أن يدخلوا النار ويصلوها، وأن أموالهم وأولادهم، لن تغني عنهم شيئاً من عذاب الله، وأنه سيجري عليهم في الدنيا من الأخذات والعقوبات، ما جرى على فرعون وسائر الأمم المكذبة بآيات الله «فآخذهم الله بذنوبهم» وعجل لهم العقوبات الدنيوية، متصلة بالعقوبات الأخروية.

«والله شديد العقاب»، فإياكم أن تستهينوا بعقابه، فيهنو عليكم الإقامة على الكفر والتكذيب.

﴿١٢ - ١٣﴾ «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَثَسَّ الْمَهَاد * قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ» وهذا خبر ويشى للمؤمنين، وتخريف للكافرين، أنهم لا بد أن يغلبوا في هذه الدنيا، وقد وقع كما أخبر الله، فغلبوا غلبة لم يكن لها مثل ولا نظير.

وجعل الله تعالى ما وقع في «بدر» من آياته الدالة على صدق رسوله، وأنه على الحق، وأعداءه على الباطل، حيث التقت فئتان، فئة المؤمنين لا يبلغون إلا ثلاث مئة وبضعة عشر رجلاً مع قلة عددهم، وفئة الكافرين، يناهزون الألف، مع استعدادهم التام في السلاح وغيره، فأيد الله المؤمنين بنصره، فهزمهم بإذن الله، ففي هذا عبرة لأهل البصائر.

فلولا أن هذا هو الحق الذي إذا قابل الباطل أزهقه واضمحل الباطل لكان -

ثبوتاً لا ريب فيه، وهو أعظم الحقائق وأوضحها، وقد أقام الله على ذلك من البراهين، والأدلة ما لا يمكن إحصاؤه وعده.

وفي هذه الآية فضيلة العلم والعلماء؛ لأن الله خصهم بالذكر، من دون البشر، وقرن شهادتهم بشهادته، وشهادة ملائكته، وجعل شهادتهم من أكبر الأدلة والبراهين على توحيدِهِ ودينه وجزائه، وأنه يجب على المكلفين قبول هذه الشهادة العادلة الصادقة.

وفي ضمن ذلك: تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون، وفي هذا من الفضل والشرف، وعلو المكانة، ما لا يقادر قدره.

﴿١٩﴾ ﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ يخبر تعالى ﴿إن الدين عند الله﴾، أي: الدين الذي لا دين لله سواه، ولا مقبول غيره، هو ﴿الإسلام﴾، وهو الانقياد لله وحده، ظاهراً وباطناً بما شرعه على ألسنة رسله، قال تعالى: ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه، وهو في الآخرة من الخاسرين﴾، فمن دان بغير دين الإسلام، فهو لم يدين الله حقيقة، لأنه لم يسلك الطريق الذي شرعه على ألسنة رسله.

ثم أخبر تعالى، أن أهل الكتاب يعلمون ذلك، وإنما اختلفوا، فاتحرفوا عنه عناداً وبغياً، وإلا فقد جاءهم العلم المقتضي لعدم الاختلاف، الموجب للزوم الدين الحقيقي.

ثم لما جاءهم محمد ﷺ عرفوه حق المعرفة، ولكن الحسد والبغي والكفر بآيات الله، هي التي صدتهم عن اتباع الحق.

﴿ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾، أي: فلينتظروا ذلك فإنه آت، وسيجزئهم الله بما كانوا يعملون.

﴿٢٠﴾ ﴿فإن حآجوك فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد﴾ لما بين أن الدين الحقيقي عنده الإسلام، وكان أهل الكتاب قد

شافهوا النبي ﷺ بالمجادلة، وقامت عليهم الحجة، فعاندوها، أمره الله تعالى عند ذلك، أن يقول ويعلمن: أنه قد أسلم وجهه، أي: ظاهره وباطنه، لله، وأن من اتبعه كذلك، قد وافقوه على هذا الإذعان الخالص.

وأن يقول للناس كلهم، من أهل الكتاب، والأمين، أي: الذين ليس لهم كتاب، من العرب وغيرهم: إن أسلمتم فأنتم على الطريق المستقيم، والهدى والحق، وإن توليتم فحسابكم على الله، وأنا ليس علي إلا البلاغ، وقد أبلفتكم وأقمت عليكم الحجة.

﴿٢١ - ٢٢﴾ ﴿إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فيشرهم بعذاب الأليم * أولئك الذين حبست أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾ أي الذين جمعوا بين هذه الشرور: الكفر بآيات الله، وتكذيب رسل الله، والجنابة العظيمة على أعظم الخلق حقاً على الخلق وهم الرسل، وأئمة الهدى، الذين يأمرون الناس بالقسط، الذي اتفقت عليه الأديان والعقول.

﴿٢٣﴾ ﴿ف هؤلاء قد حبست أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾، واستحقوا العذاب الأليم، وليس لهم ناصر من عذاب الله، ولا منقذ من عقوبته.

﴿٢٤ - ٢٥﴾ ﴿ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معروضون * ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون * فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾ أي: ألا تنظر وتعجب من هؤلاء ﴿الذين أوتوا نصيباً من الكتاب﴾، و ﴿يدعون إلى كتاب الله﴾ الذي يصدق ما أنزله على رسله.

﴿ثم يتولى فريق منهم وهم معروضون﴾ عن اتباع الحق، فكأنه قيل: أي داع دعاهم إلى هذا الإعراض، وهم أحق بالاتباع، وأعرفهم بحقيقة ما جاء به محمد ﷺ؟ فذكر لذلك سببين:

أمنهم، وشهادتهم الباطلة لأنفسهم بالنجاة، وأن النار لا تمسهم إلا أياماً

معدودة حددوها بحسب أمواتهم الفاسدة، كأن تدبير الملك راجع إليهم، حيث قالوا: ﴿لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى﴾، ومن المعلوم أن هذه أمانى باطلة، شرعاً وعقلاً.

والسبب الثاني: أنهم لما كذبوا بآيات الله وافتروا عليه، زين لهم الشيطان سوء عملهم، واغترتوا بذلك، وتراءى لهم أنه الحق، عقوبة لهم على إعراضهم عن الحق، فهؤلاء كيف يكون حالهم - إذا جمعهم الله يوم القيامة، ووفى العاملين ما عملوا، وجرى عدل الله في عباده، فهناك لا تسأل عما يصلون إليه من العقاب، وما يفوتهم من الخير والثواب، وذلك بما كسبت أيديهم: ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾.

﴿٢٦ - ٢٧﴾ ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي وترزق من تشاء بغير حساب﴾ يأمر تعالى نبيه ﷺ أصلاً، وغيره تبعاً - أن يقول عن ربه، معلناً بفرده بتصريف الأمور، وتدبير العالم العلوي والسفلي، واستحقاقه باختصاصه بالملك المطلق، والتصريف المحكم، وأنه يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء.

فليس الأمر بأماني أهل الكتاب، ولا غيرهم، بل الأمر أمر الله، والتدبير له، فليس له معارض في تدبيره، ولا معاون في تقديره، وأنه كما أنه المتصرف بمدولة الأيام بين الناس، فهو المتصرف بنفس الزمان.

﴿٢٨﴾ ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾ أي: يدخل هذا على هذا، ويحل هذا محل هذا، ويزيد في هذا، ما ينقص من هذا، ليقيم بذلك مصالح خلقه.

ويخرج الحي من الميت، كما يخرج الزروع والأشجار المتنوعة من بذورها، والمؤمن من الكافر، والميت من الحي.

كما يخرج الجيوب والنوى، والزروع والأشجار، والبيضة من الطائر، فهو الذي

يخرج المتضادات، بعضها من بعض، وقد انقادت له جميع العناصر^(١).

وقوله ﴿بيدك الخير﴾، أي: الخير كله منك، ولا يأتي بالحسنات والخيرات إلا الله، وأما الشر، فإنه لا يضاف إلى الله تعالى، لا وصفاً، ولا اسماً، ولا فعلاً، ولكنه يدخل في مفعولاته، ويندرج في قضائه وقدره.

فالخير والشر، كله داخل في القضاء والقدر، فلا يقع في ملكه إلا ما شاء، ولكن الشر لا يضاف إلى الله، فلا يقال: ﴿بيدك الخير والشر﴾، بل يقال: ﴿بيدك الخير﴾ كما قاله الله، وقاله رسوله.

وأما استدراك بعض المفسرين حيث قال: «وكذلك الشر بيد الله» فإنه وهم محض، ملحظهم، حيث ظنوا أن تخصيص الخير بالذكر، ينافي قضاءه وقدره العام، وجوابه ما فصلنا.

وقوله: ﴿وترزق من تشاء بخير حساب﴾، وقد ذكر الله في غير هذه الآية الأسباب التي يُنال بها رزقه كقوله: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾.

فعلى العباد أن لا يطلبوا الرزق، إلا من الله، ويسعوا فيه بالأسباب التي يسرها الله وأباحها.

﴿٢٨﴾ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير هذا نهي من الله، وتحذير للمؤمنين، أن يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فإن المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والله وليهم.

﴿ومن يفعل ذلك﴾ التولي، ﴿فليس من الله في شيء﴾، أي: فهو بريء من الله، والله بريء منه، كقوله تعالى: ﴿ومن يتولهم منهم فإنه منهم﴾.

وقوله: ﴿إلا أن تتقوا منهم تقاة﴾، أي: إلا أن تخافوا على أنفسكم في إبداء العداوة للكافرين، فلكم - في هذه الحال - الرخصة في المسالمة والمهادنة، لا في التولي الذي هو محبة القلب، الذي

تتبعه النصرة.

﴿ويحذركم الله نفسه﴾، أي: فخافوه واخشوه، وقدموا خشيته على خشية الناس، فإنه هو الذي يتولى شؤون العباد، وقد أخذ بنواصيهم، وإليه يرجعون وسيصيرون إليه، فيجازي من قدم خوفه ورجاه، على غيره بالشواب الجزيل، ويعاقب الكافرين، ومن تولاهم بالعذاب الويل.

﴿٢٩ - ٣٠﴾ ﴿قل إن تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما في السموات وما في الأرض والله على كل شيء قدير﴾ يرم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد﴾ يخبر تعالى بإحاطة علمه بما في الصدور، سواء أخفاه العباد، أو أبدوه، كما أن علمه محيط بكل شيء، في السماء والأرض، فلا تخفى عليه خافية.

ومع إحاطة علمه، فهو العظيم القدير على كل شيء، الذي لا يمتنع عن إرادته موجود.

﴿٣٠﴾ ولما ذكر لهم من عظمتهم وسعة أوصافهم، ما يوجب للعباد أن يراقبوه في كل أحوالهم، ذكر لهم أيضاً، داعياً آخر إلى مراقبته وتقواه، وهو أنهم كلهم صائرون إليه، وأعمالهم - حيثنذ، من خير وشر - محضرة.

فحينئذ يفتبط أهل الخير، بما قدموا لأنفسهم، ويتحسر أهل الشر إذا وجدوا ما عملوه محضراً ويودون أن بينهم وبينه أمداً بعيداً.

فلذا عرف العبد أنه ساع إلى ربه، وكادح في هذه الحياة، وأنه لا بد أن يلاقي ربه، ويلاقي سعيه، أوجب له أخذ الحذر، والتوقي من الأعمال التي توجب الفضيحة والعقوبة، والاستعداد بالأعمال الصالحة، التي توجب السعادة والمثوبة، ولهذا قال تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، وذلك بما يبدي لكم من أوصاف عظمتهم، وكمال عدله وشدة نكاله، ومع شدة عقابه، فإنه رؤوف رحيم.

ومن رآفته ورحمته، أنه خوف العباد،

وزجرهم عن الغي والفساد، كما قال تعالى - لما ذكر العقوبات -: ﴿ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون﴾، فرآفته ورحمته، سهّلت لهم الطرق، التي ينالون بها الخيرات، ورآفته ورحمته، حذرتهم من الطرق التي تفضي بهم إلى المكروهات.

فنسأله تعالى أن يتمم علينا إحسانه بسلوك الصراط المستقيم، والسلامة من الطرق، التي تفضي بسالكها إلى الجحيم.

﴿٣١ - ٣٢﴾ ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين﴾ هذه الآية هي الميزان، التي يعرف بها من أحب الله حقيقة، ومن ادعى ذلك دعوى مجردة، فعلاية محبة الله، اتباع محمد ﷺ، الذي جعل متابعتها وجميع ما يدعو إليه، طريقاً إلى محبته ورضوانه، فلا تنال محبة الله ورضوانه وثوابه، إلا بتصديق ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة وامثال أمرهما، واجتناب نهيهما.

فمن فعل ذلك، أحبه الله، وجازاه جزاء المحبين، وغفر له ذنوبه، وستر عليه عيوبه، فكانه قيل: ومع ذلك، فما حقيقة اتباع الرسول وصفتهما؟

﴿٣٢﴾ فأجاب بقوله: ﴿قل أطيعوا الله والرسول﴾ بامثال الأمر، واجتناب النهي، وتصديق الخبر، ﴿فإن تولوا﴾ عن ذلك، فهذا هو الكفر، والله لا يحب الكافرين.

﴿٣٣ - ٣٤﴾ ﴿إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم﴾ إلى آخر القصة.

الله تعالى من عباده أصفاء، يصطفاهم ويختارهم، ويمن عليهم بالفضائل العالية، والنعمت السامية، والعلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والخصائص المتنوعة، فذكر هذه البيوت الكبار، وما احتوت عليه من كمال الرجال، الذين حازوا أوصاف الكمال، وأن الفضل والخير، تسلسل في ذرائعهم وشمل ذكورهم ونساءهم، وهذا

من أجل منته وأفضل مواقع جوده وكرمه .

«والله سميع عليم» يعلم من يستحق الفضل والتفضيل، فيضع فضله حيث اقتضت حكمته .

﴿٣٤ - ٣٦﴾ فلما قرر عظمة هذه البيوت، ذكر قصة مريم وابنها عيسى ﷺ، وكيف تسلسلا من هذه البيوت الفاضلة، وكيف تنقلت بهما الأحوال، من ابتداء أمرهما إلى آخره، وأن امرأة عمران، قالت - متضرعة إلى ربها، متقرية إليه بهذه القرية التي يحبها، التي فيها تعظيم بيته وملازمة طاعته :- «إني نذرت لك ما في بطني محرراً»، أي : خادماً لبيت العبادة، المشحون بالمعتبين .

﴿فتقبل مني﴾ هذا العمل، أي : اجعله مؤسساً على الإيمان والإخلاص، مثمراً للخير والشواب، «إني أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى» .

كان في هذا الكلام، نوع تضرع منها، وانكسار نفس حيث كان نذرنا بناء على أنه يكون ذكراً، يحصل منه من القوة والخدمة والقيام بذلك، ما يحصل من أهل القوة، والأنثى بخلاف ذلك، فجبر الله قلبها، وتقبل الله نذرنا، وصارت هذه الأنثى، أكمل وأتم من كثير من الذكور، بل من أكثرهم، وحصل بها من المقاصد، أعظم مما يحصل بالذكر، ولهذا قال :

﴿فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً﴾، أي : ربيت تربية عجيبة، دينية، أخلاقية، أدبية، كملت بها أحوالها، وصلحت بها أقوالها وأفعالها، ونما فيها كمالها، ويسر الله لها زكريا كافلاً .

وهذا من منة الله على العبد، أن يجعل من يتولى تربيته من الكاملين المصلحين .

﴿٣٧ - ٣٩﴾ ثم إن الله تعالى أكرم مريم وزكريا، حيث يسر لمريم من الرزق الحاصل بلا كد ولا تعب، وإنما هو كرامة أكرمها الله به .

إذ «كلما دخل عليها زكريا المحراب» وهو محل العبادة، وفيه إشارة إلى كثرة صلاتها وملازمتها لمحرابها، «وجد عندها رزقاً»، هنيئاً معداً .

﴿قال يا مريم أنى لك هذا؟﴾ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير

حساب» .

فلما رأى زكريا هذه الحال، والبر واللفظ من الله بها، ذكره أن يسأل الله تعالى حصول الولد، على حين اليأس منه، فقال : «رب هب لي من ذلك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء * فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يشرك بيبحى مصداقاً بكلمة من الله»، اسمه أي : الكلمة التي من الله «عيسى ابن مريم» .

فكانت بشارته بهذا النبي الكريم، تتضمن البشارة بـ «عيسى» ابن مريم، والتصديق له، والشهادة له بالرسالة .

فهذه الكلمة من الله، كلمة شريفة، اختص الله بها عيسى ابن مريم، وإلا فهي من جملة كلماته التي أوجد بها المخلوقات، كما قال تعالى : «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب، ثم قال له كن فيكون» .

وقوله : «وسيداً وحسوراً»، أي : هذا المبشر به وهو يحيى، سيد من فضلاء الرسل وكرامهم : «والحضور»، قيل : هو الذي لا يولد له، ولا شهوة له في النساء، وقيل : هو الذي عصم وحفظ من الذنوب والشهوات الضارة، وهذا أليق المعنيين .

﴿ونبياً من الصالحين﴾، الذين بلغوا في الصلاح ذروته العالية .

﴿٤٠﴾ «قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر؟!»، فهذا مانعان، فمن أي طريق - يا رب - يحصل لي ذلك، مع ما ينافي ذلك؟!

﴿قال كذلك الله يفعل ما يشاء﴾، فإنه - كما اقتضت حكمته جريان الأمور بأسبابها المعروفة، فإنه قد يخرق ذلك، لأنه الفعال لما يريد، الذي قد انقادت الأسباب لقدرته، ونفذت فيها مشيئته وإرادته، فلا يتعاصى على قدرته شيء من الأسباب، ولو بلغت في القوة، ما بلغت .

﴿٤١﴾ «قال رب اجعل لي آية» ليحصل السرور والاستبشار، وإن كنت - يا رب - متيقناً ما أخبرتني به، ولكن النفس تفرح، ويطمئن القلب إلى مقدمات الرحمة واللفظ .

﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾، «و» في هذه المدة «اذكر ربك كثيراً وسبح بالعشي والإبكار»، أول النهار

وآخره، فمنع من الكلام في هذه المدة، فكان في هذا، مناسبة لحصول الولد من بين الشيخ الكبير، والمرأة العاقر .

وكونه لا يقدر على مخاطبة الآدميين، وللسنة منطلق بذكر الله، وتسبيحه، آية أخرى .

فحينئذ حصل له الفرح والاستبشار، وشكر الله، وأكثر من الذكر والتسبيح بالعشايا والأبكار .

وكان هذا المولود من بركات مريم بنت عمران، على زكريا، فإن ما من الله به عليها، من ذلك الرزق الهنيئ، الذي يحصل بغير حساب، ذكره وهيجه على التضرع والسؤال، والله تعالى هو المتفضل بالسبب والمسبب، ولكنه يقدر أموراً محبوبة على يد من يحبه، ليرفع الله قدره، ويعظم أجره .

﴿٤٢﴾ ثم عاد تعالى إلى ذكر مريم، وأنها بلغت في العبادة والكمال، مبلغاً عظيماً، فقال تعالى : «وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك»، أي : اختارك، ووهب لك من الصفات الجلية، والأخلاق الجميلة .

﴿وطهرتك﴾ من الأخلاق الرذيلة، «واصففاك على نساء العالمين»، ولهذا قال ﷺ : «كملت من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء، كفضل الثريد على سائر الطعام» .

﴿٤٣﴾ فنادتها الملائكة عن أمر الله لها بذلك، لتغتبط بنعم الله، وتشكر الله، وتقوم بحقوقه، وتشتغل بخدمته، ولهذا قالت الملائكة : «يا مريم اقنتي لربك»، أي : أكثري من الطاعة، والخضوع والخشوع لربك، وأديمي ذلك «واسجدي واركعي مع الراكعين»، أي : صلي مع المصلين، فقامت بكل ما أمرت به، وبرزت، وفاقته في كمالها .

ولما كانت هذه القصة وغيرها من أكبر الأدلة على رسالة محمد ﷺ، حيث أخبر بها مفصلة محققة، لا زيادة فيها ولا نقص، وما ذاك إلا لأنه وحي من الله العزيز الحكيم، لا يتعلم من الناس - قال تعالى :- «ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم»، حيث جاءت بها أمها،

ويعطيه النبوة.

والنصرة لرسوله.

﴿٥٣﴾ «ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول»، وهذا التزام تام للإيمان، بكل ما أنزل الله، ولطاعة رسوله.

﴿فاتكتبنا مع الشاهدين﴾ لك بالوحدانية، ولتنيك بالرسالة، ولدينك بالحق والصدق.

﴿٥٤﴾ «وأما من أحس عيسى منهم الكفر وهم جمهور بني إسرائيل، فإنهم ﴿مكروا﴾ بعيسى ﴿ومكر الله﴾ بهم، ﴿والله خير الماكرين﴾، فاتفقوا على قتله وصلبه، وشبه لهم شبه عيسى.

﴿٥٥﴾ «فقبضوا على من شبه لهم به، وقال الله لعيسى: ﴿إني متوفيك ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا﴾، فرفعه الله إليه، وطهره من الذين كفروا، وصلبوا من قتلوه، طائنين أنه عيسى، وباؤوا بالإثم العظيم.

وسينزل عيسى ابن مريم، في آخر هذه الأمة حكماً عادلاً، يقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويتبع ما جاء به محمد ﷺ، ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم، وأنهم مفرورون مخدوعون.

وقوله: ﴿وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة﴾، المراد بمن اتبعه: الطائفة التي آمنت به، ونصرهم الله على من انحرف عن دينه.

ثم لما جاءت أمة محمد ﷺ، فكانوا هم أتباعه حقاً، فأيدهم الله ونصرهم على الكفار كلهم، وأظهرهم بالدين الذي جاءهم به محمد ﷺ: «وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض»، الآية.

ولكن حكمة الله عادلة، فإنها اقتضت أن من تمسك بالدين، نصره الله النصر السمين، وأن من ترك أمره ونهيه، ونبذ شرعه، وتجأ على معاصيه، إنه يعاقبه ويسلط عليه الأعداء، ﴿والله عزيز حكيم﴾.

وقوله: ﴿ثم إلي مرجعكم، فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون﴾.

﴿٥٦-٥٧﴾ «فقد بين ما يفعله بهم، فقال: ﴿فأما الذين كفروا فأعذبهم عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين﴾ أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ولا يحب

﴿٤٩﴾ «و﴾ يجعله رسولاً إلى بني إسرائيل»، ويؤيده بالآيات البينات، والأدلة القاهرة حيث قال: «إني قد جئتكم بآية من ربكم» تدللكم أنني رسول الله حقاً.

وذلك «إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله، وأبرء الأكمه»، وهو ممسوح العينين، الذي فقد بصره وعينه، «والأبرص، وأحيي الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم إن في ذلك ﴿المذكور﴾ لآية لكم إن كنتم مؤمنين. ومصداقاً لما بين يدي من التوراة»، فأيدته الله بجنسين من الآيات والبراهين الخوارق المستغربة التي لا يمكن لغير الأنبياء الإتيان بها، والرسالة والدعوة، والدين الذي جاء به، وأنه بين التوراة، ودين الأنبياء السابقين، وهذا أكبر الأدلة على صدق الصادقين.

فإنه لو كان من الكاذبين، لخالف ما جاءت به الرسل، ولناقضهم في أصولهم وفروعهم، فعلم بذلك أنه رسول الله، وأن ما جاء به حق لا ريب فيه.

وأيضاً فقوله: ﴿ولاحل لكم بعض الذي حرم عليكم﴾، أي: ولاخفف عنكم بعض الأصار، والأغلال.

﴿٥١﴾ «فاتقوا الله وأطيعون * إن الله ربي وربكم فاعبدوه»، وهذا ما يدعو إليه جميع الرسل، عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعتهم.

وهذا هو الصراط المستقيم الذي من يسلكه أوصله إلى جنات النعيم، فحينئذ اختلفت أحزاب بني إسرائيل في عيسى، فمنهم من آمن به واتبعه، ومنهم من كفر به وكذبه، ورمى أمه بالفاحشة كاليهود.

﴿٥٢﴾ «فلما أحس عيسى منهم الكفر، والاتفاق على رد دعوته، ﴿قال﴾: نادياً لبني إسرائيل على مؤازرته ﴿من أنصاري إلى الله، قال الحواريون﴾، أي: الأنصار.

«نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد أنا مسلمون»، وهذا من مئة الله عليهم، وعلى عيسى، حيث ألهم هؤلاء الحواريين، الإيمان به، والانقياد لطاعته،

فاختصموا أيهم يكفلها، لأنها بنت إمامهم ومقدمهم، وكلهم يريد الخير والأجر من الله، حتى وصلت بهم الخصومة إلى أن اقرعوا عليها، فالتقوا أعلامهم مقترعين، فأصاب القرعة زكريا، رحمة من الله به وبها.

فأنت - يا أيها الرسول - لم تحضر تلك الحالة لتعرفها، فتقصها على الناس، وإنما الله نباك بها، وهذا هو المقصود الأعظم من سياق القصص أنه يحصل بها العبرة، وأعظم العبر، الاستدلال بها على التوحيد والرسالة، والبعث وغيرها من الأصول الكبار.

﴿٤٥﴾ «إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين»، أي: له الوجهة، والجاه العظيم في الدنيا والآخرة عند الخلق.

ومع ذلك فهو - عند الله - من المقربين، الذين هم أقرب الخلائق إلى الله، وأعلام درجة، وهذه إشارة لا يشبهها شيء من البشارات.

ومن تمام هذه البشارة أنه: «يكلم الناس في المهد»، فيكون تكليمه آية من آيات الله، ورحمة منه بأمه وبالخلق، ﴿ر﴾ كذلك يكلمهم ﴿كهلاً﴾، أي: في حال كهولة، وهذا تكليم النبوة والدعوة والإرشاد.

فكلامه في المهد، فيه آيات وبراهين على صدقه ونبوته، وبراهنة أمه مما يظن بها من الظنون السيئة، وكلامه في كهولته، فيه نفعه العظيم للخلق، وكونه واسطة بينهم وبين ربهم، في وحيه، وتبليغ دينه وشرعه.

ومع ذلك فهو «من الصالحين» الذين أصلح الله قلوبهم بمعرفته وحيه، وألستهم بالشقاء عليه وذكره، وجوارحهم بطاعته وخدمته.

﴿٤٧﴾ «قالت رب أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر»، وهذا من الأمور المستغربة «قال كذلك الله يخلق ما يشاء» يعلم العباد أنه على كل شيء قدير، وأنه لا ممانع لإرادته.

«إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون * ويعلمه الكتاب»، أي: جنس الكتب السابقة، والحكم بين الناس،

الظالمين».

اتضح لهم الحق، ولكن العناد والتعصب متعامم منه.

وهذا الجزء عام لكل من اتصف بهذه الأوصاف، من جميع أهل الأديان السابقة. ثم لما بعث سيد المرسلين، وخاتم النبيين، ونسخ رسالته، الرسالات كلها، ونسخ دينه، جميع الأديان، صار المتمسك بغير هذا الدين، من الهالكين.

﴿٥٨﴾ وقلوه تعالى: ﴿ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم﴾. أي: هذا القرآن العظيم، الذي فيه نبأ الأولين والآخرين، والأنبياء والمرسلين - هو آيات الله البينات، وهو الذي يذكر العباد كل ما يحتاجونه، وهو الحكيم المحكم، صادق الأخبار، حسن الأحكام.

﴿٥٩-٦٢﴾ ﴿إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾. الحق من ربك فلا تكن من الممتريين * فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا ونفسكم ثم نبهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين * إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم﴾. لما ذكر قصة مريم وعيسى ونباهما الحق، وأنه عبد أنعم الله عليه، وأن من زعم أن فيه شيئاً من الإلهية، فقد كذب على الله، وكذب جميع أنبيائه، وكذب عيسى ﷺ، فإنه الشبهة التي عرضت لمن اتخذه إلهاً، شبهة باطلة، فلو كان لها وجه صحيح، لكان آدم أحق منه، فإن خلق من دون أم ولا أب، ومع ذلك، فاتفق البشر كلهم، على أنه عبد من عباد الله، فدعوى إلهية عيسى، بكونه خلق من أم بلا أب، دعوى من أبطل الدعاوى.

﴿٦٠﴾ وهذا هو الحق الذي لا ريب فيه، أن عيسى - كما قال عن نفسه: ﴿ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن عبدوا الله ربي وربكم﴾، وكان قد قدم على النبي ﷺ وقد نصارى نجران، وقد تصلبوا على باطلهم، بعدما أقام عليهم النبي ﷺ البراهين بأن عيسى عبد الله ورسوله، حيث زعموا إلهيته.

﴿٦١﴾ فوصلت به وبهم الحال، إلى أن أمره الله تعالى أن يباهلهم، فإنه قد

فدعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة، بأن يحضر هو وأهله وأبناؤه، وهم يحضرون بأهلهم وأبنائهم، ثم يدعون الله تعالى، أن ينزل عقوبته ولعنته على الكاذبين، فتشاوروا هل يجيبونه إلى ذلك؟

فاتفق رأيهم أن لا يجيبوه، لأنهم عرفوا أنه نبي الله حقاً، وأنهم - إن باهلوهم - هلكوا، هم وأولادهم وأهلهم، فصالحوه وبذلوا له الجزية، وطلبوا منه المودة والمهادنة.

فأجابهم ﷺ ولم يخرجهم، لأنه حصل المقصود من وضوح الحق، وتبين عنادهم حيث صمموا على الامتناع عن المباهلة، وذلك يبرهن على أنهم كانوا ظالمين.

﴿٦٢﴾ ولهذا قال تعالى: ﴿إن هذا لهو القصص الحق﴾، أي: الذي لا ريب فيه، ﴿وإن الله لهو العزيز﴾، الذي قهر بقدرته وقوته جميع الموجودات، وأذعنت له سكان الأرض والسموات.

ومع ذلك فهو ﴿الحكيم﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها^(١).

﴿٦٤﴾ ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾. هذه الآية الكريمة، كان النبي ﷺ يكتب بها إلى ملوك أهل الكتاب، وكان يقرأ أحياناً في الركعة الأولى من سنة الفجر: ﴿قولوا آمنا بالله﴾، الآية.

ويقرأ بها في الركعة الآخرة من سنة الصبح، لاشتمالها على الدعوة إلى دين واحد، قد اتفق عليه الأنبياء والمرسلون، واحتوت على توحيد الإلهية المبني على عبادة الله وحده، لا شريك له، وأن يعتقد أن البشر وجميع الخلق كلهم في طور البشرية، لا يستحق منهم أحد شيئاً من خصائص الربوبية، ولا من نعوت الإلهية.

فإن انقاد أهل الكتاب وغيرهم إلى هذا فقد اهتدوا.

و ﴿إن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا

﴿٦٥-٦٨﴾ ﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون﴾. ما أنتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين﴾. كانت الأديان كلها، اليهود والنصارى، والمشركون، وكذلك المسلمون كلهم، يدعون أنهم على ملة إبراهيم.

فأخبر الله تعالى أن أولى الناس به، محمد ﷺ وأتباعه، وأتباع الخليل، قبل محمد ﷺ.

وأما اليهود والنصارى، والمشركون فإبراهيم بريء منهم، ومن ولايتهم، لأن دينه، الحنيفية السمحة، التي فيها الإيمان بجميع الرسل، وجميع الكتب، وهذه خصيصة المسلمين.

وأما دعوى اليهود والنصارى، أنهم على ملة إبراهيم، فقد علم أن اليهودية والنصرانية، التي هم يدعون أنهم عليها، لم تؤسس إلا بعد الخليل.

فكيف يحاجون في هذا الأمر، الذي يعلم به كذبهم وافتراءهم؟! فنبه أنهم حاجوا فيما لهم به علم، فكيف يحاجون في هذه الحالة؟ فهذا قبل أن ينظر ما احتوى عليه قولهم من البطلان، يعلم فساد دعواهم.

وفي هذه الآية دليل على أنه لا يحل للإنسان أن يقول أو يجادل فيما لا علم له به.

وقوله: ﴿والله ولي المؤمنين﴾، فكلما قوي إيمان العبد، تولاه الله بلفظه، ويسره لليسرى، وجنبه العسرى.

﴿٦٩-٧٤﴾ ﴿ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون﴾ * يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون * يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل

ذلك، ويصرحون بالكذب على الله، وهم يعلمون حالهم وسوء مغيبهم.

﴿٧٩-٨٠﴾ «ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون» ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ﴿أي: يمنع ويستحيل كل الاستحالة لبشر من الله عليه بالوحي والكتاب والنبوة، وأعطاه الحكم الشرعي - أن يأمر الناس بعبادته، ولا بعبادة النبيين والملائكة واتخاذهم أرباباً، لأن هذا هو الكفر، فكيف، وقد بعث بالإسلام المنافي للكفر من كل وجه، فكيف يأمر بضده؟!﴾

هذا من الممتنع، لأن حاله وما هو عليه، وما من الله به عليه من الفضائل والخصائص، تقتضي العبودية الكاملة، والخضوع التام لله الواحد القهار.

وهذا جواب لوفد نجران، حين تبادى بهم الغرور، ووصلت بهم الحال والكبر، أن قالوا: أتأمرنا يا محمد - أن نعبدك؟ حين أمرهم بعبادة الله وطاعته، فينب البارئ انتفاء ما قالوا، وأن كلامهم وكلام أمثالهم في هذا ظاهر البطلان.

﴿٨١-٨٢﴾ «وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين» فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴿هذا إخبار منه تعالى أنه أخذ عهد النبيين وميثاقهم كلهم، بسبب ما أعطاهم ومن به عليهم، من الكتاب والحكمة، المقنن للقيام التام، بحق الله وتوفيقه، أنه إن جاءهم رسول مصدق لما معهم، بعث بما بعثوا به من التوحيد والحق والقسط والأصول التي اتفقت عليها الشرائع، أنهم يؤمنون به، وينصرونه.

فأقروا على ذلك، واعترفوا، والتزموا وأشهدهم، وشهد عليهم، وتوعد من خالف هذا الميثاق.

وهذا أمر عام بين الأنبياء أن جميعهم طريقهم واحد، وأن دعوة كل واحد منهم، قد اتفقا وتماهدوا عليها، وعموم ذلك أنه أخذ على جميعهم الميثاق، بالإيمان،

الكثير، يؤده إليك، ومنهم طائفة خونة، يخونك في أقل القليل، ومع هذه الخيانة الشنيعة، فإنهم يتأولون بالأعداء الباطلة فيقولون: ﴿ليس علينا في الأميين سبيل﴾، أي: ليس علينا جناح إذا خانهم واستبحنا أموالهم، لأنهم لا حرمة لهم.

قال تعالى: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أن عليهم أشد الحرج، فجمعوا بين الخيانة وبين احتقار العرب، وبين الكذب على الله، وهم يعلمون ذلك، ليسوا كمن فعل ذلك جهلاً وضلالاً.

ثم قال تعالى: ﴿بلى﴾، أي: ليس الأمر كما قالوا.

فإنه ﴿من أوفى بعهده واتقى﴾، أي: قام بحقوق الله، وحقوق خلقه، فإن هذا هو المتقي، والله يحبه.

أي: ومن كان بخلاف ذلك، فلم يف بعهده وعقوده، التي بينه وبين الخلق، ولا قام بتقوى الله، فإن الله يمتقه، وسيجازه على ذلك أعظم النكال.

﴿٧٧﴾ «إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لا خلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم» أي: إن الذين يشترون الدنيا بالدين، فيختارون الحطام القليل من الدنيا، ويتوسلون إليها بالإيمان الكاذبة، واليهود المنكوة، فهؤلاء ﴿لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾، أي: قد حق عليهم سخط الله، ووجب عليهم عقابه، وحرموا ثوابه، ومنعوا من التزكية، وهي التطهير.

بل يردون القيامة، وهم مشلوثون بالجرائم، متدنسون بالذنوب العظام.

﴿٧٨﴾ «وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ أي: وإن من أهل الكتاب فريقاً هم محرفون لكتاب الله، يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب، وهذا يشمل التحريف اللفظي، والتحريف المعنوي.

ثم هم - مع هذا التحريف الشنيع - يوهمون أنه من الكتاب، وهم كذبة في

وتكتمنون الحق وأنتم تعلمون * وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النار واكفروا آخره لعلمهم يرجعون * ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يوتي أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴿هذا من منة الله على هذه الأمة، حيث أخبرهم بمكر أعدائهم من أهل الكتاب، وأنهم - من حرصهم على إضلال المؤمنين - ينوعون المكرات الخبيثة.

فكانت طائفة منهم: ﴿آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار﴾، أي: أوله، وارجعوا عن دينهم آخر النهار، فإنهم - إذا رأوكم راجعين، وهم يعتقدون فيكم العلم استرابوا بدينهم، وقالوا: لولا أنهم رأوا فيه ما لا يعجبهم، ولا يوافق الكتب السابقة، لم يرجعوا.

هذا مكرهم، والله تعالى هو الذي يهدي من يشاء، وهو الذي بيده الفضل، يختص به من يشاء، فخصكم - يا هذه الأمة - بما لم يخص به غيركم.

ولم يدر هؤلاء الماكرون أن دين الله حق، وإذا وصلت حقيقته إلى القلوب، لم يزد صاحب - على طول المدى - إلا إيماناً و يقيناً.

ولم تزد الشبهة، إلا تمسكاً بدينه، وحمداً لله، وثناء عليه حيث من به عليه. وقولهم: ﴿أن يوتي أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم﴾، يعني: أن الذي حملهم على هذه الأعمال المنكرة، الحسد والبغى، وخشية الاحتجاج عليهم.

كما قال تعالى: ﴿وذكر كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق﴾، الآية.

﴿٧٥-٧٦﴾ «ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون * بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين﴾ يخبر تعالى عن أهل الكتاب، أن منهم طائفة أمناء، بحيث لو أمته على قناطير من القود، وهي المال

والنصرة لمحمد ﷺ.

فمن ادعى أنه من أتباعهم، فهذا دينهم الذي أخذته الله عليهم، وأقروا به واعترفوا.

فمن تولى عن اتباع محمد، ممن يزعم أنه من أتباعهم، فإنه فاسق خارج عن طاعة الله، مكذب للرسول الذي يزعم أنه من أتباعه، مخالف لطريقه.

وفي هذا إقامة الحجة والبرهان، على كل من لم يؤمن بمحمد ﷺ من أهل الكتب والأديان، وأنه لا يمكنهم الإيمان برسولهم، الذين يزعمون أنهم أتباعهم، حتى يؤمنوا بإمامهم وخاتمهم ﷺ.

﴿٨٣- ٨٥﴾ «أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون * قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين» قد تقدم في سورة البقرة أن هذه الأصول التي هي أصول الإيمان التي أمر الله بها هذه الأمة، قد اتفقت عليها الكتب والرسول، وأنها هي الفرض الموجه لكل أحد، وأنها هي الدين والإسلام الحقيقي، وأن من ابتنى غيرها، فعمله مردود، وليس له دين يعول عليه.

فمن زهد عنه، ورغب عنه، فأين يذهب؟ إلى عبادة الأشجار والأحجار والنيران؟ أو إلى اتخاذ الأحبار والربان والصلبيان، أو إلى التعطيل لرب العالمين؟ أو إلى الأديان الباطلة، التي هي من وحي الشياطين؟ وهؤلاء كلهم - في الآخرة - من الخاسرين.

﴿٨٦- ٩١﴾ «كيف يهدي الله قوماً كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين * أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين * خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون * إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحو فإن الله غفور رحيم * إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون * إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به

أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين» يعني: أنه يبعد كل البعد، أن يهدي الله قوماً عرفوا الإيمان، ودخلوا فيه، وشهدوا أن الرسول حق، ثم ارتدوا على أعقابهم، ناكسين ناكثين؛ لأنهم عرفوا الحق فرفضوه.

ولأن من هذه الحالة وصفه، فإن الله يعاقبه بالانتكاس، وانقلاب القلب جزاء له، إذ عرف الحق فتركه، والباطل فأثره، فؤلاه الله ما تولى لنفسه.

فهؤلاء «عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» خالدين في اللعنة والعذاب «لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون» إذا جاءهم أمر الله لأن الله، عمرهم ما يتذكر فيه من تذكر، وجاءهم النذير.

ثم إنه تعالى استثنى من هذا الوعيد، التائبين من كفرهم وذنوبهم، المصلحين لعيوبهم، فإن الله يغفر لهم ما قدموه، ويعفو عنهم ما أسلفوه.

﴿٩١﴾ «ولكن من كفر وأصر على كفره، ولم يزد إلا كفراً حتى مات على كفره، فهؤلاء هم الضالون عن طريق الهدى، السالكون لطريق الشقاء، وقد استحقوا بهذا العذاب الأليم، فليس لهم ناصر من عذاب الله، ولو بذلوا ملء الأرض ذهباً ليفتدوا به، لم ينفعهم شيئاً، فعياًذاً بالله من الكفر وفروعه.

﴿٩٢﴾ «لن تتالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شيء فإن الله به عليم» يعني: لن تتالوا وتدركو البر، الذي هو اسم جامع للخيرات، وهو الطريق الموصل إلى الجنة، حتى تنفقوا مما تحبون، من أطيب أموالكم وأزكاها.

فإن النفقة من الطيب المحبوب للنفوس، من أكبر الأدلة على سماحة النفس، واتصافها بمكارم الأخلاق، ورحمتها ورقتها.

ومن أدل الدلائل على محبة الله، وتقديم محبته على محبة الأموال، التي جبلت النفوس على قوة التعلق بها، فمن أثر محبة الله على محبة نفسه، فقد بلغ الذروة العليا من الكمال، وكذلك من أنفق الطيبات، وأحسن إلى عباد الله، أحسن الله إليه ووفقه أعمالاً وأخلاقاً، لا تحصل بدون هذه الحالة.

وأيضاً فمن قام بهذه النفقة على هذا

الوجه، كان قيامه ببقية الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، من طريق الأولى والأخرى، ومع أن النفقة من الطيبات، هي أكمل الحالات، فمهما أنفق العبد من نفقة قليلة أو كثيرة من طيب أو غيره، فإن الله به عليم.

وسيجزي كل منفق، بحسب عمله، سيجزيه في الدنيا بالخلف العاجل، وفي الآخرة بالنعيم الآجل.

﴿٩٣- ٩٤﴾ «كل الطعام كان حلاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأناتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين * فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون» من جملة الأمور التي قدح فيها اليهود بنسبة عيسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم، أنهم زعموا أن النسخ باطل، وأنه لا يمكن أن يأتي نبي يخالف النبي الذي قبله.

فكذبهم الله بأمر يعرفونه، فإنهم يعترفون بأن جميع الطعام - قبل نزول التوراة - كان حلالاً لبني إسرائيل، إلا أشياء يسيرة حرّمها إسرائيل، وهو: يعقوب عليه السلام - على نفسه ومنعها إياه لمرض أصابه.

ثم إن التوراة، فيها من التحريمات التي نسخت، ما كان حلالاً قبل ذلك شيء كثير. قل لهم - إن أنكروا ذلك -: «فأناتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» بزعكم أنه لا نسخ ولا تحليل ولا تحريم.

وهذا من أبلغ الحجج، أن يحتج على الإنسان بأمر يقوله ويعترف به ولا ينكره، فإن انقاد للحق، فهو الواجب، وإن أبى ولم ينقد بعد هذا البيان، تبين كذبه واقتراؤه، وظلمه وبطلان ما هو عليه، وهو الواقع من اليهود.

﴿٩٥﴾ «قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين» أي: قل صدق الله في كل ما قاله، ومن أصدق من الله قبلاً وحديثاً، وقد بيّن في هذه الآيات، من الأدلة على صحة رسالة محمد ﷺ، وبراهين دعوته، وبطلان ما عليه المنحرفون من أهل الكتاب، الذين كذبوا رسوله، وردوا دعوته، فقد صدق الله في ذلك، وأقنع عباده على ذلك، ببراهين وحجج، تنصدع لها الجبال، وتخضع لها الرجال.

فتعين عند ذلك على الناس كلهم، اتباع ملة إبراهيم، من توحيد الله وحده لا شريك له، وتصديق كل رسول أرسله الله، وكل كتاب أنزله، والإعراض عن الأديان الباطلة المنحرفة.

فإن إبراهيم كان معرضاً عن كل ما يخالف التوحيد، متبرئاً من الشرك وأهله.

﴿٩٦-٩٧﴾ «إِنْ أُولَ بَيْتٍ وَضَعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَيْكَةِ مَبْرَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمَنًا وَلَهُ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ» يخبر تعالى بعظمة بيته الحرام، وأنه أول البيوت التي وضعها الله في الأرض لعبادته، وإقامة ذكره، وأن فيه من البركات، وأنواع الهدايات، وتنوع المصالح والمنافع للعالمين - شيء كثير، وفضل غزير، وأن فيه آيات بينات، تذكر بمقامات إبراهيم الخليل، وتنقلاته في الحج، ومن بعده تذكر بمقامات سيد الرسل وإمامهم.

وفيه الأمن^(١) الذي من دخله كان آمناً قدراً، مؤمناً شرعاً ودنياً.

فلما احتوى على هذه الأمور التي هذه مجملاتها، وتكثر تفصيلاتها - أوجب الله حجه على المكلفين المستطيعين إليه سبيلاً، وهو الذي يقدر على الوصول إليه بأي مركوب يناسبه، وزاد بتزوده، ولهذا أتى بهذا اللفظ الذي يمكنه تطبيقه على جميع المركوبات الحادثة، والتي ستحدث.

وهذا من آيات القرآن، حيث كانت أحكامه صالحة لكل زمان وكل حال، ولا يمكن الصلاح التام بدونها، فمن أذن لذلك وقام به، فهو من المهتدين المؤمنين، ومن كفر، فلم يلتزم حج بيته، فهو خارج عن الدين، ومن كفر، فإن الله غني عن العالمين.

﴿٩٨-٩٩﴾ «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَصْلُحُوا سَبِيلَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبَيَّنَ عَوجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» لما أقام فيما تقدم، الحجج على أهل الكتاب - مع أنهم قبل ذلك، يعرفون

النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم - ويخ المعاندين منهم بكفرهم بآيات الله، وصددهم الخلق عن سبيل الله، لأن عوامهم تبع لعلمائهم، والله تعالى يعلم أحوالهم وسيجازيهم على ذلك أتم الجزاء وأوفاه.

﴿١٠٠-١٠١﴾ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» لما أقام الحجج على أهل الكتاب، ووبخهم بكفرهم وعنادهم، حذر عباده المؤمنين عن الاغترار بهم، وبين لهم أن هذا الفريق منهم، حريصون على إضراركم وردكم إلى الكفر بعد الإيمان.

ولكن - والله الحمد - أنتم - يا معشر المؤمنين - بعدما من الله عليكم بالدين، ورأيتم آياته ومحاسنه ومناقبه وفضائله، وفيكم رسول الله الذي أرشدكم إلى جميع مصالحكم، واعتصمتم بالله وبجبله، الذي هو دينه - يستحيل أن يردوكم عن دينكم، لأن الدين الذي بني على هذه الأصول والدعائم الثابتة الأساس، المشرقة الأنوار، تنجذب إليه الأفئدة، ويأخذ بمجامع القلوب، ويوصل العباد إلى أجل غاية، وأفضل مطلوب.

﴿ومن يعتصم بالله﴾، أي: يتوكل عليه، ويحتمي بحماه، «فقد هُدي إلى صراط مستقيم»، وهذا فيه الحث على الاعتصام به، وأنه السبيل إلى السلامة والهداية.

﴿١٠٢-١٠٥﴾ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ * وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتِ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ

عظيم﴾ هذه الآيات فيها حث الله عباده المؤمنين أن يقوموا بشكر نعمه العظيمة، بأن يتقوه حق تقواه، وأن يقوموا بطاعته، وترك معصيته، مخلصين له بذلك، وأن يقيموا دينهم، ويستمسكوا بحبله الذي أوصله إليهم، وجعله السبب بينهم وبينه، وهو دينه وكتابه، والاجتماع على ذلك وعدم التفرق، وأن يستديموا ذلك إلى الممات.

وذكرهم ما هم عليه قبل هذه النعمة، وهو: أنهم كانوا أعداء متفرقين، فجمعهم بهذا الدين، وألف بين قلوبهم، وجعلهم إخواناً، وكانوا على شفا حفرة من النار، فأنقذهم من الشقاء، ونهج بهم طريق السعادة.

«كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون» إلى شكر الله والتمسك بحبله، وأمرهم بتتبع هذه الحالة، والسبب الأقوى الذي يتمكنون به من إقامة دينهم، بأن يتصدى منهم طائفة يحصل فيها الكفاية.

«يدعون إلى الخير» وهو الدين، أصوله، وفروعه وشرائعه.

«ويأمرون بالمعروف» وهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً.

«وينهون عن المنكر» وهو ما عرف قبحه شرعاً وعقلاً.

«وأولئك هم المفلحون» المذركون لكل مطلوب، الناجون من كل مرهوب.

ويدخل في هذه الطائفة أهل العلم والتعليم، والمتصدون للخطابة ووعظ الناس، عموماً وخصوصاً، والمحتسبون الذين يقومون بإلزام الناس بإقامة الصلوات، وإيتاء الزكاة، والقيام بشرائع الدين، وينهونهم عن المنكرات.

فكل من دعا الناس إلى خير على وجه العموم، أو على وجه الخصوص، أو قام بنصيحة عامة أو خاصة، فإنه داخل في هذه الآية الكريمة.

ثم نهام عن سلوك مسلك المتفرقين، الذين جاءهم الدين والبيئات، الموجب لقيامهم به، واجتماعهم، ففترقوا واختلفوا وصاروا شيعاً، ولم يصدر ذلك عن جهل

حالمهم سابقاً ولاحقاً، فإنهم لم يتمكنوا في الوقت الأخير من الملك المؤقت في فلسطين، إلا بنصر الدول الكبرى، وتهديمهم لهم كل مسبباً^(١).

﴿وباؤوا بغضب من الله﴾، أي: قد غضب الله عليهم، وعاقبهم بالذلة والمسكنة، والسبب في ذلك كفرهم بآيات الله، وقتلهم الأنبياء بغير حق، أي ليس ذلك عن جهل، وإنما هو بغى وعناد.

تلك العقوبات المتنوعة عليهم ﴿بما عصوا وكانوا يعتدون﴾، فالله تعالى لم يظلمهم وعاقبهم بغير ذنب، وإنما الذي أجراه عليهم بسبب بغيتهم وعدوانهم، وكفرهم وتكذيبهم للرسل، وجناتيتهم الفظيعة.

﴿١١٣-١١٥﴾ ﴿ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون﴾ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين * وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين﴾ لما ذكر الله المنحرفين من أهل الكتاب، بيّن حالة المستقيمين منهم، وأن منهم أمة مقيمين لأصول الدين وفروعه.

﴿يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف﴾، وهو الخير كله، وينهون عن المنكر وهو جميع الشر. كما قال تعالى: ﴿ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾.

﴿يسارعون في الخيرات﴾ والمسارة إلى الخيرات، قدر زائد على مجرد فعلها، فهو وصف لهم بفعل الخيرات، والمبادرة إليها، وتكميلها بكل ما تتم به من واجب ومستحب.

ثم بين تعالى أن كل ما فعلوه، من خير قليل أو كثير، فإن الله تعالى سيقبله، حيث كان صادراً عن إيمان وإخلاص، ﴿فلن يكفروه﴾، يعني: لن ينكر ما عملوه، ولن يهدر.

﴿والله عليم بالمتقين﴾، وهم الذين قاموا بالخيرات، وتركوا المحرمات،

والأحكام الجزائية، فهو الحاكم بين عباده في الدنيا والآخرة.

ومن سواء من المخلوقات، محكوم عليها ليس لها من الأمر شيء.

﴿١١٠-١١١﴾ ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون﴾ لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون﴾ هذا تفضيل من الله لهذه الأمة بهذه الأسباب، التي تميزوا بها وفاقوا بها سائر الأمم، وأنهم خير الناس للناس، نصحاء، ومحبة للخير، ودعوة، وتعليماً، وإرشاداً، وأمرأ بالمعروف، ونهيأ عن المنكر، وجمعاً بين تكميل الخلق، والسمي في منافعهم، بحسب الإمكان، وبين تكميل النفس بالإيمان بالله، والقيام بحقوق الإيمان.

وأن أهل الكتاب، لو آمنوا بمثل ما آمنتم به، لاهتدوا وكان خيراً لهم، ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل، وأما الكثير، فهم فاسقون، خارجون عن طاعة الله، وطاعة رسوله، محاربون للمؤمنين، ساعون في إضرارهم بكل مقدورهم، ومع ذلك، فلن يضروا المؤمنين إلا أذى باللسان، وإلا فلو قاتلوهم، لولوا الأدبار، ثم لا ينصرون.

وقد وقع ما أخبر الله به، فإنهم لما قاتلوا المسلمين، ولوا الأدبار، ونصر الله المسلمين عليهم.

﴿١١٢﴾ ﴿ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا إلا بحيل من الله وحيل من الناس وباؤوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ هذا إخبار من الله تعالى أن اليهود ضربت عليهم الذلة، فهم خائفون أينما ثقفوا، ولا يؤمنهم شيء إلا معاهدة، وسبب يأمنون به، يرضخون لأحكام الإسلام، ويعترفون بالجزية.

أو ﴿بحيل من الناس﴾، أي: إذا كانوا تحت ولاية غيرهم ونظارتهم، لكما شهود

وضلال، وإنما صدر عن علم وقصد سيئ، وبغى من بعضهم على بعض، ولهذا قال: ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾.

﴿١٠٦-١٠٧﴾ ثم بيّن متى يكون هذا العذاب العظيم، وبمسهم هذا العذاب الأليم، فقال: ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فاما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون.

يخبر تعالى، بتفاوت الخلق يوم القيامة، في السعادة والشقاوة، وأنه تبيض وجوه أهل السعادة، الذين آمنوا بالله، وصدقوا رسله، وامتلأوا أمره، واجتنبوا نهيه، وأن الله تعالى، يدخلهم الجنات ويفيض عليهم أنواع الكرامات، وهم فيها خالدون.

وتسود وجوه أهل الشقاوة، الذين كذبوا رسله، وعصوا أمره، وفرقوا دينهم شيعاً وأنهم يويخون، فيقال لهم: ﴿أكفرتم بعد إيمانكم﴾، فكيف اخترتم الكفر على الإيمان؟!

﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾. ﴿١٠٨-١٠٩﴾ ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلماً للعالمين﴾ * والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾ يشني تعالى، على ما قصه على نبيه من آياته، التي حصل بها الفرقان بين الحق والباطل، وبين أولياء الله وأعدائه، وما أعد لهؤلاء من الثواب، وللآخرين من العقاب، وأن ذلك مقتضى فضله وعدله، وحكمته، وأنه لم يظلم عباده، ولم ينقصهم من أعمالهم، أو يعذب أحداً بغير ذنبه، أو يحمل عليه وزر غيره.

ولما ذكر أن له الأمر والشرع، ذكر أن له تمام الملك والتصرف والسلطان، فقال: ﴿والله ما في السموات وما في الأرض وإلى الله ترجع الأمور﴾، فيجازي المحسنين بإحسانهم، والمسيئين بعصيانهم.

وكثيراً ما يذكر الله أحكامه الثلاثة مجتمعة بين لعباده أنه الحاكم المطلق، فله الأحكام القدورية والأحكام الشرعية،

(١) قد يشكل - على القارئ - هذا الموضوع إذ هو عن ملك اليهود لفلسطين مع أن الشيخ ألف التفسير قبل ذلك، ولكن هذه الجملة الموضوعية بين القوسين المرتكين زيادة من هامش النسخة، لعل الشيخ كتبها بعد سنين من كتابته التفسير، والله أعلم.

لقصد رضا الله، وطلب ثوابه.

﴿١١٦-١١٧﴾: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تَغْنِي عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * مَثَلُ مَا يَنْفَقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * بَيَّنَّ تَعَالَى: أَنَّ الْكَافِرَ، الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ، وَكَذَّبُوا رُسُلَهُ، أَنَّهُ لَا يَنْقُذُهُمْ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مُنْقَذٌ، وَلَا يَنْفَعُهُمْ نَافِعٌ، وَلَا يَشْفَعُ لَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ شَافِعٌ، وَأَنَّ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ، الَّتِي كَانُوا يَعِدُونَهَا لِلشَّدَائِدِ وَالْمَكَارِهِ، لَا تَنْفِيهِمْ شَيْئاً، وَأَنَّ نَفَقَاتِهِمُ الَّتِي أَنْفَقُوهَا فِي الدُّنْيَا، لَنْصَرِّ بِأَمْوَالِهِمْ، سَتَضْمَحَلُّ.

وَأَنَّ مِثْلَهَا «كَمَثَلِ» حَرْثٍ أَصَابَتْهُ «رِيحٌ» شَدِيدَةٌ «فِيهَا صِرٌّ»، أَي: بَرْدٌ شَدِيدٌ، أَوْ نَارٌ مُحْرِقَةٌ، فَأَهْلَكَتْ ذَلِكَ الْحَرْثَ، وَذَلِكَ بِظُلْمِهِمْ فَلَمْ يَظْلِمَهُمُ اللَّهُ وَيُعَاقِبُهُمْ بِغَيْرِ ذَنْبٍ، وَإِنَّمَا ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ.

وهذه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفَقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ، فَسَيَنْفَقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾.

﴿١١٨-١١٩﴾: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالاً وَدَوَّاءَ مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ * مَا أَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا عَضْوَا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلُ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ * إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً تَسْؤُكُمْ وَإِنْ تَصْبِيحُكُمْ سَيِّئَةً يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرَّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * هَذَا تَحْذِيرٌ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ عَنْ وَلَايَةِ الْكَافِرِ، وَاتِّخَاذِهِمْ بَطَانَةً، أَوْ خَصِيصَةً وَأَصْدِقَاءَ، يَسْرُونَ إِلَيْهِمْ، وَيُفَضُّونَ لَهُمْ بِأَسْرَارِ الْمُؤْمِنِينَ، فَوْضَحَ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، الْأُمُورَ الْمَوْجِبَةَ لِلْبَرَاءَةِ مِنْ اتِّخَاذِهِمْ بَطَانَةً بِأَنَّهُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خِيَالاً، أَي: هُمْ حَرِيصُونَ غَيْرَ مُقْصِرِينَ، فِي إِصْلَاحِ الضَّرْرِ بِكُمْ، وَقَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ كَلَامِهِمْ، وَفَلَّتْ أَسْتَنْتَهُمْ، وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ، مِنَ الْبَغْضَاءِ وَالْعَدَاوَةِ، أَكْبَرُ مِمَّا ظَهَرَ لَكُمْ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ.

فَإِنْ كَانَتْ لَكُمْ فَهْوَةٌ وَعَقُولٌ، فَقَدْ وَضَحَ اللَّهُ لَكُمْ أَمْرَهُمْ.

وأيضاً، فما الموجب لمحبتهم واتخاذهم أولياء وبطانة، وقد تعلمون منهم الانحراف العظيم في الدين وفي مقابلة إحسانكم؟

فأنتم مستقيمون على أديان الرسل، تؤمنون بكل رسول أرسله الله، وبكل كتاب أنزله الله، وهم يكفرون بأجل الكتب، وأشرف الرسل، وأنتم تبذلون لهم من الشفقة والمحبة، ما لا يكاثفونكم على أقل القليل منه. فكيف تحبونهم، وهم لا يحبونكم، وهم يداهنونكم وينافقونكم، فإذا لقوكم قالوا آمنا، وإذا خلوا مع بني جنسهم، عضوا عليكم الأنامل، من شدة الغيظ والبغض لكم ولدينكم.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾، أَي: سْتَرُونِ مِنْ عِزِّ الْإِسْلَامِ وَذَلِّ الْكُفْرَ مَا يَسُوءُكُمْ، وَتَمُوتُونَ بِغَيْظِكُمْ، فَلَنْ تَدْرُكُوا شِفَاءَ ذَلِكَ بِمَا تَقْصِدُونَ.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، فَلِذَلِكَ بَيَّنَّ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ صُدُورُ أَعْدَاءِ الدِّينِ مِنَ الْكُفْرِ وَالْمُنَافِقِينَ.

﴿إِنْ تَمَسَّكْتُمْ حَسَنَةً﴾ عَزَّ وَنَصَرَ وَعَافِيَةً وَخَيْرٌ «تَسْؤُكُمْ»، وَإِنْ تَصْبِيحُكُمْ سَيِّئَةً» مِنْ إِدَالَةِ الْعَدُوِّ، أَوْ حَصُولِ بَعْضِ الْمَصَائِبِ الدُّنْيَوِيَّةِ «يَفْرَحُوا بِهَا»، وَهَذَا وَصْفُ الْعَدُوِّ الشَّدِيدِ عِدَاوَتِهِ.

لَمَّا بَيَّنَّ تَعَالَى شِدَّةَ عِدَاوَتِهِمْ، وَشَرَحَ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ الْخَبِيثَةِ، أَمَرَ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّبْرِ، وَلِزُومِ التَّقْوَى، وَأَنَّهُمْ إِذَا قَامُوا بِذَلِكَ، فَلَنْ يَضُرَّهُمْ كَيْدُ أَعْدَائِهِمْ شَيْئاً، فَإِنَّ اللَّهَ مُحِيطٌ بِهِمْ وَبِأَعْمَالِهِمْ وَمِكَائِلُهُمْ، الَّتِي يَكِيدُونَكُمْ فِيهَا.

وَقَدْ وَعَدَكُمْ عِنْدَ الْقِيَامِ بِالتَّقْوَى، أَنَّهُمْ لَا يَضُرُّونَكُمْ شَيْئاً، فَلَا تَشْكُوا فِي حَصُولِ ذَلِكَ.

﴿١٢١-١٢٣﴾: «وَإِذَا غَدَوْتُمْ مِنْ أَمْكِنِ تَبَوَّءَ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ»، إِلَى آخِرِ الْقِصَّةِ. وَذَلِكَ يَوْمَ «أَحُدٍ» حِينَ خَرَجَ ﷺ بِالْمُسْلِمِينَ، حِينَ وَصَلَ الْمُشْرِكُونَ - بِجَمْعِهِمْ - إِلَى قَرِيبٍ مِنْ «أَحُدٍ». فَتَزَلَّهْمُ ﷺ مَنَازِلَهُمْ، وَرَتَّبَهُمْ فِي مَقَاعِدِهِمْ، وَنَظَّمَهُمْ تَنْظِيماً عَجِيباً، يَدُلُّ عَلَى كِمَالِ رَأْيِهِ وَبِرَاعَتِهِ الْكَامِلَةِ فِي فُنُونِ السِّيَاسَةِ وَالْحَرْبِ، كَمَا كَانَ كَامِلاً فِي كُلِّ الْمَقَامَاتِ.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَمُورِكُمْ.

﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾ وَهَمْ بَنُو سُلَيْمَةَ وَبَنُو حَارِثَةَ، لَكِنْ تَوَلَّاهُمَا الْبَارِي بِلُطْفِهِ وَرِعَايَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فَإِنَّهُمْ إِذَا تَوَكَّلُوا عَلَيْهِ، كَفَاهُمْ وَأَعَانَهُمْ، وَعَصَمَهُمْ مِنْ وَقُوعِ مَا يَضُرُّهُمْ، فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ وَنَحْوِهَا، وَجُوبُ التَّوَكُّلِ وَأَنَّهُ عَلَى حَسَبِ إِيمَانِ الْعَبْدِ، يَكُونُ تَوَكُّلُهُ، وَالتَّوَكُّلُ هُوَ اعْتِمَادُ الْعَبْدِ عَلَى رَبِّهِ فِي حَصُولِ مَنَافِعِهِ، وَدَفْعِ مُضَارِّهِ، فَلَمَّا ذَكَرَ حَالَهُمْ فِي «أَحُدٍ» وَمَا جَرَى عَلَيْهِمْ مِنَ الْمَصِيبَةِ، أَدْخَلَ فِيهَا تَذْكِيرَهُمْ بِنَصْرِهِ، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ يَوْمَ «بَدْرٍ» لِيَكُونُوا شَاكِرِينَ لِرَبِّهِمْ، وَلِيَخَفَّ هَذَا هَذَا، قَالَ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ فِي عِدَدِكُمْ وَعِدَدِكُمْ، فَكَانُوا ثَلَاثَةَ عَشَرَ، وَبِضْعَةِ عَشَرَ، فِي قَلَّةٍ ظَهَرَتْ، وَرِثَاةٍ سَلَّحَتْ، وَأَعْدَاؤُهُمْ يَنَازِلُونَ أَلْفَ، فِي كِمَالِ الْعِدَّةِ وَالسَّلَاحِ. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُشْكِرُونَ﴾ الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِنَصْرِهِ.

﴿إِذْ تَقُولُ﴾ مَبْشِراً «لِلْمُؤْمِنِينَ» مُثَبِّتاً لِحُجَّتِهِمْ: ﴿الَّذِينَ يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمَدِّدَكُمْ بِرَبِّكُمْ بِثَلَاثَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُزِيلِينَ * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا»، أَي: مِنْ حَمَلَتِهِمْ هَذِهِ بِهَذَا الْوَجْهِ.

﴿يُمَدِّدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ أَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾، أَي: مُعَلِّمِينَ عِلَامَةَ الشُّجْعَانِ.

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ، هَلْ كَانَ هَذَا الْإِمْدَادُ حَصَلَ فِيهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، مَبَاشَرَةً لِلْقِتَالِ، كَمَا قَالَهُ بَعْضُهُمْ، أَوْ أَنَّ ذَلِكَ تَبَيَّنَ مِنَ اللَّهِ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْقَاءِ الرَّعْبِ فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ كَمَا قَالَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفْسِّرِينَ.

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، وَفِي هَذَا أَنَّ الْأَسْبَابَ لَا يَعْتَمِدُ عَلَيْهَا الْعَبْدُ، بَلْ يَعْتَمِدُ عَلَى اللَّهِ.

وَإِنَّمَا الْأَسْبَابُ وَتَوَفُّرُهَا، فِيهَا طَمَئِينَةٌ لِلْقُلُوبِ، وَثَبَاتٌ عَلَى الْخَيْرِ.

﴿لَيَقْطَعَنَّ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُهُمْ فَيُنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾، أَي: نَصَرَ اللَّهُ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، لَا يَعْدُو أَنْ يَكُونَ قِطْعاً لَطَرْفٍ

من الكفار، أو ينقلبوا بغيظهم، لم ينالوا خيراً، كما أرجعهم يوم الخندق، بعدما كانوا قد أتوا على حرد قادرين، أرجعهم الله بغيظهم خائبين.

﴿١٢٨﴾ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﴿١﴾ لما أصيب ﷺ يوم «أحد» وكسرت ربايعيته، وشج في رأسه، جعل يقول: «كيف يفلح قوم، شجوا وجه نبيهم، وكسروا ربايعيته»، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وبين أن الأمر كله لله، وأن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، لأنه عبد من عبيد الله، والجميع تحت عبودية ربهم، مدبرون لا مدبرون.

وهؤلاء الذين دعوت عليهم، أيها الرسول، أو استبعت فلاحهم وهدايتهم، إن شاء الله تاب عليهم، ووفقهم للدخول في الإسلام، وقد فعل، فإن أكثر أولئك هداهم الله فأسلموا.

وإن شاء عذبهم، فإنهم ظالمون، مستحقون لعقوبات الله وعذابه.

﴿١٢٩﴾ والله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم ﴿١﴾ يخبر تعالى، أنه هو المتصرف في العالم العلوي والسفلي، وأنه يتوب على من يشاء، فيغفر له، ويخذل من يشاء، فيعذبه.

﴿والله غفور رحيم﴾ فمن صفته

اللازمة، كمال المغفرة والرحمة، ووجود مقتضياتهما في الخلق والأمر، يغفر للتائبين، ويرحم من قام بالأسباب الموجبة للرحمة، قال تعالى: ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون﴾.

تم الجزء المجلد الأول من تفسير الرحيم الرحمن في تفسير القرآن بخط مؤلفه عبد الرحمن الناصر بن سعدي ٩ ربيع أول ١٣٤٣ غفر الله له ولوالديه وجميع المسلمين وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم ويليهِ المجلد الثاني أوله يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا.

فهرس أسماء السور

٦٩٢	تفسير سورة يس	٣٩	تفسير سورة الفاتحة
٧٠٠	تفسير سورة الصافات	٤٠	تفسير سورة البقرة
٧٠٩	تفسير سورة ص	١٢١	تفسير سورة آل عمران
٧١٧	تفسير سورة الزمر	١٦٣	تفسير سورة النساء
٧٣١	تفسير سورة المؤمن (غافر)	٢١٨	تفسير سورة المائدة
٧٤٤	تفسير سورة فصلت	٢٥٠	تفسير سورة الأنعام
٧٥٢	تفسير سورة الشورى	٢٨٣	تفسير سورة الأعراف
٧٦٢	تفسير سورة الزخرف	٣١٥	تفسير سورة الأنفال
٧٧١	تفسير سورة الدخان	٣٢٨	تفسير سورة براءة (التوبة)
٧٧٥	تفسير سورة الجاثية	٣٥٧	تفسير سورة يونس
٧٧٩	تفسير سورة الأحقاف	٣٧٦	تفسير سورة هود
٧٨٤	تفسير سورة القتال (محمد ﷺ)	٣٩٣	تفسير سورة يوسف
٧٩١	تفسير سورة الفتح	٤١٢	تفسير سورة الرعد
٧٩٩	تفسير سورة الحجرات	٤٢١	تفسير سورة إبراهيم
٨٠٣	تفسير سورة ق	٤٢٩	تفسير سورة الحجر
٨٠٨	تفسير سورة الذاريات	٤٣٥	تفسير سورة النحل
٨١٣	تفسير سورة الطور	٤٥٣	تفسير سورة بني إسرائيل (الإسراء)
٨١٨	تفسير سورة النجم	٤٦٩	تفسير سورة الكهف
٨٢٣	تفسير سورة اقترت (الانشقاق)	٤٨٩	تفسير سورة مريم
٨٢٨	تفسير سورة الرحمن	٥٠١	تفسير سورة طه
٨٣٢	تفسير سورة الواقعة	٥١٨	تفسير سورة الأنبياء
٨٣٧	تفسير سورة الحديد	٥٣٢	تفسير سورة الحج
٨٤٣	تفسير سورة قد سمع الله (المجادلة)	٥٤٧	تفسير سورة المؤمنون
٨٤٨	تفسير سورة الحشر	٥٦١	تفسير سورة النور
٨٥٤	تفسير سورة الممتحنة	٥٧٧	تفسير سورة الفرقان
٨٥٨	تفسير سورة الصف	٥٨٩	تفسير سورة الشعراء
٨٦٢	تفسير سورة الجمعة	٦٠٠	تفسير سورة النمل
٨٦٤	تفسير سورة المنافقون	٦١١	تفسير سورة القصص
٨٦٦	تفسير سورة التغابن	٦٢٦	تفسير سورة العنكبوت
٨٦٩	تفسير سورة الطلاق	٦٣٦	تفسير سورة الروم
٨٧٢	تفسير سورة التحريم	٦٤٦	تفسير سورة لقمان
٨٧٥	تفسير سورة الملك (تبارك)	٦٥٣	تفسير سورة السجدة
٨٧٨	تفسير سورة ن (القلم)	٦٥٧	تفسير سورة الأحزاب
٨٨٢	تفسير سورة الحاقة	٦٧٤	تفسير سورة سبأ
٨٨٥	تفسير سورة سأل سائل (المعارج)	٦٨٤	تفسير سورة فاطر

٩٢٩	تفسير سورة ألم نشرح لك صدرك (الشرح)	٨٨٨	تفسير سورة نوح
٩٢٩	تفسير سورة التين	٨٩٠	تفسير سورة قل أوحى إلي (الجن)
٩٣٠	تفسير سورة اقرأ (العلق)	٨٩٢	تفسير سورة المزمل
٩٣١	تفسير سورة القدر	٨٩٥	تفسير سورة المدثر
٩٣١	تفسير سورة لم يكن (البينة)	٨٩٨	تفسير سورة القيامة
٩٣٢	تفسير سورة إذا زلزلت (الزلزلة)	٩٠٠	تفسير سورة الإنسان (الدهر)
٩٣٢	تفسير سورة العاديات	٩٠٣	تفسير سورة المرسلات
٩٣٣	تفسير سورة القارعة	٩٠٦	تفسير سورة عم (النبا)
٩٣٣	تفسير سورة الهاكم التكاثر (التكاثر)	٩٠٨	تفسير سورة عبس
٩٣٤	تفسير سورة العصر	٩١٠	تفسير سورة التكوير
٩٣٤	تفسير سورة الهمزة	٩١٢	تفسير سورة الانفطار
٩٣٤	تفسير سورة الفيل	٩١٤	تفسير سورة المطففين
٩٣٥	تفسير سورة لإيلاف قريش (قريش)	٩١٥	تفسير سورة الانشقاق
٩٣٥	تفسير سورة الماعون	٩١٨	تفسير سورة البروج
٩٣٥	تفسير سورة الكوثر	٩١٩	تفسير سورة الطارق
٩٣٦	تفسير سورة الكافرون	٩٢٠	تفسير سورة سبح (الأعلى)
٩٣٦	تفسير سورة النصر	٩٢١	تفسير سورة الغاشية
٩٣٦	تفسير سورة تبت (اللهب)	٩٢٣	تفسير سورة الفجر
٩٣٧	تفسير سورة الإخلاص	٩٢٤	تفسير سورة لا أقسم بهذا البلد (البلد)
٩٣٧	تفسير سورة الفلق	٩٢٦	تفسير سورة والشمس وضحاها (الشمس)
٩٣٧	تفسير سورة الناس	٩٢٦	تفسير سورة الليل
		٩٢٨	تفسير سورة الضحى